اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد الأول | المجلد الأول | مارس ٩٢

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الأول - المجلد الأول

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة،تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام، على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق.
- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين: أصل وصورة .
- تأخذ الهوامش والإحالات رقما مسلسلا على أن تثبت فى نهاية البحث .
- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- يراعى فى البحوث التى تقدم للنشر أن تكون جديدة لم يسبق نشرها .
- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة.
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر ولا علاقة إطلاقا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الاستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالمقر المؤقت للاتحاد (كلية الآداب - جامعة القاهرة - أورمان - جيزة - مصر) .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العددالأول - المجلد الأول - مارس ١٩٩٣

في هذا العدد

كلمة الافتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم.

إذا كان البعض يأخذ على علم التاريخ ارتباطه بالماضى، فإن البحث فى الماضى ليس غاية فى حد ذاته، وإنما هو أداة لشحذ الهمم وغرس الثقة فى النفوس من ناحية، والإفادة من تجارب ودروس الماضى فى مواجهة مشاكل الحاضر وبناء مستقبل أفضل من ناحية أخرى. ولذا صارت مهمة المؤرخ إلقاء الأضواء على خفايا الماضى بكل ما يحويه من حسنات وسيئات،ومزايا ومثالب، ملتزما بالصدق والأمانة، مستهدفا الوصول إلى الحقيقة التاريخية، واتخاذها محوراً لما يقول أو يكتب.

ويتتبع مسيرة التاريخ يتضح أن عجلته لا يمكن أن تعود إلى الوراء، وإنما تقضى سنة التطور التاريخى بالسير قدما إلى الأمام . حقيقة إن تاريخ أمة من الأمم أو بلداً من البلدان ربما يبدو فى بعض حلقاته وقد تعرض للجمود والتوقف، ولكن مثل هذه الظاهرة لا يصح تفسيرها مطلقا بأنها عودة إلى الماضى. فالماضى بأبعاده الحضارية، وأوضاعه ، وظروفه، ولت أيامه، ومن الصعب أن يعود بنفس الصورة والملامح .

إن حوادث التاريخ قد تتشابه ولكن من العسير أن تتطابق ؛ فلكل عصر أوضاعه وظروفه ونظرة الناس فيه إلى الحياة، وهذه كلها عوامل تكيف التاريخ تكييفا خاصا مميزا فى كل عصر من العصور .

ونحن عندما نتكلم عن حضارة - أو حضارات - العرب قبل الإسلام، فإننا لا نستهدف تمجيد الوثنية وتراثها - مثلما يتوهم البعض ، وإنما نستهدف تأكيد أصالة

هذه الأمة، وكشف النقاب عن جذورها الحضارية التى امتدت بعيدا فى أعماق التاريخ، والتدليل على أنه فى الوقت الذى كان جيران العرب - من فرس وروم وغيرهم - يمثلون قوى حضارية، لم يكن العرب فى جنوب شبه الجزيرة وشمالها وقلبها، بعيدين عن موكب الحضارة البشرية، وإنما أسهموا إسهاما جادا مفيدا فى بناء صرح الحضارة، بقدر ما سمحت به ظروف البيئة وإمكاناتها .

وعندما يعنى المؤرخ بالكشف عن جوانب التراث العربى فى ظل الإسلام، فإن هدفه البعيد ليس مجرد التغنى بأمجاد السلف والإشادة بما بلغه الأمويون وما حققه العباسيون، وإنما يستهدف ما هو أهم وأكبر، أعنى بيان قدرة السلف على الانفتاح الحضارى على العالم أجمع، وعدم الإنغلاق وإغماض العين عما حققه الغير من انجازات، ثم ابتكار الجديد النافع، ومواجهة مشاكل العصر بأسلوب يجمع بين الذكاء والمثابرة والشجاعة واتساع الأفق .

وإذا عالج المؤرخ العربى موضوع سقوط دولة المسلمين فى الأندلس وما حلّ بهم فى تلك المحنة من قتل وطرد وتعذيب وتشريد، فإن المفروض منه عدم الوقوف عند حد الرثاء والبكاء، وإنما عليه أن يوضح فى أمانة وشجاعة أسباب تلك الكارثة المؤلمة وما وقع فيه مسلمو الأندلس من أخطاء أدت إلى سوء العاقبة. وبذلك يتحقق الهدف الأساسى من دراسة التاريخ وهو أن يصبح المدرسة الكبرى التى يستفيد فيها الإنسان من دروس الماضى .

ولكن يبدو أن حكام إيران والعراق اليوم لا يدركون هذه الحقائق، وأنهم يعيشون فى خيال الماضى وليس فى واقع الحاضر؛ محاولين استخدام التاريخ فى تبرير أوهام يسعون لتحقيقها .

أما عن حكام إيران فإنهم يتباكون على مجد الأجداد، ولا يريدون أن ينسوا أو يتناسوا أن العراق بأكمله والخليج برمته كانا فى يوم من الأيام داخل إطار دولتهم الفارسية الكبرى ، حتى ظهر العرب على المسرح فى ظل الإسلام فهدموا دولة الفرس ودكوا عرش الأكاسرة وأدخلوا الجميع تحت سيادتهم . ويمتد الخيال بحكام إيران إلى محاولة العودة بالتاريخ إلى الوراء، ومحاولة استعادة ما كان للفرس من أمجاد على حساب جيرانهم، متجاهلين ما حدث على مدى قرون طويلة من تغييرات جذرية سطرت على صفحة التاريخ، تبدلت فيها أوضاع العالم أجمع، وتم فيها تعريب الشاطئ الغربى للخليج بأكمله، فضلا عن تعريب بلاد الرافدين ، وصارت هذه البلاد كلها أعضاء لها كيانها فى جسد الأمة العربية .

وأما حكام العراق اليوم، فإنهم يعيشون أيضا تحت مظلة الأوهام، ويتطلعون إلى تحقيق مجد لأنفسهم على حساب التاريخ، ولكنهم يخطئون الحساب. إنهم يتوهمون أن بإمكانهم العودة بعجلة التاريخ إلى أيام بنى العباس، عندما كان والى البصرة يحكم اقليم الخليج لحساب خليفة بغداد، متناسين أن التاريخ قد دار دورته وأن المجوس لم يعودوا مجوسا، وأن بلاد الفرس لم تعد ولاية من ولايات بغداد، وأن الشاطئ الغربى للخليج قامت عليه إمارات عربية مستقلة فضلا عن سلطنة عمان ، وكلها وحدات سياسية ذات كيان وقوام، بحيث تمثل كل وحدة عضوا فى جامعة الدول العربية . بل فى هيئة الأمم المتحدة . ونقول حكام العراق لا أهل أو شعب العراق، لأن هؤلاء الأخيرين إخوة مغلوبون على أمرهم، نعتز جميعا بهم وبعروبتهم، وإسهامهم على مر القرون فى دعم الأمة العربية والحفاظ على حاضرها والإشفاق على مستقبلها .

وفى جو مشبع برائحة الدماء، تسوده روح الإرهاب، لا يعرف أسلوبا لتحقيق أغراضه إلا أسلوب القتل والإغتيال وسفك دماء الأبرياء، قدر لاتحاد المؤرخين العرب أن يعيش فى بغداد بضع سنين ، يعمل تحت رئاسة صبيانية فرضها حاكم العراق على هذا الاتحاد، فى محاولة منه لتسخير التاريخ والمؤرخين العرب لخدمة مخططاته العدوانية على حساب الحقيقة التاريخية، مستخدمين سلاح الارهاب والتهديد من جهة وسلاح الابتزاز وفرض الاتاوات على دول الخليج من جهة أخرى .

وكان أن وقع العدوان الفاشل على الكويت سنة ١٩٩٠، وعندئذ كشف اتحاد بغداد عن حقيقة وجهه القبيح، فأصدر بيانات باسم المؤرخين العرب - والمؤرخون العرب أبرياء منها - تؤيد العدوان ، واستغل الأموال التى كان قد ابتزها من دول الخليج لنشر دعاية واسعة لقطع الأيدى التى أحسنت إليه، معتمدا على أساليب رخيصة بعيدة عن واقع الحقيقة والتاريخ .

ولم يرتض المؤرخون العرب ذلك الوضع الذى اعتبروه إهانة فى حقهم وفى حق التاريخ، فعقدوا اجتماعا فى القاهرة بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٩٠ . وضم هذا الاجتماع لفيفا من المؤرخين ينتمون إلى شتى البلدان العربية. وكان أهم ما تمخض عنه هذا الاجتماع عزل الرئيس الذى فرضته حكومة العراق على الإتحاد، ونقل مقر الاتحاد إلى القاهرة ، والدعوة لعقد جمعية عمومية تضم المؤرخين العرب فى كافة انحاء الوطن العربى .

وفى الاجتماع الذى عقدته الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة (جمادى الآخر ١٤١٢ هـ ، ديسمبر ١٩٩١م) والذى ضم أكثر من مائة وخمسين عضوا يمثلون كافة البلدان العربية باستثناء ثلاث دول فقط ، تم وضع القانون

الأساسى للاتحاد فى عهده الجديد، وعن طريق الانتخاب الحر المباشر تم اختيار رئيس للاتحاد ونائب للرئيس ومجلس أمناء، وأمين صندوق. وهكذا بدأت المسيرة لتبدأ صفحة جديدة تستهدف كل ما يعود بالخير على العرب وأمة العرب وتاريخ العرب ، ومؤرخى العرب .

ولئن بدت هذه المسيرة فى نظر البعض بطيئة فى هذه المرحلة، فذلك لأنها مرحلة النشأة، ولا يمكن أن ننتظر من الوليد أن يجرى ويسرع الخطى حال ولادته. وحسب الاتحاد الجديد أن يتحرك داخل إطار واضح من القيم الخلقية ، ويلتزم بأخلاق العروبة فى أنقى صورها، بعيدا عن أسلوب الارهاب والابتزاز والتهديد، وهو الاسلوب الذى طالما أساء إلى التاريخ والمؤرخين فى العهد البائد. ثم إن اتحاد المؤرخين العرب فى عهده الجديد لا يعمل لحساب حاكم بعينه أو تحت سيطرة حكومة بذاتها، وإنما يعمل ليرى الله عمله ورسوله والمؤمنون، مستهدفا الحق والعلم والخير للعرب وللمؤرخين العرب . وكل ما نرجوه هو أن يحظى اتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد بثقة الحكومات والمؤسسات العربية فتقدم له من العون ما يمكنه من النهوض بالأمانة الكبرى الملقاة على عاتقه فى هذه الفترة الحرجة التى تمر بها الأمة العربية .



وإذا كنا باسم الله العلى القدير ، نقدم للباحثين فى حقل الدراسات التاريخية هذا العدد الأول من مجلة المؤرخ العربى التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب من مقره

الجديد بالقاهرة، فإننا نود أن نؤكد أن هذا العدد يمثل نقطة البدء . إنه يمثل النواة الأولى التى نرجو لها أن تنمو بفضل جهود الأخوة الزملاء لتصبح شجرة وارفة الظل تعود بالخير على المشتغلين بتراث الأمة العربية وحاضرها ومستقبلها ؛ بل تعود بالخير والبركة على مسيرة الحضارة الإنسانية فى كل زمان ومكان . فالعرب لم يعيشوا مطلقا منغلقين على أنفسهم وإنما انفتحوا على العالم أجمع مشرقه ومغربه . وليست العبرة بأن يبدأ الإنسان عملا ما ، وإنما العبرة بأن تكون البداية قائمة على أسس سليمة ونوايا طيبة مستهدفة الخير والصلاح . وصدق الله العظيم إذ يقول (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

رئيس التحرير

النزاع العربى الايرانى حول جزر
أبو موسى والطنبين
الأصول التاريخية والتطورات المعاصرة

للأستاذ الدكتور
جمال زكريا قاسم
أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس

برزت على سطح الأحداث العربية فى الآونة الأخيرة قضية جزر الخليج الثلاث التى قامت إيران بالاستيلاء عليها من دولة الامارات العربية المتحدة ولم تلبث تلك القضية أن تحولت من نزاع بين ايران ودولة الامارات إلى بند أساسى فى الاجتماعات الخليجية والعربية نظرا لتأثيرها على الأمن الخليجى بصفة خاصة والأمن القومى العربى بصفة عامة .

ولعل ما اتجهت إليه ايران من فرض اجراءات إدارية وقانونية استهدفت بها ضم هذه الجزر إلى سيادتها الاقليمية قد أثبت بجلاء أن الاتجاهات التوسعية الايرانية لم تختلف بالتغير الذى حدث فى نظامها السياسى إذ لايزال التوسع الايرانى فى منطقة الخليج من الثوابت الرئيسية فى السياسة الخارجية الايرانية وأصبح واضحا أن ايران لاتزال أسيرة تقاليد سياسية مسيطرة على إدراك قياداتها المتعاقبة والتى يأتى فى مقدمتها عقدة التوسع فى اتجاه الخليج على حساب السيادة العربية فى محاولة لتحقيق الهدف التاريخى والاستراتيجى وهو جعل الخليج " بحيرة فارسية " وذلك على الرغم من اختلاف الشعارات من " الخليج الفارسى " على عهد النظام الامبراطورى الشاهنشاهى إلى الوحدة الاسلامية التى يرددها نظام الآيات الحالى بهدف إخفاء المطامع الايرانية التقليدية فى منطقة الخليج .

ومما تجدر الاشارة إليه أن النفوذ الايرانى ظهر فى منطقة الخليج منذ أواخر القرن الماضى مقترنا بنمو الحكم المركزى والنزعة العنصرية التى ترتب عليها القضاء على الوجود العربى فى الساحل الشرقى من الخليج وماتبع ذلك من سياسة تفريس قسرى لسكانه ثم التطلع إلى الجزر العربية المجاورة لذلك الساحل والساحل المقابل له عن طريق التغلغل البشرى والاقتصادى فضلا عن الادعاءات الاقليمية على

البحرين ومن ثم ظلت السياسة الايرانية التوسعية فى منطقة الخليج تؤثر سلبا على العلاقات العربية الايرانية .

وعلى الرغم من أن ايران قد تخلت عن إدعاءاتها التقليدية فى البحرين واعترفت باستقلالها فى عام ١٩٧١ فإنها لم تلبث فى الوقت نفسه أن قامت بتكثيف إدعاءاتها على جزيرة أبو موسى التابعة لامارة الشارقة وجزيرتى طنب الكبرى والصغرى التابعتين لامارة رأس الخيمة تمهيدا للسيطرة عليها حتى تحقق لها ذلك فى نوفمبر ١٩٧١ قبل يومين اثنين من الانسحاب البريطانى من الخليج مما أثار التوتر من جديد فى العلاقات العربية الايرانية .

إذ كان من الطبيعى أن ينظر العرب إلى خطورة تلك السيطرة لما تشكله المنطقة التى تقع فيها تلك الجزر من أهمية كبيرة لقربها من مضيق هرمز وهى بموقعها هذا بمثابة البوابة الرئيسية لذلك المضيق ومن ثم فإن استمرار سيطرة ايران عليها يعزز من هيمنتها على مدخل الخليج ويمكنها من التحكم فى مواصلاته البحرية مع العالم الخارجى[١].

ومن ناحية أخرى فإن فرض تلك الهيمنة يهدد أمن وسلامة الدول العربية فى الخليج ويظهر خطورة هذا التهديد بوجه خاص بالنسبة إلى دولة الامارات العربية المتحدة وقطر والبحرين من حيث أن إيران قربت كثيرا بسيطرتها على تلك الجزر مواقعها الامامية من سواحل تلك الدول فضلا عن فقدان العرب لثرواتهم النفطية وموارد طبيعية لا يستهان بها سواء فى تلك الجزر أو فى مناطق البحر الاقليمى

---

(١) نادرة نعيم زكى : دراسة حول الخلاف بين دولة الامارات العربية المتحدة وايران ، إصدار الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ١٩٩٢ ص ص ٤ - ٧ .

والجروف القارية التى تحيط بها والاهم من ذلك كله فقدان العرب لسيادتهم على أجزاء من ترابهم الوطنى[1] .

وقد تمثلت السيطرة الايرانية على تلك الجزر فى مظهرين مختلفين :

الأول الاحتلال السافر لجزيرتى طنب الكبرى والصغرى التابعتين لامارة رأس الخيمة.

والثانى عقد اتفاق أو مذكرة تفاهم بين ايران وإمارة الشارقة عن طريق المساعى البريطانية انطوت على تجميد وضع السيادة على جزيرة أبو موسى واتاحة الفرصة لايران لاحتلال بعض المواقع الاستراتيجية التى تقع فى الجزء الأعلى من الجزيرة مع بقاء الجزء الأدنى تحت إدارة الشارقة (٢) .

وعلى الرغم من ردود الفعل العربية التى أثيرت ضد ايران فإن السياسة العربية كانت حريصة بوجه عام على عدم قطع جسور التقارب العربى الايرانى ومن ثم أصبح وضع تلك الجزر من القضايا المعلقة فى العلاقات العربية الايرانية لأكثر من عقدين من الزمان حتى عاودت إيران إثارة المشكلة من جديد بالنسبة إلى جزيرة أبو موسى فى ابريل ١٩٩٢ حين عمدت إلى انتهاك الاتفاقية الخاصة بها وفرض بعض الاجراءات الادارية والقانونية التى استهدفت من ورائها الانفراد بالسيادة على تلك الجزيرة مما دفع بدولة الامارات العربية المتحدة التى انضوت كل من إمارة رأس الخيمة والشارقة تحت لوائها ليس فقط بالاحتجاج على انتهاك ايران لاتفاقيتها

---

(١) عبد الحسين القطيفى : الجزر العربية الثلاث فى الخليج العربى ، من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ، بغداد مارس ١٩٧٣ ، ص ٦٤ .

(٢) حسين البحارنة : دول الخليج العربى الحديثة ، علاقتها الدولية وتطور الأوضاع السياسية والقانونية والدستورية فيها ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٧٧ .

السابقة مع الشارقة وإنما بالمطالبة بعودة الجزر الثلاث إلى سيادتها الاقليمية. ويقيننا أنه ليس من صالح العرب أو ايران أن تتصاعد تلك الأزمة لما يعنيه ذلك من إتاحة الفرصة لبعض القوى الخارجية من استغلالها تحقيقا لمصالحها الخاصة ولذا فقد يكون الحل الأمثل هو أن يتم تسوية النزاع سلميا فى اطار علاقات الجوار وما يجمع الطرفين المتنازعين من روابط إسلامية أو اللجوء إلى التحكيم الدولى أو إلى المنظمات الدولية لاقرار الحقوق الشرعية إلى ذويها .

وسوف نحاول فى هذه الدراسة أن نتتبع الجذور التاريخية للنزاع العربى الايرانى حول تلك الجزر والذى يرجع فى تقديرنا إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين بدأ ملوك آل قاجار فرض هيمنتهم على الساحل الجنوبى الشرقى للخليج مستغلين التفكك الذى بدأت تعانى منه الكيانات العربية الواقعة على ذلك الساحل وما هيأته بريطانيا لهم من التطلع إلى الجزر العربية المجاورة لذلك الساحل مما جعلها وكانت عربية دائما مجالا للنزاع بين العرب وايران .

وقد يكون من المناسب قبل الخوض فى تتبع الأصول التاريخية لتلك المشكلة أن نعرف بعض الشىء بتلك الجزر .

ونبدأ بجزيرة أبو موسى وهى أكبرها مساحة وتقع على بعد أربعة وتسعين ميلا من مدخل الخليج العربى عند مضيق هرمز وتبعد ما يقرب من خمسين ميلا من ساحل الامارات وعلى ما يقرب من ثلاثة وثلاثين ميلا من الساحل الايرانى .

ويبلغ عدد سكانها قرابة الالف نسمة معظمهم من العرب الذين ينتمون بأصولهم إلى قبائل الساحل العربى المواجه لهم وإن كانت إيران قد عمدت فى الوقت الراهن إلى تغيير تركيبتها الديموجرافية فضلا عن أوضاعها القانونية والادارية .

وتتميز جزيرة أبو موسى بثرائها من المعادن خاصة المغر الأحمر (أكسيد الحديد) بالاضافة إلى ما بها من ثروة نفطية ولاتزال تقوم فى الجزيرة بعض الحرف التقليدية بما فيها الصيد البحرى والرعى والزراعة حيث تتوافر بها المياه الصالحة للشرب .

وعلى الرغم من أن إمارة الشارقة ثم دولة الامارات العربية المتحدة فيما بعد قد أقامت بها بعض المرافق الصحية والتعليمية والأمنية إلا أنها لم تقم بانشاء ميناء بحرى فى الجزء الواقع تحت إدارتها مما سيعطى الفرصة لايران لكى تتحكم فى حركة المرور إلى الجزيرة عن طريق الميناء الذى أنشأته فى القسم الخاضع لها[1].

أما عن جزيرة طنب الكبرى فتقع بدورها عند مدخل خليج هرمز وتتميز بأهميتها للملاحة البحرية وتبعد ما يقرب من خمسين كيلو مترا عن جزيرة أبو موسى فى الاتجاه الشمالى الشرقى مقابل إمارة رأس الخيمة التى تتبعها تلك الجزيرة إضافة إلى جزيرة طنب الصغرى التى تقع إلى الجنوب منها وإلى الشمال الغربى من جزيرة أبو موسى وعلى مسافة تسعين كيلومترا من ساحل رأس الخيمة وهى غير مأهولة بالسكان ، وذلك على خلاف الجزيرة الكبرى التى كان يقطنها قبل الاحتلال الايرانى ما يقرب من سبعمائة نسمة معظمهم من العرب وإن كان الاحتلال الايرانى قد قلص عددهم بحيث أصبحوا لايتجاوزون فى الوقت الحاضر أكثر من مائة وخمسين نسمة وقد أقامت رأس الخيمة فى تلك الجزيرة قبل الاحتلال الايرانى لها مدرستين ابتدائيتين ومركزا صحيا ومخفرا للشرطة وغير ذلك من المرافق الاخرى التى تتناسب وعددسكانها .

---

(١) مركز الدراسات السياسية - جامعة القاهرة : ورقة عمل حول المشكلات الحدودية الراهنة فى منطقة الخليج ، اكتوبر ١٩٩٢ .

ويستدل من الوثائق التاريخية أن تلك الجزر الثلاث كانت من الممتلكات التابعة للقواسم منذ ظهورهم إلى القوة حول منتصف القرن الثامن عشر وقد ظل شيوخ القواسم فى كل من إمارة الشارقة ورأس الخيمة يتمتعون بحقوق الملكية على تلك الجزر والتى تمثلت فى رفع الاعلام الخاصة بهم وإدارة المرافق العامة واستيفاء الرسوم من الأفراد الذين يغوصون على اللؤلؤ أو يقومون بالرعى أو بمنح التراخيص والامتيازات للشركات العاملة فيها ، وخاصة جزيرة أبو موسى ، حيث منح حاكم الشارقة فى عام ١٩٥٢ لاحدى الشركات البريطانية ، وهى شركة الوادى الذهبى[١] ، امتياز الاستغلال الغاز واكسيد الحديد الأحمر[٢] .

كما منح حاكم رأس الخيمة فى عام ١٩٦٤ امتيازا لاحدى الشركات الأمريكية للتنقيب عن النفط فى الطنبين ، وصدقت الحكومة البريطانية على تلك الامتيازات بحكم العلاقات التعاهدية التى كانت تربطها بتلك الامارتين ودون الرجوع إلى الحكومة الايرانية مما كان يشكل فى حد ذاته اعترافا صريحا من قبل بريطانيا بملكية الشارقة ورأس الخيمة لتلك الجزر[٣] .

ولم تكن الجزر الثلاث هى وحدها التى امتلكتها القبائل والاسر العربية إذ لا نبالغ فى القول بأن جميع السواحل الشرقية للخليج بما فيها من موانى ومايجاورها من جزر كانت خاضعة بصورة أو بأخرى للسيطرة العربية .

ولذلك فقد يكون من المفيد أن نتعرف على وضعية العرب فى تلك

(١) Golden valley ochre and oxide ltd .

(٢) حسين القطيفى ، المرجع السابق ص ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) جابر إبراهيم الراوى : الحق العربى فى الجزر العربية الثلاث وموقف القانون الدولى من اكتساب الأقاليم عن طريق القوة ، من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ، بغداد ١٩٧٣ ، ص ٤٣٢ .

السواحل من أجل القاء بعض الأضواء على الأصول التاريخية للمشكلة التى نحن بصددها .

فمن الحقائق الثابتة أن موقع الخليج بين العرب وايران جعله عامل اتصال بين الجانبين ومن ثم شهد الخليج فى مختلف عصوره التاريخية العديد من موجات الهجرة بين سواحله الشرقية والغربية وإن كانت الهجرات العربية هى الغالبة والاكثر تأثيرا وقد تدفقت الهجرات الايرانية على سواحل الخليج العربية بصفة خاصة خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية بسبب توافر فرص العمل المصاحبة لاكتشاف النفط غير أن كثيرا من تلك الهجرات كانت تتم بطرق غير مشروعة فضلا عما اصطبغ به بعضها من دوافع سياسية أو رغبة فى تنفيذ مخططات توسعية[1] .

أما عن موجات الهجرة العربية التى تواجدت على سواحل الخليج فقد تمثلت فى موجتين رئيسيتين ترتبط الأولى منها بالهجرات التى رافقت الفتوحات الاسلامية فى فارس وأتاحت للعرب فرص سيطرتهم على سواحل الخليج وانتزاع موانيه من أيدى الفرس بينما ترتبط الموجة الثانية بالهجرات التى تدفقت من قلب الجزيرة العربية خلال السنوات الأولى من القرن الثامن عشر وترجع فى أسبابها إلى العديد من العوامل السياسية والاجتماعية لعل من أبرزها انهيار النفوذ البرتغالى فى منطقة الخليج بما كان يتسم به من قيود احتكارية وسيطرة عسكرية إضافة إلى القحط

---

(١) تقرير بعثة الجامعة العربية عن زيارتها لامارات الخليج العربى فى ١٠ نوفمبر ١٩٦٤ ، انظر ملحق رقم (٢) من تقرير الأمين العام إلى مجلس جامعة الدول العربية فى دور انعقاده الثالث والأربعين، ١٥ مارس ١٩٦٥ ص ١٧٧ وما بعدها . وعن التسلل والهجرات الايرانية غير المشروعة يمكن الرجوع إلى كتاب ماذا يجرى فى خليجنا العربى اصدار الاتحاد الوطنى لطلبة الكويت ، مارس ١٩٦٧ ص ٥٣ وما بعدها .

الشديد الذى أصاب أواسط الجزيرة العربية مما دفع بالعديد من القبائل العربية للانطلاق إلى سواحل الخليج وكان لها أثرها فى تكوين الوحدات السياسية التى ظهرت على سواحل شرق الجزيرة العربية منذ منتصف القرن الثامن عشر[١] .

ولما كان معروفا عن الفرس انزوائهم داخل الهضبة الايرانية فقد انفسح المجال أمام تلك الهجرات للانسياب إلى الساحل الشرقى من الخليج الذى تطل عليه ايران ذاتها ولم يمض وقت طويل حتى أصبح ذلك الساحل عربيا فى ثقافته وتكوينه البشرى[٢] .

وقد ساعدت الظروف السياسية والاقتصادية فضلا عن عدم وجود نفوذ مؤثر لفارس على سواحلها على عملية الاستقرار هذه خاصة بعد سقوط الدولة الصفوية فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر وعودة الفوضى والتفكك إلى الأقاليم الفارسية وكان ذلك مما مهد لظهور العديد من المدن والامارات العربية التى انتمت بأصولها إلى هجرات يمنية أو نجدية كالعبادلة وبنى حماد والمرازيق وآل بشر وبنو مالك[٣]أو تلك التى كانت تنتمى إلى الساحل العربى المقابل كبنى معين فى قسم والقواسم فى لنجة وآل مذكور فى بوشهر الذين يرجعون بأصولهم إلى قبيلة المطاريش العمانية . وقد أثرت تلك الانتماءات القبلية فى قوة العلاقات الاسرية

---

(١) عبد الأمير محمد أمين : المصالح البريطانية فى الخليج العربى ١٧٤٧ / ١٧٧٨ ، بغداد ١٩٧٧، ص ٤٧ .

(٢) محمد بهجت سنان : الشخصية العربية للخليج العربى والاحتلال الايرانى للجزر العربية الثلاث ، بغداد ١٩٧٢ ص ٣٨ وما بعدها ، انظر أيضا ر. ج . لاندن : عمان منذ عام ١٨٥٦ ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٨ .

(٣) للتعرف على هذه الامارات وشجرات أنساب حكامها انظر حسين بن على المنجى : تاريخ لنجة حاضرة العرب على الساحل الشرقى للخليج ، دبى ١٩٨٥ ، ص ١٠٧ وما بعدها .

التى ربطت بين العرب على جانبى الخليج[١] .

ومما هو جدير بالذكر أن القبائل العربية التى استقرت على الساحل الجنوبى الشرقى من الخليج قد عاشت فى عزلة عن بقية سكان فارس ولم يكن هذا الانعزال لأسباب جغرافية مرتبطة بطبيعة الهضبة الايرانية العالية فحسب وإنما أيضا لأسباب عقائدية أومذهبية إذ تعتنق تلك القبائل المذهب السنى على خلاف الفرس الذين ينتمون بصفة عامة إلى المذهب الشيعى الاثنى عشرى[٢] . ومما لاشك فيه أن الاستقرار العربى على السواحل الايرانية أدى إلى أن تصبح تلك السواحل عربية مما أضفى على الخليج سمته العربية من جانبيه .

وقد تحدث العديد من الرحالة الأوربيين عن المدن والامارات التى أقامها العرب على تلك السواحل ولعل الرحالة الدانمركى كارستن نيبور Niebuhr كان أول من أشار إلى المدن والموانى العربية التى صادفها خلال رحلته إلى سواحل الخليج فى عام ١٧٦٣ واكد أن العرب الذين استقروا فيها كانوا مستقلين تماما عن فارس وشبه المدن التى قاموا بتأسيسها بدول المدينة التى عرفت قديما لدى الاغريق أو تلك التى عرفتها المدن الايطالية فى العصور الوسطى خلال اشتغالها بالوساطه التجارية بين الشرق والغرب[٣] .

ولم يكد يمضى أكثر من قرن واحد على رحلة نيبور حتى قام الرحالة الانجليزى ويليام بالجراف Palgrave برحلته إلى أواسط الجزيرة العربية والخليج فى عام ١٨٦٢

---

(١) مصطفى عقيل : سياسة ايران فى الخليج العربى على عهد ناصر الدين شاه ١٨٤٨/ ١٨٩٦ الدوحة ١٩٨٧ ، ص ١٠٣ .

(٢) محمد مرسى عبد الله : دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ،الكويت ١٩٨١، ص ٣٠٧ .

(٣) Carsten Niebuhr, Travels Through Arabia and other Countries in the East, Edinburgh 1792, Vol. II, p. 137.

وأشاد بدوره بالازدهار الذى حققه العرب على الساحل الشرقى وذكر أن الموانى العربية فى ذلك الساحل استطاعت أن تجذب إليها الكثير من العناصر والأجناس بفضل سياسة التسامح والحرية الاقتصادية التى اتبعها الحكام العرب حيث انتعشت التجارة مع الهند وشرق إفريقيا وتدفقت البضائع إلى تلك الموانى باعتبارها موانى حرة [١] .

ومن المؤكد أن الوجود العربى على السواحل الشرقية للخليج لم يكن موضع خلاف بين الباحثين إذ يقرر المؤرخ البريطانى جون كيلى Kelly أن معظم تلك السواحل والجزر المجاورة لها كانت تخضع لسيطرة القبائل العربية وأنها نأت عن أية تبعية للفرس الذين كانوا كلما حاولوا اخضاعهم لنفوذهم انسحبوا فى مراكبهم إلى بعض الجزر القريبة منهم [٢] ولعل ذلك الوجود التاريخى الذى سجله العرب على سواحل الخليج هو الذى جعل الباحثين العرب يؤكدون على الصفة العربية للخليج من جانبيه وشايعهم فيما ذهبوا إليه بعض الباحثين الأجانب ومن بينهم رودريك أوين Owen فى كتابه " الفقاعة الذهبية " [٣] كما أكد الكاتب الفرنسى جان جاك بيريبى Berebey على عروبة الخليج وإن سمى كتابه الذى صدر فى عام ١٩٥٩ " بالخليج الفارسى " اتباعا للتسمية التى كانت سائدة عند صدور كتابه هذا [٤] .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن التكوينات السياسية التى أوجدها العرب على الساحل الشرقى من الخليج لم تكن منعزلة عن الكيانات والوحدات السياسية التى

---

(١) William Palgrave . Personal Narrative of a year' s Journey through Central and Eastern Arabia. london 1877, P 392.

(٢) John Kelly , Britain and the Persian Gulf , london 1968 . P . 4 0

(٣) Roderick owen . The Golden Buble , Arabian Gulf documentary London 1957.pp. 13 - 16.

(٤) Jean Jack Berebey, Le Golfe Persique , paris 1959

وجدها العرب على كلا جانبي الخليج كانوا على اتصال دائم ببني جلدتهم وفي حركة مستمرة من الهجرة إلى ذويهم (١) . ورغم تقلبات السلطة السياسية في فارس ظلت الهجرات العربية تفد إلى سواحلها حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومن ثم استمرت تلك السواحل محتفظة بهويتها العربية وبصلات سكانها المستمرة مع أقرانهم في السواحل المواجهة لهم .

وقد ارتبط الوجود العربي في الساحل الشرقي للخليج بافتقاد فارس إلى حكومة مركزية قوية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقد يكون حقيقة أن بعض حكام الفرس الأقوياء، من أمثال نادر شاه الافشباري ١٧٢٧ / ١٧٤٧ أو كريم خان الزندي ١٧٥٦ / ١٧٧٩ قد بذلوا محاولات دائبة لتقوية قبضة يدهم على السواحل الفارسية إلا أن الأمور كانت تعود إلى ما كنت عليه بسبب عجز أولئك الحكام عن فرض سيطرتهم البحرية فمنذ المحاولة التي بذلها نادر شاه لبناء قوة بحرية أثبت الفرس أنهم بحارة عاجزون تعوزهم الخبرة في شئون البحر أو إدارة الأسطول.ولعل خير تعليل لذلك ما ذكره السير برسي سيكسSykes في أنه ليس هناك شئ يوضح تأثير العوامل الطبيعية على ميول الناس وسلوكهم أكثر من النفور الذي يظهره الفرس للبحر الذي تفصلهم عنه حواجز جبلية شاهقة (٢) ومن ثم اضطر كثير من أولئك الحكام إلى استخدام الملاحين العرب ليكونوا بحارة لأساطيلهم بينما اسندوا قيادة تلك الأساطيل إلى قباطنة من الفرس تعوزهم الدراية البحرية ولعل

---

(١) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج - القسم التاريخي الجزء السابع ،الدوحة ١٩٦٧ انظر الملاحق الخاصة بفروع الأسر العربية الحاكمة في السواحل الشرقية من الخليج .

(٢) Percy Sykes ,History of Persia , Vol II, London 1951 P . 271

انظر أيضا عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر، بغداد١٩٦٦ ص ص ١٩ ، ٢٢ - ٢٣ .

ذلك يتجلى فى أمير البحر الفارسى الذى اختاره نادر شاه لقيادة أسطوله ولم يكن قد سبق له أن ركب البحر أو رأى سفينة من قبل ! ولذلك كان من الطبيعى أن يسيطر الملاحون العرب على القوة البحرية لفارس ولكى تؤول إليهم معظم سفن الأسطول الفارسى بعد اغتيال نادر شاه مما أعان القواسم فى الوصول إلى القوة والتفوق البحرى والامتداد بنفوذهم من الساحل العمانى إلى الساحل المواجه لهم(١).

وعلى الرغم من استقرار الحكم فى فارس على أثر ظهور الأسرة القاجارية منذ أواخر القرن الثامن عشر إلا أنه لم يكن لتلك الأسرة نفوذ ملموس على سواحلها ولم يتحقق لها ذلك إلا بداية من النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين أخذ ملوكها يعملون على تقوية حكمهم المركزى والقضاء على النفوذ العربى من السواحل الشرقية للخليج فمنذ عام ١٨٥٤ بدأ ناصر الدين شاه ١٨٤٨ / ١٨٩٢ فى العمل على تقليص نفوذ سلطنة مسقط وعمان من الموانى التى كانت تديرها فى بندر عباس وقشم وهرمز مستغلا الصراع الأسرى والتفكك الداخلى الذى دب فى أوصال تلك السلطنة التى ترجع سيطرتها على تلك الموانى والبنادر التابعة لها فى شهبار وجوادور إلى عام ١٧٩٣ بموجب فرمان تحصلت عليه السلطنة من الحكومة الفارسية يمنحها حق إدارة تلك الموانى عن طريق الإيجار السنوى (٢) وكان من الطبيعى أن يترتب على الازدهار الاقتصادى الذى حققته السلطنة العربية فى تلك الموانى أن يعمل ملوك آل قاجار على استرجاع نفوذهم ومن أجل ذلك خاضت فارس

---

(١) G . N . Curzon,Persia and the Persian Question, Vol II,London 1892,P.239 see also Carsten Neibuhr,Description de l' Arabie,Copenhagen 1773,pp. 267-268

(٢) Percy Sykes , History of Persia,vol II. London 1951 pp. 252 - 253.
انظر أيضا أرنولد ويلسن : تاريخ الخليج . القاهرة ١٩٨١ . ص ١٤٥

حرباً ضد سلطنة مسقط وعمان فى عام١٨٥٤(١) ونتيجة للقيود التى فرضها الانجليز على الملاحة العربية فى الخليج استطاعت فارس أن تصل إلى اتفاقية مع السيد سعيد بن سلطان فى عام١٨٥٦رفعت بمقتضاها قيمة الإيجار السنوى وحددت فترة الإدارة العمانية بعشرين عاما غير أنها لم تلبث أن أقدمت على إلغاء تلك الاتفاقية برمتها فى عام١٨٦٨على أثر تغير نظام الحكم فى سلطنة مسقط وعمان وانتقاله إلى فرع آخر من فروع الأسرة الحاكمة ومن ثم تحولت تلك الموانى من الإدارة العربية إلى الإدارة الفارسية المباشرة (٢).ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام أن كثيرا من الرحالة الأوربيين قد نوهوا بالازدهار الاقتصادى الذى حققته الإدارة العربية على خلاف الإدارة الفارسية التى وصفوها بقدر كبير من الجور والتعسف .

وعلى أثر خضوع بندر عباس وتوابعها للإدارة الفارسية اتجهت فارس بعد ذلك إلى القضاء على نفوذ القواسم فى إمارة لنجة وتم لها ذلك فى عام ١٨٨٩ وليس من شك فى أن ما أقدم عليه ناصر الدين شاه من فرض سيطرته على السواحل الجنوبية سيمهد الطريق لرضا شاه بهلوى مؤسس الأسرة البهلوية فى استكمال سلطة الدولة المركزية على سواحلها الشمالية وقد تحقق له ذلك فى عام ١٩٢٥ حين نجح فى القضاء على إمارة المحمرة العربية التى كانت تشغل إقليم عربستان حيث تم إعلان دمج ذلك الاقليم فى الأقاليم الإيرانية بعد تغيير اسمه إلى الاسم الفارسى

---

(١) G . N . Curzon , History of Persia , Vol II , London 1892 P . 423

(٢) C . U . Aitchison , Acollection of Treaties , Engagements and Sanads relatang to India and Neighbouring Countries , v o l XI Calcutta 1892 P . 100

انظر أيضا جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ / ١٩١٤ القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٩٠ .

خوزستان (١) . وهكذا أدى الحكم المركزى القومى إلى اصطدام الامارت العربية بطموحات حكام الفرس مما أسفر عنه تلك الصراعات التى وقعت بين الفريقين وترتب عليها الإطاحة بالوجود العربى من السواحل الشرقية للخليج (٢) ومع ذلك فإن الإطاحة بذلك الوجود لم يكن يرجع إلى الجهود التى بذلها ملوك آل قاجار أو رضا شاه بهلوى فحسب وإنما كان يرجع أيضاإلى الصراعات الأسرية التى عانت منها كثير من الإمارات العربية على تلك السواحل يضاف إلى ذلك أن السياسة البريطانية شكلت بدورها عاملا هاماً من عوامل نجاح الفرس فى القضاء على تلك الإمارات إذ ترتب على فرض بريطانيا المعاهدات البحرية على شيوخ الساحل العمانى حرمان سفنهم من الوصول إلى جزر وموانى السواحل الشرقية للخليج ومن ثم فقد العرب المقيمون هناك الدعم الذى كانوا يتلقونه دائما من أقرانهم (٣) وبالاضافة إلى ذلك فقد ترتب على تدهور النفوذ العربى وتصاعد النفوذ الفارسى واتجاه السياسة الإيرانية منذ العهد البهلوى إلى التفريس القسرى لسكان تلك السواحل أن أخذت الأجيال الجديدة تخضع للمؤثرات الثقافية الإيرانية وإن لم تنس بطبيعة الحال أصولها العربية (٤).ولعل الأمر الأكثر خطورة هو أنه ما كادت إيران تنتهى من تفريس سواحلها حتى أخذت تمتد بادعاءاتها الأقليمية إلى السواحل المقابلة لها رغم تطور كياناتها السياسية من مشيخات أو إمارات إلى دول حديثة

---

(١) عبد السلام عبد العزيز فهمى : تاريخ إيران السياسى فى القرن العشرين ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ص ٥١ - ٥٢ وكذلك شفيق الرشيدات : عربستان الجزء العربى المغتصب ، من أعمال المؤتمر التاسع لاتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٧ ، ص ٩٠ .

(٢) N . J . whigham , The Persian Problem London 1903 . P . 18

(٣) مصطفى عقيل : مرجع سبق ذكره ص ص ١١٥ - ١١٦ .

بدءاً من آل صباح في الكويت إلى آل أبي سعيد في سلطنة مسقط وعمان ومن ثم ظلت السياسة الإيرانية تسير وفق ثوابت معينة استهدفت هيمنتها على الخليج واعتباره بحيرة فارسية تقع وسط أقاليم إيرانية .

وإذا كنا قد تعرضنا إلى نمو السلطة المركزية في إيران فلا يعنينا من ذلك النمو فيما يتعلق بموضوع تلك الدراسة سوى تأثيره على إمارة القواسم في لنجة وما كان يتبعها من موانئ وجزر مجاورة وذلك نظرا لارتباط قواسم لنجة بقواسم الساحل العماني بصلة النسب والقرابة فضلا عن كونهم امتداداً للاتحاد القاسمي الكبير الذي ظهر إلى القوة إثر انفصالهم عن الكتلة الغافرية في عمان وعلى وجه التحديد عقب سقوط دولة اليعاربة وقيام دولة البوسعيد في عام ١٧٤١ ولم يلبث أن تعاظم نفوذهم البحري في خلال الفوضى التي عمت فارس عقب اغتيال نادر شاه في عام ١٧٤٧ وتمكنوا من الحصول على لنجة وتوابعها في عام ١٧٥٢ وكان ذلك مكافأة لهم على تحالفهم مع الملا على شاه قائد منطقة بندر عباس حين آزروه في الصراع الذي كان قائما بينه وبين ناصر خان قائد منطقة لارستان (١) .

وعلى الرغم من المحاولات التي بذلها كريم خان الزندي ١٧٥٦ / ١٧٧٩ للحد من نفوذ القواسم في لنجة إلا أنهم نجحوا في تثبيت أوضاعهم وخاصة بعد اغتياله في عام ١٧٧٩ (٢) وبفضل من تدفق عليهم من القبائل المتحالفة معهم ونشاطهم البحري استطاعوا أن يحققوا ازدهارا اقتصاديا كبيرا حتى غدت إمارتهم في لنجة

---

(١) عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ص ص ٢٣ - ٢٤ وكذلك فالح حنظل : المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، الجزء الأول ، أبو ظبي ١٩٨٣ ، ص ١٩٦ ولوريمر : مصدر سبق ذكره جـ ١ ص ٢١٦

(٢) Kelly , J , o p . cit . pp . 40 - 41 see also Donald Hawley , The Trucial States . Lonon 1970 , p . 93

بمثابة حاضرة للساحل الجنوبى الشرقى من الخليج وتميزت بمسحتها العربية وطبيعتها العقائدية كموطن لأهل السنة والجماعة (١) وتأكد وضعها المستقل نتيجة حالة الفوضى التى تردت فيها المملكة الفارسية كما كانت مؤهلة بطبيعتها للحكم العربى حيث سبق القواسم فى حكمها العديد من الأسرات العربية التى هاجرت إليها من عمان أو غيرها من سواحل الجزيرة العربية (٢) .

وقد استمر حكم القواسم فى لنجة وما حولها من جزر على الساحل أو قرى على البر الفارسى منذ عام ١٧٥٢ حتى أطاحت الحكومة القاجارية بالشيخ محمد بن خليفة القاسمى وهو آخر شيخ عربى حكم لنجة فى عام ١٨٨٩ (٣) وليس من شك أن استقرار الحكم للقواسم فى لنجة كان يرجع فى الدرجة الأولى إلى القوة البحرية التى حققتها تحالف القواسم فى معقلهم الرئيسى برأس الخيمة (٤) حيث أصبحوا يمتلكون حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر أسطولا كبيرا أجمعت العديد من المصادر أنه كان يتألف من ثلاثة وستين سفينة كبيرة وأكثر من ثمانمائة سفينة صغيرة كما بلغ عدد مقاتليهم أكثر من تسعة عشر ألف رجلا ومن ثم أصبح ذلك

---

١ - حسين بن على الوحيدى : تاريخ لنجة حاضرة العرب على الساحل الشرقى للخليج ، دبى الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٥ ، ص ص ١٥ -١٦ .

٢ - المرجع السابق ص ٧ .

٣ - انظر لوحة نسب عائلة القواسم حكام لنجة فى المجلد السابع من القسم التاريخى للوريمر .

٤ - التفصيلات الكثيرة عن حلف القواسم يمكن الرجوع إليها فى وثائق حكومة بومباى :

Selection From The Records of Bombay Govt . Vol XXIV Bombay 1856 : Historicd Sketsh of the Joasmee Tribe of Arabs 1747 - 1853 , pp 299 - 359

انظر أيضا عبد القوى فهمى:القواسم ونشاطهم البحرى ،رأس الخيمة ١٩٨٣ ، ص ٨٧ وما بعدها

التحالف القوة البحرية الأولى التى كانت تحسب حسابها القوى الإقليمية والأجنبية (١) .

ولقد كان من الطبيعى أن تلفت تلك القوة البحرية أنظار الإنجليز منذ أن أخذوا يتطلعون إلى منطقة الخليج فى أوائل القرن التاسع عشر وحتى يتمكنوا من القضاء على تلك القوة البحرية التى باتت تهدد مصالحهم البحرية والتجارية ارتكزت خطتهم على تفكيك ذلك التحالف وتدمير القواعد الرئيسية للقواسم فى الساحل العمانى . وليس من شك أن الإجراءات السياسية والعسكرية التى اتخذها الإنجليز كان لها أثر كبير فى إضعاف الروابط بين قواسم الساحل العمانى وأقرانهم فى الساحل الجنوبى الشرقى من الخليج (٢).

وكان مما ساعد الإنجليز على هزيمة القواسم تلك الصراعات المستمرة التى كانت قائمة بينهم وبين سلطنة مسقط وعمان (٣) بالاضافة إلى سقوط الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى فى عام ١٨١٨ على أيدى القوات المصرية التركية إذ كان القواسم من أشد المتحمسين للدعوة السلفية ومن ثم أدى فقدانهم للدعم السعودى إلى عدم قدرتهم على مواجهة الحملات البريطانية وخاصة حملة ١٨١٩ التى تمكن الإنجليز فى أثنائها من تدمير معظم قلاعهم وإحراق سفنهم رغم استبسالهم فى الدفاع (٤) . وكان من أهم النتائج التى ترتبت على تلك الحملة سقوط رأس الخيمة

(١) G . Fenelon:The united Arab Emirates , an Economic and Social Survey , london 1973 , p. 10

(٢) Kelly . J . , o p . cit , pp. 160 - 161

(٣) س . ت . مايلز : الخليج ، بلدانه وقبائله (مترجم) ، ١٩٨٦ ، ص ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٤) للتفاصيل الخاصة بهذه الحملة انظر Charles low , History of The Indian Navy Vol 2 , London 1877 , P . 351 ff.

انظر أيضا : جمال زكريا قاسم : الخليج العربى : دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول ، القاهرة ١٩٨٥ ص ٣٢١

التى كانت أهم وأبرز مشيخة شهدها الخليج العربى خلال تلك الفترة (١) .

ومما هو جدير بالملاحظة أنه على الرغم من أن الإنجليز تحاشوا التقدم إلى القواسم فى لنجة إلا أن ما تعرض له أقرانهم فى الساحل العمانى قد أثر بطبيعة الحال على قوتهم وإن ظلوا محتفظين بتماسكهم غير أن حرص الإنجليز على عدم اشراكهم فى التوقيع على المعاهدة العامة التى أبرمت مع شيوخ الساحل العمانى فى عام ١٨٢٠ وما تلاها من اتفاقيات ومعاهدات أخرى سيتيح الفرصة لفارس للقضاء على حكمهم نظرا لافتقادهم للحماية البريطانية .

ولعل من أهم الأسباب التى أدت إلى إضعاف الروابط بين قواسم الساحل العمانى وأقرانهم فى لنجة ما ترتب على توقيع معاهدات الهدنة البحرية من مراقبة سفن الأسطول البريطانى للنشاط البحرى العربى ومنع امتداده إلى الساحل الشرقى من الخليج . ومن أجل ذلك حدد الكولونيل هنل Hennell المقيم البريطانى فى الخليج فى عام ١٨٣٦ خطا مقيدا للملاحة Restrictive line لا يجوز للسفن العربية بصفة عامة وسفن القواسم بصفة خاصة اجتيازه وقد راعى هنل فى رسمه لذلك الخط الفاصل أن يكون بعيدا عن الساحل الشرقى للخليج . وعلى الرغم من أن الشيخ سلطان بن صقر القاسمى حاكم الشارقة ١٨٠٣ / ١٨٦٦ لم يوافق على ذلك الخط وأبدى اعتراضه فى أنه لابد له من الاتصال ببنى عمومته فى إمارة لنجة وتفقد ممتلكاته فى خورفكان على خليج عمان إلا أن هنل لم يأبه بهذا الاعتراض وأكثر من ذلك فإنه حينما خلف الكابتن موريسون Morrison الكولونيل هنل فى منصب المقيمية البريطانية فى الخليج فى عام ١٨٣٧لم يكتف بالخط الذى وضعه

---

(١) مايلز ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

فتل وإنما أراد حصر السفن العربية فى مساحة أضيق حتى يسهل مراقبتها ومن ثم حدد خطا آخر يبدأ من جزيرة قشم وينتهى إلى مسافة عشرة أميال جنوب جزيرة أبو موسى وحتى جزيرة صير بونعير (١) مما أدى إلى فصل جزر أبو موسى والطنبين عن الساحل العمانى وقطع الصلات التى كانت تربط سكانها بذلك الساحل ولعل صعوبة الاتصالات البحرية هى التى دفعت بقواسم الشارقة إلى الاتفاق مع أقربائهم قواسم لنجة على إدارة تلك الجزر دون اخلال بتبعيتها لهم .

ومن ناحية أخرى فقد ترتب على اقتراب الخطوط الملاحية المانعة من الساحل العربى وابتعادها عن السواحل الشرقية من الخليج إلى إتاحة الفرصة لفارس للقضاء على الوجود العربى فى تلك السواحل ولم يستطع عرب الساحل العمانى نظرا لانهيار قوتهم البحرية من ناحية ولوجود الخطوط الملاحية الفاصلة من ناحية أخرى أن يبادروا بتقديم العون لهم .

أتاحت إذن الرقابة البريطانية على الملاحة العربية الفرصة لفارس لكى تفرض سيطرتها على القواسم فى لنجة ولما كان هؤلاء يعتمدون فى مصدر قوتهم على التجارة والملاحة فقد اتجهت السلطات الفارسية إلى فرض نفوذها الاقتصادى على السواحل الشرقية للخليج ومن أجل ذلك اعتمد الشاه ناصر الدين ١٨٤٨-١٨٩٦ على ألمانيا فى بناء سفينتين حربيتين تجاريتين لاستخدامهما فى مياه الخليج كانت أكبرهما السفينة برسوبوليس Persopolis التى وصلت فى عام ١٨٨٥ إلى ميناء

---

(١) عن الخطوط المقيدة للملاحة بين السواحل الشرقية والغربية للخليج العربى انظر : عبد العزيز عبد الغنى : بريطانيا والساحل العمانى ، دراسة فى العلاقات التعاهدية ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ص ٢٦٤ - ٢٦٨ ، انظر أيضا مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ص ص ٤٤١ - ٤٤٢ وكذلك :
Kelly , OP. cit . , p. 359.

بوشهر واختصت بتنظيم الأوضاع الادارية والاقتصادية على موانى الساحل الجنوبى الشرقى بينما عملت السفينة الثانية سوزا Sousa فى رقابة الملاحة النهرية فى نهر كارون على رأس الخليج العربى (١) .

وقد اعتمدت السلطات الفارسية فى بوشهر على السفينة برسوبوليس فى مواصلة قضائها على الكيانات العربية خاصة إمارة لنجة وتوابعها غير أن العامل الهام الذى ساعد الحكومة المركزية فى طهران فى بسط سيطرتها على تلك الإمارة لم يكن يرتبط باستخدام القوة البحرية بقدر ما كان يرتبط إلى حد كبير بالمنازعات الأسرية التى نشبت داخل فرع القواسم فى لنجة خاصة بعد أن عمدت السلطات الفارسية فى الخليج إلى تعميق شقة الخلاف بين المتنافسين على الحكم حتى تتمكن من تحقيق أهدافها ، فعلى أثر وفاة الشيخ خليفة أقوى شيوخ لنجة فى عام ١٨٧٤ خلفه ابنه على ولما كان صبيا صغيرا لم يبلغ سن الرشد فقد خضع لوصاية أحد أقربائه وهو الشيخ يوسف بن محمد الذى لم يلبث أن انفرد بالسلطة بعد اغتياله للشيخ على حين شب إلى رشده فى عام ١٨٨٧ وبدأت لنجة تتعرض منذ ذلك الحين لسلسة من المنافسات والاغتيالات الأسرية كان أبرزها فى عام ١٨٨٥ حين قفز إلى حكم لنجة الشيخ قضيب بن راشد بعد قتله للشيخ يوسف بن محمد . (٢)

تواكب عدم استقرار الحكم فى لنجة مع مرحلة هامة فى تاريخ فارس حين اتجهت إلى التخلص من الكيانات المستقلة والتحول من حكم الشيوخ العرب أو حتى الخانات الفرس إلى سيطرة الحكومة المركزية ومن ثم قضى هذا التحول الذى طرأ على السياسة الفارسية على تلك المحاولة التى بذلها الشيخ قضيب بن راشد

(١) ويلسن ، مصدر سبق ذكره ص ١٨٦ .

(٢) مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .

للانفصال عن السلطة المركزية عن طريق توثيق علاقاته بأقربائه شيوخ القواسم في الساحل العماني (١) هذا بالإضافة إلى أن الانجليز كانوا سببا فى إفشال محاولته حين أصدر المقيم البريطانى تحذيرا لأولئك الشيوخ بعدم التدخل فى الصراعات الدائرة بين قواسم لنجة والسلطات الفارسية فى الخليج (٢) ومن ثم كان من الطبيعى ألا يستقر الشيخ قضيب فى حكمه طويلا وخاصة بعد أن كلفت الحكومة المركزية فى طهران الدرياييكى حاجى أحمد خان بإدارة موانى الساحل الجنوبى الشرقى من الخليج وما كاد يصل إلى مركز عمله فى بوشهر فى سبتمبر ١٨٨٧ حتى أخذ يعمل على توحيد الموانى التى صارت تابعة لادارته ومن أجل ذلك أرسل حملة بحرية ألحقت الهزيمة بالشيخ قضيب حيث اقتيد أسيرا إلى طهران وبقى فيها سجينا حتي وفاته (٣)

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من الهزيمة التى أحاقت بالشيخ قضيب فإن السلطات الفارسية لم تستطع أن تتجاهل الأسرة القاسمية فى لنجة حيث بادر الدرياييكى بتنصيب أحد شيوخ القواسم حاكما عليها تحت التبعية الفارسية ولم تكد تنقضى أكثر من سنتين على ذلك الوضع حتى قام الشيخ محمد بن خليفة الشقيق الأصغر للشيخ على بمحاولة لطرد الحامية الفارسية من لنجة واستعادة القواسم لنفوذهم وعلى الرغم من أنه قد تمكن من اسقاط قلعة لنجة بالفعل وأجبر الحامية الفارسية على التسليم إلا أن السلطات الفارسية فى بوشهر لم تلبث أن استردت

---

(١) Government of India , Precis of the affairs of the Persian Coast and Islands 1854 - 1905 Calcutta , 1906

(٢) مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ص ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٣) فالح حنظل ، مرجع سبق ذكره ، الجزء الثانى ، ص ٦٧٩ .

أن استردت سيطرتها وكانت الهزيمة التى منى بها القواسم فى عام ١٨٨٩ سببا فى سقوط إمارتهم فى لنجة (١) .

ويمكننا أن نحدد بسقوط إمارة لنجة بداية لمشكلة الجزر ويرجع السبب فى ظهور تلك المشكلة إلى أن الحكومة المركزية فى طهران لم تكتف بفرض سيطرتها على إمارة لنجة وإنما تجاوزت ذلك بإصدار تعليماتها إلى السلطات التابعة لها فى الخليج بفرض سيطرتها على الجزر العربية التى تواجه تلك الإمارة وهى جزيرة صيرى وأبو موسى وطنب الكبرى والصغرى وبنى فرارو وغيرها .وتنفيذاً لتلك التعليمات بادرت السلطات الفارسية بإرسال بعض القطع البحرية التى تمكنت بواسطتها من احتلال جزيرة صيرى ورفع العلم الفارسى عليها وكان ذلك تمهيدا للسيطرة على ما يجاورها من جزر غير أنها لم تلبث أن أوقفت عملياتها على أثر احتجاج الحكومة البريطانية بعد أن أثار حكام القواسم فى الشارقة ورأس الخيمة مسألة تبعية تلك الجزر لهم وحملوا الحكومة البريطانية مسئولية المحافظة على ممتلكاتهم بحكم التزاماتها بحمايتهم (٢) وبينما تقاعست السلطات البريطانية عن الاحتلال الفارسى لجزيرة صيرى إلا أن جزرأبو موسى والطنبين ظلت موضع نزاع بين بريطانيا باعتبارها ممثلة لمصالح رأس الخيمة والشارقة وبين الحكومة الإيرانية حتى الاحتلال الإيرانى لتلك الجزر فى نوفمبر من عام ١٩٧١ وتحوله منذ ذلك الحين إلى نزاع بين إيران ودولة الإمارات العربية المتحدة .

وقبل أن نستعرض المراحل المختلفة لذلك النزاع الذى استغرق أكثر من مائة عام تجدر الإشارة إلى أن الخلاف حول ملكية الجزر قد ظهر فى بداية الأمر بين حكام

(١) مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ص ٤٠ .

(٢) فالح حنظل : مرجع سبق ذكره ، الجزء الثانى ، ص ص ٦٧٩ - ٦٨١ .

القواسم فى لنجة وقواسم الساحل العمانى فى الشارقة ورأس الخيمة ولم يلبث أن تعقد بصورة أكبر حين طالبت إمارات عربية أخرى بملكية تلك الجزر بينما لم تكن الحكومة الفارسية حتى سقوط إمارة لنجة فى عام ١٨٨٩ طرفا فى ذلك النزاع وفيما يبدو أن الجزرفى تلك الفترة المبكرة لم تكن تثير اهتمام الحكومة الفارسية بل لعلها لم تكن تعرف شيئا عنها لعدم وضوح أهميتها الاقتصادية فضلا عن عدم توافر الاحتياجات الضرورية للمعيشة وندرة مياه الشرب بها ومن ثم لم يكن يتردد عليها سوى جماعة من الصيادين أو الرعاة وانحصرت أهميتها فى لجوء بعض السفن إليها وقت الضرورة كما كانت ملجأ للعرب المقيمين على السواحل المجاورة لها عندما يتعرضون للضغوط من قبل السلطات الفارسية فى الخليج .

ولعل ما يؤكد أن الحكومة الفارسية لم تكن تبدى اهتماما بتلك الجزر عدم ورود شئ يذكر عنها فى المصادر الفارسية الخاصة بتاريخ الخليج ويركز على تلك الحقيقة أحد الباحثين العرب فى دراسته عن السياسة الإيرانية فى الخليج بعد رجوعه إلى العديد من المصادر الفارسية التى كتبت فى القرن التاسع عشر (١) وحتى فى المصادر الإيرانية الأكثر حداثة التى رجعنا إليها ومن بينها تاريخ الخليج السياسى "لصادق نشأت" و" مطالعاتى درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس " لعباس إقبال لا نجد إشارات واضحة عن تلك الجزر . غير أن الروايات المتناقلة والمكاتبات المحلية بين قواسم الشارقة والمقيمية البريطانية فى الخليج أو بينهم وبين القواسم فى لنجة تشير إلى تبعية تلك الجزر لقواسم الساحل العمانى كما يبدو ذلك واضحا فى رسالة بعث بها الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة ١٨٠٣ - ١٨٦٦ إلى

١ - مصطفى عقيل : السياسة الإيرانية فى الخليج على عهد ناصر الدين شاه ١٨٤٨- ١٨٩٦ ، الدوحة ، ١٩٨٧ ، ص ٤٤٤ .

الكولونيل لويس بلى Pelly المقيم البريطانى فى الخليج فى ديسمبر ١٨٦٤ بأن جزر أبو موسى وطنب الكبرى والصغرى هى من ممتلكات الشارقة بينما تخص جزيرة صبرى فرع القواسم فى لنجة (١) ومن المعروف أن إمارة رأس الخيمة كانت تابعة للشارقة آنذاك ولذلك لم تنص الرسالة على تبعية الطنبين لها .

ويمكننا استخلاصاً من المصادر البريطانية ومن المكاتبات المحلية أن نؤكد بأن إيران لم يسبق لها أن فرضت سيطرتها على تلك الجزر أو مارست أى نفوذ عليها كما أن الادعاءات الإيرانية التى تركز على تبعية الجزر لإمارة لنجة تبدو واهية لأن حكام القواسم فى لنجة كانوا مستقلين تماما عن السلطات الفارسية وإن كنا نستثنى مع ذلك بعض الفترات القصيرة التى أعلن فيها بعض الشيوخ المغتصبين للحكم تبعيتهم لفارس وأبدوا تبعية تلك الجزر للسلطات الفارسية ونعنى بذلك الشيخ يوسف بن محمد السابق إشارتنا إليه والذى لم يستغرق حكمه فى لنجة أكثر من سبع سنوات ومن الطبيعى أن يضعف قيمة الإدعاء الإيرانى إذا ما عرفنا أن الشيخ يوسف كان مغتصبا للحكم ومن ثم كان فى حاجة إلى تدعيم مركزه أمام معارضيه بالاعتماد على التأييد الفارسى وبالإضافة إلى ذلك حاولت إيران تدعيم مطالبها على تلك الجزر بادعائها بأنها كانت تتلقى رسوما من القواسم فى لنجة وحتى إذا افترضنا أن بعض شيوخ لنجة كانوا يدفعون رسوما للسلطات الفارسية فإنه من الصعب التدليل على أن هذه الرسوم كانت تنسحب على تلك الجزر وخاصة أن الحكومة الإيرانية قد عجزت عن إظهار الوثائق الخاصة بإيصالات تلك الرسوم (٢)

---

(١) محمد مرسى عبد الله : دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها ،الكويت ١٩٨١ ، ص ٣٢٥.

(٢) مصطفى عقيل : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥٣ .

ومن ناحية أخرى فإن سقوط حكم القواسم فى لنجة فى عام ١٨٨٩ لا يعطى لإيران حق السيطرة على تلك الجزر بدعوى تبعيتها لإمارة لنجة إذ أن تلك التبعية مع افتراض حدوثها لا تنفى الصفة العربية عنها .

إذا كانت السلطات الفارسية قد توقفت عن مواصلة زحفها على جزر أبوموسى والطنبين بعد احتلالها لجزيرة صيرى فى عام ١٨٨٩ فلم يكد يمضى أقل من أربعة عشر عاما حتى عادت الحكومة الفارسية إلى إثارة تلك المشكلة فى السنوات الأولى من القرن الحالى ويرجع ذلك إلى ما ترتب على خضوع لنجة للسلطات الفارسية من هجرة تجارها الأثرياء إلى جزيرة أبو موسى خاصة حين أخذت تلك السلطات فى تطبيق القوانين الجمركية التى صدرت فى عام ١٩٠١ على الموانى التابعة لها . ولما كانت جزيرة أبو موسى قد نأت عن التبعية الفارسية فقد أدى ذلك إلى انتعاشها الاقتصادى وخاصة بعد أن اتخذتها كثير من شركات الملاحة الأجنبية بمثابة مركز توزيع لتجارتها بدلا من ميناء لنجة وليس من شك فى أن الازدهار الاقتصادى الذى حققته جزيرة أبو موسى كان من وراء تجدد مطالبة الحكومة الفارسية بها فضلا عن الجزر المجاورة لها . وخوفا من أن تقدم السلطات الفارسية على احتلالها طلب المقيم البريطانى فى الخليج من حاكم الشارقة فى إبريل ١٩٠٣ أن يبادر برفع علم ساحل الصلح البحرى على جزيرة أبو موسى والطنبين وقد ظل ذلك العلم مرفوعا لأكثر من عام حتى أصدر وزير الخارجية الفارسية خير الدولة تعليماته إلى السلطات الفارسية فى بوشهر بالتحرك إلى تلك الجزر وبادرت تلك السلطات بإرسال قوة مسلحة على ظهر سفينة العوائد " مظفرى " وتمكن المسيو دامبرين Damprain وهو من الخبراء البلجيكيين الذين استعانت بهم الحكومة

الفارسية لتنظيم جماركها مع بعض مساعديه من إنزال علم الشارقة ورفع العلم الفارسي بدلا منه [1].

وقد أثارت تلك الحادثة التي وقعت في مارس عام ١٩٠٤ ردود فعل شديدة لدى الدوائر البريطانية في حكومة الهند التي كانت تخشى في أن تكون البعثة الروسية في طهران من وراء تلك التحركات الفارسية خاصة وأن روسيا كانت من القوى الأوربية المناوئة للإنجليز وكانت تعمل على عدم تمكينهم من إنشاء قواعد لهم عند مدخل الخليج معتمدة في ذلك على توثق العلاقات بينها وبين الحكومة الفارسية وخاصة بعد أن تم عقد معاهدة سرية بين الدولتين في مارس١٩٠٣ وعلى الرغم من أن بنود تلك المعاهدة التي أفصح عنها فيما بعد كانت تستثني الأقاليم الجنوبية لفارس من أي نشاط روسي [2] إلا أن اللورد كيرزون Curzon نائب الملك في الهند كان يبدي تخوفا ملحوظا من خطورة المنافسة الروسية لبريطانيا في الخليج فضلا عن استيائه الشديد من عدم استقبال السلطات الفارسية له الاستقبال اللائق به كنائب للملك أثناء الزيارة التي قام بها إلى سواحل الخليج في نوفمبر ١٩٠٣ ولذلك طلب من وزارة الخارجية البريطانية الموافقة على أن تقوم حكومة الهند بإرسال بعض القطع البحرية ويرافقتها مندوب عن حاكم الشارقة لكي تزيل الأعلام الفارسية وإخلاء الجزر من أي وجود فارسي فيها ولكن وزارة الخارجية البريطانية التي كانت أكثر مرونة في علاقاتها الدولية من حكومة الهند قررت الاكتفاء بتوجيه احتجاج شديد اللهجة وترك المجال مفتوحا للحكومة الفارسية لكي تخفض أعلامها بنفسها ولعدم إراقة

(١) ج . ج . لوريمر : مصدر سبق ذكره . القسم التاريخي جـ ٢ ص ص ١١٣٢ - ١١٣٣ .

(٢) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسي . ترجمة أحمد كمال حلمي وتحقيق بدر الدين الخصوصي . الكويت ١٩٧٢ . ص ٢٢.

ما ، الوجه أنكرت وزارة الخارجية الفارسية ، خلافا للواقع ، فى ردها على الاحتجاج البريطانى علمها بالحادث وأصدرت تعليماتها على الفور بانسحاب حامياتها العسكرية التى استقرت فى أبو موسى وطنب الكبرى وإزالة الأعلام الفارسية وإن كانت قد أكدت فى ردها على الاحتجاج البريطانى أحقيتها فى السيادة على تلك الجزر وطالبت بعدم رفع أعلام أى من الأطراف المتنازعة حتى الانتهاء من إيجاد حل لتلك المشكلة إلا أن الحكومة البريطانية تجاهلت تلك المطالب [1] وبادرت برفع علم عمان المتصالحة فى ١٤ يونيه ١٩٠٤ ، وظل ذلك العلم مرفوعا فوق جزيرتى طنب الكبرى والصغرى حتى وقع الاحتلال الإيرانى للجزيرتين فى نوفمبر ١٩٧١ بينما ظل علم الشارقة مرفوعاً على جزيرة أبو موسى ثم استبدل بعلم دولة الإمارات العربية المتحدة فى ٢ ديسمبر ١٩٧١ حتى أعلنت إيران مؤخرا انفرادها بالسيادة على تلك الجزيرة فى سبتمبر من عام ١٩٩٢ .

وليس من شك فى أن رفع الأعلام العربية على الجزر موضع النزاع وعدم توقف رفعها إلا لفترات قصيرة لم تتجاوز عدة أسابيع وعلى وجه التحديد من نهاية إبريل ١٩٠٣ إلى ١٤ يونيه ١٩٠٤ إنما يقدم فى حد ذاته دليلا قويا على ممارسة السيادة العربية على تلك الجزر وفضلا عن ذلك كان حكام الشارقة ورأس الخيمة يستوفون الرسوم من المشتغلين فى مهنة الصيد ومن غواصى اللؤلؤ ومن رعاة الإبل والماشية من جراء استخدامهم لتلك الجزر ومن البديهى أن فرض الرسوم يعد تأكيدا لأعمال السيادة التى ظل الحكام فى رأس الخيمة والشارقة يمارسونها دون انقطاع ، وإلى جانب فرض تلك الرسوم كان لحكام الشارقة ورأس الخيمة حق منح الامتيازات

١ - روز مارى زحلان : النزاع حول الجزر العربية ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت إبريل ١٩٧٦ ص ٢٤ وما بعدها .

الخاصة باستغلال الموارد الطبيعية فى تلك الجزر أو إصدار التراخيص بإقامة بعض المنشآت الحيوية بها وليس من شك فى أن تمتعهم بتلك الحقوق يؤكد تبعية تلك الجزر لهم ويمكن الإشارة بصدد ذلك أنه فى عام ١٩٠٦ منح حاكم الشارقة شركة الونكهاوس wonkhaus الألمانية امتيازا لاستغلال أكسيد الحديد فى جزيرة أبو موسى وعلى الرغم من أن ذلك الامتياز قد ألغى فى العام التالى فإن ذلك لم يكن بسبب اعتراض الحكومة الفارسية وإنما كان بسبب معارضة الحكومة البريطانية التى اعتبرت منح حاكم الشارقة لذلك الامتياز اخلالا بمعاهدة ١٨٩٢ التى كانت تلزمه بعدم منح أى امتياز فى أراضيه إلا لمن توافق عليه الحكومة البريطانية خاصة وأن التنافس الألمانى البريطانى كان قائما على أشده فى منطقة الخليج ومن ثم اضطر حاكم الشارقة إلى الغائه فى أكتوبر ١٩٠٧ وذلك بعد أن أدخلت السلطات البريطانية فى روعه بأنه إذا تم اكتشاف الأكسيد وأصبحت الجزيرة تتمتع بأهمية اقتصادية فإن ذلك سيثير الأطماع الفارسية فيها . ومع ذلك فإن صلاحية حاكم الشارقة فى منح أو الغاء الامتياز إنما تؤكد تبعية الجزيرة له .

وكان لحاكم الشارقة صلاحيات أيضا فى جزيرتى طنب الكبرى والصغرى بحكم تبعية إمارة رأس الخيمة للشارقة [1] وظهر ذلك وضحا فى عام ١٩١٢ حين استطاع المقيم البريطانى فى الخليج برسى كوكس Cox أن يحصل من الشيخ صقر بن خالد القاسمى على ترخيص بإقامة فنار لإرشاد السفن عند مدخل الخليج وبهذه المناسبة تم تبادل المراسلات بين الجانبين وفيها أكد المقيم البريطانى لحاكم الشارقة على أهمية اقامة فنار فى الجزيرة التابعة له وهى طنب الكبرى لإرشاد السفن نظرا للموقع الذى تتمتع به الجزيرة عند مدخل الخليج وفى الرد الذى تلقاه المقيم البريطانى من حاكم الشارقة فى ٢٢ أكتوبر ١٩١٢ أكد الأخير موافقته على منح الترخيص مع التشديد

---

(١) تم انفصال رأس الخيمة عن إمارة الشارقة فى عام ١٩٢١ .

على ملكيته للجزيرة وبشرط أن يبقى علمه مرفوعا عليها وقد أجابه المقيم البريطانى بأنه من المرغوب فيه دائما أن يستمر علمه قائما كما أن إنشاء فنار فى الجزيرة يؤكد ملكيته لها وأن حقوقه لن تضار بإنشاء ذلك الفنار.[1] وليس من شك فى أن اتصال برسى كوكس المباشر بحاكم الشارقة ودون رجوعه إلى السلطات الفارسية فى الخليج إنما يؤكد ملكية الشارقة لتلك الجزيرة وفضلا عن ذلك فإنه حين أثارت الحكومة الفارسية اعتراضها على حصول السلطات البريطانية فى الخليج على ذلك الترخيص أجاب الوزير البريطانى المفوض فى طهران بناء على المشاورات التى تمت بينه وبين السير برسى كوكس بأن ملكية الجزيرة لحاكم الشارقة ليست موضع شك وأنه من الأفضل ألا تثير الحكومة الفارسية تلك المشكلة من جديد لأن اثارتها قد تؤدى إلى إثارة مشكلة جزيرة صيرى التى سبق واحتلتها السلطات الفارسية وتغاضت السلطات البريطانية عن ذلك الاحتلال فى عام ١٨٨٩. وعلى الرغم من توقف الادعاءات الفارسية لعدة سنوات إلا أن السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى شهدت تجدد تلك الادعاءات فقد ترتب على انفصال رأس الخيمة عن الشارقة واعتراف الحكومة البريطانية بتبعية الطنبين لها مع التأكيد على تبعية جزيرة أبو موسى للشارقة أن احتجت الحكومة الفارسية على استقرار وضعية الجزر على ذلك النحو وأخذت فى إثارة العديد من الأزمات ففى عام ١٩٢٣ أوعزت لسلطاتها فى بوشهر بإرسال بعض القطع البحرية إلى جزيرة أبو موسى بهدف تفقد مناطق الأكسيد الأحمر بها حيث كانت الحكومة الفارسية تعمل على أن يمتد نطاق الامتياز الذى منحته لاحدى الشركات العاملة فى أراضيها إلى جزيرة أبو موسى وعلى أثر ذلك بادر السير برسى لورين Loraine الوزير البريطانى المفوض فى طهران

---

(١) Percy cox to sheikh Saggar Bin Khahid and from chief of Shargah to Percy Cox no 8 - 9 - 10 , October 1912 in treaties and engagements in force between the British Government and the Trucial Chiefs of Arab Coast,Calcutta,1913- see also Aitchison ,C.U. op . cit., vol.XI,P. 258 ff.

بالكتابة إلى حكومته لابلاغها بحقيقة الوضع وردت وزارة الخارجية البريطانية بإصدار تعليماتها إلى ممثلها فى طهران بأن يلفت نظر الحكومة الفارسية إلى ما حدث فى عام ١٩٠٤ حين امتثلت السلطات الفارسية للإرادة البريطانية وبادرت بإزالة الأعلام الفارسية من الجزر ومن ثم فإن تجديد الادعاءات الإيرانية سوف يدفع بالحكومة البريطانية إلى اتخاذ اجراءات أكثر تشدداً .

وعقب انتهاء تلك الأزمة ظل الموقف متسما بالهدوء النسبى حتى يوليو من عام ١٩٢٨ حين أقدمت السلطات الإيرانية فى الخليج بالتعرض لاحدى السفن الشراعية التابعة لامارة دبى كانت فى طريقها من طنب الكبرى إلى خصب حيث اقتيدت إلى ميناء لنجة وصودرت حمولتها من المواد التموينية وتم اعتقال ركابها بعد أن اتهمتهم السلطات الإيرانية بالاشتغال فى عمليات التهريب وقد أدى هذا الحادث إلى إثارة حكام الساحل العمانى وكاد الموقف يتطور إلى حدوث مواجهة بين السلطات البريطانية والسلطات الإيرانية فى الخليج[1].غير أن وزارة الخارجية البريطانية اكتفت بطلب اعتذار من الحكومة الإيرانية عن تسببها فى وقوع ذلك الحادث كما طلبت تعويضا عن الأضرار التى لحقت بالسفينة وركابها وأكدت فى مذكرة بعثت بها إلى الحكومة الإيرانية بأنها لن تتحمل من الآن فصاعداً أية ادعاءات جديدة على أبوموسى والطنبين،[2]بينما ردت الحكومة الإيرانية على المذكرة البريطانية بتأكيد حقوقها على تلك الجزر وأبدت دهشتها فى عدم اعتراف السلطات البريطانية

---

(١) F . O . 371 / 13010 incident arising out of seizure of Dhow at Dubai by persian officials , July , 1928

(٢) F . O . 371 / 13721 Status of Islands of Tamb , Abu Musa and Sirri , Documents Showing rights of Trucial Coast Arabs , 1929

بصلاحيتها فى ممارسة الاجراءات اللازمة على سفن تشتغل بتجارة التهريب [1] . وذهبت إلى أبعد من ذلك فى إدعائها بحقوق السيادة على جميع الساحل العربى من الخليج بدءاً من إمارة الكويت شمالا إلى سلطنة مسقط وعمان جنوبا مؤكدة أن جميع سكان ذلك الساحل رعايا تابعين لها وأنها بصدد إصدار جوازات سفر إيرانية لهم[2] .وكان من الطبيعى أن تتصدى الحكومة البريطانية لتلك الادعاءات بالتركيز على معاهدات الحماية التى عقدتها مع حكام الامارات العربية والتى من شأنها عدم اعترافها بوجود ثمة علاقات بين إيران أو غيرها من الدول وبين أولئك الحكام [3] .

ومما هو جدير بالذكر أن الادعاءات الإيرانية على الخليج بدأت تأخذ طابعاً قوميا فى أعقاب سقوط الأسرة القاجارية وقيام الأسرة البهلوية بزعامة رضا شاه بهلوى ومن ثم تميزت سنوات حكمه ١٩٢٥ - ١٩٤١ بالمنازعات المستمرة التى قامت بينه وبين الحكومة البريطانية وخاصة حين أخذ يوجه ضرباته المتتالية ضد الامتيازات الأجنبية فى إيران ولم يلبث أن طلب من الحكومة البريطانية أن تبادر بسحب قواعدها العسكرية التى أقامتها فى باسيدو وهنجام متعللا بحاجة إيران إلى تلك المواقع لرسو سفن أسطولها الجديد ، ولما كانت الدوائر البريطانية فى الخليج لا يزال يحدوها الأمل فى استمرارية الابقاء على قواعدها البحرية فى السواحل الإيرانية فقد اقترحت الحكومة البريطانية على الحكومة الإيرانية الدخول فى مباحثات لتسوية الخلافات القائمة بينهما وقد استغرقت تلك المباحثات ما يقرب من ستة أعوام وعلى

---

(١) India office.Confidential B.297 , 1928

(٢) I . O . B . 403 The Trucial chiefs 1908 - 1928

(٣) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ / ١٩٤٥ القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٠٧

وجه التحديد بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٤ نوقشت فى خلالها بنوداً لمشروع معاهدة بريطانية إيرانية لم يقدر لها أن تخرج إلى حيز التنفيذ .

ولا يهمنا من تلك المباحثات سوى مايتعلق منها بجزر أبوموسى والطنبين إذا كانت المشكلات المتعلقة بتلك الجزر واصرار الحكومة البريطانية على أن تعترف الحكومة الإيرانية بالمعاهدات التى عقدتها مع الحكام العرب فى الخليج من أهم العقبات الرئيسية التى اعترضت سير تلك المباحثات وأدت إلى توقفها فى نهاية الأمر (١).

ويتضح من العروض التى قدمتها إيران خلال مفاوضتها مع بريطانيا ضعف الأسانيد التى كانت تعتمد عليها فيما يتعلق بادعاءاتها على تلك الجزر . وعلى الرغم من أن المفاوض البريطانى كان يحاول فى كثير من الأحيان ترضية إيران على أمل أن تظل بريطانيا محتفظة بقواعدها البحرية على بعض الجزر والسواحل الإيرانية إلا أن الحكومة البريطانية لم تستطع التسليم بالادعاءات الإيرانية على جزر أبو موسى والطنبين ولعل ذلك مما دفع بالمفاوضين الإيرانيين إلى تقديم عروض تقضى بشراء الحكومة الإيرانية لجزيرة طنب مقابل موافقتها على تأجير قاعدة هنجام للبحرية البريطانية غير أن الحكومة البريطانية كانت عاجزة عن إتمام الصفقة خاصة وأن حاكم رأس الخيمة التى كانت تتبعه تلك الجزيرة كان من أشد الحكام العرب فى الخليج شدة وعناداً حيث أعلن رفضه القاطع بيع جزيرته مهما كان الثمن الذى سوف تقدمه له إيران (٢) .

---

(١) Memorandum of Certain Aspects of the Situation in the Persian Gulf between His Majesty 's Government in the United Kingdom and the Persian Government , 1931 See also Memorandum of Persian claim to Tamb and Abu Musa . 1934 F . O . 371 /18901.

(٢) Question of persian Purchasing Tamb From Sheikh of Sharjah 1929.

ولعل مما يثير الانتباه أن الحكومة الإيرانية كانت تركز فى ذلك الوقت على جزيرة طنب الكبرى أكثر من تركيزها على جزيرة أبو موسى ويرجع ذلك إلى أن الجزيرة الأولى أقرب إلى سواحلها هذا بالإضافة إلى أن السلطات الجمركية الإيرانية كانت تعتبر تلك الجزيرة المركز الرئيسى لعمليات تهريب المئون والأسلحة وما قد تؤدى إليه تلك العمليات من إضرار باقتصاد إيران أو إخلال بأمنها القومى وكان اهتمام الحكومة الإيرانية بجزيرة طنب دافعا لكى توالى تقديم عروض أخرى ومن بين تلك العروض التنازل عن إدعاءاتها فى جزيرة أبو موسى مقابل اعتراف الحكومة البريطانية بملكيتها لجزيرة طنب ولم يجد هذا العرض بدوره تجاوبا من بريطانيا التى أوضحت عدم قدرتها على التنازل عن أراضى مملوكة لحكام مشمولين بحمايتها ضد رغباتهم. ثم كان هناك عرض آخر قدمه المفاوضون الإيرانيون ويقضى بتأجير الحكومة الإيرانية جزيرة طنب الكبرى لمدة خمسين عاما وقد بذل المفاوضون الإيرانيون جهداً كبيرا لحث المفوضين البريطانيين للموافقة على ذلك العرض خاصة وأن ذلك سيدفع بالحكومة الإيرانية إلى الموافقة على تأجير جزيرة هنجام لبريطانيا لاستمرار اتخاذها قاعدة للأسطول البريطانى فى الخليج كما أن حصول الحكومة الإيرانية على عقد إيجار جزيرة طنب قد يكون فيه تعويضا وارضاءً للرأى العام الإيرانى عندما يعرض مشروع المعاهدة البريطانية الإيرانية على المجلس النيابى للموافقة عليه رغم ما أشارت إليه بعض بنود تلك المعاهدة من تخلى إيران عن إدعاءاتها الإقليمية فى كل من البحرين وجزيرة أبو موسى [1] .

واستجابة لذلك العرض الأخير طلبت الحكومة البريطانية من مقيمها السياسى

---

١ - محمد مرسى عبد الله ، مرجع سبق ذكره ص ٣٦٢ .

فى الخليج مناقشة الأمر مع حاكم رأس الخيمة وتحت المساعى البريطانية أبدى الأخير موافقته على تأجير جزيرته فى مايو ١٩٣١ بعد أن وضع شروطا صعبة لم تكن قابلة للتنفيذ إذا أصر على احتفاظه بحقوق السيادة على الجزيرة وأن يبقى ممثله فيها ويستمر رفع العلم الخاص به وألا يتدخل أحد فى شئون رعاياه وأن يتمتع باعفاءات جمركية كما اشترط أيضا أن تقوم الحكومة الإيرانية بدفع الإيجار السنوى مقدما وأن تضمن الحكومة البريطانية تنفيذ تلك الشروط [١]،وفيما يبدو أن الحكومة البريطانية رأت أنه لا جدوى من تبليغ تلك الشروط إلى الحكومة الإيرانية خاصة بعد أن أخذت العلاقات البريطانية الإيرانية طريقها إلى التوتر وبعد أن استقر رأى حكومة الهند البريطانية على التحول بقاعدتها البحرية من هنجام إلى البحرين[٢].

ومع ذلك فقد تكررت المحاولات الإيرانية للاتصال مباشرة بحاكم رأس الخيمة متخطية بذلك السلطات البريطانية غير أن تلك المحاولات لم تحقق نجاحا يذكر ازاء الموقف المتصلب للشيخ تجاه العروض الإيرانية التى وجد فيها مساسا بسيادته الاقليمية [٣] .

وعلى أثر توقف المفاوضات البريطانية الإيرانية فى عام ١٩٣٤ وضح تشدد الحكومة البريطانية ازاء المحاولات التى كانت تبذلها إيران للوصول إلى منطقة النفوذ البريطانى فى الخليج والتى وضحت فى الزيارات المتكررة التى كانت تقوم بها بعض القطع البحرية الإيرانية إلى الجزر الثلاث واستمرار جهودها الرامية لإيجاد

(١) F . O . 371 / 15278 Islands of Tamb - Posistion in regard to Anglo - Persian Treaty Negotiations . Proposed Lease of Tamb to Persian Govern ment , May , 1931.

(٢) Fenelon . G . B . . op . cit . P., 15.

(٣) F. O. 371 / 16852 Alleged Persian attempt to obtain lease of Tamb.

اتصالات مباشرة مع حاكم رأس الخيمة مستغلة الضائقة المالية الناجمة عن كساد مواسم الغوص على اللؤلؤ خلال حقبة الثلاثينيات وإن كان من الملاحظ فى نفس الوقت أن الحكومة البريطانية لم تعد تبدى اهتماماً بالادعاءات الإيرانية سواء على الجزر أو غيرها من مناطق الخليج الأخرى ولعلها قد أدركت ضعف تلك الادعاءات وحتى إذا ما اتجهت الحكومة الإيرانية لاثارتها لدى عصبة الأمم فإنها ستواجه بردود فعل معاكسة وقد يصل الأمر إلى تدعيم الوجود البريطانى فى الخليج باعتباره ضروريا لحماية " الشعوب الصغيرة " .

ومع أن جزيرة طنب الكبرى كانت موضع اهتمام الحكومة الإيرانية فقد أخذت جزيرة أبو موسى تجذب الانتباه إليها منذ عام ١٩٣٤ حين منح حاكم الشارقة ترخيصا للكوماندور بايلدون R . Bayldon لفحص الأكسيد الأحمر فى الجزيرة لحساب شركة الوادى الذهبى وحين قام بعض مهندسى الشركة بزيارة الجزيرة وجاءت نتائج الفحص مشجعة بادرت الشركة بالحصول على امتياز للاستغلال فى نوفمبر ١٩٣٤ وليس من شك فى أن حاكم الشارقة وجد فى منحه لذلك الامتياز علاجاً للأزمة المالية الحادة التى كان يعانى منها [١] . وعلى أثر ذلك قدمت الحكومة الإيرانية احتجاجاً ضد منح حاكم الشارقة لذلك الامتياز واعتبرته لاغيا وكأنه لم يكن Null & Void [٢] .

ولعل مما يسترعى الانتباه أن المواقف المتشددة لبريطانيا ضد الإدعاءات الإيرانية لم تكن تهدف بها إلى حماية الحقوق المشروعة للحكام العرب وإنما كانت ترتبط إلى حد

---

(١) Fenelon , G . B . , op . cit . P., 15.

(٢) F . O . 371 / 18911 - Bahrein Intelligence Report No 3 , 1935

انظر أيضا : لزى بحرى : الأطماع الإيرانية فى جزيرة أبو موسى ، بغداد ١٩٧٢ .

كبير بتوتر العلاقات بينها وبين إيران خاصة في خلال السنوات الأخيرة من عهد رضا شاه بهلوى ولعل ما يؤكد ذلك أنه بعد تنحيته عن الحكم فى عام ١٩٤١ وتولية ابنه محمد رضا بهلوى فترت المواجهة البريطانية لإيران وخاصة بعد أن أصبح الشاه الجديد حليفا لها فى الحرب العالمية الثانية ومن ناحية أخرى أدت ظروف الحرب إلى توقف الادعاءات الإيرانية على جزر الخليج حتى عادت إيران تجدد مطالبها على تلك الجزر فى عام ١٩٤٨.وقد حاولت إيران أن تستغل انضمامها إلى حلف بغداد فى عام ١٩٥٥ وللحلف المركزى فى عام ١٩٥٩ لكى تحصل على تنازلات من بريطانيا عن تلك الجزر بيد أنها فشلت فى تحقيق أهدافها ولا يعزى ذلك إلى الموقف البريطانى الذى لم يعد متشدداً مع إيران كما كان عليه الحال من قبل وإنما يرجع إلى مواجهة إيران بالمد العربى الذى أخذ تياره ينساب إلى إمارات الخليج العربى عقب الحرب العالمية الثانية وازداد انسيابا نتيجة الأحداث المتتالية التى شهدها العالم العربى بدءا من الحرب العربية الإسرائيلية فى عام ١٩٤٨ونشوب ثورة يوليه ١٩٥٢ والعدوان الثلاثى على مصر فى عام١٩٥٦ وقيام الجمهورية العربية المتحدة ونشوب ثورة تموز فى العراق فى عام ١٩٥٨[1].ومن ثم أخذت إيران تتصدى لتلك الاتجاهات القومية باعتمادها على بريطانيا وعلى غطاء دولى يضمن لها التحرك فى منطقة الخليج فبالاضافة إلى تكثيف إدعاءاتها الاقليمية على البحرين أقدمت على احتلال جزيرة أبوموسى خلال المناورات المشتركة التى أجرتها البحرية الإيرانية مع الأسطول الأمريكى فى مارس١٩٦٤فى نطاق عضوية إيران للحلف المركزى غير أنها سارعت بالجلاء عن الجزيرة بعد عشرين يوما من انزال

---

(١) جمال زكريا قاسم:الخليج العربى دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥-١٩٧١ القاهرة ١٩٧٤،ص٣٣ .

(٢) سيد نوفل : الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى الكتاب الثانى - إمارات الساحل العمانى، ط ٢ . القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٩٤ .

قواتها إثر الاحتجاجات العربية العنيفة واضطر وزير الخارجية الايرانية إلى التصريح بأن الانزال الايرانى كان مناورة عسكرية طارئة وبادرت السلطات البريطانية فى الخليج بإرسال سفينة حربية عليها بعض الجنود ومندوبين من حاكم الشارقة لانتزاع العلامات البحرية التى كان من شأنها إدخال جزيرة أبو موسى فى المياه الاقليمية الايرانية .

وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت ملتزمة بالمحافظة على حقوق السيادة الاقليمية للحكام العرب المشمولين بحمايتها فى منطقة الخليج إلا أنه كان واضحا التغير الذى بدأ يظهر فى السياسة البريطانية من حيث التنسيق مع إيران بهدف مواجهة التحديات التى كانت تتعرض لها المصالح الغربية فى منطقة الخليج ومن ثم أصبح ذلك التنسيق يمثل حجر الزاوية لأمن الخليج وضمان الملاحة الدولية فى مضيق هرمز . وقد وضع التنسيق البريطانى الإيرانى خلال فترة الانتقال التى حددتها الحكومة البريطانية منذ اعلان سياستها الخاصة بالانسحاب فى يناير ١٩٦٨ حتى تصفية وجودها العسكرى قبل نهاية عام ١٩٧١ وفى خلال تلك السنوات الثلاث قامت الحكومة البريطانية بمساعي مكثفة لضمان استقرار الأمن وتسوية بعض المطالب الاقليمية [١] فى الوقت الذى لعبت فيه السياسة الأمريكية دورا كبيرا فى استغلال نزعة الشاه التوسعية واعداده ليقوم بدور الشرطى أو الوكيل الذى يحافظ على المصالح الغربية وفى مقدمتها النفط وظهر ذلك واضحا فى زيادة حجم التسليح الإيرانى والوقوف إلى جانبه فى فرض هيمنته السياسية على الخليج .

---

(١) Hussain Sirriyeh , Security and Stability in the Gulf , Background to United States Policy , Center For Contemporary Arab Studies Georgetown University , London 1984 , pp . 44 - 46

ولعل ذلك مما دفع بالولايات المتحدة الأمريكية إلى تأييد استيلائه على جزر الخليج الثلاث [١] خاصة بعد أن أخذ يركز على الأهمية الاستراتيجية لتلك الجزرمبديا قلقه من احتمال سيطرة عناصر يسارية عليها على أثر تصاعد الثورة فى إقليم ظفار وتحول جبهة تحرير عمان إلى جبهة يسارية أعلنت الاطاحة بالمصالح الغربية والأنظمة السياسية الحاكمة وطالبت بتحرير عمان والخليج العربى بكامله .

وبينما أعلن الشاه تخلى إيران عن إدعاءتها التقليدية فى البحرين إلا أنه طالب العرب أن يتخلوا فى المقابل عن تشددهم بالنسبة لجزر الخليج الثلاث وأكد فى العديد من التصريحات التى أدلى بها بأن تلك الجزر تابعة لإيران ولا يسع إيران سوى استردادها سلميا أو باستخدام القوة إذا ما لزم الأمر، [٢] وإلى جانب تصريحات الشاه صدرت تصريحات أخرى من رئيس حكومته أمير عباس هويدا أكد فيها حاجة إيرن لتلك الجزر لحماية مصالحها وثرواتها وأنها ستدافع عن مجراها المائى بكل ما لديها من قوة بحرية وبرية وجوية [٣]

ومما يسترعى الانتباه أن التصريحات الإيرانية التى كان يدلى بها الشاه أو المسئولون فى حكومته كانت تختلف فى لهجتها بين أساليب التهديد أو الترغيب كتقديم المساعدات الاقتصادية والاجتماعية لامارتى الشارقة ورأس الخيمة لقاء تنازلهما عن تلك الجزر ،غير أنه مع اقتراب انتهاء الوجود العسكرى البريطانى من الخليج بدأت تتصاعد حدة الادعاءات الإيرانية ففى مايو ١٩٧٠ هددت الحكومة الإيرانية باستخدام القوة ضد شركة أوكسيتندال Occidental البريطانية التى تقوم

(١) عبد الله الأشعل :الاطار القانونى والسياسى لمجلس التعاون الخليجى،الرياض ١٩٨٣ ،ص٦٩

(٢) جابر الراوى : المرجع السابق ص ٤٢٩ .

(٣) نفسه ، ص ٤٢٩ وما بعدها .

باستغلال النفط فى إمارة الشارقة إذا لم توقف عملياتها التنقيبية فى جزيرة أبو موسى مما اضطر الحكومة البريطانية إلى إصدار تعليماتها إلى تلك الشركة بوقف عملياتها فى الجزيرة . وفى أكتوبر من نفس العام أكدت الحكومة الإيرانية معارضتها التامة لقيام اتحاد بين الامارات العربية ما لم يتم التوصل إلى حل لمشكلة الجزر وبصدد ذلك صرح أردشيرزاهدى وزير الخارجية الإيرانية بأن بلاده لن تعترف بالاتحاد بل وستقاومه [1] .

وعلى أثر تسليم إيران باستقلال البحرين فى أغسطس عام ١٩٧١ أخذ الشاه يعمل على تثبيت صورته فى المنطقة بتكثيف مطالبته بالجزر الثلاث وأشار إلى أنه إذا كانت المحاولات السابقة التى بذلها والده من أجل استرداد تلك الجزر قد أحبطتها بريطانيا فإن الأمور قد تغيرت الآن إذ أصبح لديه أسطولا من السفن والطائرات التى يمكنه بواسطتها أن يتحدى بريطانيا ويعيد الجزر إلى السيادة الإيرانية . [2] ويظهر من ذلك التصريح محاولة الشاه أن يعطى انطباعاً بأنه يعمل على استرجاع سيادة سابقة لإيران على تلك الجزر حال الانجليز دون ممارستها لها ومثل ذلك الادعاء لا يستند على أى أساس من الصحة التاريخية ويؤكد ذلك ما صرح به السير ويليام لوس Luce الذى كان يشغل من قبل منصب المقيم البريطانى فى الخليج ، ثم عهدت إليه حكومة المحافظين القيام بزيارات استطلاعية إلى دول وإمارات الخليج قبيل تنفيذ سياسة الانسحاب من أن الحكومة البريطانية لم تستول على تلك الجزر من إيران وتسلمها للحكام العرب وقت دخولها منطقة الخليج إذ أن

---

(١) جابر الراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢٩ أنظر أيضا محمد مرسى عبد الله ، مرجع سابق ص ٣٨٢ .

(٢) محمد عزيز شكرى: مسألة الجزر فى الخليج العربى وموقف القانون الدولى ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ص٤٢٩- ٤٣٠

الجزر عربية طبقا لوثائق الخارجية البريطانية وحكومة الهند وتقارير المقيمية البريطانية فى الخليج [1] .

وليس من شك فى أنه كان بوسع الحكومة البريطانية لولا تساهلها مع إيران أن تحتفظ بوضعيه تلك الجزر لأصحابها الأصليين ولعل ما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام أن حاكم الشارقة بادر على أثر التهديدات الإيرانية بتكليف أحد الخبراء القانونيين باعداد تقرير مدعم بالأسانيد التاريخية والقانونية حول جزيرة أبو موسى وقد ثبت من هذا التقرير الذى أرسل حاكم الشارقة نسخا منه إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية وإلى المسئولين فى الدول العربية فى يوليو من عام ١٩٧١ أن جزيرة أبوموسى كانت منذ أقدم تاريخ سجل فى الوثائق البريطانية ملكا للشارقة وأكد الخبير القانونى أن قضية امتلاك الشارقة للجزيرة ستكون غير قابلة للنقاش إذا ما قدمت للتحكيم الدولى وأنه بغض النظر عن إثبات الملكية ،فإن التهديد الإيرانى باستخدام القوة العسكرية للسيطرة على جزر الخليج هو انتهاك صريح لميثاق الأمم المتحدة الذى يحظر تغيير حالات إقليمية مثبتة بواسطة القوة أو التهديد باستخدامها [2] .

وفيما يبدو أن بريطانيا التى ظلت تدافع عن حقوق الشارقة ورأس الخيمة فى تبعية تلك الجزرلهما طوال فترة وجودها فى منطقة الخليج قد أدركت أن انسحابها من الخليج سيؤدى حتما إلى احتلال إيران لتلك الجزر ويظهر ذلك فيما رددته الصحف

---

(١) جابر الراوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

(٢) انظر بصدد ذلك تقرير كوارد تشانس فى ٢٣ يوليو ١٩٧١ إلى المستر نورث كات أيلى مستشار حاكم الشارقة حول ملكية الشارقة لجزيرة أبو موسى ، نجيب رياض الريس : صراع الواحات والنفط - هموم الخليج العربى ١٩٦٨ - ١٩٧١ ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .

البريطانية من أنه من الأفضل أن تقوم بريطانيا بتسليم تلك الجزر لإيران قبل أن تنهى وجودها العسكرى وبذلك يمكن حصر مشكلة الجزر بينها وبين إيران لأن الاحتلال الإيرانى للجزر بعد انسحابها سيؤدى إلى إثارة المشكلات بين العرب وإيران وما سيترتب على ذلك من إشاعة حالة من التوتر وعدم الاستقرار فى المنطقة (١)

وانطلاقا من تلك المفاهيم حاولت الحكومة البريطانية التوصل إلى حلول سلمية لتلك المشكلة وظهر ذلك واضحا فى الدور الذى قام به السير ويليام لوس والذى تميز بالوساطة وليس بالدفاع عن السيادة الإقليمية للشارقة ورأس الخيمة . وعلى الرغم من أن المبعوث البريطانى ومعاونوه كانوا يكنون اعجابا لموقف الشاه تجاه البحرين ويرون أنه ينبغى أن يأخذ العرب موقفا معتدلا فى مسأله الجزر والوصول إلى حلول سلمية مع إيران فإن الدول العربية فى الخليج خاصة السعودية والكويت كانت تنظر إلى قضية استقلال البحرين على أنها حق مقرر وليست صفقة تجاريه وأنه لا توجد ثمة رابطة بين المسألتين .

وعلى أى الأحوال فقد تميزت الأسابيع القليلة التى سبقت الاحتلال الإيرانى للجزر بمباحثات مكثفة بين إيران وكل من حاكم الشارقة ورأس الخيمة بوساطة ويليام لوس وفى خلال تلك المباحثات أصر الحاكمان على إصدار بيان تؤكد فيه الحكومة الإيرانية احترامها لسيادتهما على الجزر الثلاث مما أدى إلى انهيار تلك المباحثات ومع ذلك فقد كان للمساعى البريطانية أثرها فيما يتعلق بما صار إليه الوضع بالنسبة لجزيرة أبو موسى فعلى حين رفض حاكم رأس الخيمة أية حلول تمس سيادته

---

(١) A . G . Duke.The Union of The Arab Amirates, Middle East Journal, Summer , 1972 , P. 27

الإقليمية على الطنبين أبدى حاكم الشارقة استعداده للتوصل إلى حل سلمى حرصا على إقامة علاقات طيبة مع إيران ، [1] واقترح بصدد ذلك إحالة موضوع النزاع إلى التحكيم الدولى أو هيئة الأمم المتحدة غير أنه لم يجد استجابة من الحكومة الإيرانية وحينما أدرك أن الدول العربية ليست على استعداد لمواجهة إيران عسكريا أو حتى دبلوماسيا لأن قضية الأراضى العربية الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلى كانت هى القضية الملحة آنذاك فقد قبل الاتفاق مع إيران فيما يتعلق بجزيرة أبو موسى خاصة بعد أن كثفت إيران تصريحاتها باستخدام القوة العسكرية . وفى ١٨ نوفمبر ١٩٧١ وجه خطابا إلى وزير الخارجية البريطانية أكد فيه قبوله للترتيبات المبينة فى مذكرة التفاهم التى تم الاتفاق عليها مع الجانب الإيرانى وجاء الرد الإيرانى فى ٢٥ نوفمبر ١٩٧١ بقبول الترتيبات المتفق عليها والخاصة بجزيرة أبو موسى [2] والتى وقع عليها كل من الشيخ خالد حاكم الشارقة وعباس على حلقبرى وزير الخارجية الإيرانية والسير دوجلاس هيوم وزير الخارجية البريطانية .

وتشتمل مذكرة التفاهم على مقدمة وستة بنود تم الاتفاق عليها بضمان الحكومة البريطانية وفيها أكدت إيران والشارقة بأنهما لن يتخليا عن المطالبة بأبو موسى ولن تعترف أى منهما بمطالب الأخرى وقد نصت الترتيبات المتفق عليها على وصول قوات إيرانية واحتلال مناطق ضمن الحدود المبينة فى خريطة أرفقت بالمذكرة ، وعلى أن يكون لإيران صلاحيات كاملة فى المناطق المحتلة بقواتها كما نصت الترتيبات من ناحية ثانية على أن تمارس الشارقة صلاحياتها الكاملة على بقية أنحاء الجزيرة وعلى أن يتمتع مواطنو إيران والشارقة بحقوق متساوية للصيد فى المياه الاقليمية

(١) جابر الراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤٣ .

(٢) محمد عزيز شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

للجزيرة والتى حددت بأثنتى عشر ميلا بحريا [١] .

وعلى أثر موافقة الشارقة على تلك الترتيبات وجه الشيخ خالد بن محمد أمير الشارقة بيانا إلى مواطنيه من إذاعة صوت الساحل أعلن فيه تسوية الأوضاع مع إيران فيما يتعلق بجزيرة أبو موسى كما صدر بيان من ديوان الحاكم فى ٣٠ نوفمبر ١٩٧١ حرص على التأكيد بأن الترتيبات التى تم الاتفاق عليها لن تمس نظرة الشارقة فى سيادتها على الجزيرة إذ سيبقى علمها مرفوعاً على مركز الشرطة وعلى الدوائر الحكومية كما سيظل المواطنون المقيمون فى الجزيرة تحت سلطة واختصاص حكومة الشارقة وتستمر شركة بيوتزجاز أند أويل بالكشف والتنقيب عن النفط والمصادر الطبيعية فى الجزيرة ومياهها الإقليمية وأنه سيجرى تقسيم دخل تلك المصادر مناصفة بين الشارقة وإيران . وتضمن البيان النص على توقيع اتفاقية للمساعدات المالية سوف تحصل الشارقة بمقتضاها على مبلغ مليون ونصف مليون من الجنيهات الاسترلينية سنويا ولمدة تسع سنوات على التوالى فى صورة إعانة يجرى انفاقها فى مصالحها العامة على أن تتوقف إيران عن دفع تلك الأعانة السنوية حين يبلغ دخل الشارقة من النفط ثلاثة ملايين من الجنيهات وعند ذلك يتم تقسيم الدخل بالتساوى بين الجانبين [٢] .

وعلى الرغم من العبارات الهادئة التى وردت فى ذلك البيان إلا أنه كان من الواضح أن الاتفاق الذى تم التوصل إليه قد أبرم تحت التهديد الإيرانى باستخدام القوة العسكرية ومن ثم يمكن القول أن الشارقة قد أجبرت على قبول ذلك الاتفاق

---

١ - انظر بيان الاتفاق بين الشارقة وإيران حول جزيرة أبو موسى الصادر عن ديوان حاكم الشارقة وملحقاتها - جريدة الاتحاد أبو ظبى ١٩٧١/١١/٣٠ . محمد مرسى عبد الله . دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ص ٤٨٣ - ٤٨٤ .

٢ - محمد عزيز شكرى : المرجع السابق ص ٤١ - ٤٢ .

نتيجة ظروف قسرية . ولعل مما تجدر الإشارة إليه أيضا أنه على الرغم من أن الاتفاق نص على نزول قوات إيرانية في الجزء الأعلى من الجزيرة مما كان يعني أنه قد أصبح هناك سيادة مشتركة إلا أن الاتفاق لم يشر بصراحة إلى الأمور المتعلقة بالسيادة . ومن ناحية أخرى كان الشيخ خالد بن محمد حاكم الشارقة حريصا على التركيز على مجموعة من الأسباب التي برر بها موقفه ففي حديث أدلى به لإحدى الصحف العربية ذكر أن الدول العربية لم تتخذ أية اجراءات ايجابية تجاه النوايا الإيرانية وأكد أن إيران لم تكن لتسلم بقيام دولة الإمارات العربية المتحدة قبل أن تصل إلى حل لانهاء مشكلة الجزر وأن بريطانيا كانت حريصة على انهاء تلك المشكلة قبل تنفيذ انسحابها النهائي من الخليج فضلا عن أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت مساندة لإيران ونتيجة لتلك الظروف جميعها لم يكن أمامه من سبيل سوى التفاهم مع إيران أو على حد قوله " ماذا أستطيع أن أفعل فأنا حريص على قيام الاتحاد وعلى عروبة الجزر وعلى حقن دماء أبناء شعبي "[1] .

وعلى العكس مما ذهب إليه حاكم الشارقة فإن الشيخ صقر حاكم رأس الخيمة قد رفض التوصل إلى اتفاق مع إيران رغم التحذيرات المتكررة التي وجهها إليه السير ويليام لوس بأن إيران سوف تحتل جزيرتي طنب الكبرى والصغرى ما لم يصل إلى تسوية بشأنهما وأن الحكومة البريطانية لن تعتبر نفسها مسئولة عن ذلك وهي بصدد انهاء علاقاتها التعاهدية مع رأس الخيمة وغيرها من الإمارات العربية في الخليج [2] ولعل مما تجدر الاشارة إليه أن الشيخ صقر لم يستجب للعروض الإيرانية

(١) جريدة الأنوار ، بيروت ١٩٧١/١٢/٨ ، سجل الآراء حول الوقائع السياسية في البلاد العربية، بيروت ١٩٧١ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، القاهرة ١٩٧٤ ،ص ٢١٧ .

التى أبدت فيها إيران استعدادها لشراء الجزيرتين مقابل خمسة عشر مليونا من الجنيهات الاسترلينية تدفع على مدى تسع سنوات إلى جانب منح رأس الخيمة ٤٩٪ من أية ثروة نفطية أو موارد طبيعية أخرى يتم اكتشافها فى هاتين الجزيرتين وقد رد الشيخ صقر على تلك العروض التى حملها إليه السير وليام لوس " بأننا لن نتخلى أبدا عن أرضنا ولسنا مستعدين للدخول فى صفقات لبيع أراضينا " (١) .

اختلفت السياسة الإيرانية بشأن جزر الخليج الثلاث عن سياستها ازاء البحرين فبينما أعلنت بأنها لن تلجأ إلى استخدام القوة فى ضم البحرين إلى أقاليمها اتبعت سياسة الاحتلال القسرى بالنسبة لجزيرتى طنب الكبرى والصغرى والاحتلال السلمى المستند إلى اتفاق مع إمارة الشارقة بالنسبة لجزيرة أبو موسى (٢) .

بدأت إيران عملياتها العسكرية باحتلال جزيرة طنب الكبرى فى ٣٠ نوفمبر ١٩٧١ حين حلقت بعض الطائرات من طراز الهليوكوبتر التابعة لسلاحها الجوى على الجزيرة فى نفس الوقت الذى أحاطت بها بعض القطع البحرية وعلى أثر الانزال الإيرانى حدثت بعض المناوشات بين أفراد الشرطة المحلية البالغ عددهم ستة أشخاص وبين بعض الجنود الإيرانيين مما أسفر عن مقتل أربعة أفراد من العرب بينما قتل ثلاثة آخرون من القوات الإيرانية وفر كثير من السكان أو طردوا من الجزيرة بينما بقى الآخرون تحت سيطرة السلطات الإيرانية . أما فيما يتعلق بجزيرة طنب الصغرى فقد تم احتلالها دون وقوع اشتباكات مسلحة نظرا لخلوها من السكان

---

(١) محمد عزيز شكرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥ .

(٢) حسين البحارنه ، دول الخليج العربى الحديثة ، علاقاتها الدولية وتطور الأوضاع السياسية والقانونية والدستورية فيها ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٧٧ - ٧٨.

وفى نفس الوقت أيضا نزلت بعض القوات الإيرانية فى جزيرة أبو موسى واحتلت الجزء الأعلى منها [1] .

وبينما أعلنت حكومة الشارقة أنه قد سبق لها أن تفاهمت مع إيران على وضعية جزيرة أبو موسى أعلنت رأس الخيمة استنكارها الشديد لوقوع العدوان على أراضيها وأشار البيان الذى صدر عن ديوان الحاكم أن قوة الشرطة التابعة للامارة تصدت بشجاعة للهجوم الإيرانى المباغت وبادر الشيخ صقر القاسمى حاكم رأس الخيمة بتقديم احتجاج شديد اللهجة إلى الحكومة البريطانية محملا إياها مسئولية ذلك العدوان وعدم التزامها بحماية ممتلكاته الإقليمية بحكم ما يربط الامارة من معاهدات مع بريطانيا لم يكن قد تم الغاؤها بعد ، فى الوقت الذى سارع فيه العراق باعلان وقوفه إلى جانب رأس الخيمة ، وعن طريقه تم إبلاغ السكرتير العام للأمم المتحدة ومجلس الأمن ورؤساء الدول العربية بالاحتلال الإيرانى كما أرسل حاكم رأس الخيمة إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية مجموعة من الوثائق والأسانيد التاريخية التى تؤكد حقوقه على الجزيرتين المحتلتين ولم يلبث أن أعلن بأنه على استعداد لاستقبال أية قوة عربية للدفاع عن الجزر التى احتلتها إيران سواء كانت من دولة عربية واحدة أو من عدة دول عربية وذهب إلى أبعد من ذلك فى الدعوة إلى القيام بحملات انتقامية ضد المصالح الاقتصادية البريطانية والإيرانية فى العالم العربى مؤكدا أن الواجب القومى الأول لدولة الامارات العربية المتحدة هو تخليص تلك الجزر من الاحتلال الإيرانى ومشيرا إلى أن الشرط الرئيسى لانضمام إمارته إلى الدولة الاتحادية الجديدة هو تبنيها موقفا متشددا من العدوان الإيرانى وعدم

---

١ - تقرير الأمين العام لجامعة الدول العربية ، دور الانعقاد السابع والخمسين ،١١ مارس ١٩٧٢ ، ص ٣٦ .

إقامة علاقات مع إيران وترحيل جميع الإيرانيين من الإمارات التابعة لها .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الاحتلال الإيراني للجزر حدث قبل يوم واحد من إلغاء المعاهدات التى كانت تربط الامارات العربية ببريطانيا وقبل يومين اثنين من إعلان قيام دولة الامارات العربية المتحدة ومن الواضح أن توقيت الاحتلال على ذلك النحو كان ينبئ بحدوث اتفاق بين بريطانيا وإيران كان الهدف منه عدم احراج الدولة الناشئة وتحمل الحكومة البريطانية عنها نقمة الرأى العام العربى .

وكان مما يخفف الإحراج أيضا عن تلك الدولة أن إمارة رأس الخيمة التى وقع العدوان الإيرانى على أراضيها لم تكن قد انضمت إليها بعد . أما الاحتلال الإيرانى لبعض المواقع فى جزيرة أبو موسى فقد بدا وكأنه أمر مشروع بحكم الاتفاقية المبرمة بين إمارة الشارقة وإيران [1] .

وعلى الرغم من تلك المبررات النظرية فإن المجلس الأعلى للاتحاد وهو السلطة العليا فى دولة الإمارات العربية المتحدة لم يتردد فى الاجتماع الذى عقده فى الرابع من ديسمبر ١٩٧١ عن إصدار بيان استنكر فيه العدوان الإيرانى وعبر عن غضب حكام الإمارات تجاه أسلوب القوة الذى استخدمته إيران ،وفضلا عن ذلك فقد اتسمت ردود الفعل المحلية لمواطنى الدولة بالاستياء البالغ الذى ظهر فى تعرض المصالح الإيرانية لبعض الأضرار التى نجمت عن مظاهرات الاحتجاج التى قامت فى بعض الإمارات سيما فى الشارقة ورأس الخيمة ودبى وغيرها .

وعلى أثر وقوع الاحتلال حاولت الحكومة البريطانية تبرير موقفها بابداء أسفها الشديد لعدم توصل حاكم رأس الخيمة إلى اتفاق مع إيران على غرار الاتفاق الذى أبرم مع الشارقة رغم العروض السخية التى قدمتها الحكومة الإيرانية له وأملت بألا

(١) Duke , A . J . , op .cit . pp .. 286 - 287

يعلق العرب أهمية كبيرة على احتلال إيران لجزيرتين صغيرتين بالقياس إلى النجاح الذى أحرزته السياسة البريطانية فى معالجة قضايا الخليج الأخرى كاستقلال قطر والبحرين وإعلان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة وطالبتهم بتكثيف جهودهم لتوثيق العلاقات بينهم وبين إيران [1] .

أما عن الجامعة العربية فعلى الرغم مما أولته من اهتمام كبير بمسألة الاحتلال الإيرانى للجزر وهو الأمر الذى بدا واضحا فى المناقشات التى أثيرت خلال الجلسات التى عقدت فى السادس والسابع من ديسمبر ١٩٧١ إلا أن مجلس الجامعة لم يستطع مع ذلك التوصل إلى قرارات حاسمة تدين العدوان إذ لم تسفر القرارات التى صدرت عن مجلس الجامعة عن أمور إيجابية سوى التأكيد نظريا على عروبة الجزر باعتبارها جزء من الوطن العربى استنادا إلى التاريخ والواقع والقانون وينبغى أن تؤول السيادة عليها إلى أصحابها الشرعيين . وبصدد ذلك كلفت الجامعة العربية أمينها العام المساعد بزيارة منطقة الخليج بهدف تقصى الحقائق ووضع تقرير عن حقيقة الموقف فى الوقت الذى تولت فيه اللجنتان السياسية والقانونية للجامعة إعداد دراستين عنيتا فيهما بابراز المقومات الجغرافية والتاريخية وحقوق السيادة العربية على الجزر الثلاث ، [2] وإن كان مما يثير الانتباه عدم توصل وزراء خارجية الدول العربية إلى قرار جماعى ضد إيران ويرجع ذلك إلى تغلب الاتجاهات العربية الداعية إلى التقارب العربى الإيرانى ومن ثم فقد اكتفى مجلس

---

(١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، ص ٢١٨ .

(٢) تقرير الأمين العام إلى مجلس جامعة الدول العربية فى دور الانعقاد العادى السابع والخمسين، ١١ مارس ١٩٧٢ ، ص ص ٢٨ - ٢٩ .

الجامعة العربية فى القرارات التى أصدرها بالتأكيد على أن الاحتلال الإيرانى للجزر إنما يعرض الصداقة العربية الإيرانية للخطر [1] ، فى الوقت الذى أعلنت فيه إيران تمسكها بموقفها وطالبت الجامعة العربية بتكثيف جهودها لمنع العراق من إثارة المشاكل ضدها .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن العراق كان من أكثر الدول العربية تحديا لإيران ويعزى ذلك إلى صراعه التقليدى معها وحتى قبل وقوع العدوان الإيرانى على الجزر كان قد طالب فى ١٣ نوفمبر ١٩٧١ بتكوين تحالف عربى لمواجهة الأطماع الإيرانية فى الخليج [2] ، وعلى أثر وقوع الاحتلال بادرت الحكومة العراقية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إيران [3] ، وطالبت جميع الدول العربية أن تحذو حذوها وتقطع علاقاتها مع إيران وبريطانيا فى الوقت الذى أصدرت فيه الأحزاب والمنظمات وبعض المؤسسات العراقية العديد من البيانات التى شجبت فيها العدوان باعتباره يستهدف عروبة الخليج ويمهد للمخططات الإمبريالية فى المنطقة ويؤدى إلى وجود مرتكزات وثوب استعمارية ضد حركات التحرر الوطنى فضلا عن الاستحواذ على الموارد الطبيعية التى تحتويها أراضى الجزر الثلاث [4]

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) Fred Halliday : The Iranian Revolution in international affairs programme and Practice center for Contemporay Arab Studies Georgetown University , Washington D . C . Croom - Helm , london &Canberra ,1984 , P . 21.

(٣) لؤى بحرى ، مرجع سبق ذكره ص ص ٥ - ٦ .

(٤) انظر بصدد ذلك البيانات الصادرة عن الأحزاب والمنظمات الوطنية فى العراق عن العدوان الإيرانى للجزر الثلاث وكذلك النشرات التى أصدرتها جمعية الدفاع عن عروبة الخليج والمذكرات التى رفعتها إلى الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة وكذلك التقرير الصادر عن مشاريع مصلحة الموانى العراقية والذى يؤكدان أن جميع جزر الخليج تسكنها قبائل عربية.

وكانت الجمهورية الليبية من أوائل الدول العربية التى حذت حذو العراق حين أعلنت شجبها للعدوان وبادرت بتأميم شركة البترول البريطانية العاملة فى أراضيها وأطلقت عليها شركة الخليج العربى كما سحبت أرصدتها الاسترلينية من بريطانيا ردا على ما اعتبرته مؤامرة وتواطئا بينها وبين إيران [1] .

وظهرت ردود الفعل قوية فى الكويت حين طالب مجلس الأمة الكويتى باتخاذ اجراءات مشددة ضد الأطماع الإيرانية فى الخليج ووافق المجلس على التجنيد الإجبارى لأول مرة فى تاريخ الكويت كما طالب وزير الدولة الكويتى وزراء الخارجية العرب باتخاذ استراتيجية عربية موحدة وفاعلة لمواجهة العدوان الإيرانى[2] .

وفى دولة الإمارات العربية المتحدة كاد الاحتلال الإيرانى للجزر أن يؤثر على الوضع الاتحادى للدولة وحدث ذلك حين دبر الشيخ صقر بن سلطان القاسمى الحاكم السابق لإمارة الشارقة فى ٢٥ يناير ١٩٧٢ مؤامرة لاغتيال الشيخ خالد بن محمد حاكم الشارقة الذى عقد اتفاقا مع إيران بشأن جزيرة أبو موسي ومندوبه الذى استقبل القوات الإيرانية التى نزلت فى الجزيرة ، ورغم عدم استبعادنا الدوافع الشخصية من وراء هذه المؤامرة فإنه مما لا شك فيه كانت بمثابة رد فعل للاحتلال الإيرانى للجزر[3] ، وقد كشفت التحقيقات التى أجرتها السلطات الاتحادية فى دولة الامارات إثر اغتيال حاكم الشارقة على أنه كان هناك مخططا يستهدف إلغاء الشارقة لاتفاقيتها مع إيران والانسحاب من دولة الامارات حيث تؤسس اتحاداً

(١) جمال زكريا قاسم ، الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى ، من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ بغداد ، مارس ١٩٧٣ .

(٢) سيد نوفل ، مرجع سبق ذكره ، الكتاب الثانى ، ص ص ٣٣ - ٣٤ .

(٣) جمال زكريا قاسم: الخليج العربى دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥/١٩٧١ ،ص ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

بينها وبين رأس الخيمة التى لم تكن قد انضمت بعد إلى الدولة الاتحادية [1] .

وقد أثيرت مشكلة الجزر على المستوى الدولى حين تقدمت كل من العراق وليبيا والجزائر وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بطلب عرضها على مجلس الأمن وقد بدأ المجلس مناقشته لتلك المشكلة فى الثامن من ديسمبر ١٩٧١ حيث طالب مندوبو الدول العربية باتخاذ اجراءات تأديبية ضد بريطانيا لعدم الوفاء بالتزامات الحماية بموجب معاهداتها مع الإمارات العربية ووصف المندوبون العرب ما قامت به إيران باعتباره خرقا صريحا لميثاق الأمم المتحدة وأن الاحتلال الإيرانى للجزر كان تواطئا بينها وبين بريطانيا وبتأييد من الولايات المتحدة الأمريكية [2] .

وبينما ارتكزت وجهة النظر العربية خلال مناقشة تلك المشكلة على حقوق السيادة العربية وانتهاك إيران لمبدأ تصفية الاستعمار وعدم التزامها بالطرق السلمية لتسوية المنازعات الدولية ارتكزت وجهة النظر الإيرانية إلى أن الجزر تشكل جزءاً من الأقاليم الإيرانية . [3] ونتيجه لاختلاف وجهتى النظر العربية والإيرانية لم يستطع مجلس الأمن أن يصل إلى قرار بشأنها ومن ثم قرر تأجيل النظر فى تلك المشكلة مع السماح لطرف ثالث بالتوسط بغية الوصول عن طريق الدبلوماسية الهادئة إلى تسوية يرضى بها الجانبان المتنازعان [4] . وعلى الرغم من أن إيران قد اعترفت رسميا بدولة الامارات العربية المتحدة وتبادلت التمثيل الدبلوماسى معها إلا أن ذلك

(١) Duke, A.J., Op.cit., pp. 286-287

(٢) جريدة الأنوار ، بيروت ١٩٧١/١٢/٩ ، سجل الوقائع والأراء السياسية فى العالم العربى ، بيروت ١٩٧١ .

(٣) جريدة الأنوار ، بيروت ١٩٧١/١٢/٩ انظر أيضاً حسين القطيفى ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٤) United Nations Official Records, Security Council Provisional Records qth December , 1971

الاعتراف لم يثن الدولة عن موقفها الرافض للاحتلال واستمرار مطالبتها بعودة الجزر إلى سيادتها الإقليمية .

وقد يكون من المناسب أن نعرض لأهم الادعاءات التى بررت بها إيران سيطرتها على تلك الجزر والتى ورد ذكرها سواء فى التصريحات التى كان يدلى بها الشاه أو المسئولين فى حكومته أو عند مناقشة المشكلة فى مجلس الأمن الدولى . وتبدو المبررات الأمنية والاستراتيجية من أهم الادعاءات التى اعتمدت عليها إيران لتبرير سيطرتها على تلك المشكلة غير أن تلك الادعاءات تفقد فاعليتها لعدم استنادها إلى أسس من الشرعية الدولية فموقع الجزر قرب مضيق هرمز لا يعطى لإيران مبررا للانفراد بحماية ذلك المضيق الحيوى إذ أنه ليس ممرا إيرانيا خاصاً بها وإنما هو مضيق دولى حيث تشارك سلطنة عمان إيران فى الاشراف عليه هذا فضلا عن أن أمن الخليج ليس قاصرا على إيران وحدها وإنما يهم دول المنطقة جميعها[1] .

ومن الادعاءات الأخرى التى استندت عليها إيران هى ما ورد فى بعض الخرائط التى ترجع إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من اعتبار تلك الجزر تابعة لإيران حيث ظهرت ملونة بنفس اللون الذى لونت به السواحل الإيرانية غير أن تلك الادعاءات لا تنهض دليلا كافيا لصحة الادعاءات الإيرانية إذا أن الخرائط التاريخية أو الجغرافية لا يعتد بها فى التسليم بصحة المطالب الاقليمية حيث تتحفظ هيئات التحكيم الدولية عن التسليم بما جاء بها لعدم معرفة مصدر المعلومات التى اعتمد عليها رساموها إلا إذا كانت ملحقة بوثائق تؤكد مصدر تلك المعلومات[2] ، وفضلا عن ذلك فإنه لما كانت الخرائط التى تعللت بها الحكومة

---

(١) جابر الراوى ، مرجع سابق ص ٤٤٠ .

(٢) محمد عزيز شكرى ، مرجع سابق ص ص ٣٤ - ٣٥

الإيرانية خرائط بريطانية فإن مما يضعف من أهميتها التأكيدات التى صدرت عن السلطات البريطانية نفسها خلال فترة الوجود البريطانى فى الخليج والتى كانت تنفى بشكل قاطع تبعية تلك الجزر لإيران وتؤكد تبعيتها للشارقة ورأس الخيمة ومن المسلم به قانونا أن الاعتراف الصريح يسمو على الاعتراف الضمنى أو المفترض .

أما ما استندت عليه إيران فى تبرير احتلالها بأنها قد استردت سيادة سابقة بعد ثمانين عاما من انتزاع بريطانيا للجزر الثلاث وتسليمها إلى رأس الخيمة والشارقة كما نص على ذلك البيان الذى أصدره رئيس الوزراء الإيرانى عند اعلان نبأ احتلال القوات الشاهنشاهية المسلحة لتلك الجزر فى ٣٠ نوفمبر ١٩٧١ فهى بدورها مبررات واهية لأنها تفترض خضوع الجزر لإمارة القواسم فى لنجة ومن ثم أصبحت تابعة تلقائيا لإيران منذ سقوط هذه الإمارة فى أيدى الفرس فى عام ١٨٨٩ . ومن الواضح أن تلك المبررات تتناقض تاريخيا مع ما سبقت الإشارة إليه من تبعية الجزر الثلاث لقواسم الشارقة ورأس الخيمة . وحتى إذا أخذنا بصحة الادعاءات الإيرانية من حيث التأكيد على أن تلك الجزر كانت تابعة لإمارة لنجة فإن ذلك لا يعطى لإيران حق المطالبة بها لأن قواسم لنجة كانوا يمارسون حكما عربيا مستقلا عن سلطة الحكومة الفارسية . وفضلا عن ذلك فإن تصريح رئيس الوزراء الإيرانى كان ينطوى فى حقيقته على اعتراف ضمنى بأن إيران لم تمارس سيادة فعلية على الجزر الثلاث خلال الثمانين عاما التى ورد ذكرها ،وحتى إذا ما اقتصرنا على تلك السنوات فهى تعد فى حد ذاتها كافية لتأكيد الحيازة العربية الفاعلة . وعلى الرغم مما أثارته إيران من أن سيطرة العرب على تلك الجزر لا تعطى لهم الحق فى المطالبة بالتقادم حيث أنها لم تتوان عن تقديم احتجاجاتها المستمرة ضد السيطرة العربية على الجزر

فإن تلك الاحتجاجات لا يعتد بها قانونا لعدم اقترانها بالبحث فى أصول النزاع ومن ثم فهى لا تعدو كونها نوعا من "الاحتجاجات الورقية "التى لا قيمة لها [١].

ولعل المبرر الهام الذى استندت عليه إيران فى التأكيد على مشروعية احتلالها لبعض المواقع فى جزيرة أبو موسى هى الاتفاقية التى تمت بينها وبين إمارة الشارقة وإن كانت النظرة المتأنية فى الظروف التى سبقت توقيع تلك الاتفاقية تؤكد أن إيران قد فرضتها قسرا بتهديداتها المتواصلة لإمارة الشارقة باستخدام القوة العسكرية مما يضع الاتفاقية تحت دائرة الاكراه ويجعلها تتنافى وقواعد القانون الدولى العام من حيث امكانية الاعتداد بها كوثيقة ملزمة للطرف المضار ناهيك عن إن إيران وليست الشارقة هى التى قامت بانتهاكها أخيراً [٢].

لم تسفر ردود الفعل العربية والخليجية الناجمة عن رفض الاحتلال الإيرانى لجزر الخليج الثلاث عن نتائج إيجابية إذ لم تلبث أن طغت الاحداث العربية والاقليمية والعالمية على تلك المشكلة بما فى ذلك حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأزمة الطاقة العالمية وتعاظم الدور الذى كانت تقوم به إيران لفرض هيمنتها وسعيها لكى تكون أكبر قوة ضاربة فى منطقة الخليج. ومن ثم كان من الطبيعى بعد أن أطيح بالنظام الامبراطورى ابان قيام الثورة الإسلامية فى فبراير ١٩٧٩ أن يبدأ النظام الجديد صفحة جديدة فى العلاقات العربية الإيرانية خاصة منذ أن ظهر من التصريحات الأولى التى صدرت عقب قيام الثورة اتجاه قادتها إلى اسقاط نظرية التوسع الاقليمى التى كان ينتهجها الشاه مما كان يبشر بالأمل والتفاؤل [٣]. غير أنه لم تكد

(١) حسين القطفى. مرجع سابق ص ٧٣.

(٢) المرجع السابق. ص ٧٤.

(٣) محمد مرسى عبد الله. مرجع سابق. ص ٣٨٥.

تمضى بضعة شهور حتى ظهرت النزعة التوسعية من جديد فى السياسة الإيرانية حتى وصل الأمر إلى تجديدها الادعاءات السابقة على البحرين والمطالبة باعادة النظر فى شأنها لأن موافقة المجلس الإيرانى على استقلالها على عهد الشاه من الأمور التى لا تقرها الثورة الأسلامية [١] .

وقد أدت تلك التصريحات إلى إثارة قلق كبير لدى دول الخليج العربية التى أدركت أن النظام الثورى فى إيران لا يختلف فى توجهاته التوسعية عن النظام البهلوى السابق يضاف إلى ذلك ما روجه القادة الإيرانيون الجدد عن اتجاههم إلى تصدير الثورة إلى الدول المجاورة لهم مما جعل أهدافهم أكثر خطورة من أهداف الشاه الخاصة باحياء الامبراطورية الفارسية القديمة [٢] .وكان لتلك التوجهات أثرها فى القلاقل التى نشبت فى بعض دول الخليج خاصة الكويت والبحرين والمملكة العربية السعودية ناهيك عن التهديدات الإيرانية باغلاق مضيق هرمز خلال الحرب العراقية الإيرانية بما يحتله هذا المضيق من حيوية بالغة [٣] ولم تجد محاولات الحكام العرب فى الخليج للحوار مع النظام الإيرانى أى تشجيع نتيجة التصريحات الإيرانية التى بدأت تأخذ شكلا متشددا وأكثر عنفا [٤] .

---

(١) Halliday . F. op . cit., p.24 see also John Bulloch, Aportrait of Kuwait ,Qatr, Bahrein and the United Arab Emirates,london 1984, p . 52

(٢) محمد حسنين هيكل ، مدافع آية الله ، قصة إيران والثورة ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٢٥١ .

(٣) نفسه ، ص ٢٥١ .

(٤) عن الأضرار التى ألحقتها إيران بكل من الكويت والمملكة العربية السعودية انظر ، خطاب وزير خارجية الكويت فى الأمم المتحدة سبتمبر ١٩٨٧ ، والمذكرة السعودية الخاصة بقطع العلاقات مع حكومة الجمهورية الإسلامية الإيرانية ١٩٨٩ ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٥٥ ص ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

غير أن التطورات السريعة التى حدثت على الساحة الخليجية بدءا من نشوب حرب الخليج الأولى والاحتلال العراقى للكويت ونشوب حرب الخليج الثانية كان لها تأثيرها على قضية الجزر التى لم تعد فى ظل توالى تلك الاحداث تشغل الرأى العام العربى أو الخليجى ومن ثم ظلت كامنة حتى تفجرت مرة أخرى بعد أن هدأت أحداث الخليج وبعد تراجع دور العراق السياسى والعسكرى وذلك حين أقدمت إيران على تطبيق سلسلة من الاجراءات الادارية بداية من مارس عام ١٩٩٢ استهدفت بها الانفراد بسيادتها على جزيرة أبو موسى حيث أصرت السلطات الإيرانية فى الجزيرة على مراجعة الهويات التى يحملها المواطنون والوافدون وقامت باغلاق المؤسسات التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة ونشر قواتها العسكرية فى القسم الخاص بالدولة مما أدى إلى مغادرة كثير من السكان للجزيرة فى الوقت الذى منعت فيه أيضا دخول الوافدين العاملين لدى دولة الامارات العربية من خلال الميناء الذى أقامته فى القسم التابع لها ما لم يكن لديهم سمة دخول إيرانية كما ربطت بقاءهم فى الجزيرة بحصولهم على تأشيرات تحدد فترات إقامتهم ومن الواضح أن السلطات الإيرانية قد استغلت فرصة عدم وجود ميناء عربى لكى تنفرد باتخاذ تلك الاجراءات المقيدة لحركة المرور والاقامة فى الجزيرة [١] .

وعلى أثر تعنت السلطات الإيرانية فى تطبيق تلك الاجراءات دارت اتصالات بين دولة الامارات العربية وإيران انتهت باستثناء المدرسين من الحصول على تلك التأشيرات وعلى الرغم من ذلك فلم تكد تنقضى أربعة أشهر وعلى وجه التحديد فى ٢٤ أغسطس ١٩٩٢ حتى عادت الأمور إلى التوتر مرة أخرى حين أقدمت السلطات الإيرانية على منع إحدى السفن التابعة لدولة الامارات من الوصول إلى

(١) مركز الدراسات السياسية - جامعة القاهرة ، ورقة عمل حول المشكلات الحدودية الراهنة فى منطقة الخليج أكتوبر ١٩٩٢ .

الجزيرة بعد ثلاثة أيام من احتجازها فى عرض البحر وتبع ذلك أن أعلنت إيران صراحة بأن الجزيرة بكاملها قد أصبحت تابعة لها وقامت بعد ذلك باصدار التنظيمات الادارية التى جعلت من الجزر الثلاث محافظة إيرانية جديدة عاصمتها أبو موسى منتهكة بذلك الاتفاقية التى سبق أن عقدتها مع إمارة الشارقة فى نوفمبر ١٩٧١ بشأن تجميد وضع السيادة على تلك الجزيرة .

وقد ترتب على تصاعد حدة الموقف الإيرانى أن أفصحت دولة الإمارات العربية المتحدة عن نزاعها مع إيران لما عدته من مساس بسيادتها الاقليمية خاصة وأن الوضع لم يعد قاصرا على مشكلة الجزر الثلاث وإنما أصبح يتعلق بالسلطة الاتحادية ذاتها إذ أن التغاضى عن الاجراءات الإيرانية سيجعل إمارتى الشارقة ورأس الخيمة على وجه خاص تشعران بضعف السلطة المركزية للدولة كما أن المجال سيصبح مفتوحا لكى تسيطر إيران على جزر عربية أخرى خصوصا تلك الجزر التى تحيط بها الحقول النفطية ولاسيما جزيرة داس التابعة لإمارة أبو ظبى . ومن ثم بادرت دولة الإمارات بطرح نزاعها مع إيران على المستويات الاقليمية والعربية والدولية بعد فشل المساعى التى قام بها وزير خارجيتها لاحتواء تلك الأزمة ولم يعد النزاع قاصراً على جزيرة أبو موسى فحسب وإنما امتد نطاقه بحيث شمل جزيرتى طنب الكبرى والصغرى السابق احتلالهما من قبل إيران فى الوقت الذى حاولت فيه إيران التعتيم على الأزمة باثارة موضوعات لاتمت إليها بصلة كاتهامها لدولة الإمارات بزيادة سقف انتاجها النفطى وخسارة إيران تبعا لذلك لملايين من الدولارات ومطالبة دولة الإمارات أن تدفع لها تعويضات عن الخسائر التى منيت بها فى حربها مع العراق مما أعاد إلى الأذهان نفس الدعاوى التى كان يرددها النظام

العراقى ضد الكويت إبان عدوانه عليها فى أغسطس ١٩٩٠.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن دولة الامارات العربية تعاملت مع مشكلة الجزر باعتبارها قضية اتحادية وليست مشكلة خاصة بإمارة الشارقة أو رأس الخيمة ويبدو ذلك واضحا فى الرسالة التى بعث بها الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة إلى الرئيس الإيرانى فى ١١ مايو ١٩٩٢ والتى أكد فيها على اعتبار الاتفاقيات المعقودة بين أية إمارة من الامارات التابعة للدولة قبل الاتحاد وبين الدول المجاورة لها تعد اتفاقيات بين تلك الدول ودولة الامارات العربية المتحدة وكان ذلك ردا على محاولة إيران حصر الخلاف بينها وبين إمارة الشارقة حول جزيرة أبو موسى ورفضها التعامل مع دولة الامارات على اعتبار أن الاتفاق الخاص بتلك الجزيرة قد أبرم أساسا بينها وبين الشارقة وكانت إيران تهدف بذلك إلى عزل الشارقة عن السلطة الاتحادية للدولة والتعامل معها ضمن علاقات خاصة وغير متكافئة.

وقد وجدت دولة الامارات دعما لموقفها السياسى وحقوق سيادتها من كثير من المنظمات العربية والخليجية كما يظهر ذلك واضحا فى العديد من البيانات والقرارات التى صدرت خلال النصف الأول من سبتمبر ١٩٩٢ ومن بينها بيان جده الصادر عن مجلس التعاون لدول الخليج العربية وبيان الدوحة الصادر عن المجلس الوزارى لدول ميثاق دمشق وبيان القاهرة الصادر عن المجلس الوزارى لجامعة الدول العربية وقد استنكرت تلك البيانات جميعها الاجراءات التى اتخذتها إيران مؤخرا فى جزيرة أبو موسى لما تمثله من انتهاك لوحدة أراضى دولة الامارات وطالبت إيران باحترام مذكرة التفاهم مع الشارقة مع التأكيد بأن جزيرة أبو موسى أصبحت من مسئولية الحكومة الاتحادية والرفض التام لاستمرار الاحتلال الإيرانى لجزيرتى طنب الكبرى والصغرى.

ونتيجة للدعم الذى تلقته الإمارات العربية من الدول العربية والخليجية حاولت إيران احتواء الموقف باعلانها بأنها سوف تصرح لمواطنى الشارقة بالاستمرار فى الاقامة داخل الجزيرة وأن الاجراءات التى اتخذتها لا تخرج عن كونها اجراءات أمنية مما يعنى أنها منحت لنفسها مسئولية الحفاظ على الأمن دون مشاركة دولة الإمارات وأكدت أن جزيرة أبو موسى جزيرة صغيرة لاتبرر تلك الضجة الكبيرة المفتعلة حولها متجاهلة أن الأمور المتعلقة بالسيادة الوطنية لا تقاس بالمساحة الجغرافية ، غير أنه إزاء تصاعد حدة الخلاف أخذت إيران توجه تحذيراتها للدول العربية بصفة عامة زاعمة أنه لو تم الأخذ بمنطق التاريخ فإن العرب سيكونون هم الخاسرين دون غيرهم وإنه إذا كان لابد من التمسك بمطالب تاريخية فإن من حق طهران العودة بمطالبها على البحرين بل وعلى أجزاء من العراق ، وطلبت من دولة الامارات والدول العربية المساندة لها بألا تقع ضحية لمخططات أجنبية مؤكدة أن تصعيد تلك الأزمة ليست سوى مؤامرة دبرتها بعض القوى الأجنبية لتبرير وجود قواتها العسكرية فى المنطقة فى إشارة واضحة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بينما علل كثير من المراقبين أن اتجاه إيران للانفراد بالسيادة على جزيرة أبو موسى يرتبط ببنائها لقاعدة بحرية عميقة من أجل الغواصات التى قامت بشرائها مؤخرا من روسيا ومن ثم أصبحت إيران هى التى تخلق المبرر والذريعة لاستمرار الوجود الأجنبى فى الخليج خاصة بعد أن أخذت فى تعزيز قواتها العسكرية فى الجزيرة وأقامت فيها بعض القواعد الصاروخية .

ومع تأزم الموقف بين إيران ودولة الإمارات العربية المتحدة حاول العراق رغم تردى أوضاعه السياسية والاقتصادية والعسكرية إحياء تقاليده الموروثة فى الصراع مع

إيران ومحاولا فى الوقت نفسه التقارب مع دولة الإمارات العربية وذلك بتوجيه اتهاماته العديدة إلى إيران بأنها أصبحت تشكل خطرا على دول الخليج العربية . أما مصر وسوريا وهما الدولتان المشاركتان فى التوقيع على ميثاق دمشق فقد أعلنت كل منهما دعمها السياسى لدولة الإمارات وقام وزير خارجية سوريا بمحاولة للوساطة بين الجانبين أسفرت عن اجراء مباحثات فيما بينهما غير أن تلك المباحثات كان مقدرا لها ألا تصل إلى نتائج إيجابية حيث أخذت إيران تؤكد حتى قبل بدايتها بأن سيادتها على الجزر الثلاث بات أمرا مفروغا منه مما أوضح التناقض فى الموقف الإيرانى بين رغبتها فى تسوية النزاع وبين استمرارها فى فرض سيطرتها .

وعلى الرغم من أن المباحثات بين إيران ودولة الإمارات قد أجريت بالفعل إلا أنها لم تلبث أن توقفت قبل اتفاق الطرفين على جدول للأعمال بينما حمل كل طرف الطرف الآخر مسئولية فشل تلك المباحثات إذا أوضح البيان الذى صدر عن دولة الامارات العربية المتحدة فى ٢٨ سبتمبر١٩٩٢ إصرار الجانب الإيرانى على رفض مناقشة مسألة احتلال جزيرتى طنب الكبرى والصغرى أو إحالة المشكلة إلى التحكيم الدولى مما ترتب على ذلك تعذرالاستمرار فى مناقشة المسائل المتعلقة بجزيرة أبو موسى ومن بينها التزام إيران بمذكرة التفاهم الخاصة بها وعدم التدخل فى ممارسة دولة الامارات لولايتها الكاملة على الجزء المخصص لها والغاء كافة التدابير

والاجراءات التى وضعتها إيران على أجهزة الدولة فى أبوموسى وعلى مواطنيها والمقيمين فيها وحرص البيان على التأكيد بأن السيادة على الطنبين كانت منذ أقدم العصور ولا تزال لدولة الإمارات العربية المتحدة إذ أن الاحتلال الناجم عن استخدام

القوة العسكرية لايكسب الدولة المحتلة سيادة على الاقليم المحتل مهما طال الزمن [1]

أما البيان الذى صدر عن وزارة خارجية الجمهورية الإسلامية الإيرانية فى ٢٩ سبتمبر ١٩٩٢ فقد حمل وفد الإمارات مسئولية توقف المباحثات لاصراره على طرح مسائل ليست لها علاقة بالمسائل المطروحة حول جزيرة أبو موسى وقد حرص البيان على التأكيد على أن طرح إدعاء السيادة على أية أرض فى المنطقة بمقدوره أن يدخلها فى سلسلة جديدة من الادعاءات والخلافات مما سيكون له مضاعفات خطيرة تضر بأمنها وتخدم الأطماع الأجنبية فيها [2] .

وعلى أثر وضوح الخلاف بين الجانبين وتعذر التقريب بين وجهات النظر مضت دولة الامارات العربية فى تحركاتها السياسية غير أنها كانت حريصة فى الوقت نفسه على عدم الوصول بالمشكلة إلى حد القطيعة بينها وبين إيران ، وحاولت إقناعها بأن استمرار احتلالها للجزر بدعوى منع التدخل الأجنبى تبرير واهى ولا أساس له من الصحة لأن دولة الأمارات ترفض التدخل الأجنبى فى أراضيها وقد حرصت دولة الامارات على التأكيد أيضا بأن الاحتلال الإيرانى للجزر لا يعطى للدولة المحتلة سندا لممارسة سيادتها لأنه تم بالقوة العسكرية كما أن سنوات ذلك الاحتلال لا يمكن مقارنتها بالفترة الطويلة لممارسة السيادة العربية على تلك الجزر فضلا عن أن دولة الامارات لم تسكت عن هذا الاحتلال ولم تتنازل عن حقوقها

---

(١) انظر البيان الصادر عن دولة الإمارات العربية المتحدة فى ١٩٩٢/٩/٢٨ بشأن توقف المباحثات مع الجمهورية الاسلامية الإيرانية . ملحق (د) من الدراسة التى أعدتها هيئة الاستعلامات المصرية عن الخلاف بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران . القاهرة ١٩٩٢ ، ص ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) انظر البيان الصادر عن وزارة خارجية الجمهورية الاسلامية الإيرانية حول جزيرة أبو موسى فى ٢٩ سبتمبر ١٩٩٢ . المرجع السابق ، ص ص ٦٤ - ٦٥ .

ضمنا أو صراحة فضلا عن أن موقف الوطنيين فى تلك الجزر لم يشر علنا إلى قبولهم بالسيادة الإيرانية [1] .

وقد يكون من المناسب فى ختامنا لتلك الدراسة أن نصل إلى تقرير الحقائق التالية :

أولا : ليس من شك فى أن السلوك الإيرانى الأخير ضد السيادة الاقليمية لدولة الامارات العربية المتحدة قد أضاع جهدا طويلا تم فيه بناء جسور من الصداقة بين إيران والدول العربية وقد قويت تلك الجسور نتيجة معارضة إيران للاحتلال العراقى للكويت حين أعلنت رفضها التوسع والاستيلاء على الأرض بالقوة وهو أمر أخذت فى ممارسته على الجزر العربية مما يتناقض مع ما ذهبت إليه .

ثانيا : انه لا ينبغى النظر إلى النزاع القائم حاليا بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران على أنه مشكلة خاصة بدولة الإمارات وحدها وإنما يتعين النظر إلى ذلك النزاع باعتباره مشكلة تهدد الأمن الخليجى بصفة خاصة والأمن القومى العربى بصفة عامة .

ثالثا : انه على الرغم من أنه لا يوجد ثمة خلاف على أن الطرق المشروعة لاستعادة دولة الإمارات سيادتها ورد العدوان على أراضيها قد تصل إلى حد استخدام القوة للدفاع عن حقها الشرعى وهذا الحق يعود للدولة المعتدى على أراضيها كما يعود للدول الأخرى لاسيما الدول العربية التى قد تتطوع فى الدفاع الجماعى إلا أن استخدام هذا الحق المقرر قانونا قد يؤدى إلى الاخلال بالأمن فى المنطقة وقد يستغل من بعض القوى الأجنبية لتكثيف وجودها العسكرى فيها .

رابعا : ان استخدام بديل آخر للبديل السابق وهو أسلوب المقاطعة الدبلوماسية

---

(١) مذكرة من أبناء طنب الكبرى إلى الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة ٢٤ ديسمبر ١٩٧٢ يعلنون فيها موقفهم برفض الاحتلال الإيرانى .

والاقتصادية لن يقدر له النجاح خاصة وأن هناك من الدول العربية والخليجية ومن بعض إمارات دولة الإمارات العربية ذاتها من له علاقات وثيقة مع إيران وحريصة على الحفاظ على علاقات حسن الجوار ، ومن ثم فليس هناك من سبيل سوى سلوك الطرق السلمية التى تمكن الدولة صاحبة الحق من ضمان سيادتها الاقليمية .

خامسا : إن ما أقدمت عليه إيران من انتهاك السيادة الاقليمية لاحدى الدول العربية فى الخليج يرجع إلى غياب قوة إقليمية فى المنطقة يمكنها أن توقف الأطماع التوسعية ومن ثم فإن الضمان الفعلى لمنع تكرار تلك الأزمات هو تطوير مجلس التعاون لدول الخليج العربية وزيادة فاعلية مؤسسات العمل العربى الجماعى حتى تكون قادرة على تأمين ردود فعل قوية ضد أى انتهاك للسيادة العربية .

وأخيرا فإنه مع التسليم بأن دولة الإمارات العربية المتحدة تمتلك القانون والشرعية إلا أنها لا تمتلك القوة القادرة على حماية سيادتها ومن ثم تبرز من جديد تلك القضية الشائكة وهى هل تأتى الحماية من الخارج كما حدث فى الأزمة العراقية الكويتية أم أن المنطقة قادرة على حماية سيادتها وثرواتها ... وإلى أن يتم حسم تلك المشكلة فليس هناك من مخرج سوى اللجوء إلى الشرعية الدولية والالحاح على رفض الاحتلال وهو ما لجأت إليه دولة الإمارات العربية المتحدة أخيرا حين أحالت النزاع بينها وبين إيران إلى هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولى وذلك للحيلولة دون اكتساب العدوان الإيرانى على أراضيها صفة الحيازة الفاعلة أو الهادئة كما حدث ذلك فى العديد من الأراضى العربية السليبة .

ولعل التجارب التاريخية السابقة كفيلة بتوعية العرب بخطورة التفريط فى حقوقهم المشروعة حتى لا تقع فى زوايا النسيان ....

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق - العربية

- بيان الأحزاب والمنظمات الوطنية فى العراق عن العدوان الإيرانى على جزر الخليج الثلاث ، ديسمبر ١٩٧١ .
- البيانات الرسمية الصادرة عن دولة الإمارات العربية المتحدة والجمهورية الاسلامية الإيرانية عن توقف المباحثات بشأن مشكلة أبو موسى والطنبين سبتمبر ١٩٩٢ .
- تقارير الأمين العام لجامعة الدول العربية فى أدوار الانعقاد العادى لمجلس الجامعة والخاصة بمسألة الجزر .
- تقرير بعثة الجامعة العربية إلى إمارات الخليج العربى نوفمبر١٩٦٤.
- مذكرة من أبنا، طنب الكبرى إلى رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، ديسمبر ١٩٧٢ .

- الأجنبية :

Aitchison . C . U
A Collection of Treaties , Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries vols x - xi Calcutta 1892

- Bombay government.
Selections From The Records of Bombay Government , vol xxiv . Bombay 1856

- Foreign office (united Kingdom)

- The Trucial chiefs B , 403 1908 - 1928

- Incident Arising out of Seizure of Dhow at Dubai by Persian officials , July 1928

- Status of Islands of Tamb. Abu Musa and Sirri - - Documents Showing rights of Trucial Coastof Arabs, 1929

- Question of Persian Purchasing Tamb from The Sheikn of Shargah.1929

- Island of Tamb - Posistion in regard to Anglo - Persian Treaty negotiations . Proposed lease of Tamb to Persian government, 1931

- Memorandum of Certain aspects of the Situation - in the Persian Gulf between His Majestys 'Govern ment in the United Kingdom and The Persian Government , 1931

- Island of Tamb - alleged Persian attempts to obtain lease of Tamb and unsatisfactory behaviour of The Sheikh . 1932
- Memorandum of Persian Claim to Tamb and Abu Musa 1934
- Bahrein Intelligence report No 3 , 1935
- Government of India (Department of state)- Treaties and Engagments in force between the British Government and the Trucial Sheikhs of the Arab Coast , Calcutta , 1913
- India office
- Annual Report of Trucial Oman, 1935
- Precis of the affairs of the Persian Coast and Islands , 1854 -1905 , Calcutta , 1912
- United Nations official Records
- SecurityCouncil Provisional Records , ath December , 1971

ثانيا : المصادر والدراسات

أ - العربية :

- جابر إبراهيم الراوى :

الحق العربى فى الجزر العربية الثلاث وموقف القانون الدولى من اكتساب الأقاليم عن طريق القوة . من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ، بغداد ، مارس ١٩٧٣

- جمال زكريا قاسم :

- الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠ ، القاهرة ١٩٨٥ .

- الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٦٦

- الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥ ، القاهرة ١٩٧٣

- الخليج العربى ، دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ ١٩٧١ ، القاهرة ١٩٧٤ .

- مختارات من وثائق الكويت والخليج العربى المحفوظة فى دور السجلات البريطانية ، جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

- الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى ، مجلة الجمعية المصرية للدارسات التاريخية ، العدد العشرون .

- حسين بن على الوحيدى الخنجى

تاريخ لنجة حاضرة العرب على الساحل الشرقى للخليج ، دبى ، دولة الإمارات العربية المتحدة . ١٩٨٥ .

- روز مارى زحلان

النزاع حول الجزر ، مجلة دراسات الخليج العربى والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، إبريل ١٩٧٦ .

- سليم طه التكريتى

الصراع على الخليج العربى ، بغداد ١٩٦٦ .

- سيد نوفل

الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى - الكتاب الثانى، إمارات الساحل العمانى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٢.

- شفيق الرشيدات

عربستان ، الجزء العربى المغتصب ، من أعمال المؤتمر التاسع لاتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٧ .

- صادق نشأت (ميرد آماد)

تاريخ الخليج السياسى ، مترجم عن الفارسية وتحقيق بدر الدين عباس الخصوصى ، طبعة أولية ، الكويت ١٩٧٢ .

- عبد الله الأشعل

الاطار القانونى والسياسى لمجلس التعاون الخليجى،الرياض١٩٨٣ .

- عبد الأمير محمد أمين

القوى البحرية العربية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر ، بغداد ١٩٦٦ .

- المصالح البريطانية فى الخليج العربى ، مترجم ، مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة ، بغداد ١٩٧٧

- عبد الحسين القطيفى :

الجزر العربية الثلاث فى الخليج العربى ، من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ،بغداد ، مارس ١٩٧٣ .

- عبد السلام عبد العزيز فهمى

تاريخ إيران السياسى فى القرن العشرين ، القاهرة ١٩٧٣.

- عبد العزيز عبد الغنى :

علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، دراسة وثائقية فى العلاقات التعاهدية ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٩٨٢ .

- عبد القوى فهمى

القواسم ونشاطهم البحرى ١٧٤٧ - ١٨٥٣ ، رأس الخيمة ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣

- فالح حنظل :

المفصل فى تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، جزءان ، نشر لجنة التراث والتاريخ - أبو ظبى ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣

- لؤى بحرى

الأطماع الإيرانية فى جزيرة أبو موسى ، بغداد ١٩٧٢.

- لوريمر (ج . ج)

دليل الخليج - القسم التاريخى ، مترجم ،سبعة مجلدات الدوحة قطر ، ١٩٦٧.

- لاندن(ر . ج)

عمان منذ ١٨٥٦ ، مترجم ، القاهرة ١٩٧٠ .

- مايلز (س . ب)

الخليج ، بلدانه وقبائله . مترجم ، وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٦.

- محمد بهجت سنان

الشخصية العربية للخليج العربى والاحتلال الإيرانى للجزر العربية الثلاثة ، بغداد ١٩٧٢.

- محمد حسنين هيكل

مدافع آية الله ، قصة إيران والثورة ، القاهرة ، ١٩٨٥.

- محمد عزيز شكرى

مسألة الجزر فى الخليج العربى وموقف القانون الدولى،دمشق ١٩٧٢

- محمد مرسى عبد الله

دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها ، الكويت ١٩٨١ .

- مركز الدراسات السياسية (جامعة القاهرة)

ورقة عمل حول المشكلات الحدودية الراهنة فى منطقة الخليج أكتوبر ١٩٩٢

- مصطفى عقيل

سياسة إيران فى الخليج العربى على عهد ناصر الدين شاه ، ١٨٤٨ - ١٨٩٦ الدوحة ، قطر ، ١٩٨٧ .

- نادرة نعيم زكى

دراسة حول الخلاف بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران ، الهيئة العامة للاستعلامات،القاهرة ١٩٩٢.

- نجيب رياض الريس

صراع الواحات والنفط (هموم الخليج العربى ١٩٦٨ - ١٩٧١) بيروت ١٩٧٣ .

- ويلسن (أرنولد)

تاريخ الخليج - مترجم - وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨١

الأجنبية :

- Bulloch , John.
The Gulf , Aportrait of Kuwait . Qatr , Bahrein and The U . A . E , london 1984
- Curzon , George N.
Persia & The Persian Question 2 vols , london 1892
- Duke , Anthony John.
The Union of The Arab Amirates , prospects and problems , Middle East Journal , Summer , 1972
- Fenelon , K , G.
The United Arab Emirates , an Economic and Social Survey, London , 1973
- Halliday , Fred.
The Iranian Revolution in International Affairs, Programme and Practice, Center for Contemporary Arab Studies , Georgetown , washington D . C Croom - Helm , london 1984
- Hawley , Donald.
The Trucial States , london , 1970
- Kelly , J .B
nBritain and The Persian Gulf 1795 - 1880 London , 1968
- Low , Charles

History of the Indian Navy 1613 - 1863 , 2 vols
London 1877
- Niebuhr , Carsten.
-Travels Through Arabia and other Countries imthe East,Edinburgh 1792
- Description de l, Arabie , Copenhagen, 1772
-Owen , Roderick
The Golden Buble , Arabian Gulf Documentary London 1957
- Palgrave, William Gifford .
- Narrative of a year's Journey through Central and Eastern Arabia 1862 - 1863 , 2 vols, London 1865
- Personal Narrative of a Journey through Central & Eastern Arabia , London 1877
- Sirriyeh , Hussain
Security and Stability in the Gulf , Background to United StatesPolicy , Center for Contemporary Arab Studies , Croom - Helm , London , 1984
- Sykes ,Sir Percy .
A History Of Persia , 2 vols , London , 1951
- Whigham , N . J.
The Persian Problem , london , 1903

ثالثا : الدوريات العربية والأجنبية :

- سجل الآراء حول الوقائع السياسية فى البلاد العربية ، دار الابحاث والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ .

- مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ع٤٢ ، ٤٣ ، ٥٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٩٨٩ .

- المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، ع ٢٠ .

- Middle East Journal , Summer , 1972

" امارة أبو ظبى
فى عهد زايد بن خليفة "

١٨٥٥ - ١٩٠٩

الدكتور / محمد حسن العيدروس
كلية الاداب - جامعة الإمارات

امارة أبو ظبى فى عهد زايد بن خليفة

مقدمه :- نبذة عن التاريخ السياسى لامارة أبو ظبى

أولا : أختيار زايد بن خليفة لتولى السلطة فى امارة ابو ظبى

(أ) - حكم سعيد بن طحنون وخلعه .

(ب) - اختيار زايد بن خليفة لحكم عام ١٨٥٥

(جـ) - محاولة سعيد بن طحنون استعادة الحكم عام ١٨٥٦

(د) تمرد ابن عرار فى العين عام ١٨٥٨ .

ثانيا : تطور امارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه

(١) - الاقتصاد :

(أ) - الغوص على اللؤلؤ

١) جزيرة دلما

٢) جزيرة ابو ظبى

(ب) - اقتصاد اللؤلؤ

١) دور القطاع الخاص فى اقتصاد اللؤلؤ

٢) دور القطاع العام فى اقتصاد اللؤلؤ

(جـ) الزراعة

(د) التجارة

(٢) - بناء قلعة الجاهلي

(٣) - التنظيم الاداري والسياسي

ثالثا : عوامل نجاح زايد بن خليفه في حكمه واستقرار امارته

(١) - عدم وجود اسباب للمواجهة مع بريطانيا

(٢) - الصداقة التقليدية بين ابو ظبي وعمان

(٣) - خبرة زايد بن خليفه بشؤون الامارات العربية

رابعا : بعض ماقيل عن شخصية زايد بن خليفه

خامسا : وفاة زايد بن خليفة عام ١٩٠٩

امارة أبو ظبى فى عهد زايد بن خليفه

مقدمة : نبذة عن التاريخ السياسى لامارة ابو ظبى :-

ان التاريخ السياسى لامارة ابو ظبى بدأ فى عام ١٧٦٠ حين استوطنتها قبيلة البوفلاح تحت زعامة رئيسها دياب بن عيسى وقد تمركز حكم البوفلاح من بنى ياس فى امارة ابو ظبى على مر السنين [١] ، ويعتبر شخبوط بن دياب هو المؤسس الاول لامارة ابو ظبى وقد حكم الامارة فى الفترة مابين ١٧٩٣ الى عام ١٨١٦ اذ يقترن عهده بنقل مركز حكمه من واحة " ليوا " الى جزيرة أبو ظبى ويرجع نزوح بنى ياس الى أبو ظبى فى صيف عام ١٧٩٧ وتم اتخاذ هذه الجزيرة عاصمة لهم وبها اصبحوا يشكلون قوة بحرية يمارسون نشاطهم الملاحى فى الخليج العربى ، بينما بقى موطنهم الأصلى فى " ليوا " فى أطراف الربع الخالى [٢] ، وكان ذلك الاستقرار على ساحل الخليج العربى خطوة هامة لها تأثيرها الكبير على وضع الامارة السياسى والاقتصادى وفى عام ١٨١٦ تنازل الشيخ شخبوط بن دياب عن الحكم لابنه محمد الذى ظل يحكم الامارة مدة عامين ثم خلفه أخوه طحنون الذى حكم حتى وفاته عام ١٨٣٣ [٣] وتبعه أخوه الشيخ خليفه بن شخبوط ١٨٣٣ - ١٨٤٥ ، وخلفه سعيد بن طحنون ثم حكم ابن عمه زايد بن خليفه بن شخبوط جد حاكم ابو ظبى ورئيس دولة الامارات العربية المتحدة حاليا الشيخ زايد بن سلطان بن زايد بن خليفه .

أولا : اختيار زايد بن خليفة لتولى السلطة فى مارة ابو ظبى

(أ) حكم سعيد بن طحنون وخلعه :

بعد نهاية حكم الشيخ خليفة بن شخبوط تولى سعيد بن طحنون حكم امارة ابو ظبى خلال الفترة مابين ١٨٤٥ الى ١٨٥٥ ، وطيلة هذه الأعوام تواترت على امارة ابو ظبى سنوات قاسية فى مواجهة الأخطار الخارجية وكان سعيد صلبا وقويا فى مواجهتها وفى الدفاع عن حدود امارته من الاعتداءات الخارجية [٤] .

واستطاع بحكمته ان يستميل الى جانبه قبائل النعيم والعوامر والظواهر وغيرها من قبائل المنطقة وقد اشتهر عنه انه كان قاضيا قديرا يفصل فى المنازعات بين مواطنيه طبقا لأحكام الشريعة الاسلامية وحفظ اصول الدين [٥] .

وتبدو قضية خلع سعيد بن طحنون مثيرة للجدل والنقاش ولكنه ليس مجال بحثنا ولكن سوف نورد روايتين عنها ، أحدهما للاستاذ فالح حنظل ويقول فيها : -

بأن أخوين من رعاياه اقتتلا فقتل احدهما الآخر وعندما جيء بالجانى الى سعيد ابن طحنون اصدر حكمه عليه بالاعدام وفقا للشريعة الاسلامية ، وتوسل اليه والده وابدى استعداده لدفع الدية او الجزاء القضائى المادى الا ان سعيد أصر على تنفيذ حكم الاعدام وذهب ابواه يتوسلا بأعيان ووجهاء " بنى ياس ": للعفو عن القاتل ولكن جهود هؤلاء لم تنجح واصر سعيد على الاعدام وفى المدينة تجمهرت الناس وصاروا يتناقلون القضية ، ويبدو ان الأمر أخذ صورة تحد بين سكان ابو ظبى وبين الحاكم وفى ساعة من ساعات الغضب اصدر الشيخ سعيد امره بتنفيذ حكم الاعدام فى القاتل فأعدم ، مما أحدث هرجا ومرجا فى المدينة واستاء الناس من هذا الحاكم ولجأوا للسلاح وهاجموا قصر الحصن وتبادلوا اطلاق النار مع حاميته مما نتج عنه

هروب سعيد بن طحنون . (٦)

اما الرواية الثانية " للوريمر " والذى يقول فيها : -

انه عندما سأل " كامبل " المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى ، سعيد ابن طحنون عن سبب هربه فأجاب بأن جماعة من رعاياه كانوا قد ارتكبوا بعض العمليات الاجرامية وانه اصر على القصاص والعقاب من مرتكبيها ، وحدد هذه الجريمة بأنها وقعت لسفينة تابعة لتاجر بحرينى يدعى عبدالكريم وقد جنحت فى مياه خور العديد وان بعض افراد بنى ياس هاجموا السفينة وقتلوا عبدالكريم وربانها ونهبوها ثم تبين انها من فعل احد الأخوين ولذا فانه عزم على قتل الجانى الشقيق الاكبر ، وبناء على وعد من سعيد بن طحنون بالايمسه بأى ضرر جاء اخوه لمقابلته لكن سعيدا لم يتخلى عمانوى عليه ونفذ حكم الاعدام وقام الناس الى السلاح وبعد ان احتمى سعيد بن طحنون فى قلعته زمنا بادر الى الفرار واستقر بجزيرة " قيس " على الساحل الشرقى من الخليج العربى ومعه معظم مايملكه من ماشية ومتاع(٧) .

ويقال بأن سعيد قد قرر اتخاذ قرار مفاجىء وأمر عددا من حراسه ان يجهزوا له سفينته الخاصة وان يحملوهاباحتياجاته الخاصة وان يملاء مخازنها بالطعام والزاد ، وفى نفس الليلة ترك مدينة ابو ظبى ومعه اخوه حمدان متجها الى جزيرة " قيس " وسكانها من القبائل العربية واوصى أخوه صقر بأن يتولى السلطة ومهام الحكم وقد يرجع ذلك الى شعوره بأنه اصبح غير مرغوب من شعبه اما سكان ابو ظبى فيبدو انه لم يشعر احد منهم بخروج سعيد حتى اقرب المقربين اليه ، وعندما توجه بعض رعاياه الى مجلسه كعادتهم كل يوم وجدوا اخاه صقرا يجلس مكان اخيه فى صدر المجلس واجاب بأن سعيد مصاب بمرض وحمى لاتمكنه من الحضور واستمرت

الامور كماهى دون ان يعرف احد الى أن وصلت سفينة احد تجار المواشى من الساحل الشرقى للخليج العربى الى مدينة ابو ظبى فاذا بأحد ركابها يخبرهم بأن سعيد موجود فى جزيرة " قيس " وهنا ثار كبار اعيان البلاد ودخلوا الى مجلس صقر واجبروه على ان يعترف لهم بالحقيقة فلما اعترف لهم بما حدث فقرر زعماء بنى ياس اسقاط حكم سعيد بن طحنون [٨] وطلبوا من صقر ان يغادر مدينة ابو ظبى .

اما بريطانيا فكانت قد اعطت لنفسها الحق فى التدخل بالنزاعات المحلية حسب تفسيرها لمعاهدة الهدنة البحرية الدائمة لعام ١٨٥٣ ورغم ان هذه المعاهدة تتعلق بالمنازعات البحرية فيما بين الامارات الا ان دورها لم ينحصر فى هذا المجال بل راحت تتدخل فى الشؤون الداخلية للامارات من تنصيب حاكم او عزله بطريقة مباشرة او غير مباشرة حسب مصلحتها فقد نجد فى قضية الشيخ سعيد عندما تعرض لمشاكل داخلية تتعلق بامور السلطة وثار بعض افراد عشيرته المناوئين له ووقف رعاياه ضده . ولم تكن بريطانيا راغبة فى دعم سلطة سعيد الذى اصبح مهزوزا امام رعاياه وخشية من ان التدخل بجانبه قد يؤدى الى مزيد من التعقيد لوضعها فقد غضت النظر عما يجرى فى أبو ظبى ، حتى تم طرد سعيد وتولى زايد بن خليفه الحكم ولو ان بريطانيا تريد بقاء سعيد فى الحكم لعززت موقفه ولما تزعزع عن سدة الحكم [٩] .

(ب) : اختيار زايد بن خليفه للحكم عام ١٨٥٥ :-

وبعد ان هرب سعيد ثم اخوه صقر ، اجتمع كبار اعيان البلاد وقرروا اختيار زايد ابن خليفه ابن عم الحاكم المخلوع لتنصيبه حاكما على ابو ظبى وكان زايد وقتذاك لدى اخواله فى بلدة " اللية " فى الشارقة [١٠] واخواله من قبيلة " السودان " التى

كانت تحت زعامه خاله الشيخ عبدالله ابو الهول السويدى ، وذهب وفد رفيع المستوى من بنى ياس وقابل زايد واخبروه بقرارهم كمايد وبارك هذا القرار حاكم دبى سعيد بن بطى وهو اول من اعترف بحكمه ، وعاد زايد الى ابوظبى وبرفقته اخوه ذياب والدته فتلقاه الشعب بالفرحة وفتحوا له ابواب قلعة الحصن واطلقت المدافع نيرانها بقدوم زايد ابتهاجا بالحاكم الجديد (١١) .

· وبذلك تكون قبيلة بنى ياس قد اختارت زايد بن خليفه لحكم الامارة عام ١٨٥٥ ، وقدر لهذا الحاكم الجديد ان يدير شؤون الامارة لفترة طويلة كماقدر له ان يقوم بدور كبير فى تاريخ ابو ظبى والامارات العربية (١٢) . على أن عصر زايد لم يخل من احداث جسام اثرت فى تاريخ ابو ظبى فعندما تم اختياره خلفا لسعيد بن طحنون لم يجد الطريق ممهدا ولكنه استطاع بسياسته ودرايته ان يذلل العقبات التى اعترضته ويتخطى الصعاب (١٣) .

ويقول الكاتب البريطانى " كلودموريس " بأنه فى عام ١٨٥٥ برز فجأة رجل كتب له ان يصبح شخصية أسطورية حيث أعتبر بطل الامارات العربية فى أيامه هو زايد بن خليفه المعروف بزايد الكبير الذى تولى الحكم من عام ١٨٥٥ الى عام ١٩٠٩ لقد كان محظوظا خلال فترة حكمه بشكل ملحوظ وبرغم مواجهته كل العوامل المثبطة التى تواجه عادة الزعماء، فى هذه البرية المجدبة الحارقة شق زايد الكبير طريقة بنجاح بعدما اصر على ان يكون حاكما وحالفه الحظ فى ذلك دوما (١٤) .

اما حمدى تمام فيقول : بأن زايد كان لايزال شابا فى العشرين من عمره عندما استلم مقاليد الحكم خلفا لابن عمه سعيد بن طحنون اذا اجتمعت لزايد وهو فى هذا

السن المبكر الشجاعة والرأى وحسن التصرف وقد حالفه توفيق كبير من الاستقرار والهدوء والتلاحم بين القبائل (١٥) . ويعتبر زايد من الحكام الذين حكموا اطول فترة فى تاريخ امارة ابو ظبى الى يومنا هذا (١٦) .

وبدأ زايد بن خليفه بن شخبوط بن دياب بن عيسى بن نهيان بن فلاح مهام الحكم فى امارة ابوظبى فى عام ١٨٥٥ وقضى ايامه الاولى فى ترسيخ قواعد الحكم وتوزيع المناصب فعين اخاه ذياب نائبا عنه فى شؤون الحكم كماسلم خاله عبدالله بالهول السويدى منصبا مهما ولم يعارض زايد فى حكمه الا ولدان من ابناء عمه وهما ذياب وسلطان اولاد هلال بن شخبوط اما اخوهما الثالث خليفه بن هلال فكان احد اعوانه المخلصين ووقف مع زايد بكل قواه (١٧) .

(جـ) : محاولة سعيد بن طحنون استعادة الحكم عام ١٨٥٦ :

كان سعيد بن طحنون يعيش فى جزيرة " قيس " وفجأة قرر استعادة حكمه ولكن لماذا ؟ علما بأنه كان على اطلاع بمجريات الامور فى ابو ظبى بعد تولية ابن عمه الحكم ولذا فانه ادرك حقيقة فقدانه للسلطة والامارة مما دفعته الى استعادة الحكم مهما كان الثمن ولهذا فلابد من ان يجد حليف قوى يساعده ويسنده فى العودة الى حكمه ، وتوجه سعيد بن طحنون الى الشارقة وبصحبته اخويه صقر وحمدان وبعض السفن ونزل فى بلدة " اللية " وكان فى استقباله احد اصدقائه من شيوخ البومهير ويدعى مانع بن بطى المهيرى واخذ الاثنان فى العمل لاعداد الخطط اللازمة للهجوم على أبوظبى والاستيلاء عليها وكان التخطيط دقيق ومحكم (١٨)

وعندما وردت انباء عن وفاة سلطان عمان سعيد بن سلطان البوسعيدى وهو على ظهر المدمرة البريطانية " كوين فكتوريا " فى طريقة متوجها الى زنجبار من مسقط

وكان بالقرب من سواحل جزر " سيشل " لفظ انفاسه الاخيرة ونقل جثمانه الى زنجبار ودفن هناك وكانت ابو ظبى ترتبط بعلاقات تقليدية خاصة مع عمان فمجرد ورود هذا الخبر قرر زايد الذهاب الى مسقط لتقديم تعازيه الى ابنه الذى تولى الحكم هناك السلطان توينى الذى كان يحكم عمان اثناء حياة والده وحتى وفاته ثم اصبح سلطان عمان [١٩] .

وتوقف زايد بن خليفه ليلة واحدة فى دبى ضيفا على الشيخ حشر بن مكتوم ثم غادرها الى مسقط . وكان سعيد بن طحنون يترقب الفرصة المواتية له فعندما علم بغياب زايد الى عمان قام بتجهيز سفنه بمقاتلين من آل بومهير بقيادة مانع بن بطى المهيرى متوجها نحو جزيرة ابو ظبى التى لم يشعر سكانها الا والسفن ترسو امام الجزيرة وينزل منها اعداد كثيفة من المهاجمين الذين باشروا باطلاق النيران على المارة الذين هربوا الى منازلهم [٢٠] .

وهكذا حدث الهجوم المفاجىء على مدينة ابو ظبى والتى لم يتوقع سكانها هذا الهجوم من قبل سعيد بن طحنون والذى قد اتخذ من الشارقة قاعدة له ، وكان اسطوله يضم ثلاث سفن صغيرة يملك منها واحدة والثانية كانت تابعة لاحد المالكين من جزيرة " قيس " والثالثة حصل عليها وجلبها من " ابو حيل " فى الشارقة واستطاع سعيد ان يمتلك المدينة التى قام اتباعه بنهبها وحرقها [٢١] .

وتوجه سعيد بن طحنون على رأس مفرزة نحو قصر الحصن الذى كان فيه ذياب ابن خليفه نائب الحاكم وشقيق زايد بن خليفه مع والدته وحرسه الخاص ، الذين قاموا باغلاق ابواب الحصن ووضع المتاريس وصعدوا الى الابراج وباشروا باطلاق النار على المهاجمين وبرغم شدة الهجوم الذى شنه اتباع سعيد بن طحنون الاانهم لم

يتمكنوا من اقتحامه نظرا للبسالة التى ابداها افراد حرس الشيخ ذياب بن خليفه ، مماجعل المهاجمين يكتفون بحصارها ، ونادى المنادى فى اسواق مدينة ابو ظبى بأن الحكم قد عاد لسعيد بن طحنون ، وفى صباح اليوم التالى تمكنت بعض السفن التابعة لزايد بن خليفه من الهرب الى دبى وتم ابلاغ حاكمها الشيخ سعيد بن بطى عن المعارك التى جرت وبعودة سعيد بن طحنون الى ابو ظبى وكان سعيد بن بطى طريح الفراش لمرضه فطلب من ابن اخيه حشر بن مكتوم استلام قيادة الجيش والقيام بدوره لابلاغ زايد والتشاور معه حول هذه القضيه وعلى الفور ارسل حشر مفارز ودوريات للعثور على زايد بن خليفه واستطاعوا ان يجدوه وهو فى طريق عودته من مسقط قرب بئر ماء يسمى " غفر " وكان برفقته عشرة رجال من حاشيته وحرسه الخاص وابلغ رجال حشر لزايد عن مجريات الامور فى ابو ظبى وطلبوا منه الانتظار فى موقعه لحين وصول النجدات من دبى وابو ظبى وفى مساء اليوم التالى وصل حشر بن مكتوم على رأس جيش كامل الى موقع زايد ووضع الاثنان خطة للقيام بهجوم معاكس لاسترجاع ابو ظبى وعندما وصلت تلك القوات الى مقربة من منطقة " المقطع " التى لم يكن هناك جسر للعبور بربط البر والجزيرة امر زايد قواته بالاختباء وعدم القيام بأية حركة حتى لايكتشف امرهم من قبل دوريات وحرس سعيد بن طحنون والذين يقيمون فى البرج المقام فى " المقطع " ويفقد معه عنصر المفاجئة وهنا ذكرت روايتان عن كيفية عبور زايد بن خليفه وقواته من البر الى ساحل الجزيره [٢٢] :-

(أ) : الرواية الأولى تقول :

بأن الحرس وضابط منطقة " المقطع " كانوا من أنصار زايد بن خليفه فلما رأوه

أفسحوا له المجال فقامت قواته بعبور الحاجز المائى بين البر والجزيره .

(٢) : اما الرواية الثانية فتقول :

بأن زايد استعمل حيلة بارعة عندما اوعز الى بعض افراد من رجاله الاقويا، بأن يعبروا الماء سباحة الى جزيرة ابو ظبى ويشعلوا النيران فى أماكن متفرقة خلف نقاط المراقبة التى توجد فيها ابراج " المقطع " باتجاه العاصمة ولما تقدم زايد الى نقطة البرج اوقفته القوة الموجودة هناك فطلب مقابلة ضابط النقطة والذى فوجىء بوجود زايد ومعه قوات كبيرة من الجنود فنصحه زايد بعدم المقاومة وطلب منه ان ينظر خلفه وان يرى أبو ظبى قد امتلأت بالنيران فأخبره زايد بأن القسم الاكبر من افراد قواته قد عبروا ودخلوا المعركة وهاهى النيران وان مايراه من قوة ليس الا جزء قليل من تلك القوة فقدم الضابط خضوعه مع حرسه لزايد وعبرت قوات زايد ومعه الشيخ راشد بن مكتوم الى داخل جزيرة ابو ظبى .

وفى صباح اليوم التالى بعد صلاة الفجر اطلق زايد اشارة بدء الهجوم ودارت المعارك العنيفة فى المدينة وحول قصر الحصن قتل فيه مانع بن بطى المهيرى من اتباع سعيد بن طحنون فى حين تمكنت قوات راشد بن مكتوم من كسر طوق الحصار الذى فرضه سعيد بن طحنون على ذياب بن خليفه وافراد عائلته وحرسه فى الحصن كمادارت معارك عنيفة فى أزقة المدينة وشوارعها انهزمت فيه قوات سعيد بن طحنون ، وهرب البعض فى حين حاول سعيد الهرب تجاه البحر للوصول الى سفينته ولكن افراد زايد تمكنوا من سعيد واحاطوه ولم يعرفوا ماذا يفعلوا به فارسلوا احدهم ليخبر زايد وعندما علم زايد الذى كان يقاتل على ظهر فرسه فى وسط المدينة بأن سعيد مطوق فى البحر اسرع متجها اليه على فرسه وقبل ان يخرج من احد ازقه

المدينة والمؤدية الى الشاطئ. ولشدة سرعة الحصان وضيق الازقة اصطدم بخشبة بارزة من احد الجدران فسقط زايد من شدة الصدمة بينما خرج حصانه تجاه الشاطئ. بدونه فظن الذين كانوا يطوقون سعيد بأن زايد قتل فقاموا واطلقوا نيران بنادقهم على سعيد فأصابوه بعدة رصاصات قاتلة وكانوا من قوات دبي الموالية لزايد ، وبعدها تم القبض على أخوى سعيد وهما صقر وحمدان وكان سعيد قويا ويعد من ابرز واشجع المقاتلين ومن اهم اثاره الجامع الذى كان يسمى بمسجد " العتيبات " وهذا المسجد قد بناه سعيد بن طحنون ويعتبر اول مسجد جامع كبير يتم بناءه من الحجارة والاجر في ابو ظبى فى تلك الفترة التى كانت تبنى مساجدها من الخوص وسعف النخيل وقد قام خلف بن عبدالله العتيبه بترميم المسجد حديثا ولذا سمى بمسجد العتيبات (٢٣) . ويقع الان مقابل السفارة البريطانية بالقرب من سوق الخضار واعيد بناءه حديثا بعد هدم المسجد القديم .

وقد يكون للسلطان بن صقر دورا فى عملية استعادة السلطة للحاكم السابق لابو ظبى فى محاولة اعادة سعيد للحكم ويقول المؤرخ البريطانى " لوريمر " : - " ولما فشلت هذه المحاولة وقررت السلطات البريطانية اعتبار العملية عدوانا بحريا من جانب شيخ الشارقة واعتباره مسؤولا مسؤولية الشريك عن اتلافه لمدينة ابو ظبى ووقوع معظمه بأيدى البدو من حلفاء الشيخ الموجود آنذاك فيها ممن كان استدعاهم لمعاونته فى الدفاع عن المدينة " (٢٤) .

وهذا يعنى ان لبريطانيا علاقة غير مباشرة ، وخاصة انها كانت على علم بخروج سعيد بن طحنون من جزيرة " قيس " ومجيئه الى الشارقة ثم الاستعدادات التى تمت للشيخ سعيد فى الشارقة بالقرب من الوكيل السياسى البريطانى ومن غير المعقول

انه لم يكن يعرف بتلك الاستعدادات وخاصة ان الوكيل كان يعرف كل صغيرة فى المنطقة كلها فكيف لايعرف بمجريات الامور بالقرب من مقره فى الشارقة ثم انه غضت بريطانيا طرفها فى الفترة التى ابحرت قوات سعيد من الشارقة الى ابو ظبى ؟ الم تكن تعلم ؟ وسكوتها اثناء القتال الذى دار فى أبو ظبى وكذلك سكوتها عندما استقرت الاحوال للشيخ سعيد بن طحنون ، ولم تتحرك الابعدما استعاد زايد ابن خليفه جزيرة ابو ظبى بمساعدة شيخ دبى ومقتل سعيد ونظرا لفشل العملية وحتى لاتتهم بريطانيا بان تورطها قد يثير عداء زايد بن خليفة عليها فانها فرضت غرامة على الشيخ سلطان بن صقر ومن ناحية اخرى كانت غير راضية بسياسة الزعيم القاسمى تجاه التواجد البريطانى فى الامارات العربية وكانت تريد تأديبه بطريقة غير مباشرة واتهمته بتورطه فى القضية فى حين انها لم تمنعه او تحذره قبل اشتراكه كماهو المتبع فى العادة وكانت بريطانيا تحذر قبل قيام اى شيخ بأى نوع من العمليات وبالتالى فان بريطانيا اظهرت نفسها بأنها لم تكن راغبة فى تولية سعيد الحكم ولذلك اتهمت سلطان بن صقر بهذا العمل وفرضت عليه غرامة كبيرة.

ففى عام ١٨٥٧ قرر المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى الكابتن " جونز فيلكس " ايفاد بعثه الى ابو ظبى لتقصى الحقائق عن الاحداث التى جرت فى العام الماضى ووصلت تلك البعثة وباشرت عملها وشاهدت اثار الدمار والخراب فى ازقة وشوارع المدينة وتدمير سوق البلدة وجزءا من قصر الحصن(٢٥) .

كما استمعوا الى عدد من افراد السكان الذين اشتكوا ممن اصيبت ممتلكاتهم بأضرار فادحة وانهم قد خسروا الكثير بسبب الهجوم الذى شنه سعيد ورجاله ثم قامت اللجنة باجراء التحقيقات اللازمة لمعرفة أسباب الهجوم والقوى التى ساندتها

وقد توصلت الى نتيجة بأن سلطان بن صقر كان وراء هجوم سعيد وبعدها ارسل المقيم البريطاني رسالة الى سلطان بن صقر يبلغه فيها بنتائج اللجنه[٢٦] . وفيها اتهامات موجهة اليه بمساعدته لسعيد بن طحنون ، ويخبره بأن الحكومة البريطانية قد حددت الغرامة التي يجب أن يدفعها الزعيم القاسمي ، مبلغ وقدره خمسة وعشرون الف جنيه تدفع على أقساط على أن يعفى الزعيم القاسمي من بعضها اذا أثبت حسن تصرفاته حسب المفهوم البريطاني ولكن مسلكه ظل لايبرر على الاطلاق انقاص شيء من الغرامة مما قررت معه الحكومة البريطانية الزام دفع المبلغ المقرر حتى أخر دفعة من تلك الاقساط فى شهر مايو عام ١٨٦٠[٢٧] .

(د) : تمرد ابن عرار فى العين عام ١٨٥٨ .

ومن اهم المشاكل الداخلية التى تصدى لها زايد بن خليفة بعد محاولة سعيد هو حركة التمرد التى شهدتها منطقة العين وكادت ان تنفصل عن ابو ظبى فى عام ١٨٥٨ ، عندما حاول احد اكبر زعماء المنطقة وهو الشيخ ابن عرار استغلال فرصة الاضطرابات التى وقعت فى ابو ظبى فأعلن الانفصال واستقلال مدينة العين والمناطق المجاورة لها وخضع له معظم زعماء المنطقة مثل الشيخ محمد بن احمد وكان على زايد ان يواجه هذه الحركة بحزم فتصدى لابن عرار وقاتله بشدة طيلة عام ١٨٥٨ ، وقد ارسلت امارة دبى بعض قواتها لمساعدة زايد فى حربه ضد ابن عرار ووقعت خسائر كبيرة بين الجانبين ، كماقدم الزعيم النعيمى فى البريمى الشيخ محمد ابن على الحمود الشامى مساعدته لزايد ، وانتهت المشكلة عندماتدخل أحد وجهاء دبى السيد عبدالله بن حريز ، وبذل جهوده ووساطته لدى الطرفين فاستسلم ابن عرار بكرمه وجوده فقد قال احد الشعراء مادحا :-[٢٨]

حنت وتبغى ابن عرار يثيبها　　　بينها وبينه حزم مايدرى بها

والقصيدة كناية عن الشاعر نفسه فهو يحدث ابن عرار على لسان الناقة اظهار لكرمه . اما بقية زعماء منطقة العين فان زايد لم يتعرض لصلاحياتهم الخاصة وأترهم فى مناصبهم فقد كان فى " الجيمى " احمد بن هلال وفى " المعترض " محمدبن مانع وفى " الهيلى " سعيد بن سلطان ،وبذلك استقر الوضع فى منطقة العين وعادت الى سيادة امارة ابو ظبى .

ثانيا : تطور امارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه

لقد شهدت امارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه تطورا ملحوظا فى شتى المجالات وكانت سياسته فى رفع مستوى بلاده وتطورها واضحة ونجح فيها فعلا[٢٩] ، حيث انتعشت التجارة بين مدن وموانى امارة ابو ظبى وبين جيرانها من مدن وموانى الامارات العربية وعمان وايضا التجارة الخارجية بدرجة اقل وشهدت الزراعة اثناء حكمه توسعا ملموسا فقد كان زايد يهتم شخصيا بها ، كما ساهم فى انجاز العديد من المشاريع وخاصة فى منطقة العين كماركز حكمه بالادارة القوية والرجال المخلصين اما علاقته بالقوى المجاورة[٣٠] فقد شهدت الصداقة والاحترام المتبادل اضافة الى شخصية زايد المرموقة بين قبائل المنطقة وسوف نتطرق الى هذه الامور : -

(ا) : الاقتصاد :

لقد كانت اقتصاديات الامارة فى تلك الفترة الزمنية بسيطة وتعتبر اقتصاد بدائى

يعتمد على الجهد الجسمانى ولكن مع ذلك استطاع زايد بسياسته وحسن ادائه ان يشجع مختلف الانشطة الاقتصادية فى الامارة واستطاع ان يكيف امارته مع هذه الموارد الاقتصادية المتواضعة .

(أ) : الغوص على اللؤلؤ :

وعند التطرق بالبحث على اقتصاديات امارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه تبرز التجارة والغوص على اللؤلؤ وبناء السفن من اهم مصادر الدخل الرئيسية بجانب الزراعة وتبرز صناعة اللؤلؤ فى المقدمة لما كانت تساهم به بنسبة عالية فى الدخل القومى لاقتصاد ابو ظبى .

وكانت صناعة اللؤلؤ فى عهد زايد العمود الفقرى بالنسبة للاقتصاد الوطنى وكان يشتغل بصناعة اللؤلؤ بصورة مباشرة او غير مباشرة معظم سكان امارة ابو ظبى وان صناعة اللؤلؤ كانت تساهم بنسبة كبيرة من مجموع الدخل القومى ويأتى الباقى من القطاعات الاخرى كالزراعة والتجارة والرعى وصيد الاسماك .

وساهم العنصر النسائى فى عملية الغوص ذاتها ولكن على نطاق محدود وخاصة بالنسبة لسكان الجزر القريبة من المياه الضحلة حيث كانت النساء تعمل بمعزل عن الرجال ، واقتصاد اللؤلؤ اقتصاد حر يلعب فيه القطاع الخاص الدور الرئيسى بينما يكون دور القطاع العام محدود .[٣٦]

وكان سكان الامارة يعتمدون على دخل اللؤلؤ لشراء حاجياتهم الضرورية واليومية من الارز والشاى والسكر والبن والمنسوجات القطنية والملابس والخشب وهذه المواد غالبا ماكانت تستورد من السواحل الهندية ونتيجة للاستقرار الذى شهدته الامارة فى عهد زايد انتعشت الحياة الاقتصادية وخاصة بالنسبة لتجارة

اللؤلؤ والتى كانت لها سوق رائجة فى عواصم الدول الاوربية والهند واصبح لابو ظبي من السفن والصيادين فى مغاصات اللؤلؤ " والهيرات "(٣٢) اكثر مماكانت تملكه اية امارة اخرى وكانت نسبة صغيرة فقط من الصيادين تتألف من المحترفين اما الغالبية العظمى فكانت من قبائل البدو التى تقطن مختلف المناطق والاراضى التابعة لامارة ابو ظبى(٣٣) . ومن اهم موانىء اللؤلؤ فى امارة ابو ظبى : -

(أ) : جزيرة دلما :

كانت اهم واغنى " المغاصات " و " الهيرات " للؤلؤ فى الخليج العربى تقع فى المنطقة الممتدة بين سواحل ابو ظبى وشبه جزيرة قطر ، ونظرا لوقوع جزيرة " دلما " فى وسط هذه المنطقة فى مياه ابو ظبى الاقليمية فانها اصبحت تتمتع بمركز هام واهتمام خاص وكانت تعتبر من اكبر مراكز الغوص فى وسط " الهيرات " فى مياه الخليج العربى وكان يتم عن طريقها تقديم المؤن والاحتياجات الضرورية اللازمة لعملية الغوص ويقصدها كل من صائدى اللؤلؤ وتجاره بين فترة واخرى فى اثناء موسم الغوص للتزود بماء الشرب والطعام وبيع وشراء مالديهم من اللؤلؤ وبذلك اصبحت جزيرة " دلما " من اهم مراكز تجارة اللؤلؤ فى الخليج العربى كما كان يلجأ اليها عندما تشتد الرياح لوقوعها قرب " الهيرات " او " المغاصات " .

وجزيرة " دلما " مأهولة بالسكان طيلة فصول السنة ولكن عدد سكانها يرتفع فى موسم الغوص ويتصاعد الى حوالى عشرة اضعاف السكان فى غير موسم الغوص ثم يعودون الى عددهم الطبيعى فى فصل الشتاء ، وينشط سوقها التجارى فى موسم الغوص فيقصدها تجار اللؤلؤ من مختلف انحاء الخليج العربي والدول القريبة مثل الهند وان حركة البضائع والتجارة بمختلف انواعها تنشط فى جزيرة " دلما " اثناء

موسم الغوص وتكاد تكون الجزيرة من اهم الموانى فى الخليج العربى لصيد اللؤلؤ وتجارته[٣٤] بعد البحرين والكويت .

(٢) : جزيرة ابو ظبى :

تأتى جزيرة ابو ظبى فى المرتبة الثانية بعد جزيرة " دلما " من حيث اهميتها فى التجارة والغوص على اللؤلؤ ويقصدها العديد من تجار اللؤلؤ فى موسم الغوص ويقيمون فيها طيلة الموسم للمتاجرة باللؤلؤ فيما بينهم من جهة والمتاجرة مع تجار ابو ظبى من جهة اخرى ثم تأتى جزيرة " غاغة " ولكنها لاترقى فى الاهمية جزيرتى " دلما " و " ابو ظبى "[٣٥] وهناك موانى يقصدها صائد اللؤلؤ للالتجاء والاحتماء من الرياح والعواصف فقط وهذه الموانىء والجزر غير مأهولة بالسكان واهمها " جزيرة دبية " ، "جزيرة غشا "،" جزيرة الصير " ، " جزيرة حالة مبرز " ، " جزيرة زركوه " ، " جزيرة فشت " ، "جزيرة أزرنة " .

وقد بلغ عدد السفن العاملة فى اسطول ابو ظبى بالنسبة لسفن الامارات الاخرى حوالى ٤١٠ سفينة والشارقة ٣٦٠ سفينة ودبى ٣٣٥ سفينة ورأس الخيمة ٧٠ سفينة ولعجمان ٤٠ سفينة وكانت ابو ظبى تحتل الدرجة الخامسة فى الثراء وفى قوة الاسطول البحرى العامل فى الخليج العربى وعبر البحار[٣٦] .

(ب) : اقتصاد اللؤلؤ :

وينقسم اقتصاد اللؤلؤ الى القطاع العام والقطاع الخاص من حيث دوره فى تنمية الاقتصاد الوطنى والدخل القومى لامارة ابو ظبى .

١: دور القطاع الخاص فى اقتصاد اللؤلؤ:

ان اقتصاد اللؤلؤ اقتصاد حر ولذا فان القطاع الخاص يلعب دورا مهما ، وان تجارة اللؤلؤ تعتمد على عاملى العرض والطلب مماجعل اسعارها عرضه لتقلب الارتفاع والانخفاض ممايعرض الاقتصاد القومى لعدم الاستقرار ، ويشكل الفرد العنصر الأكثر أهمية بالنسبة لاقتصاديات اللؤلؤ وكان يتراوح متوسط الدخل السنوى للفرد العامل فى صيد اللؤلؤ بحوالى ١٥٠ روبية هندية والتاجركان يتراوح دخله السنوى مابين ٥٠٠روبية وألف روبية تقريبا(٣٧) .

٢: دور لقطاع العام فى اقتصاد اللؤلؤ :

ويأتى دور القطاع العام أو الحكومى فى اقتصاديات اللؤلؤ فى المرتبة الثانية ومع ذلك فان دخل الامارة الرئيسى يأتى ممايتم جمعه من الضرائب على صناعة اللؤلؤ وتفرض الحكومة سهم بحار واحد على كل سفينة بغض النظر عن الكبر او صغر السفينة وترسل الحكومة ممثلا عنها فى موسم الغوص الى الموانىء الرئيسية للؤلؤ ويقوم هذا الممثل بجمع مايمكن جمعه من اموال عينية ومادية وخاصة من تجاراللولؤ كل حسب مقدرته المادية .

ويمكن القول بأن " مغاصات " اللؤلؤ فى ابو ظبى كانت مسموح بها لجميع العاملين فى الغوص سواء كانوا من امارة ابو ظبى او خارجها ولايحق لأى فرد او قبيلة ان تستأثر بأحد هذه المغاصات دون غيرها ويدفعوا مبالغ معينة كضريبة الدخل الى ممثل حاكم ابو ظبى والذى كان يتخذ من جزيرة " دلما " مقرا له ، وهذا ماأضاف عوائد جديدة للدخل القومى وساعد على نمو وازدهار امارة ابو ظبى الى جانب الجهود الذى بذلها زايد بن خليفه فى الحفاظ على هذه المكانة الاقتصادية لعملية

الغوص واستخراج وتجارة اللؤلؤحتى أصبح هذا العصر الذهبي لتجارة اللؤلؤ(٣٩) .

وكان يقال بأن أحسن ايام الرفاه والرخاء الذى عم ابو ظبى فى تاريخها كان يعرف باسم عهد صيد اللؤلؤ او عصر اللؤلؤ وظهر فى الواقع خلال النصف الثانى من حكم زايد بن خليفه واستمر هذا العصر المزدهر اثناء عهد ابنائه الذين خلفوه فى الحكم واستمروا فى تشجيع وتطوير هذه الصناعة واعداد السفن وامدادها بالرجال ذوى الخبرة بالغوص(٤٠) .

(جـ) : الزراعة :

تعتبر الزراعة من أقدم المهن فى ابو ظبى وخاصة فى منطقة العين وفى واحات " ليوا " حيث التربة الصالحة للزراعة وتتوفر المياه العذبه للرى . ومنطقة العين الاولى من حيث اهميتها للزراعة وكان سكانها يعملون بالزراعة اثناء حكم زايد من النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالطرق القديمة حتى بداية النصف الثانى من القرن العشرين حيث اصبحوا بعدها يستخدمون الآلات الحديثه.

وتزرع فى ابو ظبى أنواع عدة من الاشجار والنباتات تتناسب والظروف الطبيعية والمناخية ونوعية التربة ، واهم هذه الاشجار النخلة واهم النباتات البرسيم فالنخلة كانت اولى الاشجار التى زرعت منذ القدم فى أمارة أبوظبى وخاصة منطقة العين و" ليوا " . وفى عهد زايد بن خليفة كان السكان يعملون فى زراعة النخيل فى أماكن محدودة مثل واحات " ليوا " التى تقدر بها ثلاث وثلاثون الف نخلة وقرى منطقة العين حوالى ثلاثون الف نخلة تقريبا(٤١) .

وكان زايد بن خليفة محبا للزراعة وذلك تمشيا مع تقاليد الأسرة فى رعاية شؤون الزراعة والرى فى منطقة العين وخاصة منطقة الجاهلى وعلى الحدود الجنوبية الغربية

وهى منطقة صالحة للزرعة اضافة الى مناطق اخرى ولذا قام بانشاء بعض المزارع هناك كمانشطت مجموعات من قبائل ابو ظبى وخاصة بنى ياس والعوامر والظواهر فى بناء المزارع والبساتين وتعمير المنازل فى منطقة العين ونمت هذه المنطقة بسرعة فى عهد زايد الى درجة اصبحت معها تنافس مدينة البريمى العمانية المجاورة لها ، وقرر زايد تقوية نفوذه واعطاء المنطقة اهمية فقام ببناء " حصن الجاهلى " وسط مزارع وقرى منطقة العين[٤٢] .

وقام زايد بإعادة حفر " الجاهلى " الداثرى المندثر وقد استمر العمل فى اصلاحه ستة عشرشهرا ، كما أنشأ ابنه الأكبر الشيخ خليفه بن زايد مزرعة ومستوطنة جديدة غرب قرية " الهيلى " واطلق عليها اسم " المسعودى " وحفر لها فلجا هو فلج " المسعودى " وقد استمر هذا الفلج حوالى اربعة عشر شهرا[٤٣] .

(د) : التجارة :

كان سكان ابو ظبى يمتهنون التجارة منذ القدم ويرجع ذلك الى طبيعة امارة ابو ظبى وموقعها على الخليج العربى بشواطىء طويلة تصل الى حوالى ٥٠٠ كيلو متر اضافة الى الجزر العديدة المتناثرة فى مياه الخليج العربى والتى كان بعضها مأهولة بالسكان ، وكانوا يمتلكون الاساطيل التجارية الشرعية ونقلوا عليها بضائعهم المحلية مثل اللؤلؤ والاسماك المجففة والتمور والجلود الى البلدان المجاورة ، ومقابل ذلك كانت تعود منها حاملة لابو ظبى ماتنتجه تلك البلدان من مواد غذائية ومنسوجات قطنية ، وكانت تجارة اللؤلؤ تشكل العمود الفقرى بالنسبة للتجارة الخارجية[٤٤] لامارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه .

اما فى المناطق الداخلية فنظرا لارتباطهم بالزراعة وخاصة منطقة " العين" و "

ليوا" فانهم كانوا يتاجرون بالمنتجات الزراعية مع سكان السواحل والبلدان المجاورة لامارة ابو ظبي وكانت قوافل الجمال هى الوسيلة الرئيسية لنقل منتجات تلك المناطق الى المناطق الاخرى التى تحمل التمور والفحم النباتى والمنتجات الزراعية وتعود محملة بالبضائع المستوردة من الخارج الى الموانى. الساحلية اضافة الى منتجات المدن الساحلية مثل الاسماك المجففة والسكان البدو الرحل فقد كانوا يمتهنون الرعى ولذلك تاجروا بالابل والاغنام والماعز والجلود والوبر والصوف ومن اهم الاسواق الرئيسية فى امارة ابو ظبى : سوق مدينة ابو ظبى وسوق مدينة العين وتتم فيها المتاجرة بين السلع المستوردة من الخارج والمعدة للتصدير. وكانت تفرض بعض الرسوم الجمركية التى لاتتعدى ٢٪ على البضائع المستوردة اما البضائع المصدرة فكانت معفاة من كافة انواع الضرائب .(٤٥)

(٢) : بناء قلعة الجاهلى :

اهتم زايد بالبناء والعمران حيث اقام العديد من الحصون والقلاع وغيرها من المرافق العامة وقام باصلاح وتجديد الافلاج وجعل عليها شبكة رى للمزارع والبساتين ومن اهم اعماله فى فن البناء والعمارةهو تشييد وبناء قلعة " الجاهلى الكبير " والتى استغرقت بناءها عدة اعوام وقد افتتحها زايد رسميا وسجل على مدخلها تاريخ البناء عام ١٣١٦هـ الموافق ١٨٩٨ م وكتبت هذه الابيات على مدخل القلعة(٤٦) :

فتح باب الخير فى باب العلا هل فيه السعد وبالعليا المنيفه

فتهان العز قالت ارخو دار جد شاد زايد بن خليفه

(٣) : التنظيم الادارى والسياسى :

لقد اهتم زايد بن خليفه بالشؤون الادارية والسياسية وكان يعتمد على الرجال

المخلصين له فى مختلف المراكز وفى بداية حكمه كان يعتمد على اخوه الشيخ ذياب بن خليفه وابن عمه خليفه بن هلال ، ولكن بعد مقتله فى معركة الجرف عام ١٨٧٣ ، أصبح يعتمد كثيرا على ابنه الاكبر الشيخ خليفه بن زايد فى جميع الامور الداخلية كما انه تولى قيادة جيش ابو ظبى فى كثير من المعارك المهمة وخاصة المعارك التى كانت مع قطر وكان زايد يعتمد على ابنه خليفه فى المهمات السياسية الخاصة الى حكام الامارات العربية وسلاطين عمان فى مسقط وايضا فان الشيخ خليفه بن زايد لعب دورا كبيرا فى حل الخلافات والمنازعات التى كانت تنشب بين القبائل ولسمعته بينهم فانهم كانوا يستجيبون لنصائحه واقواله ويمكن القول بأن خليفه كان الساعد الاول والامين اثناء فترة حكم زايد بن خليفه اما الرجل الثانى بعد الشيخ خليفه فقد كان احمد بن هلال والذى شغل منصب والى منطقة العين وممثلا لزايد ، وكان يعتمد عليه زايد فى كثير من امور تلك المنطقة ومعظم المراسلات كانت تتم عن طريقه وانه كان همزة الوصل بين زايد ومقر الحكم فى مدينة ابو ظبى ومنطقة العين والمناطق الشمالية من عمان.

واستمر فى منصبه حتى مجىء حكم حفيده الشيخ شخبوط بن سلطان بن زايد ابن خليفه.

ثالثا : عوامل نجاح زايد بن خليفه فى حكمه واستقرار امارته :

لقد امتد حكم زايد لفترة طويلة حوالى نصف قرن من عام ١٨٥٥ الى عام ١٩٠٩ ، وذاع صيته ليس فى الامارات العربية وانما خارجها[٤٧] . ووصلت امارة ابو ظبى فى عهده اقصى درجات اتساعها ونفوذها وامتد سلطانه على الساحل حتى خور العديد غربا اما فى الداخل فكان سلطان عمان قد فوضه لادارة اراضيه

فى اقاليمه الشمالية مثل الظاهرة فوصل نفوذه حتى مدينة " عبرى " وبذل زايد جهوده لتحقيق تحالف بين قبائل وحكام الامارات العربية تحت لوائه وكاد ينجح لولا تنبه الحكومة البريطانية لاتساع نفوذه وخططه فى الامارات العربية فوقفت فى وجه زايد وضد طموحاته لتحقيق الوحدة وافشلتها بريطانيا لرغبتها فى ابقاء الحالة القائمة من التجزؤ والتمزق كماهى عليه الحال وكان زايد قد ورث امارة تنمو وتتسع وتهيأله الى جانب ذكائه وقوة شخصيته وشجاعته وفروسيته(٤٨) ، عدة عوامل للنجاح ماتركت بصماته واضحة فى تاريخ الامارات العربية الحديث وهى كمايلى :

(١) : عدم وجود أسباب للمواجهة مع بريطانيا :

لم تكن هناك اسباب للمواجهة بين ابو ظبى وبريطانيا فى البحر كتلك التى حدثت بين القواسم وبريطانيا فى الوقت الذى شكلت قبائل ابو ظبى قوة برية فى " الظفرة " و " العين " ومنطقة " اكدن " جنوب " ليوا " وكان القواسم فى صدام مع البريطانيين فى الخليج العربى فى اوائل القرن التاسع عشر ، سيما فى اضمحلال نفوذهم وتجزوء امارتهم كان نشاط قبائل ابو ظبى بعيدا عن الصدام مع البريطانيين ، احد اسباب نموهم كقوة برية محلية كبيرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحت زعامة زايد(٤٩)، ويقول " كيلى " :- " ان قبائل ابو ظبى كانوا يمثلون مصدر القوة للبوفلاج ولذا فعندما شرعت القوة البحرية للقواسم تتضاءل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ظلت القوة العسكرية " للبوفلاج) سليمه لم تتأثر ووصلت هذه القوة ذروتها فى عهد زايد بن خليفة "(٥٠).

(٢) : الصداقة التقليدية بين ابو ظبى وعمان :

لقد ورث زايد عن أجداده العلاقة والصداقة التقليدية عبر الاحداث التاريخية مع

سلاطين عمان ، فبينما كان القواسم منذ نشأتهم فى عداء شديد مع حكام وسلاطين البوسعيد فى عمان ، كان " البوفلاح " اصدقاء لهم وفى الوقت الذى كان القواسم يمثلون زعامة الحزب الهنائى المتحالف مع حكام عمان وكانت للصداقة الشخصية والقوية بين زايد وفيصل بن تركى سلطان عمان دورها فى اتساع نفوذ زايد بين اقاليم عمان الشمالية فى " الظاهرة " وحتى بادية الامارات وذلك عندما اسند سلطان عمان ادارة تلك الاراضى لزايد بن خليفة حتى مدينة عبرى كماهيأت الأحداث الكبرى لزايد فى وسط وشرق الجزيرة العربية الامن فى منطقة البريمى الذى ساعده على انجاز بعض طموحاته فى الامارات العربية ويقول "د .مرسى"(٥١) :-

" لقد ربط القواسم تاريخهم وازدهارهم مع الحركة الاصلاحية ودولة آل سعود فى نجد لهذا ماأن سقطت الدرعية عام ١٨١٨ حتى كانت الحملة البريطانية تدك قاعهم عام ١٨١٩ اما " البوفلاح " فقد اكتسبوا اسما لمقاومتهم هم واهالى ابو ظبى وهم قليلو العدد - جحافل الحملات السعودية وقد ساعدت امارة ابو ظبى صحراؤها الواسعة الممتدة فى التغلب على القوات السعودية وهى تعبرها فى طريقها الى عمان ومن ابرز مواقعهم مع السعوديين معركة العانكة ١٨٤٩ أيام الشيخ سعيد ابن طحنون وقد عاصر الشيخ زايد بن خليفة فترة افول الدولة السعودية الثانية الذى بدأ بوفاة اميرها فيصل بن تركى عام ١٨٦٥ وانتهت هذه الدولة فيما ترك الامير عبدالرحمن بن فيصل وابنه عبدالعزيز الرياض لاجئين الى الكويت عام ١٨٩٢ ".

(٣) : خبرة زايد بن خليفة بشؤون الإمارات العربية :

ان اقامة زايد فى الامارات الشمالية وخاصة فى دبى والشارقة اكسبته معرفة كبيرة بتلك المناطق فى ايام صباه الاولى وفى شبابه مماكان له ابلغ الاثر فى اكتساب

الخبرة والحنكة السياسية نظرا لاختلاطه بالشيوخ والتجار والموظفين البريطانيين مماانعكس ذلك عليه بعد تولى مقاليد الحكم والادارة فى امارة ابو ظبى خلفا للشيخ سعيد بن طحنون فان زايد لم يجد الطريق ممهدا ولم يخل عصره من احداث جسام اثرت فى تاريخ الامارة ولكنه بحنكته ودرايته السياسيه استطاع ان يزيل تلك العقبات ويتخطى الصعاب باقامة علاقات الصداقة مع القواسم(٥٢) .

ففى البداية حدث صدام بينه وبين القواسم وقتل فيها الشيخ خالد بن سلطان اثناء مبارزته مع زايد وكان الشيخ خالد من اعلام حكام القواسم وفارسا من فرسانهم وكانت هذه بداية الصعود لنجمه(٥٣) . واستطاع بعدها ان يعقد حلفا وصداقة قوية مع القواسم والتى استمرت طوال فترة حكمه . كماورث زايد الصداقة والعلاقة المميزة مع حكام دبى من " البوفلاسه " الذين كانوا عضدا له فى ايام الشدة والازمات وكان زايد خير عون لهم وساعدهم فى جميع احتياجاتهم . وبهذه العوامل استطاع زايد بن خليفه ان يصبح من اقوى حكام الامارات العربية فى تلك الفترة ويحكم هذه المدة الطويلة ويسود عهده الامن والاستقرار والنمو والتقدم ليس فى امارة ابو ظبى وانما فى معظم ارجاء الامارات وسلطنة عمان وهذا راجع الى سياسته وحكمته فى شؤون تلك المنطقة .

رابعا : بعض ماقيل عن شخصية زايد :

لقد قيل عن شخصية زايد الكثير من قبل ابناء المنطقة وشيوخ القبائل وحكام الامارات والاداريين والمسؤلين البريطانيين وغيرهم ولكننا سوف نعرض هنا بعض ماقيل عن هذه الشخصية من قبل المؤرخين والكتاب الذين كتبوا فى التاريخ الحديث عن المنطقة والبعض منهم عاصره فى تلك الفترة وفى مايلى هذه الاقوال :-

١ = يقول الكاتب اليمنى عوض العرشانى [٥٤] :

" لقد لعب دورا بارزا فى حياة ابو ظبى القبلية والسياسية والمشيخات المجاورة وقد صاهر لاسباب سياسية مجموعة من قبائل الساحل العمانى وكان مشهورا بالقوة والشجاعة والحزم والجود والكرم والسماحة والحلم والشهامة والرحمة وتلك من الصفات العربية الحميدة التى اتسم بها اجداده العرب وهذه الصفات المعنوية بالاضافة الى الصفات الجسدية المتمثلة بضخامة الجسم وكثافة اللحية وطوله الفارع ".

٢ = اما "جون دانيال " الذى كتب عن امارة ابو ظبى فيقول :-[٥٥]

" يعتبر زايد بن خليفه من اعظم الحكام فقد حكم اطول فترة فى تاريخ امارة ابو ظبى وحافظ على وحدة اراضى امارته من أية اعتداءات خارجية " .

٣ = اما العقيد " مايلز " المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط فقد قام فى عام ١٨٧٥ بزيارة الى واحة البريمى ليضيف دليلا جديدا الى الدلائل الكثيرة القائمة على مدى قوة زايد الكبير فقد ارسل تقريرا الى لندن جاء فيه [٥٦]:-

" ان القبيلة الرئيسية هى قبيلة بنى ياس وان رئيسها الشيخ زايد بن خليفة وهو رجل قوى الشخصية وهو الرجل الوحيد الذى يتمتع حقيقة بالنفوذ والسلطة فهو وقبيلته يتزعمان كل المناقشات فى البريمى " .

٤ = ويذكر لنا " بيرسى كوكس " الذى عاصر زايد وكان معتمدا سياسيا فى مسقط فى عام ١٩٠٢ ثم اصبح مقيما بريطانيا فى الخليج العربى وقد زار ابو ظبى مرتين عندما اصبح مقيما والتقى فى المرتين بزايد فيقول : [٥٧]

" نعتقد ان زايد يقوم بعمله بارادة الله وان الايمان وحده هو مصدر قوته وحالفه

الحظ كماحالف اسلافه في تقويم الانكليز الصابرين لقوته وكان اكثر حظاً في منازعاته او مصاعبه المحلية القليلة مع جيرانه السعوديين حول واحة البريمي الواقعة على حدود عمان وابو ظبي والعربية السعودية لقد بنى زايد الكبير نفوذ بني ياس في هذه الواحة مع ان هناك قبائل اخرى أكبر عددا كانت تدفع الجزية راضية لزايد".

ثم يقول :

" ظل زايد الكبير ابرز حاكم في شرق الجزيرة العربية لثلاثين سنه وامتد نفوذه في كل الاتجاهات وحالف الحظ ايضا بني ياس عموما عندما بدأ زعماء القبائل البعيدة عنهم اميالا يطلبون وساطة زايد الكبير فقد عرف انه رجل ذو صداقات كثيرة بين البدو وانه صديق الجميع واستمد قوته باستمرار من اصوله وكان يتمتع بعاطفة عفوية طبيعية تجاه المعوزين والمضطهدين وقد جنى بنوياس الخير من امتنان القبائل الاخرى له " .

٥ = ويقول " كلارنس مان " والذي عاش في الشرق الاوسط وهو ضابط ومؤرخ امريكي(٥٨) :

" بأن الشيخ الحالي لابوظبي ، زايد بن خليفه يحكم امارة حدودها مترامية الاطراف وهو اقوى شخصية في امارات الساحل المتصالح ويمتد سلطانه الى البريمي وعبري في سلطنه مسقط

ثم يقول :-

" كان الشيخ زايد من الحكام الذين يزداد سمعتهم في الشرق الاوسط في تلك الفترة" .

٦ = اما المؤرخ البريطانى " جى . بى . كيلى " فيقول[٥٩] :

" بأن الطبيعة المطلقة لصلاحيات زايد فى المناطق الواقعة بين " الظفرة " و " الظاهرة " لم تتعرض لتحدى فى السنوات الثلاثين الاخيرة من حكمه باستثناء هجمات شيخ قطر على " ليوا " فى الثمانينات من القرن الماضى وعودة آل سعود الى الحكم فى نجد فى نهاية القرن . ولم يسبق لأى من حكام البوفلاح او غيرهم من شيوخ الساحل ان يمارس نفس السلطان الذى وصل اليه زايد فى شرق الجزيرة العربية ولايرجع السبب فى هذا الى شخصية الشيخ زايد وكفايته وحدهما ولاالى الظروف المحددة لهذه الفترة كعدم وجود قوة وهابية طاغية فى نجد وانما يرجع الى ان ابو ظبى كانت دائما القوة الاقليمية القيادية بين مشيخات الساحل " .

٧ = ويقول " حمدى تمام " مؤلف كتاب القائد والمسيرة :-[٦٠]

" ولقد قدر لهذا الحاكم ان يدير شؤون امارة ابو ظبى مدة طويلة مابين (١٨٥٥ - ١٩٠٩) كماقدر له ان يقوم بدور كبير فى حياة امارة ابو ظبى او فى تاريخ ساحل عمان حتى لقبه الجميع اجلالا وتقديرا " بزايد الكبير " بعد ان اصبح بلامنازع اقوى شيوخ الامارات المتصالحة وتقدمت البلاد فى عهده الى مصاف القوى الكبرى بفضل ادراكه للمتغيرات السياسية فى المنطقة " .

خامسا : وفاة زايد عام ١٩٠٩

وفى عام ١٩٠٩ توفى زايد الكبير وزعيم بنى ياس وقائد البوفلاح وزعيم القبائل الهنائية بعد ان حكم اربعة وخمسين عاما ثم دفن فى مقبرة تقع على سفح تل رملى صغير فى منطقة " البطين " قرب مركز شرطة النجدة الان وقد رثاه الشعراء من كل حدب وصوب وهذا الزعيم الذى دانت له ابوظبى والاقسام الشمالية من

سلطنة عمان فى منطقة " الظاهرة ؛ وكانت كلمته مسموعة لدى الشرقيين فى " الفجيرة " وحكام دبى والشحيين فى منطقة رؤوس الجبال " . وبلغت القوة العسكرية لابوظبى اقصاها فى عهده ولعل بعض هذه الابيات للشاعر النبطى على بن ديين الكلبى تروى لنا لمحات براقة من مناقبه :-(٦١)

بلغ سلامى والتحية بتعريف ولاتستوى راعى حكى هبادى
رده بالى من بيته علي بوحبيابن معاطيف بوشارع بين اللحية انقادى
ياولد منته الجود والكرم والضيف يدك على شيخ الحضر والبوادى
قم انشر وأقبل الراصيف والصيف قم اسرحوا واتنوا هداكم الهادى
مايلحق دونه عبير مراقيت ودونه دراويز عليها رصادى
دونه غدير الللال سواقنا طيف وحزب البحر دونه سوى سوادى
هل بالضيوف المأخذ وأبا المساليف ولاهاتهم وقت سفينه شدادى
صلاة ربى عهد لحلام والطيف محمد المبعوث يوم الزحامى

لقد توفى زايد الكبير وترك شؤون امارة ابو ظبى وهى مثال للأمن والنظام امانة فى أيدى ابنائه واحفاده من بعده فقد اجتمع مجلس " البوفلاج " ومعهم شيوخ واعيان بنى ياس لانتخاب الحاكم الجديد ففوضوا الأمر الى ابنه الاكبر الشيخ خليفة ابن زايد ولكنه لم يكن راغبا فى الحكم والسيادة بل كان يفضل ان يعيش هادئا فى مزارعه فى مدينة العين وضواحيها فقرر المجتمعون ان تزول المشيخة الى ابنه الثانى طحنون ، الذى حكم ثلاث سنوات ١٩٠٩ - ١٩١٢ وبعد وفاته عرض الحكم امارة ابو ظبى على الشيخ خليفه بن زايد مرة الثانية ولكنه رفض مثلما رفضها فى المرة الاولى(٦٢) فتولى أخوه حمدان والذى حكم فى الفترة من ١٩١٢ - ١٩٢٢ وبعدها حكم الشيخ سلطان بن زايد فى الفترة من ١٩٢٢ الى ١٩٢٦ وهو والد

الشيخ زايد حاكم ابو ظبي ورئيس دولة الامارات وبعد وفاة الشيخ سلطان خلفه في الحكم اخو الشيخ صقر بن زايد والذى حكم من عام ١٩٢٦ الى ١٩٢٨ وبعد ذلك تولى الحكم الشيخ شخبوط بن سلطان بن زايد اكبر ابناء الشيخ سلطان بن زايد سنا فقد حكم ثمانية وثلاثين عاما من عام ١٩٢٨ الى عام ١٩٦٦ ثم تولى الحكم شقيقه الشيخ زايد بن سلطان بن زايد بن خليفه في السادس من اغسطس عام ١٩٦٦ حاكم امارة ابو ظبي ورئيس دولة الامارات العربية المتحدة حاليا .

الهوامش :

١ - د . حسين محمد البحارنه - دول الخليج العربى الحديثه ص ٢٤

(2) Suzanne St. ALbans - GreenGrows The Oil - p.36

٣ - د . جمال زكريا قاسم - دولة الامارات العربية المتحدة (دراسة مسحية شاملة) ص ٤٧

(4) John Daniels - Abu Dhabi aportrait - p . 25

٥ - حمدى تمام - زايد بن سلطان آل النهيان ص ٢٤

٦ - فالح حنظل - المفصل فى تاريخ دولة الامارات العربية المتحدة جـ٢ ص ٥٦٩

٧ - ج . ج لوريمر - دليل الخليج - القسم التاريخى جـ٢ ص ١١٦٤

(8) John Daniels - op . cit p 25

٩ - د. فؤاد سعيد العابد - سياسة بريطانيا فى الخليج العربى جـ٢ص ٨١ .

١٠ - د. محمد مرسى عبدالله - دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ص ١٣٥

١١ - فالح حنظل - المرجع السابق ص ٥٧١

١٢ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٥

١٣ - دار الهلال - بلادنا العربية - ابو ظبى ص ٥٧

١٤ - كلود موريس - صقر الصحراء ص ٢٤

١٥ - حمدى تمام - المرجع السابق ص ٢٥

(16) : John Daniels - op . Cit . p . 25

١٧ - ج . ج لوريمر - المرجع السابق ص ١١٦٤

١٨ - فالح حنظل - المرجع السابق جـ٢ ص ٥٧٦

(19) : Calvin H . Allen . Jr - Sayyids . Shets and Suitans p . 111

٢٠ - فالح حنظل - المرجع السابق جـ٢ ص ٥٧٦

٢١ - ج . ج . لوريمر - المرجع السابق ص ١١٦٥

٢٢ - فالح حنظل - المرجع السابق ص ٥٧٧

٢٣ - فالح حنظل - نفس المرجع ص ٥٧٨

٢٤ - د . فؤاد سعيد العابد - المرجع السابق ص ٨١ .

٢٥ - جون - بى - كيلى - بريطانيا والخليج جـ٢ ص ٢١٣

٢٦ - فالح حنظل - المرجع السابق جـ٢ ص ٥٨١

٢٧ - ج . ج . لوريمر - المرجع السابق جـ٢ ص ١٠٩٤

٢٨ - فالح حنظل - المرجع السابق جـ٢ ص ١٠٩٤

(29) : John Daniels Op.cit P . 25 .

٣٠ - بالنسبة للأمور السياسية والعلاقات الدولية يمكن الرجوع الى كتابنا عن علاقة زايد بالقوى المجاوره

٣١ - مانع سعيد العتيبه - اقتصاديات ابو ظبى قديما وحديثا ص ٣٠

٣٢ - " الهيرات " جمع كلمة " الهير " وهى مناطق خصبة فى قاع البحر يتواجد فيه محار اللؤلؤ بكثرة وهى عبارة عن حقول لمحار اللؤلؤ فى مياه الخليج العربى واهم " الهيرات " توجد قرب سواحل الامارات العربية المتحده والبحرين والكويت وبعض الجزر فى الساحل الشرقى من الخليج العربى وكذلك يطلق عليه عادة " المغاصات " .

٣٣ - حمدى تمام - المرجع السابق ص ٣٧

٣٤ - مانع سعيد العتيبه - نفس المرجع ص ٢٣

٣٥ - مانع سعيد العتيبه - نفس المرجع ص ٢٣

٣٦ - وزارة الاعلام والثقافة - ابو ظبى فى مسيرة التقدم ص ١٠

٣٧ - مانع سعيد العتيبه -المرجع السابق ص ٣٠

٣٨ - مانع سعيد العتيبه - نفس المرجع ص ٣٠

٣٩ - عوض العرشانى - حياة زايد ص ٨٥

٤٠ - وزارة الاعلام والثقافة - المرجع السابق ص ١٠

٤١ - وزارة الاعلام والثقافة نفس المرجع ص ١٠

٤٢ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٨

٤٣ - مركز الوثائق والدراسات - ابو ظبى بين الامس واليوم ص ٣٢

٤٤ - مانع سعيد العتيبه - المرجع السابق ص ١٣٦

٤٥ - مانع سعيد العتيبة نفس المرجع ص ٨٢

٤٦ - مركز الوثائق والدراسات - المرجع السابق ص ٣٢ .

٤٧ - Rose marieSaid Zahlan , The Origins of the united Arab Emirats , p . x . , 111 .

٤٨ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٦

٤٩ - د . محمد مرسى عبدالله - نفس المرجع ص ١٣٦ .

٥٠ - جى - بى - كيلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية ص ١٥٠

٥١ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٧

٥٢ - حمدى تمام -المرجع السابق ص ٣٦

٥٣ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٧

٥٤ - عوض العرشانى - المرجع السابق ص ٨٤ .

(55) John Daniales - O P . Cit . p . 35

٥٦ - كلود موريس - المرجع السابق ص ٢٥

٥٧- كلود موريس - نفس المرجع ص ٢٥

(58) : Clarence C . Mann - Abu Dhabi p . 62

٥٩ - جى . بى . كيلى - المرجع السابق ص ١٦٤

٦٠ - حمدى تمام - المرجع السابق ص ٣٥

٦١ - حمدى تمام - نفس المرجع ص ٣٥

٦٢- حمدى تمام - نفس المرجع ص ٣٦

المراجع باللغة العربية :

١ - حمدى تمام - زايد بن سلطان النهيان - القائد والمسيرة - ابو ظبى ١٩٨١

٢ - جى .بى . كيلى - (١) : الحدود الشرقية للجزيرة العربية - ترجمة خيرى حماد - منشورات دار مكتبة الحياه - بيروت ١٩٧١

(٢) : بريطانيا والخليج - ترجمة محمد أمين - وزارة التراث القومى والثقافة مسقط ١٩٧٩

٣ - ج - ج - لوريمر - دليل الخليج - ترجمة باشراف ديوان حاكم قطر - الدوحة - الطبعة الثانية - السنة غير مكتوبه

٤ - حسين محمد البحارنه - (دكتور) دول الخليج العربى الحديثه - اصدار شركة التنمية والتطوير - بيروت ١٩٧٣ .

٥ - جمال زكريا قاسم (دكتور) دولة الامارات العربية المتحدة - معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٨ .

٦ - دار الهلال - بلادنا العربية - " ابو ظبى " - القاهره

٧ - كلود موريس - صقر الصحراء - منشورات وزارة الاعلام والثقافة - ابوظبى ١٩٧٥

٨ - عوض العرشانى - حياة زايد - القاهرة ١٩٨٠

٩ - فالح حنظل - المفصل فى تاريخ الامارات العربية المتحدة الجزء الثانى - لجنة التراث والتاريخ ابو ظبى ١٩٨٣

١٠ - فؤاد سعيد العابد (دكتور) سياسة بريطانيا فى الخليج العربى - الجزء الثانى - ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٤

١١ - مانع سعيد العتيبه - اقتصاديات ابو ظبى قديما وحديثا - مطابع التجارة والصناعة - بيروت ١٩٧٣

١٢ - محمد مرسى عبدالله (دكتور) دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها - دار القلم - الكويت ١٩٨١

١٣ - مـركـز الوثائق والدراسـات - ابو ظبى بين الامس واليـوم - ابو ظبى ١٩٦٨

١٤ - وزارة الاعلام والثقافة - ابو ظبى فى مسيرة التقدم - ابو ظبى ١٩٧٢.

المراجع الاجنبية :

(1) : Clarence .C .Mann - Abu Dhabi - khayats - beirut 1969 .

(2) : Calvin H . Allen , Jr . - Sayyids , Shets and Sultans :- politics and Iradein Masgat Under the Al Busaid , 1785 - 1914 - Ann Arbor Michigan 1984 .

(3): John Daniels - abu Dhabi a Portrait - Longman - London 1977.

(4) : Rosemarie Said Zahlan - The Origins of The United Arab Emirates.

The Macmillan - London 1978 .

(5) : Suzanne St Albans - Green Grows The Oil - London 1978 .

العرب فى مقديشو

واثرهم فى الحياتين
السياسية والثقافية فى ظل الإسلام

للدكتور : غيثان على جريس
استاذ التاريخ الإسلامى المساعد ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية
فرع جامعة الملك سعود - بأبها

بسم الله الرحمن الرحيم

العرب في مقديشو وأثرهم في الحياتين السياسية والثقافية في ظل الإسلام

كانت الشعوب العربية هى أهم الشعوب التى اتصلت بساحل شرقى أفريقية منذ القدم ، وابقاها أثرا فى تلك البقعة من القارة، وقد ساعد على ذلك عامل القرب الجغرافى لأن العرب بصفة خاصة هم أقرب الشعوب دون غيرهم من شعوب آسيا، فهم يواجهون ساحل شرقى أفريقيه مما ساعد على كثرة التردد بين سواحل شبه الجزيرة العربية الجنوبية بصفة خاصة وبين شرقى افريقية، كما ساعد نظام الرياح الموسمية فى المحيط الهندى على كثرة الهجرات لأن العرب نظموا رحلاتهم وفقا لنظام هذه الرياح، فكانت لهم رحلتان فى العام . وهناك العامل الأساسى الذى دفع العرب لارتياد سواحل شرقى أفريقيه، كما دفع غيرهم من الشعوب الآسيويه وغيرها وهو الأهمية الاقتصادية لشرقى افريقيه وما فيه من سلع وثروات .

ولقد كان لدول عرب الجنوب معين من حوالى (١٣٠٠ - ٦٥٠ ق.م) وسبأ (حوالى ٩٥٠ إلى حوالى ١١٥ ق.م) ثم دولة حمير (١١٥ - ٥٢٥ م) ، كان لهذه الدول النشاط الكبير فى الحركة التجارية البحرية والبرية، كما عملت هذه الدول على تنظيم طرق القوافل وتأمينها داخل الجزيرة العربية . كذلك كان لعرب الحجاز دور كبير فى ازدهار التجارة، وقد نوه القرآن الكريم برحلات قريش التجارية، وكان عرب الحجاز قد تمكنوا من السيطرة على ناصية التجارة بعد تدهور عرب الجنوب منذ القرن السادس الميلادى، وكان من نتيجة هذا النشاط العربى *تقدم فنون الملاحة

وبراعة العرب فى هذا المجال. كما أن البحار الجنوبية صارت مألوفة ومعروفة عند العرب، وقد وصفها الرحالة الجغرافيون أدق وصف ، كما وصفوا نشاط العرب البحرى والتجارى، ومن هؤلاء ياقوت الحموى[1] والمسعودى[2] .

تدفقت الهجرات العربية إلى شرقى افريقيه فى العصر الإسلامى لأسباب دينية وسياسية، فضلا عن العامل الاقتصادى الذى كان مسيطرا على معظم الهجرات. وقد أشارت الروايات أن الصومال عرفت الإسلام منذ ظهوره، ومع ازدهار الإسلام كدين ودولة ازداد النشاط البحرى وتوافدت على سواحل الصومال مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من عرب وفرس وغيرهم لانشاء مراكز عربية اسلامية ثابته لنشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بين القبائل الافريقية فى سواحل الصومال الشمالية والجنوبية المطلة على المحيط الهندى، بل استطاع العرب المسلمون التوغل إلى داخل هذه البلاد لنشر الإسلام واللغة العربية بين قبائل الداخل ، وذلك بعد أن قام العرب بتأسيس مدينة مقديشو التى أصبحت مركز انطلاق جنوبا وإلى الداخل[3] كما سيجىء تبيان ذلك .

تتابعت الهجرات العربية لنشر الإسلام فى الساحل الافريقى الشرقى منذ عهد الخلفاء الراشدين وازدادت أيام الأمويين والعباسيين، ونذكر من هذه الهجرات على سبيل المثال لا الحصر، هجرة الخوارج الذين حاربهم على بن أبى طالب وهزمهم فى موقعة النهروان[4]. وهجرات بعض العرب الأمويين الذين اشارت الروايات بأن عبد الملك بن مروان هو الذى أرسلهم إلى تلك الجهات لتأسيس المراكز الإسلامية. وقد أفاضت الروايات فى ذكر هجرات الأمويين إلى الساحل، وأشارت إلى أن عبد الملك عندما تناهى إلى مسامعه أخبار الهجرات العربية إلى أفريقيه أرسل أخاه حمزة لنشر

الدعوة الإسلامية ومد محاولة نفوذ الأمويين فى الصومال . وفى رواية أخرى أن ابنه جعفر هاجر إلى شرقى افريقيه وحكم فى منطقة كيوايو Kiwayu (فى جنوب مقديشو فى ارخبيل لامو) وتوفى بها[٥] .

وتنسب الروايات تأسيس الامارات العربية الأولى فى شرقى افريقيه لعهد عبدالملك بن مروان ورجاله الشاميين الذين تسميهم الروايات بالشاميين Mashami أو الواشامى Washami، ويظهر أنهم وصلوا إلى شرقى افريقيه فى مجموعات صغيرة حوالى ٧٠٠ م أو قبله بقليل . وطبقا لما ورد فى الرواية أن عبد الملك هو العامل الأساسى الذى دفع العرب لتأسيس امارة عربية فى لامو Lamu . ويذكر ستايقند Stigand أن عبد الملك بن مروان قام بانشاء امارات عربية على ساحل شرقى افريقيه عندما أرسل مهاجرين سوريين عام ٧٧ هـ (٦٩٦م) لمد نفوذ الأمويين هناك[٦]. وقد نجح هؤلاء المهاجرون فى تكوين مدن تطورت وأصبحت امارات عربية هامة مثل بيت Pate أو باتا Pata ، ومالندى Malindi وممبسه Mombassa زنجبار Zanzibar . ويواصل صاحب كتاب «أرض الزنج The land of Zing» حديثه ويضيف بأن الروايات قد ذكرت بأن المراكز التالية أنشأها عبدالملك بن مروان وجعل على كل واحدة منها وليا عربيا يحكمها نيابة عنه وهى كما يلى: براوه Brāwa تيولا Tula - أموى Omui - كيزمايو Kismayu ثمبى Vambi - كوياما Koyama - شانقا Shanga - بازا Paza - بيت Pate ولامو Lamu[٧]. وما زال اسم عبدالملك بن مروان يذكر فى تلك الجهات لدرجة أن السكان قد حرفوا اسمه، فمثلا ينطقون عبدالمالك، أو ابن مروانى ومرد ذلك ، ضعف اللغة العربية وظهور اللغة السواحيلية[٨] .

وفى أواخر عهد الدولة الأموية كانت هجرة الزيود عقب مقتل زيد بن على زين العابدين عام ١٢٢ هـ (٧٤٠م) فرارا من اضطهاد بنى أمية لهم، وعرف هؤلاء بالزيديه. واستقرت هذه الجماعات كما أشارت المصادر فى ساحل بنادر الصومالى وحكموا فيه ما يقرب من المائتى سنة، ونشروا الإسلام بين قبائل بنادر، كما اصلحوا الأراضى، وزرعوا بعض النباتات التى أرفدتهم بثروات طائلة، ودرت عليهم أموالا هائلة. بل وتوغل الزيديه إلى داخل الأراضى الصومالية ونشروا الإسلام بين قبائل انهار جوبا وشبيلى من بينها قبائل الجالا التى اعتنقت الإسلام بحماس كبير بدليل أن كثيرا من الصوماليين من أفراد هذه القبائل قد أصبحوا فقهاء ووعاظاً واضطلعوا بنشر الإسلام بين القبائل الوثنية [٩] .

تأسيس مقديشو :

إلا أن الذى يهمنا فى هذا الجانب هو وصول أكبر الهجرات العربية والإسلامية إلى ساحل الصومال المعروف بساحل بنادر، وأعنى بهذه الهجرة، تلك الهجرة التى حدثت خلال العصر العباسى والمعروفة بهجرة الأخوة السبعة . فقد هاجرت هذه الجماعة العربية فى بداية القرن العاشر فى حوالى عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) من الأحساء عاصمة دولة القرامطة[١٠] والاخوة السبعة من قبيلة الحارث العربية، جاءوا فى ثلاث سفن محملة بالرجال والعتاد الحربى. وقد نما إلى علم هذه الجماعة العربية أخبار الجماعات العربية التى سبقتهم إلى ذلك الساحل، وربما سمعوا عنها من التجار أو من جنود سعيد الجنابى، وقد كان فى صفوفهم جند من الزنج والأرقاء الذين جاءوا إلى الجزيرة العربية والعراق فى فترة من الفترات. ولذلك قررت هذه

الجماعات العربية أن تحذو حذو الهجرات العربية التى سبقتها، يراودهم الأمل العريض فى تكوين وطن جديد، وقد تحقق لهم ما أرادوا بفضل جهودهم[11] .

إستولى الأخوة السبعة على كل سواحل بنادر بعد أن قاموا بتأسيس مدينة مقديشو التى جعلوها عاصمة لدولتهم الجديدة، فامتد نفوذهم حتى جنوبى ممبسه، وربما وصلوا إلى جزيرة مدغشقر. وقد وصف المسعودى هذه الجزيرة، وذكر أن فيها قوما من المسلمين، غلبوا على هذه الجزيرة، وسبوا من كان من الزنج كغلبة المسلمين على جزيرة اقريطش فى البحر الرومى[12] .

لم تمض فترة طويلة على استقرار هذه الجماعات العربية، حتى أصبح كل الساحل شافعيا على المذهب السنى، وذلك بعد أن اصطدم الاخوة السبعة بالزيديه الشيعة الذين اضطروا للانسحاب إلى الداخل. ولا يزال المذهب الشافعى هو السائد فى بلاد شرقى افريقيه. وقد اكتفى هؤلاء العرب على بسط نفوذهم فى المنطقة الساحلية فقط إذ أن الداخل لم يكن معروفا لديهم، أما لأنهم يجهلونه، أو لصعوبة التوغل، فسيطروا على الساحل ريثما يتم لهم كشف مجاهل افريقيه المختلفة[13] وكان من نتيجة هذه الهجرة الأخيرة أن بسطت مقديشو نفوذها، وساعدت العرب المسلمين على انشاء مواطن استقرار على طول الساحل الممتد من مقديشو فى الشمال إلى مدينة سوفالا فى الجنوب[14] .

لقد حكم الأخوة السبعة هذا الساحل فترة لا تقل عن السبعين عاما، وإليهم يرجع الفضل فى انشاء مدينة مقديشو - كما سبق القول - فظلت هذه المدينة تتزعم الحركة الإسلامية والمد الإسلامى فترة طويلة خلال العصور الإسلامية المختلفة فى ذلك الجزء. وفى الوثيقة العربية التى عثر عليها البرتغاليون فى مدينة كلوة Kilwa

(فى تنزانيا حاليا) عام ٩١٠ هـ (١٥٠٥م) أمكن معرفة الأخبار الهامة عن مدينة مقديشو فى القرون الأولى للهجرة ، منها أخبار البعثات العربية الإسلامية القادمة من الاحساء، على ثلاث سفن بقيادة سبعة أخوة نزلوا فى ساحل الزاهيه (بنادر) وقاموا بتأسيس مدينتى مقديشو وبراوة [١٥] . وهاتان المنطقتان من أول المناطق التى وطأتها أقدامهم، وطاب لهم فيها المقام. وخضع لنفوذهم فى فترة وجيزة كل الشريط الساحلى الممتد من مقديشو حتى ممبسه، لدرجة أنهم وصلوا أماكن لم يصلها العرب من قبلهم، وقد كان الأخوة السبعة من عرب الاحساء[١٦] .

وجاء أيضا فى وصف دى باروس De Baros لمقديشو، أن تأسيسها قد تم على أيدى جماعة عربية من الاحساء، هم جماعة الاخوة السبعة، وأصبح لها وزنها وكيانها، ولها نظمها. وأصبحت مقديشو مركزا يتجمع فيه كل المسلمين الوافدين إليها من كل جهات الساحل، وهى أول امارة تحاول بسط سيطرتها ونفوذها التجارى على طول الساحل جنوبا حتى سوفالا[١٧]. وتذكر الرواية كذلك بأن تاريخ تأسيس مقديشو ربما كان فى عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) . وتضيف الرواية أن على بن حسن الشيرازى مؤسس سلطنة الزنج الإسلامية فى كلوة عام ٩٧٦/٩٧٥م قد مر بمقديشو فعلا، إلا أن المقام لم يطب له فيها، لوجود جاليات عربية متعددة، فواصل زحفه حتى وصل إلى جزيرة كلوه حيث أسس له دولة إسلامية هناك، كان العنصر الفارسى فيها هو دعامتها وسندها. ويذكر أيضا أن بعض المهاجرين العرب قد هاجروا من عمان إلى ساحل أفريقيه الشرقى، وأن قبيلة الحارث من عمان أدعت تأسيس مراكز لها فى مقديشو وبراوة[١٨] .

ومهما يكن من أمر فإن مدينة مقديشو أسسها جماعة الاخوة السبعة من قبيلة

الحارث العربية من الاحساء في الطرف الغربي للخليج العربي، وقد وصلوها في عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) وذكر ياقوت أن مقديشو مدينة في أول بلاد الزنج في جنوب اليمن في بر البربر في وسط بلادهم[١٩].

ويقول أبو الفداء أن مقديشو تطل على بحر الهند وأهلها مسلمون، ولها نيل عظيم يشبه نيل مصر في زيادته في الصيف. وقد ذكر أنه يخرج شقيقا لنيل مصر من بحيرة كورا، ويصب بالقرب من مقديشو في بحر الهند. ومقديشو مدينة كبيرة من الزنج والحبشة، قال ابن سعيد عن مقديشو: ومن شرقي خافوني بالنون في الآخر المشهور على البحر مدينة مركه وأهلها مسلمون وهي قاعدة الهاوية التي تزيد على خمسين قرية، وهي على شطي نهر يخرج من نيل مقديشو، ويصب على مرحلتين من المدينة في شرقيها، ومنه فرع يكون خورا لمركه، وفي شرقي ذلك مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة على ألسن المسافرين وهي مقديشو[٢٠].

وموقع مقديشو من أصلح مواقع الساحل لرسو السفن. وقد عرفه المصريون القدماء، وأهل بابل وآشور. والفينيقيون والرومان وكان يعرف عند الاغريق منذ ألفي عام باسم سيرابيون Serabion[٢١]. وعرف في العصور الوسطى باسم حمر Hamer وقد أتاح لها هذا الموقع القريب من خليج عدن التحكم في مدخل البحر الأحمر إلى حد كبير، والسيطرة على الحركة التجارية في المحيط الهندي. فكانت ترد لهذه النقطة سفن الجزيرة العربية محملة بأنواع المنتجات والسلع، وتأتي سفن الهند وغيرها من بلدان آسيا عبر المحيط الهندي، وتنقل هذه المنتجات إلى الحبشة وعبر البحر الأحمر إلى مصر شمالا وجنوبا حتى سوفالا[٢٢].

وتتضارب الآراء نحو تفسير اسم المدينة «مقديشو»، فمن قائل أنها من كلمتين

عربية وفارسية وهما (مقعد + شاه) ، اشارة إلى المكان المفضل الذى اتخذه الحاكم مقرا لحكمه، ونطق الكلمتين معا[٢٣] . أو نسبة للمكان الذى اتخذه الشيخ مكانا لجلوسه (مقعد الشيخ)[٢٤] والبعض يقل أن كلمة مقديشو معناها المكان الذى تتجمع فيه الأغنام للبيع[٢٥] وعبر عنها الرحالة الغربيون بأسماء مختلفة مثل: موجوديشيو Mougidishu وموجود سكوا Mougoudiskua - وموجاديشوا Mougadishu ومقدشيكو Makdishiku ومقد يكسو Magdiksu[٢٦]، أو مجدكسو Magdiksu [٢٧]، وكل حسب نطقه[٢٨] .

أما عن أقسام المدينة وأحيائها، فقد كانت مقديشو فى بداية نشأتها تتكون من ضاحيتين أساسيتين هما ضاحية حمروين، وضاحية شنغانى [٢٩]. وكانت ضاحية حمروين تمتد على طول الساحل من كران إلى ساحل حمر، أي المكان المعروف باسم حمر جب[٣٠]. أما ضاحية شنغانى، فهى مشتقة من اسم حى كان فى نيسابور ببلاد فارس، وقد سميت بهذا الاسم تخليدا لذكرى أهل نيسابور القاطنين بمقديشو. وكلمة حمروين، مركبة من كلمتين عربية وصومالية: فحمر معناها ذهب، وكلمة وين معناها بالصومالية كثير أو كبير[٣١] .

شكل الحكومة :

واجهت جماعة الأخوة السبعة العربية فى بداية أمرهم على الساحل بعض الصعوبات أهمها أن الزيديه الشيعة الذين كانوا قد سبقوهم، واستولوا على أجزاء من ساحل بنادر واستوطنوا حول ارخبيل لامو قد بدأوا فى نشر مبادئهم وأفكارهم، ولا سيما وأنهم كانوا من الشيعة المتعصبين لهذا المذهب، بينما كان الأخوة السبعة

على المذهب السنى الشافعى. وقد دافع الزيود عن عقيدتهم دفاع المستميت، وحاربوا جماعة الاخوة السبعة بكل ضراوة ، إلا أنهم غلبوا على أمرهم فى النهاية وهزموا أمام الاخوة السبعة أخيرا عام ٣٣٠ هـ (٩٤٨م)[٣٢] .

وبعد أن تغلب الأخوة السبعة على الصعاب التى واجهتهم فى بداية أمرهم، بدأوا فى وضع الأسس والتشريعات المختلفة التى تكفل لهم الاستقرار والحياة الكريمة. فتكون مجلس من كبار العرب، وأعضاؤه اثنا عشر شخصا يرأسهم شيخ لا يحمل لقب سلطان أو ملك، ويسمى هذا المجلس باسم «مجلس المدينة» ، وكان هذا النظام أفضل نظام طبقه العرب المسلمون فى ساحل بنادر فى العصور الوسطى، ويتمتع هذا المجلس بكل السلطات، وله حق النظر فى القضايا المدنيه والجنائية وفض المنازعات. وكان بجانب هذا المجلس مجالس فرعية فى كل حى من أحياء المدينة، وهى فى شكل طائفة تخضع لشيخها الذى يتولى أمرها، ويقوم باكرام الغرباء وقضاء حاجاتهم[٣٣] .

وباتساع المدينة حدث ترابط بين السكان العرب والصوماليين، وبموجب اتفاقية ابرمت فى القرن العاشر بين العرب والفرس من جهة، والقبائل الصومالية من جهة أخرى، تكون اتحاد على صورة مجلس من الاشراف وأعيان القبائل للنظر فى أمور البلاد . والقبائل التى تكون منها ذلك الاتحاد كانت نحو تسع وثلاثين مجموعة وهى مجموعة قبائل عربية وفارسية وافريقيه تفاصيلها كالآتى :

اثنى عشر عشيرة من قبيلة مكرى Mukri ، واثنى عشر من قبيلة جيداتى Djidati ، وستة من أكابى، وستة من الاسماعيلى، وثلاثة من عفيفى Afifi [٣٤].

كان اختصاص هذا المجلس هو حفظ الأمن، وتطبيق العدالة بين الجماعات،

ووضع حد لهجمات بعض القبائل الرعوية الصومالية على التجار من العرب والفرس، وبالتالى لمواجهة غزاة آخرين كانوا يأتون من البحر. وتم هذا الاتحاد بعد أن أصبحت مقديشو عاصمة لساحل بنادر الذى ضم هذه المشيخه واماراتها التابعة لها مثل مركه وبراوة التى سيجىء تفصيلهما، هذا بالاضافة إلى الأراضى المحيطة بهم. وكان يطلق على جميع هذه الأراضى (مقاديش)[٣٥] . وعرف أحيانا سكان هذه الجهات باسم سكان بنادر وبضائعهم بأسم بضائع بنادر[٣٦] .

لقد استمر مجلس هذه المشيخه والمثل فى سلطة الشورى بين العرب والفرس والصوماليين نحو أكثر من مائتى عام على ذلك النحو، حتى انتخب أبو بكر فخر الدين عام ١١٠٠م حاكما على جميع أراضى هذه البلاد، وهو من سلالة الأخوة السبعة بتعضيد من قبيلة بنى قحطان العربية التى أصبح لها النفوذ والسيادة، وبذلك أصبح اعلان سلطنة أبى بكر فخر الدين الوراثيه نهاية لعهد الادارة الفدراليه والمتمثل فى مجلس المدينة الذى سبقت الاشارة إليه[٣٧] . وفى عهد أبى بكر فخر الدين احتفظت قبائل قحطان ومكرى بنفوذها ومكانتها الدينية الممتازة، لأن قاضى الوحدة قبل قيام السلطنه التى أسسها أبو بكر فخر الدين كان يختار من بين أبناء هاتين القبيلتين. وبفضل قبائل قحطان ومكرى استطاع أبو بكر فخر الدين أن يقيم سلطنة وراثيه فى مقديشو، كما أقر السلطان أبو بكر قبائل مكرى على امتيازاتها[٣٨]. وقد استمر حكم أبى بكر فخر الدين سبعة عشر عاما حتى توفى عام ١١١٧م[٣٩] .

امارات المشيخة :

كان امتداد مقديشو واتساعها قد غطى على جميع أجزاء الساحل المعروف بساحل الزاهيه (بنادر) ، وذكرت الوثيقة أن سكان مقديشو أول من وصل إلى بلاد سفاله في موزمبيق، وأن سفنهم كانت تتردد على بلاد سفاله (سوفاله) Sofala لاكتشاف مناجم الذهب الموجودة في تلك الجهات واستغلالها. وأشارت الوثيقة أيضا إلى هجرات قوامها من الفرس المسلمين جاءت إلى مقديشو حاملة معها معالم حضارة فارس(٤٠) .

أما أكبر الامارات التي خضعت لسيادة مقديشو وسيطرتها فهي مركه Maraka التي خضعت لسيطرة الأخوه السبعة ونفوذهم منذ الوهلة الأولى. ومركه من مجموعة المدن العربية التي نسب تأسيسها ستايقند Stigand إلى عبد الملك بن مروان (٤١). حتى إذا جاء الاخوة السبعة إلى الساحل جعلوها من أكبر مدنهم السياسية. وحتى يومنا هذا توجد طوائف في مركه تدعى انتمائها إلى الأخوة السبعة(٤٢). ويقول أبو الفداء عن ابن سعيد أن مركه أهلها مسلمون(٤٣) . ومن الواضح أن سكان مركه اعتنقوا الاسلام بالقرب من حافون(٤٤) .

ومما يذكر أن جماعة الأخوة السبعة أتوا في مراكب شراعية ورسوا في ساحل مركه، وشيدوا لهم مسجدا صار فيما بعد مركزا لكثير من الأسر الصوماليه. وتتابعت هجرات العرب لتلك الجهة، حتى أن الكثير من الأسر الموجودة حاليا تدعى نسبها إلى الجماعات الأولى التي جاءت إلى مركه من بلاد العرب ، كما هو الحال عند كثير من الأسر في الوقت الحالي في كل من براوة ومقديشو(٤٥) . ومن المحتمل أن مدينة مركه قامت كمركز تجاري يقع على الطريق بين شمال وجنوب

الصومال، وأن سكانها كانوا فى بداية الأمر من العرب ثم صارت تمتلىء بالعنصر الصومالى فى كل مكان[٤٦] .

وتتمتع مدينة مركة الجميلة النشيطه بمركز ممتاز لموقعها الجغرافى وكثرة خيراتها. وفى الوقت نفسه تقع على الطريق البحرى التقليدى بين زنجبار وبلاد العرب. وقد حققت مركه مكاسب كثيرة للاسلام فى شرقى افريقيه، بالاضافة إلى المساهمة الفعالة فى نشر الدعوة الإسلامية على طول الساحل الصومالى وفى الأقاليم الداخلية[٤٧] .

أما امارة براوة Brawa فهى الأخرى امارة عربية خضعت لحكم الأخوة السبعة وجماعتهم من بعدهم. واجمعت بعض الروايات أن الذين اسسوا براوة هم جماعة عبد الملك بن مروان من السوريين المهاجرين[٤٨]، ثم جاء الأخوة السبعة من بعد ذلك وأضافوا عليها فنونهم، ثم توسعت المدينة فى عهدهم، فانتشر العمران واتسع البناء[٤٩]. وبراوة تقع فى شمال نهر جوبا وجنوبى مركه. وهذه الامارة لم يذكرها أحد من جغرافى العرب أو رحالتهم، وهى مدينة هامة كانت تعتمد عليها مقديشو فى أنها تلعب دور الوسيط بينها وبين الامارات العربية فى جنوبها .

وتنقسم مدينة براوة إلى عدد من الأحياء هى : بغداد، البمبا، بيرونى، سابى، وبلوبازى ، وأكثر منازلها من الحجارة البيضاء ، ومن طابق إلى ثلاثة أحيانا ، ومياؤها عذبه[٥٠] . وفى مسجد براوة نقشا يتضمن تاريخا يرجع إلى القرن التاسع الهجرى[٥١]. ويقال أن أول من سكنها رجل من قبيلة قرة يدعى (أو على) وصلها حوالى عام ٩٠٠م، وكانت براوة فى ذلك الوقت منطقة موحشه غابيه لا تسكنها إلا الوحوش الضارية، غير أن أو على أعجب بطيب هوائها على ساحل البحر، فاستعا:

بالمواطنين الأوائل فى قطع اشجارها واعشابها، واقام بها عددا من المساكن أطلق عليها براوة بن أو على[٥٢] . ويقال ان هذا الاسم كان يطلق على ملك الجالا براوات[٥٣] وهناك رواية أخرى تشير إلى أن بعض أفراد قبيلة حاتم الطائى فى الجزيرة العربية قد استوطنت براوة فى فترة من الفترات، وقد وصلت إليها عام ٩٠٠م ، وقد ازداد سكان المدينة بوصول جماعات أخرى منها جماعات صومالية مسلمة عرفت باسم التن من سكان الساحل، وعمروا المساجد، وأقاموا كثيرا منها فى الداخل. ثم توافدت عليهم جماعات وردان أى الجالا ، وقد قدموا مع ملكهم براوات. وأقام الجالا جنبا إلى جنب مع المسلمين نحو ثلثمائة عام. وكان بالقرب من براوة جماعة الأجوران (قبائل زنجية) التى امتد نفوذها على بعض أجزاء براوة، فاعلن التن الحرب عليهم، وكان للتن الانتصار على الاجوران. وانتهت المفاوضات بينهما على أن يبقى الاجوران فى الجانب الشرقى، ويحتل التن الجانب الغربى له، كما تعاهدوا فيما بينهم على ألا يدخل البلاد غير الحيوانات، وما عدا ذلك فكل قادم مصيره القتل. إلا أن تلك الاتفاقية لم يكتب لها الدوام كثيرا، إذ وصلت جماعة من الحمرانيين الصومال على سفن إلى براوة، وسكنوا مع التن فى سلام ومحبة[٥٤] .

اضمحلال سلطنة مقديشو :

منذ نهاية القرن العاشر بدأت مشيخة مقديشو فى التدهور والانحلال نتيجة الانقسام الداخلى فى حكومتها المركزية، هذا بجانب ضعف الروح العسكرية، وتفكك القوات، حتى إذا جاء الشيرازيون الفرس إلى الساحل لم يجدوا سوى قوة

عسكرية ضعيفة، ومشيخة تمزقها الخلافات، فضلا عن عدم اتحاد امارات المشيخة ووقوفها قوة واحدة ضد الشيرازيين الفرس الذين وصلوا إلى مقديشو ومركه وبراوة تحت زعامة على بن حسن الشيرازى، وتمكنوا من الاستيلاء على هذه الامارات فى سهولة ويسر، ثم واصلوا زحفهم جنوبا إلى كلوة حيث أسسوا سلطنة الزنج الإسلامية. إلا أن الشيرازيين الفرس ابقوا على كل النظم الموجودة فى تلك البلاد التى استولوا عليها دون تغيير، واكتفوا بوضع حاميات عسكرية قوية وفرضوا على تلك المدن الجزية التى تدفع بسنويا. ولم يقدر للشيرازيين الفرس البقاء فى مقديشو ومركة وبراوة بل زحفوا جنوبا، وذلك لأن تلك المناطق التى تركوها لم تكن صالحة لاستقرارهم، إذ أن الأمطار لم تكن غزيرة، فأبحروا جنوبا إلى كلوة وأسسوها[٥٥].

وفى القرن الرابع عشر جاءت أسرة المظفر وهى من قبيلة بنى نبهان العربية الذين كانوا يحكمون فى عمان وعاصمتها مسقط، وقد أصابها الاضمحلال والتفكك، وذلك عندما قامت بعض القبائل العربية الأخرى بطردها عن حكم مسقط، فأدى ذلك إلى فرار سليمان بن المظفر إلى ساحل شرقى افريقيه حيث أسس امارة عربية فى بيت Pate عام ٦٠١ هـ (١٢٠٣م) ، واستطاعت هذه الامارة أن تبسط سيطرتها على مقديشو حوالى ٧٤٠ هـ (١٣٣١م) وان تخلف أسرة فخر الدين التى خضعت لسلطان الشيرازيين منذ عام ٩٧٦م. وكان الرحالة ابن بطوطه قد زار مقديشو فى عام ١٣٣٠م / ١٣٣١م وذلك فى أثناء حكم ابى بكر بن الشيخ عمر بن المظفر، وذكر وصفا ضافيا لأحوال مقديشو الاجتماعية[٥٦] .

وفى عهد هذا الشيخ بلغت مقديشو ذروة مجدها فى القرن الرابع عشر الميلادى، ووصفها ابن بطوطة بأنها متناهية فى الكبر ولها صلات اقتصادية وثيقة مع مصر.

وقد ظلت مقديشو أقوى مدن الساحل فترة من الزمن، وذكرت فى حوليات الصين ولاسيما فى عهد أسرة منج Ming ، وتجارتها مع الصين رائجه . ولاحظ فاسكو داجاما أنها مدينة عظيمة(٥٧) . وفى عهد السلطان أبى بكر بن عمر انتظمت أمور البلاد، وعم الرخاء ، وامتد نفوذ مقديشو التجارى الذى كان يضم مركه وبراوة كذلك حتى سوفالا فى أقصى جنوب الساحل .

لما وصل البرتغاليون إلى الساحل الشرقى لافريقيا، وتأكد لداجاما أهمية هذا الساحل، بدأوا فى توجيه ضرباتهم إلى المدن العربية والإسلامية على طول هذا الساحل، فاستولوا على كلوة عاصمة سلطنة الزنج، ثم واصلوا زحفهم شمالا حتى وصلوا إلى مقديشو التى تعرضت لضربات البرتغاليين، ذلك أن البرتغاليين عندما وصلوا إلى مقديشو عام ١٤٩٨م وجهوا نيران مدافعهم نحو هذه المدينة وذلك فى أيام الشيخ فخر الدين حاكم مقديشو، إلا أن البرتغاليين لم ينجحوا فى الاستيلاء عليها بفضل حصونها المنيعة، ومقاومتها العنيدة الباسلة، مما جعل البرتغاليين ينصرفون عنها بسرعة(٥٨) .

لقد كانت الأحوال فى مقديشو تختلف عن غيرها من امارات الساحل، فقد قاومت جميع المحاولات التى بذلها البرتغاليون لاخضاعها، ولا سيما حينما حاولت البرتغال فى عام ١٥٠٧م غزوا مقديشو بكل ما لديها من قوة وامكانيات. إلا أن مقديشو قاومت كل محاولات البرتغاليين اليائسه بفضل وجود العنصر العربى الذى ساعد على المقاومة، بالإضافة إلى أنها تمتعت بمناعة أسوارها وحصونها، واشتهرت بثروتها الضخمة وكثرة عدد سكانها، فلذا كانت مركزا للمقاومة طيلة المائتى سنة التى قضاها البرتغاليون فى هذا الساحل. وفى المرات القليلة التى حاول فيها

البرتغاليون ضرب ميناتها بالمدافع والنزول بها، صمدت هذه المدينة الباسلة ، وكان دفاعها قويا وصامدا. وذكرت المصادر البرتغالية بأن مقديشو من أقوى امارات الساحل، وتدعمها قوات ضخمة من الفرسان. لذلك كانت مقديشو هى المشيخة الوحيدة التى لم يستطع البرتغاليون اخضاعها، بل كانت تناصبهم العداء، طوال مدة اقامتهم على الساحل(٥٩). وكان شيوخ مقديشو ورؤساء القبائل فيها قد بعثوا برسائل منهم إلى سلطان عمان، صاحب أقوى بحرية فى مياه البحار الشرقية يطلبون منه حق الإسلام والجوار، وذلك عندما تزايد الضغط البرتغالى على مقديشو، فكانت استجابة سلطان عمان سريعة وحازمة، إذ قدمت قوى بحرية عمانية بقيادة الأمير سالم الصارمى عام ١٠٦٧هـ (١٦٤٠م) لمعاونة اخوانهم مسلمى مقديشو وملحقاتها، وابعاد النصارى البرتغاليين عن تلك السواحل. فكان الانتصار لقوى المسلمين، والهزيمة للقوى البرتغالية. وقام أهل مقديشو بتنصيب الأمير سالم الصارمى سلطانا على مقديشو وملحقاتها فترة من الزمن لتنظيم أمورها. وقد ارتبطت سلطنة مقديشو منذ ذلك التاريخ بسلطنة عمان اقتصاديا وسياسيا وحربيا، كما كان لأئمة مسقط وسلاطينها نفوذ فى منطقة بنادر وعاصمتها مقديشو حتى مطلع القرن الثامن عشر(٦٠) .

معالم الحضارة والثقافة الإسلامية فى مقديشو :

كانت القبائل العربية التى هاجرت إلى مقديشو وملحقاتها تحمل معها دينها ولغتها، وكانوا يختلطون بالسكان وينقلون إلى لغات هذه البلاد الكثير من كلماتهم خصوصا ما كان منها متعلقا بأمور الدين. وقد ظلت اللغة العربية هى لغة التسجيل والتدوين والمراسلات فى العهد والاتفاقيات وغير ذلك سواء فى الساحل أو مع الدول الخارجية .

ومنذ فجر التاريخ والقلم العربى هو القلم المعروف فى الساحل دون غيره. والمعروف أن أسس الثقافة هى طريقة التعبير إلى اللغة، واللغة العربية اختلطت بلهجات قبائل الساحل الافريقيه عشرات القرون، وتوالد عنها لغة جديدة هى اللغة السواحيلية، كما أصبح الدين الإسلامى أساسى التشريع والقضاء ومصدر القيم الروحية .

وحظيت علوم الدين بنصيب وافر من العناية والخدمة فى الصومال وأثيوبيا، وقد عنى أهلها بكتاب الله حفظا وتجويدا وتفسيرا، فقد كان حظهم من هذه العلوم كبيرا كما كان نصيب اللغة العربية جزيلا وافرا، وازدهرت العربية وعلومها على أيديهم، وتركت أثرها القوى فى الساحل الصومالى وخاصة حول لامو(٦١). وصارت براوة(٦٢) بالقرب من مقديشو كجزيرة عربية كعبة المعرفة، ويأتى إليها طلاب العلم من الأماكن النائية لشهرة علمائها وتفوقهم فى الدين. وقد حملت مساجدها اسماء الخلفاء عمر وعثمان وعلى، وانتشر بها شيوخ الصوفيه ومنها القادرية والادريسيه والزيلعيه والاحمدية(٦٣) . ومن ثم اعتبرت براوة. كعبة المعرفة والهداية فى ساحل بنادر واجزاء الساحل الأخرى، وأصبح فى براوة وحدها أكثر مئ خمسة وعشرين

مسجدا عدا الزوايا فعددها كبير(٦٤) .

لقد نفخ المسلمون في سكان الصومال حب الأدب وفنون الشعر، وخرج هولاء شعراء وخطباء مفوهون، وأصبح لهم أدبا يعتزون به. وبرز كثير من العلماء والشعراء والأدباء باللسان العربي كالفقيه البليغ فخر الدين أبي عثمان بن علي بن محمد البارعي الزيلعي الذي قدم القاهرة من مقديشو في القرن الرابع عشر، ونشر الفقه فيها ومات بها، وله كتاب سماه «شرح كنز الوثائق» ومن المؤرخين الصوماليين باللسان العربي شهاب الذين الملقب بعرب فقيه وله كتاب فتوح الحبشة(٦٥). ومن الأدباء البارزين عبد الله منير الزيلعي(٦٦) .

أما عن أشهر دعاة الإسلام في مقديشو خلال فترة العصور الوسطى حتى نهاية القرن الثامن عشر فنذكر منهم على سبيل المثال، الشيخ أبادير التي تذكر عنه حوليات مقديشو أنه جاء من الجزيرة العربية في خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) واستقر في مملكة عدل (زيلع) ثم دخل هرر التي أصبحت بفضل جهوده قاعدة اسلامية لنشر الدعوة في الصومال واثيوبيا. ويذكر ابن حوقل ان أهالي زيلع، كانوا مسيحيين في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، ولكن أبا الفداء يذكر أنهم كانوا مسلمين في القرن الرابع عشر، وقد يكون هذا التحول إلى الإسلام بفضل الشيخ أبادير الذي بشر بالإسلام، ودعا إليه بين أهل زيلع في القرن العاشر(٦٧) .

ومن دعاة الإسلام كذلك أربعة وأربعون شيخا وفدوا من حضرموت إلى مقديشو وبراوة ومركة لنشر الدعوة الإسلامية، فنزلوا أول مرة في مدينة بربرة على ساحل الصومال الشمالي، واستقروا بها فترة قصيرة، ثم نزلوا جنوبا إلى مقدبشو وبراوة ثم انتشروا في البلاد . واستطاع أحدهم وهو الشيخ الوقور إبراهيم أبو زرباي أن يسلك

طريقه إلى مدينة هرر حوالى عام ١٤٣٠ حيث قام بنشر الدعوة وانشاء المساجد، وما زال قبره معظما فى المدينة إلى يومنا هذا[٦٨] .

أما أشهر الدعاة الصوماليين وأبرزهم، فهو المجاهد الكبير أحمد بن إبراهيم الجران (أو أحمد بن جرا الملقب بالأشول أو الأعسر) . الذى ظهر فى القرن السادس عشر، واحدث تحولا كبيرا فى نشر الدعوة الإسلامية واتسم جهاده بالبطولة والفدائية. فقد قام هذا المجاهد الكبير بتحرير الأراضى الصومالية من نفوذ النصارى الأحباش، فانطلق من مقديشو، وجعل منها قاعدة ليبدأ منها الجهاد فى سبيل الله. وبذل أحمد بن جرا جهودا جبارة من أجل توحيد الجبهة الإسلامية والقيام بغزوات على التجمعات المسيحية والمقاطعات الحبشية التى تقوم بغزو أراضى المسلمين فى الصومال بزعامة بطارقتها، بل استطاع الصوماليون بقيادة هذا المجاهد الكبير أن يصلوا إلى أبواب العاصمة الحبشية، بل وتمكنوا بقيادته أن يضموا بلاد جديدة داخل الحبشة المسيحية دخلت فى الإسلام وتحمست له. لذلك يعتبر الإمام أحمد بن جرا علما من اعلام المسلمين فى بلاد أفريقية الشرقية، ومجاهدا كبيرا فى نشر الدعوة والثقافة الإسلامية[٦٩] .

استمر الدعاة يتدفقون على بلاد الصومال إلى زمن قريب، ففى عام ١٨٣٠ وفدت جماعات من الوهابيين النجديين من الجزيرة العربية واستقروا فى بلدة بارديرا، وقاموا بتنظيم دعاية قوية كان لها النجاح فى حالات كثيرة إلى الإسلام. ومن المجاهدين والدعاة المسلمين نذكر أيضا المجاهد والداعية محمد عبد الله بن حسن، وهو من المجاهدين الصوماليين الذين ظهروا خلال القرن التاسع عشر، وحارب المبشرين، ودعا إلى الكفاح المقدس تحت راية الإسلام، ووحد كلمة المسلمين فى

الجهاد[٧٠] . وبالطبع يضاف إلى هذه الأدوار ، دور الطرق الصوفية التى قامت بنشر الدعوة الإسلامية، وتفسير تعاليم الإسلام، بالإضافة إلى محاربة البدع، والعمل على جعل المسلمين أخوة متحابين فى الله .

توالت الهجرات الإسلامية ودعاة الإسلام خلال عصور التاريخ الإسلامى المختلفة فخرج كثير من الصوماليين والأثيوبيين لطلب العلم، فخرجوا من مقديشو وبراوة وغيرها لطلب العلوم الدينية فى مكة والمدينة المنورة والقيروان وفاس وطرابلس والقاهرة وصنعاء. وإذا ما تحصلوا على علومهم ومعارفهم فى أحوال المسلمين، وتعاليم الإسلام، عادوا إلى بلادهم كدعاة للإسلام . وعلى ذلك ازدهرت بهم مراكز الثقافة الإسلامية فى هذه البلاد الافريقية. ونهضت بدور فعال فى نشر الثقافة والدعوة الإسلامية .

وكان لابد أن تتطور مراكز الدعوة الإسلامية مع مرور الزمن وأن تزداد الهجرات العربية الإسلامية من ناحية، ويزداد نشاط الدعاة فى الصومال واثيوبيا من ناحية أخرى، فهو عمل مشترك بين القادم الداعي وبين المستقر الموجهة إليه الدعوة، فتحولت المدن الصغيرة إلى مدن زاهرة تمثل حلقة تمتد من مقديشو فبراوة ومركه وهرر إلى أوفات وبقية الإمارات الإسلامية (دول الطراز الإسلامى) فى الحبشة. ويمكن معرفة مدن انتشار الإسلام وتلاقى هذه المراكز فى توحيد الجبهة الصومالية الإسلامية حتي أصبحت الصومال دولة اسلامية خالصة. وبالاضافة إلى المراكز الإسلامية الكبرى المشار إليها والتى نهضت بدور كبير فى حمل الثقافة والتراث الإسلامى ونقله إلى جهات مختلفة فى الساحل ثم إلى الداخل الأفريقى، وكان أثر مقديشو فيها بارزا. وظهرت مراكز إسلامية أخرى تأثرت بالنهضة الثقافية فى

مقديشو وملحقاتها، واسهمت هذه المراكز هي الأخرى بدور كبير في الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة الإسلامية ، ومن أهم هذه المراكز : حانون ووار شيخ وعظلة وكسمايو وبارديرا ولوخ وبيدوة وبربرة[٧١] .

والجدير بالذكر أن العرب نقلوا إلى هذه البلاد بالاضافة إلى ثقافتهم وتراثهم، فإنهم نقلوا أيضا نظام الشورى الإسلامي، وكانوا في بداية أمرهم أقرب بذلك إلى نهج الخلفاء الراشدين. ففي مقديشو أدخلوا نظام الشياخة كما سبق القول، وهو نظام عربي قديم يعتمد على عراقة النسب والكرم والشجاعة والمروءة . وهذا النظام نقله الأخوة السبعة الذين أسسوا مقديشو، لذلك أصبح الحكم في أيام الأخوة السبعة يعتمد على الشورى. وكان أساس الانتخاب لمنصب الشيخ هو السن والفضائل. يقول ياقوت عن سكان مقديشو: انما يدبر امورهم المتقدمون منهم[٧٢] . وفي وضع أخر يقول: وهم مسلمون لا سلطان عليهم، لكل طائفة شيخ يأتمرون له[٧٣]. وبجانب منصب السلطان والشيخ في مقديشو، فقد وجدت مناصب أخرى رفيعة تلى الشيخ والسلطان من حيث الأهمية. فكان الوزير على رأس الأمراء والأعيان. وكان القاضي في مقديشو شخصيته هامة وتلى الشيخ والوزير من حيث الأهمية والاختصاص، وكثيرا ما تولى القاضي بنفسه وظيفة الحسبه التي انتشرت انتشارا واسعا على طول هذا الساحل . وكانت مهمة المحتسب كما هو معروف الاشراف على الأسواق ومراقبة المكاييل والموازين ومعاقبة من يخل بالأمن، وهؤلاء جميعهم وعلى رأسهم الشيخ أو السلطان في مقديشو وغيرها تحيط بهم هالة من التقديس، تظهر بجلاء في المناسبات الدينية. كما تحيط بهم كذلك مجموعة من الوزراء والأمراء، بجانب ذكر اسم الشيخ في خطبة الجمعة [٧٤].

فى ضوء ما تقدم يتضح لنا أن سواحل افريقيه الشرقية وعلى الأخص منها ساحل بنادر (ساحل الصومال الحالى) قد كانت ومازالت جزءا هاما من دار الإسلام متميزا فى اطارها نابضا بكل ما نبضت به الحضارة الإسلامية أثناء العصور الوسطى من ألوان الحياة الفكرية والعلمية ونظمها السياسية والاجتماعية وابداعاتها الادبية والفنية، متفاعلة معطياتها فى كل تلك الأبواب مع معطيات رفيقاتها من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية. وتمتعت هذه البلاد بحضارة إسلامية راقية ونظام اسلامى للحكم سليم لأنها كانت قريبة من ينبوع الحضارة والثقافة، وعلى صلة وثيقة بموطن أرقى الحضارات الإنسانية وهى الحضارة الإسلامية .



(الهوامش)

١ - شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى. معجم البلدان (بيروت، ١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٦م) جـ ٣ ، ص ٣٤٣ .

٢ - أبو الحسن على بن الحسن المسعودى .مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م) جـ ١ ، ص ١١٢ .

٣ - راشد البراوى . الصومال الكبير حقيقة وهدف (القاهرة، ١٩٦١م) ص ١٠، حسن ابراهيم حسن. انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية (القاهرة، ١٩٦٣م) ص٢٦ - ٢٧، R. Coupland. East Africa and its Invaders (Oxford , 1938) pp. 2,15-16; R. Reusch. History of East Africa (New York, 1961) pp. 17-18 .

٤- النهروان هى الموقعة التى انتصر فيها على بن أبى طالب على الخوارج الذين انشقوا عليه فحاربهم فى أواخر سنة ٣٩ هـ وهزمهم وشتتهم فى الآفاق . حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى (القاهرة ، ١٩٦٤م) جـ١ ، ص ٣٧٨ .

٥ - C.N. Stigand. The Land of Zing (London, 1913) p.29.

٦ - The Land of Zind, pp. 30ff; Reusch, History of East Africa, p. 70 .

٧ - Stigand, The Land of Zing , p. 29 .

٨ - A. Warner. art "Mombassa" , Encyc of Islam Vol. 3(2) (London, 1943), p. 552, Stigand, Op. Cit, p. 30, Reusch,

Op. Cit, P. 74.

٩- S. Trimingham. Islam in East Africa (London, 1964) p.4.

حمدى السيد ، الصومال، ١٩٥٠م ص ٣٥٠، عبد الرحمن زكى. الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيه (القاهرة، ١٩٦٥م) . جـ١ ، ص ٧٧. انظر تفصيلات أكثر عن الزيديه، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى. تاريخ الأمم والملوك، جـ ٥، ص ٤٨٢ - ٤٩١ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ١٨١ .

١٠ - القرامطة ينتسبون إلى حمدان قرمط الذى تحرك بسواد الكوفة ونشر الرعب مع جماعة فى جميع أنحاء الجزيرة العربية وسوريا والعراق ، وكانوا يعتقدون فى أئمة الشيعة الستة ما عدا موسى الكاظم، رغم أنهم قبلوا بأخيه اسماعيل. وكانوا فى البحرين بزعامة أبى سعيد الجنابى، وانتصروا على جيوش الخليفة المعتضد، وقتل أبو سعيد عام ٩١٣، وتولى ابنه أبو طاهر القيادة، وانقضوا على مكه فى عهد المقتدر سنة ٣١٧ هـ وقتلوا الحجاج ودنسوا الكعبة، وهب المسلمون قاطبة للقضاء على أعداء الانسانية، وانتهى أمرهم أخيرا بالقضاء على هذه الفتنة، إلا أنهم أحالوا جزيرة العرب وقسما من بلاد الشام إلى أراضى خراب. أبو الحسن على بن الكرم بن محمد الشيبانى ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ ٦ ، ص ٦٩ - ٧٠ - ٧١ و ص ١٧٥ - ٢٩٩ / انظر أيضا : سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ، (القاهرة ، ١٩٦٧م) ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

Trimingham , p . 4 , Reusch, p. 87 .

Reusch, Op. Cit., P.90 -١١

١٢ - مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

Stigand, p. 30. ; J. Gray , History of Zanzibar from the- ١٣
Middle Ages to 1856 (London 1962,) p. 11 .

Z. March, & G.W., Kingsnorth,. An Introduction to the- ١٤
History of East Africa (London 1966) p.8.

١٥ - حمدى السيد ، المرجع السابق، ص ٣٥٥، انظر أيضا توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام (ترجمة) حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين (القاهرة ١٩٤٧) ص ٢٨٧، وانظر كذلك: عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص ٧٧. انظر أيضا :

Enrico Ceruli Cart. "Makdishu" , Encyc. of Islam, Vol III , p.165.

١٦ - مروج الذهب، جـ١ ، ص ١٩٨ / راشد البراوى ، ص ١٩ . انظر أيضا :
Reusch, p. 85., Stigand, pp. 7 - 8 .

Freeman & Crenville, The East African Coast (Select - ١٧
Documents from the first to the earlier Nineteenth Century (Clarendon Press 1962) p. 84 .

Gray p. 22 . - ١٨

١٩ - معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ١٢٠ .

٢٠ - عماد الدين اسماعيل بن محمد عمر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٦٠ - ١٦١ (مكان وتاريخ النشر بدون) .

٢١ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .

٢٢ - Hamer ، معناها أرض الذهب الصومالية ، انظر : حمدى السيد ، ص٣٥٧ .

٢٣ - حمدى السيد، ص ٣٥٦ .

٢٤ - عبد الرحمن زكى - ص ٧٢ .

٢٥ - حمدى السيد ، ص٣٥٧، Reusch , Op. Cit., p. 86 .

٢٦ - حمدى السيد، ص ٣٥٧ .

٢٧ - أرنولد ، ص ٢٨٧ .

٢٨ - مقديشو (مقدبشو) بالفتح، ثم السكون، وفتح الدال، وشين معجمه (ياقوت، المصدر السابق، جـ ٨ ، ص ١٢٠) ، مضبوط بالشكل كذا بفتح الميم، وسكون القاف ، وكسر الدال المهملة، وضم الشين المعجمة، وفى آخره واو : أبو الفداء ، ص ١٦٠ .

٢٩ - Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol. 111, p. 165 .

٣٠ - حمدى السيد ، ص ٣٥٧ .

٣١ - حمدى السيد ، ص ٣٥٨ .

٣٢ - Stigand, p.7 Freeman & Grenville, p. 84. Reusch, p. 85

٣٣ - Enrico Cerulí, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol.-

111, p. 165, Reusch, pp. 85-151, Stigand, p.7

انظر أيضا : ياقوت ، جـ ٨ ، ص ٢٠ .

٣٤ - Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol. 111, p. 165,

٣٥ - جمع لكلمة مقديشو (حمدى السيد ، ص ٣٥٦) .

٣٦- Enrico Ceruli, Op. Cit. , p. 165 .

٣٧- Enrico Ceruli, p. 165 .

٣٨- Op. Cit. p. 165 .

٣٩- Ibid , p. 165 .

٤٠ -مروج الذهب، جـ ٢ ، ص ٦ / حمدى السيد، ص ٣٥٥ .

٤١ - مركه، امارة إسلامية على المحيط الهندى فى الساحل الشرقى لأفريقيه وهى جنوب مقديشو وشمال براوة. ومركه على شطى نهر يخرج من مقديشو ويصب على مرحلتين من المدينة فى شرقها ومنه فرع يكون خورا لمركه. ومركه بالميم والراء المهملة ثم كاف فى الآخر. أبو الفداء، المختصر فى تاريخ البشر، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

٤٢ - Reusch, Op. Cit. , p. 85 .

٤٣ - أبو الفداء ، المختصر ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

٤٤- Stigand, Op. Cit. , pp. 9 - 10 .

٤٥ - حمدى السيد ، ص ٣٦٠ .

٤٦ - المرجع نفسه .

٤٧ - المرجع نفسه .

٤٨ - Stigand, p. 52 .

٤٩ - Trimingham, Op. Cit., p. 3 / Reusch, p. 85 .

٥٠ - حمدى السيد ، ص ٣٥٩ .

٥١ - عبد الرحمن زكى، ص ١١٨ .

٥٢ - بن معناها القضاء الكبير كذلك، (حمدى السيد، ص ٣٥٨ - ٣٥٩) .

٥٣ - حمدى السيد ، ص ٣٥٩ .

٥٤ - المرجع نفسه .

٥٥ - Stigand, Op. Cit. , p. 30 ff. "Reusch, Op. Cit, p. 185 ff
Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol. 111, p. 165,

٥٦ - أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ابن بطوطه ، تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار (القاهرة ١٣٢٢ هـ) ص ١٨٩ - ١٩٢.

٥٧ - ابراهيم على طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية فى الحبشة (القاهرة ١٩٥٩) ص ٤٢ .
حسن ابراهيم حسن، انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، ص ٣٣ .
Enrico Ceruli, p. 165

٥٨ - W. Basil , & Worsfold. Portuguesse Nyassaland (London - 1899) p. 22 .

٥٩ - James . Duffy, Portuguesse Africa (London, 1961)

p. 26 .

٦٠ - حمدى السيد ص ٤٨٩ - ٤٩١ .

Franz Babinger , art. "Sofala," Encyc, of Islam . Vol. 4 (1) p. 472; Freeman & Grenville, Op. Cit., p. 59 .

٦١ - M., Guillian Documents sur l'histoire , la geographic et le commerce de l'Afrique Orientale, 3 Vols (Paris 1956, p. 33 See also Reusch, Op. Cit., p. 45 .

٦٢ - براوة، امارة عربية خضعت لحكم الأخوة السبعة عام ٩١٣، وفى بالقرب من مقديشو .

٦٣ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٦ .

٦٤ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

٦٥ - مخطوط نشره مع مقدمة بالفرنسية - رنيه باسيه حققه فهيم شلتوت (القاهرة ، ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م) .

٦٦ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

٦٧ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

٦٨ - انظر : عرب فقيه، فتوح الحبشة ، ص ٥٧ وما بعدها .

٦٩ - عرب فقيه ، ص ٧٦ .

٧٠ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٦٠ .

٧١ - شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (القاهرة ١٣٥٣ هـ جـ ١ ، ص ٢٣٢ ، جمال الدين أبى المحاسن

يوسف ابن تغرى بردى .

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، تحقيق أحمد نجاتى ، (القاهرة ١٩٥٦)

جـ ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ . السخاوى ، الضوء اللامع، جـ ٥ ، ص ١٦٠ .

٧٢ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ١٥٢ .

٧٣ - ياقوت ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣٤٣ .

٧٤ - Trimingham, Op. Cit. p. 18 Seq.

الضياع الأموية فى الشام
فى العصر العباسى

بقلم : أ. د. عبد المنعم ماجد
أستاذ التاريخ الإسلامى،
والخبير الوطنى لمركز الدراسات البردية
بجامعة عين شمس

وجد ديوان الضياع[1] فى عهد العباسيين ؛ لينظر أصلا فى أمر الضياع التى كانت فى حوزة الأمويين فى الشام «ضياع بنى أمية»[2] . فكان ظهوره يعنى أن العباسيين قد قضوا نهائيا على الأمويين، وأنه أصبحت لهم السيادة الكاملة على ممتلكاتهم . فهو ثمرة للانتصار الحربى ، والتفاعل النفسى عند العباسيين نحو الأمويين .

ومع أن البحث عن تفاصيل هذا الديوان أو غيره ؛ ليس بالأمر السهل ؛ لأن المادة التاريخية تكون عادة متوفرة لسرد تاريخ الحروب؛ إلا أنها تكون قليلة ، أو حتى نادرة ؛ لنظم الدولة السياسية . ومع ذلك ؛ فإن هذه المادة القليلة عن هذا الديوان ، مكنتنا من القبض على الخصائص والأهداف، التى استوجبت ظهوره ؛ ولا سيما أن المؤرخ يضخم المادة التاريخية المتاحة بحيثياته .

ولا شك أن الحفز وراء ظهور ديوان الضياع العباسى؛ يبين قبل كل شىء ؛ علاقته الوثيقة بالجهاز الادارى فى دولة العباسيين، الذى اتخذ شكلا بيروقراطيا ملحوظا؛ بهدف أن الأوامر الادارية تصدر عن العاصمة بغداد وحدها إلى الأقاليم. حقا إن كلمة ديوان فارسية الأصل، وتعنى الكتّاب والحيز المكانى الذى يجمعهم، وأن عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ / ٦٣٤ - ٦٤٤) ؛ هو أول من عمل بنظام الدواوين الفارسى ؛ فقيل إن عمر دوّن الدواوين[3]، وهى التى انتقلت فى عهد

---

(١) الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتّاب ، تحقيق السقا والأبيارى ، ط ١ ، القاهرة ١٣٥٧ / ١٩٣٨، ص ٢٧٧ ؛ انظر Ency of Isl (art DIWAN) 2ed , T. 2, p. 324 .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٨

(٣) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٧٥ .

الأمويين من المدينة إلى دمشق ، ثم عرّبها[1] عبد الملك بن مروان (ت ٦٥ - ٦٨٥/٨٦ - ٧٠٥) ؛ بعد أن كانت تكتب بلغات الشعوب المفتوحة ؛ إلا أن التنظيم الديواني البسيط، في عهدى الراشدين والأمويين ؛ قد تضخم تضخما كبيرا على يد العباسيين .

ومع ذلك ؛ فإن ظهور ديوان الضياع العباسي ارتبط قبل كل شيء بالنظام المالى العباسى ، الذى قام على أنقاض النظام المالى السابق فى عهد الأمويين . فكانت الدولة العباسية بأيدولوجيتها من الشعوبية، التى قامت على أكتافها ، ولاسيما الفرس ؛ لديها القدرة على استيعاب أنظمة مالية جديدة. فديوان الضياع لم يكن له وجود قبل العباسيين؛ كما لم يكن للعباسيين ضياع من قبل .

وقد ظهر ديوان الضياع العباسى؛ بظهور دولة العباسيين فى عهد أبى العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ / ٧٥٠ - ٧٥٤) ، أول الخلفاء العباسيين، باسم : ديوان المحجوزة [2] ؛ ليعنى الحجز على ممتلكات الأمويين ، بما فيها ضياع الخلفاء الأمويين وأفراد أسرتهم. فلدينا نص يقول[3] : إن أبا العباس استولى على ضياع مروان وآل مروان. ولكن فى عهد أبى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ / ٧٥٤ - ٧٧٥) ، الذى اعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، وتسلسل عنه بقية الخلفاء العباسيين ، وليس عن أخيه، ظهر هذا الديوان باسم : ديوان الضياع [4]؛ ليعنى فى مضمونه ، مثلما كان يعنى فى عهد سلفه؛ مصادره ضياع الأمويين فى الشام ؛

---

(١) كتب ديوان الجند بالعربية ؛ منذ عمر بن الخطاب .

(٢) الجهشيارى ، ص ٩٠ ؛ انظر : ماجد ، العصر العباسى الأول ، ط ٣ ، ١ ص ١١٠ .

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٤) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ ؛ وقبله .

لحساب العباسيين . حقا إنه وجد في عهد المنصور ديوان آخر للمصادرة [1]؛ ولكنه لم يكن له علاقة بضياع الأمويين ، وإنما بالأولى بمصادرة ممتلكات أعدائه السياسيين، وهم كثيرون .

كذلك لا نظن بأن عمل ديوان الضياع العباسي، والدولة ناشئة ، اقتصر على مصادرة الضياع الأموية وحدها ، وإنما امتد نشاطه إلى مصادرات أخرى ؛ فقد ذكر أنه : استصفيت أموال الأمويين[2] . فقد كان للأمويين اقطاعات عديدة؛ حدثت لهم في الشام ؛ منذ عهد عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥ / ٦٤٤ - ٦٥٦) ؛ فيما عرف بأرض الصوافي [3] ؛ وهي أرض امتلكها العرب من الروم ، وأصبح أمرها للخليفة الأموي[4]، يقطع منها ما يشاء . ومن بعد قام معاوية ابن أبي سفيان ؛ بمسح شامل لأرض الصوافي في بلاد الشام، واستصفى لنفسه ، وأقطع أهل بيته بل في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ / ٦٨٥ - ٧٠٥) ؛ من كثرة ما اقطع من أرض الصوافي؛ لم يبق شاغر في الشام[5] .

فكان ديوان الضياع العباسي ، مثل غيره من الدواوين العباسية الأخرى ؛ يوجد في بغداد العاصمة؛ بالعراق. فالادارة في الدولة العباسية إدارتان ؛ ادارة مركزية في العاصمة ، وادارة خاصة في الأقاليم؛ وإن كانتا مرتبطتين. ولذلك اهتمت الدولة

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ ، ٣ ص ١٢٧ ؛ ابن طباطبا ، الفخري ، ص ١١٥ ؛
انظر . Ency of Isl , T. 2 p. 324 .

(٢) الطبري ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٤ .

(٣) ابن عساكر، التهذيب لابن بدران ، ١ ص ١٨٣ .

(٤) ابن عساكر ، التهذيب لابن بدران ، ١ ص ١٨٢ .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ، ٢ ص ٢٣٤ .

العباسية بالبريد[1] ووسائله ومحطاته والطرق المؤدية إلى الأقاليم، التى عرفت باسم: المسالك ؛ لربط بغداد العاصمة بالأقاليم. كذلك وجد فى عهد محمد المهدى العباسى (١٥٨ - ١٦٩ / ٧٧٥ - ٧٨٥) ، دواوين الزمام وزمام الأزمة [2]؛ لمراقبة الأموال فى الدواوين العباسية جميعها؛ بما فيها أموال الأقاليم؛ حيث وجد ديوان باسم: ديوان زمام الشام [3]. وربما كان الإشراف على ديوان زمام الأزمة ، وهو فى العاصمة ؛ للوزير ، الذى كان منصبه غير موجود فى العصر السابق : إلا على سبيل المجاز .

وثمة أمر آخر أن ديوان الضياع العباسى لم يكن مقطوع الصلة بديوان الخراج[4] فى العاصمة بغداد، وهو يتعلق بضريبة الأرض ، حيث نشأت مجموعة من الدواوين تتبعه، منها ديوان خراج الشام[5] ، الذى اعتبر فرعا له فى الشام ، وكان المنصور يوليه لأهل الشام[6]. ولم يكن ديوان الخراج قبل المنصور ديوانا، وإنما يعبر عنه ببيت المال[7] ، الذى صار هو الآخر ديوانا؛ يجتمع فيه الفائض من الموارد

---

(١) الجهشيارى ، ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ الفخرى ، ص ١٤٨ ؛ صبح الأعشى ، ١٤ ص ٣٩٥؛ انظر : سعدارى ، نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٣ ؛ Ency of Isl (art BARID) 2 ed. T I , p. 1045 sqq

(٢) الجهشيارى ، ص ١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ؛ الطبرى ، ١٠ ص ١١ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤٦٤ . ظهر ديوان الزمام فى عام ١٦٢ / ٧٧٨ ، أما ديوان زمام الأزمة فى ١٦٨ / ٧٨٤ .

(٣) الجهشيارى : ص ١٦٨ ؛ خليفة بن خياط ، تاريخ ، ٢ ص ٤٧٤ ، ٤٨٠ .

(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ انظر Ency of Isl (art Kharadj) 2ed. T 4 , p. 1030 sqq. هى كلمة سريانية الأصل استعربت .

(٥) الجهشيارى ، ص ٧٧ . كفله المنصور لصالح بن علىّ ؛ مع خراج مصر وإفريقية .

(٦) الطبرى ، ٩ ص ٢٩٧ س ١١ .

(٧) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ . بعامة ، انظر . Ency of Isl (art Bayt al - Mal) 2ed. T 1 , p. 114 sqq.

العامة، أو الصوافى من المال والبضائع، بل وجد بجانبه ديوان لهذه الصوافى؛ وهى الباقى عن حاجة الإقليم من النفقات المحلية؛ كأعطيات الجند، وما يلزم لحفظ الطرق، وصيانة المرافق العامة . فثراء الدولة يقاس عادة على أساس ما يتبقى لها من مال؛ على سبيل الاحتياط.

فالضياع والأقاطيع فى الشام هى أرض، والأرض تفرض عليها ضريبة الخراج. فكل قطعة أرض عليها بالضرورة مقدار من المال؛ حسب التشريع المالى فى الدولة الإسلامية. فكان الخراج أو ضريبة الأرض يفرض بالمساحة منذ أيام الخلفاء الأوائل، ثم أصبح يدفع بالمحصول منذ عهد المهدى العباسى، وهو ما عرف بطريقة المقاسمة[1]. ويؤكد على ذلك أن بعض أهالى الضياع من المزارعين بفلسطين، كانوا قد هجروها؛ فأرسل إليهم هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ / ٧٨٦ - ٨٠٩) ، قائده هرثمة بن أعين لعمارتها؛ على أن يخفف عنهم الخراج ؛ فعرفوا بأصحاب التخفيف [2]. فقد كان من يعمل فى ضياع الشام ، من أهل الشام ؛ حيث أن عرب الشام لم يعودوا مشغولين بالحروب . وتوجد ملاحظة بخصوص أرض الشام للكاتب الفارسى المعروف ابن المقفع[3] (حوالى ١٣٩ / ٧٥٦)، الذى عمل من قبل فى دواوين

---

(١) أبو يوسف ، الخراج، ص ٤٣؛ فتوح البلدان ، ص ٢٨٠ - ٢٨١؛ الماوردى ، أحكام ، ص ١٣٤ ؛ انظر الريس ، الخراج ، ص ٤٣٠ ؛ الخضرى ، محاضرات ، ص ٢١ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٥٠ .

(٣) وهو من أهل جور، قرب شيراز؛ عمل لابن هبيرة والى العرق، من قبل الأمويين. الجهشيارى ، ص ١٠٩، انظر . Ency of Isl (art Ibn al - Mukaffa) 2ed. T 3 . p. 1883 - 5 .

الأمويين بالعراق ، فى رسالته للمنصور المعروفة : برسالة الصحابة[1]، يقول فيها: ومن العدالة أن تترك واردات خراج الشام لمتطلبات أهلها، وإرسال ما تبقى لبيت المال.

وقد استمر وجود ديوان الضياع فى عهود خلفاء المنصور؛ مما يبين أنه قد أصبح من أسس نظام الدولة العباسية؛ فقد وجد ديوان الضياع[2] فى عهد هارون الرشيد. وفى عام ٩٢٧/٣٢٥، أي حوالى زهاء قرنين من الحكم العباسى، وجد ديوان باسم: الضياع الخاصة والمستحدثه[3] ؛ مما يعنى الضياع العباسية السابقة، وما استحدث من ضياع بعد ذلك. كذلك بقى لديوان الضياع العباسى على طول حقب الحكم العباسى ؛ مضمونه فى شكل المصادرة، الذى وجد له منذ قيام الدولة العباسية. ففى عام ٩١٣/٣٠١، وجد ما سمى بديوان الضياع المقبوضة[4] ، أو ديوان المصادرة[5] .

فكان ديوان الضياع العباسى، مثل غيره من الدواوين فى بغداد عماده كاتب

---

(١) نشرت فى جمهرة رسائل العرب؛ لأحمد زكى صفوت، ٣ ص ٢٥ وما بعدها؛ انظر . الريس ، الخراج . ص ٤١٢ - ٤١٤ .

(٢) الجهشيارى . ص ٢٧٧ .

(٣) الصابى . الوزراء . ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛

انظر Ency of Isl (art DIWAN) 2ed . T. 2, p. 325 .

(٤) الصابى . الوزراء . ص ٢١ ، ٣٠ ؛ مسكويه . تجارب ، ١ ص ٨٤؛

انظر Ency of Isl . T. 2, p. 325 .

(٥) الصابى . الوزراء . ص ٣٠٦ . ٣١١

الديوان ، وهو من أرباب الأقلام ، وعرف عادة باسم : وكيل الضيعة[1] ، وهو فى العصر العباسى الأول كان من مواليهم الفرس[2] ؛ وإن كان اختياره أصبح يتوقف على خبرته فى شئون المال، ومعرفته بالتقنية الزراعية ؛ لأن الضياع أصلها مزارع . ومن المعروف أن الشام تعد بأراضيها من أخصب البقاع المزروعة؛ فقد اعتبرت جنة الأرض[3] للعرب الفاتحين الأوائل، وفضلوها على الحجاز، وبقوا فيها. ولما أصبحت الشام دار خلافة فى عهد الأمويين؛ فإن أرضها استغلت أعظم استغلال[4]؛ فالأراضى تتميز إذا اعتنى بها. فقد ظهرت عناية فائقة من خلفاء الأمويين؛ بوسائل الري، التى تساعد على الانتفاع بمصادر الماء . فتوجد فى الشام أنهار كبيرة وأخرى صغيرة عديدة؛ مثل : بردي، والعاصى ، والأردن، وقويق ، وأبى فطرس ، وغيرها. كذلك أحتفرت القنوات[5] ، واهتم بالترع، والآبار، والعيون المائية، وبناء صهاريج الأمطار[6] .

---

(١) الجهشيارى ، ص ١٨٠ .

(٢) أولهم مولى أبى العباس ، عمر بن حمزة . الجهشيارى ، ص ٩٠ ؛

انظر . Ency of Isl (art Katib) 2ed , T 4 , p. 756

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٨ س ١ وما بعدها : انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٤) صبح ، ٤ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٥) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٨ ، ٤ ص ٤٧٠ .

(٦) فتوح البلدان ، ص ١٤٩ .

فكانت الضياع الأموية فى الشام ، التى استولي عليها العباسيون كثيرة ومنتشرة فى كل مكان؛ حيث أشار إلى ذلك البلاذرى فى عدة مواقع [1]. بل إن المنصور أمر مهندسين له بتصويرها[2] ؛ فصوروها ، وعرضوها عليه؛ حتى لا يفلت منها شيء. كذلك أمر المنصور بإحصاء أراضى الشام، وأرسل إلى دمشق إسماعيل بن عباس «عدلّ أراضيها[3]» . فكان مسحها بذراع - وهو مقياس للأرض - سمى الهاشمية[4] ؛ نسبة إلى أسرتهم . فكان ما يثبت منها فى الدواوين فى عهد المنصور، يكون عادة فى صحف ؛ فقد ذكر القرطاس والقراطيس[5] ؛ وهى تسمية للفائف البردى المصرية ، التى كان يكتب فيها؛ ولكنها أصبحت فى دفاتر[6] منذ عهد الرشيد، ربما لظهور صناعة الورق. ولعل السبب فى إحصاء الأراضى فى عهد المنصور؛ على حسب ملاحظة أخرى لابن المقفع[7] ؛ أن فترة الانتقال بين الدولتين ؛ الأموية والعباسية؛ قد أضاع الأوراق الخاصة بالأراضي، ولاسيما فى الأقاليم .

وقد كثر استخدام لفظة «الضياع» ، ومفردها «ضيعة» ، فى الشام منذ عهد

---

(١) نفسه ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ؛ انظر : الريس ، الخراج ، ص ٣٦٤ وما بعدها .

(٢) الجهشيارى ، ص ١٢٣ .

(٣) نفسه ، ص ٢٧٧ .

(٤) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٣٧ ؛ انظر : صبحى الصالح ، نظم ، ص ٤١٣ .

(٥) الجهشيارى ، ص ١٠٢ ، ١٣٨ .

(٦) نفسه ، ص ٨٩ ؛ بعامة : Ency of Isl (art Daftar) 2ed, T2 , p. 77.

(٧) الجهشيارى ، ص ١٠٩ ؛ جمهرة رسائل العرب، ٣ ص ٢٥ وما بعدها .

معاوية؛ وإن أطلق عليها الزراعة»[1] أيضا ؛ لتعنى المزرعة. ومع ذلك : فلم تكن الضياع الأموية فى الشام أرضا للزراعة فقط ؛ وإنما دور وقصور وبساتين؛ حيث اشتهرت الشام فى وقت الأمويين بالبستنة. فشمل العمران فى عهد الأمويين البادية والحضر، واستحدثت المدن الجديدة ، بما فيها عواصمهم الصحراوية ، وامتلأت دمشق ذاتها بالقصور والدور والبساتين الكثيرة[2] .

فكانت الضياع التى استولى عليها العباسيون من الأمويين ؛ تعرف «بضياع الخلافة[3]» ؛ وهى الضياع النفيسة[4] ؛ كما أعطى البعض[5] لأفراد أسرة الخلفاء العباسيين، الذين أصبح يطلق عليهم الأشراف[6]؛ حيث كانت تجرى لهم فى دواوين الدولة الإموال ، أو ما عرف بعطاء الذرية[7] . كذلك وجد فى عهد العباسيين[8] بيع

---

(1) الكامل ، ٥ ص ٤٩٧ .

(2) ابن عساكر ، تهذيب بدران ، ٦ ص ٥٥؛ اليعقوبى ، البلدان، ص ٣٢٦ .

(3) فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(4) الجهشيارى ، ص ١١٠؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٣٢١ .

(5) فتوح البلدان ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ، ١٨٧ - ١٩٨ ؛ الطبرى ، ٩ ص ١٩٦ .

(6) العيون والحدائق ، ص ٢٦٠ .

(7) العبر ، ٣ ص ٣١٩ . أمر المنصور لعمومته : لكل منهم بألف ألف «مليون» من بيت المال، وكان أول خليفة أعطى ألف ألف «مليون» . الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ٥ - ٧ .

(8) الجهشيارى ، ص ١١٠ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٩

لبعض الضياع ؛ كما أجرت اقطاعات من الأرض لمدة معينة، بنظام الإيجار أو الإيغار[1] ، وهو ما عرف بالأرض المغلة[2] ، أو حق رد بعض الضياع لأصحابها. واللافت أن بعض أصحاب الضياع من غير الأمويين ؛ كانوا يحولون[3] اسم ضياعهم على اسم عباسيين كبار ؛ حتى لا تضيع من أيديهم .

فنذكر من الضياع التى آلت إلى العباسيين من الأمويين فى الشام: ضيعة لمعاوية فى البلقاء، اسمها: «بقبش»[4]، التى صارت لبعض أولاد المهدى. كذلك أخذت ضياع الوليد، التى كانت عند الساحل بأنطاكية[5]، وصارت هى الأخرى لأبناء المهدى، ثم انتقلت من بعدهم إلى الخليفة المتوكل. كما أخذت ضياع سليمان[6]، وضيعة الزيتونة لهشام [7]. بل إن إقطاع «بالس»[8] ، الذى كان لمسلمة بن عبد الملك، وحفر له نهر عرف باسمه؛ استولى عليه عبد الله بن على؛ لما كان بالشام، ثم أقطعه لمحمد بن سليمان، ثم صار للرشيد، ومن بعده المأمون .

---

(١) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) لسان العرب ، ٨ ص ٢٣٠ .

(٣) الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٧ .

(٤) الجهشيارى ، ص ١١٨ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .

(٦) نفسه ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٩ .

(٧) الكامل ، ٥ ص ٢٩٣ .

(٨) الطبرى ، ٧ ص ٢٥ ؛ مروج ، ٣ ص ٢١١ .

(٩) الجهشيارى ، ص ١١٠ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٣٢١ .

وهكذا يتبين ، أن هذه الضياع اعتبرت فى الدولة العباسية ميراثا للخلافة ؛ على أساس أن الخليفة العباسى؛ له وحده الحق فى أموال المسلمين ؛ وهو ما يتمشى مع العقيدة الجديدة التى صارت إليها الخلافة فى عهد العباسيين؛ بحيث صيرت فى شكل فقهى أن الخلافة ميراث ؛ وليست كخلافة الراشدين أو الأمويين . فيؤثر عن المنصور قوله [1]: إنا سلطان الله فى أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه ، أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه .

* * *

وقصارى القول إن ديوان الضياع العباسى؛ ظهر باسمه فى عهد المنصور؛ بمضمونه فى مصادرة الضياع الأموية فى الشام ؛ وأن العقيدة العباسية وقتذاك اعتبرت ضياع الأمويين فى الشام ميراثا للخلفاء العباسيين ؛ يجرى عليها ما يجرى على الميراث .

---

(1) الطبرى ، ٩ ص ٣١٠

" المصادرات وأثرها على استقرار الملكية "

فى عهد الخليفة المقتدر بالله

٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢ م

اعداد

د . ضيف الله بن يحيى الزهرانى

الأستاذ المشارك بقسم الحضارة والنظم الاسلامية

بجامعة أم القرى

ص . ب (٦١٩٨)

" بسم الله الرحمن الرحيم "

المقدمة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . أما بعد :

فقد أولت شريعتنا السمحة الأموال كل عناية ورعاية واهتمام ، وأمرت بضرورة المحافظة عليها ، فشرعت الرقابة العامة على الأموال ، وشرعت محاسبة كل من تسول له نفسه بالعبث او الاختلاس من أموال الدولة ، وقد جرت بالفعل محاسبة كل من شاب تصرفه شائبه فى هذا الشأن ، وقد شكلت أموال المختلسين والثائرين جزءا من موارد بيت المال فى القرن الأول الهجرى [١] .

وكانت المصادرة فى بادىء الأمر مؤقتة تكمن وراء عوامل سياسية أو تنظيمية ، أو شخصية ، إلا أن المصادرة تطورت خلال فترة خلافة المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) من ناحيتى الأسباب والمظاهر ، فقد وضح من خلال هذه الدراسة أن السبب الأساسى والرئيسى " هو الطمع فى أموال المصادرين بدافع الحاجة إلى الأموال " [٢] وقد رأى الباحث أن يلتمس هذا الخلل المدمر فى جسم دولة المقتدر ، فعقد العزم بإذن الله على الكتابة فى موضوع المصادرات لكشف هذا الداء والوقوف على أسباب المصادرة وفئات المصادرين ونوعية المادة المصادرة ، ثم الحديث عن الجهاز الإدارى الذى كان يتولى عملية الإشراف والتنظيم ، وأخيرا الكشف عن الأثر الذى سببته المصادرات على استقرار الملكية . وكانت الدراسة فى هذا البحث على النحو التالى :

المدخل :

يشتمل مدخل هذا البحث على جانبين مهمين : الجانب الأول : عن شخصية

الخليفة المقتدر موضوع الدراسة ، والجانب الثانى عن الحالة المالية فى عهد المقتدر بالله ، وذلك بشكل مختصر وموجز .

الجانب الأول : شخصية المقتدر بالله :

هو ابو الفضل جعفر بن أحمد المعتضد بالله بن أبى أحمد الموفق طلحة بن جعفر المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن عبدالله المنصور ابن محمد ابن على بن عبدالله بن العباس [٣] ، ولد يوم الجمعة ٢٨٢/٩/٨ هـ / ٨٩٥ م ، نشأ الأمير جعفر فى قصر الخلافة بين أحضان والدته - شغب - وهى إحدى جوارى الخليفة المعتضد بالله ، وبحكم كونه ابنا من أم ولد ، فلابد أنه نشأ بين الجوارى والحريم ، لم يتعلم من أمور الخلافة شيئا ، فلم يسهم بأى نشاط إجتماعى ولم يشارك فى حملة عسكرية قبل تولية الخلافة .

تولى الخلافة بعد وفاة الخليفة المكتفى بالله ، وكان ذلك بتاريخ يوم الأحد ١٣ / ١٢ / ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م ، وهو يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام . وقد تولى الخلافة وهو صغير السن ، فغلب على الأمر أناس لاهم لهم إلا جمع الأموال وحيازة المناصب القيادية والإدارية فتعثرت أمور دولة المقتدر بالله وقاس خلال فترة حكمه أهوالا عظاما لم يكن فى مستواها وتكالبت عليه عناصر الغدر والخيانة حتى قتل فى ٢٦ / ١٠ / ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م مخلفا وراءه دولة مفككة العرى ، منهارة القوى فكان حكمه وصمة عار فى جبين الدولة الإسلامية

الجانب الثانى : الحالة المالية فى عهد المقتدر بالله ، ونهدف من وراء هذه الفقرة إيضاح موقف دولة المقتدر المالى . ذلك الموقف الذى اتسم بالعجز المالى طوال الفترة التى حكمها المقتدر التى تمتد مابين عامى (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ -

٩٣٢ م) وقد أكدت جل المصادر والمراجع تلك الضائقة المالية ووصفت عهده بعهد التبذير والإسراف المفرطين .

ولعل هناك مجموعة من العوامل أدت إلى تفاقم الأزمة المالية نذكر منها :

(١) صغر سن الخليفة وضعف شخصيته ، فقد تولى الخلافة وعمره ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام .[٤]

(٢) تدخل النساء في شؤون الخلافة . بحيث صار الخليفة تحت تأثيرهن حتى " غلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم " [٥] ويرز من النساء أم المقتدر (شغب) والتي تلقبت بلقب السيدة ، فكانت سيدة البلاط العباسي بدون منازع .

(٣) فساد النظام الإداري ويأتي في المقدمة ، فساد نظام الوزارة والمتتبع لنظام الوزارة في عهد المقتدر يدرك الضعف الحاصل في منصب الوزارة ، فقد تولاها كل من يدفع مالا أكثر وأسرف الخليفة في تولية الوزراء وعزلهم ، وتعرض معظمهم للمصادرة والسجن والقتل ، ومن هنا كان هم الوزير هو الحصول على الأموال لنفسه أولا ، ثم لسد نفقات الخلافة ثانيا ، ونتيجة لذلك أصبح نظام الإدارة من أفسد النظم [٦] .

(٤) تفشي الرشوة ، ويعتبر داء الرشوة من أخطر الظواهر التي ساعدت على تفاقم الوضع المالي ، فقد انتشرت الرشوة بين كبار موظفي الدولة بمافيهم الوزراء[٧] ، وقد تعاطاها الغالبية العظمى من موظفي دولة المقتدر ، فكانت النتيجة ، أن الجميع وقع في أمر محرم شرعا .

فعندما استشرى سرطان (داء) الرشوة صاحب ذلك فساد النظام الإداري

والمالى فوقعت الدولة تحت طائلة العجز المالى .

(٥) تدخل الجيش فى سياسة دولة المقتدر ، فقد قام قائد الجيش مؤنس بالتدخل فى حياة الخليفة بالإضافة إلى التدخل فى اختيار الوزراء وعزلهم [٨] وأصبح شغب الجند وهياجهم وإحداثهم الفتن أمر مألوفا[٩] . ولاسيما فى سبيل الحصول على الأموال ، وكانت نتيجة تدخل الجيش فى سياسة الدولة أن تفاقمت الأزمة المالية أولا ، ثم الإطاحة بالخليفة وقتله على يد الجيش [١٠] فى ٢٦ / ١٠ / ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ثانيا .

المصادرات :

التعريف :

تحدثت كتب اللغة عن تعريف المصادرة بايجاز شديد ، فقد ذكرها ابن منظور بقوله " ومن كلام كتاب الدواوين أن يقال : صدر فلان العامل على مال يؤديه ، أى فورق على مال ضمنه " (١١) وفى مختار الصحاح " صادره على كذا من المصادرة "(١٢) والمصادرة ، اصطلاح ، والصدر هو الرجوع بعد الامتلاء بالماء ويقابله الورد وهو عند اللغويين مثل الرجع وكلمة صدر هى المال الذى يؤخذ من المصادر (١٣) وقبل بزوغ مصطلح المصادرة كان يسمى المال المأخوذ من العمال مشاطرة أو مقاسمة ، وفى عهد الدولة الأموية كان يسمى المال المستخرج من العمال بالأموال المستخرجة (١٤) ، أما نشأت مصطلح المصادرات فظهر لأول مرة فى الدولة العباسية ، حينما كثرة المصادرات ولاسيما فى الفترة الثانية من العصر العباسى الثانى . وقد ترسخ هذا المصطلح فى عهد الخليفة المقتدر بالله عندما أنشأ لهذا الغرض ديوانا خاصا بالمصادرات .(١٥)

ونستطيع القول بأن تعريف المصادرات فى المصطلح العام هى :

" الأموال التى يستخرجها الخليفة وأعوانه من كل من مسته شائبة غدر وخيانة ، سواء من موظفى الدولة أو من فئات المجتمع الأخرى ووضع هذه الأموال تحت تصرف الخليفة ونظره " فتصادر الدولة الأموال او الممتلكات ، أى تنتزعها من صاحبها عقوبة له .

أسباب المصادرات :

لقد أصبحت المصادرات فى عهد الخليفة المقتدر بالله ظاهرة واسعة الإنتشار

وتعددت الأسباب التى أدت الى شيوع المصادرات وانتشارها ، وقد أجملنا تلك الأسباب على النحو التالى :

أولا : الأسباب المالية :

كان للأزمات المالية الدور الفعال فى وجود المصادرات والمتفحص لتاريخ الخليفة المقتدر يدرك أن أغلب المصادرات " قد جرت فى ظل أزمات مالية ، كانت الدولة فيها بأمس الحاجة الى ايجاد المال لسد نفقات الدولة ، ولكبح شغب الجيش الذى كان دائما يطالب بارزاقه المتأخرة (١٦)

فكان الخليفة يلجأ إلى مصادرة أعضاء حكومته متى ماكانت خزينته فارغة من الأموال (١٧) ، ونضرب على ذلك مجموعة من الأمثلة :

- لقد صادر الخليفة وزيره ، أبا الحسن بن الفرات على مبلغ عشرة ملايين دينار(١٨) لحاجة الدولة الى الاموال وفراغ بيوت الأموال ، وعجز الوزير عن توفيرها .

- وفى عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، صادر الخليفة وزيره الخاقانى (١٩) لعجزه عن توفير الأموال .

- وفى عام ٣١١هـ / ٩٢٣ م صادر الخليفة وزيره حامد بن العباس (٢٠) للسبب نفسه .

- وفى عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م صودر الوزير الخاقانى وأبعد عن الوزارة لعجزه عن معالجة الضائقة المالية (٢١) وكذلك كان حال الوزير الخصيبى ، فقد تفاقمت الأزمة فى عهده ، ولم تتوفر له الاموال اللازمة لسد نفقات الدولة مماجعله يلجأ إلى فرض الضرائب الباهظة على الناس واشتد فى المطالبة " ولم يدع عند أحد مالا

أحس به إلا أخذه بأتعس مايكون الأخذ "[٢٢] وكذلك كان الحال فى وزارة ابن مقلة (٣١٦ - ٣١٨ هـ / ٩٢٨ - ٩٣٠م) ثم فى وزارة سليمان بن الحسن بن مخلد (٣١٨ - ٣١٩ هـ / ٩٣٠ - ٩٣١ م) ، فكان العجز المالى هو السبب فى مصادرة الوزراء والتنكيل بهم ، وإبعادهم عن منصب الوزارة .

ثانيا : الأسباب السياسية :

" بلغت المصادرة ذروتها فى أيام المقتدر ، لأن الوزراء استخفوا به لصغر سنه ، وأفضى تدبير الأمور فى صدر أيامه الى أمه ونسائه وخدمه " [٢٣] وفى عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨م قبض الوزير ابن الفرات على محمد بن عبدون [٢٤] وصادره ، وأوعز بقتله لأنه كان يطلب منصب الوزارة [٢٥]، وفى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م سخط المقتدر على أم موسى القهرمانة [٢٦] وقبض عليها وصادرها ، وقيل فى سبب مصادرتها :

أ - أن المقتدر مرض فبعثت إلى بعض أهله ليتولى الحكم .

ب - وقيل أنها زوجت بنت أخيها لمحمد بن اسحاق بن المتوكل ، فوشى بها الناس أنهامافعلت ذلك إلا لكى تنصب محمد بن اسحاق فى الخلافة[٢٧] .

وهنا ندرك أن تلك الحالات من المصادرة كانت تتم لأغراض سياسية أو شخصية ، فكان تدهور الأوضاع السياسية " من الدوافع التى أدت إلى المغالاة فى المصادرة

لتتخلص الدولة – ولو مؤقتا – من حالة العسر المالى الذى يعانيه بيت المال "[28]

ثالثا : فساد الأنظمة الإدارية :

يأتى فى مقدمة الأجهزة الإدارية التى واكبها الضعف جهاز الخلافة وذلك لصغر سن الخليفة ، ثم جهاز الوزارة والدواوين ولعل أخطرها على الإطلاق هو جهاز الوزارة ، فقد أصبح من الضعف بحيث تولاها كل من يدفع مالا أكثر ، فانحسرت هيبة الوزراء ، وأصبح نظام الإدارة من أسوأ النظم ، نتيجة لتسلط الخدم والحشم ، والنساء ، والجيش على شؤون الدولة ونتج عن ذلك تعدد الوزراء ، بحيث بلغ عددهم فى عهد الخليفة المقتدر اثنى عشر وزيرا صودر معظمهم ، وماتبع ذلك الإجراء " من تغيير العمال الأكفاء فى أرجاء الدولة وماصاحب ذلك من إستبداد الحكام بالناس وسيطرتهم على اموالهم بدون حق ، وأدت هذه المظالم الى قيام الثورات "[29] ، ثم " إن بعض الطامعين بالوزارة كان يتعهد للخليفة بأداء مبلغ كبير من المال مقابل حصوله على منصب الوزارة فأدى هذا الاسلوب الى زيادة حدة المنافسة وإلى المساومة على طلب الوزارة وأدى أيضا الى اضطراب شؤون الدولة والإدارة ، وعدم كفاءة الوزير ، حيث تولى هذا المنصب شخصيات ضعيفة كانت تسىء إلى البلاد "[30] أمثال الوزير الخاقانى ، والوزير حامد بن العباس والوزير الخصيبى ، والوزير ابن مقله ، والوزير الحسين بن القاسم .

رابعا : انتشار الرشوة ، والوشاية :

من أسوأ مظاهر عهد الخليفة المقتدر تفشي مرض الرشوة بين الوزراء وولاة الأقاليم ، ومرد ذلك إلى الخليفة نفسه ، وحاشيته ، ومن خلال استقراء فترة وزارة الخاقاني (٢٩٩ - ٣٠١ هـ / ٩١١ - ٩١٣ م) نجد أن أولاده سيطروا على مجريات امور الوزارة وسعوا جميعا للحصول على الرشوة وأسرف الوزير في تولية العمال " حتى أنه ولى على الكوفة فى خلال عشرين يوما سبعة من العمال ، دفع كل منهم رشوة كبيرة له " (٣١)، وكان الخاقاني يحصل على الرشوة من كل عامل يوليه حتى قيل من الاشعار (٣٢):

وزير مايفيق من الرقاعة   يولى ثم يعزل بعد ساعة
اذا أهل الرشا صاروا إليه   فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

وقد استطاع ابن الفرات ان يتقلد الوزارة للمرة الثانية ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م بعد أن تعهد بتقديم مبلغ كبير للخليفة وحاشيته(٣٣) وقد أكد الأزدى على أن الخليفة ، كان يصانع الخدم ويستمع إليهم فى تولية الوزراء وعزلهم ، فقال فى ذلك " واستوزر المقتدر اثنى عشر وزيرا ، يولى هذا اليوم ، ثم يصانع الخدم فيعزله غدا ويولى الذى رشا ". (٣٤)

اما عن الوشاية

فقد قامت بالدور الأكبر فى نكبة الوزراء ، وسجنهم ، وقتلهم فى غالب الأحيان " وسبب ذلك أن الخليفة كان يستمع الى أقوال المنافسين ويصغى الى مقالة الحاقدين "(٣٥) وأتهم الوزراء بعضهم بعضا بسوء التصرف والخيانة ، وقد تكون هذه ألتهم صحيحة فى حق الوزير ، ولكن فى أوقات أخرى " قد تكون الاتهامات

ضد الوزير المعزول واهية ، وليس لها أى سند شرعى ولامسوغ منطقى ، ولايعدو أن يكون الدافع طابعه الحسد والغيرة وحب السيطرة والمنافسة المشوبة بالخداع والتآمر "[٣٦] فقد وقع ابن الفرات فى حبائل الوشاية حينما وشى به نصر الحاجب لدى الخليفة بقوله بأن الوزير يريد التآمر على الخليفة ، فنكبه الخليفة وصادر امواله[٣٧] ولم يسلم من الوشاية والحسد والحقد الوزير المصلح على بن عيسى ، فقد أفسد الخدم امره[٣٨] ، وأمر المقتدربالقبض عليه واحتجازه بدار الخلافة ، لعدم قدرته على الصمود أمام وشايات رجال القصر والحاشية الذين لم يرضوا باجراءاته الاقتصادية ، فوشت به عند الخليفة ، فعزله ونفاه إلى مكة واليمن ومصر [٣٩] ، فالحقد والحسد والكراهية كانت من الأمور التى أودت ببعض الوزراء ومصادرتهم ، وإن كانوا من الوزراء المصلحين .

فئات المصادرين ومعاملتهم :

أمتد نطاق المصادرات ليشمل الوزراء ، والكتاب والنساء ، والخدم والتجار ، والعمال ، " فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء والتجار "[٤٠] ويمكننا أن نفصل فئات المصادرين على النحو التالى :

(أ) فئة الوزراء :

كان الخليفة يلجأ إلى مصادرة الوزير متى ألجأته الحاجة الى اموال بعجز الوزير عن توفيرها وأسرف الخليفة فى تعيين الوزراء وعزلهم ، لأنهم " استأثروا بالأموال ، وحصلوا عليها بطرق مختلفة كالرشوة والهدايا التى ترد اليهم من العمال والولاة ، ومن كبار موظفى الدولة بالإضافة إلى مايغتصبونه من ضياع الخليفة ومن عامة الشعب ، ومصادرات بعضهم بعضا ومايسلبونه من اموال الجباية "[٤١] فقد كان

ابن الفرات يأخذ " أموال المصالحين والمصادرين . وعدل بها عن بيت المال [٤٢]" وكذلك كان ابنه المحسن ، وكان المعتاد أن يتهم كل وزير سلفه بسوء التصرف ويطلب منه افتداء نفسه بالأموال[٤٣] ويحصل الوزير الجديد على الأموال من الوزير المعزول بمصادرة امواله واملاكه . " وقد وجدت الدولة تبريرا لمصادرة أموال الوزراء والعمال لأن هؤلاء أنفسهم جنوا أموالهم عن طريق غير شرعي ، ذلك أن أغلب المصادرين قد أثروا على حساب الشعب ومن جراء سوء سلوكهم واستغلالهم مناصبهم "[٤٤] وقد تعرض جميع وزراء الخليفة المقتدر للمصادرة ماعدا الوزير عبيد الله الكلوذاني[٤٥] .

(٢) حاشية الوزراء :

لقد أمتدت المصادرات لتشمل أسرة الوزير وأهله وأولاده ، ففي عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م غضب الخليفة المقتدر على الوزير ابن الفرات ، فصادره وصادر اهله ، وأخذ كل ماوجد له ولهم ، وأنتهبت دوره ودور بني أخوته وأهلهم[٤٦] وعندما عزل ابن الفرات عن الوزارة للمرة الثالثة (٣١١ -٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤م) تمت مصادة أولاده ، ومنهم ابنه الأكبر المحسن الذى أخذ منه ثلاثة ملايين دينار[٤٧] ولم تسلم أسرة الوزير المصلح على بن عيسى من المصادرة ، ففي عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ ، إبان وزارته الأولى قبض عليه وعلى أقربائه ونهبت دورهم [٤٨] ونهبت منازل أخوى الوزير وهما ، إبراهيم وعبدالله[٤٩] ، وعندما قبض على الوزير حامد بن العباس ٣١١ هـ / ٩٢٣ م تمت مصادرة صهره أبى الحسين بن بسطام[٥٠] وفى عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م تمت مصادرة الوزير الخاقانى وابنه[٥١] ، وفى عام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م صودر الوزير الخصيبي وابنه أبي الحسين [٥٢] ، والمتأمل لهذه النصوص

يدرك أن أولاد الوزراء كانوا يساهمون في أعباء الوزارة بالدرجة الأولى ولذلك تتم معاقبتهم مع والديهم .

(٣) الكتاب :

استشرى الفساد الإدارى داخل الدواوين ، وضعف رئيس الديوان وكتابه واتهموا بالاختلاس فتمت معاقبتهم ومصادرة أموالهم فكان اول من عوقب بالمصادرة ، الكاتب ، محمد بن عبدون في عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨م على يد الوزير ابن الفرات(٥٣) ، وفى عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م قبض على رئيس الدواوين على بن عيسى وقبض على إبنه وبيعت أموالهما وأملاكهما وحوسبا(٥٤) ، وكذلك تعرض على بن عيسى للمصادرة ، عندما كان رئيسا للدواوين إبان وزارة حامد بن العباس (٣٠٦ - ٣١١ هـ / ٩١٨ - ٩٢٣ م) فقد صودرت أملاكه وأملاك انصاره وأعوانه (٥٥) ، وتمت مصادرة الكاتب ، محمد بن على ابن مقلة إبان وزارة ابن الفرات للمرة الثالثة (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩١٨ - ٩١٩ م)(٥٦) وفى عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ، صودر كاتب الوزير الخاقاني ، جعفر الكرخي (٥٧) ، وفى عام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م قبض الوزير على بن عيسى على الوزير الخصيبي وصادره وصادر كاتبه اسرائيل بن عيسى(٥٨) .

(٤) النساء والخدم :

طالت المصادرات أناسا لاحجة عليهم ، إلا فضل نعمة كانت لهم ، وقد تميز عصر المقتدر بسلطة النساء ، فقد كان لهن شأن كبير فى دار الخلافة ، وقد أمتدت يد المصادرات إليهن ففى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م غضب الخليفة على فاطمة القهرمانة وأخذ ماعندها من المال ، وكان لها مال عظيم(٥٩) وفى عام ٣١٠

هـ / ٩٢٢م سخط المقتدر على أم موسى القهرمانة وقبض عليها وصادرها على مليون دينار ، ولم تفلت من طائلة العقاب[٦٠] ولم تسلم أسرتها من المصادرة فقد صودر أخوها أحمد بن العباس وأختها أم محمد [٦١]. وفي عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ ألح الوزير الخصيبي في المصادرة وكاشف أرملة المحسن بن الفرات ونساء ابن الفرات[٦٢] ° ونساء أخريات لرجال عملوا في الادارة ، مما أثار عليه نقمة الناس .. حتى طالب نساء موظفيه العاملين بين يديه ، إن لم يجد عند الرجال شيئا. وتعرض بعض الخدم للمصادرة فقد صادر الوزير ابن الفرات في عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م وخادم الوزير السابق حامد بن العباس ويدعى مؤنسا صادره على مبلغ ثلاثين ألف دينار[٦٤] ، وفي عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صور الخادم بشرى على مبلغ ثلاثمائة ألف دينار .[٦٥]

(٥) التجار ، وبعض فئات الشعب :

لقد تعرض التجار للمصادرات ، ونالوا طائلة العقاب ، ففي عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م صودر التاجر ، الحسين بن عبدالله المعروف بابن الجصاص وكانت مصادرته لأسباب سياسية ، وذلك لإشتراكه في الحركة التي قام بها ابن المعتز الذي اختبأ عند ابن الجصاص[٦٦] ، وفي عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م صودر ابن الجصاص على مبالغ طائلة ، نقدية ، وعينية [٦٧] ، وفي عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صودر أحد التجار بسبب مالوحظ عليه من فضل فيماابتاع من الضياع [٦٨] ، وقد شملت المصادرات أقواما ليسوا برسميين ، إلا أن لهم فضل نعمة ، ففي عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م ، قام الوزير ابن مقله بمصادرة ضياع الطبيب بختيشوع بن جبريل، وتم بيعها بثمن زهيد ، مع أن هذا الثمن مخالف لماتضمنه ثبت الشراء من أنها قد

أشتريت بمايزيد على بضعة عشر مليون درهم [٦٩] وتجمع المصادر على أن الوزير الخصيبي (٣١٣ / ٣١٤ هـ - ٩٢٥ - ٩٢٦ م) لم يدع عند أحد مالاأحس به إلا أخذه بأتعس مايكون الأخذ[٧٠] .

معاملة المصادرين :

لم يقتصر الأمر على المصادرة فحسب ، وإنما كان يصاحبها فى الغالب - إلحاق أشد الأذى بأولئك المصادرين ، بغض النظر عن المراكز القيادية او المكانة الإجتماعية التى كانوا يشغلونها فى الدولة[٧١] ، وقد قسمنا معاملة المصادرين على النحو التالى :

أولا : القبض على المصادرين والتحقيق معهم :

كان يبدأ الوزير الجديد يبذل المحاولات لإستخراج الأموال ، ومصادرتها عن طريق الإقناع [٧٢] .

ثانيا : السجن :

كانت المصادرة سبيلا يوصل إلى السجن - فى غالب الأحيان - " وسبب ذلك أن الخليفة كان يستمع إلى أقوال المنافسين ، ويصغى إلى مقالة الحاقدين ، فيأمر بعزل وزيره وسجنه ، فإذا لم يسجن جاء خلفه فسجنه انتقاما منه "[٧٣] ، ففى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م ، غضب الخليفة على الوزير ابن الفرات ، وحبسه ، وانتهبت داره ودار أهله ، ودور كتابه[٧٤] ، وكان لهذه المصادرة أثرها السىء على المجتمع فى بغداد ، فقامت ثورة احتجاجات عارمة استمرت ثلاثة أيام ، نهب الناس بعضهم بعضا ، فلقى السكان من ذلك شدة شديدة [٧٥] ولم يكن نصيب الوزير الخاقانى بأفضل من سلفه[٧٦] ، وقد شمل السجن أغلب الوزراء المصادرين أمثال

علی بن عیسی (بوصفه کاتبا ، ووزیرا) ، وحامد بن العباس ، وعلی بن الفرات ، وإبنه المحسن[٧٧] ، والخصیبی[٧٨] وابن مقله [٧٩] ، والقهرمانة أم موسی[٨٠] .

ثالثا : التعذیب :

من ضمن الوسائل التی کانت تصاحب المصادرة ، التفنن فی تعذیب المصادرین ، فعندما نکب ابن الفرات فی عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م ، سجن فی دار القهرمانة ام موسی وأشرفت بنفسها علی تعذیب الوزیر المخلوع فأمرت بتقییده ، وعرك اذنیه ، وعدم التهاون معه[٨١] ، وفی عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م جری علی کتاب الدواوین من جهة ابن الفرات امر عظیم من الخبط والعسف باستعمال التعذیب ، فقد البس علی بن عیسی جبة صوف واهانه بالأذی الفاحش[٨٢].وفی عام ٣١١ هـ / ٩٢٣م تعرض الوزیر حامد بن العباس للاهانة والتعذیب ، وکان ابن الفرات (المحسن) یشتمه أمام الناس وهو فی سجنه ، ویلبسه جلد قرد له ذنب ، ویقیم من یرقصه ویصفعه " وأجری علی حامد أفاعیل قبیحة لیست من أفاعیل الناس ولایستجیزها ذو دین ولاعقل "[٨٣] إلاأن امر هذا الوزیر (ابن الفرات) لم یطل إذ تعرض للمصادرة والتعذیب فقد حوکم ابن الفرات وابنه المحسن ، الذی القی القبض علیه وهو مقنع بزی النساء ، حلیق اللحیة ، فقد قیدا وألبسا جبة صوف ، وضربا علی رأسیهما بالدبابیس حتی أن جسم المحسن تدود من أثر الضرب ، ومنع عنهما الطعام أیاما عدیدة [٨٤] ، وقیل بأن الناس ضربوهما بالأجر ، ویقولون قد قبض علی القرمطی الکبیر[٨٥] ، فنری أن هذا الوزیر وحاشیته قد لقیوا منتهی الإهانة ، والتعسف .

وتعرضت القهرمانة أم موسی وأخوها أحمد بن العباس ، وأختها ام محمد لاشد

انواع التعذيب ، وسلم أمرهم الى القهرمانة ثمل المشهورة بقساوة القلب ، وشراسة الأخلاق ، فقست عليهم أشد القسوة [٨٦] ، وتعرض الوزير على بن عيسى إبان وزارته الثانية (٣١٤ - ٣١٦ هـ / ٩٢٦ - ٩٢٨ م) للإهانة والتعذيب ، وأعتقل ثمانية عشر شهرا [٨٧] ولم يسلم الوزير ابن مقله فى عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م من الاهانة ، بل تعدى الأمر الى إحراق داره .[٨٨]

رابعا : النفى :

يعد النفى والإبعاد عن حاضره الخلافة من الأمور التى كانت تصاحب المصادرة ، فقد تعرض الوزير المصلح على بن عيسى للاعتقال ثمانية عشر شهرا ، ثم نفى الى مكة المكرمة واليمن ، ومصر [٨٩] ، إلا أن دار الخلافة لم تستطع الصمود أمام استحكام الأزمات المالية ، فعاودت فى طلبه المرة تلو المرة ، لعله يساعد فى فك تلك الأزمات الخانقة ، وكان يفعل فى كثير من الحالات ولم يسلم الوزير المعزول حامد بن العباس من النفى فقد تم نفيه إلى واسط وذلك فى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، حيث استقر به المقام ، حتى تم قتله ، والتخلص منه نهائيا[٩٠] ، وفى عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، تعرض الوزير الحسين بن القاسم للمصادرة ، والطرد أو النفى الى ارض البصرة [٩١] .

خامسا : القتل :

يعد القتل المحطة النهائية للخلاص من الشخصيات المصادرة ، ومن الشخصيات التى تم قتلها الوزير حامد بن العباس ، فقد لقى قبل قتله صنوفا شتى من العذاب ، والشتم ثم طرد الى واسط ، وهناك تم التخلص منه نهائيا وذلك بقتله[٩٢] فى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، ولقى الوزير ابن الفرات وابنه

المحسن النتيجة نفسها ، فقد لقيا صنوفا شتى من التعذيب والإهانة وبعد ذلك تم قتلهما في نهر دجلة ورمى رأسيهما غرقا وكذلك غرقت الجثتان وتم ذلك في عام ٣١٢هـ /٩٢٤ م[٩٣] .

أنواع المصادرات :

تنقسم الأموال المصادرة إلى قسمين : القسم الأول : الأموال النقدية ، والقسم الثاني : الأموال العينية .

القسم الأول :

كانت الأموال المصادرة تختلف في مقاديرها بحسب الكفاءة المالية للأشخاص المصادرين ، وتتلاءم مع مكانة الشخص المصادر ، ومدى انصياعه وقبوله لمقدار المبالغ المفروضة عليه[٩٤] ، وكانت بعض المصادرات تقتصر على فرض مبلغ من المال يدفعه صاحبه حال وقوع المصادرة عليه ، دون تعرضه لأي أذى ، فبمجرد دفع المصادرة يتم الإفراج عنه[٩٥] ،وهناك طريقة أخرى يتم بموجبها دفع المصادرة ، وهي طريقة التعهدات لأجل معين ، ويتم ذلك بعد أخذ الإقرار الشخصي على المصادر كضمان بذلك ٠[٩٦] وكان كتاب الوزير المعزول وأعوانه يقدمون أحيانا معونة له عند مصادرته ، تضامنا معه وتخفيفا عنه .

إلا أن بعض الوزراء كانوا يرفضون ذلك ٠[٩٧] . فقد رفض علي بن عيسى أن يقبل معونة من أحد عندما صودر . وعن مقادير الأموال النقدية التي تمت مصادرتها نعرضها على النحو التالي :

السنة	الشخص المصادر	المبلغ	ملاحظات
٢٩٦ هـ / ٩٠٨م	على بن عيسى	٠٠٠ر٥ دينار (٩٨)	
٢٩٦ هـ / ٩٠٨م	القاضى ، أبو عمر يوسف بن يعقوب	٠٠٠ر١٠٠ ،، (٩٩)	
٢٩٦ هـ / ٩٠٨م	التاجر ، الحسين بن عبدالله ، ابن الجصاص	٠٠٠ر٦ ،، (١٠٠)	
٣٠١هـ / ٩١٣ م	على بن أحمد الراسبى	٠٠٠ر٠٠٠ر١ ،، (١٠١)	
٣٠٢هـ /٩١٤م	التاجر ، ابن الجصاص	٠٠٠ر٠٠٥٥ر٥ ،، (١٠٢) ..	
٣٠٦هـ/٩١٨م	الوزير ، ابن الفرات ٠	٠٠٠ر٧٠٠ ،، (١٠٣)	
٣٠٦هـ/٩١٨م	ابن الوزير ، المحسن بن الفرات	٠٠٠ر٣٠٠ ،، (١٠٤)	
٣١٠هـ/٩٢٢م	القهرمانة ، أم موسى	٠٠٠ر٠٠٠ر١ ،، (١٠٥)	
٣١١هـ/٩٢٣م	الكاتب ، ابن الحوارى	٠٠٠ر٧٠٠ ،، (١٠٦)	
٣١١هـ/٩٢٣م	أبو الحسين بن بسطام (نسيب حامد بن العباس)	٠٠٠ر٣٠٠دينار (١٠٧)	
٣١١هـ/٩٢٣م	الوزير ، حامد بن العباس	٠٠٠ر٨٠٠ دينار (١٠٨)	
٣١١هـ/٩٢٣م	مؤنس (خادم الوزير حامد)	٠٠٠ر٣٠ ،، (١٠٩)	
٣١١هـ/٩٢٣م	الكاتب : ابن مقلة	٠٠٠ر١٠٠ ،، (١١٠)	
،، ،،	الكاتب : على بن عيسى	٠٠٠ر٣٠٠ ،، (١١١)	
،، ،،	كاتب حامد بن العباس (الكلوذانى)	٠٠٠ر٢٦٠ ،، (١١٢)	
،، ،،	أحمد بن محمد البسطامى	٧ر٣٠٠ ،،	
،، ،،	على بن الحسن الباذينى (الكاتب)	٠٠٠ر١١ ،،	
،، ،،	أبو الفضل محمد بن أحمد بن بسطام	٠٠٠ر٥٠ ،،	
،، ،،	محمد بن عبدالله الشافعى	٠٠٠ر٣٠ ،،	عما تصرف فيه لعلى بن عيسى

ملاحظات	المبلغ	الشخص المصادر	السنة
	٨٠ر٠٠٠ ..	محمد بن على بن مقلة	٣١١هـ/٩٢٣م
	١٠٠ر٠٠٠	أبو طاهر ، محمد بن الحسن	.. ..
وديعة لعلى بن عيسى	١٣ر٠٠٠	الحسن بن أبي عيسى الناقد	.. ..
صلحا عن نفسه	٤ر٠٠٠ ..	الحسن بن أبي عيسى	.. ..
	٢٠ر٠٠٠	ابراهيم بن أحمد المادرائى	.. ..
عن بقية مصادرة والده	٣٦ر٣٣٠ ..	عبدالواحد بن عبيد الله بن عيسى	.. ..
عن مصلحة وجبت عليه صلحا عن نفسه	١٠ر٠٠٠ ..	أحمد بن يحيى (الكاتب)	.. ..
	٦ر٠٠٠ ..	ابراهيم بن أحمد بن ادريس (الجهبذ) (١١٣)	
وديعة لمحمد بن على ولابراهيم المادرائى صلحا عن نفسه	٤ر٠٠٠ ..	محمد بن عبدالسلام بن سهل	.. ..
	٤٠ر٠٠٠ ..	عبدالوهاب بن أحمد بن ماشاء الله	.. ..
صلحا عما تصرف فيه بالموصل عن نفسه	٢٠ر٠٠٠ ..	على بن حسن الباذبنى	.. ..
	١٠ر٠٠٠ ..	محمد بن عبدالله بن الحارث	.. ..
عماتصرف فيه بالموصل عن الباقى عليه من جملة خمسين الف دينار	٢٥٠ر٠٠٠ ..	محمد بن أحمد بن حماد	.. ..
	١٥ر٠٠٠ ..	ابراهيم بن أحمد المادرائى	.. ..
عن ضمانه من مصادرة ياسر بن اسحاق عن أحمد بن محمد بن قرقر	١٠٠ر٠٠٠ دينار	أبو عمر ، محمد بن أحمد الجرجرائى .	.. ..
	٣٠٠ر٠٠٠ ..	أبو عمر بن الصباح	.. ..
	٧٠٠ر٠٠٠ ..	على بن محمد الحوارى	.. ..

السنة	الشخص المصادر	المبلغ	ملاحظات
٣١١هـ/٩٢٣م	عبدالله بن أحمد اليعقوبى	١٠٠ر٠٠٠ درهم	
،، ،،	هارون بن أحمد الهمذانى	٧ر٠٠٠ دينار	
،، ،،	الحسن بن ابراهيم الخرائطى	١٠٠ر٠٠٠ درهم	صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس
،، ،،	الحسين بن على بن نصير	١٠٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	عبدالله بن زيد بن ابراهيم	٢٠٥٠ دينار	
،، ،،	عبدالله بن زيد	١٥ر٠٠٠ ،،	صلحا عن نفسه
،، ،،	على بن محمد بن السمان	٢٥٠٠ درهم	من رواتة أحمد بن محمد ابن قرقر
،، ،،	على بن مأمون الاسكافى (كاتب ابن الحوارى)	٦٠ر٠٠٠ دينار	
	أبو بكر ، أحمد بن القاسم الجرجانى	١٠ر٠٠٠ درهم	من ضياع على بن عيسى
،، ،،	الحسين بن سعد القطربلى	١٣٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	محمد بن أحمد بن ماسراد	١ر٥٠٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	أبو الحسن ، محمد بن أحمد بن بسطام	٢ر٠٠٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	أحمد بن محمد بن حامد بن العباس	٥٠ر٠٠٠ ،،	
	يحيى بن عبدالله بن اسحاق	٧٠ر٠٠٠ دينار	
،، ،،	حامد بن العباس (الوزير)	١ر٣٠٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	محمد بن محمد الواسطى	١٥٠ر٠٠٠ ،،	
	على بن عيسى	٣٢١ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	ابراهيم بن يوحنا (جهبذ حامد بن العباس)	١٠٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	أبو محمد ، الحسن بن أحمد المادرائى	٢ر٢٠٠ر٠٠٠ ،،	

ملاحظات	المبلغ	الشخص المصادر	السنة
	١ر١١٠ر٠٠٠ ،،	أبو بكر ، محمد بن على المادرائى	٣١١ هـ/٩٢٣ م
	١٣٠ر٠٠٠ درهم (١١٤)	سليمان بن الحسن بن مخلد	،، ،،
	٥٠ر٠٠٠ دينار (١١٥)	سليمان بن الحسن (كاتب ديوان المشرق)	،، ،،
	٢٠ر٠٠٠ دينار (١١٦)	ابراهيم بن عيسى (أخو على بن عيسى)	،، ،،
	٧ر٥٧٥ر٦٨٠ ،، (١١٧)	رئيس الدواوين وكتابه وأنصاره	٣١١-٣١٢هـ/
	٥ر٣٠٠ر٠٠٠ درهم		٩٢٣ - ٩٢٤ م
	١٠٠ر٠٠٠ درهم (١١٨)	ولدى ابن الفرات	٣١٢ هـ/٩٢٤ م
	٢٠٠٠ر٠٠٠ ،، (١١٩)	ابن الفرات	،، ،،
	٣ر٠٠٠ر٠٠٠ ،، (١٢٠)	المحسن ابن الفرات	،، ،،
	٣٠٠ر٠٠٠ ،، (١٢١)	كاتب المحسن ابن الفرات	،، ،،
	٧٠٠ر٠٠٠ ،، (١٢٢)	زوجة المحسن ابن الفرات	،، ،،
	٢٥٠ر٠٠٠ ،، (١٢٣)	الخاقانى (الوزير)	،، ،،
	١٥٠ر٠٠٠ ،، (١٢٤)	جعفر بن قاسم الكرخى	،، ،،
	١٠٠ر٠٠٠ دينار (١٢٥)	ابو طالب النوبندجانى	٣١٣هـ/٩٢٥م
	٤٠ر٠٠٠ ،، (١٢٦)	الوزير الخصيبى	٣١٤هـ/٩٢٦م
	١ر٠٠٠ر٠٠٠ ،، (١٢٧)	مجموع المصادرات فى عهد الخصيبى	،، ،،
	٩ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (١٢٨)	البريديون (عمال واسط والبصرة)	٣١٥هـ/ ٩٢٧ م
	١٠٠ر٠٠٠ دينار (١٢٩)	مصادرات العمال فى عهد الوزير ابن مقلة	٣١٦هـ/ ٩٢٨ م
	٦٠٠ر٠٠٠ درهم (١٣٠)	القاسم بن دينار وأحمد بن محمد ابن رستم	،، ،،
	٢٠٠ر٠٠٠ دينار (١٣١)	الوزير ابن مقلة	٣١٨هـ/ ٩٣٠م
تمت المصادرة فى عهد الوزير الحسين بن القاسم	٣٠٠ر٠٠٠ ،، (١٣٢)	الخادم بشرى (خادم مؤنس)	٣١٩هـ/ ٩٣١م
	٢٠٠ر٠٠٠ ،، (١٣٣)	الوزير ، سليمان بن الحسن	٣١٩/ ٩٣١م
	٤٠ر٠٠٠ ،، (١٣٤)	الوزير ، الحسين بن القاسم	٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م

من خلال العرض السابق للجداول المالية التى تمثل المبالغ النقدية المصادرة من أصحابها يتضح مايلى :

أولا : بلغ مجموع الأموال النقدية بالدينار (٣١٧٦٨٣٦٠ دينار) وبلغ مجموع الأموال النقدية بالدراهم (٠٠٠ر٨٠٠ ر٢٤درهم) وبعد تحويل الدراهم الى دنانير على حساب سعر الصرف (١٤) درهما للدينار الواحد ، يصبح مجموع الأموال المصادرة :

(٣٣,٥٣٩,٧٨٨) دينار ، وهذا المبلغ يقل كثيرا عن المبلغ الذى قدره جورجى زيدان حيث قال" وبلغ مجموع ماقبضه المقتدر من اموال المصادرات (٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠) دينار [١٣٥] .

وقد يكون جورجى زيدان أدخل فى حساباته الأموال المصادرة غير النقدية كالعقارات مثلا ، أو النقود التى وجدت مدفونة تحت الأرض ولايفرق الأمر كثيرا ، فمبالغ المصادرات كانت كبيرة جدا ومرهقة للغاية .

ثانيا : يتضح لنا أن المصادرات بدأت منذ تولية الخليفة مقاليد الأمور ، أوبعدها بأشهر قليلة ، واستمرت حتى نهايه حكمه ، وكانت تبلغ أوج قوتها عندما يبعد الوزير عن الوزارة ، ففى تلك الفترة تشتد المطالبة بالأموال ويحفها صنوف التعذيب والتنكيل .

ثالثا : بلغت المصادرة قوتها وكثرتها فى سنة ٣١١هـ / ٩٢٣ م ، خلال وزارة ابن الفرات للمرة الثالثة ، فقد طغى وتجبر على كثير من الكتاب واعوانهم واستخرج منهم الأموال الطائلة .

رابعا : يلاحظ ان بعض الفئات كانت تتعرض للمصادرة أكثر من مرة فى السنة الواحدة .

القسم الثانى :

المصادرات العينية ، تعرض كثير من المصادرين الى نهب أملاكهم ، ودورهم وتجاراتهم ، وقد شملت تلك المصادرات الأقرباء والأهل ، والذرية ، فقد صودر التاجر ابن الجصاص على أمواله النقدية ، والعينية ، وكان من ضمن الأموال التى أخذت عليه البضاعات التى كان يتاجر بها ، وهى عبارة عن أقمشة وخيول ، بما قيمته (١٦,٠٠٠,٠٠٠) دينار [١٣٦] ، وكان ذلك فى عام ٢٩٦ هـ ٩٥٨ م أما فى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م فقد صودرت فاطمة القهرمانة على جميع أملاكها وأموالها وكان لها من مال عظيم[١٣٧] ، وفى العام نفسه ، صودر الوزير ابن الفرات ونهبت دوره ودور أهله ، وأخذ كل ماوجد لهم من الأثاث والمتاع [١٣٨] . وفى سنة ٣٠١ هـ / ٩٢٣ م صودرت أموال على بن محمد الراسبى الوالى على جند يسابور ، وكان مقدارها مليون دينار وآنية الذهب والفضة ومن الخيل والبغال الف رأس ومن الخز ألف ثوب ، وقيل : أنه كان له ثمانون طرازا ينسج فيها الثياب[١٣٩] ومرة ثانية يصادر التاجر ابن الجصاص فى عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، فقد قبضت تجارته من العين والورق ، والجواهر ، والفرش والثياب والمستغلات والبساتين[١٤٠] وكان من ضمن الجواهر التى صودرت عليه سبحة من الجواهر قيمتها (٣٠٠,٠٠٠) دينار[١٤١] .

وعندما تمت مصادرة الوزير على بن عيسى فى عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م تمت ايضا مصادرة أملاكه وأمواله واموال اهله وذويه[١٤٢] . وفى عام ٣١٢هـ / ٩٢٤م كانت مصادرة الوزير ابن الفرات فقد أخذ منه " الضياع والأقطاع والأملاك والعقار والأموال ، والغلات ، والأثاث ، والكراع [١٤٣] والجمال ولم يأخذ من أحد

من الوزراء قبله ولابعده مثل ذلك .[١٤٤]

وفى عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م أقدم الوزير ابن مقله على مصادرة ضياع الطبيب بختيشوع بن جبريل وجرى بيعها تحت اشراف الوزير بثمن بخس[١٤٥] ، وحصل للوزير نفسه أن أحرقت داره بعد أن كان يضرب بها المثل فى الحسن والجمال بما تحتويه من البساتين وانواع الطيور والحيوان وكان ذلك فى سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠ م[١٤٦] ، وفى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صودر أحد التجار ، وصودرت بضاعاته ، بسبب مالوحظ عليه من فضل فيما ابتاع من الضياع[١٤٧]

إدارة المصادرات :

قامت ضريبة المصادرات بالدور الأكبر فى حل الأزمة المالية الخانقة ونظرا للأهمية القصوى لهذا المورد المالى ، فقد استحدثت له ادارات متعددة ،ففى صدر الدولة الإسلامية ، كانت (دار الإستخراج)كفيلة بإدارة الأموال المستخرجة من الموظفين الذين يختلسون أموال الجبايات ، ولايؤدونها للدولة فأنشىء لهم (دار الإستخراج) [١٤٨] وفى الدولة العباسية تحورت دار الإستخراج الى (ديوان الإستخراج) ، " ومهمته متابعة أخبار الوزراء والكتاب والعمال والولاة والمهتمين بالرشوة لكى تحصى أسماؤهم وتحدد أوضاعهم ، ثم تصادر أموالهم التى جمعوها من الحرام "[١٤٩] وفى عهد المقتدر كثرت المبالغ المصادرة ، وتعددت المصادرات مماجعل الدولة العباسية تستحدث ديوانا خاصا للإشراف على استيفاء أموال المصادرات سمى بـ (ديوان المصادرات) وعندما تكون المبالغ المصادرة من شخص واحد كثيرة ، فان الأمر يتطلب استحداث ديوان خاص لإدارة تلك الأموال والممتلكات المصادرة مثل دواوين (المقبوضات والمخالفين ، والمرافق) ونشرح

طبيعة عمل كل ديوان على حده وعلى النحو التالى :

ديوان المصادرين :

لقد أنشىء ديوان المصادرين للإشراف على جمع واستيفاء أموال المصادرات سواء المنقولة أم غير المنقولة التى كانت تقرر بعد أن يتعهد الأشخاص المصادرون بدفعها .(١٥٠)

وكان يتولى ديوان المصادرين رجال ثقاة ، ومن المقربين إلى الوزير وتلك القرابة ، كانت وبالا عليهم ، لأنهم كانوا يبعدون بمجرد ابعاد الوزير ، وعندما تظهر خيانتهم ، كانوا يتعرضون للمصادرة (١٥١) ، ونعطى على ذلك مثالا : فقد كان المحسن ابن الفرات ، يتقلد ديوان المصادرين أثناء وزارة والده للمرة الثالثة (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤م) لقد تعرض للمصادرة والتعذيب والقتل .(١٥٢)

لقد كان ديوان المصادرين يتولى استلام الأموال المصادرة ، ثم تذهب الى أحد بيتى الأموال (الخاصة او العامة)(١٥٣) حسب رأى الخليفة أولا ، ثم حسب حاجة الدولة الى الأموال ثانيا ، إلا أن الوزير ابن الفرات لم يتبع هذا الأسلوب ، ففى أثناء وزارته للمرة الأولى (٢٩٦- ٢٩٩ هـ / ٩٠٨ - ٩١١ م) وكل الى شخصين استلام اموال المصادرات ، وأمر أحد كتابه بمراجعة الحسابات ، دون صاحبى بيت المال ، وبعد النظر فى الوارد والمنصرف بأمر صاحب بيت مال العامة باستلام الباقى(١٥٤) ، وكان النظام المتبع أن توضع خطوط المصادرين فى خزائن الوزارة ، وقد شذعن هذا التنظيم الوزير الخصيبى (٣١٣ - ٣١٤هـ / ٩٢٥-٩٢٦ م) الوزراء ليتسلمها وزير عن وزير وأن تكتب نسختين نسخة للديوان ونسخة عند الوزير (١٥٥) لأن بقاءها عند صاحب الديوان بنسخة واحدة قد

تكون عرضه لان تباع وبذلك يحصل ضرر لبيت المال(١٥٦)

ديوان المرافق :

يعتبر هذا الديوان من الدواوين المهتمة بشؤون الأموال المصادرة أنشأه الوزير على بن محمد بن الفرات أثناء وزارته الثانية (٣٠٤ - ٣٠٦هـ / ٩١٦- ٩١٨ م) وهذا الديوان أنشىء من أجل استيفاء الأموال المصادرة من الوزير المخلوع على بن عيسى ومن أخوته وعماله وكتابه(١٥٧) ، وتقلد العمل فى ديوان المرافق هارون بن عمران (١٥٨) الذى تعهد باستخراج المرافق التى عند على بن عيسى وأعوانه(١٥٩) .

ديوان المقبوضات :

كذك يعد هذا الديوان من الدواوين المهتمة بشؤون الأموال المصادرة أنشأه الوزير حامد بن العباس (٣٠٦ - ٣١١ هـ / ٩١٨ - ٩٢٣ م) وقام بتنفيذ العمل فيه على بن عيسى ، وهذا الديوان أنشىء لإدارة الأموال المقبوضة من أم موسى القهرمانة عندما تمت مصادرتها فى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م وقد تقلد العمل فى هذا الديوان ابو شجاع الكاتب (١٦٠) ، وتقلد الزمام عليه ابو عبدالله اليوسفى الكاتب (١٦١) ، وقام ابو شجاع الكاتب باستخراج الأموال الكثيرة ، والجواهر النفيسة والثياب والكسوة والفرش ، والطيب ، حتى بلغ مجموع ماصودر من أم موسى من الأموال النقدية مبلغ مليون دينار (١٦٢) .

ديوان المخالفين :

يعتبر - ايضا - من الدواوين ذات العلاقة بالمصادرات أنشأه الوزير الحسين بن القاسم (٣١٩ - ٣٢٠ هـ / ٩٣١ - ٩٣٢م) وتقلد أعماله الكاتب محمد بن

جنى وقد أنشىء هذا الديوان لمصادرة أملاك قائد الجيش مونس المظفر ، وذلك اثناء تأزم العلاقات بين الخليفة المقتدر وبين قائد الجيش مؤنس فى عام ٣١٩ هـ/٩٣١ م . وفى أعقاب تأزم العلاقات استغل الوزير ذلك وأصدر أوامره " بقبض أملاك مؤنس وضياع أسبابه " ، (١٦٣) وقد نال اعجاب الخليفة ما أقدم عليه الوزير الحسين بن القاسم وارتفعت منزلته عنده فأصدر أمره بأن يلقب بـ " عميد الدولة " وأمر أن يضرب لقبه على العملة (١٦٤).

ومن الملاحظ أن هذه الدواوين الثلاثة كانت مؤقتة تزول بزوال الوزير ، أو بعد عملية تنظيم استلام الأموال من قبل ديوان المصادرين بحيث أن الأموال التى كانت تصادر ، كانت من الكثرة بمكان بحيث لايستطيع ديوان المصادرين استلامها ورعايتها ، فينشأ دواوين مؤقتة تقوم برعاية الأموال المصادرة حتى يتم تسليمها لديوان المصادرين بعد مراجعتها وتنظيم استلامها .

أثر المصادرات على استقرار الملكية :

لقد شكلت المصادرات مصدرا إضافيا من مصادر التوسع فى امتلاك الأسرة العباسية للضياع وتكوين الملكيات الواسعة من الأراضى الزراعية والعقارية فكانت المصادرات سلاح ذو حدين فهى من جهة كانت أكبر خطر على الملكية الفردية " (١٦٥) وكانت تصيب المثرين ولاسيما الموظفين منهم (١٦٦) " فقد منعت تراكم الثروة المفرط لدى بعض الأشخاص وقللت من التباين الإقتصادى (١٦٧) ، هذا من جهة ومن الجهة الأخرى فقد " عمل ذهاب الأموال المصادرة للخزينه على اعادة توزيعها على الموظفين فى الرواتب من جهة واستفادة الشعب منها فى بعض الأحيان عن طريق الخدمات التى تقدمها الدولة لهم " (١٦٨) وقد ذكر جورجى

زيدان بأن نظرة الخليفة تجاه الأموال الفردية المصادرة بأنها حق مغتصب من بيت المال وبذلك فالخليفة يرى ان استرجاعها لايعد جورا ولاإجحافا بحق أولئك المصادرين [١٦٩]، وهذه النظرة التي أوردها جورجي زيدان فيها شيء من المغالطة لأنه ليس كل الأموال المصادرة كانت حقوقا مغتصبة من بيت المال فقد لمسنا من خلال العرض السابق ان المصادرات طالت اقواما لايمتون الى الدولة بصلة لارسمية ولاخلاف ذلك ، امثال مصادرة التجار واقرباء واهل واولاد المصادرين وغيرهم فقد وصلت المصادرة لدرجة التعسف غير المعقول ، فقد أقدم الوزير الخصيبي (٣١٣-٣١٤هـ/ ٩٢٥ - ٩٢٦ م) على مصادرة اموال الناس وقال صاحب كتاب الصلة في ذلك " ولم يدع أحد مالاأحس به الا أخذه بأتعس مايكون الأخذ " [١٧٠]

ففي مجال الاعتداء على الملكيات الفردية ، نرى ان التاجر ابن الجصاص تعرض للمصادرة مرتين الأولى عام ٢٩٦هـ / ٩٠٨ م والثانية عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، وفي كلا الفترتين صودرت تجارته وممتلكاته ، ففي المرة الأولى أخذ منه ماقيمته (١٦،٠٠٠،٠٠٠) دينار [١٧١] وفي المرة الثانية لم يبق له من الأموال شيئا سواء المنقولة او غير المنقولة وفي عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صودرت املاك احد التجار بسبب مالوحظ عليه من فضل فيماابتاع من الضياع . [١٧٢]

وفي عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م صودرت اموال القهرمانة فاطمة "وأخذ ماعندها من مال " [١٧٣] وفي عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م صودرت أملاك القهرمانة أم موسى واستخرج منها مليون دينار .

وهناك من تعرض للمصادرة من الوزراء بغير حق ، وقد شهدت بذلك جل المصادر وهو الوزير علي بن عيسى بن الجراح ، فقد تعرض للمصادرة ولنهب املاكه

وتعرض للتعذيب والطرد من بغداد لا لأنه نهب واختلس من بيت المال وانما لانه حاول ان يسد عجز الدولة المالي من خلال التنظيمات الداخلية والتي تقضي باسقاط بعض المصروفات والنفقات التي لايرى ضرورة لها ، فوقف الخدم والحشم واهل البلاط في وجهه فوشوا به عند الخليفة ، فتعرض للمسألة وهو ولايستحق ذلك (١٧٥) ، وفي مجال الاعتداء على الاملاك الفردية نرى ان الوزير ابن الفرات قد نهبت دوره وامواله ، هو وابنه وزوجته وكاتبه اكثر من مرة بل تقريبا ثلاث مرات حتى قيل " لم يأخذ من أحد من الوزرا؟؛ قبله ولابعده مثل ذلك ". (١٧٦)

وفي عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م تعرضت ثروة الراسبي للاعتداء والمصادرة وكان مقدارها (١٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار بالاضافة الى آنية الذهب والفضة والخيل والبغال وانواع الأقمشة (١٧٧) ، وفي عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م تعرضت املاك الوزير حامد بن العباس للمصادرة والنهب والاعتدا وعلاوة على ذلك فقد حياته (١٧٨) ، وشمل الاعتداء على املاك الأطباء، فقد اعتدى الوزير ابن مقلة على ضياع الطبيب بختيشوع وباعها بثمن بخس مع انها تساوي اكثر من عشرة ملايين دينار(١٧٩) .

وازاء الهروب من خطر المصادرات نشأت سنن غير مرغوب فيها منها ان من خاف على ماله لجأ الى حيلة ليخفوا ثروتهم عن العيون فمثلا اودعت الاموال عند اشخاص لايشتبه فيهم فقام الوزير ابن الفرات بوضع امواله عند القاضي ابي عمر (١٨٠) كماوضع كاتبه (٧٠٫٠٠٠) عند أناس آخرين (١٨١) .

ومن السنن غير المرغوبة ، نشأت عادة دفن النقود ، وكانت من أخطر الامور التي جرت وبالا مدمرا على الأقتصاد العباسي ففي عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، عندما صودر التاجر ابن الجصاص و " حفرت داره فوجدت له في بستانه أموال

جليلة مدفونة في جرار خضر وقماقم مرصعة الرؤوس فحملت بهيئتها الى دار المقتدر " (١٨٢) وفي عام ٣١١ هـ / ٩٢٣م اعترف الوزير حامد بن العباس انه دفن (٥٠٠,٠٠٠) دينار (١٨٣) ، ووجد له في بئر المستراح ببغداد (٤٠٠,٠٠٠) دينار (١٨٤) ، وكان المتمردون في عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م قد أخرجوا من تربة السيدة ام المقتدر بالرصافة (٦٠٠,٠٠٠) دينار حيث كانت مخبأة هناك (١٨٥).

" وكان لدفن النقود أثر اقتصادي سيء ، اذ فقدت بذلك كميات كبيرة من النقود الذهبية والفضية بوفاة أصحابها ونتج عن ذلك حجز كميات كبيرة من النقود للتداول مما يؤدي إلى عرقلة الحركة التجارية وإلى اضعاف نمو المؤسسات الصيرفية " (١٨٦) ، وتشير عادة دفن النقود الى حالتين :

الأولى : أن المجتمع لم يعد يدرك تماما أهمية تشغيل الأموال ، وهذا يبدو أنه غير وارد بحكم كون العرب تجارا منذ الأزمنة القديمة .

الثانية : عدم استقرار أحوال الدولة العباسية (خلال حكم المقتدر) وهذا واردبلاشك لعدم وجود الزمن والاطمئنان . " وفي كلا الحالتين شل للحركة التجارية ". (١٨٧)

وماقيل عن الأملاك العقارية ، يمكن أن يقال عن الأموال النقدية فيظهر لنا جليا ان المصادرات كانت تتم بطريقة عشوائية ، ولم تكن هناك نسب محددة لمبالغ المصادرة ، ولم تكن حسب قدرة الشخص المالية فقد يدفع الشخص المصادر جزءا من المبلغ مقدما ويكتب خطوطا بالمبالغ المتبقية تدفع على شكل دفعات مقسطة ، فقد صودر ابن الفرات في عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م على مبلغ (٧٠٠,٠٠٠)

دينار ، وكان دخله من ضياعه (١٫٥٠٠٫٠٠٠) دينار فان مصادرته تبلغ ٤٢٪ من دخله واحيانا يضطر المصادر الى بيع املاكه وجميع مقتنياته مثل الوزير حامد ابن العباس عندما صودر عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م . وهذا يعنى ان المصادرة تجاوزت كل الدخل .

ومن خلال العرض السابق يتضح لنا ان المصادرات سببت ارباكا للناس واصبح الكل يخاف على أمواله وممتلكاته ، فقد وصل الحال - كما لمسنا - أن بعض الوزراء كان يصادر أى شخص يحس أن عنده اموال ومن هنا اثرت المصادرات على الملكيات وخاصة من لهم صلة قرابة بالشخص المصادر سواء كانت المصادرة ذات سند شرعى او خلاف ذلك ، فقد لمسنا ان المصادرات طالت فئات لاعلاقة لهم بأجهزة الدولة الرسمية .

الخاتمة :

تعد ضريبة المصادرات من الضرائب التعسفية التى ماانزل الله بها من سلطان والتى كانت تفرض او تؤخذ نظير دوافع سياسة او شخصية او اقتصادية بحته .

- وقد كثرت المصادرات حينما انعدمت وسائل الرقابة المالية فعمت الفوضى الإدارية وتوالت المؤامرات من قبل الوزراء والكتاب والحاشية على بعضهم البعض ، ولم يعد أحد يطمئن على نفسه وماله وتسبب عن هذا حدوث حركات تمردية استهدفت قطع علاقاتها بمركز الخلافة . الامر الذى ادى الى ضياع وحدة الدولة .

- لقد أدت المصادرات الى أمور غير مرغوب فيها فالوزراء والموظفين واعوانهم صاروا مضطرين الى جمع الاموال بوسائل غير مشروعة استعدادا لليوم الاسود (يوم المصادرة والتنكيل).

ثم ان المصادرات ادت الى خلق روح الكراهية والحقد والانتقام ، فكان بمجرد ان يأتى الوزير الجديد الى كرسى الوزارة يبدأ فى تصفية حساباته مع الوزير السابق وأعوانه وخاصه ممن تولى الوزارة لاكثر من مرة فيعود ومعه اعوانه وهم مشبعون بروح الانتقام وهذا بدوره يؤدى بلاشك الى اضطراب الامن وانتشار الظلم ويزيد ايضا فى الاحقاد والضغائن ، وحبك المكائد للايقاع بالخصوم ومن هنا تولدت روح الكراهية والانتقام .

- لقد ادت المصادرات الى الاعتداء على الملكيات الفردية ونهبت اموال الناس فى عهود بعض الوزراء وتسلط آخرون على ممتلكات وعقارات المصادرين حتى ان الامر قد امتد ليشمل اناسا غير رسميين ليست لهم علاقة بمؤسسات للدولة .

واخيرا لقد اصبحت المصادرة فى عصر الخليفة المقتدرة عادة متبعة يتم بموجبها استخراج الاموال بالقوة والعنف وكان حب المال هو الدافع الى ذلك وان تعارضت اساليبها مع الشرع والعرف والاخلاق .

" الهوامش والتعليقات "

(١) صالح العلى : التنظيمات الإجتماعية والإقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى ص ١٢٤ .

(٢) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٦ .

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ ٧ ، ص ٢١٦.

(٤) الذهبى : دول الاسلام ، جـ١ ص ١٣١ .

(٥) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٣٢٨ ، ابن دحية : النبراس ، ص ١٠٩.

(٦) عن موضوع فساد نظام الوزارة يمكن الاطلاع على أهم ماكتب فى ذلك .
الصابى : الوزراء مسكويه :تجارب الأمم ، جـ١ ، ابن الطقطقا : الفخرى

(٧) عريب : الصلة ص ٤١ ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٦٧ .

(٨) مسكويه : تجارب الأمم جـ١ ، ص ٢٦ / ٢٧ / ١٣٧ . عريب : الصلة ، ص ٧٢ . الصابى : الوزراء ، ص ٤٠ / ٦٩ / ٧٠ .

(٩) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٦٥ .

(١٠) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٢٩٢ . التنبيه ، ص ٣٢٧ .

(١١) ابن منظور : لسان العرب ، جـ٤ ، ص ٤٤٧ .

(١٢) الرازى : مختار الصحاح . ص ٣٥٨ .

(١٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ١ ، ص ٢٢٠.

(١٤) جورجي زيدان : التمدن الإسلامي ، جـ١ ، ص ٤١٢ .

(١٥) الصابي : الوزراء ، ص ٤٤ . مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ،ص٨

(١٦) السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٦ / ٢٨٧ .

(١٧) الصابي : الوزراء ، ص ١٥٢ ، مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٢٨ ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(١٨) الصابي : الوزراء ، ص ٢٤٥.

(١٩) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٥٧ .

(٢٠) ابن الاثير : الكامل جـ٨ ، ص ٤٣ .

(٢١) ابن الطقطقا : الفخري ، ص ٢٧٣ .

(٢٢) عريب : الصلة ، ص ١٢٧ / ١٢٨ .

(٢٣) جورجي زيدان : التمدن الإسلامي ، جـ١ ، ص ٤١٥ .

(٢٤) محمد بن عبدون ، من الأهواز ، كان من كتاب الدواوين الحذاق ، طمع في منصب الوزارة ، فأدى ذلك الى مصادرته وإبعاده عن الدواوين حتى جاء عهد الخليفة الراضي بالله فقلده دواوين الأزمة ، عريب : الصلة ، ص ٢٧ .

(٢٥) الصابي : الوزراء ، ص ٣١ .

(٢٦) ام موسى : هي بنت العباس بن محمد بن سليمان بن محمد بن ابراهيم الإمام ، والقهرمانة : تعني الوكيل . كان لها اليد الطولى في ادارة شئون الدولة . مجهول : العيون ، ص ٢٣١ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ١٦٦

(٢٧) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٦٧ .

(٢٨) خوله شاكر : بيت المال ، ص١٩٦ .

(٢٩) اليوزبكى : الوزارة ، ص ١٥٧ .

(٣٠) م . س .ن : ص ١٥٨ . ترمز هذه الأحرف الثلاثة إلى اختصار جملة (المصدر السابق نفسه) . م : المصدر . س . السابق . ن : نفسه.

(٣١) مسكويه : تجارب الأمم جـ١ ، ص ١٧.

(٣٢) عريب : الصلة ، ص ٢٢ .

(٣٣) مجهول : العيون والحدائق ، ص ٢٦٥ .

(٣٤) الأزدى : اخبار الدول المنقطعة ، ص ٢١٤ / ٢١٥ .

(٣٥)صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلعاء ، ص ١١٨ .

(٣٦) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٥٥٥.

(٣٧) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٦٢.

(٣٨) الأزدى : اخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٢٧ .

(٣٩) الصابى : الوزراء ، ص ٣٤٢ .

Sourdel : Le Vzirat , Abbassde, L . 448 .

(٤٠) جورجى زيدان : التمدن الاسلامى ، جـ ١ ، ص٤١٦ .

(٤١) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٢٤١ .

(٤٢)الصابى : الوزراء ، ص ٣٨

(٤٣) عريب : الصلة ، ص ٣٩ .

(٤٤) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٤٥) عــريب : الصلة ، ص ١٦٤ ، ولم تطل أيام وزارة الكلوذاني أكـثـر من شهرين وثلاثة أيام .

(٤٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ١٠ ، ص ١٤٥

(٤٧) مسكويه : تجارب الامم ، جـ١ ، ص ١٢٨ .

(٤٨) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٣٨ .

(٤٩) عريب : الصلة ، ص ٦١ .

(٥٠) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٨٠ .

(٥١) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٤٥.

(٥٢) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٦ ، ص ٢٠٢.

(٥٣) الصابي : الوزراء ، ص ٣١ .

(٥٤) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٤٧ .

(٥٥) الصــابي: الوزراء ،ص ٢٤٥، ٢٤٦ ، ابن الجـوزي : المنتظم ، جـ٦ ، ص١٧٣

Bown : Ali Ben Isa . P . 225

(٥٦) ابن الطقطقا : الفخري ، ص ٢٧١ .

(٥٧)مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٤٥ .

(٥٨) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٦ ، ص ٢٠٢ .

(٥٩) م . س . ن : جـ ٦ ، ص ١١٢ .

(٦٠) م . س . ن : جـ٦ ، ص ١٦٧ ، ابن الأثيـــر : الكامل ، جـ٦ ، ص ١٧٢

ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص ١٤٥ .

(٦١) Bown : Ali Ben Isa . P . 198 .

(٦٢) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(٦٣) فهمى عبدالرازق : العامة فى بغداد ، ص ٣٧ .

(٦٤) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(٦٥) عريب : الصلة : ص ١٦٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ١٦٨ .

(٦٦) التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ١ ، ص ٢٥ . ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ٨٢ .

(٦٧) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٤ ، ص ٣١٠ .

(٦٨) السامرائى : الإدارة المالية فى الإسلام ، جـ ٢ ، ص ٥٤١ .

(٦٩) م . س . ن : جـ٢ ، ص ٥٢٩ .

(٧٠) عريب : الصلة ، ص ١٢٧ / ١٢٨ .

(٧١) الصابى : الوزراء ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٧٢) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٨.

(٧٣)صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلعاء ، ص ١١٨ .

(٧٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ١٠ ، ص ١٤٥ .

(٧٥) ابن الجـوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٠٩ . ابن الاثيـر : الكامل ، جـ٦ ص ١٣٩ .

(٧٦) ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٦٧ .

(٧٧) ابن الاثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ١٧٩ . ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٧٠ .

(٧٨) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٥٥ .

(٧٩) م . س . ن : جـ١ ، ص ٢٠٣ .

(٨٠) م . س . ن : جـ١ ، ص ٨٣ .

(٨١) مجهول : العيون والحدائق ، ص ٢٤٧

(٨٢) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣

(٨٣) عريب : الصلة ، ص ١١٢ .

(٨٤) م . س . ن : ص : ٦٩، مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص١٣٣ .

(٨٥) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٨٩ .

(٨٦) Bowen : Ali Ben Isa . P . 198

(٨٧)الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٢٧ ، الصابى : الوزراء ، ص ٢١٠ .

(٨٨) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ٢٠٣ ، وتعد دار الوزير ابن مقله من أجمل الدور العباسية ، وقد أنفق على تشييدها (٢٠٠ر٠٠٠) دينار ، وكان يحيط بها بستانا جميلا ، به مكان خاص لتربية الطيور والحيوانات تضم أغرب وأجمل أنواع الطيور والحيوانات . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٠٩ .

(٨٩) الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٢٧

(٩٠) ابن الأثير : الكامل ، ص ٦ ، ص ١٧٤

(٩١) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢٢٨

(٩٢)مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٠٤

(٩٣) م . س . ن : جـ١ ، ص ١٣٨ .

(٩٤) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٥٥٥، السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٩ .

(٩٥) الصابى : الوزراء ، ص ٣٣ ، ٥٤ ، مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٠٩.

التنوخى : الفرج بعد الشدة ، جـ١ ، ص ١٢٧.

(٩٦) التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ٨ ، ص ٢٥ .

(٩٧) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٨ .

(٩٨)مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٨ .

(٩٩) م . س . ن : جـ١ ، ص ١٤ .

(١٠٠) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ١ ، ص ٢٧١ ، بينما ذكر ابن كثير مبلغا اكبر من ذلك بكثير حيث قدر المصادرة بستة ملايين دينار وأعتمدنا رواية الكتبى لقلة مبلغها الذى كان فى حدود المقبول والمعقول ، لأن ابن كثير قد بالغ فى الرقم ، فهناك فرق كبير بين ستة آلاف دينار وستة ملايين دينار ، ولعل المبالغة فى رقم ابن كثير ناتجة عن خطأ فى نسخ المخطوط ، أو فى طباعته . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص ١٠٧ .

(١٠١) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ص ١٢٦ ، وقد ذكرها مسكويه بنصف

مليون دينار ، جـ١ ،ص ٣٤٠ .

(١٠٢) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٠ ، وقد اختلفت الروايات حول المبالغ المصادرة من ابن الجصاص ، فقد ذكر مسكويه بأنها أربعة ملايين دينار ، جـ١ ، ص ٣٥ ، وذكر عريب بأنها ستة ملايين دينار ، ص ٤٨ ، وذكر ابن الجوزى بأنها كانت ستة عشر مليون دينار ، جـ٦ ، ص ١٢٧ ، وقد اعتمدنا رواية المسعودى لسبقه فى نقل الرواية من جهة ، ثم لتقارب روايات مسكويه ، وعريب مماذكره المسعودى من جهة أخرى ، اما مبلغ ابن الجوزى فيبدو انه قد اشتمل على جميع الأموال المصادرة النقدية والعينية مجتمعة .

(١٠٣ ، ١٠٤) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٦٤ / ٦٦.

(١٠٥) ابن الجوزى ؛ المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٦٧ .

(١٠٦) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٩٣ .

(١٠٧) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٨٠ .

(١٠٨) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٠٢ ، بينما ذكر ابن الجوزى بأن مقدار المصادرة كان (١٫٣٠٠٫٠٠٠) دينار ، المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ ، بالاضافة الى الأموال التى وجدت مدفونة فى بئر المستراح ببغداد ، ومبلغها (٤٠٠٫٠٠٠) دينار ، انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٨٣ / ١٨٤.

(١٠٩) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

Jurgi Zaydan : History of Islamic Civilization .p.210

(١١٠) ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٧١ .

(١١١) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(١١٢) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٠٠ .

(١١٣) الجهبذ : هو الشخص الذى يتولى رئاسة مجلس الجهبذ فى ديوان الخراج والجهبذة ضريبة تعسفية ليس لها أصل ، ويطلق مصطلح الجهبذ على الصراف الصابى : الوزراء ، ص ٣٧ / ٤٨ .

(١١٤) هذه قائمة وجدت فى ديوان المغرب من الدواوين المالية فى عهد المقتدر تضمنت زسماء من تمت مصادرتهم ابان وزارة ابن الفرات الثالثة (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤م) بداء من أحمد بن محمد البسطامى وانتهاء بسليمان بن مخلد .

وردت هذه القائمة فى كتاب الوزراء للصابى ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

Jurgi Zaydan : History of Islamic Civilization .p.211

(١١٥) الصابى : الوزراء ، ص ٤٤ .

(١١٦) م . س . ن : ص ٥٠.

(١١٧) Bowen : Ali Ben Isa . p . 225 .

(١١٨) ابن مخلدون : العبر ، جـ٣، ص ٧٧ .

(١١٩) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٣١ ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٨٩ .

(١٢٠)ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٧٧ .

(١٢١) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٢٨ .

(١٢٢) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٤١ .

(١٢٣) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٤٤ .

(١٢٤) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٤٤ .

(١٢٥) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٤٧ .

(١٢٦) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٤٧ .

(١٢٧) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٥٠ .

(١٢٨) م . س .ن : جـ١ ، ص ٢٠٨ .

(١٢٩) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٢٢٣ .

(١٣٠) م . س .ن : ص ٢٢٣ .

(١٣١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٠٩ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ١١ ، ص ١٦٤ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٧٨٧ ، بينما ذكر مسكويه رقما كبيرا مبلغه (٢٫٠٠٧٫٠٠٠) دينار ، جـ١ ، ص ٢٠٩ . ويبدو أن هذا الرقم فيه مبالغة كبيرة جدا . وقد اعتمدنا المبلغ المثبت فى الجدول نظرا لتواتر رواته واتفاقهم على مبلغه .

(١٣٢) عريب : الصلة ، ص ١٦٧ .

(١٣٣) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢١٢ .

(١٣٤) ابن الاثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٢٠.

(١٣٥) جورجى زيدان : التمدن الإسلامى ، جـ١ ، ص ٤١٦ .

(١٣٦) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ١ ، ص ٢٧١ . التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ١ ص ٢٥ .

(١٣٧) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ، ص ١١٢ .
(١٣٨) الطبرى : تاريخ ، جـ١٠ ، ص ١٤٥ ، حتى ان الخليفة سمح للجند والعوام من نهب دوره ودور أبنائه .
(١٣٩) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٢٦ .
(١٤٠) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٠ .
(١٤١) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦، ص ٧٠.
(١٤٢) عريب : الصلة ، ص ٦١ ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٣٨ / ١٤٧.
(١٤٣) الكراع : من معانى الكراع انه كان يطلق على الخيل والبغال والحمير. الصابى : الوزراء ، ص ٢٣ .
(١٤٤) الصابى : الوزراء ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٠٩ .
(١٤٥) السامرائى : الإدارة المالية فى الإسلام ، جـ٢ ، ص ٥٢٩ .
(١٤٦) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢٠٣ . مجهول : العيون والحدائق ، جـ٤، ص ٣٥١، ابن الأثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٠٩ .
(١٤٧) مسكويه: تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢٣١ .
(١٤٨) صالح العلى : التنظيمات الإجتماعية والإقتصادية فى البصرة ، ص ٢٢٨ .
(١٤٩) صبحى الصالح : النظم الإسلامية ، ص ٣١٧، اليوزبكى : دراسات فى النظم الإسلامية ، ص ١٤٥ .

(١٥٠) السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٩٠ .

(١٥١)مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢١ .

(١٥٢) الصابي : الوزراء ، ص ٣٣٢ .

(١٥٣) بيت مال الخاصة : هو المحل الذي تحفظ فيه أموال الخلفاء وحاشيتهم وقد أنشيء لسدنفقات الخليفة وحاشيته ، ويعتمد في دخله على الضياع السلطانية ، وبعض أموال المصادرات.

بيت مال العامة : هو المحل الذي تحمل إليه الأموال من الأقاليم لتعد للمصلحة العامة .

انظر : الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ٢٩ .

(١٥٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ، جـ٨ ، ص ٢٤ ، السامرائي : المؤسسات الادارية ، ص ٢٩١ .

(١٥٥) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ١٥٥ .

(١٥٦) Sourdel : le Vzirat , Abbassde p . 440 .

(١٥٧) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ٤٢ . السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٩٩ .

(١٥٨) الصابي : الوزراء ، ص ٣٨ .

(١٥٩) م . س .ن : ص ٢٨ / ٣٧ / ٩٢ .

(١٦٠) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٥٤ . الصابي : الوزراء ، ص ٣١١ .

(١٦١) السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٣٠١ .

(١٦٢) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٣٠ .

(١٦٣) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ٢٢٢ ، الهمداني : التكملة ، ص ٨٣ .

(١٦٤) م . س .ن ص ٨٣ . السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٣٠٣ .

(١٦٥) السامرائي : الإدارة المالية في الإسلام ، جـ٢ ، ص ٥٢٣ .

(١٦٦) الصابي : الوزراء ، ص ٣٣٣.

(١٦٧) الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ٢٥٨.

(١٦٨) السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٩٠ .

(١٦٩) جورجي زيدان : التمدن الاسلامي ، جـ٢ ، ص ١٦٦ . الكبيسي : المقتدر ص ٥٥٥ .

(١٧٠) عريب : الصلة . ص ١٢٧ / ١٢٨ .

(١٧١) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٦ ، ص ٨٢ .

(١٧٢) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ٢٣١ .

(١٧٣) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١١٢ .

(١٧٤) م . س . ن : جـ٦ ، ص ١٦٧ .

(١٧٥) وتعرض أخويه ، ابراهيم وعبدالله وابنه للمصادرة ونهب املاكهم ودورهم وحوسبوا محاسبة عسيرة ، انظر : عريب : الصلة ، ص ٦١ . ابن الجوزي : المنتظم جـ٦ ، ص ١٤٧ .

(١٧٦) م .س . ن : جـ٦ ، ص ١٠٩ .

(١٧٧) م . س . ن : جـ٦ ، ص ١٢٦ .

(١٧٨) م . س . ن : جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(١٧٩) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢٠٠

(١٨٠) م . س . ن : جـ١ ، ص ٦٧ .

(١٨١) التنوخي : نشوار المحاضرة ، جـ٨ ، ص ٥٣.

(١٨٢) عريب : الصلة ، ص ٤٨ .

(١٨٣) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ١٠٢ .

(١٨٤) ابن الجوزي : المنتظم جـ٦ ، ص ١٨٣ .

(١٨٥) مجهول : العيون والحدائق ، ص ٣٤٢.

(١٨٦) الدوري : تاريخ العراق الإقتصادي ، ص ٢٦٠ .

(١٨٧) الكبيسي : المقتدر ، ص ٢٤٥ .

المصادر والمراجع

اولا : المصادر :-

ابن الاثير : ابو الحسن على بن أبى الكرم ، محمد بن عبدالكريم الجزرى : (ت ٦٣٠ هـ)" الكامل فى التاريخ " ادارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٣هـ.

ابن الجوزى : ابو الفرج ، عبدالرحمن بن على (ت ٥٩٧ هـ).

" المنتظم فى تاريخ الملوك والامم " حيدر آباد ، ١٣٥٧ هـ

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)

العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر " دار الكتاب اللبنانى ، المطبعة الباسلية ، بيروت ، ١٩٥٧ .

ابن دحية : مجد الدين ، عمر بن حسن بن على (ت ٦٣٣ هـ)

" النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس " تحقيق ، المحامى عباس الغزاوى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٣٦٥ هـ .

ابن شاكر الكتبى : محمد بن احمد (٧٦٤ هـ)

" فوات الوفيات " تحقيق ، محمد محى الدين عبدالحميد ، نشر : مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥١ م .

ابن الطقطقا : محمد بن على بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ)

" الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية " دار بيروت

للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ .
ابن كثير : عماد الدين ابو الفداء ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) " البداية والنهاية فى التاريخ " مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٢ م
ابن منظور : جمال الدين ، محمد بن مكرم بن على (ت ٧١١ هـ)
" لسان العرب " نشر : دار صادر ، ودار بيروت ، طبعة دار لسان العرب بيروت ١٣٨٩ هـ .
الازدى : جمال الدين ، ابو الحسن ، على بن ابى منصور (ت ٦١٣ هـ)
" اخبار الدول المنقطعة ، تاريخ الدولة العباسية " تحقيق د . محمد بن مسفر الزهرانى ، مطبعة العانى ، القاهرة ١٤٠٨
نشر : مكتبة الدار بالمدينة المنورة .
التنوخى : ابو على ، المحسن بن ابى القاسم على بن محمد (ت ٣٨٤ هـ)
" جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة " جـ٨ من مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، مطبعة ابن زيدون دمشق ، ١٩٣٠ م.
التنوخى : " الفرج بعد الشدة " الطبعة الأولى ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٩٥٥ م .
الخطيب البغدادى : ابو بكر ، احمد بن على (ت ٤٦٣ هـ)
" تاريخ بغداد او مدينة السلام " دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٣١ م .
الذهبى : شمس الدين ، ابو عبدالله محمد بن احمد (ت ٧٤٨ هـ)

" دول الاسلام " مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ،١٣٦٤ هـ
الرازي : محمد بن ابى بكر بن عبدالقادر (ت ٦٦٦هـ "
" مختار الصحاح " نشر : دار الكتب العربية ، بيروت .
الصابى : ابو الحسن ، الهلال بن المحسن بن ابراهيم بن زهرون (ت ٤٤٨هـ)
" الوزراء او تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء " تحقيق : عبد الستار احمد فرج ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
الطبرى : ابو جعفر ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) " تاريخ الرسل والملوك "
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م القاهرة
عريب ، بن سعيد القرطبى ، (ت ٣٦٩ هـ)
" صلة تاريخ الطبرى " تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، طبع ونشر : دار المعارف بمصر ، القاهرة .
مجهول : " العيون والحدائق فى اخبار الحقائق " باعتناء دى خويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٧١ م .
المسعودى : ابو الحسن ، على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦ هـ)
" مروج الذهب ومعدن الجوهر " تحقيق : محمد محى الدين عبدالحميد نشر : دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٣٨٣ هـ
المسعودى : " التنبيه والاشراف " باعتناء دى خويه ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٨٣ م .

مسكويه : ابو علي ، أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ)
" تجارب الامم " ، جـ١ ، مطبعة التمدن الصناعية بمصر ، ١٣٣٢ هـ .
الهمداني : محمد بن عبدالملك (ت ٥٢١ هـ)
" تكملة تاريخ الطبرى " تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم طبع ونشر : دار المعارف ، القاهرة .

ثانيا : المراجع :-

ادم متز : " الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى او عصر النهضة فى الاسلام " ترجمة : عبدالهادى ابو ريدة . طبع ونشر : دار الكتاب العربى ، بيروت ومكتبة الخانجى بالقاهرة ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ .
جورجى زيدان : " تاريخ التمدن الاسلامى " مؤسسة خليفة للطباعة منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الثانية (بدون تاريخ) .
خوله شاكر الدجيلى : " بيت المال نشأته وتطوره " مطبعة وزارة الاوقاف بغداد ، العراق ، نشر : جامعة بغداد ، ١٣٩٦ هـ .
الدورى ، عبدالعزيز : " تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى " . دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ م .
السامرائى : حسام الدين : " المؤسسات الادارية فى الدولة العباسية " دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ
السامرائى : " الادارة المالية فى الاسلام ، بحث تطور ملكية الارض فى العصور العباسية " جـ٢ ، طبع ونشر : المجمع الملكى لبحوث

الحضارة الاسلامية الاردن ، عمان ، ١٩٨٩ م .

صالح العلى : " التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الاول الهجرى " طبع ونشر : دار الطليعة ، بيروت الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ م .

صبحى الصالح : " النظم الاسلامية " دار الملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٦ هـ .

صلاح الدين المنجد : " بين الخلفاء والخلعاء " دار الكتاب الجديد ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ م ، بيروت .

فهمى عبدالرازق سعد : " العامة فى بغداد فى القرنين الثالث والرابع الهجريين " الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

الكبيسي ، حمدان عبدالمجيد : " الخليفة المقتدر بالله ، ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ " مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ، ساعدت جامعة بغداد على طبعه ١٣٩٤ هـ .

اليوزبكى ، توفيق سلطان : " الوزارة ، نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية " مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٣٩٠ هـ ، نشر : وزارة التربية والتعليم العراقية .

ثالثا : المراجع الأجنبية :-

Bown , H . " The Life and Times of Ali Ben Isa , The Good Vasier " Cambridge , 1928 .

Sourdel D . : " Le Visirate Abbassides , 749 A936 (132 A 324 de Heqiere " 3 Vol . : Damascus , 1959

Jurji Zaydan : " History of Islamic Civilization " Translated by D . S . Margoliouth , Published by : Nusrat Ali Nasri. Kitab Bhavan . (R ep . 1981) .

لمعان الضوء فى دياجير الظلام
دراسة لعهد الصدر الأعظم محمد كوبريلي
١٠٦٦ هـ - ١٠٧١ هـ
١٦٥٦ م - ١٦٦١ م

تأليف
د . يوسف بن على بن رابع الثقفى
الأستاذ المشارك فى التاريخ الحديث بكلية الشريعة
بجامعة أم القرى
• مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

انتهى عصر القوة والمجد والسؤدد فى الدولة العثمانية بوفاة السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤ هـ - ١٥٦٦ م ، وبدأ بعده عصر الضعف والتفكك ، انتهي العصر الذى وصلت فيه الفتوحات العثمانية الى أواسط أوربا ليأتي بعده عصر التفكك ومنافسات داخلية ساهمت في ضعف الدولة وتدهور الأوضاع فيها حتى أصبحت مستهدفة لأعدائها في الداخل والخارج وأصبحت في موقف الدفاع بعد أن كانت في موقف الهجوم .

أن الفترة الزمنية التي سبقت تولى حكم كوبريلي منصب الصدارة العظمى (*) في حكومة الدولة العثمانية شهدت مآسي كثيرة مؤثرة . فالادارة تفشت فيها مظاهر الفساد وعدم الضبط ، والجيش الذى كان يفتح في أوربا تحت راية الاسلام قادته يتخبطون في المؤامرات الداخلية وتنصيب سلطان وعزل آخر ، والعامل الديني الذى كان المحرك الأول للفتوحات العثمانية في أوربا لم يعد كما كان حيث أصبح رجال الدولة من سادة وجنود مهتمون بجمع المال وملذات الدنيا .[1]

لقد انتشرت الفوضى في الأقاليم ، وسيطر بعض الثوار على مناطق كثيرة ، وازداد نفوذ القواد الانكشاريين ، وأكثر الموظفون من أخذ الرشوة ، وأصبح النفوذ

(*) الصدارة العظمى هي الديوان العالي أو ديوان الهمايوني في اسطانبول والذى يتكون من الوزراء والمفتى ؛ والسلطان لا يجلس معهم في الديوان ولكنه يجلس في مكان يطل منه عليهم ، فيرى ويسمع ما يدور فيه ، وعلى أعضاءه أن يرفعوا أصواتهم ويفصحوا في عباراتهم لكي لا يخفى على السلطان شيء ولكي يعرف الأصلح والأنفع منهم ، ورئيس هذا الديوان يسمى ب " الصدر الأعظم " .

" اتحاف الملوك الألباب " مؤلف مجهول ترجمه من الفرنسية خليفة محمود ص ٣٦٦

(١) اتحاف الملوك الألباب ، لا يعرف مؤلفه ، ترجمه من الفرنسية خليفة محمود ، ص ١٧٩

السلطاني في أيدى نساء القصر ، وزادت أطماع الدول الأجنبية في أملاك الدولة .[1]

يقول المؤرخ العثماني اسماعيل سرهنك :

" قد كانت أحوال الدولة في ذلك الوقت (يقصد النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادى) في أشد المضايقة ، وماليتها على شفا الافلاس ، وجنديتها البرية التي دبت بينها عوامل التحزب والانحطاط، وأباد البنادقة أساطيلها في عدة وقائع واستولوا على عشر جزر مهمة ببحر الأرخبيل ، كل ذلك والدولة في حالة سبات وخمول ، لا تتمكن من رتق فتق الا وقد فتح فيها فتوق ، ولا تقدر على سد شق الا واتسعت منها شقوق حتى قيض الله لها رجلا شهما حازما ، ووزيرا عالي الهمة نادرا ألا وهو كوبريلي محمد باشا ، وكان من الذين حنكتهم التجارب ودربتهم الأيام . ولما قبض على مسند الصدارة شمر عن ساعد الجد لسد الخلل ورأب الصدع فتمكن من مراده لكونه كان يريد في الحقيقة الاصلاح ويبتغي بكل جوارحه النجاح ، وهكذا كل أمر خلصت له النية وحسنت فيه الطوية فأخذ في استئصال عروق الفساد ، والتفت الى توطيد دعائم السلطنة ، وتحسين نظام الادارة، وتقوية الجنود البرية والبحرية ، ، وترتيبها وتدريبها ، وغير ذلك من الأعمال المفيدة والآراء السديدة ، حتي اكتسبت الدولة حياة جديدة وطريقة حميدة » .[2]

---

(١) Kinross . Lord . The Ottoman Centuries . The Rise and Fall Of the Turkish Empire , P. 329

محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٧ / ١٦٨

انه بلا شك أن هذه المقولة تعطينا الصورة واضحة بأن الفترة الذهبية للدولة العثمانية انتهت - كما أشرنا - بوفاة السلطان سليمان القانوني ، وأن الدولة مرت بعد ذلك في دياجير ظلام شديد الظلمة ، ثم لاح للأعيان بريق من الأمل وضوء لامع استمر فترة زمنية قصيرة بالنسبة لعمر الدولة العثمانية ؛ وكان هذا اللمعان على الرغم من قصر مدته له أهمية عظيمة لا سيما وأنه أدى الى تغيرات حاسمة وبناءة في كيان الدولة العثمانية في زمن قياسي ، وهذا ما سنناقشه في هذه الدراسة المتواضعة علنا نصل الى معرفة الدور الحاسم الذي لعبه هذا الوزير - محمد كوبريلي - في الحفاظ على سمعة الدولة العثمانية وتماسكها بعد أن كانت على شفا حفرة الانهيار ، وعلنا نصل أيضا الى توكيد ما ذهبنا اليه في عنونة هذه الدراسة بـ " لمعان الضوء في دياجير الظلام " خاصة وأن ما حققه هذا الوزير من أعمال عظيمة في زمن قياسي جعلني لا أتردد في تسمية فترة حكمه بالعنوان المشار اليه.

ان مما زاد الأمر سوءا في الدولة العثمانية قبل تولي محمد كوبريلي منصب الصدارة هو قيام السلاطين العثمانيين بقتل اخوانهم ومنافسيهم على العرش ، وازدياد القادة العسكريين ، والقضاء على محاولات الاصلاح التي حاول أن يقوم بها بعض السلاطين . ففي عام ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م قتل السلطان وزيره الصدر الأعظم [١] ، وشهد عام ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م اعدام السلطان ابراهيم [٢] وتولية ابنه الصغير محمد الرابع عشر الخلافة العثمانية ، وخلال الثمان سنوات

---

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٣٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٩ ، محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩

الأولى لحكم الصبي(*) عانت الدولة من تمرد وعصيان الانكشاريين والسباهيين . كل هذه الأمور ساعدت على وقوع الدولة تحت التهديد الخارجي ، لا سيما وأن القيادة البحرية العثمانية لم تكن بالمستوى الذى كانت فيه في الماضي ، وهذا ما دفع البنادقة الي التحكم في شواطيء البحر المتوسط كما أرادت . (١)

وفي حقيقة الأمر أن البندقية استغلت تدهور الأوضاع في الدولة العثمانية فحاصرت المضايق وساحل بحر ايجة وموانيء المورة ، وعندما حاولت الدولة العثمانية مقاومتهم انهزم الاسطول العثماني وأسر البنادقة الفا من رجال الجيش العثماني وخسروا ست سفن مسجلين بذلك هزيمة نكراء للعثمانيين . (٢)

لم يتوقف البنادقة عند هذا الحد بل قاموا بتعزيز قواتهم في جزيرة كريت واستولوا على تيندوس (Tenedos) وليمنوس(Lemmos) (٣) من أهم المدن المطلة على المضائق مما أثر على وصول الامدادات الى اسطانبول ، وأساء أيضا الي مشاعر المواطنين العثمانيين،خاصة وأن خطوط الملاحة الموصلة الي مصر

(*) أدلى أحد الذين شاركوا في الاطاحة بالسلطان ابراهيم بتصريح قال فيه : " انه من الممكن مع ارتقاء العرش سلطان حدث أن يشغل الصدارة العظمى رجل حصيف في مقدوره أن يضع الأمور في نصابها " .

" عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ٢١٠ " .

(١) Kinross . Lord . The Ottoman Centuries ; P . 231

على حسون ، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، ص ١٠٥ .

(٢) Ibid . P . 231 . . Shaw . Stanford . History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey . P . 207

(٣) Creasy . Edward . S . History Of the OttomanTurks . P . 276 .

محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣٠ .

وكريت أصبحت مقطوعة وأصبح مضيق الدردنيل مرة ثانية تحت رحمة البنادقة ومغلق أمام البحرية العثمانية . [1]

تحت هذه الأزمات ، وتحت هذه الظروف التي بدأت الأسعار فيها بالارتفاع مع قلة في الطعام ، بزغ فجر جديد عندما بادرت طرخانة (Turkhane) [*] والدة السلطان الصغير المعروفة باسم " السلطانة الوالدة " بدعوة أهم رجل في القصر العثماني لتولى منصب الصدارة العظمى ، ولمباشرة أعماله ، وانقاذ ما يمكن انقاذه مما لحق بالدولة من مآسي ومشاكل داخلية وخارجية . ومما روى عنها في هذا الشأن، قبل تولى محمد كوبريلي هذا المنصب ، أنها راقبت ذات مرة الديوان الهمايوني تحت رئاسة الصدر الأعظم جوردج (GourdJ) البالغ من العمر المائة ، فأدركت أنه مجرد ألعوبة في أيدي الوزراء ، وبعيدا عن الكفاءة الادارية ، مما جعلها تفقد أعصابها وتصيح قائلة : " ياأبتي إن المسألة ليست لحية ذات شعر أبيض أو أسود ، أن المسألة أعمق من ذلك بكثير ، أنها تحقيق الحكم الصالح وابداء الآراء السديدة.[2]

---

(١) جلال يحيى ، تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة ، ص ٤٣٨ .

(*) سيدة روسية الأصل كانت جدة السلطان لأبيه منافسة شديدة على السلطة ونجحت في النهاية

* عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ .

(٢) الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، جـ١ ، ص ٢٣٦ .

هذا الرجل هو محمد كوبريلي نسبة إلى القرية التي تربى فيها واسمها "كوبريلي"(*) ، وقيل أنه ولد في قرية الباتية اسمها " رودنك " : قرب " برات " وذلك عام ٩٧٨ هـ من أسرة غير معروفة ، ثم ذهب إلى قرية " كوبريلي " وسط الأناضول (٢) ، وأخذ فيها تيمارا (**) وتزوج بنت السنجق (***) وهذا هو سبب تسميته نسبة الى القرية التي نشأ بها .

بدأ محمد كوبريلي حياته في القصر العثماني كطباخ ثم أصبح كبير الطباخين ثم رئيسا للخدم ، فمربي للصقور حتى وصل بمساعدة نساء القصر الى وظيفة سنجق في دمشق ثم طرابلس وأخيرا في القدس . (١)

وعندما بلغ السبعين من عمره أو الثمانين كما ذكرت بعض المصادر وبنصيحة من السلطانة الوالدة ، تم تعيينه في منصب الصدارة العظمى التي تعادل رئيس الوزراء اليوم . (٢)

(*) مدينة صغيرة في آسيا الصغري وقد نزح اليها جده من البانيا ، وعرفت عائلته بهذا الاسم نسبة الي هذه القرية :

" Eversly . L . The Turkish Empire " , P . 179

(**) التيمار : هو الاقطاع الأصغر وهو عبارة عن الأرض التي يمنحها السلطان بهدف استثمارها على أن يقدم صاحب التيمار خدمة للدولة مثل ضرائب أوفرسان أو بحارة للأسطول .

أحمد شلبي ، التاريخ الاسلامي والحضارة ، جـ ٥ ، ص ٦٧٥ .

(***) سنجق بمعنى راية ، ويطلق هذا الاسم على حاكم الولاية أو المدينة ، وللسنجق مميزات خاصة منها أن تعزف الموسيقى له أثناء دخوله وخروجه لمقر عمله .

عبد الوهاب بكر ، الدولة العثمانية ومصر ، ص ١٧ .

(١) Eversly . L . The Turkish Empire , P . 180 .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٦ .

وعلى الرغم من وجود بعض المخلصين للدولة والمؤيدين الذين سعوا من أجل تعيين محمد كوبريلي في هذا المنصب ، ألا أن هناك فئات في القصر العثماني وخاصة من ذوى المصالح الشخصية لم يرق لهم هذا التعيين وحاولوا الأشاعة بأن رجل في السبعين من العمر لا يعرف القراءة والكتابة من الصعوبة بمكان أن يمسك زمام الأمور ويدير شئون الدولة بطريقة صحيحة .(١)

ويبدو أن دافع الغيرة هو الذى جعلهم يقولون بذلك لا سيما وهم يعلمون أن محمد كوبريلي مشهود له بالأمانة والسمعة الحسنة خلال سنوات عمله في القصر والمناطق التى حكمها .

ومما يدل على تميزه عن منافسيه وأن ما قام به أعداءه انما كان ذلك بدافع الغيرة فقط ، انه عندما طلب منه أن يشغل هذا المنصب ، رفض قبوله الا بشروط معينة ، خاصة وقد أدرك أن اصلاح الأمور في الدولة سوف لا تكون في وضعها الصحيح ما لم تطلق له حرية العمل دون تدخل السلطان. وكان شروطه التى

---

(١) Norman, Itzkowitz, Ottoman Empire and Islamic Tradition, P. 78.

أوردتها معظم المصادر التاريخية على النحو التالي : [1]

- أن لا يقبل السلطان أو ينفذ أي طلب أو مكاتبات ما لم تكن مصادق عليها من قبله .

- لا يحق لأي موظف أو وزير أن يتصرف في أمرها دون علمه .

- يختص بالنظر في التعيين في الوظائف والغاءها صغرت الوظيفة أم كبرت .

- لا يجوز للسلطان أن يسمع للوشاية ضده من أعداءه وتكون ثقة السلطان فيه مطلقة .

وعلى الرغم من أن هذه الشروط تحد إلى حد كبير من صلاحيات السلطان وأمه الوصية عليه ، الا أن الوضع المتدهور في الدولة - كما يبدو - وعدم وجود الرجل المناسب لهذا المكان جعل السلطانة طرخانه تنقاد لشروطه وتوافق عليها وتقسم أمام الملأ نيابة عن ابنها البالغ من العمر خمسة عشر عاما [2] آنذاك - حسب

---

(١) صدر أسيق كامل ، تاريخ سياسي دولة علية عثمانية ، ص ٩٣ .
عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٧ .
Kinross , Lord , The Ottoman Centuries , P . 180
محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، ج ٦ ، ص ٣٧١ / ٣٧٢ .
(٢) Eversly , L . The Turkish Empir , P . 180

طلبه - أن شروطه ستكون في موضع الاعتبار والتنفيذ . (*)

ثم أعقب ذلك مصادقة مفتي الدولة على هذه الشروط لتأخذ بذلك صفتها الشرعية ، وتم استقبال الوزير في موكب رسمي حتي مقر السلطان الصغير الذى أعلن بدوره موافقته على الشروط وتأييده للقسم الذى أدته أمه . (١)

أطلق على الوزير محمد كوبريلي مسمى الصدر الأعظم ، وبدأ بعد تعيينه يمارس عمله وأصبحت شئون الدولة واصلاحها منذ تعيينه تحت تصرفه بدون تدخل من السلطان وأمه .

وأشار المؤرخون الى أن تجاربه الطويلة في خدمة القيادات الرسمية والصدور العظام ، وتنقله في وظائف مختلفة قبل توليه هذا المنصب ، كل ذلك ساعد على نجاح ادارته ، وجعلته يعرف عن يقين أمراض الدولة التي تعاني منها وكيفية التعامل معها . أيضا ساعدته تجاربه الطويلة على معرفة الرجال وما يقوم به شلة القصر من أعمال فأصبح رجل التجربة والحكمة ، يتصرف بعقل متيقظ ، رحيم

(*) يبدو أنها على يقين من اخلاص وزيرها الجديد ورغبته في خدمة الدولة بعيدا عن تحقيق المصالح الشخصية مقارنة بغيره من الصدور العظام والا لما سارعت بإعلان موافقتها أمام الرعية حتى لا ينفلت زمام الأمر ويرفض العمل .

(١) عبد الرحمن شرف . تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٨ .

Kinross Lord , The Ottoman Centuries , P . 332 .

وقت الرحمة متنبه لمراقبة المستهترين ، وضاربا بيد من حديد على كل من يريد الاخلال بالأمن ، وملتزما بالهدوء وضبط النفس ومعاملة الرعية بالعدالة دون تمييز في المناصب .[1]

بهذه الحيوية وهذه المواصفات وهذه القوة التي تم بها تعيينه في الصدارة العظمى بدأ الوزير محمد كوبريلي يمارس صلاحياته مبتدأ بتصحيح بعض الأوضاع في الداخل ثم الاهتمام بالشئون الخارجية .

وابتدأ اصلاحاته الداخلية بمراقبة المتهاونين في أداء أعمالهم واستبدال من يثبت ادانته دون النظر الى مكانته الوظيفية ، وليس أدل على تنفيذ قراراته أن من بين من وجدهم متهاونين وتم استبدالهم : قائد الأسطول العام / زعيم الجيش الانكشارى / وشيخ الاسلام .[2]

وفي داخل القصر لاحظ أن بعض العاملين يسيئون استخدام وظائفهم فأصلح من شأنهم واستبدل بعضهم بغيرهم ، وكان من أولئك رئيس الخصيان الأسود مستشار والدة السلطان حيث نفاه إلى مصر عندما لاحظ اخلاله بمسؤولياته .[3]

وعندما لاحظ محمد كوبريلي انتشار البدع والخرافات في الأوساط الشعبية ومدى تأثيرها في خلق أزمات داخلية متعددة،رأى أنه من الأفضل العودة الى أيام

---

(١) Norman, Itzkowitz, Ottoman Empire and Islamic Tradition. P. 77 .
Kinross , L . The Ottoman Centuries , P . 332 .

(٢) صدر آسيق كامل ، تاريخ سياسي ، دولة علية عثمانية ، ص ٩٢ .

(٣) Norman Itzkowitz , Ottoman Empire and Islamic Tradition. P . 77 .
Eversly , L . Turkish Empire , P . 180 .
عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٨ / ٦٩

المجد والسؤدد ، الى أيام السلطان سليمان القانوني عندما كانت الشريعة الاسلامية هي الفيصل في المعاملات ، وكانت الدولة ملتزمة بتطبيقها في كل شئون الحياة . واتخذ لتنفيذ ذلك قرار يقضي بالاعدام أو الاعفاء من الوظيفة لكل من يقف ضد هذه الدعوة الاصلاحية .[1]

وشملت اهتمامات محمد كوبريلي الداخلية ميزانية الدولة[2] ، فأمر على الفور بالغاء المصروفات الاضافية وأبقى على الضروريات فقط ، وأمر بمصادرة الأملاك الخاصة (*) وأن تعود فوائدها الى خزينة الدولة .

أما اهتمامات الوزير محمد كوبريلي بشئون الدولة الخارجية والثورات الداخلية فتتمثل في الصراع العثماني / البندقي حول مضيق الدردنيل ، واخضاع التمرد في ترانسلفانيا ، والقضاء على ثورة حسن أباظة .

فبالنسبة للصراع العثماني / البندقي ، فقد أدرك محمد كوبريلي أن خطر البنادقة عليهم زاد عن حده ، وأن الوضع التجاري في دولته سيبقى تحت رحمة الأعداء طالما بقيت المضائق مهددة . ولذلك رأى أن فك الحصار قد لا يحدث ما لم يعيد للاسطول العثماني نشاطه ، وعلى الفور اسند مهمة بناء الاسطول الى القائد طوبال محمد باشا ، والذى تمكن من تجهيز اسطول عظيم مجهز بالأدوات اللازمة .

---

(١) محمد فريد بك المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٠

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٧ .

(*) لم تحدد المصادر هوية هذه الأملاك الخاصة ، وأنني أشك في حدوث مثل هذه الحالة لا سيما اذا أخذنا في الاعتبار رغبة الوزير في العودة الى تطبيق القوانين الاسلامية وعدم معارضة الاسلام للملكية الخاصة : هذا من جانب ، ومن جانب آخر هذه المعلومة لم ترد في المصادر الاسلامية وانما أوردها المؤرخون الغربيون مما يجعلنا نشك في صحة مثل هذه الرواية .

ثم ان الصدر الاعظم محمد كوبريلى قاد الجيش بنفسه ولكن الجولة الاولى لم تكن في صالحه حيث غرق بعض سفنه وهرب البعض الآخر وبدأ البنادقة يقذفون العمارة العثمانية بالمدافع ثلاث أيام بلياليها ، وقرر قائد الأسطول البندقي طوماس موشنجو (Thomas Mocenigo) القبض على الدونا العثمانية الراسية بجوار " قوم برون " . [1]

عند هذه النقطة الحاسمة تقدم أحد رجال البحر العثماني ويدعى محمد وصوب مدفعيته نحو السفينة التي يقودها طوماس فأصاب ، بقدرة الله تعالى ، مخزن بارود في السفينة مما أدى الي انفجارها وقتل القائد ونحو ألفا من أصحابه ، وتضرر كثير من السفن القريبة منها واضطرت البقية العودة تجر أذيال الهزيمة تاركين ورائهم بعض سفنهم . [2]

وتابع الوزير حلاوة النصر ، فأجزل العطايا لرجاله المنتصرين ثم أمرهم بمواصلة الكفاح تحت قيادة طوبان محمد باشا ضد البنادقة حتى تمكنوا من تحرير جزيرتي ليمنوس(Limnos)وتينيدوس(Tenedos) بعد أن حاصروهما نحو ستين يوما .

بعد ذلك عاد الوزير الي اسطانبول وفي عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م بعد أن تم تحرير الجزيرتين عزل طوبان محمد باشا من القيادة وعين محافظا لجزيرة (ساقز)ثم

---

(١) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٨ .

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيه ، جـ ٧ ص ٩٥ / ٩٦ .

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٧٣ .

حصل على " جزاء سنمار " حيث أعدم بسبب اعتقاد السلطان العثماني بأنه قائد جبان. [1]

ومع أن العثمانيين انتصروا على أعدائهم بفضل الله ثم بالاستعداد للمعركة امتثالا لقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[2] ، الا أن المؤرخين الغربيين - كعادتهم - أوردوا خبر انتصار العثمانيين وكأنه بسبب إنفجار مخزن للبارود على احدى السفن الايطالية دون ذكر التصويب بالمدفع العثماني . [3]

وبهذا الانتصار أعيدت الثقة في الجيش العثماني والبحرية العثمانية ، وبهذا الانتصار ازدادت مكانة الصدر الأعظم في أعين الناس ، مما زاد في طموحاته وآماله ، وبدأ يطمع في إعادة تلك الأمجاد القديمة التي دقت فيها الدولة العثمانية أبواب : فيينا " سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م .

وعلى الرغم من هذه الطموحات والآمال ، فان الصدر الأعظم لم يتابع حلاوة النصر على خصومة البنادقة وذلك بسبب موقف جورج راكوزى [*] (George Rakozy) أمير ترانسلفانيا الذى أعلن تمرده على السلطان العثمانى وأعلن استقلال بلاده عن التبعية العثمانية . زد على ذلك أن راكوزى أعلن نفسه زعيما بروتستانتيا واتحد مع ملك السويد وأمراء الأفلاق والبغدان

---

(١) المصدر السابق .

انظر أيضا : عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٧٣ .

(٢) سورة الأنفال ، آية رقم ٦٠ .

(٣) Shaw,S.History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey.p210

Eversly , L . The Turkish Empire . P . 180 .

(*) يلفظ في بعض المصادر العثمانية " راقوجي " . محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق تاريخ عثمانيدة ، جـ ٧ ، ص ١٠٦ ، وراقوكس .

صدر أسيق كامل ، تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

بهدف فتح هنغاريا واقتسام بولندا مع روسيا .[1]

ويبدو أن راكوزى رأى أن ضعف الدولة العثمانية وتدهور الأوضاع فيها قبل وزارة محمد كوبريلي ، قد يساعده على الاستقلال بحكم ترانسلفانيا والغاء التبعية العثمانية ، ولكنه في حقيقة الأمر تناسى أنه أعطى لنفسه حجما أكبر منه الأمر الذى سيؤدى به الى الفشل في النهاية . أضعف الى ذلك أن محاولته هذه جعلت الصدر الأعظم يعطى القضية اهتماما خاصا لا سيما وأن رغبة راكوزى في اقتسام بولندا مع روسيا لا يتفق مع السياسة العثمانية في أوربا ويؤثر في نفس الوقت على العلاقات العثمانية / الأوربية بصفة عامة .

فعندما تعرضت بولندا للغزو من كل جانب بادرت الدولة العثمانية بالتدخل حفظا للتوازن ومحاولة للحد من طموحات راكوزى وأطماعه التوسعية .

وكان أولي المواجهات مع راكوزى في عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م عندما أرسل الصدر الأعظم قوة كبيرة من التتار قام أفرادها بالدخول الى ترانسلفانيا ومن ثم نهبها [*] مما ادى إلى انسحاب راكوزى من وارسو (Warsaw) الى فستولا(Vistula) حيث هزم فيها هزيمة نكراء .

---

(١) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت عثمانية ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٧ .

(*) المصادر الأوربية أمثال " شو " وغيره تشير إلى أن التتار اكثروا في النهب والقتل في مدينة ترانسلفانيا مستغلين زهوة الانتصار . ويظهر أن ذلك مجرد تحامل على الدولة العثمانية ، واذا حدث أن تصرف البعض بعمد أو غير ذلك فلا يجب أن تعمم وتثبت حقائق قد تكون مقصودة ، وبينما المصادر العثمانية لم تشر إلى ذلك .

Shaw, S. History Of the Ottoman Empire and Modren Turkey, P. 210.

اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٧٠ / ١٧١ . محمد فريد بك ،تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣١ . عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية .

ثم كانت المواجهة الثانية بقيادة محمد كوبريلي على رأس حملة كبيرة كان من نتائجها استسلام مدينة فهر فار (Fehervar) عاصمة راكوزى ومن ثم هروبه الى النمسا .

بعد أن تحقق النصر على راكوزى ، رأى الصدر الأعظم الالتزام بسياسة هادئة غير منفرة ، فوافق على الفور أن يكون حكم ترانسلفانيا لأمين خزانة (*) راكوزى ، بارسي ايكوس (Barcsay Ekos) واشترط عليه أن يكون تابعا للدولة العثمانية وأن يدفع أربعين ألف دوكا كل عام ، وأن تكون المواقع الأمامية في ترانسلفانيا تحت تصرف الجيش العثماني [1] ويبدو أن الشرط الأخير قصد به أن تستخدم تلك المنطقة مقرا دائما للقوى العثمانية وتوظيفها لصد أي ثورة أو محاولة استقلال في المستقبل .

ورغم هذه السياسة التي تم بها تعيين بارسي ايكوس ، فقد قامت معارضة من قبل أنصار راكوزى الذين يبدو أنهم لم يتقبلوا طريقة التعيين فما كان منهم إلا اعلان المعارضة خاصة بعد أن حصلوا على تأييد رسمي ومساعدات عسكرية من الهابسبرج واتفقوا على ترشيح أحد قواد راكوزى واسمه كيمنى جانوز (Kemeny Janos) حاكما لهم مستقلا عن الحكم العثمانى . [2]

(*) يبدو أن الوزير محمد كوبريلي نهج هذه السياسة حتى يتقبل الناس هذا القرار بالرضى طالما أن خليفة راكوزى من أتباعه ولكنه من جهة أخرى حقق الهدف حسب الشروط التي اشترطها عليه أثناء تعيينه .

(١) محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده . جـ ٧ ، ص ١٢١ / ١٢٢ اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .
محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣١ .

(٢) Naima , Annales Of The Turkish Empire , Vol . VI, P . 340

ولكن لم يمض وقت طويل ، حتى انطبق على كيمني وأتباعه قول المثل : " يا حافر حفرة السوء حذر تقع فيها " حيث وقف نبلاء ترانسلفانيا ضده وقتلوه ورشحوا مكانه رجلا من بني جنسهم وهو ميخائيل أبا فى والذي حكم ترانسلفانيا مدة عشرين عاما ، التزم خلالها بمبدأ الحياد وأعترف بتبعيته للدولة العثمانية ، وكأن ما حاول القيام به سلفه لم يكن . (١)

وما كاد الوزير محمد كوبريلي ينتهي من أزمة راكوزي حتى يتورط في مشكلة داخلية جديدة وهي ثورة حسن أباظة ، تلك الثورة ،التي عرقلت مساعي الدولة في تثبيت النظام والاستقرار في ترانسلفانيا وساهمت في تأجيل وصول العثمانيين الى جزيرة كريت ومن ثم فتحها .

ظهرت هذه الثورة في سوريا والأناضول من أمهات المناطق الداخلية فى الدولة العثمانية ، وبقيادة رجل كانت له أطماع رئاسية على الرغم من كونه معين على وظيفة سنجق . (٢)

بدأ زعيم هذه المقاومة ، حسن أباظة ، باعلان تمرده ضد السلطان في منتصف عام ١٠٦٨ هـ / ١٦٥٨ م . وطالب أول ما طالب بقتل الصدر الأعظم وتعيين طيار زاده أحمد باشا مقابل تبعيته ومبايعته للسلطان العثماني ، وساعده في مواصلة التمرد انضمام القوات التي أرسلها الصدر الأعظم إليه لاخضاعه ، وكذلك تأييد بعض من حاشية السلطان ممن كانوا يكرهون الصدر الأعظم ويرغبون

(١) عبد الرحمن شرف . تاريخ دولت عثمانية ص ٨١ . على حسون . الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، ص ١٠٥ . كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥١٧ .

Shaw.S. History Of The Ottoman Empire and Modern Turkey, P.210 .

(٢) Naima . Annals Of The Turkish Empire , Vol . 6 , P . 342

في تحقيق المال والمناصب ومآرب أخرى ، خاصة من أولئك الباشوات المعزولين بقرار من الصدر الأعظم .[1]

انخدع حسن أباظة بتأييد بعض رجال القصر فتقدم بجيشه حتى وصل إلى مضيق البوسفور ، مما أدى إلى انتشار الرعب والقلق في نفوس الأهالي في العاصمة ، وتوجيه النداء للصدر الأعظم ، للعودة من ترانسلفانيا ومواجهة هذه الحالة الطارئة .[2]

لم يكن الأمر من السهولة بمكان في نظر الصدر الأعظم ، ذلك أن هذه الحركة المزعجة التي تسببت في توقف الجيش العثماني في الجانب الأوربي ، لابد وأن يعاقب مدبرها أشد العقاب . فما كان من الصدر الأعظم الا أن اتخذ التدابير اللازمة للمواجهة الحاسمة مع الثوار والقضاء عليهم ، ومن ذلك قيامه بصرف رواتب ستة أشهر للجنود مقدما تشجيعا لهم وحثا لهم على الاخلاص والالتزام ، اضافة الى قيامه بارسال الجواسيس حول الأناضول والاتصال ببعض مؤيدي الثورة واغرائهم بالانضمام الى الصدر الأعظم .[3]

كان لهذه التدابير أثرها الفعال على الثوار ، وكانت بمثابة الانذار بالخطر المرتقب ، مما أدى إلى هروب بعض رجال حسن أباظة ، وأدى أيضا الى فوضى واضطراب في صفوف الثوار ، اضافة الى النقص الواضح في المؤن والمواد الغذائية عندهم .

---

(١) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .
Naima , Annals Of The Turkish Empire , Vol . 6 , P . 342
محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، ج ٧ ص ١٣٠ .

(٢) نفس المصادر

(٣) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ، ج ٢ ، ص ٩٥ / ٩٦ .

هذه الأمور التي ظهرت للعيان وأنذرت الثوار بالخطر جعلت حسن أباظة يشعر بالاحباط وأن الأوضاع في غير صالحه ، ونجاحه ميؤس منه ، فبدأ بالانسحاب من بورصه (Bursa) الى أسكى شهر (Eskisehir) وفي نفس الوقت أرسل عدد من رجاله للانضمام إلى القصر والحصول على الرواتب ومحاولة مساعده الصدر الأعظم ، وأخيرا طلب من الصدر الأعظم منحه هدنة لحل المشاكل فيما بينهما . (١)

ويبدو أن هذه المحاولات اليائسة من ثائر عاجز عن تحقيق أهدافه لم تحقق تقدما يذكر ، لا سيما وأن الصدر الأعظم أذكى من خصمه وأدرك أن هذه المحاولات ما هي الا حيلة مدبرة لتجنب المواجهة الحتمية وما ينجم عنها من نتائج . وكانت الخاتمة أن تدخل شيخ الاسلام بالنصائح المؤثرة لاباظة واتباعه حتى انضم الى الجيش السلطاني عدد منهم ، ورضى أباظة بتسليم نفسه الى مرتضى باشا بمدينة حلب بعد أن أمنه على نفسه وأتباعه ، الا أنه لم يوف بالعهد بل قتله هو ورفاقه وذلك في أوائل عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م (٢) .

بعد هذه الأعمال والانجازات العظيمة التي حققها في خلال خمسة أعوام ، لم يترك الصدر الأعظم أي فرصة لكل من تسول له نفسه القيام بأى عمل يسيء إلى مصلحة الدولة أو يؤدى إلى عرقلة نشاطها العسكرى ضد أعدائها من الدول

---

(١) المصدر السابق .

انظر أيضا: Shaw , S . History Of The Ottoman Empire and modern Turkey . P . 211 .

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، عثمانيدة ، ج٧ ، ص ١٣٤ / ١٣٥ .

الأوربية . ففي الداخل جواسيسه في كل مكان لمراقبة من يعبث بأمن الدولة ، وفي الخارج ركز اهتمامه على فتح جزيرة كريت وعندما علم بمساعدة الفرنسيين للبنادقة في حماية الجزيرة (كريت) سرا ، اتخذ خطوات فعالة لقطع العلاقة مع فرنسا على الرغم من تلك العلاقات الودية القديمة وعلى الرغم من تلك الامتيازات التى نعمت بها فرنسا في الدولة العثمانية .

ومما يجدر ذكره أن الصدر الأعظم سبق وأن ضبط رسالة مرسلة الى المسيو "دي لاهي" سلمها أحد الفرنسيين الموظفين في بحرية البنادقة وعندما لم يستطع حل رموزها أرسل باستدعاء السفير الفرنسي الذى بدوره لم يأت معتذرا بمرضه فأناب عنه ولده، وعندما سأله الصدر الأعظم لم يراع فى جوابه آداب المخاطبة ، فأمر بسجنه في الحال ، ثم حضر والده ولم يفسر رموز الرسالة كما ينبغي ، فأرسلت فرنسا المسيو "دي بلندل" سفير فوق العادة لمقابلة السلطان وطلبه عزل الصدر الأعظم ، ولكنه لم يسمع له بمقابلة السلطان وقابله الصدر الأعظم ، ولهذا ساعدت فرنسا جزيرة كريت علنا وأرسلت إليها أربعة آلاف جندى غير المتطوعين وأمدت النمسا بالمال هدفا منها لاشغال الدولة العثمانية وانتقاما لمواقفها نحوها . (١)

ومع كل هذه الاهتمامات لهذا الوزير المخلص الا أن الكبر لم يهمله أكثر مما استحق حيث بلغ الخامسة والثمانين من العمر فخاف على الدولة من الضياع من بعده ، فبدأ أول ما بدأ بأخذ موافقة السلطان وأمه على تعيين ابنه أحمد في مكانه بعد موته،لا سيما وأنه دربه في الأعمال الرسمية ورباه تربية خاصة لمهام الوظيفة ؛

---

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ .

أضافة إلى أنه قبل وفاته جعل الطريق ممهدا لابنه ، فالاسطول تم بناءه من جديد ليواكب الأساطيل المعاصرة له والمضائق أبعد عنها خطر الأعداء، والمناوئين والثوار في الداخل والخارج تم الانتصار عليهم وزال خطرهم ، حتى غدت الدولة قوية الجانب متماسكة بعد أن أوشكت على الانهيار .

زد على ذلك أن حرص هذا الوزير واخلاصه لهذه الدولة استمر معه حتى وهو على فراش الموت ، فقبل وفاته في سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ / م [١] ترك للسلطان الوصايا التالية :

- لا تسمع لنصيحة امرأة .
- لا تسمح بأن يصبح المواطن غنيا .
- يجب أن لا تنقص خزينة الدولة على الدوام .
- استمتع بركوب الخيل واجعل الجيش دائما في حركة مستمرة .

واذا نظرنا بعين الاعتبار لهذه الوصايا ، واذا ما حللنا مقاصد هذا الوزير من هذه الكليمات في كل وصية،فاننا بلا شك سنتعرف على الأسباب التي دفعته لذكرها .

ويبدو أن الصدر الأعظم كان تأثر بظروف عصره منذ كان طباخا في القصر حتي وصل الى وظيفة " الصدر الأعظم " .

فالتوصية الأولى التي يوصى فيها بعدم السماع لنصيحة المرأة توحي بتأثره بالأوضاع العثمانية التي كثر فيها تدخل نساء القصر في شئون الدولة ، لا سيما وأنه نفسه مدين في تعيينه كصدر أعظم للسلطانة الوالدة " طرخانة " ، ثم ان بقاء

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٨٢ ، محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٣ .

الموظفين الكبار في مناصبهم كان مرتهن برضاء الحريم السلطاني - زد على ذلك أنه كان يشعر باستحالة ممارسة اختصاصات وظيفته أمام رغبات نساء القصر حيث قال في حديث خاص لأحد أصدقائه : " انهن لا يفكرن إلا في أنفسهن ، ولا يقدرن المسؤولية ، وأن الدولة على وشك الانهيار [٢] .

وعلى الرغم من كون المرأة عاطفية وقد تصدر أحكاما أو تتصرف بما لا يتفق مع الواقع ، الا هذه الوصية تحمل معنى العمومية ، فالنساء لسن على مستوى واحد ، ومثلهن الرجال ، واذا كانت ظروف العصر الذى عاشه الصدر الأعظم أعطاه نوع من الانطباع السيء عن المرأة ، فكم من أمثلة في التاريخ لنساء بلغن القمة في العقل والحكمة والالتزام .

أما التوصية الثانية التي يوصى فيها بأ لا يسمح للمواطن بأن يصبح غنيا ، فهى توصية عقيمة ولا تتفق مع المنطق وليس لها ما يبررها ، وتتعارض مع الشريعة الاسلامية السمحاء ، وللأسف الشديد أن بعض ساسة الدول في القرون الحديثة نهجوا هذا المنهج وكأنهم يطبقون بذلك هذه التوصية على شعوبهم .

والتوصية الثالثة التي تنص على ضرورة بقاء خزينة الدولة غير منقوصة على الدوام ، فهى توصية ايجابية ولها ما يبررها ، خاصة وأن النقص فى خزينة الدولة يشل من قوتها واستمرار ثباتها وتطورها . وقد عاصر الوزير محمد كوبريلي ما عانته الدولة من نقص في مواردها المالية زمن السلطان ابراهيم الأول " ١٠٤٩ هـ - ١٠٥٨ هـ " عندما أسرف هو ورجال البلاط في موارد البلاد المالية وزيدت فئات

---

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٨٣ / ٨٤ .
Eversly . Lord . The Turkish Empire . P . 181 .
(٢) الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ج١ ، ص ٦٠٨ / ٦٣٣ .

الضرائب المقررة واستحدثت ضرائب أخرى لسد نفقات القصر مما أدى الى سخط الرعية وقتل السلطان سنة ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م .

ولذلك لا نستغرب توصيته بهذه الوصية ، وكأنه يريد أن يؤكد على ضرورة الترشيد وعدم الانفاق فى غير اللازم ، وهو ما التزم به أثناء عمله في منصب الصدارة .

أما التوصية الرابعة الخاصة بركوب الخيل وحركة الجيش ، فقد عاش الوزير تجربتها بنفسه عندما كان السلطان محمد الرابع متعلقا بركوب الخيل والقنص تاركا شئون الدولة في أيدى الغير ، ويبدو أن الوزير أراد أن يهتم السلطان بأمور دولته بنفسه ولا يجعل هذه الهواية تصرفه عن ممارسة واجباته الأساسية ، فقد يعتمد على من يسيىء استخدام السلطة في حالة غيابه عنها ، وكان مقصد الوزير فى ذلك جليل وتقديره للأمر عظيم .

وهكذا أيها القارىء الكريم ، أضاف هذا الوزير - محمد كوبريلي - الى انجازاته العملية توصياته الأدبية التي توحي بمدى حرصه على أمن واستقرار الدولة العثمانية حتى بعد وفاته . ولذلك فان الخمس السنوات التى حكم فيها وما شهدته من انجازات عظيمة تعتبر بحق فترة تاريخية مضيئة فى تاريخ الدولة العثمانية . فخلالها قبض على زمام الأمور وقاوم أعداء الدولة في الداخل والخارج حتى أعاد للدولة سالف مجدها ، وخلالها محا آثار الفوضى وأعاد الأمن والنظام وفك الحصار على المضائق واسترجع الجزر من الأعداء حتى أصبحت الدولة في مركز مميز أمام الدول المعاصرة لها بعد أن كانت على وشك الانهيار .

وأخيرا أرجو من القارىء الكريم المعذرة في الخطأ والتقصير فجل من لا يخطىء والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل .

---

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٩ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

- الحديث الشريف

الكتب العربية والمعربة :

- اتحاف الملوك والالباب (لا يعرف مؤلفه).

ترجمه من اللغة الفرنسية خليفة محمود .

- بروكلمان ، كارل .

تاريخ الشعوب الاسلامية . نقله الى العربية نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكى، ط ٦ ، بيروت : دار العلم للملايين ١٩٧٤ م .

- بكر ، عبد الوهاب ،

الدلة العثمانية ومصر فى منتصف القرن الثانى من القرن الثامن عشر ، القاهرة دار المعارف ، ط١ ، ١٩٨٢ م .

-جلال ، يحيى ،

تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة ، الاسكندرية : دار المعارف ، ١٩٨١ م .

- سرهنك ، اسماعيل ،

تاريخ الدولة العثمانية . بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٤٠٨ ه / ١٩٨٨ م .

- شلبي ، أحمد ،

التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ، ١٩٧٧ م .

- الشناوى ، عبد العزيز محمد ،

الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . ثلاث مجلدات ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعه جامعة القاهرة : ١٩٨٠ م .

- عبد الرحمن ، شرف ،

تاريخ دولت عثمانية، اسطانبول : مطبعة سي-باب عالي جاده سنده ١٣٠٩هـ .

- على حسون ،

الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، المكتب الاسلامي .

- كامل ، صدر أسبق ،

تاريخ سياسى دولت عليه عثمانية . جـ ١، مطبعة \أحمد حسان ، ١٣٢٧ هـ .

- محمد فريد بك المحامى ،

تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت : دار الجيل ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

- محمد مراد ،

تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، ط ١ ، مطبعة آمدى ، ١٣٢٩ هـ .

كتب بلغة أجنبية :

- Creasy , Edward . S .

History Of the Ottoman Turks , Beriut , 1961 .

- Eversly , G . J . S . ,

The Turkish Empire : Its Growth and Decay , London , Fisher Unwin Ltd . , 1917 .

- Naima

Annals Of The Turkish Empire , New York: Arno Press , 1973 .

- Norman , I .

Ottoman Empire and Islamic Tradition , New York , Alfred A . Knopf , 1972

- Kinross , Lord .

The Ottoman centuries : The Rise and Fall Of The Turkish Empire , London : Jonathan Cape .

- Shaw , S .

History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey , London : Cambridge University Press .

الكرج والأتراك السلاجقة

فى عهد داوود الثانى

(١٠٨٩ - ١١٢٥ م / ٤٨٢ - ٥١٨ هـ)

دكتور

فايز نجيب اسكندر

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة بنها

الكرج والاتراك السلاجقة

فى عهد داوود الثانى

(١٠٨٩ - ١١٢٥ م / ٤٨٢ - ٥١٨ هـ)

د . فايز نجيب اسكندر

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة بنها

أطلقت قديما على بلاد الكرج[١] اسم «هيركانى» HYRCANIE ، ثم وردت فى اللغة الكرجية تحت اسم «خارطلى» K'ART'LI ، وذكر الكرج أن «خارطلى» اسم مشتق من اسم جدهم الأول «خارطلوس» .وتربط الأساطير الكرجية القديمة بين «خارطلوس» وبين النبى نوح عليه السلام قائلة إنه «ابن طوركوم ابن جومر بن يافث بن نوح» . و«خارطلوس» هذا شقيق «هايك» البطل القومى الأسطورى الذى ينتسب إليه الأرمن[٢] . وقد أطلقت الفرس على بلاد الكرج اسم «كورجستان» GURDJISTAN أي بلاد الكر[٣] . والروس يسمون بلادهم «جروزيا»[٤] . أما المسلمون ، فقد أطلقوا على بلادهم اسم «جرزان[٥]» تارة ، و«مملكة جرجين [٦]» تارة أخرى ، و«خزران»[٧] تارة ثالثة ، و«بلاد الكرج»[٨] تارة رابعة. والاسم الرابع هو الأكثر استخداما فى المصادر الإسلامية . إلا أن اللاتين والبيزنطيين ينفردون بتسمية بلادهم «أيبيريا»[٩] IBERIE وكان سترابون[١٠] (توفى حوالى سنة ٢٥ م) STRABON أول من تحدث عنهم .

أما هيرودوت ، فقد ذكر أن أيبيريا عرفت من قبل باسم «ساسپير»[١١] . وكان الأرمن ، يسمون سكان بلاد الكرج باسم «فرك»[١٢] VIRK ، وبلادهم باسم «فراكتون»[١٣] VRACTUN .

تقع بلاد الكرج - أي أرمينية[١٤] الثانية فى المصدر الإسلامية[١٥] - علي السفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز، حول المجرى الأعلى لنهر الكر KOURA ، أي فى الشمال الغربى لمجموع أرمينية وكانت تحد شمالا أرمينية الثالثة[١٦]. وعلى هذا، فحدودها الشمالية تسير بمحاذاة سلسلة جبال القوقاز؛ أما حدودها الشرقية، فهى تتاخم بلاد داغستان[١٧] الجبلية وسهول أذربيجان، وتحدها جنوبا أرمينية ومقاطعة قرص[١٨] KARS ؛ أما حدودها الغربية، فتطل علي البحر الأسود وتشمل أيضا بلاد الابخاز[١٩] ABKHASIE وجبال القوقاز . وعلى هذا تعد بلاد الكرج من البلدان الرئيسية في منطقة القوقاز[٢٠] .

وتضم بلاد الكرج أساسا واديين خصبين هما :

واد نهر الكر KOURA ووادي نهر ريونة RION . ثم هناك منحدرات الجبال بودياتها العديدة الضيقة والمنخفضة والتي تنساب نحو أنهار سلاسل جبال القوقاز فى الشمال. وهناك أيضا منحدرات جبال القوقاز الصغير وأعالي هضاب أرمينية في الجنوب[٢١] .

وعلي هذا ، سكن الكرج فى أعالى وادي نهر الكر، في اتجاه مصبه عند تفليس[٢٢]، على الضفة اليسري منه، وانتشروا حتى نهر شوروخ[٢٣] (TCHOROKH COROX) نحو ارتانوغ[٢٤] ARTANUJ وحتى مقاطعة مسختي[٢٥] MC'XET'A (MESXET'I) وبلاد الابخاز واللان[٢٦]

ALAINS والصنارية [٢٧] جيران اللان . أما على الضفة اليمنى من نهر الكر، فقد استقر الكرج في وادي كشباى[٢٨] K'C'IA وفى الأراضى التي تنساب مياهها نحو نهر الكر فى اتجاه قرص واكستيك[٢٩] UXT'IK'. وطبقا لما ورد في الحولية الكرجية، كل الأراضي التي تنساب مياهها نحو الجنوب، وتصب فى نهر الرس[٣٠] ARAXE تعد من الأراضي الأرمنية . أما تلك التى تنساب نحو الشمال وتصب فى نهر الكر KOURA، فهى أراضى كرجية[٣١] .

نتيجة هذا الارتباط الوثيق ، يعد الشعب الكرجى أقرب الشعوب القوقازية شبها بالأرمن[٣٢] ، وأوثقها ارتباطا بهم، خاصة خلال العصور الوسطي؛ حتي أصبح يقال بحق أن الكرج والأرمن أخوة . وكان العلامة ابن خلدون خير معبر عن ذلك حين قال: «وكان هؤلاء الكرج أخوة الأرمن[٣٣]» .

ولقد سكن بلاد الكرج أسر عديدة من السلالات الكرجية، فأصبحت منذ الأزمنة الغابرة مقسمة إلي عديد من المقاطعات، أهمها مقاطعة خارطلي K'ART'LI، الواقعة فى وسط بلاد الكرج الشرقية، والتي تعد قلبها النابض. وقد حظيت عاصمتها تفليس TIFLIS باهتمامات المصادر الإسلامية الجغرافية منها والتاريخية[٣٤] . واحتلت المقاطعة وعاصمتها مركز الصدارة بين مقاطعات بلاد الكرج. ويأتي بعدها في المرتبة مقاطعة كاخيتي [٣٥] KAKHETIE ، المقاطعة الثانية في بلاد الكرج الشرقية ، الواقعة شرقي نهر أرجفي [٣٦] ARAGVI ، وشرقى خارطلي علي المنحدرات الجنوبية لجبال القوقاز . ففي الوديان الخصبة في لوري[٣٧] LORI وألزاني [٣٨] ALAZANI ، وخاصة في المناطق الشاهقة الارتفاع، شعر شعب الكرج بالأمن والأمان، فعاش في رغد من العيش[٣٩]، وعمل

فى ظروف اتسمت بالحرية المطلقة[٤٠] .

هذا عن أكبر مقاطعتي بلاد الكرج خارطلي وكاخيتي وأهمها علي الإطلاق.إلا أن هناك مقاطعات أقل منهما أهمية. ففي غرب جبل سورام SOURAM ، تقع مقاطعة إمريثى(IMERET'I(IMERETHIE بعاصمتها كوتاهية (كوتاييس) KOUTAIS الواقعة على نهر ريونةRION[٤١] . وتأتى بعد ذلك مقاطعة منجريلي MINGRELIE الواقعة شمال نهر ريونة علي البحر الأسود، بين مقاطعة إمريثى والبحر الأسود[٤٢]. ثم مقاطعة إجريسى EGRISI الواقعة عند مصب نهر شوروخ بين منجريلي وبلاد الأبخاز[٤٣]. أما مقاطعة سفانيثى SVANETHIE فتقع في الشمال، فى جبال القوقاز[٤٤] . وفى أقصى الغرب تقع بلاد الابخاز[٤٥] ABKHASIE بالقرب من البحر الأسود ، والمجاورة لبلاد اللان ALAINS [٤٦]. وعلي طول الشاطيء ، جنوب نهر ريونة، غربى بلاد الكرج، تقع مقاطعة جروري[٤٧] GRURIE . وفى أعماق جبال القوقاز، تقع كل من مقاطعتى مسختى[٤٨] (MESXET'I (MC'XET'A وسمسخى[٤٩] . SAMSAKHI (SAMC'XE)

بناء على ما تقدم ، فبلاد الكرج متنوعة التضاريس. إذ نجد فيها الوديان الواسعة والخصبة، والغابات الكثيفة المنتشرة فى الوديان الصغيرة الخلابة، إلى جانب المضايق العميقة، والجبال الشاهقة الارتفاع. كذلك تشتهر بلاد الكرج بخيولها الشرقية[٥٠]، وشجاعة فرسانها ، وبسالتهم ، وكرم طباعهم ، وجمال نسائهم [٥١].

ولقد أحب الكرج الحرب والنزال[٥٢] ، ويرجع ذلك أنه طوال تاريخهم إضطروا أن يقاتلوا جيرانهم الأقوياء حفاظا على استقلالهم وحريتهم ، وكبح جماح أطماع

الطامعين فى خيرات بلادهم . ولقد انعكس ذلك على تحية البعض منهم للآخر ، إذ يحيون بعضهم البعض بهذه الأقوال «فليكن النصر حليفك» ، فيرد من يسمع هذه التحية قائلا: «وحليفك أيضا»[٥٣] .

على أية حال ، كان من الطبيعى أن يتطلع المسلمون إلى فتح بلدان القوقاز، بعد أن أصبحت حدود دار الإسلام متاخمة لحدودها، وذلك عقب الفتح الإسلامى لبلاد الجزيرة وآذربيجان . وشهدت الفترة من ٦٤٠م / ١٩ هـ إلى ٦٤٦م / ٢٦ هـ تنازع المسلمين والبيزنطيين السيادة على بلاد ما راء القوقاز . وراحت بلدانها ضحية الاقتتال بين الأسدين، فتأرجحت بين السيادة الإسلامية تارة، والسيادة البيزنطية تارة أخرى . إلى أن تمكن المسلمون فى نهاية المطاف من بسط السيادة الإسلامية عليها بسطا نهائيا وذلك سنة ٦٦١م / ٤١ هـ فى أوائل عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) .

وكان الزعيم الأرمنى البطريق[٥٥] PATRICE ثيودور رشتونى[٥٦] THEODORE RSTUNI أول حاكم عام عينه المسلمون على بلاد الكرج وأرمينية والران[٥٧] وسيوغيا (سيونيك)[٥٨] SIOUNIE وبلاد القوقاز حتى دربند[٥٩] .

ولقد ظلت بلاد الكرج خاضعة للسيادة الإسلامية طالما كانت بلاد الإسلام فى أمن وسلام. أما إذا دب الاضطراب والاقتتال فى أعماقها - كما حدث أيام الفتنة الكبرى[٦٠] ، وعقب وفاة معاوية بن أبى سفيان ، وكذلك أواخر أيام الخلافة الأموية[٦١] - كانت الامبراطورية البيزنطية تنتظر هذه الفرصة السانحة لتعيد بلاد الكرج إلى سيادتها[٦٢]. إلا أن ملوك الكرج البجرانطيين[٦٣] حملوا على عاتقهم

مهمة توحيد البلاد وتزعم حركة الاستقلال بعيدا عن السيادة الإسلامية أو البيزنطية على حد سواء ، ونجحوا بالفعل فى بسط سيادتهم على بلاد الكرج الغربية، بينما ظلت بلاد الكرج الشرقية ، أي خارطلى وكاخيتى وتفليس وضواحيها تحت السيادة الإسلامية[٦٤]. وعين المسلمون أحد عمالهم عليها، وحمل لقب «والى» أو «أمير»، أقام فى العاصمة تفليس. وكان فى آن واحد القائد العسكرى والحاكم العام وقاضى القضاة، أى جمع فى يديه جميع السلطات من عسكرية وتنفيذية تشريعية. وتمركز الجزء الأكبر من جيش المسلمين فى العاصمة ؛ أما بقية القوات، فقد تفرقت فى المدن الكبرى والقلاع الحصينة[٦٥] .

هذه لمحة سريعة موجزة عن بلاد الكرج وخضوعها للفاتحين المسلمين وقد سبق لنا أن أصدرنا كتابا بعنوان «الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج» تناولنا فيه التفاصيل الدقيقة عن هذا الموضوع .

وإذا انتقلنا إلى الاتراك السلاجقة، فنلاحظ أن عشرات المراجع تحدثت عنهم بإفاضة، لكن الذى يهمنا فى هذا البحث ليس تكرار القديم بأسلوب مغاير، لكن الاتيان بالجديد الذى لم يرد ذكره من قبل، والمتمثل فى الاحتكاك الحربى الدائر بين الكرج والأتراك السلاجقة، فقد بدأ أول اقتتال بين الطرفين فى عهد طغرلبك (٤٤٧ - ٤٥٥ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٦٣ م) ، وتواصل بعنف أكثر فى عهد ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) ، وملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م) وقد أفردت لهذا الموضوع بحثا جديدا[٦٦]. على أية حال، خلال عهود السلاطين العظام، رجحت كفة ميزان القوى بشدة لصالح الأتراك السلاجقة. إلا أنه عقب وفاة السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م

استجدت ظروف قلبت موازين القوى لصالح الكرج وملكهم داوود الثانى . فبانقضاء عهد ملكشاه ، انطوت صفحة العصر الذهبى للأتراك السلاجقة، بعد أن مزقت خلافات الزعماء والقادة والأمراء وحدة السلطنة، وتنازع آل سلجوق الملك فيما بينهم وشنوا الحروب المحلية على بعضهم البعض . أما بقية الصفوف الإسلامية ، فكانت أكثر اضطرابا. هذا بينما فشلت جهود المسلمين فى ايقاف زحف الصليبيين فى بلاد الشام والأطراف المقدسة، بعد أن نجح الصليبيون فى ضع ملامح الإمارات اللاتينية وطفقوا يوسعون حدودها وسط الحشد المعادى لهم من الإمارات الإسلامية بالمنطقة. ففى شمال الجزيرة ربضت إمارة الرها الصليبية، وفى انطاكية قامت الإمارة الثانية التى أسسها بوهيمند. وفى بيت المقدس تأسست المملكة اللاتينية التى غدا لها شىء من الزعامة على بقية الإمارات، ثم أخيرا تكونت إمارة طرابلس الصليبية، ليكمل بذلك استقرار الصليبيين ببلاد الشام والأراضى المقدسة. أضف إلى ذلك ظهور إمارة أرمينية الصغرى فى آسيا الصغرى وتعاونها مع الصليبيين طوال عصر الحرب الصليبية[٦٧] . وإلى جانب هذه الإمارة الأرمنية المسيحية ، ظهرت مملكة الكرج الموحدة والتى على حد قول المؤرخ الفرنسى ماريوس كانار MARIUS CANARD كانت ثمرة من ثمار الحروب الصليبية[٦٨] .

وقد نشأت مملكة الكرج نتيجة توحيد مملكتى أيبيريا والأبخاز منذ سنة ١٠٠٨م/٣٩٩ هـ فى عهد الملك بجراط الثالث BAGRAT III ملك الكرج[٦٩] (٩٧٥ - ١٠١٤م/٣٦٥ - ٤٠٥هـ) . وازدهرت هذه المملكة ذات المسحة الأرمنية وقويت فى عهد ملكها داوود الثانى البجراطى الملقب بالبنا[٧٠] (١٠٨٩-١١٢٥م/٤٨٢-٥١٨هـ) DAVITI AGHMACHENEBELI .

حمل داوود الثانى على عاتقه عبئين أولهما : مهمة استعادة الأراضى الكرجية الخاضعة للسيادة الإسلامية؛ وثانيهما: استكمال وحدة بلاد الكرج مكملا بذلك خطوات سابقيه حنا مروشدزى JEAN MARUCHIDZE والقرپلاط [٧١] داوود DAVID LE CUROPALATE . وتحقيقا لأهدافه هذه قام بإعادة بناء مملكة الكرج داخليا قبل مواجهة الأخطار الخارجية. وأدرك بثاقب بصره وبصيرته أن الخطر الخارجى يحتل المرتبة الأكثر أهمية ، إلا أنه لابد له من جبهة داخلية قوية، لذا عمل على إعادة النظام والأمن والأمان فى ربوع بلاد الكرج ، وتوطين القبائل المهجرة من قبل السلاجقة، وإخضاع رجال الإقطاع الثائرين على السلطة المركزية، وكبح جماح رجال الدين الذين لا يقلون خطورة عن رجال الإقطاع. وأهم من هذا وذاك إعادة بناء جيش قوى وإعداده أحسن إعداد حتى يتمكن من مجابهة أعداء بلاده وانظمتهم العسكرية المتقدمة، وأولى ذلك أهمية بالغة [٧٢].

كان الجيش الكرجى قد انخفض تعداده نتيجة الحروب الكرجية السلجوقية المتواصلة . كذلك أصاب الجيش الاقطاعى الضعف والفوضى نتيجة النزاع الدائر بين كبار رجال الاقطاع والسلطة المركزية . وعلاجا لهذا القصور الاستراتيجى قسم العاهل الكرجى جيشه إلى ثلاث فرق: الأولى ، وتشكل حرسه الخاص أى الحرس الملكى، ومهمتها تأمين سلامته وأمنه والمشاركة أيضا فى العمليات العسكرية ذات الأهمية البالغة. وأشرف على تجهيزها بأحسن وأحدث الأسلحة القتالية ولم يفته الاهتمام بتثقيفها [٧٣] .

أما الفرقة الثانية ، فقد كلفت بمهمة الدفاع عن المدن والقرى والقلاع والحصون. ثم تأتى فى النهاية الفرقة الثالثة وهى عماد الجيش وتتشكل من الغالبية الساحقة من

الجنود . أدار داوود الثانى العمليات العسكرية بنفسه، فكان قدو ة لأفراد جيشه. واهتم أيضا بتحليل كل معركة حربية يخوضها ليتكشف مواضع الخلل والقصور ويعمل على علاج الثغرات . وحرص أيضا على إغداق المكافآ ت على المقاتلين الشجعان، بينما أجبر المتخاذلين والمتقاعصين على لبس ا لملابس النسائية ليستعرضهم أمام قواته[٧٤] . .

وبعد أن أتم الملك الكرجى كل هذه الاستعدادات المحسوبة والمدروسة ، قرر اجتياز مرحلة الدفاع والانتقال إلى مرحلة الهجوم، فبدأ بحشد أ كبر قدر ممكن من الأعوان والحلفاء حتى يزيد من تعداد جيشه. وأدرك بعين الفاحص المدقق لمستقبل الأمور والأحداث أنه إذا جند المزارعين فى صفوف جيشه سينعكس ذلك سلبا على الانتاج الزراعى ، وسيؤثر تأثيرا سيئا على اقتصاد البلاد. وتيقن أيضا أن المزارع المجند قليل الخبرة بفنون الحرب والقتال . وبحكمته المعهودة يمم وجهه شطر القفجاق القاطنين شمال القوقاز وفكر فى توطينهم فى بلاده وتجنيدهم فى صفوف جيشه عوضا عن تجنيد المزارعين الكرج . وقد اختار القفجاق لمهارتهم القتالية وحنكتهم العسكرية وقناعتهم فى اشباع حاجياتهم الشخصية . إضافة إلى ذلك ، فإن صلة المصاهرة كانت رابطا قويا فى توثيق العلاقات بين الطرفين فقد تزوج داوود بابنة خان القفجاق المدعو أوتروك OTROK (تسمية المصادر الكرجية (أتاراك شاراجانتين[٧٥] AT 'ARAK - CHARAGANIS - TSE)، كذلك كان الملك الكرجى يدرك تماما أحوال حلفائه المترديه نتيجة ما يعانونه من ضغوط من قبل روسيا وكييف، إذ كان هدف كل منهما هو إبادة القفجاق وطردهم من الأراضى التى كانوا قد احتلوها فيما مضى[٧٦]

في ظل هذه الظروف ، كان من الطبيعى أن يحظى مبعوثو العاهل الكرجى بموافقة القفجاق على عملية التهجير المقترحة، مما شجعه على أن يقوم بنفسه بزيارة باب الأبواب(٧٨) ، ويشرف على عملية تهجير هذه العناصر المتوحشة والمتمرسة على فنون الحرب والقتال إلى بلاده . ولم يكتف داوود بذلك ، بل صالح قبائل الأوسيت OSSETES الواقعة أراضيهم بين بلاد الكرج والقفجاق(٧٩) ، بعد أن احتل كل القلاع الموجودة على طريق عبور القفجاق إلى بلاد الكرج . واتفق أيضا على تجنيد خمسة آلاف من المرتزقة الأوسيت . وقام بتوزيع القفجاق على مختلف مقاطعات بلاده، فأسكن عددا منهم فى خارطلى الداخلية؛ ووطن من تبقى منهم شمال أرمينية وفى مقاطعة إريثى وكلفهم بحراسة الحدود . كذلك أسرع ببناء قلعة حصينة بالقرب من قازبك(٨٠) KAZBEK تتحكم بفضل موقعها الاستراتيجى فى ممرات باب اللان(٨١) PAS DE DARYAL .

على أية حال ، اندمج القفجاق بسرعة بالغة فى بلاد الكرج ، فاعتنقوا المسيحية، وتعلموا لغة وطنهم الجديد، وانصهروا بلا مشقة فى الشعب الكرجى . وكان لهجرة القفجاق ، وإعدادهم ليكونوا جيشا منظما، أثره العظيم فى تقوية الجيش الكرجى وتدعيم مكانته الحربية، فقد بلغ تعداده آنذاك خمسة آلاف فارس من الحرس الملكى وستين ألف مقاتل كرجى إضافة إلى فرق من المرتزقة من الداغستانيين والأكراد وسكان الجبال يتم استدعاؤهم عند الضرورة(٨٢) .

شاءت الأقدار أن أصبح ميزان القوى لصالح العاهل الكرجى عقب وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢م / ٤٨٥هـ . كما سبق أن ذكرنا فأسرع بالانقضاض على كتائب الأتراك السابقة المستقرة فى خارطلى KARTLI ، ونجح فى اجلائهم عن البلاد ،

وأعاد إليها سكانها من الكرج وأوصاهم باعادة بناء اقتصاد بلا دهم المنهار بفعل الحروب ثم قام بمطاردة القبائل الرعوية السلجوقية التى اعتادت أ ن تأتى فى شهر اكتوبر من كل عام إلى وادى متكافارى MTKAVARI - وهو الاسم الكرجى لنهر الكر - فى الأراضى الممتدة من مدينة تفليس حتى برذعة، ومنعها من الرعى فى هذه المناطق .

علما بأن هذه القبائل الرعوية كانت تنسحب فى فصل الربيع من . وادى نهر الكر لتعود ثانية إلى جبال سمخيت SOMKHETIE وإقليم أرارات ARARAT(٨٣) . ثم أعقب ذلك بالامتناع عن دفع الجزية المقررة عليه للسلاجقة وذلك سنة ١٠٩٧م/ ٤٩٠هـ ، وكان معنى هذا اعلان الحرب على عدو بلاده. وقد أدرك خارطليس تسوخوفريبا K'ARTLIS TSKHOVREBA مؤرخ الملك داوود وكاتب سيرته تمام الادراك الأحوال الجديدة التى أحاطت ببلاد الكرج والتى تمكن العاهل الكرجى بمهارة بالغة الاستفادة منها خير استفادة . فقد ربط هذا المؤرخ الفاحص المدقق فى مصدره «سيرة داوود ملك الملوك» TSKHOIREBA MEPHET MEPHISA DAVITISI بين الأوضاع الداخلية فى بلاد الكرج بين الأحوال والمتغيرات العالمية آنذاك . فذكر أن ازدياد قوة عاهله وامتناعه عن دفع الجزية للأتراك السلاجقة تزامن مع الدعوة للحروب الصليبية وتأسيس الامارات الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام وركز فى حديثه على أهمية سقوط كل من انطاكية وبيت المقدس فى أيدى الصليبيين(٨٤).

على أية حال ، بعد هذه الاستعدادات العسكرية الهائلة، استعد داوود لاستخدام آلته العسكرية تحقيقا لمخططاته فى استعادة البلدان الكرجية من الاترا ك السلاجقة

وتحقيق وحدة بلاد الكرج. فبعد أن نجح في اجلاء الاتراك السلاجقة عن خارطلي، استعد لضم كاخيتي KAKHETIE وإريثي [٨٥] ERETHIE ، أي بلاد الكرج الشرقية[٨٦] .

ففي عام ١١٠١م/٤٩٥ هـ تخلص داوود الثاني من نفوذ آل أوربليان ORBELIAN الذين نازعوه السيادة على بلاد الكرج. فقد أسر أمير أوربليان الجسور ليباريت الثالث LIPARIT III ، ثم توفى ابنه وخلفه راتي RATI وذلك في نفس العام ، فحرم الأوربليون من زعمائهم الشرعيين .

وهكذا ساعد الموت الطبيعي لآخر أمراء آل اوربليان، الزعيم الكرجي داوود، على القضاء على مناوئة أهم رجال الاقطاع الكرج له[٨٧] . ثم جاء الدور على الزعيم الاقطاعي الثاني، ألا وهو الأمير الكرجي كويريكيه الرابع KWIRIKE IV وخلفه أغزر ثان الثاني AGHSARTHAN II الخاضعين لسيادة الأتراك السلاجقة. كان على الملك الكرجي أن يجابه آل كويريكيه بالسلاح، فبدأ عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ بالهجوم على كويريكيه الرابع أمير كاخيتي واريثي وهما من أهم معاقل الاتراك السلاجقة؛ وتمكن من الاستيلاء على قلعة زايدارادينى ZEDAZADENI التي تعد أهم قلاعه الحصينة، وتقع بالقرب من مصب نهر ارجفي [٨٨] ARAGVI عند التقائه بنهر الكر، شمال مدينة تفليس . ثم شاءت الأقدار السعيدة أن ثار رجال الاقطاع في كاخيتي واريثي على أغزرثان الثاني خليفة كويريكيه الرابع بسبب فساد أخلاقه وسوء تدبيره للحكم واعتبروه غير جدير باعتلاء العرش على حد قول لوند موفسسيان LEWOND MOVSESIAN في مصدره تاريخ ملوك كويريكيان لورى[٨٩] HISTOIRE DES ROIS

KURIKIAN DE LORI . وانتهى المطاف بأن تحالف كبار رجال الاقطاع فى كاخيتى واريثى وقبضوا على أميرهم وسلموه إلى الملك الكرجى داوود . وبذلك نجح فى ضمهما إلى بلاد الكرج الموحدة، وأسدل الستار نهائيا على أسرة آل كوريكيان[٩٠] .

وهكذا أصبحت الأراضى الكرجية الواقعة تحت سيادة داوود الثانى تمتد من شواطىء البحر الأسود إلى جبال داغستان بعد نجاحه فى ضم بلاد الكرج الشرقية إلى مملكته .

هكذا، نجح داوود الثانى فى افشال مخططات الاتراك السلاجقة وسياستهم الهادفة إلى اضعاف بلاد الكرج حتى تظل خاضعة للسيادة السلجوقية. فقد اتبع ملكشاة منذ سنة ١٠٨٠م / ٤٧٣ هـ سياسة تقضى باشعال نيران الشقاق والفرقة بين الأسرتين البجراطيتين الحاكمتين فى كل من بلاد الأبخاز وخارطلى من ناحية بين أسرة أغزرثان الحاكمة فى مقاطعتى كاخيتى واريثى من ناحية أخرى[٩١] . لكن بسياسته الحكيمة، قوض داوود سياسة الأتراك السلاجقة ، حين نجح فى ضم بلاد الابخاز إلى مملكة الكرج الموحدة عقب وفاة راتى آخر أمراء أسرة أوربليان - كما سبق أن ذكرنا ، ثم استولى على خارطلى وضم كاخيتى واريثى عقب ثورة كبار رجال الاقطاع على أغزرثان الثانى آخر أمراء أسرة كوريكيان وانخراطهم تحت لواء العاهل الكرجى .

وكان من الطبيعى أن تثير هذه التوسعات الإقليمية أفئدة الأتراك السلاجقة الذين أسرعوا بحشد القوى الإسلامية المجاورة لمواجهة الخطر الكرجى المتنامى . ففى ظل هذه الظروف الحرجة تزعم طغرل بن محمد (ت المحرم ٥٢٩ هـ / اكتوبر ١١٣٤م)

أمير كنجة GANDJA [٩٢] والران المعسكر الإسلامى وأعلن الحرب على داوود. ودارت بين المتصارعين معركة ضارية بالقرب من إرتسوخى ERTSOUKHI خرج منها الزعيم الكرجى ظافرا بعد أن تمكن من إلحاق الهزيمة بالتحالف الإسلامى وطرده من كاخيتى واريثى[٩٣] :

عقب هذه الانتصارات التى حققها الجيش الكرجى ، ظلت العاصمة تفليس ورستافى ROUSTAVI والأراضى الواقعة جنوبى خارطلى خاضعة لسيادة السلاجقة . إلا أن داوود لم يركن إلى السكينة، إذ بدأ بتوجيه أولى حملاته على جنوب خارطلى هادفا من وراء ذلك التمهيد للإستيلاء على تفليس حيث تتمركز فيها القوات الأساسية للجيش السلجوقى لكن كان عليه أن يستولى أولا على الأطراف الجنوبية للمدينة . وبالفعل فى سنة ١١١٠ م / ٥٠٤ هـ نجح الجيش الكرجى فى الاستيلاء على شمشفلدى SAMCHVILDE [٩٤] الحصينة . وكان سقوطها هزيمة ساحقة للاتراك السلاجقة، اضطروا بعدها إلى الانسحاب من الأراضى المتاخمة لها. وفى نفس الوقت، تمكن الكرج من احتلال قلعة دزينا DZENA ، واجلاء السلاجقة عن مقاطعة سُمخيت SOMKHETI، والحاق هزيمة بهجوم مضاد قام به السلطان السلجوقى[٩٥] . بعد ذلك واصل الجيش الكرجى زحفه إلى أن وصل إلى بلاد كنجة وضواحيها . ويذكر ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) فى مصدره «ذيل تاريخ دمشق» أن هذه المنطقة عانت الأمرين من عبث وفساد الكرج. وعندما علم بذلك السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه (ت فى ١٤ ذى الحجة ٥١١ هـ / ١١١٨م) حشد لمواجهتهم جيشا وافر العدد، وتمكن من «كفّ أذاهم» ، ونجح فى هزيمتهم وتشريدهم وطردهم خارج البلاد

الإسلامية بعد أن «دوخ بلادهم وأخرب أعمالهم». ثم أمن أهل بلاد كنجة من هجماتهم، وعاد ظافرا غانما إلى بلاده (٩٦).

وعلى الرغم من هذه الهزيمة التى لحقت بالجيش الكرجى، فقد بذل الملك داوود الثانى قصارى جهده لوضع حد للاغارات الموسمية التى كان يشنها الاتراك السلاجقة على الأراضى الواقعة جنوب العاصمة تفليس . ونجح بالفعل فى تحقيق هدفه حين استولى سنة ١١١٥م / ٥٠٩ هـ على قلعة رستافى ROUSTAVI الواقعة جنوب شرق تفليس. وكانت هذه القلعة الحصينة قبل سقوطها فى أيدى الكرج تحمى تحركات الاتراك السلاجقة عبر وادى متكافارى MTKAVARI ويورى (٩٧) YORI.

وفى سنة ١١١٦ م / ٥١٠ هـ تمكن فرسان الكرج أيضا من إجلاء السلاجقة عن قلرجيت(٩٨) KLARDJETH والطايك(٩٩) TAYQ. ثم واصل العاهل الكرجى توسعاته بأن استولى سنة١١١٨م/٥١٢هـ على أجارانى AGARANI، وتوج انتصاره هذا بانتصار على درجة كبيرة من الأهمية حين استولى على قلعة لورى LORI الواقعة على الطريق المؤدى إلى بردودج BERDOUDJ والتى عبرها كان الاتراك السلاجقة يستطيعون الوصول بسهولة إلى مقاطعة سمخيت(١٠٠).

ويعد ضم مملكة لورى إلى مملكة الكرج الموحدة أحد أهم الانتصارات السياسية والعسكرية التى حققها العاهل الكرجى . فبفضل بسط سيادته على هذه المملكة، أصبح الكرج يسيطرون على الطريق من الجنوب حتى بلاد الكرج الشرقية وتفليس، وبذلك قطعوا على الأتراك السلاجقة طريق الوصول إلى تفلبس ومهدوا السبيل لاسقاطها فى قبضتهم. كذلك نجح بدهائه الحربى فى بسط سيادته على الاطراف

والأراضى الواقعة جنوبى تفليس، وقضى على كتيبة سلجوقية كانت تمضى الشتاء على شواطىء نهر الرس، مما جعل الأتراك السلاجقة فى موقف لا يحسدون عليه، بعد أن نجح الكرج فى ضم جنوب خارطلى إلى مملكة الكرج الموحدة. ومع ذلك، فقد ظلت كل من تفليس ودمانيسى DMANISI فى أيدى الأتراك السلاجقة(١٠١) .

بعد هذه الانتصارات الحربية المتواصلة والمتلاحقة ، خطط الملك الكرجى لمرحلة الهجوم الشامل على خصمه العنيد الذى عمل له ألف حساب . ويذكر كاتب سيرته أن عيون السلاجقة كانت ترصد أولا بأول تحركات الجيش السلجوقى، فى حين كان داوود الثانى أكثر مكرا منهم . ففى تحرك غير محتمل ولا متوقع ولكى يخدع جواسيس السلاجقة، زحف بجيشه إلى بلاد الكرج الغربية وذلك سنة ١١٢٠م/٥١٤هـ . وبينما كان الجيش السلجوقى يجتاح الأراضى الكرجية، انقض عليه الجيش الكرجى كالصاعقة، ولم يفلت إلا القليل من السلاجقة لاذوا بالفرار من ساحة القتال .

عقب ذلك ، تسلل الملك الكرجى إلى شروان CHIRVAN(١٠٢) واستولى على مدينة قبالا KABALA . ثم واصل زحفه إلى خارطلى ، لكنه اضطر إلى الانسحاب ثانية إلى شروان(١٠٣) ربما بسبب مقاومة سكان خارطلى له، ورفضهم الخضوع للسيادة الكرجية .

إلا أن العاهل الكرجى لم يركن إلى السكينة، فمنذ شهر فبراير من عام ١١٢٠م / رمضان ٥١٣ هـ حتى شهر يونيو من عام ١١٢١م / ربيع أول ٥١٦ هـ شن الجيش الكرجى هجوما ضاريا على قرى الاتراك السلاجقة الواقعة على الأطراف الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية فيما وراء جبال القوقاز، واحتل بذلك نقاط ارتكاز

الاتراك السلاجقة. ولم يقنع بما حققه من انتصارات بل ضيق الخناق فى نفس الوقت على العاصمة تفليس ذلك منذ أوائل عام ١١٢٠م / شعبان ٥١٣ هـ ، علما بأن تفليس كانت تعانى منذ ما يزيد على أربعة عقود من حالة فوضى وتدهور سياسى عقب زوال نفوذ أسرة بنى جعفر ، التى تولت حكمها ما يقرب من قرنين من الزمان(١٠٤). على أية حال، بعد أن تمكن داوود الثانى من الاستيلاء على مدن وقلاع الأتراك السلاجقة التى تحيط بفريسته، أصبحت العاصمة تفليس محاطة بالجيش الكرجى كإحاطة الدائرة بمعصم اليد، خاصة بعد أن فقد السلاجقة نقاط ارتكازهم الواحدة تلو الأخرى .

ثم واصل الجيش الكرجى شن هجماته الشرسة على قبائل السلاجقة التى اعتادت الرعى فى أحراش بلاد الكرج . فما كان من زعماء هذه القبائل أن أرسلوا يستنجدون بالقوى الإسلامية المجاورة ، وانضم إليهم كبار تجار كنجة وتفليس ودمانيسى . ومثل الجميع أمام السلطان السلجوقى محمود بن ملكشاه (ت فى شوال ٥٢٥ هـ / أغسطس ١١٣١م) الذى بدوره - قد انتابه الفزع لإدراكه مدى خطورة بسط السيادة الكرجية على الأراضى الواقعة فيما وراء جبال القوقاز على حساب الوجود السلجوقى هناك. إزاء ذلك، استعد لتلك المجابهة الحاسمة خير استعداد، وأعد هجوما مضادا(١٠٥) .

هذا بينما وسع داوود الثانى من نطاق مصاهراته السياسية بأن زوج ابنته ثمارا THAMAR لشروانشاه ملك شروان المسلم، وأصبح بذلك صديقا حميما ومناصرا قويا له(١٠٦) . كذلك بفضل سياسته الماكرة هذه ، كسب ود الامبراطورية البيزنطية بعد أن زوج ابنته الثانية كاتا KATA بابن القيصر نقفور برينيوس(١٠٧)

هكذا ، توغل اسفين الكرج في عمق الأراضي السلجوقية، وأحدث تصدعا رهيبا وآثارا مفزعة بين الدويلات الإسلامية الصغيرة المتنافرة .

إزاء هذا الخطر الداهم والساحق والذى كاد يؤدى إلى استئصال الوجود السلجوقى من هذه البقاع، كان لابد من توحيد الصفوف الإسلامية خاصة بعد أن وردت الأخبار سنة ١١٢١م/٥١٥ﻫ «بظهور الكرج من الدروب، وقصدهم بلاد الملك طغرل» الذى كان باسطا سيادته على الران ونتجوان[١٠٨] حتى نهر الرس[١٠٩] والمتاخم مباشرة لحدود بلاد الكرج[١١٠] .

علاجا لهذا الخطر المستشرى على الوجود الإسلامى، أعلن السلطان السلجوقى محمود بن ملكشاه (ت فى شوال ٥٢٥ ﻫ / أغسطس ١١٣١ م) الدعوة للجهاد و«تكاتب الأمراء المجاورون لبلادهم واجتمعوا»[١١١] ، فتحالف كل من الأمير نجم الدين إيلغازى بن أرتق[١١٢] صاحب وأمير حلب وماردين ومؤسس دولة بنى أرتق التركمانية ، والأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة بن مزيد الأسدى[١١٣] أمير الحلة وصهر نجم الدين إيلغازى على ابنته كمارختون[١١٤] ، والملك طغرل بن محمد[١١٥] ملك كنجة والران ، وشمس الدين طغان أرسلان الأحدب حاكم أرزن[١١٦] وبدليس[١١٧] ودوين[١١٨]. وهكذا «كان المسلمون فى عسكر كثير يبلغون ثلاثين ألفا»[١١٩] .

أما الملك داوود الثانى ، فقد استعد لهذه المعركة الفاصلة أحسن استعداد، إذ حشد حسب قول عز الدين بن شداد(ت٦٨٤ﻫ/١٢٨٥م) «خلقا لا يحصى»[١٢٠]. فقد انخرطت فى جيشه جموع من «القفجاق وغيرهم من الأمم المجاورة لهم[١٢١]».

وينفرد المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى (ت ١١٤٤م/٥٣٩هـ) MATTHIEU D'EDESSE والمستشار جلتيرى GALTERII بذكر تعداد وأجناس الجيوش المتحالفة مع الجيش الكرجى. إذ جاء فى هذين المصدرين المهمين أن جيش داوود ضم أربعين ألف من أشجع جنود الكرج وخمسة عشر ألفا من أمهر جنود خان القفجاق وخمسة آلاف من الأوسيت وألفين من الصليبيين وعناصر أخرى متحالفة من الداغستانيين والأكراد وسكان الجبال لم يرد ذكر تعدادها . وذكر جلتيرى أن إجمالى الجيش الكرجى بلغ الثمانين ألف مقاتل(١٢٢) .

هذا عن تعداد جيش المعسكرين المتصارعين ، ويتضح من خلاله أن جيش داوود الكرجى بلغ ما يقرب من ثلاثة أضعاف جيش الأتراك السلاجقة وحلفائهم من الأمراء المسلمين المجاورين .

وإذا انتقلنا إلى العاصمة تفليس، فقد بلغ اضطراب انظمة الحكم فيها مداه، مما دفع الفارقى (ت ٦٨٧ هـ/١٢٨٨م) إلى ذكر أنه « كان كل شهر يلى أمرهم منهم واحد بقوا كذلك مدة أربعين سنة»(١٢٣) وذلك عقب زوال نفوذ أسرة بنى جعفر التى حكمت المدينة طوال ما يقرب من قرنين من الزمان كما سبق أن ذكرنا .

على أية حال ، استغل داوود كل هذه الظروف المواتية أحسن استغلال . فبدأ بممارسة ضغطه العسكرى على تفليس. وكان لابد من وحدة الجيوش الإسلامية لمواجهة المد الكرجى، خاصة بعد أن أسرع الجميع لتلبية نداء الجهاد. وسجل ابن القلانسى(ت ٥٥٥ هـ /١١٦٠م) الفزع الذى استشرى فى صفوف الجيش الكرجى بسبب كثرة اعداد جيوش المتحالفين المسلمين بقوله«فعاد (الكرج) فرقا(١٢٤)» .

فما كان من المسلمين إلا أن تعقبوا فلول الفرق الكرجية المنسحبة ، وضيقوا عليهم

الخناق فى الدروب . لكن الكرج تشجعوا واستداروا لقتال المسلمين ، وتمكنوا من هزيمتهم بعد استشهاد أعداد كبيرة من المجاهدين .

بعد ذلك، قصد الجيش الكُرجى مدينة تفليس حيث قتلوا من فيها [١٢٥]، مما دفع أهالى المدينة - على حد قول الفارقى - إلى إرسال وفد إلى نجم الدين ايلغازى لاستدعائه ليسلموه تفليس ، خاصة بعد أن «ضابقهم(داوود ملك الأبخاز والكرج) مضايقة شديدة» وأصاب مدينتهم الاضمحلال والخراب. كذلك استنجدوا بطغرل ملك كنجة والران ، فأمدهم بجيش مزود بعتاد للدفاع عنهم، لكنه لم ينجح فى إجلاء الجيش الكرجى المحاصر لمدينتهم «وزادت مضايقة الكرج لهم» مما اضطر أهل تفليس بعد طول الحصار المفروض على مدينتهم- إلى أن يتفقوا مع داوود الثانى على «أن يحملوا له فى كل سنة عشرة آلاف دينار، ويكون عندهم شحنة معه عشر (صحتها عشرة) فوارس ، فبقوا على ذلك مدة»[١٢٦] .

إلا أن سكان تفليس خرقوا الاتفاق، إذ أوفدوا سفارة ثانية إلى نجم الدين إيلغازى «يستدعونه ليسلموا إليه تفليس»[١٢٧] . فسار لنجدتهم وبصحبته جيش عظيم، وانضم إليه صهره نور الدولة دبيس بن سيف الدولة صدقة بن مزيد الأسدى ملك العرب صاحب الحلة، وكذلك شمس الدولة طغان أرسلان بن الأحدب صاحب أرزن وبوليس ودوين الذى تسلل إلى تفليس من الشرق مصطحبا معه القاضى علم الدين بن نباتة وولده علم الدين أبو الفتح الكبير والوزير أبو تمام بن عبدون. ووصل المتحالفون المسلمون إلى أرزن الروم[١٢٨] ، وأتخذ الجميع طريق ثرياليت[١٢٩] THRIALETH واتفقوا على أن تجتمع الجيوش الإسلامية على باب تفليس[١٣٠] . أما الملك طغرل ، فقد قدم من ناحية كنجة، وسار طغان أرسلان بن

الأحدب من دون؛ وزحف نجم الدين ايلغازى بجيشه إلى مشارف العاصمة تفليس على مقربة نصف يوم من تفليس الجبل[١٣١] أي على مقربة من مرتفعات ديدجورى DIDGORI الواقعة جنوب غرب تفليس حيث دارت المعركة الفاصلة .

هذا عن حشود الجيوش الإسلامية وتحركاتها لمواجهة معركة حاسمة تهدد كيانها ليس فقط فى بلاد الكرج بل فى القوقاز عامة .

أما الملك داوود، فلم يكن أقل استعدادا من الجيوش الإسلامية . إذ يذكر ابن الأزرق (ت ٥٩٠هـ / ١١٩٤م) إنه خرج ومعه ولده وولى عهده ديمترى من الناحية الغربية[١٣٢] «ومعه خلق لا يحصى[١٣٣] »، واتخذ موقعا استراتيجيا إذ كان يحدر عليهم من الجبل وهم فى لحفة»[١٣٤] وقبل وصول جيش الملك طغرل بن محمد ولا شمس الدولة طغان أرسلان بن الأحدب بمن معه، اندلع قتال ضار بين المتصارعين وكانت الجيوش الإسلامية المتقدمة بقيادة نجم الدين إيلغازى وصهره دبيس[١٣٥] . وانفرد ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) - وعنه نقلت معظم المصادر الإسلامية - بذكر أسباب هزيمة الأتراك السلاجقة والجيوش الإسلامية المتحالفة معها، إذ ارجع ذلك إلى خدعة ماكرة استنها ملك الكرج، أدت إلى حدوث فوضى واضطراب فى صفوف المعسكر الإسلامى . فبعد أن اصطف الجيشان المتصارعان استعدادا للقتال، خرج من بين صفوف القفجاق حلفاء الكرج ما يربو على المائتى رجل، فظن المسلمون أنهم استسلموا، فلم يحترزوا منهم . وبذلك تمكن القفجاق من اختراق صفوف المسلمين دون أن يلحق بهم أذى، وسرعان ما أمطروهم بوابل من النشاب، فاضطربت صفوفهم وظنوا أن هزيمة ساحقة أصابتهم[١٣٦] ، كان ذلك فى الرابع عشر من أغسطس سنة ١١٢١م[١٣٧]/٢٩ جمادى الأولى سنة

٥١٥ هـ في منجليس MANGLISI غربي تفليس[١٣٨] . «وتبع الناس بعضهم بعضا منهزمين ؛ ولشدة الزحام صدم بعضهم بعضا فقتل منهم عالم عظيم»[١٣٩] فتعقبهم الجيش الكرجي وأخذ يطاردهم لمسافة عشرة فراسخ[١٤٠] . «وقتل وأسر من المسلمين ما لا يحصى[١٤١]». ويذكر ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) أنالكرج «أسروا أربعة آلاف رجل»[١٤٢] . وأن نجم الدين إيلغازي عاد هزيما في عشرين فارسا إلى ميافارقين ومعه صهره دبيس، فأقام بها مدة، ثم سار إلى ماردين وأقام بها إلى سنة ست عشرة وخمسائة على حد قول ابن شداد[١٤٣] (ت٦٨٤هـ / ١٢٨٥م). ويذكر ابن الاثير أن حصار تفليس دام إلى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م.[١٤٤] وإنه عندما قارب أهلها على الهلاك، أوفدوا بعثة ضمت قاضي المدينة وخطيبها إلى الكرج طالبين الأمان. «فلم تصغ الكرج إليهما، فأحرقوا بهما (أي أحرقوا القاضي والخطيب) ودخلوا البلد قهرا وغلبة واستباحوه ونهبوه»[١٤٥]. ولم يكتف الكرج بهذه الأعمال الوحشية بل «قتلوا عامة أهلها، وسبوا الذرية»[١٤٦] .

هذا عن تفاصيل سقوط تفليس في المصادر الإسلامية، ومنها نستخلص أن رواية ابن الأثير تعد أكمل هذه الروايات ، وأن معظم المصادر الإسلامية الأخرى إما نقلت عنه نقلا يكاد يكون حرفيا أو اختصرت روايته اختصارا شديدا [١٤٧].

وإذا انتقلنا إلى المصادر الأجنبية، فنلاحظ أنها زودتنا بتفاصيل أدق وأكمل وأكثر إفاضة من المصادر الإسلامية. فقد جاء فيها أن السلطان السلجوقي حشد جيوشا من دمشق وحلب حتى القوقاز وكون اتحادا من الفرس والعرب والأتراك السلاجقة لمواجهة هذا الخطر الداهم، ووضع حد لتفاقمه. وبالغت المصادر الأجنبية مبالغة واضحة في احصاء تعداد الجيوش الإسلامية المتحالفة. فقد ذكر المستشار

جلتيرى ، مستشار إمارة انطاكية GALTERII CANCELLARII ANTIOCHENIفى حوليته «انطاكية الجميلة» ANTIOCHENA BELLA أن تعداد الجيوش الإسلامية بلغ ستمائة الف (١٤٨)؛ بينما جاء فى كل من الحولية الكرجية التى صنفها «خارطلبس تسوخوفريبا» KARTLIS TSKHOVREBA وعنوانها «سيرة الملك داوود ملك الملوك»(١٤٩) وحولية المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى CHRONIQUE DE MATTHIEU أنه كان أربعمائة ألف فقط(١٥٠) . ومن المؤكد أن الأرقام الواردة فى المصادر الأجنبية مبالغ فيها مبالغة واضحة، والهدف من هذه المبالغة إكساب الملك الكرجى داوود الثانى مظهر البطل الاسطورى الذى تمكن من كسر شوكة الاتراك السلاجقة والقضاء على الاسطوره القائلة بأنهم قوم لا يقهرون. هذا بينما ذكرت المصادر الإسلامية فى حديثها عن معركة ديدجورى(١٥١) أن عسكر المسلمين بلغ تعداده ثلاثين الف مقاتل فقط كما سبق أن ذكرنا .

على أية حال فى الثانى عشر من أغسطس سنة ١١٢١م / ٢٧ جمادى الأولى سنة ٥١٥ هـ تسلل المسلمون إلى بلاد الكرج عن طريق ثرياليت رمنجليس وديدجورى وتمكنوا من احتلال تفليس والتمركز فوق مرتفعات ديدجورى DIDGORI الواقعة جنوب غرب العاصمة(١٥٢) . فى حين قاد العاهل الكرجى جيشه المكون من تحالف الكرج والقفجاق والاسيت والصليبيين والداغستانيين والأكراد وسكان الجبال(١٥٣)، واختار ضواحى ديدجورى الواقعة داخل مقاطعة خارطلى لتكون ساحة معركته الأولى. لذا سميت هذه المعركة فى المصادر الأجنبية باسم معركة ديدجورى. وفى هذه المعركة ابتدع الماكر الكرجى حيل حربية ماهرة

تقضى ببث الفوضى والاضطراب فى صفوف التحالف الإسلامى المتراص والمنظم أحسن تنظيم. فقد أصدر أوامره إلى الكتائب الكرجية بالانقضاض على جناحى الجيش الإسلامى، فما كان من الجنود المسلمين إلا أن انطلقوا كالوحوش المفترسة لاقتناص المهاجمين الذين سارعوا بدورهم إلى الانسحاب والاختفاء من ساحة القتال. وطبق داوود هذه الخطة فى كافة الجبهات فى أوقات متقاربة. وفى كل هجمة كان الجيش الكرجى يلوذ بالفرار دون مواجهة الجيوش الإسلامية. وبالفعل، كان لهذا التكتيك الحربى الماكر عواقبه الوخيمة على التحالف الإسلامى، إذ تبددت صفوفه المنتظمة ، وأصيب بنوع من البلبلة والاضطراب ، وصاحب كل ذلك الفوضى العارمة . كان هذا أهم ما أسفرت عنه المعركة الأولى من نتائج(١٥٤) . وفى اليوم الرابع عشر من أغسطس سنة ١١٢١ م / ٢٩ جمادى الأولى سنة ٥١٥ هـ اندلعت المعركة الثانية الحاسمة والفاصلة والتى حددت مصير تفليس. ففى هذا اليوم ، أصدر داوود أوامره إلى كتائب الجيش الكرجى ببدأ عملية المناورة، بحيث يتم ذلك بأن تحارب كل كتيبة على حدة كأنها مستقلة تماما عن باقى فصائل الجيش . بينما ترأس بشخصه كتيبة تضم نخبة مختارة من أحسن الفرسان المتمرسين على فنون الحرب والقتال. وانتظر الملك الكرجى الفرصة المواتية لخوض غمار معركته الفاصلة. وبالفعل واته هذه الفرصة حين شعر بتطرق اليأس إلى صفوف الجيوش الإسلامية ولاحظ انهيار معنوياته عقب المناورات والاغارات الكرجية المتواصلة. حينئذ قام بتوحيد كتائبه. ويذكر المستشار جلتيرى أن داوود أقام معسكره بين جبلين مغطين بغابات كثيفة فى وادى ديدجورى . ويرجع فضل اختياره هذا الموضع الاستراتيجى إلى عيونه المندسة فى صفوف الجيش الإسلامى والذين اخبروه أن عدوه سيهاجم هذا

الموضع[١٥٥] . وقبيل اندلاع المعركة المصيرية خطب العاهل الكرجي في جنوده خطبة حماسية[١٥٦] جاء فيها : «هيا بنا يا جنود المسيح ! فإذا أبلينا بلاء حسنا ، سنضع حدا ليس فقط لأخطار ومصائب هؤلاء الأعداء الأشرار ، لكن أيضا ستتمكن من القضاء عليهم قضاء مبرما . لقد طرأت على ذهني فكرة أعرضها عليكم، وسيكون من بين نتائجها الحفاظ على كرامتنا وسلامتنا في آن واحد. فلنرفع أيدينا إلى السماء، متضرعين إلى الله عز وجل الذي نحبه من أعماق قلوبنا، طالبين منه الموت والاستشهاد في ميدان القتال بدلا من الفرار مخذولين. ولكي نقضي على أي تفكير شيطاني يدفعنا إلى الهرب من ساحة الوغى، اقترح أن نسد بواسطة كتل الأخشاب السميكة الممرات التي دخلنا عن طريقها إلى هذا الوادي (أي وادي ديدجوري) . وهكذا ، دون أن يتطرق الخوف أو الاضطراب إلى قلوبنا، سنخوض بشجاعة منقطعة النظير معركة فاصلة مع عدونا. وستكون المواجهة وجها لوجه وجسداً لجسد حتى لا يتجرأ على مواجهتنا ثانية»[١٥٧] .

والجدير بالملاحظة أن مصنف «انطاكية الجميلة» لجلتيري انفرد - دون غيره من المصادر - بذكر خطاب داوود السالف الذكر . كذلك يعد أهم المصادر الأجنبية والإسلامية على وجه الإطلاق بصدد تفاصيل معركة ديدجوري وفنون الحرب والقتال فيها .

على أية حال ، حظى خطاب داوود الحماسي والمثير للهمم بقبول الجميع، فأسرع العاهل الكرجي بترتيب صفوفه وتنظيمها استعدادا للمواجهة الكبرى التي عمل لها ألف حساب . فوضع في المقدمة مائتين من جنود الفرنج، كانوا قد سبق لهم الانخراط في خدمته، وأوكل إليهم مهمة القيام بالضربات الأولى. إلا أنه نجاة

وعلى غير موعد، فى الجانب الآخر من مدخل وادى ديدجورى، سمع صياحاً عالياً، وضجيجاً مفزعاً لأسلحة ومعدات حربية ، وصهيل خيول. ورأى الجميع الوية ورايات الأعداء، تتقدم مصحوبة بدقات الطبول والكوسات إعلانا عن تدومهم إلى ساحة القتال . وانطلقت هذه الأصوات المفزعة من التلال والوديان المجاورة معلنة الحرب . لكن الملك داوود انتظرهم فى ثبات وخشوع دون أن يتطرق الفزع إلى قلبه وحرص على رفع معنويات جنوده مؤكدا لهم أن باستطاعة جيش صغير العدد أن يحرز انتصارا على جموع غفيرة من الأعداء بفضل الله وحده(١٥٨) . وبمجرد أن أنهى حديثه هذا، انقض عليه جيش المتحالفين المسلمين كالصاعقة مطلقين صيحاتهم المدوية «الله أكبر» وعلى الرغم من هذا الهجوم المباغت تمكن الجيش الكرجى من إحراز نصر على المسلمين الذين انسحبوا فى فوضى عارمة بعد أن تعرض الغالبية العظمى منهم لسيوف جنود الكرج والمتحالفين معهم. واستمرت عملية مطاردة الفارين ثلاثة أيام وتعقبوهم حتى حدود آنى ، وجرح ايلغازى قائد الجيوش الإسلامية فى رأسه ، وفر من ساحة القتال مع قلة قليلة من اتباعه. فقدتمكن من الفرار إلى ماردين سالما بفضل مساعدة صهره دبيس بن صدقة على حد قول جلتيرى(١٥٩) بعد أن نهب لدبيس ثلاثمائة ألف دينار (١٦٠).

هكذا أحرز الجيش الكرجى وحلفاؤه نصرا حاسما على الأتراك السلاجقة وحلفاؤهم فى معركة ديدجورى.وكان لهذا النصر آثاره البعيدة المدى على الشعوب الخاضعة لسيادة السلاجقة، إذ ولد هذا النصر لدى هذه الشعوب الأمل فى إنهاء تبعيتهم لهم. كذلك بدأت تظهر على حلبة السياسة فى الشرق الأدنى الإسلامى أنذاك قوة جديدة يحسب لها ألف حساب ، خاصة بعد أن حققت نصرا حاسما على

السلاجقة. فالبيزنطيون والصليبيون وجدوا حليفا جديدا سيناصرهم ويتحالف معهم في حروبهم المقبلة ضد الأتراك السلاجقة والمسلمين .

على أية حال، عقب هذا النصر الكبير، أسرع الملك الكرجي داوود بالاستيلاء على إمارة تفليس الإسلامية فأحكم عليها الحصار مدة من الزمن، ثم هدم سورها الغربي. وتمكن في نهاية المطاف من الاستيلاء عليها سنة ١١٢٢م /٥١٦ هـ «وجعلها ترسانة سلاحه، ومقر إقامة أبنائه» . وأعادها ثانية عاصمة لمملكة الكرج الموحدة، بعد أن ظلت ما يقرب من أربعة قرون خاضعة للسيادة الإسلامية[١٦١]. وبالاستيلاء على تفليس ، استكمل العاهل الكرجي عملية إعادة الوحدة إلى ربوع مملكة الكرج. ولم يكتف بذلك.بل طمع في مواصلة حرب استرداد الأراضي الخاضعة للسلاجقة وجيرانه المسلمين .

ففي سنة ١١٢٣م / ٥١٧ هـ شن الزعيم الكرجي غارة شرسة على دربند شروان[١٦٢]، وشدد عليها الحصار، . فأسرعت جموع غفيرة من أعيان المدينة إلى السلطان السلجوقي طالبين نجدته[١٦٣] «وشكوا إليه ما يلقون منهم (أي من الكرج) وأعلموه بما هم عليه من الضعف والعجز عن حفظ بلادهم[١٦٤] . فعزم العاهل السلجوقي على نجدتهم ووضع حد لإغارات الكرج. هذا بينما كان داوود الثاني قد تمكن من الوصول إلى شماخي[١٦٥] CHEMAKHA . فنزل السلطان ببستان هناك، فأسرع الجيش الكرجي لنزال جيش السلطان الذي انتابه الفزع الشديد. وأشار الوزير السلجوقي شمس الملك عثمان ابن نظام الملك على السلطان بالانسحاب[١٦٦]. وعندما علم أهل شروان بذلك قالوا للسلطان «نحن نقاتل ما دمت عندنا وإن تأخرت ضعفت نفوس المسلمين وهلكوا». فاقتنع السلطان بأقوالهم

و«أقام مكانه»(١٦٧) وقرر عدم الانسحاب. وقد علق ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م) على أحوال الفزع المنتشر فى صفوف الجيش السلجوقى أحسن تعليق حين قال: «وبات العسكر على رجل عظيم»(١٦٨) . ثم أورد فى موضع آخر أن الفرج جاء من الله إن «ألقى بين الكرج وقفجاق اختلافا وعداوة فاقتتلوا تلك الليلة ورحلوا شبه مهزومين(١٦٩)» . بعد هذه الهزيمة التى منى بها الجيش الكرجى نتيجة الاقتتال بين الحليفين، تمكن السلطان السلجوقى من فتح شروان والاستيلاء على مدينة شماخى وأسر حاكم شروان . ثم أرسل خطاب تهديد إلى ملك الكرج طالبا فيه رد كل ما سبق أن استولى عليه من السلاجقة . فما كان من داوود إلا أن أسرع بالتسلل إلى شروان، وفرض عليها حصارا شديدا ، مما اضطر السلطان السلجوقى إلى الانسحاب منها خوفا من المجابهة . وأعاد داوود شروان إلى ما كانت عليه قبل الفتح السلجوقى . إلا أنه فى سنة ١١٢٤م/٥١٨ هـ رأى بثاقب بصره وبصيرته ضرورة ضمها إلى رقعة بلاد الكرج ، فعين عليها حامية كرجية مكونة أساسا من الارشيين والكاخيتيين أقامت فى مدن وقلاع شروان (١٧٠).

وينفرد متى الرهاوى - دون غيره من المصادر - بذكر اندلاع قتال ضار حدث سنة ١١٢٣م / ٥١٧ هـ بين الكرج والاتراك السلاجقة ، لم يحدد موضعه، نتج عنه قتل جموع لا تحصى من الاتراك السلاجقة؛ مما دفع طغرل (ت المحرم ٥٢٩ هـ / اكتوبر ١١٣٤ م) ملك كنجة إلى حشد جيش ضخم للثأر من الكرج . ويروى أن حاكم كنجة أقام جسرا من السفن على نهر الكر ، ليعبر عليه جنوده البالغ عددهم ستين الف مقاتل. وكانت خطته قائمة على اجتياز نهر الكر والانقضاض على بلاد الابخاز . إلا أنه عندما علم العاهل الكرجى بهذه الحشود ، عبأ جيوشه، ونجح فى

تحطيم جسر السفن الذى أقامه السلاجقة، وبذلك تمكن من تمزيق خصمه إربا على حد قول متى الرهاوى . أما ملك كنجة ، فقد لاذ بالفرار إلى مدينة أوزكند OZKEND ومثل أمام عمه السلطان سنجر طالبا نجدته[(١٧١)] .

ولم يكتف داوود باستعادة بلاد الكرج، بل شجعته انتصاراته المتلاحقة على الاستيلاء على المدن الأرمنية. ففى خلال عام ١١٢٣م/٥١٧هـ تمكن العاهل الكرجى من الاستيلاء على سلسلة من القلاع الأرمنية . ثم بلا تريث ولا تمهل زحف على كولا[(١٧٢)] KOLA وباسيان[(١١٧٣)] BASSIANI وتمكن من الحاق الهزيمة بالأتراك السلاجقة الذين كانوا قد بسطوا سيادتهم على هذه الأقاليم الجنوبية من بلاد الكرج[(١٧٤)].

ثم جاء بعد ذلك دور آنى ANI - عاصمة أرمينية الكبرى - والتى كان قد فتحها من قبل العاهل السلجوقى ألب أرسلان سنة ١٠٦٤ م / ٤٥٦ هـ[(١٧٦)]، وظلت ستة عقود خاضعة لسيادة الاتراك السلاجقة. وقد لعبت مدينة آنى باعتبارها مركزا اداريا وتجاريا كبيرا، ونقطة استراتيجية مهمة للعهدين البجراطى والسلجوقى، دورا بالغ الأهمية فى تاريخ البلاد السياسى والحربى . وقد غدت آنى خلال تلك الحقبة ميدانا للمصادمات الحربية العديدة بين بلاد الكرج من ناحية والأمراء المسلمين الذين ثبتوا مواطىء أقدامهم فى أرمينية من ناحية أخرى . وتوقف على نتائج الصراع بين هذين الطرفين مصير لا مدينة آنى وحدها وإنما معها أيضا مصير مقاطعة أراجدزوتن[(١٧٧)] ARAGADSOTN واقليم شيراك CHIRAK[(١٧٨)] . ولهذا كان استيلاء الكرج على آنى ضربة انزلت لا بأمن وسلامة التجار المسلمين فحسب، وإنما أيضا بالمصالح التجارية للإمارات الإسلامية

فى أرمينية ككل . فبعد أن نجح الملك الكرجى فى الاستيلاء على سبير[179] SPER المطلة على نهر شورروخ والواقعة فى منتصف الطريق بين ارزن الروم[180] وطرابيزون[181]، حمل على عاتقه مهمة الاستيلاء على آنى .

وكانت العاصمة الأرمينية - على حد قول أحمد بن لطف الله منجم باشى فى مصدره «باب فى الشدادية من كتاب جامع الدول » (كتبه حوالى سنة ٥٠٠ هـ /١١٠٧م) - قد آلت منذ سنة ١٠٦٥م / ٤٥٧ هـ إلى أبى الأسور[182] حاكم الران من أسرة بنى شداد الكردية ، إذ تمكن من الاستيلاء على حصن آنى الحدودى وأصلح ما تهدم منه وعمره ورممه، وعين عليه عماله بعد أن «شحنه بالسلاح والذخيرة والميرة والرجال[183] » .

وحتى الربع الأل من القرن الثانى عشر الميلادى كان الشداديون تابعين لسيادة الأتراك السلاجقة. وكان هؤلاء بدورهم حماة الشدادين ومدافعين عنهم فى مواجهة أطماع كل من بلاد الكرج والإمارات الإسلامية المجاورة. بيد أن الحكام الشداديين لم يعبأوا دوما بمصالح أهالى مدينة آنى وقواعد حياتهم وعاداتهم، مما حدى بأهل هذه المدينة إلى الاستنجاد والاستعانة بملوك الكرج. وينبغى أن نضع فى الاعتبار أيضا أن مملكة الكرج كانت لديها خططها ومصالحها واهتماماتها المرتبطة بمدينة آنى، وهى فى زودها عنها وقفت ضد تحالف الأمراء المسلمين حماة أسرة بنى شداد[184]

على أية حال ، يذكر المؤرخ الأرمنى صموئيل الآنى SAMUEL D'ANI فى حوليته CHRONIQUE أنه عقب وفاة الأمير الشدادى مانوتشه[185] MANDOUTCHE سنة ١١١٠م/٥٠٤ هـ خلفه ابنه أبو الأسور . وتصف

المصادر الأرمنية حاكم آني الجديد بأنه كان منخور القوى، ضعيف القلب والعزيمة، جبانا لا يقوى على مواجهة الأخطار والاغارات المحدقة بربوع العاصمة الأرمنية والتي نجم عنها تدمير اقليم شيراك GHIRAK عن بكرة أبيه . فبدلا من أن يسعى أبو الأسور بن مانوتشه إلى رد الهجمات عن مدينته، قرر بيعها إلى أمير قرص KARS نظير مبلغ قدره ستون الف دينار . وعندما شاع هذا الخبر بين الأرمن، انتاب الخوف والفزع زعماء وسكان آني، فأسرعوا بالاستنجاد والاستعانة بالملك الكرجي داوود الثاني، وحثوه على الاستيلاء على مدينتهم وتعهدوا له بمساعدته على تحقيق هذا الهدف(١٨٦) .

إزاء هذا الاستنجاد، حشد الزعيم الكرجي جيشا قوامه ستون ألف فارس، زحف على رأسه إلى العاصمة آني وقام بحصارها من كافة الجهات حسب قول بروسيه BROSSET في كتابه «أطلال من آني» LES RUINES D'ANI . وبفضل مناصرة ومساعدة سكانها من الأرمن وكبار أمراء الاقطاع من آل أوربليان ORBELLIAN وآل ايفانيه IVANE وال زخارى ZAKHARE تمكن العاهل الكرجي من التسلل إلى داخل العاصمة الأرمنية والاستيلاء عليها بعد ثلاثة أيام من حصارها. ولم ينل آني أية أضرار أو خسائر من الأرواح. كان ذلك في شهر أغسطس سنة ١١٢٣م /(١٨٨) جمادى الآخره سنة ٥١٧ هـ . وعين حاكما على العاصمة الأرمنية الأمير الكرجي أبا الحيث ABELHETH وابنه ايفانيه، وخصص لها حامية قوية للدفاع عنها، وعاد ثانية إلى عاصمته تفليس وبصحبته أسيره أبو الأسور والبقية الباقية من أسرة بني شداد الكردية(١٨٩) .

كان لاستيلاء الزعيم الكرجي على العاصمة الأرمنية آني صداه البعيد المدى؛ إذ

كانت المدينة مركزا للحياة القومية والثقافية لأرمينية والأرمن ، وكانت لها مكانتها التجارية إذ تعد من أغنى مدن الشرق الأدنى آنذاك، إضافة إلى أنها كانت قلعة استراتيجية على درجة كبيرة من الأهمية. واستبشر سكانها خيرا عقب تحريرها. وغمرت الفرحة قلب المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى وعبر فى حوليته عن ارتفاع معنويات الشعب الأرمنى عقب إعادة مسجد المدينة إلى كاتدرائية حين قال: «وانتشرت الفرحة البالغة بين أفراد أمتنا خاصة بعد أن رأينا ذلك البناء المقدس يعود ثانية إلى أصحابه الشرعيين» ، ووصف الملك الكرجى بأنه الصديق الوفى للأرمن(١٩٠) .

وأخيرا، انفرد متى الرهاوى دون غيره من المصادر الكرجية والأرمنية والإسلامية على حد سواء بذكر أخبار آخر حلقة من حلقات الصراع الضارى بين الاتراك السلاجقة والكرج فى عهد داوود الثانى. فقد ذكر أخبار حملة تمت قبيل وفاة الملك الكرجى سنة ١١٢٥م/٥١٨ هـ . فقد أورد أن السلطان السلجوقى أعد تحالفا إسلاميا ضم إبراهيم بن سقمان صاحب خلاط، وداوود بن سقمان أمير هنزيط HANTZITH وانضمت إليهما جيوش بعض الأمراء المسلمين المجاورين . احتشدت هذه الجموع الغفيرة وزحفت لاجتياح بلاد الكرج. فأسرع الزعيم الكرجى لقتالهم، ودارت بين الخصمين معركة طاحنة خرج منها داوود الثانى ظافرا بعد أن «طفحت الجبال والوديان بدماء المتحالفين ، وانتشرت روائح جثث القتلى فى كافة ربوع البلاد من أقصاها إلى أقصاها» على حد مبالغة متى الرهاوى. ولم يكتف الجيش الكرجى بذلك بل قام بمطاردة فلول المنسحبين لمدة خمسة أيام (١٩١).

على أية حال، كان للمد الكرجى على حساب الأتراك السلاجقة فى كل من بلاد

الكرج وأرمينية الكبرى صداه المدوى فى ربوع العالم الإسلامى آنذاك، إذ كان لا يقل عن الصدى الذى أحدثته الانتصارات التى حققها الصليبيون فى الشرق الأدنى الإسلامى. إزاء هذا الخطر الكاسح، أسرع وفد من مسلمى القوقاز للمثول أمام الخليفة العباسى فى بغداد ، وتوسلوا إليه لاعلان الدعوة للجهاد ضد الكرج، تماما كما فعل مسلمو بيت المقدس وطرابلس وحلب عندما طلبوا من خليفة بغداد اعلان الجهاد لمواجهة الوجود الصليبى على أراضى المسلمين. إلا أن هذه النداءات لم تأت ثمارها وذهبت سدى[١٩٢] . وهكذا كانت تدور هذه المعارك حامية الوطيس بين الكرج والأتراك السلاجقة وأمير المؤمنين لا يكاد يفعل شيئا. فازداد الكرج قوة وخطرا .

وقبل طى صفحات هذا البحث المتواضع، ينبغى الإشارة إلى أن الملك الكرجى داوود الثانى سبق عصره المتسم بالتعصب الدينى الأعمى حين تسامح تسامحا بالغا فى تعاملاته مع رعاياه من المسلمين والأرمن[١٩٣] المخالفين له فى المذهب الدينى. وعلى هذا، فقد سبق تاريخيا صلاح الدين الأيوبى رائد التسامح الدينى فى عصر الحروب الصليبية .

والملاحظ أن معظم المصادر الإسلامية منها قبل الكرجية أجمعت على أن العاهل الكرجى لم يفرق بين طوائف شعبه من مسلمين ومسيحيين ويهود . فقد أشار إلى ذلك ابن الأزرق الفارقى (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨م) الذى زار مملكة الكرج، وسجل لنا فى تاريخه ما شاهده من نظم وعادات . وتوصل إلى خدمة ملكها ديمترى بن داوود الثانى ، وزار بعض ولايات مملكة الكرج آنذاك مثل آنى والابخاز ودربند فقد ذكر أنه فى سنة ٥٤٩ هـ /١١٥٤م أقام فى تفليس .والتقى

بأحد المسلمين الأسرى منذ أيام حملة نجم الدين ايلغازى سنة ٥١٥ هـ /١١٢١م ، ودار بينهما حديث أورده الفارقى فى مصنفه أشار فيه الشيخ الطاعن فى السن إلى أن أمير بلاد الكرج، وكل من ولى أمر هذه البلاد من قبل كان يحسن إلى المسلمين، وانهم احتلوا مرتبة سامية فى بلاده ويذكر الفارقى أنه عقب استيلاء داوود على العاصمة تفليس ، حرص على أن يؤمن أهلها، ويطيب قلوبهم، ووعدهم بالمعاملة الحسنة، وأسقط عنهم الأعشار والمؤن والأقساط والخراج. وقبل كل شروط مسلمى تفليس وكان من بينها أن لا يعبر بالمدينة خنزير ولا يذبح بها ولا فى سوقها. كذلك روى أن الزعيم الكرجى لم يمح الهوية الإسلامية للعملة الكرجية؛ فقد ضرب لسكان تفليس دراهم عليها اسم السلطان والخليفة فى الوجه الواحد، وفى الوجه الآخر اسم الله واسم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأخيرا يأتى اسمه على جانب من الدرهم الجديد. وأورد كذلك أن داوود نادى فى البلدان الكرجية أن من ألحق الأذى بمسلم سيهدر دمه «وشرط لهم الآذان والصلاة والقراءة ظاهرا، وأن يخطب يوم الجمعة ويصلى، ويدعى للخليفة والسلطان ولا يدعى لغيرهما على المنبر» . أما حمام اسماعيل بتفليس، فقد منع الكرج والأرمن واليهود من دخوله، وجعله قاصرا على المسلمين فقط. واختتم ابن الأزرق حديثه قائلا أن الملك الكرجى أحسن إلى المسلمين غاية الإحسان، وجعل لأهل العلم والدين والصوفية أحسن المنازل، التى فاقت منازل أقرانهم فى البلدان الإسلامية الأخرى(١٩٤) .

كذلك أشار ابن حوقل الذى زار العاصمة تفليس أن ملك الكرج - رغم كونه مسيحيا - كان يعامل المسلمين بالحسنى ، فيحميهم من كل أذى، ويحافظ على إقامة شعائرهم الدينية ، ويحمى مقدساتهم الإسلامية من كل دنس، ويوقد المسجد

الجامع فى تفليس بالشمع والقناديل ، ويزوده بكل احتياجاته ، والآذان فى جميع مساجدها بجهر» . ولاحظ بعين الفاحص المدقق أن المسلمين والكرج يعيشون فى جو يسوده الحب والسلام والأمان ويظلله التسامح الدينى(١٩٥) .

أما القزوينى (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣) فقد ذكر فى مصنفه «آثار البلاد وأخبار العباد» نقلا عن بعض التجار، أن حمام تفليس ، الشبيه بحمامات طبرية «يختص بالمسلمين ولا يدخله كافر ألبته». وفى موضع ثان من مصنفه ، أشار القزوينى إلى حرية ممارسة سكان تفليس لشعائرهم الدينية قائلا: «من أحد جانبى الكر يؤذنون ومن الجانب الآخر يضربون بالناقوس»(١٩٦) . مما يؤكد ما ذكره الفارقى وابن حوقل عن التسامح الدينى السائد فى ربوع بلاد الكرج .

كذلك أشار المؤلف المجهول «للبستان الجامع لتواريخ الزمان» فى حديثه عن وفاة داوود الثانى تحت أحداث سنة ٥١٦ هـ (صحتها ٥١٨ هـ) أنه «هو الذى فتح تفليس، وكان له نظر عظيم فى الإسلام، وجرت له مناظرة مع القاضى الكنجى فى الكلمة هل هى مخلوقة أم قديمة(١٩٧)». أما ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٦٨ م) ، فقد ذكر أن الملك الكرجى كان عادلا فى الرعية، وكان يحضر صلاة الجمعه ويسمع الخطبة ويحترم المسلمين(١٩٨) .

هذا عن التسامح الدينى الذى اتصف به داوود الثانى كما أوردته المصادر الإسلامية ، وقد اتفقت معها أيضا المصادر الكرجية. فقد ذكرت أن الملك الكرجى قام بحماية التجار المسلمين ، وصادق الشعراء والفلاسفة، وعاش المسلمون فى مملكته فى أمن وأمان أكثر من المسلمين المقيمين فى البلدان الإسلامية المجاورة واستمر ذلك فى عهد خلفه ديمترى . وقد أيد ذلك القول ابن الأزرق حين قال : «لقد

كنت أرى لاحترامه للمسلمين ما لو أنهم ببغداد ما احترموا تلك الحرمة»(١٩٩) .

كذلك أشارت المصادر الكرجية إلى انه كان ملما بالعقيدة الإسلامية خير إلمام، وأنه شارك فى المناقشات الفقهية مع قاضى كنجة فيما يتعلق بالأحاديث الشريفة والنصوص القرآنية. وإنه كان يحضر صلاة الجمعة بصحبة ابنه وولى عهده ديمترى. إضافة إلى ذلك كان يوزع الأموال والعطايا على رجال الدين الإسلامى. كذلك أقام مبنى مشتركا ضم شعراء المسلمين والصوفية وأغدق عليه الأموال الطائلة حتى يضمن له الاستمرارية والبقاء. ويذكر مؤلف سيرة الملك داوود انه كان شغوفا بمعرفة كافة الثقافات، ومتبحرا فى علم اللاهوت والفقه الإسلامى، دارسا للتاريخ والفلسفة وعلم الفلك، محبا للشعر الكرجى والفارسى والعربى . وانه حرص على أن يصطحب معه مكتبته الخاصة فى تجواله(٢٠٠) .

على أية حال ، ورث ابنه وخليفته على العرش نفس الخصال الحميدة التى تحث على التسامح مع رعاياه من المسلمين. فقد التحق ابن الأزرق بخدمة ديمترى بن داوود ، وبقى عنده مدة من الزمن. وذكر أنه ذات يوم جمعة، ذهب الملك الكرجى إلى المسجد الجامع بتفليس، وجلس على دكة تقابل الخطيب، وسمع خطبة الجمعة. وبعد انتهاء الصلاة «أطلق برسم الجامع مائتى دينار أحمر» ، ولم يكتف بذلك، بل أغدق الأموال على العلماء، والوعاظ والأشراف والصوفية وحظى كل هؤلاء بتكريمه واحترامه تماما كما كان يفعل والده من قبل(٢٠١) .

وقد اعترف المؤرخ الأرمنى فريدتجوف نانسن FRIDTJOF NANSEN فى كتابه «أرمينية والشرق الأدنى»- L'ARMENIE ET LE PROCHE ORIENT بفضل المسلمين الكرج والحضارة الإسلامية على ازدهار الثقافة

والحضارة الكرجية فى كافة الميادين حين قال: «وعلى الرغم من الاختلاف فى العقيدة، فقد ساهم مسلمو الكرج مساهمة فعالة فى النهوض بالحضارة والثقافة الكرجية فى العديد من الميادين والمجالات(٢٠٢)» .

وهكذا نجح الزعيم الكرجى داوود الثانى فى أن يجعل بلاد الكرج مملكة متحدة متماسكة الأطراف بعد أن ضم إلى ملكه كل جنوبى القوقاز وبلاد الابخاز حتى بحر الخزر، ووطد الأمور، وطمأن النفوس ، ونشر السكينة بين الناس. ونهض بالمملكة وأحياها ، وجعل منها حكومة قوية قادرة على حفظ كيانها . وتوفى فى الرابع والعشرين من يناير سنة ١١٢٥م/١٧ من ذى الحجة سنة ٥١٨ هـ بعد أن كانت له - عند الشعب الكرجى - المسلم منه قبل المسيحى- مكانة مقدسة . وترك لابنه ديمترى من بعده ملكا عظيما، وحكومة قوية . ونسج ولى عهده على منواله، ووضع نصب عينيه قدسية الوطن، والعمل على تقويته، ووجوب المحافظة عليه وعلى وحدته الوطنية فى ظل التسامح الدينى الموروث عن أبيه .

(١) أصدرت أولى كتاب باللغة العربية على مستوى العالم العربى عن تاريخ بلاد الكرج أى جمهورية جورجيا وكان بعنوان «الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج حتى أواخر القرن الثانى الهجرى / أواخر القرن الثامن الميلادى» - دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨ .

(٢) Brosset, Histoire de la Georgie, Paris, 1849 - 1858, t. I, p. 15 - 17; Laurent, L'Armenie entre Byzance et L'Islam, Lisbonne , 1980, p. 46 .

(٣) Laurent, p.46 .

(٤) Brosset, Description Geographique de la Georgie, St. Pet. , 1842, p. 53 .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل - القاهرة ١٩٧٧، جـ ٤ ، ص ١٦٢؛ البلاذرى : فتوح البلدان - بيروت ١٩٧٨ - ص ٢٠٤؛ اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى - بيروت - دار صادر بدون تاريخ - جـ ٢ ص ١٦٨؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ - بيروت ١٩٦٧ - جـ ٣، ص ٤٤؛ ياقوت : معجم البلدان - بيروت بدون تاريخ - جـ ٢ ، ص ١٢٥؛ يحيى الأنطاكى : تاريخ يحيى - نشر لويس شيخو - بيروت ١٩٠٩، ص١٧٠؛ البغدادى : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - تحقيق على محمد البجاوى - القاهرة ١٩٥٤ ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ ، ٣٢٥ .

(٦) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر - بيروت ١٩٨٢ - جـ١ ، ص ١٧٤. ويسميها المسعودى تارة أخرى «خزران» انظر : جـ١ ، ص١٧٢

(٧) المسعودى : جـ ١ ، ص ١٧٢ : القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد - بيروت بدون تاريخ - ص ٤٩٣ .

(٨) اليعقوبى : كتاب البلدان - طبعة ابريل ١٨٩١ - ص ٢٧٢ - ٢٧٣؛ ياقوت: معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١٢٥؛ ابن حوقل: صورة الأرض - بيروت ١٩٧٩ - ص ٢٩٢ ؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٨ ص ٢٩٣؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨ - ص ١٦٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الانشاء - القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠- جـ٤ ، ص٣٧٢؛ العظيمى : تاريخ العظيمى - تحقيق كلود كاهن فى الجريدة الأسيوية ١٩٣١ - ص ٣٨١ و ٣٩٣؛ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك - القاهرة ١٩٥٧ - جـ١ ، ق ١ ، ص ١٧ و ٢٦ ؛ الفارقى : تاريخ الفارقى - بيروت ١٩٧٤ ، ص ٤١؛ ابن كثير: البداية والنهاية - القاهرة ١٣٨٧ هـ - جـ ١٢ ، ص ١٨٥؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب - تحقيق سعيد عاشور - القاهرة ١٩٨٥ ، جـ ٢٧ ، ص ٢٣ .

(٩)- Theophane, Chronographia , Ed. de Boor, Leipzig, 1883 - 1885, p. 391. Cf. Laurent, p. 61, n. 51 .

أنظر أيضا : فايز نجيب اسكندر : غزو الامبراطورية البيزنطية لأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧ هـ - دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨ - ص ٣٤ ، حاشية رقم ٣٩ .

(١٠) - Strabon, The Geographie of Strabon, London,1931 - 1948 , XI, 3 , 1-6 .

(١١) فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة - الاسكندرية ١٩٨٣ ، ص ١٥٨ ، حاشية رقم ١٠٨.

(١٢) أطلق الأرمن اسم «فرك» Virk على الجزء الشرقى لجمهورية جورجيا الحالية. والمقصود من ذلك «سكان الشمال». انظر Brosset, I , p. 15.

(١٣) Canard, Sur Quelques questions relatives a L'Epopee Byzantine de Digenis Akritas, London, 1974, Fasc., XX A,P. 298 - 299, n. 11.

(١٤) أطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون على اقليمى ما وراء جبال القوقاز Transcaucasie وشرق الأناضول اسم «أرمينية» (انظر : البلاذرى: ص ١٩٧؛ ابن حوقل: ص٢٨٥، ياقوت: جـ١ ، ص٢٢٠) ليشمل هذا الاسم جميع البلدان الواقعة شمال اقليم الجزيرة، (أى العراق الشمالى أو إقليم ما بين النهرين) وغربى إقليم آذربيجان الفارسى، (وهو ميديا الصغرى فى العصور السابقة على الفتوحات الإسلامية لهذه المناطق) وشرقى إقليم الامبراطورية البيزنطية بآسيا الصغرى، (أى الأناضول) وجنوبى جبال القوقاز حيث فى شمالها مملكة الخزر. وقد أطلق المسلمون على كل هذه البلدان اسم «أرمينية»، جريا على عادتهم التى تقضى باطلاق اسم الجزء المعروف لهم، على الكل غير المعروف لهم. وعلى هذا ، درج الجغرافيون والمؤرخون المسلمون على جعل أرمينية وبلاد الكرج وآذربيجان والران اقليما واحدا.

(١٥) عن تقسيمات أرمينية فى المصادر الإسلامية، وموقعها وجغرافيتها وطبغرافيتها وأثر كل ذلك على تاريخها أنظر: فايز نجيب اسكندر:

الفتوحات العربية لأرمينية - دراسة تاريخية لحملة المسلمين الأولى سنة ١٩هـ - بحث منشور فى مجلة سيرتا - مجلة معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسطنطينة بالجزائر - العدد ٨/٩ سنة ١٩٨٣ ، ص ١٢٩ - ١٣٢ ، حاشية رقم ١ ؛ وكذلك : أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين (١١ - ٤٠ هـ / ٦٣٢ - ٦٦١م) - الاسكندرية ١٩٨٢ - ص ٦٩ - ٧١ ، حاشية رقم ١ ، ص ٩٦، حاشية رقم ١٤٦ ؛ ص ١٢٠ - ١٢١ ، حاشية رقم ٢٧١ .

(١٦) عن أرمينية الثالثة أنظر : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج ، ص ١٢ - ١٣ .

(١٧) تقع «بلاد داغستان» غربى بحر قزوين . انظر : زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٤٥ - ص ١٧ .

(١٨) كانت «قرص» Kars سوقا تجاريا هاما، إذ تقاسمت مع أرزن وملطية تجارة أرمينية بأكملها . وتقع قرص على الطريق من آنى إلى أرتانوج. وكانت فى أول أمرها قلعة، ونمت تدريجيا مع ازدهار التجارة الدولية فى البحر الأسود، إلى أن أصبحت أحد أهم المراكز التجارية فى أرمينية. وكان لقرص علاقات تجارية وثيقة مع أرتانوج والموانىء الشرقية للبحر الأسود وأردهن Ardahan وبلاد الابخاز وبلاد الكرج .

وعنها قال ياقوت فى مصدره معجم البلدان «قرص مدينة بأرمينية من نواحى تفليس يجلب منها الابريم، خبرنى بذلك رجل من أهلها. بينها وبين تفليس يومان» (انظر : ياقوت: جـ ٤، ص ٣٢٣؛ البغدادى : جـ ٣ ، ص

١٠٧٨). وقرص كانت تسمى قديما «جاروتس» Garouts ، وتطل على نهر أخوريان. وهى مدينة رئيسية ، إذ أنها عاصمة مملكة فاناند Vanand. أسسها الملك موشيج Moucheg . والجدير بالذكر أن سكان قرص عاشوا على اللصوصية وقطع الطرق، واعتبروا عملهم هذا من الأعمال الشريفة. وكانوا من قدامى الشعوب القوقازية . وقد توارث السكان أعمال اللصوصية وقطع الطرق ومارسوها ليس فقط فى الأماكن النائية عن بلادهم، بل أيضا فى داخل عاصمتهم قرص. وأخيرا، نجح الملك عباس (٩٨٤ - ٩٨٩م) خليفة موشيج من تطهير قرص من كل اللصوص، الكبير منهم والصغير.

وقد وردت «قرص» فى ترجمة قسطنطين بورفيرو جنيتس على شكل «Kaps» وترجمت «كورى» بدلا من قرص . انظر Const. Porphyr, de Adm. Imp Vol. II, Commentary, p. 169.

انظر أيضا: محمود سعيد عمران، إدارة الامبراطورية البيزنطية، حتى ١٦١. علما بأنها وردت فى كافة المصادر الجغرافية الإسلامية على شكل قرص كما أوضحنا . وللتفاصيل الدقيقة عن قرص وأهميتها . انظر: فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامى - دار النهضة المصرية ١٩٨٨ - ص ٥٥ - ٥٦ ، وكذلك حاشية رقم ٣٤٧؛ استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية «آنى» سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤م - الاسكندرية ١٩٨٧ - ص ٣٧ ، حاشية رقم ٧٢ . انظر أيضا Fayez Naguib Iskandar, Les Richesses de L'Armenie au temps des Bagratides (885 - 1045), Alexandrie, 1988, p.15.

(١٩) عن بلاد الأبخار أنظر: فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة : ص ١٩٥ ، حاشية رقم ٣٤٨ .

(٢٠) Laurent, p. 46; C.M.H. , IV, p. 594.

(٢١) Nansen, L'Armenie et le Proche-Orient, Paris, 1928, p. 89 . ونهر الكر «يبتدئ» من بلاد خزران من مملكة جرجين، ويمر ببلاد أبخاز حتى يأتى ثغر تفليس، ويشق فى وسطه، ويجرى فى بلاد السياوردية حتى ينتهى على ثمانية أميال من برذعة ، ويجرى إلى برداج من أعمال برذعة. ثم يصب فيه مما يلى الصنارة نهر الرس، ويظهر من أقاصى بلاد الروم من نحو مدينة طرابزندة حتى يجئ إلى الكر، وقد صار فيه نهر الرس، فيصب فى بحر الخزر» . انظر : المسعودى: ص ١٧٤. وعلى هذا، فالكر والرس نهران تؤمان للكرج والأرمن، وهما أطول أنهار اقليم ما وراء القوقاز. يتجهان شرقا فى جنوب هذا الاقليم ثم يلتقيان معا ويكونان نهرا واحدا يصب فى بحر قزوين .

(٢٢) فى البلاذرى: ص٢٣٨ «طفليس» ؛ وفى الطبرى: جـ ٤ ، ص ١٦٢؛ وياقوت: جـ٢ ، ص ٣٦ «تفليس». وعلى هذا الشكل وردت فى كافة المصادر الجغرافية والتاريخية. وقد أشار ياقوت فى «معجم البلدان» إلى أنه عقب خضوع تفليس للسيادة الإسلامية ، انتشر الإسلام بين سكانها «وأسلم أهلها» . (انظر ياقوت: جـ٢ ؛ ص ٣٦) . وذكر ياقوت والقزوينى إلى أن تفليس كانت آخر موضع وصل إليه الإسلام. ففى هذا المعنى أورد «... وهى مدينة لا إسلام وراءها». (انظر: معجم البلدان، جـ٢ ، ص ٣٥؛ آثار

البلاد، ص ٥١٨) . وقد حظيت تفليس عاصمة بلاد الكرج باهتمامات المصادر الإسلامية الجغرافية منها والتاريخية. فقد زارها ابن حوقل (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى/ القرن العاشر الميلادى) وفصل الحديث عن موقعها وحصانتها وخيراتها وأهميتها وذلك فى مصنفه صورة الأرض (للتفاصيل أنظر ابن حوقل : ص ٢٩٢ - ٢٩٣.) والجدير بالذكر أن الملك فاختانج الأول (٤٦٦ - ٥٠٠م) ملك ايبيريا (جورجيا) بنى مدينة تفليس وذلك سنة ٤٦٩ م .

(٢٣) ينبع نهر شوروخ من جبال سبير Sper ، ويتجه نحو الشمال الشرقى بمحاذاة خاجديك Khagh'dik وكولشيد Colchide : ثم يعبر الوديان المنيعة فى مقاطعة طايبيك، ويستدير فجأة نحو الشمال الغربى، ثم يصب فى البحر الأسود. للتفاصيل انظر:-فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية، ص ٥٢، حاشية رقم ٣٢٦ .

(٢٤) تقع أرتانوج عند ملتقى الطريق التجارية بين طرابيزون وأرمينية ومدن القوقاز الشمالية وأباهونيك على مسافة ليست بعيدة عن مجرى نهر شوروخ. انظر Heyd, Histoire du commerce du Levant au moyen age, Amsterdam, 1967, T. I , p. 44 .

(٢٥) تقع «مقاطعة مسختى» فى أعماق جبال القوقاز (انظر Hubschmann, Die Altarmeinischen Ortsnamen, Strasbourg, 1904, p. 212, n. 1 et p. 265; Hewsen, Armenia According to the Asxarhac'oye, dans R.E.A., T. II, Paris, 1965, p.337.

وكانت «مسختى» عاصمة بلاد الكرج. إلا أنه حدث سنة ٤٦٩ م أن أقام الملك فختانج جورجسلان Vakhtang Gourgaslan فى تفليس، فأصبحت بالتالى عاصمة البلاد، خاصة وأنها أكثر بعدا من وديان القوقاز، وأقل عرضة لهجمات القبائل الجبلية. انظر : Nansen, p. 98.

(٢٦) أقام اللان شمالى تفليس فى جبال القوقاز، على سفحى الجبل، بين نهر ريونة الذاهب إلى البحر الأسود فيما وراء القوقاز ونهر تيريك Terek الذى يصب فى بحر قزوين . انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٣٦ - ٣٧ . وللتفاصيل الدقيقة انظر المرجع السابق ، ص ٣٦، حاشية رقم ١٦ .

(٢٧) ذكر المسعودى أن مملكة الصنارية تقع بين ثغر تفليس وقلعة باب اللان . للتفاصيل انظر: مروج الذهب، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢٨) يقع وادى كشياى جنوب العاصمة تفليس. انظر فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج ، ص ٣٣ .

(٢٩) Laurent, p. 46.

(٣٠) للتفاصيل عن نهر الرس انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لأرمينية فى ضوء كتابات المؤرخ الارمنى جيفوند - الاسكندرية ١٩٨٣ ، ص ٩٨، حاشية رقم ١٥٠ ؛ مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - الاسكندرية ١٩٨٠ - ص ب ، حاشية رقم ٣.

(٣١) Brosset, T. I, p. 89 .

(٣٢) أطلق الكرج على الأرمن اسم «سموخيتى» (سمكسى) Somexi وعلى أرمينية اسم «سمخيت»(سمكست) Somxet. انظر: Hubschmann .p. 276

(٣٣) فى حديثه عن «استيلاء جلال الدين على تفليس من الكرج بعد هزيمتهم اياهم» بدأ بالقول «كان هؤلاء الكرج أخوة الأرمن» . انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون - بيروت ١٩٧٩ - المجلد الخامس ، ص ١٢٧ .

(٣٤) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ١٨ - ٢٢ .

(٣٥) وردت فى المصادر الإسلامية على شكل «خاخيط» ، انظر: البلاذرى: ص ٢٣٩. انظر أيضا : .Brosset, Description, p. 283 SQQ; Hist . de la Georgie, T. I, p. 41 , 248 .

(٣٦) «نهر أرجفى» Aragvi هو أحد روافد نهر الكر، ويقع شمالى تفليس . انظر .Laurent; p. 575, n. 66 .

(٣٧) عنها انظر : فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص ٢٦ .

(٣٨) Brosset, description, p. 283 SQQ; Histoire de la Georgie, I , p. 41, 248 .

(٣٩) عن هذه الثروات قال ابن حوقل الذى زار هذه الاصقاع الثانية : «... وبهذه الجبال والنواحى والمدن والبقاع التى ذكرتها من الرخص والخصب والمراعى والمواشى والسوائم والخيرات والبركات والمشاجر والأنهار والفواكه الرطبة

واليابسة» . انظر : صورة الأرض ، ص ٢٩٨ .

(٤٠) لمزيد من التفاصيل عن مقاطعة كاخيتي أو «خاخيط» في المصادر الإسلامية انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص٢٢ - ٢٣

(٤١) Laurent, p.61, n. 51 .

(٤٢) Laurent, p.568, n. 20 .

(٤٣) Laurent, p.61, n. 51 .

(٤٤) Nansen, p. 90

(٤٥) Laurent, p.49 .

(٤٦) Laurent, p.48 .

(٤٧) Laurent, p.61, n. 51 .

(٤٨) Hubschmann, p. 212, n. 1 et p. 265; Hewsen, p . 337. Nansen, p. 98 .

(٤٩) يسميها المسعودى «مملكة الصمصخية» وعنها قال: «تلى مملكة خزران (يقصد بلاد الكرج) مملكة يقال لها الصمصخية، نصارى، وفيهم جاهلية لا ملك لهم» انظر: مروج الذهب، ص١٧٣. وأيضا Nansen, p. 90. و«سمسخى» باللغة الكرجية تعنى ثلاث قلاع حصينة . وهى مقاطعة فى أعالى بلاد الكرج الشرقية. وكانت قديما تسمى مسخيا Meschia (انظر: (Cont. Porphyrogenete, de Adm., Commentaire, p. 178 وتقع فى أعالى نهر الكر على ضفته اليسرى غرب ثريالبت وشمال

دجواكستى Djawaxet'i انظر Brosset, Description, p. 75; Saint - Martin, Memoires, T. II p. 427; Adontz, Armenia, p. 117 , 121, 123 .

(٥٠) أشار إلى ذلك ابن حوقل بقوله: «ويجلب منها البغال الجياد الموصوفة بالصمة والجلد والصبر إلى العراق والشام وخراسان. ويكون بها الشهارى الحسنة الموصوفة بالجمال والفراهة وما يقارب شهارى طخارستان، وربما زاد عليها وعلى نتاج الجوزجان » . انظر : صورة الأرض ، ص ٢٩٧ .

(٥١) أشار إلى ذلك ابن حوقل بقوله: « وأهلها قوم فيهم سلامة وقبول للغريب وميل إلى الطارى، عليهم وأنس بمن له أدنى فهم وانتساب إلى شيء من الأدب » . انظر : صورة الأرض ، ص ٢٩٢ .

(٥٢) عبر المسعودى عن ذلك خير تعبير حين قال: «أهلها ذو قوة وبأس شديدين». انظر: مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ١٧٢ .

(٥٣) Nansen, p. 90 .

(٥٤) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٤١ - ٦٦ .

(٥٥) عن لقب بطريق انظر: فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين ، ص ١٠٣ ، حاشية رقم ١٨٠ .

(٥٦) عنه انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص ٩٩، حاشية رقم ١٥٤.

(٥٧) وردت فى بعض المصادر الإسلامية على شكل آران، وعن حدودها قال أحمد بن لطف الله منجم باشى (الف مصنفه حوالى سنة ٥٠٠ هـ) فى

مصدره «باب فى الشدادية من كتاب جامع الدول» إن «آران اقليم مشهور يتاخم آذربيجان فى جهة الغرب منها، ويحدها من الغرب حدود أرمينية، ومن الشرق والجنوب آذربيجان، ومن الشمال جبال القبق (أي القوقاز) . ومن قواعدها مدينة نشوى » انظر ص ١ .

(٥٨) عنها انظر : فايز نجيب اسكندر : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص ٢٦ .

(٥٩) الدربند مدينة على بحر الخزر تعرف أيضا باسم مدينة باب الأبواب . للتفاصيل انظر: ابن حوقل: ص ٢٩١ - ٢٩٢؛ البغدادى: جـ ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ؛ القزوينى: ص ٥٠٦ - ٥٠٩ ؛ القلقشندى: جـ ٤ ، ص ٣٦٤؛ ياقوت : جـ ٢ ، ص ٤٤٩؛ أبو الفداء: ص ٤٠٥ ؛ الاصطخرى: ص١٠٩ - ١١٠؛ وص ١٠٩ ، حاشية رقم ١٠ .

(٦٠) عن تفاصيل ذلك انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٦١) عن ذلك انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص ٦٩ - ٧١ ؛ ص٧٣ - ٧٥؛ ص ٧٧ - ٧٩ .

(٦٢) فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٦٣) عن أسرة بجراط الكرجيّة انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج ، ص ٨٣ - ٨٥ .

(٦٤) عن تفاصيل ذلك انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص٨٥ - ٩٢.

(٦٥) Brosset, Georgie, T. I, p. 80; Nansen, p. 96 .

(٦٦) انظر فايز نجيب اسكندر: الكرج والأتراك السلاجقة فى عهد السلاطين العظام (٤٤٧ - ٤٨٥ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٩٢م) ، العدد الأول من مجلة كلية الآداب - جامعة بنها . (تحت الطبع) .

(٦٧) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر: مملكة ارمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - الاسكندرية ١٩٨٠ .

(٦٨) Canard, Les Reines de la Georgie dans l'Histoire et la Legende Musulmanes, p. 3

(٦٩) Brosset, Georgie, T. I, p.292 - 301; et Additions, p. 179; Schlumberger, Epopee, T. II, p. 176; Allen, History of the Georgian People , p. 84; Minorsky, Tiflis, Enc. de L'Islam, p. 793 - 794; Nansen, p. 100 .

(٧٠) Grousset , L'Empire du levant, Paris, 1946, p. 418; Nansen, p. 100.

(٧١) عن لقب قربلاط انظر: فايز نجيب اسكندر: البيزنطيون والاتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد فى مصنف نقفور برينيوس - الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص٣٠ ، حاشية رقم ٢٤ .

(٧٢) للتفاصيل انظر: Salia, p. 165 - 171 .

(٧٣) أطلق على حرسه الشخصى اسم «موناسبا» Mona - Spa. انظر Salia , p. 171.

(٧٤) Salia , p. 172 .

(٦٦) انظر فايز نجيب اسكندر: الكرج والأتراك السلاجقة فى عهد السلاطين العظام (٤٤٧ - ٤٨٥ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٩٢م) ، العدد الأول من مجلة كلية الآداب - جامعة بنها . (تحت الطبع) .

(٦٧) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر؛ مملكة ارمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - الاسكندرية ١٩٨٠ .

(٦٨) Canard, Les Reines de la Georgie dans l'Histoire et la Legende Musulmanes, p. 3 .

(٦٩) Brosset, Georgie, T. I, p.292 - 301; et Additions, p. 179; Schlumberger, Epopee, T. II, p. 176; Allen, History of the Georgian People , p. 84; Minorsky, Tiflis, Enc. de L'Islam, p. 793 - 794; Nansen, p. 100 .

(٧٠) Grousset , L'Empire du levant, Paris, 1946, p. 418; Nansen, p. 100.

(٧١) عن لقب قريلاط انظر: فايز نجيب اسكندر: البيزنطيون والاتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد فى مصنف نقفور برينيوس - الاسكندرية ١٩٨٤ ص٣٠ ، حاشية رقم ٣٤ .

(٧٢) للتفاصيل انظر: Salia, p. 165 - 171

(٧٣) أطلق على حرسه الشخصى اسم «موناسبا» Mona - Spa. انظر , Salia . p. 171.

(٧٤) Salia , p. 172 .

(٧٥) استقر القفجاق فى شمال بلاد الكرج ، وامتد استيطانهم نحو الشرق، على طول الشاطئ الشمالى لبحر قزوين. عنهم انظر , Matthieu D'Edesse p. 460, n. 2. انظر أيضا : القلقشندى: جـ ٤ ، ص ٤٧٠ .

(٧٦) Brosset, I, p. 379 .

(٧٧) Salia, p. 173 .

(٧٨) باب الأبواب هو الدربند، دربند شروان. وتطل المدينة على بحر الخزر. انظر: ياقوت : جـ ١ ، ص ٣٠٣؛ البغدادى: جـ ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٧٩) Grousset, p. 419; Salia, p. 173 .

سكن «الأوسيت» القسم الأوسط من سلسلة جبال القوقاز ، فى مرتفعاته المنيعة وقممه الشاهقة المعروفة بجبال «تازيك» (يرتفع ٥٠٤٤ مترا) و«البرز» (يرتفع ٥٦٣٠ مترا) .

(٨٠) Brosset, I , p. 379 .

(٨١) اهتم المسعودى اهتماما بالغا بذكر مناعة «قلعة باب اللان» فقد ذكر أن قلعة باب اللان على صخرة صماء لا سبيل إلى فتحها والوصول إليها إلا بإذن من فيها. ولهذه القلعة المبينة على أعلى هذه الصخرة عين من الماء عذبة تظهر فى وسطها من أعلى هذه الصخرة. وهذه القلعة احدى قلاع العالم الموصوفة بالمنعة» . ثم أشار فى موضع آخر إلى موقعها الاستراتيجى الهام فى الدفاع عن بلاد اللان قائلا: «ولو كان رجل واحد فى هذه القلعة لمنع سائر الملوك الكفار أن يجتازوا بهذا الموضع، لتعلقها بالجو واشرافها على الطريق والقنطرة والوادى» . (انظر : مروج الذهب: جـ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٦) والأرمن

يسمون باب اللان باسم «الناك درن» Alanac Durn . أما الكرج فيسمونه «باب تريك» Porte Terek تارة و«خنيس كارى» Khevis Kari أى «باب خيفى» Porte de Khevi تارة ثانية . (انظر : Brosset , I , 154 - 155) . وفى موضع آخر من مصنفه أشار المسعودى إلى اهتمام مسلمة بن عبد الملك بن مروان بحراسة هذا الموضع، إذ قام بإسكان بعض المسلمين لحراسته. وكانت تفليس تزودهم بالرزق والأقوات (انظر: مروج الذهب، جـ ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٦) . إلا أن هذا يتعارض مع ما ذكره ابن رسته، إذ أورد فى مصنفه أن قلعة باب اللان يسهر على حراستها الف جندى من اتباع ملك اللان. انظر: الاعلاق النفيسة - ليدن ١٨٩١ - ص ١٤٨ - انظر أيضا : Minorsky, Hudud Al - Alam, p. 446 ; Marquart, Streifz., p. 165 .

والملاحظ أن ياقوت الحموى نقل الكثير عن المسعودى عند حديثه عن باب اللان. انظر: معجم البلدان، جـ ١ ،ص ٢٤٥ - ٢٤٦ . وقارنه مع : مروج الذهب، جـ ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ . ويرجع سبب ذلك أن ياقوت أدرك بثاقب بصره وبصيرته أن المسعودى أورد فى مصنفه سردا على درجة كبيرة من الأهمية عن مملكة باب اللان، فاق فى غزارته ما ورد فى غيره من المصادر الجغرافية والتاريخية .

(٨٢) Salia, p. 173 - 174 .

(٨٣) Allen, p. 98 . وعن اقليم أرارات Ararat أنظر : فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامى، ص ١٢- ١٣ ، وكذلك

ص ١٢ ، حاشية رقم ٢٣ .

(٨٤) Brosset, I , p. 354 et SQ' Grousset, p. 419; Salia, p. 175 - 176 .

(٨٥) تقع إريثى أو هيريثى Heret'i شمالى نهر الكر وشرقى تفليس . أنظر : فايز نجيب اسكندر : الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٣٧ .

(٨٦) للتفاصيل عن أحوال كاخيتى فى عهد أسرة كوريكيان وعهد السيادة السلجوقية انظر Movsesian, Histoire des Rois Kurikian de Lori, Paris, 1927, p. 260 - 262.

(٨٧) Brosset, I, p. 354 et SQ.

(٨٨) نهر أرجفى Aragvi هو أحد روافد نهر الكر، ويقع شمالى تفليس . انظر Laurent, p. 575, n. 66.

(٨٩) Movsesian, p. 262 .

(٩٠) Brosset, I ,p. 354 et SQ; Movsesian ,p. 262; Grousset , p. 418 - 419 .

(٩١) Allen, p. 93 - 94 ; Grousset, p. 418 .

(٩٢) كنجة أعظم مدينة بالران (أو بلاد أران)، وهى قصبتها، وتقع بين شروان وآذربيجان، بينها وبين برذعة ستة عشر فرسخا (انظر ياقوت: جـ ٤ ، ص ٤٨٢؛ البغدادى : جـ ١ ، ص ٣٥١) وأهل الأدب يسمونها جنزة (انظر المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ١٠٨٠) . وقد أعجب ابن حوقل بخيراتها وعمرانها وأخلاق أهلها الحسنة. ففى هذا المعنى يقول: «وجنزة مدينة حسنة

كثيرة الخير عامرة بعمارة تامة متغصة بالخلق وأهلها ذوو مروءة وأخلاق طيبة مرضية ومجاملة ومحبة للغرباء وأهل العلم » . (انظر: صورة الارض؛ ص ٢٩١) وقد وردت فى المصادر الاجنبية تحت اسم جانذزاك Gandzak (Ganjak) ، وتقع فى اقليم ارتشاك Artsakh (انظر Arisdagues, CH. XVII, p. 103, n. 1).

وقد نجح أبو الأسور شاور بن الفضل فى فرض سيادته عليها وذلك سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م (انظر أحمد بن لطف الله، باب الشدادية من كتاب جامع الدول، ص ١٣ وكذلك . Aristakes, CH. XVII, p. 89, n. 2)

وقد ظلت هذه المدينة ملكا لأسرة بنى شداد والتى ينتمى إليها أبو الأسور حتى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨م حيث استولى عليها بوزان Bouzan ، قائد السلطان ملكشاه . انظر . Brosset , I , p. 344 .

(٩٣) Salia, p. 176 .

(٩٤) تقع شمشفلدى Samchvilde (أو شمشلديه Schamschoulde) على الضفة اليمنى لنهر الكر Brosset, I, p. 467; Laurent, p. 29, n. 3 .

(٩٥) Salia, p. 176 .

(٩٦) ابن القلانسى: حوادث سنة ٥٠٣ هـ ، ص ١٦٨ ؛ الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية - نشر محمد اقبال - لاهور ١٩٣٣ ، ص ٨١ .

(٩٧) Laurent, p. 419; Salia , p. 176

(٩٨) تلرجيت أحد أقاليم بلاد الكرج الغربية وهى عاصمة أرتانوج، وتقع بين بلاد الطايك Tayk وشوشت . وقد انفرد البلاذرى دون غيره من المصادر

الإسلامية بذكرها حين ذكر أن حبيب بن مسلمة الفهرى صالح أهلها. انظر البلاذرى : ص ۲۳۹ . وللتفاصيل انظر Adontz, p. 117, 121, 123'
Marquart, Strifzuge, p. 393 et AQ; Honigmann, p. 159

(٩٩) Laurent, p. 419; Salia, p. 176.

(١٠٠) Brosset, I, 359; Allen, p. 98; Laurent, p. 419 - 420; Salia, p. 176.

(١٠١) Salia, p. 176- 177; Laurent, p. 420.

و «دمانيسى» أو «تمانيس» Tmanis مدينة أرمنية ، تقع على حدود بلاد الكرج، فى أقصى مقاطعة كوكارك Koukark (أوجوجارك) نحو الشمال الشرقى منها . انظر Matthieu d'Edesse, p. 463, n. 3 .

(١٠٢) «شروان» مدينة من نواحى الباب والأبواب، وقبل ولاية قصبتها شماخى، قرب بحر الخزر . انظر : البغدادى: ج ۲ ، ص ۷۹۳ . وتقع مقاطعة شروان شمال شرقى أرمينية ، بين نهر الكر وبحر قزوين أطلق عليها أيضا اسم «اجهوانك» Agh'ouank أو «البانى» Albanie. للتفاصيل انظر:
Indjidji, l'Armenie Moderne, p.413 - 415 .

(١٠٣) Salia, p. 177.

(١٠٤) Laurent, p.420; Salia, p. 177.

(١٠٥) Salia, p. 178.

(١٠٦) Laurent, p. 420.

(١٠٧) فايز نجيب اسكندر : أسرة برينيوس ودورها فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية - دار النهضة المصرية ۱۹۸۷ - ص ۳۷ ، حاشية رقم ۱۲۸ .

(١٠٨) عن نتجوان انظر : فايز نجيب اسكندر : الفتوحات الإسلامية الأرمينية ، ص ٩٧ - ٩٨ ، حاشية رقم ١٤٩ .

(١٠٩) عن نهر الرس انظر : فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، حاشية رقم ١٥٠ .

(١١٠) ابن القلانسى : حوادث سنة ٥١٥ هـ ، ص ٢٠٤ ؛ ابن خلدون : حوادث سنة ٥١٦ هـ ، جـ ٥ ، ص ٤٩ .

(١١١) ابن الأثير : حوادث سنة ٥١٤ هـ ، ص ٢٩٣ وعنه نقل العينى نقلا حرفيا (أنظر : عقد الجمان ، القسم الرابع من الجزء العشرين، ورقة ٧٦٦) أما ابن القلانسى فقد ادرج هذه الاحداث تحت سنة ٥١٥ هـ . انظر : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤ ، والملاحظ أن ابن الأثير اخطأ حين ذكر أن «الكرج هم الخزر» . انظر : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٩٣ . وقد أدرك ابن خلدون خطأ ابن الأثير وصححه حين نقل عنه. انظر: العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٩ . ونتيجة النقل بلا تمحيص، انزلق إلى نفس خطأ ابن الأثير كل من ابن العبرى . (أنظر : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠١) والذهبى (كتاب دول الإسلام - القاهرة ١٩٧٤ - جـ ٢ ، ص ٤١) .

والملاحظ أن رواية ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ /١٢٣٣م) عن الاحتكاك الحربى بين الأتراك السلاجقة والكرج، كانت فريسة دسمة انقض عليها بالنقل الحرفى تارة وبالاختصار تارة أخرى كل من ابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م) ، والنويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) ، والذهبى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م). وابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣م) ، وابن خلدون (ت

٨٠٨م/١٤٠٥م) ، والعينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م) . قارن : ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٨ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ٣١٣ مع المصادر الآتية : ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص ٢٠١ ، ٢٠٢؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٧ ، ص ٢٣ - ٢٤؛ الذهبى : كتاب دول الاسلام، جـ ٢، ص ٤١؛ ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٨٥ ، ١٩٣؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ، جـ ٥ ، ص ٤٩ ، ٥٢؛ العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ميكروفيلم ٥٦٥٤ ، القسم الرابع من الجزء العشرين، ورقات ٧٦٦ - ٧٦٨. وهناك مصادر إسلامية أخرى اشارت إشارة عابرة إلى هذا الاحتكاك ومنها : ابن القلانسى (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ العظيمى (ت ٥٥٦ هـ / ١١٦١م) : تاريخ العظيمى ، ص ٣٨٨ ؛ مؤلف مجهول (عاش فى نهاية القرن السادس الهجرى / نهاية القرن الثانى عشر الميلادى) : البستان الجامع لتواريخ الزمان) ص١١٨ ابن العديم (ت.٦٦٠هـ/١٢٦٢م) زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢ ، ص١٩٩؛ عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) : الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، القسم الثانى من الجزء الثالث، ص ٤٣٠ - ٤٣١؛ أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) : المختصر فى أخبار البشر، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٢٢٣. والملاحظ أن محقق ابن القلانسى زودنا برواية ابن الازرق فى تاريخه عن أحداث سنة ٥١٥ هـ ، وهى رواية على درجة كبيرة من الأهمية. انظر ابن القلانسى:

حاشية رقم ١ عن ما ذكره ابن الآزرق فى تاريخه عن أحداث سنة ٥١٥ هـ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، على أية حال، أغفلت كافة المصادر الإسلامية ذكر معركة ديدجورى Didgori الفاصلة . إلا أن المصادر الكرجية واللاتينية والأرمنية سدت هذا النقص، إذ زودتنا بتفاصيلها الدقيقة .

(١١٢) فى ابن القلانسى «نجم الدين ايل غازى بن أرتق صاحب حلب» . انظر: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤ ، وعنه قال أبو المحاسن : «كان عادة نجم الدين إذا شرب الخمر وتمكن منه، أقام أياما مخمورا لا يفيق لتدبيره ولا يستأمر فى أموره . (انظر: النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٠٨) . وتوفى ايلغازى سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢م بمدينة ميافارقين ، فكانت وفاته يوم الخميس سابع عشر رمضان (٢١ نوفمبر ١١٢٢م) فى قرية تعرف بالفحول. انظر: العينى: ورقة ٨٠٦ ؛ النجوم: جـ ٥ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤: أبو الفداء: جـ ٢ ، ص ٢٣٦ . وقد وصفه متى الرهاوى بأنه «كان محبا لسفك الدماء» أنظر . Matthieu d'Edesse , p. 303 .

(١١٣) سيف الدولة دبيس بن صدقة «أصله من بنى أسد وقيل من بنى خفاجة. كان شر أهل بيته، يرتكب الكبائر ويفعل العظائم، ولقى منه الخليفة والمسلمون شرورا كثيرة، وأبطل الحج ، وأباح الخروج فى شهر رمضان .... قتله السلطان مسعود السلجوقى فى ذى الحجة سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكان قتله بالمراغة. انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٢٥٦ . انظر أيضا . Matthieu d'Edesse, p. 459, n. 2 .

(١١٤) فى وفيات الأعيان، الترجمة رقم ٢٢٦، ترجمة دبيس بن صدقة،

«كهارخاتون» وليس«كمارختون» . انظر ص ٢٦٥ . وفى متى الرهاوى «كهارخاتون» Kohar - Khathoun . انظر , Matthieu d'Edesse . p. 297

(١١٥) هو الملك طغرل بن محمد شاه بن ملكشاه السلجوقى، شقيق السلطان محمود، توفى فى المحرم سنة ٥٢٩هـ.(انظر: ابن الأثير؛ جـ ٨، ص٣٤٥)، بينما اختلف أبو الفداء فى تحديد تاريخ وفاته عن ابن الأثير، إذ أورد: «توفى فى المحرم سنة ٥٢٩ هـ ، وقيل أن وفاته كانت فى أول سنة ٥٢٨ هـ وهو الأصح فى ظنى » . انظر : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٨ . وقد اجمعت المصادر الإسلامية على صحة رأى ابن الأثير. والجدير بالذكر أن يسميه المؤرخ الارمنى متى الرهاوى «ملك، سلطان كنتزاك» أى الملك طغرل حاكم كنجة. إذ جاء فى حديثه عن معركة ديدجورى (يسميها تيجور Tegor) أنه عبأ جيشا قوامه أربعمائة الف فارس، وتسلل إلى بلاد الكرج :« En meme temps, Melik, sultan de Kantzag, a la tete de 400,000 cavaliers Aguerris, penetra en Georgie»

انظر:. Matthieu d' Edesse, p. 304 .

(١١٦) للتفاصيل عن«أرزن» انظر: فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامى، ص ٥٤ ، حاشية رقم ٣٣٨ .

(١١٧) تقع «بدليس» شمال بحيرة وان. للتفاصيل انظر: ابن حوقل ، ص ٢٧٨. Laurent , p. 389 .

(١١٨) للتفاصيل عن «دوين» انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص١٧،

حاشية رقم ٤٩ .

(١١٩) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ الذهبى: جـ ٢ ، ص ٤١؛ ابن خلدون: جـ ٥ ، ص ٤٩؛ العينى: ورقة ٧٦٦. انظر أيضا : Matthieu d'Edesse, Chronique, Trad., Ed. Dulauriee, Paris, 1858, CH . CCXXXI , p. 303 .

(١٢٠) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، القسم الثانى من الجزء الثالث ، ص ٤٣٠.

(١٢١) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠١؛ ابن كثير: جـ ١٢ ، ص ١٨٥ ؛ العينى: ورقة ٧٦٦ .

(١٢٢) Matthieu d'Edesse , p. 304; Galterii Cancellarii Antiocheni, Bella Antiochena, 1121, dans R.H.C., Auteurs Occidentaux, Paris , 1895, T. V, 131 وللتفاصيل عن متى الرهاوى وحوليته (٩٥٢ - ١١٤٤م / ٣٤١ - ٥٣٩ هـ) انظر : فايز نجيب اسكندر : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص ١٣٩ ، حاشية رقم ١٩ .

(١٢٣) ابن الأزرق الفارقى : أحداث ٥١٥ هـ ، ص ٢٠٥ .

(١٢٤) ابن القلانسى : ص ٢٠٥ .

(١٢٥) ابن القلانسى : ص ٢٠٥ ؛ ابن العديم : جـ ٢ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(١٢٦) الفارقى: ص ٢٠٥ . وقد اختلفت رواية ابن العديم عن رواية الفارقى، إذ ذكر أن الملك طغرل استنجد بايلغازى وملكهم داود، «فسار اليه فى عالم عظيم ومعه دبيس بن صدقة» .

انظر : ابن العديم : ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(١٢٧) عز الدين بن شداد: ص ٤٣٠ ؛ الفارقى : ص ٢٠٥ .

والملاحظ أن الحسينى أشاد بحصانة تفليس ومناعة أسوارها . إذ أورد فى مصنفه: «وطول سور تفليس أربعون ذراعا فى عرض يطابقه» . أنظر: أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٤٥ .

(١٢٨) «أرزن الروم» مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط . انظر القزوينى: ص ٤٩٤، ياقوت: جـ ١، ص ١٥٠؛ البغدادى: جـ ١، ص٥٥؛ أبو الفداء : ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(١٢٩) «ثرياليت» منطقة جبلية تقع بين نهر الكر وبحيرة باناڤارى P'anavari .

انظر : Brosset, Description, p. 157 et SQ; Adontz , p. 117; Hubschmann, p. 354; Honigmann, p. 163, 168 .

وقد انفرد البلاذرى وابن الأزرق الفارقى دون غيرهما من المصادر بذكرها. انظر : فتوح البلدان ، ص ٢٣٩؛ تاريخ الفارقى ، ص ٢٠٥، حيث وردت فى هذا المصدر الأخير على شكل «ترياليث» .

(١٣٠) ابن الأزرق الفارقى : ص ٢٠٥ ؛ ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ ابن خلدون : جـ ٥ ، ص ٤٩ ؛ العينى: ورقة ٧٦٦؛ ابن شداد : ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

(١٣١) الفارقى : ص ٢٠٥ .

(١٣٢) الفارقى : ص ٢٠٥ ؛ ابن شداد : ص ٤٣١ .

(١٣٣) ابن شداد : ص ٤٣١ .

(١٣٤) الفارقى : ص ٢٠٥ .

(١٣٥) الفارقى: ص ٢٠٥؛ الذهبى: ص ٤١؛ أبو المحاسن: جـ ٥، ص٢٢٣.

(١٣٦) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٢٩٣ وعنه نقل ابن العبرى: ص ٢٠٢؛ ابن كثير: جـ ١٢، ص ١٨٥؛ ابن خلدون: جـ ٥ ، ص ٤٩؛ العينى: ورقة ٧٦٦ .

(١٣٧) Grousset, p. 420 .

(١٣٨) فى ياقوت (جـ ٢ ، ص ٣٦) «رستاق منجليس» ويقع غربى تفليس (Adontz, Armenia,p.117,123) ويقابله عند الكرج Mangleac'p'or أى «وادى منجليس» . انظر: Toumanoff, Studies, p. 402, 407, n. 2 ; Hewsen, Armenia, p. 338; Hubschmann, p. 355.

(١٣٩) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠٢ ؛ العينى: ورقة ٧٦٦ - ٧٦٧ . وواضح أن كل من ابن العبرى والعينى نقلا الاقتباس عن ابن الأثير نقلا حرفيا .

(١٤٠) ابن الأثير: جـ ٨، ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص٢٠٢؛ العينى: ورقة ٧٦٧؛ ابن خلدون : جـ٥ ، ص ٤٩ .

(١٤١) ابن شداد : ص ٤٣١ ؛ ابن العديم : ص ١٩٩ .

(١٤٢) ابن الأثير: جـ ٨، ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠٢؛ الذهبى: جـ ٢، ص٤١؛ ابن كثير: جـ ١٢، ص ١٨٥ ؛ العينى : ورقة ٧٦٧ .

(١٤٣) ابن شداد: ص ٤٣١. والجدير بالتسجيل هنا أن ابن العبرى فى مصدره الثانى (تاريخ الزمان، بيروت ١٩٨٦، ص ١٣٩) جنح إلى الاختصار

الشديد فى ذكر أخبار المواجهة الكرجية السلجوقية، إذ اكتفى بالقول: «وفى سنة ١٤٣٣ لليونان (١١٢٢م) وجه السلطان محمود جيشا ضخما من الأتراك إلى بلد الكرج ، فأرصد الملك الثغور وفتك بالكثيرين منهم» . هذا بينما زودنا بتفاصيل أكثر فى مصدره الأول (تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠١ - ٢٠٢) نقلا عن ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ٣١٣ و«ميافارقين» قاعدة ديار بكر، وتقع بين الجزيرة الفراتية وأرمينية وهى بالقرب من آمد. (انظر : فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين والمماليك - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - ص ١٠٤ ، حاشية رقم ١) . أما «ماردين» فهى قلعة مشهورة بديار ربيعة من الجزيرة الفراتية، مشرفة على دينسر، ودارا ، ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم. وهى معقل أمراء بنى حمدان. أنظر : فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص ١٣٥ ، حاشية رقم ٣ .

(١٤٤) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٢٩٣. أما الذهبى فقد ذكر أن الكرج حاصروا تفليس لمدة سنتين ثم أخذوها بالسيف. انظر: كتاب دول الإسلام ، جـ ٢ ، ص٤١ .

(١٤٥) ابن الأثير: ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠٢؛ ابن كثير: جـ ١٢ ، ص ١٨٥. وفى ابن الأزرق: ص ٢٠٥ «وغنم الكفار منهم غنيمة عظيمة» .

(١٤٦) ابن كثير: جـ ١٢ ، ص ١٨٥ .

(١٤٧) عن تحليل مختلف روايات المصادر الإسلامية انظر حاشية رقم ١١١ .

(١٤٨) جاء فى Galterii Cancellarii Bella Antiochena الآتى : "Ipsi

vero cum superbia equitanti ira dei obstitit : eo namque die, quo soldanus et ipse Algazi cum Sexcentis Millibus Terram Regis Bellaturi intraverunt, ipse idem Rex David, ..."

وترجمة النص: «بينما كان (الأمير ايلغازي) يتقدم بغطرسة على رأس جيشه، انصب عليه غضب الله وقلب رأسا على عقب كل مخططاته، ففي نفس يوم دخوله بلاد الملك داوود حيث ترأس جيشا قوامه ستمائة الف مقاتل ... »

انظر : Galterii, dans R.H.C.H. Occid, T. V, p. 130.

هذا بينما ذكر جلتيرى أن تعداد جيش داوود بلغ ثمانية الف مقاتل فالنص اللاتينى التالى أوضح ذلك، إذ جاء فيه: Signo Sanctae Crucis Praemunitus, Habens intra Medos et Christianos QUATER VIGINTI MILIA PUGNATORUM..."

وترجمة النص أن «(الملك داوود) تقوى بشارة الصليب وحشد ثمانية الف مقاتل من الميديين والمسيحيين ... »

انظر R.H.C., H. Occid., T. V, p. 130

(١٤٩) Kartlis Tskhovreba, T. I, p. 365 .

(١٥٠) جاء فى متى الرهاوى Ch. CCXXXII "En meme temps, Melik, Sultan de Kantzag, a la tete de 400,000 Cavaliers Aguerris, penetra en Georgie du cote de la ville de Deph'khis (Tiflis), par la montagne de Tegor"

انظر: Matthieu d'Edesse : P. 304. وترجمة النص: «فى نفس

الوقت، تسلل ملك (يقصد طغرل)، سلطان كنجة على رأس جيش قوامه أربعمائة ألف من الفرسان المدربين على فنون الحرب والقتال، تسلل هذا الجيش الجرار على بلاد الكرج عبر مدينة تفليس عن طريق جبل تيجور (ديدجورى Didgori فى خارطليس تسخوفريبر Kartlis Tskhovreba).

(١٥١) لم يرد ذكر اسم جبل ديدجورى Didgori فى كافة المصادر الإسلامية، ولا ذكر لتفاصيل هذه المعركة الحاسمة والتى كان من أهم نتائجها سقوط العاصمة تفليس فى قبضة الملك الكرجى داوود الثانى البناء ، على أية حال ذكر ابن الأثير ومن نقلوا عنه أن هذه المعركة دارت بالقرب من تفليس . انظر: الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠٢؛ ابن كثير: جـ ١٢ ص ١٨٥؛ العينى: ورقة ٧٦٦) هذا بينما ذكر ابن الأزرق أن نجم الدين ايلغازى «وصل إلى أن بقى بينه وبين تفليس الجبل (يقصد جبل ديدجورى الواقع جنوب غربى تفليس) مقدار نصف يوم» حيث دارت المعركة الطاحنة . انظر : تاريخ الفارقى : ص ٢٠٥ .

(١٥٢) Matthieu d'Edesse, p. 460, n. 1 .

(١٥٣) Matthieu d'Edesse, p. 304 - 305 .

(١٥٤) Brosset, I , p. 365 - 367; Et Additions, I , p. 230, 236 - 241 . CF. Salia, p. 178 .

(١٥٥) جاء النص اللاتينى على هذا النحو "Factis Agminibus , INTER DUOS MONTES, Densissimis Nemoribus insitos, in

valle restitit, Qua , Ut Fama Retulit, super Eum Hostes ingredi praesumebant."

انظر Galterii , p. 130 .

وتعد رواية جلتيرى أهم المصادر التى فصلت الحديث عن معركة ديدجورى .

(١٥٦) انفرد جلتيرى دون غيره من المصادر بذكر النص الكامل لخطبة الملك الكرجى داوود الثانى . انظر . Galterii, p. 130 - 131

(١٥٧) Galterii , p. 130 - 131 .

(١٥٨) اقتبس هذا القول عن القرآن الكريم، إذ ورد فى سورة البقرة الآية ٢٤٩ : بسم الله الرحمن الرحيم «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» صدق الله العظيم . ويعد هذا دليلا واضحا على إلمام العاهل الكرجى بالعقيدة الإسلامية .

(١٥٩) Galterii , p. 131 - 132 .

(١٦٠) ابن العديم: جـ ٢ ، ص ١٩٩. والملاحظ أن العينى انفرد بذكر هذا الحدث دون غيره من المصادر .

(١٦١) Brosset, I, p. 365 - 367; Et Additions , I , 236 - 241 .

(١٦٢) «دربند شروان» وتسمى أيضا «الدربند» أو «الباب» أو «باب الأبواب» وهى مدينة قرب بحر الخزر ، وقيل ولاية قصبتها شماخى. سميت الباب لأنها بناها شروان، فنسبت إليه. انظر: ياقوت: جـ ٣ ، ص ٣٩٩؛ البغدادي: جـ٢، ص ٧٩٣ ؛ النويرى: جـ ٢٧ ، ص ٢٤، حاشية رقم ١ . فى ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٣١٣ «أهل دوبند» وصححتها «دربند» . وتقع شروان

شمال شرق أرمينية ، بين نهر الكر وبحر قزوين ، وقد وردت في المصادر الأرمنية تحت اسم «أجهوانك» 'Agh'ouank تارة و«الباني» Albanie تارة أخرى . انظر Indjidji, l''Armenie Moderne, p. 413 - 415.

(١٦٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣١٣ ؛ النويري: جـ ٢٧ ، ص ٢٤؛ ابن خلدون: جـ٥ ص ٥٢؛ العيني : ورقة ٧٦٧ .

(١٦٤) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٣١٣ .

(١٦٥) «شماخي» قصبة بلاد شروان ، في طرف الران. وتعد من أعمال الباب والأبواب . انظر: ياقوت : جـ ٣، ص ٣٦١ ؛ البغدادي : جـ ٢ ، ص ٨١.

(١٦٦) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٣١٣ ؛ النويري: جـ ٢٧ ، ص ٢٤ (والملاحظ أن النويري نقل نقلا حرفيا عن ابن الأثير) ؛ ابن خلدون: جـ ٥، ص ٥٢ (جنح ابن خلدون إلى تلخيص رواية ابن الأثير أحداث شروان في أربعة أسطر)؛ العيني: ورقة ٧٦٧ (بعد أن كان العيني ينقل حرفيا عن ابن الأثير، جنح إلى ايجاز رواية ابن الأثير ايجازا شديدا) .

(١٦٧) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص ٣١٣؛ النويري: جـ ٢٧، ص٢٤؛ ابن خلدون: جـ٥ ، ص ٥٢ ؛ العيني: ورقة ٧٦٧ .

(١٦٨) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٣١٣؛ النويري: جـ ٢٧، ص٢٤؛ ابن خلدون: جـ٥، ص ٥٢ ؛ العيني: ورقة ٧٦٧ . انظر أيضا : Salia , p. 181 .

(١٦٩) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٣١٣؛ النويري: جـ ٢٧، ص٢٤؛ ابن خلدون: جـ٥، ص ٥٢ ؛ العيني: ورقة ٧٦٧ .

(١٧٠) Salia, p. 181 .

(١٧١) Matthieu d'Edesse, Ch. CCXXXIX, p. 310 .

(١٧٢) تقع «كولا» جنوب نهر الرس، فى مقاطعة أرارات (انظر Laurent, p. 86 n. 56) وكان جنوب كولا من المناطق الارمنية الشهيرة بانتاج القمح منذ القدم (انظر Moise de Khorene , p. 145) وقد بلغ من غزارة انتاج الحبوب بها انها كانت تصدر القمح إلى بغداد (انظر Sirarpie der Nersessian, Etudes Byzantines et Armeniennes, p. 304) إذ أورد الطبرى أن المؤن كانت تصل بسهولة إلى بغداد من الجزيرة وأرمينية. انظر: تاريخ الأمم والملوك - المطبعة الحسينية المصرية - جـ ٣ ، ص ٢٧٢، ٢٧٥ .

(١٧٣) «باسيان» الاقليم الرابع فى مقاطعة أرارات فى أعلى نهر الرس (Aristakes, p. 12, n. 1) . ويقع شرق كارين . (Arisdagues, p. 22, n. 1) ويتفق ما ذكره مويز الخورينى فى مصدره عن تاريخ الأرمن وما جاء فى معجم ياقوت الحموى الذى ذكر أنه يوجد باسين العليا وباسين السفلى . ويقول انهما كورتان قصبتهما أرزن الروم . انظر : ياقوت : معجم البلدان، طبعة بيروت - جـ ١ ، ص ٣٢٢ ؛ البغدادى : جـ ١ ، ص ١٥٣ وأيضا : Moise de Khorene, II , CH. VI , p. 135 - 136 et 135 , n. 8 .

(١٧٤) Salia, p. 182 .

(١٧٥) تقع آنى على الشاطئ الأيمن من نهر أخوريان ، على بعد عشرين ميلا، عند ملتقى هذا النهر بنهر الرس . للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر:

استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية آنى ، ص ٨ - ٩ .

(١٧٦) تناولنا فى بحثنا السابق تفاصيل هذه الاحداث فى ضوء الدراسة التحليلية النقدية المقارنة لمختلف المصادر . انظر : فايز نجيب اسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية آني- الاسكندرية ١٩٨٧ - ص ٩ - ٤٢.

(١٧٧) تقع «مقاطعة أراجدزوتن» شرق نهر أخوريان ، الرافد الأيسر لنهر الرس . انظر . Laurent , p. 42 .

(١٧٨) تقع «شيراك» فى اقليم أرارات ، وتعد من أهم المدن الأرمينية. وقد اتخذ أشوط الثالث مدينة آنى، الواقعة فى اقليم شيراك، عاصمة لأسرة بجراط، وذلك سنة ٩٦١م / ٣٥٠ هـ ، وبذلك ازدادت أهمية اقليم شيراك . (انظر Aristakes, p. 49, n. 3; Asolik, II , p. 16, n. 1 . CF. Ghazarian, Arabischen, p. 72) . والجدير بالذكر أن الجغرافيين المسلمين يسمونها «سراج طير» ، ويقول البغدادى نقلا عن ياقوت الحموى إنها «كورة فى أرمينية الثالثة وقيل الثانية» . انظر : مراصد الاطلاع، جـ٢، ص ٧٠٢؛ ياقوت: معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٠٣ .

(١٧٩) «سبير» Sper أو «اسبير» Ispir ، اقليم فى أرمينية العليا، شمال شرق أرزن الروم، مشهور بمناجم الذهب، كان منذ قديم الزمان من الأملاك الموروثة لأسرة بجراط (انظر Moise de Khorene, II, CH, XXXVI, p.179, n. 8. CF. Saint- Martin, I , p. 69 - 70; Indjidji, l'Armenie Ancienne, p. 52 - 62) ولا يزال بهذا الاقليم مناجم تحتوى على مختلف أنواع المعادن ، خاصة الذهب والفضة المتواجد بكثرة فى

وادى شورروخ ، ضواحى سبير . انظر : Arisdagues, IX, p. 73, n.1
; Aristakes, IX, p. 59, n. 2. CF. Manandian, p. 151;
. David Lang, p. 192; Der Nersessian, p. 304

(١٨٠) «أرزن الروم» مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط . انظر: القزوينى: ص ٤٩٤؛ ياقوت: جـ ١، ص ١٥٠؛ البغدادى: جـ ١ ، ص ٥٥؛ أبو الفداء : ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(١٨١) عن «طرابيزون» انظر: فايز نجيب اسكندر : امبراطورية طرابيزون والبندقية . الاسكندرية ١٩٨٣ - ص ٩ وما بعدها .

(١٨٢) «أبو الأسوار» هو أحد أمراء بنى شداد الكردية. حكم دوين فى الفترة من ١٠٢٢ إلى ١٠٤٩ م / ٤١٣ - ٤٤١ هـ . ونجح أيضا فى فرض سيادته على كنجة وذلك سنة ١٠٤٩ / ٤٤١ هـ . وظلت هذه المدينة ملكا لأسرة بنى شداد والتى ينتهى إليها أبو الاسور حتى سنة ١٠٨٨ م / ٤٨١ هـ ، حيث استولى عليها بوزان قائد السلطان ملكشاه . للتفاصيل انظر :
Arisdagues,X, p. 69, n. 1; Aristakes, X, p. 52 - 53 , n. 2;
89, n. 2; Brosset, I , p. 344 .

(١٨٣) أحمد بن لطف الله منجم باشى : ص ١٥ .

(١٨٤) Matthieu d'Edesse, p. 465 , n. 2 .

(١٨٥) عنه انظر Matthieu d'Edesse , p. 465, n. 1; Brosset,
Ruines d'Ani, p. 126, n. 2 .

(١٨٦) Matthieu d'Edesse, p. 465, n. 2; Salia, p. 182;

Brosset , Ruines d'Ani, p. 128 .

(١٨٧) Brosset, Ani, p. 128; Salia, p. 182 .

(١٨٨) Brosset, Georgie, I, P. 359; Additions, p. 280 , 282; Ani , p. 128; Matthieu d'Edesse, p. 313 - 314 .

وهكذا صارت آنى بعد إخراج بنى شداد منها نهائيا جزءا من مملكة الكرج الموحدة، ولكنها بقيت فى حوزة الزخارية يدفعون عنها الجزية. وامتدت أسوار المدينة فى أيامهم حتى بلغت شواطىء نهر اربتشاى المنحدرة. وتدل الابنية الدينية لذلك العصر على أن حكام الكرج كأسلافهم البيزنطيين كانوا يميلون إلى المذهب الخلقدونى ، مما أدى إلى انتشاره بين الأرمن على حساب مذهبهم المونوفيزيتى .

(١٨٩) Matthieu d'Edesse, p. 313 - 314. CF. Brosset, Ani, p. 129; Salia , p. 182 .

(١٩٠) Matthieu d'Edesse, p. 313 - 314.

(١٩١) Matthieu d'Edesse, p. 318. و «هنزيط» بالكسر، ثم السكون، وزاى، ثم ياء ، وطاء مهملة: من ثغور الروم. انظر : البغدادى : جـ ٣ ، ص ١٤٦٦ .

(١٩٢) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(١٩٣) عبر عن ذلك متى الرهاوى بقوله "Il Prodigua a notre nation toute sorte de consolations et de bienfaits."

انظر . Matthieu d'Edesse , p. 311

(١٩٤) الفارقى: ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ؛ انظر أيضا : تاريخ الفارقى - تحقيق بدوى عبداللطيف - بيروت ١٩٧٤ ، ص ٤١ - ٤٥ . ومن المؤكد أن «حمام اسماعيل» هو نفس الحمام الذى ذكره الحسينى فى حديثه عن سقوط تفليس فى قبضة السلطان الب ارسلان، إذ جاء فى روايته «فوجد فيها حماما بناه سليمان بن داود صلوات الله عليهما على عين حمئة سخنة بماءها الحار من غير أن تجاوره النار وهو أول حمام بنى فى الدنيا » . انظر : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٤٥ .

(١٩٥) ابن حوقل : ص ٢٩٢ .

(١٩٦) القزوينى : ص ٥١٨ ، ياقوت : جـ ٢ ، ص ٣٥ .

(١٩٧) مؤلف مجهول : البستان الجامع لتواريخ الزمان ، ص ١١٨ - ١١٩ . والجدير بالذكر أن ياقوت أشار أنه ينسب إلى تفليس جماعة من أهل العلم منهم التفليسى والبهيقى والهاقولى (انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٣٧)؛ هذا بينما اكتفى أبو الفداء بالقول «وخرج منها علماء» . انظر: تقويم البلدان ، ص ٥١٠ .

(١٩٨) شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ٥٨ .

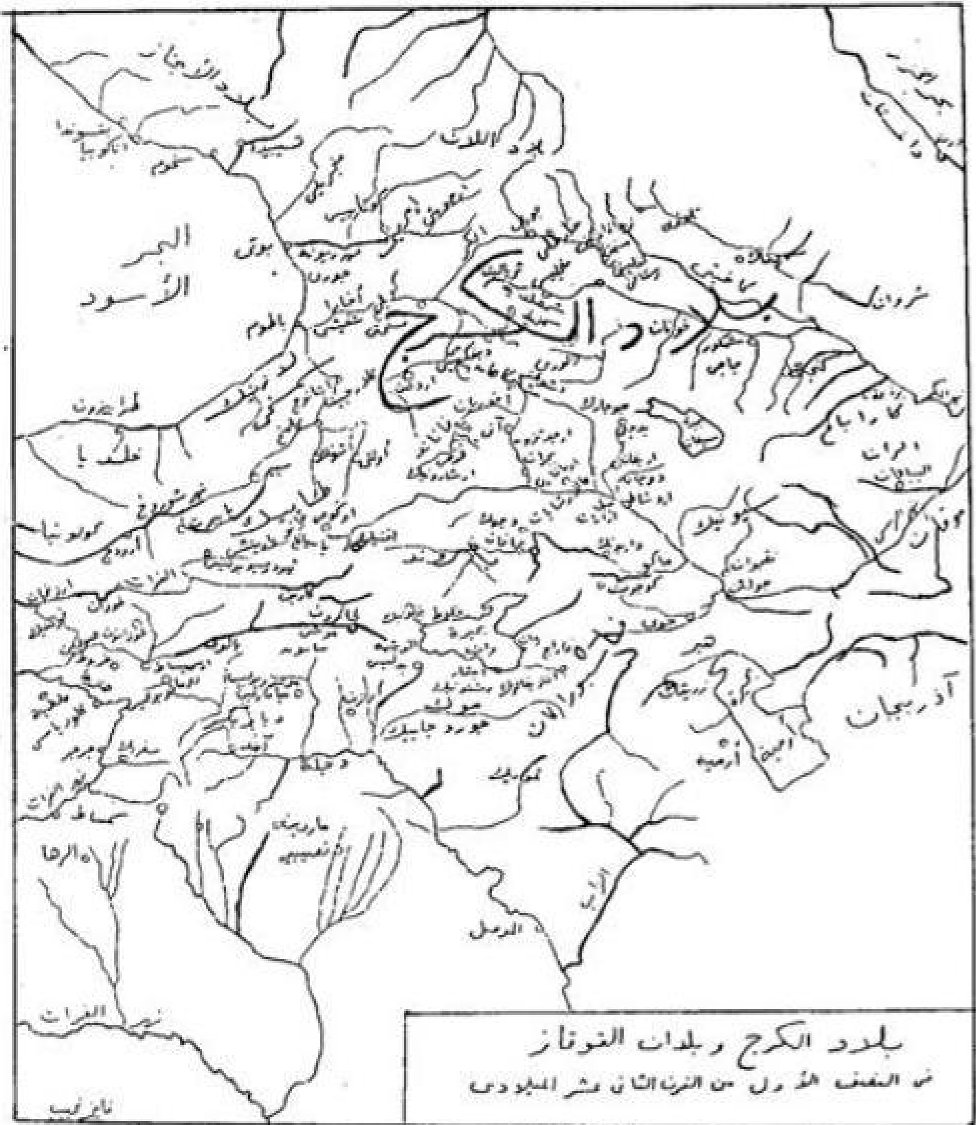
(١٩٩) ابن الأزرق : ص ٢٠٦.

(٢٠٠) Salia , 182 - 183 .

(٢٠١) ابن الأزرق : ص ٢٠٦ .

(٢٠٢) Nansen, p. 100 .

(٢٠٣) Matthieu d'Edesse , p. 318 .



بلاد الكرج وبلدان القوقاز
في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي

تقرير

عن اجتماع الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين العرب التى عقدت بالقاهرة (٧ - ٩ ديسمبر ١٩٩١) .

أولا : جدول الأعمال .

ثانيا : كلمة الافتتاح

ثالثا : النظام الأساسى لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

رابعا : البيان الختامى والتوصيات

جدول الأعمال

اليوم الأول السبت ١٩٩١/١٢/٧ م

٩ - ١٠ التسجيل

١٠ - ١١ الافتتاح

كلمة الافتتاح

* أ . د. سعيد عبد الفتاح عاشور .

- رئيس اللجنة المؤقته للإتحاد .

* معالى أ . د. سليمان سعدون البدر

- وزير التربية بالكويت .

* أ . د. عبد الله بن يوسف الشبل

- وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

* د. محمد العيدروس

- كلية الآداب - جامعة الإمارات العربية المتحدة

١١ - ١١,٣٠ استراحة

١١,٣٠-١,٣٠ الجلسة الأولى

كلمة ممثلى الجامعات العربية المشاركة فى المؤتمر

١,٣٠ - ٤ غذاء وراحة

٤ - ٦ الجلسة الثانية

بقية كلمات ممثلى الجامعات العربية المشاركة فى المؤتمر

٧,٣٠ - التوجه من الفندق لحضور برنامج الصوت والضوء بالسيارة .

اليوم الثانى الأحد ٨ / ١٢ / ١٩٩١ م

١٠ - ١١ الجلسة الثالثة

عرض مشروع اللائحة الأساسية الدائمة لإتحاد المؤرخين العرب

يقدمه أ. د. حسنين محمد ربيع

١١ - ١١،٣٠ استراحة

١١،٣٠-١،٣٠ الجلسة الرابعة

مناقشة مشروع اللائحة الأساسية الدائمة لإتحاد المؤرخين العرب

المقرر: رئيس اللجنة المؤقته لإتحاد المؤرخين العرب .

١،٣٠ - ٤ غذاء وراحة

٤ - ٦ الجلسة الخامسة

تكملة مناقشة مشروع اللائحة الأساسية لإتحاد المؤرخين العرب .

٦،٣٠ - التوجه من الفندق لإحدى البواخر السياحية

لتناول العشاء على صفحة نهر النيل .

اليوم الثالث الإثنين ١٩٩١/١٢/٩

١٠ - ١١	الجلسة السادسة
	إقرار اللائحة الأساسية للإتحاد
١١ - ١١٫٣٠	إستراحة
١١٫٣٠ - ١٫٣٠	الجلسة السابعة
	إنتخابات أمين عام الإتحاد
	ومحلس إدارة الإتحاد للدورة ١٩٩١ -١٩٩٤ م
١٫٣٠ - ٣	غذاء
٣ - ٤٫٣٠	الجلسة الختامية - توصيات
٤٫٣٠ -	جولة حرة

كلمة الإفتتاح التى ألقاها

الأستاذ الدكتور/ سعيد عبدالفتاح عاشور
رئيس اللجنة المؤقتة لإتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
فى إجتماع الجمعية العمومية ٧ ديسمبر ١٩٩١م

حضرات الإخوة والأخوات ... حضرات الزملاء والزميلات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عندما تجتمع اليوم تحت شعار إتحاد المؤرخين العرب، فإنما نجتمع فى حقيقة الأمر ليس لخدمة قضية معينة أو شريحة محددة من شرائح مجتمعنا العربى، وإنما لخدمة العروبة وتاريخها وتراثها وحاضرها ومستقبلها كبناء واحد متكامل. إنه (اتحاد) المؤرخين العرب، ولعل فى هذه التسمية ما يكفى للتعبير عن أننا نجتمع لنوحد لا لنفرق، ولنشيد ونبنى لا لنهدم ونمزق، لنقوم لا لنعوج .

حضرات الإخوات ، الزملاء والزميلات

إن لهذا الإجتماع قصة لابد من إحاطة حضراتكم علما بها. ذلك ن الإتحاد السابق للمؤرخين العرب - الذى اتخذ من بغداد مركزا له - نهج نهجا سياسيا معينا، الكل يعرفه، ولا نريد الخوض فيه حرصا على رأب الصدع وتجنبا لإستفحال الشرخ. ولكن يكفى أن نشير إلى أن ذلك الإتحاد لم يلتزم بروح النظام الأساسى الذى أعلنه دستورا لنشاطه، فجاءت الفجرة واسعة بين الشعارات البراقة التى نص عليها ذلك النظام، وبين السلوك والأهداف التى سعى إليها، وتحايل على تنفيذها إرضاء لنزوة حاكم بعينه .

وهكذا سخر التاريخ لخدمة السياسة، وما أدراك ما السياسة اليوم بمتاهاتها ومنحنياتها الفكرية والعقائدية والمذهبية وغيرها. وباستعراض نشاط ذلك الإتحاد، نجد أنه لم ير فى تاريخ هذه الأمة إلا الشعوبية، محاولا تطبيق مقاييس الماضى على الحاضر، والعودة بنا إلى الوراء، متناسيا أنه من سنن التاريخ تبدل الأوضاع وأن للتاريخ دورة، عبر عنها الله عز وجل بقوله «وتلك الأيام نداولها بين الناس» . وبدلا من جميع الشمل إزداد الخرق إتساعا حتى كانت الكارثة التى حلت بالعالم العربى فى العام الماضى عندما غزا العراق دولة الكويت، وأحدث بها ما أحدث من دمار وخراب ، مما عاد بخسارة فادحة على حاضر الأمة العربية ومستقبلها .

وفى تلك الظروف الصعبة، نفذ إتحاد المؤرخين العرب فى بغداد الخطة التى رسمت له، والتى كان يعد لها فى إجتماعاته وندواته وفقا لأهداف مرسومة لم يفطن إليها معظم من شاركوا فى تلك الإجتماعات من الزملاء والزميلات بنوايا حسنة وعن طيب خاطر . وما كاد يبدأ العدوان العراقى على الكويت، حتى إستباح أمين عام الإتحاد فى بغداد لنفسه أن يصدر بيانا بإسم المؤرخين العرب يؤيد العدوان، ويبارك ما قام به حاكم العراق ورجاله من أعمال، بل لقد حاول أمين عام إتحاد المؤرخين العرب فى بغداد أن يختلق لذلك العدوان مبررات تاريخية لا وجود لها فى التاريخ ولا أساس لها من الصحة .

وكان أن اجتمع فريق من أساتذة التاريخ العرب فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٩٠، واتصلوا بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وهى الجمعية التى لم تربط نفسها مطلقا بإتحاد المؤرخين العرب فى بغداد، وإنما ظلت دائما تتشكك فيه وفى سياسته المشبوهة.وفى اللقاء الذى تم بين أعضاء مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات

التاريخية فى مقرها بالقاهرة من ناحية، وبين الإخوة المؤرخين العرب وكانوا ينتمون إلى ما لا يقل عن خمس دول عربية من ناحية أخرى، طلب الطرف الأخير إدانة إتحاد المؤرخين العرب فى بغداد وتنحية أمينه العام عن مركزه، ونقل مقر الإتحاد إلى القاهرة .

وفى يومى ١٨ ، ١٩ نوفمبر ١٩٩٠ إجتمع جمع من المؤرخين العرب بالقاهرة، وإتخذوا القرارات الآتية، على أن تكون ذات صفة مؤقته لحين إجتماع الجمعية العمومية الموسعة الممثلة فى حضراتكم . أما القرارات فهى :

أولا : نقل مقر إتحاد المؤرخين العرب فورا من بغداد إلى القاهرة .

ثانيا : تنحية الدكتور مصطفى النجار عن أمانة إتحاد المؤرخين العرب وسحب الثقة منه .

ثالثا: إنتخاب لجنة مؤقته تتولى مهام الدعوة لعقد الجمعية العمومية لإتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة . وقدتم إختيار أعضاء هذه اللجنة على الوجه التالى :

١ - الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور .

الأستاذ بكلية الآدابيجامعة القاهرة - رئيسا .

٢ - سعادة الأستاذ الدكتور / عبد الله بن يوسف الشبل .

وكيل جامعة الإمام محمدبن سعود الإسلامية بالرياض - وكيلا .

٣ - الأستاذ الدكتور / يونان لبيب رزق

رئيس قسم التاريخ بكلية البنات بجامعة عين شمس - أمينا للصندوق

٤ - الأستاذ الدكتور / سليمان العسكرى

أستاذ التاريخ بجامعة الكويت - عضوا .

٥ - الأستاذ الدكتور / مصطفى عقيل

أستاذ التاريخ بجامعة قطر - عضوا

٦ - الأستاذ الدكتور / عبد العزيز نوار

أستاذ التاريخ بكلية الآداب بجامعة عين شمس - عضوا

٧ - الأستاذ الدكتور / محمد العيدروس

أستاذ التاريخ بجامعة العين بدولة الإمارات العربية - عضوا

٨ - الأستاذ الدكتور / حسنين محمد ربيع

عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة - عضوا

٩ - الأستاذ الدكتور / عبد العزيز الهلابى

أستاذ التاريخ بجامعة الملك سعود - عضوا

وهكذا ألقيت على كاهلنا مهمة الإعداد لهذا الإجتماع فى ظروف صعبة، تطلبت منا الكثير من الجهد والوقت، مما يجعلنى أنتهز هذه الفرصة لأرجو حضراتكم إعفائى من رئاسة هذه اللجنتقاما بعد أن تقوموا حضراتكم بإنتخاب اللجنة الجديدة الدائمة لإتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، وذلك وفقا للبرنامج المحدد فى هذا اللقاء .

حضرات الإخوة الزملاء والزميلات

لا أخفى على حضراتكم أنه واجهتنا فى الأشهر الأخيرة صعوبات ضخمة من أجل تنظيم هذا الإجتماع والإعداد له . ومن هذه الصعوبات العثور على قوائم بأسماء أسرة التاريخ فى كل بلد عربى داخل الجامعات وخارجها. هناك أسماء

تعرفها جيدا ولكن لم نستدل على عناوين المراسلات معها مما أدى إلى إرتداد عدد كبير من الرسائل التى أرسلناها إلى شتى أنحاء العالم العربى. ونرجو عن طريق حضراتكم وبمساعدتكم أن تنوبوا عنا فى تقديم الإعتذار إلى من لم تصله الدعوة لحضور هذا الإجتماع من الإخوة المؤرخين العرب، كما نرجو حضراتكم إمداد الأمانة العامة للإتحاد بكل ما يتوافر لديكم من أسماء وعناوين خاصة بالأخوة المشتغلين بالدراسات التاريخية، ليجتمع الشمل وتقوى الروابط .

على أن الصعوبة الكبرى التى واجهتنا عند الإعداد لهذا الإجتماع كانت بلا شك عملية التمويل. ويبدو أن حالة الإضطراب النفسى نتيجة للصدمة التى تعرضت لها الأمة العربية جعلت الحصول على دعم من الحكومات العربية القادرة أمرا صعبا. وهكذا حتى إستجابت لنا جهتان لابد من التنويه بهما وتقديم الشكر باسمى وأسمكم لهما. أما الجهة الأولى، فهى المملكة العربية السعودية وعلى رأسها خادم الحرمين جلالة الملك فهد بن عبد العزيز، وقد تجاوبت معنا عن طريق وساطة جامعة الإمام محمد بن سعود ومديرها معالى الأستاذ الدكتور عبدالله بن عبد المحسن التركى ووكيلها سعادة الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل. قام هذا الجانب بتحمل نفقات الإنتقال بالطائرة ذهابا وإيابا لكافة الأعضاء المشاركين فى هذا الإجتماع والمقيمين خارج مصر . فلهم منا ومنكم وافر الشكر والتقدير .

وإما الجهة الثانية فتتمثل فى شخص سمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمى أمير الشارقة، وهو الحاكم المؤرخ، الفخور بانتمائه إلى أسرة المؤرخين العرب. والذى يشكل تاريخ العرب والعروبة جزءا من فكره ووجدانه . وقد تكفل سموه بكافة

نفقات هذا اللقاء الذى يضمنا اليوم . فله منا ومنكم وافر الشكر والتقدير .

حضرات الإخوة الزملاء والزميلات

إن إتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد الذى تساهمون فى إرساء قواعده الآن لا يربطه بالإتحاد السابق فى بغداد إلا الإسم ، بمعنى أنه ليس إمتدادا له بقدر ما هو وليد جديد ، يحمل وعيا جديدا، وفكرا جديدا، وفهما جديدا، ونظرة جديدة إلى الأمور .

وبعبارة أخرى فإننا نرجو أن نبدأ من نقطة إنطلاق جديدة لا أن تستأنف مسيرة سابقة نحو أهداف مشبوهة مستترة. إن المرض الخطير الذى يعانى منه علم التاريخ فى عالمنا العربى اليوم هو محاولة إخضاعه لأهواء السياسة وتطلعات رجال السياسة، بمعنى تفسير التاريخ ومحاولة تشكيله وفق أهواء بعض الحكام وآرائهم وتطلعاتهم، حتى ولو أدى ذلك إلى تشويه الحقيقة التاريخية وإفسادها .

حضرات الإخوة الزملاء والزميلات

إن تاريخ الأمة العربية يحتل والحمد لله صفحة مشرقة فى سجل تاريخ الإنسانية، فعلينا أن نكشف عن جوانب هذا التاريخ بأمانة وموضوعية وحياد. وإذا صادفنا بعض ثغرات، فعلينا أن ندرك أن الآباء والأجداد كانوا بشرا، والبشر معرض للصواب والخطأ. فلنذكر الحسنات وما أكثرها ولا نتغاضى عن الزلات لنأخذ منها عظة وعبرة فليس عيبا أن يخطىء الإنسان ولكن العيب هو ألا يستفيد الإنسان من خطئه .

وبعد ، أيها الإخوة الزملاء والزميلات، فإننى أكرر ما بدأت بالإشارة إليه من أن

الهدف الأساسى من إجتماعنا هذا هو البناء ووضع خطة عمل لإتحاد جديد للمؤرخين العرب، تستهدف إلقاء الأضواء على أمجاد الماضى وكشف الغمة عن حاضر مضطرب وفتح باب الأمل أمام مستقبل مشرق إن شاء الله .

وفقكم الله ومكننا جميعا من الوفاء بعهد كان مسئولا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

بسم الله الرحمن الرحيم

النظام الأساسى
لاتحاد المؤرخين العرب

جمادى الآخر ١٤١٢ هـ - ديسمبر ١٩٩١ م

الباب الأول
التعريف بالإتحاد
أهدافه ونشاطه ومقره

مادة (١)

إتحاد المؤرخين العرب هيئة علمية مهنية تضم المشتغلين بالدراسات التاريخية من أبناء الأمة العربية .

مادة (٢)

يسعى إتحاد المؤرخين العرب لتحقيق الأهداف الرئيسية الآتية :

أ - دراسة تاريخ الأمة العربية وفق منهج علمي موضوعي، وإبراز العناصر التي أسهم بها العرب والمسلمون في بناء صرح الحضارة البشرية .

ب - تشجيع الدراسات التاريخية التي تساهم في دعم أواصر الوحدة العربية وتحقيق الترابط بين الدول العربية .

جـ - التصدي بالأدلة العلمية التاريخية للدفاع عن القضايا العربية وبخاصة قضية فلسطين .

د - الدفاع عن الحقيقة التاريخية من أن تقع تحت أي تأثير سياسي أو مذهبي أو عقائدي .

هـ - تنقية التاريخ العربي مما لحق به من شوائب على مر العصور .

و - تحديث الدراسات التاريخية باستخدام وسائل التقنية الحديثة

ز - الدفاع عن حقوق المؤرخ العربي وإنتاجه العلمي

ح - العناية بالتراث التاريخى للأمة العربية .

ط - تنمية المعرفة التاريخية لدى المواطن العربى .

ى - الدفاع عن المؤسسات والمنجزات التاريخية والأثرية والسعى للحفاظ عليها بالوسائل المشروعة .

مادة (٣)

يأتى فى مقدمة نشاط إتحاد المؤرخين العرب ما يلى :

أ - إقامة الندوات والمؤتمرات التاريخية وعقد اللقاءات والإجتماعات بصفة مستمرة لدراسة التاريخ العربى من كافة جوانبه وصلته بمسيرة التاريخ الإنسانى .

ب - جمع التراث التاريخى العربى والإسلامى الحفاظ عليه وتشجيع نشر ما لم ينشر منه، وتحقيقه وشرحه .

جـ - نشر البحوث التاريخية والأثرية التى تتصف بالأصالة والجدة والموضوعية، وذلك بعد تحكيمها بكافة وسائل النشر المتاحة للإتحاد وفى مقدمتها مجلة علمية .

د - العمل على توثيق عرى التعاون مع الجمعيات والهيئات والمؤسسات العلمية والتاريخية فى الوطن العربى وخارجه .

مادة (٤)

يكون مقر إتحاد المؤرخين العرب الدائم بمدينة القاهرة، ويجوز لمجلس الأمناء دعوة الجمعية العمومية للإنعقاد فى أى قطر عربى، كما يراعى فى اللقاءات العلمية والندوات أن تتنوع أماكن إنعقادها داخل محيط الوطن العربى أو خارجه .

الباب الثانى
تكوين إتحاد المؤرخين العرب
مادة (٥)

يتكون إتحاد المؤرخين العرب من :

أ - أعضاء هيئات تدريس التاريخ والآثار بالجامعات العربية وكذلك أعضاء المؤسسات العلمية المتخصصة الأخرى من المشتغلين فى الدراسات التاريخية مثل مراكز تحقيق التراث التاريخى ، ومراكز البحوث والوثائق .

ب - الباحثين المشتغلين فى حقل الدراسات التاريخية والأثرية وبخاصة التاريخ العربى فى مختلف عصوره، من أبناء الأمة العربية داخل الوطن العربى وخارجه .

جـ - الهيئات والجمعيات التاريخية أو ذات الإهتمامات بالدراسات التاريخية داخل الوطن العربى، وتكون مشاركة هذه الهيئات والجمعيات فى إتحاد المؤرخين العرب إما بصفتها الإعتبارية أو بأعضائها والمساهمين فيها .

د - الشخصيات العربية التى لها عناية بتاريخ الأمة العربية ممن لهم إسهام علمى بالبحث والتأليف في مجال التاريخ والآثار .

هـ - يجوز للجمعية العمومية بناء على ترشيخ من مجلس الأمناء منح عضوية الشرف وتكون العضوية فخرية فى هذه الحال .

و - يشترط فى جميع الحالات أن يكن العضو مشهودا له بحسن السمعة، وأن يكون ملتزما بالنظام الأساسى للإتحاد، وتزول صفة العضوية عن العضو إذا أتى عملا يسىء إلى الإتحاد وأهدافه أو ارتكب عملا مخلا بالأمانة العلمية، ويكون هذا الإجراء بقرار مسوغ من مجلس الأمناء .

الباب الثالث
سلطات الإتحاد وإختصاصاته
مادة (٦)

أ - الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين هى السلطة العليا للإتحاد، والتى تتألف من جميع أعضاء الإتحاد العاملين. وتنعقد هذه الجمعية العمومية مرة كل ثلاث سنوات بناء على دعوة من رئيس الإتحاد. ويمكن دعوة الجمعية العمية لإجتماع غير عادى كلما رأى مجلس الأمناء ذلك، أو بناء على طلب مكتوب يقدم لرئيس الإتحاد من ثلث الأعضاء على الأقل .

ب - يكون إنعقاد الجمعية العمومية قانونيا إذا حضر الإجتماع ثلث الأعضاء، فإذا لم يتكامل هذا العدد فى الميعاد المحدد تؤجل الجمعية لمدة ساعة، ويكون الإجتماع عندئذ صحيحا مهما كان عدد الحاضرين .

جـ - تناقش الجمعية العمومية للإتحاد التقارير العلمية والإدارية والمالية التى يقدمها رئيس مجلس الأمناء عن نشاط الإتحاد فى الدورة المنصرمة .

د - تقوم الجمعية العمومية بإنتخاب رئيس الإتحاد وأعضاء مجلس الأمناء.

هـ - يتألف مجلس الأمناء الذى تنتخبه الجمعية العمومية لإتحاد المؤرخين العرب من ثلاثة عشر عضوا تبعا للتوزيع الجغرافى (المغرب ٣ - مصر والسودان وجيبوتى والصومال ٣ - الجزيرة العربية - ٣ - الشام والعراق ٣ - إضافة إلى رئيس الإتحاد من دولة المقر . ومدة العضوية فى مجلس الأمناء ثلاث سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة فقط .

و - يقوم مجلس الإدارة بإنتخاب ثلاثة نواب للرئيس من أقاليم: المغرب الجزيرة العربية - الشام والعراق كما يقوم مجلس الأمناء بانتخاب أمين المجلس، وأمين الصندوق .

ز - يقوم رئيس الإتحاد بدعوة الجمعية العمومية للإجتماع ووضع جدول الأعمال بالنسبة لهذا الإجتماع وتحديد مكانه .

ح - يقوم مجلس الأمناء بالإشراف على النشاط العلمى والإشراف على الشئون الإدارية والمالية والفنية بالنسبة للإتحاد وكذلك تعيين الموظفين العاملين بالإتحاد ومساءلة من يخل منهم بواجباته . وعلى مجلس الأمناء إعداد الحساب الختامى بالنسبة للسنة المنتهية .

ط - تصدر قرارات الإتحاد بأغلبية أصوات الحاضرين ، وعند التساوى يرجح جانب الرئيس .

ى - يقوم رئيس مجلس الإدارة أو نائبه برئاسة مجلس الأمناء، وتمثيل الإتحاد أمام الجهات العلمية والإدارية والقضائية، وإقرار جدول أعمال جلسات مجلس الإدارة ومراقبة تنفيذ قراراته، والتوقيع على كافة العقود والاتفاقات التى يقرها مجلس الأمناء. كذلك تكون له صلاحية البت فى المسائل العاجلة التى لا تحتمل التأجيل ، على أن يعرض ذلك على المجلس والجمعية فى أقرب إجتماع.

د - مدة الرئاسة ثلاث سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة فقط .

هـ - يقوم نواب رئيس الإتحاد بمساعدة الرئيس فى مهامه، كما ينوب عنه أكبرهم سنا فى حال غيابه أو خلو منصبه .

و - يختص أمين مجلس الإتحاد بتنفيذ قرارات مجلس الأمناء والإشراف على الإتصالات والمراسلات كما يقوم بتوجيه الدعوة للأعضاء والقيام بأعمال أمانة مجلس الأمناء والجمعية العمومية، والإشراف على سجلات الاتحاد الخاصة بأسماء أعضائه وقرارات مجالسه وتبليغ قرارات مجالسه وغير ذلك من الأعمال الإدارية، وإعداد التقرير السنوى عن نشاط الإتحاد .

ن - يكون أمين الصندوق مسئولا عن الشئون المالية الخاصة بالاتحاد سواء ما يتعلق منها بالإيرادات و بالمصروفات، وتسجيل ذلك فى دفاتر الإتحاد. وعليه تنفيذ قرارات مجلس الأمناء، فيما يتصل بالمعاملات المالية. ويوقع على الشيكات وأذونات الصرف بالإشتراك مع رئيس الإتحاد أو أحد نوابه. كذلك يقوم أمين الصندوق بعرض الحساب الختامى والميزانية السنوية وتقرير مراقب الحسابات على مجلس الأمناء، ثم على الجمعية العمومية .

بسم الله الرحمن الرحيم

البيان الختامي والتوصيات

إجتمعت الجمعية العمومية لإتحاد المؤرخين العرب في مدينة القاهرة في الفترة من يوم السبت ١ جمادى الآخر ١٤١٢ هـ الموافق ٧ ديسمبر ١٩٩١م إلى يوم الاثنين ٣ جمادى الآخر ١٤١٢ هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٩٩١ م .

وناقشت مشروع النظام الأساسي للإتحاد والذي كان قد وضعته اللجنة المؤقته للإتحاد المشكلة في ١٩ نوفمبر ١٩٩٠م وبعد أن اشترك أعضاء الجمعية في مناقشة المشروع بأبوابه الخمسة مناقشة مستفيضة تم إعداد النظام في شكله النهائي بعد تنفيذ مقترحات أعضاء الجمعية وتوصياتهم. وأقرته الجمعية العمومية في جلستها المنعقدة صباح يوم الاثنين ٣ جمادى الآخر ١٤١٢ هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٩٩١م وأوصت بطبعه وتوزيعه على أعضاء الإتحاد وتنفيذ ما ورد فيه إعتبارا من تاريخ إقراره .

ثم قامت الجمعية العمومية بانتخاب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور رئيسا للإتحاد بإجماع الأصوات لمدة ثلاث سنوات .

ثم قامت بانتخاب أعضاء مجلس الأمناء وأسفرت نتيجة الإنتخاب عن فوز السادة التالية أسماؤهم :

١ - أ. د. محمد رزوق (المغرب)

٢ - أ.د. حسنين محمد ربيع (مصر والسودان)

٣ - أ.د. يونان لبيب رزق (مصر والسودان)

٤ - أ.د. محمد محمد مرسى الشيخ (مصر والسودان)

٥ - أ.د. عبد الله بن يوسف الشبل (الجزيرة العربية)

٦ - أ.د. سليمان إبراهيم العسكرى (الجزيرة العربية)

٧ - د. محمد العيدروس (الجزيرة العربية)

٨ - أ.د. سهيل زكار . (الشام والعراق)

٩ - أ.د. إبراهيم محمود زعرور (الشام والعراق)

وتركت ثلاثة مقاعد خالية لشغلها وفقا للنظام الأساسى إثنان للمغرب وواحد للعراق والشام على أن تشغل هذه المقاعد فيما بعد . ووافقت الجمعية العمومية على تفويض مجلس الأمناء فى شغل هذه المقاعد للأشخاص المناسبين وفى الوقت المناسب .

وقامت لجنة الأمناء بانتخاب كل من :

١ - أ.د. عبد الله بن يوسف الشبل نائبا للرئيس

٢ - أ.د. سهيل زكار نائبا للرئيس

٣ - أ.د. حسنين محمد ربيع أمينا للمجلس

٤ - أ.د. يونان لبيب رزق أمينا للصندوق

كما رأت لجنة الأمناء إتخاذ جامعة القاهرة مقرا مؤقتا للإتحاد لحين تدبير مقر دائم .

وأوصت الجمعية العمومية بالتوصيات التالية :

أولا : إتحاد المؤرخين العرب فى مدينة القاهرة هو الإتحاد الشرعى الوحيد الذى يمثل وجدان وشعور المؤرخين العرب فى كل مكان وهو هيئة علمية مهنية تضم المشتغلين بالدراسات التاريخية والأثرية من أبناء الأمة العربية .

ثانيا : يسعى الإتحاد إلى تحقيق الأهداف الرئيسية التى وردت فى الباب الأول من النظام الأساسى المادة (٢) والتى تهدف إلى خدمة تاريخ العرب والمسلمين والارتفاع بمستوى الدراسات التاريخية للوطن العربى والعناية بالتراث التاريخى والدفاع عن حقوق المؤرخين العرب.

ثالثا: توصى الجمعية العمومية الحكومات العربية والجامعات والمؤسسات العلمية والثقافية فى الوطن العربى بتقديم كل عون ومساعدة مادية ومعنوية حتى يتمكن الإتحاد من تحقيق أهدافه المشار إليها .

رابعا: تهيب الجمعية العمومية بالمؤرخين العرب فى مختلف البلدان العربية أن يبادروا بالإنضمام إلى الإتحاد حتى يتمكن من النهوض

بالأمانة الكبرى الملقاه على عاتقه لخدمة الدراسات التاريخية والمؤرخين .

خامسا : تناشد الجمعية العمومية سائر الجمعيات التاريخية فى الوطن العربى أن تتعاون مع الإتحاد باعتباره الممثل الحقيقى الشرعى لكافة المؤرخين العرب

سادسا : توصى الجمعية العمومية بإرسال برقيات شكر وتقدير للسيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية على عقد الجمعية العمومية بالقاهرة مقر الإتحاد وبرقية إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية وسمو الشيخ الدكتور سلطان محمد القاسمى أمير الشارقة وعضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة لقيامهما بدعم عقد الجمعية العمومية للإتحاد بالقاهرة وتوجيه الشكر إلى الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والأستاذ الدكتور مأمون محمد سلامة رئيس جامعة القاهرة لتعضيدهما لإنعقاد المؤتمر والتسهيلات التى قدماها له .

والله من وراء القصد .

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد الثانى المجلد الأول مارس ١٩٩٤

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الثانى ـ المجلد الأول

هـــذه المجـــلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، تستهدف الحقيقة التاريخية صـــافية نقية بعيـــدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية ٠

- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية ٠

- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام ، على أن تصـلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شـــهر نوفمبر من العام السابق ٠

- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسـوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين : أصل وصورة ٠

- تاخذ الهوامش والاحالة رقما مسلسلا علىأن تثبت فى نهاية البحث٠

- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات ٠

- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم اجازتها للنشر بالمجـلة ٠

- ياتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها واجازتها للنشر ولا علاقة اطلاقا بين هذا الترتيب ومكانةالباحث أو درجته العلمية٠

- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالمقـر المؤقت للاتحاد (كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ أورمان ـ جيزة ـ مصر) ٠

المؤرخ العـــــربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثانى ـ المجلد الأول ـ مارس ١٩٩٤

فى هـــذا العـــدد

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العـــــدد

كلــمة ســـــواء

بسم الله الرحمن الرحيم نقدم للمشتغلين بالدراسات التاريخية العدد الثانى من مجلة المؤرخ العربى التى تصدر عن الاتحاد الشرعى للمؤرخين العرب بالقاهرة ٠ وقد سبق أن أوضحنا فى أكثر من مناسبة ان هـــذا الاتحاد فى وضعه الجديد يستهدف فى المقام الأول خير العـلم وأهله ، من خلال الكشف عن دور علم التاريخ فى تكييف حياة الانسان والافادة من تجارب الماضى فى مواجهة متاعب الحاضر والاعداد لمستقبل أفضل ولا يتم ذلك على الوجه الأكمل الا عن طـــريق الوصـــول الى الحقيقة التاريخية وعرضـها مجــردة من اية اعتبارات او نزوات عاطفية تتعمــد الانحراف بالتاريخ عن طريق التلاعب بأحداثه ٠

والمفروض فى التاريخ أن يكون بمثابة مدرسـة ، يســـتفيد فيها اللاحقون من تجارب السابقين ، ويتعلم فيها الحكام وأولو الأمر بصـفة خاصة حتى ينهضـــوا بالأمانة الكبرى الملقـــاة على عواتقهم ٠ يروى المسعودى أن معاوية بن ابى سفيان كان « يستمر الى ثلث الليل فى سماع أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياسـتها لرعيتها ، وســير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الأمم السالفة ٠٠٠ » ٠ ولعلنا فى ضوء هذه العبارة نستطيع أن نفسر نجاح معاوية ــ وهو الرجل الذى نشأ نشأه بدوية بسيطة محدودة الأفق ــ فى أن يسوس أمة كبيرة ويؤسس دولة واسعة ضمت عـــددا من الشعوب المختلفة الأصول والجذور ، المتباينة المشارب والاتجاهات ٠ أما السلطان الظاهر بيبرس ، صاحب الشهرة الواسعة فى عالمى الحرب والسياسة ، فيروى عنه المؤرخ المعاصر ابو المحاسن يوسف بن تغرى بردى أنه كان دائما يردد عبارة « سماع التاريخ أعظم من التجارب » ٠ وعن هـــذا

الطريق نجح الظاهر بيبرس - الذى نشا مملوكا يباع فى أسواق الرقيق - فى أن يصبح المؤسس الحقيقى لدولة من أعظم الدول الاسلامية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى ٠

وعندما قام اتحاد المؤرخين العرب بحركته التصحيحية سنة ١٩٩١، وضع لنفسه سياسة التزم بها ، محورها الحفاظ على كرامة العلم وأهله ، وانتشال علم التاريخ والمشتغلين به من المستنقع الذى سحبهم اليه حكام بغداد واذنابهم من الاتباع والمنتفعين ، والحيلولة دون تسـخير طاقة المؤرخين العرب فى الترويج لسياسة نظام - أيا كان - يتخذ من الارهاب والعدوان والابتزاز أدوات لتحقيق مجد زائف أثبت التاريخ أنه لا يدوم ٠ وعندما يحين الوقت المناسب يصدر التاريخ حكمه صريحا واضـحا ٠٠٠ والتاريخ لا يرحم ٠

وانطلاقا من مبدأ الحفاظ على الوجه المشرق لعلم التاريخ ، ورعاية كرامة المشتغلين به تحرص هيئة تحرير مجلة المؤرخ العربى على الالتزام بروح الأمانة العلمية ، والعمل على تنقية التاريخ مما علق به من أوهام واخطاء ، والحرص على تفسير أحداثه تفسيرا بعيدا عن الاهواء والميول والأغراض ٠٠٠٠ مما يعود فى نهاية الأمر على المسيرة البشرية ، وعلى الأمة العربية بوجه خاص ، وعلى المؤرخ العربى بالخير والصلاح ٠

وعندما تقدم هيئة التحرير العـدد الثانى من مجلة المؤرخ العربى للباحثين والقراء ، فانها ترى أن تبدى أسفها لأصحاب البحوث التى لم تنشر ، اما لأنها لم تحـظ بموافقة الحكام - وهم من صفوة الأسـاتذة المتخصصين - واما لأنها لا تتفق من ناحيتى الكم والكيف مع القواعد التى تلتزم بها المجلة فى مجال النشر

وما دمنا بصدد موضوع التحكيم ، فاننا نرى أن الأمر يتطلب قدرا من الايضاح ، مراعاة لصالح العلم ، وصالح الباحث أو الكاتب ، فضلا عن الحكم والقارىء ٠

ان التحكيم غايته اصدار حكم نهائى على البحث : **هل هو** صالح

للنشر ام انه دون المستوى المنشود . والحكم لا ينبغى أن يجعل من نفسه سيفا باترا يحجر على حرية الباحث أو يلزمه برأى معين . ان للباحث حريته ، ولكل باحث مستواه الفكرى والعلمى ، كما أن لكل فرد امكاناته فى القدرة على التعبير . قد يصادف الحكم أو القارىء فى البحث ما لا يرضى عنه وما لا يقره ، وربما اعتبر ذلك خطئا وقع فيه الباحث . ولكن عليه أن يضع فى الكفة المقابلة ما يحويه البحث من مزايا واضافات بحيث لا يترك السيئات يذهبن الحسنات . حقيقة اننا ننشد الكمال ، ولكن علينا أن ندرك أن الكمال لله وحده ؛ فعلى ان أسعى ولكن ليس على أن أدرك النجاح . ان العقول تتفاوت فى ادراكها للامور وفى تفسيرها للحقائق ، ووجهات النظر قد تتباين فى تفسير الحقيقة الواحدة ، وعندئذ ينبغى على اهل العلم وأولى الرأى أن يدخلوا فى نقاش وجدل هادىء بناء بعيدا عن التعصب لرأى بعينه ؛ وليكن شعارنا جميعا الأخذ والعطاء ، فأنا أعلِّم وأتعلم ، وفوق كل ذى علم عليم ؛ ولا عيب فى أن اقع فى خطأ ، ولكن العيب هو الا أحاول الافادة من هذا الخطأ . وحبذا لو تذكرنا أن هذه الحقيقة أدركها ونادى بها بعض الأئمة والفقهاء فى صدر الاسلام ، فشاع بينهم الرأى القائل : « قولى حق يحتمل الخطأ، وقول مخالفى خطأ يحتمل الصواب » .

ونحن عندما نوضح هذه الحقيقة لا نستهدف تبرير الخطأ أو اغماض العين عنه ، وانما نستهدف ثلاث حقائق نضعها أمام الباحث والحكم والقارىء جميعا : الحقيقة **الأولى** هى أن مهمة الحكم ليست الحجر على حرية الباحث أو الحد من حركته وانما تقييم البحث من ناحية صلاحيته أو عدم صلاحيته للنشر ، ويتم هذا التقييم فى ضوء قوله تعالى « ان الحسنات يذهبن السيئات » والحقيقة **الثانية** : هى أن الباحث هو المسئول الأول والأخير عن كل ما يرد فى بحثه من عبارات وآراء وأفكار ومعلومات ، بمعنى أن البحث يعبر أولا وأخيرا عن مستوى الباحث الفكرى ، وحصيلته العلمية وقدراته اللغوية . أما الحقيقة **الثالثة** فهى أن باب النقد البناء والنقاش الهادىء والجدل المثمر مفتوح أمام الجميع، طالما أن الهدف واحد هو الوصول بالتاريخ وأهله الى المستوى اللائق المنشود .

مرة اخرى ، نفتح قلوبنا ونرفع أيدينا سائلين الله عز وجل الهداية والتوفيق ، مستلهمين اياه خيرا للعرب ، ولتاريخ العرب ، ومســـتقبل العرب ، فى كل زمان ومكان

رئيس التحــرير

نظرية فرويد وأثرها فى البحث التاريخى

بقلم

دكتور منصور أحمد ابو خمسين(*)

مقـــدمة :

التنظير فى ابسط تعريف له ، هو استخراج نسق أو مجموعة من الانساق الواضحة ، والمفهومة ، والممكنة الاثبات ، من مجمـوعة من المعطيات العلمية والملاحظات والمشاهدات المثبتة والمدققة فى حقل من حقول المعرفة أو ميدان من ميادين الدراسة · ويستدعى التنظير تراكم كم معين مقبول من المعطيات التى تمكن صاحب النظرية من استخراج هذه الانماط ثم فحصها أو اختبارها للتاكـد من صـدقها وابراز أية استثناءات هامة لها · فالتنظير أو النظرية حسب هذا التعريف هى جزء من العملية الاستقرائية التى تسود اليوم كافة العلوم الطبيعية منـذ ان روج لها فرانسيس بيكون فى مقالته الشهيرة نوفوم اورجانوم(١) ، والتى دعى فيها الى نسف العلم القديم واقامة بناء جـديد للمعرفة باستخدام الطريقة الاستقرائية · وبغض النظـر عما يقوله العـديد من المؤرخين والفلاسفة ودارسى التاريخ الفكرى حول استحقاق بيكون لشرف التبشير بالطريقة الاستقرائية وارساء قواعد البحث العلمى الحديث ، فان الطريقة الاستقرائية بكل تاكيد ليست وليدة عصرنا هذا كما لا تقتصر الطـريقة الاستقرائية على العلوم البحتة فلقد كانت العلوم الاجتماعية والانسانية ولا زالت ميدانا واسعا للاستقراء والتنظير منذ اقدم العصور · والتراث الاغريقى يحوى انتاجا استقرائيا وتنظيريا فى غاية الاهمية بما ينم عن نفاذ البصيرة فى المجالين العلمى البحت والانســانى · لكن الامكانيات الحقيقية للطريقة الاستقرائية لم تتوافر الا فى عصرنا الحديث ، عصر التراكم العلمى الذى تحول اليوم الى انفجار فى المعرفة افرز كما متزايدا

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة الكويت ·

من المعطيات التى لم تجعل التنظير واستخراج الانساق أمرا ممكنا فحسب ، بل ضروريا ايضا . اذ بدونه يتحول هذا الكم من المعطيات العلمية الى ركام هائل مشوش يستعصى على الفهم والاستيعاب والفرز .

ولعل فى تراثنا العلمى مثالا رائعا للعلاقة بين وفرة المعطيات وضرورة التنظير يتمثل فى الانتاج العلمى لابن خلدون . فهذا الرجل لم يكن شعلة ثارت فى ميدان الفكر الاسلامى بعد طول غياب كما يصوره البعض بل كان محصلة طبيعية لذلك الفكر فى انتاجه وفى توقيته . لقد ورث ابن خلدون كما كبيرا من المعطيات التى افرزها النشاط العلمى فى ميدان التاريخ وما يتعلق به من علوم على امتداد ستة قرون . وبعد دراسة مستفيضة لهذا التراث قام باستخراج نسق متكرر للحوادث التاريخية ولمجموعة أخرى من الانساق الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة ارتباطا مباشرا بالنسق التاريخى المحورى والتى تعطى تفسيرا معقولا لمجمل الاحداث السياسية والاجتماعية بل والاقتصادية التى مرت بشمال افريقية منذ العهد الرومانى وحتى وقت ابن خلدون(٢) . ان الجهد التنظيرى لابن خلدون لم يكن ممكنا لولا توفر المعطيات ، ولكنه ايضا كان ضروريا لاستيعاب تلك المعطيات وفهمها وغربلتها وابقاء اللازم منها ثم ترتيبها وفقا لأهميتها وعلاقتها بمنطق داخلى يحكمه النسق التاريخى المحورى والانساق الأخرى المرتبطة به .

التنظير وعلم التاريخ الأوربى

ولقد ورث المؤرخون وباحثو العلوم الانسانية الأوربيون فى نهاية القرن الماضى وبداية قرننا الحاضر كما كبيرا ومتنوعا من العلوم والمعارف فى مختلف المجالات . ذلك ان أوربا مرت بين نهاية العصور الوسطى وبداية القرن العشرين بأحداث جمة ، وشهدت نشاطا واسعا فى مختلف الميادين وتغيرات واسعة وجذرية شملت مختلف أوجه النشاطات والتنظيمات الانسانية . ولا يمكن مقارنة ذلك التحول خلال هذه القرون الأربعة الا بالنقلة النوعية التى مر بها الانسان فى فجر التاريخ ؛ تلك النقلة التى استغرقت آلاف السنين وعبرت بالبشرية من عصر جماعات الصيد والالتقاط البدائية الى عصر الزراعة والكتابة والامبراطوريات .

ورافق نقلة أوربا من العصر الوسيط الى الحديث جهـــد كبير فى مجالات المعرفة وجمع المعلومات والرصد والتسجيل والملاحظة والمشاهدة والدراسة والتوثيق · وافرز هذا الجهد كما هائلا من المعطيات حول كافه مجالات النشاط الانسانى تقاسمته فروع العلوم الانسانية المختلفة ·

وفى ثلاثة من هذه الفروع برزت ثلاث محاولات لاستخراج انساق واضحة من هذه المعطيات تنظم وترتب هذا الكم المتشـعب الهائل من المعلومات فى نسق واضح ومفهوم يفسر الاحداث ويكشف المعالم ويوضح العلاقات · وشكلت كل واحدة من هذه المحاولات تيـارا تنظيريا هاما تغلغل فى مختلف فروع المعرفة ·

فمن علم الاقتصاد أو مما كان يسمى فى القرن التاسع عشر بعـلم الاقتصاد السياسى خرجت النظرية الماركسية التى تعود الى كارل ماركس واعتقد أننى لست بحاجة للتعريف بكارل ماركس أو بنظرياته ولكن اكتفى بالاشارة هنا الى ان النظرية الماركسـية التى بدأت باستخراج انسـاق الاقتصاد وعلاقاتها بالهرم الاجتماعى والسلطة السياسية ، تطورت لكى تستوعب كافة الانشطة الانســانية وفروع المعـرفة المرتبطة بها كالتاريخ والسياسة والفن والفكر والدين والأسرة الخ · وفى كل هـــذه الميادين استخرج الماركسيون انساقا وأدوات تحليـل ومفاهيم ومفـــردات ترتب وتستوعب المعطيات والاحداث التاريخية والمعاصرة بل والمستقبلية وتعللها جميعا بشكل يتفق والمادية التاريخية التىتشكل محور النظرية الماركسية·

ومن علم الاجتماع برز ما يسمى بالمدرسة الفيبرية نسبة الى ماكس فيبر · وفيبر هذا عالم المانى خصب الانتاج حاد الفـكر توفى فى سنة ١٩٢٠ ، بعد نشاط علمى حافل ساهم من خلاله بتشكيل علم الاجتماع الحديث وترك اثرا واضحا وعميقا فى كافة العـــلوم الاجتماعية(٣) · وتقف نظرية فيبر أو بصورة أدق نظريات فيبر موقفالمعارضة من النظرية الماركسية : اذ بينما تأخذ هذه النظرية الاقتصاد أو العامل الاقتصادى كمحور للتحليل والتعليل واستخراج الانساق وفهم الاحداث والمعطيات ، ينطلق ماكس فيبر من قاعدة فكرية شبه خالصة · واذا كان كارل ماركس قد ارسى قواعد نظرياته لتفسير الاحداث التاريخية فى كتـــاب بعنوان

راس المال فلقد قام فيبر بذلك فى كتاب عنوانه الاخلاقيات البروتستانتية وروح الراسمالية(٤) . ولقد علل فيبر فى هذا الكتاب نشـــأة وتطور الراسمالية فى أوربا وما رافق ذلك التطـــور من نمو وتوسع اقتصـــادى وثورة صناعية وتوسع امبريالى باسباب تعـــود الى الطبيعة الخاصـــة بالاصلاح الدينى المنسوب الى كالفن وموقف هـــذا المذهب من قضـــية الخلاص والقسمة الالهية . ومن تحليله للمذهب البورتستانتى انطلق فيبر الى ما يسمى بعلم سوسيولوجيا الأديان والدراسة المقارنة للأديان والقضاء والقيادة السياسية حيث اخرج نظـــرية متكاملة فسر بها التطور السياسى والاجتماعى للمجتمعات الأوربية والشرقية وعلل الفـــروق المختلفة بين المجتمعات واسلوب تطورها باستخدام أدوات تحليل ســـماها IDEAL TYPES أو النماذج المثالية ، تدور كلها حول الايديولوجيات الفكرية والدينية المختلفة(٥) .

أما المدرسة الثالثة وهى موضوع هذا البحث فهى المدرسة النفسية أو الفرويدية والتى أخذت اسمها من سيجموند فرويد . وفرويد هذا طبيب وباحث ولد وعاش فيما كان يعرف بامبراطورية النمسا المجر وأجـــرى بحوثه ونشرها باللغة الالمانية فى النمسا والمانيا وكانت أخصب ســـنوات انتاجه ما بين سنتى ١٨٩٩ ـ ١٩٢٧ ، ورسمت بحوثه واستنتاجاته معالم طريق علم النفس المعاصر واثرت تأثيرا كبيرا فى علوم الطب والتربية والاجتماع والتعليم(٦) .

وكان اهتمام فرويد الأساسى بالاعراض المرضـــية التى يطلق عليها الطب الآن الهستيريا أى الاضطرابات العضـــوية التى ليس لها أســـاس بيولوجى أو فسيولوجى . وخلال ســـنوات عديدة من البحث والمراقبة ومحاولات العلاج طور نظرية خاصة لتفسير عناصر تكوين وعمل النفس الانسانية أو PSYCHE ولقد اصبح لتلك النظرية بالذات ومفـــرداتها وأدوات التحليل فيها تطبيقات خرجت عن حـــدود علم النفس والتربية والتعليم لتشمل دراسة احداث التاريخ والسياسة والمجتمع ، واستخدمت معطيات تلك النظرية لتفسير تلك الاحداث واستخراج انساق معينة منها.

نظـــرية فـــرويد :

مثل معظم التيارات الفكرية الخالدة والمؤثرة تبدأ نظـــرية فرويد بفكرة واحدة فى غاية البساطة واليسر وهى أن النفس الانسانية ليست شيئا واحدا يولد متكاملا بل هى كيان يولد مع الفرد ويتطور بمعية تطور الفرد نفسه(٧) . فعندما يولد الفـــرد تكون النفس الخاصـــة به PSYCHE عبارة عن كتلة واحدة مبهمة هى الـ (هو) أو كما يســميها فرويد ID وهذا الـ (هو) كيان نســتغرقه ذاته لا يرى ولا يسـمع الا مطالبه الغريزية.والعامل الفعال الوحيد المؤثر فيه هو عامل الـ (هو) الذى يحاول ارضاءه دون الالتفات الى أى عامل آخر . ان هذا الـ (هو) مليىء بالطاقة التى تأتيه من الغرائز ولكن هـــذه الطاقة غير منظمة ولا يمكن أن تنتج ارادة جماعية فهى تهدف فقط لارضاء الحاجات الغريزية كما يمليها عليه مبدأ اللذة(٨) .

ولكن الـ (هو) سرعان ما يعى وجود عالم خارجى لأن الاشباع يقتضى التعامل مع هذا العالم . وكنتيجة لهذا التعامل يفرز الـ (هو) أو الـ ID كيانا يخرج منه هو الأنا أو كما يسميه فرويد « THE EGO » والأنا » وهو ذلك الجزء من الـ (هو) الذى تم تحويره بسبب قربه من العالم الخارجى وتأثير ذلك العالم عليه . لقد تحول ليتمكن من استقبال المؤثرات الخارجية وليكون الدرع الواقى من هذه المؤثرات . ان الأنا تقوم بتمثيل العالم الخارجى أمام الـ (هو) ، ولولا الأنا لما استطاع الـ (هو) أن ينجو من التدمير الذى كان ينتج من سعيه الأعمى لاشباع غرائزه دون الالتفات للقوى والمؤثرات الخارجية »(٩) .

ان الأنا أو Ego هى الجزء المفكر من الـ (هـ و) أو ID الناتج عن تعامل الـ ID مع الخارج خلال نموه وهى لا تختلف عنه فى سعيها لاشباع الرغبات الا فى احساسها وحسن تقديرها للعـالم الخارجى وما يحويه من مخاطر.والأنا قادرة على جمعوتخزين الخبرات وفحصها « REALITY TESTING »

والانا قادرة على تاجيل اندفاع الـ (هو) عن طريق اعمال الفكر واستخدام الخبرات . فالانا بهذه الطريقة الغت مبدأ اللذة الذى يتحكم بمسيرة الاحداث فى عالم الـ (هو) دون قيود، وابدلته بمبدأ الواقع الذى يعد بزيادة فى التاكيد ونجاح أعظم . فالانا اذن أكثر واقعية وليست اقل انانية ؛ تدفعها الرغبة فى الاشباع ولكن تردعها العوامل الخارجية . ويقول فرويد ان أول هذه العوامل الرادعة هى سلطة الوالدين التى تتمثل فى العقاب والثواب اللذين تستجيب لهما الانا أو الـ (Ego) العائدة للطفل بالامتناع عن عمل معين رغم ان فيه اشباعا لغريزة أو أخرى من غرائز الطفل والقيام بعمل آخر رغم أن ذلك العمل لا يعد بأى مردود اشباعى(١٠) .

وفى المرحلة الثالثة من مراحل تطور النفس يتكون ما يسمى بالانا العليا «THE SUPER EGO» حين يتم استيعاب أو استدخال «INTERNALIZE» القيود الخارجية من خارج الـ PSYCFE الى داخله « حيث تاخذ الانا العليا مكان السلطة الأبوية وتقوم بمراقبة وتوجيه وتهديد الانا بنفس الطريقة التى تعامل بها الأبوان مع الطفل » وأساس العملية هى مايسمى «بمطابقةانهوية» IDENTIFICATION أو كما عرفها فرويد نفسه « استيعاب أو تمثل الانا EGO لـ (أنا) أخرى خارجة عنها.وكنتيجة لهذا التمثل تتصرف الانا الاولى كالثانية من بعض النواحى تقلدها وتاخذها فى ذاتها »(١١) . وبتكوين الانا العليا تكتمل عناصر النفس أو PSYCHE والأساس هو الانا EGO الذى يخدم ثلاثة سادة هى الـ ID والعالم الخارجى و SUPER EGO

التطبيقات التاريخية لنظرية فرويد :

حملت نظرية فرويد منذ ظهورها فى بداية هذا القرن احساسا قويا بالزمن وبفكرة التطور ، ولا يخفى على الاذهان تاثر فرويد الشديد بداروين . ولقد اعطى هذان البعدان لنظرية فرويد امكانيات واضحة لاستخدامها فى استخراج انساق معينة من المعطيات التاريخية (الاوربية بصورة خاصة) أو العالمية . لقد كان فرويد نفسه أول من تطرق لذلك

فى كتابه (محاضرات حول علم التحليل النفسى)٠ اذ نجد امكانية واضحة لأن تكون فى نظريته عن تطور النفس بذور نظرية أوسع لتفسير التطور الانسانى الحضارى بصورة عامة٠وتكفى المقارنة بين وضع الـ (هو) أو ID وحالة التحرر الأولية للقبائل البدائية عندما يصف فرويد الـ (هو) بقوله :

« ان القوانين المنطقية للافكار لا تنطبق على الـ (هو) ولا يوجد فى الـ (هو) ما يوحى باعتراف بعامل الوقت ٠ ولا تعديل فى العملية الفكرية بسبب مرور الوقت ٠ فعوامل التمنى التى لم تتجاوز الـ (هو) والانطباعات التى رسختها فى الـ (هو) عوامل القهر الخارجية شيئان خالدان اذ بعد مرور عقود من الزمن يفعل العاملان التمنى والمنع الناتج من القهر وكانهما قد حدثا للتو »(١٢) ٠

انهما غير قابلين لفقدان فاعليتهما الا باخراجهما للوعى والتحليل القادر على ارجاعهما الى مكانهما فى الماضى السحيق ، عند ذلك يفقد التمنى والقهر فاعليتهما٠الأنا فى الواقع لا يعرف حكما قائما على القيم، ليس لديه خير وشر أو اخلاقية MORAL واقتصاده مرتبط ارتباطا مباشرا بمبدأ الاشباع الذى يسيطر على كل فاعلياته ٠

هذه الحالة بالطبع سوف تتعرض للتغيير بنفس أسلوب تغيير السايكى ، وهو الاتصال بالعالم الخارجى ثم استيعاب الأنا العليا ٠ وعملية الاستيعاب هذه فتحت أمام فرويد نفسه ثم تلاميذه واتباعه فيما بعد بابا واسعا لتوجيه الدراسات التاريخية والتاثير عليها ٠ وهنا ايضا نجد أولى المحاولات على يد فرويد نفسه ٠ اذ ان قوله بأن EGO الفرد تقوم بتمثل EGO أخرى واستيعابها ومن ثم التصرف وفق أوامر ونواهى ذلك الـ EGO يفتح امكانية استيعاب مجموعة الأفراد كبرت أو صغرت لنفس الـ EGO وبالتالى تصرف هذه المجموعة وفقا لأوامر ونواهى هذه الـ EGO نفسها ٠ أو كما يقول فرويد : « ان الأنا العليا تمثل فى النهاية الروادع الأخلاقية وهى تعود لتاثير الاباء والمعلمين وغيرهم ٠ ولكن هؤلاء الاباء والمعلمين ومن فى حكمهم يتبعون الأنا العليا

العائدة لهم THEIR SUPER EGO عندما يخلقون تلك الأنا عند الأطفال . اذن فان الأنا العليا للأطفال لا تتكون على شاكلة الآباء بل على شاكلة الأنا العليا للآباء وبكل ما تحمله تلك الأنا العليا من أوامر ونواهى وأحكام قاومت عوامل مرور الزمن وانتقلت من جيل الى جيل »(١٣) .
وفى اشارة واضحة للفكر الماركسى يتابع فـرويد فيقول أن من الأرجح أن تكون الاراء المادية فى التاريخ على خطأ عندما تقلل من أهمية هـــذا العامل . انهم ينحونها جانبا بقولهم ان الأيديولوجيا ليست سوى البنية الفوقية أو افرازا للظروف الاقتصادية المعاصرة . وقد يكون هذا الكلام حقيقة ولكنه ليس كل الحقيقة . « ان الجنس البشرى لا يعيش فى حاضره فقط ، أن الماضى تراث العرق أو الجنس RACE وتراث الشعب يبقى حيا فى ايديولوجيات وفى الذات العليا « SUPER EGO للأفراد وهى لا تتاثر بالحاضر وتغيـــراته الا بصـــورة بطيئة . وما بقيت هـــذه الايديولوجيات فاعلة فى الذات العليا للأفراد فانها تلعب دورا قويا فى الحياة الانسانية بغض النظر عن الظروف الاقتصادية »(١٤) .

ومن أهم العناصر الايديولوجية التى استحوذت على اهتمام فرويد وأتباعه فيما بعد كانت قضية ظهور وتطور ايديولوجية الدين واثرها فى بداية التطور الحضارى للانسان . وفى سلســلة من البحـــوث أهمها WELTANSCHAUUNG (١٥) والطوطمية والتحـريم(١٦) وموسى والتوحيد(١٧) ، ابرز فرويد العلاقة بين نشوء الأديان والتطور النفسى للفرد من ناحية والعـــلاقة بين الدين كــرؤية شــاملة أو كونية WELTANSCHAUUNG وتكوين الأنا العليا أو SUPER EGO من ناحية أخرى .

يقول فرويد ان حاجة الانسان الى رؤية كونية شــاملة هى حاجة انسانية ازلية ولقد عرف الانسان مجموعة من هذه الرؤى أهمها الرؤى الدينية ، والفلسفية ، والوضعية ، ثم العملية(١٨) . ولكن انجح هذه الرؤى وأقربها اشباعا لحاجة الانســـان هى الرؤية الدينية لأنهـــا تلبى حاجات ثلاث :

فهى أولا تشفى عطش الانسان المستمر للمعرفة ، ففى الدين اجابة

جاهزة لكل أسئلة الانسان عن ماضـــيه وحاضره ومستقبله • وهى ثانيا تسكن روح الانسان وتعطيه الطمأنينة من مخاوف هذه الحياة ومخاطرها فهى تعطيه الراحة فى الأوقات العصبية وتطمئنه الى حسن الحال والراحة فى نهاية الطريق وهى ثالثا توجه الانسان وتعطيه معالم الطريق وتزوده بالاوامر والنواهى والحـدود • ويرى فرويد تطابقا واضحا بين وظائف الدين ووظائف الأنا العليا أو SUPER EGO كما يجد كذلك تطابقا آخر بين الرموز الدينية المختلفة وشخصية الوالدين • وبعد تجميع العديد من المعطيات حول الديانات القديمة والحديثة وأساليب التربية يخلص الى القول بأن نفس الأب الذى منح الطفل الحياة وحماه من المخاطر هو الذى علمه ما يجب أن يعمل وما لا يجب عمله ودربه كيف يكبح غرائزه الداخلية وجعله يفهم المطلوب منه تجاه والديه واخوانه واخواته ان أراد أن يصبح عضوا مقبولا فى أسرته ومجتمعه ، كل ذلك فى اطار نظام من المكافاة او العقوبة(١٩) • ان كافة هذه العلاقات ادخلها الانسان فى ديانته دون تغيير بل ان فحص الديانات القديمة تعطى صورة واضحة للعلاقة الحميمة بين صورة الالهة والوالد أو السلطة الأمرية •

فالاله هو الأب وهو مانح الطعام وهو المعاقب وهو أيضا المثيب • انه كذلك ليس بالصورة الكاملة فالاساطير الدينية القـديمة ، معظمها لا تعطى الاله الأب كل الفضل فى الخلق فهناك الاله الأم وهناك الشياطين والأرواح ، ومحدودية قدرة الاله الأب بل نواقصه وعيوبه • وقدرة الانسان فى التاثير عليه اما بصورة مباشرة عن طريق الارضـــاء والاستعطاف أو بالاستعانة بقدرات أخرى كالسحر والأرواح والكلمة •

التحليل النفسى وعلم التاريخ :

قام فرويد نفسه باول محاولة لاستخدام نظـــرياته فى التعليـــل التاريخى وذلك فى كتاب أثار ضجة كبيرة فى وقت هو كتاب (الحضارة والســـخط)(٢٠) • والكتاب مزيج مثير من عـــلوم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والتاريخ ، حاول فيه فرويد الربط بين انتقال الانسان من البدائية الى مرحلة الحضارات والتطور النفسى للانسان البـــدائى • أو حسب تعبيره هو « ••••• ان تطور الحضارة هو عملية خاصة يمكـــن

مقارنتها بالنمو والنضوج الطبيعى للفرد»(٢١) والاطار العام لنظريته هو أن الحضارة الانسانية أو بصورة أدق الجماعات الانسانية التى انشأت الحضارات المبكرة لم يكن بوسعها القيام بذلك لو لم تمر تلك المجتمعات بمرحلة الانتقال من الـ (هو) الى الأنا ثم الأنا العليا أى نفس مراحل تطور النفس الانسانية • ويرى فرويد أن أولى مراحل ذلك الانتقال هى تكوين الأسرة التى يرى فرويد ان السبب الأساسى فى تكوينها هو رغبة الرجل فى اشباع حاجته الجنسية وبعد أن كانت العلاقة بين الرجل والمراة عابرة تحولت الى علاقة دائمة عندما تغلب الرجل على الـ (هو) البدائية فيه وتطور الـ (الأنا) المدرك لمحدودية الممكن وامكان الحصول على الاشباع الدائم عن طريق التعامل بواقعية مع العالم الخارجى •

فالأسرة اذن هى اول خطوة فى تطوير الحضارة ولكن المجتمعات التى أسست الحضارات لم تبرز الى الوجود الا بعد أن تجاوز الانسان الأسرة كوحدة أساسية وكون التجمعات الانسانية الأكبر • ولقد تمت هذه الخطوة بصورة مشابهة لتكوين الأنا العليا فى النفس الانسانية • وبهذا الخصوص يناقش فرويد باستفاضة طبيعة ومظاهر وأهداف الشعور الانسانى أو العاطفة الانسانية التى يسميها الانسان الحب (LOVE) ويدعى هنا بأن الأساس فى شعور الانسان بالحب هو الرغبة الجنسية والتى يكون هدفها هو المراة • وطوال العصر البدائى للانسان لم تخرج هذه العاطفة عن حدودها أو أهدافها • ويرى فرويد كذلك أن الرجل فى تلك المرحلة غاب عنه الشعور بالاطمئنان بسبب الاحتمال القائم دائما بفقدانه هدف عاطفته هذه ـ أى المراة ـ بسبب الوفاة أو الانفصال مما دعاه كفرد أو أفراد الى تحوير نوعية هذه العاطفة وتوسعة أهدافها عن طريق الـ SUBLIMATION اى التسامى • ولكى لا يفجع الانسان بذلك الفقد اتسع نطاق الشعور بالمحبة من المراة بمفردها أو من الهدف الجنسى بعينه الى مجموعة أكبر هى أفراد المجتمع كافة ، وتحولت العاطفة من عاطفة حب جنسى (EROS) الى عاطفة الاخوة والمواطنة وتم تحويل تلك الطاقة التى صرفها الرجل فى حياته البدائية على اشباع حاجته الجنسية الى طاقة اجتماعية تنظيمية سمحت لأول المجتمعات الانسانية بالظهور والتطور • ويلاحظ فرويد هنا علاقة عكسية بين اهتمام الانسان باشباع حاجاته الغريزية بالمتعة واللعب ومدى تطور حضارات الانسان

وانجازاته المدنية ٠ اذ كلما زاد سعى المجتمع الى تسامى وتصعيد وتحويل وتهذيب طاقة الانسان الجنسية من هدفها المحدود ، وكلما عمل المجتمع على خلق الحواجز والحدود والنواهى حول الممارسة الجنســية واشباع الغرائز واللهو بصورة عامة،تسامت غرائز الانسان ودفعته الى الالتصاق بافراد آخرين من المجتمع خارج حدود الجنس الآخر وانصرفت طاقاته الى اعمال البناء والتشييد والخلق الحضارى ٠

لقد لقيت افكار فرويد هذهفىالبداية معارضة شديدةكما هو متوقع من مصادر عدة ولكنها لقيت كذلك قبولا واسعا من علماء الانثروبولوجيا الذين استخدموا نظرياته وأساليبه التحليلية فى دراساتهم ٠ والملفت للنظر هو التاثير المحدود لنظريات فرويد فى علم التاريخ بالمقارنة بالعلوم الانسانية الاخرى ٠ وكان أن بقى الوضع كذلك ـ حتى الستينات من هذا القرن ـ حين تغير الوضع تغيرا كبيرا بفضل بعض تلاميذه الذين نقلوا اهتمامهم من التاريخ القديم وعصر ما قبل التاريخ الى التاريخ الحديث والمعاصر ، مستخدمين انساق فرويد نفسها وادواته التحليلية ومفاهيمه ٠ وانتج هذا الاهتمام سيلا غزيرا من الانتاج التاريخى الذى استخدم الانساق الفرويدية لالقاء الضوء على جوانب متعددة من جوانب التاريخ الأوربى والعالمى ٠

ومن الرواد الأوائل لهذه الدراسات كان اريك اريكسون ٠ واريكسون هذا تلميذ من تلاميذ فرويد ، هاجر للولايات المتحدة لمواصلة عمله وابحاثه وأحرز مكانة مرموقة فى عالمها الاكاديمى ٠ وفى سنة ١٩٥٠ نشر اريكسون كتابه الطفولة والمجتمع(٢١) والذى حاول فيه الربط بين أسلوب وطريقة تطور الــ (EGO) فى أطفال تلك المجتمعات والتطور التاريخى لها ٠ يقول اريكسون فى هذا المجال أن ما يميز الانسانية هو طول الفترة الزمنية لمرحلة الطفولة عند أفرادها ، وما يميز الانسانية المتحضرة هو أن فترة طفولة أفرادها أكثر طولا(٢٢)٠وفى فترة الطفولة هذه يتكون الأنا والأنا العليا ، وهى فى رأى اريكسون لا تتكون بنفس الأسلوب أو الطريقة فى كل المجتمعات اذ يختلف الأسلوب من مجتمع الى آخر ٠ ولا يخلو ذلك التكوين من مخاوف لا عقلانية يحملها الأفراد معهم الى حياتهم البالغة ٠ لذا يقوم اريكسون بدراسة أساليب تربية الأطفال فى عدد من المجتمعات

الانسانية محاولا ايضاح العلاقة بين تلك الأساليب والتطور التاريخي لتلك المجتمعات . ففي بحث عن الهنود الحمر من شعب السيوكس SIOUX يربط اريكسون بين أسلوب تعامل الأمهات الصـــارم مع أطفالهن وحالة الخنوع واللامبالاة التي تميز تلك القبائل(٢٤) . وفي بحث آخر يدرس اريكسون دور الأب والأم في الأسرة الأمريكية في الفترة بين سنوات الحرب الأهلية والانطلاقة الصناعية ويخلص الى القـــول بأن طغيان دور الأم وتراجع موقع الأب في تلك الأسرة قد أدى الى تقهقر الفردية لدى الشعب الأمريكي وخلق قناع جماعي من الفردية يخفي حقيقة ذوبان الفـــروق الفردية(٢٥) . وفي بحث من أهم بحوث الكتاب وأكثرها اثارة للجدل تتبع هذا العالم بعض خصائص تربية الأطفال في المانيا وظهور الفـكر النازي(٢٦)وكانت أحدى أهم خلاصة أبحاثه أن اهتمام الألمان الغير سوى بانضباط الأطفال في وقت مبكر خصوصا في بعض القضـــايا الحيـوية كالتحكم في البول والغائط وطغيان صورة الأب جعل الشـبان الالمان على استعداد لقبول فكرة الفوهرر والالتزام بتنظيم يمحى صورة الفرد ويمنع انفراديته ، أي أن النظام النازي كان امتدادا طبيعيا لحيــاة الأفـراد وأسلوب تكوين السايكي لديهم .

وكان لبحوث اريكسون هذه أثر واسع فيأوساط المؤرخين الأمريكيين الذين اثارتهم الامكانيات الجديدة التي قد تتيحها أسـاليب فـــرويد ونظرياته . وكان لاريكسون فضل استقطاب عدد من هؤلاء المهتمين في مجموعة ذات طابع بعيد عن الرسميات والشكليات اطلقت على نفســها اسهم مجموعة WELLFLEET . ولقد ضمت هذه المجموعة عددا من العاملين في البحث التاريخي وعلم النفس والدراسات الأدبية وتناولت بحوثهم مواضيع عديدة تراوحت بين تاريخ الهنود الحمر وغاندي والمانيا النازية واوضاع اليهود في أوربا ولكن قد تكون أهم انتاجات تلك المجموعة التي نشطت في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات هي البحوث النظرية التي حاول فيها بعض أفراد المجموعة ارساء القواعد النظرية لاستخدام فكر فرويد في البحث التاريخي(٢٧) .

وكان أن تحولت هذه البداية المتواضعة الى تيار مؤثر تغلغل في العديد من مراكز الدراسـات التاريخية المهمة في الولايات المتحدة . ولقد

انتج هذا التيار مجموعة من الابحاث فى غاية الجدة والطرافة والذكاء حاولت اما القاء الضوء على بعض جوانب التاريخ الأمريكى المبهمة وغير الواضحة أو القاء أسئلة جديدة حول ذلك التاريخ . ويعتقد أصحاب هذا التيار أن المدرسة الفرويدية هى أكثر المدارس مناسبة لدراسة بعض جوانب التاريخ الأمريكى.فهؤلاء المؤرخون لا يشفى غليلهم التفسير المادى لاحداث الاستعمار الانجليزى والثورة الأمريكية والصراع بين البيض والهنود الحمر والحرب الأهلية . هؤلاء المؤرخون حسب تعبير احدهم يعلمون أن الانسان لا يعيش ويتصرف بدوافع المصلحة وحدها ولا يكفى القول أن الأحداث التاريخية السابقة ينحصر تفسيرها الوحيد فى الصراع على الأرض والموارد الاقتصادية . والمؤرخ يواجه فى كل لفتة من لفتاته عوامل تأثير العادات والتقاليد ، الولاء وروح التعصب ، حرارة الايمان والروح الانتحارية(٢٨) . ولا يمكن قياس هذه القوى أو تفسيرها أو دراسة تفاعلها مع الاحداث الا بالعودة لعلم التحليل النفسى . ومن هذا المنطلق نجد أحد هؤلاء المؤرخين ، ميكل روجن فى كتابه (آباء وابناء)(٢٩) يسأل سؤالا مهما يتعلق بأسباب اشتداد الصراع بين البيض والهنود الحمر فى السنوات السابقة على الحرب الأهلية وهى سنوات لم يكن البيض فيها بحاجة الى أراضى الهنود . ويرجع روجن أسباب الصراع فى تلك الفترة الى التطور النفسى للأمة الأمريكية التى ربطت بصور لا واعية أو ارادية بين طفولتها ووجود الهنود الحمر . ويستخدم روجن كما كبيرا من المصادر الأدبية المختلفة فى محاولة لاثبات أن الأمريكيين فى أيام جاكسون كانوا فى الواقع يحاولون تدمير طفولتهم عندما كانوا يدمرون الهنود الحمر .

وتناول آخرون بالبحث والتحليل عددا من شخصيات التاريخ الأمريكى المثيرة للجدل . ففى بحث مطول حاول جوزيف بيرنز عن طريق فحص الحياة الخاصة لهنرى ادامز تعليل أسباب الصراعات المتعددة التى خاضها هذا الثورى البارز والسياسى المهم مع معاصريه(٣٠) . وفى محاولة لفهم دوافع ودور ويلسون ، الاكاديمى الذى أصبح رئيسا للولايات المتحدة فى الحرب العالمية الأولى ، قام الكسندر جورج وجولييت جورج بدراسة وتحليل كم كبير ومتنوع من المصادر والوثائق الخاصة بهذا الرجل

فى محاولة تحليل نفسية ويلسون وتفسير الاضطراب الكبير فى حياته العملية واسباب دفعه للولايات المتحدة الى حلبة السياسة العالمية فى وقت لم تكن مستعدة فيه لذلك(٣١) ٠

ولكن هذه المحاولات كافة تقصر عن اللحاق بتيار فرنسى أرسى دعائمه شارلز فوكو منذ نهاية الستينات ٠ وشارلز فوكو هذا طبيب تخلى عن دراسة الطب ليتحول الى دراسة التاريخ وتدريسه فى أشهر كلية فى فرنسا « COLLEGE DE FRANCE » ٠ وفى سلسلة من البحوث والكتب والمقالات قدم فوكو للفكر الأوربى اطروحات جديدة لتفسير تطور أوربا التاريخى تركت اثرا عميقا على مختلف العلوم الاجتماعية ٠

وتاتى اهمية اطروحات فوكو من طريقة معالجته للقضايا الأساسية فى التاريخ الأوربى الحديث من طبيعة الأدلة التى يستخدمها ٠ اذ نجد ايمان فوكو بنظرية فرويد ومعرفته الوثيقة بتطبيقاتها واستخدامه لانساقها يجعله يطرح قضايا التاريخ الأوربى طرحا جديدا فى غاية الطرافة والابتكار مع التزامه التام بتلك الانساق ٠ فهو يؤمن ايمانا مطلقا بنظرية تطور السايكى التى طرحها فرويد ويخرج بها من اطارها الفردى الى اطار جماعى واسع يشمل أوربا كلها ٠ فالاد أو الـ (هو) والايجو أو الأنا هو حال أوربا فى العصور الوسطى ٠ وما نقلة أوربا من العصور الوسطى الى العصر الحديث الا تكوين الأنا العليا أو SUPER EGO ان تاريخ أوربا الحديث هو تاريخ انتصار البرجوازية وما تبعه من انتصار الدولة المركزية الحديثة وأجهزتها وانتصار البيروقراطية التى قيدت الفرد الأوربى وقننته وحولته من عفويته الأولى الى جزء من آلة دقيقة محكمة النظام والقيود ٠ فالايجو اذن هو المجتمع الأوربى ، اما ثلاثى الدولة والبرجوازية والبيروقراطية فهى عناصر السوبر ايجو التى كبحت ولا تزال تكبح الفرد والمجتمع الأوربى ٠

واذا كانت وحدة التحليل الأساسية فى النظرية الماركسية هى الانتاج ووسائل الانتاج أو أساليب الانتاج فان وحدة التحليل الأساسية لدى فوكو هى السلطة أو القوة POUVOIR باشكالها المختلفة ومظاهرها

ومراكزها وكافة العلاقات الاجتماعيه والسياسية والفكرية والاقتصادية ماهى فى النهاية سوى علاقات قوة.وكافة المؤسسات الفكرية والاجتماعية كالبحث العلمى والزواج والأسرة ماهى الا نقاط مظاهر القوة وأماكن لمارستها . أو كما عبر عن ذلك فى كتابه تاريخ الجنس أو تاريخ العلاقات الجنسية HISTOIRE DE SEXUALITE وعند تحليله للاهتمام العلمى والاجتماعى والحكومى بقضايا الجنس فى نهاية القرن التاسع عشر .

ان الكشف الطبى والفحص النفسى والتقرير البيداغوغى والقيود التى تفرضها العائلة تبدو لأول وهلة « فى تلك الفترة » وكانها تهدف الى رفض كل أنواع العلاقات الجنسية الغير سوية أو التى لا تقود الى التكاثر.ولكن الحقيقة انها كلها تعملكأداة ذات غرضين:اللذةوالقوة،وهى اللذة التى تاتى من ممارسة قوة تسأل وتراقب وتبحث وتتجسس وتحس وتظهر الى الضوء ، واللذة التى تاتى من ناحية ثانية من القدرة على الهروب من هذه القوة أو خداعها . أما القوة فهى التى تتمتع بقدرتها على ملاحقة اللذة تقابلها قوة تؤكد نفسها بالاستلذاذ بالمباهاة والمقاومة أو التصرف الفاضح . وقد شارك فى هذا الصراع الدائم بين اللذة والقوة : الآباء والأبناء ، الكبار والمراهقون، المعلمون والطلاب، أطباء ومرضاهم، الأطباء النفسيون وذوو السلوك الغير سوى »(٣٢ .

وبهذا النمط من التحليل ليس بالمستغرب أن تغيب عن ادلة فوكو أو مجال بحثه الانماط العادية من ميادين البحث ومجالاته كالسياسة أو الطبقة أو الاقتصاد أو ملفات الشركات والوزارات والدوائر الحكومية أو المؤسسات الاقتصادية أو السياسية أو غيرها من ميادين البحث المعتادة .

ان ميدان بحث فوكو الأساسى هو المؤسسات التى تتعامل مع ما يسميه بالعناصر الهامشية أو العناصر غير السوية . ففى بحث رائع بعنوان « الحضارة والجنون »(٣٣) يتتبع فوكو تعامل اوربا مع الجنون والمجانين منذ ايرازموس وحتى نهاية القرن التاسع عشر ليثبت بوضوح كيف تدرجت تلك المعاملة من التسامح الى محاولة ارغام المجنون على التصرف السوى بالقسوة والقوة البدنية ، ثم الى استخدام الضغوط

النفسية لجعل المجنون ذاته يرغم نفسه على السلوك السوى(٣٤) وفى وصف رائع لممارسات مستشفيات المجانين الانجليزية فى بداية ظهورها وكيفكانت تستخدمفيها أكثر الأساليبشيطانية وقسوة لارغامالمجنون على الالتزام بالهدوء والنظام ثم تطور تلك الأساليب ونجاحها فى ارغام المجنون على اجبار نفسه ، بدون أى أساليب قسر خارجية، على التصرف العاقل . وفى بحث آخر يتبع فوكو تعامل أوربا مع المجرمين والخارجين على القانون(٣٥) ليخلص الى نفس النتيجة، وهى التطور من التسامح الى القسوة البدنية المفرطة ثم فرض القيود من الداخل . كل ذلك بتزامن وثيق مع تحول أوربا من النظام الاقطاعى والحكم المحدود الى التسلط البرجوازى وقيود الدولة الحديثة - فالعناصر الغير سوية تلعب من وجهة نظر فوكو دور الأنا المتطرف الذى يخضعه السوبر ايجو لاستيعابه . ان تاريخ أوربا عند فوكو هو تاريخ استيعاب الأنا العليا الأوربية ، الأنا العليا البرجوازية .

ولقد وسع فوكو فيما بعد دائرة بحثه لتشمل مجالين من مجالات البحث فى محاولة لتاكيد وجهة نظره . المجال الأول هو الانتولوجى أو علم المعرفة وذلك فى كتابه « الكلمات والاشياء »(٣٦) . ويناقش فى هذا الكتاب مراحل بروز العلم والفن الحديث وتفريعاتهما ليؤكد فى النهاية أن الهدف النهائى لذلك التطور هو فرض القوة والسلطة . ولقد كانت هذه الفكرة هى منطلق ادوارد سعيد فى كتابه الاستشراق والتى ربط فيها بين ظهور علم الاستشراق ومحاولة الغرب ادخال الشرق فى حيز المفهوم وبالتالى حيز السيطرة(٣٧) .

اما المجال الثانى فهو كتابه عن تاريخ الجنس أو العلاقات الجنسية وهو كتاب ضخم تتبع تطور نظرة أوربا للجنس ولأنواع العلاقات الجنسية منذ العصور الوسطى وحتى الوقت الحاضر فى محاولات لابراز مراكز القوة وممارساتها فى المجتمع الأوربى(٣٨) .

الخاتمـــة :

وأخيـرآ ...

ما هو التقييم الفعلى لمساهمات فرويد وتلامذته فى علم التاريخ ؟ ان من الصعب تقييم ذلك اذ على الرغم من الانتشار الواسع لميدان بحوثهم الا أن قبول آرائهم لا يزال محصورا فى قلة من العلماء .

ولقد تعرضت محاولات تطبيق النظرية الفرويدية الى الانتقاد من جانبين ، الجانب الأول انصب على معطيات النظرية نفسها التى كانت ولا تزال مثار نقاش وجدل ضمن العاملين فى مجال علم النفس . وكان لمعارضى فرويد فى مجال علم النفس انصارهم فى علم التاريخ . ولقد تعرض هؤلاء الانصار بالنقد والتجريح للمؤرخين الذين حاولوا تطبيق النظرية الفرويدية . ومن جانب آخر تعرض مؤرخون آخرون بالنقـــد للتطبيقات الفرويدية بسبب ما وصفوه بالسهولة التى يقفز بها هؤلاء من المقدمات الى النتائج ومحاولتهم تفسير ظواهر واحداث تاريخية شديدة التعقيد بالاعتماد على مصادر قليلة قد لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالحدث التاريخى الا من ناحية التزامن(٣٩) ان التفسير النفسى للتاريخ ليس بالشىء المحدث أو الجديد بل ان محاولات هذا الأسلوب تعود الى اقدم الدراسات التاريخية ابتداء من أرسطو الذى أشار فى كتابه عن الدساتير اليونانية الى العلاقة بين ما أسماه طبيعة سكان المدن اليونانية المختلفة وتطور أنظمتها السياسية المتمثلة بدساتيرها . ولابن خـــلدون كـذلك محاولات فى غاية الأهمية لربط أحداث التاريخ ودوراته بما يعترى نفس الانسان من تطور ابان انتقاله بين مظاهر العيش المختلفة ، ومن البداوة الى الحضارة ومرور الزمن على الحكام وتقادم السلطة الى غير ذلك . كما قام مونسكيو بالقول ان النظام السياسى والاجتماعى لا يبلد وأن اية حضارة ما هى الا انعكاس لنفسية سكانها . وهـــكذا لا يجب اعتبـــار التطبيقات التاريخية لعلم النفس على تلك الدرجة الكبيرة من الشذوذ أو الغرابة التى يصفها بها أعداؤها وهى كذلك ليست بتلك الدرجة من الجدة والابتكار التى يصفها بها انصارها .

ووفقا لهذا الاعتبار يمكن تقييم مساهمات فرويد وتلامذته على ضوء مساهمتهم فى الجهد العام لدارسى التاريخ من جوانبه المتعددة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ... الخ .

من هذا المنطلق يمكننا القول ان دراســـات انصار فرويد لابد من ان تصب فى النهاية فى التيار الهادف الى فهم أفضل وأكثر عمقا لتاريخ الانسان ومؤسساته المختلفة وانجازاته الحضارية المتفاوتة الاهمية . لقد استطاع هؤلاء توسعة دائرة البحث التاريخى لتشـمل قضايا لم تـكن مطروحة فى السابق كأسلوب تربية الأطفال والعـلاقات داخـــل الأسرة وعلاقة الأسرة بالمجتمع ووضع المرأة . كذلك القت هذه الدراسات الضوء على العديد من المؤسسات التى لم تكن تحظى باهتمام يذكر لدى باحثى التاريخ كالسجون والمستشفيات والعيادات النفسية . وهـــذا بحد ذاته اضافة ذات اهمية بالغة للدراسات التاريخية وعلم التاريخ تكفى للاهتمام بهذا التيار .

الهــــوامش

(١) نشر فرانسيس بيكون مقالته « الاورجانون الجديد » فى عام ١٦٢٠ وهو بحث عام في المعرفة وتحليل لاسباب وقوع الاخطاء فى البحث العلمى لكى يحــل محل اورجانون ارسطو ولقد تعارف مؤرخو التاريخ الفكرى الاوربى على اعتبار هذا البحث اول لبنة فى بناء الاسلوب العلمى الاستقرائى الحديث الذى يسود عالمنــا المعاصر · انظر حول الموضوع :

برتراند رسل ، **حكمة الغرب ج ٢ · الفلسفة الحديثة والمعاصرة ترجمة د· فؤاد** زكريا (الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٣) من ٥٨ ـ ٦٦ · وفيها يطرح منهج بيكون واهم انتقاداته ·

(٢) MUHSIN MAHDI,
IBN KHALDUN'S PHILOSOPHY OF HISTORY
(CHICAGO : UNIVERSITY OF CHICAGO PRESS, 1971), pp. 288-289.

(٣) ولد ماكس فيبر سنة ١٨٦٤ فى مــدينة ارفورت بالمانيا وتلقى تعليمه فى جامعاتها وعمل فى سلك القضاء اولا ثم التحق بجامعة فرايبورغ كاستاذ فى سنة ١٨٩٢وقضى ما تبقى من عمره متنقلا فى جامعات المانيا محاضرا ومؤلفا · ولقــد تحدى فيبر النظرية الماركسية منذ بواكير عمله العلمى · وحاول عن طريق بحوثه فى التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع اثبات بطلان التاريخية المادية التى نادى بها تلاميذ ماركس · ويوجد افضل عرض لافكاره فى كتابه المهم والكبير الحجم (١٤٦٩ صفحة)

MAX WEBER,
ECONOMY AND SOCIETY ED. GUENTHER ROTH AND CLOUS WITTICH, 2 VOLS. (BERKELEY : U.C. PRESS, 1978).

(٤) MAX WEBER,
THE PROTESTANT ETHIC AND THE SPIRIT OF CAPITALISM, (NEW YORK : CHARLES SCRIBNER'S SONS, 1958).

(٥) انظر تعريف فيبر للنماذج المثالية فى :

WEBER,
ECONOMY AND SOCIETY, vol. 1, pp. 18-22.

(٦) تربو كتب ومقالات فرويد عن الستين ترجمت الى معظم اللغات الحية وتوجد قائمة كاملة بانتاجه العلمى والترجمة الانجليزية لذلك الانتاج فى :

SIGMUND FREUD,
NEW INTRODUCTORY LECTURES ON PSYCHOANALYSIS, TR. AND ED. BY JAMES SERACHERY (NEW YORK : NORTON AND CO., 1965), pp. 184-190.

(٧) سنعتمد فى هذا المقال عند استعراض نظرية فرويد على الطبعة الاخيرة من كتابه محاضرات فى التحليل النفسى وهو الكتاب الذى ترجمه STRACHEY والمذكور فى الهامش السابق ·

(٨) FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES**, p. 73.

(٩) FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES**, p. 75.

(١٠) FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES**, p. 76.

(١١) FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES**, pp. 62-63.

FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES**, p. 74.

(١٣) FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES**, p. 67.

(١٤) FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES**, p. 67.

(١٥) FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES**, pp. 158-182.

(١٦) SIGMUND FREUD, **TOTEM AND TABOO** (LONDON, 1950).

(١٧) SIGMUND FREUD, **MOSES AND MONOTHIEISM**, (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1967).

(١٨) FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES**, p. 160

(١٩) FREUD, **INTRODUCTORY LECTURES**, p. 164-19.

(٢٠) SIGMOND FREUD, **CIVILIZATION AND ITS DISCONTENTS** (NEW YORK : NORTON AND CO., 196).

(٢١) FREUD, **CIVILIZATION**, p. 45.

(٢٢)
ERIK H. ERIKSON, **CHILDHOOD AND SOCIETY** (NEW YORK : NORTON AND CO., 1950).

(٢٣) كما يوجد للكتاب طبعة أحدث منقحة ومزيدة صدرت من نفس الدار في سنة ١٩٦٣ .

(٢٤) ERIKSON, **CHILDHOOD,** pp. 133-134.

(٢٥) ERIKSON, **CHILDHOOD,** p. 295.

(٢٦)
ERIKSON, **CHILDHOOD,** CH-9 "THE LEGEND OF HITLER'S CHILDHOOD" pp. 326-356.

(٢٧) تم نشر أوراق مجموعة البحث هذه في :

ROBERT JAY LIFTON, ED., **EXPLORATION IN PSYCHO-HISTORY. THE WELLFLEET PAPERS, EDITED BY ROBERT JAY LIFTON WITH ERIC OLSON AND WITH ESSAYS BY ERIK ERIKSON AND KENNETH KENISTON** (NEW YORK : SIMON AND SCHUSTER, 1974).

ويضم الكتاب أوراق المجموعة منذ أوائل سنوات تشكيلها . حـول المجموعة نفسها انظر الصفحات pp. 11-19

(٢٨)
PETER GAY, **FREUD FOR HISTORIANS** (NEW YORK : OXFORD UNIVERSITY PRESS, 1985), p. 100.

(٢٩)
MICHAEL PAUL ROGIN, **FATHER AND CHILDREN, ANDREW JACKSON AND THE SUBJUDICATION OF THE AMERICAN INDIAN,** (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1976).

(٣٠)
JOSEPH F. BYRNES. **THE VIRGIN OF CHARTERS : AN INTELLECTUAL AND PSYCHOLOGICAL HISTORY OF THE WORK OF HENRY ADAMS** (NEW YORK : NORTON, 1979).

(٣١)
ALEXANDER L. GEORGE AND JULIETTE L. GEORGE, **WOODROW WILSON AND COLONEL HOUSE : A PERSONALITY STUDY** (NEW YORK : NORTON, 1964).

(٣٢)
MICHEL FOUCOULT, **THE HISTORY OF SEXUALITY** VOL. 1 : **AN INTRODUCTION,** (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1978).

(٣٣)
MICHEL FOUCOULT, **MADNESS AND CIVILIZATION : A HISTORY OF INSANITY IN THE AGE OF REASON,** (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1973).

(٣٤)
FOUCOULT, **MADNESS,** p. 247.

(٣٥)
MICHEL FOUCOULT, **DISCIPLINE AND PUNISHMENT, THE BIRTH OF THE PRISON** (NEW YORK : PANTHEON BOOKS, 1977).

(٣٦)
MICHEL FOUCOULT, **THE ORDER OF THINGS AN ARCHAEOLOGY OF THE HUMAN SCIENCES. A TRANSLATION OF LES MOTS ET LES CHOSES** (NEW YORK : VINTAGE BOOKS, 1973).

(٣٧)
EDWARD W. SAID, **ORIENTALISM** (NEW YORK : PANTHEON BOOKS, 1978), pp. 21-24.

(٣٨)
MICHEL FOUCAULT, HISTOIRE DE LA SEXUALITE VOL. 1, **LA VOLONTE DE SAVOIRE** (PARIS : GALLIMARD, 1976). J. VOL. 2 **L'USAGE DES PLAISIRS** VOL. 3 **LA SOCI DE SOI** (PARIS : GALLIMARD, 1984).

(٣٩) حول أهم الانتقادات للتطبيقات التاريخية لفرويد انظر :
DAVID E. STANNARD, **SHRINKING HISTORY : ON FREUD AND THE FAILURE OF PSYCHOHISTORY** (NEW YORK : NORTON AND CO., 1980).

حول العلاقات بين مصر وجنوب الجزيرة العربية في العصر الفرعوني

أ٠د٠ / عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

ربما لا يعبر هذا العنوان تماما عن موضوع البحث لأنه لا توجد أدلة تاريخية أو اثرية على وجود علاقات مباشرة بين مصر وجنوب الجزيرة العربية فى العصر الفرعونى ٠ واقصد بالعلاقات المباشرة الاتصال المباشر بين المصريين القدماء وبين اليمنيين القدماء ، اما بابحار المصريين بسفنهم الى سواحل اليمن ، أو بمجىء اليمنيين القدماء بسفنهم الى موانىء مصر الفرعونية ٠ وقد أوضحت فى بحوث سابقة بالعربية والانجليزية الأدلة التى تنفى هذا الاتصال(١) والخصها فيما يلى :

أولا : تخلو النصوص المصرية التى ترجع للعصر الفرعونى نفسه من الاسم الذى عرفت به الجزيرة العربية فى النصوص القديمة وهو اريبى ARIBI الوارد فى النصوص الآشورية ٠ واقدم ذكر لهذا الاسم فى النصوص المصرية ورد فى نص ديموطيقى يرجع للعصر البطلمى (٣٢٢ ــ ٣٠ ق٠م٠) أو لعصر الاحتلال الفارسى على أكثر تقدير (٥٢٥ ــ ٣٣٢ ق٠م٠) أى بعد انتهاء العصر الفرعونى ٠

ثانيا : وبالمثل فان كلمة « مصر » وهو الاسم الذى عرفت به فى النصوص الآسيوية ، لم ترد فى نصوص جنوب الجزيرة العربية الا بعد انتهاء العصر الفرعونى وذلك فى نصوص معينة تعاصر فترة الاحتلال الفارسى لمصر(٢) ٠

ثالثا : اقتصر ارتياد المصريين القدماء لسواحل البحر الأحمر على

(*) قسم التاريخ ــ كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية ٠

سواحله الافريقية التى كانوا يطلقون عليها التسمية « بونت » أو « بيا - بونت » ، بمعنى « مناجم (ذهب) بونت » ، ولم يمتد هذا الارتياد فى اى فترة من فترات التاريخ الفرعونى الى سواحله الآسيوية والأدلة على اقتصاره على السواحل الافريقية هى :

(أ) نتائج الحفائر التى توصلت اليها بعثة قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية عام ١٩٧٦ عندما اكتشفت فى منطقة « مرسى جواسيس » على ساحل البحر الأحمر جنوبى ميناء سفاجة بحوالى اثنين وعشرين كيلو مترا ، موقع الميناء الذى كانت تنطلق منه السفن المصرية الى المنطقة التى اطلقت عليها النقوش المكتشفة فى هذا الموقع « بيا - بونت » والتى تبين انها صحراء العتباى الممتدة على الساحل الشرقى للسودان(٣) . حيث تنتشر مناجم الذهب التى تشير اليها كلمة « بيا » .

(ب) تدل الرسوم التى سجلها المصريون القدماء على آثارهم للحياة الحيوانية فى بلاد بونت هذه على أنها بيئة افريقية ، وأهمها رسم لحيوان الزراف ورد ضمن رسوم بعثة الملكة حتشبسوت الى بونت حيث صورت زرافة وهى ترعى على ورق الشجر ، أى أن هذا الحيوان مثل فى بيئته الأصلية. والمعروف أن الزراف حيوان افريقى بحت ولم يظهر فى آسيا قديما أو حديثا ، وقد اثبت ذلك الباحث الالمانى م. هلسهيمر M. Hilzheimer منذ زمن بعيد(٤) ، وقد اعتمدت على رأيه هذا فى بحوثى السابقة(٥) .

(جـ) دون المصريون القدماء على آثارهم ابتداء من عصر الملك تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م.) قوائم باسماء البلاد والشعوب والمدن والقبائل التى أخضعوها فى المناطق الافريقية والآسيوية ، وقد رتبت قوائم الفرعون تحتمس الثالث ترتيبا جغرافيا من الجنوب الى الشمال ، وتبين من دراسة مكان الاسم « بونت » فى هذه القوائم انه يأتى فى التسلسل بعد اسماء جغرافية من المؤكد أنها توجد فى افريقية ولا توجد فى آسيا وهى « كوش » و « واوات » ، فتبدأ هذه القوائم باسم « كوش » وهو اسم النوبة العليا ويندرج تحته ٢٢ اسما جغرافيا

(لمدن أو قبائل) ثم الاسم « واوات » وهو اسم النوبة السفلى ويندرج تحته ٢٤ اسما جغرافيا ، ثم يبدأ الترتيب مرة أخرى من الجنوب مقتربا من ساحل البحر الأحمر فتذكر القوائم الاسم « بونت » ويندرج تحته ٢٤ اسما ، يليه الاسم « مجاى » وهو اسم المنطقة أو القبائل الضاربة فى الصحارى الممتدة فى شرق السودان ويندرج تحته ١٧ اسما ، وأخيرا تأتى منطقة « خاسخت » وتمتد على ساحل مصر حتى خليج جمصة عند مدخل خليج السويس ويندرج تحتها ٢٢ اسما (ويبدو أن المصريين كانوا يعتبرون هذه المنطقة من المناطق المعادية رغم أنها تقع فى نطاق خطوط عرض مصر نفسها ربما بسبب سكنى قبائل البدو بها التى كانت دائمة الاغارة على أطراف الوادى الخصيب) ٠

وهكذا يرتبط الاسم الجغرافى « بونت » بمناطق افــريقية بحتة ولا يمتد الى مناطق آسيوية٠ويستدل من هذا الترتيب على أنها كانت تقع فى أقصى جنوب المناطق الأخرى حيث تقع بلاد الصومال ٠

وفى مقابل هذا التسلسل والوضوح للاسماء الجغرافية الممتدة على الجانب الافريقى للبحر الأحمر ، لم ترد فى هذه القوائم أية اسماء على الجانب الآسيوى لهذا البحر ٠ وكل ما ورد من اسماء آسيوية فى هذه القوائم ينتمى الى بلاد الشام وما يتاخمها ، والى سيناء وما يتصل بها شرقا(٦) ٠

(د) ورد على لوحة ترجع لعصر الأسرة السادســـة والعشرين الفرعونية نص يربط بين سقوط الأمطار على الجبال المسماة على هذه اللوحة « جبال (أو جبل) بونت » وبين فيضان النيل ، وذلك ينفى أن تكون بلاد بونت هذه فى جنوب الجزيرة العربية لأن من غير المعقول أن تصل الأمطار الى النيل مع وجود فاصل بحرى (البحر الأحمر) بين مصدر هذه الأمطار (اذا كانت بونت فى جنوب الجزيرة العربية) وبين منابع النيل فى افريقيا لأن هذه المياه ستتلاشى بطبيعة الحال فى البحر الأحمر قبل وصولها لافريقيا(٧) ٠

هذه هى الأدلة على أن التعبير الجغرافى المصرى « بونت » كان

يقتصر على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ولم يمتد الى ساحله الآسيوى وبالتالى فان اتصالات المصريين القدماء المباشرة اقتصرت على الساحل الافريقى لهذا البحر دون ساحله الآسيوى ٠

ان البحث وراء دوافع المصريين لهـــذه الاتصالات يؤكد هـــذه النتيجة ، فقد ارتاد المصريون القدماء سواحل البحر الأحمر للحصول على نوعين من السلع أولهما « البخور » ذو الأهمية البالغة فى طقوسهم الدينية ، وثانيهما سلع الترف ذات القيمة الكبيرة فى تصوير أبهة الملك ومظهرية السلطان ٠ وهـــذه السلع تتوفر على كلا الجانبين الافريقى والآسيوى للبحر الأحمر ، ولكن الجانب الافريقى كان الأفضل بالنسبة لهم لسببين أولهما أن أشجار البخور المعـــروف بـ « الكنـــدر » (المسمى بالعامية « اللبان دكر » والكلمة الانجليزية « Frankincense لاتينية الأصل تعنى « البخور الحر أو النقى ») ، وهو النوع الذى كان يفضله المصريون القدماء ٠ هذا النوع كانت أشجاره تنمو بالقرب من الساحل على الجانب الافريقى للبحر الأحمر فكان يمكنهم الحصـــول عليها مباشرة لنقل زراعتها الى مصر طبقا لما ورد فى نقوش ورسوم بعثة الملكة حتشبسوت الى بونت ، مما كان يوفر الكثير من المصاعب والاخطار التى كانت تواجههم اذا حاولوا الحصول على هذه الاشجار من ساحل اليمن المطل على البحر الأحمر ولا سيما أن هذه الأشجار لم تكن قريبة من الساحل بل كانت فى المناطق الداخلية كما يستفاد من وصف الكتاب الكلاسيكيين(٨) ٠ وكانت المنطقة الوحيدة التى تنمو بها أشجار الكندر قرب الساحل فى جنوب الجزيرة العربية هى المنطقة المعروفة حاليا باسم « ظفار » الواقعة غرب دولة عمان الحالية على البحر العربى فكان على المصريين عبور البحر الأحمر ثم الخروج الى البحر العـــربى والابحار لمسافة تتراوح بين ١٣٠٠ ، ١٥٠٠ كيلو متر من بوغاز باب المندب الى منطقة ظفار هذه (بعد ان يكونوا قد قطعوا المسافة الطويلة من الميناء المصرى فى شمال البحر الأحمر الى بوغاز باب المندب والتى لا تقل عن ١٨٠٠ كيلو متر ايضا) ٠ وهو أمر يبدو مستحيلا ٠

اما عن سلع الترف من ذهب وعاج وأبنوس وريش نعام وغيرها ،

فقد كان الأفضل للمصريين الحصول عليها من الجانب الافريقى للبحر الأحمر حيث موطن انتاج هذه السلع وبالتالى انخفاض أثمانها كثيرا عما يدفعونه فى مقابلها لو حصلوا عليها من جنوب الجزيرة العربية لأن سكانها كانوا يستوردون هذه السلع من خارج بلادهم (من افريقية نفسها ومن الهند) ، وبالتالى تضاف اليها أجور نقلها وحراستها من افريقية الى أسواق جنوب الجزيرة العربية ٠

يضاف الى هذه العوامل كلها أن ارتياد المصريين لسواحل جنوب الجزيرة العربية كان يعرض سفنهم لاخطار عبور البحر الأحمر الشهير بزوابعه الرعديةوتياراته العنيفة ؛ وخاصة اذا علمنا أن المصريين استخدموا فى البحر الأحمر نوعا من السفن يمكن أن نسميه السفن « الخيطية » أو « المخيطة » وهى سفن تستخدم الحبال والخيوط فى تثبيت الواحها بدلا من المسامير المعدنية ٠ ولعل السبب فى ذلك هو قدرة هذه السفن على امتصاص الصدمات ضد الشعاب المرجانية التى يشتهر بها البحر الأحمر ، وذلك على عكس السفن ذات المسامير المعدنية التى تكون أكثر قابلية للكسر عند اصطدامها بهذه الشعاب ٠ ولكن فى مقابل هذه الميزة للسفن المخيطة فانها كانت أضعف من السفن ذات المسامير المعدنية أمام العواصف والزوابع التى تعصف بها فى عرض البحر الأحمر اذا حاولت العبور من شاطئه الافريقى الى شاطئه الآسيوى٠ولدينا وصف من العصر الاسلامى (الذى استخدم خلاله هذا النوع من السفن فى البحر الأحمر بسبب ميزتها فى امتصاص صدمات الشعاب المرجانية وربما كانت هذه السفن استمرارا للسفن المصرية المخيطة) دونه الرحالة ابن جبير وهو يصف رحلته من عيذاب الى جدة فى احدى هذه السفن التى كانت تسمى فى ذلك العصر « الجلبة » أو « الجلابة » اذ يقول : « وكان نزولنا بجدة حامدين الله عز وجل ، وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عانيناه فى تلك الثمانية أيام طول مقامنا على البحر ، وكانت اهوالا شتى ، عصمنا الله منها بفضله وكرمه ، فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه ، وكثرة شعابه المعترضة فيه ، ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها واقتصامها (انكسارها) المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسى من مراسيه ٠ وربما سنحت (لصقت

بالأرض) الجلبة بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تخللها ، فنسمع لها هدا يؤذن باليأس ، فكنا فيها نموت مرارا ونحيا مرارا ٠٠ » (رحلة ابن جبير ص ٥١ ـ ٥٢ ، طبعة بيروت ، عن « تاريخ البحرية المصرية » ، جامعة الاسكندرية ١٩٧٣ ص ٥٦٥) ٠

فاذا كان هذا هو الحال بعد قرون طويلة من العصر الفرعونى لا شك أن صناعة السفن تقدمت خلالها ـ رغم بقائها سفنا شراعية مخيطة ـ فماذا كان الحال فى العصر الفرعونى ؟ لابد أن السفن فى ذلك العصر كانت أكثر ضعفا من سفن العصر الاسلامى ٠

وازاء ضعف السفن المصرية المخيطة ، واضطرار المصريين القدماء لاستخدامها لميزتها فى الابحار بين الشعاب المرجانية ، يبدو أن المصريين اتبعوا طريقة « المساحلة » أى الابحار فى موازاة الساحل الافريقى للبحر الأحمر ابتداء من الساحل المصرى حتى ساحل بلاد بونت وهو الساحل الشمالى الشرقى للصومال وذلك ابتداء من عصر الملكة حتشبسوت ، حيث توجد السلع المطلوبة وفى مقدمتها أشجار الكندر ، وهم فى أمان تام اذ يمكنهم كلما استشعروا قرب هبوب العواصف أو اشتداد التيارات البحرية أن يسرعوا بالالتجاء الى الخلجان والشروم الممتدة على طول هذا الساحل فلا تغرقهم هذه العواصف والتيارات ٠

وعلى ذلك ، فمادامت نفس السلع التى يطلبها المصريون القدماء تتوفر على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، ومادام يتوفر لهم ولسفنهم الأمن والأمان اذا أبحروا بحذاء هذا الساحل ، فما الذى يدعوهم لتجاهل كل هذه الظروف المواتية ويجازفون بعبور البحر الأحمر معرضين أنفسهم لأخطاره للحصول على نفس السلع من جنوب الجزيرة العربية ؟

وفى مقابل الادلة القوية التى ذكرناها والتى تثبت اتصال المصريين المباشر بالساحل الافريقى للبحر الأحمر ، لا يوجد دليل واحد من بين النصوص أو من الرسوم المصرية القديمة يشير الى أى اتصال مباشر لهم بجنوب الجزيرة العربية ٠

ورغم هـــذه الحقائق الواضـــحة ، فان بعض الباحثين ينـادون فى بحوثهم بان بلاد بونت كانت تقع فى جنـــوب الجزيرة العـــربية او ان هذه المنطقة (وبالتحديد منطقة « ظفار » فى غرب عمان) هى التى حصلت منها بعثة الملكة حتشبسوت على اشجار البخور ، دون أن يقدموا أى دليل من النصوص أو الرسوم المصرية القديمة التى تؤيد هذا الراى وانما كان جل اعتمادهم على معـــلومات غير محـــددة أو على تفسيرات لبعض النصوص والرسوم المصرية التى نناقشها فيما يلى :

أولا قرأ بعض الباحثين كلمة « ارم » المكتوبة فوق صور الزعماء الراكعين أمام الملكة « ار ـ ام ـ مر » وترجمها « الذين يعملون فى البحر » وقال انهم قبائل « المهره » الذين يسكنون سواحل حضرموت وان هذه التسمية المصرية لهم تشير الى أرتباطهم بالبحر(٩) ٠

ونرى أن هذا التفسير قام على أساس غير صحيح لأن هذا الاسم يقرأ « رم » وليس « ار ـ أم ـ مر » باتفاق جميع الباحثين المتخصصين فى هذا المجال(١٠) ٠ وهو اسم شعب افريقى تردد كثيـــرا فى النقوش المصرية وارتبط فى بعض الأحيان بالنوبة والسودان ولم يكن له أى ارتباط بجنوب الجزيرة العربية أو حتى باى منطقة آسيوية أخرى ٠ ويبدو أن الباحث اقتصر على الاعتماد على رسم الكلمة فى نصوص حتشبسوت فقط حيث وردت بمخصص مسطح مائى فقط، ولو رجع الى رسوم الكلمة فى النصوص الأخرى ، حيث وردت حوالى ثلاثين مرة لوجد أنها كتبت بمخصص أرض جبلية أيضا(١١) ٠ وقد نشر حديثا بحث مستفيض عن هذا الشعب حدد منطقة انتشـــاره قديما فى شرق السودان(١٢) ٠ ويرجح انه أحد اسلاف قبائل الجالا التى تسكن فى غرب الصومال أو شرق الحبشة لأن المصريين رسموا افراده أو زعماءه طبقا للاصطلاح المصرى القديم فى الرسم بطريقة توحى بأن هذا الشعب كان يسكن وراء مناطق البونتيين سكان الصومال ٠ والذى يرجح هـــذا الاستنتاج أيضا ، أن الاسم « جالا » ليس الاسم الوطنى لهذا الشعب

بل هى تسمية الاحباش له ، وان الاسم الوطنى الذى يطلقه هذا الشعب على نفسه فى الوقت الحاضر هو « اروم » أو « اروما » وهو قريب فى نطقه من الاسم المصرى القديم « ارم »(١٣) ٠

ثانيا : اعتمد بعض الباحثين على بعض القطع الاثرية الصغيرة ذات الطابع المصرى القديم التى وجدت فى اليمن مثل جعران عليه اسم الفرعون امنحتب الثالث وقطعة مربعة من الحجر تحمل اسم الفرعون تحتمس الثالث ـ اعتمدوا على هـذه الآثار الصـغيرة فى القول بأن المصريين القدماء ربما حملوا هذه الاشياء الى اليمن فى رحـلاتهم التجارية(١٤)٠ ونرى أن هذا افتراض لا يقوم على أساس ، لأن هذه الآثار الصغيرة لا يجب أن تؤخذ دليلا على اتصـال المصريين القدماء المباشر ببلاد اليمن لسهولة نقلها بالطرق غير المباشرة أى ليس بواسطة المصريين القدماء انفسهم ، وانما بواسطة شعب أو شعوب وسيطة أخرى قد يكون من بينهم الفينيقيون الذين كان لهم نشاط ملاحى وتجارى بارز فى البحر الأحمر فضلا عن صلتهم الوثيقة بمصر الفرعونية ٠ وقد برع الفينيقيون فى تقليد الصناعة المصرية ، وربما تكـون القطعة المربعة المذكورة التى تحمل اسم الفرعون تحتمس الثالث ، مثالا لهذا التقليد ويتضح ذلك من رسم القرص والهلال عليها متباعدين ٠ ولم يكن هذا هو الأسلوب المصرى الشائع فى رسم القرص (الذى يمثل القمر المكتمل) والهلال وانما كان ذلك شان الأسلوب اليمنى ، وربما رسمهما الفينيقيون طبقا لهذا الاسلوب ضمانا لرواجه فى أسواق اليمن ، وقد سبق ان تناولت هذا الموضوع فى بحث منشور فى مجلة مؤتمر الدراسـات العـربية بلندن(١٥) ٠

ثالثا : ترجم أحد الباحثين ترجمة خاصة عبارة وردت فى نقش من عصر الفرعون امنحتت الثالث وجد فى سيناء لموظف مصرى يدعى « سبك ـ حتب » ويكنى « بانحسى » وكاتبه المدعو « أمون ـ مس » والنقش كما سبق أن ترجمه الباحثون وهو « يقـول (الكاتب امون ـ مس) لقد تبعت سيدى فى البلاد الأجنبية (أو الجبلية) ونفذت المهمة التى عهد بها الى ، لقد خرجت الى المحيط (حر جسوى ـ واج ور)

لاستكشاف (سر او سرى) عجائب (بيا يت) بونت للحصـــول على الصموغ العطرية وقد احضرت الامراء الأجانب فى ٠٠ مع جزية بلاد أجنبية (او جبلية) عديدة ، انظر لقد اتيت أيضا وطرقت بلاد هذه الالهة وأدرت العمل فى استخراج الفيروز »(١٦) ٠

والعبارة التى ترجمها الباحث ترجمة خاصة اختلفت عن ترجمات الباحثين وغيرت من معنى الجملة تعييرا كبيرا تتكون من جـــزئين :

أولهما : « حر جسوى - واج ور » ترجمها بمعناها الحرفى اى « على شاطئى البحر » (فى صيغة المثنى) رغم أنهـــا تستخدم فى النصوص المصرية بمعنى « شاطىء البحر » (فى صيغة المفرد) وقد ثبت ذلك من امثلة اخرى وردت فيها هذه الكلمة واستحال أن يكون معناها على « شاطئى البحر » (فى صيغة المثنى) وقد نبه الى هذه الحقيقة علماء المصريات منذ عهد بعيد(١٧) ٠

وقد افترض الباحث فى ترجمته هذه ان هذا الموظف (امون - مس) استقبل الامراء الاجانب على ساحل خليج العقبة(١٨) وحـــدد نقطة هذا اللقاء فى بحث آخر له فى منطقة ايلات(١٩) حيث تســلم البضاع التى جلبوها او حصل مكوسها ثم رافق القافلة عبر سيناء حتى مجرى النيل(٢٠ث) ٠

ونرى أن هذه الاستنتاجات بعيـــدة عن الواقع لانها قامت على ترجمة غير دقيقة لعبـــارة « حرجسوى » ، اذ كيف يقـــوم الموظف المصرى باداء مهمته فى الاشراف على اســتخراج الفيـــروز من منطقة سيرابيط الخادم فى غرب سيناء (بالقرب من خليج السويس) ثم يتجه الى اقصى شرقها على شاطىء خليج العقبة ليقابل الزعماء الأجانب ثم يصاحبهم الى اقصى الغرب نحو وادى النيل ؟

ثانيهما : كلمة « سر او سرى » ترجمها الباحث بمعنى « يقابل » أو « يتـــرقب وصـــول » وفسر عبـــارة « سرى بيايت نو بونت  » تفسيرين أحدهما بأن مهمة الموظف

المصرى صاحب النقش هى مقابلة شيوخ تجارة البخـــور الخارجية وما أتوا به من بضائع من بوينة (بونت)(٢١) ٠

والحقيقة أن كلمة « سر أو سرى » هذه ليس معناها « يقابل » أو ما شابه ذلك ولـــكن معناها « يستكشف » وقـــد توصـــل لهذا المعنى المر ايدل (٢٢) Elmar Edel وفسر الكلمة بأنها تحمل معنى القيام برحلة الى بونت(٢٣) وذلك من دراسته لهذا النقش بالمقارنة مع نقشين أخرين وجدا فى منطقة سيرابيط الخادم بسيناء أيضا ، احدهما وجـــد مهشما وتمكن ايدل من اكماله وقراءته ٠ ويتحدث فيه صاحب النقش عن مهمتين قـــام بهمـــا ، احـــداهما « استكشـــاف عجائب بونت »

اى انه استخدم نفس التعبير الوارد فى نقش بانحسى - امون مس » المذكور ، والأخرى استخراج الفيروز فى سيناء(٢٤) وهى نفس المهمة الثانية التى قام بها « امون - مس » ٠ والنقش الثانى يتكون من قطعتين كان قد سبق العثور عليهما ونشرت نصوصهما منذ عـــدة سنوات(٢٥) ولكن ظلت قراءتهما مبهمة حتى تمكن المر ايدل من جمعهما وقـــراءة نصوصهما كنص واحد(٢٦) ٠ وأهمية هذا النص انه يذكر رحلة فعلية قام بها صاحب النقش الى بونت اذ جاء فيه « ٠٠٠ الذى سافر خلال جبال بونت ليحضر العجائب لجلالته » ٠ وان الاشارة الى رحلة فعلية لصاحب النقش (الذى وجد فى منطقة سيرابيط الخادم بسيناء شـــان النقوش الأخرى) الى بونت بالاضافة الى اقتران كلمـــة « العجائب

« بيات » بكلمة « احضـــار » (إنت)

يدل على أن الجمع بين الرحلة الى بونت لجلب سلعها والرحلة الى سيناء لاستخراج الفيروز ، كان تقليـــدا متبعا وهو ما توصـــل اليه المر ايدل كما ذكرنا ٠

وقد يثار تساؤل عن امكانية قيام شخص واحد بهذه الرحلة المزدوجة رغم التباعد الشديد بين المنطقتين اذ تقع سيناء فى شمال البحر الأحمر بينما تقع بونت أو بالتحديد منطقة أشجار الكندر فى بونت فى أقصى الجنوب - فى شمال شرق الصومال - وهى المنطقة من بونت التى بدأ المصريون يترددون عليها منذ عصر حتشبسوت(٢٧) ولكن اذا لم يكن هدف أصحاب هذه النقوش الحصـــول على أشـجار الكندر والاكتفـاء بالحصول على حبات الكندر فقد كان يمكنهم الحصول عليها من أسواقه القريبة نسبيا من مصر مثلمـا كان الحال فى عصر الدولتين القـــديمة والوسطى عندما كان المصريون يطلقون التسمية « بونت أو بيا - بونت» على منطقة صحراوية قريبة من مصر هى فى الغالب صـــحراء العتباى كما تدل على ذلك عبارة حكام الأرض الحمراء أى الصحراء فى نقش «حنو»(٢٨)، وكلمة « بيا - بونت » أى مناجم (ذهب) بونت فى نقوش وادى جواسيس(٢٩) ، وعلى هذا فربما تشير كلمة بونت فى هذه النقوش الثلاثة الى هذه المنطقة الواقعة فى شرق السودان وبذلك يصبح المدى الزمنى بين الرحلتين الى ســـيناء وبونت أقل بكثير مما لو كانت منطقة أشجار الكندر فى شمال شرق الصومال هى المقصـــودة بكلمة بونت فى هذه النقوش . وعلى ذلك يمكن لشخص واحـــد القيام بهاتين الرحلتين .

أما سبب الجمع بين الرحلتين فان المصريين اضـــطروا لذلك لكى يتمشى الوضع مع الطريقة التى كانوا يتبعونها فى اعداد السفن لهذه الرحلات؛ فقد كانوا يصنعون هذه السفن على شاطىء النيل فى ترسانة قفط كما ورد فى أحد نقـــوش وادى جواسيس(٣٠) ثم يفككونها وينقلونها على ظهور الرجال والدواب الى شاطىء البحر الأحمر حيث يركبـــونها فى الميناء الذى يقلعون منه . ولا شك أن هذه العملية كانت تكلفهم كثيرا من المصاريف والجهد والوقت ولا سيما أن عليهم تكرار فك هذه السفن ونقلها الى شاطىء النيل بعد انتهاء مهمتها ، ومن هنا كان عليهم الاستفادة من تشغيل هذه السفن فى البحر الأحمر الى أقصى حد ممكن(٣١) فربما كان الموظف المكلف باداء المهمتين يشرف على نقل هذه السفن للعمال اللازمين لعمليات التعدين ذات المدى الطويل فى مناجم الفيروز بسيناء،

ثم يقوم بالرحلة الى بونت (فى شرق السودان أو بالقرب منه) لجلب منتجاتها وبعد العودة من بونت وتفريغ شحنة السفن فى الميناء المصرى على ساحل صحراء مصر الشرقية ، كان يتوجه بها الى سيناء لنقل العمال وما استخرجوه من فيروز وغيره • وكان الميناء المستخدم هو ميناء مرسى جواسيس كما أثبت الباحثون(٣٢) وكما أثبتنا ذلك فى بحوث سـابقة نظرا لأنه الميناء الفرعونى الوحيد على ساحل البحر الأحمر الذى تأكد وجوده بالأدلة الأثرية التى وجدت فى الموقع ذاته(٣٣) • وان الموقع المتوسط لهذا الميناء يلائم تماما هاتين الرحلتين ولا سيما أنه توجد بقايا ميناء مصرى قديم على الساحل الغربى لشبه جزيرة سيناء يشرف على سهل المرخا جنوبى ابى زنيمة حيث يبدأ طريق عبر وادى بابع ووادى سويق يؤدى الى منطقة سيرابط الخادم ويرجع هذا الميـنـاء الى عصر حتشبسوت وتحتمس الثالث(٣٤) وربما كان هذا الميناء يكون مع ميناء مرسى جواسيس نقطتى البداية والنهاية بالنسبة للرحلات بين سـاحل مصر الشرقى وبين ساحل سيناء •

بهذه الطريقة كان يمكن للمصريين الاستفادة من هذه السفن الى أقصى حد ممكن وربما كانت السفن بعد هذه الرحلات الطويلة تصبح فى حالة من البلى لا تصلح معها لفكها واعادتها الى وادى النيل لاستخدامها كسفن نيلية فكانوا يستخدمون أخشابها فى أغراض أخرى كوقود مثلا ، فقد عثرت بعثة قسم التاريخ أثناء حفائرها قرب موقع الميناء الفرعونى فى وادى جواسيس على بقايا أخشـاب بها تعشـيقات مما يدل على استخدامها فى تثبيت بعضها الى بعض طبقا للطريقة المتبعة فى تثبيت الواح السفن ، وبعض هذه الأخشاب بها آثار حرق وقد تبين من تحليلها أنها من خشب الأرز اللبنانى وهو الخشب الذى كان المصريون يصنعون منه سفنهم فى البحر الأحمر(٣٥) •

من كل ما تقدم يتبين أن نقش « بانحسى - امون مس » المذكور يروى أخبار رحلتى الموظف المصرى الى بونت لجلب سلعها والى سيناء لتعدين الفيروز • وقد تأكد ذلك من نقشين آخرين وجدا فى نفس منطقة سيرابيط الخادم بسـيناء ، وعلى ذلك فان ما استخلصـه الباحث من

النقش مما يشير الى اتصالات بين سكان جنــوب الجــزيرة العربية والمصريين فى شمال الجزيرة العــربية ليس له ســند من النصــوص او الآثار ٠

رابعا : يقول أحد الباحثين أن التعبير « تا ـ نتر »بمعنى « أرض الاله » فى نصوص بعثة حتشبسوت يشمل الساحل الافريقى للبحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية ، بينما ينحصر التعبير الجغرافى « بونت » على الساحل الافريقى للبحر الأحمر فى عروض اريتريا والصومال(٣٦)٠ وتمشيا مع رأيه هذا قال ان المصريين الذين أوفدتهم الملكة حتشبسوت الى بونت كان هدفهم الحصول على اشجار الكـندر Frankincense trees من منطقة « ظفار » فى جنوب الجــزيرة العربية (التى ينطبق عليه االتسمية « أرض الاله » فى رأيه) حيث يوجد أجود أنواع الكندر المعروف علميا باســم Boswellia Carteri, or B. Sacra قرب الساحل ، وهو أجود من الكندر الصومالى الذى لا يوجد قرب ساحل صوماليا (شمال الصومال) ولكن فى المناطق الداخلية (حرفيا : مناطق الظهير) على ارتفاع ٣٦٠٠ متر(٣٧) ٠ ويسترسل فى هذه الاستنتاجات قائلا ان هؤلاء البونتيين خافوا من أن يؤدى وصول رجال بعثة حتشبسوت الى منطقة نمو اشجار الكندر فى ظفار الى ضياع مكاسبهم كوسطاء فى تجارة بخور ظفار لانهم كانوا أصلا من سكان جنوب الجــزيرة العربية الذين هاجروا الى الساحل الافريقى للبحر الأحمر واستقروا على ساحل صوماليا واشتغلوا بهذه الوساطة التجارية ، فحاولوا اثناء المصريين عن الوصول الى منطقة ظفار بان صوروا لهم الصعوبات التى سيلاقونها اذا توجهوا بانفسهم الى هذه المنطقة ووعدوهم باحضار فسائل من اشجار بخور ظفار وفعلا احضروها لهم(٣٨) ٠

هذا هو مجمل رأى الباحث فى هذا الموضوع وقد نشر ملخصا له ضمن بحث آخر بالعربية(٣٩) وسوف نوضح فى الصفحات التالية أن هذه الاستنتاجات أسست على معلومات غير دقيقة ٠

ان محور رأى الباحث بأن المصريين حصلوا عن طريق الوسطاء المستقرين فى بونت الافريقية (شمال الصومال) على أشجار الكندر

التى استوردوها لهم من منطقة « ظفار » فى جنوب الجزيرة العربية - محور هذا الرأى هو قوله أن هذه الاشجار لا تنمو فى المناطق الساحلية من شمال الصومال بل فى المناطق الداخلية (حرفيا : مناطق الظهير) hinterland وقد نسب هذه المعلومة الى الباحث النباتى « هبر Nigel Hepper » وفيما يلى نص هذه المعلومة فى مقال الباحث :

"...according to Hepper (p. 69-70), unlike Myrrh, trees which grew in the coastal region of Somalia, Frankincense trees grew in the hinterland at an altitude of up to 3600 feet"(٤٠)

فالباحث هنا ينسب الى « هبر » معلومة مؤداها أن أشجار الكندر Frankincense trees (وهى التى جـاء المصريون فى طلبها) لا تنمو على الساحل الشمالى للصومال ، بل فى الداخل وعلى ارتفاع ٣٦٠٠ قدم ٠

غير أننا اذا رجعنا الى الصـفحة التى ذكرها الباحث فى مقال « هبر » نجده يذكر معلومة مخالفة تماما لما نسبه اليه الباحث وهى :

"Boswellia Frereana grows in the coastal region of Somalia, unlike Boswellia Carteri which inhabits the hinterland at an altitude of up to 3600 feet. It is most likely to be B. Frereana that would have been encountered if Punt is identifiable as Somalia"(٤١)

أى أن « هبر » يقرر أن أشجار الكندر تنمو فى المناطق الساحلية فى شمال الصومال على عكس ما نسبه اليه الباحث ، بل والأكثر من ذلك يقول « هبر » أن هذه الاشجار فى أغلب الاحتمالات هى التى حصلت عليها بعثة حتشبسوت اذا كانت بونت تقع فى شمال الصومال ٠

ويلاحظ أن الباحث اختزل هذه المعلومة فحذف أولها وآخرها وأخذ الجزء الأوسط منها الذى جاء فيه أن أشجار الكندر تنمو فى الداخل على ارتفاع ٣٦٠٠ قدم ٠ ولم يذكر الباحث اسم نوع الكندر بينما ذكر « هبر » اسم هذا النوع وهو Boswellia Carteri وقارن بينه وبين النوع الذى ينمو على الساحل وهو Boswellia Frereana كما يلى :

"...Boswellia Frereana yields first quality Frankincense and the resin from Boswellia Carteri, although widely used, is inferior to it" (42)

اى أن « هبر » يخلص من هذه المقارنة بأن نوع B. Frereana اى النوع الذى ينمو على الساحل الشمالى للصومال ينتج أجود أنواع الكندر وان النوع B. Carteri الذى ينمو فى المناطق الداخلية من شمال الصومال ، أقل جودة منه رغم أنه أوسع استعمالا .

وقد اغفل الباحث هذه المعلومة فى مقال « هبر » التى تحسم المشكلة لأنها توضح أن الأفضل للمصريين الحصول على كندر الصومال اى من نفس المنطقة التى وصلوا اليها فى شمال الصومال والتى صوروا معالمها على جدران معبد الملكة حتشبسوت ، بل ان الباحث قدم معلومة اخرى مخالفة تماما لها نسبها الى ثلاثة مصادر من بينها مقال « هبر » هذا كما اثبتها الباحث بنصها :

"...while **Frankincense trees** have not been found outside the coastal mountain range of Dhofâr and eastern Hadramaut and [in lesser quantity and of inferior quality in the mountains of northern Somalia]" (43)

فالمعلومة التى بين حاصرتين لا وجود لها او لما يشبهها فى صفحة ٦٦ من مقال « هبر » كما اشار الباحث أو حتى فى مقال « هبر » كله ، ولا يمكن أن توجد فى هذا المقال بطبيعة الحال لأنها تتعارض تماما مع ما أورده « هبر » فى مقاله كما اثبتنا فى الفقرة السابقة ، اذ كيف يذكر أن اشجار الكندر توجد باعداد اقل ومن نوع أقل جودة فى جبال شمال الصومال بينما يذكر أن الكندر الصومالى المسمى B. Frereana الذى تنمو اشجاه على سواحل شمال الصومال طبقا لرايه المذكور أجود من النوع المسمى B. Carteri الذى ينمو فى المناطق الداخلية من شمال الصومال على ارتفاع ٣٦٠٠ قدم وهذا النوع الأخير يعتبره الباحث احد النوعين الممتازين اللذين ينموان فى ظفار كما يلى :

"...the land of Dhofar, the main area producing Frankincense (Bosweliia Carteri, or B. Sacra)"(٤٤)

من هذه المطابقة بين ما جاء فى مقال الباحث وما فى مقال « هبر » (الذى أعتمد عليه الباحث اعتمادا أساسيا فى المعلومات التى أوردها عن الكندر وأشجاره) يتبين ما يلى :

١ ـ أن أشجار الكندر المسماة B. Frereana تدر أجود أنواعه وتنمو فى المناطق الساحلية من شمال الصومال طبقا لما جاء فى مقال « هبر » ولم يذكر الباحث شيئا عنها على الاطلاق ٠

٢ ـ أن أشجار B. Carteri التى يقول الباحث انها تنمو فى المناطق الساحلية فى ظفار وتنتج أجود أنواع الكندر ، هـــذه الأشجار ـ طبقا لبحوث « هبر » ـ تنمو أيضا فى المناطق الداخلية من شمال الصومال ولكن الكندر الذى تنتجه اقل جـــودة من كنـدر اشـــجار B. Frereana ٠

وعلى ذلك فان المصريين كان يمكنهم الحصول على أشجار الكندر التى جاءوا فى طلبها من المناطق الساحلية فى شمال الصومال ولم يكن هناك ما يدعوهم الى محاولة الابحار الى ظفار فى جنـــوب الجزيرة العربية ، وبالتالى لا يوجد ما يدعو البونتيين المستقرين فى شـــمال الصومال (بونت) الى تصـــوير مخاطر الرحـــلة الى ظفار للمصريين واقتناعهم باحضار فسائل من اشجار ظفار لهم مثلما ذكر الباحث(٤٥) ٠

ورغم ما أوردناه من نتائج توضح بجلاء أن المصريين حصلوا على أشجار الكندر من نفس منطقة بونت التى أرتادوها ورسموا معالمها على جدران معبد الملكة حتشبسوت(٤٦) ، فان الادلة من هذه الرسوم ومن النصوص المصاحبة لها ، تؤكد هذه النتائج كما يلى :

١ ـ صور المصريون هذه الأشجار قبل قطعها أى وهى ثابتة فى الأرض وهم يجمعون عصارة الكندر منها فى سلال(٤٧) وبجوار احدى

هذه الأشجار نص هيروغليفى يصف الشجرة على لسان أحد المصريين الذين يجمعون العصارة :



وترجمة هذه الجملة هى : « ان بداخلها كندر غزير جدا »(٤٨) .

بل أكثر من ذلك فقد دون نص هيروغليفى آخر فى نفس المنظر جاءت فيه العبارة الصريحة التالية :



وترجمتها كما يلى : « اقتلاع أشجار الكندر »(٤٩) .

كل ذلك يوضح بجلاء ان أشجار الكندر التى حصلت بعثة حتشبسوت عليها من بونت كما جاء فى النصوص ، اقتلعتها من المنطقة التى رست عندها سفن هذه البعثة اى من شمال الصـــومال ولم تجلب من منطقة « ظفار » فى جنوب الجزيرة العربية كما يرى الباحث الذى رغم هذه الرسوم والنصوص الواضحة الصريحة يقول ان مدرجات الكندر وعمليات اقتلاع أشجار الكندر لم تظهر ضمن رسوم الدير البحرى(٥٠) .

وتمشيا مع وجهة نظره بان البونتيين صوروا الصعوبات التى يمكن أن يلاقيها المصريون اذا صمموا على مواصلة رحلتهم الى منطقة «ظفار» للحصول بأنفسهم على أشجار الكندر ، ترجم الباحث بعض النصوص الهيروغليفية المدونة من رسوم بعثة حتشبسوت ترجمة خاصة خالف فيها الترجمة التى أجمع عليها غيره منالباحثين ومنها النص المدون فوق أمير بونت وافراد أسرته الذين يخاطبون فيه المصريين مستفسرين عن كيفية وصولهمالى بلادهم (بونت) واجتيازهم الصعوبات التى تعترض الطريق اليها(٥١) ، اذ حول الباحث هذا النص الى تحـــذير من البونتيين

للمصريين من خطورة الطريق الى منطقة اشجار الكندر فى ظفار لكى يجعلونهم يحجمون عن القيام بهذه الرحلة حتى لا يصلوا الى هذه المنطقة ويحصلون على اشجار الكندر بانفسهم فتضيع على البونتيين مكاسبهم من الوساطة فى تجارة الكندر(٥٢) ، كذلك ترجم الباحث نصا آخر يعد فيه الاله آمون الملكة حتشبسوت بانه سيذلل الطريق أمام رجالها ويجعلهم يخترقون ممرات مائية صعبة الاجتياز(٥٣) - ترجم هذا النص بما يعنى أن هذه الممرات المائية هى التى تفصل الجانب الافريقى للبحر الأحمر عن جانبه الآسيوى (ربما يقصد بوغاز باب المندب)(٥٤) ، ثم الطريق الممتد على طول جنوب الجزيرة العربية حتى منطقة ظفار(٥٥) .

وبطبيعة الحال ليست هناك حاجه لمناقشة الترجمة لهذه النصوص لأن ما قدمناه من أدلة نباتية وأثرية ونصية على وجود أشجار الكندر على الساحل الشمالى للصومال (بونت الافريقية فى رأى الباحث) مما ينفى حاجة المصريين للحصول على هذه الأشجار من منطقة ظفار - يجعل الحقيقة واضحة .

وكما قلنا سابقا بان رأى الباحث هذا أعتمد على اعتباره أن منطقة ظفار هذه تدخل ضمن نطاق التعبير المصرى « تا - نتر » أى « أرض الاله » - ولكن النصوص الهيروغليفية المصاحبة لرسوم بعثة حتشبسوت توضح بجلاء أن التسمية « تا نتر » أو « أرض الاله » الواردة فى هذه النصوص تنطبق على نفس منطقة بونت التى ارتادها المصريون واقتلعوا منها أشجار الكندر ، أى على الساحل الشمالى للصومال ، ومن هذه النصوص ، النص المدون أمام قائد البعثة المصرية الذى يقرأ :

وترجمته هى : « وصول المبعوث الملكى (المصرى) الى أرض الاله (تا ـ نثر) مع الجيش الذى خلفه أمام زعماء بونت »(٥٦) ٠

فالترادف واضح جدا فى هذا النص بين التسميتين « بونت » و « أرض الاله » أى أنهما اسمان لمنطقة واحدة ٠

بل والاكثر تحديدا النص المدون فوق الحمالين المصريين الذين صوروا أربعة منهم يحملون شجرة كندر فقد جاء فيه على لسان أحد هؤلاء الحمالين :

وترجمته هى : « هلمى معنا شجرات العنتيو (الكندر) من قلب أرض الاله الى دار (معبد) آمون » (فى مصر)(٥٦) ٠

فهذا النص بدوره يوضح بجلاء وبطريقة مباشرة أن أرض الاله التى بها أشجار الكندر التى حصل عليها المصريون هى نفس منطقة بونت الافريقية ٠ وبذلك يصبح تفسير الباحث بان « أرض الاله » المقصودة فى نصوص بعثة حتشبسوت هى جنوب الجزيرة العربية ـ يصبح هذا التفسير بدون أى أساس ٠

وفى ختام مناقشة آراء الباحثين فى موضوع التعبير « تا ـ نثر » نشير الى الرأى الذى يترجم هذه العبارة بـ « الارض المقدسة » بدلا من « أرض الاله »(٥٨) ٠ وصاحب هذا الرأى يفسر سبب هذه التسمية بما يربطها بمنطقة أشجار البخور فى جنوب الجزيرة العربية (منطقة ظفار) اذ يقول ما معناه ان المصريين اطلقوا التعبير « الأرض المقدسة » على هذه المنطقة لأنهم يحصلون منها على البخور الذى كان له عند جمع محصوله طقوس خاصة مقدسة ، ففى موسم جمع المحصول لا يجوز للرجال

الذين يعملون فى هذا المجال أن يفقدوا طهارتهم بلقاء النساء كما يقول بلينى(٥٩) ٠

وبطبيعة الحال ليس من المعقول ان يطلق المصريون القدماء تسمية ذات قدسية على منطقة لم يرتادوها كما اثبتنا فى الصفحات السابقة ، بالاضافة الى الفارق الزمنى الكبير بين عصر النشاط المصرى الفرعونى مع مناطق انتاج البخور فى البحر الأحمر الذى انتهى حوالى عام ١١٥٠ قبل الميلاد وبين عصر الكاتب الرومانى بلينى الذى عاش حتى أواخر القرن الأول الميلادى أى أن الفــارق الزمنى بين العصرين يبلغ حوالى اثنى عشر قرنا ، هذا فضلا عن أن ترجمة « تا ـ نثر » بـ « الأرض المقدسة » غير صحيحة ، والصحيح ترجمتها بـ « أرض الاله » ٠

اما عن التفسير الحقيقى للتسمية « تا ـ نثر » فان الوصول اليه يقتضى البحث عن الاله المقصود بكلمة « نثر » فى هــذه التسمية ٠ ويرشدنا الى ذلك الترادف بين هذه التسمية وبين التسمية « بونت » لأن الاسمين لمنطقة واحدة كما سبق أن قدمنا ، وبعبارة أخرى يجب أن يكون هذا الاله مشتركا بين تا ـ نثر وبين بونت ويكون ايضا من أقدم الآلهة لأن التسميتين ظهرتا فى النصوص المصرية منذ عصر مبكر من التاريخ المصرى القديم فضلا عن ارتباطه بالبحر الأحمر وهو الطريق البحرى الذى كان المصريون يسلكونه للوصول الى تا ـ نثر وبونت ٠

ان أول ما يرشدنا للتعرف على هذا الاله أن كلمة « نثر » بمعنى « الــه » كانــت تكتب على الآثــار المصرية بمخصـص صـقر(٦٠)



، والصقر كما هو معروف كان رمز الاله حورس،

وبالفعل نجد الشروط المذكورة كلها تنطبق على الاله حورس فقد اطلقت عليه النصوص المصرية « حور رب بونت » و « الصقر المقدس حاكم بونت » و « الصقر المقدس الذى جاء من أرض الاله »(٦١) ويلاحظ على هذه الالقاب التى خلعت على الاله حورس ، الترادف بين بونت وبين أرض الاله وارتباطهما بالاله حورس ، ثم ربطت النصوص المصرية بين

الاله حورس وبين المشرق فاطلقت عليه نصوص الأهرام « حور - ابتى » أى حور الشرقى(٦٢) ٠

وبالاضافة الى كل ذلك ربطت نصوص الأهرام بينه وبين البحر الأحمر بان اطلقت عليه « ذلك الذى فى الاخضر العظيم »(٦٣) والمقصود بالأخضر العظيم (واج - ور) فى ذلك العصر هو البحر الأحمر لأن هذه التسمية لم تطلق على البحر المتوسط الا ابتداء من الأسرة السابعة عشرة(٦٤) ٠

أما سبب تخصيص الاله حورس بكلمة « نثر » أى « الاله » فى عبارة « أرض الاله » فيمكننا التوصل اليه فى ضوء الحقائق التالية :

١ - كان الفراعنة يعتبرون أنفسهم من سلالة أو من ورثة الاله حورس فى حكم مصر ، ففى بردية تورين اطلقت النصوص المصرية التسمية « شمسو حور » أى « اتباع حورس » على حكام مصر فى عصر ما قبل الاسرات ٠ وقد جسد المصريون هذه التسمية فى أقدم رمز للقب الملكى وهو الصرح الذى يكتب بداخله اسم الفرعون ويعلوه رسم الصقر رمز الاله حورس وهو ما نسميه باللقب الحورى الذى ظهر منذ بداية العصور التاريخية المصرية كما تدل على ذلك لوحة الملك نعرمر المعروفة وقد صور الاله حورس عليها مرة أخرى فى صورة الصقر كاله حامى للملك ٠

٢ - لون المصريون الاله حورس باللون الأحمر سواء رسموه فى شكل صقر أو فى شكل انسان برأس صقر(٦٥) واستخدموا نفس اللون فى تلوين البونتيين ٠ وهو نفس لون المصريين أنفسهم وان كان أفتح قليلا من لون البونتيين ٠

٣ - رسم المصريون البونتيين على الآثار المصرية بنفس ملامحهم - بالاضافة الى نفس اللون تقريبا - وبنفس هيئتهم مع اضافة اللحية المستعارة لاشكال البونتيين التى تشبه لحية الالهة والملوك المصريين ربما باعتبار البونتيين ينتمون لأرض الاله التى نسب المصريون أجدادهم (اتباع حورس) اليها(٦٦) ٠

هذه الحقائق الثلاثة توحى بوجود شعور لدى المصريين بأن هناك صلة ما بين الاله حورس واسلاف المصريين من ناحية وبين البونتيين سكان أرض الاله من ناحية أخرى ، وبطبيعة الحال ليس من المعقول ان ينشأ هذا الشعور من فراغ ، اذ لابد أن يكون هناك أساس ما لهذا الشعور وان كان مبهما فى ذاكرة المصريين ٠

واذا علمنا أن الصور المبكرة للاله حورس ظهرت أول ما ظهرت فى المناطق المتاخمة أو القريبة من الوديان الممتدة من البحر الأحمر الى النيل مثل وادى الحمامات ووادى عباد ، مثل صورته فى شكل الصقر التى وجدت فى « العمرة » بالقرب من نجع حمادى والتى تمثله فوق الصرح وهى أقدم صورة له وترجع الى عصر نقادة الأولى(٦٧) ، ومثل صورته على لوحة الملك تعرمر التى وجدت فى الكاب بالقرب من ادفو ، واذا علمنا ايضا أن الفراعنة الأوائل (ملوك الأسرة الأولى) ينتسبون الى منطقة قريبة من هذه الوديان وهى منطقة « ثينة » (جرجا) ـ اذا علمنا كل هذه الشواهد ، فان ذلك يوصلنا الى أن نرجح أن هناك اشتراكا فى الأصل البعيد بين أسلاف المصريين (الذين يرمز اليهم الاله حورس) وبين البونتيين وبلادهم الواقعة على الساحل الافريقى للبحر الأحمر وظهيره ٠ وان وجود الصور الأولى للاله حورس بالقرب من نهايات الطرق القادمة من البحر الأحمر وكذلك وقوع الموطن الأول لفراعنة الأوائل (ملوك الأسرة الأولى) بالقرب من هذه النهايات ، بالاضافة الى اطلاق التسمية « حورس الشرقى » على الاله حورس ـ كل ذلك يشير الى هجرات جاءت من المناطق الواقعة الى الشرق والجنوب الشرقى من مصر ودخلت اليها عبر هذه الوديان ثم انتشرت فى وادى النيل فى الصعيد الأعلى ٠

ولعل هذه الهجرات كانت موجات متأخرة نسبيا من الهجرات الحامية الكبرى الموغلة فى القدم التى بدأت منذ العصر الحجرى القديم الأعلى(٦٨) واجتازت بوغاز باب المندب (الذى ربما كان جزرا متقاربة فى ذلك العصر البعيد) قادمة من الجزيرة العربية ثم انتشرت فى افريقية الشرقية وزحفت شمالا حتى صحراء مصر الشرقية ثم دخلت مصر عبر

وادى الحمامات ووادى عباد والوديان الأخرى الموازية لها شمالا وجنوبا، واستقرت فى الوادى وكونت قاعدة الشعب المصرى القديم ٠

وربما بقيت ذكرى هـذه الهجرات البعيـدة على هيئة روايات متواترة مبهمة عبر الأجيـال فى أذهان المصريين فى العصر التاريخى فرمزوا اليها بتلك الرموز التى تربط بينهم وبين سكان الساحل الافريقى للبحر الأحمر وظهيره٠وكان من الطبيعى أن يطلقوا على المنطقة ما يسبغ عليها صفة التقديس ومن هنا جاءت التسمية « تا ـ نثر » التى تجمع بين هذه الصفة وبين نسبتها الى الاله الذى تميزت به والمقصود بكلمة « نثر » وهو الاله حورس ٠

ويلاحظ أن الاله حورس صار فى العصور اللاحقة الها للشمس وربما كان السبب فى ذلك يرجع الى وصفه بـ « حورس الشرقى » ٠ فالثابت أن حورس لم يكن له أية صلة فى الأصل باله الشـمس ، ولكن عندما اكتسب هذه الصفة صار رمزه قرص الشمس بين جناحى صقر ، وانتشر هذا الرمز انتشارا كبيرا على واجهات ومداخل المعابد المصرية(٦٩) ٠

وبالنسبة لأقدم ذكر للتعبير « تا نثر » فى النصـوص المصرية ، فحتى عهد قريب كان النقش المعروف بنقش « حننو » أو « حنو » فى وادى الحمامات الذى يرجع لعصر الأسرة الحادية عشرة الفرعونية ـ كان يعتبر أقدم نص ورد به التعبير « تا نثر »(٧٠) ، ولكن أدى الكشـف أخيرا عن نقش من عصر الملك « نفر ـ كاو ـ حور » من الاسرة الثامنة فى مقبرة رجل يدعى « شماى » توجد فى القرية المسماة « كوم المؤمنين» (سابقا كوم الكفار) تقع على مشارف طريق قفط ـ القصير ، حيث ورد هذا التعبير(٧١) ، أدى ذلك الكشف الى ارجاع اقـدم ورود لتعبير « تا ـ نثـر » الى عصر هـذه الأسرة أى الى بداية العصر المتوسـط الأول(٧٢) فضلا عن تقديم معلومات جديدة بشان مدلول هذا التعبير فى ذلك العصر ٠ وفيما يلى ترجمة النص طبقا لمكتشفه :

« أما بصدد أى عمدة أو حاكم للصعيد يبحر جنوبا فى داخل هذا البحر ويرسوا فى تا ـ نثر ٠٠٠٠ الخ »(٧٣) ٠

فالربط هنا بين الابحار جنوبا ثم الرسو فى تا نثر يشير الى أن

هذا التعبير لا يقتصر على صحراء مصر الشرقية ، بل يمتد الى منطقة ما على الساحل الافريقى للبحر الأحمر الى الجنوب من ساحل صحراء مصر الشرقية ، ربما ليشمل ساحل صحراء العتباى فى شرق السودان وهى المنطقة التى ارتادتها بعثة الملك سنوسرت الأول ثانى ملوك الأسرة الثانية عشرة كما دلت على ذلك الآثار والنقوش التى اكتشفت فى وادى جواسيس(٧٤) ٠

غير أن مكتشفة النقش فسرته بما يفيـــد أنه ينطبق على الساحل الحجازى وليس على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ، واعتمدت فى ذلك على نصين فى نقش « حنو » أولهما ورد فى السطر العاشر والآخر فى السطرين الرابع عشر والخامس عشر ٠ ولكنها لم تات بجديد يختلف عن الترجمات السابقة للنصين رغم اعتراضها على هذه الترجمات فيما عدا كلمتين سوف نعرض لهما ، وفيما يلى مقارنة بين ترجمة « برستد » وترجمة الباحثة للنصين :

ترجمة برستد(٧٥)

السطر العاشر

ارسلنى سيدى لابعث بسفينة الى بونت لكى احضر له الكندر الطازج من مشايخ الأرض الحمراء ٠

السطران الرابع عشر والخامس عشر

ثم وصلت الى البحر الأحمر ثم صنعت هذه السفينة وارسلتها بكـل شىء وعملت من أجلها قربانا عظيما من الماشية والثيران والوعـــول ٠ والآن بعد عودتى من البحر الأحمر، نفذت أمر جلالته واحضرت له كل الهدايا (ا ن و) التى وجدتها فى منطقة « أرض الاله » (تا نثر) وعدت عبر (طريق) « واج »(٧٧) وادى الحمامات٠

ترجمة الباحثة(٧٦)

ارسلنى سيدى لاعـــداد سـفينة لترسل الى بونت ولكى أحضر الكندر الطازج من لدن الشيوخ الذين فى الأرض الحمراء ٠

ثم بلغت الأخضر العميق (؟) فشيدت هـــذه الســفينة وارسلتها مجهزة بكل شىء واديت لها قربانا عظيما من الثيران والابقار والماعز ، وهكذا فبعد أن وصلت من الاخضر العميق(؟) وقد نفذت أوامر جلالته محضرا له كل العطايا (ا و ن) التى وجدتها على شواطىء « ارض الاله » ٠٠٠٠ ؟(٧٧/١)

والكلمتان هما : كلمة «ور» فى التعبير « واج ور » وقد ترجمتها « العميق » بدلا من « العظيم » . وكلمة « العطايا » ولو أنها الترجمة الصحيحة لكلمة « ا ن و » المصرية الا أنها فسرتها بالعنتيو ، أى الكندر مما أدى الى تناقض فى الترجمة لأنه لا يستقيم مع المعنى لأن الكندر جلبته السفنية التى ارسلها الى بونت من حكام الأرض الحمراء اى من الساحل الافريقى للبحر الأحمر كما ورد فى السطر العاشر الموضح أعلاه بينما وردت الاشارة الى العطايا مقترنة بالتسمية « تا - نثر » أى « أرض الاله » فى السطرين الرابع عشر والخامس عشر كما هو موضح أعلاه ايضا ، وعلى ذلك فلا نوجد أية صلة بين حكام الأرض الحمراء سكان بونت أى الساحل الافريقى للبحر الأحمر (صحراء العتباى كما يفهم من عبارة « الأرض الحمراء » التى أرتادتها بعثة الملك سنوسرت الأول كما ذكرنا) ، وبين العطايا « ا ن و » التى فسرتها الباحثة بـ « الكندر » وهو تفسير غير صحيح كما سنوضح بعد .

ثم فسرت الباحثة عبارة « يبحر جنوبا فى داخل هذا البحر » الواردة فى نقش مقبرة « شماى » المذكورة بأنها تشير الى اتجاه المسافر من الميناء المصرى نحو الجنوب الى ميناء على الساحل الحجازى ، ربما كان ميناء ينبع أو ما كان يحل محله قديما على حد قولها(٧٨) .

ونرى أن المعنى لا يستقيم فى الجمع بين الابحار جنوبا والرسو فى تا - نثر وبين الاتجاه شرقا عبر البحر الأحمر الى الساحل الحجازى حتى مع وجود عبارة « فى داخل » التى ليس لهـا معنى الاتجاه شرقا ، وعلى ذلك فان الاقرب الى المنطق أن يكون مدلول عبارة « الابحار جنوبا والرسو فى تا نثر » هو الابحار من الميناء المصرى على ساحل الصحراء الشرقية والسير فى موازاة الساحل الافريقى للبحر الأحمر والرسو فى منطقة صحراء العتباى التى تدخل فى نطاق المدلول « تا نثر » والتى ارتادها المصريون بعد ذلك كما يستفاد من نقش « حنو » وكما ثبت من نقوش وادى جواسيس .

ويبدو لنا أن السبب فى هـذه الاستنتاجات للباحثة ، انها فسرت

كلمة « ا ن و » فى نقش » « حنو » التى معناها « هدايا » فى النصوص المصرية (وأحيانا « جزية ») بأنها « هدايا العنتيو أى الكندر » وهو تفسير قد يكون صحيحا فى نصوص أخرى ، ولكنه غير صحيح بالنسبة للنص الذى نحن بصدده ، الذى يصف فيه « حنـــو » ما جاء به من الصحراء الشرقية بالذات وليس من الساحل الحجازى بدليل أنه يروى فى النص انه بعد الحصول على هذه الهدايا من شاطىء (أو من منطقة) أرض الاله عاد عبر (طريق) « واج » (وطريق) وادى الحمامات(٧٩)

وقد اغفلت الباحثة ترجمة نص هذه العودة خلال الصحراء الشرقية التى لا يمكن أن تتحقق اذا كانت الأرض المقصودة هىالساحل الحجازى، اذ فى هذه الحالة كان لابد أن يسرد أخبار ابحاره عبر البحر الأحمر من الساحل الحجازى أى من تا ـ نثر أو أرض الاله الى الساحل المصرى ثم أخبار رحلته عبر وادى الحمامات ٠

ان التفسير الحقيقى لكلمة « ا ن و » أى « هدايا » أو بتعبير أدق « كل الهدايا » كما وردت فعلا فى نص « حنو » بالنسبة للصـــحراء الشرقية ، ما كان يستخرجه المصريون منها من أحجار كريمة ومعادن نفيسة وفى مقدمتها الذهب ، وقد أثبتنا فى بحث سابق أن المصريين أطلقوا عليها « خ ا س ت/ن ب و/» أى « صحراء الذهب »(٨٩) بسبب ما كانوا يستخرجونه منها من الكميات الوفيرة من الذهب ٠ ومن الواضح أن كلمة « ا ن و » فى النص تعنى « الذهب » فقد وردت فى نصوص أخرى بهذا المعنى(٨١) كما أن حنو نفسه حمـــل من بين القابه لقب « المشرف على خزانة الذهب الخام »(٨٢) (نوب واج) ، وان وصف الذهب فى هذا اللقب بـ « الخام » (واج) يدل على أن حنو أشرف على عمليات استخراج الذهب من الصحراء الشرقية ٠ والحقيقة أن هذه كانت طريقة المصريين فى استغلال الأيدى العاملة المكلفة بتجهيز سفن البعثات المصرية المسافرة الى بونت ، فقد كانوا يستفيدون من هذه الأيدى العاملة فى مشروعات أخرى فى الصحراء الشرقية(٨٣) ريثما تعود السفن من رحلتها فلا تبقى هذه الأيدىالعاملة معطلة طوال المدة التى تستغرقها هذه الرحلة ، لأن السفن التى كان يستخدمها المصريون فى البحر الأحمر ،

وهى من نوع السفن المخيطة كما ذكرنا سابقا ، كانت تحتاج الى أيدى عاملة كثيرة لنقل أجزائها أولا من دار صناعتها على شاطىء النيل الى ساحل البحر الأحمر حيث يتم تركيبها ، ثم بعد عودتها من رحلتها لتفكيكها مرة أرخى ونقل أجزائها (اذا كانت فى حالة صالحة) مع شحنتها الى شاطىء النيل . ويبدو أن حنو استغل الأيدى العاملة هذه فى استخراج الذهب من المناجم الوفيرة المنتشرة على جوانب الطرق الموصلة الى الميناء الذى يرجح أنه « مرسى جواسيس » نظرا لوفرة مناجم الذهب على جوانب وديان « عطا الله » و « ساقى » المؤدية الى هذا الميناء بينما لا توجد مناجم ذهب ذات قيمة على جوانب طريق وادى الحمامات فى جزئه الشرقى الممتد من بئر الفواخير الى القصير ، ولهذا يرجح الباحثون أن الاسم « واج ... » الوارد فى نقش حنو هو اسم الطريق من مرسى جواسيس عبر هذه الوديان الى بئر الفواخير (٨٤) حيث يتلقى بوادى الحمامات الذى أطلق عليه فى النقش « را ـ هنو »

والحقيقة أن هناك أمثلة أخرى من عصور متفرقة تشير الى الجمع بين مشروعى ارسال السفن الى بونت وبين تعدين الذهب فى الصحراء الشرقية بعضها يشير صراحة الى « ذهب صحراء قفط » أو « ذهب الصحراء » ضمن نصوص هذه الرحلات مثل ما ورد فى نصوص المقبرة رقم ١٤٣ فى طيبة والتى ترجع فى الغالب الى عصر الملك امنحتب الثانى(٨٥) ، وفى نصوص بعثة حتشبسوت الى بونت(٨٦) ، وبعضها نصوص تذكر ذهب قفط من عصر ملوك أرسلوا بعثات الى بونت وسجلوا فى الوقت نفسه اسماءهم على جوانب الوديان الواقعة على الطريق الى ميناء مرسى جواسيس وتتوفر بها مناجم الذهب مثل الملك رمسيس الثالث(٨٧) والملك سنوسرت الأول (بعثته الى « بيا ـ بونت » ، واسمه على صخور وادى ساقى والاشارة الى الذهب فى نقوش عنخو ، والاشارة الى « ذهب قفط » فى نصوص امينى)(٨٨) .

وعلى هذا فان العبارة التى وردت فيها كلمة « ا ن و » هــذه يستقيم معناها اذا ترجمت كما يلى :

« وبعد عودتى من البحر الأحمر (الأخضر العظيم) نفذت أمر جلالته وأحضرت له جميع الهدايا (من الذهب) التى وجدتها على ساحل (أو فى منطقة)(٨٩) أرض الاله (الصــحراء الشرقية) ، وعدت على (الطريق المسمى) « واج » (الطريق الممتد من ميناء مرسى جواسيس الى وادى الفواخير) ، ووادى الحمامات (را هنو) وأحضرت له (للملك) احجار التماثيل ٠٠٠٠ الخ »(٩٠) ٠

بذلك يستقيم المعنى ويتفق مع المنطق ولا يحتاج الأمر للذهاب بعيدا وتحميل النص اكثر مما يحتمل مثل افتراض عبور البحر الأحمر من غربه الى شرقه للوصول الى الساحل الحجازى للحصول على العنتيو أو الكندر من شيوخ الأرض الحمراء كما ذهبت الباحثة فى استنتاجاتها ٠

وفى ختام مناقشة مدلول « تا نثر » يلاحظ أن هذا المدلول اتسع فى عصر الدولة الحديثة باتساع الامبراطورية المصرية فشمل بلاد الشام وما يليها شمالا حتى بلاد الحيثيين ، اى المناطق الواقعة الى الشمال الشرقى من مصر التى ارتادها المصريون فى ذلك العصر ، وهذه ظاهرة واضحة فى هذه التسمية ، فليس هناك دليل على أن المصريين أطلقوا هذا الاسم على مناطق لم يرتادوها ، فالذى يلاحظ أن كل منطقة من المناطق الداخلة فى نطاق التسمية « أرض الاله » كان لها اسم خاص بها شان تسمية الساحل الافريقى للبحر الأحمر « بونت » مثل « خارو » و « رتنو » و « زاهى » و « نهرينا » ، وهى اسماء خاصة بفلسطين وسوريا ولبنان وشمال الشام وشمال غرب العراق على التوالى ، بينما لم يكن للجزيرة العربية وخاصة جنوبها اسم خاص بها فى النصــوص المصرية كما سبق أن ذكرنا ، وبعبارة اخرى لقد كانت هناك ثلاثة شروط لاطلاق التســمية « تا ـ نثر » أى « أرض الاله » على منطقة ما : **أولها** ان تكون هذه المنطقة واقعة الى الشرق من مصر أو بتعبير أدق ان يأخذ المصريون وجهتهم نحو الشرق عندما يغادرون وادى مصر فى طريقهم الى هذه المنطقة ، **وثانيها** أن يـكون المصريون قد ارتادوها ،

وثالثها أن تكون مصدر سلع ثمينة فى نظرهم ، اما لعدم وجود هذه السلع فى وادى مصر أو لندرتها فيها • وعلى ذلك فقد اطلقوا هـــذه التسمية على الساحل الافريقى للبحر الأحمر مصدر الكندر ، وعلى سيناء مصدر الفيروز(٩١) وعلى لبنان مصدر أشـــجار الأرز ، ثم على بلاد الشـــام المذكورة فيما سبق لأنها كانت مصـدر سلع ثمينة متنوعة فى مقدمتها الأحجار الكريمة(٩٢) •

وفى المقابل لم يطلق المصريون هذه التسمية على بلاد النوبة رغم توفر شرطين منها هما أنها كانت مصدرا لنفس سلع بونت تقريبا وأنهم ارتادوها ، ولكن لعدم توفر الشرط الثالث وهو وقوعها الى الشرق من مصر وبالمثل لم يطلقوا هذه التسمية (تا نثر) على جنوب الجزيرة العربية رغم توفر شرطين فيها هو وجود الكندر بها ووقوعها الى الشرق من مصر ، ولكن لعدم توفر الشرط الثالث وهو ارتياد المصريين لها ، ولعل هذا هو السبب فى عدم وجود اسم خاص للجزيرة العـــربية فى النصوص المصرية التى ترجع للعصر الفرعونى •

الحواشي والتذييلات

(١) أ ـ عبد المنعم عبد الحليم سيد ، الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها فى النقوش القديمة فى مصر ، بحث منشور في كتاب بحوث الندوة العالمية الاولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الرياض ١٩٧٩ .

ب ـ b) Abdel-Monem, A.H. Sayed, "Were there direct relationships between Pharaonic Egypt and Arabia ?" P.S.A.S., Vol. 19 (1989), p. 150-166.

وقد اعيد نشر هذين البحثين حديثا فى كتاب للمؤلف عنوانه « البحر الاحمر وظهيره فى العصور القديمة » الاسكندرية ١٩٩٣ ، الصفحات ٤٠١ ـ ٤١٧ ، ١٨١ ـ ١٩٢ على التوالى .

وكنت قد تناولت هذا الموضوع فى رسالة الماجستير التى قدمتها لقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية عام ١٩٦٨ بعنوان « علاقات مصر القديمة ببلاد بونت ونشاطها فى البحر الاحمر » .

(٢) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ٣٨٣ .

(٣) رغم مرور ما يقرب من سبعة عشر عاما على هذا الكشف الذى توصلت اليه بعثة الحفائر الموفدة من قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى عام ١٩٧٦ ، ورغم أن المعلومات عن هذا الكشف أصبحت من الموضوعات الثابتة في مؤلفات علماء المصريات الأجانب ، بل أصبح موضوعا لدراسات فى هذه المؤلفات نذكر منها طبقا لتسلسل صدورها :

1. Honor Frost, "Egypt and stone anchors, some recent discoveries", M.M. Vol. 66 (1979), p. 137 f.
2. W. Kelly Simpson, "Wadi Gawasis", L.A., 1986) Band VI, p. 1097 f.
3. Pascal Vernus, "Une inscription cursive du Ouadi Gawasis", RdE, Tome 37, (1986), p. 139 f.
4. Ogden Goelet, "W3d-Wr and Punt in Wadi Gawasis inscriptions," St. Aeg. Vol. XIV (1992), p. 212 f.

هذا غير عشرات المؤلفات الاجنبية التى تناولت هذا الكشف ضمن موضوعاتها٠

رغم كل هذا الاهتمام بالكشف من العلماء الاجانب ، ورغم نشره فى حينه على أوسع نطاق بين الجامعات والهيئات الاثرية المصرية والباحثين المصريين ٠٠٠

فان مؤلفات كثير من الباحثين ، مازالت حتى اليوم للاسف الشديد ، تخلو تماما من أية اشارة الى هذا الكشف أو حتى الى بعثة سنوسرت الأول هذه رغم أنها اصبحت جزءا من تاريخ الدولة الوسطى الفرعونية ، ومن أمثلة البحوث المتخصصة فى هذا المجال التى اغفلت هذه الحقيقة التاريخية :

M. Hilzheimer; "Zur Geographischen Lokalisierung von Punt" Z.A.S. 68 (1932), S. 112-114.

(٥) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، علاقات مصر القديمة ببلاد بونت ، (رسالة الماجستير) ص ٢٣ ٠

(٦) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، « دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الاحمر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية آداب الاسكندرية ، (١٩٧٢) ص ٤٨ وما بعدها ٠

(٧) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، الجزيرة العربية ، ص ٤١ وأيضا ، البحر الاحمر ، ص ٤٠٢ وهذه المعلومة عن :

M. Flinders Petrie ; Tanis, Part II (1888), p. 107 and pl. XLII

(٨) تناولت هذا الموضوع بالتفصيل فى رسالة الماجستير ، « علاقات مصر القديمة ببلاد بونت » ص ٢٤ ـ ٢٧ ٠

(٩) أبو العيون بركات ، بونت بين المصادر المصرية ، ص ٩٤ ٠

10. a) H. Gauthier, Dictionnaire des noms géographiques contenus dans les textes hiéroglyphiques, Tome I, p. 93.
    b) Zibelius, op. cit., p. 84.

11. Op. cit.

12. D. O'Connor, "The Location of Irem", JEA, Vol. 73 (1987), p. 99 f.

(١٣) عبد المنعم عبد الحليم ، علاقات مصر القديمة ، ص ٣٣ ٠

(١٤) عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٢١٧ ــ وابو العيون بركات ، بونت ، ص ١٠٣ ٠

15. Abdel Monem Sayed, Were there direct relationships, p. 160, see also.
Abdel Monem Sayed, The Red Sea and its hinterland in Antiquity, Alexandria, 1993), p. 187.

16. Cerny-Gardiner-Peet, The inscriptions of Sinai, Vol. 2, p. 166 and Vol. 1 pl. LXVI, no. 211.

17. J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol. II § 260 note d. cf. Wb. V S. 194.

(١٨) عبد العزيز صالح : شبه الجزيرة ، ص ٢١٧ ــ ٢١٨ ٠

19. Abdel Aziz Saleh, "An open question on Intermediaries in the Incense Trade during Pharaonic Times" ORIENTALIA, Vol. 42 (1973), p. 381.

(٢٠) عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٢١٧ ٠

(٢١) نفس المصدر ٠

22. Elmar Edel, Beiträge zu den ägyptischen Sinaiinschriften, "Berichte über Puntexpeditionen", N.A.W.G. Nr. 6 (1983), p. 183), p. 183 note 36.

23. Op. cit., p. 181.

24. Op. cit., p. 183-185.

25. Cerny, Sinai, Vol. II, no. 238, p. 173, p. 213 and Vol. I pl. LXVII.

26. Edel, Beiträge, p. 175-182.

(٢٧) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ٥٥ ــ ٦٠ ٠

(٢٨) سيرد الحديث عن نقش حنو بالتفصيل فيما بعد ٠

(٢٩) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ١٢١ ــ ١٣٨ ٠

(٣٠) نفس المصدر ، ص ١٤١ - ١٤٥ ٠

(٣١) اتفق البروفسور المر ايدل معى فى هذا الاستنتاج اثنـــاء انعقاد مؤتمر الآثار المصرية فى جرينوبل بفرنسا عام ١٩٧٩ عند القى محاضرته فى هذا المؤتمر عن نقوش سيرابيط الخادم التى اكملها والمذكورة فى الصفحات السابقة ٠ وقد اشرت الى هذا الاتفاق فى الرأى بيننا فى البحث الذى القيته فى هـــذا المؤتمر ونشر فى الدورية التى تصدر فى بروكسل بعنوان :

"Chronique d'Egypte" Tome LVIII, No. 115-116, 1983, p. 32 note 3

وانظر ايضا :

Abdel Monem A.H. Sayed, The Red Sea in its Hinterland in Antiquity, Alexandria, 1993, p. 92 note 3.

32. Louise Bradbury, "Reflections on Traveling to "God's Land" and Punt in the Middle Kingdom", JARCE, Vol. XXV, (1988), p. 128-141.

(٣٣) عبد المنعم عبد الحليم ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ٢٠٩ ٠

(٣٤) اكتشفت هذا الميناء بعثة جامعة كاليفورنيا عام ١٩٤٨ راجع :
Cerny, Sinai II, p. n.e.

(٣٥) عبد المنعم عبد الحليم ، البحر الاحمر وظهيره ، ص ١١٦ - ١١٧ ٠

36. Abdel Aziz Saleh, "Some problems relating to the Pwenet reliefs at Deir el-Bahari" JEA, Vol. 58 (1972), p. 153.

37. Op. cit., p. 155.

38. Op. cit., p. 154-155.

(٣٩) عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٩ ٠

40. Saleh, Op. cit., p. 155 (lines 6-8)

41. F. Nigel Hepper, "Arabian and African Frankuncense trees", JEA, Vol. 55 (1969), p. 69-70.

42. Op. cit., p. 68.

43. Saleh, Op. cit., p. 145 (lines 7-9) and note 1.

44. Op. cit., p. 153 (line 15) and note 1.

45. Op. cit.,

وقارن أيضا لنفس الباحث ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ ٠

(٤٦) أوردت فى بحوث سابقة الادلة على أن الظروف النباتية الحالية السائدة على السواحل الشمالية للصومال من حيث نمو أشجار الكندر ، هى نفسها الظروف التى كانت سائدة فى عصر المصريين القدماء أى منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، وأيضا فى العصر اليونانى الرومانى ، أى منذ ألفى عام ، راجع « محاولة لتحديد موقع بونت » ، ص ٥٥ ـ ٦٠ فى كتاب المؤلف ، البحر الاحمر وظهيره فى العصور القـديمة ٠

(٤٧) فى الصف الثالث (من أسفل) ، انظر اللوحة التى جمع فيها « سميث » الاجزاء المتناثرة المنشورة فى كتاب :

Naville, The temple of Deir el-Bahari, III, pl. 70.

واللوحة فى كتاب :

W. Stevenson Smith, "The Land of Punt" JARCE vol. I (1962), p. 61.

48. Smith, Op. cit., and Urk IV 327,g,2.

49. Urk IV 327,g,3.

50. Saleh, Op. cit., p. 154-155.

ولو أنه أورد نص اقتلاع الاشجار p. 155 n. 2 ولكن عبارته فى عدم رسم المصريين لمدرجات الكندر واقتلاع الاشجار منها غير مفهومة لان رسم مدرجات الكندر يحتاج الى الرسم بالمنظور والمصريون كما هو معروف لم يستخدموا المنظور فى الرسم ، فرسموا أشجار الكندر فى صفين فوق شريط المياه رمزا لساحل البحر وفى صف واحد فوق السفن التى تشحن فيها أشجار الكندر ٠

Naville, Op. cit., pls. 69, 74.

51. Breasted, A.R. Egypt II § 257.

52. Saleh, Op. cit., p. 152.

53. Breasted, Op. cit., § 288.

(٥٤) جاء ذكر بوغاز باب المندب في مقاله المنشور بالعربية ، راجع عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٩ ولكن لم يرد ذكره في المقال المنشور بالانجليزية :

55. Saleh, Op. cit., p. 153.

56. Naville, Op. cit., pl. 69 and Breasted, A.R. Egypt II 255.

(٥٧) هـــذه ترجمة الباحث نفســـه لهـــذا النص فى مقاله المنشـــور بالعربية ولكنه اعتبرها من منطقة ظفار ، أو كما يقول « من الاراضى العربية » رغم انه قال فى نفس الصفحة بأن البونتيين ذهبـــوا بالمبعوثين المصريين الى مدرجات جبالهم الافريقية الداخلية كجزء من مدرجات العنتيو (الكندر) على جانبى البحر الاحمر علهم يكتفون بذلك ، راجع ، عبد العزيز صالح ، شبه الجزيرة ، ص ٣٠٩ ٠

(٥٨) ابو العيون بركات ، بونت (نفس المصدر) ، ص ٧ ٠

(٥٩) نفس المصدر ٠

60. Ch. Kuenz, "Autour d'une conception égyptienne méconnue, le Pays du Dieu" BIFAO, Tome XVII (1919), p. 178.

61. Samuel Mercer, Horus, Royal God of Egypt, (1942), p. 89.

62. G. Hart, Dictionary of Egyptian gods andgoddesses, (1986), p. 94.

63. R. Falker, The Ancient Egyptian Pyramid Texts (1969), Spell 1505, p. 231.

64. Gauthier, Op. cit. I, p. 182.

65. V. Loret, "Horus le Faucon", BIFAO, III (1903), p. 15-16.

66. Ibid.

67. Mercer, Op. cit., p. 88.

68. Roland Oliver, History of East Africa, The Early Period, (1967), p. 65.

(٦٩) يرى بعض الباحثين أن الاله آمون رع اله الامبراطورية والذى قرن باله الشمس ، هو المقصود بكلمة « نثر »(*) ولكن ما دامت النقوش لم تخصص هذا الاله فان الاقرب الى مفهومنا أن يكون الاله حورس هو المقصود بكلمة « نثر » فى عصر الامبراطورية أيضا وخاصة أن هذا التعبير سابق على وصول الاله آمون رع الى مركز الصدارة فى عصر الامبراطورية ٠

(*) Abdel-Aziz Saleh, "Notes on the Ancient Egyptian T3-NTR "God's Land" Bulletin du Centenaire (supplément au BIFAO, 81), 1981, p. 114.

70. Couyat et Montet, 'êLes inscriptions hiéroglyphiques et hiératiques de Ouadi Hammamat, MIFAO, Tome 34, (1912) no. 114 line 15 ans Breasted, A.R. Egypt, I, §433.

(٧١) من ملخص بحث بعنوان « مصر والساحل الحجازى ، اعادة بحث المصطلح « تا ـ نثر » فى ضوء نصوص الدولتين القديمة والوسطى » ، القته د/مها فريد مصطفى فى ندوة « مصر والجزيرة العربية عبر العصور » التى نظمها قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة فى الفترة من ٢ ـ ٥ ابريل ٩٣ ٠

(٧٢) نفس المصدر ، ص ٢ وقد ضمت الباحثة الاسرة الثامنة الى الدولة القديمة والصحيح الى العصر المتوسط الاول كما تعارف على ذلك علماء المصريات ، راجع قائمة اقسام تاريخ مصر فى نهاية كتاب :

A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, (1961), p. 437.

(٧٣) مها فريد ، نفس المصدر ، ص ٣ ٠

(٧٤) عبد المنعم عبد الحليم ، الكشف عن موقع ميناء الاسرة الثانية عشرة ، بحث منشور فى كتاب لنفس المؤلف بعنوان « البحر الاحمر وظهيره فى العصور القديمة ، (١٩٩٣) ص ١٣١ ـ ١٣٣ ٠

75. Couyat, Op. cit., line 10 and Breasted, Op. cit., §429.

(٧٦) مها فريد ، نفس المصدر ، ص ٥ ٠

(٧٧) كان برستد قد تنبه الى ان كلمة « واج » الواردة فى النص قبل « را ـ هنو » أى وادى الحمامات ، هو اسم لمنطقة أو أرض (طريق) غير وادى الحمامات راجع : Breasted, A.R.E. I §433 note d. وسوف نوضح مسار هذا الطريق فيما بعد ٠

(٧٧/١) لم تتم الباحثة ترجمة النص رغم أهميته فى وصف طريق خنو من ساحل البحر الاحمر عبر الصحراء الشرقية ٠

(٧٧/٢) « الاخضر العظيم » هى الترجمة الشائعة للاسم المصرى « واج ـ ور » (البحر الاحمر) لدى علماء المصريات راجع :

ê'Das grosse Grün" in "Wörterbuch der Aegyptischen Sprache, I, 269.

ولا يعرف سبب تغيير الباحثة لهذه الترجمة الى « الاخضر العميق » التى ليس لها أى أساس ، نفس المصدر ، ص ٤ ، ٥ .

(٧٨) مها فريد ، نفس المصدر ، ص ٦ ـ ٧ .

79. Couyat, Op. cit., line 15 and Breasted, Op. cit., I § 433.

(٨٠) عبد المنعم عبد الحليم « الكشف عن موقع « فى » البحر الاحمر وظهيره ، ص ١٢٣ .

81. WB V 225, 14.

82. Couyat, Op. cit., 1.9. 

(٨٣) من هذه المشروعات أيضا قطع أحجار الشست من منطقة وادى الفواخير الواقعة فى منتصف وادى الحمامات تقريبا ، وقد جاءت اشارة لذلك فى نص «حنو» (سطر١٥) وفى نقش امينى فى وادى الحمامات الذى جمع بين قطع هذه الاحجار وبين الاشراف على بناء (أو تركيب) السفن فى ميناء مرسى جواسيس

Sayed, "New light on the recently discovered port on the Red sea shore" in, The Red sea and its hinterland in Antiquity, p. 89.

ولكن يبدو أن حنو أضاف الى هذين المشروعين مشروع استخراج الذهب بدليل لقبه الذى ذكرناه وربما كان السبب فى ذلك وفرة مناجم الذهب على جوانب الوديان المؤدية الى وادى جواسيس (وادى عطا الله ووادى ساقى) . وربما يكون لقب « المشرف على الذهب » الوارد بين القاب الموظفين فى مقصورة عنخــو فى وادى جواسيس مما يشير الى استخراج الذهب من هذه الوديان تحت اشراف عنخو هذا أو « امينى » الوارد اسمه على لوحة انتيفوكر وهو نفس امينى الوارد اسمه فى وادى الفواخير كما ذكرنا أعلاه .

84. Louise Bradbury, Op. cit., p. 134.

85. B. Cumming, Egyptian historical records of the later Eighteenth dynasty, Fasc. 2 (1984) no. 1473.

86. Breasted, A.R.E. II §373.

87. a) Breasted, A.R.E. IV §228, 407.
b) F.W. Green, "Notes on some inscriptions in the Etbai district", P.S.B.A. 31 (1909) pl. LIV.

(٨٨) عن بعثته الى منطقة « بيا ـ بونت » والاشارة الى الذهـــب فى نقوش « عنخو » . سبقت الاشـــارة الى ذلك ، وعن اسمه فى وادى ســـاقى راجـــع note 87,b وعن الاشارة الى ذهب فقط BAR I §521

(٨٩) ترجم برستد كلمـة « ادب [hieroglyphs] »

بمعنى « منطقـــة » region وليس « ساحل » راجع : Breasted, I §429

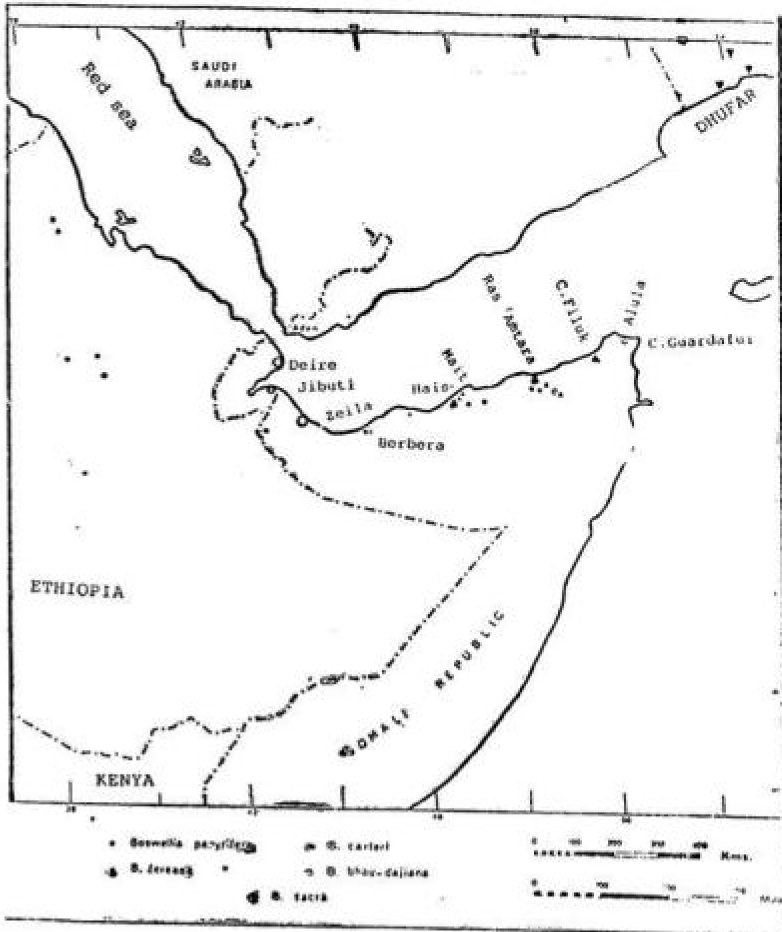
90. Couyant, Op. cit., 1.15 and BAR I §429.

91. Wb V 225,3

92. Wb V 225, 4,12.

ABBREVIATIONS

- BIFAO = Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale.
- JARCE = Journal of the American Research Center in Egypt.
- J.E.A. = Journal of Egyptian Archaeology.
- L.A. = Lexikon der Aegyptologie.
- MIFAO = Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale.
- M.M. = Marriner's Mirror.
- N.A.W.G. = Nachrichten der Akademie der Wissenschaften in Göttingen.
- P.S.A.S. = Proceedings of the Seminar for Arabian Studies.
- P.S.B.A. = Proceedings of the Society of Biblical Archaelogy.
- St. Aeg. = Studia Aegyptiaca.



الخريطة الملحقة بمقال « هبر » Hepper, Op. cit., pl. XV التى توضح توزيع أشجار الكندر حول سواحل البحر الاحمر وخليج عدن والبحر العربى ، ويلاحظ أن الاشجار التى تدر النوع المسمى B. Frereana (التى يرمز اليها المثلث) وهو أجود أنواع الكندر ، هى الاقرب الى شاطىء البحر فى شمال الصومال • وقد جرى توضيح المثلثات التى ترمز اليها لصغر حجمها فى الخريطة الاصلية • كما أضيفت اسماء الموانىء الرئيسية الحالية فى شمال الصومال •

بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون الأوائل

بقلم
دكتور غيثان بن علي بن جريس(*)

عندما نذكر بلاد تهامة والسراة يتبادر الى أذهاننا أماكن عدة فى شبه الجزيرة العربية، ولكن ما نريده فى هذه الدراسة هى السهول التهامية والجبال السروية الواقعة بين نجران وجازان جنوبا ومكة المكرمة والطائف شمالا . والسبب الذى جعلنا نقتصر فى حديثنا على هذه المنطقة دون غيرها هو : أن مدن الحجاز الكبرى (مكة المكرمة والمدينة المنورة وما حولهما) ومدن اليمن مثل : صنعاء وصعدة وزبيد وعدن ، نالت اهتماما كبيرا من المؤلفين الأوائل فى التراث الاسلامى ، وعلى الخصوص من الجغرافين والرحالة .

اما المنطقة الواقعة بين الجزئين السابقى الذكر ، والتى أطلقنا عليها اسم تهامة والسراة ، فقد بقيت ولازالت مجهولة على مر التاريخ ، فلم يعن المؤلفون والرواة الأوائل بالحديث عنها فى مؤلفاتهم ، واذا ورد ذكرها أو ذكر جزء منها لا يرد الا لماما ، اذا قيس بما دون عن الحواضر الكبرى فى الجزيرة العربيه . لهذا السبب رأينا من الضرورى اعطاء هذه المنطقة حقها من البحث والدراسة مستعينين بكتب الجغرافيا والرحلات التى دونت فى العصر الاسلامى الوسيط . وما الجغرافيون والرحالة المسلمون الا رافدا من الروافد التى أثرت التراث الاسلامى ، حيث قضوا جل حياتهم فى الترحال والتجوال فى مختلف أقطار العالم وبخاصة الاسلامى، فكتبوا عن سهوله وجباله، وأوديته وأنهاره، وطرقه البريةوالبحرية، وأجناسه، وعناصره، وعاداته،وتقاليده، وعن سكانه وما

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى المشارك ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية جامعة الملك سعود ـ فرع أبها .

ينتجون من حاصلات وثمار ، وما يصــدرون بواسطة الطــرق البرية والبحرية ، الى الأسواق الخارجية أو المحلية ٠

وحظيت الجزيرة العربية أكثر من غيرها بوفود عــدد كبير من الرحالة اليها قصد الحج وزيارة قبر الرســول ﷺ ، وهم فى العــادة يدونون ما يشاهدون فى رحلاتهم أثناء ذهابهم أو ايابهم لاداء فريضة الحج ، وزيارة قبر الرسول ﷺ حيث كانوا ياتون من كل فج وصقع من الجهات الغربية للدولة الاسلامية كالمغــرب والأندلس ، ومن الجهات الشرقية ،كالعراق وبلاد فارس ، فضلا عن بلاد الشام ومصر(١) ٠وكان مما نال نزرا بسيطا فى التدوين بلاد السراة ، حيث كان للرواة من رجالها دور فى تدوين بعض المعــلومات عنها ٠ وقد يقوم بعض الرحالة فى الذهاب الى بعض الأجزاء التهامية والسروية للمشــاهدة والمعاينة على أرضها ، أو ربما شاهدوا بعض التهاميين والسرويين عند قدومهم الى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث كانوا يتميزون فى هيئاتهم والبستهم ٠ وكان لاتجاه الرحالة أثر كبير فى تدوين رحلاتهم ، فابن بطوطة ، على سبيل المثال ، خرج من جزيرة سواكن على شاطىء السودان ، متجها نحو اليمن ، مارا ببعض المدن الساحلية الشرقية على البحــر الأحمر فدون عنها معلومات لا بأس بها(٢) ، ومنهم من تنقل بين مدن اليمن والحجاز عبر بلاد السراة كالهمذانى الذى دون هو الآخر معلومات قيمة، عن بعض الأجزاء السروية وما جاورها من المناطق ، قد لا نجدها عند غيره من الجغرافيين والرحالة السابقين واللاحقين(٣) ٠

وفى هذه الدراسة سوف يقتصر حديثنا على الجغرافيين والرحالة الذين ذكروا بلاد تهامة والسراة فى مدوناتهم فى الفترة الواقعة مابين القرنين الثالث والثامن الهجريين ٠ والســبب الذى جعلنا لم نتطــرق للفترة التى سبقت القرن الثالث ، هو عدم وجود الكتب والمؤلفات التى دونها الجغرافيون المسلمون أثناء رحلاتهم الى هــذه الديار فى ذلك الدور ، فلم تظهر بعض المؤلفات ظهورا واضحا الا فى العصر العباسى الثانى ، وعلى وجه التحديد فى أوائل القــرن الثالث الهجرى ٠ على أن تلك المؤلفات عنيت فى المرتبة الأولى بوصف أجزاء واقاليم الدولة

الاسلامية وما يجاورها من البلاد ، أما باقى أخبـــار رحلاتهم فكانت تتضمن أمورا سياسية واجتماعية وفكرية واقتصـــادية ومعلومات متممة للحديث عن البلد أو المنطقة التى يدونون عنها فى مؤلفاتهم ٠

وتجدر الاشارة الى أن الرحـــالة والجغرافيين الأوائل لم يرد فى مؤلفاتهم ما أوردناه عنوانا لبحثنا (بلاد تهامة والسراة ٠٠٠٠) وانما اشاروا اليها كمنطقتين منفصلتين ، وذهب بعض الجغرافيين الى أن الأجزاء الجبلية الممتدة من الطائف الى نجران جزء من سلسلة جبال السروات أو جبال الحجاز الفاصلة ما بين الأغوار التهامية الساحلية فى الغرب والأجزاء الشرقية النجدية فى الشرق(٤) ٠

وتبدأ جبال الحجاز أو السراة عنـــد الـكثير من الجغرافيين من فلسطين شمالا الى صنعاء جنوبا ٠ وهناك وجهات نظر متباينة حول طولها وعرضها ، وعن حدود الحجاز شمالا وجنوبا ، لكن الشىء الثابت أن جبال السراة لا تتوقف من جهة الجنوب فى نجران أو صـــعدة وانما تمتد الى أقصى بلاد اليمن(٥) ، ولكن ما يهمنا هو دراسة الجزء الواقع بين المنطقتين السابقتين الذكر (الحجاز واليمن) والذى سميناه (بلاد تهامة والسراة) نظرا لأن هذا الجزء لم ياخذ حقه فى التدوين ، ولم ياخذ أيضا نصيبه فى البحث عند المعاصرين ، لهذا قمنا ـ بعد التوكل على الله ـ ببذل الجهد ، لنعمل ما فى وسعنا على ابراز صـورة لاقليم السراة وتهامة ، وان اختلفت مواقع الحواضر فى تلك المنطقتين حسب ما ورد عند الجغرافيين ٠ فالبعض منهم يرى أن جميع ما يقع غـــرب السراة يسمى بتهامة(٦) ٠ واذا اخـــذنا بوجهة النظر الثابتة ، فان الأجزاء الغربية من بلاد السراة الممتدة على ساحل البحر الأحمر تعـــد جزءا من تهامة ، لهذا اسميناها بتهامة تمييزا لها عن المناطق الجبلية من السراة ٠

وممن تحدث عن بلاد السراة ابن الفقيه فى كتابه البـــلدان الذى الفه فى القرن الرابع الهجرى حيث يقول « ٠٠٠ سراة بين تهامة ونجد ادناها بالطائف ، واقصـــاها قرب صـــنعاء ، والسروات أرض عالية ، وجبال مشرفة على البحر من الغرب وعلى نجد من الشرق ، والطائف

من سراة بنى ثقيف ، وهو أدنى السروات الى مكة ، ومعدن البرم هى السراة الثانية ، بلاد عدوان فى برية العرب وبها معدن البلور...»(٧) ويذكر ياقوت الحموى فى كتابه (معجم البلدان) معلومات جيده ، ومكملة لما ذكره ابن الفقيه فيقول « ... والسراة الثالثة أرض عالية وجبال مشرفة على البحر الأحمر من الغرب وعلى نجد من الشرق ، وسراة بنى شبابه ... »(٨) ، ثم يشير الى بعض الأجزاء الواقعة الى الغرب من السروات فيورد « .. وبأسفل السروات أودية تصب الى البحر الأحمر منها : الليث ، وقنونا ، والحسية ، وضنكان ، وعشم ، وبيش ، ومركوب ، وعليب »(٩) . ويتفق كل من القزوينى وياقوت الحموى على أن أهل السراة القاطنين من الطائف شمالا حتى صعدة جنوبا من أفصح الناس لغة ، وأكثر ممن اتسمت ألسنتهم ببلاغة القول ، كهذيل القاطنة بجوار الطائف ، وبجيلة وثقيف والأزد فى وسط السراة(١٠) . وزيادة فى القول يضيف المقدسى ، من أبناء القرن الرابع الهجرى ، معلومات أكثر تفصيلا من سابقيه ، فيذكر أسماء بعض المواقع ما بين صعدة ونجران جنوبا والطائف شمالا ، حيث يقول : « القبائل تأخذ من السروات نحو أهل الشام فتقع فى أرض الأغر بن هيثم ، ثم تخرج الى ديار يعلى بن أبى يعلى ، ثم الى سردد ، ثم الى ديار عنز وائل فى بنى غزيه ، ثم تقع فى ديار جرش ، والعتل وجلاجل ، ثم الى ديار الشقرة بها خثعم ، ثم فى ديار الحارث .... ثم فى شكر وعامر ، ثم فى بجيلة ، ثم فى فهم ، ثم فى بنى عاصم ، ثم فى عدوان ، ثم فى بنى سلول ، ثم فى مطار .... »(١١) ويستدل مما ذكره المقدسى أنه ربط ما بين ذكر الأماكن الواقعة بين صعدة والطائف والقبائل القاطنة لها .

ويشير ابن المجاور ، من مؤرخى القرن السابع الهجرى ، الى معلومات تختص بالنواحى الحضارية لأهل تهامة والسراة ، لا نجدها عند غيره ، فيقول : ـ « فاما السرو فانهم قبائل وفخود من العرب ليس يحكم عليهم سلطان بل مشائخ منهم ، وفيهم بطون متفرقون ... »(١٢) وفى مكان آخر يتحدث عن المناطق الواقعة بين صعدة والطائف ، وبخاصة الأجزاء السروية فيذكر أن جميع تلك المناطق قرى متقاربة

بعضها من بعض فى الكبر والصغر ، ثم أن كل قرية تكون وحدة باهلها. وكل فخذ أو بطن من البدو يقيم فى قرية ، ولا يسكن قراهم ولا ينزلها أحد سواهم(١٣) ، ثم يواصل حديثه عن تلك الأجزاء السروية وأهلها فيقول « وقد بنى فى كل قرية قصر من حجر وجص وكل واحد من أهل القرية له مخزن في القصر يخزن فيه جميع ما يكون له من حوزة وملكه ، ولا يأخذ منه الا قوت يوم بيوم(١٤) ، ويكون أهـــل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيعه ، ويحكم على كل قرية شيخ من مشائخها كبير القدر والسن ذو عقل وفطنة ، فاذا حكم بأمر لم يشاركه ولا يخالفه أحد فيما يشير عليهم ويحكم فيهم(١٥) ، وجميع من فى هـــذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان، ولا يؤدون حراجا ، ولا يسلمون قطعة ، وكل واحد منهم مع هوى نفسه ، وبهذا لا يزال القتال دابهم ويتغلب بعضهم على مال بعض ، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو ، وهم طول الدهر على هذا الفن ، وجميع زرعهم الحنطة والشعير وشجرهم الكروم والرمان واللوز ويوجد عندهم من جميع الفواكه والخيـرات ، واكلهم الســـمن والعسل ، وهم فى دعة الله وأمانه ، وهم فخوذ يرجعـــون الى قحطان وغيهم من الأنساب ... »(١٦) .

وقد أورد لنا ابن المجاور ، من رحالة القرن السابع ، نصا يؤكد ما تحويه منطقة السراة من حصون ومخازن لغرض الحـــرب وتخزين المواد الغذائية عند الحاجة . وما نشاهده الآن ما هو الا رموز تدل على صحة الروايات السابقة . وقد تبين لنا فى مقابلاتنا مع كبار السن فى عدة أماكن من تهامة والســراة حول الحصـــون ومهامها أن لها مهمتين ، الأولى مهمة حربية ، والثانية أنها تعـد مستودعات لخزن الحبـــوب ، كما تبين لنا من الأقوال والمشاهدة أن البنية الاجتماعية فى تلك المناطق تعتمد على القبيلة التى تعد الوحدة الأساسية فى المجتمع ، ويعد شيخ القبيلة السيد الحاكم الذى لا ينازعه أحد فى سلطانه ، وهو الذى يعلن الحرب ، وهو الذى يطفئها مع المشايخ الآخرين . ولهذا ينعم بقية الأفراد فى المجتمع القبلى بالأمن بمقـــدار ما يمنحه الشـيخ لهم ، ويصحب الحروب عادة السلب والنهب ، وتسود شريعة الغاب ، فالقوة هى الحق . وليس الحق هو القوة .

وينتقل ابن المجاور فى حديثه عن بلاد السراة الى ذكـــر بعض الأجزاء التهامية ، فيذكر ميناء السرين(١٧) ، ويسميه بناية الفرس ، على ساحل البحر الأحمر(١٨) ، ولا ندرى لماذا وصفه بهذه الصفة ، هل لأن مبانيه وبعض سكانه كانوا من الفرس ، أم ماذا ؟ ويشير أيضا الى بلدة حلى(١٩) ، وهى تقع الى الجنوب من السرين فيقول عنها هى « بلد فيه جامع ومنـــارة ، وأول من أخـــربها غازى بن متكلان من بنى حارث الكردى فى أيام دولة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب(٢٠) ، وبقى المكان على حاله الى أن اعاد بناءه موسى بن على بن عطية ، وهو الى الآن مالكها ، وجميع هذه الأعمال لبنى كنانة ... »(٢١) ولم يكن ابن المجاور هو الوحيد الذى انفرد بالحديث عن السرين وحلى وانما أشار المقدسى الى هاتين البلدتين وأضاف اليهما بلدتى بيش وعثر ، ثم ذكر عن السرين أنها بلدة صغيرة لها حصـــن وبها جامع ثم قال عن علاقتها ببلاد السراة أنها « فرضة السروات ، والسروات معدن الحبوب والخيرات والتمور والعسل الكثير » ثم قال عن ديار السراة « ولا أدرى هى مدن أم قرى لأنى ما دخلتها »(٢٢) ، وأشار الى حلى فى عهده بأنها مدينة ساحلية عامرة(٢٣) ، أما بيش فوصفها بطيب الهواء وعذوبة الماء ، وأشار الى أن السلطان يقتنى بها بيتا الى جانب الجامع(٢٤) ، ويذكر (عثر) فيقول : هى « ناحية جليـلة عليها سلطان يرأســها ، ومدنها نفيسة ، وهى مدينة كبيرة طيبة مذكورة لأنها قصـــبة الناحية وفرضة صنعاء وصعدة ، بها سوق حسن وجامع عامر يحمل اليهم الماء من بعد ... »(٢٥) ويبدو أن المقدسى يمتاز بدقة المشاهدة والأمانة فى الكلمة بدليل ما ذكره عن بلاد السراة عندما قال : ـ لا أدرى هى مدن أم قرى لأنى ما دخلتها .

وفى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يبرز أحـد الرحالة الكبار ممن ذاع صيتهم ، وهو ناصر خسرو الفارسى الذى حج أربع مرات فيما بين ٤٣٨ ـ ٤٤١هـ ، ثم كتب رحلته المعروفة بـ (رحلة ناصر خسرو) فذكر فيها بعض المعلومات عن بـلاد تهامة والسراة ، نقـــلا من بعض الرواة ، لأنه لم يغادر مكة المكرمة والطائف صوب الجنوب ، فقال عنها « اذا غادرت مكة وسرت جنوبا ، وصلت بعد مرحلة واحدة اليمن ،

وجل السواحل الواقعة على الساحل الجنوبى هى من أرض اليمن·وأرض الحجاز وأرض اليمن متصلتان ، وأهل الحجاز واليمن لسانهم العربية ، وتسمى أرض اليمن حمير ، وأرض الحجاز أرض العرب » ثم يقول فى مكان آخر « وارض العرب تمتد من الكوفة الى مكة ، أما من مكة الى عدن فيسمى أرض حمير »(٢٦) ·

وفى اشارة أخرى مما دونه ناصر خسرو عن هذه البلاد ، ذكر أن أرض حمير تنقسم الى ثلاثة اقسام ، القسم الأول : تهامة ويتضمن ساحل بحر القلزم ، ويقع هذا الجزء فى الناحية الغــربية من أرض حمير · والقسم الثانى من تهامة سماه نجدا ، ويذكر أن بهــذا الجزء مناطق شديدة البرودة ، ومضائق جبلية ، وحصونا محكمة · أما القسم الثالث من تهامة ، فعلى حد قوله ، يقع الى الشرق من الجزئين الأولين ، ثم يذكر بعض حواضر ذلك الجزء مثل نجران وبيشة ، بل ويذكر أن بهذا الجزء قرى كثيرة ، وبوادى شاسعة ، كما أن فى كل بادية حاكما مستبدا لا يخضع لأية سلطة مركزية · ثم يشير الى أن مساحة هذا الجزء من تهامة مائتا فرسخ طولا فى مائة وخمسين فرسخا عرضــا ، ثم يقـــول « ويكثر السكان فى هذا الجزء الشرقى من تهامة »(٢٧) ·

أما قول ناصر خسرو «اليمنوموقعها» فلعله يقصد حدودها من جهة الشمال على بعد مرحلة واحدة من مكة المكرمة صوب الجنوب · ومسمى اليمن مثار نقطة خلافية عند الجغرافيين والرحالة ، حيث يرى غير ناصر خسرو أن المقصود باليمن اليمن السعيد الذى يعود بأســمه الى كثرة انتاجه ، وهو يضم الحواضر الكبرى فى اليمن ، كصنعاء ، وصعدة ، وزبيدة وغيرها · هذا فى حين قال بعض الجغرافيين أن كل ما يقع جنوب الكعبة فهو يمن · ولكن الرحالة ناصر خسرو لم يقف عند حد القول بهذا القولفقط ، وانما أردف تسمية أخرى لليمن زيادة فى الايضاح ، فسمى كل ما يقع جنوبى مكة ببلاد حمير ، وسمى أرض الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) بأرض العرب ، وهذا رأى لا نتفق معه فيه ، لأن حمير جزء من العرب ، ثم ا نفى عهده بعض قبائل حمير كانت تقطن المناطق الواقعة ما بين صنعاء ونجران وربما الى بيشــة · أما غالبية المنطقة

الممتدة من مكة المكرمة والطائف شمالا وحتى جازان ونجران وصعدة جنوبا فمعظم سكانها من القبائل العـــربية الازدية المختلفة فى البطون والعشائر ، الى جانب قبائل عربية مضرية نزحت من المراكز والمنـاطق الواقعة فى شمال الجزيرة العربية ووسطها والممتدة الى جنوبها ·

اما أرض حمير ، فى رأى ناصر خسرو ، فتقسم الى ثلاثة اقسام ، وهذه الأقسام الثلاثة هى المسماه عنده بتهامة · وحقيقة القول ، أن اسم تهامة لا يشمل الا الجزء الأول ، أما القسمان الآخريان فهما من بلاد السراة ، وبخاصة الثانى · أما الثالث فهو منطقة النجـــود والبوادى الواقعة فى الأجزاء الشرقية من بلاد السراة · واشـــار خسرو الى كثرة القرى بالأجزاء الشرقية ، والى استبداد شيوخ القبائل فى ذلك الجـزء وهو بذلك يؤيد ما أشار اليه ابن المجاور فى أوائل القرن السابع الهجرى·

ويشـير بعض الجغرافيين الى الحيـــاة الاجتماعية عنـــد بعض السروية أو التهامية فيذكر ابن المجاور عن لباس النساء فى بلدتى السرين وخلى وما حولهما ، فيقول « ليس يلبس نساؤهم الا الأدم ، وذلك ان المراة تاخذ طاقتين من قديم تخيط بعضه الى بعض ثم تلبســه »(٢٨) ويتكلم فى مكان آخر عن نساء الأجزاء التهامية الساحلية ، فيشير الى ان مصاغهم (النحاس) والرصاص ، وجـــواهرهم الودع(٢٩) ، بل ان المراة تطيل شعرها ، وتدهنه بالدهن ، وتغسله بالســـدر ، فاذا طال ضفرته الى ضفيرتين طويلتين(٣٠)· ولكثرة الجلود ودباغتها فى كل من صعدة ونجران وجرش ، كانت تستخدم لباسا للجسد ، أو غطاء اثناء الليل ، بل وتصنع منها النعل وأدوات أخرى عديدة(٣١)· ومن الألبسة التى كان يلبسها أهل تهامة والسراة بعض الملاحف ، والأقنعة ، والجباب والبرد التى كانوا يجلبونها من الأســـواق الكبيرة فى حواضر الحجاز واليمن(٣٢) ، كما يلبس الرجال والنســـاء ألبسة سـميكة خاصـة فى الحواضر الجبلية ذات المناخ البارد ، حيث يؤتى بهذه الألبسة من عدن أو من بعض المراكز الحضـارية فى بلاد مصر أو الشـــام أو بلاد فارس والعـــراق ·

ويذكر ابن المجاور بعض العادات التى كانت جارية بين أهل تهامة والسراة ، حيث كان الرجال يخضبون ايديهم وأرجلهم مثل النســاء فى مناسبات الأعياد والزواج وغيرها(٣٣) . كما ذكر عن السرويين بعض العادات فى الجنائز فقال : « وأهل السراة يرثون البنت عند الموت ... وللقوم عصبية عظيمة اذا مات أحد لا يحمل جنازته الا الشبان ، ومع ذلك يقولون : سلم سلمك الله هذا ما وعد الله نعم القاضى ! وهم يتداولون بالنعش الى المقبرة ، وهم الذين يحفـرون القبــر ... »(٣٤) ومن أطعمتهم اللحم ، والسمن ، والخبز ، ومن اكثر الأسماء شيوعا بينهم سالم ، وغانم ، وقاسم ، ومفرج ، ومفرح ، وراشد وناجى ، وجابر ، ولاحق وصابر ، وسعيد ، ومساعد ، وظافر ، وفاتك ، ومالك ، وغيرها أسماء كثيرة(٣٥) . ومن حسن اهتمامهم بالضيف انه اذا أطعم لص او قاتل ، زاد صاحب البيت ، فانه لا يقتل الا بعد خـروجه من البيت ، ويكون ذلك بعد مــدة من الزمــن حتى ينتهى مفعـول الزاد الذى أكله(٣٦) . ويشـير ابن المجـاور الى بعض عـادات السرويين فى الكرم ، خاصة ممن تغلب عليهم البداوة ، حيث يؤخـرون الغداء أو العشاء من أجل ضيف يقدم عليهم ، فان حصل ذلك ، ينحر له على قدر مكانته ، فقد ينحر له جمل ، ويقدم له رأس الجمــل ، وان كان عابر سبيل يذبح له شاه ، ويكسر صـاحب الدار الرغيف الى ثلاث أو أربع كسرات يضعهن أمام الضيف تكريما له ، ثم يقدم له االلحم المطبوخ بعد أن يثرد عليه الخبز ، ويهرق عليه السمن أو المرق ، فيشرب بادىء الأمر المشروب ، ثم يوزع اللحم على الثريد ، وقد يطلق ، أحيانا ، على هذا الصنف من الطعام اسم العربية(٣٧) . ومن عادات السرويين أيضا أن يكون فى مخزنهم صنفان من الحبوب ، ذرة وقمح ، يقدم خبز القمح للضيف ،وخبز الذرة للأسرة ، وهذا السلوك ينم عن ايثار الضيف وتقديمه على الأهل . وما قصة الرجل الذى ينحر بعيره لضيوفه ، أو يقدم لهم افضل ما لديه وهو فى حالة الفقر الا دليل واضـح على أعلى مراتب الايثار ، وفى هذا يقول الشاعر : ـ

الجــود طبعى ولكن ليس لى مــال
وكيف يصنع من بالقــوت يحتـال

(مجلة المؤرخ العربى)

فهاك خطــب الى أيــام ميســرتى
دينــا على ولى فى الغيب آمــال

واشارة ابن المجاور وناصر خسرو الى أن بلاد تهامة والسراة كانت تحكم بشيوخ القبائل المستقلين بسلطتهم فى ديارهم ، قول نوافقهما عليه من حيث المبدأ ، ومن حيث المركز الاجتماعى الذى تحقق لشيوخ القبائل العربية على مر التاريخ قبل الاسلام وبعده(٣٨) ، ولكن فيما عرف فى ظل الدولة الاسلامية ، وبخاصة بعد انتقال الخلافة من الحجاز الى بلاد الشام ثم العراق فى العهدين الأموى ثم العباسى ، ان شبه الجزيرة العربية تحول الى عدة ولايات تابعة لمركز الخلافة . ومن أكبر ولايات شبه الجزيرة منطقتى الحجاز واليمن،وبخاصةالأجزاء التى تشمل الحواضر الحجازية واليمنية الكبرى،وظلت المنطقة الواقعة بين المنطقتين السابقتين ، والتى هى محور دراستنا فى هذا البحث ، تابعة فى أغلب الأحيان لوالى الحجاز ، الذى اتخذ مكة المــكرمة أو المدينة المنورة مقرا له(٣٩) . ومن الواضح فى بعض كتب التراث الاسلامى ، وبخاصة كتب الجغرافيا والرحلات ، ان منطقة تهامة والسراة كانت مقسمة الى مناطق أو مراكز حضارية ، أطلق على كل قسم اما مخلاف ، أو عمل وجمعه أعمال أو كورة وجمها كور(٤٠) . فاليعقوبى تحت عنوان سماه (مكة وأعمالها) قام بتعديد أجزاء عديدة تابعة من الناحية الادارية الى والى مكة المكرمة ، ومن تلك الأعمال الواقعة الى الجنــــوب من مكة والطائف ذكر ما يلى فى الأجزاء السروية : « تبالة وأهلهــا خثعم ، النجران لبنى الحارث بن كعب كانت منازلهم فى الجاهلية ، والسراة وأهلها من الازد(٤١)». وفى الأجزاء التهامية أشار الى عشم ، وذكر أنها معدن الذهب ، وبيش ، والسرين ، والحسبة ، وعثر ، وكل هذه المناطق تقع على ساحل البحر الأحمر ما بين مكة المكرمة شمالا وجازان جنوبا(٤٢) . وفى موضع آخر ذكر أن لليمن أربعة وثمانين مخلافا ، وأغلبها حول حواضر اليمن الكبرى ، ولكنه أورد بعض الأجزاء التى تقع ضمن نطاق دراستنا ، كجرش فى بلاد السراة ، وبيش ، وقنــونا ، وبيه ، وضنكان ، والعرش من جازان فى الأجزاء التهامية(٤٣) . ويورد ابن خرداذبة بعض الايضاحات عن مخاليف مكة المكرمة ، فيذكـر أن

الطائف ، وعكاظ ، وبيشة ، وتبالة ، وجرش ، والسراة ، ونجران فى الأجزاء السروية ، وضنكان ، وعشم ، وبيش فى الأجـــزاء التهامية ، وجميعها تابعة لامارة مكة المكرمة أو الحجاز بشكل عام(٤٤) . ويخالف المقدسى اليعقوبى وابن خرداذبة فى بعض ما ذكر حيث يورد أن نجران ، وجرش ، وتربة ، والسراة فى الأجزاء الجبليـــة ، وبيش ، وعثر ، وحلى ، والسرين من مخاليف اليمن(٤٥) . ولـــكن الادريسى يخالف المقدسى ويتفق مع اليعقوبى وابن خرداذبة فيقـــول عن بعض مخاليف مكة ، وبخاصة الواقعة بين الطائف ونجـــران « ولمكة مخاليف وهى الحصون فمنها بنجد الطائف ونجران... وتربة وبيشة وجرش والسراة» ثم يضيف ضنكان ، والسرين ، وعشم ، وبيش فى الأجزاء التهامية(٤٦) . وفى ضوء هذه الأقوال نستطيع القول أن بلاد تهامة والسراة كانت فى الغالب تابعة لولاية مكة المكرمة ، بل لقد أثبتت بعض الروايات التاريخية ، أن والى الحجاز كان فى بعض الأحيان يمنح تعيينا من الخليفة يتضـــمن ولايته على الحجاز واليمن معا ، وأحيانا أخـــرى تضاف له ولاية بلاد اليمامة الى جانب المنطقتين السابقتين(٤٧) . أما المنطقة التى تقع بين الحجاز واليمن ، والتى أطلقنا عليها اسم (تهامة والسراة) فبدون شك كانت تتبع اداريا والى مكة المـــكرمة من حيث دفع الزكاة الى بيت مال المسلمين ، وبالتالى الولاء للخلافة الاسلامية . لكن الذى لا شك فيه هو ما أشـــار اليه ابن المجاور وناصر خسرو من حيث اضطراب الأمن وانتشار الفوضى بين أهل هذه البلاد واستفحال القلاقل بين سكانها ، بل ان شيوخ القبائل كانوا أقـــوى عنصر فى المجتمع فكانوا أصحاب الحل والعقد ، واليهم تؤول جميع الأمور الخاصة بأبناء مجتمعاتهم ، فضـــلا عن العلاقات الخارجية بينهم وبين غيرهم من خارج حدود منطقتهم .

ولم يكن سكان أهل تهامة والسراة منغلقين على أنفسهم ، بل كان بعضهم يسافر الى حواضر شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة مدن الحجاز الكبرى ، فيعملون بالتجارة ، ويؤدون الحج والعمرة ، بل لقد امتلك بعضهم الدور والعقار(٤٨) . وقـــد ذكر لنـــا الجغرافيون والرحـــالة المسلمون الأوائل بعض المعلومات القيمة التى تؤكد ذهاب اعداد كبيرة

من السرويين الى مكة المكرمة من أجل أداء الشعائر الدينية ، والمتاجرة فى بعض سلعهم التى يجلبونها معهم من بلادهم الى أسواق مكة أثناء مواسم العمرة فى رجب ورمضان وفى موسم الحج ٠ وأول من شاهدهم ودون لنا ملاحظاته عنهم فى أسواق مكة المكرمة ، الرحالة الفاسى ناصر خسرو خلال القرن الخامس الهجرى ، حيث أشار الى كثرتهم فى مكة أول رجب من كل سنة ، وفى عيد الفطر ، وفى موسم الحج(٤٩)٠
وفى القرن السادس الهجرى وبداية القرن السابع زار مكة المكرمة رحالة اندلسى ، هو محمد بن جبير ، فوصف أحوال السرويين الذين يأتون من من بلاد السراة الى مكة المكرمة ومعهم قوافل الأرزاق ، والفواكه والتمر ، فابدي سروره واعجابه بذلك ، ووصف أولئك القوم البسطاء ، حسب ما شاهدهم ، بالشجاعة ، والنجدة ، والمرؤة(٥٠) ٠ ويؤكد الرحالة ابن المجاور ما أورده كل من ناصر خاسرو وابن جبير ، فيشير الى ان السرويين اذا دخلوا مكة المكرمة ملئوها بالحنطة ، والشعير ، والسويق ، والعسل ، والذرة ، والدخن ، والزبيب ، واللوز ، وما يشابه ذلك ٠ ولذلك يقول أهل مكة « حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب ، والسرو أمنا تكسب منه القوت »(٥١) ٠ وعندما زار ابن بطوطة مكة المكرمة فى القرن الثامن للهجرة ، شاهد السرويين فى أسواقها يبيعون ويشترون ، وشاهدهم يطوفون حول الكعبة يؤدون الحج أو العمرة ، وقد أورد فى رحلته نبذا مما شاهده فى حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، فقال : ـ « ٠٠٠ ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز فترخص الأسعار بمكة ، ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق ٠ ولولا أهل هذه البلاد ـ ويقصد أهل السراة ـ لكان أهل مكة فى شظف من العيش ٠ ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ، ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ، ووقع الموت فى مواشيهم ، ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم ، وظهرت فيهم البركة ونمت أموالهم ٠ فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها ، اجتمعت نساؤهم فاخرجنهم ، وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين ٠ وبلاد السرو مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات ، وأهلها فصحاء الألسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد ٠ وهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها ، متعلقين بأستارها ، داعين بأدعية تتصدع

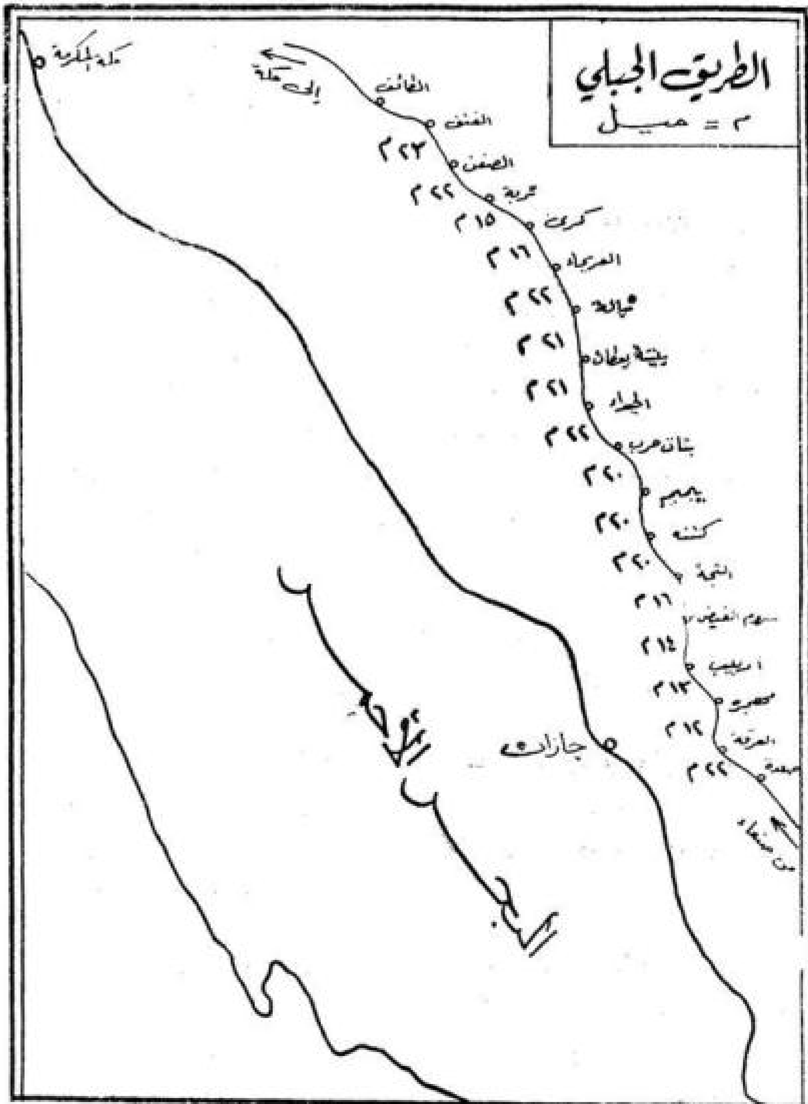
لقوتها القلوب ، وتدمع العيون الجامدة فترى النـــاس حولها باسطى أيديهم ، مؤمنين على أدعيتهم ، ولا يمـكن غيرهم الطـــواف معهـم ، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك . وهم شـــجعان انجاد ولباسهم الجلود ، واذا وردوا مكة هابت اعـــراب الطـــرق مقدمهم ، وتجنبوا اعتراضهم ، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم»(٥٢) وليس ابن بطوطة هو الذى انفرد بهـــذه الصفحات بل ذكرها بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة ، فاثنوا على خصوبة تربة السراة وكثرة خيراتها، وعلى ما تحلى به أهلها من السلوك الجيد والقيم الطيبة(٥٣) . كما اشار الى فصاحة السنتهم وخلوها من اللحن كل من الهمـــذانى وابن جبير والقزوينى(٥٤) .

وكانت الصلات فيما بين أهل تهامة والسراة وجيرانهم مســـتمرة ودائمة لوجود الطرق التى تربط حواضر اليمن (صنعاء ، وصعدة ، وزبيدة ، وغيرها) بحواضر الحجاز (مـكة المـكرمة ، والطائف ، وجدة ، والمدينة المنورة) . ومن الطبيعى أن تلك الطرق الواصلة بين اليمن والحجاز لابد وأن تمر بمحطات ومراكز حضارية فى منطقة تهامة والسراة المعنية فى هذه الدراســـة . وبعد البحث فى كتب الرحـــالة والجغرافيين الأوائل ، وجدنا غالبيتهم تشـــير الى طريقين اســـاسيين ، الأول الطريق التى تخرج من مكة المكرمة حتى الطائف ، ثم تأتى عبر الأجزاء الشرقية لبلاد السراة حتى تصل الى صعدة ثم صنعاء ، والثانى يخرج من مكة المكرمة عبر الساحل حتى تصل الى بلد العرش فى جازان، ثم تواصل السير الى بلدة زبيد فى اليمن . ومن الجغرافيين الذين أشاروا الى هـــذين الطريقين ، وبخاصـــة الطـــريق الجبلية السروية ، ابن خرداذبة(٥٥) ، وقدامة(٥٦) ، والحـربى(٥٧) ، واليعقوبى(٥٨) ، والهمذانى(٥٩) ، والمقدسى(٦٠) ، والادريسى(٦١) ، وجميع كتبهم اجمعت على أسماء اغلب المحطات التجارية الهامة الواقعة بين صعدة والطائف فى الأجزاء السروية ، وتوعا ما على المحطات الواقعـــة على الطريق الساحلى بين مكة المكرمة وجازان(٦٢) ، ولهذا آثرنا الاعتماد على كتاب الهمذانى (صفة جزيرة العرب) لنذكر المحطات على هذين الطريقين مع ارفاق رسم بيانى بهما . والسبب الذى جعلنا نعتمد على

الهمدانى دون غيره من المصادر التى ذكرنا والتى أشارت الى هـذين الطريقين ، هو معرفته القوية ببلاد شبه الجزيرة العربية ، فلقـد ولد وعاش اغلب حياته فى بلاد اليمن ، ثم انه سافر عـدة مرات من حواضر اليمن الى حواضر الحجاز ، بل وكانت مهنته فى شبابه جمالا يذهب مع التجار الذين كانوا يذهبون ويأتون ما بين الحجاز واليمن ، ولهذا لابد أن يكون للجغرافيين والرحـالة معرفة بأحـوال ومحطات وأطوال الطرق الواصلة بين مدن الحجاز ومدن اليمن والمارة ببلاد تهامة والسراة، الى جانب انه الجغرافى الوحيد الذى رسم لنا طول الطريق الجبلى الذى يأتى من صنعاء الى الطائف ثم مكة المكرمة ، فذكـر المسافات بين كل مرحلة وأخرى بالأميال ، ومثل هذه الأسباب تجعلنا فى عداد المنصفين اذا اعتمدنا على كتابة صفة جزيرةالعرب فى ذكر محطات هذين الطريقين الواصلين بين الحجاز واليمن،مع العلم أننا لن ننسى ماذكره الجغرافيون الآخرون عن رخاء بعض المحطات التى كانت على طول الطريقين .

ويشير الهمدانى الى خروج الطريق الجبلى من صنعاء الى صعدة مع ذكر الأطوال بين هاتين المدينتين ، ثم يورد قوله : ـ « من صعدة الى العرفة اثنان وعشرون ميلا، ومن العرفة الى المهجرة اثنا عشر ميلا ،ومن المهجرة الى أرينب ثلاثة عشر ميلا ، ومن أرينب الى سروم الفيض أربعة عشر ميلا ، ومن سروم الفيض الى الثجة ستة عشر ميلا ، ومن الثجة الى كتنة عشرون ميلا ، ومن كتنة الى يبمبم عشرون ميلا ، من يبمبم الى بنات حرب عشرون ميلا ، ومن بنات حـرب الى الجسـداء اثنان وعشرون ميلا ، ومن الجسدأء الى بيشة احدى وعشرون ، ومن بيشة الى تبالة احدى وعشرون ميلاً ، ومن تبالة الى القريحاء اثنان وعشرون ميلا ، ومن القريحاء الى كرى ستة عشر ميلا ، ومن كـرى الى تربة الى الصفن اثنان وعشرون ميلا ، ومن الصفن الى الفتق ثلاثة وعشرون ميلا »(٦٣) (انظر الخريطة رقم (١)) .

أما طريق الساحل فلم يشر الهمـدانى فيه الى المسـافات بين المحطات ، وانما ذكر الطريق القادم من مـدن اليمن الكبرى حتى بلد



الطريق الجبلي
م = ميل
مكة المكرمة
إلى مكة
الطائف
تبالة
بيشة يعطان
بنات حرب
من صنعاء
جازان
٢٣ م
٢٢ م
١٥ م
١٦ م
٢٢ م
٢١ م
٢١ م
٢٢ م
٢٠ م
٢٠ م
٢٠ م
١٦ م
١٤ م
١٣ م
١٢ م
٢٢ م

حكم فى جازان ، ثم الى الهجر ، فعثر ، فبيض ، فزنيف ، فضنكان ، فالمعقد ، فحلى ، فالجو ، فالجوينية ، فنونا ، ثم دوقة ، فالمرين ، فالمعجر ، فالخيال ، فيلملم ، فملكان ، فمكة المكرمة(٦٤) (انظر الخريطة رقم (٢)) .

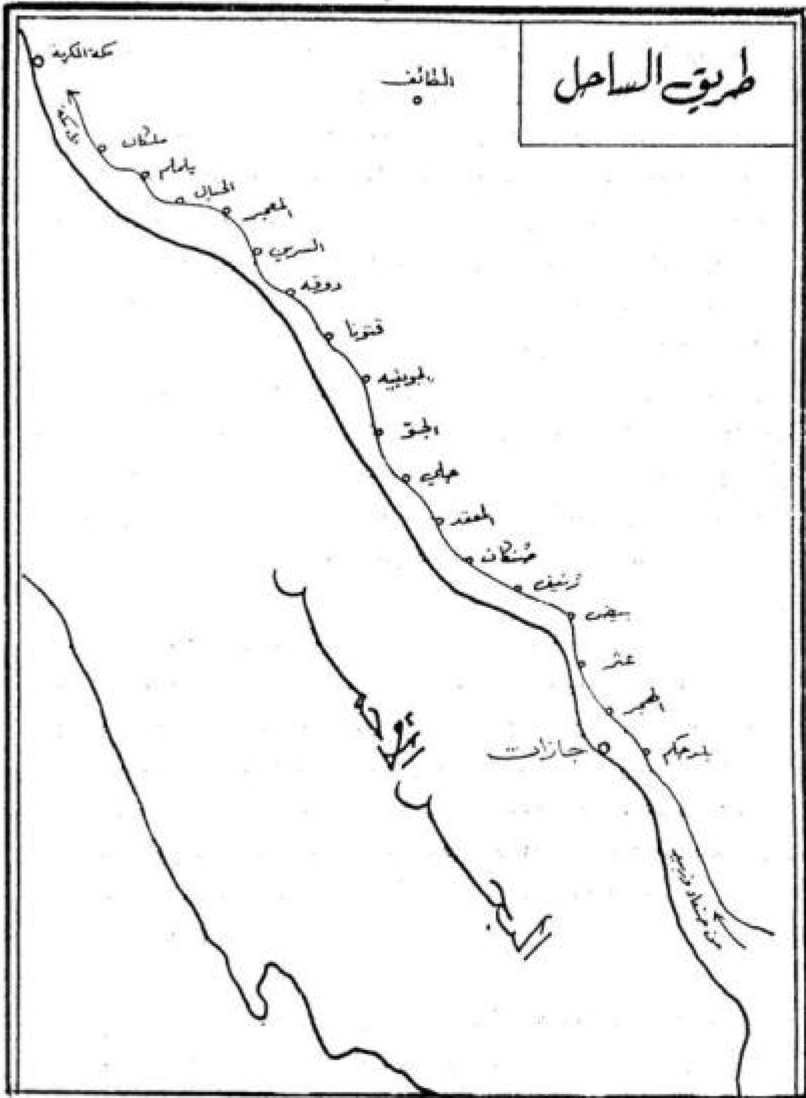
ويتحدث ابن خرداذبة ، وقدامة ، والادريسى عن الطريق السروية التى تربط بين الطائف شمالا وحواضر اليمن الكبرى جنوبا ، والتى كانت انشط الطرق الواصلة بين الحجاز واليمن ، فكانت تستخدمها الجيوش اثناء ذهابها وايابها ما بين البلاد الحجازية واليمانية ، بل وكان يستخدمها التجار وموظفو الدولة ، كالأمراء والقضاة ، والعلماء وجباة الزكاة وغيرهم . ولهذا فقد أشاروا الى رخاء بعض المحطات التجارية التى كانت على طول الطريق ، فابن خرداذبة أشار الى أن الفتق وتربة قريتان كبيرتان ، أما تبالة وبيشة فذكر انهما مدينتان كبيرتان بهما من العيون والنخيل الشىء الكثير وأورد بيت شعر عن بيشة لحميد بن ثور الهلالى حيث يقول : -

اذا شئت عنتنى بأجزاع بيشة

الى النخل من تثليث أو بيبمبما

وواصل حديثه عن الجسداء وبنات حرب ، وسروم راح التى أطلق عليها الهمدانى سروم الفيض ، والتى تقع الى الشرق بثمانية أميال من جرش ، فذكر تعدد الآبار بها ، واشار الى أنها محطات تحتوى على قرى وسكان من عشائر مخلتفة(٦٥) .

ويورد لنا قدامة معلومات أكثر دقة من ابن خرداذبة حيث عدد الأماكن التى ذكرها الهمدانى ، وأعطى بعض الأوصاوف الحضارية لبعض تلك المحطات فقال « .. ومن الفتق الى تربة ، وهى قرية عظيمة بها عيون جارية وزروع ، وهى قرية خالصة مولاة المهدى ، ومن تربة الى صفر ، وهى منزل فيه داران لصاحب البريد فى الصحراء ، وفيه ماء عذب من بئرين ، ومن صفر الى كرى ، منزل فيه نخل وعين عذبة .



شكل (٢)

وليس الا منزل لصاحب البريد ، ومنزل القوافل ، وهى فى بطن واد كثير النخل ، ومن كرى الى رنية ، منزل فى صحراء ، ونخل وعين عظيمة عذبة ، والعمران حولها ، ومن رنية الى تبالة قرية عظيمة كثيرة الأهل مضرية لقيس ، وفيها منبر وعيون وآبار ، ومن تبالة الى بيشة ، قرية عظيمة كثيرة الأهل فى بطن الوادى ، ظاهرة الماء من عيون وآبار ، مضرية قيسية ، ومن بيشة الى الجسداء ، قرية عظيمة ، منزل اعراب من قيس ، ومن جسداء الى بنات حرب ، قرية عظيمة فيها منازل كثيرة وزروع ، ومن بنات حرب الى ييمبم جرش نحو أربعة عشر ميلا ، ومنه الى كثبه قرية عظيمة ، ومنازل وقصور وآبار فى صحراء بينها وبين جرش ثمانية أميال ، ومن كثبه الى الثجه موضع البريد ، وفيه بئر ماء ينزله القوافل ، وهو فى بلاد زبيد ، وحوله اعرابهم ، ومن الثجه الى سروم راح ، وهى قرية عظيمة فى صحراء فيها عيون كثيرة الكروم ، فيها فخذ من همدان يقال اهم جنب ، ومن سروم راح الى المهجرة ، وهى قرية عظيمة جبلية كثيرة العيون والأهل ، وفيما بينها وبين شروم راح شجرة تسمى طلحة الملك(٦٦) وهذه الشجرة حد ما بين اليمن والحجاز ، وهى شجرة تشبه شجرة الغرب ... ومن المهجرة الى العرقه وهى أول عمل اليمن ، وهى الى عمل صعدة(٦٧) ويتعرض الادريسى لنفس الطريق والمحطات التى ذكرها الهمدانى ، وابن خرداذبة ، وقدامة ، ويتفق مع قدامة فيما ذكر عن شجرة (طلحة الملك) التى قيل انها كانت الحد بين الحجاز واليمن ، ويضيف معلومات اكثر عن مدينتى تبالة وبيشة ، فيذكر تبالة وما بها من عيون كثيرة ، ومزارع ، ثم يقول : ـ « وهى صغيرة فى منخفض اكمة » أما بيشة فهى ايضا مدينة صغيرة متحضرة جيدة المساكن ، حسنة البقعة ، وبها ماء ونخل كثير(٦٨) .

ويلاحظ على ما ذكر الادريسى وقدامة وغيرهما رخاء بعض المدن التى تقع على قارعة الطريق الواصل بين اليمن والحجاز ، عبر الأجزاء السروية(٦٩) ، مع العلم أن قدامة أوضح لنا نقطة مهمة ، وهى وجود محطات للبريد ، ودور خاصة بالأعمال البريدية . ومما يؤكد قوله أن خلفاء المسلمين الأوائل ، وخاصة الأول من بنى العباس ، نشطوا البريد

الذى كان يربط أجزاء شبه الجزيرة العربية بعاصمتهم فى مدينة بغداد ، فكانوا يأمرون باصلاح الطرق التى يرتادها بريد الخلافة ، ويزودون عمال البريد بكل ما يحتاجون اليه من زاد ورواحل ، ووسائل بريدية أخرى(٧٠) ، ولهذا فالطرق الجبلية الواصلة بين اليمن والحجاز كانت من أهم الطرق ، بل وفى بعض الأحيان كان يطلق عليها طريق السلطان، ولذا فلابد وأنها حظيت ببعض الاصلاحات لأجل استخدامها من قبل جيوش وموظفى الخلافة العباسية فى بغداد(٧١) ٠

ويلاحظ اختلاف بسيط بين ما ذكره قدامة والهمدانى حيث عدد الأخير المحطات الواقعة فى الأرض السروية القريبة من الطائف ، ومنها الى جهة الجنوب ، فذكر الفتق ثم الصفن ، ثم تربة ثم القريحا ، ثم تبالة الى أن ذكر كتنة ، فالثجة ، ثم سروم الفيض ، واستمر تعداده على باقى المحطات حتى وصل صعدة (انظر الخريطة رقم (١)) ٠ اما قدامة فلم يسلك نفس الترتيب فى ذكر المحطاتوانما ذكر مدينة تربة بعد الفتق، ثم قال : ـ « ومن تربة الى صفر » فكلمة صفر هنا ربما انها صحفت من اسم الصفن الذى ذكره الهمدانى ، والتصحيف كثيرا ما يرد فى كتب التراث اما التقديم والتاخير فى ذكر المحطات فنميل الى قول الهمدانى لنفس الأسباب التى ذكرناها سابقا ، والتى جعلتنا نعتمد على كتابه (صفة جزيرة العرب) ٠ وذكر محطة كثبة عند قدامة وكتنة عند الهمدانى ربما نتج عن قلب التاء ثاء ، وهذا كثيرا ما يحدث عند الكتاب أو النساخ ، وسروم الفبض عند الهمدانى أو سروم راح عند قدامة انما تعنى منطقة واحدة تقع الى الجنوب من محطة الثجة التى أشار اليها كل من الهمدانى وقدامة ٠ أما الاشارة الى شجرة طلحة الملك بانها الحد بين اعمال الحجاز واليمن فهذا مما يؤكد أن نفوذ الوالى فى الحجاز كان يمتد جنوبا الى المناطق القريبة من شمالى مدينتى بجران وصعدة ٠

وبعد الاشارة الى ما سبق ذكره نجد أن الجغرافيين والرحالة المسلمين الأوائل حفظوا لنا بعض المعلومات الحضارية القيمة عن بلاد تهامة والسراة ، ولكن الذى استطعنا الحصول عليه فى هذه الدراسة لا يكاد يفى بالغرض ، فلا زالت أوضاع هذه المناطق المعنية مجهولة ،

مع العلم انها من اغنى أجزاء شبه الجزيرة العـربية بكثافة أشجارها ، وتنوع خيراتها ، وكثرة سكانها ، وصفاء هوائها ، وكثرة أمطارها ، الى غير ذلك من الصفات الملائمة لخلق ظـــروف مناخيـة واجتماعية مناسبة للعيش فيها ، وقد يقيض الله من أبناء هذه البلاد ، من يستكمل أو يعثر على مالم نستطع استكماله أو العثور عليه ، أو من يصوب ماقد أخطانا فيه . ورغم أن جهدنا جهد المقل ، الا أننا نرى فيه بداية عمل لبحوث أخرى فى المستقبل ، وكل ما نرجوه التوفيق والسداد ، والله من وراء القصد .

« الضـميمة الأولى »

أسماء محطات الطريق الساحلى التى وردت فى أغلب المصـــادر التى استقينا منها بحثنا .

الهمدانى	اليعقوبى	الادريسى	ابن قدامة	ابن خرداذبة
ضنكان	ضنكان	ضنكان	ضنكان	ضنكان
حـلى	—	حـلى	حـلى	حـلى
قنـونا	قنـونا	قنـونا	—	قنـونا
دوقـه	—	دوقـه	—	دوقـه
—	عليـب	عليـب	عليـب	عليـب
—	الليـث	—	الليـث	الليـث
يلمـلم	يلمـلم	يلمـلم	يلمـلم	يلمـلم
ملـكان	ملـكان	ملـكان	ملـكان	ملـكان
مـكة	مـكة	مـكة	مـكة	مـكة

« الضميمة الثانية »

أسماء محطات الطريق الساحلي التي وردت في بعض المصادر دون المصادر الأخرى

الهمداني	اليعقوبي	الادريسي	ابن قدامة	ابن خرداذبة
—	—	خولان ذى سحيم	خولان ذى سحيم	خولان ذى سحيم
—	بيش	—	—	—
—	رسيم	—	—	—
—	—	بيشة بقطان	—	—
—	—	—	بيشة	—
—	—	—	—	بيشة بعطان
—	بيه	—	بيه	بيه
—	—	—	ابن جاوان	بيشه ابن جاوان
—	—	الصلة وتسمى اليوم بالأحسبة		الحسبة(الأحسبة)
—	—	بيشة حازان	—	—

« الحواشى والتعليقات »

(١) لمزيد من التفصيل عن بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين الاوائل ، انظر ٠ أحمد رمضان أحمد ٠ **الرحلة والرحالة المسلمون** (جدة : دار البيان العربى للطباعة والنشر ، د٠ت) ؛ عبد المجيد الدويب « الجغرافيون العرب ودورهم فى التعريف بالجزيرة العربية ، **مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الثانى** ، الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية فى ٥ ـ ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٣ ـ ٢٨ ابريل ١٩٧٧م ، قسم التاريخ كلية الآداب ، جامعة الرياض ، ص ٢٨٥ ـ ٢٩٨ ٠

(٢) ومن المدن التى أشار اليها ابن بطوطة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر، مدينة حلى ، حيث ذكر من كان يسكنها من القبائل ، بل واشار الى بعض العلماء الذين كانوا يسكنونها أثناء مروره بها ، كما تعرض لبعض الجوانب الاجتماعية فى تلك المدينة ، كذكر بعض الأطعمة التى كان يقتات بها السكان ، وبعض الألبسة التى كانوا يلبسون ٠ انظر أبو عبد الله محمد ابن بطوطة ٠ **رحلة ابن بطوطة ، المسماة تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار** ، تحقيق على المنتصر الكتانى ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ج ١ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ ، وللمزيد من التفصيل عن مدينة حلى ، انظر ، أحمد بن عمر الزيلعى ٠ « المواقع الاسلامية المندثرة فى وادى حلى ، **حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت** ، الحولية السابعة ، الرسالة (٣٩) (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ، ص ١١ ـ ١٩ ٠

(٣) ولأهمية مادون الهمدانى عن بلاد السراة ، وبخاصة ما ذكر فى كتابه (صفة جزيرة العرب) فقد أفردنا لذلك بحثا مستقلا حول ما رأى وشاهد ، أثناء ذهابه وايابه فى تلك البلاد ، وسينشر هذا البحث فى أحد أعداد مجلة الدارة القادمة (ان شاء الله) ٠

(٤) للمزيد من التوضيحات ، انظر ٠ عبد الله بن عبد العزيز البكرى ٠ **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع** ، تحقيق مصطفى السقا ، (بيروت : عالم الكتب ، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥) مج ١ ، ج ١ ، ص ٦ وما بعدها ؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى ٠ **معجم البلدان** (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) ج ٢ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ ، ٢١٨ ـ ٢٢٠ ؛ صالح أحمد العلى « تحديد الحجاز عند المتقدمين ، **مجلة العرب** (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ج ١ ، ص ١ ـ ٩ ؛ عبد الله الوهيبى ٠ « الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب ، **مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض** (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ج ١ ، ص ٥٣ ـ ٧٠ ٠

(٥) ياقوت ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ـ ٢٢٠ ، ج ٣ ، ص ٢١٧ ـ ٢١٨ ، الوهيبي ، المصدر نفسه ٠

(٦) انظر مقالتي العلي والوهيبي السابقتي الذكر في ملاحظة (٤) ٠

(٧) أبو بكر أحمد بن محمد بن الفقيه ٠ **كتاب البلدان** ، تحقيق ، أم دي غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤) ص ٣١ ـ ٣٢ ٠

(٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ٠

(٩) المصدر نفسه ٠

(١٠) زكريا محمد محمود القزويني ٠ **آثار البلاد وأخبار العباد** (بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص ٨٩ ؛ ياقوت ، **معجم** ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ ٠

(١١) شمس الدين أبو عبد الله المقدسي ٠ **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، تحقيق ، أم ٠ دي غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٧٧م) ص ١٠٤ ٠

(١٢) جمال الدين يوسف بن المجاور ٠ **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، المسمى تاريخ المستبصر** ، تحقيق ، أو ٠ لو فغرين (ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٥١ ـ ١٩٥٤م) ج١ ، ص ٢٦ ٠

(١٣) المصدر نفسه ٠

(١٤) يبدو أن وجود المخازن المسماة في بعض المناطق الاسلامية (بالأهـراء) أي صوامع الغلال ، هو المعمار الوحيد المنتشر في البقاع الاسلامية لهذا الغرض ، لما امتاز به من حسن الموقع حيث يكون على مرتفع ، الى جانب حسن المناخ ، والبعد عن الأماكن الرديئة التهوية ، ولهـذا كانت الحبوب تدوم فيها مدة طويلة دون أن يصيبها العطب والفساد ٠ والمتجول في وقتنا الحالي ، بالمنطقة الواقعة بين نجران والطائف يلاحظ جميع القرى وبها حصون مختلفة الاحجام ، وأغلبها كانت تستخدم لخزن الحبوب المتنوعة لأفراد القرية ، مع العلم أن هـذه الحصون في يومنا هذا ، أصابها الخراب والدمار ، لأنها لم تعد تستخدم ، ولم تجد أيضا من يوليها الاهتمام ويحافظ عليها من الانهيار ٠

(١٥) لقد عمل أهل السراة بما يمليه العرف القبلي ، فكان شيخ القبيـلة من كبار السن الذين يتمتعون بتجربة واسعة في الحياة ، وما المثل العربي القائل عن مثل هذه الشخصية « حلب الدهر أشطره » الا دليل واضح على حسن الاختيار ٠

(١٦) ابن المجاور ، تاريخ المستبصر ، ج ١ ، ص ٣٧ ٠

(١٧) ميناء السرين من الموانى النشيطة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ،

ويقع الى الجنوب من مكة المكرمة بحوالى خمس مراحل · وللمزيد من التفصيل عن هذا الميناء · انظر أحمد عمر الزيلعى · **مكة وعلاقاتها الخارجية** (٣٠١ ـ ٤٨٧ هـ)· (الرياض : عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الرياض ، ١٩٨١م) ، ص ١٨٤ ـ ١٨٦ ·

(١٨) ابن المجاور ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٣ ·

(١٩) وللمزيد من التوضيح عن مدينة حلى ، انظر · الزيلعى ، المواقع الاسلامية المندثرة فى وادى حلى ، ص ١١ وما بعدها ·

(٢٠) لمزيد من التفصيل عن السلطان طغتكين بن أيوب ، وبخاصة عندما عين سلطانا على بلاد اليمن في عهد أخيه صلاح الدين الأيوبى عام (٥٧٩ هـ) ، انظر · القاضى عبد الله بن عبد الكريم الجرافى · **المقتطف من تاريخ اليمن** (بيروت : منشورات العصر الحديث ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ١٢٩ ـ ١٣١ ؛ محمود كامل · **اليمن شماله وجنوبه ، تاريخه وعلاقاته الدولية** (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٨م) ص ١٨٠ ـ ١٨٤ ·

(٢١) ابن المجاور ، **المصدر السابق** ، ج ١ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ ·

(٢٢) المقدسى ، **أحسن التقاسيم** ، ص ٨٦ ·

(٢٣) المصدر نفسه ·

(٢٤) المصدر نفسه ·

(٢٥) المصدر نفسه ·

(٢٦) انظر · أبو معين الدين ناصر خسرو · **سفر نامه (رحلة ناصر خاسرو)** ترجمه من الفارسية وحققه ، أحمد خالد البدلى (الرياض : عمادة شؤون المكتبات ـ جامعة الملك سعود ، ١٩٨٣ م) ص ١٤١ ـ ١٤٢ ·

(٢٧) المصدر نفسه ·

(٢٨) ابن المجاور ، **المصدر السابق** ، ج ١ ، ص ٥٢ ·

(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٥٤ ·

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٥٦ ·

(٣١ انظر ، المقدسى ، **أحسن التقاسيم** ، ص ٨٧ ؛ الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى · **صفة جزيرة العرب** ، تحقيق ، محمد بن على الأكوع الحوالى (الرياض : دار اليمامة لبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ، ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ، ٢٦٠ ·

(٣٢) أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي . **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار** ، تحقيق رشدي ملحس ، ط ٤ ، (مكة المكرمة : مطابع دار الثقافة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) جـ ٢ ، ص ٢٢٩ ؛ ناصر خسرو ، **الرحلة** ، ص ١٣٦ ؛ ابن المجاور ، **المصدر السابق** ، جـ ١ ، ص ٥ ـ ٦ .

(٣٣) ابن المجاور ، جـ ١ ، ص ٧ ، ومثل هذه العادة لازالت مألوفة بين بعض السكان في الأجزاء التهامية والسروية ، وبخاصة عند كبار السن من الرجال .

(٣٤) ابن المجاور ، جـ ١ ، ص ٢٥ . وهذه العادة أيضا لازالت تمارس عند بعض الاسر والعشائر والأفخاذ الساكنة في البلاد السروية والتهامية على وجهالعموم.

(٣٥) ابن المجاور ، جـ ١ ، ص ٦ . ومن يتجول في بلاد السراة أو تهامة في وقتنا الحالي يجد اسماء لكثير من الاسر ، وبخاصة أجدادهم الأوائل ، وسيجدها على منوال ما ذكر ابن المجاور ، بل ويجد أسماء مستمدة من أسماء الطبيعة ، كحجر ، وفارس ، وعصفور ، وريحان وغيرها من أسماء الرجال ، اما أسماء النساء فمنها ريحانة ، وعصفورة ، وعفارة ، وضرمة وعطرة وغيرها من الأسماء . ويا حبذا ان يتصدى أحد الباحثين في المنطقة لمثل هذه الأسماء وغيرها فيدرسها مع تتبع جذورها من العهود القديمة ، ثم أيضا يدرس علاقتها بالسكان والبيئات التي تستخدمها .

(٣٦) ابن المجاور ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٣٧) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ ، ولازال الكرم صفة حميدة بين أهالي بلاد تهامة والسراة الى وقتنا الحالي .

(٣٨) للمزيد من التفصيل عن شيخ القبيلة ودوره في المجتمع منذ العصر الجاهلي ، انظر . جواد علي . **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٠م) جـ ٤ ، ص ٥ ـ ٢٧١ ، جـ ٥ ، ص ٢٥٣ ـ ٣٣٣ .

(٣٩) للمزيد من التوضيح عن ولاة الحجاز وكيف كان بعضهم يعين من قبل الخليفة الأموي او العباسي في كل من اليمامة والحجاز واليمن ، وأحيانا بلاد البحرين ، انظر . تقي الدين محمد الفاسي . **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** ، تحقيق لجنة من كبار العلماء ، (بيروت : دار الكتب العلمية د.ت) جـ ٢ ، ص ١٦٢ وما بعدها ، انظر أيضا :

G.A. Jrais
"The Governorshop in the Hijaz During the Early Abbasid Period.
Ages (مجلة العصور) Vol. (7) January, 1992.

(مجلة المؤرخ العربي)

(٤٠) والكورة ، أو المخلاف ، أو العمل جمع أعمال ، تساوي ما يسمى اليوم بالمحافظة ، أو الامارة ، وكانت ولازالت تسمى في المغرب بـ (الحوز) وفي الجزائر بـ (العمالة) ٠

(٤١) أحمد بن يعقوب اليعقوبي ٠ كتاب البلدان ، تحقيق ، أم٠ دي غوي (ليدن: مطبعة بريل ، ، ١٢٨٩٢م) ص ٣١٦ ٠

(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٣١٦ ، ٣١٨ ٠

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ٣١٧ ـ ٣١٨ ٠

(٤٤) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة ٠ **كتاب المسالك والممالك** ، تحقيق ، أم٠ دي غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م) ص ١٣٣ ٠

(٤٥) المقدسي ، **أحسن التقاسيم** ، ص ٦٩ ـ ٧٠ ، ٨٨ ٠

(٤٦) محمد بن محمد بن عبد الله الادريسي ٠ **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ج ١ ، ص ١٤٥ ٠

(٤٧) انظر ، الفاسي ، **شفاء الغرام** ، ج ٢ ، ص ١٦٢ وما بعدها ٠

(٤٨) ولمزيد من التفصيلات عن اتصال أهل تهامة والسراة بأسواق مكة ، انظر٠ الأزرقي ، اخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ؛ محمد بن أحمد بن جبير ٠ **رحلة ابن جبير** (بيروت : دار الكتب د٠ت) ص ١٠٢ وما بعدها ٠

(٤٩) ناصر خاسرو ، **الرحلة** ، ص ١٣٦ ٠

(٥٠) ابن جبير ، **المصدر السابق** ، ص ١٠٢ ـ ١٠٥ ٠

(٥١) ابن المجاور ، **المصدر السابق** ، ج ١ ، ص ٢٧ ٠

(٥٢) انظر ابن بطوطة ، **الرحلة** ، ج ١ ، ص ١٥٢ ٠

(٥٣) للمزيد من التفصيلات عن توافر الحبوب والخيرات في بلاد تهامة والسراة، انظر : عرام بن الأصبغ السلمي : **كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها** ، تحقيق ، عبد السلام هارون (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م) ص ٤١٧ ، ٤٢٠ ـ ٤٢١ ؛ القزويني ، اثار البلاد ، ص ٨٩ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٠٤ ؛ ياقوت ، معجم ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن المجاور ، ج ١ ، ص ٣٦ ـ ٢٧ ٠

(٥٤) الهمداني ، **صفة جزيرة العرب** ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، ابن جبير **الرحلة** ، ص ١٠٤ ، **القزويني** ، **اثار البلاد** ، ص ٨٩ ٠

(٥٥) **المسالك والممالك** ، ص ١٢٤ ـ ١٣٦ ، ١٤٨ ـ ١٤٩ ٠

(٥٦) أبو الفرج قدامة : **نبذ من كتاب الخراج** ، ضمن كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، تحقيق ، ام٠ دي غوى (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م) ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ، ١٩٢ ـ ١٩٣ ٠

(٥٧) أبو اسحاق الحربي٠ **كتاب « المناسك » وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة**، تحقيق حمد الجاسر ، (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ٠

(٥٨) **البلدان** ، ص ٢١٧ ٠

(٥٩) **صفة جزيرة العرب** ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤١ ٠

(٦٠) **أحسن التقاسيم** ، ص ١١١ ـ ١١٢ ٠

(٦١) **نزهة المشتاق** ، ج ١ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٨ ٠

(٦٢) أجمعت المصادر على ذكر أغلب المحطات التى تقع على الطريق الجبلى السروى ، أما الطريق الساحلى فقد ذكرته بعض المصادر ، لكن ظهر بعض الاختلاف فى ذكر أسماء بعض المحطات على تلك الطريق ، ولهذا الأمر ألحقنا بالبحث ضميمتين، الاولى تبين أغلب أسماء المحطات التى وردت فى المصادر التى استقينا منها بحثنا حول هذا الطريق ، والثانية تبين اسماء المحطات التى وردت فى بعض المصادر دون المصادر الأخرى ٠

(٦٣) الهمدانى : **المصدر السابق** ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ٠

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٣٤١ ٠

(٦٥) ابن خرداذبة ، المسالك ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ٠

(٦٦) وطلحة الملك لازالت الى يومنا هذا تعرف باسم قرية طلحة ، وتقع فى الأجزاء الشرقية من ظهران الجنوب فى بلاد قحطان ، والى الشمال من مدينة نجران ٠

(٦٧) قدامة ، **المصدر السابق** ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ٠

(٦٨) الادريسى ، **نزهة المشتاق** ، ج ١ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ٠

(٦٩) وقد يعود رخاء هذه المدن الى موقعها التجارى ، وكثرة القادمين اليها ، لبيع سلعهم ، أو لشراء سلع منها ، أو للمبيت فيها ، والانفاق طيلة اقامتهم بها ٠ وبعض هذه المحطات مثل (بيشة ، ورنية ، وتربة ، وغيرها) مازالت الى يومنا هذا تؤدى خدماتها للمارة بها ، وكلما تحسنت خدماتها ، كلما أدى الأمر الى ازدهارها ٠

(٧٠) للمزيد من التفصيل عن أحوال البريد خلال العصر العباسي وما جرى عليه من اصلاحات ، انظر • حسن ابراهيم حسن • **تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤م) ج ٢ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧١ •

(٧١) والأمر الذى يجعلنا نجزم بأن تلك الطريق حظيت ببعض الاصلاحات ، وبخاصة ، خلال العصور العباسية الأولى ، هو ما بذله خلفاء بنى العباس الأوائل فى اصلاحات بعض الطرق الأخرى ، كطريق العراق الحجاز ، أو طريق العراق الشام الحجاز أو غيرها ، ثم ان بلاد اليمن كانت من الأجزاء المهمة لدى خلفاء بنى العباس الأول لتكون تحت حوزتهم فكانوا يرسلون اليها الولاة وغيرهم من موظفى الدولة ، بل ويسعون الى قمع أى ثورة تظهر فيها ، وربما نتج ذلك الاهتمام عن حرصهم على ضم شمل دولتهم ، بل وعن معرفتهم بغنى أرض بلاد اليمن وما بها من خيرات قد تعود زكاتها وجبايتها الى بيت مال المسلمين فى بغداد •

كناش الكشكرى : وثيقة مهمة عن التطبيب العملى فى بعض بيمارستانات بغداد فى القرنين الثالث والرابع الهجريين

بقلم
دكتور مريزن سعيد مريزن عسيرى(*)

المقـــدمة :

حفل تاريخ الفكر الاسلامى بالعـديد من المبدعين الذين وضعوا الأسس الأولى للعلوم الحديثة ، وكان لمساهماتهم اكبر الأثر فى تطور هذه العلوم ، حتى وصلت الى المستوى الذى تمكنت بواسطته الحضـارة الاسلامية من افادة مجتمعها والمجتمع الانسانى بنتاج فكرها ، واضحى ذلك التطور العلمى من أهم ما يميز الحضـارة الاسلامية بين حضارات العـالم ٠

والطب كان واحداً من تلك العلوم ، الا أنه حظى طوال العصور الاسلامية بمكانة عالية بين سائر العلوم التطبيقية ، كما حظى الأطباء الحقيقيون بمكانة مرموقة بين كافة الأوساط الاجتماعية لم يرق اليها الا القليل من العلماء ٠

والدراسات الحديثة المعنية تظهر لنـا كل يوم الجديد فيما يخص الدراسات الطبية عند المسلمين ، مما يشـير الى الكثير من الاكتشافات والحقائق الطبية التى توصلوا اليها وسبقوا بها الغرب قبل قرون عديدة ٠

وفى ظل اهتمامى بدراسة تاريخ العلوم الاسلامية لا سيما علم الطب ، اطلعت على كتاب طبى مخطـوط بنسـخة فريدة معنون

(*) استاذ مشارك بقسم الحضارة والنظم الاسلامية بجامعة أم القرى بمـكة المـكرمة ٠

بـ « الكناش فى الطب » لمؤلفه يعقوب الكشكرى من رجال القرن الثالث والرابع الهجريين ، ولاحظت أن هذا الكتاب الطبى يتميز عن الكثير من الكنانيش الطبية للأطباء المسلمين باحتوائه على مادة علمية غزيرة فيما يخص التطبيب العملى ، والتجارب الطبية المختلفة، والمجريات الدوائية العديدة التى قام بها المؤلف أو شاهدها من زملاء المهنة فى بيمارستانات بغداد بشكل خاص ، وفى بعض مدن العراق الأخرى كحالات فردية ، فقد وصف لنا الكثير من المعالجات ، وأعطانا صورة واضحة عن الحالات المرضية الموجودة فى أيامه ، وكيف كانت تتم المعالجة لكل حالة على حدة ، ذاكراً أسماء تلك الحالات ، وبعض أسماء أصحابها ، وكيف تعامل معها ، وكيف تمت المعالجة ، وكيف كانت النتيجة .

كما عرض لنا المؤلف دراساته وتجاربه الطبية بكافة أنواعها فى البيمارستانات الثلاثة ، ومع بعض الشخصيات المشهورة آنذاك ، لا سيما أولئك الذين تربطه بهم رابطة الصداقة ، حتى أنه أصبح ملازما لبعضهم ومشرفا على معالجتهم وتطبيبهم .

والمتتبع لدراساته وتجاربه تلك يدرك أن يعقوب الكشكرى كان واحداً من الأطباء المهرة المتمرسين فى عصره علماً وعملا وتجربة ، فقد كان موفقا فى معالجاته الى حد بعيد ، واوصلته تجاربه العملية الى نتائج علاجية كانت تفوق توقعاته .

ولقد قسمت الدراسة الى قسمين :

خصصت القسم الأول لتحقيق شخصية المؤلف ، حياته ، عصره ، وثقافته .

وأفردت القسم الثانى للحديث عن كتابه الكناش ، أهميته ومصادره المختلفة ، والحقت بهذا القسم دراسة عامة لأهم تجاربه ودراساته واعماله الطبية فى بيمارستانات بغداد ، ومع تلك الشخصيات المشهورة التى عاصرها فى زمنه .

أرجو أن تكون هذه الدراسة قد أسهمت باضافة جيدة لتاريخ العلوم عند المسلمين ، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

القســـم الأول

التعريف بالكشكرى : حياته ، عصره ، ثقافته ، ومصنفاته •

حياته وتحقيق شـخصيته :

على الرغم أن كتاب « عيون الانباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة يعتبر مصدراً أولياً وجامعاً للكثير من مشاهير الطب فى تاريخ الاسلام ، الا انه يبدو من خلال نظرتنا فى بعض الكتب الطبية الأخرى انه صب اهتمامه او اقتصر على ذكر أولئك الأطباء الذين اشتهروا شهرة واسعة واقترنت شـــهرتهم بمؤلفاتهم الطبية التى لقيت انتشـــاراً بين الناس ، أما تلك الفئة الأخـــرى من أطبـــاء المحققين الذين اشتهروا بأعمالهم الطبية ومعالجتهم فى الميدان العملى سواء أولئك الذين كانوا يطببون النـــاس فى منازلهم أو أولئك الذين اشـــتهروا بمداواتهم فى البيمارستانات المنتشرة فى المشرق والمغـــرب ، ولم يكن لهم مصـــنفات تنشر أسماءهم بين الناس ، هذه الفئة من الأطباء العمليين المهرة لم نجد لها ذلك الاهتمام فى كتابه « عيون الانباء » •

ولعل سبب ذلك يعـــود الى المنهج الدقيق الذى انتهجه ابن أبى أصيبعة فى كتابه ، اذ انه كان يهدف الى الوصـــول الى أدق المعلومات وأصدقها فى ترجمته لأعلام الأطباء ، فنلاحظ غالبـــا أنه كان يربط فى تحقيق شخصيات كتابه بالاعتماد على مصنفاتهم الطبية ومدى شهرتها بين الناس ، فى سبيل الكشف عن مدى انتمائهم لمهنة الطب ، واعطاء افضل المعلومات عن حياتهم •

انه بالقاء نظرة سريعة على كتاب « الكناش » للكشكرى ، يعطينا صورة واضحة للكثير من أسماء الأطباء الحذاق الذين كانوا يعملون فى بيمارستانات بغداد ومدن العراق الأخرى ولم تجد تلك الأسماء طريقاً الى كتاب ابن ابى أصيبعة(١) •

والكشكرى كان واحداً من مهرة الأطباء العمليين المغمورين ، والذى

قضى شـــطراً كبيراً من حيـــاته فى المعالجـة والتطبيب ، وتقلب بين بيمارستانات بغداد الشـــهيرة مثل : « مارســـتان صاعد رحمه الله(٢) ومارستان بدر رحمه الله(٣) ، ومارستان الســـيدة أم أمير المؤمنـين المقتدر(٤) اعزهما الله »(٥) ، كما انه خدم عدداً من الخلفاء الى جانب مجموعة من الأطباء(٦) أمثال : « جـــابر المتطبب الذى كان فى دار الخلافة ، وكان تلميذ حبيش ، وكان يدخـل الى المعتصـم مع حبيش الأعسم »(٧) ، واشتهر حتى أنس بمعالجته وتطبيبه الوزراء والقواد، أمثال الوزير القراريطى(٨) فقد كان هذا الوزير يعتمد عليه فى المداواة الى حد بعيد(٩)،ومن الكبراء أشرافه على معالجة أبى الفوارس ياقوت، اذ تدل النصوص المتكررة على انه لازمه مدة طويلة(١٠) ، وأبى على عمر بن يحيى العلوى(١١) ، والقشورى(١٢) ، وأمثالهم ٠

وبتتبع كتاب ابن أبى أصيبعة نجده لا يذكر ما يشير الى شخصية الكشكرى ولم ينبه الى اية معلومات تكشف لنا شخصيته وحياته ومولده، واين عاش ، سوى انه اعطى اشارة سريعة فى ترجمته لسهل الكوسج الطبيب وذكر انه كان من اقرانه عـــدد من الأطباء من بينهم « يعقوب صاحب البيمارستان(١٣) ولا نعلم حقيقة هل قصد به مؤلفنا أم لا ، لأن الفترة التى عاش فيها هؤلاء الأطبـــاء جميعا كانت الى حدود الســـنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م ، والدلائل تشير الى أن يعقوب الكشكرى اشتهر وبرز فى نهاية القرن الثالث وشطراً كبيراً من القرن الرابع الهجرى ٠

كما اننا لا نستطيع أن نقطع باليقين فى كشف شخصيته بما اشار اليه ابن أبى أصيبعه فى ترجمته لأبى الحسين بن كشكرايا والذى اثنى عليه بانه : كان طبيباً عالماً مشـــهوراً بالفضـــل والاتقان لصناعة الطب وجودة المزاولة لأعمالها »(١٤) ٠

واذا اعتبرنا المعـــلومات التى أوردها ابن أبى أصـــيبعه عن ابى الحسين بن كشكرايا ، وقارناها بتلك المعـــلومات التى أوردها يعقوب الكشكرى فى كتابه الكناش لوجدنا هناك تقاربا وتجانسا بين الشخصيتين الى حد ليس بالقليل ونستطيع أن نجمل تلك القرائن فى النقاط التالية :

★ ان الاثنين عاشا تقريباً فى فترة واحدة نستطيع تحديدها بشكل نسبى منذ نهاية القرن الثالث الهجرى وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى ٠

★ يلاحظ أن ابن كشكرايا تلقى تعليمه على يد سنان بن ثابت بن قرة(١٥)،كما أن الكشكرى تلقى تعليمه على يد ثابت بن قرة(١٦) والد سنان ، والزيادة والتصحيف والسقط ، والخطأ والنسيان وارد بشكل أو آخر على يد الناسخين كما هو معلوم ٠

★ يذكر ابن ابى أصيبعة أن ابن كشكرايا كان : « له حقنه تنفع من قيام الأغراس والمواد الحادة ، ويعرف بصاحب الحقنة »(١٧) ، ويعقوب الكشكرى يذكر انه كان له دربة جيدة بالعمل « بالزراقة ـ المحقنة(١٨) وقد عالجت انا بهذه الصفة لمن تقوم له المدة(١٩) فى المقعدة فى أول المعا المستقيما »(٢٠) ٠

★ يذكر ابن ابى أصيبعة أن لابن كشكرايا من التصانيف : كناشة المعروف بالحاوى ، وكناش آخر باسم من وضعه اليه(٢١) ، وماهو معروف ليعقوب الكشكرى من المصنفات كتابه الأقرباذين(٢٢) اشار اليه فى كتابه هذا المعروف بالكناش(٢٣) ٠

ومما يلفت النظر فى كناش يعقوب الكشكرى أنه كتب فى أول ورقة فيه تصحيفاً « كتاب كناش بن سرافيون » كما يوجد بعد ذلك قوله : « الباب الأول من هذا الكتاب فى تولد الشعر فى سائر البدن من كناش ابن سرافيون الكبير »(٢٤) ، والسؤال المراد طرحه هنا هل أن ابن ابى اصيبعة كان يقصد هذا الكناش عندما قال فى حق ابن كشكرايا : بان له كناش آخر باسم من وضعه اليه(٢٥) ، فمن المحتمل جداً أن يكون ابن ابى أصيبعة قد اطلع على هذه النسخة الفريدة أو نسخة منقولة عنها وهى كناش الكشكرى لا سيما وان تاريخ نسخها هو سنة ٥٩٧هـ/١١٧١م والمعروف أن ابن أصيبعة توفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م ٠

ولعله من أقوى القرائن التى توحى بتقارب الشخصيتين ، أن ابن

أبى أصيبعة ذكر أن أبا الحسين بن كشكرايا كان فى خدمة الأمير سيف الدولة بن حمدان ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م ثم انتقل بعد ذلك الى بغداد(٢٦) ، ونجد أن يعقوب الكشكرى يقول : انه عالج جارية محمـــد بن على بن مقاتل(٢٧) ، وابن مقاتل هـــذا كان أحـــد قواد الدولة الحمـــدانية بالموصـــل(٢٨) .

فما أشرنا اليه آنفاً اضافة الى القرائن السابقة ، تلقى أضواء جيدة بصورة أو باخرى تجعل الشك يقرب الى اليقين أن ابن كشكرايا ويعقوب الكشكرى اسمين لشخصية واحدة بدأ حياته الطبية فى الموصل ، أو واسط اللتين سيطر عليهما الحمدانيون آنذاك ، ثم انتقل الى بغـداد وهناك اشتهر وبدأ دوراً جديداً فى حياته .

ويبدو أنه من المؤكد أن يعقوب الكشكرى عاش فى الفترة الواقعة بين سنتى ٢٧٠هـ/٨٨٣م و ٣٧٠هـ/٩٨٠م ويظهر ذلك واضحاً من خلال كتابه الكناش ، اذ انه ذكر فيه أحداثاً وقعت له فى هذه الفترة وذلك من خلال عمله فى بيمارستان صاعد ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م ، وبيمارستان السيدة والدة الخليفة المقتدر ت ٣٢١هـ/٩٩٣م وبيمارستان بدر غلام المعتضـــد ت ٢٨٩هـ/٩٠١م ، هذا بالاضافة الى ذكره للعديد من أعلام الفترة الذين كان يعالجهم أو تربطه بهم رابطة الصداقة أمثال شفيع(٢٩) ، ومحمد ابن احمد القراريطى الوزير ت ٣٢٩هـ/٩٤٠م ، وأبى الفوارس ياقوت المدبر(٣٠) الذى يبدو أنه لازمه فترة طويلة للمعالجة والتطبيب حتى أثناء حروبه فى الكوفة(٣١) ، وأبى عبد الله البريدى(٣٢) ، وأحمد ابن نصر القشورى حاجب الخليفة المقتدر(٣٣) ، وابن مقاتل ، كما ذكر لنا يعقوب الكشكرى فى كتابه هذا العديد من أسماء الأطباء الذين كانوا يعملون معه فى بيمارستانات بغداد ، وكان بالامكان الاستفادة منها بشكل كبير لتحديد ولادة أو وفاة الكشكرى أو على الأقل تحديد فترة حياته بدقة أكثر ، الا أن المصادر المهتمة بتراجم الأطباء لم تعطنا معلومات كافية عن أولئك الأطباء ، ولم تذكر على الأقل سنة ولادة أو وفاة واحد منهم ، هذا بالاضافة الى أن الكشكرى لم يعطنا أسماءهم كاملة مما سيعين على كشف شخصياتهم وحياتهم ، بل نجده يكتفى أحياناً بذكر الاسم فقط مثل

حارث(٣٤) حسن(٣٥) جابر المتطبب(٣٦) سليمان الجرائحى(٣٧) ، ان هذه أسماء وأمثالها كثير لم تسعفنا المصـــادر باعطاء اى معلومات عنهم البتة .

اما بالنسبة لسنة ولادة يعقوب الكشكرى فلا نستطيع تحديدها بسنة معينة الا انه اخبرنا انه تلقى تعليمه على يد الطبيب الماهر ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م ، وبمقارنة هذا التاريخ مع تواريخ وفيات من عاصرهم من المشاهير ، تفيد أن يعقوب درس على يد ثابت وهو لازال يافعا فى أول حياته ، ويبدو أن ذلك كان فى أواخر سنى ثابت بن قرة ، مما يعطينا يقينا ان يعقوب الكشكرى ولد بعد أو قبل سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م بسنوات قليلة .

ثقافته ومصنفاته :

مما سبق ظهر لنا أن يعقوب الكشكرى عاش خلال الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى وحتى ما بعد منتصف القرن الرابع الهجرى وكانت من فترات العصر العباسى الثانى التى شهدت سيطرة العناصر الأجنبية، وضعف الخلافة ، وتدهور الأوضاع السياسية الذى أعطى الفرصة للكثير من الطامعين كالقواد الأتراك الذين سيطروا على الأمور بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م(٣٨) سـيطرة كاملة ، وزادت بينهم المشـاحنات والمؤامرات والدسائس ، وكثرت الفتن وقل الأمن ، وأدى ذلك الوضـع المتدهور الى ظهـــور ثورة الزنج(٣٩) التى أثارت الرعب فى حاضرة الخلافة العباسية بقيادة العلوى المزعوم ، واستمرت هـــذه الفتنة حتى قضى عليها أبو أحمد الموفق بعد حرب استمرت سنين عديدة وذلك سـنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م(٤٠) .

ثم كانت حركة القرامطة والتى بدأت نيرانها تضطرم سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م(٤١) ، بالاضافة الى ذلك فان هذا العصر شاهد استقلال العديد من الدويلات بالمشرق الاسلامى كالدولة الطاهرية ، والزيدية ، والصفارية ، والسامانية ، وانتهى الأمر بظهور الدولة البويهية التى سـيطرت على مقاليد الأمور فى بغداد ودار الخـلافة العباسـية منـذ عام ٣٣٤هـ/

٩٤٥م(٤٢) ، وبدخول البويهيين بغداد بدأت مرحلة جديدة من مراحل الانحلال السياسى فى دار الخلافة العباسية والمشرق الاسلامى ، الا أنها كانت العصر الذهبى للمشرق الاسلامى فى ميادين الفكر والعلم والأدب، اذ لا شك انه كان من أهم حسنات البويهيين سلاطينهم وأمرائهم ووزرائهم هو اهتمامهم بالعلم والأدب وتشجيعهم للعلماء والشــعراء ، وتبنيهم للمفكرين على مختلف فئاتهم وانتماءاتهم ، وأدى ذلك حقيقة الى أن يجتمع فى هذا العصر من الاجلاء والمبدعين منهم مالم يجتمع فى غيره من العصور .

عاش يعقوب الكشكرى فى هذه الفترة المضطربة سياسياً ، المستنيرة فكراً وعلماً ، انها فترة مخضرمة شهدت اكتمال حركة الترجمة من العلوم الأجنبية الى اللغة العــربية فى كافة ميادين العلم والمعــرفة ، وبداية الانتفاضة العلمية العربية الاسلامية ، التى ظهر للناس فيها علم جديد ومفيد على يد المفكرين المسلمين الذين جعــلوا من المنهج التجريبى طريقهم الأول للتعامل مع العلوم الصرفة والتطبيقية لجنى ثمار المعرفة فى افادة الانسان ورفاهيته(٤٣) .

وبلا شك أن من يعيش من طلاب المعرفة فى مثل هذا المناخ العلمى النشط ، الذى عمر مدن العراق وأقاليم المشرق الاسلامى فى هذه الفترة لابد له أن يتأثر به وينطبع بطابعه ، وهذا ما حدث ليعقوب الكشــكرى الذى استقى من علوم عصره ، وتلقى تعليمه فى الطب وعلومه المساعدة من منطق وخلافه على يد ثابت ابن قرة أحــد كبار الأطباء فى عصره قاطبة ، ولقد ظهر ذلك واضحاً فى كتابه هذا الكناش فان من يطلع عليه ويتصفح أوراقه ويحقق دراساته يدرك أن مؤلفه كان على جانب كبير من التقدم فى علوم الفلسفة والمنطق ، وعلم تقويم البلدان ، والنجوم ، والطبيعة ، أما فيما يخص العلوم الطبية فيتضح تماماً أنه كان متفنناً فى بابها متقنا لأصولها وفروعها ، اذ أن مصادره(٤٤) فقط فى هــذا الكتاب تخبرنا ما كان عليه الرجل من ثقافة وسعة أفق وتبحر فى علوم الطب ، هذا عوضاً عما أودعه فى أبوابه وفصــوله من دراسات جادة وتجارب رائعة فى المعالجة والتطبيب والأدوية(٤٥) .

اما مؤلفاته فهى هذا الكناش ٠

كتاب الأقرباذين ، ذكره فى كتابه الكناش(٤٦) ٠

وعلى الرغم من قلة مؤلفاته ، الا انها ذات أهمية كبيرة فى الطب العملى ، كما أن ذلك يؤكد لنا أن الكشكرى لم يكن لديه ذلك التوجه فى الكتابة الطبية ، أو انه لم يكن لديه الوقت الكافى للتاليف بسبب انشغاله فى البيمارستانات الثلاثة ، وعمله مع بعض الكبراء فى عصره ، اذ يبدو انه كان يهتم بالممارســة العملية والتطبيب أكثـــر من اهتمامه بالطب الاكاديمى التاليفى،ولعل ذلك كان من أهم الأسباب فى غموض شخصيته٠

القســم الثـانى

التعريف بكتاب الكناش ليعقوب الكشكرى وتحقيق نسبته :

ان النسخة الوحيدة المعروفة الى الآن من كتاب الكناش للكشكرى موجودة فى مكتبة آياصوفيا برقم ٣٧٦١(٤٧) ، وكتب على الورقة الأولى منه تصحيفاً كتاب كناش بن سرافيون فى الطب » ، كما كتب فى الباب الأول(٤٨) « الباب الأول من هذا الكتاب فى تولد الشعر فى سائر البدن من كناش بن سرافيون الكبير » ، وهذا حقيقة ما حدا ببروكلمان الى الاعتقاد بأن هـــذا الكتاب هـــو الكناش الكبير ليحيى (يوحنا) بن سرافيون(٤٩) ، كما ورد ذلك أيضاً فى كتاب ـ فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيـــا(٥٠) ، اذ نسب الكتاب الى يحيى بن سرافيون ٠

والكتاب حقيقة ليس لابن سرافيون انما مصــنفه هو يعقـــوب الكشكرى ، فقد اشار الكتاب الى ذلك مرات عــديدة اذ يقول : « قال يعقوب الكشكرى » ، واحداها أكدت يقينا نسبة الكتاب اليه حيث قال : « قال يعقوب الكشكرى جامع هذا الكتاب »(٥١) ٠

ويقع هـــذا الكناش فى ٢٩٣ ورقة بمقياس ١١ر٦ × ٧ر١٨ سم وكتب بخط نسخ ليس فيه عناية ولا جمال ، وكان نسخه سنة ٥٩٧هـ ، أما

عـــدد الأسطر فلا يتجاوز واحداً وعشرين ســـطراً ولا يقل عن تســعة عشر ســطراً .

وكتب على الورقة الأولى عنوان الكتاب خطأ حيث نسب الى ابن سرافيون كما مر ، أما بقية الأوراق حتى الورقة ٦ب فقد خصصت لذكر فهرس الكتاب ، بخط سيء غير واضح وكتب بقلم غير ذاك الذى كتب به المتن ، ويبدو أن هذه الأوراق ليست ضمن أصل الكتاب ، انما أضيفت على يد أحد النساخ فيما بعد ، كما يلاحظ وجود بعض الحواشى على جانبى الأوراق كتصحيح أو تعليق أو تفسـير لبعض الكلمات أو اكمال لبعض الجمل الناقصة .

والمتتبع لأبواب وأوراق الكتاب بدقة يدرك تماماً أن الناسخ له نسخه من مخطوط آخر يكثر فيه النقص ، وعدم الدقة والتنظيم ، والتقديم والتأخير فى ابوابه وأوراقه ، مما اســتنفذ وقتاً طــويلا لمحاولة ربط موضوعات الكتاب بشكل يؤدى الى تحديد الوحدة الموضوعية لكل مادة، وذلك لمعـــرفة المنهج العلمى الذى اتبعه المؤلف فى معالجة موضـوعات الكتاب لأن معرفة ذلك سيؤدى بالتأكيد الى الاستفادة منه بشكل جيد .

مصادر الكشكرى فى كتابه الكناش :

لعله من أهم المزايا التى اتصف بها العلماء والمفكرون المسلمون ، لأمانتهم العلمية وأخلاقهم الكريمة وسيرتهم القدوة ، وحسن أدبهم مع معلميهم ، وتقديرهم لمن سبقهم من المفكرين الذين أسدوا خدمات جليلة فى تاريخ العلم .

وفى القرن الثالث الهجرى ، كانت كتب القدماء لا تزال مصـــدراً أولياً للعلماء المسلمين فى كافة جوانب العلوم الصرفه والتطبيقية على الرغم من التطور الكيفى الذى حدث لتلك العـــلوم على أيدى العلماء المسلمين بعد معرفتهم وتطبيقهم المنهج التجريبى فى التعامل مع تلك العلوم ، الا أن أفاضل من علماء اليونان فى الفلسفة والطب والطبيعيات كانت لا تزال كتبهم هى المنبع الوحيد للعلماء المســلمين فى العـــلوم الحكمية ، فكثيراً ما نجد فى كتب جابر بن حيـــان الكوفى وحنين بن

اسحاق العبادى ، وثابت بن قرة ، وابن ربن الطبرى ، وأبى بكر الرازى ، وأمثالهم من الأطباء قولهم : قال المعلم ابقراط ، قال الفاضل جالينوس ، قال الأستاذ ، قال الحكيم ، فكانوا يعترفون لأهل الفضل بفضلهم ، ويقرون لأهل العلم بعلمهم ، وكانوا هم أهل الفضل والعلم .

ولقد كان يعقوب الكشكرى واحداً من أولئك الأطباء المسلمين الذين نهلوا وتعلموا وتأثروا بفكر العصر الذى اتسم برواج المعارف اليونانية القديمة وكتبها ، فى ظل حركة الترجمة النشطة فى القرن الثالث الهجرى .

ولذلك نلاحظ أن كتابه الكناش هذا اعتمد فى تصنيفه بشكل كبير على كتب ، وأقوال ، واشارات العلماء والمفكرين الأغريق القدماء ، وذلك فى الجانب النظرى ، اما فى الجانب العملى فبطبيعة الحال لابد أن أن يكون مصدره الأولى هو ما ثبت نفعه وفائدته بالتجريب على يد الأطباء المسلمين الذين عاصرهم وأخذ عنهم فى هذا العصر ، اضافة الى اعتماده على كتب البعض منهم فى الجانب النظرى والعملى على حد سواء .

ونستطيع أن نقسم مصادره الى قسمين :

أولا : المصادر اليونانية .

ثانيا : المصادر العربية .

اولا : المصادر اليونانية :

مصنفات جالينوس : وجالينوس آخر كبار الأطباء الذين ظهروا فى العصور القديمة ، بل انه أفضلهم جميعا ، ولم يأت بعده من الأطباء الا من هو دون منزلته ومتعلم منه ، وكان زمان ولادته بعد ابقراط بنحو ٦٥٠ سنة ، أى بعد زمان المسيح عليه السلام بنحو مئتى سنة ، جدد العلوم الطبية بعد اندثارها وانمحاء محاسنها ، وصنف مالا يقل عن مائة وعشرين كتاباً فى الطب والعلوم الحكمية(٥٢) ، وظلت مصنفاته من

أهم مصادر تعليم الطب حتى القرون الأربعة الهجرية الأولى(٥٣) حين ظهرت كتب المبدعين من الأطباء المسلمين أمثال الرازى ، وابن سينا ، والزهراوى وغيرهم ، أما كتبه تلك التى اعتمـــدها الكشكرى كمصادر لتاليف كتابه الكناش فان أغلبها كانت من ضمن تلك الكتب التى قررها اطباء الاسكندرية لتعـليم الطب ، وكانت أهم مصـــادر عصره للتعليم والتاليف الطبى وهى على النحو التالى :

١ - كتاب تركيب الأدوية : وقد سماه الكشكرى « الأدوية المركبة » « وكتاب جالينوس هذا سبع عشرة مقالة ، السبع الأولى منها عرفت لدى الأطباء المسلمين باسم « كتاب قاطاجانس » ، والعشر مقالات الأخرى عرفت لديهم باسم « كتاب الميامر »(٥٤) .

ولقد اعتمد الكشكرى على كتاب جاليونس هذا فى أكثر من أربعين موضعاً مما يظهر أهمية كبيرة لهذا الكتاب فى هـــذه الفتـرة باعتباره المصدر الأول لعلم الصيدلة وتركيب الأدوية .

٢ - كتاب جالينوس الى اغلوقن فى التانى لشــفاء الأمــراض : واغلوقن كان من الفلاسفة على عهـــد جالينوس ، وكان يجمعهما حب العلم وتمجيد الحكمة فطلب منه أن يؤلف له كتاباً فى الطب ، وترجم هذا الكتاب الى العربية حنين بن اسحاق العبادى ، واعتمد عليه الكشكرى فى أكثر من عشرة مواضع(٥٥) .

٣ - كتاب حلية البرء : وهو أربع عشرة مقالة ذكره الكشكرى فى سبعة مواضع ، ترجمه حبيش الأعسم ، وصححه حنين بن اسحاق(٥٦) .

٤ - كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة : ترجمة سرجس ، وكانت ترجمته غير دقيقة ، ثم ترجمه حنين بن اسحاق ، وترجمه أيضا حبيش الأعسم الى العربية(٥٧) .

٥ - كتاب الأدوية المفردة : ترجم الكتاب الى العربية والى السريانية فى القرن الثانى من الهجرة ، على أن افضل ترجمة له بالعربية هى تلك التى قام بها حبيش الأعسم ترجمه لأحمد بن موسى(٥٨) وقد اعتمد

الكشكرى على هذا الكتاب فى تحقيق المعالجة بالأدوية المفردة وذلك فى مواضع متعددة ٠

٦ - كتاب اصناف الحميات : ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية والسريانية(٥٩) ٠

٧ - كتاب المواضع الآلمة : لم أجد فى رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحيى ، ولافى الفهرست للنديم ، ولا فى عيون الانباء كتاباً بهذا الاسم لجالينوس ، ولعل الكشكرى قصد بهذا الكتاب العشر مقالات الأخيرة من كتاب تركيب الأدوية لجالينوس وهى المعروفة بالميامر وقد جعل جالينوس عنوانها « فى تركيب الأدوية بحسب المواضع الآلمة » ، ويوجد بعنوان « كتاب المواضع الآلمة من كتب جالينوس » نسخة فى آيا صوفيا برقم ٣٥٨٩(٦٠) ٠

٨ - كتاب ابدال الأدوية ، كذلك لم أجده فى رسالة حنين ، والفهرست ، ذكر ابن ابى اصيبعة أنه مقالة واحدة ، توجد منه أوراق فى سليم آغا بتركيا برقم ٨٨٣-٣(٦١) ٠

٩ - كتاب الأعضاء المتشابهة : واسمه كتاب فى اختلاف الأعضاء المتشابهة الأجزاء » وهى مقالة ترجمها عيسى بن يحيى(٦٢) ٠

١٠ - كتاب تدبير الأصحاء : ذكره النديم فىكتابه بهذا العنوان وهو من ترجمة حبيش الأعسم ، ويقع فى ست مقالات(٦٣) ، وسماه حنين ابن اسحاق « كتاب فى الحيلة لحفظ الصحة » وذكر له ترجمات متعددة الى السريانية ، كما ذكر أنه ترجمه ابنه اسحاق الى العربية بالاضافة الى ترجمة حبيش الأعسم له لمحمد ابن موسى(٦٤) ٠

١١ - مقالة فى صفات لصبى يصرع : ترجمها ابراهيم بن الصلت الى السريانية والعربية(٦٥) ، وسماها الكشكرى « مقالة فى تدبير صبى يصرع » ٠

١٢ - كتاب النبض الكبير : من أهم كتب جالينوس الطبية ، ترجمه العديد من الأطباء الى السريانية والى العربية مثل أيوب الرهاوى وحنين ابن اسحاق ، وحبيش الأعسم(٦٦) ٠

١٣ - كتاب قوى الأغذية : سماه الكشكرى كتاب الأغـــذية ترجمه حنين الى السريانية والعربية ثم ترجمه حبيش الأعسم بشكل أدق لمحمد ابن موسى(٦٧) ٠

١٤ - كتاب الترياق : لجالينوس كتابان فى الترياق أحدهما «كتاب فى الترياق الى بمفوليانس» وترجمه عيسى الى العـــربية ، والآخـر «كتابه فى الترياق الى فيســن» ترجمـــــه يحى بن البطـــــريق الى العربية(٦٨) ولا نعلم أى الكتابين يقصد الكشكرى ٠

١٥ - مقالة فى الرعشة والنافض والاختلاج والتشنج : ترجمة حبيش الأعسم الى العربية(٦٩) ٠

١٦ - كتاب الصناعة الصغيرة : مقالة واحدة أوجز فيه جالينوس علم الطب ، وجعله بذلك نافعا للمتعلمين وللمستكملين ، ترجمة العديد من التراجمة الى السريانية وترجمــــه حنين الى العـــربية لمحمـد بن موسى(٧٠) ٠

١٧ - كتاب الفرق : مقالة واحدة ، جعله جالينوس أول كتاب يجب على متعلم الطب قراءته ابتداء ، ليعلم الطالب فرق الطب وآرائهم من أصحاب التجربة ، والقياس ، والحيـل ، ترجمه حنين الى العـــربية لمحمد بن موسى(٧١) ٠

١٨ - كتاب فى المرة السوداء : ترجمه أصطفن الى العربية ، ثم ترجمه حنين بن اسحاق بعد ذلك(٧٢) ٠

١٩ - كتاب الميامر(٧٣) ٠

٢٠ - كتاب النبض : فى ثمان مقالات ذكــر حنين أنه لم ير له نسخة باليونانية(٧٤) ٠

٢١ - كتاب النبض الصغير : وهو اختصار لكتابه النبض الكبير ، بحيث جعله مقالة واحدة ، ترجمها سرجس الى السريانية(٧٥) ٠

مصـنفات ابقراط :

ومن ضمن الكتب اليونانية التى اعتمد عليها الكشكرى فى تصنيف كتابه الكناش،بعض مؤلفات ابقراط الطبيب المعروف الذى عاش قبل المسيح عليه السلام بنحو ٤٥٠ سنة وكان على أيام الملك الفارسى بهمن اردشير، يعتبر ابقراط من رواد الأطباء فى العالم ، فقد جاء فى وقت اندثرت فيه الصناعة الطبية بسبب انحصارها فى أسرة آل اسقلبيوس ، فعمل ابقراط على نشرها فى عامة الناس فيمن تتوفر فيه الشروط اللازمة لأن يكون طبيباً ماهراً ، الف فى حدود ثلاثين كتاباً فى الطب قرر أطباء الاسكندرية اثنا عشر كتاباً منها لتعـليم الطب للمتعلمين بعـد كتب جالينوس الستة عشر(٧٦) ، وكانت كتبه التى قررها أطباء الاسكندرية من أهم مصادر تعليم الطب فى عصر يعقوب الكشكرى ، بل ان كتبه تلك لم تفقد أهميتها التعليمية لدى بعض الأطباء المسلمين فى العصور اللاحقة وقد اعتمد الكشكرى فى كتابه هذا على عدد منها وهى كالآتى : -

١ - كتاب الفصول : اختصر فيه أبقراط عدداً من كتبه الطبية ، ظل كتابه هذا ذا قيمة علمية للمتعلمين حتى الف الرازى كتابه «الفصول» فاقبل عليه طلبة الطب وأهملوا فصول ابقراط ، وقـد اعتمد الكشكرى على الفصول لأبقراط كثيراً اذ كان من كتبه المقررة للمتعلمين ، ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية(٧٧) .

٢ - كتاب ابيديما : ويسمى أيضاً الأمراض الوافدة، فسره جالينوس وترجمه حنين بن اسحاق الى العربية(٧٨) .

٣ - كتاب الأمراض الحادة : ويسمى أيضاً « تدبير الأمراض الحادة لجالينوس » ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية(٧٩) .

٤ - كتاب عهد ابقراط الى أهل صناعة الطب ، ويعرف أيضاً بكتاب الايمان ، جعله ابقـراط للمتعلمين ، وللمعلمين ، بحيث لا يخالفـوا ما شرطه عليهم فيه(٨٠) .

مصـنفات يونانية أخرى :

١ ـ كتاب طيماوس : لأفلاطون بن أرسطن الفيلسـوف اليونانى المعروف (ت ٣٤٧ ق٠م) وكتابه هذا فى الطب بعث به الى تلميذه طيماوس(٨١) ، واعتمد الكشكرى على كتابه هذا فى مواضع عدة ٠

٢ ـ كتاب فى داء الماليخوليا : لروفس الحكيم الطبائعى من أشهر الأطباء والحكماء بعد ابقراط وقبل جالينوس ، وهو من مدينة أفسس له الكثير من الكتب فى الحكمة والطب(٨٢) ٠

٣ ـ مقالة فى الألبان : لروفس الحكيم(٨٣) ٠

٤ ـ كتاب الأحجار : للفيلسوف أرسطو طاليس بن نيقوماخس ، صاحب دار التعليم المنسوبة الى الفلاسفة المشائين ، أخذ الحكمة عن افلاطون واشتهر حتى أصبح من أساطين الحكمه المعروفين ببلاد اليونان(٨٤) ٠

٥ ـ كتاب الكى : لأفلاطون المعروف بصاحب الكى ، قيل ان جالينوس أخذ عنه(٨٥) ٠

٦ ـ كتاب الكناش فى الطب : لفولس الاجانيطى ، ولا يعتبر من أطباء اليونان لأن حياته كانت فى بداية ظهور الاسلام ، عاش بالاسكندرية وكان يعرف بالقوابلى لأنه كان خبيراً بعلل النساء ، كتابه هذا ترجمه حنين بن اسحاق الى العربية(٨٦) ، واعتمد عليه الكشكرى فى مواضع عده ٠

نقولات ومقولات يونانية :

كما واعتمد يعقوب الكشكرى فى تصنيفه لكتابه الكناش على العديد من النقولات والمقولات لبعض الأطباء والحكماء اليونانيين ، دون أن يحدد لنا المصدر الذى استقى منه معلوماته تلك ، انما يشير الى اسم صاحب المقولة أو الكتاب فيقول : فاما فلان فانه زعم ، وقد وصف فلان، كما ذكر فلان ، وقد عمله فلان ، مثل الدواء الذى ألفه فلان ، وفسره فلان ، وقال فلان ويفهم من كلام فلان ٠٠٠ الخ ٠

وقد اكثر من الاستشهاد والنقل عن كتب جالينوس ، فقــد اعتمد عليه فى اكثر من خمسين موضعاً ، أما ابقراط فقد اعتمد على كتبه فى عشر مواضع ٠

هذا بالاضافة الى اعتمــاده على مصنفات العــديد من الأطبــاء والحكماء اليونانيين الآخرين أمثال : اسقلبيادوس ، وارسطو طاليس وذيسقوريدس ، وارسيجانس ، ولوغــاذيا ، وبادريطوس ، وروفس ، واندروماخس ، وثمطريوس ومغنيس رئيس الأطباء على عهد جالينوس٠

ويلاحظ أن هؤلاء جميعاً كما يتضح ذلك من تراجمهم كانوا من اشهر الأطباء فى أزمانهم ، فقد تركو العديد من الكتب الطبية والحكمية، والعشبية ، وترجمت أغلب مصنفاتهم الى العــربية فكانت المعين الأول للدراسة والتاليف الطبى فى العصر الذى عاش فيه يعقوب الكشكرى ، وهو العصر الذى بدأت تظهر فيه المصنفات والموسوعات الطبية الاسلامية٠

المصادر العربية :

مصنفات يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) أحد أشهر أطباء القرن الثالث الهجرى ، تولى أحد بيمارستانات بغداد ، وأصبح الطبيب الخاص للخلفاء من المامون الى الواثق ، ترجــم الكثير من المصنفات اليونانية(٨٧) أما كتبه التى اعتمدها الكشكرى فهى :

١ ـ كتاب الكامل الكبيــر : واعتمد عليه الكشــكرى فى مواضع عــدة(٨٨) ٠

٢ ـ كتاب الحميات(٨٩) ٠

٣ ـ كتاب الكمال والتمام(٩٠) ٠

مصنفات حنين بن اسحاق العبادى :

اشهر المترجمين فى تاريخ الاسلام على الاطلاق ومن كبار أطبــاء القرن الثالث الهجرى ، واشتهر بين الأطباء بعلمه وتآليفه الطبية المتقنة، ولم يشتهر كطبيب عملى (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م) وله العديد من المصنفات

الطبية ، اشتهر بعضها وظل من أهم مصادر التعلم والامتحان الطبى لقرون عديدة ، مثل كتاب العشر مقالات فى العين، وكتاب المسائل(٩١)، أما كتبه التى اعتمد عليها الكشكرى فهى :

٤ ـ كتاب المسائل ، أو المدخل الى صناعة الطب ، بدأ حنين فى تصنيفه وأكمله ابن أخته وتلميذه حبيش ، وكان هذا الكتاب من ضمن الكتب المهمة التى وضعها حنين للمتعلمين على طريق السؤال والجواب(٩٢) .

٥ ـ كتاب الأغذية : وسماه ابن أبى أصيبعة : كتاب قوى الأغذية(٩٣) .

مصنفات طبية عربية مختلفة :

٦ ـ كناش الساهر : واسمه يوسف ويعرف بالقس ، من أطباء القرن الثالث المعدودين ، اشتهر على أيام المكتفى ، واقترن اسمه بكناشه المعروف والمشهور بين الأطباء ، والذى احتوى على الكثير من تجاربه(٩٤)، وقد اعتمد الكشكرى على كتابه هذا فى أكثر من عشرة مواضع .

٧ ـ الكناش الكبير : ليوحنا سرابيون ، ألفه بالسريانية ونقله الى العربية موسى ابن ابراهيم الحديثى سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م ونقله أيضاً الى العربية الحسن البهلول ، وأبو البشر متى(٩٥) ، وقد واعتمد عليه الكشكرى فى عدة مواضع .

٨ ـ كتاب فردوس الحكمة : لأبى الحسن على بن سهل بن ربن الطبرى ، كان على أيام الخليفة المعتصم وأسلم على يديه ، وأصبح له المكانة العالية على أيام المتوكل ، ويعتبر كتابه هذا من أوائل الكتب الطبية التى ألفت فى الطب الطبائعى(٩٦) ، وكان لكتابه هذا منزلة معروفة لدى الأطباء فى القرن الثالث الهجرى .

٩ ـ كتاب الذخيرة فى علم الطب : لثابت بن قرة الحرانى (ت

٢٨٨هـ/٩٠٠م) ، وكان ثابت من كبار الأطباء والحكماء فى القرن الثالث الهجرى ، وصنف عشرات الكتب فى الطب والحكمة والهندسة والفلك والرياضة(٩٧) ، وكتابه هذا عبارة عن كناش طبى الفه لابنه سنان ، ويعد حقيقة من أهم مصادر الطب وتعلمه فى القرن الثالث الهجرى ٠

١٠ - كتاب اصلاح الأدوية المسهلة : لحبيش بن الحسن الدمشقى تلميذ حنين بن اسحاق وابن أخته(٩٨) ٠

١١ - الاقرباذين السابورى : لسابور بن سهل ، كان من الفضلاء فى مهنة الطب علماً وعملا ، واشتهر على أيام الخليفة المتوكل العباسى حيث لازمه ومن بعده من الخلفاء الى المهتدى بالله ، ولازم العمل فى بيمارستان جند يسابور (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) وعلى الرغم من أن الأطباء وتلامذة الطب فى عصر الكشكرى كانوا يعتمدون بشكل كبير فى دراساتهم ومصنفاتهم الطبية على كتب اليونان ، الا أن الكثير من الكتب الطبية التى صنفت منذ بداية القرن الثالث الهجرى فى الدولة الاسلامية كانت لا تقل أهمية عن تلك اليونانية ، بل أن بعضها كان من الأهمية ما فاق المصنفات اليونانية من حيث المنهجية ، والبناء العلمى الذى اعتمد التجريب ، لا سيما تلك المصنفات المتقنة التى لم تفقد أهميتها حتى بعد ظهور الموسوعات الطبية التى برزت كمصنفات طبية أولية فى القرن التالى ، مثل كتاب الذخيرة لثابت بن قرة ، والمسائل فى الطب لحنين بن اسحاق ، وفردوس الحكمة لأبى الحسن على ابن سهل ٠ هذه المصنفات لم تفقد اهميتها التعليمية والطبية فى القرون التالية ٠

نقولات ومقولات لبعض الأطباء العرب :

وبالاضافة الى المصادر العربية السابقة الذكر ، نجد أن الكشكرى اعتمد أيضاً على عدد كبير من المقولات والنقولات لمجموعة من الأطباء والحكماء العرب والمسلمين دون أن يحدد لنا مصدره فى ذلك ، وأحيانا يحدد لنا اسم القائل أو اسم مؤلف الكتاب الذى اعتمده ، وأحياناً أخرى يهمل الاسم ٠

كما اننا لا نستطيع تدقيق بعض مصادره المقولة والمنقولة تلك ،

أهو سمعها مباشرة من أصحابها ؟ أو قــرأها ؟ أو رويت له ؟ أو قرئت عليه ؟ فيقول أحياناً « ذكر رجل رومى »(١٠٠) ، « وذكر بعض الأطباء الكحالين »(١٠١) ، « وذكر بعض الأطباء »(١٠٢) ... الخ .

هذا بالاضافة الى انه أحيانا أخــرى ينســب المقولة أو المعلومة المستقاة الى عدد من الأطباء جملة ، ولا نعلم نوعية مصدره فى ذلك هل هو عن طريق المصادر المكتوبة ؟ أو المسموعة ومثال ذلك قوله : « صفة كحل تسمية الكحالين بالبصرة »(١٠٣) وقــوله : « وهــو من أسرار الــكحالين بالبصرة »(١٠٤) ، وقوله « وهــذا يسـميه كحــالو البصرة ... »(١٠٥) .

أما الغالب الأعم من تلك النقولات فنجده يحدد أسماء قائليها دون ذكر اسم مؤلفاتهم وهى كثيرة جــداً منها قوله : « وجابر بن حيـان الصوفى يقول فى بعض كتبه »(١٠٦) ، وقوله : « وكان سنان يعمـل جوارشن »(١٠٧) ، وقوله : « وهذه نسـخة أبو سـعيد سنان بن ثابت »(١٠٨) ، وقوله : « صفة قرص ذكره ثابت بن قرة »(١٠٩) .

دراسات الكشكرى وتجاربه وأعماله الطبية :

لقد سبقت الاشارة الى أن يعقوب الكشكرى يعد من أطباء القرن الثالث الهجرى ، الذين كان لهم تجارب وخبرات عملية وافرة ، وذلك من خلال عمله الذى استمر زمناً طويلا فى بيمارستانات بغداد،فقد هيأ له ذلك فرصة جيدة للالتقاء بالكثير من أطباء عصره ، وبالكثير من المرضى الذين يطببهم ويشرف على معالجتهم ، وبالتــالى فان « تجــارب ، ومعالجات ، وأحداث ومشاورات طبية مختلفة قد حدثت له بالضرورة، وكان ما رآه وعاينه ، ومنها ما سمعه أو وصف له ، فكانت بذلك من ضمن أهم مصادره فى تاليف كتابه هذا(١١٠) ، فان من يطلع عليه سيدرك مدى اهتمام المؤلف بهذا النوع من الدراسة الميدانية .

ان هــذا الكتاب تنطوى أهميته على ما أودعه فيــه المؤلف من دراسات طبية جادة ، فقد أعطى صورة مشرفة عن الفكر الطبى خلال

ذلك العصر ، اذ تشير مباحث الكتاب الى الكثير من الأفكار الطبية الجديدة ، والمعالجات الغريبة المتطورة التى تناقش بعض القضايا الطبية التى تشغل بال الأطباء فى العصر الحديث ، والتى لازالت دراساتها فى سبيل التطور والبحث ، فالكتاب تناول مثلا وفى أماكن كثيرة الجراحة التجميلية ، وأعطى أنواعاً من الوصفات الطبية التى تتناول وتعالج هذا الجانب من الطب ، وكان لها آثاراً ايجابية بشكل مثير .

اما ما تفرد به هذا الكتاب عن كثير من كتب الطب العربى فانه قدم لنا وصفاً رائعاً وشيقا عن التطبيب العملى ، والمعالجة ، وكيفية التعامل مع المرضى والأمراض ، والأدوية فى بيمارستانات بغداد فى القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، وهذا حقيقة مالا نجده فى كتب الطب الأخرى للأطباء المسلمين ، فالكشكرى هنا يصف لنا الأمراض التى تناولها فى كتابه ، ويعطينا عنها دراسة علمية واضحة معتمداً فى ذلك على امهات مصادر الطب فى عصره ، ثم نجده بعد ذلك يوضح لنا الطريق الأمثل فى التعامل مع كل مرض وكيفية علاجه ، ذاكراً العديد من الأمثلة عن معالجاته الطبية ، وأسماء الحالات المرضية والكثير من أسماء اصحابها ، وكيف تمت المعالجة وكيف كانت النتيجة ، وهو فى ذلك كله لا يقتصر على معالجاته فقط ، بل يذكر لنا الكثير مما شاهده وعاينه فى بيمارستانات بغداد من مرضى وحالات مرضية مختلفة ومعالجات لأطباء آخرين .

وسنعرض لأهم ما ورد فى كتابه هذا من دراسات طبية ، ومعالجات ومجربات ، لا سيما تلك التى تتسم بالسمة العملية وكان لها قيمة طبية جيدة .

فنجده يتحدث فى الباب الأول عن أسباب وجود الشعر فى جسم الانسان ويعلل سبب اختلاف الشعر عند البشر ما بين كثيف وقليل ، وجعد وسبط ، وأسود وأشقر وابيض ، فيعلل سبب ذلك الى اختلاف أمزجة الأجسام ، وما يتبع ذلك من اختلاف الأقاليم وتاثيرها على

السلالات البشرية ، ويضرب لنا بذلك الأمثلة على أهل الحبشة والهند والصقالبة(١١١) ٠

على أن أهم ما تعرض له فى هـــذا الجانب هو مناقشته لمسألتين مهمتين هما : -

الأولى : الأمراض التى تصيب الأماكن التى يتولد فيها الشـــعر كالرأس وبعض أجزاء الجسم كمرض داء الثعلب - الثعلبة - اذ يقول عنه : « فاما داء الثعلب فمن الأمراض التى تخص الرأس فيتقرع الشعر، وربما تعدى فيتقرع أيضاً شعر اللحية والأجفان والحواجب وسائر البدن حتى يصـــير الجـــلد أملس براق ٠٠٠ ومولدها عن رطـــوبة رديئة متعفنة »(١١٢) ٠

وتناول داء الحية والفرق بينه وبين داء الثعلب فذكـــر أن داء الحيه يسبب الصلع ، الا أن مسببات أقوى تؤدى مع الصـــلع أيضاً الى انسلاخ وتقشر فى الجلد ، وقد رأى ذلك بنفسه فيقول : « وهذا الصنف من داء الحية رايته فى بيمارستان صاعد برجل قد سعى هذا المرض فى سائر بدنه ، وتشكل بشكل سلخ الحيات وتشققت أطراف أصابعه ، وذكر أصحابنا أنها صنف مـــــن داء الحية »(١١٣) ، ثم أعطى الكثير من الوصفات الطبية المختلفة لمعالجة كل مرض على حدة ، ويؤكد أن لبعضها قوة شفائية عجيبة بعد أن اختبرها وجربها(١١٤) ويؤكد ذلك قوله : « فأول ما ينتفع به صاحب هذه العلة ٠٠٠ »(١١٥) ٠

الثانية : وقد أولى أثناء حديثه عن تلك الأمراض ومعالجتها الجانب التطبيقى الدوائى اهتماماً كبيراً ، لا سيما تلك الأدوية التى جربها والتى تهتم بالطب التجميلى نظراً لما تتركه تلك الأمراض من آثار خلقية ، ومن تشويه لأجزاء الجسم مثل الصلع ، وتساقط الشعر ، واكتسابه اللون الأبيض ٠

وساقه هذا الاهتمام الى أن افرد أبواباً وعناوين تعالج نظافة الشعر والاهتمام به ، ذاكراً انواعاً كثيرة من الأدوية ومن الوصفات الطبية التى تخدم الطب التجميلى ٠

فنجده يتحدث عن مرض تساقط الشعر والذى تسببه تلك الأمراض، مما حدا به الى أن جرب العديد من الوصفات الطبية التى تمنع تساقطه، وكان يقوم بعمل تلك الأدوية بنفسه ثم يجربها ، وقد أوصلته التجربة الى معرفة أنواع من الأدوية لها قوة شفائية رائعة فنجده يقول : « وما رأيت دواء أفضل فى علاج تساقط الشعر من دواء يتخذ من اللادن(١١٦) ومن دهن شجرة المصطكى ... »(١١٧) ، ويسوق لنا بعد هذا أدوية أخرى كثيرة ومجربة لعلاج تساقط الشعر الى أن يقول بآخرها : « قال يعقوب مؤلفه وجامعه : هذا ما وجدته وأضفته الى قول جالينوس فى علاج هاء الحية ، وداء الثعلب ، والصلع »(١١٨) .

ثم يفصل فى عناوين متفرقة أنواعاً من الأدوية المركبة منها ما يساعد على انبات الشعر وتطويله ، ومنها ما يمنع انتشار الشعر ، وأدوية أخرى تستخدم لغسل الراس ، وتساعد على ازالة الأوساخ والأبرية ، والحزازة(١١٩) ، والسعفة(١٢) .

وتحدث عن مجريات ومشاهدات حدثت له مع أدوية الزينة كالخضابات التى تسود الشعر ، فقد رأى بعض الأطباء يستخدمون نوعاً منها خضبوا بها شعر رؤوسهم ولحاهم فاكتسبت اللون الأسود ، ومنعت تساقط الشعر(١٢١) .

كما أنه شاهد طبيباً كان نصرانياً ثم أسلم واسمه حبرون وكان أبيض الشعر ، وكان يستخدم خضاباً يسود شعره فساله عن كيفية صنعه فأخبره بذلك(١٢٢) .

واخذ تركيبة مجربة من أحدهم عندما كان بالكوفة ، وكان الرجل يخضب بها لحيته فتسود وتبقى على ذلك أياماً كثيرة لا يتغير لونها(١٢٣) ، وقد أكثر من ذكر هذه المجريات من الخضابات التى تسود الشعر تسويداً شديداً(١٢٤) .

وذكر أنواعاً مختلفة من أدوية الزينة المجربة التى يستخدمها النساء والتى اكد أن لها مفعولا عجيبا ، منها تلك الملونة للشعر فتجعله

اشقراً ، أو احمراً وأدوية أخرى تجعله جعدا متفرقاً ، وأخرى تجعل الشعر المجعد سبطاً ناعماً ، ومنها ماله تأثير عجيب فى ازالة الشعر الزائد من الجسم ، كما أنه لا ينبت اذا طلى الموضع مراراً(١٢٥) .

ثم يعقد الكشكرى فى الفصل الحادى عشر من كتابه الكناش(١٢٦) دراسة علمية عن العين وتركيبها ، وطبقاتها ، واعصابها ، وعروقها ، وأمراضها ، وكيفية الابصار وما لذلك كله من علاقة بالدماغ .

على ان ما يهمنا فى دراسته تلك هو ما اورده فيها من تجارب وملاحظات فى علاج أمراض العيون المختلفة ، والكثير من تلك المعالجات والمجريات تمت معالجة أصحابها فى بيمارستانات بغداد ، فيذكر أنواعاً مختلفة من الأدوية المفردة والمركبة كالاكحال ، والاشياف ، والسعوطات، والذرورات(١٢٧) وأدوية أخرى تم استخدامها بعد تجريبها فى علاج أمراض العيون ، وكان لها نتائج علاجية جيدة ، والكثير من تلك المعالجات كان يعملها بنفسه ، والبعض منها تمت بحضرته وكان يقوم بها بعض أطباء من زملائه فى تلك البيمارستانات ، فأما ما جرب من تلك الأدوية فهى كثيرة وصفها بالجودة وحسن المعالجة فيقول : « وهى نسخة مجربة »(١٢٨) ويقول : « فانه صحيح مجرب »(١٢٩) .

وأما الأدوية التى كانت تركب فى البيمارستانات التى عمل بها فذكر منها انواعاً مختلفة وسماها « نسخة البيمارستانات » وبعضها ينسب تركيبها الى بعض زملائه فى هذه البيمارستانات ، ويبدو أنها كانت مشهورة وجيدة حتى انها عرفت باسمائهم فيقول « نسخة حارث ، كنا نستخدمها فى بيمارستانات صاعد »(١٣٠) ونسخة « ابراهيم بن زيتونة البصرى الذى كان معنا فى مارستان صاعد رحمه الله »(١٣١) ، وكانت وصفات البيمارستان تلك نافعة جداً منها ما يمنع سيلان الدموع، ويسكن الصداع ، ومنها ما يعالج القروح ، والرمد ، ويقطع المدة(١٣٢) من العين ، ومنها ما كان يعالج الشبكره(١٣٣) ، وبعضها يمنع نزول الماء فى العين ، وابتداء نزوله(١٣٤) .

ومن ضمن مشاهداته وملاحظاته الطبية عن أمراض العيون ما كان

يخبره به بعض الأطباء عن أدوية ومعالجات حدثت لهم ، مثل اسماعيل الكحال الذى عالج بدر غلام المعتضد من شبكرة قديمة كانت به(١٣٥) ، كما يتحدث عن أمراض وتجارب طبيـة شـاهدها بنفسه وهى كثيرة ، واعجب ما اورده منها ، مما يدل على شدة ملاحظته « القمر الذى يحدثه الثلج فتجمد الحدقة منه فلا يبصر الانسان »(١٣٦) فيقول : « يقول المصنف اننى قد رايت هذا العارض بارمينية واذربيجان »(١٣٧) .

وسبق وان ذكرنا زيارة المؤلف لجنـوب العـراق مع ياقـوت المدبر(١٣٨) ، ولاحظ كثرة مرضى العيون بالبصرة فيقول عن كحاليها : « ان كحالى البصرة حذاق بعمل الكحل لكثرة أمراض العين عندهم... ولهم كحل ربما ذروه فى اخراج المدة اذا خرجت فى الطبقة القرنية قرحة وشد برفادة فتخرج المدة بسرعة »(١٣٩) ، ويتحدث أيضا عن كحل آخر من عمل أطباء البصرة له ميزة خاصة فى علاج البثرة(١٤٠) فيقول عنه : « وهو من أسرار الكحالين البصريين ، لأن أهل البصرة بكثرة أوجاع اعينهم من الحر فيها ... »(١٤١) .

ويبدو أن الكشكرى كان مع دربته الطويلة جراحاً ماهراً ، فقـد أفرد صفحات عديدة يتحـدث فيها عن الكثير من العمليات الجراحية الدقيقة التى تتم فى العين ، والتى كان يجريها لمرضاه ، وعنون عملياته تلك بـ « فى عـلاجات العين باليـد وكيف ينبغى أن يسـتعمل العلاج »(١٤٢) .

والمتتبع لتلك الصفحات يدرك أن مؤلفها كان ذا معرفة واسعة بعلم التشريح ، وأنه بلا شك كان يجرى تلك العمليات فى البيمارستانات بصفة دائمة ، فقد أعطى وصفا غاية فى الدقة لكل عملية ، وكيف يجب أن تتم، شارحاً الأوضاع التى ينبغى أن يكون عليها المريض ليضمن نجاح العملية، وكيف يتوجب على الطبيب السيطرة على حركة العين خوف الخطأ ، وفى اى اتجاه يكون الطبيب ، وكيف يمسك الأدوات الجراحية ، ومن اى جهة يكون ذلك ، ذاكراً أسـماء الأدوات المستخدمة فى كل عمليـة نوعها ، ونظافتها ، وكيفية التعامل معها لضرورة اتقان صنعها ونظافتها،

انه يعطى صورة كاملة تكاد تكون مرئية لكل تلك العمليات خطوة خطوة من أولها وإلى أن تتم خياطة الجرح ، ووضع الدواء وتضميد العين .

ونجده يناقش ويبدى رأيه ، وينتقد جالينوس ويخالفه فى معالجة انسداد الأذن وما يسببه من ثقل فى الرأس فيقول : « فالصواب أن يخلط مع الأدوية التى يعالج بها رغوة البورق ، والنطرون(١٤٣) ودهن اللوز المر ، وسائر الأدوية التى تفتت الحصى تفتح السدد العارض فى ثقب الإذن »(١٤٤) .

ويشرح لنا الكثير من العمليات النافعة لازالة الأوساخ المتحجرة فى الأذن التى تمنع السمع ، وكيف ينبغى أن تتم العملية ، ويعطينا أمثلة لذلك منها معالجته للقراريطى الوزير حين ثقل عليه سمعه وعالجه واسترد سمعه(١٤٥) ، ويقول فى مكان آخر : « فقد عالجت فتى قد كان له عسر فى سمعه .. فاسقيته حب الصبر ، ثم فتحت اذنه وجعلت فيها فتيلة شربتها بدهن النادرين(١٤٦) فعاداليه سمعه وقد كان فقد سمعه شهوراً كثيرة فسر ذلك الفتى غاية السرور »(١٤٧) . وكان يقوم باجراء تلك العمليات بنفسه ذاكراً العديد من الأدوية المجربة لمعالجة الأمراض المختلفة التى تصيب الأذن(١٤٨) .

ويتحدث المؤلف فى مواضع كثيرة من كتابه هذا عن معالجاته للكثير من الأمراض الجلدية التى تكون فى الوجه وفى الجسم عامة ، وعن العديد من أدوية الزينة المجربة التى أفادت مرضاه لمعالجة الكلف ، والنمش(١٤٩) وآثار الجدرى ، والبثور ، والقوابى(١٥٠) وغيرها ، ولم يقتصر على الأدوية بل تحدث عن الأغذية المختلفة التى تمنع مثل هذه الأمراض وتحافظ على حيوية البشرة ، وهذا يعد بابا مهماً فى العلوم الطبية فى العصر الحديث .

ويلاحظ أنه أثناء استعراضه لمجرباته تلك يوصى بالابتعاد عن بعض الأدوية مما عرف فى كتب القدماء ، لأنه وجد لبعضها آثاراً سيئة على الأمراض كما يبين ذلك حديثه عن بعض الأدوية المستخدمة فى مداواة القوابى(١٥١) ، أما الأدوية الأخرى التى جربها مع مرضاه ولم يكن لها

اية آثار جانبية لا على الجلد أو المرض ذاته كالقروح والبثور وأمثالها فانها كثيرة جداً ، وكان لأغلبها آثاراً ايجـــابية وسريعة لمعالجـة تلك الأمراض الجلدية فمجرباته التى كانت تعالجالكلف كثيرة وناجحة(١٥٢) ، أما الأدوية التى كان يستخدمها مع زملاء مهنته فى البيمارستات لعـلاج الجرب فذكر ان منها له من القوة ما يقلعه ويزيله لساعة(١٥٣) ، ومنها اذا ما طلى به « الجرب والسعفة قلعها قلعاً عجيباً(١٥٤) ، ويحدثنا عن ابن البريدى ومعاناته من قواب كانت به فطلاها مرات بدهن الحنطة فبرا(١٥٥) ، ويذكر ادوية مجربة أخذها من زميله سليمان الجرائحى ، وابن الماى ، وكان يستخدمها فى البيمارستان ومع مرضـــاه خارجه ، فذكر تركيبة لمرهم مجرب كان له تاثير فعـــال فى اكـل اللحم الزائد كالثاليل فيقول : انه عالج به جارية ابن مقاتل من توثه كانت تجدها فبرئت بعد ايام ، من دون استخدام دواء آخر(١٥٦) ٠

أما علاج النمش فيذكر أن أطباء الكوفة كانوا يسقون النساء بعض الأدوية التى تسمن ليذهب النمش(١٥٧) ، وقد عالج بهـــذه الطريقة جارية فى دار العـلوى كان بوجهها نمش ، فكان يعطيها بعض الأدوية المسمنة(١٥٨) ٠ على أن افضل المجربات التى كان يستخدمها فى معالجة النمش هو ما أخذه من أحد زملائه فى بيمارستان صاعد ، فذكر أنه كان يطلى النمش بعسل البلاذر(١٥٩) ويتركه لساعةثم يغسله ويطليه بمرهم الاسفيذاج(١٦٠) والكافور(١٦١) فيزيل النمش(١٦٢) ٠

وأورد لنا عدداً من السنونات ، وهى أدوية مركبة تستخدم لتنظيف الأسنان وحفظها من التاكل والتسوس ، وأوصى فى استخدامها بان توضع على السواك ثم تجلى به الأسنان(١٦٣) ، ويسوق الينا مركبات أخرى من الأدوية التى لها من الأثر ما يمكن معـــه قلع الضروس المتاكلة بغير حديد ، وأخرى يمكن استخدامها فى قلع الضروس من غير الم(١٦٤) ، وذكر عدداً من الأدوية المجربة فى البيمارستانات والتى كان يستخدمها مع مرضـاه لعـــلاج امراض الفم المختلفة كالبثور ، والقروح(١٦٥) ، والتهاب الحلق(١٦٦) والسعال(١٦٧) والأدوية التى تقوى اللثة وتقطع الدم المنبعث منها(١٦٨) ، وســـاق لنا حكايته عن الدواء الذى عمـلـه

للأستاذ أبى الفوارس ياقـــوت وكان له منفعة عظيمـــة فى معالجـة الخناق(١٦٩) الذى كان يعانى منه(١٧٠) ٠

وعقد الكشكرى دراسة رائعة عن المعدة وأمراضـــها ومداواتها ، واتسمت دراسته تلك بالطابع العمـــلى بشكل كبير لا نجده فى أغلب موضوعات كتابه ، فذكر أمراض المعدة المختلفة ، وكيفية علاجها وذكر الكثير من الوصفات الطبية المفردة والمركبة والتى كان يعدها بنفسه ذاكراً أهميتها وقدرتها الدوائية بعد التجريب ٠

ونجده هنا يناقش بعض مسائل الطب ويطرح وجهة نظر من سبقه من الأطباء اليونانيين ، ثم يبدى وجهة نظره ويؤكد خطأ من سبقه من الأطباء وصحة وجهة نظره المدعمة بالتجريب ، فشكوكه ووجهات نظره تلك جاءت من باب ايمانه وقناعته بالتجريب ، ومن باب طول الخبرة وكثرة الممارسة فى الأعمال الطبية ، ومن ذلك ما أكده أثناء استعراضه لآراء بعض الأطباء فى كيفية استخدام الصبر(١٧١) واختلافهم فى ذلك فيذكر ما صح عمله وأثبتته التجربة قائلا : « فأما نحن فينبغى أن نعلم أن الصبر الذى لم يغسل أوفق وأصلح للبطن »(١٧٢) ٠

وفى موقع آخر يؤكد خطأ ما ذهب اليه ابقراط فى احدى معالجاته فيقول :« قال المصـــنف : ليس هذا من عـــلاج البيمارستان وانما كتبته ليعرف ما قال ابقراط ، ولم تجر العادة باستعماله فلا تستعمله »(١٧٣)٠

ولطول دربته فى المعالجة يلاحظ معرفته وادراكه لأنواع الأدوية كيف تستخدم ، ومتى ينبغى ذلك ، وما هى الحالات التى يمكن أن تعطى فيهـــا تلك الأدوية فنجـــده يحذر ويوصى بعـــدم استخدام الكندرس(١٧٤) والخربق(١٧٥) مع أدوية القيىء لأنها تحدث للمريض « القيىء المنكر الذريع البالغ فيعرض من ذلك التشنج »(١٧٦) ٠

وكان شديد الحرص فى أعماله الطبيـة ومعالجاته على ســلامة المريض ، وتجنب الخطأ فى المعالجة ، لعظم المسئولية الملقاه على على الطبيب فى عمله ، فيحذر قائلا ، « قال يعقوب ان استعمال الفصد فى

هذا المرض من جهات فلا تستعمله ، فان أطباء هذا البلد يخطئونك ، وينسبونك انك أعنت على قتله »(١٧٧) ٠

وفى مداواته لعلل المعدة يذكر لنا أصنافاً من الأدوية المجربة النافعة منها وصفات كان يعالج بها بعض الكبراء فى وقته ، ومنها وصفات مجربة أخذها من زملائه الأطباء ، وهناك المجربات التى كان يستخدمها فى البيمارستانات مع المرضى ، وهناك بعض الأدوية التى كان يقوم بتركيبها بنفسه ويعالج بها عامة المرضى ٠ فيذكر أن أبا الفوارس ياقوت كان مع كبر سنه يعانى من آلام فى معدته وسوء هضم فعمل له دواء مركباً وجد منفعته كبيرة(١٧٨) ، وكذلك عمل دواء لأبى على عمر بن يحى العلوى كان يأخذه بعد الغذاء وكان يساعده على هضم الطعام ، وتحليل الرياح التى تتولد فى المعدة والأمعاء(١٧٩) ، كما انه كان يركب الكثير من أنواع الجوارشنات(١٨٠) والتى كان يهديها لأصدقائه(١٨١) ٠

وكان من ضمن أدوية المعدة ما كان يأخذ صفته من زملاء المهنة فيذكر صفة جوارشن الأترج وماله من سمات طبية جيدة ، يقول انه أخذ نسخته من جابر المتطبب الذى كان فى دار الخلافة(١٨٢) ، وكذلك شراب المصطكى الذى أخذ نسخته من عيسى متطبب شفيع وعمله الاثنان للأستاذ أبى الفوارس ياقوت(١٨٣) ٠

وذكر أصنافاً متعددة من الأدوية المفردة والمركبة التى كانت تركب فى البيمارستانات التى كان يعمل فيها ، وأشار الى أن بعض هذه الأدوية كان يقوم بتركيبها مباشرة بعض زملائه مثل ابراهيم بن صدقه الذى كان يعمل الأدوية والأشربة فى بيمارستان صاعد ، ومارستان السيدة(١٨٤) ، والبعض منها كان ضمن قائمة الأدوية المعدة مسبقاً فى البيمارستان والتى كان يقوم الصيادلة بتركيبها باستمرار لكثرة الطلب عليها ، وكانت هذه الأدوية من ضمن أشهر الأدوية التى اتفق على أهميتها وضرورتها الأطباء والصيادلة لما لها من قوة شفائية فى معالجة الأمراض المختلفة التى تصيب المعدة(١٨٥) على أن أهم ما أورده من تلك الأدوية والذى أثبت قوته الشفائية بعد التجريب هو : « ترياق الأربعة(١٨٦) الذى يقول عنه : « وجربته أنا ، وصح على يدى ، وقد قابلت به النسخ

المعمولة فى البيمارستانات ، ولهذا الترياق المعروف بالأربعة منافع من الرياح الغليظة التى تحدث فى المعدة ، ومن السموم القاتلة المشروبة ... »(١٨٧) .

واشار الى العديد من المجربات الأخرى التى تخفف آلام المعدة بشكل عام ، وجربها وكانت منفعتها جيدة مثل شراب التفاح(١٨٨) ، وبعض الجوارشنات اللطيفة التى كانت تعطى للمرضى الذين يكرهون شرب الأدوية شديدة المرارة(١٨٩) . وادوية أخرى مركبة تخلط مع الصبر(١٩٠) تنفع من آلام المعدة ، وتحلل الرياح التى تتولد فيها(١٩١) ومن أهم ما ذكره مما يخص هذه الرياح : « قال يعقوب : قد رأيت فواقاً(١٩٢) من ريح حدثت ، تولدت فى المعدة من غذاء يولد رياحا ، فدفعت الى من أصابه ذلك صعتر(١٩٣) وكمون كرمانى(١٩٤) بماء حار فسكن الفواق لساعته »(١٩٥) ، ويذكر ايضاً تركيبة دوائية تعمل أقراصاً كانوا يستخدمونها فى البيمارستان للمرضى الذين يعانون التهاب المعدة ونفث الدم وسماها « اقراص الكرباء »(١٩٦) ، ومن ضمن ما أشار اليه من الأدوية التى لاحظ قوتها الشفائية تلك الوصفة الدوائية التى أخذها من بعض الأطباء ، وكان لها منفعة جيدة للمعدة وللحميات الحادة يقول عنها : « وقد عملته أنا بالكوفة وكان نافع طيب »(١٩٧) .

ولم يكن الكشكرى من الأطباء الذين يأخذون بالموروثات الطبية كمسلمات وحقائق غير قابلة للنقاش ، بل أنه كان ينتقد ويصحح ويجرب ويقيس فيقول منتقداً ومصححاً : « ذكر بعض المتطببين اليونانيين أن اسم النشا باليونانية ـ أملن ـ(١٩٨) وأن الناسخ غلط فى وقت نسخه فاسقط نصف الاسم من الشبرم ، واسمه باليونانية ـ توث أملن ـ قال يعقوب انه لم يكن فى القديم نشا وانما كان فيه شبرم(١٩٩) وانما غلط الناسخ الذى نقل من اليونانية الى العربية »(٢٠٠) .

ويسوق الينا الكثير من الأدوية المختلفة من مجربات البيمارستان مثل حب العدد الذى كان يداوى به المستسقين(٢٠١) ، وأدوية أخرى

لمعالجة التهابات الكلى والمثانة(٢٠٢) ، وصفات طبية متعددة لمداوة أمراض الدم ، وأخرى لمنع الحمل(٢٠٣) ٠

ويبدو من خلال حديثه عن الأمراض التى تحدث فى المستقيم كالبواسير والتوث وأمثالها انه كان خبيراً بها الى درجة بعيدة ، فقد اشتهر بمحقنته التى توضع فيها الأدوية ويحقن بها المرضى الذين كانوا يعانون من القروح والتوث فى المستقيم ، ويذكر أنه أخذ تلك الطريقة فى المعالجة من ابن الماى الطبيب قائلا : « وقد عالجت بهذه الصفة لمن تقوم المدة فى المقعدة فى أول المعا المستقيم ٠٠٠ وجعلته فى المحقنة وعالجت به فنفع »(٢٠٤) ٠

ويذكر فى ثنايا حديثه الكثير من الوصفات الطبية لأدوية مفردة ومركبة لبواسير والتوث والتهابت المستقيم وقروحه ، بعضها كان يعمله بنفسه وجربها مع مرضاه ووصفها بانها كانت قوية وعجيبة المعالجة(٢٠٥) ، ومنها ما كان مخصصاً لقلع التوث وأكل اللحم الزائد(٢٠٦) ، والبعض الآخر كان يعطيها للمرضى الذين يعانون الزحير وأمراض الامساك المزمن(٢٠٧)، واغلب تلك الأدوية كان من مجرباته وبعضها أخذ وصفاتها من زملائه الأطباء(٢٠٨) والبعض كان ضمن أدوية البيمارستانات التى كان يعمل فيها(٢٠٩) ٠

لقد كانت البيمارستانات الثلاثة ميداناً رحباً لاجراء تجاربه بالمشاورة بينه وبين زملائه الأطباء ، والظاهر أن أغلب المعالجات والأدوية لم يكن يسمح بوضعها فى قائمة أدوية البيمارستانات حتى تثبت قدرتها العلاجية بشكل افضل من غيرها ، وأن لا تترك آثاراً ضارة على حياة الناس وصحة أبدانهم فنجده يقول بعد أحد تجاربه الدوائية الناجحة : « وانا مثبت ما استعملته وجربته فى علاجى لهذا المرض أعنى : الوسواس السوداوى(٢١٠) فى البيمارستانات التى خدمت فيها ٠٠٠ »(٢١١) واكد أن الكثير منها من عمله وتوليفه وكانت نتيجة خبراته وتجاربه(٢١٢) ٠

ويلاحظ أنه كان يقارن بين ما توصل اليه من نتائج فى معالجاته

المبنية على التجربة ، وبين ما كان يأخذه من زملاء المهنة من وصفات مختلفة ، أو ما كان يجده فى أقرباذينات البيمارستان من وصفات أخرى، فيتحدث عن الفرق الحاصل بينها فى العمل والمعالجة فيقول : أنه وجد فى بعض الوصفات الموجودة فى البيمارستان مفردات أخرى زائدة عن الحد الذى يتوجبه صنع ذلك الدواء(٢١٣) .

ويحذر من اســـتخدام بعض الأدوية القــوية على الأبدان والمغيرة للأمزجة الا بعد أن تكون الأبدان مستعدة لقبول تلك الأدوية فهو يقول : « قال يعقوب المصنف الكشكرانى : ليس يجب أن يسقى مفلوج(٢١٤) أو من به لقـــوه(٢١٥) أو صرع ايارج(٢١٦) لوغاديا الا بعـــد أن ينقى البدن »(٢١٧) .

واستعرض لذكر بعض الحالات المرضية الغريبة التى صادفته اثناء عمله فى البيمارستانات ، وقارن بينها وبين مالديه من علم نظـــرى ، وساق منها بعض الأخبار التى تؤكد التوافق العلمى بين ما يدلى به من آراء نظرية وبين تلك الحالات التى تشهد بصدق ما ذهب اليه ، بل انه يعارض أحياناً ما ذهب اليه الأطباء ولم يعاينه فيقول اثناء كلامه عن التشنج وآثاره السيئة على الانسان : « فقد رأيت فى بيمارستان صاعد جماعة لصوص قطعت ايديهم فتشنجوا فما عاش واحد منهم »(٢١٨) ، ويقول فى موضع آخر لكلامه ومخالفاً لرأى ابقراط : « ويعقوب الكشكرى يقول : اننا لم نر هــــذه الحميات فى خـــدمتنا لبيمارستانات عرضت لأحد ... »(٢١٩) ، أما مالاحظه فى بيمارستانات بغداد من أعمال جيدة ومعالجات رائعة لبعض زملائه الأطباء ، فقد أوردنا منها البعض واسوق اخيرا شهادته بذكر تقدم وفضل احـد اطبـــاء الحجاز ومهارته قائلا : « وقد كان معنا فى بيمارستان السيدة أم أمير المؤمنين المقتدر أيدهما الله رجل من أهل الحجاز كان يحسن اخراج العرق المدينى(٢٢٠) ومداواته حتى لا يبقى منه شىء البته »(٢٢١) .

الهــوامش

(١) سنتعرض لهذه الأسماء أثناء الحديث عن مصادره ٠

(٢) لم أجد من المشاهير والذى كان له عناية بالأطباء ، وكان يحب الخير وينفذ الصدقات كل يوم على الفقراء سوى الوزير الملقب بذى الرياستين صاعد بن مخلد ، كان كريما عطوفا على الفقراء محبا لهم ، فيبدو أنه هو الذى أنشأ هذا البيمارستان ، وقد عاش الكشكرى فى أواخر أيامه ، توفى سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م ، ابن الجوزى : المنتظم جـ ١٢ ، ص ٢٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٣٢٧ ـ ٣٩٣ ـ ٤١١ ـ ٤١٤ ـ ٤١٧ ـ ٤١٩ ٠

(٣) بدر بن عبد الله الحمامى ، يلقب بأبى النجم كان مولى للمعتضد بالله ، اشتهر بالشجاعة وحب العلم والعلماء ، تدرج حتى أصبح بمنزلة كبيرة من دار الخلافة ، تولى الشرطة ، وتولى الامارة فى العديد من البلدان كفارس ، ومصر مع ابن طولون ، توفى ٣٨٩هـ/٩٠١م ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ ٧ ، ص ١٠٥ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٥٤٦ ـ ٤٨٠ ـ ٥٠٩ ـ ٥١٧ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ ٠

(٤) مارستان السيدة ، واسمها شغب ، كانت جارية للمعتضد بالله ثم تزوجها بعد عتقها ، وكانت متنفذه متصرفة فى أمور الخلافة على أيام ابنها المقتدر ، وكانت حازمة صالحة كثيرة الخير والبر ، توفيت سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م ، ابن الأثير : الكامل، جـ ٧ ، ص ٤٧٤ ، جـ ٨ ، ص ١١ ـ ١٤٧ ـ ١٥٨ ـ ٢٠١ ـ ٢٠٢ ـ ٢٤١ ـ ٢٥٠ ـ ٢٥١ ـ ٢٨٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهــرة ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ ـ ١٩٣ ـ ٢٠٤ ـ ٢٢٣ ـ ٢٣٩ ٠

(٥) الكشكرى : الكناش ، الورقة ١٣٠ ب ٠

(٦) ن٠ م٠ س٠ الورقة ٧٦ ب

(٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٢ ب ٠

(٨) محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الاسكافى ، استوزره المتقى العباسى مرات عديدة وكان أولها ســنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م ، اشتهر بالشــدة والغلظة ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٤٩ ـ ٣٠٥ ـ ٣٧٥ ـ ٣٧٩ ـ ٤٠٤ ـ ٤٦٨ ٠

(٩) الكشكرى : الكناش ، الورقة ٦٠ ب ٠

(١٠) انظر مثلا ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٥ أ ـ ب ـ ١٠٦ ب ٠

(١١) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٨ ب ٠

(١٢) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٥ ب ، والقشورى هو أحمد بن نصر وكان حاجبا للخليفة المقتدر ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٩٨ ـ ٢١٩ ٠

(١٣) عيون الأنباء ، ص ٢٢٩ ٠

(١٤) ن٠ م٠ س ، ص ٣٢١ ٠

(١٥) ن٠ م٠ س ، ص ٣٢٢ ٠

(١٦) الكشكرى : الكناش ، الورقة ٧٨ أ ، وكانت وفاة ثابت بن قرة سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٢٩٧ ٠

(١٧) عيون الأنباء ، ص ٣٢٢ ٠

(١٨) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٤٠ ، أحمد عيسى بيك : آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ، ص ٩ ٠

(١٩) المدة : (بكسر الميم) هو قيح لم يكتمل نضجه ، الخطابى : الأغذية والأدوية عند مؤلفى الغرب الاسلامى ، ص ٥٧٩ ٠

(٢٠) الكشكرى : الكناش ٠ الورقة ٧٨ ب ٠

(٢١) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٢٢٢ ٠

(٢٢) الأقرباذين : معجم لاسماء الأدوية ٠

(٢٣) الورقة ٢٨٧ ب ٠

(٢٤) الورقة ٧ ب ٠

(٢٥) عيون الأنباء ، ص ٣٢٢ ٠

(٢٦) عيون الأنباء ، ص ٣٢٢ ٠

(٢٧) الكناش ٠ الورقة ٧٧ أ ٠

(٢٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٤١٧ ، أخبار سنة ٣٣٢ هـ ، والموصل مدينة معروفة تقع شمال العراق ٠

(٢٩) الكناش : الورقة ٢٠٥ ب ٠ وشفيع هنا هو شفيع اللؤلوى ، اشتهر على أيا الخليفة المقتدر العباسى ٠ وكان يتولى البريد وغيره من الأعمال ت ٣١٢هـ/٩٢٤م، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٥٧ ٠

(٣٠) كان ياقوت المدبر أشهر قواد عصره ، وكان له دور بارز فى حـــرب القرامطة فى الكوفة وجنوب العراق ، تولى عدة مناصب أبان خلافة المقتدر العباسى ، قتله جنود البريدى سنة ٣٢٤هـ/٩٢٥م ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣١٥ ٠

(٣١) الكناش ، الورقة ١٧ أ ـ ٧٢ ب ـ ٢٥٠ ب ٠

(٣٢) ن٠ م٠ س ، ص ١٧٤ أ ، وكان البريدى من كبار القواد على عهد المقتدر والقاهر ، والراضى والمتقى ، برز نجمه واخوته على عهد وزارة ابن مقله فى خلافة المقتدر ت ٣٣٢هـ/٩٤٣م ٠ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٤١٠ ٠

(٣٣) الكناش ، الورقة ١٠٥أ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٩٨ ـ ٢١٩ ٠

(٣٤) الكناش ، الورقة ٤٨ أ ٠

(٣٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٠٢ ب ٠

(٣٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٢ ب ٠

(٣٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٦ ب ٠

(٣٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٩٥ ٠

(٣٩) لمعلومات موسعة عن هذه الثورة ٠ انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، صص ٢٠٥ ـ ٤٠٦ ٠

(٤٠) ن٠ م٠ س ، ج ٧ ، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٦ ٠

(٤١) ن٠ م٠ س ، ج ٨ ، ص ١٨١ ٠

(٤٢) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٨٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٤٩ ٠

(٤٣) لمعلومات مفصلة عن الحركة الفكرية والعلمية فى هذا العصر انظر ، متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ، ص ٣١٩ ـ ٥٠٩ ، ج ٢ ، صص ٧ ـ ١٨ ، لوبون : حضارة العرب صص ٤٣٣ ـ ٤٩٤ ٠

(٤٤) سيأتى الحديث عنها بالتفصيل فى بابها ٠

(٤٥) سيأتى الحديث عن ذلك فيما بعد أيضا ٠

(٤٦) الورقة ٢٨٧ ب ٠

(٤٧) طبعت بالتصوير ، ضمن منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية، فى فرانكفورت ، بالمانيا الاتحادية ، من اصدار البروفسور فؤاد سزكين ١٤٠٥ هـ ٠

(٤٨) الورقة ٧ ب ٠

(٤٩) من أطباء القرن الثالث الهجرى ، له من الكتب الكناش الكبير ، والكناش الصغير نقلها هو من السريانى الى العربى ، النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ ٠

(٥٠) ص ٤٤ ٠

(٥١) الكناش ، الورقة ١٩٢ ٠

(٥٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٧ وما بعدها ، ابن فاتك : مختار الحكم ومحاسن الكلم ، ص ٢٨٨ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، صص ١٠٩ _ ١٤٩ ٠

(٥٣) العسيرى : تعليم الطب فى المشرق الاسلامى" ، نظمه ومناهجه حتى نهاية القرن السابع الهجرى ، ص ٣٤ وما بعدها ٠

(٥٤) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٣ _ ١٤٤ ٠

(٥٥) النديم : الفهرست ، ص ٢٤٨ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٤ _ ١٣٥ ٠ وهذا الكتاب مطبوع بتحقيق د/محمد سليم سالم ، ضمن جوامع الاسكندرانيين ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢ م ٠

(٥٦) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم ، ص ١٥٧ ، النديم الفهرست ، ص ٣٤٨ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٧ ٠

(١٥٧) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٥٥ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٦ ٠

(٥٨) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٥ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤١ ٠

(٥٩) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦١ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٣٩ ٠

(٦٣) الفهرست ، ص ٣٤٨ ٠

(٦٤) رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٧٠ _ ١٧١ ٠

(٦٥) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٩ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٣ ٠

(٦٦) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٥٥ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٦ ٠

(٦٧) حنين ن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٩ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٣ ٠

(٦٨) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن أبى اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٧٠ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٤ ٠

(٦٩) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٦ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ ·

(٧٠) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٥١ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٤ ·

(٧١) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٥٠ - ١٥١ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٣٤ ·

(٧٢) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٧ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ ·

(٧٣) انظر كتاب تركيب الأدوية رقم (١) من كتب جالينوس التى اعتمدها الكشكرى فى مصادره ·

(٧٤) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٧ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ ·

(٧٥) حنين بن اسحاق : رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى ، ص ١٦٧ ، ابن أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٤٢ ·

(٧٦) النديم : الفهرست ، ص ٢٤٦ ، ابن فاتك : مختار الحكم ، ص ٤٤ ، القفطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٦٤ ، ابن ابى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٤٣ وما بعدها ·

(٧٧) ابن بى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٥٤ ، فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيا ، ص ٧ ·

(٧٨) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٥٤ ، فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيا ، ص ٢ ·

(٨٠) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٥٥ ، فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيا ، ص ٦ ·

(٨١) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٢٣ ، النديم : الفهرست ، ص ٣٠٦ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٨١ ·

(٨٢) النديم : الفهرست ، ص ٢٥٠ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص ١٢٧ ·

(٨٣) انظر الحاشية السابقة ·

(٨٤) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٢٥ ، النديم : الفهرست ، ص ٣٠٧ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص٢١ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص٨٦·

(٨٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٥١ ٠

(٨٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٥١ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص ١٧٢ ٠

(٨٧) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، ابن أبى أصيبعه ، عيون الأنباء ، ص‌ص ٢٤٦ - ٢٥٥ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، جـ ٤ ، ص ٢٦٤ ، القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٤٩ ٠

(٨٨) القفطى : أخبار العلماء ، ص ٢٤٩ ٠

(٨٩) انظر حاشية ١ ، ٢ ٠

(٩٠) سماه القفطى « كتاب التمام والكمال » ، انظر الحواشى ١ - ٢ - ٣ ٠

(٩١) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٢٥٧ - ٢٧١ ٠

(٩٢) ن٠ م٠ س ، ص ٢٧٦ ٠

(٩٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٣ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص٢٧٣٠

(٩٤) النديم : الفهرست ، ص ٢٥٦ ، القفطى : أخبار العلماء ، ص ٢٥٧ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٢٧٨ ٠

(٩٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، القفطى ، أخبار العلماء ، ص ٢٤٨ ٠ ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ١٥٨ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، جـ ٤ ص ٢٦٩ ٠

(٩٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، وسماه على بن ربل ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٤١٤ ٠

(٩٧) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٨٠ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٢٩٥ وما بعدها ٠

(٩٨) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٥ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ص٢٧٦٠

(٩٩) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٥ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ،ص٢٣٠٠

(١٠٠) الكناش ، الورقة ٣٤ ب ٠

(١٠١) ن٠ م٠ س ، الورقة ٤٣ أ ٠

(١٠٢) ن٠ م٠ س ، الورقة ٨٧ أ ٠

(١٠٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ٥٢ أ ٠

(١٠٤) ن٠ م٠ س ، الورقة ٥٢ ب ٠

(١٠٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٥٢ أ ٠

(١٠٦) الكناش ، الورقة ٨٤ أ ٠

(١٠٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٩ أ ٠

(١٠٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٦٥ أ ٠

(١٠٩) ن٠ م٠ س ، الورقة ١١٦ أ ٠

(١٠٩) ن٠ م٠ س ، الورقة ١١٦ أ ٠

(١١٠) وسنتعرض لذلك بالتفصيل والاستشهاد عند الحديث عن أهم دراساته وتجاربه العملية ٠

(١١١) الكناش ، الورقة ٧ ب ـ ٨ أ ب ـ ٩ أ ٠

(١١٢) الكناش ، الورقة ١٠ أ ٠

(١١٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ١١ ب ٠

(١١٤) الكناش ، الورقة ٩ ب ٠

(١١٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ١١ ب ٠

(١١٦) اللادن : نوع من الشجر يستخرج منها مادة صمغية يعمل منها البعض أقراصا تستخدم كدواء ، ابن البيطـــار : الجامع لمفـــردات الأدوية والأغذية ، جـ ٤ ، ص ٢٥٩ ٠

(١١٧) الكناش ، الورقة ٩ ب ٠

(١١٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٣ ب ـ ٢١ ب ٠ وداء الحية : أن يتقشر الجلد مع تناثر الشعر ، وداء الثعلب : أن يتناثر الشعر من الرأس واللحية حتى يتعرى مكانه ٠ العمري : التنوير في الاصطلاحات الطبية ، ص ٦١ ٠

(١١٩) الابرية ، والحزاز : النخالة التي تتكون في الرأس ، وهو ما هو معروف الآن بالقشرة ، ابن سينا : القانون ، جـ ٣ ، ص ٢٧٥ ٠

(١٢٠) السعفه : بثور وتقرحات تحدث في الرأس وتصاحبها حكة ، ن٠ م٠ س ، جـ ٣ ، ص ٢٨٧ ٠

(١٢١) الكناش ، الورقة ١٧ أ ٠

(١٢٢) ن٠ م٠ س ، الورقة ٤٠ أ ٠

(١٢٣) الكناش ، الورقة ١٨ ب ٠

(١٢٤) ن٠ م٠ س ، و و ١٦ أ ـ ١٩ ب ٠

(١٢٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٠ ب ـ ٢١ أ ٠

(١٢٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٢ أ ٠

(١٢٧) الاشياف : كلمة يونانية تعنى المعجونة والمستخدمة لعلاج العيون وقد يطلق على ما يتحمل في المقعدة ، حنين بن اسحاق : كتاب العشر مقالات في العين ، ص ١٩٥ ، القمرى : التنوير ، ص ٧٩ ٠

والسعوط : كلمة يونانية « بطو منقى » ومعناه المعطس ، ابن البيطار : الجامع، جـ ٣ ، ص ٢١ ٠

الذرورات : الأدوية المسحوقة ومنها ما يستخدم لعلاج العين ، الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٤٠ ، القمرى : التنوير ، ص ٧٨ ٠

(١٢٨) الكناش ، الورقة ٤٨ ب ٠

(١٢٩) ن٠ م٠ س ، الورقة ٤٢ أ ٠

(١٣٠) الكناش ، الورقة ٤٨ ب ٠

(١٣١) ن٠ م٠ س ، الورقة ٥٢ ب ٠

(١٣٢) المدة : الصـــديد ٠

(١٣٣) الشبكرة : لفظة فارسية ومعناها عمى الليل ، وأصلها شـــــوكورا ، الحموى : نور العيون وجامع الفنون ، ص ٥٠٦ ٠

(١٣٤) الكناش ، الورقة ٤٣ أ ب ، ٤٤ أ ـ ٤٨ ب ـ ٥٢ ب ٠

(١٣٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٥١ أ ٠

(١٣٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ٤٨ أ ، والقمر : يقول ابن منظور القمر تحير البصر من الثلج ، وقمر الرجل : حار بصره في الثلج فلم يبصر ، لسان العرب جـ ٥ ،ص١٤٤:

(١٣٧) الكناش ، الورقة ٤٨ أ ٠

(١٣٨) ص ٥ ٠

(١٣٩) الكناش ، الورقة ٥٢ أ ٠

(١٤٠) البثر : نفاخات مائية في بعض قشور القرنية ما بين قشرتين ، لمعلومات موسعة انظر : الحموى : نور العيون وجامع الفنون ، ص ٣٣٩ ٠

(١٤١) الكناش ، الورقة ٥٢ ب ٠

(١٤٢) ن٠ م٠ ش ، و و ٥٣ ب ـ ٥٩ أ ٠

(١٤٣) عن البورق ، النطرون ٠ انظر على التوالى ابن البيطار : الجامع ، جـ ١ ، ص ١٧٠ ، جـ ٤ ، ص ٤٧٩ ٠

(١٤٤) الكناش ، الورقة ٦٠ ب ٠

(١٤٥) الكناش ، الورقة ٦١ أ ٠

(١٤٦) ابن البيطار : الجامع ، جـ ٤ ، ص ٤٧١ ٠

(١٤٧) الكناش ، الورقة ٦٠ ب ٠

(١٤٨) الكناش و و ٦٠ ب ـ ٦٤ أ ٠

(١٤٩) يقول ابن سينا : أنه اذا احتقن الدم تحت أعلى الجلد فى موضع فان الجلد يتأذى ويتغير لونه فما هو الى الحمرة يكون نمشا ، واللطخى منه أو النقطى يسمى كلفا ٠ القانون ، جـ ٣ ، ص ٢٧٩ ، القمـــرى : التنوير فى الاصـــطلاحات الطبية ، ص ٦ ٠

(١٥٠) القوابى : بثور قرحية مجتمعة ترشح ماء قليلا اذا حكت ويكون مثل الدواير فى الاكثر ٠ ابن سينا : القانون ، جـ٣ ، ص٢٨٨ ، القمرى : التنوير ،ص٦٣ ٠

(١٥١) الكناش ، الورقة ٧٥ ب ٠

(١٥٢) الكناش ، الورقة ٧١ أ ٠

(١٥٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٣٥ ب ـ ٢٣٦ أ ٠

(١٥٤) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٨ أ ٠

(١٥٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٤ ب ٠

(١٥٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٧ أ ب ، ٧٨ ب ٠

(١٥٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٨ أ ٠

(١٥٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٧ ب ٠

(١٥٩) ابن البيطار : الجامع ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ٠

(١٦٠) ن٠ م٠ س ، جـ ١ ، ص ٤٢ ٠

(١٦١) ن٠ م٠ س ، جـ ٤ ، ص ٢٩٦ ٠

(١٦٢) الكناش ، الورقة ٢٢٧ أ ٠

(١٦٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ٨٣ ب ٠

(١٦٤) الكناش ، الورقة ٨٣ ب ٠

(١٦٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٨٧ أ ٠

(١٦٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ٨٩ ب ٠

(١٦٧) ن· م· س ، الورقة ١٥٢ ب - ١٥٦ ب ·

(١٦٨) ن· م· س ، الورقة ٨٨ ب ·

(١٦٩) الخناق : هو امتناع التنفس وله أسباب متعددة منها الالتهابات الشديدة الحادثة فى الحلق واللوزتين فتسبب انسداد مجارى التنفس · ابن سينا : القانون، جـ ٢ ، ص ١٩٨ ·

(١٧٠) الكناش ، الورقة ٩٢ أ ·

(١٧٠) الكناش ، الورقة ٩٢ أ ·

(١٧١) ابن البيطار : الجامع ، جـ ٣ ، ص ١٠٤ ·

(١٧٢) الكناش ، الورقة ٩٣ ب ·

(١٧٣) الكناش ، الورقة ١٢٤ أ ·

(١٧٣) ابن البيطار : الجامع ، جـ ٤ ، ص ٣٤٨ ·

(١٧٥) ن· م· س ، جـ ٢ ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ ·

(١٧٦) الكناش ، الورقة ١١٣ ب ·

(١٧٧) ن· م· س ، الورقة ١٢٣ أ ·

(١٧٨) ن· م· س ، الورقة ١٠٦ أ - ١١٢ ب ·

(١٧٩) الكناش ، الورقة ٢٠٩ أ ·

(١٨٠) الجوارشن : كلمة فارسية تعنى هاضم الطعام ، واكثر ما يقع هذا الاسم على المعجونات التى فيها الأفاوية والزنجبيل ، وتكون عذبة الطعم طيبة الرائحة· القمرى : التنوير ، ص ٨٧ ·

(١٨١) الكناش ، الورقة ١٠٠ ب ·

(١٨٢) ن· م· س ، الورقة ١٠٣ أ ·

(١٨٣) ن· م· س ، الورقة ١٠٧ أ ·

(١٨٤) ن· م· س ، الورقة ١٠٥ ب ·

(١٨٥) ن· م· س ، الورقة ٩٧ ب - ١٠٠ أ - ١٠٥ أ ·

(١٨٦) الترياق : مشتق من تيريون باليونانية ، وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأفاعى ونحوها ، وترياق الأربعة سمى بذلك لانه مركب من أربعة اخلاط من الادوية· الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٣٩ ·

(١٨٧) الكناش ، الورقة ١٠١ ب ·

(١٨٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٠٦ ب ٠

(١٨٩) الكناش ، الورقة ١٠٧ ب – ١٠٨ ا ٠

(١٩٠) الصبر ، معروف ، ذكر ابن البيطار أن له فوائد جمة فى معالجة الكثير من الأمراض ٠ الجامع ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ٠

(١٩١) الكناش ، الورقة ٩٧ ا ٠

(١٩٢) الفواق : يقول ابن سيناء أنه : حركة مختلفة مركبة كتشنج انقباضى مع تمدد انبساطى كان فى فم المعدة ، أو جميع جرمها ؛ أو المرى منها يجتمع الى ذاتها بالتشنج هربا من المؤذى ٠ القانون ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ ٠

(١٩٣) ابن البيطار : الجامع ، ج ٣ ، ص ١١١ ٠

(١٩٤) ن٠ م٠ س ، ج ٤ ، ص ٣٤٦ حيث ذكر نقلا عن ابن سيناء أن من أنواع الكمون ما يسمى بالكرمانى ٠

(١٩٥) الكناش ، الورقة ٩٤ ب ٠

(١٩٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ١٥٦ ب – ١٥٨ ب ، وعن الكارباء ، انظـــر ابن البيطار : الجامع ، ج ٤ ، ص ٢٩٩ ٠

(١٩٧) الكناش ، الورقة ٢٥١ ا ٠

(١٩٨) ابن البيطار : الجامع ، ج ٤ ، ص ٧٨ ا ٠

(١٩٩) ن٠ م٠ س ، ج ٣ ، ص ٦٧ ٠

(٢٠٠) الكناش ، الورقة ٢٤٥ ا ٠

(٢٠١) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٦٤ ب ، والاستسقاء : هو انتفاخ البطن وهو أنواع زقى ، وطبلى ، ولحمى ٠ الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٣٢ ٠

(٢٠٢) الكناش ، الورقة ٢٦٩ ا ٠

(٢٠٣) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٧٩ ا ٠

(٢٠٤) الكناش ، الورقة ٧٩ ا ٠

(٢٠٥) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٥٧ ا ب ٠

(٢٠٦) ن٠ م٠ س ، الورقة ٧٧ ا ٠

(٢٠٧) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٥٤ ا ب – ٢٥٦ أ ٠

(٢٠٨) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٥٤ ا ب ٠

(٢٠٩) ن٠ م٠ س ، الورقة ٢٥٦ ا ٠

(٢١٠) الوسواس السوداوى : وهو ما يعرف بالماليخوليا ، وهو مرض يضر بالفكر من غير تعطل الأفعال · القمرى : التنوير ، ص ٥٢ ·

(٢١١) الكناش ، الورقة ١٣١ ؟ ·

(٢١٢) ن· م· س ، الورقة ١٣٦ ؟ ·

(٢١٣) الكناش ، الورقة ٧٨ ؟ ·

(٢١٤) الفالج : هو استرخاء أحد الجانبين من الانسان ، وقد فلج اذا ذهب الحس والحركة عن بعض أعضائه · الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٣١ ، وهو ما يعرف اليوم بالشلل النصفى ·

(٢١٥) اللقوه : ان يتعوج وجه الانسان فلا يقدر على تغميض احدى عينيه · ن· م· س ، ص ١٣١ ، القمرى : التنوير ، ص ٥٤ ·

(٢١٦) الايارج : أو الأرياج تركيبة من الأدوية تزداد فيها المرارة ويغلب عليها شحم الحنظل · الزهراوى : التصريف لمن عجز عن التأليف ، الورقة ١٩٦ ؟ ·

(٢١٧) الكناش ، الورقة ١٢٧ ؟ ·

(٢١٨) ن· م· س ، الورقة ١٤٥ ب ·

(٢١٩) ن· م· س ، الورقة ١٧٢ ب ·

(٢٢٠) العرق المدينى : عرق يبرز من مكان الى مكان فى الرجل أولا فأولا ثم ينقطع · القمرى : التنوير ، ص ٦٠ ·

(٢٢١) الكناش ، الورقة ٢٩٠ ؟ ·

المصـادر والمراجع

اولا : المصادر المخطوطة :

— الزهراوى : خلف بن عباس (ت ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) « التصريف لمن عجز عن التاليف » مخطوط بشير آغـا رقم ٥٠٢ ، مكتبة السليمانية ، استانبول •

— الكشكرى : يعقوب (ت فى النصـف الثانى من القـرن الرابع الهجرى) « الكناش » مخطوط آيا صوفيا رقم ٣٧١٦ ، مكتبة السلميانية ، استانبول ، نشره مصوراً معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية ، جامعة فرانكفورت المانيا ، من اصـدار البروفسور فؤاد سزكين •

ثانيا : المصادر المطبوعة :

— ابن أبى أصيبعة : أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسـم بن خليفة (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» تحقيق د/نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م •

— ابن الأثير : عز الدين على بن محمد الجزرى (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، « الكامل فى التاريخ » دار بيروت للطباعة والنشر ، دار صادر بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م •

— ابن البيطار : ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسى المالقى (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م •

— ابن تغر بردى : جمال الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكى (ت ٨٧٤هـ/١٣٦٩م) « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » المؤسسة المصرية العـامة للتاليف والترجمة والطبـاعة والنشر ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م •

- ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى (بعد ٣٧٧هـ/ بعد ٩٨٧م) « طبقات الأطباء والحكماء » ، تحقيق / فؤاد سيد ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- الحموى : صلاح الدين بن يوسف الكحال (ت ٦٩٦هـ/١٢٩٦م) « نور العيون وجامع الفنون » تحقيق د/محمد ظافر الوفائى ، الطبعة الأولى ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، الرياض ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- حنين : أبو زيد بن اسحاق العبادى (ت ٢٦٠هـ/٨٧٥م) ، « رسالة حنين بن اسحاق الى على بن يحى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم » نشره الدكتور/ عبد الرحمن بدوى ضمن كتاب « دراسات ونصوص فى الفلسفة والعلوم عند العرب » ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨١م .

- الخطيب البغدادى : الحافظ أبو بكر احمد بن على (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) « تاريخ بغداد » دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان، (بد ت) .

- ابن سينا : الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن على (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٣٦م) « القانون فى الطب » دار صادر ، بيروت (بد ت) .

- المبشر بن فاتك : أبو الوفاء الآمرى (ت أواخر المئة الخامسة من الهجرة) « مختار الحكم ومحاسن الكلم » تحقيق/عبد الرحمن بدوى ، الطبعة الثانية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠م .

- القفطى : الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) « كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء » دار الآثار لطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان (بد ت) .

- القمرى : الحسن بن نوح (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) . « التنوير فى

الاصطلاحات الطبية » مكتب التربية العربى لدول الخليج ، الرياض ١٤١١هـ/١٩٩١م ٠

— مسكويه : احمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) « كتاب تجارب الأمم) ، دار الكتاب العربى ، القاهرة (بد ت) ٠

— ابن منظور : ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصرى (ت ٧١١هـ/١٣١١م) ، « لسان العرب » ، دار صادر ، الطبعة الأولى بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ٠

— النديم : محمد بن اسحاق (ت ٤٣٨هـ/١٠٤٦م) « الفهرست » تحقيق رضا تجدد ابن على المازندرانى ، دار المسيرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م ٠

ثالثا : المراجع العربية والمعربة :

— بروكلمان : كارل : « تاريخ الأدب العربى » ترجمة د/سيد يعقوب بكر - د/رمضان عبد التواب ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، (بد ت) ٠

— بيك : احمد عيسى : « آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ، القاهرة ١٩٢٥م ٠

— الخطابى : محمد العربى : « الأغذية والأدوية عند مؤلفى الغرب الاسلامى » دار الغرب الاسلامى ، الطبعة الأولى ، بيروت ، بيروت ، ١٩٩٠م ٠

— ششن : رمضان وآخرون : « فهرس مخطوطات الطب الاسلامى فى مكتبات تركيا » اشراف أكمل الدين احسان ، استانبول ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ٠

— عسيرى : مريزن سعيد : « تعليم الطب فى المشرق الاسلامى نظمه ومناهجه حتى نهاية القرن السابع الهجرى » معهد البحوث الاسلامية واحياء التراث الاسلامى بجامعة ام القرى ، مكة المكرمة ١٤١٢ هـ ٠

— لوبون : الدكتور غوستاف : « حضـــارة العـــرب » ترجمة عادل زعيتر ، طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه (بدت٠ن) ٠

— متز : الأستاذ آدم : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى» ترجمة/محمد عبد الهادى أبو ريدة ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ٠

أضواء على مدينة الري في صدر الاسلام
(٣٠ هـ - ٣٣٠ هـ)

بقلم
دكتور حسين على المصرى(*)

مقـــدمة :

تحوى مصادر التاريخ الاسلامى ، أثناء حديثها عن المدن الفارسية فى المشرق ، اشـــارات متنـــاثرة عن مـــدينة الرى ، وهى اشــــارات تتضمن معلومات ترتبط بجوانب الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية ، وقد ولدت هذه المعلومات شعوراً باهمية هذه المدينة ، فكانت دافعا لجمع المزيد من المعلومات فى هذا المجال ، لبنـــاء هذا البحث الذى يعالج تاريخ مدينة الرى فى عصر من ابرز عصور التاريخ الاسلامى نشاطا وحيوية .

ولعل الموقع الجغرافى الهام الذى تتمتع به مدينة الرى ، كان من العوامل التى ساعدت على اكسابها مثل هـــذه الأهمية ، فهى تقع على الممر التجارى العـــالمى الذى يربط بلدان الشرق الاقصى ، أعنى بذلك بلاد ما وراء النهر والصين باوروبا ، وهو الطريق المعروف بطريق الحرير Silk Road ، هذا فضلا عن موقعها الهـام فى قلب بلاد فارس مما يجعلها حلقة الوصل بين العديد من المدن ، التى تمر بها وتربط بينها .

وهكذا فان هذه الأهمية الاستراتيجية التى حظيت بها مدينة الرى، جعلتها تتفاعل مع الاحداث ، سواء كان ذلك على الصعيد السياسى أو الدينى أو الاقتصادى .

(*) قسم التاريخ - كلية الاداب - جامعة الكويت .

اما الفترة الزمنية التى يعالجها هذا البحث ، فانها تبدأ بالفتح الاسلامى لمدينة الرى ، وتمتد وحتى نهاية العصر العباسى الأول ، وقد ركزنا فيها على الجوانب السياسية ، مع العناية بتحليل احداثها ، فضلا عن الجوانب الدينية والاقتصادية وما حفلت به من تيارات ، وذلك بدءا بالتعريف . وقد بدأنا الحديث بالتعريف بالمدينة ، من حيث نشأتها واصل تسميتها .

على أننا رأينا أن نبدأ بالاشارة الى المصادر التى أستقينا منها هذه المعلومات وهى :

أولا : كتب الفتوح ، فقد افادتنا كثيراً فى ابراز الدور الذى قامت به مدينة الرى على الصعيد السياسى ، ومن هذه الكتب ، كتاب فتوح الاسلام لبلاد فارس للواقدى . وكتاب ، فتوح البلدان للبلاذرى ، بالاضافة الى كتب التاريخ التى عززت هذه المعلومات واكدتها مثل كتاب : تاريخ الطبرى ، وكتاب الفتوح ، لابن اعثم الكوفى ، وتاريخ خليفة بن خياط ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وغير ذلك من كتب التاريخ .

ثانيا : كتب الجغرافيا والرحلات ، ويعود لها الفضل فى التعريف بمدينة الرى من حيث التسمية والموقع ، هذا فضلا عن المعلومات المتعلقة بالنواحى الاقتصادية لمدينة الرى التى لابد منها لهذا البحث ، وقد افادتنا هذه المصادر ايضاً فى تحقيق بعض المواضع الجغرافية التى لها علاقة بمدينة الرى ، مثل كتب المعاجم الجغرافية .

ثالثا : المعاجم اللغوية ، التى افادتنا كثيراً فى تفسير وتحقيق بعض الألفاظ التى صعب علينا فهمها ، كذلك كتب الطبقات والأنساب ، افادتنا فى تحقيق بعض الشخصيات العامة وبخاصة من الفقهاء والعلماء وقادة الفتح الاسلامى .

ملخص البحث :

مدينة الرى من المدن الفارسية القديمة ، وقد أجرينا فى هذه الدراسة تحقيقا تاريخيا حول تاسيسها واول من قام ببنائها وتحديد

موقعها الجغرافى ، وتحدثنا بعد ذلك عن الرى فى صـــدر الاسلام ، وأوضحنا كيف تم فتحها زمن الخليفة عمـــر بن الخطاب ، واقـــوال المؤرخين فى ذلك ، واستمر الحديث عن هـــذه المدينـة طوال العصر الراشدى ، ولم يكن الاسلام قد انتشر خلال هذه الفترة فى جميع ربوع مدينة الرى ، لذلك فان الأوضاع لم تكن مستقرة فيها عنـدئذ ، الا ان ظاهرة عدم الاستقرار هذه اختفت تقريباً فى العصر الأموى لدخول معظم أهلها فى الاسلام ٠

وكان النفوذ الأموى على مدينة الرى ضعيفا بصورة عامة لا سيما فى عهد يزيد بن معاوية والفترة التى اعقبته ، اى قبل أن يستتب الأمر لآل مروان ، وذلك بسبب النزاع الدائر بين الامويين وآل الزبير وجماعة المختار بن عبيد الثقفى ، مع حزب الخوارج، فكان العالم الاسلامى يموج بالفتن والاضطرابات الداخلية خلال هذه الفترة ٠

ثم جاء العباسيون الذين احكموا سيطرتهم على الولايات الاسلامية لا سيما فى العصر العباسى الأول ، وبخاصة الجهـــات الشـرقية من الحاضره بغداد زمن أبى جعفر المنصور ، وكثيراً ما كانت مدينة الرى تتاثر بالنزاعات التى تقع بين الخلفاء ، كما حـــدث أثناء الفتنة التى حدثت بين الاخوين الأمين والمامون ٠

وكان لمدينة الرى مساهمات فعالة فى الحيـــاة الدينية والثقافية عندئذ ،فهى تعد واحـــدة من كبرى مراكز الثقافة والعـلم فى العـالم الاسلامى ، فكان لذلك تاثيراته الايجابية على الحركة العلمية بمدينة الرى ، انجبت العـــديد من العلماء ورجال الدين الذين حمـــلوا راية الحركة العلمية ٠

وكانت الحياة الاقتصادية بمدينة الرى مزدهرة ، فهى تنتج العديد من المحاصيل الزراعية فضلا عن الثروة المعدنية ، وقد قامت على هذه المنتجات بعض الصناعات ، مثل صناعة النســيج والاوانى ، وسرعان ما غدت مدينة الرى من كبرى مراكز التجارة فى العالم ، فهى تقع على الطريق التجارى الهام الذى يربط أواسط آسيا وبلدان الشرق الأقصى ،

الصين والهند بأوربا ، فكانت أسواقها مملوءة بأصناف السلع التجارية والبضائع الهامة التى أشتد الطلب عليها فى حركة التجارة العالمية ٠

أولا : التعريف بمدينة الرى :

الرى مدينة فارسية قديمة ، وقد اختلف المؤرخون حـــول تاريخ نشأتها وبنائها ، ومن المعروف ان الروايات التى تتناول الأمور والقضايا البعيدة زمنيا تنقصها الدقة ولا تتوفر فيها الموضوعية ، بمعنى أنها أقرب الى الأساطير ٠ من ذلك ترد فى بعض المصـــادر من أن : مهلائيل بن قنان ، ويعرف بـ « أوشنج » ، أحد ملوك الفرس القدماء هو الذى بنى الرى ، وقد ملك الاقاليم السبعة ، وكانت أول مدينة بنيت بعد مدينة « جيومرت » ، وهى مدينة قديمة ، ولم تحدد تلك الروايات التاريخ الذى بنيت فيه مدينة الرى(١) ، كذلك قيل : ان أول من بنـــاها هو فيروز بن يزدجرد ، وسماها « رام فيروز »(٢) ، وذكر قـــدامة بن جعفر ، فقد ذكر ان الاسكندر المعـــروف بذى القرنين لما وصـــل الى جرجان ، أمر ببناء مدينة الرى(٣) ٠

وكانت عادة ملوك الفرس أنهم يضعون اسماءهم على المدن التى يشيدونها أو يفتحونها ، وهناك عدة آراء حول بناء مدينة الرى ، فمن اقوالهم : ان الملك فيروز هو الذىبناها أو اعاد بناءها،ووضعاسمه عليها، كما أشرنا الى ذلك من قبل(٤) ٠ وقيل ان الذى بناها هو الملك اردشير ، وكانت تسمى (رى اردشير) وقد عثروا على آثار هذا الملك فى هذه المدينة(٥) ، كذلك قالوا : ان الذى بناها ، راز بن خراسان ، وقـــد اكدوا هذا القول ، بان النسبة اليها « رازى »(٦) ٠ وجاء فى كتابات اليونان ان سلوق نفاتورى Seleucus Nicator (٣١٢ - ٢٨٠) اعاد بنـــاء راكاى Rhagae ، وســـماها أوربوس Europos تخليداً لذكرى مسقط رأسه مقدونيا(٧) ٠

اما عن سبب التسمية ، فذكروا ان الرى عرفت بهذا الاسم ، نسبة الى رجل اسمه (رى) ، من بنى شيلان بن اصـــبهان بن فلوج(٨) ، فاخذت أسمها عن هذا الرجل ، وكان اسمها قبل ذلك (بورأنجير) ،

وهى كلمة فارسية من مقطعين (انجير) ، وتعنى تين ، و (بور) ، وتعنى طائر ، واسم هذا الطائر بالعربية (دراج)(٩) وبمرور الوقت حولوا اسمها الى (رى) ، وكان اسمها فى العصور القديمة (ارازى)(١٠) ، وهى تعنى الشىء الجميل(١١) ، وفى كتابات اليونان ، ان هذه المدينة سميت من جديد باسم (أرساكيا) Arsakia بعد مجيىء الفرثيين ، وقد ورد ان الملوك الفرثيين كانوا يمضون الربيع فى راكاى Rhagae ، أى الرى ، والشتاء فى بابل Babylon (١٢) ويتضح مما تقدم ان اسم مدينة الرى تعرض لكثير من التغير والتبدل تبعا للظروف السياسية والدينية .

اما عن الموقع فقد ورد ان مدينة الرى تتبع اقليم الجبل ، وهو الاقليم الذى يضم الرى وطبرستان(١٣) وقزوين(١٤) وزنجان(١٥) وقم(١٦) واصبهان (١٧) وهمذان(١٨) ونهاوند(١٩) والدينور(٢٠) وحلوان(٢١) وماسبذان(٢٢) ومهرجان قذ(٢٣) وشهرزور(٢٤) والصامغان(٢٥) واذربيجان(٢٦) وهذه التقسيمات الادارية وردت فى تاريخ اليعقوبى كما وردت فى (احسن التقاسيم)(٢٧) ، معظم هذه المدن تتبع اقليم بلاد الجبل ، ومدينة الرى ، تقع فى الطرف الشمالى الشرقى من هذا الاقليم ، فى آخر هذه المقاطعة حتى ان البعض اعتبرها من اقليم خراسان(٢٨) ، وقال المقدسى فى هذا الصدد : « أول مدن خراسان الرى »(٢٩) ، وفى « الروض المعطار » تاكيدا لهذه المعلومة، فيذكر : « أنها تنسب الى الجبل وليست منه ، بل هى أقرب الى خراسان »(٣٠) ، وقد وردت مدينة الرى فى كتابات الجغرافيين مقترنة دائما » بالـ « التعريف » ، وهى مدينة ريجس Rhages عند اليونان(٣١) ، وقد قدرت المسافات بين هذه المدن بالفراسخ(٣٢) ، كما قدروا المساحة التى تشغلها مدينة الرى ، وفق ما جاء فى الجغرافيا القديمة لبطليموس القلوذى(٣٣) .

اما الاصطخرى وابن حوقل ، فيذكران أن مدينة الرى تتبع بلاد الديلم(٣٤) ، وهى تضم مدينة قزوين وقومس(٣٥) ، وطبرستان والرى(٣٦) ، ويؤكد ابن حوقل ، ان مدينة الرى لا تتصل باقليم الجبال

ودليله على ذلك ان هناك سلسلة من الجبال على شكل منحنى تفصل بين اقليم الجبل وبلاد الديلم ، وتقع مدينة الرى وقزوين وزنجان خلف هذه السلسلة من الجبال ، أى ضمن بلاد الديلم(٣٧) ٠

ولو قارنا بين قول اليعقوبى السابق وقول كل من الاصطخرى وابن حوقل ، لوجدنا ان القول الأخير أكثر دقة من قول اليعقوبى فى تحديد موقع مدينة الرى ، حيث أن الرأى الأخير مبنى على دراسة ميدانية قام بها كل من الاصطخرى وابن حوقل لتلك المناطق بصورة عامة ولمدينة الرى بصورة خاصة ، هذا فضلا عن أنهما أكثر تخصصا ودراية فى علم الجغرافيا من اليعقوبى(٣٨) ٠

وظلت مدينة الرى على مر عصور التاريخ محتفظة بأهميتها رغم تعرضها لمحن وكوارث عديدة،فلما زارها الاصطخرى وكذلك ابن حوقل، فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، أشادا بجمالها وكثافة السكان والعمران بها ، كما تحدثا عن تجارتها وتجارها ، وقال الاصطخرى انها أفضل مدينة فى اقليم الديلم(٣٩) ، وقد ازدادت أهمية مدينة الرى على يد البويهيين حكام بغداد، فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى، فكانت دواوين الدولة بمدينة الرى ، وأدى ذلك الى ازدهار الحياة بها ، كذلك اعجب ابن حوقل بجمالها ومكانتها ، فقال : « ليس بعد بغداد فى المشرق مدينة أعمر من الرى »(٤٠) ٠

وقد تحدث الاصطخرى عن بناء الدور ، فذكر أن أهل مدينة الرى يعتمدون على الطين ممزوجا بالجص ، كما يستعملون طابوق الآجر ، وكانت مدينة الرى محاطة بسور ، كما كانت العادة المتبعة قديما فى تسوير المدن ، وهى تتصل بجيرانها عن طريق أبواب مشهورة ، فمن أبوابها : باب طاق ، يصلها باقليم الجبال ومنه الى العراق ، وباب بليسان ، يصلها بمدينة قزوين ، وباب كوهكين ، يؤدى الى مدينة طبرستان ، وباب هشام الى مدينة قومس وخراسان ، وباب سين يصلها بمدينة قم ، وهذه هى المخارج والمداخل الرئيسية لمدينة الرى(٤١) ٠

كذلك كان لمدينة الرى أسواق وخانات تجارية كثيرة ، تتمركز

جميعها فى شارع رئيسى واحد يمتاز بالسعة والضخامة ، وتتوفر فيه جميع صنوف الأمتعة والسلع التجارية ، أما العملة المتـــداولة فكانت الدرهم والدينار ، وفى شـــربهم وريهم كانوا يعتمدون على نهـــرين يخترقان المدينة ، احدهما عرف باسم « سورقنى » والآخر « الجيلانى » .

وأحاطت بمدينة الرى ، عدة مدن صغيرة تابعة لها ، من هـــذه المدن ، « الخوار » ، وكانت آهلة بالسكان وبها ضياع وبساتين ، ومدينتا « يمـه » و « شلنبه » وهما أصغر حجما من « الخوار » ، تكثر فيهما البساتين والمزارع والمياه(٤٢) ، ومن أكثر الرساتيق فيها خصـــوبة ، رستاق « روذه » أو « الروذه » ، و « رامين » الذى صار من أكبر مدن ذلك الاقليم ، وحلت محل مدينة الرى فيما بعد ، و « رامين » ، اسم لقريتين على بعد مسيرة يوم من مدينة الرى ، والقريتان هما : « ديزة القصرين » أو « ديزة رامين » ، ومدينة « بشاويه » ، ومازالت هذه المدينة قائمة الى الآن ، وهى تعرف باسم « قشـــاوية » ، ومن مدنها « قوسين »(٤٣) .

والى جانب هذه المدن تحيط بها هناك عدد من القرى ، التى كانت مساحة تحذف بعضها تزيد عن مساحة بعض المدن ، واشتهرت هـــذه القرى « سـد » و « أرنبويه » و « ورزنيو » « دزاه »(٤٤) .

اما موقع مدينة الرى على الخريطة ، فقد ورد فى كتب الجغرافيا القديمة انها تقع فى أقصى شمال عراق العجم(٤٥) وهذا التحديد يبدو غير دقيق . ان لفظة عراق اصطلاح جغرافى قديم يحمل معانى كثيرة ، فكلمة « عراقان » ، تعنى البصرة والكوفة ، و « عراق » ، تعنى ما قرب من البحر وبعد عن « نجد » و « عراق » ، تعنى المناطق المشرفة على شواطىء نهرى دجلة والفرات ، وتعنى أيضا المناطق القريبة من البحر . وكانوا يطلقون على وسط مملكة الفرس « العراق » ، كما أن هذه الكلمة تعنى الاستواء فى الأرض ، ومن المتعارف عليه عند الجغرافيين القدامى ، ان « العراق » تعنى أرض بابل فقط ، وهى احدى مدن العـــراق فى الوقت الحاضر(٤٦) .

وقد اتخذ هذا اللفظ فى العصر الأموى مفهوما جديدا ذا صبغة سياسية ، فصار المقصود « بالعراق » تلك الاقليم الممتدة من مدينة هيت(٤٧) بالعراق ، حتى حدود الصين ، بمعنى أن والى العراق فى ذلك العصر كان مسئولا اداريا وسياسيا عن هذه الاقاليم فهو الذى يعين العمال عليها ، وهى تتبع من الناحية الادارية ولاية العراق(٤٨) ٠

ولا يفوتنا أن نذكر أن كتب المسالك والممالك لها أهمية فى تحديد المواضع ومواقع المدن ، وفى أثناء تعرضها للطرق والممرات التى تربط المدن ببعضها ، اشارت الى موضع مدينة الرى(٤٩) ، كما وصفت الطريق الذى يربط بغداد بمدينة الرى)٥٠) ٠

اما عن موضع مدينة الرى فى الوقت الحاضر ، فانها تبعد عن العاصمة الايرانية طهران بحوالى ٨ كيلو متر ، وبها ضريح الحسين بن على بن موسى الرضا ، وعلى بن موسى هو أحد الأئمة الاثنى عشر وهو الامام الثامن بينهم، كما يوجد فى ضواحيها ضريح امام زاده عبد العظيم، أحد أبناء الأئمة من آل البيت النبوى الشريف ، وهو المعروف بشاه عبد العظيم ، ويعتبر من المشاهد المكرمة عند أهل مدينة طهران وسائر الشيعة ٠ وقد اقترن اسمه بالمدينة ، فصارت تعرف « بشآه عبد العظيم»، وهو الاسم الحديث للمدينة بدل الرى ، وتعد « شاه عبد العظيم » من المدن المقدسة فى ايران ، حتى ان شاه ايران السابق حرص على اقامة مقبرة ملكية ضخمة فى هذه المدينة ، لدفن والده « شاه رضا بهلوى »(٥١) ٠

ثانيا ـ الدور السياسى لمدينة الرى :

حتى نتمكن من توضيح الدور السياسى لمدينة الرى ، لابد لنا من عرض مراحل الفتح الاسلامى لبلاد فارس ، منذ العهد الراشدى والعهود التى تلته ، وذلك لما كان لمدينة الرى من مساهمات فعالة فى مساندة ومساعدة الجيش الفارسى قبل ان يصل اليها الجيش الاسلامى ، وقد قدمت الرى هذه المساعدة النشطة لتدرأ عن نفسها الخطر ، بمعنى أنها

محاولة منها ومن باقى مدن فارس لتجهز على المد الإسلامى قبل ان يصل الى حدودها . ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل .

١ - العـــهد الراشـدى :

لم يكن للجيوش الاسلامية وجـــود في بلاد فارس زمن الخليفة ابى بكر ، ولكن فى ضوء المعلومات التى نقلهـــا المثنى بن حارثة بن سلمه بن ضمضم الشيبانى ، كان الخليفة أبو بـكر على علم بالاوضاع السياسية للعراق تحت النفوذ الفارسى ، ويبدو أن هذه الأوضاع شجعت الخليفة على التفكير فى غزو بلاد فارس ، الا أن المرض لم يمكنه من ذلك ، فأوصى عمر بن الخطاب بارسال الجيوش الى العراق(٥٢) .

وبعد أن تولى عمر بن الخطاب الخلافة ، أخذت جيوش المسلمين تتجه صوب المشرق ، وقد حققت انتصـــارات عظيمة فى معاركها مع الفرس ، انتصرت فى معركة القادسية والمدائن وجلولاء ، وقد دارت هذه المعارك فى سنة ١٦ هـ (٦٣٧م)(٥٣) ، كانت القادسية والمدائن بقيادة سعد بن أبى وقاص ، اما جلولاء فكانت بقيادة هاشم بن عتبه بن ابى وقاص ، ابن أخى سعد ، وهو الذى بعثه لقتال الفرس فى هذه المعركة ، ولكن النويرى فى « نهاية الأرب » يقول : ان سعد بن أبى وقاص باشر هذه المعركة بنفسه(٥٤) ، وحـــلوان التى فتحت صـــلحا سنة ١٩ هـ (٦٤٠م) ، فتحها جرير بن عبد الله البجلى(٥٥) .

فى أعقاب هذه الهزائم المتلاحقة التى ألمت بالفرس ، أحست المدن الفارسية التى لم يصل اليها الفتح الاسلامى بالخطر ، فارادت أن تفعل شيئا لتوقف المد الاسلامى على الأقل ، ومن أجل ذلك قام الملك يزدجرد الثالث ، بمكاتبة امراء المدن الفارسية ، فبعث برسائل الى مدينة الرى وقوس واصبهان وهمذان وغيرها ، وقد استجابت مـــدينة الرى لهـذا النداء ، فقدمت المساعدات العسكرية وحذت حذوها باقى المدن الفارسية، كان ذلك فى ســنة ٢٠ هـ (٦٤١م) ، وقد اختلف المؤرخون فىتقــدير العســاكر التى تجمعــت عنـــدئذ ، بين مكثر ومقـــل ، فحصروها ما بين (٥٠ و ١٥٠ الف مقاتل(٥٦) . والواقع أن هـــذا الحشـــد

الهائل كان له ما يبرره فى نظر الفرس ، اذ أرادت مدينة الرى وباقى مدن الفرس أن يوحدوا صفوفهم ليتمكنوا من اعادة مجدهم السياسى ، وقد عبر سعد بن أبى وقاص عن ذلك مخاطبا الخليفة عمر بن الخطاب فقال : « انهم انما جمعوا للنقمة »(٥٧) ٠

وعندما سمع الخليفة عمر بن الخطاب بامر هذه الجموع الكثيفة اجتمع بأصحابه للأخذ برأيهم ومشورتهم ، وانتهى الاجتماع الى الأخذ براى على بن أبى طالب ، الذى نادى بالاعتماد على الكوفة والبصرة ، فيأخذوا من كل مدينة الثلث من رجالها المقاتلين ، ويبقى الثلثان فى كل مدينة للحماية(٥٨) ، وتم اعداد هذا الجيش بقيادة النعمان بن عمرو بن مقرن المزنى ، حتى انتصر المسلمون على الفرس فى المعركة التى جرت على أرض « نهاوند » وقد اقترن اسم المعركة بهذا الموضع ، فصارت تعرف باسم « معركة نهاوند » ولم يتفق المؤرخون فى تحديد السنة التى جرت بها هذه المعركة ، الا أنهم حصروها فى سنوات (١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١)(٥٩) ٠

ولا شك فى أن هذه الانتصارات الرائعة التى حققها المسلمون فى معركة نهاوند ، كان لها آثارها السلبية على الصعيدين السياسى والاجتماعى ، بعد أن انهزم الملك يزدجرد الى مناطق نائية بعيدا عن الخطر ، كما ولدت هذه الهزائم ردود فعل سيئة بين أوساط العامة والخاصة فى مدينة الرى وفى غيرها من المدن ٠ فى ظل هذه الاوضاع توجه القائد نعيم بن مقرن الى مدينة همذان ، فتمكن من فتحها صلحا(٦٠) ، ثم نقضت الصلح ، فعاد وفتحها(٦١) ٠

وبعد سقوط مدينة همذان أصبح الوضع بمدينة الرى حرجا وخطرا فى نفس الوقت ، لا سيما وان همذان تقع بالقرب من مدينة الرى ، لذلك فانها اخذت تعمل على الصعيدين السياسى والعسكرى بما يوائم هذه الظروف ، فعقدت تحالفا عسكريا يضم ، بلاد الديلم وأذربيجان ومدينة الرى ، وكان الهدف من هذا التحالف محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه ، فهى محاولة قد تكون يائسة فى نظر قادة مدينة الرى وغيرها ،

ولكنها محاولة مادامت تعبر عن رأى الأغلبية التى تريد أن تحقق الحلم الفارسى المنشود(٦٢) ٠

وكان أن تقدمت جيوش الفرس المتحالفة وعسكرت فى موضع يقال له « واج الروذ »(٦٣) بقيادة قائد مدينة الرى ، الزينبى أبو الفرخان ، وقائد بلاد الديلم موتا أو موثا ، وقائد اذربيجان ، يقال له اسفنديار ، ولقد انتصر المسلمون فى معركة « واج روذ » سنة ٢٢ هـ (٦٤٢م) بقيادة نعيم بن مقرن ، وهى المعركة التى وصفت بالشدة والضراوه ، حتى ان الخليفة عمر بن الخطاب كان قلقا على المسلمين ، فهى تعد من المعارك الفاصلة فى تاريخ الفتوح الاسلامية التى جرت فى العصر الراشدى ، اذ تكبد الفرس فيها خسائر فادحة فى الأرواح والأموال(٦٤) ٠

وفى اعقاب معركة « واج روذ » جاءت رسالة من الخليفة عمر بن الخطاب الى نعيم بن مقرن تدعوه للتوجه الى مدينة الرى لفتحها ، فتهيأ للذهاب ، وترك على مدينة همذان بكير بن عبد الله بن سماك بن خرشه(٦٥) ، وكذلك تضمنت هذه الرسالة بعض الوصايا العسكرية فيما يتعلق بمدينة الرى ، من ذلك قول الخليفة عمر بن الخطاب للقائد نعيم: « اقم بها فانها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد »(٦٦) ٠

هذه العبارة تؤكد أهمية موقع مدينة الرى فى النواحى العسكرية، فضلا عن موقعها كمركز تجارى هام ، وهو أمر يأتى الحديث عنه فيما بعد ، وقد أدرك الخليفة عمر هذه الأهمية الاستراتيجية العسكرية لمدينة الرى ، نظرا لموقعها الذى يتوسط المدن الفارسية ، وهى الأهمية التى أكدها الرحالة والجغرافى المقدسى بقوله : « الرى واسطة خراسان وجرجان والعراق » ، ونفهم من ذلك أن السيطرة على مدينة الرى ، تعنى احكام السيطرة على باقى المدن الفارسية المجاورة لها(٦٧) ٠

لذلك حرص القائد نعيم على اخضاع مدينة الرى ، فتوجه اليها بجيشه سنة ٢٢ هـ ٠ وكانت المدينة على استعداد للقائه ، ولكن حدثت خلافات بين قادة مدينة الرى ، ذلك أن القائد الزينبى أبو الفرخان

تمرد على ملك الرى المدعو : سياوخش بن مهران بن بهرام شوبين ، فترك القائد الزينبى المدينة والتحق بجيش المسلمين فى موضع يقال له « قها »(٦٨) لاجئا يطلب الأمان ، فامنه القائد نعيم(٦٩) .

ومن المؤكد أن المسلمين استفادوا عسكريا من وجود القائد الزينبى بينهم ، بوصفه على علم ودرايه كبيرة بأمور مدينة الرى ، فضلا عن كونه قائدها العسكرى ، وسرعان ما ادرك أمير مدينة الرى سياوخش خطورة الموقف ، فهو أمام جيش قوى مدرب وله خبرة ودراية فى الحروب فى مثل هذه المواضع وسبق له أن حقق انتصارات كثيرة ، فضلا عن انشقاق القائد الزينبى ، وكان أن دفعه ذلك الموقف الى طلب المساعدة من جيرانه ، مثل : دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان ، فراح يتفاوض معهم ، مبينا لهم خطورة الموقف عليهم وعليه ، ومما جاء فى أقواله لهم : « قد علمتم ان هؤلاء ان حلوا بالرى ، انه لا مقام لكم »(٧٠) .

وتوحى هذه العبارة الأخيرة بالأهمية التى تتمتع بها مدينة الرى بالنسبة الى المدن المجاورة لها ، ولذا استجاب حكام المدن المجاورة لطلب سياوخش ، وقدموا المساعدات العسكرية ، فبعثوا بجيوشهم وتجمعت هذه العساكر عند سفح جبل مدينة الرى ، ويبدو انهم شكلوا قوة كبيرة فاقت قوة المسلمين بكثير ، مما بعث فى نفوسهم الغرور ، فراحوا يتحرشون بجيش المسلمين ويستعجلونهم القتال ، وعندما بدات المعركة ، لاحظ القائد الزينبى أبو الفرخان هذا التباين الشديد بين جيوش الطرفين ، ولم يكن من صالحه أن ينهزم الجيش الاسلامى ، فعرض على القائد نعيم بن مقرن أن يبعثه مع مجموعة من العساكر ليدخل المدينة من أحد أبوابها السرية ، فيكون من الخلف والمسلمون من الامام ، فاستصوب القائد نعيم رأيه وبعثه فى المساء مع خيل بقيادة ابن أخيه المنذر بن عمرو ، فتمكنوا من دخول المدينة واخذوا مواقعهم فى مؤخرة الجيش الفارسى ، وأدت هذه الخطة الى هزيمة نكراء ، فسقطت مدينة الرى ودخلتها جيوش المسلمين ، وغنموا أموالا كثيرة(٧١) .

وبعد أن حقق المسلمون هذا النصر بعث القائد نعيم بكتاب الى

الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بفتح مدينة الرى ، وقد حمل هـــذا الكتاب ، شخص يقال له ، مضارب العجلى ، وبعد ذلك بعث بالاخماس والغنائم التى حصل عليها المسلمون فى هذه المعركة ، وقد قام بنقلها عتبه بن النهاس وابى مفزر ، مع وجوه من أهل الكوفة(٧٢) .

والواقع ان المسلمين استفادوا من الخلافات التى وقعت بين الأسر الفارسـية والمسـئولين فى مـدينة الرى ومع ذلك يبـدو أن الجيش الفارسى قد أبدى مقاومة عنيفة ، بقيادة سياوخش بن مهران بن بهرام شوبين ، ولعـل ذلك هو الذى دفع نعيم بن مقرن الى هـدم المدينة القديمة(٧٣) ، ثم أمر الزينبى أبو الفرخان ببناء مدينة جديدة ، فكانت تسمى « مدينة الرى الحـدثى » ، فى حين أطلق على القـديمة اسم « العتيقة »(٧٤) .

ومن الاعمال الادارية التى قام بها نعيم بن مقرن بمدينة الرى عقب فتحها أنه جعل القائد الزينبى ابو الفرخان واليا عليها ، ويقول الطبرى فى هذا الصدد : « ومرزبه عليهم » ، ولفظة « مرزبان » بالفارسية ، تعنى والى(٧٥) . ثم عقد مع أهل الرى صلحا ضمنه بعض الجوانب التى تتعلق بالنواحى الأمنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وهى شروط تتناسب مع أوضاع وظروف أهل مدينة الرى الذين لم يدخلوا فى الاسلام بعد ، وهذا نص الصلح : « بسم الله الرحمن الرحيم هـــذا ما أعطى نعيم بن مقرن الزينبى بن قوله أعطاه الأمان على أهل الرى ومن كان معهم من غيرهم على الجزاء طاقة كل حالم فى كل سنة وعلى أن ينصحوا ويدلوا ولا يغلوا ولا يسلوا(٧٦) وعلى ان يقروا(٧٧) المسلمين يوما وليله وعلى ان يفخموا المسلم فمن سب مسلما أو استخف به نهك عقوبة ومن ضربه قتـــل ومن بدل منهم فلم يسـلم برمته فقـد غير جماعتكم »(٧٨) .

ومن الملاحظ أن هناك اختلافات فى الاراء حول موضوع فتح مدينة الرى ، فلم يتفق المؤرخون فى تحديد سنة الفتح ، وكذلك لم يتفقوا على قائد الفتح ، فمن أقوالهم : ان الفتح كان فى سنة ٢١ هـ ، أو فى سنة

٢٢ هـ أو سنة ٢٣ هـ ، كذلك ذكروا أن قائد الفتح ، نعيم بن مقرن ، وتارة قالوا أنه قرظة بن كعب(٧٩) ،أو مرة عروة بن زيد الخيل الطائى(٨٠).

هذه الاختلافات فى الآراء حول تحـــديد سنة الفتح وكذلك قائد الفتح ، ربما نشأت من عدم استقرار الوضع بمدينة الرى فى تلك الحقبة، فكانوا فى كل مرة ينقضون الصلح المعقود بينهم وبين المسلمين ، مما يضطر قادة الفتح الى اعادة فتحها ، وقد أدى ذلك الى وقوع مثل هذا الالتباس ثم الاختلاف فى الآراء .

على اية حال ، فقد كان لسقوط مدينة الرى بيد المســلمين آثاره الواضحة على باقى المدن الفارسية ، فقد تدافعت هذه المدن ، مثل قومس وجرجان وطبرستان تطلب الصلح مع المسلمين مقابل الجزية ، بعد ان ادركت انه لا طائل من المقـاومة ، مادامت مدينـــة الرى ذات الموقع الحصين قد سقطت ، لذلك ارادت أن تجنب نفسها ويلات الحروب ، وهـــذا دليـــل على الدور الريادى الذى تبوأته مدينة الرى بين هـذه المـــدن(٨١) .

وكانت مدينة الرى والمدن الفارسية الأخرى التى فتحها المسلمون زمن الخلفاء الراشدين ، تتبع من الناحية الادارية ولاية الكوفة ، ففى اغلب الأحيان كان والى الكوفة هو المسئول عن تعيين العمال على هذه المدن ، فلما عزل عمار بن ياسر عن ولاية الكوفة فى سنة ٢٣ هـ (٦٤٣م)، عين الخليفة عمر بن الخطاب مكانه المغيرة بن شعبة الثقفى ، وقام هذا الأخير بتعيين العمال ، فعين كثير بن شهاب الحارثى(٨٢) عاملا على مدينة الرى ودستبى(٨٣) ، وعند وصول العامل كثير فوجىء بتمرد أهل مدينة الرى ، اذ نقضوا الصلح المعقود بينهم وبين المسلمين ، وقد تمكن كثير من القضاء على هذا التمرد ، فعادوا الى الطاعة ودفع الجـــزية والخراج ، وذكروا أن كثير بن شهاب كان مسئولا عن قزوين بالاضافة الى عمله السابق(٨٤) .

كذلك قامت مدينة الرى فى سنة ٢٤ هـ (٦٤٤م) بالثورة والتمرد ، وامتنعت عن دفع الجزية والخراج(٨٥) ، وفى أواخر سنة ٢٤ هـ أوائل

سنة ٢٥ هـ (٦٤٥م) انتقضت مدينة الرى مرة أخــرى ، مما دفع والى الكوفة سعد بن أبى وقاص أن يذهب بنفسه الى مدينة الرى وتمكن من اخضاعها واعادة الهدوء والاستقرار اليها ، وقد عبر البلاذرى عن ذلك بقوله : « وكانت (أى مدينة الرى) ملتاثه فأصلحها »(٨٦) ٠

وقد قامت مدينة الرى بالثورة واعلنت العصيان فى اعقاب مقتل عمر بن الخطاب واختيار الخليفة الجديد عثمان بن عفان ، وما أعقب ذلك من تغييرات فى النواحى الادارية بمدينة الكوفة والرى ، فقد عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وتولاها أبو موسى الأشعرى ، والذى عين قرظة بن كعب الانصارى عاملا على مدينــة الرى ، وكان أن تمكن من اخماد هذه الثورة(٨٧) ٠

يتضح مما سبق أن هذه السلسلة من الثورات والانتفاضات المتلاحقة التى شهدتها مدينة الرى ، كانت دائما تحدث فى الفترات التى تجرى فيها تغييرات ادارية أثناء تعيين أو عزل الولاة أو العمال،سواء كان ذلك على الكوفة أو الرى ، ويبدو أن مدينة الرى ، كانت تتاثر بهذه الاحداث والتغييرات ، وتغتنمها للقيام بمثل هذه الانتفاضات بغية التخلص من التبعية للدولة الاسلامية ٠

وربما كانت هناك اعتبارات دينية واقتصادية وراء هــذا التمرد وعدم الاستقرار بمدينة الرى ، فعلى الصعيد الدينى ، فان مدينة الرى كانت من المراكز الدينية الكبرى فى بلاد فارس ، ولها مكانة روحية خاصة عند الفرس ، لذلك فقد صعب على حكامها الخضوع للسيطرة الاسلامية ، وهى بهذا الحجم من القداسة الروحية ، ومن هذا المنطلق يبدو أن العامل الدينى أسهم فى حركات الانتفاضات والتمرد(٨٨) ٠

ويرتبط بذلك العامل الاقتصادى ؛ اعنى به ما تدفعه مدينة الرى للمسلمين من خراج وجزية فى كل عام ، فضريبة الخراج مقدارها كبير ، وهى تشكل موردا اقتصاديا هاما ، من ذلك أن اليعقوبى يذكر أن مقدار ضريبة الخراج لمدينة الرى وحدها زمن معاوية بن أبى سفيان كان يصل الى (٣٠) الف الف درهم ، أى ما يعادل (٣٠) مليون درهم ، فاذا

علمنا أن أهل الرى كانوا يدفعون هذه الضريبة لدولة لا يرتبطون بها باى نوع من الروابط ، الدينية أو العرقية ، أدركنا أن العامل الاقتصادى كان سببا لعدم الاستقرار بمدينة الرى(٨٩) ٠

على انه من الملاحظ أن ظاهرة العصيان والتمرد التى كانت تحدث بمدينة الرى قد خفت حدتها ٠ عندما دخلت اعداد كبيرة من سكانها فى الاسلام ، فى سنة ٢٤ هـ وما بعدها ، مما ترتب عليـــه زوال كثير من العوامل التى كانت تحرك هذه الثورات ، ذلك أن المسلمين الجدد من أهل مدينة الرى انتظموا فى دفع الخراج الى بيت مال المســـلمين عن ايمان وقناعة ، وقد اعتبر البلاذرى أن الفتح الحقيقى لمدينة الرى كان فى سنة ٢٤ هـ ، عندما دخل معظم أهلها فى الاسلام ، فلم تعد تنتقض كما كانت من قبل ، الا فى حالات نادرة ، بسبب ما كانت تقوم به بعض الفئات من شغب ، وقد اتخذ عمال مدينة الرى من حصن الزنبدى او الزينبى مقرا لحكمهم(٩٠) ٠

والواقع أن الفتوحات الاسلامية زمن الخليفة عثمان بن عفان اقتصر دورها على تثبيت نفوذ المسلمين والمحافظة على ما توصلوا اليـــه من فتوحات زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، فامير الجيوش فى المشرق كان أبو موسى الأشعرى ، ومن الأعمال العسكرية التى قام بها انه فتح ما تبقى من أعمال مدينة الرى ، وهذا يدفعنا الى الاعتقاد بأن مدينة الرى لم تكن قد فتحت باكملها زمن الخليفة عمر بن الخطاب(٩١) ٠

وفى اواخر عهد عثمان بن عفان ، أى فى حدود سنة ٣٤هـ (٦٥٤م) اجريت بعض التغييرات الادارية بمدينة الرى فيما يتعلق بامر الولاة ، فقد بعث سعيد بن العاص(٩٢) والى الكوفة ، سعيد بن قيس ليكون عاملا على مدينة الرى(٩٣) ، وفى سنة ٣٥ هـ (٦٥٥م) ، فى السنة التى قتل فيها الخليفة عثمان بن عفان ، كان عامل مدينة الرى واصبهان السائب بن الاقرع ، بينما يذكر الطبرى أن سعيد بن قيس استمر عاملا على مدينة الرى حتى السنة المذكورة(٩٤) ٠

وعندما تولى على بن أبى طالب الخلافة أحدث تغييرات جـذرية

فى الادارة ، فيما يتعلق بأمر الولاة والعمال ، فقد أسند ولاية الكوفة الى قرظة بن كعب الانصارى ، الذى كان عاملا على الرى زمن الخليفة عثمان ، أما مدينة الرى ، فقد كان عامله عليها الربيع بن خيثم ، واضاف اليه قزوين(٩٥) ، ثم عزله واقر مكانه يزيد بن حجبه بن عامر بن تيم الله بن ثعلبه بن عكابه ، الذى صار عاملا على الرى ودستبى(٩٦) ٠

ولا شك فى ان مدينة الرى أو بالأحرى عمالها تاثروا بما كان يجرى فى الدولة الاسلامية من احداث ، لا سيما فى القضايا السياسية ، ففى اثناء النزاع القـــائم بين الخليفة على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، انحاز عامل الرى يزيد بن حجبة الى جانب معاوية ضد الخليفة على بن أبى طالب ، فاستولى على أموال الخراج الخاصة بمدينة الرى ، ومقدارها (٣٠) الف درهم ، وهرب بها الى دمشق حيث قدمها الى معـــاوية(٩٧) ٠

وكان أن عين الخليفة على بن أبى طالب عاملا آخر على الرى ، هو يزيد بن قيس ، وضم اليه اصبهان ، ويبدو انه أستمر فى عمله حتى نهاية عهد الخليفة على بن بن ابى طالب سنة ٤٠ هـ (٦٦٠م)(٩٨) ٠

ومما يدل على تاثر وتفاعل مدينة الرى بالاحداث السياسية التى تمر بها الدولة الاسلامية انه حدث فى أعقاب معركة النهروان التى جرت بين الخليفة على بن أبى طالب وبين الخوارج فى سنة ٣٧ هـ (٦٥٧) ان التحقت مجموعة من الخوارج ممن عفا عنهم الخليفة على بن أبى طالب بمدينة الرى ، ولعل اختيارهم لمـــدينة الرى جاء نتيجة لوجود عناصر مؤيدة لهم ، وظلوا هناك حتى بعد مقتل الخليفة على ، ثم عادوا الى الكوفة من الرى فى سنة ٤٢ هـ (٦٦٢م)(٩٩) ٠

٢ العصـر الأمــوى :

أولت الدولة الأموية منذ قيامها اهتماما واضحا بأمــر الفتوحات والتوسع ، الأمر الذى جاء مصحوبا باختيار الخلافة الأموية ولاة وعمالا موالين لها ، من ذلك أن معاوية بن أبى سفيان لما تولى الخلافة ، اقر على مدينة الرى كثير بن شهاب بن الحصين بن ذى القصة الحارثى ،

وهو صاحب الخبرة والدراية بأمور وأوضاع مدينة الرى ، منذ أن كان عاملا عليها زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، ثم زمن الخليفة عثمان ، ولما تولى معاوية بن ابى سفيان، عين المغيرة بن شعبة واليا على الكوفة، وقد اهتم المغيرة بامر مدينة الرى ، فجدد العهد للعامل كثير بن شهاب ، وحذا حذوه والى الكوفة الجديد زياد بن ابيه(١٠٠) .

ويبدو أن عمال الدولة الأموية قاموا بنقل ما بينهم وبين العلويين أو بالأحرى على بن أبى طالب ، من خلافات الى الولايات والمدن البعيدة عن مركز الخلافة ، وحاولوا ترسيخ هذا العداء لعلى بن أبى طالب فى نفوس أهل هذه الولايات ، من ذلك ما قام به عامل مدينة الرى ، كثير ابن شهاب ، اذ امر بسب على بن ابى طالب من فوق منابر مدينة الرى(١٠١) .

ومن المؤكد أن هذه الممارسات الخاطئة التى قام بها بعض عمال الدولة الأموية لا سيما زمن معاوية بن أبى سفيان كانت لها ، آثارها وأبعادها السيئة فى هذه الولايات ، سواء فى النواحى الروحية أو السياسية أو الاجتماعية ، فمن آثارها أنها أدت الى انقسام المجتمع الى طوائف وأحزاب ، بعضها مع العلويين والآخر مع الأمويين ، وبديهى أن يتخذ الأمويون موقفا عدائيا من العناصر التى لا تؤيدها ، فتعمدوا اضطهادهم وتشريدهم ، الأمر الذى أدى الى شيوع الطائفية ، وتولد البغضاء بين أفراد المجتمع مما كانت له آثاره السيئة على النواحى الدينية والاجتماعية .

ومن ناحية أخرى فان كثير بن شهاب قام أثناء وجوده بمدينة الرى ، بنشاط عسكرى فى نواحى الديلم ، وعمل على تثبيت نفوذ المسلمين فى تلك المناطق(١٠٢) ، ولكن العلاقة بين معاوية بن أبىسفيان وكثير بن شهاب سرعان ما ساءت ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أمر معاوية بجلده وحبسه بدمشق ، ولم يخلصه من هذه العقوبة ، الا توسط من القاضى شريح بن هانىء المرادى ، ولا نعرف سبب هذه الخصومة ، ولكن كثير بن شهاب تبوأ مناصب عالية فى الدولة فى زمن يزيد بن معاوية(١٠٣) .

وقد حرص الأمويون على انتقاء الولاة الاكفاء على الكوفة ، لأن الهدوء والاستقرار فى المدن والولايات الشرقية مقرون بكفاءة والى الكوفة ، فهو المسئول عن العمال وعن تعيينهم ، لذلك فان يزيد بن معاوية اختار على الكوفة عبيد الله بن زياد بناء على نصيحة أحد مستشاريه(١٠٤) ، وقد عهد والى الكوفة الجديد عبيد الله بن زياد الى عمر بن سعد بن أبى وقاص بالولاية على مدينة الرى(١٠٥) ، وكلفه بمحاربة المتمردين ببلاد الديلم ، الا انه ربط هذا الهعد بشرط ، وهو أن لا يعطيه الولاية الا اذا وافق على محاربة الحسين بن على بن ابى طالب ، الذى قدم الى الكوفة بناء على مكاتبة أهل الكوفة ، وقد تردد عمر بن سعد بن أبى وقاص أول الأمر واقترح على عبيد الله بن زياد أن يختار غيره لمحاربة الحسين، ويدعه يذهب الى مدينة الرى لمحاربه المتمردين من اهل الديلم ، ولكن والى الكوفة عبيد الله بن زياد أصر على رأيه ، خاصة لما وجد أن عمر بن سعد متهالك على ولاية الرى ، وقال له : اما الموافقة أو أن يسترد العهد(١٠٦) ، وكانت الحيرة بادية على عمر بن سعد ، فتمثل بهذه الأبيات :

اتترك ملك الرى والرى منيتى	أم ارجع مذموما بقتل حسين
وفى قتله النار التى ليس دونها	حجاب وملك الرى قرة عين

على انه استجاب أخيرا لطلب عبيد الله بن زياد ، ويعلق أبو حنيفة الدينورى فى كتابه «الاخبار الطوال» على هذا الموقف بقوله : « فاقبل يميل بين الخروج وولاية الرى والقعود ، ... فغلبه حب الدنيا والرياسة حتى خرج فكان من قتل الحسين »(١٠٧) .

وهكذا اقدم عمر بن سعد على محاربة الحسين وقتله ، الا أن عبيد الله بن زياد لم يف بوعده ، فلم يكافئه وحرمه من ولاية مدينة الرى(١٠٨) .

وقد تعرضت الدولة الاسلامية فى اعقاب موت يزيد بن معاوية ، فى حدود سنة ٦٤ هـ (٦٨٣م) لموجة من الفوضى والاضطراب والصراعات على السلطة فى الشام والحجاز والعراق ، بين الفرعين المروانى

والسفيانى فى الشام ، وبين المروانية وآل الزبير فى الشـــام والحجاز والعـــــراق ، وكذا بين آل الزبير وجماعة المختـــار بن عبيد الثقفى بالكوفة ، واخيرا الصراع بين هذه القوى مجتمعة وحزب الخوارج ، فهذه القوى المتصارعة أخذت تتجاذب مناطق النفوذ والسيطرة ، وكان ان أسفر الصراع بين هذه القوى ، عن آثار سلبية ألمت بالدولة الاسلامية، وشكلت حافزا للمناطق البعيدة عن مركز الخـــلافة ، للقيـــام بالتمرد ومحاولة الانفصال ، من ذلك ما حدث بمدينة الرى فى حدود سنة ٦٤هـ فى أعقاب موت يزيد بن معاوية ، ابان هذه الفوضى العارمة ، اذ أعلنت التمرد والعصيان ، لولا أن والى الكوفة عامر بن مسعود تدارك الموقف ، فبعث جيشا بقيادة محمد بن عمير بن عطارد(١٠٩) ، على أن هـــذا الجيش فشل فى تحقيق النصر واخضاع مـــدينة الرى(١١٠) ، وبذلك ظلت مدينة الرى على تمردها وانفصالها عن الدولة الاسلامية ، وقـد تزعم هذه الحركة شخص يقال له ، الفرخان ، ومما ساعدها على ذلك التمرد النزاع القائم على أشده بين الأمويين وآل الزبير(١١١) .

أما والى الكوفة عامر بن مسعود فقد أخذ يتابع أحداث هذا التمرد الى أن سنحت له الفرصة ، فبعث بجيش آخر بقيادة عتاب بن ورقاء الرياحى ، الذى تمكن من دحر هـــذا التمرد ، وقتـــل الفرخان زعيم الحـــركة ، وبذلك أصبح عتاب عاملا على الـــرى ، وضمت اليــه اصبهان(١١٢) ، على ان الحجاج بن يوسف الثقفى فصل اصبهان عن الرى وجعل مسئوليات عتاب على اصبهان فقط ، بينما عين يزيد بن الحرث بن رئيم الشيبانى عاملا على مدينة الرى ، وكان ليزيد خبـــرة ودراية بشئون الرى ، اذ كان عاملا عليهـــا زمن الخليفة على بن أبى طالب(١١٣) .

كذلك حدث فى أثناء الحروب والثورات التى اشعلها الخوارج ، لا سيما فرق الأزارقة ؛ اتباع نافع بن الأزرق ، فى حدود سنوات ٦٥ هـ (٦٨٤م) وما بعدها ، أن داهمت جيوش الخوارج مدينة الرى ، فتمكنوا من دخولها وقتلوا عاملها ، يزيد بن الحرث بن رئيم(١١٤) .

ومن الملاحظ أن جماعات من أهـــل الرى تعاطفت مع الخوارج

ربما تمثل المنافقين أو الذين لم يدخلوا فى الاسلام ، فاغتنموا فرصة وجود الخوارج فوقفوا الى جانبهم لاضعاف المسلمين . وهناك احتمال آخر يكمن فى عمال الدولة الأموية أنفسهم ، فاهل الرى لا يميلون اليهم منذ حادث السرقة لأموال خراج مدينة الرى التى قام بها يزيد بن نجبة لسنة كاملة ومقداره (٣٠) الف درهم،زمن الخليفة على بن أبى طالب، وهرب بها الى معاوية بن أبى سفيان ، هذا الموقف جعلهم يتوصلون الى قناعة فيما يتعلق بأمر العمال الأمويين وتتوائم هذه القناعة مع مبادىء الخوارج ، الأمر الذى يبرر موقفهم الى جانب الخوارج ضد العامل يزيد وأعوانه(١١٥) .

وقد تمكنت هذه الجماعات من السيطرة على مدينة الرى فى أعقاب مقتل يزيد بن حجبة عامل مدينة الرى ، ولكن مصعب بن الزبير والى البصرة آنذاك لأخيه عبد الله ابن الزبير ، بعث الى عتاب بن ورقاء الرياحى فى سنة ٦٨ هـ (٦٨٧م) - وكان عاملا على اصبهان - بترك اصبهان والتوجه الى مدينة الرى لمحاربة المتمردين ، وقد تمكن عتاب بعد قتال عنيف من اخضاع المدينة وفتح سائر القلاع عنوة ، وغنم جيش الخلافة من جراء ذلك أموالا كثيرة(١١٦) .

ولا شك فى أن الصراع الدائر بين القوى الاسلامية كانت له تاثيراته المباشرة على الولايات التى تقع فى الأجزاء الشرقية من مركز الخلافة ، وهذه التاثيرات كانت تمس الجانب الادارى والسياسى ، حيث تداولت قوى الصراع السيطرة على مدينة الرى ، اذ خضعت لآل الزبير ثم لجماعة المختار بن عبيد الثقفى ، ثم للأمويين ، من ذلك أنه فى أعقاب انتصار المختار بن عبيد على آل الزبير فى سنة ٦٦ هـ (٦٨٥م) أن خضعت له الكوفة(١١٧) ، وتبع ذلك طبعا خضوع جميع الولايات التى تتبع الكوفة فى النواحى الادارية ، وهذا يعنى خضوع مدينة الرى أيضا ، فعين المختار عليها يزيد بن نجبة الفزارى فى حدود سنة ٦٨ هـ (٦٨٧م) ، وضم اليه دستبى ، فكانت أموال الخراج لهذه الولايات تصل الى المختار بالكوفة ، واستمر ذلك لمدة ثمانية عشر شهرا(١١٨) .

ويفهم من ذلك أن يزيد بن نجبة الفزارى تمكن من أبعاد عتاب بن ورقاء الرياحى عن مدينة الرى ، وتمت له السيطرة على المدينة ، ولكن حدث بعد أن قضى آل الزبير على حركة المختار بن عبيد فى سنة ٦٩ هـ (٦٨٨م) أن عادت مدينة الرى لنفـوذ آل الزبير . وبعـد أن تغلب عبد الملك بن مروان على عبد الله بن الزبير ، خضعت جميع الولايات الاسلامية للنفوذ الاموى ومنها مدينة الرى(١١٩) ففى سنة ٧١ هـ(٦٩٠م) قلد الأمويون يزيد بن ورقاء الرياحى الرى ، فاصبح عاملا عليها . ويزيد هذا كما هو واضح من اسم ابيه هو أخو عتاب بن ورقاء(١٢٠) .

وفى ضوء هذه المعطيات التاريخية أصبح الأمويون هم أصـحاب السيادة الفعلية فى مشرق العالم الاسلامى ، الا أن تحـركات الخوارج اقلقت راحتهم ، لا سيما فى المناطق الشرقية من العالم الاسلامى ، اذ كان للخوارج نشاط واضح فى بـلاد فارس ونواحى الخليج ، وتكـررت اعتداءاتهم على المدن الفارسية ، مثل مدينة الرى واصبهان وطبرستان. وقد عمل عبد الملك بن مروان على الحد من نشـاط الخوارج فى تلك المناطق ، فاحدث تغييرات ادارية شملت ولاية العراق وتوابعها ، ذلك انه عزل خالد بن عبد الله بن اسيد عن ولاية العراق وقلدها الحجاج بن يوسف الثقفى(١٢١) ، وفى سنة ٧٧ هـ (٦٩٦م) قام مطرف بن المغيرة بن شعبة عامل الحجاج على المدائن بالتمرد ، واعتنق مذهب الخوارج، فترك المدائن وذهب الى نواحى مدينة الرى واصبهان وهمذان ، يدعو الناس الى خلع بيعة عبد الملك بن مروان ، فاستجابت له جماعات فى هذه المدن ، ومن مدينة الرى انضم اليه نحو مائة رجل عليهم بكير بن هارون النخعى ، وقد طلب الحجاج من عدى بن زياد الآيادى عامله على مدينـة الرى ، كذلك طلب من البراء بن قبيصـه عامـله على اصبهان ، بالتصدى لهذه الحركة ، فخرجوا له بقوة عسكرية بلغ عددها نحو (٦) آلاف مقاتل ، بقيادة عـدى بن زياد عامل مدينة الرى ، فتمكنوا من دحر الخوارج وقتل مطرف بن المغيرة ، وبعـد ذلك أمر الحجاج بعزل عدى ابن زياد عن الرى(١٢٢) وقلدها خالد بن الوليد عتاب بن زرقاء الرياحى(١٢٣) .

على أنه حدث فى سنوات ٧٩ هـ (٦٩٨م) وما بعدها أن أخذ نفوذ الخوارج يتعاظم فى نواحى مدينة الرى وهمذان واصبهان وطبرستان • واجتهد الحجاج لقتالهم ، واختار لهذه المهمة القادة الاكفاء مثل المهلب بن ابى صفرة ،حتى تمكن الحجاج من قطع الطريق على زعيم الخوارج، قطرى بن الفجاءة ، الذى كان ينوى احتلال مدينة الرى ، فبعث اليه جيشا يقوده سفيان بن الابرد تمكن من صد الخوارج وفوت عليهم فرصة الاحتلال • وكان عامل الحجاج على مدينة الرى قبل مجيىء الخوارج ، اسحاق بن محمد بن الاشعث(١٢٤) ويذكر اليعقوبى ، ان سفيان بن الابرد هو العامل على مدينة الرى وليس اسحاق بن محمد بن الاشعث، وقد عزله الحجاج ، واقر مكانه قتيبه بن مسلم الباهلى(١٢٥) •

ومهما يكن الأمر فان الهدوء والاستقرار ساد مدينة الرى فى سنة ٨٣ هـ (٧٠٢م) وما بعدها ، فكانت تعد من المناطق الآمنة ، لا سيما بعد ان قضى الحجاج على الثائر عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فى معركة « دير الجماجم » سنة ٨٢ هـ (٧٠١م) ، وقد لجأ معظم المنهزمين فى هذه المعركة الى مدينة الرى ، خاصة بعد أن أعلن الحجاج ، أن من دخل مدينة الرى فهو آمن(١٢٦) •

ولكن هؤلاء اللاجئين لم يكونوا مخلصين فى ولائهم للحجاج ، اذ عمدوا الى زرع القلاقل والفتن بمدينة الرى ، فكانوا يناصرون الحركات المناوئة للحجاج ، كما قاموا بدور واضح فى تشجيعها ، لذلك الحوا على عمر بن أبى الصلت أحد أصحاب النفوذ بمدينة الرى ـ حتى اقنعوه بخلع الطاعة للحجاج بن يوسف الثقفى وعامله على الرى،قتيبة بن مسلم الباهلى • وتحت هذه الضغوط ، وتأثير أبيه الذى كان يبغض الحجاج ، استجاب عمر بن أبى الصلت لهم ، واعلن الثورة • وقد دارت بين عمر وبين قتيبة بن مسلم عامل الرى معركة عنيفة ، أسفرت عن هزيمة بن أبى الصلت ، بسبب تخلى اتباعه عنه(١٢٧) •

وفى سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) عزل الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلى عن الرى ، وقلده الامارة على خراسان ، ولا نعرف من أقر مكانه على الرى،

ولم تذكر المصادر أسباب العزل ، وهكذا أستمرت عمليات العزل والتولية هذه دون ذكر الأسباب ، فالمصادر التى بين أيدينا فى معظم الأحيان لم تفصح عن ذلك ، واكتفت بذكر العزل أو التولية فقط ، وعلى العموم فان ذلك لم يؤثر على الدور السياسى الذى كانت تقوم به مدينة الرى ، وعلى تفاعلها مع الاحداث التى كانت تجرى فى تلك المناطق القريبة منها(١٢٨) ، من ذلك أنها شاركت فى حدود سنة ٩٨ هـ (٧١٦م) مع جيوش المسلمين من أهل الكوفة والبصرة والشام وخراسان فى فتح مدينة جرجان بقيادة يزيد بن المهلب بن أبى صـــفرة ، وبعد فتح جرجان قام يزيد بزيارة لمدينة الرى(١٢٩) ٠

وفى سنة ١٠٨ هـ (٧٢٦م) أخذ نفوذ الخـــوارج الازارقة يتغلغل داخل مدينة الرى ، وقد شجعهم ذلك على الثورة ومحاولة السيطرة على المدينة ، بزعامة امامهم عباد الحرورى ، وقد تمكنوا بالفعل من السيطرة على مدينة الرى ، الا أن الدولة الأموية زمن هشام بن عبد الملك عملت على اقصائهم ، فبعث يوسف بن عمر والى العراق جيشا استطاع اخماد ثورتهم والقضاء على نفوذهم ، وقتل زعيمهم عباد(١٣٠) ٠

ومن الملاحظ أن مدينة الرى أو البعض من أهلها تشـــيعوا فأيدوا العلويين وناصروهم ضد الأمويين ، من ذلك أنهم وقفوا الى جانب زيد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، عندما أعلن الثورة فى الكوفة على هشـــام بن عبد الملك فى سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩م) ٠ وكان أن بعثوا بالرســـل يحملون بيعتهم لزيد بن على ليعـربوا له عن تأييدهم ومناصرتهم له ، وقد شاركت مدينة الرى فى هذا التاييد مدن فارسية اخرى مما يدل على أن المذهب العلوى أخذ يشق طـــريقه الى المدن الفارسية ، لا سيما وأن نشاط دعاة بنى العباس أخذا فى التزايد خـلال هذه الفترة وما بعدها(١٣١) ٠

وبعد موت الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة١٢٦هـ(٧٤٣م) خلفه ابنه يزيد بن الوليد ، وقد تميز عهده بعدم الاستقرار فى النواحى الادارية ، لا سيما فى الولايات والمدن الشرقية زمن الخلافة ،فعمليات العزل والتولية الجزافية خلقت جوا من الخلاف بين الولاة بعضهم وبعض ، وبينهم وبين

الخلافة ، فبعضهم أظهر عدم الاستجابة للعزل ، مما ترتب عليه حدوث الفتن والاضطرابات ، كما حدث بين منصور بن جمهور الكلبى ، الذى اقر اخاه عاملا على مدينة الرى وخراسان ، وبين نصر بن سيار والى خراسان ، هذه الاضطرابات العارمة بدات تاخذ أبعادا واسعة ليس فقط فى المدن الفارسية ومن بينها مدينة الرى ، بل أيضا امتدت حتى شملت العراق ، ومن ناحية أخرى فان هذه الاوضاع دفعت يزيد بن الوليد الى عزل منصور بن جمهور ، بعد أن رأى أنه وراء هذه الفوضى السياسية ، فهو الذى اقر اخاه عاملا على مدينة الرى ، واضاف اليه خراسان بعد أن أبعد عنها نصر بن سيار(١٣٢) ٠

ولم تكن الأوضاع فى عهد مروان بن محمد الجعـــدى الذى خلف يزيد بن الوليد سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤م) ، بافضل مما كانتعليه فى السابق، اذ ثار عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة يريد الخلافة ، ولما قضى على ثورته هرب الى بلاد فارس ، فلاقت دعوته تاييدا فى بعض المدن ، وجمع الاتباع، حتى أصبح قوة مرهوبة الجانب، فاحتل مدينة الرى وهمذان وماهين وقوس واصبهان(١٣٣) ٠

وكان مروان يتابع عن كثب حركات الثائر عبد الله بن معاوية فى بلاد فارس(١٣٤) ، وبعد أن هدأت الاوضاع ببلاد الشام تقريبا تفرغ لمجابهته استطاع الحد من نشاطه ، فاستعاد مدينة الرى ، وولى عليها نباته بن حنظله(١٣٥) ،ثم عزله وقلدها حبيب بن بديل النهشلى(١٣٦) ٠

وفى سنوات ١٢٧ هـ وما بعـدها حققت الدعوة العباســية نجاحا واضحا فى خراسان وفى باقى مدن فارس ، على حساب النفوذ الأموى المتداعى والأخذ فى الانحسار والضعف ، ولا يعنيينا هنا الحديث عن الدعوة العباسية او النفوذ الأموى فى خراسان أو فى غيرها من المدن ، بقدر ما تركز على موقف مدينة الرى من الدعوة العباسية ، وعندما أحتل دعاة بنى العباس خراسان هرب عاملها نصر بن سيار الى مدينة الرى ونزل فى قرية خوار من ضواحى الرى متخفيا(١٣٧) ، ثم دخل مدينة الرى والتقى بعاملها الأموى حبيب بن بديل النهشلى(١٣٨) ٠

وقد بعث القائد العباسى قحطبة بن شبيب فى سنة ١٣١ هـ(٧٤٨م) ابنه الحسن بن قحطبة لفتح مدينة الرى ، فهرب حبيب بن بديل ومن معه من أهل الشام من المدينة فدخلها الحسن دون أدنى مقاومة ، لأن الامدادات التى طلبها نصر بن سيار من والى العراق تاخر وصولها ، وظل الحسن بمدينة الرى الى أن قدم عليه أبوه قحطبه ، ثم كتب قحطبه الى أبى مسلم الخراسانى القائد الأعلى يخبره بفتح مدينة الرى(١٣٩)٠

٣ ـ الرى فى العصر العباسى :

تمكن العباسيون من بسط نفوذهم على بلاد فارس ، وسقطت مدينة الرى فى ايديهم ، ولكن خلال الوجود الأموى بمدينة الرى ، نشأت بين جماعات من اهلها وبين الأمويين وعمالهم علاقات من الود والولاء ، ولما خضعت مدينة الرى للنفوذ العباسى ، أصبح موقف هذه الجماعات حرجا ، فهربوا من المدينة ، ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله : « لميلهم الى بنى أمية لأنهم كانوا سفيانية(١٤٠) » ، وقد رفع قحطبه بن شبيب هذا الأمر الى أبى مسلم الخراسانى ، فأمره بمصادرة أموالهم وأملاكهم، وقد اتجهت هذه الجماعات الهاربة الى مكة لأداء فريضة الحج ، وفى العودة ذهبوا الى الكوفة فى سـنة ١٣٢ هـ(٧٤٩م) حيث أبو العباس السفاح ، فرفعوا ظلامتهم اليه ، وشكوه أبا مسلم وما صنع بهم ، فبعث أبو العباس الى أبى مسلم يأمره برد ما أخذه منهم من الأموال ، ولكن أبا مسلم امتنع وتعلل أنهم أعـداء لا يستحقون الرحمة ، حتى أجبره أبو العباس على رد جميع الأموال ، فأعيدت اليهم أموالهم كاملة ٠ هذه السياسة الحكيمة من جانب أبى العباس السفاح تجاه أهل مدينة الرى تركت أثرا طيبا فى نفوسهم تجاه أبى العباس بصـورة خاصة والدولة العباسية بصورة عامة(١٤١) ٠

ومع ذلك كانت مدينة الرى ملاذا يحتمى به الفارون من السلطة ، مما يدل على مناعتها وحصانة موقعها ، فمن ذلك انه فى سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣م) اراد أبو مسلم الخراسانى الاحتماء بمدينة الرى بنـاء على نصيحة أحد مستشاريه ، عندما ساءت العلاقة بينه وبين المنصور ، ومما جاء فى أقوال هذا المستشار لأبى مسلم : « ان تاتى الرى فتقيم بها ،

فتصير ما بين خراسان والرى »(١٤٢) ، وقد تردد أبو مسلم الخراسانى فى قبول هذه النصيحة ،ومع أنه يمتلك قوة عسكرية تقدر بحوالى (٨) آلاف مقاتل ، موزعة ما بين مدينة الرى ونيسابور(١٤٣) ، الا أن خوفه من أبى جعفر المنصور جعله يعرض عن رأى المستشار ، ويقرر الذهاب الى أبى جعفر المنصور ، ولكنه فى اللحظات الأخيرة ندم على رأيه يوم لا ينفع الندم ، فقد أصبح على مشارف معسكر المنصور ، فسأل مستشاره فى أمر العودة الى الرى ، فرد عليه المستشار : « تركت الرأى بالرى » ، فصارت مثلا ، وكانت نهاية أبى مسلم معروفة ،فقد قتله المنصور(١٤٤) وكانت لأبى مسلم الخراسانى ، أموا ل وخزائن كثيرة تركها بمدينة الرى قبل ذهابه الى أبى جعفر المنصور(١٤٥) .

وقد ثار سنباذ ـ ويقال له : فيروز اصبهبذ ـ بمدينة خراسان فى سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤م) لمقتل أبى مسلم الخراسانى ، وتعاطف مع هذه الثورة كثير من الناس ، وممن أيدها وناصرها جماعات من أهل مدينة الرى ، فأعلنوا الثورة والعصيان ، ويقول خليفة بن خياط فى هـــذا الصدد : « استغوى سنباذ أهل الرى فانتقضوا » فعمد سنباذ الى خزائن أبى مسلم الموجودة بمدينة الرى وأستولى عليها(١٤٦) .

وقد أستنكرت جماعات من أهل مدينة الرى هذه الثورة ، بل قامت ضدها وحاربتها ، وتزعم هذه الحركة المضادة شخص يقال له : عمر بن العلاء ، من أهل مدينة الرى ، وكان يعمل جزارا ، فقد فتمكن من الحد من هذه الحركة بمدينة الرى على الأقل(١٤٧) ، ريثما يأتيه المدد من الخلافة العباسية ، وكان أن بعث أبو جعفر المنصـور على الفور جيشا بقيادة جمهور بن مرار العجلى ، يضم نحم (١٠) آلاف مقاتل ، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة سنباذ ، وبلغ عدد القتلى فى جيش سنباذ كما يقول الطبرى نحو (٦٠) الف . وقد يكون هذا الرقم مبالغا فيه ، الا أنه يدل فى نفس الوقت على فداحة هذه الثورة وخطرها على الأمن والاستقرار فى مدينة الرى وباقى مدن فارس(١٤٨) .

وقد أراد أبو جعفر المنصور مكافأة عمر بن العلاء الجزار ، فأوفده جمهور بن مرار العجلى على المنصور ، فانعم عليه وجعله قائدا على أحد

الفرق العسكرية ، ثم قلده ولاية طبرستان ، حتى قتل زمن محمد المهدى ابن منصور فى احدى المعارك(١٤٩) ٠

اما القائد العباسى جمهور بن مرار العجلى،فلم يكن امينا ، اذ عمد الى أموال وخزائن أبى مسلم الخراسانى الموجودة بالرى واستولى عليها، ورفض ارسالها الى أبى جعفر المنصور ، لذلك اضطر المنصور الى قتله ، فبعث اليه جيشا بقيادة محمد بن الاشعث ، ولما علم جمهور بن مرار بقدوم الجيش الى مدينة الرى هرب الى مدينة اصبهان ، فدخل محمد ابن الاشعث مدينة الرى ، ثم تبع جمهور بن مرار الى اصـــبهان ودار بينهما قتال انتهى بمقتل جمهور بن مرار(١٥٠) ٠

كذلك لجأ الى مدينة الرى يحى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علىّ بن ابى طالب ، لما قضى المنصور على ثورة أخيه محمد المعروف بذى النفس الزكيه فى المدينة المنورة ، وعنـــدما أصبح وضع اسرة آل الحسن حرجا ، هرب يحى الى مدينة الرى ، ولعل اختياره لمدينة الرى كان لاعتبارات دينية وسياسية ، كما عبر عن ذلك المسعودى فى «مروج الذهب »(١٥١) ٠

وحتى الخليفة المنصور نفسه فكر فى الهرب الى مدينة الرى فى سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢م) لما أوشكت ثورة ابراهيم بن عبد الله أخو محمد ذو النفس الزكية ان يكتب لها النجاح ، لكى أبا جعفر المنصور تمكن فى اللحظات الأخيرة من اخمادها(١٥٢) ٠

وفى ضوء هذه الاحداث التاريخية تلاحظ أن مـــدينة الرى غدت ملاذا آمنا لجميع الخصوم المتصارعين ، وقد راينا ان أبا مسلم الخراسانى أراد التحصن بمدينة الرى ، وكذلك يحى بن عبد الله الهارب من أبى جعفر المنصور - لجأ الى مدينة الرى ، ومن الغـــريب ان أبا جعفـــر المنصور هو أيضا أراد الذهاب الى مدينة الرى ، ولعل هذا يدفعنا الى الاعتقاد بأن مدينة الرى حوت العديد من الطوائف المتباينة ، فبعضها يميل الى قوميته الفارسية فيتعاطف مع ابى مسلم الخراسانى ، وبعضها مع العلويين ، والبعض الآخر مع العباسيين ٠

ولما ترسخت اقدام المنصـــور فى السلطة ، اتجه الى العمران ، فكانت لديه اهتمامات بالنهضة العمرانية ، ومن المعـــروف أنه بنى فى العراق العديد من المدن ، مثل بغداد ، والرصافة التى بناها لابنه المهدى، وكانت تسمى « العسكر » لأن المهدى عسكر بها قبـل ذهابه الى مدينة الرى ، كذلك بنى المنصور مدينة الرقة ، ولم يقتصر هذا الاهتمام على العراق فقط ، بل شمل أيضا الاقاليم البعيدة عن مركز الخلافة ، فلما ذهب المهدى الى خراسان فى سنة ١٤١ هـ (٧٥٨م) ، طلب منه المنصور النزول بمدينة الرى(١٥٣) ، وقبل دخوله المدينة نزل فى قرية يقال لها « السيروان »(١٥٤) ؛ وهى من ضواحى مدينة الرى ، وخلال وجود المهدى بالرى ، كلف عمار بن أبى الخصيبى ، أحد المهندسين ، ببناء مدينة جديدة بالرى ، وتم بناء هذه المدينة ، وقد أحيطت بسور ، وبنى بها مسجدا جامعا كتب على حائطه اسم المهـــدى وجعلوا بين المدينة الجديدة والقديمة حاجزا من الطابوق والآجر ، وكتبـوا تاريخ الانتهاء من بناء المدينة : فى سنة ١٥٨ هـ (٧٧٤م) ، واطلقوا على هذه المدينة اسم « المحمدية » ، فكان أهل الرى يسمون المدينة القديمة الداخلة ، أو العتيقة والجديدة الخارجة(١٥٥) .

ويبدو ان ظاهرة العزل والتوليه على مدينة الرى اختفت تقريبا زمن المنصور ، وربما يعود السبب فى ذلك الى هدوء المنطقة نسبيا فى تلك النواحى ، واكتفت المصادر بذكر العمال على خراسان وسجستان ولم تشر الى مدينة الرى ، ولعل السبب فى ذلك يعزى الى ما تتمتع به خراسان خلال هذه الفترة ، ونعنى بها صدر الدولة العباسية ، من مكانة مرموقة فى الادارة السياسية بلاد فارس ، ويحتمل أنه أسند الى ولاتها مهمة تعيين العمال على المدن ، كمدينة الرى وغيرها ، حيث يتم هذا فى الغالب فى حالات الهدوء والاستقرار ، اما فى حالات الاضطرابات والفتن ، فقد حرصت الخلافة على اقـــرار الأمن والنظام بها ، مثال ذلك ، أنه لما عمت الفوضى ببـــلاد فارس ابان عهد محمـــد المهدى بن المنصور ، تولى بنفسه تعيين العمال ، فاسند ولاية الرى الى شخص يقال له : عيسى مولى جعفر فى سنة ١٦٥ هـ (٧٨١م) بعـــد أن عزل

عنها خلف بن عبد الله ، ثم عزل عنها عيسى سنة ١٦٦ هـ (٨٧٢م) ، وولاها مولاه سعد فى سنة ١٦٧ هـ (٧٨٣م)(١٥٦) ٠

ففى الفترة الأخيرة نلاحظ أن عمليات التولية والعزل كانت تتم بسرعة ، نتيجة لعدم الاستقرار بمدينة الرى ، وفى عهد موسى الهادى ابن محمد المهدى ١٦٩ هـ (٧٨٥م) ، لم ترد أى اشارة عن مدينة الرى ودورها السياسى أو عن من تولاها من العمال ، ويعزى ذلك الى قصر عهد موسى الهادى ، اذ مات بعد سنة من توليه ، فى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦م) ، وتولى بعده هارون الرشيد بن محمد المهدى ، فقد بويع فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ(١٥٧) ، وذكروا أن هارون الرشيد ولد بمدينة الرى فى سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥م)(١٥٨) ، وذكر خليفة بن خياط فى تاريخية ان موسى الهادى ولد أيضا بمدينة الرى فى ١٤٦هـ(٧٦٣م)، فى موضع يقال له « السيروان » من ضواحى مدينة الرى(١٥٩) ٠ مما يدل على أن خلفاء بنى العباس وأمراءهم كانوا كثيرى التردد على مدينة الرى(١٦٠) ٠

وأعتاد البعض من عمال مدينة الرى أن يبعثوا بالهدايا الثمينة الى ولاة البصرة ، فبعد وفاة محمد بن سليمان بن على العباس والى البصرة فى سنة ١٧٤ هـ (٩٧٠م) ، أمر هارون الرشيد بمصادرة أملاكه ، فوجدوا من بينها بعض الهدايا والتحف المرسلة من مدينة الرى ، الى جانب هدايا أخرى من عمان والبحرين ومكران وكرمان(١٦١) ٠

والسؤال هنا ، لماذا كان عمال مدينة الرى أو بالأحرى أهل مدينة الرى يبعثون بالهداليا الى والى البصرة ، فهل هناك دوافع اقتصادية تهم الطبقات الغنية بمدينة الرى ، التى أرادت كسب ود والى البصرة لتسهيل مرور بضائعها وسلعها التجارية عبر ميناء البصرة الى الخليج العربى ، ولذا حرص عمال مدينة الرى على اقامة مثل هذه العلاقات الطيبة مع والى البصرة ، ذلك أن مدينة البصرة تعتبر من المراكز التجارية البرية والبحرية الهامة فى التجارة الداخلية والخارجية ، وقد عبر عن ذلك ابن البصرة الجاحظ ،بقوله أن البصرة عين العراق(١٦٢)، هذا فضلا عن مكانتها الادارية ، ومن ناحية أخرى فان مدينة الرى التى

تقع على الطريق التجارى البرى الهام ، المعروف بطريق الحـــرير ، ومدينة البصره تتصل بهذا الطريق بواسطة مدينة الاهواز(١٦٣) ، مما يتطلب وجود علاقات وطيدة بين هاتين المدينتين ٠

وقد تاثرت مدينة الرى بالثورة التى أججها يحيى بن عبد الله بن حسن بن حســن بن على بن ابى طالب على الرشـــيد فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢م) فى نواحى الديلم ، ذلك أن هذه الثورة اقلقت راحة الرشيد ، فاختار القيادة الكفاة للقضاء عليها ، فبعث الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى ، وأسند اليه ولاية مدينة الرى ، وضم اليـــه جرجان وقومس وطبرستان ، ولكن تم اخضاع هذه الثورة بالطرق السلمية(١٦٤) ، ثم عزل الرشيد الفضل بن يحيى عن مدينة الرى فى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦م) وولاها محمد بن يحيى بن الحارث بن شخير(١٦٥) ٠

وفى اطار التقسيمات الادارية التى أحدثها الرشيد فى حياته بين ابنيه عبد الله المامون ومحمد الأمين فى سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢م) ، كانت مدينة الرى من نصيب عبد الله المامون ، بقوله : « من لدن الرى الى اقصى خراسان »(١٦٦) ٠

وكان أن توقف هارون الرشيد بمدينة الرى فى سنة ١٨٩هـ(٨٠٤م) وهو فى طريقه الى خراسان للتحقيق مع على بن عيسى بن ماهان والى خراسان ، فى قضايا تتعلق بالأمانة والعدل ، وقد أقام الرشيد بمدينة الرى مدة أربعة أشهر(١٦٧) ٠ وفى خلال وجوده اتبع مع أهلها سياسة اللين والملاطفة ، ولا سيما مع العناصر المناوئة للعباسيين ، فكسب ودهم وولاءهم ، أما على الصعيد الخارجى ، فقد اكتسبت مدينة الرى أهمية كبرى اثناء وجود الرشيد بها ، ففى النواحى الادارية والسياسية ، كان يمارس جميع سلطاته وأوامره ، فمنها كانت تصدر أوامر الخليفة الى جميع الأمصار الاسلامية، من ذلك انه بعث بثلاث رسائل الى : طبرستان والديلم ، فيها أمان لثــلاث شخصـــيات ، الأولى كانت « لشروين أبى قارن » ، والثانية « لونداد هرمز » ، والثالثة لمرزبان بن جستان » أمير الديلم ، وقد جاء هؤلاء الأمراء الثلاثة الى مدينة الرى ، وقابلوا الرشيد ، واعتذروا ، وقدموا السمع والطاعة ودفعوا ما عليهم من خراج

عن بلادهم ، وقد وهب الرشيد جملة من الهدايا « لمرزبان بن جستان » أمير الديلم(١٦٨) ٠

كذلك جاء الى مدينة الرى اربعمائة رجل من فرسان وأبطال مدينة طبرستان ليعلنوا اسلامهم على يد الرشيد ، واغتنم خزيمة بن خازم والى أرمينية فرصة وجود هارون الرشيد بمدينة الرى ، فجاء ليسلم عليه ويقدم الهدايا ، وهكذا أصبحت مدينة الرى خلال هذه الفترة ذات مكانة هامة فى الادارة السياسية ، وقام الرشيد بعدة اصلاحات ، كما انعم على اهلها بالعطاء ٠ وقد عبر عن ذلك الشاعر أبو العتاهية الذى كان برفقة الرشيد بقوله :

ان أمين اللــــه فــتى خلقــه ... حــن به البــر الى مولــده
ليصــلح الــرى واقطــارها ... ويمطــر الخــير بها من يــده

وقبل ان يترك الرشيد مدينة الرى ، أقر عليها عبد الله بن مالك، وضم اليه طبرستان وقومس وهمذان وغيرها ، ويبدو ان عبد الله بن مالك لم يتخذ مدينة الرى مقرا لأقامته ، فقد جعل ابنه عبــاس عاملا عليها(١٦٩) ٠

وقد تأثرت مدينـــة الرى ابان الفتنة التى وقعت بين الأخوين ، محمد الأمين وعبد الله المأمون فى سنوات ١٩٥ هـ (٨١٠م) وما بعدها ، فكان لها الدور البارز بل ربما كانت طرفا فى هذا النزاع ، وكان أول عمل استفزازى قام به محمد الأمين ضد عبد الله المأمون ، أنه طلب من عامل مدينة الرى عباس بن عبد الله بن مالك أن يبعث اليه من غرائب منتوجات مدينة الرى ، من الفواكه وغير ذلك ، فأصبح موقف عامل مدينة الرى حرجا ، فبعث اليه ما اراد دون علم المأمون ، وكانت مدينة الرى وفق التقسيمات التى احدثها الرشيد بين ابنيه ، من نصيب المأمون وتحت ادارته ، فأمر بعزله ، وأقر مكانه على الرى الحسن بن على المأمونى ، وكانت ولاية عباس بن عبد الله على مدينة الرى من سنة ١٨٩ هـ ، وحتى سنة ١٩٥ هـ ، أى ما يقارب من ست سنوات(١٧٢) ٠

ولما وقع النزاع بين الأمين والمأمون ، حاول قائد الأمين على بن عيسى بن ماهان الوصول الى مدينة الرى قبل ان يصل اليها قائد المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعى(١٧٣) . وكان غرضه من ذلك التحصن بها أو أن يجعلها خلف ظهره ، فكان يقول لأصحابه : أن نهاية القوم الرى فلو قد صيرناها خلف ظهورنا ، فت(١٧٤) ذلك فى اعضادهم وانتشر نظامهم وتفرقت جماعتهم »(١٧٥) .

هذه العبارة توحى باهمية الرى كموقع عسكرى دفاعى هام ، فهى المدخل الرئيسى لخراسان ، حيث أنها تقع فى آخر حدودها الغربية ، ولم تقتصر هذه الأهمية على خراسان فقط ، وانما ايضا على المدن المجاورة لها ، فموقعها يتوسط هذه المدن ، لذلك حرص كل من الطرفين المتحاربين الوصول اليها قبل الآخر ، ومما يدل على هذه الأهمية ، أن الأمين أخذ يساوم المأمون بين التنازل عن مدينة الرى وبعض كور خراسان(١٧٦) أو القتال ، فرفض المأمون التنازل عن مدينة الرى واختار القتال(١٧٧) .

وقد وصل جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين مدينة الرى قبل جيش الأمين فتحصنوا بها وسكروا أبوابها ووضعوا الحاميات والعساكر عند مداخلها ، بينما عسكر جيش الامين على بعد عشرة فراسخ من مدينة الرى ، وقد استشار القائد طاهر بن الحسين أصحابه فى موضع القتال اين يكون ، فأشاروا عليه بان يتحصن بمدينة الرى ولا يخرج منها لأسباب أمنية صحية ، وكان غرضهم من ذلك ، وصول الامدادات العسكرية والغذائية من خراسان وغيرها دون عوائق ، ومما جاء فى أقوالهم للقائد طاهر : « ان مقامك بمدينة الرى ارفق بأصحابك واقدر لهم على الميرة واكن من البرد وأخرى ان دهمك قتال أن يعتصموا بالبيوت ويقووا على المماطلة والمطاولة الىأن ياتيك مدد أو ترد عليكقوة من خلفك»(١٧٨) .

ولكن القائد طاهر لم ياخذ بهذا الرأى ، وفضل أن يكون القتال خارج المدينة ، لأسباب منها : عدم ارتياحه واطمئنانه من أهل مدينة الرى ، فلا يأمن غدرهم اذا ما وقع القتال ، كما ان أخلاقيات القائد على ابن عيسى بن ماهان وافعاله السيئة مع أهل خراسان عندما كان واليا

عليها زمن الرشيد ، ولدت فى نفوس اهل مدينة الرى الرعب والخوف منه . وليس من المستبعد أن يدفعهم هذا الخوف اذا ما رأوا كثافة جنده أن يميلوا اليه ويناصروه اتقاء لشره ، وقد عبر القائد عن ذلك بقوله : « أن أهل الرى لعلى هائبون ومن معرته وسطوته متقون ... ولست آمن ان هجم علينا مدينة الرى أن يدعو أهلها الى الوثوب بنا ويعينوه على قتالنا ... »(١٧٩) .

وكان أن خرج القائد الطاهر بجيشه من مدينة الرى لاعتقاده بصواب رايه ، وعسكر عند قرية يقال لها « كلواص » تبعد عن مدينة الرى بحوالى خمسة فراسخ ، فجعل مدينة الرى خلفه حتى يتمكن من العودة اليها ويتحصن بها اذا ما أحس بالخطر ، ولكن أهلها انتظروا خروج طاهر وجيشه ، فعمدوا الى أبواب المدينة وسكروها ، فكانهم بذلك قطعوا خط الرجعة على جيش المامون ، مما يدل على عدم ولاء بعض العناصر بمدينة الرى للمامون ، وكذلك للأمين ، فكانوا يقولون : لا يهمنا أيهما غلب صاحبه ، وارادوا بذلك ايضا أن يجنبوا أنفسهم ويلات هذه الحروب . وكانت نتيجة هذه المعركة انتصار جيش المامون على جيش الأمين ، وعاد طاهر بن الحسين الى مدينة الرى(١٨٠) .

وتذكر المصادر أن مدينة الرى تعرضت الى أزمة اقتصادية حادة ، ففى سنة ٢٠٢ هـ (٨١٧م) ، أصابها نقص كبير فى المواد الغذائية بسبب قلة الأمطار ، مما أدى الى حدوث مجاعة تضرر من جرائها كثير من الناس ، ونتج عن ذلك حدوث أمراض وأوبئة ومات كثير من الناس ، ولم يقتصر ذلك على مدينة الرى ، بل شمل مدنا أخرى(١٨١) .

ولما أراد المامون العودة الى بغداد فى سنة ٢٠٣ هـ (٨١٨م) ، ـ وكان مقيما بخراسان ـ توقف بمدينة الرى لبضعة أيام . وخلال اقامته عرضت عليه هموم ومشاكل مدينة الرى خاصة فيما يتعلق بالنواحى الاقتصادية ، فاسقط عنهم شيئا مما كانوا يدفعونه من الخراج ، والذى كان مقداره الفىالف درهم،أى مايعادل مليونين من الدراهم(١٨٢)،وقد حدد المامون ، فى سنة ٢١١هـ (٨٢٦م) مقدار ما تدفعه مدينة الرى من ضريبة الخراج باتفاقه مع أبى العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين ،

فكان فى كل سنة يبعث خراج مدينة الرى ومقـــداره (١٠) آلاف ألف درهم(١٨٣) ٠

وقد اعتاد خلفاء الدولة العباسية الاستعانة بأهل مدينة الرى أو بغيرها للقضاء على الثورات التى تحدث فى المدن المجاورة ، ففى سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٨م) ، استعان المعتصم بعامل دنباوند ، منصور بن الحسن، للقضاء على ثورة حدثت بمدينة طبرستان أججها مازيار بن قارن بن ونداد هرمز ، ولكنه امره بالتوجه أولا الى مدينة الرى ، ربما لغرض التزود بالعساكر والمؤن ، وهكذا فقد كانت مساهمات مدينة الرى نشطه على الصعيد السياسى سواء مع الخلافة أو ضـــدها ، منـــذ ان فتحها المسلمون زمن الخلفاء الراشدين(١٨٤) ٠

ثالثا : الدور الدينى والفكرى والاقتصادى للرى :

١ ـ الدور الدينى :

تحظى مدينة الرى منذ القـــدم بمكانة دينية مرموقة بين المـــدن الفارسية ، فهى المكان المقدس الثانى عشر ، الذى خلفه « أهورمزدا » ، أحد الزعماء الروحيين والسياسيين فى بلاد فارس فى العصر الوثنى ، وقد عرفت فى كتاب اليسنا Yasna باسم : Caruratus Ragha Zara أى « راغا الزرادشتيه ذات الطبقات الاربع » ٠ وكانت مدينة الرى فى العصور القديمة المقر الرئيسى لرجال الدين الوثنيين ، فكانوا يشكلون الركيزة الأساسية فى المجتمع الى جانب طبقة المحاربين والمزارعين ، وكانت تسمى « المدينة ذات الاحياء الثلاثة » drei caue besitzend أى ذات الطبقات الاجتماعية الثلاث ، وكانت مدينة الرى فى ســـنوات ٤٨٦ ، ٤٩٩ ، ٥٥٣ للبـــلاد ، المقـــر الرئيسى لأساقفة الكنيســـة الشرقية(١٨٥) ٠

هذه الروحية الدينية العريقة المتجســـدة فى أهل مدينة الرى ، بوصفها واحدة من كبريات مراكز الديانة فى بلاد فارس ، اهلتها لان تتزعم حركة المقاومة ضد الدين الاسلامى الجديد الذى ظهر بارضها ، فلم يقبلوا الاسلام الا بعد تردد شديد ، وظلوا يدفعون الجـــزية للدولة

الاسلامية . وقد تخلل ذلك ثورات كانوا يقومون بها ضد عمال الخلفاء منذ الفتح الاسلامى لهذه المدينة ، زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، واستمر هذا الوضع حتى عهد الخليفة الرابع على بن ابى طالب ، ولكن حالة التمرد والثورات خفت حدتها تقريبا فى العصرين الأموى والعباسى، بسبب دخول معظم أهلها فى الاسلام ، وقبوله عن قناعه .

وذكرت الروايات أن اربعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، ممن كانوا يحفظون الحديث والتفسير وقراءة القرآن زاروا مدينة الرى ونزلوا فى ضواحى الرى وقراها ، وهؤلاء الصحابة هم : عبد الله بن عباس(١٨٦) ، وعبد الله بن عمر(١٨٧) ، وعبد الله بن عمرو بن العاص(١٨٨) ، وسعيد بن العاص(١٨٩) ، فكانوا على اتصال دائم فيما بينهم . وكان لهم السبق فى وضع البذرة الأولى لتعليم الاسلام ، وتحفيظ الناس القرآن والحديث والتفسير(١٩٠) .

وكذلك زار مدينة الرى جماعة من التابعين ، ومن أشهرهم العالم الجليل سعيد ابن جبير(١٩١) المفسر والمحدث ، فاخذوا عنه هذه العلوم ، فدرس على يديه بمدينة الرى الكثير من طلاب العلم(١٩٢) فكان هؤلاء العلماء نواة لمدرسة تخرج فيها العديد من العلماء وطلاب العلم فى علم الحديث والتفسير والقرآن ، واقبل العلماء من أهل مدينة الرى على هذه العلوم واتقنوها ، وتبلورت هذه الحركة العلمية وأخذت ترسخ أقدامها فى العصر العباسى ، عصر الاستقرار ، عندما انصرفت السلطة عن اعمال الفروسية والفتح واتجهت الى البناء الحضارى بشتى ميادينه والوانه وصوره ، فكان لهذه السياسة تاثيرها على الامصار الاسلامية . فمدينة الرى على سبيل المثال تفاعلت مع هذا المناخ الفكرى، نتيجة لما لديها من استعدادات فكرية تتوائم مع هذه النهضة ، فرصيدها الحضارى مكنها من تقبل ومسايرة هذه الافكار والروحيات الدينية السامية التى نادى بها الاسلام ، فتحولت الى واحد من أكبر مراكز الثقافة والعلم فى المشرق الاسلامى آنذاك ، وانجبت العديد من العلماء والمفكرين ، ولم يقتصر ذلك على العلوم الدينية فقط ، بل شمل أيضا العلوم العقلية ، فقصدها طلاب العلم من البلاد البعيدة ليلتقوا بعلمائها(١٩٣) .

ومن العلماء الذين ينسبون الى مدينة الرى ، سليمان بن مهران مولى بنى أسد ، تابعى أصله من مدينة الرى الا أنه سكن الكوفة وتوفى بها سنة ١٤٨ هـ ، وكان عالما بعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف ، وعلوم الفرائض ، الى جانب المامه بالعلوم العقلية(١٩٤) ، ومن أعيان العلماء الذين ينسبون الى مدينة الرى أيضا محمد بن ادريس بن منذر ابن داود بن مهران ، من كبار رجال الحديث ، فقد درس هـذا العلم بمدينة الرى على يد عبد الصمد بن عبد العزيز ، وابراهيم بن موسى ، وكان قد درس علوم الحديث بالكوفة على يد عبد الله بن موسى(١٩٥) ، ومن علماء الرى فى علم الحديث عالم يقال له طلحة بن الاعلم ، كان يسكن فى « جيان » من قرى مدينة الرى(١٩٦) . ومن الذين رحلوا الى مدينة الرى لدراسة علم الفقه ، أبو منصور ، محمد بن عمر بن عبد الله ابن زاذان ، درس هذه العلوم على يد على بن عمر(١٩٧) .

وقد رافق كل من محمد المهدى ثم هارون الرشيد فى رحلتيهما الى مدينة الرى ، فريق من العلماء ، يضم بعض رجال الدين والأدب وسائر العلوم ، ومن هؤلاء سفيان بن حسين السلمى ، كان مع المهدى ، ويعد واحدا من علماء الحديث الثقاة ، وقـد مات بمدينة الرى زمن محمد المهدى(١٩٨) ، والحجاج بن ارطاة بن ثور بن هبيرة ، توفى بمدينة الرى(١٩٩) ، وكذلك عالم الحديث ، جرير بن عبد الحميد بن قرط الرازى الضبى ، أصله من الكوفة ، رحل الى مدينة الرى ، من كبـار المحدثين ، ثقة فيما يرويه من أحاديث ، فرحل اليه المحدثون لسعة علمه فى الحديث ، وكانت وفاته بالرى سنة ١٨٨ هـ (٨٠٣م)(٢٠٠) ، وقصد مدينة الرى علماء من الحجاز ، فرحل اليها محمد بن اسحاق بن يسار من كبار المحدثين ، ومن المؤرخين البارزين ، خرج من الكوفة ثم الى بغداد ومنها الى مدينة الرى(٢٠١) ، ورحل الى مدينة الرى محمد بن الحسن الشيبانى ، الفقيه المشهور صاحب كتاب « المخارج فى الحيل » ، من أهل الكوفة ، وبها مات سنة ١٨٩هـ(٨٠٤م)(٢٠٢) ورحل اليها عالم اللغة ، أبو الحسن على بن حمزة الكسائى ، وقد توفى بمدينة الرى ، فقال هارون الرشيد « دفن الفقه والعربية بالرى » (٢٠٣) ، وقد ازدانت مدينة الرى بهذه النخبة من علماء الحديث والفقه والتفسير ، واستقطبت

اليها كبار رجال العلم ، فكان لذلك آثاره الطيبة على ابناء مدينة الرى، فنقلوا عنهم هذه العلوم ، مما أدى الى ازدهار الحياة العلمية(٢٠٤) ٠

كان لهؤلاء العلماء الفضل الاكبر فى ازدهار الحياة الفكرية بما قاموا به من دور فى مزج الثقافات ، وقد نتج عن ذلك ظهور المذاهب والفرق الدينية ، وقد بلغت هذه الحركة قمة نشاطها الفكرى فى منتصف القرن الثانى الهجرى وحتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، واطلقوا على هـذه الفترة طـور الكمال والنضج ، **أو عصر المذاهب الفقهيه** ؛ ومن المذاهب الفقهيه التى ظهـرت ابان هـذه الفترة المذاهب الفقهية الأربعة ، وهى : المذهب الحنفى والمالكى ، والشـافعى والحنبلى ، بالاضافة الى المذهب الجعفرى ، وقد ظهرت مذاهب فقهيه عديدة أخرى الا أنها اندثرت لتخلى اتباعها عنها، هذه المذاهب الفقهيه أخذت طريقها الى مدينة الرى وقد تبنى أهلها بعض هذه المذاهب ، فقد انتشرت فيها الشافعية والحنفية والجعفرية ، أى المذهب الشيعى ، وكانت الشافعية أقل هذه المذاهب عددا ثم يليها الاحناف ، أما الشيعة فهم يشكلون العدد الأكبر ، وقد تولدت بين اتباع هـذه المذاهب الحساسيات ، فلم تكن العلاقات بينهم طيبة ، فالعصبية الطائفية قائمة ، وأحيانا كانت تؤدى الى صدامات وحروب ، وكانت الغلبة فى معظم الأحيان للشافعية مع أن عددهم قليل(٢٠٥) ٠

٢ ـ الدور الاقتصـادى :

ان الاقتصاد فى أى بقعة من العالم قائم على ثلاثة ركائز أساسية ، وهى : الزراعة والصناعة والتجارة ، وكانت الزراعة قديما تشكل الركيزة الأساسية فى الاقتصاد ، فعلى الزراعة تقوم الصناعة وبالتالى التجارة حيث يتم تسويق هذه المنتجات ، وقد اشتهرت مدينة الرى بهذه الموارد الاقتصادية الثلاث ، ففى مجـال الزراعة ، تنوعت المحاصيل الزراعية بمدينة الرى ، خاصة المحاصيل التى تدخل فى مجال الصناعة ، كصناعة النسيج والأوانى ، وتزرع بها الفواكه ، فهى تقع فى المنطقة الخصبة بين الجبال والصحراء(٢٠٦) ٠

وقد امتدح الجغرافيون مدينة الرى واثنوا على مكانتها الاقتصادية،

فتحدثوا عن انتاجها الزراعى واشادوا بأهميته ، خاصة زراعة الفواكه ، فكانت تنتج منه كميات كبيرة ، ويمتاز بجودته العالية ، وعبر الجغرافى ابن خرداذبة عن ذلك بقوله : « واجود الفواكه بالرى »(٢٠٧) ، وكانت كمياته وفيرة مما أدى الى انخفاض أسعاره ، ولا سيما فى فصل الخريف، وقد اعجب القزوينى بأصنافه العديدة ، مثل التين والخوخ والعنب ، وللعنب أنواع مختلفة وله اسماء ، مثـــل الملاحى الذى يمتاز بحباته الكبيرة التى تصل بقدر حبة البلح ، وعنقوده بقدر عزق التمر ، ومع كبر حجم الحبة الا أن قشرها رقيق وطعمها طيب ، ويبدأ انتاج هـذا النوع من العنب فى فصل الخريف ، ويستمر الى فصل الشتاء ، فكان يصدر الى الخارج كسلعة تجارية ، ومن انواع العنب الزبيب ، فكان يصدر الى الخارج فى صناديق وقد قامت عليه تجارة واسعة(٢٠٨) . وتنتج مدينة الرى البطيخ ، وله شهرة واسعة لجودته(٢٠٩) ، وقـد اثنى المقدسى على الزراعة بالرى خاصة الفواكه(٢١٠) هذه الشهرة التى تتمتع بها مدينة الرى فى مجال الزراعة ، دفعت المعتصم أن يطلب بأن يحمل اليه من مدينة الرى الغروس حتى يزرعها بمدينة سامراء(٢١١) .

كذلك اشتهرت مـدينة الـــرى بزراعة المحاصيل التى تقوم عليها صناعة المنسوجات كالقطن مثلا ، ويمتاز قطنها بالجودة حيث يصدر الى الخارج ، فكان يصل منه الى بغداد(٢١٢) ، وتوجد فى اقليم مدينة الرى المعادن ، ولا سيما جبل « طبرك » ، مثل الفضة وهذا المعدن يوجد بكميات كبيرة ، وكان يصدر الى الخارج كسلعة تجارية تدر أرباحا كبيرة على مدينة الرى(٢١٣) .

وقد قامت على هذه المنتوجات الزراعية بعض الصناعات خصوصا صناعة النسيج ، فكانت تصنع بها الثياب الفاخرة ذات الجودة العالية ، والبرود المقلمة والاكسية(٢١٤) ومن المنسوجات الشهيرة صنف يقال له، « المثيرات » ، كان يصـــدر الى الخـــارج . وتصنع بها الاقمشـــة الحريرية(٢١٥) . الى جانب صناعة الأوانى وخصوصا الأوانى الخزفية المطلية ، التى اشتهرت بصناعتها مدينة الرى ، وقد عثرت بعثة الآثار الأمريكية من جامعتى فيلادلفيا وبوسطن ، التى بدأت أعمالها بمدينة

الرى فى حدود سنة ١٣٥٣ هـ ، (١٩٣٤م) ، على العـديد من هـذه الأوانى الخزفية الهـامة ، كما عثر الدكتور اريك شميث Dr. Erich Echmidt فى موضع يقال له « تل القلعة » على كثير من الأوانى الخزافية المتنوعة وبقايا أبنية أهمها مسجد محمد المهدى(٢١٦) ، الى جانب صناعة الأوانى التى تستخدم فى الطبخ والأكل ، كما تصنع « المسال » ، وهى نوع من الابر السميكة ، تستخدم فى خياطة المنسوجات السميكة ، كما اشتهرت مدينة الرى بصناعة « القصاع » ، وهى أوانى مصنوعة من الخشب الصلب ، وكذلك اشتهرت بصناعة الأمشاط من الخشب نفسه ، وكان يجلب من غابات مدينة طبرستان ، وقد امتازت هذه الأمشاط بجمالها ودقة صناعتها ، فكانت من السلع التى تصدر كهدايا للخلفاء والملوك(٢١٧) .

هذه المنتوجات الزراعية والصناعية فد ساهمت فى نشاط الحركة التجارية بمدينة الرى ، فقد قامت على هذه المنتجات تجارة واسعة ، ومما ساعد على ذلك الموقع التجارى الهام لمدينة الرى ، فهى تقع على الطريق التجارى العالمى الذى يربط العاصمة بغداد وحاضرة العالم الاسلامى باواسط آسيا وبلاد الشرق الأقصى ، الصين والهند ، والذى يعرف بطريق الحرير Silk Road ، فقد اكسبها هذا الموقع أهمية خاصة فى التجارة العالمية ، فكانت مدينة الرى ملتقى تجارات العالم آنذاك ، فعندما زارها هارون الرشيد ، أول ما لفت انتباهه نشاط الحركة التجارية بها فأشاد بمكانتها التجارية ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « الدنيا أربعة منازل « دمشق والرقة وسمرقند والرى »(٢١٨) .

كما أشاد البلدانيون بنشاطها التجارى ، حتى أنهم وصفوها بأنها: « باب من أبواب الأرض واليها متجر الخلق »(٢١٩) ، والعبارة الأخيرة « متجر الخلق » ، تعطينا فكرة عن مدى حجم مدينة الرى فى التجارة العالمية ، فكانت مقصد التجار يؤمونها من جميع الانحاء ، ووصفوها أيضا بأنها : « عروس الدنيا وسكة الأرض ... »(٢٢٠) ، وقال عنها الهمدانى ، بأنها : « باب التجار »(٢٢١) .

وقد أعطت هذه الأهمية التجارية مدينة الرى شهرة عالمية واسعة

فقصدها التجار حاملين ضروب الامتعة والسلع التجارية ، فتحولت مدينة الرى الى سوق تجارية عالمية ، فقد انشئت بها العديد من الأسواق حتى توائم هذا الكم الهائل من البضائع ، وقد تحدث الاصطخرى عن أسواقها القديمة فذكر : سوق روذه ، وسوق دهك نو ، وسوق بليسان ، وسوق نصرا باذ ، وسوق سربار بانان ، وسوق باب الجبل ، سوق باب هشام ، سوق باب سين ، وكانت أكثر هذه الأسواق شهرة ، سوق روذه ، فيه خانات التجار ، وهى عبارة عن فنادق يستريح بها التجار ، وقد صمم هذا السوق على شكل شارع مستقيم طويل وعريض تصطف على جانبيه الخانات والمحلات(٢٢٢) ، ومعظم أسواق مدينة الرى واسعة فسيحة مملوءة بالبضائع(٢٢٣) ، قد أمتدح هارون الرشيد بعض هذه الأسواق ، فاشاد بسوق السريان ، وكانت الأشجار تحف به من جانبيه ، وفى وسطه نهر جار يخترقه الى نهايته(٢٢٤) .

وقد ازدادت الأهمية الاقتصاديه لمدينة الرى ، وبلغت هذه اهمية قمتها فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، ولم تقتصر هذه الأهمية على النواحى الاقتصادية فقط ، بل شملت النواحى الدينية والثقافية ، الا أن الحديث عن هذه الفترة خارج عن دائرة البحث . وهى نهاية العصر العباسى الأول ، أى فى حدود منتصف القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى .

والخلاصة ان مدينة الرى لعبت دورا هاما فى التاريخ والحضارة العربية الاسلامية منذ الفتح الاسلامى وحتى نهاية العصر العباسى الأول، وهو دور سوف يؤهلها لدور أكبر فيما بعد فى ظل البويهيين والسلاجقة.

الهـــوامش

(١) ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد الجزرى) : الكامل فى التاريخ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م ، جـ ١ ، ص ٥٧ ـ ٥٨ ٠

(٢) أبو حنيفة الدينورى (أحمد بن داود) : الاخبار الطوال ، ص ٢٨ ، دار المسيرة (بدون تاريخ) ، وانظر ياقوت الحموى (عبد الله الرومى البغدادى) : معجم البلدان : مجلد ٢ ، ص ١١٦ ، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) ٠

(٣) قدامة (أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادى) : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، مكتبة المثنى ـ بغداد (بدون تاريخ) ص ٣٦٥ ٠

(٤) الاصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارس المعروف بالكرخى) : المسالك والممالك تحقيق د٠ محمد جابر الحسينى ، دار القـــلم ، مصر ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١م ، ص ١٢٢ ٠

(٥) شيخ الربوه (شمس الدين أبو عبد الله الدمشقى) : نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ٠ باعتناء م٠ف مهرن ٠ بطرسبورغ ١٣٨١ هـ ـ١٨٦٦م ، ص ١٨٤ ٠

(٦) القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) : آثار البلاد وأخبار العباد ، صادر ـ بيروت ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٩م ، ص ٣٧٥ ٠

(٧) دائرة المعارف الاسلامية ٠ يصدرها أحمد الشنتناوى راجعها د٠ محمد مهدى علام ، مجلد ١٠ ، ص ٢٨٦ ٠

(٨) ياقوت الحموى : معجم مجلد ٢ ، ص ١١٧ ٠

(٩) الدراج : بضم الدال وفتح الراء المهملتين ، نوع من الطيور ، أنظر الدميرى (الشيخ كما الدين) حياة الحيوان الكبرى ، المكتبة الاسلامية (بدون تارخ ولا مكان للطبع) مجلد ١ ، ص ٢٢٤ ٠

(١٠) البلاذرى (أحمد بن يحى بن جابر) : فتوح البلدان ٠ باعتناء صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية (بدون تاريخ) ، ق ٢ ، ص ٢٢٤ ٠

(١١) شيخ الربوه : نخبة الدهر ، ص ١٨٢ ٠

(١٢) دائرة المعارف : مجلد ١٠ ، ص ٢٨٧ ٠

(١٣) طبرستان : مدينة كبيرة تقع بالقرب من مدينة الرى ، بين قومس وبحر قزوين ، أنظر ياقوت : مجلد ٤ ، ص ٣٤٢٠ ٠

(١٤) قزوين : مدينة مشهورة تبعد عن مدينة الرى بحوالى ٢٧ فرسخا واليها ينسب بحر قزوين . ياقوت الحموى ، مجلد ٤ ، ص ٣٤٢ .

(١٥) زنجان : مدينة تقع ضمن اقليم الجبل، قريبة من قزوين واذربيجان ، ياقوت الحموى : مجلد ٣ ، ص ١٥٢ .

(١٦) قم : مدينة فارسية بنيت فى الاسلام ، تقع بالقرب من مدينة الرى ، وقد بناها طلحة بن الاحوص الاشعرى . ياقوت : معجم البلدان مجلد ٤ ، ص ٣٩٧ .

(١٧) اصبهان : مدينة مشهورة ، حتى انهم أحيانا يطلقون على اقليم الجبل اسم اصبهان ، وهى من أعلام المدن لجمالها . ياقوت : مجلد ١ ، ص ٢٠٦ .

(١٨) همذان : كانت اكبر مدينة فى اقليم الجبال ، قريبة من مدينة الرى . ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٤١٠ .

(١٩) نهاوند : من مدن اقليم الجبال ، جميلة قريبة من همـــذان . ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٣١٣ .

(٢٠) الدينور : مدينة من أعمال الجبل ، قرب مدينة قرميسين وهمذان ، ياقوت: مجلد ٢ ، ص ١٥١ .

(٢١) حلوان : من المدن العراقية ، تقع على الحدود العراقية الايرانية ، قريبة من بلاد الجبل . ياقوت : مجلد ٢ ، ص ٢٩١ .

(٢٢) ماسبذان : من المدن الفارسية ، ضمن بلاد الجبل ، المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : التنبيه والاشراف باعتناء عبد الـــله الصاوى ، ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨م . وياقوت : مجلد ٥ ، ص ٤١ .

(٢٣) مهرجان قذ : كوره جميلة من اقليم الجبل بالقرب من حلوان . ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٢٢٣ .

(٢٤) شهرزور : بلدة كبيرة من اقليم الجبال ، بين اربل وهمذان ، ياقوت : مجلد ٣ ، ص ٣٧٥ .

(٢٥) الصامغان : مدينة من اقليم الجبل ، قريبة جدا من طبرستان . ياقوت : مجلد ٣ ، ص ٣٩٠ .

(٢٦) اذربيجان : بلدة كبيرة ، يحدها من الشمال اقليم الجبال وبلاد الديلم . ياقوت مجلد ١ ، ص ١٢٨ .

(٢٧) اليعقوبى (أحمد بن ابى يعقوب بن جعفر الكاتب) : تاريخ اليعقوبى .

بيروت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م ٠ جـ ١ ، ص ١٧٦ ، وانظر المقدسى (أبو عبد الله محمد ابن أحمد) : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقليم ، ليدن ١٩٠٩ ، ص ٣٨٥ ٠

(٢٨) خراسان : اقليم واسع يضم العديد من المدن ، يمتد نحو الغرب الى مدينة بيهق القريبة من الحدود العراقية ، وأخر حدودها نحو الشرق الى الهند ، وطخرستان وغزنة وسجستان وكرمان ٠ ياقوت : مجلد ٢ ، ص ٣٥٠ ٠

(٢٩)- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد) : العقد الفريد ٠ باعتناء أحمد أمين وأخرين ٠ دار الكتاب العربى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م ، جـ ٦ ، ص ٢٥٣ ٠

(٣٠) الحميرى (محمد عبد المنعم) : الروض المعطار فى خبر الاقطار تحقيق د٠ احسان عباس ، مكتبة لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م ، ص ٢٧٨ ٠

(٣١) لسترينج (كى) : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوكيس عواد ، مطبعة الرابطة - بغداد ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م ٠ ص ٢٤٩ ٠

(٣٢) الفرسخ : مقياس قديم من مقاييس الطول ، يعادل ثلاثة أميال ٠ انظر انيس (د٠ ابراهيم وأخرين) : المعجم الوسيط ، مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧٣م ص ٦٨١ ٠

(٣٣) ياقوت : معجم ، مجلد ٣ ، ص ١١٦ ٠

(٣٤) الديلم : هذه اللفظة لها معانى كثيرة ، فهى تعنى الموت ، والاعداء ، والنمل الأسود ، ومن سياق الحديث ، فان الديلم ، اسم لبلد ، تقع فى الاقليم الرابع، انظر ياقوت جـ ٢ ، ص ٥٤٤ ٠

(٣٥) قومس : بلدة كبيرة تضم مجموعة من المدن ٠ ياقوت : مجلد ٤ ،ص٤١٤٠

(٣٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٢٢ ٠

(٣٧) ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبى) : صورة الأرض ، مكتبة الحياة (بدون تاريخ) ص ٣٠٤ ٠

(٣٨) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٠٤ ٠

٣٩) الاصطخرى : المسالك ، ص ١٢٢ ، وابن حوقل : صورة الأرض ، ص٣٠٤٠

(٤٠) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٠٤ ، وأنظر لسترينج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٢١ ٠

(٤١) الاصطخرى : المسالك ، ص ١٢٢ ٠

(٤٢) الاصطخرى : المسالك ، ص ١٢٣ ٠

(٤٣) لسترينج : بلدان الخلافة ، ص ٢٤٩ ٠

(٤٤) الأصطخرى : المسالك ، ص ١٢٣ ٠

(٤٥) أبو حنيفة : الاخبار ، ص ٣٨ هامش رقم (١) ، وقد ورد أن الحدود الجغرافية للعراق ، من عند مدينة هيت الى مدينة السرى واقليم الديلم والجبال وخراسان الى الصين شرقا ، وفى الجنوب الى اقليم السند ، انظر البكرى (أبو عبيده الله بن عبد العزيز) : معجم ما استعجم ٠ من اسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ٠ القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧م ، جـ ٣ ، ص ٩٢٩ ٠

(٤٦) ياقوت الحموى : مجلد ٤ ، ص٩٤ ـ ٩٥ ، والبكرى: معجم جـ٣ ، ص٩٢٩٠

(٤٧) هيت : مدينة تقع على نهر الفرات ، من نواحى بغداد ، شمال مدينة الانبار ٠ ياقوت : مجلد ٥ ، ص ٤٢١ ٠

(٤٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٦ ، ص ٤٨ ، وانظر ياقوت : مجلد ٤ ص ٩٥ ٠

(٤٩) ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) : المسالك والممالك ، باعتناء دى غويه ، ليدن ١٣٠٧ هـ ـ ١٨٨٩م ، ص ٢٢ ـ ٤١ ـ ٧٥ وأبو الفرج (قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى) : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة مكتبة المثنى ـ بغداد (بدون تاريخ) ص٢٠٠ ، وانظر المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص٣٨٤٠

(٥٠) أبو الفرج : نبذ من كتاب الخراج ، ص ٢٣٦ ٠

(٥١) الموسوعة العربية الميسرة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، باشراف محمد شفيق غربال ٠ (بدون تاريخ) ص ٩٠٤ ، وانظر لسترينج : بلدان الخلافة ، ص ٢٥٢ ٠

(٥٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٢٩٥ ، وانظر النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ٠ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م ٠ جـ ١٩ ، ص ١٧٩ ٠

(٥٣) الواقدى (أبو عبد الله محمد بن عمر) : فتوح الاسلام لبلاد العجم ٠ باعتناء عزيز افندى زند ، مصر ١٣٠٩ هـ (١٨٩١م) ص ٦٠ ، وأنظر البلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣١٤ ـ ٣٢٥ ٠

(٥٤) النويرى : نهاية الأرب ، حـ ١٩ ، ص ٢٢٤ ٠

(٥٥) الواقدى :فتوح ، ص ٢٣ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٢٧٠٠

(٥٦) الواقدى : فتوح ، ص ٢٣ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٢٧١، والنويرى : نهاية الأرب ج ١٩ ، ص ٢٥١ ٠

(٥٧) الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك · دار القلم · بيروت (بدون تاريخ) جـ ٤ ، ص ٢٣٨ ·

(٥٨) ابن اعثم (أبو محمد أحمد الكوفى) : كتاب الفتوح · دار النـدوة الجديدة - بيروت - لبنان (بدون تاريخ) جـ ٢ ، ص ٣٧ - ٣٩ ، والطبرى : ج٤ ، ص ٢٣٧ ، وابن خياط (أبو عمر وخليفة بن خياط العصفرى) : تاريخ خليفة بن خياط · تحقيق د· اكرم ضياء العمرى · مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧م) ص ١٤٧ ، وابو حنيفة : الأخبار ، ص ١٣٢ - ١٣٤ ·

(٥٩) الواقدى : فتوح ، ص ٢٣ ، والبلاذرى : فتوح ، ق ٢ ، ص ٣٢١ ، والنويرى : نهاية الأرب ، جـ ١٩ ، ص ٢٥٣ ·

(٦٠) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥١ ·

(٦١) النويرى : حـ ١٩ ، ص ٢٦١ ·

(٦٢) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٢ ، وانظر النويرى : ج ١٩ ، ص ٢٦١ ·

(٦٣) واج روذ : موضع بين همذان وقزوين ، جرت فيه معركة بين المسلمين والفرس ، انتصر فيها المسلمون ، وقد ورد فى معجم البلدان لياقوت أن تاريخ المعركة فى سنة ٢٩ هـ (٦٤٩م) ، فأغلب المصادر التاريخية تؤكد أنها جرت فى سنة ٢٢ هـ (٦٤٢م) زمن الخليفة عمر بن الخطاب · انظر ياقوت : معجم ، مجلد ٥ ، ص ٣٤١ ·

(٦٤) الطبرى : ج ٤ ، ص ٢٥٢ ، وأنظر النويرى : ص ١٥ ، ص ٢٦١ ·

(٦٥) الطبرى : ج ٤ ، ص ٢٥٣ ·

(٦٦) الطبرى ج ٤ ، ص ٢٥٢ ·

(٦٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٨٦ ·

(٦٨) قها : بالكسر والقصر ، من القرى الكبرى ، تقع بين مدينة الرى وقزوين، انظر ياقوت : معجم ، مجلد ٤ ، ص ٤١٧ ·

(٦٩) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٢ ، وابن الأثير : جـ ٣ ، ص ١١ - ١٢ ، وابن كثير (أبو الفداء الحافظ) : البداية والنهاية ، مكتبة المعارف - بيروت ١٩٦٦ ، الطبعة الأولى جـ ٧ ، ص ١٢١ - ١٢٢ ، وابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، المعروف ، بتاريخ ابن خلدون، مكتبة المدينة - بيروت ١٩٦٧م / مجلد ٤ ، ص ٤١٧ ·

(٧٠) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٣ ·

(٧١) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٣ ، والنويرى : نهاية الأرب ، جـ ١٩ ، ص٢٦١·

(٧٢) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٣ ، وابن الأثير : جـ ٣ ، ص ٣٢ ، وابن كثير : البداية ، جـ ٧ ، ص ١٢٢ ، والنويرى : جـ ١٩ ، ص ٣٦٤ ٠

(٧٣) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٠ ، ص ٢٨٧ ٠

(٧٤) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٣٥٣ ، وانظر الحميرى : الروض ، ص ٢٧٨ ، وانظر خطاب (محمود شيت) : قادة فتح بـــلاد فارس ، دار الفتـــح ـ بيروت ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥م) ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ٠

(٧٥) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٣ ، والحميرى : الروض ، ص ٢٧٨ ، وخطاب : ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ٠

(٧٦) الاغلال : تعنى الخيانة ، والاسلال : تعنى السرقة ، وقد جاء فى الحديث

الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى فى صلح الحديبية : أنه لا اغلال ولا اسلال ، وقد تكرر ذكر الغلو فى الحديث الشريف ، وهو الخيانة فى المغنم والسرقة فى الغنيمة ٠

انظر ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : لسان العرب ٠ دار صادر ـ بيروت (بدون تاريخ) مجلد ١١ ، ص ٥٠٠ ٠

(٧٧) يقروا : بمعنى يستقروا بمنازلهم ، وقد جاء فى خطاب الصلح هذا : ان يقروا المسلمين ، أى يسكنوهم ، انظر : لسان العـــرب لابن منظور ، مجـــلد ٥ ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ٠

(٧٨) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٣ ٠

(٧) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥١ / وابن الأثير : جـ ٣ ، ص ١٢ ، والنويرى : جـ ١ ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ٠

(٨٠) الواقدى : فتوح الاسلام ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ، والبلاذرى : فتوح البلدان ، ق ٢ ، ص ٣٨٩ ٠

(٨١) الطبرى : جـ ٤ ، ص ٢٥٤ ٠

(٨٢) هو كثير بن شهاب بن الحصين ذى القصة ، سيد قبيلة مذحج بالكوفة ، وقد روى عن عمر بن الخطاب بعض الاحاديث ، وقد وصف بالبخل ، ولاه معاوية مدينة الرى ، انظر ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى) : الطبقات الكبرى ٠ دار صادر ٠ بيروت (بدون تاريخ) ، جـ ٦ ، ص ١٤٩ ٠

(٨٣) دستبى أو دشتبى : يبدو أنها مدينة صغيرة تقع على الحدود بين مدينة الرى ومدينة همذان ، وقسمت هذه المدينة الصغيرة الى قسمين بين الرى وهمذان ،

فالقسم الذى يتبع الرى عرف باسم « دستبى الرازى » والقسم الذى يتبع همذان عرف باسم « دستبى همذان » انظر البلاذرى : فتوح ، ق ٢ ، ص ٣٩٠ ، وابو الفرج (قدامة) : كتاب الخراج ، ص ٢٦١ ·

(٨٤) البلاذرى : فتوح ق ٢ ، ص ٣٨٩ ·

(٨٥) خليفة بن خياط : ص ١٥٧ ، والبلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ·

(٨٦) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ·

(٨٧) خليفة بن خياط : ص ١٥٧ ، والبلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ·

(٨٨) أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن على بن محمود) : المختصر فى أخبار البشر ، دار الكتاب اللبنانى (بدون تاريخ) مجلد ٢ ، جـ ٢ ، ص ٧٣ ، وخطاب : قادة الفتح الاسلامى ، ص ١٧٢ ·

(٨٩) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ ·

(٩٠) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ·

(٩١) المطهر المقدسى (ابن طاهر) : البدء والتاريخ ، مكتبة المثنى ـ بغداد ـ باريس ١٨٩٩ ، جـ ١ ، ص ٦٨ ، وانظر القزوينى (عبد الكريم بن محمد الرافعى) : التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردى · دار الكتب‌العلمية ـ بيروت ـ لبنان ١٣٠٨ هـ ـ ١٩٨٧م · حـ ١ ، ص ٤٦ ·

(٩٢) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، ولاه معاوية بن أبى سفيان على المدينة ، أنظر بن سعد : الطبقات ، جـ ٥ ، ص ١٥٥ · وأمه صفية بنت عبد العزيز بن حارث من بنى عدى ،تزوجها بعد ذلك أبو سفيان بن حرب ، انظر البلاذرى : أنساب الاشراف ، مكتبة المثنى بغداد (بدون تاريخ) جـ ٤ القسم الثانى ، ص ١٦٩ ·

(٩٣) النويرى : نهاية الأرب ، حـ ١٩ ، ص ٥٠٩ ·

(٩٤) الطبرى : جـ ٥ ، ص ١٤٩ ·

(٩٥) أبو حنيفة : الأخبار الطوال ، ص ١٦٥ ·

(٩٦) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ، وابن الاثير : جـ ٣ ، ص ١٤٧ ·

(٩٧) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ، وابن الاثير ، جـ ٣ ، ص ١٤٧ ·

(٩٨) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون مجلد ٢ ، ص ١١١٤ ·

(٩٩) ابن الأثير : جـ ٣ ، ص ٢١٠ ·

(١٠٠) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩٠ ، وابن خلدون : مجلد ٢ ، ٣ ، ص١١١٤ ،٠٨·

(١٠١) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٧٨ ، وابن الاثير : حـ ٣ ، ص ٢٠٧ ٠

(١٠٢) ابن الاثير : حـ ٣ ، ص ٢٠٧ ، وابن خلدون : مجلد ٣ ، ص ٨ ٠

(١٠٣) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٧٨ ٠

(١٠٤) الاربلى (أبو الحسن على بن عيسى أبى الفتح) : كشف الغمة بمعرفة الائمة ٠ تحقيق السيد هاشم الرسولى ـ تبريز (بدون تاريخ) حـ ٢ ، ص ٣٢ ، والطبرى : حـ ٦ ، ص ١٩٤ ٠

(١٠٥) أبو حنيفة : الاخبار الطوال ، ص ٢٥٣ ٠

(١٠٦) أبو حنيفة : ص ٥٣ ٠

(١٠٧) أبو حنيفة ، ص ٢٥٣ ، وابن الاثير ، حـ ٣ ، ص ٢٨٣ ٠

(١٠٨) المقدسى : البدء والتاريخ جـ ٦ ، ص ١٥ ، وانظر العمرى (محمد بن على بن محمد) : الانباء فى تاريخ الخلفاء ٠ تحقيق د٠ قاسم السامرائى ٠ المعهد الهولندى للاثار ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ ٠ ص ٥٤ ٠

(١٠٩) هو محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زراره ، سيد بنى تميم بالكوفة ، وليس له عقب .انظر ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله مسلم) : المعارف ، دار المعارف ٠ تحقيق د٠ ثروت عكاشة (بدون تاريخ ٠ ص٤٢٥ ٠

(١١٠) خليفة بن خياط : ص ٢٦٠ ٠

(١١١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤١٥ ٠

(١١٢) ابن قتيبة : ص ٤١٥ ، وابن الاثير : جـ ٣ ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ٠

(١١٣) ابن خلدون : مجلد ، ، ص ٣١٧ ٠

(١١٤) ابن الأثير : جـ ٣ ، ص ٢٩١ ، وابن خلدون : مجلد ٣ ، ص ٣١٧ ٠

(١١٥) ابن الأثير : حـ ٣ ، ص ٣٩١ ٠

(١١٦) ابن الاثير : حـ ٣ ، ص ٣٩٢ ٠

(١١٧) ابن قتيبة : ص ٣٥٦ ٠

(١١٨) أبو حنيفة الدينورى : الاخبار الطوال ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٩ ٠

(١١٩) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٣٥٦ ، وابن خلدون ، حـ ٣ ، ص ٧٩ ٠

(١٢٠) ابن خلدون : حـ ٣ ، ص ٧٩

(١٢١) ابن الاثير : حـ ٣ ، ص ٣٢ ٠

(١٢٢) ابن الاثير : جـ ٤ ، ص ٦٣ ، وابن خلدون : جـ ٥ ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ ٠

(١٢٣) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤١٥ ·

(١٢٤) ابو حنيفة : الاخبار الطوال ، ص ٢٨٠ ·

(١٢٥) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ ·

(١٢٦) ابن الأثير : جـ ٤ ، ص ٩٢ ·

(١٢٧) ابن الأثير : جـ ٤ ، ص ٩٢ ·

(١٢٨) الطبرى : حـ ٤ ، ص ٥٩ ، وابن الأثير : حـ ٤ ، ص ١٠٥ ·

(١٢٩) الطبرى : جـ ٨ ، ص ١١٨ ـ ١١٩ ·

(١٣٠) خليفة بن خياط : ص ٣٢٨ ·

(٣١) ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا) : تاريخ الدولة الاسلامية ، دار صادر ـ بيروت ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠م) ، ص ١٢٢ ·

(١٣٢) الطبرى : حـ ٩ ، ص ٢٢ ، وابن خلدون ، مجلد ٣ ، ص ٢٣٣ ·

(١٣٣) الطبرى : حـ ٩ ، ص٤٩ ، وابن الطقطقى : تاريخالدولة الاسلامية ، ١٣٢·

(١٣٤) الطبرى : جـ ٩ ، ص ٤٧ ·

(١٣٥) ابن قتيبة : ص ٤١٨ ·

(١٣٦) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٠٦ ·

(١٣٧) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ، وابن الأثير : جـ ٤ ، ص ٣١٦ ·

(١٣٨) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١١٢ ·

(١٣٩) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٣ ، وابن الأثير : جـ ٤ ، ص ٣١٦ ·

(١٤٠) ابن الأثير : جـ ٤ ، ص ٣١٨ ، وابن خلدون : جـ ٣ ، ص ٢٦٩ ·

(١٤١) ابن الأثير : جـ ٤ ، ص ٣١٨ ، وابن خلدون : جـ ٢ ، ص ٢٦٩ ·

(١٤٢) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٦٣ ، وابن خلدون : جـ ٢ ، ص ٢٨٩ / والعمرانى: الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ٦٥ ·

(١٤٣) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٦٣ ·

(١٤٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ـ بيروت ١٨٩٠ ، ص ١٠٨ ·

(١٤٥) الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٥٤ ، وابن خلدون : حـ ٣ ، ص ٢٨٣ ·

(١٤٦) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٤١٦ ، وابن خلدون : حـ ٣ ، ص ٣٩٤ ·

(١٤٧) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٤١٦ .

(١٤٨) الطبرى : حـ ٩ ، ص ١٦٩ ، والبلاذرى : ق ٢ ، ص ٤١٦ ، وابن خلدون: حـ ٣ ، ص ٢٩٧ .

(١٤٩) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٤١٦ .

(١٥٠) الطبرى : حـ ٩ ، ص ١٧٠ ، وابن خلدون : حـ ٣ ، ص ٢٩٥ .

(١٥١) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، حـ ٣ ، ص ٢٩٦ .

(١٥٢) الطبرى : حـ ٩ ، ص ٢٥٩ .

(١٥٣) الطبرى : حـ ٩ ، ص ١٧٥ .

(١٥٤) السيروان : موضع قريب من مدينة الرى ، نزل به المهدى ، وقد بنى فيه بعض المواضع ، وظلت آثارها باقية حتى العصر الذى عاش فيه ياقوت الحموى، وهو القرن السابع الهجرى ، والثالث عشر الميلادى ، فقد شاهد هذه الآثار ، وذكر ان موسى الهادى ابن محمد المهدى ولد بهـــذه القرية ، انظر ياقـــوت : معجم مجلد ٣ ، ص ٢٩٧ .

(١٥٥) البلاذرى : ق ٢ ، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ .

(١٥٦) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٨ ، وابن الاثير : حـ ٥ ، ص ٦٥ ـ ٨٦ ، وابن خلدون ، حـ ٣ .

(١٥٧) العمرانى : الانباء ، ص ٧٥ ، والخضرى (الشيخ محمد) : تاريخ الامم الاسلامية ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ـ ١٩٧٠م ، ص ١٠٢ .

(١٥٨) الشابشتى (أبو الحسن على بن محمد) : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦م) ص ٢٢٧ ، والعمرانى : ص٧٥ .

(١٥٩) خليفة بن خياط : ص ٤٦٠ ، والطبرى : جـ ١٠ ، ص ٣٨ .

(١٦٠) الشابشتى : ص ٢٢٧ .

(١٦١) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٥٢ .

(١٦٢) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : التبصر بالتجارة ، نشر وتعليق حسن حسنى عبد الوهاب ، القاهرة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م) ص ٣ ـ ٤ .

(١٦٣) لسترينج : ص ٤٣ .

(١٦٤) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٥٤ ، وابن الاثيـــر : جـ ٥ ، ص ٩٠ ، وابن خلدون : جـ ٣ ، ص ٤٨٥ .

(١٦٥) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٦٩ ٠

(١٦٦) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٧٤ ٠

(١٦٧) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٩٥ _ ٩٦ ، وأبو حنيفة : ص ٣٩١ ، وابن الاثير: جـ ٥ ، ص ١٢٠ _١٢٢ ٠

(١٦٨) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ٩٦ _ ٩٧ ٠

(١٦٩) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ٩٦ _ ٩٧ ، وابن الأثير : حـ ٥ ، ص ١٢١ _ ١٢٢ ، وابن خلدون : حـ٢، ص ٤٨٧ ٠

(١٧٠) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ، ص ٣٤٣ ، وخليفة بن خياط : ص٤٥٨ ٠

(١٧١) الجاحظ (أبو عثمان بن بحر) : البخلاء ، تحقيق طه الخاجرى ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة ١٩٧٦م ، حـ ٤٣٦ ٠

(١٧٢) ابن الأثير : حـ ٥ ، ص ١٣٨ ٠

(١٧٣) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة ،ص٤٦٦ ، وابن قتيبة : المعارف ص٣٨٥٠

(١٧٤) فتت : فت الشيء ، يفته فتا ، أى دقه أو كسره ، ومن سياق الحديث يأتى معناها ، فت فى ساعده أى اضعفه وأوهنه ، ويقال : فت فلان فى عضد فلان ، انظر لسان العرب لابن منظور ، حـ ٢ ، ص ٦٤ _ ٦٥ ٠

(١٧٥) الكوره : اصطلاح جغرافى يطلق عادة على مواضع تشمل مساحة كبيرة من الأرض ، وفى بعض الاحيان يعنى قرية ، فاذا قيل مثلا كور دجل ، فانهم يعنون بذلك المناطق الممتدة ما بين محافظة ميسان الى البصرة وحتى البحر ، وهى تعادل تقريبا نفس المساحة التى ءالبها الأمين ، والتيتضم مدينة الرى وبعض كور خراسا، انظر معجم البلدان مجلد ٤ ، ص ٤٨٩ لياقوت الحموى ٠

(١٧٦) العمرانى : ص ٨٩ ٠

(١٧٧) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ١٥١ ، وأبو حنيفة : الاخبار ، ص ٣٩٧ ، وابن الأثير : حـ ٥ ، ص ١٤٤ ٠

(١٧٨) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ١٥١ _ ١٥٢ ٠

(١٧٩) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ١٥١ _ ١٥٢ ، وأبو حنيفة : ص ٣٩٧ ، وابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣ ، والبيهقى (أبو الفضل) : تاريخ البيهقى، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥م ، ص ٢٩ ٠

(١٨٠) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ٢٤٤ ، وابن الأثير : حـ ٥ ، ص ١٨٩ ٠

(١٨١) الطبرى : حـ ١٠ ، وابن الأثير : حـ ٥ ، ص ٢١٢ ٠

(١٨٢) ابن خرداذبة : ص ٤٣ ٠

(١٨٣) الطبرى : حـ ١٠ ، ص ٣٥٢ ، وابن الأثير : حـ ٥ ، ص ٢٥٤ ، وابن خلدون : حـ ٣ ، ص ٥٦٤ ٠

(١٨٤) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٠ ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ـ ٢٨٧ ٠

(١٨٥) أبو العباس عبد الله بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، العباس ابن عبد المطلب شيبة بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى الهاشمى المكى ، فقيه ومفسر ومحدث ، ولد قبل عام الهجرة بثلاث سنين ، انظر الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان) : سير النبلاء ، باعتناء شعيب الارنؤوط ، مؤسسةالرسالة ، بيروت١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، حـ٣ ، ص٣٣١٠

(١٨٦) عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرط ابن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب ، محدث ، انظر الذهبى : جـ٣ ،ص٢٠٤٠

(١٨٧) عبد الله بن عمرو بن العاصربن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم ابن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غـــالب ، محـــدث ، انظـر الذهبى : جـ٣ ، ص ٧٩ ٠

(١٨٨) سعيد بن عمرو بن سعيد بن أبى أجحة القرشى الاموى سكن الكوفة : محدث ، انظر الذهبى : حـ ٥ ، ص ٢٠٠ ٠

(١٨٩) القزوينى (عبد الكريم بن محمد الرافعى) : التدوين فى أخبار قزوين، حـ ١ ، ص ٦٨ ـ ٦٩ ٠

(١٩٠) سعيد بن جبير بن هشام ، أبو محمد ويقال له أبو عبد الله الأسدى الوالى ، الامام الحافظ المقرىء المفسر الشهيد ، قتله الحجاج بن يوسف الثقفى ٠ انظر الذهبى ، حـ ٤ ، ص ٣٢١ ٠

(١٩١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، حـ ٦ ، ص ٣٠١ ٠

(١٩٢) القزوينى : التدوين ، حـ ٢ ، ص ٤٦٦ ٠

(١٩٣) أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمى) : كتاب المحن ، تحقيق د٠ يحيى وهيب الجبورى دار الغرب الاسلامى ـ بيروت ـ لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) ص ٤٤٩ ، هامش رقم ٥ ٠

(١٩٤) القزوينى : التدوين ، حـ ١ ، ص ٢١٥ ٠

(١٩٥) العسكرى (السيد مرتضى) : عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى ، دار الزهراء بيروت - لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) حـ ١ ، ص ٢٢٥ ٠

(١٩٦) القزوينى : التدوين ، حـ ١ ، ص ٤٧٩ ٠

(١٩٧) ابن سعد : الطبقات ، حـ ٧ ، ص ٣١٢ ٠

(١٩٨) ابن سعد : الطبقات ، حـ ٦ ص ٣٥٩ ٠

(١٩٩) أبو العرب : المحن ، ص ٣٦٥ ، هامش رقم (١) ، وانظر ابن سعد : الطبقات ، حـ ٧ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ ٠

(٢٠٠) ابن سعد : الطبقات ، حـ ٧ ، ص ٣٢٢ ٠

(٢٠١) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٥٠٠ ٠

(٢٠٢) الحميرى : الروض ، ص ٢٧٩ ٠

(٢٠٣) القزوينى : التدوين ، حـ ٢ ، ص ٤٦٦ ٠

(٢٠٤) القزوينى : آثار البلاد ، ص ٣٧٦ ، وياقوت : معجم مجلد ٤ ، ص ١١٧٠

(٢٠٥) دائرة المعارف : جـ ١٠ ، ص ٢٨٥ ٠

(٢٠٦) ابن خرداذبة : المسالك ، ص ١٧٢ ٠

(٢٠٧) القزوينى : آثار البلاد ، ص ٣٧٦ ٠

(٢٠٨) لسترينج : ص ٢٦٢ ٠

(٢٠٩) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٥ ٠

(٢١٠) الحميرى : الروض ، ص ٣٠١ ٠

(٢١١) ليسترينج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٦٢ ٠

(٢١٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ ٠

(٢١٣) الحميرى : الروض ، ص ، ولسترينج ، ص ٢٦٢ ، ودائرة المعارف حـ ١٠ ، ص ٢٨٨ ٠

(٢١٤) دائرة المعارف : حـ ١٠ ، ص ٢٩١ ٠

(٢١٥) القزوينى : آثار البلاد ، ص ٣٧٦ ، ولسترينج ، ص ٢٦٢ ٠

(٢١٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٤ - ٣٨٦ ٠

(٢١٧) المقدسى : ص ٣٨٥ ، والسهمى : تاريخ جرجان ، باعتناء د٠ محمد عبد المعيد خان ، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م ، ص ٢٤٢ ٠

(٢١٨) المقدسى : ص ٣٨٥ ٠

(٢١٩) ابن الفقيه الهمذانى (أبو بكر أحمد بن محمد) : مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢ هـ ، ص ٢٧٠ ٠

(٢٢٠) الاصطخرى : المسالك ، ص ١٢٢ ٠

(٢٢١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٩٠ ـ ٣٩٥ ٠

(٢٢٢) ابن الفقيه الهمذانى : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٧٣ ٠

قائمة باسماء المصادر والمراجع

ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد الجزرى ، ت ٦٣٠ هـ (١٢٣٢م):

ـــ الكامل فى التاريخ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) ٠

الاربلى (ابو الحسن على بن عيسى ابن الفتح) :

ـــ كشف الغمة بمعرفة الأئمة ٠ تحقيق السيد هاشم الرسولى ٠ تبريز (بدون تاريخ) ٠

الأصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى):

ـــ المسالك والممالك ٠ تحقيق محمد جابر الحسينى، دار القلم ـ مصر ١٣٨١ هـ (١٩٦١م) ٠

ابن اعثم (أبو محمد أحمد الكوفى) :

ـــ كتاب الفتوح ، دار الندوة الجديدة ٠ بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ) ٠

انيس (د٠ ابراهيم وآخرون) :

ـــ المعجم الوسيط ٠ مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧٣م ٠

البكرى (أبو عبيده عبد الله بن عبد العزيز ، ت ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) :

ـــ معجم ما استعجم ٠ تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) ٠

البلاذرى (أحمد بن يحى بن جابر ٠ ت ٢٧٩ هـ (٨٩٢م) :

ـــ فتوح البلدان ٠ باعتناء صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة (بدون تاريخ) ٠

ـــ انساب الاشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد (بدون تاريخ) ٠

البيهقى (أبو الفضل) :

ـــ تاريخ البيهقى ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥م ٠

الجاحظ (ابو عثمان عمرو بن بحر ، ت ٢٥٥ هـ (٨٦٨م) :

— التبصير بالتجارة . باعتناء حسن حسنى عبد الوهاب ، القاهرة ـ ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م) .
— البخلاء . تحقيق طه الحاجرى ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م.

الحميرى (محمد عبد المنعم) :

— الروض المعطار فى خبر الاقطار ، معجم جغرافى . تحقيق د. احسان عباس ، مكتبة لبنان ١٩٨٤م .

ابو حنيفة الدينورى (أحمد بن داود ، ت ٢٨٢ هـ (٨٩٥م) :

— الاخبار الطوال . تحقيق عبد المنعم عامر ، دار المسيرة ـ بيروت (بدون تاريخ) .

ابن حوقل (ابو القاسم محمد النصيبى ، ت ٣٨٠ هـ (٩٩٢م) :

— صورة الأرض ، مكتبة الحياة (بدون تاريخ) .

ابن خرداذبة (ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، ت حوالى ٣٠٠ هـ (٩١٢م) :

— المسالك والممالك . باعتناء دى غويه ، ليدن ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩م) .

الخضرى (الشيخ محمد) :

— تاريخ الأمم الاسلامية . المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٧٠م .

خطاب (محمود شيت) :

— قادة فتح بلاد فارس ، دار الفتح ـ بيروت ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥م) .

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

— كتاب تاريخ ابن خلدون ، مكتبة المدينة ـ بيروت ١٩٦٧م .

خليفة بن خياط (أبو عمر خليفة بن خياط العصفرى ، ت فى حدود ٢٤٠ هـ (٨٥٤م) :

— تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د. أكرم ضـيـاء العمرى ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧م) .

دائرة المعارف الاسلامية : يصدرها أحمد الشنتناوى ، راجعها د. محمد مهدى علام .

الدميرى (الشيخ كمال الدين) :

— حياة الحيوان الكبرى ، المكتبة الاسـلامية (بدون تاريخ ولا مكان للطبع) .

الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان ، ت ٧٧٤ هـ (١٣٧٢م) :

— سير اعلام النبلاء ، باعتناء شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت ،١٤٠٢ هـ (١٩٨٢م) :

ابن سعد (محمد بن سـعد بن منيع البصرى الزهـرى ، ت ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) :

— الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .

السـهمى ، ت ٤٢٧ هـ (١٠٣٥م) :

— تاريخ جرجان ، باعتناء د. محمد عبد المعيد خان ، عالم الكتب بيروت ١٤٠١ هـ (١٩٨١م) .

الشابشتى (أبو الحسن على بن محمد ، ت ٣٨٨ هـ (٩٩٨م) :

— الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مكتبة المثنى ، بغـداد ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦م) .

شيخ الربوه (ابو عبد الله محمد ابو طالب الانصارى الصوفى الدمشقى، ت ٧٢٧ هـ (١٣٢٦م) :

— نخبة الدهـر فى عجـائب البر والبحـر . (بدون تاريخ ولا مكان للطبع) .

الطبرى (محمد بن جرير ، ت ٣١٠ هـ (٩٢٢م) :

— تاريخ الأمم والملوك . دار القلم . بيروت (بدون تاريخ).

ابن الطقطقى (محمد بن على بن طباطبا) :

— تاريخ الدولة الاسلامية ، دار صادر ، بيروت ٣٨٠ هـ (١٩٦٠م) .

ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد ، ٣٢٧ هـ (٩٣٨م) :

— العقد الفريد ، باعتناء أحمد أمين وآخرين ، دار الكتاب العربى ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) .

ابن العبرى (غريغوريوس ابن الفتح بن هارون المالطى ، ت ٦٨٥ هـ (١٢٨٦م) :

— تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠م .

ابو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميس ، ت ٣٣٣ هـ (٩٤٤م):

— كتاب المحن ، تحقيق د. يحيى وهيب الجبورى ، دار العرب الاسلامى . بيروت - لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) .

العسكرى (السيد مرتضى) :

— عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى ، دار الزهراء - بيروت ، لبنان ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م) .

العمرى (محمد بن على بن محمد) :

— الانباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق د. قاسم السامرائى ، المعهد الهولندى للآثار ، القاهرة ١٩٧٣م .

ابو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن على بن محمود ، ت ٧٣٢ هـ (١٣٣١م) :

— المختصر فى أخبار البشر ، دار الكتاب اللبنانى (بدون تاريخ) .

ابو الفرج (قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ، ت ٣٢٠ هـ(٩٣٢م) :

ـــ نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، نشر مع كتاب المسالك والممالك لابن خـــرداذبة ، باعتناء جى دى غوى ، مكتبة المثنى ، بغداد (بدون تاريخ) ٠

ابن الفقيه الهمذانى (ابو بكر احمد بن محمد) :

ـــ مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢ هـ ٠

ابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم ، ت ٢٧٦هـ (٨٨٩م) :

ـــ المعارف ، تحقيق د٠ ثروت عكاشة ، دار المعارف ، مصر (بدون تاريخ) ٠

القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) :

ـــ آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صـــادر ـ بيروت ١٣٨٧ هـ (١٩٦٩م) ٠

القزوينى (عبد الكريم بن محمد الرافعى) :

ـــ التدوين فى أخبار قزوين ، تحقيق عزيز الله العطاردى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٨ هـ (١٩٨٧م) ٠

ابن كثير (اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضـــوء بن درع القرشى ، ت ٧٧٤هـ (١٣٧٢م) :

ـــ البداية والنهاية ، باعتناء دكتور احمد ابو ملحم وآخرين ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م) ٠

لسترينج (كى) :

ـــ بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشـــير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة الرابطة ، بغداد ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤م) ٠

مطهر المقدسى (ابو زيد احمد بن سهل البلخى) :

ـــ البدء والتاريخ ٠ باعتناء كلمان هوار ، باريس ١٨٩٩م ٠

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على ت ٣٤٦هـ(٩٥٧م) :

ـــ مروج الذهب ومعادن الجـــوهر ، دار الأندلس ـ بيروت ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣م) ٠

ـــ التنبيه والاشراف ، باعتناء عبدالله اسماعيل الصاوى، مكتبة المثنى بغداد ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨م) ٠

المقدسى (ابو عبد الله محمد بن احمد ، ت ٣٩٠ هـ (١٠٠٠م) :

ـــ أحسن التقاسيم فى معرفة الاقليم ٠ ليدن ١٩٠٩م ٠

ابن منظور (ابو الفضل جمال الدين محمـــد بن مكرم ، ت ٧١١ هـ (١٣١١م) :

ـــ لسان العرب ، دار صادر ـ بيروت (بدون تاريخ) ٠

ـــ الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٥م ٠

النويرى (شهاب الدين أحمـــد بن عبـــد الوهاب ، ٦٧٧ هـ ـ ٧٣٣ هـ (١٢٧٨م ـ ١٣٣٢م) :

ـــ نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق محمد أبو الفضـــل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م ٠

الواقدى (محمد بن عمر بن واقد ، ت ٢٠٧ هـ (٨٢٢م) :

ـــ فتوح الاسلام لبلاد العجم والخراسان ، باعتناء عزيز أفندى زند مصر ١٣٠٩ هـ (١٨٩١م) ٠

ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى ، ت ٦٢٦ هـ (١٢٢٨م) :

ـــ معجم البلدان ، دار صادر ـ بيروت ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧م) ٠

اليعقوبى (احمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهيب بن واضح الكاتب ، ت ٢٧٨ هـ (٨٩١م) :

ـــ تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠م) ٠

مدينة حلب فى عصر بنى حمدان (٣٣٣ ـ ٤٠٦ هـ)

دراســة حضارية (*)

صــورة مدينة حلب :

وصفت مدينة حلب فى معجم البلدان(١) بانها (مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات ، طيبة الهواء ، صحيحة الأديم والمــاء) ، وهى (بلد مسور بحجر أبيض وفيه ستة أبواب ، وفى جانب السور قلعة فى أعلاها مسجد وكنيستان ، وفى احداهما كان المذبح ، الذى قرب عليــه ابراهيم عليه السلام ، وفى أسفل القلعة مغارة كان يخبىء بها غنمه ... وفيها جامع وست بيع ، وبيمارستان صغير) . وقد ظلت حلب فى العصر الاسلامى على درجة كبيرة من الأهمية مما تطلب تحصينها بأسوار تعــد من أعظم الأسوار التى خلفها الفن العسكرى الاسلامى ، هــذا الى أن وجود كنيستين بها دليل على سياسة التسامح التى اتبعها المسلمون مما كفل لسكان المدينة من النصارى قدرا كبيرا من الحرية الدينية . أما وجود البيمارستان ، فدليل أيضا على الاهتمام بتوفيــر المنشــآت الاجتماعية لرعاية أهل المدينة .

ولا أدل على اهتمام حكام حلب بتحصينها مما ذكره الرحالة ناصر خسرو(٢) من أنه رأى مدينة حلب ، بها سور عظيم ارتفاعه خمســـة وعشرون ذراعا وقلعة عظيمة مشيدة كلها على الصخرة ، وهى أعظم من قلعة بلخ ، ولها أربعة أبواب ، باب اليهود ـ باب الله ـ باب الجنان ـ

(*) د. راضى عبد الله عبد الحميد : كلية التربية فرع جامعة القاهرة بالفيوم .

(١) ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى ، معجم البــلدان ، تحقيق ، فريد عبد العزيز الجندى ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ .

(٢) ناصر خسرو : أبو معين الدين المروزى ، سفر نامة ، ترجمة احمد خالد البدلى ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

باب أنطاكية . أما المقدسى فقد ذكر(٣) أن لحلب سبعة أبواب ، باب حمص - باب الرقه ، باب قنسرين ، باب اليهود - باب العراق - باب دار البطيخ - باب أنطاكية - باب الأربعين « مسدود » .

أما عن قلعة حلب ، فقد صادف وصفها اهتماما كبيرا من المعاصرين(٤) فذكر ابن بطوطة أنها (شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزهت حصانة ان ترام او تستطاع، قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها ، وتسمى الشهباء وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء ، يطيف بها سوران ، وسورها متدانى الأبراج) . هذا فى حين كان سكان المدينة ، يعتمدون فى شربهم على نهر قويق ، الذى كان يمد فى الشتاء وينضب فى الصيف، ومخرجه من قرية تدعى سنياب(٥) .

واذا ذكرت حلب فى التاريخ الاسلامى توارد على الخاطر اسم سيف الدولة الحمدانى مع الشاعرين اللامعين المتنبى(٦) وأبى فراس الحمدانى(٧) ، ذلك أن سيف الدولة اكتسب شهرته من الدور المجيد

---

(٣) المقدسى : أبو العباس أحمد بن يوسف ، أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، ص ٣٣٦ .

(٤) ابن بطوطة : شرف الدين أبو عبد الله محمد ، تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار ، ص ٦٨ .

- ابن حوقل : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، ص ١٦٣ .

- ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى : رحلة ابن جبير ، ص٢٢٥.

(٥) ابن رسته : أبو على أحمد بن عمر ، الأعلاق النفيسة ، جـ ٧ ، ص ٩١ .

- الاصطخرى ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، ص ١٦٣ .

- المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

- يذكر ابن حوقل ، ص ١٦٣ ، أن اسم النهر (أبى الحسن قويق) .

(٦) المتنبى : أبو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفى المتنبى .

(٧) أبو فراس : الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدونى .

الذى لعبه فى مقارعة البيزنطيين(٨) ، وهو الدور الذى أبرزه فى صورة البطل الذى توجت هامته أكاليل المجد ، مما جعله يحتل المقام الأول فى تاريخ حلب السياسى(٩) .

الأسرة الحمدانية :

وسيف الدولة هو : على بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لجمان بن راشد ، وينتمى قومه الى تغلب احدى قبائل ربيعة ومن تغلب كانت بنو حمدان ملوك حلب(١١) ، وحمدان وهو المؤسس الأول لهذه الأسرة ينتمى الى بلدة تسمى « رباح » بجوار الموصل ، وكان أجداده الربعيون التغلبيون(١٢) قد تنقلوا شان غيرهم من القبائل الأخرى ، من تهامة الى نجد الى الحجاز الى أراضى ربيعة(١٢) الى ضفاف الفرات فى سهل الرقة الفسيح ، ثم نزل حمدان الى جوار الموصل فى رباح(١٤) ، وكان ذا مكانة عالية بين قومه ،

---

(٨) ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم ، الكامل فى التاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٠٣ ، ٢٢٣ .

(٩) الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ، يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(١٠) تنسب الى وائل بن قاسط بن هنب بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ابن نزار بن معد بن عدنان .

- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، ج ١ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

- الأزدى : أبو بكر محمد بن الحسن ، الاشتقاق ، تحقيق ، عبد السلام هارون ، ص ٢٠٢ .

(١١) القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على ، صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .

- الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(١٢) القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

(١٣) الدينورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود ، الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، جمال شيال ، ص ١٦ ، ٥١ الأزدى المصدر السابق ، ص ٣١٣ .

(١٤) القلقشندى ، نهاية الأرب فى معرفة أحوال العرب ، تحقيق على الخاقانى ، ص ١٧٠ .

ينظرون اليه بعين الاجلال والاكبار ، ومن عهده تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ أسرته المتواصل(١٥) .

سيف الدولة يؤسس دولته فى حلب :

أما سيف الدولة فقد ولد حوالى ٣٠٣ هـ - ٩١٥م فى مدينة ميافارقين(١٦) حيث ترعرع فى أحضان عصر زاخر بالفتن والاضطرابات بلغت فيه الدولة العباسية غاية ضعفها . ويبدو ان الأسرة الحمدانية زجت بنفسها فى هذا الصراع حتى أصبح لها فى الموصل وارض الجزيرة دولة، الا انها دولة أحاطت بها العواصف . وما كاد سيف الدولة يبلغ منتصف العقد الثانى من عمره ، حتى قتل والده أبو الهيجاء (٣١٧ هـ - ٩٢٩م) فى الدفاع عن الخليفة القاهر(١٧) ، وبعده أصبح سيف الدولة فى كنف أخيه الكبير ناصر الدولة الذى أعتبره أبا له ، وقد ادرك سيف الدولة انه اذا كان لابد أن يكون ملكا فليكن فى مكان آخر ، لا يزاحم فيه أخاه ناصر الدولة ، ولذا اتجه سيف الدولة الى الشام ، فانتزع حلب من الاخشيديين (٣٣٣ هـ - ٩٤٤ م)(١٨) وصارت تلك المدينة عاصمة لدولة شملت جند حمص وجند قنسرين والثغور الشامية وجزرية وديار بكر . ولم يستطع سيف الدولة أن يستبقى دمشق فى حوزته ، فتركها للاخشيد على أن يدفع عنها الى سيف الدولة أتاوة سنوية ، أى أنه اعترف ضمنا بأن دمشق يجب أن تضم الى ممتلكات الحمدانيين(١٩) ، وقد تم

---

(١٥) درويش الجندى ، سيف الدولة الحمدانى ، ص ٨٦ .

(١٦) ميافارقين : أشهر مدينة بديار بكر ، قالوا : سميت بميابنت أول من بناها ، وفارقين هو الخلاف بالفارسية ، يقال له بارجين ، لأنها كانت أحسنت خندقها فسميت بذلك .

- ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ .

(١٧) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٩٣ .

(١٨) مسكويه : أبو على أحمد بن محمد ، تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تصحيح ونشر ، ف. أمدروز ، ج ٥ ، ص ١٩٦ ، ١٩٩ .

(١٩) ابن العديم : كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق ، سامى الدهان ، ج ١ ، ص ١١٥ .

ذلك كله بفضل ما لقيه من معونة أخيه ناصر الدولة الذى أمده بالرجال والمال لفتح حلب ، وظل التعاون بين الاخوين وثيقا ، سياسيا وماليا ، حتى ان بعض المؤرخين(٢٠) عللوا ما أصاب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان ، من ضعف قواه العقلية فى أواخر حياته بحزنه على أخيه سيف الدولة عندما توفى عام (٣٥٦ هـ ـ ٩٦٦م) .

اما سيف الدولة فقد بلغ من حبه واحترامه لأخيه ناصر الدولة أنه عندما لجأ اليه الأخير عام (٣٤٨ هـ ـ ٩٥٩م) فارا من معز الدولة أحمد ابن بويه ، أحسن سيف الدولة استقباله وبالغ فى اكرامه حتى قيل أنه نزع خفه بيده . ولم تقف جهوده عند هذا الحد بل عمل على المصالحة بينهما(٢١) ، وأعاد أخاه الى امارته مرة أخرى بعد أن خرج منها على أسوأ صورة(٢٢) ، هذا فى حين ذكر آخرون(٢٣) أن سيف الدولة كان بينه وبين أخيه وحشة ، خاصة عندما وجـد ان نجم أخيه يرتفع لدى الخليفة العباسى ، فاصابه الحسد وأخذ يؤلب من معه من الجنـد فى واسط ، ضد أخيه الحسن ، وأطمعهم بنية اقامة مملكة مستقلة عن أخيه فى بلاد الشام ومصر .

ومهما يكن من أمر ، فانه ما كاد سيف الدولة يستقر فى حلب حتى

=

ـ ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جـ ٣ ، ص ٢٨٥ .

ـ القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

ـ سامى الكيالى : سيف الدولة وعصر الحمدانيين ، ص ٦٨ .

(٢٠) ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .

ـ الذهبى : شمس الدين أحمد بن أحمـد ، العبر فى خبر من غبر ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

(٢١) ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٨ .

(٢٢ نفس المصدر والصفحة .

(٢٣) مسكويه ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٠ ، ابن الأثير ، المصدر السابق جـ ٧ ، ص ١٧١ .

ـ سامى الكيالى : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

بدأ الصدام بينه وبين الروم ، ذلك أن العرب لما فتحوا الشـــام وبلغوا السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس وجدوها شديدة المناعة بسبب وعورتها وبردها ، ولذا توقف الفتح الاسلامى فى تلك الناحية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب . وهكذا ظلت الحدود بين الدولة الاسلامية ودولة الروم تميل نحو أرض الروم تارة ، ونحو أرض المســلمين تارة أخرى حتى اقام سيف الدولة الحمدانى دولته على حدود الروم فانشأ جيشا كبيرا ، ظل يحارب به الروم عشرين عاما ، من ذلك انه أوغل أعوام (٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ هـ) فى بلادهم وغزا وسبى ، حتى كان على سبعة ايام من القسطنطينية ولكنه منى بهزيمة كبيرة عام (٣٥١ هـ ـ ٩٦٢م)(٢٤) أوقفت تقدمه ، فضلا عما كانت تقوم به القبائل العربية داخل دولته من ثورات وفتن بين الحين والآخر ، وهكذا ظلت حياة سيف الدولة جهادا وكفاحا ، اما مع الـــــروم واما مع المنتفضين عليه من القبائل .

وأخيرا توفى سيف الدولة عام (٣٥٦ هـ ـ ٩٦٦م) ، فتعرضت حلب بعد وفاته ، لتهديد الغزاة من روم وصليبيين طوال عـــدة قرون حتى حاصرها المغول عام (٧٠٠ هـ ـ ١٣٠٠م) لكنهم لم يفلحوا فى أخذها وبعد حوالى مائة عام استطاع تيمورلنك الاستيلاء عليها بعد معركة رهيبة فى منطقة (كليس) شمالى حلب . وكان أن أصبح الأتراك سادة الأناضول لا سيما بعد استيلاء محمد الفاتح ، على القسطنطينية عـــام ٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣م ، مما مهد للسيطرة العثمانية على بلاد الشام .

---

(٢٤) قيل أن الروم استولوا على حلب دون قلعتها ، بجيش كان تعداده حوالى مائتى الف جندى ، واستولوا على أربعة ملايين درهم من الفضة وآلاف البغـــال والحمير فضلا على الأفراس الحسان ، وثلاثة الاف درع ، وثلاثمائة حمل جمل من أقمشة الكتان وغيرها من المنقولات ، عـــلاوة على نهبهم دار سيف الدولة خارج المدينة ، وقيل أيضا انهم أسروا أبا فراس بن سعيد بن حمدان الذى كان متقلدا منبج فى ذلك الوقت .

ـ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ .

ـ ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ .

ـ عبد الرحمن حميدة ، حلب المدينة التى لم تقهر ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

الأوضاع الاقتصـادية :

النشاط الزراعى : شـاء حســن حظ الحمدانيين أن تكون غالبية الأراضى التى دخلت فى زمام امارتهم بحلب غنية فى أنتاجها الزراعى ، ومواردها الطبيعية ، ويرجع الفضل فى ذلك الى نهر قويق الذى كان يجرى من شمالها الى جنوبها وغربيها ، فيروى البساتين الكثيرة التى تقع على ضفتيه(٢٥) والغنية بأشجار السرو والصـنوبر التى عرفت به حلب(١٦) منذ القدم ، وقد خلد الشـعراء هـذا النهر لفرط صغره ، وجفافه صيفا حتى يكاد يكنس ، وفيضانه شتاء حتى يكاد يغرق المدينة ، وبلغ من اعجاب سيف الدولة به ، أن حــول مجراه الى قصره العظيم الذى حاكى به قصور الخلفاء فى بغداد ، والذى بناه فى أرض «الحلبة» فى سفح جبل الجوش(٢٧) واذا كانت بلاد الشام بوجه عام قد اشتهرت بخصب تربتها ، وجودة مناخها فان تربة حلب بالذات جادت فيها زراعة أصناف عدة من الزروع والمحاصيل(٢٨) والفواكه وخاصة الكروم والبطيخ والتين والتفاح والزيتون والفستق والنارنج علاوة على العديد من أنواع الخضروات(٢٩) ٠

كذلك وجد فى أطراف الامارة الكثير من الغــابات ذات النباتات

---

(٢٥) المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ ـ ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ ٠

ـ ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ ٠

(٢٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٥ ٠

(٢٧) نفس المصدر ، ص ١١٩ ٠

(٢٨) ناصر خسرو ، المرجع السابق ، ص ٤٠ ٠

(٢٩) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ ، ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ٠

ـ محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٤ ، ص ١٦١ ٠

ـ آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ج ٢ ، ص ٥٠ ، ٥٥ ٠

ـ محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الحضــارة الاســلامية فى الشرق ، ص ١٣١ ، ١٣٢ ٠

والاشجار الكبيرة ، التى كان يطلق عليها « الزور » : واكثرها شجر التوت(٣٠) ٠

ونستطيع من خلال ذلك النشاط الزراعى الذى حظيت به امارة حلب ان نقول ان ذلك قد انعكس انعكاسا ايجابيا ، على ارتفاع مستوى معيشة سكانها مما كان له الاثر الاكبر فى اهتمامهم بمظاهر الحياة الاجتماعية من وسائل تسلية واحتفالات فى شتى المناسبات ٠

مظاهر تقدم الصناعة :

من المعروف ان المصنوعات الاسلامية جابت انحاء العالم منذ القرن الثانى للهجرة فاشتهرت دمشق بصناعة « الدمشقى » وبرعت الموصل فى صناعة « الموصلين » ، وحظيت تلك المنسوجات بتقدير كبير فى دول الغرب ، التى ظلت تعتمد اعتمادا كبيرا فى استهلاكها المحلى على تلك المنسوجات الشرقية ولا شك ان الامراء الحمدانيين ، لعبوا دورا كبيرا فى ارتقاء الصناعة وازدهارها فى امارتهم ، وشاركهم الاغنياء فى ذلك لاهتمامهم بالرفاهية وما يتعلق بها من الحرص على اقتناء الثياب والزجاج والعطور والصياغات ٠٠٠ الخ وقد اشتهرت حلب بالصناعات الزجاجية ، حيث كان سوق الزجاج بها كما يقول القزوينى(٣١) لا يستطيع الانسان مفارقته لكثرة ما يشاهد فيه من الطرائف والآلات اللطيفة التى تحمل الى سائر البلاد ، وبجانب ذلك اشتهرت حلب منذ القدم ، بصناعة المنسوجات خاصة الثياب البيض ، والحفية التى تنسب الى احدى كورها ، كما برع اهل حلب منذ القدم فى صناعة الشقق الحريرية والقطنية ، وهى قماش طوله تسعة اذرع وعرضه ذراع ، وقد تفنن الصناع فى صبغة وزخرفته ، وكانت تلك الثياب لباسا عاما(٣٢) هذا فضلا عما اشتهرت به من صناعة الشيلان القطنية والحريرية والزنانير

---

(٣٠) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٢١ ـ محمد كرد على ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٦٢ ٠

(٣١) القزوينى ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ ٠

(٣٢) ادم ميتز ، المرجع السابق ، ص ٢٩٠ ٠

والكوفيات ، والمناديل الحريرية والمزركشة ، علاوة على التطريز(٣٣)٠ وبلغ من وفرة المنسوجات ، ان البيوت كانت تزين بستور ملونة تعلق على الجدران ، على حين زينت الأرض بسجاجيد وبسط دقيقة الصنع(٣٤) ٠

النشاط التجارى :

كانت حلب اهم مركز تجارى فى شمال الشام ، وقد اشتهرت باسواقها وفنادقها العامرة ، وأخذت تصدر ما تصنعه من الخل والصابون الحلبى وماء الورد ، وزهرة القرنفل وغيرها(٣٥) وحازت أسواقها المسقوفة او « المدينة » كما يسميها الحلبيون - مثل سوق الجوخ ، سوق الحرير ، سوق الحبال ، سوق العطارين - سوق السراجين ، سوق القطن(٣٦) ٠٠٠ الخ - شهرة كبيره ، وغطيت تلك الاسواق بعقود حجرية سميكة تبدو الأسواق تحتها وكانها انفاق نحتت فى الصخر ، وعند تلاقى سوقين او أكثر قبة كبيرة تتوج مفترق الطرق ، وكانها مسجد كبير ، علاوة على أبواب ضخمة مصفحة بالواح من الحديد تزين مداخلها(٣٧) هذا وقد نشط التبادل التجارى بين حلب وانطاكية فى مجال الذهب والفضة والحرير والجواهر والديباج المزركش والاقمشة المحلية ، وكانت تجارة حلب تلك تصل عن طريق الفرات الى أنطاكية التى عدت ميناء هاما بل أصبحت من أكبر الموانىء لتصدير بضائع الشرق وأداة اتصال بين أوربا وبلاد المشرق(٣٨) ٠

---

(٣٣) محمد كرد على ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ ٠

- المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ ٠

(٣٤) يذكر ميتز ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، أن جميع البيوتات المتفرقة امتازت بثلاثة انواع من السجاجيد ، أولها الستور ، وثانيها البسط ، وثالثها الانماط تفرش على الأرض لتطأها الأقدام ٠

(٣٥) القزوينى ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ ٠

المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ ٠

(٣٦) عبد الرحمن حميدة ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ٠

(٣٧) نفس المرجع ، ص ٣٥ ٠

النظام النقـدى :

أدى ازدهار المعاملات التجارية داخل حلب ، وتنوع الضرائب التى فرضت على التجارة ، الى ثراء أمراء الدولة وارتفاع مستوى معيشـة رعاياهم ، وقد استغلت تلك الثروة فى مد الطرق البرية لتسهيل نقـل السلع ، وكثر عدد الصيارفة للقيام بمهمة الايداع والتحويل ، وساعد كل ذلك على قيام الحمدانيين بسك عملة خاصة بهم ، لما فى ذلك من مظاهر السيادة والاستقلال ، فضلا عن تنشيط التجارة والتبادل .

الدرهم الحمـدانى :

ضرب الحمدانيون نقودا لهم فى عدد من المدن شرقا وغربا ، وقد بدأوا ذلك عندما أصدر ناصر الدولة نقودا خاصة به فى عام (٣٢٠ هـ - ٩٤١م) عندما جعله الخليفة العباسى المتقى لله أميرا للأمراء(٣٩) وذلك بعـد أن تخلص ناصر الدولة من ابن رائق بالقتل(٤٠) وما كاد ناصر الدولة يقوم بمهام منصبه الجديد كامير للأمراء(٤١) حتى نظر فى أمر النقود المتداولة ، فوجد عيارها ناقصا ، ولذا أمر باصلاحها ، وتصفية الذهب والفضة،وأطلق عليها الدنانير الابرزية ، اشارة الى نقاوة معدنها. وبذلك أصبح الدينار يساوى ثلاثة عشر درهما(٤٢) بعد أن كان الدينار القديم يساوى عشرة دراهم فقط(٤٣) ، على أن ذلك لم يؤد الى نتائج ملموسة اذ وجد أن الصيارفة يربون ربا فاحشا فشـدد عليهم وبدأ فى

---

(٣٩) الذهبى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦ ، ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٧٥ .

- الصولى ، أبو بكر محمد بن يحى ، أخبار الراضى بالله والمتقى لله ، ص٢٢٨.

(٤٠) ابن مسكويه ، المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٨ .

(٤١) الصولى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

(٤٢) ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ بن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١ ،ص٢٠٦.

- ابن الجوزى ، جمال الدين عبد الرحمن ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، جـ ٦ ، ص ٣٣٠ .

(٤٣) ابن الأثير ، أبو الحسـن على بن محمـد ، الكامل فى التـاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٨٢ .

- الصولى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

ضرب دنانير جديدة ، حملت اسمه واسم أخيه سيف الدولة ، وضربت فى مدينة السلام « زمن الخليفة المتقى لله العباسى » ، وتوجد بالمتحف العراقى تحت رقم ١٠١٨ « مس » ثلاثة دراهم ضربت عام (٣٣٠ هـ - ٩٤١ م) فى نصيبين والنصوص واحدة فيها جميعا على الوجه التالى(٤٤):

الوجه	الظهر
لا اله الا لله	اللـــه
اللـــه وحـده	محمـــد
لا شريك له	رسـول اللـه
أبو منصور بن (هو اسحاق ابن الخليفة العباسى المتقى)	المتقي باللـه
أمير المؤمنين	ناصر الدولة
سيف الدولة أبو الحسن	أبو محمـد

ويلاحظ أن الدرهم المذكور يحمل اسم الخليفة (أى أمير المؤمنين) واسم ولى عهده (أبى منصور) ثم سيف الدولة أبى الحسن (على) وناصر الدولة أبى محمد (الحسين) فالدرهم جامع للخلافة العباسية التى مقرها بغداد ، وتوابعها فى الموصل وحلب والجزيرة ، بدلالة أسماء الخليفة وولى عهده والأمراء كما جاء فى النص(٤٥) .

وفى عام (٣٣٣ هـ - ٩٤٤م) ، عقـــب سمل توزون ، للخليفة المتقى لله وتسليم الأمر للخليفة المستكفى ، صارت الدراهم باسم الخليفة المستكفى الملقب بامام الحق فى بعض الدراهم ، مع ذكر ناصر الدولة وسيف الدولة .

وفى عام (٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م) تحت رقم ٩٩٣ (مس) ضرب حـــوارن :

---

(٤٤) مهاب درويش البكرى ، الدرهم الحمدانى المحفوظ فى المتحف العراقى ، ص ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ .

(٤٥) مسكويه ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٩١ .

الوجـــه	الظهـــر
لا الـه الا	اللـــه
اللـه وحـده	محمد رسـول اللـه
لا شريك لـه	صلى اللـه عليه وسلم
سيف الدولة	المستكفى باللـه
أبو الحسـن	ناصر الدولة
	أبو محمـد

ويلاحظ هنا أيضا أن تلك الدنانير قد أضيف على وجهها الآخـر (الظهـر) كلمة صلى الله عليه وسلم بعد كلمة رسول الله(٤٦) فضلا عن اشتراك الأخوين بجانب الخليفة المستكفى بالله ، وبعد أن استقرت الأمور لبنى بويه فى بغداد ، خلع أحمد ابن بويه الخليفة المستكفى بالله ، وبايع أبا القاسم الفضل بن المقتدر ولقبـه المطيع للـه(٤٧) ، وضربت النقود فى كل من الرحبة ونصيبين ومصر والموصل والجزيرة وقصر شيرين وحلب ومدينة السلام وسمرقند وميافارقين عام ٣٣٤ هـ على النحو التالى :

رقم ١٠٣٣ (مس) ضرب الرحبة ٣٣٤ هـ

الوجـه	الظهـر
لا الـه الا اللـه	اللـــه
وحـده لا شريك له	محمـد رسـول اللـه
سيف الدولة	صلى اللـه عليه وسلم
أبو الحسـن	المطيع للـه
	ناصر الدولة
	أبو محمـد

ويظهر فى هـذا الدرهم إشتراك سيف الدولة وأخيـه ناصر الدولة بجانب الخليفة المطيع للـه .

---

(٤٦) ابن طباطبا ، محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، ص ٢١١ .

(٤٧) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، ص ١٢٣ .

- عبد الجليل حسن عبد المهدى ، أبو فراس الحمدانى حياته وشعره ، ص ٥٧ .

وفى عام ٣٥٤ هـ - ٩٦٥م ، عندما زوج سيف الدولة ابنته ست الناس لأبى تغلب الحمدانى ، وزوج أبنيه أبا المكارم وأبا المعالى بابنتى ناصر الدولة ، ضرب لهذا الحادث دنانير على الوجه التالى(٥٥):

الوجــه	الظهــر
لا الــه الا اللــه	امير المؤمنين
محمد رســول اللــه	المطيع للــه
أمير المؤمنين على بن أبى طالب	الأميران الفاضلان
فاطمة الزهراء - الحسن والحسين	ناصر الدولة وسيف الدولة
جبريل عليهم السلام	الأميران أبو تغلب وأبو المكارم

أما الدرهم الأخير فهو للأمير سعد الدولة أبى المعــالى الحمدانى الذى حكم حلب وتوابعها بعد وفاة والده سيف الدولة عام (٣٥٦ هـ - ٩٦٦م) ومع أن الحمدانيين ســنيون وكانوا يذعنون بالولاء الأسمى للخلافة العباسية ، الا أن بعضهم وبعض اتباعهم ، كانوا يهادنون خلفاء مصر الفاطميين ويظهرون الميل اليهم .

وقد حكم الخليفة الفاطمى العزيز بالله واسم سعد الدولة موجودان على الدرهم الذى نشر صورته فانه يكون قد ضرب فيما بين (٣٦٥ هـ - ٩٧٥م) وهو عام تولى العزيز بالله ، و (٣٨١هـ - ٩٩١م) عام وفاة سعد الدولة ، ومن ذلك يتضح أن سعد الدولة ، كان أحيــانا يظهر الطاعة للخليفة العزيز الفاطمي . والمؤسف أن تاريخ ضرب هذا الدرهم ومدينة الضرب مطموسان (٤٨) ، وهو على النحو التالى :

---

(٤٨) سمير شما ، درهمان نادران ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

الوجـــه	الظهـــر
لا الله الا الله	(ضمن دائرة)
وحده لا شريك له	(محـ) مد رسو(ل)
سـعد الدولة	الله صلى الله (عليه)
ابو المعـالى	وعلى آله الاما
المدار الداخلى	م نزار ابو المنصو(ر)
(لله) الأمرين ٠٠٠ (مطموس)	العزيز بالله
المدار الخارجى ٠٠	أمير المؤمنين
بسم الله ضرب ٠٠ (مطموس)	مدار مطموس ٠٠٠
الوزن : ٧٠ر١ جم	القطر : ٢٢ ملم

والظاهر البارزة فى نقود الحمدانيين ، أنها كانت كثيرة سريعة التغيير ، ولعلهم كانوا يهدفون من وراء ذلك الى القضاء على تلاعب الصيارفة بعيار النقود(٤٩) هذا الى أن الظروف السياسية دفعتهم الى ضرب العديد من العملات المختلفة ، ذكروا فيهـــا اسم الخليفة العباسى تارة والخليفة الفاطمى تارة أخرى ٠

الأوضاع الاجتماعية :

عناصر السـكان :

تالف المجتمع فى ذلك العصر من عناصر وقوميات مختلفة ، وكان العرب يمثلون العنصر الأســاسى فى هـــذا التشكيل ، الا أن مكانتهم وأرستقراطيتهم العسكرية قد اضمحلت ، وذلك عنـــدما جلب الخليفة العباسى المعتصم الأتراك من تركستان عام (٢٢٠ هـ ـ٧٣٥ م) واعتمد عليهم اعتمادا كاملا خاصة فى الناحية الحربية ، والى جانب هؤلاء كان الفرس ، الذين لعبوا دورا هاما فى ظهور الدولة العباسية ، وكان لهم الحظوة خاصة فى العصر العباسى الأول ، غير أن هذا العنصر فقدا هميته أيضا ، ولحق بهم مالحق باخوانهم العرب ، عندما اشتد نفوذ الأتراك ،

---

(٤٩) ابن كثير ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢٠٦ ٠
- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٨٢ ٠

وما أن حل القرن الرابع الهجرى ، حتى فرض الترك ثم الديلم أنفسهم على أحداث ذلك العصر ، وأصبحوا أصحاب الحظية والسلطان ، وقد نتج عن ظاهرة الاكثار من شراء الرقيق أن انضم الى تلك الجموع عناصر أخرى كالصقالبة والأرمن والكرج والزنج والروم ، علاوة على من جلبوا لفلاحة الأرض من النبط والآراميين(٥٠) .

ورغم ما وضح من عدم وجود انسـجام ووفاق بين تلك العناصر المتباينة لاختلاف المشارب والعادات ، الا أن ذلك لم يقف عقبة أمام بعض الحالات التى خالفت ذلك وخرجت عن قاعدة هذا النفور ، وهكذا استمر اقبال الخلفاء على الزواج من اعجمياتحتى ان الكثير من امهات الخلفاء فى العصر العباسى الثانى ، كن أمهات ولد « أعجميات » ومنهن من كان له تاثير واضح وكبير فى مجريات الأحداث السياسية أبان تلك الفترة .

اما العناصر السياسية فى بنـاء المجتمع الحمـدانى فكانت على الوجه التالى :

العـــرب :

شكل العرب غالبية المجتمع الحمدنى ، وقد زخرت بلاد الشام فى ذلك العصر بالعـــديد من القبـــائل أمثـال : عامر بن صعصع وعقيـل وقشـير والعجلان وأولاد كعب بن ربيعـة بن عـامر ، واستعان سيف الدولة ببعضهم عند مجيئه الى حمص لملاقاة جنود ابن طغج الاخشيد(٥١) بمرج عذراء(٥٢) الا أن تلك القبائل أثارت أحيانا القلاقل واشتبكت مع الحمدانيين فى كثير من الحروب التى تردد ذكرها فى شعر أبى الطيب وأبى فراس(٥٣) .

---

(٥٠) المقدسى ، المصدر السابق ، ص ١١٣ .

- جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٥ ، ص ٦٠ .

(٥١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٥٢) مرج عذراء : على خمسة وعشرين كم من الشمال الشرقى لدمشق على مقربة من طريق حمص الى الشام .

- ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٢٥ .

(٥٣) ابن خالوية ، أبو عبد الله الحسين بن خالويه ، ديوان أبى فراس، ص١٥.

ورغم تلك القلاقل والاشتباكات ، فقد وضحت العصبية القبلية العربية ، عند اشتباكهم مع العصبية التركية أو الفارسية ، ذلك أن العرب ، ممثلين فى دولة بنى حمدان دأبوا على طرد النفوذين التركى والفارسى ، واستخلاص السيادة لهم ٠

الأتراك :

ظهر العنصر التركى على مسرح الدولة الاسلامية منذ وقت مبكر يرجع الى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور حيث وصل بعضهم الى امارة الألوية فى عهد هارون الرشيد بل ولى بعضهم الثغور الشامية ، مثل ابو سليم فرج الخادم صاحب الدار بانطاكية ، فكان أول قائد تركى قاد الجيوش العباسية لحرب الروم(٥٤) على أن السيطرة الحقيقية لهذا العنصر ظهرت فى عهد المعتصم ، الذى اعتمد عليهم اعتمادا تاما فى الجيش واتخذ منهم حرسا خاصا له ، واسند اليهم كذلك العديد من مناصب الدولة وآثرهم على الفرس والعرب ٠

ونظرا لما تميز به هؤلاء الترك من القوة وصحة البدن ، نظرا لطبيعة بلادهم وبداوة معيشتهم ، وحبهم للجندية والفروسية وحسن القتال ، أصبحوا عنصرا هاما فى الدولة الحمدانية ، فاستعان بهم الحمدانيون فى الجيش ، وكونوا منهم الغلمان الذين أعتمدوا عليهم كثيرا فى حروبهم ، واذا تتبعنا أخبار حروب الحمدانيين ، نجد أن خير قوادهم كانوا من الأتراك منهم نجا الكبير (الكاسكى) الذى أرسله سيف الدولة الى حران عام (٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م) لطلب هبة الله ابن أخيه ناصر الدولة الذى وثب على ابن دنجا النصرانى غلام سيف الدولة وقتله، فلما قرب نجا من المدينة ، هرب هبة الله الى والده الحسن فى مدينة الموصل ، فاستولى غلام سيف الدولة على حوران وفرض عليهم الضرائب، وأنزل بهم الظلم والجور(٥٥) ، ثم سار الى ميارفارقين(٥٦) وقصد

---

(٥٤) البلاذرى ، أبو الحسن أحمد بن يحى ، فتوح البلدان ، تحقيق ، صلاح المنجد ، ج ١ ، ص ١١٩ ٠

(٥٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٧٨ ٠

(٥٦) ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ ٠

بلاد ارمينية وأخذ البلاد التى كان استولى عليها أبو الورد مثل خلاط وملاذكرد وموش وغيرها(٥٧) وأظهر العصيان على سيف الدولة فشق عليه ذلك ، فخرج اليه ففر هاربا أمامه ، بعد أن ترك ما سبق الاستيلاء عليه الا أن أخا لنجا استامن له فاعاده الى عمله(٥٨) وظل فى خدمته حتى قتل على يد غلام لسيف الدولة اسمه « قبجاج »(٥٩) ٠

ومن هؤلاء ايضا (قرغوية) الذى ولاه سيف الدولة على حلب عندما خرج للفداء عام (٣٥٤ هـ - ٩٦٥م) وبعد وفاة سيف الدولة ظل (قرغوية) فى خدمة سعد الدولة وشاركه فى القضاء على « أبى فراس الحارث بن سعيد بن حمدان لأنه أراد الاستقلال بحمص ورفض تسليمها لقرغوية(٦٠) فأمر أحد غلمانه وأوعز اليه بالتركية فقتله وحمل رأسه الى سعد الدولة (٣٥٧ هـ - ٩٦٧م)(٦١) وقيل ان سيف الدولة عز عليه ذلك فقتل قاتله وفى العام التالى ٣٥٨ هـ - ٩٦٨ م) حالف قرغوية أهل حلب على سعد الدولة ، وتقرب اليهم(٦٢) ولما دان له الأمر قطع الدعاء لسعد الدولة ، وشارك بكجور الأمر ، ودعى لهما على المنابر ، الا أن سعد الدولة بمساعدة زهير غلام والده سيف الدولة « بمعرفة النعمان »(٦٣) استطاعا اقتحام حلب على رمضان من نفس العام ، وحاصروا قرغوية وبكجور الذين استعانوا بالروم بعد انصراف الغرب عنهم(٦٤) وفى عام ٣٣٦ هـ - ٩٧٦م) قبض بكجور على قرغوية وحبسه

---

(٥٧) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ٢٨١ ٠

(٥٨) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ ٠

(٥٩) مسكويه ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ٠

- ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٤٦ ٠

- ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ ٠

(٦٠) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٠٧ ٠

(٦١) القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ ٠

(٦٢) محمد كرد ، المرجع السابق ، ص ٢١٨ ٠

(٦٣) بلدة بين حلب وحماه كثيرة التين والزيتون - القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٨ ٠

(٦٤) الروذاورى ، أبو شجاع محمد بن الحسين ، ذيل كتاب تجارب الأمم ، تصحيح هـ ٠ ف أمدروز ، ص ٢١١ ٠

فى قلعة حلب وسلم القلعة لأبى المعالى ، الا أن بكجور أساء السيرة فى دمشق وفى النهاية عزل على يد العزيز بالله بوشاية من الوزير يعقوب بن كلس(٦٥) . ولم يستقر الأمر لسعد الدولة فى حلب الا عام ٣٦٧(٦٦) .

أما فى عهد سعيد الدولة (٣٨١ - ٣٩٢ هـ - ٩٩١ - ١٠٠٠م) فقد برز من هؤلاء القواد الأتراك أبو محمد لؤلؤ السيفى ، الذى استطاع أن يزوج سعيد الدولة من ابنته وأصبح له الأمر ، حتى قيل أنه اذا خرج سعيد الدولة لمحاربة الروم اقام لؤلؤ بحلب ، واذا خرج لؤلؤ اقام سعيد الدولة . وتذكر المصادر(٦٧) أن لؤلؤا حرض احدى الجوارى لدس السم لابنته وزوجها سعيد الدولة فماتا جميعا ، وفى عام (٣٩٣ هـ - ١٠٠٢م) ملك لؤلؤ السيفى ، ولدى سعيد الدولة أبا الحسن عليا وأبا المعالى شريفا الحكم ، الا أن تدبير أمور الدولة كان بيده وبمعاونة ولده مرتضى الدولة أبى نصر منصور بن لؤلؤ ، الذى كانت بينه وبين صالح بن مرداس عام (٤٠٢ هـ - ١٠١١م) وقعة انتهت بهزيمة ابن مرداس وأسره(٦٨) .

ويبدو أن كل أمير اتخذ له حرسا خاصا من هؤلاء الأعاجم ، حسب العادة المتبعة آنذاك ، فنجد الغلمان السيفية والسعدية ، نسبة الى الأمير الذى يقتنيهم ، وكان خير مثال على ذلك ، كما أسلفنا « قرغوية » الذى تلقب بالحاجب وبكجور الذى تلقب بالأمير ، وكتبت أسماؤهم على السكة عام (٣٥٨هـ - ٩٦٨م) .

---

(٦٥) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٣٢ .

(٦٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٦٧) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .
- ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٩٥ .
- ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ .
- الروذراورى ، المصدر السابق ، ص ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ .

(٦٨) لما تم لأبى لؤلؤ ، خطب للحاكم صاحب مصر فلقبه مرتضى الدولة ثم فسد ما بينه وبين الحاكم ، فطمع فيه ابن مرداس وبنو كلاب ودخلوا حلب ، فأمر ابن لؤلؤ باغلاق الأبواب والقبض عليهم وقبض على مائة وعشرين منهم ابن كرداس .
- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ١٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .
- محمد كرد على ، المرجع السابق ، ص ٢١١ ، ٢٢٠ .

الأكـــراد :

هم سكان القسم الأعلى من الجزيرة ، حيث شكل هؤلاء عنصرا هاما من عناصر السكان ، واشتهروا بقوة ابدانهم وشدة بأسهم وبداوتهم التى اكتسبوها من طبيعة بلادهم الجبلية الوعرة وقد اشـــترك هؤلاء ، فى جميع الثورات والقلاقل التى نشبت فى كردستان طول العصرين الأموى والعباسى .

وقد فطن الحمدانيون الى قوة الأكراد ، فحالفوهم(٦٩) وتزوج حمدان جد الأسرة امراة كردية ، وحذا حذوه حفيـــده ناصر الدولة ، فتزوج من فاطمة بنت أحمد الكردية ، التى كان لها تاثير كبير عليه ، بل قيل أن سيف الدولة كان من أم كردية ولهذا السبب خطب له أبو سالم ديسم بن ابراهيم الكردى ، صاحب أذربيجان ، خاصة أن سيف الدولة قد انجده عام (٣٤٤هـ ـ ٩٥٥م) بعد أن هزمه السلار المرزبان ، فقصد سلماس بمعاونة بعض الأكراد وملكها فى وقت كان السلار غائبا بناحية باب الأبواب ، مشغولا بمن خرجوا عليه(٧٠) .

وما أن بدأ الوهن يدب فى جسم الدولة الحمدانية منذ عام (٣٨٠هـ ـ ٩٩٠م) خلال حكم سعد الدولة ، حتى بدأ هؤلاء الأكراد يسيطرون على ميافارقين وأرزن وديار بكر ، وكونوا امارة ذات بلاط زاهر(٧١) .

الديــلم :

وهم من الشعوب التى سكنت الجنـــوب الشرقى لبحـــر قزوين وأشتركت فى الثورات والفتن الداخلية التى كانت قد اندلعت بشدة فى ذلك الوقت ، فانضم هؤلاء بزعامة الحســن بن الأهوازى(٧٢) . الى

---

(٦٩) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١١٢ .

(٧٠) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٦١ .

(٧١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

ـ ابن خلدون ، العبر ، ج ٣ ، ص ٥٢٧ .

(٧٢) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، ويذكر ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٢٨٨ أنه ظهر متمرد آخر فى أنطاكية يسمى دزبر .

رشيق النسيمى(٧٣) عام (٣٥٤هـ - ٩٦٥م) عندما حرض الأنطاكيين على الثورة وسلم طرسوس الى البيزنطيين ، وسار بهم الى حلب يريد انتزاع حلب من قرغوية غـلام سـيف الدولة الذى دافع عنهـا دفاع الأبطال(٧٤) لم يقف سـيف الدولة ، مكتـوف اليدين فانقض عليهم وهزمهم ، ودافع عن حلب دفاع المستميت ، حتى أن الجيوش البيزنطية ظلت تعبث وتفسد مدة خمسين يوما فى الضواحى ، دون أن تستطيع دخول المدينة(٧٥) ، على أن بطولة هذا الأمير توقفت عند ذلك الحد اذ عاجله المرض ، وما زال يدافع ويقاوم حتى وفاته بعد أن قضى نصف عمره فى ابعاد الروم من حدود آسيا الصغرى(٧٦) ٠

أهل الذمـة :

فاذا تركنا الجانب العنصرى فى بناء المجتمع ، ونظرنا الى ذلك المجتمع من الناحية الطائفية الدينية ، فاننا نجد الى جانب الغالبية من المسلمين جماعة من أهل الذمة تمتعوا بحياة مطمئنة فى ظل الحمدانيين، رغم العداء الصليبى ، الذى تمثل فى هجمات الروم على مدينة حلب ، وما كان يحمل فى ثناياه من روح التعصب ، ولكن المسلمين واجهوا ذلك التيار بسماحة بالغة ، فعاش هؤلاء فى أمن وطمأنينة ، داخل مزارعهم ومنازلهم ، محافظين على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ، وقد كون أهل الذمة اقلية كبيرة ، وكان أكثر الأطباء منهم ومن الثابت أن طبيب سـيف الدولة كان نصرانيا ، وأشتهر من هؤلاء الأطباء عيسى الرقى ، ظافر ابن جابر السكرى ، جابر بن موهوب ، سكرة الحلبى(٧٧) وكان منهم أيضا المهندسون والرياضيون وعلماء الفلك وأشتهر منهم ديونيسيوس بطريق اليعاقبة ، قيس المارونى وغيرهم من العلماء ، وكان ملكون السريانى ،

---

(٧٣) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٨٨ ٠

(٧٤) مسكويه ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢١٤ ٠

(٧٥) ابن كثير ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢١١ ٠

(٧٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ٠

(٧٧) ابن أبى أصيبعة ، موفق الدين ابو العباس أحمد ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٨ ٠

سفيرا لسعيد الدولة لدى امبراطور الروم(٧٨) أما اليهود فقد احترفوا التجارة ومارسوا شتى أنواعها ، وخاصـــة تجارة المجوهرات(٧٩)، والصرافة والصياغة ، ولذلك وصفوا بالملوك . وقد تركز النصـــارى فى مدينة ميافارقين التى كانت تزخر بالكنائس والأديرة ، فى حين كان معظم اليعاقبة بانطاكية(٨٠) .

ومن مظاهر التسامح مع أهل الذمة أن كثيرا من الخلفاء والأمراء اتخذوا كتابا من النصارى ، وذلك لبراعتهم فى الأمور الادارية ، وكانوا يلقون احتراما من المسلمين(٨١) وترك لهم الاحتفال بأعيادهم بمنتهى الحرية ، بل شاركهم المسلمون ، فى الجانب الاجتماعى لتلك الأعياد ، فكان الجميع يلتقون فى الكنائس وأماكن الاحتفالاتعلى مودة تامة(٨٢).

طبقات المجتمع :

ساد المجتمع الاسلامى ، خلال القرن الرابع الهجـرى ، طبقتان : طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء .

تشمل الطبقة الأولى : الخلفاء والأمراء ، وكبار رجالات الدولة ، والتجار الأغنياء ، وملاك الأراضى الزراعية .

أما الطبقة الثانية ، فكانت خليطا من الصناع والفـلاحين ورجال الجيش ، وصغار الباعة ، وصغار الموظفين ، علاوة على البدو وجماعات الرقيق .

وكان الحمدانيون من اغنى أمراء المسلمين فى القرن الرابع الهجرى

---

(٧٨) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٠٠ .
(٧٩) المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .
(٧٩) ا.س ترتون ، أهل الذمن فى الاسلام ، ترجمة ، حسن حبشى ، ص ١٠١ .
(٨٠) المسعودى ، المصدر السابق ، ص ١٥٦ .
(٨١) ترتون ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .
(٨٢) آدم ميتز ، المرجع السابق ، ج ٢ ز ، ص ٢٣٦ .
– ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ص ٥٠٠ .

لأنهم اعتبروا انفسهم ، أصـحاب الأرض بما تضـمه من زرع وضرع ومواطنين(٨٣) وهناك العديد من الأدلة التى تثبت هذا الثراء - كان سيف الدولة يستولى على ارث من يموت بمساعدة قاضيه أبو حصن على ابن عبد الملك ، الذى كان يقـول « كل من هلك فلسـيف الدولة ما ترك »(٨٤) ٠

كان الأمير الحمدانى ، هو المشرف على الادارة والماليـة والحرب ويولى الموظفين ويعزلهم(٨٥) ٠

كان سيف الدولة يجلس فى قصره « الدارين » الذى يضاهى قصور الخلفاء لابسا تاجا مرصعا بالجوهر ، وقيل أن الروم عندما دخلوا حلب عام (٣٥١هـ - ٩٦٢م) طفر الدمستق بهذا القصر ، فوجدوا به ثلاثمائة بدرة من الدراهم ، وثلاثمائة حمل من البز والديباج ، وخمسين حملا من أوانى الذهب والفضة - وألفا وأربعمائة بغلا ومن خزائن السـلاح مالا يحصى(٨٦) ٠

بلغ ما جاد به سيف الدولة ، سبعمائة الف الف دينـار ، عدا ما انفقه فى حروبه وشئون دولته(٨٧) ٠

وجبى الحمدانيون الخراج بطريقتين ، المحاسبة والمقاسمة ووصلت نسبة الخراج ، فى بعض الحالات الى خمسين فى المائة اى نصف قيمة الغلة(٨٨) التى تنتجها الأرض ٠

---

(٨٣) آدم ميتز ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ ٠
(٨٤) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٢ ٠
(٨٥) آدم ميتز ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٢ ٠
(٨٦) المسعودى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٣ ٠
- ابن العماد الحنبلى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٧٩ ٠
- ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٢١٣ ٠
(٧٨) مسكويه ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٩٢ ٠
(٨٨) ادم ميتز ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ ٠

وقد اكثر الأمراء من اقتناء الرقيق والجوارى ، من ذلك أن سيف الدولة ركب مرة من داره ومعه الف غلام مملوك بالف جوشن مذهب على الف فرس عتيق ، وكان فى قصره كثير من الحظايا والجوارى(٨٩) ٠

وكان أفراد طبقة الخاصة الأغنياء فى حلب يعيشـــون فى منازل رفيعة يحاكون الحكام ٠ وكانت تحيط بتلك المساكن الحــدائق الغناء الحافلة بالورود والياسمين والبنفسج والأقحـوان وغيرها من الأزهار ، وكان هؤلاء يقطعون أوقات فراغهم ، بمختلف وسائل التسلية ، ومنهـا حفلات الشراب ، وتطارح الشعر وسماع الغناء ولعب الشطرنج والنرد وغير ذلك(٩٠) ، وكانت موائدهم تزخر بالعديد من صنوف الطعام ، وقد ظن هؤلاء ان العامة احيانا ، يدعمون نفوذهم فكانوا يعملون على استرضائهم بأبسط أساليب السخاء ، حيث يمدون لهم الأسمطة ويدعونهم اليها فيجتمع الآلاف منهم حولها على مدار اليوم فى أماكن متفرقة(٩١) ٠

أما العامة على كافة مستوياتهم ، فكانوا اذا تطلعوا الى شىء من الرفاهية والثراء ، التمسوا ذلك : لدى الأمراء والأغنياء فالعلماء التمسوه فى خدمتهم ، والشعراء وجدوه فى مديحهم ، والتجار سارعوا فى عرض ما يقع بحوزتهم من نفيس الجواهر ، والصناع اذا أحسنوا صناعة فهؤلاء مقصدهم(٩٢) ٠ والواقع أن العامة كانوا يعيشون فى ضنك من العيش ، فقل أن يجدوا الكفاف لانخفاض مستوى المعيشة فالمزارعون « الأكره » الذين كان يتألف منهم معظم السكان كان معظمهم من أهل الذمة وهؤلاء غالبا ما كانوا يسكنون القرى ويعملون بحرفة الزراعة ومن أسلم منهم كان ينزل الى المدن ٠ وبجانب هؤلاء عاش الصناع يعملون فى صناعاتهم والاتجار بها(٩٣) ٠

وفى ظل هذه الأوضاع ســاد الزهد ، وأحس غالبيتهم بأن نعيم

---

(٨٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢ ٠

(٩٠) عبد الجليل حسن ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ٠

(٩١) جورجى زيدان ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٩٠ ٠

(٩٢) أحمد أمين ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٩ ٠

(٩٣) آدم ميتز ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، ٣١٠ ٠

الدنيا زائل وأنه اذا حرم الدنيا فليطلب الآخرة ، كما انتشر الدجـــل والاعتقاد فى السحر والبحث عن الكنوز المخبوءة ٠

ومع ذلك ، فقد وجدت جماعة من المقربين من الخاصة مثل كبار التجار والبارزين من العلماء ، وقد اختص كبار التجار ببيع المجوهرات والمصنوعات والثياب الفاخرة ، ومنهم من طافوا العـــالم برا وبحرا ، ترويجا لتجارتهم التى درت عليهم الملايين من الدنانير ٠ اما المبرزون من العلماء ، فقد اتصل بعضهم بالأمراء ونالوا بعض مناصب الدولة ، كالقضاء وغيره من المناصب(٩٤) ٠

مجالس الأنس والطرب والولائم :

على الرغم من الحروب الطاحنة على حدود الدولة والفتن الداخلية الا ان الدولة الحمدانية حفلت بمجالس اللهو والمجون ، وقد عمد الأمراء الحمدانيون وغيرهم من عليـــة القـــوم ، الى اقامـــة تلك المجالس فى قصورهم ٠

وكانت تلك المجالس عامـــرة ، بالـــوان من الطعام والشراب ، والشهيرات من القيان ، وكبـــار المطربين ، كما كان كبـــار الشـــعراء والأدباء يحضرون تلك المجالس ٠

وقد أطنب شعراء الحمدانيين فى وصف الخمر ومجالسها وأدوات شربها ، وحاناتها والندمان والغلمان ، مما يدل على انتشار عادة الشرب فى مجالس حلب وحاناتها التى كانت على ما يبدو كثيرة يديرها أهل الذمة ، ويقصدها الأدباء والظرفاء ليلا ، حيث يتمادون فى اللهو ، ولم ينس هؤلاء فى أشعارهم وصف الساقى والساقية بل جمعوا بين الخمر ووصف أماكن الشرب ولا سيما الأديرة فى كثير من الأحيان(٩٥) ٠

---

(٩٤) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١١٢ ٠
ـ جورجى زيدان ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٤٨ ، ٥٠ ٠
(٩٥) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ ٠

وقد أولع الحمدانيون بالموسيقى والغناء(٩٦) ، وكان سيف الدولة عندما ينتهى من عناء الحروب ، يخلد الى الراحة ، وتطيب نفسه الى السماع الجميل ، وقد ضم بلاطه الفارابى أكبر موسيقى اسلامى وقيل أنه أول مخترع للقانون وضم بلاطه أيضا ساردا العواد الذى كانت له شهرة كبيرة بضرب العود(٩٧) .

ومن مطربيه رجل يسمى الهنكرى ، ومغنية يسحره صوتها عرفت بالجيداء ، ولعب هؤلاء دورا كبيرا فى ذيوع الطرب فى هذا الوقت بحلب ، وفى ادخال البهجة والسرور على قلب سيف الدولة ، كما كان يطيب له أن يسمع جيداء تلك فى كلمات من نظمه ، حيث تقول(٩٨) :

يا طول شوقى اذا قالوا الرحيل
ويا بلائى منه اذا وقدا
أضنانى الحب اذ تعرض بى
ما قتل الحب هكذا أبدا

وقد ذكر الشعراء فى ثنايا شعرهم اسماء بعض آلات الطرب آنذاك مثل العود والطنبور(٩٩) والمزهر والناى .

وقد وصف الوأواء الناى والعود اذ يقول(١٠٠):

فالناى بيدى أنيننا يشجى وللعود ضرب

---

(٩٦) قال الفلاسفة (ان النغم والأغانى فضيلة شريفة تد تعذرت عن المنطق ، ليست فى قدرته ، فلم يقدر على اخراجها ، فاخرجتها النفس ألحانا فلما أظهرتها سرت بها وعشقتها وطربت اليها) .
ـ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٢١ .
(٩٧) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .
(٩٨) فايد العمروسى ، الجوارى المغنيات ، ص ٢٥٥ .
(٩٩) قيل أن أول من غنى فى الاسلام بالطنبور (أحمد بن أمامه الهمذانى قرين أعشى همدان ـ الصفدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، الوافى بالوفيات ، ج ٦ ، ص ٢٥٧ .
(١٠٠) فايد العمروسى ، المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

أما أبو الفتح كشاجم فقد وصف الطنبور بقوله(١٠١) :

ممنطـــق الخصـر أجـوف جيـد ضعـف سـائره
لفظــه لفــظ عاشــق يشـتكى هجـر هاجـره
ذو لســانين فوقــه عــدلا مــن مقـداره

وظهرت خلال ذلك جماعة من الظرفاء والندماء ، عاشت قريبة من الأمراء وذوى النفوذ ، وكانت مهمتهم ادخال السرور والبهجة فى قلوب هؤلاء ، حيث كانوا على درجة كبيرة من سرعة البديهة وحضور الخاطر ، عالمين بكل ما يحب الأمراء من الجوهر النفيس ، والأنواع الممتازة من الطيب والفراش ، والخيل والسلاح ، وسائر ما يهدى الى هؤلاء الأمراء فى مجالسهم ، التى يسودها اللهو والطرب ، أو فى أوقات خلودهم الى الراحة والاستجمام ، وهناك صفات وجب أن يتحلى بها هؤلاء ، خاصة عندما يكونون فى حضرة الأمراء وعلية القوم أوردها لنـــا كشاجم « فى كتابه ادب الندماء(١٠٢) ٠

وكان لكثرة الجوارى والغلمان اثر واضـح فى ازدياد الانحـــلال الخلقى فى مجتمع الحمدانيين ، الأمر الذى ساعد على ، انتشار ظاهرة شرب الخمر بلا رادع ، وما أنتجه الشعراء من شعر لم يبال بالقواعــد الدينية والأخلاقية المتعارف عليها فى مجتمع اسلامى ، وانما زخر شعر هؤلاء أيضا بالتغزل بالجوارى والغلمان ، ووصفوا مجالسهم فى الحانات والدور والزيارات الليلية الماجنة ، التى قام بها أولئك للغلمان والجوارى ، وقيل أن الأديرة شهدت الكثير من ذلك النشاط الماجن ، وربما يرجع ذلك الى تعدد الأديرة وكثرتها ، وربما لتطرفها فى أماكن نائية بعيدة عن الرقابة الفعلية ، أو ربما نقلت هذه العادة من المجتمع الفارسي والهندى والرومى ، التى كانت فيه منتشرة بدرجــة كبيرة ، خاصــة عند بنى بويه(١٠٣) ٠

---

(١٠١) الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٦ ٠

(١٠٢) كشاجم ، أبو الفتح محمود ، أدب الندماء ولطائف الظرفاء ، ص ١٧ وما بعدها ٠

(١٠٣) مصطفى الشكعة ، سيف الدولة الحمدانى ، ص ١٧٧ ٠

اما عن الوان الطعام فكانت متعددة وكثيرة منها على سبيل المثال ما كان محببا وتحت طائلة علية القوم ، كالحملان المشوية والجداء والفراريج والحمام ، والمقلوات فى الطواجن والسمك ، واعتبر الدجاج دعامة السماط ولذلك كان سعره مرتفعا ، وكان الدجاج يسلق ويقطع ، ثم يعرق بالسيرج « زيت السمسم » ، ويضاف اليه الكثير من أنواع البهارات كالكزبرة والمستكة(١٠٤) ٠

ولم يفت السرى الرفاء أن يتغنى فى ذلك بقوله(١٠٥) :

دجاجة فى شبه السمند　　تليدة وفخرها بالهند
عظيمة الزور بصدر نهد　　أجريت منها فى مجال العقد
صب عليها اللوز مثل الزبد　　وغليت بعد بماء الورد

ومن الحلوى ، السمبوسة والمهلبية والكشكية (ماء الشعير الذى يعجن باللبن والجوز واللوز) والتمر ٠ ومن أنواع الفاكهة ، السفرجل والبطيخ والتفاح والعنب الرازقى والرمان ٠ ومن المشهيات ، السلطة الحصرمية والعدسية ، علاوة على البيض والجبن والزيتون والباذنجان٠ وكان أمراء بنى حمدان يستشيرون الأطباء فى الأطعمة التى تحافظ على صحتهم ، وقيل : ان سيف الدولة كان يستدعيهم اليه أثناء تناول الطعام(١٠٦) ٠

ونتيجة لهذا البذخ والاسراف فى تناول الطعام نوعا وكما ، كثرت الشكوى من أمراض القناة الهضمية ، كالقولنج وتلبك المعدة ، والدوسنتاريا

---

(١٠٤) حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٦٣٠ ٠

(١٠٥) ديوان السرى الرفاء ، ص ٩٥ ٠

(١٠٦) الثعالبى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨ ٠

كان سيف الدولة اذا أكل الطعام حضر على مائدته أربعة وعشرون طبيبا ، وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم وكان من جملتهم عيسى الرقى المعروف بالتفليسى وكان يأخذ أربعة أرزاق رزقا بسبب الطب ورزقا بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين ٠ ابن ابى أصيبعة ٠ المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ٠

وغيرها من الامراض التى تسببها كثرة تناول اللحوم ، كالنقرس . وقد راح ضحية هذه الأمراض الكثير من الامراء(١٠٧) اما عن أطعمة العامة فكانت تتالف من اكلات شعبية كاللحم والخبز والسمك ومنه المشوى والمقلى والمطبوخ ، والهريسة من الحلويات والعصيدة ، وكانت تصنع من التمر مضافا اليه بعض السكر أو العسل ، والثريد ، ويصنع من المرق واللحم ، وقد يضاف اليه الحمص ، وكان الأرز يخلط باللبن والسمن والسكر ، ومن تلك الأكلات الشعبية أيضا الرؤوس والاكارع وكانت تباع فى الأسواق اما مطبوخة أو نيئة ، أما الفاكهة فلم تختلف كثيرا عما كان يتناوله علية القوم ، ويزيد فى قيمة ما يقدم من الطعام ما يضاف اليه من المسك والعنبر والزعفران والقرنفل وغيرها .

وسائل التسلية :

تعددت وسائل التسلية فى المجتمع الحمدانى الذى حظى بالثراء وحفل بالشعراء والظرفاء فكان لابد من شغل أوقات الفراغ ، وخاصة أنهم كانوا لا يشغلهم شاغل ، ولا يرهقهم عمل . ومن وسائل التسلية عدد من الألعاب منها :ـ

النرد :

وعرف هذا النوع من اللعب فى عهد الباهبوذ بن البرهمى(١٠٨) وجعل ذلك مثالا للمكاسب ، وأنها لا تنال بالكيس ولا بالحيل ، ويستعمل فى اللعب بها ثلاثون حجرا ، لعدد أيام الشهر ، وفصان ، مثالا للقدر وتتليه بأهل الدنيا ، على رقعة رسم ، اثنا عشرة منزلا أو أربعة وعشرون منزلا ، وأن الانسان يلعب بها فيبلغ بأسعاد القدر اياه ، فى مراده باللعب بها ما يريد ، وأن الحازم الفطن لا يتاتى له ما تاتى لغيره ، الا اذا أسعده القدر(١٠٩) .

---

(١٠٧) حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٦٣٥ .

(١٠٨) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٨٠ .

(١٠٩) نفس المصدر والصفحة .

وقد ذم الشاعر كشاجم النرد بقوله(١١٠) :

أيها المعجب المفاخر بالنرد ليزهى به على الاخوان
قد لعمرى حرصت جهدى على ليت كذا لو لم يأتك الغصان
واذا جاءت القضاة بحكم لم يحد عن قضائها الخصمان

الشطرنج :

صنع الشطرنج فى عهد بلهت بن دبشليم ، فقضى بلعبها على النرد وقد لعب هذا الملك بالشطرنج مع حكمائه وقد أخذها العرب عن هؤلاء، واتخذت أدواته من العاج ، واشكاله على صور الحيوان ، وكل قطعة منه كالشبر فى عرض ذلك بل أكثر ، ويلعب على رقعة حمراء مربعة من الادم ، وكان الأغلب على الهنود القمار فى لعبهم بالشطرنج ، على الثياب والجواهر ، وربما انفذ الواحد منهم ما معه ، فيلعب فى قطع عضو من أعضاء جسمه(١١١) .

السباق :

ومن أنواع التسلية أيضا ما كان يعقد من سباقات بين الحمام ، حيث كانت هواية محببة ، بين الخاصة والعامة ، الا أنها حوربت فى بعض الأحيان ، عندما تكون مقلقة لراحة الناس ، لما ينتج عنها من الصياح ورمى الأحجار ، وسقوطها على أسطح المنازل(١١٢) . وكان سباق الخيل ، من أحب الوان التسلية خاصة عند الأمراء وكبار رجال الدولة ، وقيل أن الفقهاء اباحوا أيضا هذا اللون من الرياضة ، على الا يكون وسيلة للحصول على المال ، وكان انتشاره دليلا على تهيئة الناس للاستعداد للحرب ، وكان لسيف الدولة ميدان لسباق الخيل فى حلب ، تتوسطه دكة ، يتفرج منها على الخيل وهى مسرعة ، وبجانب تلك الوسائل كانت وسائل أخرى ، مثل سباق مهارشة الديكة ، والكرة ، والصولجان وغيرهم .

---

(١١٠) الثعالبى ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ .
(١١١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٨٠ ، ج٢ ، ص ٧ .
(١١٢) حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٦٥٥ .

الصـــيد :

وكان الصيد احب تسلية لدى الحمدانيين ، فقد أغرم به الأمراء ، وحفلت أشعار شعرائهم بذكره ، وكانت الوحوش والظباء تصاد بواسطة الصقور والكلاب ، وكانت الكباش تصاد بالحبال بالمطاردة بواسطة الخيل والـكلاب ايضا .

وفى ذلك يقول السرى الرفاء يصف الصيد بالكلاب(١١٣):

قمنـا بها نهتـك أسـتار الظـلم   وبيننـــا ذات ضجيج نختصم
حتى اذا السرب تراءى من امـم   حيران ، قـــد البسه الذعر لـم
صـد قوافى ، ثم القى للسـلم   وظـل نهبـــا بالأكف مقتســم

ويقول أبو فراس الحمدانى فى ذلك(١١٤) :

دعـــوت بالصـفار ذات يـــوم   عند انتباهى ســحرا من نومى
قلت لـــه اختر سـبعة كبـــارا   كـــل نجيـب يـــرد الغبـــارا
يكـون للأرنب منهـــا اثنـــان   وخمســـة تفـــرد للغـــزلان

وكانوا يقومون بالصيد نهارا ويخلدون للراحة والأكل والشراب ليلا ، وربما استمر ذلك سبع ليال متوالية .

ولم يقتصر الصيد على البر فقط ، بل تعداه الى الصيد فى البحار والأنهار وقال السرى الرفاء يصف صيد السمك(١١٥) :

واعـــين تانف من أغضـــائها   صـافية الأجفان من اقذافهـــا
تردى بنـات الغدر فى أثنائها   لحمهـــا طيبا يجسم دائهـــا

---

(١١٣) محمد راشد انيس ، الشعر فى رحاب سيف الدولة الحمدانى ، ص ٢١ .
(١١٤) ابن خالوية ، المصدر السابق ، ص ٣١٩ .
(١١٥) ديوان السرى الرفاء ، ص ١٣ .

الحمامات العامة :

وكانت الحمامات لأهل هذا العصر ، من الخاصة والعامة على السواء ، خاصة الذين يودون الاحتفاظ بالرشاقة ونظافة الجسم وقد كثرت تلك الحمامات بدرجة كبيرة فى مدينة حلب ، وكانت متاثرة بالطابع البيزنطى ، حيث غلب عليها التزين بالصور ، ويبدو من اشعار الشعراء ، انها كانت تتخذ ايضا لشرب الخمر والاكل بل انتشرت عادة القذف بالملابس ، ويبدو كذلك أن القيان كن يقمن حفلات الغناء داخل تلك الحمامات .

وفى ذلك يقول السرى الرفاء(١١٦) :

بيت له داخل حل النعيم به ... وخارج فيه للقلب الشجى مزج
ذو قبة كسماء ، والبدر بها ... جاماتها فى ذرى فى الجو تسترج

ارتياد الأديرة :

اما الصورة الحقيقية لهذا العصر فنراها متجلية فى حياة الأديرة ، التى كانت مجالا للأنس ، وميدانا يطلق فيه للشعراء العنان فيلهون ويشربون ، ولعل أهل الذمة خاصة المستضعفين منهم ، كانوا على أستعداد تام لاستقبال زوارهم خاصة اذا كانوا من الأمراء وعلية القوم ، وخاصة أن تلك الفئة تمتعت بالثراء ، فى حين كان عامة الشعب والفقراء منهم ،

وامتازت تلك الأديرة بجمال الموقع وسحر المكان وجودة النبيذ ، ووجود العديد من الراهبات والغلمان الحسان ، مما دفع أهل ذلك العصر الى ارتيادها خاصة فى أعياد النصارى(١١٧) واشتهرت حلب بعدة أديرة منها « دير مارمروتا » ، وهو دير صغير يقع خارج المدينة فى سفح جبل جوشن على نهر العرجان ، وكان سيف الدولة يحسن الى أهله ، وكان

---

(١١٦) نفسه ، ص ٤٥ .

(١١٧) الشابشتى ، أبو الحسن على بن محمد ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، ص ١٣٩ .

كثير الزيارة لهذا الدير وفيه يقول الصنوبرى(١١٨) :

أما تــرى البيعتـــين أفــردتا   بمفـــرد الاقحـــوان والمـــزوج
ابــوابه المـرن كيف ما اتصلت   ونـــاره البرق كيف ما أجــج

وقال ايضا يصف دير زكى بقرية بطياس(١١٩) :

انى طـربت الى زيتون بطياس   بالصـالحية ذات الـــورد والآس
من ينس عهدهما يوما فلست له   وان تطاولت الأيـام بالنـــاس
ياموطنا كان من خير المواطن لى   لمـا خلوت به ما بين جـلاسى

وقد اثرت تلك الاديرة فى الحياة الأدبية ، اذ تردد عليها الشعراء وقالوا فيها شعرا جميلا ، وامتدحوا فيها الرهبان ، بما امتازوا به من خفة الروح ، وسعة الاطلاع والمشاركة فى اللقاءات الثقافية والأدبية .

وفى ذلك يقول كشاجم(١٢٠) :

قد عدلوا ثقـل ابدان بمعـــرفة   منهـم لخفــة أبــدان وأرواح
ورشحوا غـــرر الآداب فلسـفة   وحـكمة بعـــلوم ذات أوضـاح
فى طب بقراط لحـــن الموصـلى   وفى نحو المبرد أشعار الطرماح

مجالس الشعر فى عهد سيف الدولة :

كان شعراء الحمدانيين على درجة من كثرة العدد ووفرته ، بحيث يتعذر أن ينسبوا الى اقليم واحد ، بل كان اغلبهم من الوافدين الذين ، استهواهم ما فى بلاط سيف الدولة من ترف ، وما لديهم من عطاء .

فمنهم من أنتسب الى حلب نفســها مثل « الصـنوبرى ، الخليع الشامى ، السرى الرفاء ، الخالدين من الموصـــل ، كشاجم ، الواواء ،

---

(١١٨) الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١ .
(١١٩) الشابشتى ، المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .
(١٢٠) الثعالبى ، ج ١ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢ .

الواسانى من بلاد الشام ، المتنبى ، الزاهى، ابن نباته من العراق(١٢١) . علاوة على ابى فراس الحمدانى ، ابن عم سيف الدولة ، واحد قواده وولاته .

سيف الدولة شاعرا :

انشا الثعالبى فصلا فى يتيمة الدهر ، أورد فيه الكثير من أشعار سيف الدولة وذكر انه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ، بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، وكان أديبا شاعرا ، محبا لجيد الشعر،شديد التاثر لما يمدح به(١٢٢) الا أن ابن العديم(١٢٣) ذكر انه ينسب الى سيف الدولة اشعار كثيرة ، لا يصح منها له غير بيتين؟ ذكر ابو القاسم الحسين بن على المغربى كاتبه ، وهو جد الوزير أبى القاسم المغربى ، انهما لسيف الدولة ولم يعرف له غيرهما ، وكتب بهما الى أخيه ناصر الدولة ، وقد مد يده الى شىء من بلاده المجاورة له من ديار بكر ، وكانت فى يد أخيه .

لست أجفو وان جفيت ولا اترك حقا على فى كل حال
انما أنت والد والأب الجافى يجازى بالصبر والاحتمال

شعراء عاصروا سيف الدولة :

المتنبى : ولد ابو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفى المتنبى عام (٣٠٣هـ - ٩١٥م) لحق بالأمير سيف الدولة الحمدانى بعد اطلاق سراحه، حيث كان معتقلا لمدة عامين على يد لؤلؤ امير حمص من قبل الأخشيد ، ولم يطلق سراحه الا بعد التحقق من أنه عاد الى حظيرة الايمان ، بعد أن كان قد ادعى النبوة فى بادية السماوة من أعمال الكوفة عام (٣٣٧ هـ -

---

(١٢١) مصطفى الشكعة ، فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ، ص ١٢٢ .

(١٢٢) الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧ ، ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٨١ .

(١٢٣) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

٩٤٨م)(١٢٤) وقد راى فيه سيف الدولة عنصرا قويا من عناصر العظمة ، فاحبه وأخلص له الحب ، وظل تسع سنوات كاملة فى حماه ينعم بهباته وعطفه ، ولكن الرجل الموهوب ، لابد ان يكثر حاسدوه ،فمازالوا يكيدون له المكايد ويؤلبون عليه الأمير ، حتى ترك حلب الى مصر واتصل بكافور الأخشيدى ، ومدحه بقصائد قوية ، الا ان كافورا لم يحقق له ما كان يصبو اليه ، فانقلب المدح الى هجاء لاذع ثم انسل فى جوف الليل الى بغداد ومنها الى فارس ، بمدح ابن العميد حينا وعضدد الدولة حينا آخر . ثم عاد الى وطنه يحمل الأموال والهـــدايا الثمينة والكتب النفيسة وما أن اقترب من بغداد حتى داهمه فاتك الأسدى ، على راس شرذمة من رجاله فقتلوه وكان قد اشرف على الخمسين(١٢٥) .

كان المتنبى حين أستقرت الأمور بحلب لسيف الدولة فى العقد الثالث من عمره وكان قد مر بالوان مريرة من بؤس الحياة وشظف العيش ذاق الفقر وذاق الهوان ، ودخـــل الى بلاط ســـيف الدولة وبه بعض الهيبة والذعر ، لأن بلاط سيف الدولة ، كان يعج بأكابر العلماء والأدباء والشعراء مثل الفارابى الفيلسوف وابن خالويه النحوى ، وابن جنى اللغوى ، وأبى ذر الصنوبرى وكشاجم وابن نباته ، وأبى الفرج العجلى وغيرهم كثير من الشعراء والقضاة والفنانين ، ولكن وثوقه من نفسه ، ورغبته فى المجد والشهرة ، جعلته يقتحم هذا الميدان ، وأن لا يعد نفسه غريبا ، لقد راى فى هذا البلاط ايضا بذخا وثراء ، وأدبا وفنا وفروسية ومجدا وراى فى سيف الدولة رجلا . يختلف عمن خبرهم من الرجال . وهــــذه الظواهر مجتمعة فتحت أمام عينيه آفاقا جديدة نقلته من حال الى حال ، من حياة القلق والضجر الى الرغـــد والاطمئنان ، استطاع أبو الطيب المتنبى أن يكون فى طليعة من يصحبهم سيف الدولة فى غزواته وحروبه ، وفى صيده ولهوه ، وفى سمره وليالى انسه ، وبدات المؤامرات تحاك حوله وبدأوا يدسون عليه ، ويصورون شعره شعرا مبتذلا ، لا يستحق هـــذا الاكبار والاجلال ، وكان فى طليعة هؤلاء النامى الشاعر ، وابن خالويه مؤدب

---

(١٢٤) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(١٢٥) سامى الكيالى ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

سيف الدولة ، وأبو فراس ، ابن عمه ، الذى كان اكثرهم حقدا عليه ، الا ان المتنبى لم يكن من الضعف بحيث يهرب من التعريض به ، فصمد وكون حوله جماعة من محبيه ، وظل طيلة مدة اقامته الشاعر الفذ الذى لا يدانيه شاعر فى الحظوة والرعاية ٠

وقال فى مدح سيف الدولة (١٢٦) ٠

خليـــلى انى لا ارى غيــر شـــاعر
فلم منهـم الدعوى ومنى القصائد ؟
فـلا تعجبـــا ان الســـيوف كثيـرة
ولـكن سـيف الـدولة اليوم واحـد
له من كريم الطبع فى الحرب منتض
ومن عـادة الاحسـان والصفح غامـد

وقال يمدح سيف الدولة ، ويذكر بنـــاءه مرعش فى المحـــرم عام (٣٤١هـ - ٩٥٢م) (١٢٧) :

فدينـــاك من ربع وان زدتنا كـــربا
فانك كنت الشـرق للشمس والغــربا
فرب عــلام عــلم المجـد نفســه
كتعـليم سـيف الدولة الطعن والضربا
اذا الدولة اسـتكفت بـــه فى ملمـــة
كفـاها فـكان السيف والكف والقلبـا

وقال فيما كان يجرى بينهما من معاتبة (١٢٨) :

الا ما لســيف الدولة اليــوم عاتبـا
فـداه الورى أمضى السيوف مضـاربا

---

(١٢٦) الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨ ٠
(١٢٧) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ ٠
(١٢٨) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ٤١ ٠

ومالى اذا اشـــتقت أبصــرت دونـه
تنائف لا اشــــتاقها وســـباسبا(١٢٩)
حنـــا نيـك مسؤولا ولبيـــك داعيـا
وحسبى موهـوبا وحسبك واهبـا
وان كـــان ذنبى كـل ذنــب فانـه
محا الذنب كل المحو من جـاء تائبـا

وقال يهنىء سيف الدولة بعيد الفطر(١٤٠) :

الصوم والفطر والأعياء والعصر
منيـــرة بك حتى الشـمس والقمـــر
ما الدهـر عنـــدك الا روضـــة أنف
يامـن شـمائله فى دهـره زهـــر

وقال يعوده من مرض(١٣١) :

اذا أعتـــل سيف الدولة اعتلت الأرض
ومن فوقها والبـاس والـكرم المحض
شـفاك الذى يشـفى بجـودك خلقـه
فانـك بحـر كـل وبحـــر له بعض

وكان آخر ما انشده مدحا فى شوال (٣٤٩هـ ـ ٩٦٠م)(١٣٢) :

أيا أســدا فى جســمه روح ضيغـم
وكـــم أســـد أرواحهـــن كـــلاب
ويا آخـــذ من دهــــره حـــق نفسه
ومثـلك يعصـى حقـــه ويهـــاب

---

(١٢٩) سباسبا (تعنى الصحراء) ٠
(١٣٠) شرح ديوان المتنبى ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ ٠
(١٣١) نفس المرجع ، ص ١٦٣ ٠
(١٣٢) نفسه ، ص ١٦٠ ٠

أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدونى : ابن عم سيف الدولة وأحد قواده وولاته ، يعود بعمومته الى تغلب ، وبخؤولته الى تميم قيل انه ولد فى الموصل فسماه والده الحارث وكناه أبا فراس ، أى الأسد ولم يخيب ظن والده فقد كان فارسا من الفرسان المعدودين ، ولم يبلغ الثالثة من عمره حتى قتل والده ، قتله ابن أخيه حسن الملقب ناصر الدولة ، هكذا ربى أبو فراس يتيما تحتضنه أمه ، ويعطف عليه ابن عمه سيف الدولة ، أخو ناصر الدولة(١٣٣) تمرس بجانب سيف الدولة فى فنون الفروسية والأدب ، فخرج شاعرا فارسا وكان سيف الدولة يحبه لشجاعته فقلده إمارة منبج ، فخاض غمرات القتال وزاد عن حمى الوطن ووهب نفسه للمجد وللمكرمات(١٣٤) وهو القائل(١٣٥) :

فلا تصفن الحرب عندى فانها ... طعامى مذ بعت الصبا وشرابه
وقد عرفت وقع المسامير مهجتى ... وشقق عن زرق النصول اهابى
ولججت فى حلو الزمان ومره ... وأنفقت من عمره بغير حساب

وذات يوم بينما كان عائدا من الصيد فى نفر من أصحابه فاجاه كمين رومى عام (٣٤٨هـ - ٩٥٩م) فاخذ أسيرا وحمل الى خرشنة ، ثم الى القسطنطينية، فبقى فى الأسر عدة سنوات الى أن افتداه سيف الدولة ، وبعدها اقطعه حمص بدلا من منبج(١٣٦) وقد كتب فى الأسر أجمل قصائده وارقها وعرفت هذه القصائد بالروميات ومنها قوله عندما سمع حمامة ، وهو فى أسره ، تنوح على شجرة فقال يخاطبها(١٣٧) .

أقول وقد ناحت بقربى حمامة ... أيا جارتا،هل تشعرين بحالى ؟
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ... ولا خطرت منك الهموم ببال
أتحمل محزون الفؤاد قوادم ... على غصن نائى المسافة عال ؟

---

(١٣٣) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ٥ .
(١٣٤) سامى الكيالى ، المرجع السابق ، ص ١٤١ .
(١٣٥) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .
(١٣٦) ابن العديم ، المصدر السابق ، ص ١٣١ ، ١٤٦ .
(١٣٧) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

أيا جارتا ، ما أنصف الدهر بيننا　　تعالى اقاسمك الهموم ، تعالى !
أيضحك مأسور ، وتبكى طليقة　　ويسكت محزون ، ويندب سال ؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة　　ولكن دمعى فى الحوادث غال !

ومات سيف الدولة بعد عودة أبى فراس بسنة واحدة ، وتولى بعده ولده أبو المعالى ، ابن أخت أبى فراس ، وتسلم الحكم بالوصاية عليه غلامه التركى قرغويه ، فابى ابو فراس أن يطيع هذا الغلام ، وطمع بالسيادة على سوريا ، وكانت نهايته على يد هذا الغلام(١٣٨) ٠ وبمقتله خسر الحمدانيون رجلا من ألمع رجالهم فى الفروسية والشعر ٠

وقال يذكر سيف الدولة مع قبائل العرب(١٣٩) :

بدولة سيف الله طلنا على الورى　　وفى عزه صلنا على من تجبرا
حملنا على الأعداء،وسط ديارهم　　بضرب يرى من وقعه الجو اغبرا
فسائل كلابا عروة بالس　　الم يتركوا النسوان فىالقاع حسرا
وسائل تميرا ، يوم سار اليهم　　الم يوقنوا بالموت ، لما تنمرا ؟
وسائل عقيلا ، حين لاذت بتدمر　　الم نقرها ضربا يقد السنورا ؟
وسائل قشيرا حين جفت حلوقها　　الم نسقها كاسا من الموت أحمرا؟

وقال فى مدحه(١٤٠) :

أشدة ما أراه فيك أم كرم　　تجود بالنفس والأرواح تصطلم
يا باذل النفس والأموال مبتسما　　أما يهولك لا موت ولا عدم
لقد ظننتك بين الجحفلين ترى　　ان السلامة من وقع القنا تصم

---

(١٣٨) ابن الاثير ، المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٣٠٧ ، القرمانى المصدر السابق ، ٢٦٥ ٠

(١٣٩) ابن خالويه ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ ٠

(١٤٠) الثعالبى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٠ ٠

السرى الرفاء :

وبرز من شعراء هذا العصر أيضا أبو الحسن السرى بن أحمد بن السرى الكندى الرفاء ، وكان فى صباه يرفو ويطرز فى دكان بالموصل وينظم الشعر حتى برع فيه(١٤١) ، قصد سيف الدولة بحلب ومدحه واقام عنده مدة ثم انتقل بعد وفاته الى بغداد وقد برع السرى الرفاء فى التغنى بجمال مسقط راسه الموصل ، وترك لنا صورا رائعة ، وصف فيها أصحاب المهن من الحلاقين وصيادى السمك وغيرهم ، علاوة على وصفه مشاهد الطبيعة وأزهارها وأشجارها وغدرانها والسحب والثلج والمطر ، كما افتن فى وصف مجالس الشرب واللهو والخمر بالاضافة الى شعره فى المديح والتهنئة والهجاء والغزل . ومن شعره اللطيف فى وصف مهنته قوله(١٤٢) :

يكفيك من جملة أخبارى ... يسرى من الحب واعسارى
فى سوقة أفضلهم مرتد ... نقصا ففضلى بينهم عارى
وكانت الابرة فيما مضى ... صائنة وجهى وأشعارى
فاصبح الرزق بها ضيقا ... كانه من ثقبها جارى

وقال يمدح سيف الدولة(١٤٣) :

تركتهم بين مصبوغ ترائبة ... من الدماء ومخضوب ذوائبه
يهوى اليه بمثل النجم طاعنه ... وينتحيه بمثل البرق غالبه
يكسوه من دمه ثوبا ويسلبه ... ثيابه فهو كاسيه وسالبه

---

(١٤١) فيصل السامر ، الدولة الحمدانية ، ج ١ ، ص ٣٦٣ ، المسعودى ، المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٢٨ .

(١٤٢) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(١٤٣) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

وقـــوله (١٤٤) :

ولا تبك الا بعد طول صـــبابة وحسبك من فرط الصبابة ماأبكى
اذا الدمع لم يبرح مـحـلا يحـله سرى الدمع من أجفانه قلق المسرى

وقـــوله (١٤٥) :

يا موجبا حق الســماح بنائل نتقاصر الأنـواء عـــن أنـوائه
والمبتنى بيـت العـــلا ببأســه فغـدا عـــلاء النجم دون علائه

ويقول فى مدح سيف الدولة أيضا (١٤٦) :

اعزمتك الشـــهاب أم النهـــار أراحتـك السحاب أم البحار ؟
خلقت منيـة ومنى فاضـــحت تمـور بك بســيطة أو تمـــار
تحلى الـدين أو تحمى حمـاه فانت عليـه ســـور أو ســوار

الصنوبرى : أبو بكر مرار :

من الشعراء الذين اســتهوتهم الطبيعة فعشـــقوها وهاموا بها ، وطربوا لأغاريد أطيارها ، رأى النور فى أنطاكية ، وما كاد يترعرع ويذوق حلاوة الأدب حتى انتقل الى حلب ، يعيش مع عشرات الشعراء فى ظلال الأمير الحمدانى سيف الدولة ، وقد ذكر نسبته الى الصنوبرى بقطعة من شعره حيث قال :

اذا عـــزينا الى الصنوبر لـــم نعـــز الى خامل من الخشـــب
لا بل الى باسـق الفـــروع على مناسبا فى أرومـــة الحســـب
باق على الصيف ، والشتاء اذا شابت رؤوس البنات لم يشـــب

عاش الصنوبرى فى ظلال سيف الدولة وعلى كثرة ما ضم بلاطه من

---

(١٤٤) ديوان السرى الرفاء ، المرجع السابق ، ص ٣ .
(١٤٥) المرجع السابق ، ص ٥ .
(١٤٦) الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٢٩ .

اساطين رجال الفكر والأدب ، كان من أصفى المقربين اليه فاتخذه نديما من أخلص ندمائه ، وأمينا لمكتبة قصره ، وكان الوحيد بين مئات الشعراء الذى الذى ترفع عن المدح فى سبيل المال، على كثرة ما مدحه الشعراء من مختلف الأقطار العربية استدرارا لعطفه ، وطمعا بهباته وأعطياته ، وان دل هذا على شىء فعلى انفة هذا الشاعر وكبريائه ، وعلى ما امتاز به من نبل النفس وصفاء الطبع ، وازدرائه للمادة،ولعل هذه الصفات هى التى أدنته من قلب سيف الدولة ، وجعلته من أخلص أصدقائه دون أن يطالبه بثمن(١٤٧) .

الصنوبرى الذى عاش فى كنف الطبيعة ، لم يكن يجد نشوته الا فى فصل الربيع فصل الحب والأزاهير ، فالدنيا عنـده ربيع ولا شىء غير الربيع .

وفى ذلك يقول(١٤٨) :

ان كان فى الصيف ريحان وفاكهة ... فالأرض مستوقد والجو تنور
وان يكن فى الخريف النخل محترقا ... فالأرض عريانة والجو مقرور
ما الدهر الا الربيع المستنير اذا ... جاء الربيع أتاك النور والتنور

اما بقية من عاصروا سيف الدولة من الشعراء والأدباء وتفننوا فى مدحه فقد أوردهم الثعالبى(١٤٩) ومنهم .

ابو العباس بن محمد النامى وقال يمدح سيف الدولة :

خلقت كما أرادتك المعالى ... فأنت لمن رجاك كما يريد
عجيب أن سيفك ليس يروى ... وسيفك فى الوريد له ورود
وأعجب منه رمحك حين يسقى ... فيصحو وهو نشوان يميد

---

(١٤٧) سامى الكيالى ، المرجع السابق ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .
(١٤٨) القزوينى ، المصدر السابق ، ١٨٤ .
(١٤٩) انظر الثعالبى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٣٢ ، ٨٥ .

وكقول ابى الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومى الببغاء :

نداك اذا ضـن الغمام غمـام ... وعزمك ان قل الحسـام حسام
فهذا ينيـل الرزق وهو ممنـع ... وذاك يرد الجيش وهو لهـام
ومن طلب الأعداء بالمال والظبا ... وبالسـعد لم يبعـد عليه مـرام

وكقول ابى الفرج محمد بن أحمد الغسانى الدمشقى الوأواء :

جـدواك بالسـحاب فمـا ... أنصف بالحـكم بين شـكلين
انـت اذا جـدت ضاحك ابدا ... وهـو اذا جـاد دامع العيـن

وكقول ابى نصر بن نباته :

حاشاك أن تدعيك العرب واجدها ... يامن ثرى قـدميه طينة العـرب
فان يكون لك وجه مثل أوجههم ... عند العيان فليس الصفقر كالذهب

ولم يقتصر هذا المديح على الشعراء فقط بل ان أبا ذر أسـتاذ سيف الدولة فى مدحه قال :

نفسى الفداء لمن عصيت عواذلى ... فى حبـه لم أخش من رقبائه
الشمس تطلع فى أسرة وجهـه ... والبـدر يطلع من خلال قبـائه

الفـارابى :

ممن ضمهم بلاط سيف الدولة ، الى ما ضمه من العلماء والأدباء والشعراء الحكيم ابو النصر الفارابى ، الذى يتفق المؤرخون على اعتباره من اكابر فلاسفة المسلمين ، ولد عام (٢٥٩هـ - ٨٧٢م) .

ترك بغداد الى حلب ، حين شاهد ملك العباسيين يتقلص فى وقت ازدهرت فيه دولة الحمدانيين فى حلب خاصة فى الحركة العقلية أيام سيف الدولة ، مما حفزه على أن يحط رحاله فى ربوعها ، لا يعتز الا بما فى صدره من علم ومعرفة ، وما فى قلبه من آراء وخيالات وما فى ضميره من هواجس وأحلام ، ورغم انه دخل الى العاصمة غريبا لا يعرفه

احد ، أو لم يشأ أن يعلن عن نفسه ، الا أنه قصـــد توا بلاط الأمير ، فأخذ الأدباء والشعراء يتهامسون ، وكأنهم شعروا بوطأة هذا الدخيل على مجلسهم ، خاصة انه بدأ يتكلم معهم فى كل فن ، فلم يزل كلامه يحلو ، وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقى يتـكلم وحـده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخـلا به ، وسرعان ما أنزله من مجلسه أرفع مكان ، ومن نفسه أسمى منزلة(١٥٠) وكان حبه للفارابى يفوق حبه جميع من ضمهم مجلسه من الشعراء والأدباء والعلماء والفنانين ، والفارابى لم يمدح سيف الدولة كما فعل الصنوبرى، ورغم أن الأذن كانت تميل الى سماع المدائح من أفواه الشعراء الا أن سيف الدولة كان ميله الى سماع آيات الحكمة أقوى ورغم محاولة سيف الدولة الاغداق عليه كثيرا ، الا ان الفارابى فضل أن يعيش عيشة زاهرة ، بعيدا عن زخارف الدنيا ، واقتصر فى معيشته على أربعة دراهم فضـــة فى اليـوم(١٥١) .

ومن شعره عن فلسفته للحياة(١٥٢) :

لمـــا رأيت الزمان نكسـا — وليس فى الصحبة انتفاع
كـل رئيس بـه مـلال — وكـل رأس بـه صداع
لزمت بيـتى وصنت عرضا — بـه من العـزة اقتنـاع
أشرب مما أقنيت راحا — لهـا على راحتى شعاع
لى مـن قواقيـرها ندامى — ومـن قراقيـرها سماع

لقد مجد سيف الدولة فى الفـارابى شخصيته الفلسفية وشخصيته العلمية معا ، كما مجد الفارابى فى سيف الدولة صـفاته الفذة كأمير شجاع ، جمع الى صفات البطولة صفات السلطان الذى عمل على اسعاد قومه والزود عن وطنه .

---

(١٥٠) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٥ .

(١٥١) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٦ ، ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

(١٥٢) ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

وخلاصة القول أن الفــارابى أنس بلقيا سيف الدولة ، كما أنس الأمير بلقيا الفيلسوف .

ولم تمنع شيخوخة الفارابى وهو فى الثمانين من عمره من مرافقة سيف الدولة فى احدى غزواته الى دمشق ، فلم يكد يصلها حتى وافته منيته (٣٣٩هـ ـ ٩٥٠م)(١٥٣) ومن قوله قبل الوفاة(١٥٤) :

فمــا الــدار دار مقــام لنــا   وما المرء فى الأرض بالمعجز
محيط الســماء أولى بنــا   فمــاذا التنــافس فى مركــز

ابن نباته الخطيب :

كما كان المتنبى شاعر سيف الدولة ، كان ابن نباته خطيبه الذى أثار والهب حماسة الناس فى سبيل الجهاد ، خاصة ضد البيزنطيين ، كان ابن نباته ، اماما فى علوم الادب ، وكان خطيب حلب وبها أجتمع بابى الطيب المتنبى ، فى خدمة سيف الدولة ، ولما كان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا أكثر ابن نباته من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة الأمير ، ولا شك ان وقعها كان ذا تاثير مباشر فى نفوس مستمعيها ، فقد كان البيزنطيون على أبواب حلب وسيف الدولة لا تغمض له عين ، وهو مهيا كل يوم لجهاد جديد ، ولهذا تاثر ابن نباته بهذا الموقف الحاسم الذى وقفه الأمير وانعكس ذلك فى خطبه التى لا تقل حماسة عن حماسة المتنبى ، حين كان يصــور لنا معارك سيف الدولة وفى ذلك يقول :

والله ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا
ولا قعدوا عن صـون ذمارهم الا اضمحلوا

وهو بهذا يثير الناس ويحثهم على الجهاد ، وأن يغالبوا الأهواء

---

(١٥٣) ابن العبرى ، ابو الفرج بن أهرون الملطى ، مختصر تاريخ الدول ، ص ٢٩٤ .
ـ ابن أبى أصيبعة ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .
(١٥٤) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٦ .

قبل محاربة الأعطاء ، ثم يحرضهم على القتال بشجاعة ، لأن الخوف لا يدفع عن الانسان الموت ، فلماذا الهلع والجزع • وعــلام التراجع والاضطراب فيصرخ فيهم(١٥٥) :

الجهـــاد الجهـــاد	أيهــا الموقنـــون
والظفـــر الظفـــر	أيهـــا الصـــابرون
والجنـــة الجنـــة	أيهـــا الراغبـــون
والنـــار النـــار	أيهـــا الهـــاربون

وعند هجوم الروم عام (٣٥١هـ - ٩٦٢م) على حلب ومحاولتهم الاستيلاء عليها القى خطبة صب فيها كل بلاغته ووصف هول القتال أبلغ وصف فقال « عباد الله :

« ••• وقد اقامكم العز من أوطانكم على شفا ، لا ترقبون الا يد غاشم تخطفكم ، أو ريح عدو هاجم تنسفكم ، كالغنم بغير راع فهى شريدة طريدة بكل قاع ، والعدو يتملك بلادكم قاطنا ، ويفك عرى أمصاركم عروة عروة ، ويدك ذرى دياركم ذروة ذروة ، وأنتم من روح الله آيسون كانكم النساء وهم الرجال ••• »(١٥٦) توفى خطيبا فى مقتبل العمر فكانت ولادته عام (٣٣٥هـ - وفاته عام (٣٧٤هـ) بميافارقين هكذا كان للخطابة كما كان للشعر ولسائر صنوف الأدب ، هذا المركز السامى فى بلاط سيف الدولة •

---

(١٥٥) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٠ •

(١٥٦) سامى الكيالى ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ •

المصادر العربية القديمة

ـــ ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم (ت ٦٣٠هـ) ٠
الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ١٣٨٨هـ ـ ١٩٧٨م ٠
دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ٠

ـــ الأزدى : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ)٠
الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ٠
مكتبة المثنى بغداد ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م ٠

ـــ الاصطخرى ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد (ت ـ النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) ٠
المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ٠
القاهرة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١م ٠

ـــ ابن أبى أصيبعة : موفق الدين ابو العباس أحمد ٠
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ٠ القاهرة ١٢٩٩هـ ـ ٩٨٨٢م ٠
دار الفكر ـ بيروت ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م ٠

ـــ ابن بطوطة : شرف الدين أبو عبد الله (ت ٧٧٩هـ) ٠
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ٠
دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م ٠

ـــ البلاذرى : أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) ٠
فتوح البلدان ، تحقيق ، صلاح المنجـــد ، القاهرة ، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م ٠

ـــ ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن (٨٧٤هـ) ٠
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٠
دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م ٠

— الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابورى (ت٤٢٩هـ)٠
يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، تحقيق ، محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار السعادة ـ القاهرة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٦٥م ٠

— ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ) ٠
رحلة ابن جبير ، دار صادر ـ بيروت ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م ٠

— ابن الجوزى : جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن (ت٥٩٧هـ) ٠
المنتظم فى تاريخ الملوك والامم، حيدر آباد ـ ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م)٠

— ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على (ت ٣٦٧هـ) ٠
صورة الارض ، ليدن ، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م ٠ القاهرة ، د٠ت ٠

— ابن خالويه : أبو عبد الله الحسين بن محمد (ت ٣٧٠هـ) ٠
ديوان ابى فراس الحمدانى ، دار بيروت ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م ٠

— ابن خرداذبة ، أبو القاسم محمد بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ) ٠
المسالك والممالك ، ليدن ١٣١٧هـ ـ ١٨٩٩م ٠

— ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن جابر (ت ٨٠٨هـ) ٠
المقدمة ـ دار الفكر ، بيروت ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م ٠
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م ٠

— ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد (ت ٦٨١هـ) ٠
وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ـ بيروت ، ١٩٧٨م ـ ١٣٩٩هـ ٠

— الدينورى : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) ٠
الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الشيال ، دار المسيرة ـ لبنان ١٩٧٩م ٠

ـــ الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) ٠
العبر فى خبر من غير ، تحقيق ، أبو هاجر محمد السعيد ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ٠

ـــ ابن رسته : أبو على أحمد بن عمر ٠
الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٣٠٩هـ ـ ١٨٩١م ٠

ـــ السرى الرفاء ، أبو الحسن كسرى بن احمد الكندى الموصلى ٠
ديوانه ، مكتبة القدس ، القاهرة ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م ٠

ـــ الشابشتى : أبو الحسن على بن محمد (ت ٣٨٨هـ) ٠
الديارات، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف بغداد ١٩٥١م٠

ـــ أبو شــجاع :
ذيل كتاب تجارب الأمم ، نشر ، هـ٠ف امدروز ، مكتبة المثنى ، القاهرة ١٣٣٤هـ ١٩١٦ ٠

ـــ الصولى : أبو بكر بن يحيى (ت ٣٣٥هـ) ٠
أخبار الراضى بالله والمتقى لله ، نشره ، ج٠ رهيورث ، د٠ت ، دار المسيرة ـ بيروت ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٨م ٠

ـــ الصفدى : صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ) ٠
الوافى بالوفيات ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م ٠

ـــ ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى (ت ٧٠٥هـ) ٠
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاســـلامية ، دار بيروت للنشر ـ بيروت ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م ٠

ـــ الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) ٠
تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م ٠

- ابن العبرى : غريغوريوس ، أبو الفرج بن أهرون الطيب الملطى (ت ٦٥٨م) ٠
مختصر تاريخ الدول ، بيروت ١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م ٠

- ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحى بن العماد (ت ١٠٨٩هـ) ٠
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٠ المكتب التجارى - بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩م ٠

- ابن العديم : كمال الدين أبى القاسم عمر (ت ٦٦٠هـ) ٠
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق ، سامى الدهان ، دمشق ١٩٥١م ٠

- القرمانى ، أبو العباس أحمد بن يوسف ٠
أخبار الدول وآثار الأول ٠ عالم الكتب - بيروت ٠د٠ت ٠

- القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (٠ت ٦٨٢هـ) ٠
آثار البلاد وأخبار العباد ، دار الصـــياد - بيروت - ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠م ٠

- القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١هـ) ٠
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م ٠
نهاية الأرب فى معرفة أحوال العـــرب ، تحقيق على الخاقانى ومصطفى النجاح ، بغداد ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م ٠

- ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا (ت ٧٧٤ هـ) ٠
البداية والنهاية ٠ بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٨م ٠

- اجم : أبو الفتح محمود بن كشاجم ٠
أدب الندماء ولطائف الطرفاء - القاهرة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م ٠

- المسعودى : أبو الحسن على بن الحسنى (ت ٣٤٦هـ) ٠
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، مكتبة السعادة ، القاهرة ١٨٣٤هـ - ١٩٦٤م ٠
التنبيه والاشراف ، دار صعب ، بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م ٠

— مسكويه : ابو على أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ) ٠
تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، تصـــحيح ونشر هـ٠ف٠ آمدروز ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ـ القاهرة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م ٠

— المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٣٨٧هـ) ٠
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، القاهرة ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م ٠

— المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (٨٤٥ هـ) ٠
شذور العقود فى أخبار النقود ٠ القاهرة د٠ت ٠

— ناصر خسرو ٠ أبو معين الدين المروزى (ت ٤٨١ هـ) ٠
سفر نامه ٠ ترجمة خالد احمد خالد ـ الرياض ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م٠

— ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ)٠
معجم البلدان ٠ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ٠

المراجع العربية الحديثة

- أحمد امين : ظهر الاسلام ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٢ ٠
- جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٢٤ ٠
- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى : مكتبة النهضة - القاهرة ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م ٠
- سامى الكيالى : سيف الدولة الحمدانى وعصر الحمدانيين ، دار المعارف : القاهرة د٠ت ٠
- شرح ديوان المتنبى : مراجعة نخبة من الأدباء ، مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٨ ٠
- شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الاسلامية ٠ المجلس الوطنى ، الكويت ١٩٩٠م ٠
- عبد الجليل حسن عبد المهدى : أبو فراس الحمدانى ، حياته وشعره ، مكتبة الأقصى ، الأردن ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ٠
- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ٠
- قايد العمروسى : الجوارى المغنيات ، القاهرة ، ١٩٤٥م ٠
- فيصل السامر : الدولة الحمدانية فى الموصل وحلب ، مطبعة الايمان ٠ بغداد ، ١٩٧٠م ٠
- محمد كرد على : خطط الشام ، دار العلم ، دمشق ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢ م ٠
- مصطفى الشكعة : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م ٠

المراجع الأجنبية المعربة

— ترتون ا٠س٠ أهل الذمة فى الاسلام : ترجمة حسـن حبشى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧م ٠

— متز : آدم : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة القاهرة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م ٠

— هونكه : سجريد ، فضل العرب على أوربا ، ترجمة ، فؤاد حسنين على ، القاهرة ١٩٦٤ ٠

الدوريـــــات :

— درويش حسن الجندى : سيف الدولة الحمدانى ، المجلة العربية ، الرياض ، أغسطس ١٩٧٧م ٠

— سمير شتا : درهمان نادران عن عــلاقات دينية ، المسكوكات ، الرياض ، ابريل ١٩٧٣م ٠

— عبد الرحمن حميدة : حلب المدينة التى لا تقهر ، مجلة الفيصل ٠ العدد التاسع ، فبراير ، مارس ، الرياض ١٩٧٨م ٠

— محمد راشد أنيس : الشعر فى رحاب سيف الدولة الحمــدانى : المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد ٢٥ ، بيروت ، ١٩٨٧م ٠

— مهاب درويش البـكرى : الدرهم الحمـدانى المحفوظ فى المتحف العراقى ٠ المورد ، العدد ١ ، ٢ ، الرياض ١٩٧١م ٠

الصراع الدولى حول شبه الجزيرة العربية
فى
القرن الســادس الميــلادى

بقلــم
أ٠د٠ رافت عبد الحميــد(*)

على مشارف النهاية ، للربع الأول من القرن الســادس الميلادى ، حملت صفحة الماء ، عند الطرف الجنوبى للبحر الأحمر ، أسطولا ضخما من السفن الحربية ، كان يقل جيشا من الأحباش ، وجهته بلاد العرب السعيدة ٠٠ اليمن ٠٠ Arabia Felix ٠٠ ما لبث أن القى عند مينـــاء « مخا » Mokha مراسيه ، ليندفع جنوده الى اليابسة يصطدمون بقـــوات الملك الحميـــرى ، « ذى نواس » ، الذى سرعان ما حلت به وبجيشه الهزيمة ، عندها آثر ان يبتلعه اليم على أن يساق اســيرا فى موكب نصر الأحباش ، اذ ساق جواده والقى بنفسه فى البحر ، ليخط بذلك الصفحة الأخيرة فى ملك الحميريين ، وليقول فى رثائه « علقمة بن ذى جدن » :

أو ما ســـمعت بقيل حمير يوســف
أكـــل النعالف(١) لحمــه لــم يقبـــر
ورأى بـــان المـــوت خـير عنـــده
من أن يـــدين لاســـود أو أحمـــر

ولتمسى اليمن بذلك تابعة لمملكة اكسوم Auxuma ، وان كان ذلك الى حين ، حين يستقل بها ـ ذاتيا ـ أبرهة Abramos « الأشرم »، ويقيم على ارضها ممنكة حبشية ، حاملا لقب « ملك ســبا وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها وتهامة » ٠

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى ـ كلية الاداب ـ جامعة عين شمس ٠

وتتفق المصادر التاريخية العربية(٢) وتظاهرها كتب التفاسير(٣) على أن هذا الغزو الحبشى لليمن ، انما كان نتيجة طبيعية للاضطهاد الدينى الذى أنزله « ذو نواس » ، وكان قـــد تهود ، بالمســيحيين فى مملكته ، خاصــة منطقة نجران ، محاولا قهـــرهم على هجران دينهم والتحول عنه الى اليهودية • وتقرن هذه المصادر كلها تلك الأحداث بما ورد فى القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود• ولا تبتعد بعض المصـادر البيزنطية والسريانية المعاصرة(٤) كثيرا عما أورده المؤرخون والمفسرون المســـلمون •

ورغم ما يقدمه المفسرون من روايات كثيرة وآراء متعددة حـــول قصة أصحاب الأخدود ، الا انهم يتفقون على أن « أخدود » ذى نواس كان واحدا بين هذه الأخاديد ، وانه المعنى بقصص القرآن الكريم عن تلك الواقعة ، التى اثارت نوعا من الخلاف فى الرأى بين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، حول « يهودية » ذى نواس أو « وثنيته » • ويرى نفر من هؤلاء وأولئك فيه وثنيا ، مستندين فى ذلك الى النص القرآنى فى قوله تعالى : « ••• وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شيء شـــهيد »(٥) • وعليه يبدى ياقوت الحمـــوى دهشـته من نسب حادث الأخـــدود الى ذى نواس « اليهودى » ، لأن ذلك يقضى ـ فى رأيه ـ أن يكون القاتل والمقتول من أهل التوحد ، والله قـــد ذم المحـــرق والقاتل لأصحاب الأخدود(٦) • وعلى نهجه ينسج محدثون قولهم ان ذا نواس دعا أهل نجران المسيحيين للرجوع الى الوثنية لا الى اليهودية ، لأن المسيحية واليهودية المعاصرتين لنزول القرآن ، كانتا ـ حسب تعبيره ـ ديانتين سماويتين لا مجال لتفضيل احداهما على الأخرى !(٧) ، أو لأن ذا نواس ـ عند ثان ـ خشى عاقبة الاتصالات التى كانت قائمة بين المسيحيين فى مملكته ومملكة اكسوم على الجانب الآخر للبحر الأحمر(٨) •

غير أن هذا النص القرآنى الذى اتخذه هؤلاء دليلا للحكم بوثنية الملك الحميرى ، لو أخذ فى ضوء النصوص القرآنية الأخرى ، وليس منفصلا عنها ، عد دليلا أوضح بيانا على « يهودية » ذى نواس ، نعنى

بذلك قول الله سبحانه وتعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين أشركوا »(٩) والاتيان باليهود قبل المشركين فى الآية ، له دلالته ومغزاه ، وقوله تعالى أيضاً : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ، وهم يتلون الكتاب »(١٠) ، ثم ما جاء على لسان اليهود ، « ... قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل »(١١) ، ولما كان المسيحيون من غير اليهود خارجين عن نطاق اليهودية عقيدة ، فهم يندرجون ضمن الأميين أو الأمميين حسب تعبير التوراة ، وذلك فى عرف اليهود . وقد لمس القرطبى ذلك فى « الجامع » بتأكيد القول على يهودية ذى نواس ، عند تفسيره لسورة البروج ، فى قوله .. : « فخد لهم أخدودا وعرضهم على الكفر (يعنى الكفر بديانتهم واعتناق اليهودية) فمن أبى أن يكفر قذفه فى النار »(١٢) . وكان هذا بعينه الاعتراف الذى ورد فى الرسالة ، التى تذكرها المصادر التاريخية منسوبة الى ذى نواس ، والتى بعث بها الى المنذر الثالث ملك الحيرة ، حيث قال : « كان أول عمل اقدمت عليه بعد أن غدوت ملكا على حمير ، هو ذبح المسيحيين جميعهم ، الا من راى أن يتحول الى اليهودية مثلنا ... لقد طلبت منهم أن يكفروا بالمسيح والصليب ويصبحوا يهودا ، لكنهم أصروا على عقيدتهم »(١٣) .

ولم يكن ذو نواس(١٤) أول من تهود من ملوك حمير ، وان كان آخرهم ؛ ذلك أن المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية ، كانت قد أضحت أحد المراكز الهامة لليهودية خلال القرون الأولى للميلاد(١٥) ، اذ وجد اليهود فيها ملجأ لهم وملاذا ، بعيدا عن أيدى الرومان ، عقب الأحداث التى وقعت على عهد كل من الامبراطورين فسباسيان Vispasianus ابان القرن الأول للميلاد ، وهادريان Hadrianus فى القرن التالى ، فى أعقاب ثورتهم التى أشعلوها ضد الحكومة الرومانية ، وامتدت من برقة الى فلسطين . ومن ثم وجد اليهود فى جنوب الجزيرة العربية وغربها مهربا بعد تدمير الهيكل . وراح نفوذهم يزداد تدريجيا خاصة خلال الربع الأخير من القرن الرابع ومطلع القرن الخامس ، عندما تحول بعض من ملوك حمير آنذاك الى اليهودية(١٦) .

ويحاول بعض المؤرخين(١٧) أن يضفى على « يهودية » ذى نواس طابعا سياسيا ، بمعنى أنه فى مواجهة القوى الدولية الكبرى آنئذ ، الامبراطورية البيزنطية ومملكة أكسوم بعقيدتها المسيحية ، وامبراطورية الساسانيين الفرس بوثنيتها ، اقدم ملك حمير على التحول الى اليهودية ، ليقف بها قوة ثالثة بين هؤلاء وأولئك . غير أن هذا المنحى يحمل كثيرا من المبالغة ، واذا كان قد صدق من بعد على امبراطورية الخزر Khazar فى القرن الثامن الميلادى ، عندما تحول ملكها وشعبه الى اليهودية ، ليتخلص من الصراع السياسى العنيف الدائر حول مملكته بين الخلافة الاسلامية فى بغداد ، والامبراطورية المسيحية فى القسطنطينية(١٨) ، فانه من الصعب قبول ذلك فى حالة ذى نواس ؛ فالخزر كانوا يومئذ قوة سياسية كبرى يحسب فى لعبة الأمم حسابها ، اما اليهود فى اليمن فلم تكن أعدادهم ولا قوتهم ولا مكانتهم تسمح لهم بالقيام بمثل هذا الدور ، أو انشاء « دولة يهودية » ، على حد تعبير بعض المؤرخين المحدثين(١٩) ، اذ كان الى جوارهم المسيحيون ، خاصة فى ظفار ، عاصمة الحميريين ، ونجران ، المركز التجارى الهام فى طريق القوافل الى الشمال ، بالاضافة طبعا الى الأغلبية الوثنية التى كانت لها السيادة طيلة القرن الأخير على الأقل ، وذو نواس نفسه كان وثنيا قبل أن يتحول الى دين يهود ، ومن غير المعقول ، أن يتمكن خلال سنى حكمه القصيرة ، حوالى عشر سنوات (٥١٥ ـ ٥٢٥) من اقامة « دولة يهودية » من حطام مملكة حمير التى كانت تعانى أوجاع الفوضى السياسية والاضطراب الاقتصادى والصراع العقائدى خلال أيامها الأخيرة ، وان كان اليهود بالطبع قد وجدوا فى « تهود » ذى نواس فرصة يقفزون عبرها الى دست السلطة ، منتهزين فرصة هذه الحال المتردية التى تعيشها حمير فى مرضها الأخير .

ولا شك أن ذا نواس نفسه كان يدرك انه بحاجة الى التأييد الخارجى لسياسته ، خاصة بعد أن راح يمارس سياسة الاضطهاد ضد المسيحيين فى مملكته ، يدلنا على ذلك رسالته التى أشرنا اليها من قبل، والتى بعث بها الى المنذر الثالث ، يقص فيها على مسامعه انباء ما حل بالمسيحيين على يديه ، ويطلب اليه فى الوقت نفسه أن يحذو حذوه ،

وأن يترفق فى معاملة يهود الحيرة ، ثم يعلن فى النهاية استعداده لتلبية كل ما يطلب اليه لصالح المنذر(٢٠) ٠

ورغم أن الرسالة تحمل فى كلماتها مظاهر الاعتـــداد بالنفس ، والتباهى بما أوقعه الملك الحميرى برعيته المسيحية ، ورغم ما يكون قد داخلها من عبارات تحمل طابع المبالغة ، مما قد يوحى بأنها مضافة الى نصها الأصلى ، ولم تصدر عن ذى نواس ، الا أنها فى الوقت ذاته تنبىء فى سطورها الأخيرة عن رغبته فى أن يقف المنذر الى جانبه ، مخافة مالابد ان يترتب على هذه الأحداث ، وخاصة وأنه يذكر فى رسالته هذه، ان عددا من الأحباش المقيمين على أرضه قد نالتهم يد العذاب(٢١) ٠ ويؤكد ذلك ما أورده عن هذا الأمر أيضــا ، المؤرخ البيزنطى المعاصر بروكوبيوس Procopius القيسارى(٢٢) ٠ فاذا أضفنا الى هــذا كله ما تذكره بعض المصادر البيزنطية والسريانية(٢٣) عن تعرض جماعات من التجار الرومان ، العابرين ، للقتل ضمن جملة المسيحيين فى ظفار ونجران ، أدركنا خطورة موقف ذى نواس ، والمغزى الحقيقى من وراء رسالته الى ملك الحيرة ٠

واذا كان المنذر الثالث قد أبدى شيئا من التعاطف ازاء رغبات الملك الحميرى ، والذى ربما يعزى الى ما يذكـــره ابن العبرى من انتمــاء ذى نواس فى نســبه لأمه ، التى كانت على اليهــودية ، الى أهــل الحيرة(٢٤) ، الا أنه كان تعاطفا سلبيا وقف فقط عند حــد الأمنيات الطيبة ، دون التعاون الفعلى الذى كان يؤمله ذو نواس من خلال هذه المراسلات ، خاصة وهو يعلم علم اليقين ، مدى العلاقة التى تربط مملكة الحيرة بالامبراطورية الفارسية ٠ ولعله كان يقصد بذلك أن يضمن وقوف احدى القوى الكبرى فى عصره الى جواره ، ولمــا كان الفرس بطبيعة الحال غير متحمسين ، عقيديا وسياسيا ، لنصرة المسيحية ، فقد أمل أن يتحقق له هذا العون فى اطار استغلال ظروف الصراع السياسى الدائر يومذاك بين فارس وبيزنطة ٠

ومع أننا لا نميل الى الأخذ بما يذهب اليه بعض الباحثين ، من أن اضطهاد ذى نواس للمسيحيين فى دولته ، بما فيهم الأحباش والتجار

الرومان ، كان متفقا عليه من قبل مع اللخميين فى الحيرة ومن ورائهم الفرس(٢٥) ، معتمدين فى ذلك على الرسالة السابق ذكرها ، لأنه لو صح هذا الافتراض ، لامتد هذا الاضطهاد ليشمل مسيحيى الحيرة أيضا ، ولوجدت فعال ذى نواس ترحيبا من المنذر الثالث ، لكن شيئا من هذا لم يحدث ، نقول مع كل ذلك ، الا أن الذى لا شك فيه ، أن ذا نواس كان على علم كامل بمسالة الصراع الدولى الدائر آنذاك بين القوتين الكبيرتين والتى كانت شبه الجزيرة العربية احدى محطاته ، بما تمثله من أهمية اقتصادية ، وبالتالى سياسية ، تتجسد فى كونها تضم أهم طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب فى العصور القديمة وطوال العصور الوسطى ٠

وهذه النقطة الأخيرة تضيف بعدا جديدا لمسالة الاضطهاد الذى مارسه ذو نواس ضد المسيحيين فى مملكته ، مشركا معهم فى وطاته التجار الرومان والأحباش ؛ فمما لا ريب فيه أن يكون ازدياد نفوذ هؤلاء التجار ، العابرين والمقيمين ، قد أثار حفيظته ، اذ رأى ما يجنيه أولئك من ثروات طائلة من جراء ممارستهم أو سيطرتهم على طريق التجارة الرئيسى عبر جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر الى شمالها وحتى البحر المتوسط ، انتهاء ببلاد الشام أو مصر فى طريقه الى الأراضى البيزنطية ، ولابد أن يكون قد رأى أيضا فى المسيحيين فى ظفار ونجران أعوانا لهؤلاء الرومان والأحباش فى هذا السبيل ٠ ولذا راح يمارس سياسته والأمل يحدوه فى أن يتحول هذا الثراء لبنى عقيدته من اليهود ، اذا ما حل تجارهم محل أولئك الأجانب « المسيحيين » ولعبوا دورهم فى حركة التجارة النشطة بين مناطق المواد الخام والتوابل والبخور والحرير ، فى شرق آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، وأسواق الاستهلاك فى الامبراطورية البيزنطية وما وراءها ٠ ومن ثم فان سياسة الملك الحميرى تجاه المسيحيين ، اذا كانت لا تخلو من نغمة التعصب الدينى ، الا أنها فى الوقت نفسه تنطوى على أهداف اقتصادية بعيدة ٠ وان كان أحد الباحثين أيضا يفسر هذه السياسة بأنها مجرد اجراء انتقامى للمعاملة السيئة التى يلقاها اليهود من الادارة الرومانية(٢٦) ٠

وكان طبيعيا وقد اتجه ذو نواس ببصره الى خارج دولته ، ليضمن الى جواره ملك الحيرة ، ومن ورائه قوة الفرس اذا حزب الامر ، أن يولى المسيحيون هم الآخرون وجوههم شطر قوة دولية أخرى يدينون بدينهـا ، هى الامبراطورية البيزنطية . وهنـا تختلف الروايات فى المصادر الاسلامية مرة أخرى حول الوجهة التى اتخذ « دوس ذو ثعلبان» ـ الذى نجا من الاضطهاد ـ اليها سبيلا ؛ فبعضها يقرب به المسافة وصولا الى كالب Kaleb نجاشى الحبشـة(٢٧) ، وبعض ثان يوجهـه الى جوستين Justinus امبراطور الرومان فى القسطنطينية(٢٨) ، وثالث يورد الروايتين معا(٢٩) ، ورابع يحـاول التوفيق ؛ فالازرقى يذكر أن دوس ذا ثعلبان هذا اتجه الى « القيصر » مباشرة ، وقص عليه القصص ، فقال له : « بعدت بلادك عنا .. لكن سأكتبب الى ملك الحبشة فانه على ديننا فينصرك »(٣٠) . بينما تأخـذ رواية البلخى الجانب الآخر ، اذ يقول : « وصل صريخ أهل نجران الى النجاشى ملك الحبشة، فقال : « عندى رجال وليس عندى سفن ، فكتب الى قيصر الروم وبعث اليه بالأوراق المحرقة من الانجيل يغريه بذلك »(٣١) وقد لا تعدو هذه الرواية الحقيقة ، فالسفن التى تمتلكها مملكة أكسوم ، كانت سفنا تجارية فى معظمها ، ولم تكن أعدادها تسمح بنقل جيش كبير الى الشاطىء الآسيوى المقابل . ومن ثم تم نقل القوات الحبشية على سـفن الأسطول البيزنطى التى كانت راسـية فى موانى القـلزم (السويس) وعيتاب (تيران) والتى تجمعت كلهـا فى ميناء عـدول Adulis التـابع للأحباش(٣٢) .

ومهما يكن من أمـر ، فالذى يصح لدينا أن كـلا من الامبراطور البيزنطى والملك الحبشى ، قـد أحاطا خبرا بما حـدث لأبناء دينهما وجلدتيهما ، من اضطهاد على يد ملك حمير . ولم يكن أى منهما بأقل من صاحبه حرصا على أن يمد يديه لنصرة من استنصروه ، ليس فقط بدافع الوازع الدينى ، بل لأن كلا منهما له مصالحه الخاصة فى هـذه المنطقة ، والتى تتفق مع بعضها فى غالب الأحيان ، ولم تكن أحداث ظفار ونجران الا الضوء الأخضر الذى انار لهما الطريق للعمل سويا من أجل تحقيق هذه المصالح ؛ فقد كانت الجهود العسكرية الحبشية البيزنطية

تمثل حجر الزاوية فى العلاقات بين القوتين فى القرن السادس الميلادى ، وخلال هذه السنوات ظلت اكسوم الحليف الوفى لبيزنطة فى المنطقة الأفرو ـ عربية ، على حد تعبير أحد الباحثين(٣٣) ، وظل الحال على هذا النحو الى أن تم الغزو الفارسى لليمن فى سبعينيات ذلك القرن .

كانت مملكة اكسوم قد بلغت درجة كبيرة من القوة السياسية والازدهار الاقتصادى ، خلال القرن الرابع الميلادى ، على عهد ملكها عيزان Aezanes وظلت على هذا القدر من القوة حتى القرن السابع الميلادى . وامتدت سيطرتها شمالا حتى بلاد النوبة(٣٤) . بل ان منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية وأجزاء من غربها ، خضعت لمملكة اكسوم خلال فترة قصيرة من القرن الرابع ، كما أن الأحباش كانوا قد اشتركوا من قبل فى الحروب الأهلية التى دارت بين سبأ وذى ريدان (حمير) ، وحمل ملوكهم آنذاك الألقاب التى أشرنا فى صدر هذا البحث الى أن ابرهة حملها من بعد ، « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمن وتوابعها فى تهامة »(٣٥) . هذا بالاضافة الى نشاط اكسوم التجارى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى عن طريق ميناءى عدول وزيلع ، حيث كانت سفنها تنقل العاج الى الهند وفارس وحمير وبيزنطة(٣٦) واذا كانت سيلان تمثل مركز التجارة بين الصين والشرق الأدنى فى تلك الأوقات ، واذا كانت سفن الصينيين تسير غربا حتى سيلان ، فان التجارة فيما بين سيلان والمناطق الواقعة غربها ، كان يتولى أمرها الفرس والأحباش(٣٧) .

هكذا اذن ، كانت اكسوم ، بسيطرتها على ميناءى عدول وزيلع ، تتحكم في المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، الذى كانت الامبراطورية البيزنطية تمتلك القسم الشمالى منه ، وكان هذا البحر وما يحاذيه على ساحله الشرقى ، يمثل واحدا من أهم الطرق التجارية الرئيسية آنذاك ، ان لم يكن أهمها على الاطلاق ، حيث كانت التجارة القادمة من الصين وجنوب شرقى آسيا وشرق أفريقيا تتجمع فى عدن ، « المخزن الرومانى » ـ كما عرفت(٣٨) ، ومن هناك تنقلها السفن الحبشية أو البيزنطية الى ميناء القلزم ، ومنه الى النيل عبر قناة تم حفرها لتصل بين النيل وخليج القلزم ، وهى التى كانت تعرف بقناة تراجان(٣٩) ، ثم الى البحر

المتوسط بعد ذلك عن طريق النيل ؛ أو الى ميناء أيلة على رأس خليج العقبة، الى دمشق مارا بالبتراء وبصرى، ومن دمشق الى الساحل(٤٠) .

اضف الى هذا الطريق البحرى طريقا آخر للقوافل يحاذيه ، وهو الذى يمتد من عدن الى مأرب ثم فى جوف اليمن الى معين ونجران ، ومنها الى الطائف ومكة فيثرب ، ثم الى واحة تيماء مـــرورا بمدائن صالح (الحجر) ثم البتراء أو معان من بعد ، حيث تتجه بعض القوافل الى غزة ومصر ، بينما يستمر الجزء الأعظم منها الى بصرى فدمشق الى صور على البحر المتوسط ، أو يمتد شمالا الى حمص فانطاكية(٤١) . وفى دمشق وحمص كان هذا الطريق يلتقى بطريق آخر قادم من الشرق، يبدأ من الخليج العربى ويصعد فى الفرات حيث يتجه غربا الى المدن السورية مارا بواحة تدمر . وتربط بين هذين الطريقين سلسلة من طرق القوافل الفرعية ، أهمها الطريق الذى يبدأ من نجران ثم يسير فى وادى الدواسر الى الجرعا (جره) Gerrha على ساحل الاحساء(٤٢) .

على هذا النحو ، ندرك أن البحر الأحمـــر والخليج الفارسى ، يكملهما النيل والفرات ، كانا ممرين طبيعيين للملاحة بين حوض البحر المتوسط ودول شرقى آسيا وجنوبها الشرقى وشرق أفريقيا ، بالاضافة الى طريق القوافل الرئيسى الموازى للبحر الأحمر وروافده وتفريعاته . وهذا يعنى أن عرب شبه الجزيرة العربية كانوا يطلون من جانبى جزيرتهم هذه ، على أهم الطرق التجارية الكبرى فى عالم القرن السادس(٤٣) .

وقد شكلت اليمن بصفة خاصة أكبر سوق تجارية فى شبه الجزيرة العربية ، فكانت تتاجر فى حاصلاتها الاقليمية كاللبان والعطور والطيب والبخور ، الذى كانت له أهميته الخاصة فى ذلك العصر(٤٤) ، كما كانت تتاجر أيضا فيما يرد اليها من بضائع الخليج والهند والصين مثل اللؤلؤ والمنسوجات والعاج والذهب وريش النعام والحـــرير ، بالاضافة الى ما يأتيها من السواحل الشرقية لأفريقيا(٤٥) . وهذا يعنى أنها كانت حلقة الاتصال بين الهنـــد والحبشـــة وشرق أفريقيا من ناحية ، وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا من ناحية أخرى ، حتى خيل لبعض القدماء أن هناك قارة تمتد من أفريقيا الى الهند ، وأن بلاد العرب بمثابة بيت وسط

هذه القارة يقع على الساحل الشمالى من الميـــاه الواقعة جنوب باب المنـدب(٤٦) ٠

واذا كان الفرس يسيطرون على تجارة الهند وطريق الشرق كمـا يسميه الدكتور « هيكل »(٤٧) ، أعنى طريق الخليج والفرات ، فان مملكة اكسوم والامبراطورية البيزنطية كان يعنيهما فى المقام الأول أن يدعما سيادتهما ونفوذهما على « طـــريق الغـــرب » ٠ ولا شك أن البيزنطيين كانوا بطبيعة الحال ، يفضلون أن يتسلموا بضائع الشرق من ايدى أصدقائهم الأحباش المسيحيين ، على ان يتلقوها من أيدى أعدائهم الفرس المجوس(٤٨) ٠ لهذا لم يكن غريبا أن نجد عـــددا ليس بالقليل من التجار البيزنطيين يذهبون الى اكسوم عن طريق أيلة وخليج العقبة ، أو من الاسكندرية ، بل ان بعضهم كان يركب سفنا حبشية تبحر بهم الى الهنـــد(٤٩) ٠

منطقة اذن لها هذه الأهمية الاقتصادية ، فى عالم لعب فيه النشاط التجارى دورا بارزا فى دولاب العمل الاقتصادى ، وترك بصماته على الحياة السياسية ، كان لابد ان يتنافس فيها المتنافسون ٠ من هنا ندرك الأهداف الحقيقية للغزو الحبشى لليمن ، فقد كانت مملكة اكسوم ترى فى هذه المنطقة امتدادا طبيعيا لملكتها المزدهرة آنذاك ، وما دامت حمير غير قادرة فى أخريات أيامها ، بضعفها وتفككها ، على ادارة هذا الاقليم الحيوى ، اذن فلتقم أكسوم بهذا الدور ، حتى وان كانت الأسباب المعلنة، الانتقام لضحايا نجران ، يعضد أكسوم ، بل ويدفعها الى ذلك دفعا ، الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية ، حيـــث تخبرنا المصـــادر أن الامبراطور جوستين أرسل الى أسقف الاسكندرية ، يطلب اليه أن يستخدم نفوذه لدى ملك أكسوم ، لسرعة انجاز هـــذه الحملة العسكرية ، بما لكنيسة الاسكندرية من حق الرعاية على الكنيسة الحبشية ٠ لقد كانت القسطنطينية ترى سيادة حلفائها الأحباش على « بلاد العرب السعيدة»، تدعيما لسيادتها هى فى البحر الأحمر وعلى جانبيه ، كجزء أساسى من صراعها المستمر مع الامبراطورية الفارسية ، اقتصاديا وسياسيا وعقيديا٠ ومن هنا لم تتوان عن تقديم سفنها أسطولا يحمل الأحباش الى اليمن ٠

كان البيزنطيون يعلمون جيدا أن سـفن الفـرس لا تقف فقط عند سيلان والخليج الفارسى والشواطىء الجنـوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية ؛ فقد كان للفرس سفنهم فى عدول ، وليس من المستبعد أبدا أن تكون قد زارت حمير ، كما كانوا يرسلون قوافلهم التجارية الى اليمن ، ويوكلون حراستها لجماعات من العـرب يختارونهم من زعماء القبائل المعروفين الذين يتمتعون بالمهابة فى قومهم(٥٠) ، وكان هذا يثير الريبة فى نفوس البيزنطيين فى نيات الفـرس ، اذ لو تم التقارب بين ملوك حمير والساسانيين ، لوقعت الطرق التجارية الرئيسية المؤدية الى بيزنطة عبر الخليج والبحر الأحمر فى قبضة الفرس ، ولخسر البيزنطيون بذلك خسارة اقتصادية كبيرة ، ولضيق عليهم فى أهم ما يستوردونه من أقصى الشرق ، اعنى الحرير ، خاصـة وأن الفـرس كانوا يسيطرون بالفعل لفترات طويلة ، وان كانت متقطعة أحيانا ، على طريق برى ، لا يقل أهمية عن سابقيه ، يبدأ من وسط آسيا ويمضى محاذيا الساحل الجنوبى لبحر قزوين ، أو الشمالى فى فترة لاحقة ، وينتهى اما الى بحر آزوف أو الى القرم ، فى المواقع التى شيدها البيزنطيون ، أعنى مدينتى بسفور Bosporous وخرسـون Cherson باعتبارهما مخفرين اماميين ، وهو الذى يعرف بطريق الحرير(٥١) .

ولم يكن الاهتمام البيزنطى بشبه الجزيرة العربية ، وما يحيط بها ويمر فيها من الطـريق التجارية ، شـيئا حـديث عهد على الادارة الامبراطورية ، بل ان ذلك يعود الى فترة مبكرة منـذ بدايات العصر الامبراطورى الرومانى ؛ عندما اقدم أول الاباطرة أوكتافيانوس أوغسطس Octavianus Augustus على تكليف والى مصر آيليـوس جالـلـوس Aelius Gallus بتجريد حملة على اليمن ، متخليا بذلك عن سياسة عدم التوسع ، وذلك من أجل تحقيق هـدف اقتصـادى هام(٥٢) . ولتحقيق ذلك حشد هذا الوالى حملة قوامها عشرة آلاف جندى ، وبعض وحدات مساعدة من الحامية المرابطة فى مصر ، وحصل على عون من الانباط مقداره الف رجل ، بعث بهم الملك عبادة الثالث مع وزيره صالح Syllaeus ليكون دليلا للحملة ، وأمده هيرودس ملك اليهود بخمسمائة يهودى ، حملتهم جميعا من ميناء أرسينوى Arsinoe (قرب السويس

الحالية) مائة وثلاثون حاملة للجنود ، يدعمها أسطول حربى من ثمانين سفينة ، اتخذت سبيلها فى البحر عجبا الى ميناء الحوراء (ليوكى كومى Leuke Kome) ، وكان ذلك حوالى العـــام الرابع والعشرين قبـــل الميلاد(٥٣) . وهذه الاستعدادات تدل بوضوح على مدى الاهتمام الذى كان يوليه الرومان لهذه الحملة وما يؤملون عليها من نجاح .

غير ان هذه الحملة بكل ما توافر لديها على هذا النحو ، حققت فشلا ذريعا فى جانبها العسكرى وبالتالى السياسى ، الا أن ذلك لم يهن من عزم أوغسطس ، بل راح هو وخلفاؤه من بعـــد يبدون اهتمامهم المتزايد بهذه المنطقة وطرقها التجارية ، وادى ذلك الى تحول جانب من تجارة الشرق من ميناء « ليوكى كومى » الى ميناء «ميوس هرموس» المصرى (أبو شعر القبلى حاليا)(٥٤) . ومع ادراك أباطرة الرومان لصعوبة الغزو العسكرى المباشر لجزيرة العرب وجنوبها ، لطبيعة المنطقة وبعد الشقة ، ازداد الاهتمام بتقوية أسطولهم التجارى فى البحر الأحمر، وتحسين علاقاتهم السياسية مع زعماء القبائل العربية ، وتعزيز تحالفهم مع مملكة اكسوم ، للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية ، وتحقيق أهدافهم السياسية(٥٥) .

ومع تحول الامبراطورية الرومانية الى المسيحية « كديانة شرعية» riligio licita فى أول الأمر على يد الامبراطور قسطنطين الأول Constantinus I (٣٠٦ - ٣٣٧) ثم ديانة رســمية مع نهاية القرن الرابع الميلادى زمن الامبراطور ثيودوسيوس الأول(٥٦) Theodosius I (٣٧٨ - ٣٩٥) ظهر على مسرح الأحداث عامل جديد كان له دوره الفعال فى تسيير سياســة الادارة الحــكومية فى القسطنطينية ؛ فالامبراطور الرومانى باعتباره أولا « مبعوث الرب »(٥٧) الى الناس ، ثم « نائب المسيح » Vicarius Christi على الأرض من بعـد ، أصبح « مصباح الأرثوذكسية » وحامى ذمار « الايمان القويم » وأسقف المسيحيين خارج دولته ، والمسئول عن التبشير بالمسيحية بين « الأمميين »(٥٨) . وهذه كانت تمثل حجر الزاوية فى الالتزامات المنوطة بالامبراطور باعتباره كما ذكرنا « نائب المسيح » على الأرض .

وفى هذا السبيل أرسل الامبراطور قسطنطيوس Constantius (٣٣٧ - ٣٦١) بعثة قام بها ثيوفيلوس Theophilus حوالى مطلع النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى ، الى اليمن للتبشير بالمسيحية بين الحميريين(٥٩) ، حتى اذا نجحت هذه البعثة التبشيرية فى مهمتها، كان ذلك يعنى تلقائيا امتداد النفوذ البيزنطى الى تلك المنطقة ، فقد كانت الدبلوماسية البيزنطية الذكية ، تضع بين قواعدها الرئيسية التى ترتكز عليها ، أن يتبع النفوذ السياسى البيزنطى الأسقف الأرثوذكسى اينما حط رحاله ووصلت دعواه ، والأمثلة على ذلك عديدة طوال امتداد التاريخ البيزنطى(٦٠) .

ولا يغيب عن أذهـــاننا أن قسطنطيوس كان يدين بالمذهـــب الآريوسى(٦١) ويسعى جهـــده لفرضه على كـــل الكنائس فى شطرى الامبراطورية ، شرقا وغربا ، ولمـــا كان يعلم أن كنيسة أكســـوم تدين بالمذهب النيقى ، منذ قام الأسقف السكندرى أثناسيوس Athanasius (٣٢٨ - ٣٧٢) برسم فرومنتيوس Fromentius أســقفا عليها فى أربعينيات القرن الرابع ، فقد حاول أن يجعـــل من ثيوفيلوس هـــذا الآريوسى فى اليمن ، منافسا لهذا الأخير ، النيقى ، فى أكسوم ، خاصة بعد أن فشلت مهمته لدى ملك اكسوم ، عندما حاول أن يحمله على العداء لأثناسيوس السكندرى(٦٢) .

ولا يبعد مطلقا أن يكون ثيوفيلوس قد حمـــل الى جانب مهمته التبشيرية ، مهمة أخرى تتعلق بالتفاوض مع ملكى أكسوم وحمير لضمان حسن معاملتهم للتجار الرومان الذين كانوا يعبرون ببضائعهم عن طريق اليمن ، والعمل معا لمجابهة السيادة البحرية التجارية للفرس فيما وراء هذه المنطقة باتجاه الشرق(٦٣) ، يزيد من حرصه على ذلك الهزائم التى كانت تتلقاها الامبراطورية على يد الفـــرس فى أعـــالى الفـرات فى تلك الفترة .

ولم يفتر الاهتمام الرومانى بهذا الشريان الحيـــوى الهام ، رغم الاضطرابات السياسية الداخلية التى عانت منها القسطنطينية خلال القرن

الخامس الميلادى ، متمثلة فى الصراع السياسى بين الأحزاب الرومانية والجرمانية والايزورية فى العاصمة(٦٤) ، بالاضافة الى الخلافات العقيدية الحادة التى دهمت الكنيسة المسيحية فى الولايات الشرقية بشكل خاص ، وأسفرت عن انقسام خطير بين كنيستى القسطنطينية وروما من ناحية ، وكنيستى الاسكندرية وانطاكية من ناحية أخرى ، بحيث أصبحت العاصمة الامبراطورية تدين بالأرثوذكسية الخلقيدونية ذى الطبيعتين فى المسيح ، بينما تؤمن كنائس الشرق البيزنطى بالأرثوذكسية ذى الطبيعة الواحدة(٦٥) . ورغم كل ذلك فقد كانت الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية تدرك مدى الخطورة الكامنة التى يمكن أن تترتب على هذا الخلاف العقيدى ، خاصة بينها وبين اكسوم ، التى كانت تتبع الاسكندرية رعويا ، وبالتالى المسيحيين فى حمير ، والذين يتبعون الكنيسة الحبشية ، وبالتالى الكنيسة السكندرية ؛ ذلك أن النساطرة القائلين ببشرية العذراء أم المسيح ، المغلبين ناسوت المسيح على لاهوته، على عكس أصحاب الطبيعة الواحدة(٦٦) والذين كانوا ينتشرون فى المناطق الشرقية ويحظون بحماية الدولة الفارسية ، سارعوا الى انتهاز هذه الفرصة للتبشير بعقيدتهم فى بلاد اليمن ، حيث كان لهم وجودهم فى جزيرة سوقطرة Sukhatara وفى بعض الموانىء اليمنية(٦٧) .

ومع أن هذا النشاط التبشيرى لم يلق استجابة من جانب مسيحيى تلك المناطق ، الا ان بيزنطة كانت تدرك جيدا أن أصابع فارس وراء هذه الجهود النسطورية . ورغم أن الفرس لم يكن يعنيهم فى شىء أمر المسيحية ، بل كان بالتأكيد يغضبهم أن تنتشر هنا أو هناك ، الا انهم رأوا فى هؤلاء النساطرة ورقة ، ربما تصبح رابحة ، اذا أجادوا اللعب بها فى صراعهم مع الامبراطورية البيزنطية . ولعل أدق وصف لهذه الحال ، ما جرى به قلم « جواد على »(٦٨) بما نصه « ... كان العالم آنذاك ـ كما هو الآن ـ جبهتين ، غربية وشرقية ، الروم والفرس، ولكل طبالون ومزمرون من الممالك الصغيرة وسادات القبائل (ونضيف نحن ، وزعماء الفرق الدينية) ، يطبلون ويزمرون ، يرضون أو يغضبون ، يثيبون أو يعاقبون ارضاء للجبهة التى هم فيها . لقد سخر الروم كل قواهم السياسية للهيمنة على جزيرة العرب ، أو ابعادها عن

الفرس وعن الميالين اليهم على الأقل ، وعمل الفـــرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميـــل الى الروم وتؤيد وجهة نظرهم ، وعلى منـع سفنهم من الدخول الى المحيط الهندى ، والاتجار مع بلاد العرب • وعمل المعسكران على نشر وسائل الدعاية وكسب معركتها والفكر ، فسعى الروم لنشر النصرانية فى الجزيرة ، وحرضوا الحبشة على نصرها ونشرها ، وسعى الفرس لنشر المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب الروم والحبشة ، ولتاييد اليهودية ايضا ، ولم يكن دين الفرس يهوديا ولا نصرانيا ، ولم يكن غرض الروم من بث النصرانية ايضا خالصا من الغرض أو بريئا »•

لهذا •• مـــا أن اعتــلى الامبراطور أنسطاسيوس Anastasius (٤٩١ ــ ٥١٨) العـــرش ، وأعلن تخليه تدريجيا عن الأرثوذكســية الحكومية ــ الخلقيدونية ــ وممالأته للأرثوذكسية المونوفيزيتية ، حتى سعى جهده لدرء هذا الخطر الفارسى المستتر برداء النسطورية ، حيث سارع الى ارسال عدد من الاكليروس ورجال البلاط الى أكسوم واليمن لاقامة عدد من الكنائس بهدف اعـــادة الثقة بين المسيحيين هناك فى السياسة العقيدية البيزنطية ، وجـــذب ملك حمير ثانيـــة الى جانب القسطنطينية بعيدا عن الطموحات الفارسية(٦٩) • ومع أن الامبراطور الجديد جوستين الأول (٥١٨ ــ ٥٢٧) الذى خلف انسطاسيوس ، قد تراجع عن سياسة سلفه العقيـــدية ، وعاد الى الأخـــذ بالأرثوذكسية الخلقيدونية ، حتى يحظى بتاييد كنيسة القسطنطينية ، ليضـــفى على اعتلائه العرش الامبراطورى شرعية كان يفتقر اليهـــا فى أول عهده ، الا أن الأحداث التى وقعت فى اليمن فى ذلك الوقت ، جـــذبت انتباه القائمين بالأمر فى العاصمة البيزنطية ، وأضاف بعـــدا جديدا للصراع البيزنطى الفارسى حول هذه المنطقة بأكملها •

لقد كانت الدولتان الفارسية والبيزنطية ، مع بدايات القرن السادس الميلادى ، تتربص كل منهما بالأخرى ، ولم يكن ذلك شيئا جديدا ، بل كان امتدادا لتاريخ طويل من الصراع بينهما عبر قرون عـــدة خلت ، يدعمه اختلاف وبالتالى تباعد حضارى كبير بينهما ، وتقارب فى الحدود أو تماس فى بعض المواضع ، يزيد من هـــذا التباعـــد ويؤجج نيران

العداء ٠ وزاد النار ضراما ، انتقال العاصمة الرومانية من على ضفاف التيبر فى الغرب ، الى شطآن البسفور فى الشرق ، لتصبح أنظار الساسة فى القسطنطينية على مقربة جـــدا من مطامح الساسانيين فى طيسفون Ctesiphon (المدائن) ومطامعهم ٠

وكان اكاسرة الفرس قد وصلوا بدولتهم آنذاك الى درجة كبيرة من القوة السياسية والعسـكرية والاقتصادية ، وراحـوا يهـددون التخوم البيزنطيـــة والولايات الشرقيـــة للامبراطورية ، وكانت منـــاطق الحدود ، خاصة عند أرمينيا وابيريا ولازيقا ، تعد بصفة دائمة نقاط نزاع مستمر بينهما ، واجتاحت الجيوش الفارسية هذه المناطق أكثر من مرة خلال القرون من الثـــالث الى الخامس ، واذا كانت القسطنطينية قـــد افلحت فى التصدى فى بعض الأحيـــان لهجمات الفـــرس ، واستعادة سيطرتها هناك ، الا أن ذلك كان يســـبب قلقا دائما وصـــداعا مستمرا لصانعى السياسة البيزنطية ٠

وزاد من رجحان كفة الفـــرس ، أن الجيش الرومانى لقى الهزيمة على أيديهم عام ٣٦٣ ، وقتل الامبراطور جوليان Julianus واضـطر خليفته جوفيان Juvianus (٣٦٣ ـ ٣٦٤) أن يوقع معاهدة مهينة ، تنازل فيها عن عدد من مناطق الحدود الرومانية (٧٠) وزاد الأمر سوءا انه لم تكد تمضى على ذلك أكثر من خمســـة عشر عـــاما ، حتى منيت الامبراطورية بهزيمة مـــروعة على يد القـــوط الغربيين Visigoths الجرمان سنة ٣٧٨ فى معركة أدريانوبل Adrianopolis حيث قتـل الامبراطور فالنز Valens وخسرت الامبراطورية على أقل تقدير خمسة واربعين الف جندى ، واكتسحت العناصر الجرمانية الأخرى ، النصف الغربى من الامبراطورية ، واقامت على امتداد القرن التالى (الخامس) عددا من الممالك(٧١) ، بحيث فقدت الامبراطورية شطرها ذاك ، ولم يبق لها الا ولاياتها الشرقية المواجهة للدولة الساسانية ٠

ورغم الجهـــود الكبيرة التى بذلها الامبراطور ثيودوسيوس الأول لاقالةالامبراطورية من عثرتها عقيب هـــذه المذبحة فى أدريا نوبل ،

الا انه لم يستطع ان يوقف هطـــول الجـرمان على الامبراطورية ، أو يتصدى لأطماع الفرس على جبهته الشرقية ، فاضطر الى عقـــد اتفاقية معهم قضت بتقسيم أرمينية بينهما ، رغم انها كانت قـد تحولت مؤخرا الى المسيحية . وبموت ثيودوسيوس جاء الطـــوفان ولا عاصم ، حيث ضاع النصف الغربى تحت وطأة ضربات القبائل الجرمانية المتصاعدة ، وخضع الشطر الشرقى لسلسلة من الأباطرة الضعاف الذين عجزوا الى حد كبير عن مواجهة هذه التحديات المتلاحقة ، وانغمسوا حتى آذانهم فى الخلافات الكريستولوجية التى دارت حول طبيعة المسيح ، وشغلت القرن الخامس كله ، وتركت بصماتها واضحة على علاقة القسطنطينية بولاياتها الشرقية ، التى اتخذت فى جملتها - كما أسلفنا - مذهبا يخالف ما آمنت به العاصمة الامبراطورية .

ولا شك ان فارس وجدت فى هــذه الظروف الســيئة التى تحيط بعدوها التقليدى ، فرصة سانحة لتحقيق أهدافها ؛ فقـد كان يعنيها فى المقام الأول أن تقفز الى الولايات الشـرقية للامبراطورية ، ليصلها ذلك مباشرة بالبحر المتوسط الذى كان يعد المركز الحضارى آنذاك ولفترات تاريخية طويلة ، سابقة على هـــذا التاريخ أو لاحقة . وكان هذا شيئا واضحا تماما فى اتجاهات السياسة الفارسية منذ زمن بعيد ، يعود الى القرن الخامس قبل ميلاد المســيح ، وراحت هـــذه الاتجاهات تزداد وضوحا ، بعد أن اعتلت الأسرة الساسانية عرش الأكاسرة فى القرن الثالث الميلادى(٧٢) . وبعد أن انتقلت حاضرة الامبراطورية الرومـــانية الى القسطنطينية منذ القرن الرابع ، وحتى سقوطها فى يد الأتراك العثمانيين فى القرن الخامس عشر الميلادى(٧٣) .

وكانت هناك أمــــور اخـــرى لا تقل عن ذلك أهمية ، فالاطماع الفارسية تجاه المناطق الواقعة على الحدود الشرقية ، والتى كان الفرس يعتبرونها امتـــدادا طبيعيا لدولتهم ، اصطدمت فى القـــرنين الرابع والخامس بزحف الهون **Hunni** ، القبائل الآســيوية التى اكتسحت وسط آسيا وامتد طـوفانها الى قلب الامبراطورية الرومانية ، مـــرورا بشمالى فارس عند بحر قزوين . ولم تكد فارس تفيق من ذلك ، بعد أن

لقى الهون هزيمة قاسية على يد روما عند شالون سنة ٤٥١ ، وتصدع « امبراطورية الخيام »(٧٤) هذه بعد مـــوت زعيمها اتيلا Atilla عام ٤٥٣ ، حتى وجدت الى جوارها قوة اخرى تتمثل فى بعض القبائل التركية التى انضمت الى بعضها البعض فيما يشبه اتحادا كونفيدراليا فى منطقة آسيا الوسطى(٧٥) . هذا بالاضافة الى ظهور قوة جماعات الهون مرة اخرى فيما عرف بقبيلة « الهطل » أو الهون البيض ، الذين اوقعوا بفارس هزيمة قاسية عام ٤٨٤ ، واضطروها أن تدفع لهم الجزية حتى منتصف القرن السادس الميلادى(٧٦) .

واستشعرت فارس الخطر داهما ، عنـــدما تحولت كل من ابيريا Iberia ولازيقـــا Lazica الواقعتين على حدودها مع بيزنطة ، والمتنازع عليهما دائما ، منضما اليهما ارمينية ، الى المســـيحية ، بعد اعتناق ملكيهما لهذه العقيدة ، وقصدهما الى القسطنطينية ، وما صحب ذلك من مظاهر الحفاوة البالغة التى لقياها فى العاصمة الامبراطورية، وما افاض به عليهما الامبراطور من الخلع الثمينـــة والحلى والقـــاب التشريف(٧٧) ، وتلك كانت احـــدى الدعائم الاساســـية للدبلوماسية البيزنطية(٧٨) . وقد تزامنت هذه الاحـــداث تقريبا (حوالى ٥٢٢ — ٥٢٥) مع ما جرى فى اليمن ، وقيام الاحباش بدفع جيوشهم الى هناك.

ومع ادراك الفرس أن الرومان ، عن طريق حلفائهم الاحباش ، قد كسبوا ارضا جديدة فى اقصى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، مع كل ما تمثله المنطقة من أهمية استراتيجية واقتصادية ، وما أيقنوا انه يمثل خطرا فادحا ، بتحول مناطق الحدود الشمالية الى المسيحية ، بعد أن سبقتهما ارمينية الى ذلك منذ القرن الرابع الميلادى ، فقد أقدم الفرس دون توان على احتـــلال ابيـــريا ثم لازيقا سنة ٥٢٧/٥٢٦(٧٩) . ومن الاهمية بمكان أن نلاحظ أن هذا التاريخ ليس ببعيد عن السنة التى شهدت الغزو الحبشى لليمن (حوالى سنة ٥٢٥) . واذا كانت كل من اكسوم ومن ورائها القسطنطينية قد تذرعتا بحماية المسيحيين فى حمير ، فقد اعلن ملك فارس أن احتلاله لهاتين المنطقتين هو من قبيل حماية معتنقى الزرادشتية فيهما(٨٠) . وتلك مسألة لا تحتاج الى تعليق حول مناطق

النفوذ ، سواء كان ذلك فى أقصى الشمال عنـــد البحر الأسود وبحــر قزوين ، أو عند الجنوب القصى فى بلاد العرب السعيدة ، والتى كان كل من القوتين العظميتين آنذاك يسعى للسيطرة عليها فى اطار سياسة التوازن الدولى .

وكان طبيعيا أن ترد القسطنطينية على ذلك ، وهى تدرك خطورة اقتراب الفرس من البحر الأسود ، مما يعد تهديدا مباشرا لها ، لذا فقد هاجمت الجزء الفارسى من أرمينيا ، وعادت هذه القوات محملة بالأسرى والغنائم ؛ اذ لم يكن يعنيها آنئذ أن تحتل أرمينيا الفارســية ردا على احتلال الفـــرس لابريا ولازيقا ، بل كان كـــل ما تريده اظهار قوتها لخصمها ، بأنها قادرة على التصدى له بالمثل ، يدفعها الى ذلك شغلها الشاغل المتمثل فى محــاولة اســترداد ولايات النصف الغـــربى من الامبراطورية ، والتى كانت قد ضاعت على يد الجحافل الجرمانية .

وكانت هذه النقطة الأخيرة مما يزيد الامبراطورية الفارسية ، على عهد ملكها الجديد كسرى أنوشروان Chosroes Anushirvan حنقــــا وغيظا، وهى ترى جارتها تستعيد قوتها وحيويتها على عهد امبراطورها جوستنيان الأول Justinianus I الرومانى القلب والقالب ، والذى كان يؤمن باليقين كله أن امبراطورية رومانية لا يســتقيم امرها ولا حتى اسمها ، دون روما القديمة على ضفاف التيبر ، والتى أخضعت جبينها كارهة لقبيــلة القوط الشرقيين Ostrogoths الجرمانية ، وأن رومــا الجديدة عند البسفور لا تغنى عن سميتها القديمة شيئا ، ومن ثم وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش ، خلفا لخاله جوستين ، أن يسترد من أيدى الجرمان ، ولايات الغرب الرومانى الضائعة ، مهما كلفه ذلك من جهد ومال ، وليس أدل على ذلك من أن الرجــل أمضى نيفــا وخمسا وعشرين سنة ، من فترة حــكمه البالغة ثمانية وثلاثين عاما ، يدفع بجيوشه وخزائنه لحرب الممالك الجرمانية التى قامت فوق الأرض الرومانية فى الغرب ، كان من بينها ثلاثة وعشرون عاما كاملة (٥٣٣ ـ ٥٥٥) أنفقها فى استرداد ايطاليا وحدها .

ولما كانت الدبلوماسية البيزنطية تعتمــد أساسا فى جوهرها على

عدم خوض حرب فى جبهتين فى وقت واحد(٨١) ، فان جوستنيان لم يعمد - كما رأينا - الى احتـــلال أرمينية الفارسية ، اذ لم يكن على استعداد للدخول فى حرب سافرة مع فارس ، قد تؤدى الى معـــركة حاسمة يعرف مقدما أن فرصته فيها قليلة ، مادامت جيوشــه تعمل فى الغرب ، من هنا ظل حريصا طيلة عهده (٥٢٧ - ٥٦٥) على أن تبقى حروبه مع فارس ، مجرد مناوشات على الحـدود ، تعقبها المفاوضات لعقد هدنة أو اقرار معاهدة للسلام ، يسكت من خلالها جوستنيان خصومه الى حين ، بما يقدمه اليهم من الأموال جزية كل عام · وقـد نجحت الدبلوماسية البيزنطية على عهد جوستنيان فى هذا المجال نجاحا منقطع النظير ، وان كان على حساب الخزانة الامبراطورية · وهذا واضح تماما من المراسلات التى دارت بين كل من عاهلى فارس وبيزنطه(٨٢) ·

كان الفـــرس يدركون ذلك كله جيـــدا ، ويستشعرون خطورة الانتصارات التى قد يحققها خصمهم فى الغرب ، مخافة أن تنتهى الحرب الاستردادية سريعا ، فتســتدير القسطنطينية - كعـــادتها - لمجابهتهم والتفرغ لهم ، وزاد من مخاوفهم أن جوستنيان تمكن من القضـــاء على الثورة الشعبية العارمة التى استهدفت قلب نظام الحـكم فى أول عام ٥٣٢ ، وخرج منها أقوى بأســا وأشد قوة(٨٣) ، ليتربع على عـرش الامبراطورية من بعد أربعا وثلاثين سنة ·

ولم يكن يخاف على جوستنيان ، القلق الذى يستبد بالفرس تجاه مشروعاته الاستردادية ، ولا كان غافـــلا عن أطماحهم وأطماعهم فى ولاياته الشرقية ، ولا كان على استعداد لخسارة هذه المناطق التى يرتكز عليها اقتصاد الامبراطورية لحساب ولايات الغرب الفقيرة ، وكان يدرك أن الفرس يعانون من ثقل وطأة الجزية التى يدفعونها ســنويا للهون البيض على حدودهم الشرقية ، ومن ثم كان على استعداد لتعويضهم عن هذا الذى يدفعونه لقاء سكوتهم عن حـــروبه الاستردادية فى الغرب ، وتركه يتفرغ لانجاز هذا المشروع الضـــخم الذى يعتبر حجر الزاوية فى سياسته الخارجية ·

واذا أضفنا الى هذا كله أن العملة الساسانية كانت تضرب بشـكل

عام من الفضة ، وأنها نادرا ما كانت تسك من الذهب(٨٤) ، أدركنا لماذا كان يسيل لعاب الفرس للحصول على النقود البيزنطية الذهبية . وتدلنا رسالة بعث بها الملك الفارسي قباذ - سلف كسرى - الى جوستنيان ، على صدق ذلك ، فقد ورد فيها : « ... لقد تاكد لدينا اننا اخوة يعين أحدنا الآخر فى حاجته ، وعليه اذ دخلنا فى معارك مع اعدائنا المجاورين ، ودفعنا لبعضهم الاموال استرضاء ، فقد افلست خزائننا ، ولما لم تفلح محاولتنا مع سلفيكم انسطاسيوس وجوستين ، لتقديم الأموال الينا ، اضطررنا لمهاجمة حدودكم حتى نحذركم ، اما الحرب واما المال »(٨٥) .

وكانت الامبراطورية البيزنطية على عهد أنسطاسيوس قد تعهدت فى عام ٥٠٥ ، بمقتضى معاهدة السلام التى وقعتها مع فارس ، بعد الهجمات التى تعرضت لها من جانب قباذ ، بدفع مبلغ خمسمائة رطل من الذهب سنويا(٨٦) ، غير أن هذا الرقم ارتفع فى معاهدة السلام التالية التى وقعت سنة ٥٣٢ والتى عرفت بمعاهدة السلام الدائم ، ليصل الى أحد عشر الف رطل من الذهب سنويا . ولما كان من المستحيل أن يدوم السلام ، فقد قبل جوستنيان فى عام ٥٤٥ مكرها أن يقدم لفارس الفى رطل من الذهب مقابل عقد هدنة مدتها خمس سنوات(٨٧) . وما أن انقضى أجل الهدنة حتى كان على القسطنطينية عند تجديدها سنة ٥٥١ لمدة خمس سنوات أخرى أن تدفع الفين وستمائة رطل من الذهب(٨٨) . حتى اذا جاء عام ٥٦٢ وتم توقيع معاهدة سلام جديدة مدتها خمسون عاما ، كان على الامبراطورية أن تدفع ثلاثين الف رطل من الذهب دفعة واحدة مقدما عن السنوات السبع القادمة ابتداء من عام ٥٦٢ ، وأن تدفع فى بداية السنة الثامنة ، ما يعادل جزية ثلاث سنوات تالية ابتداء من عام ٥٦٩ ، ثم تدفع الاقساط بعد ذلك بانتظام الى نهاية السنوات الخمسين التى حددتها المعاهدة(٨٩) .

واضح اذن أن الفرس كانوا يصرون على استنزاف الذهب البيزنطى التى امتلأت به خزائن الامبراطورية ، والذى حدث عنه المؤرخ المعاصر يوحنا الليدى(٩٠) Ioannes Lydus بقوله انه كان آلافا من أرطال

الذهب يصعب حصرها ، وذلك عند وفاة الامبراطور أنسطاسيوس عام ٥١٨ ، بينما قدره بروكوبيوس بما يقرب من ثلاثمائة وعشرين الف رطل من الذهب ، زاد على مدار السنوات التسع التى أمضاها جوستين على العرش ، حسب رواية بروكوبيوس ، على ما ادخره أنسطاسيوس على امتداد عهده البالغ سبعا وعشرين سنة(٩١) ، بالاضافة الى ما جمعه جوستنيان نفسه طيلة أيامه ، وهو كثير ، حتى أمست الخزانة البيزنطية فعلا فى نهاية عهد جوستنيان ، تعانى الافلاس من جراء هـذا النزيف المتدفق باتجاه فارس ، وتيار الانفاق الهادر بلا حساب على أتون الحرب الاستردادية فى الغرب ، بعد أن فشلت خطته القائمة على أن الحرب تاتى بنفقات الحرب ، ثم المنشآت المعمارية الضخمة ، العسكرية منها والمدنية على حد سواء •

ولعله مما يؤكد حرص الفرس على الذهب البيزنطى ، أنهم راحوا منذ عام ٥٢٩ يثيرون فى مفاوضاتهم مع البيزنطيين ، مسألة استعادة منجمين للذهب كانا يقعان على الحدود بين أرمينيا الفارسية وأرمينيا الرومانية ، مرددين دائما أن الامبراطور انسطاسيوس كان قد استولى عليهما ، وظلوا يلحفون فى طلبهم رغم توقف المفاوضات أكثر من مرة ، الى أن تحقق لهم ما أرادوا بمقتضى معاهدة السلام الدائم التى وقعت عام ٥٣٢ ، والتى نصت على عودة المنجمين الى السيادة الفارسية(٩٢) •

وكانت لهفة الفرس على العملة الذهبية البيزنطية ، وفى الوقت نفسه ، مخاوفهم وطموحاتهم ، كلها فى وقت واحد ، تزداد كلما صكت مسامعهم أنباء انتصارات يحققها جوستنيان فى حروبه الاستردادية ، فقد أذهلتهم مفاجأة استعادة الامبراطورية لولاية أفريقيا الرومانية من يد الوندال Vandal اثر حملة خاطفة قام بها قائده الأشهر بليزاريوس Blisarius عام ٥٣٣ وعاد منها الى القسطنطينية وفى ركابه الملك الوندالى جليمار Glimer أسيرا ، وبين يديه الكنوز الضخمة التى كان الوندال قد سلبوها من كنيسة القديس بطرس فى روما ، عند مهاجمتهم لايطاليا عام ٤٥٥ ، عندها لم يتمالك الملك الفارسى نفسه من الغيظ ، فكتب الى الامبراطور البيزنطى يطلب اليه اقتسام هذه الأسلاب

باعتباره شريكا فى صنع هذا النصر ، بالتزامه الحياد بمقتضى معاهدة سنة ٥٣٢ !! والطريف أن جوستنيان رغم اشمئزازه من هـــذا المطلب الفارسى ، الا أنه حقق رغبة العاهل الفارسى وأرسل اليه بعض الأموال فى شكل الهدية على سبيل الترضية !!(٩٣) ٠

ولم يكد يمضى على ذلك سبعة اعوام ، حتى كان بليزاريوس قـــد نجح عن طريق الخديعة ، فى القبض على ملك القـــوط الشرقيين فى ايطاليا ، ودخول العاصمة رافنـــا Ravenna ، وهىء للجميع ساعتها ان مملكة الأوستروقوط قد دالت(٩٤) ، فغلت فى عـــروق الساسانيين دماء الغيظ والخوف فى وقت واحـــد ، فاندفعت جيوشهم لا تلوى على شىء ، لتخرب أجزاء متفرقة من الولايات الرومانية الشرقية ، ولتستولى على لازيقا ثانية والجزء البيزنطى من أرمينية ، ولتقفز الى ساحل البحر المتوسط ، المركز الحضارى ، باحتلال أنطاكية فى العام نفسه (٥٤٠) ، لتحقق بذلك حلما طالما راودها ، وان كان ذلك الى حين ، اذ سرعان ما انسحبوا بعد أن قدم لهم جوستنيان عام ٥٤٥ نقوده الذهبية !!

لم يكن امام الامبرأطورية البيزنطية ، رضيت ام كرهت ، الا أن تدفع بسخاء كل ما يطلبه الفرس من الذهب ، وهذا واضح من نصوص الاتفاقيات التى أشرنا اليها من قبل ، فلم تكن بيزنطه تستطيع أن تفعل غير ذلك ، وهى تضع نصـــب عينيها مشروعها الاســـتردادى الضخم ، ودبلوماسيتها كما علمنا ، ترتكز على عدم الحرب فى جبهتين فى وقت واحد ، ولم يكن الفرس وحدهم فى الميدان يرتجى سكوتهم ، بل كانت هناك شعوب قبلية عديدة تنزل عند حـــدود الامبراطورية فى الشـــمال والشمال الشرقى والغرب ، مثل الهون والعناصر التركية على اختـــلاف مسمياتها ، والآفار والجبيد واللومبارد وغيرهم ٠٠ وكان على بيزنطة أن تستخدم أسلوب الترغيب أو الترهيب هنا وهناك حسب الظروف ، ومن هنا كان الفرس يحتلون المرتبة الأولى فى الأهمية ، حتى لا تعطيهم بيزنطة الفرصة للوصول الى هذه القبائل ، يؤلبونها ضد القسطنطينية ٠

وكان مما يؤلم القسطنطينية الى جانب هـــذا كله ، أن الفـــرس

يسيطرون على الطريق الرئيسى الذى تسلكه تجارة الحرير القادم من الصين ، عبر وسط آسـيا الى الامبراطورية البيزنطية ، والتى كانت تستورد منه كميات هائلة تستخدمها فى الحياة الاجتماعية والسياسية على السواء . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعـداه الى تحكم التجار الفرس فى كميات الحرير الصينى المتجهة غربا الى بيزنطة عن طريق البحر ، أعنى المحيط الهندى وما وراءه سواء الخليج الفارسى أو البحر الأحمر ؛ فقد كانت سفن هؤلاء التجار تصـل الى بعض موانىء البحر الأحمر كما أشرنا من قبل ، ومن ثم كانت سيادة فارس على طرق تجارة الحرير القادم الى القسطنطينية برا أو بحرا تمثل غصة فى حلق العاصمة البيزنطية ، التى كانت تعتبر الحرير الصينى ضرورة حياة !!

لقد كانت القسطنطينية فى القرن السادس الميلادى ، وعلى عهد جوستنيان ، تمثل بتعبيرنا الحديث ، باريس عصرها ، مدينة الأضـواء والشهرة الذائعة ، يقصدها القاصى والدانى ، ويؤمها حجيج المعـرفة وطلاب الحاجات ، والباحثون عن المتعة ، والمولعـون بالثـراء ، والساعون للرزق ، تختلط فيها الأجناس ، وتختلف الألسنة ، وتتباين الأفكار . والمترفون من النبلاء ورجال السـناتو ووجوه البلاط والأسرة الحاكمة ، يتبخترون فى ثيابهم الحـريرية الرقيقة ، المزدانة بخيوط الذهب والمرصعة بالحلى والأحجار الكريمة !! ويدلون بذلك فى خيلاء على الوفود الأجنبية الآتية من كل صقع ، خاصة القبائل النازلة عنـد حدود الامبراطورية ، والذين قدموا للبحث عن معاهدة للسلام ، أو هدنة توقف حـربا ، أو طمعـا فى ألقاب التشريف ، أو تطلعا الى الخلع الثمينة والهدايا من الحلى والثياب الحريرية ، التى تعتبرها شعوب تلك القبائل ، نوعا من التكريم الرومانى يتنافس فيه المتنافسون !!

وقد أمدنا الامبراطور البيزنطى قسطنطين السـابع « الأرجوانى المولـد » Constantinus VII Porphyrogenitus (٩٤٤ - ٩٥٩) فى كتابيه الرائعين « عـن الادارة الامبراطورية De Administrando Imperio » و « عن المراسم De Cerimoniis » بمادة علمية وافرة عن مظاهر الترف التى كان يحيـا فيها البـلاط البيزنطى ، وعن حاجة

القسطنطينية المامة دائما لهذا الحرير لاهدائه الى زعماء الشعوب القبلية ، دليلا على المودة البيزنطية تجاههم . ويعلق هايد (٥) Heyd على ذلك بقوله « لقد كان البلاط حريصا على أن يعرض على أنظار برابرة الشمال صلاته التجارية مع البلدين ، الهند والصين . وكلما ضعفت امكانية الايهام باستعراض مظاهر القوة والجبروت ، زادت الحاجة الى استخدام مثل هذه الوسائل لتاكيد تفوق الامبراطورية الرومانية . ومهما كانت روابط الصداقة بين أمير بربرى وبين بيزنطة ضعيفة ، فان هذه كانت تهدى اليه أو الى مبعوثيه اقمشة حريرية واحجارا كريمة وتوابل ، كذلك كانت كميات كبيرة من الحرير تذهب الى الغرب ، يهديها الامبراطور الى الكنائس او الى رؤساء الاساقفة فيها او الى بعض الأمراء ليصنعوا منها ثيابهم ، اعلاء لهيبة البلاط » . ويضيف مؤرخنا « من هنا كان الفرس يحرصون كل الحرص على أن لا يصل الحرير الى بيزنطة بطريق آخر غير الطريق الذى يجتاز بلادهم ، أو بايد أخرى غير أيديهم »(٩٦) . وكيف لا وقد اثروا من هذه التجارة ثراء حسنا(٩٧) . ولذا .. فان الطريق الوحيد للحصول على هذه المادة الخام الثمينة هو الاتفاق مع فارس . وفى هذا السبيل توصل الامبراطور دقلديانوس Diocletianus منذ أواخر القرن الثالث الميلادى ، الى اتفاق مع الملك الفارسى نارسيس Narses بحيث أصبحت مدينة نصيبين Nisibe الفارسية ، السوق الرئيسى للحرير المستورد من الصين ، ومنها يصدر الى مدن الامبراطورية الرومانية(٩٨) .

ولم تال الدبلوماسية البيزنطية جهدا فى محاولات لاختراق هذا الحصار الفارسى لتجارة الحرير ، وفى سبيل ذلك كان جوستنيان حريصا على أن يمد نفوذه الى شبه جزيرة القرم كلها بعد أن كان قاصرا فقط على مدينتى خرسون وبسفور(٩٩) وذلك بالاضافة الى لازيقا واقليم القوقاز ، هادفا بذلك الى الالتفاف حول مناطق السيادة الفارسية من أجل الوصول الى الحرير الصينى ، خاصة وأنه قد جرت محاولات بيزنطية للاتصال مع الأتراك فى اقليم ما وراء النهر ، بعد أن تمكن خانات الترك من توحيد آسيا الوسطى تحت سلطانهم ، على النحو الذى أسلفنا(١٠٠) . ولعل هذا هو الذى يفسر بوضوح ذلك النقد اللاذع الذى وجهه بروكوبيوس

القيسارى فى كتاباته الى الامبراطور جوستنيان ، عند فقدان لازيقا على يد الفرس عام ٥٤٠ ، متهما اياه بالتقصير فى الحصول على المعلومات الضرورية من عيونه حول تحركات الجيش الفارسى مما أدى الى ضياع لازيقا(١٠١) ٠

وكانت ادارة الخارجية البيزنطية تعلم يقينا ، أن جهودها لحرمان الفرس من الحصول على الأرباح الهائلة التى يجنـــونها بقيامهم بدور الوسطاء فى تجارة الحرير عبر الطريق البرى ، لن تحقق النجاح الذى ترتجيه ، ولذا كانت تتحين الفرص للبحث عن طريق آخر يصلها مباشرة مع مراكز بيع هذه « المادة الثمينة » ، وسرعان ما جاءتها هذه الفرصة على غير توقع ، عندما وضع الأحباش أقدامهم فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العــــربية ، ولم تتوان القسطنطينية عن تأييد الغـزو الحبشى عسكريا ومعنويا ؛ فقد كانت سيادة حلفائها الأحباش على طرفى البحر الأحمر عند مدخله ، تضمن لهم طريقا بحريا آمنا ، كما أملوا ، للحصول على الحرير الصينى بعيدا عن السيادة الفارسية(١٠٢) ٠

وليس بخاف على أحد ، أن سيادة اليهود على اليمن قبل الغــزو الحبشى ، كانت تثير الى حد كبير جـدا مخاوف الساسة البيزنطيين ، ليس فقط بدافع العداء بين اليهود والادارة البيزنطية ، وما نتج عنه من اعتداء على التجار الرومان فى اليمن ، ولكن لما قد تمثله هذه السيادة اليهودية من امتداد للنفوذ الفارسى أيضا الى هذه المنطقة الحيوية والهامة بالنسبة لبيزنطة ٠ وتأكدت هذه المخاوف بعد المراسلات التى دارت بين ذى نواس وملك الحيــرة اللخمى ، الذى كان يدور فى فلك السياسـة الفارسية ٠ هذا بالاضافة الى أن أعدادا من يهود الفرس كانوا قد انخرطوا منذ زمن ليس بالقصير فى سلك الخدمة العسكرية فى الجيش الفارسى ، وحظوا بالاحترام ، على حد تعبير المؤرخ الكنسى يوساب Eusebius القيسارى ، من جانب قادتهم(١٠٣) ، وأن جماعات أخرى منهم قــد عملت بالتجارة وجنت على عهــد الساسانيين ثروات كبيرة ، باقدامهم على ارسال سفن تجارية تعمل لحسابهم الى منطقة القرن الأفريقى(١٠٤) ، ولهذا رحبت بيزنطة ، بل ولعبت دورا أساسيا فى أن تمد مملكة اكسوم

نفوذها الى الشاطىء الآسيوى للبحر الأحمر ، بدلا من أن يقفز اليها - عبر اليهود - النفوذ الفارسى .

ولم يكن من السهل أن يغفر اليهود لبيزنطة دورها فى تدمير مملكتهم الناشئة فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ولهذا فانه بعد مضى أربع سنوات فقط على ذلك ، شرعوا فى تحدى الحكومة البيزنطية والخروج عن طاعتها ، عندما أعلنت جماعات السامريين اختيار جوليان Julianus ملكا عليهم سنة ٥٢٩ ، وأوقعوا بالمسيحيين فى نابلس Neapolis وبيسان Scythopolis وقتلوا منهم أعدادا كبيرة(١٠٥) ، منتهزين فرصة الحرب الدائرة يومئد بين فارس وبيزنطة ، مؤملين أن يمد لهم الفرس يد المساعدة ، غير أن جوستنيان سرعان ما فوت عليهم هذه الفرصة بالدخول فى مفاوضات مع الفرس ، وأوعز فى الوقت نفسه الى الحارث بن جبلة ملك الغساسنة الذى كان يدين بالولاء لبيزنطة ، أن يتصدى لهذا التمرد اليهودى ، ونجح الحارث ومعه القوات البيزنطية فى اخماد هذه الفتنة واعادة الهدوء الى فلسطين(١٠٦) .

على هذا النحو كان جوستنيان يدرك ضرورة الأخذ على يد اليهود بشدة ، حتى لا يشكلوا له طابورا خامسا داخل دولته ، وعونا للفرس عليه ، ومن ثم جاءت خطوته الهامه التالية ، وهى ضرب تجمع تجار اليهود فى جزيرة تيران عند مدخل خليج العقبة ، حيث كانت الجزيرة موضعا لتحصيل الجمارك فى الامبراطورية ، وكان العائد سواء من التجارة أو حصيلة الخدمات التى تقوم عليها ، تشكل دخلا وفيرا . وكانت أعداد اليهود فى هذه الجزيرة قد ازدادت بصورة تلفت الانتباه، خاصة بعد تدمير مملكة ذى نواس وفرار عدد من اليهود اليمنيين اليها واحتمائهم بها ، الى الحد الذى دفع التجار المسيحيين فيها الى الاحتجاج على هذه المضايقات التى يلقونها من جانب اليهود ، ولقيت هذه الاحتجاجات آذانا صاغية لدى الامبراطور جوستنيان ، فأقدم فى عام ٥٣٥ على تدمير هذه المستوطنة اليهودية ، وقضى على نفوذ اليهود فيها، حتى يصبح الطريق التجارى البحرى من رأس البحر عند تيران والقلزم آمنا حتى مدخله فى الجنوب . وقد مثلت هذه الخطوة أهمية سياسية

واقتصادية كبيرة لدى بيزنطة ، حتى أن مؤرخا مثل Sharf (١٠٧) اعتبرها تتمة طبيعية لتدمير مملكة ذى نواس فى اليمن .

وكان جوستنيان قبل ذلك ، وفى سبيل تامين هذا الطريق التجارى ، وتخليص تجارة الحرير من التبعية للفرس ، قد ارسل فى عام ٥٣١/٥٣٢ وفدا الى مملكة أكسوم ، ليطلب الى الأحباش أن يقوموا هم بشراء الحرير من الهنود ، ثم يقومون هم ببيعه للبيزنطيين ، فيصبحون على هذا النحو وسطاء حلفاء ، بدلا من الفرس ، وتذهب اليهم الأرباح التى تجنيها منها فارس(١٠٨) . وقد أبدى الأحباش استعدادهم للقيام بهذا الدور ، غير أنهم كانوا فى الوقت نفسه عاجزين عن الوفاء بذلك ، حيث أن التجار الفرس ، الذين كانوا قريبين من مركز تجمع الحرير فى سيلان ، درجوا على شراء كل شحنات الحرير القادمة من الصين ، فلم يجد تجار الأحباش شيئا يبتاعونه ، هذا بالاضافة الى أن أهل سيلان الذين اعتادوا التعامل مع التجار الفرس منذ عهد بعيد ، لم يشاءوا الاساءة الى هؤلاء عن طريق التعامل مع منافسيهم الجدد(١٠٩) . وهكذا ظل الفرس دون منازع ، يحتكرون هذه التجارة الى ما بعد منتصف القرن السادس الميلادى ، حتى تمكن الامبراطور جوستنيان ، الذى لم يفتأ يبذل المحاولات للخلاص من هذه التبعية الاحتكارية لفارس ، من الحصول على بيض دود القز وبذور شجر التوت ، عن طريق بعض الرهبان المسيحيين ، الذين كانوا قد توغلوا الى وسط آسيا حتى مملكة خوتان Khotan وذلك حوالى عام ٥٥٢ للميلاد(١١٠) .

غير انه كان على بيزنطة أن تتحمل لسنوات طويلة قادمة ، تحكم الفرس فى هذه التجارة ، لأن الطلب البيزنطى على الحرير الصينى ، كان يزداد بصفة مستمرة ، ولم يكن بمقدور هذه الصناعة البيزنطية الناشئة أن تفى باحتياجات الامبراطورية للحرير ، لاستخدامها المتزايد له ـ كما أسلفنا ـ فى الأغراض السياسية والاجتماعية على السواء . لهذا لم يكن أمام القسطنطينية والحالة هذه ، الا أن تكثف نشاطها الدبلوماسى فى الجنوب عن طريق حلفائها الأحباش ، الذين يسيطرون الآن على ساحلى البحر الأحمر عند مدخله .

وفى سبيل ذلك جدد جوستنيان سـفارته برئاسة مبعوثه جوليان حوالى سنة ٥٣١ الى ملك اكسـوم والى « السميفع » Esimiphaeus الذى يذكر المؤرخ المعاصر بروكوبيوس ، أن الأحباش قد اختاروه ليكون ملكا على حمير ، تحت نفوذهم ، خلفا لذى نواس(١١١) . وقد أمل الامبراطور البيزنطى من وراء بعثته هذه أن يجد تجاوبا لدى الأحباش بهدف لفت انظار الفرس الى تلك المناطق عن طريق جرهم الى الدخول فى مناوشات عند منطقة الخليج ، ليخفف الضغط على قواته عند الجبهة الشمالية الشرقية . وبلغت به الآمال مبلغا كبيرا عنـدما سعى جاهدا ليحقق تقاربا بين قوات الأحباش فى اليمن والقبائل العربية فى نجد ، مثـل « المعـديين » Maddeni وذلك للتعاون من أجل الوصول بقواتهم معا الى شرقى شبه الجزيرة العربية ، تهديدا للأراضى الفارسية والنفوذ الفارسى(١١٢) . ورغم الوعود الطيبة التى عاد بها جوليان الى سيده ، الا أن شيئا من ذلك لم يتحقق ، فالأحباش - بغض النظر عن كونهم لا يستطيعون مواجهة الجيـوش الفارسية المتفوقة عليهم عـددا وعدة ، لم يكونوا راغبين أصلا فى الدخول فى حرب مع الفرس على الجانب الشرقى لشبه الجزيرة العربية دون فائدة حقيقية ملموسة تعود عليهم ، واعتبروا ذلك - على حد تعبير بروكوبيوس - صفقة المغبون ، فى أن يقطعوا هذه الصحراء من أجل شن حرب ضد أناس أشـداء فى الحرب(١١٣) ولم تكن القبائل العربية فى نجد بأقل من الأحباش تبصرا بنتائج هذه المغامرة غير المأمونة(١١٤) .

غير أن هذه الجهود الدبلوماسية البيزنطية المكثفة مع مملكة أكسوم وشيوخ القبائل العربيه فى شبه الجـزيرة ، لم تكن لتغيب عن أعين الساسانيين فى فارس ، وهم يقدرون تماما مدى خطورة امتداد النفوذ البيزنطى الى قرب حدودهم الجنوبية الغـربية . واذا كانوا قد ضمنوا سيطرتهم الاحتكارية على طريق الحرير عبر وسط آسيا ، وحققوا نجاحا كبيرا فى استنزاف الخزانة البيزنطية عن طريق المكوس الجمركية على هذه التجارة وغيرها ، والجزية السـنوية التى يحصلون عليها ، فانه لا ضير أيضا أن يمدوا أصابعهم وأنفهم الى هذه المنطقة ، حتى تكتمل

حلقات الحصار الاقتصادى لأهم سلعة بالنسبة لبيزنطة فى زمانها ، حول عدوهم التقليدى ، الامبراطورية البيزنطية ٠

من هنا كان الاحتفال باتمام ترميم سـد مأرب حوالى عام ٥٤٢/ ٥٤٣ فرصة سانحة كى يسارع الفرس بارسال وفود التهنئة الى أبرهة ، الذى غدا الآن حاكما فعليا مستقلا بحكم اليمن ، ضمن سيادة واهنة لملك أكسوم(١١٥) ٠ وحث الفرس حليفهم ملك الحيرة ، المنذر الثالث ، أن يحذو حذوهم ، ففعل ٠ ولم تكن بيزنطة لتترك الساحة للفرس على هذا النحو ، فى منطقة تعتبرها ضمن مناطق نفوذها عن طريق حلفائها ؛ فقدم وفد الامبراطور البيزنطى الى اليمن تحف به وفود الحلفاء ، أعنى الحارث الغسانى وأبا كارب شيخ عرب فلسطين الثالثة(١١٦) ٠ هكذا وجد أبرهة نفسه محاطا برسل أقوى دولتين فى زمانه ، ومن يدور فى فلكيهما ، والكل جاء يخطب وده ويرجو مودته !! مما ترك اثرا بعيدا على شخصيته ، ظهر واضحا بعد ذلك فى سياسته ٠ لكن الذى لاشك فيه أن كلا من فارس وبيزنطة ، كان يطمح فى أن يفسح لنفسه نفوذا عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ٠ ولم يكن أبرهة نفسه بغافل عما يدور فى أذهان هؤلاء وأولئك ، وما تبديه أحاديثهم اليه ، ومن ثم أحسن استقبال الجميع ، لكن أيا من الوعود التى قطعها على نفسه ، خاصة لمن هم على عقيدته ، لم يشأ أن يحقق منها شيئا ٠

لقد كان أبرهة يدرك من اجتماع هذه الوفود لديه كلها فى آن واحد ، رغم العداء الذى يضمره كل منهم تجاه الآخر ، أن الدخول فى لعبة صراع القوى العظمى هذه ، سوف تفقده مكانته المستقلة ومركزه الذى يتمتع به ، فى هذه المنطقة الحيوية لكل من القوتين ، وهو لم يتحرر من نفوذ سيده المباشر ، ملك اكسوم ، وان كان قد ابقى على حبل ضعيف يتمثل فى الجزية ، ليقع فى أيدى الفرس أو البيزنطيين ، وليدخل فى دوامة التبعية التى قد لا يفيق منها أبدا مادام الصراع قائما بين المعسكرين ٠ ورغم أن هواه كان مع البيزنطيين بحكم العقيدة ، الا انه لم يغامر باظهار العداء السافر تجاه الفرس تحسبا لقوتهم العسكرية التى يعلم أبرهة قدرها ٠

والغريب فى الأمر ، والذى يدعو للدهشة فى الوقت نفسـه ، أن السياسة البيزنطية ساهمت ، دون قصد ، على أن يسلك أبرهة هذا المسلك المتحفظ تجاهها ، بل والمستقل . فمن المعـروف ـ كما قـدمنا ـ أن السياسة البيزنطية كانت تعتبـر الأسقف المسـيحى رأس جسر طبيعى وضرورى للنفوذ السـياسى للامبراطورية فى اى منطقة من العـالم المحيط بها ، قرب أم بعد هذا العالم ، وطبقت ذلك الأسـلوب باقتدار ونجاح فى مناطق كثيرة ، الا أنها هنا سـلكت ـ على غيـر عادتها ـ سلوكا مغايرا سبب لها بعض العراقيل فى طريق تدعيم النفـوذ الذى تؤمله . وقد يبدو للوهلة الأولى من الرؤية المتعجلة للأحـداث ، أن الدبلوماسية البيزنطية قد أصيبت هنا بقصر النظر ، لكن شيئا من ذلك ليس واردا فى عصر وصف فيه جوستنيان بانه يعد بحق أستاذ الدبلوماسية البيزنطية(١١٧) . لكن الظروف التى كانت تعيشها بيزنطة عندئذ ، هى التى ساهمت بنصيب كبير فى الاخفاق الذى اعتراها فى هذه المنطقة .

لقد كان الخلاف العقيـدى ـ كما أسـلفنا ـ قائما بين كنيسة القسطنطينية من ناحيـة ، وكنـائس ولايات الامبراطورية الشرقية فى سوريا ومصر من ناحية ثانية ، وكانت كنيسة اكسوم تدين بما تؤمن به الاسكندرية ، وأصبح للاسكندرية منذ القرن الرابع الاشراف الرعوى على الكنيسة الحبشية ، ومن هنا توجه ملك اكسوم الى تيموثى Timotheus الأسقف السكندرى (٥٢٠ ـ ٥٣٦) يطلب اليه أن يرسل من لدنه أسقفا ، له من المهابة ما لراعيه ، ليصحب الحملة المتجهة الى اليمن(١١٨) ، ولم يتوان تيموثى ، فارسل على الفور أسقفا يصحبه عـدد من القسيسين ، بهدف اعادة تنظيم الكنيسة فى اليمن بعد الأحداث التى تعرضت لها على يد ذى نواس(١١٩) . ولا شك أن هذا الأسقف كان من أصحاب الطبيعة الواحدة ، الا أن فتره مكثه هناك لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما مات ، ودارت المراسلات من جديد فى سبيل الحصول على من يرعى كنيسـة اليمن بدلا منه .

غير أن هذه المراسلات توقفت فجاة ، واعلن أبرهة رفضه استقبال أسقف جديد(١٢٠) ، وكان ملك اكسوم قد سلك فى الوقت نفسـه ذلك السبيل(١٢١) . بل ان الأمر وصل الى حد قتل الأسقف الذى ارسـله

الامبراطور البيزنطى الى اكسوم بعد وصوله اليها بوقت قصير(١٢٢) ولا شك أن هذا التصرف من جانب ملكى أكسوم واليمن ، يعود الى تغيير جذرى فى السياسة العقيدية أقدمت عليه القسطنطينية •

لقد كان الامبراطور جوستنيان يضع نصب عينيه مبدأ لا يبغى عنه حولا ، يتلخص فى القول بدولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة ، وفى النقطة الأخيرة ، فانه بايمانه المطلق بالقيصرية البابوية Caesaropapism كان يعتقد يقينا بأنه وحده له الحق فى اختيار المذهب الذى تدين به رعيته • غير أن السياسات الدولية فى زمانه اضطرته فى كثير من الأحيان الى عدم الثبات على اتجاه واحد فى المسألة الدينية • كان الامبراطور كما يصفه المؤرخون ، آخر الأباطرة الرومان(١٢٣) ، رومانى القلب والقالب • كان قلبه يهوى الغرب ، لكن بصره كان معلقا بالشرق ، وبين قلب الامبراطور وبصره ، تارجحت فى العقيدة سياسته•

فقد اقدم جوستنيان فى أول عهده على ممالأة أصحاب الطبيعة الواحدة ، أو بتعبير أدق ، أهالى الولايات الشرقية ؛ ذلك أنه كان مقدما على الدخول فى حرب « المناوشات » مع فارس ، ومن ثم حرص على استرضاء أهالى هذه الولايات ، حتى لا يسمح للنفوذ الفارسى أن يمتد اليها ، فيشكلون شوكة فى ظهره أثناء مواجهته للفرس ، حتى اذا انتهى الأمر بعقد معاهدة السلام الدائم عام ٥٣٢ ، وأمن جوستنيان - ولو الى حين - جانب الفرس ، وبدأ مشروعه الضخم لاسترداد ولايات الغرب ، أصبح فى حاجة ماسة للحصول على تأييد البابا فى روما ، حتى يضمن وقوف شعب الكنيسة الرومانية فى ولايات الغرب الى جانبه • ولما كانت كنيسة روما تدين بالخلقيدونية ، فقد أدار ظهره الآن لكنائس الشرق ورعاياها وراح يعزل الأساقفة المنافزة فى القسطنطينية وأنطاكية والاسكندرية ، ويحل محلهم أساقفة خلقيدونيين(١٢٤) •

وكان الأسقف السكندرى ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٥٣٦ - ٥٣٨) الذى خلف تيموثى ، ممن شملهم قرار العزل ، ليحل محله أسقف جديد يدعى بولس (٥٣٨ - ٥٤٢) يدين بالمذهب الخلقيدونى(١٢٥) • ولعل هذا هو الذى يفسر لنا الآن ، اقدام كل من

ملك اكسوم وملك اليمن على رفض استقبال الأساقفة الخلقيدونيين الذين ارسلهم جوستنيان أو حاول ارسالهم ، وظلت كنيستا اكسوم واليمن شاغرتين قرابة خمسة وعشرين عاما(١٢٦) .

ورغم ان ابرهة كتب الى الامبراطور جوستنيان،يطلب اليه ارسال أسقف يكون المسيحيون هناك على استعداد للتعامل معه ، أى يدين بمذهبهم ، الا أن جوستنيان رفض ذلك ، أو لعله راح يماطل فى تحقيق هذا المطلب(١٢٧) ، رغم أنه كان مهتما جدا - كما نعلم - باستمالة مملكتى اكسوم واليمن الى صفه للوقوف معه فى صراعه مع فارس . غير ان حلم الامبراطور البيزنطى وطموحه لاسترداد ولايات النصف الغربى من الامبراطورية ، أملى عليه سياسته العقيدية على هذا النحو ، مما اعطى الفرصة لابرهة نفسه ، أن ينهج نهجا مستقلا الى حد بعيد فى سياسته الخارجية ، وان كان هذا لم يؤد بالضرورة الى تقطع حبائل العلاقات الودية بين القسطنطينية وصنعاء .

لقد كان مما يعنى القسطنطينية فى المقام الأول ، أن يظل نفوذها السياسى ممتدا الى هذه المنطقة ، وأن يبقى أبرهة حليفا ضد المدائن ، بل ان ابرهة نفسه كان حريصا الحرص كله على أن تظل علاقاته السياسية والاقتصادية طيبة مع بيزنطة ، حتى يضمن وقوفها دائما الى جانبه ، خاصة وهو يعلم ان ملك اكسوم لم يكن ليغفر له استقلاله بالأمر دونه فى اليمن(١٢٨) ، وان كانت ظروفه العسكرية لم تسمح له بالتخلص منه . ولذا لم يترك ابرهة الفرصة لهذه الخلافات المذهبية بين صنعاء والقسطنطينية أن تؤثر فى طبيعة العلاقات بين الحليفين . بل ان بعض الباحثين يذهب الى القول بأن ابرهة ربما يكون قد قبل فى نهاية الأمر، أمام اصرار جوستنيان ، وحتى لا يفقد صداقته ، وجود أسقف خلقيدونى فى مملكته(١٢٩) .

كان أبرهة يدرك تماما الأهمية الاستراتيجية التى تحتلها المنطقة التى يسيطر عليها فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ويعى بصورة واضحة المكانة التجارية التى تمثلها اليمن فى عالم الاقتصاد الدولى آنذاك ، وبالتالى الصراع السياسى بين اكبر قوتين فى زمانه ،

ورأى - كى يفلت من الدوران فى فلك أى منهما ، أن يحاول وضع قدم له بين العملاقين ، واذا كانت بيزنطة تسيطر بأسطولها فى القلزم وتيران على البحر الأحمر ، وتتحكم فارس بسفنها فى تجارة الخليج والمحيط الهندى حتى سيلان ، وبموقعها ، على الطريق البرى عبر وسط آسيا ، فلم لا يقدم هو الآخر على البحث عن طريق يخضـــعه لسلطانه ، وهو الطريق الذى كان قائما منذ زمن بعيد ، والذى يبدأ من صنعاء ويتجه شمالا ليمر بالمدن الرئيسية كالطائف ومكة ويثرب الى دمشق ، وهو الذى يربط اليمن بعالم البحر المتوسط ، والسيطرة على هذا الطريق تحقق دون شك فائدة اقتصادية هامة للجنوب العربى .

ولا شك أن اقدام ابرهة على نقل عاصمة اليمن من ظفار (حاضرة الحميريين) الى صنعاء التى تقع الى الشمال ، كان خطوة على هـــذا الطريق ، وامتد اهتمامه الى مارب ليعيد ترميم ســدها الشهير ، ويقيم فيها قصرا وكنيسة(١٣٠) . وكانت الخطوة التالية بلوغا الى الشام ، تعنى القفز على مكة ، المركز التجارى الهام لمنطقة شبه الجزيرة العربية كلها ، وقبلة الحجيج الى الكعبة باوثانها قبل الاسلام ، ومنتدى الشعراء والفصحاء والبلغاء بأسواقها الثقافية . ولم يكن الوثوب الى مكة آنئذ بالأمر الهين أو اليسير ، فهذا يعنى أن تتوحـــد القبائل العربية الوثنية كلها ضـــد ذلك الملك المسيحى الذى يريد بهـم وببلدهم وآلهتهم شـــرا مستطيرا ، حتى وان لم يؤد هذا التوحد الى احتجاج عملى حاسم ، فانه سوف يحمل فى جوهره مشاعر عدائية بالغة تجاه أبرهة ، فى وقت كان هو وحلفاؤه البيزنطيون حريصين على استمالة هذه القبائل ضـــد عدوهم المشترك ، الفرس . وكان جوستنيان من جانبه قد سار فى ذلك خطوات واضحة واسعة ، فالغساسنة يمثلون بالنســـبة له ، خط دفاعه الأول ضد فارس ، أو بتعبير آخر ، « دولة حاجزة » فى مقابل المناذرة اللخميين فى الحيرة ، الذين كانوا يلعبون الدور نفسه بالنسبة للفرس . ونادرا ما كان العـــداء بين القبيلتين العربيتين يتوقف حتى فى أوقات الهدنة بين فارس وبيزنطة !!

ولم يتردد جوستنيان فى أن يخلع على الحـــارث بن جبلة لقب الملك عام ٥٣٠ ، جزاء الحسنى على ما أظهـــره من ولاء للامبراطورية

اثناء حروبها مع فارس(١٣١) ، واشتراكه مع القـوات الرومانية فى اخماد فتنة اليهود عام ٥٢٩ ٠ وفعل الامبراطور نفس الشيء أيضا مع ابى كارب بن جبلة الذى كان يسيطر على عرب فلسطين الثالثة ، الغنية جدا بنخيلها مثل تيماء ، مثلها مثل مناطق بنى كلب فى الشمال من صحراء النفود ٠ وقـد اعتـرف به جوسـتنيان حاكما معاهدا Foederatus على هذه المنطقة(١٣٢) التى تعود أهميتها أيضـا الى سيطرتها على المراكز التجارية الهامة للتجارة البيزنطية فى البحر الأحمر ، مثل ميناء الحوراء وتيران ، شانها فى ذلك شان تبوك وتيماء ومدائن صالح(١٣٣)٠ هذا كله بالاضافة الى سعى جوستنيان لاستمالة قبائل المعديين فى نجد عن طريق استقطاب شيخهم قيس ، الذى دكرنا امره آنفا ٠

وليس بخاف أن تجار مكة كانوا يقومون برحلتى الشتاء والصيف الى اليمن والشام(١٣٤) ، وأن هذا الأمر ، بالاضافة الى وجـود البيت الحرام ، قد رفع من قـدر مكة وزعمائها القرشيين فى أعين القبـائل العربية كلها ، وأصبح لهم من المكانة والمهابة قدرا كريما ٠ ومن المعروف أيضا أنهم فى رحلتهم الى الشام كانوا يصـلون الى بصرى ، حاضرة العربية الشمالية ، بعد أن يدفعوا مكوسا معينة تسـمح لهم بالمرور الى الأراضى البيزنطية ، أو الواقعة فى فلكهم ٠ وعلى طبيعة هـذه العلاقة التجارية كانت تتوقف العلاقات السياسية ؛ اذ قـد يقع الضرر أحيـانا بالتجار العرب من جـراء زيادة المكوس الجمركية ، لكن بيزنطة كانت تحرص دائما على استرضاء عرب الحجاز هؤلاء ، لفتح المجال للتجار البيزنطيين للمرور عبر بلادهم الى الجنـوب ، أو لاستخدام نفـوذهم ومكانتهم فى نفوس القبائل لمنعهم من الاغارة على الحـدود البيزنطية الجنوبية(١٣٥) ٠ ويذكر بعض الباحثين أنه كان يوجد فى مكة بيوت تجارية بيزنطية تزاول الشـئون التجارية الخاصة بالامبراطورية ، كما كان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية ، حتى عرفت مكة بأنها « بندقية العرب »(١٣٦) ، هذا بينما كان الفـرس يستعينون بعرب الحيرة لحماية قوافلهم التجارية المتجهة الى قلب الجزيرة العربية(١٣٧)٠

وقد ساعد هـذا كله زعماء مكة على عقـد معاهدات تجارية مع

الشعوب المجاورة ، فعقد بنو عبد مناف معاهدات لقريش ، منها مثلا ما عقده هاشم مع ملوك الشام ، وما عقده عبد شمس مع ملك الحبشة ، ونوفل مع فارس ، والمطلب مع حمير ، ليفد العرب على هذه البلاد كلها(١٣٨) ، لهذا كله كانت مكة تشكل بموقعها الجغرافى ومركزها الاقتصادى ومكانتها السياسية ، أهمية خاصة لدى البيزنطيين والأحباش فى اليمن على السواء ؛ فالقسطنطينية تعتبرها واسطة العقد فى سلسلة مناطق النفوذ بلوغا الى الجنوب ، بينما أبرهة ينظر اليها ضمن منطقة تهامة كلها والمنطقة الساحلية ، على انها بصورة تقليدية واقعة ضمن مناطق سيادة حكام اليمن ، من ناحية كونها ضرورية لتأمين الطريق التجارى الذى يصلهم بالشام .

لم يكن أمام أبرهة اذن والحالة هذه ، اذا أراد تجنب سخط القبائل العربية ، لما قد يحدثه وثوبه على مكة ، الا أن يسلك سلوكا آخر يفضى الى تقليص دور مكة التجارى تدريجيا ، ونقله الى صنعاء ، وصرف أنظار العرب عنها عقيديا ببناء كنيسة فى عاصمة ملكه ، يطوف العرب بها كما يفعلون عند الكعبة فى مكة ، فيضمن بذلك أيضا تحويلهم الى المسيحية . وشمر ملك اليمن عن ساعد الجد ، فابتنى كنيسة ضخمة فى صنعاء(١٣٩) عرفت باسم « القليس » Al-Qullais (١٤٠) ونقل اليها بعض آثار شهداء نجران ليضفى عليها ـ كما للكعبة ـ نوعا من القداسة(١٤١) ، واصدر عددا من المراسيم يوجب بمقتضاها على العرب الخاضعين لسلطانه ، الحج الى هذه الكنيسة ، بينما أرسل بهذا المعنى وفودا الى المناطق العربية الخارجة عن نفوذه ، مؤملا بذلك أن يحول الحجيج من مكة الى صنعاء(١٤٢) .

وداعبت الأحلام والآمال أبرهة فى أن ترث صنعاء مكة ، وأن تحل المسيحية محل الوثنية ، متناسيا أن الصحراء العربية الواسعة وقفت حائلا منيعا أمام امتداد المسيحية الى داخل شبه الجزيرة العربية بعد أن وقفت عند أطرافها فقط(١٤٣) . وبالتالى نجت من الوقوع تحت السيادة البيزنطية . بالاضافة الى أن طبيعة المسيحية نفسها لم تكن تتفق فى كثير من جوانبها مع واقع الحياة القبلية عند العرب . ورغم احتكاك التجار العرب فى رحلتى الشتاء والصيف ، بالمسيحيين فى اليمن والشام ،

الا أن سادات مكة حافظوا على وثنيتهم ، لارتباطها بمركزهم السيادى بين القبائل العربية ، باعتبارهم سدنة الكعبة وحماة الأرباب . ومن ثم كان أمرا دونه خرط القتاد أن تولى القبائل العربية مكة دبرها متحرفة الى صنعاء ، حتى وان فاقت كنيستها الكعبة بهاء وفخامة .

وأدرك أبرهة بمضى الوقت أن مشروعه الضخم هـذا لن يكتب له النجاح ، وأنه اذا بقيت مكة وكعبتها ، فلن تقوم لصنعاء و « قليسها » قائمة . ومن ثم فقد عزم على ان ينفذ ما كان من قبل يراوده ، من القفز مباشرة على مكة للقضاء على مكانتها سياسيا واقتصاديا وعقيـديا فى نفوس القبائل العربية ، وليخلو الجو لمنافستها ، صنعاء . هذا بالاضافة الى انه سوف يحقق بذلك لنفوذه امتدادا سياسيا يصله مباشرة بالممتلكات البيزنطية فى جنوب الشام وشمال شبه الجزيرة . ومما لا ريب فيه أن الامبراطورية البيزنطية نفسها كانت تجد فى هذه الحملة التى يشـنها أبرهة على مكة لاخضاعها لسلطانه ، خطـوة فى سبيل تحقيق أهدافها بالوصول الى الجنوب العربى عن طريق ربط هذه المناطق ببعضها ابتداء من فلسطين الثالثة ووصولا الى أقصى الجنوب فى اليمن ، مرورا بمكة . ويعلق جواد على على ذلك بقوله : « وهكذا يحقق البيزنطيون والاحباش نصرا سياسيا واقتصاديا كبيرا ، فيتخلص البيزنطيون بذلك من الخضوع للأسعار العالية التى يفرضها الساسانيون على السـلع التجارية النادرة المطلوبة ، والتى احتكروا بيعها لمرورها ببلادهم ، اذ سـترد اليهم من سيلان والهند رأسا عن طريق بلاد العرب(١٤٤) .

ورغم ما تورده المصادر العربية ، من أن قيام أبرهة بمهاجمة مكة ومحاولة هدم الكعبة ، انما جاء انتقاما لما أوقعه أحـد رجال كنانة بالقليس(١٤٥) ، الا أن هذا لا يمكن مطلقا أن يكون سببا كافيا لهـذه الحملة ، حتى وان صـحت الرواية . لكن علينـا أن نبحث عن هـذه الأسباب فى محاولة بسط نفوذه السياسى على هـذه المنطقة الهامة ، استكمالا لسيادته على اليمن واستقلاله بها عن ملك اكسوم ، ولتحقيق الرخاء الاقتصادى لدولته فى الجنوب العربى ، واسهاما فى الوقت نفسه فى تحقيق آمال حلفائه البيزنطيين بالتخلص من الاحتكار التجـارى الفارسى للسلع الثمينة والهامة للامبراطورية البيزنطية .

ولا شك أن نجاح أبرهة فى مد نفوذه الى مكة ، ووصل ما بينه وبين ممتلكات البيزنطيين فى الشام ونفوذهم فى أقصى شمال شبه الجزيرة العربية ، كان يشكل للدولة الفارسية تحديا خطيرا من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، اذ تصبح هذه القوة الجديدة خصما مخيفا لفارس(١٤٦) خاصة اذا دانت القبائل العربية فى نجد والمناطق المجاورة لها على ساحل الخليج بالسيادة للبيزنطيين والأحباش(١٤٧) ، ولهذا كانت فارس تنظر بعين الحذر الدائم ، والقلق والترقب ، لكل ما يجرى حولها فى منطقة شبه الجزيرة العربية ٠

غير أن الحملة الضخمة التى قادها أبرهة بنفسه الى مكة ، ووفر لها الاستعدادات العسكرية الضخمة ، وجلب لها الأدلاء تيسيرا للمسيرة فى دروب لا يعرفها ، اصيبت بالفشل ، وحققت اخفاقا كاملا(١٤٨) ولم ينج من جيش أبرهة الضخم الا النذر اليسير ، حتى أبرهة نفسه مالبث أن مات ، وقد تقطعت أكباده فرقا وحزنا على هذه الخسارة الفادحة التى منى بها ، وعلى ضياع آماله وطموحاته ! ولم يكن لدى البيزنطيين آنذاك القدرة على مد يد العون له ، كما حدث عند الغزو الحبشى لليمن؛ فقد كانت بيزنطة غارقة حتى آذانها فى مشاكل حدودها مع جيرانها التى لا تنتهى أبدا(١٤٩) بالاضافة الى الاستنزاف المادى الذى كانت تتعرض له من جراء الجزية الذهبية السنوية التى تقدمها لفارس ٠ وقبل هذا كله فقد كانت الدوائر العسكرية البيزنطية تضع نصب عينيها الاخفاق الذى حاق بالحملة الرومانية التى قادها والى مصر آيليوس جاللوس فى نهايات القرن الأول قبل الميلاد ، بسبب الطبيعة الجغرافية القاسية لهذه المناطق ٠ ورغم ما اعترى بيزنطة من خيبة الأمل لفشل هذه الحملة . الحبشية ، الا أن آمالها هناك لم تخب ابدا ٠

على أن أهم ما فى الأمر ، أن هذا الفشل ، انعكس بصورة واضحة على الوجود الحبشى نفسه فى الجنوب العربى ، وبالتالى المصالح البيزنطية ؛ فقد خلف أبرهة ولداه يكسوم ومسروق على التوالى ، ولم يكن لأيهما شخصية أبيه ، فوقعت اليمن فى الفوضى وشهدت الكثير من الاضطرابات ، وبدأت القبائل العربية فى الجنوب ، والتى لم تكن راضية

أصلا عن هذا الغزو الحبشى المسيحى لليمن ، ترفع رأسها مثيرة العقبات فى وجه ولدى ابرهة ٠ ولم تكن الحبشة فى وضع يسـمح لها باستعادة نفوذ لها كان قد حرمها منه أبرهة ٠

وهكذا سمحت وقائع الأحداث لواحـد من اذواء اليمن ، ينتمى لأسرة عريقة ، هو سيف بن ذى يزن ، أن يعمل فكره فى كيفية استغلال هذه الفوضى السياسية والضعف العسكرى للوجود الحبشى فى اليمن ، للتخلص من هذا الاحتلال ٠ ولم يكن الرجـل بغافل عن لعبة الصراع الدولى بين فارس وبيزنطة حول المنطقة ، ولذا رأى هو الآخر ، كما رأى ذو نواس الحميرى اليهودى ، وكما فعل المسيحيون فى نجران من قبل، ضرورة الاستعانة باحدى هاتين القوتين العظميين لتحقيق أهدافه ٠

والذى يلفت الانتباه ، تبعا لما ورد فى المصـادر التاريخية ، أن سيف بن ذى يزن ، قـد التجأ فى أول الأمر الى الامبراطور البيزنطى ليساعده فى طرد الأحباش من اليمن ، غير أن الامبراطور رفض ، وكان طبيعيا أن يرفض هذا المطلب ، متعللا بانه يتفق والأحباش فى العقيدة، ومن ثم فلا يمكنه تحقيق ما جاء من أجله الزعيم اليمنى(١٥٠) ٠ وقد يبدو هذا الأمر غريبا لأن سيف بن ذى يزن كان يعلم بالعلاقات التى تربط بين الامبراطورية البيزنطية والأحباش ٠ ويقدم أحد الباحثين اليمنيين رأيا طريفا لتفسير هذا الذى اقـدم عليه سيف ، فيقول : « انه عندما ذهب وجهاء القوم الى قيصر الروم ، لم يكونوا ينوون حقيقة الاستعانة بهم ، لعلمهم مسبقا أنه مسيحى يناصر الأحباش ، وانما كان الهـدف تخفيف الضغط ومساومته بالخداع وتقليل مساعدته للأحباش على أقل الأحوال » ، ويضيف : « واليمنى ذكى بالطبع ، عالم بمجارى السياسة ونتائجها ، فلا يغامر مغامرة كهذه غير عارف بمصائر الأمور»(١٥١) ٠

لكن المسألة لا تبدو بهذه البساطة التى يفترضها الباحث اليمنى ، فليس من المنطقى أن يضيع الزعيم اليمنى وقته وينفق جهده عبثا ، من أجل أن يخفف من تأييد البيزنطيين للأحباش ، فى وقت كان فيه البيزنطيون لا يملكون الرغبة وليس عندهم الاستعداد ، ان يقذفوا بجزء من جيوشهم العاملة على الحدود الطويلة ، الساخنة أبدا ، الى هـذه

الأراضى البعيدة بجغرافيتها الصعبة ، وحملة آيليوس جاللوس ماثلة أمام ناظريهم كما اشرنا ، بالاضافة الى أن ادارة الخارجية البيزنطية باتت مقتنعة تماما أن الأحباش فى اليمن أمسوا فى موقف لا يحسدون عليه بعد هزيمة أبرهة عند مكة وموته ، وأن دورهم فى هذه المنطقة قد تقلص ولم تعد له قيمة تذكر .

وهذة النقطة الأخيرة بالذات هى التى تجعلنا نختلف فى الرأى تماماً مع الباحث اليمنى صاحب هذا الرأى ، ونذهب مباشرة الى القول بأن التجاء سيف بن ذى يزن الى الامبراطور البيزنطى ، جاء بوعى كامل لما يفعله ، وادراك حقيقى لطبائع الأمور . فما دام التخلص من النفوذ الحبشى الأجنبى لن يتم - على الأقل فى تلك الظروف - الا بالاستعانة باحدى المعسكرين ، ضمن لعبة الصراع بين القوى العظمى على مناطق النفوذ ، والتى لا بد أن سيفا كان يدرك أبعادها تماما ، اذن فمن الاجدى ، بل ومن الطبيعى ، أن يستعين بصاحب المصلحة الحقيقية والمباشرة فى المنطقة ، أعنى البيزنطيين . واذا كان للفرس اهتماماتهم الكبيرة بما يجرى ليس بعيدا عن حدودهم الجنوبية الغربية ، وما يمثله من أهمية اقتصادية تدعم سيادتهم الاحتكارية على طرق التجارة الذاهبة الى بيزنطة ، الا أن الامبراطورية البيزنطية كانت تعتبر هذه المنطقة جزءا حيويا وهاما جدا فى صراعها مع فارس ، سياسيا واقتصاديا ، لا يقل أهمية عندها عن لازيقا أو ابيريا أو ارمينيا .

فاليمن - بغض النظر عن أهميتها فى حد ذاتها لبيزنطة ، الا أنها فى الوقت نفسه مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب ، وصولا الى مصر ، أهم ولايات الامبراطورية آنذاك من الناحيتين السياسية والعسكرية ، ناهيك طبعا عن الناحية الاقتصادية ، اذ كانت « قبو الحنطة » أو « صومعة الغلال » بالنسبة للقسطنطينية(١٥٢) ، وهى ليست عن طموحات الفرس ببعيد ، ولن تفتأ فارس تسعى لضرب بيزنطة فيها ، حتى تحقق لها ذلك فى بدايات القرن السابع الميلادى ، خلال السنوات الأولى من عهد الامبراطور البيزنطى هرقل **Heraclius** (٦١٠ - ٦٤١) . ومن ثم كانت المصالح البيزنطية فى اليمن ، لا تقف

عند حد الأهمية الاقتصادية ، التجارية بصفة خاصة ، أو امتداد النفوذ السياسى فى الصراع مع فارس ، بل لكونها كما ذكرنا توا ، مفتاح البحر الأحمر من الجنوب وصولا الى « مخزن الغلال » فى شماله ٠

لهذا لم يكن غريبا أن يذهب سيف بن ذى يزن الى الامبراطور البيزنطى يرجو عونه فى طرد الأحباش ، فى مقابل أن يتعهد هو نفسه بحماية المصالح البيزنطية فى المنطقة ٠ وهذا هو ما يقوله ابن هشام بالحرف الواحد ، حيث يذكر « أن سيف بن ذى يزن قدم الى قيصر الروم يشكو اليه ظلم الأحباش ويمنيه بالسيادة على اليمن »(١٥٣) والعبارة الأخيرة لا تدع مجالا للشك فى أن سيفا فعل ذلك وهو يعلم تماما حقيقة المصالح البيزنطية فى المنطقة ٠ ولعل هذا هو الذى يفسر طول مكثه فى القسطنطينية ، والذى امتد قرابة سبع سنوات ، اذا صحت رواية المسعودى(١٥٤) مؤملا أن يستجيب الامبراطور لمطلبه ، وليس من المستبعد ايضا ان تكون القسطنطينية نفسها هى التى تعمدت استبقاء الزعيم اليمنى مقيما فيها طيلة هذه السنوات ، وذلك أسلوب شاع استخدامه كجزء أساسى من قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، مع زعماء الشعوب والدول والقبائل الذين يفدون الى العاصمة البيزنطية يخطبون ودها ٠ الا أن الامبراطور البيزنطى ، رغم اقتناعه ـ كما نفترض ـ بوجهة نظر سيف بن ذى يزن ، الا انه لم يشا أن يمد له يد عونه ، ليس كما يذهب البعض(١٥٥) بسبب العلاقات بين فارس وبيزنطة نتيجة توقيع معاهدة السلام الأخيرة ، لأن فارس نفسها لم تحترم هذه المعاهدات عندما تحول اليها سيف مستنجدا ، ولكن لما فصلناه سابقا من ظروف بيزنطة وسياستها ٠

وجد سيف بن ذى يزن نفسه مضطرا اذن أن يولى وجهه شطر القوة الكبرى الأخرى ، فارس(١٥٦) ، وتمكن مؤخرا من الحصول على عون كسرى أنوشروان الذى أمده بقوة عسكرية قادها وهرز **Wahriz** تمكنت من هزيمة « مسروق » وقضت على قوة الأحباش باليمن ٠ وكتب القائد الفارسى الى سيده يخبره بذلك ، فبعث اليه كسرى يامره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها ، وفرض كسرى على سيف جزية سنوية وخرجا يؤديه اليه فى كل عام ، وكتب الى وهرز أن ينصرف

اليه(١٥٧) ٠ ولا شك أن هذه السياسة التى اتبعها الفرس فى اليمن ، وعودة قائدهم بقواته الى فارس ، تضيف دليلا قويا على صدق ماذهبنا اليه الآن عن ذهاب سيف بن ذى يزن الى امبراطور بيزنطة أولا ٠ فهو الآن أمسى تابعا لفارس يؤدى اليها جزية سنوية ، وكان على استعداد أن يلعب نفس الدور مع بيزنطة ، صاحبة المصلحة الحقيقية فى المنطقة ، من أجل التخلص من الاحتلال الحبشى ٠ ولو لم تكن فارس على يقين بأن بيزنطة ، غير راغبة وغير مستعدة للتصدى لها عسكريا ، لفكرت كثيرا قبل أن تقدم على هذا العمل العسكرى ضد الأحباش حلفاء بيزنطة ٠

بل لقد ذهبت فارس الى أبعد من ذلك عندما أقدمت على الاحتلال الفعلى لليمن وتوابعها وضمها الى دائرة نفوذها وسلطانها تماما ، بعد مقتل سيف بن ذى يزن ومحاولة الأحباش استرداد نفوذهم ثانية(١٥٨) ٠ ولم يأت الفرس هذه المرة بدعوة من أحد ، انما جاءوا بدوافع مصالحهم السياسية والاقتصادية ، وليحققوا بذلك كسبا هاما فى هذه المنطقة الحيوية ، دون أن تلقى مقاومة من جانب الامبراطورية البيزنطية ، ولتظل لفارس السيادة هناك حتى ظهور الاسلام ، وقيام الدولة الاسلامية قوة جديدة من القوى العظمى فى عالم العصور الوسطى ، ودخول اليمن ضمن شبه الجزيرة العربية كلها تحت السيادة الاسلامية ٠

هكذا قدر لفارس أن تكسب الجولة قبل الأخيرة ، من جولات الصراع بينها وبين بيزنطة حول شبه الجزيرة العربية ، بعد استباق طويل بينهما للسيادة عليها اقتصاديا وسياسيا ، أخذ من القرن السادس الميلادى ما نيف على نصفه ، حتى اذا أدرك بيزنطة الضعف ، وبلغ منها الجهد مبلغا كبيرا بعد وفاة جوستنيان عام ٥٦٥ ، وبفعل سياسته ، اغتنمت فارس الفرصة المواتية ، واستولت عسكريا على كل ساحل الجنوب العربى ، وبلاد العرب السعيدة ، ولتمسى هذه المنطقة الهامة واقعة تحت السيادة الفارسية ٠ الا أن ذلك لم يقدر له أن يستمر طويلا بفضل الفتح الاسلامى لليمن ٠ ولن تلبث القوة الاسلامية الناشئة أن تصطدم بالقوتين العظميتين فارس وبيزنطة ، وأن تقوض دعائم الامبراطورية الفارسية ، وأن ترث بذلك العداء التقليدى - كقوة عظمى - تجاه الامبراطورية البيزنطية ٠

حواشى البحث

(١) الثعالف : الحيتان ، راجع محمد الأكوع الحـــوالي ، اليمن الخضراء ، ص ٤٠٣ ٠

(٢) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٢٨ ـ ٣٠ ، التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٢ ؛ الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٣٧ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ١٩٩ ؛ المســعودى ، مروج الذهــب ، جـ ٢ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ ؛ ابن الأثيــر ، الــكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ ؛ البلخى ، البدء والتاريخ ، جـ ٣ ، ص ١٨٤؛ ياقوت ، معجم البلدن ، جـ ٧ ، ص ٢٦٢ ٠

(٣) جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : « ٠٠٠ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شىء شهيد ٠ ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » ٠ (البروج ٤ ـ ١٠) ٠

وانظر : الطبرى : جامع البيان ، جـ ٣٠ ، ص ١٣٢ ـ ١٣٥ ؛ الفخر الرازى : التفسير الكبير ، جـ ٣١ ، ص ١١٨ ـ ١٢٢ ؛ القرطبى : الجامع لأحكام القـــرآن : جـ ٢٠ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٣ ؛ النسفى : مدارك التنزيل ، جـ ٣ ، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٤ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٨ ، ص ٢٨٧ ـ ٢٩٢ ؛ الخازن : لباب التأويل : جـ ٤ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ؛ الألوسى : روح المعانى ، جـ ٣٠ ، ص ٨٨ ـ ٩٠ ٠

(٤) ZACH. MET. Chron., pp. 190-200 ; PROCOP. Bell. Pers. I, 189 ;
The Book of Himyarites, p. CV

(٥) سورة البروج : الآيات ٨ ـ ١٠ ٠

(٦) معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ٢٦٢ ٠

(٧) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، ص ٧٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ١٢٧ ٠

(٨) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ ٠

(٩) سورة المائدة : آية ٨٢ ٠

(١٠) سورة آل عمران : آية ٧٥ ٠

(١٢) القرطبى : الجامع ، جـ ٢٠ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٣ ٠

(مجلة المؤرخ العربى)

(١٣) ZACH. Chron., p. 193

(١٤) تذكره النصـــوص البيزنطيـة باســـم « دميانوس » Dimianus و « ديمنوس » Dimnus ، بينما يرد ذكره عند الأحباش باســم « فنحاص » Phinhas وفى المصادر السريانية باسم « مسروق » Masruk وأن كان هو نفسه قد تسمى بيوسف عند تهوده .

(١٥) Shahid, Byzantium in south Arabia, p. 31

(١٦) فيليب حتى : تاريخ العرب ، ص ٩٥ ـ ٩٦ ؛ موسكاتى : الحضـــارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، ص ١٩٣ ، وراجع ايضا :
Sharf, Byzantine Jewry, p. 31

(١٧) Trimingham, Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, p. 289.

وراجع ايضا Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, pp. 126-127.

وكذلك : نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، ص ١٠٤ .

(١٨) هناك أحداث شبيهة بذلك الى حد كبير وقعت فى القرن الثامن الميلادى ، عندما تحولت دولة الخزر ، الواقعة بين بحر قزوين (الخزر) والبحر الأسود شرقا وغربا ، والفولجا والقوقاز شمالا وجنوبا ، الى اليهودية ، لتتصدى لمحاولات القوتين السياسيتين الكبيرتين انذاك ، الدولة الاســـلامية ممثلة فى الخـــلافة العباسية ، والامبراطورية البيزنطية المسيحية ، ويقول « كوستلر » فى كتابه The Khazar Empire and its heritage : « كانت امبراطورية الخزر تمثل قوة ثالثة اثبتت انها ند لكل منهما ، ســـواء باعتبارها خصـــما أو حليفا ، ولكنهـــا كانت تستطيع الاحتفاظ باستقلالها فقط عندما ترفض اعتناق المسيحية أو الاسلام ، لأن كلا من الخيارين كان سيؤدى بها تلقائيا الى الانضـــواء تحت سلطة الامبراطور الرومانى أو خليفة بغداد » ، راجع ، ص ٧٢ من الترجمة العربية لكتاب « كوستلر » التى قام بها حمدى متولى صالح ، دمشق ١٩٥ . ويقـــول « بيورى » Bury فى كتـــابه Eastern Roman Empire, p. 406 : « ليس ثمة شك فى أن الحاكم الخزرى كان متاثرا بدوافع سياسية تحينما اعتنق اليهودية ، ذلك أن اعتناق الاسلام كان سيجعل منه تابعا روحيا للخلفاء الذين حاولوا أن ينشروا عقيدتهم بين الخزر ، كما أن اعتناق المسيحية كان يكتنفه خطر الخضوع للكنيسة الأرثوذكسية » .

(١٩) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 289.

وأيضا : Sharf, Byzantine Jewry, p. 32

(٢٠) ZACH. Chron., p. 197.

(٢١) راجع نص الرسالة فى ZACH. Chron., pp. 193-197 والمعروف أن هذه الرسالة التى يوردها المؤرخ الكنسى زكريا المتلينى ، نقـلا عما كتبه الأسقف سمعان ، راعى المسيحيين فى فارس الى سميه كاهن كنيسة كابولا Cabbula قد تضمنت مواقف المسيحيين فى ظفار ونجـران من يهودية ذى نواس ومحاولته صرف هؤلاء عن عقيدتهم ، وذكرت الكثير عن « البطولات » التى قدمها النساء تضامنا مع ازواجهن مما يضع أمام الباحث كثيرا من علامات الاستفهام فى صحة نسـب هذا الجزء من الرسالة الى ذى نواس ، الذى لا يعقل أن يذكر بـ « الاعجاب » موقف المسيحيين من فعاله ٠

(٢٢) Bell. Pers. I, p. 189

(٢٣) MALALAS, Chron., p. 432

وأيضا : MICH. SYR. Chron., p. 183

(٢٤) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، نقلا عن منذر عبد الكريم البكر ، دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، تاريخ الدول الجنوبية ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ ٠

(٢٥) منذر عبد الكريم البكر ، العرب قبل الاسلام ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ ٠

(٢٦) Sharf, Byzantine Jewry, p. 32 وراجع أيضـا ، نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم ، ص ١٠٤ ٠

(٢٧) ابن هشام : التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٢ ؛ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٦٣٧ ؛ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ج ١ ، ص ١٩٩ ٠ ومن المعروف أن كالب هذا هو الاسم الذى ورد فى الكتابات الحبشية ، أما المصـادر البيزنطية فتسـميه ال أصبحة Elisbahaz

(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٥٣ ٠

(٢٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ٠

(٣٠) الأزرقى : أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١٣٥ ٠

(٣١) البلخى : البدء والتاريخ ، ج ٣ ، ص ١٨٤ ٠

(٣٢) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 25
Vasiliev, Justin, p. 367

(٣٣) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 25

(٣٤) ممتاز العارف : الاحباش بين مأرب واكسوم ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣٥) جواد على : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٤٤٩ - ٤٥٦ وقارن ، بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، ص ١٢٤ - ١٣٦ ، ١٥٦ ، ١٧٧ - ١٧٨ وحاشية رقم ١٩٥ ص ٢٢٩ .

(٣٦) PROCOP. Bell. Pers., I, XIX

وايضا : MALALAS, Chron., pp. 456-459

(٣٧) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٩٦ .

(٣٨) محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخية الاسلامية ، ص ١٣ وأيضا : حورانى : العرب والملاحة ، ص ٩٤ .

(٣٩) ربما يعود حفر هذه القناة فى أول أمرها الى الفرعون المصرى القديم نكاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين . وقد أعاد ملك فارس دارا الأول حفرها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم قام الامبراطور الرومانى تراجان بتطهيرها وحفر قسما جديدا من طرفها الغربى ليصلها بالنيل عند بابليون ، حتى يحسن الاتصال بالفرع الكانوبى من دلتا النيل ، كى تسهل حركة الملاحة الى الاسكندرية . وقد أعيد حفر هذه القناة مرة أخرى على عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيث عرفت بخليج أمير المؤمنين .

(٤٠) حورانى : العرب والملاحة ، ص ٨٦ .

(٤١) موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ص ٢٥٤ حاشية ١٢ .

(٤٢) المرجع نفسه ؛ وللوقوف على تفاصيل هذه الطرق التجارية كلها ، راجع محمد أحمد حسونة : الجغرافيا التاريخية الاسلامية ، ص ١٢ - ٢٠ .

(٤٣) حورانى : العرب والملاحة ، ص ٢٤ .

(٤٤) كان البخور على رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة فى ذلك العصر ، كان سعره - على حد تعبير جواد على - يساوى سعر الذهب والبترول فى أيامنا هذه ، ولم يكن يشتريه لغلائه الا رجال الدين لاستعماله فى الطقوس الدينية التى تستنزف القسم الاكبر منه ، وكذا الملوك والاثرياء ، وذلك لاحراقه فى المناسبات الدينية والاجتماعات . وكان حرق هذه المادة يكلف خزانة الدولة ثمنا باهظا لارتفاع أسعارها . راجع جواد على : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

(٤٥) البكر : دراسات فى تاريخ العرب القديم ، ص ٣٨٢ .

(٤٦) أوليرى ، علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجم كامل وهيب ، ص ١٣٥ ·

(٤٧) محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ص ٨٩ ، ويطلق على طريق البحر الأحمر (البرى والبحرى) طريق الغرب ·

(٤٨) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ج ١ ، ترجمة أحمد محمد رضا ، ص ٢٢ ·

(٤٩) MALALAS, Chron., p. 433

(٥٠) جواد على : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٦٣٢ ؛ حورانى : العرب والملاحة ، ص ٩٨ ·

(٥١) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، ص ٢٤ ·

(٥٢) عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، ص ٦٣ ·

(٥٣) راجع تفاصيل هذه الجملة عند عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ٦٣ ـ ٦٧ ، ١٣٤ ، وأيضا جواد على : تاريخ العرب، ج ٢ ، ص ٤٤ ـ ٥٩ ، وكذلك بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ·

(٥٤) عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ١٣٥ ·

(٥٥) للوقوف على تفاصيل مشروعات الأباطرة الرومان فى سبيل الحفاظ على نفوذهم ومصالحهم فى هذه المنطقة على عهود تراجان فى القرن الثانى ، وسبتميوس سفروس وفيليب العربى فى القرن الثالث الميلادى ؛ راجع جواد على ، ج ٢ ، ص ٦٠ ، ٦٥ ـ ٦٨ ·

(٥٦) راجع تفصيلات هذه الأحداث والأدوار التى مرت بها المسيحية من خلال موقف الأباطرة الرومان منها فى مؤلفات الباحث ، الدولة والكنيسة ، الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ ، القاهرة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤ ·

(٥٧) هكذا كان يحلو لقسطنطين أن يسمى نفسه ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، ج ٢ ، ص ١١٢ ـ ١١٩ ·

(٥٨) كتب قسطنطين الأول رسالة الى ملك فارس ، يحثه فيها على معاملة رعيته المسيحية معاملة طيبة ، وأن ينزلهم منزلا كريما ، والا فانه سوف يجلب على نفسه عداء « مبعوث الرب » (يعنى نفسه) ، الذى لابد أن ينتقم لما قد يحل بهؤلاء الرعايا المسيحيين فى فارس ، راجع للباحث : الدولةوالكنيسة ، ج٢ ، ص١١٢ـ١١٤·

(٥٩) ATHANAS. Apologia ad Constantium, 31

(٦٠) راجع للباحث : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٢٣ ، ص ٧٤ ـ ٧٨ ·

وراجع ايضا : Bury, history of the Later Roman Empire, II, p. 292.

وكذلك : Diehl, Byzantium : Greatness and Decline, p. 59

(٦١) عن الا ريوسية : نشـــاتها وفكرها ورجالها ، وكـــذا النيقية ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، جـ ٢ ، ص ١٥٥ ـ ٢٥١ ·

(٦٢) للوقوف على تفصيلات الأحداث التى امتلات بها هـــذه الفقرة ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة ، جـ ٣ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٧ ، ٢٢٢ ـ ٢٣٤ ·

(٦٣) Dvornik, origins of the intelligence Services, p. 169.

وايضا : عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص ٣٨ ـ ٣٩ ·

(٦٤) راجع تفصيلات ذلك فى : Jones, Later Roman Empire, I, pp. 225-230

(٦٥) يمكن التعرف على كل هذه الخلافات العقيـــدية التى حدثت فى القرن الخامس فى : Hefele, history of the councils, Vols. II, III.

وايضا : Percival, The Seven ecumenical councils, (in Nicene and post Nicence Fathers, Vol. XIV, pp. 191-267.

(٦٦) النساطرة هم اتباع نسطور Nestorius بطريرك كنيسة القسطنطينية فى عشرينيات القرن الخامس الميلادى ، نادى بان العذراء هى أم المسيح البشر وليست أم المسيح الاله ، مغلبا بذلك الطبيعة البشرية فى المسيح على الطبيعة الالهية ، جهر بارائه عام ٤٢٨ وتصدت له كنيسة الاسكندرية فى عهد اسقفها كيرلس Cyrillus ومن ورائها روما ، ومن ثم دعا الامبراطور ثيودوسيوس الثانى الى عقد مجمع فى مدينة افسوس Ephesus فى اسيا الصغرى ، عرف بالمجمع المسكونى الثالث عام ٤٣١ ، تقرر فيه ادانة نسطور ونفيه ولعن النسطورية ومطاردة اتباعها ، مما اضطر هؤلاء الى اللجوء الى الأراضى الفارسية · راجع :

Hefele, history of the Councils, III, pp. 9-96

وأيضا : Chadwick, The Early Church, pp. 194-200

(٦٧) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 303.

(٦٨) جواد على : تاريخ العرب القديم ، جـ ٣ ، ص ٤٩٠ ـ ٤٩١ ·

(٦٩) Dvornik, origins of the intelligence services, pp. 168-169

وايضا : Jones, Later Roman Empire, I, pp. 232-235.

وكذلك : Milne, A history of Egypt under Roman rule, p. 103.

(٧٠) رافت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، جـ ٢ ، ص ٣٥٧ ٠

(٧١) كانت هذه الممالك هى : مملكة الوندال فى افريقيا ، ومملكة القوط الغربيين فى اسبانيا ، مملكة الأنجلو سكسون فى بريطانيا ، مملكة الفرنجة فى غالة (فرنسا)، ومملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا ٠

(٧٢) كانت أول تجربة عملية فى هذا السبيل آنذاك ، الحرب التى دارت بين الفرس والرومان فى عام ٢٦٠ ، وتمكنت فارس من انزال هزيمة ساحقة بروما وأخذ الابمبراطور الرومانى فاليريان Valerianus أسيرا مما عد اذلالا للامبراطورية٠

(٧٣) يستثنى من ذلك طبعا الفترة التى خضعت فيها القسطنطينية لسيادة العناصر اللاتينية ، نتيجة الحملة الصليبية الرابعة والتى امتدت الى سبع وخمسين سنة بين عامى ١٢٠٤ ـ ١٢٦١ ٠

(٧٤) هذا التعبير استخدمه ب٠ كاسل أحد مستشرقى القرن التاسع عشر ، للدلالة على حقيقة الامبراطورية التى كونها الهون خلال القرن الخامس الميلادى ، وامتدت من وسط آسيا حتى وسط أوروبا ٠ نقلا عن : كوستلر : امبراطورية الخزر وميراثها ، ص ٢٣ ٠

(٧٥) كوستلر : امبراطورية الخزر ، ص ٣١ ؛ بارتولد : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ص ٣٠٥ ٠

(٧٦) توينبى : تاريخ البشرية ، جـ ٢ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ، ٤٣ ٠

(٧٧) MALALAS, Chron., pp. 413-429

وايضا : CHRON. PASCH., pp. 613-614

وكذلك : Holmes, The Age of Justinian and Theodora, I, p. 311.

(٧٨) رافت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٢٩ ـ ٨٣ ٠

(٧٩) PROCOP. Bell. Pers. I, p. 93

وراجع : Stein, histoire du Bas-Empire II, p. 270

(٨٠) Bury, Later Roman Empire II, p. 80

وايضا : Benjamin, story of Persia, pp. 231-232.

(٨١) رأفت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٧٠ _ ٧٤ ٠

(٨٢) يبدو من هذه المراسلات مدى حرص جوستنيان على احلال السلام بين الدولتين ، ليتمكن من تحقيق مشروعه الاستردادى فى الغرب ، فقد جاء فى احدى رسائله الى قباذ قوله : « علمنا من رسلنا بعد عودتهم من ضيافتكم ، صدق نياتكم ، ٠٠٠ وانه لمن حق الله علينا أن نحمده شاكرين فضله حتى يتحقق السلام بيننا ٠ ان هذا السلام لأمر عظيم ، يحمل لبلدينا الأمن والرخاء ، ويزيح من أمامنا أعداءنا ، ولتكن على يقين من أننى سوف أعهد الى ممثلينا دائما بأن يبذلوا كل ما فى وسعهم كى تنجح مفاوضات السلام هذه ، ودمتم لنا محبا ودودا » ٠ راجع MALALAS, Chron., pp. 449-450

(٨٣) رأفت عبد الحميد : الثورة الشعبية فى القسطنطينية ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ ، ص ٢٥ _ ٨٨ ٠

(٨٤) Ghirshman, Iran from the Earliest times to the Islamic Conquest, p. 341.

(٨٥) MALALAS, Chron., pp. 454-455

(٨٦) ZACH. MET. Chron., 163; PROCOP. Bell. Pers. I, p. 77.

(٨٧) PROCOP. Bell. Goth. II, p. 517

وأيضا : Ure, Justinian and his Age, p. 77.

(٨٨) PROCOP. Bell. Goth. II, pp. 536-537

(٨٩) MENAN. except. de Leg. Roman, pp. 359-363 وراجع :

Ure, Justinian, pp. 97-99

(٩٠) IOAN. LYD. de magist., p. 244

وقارن : PROCOP. hist. arc., p. 137

(٩١) Id.

(٩٢) PROCOP. Build.,pp. 133-135

(٩٣) PROCOP. Bell. Pers. I, p. 253

(٩٤) من المعروف أن الحرب استؤنفت من جديد بين البيزنطيين والقوط الشرقيين ، بعد أن أدرك هؤلاء حقيقة الخديعة التى أوقعهم فيها القائد البيزنطى ٠ واستمرت هذه الحرب من بعد خمسة عشر عاما تالية حتى انتهت بهزيمة القوط عام ٥٥٥ فى موقعة عرفت باسم مقبرة الغال ٠

(٩٥) التجارة في الشرق الأدنى ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ·

(٩٦) المرجع نفسه ، ص ١٧ ·

(٩٧) Bury, Later Roman Empire, II, p. 320.

وأيضا حورانى : العرب والملاحة ، ص ٩٧ ·

(٩٨) Dvornik, Origins of the intelligence services, p. 168

ومن المعروف أن نصيبين لم تكن وحدها فقط هى الموضع الوحيد لتسويق هذه التجارة ، اذ كانت هناك أيضا « الرقة » على الفرات ، وسهل دوبيوس Doubius فى أرمينيا الفارسية بالقرب من أرضروم Theodosiopolis ، راجع :

ZACH. MET. Chron., p. 5 ; PROCOP. Bell. Pers. I, 25, 30.

(٩٩) خرسون هى حاليا سباستبول ، وبوسبور هى كرش ·

(١٠٠) انظر قبله ، وأيضا ، بارتولد : تركستان ، ص ٣٠٥ ·

(١٠١) PROCOP. hist. arc. 30.

(١٠٢) اشرنا من قبل الى محاولات بيزنطية جرت فى هذا السبيل ، وهى جهود كل من الامبراطور قسطنطيوس فى القرن الرابع ، والامبراطور أنسطاسيوس فى أواخر القرن الخامس الميلادى وبدايات القرن السادس ·

(١٠٣) EUSEB. hist. eccl. V. 16

(١٠٤) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، ص ٢١ حاشية ٢ ·

(١٠٥) لم تكن هذه هى المرة الأولى فى العصر البيزنطى ، التى يقدم اليهود فيها على اعلان مملكة لهم ، بل فعلوا ذلك من قبل على عهد الامبراطور زينون (٤٧٤ ـ ٤٩١) واختاروا شخصا يدعى جوستوس Justus ملكا عليهم ، واعتدوا على المسيحيين فى نابلس وقيسارية · غير أن هذه الفتنة قضى عليها بعد أن تخلص زينون من المشكلات التى واجهته فى أول عهده ، وجيء برأس جستوس ، وتاجه الى الامبراطور · أنظر :

PROCOP. Build., pp. 349-353; MALALAS, Chron., pp. 382-383; MICH. SYR. Chron. II, pp. 148-149.
Dubnov, history of the Jews, II, pp. 208-209

(١٠٦) كانت الحكومة البيزنطية قد أصدرت على عهد الامبرطور ثيودوسيوس الثانى عدة تشريعات سنة ٤٢٨ لصالح العقيدة المسيحية ، تقضى بحرمان اليهود السامريين من الوظائف العامة ، وعدم السماح لهم ببناء معابد جديدة ، أو الدعوة

لديانتهم . وفى سنة ٥٢٧ وهى السنة التى اعتلى فيها جوستنيان العرش ، كان أول شىء أقدم عليه الامبراطور الجديد ، هو تجـــديد تشريعات الامبراطور ثيودوسيوس الثانى ، واضاف اليها جواز مصادرة ممتلكات الوارثين من السامريين لصالح خزانة الدولة ، الا أن يتحول هؤلاء الى المسيحية . واذ تزامنت هذه القرارات مع ضياع أمل اليهود فى اقامة مملكة لهم فى اليمن ، بعيدا عن سلطان بيزنطة ، أقدموا على احداث هذه الاضطرابات . أنظر :

PROCOP. hist. arc., p. 97; ZACH. MET. Chron., p. 232; MALALAS, Chron., p. 455; CHRON. PASCH., p. 872 ; Parkes, A history of Palestine, pp. 79-81 ; Milman, history of the Jews, pp. 224-225.

(١٠٧) Byzantine Jewry, p. 33

(١٠٨) PROCOP. Bell. Pers. I, pp. 193-195

(١٠٩) Id.

(١١٠) PROCOP. Bell. Goth. II, 17 وكان قد تم نقـــل هـــذه الصناعة الى خوتان عن طريق زواج ملكها بأميرة صينية ، نقلت خلسة معها الى مملكة زوجها دود القز وبذر التوت .

(١١١) PROCOP. Bell. Pers. I, p. 193

(١١٢) يذكر بروكوبيوس أن جوستنيان كان يظهر صداقته تجاه أحـد سادات العرب يسميه « قيس » ، وقد منحه لقب Phylarchus وأراد أن ييسر له السيادة على قبائل نجد العربية ، ليمد بالتالى نفوذه الى هذه المنطقة ، غير أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح . أنظر :

PROCOP. Bell. Pers. I, p. 193.

(١١٣) Id.

(١١٤) Kawar, Byzantium and Kinda, p. 61; Bury, Later Roman Empire, II, p. 325 ؛ جواد على : تاريخ العرب القديم ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ .

(١١٥) لم يستمر السميفع فى حكم اليمن تحت نفوذ الأحباش طويلا ، اذ سرعان ما ثار عليه الأحباش أنفســـهم ، وأعقب ذلك الصراع بين أرياط وأبرهة ، قائدى الحملة ، وتمكن أبرهة من هزيمة منافسه ، والانفراد بالسلطان . أنظر :

PROCOP. Bell. Pers. I, pp. 191-193 وتذكر المصادر العربية روايات طريفة حول هذه الناحية ، وهى أن ملك الحبشة عندما علم بأمر ابرهة ، أقسم أن يطأ أرض اليمن بقدمه ، وأن يجز ناصية أبرهة ويريق دمه ، فلما سمع ابرهة بذلك ، وضع حفنة من تراب اليمن فى وعاء ، وقص طرفا من شعر رأسه ، وسكب بعضا من دمه فى قارورة ، وأرسل بهذا كله مع رسالة الى ملك اكسوم يحله من قسمه ، فهذه أرض اليمن ممثلة فى هذه الحفنة من التراب ، ما عليه الا أن يطأها ، وهذا دمه وشعره . وتضيف الروايات أن ملك اكسوم أعجب بذكاء أبرهة ودهائه وحسن تصرفه ، ورضى عنه لقاء جزية سنوية يدفعها له ، وبعد أن غمره بالهدايا الثمينة . انظر ، ابن هشام: السيرة ، جـ ١ ، ص ٣٦ وما بعدها ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، حـ٢ ، ص١٠٩ ؛ المسعودى مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ .

(١١٦) Philiby, The Background of Islam, p. 122.

(١١٧) رأفت عبد الحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، ص ٦٢ .

(١١٨) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 59

ويحاول عرفان شهيد أن يؤكد دائما على الدور السورى فى جنوب الجزيرة العربية ، ويجعله متفوقا على التأثير الحبشى ، ويعلل ذلك بعاملين : أولهما التوافق المذهبى يعنى الطبيعة الواحدة !! وثانيهما رابطة الدم التى تربط - على حد قوله - بين البيت الغسانى فى سوريا ، وبيت الحارث فى نجران ، وهو الذى كانت له الزعامة بين المسيحيين هناك حتى عهد ذى نواس .

(١١٩) IOAN. EPH. hist. eccl. III, pp. 323 ff.

(١٢٠) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302

(١٢١) Neale, A history of the holy Eastern Church, II, p. 36.

(١٢٢) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 142.

(١٢٣) هسى : العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص ١١٨ .

(١٢٤) راجع تفاصيل السياسة العقيدية للامبراطور جوستنيان فى :
Jones, Later Roman Empire, I, pp. 285-287, 296-298.

(١٢٥) تعاقب على كرسى الاسكندرية الأسقفى طيلة عهد جوستنيان ، عدد من الأساقفة الخلقيدونيين ، وهـم على التـوالى : بولس (٥٣٨ - ٥٤٢) زويلوس

Appollinarius (٥٤٢ ـ ٥٥١) ، أبو لليناريوس Zoilus (٥٥١ ـ ٥٧٠) ونلاحظ أن جوستنيان ظل يحارب فى ايطاليا من أجل استعادتها حتى عام ٥٥٥ ، ثم انتقل بعد ذلك الى اسبانيا . ومن ثم كان حريصا على أن يظل فى جانب الخلقيدونية كسبا لعطف البابوية . ومن الجدير بالذكر أن المصريين كان لهم أسقفهم المونوفيزيتى خلال هذه الفترة أيضا يقيم فى حمى رهبان وادى النطرون . أنظر: Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302 n. 39.

(١٢٦) Neale, holy Eastern Church, II, p. 36

(١٢٧) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 302.

(١٢٨) تخبرنا المصادر أن ملك أكسوم حاول القضاء على أبرهة والتخلص منه واعادة اليمن الى التبعية الحبشية المباشرة ، الا أن حملاته التى أرسلها لتحقيق هذا الهدف باءت بالفشل ، فاضطر للسكوت على مضض ورضى وان كان دون اقتناع بالهدايا القيمة والجزية السنوية التى يرسلها اليه أبرهة . أنظر : PROCOP. Bell. Pers., p. 197 وقارن حاشية رقم ١١٥ .

(١٢٩) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 27.

(١٣٠) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 147.

(١٣١) بلغ من عظم شأن الحارث بن جبلة عند جوستنيان ، أنه نجح فى اقناع الامبراطور بتعيين أسقفين من أصحاب الطبيعة الواحدة ، هما ثيودور ويعقوب على كنيستى بصرى والرها ، وهو شىء لم يفلح ملكا اكسوم واليمن فى الحصول عليه ، لتأييد الامبراطور لمذهب الطبيعتين . أنظر :

IOAN. EPH. Lives of the Eastern Saints, P.O. XIX, pp. 237-238.

(١٣٢) PROCOP. Bell. Bers., I, XIX; hist. Arc. XI; MALALAS, Chron., XVIII.

(١٣٣) Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 276

وايضا : Kawar, The Arab in the peace treaty of A.D. 561, p. 182.

(١٣٤) اكد القرآن الكريم هذه الصلات التجارية بين مكة من ناحية واليمن والشام من ناحية أخرى فى سورة قريش « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

(١٣٥) جواد علي : تاريخ العرب القديم ، جـ ٢ ، ص ٦٣٢ ٠

(١٣٦) احمد أمين : فجر الاسلام ، ص ١٣ ؛ الحوفي : الحيـــاة العربية من الشعر الجاهلي ، ص ١٠١ ٠ ومن الطريف ما يذكره بروكوبيوس من أن أبرهة كان عبدا وان كان مواطنا رومانيا ، وكان يعمل في التجارة في ميناء عدول PROCOP. Bell. Pers. I, p. 191 ويرجـــح Sellassie أن يكون أبرهة هذا هو المثل التجاري للملك الحبشي كالب في هذا الميناء ٠ راجع ٠

Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 135

(١٣٧) الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص ١٠٠ ٠

(١٣٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ ويضيف قوله : « فجبر الله بهم قريشا ، وأصلح أحوالها ، وأفاء عليها كثيرا من الخيرات ، فسمي هؤلاء الأربعة المجبرين » ٠

(١٣٩) يناقش عرفان شهيد مسألة بناء هذه الكنيسة في صنعاء ، ويقدم آراء أخرى ترى بناءها في ظفار أو نجران ـ لمعرفة ذلك راجع :

Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 81.

وقارن : الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ١٣٩ ؛ الدينوري : الأخبار الطوال، ص ٦٢ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٥٧٧ ٠

(١٤٠) هذه الكلمة تصحيف للكلمة اليونانية Ecclesia

(١٤١) Shahid, Byzantium in South Arabia, pp. 81-82.

(١٤٢) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 151

ويذكـــر الطبـــري أن رجـــلا يدعى محمد بن خـــزاعة الذكواني ، قدم على أبرهة في نفر من قومه يلتمسون فضله ، فأمره أبرهة على مكة ، وأمره أن يسير في الناس فيدعوهم في جملة ما يدعوهم اليه الى حج القليس ، فسار هذا حتى اذا نزل ببعض أرض بني كنانة ، وقد بلغ أهل تهامة أمره ، وما جاء له ، بعثوا اليه رجلا من هزيل يقال له عروة بن حياض الملاصي ، فرماه بسهم فقتله وتفرق أصحابه٠ راجع : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٠ وأيضا تفسير الطبري ، جـ ٣ ، ص١٩٤٠

(١٤٣) كانت بعض القبائل العربية مثل جذام وتغلب وعاملة على المسيحية ، لكنها مسيحية سطحية ، ولا شك أن المرعة التي اعتنقت بها هذه القبائل الاسلام ، تعد دليلا على رقة ايمانهم بالمسيحية ٠ انظر : عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، جـ ١ ، ص ٦٣ ٠

(١٤٤) جواد علي : تاريخ العرب القديم ، ج ٣ ، ص ٥١٧ - ٥١٨ .

(١٤٥) تذكر المصادر العربية أن رجلا من بني مالك بن كنانة ، أغاظه ما أغاظ العرب من بناء هذه الكنيسة ، فخرج حتى قدم اليمن ، فدخل الهيكل فأحدث فيه . فغضب ابرهة وأجمع على غزو مكة وهدم البيت !! راجع : ابن هشام : السيرة ، ج١، ص ٤٣ - ٤٦ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٠ ؛ الأزرقي : أخبار مكة ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(١٤٦) Benjamin, Story of Persia, p. 233.

(١٤٧) كانت هناك بعض الصلات بين المنذر الثالث ملك الحيرة ، وجوستنيان، فقد حصل المنذر في بعض الأحيان على الجزية من الامبراطور البيزنطي ، وكان قادرا على التعامل معه دون تدخل الملك الفارسي ، بل ان هناك مراسلات دارت بين المنذر وجوستنيان كان واضحا منها أن جوستنيان يحـــاول استخدام دهاءه الدبلوماسي لاستمالة المنذر الى صفه أو على الأقل زعزعة الثقة بينه وبين الملك الفارسي ، وقد وقعت بعض هذه المراسلات في يد كسرى أنوشروان مما افقده لبعض زمن ، الثقة في ملك الحيرة . انظر PROCOP. Build., p. 163, hist. arc., p. 50

وأيضا : Trimingham, Christianity among the Arabs, p. 198

(١٤٨) يربط المفسرون المسلمون هذه الحملة وفشلها بمولد الرســـول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويطلقون على هذا العام عام الفيل ، ويستدلون على ذلك بخبر أصحاب الفيل الذي ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » . وتختلف الروايات فيما بينها ، وبين القدامى والمحدثين حول السنة التي وقعت فيها هذه الحملة . وليس هنا مجال الخوض في مثل هذه الآراء .

(١٤٩) هسي : العالم البيزنطي ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص ٢٤٩ .

(١٥٠) ابن هشام : التيجان في ملوك حمير ، ص ٣١٥ ، السيرة ، ج ١ ، ص ٦٥ ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٤ وما بعدها ؛ المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٨٠ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

(١٥١) محمد الأكوع الحوالي : اليمن الخضراء ، ص ٤١٩ .

(١٥٢) للوقوف على خطورة هذا الأمر في السياسة البيزنطية عندئذ ، راجع : رأفت عبد الحميد ، مصر والعرش البيزنطي ، بحث منشور ضمن كتاب مصر والبحر المتوسط ، القاهرة ١٩٨٥ .

(١٥٣) ابن هشام : السيرة ، جـ ١ ، ص ٦٥ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حـ ٢ ، ص ١١٥ ٠

(١٥٤) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٨٠ ٠

(١٥٥) Sellassie, Ancient and Medieval Ethiopian history, p. 157.

(١٥٦) وقد جاء فى الحوار الذى دار بين سيف بن ذى يزن وكسرى أنوشروان ، قول سيف : « ٠٠٠ أيها الملك : غلبتنا الاغربة على بلادنا ، فجئتك لتنصرنى عليهم ، وتخرجهم عنى ، ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب الينا منهم » ، انظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٦ ٠

(١٥٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ، ص ١١٧ ٠

(١٥٨) أقدم بقايا الأحباش على الانتقام من سيف بن ذى يزن ، باعتباره السبب فى القضاء على ملكهم هناك ، ومن ثم دبروا أمر اغتياله ، ونجحوا فى ذلك ، مما أدى الى عودة القائد الفارسى وهرز ثانية الى اليمن ومعه أربعة الاف جندى ، وكانت الأوامر الصادرة اليه تقضى بقتل كل الأحباش هناك حتى المولدين منهم ٠ وقد أدى ذلك الى هروب أعداد منهم الى مكة حيث لعبوا دورا بارزا فى الحيـــاة العسكرية والاجتماعية من بعد ٠

المصادر والمراجع

اولا : المصادر

(أ) المصادر العربية

— ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على ، ت ٦٣٠ هـ :
الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٨

— ابن العبرى ، جريجوريوس الملطى ت ٦٨٥ هـ :
تاريخ مختصر الدول ، بيروت بدون تاريخ ٠

— ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ت ٢٧٦ هـ :
المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ ٠

— ابن كثير ، الحافظ أبو الفدا ت ٧٧٤ هـ :
تفسير القرآن العظيم ، القاهرة بدون تاريخ ٠

— ابن هشام : أبو محمد عبد الملك ت ٢١٨ هـ :
- السيرة النبوية ، بيروت ١٩٧٥ ٠
- التيجان فى ملوك حمير ، صنعاء ١٩٧٩ ٠

— الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت ٢٢٤ هـ :
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، بيروت بدون تاريخ ٠

— الألوسى ، أبو الفضل شهاب الدين محمود ت ١٢٧٠ هـ :
روح المعانى ، القاهرة بدون تاريخ ٠

— البلخى ، أبو زيد أحمد بن سهل :
البدء والتاريخ ، القاهرة ١٩٠٣ ٠

— الخازن ، علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم :
لباب التاويل فى معانى التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التاويل، القاهرة ١٩٧٢ ٠

— الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ :
- تاريخ الأمم والملوك ، بيروت بدون تاريخ .
- جامع البيان من تأويل آى القرآن ، القاهرة ١٩٦٨ ، وبهامشه تفسير النيسابورى .

— القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى ت ٦٧١ هـ :
الجامع لأحكام القرآن ، القاهرة ١٩٧٦ .

— الفخر الرازى ، محمد الرازى فخر الدين ت ٦٠٤ هـ :
التفسير الكبير ومفاتح الغيب ، بيروت ١٩٨١ .

— المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦ هـ :
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٢ .

— النسفى ، أبو البركات عبد الله أحمد بن محمود ت ٧٠١ هـ :
تفسير القرآن الجليل ، بيروت بدون تاريخ .

— اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب ت ٢٨٤ هـ :
تاريخ اليعقوبى ، بيروت ١٩٦٠ .

— ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله الرومى ت ٦٢٦ هـ :
معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ .

(ب) المصـادر غير العربية

— ATHANASIUS, Apologia ad Imperatorem Constantium, in Nicene and post Nicence Fathers of the Christian Church, Vol. IV, 2 ed. ser., ed. by Philip Schaff, Henry Wace, Michigan 1891 et sqq.

— BOOK of HIMYARITES, fragments of a hitherto unknown Syriac work, ed. with introduction and translation by Axel Moberg, London 1924.

— CHRONICON PASCHALE, in CSHB*, 2 vols. ed. by L. Dindorf, Bonn 1832.

— CONSTANTINUS VII PORPHYROGENITUS, De Administrando Imperio, trans. by R.J.H. Jenkins, Budapest, 1949.

— EUSEBIUS, Historia Ecclesiastica, Nicene and Post Nicene fathers, vol. I, 2 ed. ser. Michigan 1891.

— IOANNES EPHESUS, Lives of the Eastern Saints, the Syriac text with an English translation, ed. and trans. by E.W. Brooks, in P.O.** (XVII, XVIII, XIX, Paris 1923-1925).

— IOANNES LYDUS, De Magistratibus, ed. by B.G. Neibuhr, in CSHB*, Bonn 1873.

— MALALAS, Chronographia, ed. by L. Dindorf, in CSHB, Bonn 1831.

— MENANDERUS, Excerpta de Legationibus Romanorum, ed. by B.G. Neibuhr, in CSHB*, Bonn 1840.

— MICHAEL LE SYRIEN, Chronographia, ed. et trad. par J.B. Chabot, Tome II, Paris 1904.

— PROCOPIUS, — De Bello Gothico, ed. and trans. by H.B. Dewing, London 1940.

— De Bello Persico, ed. and trans. by H.B. Dewing, 2 vols., London 1914.

— Historia Arcana, trans. by G.A. Williamson, London 1966.

— THEOPHANES, Chronographia, ed. by I. Classen, in CSHB*, 2 vols Bonn 1839.

— ZACHARIAH of MITYLENE, Chronographia, trans. by F.J. Hamilton and E.W. Brooks, London 1899.

ثانيا : المراجع

(ا) المراجع الاوروبيـــة

— Baüsani (A.), The Persians, from the earliest days to the twentieth century, London 1975.

— Benjamin (S.G.W.), The story of Persia, London 1986.

— Bury (J.), History of the Later Roman Empire, 2 vols. London, 1931.

— Chadwick (H.), The early church, London, 1974.

— Diehl (Ch.), Byzantium : Greatness and Decline, trans. from the French by Nooami Walford, New Brunswick, 1957.

— Duchesne (L.), L'Eglise au VIème siècle, Paris, 1925.

— Dubnov (S.), History of the Jews, vol. 2, London, 1968.

— Dvornik (F.), Origins of intelligence services, New Jersey, 1974.

— Ghirshman (R.), Iran from the earliest times to the Islamic conquest, London, 1954.

— Hefele (C.S.), History of the Councils of the Church, trans. in 5 vols. and ed. by W.R. Clark, Edinburgh, 1972.

— Holms (W.G.), The age of Justinian and Theodora, 2 vols. London, 1912.

— Huart (C.), Ancient Persia and Iranian Civilization, London, 1972.

— Jones (A.H.M.), The Later Roman Empire, 3 vols. Oxford, 1964.

— Kawar (I.), Byzantium and Kinda, in Byzantinische zeitschrift, vol. LIII, Muchen, 1960.

— The Arabs in the Peace treaty of A.D. 561, in Arabica III, Leiden, 1956.

— Lebeau, Histoire du Bas Empire, Paris, 1827 sqq.

— Milman (H.), The history of the Jews, vol. 2, London, 1939.

— Milne (J.), A history of Egypt under Roman ruel, London, 1913.

— Neal (J.M.), A history of the holy Eastern church, 2 vols. London, 1947.

— Parkes (J.), A history of Palestine from 135 A.D. to Modern times, London,(1949.

— Percival (H.R.), The Seven Ecumenical Councils, in Nicene and post Nicene fathers, Vol. XIV, Michigan, 1899.

— Philby (H. St. J.B.), The background of Islam, Alexandria, 1947.

— Reinaud (M.), Relation politiques et commerciale de l'Empire Roman avec l'Asie Orientale, Paris, 1893.

— Sellassie (S.H.), Ancient and Medieval Ethiopian history to 1270, Addis Ababa, 1972.

— Shahid (I.), Byzantium in South Arabia, in Dumbarton Oaks papers, XXXIII, 1979.

— Sharf (A.), Byzantine Jewry, London, 1971.

— Stein (E.), Histoire du Bas-Empire, Tome II, Paris, 1950.

— Trimingham (J.S.), Christianity among the Arabs in pre-Islamic times, London, 1979.

— Vasiliev (A.A.), History of the Byzantine Empire 324-1453, 2 vols. Madison and Milwaukee, 1964.

— Justin the first, Cambridge 1950.

— URE (P.N.), Justinian and his age, Penguin Book, 1951.

(ب) المراجع العـــربية والمترجمة

ـــ ابراهيم بيضون : الحجاز والدولة الاسلامية ، بيروت ١٩٨٣ ٠

ـــ احمد امين : فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٧٥ ٠

ـــ أحمد محمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، بيروت بدون تاريخ ٠

ـــ السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب قبل الاســلام ، الاسكندرية بدون تاريخ ٠

ـــ اوليرى : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة كامل وهيب ، القاهرة ١٩٦٢ ٠

ـــ بارتولد (فاسيلى ڤلاديمروفتش) : تركستان من الفتح العـــربى الى الغزو المغولى ، ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت ١٩٨١ ٠

ـــ توينبى (ارنولد) : تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة فى جزءين، بيروت ١٩٨٨ ٠

ـــ جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت / بغداد ١٩٧٧ ٠

ـــ جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة بدون تاريخ ٠

ـــ رافت عبد الحميد : الدولة والكنيســة ، أربعة أجــزاء ، القاهرة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤ ٠

ـ الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ ، المجــلة التاريخيـــة المصرية ، ٣٢/القاهرة ١٩٨٥ ٠

ـ قواعد الدبلوماسية البيزنطية ، المجلة التاريخية المصرية ، ٣٣/ القاهرة ١٩٨٦ ٠

- عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦١ .
- عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، القاهرة بدون تاريخ .
- عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ، الجزء الأول ، العصر الجاهلى، بيروت ١٩٨١ .
- تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٨٦ .
- فيليب حتى : تاريخ العرب ، بيروت ١٩٨٦ .
- كوستلر (آرثر) : امبراطورية الخزر وميراثها ، ترجمة حمدى متولى صالح ، دمشق ١٩٨٥ .
- لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة بدون تاريخ .
- محمد احمد حسونة ، الجغرافية التاريخية الاسلامية ، القاهرة بدون تاريخ .
- محمد الأكوع الحوالى : اليمن الخضراء مهد الحضارة ، ١٩٨٢ .
- محمد حسين هيكل : حياة محمد ، القاهرة - الطبعة الرابعة عشرة بدون تاريخ .
- محمد عبد القادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، بيروت ١٩٧٣ .
- محمد محمد الشيخ : الممالك الجرمانية ، الاسكندرية ١٩٧٥ .
- ممتاز العارف : الأحباش بين مأرب واكسوم،صيدا ،بيروت١٩٧٥.
- منذر عبد الكريم البكر : دراسات فى تاريخ العرب قبل الاسلام : تاريخ الدول الجنوبية فى اليمن ، البصرة ١٩٨٤ .
- موسكاتى (سبتينو) : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، بيروت ١٩٨٦ .
- نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دمشق ١٩٧٥ .
- هايد (ف) : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، الجزء الأول ، ترجمة أحمد محمد رضا ، القاهرة ١٩٨٥ .

دور المتطـــوعة

فى حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول

بقـلم
دكتور عبد الله بن سعيد بن محمد سافر الغامدى(*)

مقـــدمة :

الحمد لله القائل فى محكم كتـابه (من المؤمنين رجال صـــدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) والصـلاة والسـلام على أشرف خلقه نبينا محمـد وآله وصحبه واتباعه ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ۰۰۰ وبعد

فقد حظيت عناصر الجيش الاسلامى زمن الحروب الصليبية والغزو المغولى ، باهتمام وعناية الدارسين والباحثين ، حيث تناولوا هـــذه العناصر وبالذات النظامية منها ـ كالجيش السلطانى وجيوش الأمراء وغيرها ـ بدراسات وأبحاث عديدة ، الا ان عنصراً هاماً وهم الجنـــد المتطوعة لم ينل نصيبه من ذلك الاهتمام باستثناء ما اشـــار اليه بعض الباحثين ابان حديثهم عن العناصر النظامية ۰ وقد حاولت من خـــلال هذا البحث المتواضع ان أسهم بالقاء بعض الأضواء على هـــذا الموضوع بهدف ابراز الدور الهام الذى اضطلع به المتطوعة خـــلال هذه الفترة الحاسمة والحرجة من تاريخ الأمة الاسلامية ۰ وأوضحت فى هذه الدراسة أنه كان يوجد خلال تلك الفترة فرق عديدة من الجنـــد المتطوعة لعبت دوراًبارزاً الى جانب الجيوش النظامية الأخـــرى ، فى مواجهة خطر الصليبيين والمغول ، حتى تم للمسلمين الخلاص منهما ، باعتناق المغول الاسلام ، واقتلاع الوجود الصليبى فى الشرق الاســـلامى من جذوره ،

(*) أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى ـ قسم التاريخ ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ۰

وذلك خلال النصف الثانى من القـــرن السابع الهجـرى ، الثالث عشر الميـــلادى ٠

وختاماً التمس من القارىء الكريم العذر فيما يظنه موضعا لنقص أو تقصير أو زلة ، اذ الكمال لله تعالى وحده ، وهو المستعان والهادى الى سواء السبيل ٠

بســم الله الرحمن الرحيم

المتطوعة ، أو المطوعة هم الجند الذين « يتطوعون بالجهاد »(١) الى جانب الجيش النظامى ، ايماناً بفرضية الدفاع عن حوزة الاســـلام والمسلمين ٠ ولم يكن هؤلاء المتطوعة من أهل الديوان ، وانما يفدون الى ساحات القتال ، من البدو وسكان القرى والامصار متى داهم العدو بلاد المسلمين(٢) ، أو أمر امام المسلمين بالنفير العام للجهاد فى سبيل الله امتثالا لقول الحق تبارك وتعالى (انفـــروا خفافاً وثقالا وجاهدوا باموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)(٣) ٠

والمعروف أن الجيوش الاســـلامية ، عرفت طائفة الجند المتطوعة طاول عصورها التاريخية ، فمن المتواتر عليه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يكره أحداً من أصحابه على المشاركة فى الغزوات أو السرايا التى حدثت فى عهده ، ومن الثابت أنه صلى الله عليه وسلم أمر عبد الله بن جحش عندما أرسله فى سرية الى نخلة فى السنة الثالثة للهجرة أن لا يكره أحداً على الخروج معه ٠ وعندما عزم عليه الصلاة والسلام على الخروج الى خيبر فى السنة السابعة للهجرة قال لأصحابه « لا يخرجن معنا الا راغب فى الجهاد » وعندما أراد الخروج الى تبوك فى السنة

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٨ ، ص ٢٤٣ ٠
(٢) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٧ ، عبد العزيز السلومى ، ديوان الجند ، ص ٢٤٠ ، جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ١ ، ص ١٧١، ١٧٢ ، ابراهيم الساكت ، الجيش فى التراث العربى الاسلامى ، ص ١٦٧ ٠
(٣) التوبة ، اية ٤١ ٠

التاسعة للهجرة بعث الى « القبائل والى مكة يستنفرهم ، وحض المسلمين على القتال ورغبهم فيه »(٤) ٠

ومن هذا يتضح لنا أن افعال الرسول صلى الله عليه وسلم هـــذه واقواله لا تنطوى على أى الزام بالخروج ، وانما كان الأمر لا يتعـــدى الحث على الجهاد والاستنفار اليه ٠

وبعد أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى سنة ١١هـ/٦٣٢م ٠ وآل أمر المسلمين الى الخليفة الراشد أبى بكر الصديق رضى الله عنه استمر أمر الخروج للجهاد على ذلك الوضع ، فكان الجيش الاسلامى يتالف من الجند المتطوعة الذين توافدوا من القرى والأمصار وعلى رأسها مكة والمدينة والطائف وغيرها ، وكانت رسل الخليفة تتردد على زعماء القبـــائل المجاورة كسـليم وغفار ومزينة وجهينة يدعونهم ويستنفرونهم للجهاد فى سبيل الله تطوعا(٥) ٠ ولم يكره رضى الله عنه احداً من المجاهدين على البقاء فى ساحات القتال ، فقد كتب الى خالد ابن الوليد رضى الله عنه بعد فراغه من اليمامة سنة ١٢ هـ يقول له « ان فتح الله عليك فعارق حتى تلقى عياضـــاً » وكتب الى عياض « ان سر حتى تأتى المصيخ فابدأ بها ، ثم ادخل العراق من اعلاها ، وعارق حتى تلقى خالداً ، وأذنا لمن شاء بالرجوع ، ولا تستفتحا بمتكاره »(٦) ٠ ومما يؤكد أن الخروج للجهـــاد زمن الصديق رضى الله عنه كان طواعية لا اكراه فيه انه درج على دعوة الناس للجهاد بالحسنى بعد أن يرغبهم فيه ويبين لهم منازل الشهداء عند الله تعالى ٠ فيأتى من يستجيب الى المدينة « فمنهم من يسير الى أبى ، ومنهم من يسير الى يزيد ، يسير

---

(٤) لمزيد من التفصيل انظر ، محمد أحمد عواد ، الجيش والقتال فى صـــدر الاسلام ، ص ٧٣ ـ ٧٦ ٠

(٥) محمد أحمد عواد ، المرجع نفسه ، ص ٧٦ ، وفيق الدقدوقى ، الجندية فى عهد الدولة الأموية ، ص ١٢٧ ٠

(٦) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٤٦ ، والمصيخ ، بضم الميم وفتح الصاد المهملة وياء مشددة وخاء معجمة ، يقال له بنى البرشاء ، وهو بين حوران والقلت ٠ (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٤٤) ٠

كل الى من أحب »(٧) ٠ واستمر النطوع للجهاد فى خـلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ففى عهده ازدادت الحاجة لارسال المجاهدين لقتال الفرس والروم ، واخذ يدعو الناس للجهاد ويحثهم عليه ، فهبت قبائل اليمن ملبية النداء وخرجت لنجهاد نطوعا ٠ ونظرا للحرية التامة التى تمتع بها هؤلاء المتطوعة فى اختيار الوجهة التى يفضلونها ، فانه ربما كان لوجود كثير من القبائل اليمنية فى الشام اثره فى دفع هـذه القبائل على المسير الى هناك(٨) ، ولعل هذا الأمر هو الذى دعا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الى القـول « بل العـراق فان الشام فيـه كفـاية »(٩) ٠

ورغم ان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنشأ بعد ذلك ديوان الجيش وذلك فى سنة ٢٠هـ/٦٤٠م لتنظيم عملية الجهاد بعد أن اتسعت حركة الفتوحات الاسلامية ، الا أن الجيوش الاسلامية شهدت فئات متعددة من الجند المتطوعة بعد ذلك الوقت ، ففى العهد الأموى توافدت أعداد كثيرة من المتطوعة للجهاد ضد الأتراك المسيحيين والهنود الزرادشتيين وغيرهم ، وكان خروج هـؤلاء المتطوعة يتم على نفقتهم الخاصة ، بل أسهموا أحياناً فى تكاليف العمليات الحربية بتقديم الأموال وتامين العدد والمؤن اللازمة للجهاد والمجاهدين ، وكانوا يعاملون معاملة خاصة مغايرة لمعاملة العسكر النظامى ، اذ كان باستطاعتهم العودة الى ديارهم متى أرادوا(١٠) ٠

وروى الطبرى أن الخليفة العباسى هارون الرشيد رحمه الله ، لما فتح هرقلة سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م بث الجيوش والسرايا بأرض الروم « وكان دخلها فيما قيل فى مائة وخمسة وثلاثين الف مرتزق ، سـوى الاتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له »(١١) كذلك شهد القرن الثالث

---

(٧) انظر الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ ؛ محمد احمد عواد ، المرجع نفسه ، ص٧٨٠

(٨) محمود عواد ، المرجع نفسه ، ص ٧٨ ٠

(٩) الطبرى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٧١ ، ٧٢ ٠

(١٠) وفيق الدقدوقى ، الجندية فى عهد الدولة الأموية ، ص ١٢٨ ٠

(١١) انظر تاريخ الطبرى ، ج ٨ ، ص ٣٢٠ ، انظر أيضا ، القلقشندى ، مآثر =

الهجرى التاسع الميلادى فرقاً من المتطوعة للجهـاد فى أرض خراسان وبلاد ما وراء النهر ، فقد تحـدث المؤرخون عن بعض الثورات التى حركتها هذه الفرق ، وعن الدور الذى لعبته فـرق المتطوعة فى قيام الدولة الصفارية التى انشأها أحد قواد هذه الطائفة ، وهو يعقوب بن الليث الصفار ، وذلك فى سنة ٢٣٧هـ/٨٥١م . وذكر ابن الأثير انه ظهر فى خراسان فى هذه السنة شـخص يدعى درهم بن الحسـين « من المتطوعة » فتغلب عليها بواسطة يعقوب بن الليث الصفار - الذى كان قائد عسكره - ولما رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب وملكوه أمرهم(١٢) كما يذكر الكندى . أن ثغور مصر المسماه بالمواجيز « يعمرها أهل الديوان والمطوعة » وكانت أحباس السبيل التى يتولاها القضاة تجمع فى كل سنة ، فاذا كان شهر أبيب بعث القاضى ما اجتمع من أموال السبيل ففرقت على مواجيز مصر من العـريش الى لوبية ، وأعطيت « للمطوعة » ومن كان فقيراً من أهل الديوان »(١٣) ويذكر بارتولد أن السلطان محمود الغزنوى ، استخدم عشرين الف غـاز من

=

الاناقة ، ج ١ ، ص ١٩٦ ، وهرقلة : بالكسر ، ثم الفتح ، مدينة ببلاد الروم ، سميت بهرقلة بنت الروم بن اليقز بن سام بن نوح عليه السلام (انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٩٨ .

(١٢) انظر الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٩١ ، انظر أيضا حامد غنيم ، عصر الدول الاقليمية ، ج ١ ، ص ١٩٠ ، جيرارد زلثفر ، الفتوة ، ص ٢٨١ . ويذكر النويرى فى نهاية الارب أن يعقوب الصفار كان أول أمره أحد قادة صالح بن النضـير الكنانى ، الذى اشتهر « بالتطوع » فى قتال الخوارج ، وقد تغلب على سجستان سنة ٢٣٧هـ وكان يعقوب مخلصا له فجعله صالح فى مقام النائب عنه ، ولما مات صالح تولى مكانه درهم بن الحسين ، فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح ، ولم يكن درهم فى كفاءة صالح ورأى الجيش عجزه عن النهوض باعباء الزعامة ، فاجتمعوا على يعقوب ، والتفوا حوله لما رأوه من حسن تدبيره وسياسته وقيامه بامرهم ، ولم يقاوم درهم رغبة الجيش ، وسلم الأمور الى يعقوب واعتزل الجيش فاشتدت شوكة يعقوب « انظر ، ج ٢٣ ، ص ، انظر أيضا ، محمد حيدر ، الدويلات الاسلامية فى المشرق ٥٧ ، ٥٨ .

(١٣) نظر ، آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٩٥ : نقلا عن الكندى القضاه والولاه ، ص ٤٨١ ، ٤١٩ .

المتطوعة جاء بهم من أماكن متفرقة فى بلاد ما وراء النهر(١٤) ٠ ويذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٣٩٢هـ/١٠٠١م أن يمين الدولة محمود بن سبكتكين عزم فى هذه السنة على غزو بلاد الهند ، واختار من عساكره « والمتطوعة » خمسة عشر ألفاً ونزل بهم على مدينة برشور ، فلقيه ملك الهند جيبال فى عساكر كثيرة فى المحرم من هذه السنة ودارت بين الطرفين معركة عنيفة انتهت بهزيمة الهند وأسر ملكهم ومعه جماعة كثيرة من عشيرته ، وغنم المسلمون منهم أموالا كثيرة وجواهر نفيسة(١٥) ٠ كذلك يذكر ابن الأثير أيضاً فى حوادث سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م أن يمين الدولة سمع أن أهل تانيشر لديهم فيلة من جنس الصيلمان الموصوفة فى الحرب وأن صاحب هذه المدينة بالغ فى الكفر والطغيان والعناد للمسلمين ، فعزم على عزوه وتاديبه « فسار فى الجنود والعسكر المتطوعة » فقاتل الهنود حتى هزمهم وعاد الى غزنة محملا بالغنائم(١٦) ٠

وقد اشارت المصادر المعاصرة لفترة الحروب الصليبية الى أن الجيوش الاسلامية فى عهود الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، اشتملت على فرق من الجند المتطوعة ، ومن ذلك أنه عندما توجه السلطان عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م لحصار الرها توافد عليه جمع غفير من « المتطوعة » فطوق بهم المدينة من جهاتها الأربع وحالوا بينها وبين

---

(١٤) جيرارد زلينغر ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٠ ، نقلا عن Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion

(١٥) الكامل ، ج ٧ ، ص ٢١٣ ويمين الدولة هو : أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبى منصور سبكتكين ، لقبه القادر بالله بعد أن سلطنه بعد وفاة أبيه بـ « يمين الدولة ، وأمين الملة ، ولد ليلة عاشوراء سنة ٣٦١ هـ ، وتوفى بغزنه فى ربيع الآخر ، وقيل حادى عشر صفر سنة ٤٢١هـ وقيل سنة ٤٢٢هـ (انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٧٥ ـ ١٨١) ٠

(١٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٧٢ ; وتانيشر أو تانيمر ، بتاء مثناه فوقية ، ثم الف ونون مكسوره ، ثم ياء ساكنة ثم سين أو شين مفتوحة ، ثم راء مهملة ، مدينة من بلاد الهند (راجع المصدر نفسه الحاشية) ٠

ما يصل اليها من المير والأقوات(١٧) ٠

كما استدعى فى السنة نفسها وللغرض نفســه « طوائف التركمان المتطوعة »(١٨) ٠ وذكر سبط ابن الجوزى أن عدد من شارك صلاح الدين فتح بيت المقدس من المتطوعة بلغ زهــاء عشرة آلاف رجــل من كـل الأجناس(١٩)٠ وعبر لين بول عن ذهوله الشديد من كثرة عدد المتطوعة فى جيش صلاح الدين يوم حطين(٢٠) ٠ وعندما قصد السلطان المملوكى الأشرف خليل بن المنصــور قلاوون عكا ســنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م لطــرد الصليبيين منها اجتمع عنده العسكر الاسلامى بأعداد لا تحصى « وكان المتطوعة أكثر من الجند ومن فى الخدمة »(٢١) ٠

عناصر الجند المتطوعة ضد الصليبيين والمغول :

أولا : العلماء والفقهاء

تطالعنا المصادر الاسلامية المعاصرة لفترة الحروب الصليبية والغزو المغولى للشرق الاسلامى ، بعبارات واضحة تنم عن المشاركة الفعلية لفئات من العلماء والفقهاء الذين كانت لهم الكلمة النافذة والحظوة لدى الحكام والمحكومين فى الحروب التى خاضها المسلمون ضد الصليبيين والمغول ، من ذلك ما ورد فى معظم المصادر المعاصرة من أن الشيخ أبا عبد الله بن على ابن مهران الفقيه الشافعى ذكر عنه تلاميذه أنه غاب عنهم يوم فتح الرها ، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور ، عنده من الارتياح ما لم يروه أبدا ، فلما قعد معهم تظاهر أمامهم بأنه لم يحضر مع عماد الدين زنكى استرداد الرها ٠ ولكن نفراً من الاجناد كانوا قد حضروا مجلسه ،

---

(١٧) انظر ابن الأثير ، الباهر ، ص ٦٩ ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ٠

(١٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص٢٧٨ ٠

(١٩) انظر ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق٢ ، ص٣٩٨ ٠

(٢٠) انظر حسان سعداوى ، المرجع نفسه نقلا عن
Laenepoole, Saladin, p. 204

(٢١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ ٠

قالوا له « منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح ، وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا »(٢٢) ٠

كذلك ذكر ابن القلانسى أن نور الدين محمود عندما عزم فى سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م على مهجامة الصليبيين فى بانياس أمر بالنداء « فى البلد المحروس فى الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلد والغرباء ٠٠٠ وتبعه من الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير »(٢٣) ويذكر أسامة بن منقذ أنه عندما قصد رجال الحملة الصليبية الثانية دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م بزعامة الامبراطور الالمانى كونراد الثالث ، خرج عسكر دمشق لصـــدهم ، وفى جملتهم « الفقيه الفندلاوى ، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولى ، رحمهما الله ، وكانا من خيار المسلمين ، فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن ، ما هؤلاء الروم ؟ قال بلى ، قال ، فالى متى نحن وقوف ، قال ، سر على اسم الله تعالى ، فتقدما وقاتلا حتى قتلا فى مكان واحد »(٢٤) وظهر دور العلماء والفقهاء أيضا خلال الدور البارز الذى قام به صـــلاح الدين فى حركة الجهاد ضد الصليبيين فى بلاد الشام من ذلك ما ذكره ابن كثير أن صلاح الدين عندما عزم على استرداد بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م « قصده العلماء والصالحون تطوعاً »(٢٥)كما شارك العلماء والفقهاء قوات صلاح الدين التى خرجت من مصر تحت قيـــادة متولى الأسطول المصرى حسام الدين لؤلؤ ، الذى جهز المراكب وسيرها في البحر بعد أن شحنها برجال « البحرية ذوى التجربة والتحرية من أهل النخوة للدين والحمية »(٢٦) لتعقب القوات الصليبية التى أرسلها البرنس ارناط « رينودى شاتيون » حاكم الكرك والشـــوبك فى عرض

---

(٢٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٧٠ ٠

(٢٣) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٠

(٢٤) كتاب الاعتبار ، ص ١٢٢ ؛ والفندلاوى هو الفقيه أبو الحجاج يوسف بن درناس ، شيخ المالكية بدمشق ، كان اماما عالما دينا زاهدا (انظر ابن القلانسى المصدر نفسه ، ص ٢٩٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٢٥ ٠

(٢٥) ابن كثير ، المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ ٠

(٢٦) العماد ، البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ٧٠ ٠

البحر الأحمر ، ونزلت فى ميناء عيذاب ثم عبرت البحر الى السواحل الشرقية عند رابغ والحوراء بهدف المساس بحرمة المقدسات الاسلامية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولكن القوات الاسلامية تعقبتها حتى ادركتها ولم يبق بينها وبين المدينة سوى مسيرة يوم واحد ٠ وقبض عليهم المسلمون وأرسلوا الى مصر مكبلين فى الاصفاد ، حيث أمر صلاح الدين بقتلهم جميعا بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والاسكندرية « وتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة »(٢٧) ٠

ويبدو أن مشاركة العلماء والفقهاء صلاح الدين فى حركة الجهاد لم تقتصر على من كان منهم قريباً من ساحات القتال ، بل تعدى ذلك الى أنهم كانوا يفدون للمشاركة من مناطق نائية ، من ذلك ما ذكره ابن الاثر فى حوادث سنة ٥٨٤هـ أنه فى هذه السنة حضر عند صلاح الدين فى بلاد الشام فقيه مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم واميرها الشيخ عز الدين أبو الفليتة قاسم بن المهنا العلوى الحسينى « وشهد معه مشاهده وفتوحه »(٢٨) ، كما تردد فى المصادر المعاصرة أن رسل الحكام المسلمين كانت تخرج الى الأمصار الاسلامية « للاستنفار والاستنصار »(٢٩) ٠ و « لاستدعاء العساكر والجموع »(٣٠) وأنه كان يهل « للاستدعاء أهل الاستعداد »(٣١) اذ المقصود بالاستنفار استدعاء العساكر النظامية ، أما الاستنصار فلعل المقصود بها حث عامة الناس على الخروج للجهاد تطوعا من غير الزام ٠ كما يبدو أن كلمة الجموع قصد بها هنا الغزاة المتطوعة ٠ أما أهل الاستعداد فيشمل كلا الفئتين ٠

---

(٢٧) انظر الحنبلى ، الأنس الجليل ، ص ٣١٧ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٣ ـ ٤٤ ؛ ورابغ واد على عشر أميال من الجحفه بينها وبين الأبواء ، وساحل الحوراء موضع على الساحل الشرقى للبحر الأحمر (انظر ياقوت ، معجم البلدان) ٠

(٢٨) انظر الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٩٥ ٠

(٢٩) انظر العماد ، الفتح ، ص ٣٣١ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ٢ ، ص١٤٩٠

(٣٠) العماد ، المصدر نفسه ، ص ١٩١ ٠

(٣١) العماد ، المصدر نفسه ، ص ٥٨ ٠

• ويظهر أن طائفة العلماء والفقهاء كانت حريصة على الخروج للجهاد تطوعاً فى أحلك الظروف واقساها• ويستدل على ذلك مما ذكرته المصادر العربية من أن صلاح الدين عندما خرج الى ثغر عكا بعد أن حاصرها الصليبيون سنة ٥٨٥هـ رافقه عدد من العلماء الاجلاء منهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى الذى ظل ملازماً للسلطان صلاح الدين حتى مات فى ركابه بمنزلة الخروبة قريباً من عكا(٣٢) ، وكذلك العالمان الجليلان حسام الدين سنقر الاخلاطى الذى توفى وهو مرابط مع صلاح الدين على مشارف عكا فى رجب من السنة نفسها « وأسف المسلمون أسفاً شديداً فانه كان شجاعاً ديناً »(٣٣) والشيخ الجليل حسام الدين طمان الذى رافق صلاح الدين حتى تل العياضية المقابل لتل المصلبين الذى يشرف على عكا ثم توفى من الاجهاد ودفن فى سفح هذا التل وصلى عليه ابن شداد مع « جماعة من الفقهاء » الذين رافقوه وذلك ليلة نصف شعبان(٣٤) ، كما وفد على صلاح رجل « كبير مذكور » من أهل مازندران « يريد الغزاة » فوصل والحرب قائمة ، ولقى السلطان وتكلم معه واستأذنه فى الجهاد ، وحمل حملة شديدة حتى استشهد رحمه الله(٣٥) • كذلك ابرز ابن الأثير الدور الذى لعبه الغزاة المتطوعة ، ابان الحصار الصليبى لعكا ، فافرد له عنوانا وسمه بوقعة « للغزاة المتطوعة» ذكر ان صلاح الدين ركب سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م فى عدد يسير من جيشه ، لينظر الى مخيم الصليبيين من الجبل ، كى يعمل بمقتضى ما يشاهده « وظن من هناك من غزاة العجم والعرب والمتطوعة » أنه على قصد المصاف والحرب ، فساروا مجدين وأوغلوا فى أرض العدو ، تاركين السلطان وراءهم فارسل صلاح الدين عدداً من رجاله يردونهم ويحمونهم، فلم يسمعوا ولم يقبلوا ، وكان الصليبيون قد اعتقدوا أن وراءهم كميناً ،

---

(٣٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٤ •

(٣٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٨ •

(٣٤) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ٩١ ، عفاف صبرة ، المرجع نفسه ص

(٣٥) ابن شداد ، المصدر نفسه ، ص ١٥٦ ، ومازندران ، هى التى كانت تعرف بطبرستان ، حيث يذكر لسترنج أنه منذ المئة السابعة للهجرة بطل استعمال هذا الاسم وحل محله اسم مازندران ، وهو ما يعرف اليوم بجبال البرز الممتدة بحذاء الساحل الجنوبى لبحر قزوين (انظر بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٠٩) •

فترددوا بادىء الأمر فى مهاجمتهم ، فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر ، فاتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين ، فحمل عليهم الصليبيون واستشهد منهم جمع كثير(٣٦) ٠

كذلك أسهمت هذه الطائفة فى حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن السلطان العادل الأيوبى وابنائه واحفاده من بعده ٠ حيث ظهر دورها واضحاً فى الدفاع عن الأراضى المصرية التى استهدفتها الحملتان الصليبيتان الخامسة والسابعة ، فقد شارك عدد من الفقهاء والعلماء الجنود النظاميين فى مقاومة الحصار الصليبى الذى فرضه رجال الحملة الصليبية الخامسة على ثغر دمياط سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ونال كثير منهم الشهادة عليه ، كالفقيه محمد بن اسماعيل بن القاضى ، الشهير بابن أبى صادق ٠ والفقيه العالم جلال الدين بن شاش امام المالكية ومرجعهم، الذى حج فى آخر أيامه ، ولما عاد امتنع من الفتيا تورعاً ، وفضل المشاركة فى الجهاد ضد الصليبيين بنفسه فمضى الى دمياط والعدو محاصر له وقاتل حتى استشهد ٠ وكذلك الشيخ محمد بن أبى القاسم ابن عبد الله الهكارى الذى اشتهر برجاحة عقله ووفير علمه وسداد رأيه ، فوثق به الملك المعظم واتخذه مستشاراً له ، وظل كذلك حتى استشهد على قلعة الطور التى أمر العادل بهدمها « ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط »(٣٧) ومنهم أيضا الشيخ ابو الحسن بن قفل الذى وقع فى أسر الصليبيين عند دخولهم دمياط ، فسالوا عنه فقيل لهم « هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين ياوى اليه الفقراء ، فما تعرضوا له بعد »(٣٨) وممن أسهم أيضاً فى محاولة صد الصليبيين عن هذا الثغر المؤرخ المعاصر أبى المظفر سبط ابن الجوزى حيث كتب اليه الملك المعظم وهو بدمشق يخبره بما جرى على دمياط ، وطلب منه أن يحرض الناس على الجهاد ، فقال له « انى كشفت ضياع الشام فوجدتها الف قرية منها

---

(٣٦) انظر الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٠٠ ، انظر أيضا ، العماد ، الفتح ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ٠

(٣٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢١ ٠

(٣٨) ابو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ١١٧ ٠

الف وستمائة من املاك لأهلها ، واربع مائة سلطانية ، وكم مقدار ما تقوم به هذه الاربعمائة من العساكر وأريد ان يخـــرج الدماشقة ليذبوا عن املاكهم » فجلس سبط ابن الجوزى فى جامع دمشق ، وقرا كتابه عليهم، فتقاعدوا وكان تقاعدهم ثمناً لأخذه الثمن والخمس من أموالهم . ولـما علم المعظم بذلك كتب الى سبط انهم اذا لم يخرجوا فسر انت الينـــا ، فخرج سبط الى الساحل فوافى المعظم وهو نازل على قيسارية ، فاقام معه حتى فتحها عنوة ثم توجه معه الى الثغر « ففتحه وهدمه وعاد الى دمشق »(٣٩) .

وعندما تعرضت الأراضى المصرية لخطر الحملة الصليبية السابعة سنة ٦٤٧هـ - ٦٤٨ هـ / ١٢٤٩م أبلى الفقهاء والعلماء بلاء حسـناً فى الدفاع عنها وقد تجلى دورهم بوضوح فيما أبدوه من بسالة وتضحية فى معركتى المنصورة وفارسكور ، فممن استشهد فى هـــذه المحنة العالم الجليل ضياء الدين أبو الحسين ، الذى كان شيخاً عنى بدراسة الحديث والفقه ، تعرض لطعنات الفرنج فى المنصورة حتى استشهد ودفن جثمانه الطاهر فى القاهرة(٤٠) .

وممن أسهم أيضاً فى صد الصليبيين عن الأراضى المصرية فى هـذه السنة العز ابن عبد السلام ، الذى شارك بنفسه فى هزيمة الصليبيين فى المنصورة ، وكانت له كرامة أثناء القتال أوردها السبكى فى طبقاته حيث قال عنه « وكان الشيخ مع العسكر ، وقويت الريح ، فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيراً بيده الى الريح ، يا ريح خذيهم، عدة مرات ، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها ، وكان الفتح ، وغرق أكثر الفرنج ، وصرخ من بين يدى المسلمين صارخ : الحمـــد لله الذى أرانا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجلا سخر له الريح»(٤١) .

---

(٣٩) أبو شامة ، المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

(٤٠) لمزيد من التفصيل نظر عفاف صبرة ، دراسات فى الحروب الصليبية ،ص

(٤١) السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ ٨ ، ص ٢١٦ ، انظر أيضا محمد الزحيلى، العز بن عبد السلام ، ص ١٢٤ ؛ والعز : هو شيخ الاسلام عبد العزيز بن عبد السلام =

وعندما فوجىء الشرق الاسلامى فى أوائل القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر الميلادى ـ بحملات المغول المدمرة الذين حطموا دوله فى ايران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام ، ولم يوقف زحفهم سوى دولة المماليك الفتية فى مصر التى الحقت بهم هزيمة منكره فى معركة عين جالوت الشهيرة سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وانقذت من تبقى من العالم الاسلامى من خطرهم المدمر . أسهم العز بن عبد السلام بجهد وافر فى هذه المعركة اذ كان له دور بارز فى تحريض الجيش المملوكى المسلم على الخروج لمواجهة المغول فى فلسطين قبل وصولهم الى الأراضى المصرية ، وافتى بأنه « اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على العالم قتالهم » وجاز للحاكم أن يأخذ من الرعية ما يستعين به على الجهاد ، شريطة أن لايبقى فى بيت المال شيء ، وأن يحضر ما عنده وعند امرائه وحريمهم من الحلى ، وتسك نقوداً ثم تفرق على العسكر(٤٢) .

وعندما خرج المسلمون لمواجهة المغول رافقهم العز رغم كبر سنه ، ويذكر أنه قال لمن تخاذل من الجنود فى الخروج خوفاً من بطش المغول « أخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر »(٤٣) .

وممن برزوا فى تلك الأونه العالم الفقيه الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد الذى استطاع بخطبه البارعة أن يؤثر على جموع المسلمين بمصر

=

ابن أبى القاسم بن حسن بن محمد السلمى المعروف بسلطان العلماء وبائع الملوك ، كان عالما فقيها عابدا صالحا مجتهد أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر لا يخشى فى الله لومة لائم . ولد بدمشق سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م صنف الكثير من المؤلفات فى الشريعة واللغة ، وله العديد من الفتاوى قادته الى السجن فى الشام ومن ثم الهجرة الى مصر حيث عين قاضيا ومارس التدريس والافتاء ، توفى بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م (انظر ترجمته مفصلة فى السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ ٨ ، ص ٢٠٩ ، ٢٥٥ ، وانظر أيضا الزحيلى ، المرجع نفسه ، ص ٣٩ ، على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، ص ٢٧٨) .

(٤٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٤٣) سليم الهلالى ، صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، ص ٦٢ ـ ٦٣ . ومما يجدر ذكره هنا أن العز شارك فى معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ وتوفى سنة ٦٦٠هـ وعمره ٨٣ سنة .

بدعوتهم للخروج لملاقاة المغول فى عين جالوت وشاركهم القتال بنفسه فى هذه المعركة التى ادى انتصار المسلمين فيها الى تغيير موازين القوى فى الشرق لصالح الاسلام والمسلمين(٤٤) ٠

وقد برزت لنا شخصية أخرى من الفقهاء الذين أسهموا فى حركة الجهاد ضد المغول ذلك هو شيخ الاسلام محى الدين ابو زكريا النووى ، الذى ذكر عنه ، أنه كرر فتوى العز بن عبد السلام ، فيما يتعلق بمسالة جواز أخذ مال من الرعية يستنصر به على قتال العدو ٠ اذ أنه عندما كتب فقهاء الشام الى السلطان المملوكى الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٧٧م) بجواز ذلك ، امتنع عن موافقتهم مشترطاً نفس الشروط التى شرطها العز على السلطان المملوكى السابق المظفر قطز (٦٥٧ - ٦٥٨هـ/١٢٥٩ - ١٢٦٠م) فغضب عليه بيبرس ، وقال له أخرج من بلدى « يعنى دمشق » فخرج الشيخ الى نوى ، فشفع فيه الفقهاء والعلماء ، وقالوا لبيبرس هذا من علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به ، وطالبوا باعادته الى دمشق ، فرسم بيبرس برجوعه ، لكن الشيخ أبى ورد قائلا « لا أدخلها والظاهر فيها » ومات بعد شهر من ذلك(٤٥) ٠

---

(٤٤) انظر عفاف صبرة ، المرجع السابق ، ص ٢٠ ، نقلا عن الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٥٦٧ ٠ وابن دقيق العيد هو : الامام العلامة الفقيه محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة ، المنفلوطى الأصل ، المصرى القوصى المنشأ ، المعروف بتقى الدين بن دقيق العيد ، تولى القضاء بالديار المصرية سنة ٦٩٥ هـ ، واستمر فيه الى ان توفى سنة ٧٠٢ هـ ٠ (انظر ترجمته مفصلة فى ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٩١ - ٩٦) ٠

(٤٥) انظر البدرى ، الاسلام بين العلماء والحكام ، ص ١٠١ ؛ محمد نعيم ياسين ، الجهاد ميادينه وأساليبه ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ٠ والامام النووى هو : الامام الحافظ الفقيه المحدث محى الدين أبو زكريا شرف بن مرى بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعه بن حزام النووى الدمشقى ، ولد فى نوى من أرض حوران سنة ٦٣١هـ ، كان رحمه الله على جانب كبير من العلم والعمل والورع والزهد ، والصبر على خشونة العيش ، والمصابرة على أنواع الخير ، لا يعرف ساعة فى غير طاعة اللـه ٠ عاد فى آخر عمره الى بلده نوى ، فمرض عند أبويه وتوفى ليلة الأربعاء لست بقين من شهر رجب سنة ٦٧٦هـ ، ودفن بها (انظر الامام النووى ، التبيان فى اداب حملة القرآن ، مقدمة المحقق ، ص د - ط) ٠

ورغم اننا لا نعرف ان كان السلطان المملوكى بيبرس قد وافق على شروط الامام النووى أم لا ، عندما رسم بارجاعه ، فان الذى يهمنا هو ان مشاركة النووى فى الجهاد ضد المغول ضمن الجيش المملوكى كان من قبيل التطوع ، بدليل أن السلطان بيبرس لم يطالبه بشىء عندما أمره بالخروج من دمشق ٠

وممن اسهم فى حركة الجهاد ضد المغول من أئمة المسلمين وفقهائهم شيخ الاسلام وحجته الامام تقى الدين أحمد بن تيمية رحمه الله ٠ ذكر ابن كثير انه فى يوم العشرين من شوال سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م ركب نائب السلطنة المملوكية بالشام جمال الدين أقوش الأفرم فى جيش من دمشق متوجهاً الى جبال الجرد وكسروان ، وخرج معه الشيخ تقى الدين بن تيمية ومعه « خلق كثير من المتطوعة والحورانة » لقتال أهل تلك الناحية بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم(٤٦) ٠

وختاماً فان ما أوردته نماذج فى هذه العجالة المتواضعة عن دور العلماء والفقهاء فى المشاركة فى حـــركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول تطوعاً ابان هجومهم على الشرق الاســلامى كان على ســبيل المثال لا الحصر ٠ فالمقام لا يتسع لحصر من أسهم من هذه الفئة فى هذا المجال٠

ثانيا : فرق الأحـداث

الأحداث أو الحدثان ، جمع حـــدث وهو « الفتى السن » ويقال رجل حدث ، أى شاب ، وهؤلاء غلمان حدثان ، أى أحداث(٤٧) ٠ ويذكر بعض المؤرخين أن طائفة الاحداث هذه ، تكونت فى بعض مدن الشام منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى ـ

---

(٤٦) انظر البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، ص ١٢ ؛ والحورانة : نسبة الى حوارين من قرى حمص من جهتها الجنوبية ، قال الشاعر ظللنا بحوارين فى مشمخرة : تمر سحاب تحتنا وثلوج (انظر لسان العرب ، جـ ٤ ، ص ٢٢٢ مادة (حور) ، ابو الفدا، تقويم البلدان ، ص ٨٣ ، وتبعد الآن عن حمص حوالى ٧٥ كم ، وتتبع اداريا ناحية القريتين (ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٥٣ تحقيق سهيل زكار ٠

(٤٧) ابن منظور ، المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ، مادة (حدث) ٠

بهدف مقاومة الحكم الفاطمى • وهم عبارة عن جماعات من القــوات المدنية كان يوكل اليهم الى جانب ذلك عدد من المهام داخل المــدن ، كحفظ النظام ، ومكافحة الحرائق ، واغاثة المنكوبين ، اضافة الى أنهم كانوا يلحقون بالقوات النظامية عندما يعلن داع الجهاد النفير العــام للخروج لقتال الأعداء • متى دعت الحاجة اليهم(٤٨) •

والملاحظ أن كلمة أحداث عندما تذكر فى المصــادر ، فانها غالباً ما ترد مقرونة بلفظ المتطوعة • من ذلك ما ذكره المؤرخ أبو شــامة فى حوادث سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ابان حديثه عن الحصار الذى فرضه رجال الحملة الصليبية الثانية على دمشق بزعامة الامبراطور الألمانى كونراد الثالث والملك الفرنسى لويس السابع حيث وقف المسـلمون بازائهم فى السبت سادس ربيع الأول ونشبت الحرب بين الفــريقين واجتمع لقتال الصليبيين « من الأعمال والاجناد والقتال والأتراك ، وأحــداث البلد والمتطوعة والغزاة الجم الغفير »(٤٩) وذكر ابن القلانسى فى حوادث سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م أن نور الدين محمود بن زنكى تأهب لمجاهدة الفرنج فى هذه السنة وأمر بالنداء فى دمشــق لحث « الغــزاة والمجاهدين والأحداث والمتطوعة من فتيان البــلد والغــرباء ، فتبعه من الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير »(٥٠) وعليه فانه يبدو لنا أن هؤلاء الأحداث لم تكن اسماؤهم مدرجة ضمن قوائم العسكر النظامى ، وانما كانوا يخرجون للجهــاد بمحض اختيارهم تطوعاً ،

---

(٤٨) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٧ حاشية المحقق ؛ ســعيد عاشــور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٠ - ٣١ ، مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الاسلامى قبل قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، ص ٤٩ ، ويمكن أن نشبه فرق الاحداث هذه بما يعرف فى وقتنا الحاضر ، بفرق الدفاع المدنى، أو المقاومة الشعبية ، التى تحرص الحكومات الحالية على اعدادها وتطويرها لمواجهة الأزمات والكوارث الناجمة عن اشتعال الحروب ، أو حــدوث الزلازل والفياضانات والحرائق وما شابهها •

(٤٩) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٢ •

(٥٠) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٠ ، انظر ايضا ، أبو شامة ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٧ •

ولعل مما يؤيد هذا ، أن المصدر نفسه يورد كلمة أحداث هذه تارة مقرونة بلفظة الأجناد ، واخرى بالعسكر وذلك تمييزا للاحـــداث عن الجنـد النظاميين ، من ذلك ما ورد فى حـــوادث سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م ، أن نور الدين محمود بن زنكى نزل فى هـــذه السنة بارض داريا الى جسر الخشب « ونودى فى البلد بخروج الأجناد والأحداث »(٥١) وأنه عندما دخل مشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م « زحف اليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثير »(٥٢) ٠

ويطلق على زعيم هذه الطائفة لقب مقدم أو رئيس الاحداث(٥٣)٠ وكان يتمتع ـ على ما يبدو ـ بحماس دينى كبير ، وصل الى حد الخروج على الزعيم المحلى متى بدر منه تقاعس عن أداء مهامه الدفاعية ضـد الاعداء ، وتمهيد السبيل للبديل الأصلح ٠ من ذلك ما حدث سنة ٥٤٩هـ عندما قصد نور الدين محمود مهاجمة دمشق حيث راســـل « أحداثها وزناطرتها » ، واستمالهم اليه ، فأجابوه الى تسليم البلد ، ذلك أنه ما ان بدأ نور الدين حصاره لدمشق ، حتى اعلنوا ثورتهم على حاكمها مجير الدين ابق البورى وسلموا البـــلد لنور الدين بأن فتحوا له بابها الشرقى ، فدخله بالأمان عاشر صفر ، وحصر مجير الدين فى القلعـــة وراسله ووعده بمنحه الأقطاع الكثير ، ومن جملته مدينة حمص ، فأجاب الى تسليم القلعة ، حيث سلمها ورحل الى حمص(٥٤) ٠

ولم يقتصر ظهور طائفة الأحداث هذه على مدينة دمشق ، بل يبدو أنه كان لكل مدينة شامية أحداثها ٠ من ذلك ما ذكر من أن الأحـــداث الحلبيين ساعدوا الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابى على انتزاع حلب من يد الفاطميين سنة ٤٥١هـ/١٠٢٤م) وعين أبا المرضى سالم بن مستفاد الحمدانى غلام سيف الدولة بن حمدان مقدمهم ، وعندما استعاد

---

(٥١) ابو شامه ، الروضتين ، جـ ١ ، ص ٨٠ ٠

(٥٢) ابو شامه ، المصدر نفسه ، حـ ١ ، ص ٩٦ ٠

(٥٣) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٤ ٠

(٥٤) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٧ ٠ والزناطره : طبقة معينة من سكان المدن كانت مولعة بتحريك الفتن والقلاقل (انظر المصدر نفسه حاشية ٤) ٠

الفاطميون حلب من بنى مرداس ، استدعى الحلبيون وفيهم الأحداث سنة (٤٣٤هـ/١٠٤٢م) معز الدولة علوان ثمال بن صالح وابن عمه مقلد بن كامل بن مرداس ، فوصل ثمال قبل المقلد ودخل حلب واجتمع اليه الأحداث(٥٥) . وكذلك ما ذكره ابن العديم ، عند حديثه عن الصراع الذى دارت رحاه بين رضوان بن تتش صاحب حلب ، وبين أخيه دقاق صاحب دمشق سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧م . حيث ذكر أن رضوان عندما علم بأن ياغى سيان صاحب أنطاكية وصل نجدة لدقاق ، استنجد رضوان بسليمان بن ايلغازى صاحب سميساط(٥٦) . فوصل بعسكر كثير الى حلب وجمع رضوان للدفاع عنها من قدر عليه من الترك والعرب « وأحداث حلب » كما ذكر ابن العديم فى موضع آخر أن رضوان عندما سمع بهجوم الصليبيين على أرتاح توجه نحوهم فى عساكره وجموعه « وجمع ما أمكنه من عمل حلب من الأحداث »(٥٧) اذ يفهم أن المقصود بعمل حلب ، هو المدن والقرى والحصون والضياع التابعة لها . كما يتضح من هذا أن مهام هؤلاء الأحداث لم تكن مقصورة على حفظ الأمن داخل المدن ، بل كانوا يخرجون للجهاد ضد الصليبيين متى دعت الحاجة الى ذلك .

كما ذكر سبط بن الجوزى أنه خرج سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) من دمشق الى نابلس « الى الغزاة » ... وكان معه من قرية واحدة يقال لها زملكا من قرى دمشق ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح ، ومن غيرها خلق كثير «والكل خرجوا احتسابا »(٥٨) .

أما بالنسبة لحجم قوة هذه الطائفة ومدى تأثيرها على مجريات الحوادث ، واتخاذ القرارات فى بعض مدن الشام ، فانه يمكن أن نلحظ ذلك من خلال وصف دقيق وصف به المؤرخ سوفاجيه Sauvaget

---

(٥٥) عمر رضا كحالة ، دراسات اجتماعية فى العصور الوسطى ، ص ٢٦ .

(٥٦) سميساط بضم أوله وفتح ثانيه ، مدينة على شاطىء الفرات (انظر ياقوت معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٥٨) .

(٥٧) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، وأرتاح : حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٤٠) .

(٥٨) انظر مراة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٤٤ ـ ٥٤٥ .

أحداث مدينة حلب ابان القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين - الخامس والسادس الجهريين - حيث قال « هذه المنظمة كانت تمثل قوة تحسب لها الدولة حسابها فقد كان رئيسها فى الواقع سيد المدينة ، وكان له النفوذ التام فى أزمنة الفوضى ، بحيث لم يكن باستطاعة اى كان ان يفرض سلطته دون التعاون معه ، وبسبب ذلك أصبح تأييده مما يتنافس عليه المعنيون بالأمر عن طريق بذل المال ، ومن ثم كانت الدولة تعترف به رسميا ، الأمر الذى ثبت مركزه رئيساً للمدينة • ولم يكن ياتى من بين الرعاع ، بل على العكس كان من الأسر ذات المقام المرموق بحيث يمكنه أن يفرض احترامه على الجميع ، بما فى ذلك السلطان »(٥٩) •

ثالثا : التركمان المتطوعة

شهد اقليم الجزيرة منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى - هجرة جماعات من القبائل التركية البدوية (التركمان) التى اعتنقت الاسلام منذ بداية هذا القرن • وقد عرف هؤلاء المسلمون الجدد بحماسهم الشديد للاسلام وبراعتهم فى استخدام السهام التى قلما يخطئون الرمى بها •

وأدى مجيئهم الى دفع حركة الجهاد • حيث عمد السلاطين فى الشرق الاسلامى الى الاستعانة بهم بالسماح لهم بالتطوع فى صفوف جيوشهم ، فيذكر ابن العديم أن عماد الدين زنكى عندما عزم على مهاجمة الصليبيين فى الرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م استدعى « طوائف التركمان المتطوعة »(٦٠) كما يذكر ابن القلانسى عند تناوله الحدث نفسه أن زنكى « كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها - أى الرها - والاستنجاد وأداء فريضة الجهاد ، فوصل اليه منهم «الخلق الكثير والجم الغفير »(٦١) وذكر فى موضع آخر ان زنكى لما بلغه ان الصليبيين قد تجمعوا بانطاكية لانجاد أهل الرها ، انهض اليهم جيشاً

---

(٥٩) نقلا عن جيرارد زالنفرد ، الفتوه هل هى الفروسية الشرقية ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، حاشية رقم ٤٨ •

(٦٠) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ •

(٦١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ •

وافراً من طوائف « التركمان والأجناد »(٦٢) ويبدو من هذين النصين ان مشاركة التركمان كانت تطوعاً بدليـــل استخدام ابن القلانسى كلمة « كاتب » بدلا من كتب اذلو لم يكن استدعاءهم بهدف التطوع ، لاستخدم اللفظ « كتب » الذى ينم غالباً عن الأمر ·

ومن البراهين الدالة على ان جموعاً من طوائف التركمان ، كانت تفد على معسكرات عماد الدين زنكى للجهاد معه تطوعاً ، ما ذكره اسامة بن منقذ من عبارات على لسان زنكى نفسه تدل على ذلك · فقد ذكر أن زنكى كان يقول لأصحابه عندما يكون بحلب نريد أن « نمضى الى الفرات نجمع التركمان » واذا نزل على الفرات قال لهم « ان لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التركمان »(٦٣) ·

ومن ذلك ايضاً ان نور الدين محمود عندما أرســل أســد الدين شيركوه على رأس الحملة الثالثة الى مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م اعطاه مائتى الف دينار عدا الثياب والأسلحة وسمح له أن يختار من العسكر من يشاء ، وزاد على ذلك بأن « جند ستة آلاف فارس من التركمان » وعندما توفى شـــيركوه أدى تعيين صـــلاح الدين خلفـــاً له « الى انسحاب التركمان »(٦٤) وعليه فان تجنيد هؤلاء التركمان على يد أسد الدين شيركوه ، ثم انسحابهم من مصر بعد وفاته يدل دلالة واضحة على أنهم لم يكونوا من أهل الديوان ، بل كان خروجهم تطوعاً ·

ويبدو أن هؤلاء التركمان اســـتمر تطوعهم للجهاد فى صـــفوف الجيوش الاسلامية حتى بعد أن تعرض الشرق الاسلامى لخطر الحملات المغولية المدمرة ، يدلنا على ذلك ما ذكره المؤرخ المعاصر ابن واصل ، أنه عندما تمكن المغـــول من هزيمة السلطان غياث الدين زعيم سلاجقة الروم سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣م بالرغم من قدوم عسكر حلب لنجدته « ثارت

---

(٦٢) ابن اللاقنسى ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٠ ·

(٦٣) انظر كتاب الاعتبار ، ص ٣٩ ·

(٦٤) انظر هاملتون جب ، دراسات فى حضارة الاسلام ، ص ٩٧ ·

التركمان فى البـــلاد ينهبون ويعيثون »(٦٥) اذ لا يستبعد أن ثورتهم لكونهم ليسوا من الجند النظامى ، كانت بسبب ضعف غيـــاث الدين وتهاونه فى صد خطر المغول عن بلاده ، يعضد هذا ما ذكره أبو المحاسن ابن تغرى بردى ، أن السلطان غياث الدين صالح التتار على أن يدفع لهم كل يوم ألف دينار وفرسا ومملوكا وكلب صيد ٠ وأنه كان شابا لعابا ظالما قليل العقل « يلعب بالكلاب والسباع ويسلطها على الناس ، فعضه بعد ذلك سبع فمات ، فاقام التتار شحنة على الروم »(٦٦) ٠

رابعا : الخراسانيون المتطوعة

كانت رغبة الخراسانيين فى الجهاد وحميتهم الدينية ســببا فى تدفقهم على اقاليم الشرق الاسلامى ، ففى سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م خرج من خراسان نحو من عشرين ألفا من الغزاة ، بعد أن نما اليهم توالى نجاح الروم البيزنطيين فى مهاجمة بلاد الاسلام شمال الجزيرة والشام ، وسار الخراسانيون حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بنى بويه ، فاستراب بهم صاحب الحد ٠ وخالف ركن الدولة وزيره ابن العميد فى أمرهم ، وكاتب صاحب الحد بان يأذن لهم فى الدخول ، فدخلوا ومعهم فيل عظيم ، واجتمع رؤساؤهم الى الوزير ابن العميد ، وخاطبوه فى أن يطلب لهم من الأمير ركن الدولة مالا يستعينون به على أمر الغزو ، ولكنه لم يجزل لهم العطاء ، فاشتطوا فى الطلب قائلين « نحتاج الى مال هـذه البلاد كلها التى بايديكم ، فانكم انما جبيتموها لبيت مال المسلمين لنائبة أن تاتيهم ، ولا نائبة أعظم من طمع الروم والأرمن فينا ، واستيلاءهم على

---

(٦٥) انظر مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٢٧ ، والســلطان غياث الدين هو : كيخسرو الثانى بن كيقباذ الأول حكم سلطنة سلاجقة الروم من (٦٣٤ _ ٦٤٤ هـ / ١٢٣٧ _ ١٢٤٦) انظر ، ابن العديم بغية الطلب ، جـ ٨ ، ص ٣٥٤٧ حاشية المحقق ٠

(٦٦) انظر النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٤٧ ؛ أما سبط ابن الجوزى ، فقد وصفه بأنه كان « صبيا لعابا » انظر مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ق٢ ، ص ٧٥٩ ؛ والشحنه أو الشحنكيه : وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنه ، وهو رئيس الشرطة الموكل بحفظ الأمن فى البلد ، (انظر محمد قنديل البقلى ، التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، ص ١٩٣) ٠

ثغورنا ، وضعف المسلمين عن مقاومتهم »(٦٧) . ويبدو أن هذا الحماس للجهاد والغيرة على ثغور المسلمين من قبل هؤلاء الخراسانيين ، كان من باب التطوع ايمانا منهم بفرضية الدفاع عن حوزة الاسلام والمسلمين ، يؤيد هذا ما ذكر من أن الخراسانيين زادوا على ذلك بان طلبوا من ركن الدولة ووزيره أن يرسلا معهم ثلة من جيشهما النظامى لتأدية هذا الواجب .

وتشير المصادر المعاصرة الى أن هؤلاء الخراسانيين استمر تطوعهم بالجهاد فى صفوف الجيوش الاسلامية فى الشرق الاسلامى ابان تعرضه لخطر الحملات الصليبية التى شنها الغرب الأوربى المسيحى عليه منذ أواخر القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، فقد تحدثت هذه المصادر عن الدور الفاعل والجهد البارز الذى بذله الخراسانيون أثناء حصار جيوش عماد الدين زنكى للرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م فقد استغل زنكى معرفة هؤلاء الخراسانيين « بمواضع النقوب » وأسند اليهم مهمة نقب أسوار المدينة ، فنقبوا فى عدة مواضع « عرفوا أمرها وتيقنوا نفعها وضرها » واستمروا فى أداء مهمتهم هذه حتى وصلوا تحت أساس أبراج السور « فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة » ثم استاذنوا عماد الدين فى اطلاق النيران عليها فاذن لهم بعد أن تفقد بنفسه أحد الثقوب « وشاهد حاله واستعظم كونه وهاله » ولما تمكنت النيران من العوارض الخشبية وقع السور فى الحال(٦٨) .

---

(٧) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ، ص ٩٦ . وركن الدولة هو : أبو على الحسن بن بويه بن مناخسرو الديلمى صاحب اصبهان والرى وهمذان وجميع عراق العجم توفى ليلة السبت لاثنتى عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ٣٦٦ هـ (انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٢ ، ص ١١٨ ـ ١١٩) وابن العميد هو : أبو الفضل محمد بن العميد أبى عبد الله الحسين بن محمد الكاتب ، توفى فى صفر ، وقيل المحرم بالرى وقيل ببغداد سنة ٣٦٠هـ (انظر ابن خلكان ، المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٩) .

(٦٨) ابن القلانسى ، ذيل مرآة الزمان ، ص ٢٧٩ ؛ انظر أيضا ، ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٩٤ .

خامسا : المستأمنون

ومن الممكن أن نلحق بالمتطوعة من المسلمين جماعات المستأمنين الذين كانوا يفدون على معسكرات المسلمين من بين صفوف أعدائهم . ومن الواضح أن هؤلاء ليسوا مجاهدين بمعنى الجهاد الذى نقصده فى هذا البحث ، وانما كانوا اقرب الى المرتزقة الذين يستهدفون الكسب . وربما من ذلك ما ورد فى بعض المصادر أن جماعة من الصليبيين وصفهم ابن واصل بانهم « خلق عظيم » وصلوا الى معسكر صلاح الدين مستأمنين سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م بسبب ما أصابهم من الجوع والفاقة فى معسكرهم الصليبى واستاذنوه فى مهاجمة مراكب الصليبيين فى البحر وقالوا له « نحن نخوض فى البحر فى براكيس ، ونكسب العدو ، ويكون المكسب بيننا وبين المسلمين » فاذن لهم صلاح الدين ، واعطاهم بركوسا ، ركبوا فيه ، وظفروا بعدد من مراكب تجار الصليبيين ، ونهبوا ما بها من بضائع معظمها « فضة مصوغة وغير مصوغة » وأسروا بحارتها ، واحضروهم وممتلكاتهم بين يدى صلاح الدين ، فكافأهم بأن منحهم جميع ما غنموه، وكان لهذه المكرمة أثرها البالغ على هؤلاء المستامنين فاسلم شطرهم(٦٩) .

---

(٦٩) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ ؛ انظر أيضا ، أبو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٢ والبركوس ، جمعه براكيس وهو : نوع من السفن التى كانت تستعمل فى الحرب فى مياه البحر المتوسط فى العصور الوسطى وهو أصغر حجما من البطسة ، تقدر حمولة البركوس الواحد بخمسة وعشرين رجلا (انظر درويش النخيلى ، السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ١٢ ـ ١٣) .

قائمة المصادر والمراجع

اولا المصـادر :

ـــ ابن الأثير الجزرى (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيبانى الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ/١٢٧) .

١ ـ الكامل فى التاريخ، ط بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ط ليدن١٨٨٦م.

٢ ـ التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، ط القاهرة ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .

ـــ ابن تغرى بردى (أبو المحاســن جمال الدين يوسف الأتابكى ، ت ٨٢١هـ/ ط القاهرة . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.

ـــ ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على ، ت ٨٥٢هـ) الدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة ، ط بيروت .

ـــ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر، ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق أحسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٢م .

ـــ ابن شداد (أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم ، ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) . النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ، ١٩٦٤م .

ـــ ابن عبد الظاهر (محى الدين عبد اللـــه بن رشـــيد الدين بن عبد الظاهر بن نشــوان بن عبد الظاهر الســعدى المصرى ، ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) .

١ ـ الروض الزاهر فى سيرة السلطان الظاهر ، تحقيق عبد العـــزيز الخويطر ، ط الرياض ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

٢ ـ تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط القاهرة ١٩٦١م .

ـــ ابن العديم (الصاحب كمال الدين ابو القاسم أحمد بن هبة الله بن ابى جراده ، ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م) ٠

١ ـ بغية الطلب فى تاريخ حلب ، تحقيق ، سهيل زكار ، ط دمشق ٠

٢ ـ زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، ط بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م ٠

ـــ ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة ، ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) ٠ ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨م ٠

ـــ ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشى ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) ٠ البداية والنهاية ، ط بيروت ١٩٦٦م ٠

ـــ ابن منظور (أبو الفضائل جمال الدين محمد بن مكرم ، ت ٧١١هـ/١٣١١م) ٠ لسان العرب ، ط بيروت ٠

ـــ ابن منقذ (اسامة بن مرشد بن على بن نصر الكنانى ، ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، ط برنستون ١٩٣٠م ٠

ـــ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ١ ـ ٣ تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٠ ، ج ٤ ، ٥ ، تحقيق حسنين ربيع ، ط القاهرة ، ١٩٧٢م ـ ١٩٧٧م ٠

ـــ أبو شامة (الحافظ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل ، ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م) ٠

١ ـ كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ط القاهرة ، ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م ٠

٢ ـ الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) نشر ومراجعة السيد عزت العطار الحسينى ، ط بيروت ١٩٧٤م ٠

ـ أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسـماعيل صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م ٠ تقويم البلدان ، ط باريس ١٨٤٠م ٠

ـ الحنبلى (أبو اليمن القاضى مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمـد العليمى ، ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م ٠ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط النجف ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ٠

ـ سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى ، ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ٠ مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان ، ج٨ ، ط حيدر آباد ١٣٧٠هـ/١٩٥١م ٠

ـ السبكى (تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى، ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م) ٠

ـ طبقات الشافعية الـكبرى ، تحقيق عبد الفتاح محمـد الحلو ، محمود محمد الطناحى ط القاهرة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م ٠
تاريخ الأمم والملـوك ، تحقيق محمد أبو الفضـل ابراهيم ، ط

ـ تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضـل ابراهيم ، ط بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ٠

ـ العماد الأصفهانى (أبو عبد الله محمد ، ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ٠

١ ـ البرق الشامى ، ج٥ ، تحقيق فالح صالح حسين ، ط عمان١٩٨٧م٠
٢ ـ الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، ط القاهرة ١٩٦٥م ٠

ـ القلقشندى (أحمد بن على ، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) مآثر الانافة فى معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط بيروت ٠

ـ النووى (أبو زكريا يحى بن شرف الدين النووى الشـافعى ، ت ٦٧٦هـ) ٠ التبيان فى آداب حملة القرآن ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط دمشق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ٠

ـ النويرى (شهاب الدين محمـد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) ٠ نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ط القاهرة ٠

ثانيا : المراجع :

— ابراهيم الساكت
الجيش فى التراث العربى الاسلامى ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الثالث والعشرون ، ط بغداد ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

— آدم متز
الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، أو عصر النهضة فى الاسلام ، ج٢ ، ط بيروت .

— جرجى زيدان
تاريخ التمدن الاسلامى ، ج١ ، ط ١٩٦٨م .

— جيرارد زالنغر
الفتوه هل هى الفروسية الشرقية ، ترجمة انيس فريحة ، مقال مطبوع ضمن كتاب دراسات اسلامية باقلام عدد من المستشرقين باشراف نقولا زياده ، ط بيروت ١٩٦٠م .

— حامد غنيم ابو سعيد
عصر الدول الاقليمية ، ج١ ، ط القاهرة ١٩٧٠م .

— درويش النخيلى
السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ط القاهرة ، ١٩٧٩م .

— سعيد عبد الفتاح عاشور
بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ١٩٧٧م .

— سليم بن عيد الهلالى
صفحات مطويه من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، ط الدمام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

— عبد العزيز البدرى
الاسلام بين العلماء والحكماء ، ط المدينة المنورة .

— عبد العزيز عبد الله السلومى
ديوان الجند ، نشـأته وتطوره فى الدولة الاسـلامية حتى عصر المأمون ، ط مكة المكرمة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ٠

— عفاف سيد صبره
دراسات فى الحروب الصليبية ، ط القاهرة ١٤٠٥هـ ٠

— على عودة الغامدى
بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، ط مكة المكرمة ١٤٠٨/١٩٨٨م ٠

— عمر رضا كحالة
دراسات اجتماعية فى العصور الوسطى ، ط دمشق ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م ٠

— كى لسترنج
بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكركيس عواد ، ط بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ٠

— محمد على حيدر
الدويلات الاسلامية ، فى المشرق ، ط القاهرة ، ١٩٧٤م ٠

— محمد الزحيلى
العز بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع الملـوك ، ط دمشق ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ٠

— محمد قنديل البقلى : التعـريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ط القاهرة ١٩٨٣م ٠

— محمد نعيم ياسين
الجهاد ميادينه وأساليبه ، ط ٠ عمان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ٠

— مسفر سالم الغامدى
الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الاسلامى قبل قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، ط جده ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ٠

— محمد أحمد عواد
الجيش والقتال فى صدر الاسلام ، ط الزرقاء ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ٠

— وفيق الدقدوقى
الجندية فى عهد الدولة الأموية ، ط بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ٠

— نظير حسان سعداوى
جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ط القاهرة ١٩٥٩م ٠

— هاملتون جب
دراسات فى حضارة الاسلام ، ط بيروت ١٩٧٤م ٠

تجارة السلاح فى عهد الشيخ مبارك الصباح
١٨٩٦ ـ ١٩١٥م

بقلم الدكتورة / فتوح الخترش(*)

تمهيـــد :

ان تاسيس الدول واستمرارها رهين باستمرار القوة ، وأن الكتابات الغربية تستبيح لدول الغـــرب المزيد من التسـلح فى الوقت الذى تنكره على غيرها ٠

ويهمنا هنا ـ حتى لا يتشعب بنا البحث عن الاطار المحدد لهـــذه الدراسة ـ أن نبرز حقيقة لا جدال فيها ، وهى أن الدول الأوربية وخاصة بريطانيا ـ فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ـ وقفت بالمرصاد لامارات الخليج بالذات لمحاربتها وتدمير قوتها الوطنية الفتية ، اذ ادعت أن مركز تجارة السـلاح هو منطقــــة الخليج وأن حكامها يشجعون تلك التجارة المحرمة ، ونست بل تناست أن رعاياها ورعايا الدول الأوربية الأخرى هم أصلا تجار السلاح الذين يبيعونه بدورهم الى تجار السلاح المنتشرين فى المنطقة ٠ ولقد شعر أرباب تجارة السلاح أن حكام المنطقة بحاجة اليه للحفاظ على حكمهم والدفاع عن أراضيهم ، واقـــرار الأمن والسلام فى مناطقهم ، خاصة اذا تعلق الأمر بامارة مثل امارة الكويت ، حيث تجمع المصادر على أن الشيخ مبـــارك هو مؤسســها الحقيقى (١٨٩٦ ـ ١٩١٥م) ، الذى عاش منذ توليه الامارة وحتى غادر الساحة فى توتر وصراع على العـديد من الجبهات الداخلية والخارجية ، على النحو الذى سنتناوله بالتفصيل فى هذه الدراسة ٠

وعندما ندقق النظر فى قضية تجارة السلاح فى منطقة الخليج على وجه العموم وفى الكويت ابان حكم الشيخ مبارك على وجه الخصوص ،

(*) قسم التاريخ ـ كلية الاداب ـ جامعة الكويت ٠

لا يمكن لمؤرخ منصفان ينكر أو يتجاهل استحالة الفصل بين هذهالتجارة وبين الوجود البريطانى فى الهند وافغانستان . منذ أن أحكمت بريطانيا سيطرتها على هذه المناطق ، كما سنرى فيما بعد .

وعندما تتبدى أمامنا الصورة الكاملة لشخصية الشيخ مبارك كمؤسس دولة من الطراز الأول ، وكداهية سياسى من نوع فريد ، حتى لقد وصف بانه كان حاد المزاج شديد الباس ، كثير التقلب ، فيه شيء من الأسد واشياء من الحرباء ، بدوى الطبع ، حضرى الذوق ، تارة يحبه الخصم وطورا يجامله ، كان كريما جوادا ، بل ومسرفا يسترسل الى البذخ والترف ، ويقدم بعد حبه للمجد نواعم العيش ونوافله على كل شيء سواها . أما سيفه فكان مثل سياسته ذا حدين ـ وكان يلقب بالحواقة « من حاق ومرادفاتها مثل دار ولف ، اى ما يراد به السير على عكس الخط المستقيم ، نصف عمله سر لا يدركه سواه ، والنصف الآخر خدعة ماهرة أو خدع كثيفة مدلهمة »(١) ، عندما تتضح لنا هذه الصورة المثيرة لهذا القائد الفذ ، فهل من المبالغة فى شيء أن نميل الى القول انه كان يسعى من وراء تجارة السلاح وتصديره الى دعم القوى المناضلة ضد بريطانيا فى آسيا عسى أن يكون فى ذلك ما يجبرها على التساهل معه ومحاولة كسب وده تامينا لطريق مواصلاتها الى « درة » امبراطوريتها فى الهند ، وفى مواجهتها لنضال الأفغان والهنود من أجل الحرية ؟

وحتى اذا جردنا قضية تجارة السلاح من هذه الجوانب جميعا واقتصرنا على تناولها كمجرد عملية للشراء والبيع وتحقيق الربح ، فما هى الغضاضة فى أن يمارس الشيخ مبارك هذا النوع من النشاط ، وهو يتصدى لبناء دولة تكاد أن تكون بلا موارد حقيقية ، وفى الوقت الذى يمارس فيه غيره من الحكام نفس النشاط سرا أو علانية ، الى جانب العديد من الشركات الأجنبية المتخصصة فى تجارة السلاح ، والتى لا تتورع عن شيء تحقيقا للأرباح على حساب سكان المنطقة .

بهذا التمهيد ، نكون قد حددنا ـ فى نفس الوقت ـ العناصر الأساسية لهذه الدراسة والتى نركزها فى عنصرين أساسيين :

اولا : تجارة السلاح فى منطقة الخليج ٠

ثانيا : اسباب اهتمام الشيخ مبارك بتجارة السلاح ٠

اولا : تجارة السـلاح فى منطقة الخليج

لفتت تجارة السلاح فى منطقـة الخليج أنظار الحكومة البريطانية فى لندن وفى الهند ، لأول مرة اثناء الحرب الأفغانية الثالثة ١٨٧٩ - ١٨٨٠م وفى عام ١٨٨٠م ثبت بما لايدع مجالا للشك أن كميات كبيرة من الخوذات المصدرة من الهند الى فارس وقعـت فى أيدى الأفغانيين فى هيرات وغيرها من المواقع(٢) ٠ وهنـا ادركت حـكومة الهند الأهمية السياسية والعسكرية للقضية ، فاصدرت تعليماتها الى حـكومة بومباى بالتوقف عن اصدار تراخيص تصدير الأسلحة والذخائر الى موانىء الخليج ٠ وفى شهر أكتوبر من نفس العام أعلنت حكومة الهند انذارا جاء فيه أنها قررت مصادرة الأسـلحة والذخائر المتجهة الى الخليج فى الموانىء الهندية ، وسرعان ما اقتنعت السلطات الفارسية وعلى رأسها الشاه بأهمية القضية وخطورتها(٣) من وجهة النظر الفارسـية البحتة « تحت ضغط القـلاقل الداخلية » أعلنت قانون عدم مشروعية عمليات الاستيراد فى عام ١٨٨١ وسرى هـذا القانون ابتـداءا من أول يوليو ١٨٨١م ٠

ومن اول رواد تجارة السلاح فى بوشهر شركة أ٠ب٠ج مالكولم ، وهى فارسية أرمنيـة بدأت عملياتها فى عـام ١٨٨٤م ، تحت حماية الحكومة البريطانية ، ثم تبعتها الشركة الفرنسية الانجليزية « فرانسيس وتايمز وشركاهم » ، وهى أول مؤسسة ظهرت فى بوشـهر عام ١٨٨٧م لبيع السلاح ونتيجة لظهـور تلك الشركات فى بوشـهر بدأت تتعامل بالأسلحة على نطاق محدود فى البداية ، وحصلت منها على فوائد كبيرة مما جعلت بقية الشركات فى الخليج تتبع خطواتها ، وخاصة أن منـع تجارة السلاح فى فارس ، برهن على عـدم فعاليته وتأثيـره ، فنمت التجارة فى بوشهر نموا واسعا بتشجيع سلطات الجمارك الفارسية التى رغم خطورتها على الضرائب المفروضة ، اعتبرت التجـارة غير مخالفة

للقانون • وترتب على هذا أن أصبح رجال القبائل فى فارس وعربستان مسلحين ببنادق أفضل من الجنود الفرس(٤) •

وحين تفاقم خطر تلك التجارة ، اضطرت الى أن تثير مشكلتها فى مؤتمر عقد من أجل مناقشة موضوع الأسلحة فى شهر يوليو ١٨٩٠م ، حيث أعلنت كل من الولايات المتحدة وهولندا استعدادهما للتنازل عن حقوقهما بالنسبة لتجارة الأسلحة اذا ما نهجت بريطانيا وفرنسا نفس السبيل(٥) •

وكذلك وجه المؤتمر بقراره العام ضربة قاصمة لتجارة السلاح على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، وبالأحص زنجبار ، وفى الوقت نفسه تبنت بريطانيا قراراته بصفة رسمية فى الثانى من أبريل ١٨٩٢م •

ولقد ازدهرت تجارة السلاح فى المنطقة منذ عام ١٨٩٠م حين وردت الى الخليج كميات كبيرة من الذخيرة والعتاد بعد أن منع مؤتمر ١٨٩٠م السلاح عن أفريقيا • وقامت سفن الحرب الأوربية تحاصر الساحل الشرقى الأفريقى حتى لا تصله الأسلحة ، فاتجهت التجارة بعد ذلك الى مسقط ، حيث وجدت طريقها الى الخليج •

وأصبحت مسقط من أكبر أسواق السلاح ، وقدر عدد الأسلحة النارية التى وصلت الى ميناء مسقط بمالا يقل عن ٥٠٠ر١١ قطعة ، وصل جزء كبير منها على سفن تابعة لسلطان زنجبار(*) • ثم ما لبث أن بدأ الشحن المباشر من أوربا الى موانىء الخليج • وأصبحت منطقة الخليج سوقا لقبائل أفغانستان والمناطق الشمالية الغربية من الحدود الهندية يستعملونها فى حروبهم القبلية ، وفى مقاومة السلطات الموالية للانجليز فى المنطقة ، وق ظهر هذا جليا منذ عام١٨٩١م(٦) • ولقد حاولت بريطانيا فى أواخر ١٨٩٠م منع مرور شحنات الأسلحة الى كراتشى ، تلك التى كانت فى طريقها الى جوادر التى كانت تتبع آنذاك سلطان مسقط ، ثم أعيد تصدير أكثر من نصفها الى الكويت والبحرين وبعض موانىء الخليج الأخرى ، أو هربت الى الأراضى التركية والفارسية حيث غمرت المنطقة كلها تدريجيا بأحدث الأسلحة ، مما جعل حكومة الهند

تعقد اتفاقية مع سلطان مسقط لمنع تجارة السلاح فى جوادر منـــذ عام ١٨٩١م ٠

وبالرغم من ذلك واصلت تجارة السلاح فى مسقط ازدهارها بعـد عام ، وكانت محل اهتمام زائد من جانب سلطان مسقط ، نظرا لما يحصل عليه منها من أرباح نتيجة للرسوم المفروضة عليها ٠ وبلغت هذه التجارة ذروتها فى حوالى عام ١٨٩٥م ، حتى قدر حجم واردات مسقط فى عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦م بنحو ٤٣٥٠ بنـــدقية ، ٦٠٤٠٠٠ خرطوشة ، ثم قفز حجمها فى عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧م الى حوالى ٢٠٠٠٠ بندقية ومعها العدد المناسب من الخراطيش ٠

اما فى فارس فقد جددت حكومة الهند مع شـــاه فارس فى عام ١٨٩١م اتفاق ١٨٨١م الذى ينظم الاتجار بالسلاح ٠ ورغم ذلك فان تجار السلاح فى فارس لم يلتزموا بتطبيق الاتفاق بشكل مطلق ، بل انهم واصلوا التوسع فى تجارة السلاح ، حتى بلغ حجم ما استورده تجار السلاح فيما بين عام ١٨٩٢م وعام ١٨٩٣م حوالى ١٠٠٠ بندقية ، وكان مصـــدرها الكويت ٠ وفى عام ١٨٩٣م ، كانت الأسلحة تصل مهربة من لنـدن الى فارس بعد استخدام ميناء مسقط كستار ، وقد ضبطت فى بوشهر بناء على امر الحكومة الفارسية ، واستمرت هذه العمليات فى عام ١٨٩٥م ، حيث وصلت الى بوشهر شحنة ضـخمة من الأسلحة بطـــريق البحر ، فتمت مصادرتها على أيدى السلطات الفارسية ٠

والواقع انه رغم كافة المحاذير ، كانت الأسلحة تشق طريقها بسهولة الى فارس بعد تقديم الرشاوى للموظفين الفـــرس ، وبعض العاملين فى الشركات الأجنبية ، ومنهم العديد من رعايا بريطانيا(٧) ٠

وفى عامى ١٨٩٦ و ١٨٩٧م ، تقدمت تجارة السلاح فى ميناء بوشهر تقدما ملحوظا حتى قدر عدد البنادق الواردة اليها بما لا يقل عن ٢٠٠٠٠ فى عام ١٨٩٧م ، وقد حصل عليها الحاكم المحلى رسوما بنسبة تتراوح من ٨٪ الى ١٠٪ من قيمتها ٠ كما تحولت شيراز الى مركز للتوزيع تعتمـد عليه بوشهر ٠ وشهدت هذه الفترة أيضا تحول البحرين الى سوق هامة

للسلاح بعد ان كانت سوقا ثانوية(٨) • وتركزت تجارة السلاح فى مسقط آنذاك فى النوع الذى يعمر من قاعدته(٩) • أما النـــوع الذى يعمر من فوهته فكسدت تجارته ، واتجهت الى نجد وفارس ، بينما أعيد شحن الجانب الأكبر منه الى عمان والبحرين وقطر والكويت •

وفى أواخر عام ١٨٩٦م ، أدركت السلطات الانجليزية فى الهنـــد أن ٦٠٪ من الأسلحة الواردة الى منطقة الخليج تشق طريقها الى فارس ، وأن حوالى ٢٥٪ منها يتجه الى الأقاليم الخاضعة للحـــكومة التركية فى الخليج ، بينما تمتص البـــلدان العـــربية غير الخاضعة لتركيا ١٥٪ منها(١٠) •

وعندما نشبت الحركات الثـــورية القبلية فى عام ١٨٩٧م ، على الحدود الهندية الأفغانية ، ترددت الأقاويل بان القبائل تحصل على جزء من الأسلحة من الخليج وتحركت الحكومة الفارسية لمواجهة الموقف وايدت المقترحات التى تقدم بها البريطانيون فى هـــذا الصدد بتنفيذ قانون ١٨٨١م ، الخاص بمصادرة مخازن الأسلحة المستوردة الى بوشهر بطريقة غير شرعية •

وفى ١١ ديسمبر ١٨٩٧م ، أعلنت الحكومة الفارســـية أنها أعطت أوامرها الخاصة بمصادرة وتفتيش السفن البخارية التى تشتغل بالتجارة وترفع العلم الفارسى ، من قبل الســـفن الحربية الانجليزية ، بحثا عن الأسلحة والذخائر(١١) • وبناءا على التفاهم البريطانى ـ الفارسى ، جرى الاتصال بسلطان مسقط بواسطة المقيـــم السياسى بالخليج ، كى يحذر رعاياه من التصدير المحظور للأسلحة الى فارس ، وكذلك تخويل السفن الحربية البريطانية سلطة البحث عن السفن البريطانية والفارسية والعمانية فى المياه الاقليمية ، وأن تفوض فى مصادرة الأسلحة والذخائر المملوكة للرعايا الانجليز والفرس والعمانيين التى توجد على ظهر السفن المتوجهة الى فارس(١٣) • الا أن سلطان مسقط حاول أن يجارى بريطانيا فى تنفيذ بنود الاتفاقية التى وقعها بطـــريقة فاترة ، فاصدر أمرا بمنع التصدير من مسقط الى سواحل شرق افريقيـــا ، ولكنه لم يقل بتفتيش

السفن العمانية وهو أكثر اجراءات المنع نفعا ، وفى الوقت نفســـه أثار سلطان مسقط مسألة نقص حصته من دخل الجمارك اذا حدث تدخل فى تجارة السلاح . ونتيجة لذلك ظل الوضع كما هو وأصبحت القضية قضية ميتـــة(١٣) .

وفى عام ١٨٩٥م ، تعرضت البحرين لتهديدات من جهة البر من قبل تجار السلاح فى البحرين ، ولم يكن بالامارة الا ١٠٠ بندقية ، مع العـــلم أن الشيخ عيسى بن على آل خليفة لم يكن مقتنعا بضعف مركـز البحرين ، وفى شهر يناير ١٨٩٦م ، أصدر اعـــلانا غير واضح بمنع استيراد الأسلحة النارية فى البحرين ، ومعاقبة من يخالف ذلك . الا أنه استثنى وزيره عبد الرحمن بن عبد الوهاب من قرار المنع ، بشرط عـدم جواز بيع الأسلحة فى البحرين وقطر والساحل العربى فيما عدا ساحل عمـــان(١٤) .

وقد نقل الوزير امتيازه الى الآغا محمد رحيم - الذى يعتبر من اكبر تجار السلاح فى البحرين ، وفى الوقت نفسه كان يمثل الوكيـــل المحلى للوكالة الانجليزية فى البحرين ، والذى نقل بدوره الامتياز كلية فى الحال الى الشركة التجارية التى يملكها فرانسيس وتايمز وشركاهم، والتى فتحت لها فرعا فى البحرين عام ١٨٩٥م ، بمقتضى هذا الامتياز تعهد الوزير عبد الرحمن بتقديم كمية من الأسلحة والذخائر للشيخ عيسى الى جانب دفع ضريبة جمركية عينية بنسبة ثلاث بنـادق من كل ١٠٠ بندقية ، و ٢٠٠ طلقة لكل بندقية ، وقد قدرت أرباح الشركة فى منتصف عام ١٨٩٧م ، بما لا يقال عن ٤٠٠٠٠ جنيها .

وزادت حركة تجارة الســـلاح فى البحـــــرين حتى قفزت قيمة الصادرات من ١٤٨٥٠ روبية فى عام ١٨٩٤م ، الى ٩٥٠٠٠ روبية فى عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦م(١٥) ، ثم الى ١٤٢٨٨٠ روبية فى عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧م ، ٤٦٧٧٩٠ روبية فى عام ١٨٩٧ - ١٨٩٨م . وواصلت شحنات الأسلحة طريقها من البحرين الى بوشهر ومسقط اكثر من مرة ، الا أن اغلبها كان يباع للوافدين من بندر عباس ، ولنجة ، وبوشهر ، والمحمرة

على الساحل الفارسى للخيج ، وكذلك للمشترين من الكويت ونجـد وعمان على الساحل العربى .

وفى ابريل من عام ١٨٩٧م ، انزعج شيخ البحـرين من تعاظم السلاح وذلك لعدم الالتزام بشرط الامتياز ، وبعد شد وجذب وصراع مع الشركة الفارسية الانجليـزية ، احتجـز الشيخ جميع ممتلكات الشركة « فرانسيس وتايمز » من الأسلحة نتيجة للمنافسة الضارية التى نشبت ، ونتيجة لعدم الالتزام بتنفيذ شروط الامتيار التى تنص على حظر بيع الأسلحة فى البحرين ، ولكن الحكومة البريطانية فى الهند لم تشجع هذا المسلك الذى أقدم عليـه الشيخ عيسى بن على ، وانتهى الأمر فى ابريل ١٩٠٦م ، باعادة الأسلحة الى الشركة ، ولكن بعد أن أصاب التلف معظمها(١٦) .

وأمام تعاظم حركة تجارة السلاح فى الخليج ، رأت حكومة الهند أن تعقد اتفاقيات ومواثيق مع حكام وشيوخ الخليج ، تستطيع من خلالها أن تمنع أو تتغاضى عن هذه التجارة حسب الأوضاع السياسية فى المنطقة وقد عقدت اتفاقية ١٨٩٨م ، مع شيخ البحرين ، ومع شيخ الكويت عام ١٩٠٠م ، وشيوخ الساحل المهادن عام ١٩٠٢م ، ولم تستثن الا امارة قطر لوقوعها تحت السيطرة التركية(١٧) .

أما بالنسبة للبحرين فقد أصـدر الشيخ عيسى فى مايو ١٩٠٠م ، قرارا يحظر فيه استيراد الأسلحة على أراضيه للسـيطرة على تجارة السلاح ، الا أن دوافع الشيخ عيسى كانت أبعد ما تكون عن الـكرم ، فوفقا لما يصدره هو من مراسيم وقرارات كان يستطيع أن يحصل ما قيمته ١٢٠٠٠ جنيها من الأسلحة من وكلاء « فرانسيس تايمز وشركاهم » ، ويمكننا أن نلاحظ أن اتفاقية منع السلاح التى عقدتها حكومة الهند مع شيوخ الساحل المهادن تختلف عن مثيلاتها التى عقدت مع مسقط وفارس، حيث نصت حكومة الهند فى اتفاقها مع مسقط وفارس على أن تصادر السفن التى تحمل السلاح والتى ترفع العـلم أو الهوية الفارسـية أو العمـانية(١٨) .

اما اتفاق حكومة الهند مع شيخ الساحل المهادن الذى يقضى بحظر استيراد الأسلحة والذخائر الى اماراتهم وكذلك بالنسبة لتصديرها ، فقد خول شيوخ الساحل السفن الحربية التابعة لحكومة الهند البحث عن السفن وتفتيشها فى المياه الاقليمية لسواحلهم ، ومصادرة ما يوجد على ظهرها من أسلحة وذخائر .

واثارت عمليات مصادرة الأسلحة فى مسقط والبحرين والساحل العمانى سخط التجار والشركات البريطانية ، وانهال سيل من الشكاوى والاحتجاجات على وزارة الخارجية البريطانية في لندن ، وتحملت شركات التامين البريطانية جزء من الخسائر(١٩) .

وبذلك استطاعت حكومة الهند أن تحمي نفسها ونفوذها في الهند بوضع هذه الخطة المحكمة لتمنع تلك التجارة ، وزيادة فى المنع قامت حكومة الهند باتخاذ سياسة حرق السفن الحاملة للسلاح حتى تتحول هذه التجارة الى عمل مكلف بسبب خسائر النقل ، لهذا نجد أن التجار العرب في الخليج أوقفوا هذه التجارة خوفا على قواربهم ، وهى مصدر رزقهم الرئيسى .

ثانيا : أسباب اهتمام الشيخ مبارك بتجارة السلاح

لم يشهد لهذه التجارة اى نشاط يذكر فى الكويت الا بعد ان تولى الشيخ مبارك الصباح الحكم عام ١٨٩٦م ، ويعتقد أن خوف شيخ الكويت السابق من تدخل الأتراك جعله لا يتساهل فى عمليات فتح بلاده كسوق رئيسى فى منطقة أعالى الخليج . ولكن بعد أن تولى الشيخ مبارك اهتم بتلك التجارة بل وشجعها حيث انه تولى فى وقت حرج ، ليس فى تاريخ العرب فحسب ، بل فى تاريخ العالم بأسره . فعصر الشيخ مبارك يواكب نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وقد شهدت هذه الفترة ذروة النجاح الاستعمارى لدول أوربا ، ثم تفكير تلك الدول فى اقتسام تركة رجل أوربا المريض ، الدولة العثمانية ، كما شهدت بداية الحرب العالمية الأولى وما اعقبها من صراعاتعلى تركة الدولة العثمانية، ولما كانت أغلب البلدان العربية تخضع آنذاك للدولة العثمانية ، ومهما كان هذا الخضوع اسميا فى بعض الأحيان ، كان لابد للكويت وهى جزء

لا يتجزأ من شبه الجزيرة العربية ، أن تتأثر بكل ما يحاك من مؤمرات على حياة الرجل المريض ، وبكل ما يخطط له من مشروعات عن النفوذ الأوربى الى هذه البقاع . الا أن تتبع الصراعات الأوربية فى الكويت ، والتى تمثلت أطرافها فى بريطانيا وفرنسا ، والمانيا ، حيث كانت المانيا تدرس بكل جدية اتخاذ الكويت موقعا لنقطة نهاية خط سكة حديد برلين - بغداد . وكذلك روسيا التى كانت تتطلع لمد نفوذها على الكويت . كل ذلك يلقى الضوء أيضا على بعض جوانب قضية تجارة السلاح ، وموقف الشيخ مبارك منها . وان كان الدخول فى تفاصيل هذه الصراعات يبتعد بنا عن مجال هذه الدراسة الا أننا نكتفى بالتوقف قليلا عند تلك الأحداث المحلية التى هزت الشيخ مبارك داخل وخارج الكويت والتى اجبرته على الاهتمام بتجارة السلاح للكسب المادى والعسكرى ، فمن الناحيه المادية أتاحت مكاسب مالية مغرية وصلت فى ذلك الوقت الى أربعة جنيهات استرلينية على كل قطعة من السلاح ، بالاضافة الى جنيهين للضريبة العامة(٢٠) . أما الجانب العسكرى ، فقد اهتم الشيخ مبارك بتجارة السلاح وذلك ليتفادى الضغط التركى الذى تعرض له فى بداية حكمه ، بمساعدة أبناء شقيقه محمد وجراح وقريبهم يوسف الابراهيم(*) .

ولقد استعان يوسف الابراهيم بالسلطات العثمانية فى البصرة متمثلة بواليها حمدى باشا الذى أيد وحالف يوسف الابراهيم للتخلص من الشيخ مبارك . والواقع أن السنوات الثلاث الأولى من حكم الشيخ مبارك كانت أحرج سنين حكمه الذى يقارب العشرين عاما ، فقد واجهته أحداث كثيرة ومهمة من قبل أعدائه وعلى رأسهم يوسف الابراهيم وعدوه الثانى اللدود الأمير عبد العزيز بن الرشيد أمير حائل .

فأول محاولة قام بها خصمه العنيد يوسف الابراهيم تتمثل فى تجهيزه حملة بحرية خرجت من هندبان فى عربستان على الساحل الفارسى فى أواخر يونيو من عام ١٨٩٧م متجهة الى الكويت ، الا أن هذه المحاولة باءت بالفشل . واستمر خطر التهديد بغزو الكويت قائما من قبل السلطات العثمانية متمثلة بيوسف الابراهيم بقية عام ١٨٩٧م ،

ثم طوال عام ١٨٩٨م ، ولكن معظمها باء بالفشل • شعر يوسف الابراهيم بفشله الذريع فى البصرة ، فتوجه الى حائل للاقامة فى ضيافة الأمير عبد العزيز بن الرشيد ولحقه أبناء القتيلين محمد وجراح ، ويبدو أن ابن الرشيد تبنى قضيتهم بالعودة الى حكم الكويت ، كما كان يسعى للتخلص من الشيخ مبارك الذى كان يستضيف الأمير عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وابناءه منذ عام ١٨٩٢م ، وكان الأمير عبد الرحمن خصما لدودا لابن الرشيد الذى انتزع منه ملك أجداده وآبائه آل سعود فى نجد • وفى صيف عام ١٩٠٠م ، بدأت المناوشات بين الشيخ مبارك وحلفائه ، وبين الأمير ابن الرشيد ، كما أغار سعدون باشا - أمير قبائل المنتفق - فى الوقت نفسه على نواحى شمر ، ربما بايعاز من الشيخ مبارك الذى كان يساند غارة قام بها الأمير عبد العزيز بن الأمير عبد الرحمن الفيصل على نجد ، وذلك فى شهر أغسطس سنة ١٩٠٠م، وفى شهر سبتمبر أمد الشيخ مبارك الأمير عبد العزيز بن سعود ، بنجدة طلبها أثناء تلك الغارة ، ثم انضم الشيخ مبارك بنفسه فى شهر أكتوبر الى صفوف قوات الأمير عبد العزيز بن سعود ، ولكن والى البصرة محسن باشا تمكن من حقن الدماء ، والفصل بين القوات المتحاربة ، عن طريق وساطة السيدين حامد وطالب النقيب(٢١) •

ولكن هذا الصلح لم يكن يروق للشيخ مبارك لأنه كان على يقين بأن الأمير عبد العزير بن الرشيد سيواصل مؤامراته من أجل اعادة أبناء القتيلين جراح ومحمد الى حكم الكويت ، خاصة وقد نزلوا ، هم ويوسف الابراهيم فى حائل تحت حماية الأمير ابن الرشيد ، وهنا قرر الشيخ مبارك أن يمسك بزمام المبادرة ، وأن يغزو ابن الرشيد فى عقر داره • ففى شهر سبتمبر ١٩٠٠م ، توجه الشيخ مبارك والأمير عبد العزيز بن سعود على رأس جيش قوامه عربان العوازم ، والرشايدة ، ومطير ، والعجمان ، وبنو هاجر ، وبنو خالد ، ونحو الف من أبناء مدينة الكويت لغزو ابن الرشيد فى نجد وشمر ، واستولت القوات الغازية على نجد دون مقاومة تذكر ، ونصب الشيخ مبارك الأمير عبد العزيز بن سعود حاكما على الرياض ، وعندما تقدم الجيش الغازى صوب حائل من أجل فتح منطقة شمر ، تمكن الأمير ابن الرشيد من الحاق الهزيمة بالشيخ

مبارك فى الصريف ، فاضطر للانسحاب من المعركة مع فلول قواته فى ١٧ مارس ١٩٠١م ، بعد أن خسر أغلب قواته من أبناء مدينة الكويت الذى قدر قتلاهم بحوالى ٧٠٠ رجل(٢٢) ٠

ان هزيمة الشيخ مبارك فى معـــركة الصريف أنهت أحلامه فى السيطرة على نجد والتخلص من خصمه اللدود ابن الرشيد ، وان كان من السهل الربط بين ما تعرض له الشيخ مبارك وحكمه فى الداخل من مخاطر ، والتى وصلت الى ذروتها فى هزيمة الصريف ، وبين موقفه من تجارة السلاح ، وبذله كل جهد للحصول عليه علانية أو خفاء ، أى بمطالبة حكومة الهند بتزويده بالمزيد من السلاح ، وفى الوقت نفسه يقوم باستيراده سرا من مناطق بيع السلاح مع العلم انه وقع اتفاقية فى شهر مايو ١٩٠٠م ، تحظر استيراد وتصدير السلاح ، تمشيا مع أهداف حكومة الهند العامة لمنع انتشار هـــذه التجارة فى الخليج ٠ وان كانت الحكومة البريطانية فى لندن لم تحط علما بهذه الخطوة للحصول على موافقتها ، الا أنها أقرت ما تم التوصل اليه لأنه يمثل اعلانا من طرف واحد فحسب ، وان كانت اشترطت عدم تقديم أى مساعدة لتطبيق الحظر الا بموافقة لندن ولم يكن لهذا الحظر وزنا كبيرا على المدى القصير ، فالسفن الكويتية كانت ترفع العـــلم التركى كالمعتاد ، ولم يكن هنـــاك جدوى من تتبعها فى الميـــاه الاقليمية الكويتية فى ذلك الوقت(٢٣) ٠ ولكن ظل للاتفاق أهمية ليطبق فى المستقبل ٠

ونتيجة لذلك لم يلتزم الشيخ مبـــارك بتطبيق نصـــوص اتفاقية ١٩٠٠م ، بل بدأ يتهرب من شروطها باستخدامه وسائل مختلفة ، من أهمها رفع العلم التركى تخلصا من تفتيش السفن البريطانية ، لأن الدولة العثمانية لم تدخل فى اتفاقية مباشرة مع بريطانيا تنص على تفتيش السفن العثمانية ٠

ولهذا استخدم الشيخ مبارك العلم التركى لأنه طبق المبدأ الدولى الذى ينص على أن « العلم يغطى البضائع » فبينما كان الموقف يتازم بين الدولة العثمانية وبريطانيا حـــول مسالة الكويت ، وكانت العلاقات البريطانية مع الشيخ مبارك فى طريقها الى التقدم ، وان كان الشيخ

قد تعهد في شهر مايو ١٩٠٠م ، بأن يمنع حـــركة مرور الأسلحة الى الكويت ، وان يسمح للسفن البريطانية بتفتيش ومصادرة السفن المشتغلة بتلك التجارة ، الا أن حكومة الهند أخذت تتساهل فى تصدير الأسلحة الى الكويت بالذات على خـــلاف الحال مع غيرها من امارات الخليج الأخرى التى عقدت معاهدات مشابهة - كما ذكرنا - ويرجع ذلك الى أن حكومة الهند كانت تخشى اذا ما تشددت فى منع استيراد الأسلحة الى الكويت أن تتيح الفرصة للأتراك لتدعيم مراكزهم ، فضـــلا عما كان يتعرض له الشيخ مبارك من تهديدات الأمير ابن الرشيد حاكم حائل ، كما كانت حكومة الهند تهدف من ناحية أخـــرى ، الى مساعدة الأمير عبد العزيز بن سعود أمير نجد الذى كان فى أمس الحاجة للسلاح بعـد استعادته لامارة الرياض فى عام ١٩٠٢م عن طريق حليفه الشيخ مبارك حتى يتمكن من اضعاف سيطرة العثمانيين فى وسط نجد ، وايضا فى سواحل الخليج ، ويتجلى ذلك فى التعليمات التى بعثت بها حـكومة الهند بعدم تدخل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج فى حركة مرور الأسلحة الى الكويت لفترة معينة(٢٤) . ونتيجة لتدفق الســـلاح فى وسط نجد عن طريق الكويت ، استطاع الأمير عبد العزيز بن سعود أن يفتح شقراء ، وثرمداء والروضة ، وسائر مدن سدير . وقد أصبح جيشه يصل الى ١٠٠٠ جندى ، وكان فى حاجة ماسة الى الذخيرة والســـلاح لتكملة فتوحاته فى وسط الجزيرة وفره له الشيخ مبـــارك وابنه الشيخ جابر(٢٥) ، وذلك بسبب تساهل حكومة الهند البريطانية بحركة مرور الأسلحة للكويت فى هذه الفترة الحرجة بالذات .

اما بالنسبة للشيخ مبارك فقد واجه فى نفس العام أحداثا جديدة من قبل يوسف الابراهيم ومن الأتراك أنفسهم ، حيث أن يوسف الابراهيم بدأ يحرض أنصاره على مهاجمة بدو الكويت النازلين بالقرب من صفوان وسلب مواشيهم وأغنامهم(٢٦) بموافقة من السلطات العثمانية . كما قام رجاله بهجوم مباغت على منطقة الصبية ، استولوا خـــلاله على عدد غير قليل من الجمال الكويتية . ولكن هذه الاعتداءات لاتقاس فى خطورتها بما كانت عليه الهجمة المفاجئة التى دبرها يوسف الابراهيم لغزو مدينة الكويت نفسها من جهة البحر . ففى خريف ١٩٠٢م ، جهز

يوسف الابراهيم عددا كبيرا من رجاله وأعدهم لدخـول مدينة الكويت نفسها خلسة من أجل الاستيلاء على الكويت ، وذلك بأن أعد جماعة من عرب الشريقات المقيمين على الساحل الفارسى للتحرك برئاسة عذبى بن محمد الصباح ، وابن عمه حمود بن جراح ، وسلحهم بالبنادق ، وانزلهم فى قوارب فى الدورة على شط العرب • وقد بلغت أنباء هذه الحركة السرية بالقرب من « الفاو » يوم الثالث من سبتمبر مســامع الانجليز حيث كانت ترسو السفينة لابوينج التى هرع قائدها الى الكويت ليبلغ الشيخ مبارك بما يجرى ، فوجده على علم بالأمر ، ومستعداً لمواجهة الغزو • وانتهت المحاولة بالفشل(٢٧) ، وطــرد يوسف الابراهيم من منطقة الزبير والبصرة ، فلجا الى الأمير ابن الرشيد فى حائل ، بعد أن طردته السلطات العثمانية من العراق ، ومكث فى حائل الى أن توفى فى شهر يناير ١٩٠٦م •

أما الحادثة الثانية من قبل السلطات العثمانية فى البصرة والتى لا شك أن هزت الشيخ مبارك فى أوائل يناير ١٩٠٢م ، فقد تمثلت فى محاولة الأتراك الوصول الى مناطق أكثر استراتيجية وخاصة فى مدخل الخليج ، وذلك باحتلال جزيرة بوبيان والمراكز الحدودية مثل أم قصر وصفوان(٢٩) • ولقد تقاعست حكموة الهند فى حســم الأمر بطريقة عسكرية ، ودخلت فى جدال بين موظيفها حول الجانب القانونى لتلك الأحداث • وقد تمثل ذلك فى طرح السؤال التالى : هل الحق فى جانب الأتراك أم الشيخ مبارك ؟ وما هو الحل الأمثل فى المستقبل لازالة هــذا العدوان التركى(٣٠) ؟

تلك الأوضاع الدولية العــامة والظروف الخاصـــة بمنطقة الخليج ستكون من أسباب لجوء الشيخ مبارك الى التوسع فى تجارة السلاح • كيف حدث ذلك ؟

تعرضنا فى خلال البحث الى الأسباب التى أجبرت الشيخ مبارك الى قيامه بخرق اتفاقاته مع بريطانيا وذلك بسبب ظروفه الخارجية ، ومن ثم عول على استغلال تملكه لأســطول كان يعتبر فى وقته أكبـر أسطول كان ينقل تجارة الخليج ومنطقة البحر الأحمر ، كان ينقل تجارة

المنطقة ، فشجع الشيخ مبـــارك بعض التجار على تجـارة السـلاح واستيرادها للكويت ومنطقة الخليج لدعم موقفه الداخلى ، فضلا عما ينجم من استمرار هذه التجارة من أرباح مادية ، لذلك عول على حماية التجار المتورطين بتلك التجارة فى حالة انكشافهم للسلطات البريطانية، وتروى كتب التاريخ الكويتية قصصا كثيرة معتبرة أن ما يقوم به الشيخ مبارك هو ذكاء وبطولة نورد منها بعض الأمثـــلة . فى عام ١٩٠٤م : كانت احدى السفن الكويتية العائدة الى محمد صـــادق معرفى وكان ربانها يدعى عباس بن نحى قد شحنت كمية كبيرة من الأسلحة تعـود لثلاثة من كبار تجار الأسلحة فى الكويت ، وفى أثناء عزمها على ترك مسقط صدر أمر من الحكومة البريطانية بمنع تجارة الأسلحة فانتشرت قوات بحرية بريطانية فى الخليج لمنع السـفن التى تحمل الأسلحة . وعندما علم ربان تلك السفينة بالأمر عزم على الذهاب الى الكويت مهما كلفه الأمر . وكانت احدى الطرادات البريطانية تراقب سفينته وتنتظر خروجها من ميناء مسقط للاستيلاء على ما كان فيها من سـلاح فانتهز ربان السفينة انشغاله ، فاطلق العنان لسفينته وغادر الميناء وما كادت السلطات البريطانية تعلم بامرها حتى ارسلت طرادا يقتفى أثرها ويعود بها الى الميناء فادركها الطراد فى عرض البحر وكان الوقت ليلا شديد الظلام فحاصرها فى أحد الجيوب البحرية ، ولما شـعر ربان السفينة بالخطر المحدق بسفينته عمد الى حيلة لم تخطر ببال احد ، فقد أشعل سراجا وشـده الى لوح كبير من الخشـب وانزله على سطح البحر ثم واصلت السفينة سيرها تحت جنح الظلام . أما الطراد البريطانى فظل فى مكانه يراقب السفينة التى لم تكن سوى خشبة عليها سراج . فلما أصبح الصباح تحقق للطراد أن الســفينة قد خدعتهم فتعقبوها ، فلم يهتدوا لها على أثر فظنوا أنها لابد قد قصـــدت الكويت وستكون تحت قبضتهم متى شاءوا .

أما ربان السفينة فحال وصوله الكويت راجع محمد صادق ، فذهب الاثنان معا الى مقابلة الشيخ مبـــارك واعلماه بما حصـــل وكان ذلك عند المساء .

فاصد الشيخ مبارك أمره الى أحــد خدمه (الذى كانت وظيفته

مراقب شئون الميناء) ، كما اصدر أوامره الى مدير جمــرك الكويت بالاسراع بتفريغ جميع حمولة تلك السفينة من السلاح ، وارســاله الى داره ، وأمر تجار الأسلحة الثلاثة بالذهاب الى دار حاج جراغ الحداد ، لكى لا يشعر احد بمقدمهم ويخبر قائد الطـــراد الانجليزى ، ثم أمر بسحب تلك السفينة الى أعلا الشاطىء وأمر باطلائها بالزيت ليوقن من يراها انها منذ مدة فى حالة صيانة واعمار ، جرى كل ذلك ليلا ، ولما أصبح الصبح قدم قائد الطـــراد ليخبر الشيخ مبــارك بمهمته ، انكر الشيخ مبارك علمه بذلك ، ورغب بأن يجـــرى تفتيشا من قبله للوقوف على أثر تلك السفينة . فجاب قائد الطـــراد جميع شواطىء مـــدينة الكويت ، فلم يقف على أثر لتلك السفينة فتعجب لهذا الأمر غايةالعجب ورجع من حيث أتى بدون أن يجد السفينة(٣١) .

لا يمكن انكار ان الشيخ مبـــارك كان له ضلع كبير فى عملية بيع السلاح وتصديره الى الخارج ومما ساعده على ذلك اتصـاله سرا بتجار السلاح الأجانب وخاصة الفرنسيين وعلى رأسهم المسيو جوجير الذى كان له نشاط واسع فى الخليج يمتد من مسقط والبحرين والى الكويت أيضا. فمنذ زيارة المسيو جوجير الى الكويت ، تزايدت بعدها حركة الاستيراد وكانت الشحنات تدخل على انها ممتلكات خاصة للشيخ ، ففى الأسبوع الأول من عام ١٩٠٤م ، وصل الى الكويت ١٢ صـندوقا من الأسلحة ، وفى ١٨ من الشهر نفسه وصلت شحنة أخرى تحتـوى على ٢٩ صندوقا ووضعت جميعها فى مخازن الشيخ ، وفى نهـــاية اغسطس استوردت الكويت ٨٠٠ بندقية .

وفى عام ١٩٠٤م ، اكدت الاحصائيات أن عملية الاستيراد تسـير بمعدل ١٠٠٠ بندقية فى الشهر تقريبا ، وأن الشيخ يحصل على دخل سنوى قيمته ٥٠٠٠٠ جنيه استرلينى فى السنة .

وفى عام ١٩٠٤م ، طلب المدير العام للجمارك فى بوشهر منحه حق مصادرة جميع الأسلحة التى يجدها على ظهر السفن فى الميـــاه الفارسية ، ومهما كانت وجهتهـا ، وقد بذلت محـــاولة للاستيلاء على

اسلحة يملكها عرب متجهون من مسقط الى الكويت على سفينة انجليزية، الا أن المحاولة فشلت ، وهى السفينة التى يملكها محمد صادق معرفى سابق الذكر .

وفى شهر سبتمبر ١٩٠٤م ، استولت سفينة الجمارك الشراعية « المظفرى » على كمية من الأسلحة فى مدخل شط العرب ، فأثار هذا التصرف استياءا شديدا فى الكويت .

واستمر تدفق الأسلحة من مسقط الى الكويت ، ففى شهر فبراير ١٩٠٦م ، أنزلت السفينة الروسية « تريفر » ٢٥ صندوقا فى الميناء ، ثم وصلت الى نفس الميناء شحنة تتكون من ٣٠٠ بندقية بذخيرتها فى نفس الشهر ، كما أفادت التقارير وصول ٤٥٠٠ بندقية و ١٥٠٠ صندوق من الذخيرة الى الكويت بطريق البحر فى نفس التوقيت .

وفى مواجهة هذا التطور النشط لتجارة السلاح فى الكويت أثار الكابتن نوكس الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت ، وبعد استشارة السفير البريطانى فى اسطنبول المسالة مع الشيخ مبارك فى شهر أبريل ١٩٠٦م ، ولكن الشيخ أبدى علامات الاستياء وعدم الرضا ازاء ما وجهته اليه السلطات البريطانية من لوم ، وألمح الى أن هذا المسلك من جانبها لا يتمشى مع أهمية الصداقة السياسية القائمة بين الجانبين(٣٢) .

نستنتج من ذلك أن حكومة الهند قد تساهلت بصفة خاصة فى تصدير الأسلحة الى الكويت ـ كما ذكرنا من قبل ـ حتى يستخدمها الشيخ مبارك ضد أعدائه ، ونتج عن هذا التساهل تحول الكويت الى مركز لتجارة السلاح . ومن الانصاف أن نذكر بأن هدف الشيخ مبارك من الاستمرار فى تجارة السلاح يكمن فى حماية امارته من الأخطار المحدقة بها فى الداخل والخارج ولبيان أن هذه الأسلحة كانت توزع من قبل السلطات البريطانية على رجال القبائل ، وتحرضهم على استخدامها فى مناوءة السلطات العثمانية(٣٣) .

ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه الأحداث المتعاقبة المفعمة

بالخطر ، كان لابد أن تدفع الشيخ مبارك الى السعى للتزود بالسلاح ، والتحايل على كل الالتزامات التى ارتبطت بتجارته خلال تلك المرحلة ، بل اننا لنلمس أيضا فى هـــذه الفترة ـ كما سبق أن أشرنا ـ تغاضى السلطات البريطانية عن نشاط الشيخ مبارك فى هذا المجال ، عندما كانت المصالح البريطانية تتطلب هذا التغاضى ، وليس من شك أيضا فى أن هزيمة الصريف كان لها أثر بالغ العمق على الشيخ مبارك ، أدرك معه أن القوة والسلاح هما وسيلته الأولى والأساســية لتدعيم مركزه ، وتحقيق ما يصبو اليه من أهداف . وان كانت للعوامل والأخطار الداخلية أثرها على تحديد سياسات الشيخ مبارك ، فلقد كان للأوضاع الخارجية أيضا دور لا يقل أهمية وشأنا كما سبق وأسلفنا القول .

خلاصة القول أن الشيخ مبارك لم يكن تاجر سلاح بالمعنى الضيق والتقليدى ، وانما كان مؤسس دولة ، وكان تأسيســها فى توقيت بالغ الدقة والخطر ، ومحفــوف بالصراعات والصـدامات على الصـعيدين الداخلى والخارجى ، ومن ثم أخذ يشق طريقه ـ كقائد فذ ـ بين هذه الأعاصير المتلاطمة ليخرج فى خاتمة المطاف محافظا على استقلاله مهما شاب هذا الاستقلال من قيود أملتها طبيعة العصر وتوازن القوى محليا وعربيا وعالميا .

أولا : الهوامش :

١ - **جمال زكريا قاسم :**

الخليج العربي ، درسة لتاريخ الامارات العربية (١٨٤٠-١٩١٤م) ص : ٢٩٥٠

٢ - **لوريمــــر :**

دليل الخليج ، القسم التاريخي ، الجزء السادس ، ص : ٢٩٥ ، وكذلك : أرنولد ويلسن : الخليج العربي ، ص : ٣٠ - ٤٣١ ٠

٣ - **أرنولد ويلســـن :**

الخليج العربي ، ص : ٤٣١ ٠

٤ - المصدر السابق ٠

٥ - **عبد العزيز المنصور :**

التطور السياسي لقطر ، (١٨٦٩ - ١٩١٦ م) ص : ٧٠ ٠

* يذكر ويلسون : بلغت التجارة في بوشهر حوالي ١٨٩٧ ، أبعادا مكنت استيراد أسلحة وذخائر قيمتها مائة ألف جنيه استرليني ، وذعرت الحكومة الفارسية ، فقامت آنذاك باتخاذ الخطوات الفعالة لفرض المنع ، ودخلت في اتفاقية مع حكومتي بريطانيا ومسقط ، حيث قفزت التجارة في الوقت ذاته الى مالا يقل عن ١١ر٥٠٠ قطعة سلاح انزلت البر ما بين ١٨٩٠ - ١٨٩٢م ، لمنعها ومحاربتها ٠

راجع أرنولد ويلسون : ص : ٤٣٢ ٠

٦ - **عبد العزيز عبد الغني ابراهيم :** بريطانيا وامارات الساحل العماني ، ص٤٣٢٠

* انضم ميناء جوادر الى مسقط منذ عام ١٧٩٣ عندما حصل عليه سلطان بن أحمد ، سلطان مسقط ، وظل تابعا لسلطنة مسقط حتى عام ١٩٥٨ حين تنازل عنه السيد سعيد بن تيمور لباكستان مقابل ثلاثة ملايين من الجنيهات علاجا لأزمته المالية ٠

٧ - **لوريمــــر :**

دليل الخليج ، القسم التاريخي ، الجزء السادس ، ص : ٢٩٥ ٠

٨ - المصدر السابق ، ص : ٣٥٨٧ ٠

٩ - راجع ويلسون : ص : ٤٣٢ ٠

١٠ ـ راجع لوريمر : جـ٦ ، ص : ٣٥٨٨ ٠

١١ ـ المصدر السابق ، جـ٦ ، ص : ٣٥٩ ٠

١٢ ـ المصدر السابق : جـ٦ ، ص : ٣٥٩٠ ٠

١٣ ـ المصدر السابق ، جـ٦ ، ص : ١٣٩٩ ٠

١٤ ـ المصدر السابق : جـ٦ ، ص ٣٥٩٣ ـ ٣٥٩٤ ٠

١٥ ـ المصدر السابق : ص : ٣٥٩٥

١٦ ـ المصدر السابق : ص : ٣٥٩٦

١٧ ـ **عبد العزيز المنصـــور :**

التطور السياسي لقطر ، ص :

١٨ ـ I.O.R. :L/Pas/10/114. Arms Trafic.

١٩ ـ **لوريمـــــر :**

دليل الخليج ، القسم التاريخي ، الجزء السادس ، ص : ٢٥٦ ـ ٢٥٩٧ ٠

٢٠ ـ المصدر السابق : ص ٣٦٠٦ ٠

* يوسف الابراهيم من بيت رفيع بالكويت ، وله مصاهرة مع أسرة آل الصباح ، وكان هذا البيت في ذلك الزمن أثرى بيت في الكويت ، وقد حصل ليوسف من العز والاقبال ما لم ينله قبله أحد منذ تأسست الكويت ٠ راجع يوسف القناعي صفحات من تاريخ الكويت ، ص : ٢٣ ٠

٢١ ـ **فتوح الخترش :**

تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص : ٦٣ ـ ٦٥ ، وأيضا : **عبد العزيز الرشيد** : تاريخ الكويت ، ص : ١٦٢ ـ ١٦٣ ٠

٢٢ ـ
BUSCH. : Britain and the Persian Gulf. 1894 - 1914, pp. 195.

٢٤ ـ **جـــون فيلبي :**

تاريخ نجد ، ص : ، وأيضا : حافظ وهبة : خمسون عاما في جزيرة العرب ص : ٢٧ ٠

٢٥ ـ **ديكســـون** :

الكويت وجاراتها : ص : ١٤٠ ـ ١٤١ ٠

٢٦ ـ **عبد العزيز الرشيد** : ص : ١٨٠ ٠

٢٧ ـ **فتوح الخترش** : ص : ٤٩ ٠

٢٨ ـ **لوريمر** : ج ١ ، ص : ١٠٤٤ ٠

(٩٢) فتوح الخترش : ص : ٦٨ ٠

٣٠ ـ **BUSCH. B.C : Kritain and the Persian Gulf., pp. 215.**

٣١ ـ **حسين الشيخ خزعل** :

* يذكر بوش ، أن مبارك اقتنع بعد هذه الحادثة بان بريطانيا هي مصدر كل متاعبه ، وأصر على أن يتابع مطالبه حول الجزر والمراكز الحدودية ٠
راجع : بوش : مرجع رقم (٣٠) ٠
تاريخ الكويت السياسي ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ٠

٣٢ ـ **لوريمر** : ج ٦ ، ص : ٣٦٠٧ ٠

٣٣ ـ لوريمر : ج ٦ ، ص : ٣٦٢١ ٠

ثانيا : اهم المراجـــع

أولا : المصادر والمراجع العربية :

١ ـ **ارنولد ويلســن :**
الخليج العربى ، الناشر : مكتبة الأمل : الكويت .

٢ ـ **حسين خلف الشيخ خزعل :**
تاريخ الكويت السياسى (خمسة أجزاء) دار مكتبة الهلال .

٣ ـ **حافظ وهبة :**
خمسون عاما فى جزيرة العرب .

٤ ـ **جون فيلبى :**
تاريخ نجد : منشورات المكتبة الأهلية ، بيروت ، لبنان .

٥ ـ **جمال زكريا قاسم :**
الخليج العربى (دراسة لتاريخ الامـــارات العربية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) مطبعة جامعة عين شمس : ١٩٦٦م .

٦ ـ **ديكســون ، هـ.ر.ب. :**
الكويت وجاراتها ، الطبعة الأولى : ١٩٦٤م .

٧ ـ **عبد العزيز الرشـــيد :**
تاريخ الكويت ـ منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت : ١٩٧٨م.

٨ ـ **عبد العزيز عبد الغنى ابراهيم :**
بريطانيا وامارات الساحل العمانى ـ مطبعة الارشـــاد ـ بغـداد ١٩٧٨م .

٩ ـ **عبد العزيز المنصـور :**
التطور السياسى لقطر ، (١٨٦٨ ـ ١٩١٦) الناشر : دار ذات السلاسل .

١٠ ـ **فتوح الخــترش :**
التاريخ السياسى للكويت فى عهد الشيخ مبارك (دراسة وثائقية مقارنة بالمؤرخين المحليين) ، منشورات دار ذات السلاسل . الكويت ـ الطبعة الثانية : ١٩٩٠م .

١١ - فتــوح الختــرش :
تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ،(١٨٩٠-١٩٢١)٠
منشورات دار ذات السلاسل - الطبعة الأولى ١٩٧٤ م ٠

١٢ - ج٠ج٠ لوريمر :
دليل الخليج الجزء الأول والسادس .. ترجمة : مكتب الترجمة
بديوان حاكم قطر ٠

ثانيا : وثائق أجنبية منشورة :

* India Office Records, (I.O.R.) : L/PKS/10/113 - Arms Traffic.

ثالثا : الكتب الأجنبية :

* B.C. BUSCH : Britain and the Persian Gulf. 1894 - 1914. University of California Press. Berkeley Los Angeles, 1967.

باب عـــرض الكتب

خصصنا هذا الباب لعرض بعض الكتب التاريخية الحديثة ، ذات الطابع العلمى البحت والمنهج التاريخى الســليم · والهدف من هــذا العرض تعريف الباحثين ـ لا سيما أفراد أسرة المؤرخين العرب ـ بهذه الكتب ومؤلفيها ، حيث أن تيار الاعلام فى وطننا العربى لا يعطى ـ بكل أسف ـ الكتب والمؤلفات التاريخية الحديثة الاهتمام الكافى ، اللهم الا على الصعيد المحلى ·

والتعريف بالكتاب لابد وأن يصـــحبه التعــريف بصاحبه ، حتى ولو كان المؤلف أشهر من أن يعرف به · فلا بد من الاشارة بايجاز الى نشاط المؤلف وعمله وبلده ، والى مؤلفاته السابقة واهميتها فى حقــل الدراســات التاريخية ··· وذلك لتحقيق قــدر من الترابط الفــكرى والروحى بين القارىء والمؤلف ، والاحاطة بالظروف التى يعمل فيها المؤلف ، والامكانات المتــاحة له ، والتى فى ضــوئها وضع مؤلفه أو مؤلفـــاته ·



وفى ضــوء هـــذه الاعتبارات شرعنا فى التنقيب عن المؤلفات التاريخية ذات الطابع العلمى البحت والتى صدرت فى الفترة الأخيرة لتعالج موضوعات جديدة · ولا نجامل اذا قلنا ان أول ما شد انتباهنا فى هذا المضمار كانت مؤلفات « الحاكم المؤرخ » سمو الدكتور سلطان ابن محمد القاسمى حاكم الشـــارقة والحائز على درجة الدكتوراه فى التاريخ من احدى أعرق الجامعات فى انجلترا · واسترعى نظرنا أن الدكتور سلطان يعمل فى صمت ، بعيدا عن أضواء الدعاية والاعلان ، وانه فى السنوات الأخيرة انتج عدة مؤلفات تاريخية ثمينة تجعل منه علما من أعلام الدراسات التاريخية فى عالمنا العـــربى ، وتتصف كلها بجدة الموضوع وسلامة المنهج وعمق الفكر وسلاسة الاسلوب ·

وثمة عامل مشترك فى مؤلفات الدكتور سلطان بن محمد القاسمى ، هو انها ترتبط جميعا بتاريخ الخليج ، مما جعل منه أحد الثقات المتخصصين فى تاريخ ذلك الاقليم ، الذى نشأ فيه وترعرع بين جنباته ، فأخلص له ولأهله اخلاصا جعله يكرس له جهده وفكره ووقته ٠

ثم ان الجديد فى مؤلفات الدكتور سلطان بن محمد القاسمى هو أنه بحكم امكاناته استطاع جمع عدد كبير من الوثائق التاريخية الخاصة بتاريخ الخليج ، والمحفوظة فى دور الارشيف العالميـــة غربا وشرقا ؛ وعكف على دراستها وتحليلها واستخراج الحقائق التاريخية منها ، وهو مالم يتوافر لكثيرين غيره من الباحثين فى تاريخ ذلك الاقليم ٠ وهو فى احكامه يقف موقفا عــادلا غير متحيز ، لا يســتهدف الا الحقيقة التاريخية ، فيرد على الدعـاية الكاذبة التى روجها الاستعمار لتبرير سياسته الاستغلالية فى اقليم الخليج ، ويفند أساليب تلك الدعاية على أسس علمية ، معتمدا على الوثائق والحجج التاريخية متجنبا اســلوب التطرف أو التحيز ، وبذلك أتت مؤلفاته نبعا عذبا ينهل منه الباحثون فى تلك الحلقة الهامة من حلقات التاريخ ٠

وسنكتفى فى هذا العرض بالتركيز على آخر كتابين انتجهما سمو الشيخ الدكتور محمد بن سلطان القاسمى ، مع عدم اغفال الاشارة الى بعض مؤلفاته الأخرى التى سبقت فى الصدور :



اسم الكتاب : العلاقة العمانية الفرنسية (١٧١٥ ـ ١٩٠٥)
تاريخ صدور الكتاب : ١٩٩٣
الناشر : دار الغرير للطباعة والنشر ٠

تلقى هذه الدراسة أضواء جديدة على العلاقات العمانية الفرنسية فى فترة من أشد فترات التاريخ فى الخليج والمحيط الهندى حساسية ٠ ومن منطلق تاريخى سليم ، ربط المؤلف ـ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى ،بين العلاقات العمانية الفرنسية فى ذلك الدور من ناحية ،

وما كان يجرى عندئذ من سباق بين انجلترا وفرنسا وتنافس سياسى خطير بين هاتين الدولتين من ناحية أخرى • وهكذا اخذ المؤلف يتتبع فى منهج علمى متين وفكر هادىء متزن تطور الصراع بين انجلترا وفرنسا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، موجها نظر القارىء الى صدى هذا الصراع فى اقليم الخليج بوجه خاص • وطوال تتبع الباحث لمسيرة الأحداث فى تلك الفترة نراه يحرص على أن ينظر باحدى عينيه الى تطور المواقف بين انجلترا وفرنسا فى اقليم الخليج ، وينظر بالعين الأخرى الى موقف أهل عمان والخليج من هاتين القوتين الدخيلتين على المنطقة وأهلها • وثمه حقيقة عنى الباحث بالكشف عنها هى أن العلاقات العمانية الفرنسية لم تتسم فى مجملها بالانسجام والود ، وانما تعرضت لهزات واضحة على مدى قرنين من الزمان •

واستنادا الى الأدلة والوثائق المعاصرة التى عنى بدراستها واستخلاص الحقائق منها ، تصدى الباحث فى شجاعة المؤرخ المدقق لآراء بعض الكتاب والمؤرخين الذين خاضوا فى هذا الموضوع مغلبين عواطفهم وميولهم دون الرجوع الى الوثائق التاريخية المعاصرة ، فناقش هذه الآراء بأمانة وشجاعة ، وفند بعضها واثبت خطأها ، وكشف عن سياسة المبعوثين الفرنسيين الى عمان ، وما اتسمت به هذه السياسة من نوايا واغراض مستترة • وهكذا حتى كانت سنة ١٨١٧ عندما دخلت العلاقات العمانية الفرنسية مرحلة جديدة اتصفت بالتعاون وحسن النوايا •

هذا ، وقد راعى المؤلف الترتيب الموضوعى ، واحترام الحاسة الزمنية فى كتابة التاريخ ، فقسم كتابه الى عشرة فصول ، عدا المقدمة وقائمة المصادر والمراجع ثم ثبت الهوامش والكشاف العام • واختص كل فصل من فصول الكتاب بمحور محدد تدور حوله نقاط البحث ؛ الأمر الذى أضفى على الكتاب بأكمله طابع الوضوح والسلاسة ، بعيدا عن التكلف والتعقيد والاستطراد ، وهى الأمراض التى تشكو منها بعض الكتابات التاريخية •

والكتاب فى حد ذاته مرجع علمى لمن ينشد الوقوف على خبايا

تلك الصفحة المثيرة فى تاريخ الخليج ، فضـلا عن سياسة فرنســا فى الشرق طوال قرنين حافلين بالاحداث والتطورات ٠



اسم الكتاب : الوثائق العربية العمانية فى مراكز الأرشيف الفرنسية
تاريخ صدور الكتاب : ١٩٩٣

هذا هو الكتاب الثانى الذى أصدره سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى فى نفس العام الذى شهد صدور كتابه السابق وكما يبدو، يرتبط الكتابان بعضهما ببعض ارتباطا قويا داخل اطار وحدة الموضوع، اذ يضم الكتاب الثانى عددا من الوثائق العربية التى تلقى أضواء على حقيقة العلاقات العمانية الفرنسية ٠ ولم يكن الوصول الى هذه الوثائق بالأمر السهل ، وانما تطلب من المؤلف الكثير من الجهد والعناء والبحث والتنقيب فى أرشيف وزارة الخارجية الفرنســية ، وفى مكتبة البلدية بمدينة كان فى فرنسا ، ثم فى جزيرة ريو نيون ٠٠٠ وغيرها واستعان المؤلف بهذه الوثائق فى بحـوثه ومؤلفاته ، غير انه رأى أن ينشرها محققه علميا لتكون تحت بصر الباحثين فى كل زمان ومكان ، وهنـا تبدو سماحة العلماء وكريم فيضهم ٠

يقول المؤلف فى مقدمة كتابه :

(بعد الانتهاء من كتابة كتابى (العلاقة العمانية الفرنســية) ، وجدت فى حوزتى مجموعة من الوثائق العربية والفارســية الخاصة بالعلاقة العمانية الفرنسية ، والتى جمعتها من مراكز الأرشيف الفرنسية ؛ عز على ايداعها أدراج مكتبى دون الاســتفادة الكاملة بما تحتويه تلك الوثائق من معلومات قيمة تمثل العلاقة العمانية الفرنسية خير تمثيل ، حيث تبرز كثيرا من التفاصــيل الدقيقة ، والتى لا مجال لسردها فى كتابى (العلاقة العمانية الفرنسية) ٠ فاخترت من بينها بعض الوثائق العربية الخاصة بالموضوعات الهامة فى تلك العــلاقة ، وقمت بترتيبها حسب التواريخ والأحداث ، واضفت اليها معلومات تاريخية حول كـل وثيقة ، وقمت بتفسير ما اشتبه فيها من كلمات ٠٠٠) ٠

وبهذه الفقرة كفانا المؤلف مؤونة الافاضة فى الـــكلام عن موضوع الكتاب وأهدافه ومنهجه ٠

ومرة أخرى نؤكد أن الوثائق مصدر من أخطر المصادر التى تعتمد عليها الكتابة التاريخية ٠ والرواية التاريخية بدون الوثائق والأسانيد التى تدعمها وتثبت صحتها تحتمل التغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان ، على مر العصور والأجيال ٠ ولكن الوثيقة هى الشاهد على صحة الرواية أو عدم صحتها ، وخاصة اذا كانت مزوده بشـــهادة الشهود وتوقيعات الحضـور ٠

والعمل فى مجال الوثائق ليس سهلا ، لأن قـــراءة كل كلمة مع تعدد الخطوط وتباين رسم الحروف ، وتفســير كل عبارة مع اختلاف معانى الكلمة الواحدة أحيانا من عصر الى آخر ٠٠٠ كل هذا يجعل من دراسة الوثيقة مهمة قاسية صعبة ٠ هذا الى أن الوثيقة تدون بأسـلوب عصرها ، ولكل عصر تعبيراته التى قـــد تغاير ما كانت عليه فى عصر سابق أو ما آلت اليه فى عصر لاحق ٠

وفى هذا الكتاب واجـــه الدكتور سلطان بن محمد القاسمى كافة هذه الصعاب ؛ وأظهر الكثير من الدقة والصبر والمثابرة ، مما يشهد له بسعة الأفق وغزارة الحصيلة التاريخية ٠ ولعل فيما ذكـره الباحث فى مقدمة كتابه من أنه قام بترتيب الوثائق التى نشرها « حسب التواريخ والأحداث » ما يدل على تمتعه بحاســـة تاريخية مرهفة ، لأن التاريخ يعتمد على التسلسل الزمنى ، وحوادثه متلاحقة مترابطة ، مما يجعل الطريق ممهدا مستقيما أمام الباحثين ٠

وهكذا لم ينشر المؤلف وثائقه متراكمة ، متداخلة ، أو متشابكة مع بعضها البعض ، وانما قسمها موضوعيا وزمنيا الى تسع مجموعات ٠ وقد حرص ـ امعانا منه فى الدقة ـ على نشر الصورة الأصلية لكل وثيقة ، ومعها ما تتطلبه من شروح وتفسيرات علمية ولغوية ٠ وربما ورد فى نص الوثيقة خطأ هجائى ، وعندئذ كان المؤلف يتركه كما هو حفاظا على

روح الوثيقة وطابعها وأصلها، ويكتفى بالاشارة الى ذلك الخطأ وتصويبه فى ذيل الصفحة . وهذا هو المنهج السليم فى نشر الوثائق . ان الوثيقة ينبغى أن تظل شاهدا يعبر عن روح العصر وفكره وأسلوب الكاتب ومستواه .

وبنشر هذه المجموعة من الوثائق العربية ، فتح الدكتور سلطان بن محمد القاسمى الباب أمام الباحثين المهتمين بتاريخ الخليج لمزيد من البحث والدراسة ، بحيث أصبح تاريخ الخليج لا يستقى أساسا من الوثائق الاوربية وحدها بل ايضا من الوثائق العربية التى لم يعن بالرجوع اليها معظم الباحثين الغربيين .



واذا كنا قد اقتصرنا فى عرضنا هذا على الكتابين السابقين فقط من مؤلفات الدكتور سلطان بن محمد القاسمى ، فليس معنى هذا أن انتاجه فى حقل الدراسات التاريخية يقف عند هذا الحد . لقد عشق الرجل دراسة التاريخ ، وكرس له جزءا كبيرا من وقته وفكره ووجدانه . واذا كناقد اخترنا هذين الكتابين من مؤلفاته التاريخية العديدة فذلك لأنهما آخر ما توصلنا اليه فى نفس العام الذى كنا نعد فيه لاصدار العدد الثانى من مجلة المؤرخ العربى . وعندما طلبنا منه اهداء مكتبة « المؤرخ العربى » مجموعة كاملة من مؤلفاته ، لم يضن علينا - وهو الرجل الكريم الخلق الواسع الأفق - فبعث الينا بمجموعة كاملة تحتل مكانها الآن كنواة لمكتبة اتحاد المؤرخين العرب . ومن بين هذه الكتب نكتفى بمجرد الاشارة السريعة الى المؤلفات الآتية التى تحمل اسم الدكتور سلطان بن محمد القاسمى : -

- الاحتلال البريطانى لعدن

سفر جليل ، صدرت منه الطبعة الثانية عن مؤسسة البيان بدبى سنة ١٩٩٢ . يوضح بالوثائق أساليب السياسة البريطانية فى تنفيذ مخططاتها الاستعمارية الخاصة باحتلال عدن . ويكشف بالأدلة التاريخية

النقاب عن الاعيب الاستعمار البريطانى تحت ستار عدد من الاتفاقيات غير المتكافئة والتى تتسم بما عرف عن الاستعمار من خداع ومراوغة ·

— تقسيم الامبراطورية العمانية (١٨٥٦ - ١٨٦٢)

دراسة تاريخية ثمينة ، تقع فى نحو أربعمائة صفحة ، صدرت عن مؤسسة البيان فى دبى سنة ١٩٨٩ ، تلقى أضواء على تاريخ شرق افريقية فى حلقة هامة من أكثر حلقات تاريخ القرن التاسع عشر نشاطا وازدحاما بالاحداث · وفى ضوء الوثائق المعاصرة كشف الدكتور سلطان بن محمد القاسمى النقاب عن سياسة شركة الهند الشرقية ودورها الخطير فى تثبيت أقدام الاستعمار وتوسيع دائرة نشاطه ·

— The Myth of Arab Piracy in the Gulf, (Second Edition, Routledge, 1988).

فى هذا الكتاب أوضح الدكتور سلطان بن محمد القاسمى عدم صدق ادعاء بريطانيا بانها قدمت الى اقليم الخليج ، وبسطت سيطرتها عليه فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر لتحقيق هدف انسانى كبير ، هو القضاء على القرصنة العربية فى الخليج · وبالوثائق الرسمية ، أثبت المؤلف كذب هذه الأسطورة ، وأن التخطيط لسيطرة بريطانيا على الخليج كان من وضع شركة الهند الشرقية التى حثت الحكومة البريطانية على اتخاذ هذه الخطوة لأسباب اقتصادية استغلالية بحتة ·

وتنبع أهمية هذا الكتاب من أن المؤلف اعتمد فيه على وثائق دور الارشيف فى بمباى بالهند · وكانت هذه المدينة مقر حكومة شركة الهند الشرقية ومركز نشاطها · ومن الثابت أن الدكتور سلطان بن محمد القاسمى كان أول مؤرخ عربى اتخذ من وثائق بمباى ركيزة لالقاء الأضواء على دور شركة الهند الشرقية فى نشر سيطرة بريطانيا على الخليج ·

وبعد ، فانه اذا كانت مجلة المؤرخ العربى ، وهى تفتتح فى عددها الثانى باب (عرض الكتب) قد اختارت ان تبدأ بعرض مؤلفات سمو الدكتور سلطان بن محمد القاسمى - حاكم الشارقة - ، فان هـــذا لم يأت اعتباطا ، وانما اعترافا بالقيمة العلمية لهذه المؤلفات أولا ، ثم بعد ذلك بدافع الاحساس بالفخر بان يكون بين حكام الأمة العـربية حاكم على مستوى الدكتور سـلطان ، جمع بين وعى المؤرخ المحيط بالأبعاد الحقيقية لفنه ، والحاكم المخلص المتفانى فى خدمة شعبه وامته .

رئيس التحرير

احــــاطة

هيئة تحــرير مجلة (المؤرخ العــربى) اذ تشـكر جميع الزملاء الذين أســـهموا فى تحرير هذا العدد ، ترجو أن تحيط كافة أعضـــاء اتحاد المؤرخين العرب علماً بأنها شرعت فعلا فى تلقى البحوث العلمية المقدمة للنشـر بالعـــدد الثالث الذى يصــدر فى شـــهر مارس ١٩٩٥ بمشـيئة الله ٠

رجاء الالتزام بقواعد النشـر المنصوص عليها فى صدر هذه المجلة من حيث الـكم والكيف ، حفاظا على مكانة هـــذا الانجاز العلمى الذى اخذ يشق طريقه فى الأوساط العلمية ٠

ولمثل هذا فليعمل العاملون ٠

Bulletin
of
The Arab Historians Society

Academic Bulletin Concerned with Historical studies

VOL. 1 -NO. 2 . **March,1994** **Cairo - Egypt**

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العـربى

تصـدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد الثالث المجلد الأول مارس ١٩٩٥

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الثالث ـ المجلد الأول

مارس ١٩٩٥ م

هـــــذه المجـــــلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، تستهدف الحقيقة التاريخية صـــافية نقية بعيـــدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .

- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام ، على أن تصـلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعـــد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين : أصل وصورة .

- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم اجازتها للنشر بالمجـــلة .

- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها واجازتها للنشر ولا علاقة اطلاقا بين هذا الترتيب ومكانةالباحث أو درجته العلمية.

- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب (كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ أورمان ـ جيزة ـ مصر).

المؤرخ العــــربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثالث ـ المجلد الأول ـ مارس ١٩٩٥

فى هــذا العــدد

بســـم اللـــه الرحمن الرحيم

افتتاحية العـــدد

القـــافلة تســـير .....

بصدور هذا العدد الثالث من مجلة المؤرخ العربى ، تكون قد انقضت ثلاثة اعوام على مولد اتحـــاد المؤرخين العـرب بالقاهرة ، وما أسرع ما تمر الأعوام وتتوالى الأيام ...

ثلاثة أعوام كاملة انقضت منذ أن كان هـذا الاتحاد مجرد مشروع حمله الى القاهرة لفيف من الاخوة الزملاء العرب الوافدين من شتى البلاد العربية ، بعد أن ثبت فشل اتحاد بغداد وانحرافه عن جادة الطريق ، وانصرافه لتسخير طاقة المؤرخ العربى وامكانات علم التاريخ فى خدمة حاكم استنفد طاقات بلده فى قهر شـــعبه فى الداخل وتهـــديد جيرانه فى الخارج ...

وفى الوقت الذى كان اتحاد بغداد مشغولا بعمل مهرجانات لتأييد سياسة التخريب والعدوان ، وتوزيع (الأوسمة) على لفيف من الانتهازيين الساعين وراء المظهر الخـــداع ... فى ذلك الوقت أحس المؤرخ العربى الشريف أن الكيل قد طفح ، وأن تراثه الناصع قد لوثته أيدى الصغار ، وأن رصيده الحضارى الضخم على مدى خمسة عشر قرنا قد تعرض لعبث العابثين ، فاتجه المؤرخون العرب الى القاهرة ينشدون تصحيح المسار ونفض الغبار عن سمعة المؤرخ العربى ، بعد أن الحق بها اتحاد بغداد العيب والعار ، واصلاح البنيان الذى اقامه الآباء والأجـــداد مما أصابه من تصدع ودمار .



لقد كان يوما مشهودا ، وعيدا مرموقا من أعياد العروبة ، عندما عقد اتحاد المؤرخين العرب جمعيته العمومية الثانية بالقاهرة فى الأسبوع

الأخير من شهر جماد الآخر سنة ١٤١٥ هـ - نوفمبر ١٩٩٤م - ٠ ذلك أن هذا الاجتماع الحافل شارك فيه جمع غفير من المؤرخين العرب ، شيوخا وشبابا ، نحو ثلثمائة مؤرخ عربى وفدوا من شتى الأقطار والبلدان ... الكل مرفوع الراس ، لم يات الى القاهرة لينحنى ويرقص امام حاكم كائنا من كان ، أو يسبح بحمد سيد أو رئيس سعيا وراء أجر أو وسام ، وانما أتى الجميع الى القاهرة ليرفعوا راية العروبة فى ساحة من اشرف ساحاتها ، ويعاهدوا الله على العمل لما فيه خيرها من خلال نافذة التاريخ ٠٠ مدرسة الزمان والمكان ٠

اجل ، ما كان اعظمه من مهرجان حافل ، جلس فى رحابه المؤرخون العرب جنبا الى جنب ، الكل سواء ، لا رئيس ولا مرؤوس ، وانما هى الزمالة والاخوة ، ومن فوقهم ترفرف راية الحرية ... ان حرية الفكر ، وحرية الراى ، وسمو الهدف ، وأدب النقاش ، هى التى خيمت جميعا على أجواء الجلسات التى عقدها مؤرخو الجيل فى وئام وهدوء ... كل عضو يحس بآدميته ويشعر بكرامته ، ويدرك انه يسهم فى حمل أمانة ضخمة ، الكل مسئولون عنها أمام الله وأمام ضمائرهم وأمام التاريخ ٠



وفى هذا الجمع الحافل قدم رئيس الاتحاد تقريره الى الأعضاء ، فناقشوه فقرة فقرة فى حرية تامة وبصراحة متناهية ، لكل زميل الحق فى أن يدلى برايه ويشرح وجهة نظره حسبما يرى وحسبما يرضى ضميره ... مجال النقاش البناء مفتوح أمام الجميع ، وحرية التعبير متاحة للجميع ، والاتحاد اتحاد الجميع ٠ انه اتحاد المؤرخين العرب ، بكل ما يعنيه مصطلح الاتحاد من قوة ، ويعنيه مصطلح المؤرخ من سمو خلقى ووعى فكرى ، ويعنيه مصطلح العروبة من صفاء ونقاء ٠

وفى ختام النقاش ، اقر الأعضاء مسيرة الاتحاد فى وضعه الجديد ، وأعرب رئيس الاتحاد عن عزمه على أن يمتثل لكل ما أبداه زملاؤه من

ملاحظات بناءة ، وتعهد بتحقيق رغباتهم والأخذ بوجهات نظرهم ، فالاتحاد اتحادهم ، وهم أهله وبنيته وأصحابه .

هكذا يكون الصراط المستقيم ، فالديموقراطية ليست شعارا أجوفا يتشدق به المستبدون بالسنتهم ، فى حين تمسك أيديهم بالسياط يلهبون بها ظهور من يخالفهم فى الراى . ان الديموقراطية هى الشورى . انها الحرية من أوسع أبوابها : حرية الفكر والرأى ، حرية النقد البناء ، حرية العمل النافع الجاد ... كل ذلك داخل اطار من الخير وسلامة الهدف وسماحة القصد وأدب المجادلة .



وبعد ذلك أتى دور الأستاذ الدكتور امين صندوق الاتحاد ، فقدم التقرير المالى عن ميزانية الاتحاد ، يتضمن الايرادات والمصروفات على مدى سنوات ثلاث ، معتمدا من مكتب المحاسبة الذى قام بمراجعته بندآ بندآ. وهذا المكتب الذى يشرف عليه أحد كبار المحاسبين بالقاهرة ، هو المكتب المتخصص فى مراجعة واعتماد الميزانيات الخاصة بعدد كبير من الجمعيات والاتحادات، من جملتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

وكان تقليدآ جميلا حقا أن يوزع التقرير المالى بكافة تفصيلاته على جميع الأعضاء ـ بلا استثناء ـ ليروا بأنفسهم كيف يسير العمل فى جهاز اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، ويقفوا على أوجه الايرادات والمصروفات فى كل ركن من أركانه ، ومدى الدقة فى ايداع كل مبلغ يصل الى الاتحاد ـ مهما يكن بسيطا ـ فى حساب خاص يحمل اسم الاتحاد فى مصرف من اكبر المصارف الحكومية ، ولا يمكن سحب اى مبلغ من رصيد الاتحاد الا بصك معتمد يحمل توقيعى أمين الصندوق ورئيس الاتحاد ، ويثبت ذلك فى دفاتر الاتحاد المخصصة للحسابات .

وهنا نسجل أن هذه هى المرة الأولى التى يكون فيها لاتحاد المؤرخين العرب ميزانية معلنة ، تخضع لاشراف دقيق من جانب أجهزة الدولة المختصة التى اعتمدت الاتحاد واقرت تسجيله واشهاره رسميآ .

ورحم الله أيام اتحاد بغـــداد الذى لا يدرى أحـــد أين كان يدفن المبالغ الطائلة التى حصل عليها من بعض الحكومات العربية تحت ستار الابتزاز والتهديد ، والتى لم يحدث - ولو مرة واحدة - أن قدم رئيسه بيانا أو كشف حساب عنها يتضمن الايرادات والمصروفات . لقد قنع بتوزيع بعض الرشاش على جماعة المنتفعين فى صورة مبالغ سرية أو أوسمة علنية . أما الرصيد الوارد فعلمه عند الله ، وعند رئيس اتحاد بغداد .

ولعل الحكومات العربية التى أسرفت فى العطاء لاتحاد بغداد تحت تأثير الخوف ، والتى تمسك يدها اليوم عن تقديم المعونة لاتحاد القاهرة فى محاولة منها لأن تمسك بالعصا من وسطها تحسبا لتهديد جديد تتعرض له من جانب بغداد ، لعل المسئولين فى هذه الحكومات يدركون الحقيقة قبل أن ينكشف الغطاء ، ويفصح التاريخ عما يكنه من خبايا،نرى الامساك عن ذكرها الآن حرصا على الصالح العام لأمة العرب .



وبعد ، فانه حسب اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة أنه استطاع فى هذا المدى القصير ، وفى هذه السنوات الثلاث المحـــدودة ، أن يثبت أقدامه ويشق طريقه قدما ، ليحقق نجاحا لم يسبق للأمة العـــربية فى عصرها الحديث أن شهدت نظيرا له فى مجال الدراسات التاريخية .

« وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين »

رئيس التحرير

زيف ما يدعيه حكام العراق
من حقوق تاريخية فى أرض الكويت

د٠ حياة محمد البسام(*)

مقـدمة :

كثرت ادعاءات حكام العراق وافتراءاتهم بان الكويت جزء لا يتجزأ من أراضى العراق ، سلبته منه بريطانيا ٠٠ لكنهم نسوا أو تناسوا ان الحقائق التاريخية مدونة ومحفوظة ، يمكن الرجوع اليها متى اريد ذلك حتى تظهر الحقيقة جلية للعيان ، وعندئذ يتضح ان كان للعراق فعلا حقوق فى الكويت ام ان تلك الادعاءات مجرد أطماع سياسية واقتصادية عراقية ، ليكون هذا البلد الذى تطالب حكومة العراق به سندأ لاقتصادها المنهار ٠ ويكفى أن تكون الكويت من أغنى دول الخليج العربى اقتصاديا ، فضلا عن موقعها الجغرافى والاستراتيجى الهام ، لكى يسيل لذلك لعاب حكام العراق ٠

وامام هذه الادعاءات أردت فى هذا البحث أن أتتبع الحقائق التاريخية الموثقة لكى القى الضوء على ما تدعيه حكومة العراق،لنرى ان كانت لها حقوق فعلا فى أرض الكويت كما تدعى ، أم أن الأمر لا يعدو مجرد أطماع سياسية فى محاولة لتزييف التاريخوتشويه الحقائق التاريخية٠

وقد اعتمدت فى هذا البحث على الوثائق والمصادر التاريخية ، مع اتباع المنهج التاريخى العلمى من حيث النقد والتحليل والمقارنة والترجيح ، حتى استطيع عرض الحقيقة مجردة من الاهواء ٠

ويكفى ان نشير فى هذه المقدمة الى ان الكويت تاسست فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (الميلاديين) عندما هاجرت مجموعات من قبيلة العتوب من قلب نجد واستقروا فى تلك المنطقة ، ثم

(*) جامعة ام القرى ٠

واصلوا السعى فى تطويرها حتى غدت دولة ذات طابع سياسى،فاستطاعت عقد اتفاقيات مع بريطانيا والدولة العثمانية اللتين اعترفتا بسيادتها واستقلالها الذاتى ٠ ويتضح هذا جليا فى اتفاقية عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) التى وقعت بين بريطانيا والدولة العثمانية وعرفت بالاتفاقية الأنجلو ـ تركية ٠ وكان العراق فى تلك الفترة منقسما الى ولايات تابعة للدولة العثمانية ، وعلى راس كل ولاية باشا عثمانى يدير شئونها ٠ ولم يظهر العراق كدولة سياسية موحدة الا عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢١م) عندما نصبت عليه بريطانيا الملك فيصل الأول ٠٠ ويتضح من هذا أن الكويت ظهرت كدولة مستقلة قبل العراق بسنوات ٠

نشاة الكويت وتطورها :

قبل الولوج فى دراسة تاريخ نشاة الكويت وتطورها بقيادة حكامها من آل الصباح ، لابد لنا من توضيح أهمية هذه المنطقة من الناحية الجغرافية ٠

تقع الكويت على بعد ثمانين ميلا (تقريبا) جنوبى البصرة ،وتميل قليلا الى الشرق ؛ وتبعد نحو مائة وثمانين ميلا (تقريبا) الى الشمال الغربى من بوشهر ؛ كما تقع شمالى غربى البحرين ٠

وتطل الكويت على الساحل الغربى للخليج العربى الذى يعتبر طريقا رئيسيا للوصل بين الشرق والغرب ، وتمتاز بموقع استراتيجى فى جوف خليج عميق يصلح لأن يكون مرسى للسفن العابرة ٠

أما عن موقع الكويت بالنسبة للبلاد المجاورة : فيحدها شمالا العراق وغربا المملكة العربية السعودية ٠ والكويت امتداد طبيعى لصحراء شبه جزيرة العرب وجزؤ لا يتجزأ منها من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ؛ لذا فان هذا الموقع الاستراتيجى اكسب الكويت أهمية تاريخية كبيرة جعلتها محط أنظار الطامعين(١) ٠

---

(١) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٨٨ ، أبو حاكمة ، أحمد ، تاريخ الكويت ، ج١ ، القسم الأول ، ص ٩٥-٩٦ ، لوريمر ، ج٠ج٠ ، دليل الخليج ، ج٣، ص ٣ ـ ١٥ ، القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ٩ ٠

وقبل الخوض فى تاريخ نشأة وتطور الكويت الحديث لابد لنا من القاء نظرة سريعة على جزء من تاريخها القديم وصلا بالحــديث حتى وصول العتوب اليها ، لما لهذه الفترة من اهمية تاريخية كبيرة تثبت أن الكويت لم تكن تابعة للعراق فى اية مرحلة من مراحل التاريخ ٠

لقد عرف تاريخ الكويت القديم بعد اكتشاف حجر وجدت عليه بعض نقوش يونانية على حائط صغير يبعد حوالى سبعمائة ياردة الى الجنوب الشرقى لقرية«الزور» التى تقع على الساحل الشرقى لجزيرة فيلكا٠وقد بينت النقوش المكتشفة أن الاسكندر الأكبر ربط عاصمة ملكه «بابليون» بالمناطق التى استولى عليها فى الهند عبر طــريق تجارى ، وذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم أخذت سفنه تجوب البحر من الهـــند الى بلاد فارس ٠ وقد وردت بعض روايات تفيد أن الاسكندر الأكبر طلب من أمير البحر نياركوس القيام برحلة تبدأ من الهند الى بلاد فارس ، وذلك عام ٣٢٥ ق٠م٠ فوصــل نياركوس الى المنطقة التى تعرف اليوم بشط العرب واجتمعت القوات البحرية بالبرية ، لكنه ضل الطريق فى منطقة بعيدة عن مصب النهرين ورسا بجانب جزيرة بوبيان ، وهناك تحطمت سـفنه بسبب الرياح والعواصف والأمواج العاتية(٢) ٠

وتدل آثار الاغريق فى تلك المنطقة على ما جلبوه معهم من حضارات ومعتقدات تركت بصمات واضحة على هذه الأرض ، فقد اكتشف معبـد فى جزيرة فيلكا يعرف بمعبد أكاروس ، وجدت فيه آثار كثيرة من ضمنها بعض قطع نقدية وتماثيل ٠ وكان أن أطلقوا على جـزيرة فيلــكا اسـم « لاريسا »(٣) ٠

وقد دلت النقوش التى تم اكتشافها فى كل من الكويت وجـــزيرة فيلكا على أنه كان لهاتين المنطقتين شان عظيم فى عصر الاسكندر،نتيجة للموقع الاستراتيجى الذى يربط الهند بالأراضى العـــربية والرومانية .

(٢) قطينه ، رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية لقيام الدولة » ، الوثيقة ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ، العدد الأول ، السنة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ٠

(٣) قطينه ، رنده « الكويت : دراسة تحليلية ، «الوثيقة» ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ٠

لكن هذه الأهمية انكمشت اثر احتـــلال الامبراطورية الرومانية للأراضى العربية(٤) ٠

اما عن أهمية تلك المنطقة فى العصر الاسلامى فقد اكتسب الخليج عامة أهمية كبيرة ، خاصة فى عهد الخليفة الراشـد أبى بكر الصديق ، حيث دارت فى تلك المنطقة معركة ذات السلاسل الشهيرة بين المسلمين والفـــرس ، وكانت الغلبة فيها للمسلمين فتقـــدموا لفتح عاصمة فارس « المدائن » القريبة من موقع بغداد(٥) ٠

اما فى عهد الخليفة هارون الرشيد فقد كانت الكويت من المناطق الهامة جدا بسبب موقعها بالقرب من مدينة البصرة ٠ وكانت تعرف باسم « القرين » نسبة الى جزيرة صغيرة تسمى بهذا الاسم تقع على بعد أربعة أميال غربى المدينة الحالية ٠ يزيد على ذلك موقعها على طريق القوافل التجارية ، الأمر الذى ساعد على انتشار الحضارة الاسلامية فيها ٠

وهكذا حتى كانت نهاية القـرن العاشر الهجرى ، الســادس عشر للميلاد فبدأت هذه المنطقة تلعب دورا هاما ـ الى حد ما ـ بعد ظهـور الانجليز والهولنديين فى الخليج العربى عام ١٣٠٢ هـ (١٦٢٢م) لاسيما بعد استيلاء الانجليز على مضـيق هرمز وتدمير المنطقة بعـــد خـــروج البرتغاليين منها(٦) ٠

أما عن تأسيس الكويت الحديثة فقد اختلفت الروايات حول تحـديد الفترة الزمنية لهذا التأسيس ، لأن تاريخ منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية اعتمد على مصدرين : كتاب ابن بشر « عنوان المجد فى تاريخ نجد » وكتاب ابن غنام « روضة الأفكار » ٠ ولأن هذين المصدرين استقيا المعلومات من مصادر شعبية تفتقر الى التوثيق ، فقد ظهر هذا الاختلاف العام حول تحديد تاريخ تأسيس الـكويت الـحـديث ، اذ ذكـــر المؤرخ

---

(٤) قطينه ، رنده « الكويت : دراسة تحليلبة » « الوثيقة» ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ٠

(٥) قطينه ، رنده « الكويت : دراسة تحليلية ، «الوثيقة» ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ٠

(٦) قطينه ، رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية » ، «الوثيقة» ، ص ١٨٢ ٠

عبد العزيز الرشيد فى كتابه « تاريخ الكويت » أن الكويت تاسست فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، فى حين حدد المؤرخ النبهانى فى كتابه « التحفة النبهــانية » تاريخ ظهــور الــكويت بعــام ١٠٢٠ هـ (١٦١١م)(٧) .

وأمام هذا التباين فى الرأى حول تاريخ تاسيس الكويت نستطيع ان نقول أن الكويت تاسست بين أواخر القرن السابع عشر الميلادى وبداية القرن الثامن عشر الميلادى ، وكانت فى بادىء الأمر حصنا بناه أحــد زعماء بنى خالد وجعله مستودعا لتخــزين المؤونة والذخيرة ؛ يستخدمه عند غزوه شمالا.وقيل أنه بناه لراحته عند خروجه للصيد ، ومن ثم اتت بعض القبائل العربية البدوية وأقامت حوله . ولم تظهر هــذه المنطقة على مسرح الأحداث السياسية كمشيخة الا بعد قدوم فرع من قبيلة عنزة التى هاجرت من الافلاج (فى نجد) واستقرت فى تلك البقعة وعرفوا باسم العتوب(٨) .

اما عن مؤسس هذا الحصن أو تلك المنطقة التى بنى فيها الحصن فقد وردت بعض روايات تاريخية تنسب هذا البناء الى الشيخ براك (أحد زعماء بنى خالد) ، وقد أورد هــذه الرواية المؤرخ القناعى فقال : « تاريخ بناء الــكويت لا نعلمه بوجه الحقيقة ، والأحرى أنه بنى فى أواخر القرن الحادى عشر من الهجرة ، أما البانى فهو براك أمير بنى خالد »(٩) . لكن المؤرخ احمد أبو حاكمه حلل هــذه الرواية قائلا :

---

(٧) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٠٦ ، القناعى ، يوسـف ، صفحات فى تاريخ الكويت ، ص ٥ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ص ٧٢ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ص ٢٧٩ ، دوكاس ، مارتا ، أزمة الكويت ، ص ٦ ، أبو حاكمه ، احمد ، تاريخ الكويت، المجلد الاول ـ القسم الاول ، ص٩٥ـ١٠٠. Dickson, H.Kuwait and Her Neighbours P.26-27.

(٨) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٧٩ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ٧٣ ، دوكاس ، مارتا ، أزمة الكويت ، ص ٩ ، قطينة رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية » ، مجلة الوثيقة ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٩) انظر القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ٥ .

« لو سلمنا برواية القناعى لوجب علينا تقديم تاريخ بناء الكويت حيث ان المؤرخ ابن بشر ذكر ان براك هــــذا حــــكم فى عـــــام ١٦٦٩ الى ١٦٨٢م »(١٠) . أما القناعى كما سبق ان أسلفنا فقد حدد هذا البناء بعام ١٦٨٧م (١١٠٠هـ) .

وأمام هذه الاختلافات حول تحديد ناريخ بنــاء الكويت لا نستطيع أن نتبين من الذى بنى هذا الحصن وحكم تلك المنطقة ؛ ولكن يبدو أنها عاشت فترة من الزمن تحت حكم بنى خالد (حكام الأحساء) .

وعن تسميتها بالكويت(*) : نقول ان « الكويت » تصغير «الكوت» وهو البيت الذى بنى على هيئة قلعة تحيط به البيوت السكنية الصغيرة من كل جانب.وكانت واقعة غرب لماء ، ولم تتحدد نوعية هذا الماء ان كان بحراً أم بحيرة ؛ نهراً أو خليجاً . ومن المعروف أن قبــــائل العتوب التى سكنت تلك المنطقة ـ الكويت ـ كانوا فرعاً من قبيلة عنــــزه التى تعتبر من أكبر القبائل العربية فى شبه الجـــزيرة ، وينتسبون الى فرع جميلة التى كان لها نفوذ كبير فى نجد.ومن العتوب خرجت ثلاث أسر : آل الصباح ، وآل خليفة ، والجلاهمة . وقد خرجوا جميعا من موطنهم الأصلى واتجهوا نحو الخليج . وذكر المؤرخ القناعى فى كتابه « صفحات من تاريخ الكويت » أن تلك الأسر الثـــلاث استوطنت بادىء الأمر فى منطقة الزبارة بقطر ، لكن لخــلاف نشب بينهم وبين حكام قطر اضطروا للرحيل على هيئة جماعات انتشرت على ساحل الخليج العربى ، حتى استقر بها المقام فى نهاية الأمر بمنطقة الكويت ، وهناك أخذوا فى تشييد مساكنهم من الأحجار ، وهادنوا بنى خالد حكام تلك المنطقة الذين باركوا قدومهم الى الكويت، مما جعل العتوب يدخلون فى طاعة بنى خالد(١١) .

---

(١٠) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ الكويت ، جـ١ ، القسم الأول ، ص ١٠٠ .

(*) الكويت : تصغير لكلمة الكوت وهى معروفة فى شـــبه الجـــزيرة العربية والخليج العربى .

(١١) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٨٨ ، أبو حاكمه ، تاريخ الكويت، جـ١ ، القسم الأول ، ص ٩٥ ـ ٩٦ ، لوريمر ، ج٠ج٠ ، دليل الخليج ، جـ٣ ، ص =

وهكذا استقرت تلك الأسر الثـــلاث فى الكويت واشـــتركت فى المسئولية، فتزعم آل الصباح السياسة وآل خليفة الاقتصاد والجلاهمة شئون البحر . واخذوا فى تنظيم شئون اقامتهم فى تلك المنطقة خاصة بعد ان عرفوا ما لها من اهمية جغرافية بسبب وقوعها على الطـريق التجارى للقوافل المارة بين بلاد وادى الباطن وبلاد ما بين النهـرين ؛ فسـعوا لتطويرها من قرية صغيرة تأوى بعض صــائدى الأســماك الى مشيخة صغيرة . وقد أعجب العتوب بأسلوب حياة بنى خالد فأخذوا يحاكونهم، فتزايدت أعدادهم فى المنطقة ؛ وظلوا يطورونها رغم رضوخهم لسيطرة بنى خالد (حكام الأحساء) فى ذلك الوقت وولائهم وطاعتهم لهم . وفى نهاية العقد الرابع وبداية العقد الخامس من القرن الثامن عشر الميلادى نشب خلاف بين أفراد أسرة بنى خالد حول من يتولى رئاسة المنطقة ، وذلك بعد وفاة سعدون عام ١١٣٥ هـ (١٧٢٢م) وتولى شــقيقه (على) السلطة من بعده ، فدب الصراع بينه وبين ابنى سعدون (دجين ومنيع) مما جعل نفوذهم يأخذ فى الانحسار بسبب هذا التفكك الذى أصــابهم وأضعف وضعهم السياسى . وقابل هــذا الانحسار فى سلطة بنى خالد امتداد نفوذ آل الصباح بالكويت حيث أخذت المنطقة فى النمو والتقدم الحضارى والتجارى ، وازدادت ثروتها وتمكن حكامها من تثبيت موقفهم السياسى فى تلك المنطقة بشتى السبل . هذا الى أنهم سعوا الى كسب رضاء ومحبة القبائل المجاورة ، عن طريق المصاهرة والقدوة الحسنة التى اتصف بها أفراد تلك الأسرة ، والتى تمثلت فى سماحة الأخلاق والعدل فى الحكم مما ادى الى استتباب الأمن والاستقرار فى المنطقة(١٢) .

=

٣ ـ ١٥ . القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ص ٩ ، الرشيد ، عبدالعزيز، تاريخ الكويت ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ، ابو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة .
Travels in Arabian and other countries in the East, Vol.11,P.103.

(١٢) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٠٧ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ٧٧ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص٢٩١. اكيلى ، ج.ب. ، بريطانيا والخليج ، ج١ ، ص ٥٨
Dickson, H., Kuwait and Her Neighbour, P.27, Neibuhr. C., Travels in Arabian and Other Countries in the East, Vol.11,P.1.

(مجلة المؤرخ العربى)

وتجدر الاشارة الى أن نمو وتطور الكويت صاحب وجود الهولنديين فى جزيرة خرج ، حيث ذكر لوريمر أن علاقات ودية نشأت بين البارون كنبها وزن - المسئول عن تلك المستعمرة - وشيخ الكويت ٠ وهذا يدل على أن العتوب أخذوا فى الاستقلال التدريجى بعد انتعاش وتطور المنطقة فى ظل النشاط التجارى ٠ وصاحب هذا التقدم الكويتى فوضى واضطراب فى الدول والقوى المسيطرة فى تلك المنطقة ٠ ذلك أن الدولة العثمانية - الحاكمة للعالم الاسلامى آنئذ - كانت فى حروب دائمة مع حكام دولة الفرس الذين كانوا يمثلون القـوة الثانية فى المنطقة ٠ هـــذا فضلا عن الدعوة السلفية التى أخذت تظهر فى نجد ٠

أما اقليم نجد نفسه فقد كان منقسماالى امارات صغيرة دائمةالتناحر ، فكانت تلك الظروف مجتمعة ســبباً فى فتح المجال أمام حكام الكويت للتفوق والظهور وتاسيس امارة مستقلة(١٣) ٠

وقد اختلفت اقوال المؤرخين حول تحديد أول من حكم الكويت ، فذكر المستر واردن أن أول من تولى زعامة العتوب هو سليمان بن أحمد ، لكن هذا لم يرد له ذكر فى الكتب المحلية ٠ وربما كان ذلك الشيخ الذى لم يذكره سوى واحد من حكام بنى خالد ٠ وقد ذكر النبهانى فى كتابه « التحفة النبهانية » أن العتوب استوطنوا الكويت بعد سماح بنى خالد لهم ، واستمرت سلطة بنى خالد على تلك البلاد حتى وفاة سليمان بن محمد سنة ١١٦٦هـ (١٧٥٢م)(١٤) ٠ ويبدو أن الزعيم الذى ذكره واردن هو زعيم بنى خالد (سليمان بن محمد) الذى حكم حتى عام ١١٦٦ هـ (١٧٥٢م) فورد اسم أحمد بدلا من محمد ٠

أما أول من حكم الكويت من آل الصباح فقد أورد الرشيد فى كتابه

---

(١٣) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ الكويت ، جـ١ ، القسم الأول ، ص ٩٥ - ٩٦ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، دوكاس ، مارثا ، ازمة الكويت ، ص ١٠ ٠

(١٤) النبهانى ، محمد ، التحفة النبهانية ، ص ١٢٢ - ١٢٩ ، الصالح ، نورية علاقات الكويت ، ص ١٨ ٠

(تاريخ الكويت) أنه الشيخ صباح الذى أختير من قبل العتوب ووافق على تولى الزعامة شريطة تطبيق الحكم على الجميع ،كبيرهم وصغيرهم ، عاليهم وسافلهم ، غنيهم وفقيرهم . وكان هذا الزعيم غير معروف قبل انتخابه ، ولم يرد له ذكر فى الكتب التى تكلمت عن تاريخ هذه المنطقة الا بعد اختياره للزعامة التى تقلدها حسب الأعراف القبلية السائدة عندئذ . ثم بدأ فى تثبيت سلطته على البلاد ، والاستقلال بها استقلالا تاما ، وتطويرها حتى غدت محطة تجارية هامة يقصدها التجار والقوافل المحملة بالبضائع الواردة من الهند الى حلب مرورا بالكويت . هذا اضافة الى كونها ميناء ترسو فيه السفن التجارية الكبيرة التى تحمل البضائع لتصريفها فى المنطقة .

وقد بذل حاكم الكويت (صباح) جهداً كبيراً فى عمارتها وحمايتها، فقام ببناء سور حول المدينة لرد هجمات الأعداء عنها ، لأن الكويت كانت تحيط بها فى ذلك الوقت قوى سياسية كبيرة ، خاصة بعد تزايد النفوذ السعودى الذى استطاع أن يضم نجد برمتها تحت لوائه . وقد كون الامام سعود بن عبد العزيز جيشاً نجدياً ذا قوة عسكرية . هذا من جهة نجد ، أما من جهة الشمال فكان هناك شيوخ المنتفك الذين كانوا يمثلون خطراً حقيقيا على تلك البلاد(١٥) .

والواقع ان سنوات حكم الشيخ صباح للبلاد كانت بمثابة السنوات الأساسية لحكم آل الصباح كما كانت الركيزة الأساسية فى تطوير هذه البلاد . واستمرت سنوات البناء حتى وفاته فخلفه ولده عبد الله . وثمة اختلاف حول السنة التى توفى فيها صباح وتولى عبد الله زمام القيادة فى الكويت ؛ فقد ذكر الرشيد أن صباحاً توفى سنة ١١٩٠هـ (١٧٧٤م) ، الا أن البعض عارضه فى ذلك . من ذلك أن لوريمر ذكر اعتماداً على سجلات شركة الهند الشرقية أن عبد الله بن الصباح أختير حاكماً على

---

(١٥) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، جـ٢ ، ص ٨٧ ، العقاد ، صلاح التيارات السياسية ، ص ٥٥ ، ابو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ٨٣ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٩٢ .

الكويت سنة ١١٧٦هـ (١٧٦٢م) . أما المؤرخ القناعى فاكتفى بقوله ان حكم عبد الله بن الصباح دام ستين عاما . وحـــدد المؤرخ الرشـــيد وفاة عبد الله بن الصباح بعام ١٢٢٩هـ (١٨١٣م) . واذا اخذنا بهذين الرايين وجدنا ان عبدالله بن صباح تولى الحكم عام ١١٥٦هـ (١٧٤٣م) ، وعندئذ نجد تضاربا حول تحديد تاريخ تولى عبدالله لزمام الحكم بعد وفاة والده الذى ذكر ابن الرشيد انه توفى سنة ١١٩٠هـ (١٧٧٤م) . وهذا يعنى ان عبدالله تولى الحكم فى السنة التى توفى فيها والده وبقى فى الحكم حتى وفاته سنة ١٢٢٩هـ (١٨١٣م) حسبما ذكره الرشـــيد فى كتابه « تاريخ الكويت » .

ومهما يكن من أمر ، فان عبد الله بن الصباح الذى حكم الكويت بعد وفاة والده كان يتمتع بصفات جعلته جديراً بتلك المكانة القيادية اذ كان شجاعاً ، عادلا ، عاقلا ، كريماً ، حليما ، انجز فى عهده اصلاحات كثيرة فى البلاد حتى استطاع فى سنوات قليلة أن يمتلك أسطولا بحريا كبيراً ساعده فى ترسيخ اركان ملكه(١٦) .



موقف الكويت من احتلال فارس للبصرة :

وفى الوقت الذى سـعت الـكويت الى الاســتقلال واثبات دورها السياسى عن طريق توثيق صلاتها مع جاراتها ؛ كانت العراق منقسمة الى ثلاث ولايات عثمـــانية هى ولاية بغـــداد ، ومتصرفية البصرة ، وولاية الموصل ، يحكم كل واحدة وال من قبل الدولة العثمانية . وكانت تلك الولايات غير مترابطة سياسيا مما جعل بعض الدول المجاورة تطمع فى السيطرة عليها .

ففى عام ١١٩٠هـ(١٧٧٦م) هاجمت دولة فارس متصرفية البصرة واحتلتها . وكان لهذا الاحتلال أثره الفعال فى ازدهار الحياة التجارية فى الكويت ، كما كانت له آثاره الايجابية الاخرى على تلك المنطقة .

---

(١٦) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١١٦ .

وقبل أن نستعرض هذه النتائج لابد لنا من القاء نظرة سريعة على هذا الحدث التاريخى الهام :

كانت البصرة قبل الغزو الفارسي تعانى من انتشـــار وباء الكوليرا الذى قضى على كثير من سكانها ٠ وما أن انقشع هذا الوباء حتى وردت أنباء عن استعداد الفــرس لمهاجمتها ، مما جعــل المســئولين يعقدون اجتماعات سرية تكاد تكون يومية ،وذلك بين سليمان آغا متصرف البصرة وبعض وجهاء البلاد فى حضور المعتمد البريطانى(١٧) ٠

وفى سنة ١١٨٩هـ (١٥ يناير من عام ١٧٧٥م) وردت أنبــاء من بوشهر مفادها أن جيشا قويا بقيادة صادق خان شقيق كريم خان (حاكم فارس) قوامه خمسين الف جندياً يســتعد لمهاجمة البصرة ، فاثار ذلك اضطرابات وفوضى بين الأهالى ٠ وكان من أســباب أطماع الفرس فى البصرة ازدهار مينائها بعد أن نقل البريطانيون نشاطهم التجارى اليها من ميناء بوشهر ٠ يضاف الى ذلك سـبب مذهبى يتمثل فى التعاطف مع أهل البصرة من الشيعة ، وخاصة بعد أن فرض والى بغداد على حجاج الفرس رسوما باهظة عند زيارتهم كربلاء(١٨) ٠

وكان أن زحف الجيش الفارسى فى يوم ١٦ مارس من نفس العـام حتى وصل الى بلدة الصوان فحاصرها قرابة ثلاثة أشــهر ، استسلمت المدينة بعدها ٠ وقد تحالف مع هذا الجيش العرب الموجودون فى تلك المنطقة ، كذلك انحاز اليهم عـــرب بنو كعب وأمدوهم بمـا استطاعوا من قـــوة ٠

أما الذين تعاونوا مع الدولة العثمانية فى مواجهة ذلك العـــدوان

---

(١٧) لوريمر ، ج٠ج٠ ، دليل الخليج ، ج٣ ، ص ١٥٠٤ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ، ص ١٢٢ ٠

(10)L,P&S/20/C.189, Hand book Persian Gulf, June 1919,P.52.

(١٨) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ، ص ١٢٢ ٠

فهم قبائل المنتفك الذين عملوا على ايصال المؤنة الى داخل مدينة البصرة ، والأسطول العمانى الذى شارك فى محاولة فك هذا الحصار عن المدينة . يضاف الى ذلك المعونة التى قدمتها سفن بحرية بومبى ، وانضمام الوكلاء التجاريين وطرادات شركة الهند الشرقية(١٩) .

اما القوتان الأخرتان فى الخليج العربى - وهما (القواسم وآل الصباح) فلم يكن لهما نشاط ملحوظ فى هذه الاحداث . فالقواسم لم يكن لهم دور يذكر فى فك الحصار على الرغم من تفوقهم البحرى . وقد تبين أن تأخرهم فى عدم الاشتراك كان بسبب انشغالهم بالحروب المستمرة مع سلطان مسقط . وأما آل الصباح - العتوب - فقد اتخذ حاكمهم حيال هذه الأزمة جانب الحياد حتى لا يفقد صداقة أى طرف من الأطراف . وتمثل ذلك فى ارسال المساعدات لقائد الجيش الفارسى (صادق خان) اذ امده بمائتى رجل لمساعدته . ومن جهة أخرى فانه سمح للسفن العثمانية بالرسو فى ميناء الكويت لاصلاحها . وبهذا كسب حاكم الكويت رضاء الطرفين حتى يتضح الموقف(٢٠) .

وكان للاحتلال الفارسى للبصرة آثار بعيدة المدى فيما يتعلق بنمو الكويت وتطورها فى كافة النواحى ، خاصة الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ذلك أن موقف حكام الكويت (آل الصباح) حيال هذه الأزمة اتصف بالحكمة والتروى ، ففضلوا جانب الحياد حيال القوتين المتنازعتين مما ساعد فى نمو علاقة سياسية واقتصادية مع بريطانيا العظمى ، فنقلت الأخيرة مركز بريدها الصحراوى الذى كان موجودا فى الزبير الى الكويت ، ثم نقلت مركزها التجارى من البصرة الى الكويت بصورة مؤقتة(٢١) .

---

(١٩) ابو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ، ص ١٢٤ ، قطينه رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية » ، مجلة الوثيقة ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢٠) ابو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ١٢٦ ، كيلى ، ج.ب. ، بريطانيا والخليج الفارسى ، ص ٣٣ .

(٢١) كيلى ، ج.ب. ، بريطانيا والخليج الفارسى ، ص ٣٣ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ، ص ١٢٨ ، دوكاس ، ماوتا ، أزمة الكويت ، ص ١٠ .

وهذه الاجراءات التى اتخذتها بريطانيا كانت بمثابة بداية علاقة مباشرة بينها وبين حكام الكويت عن طريق وساطة مندوبى شركة الهند البريطانية التى حلت الكويت مشكلتها فى تصـــدير بضائعها الى أسواق الشرق الأوسط . وقد حاول الانجليز استمرار وقوف الكويت على الحياد حتى تستطيع شركة الهند الانجليزية أن تجد مخرجا لمواصــلة أعمالها التجارية .

وهكذا أدت العلاقات الكويتية ـ الانجليزية الى تطـور الاقتصـاد الكويتى،فازدادت قوة الكويت البحرية لحماية السفن المارة فى مياهها . وكانت هذه الزيادة مطلبا ضروريا بعد تزايد الصراع على منطقة الخليج التى أصبحت مطمعا للدول الأجنبية الاخـــرى ، فغدت كل واحدة منها ترغب فى تحقيق نفوذ لها فى المنطقة وعلى مياهها .

وأمام انتعاش الحياة الاقتصادية فى البلاد كان من الطبيعى أن تبرز أهمية الكويت السياسية ، فبدأ حكام الكويت يولون السياسة اهتماما بالغا، ونشات علاقات مباشرة مع الدول والامارات المجـــاورة للكويت مثـــل السعودية والبحرين وقطر ، ومن ثم واصل حكام الكويت سياستهم التى انتهجوها فى اطار السماحة والعدل فى الحكم ، مما جعل للكويت كيانا معروفاً ليس فقط فى منطقة الخليج بل على الصعيد الدولى(٢٢) .



تطور العلاقات الكويتية البريطانية وموقف الدولة العثمانية منها :

كان احتلال الفرس للبصرة نقطة تحول فى سياسة بريطانيا تجاه الكويت ، فقـــد أسلفنا أنهـا نقلت مقـر شركة الهنـــد الشرقية وبريدها الصحراوى من البصرة الى الكويت . وكان هذا بداية ظهور عـــلاقات كويتية بريطانية لأن بريطانيا وجدت فى الكويت الميناء الذى يصلح لرسو سفنها والأرض الآمنة لنشاطها التجارى . هذا بالاضافة الى أن العلاقات

---

(٢٢) لوريمر ، ج.ج. ، دليل الخليج ، ص ١٥٠٤ ، أبو حاكمه ، أحمد ، شرقى الجزيرة العربية ، ص ١٣٢ .

الودية مع حاكم الكويت أخذت تزداد بعدما بادر المستر مانيستى ممثل الوكالة البريطانية فى البصرة الى اخطار الشـــيخ عبدالله آل الصباح ـ حاكم الكويت ـ بما كان ينوى القيـــام به الوالى العثمانى فى بغداد (سليمان باشا) حيال الكويت . وكانت الكويت قد أجارت كلا من الشيخ توينى (شيخ قبائل المنتفك) ومصطفى آغا (متسلم البصرة) الذين هـربا اليها بعــدما حاول مصطفى آغا الاســـتقلال بالبصرة عن الدولة العثمانية ، مما جعل والى بغداد يعد جيشاً لتأديبه . وقد اشتبك هذا الجيش وهو فى طريقه الى البصرة بقبائل المنتفك والحق بها هــزيمة اضطر على أثرها شيخها للهرب الى الكويت . واما مصطفى آغا فكان عندما سمع بخبر هذا الجيش وعدته وعتاده،قد قرر الفرار الى الكويت لانه لا يستطيع مواجهته ، فطالبت الدولة العثمانية حاكم الكويت تسليم الفارين ، لكنه رفض واشار على مصطفى آغا والشيخ توينى بالفرار الى نجد بما معهما من أموال(٢٣) .

وبالاضافة الى اطراد نمو العلاقات الكويتية البريطانية التى كانت بمثابة مؤشر لاستقلال الكويت استقلالا تاما ، هناك عاملان هامان كانا بمثابة الدافع القوى نحو تحقيق هذا الاستقلال:اولهما سقوط حكم بنى خالد فى الاحساء عام ١٢٠٨هـ (١٧٩٣م) على أيدى السعوديين ، الأمر الذى له أثره فى انطلاق الكويت نحو مرحلة هامة من مراحل الاستقلال والتقدم. والعامل الآخر هو تولى الشيخ جابر الصباح مقاليد الحـكم فى البـلاد ١٢٢٩هـ (١٨١٣م) بعد وفاة شيخها السابق (عبدالله) . وقد عــرف جابر هذا بالكرم وحب الانفاق حتى سمى بجابر العيش ، واتصف عهده بتحسن العلاقات الكويتية العثمانية ، فرفع العلم العثمانى على السفن الكويتية . لكن هذا لا يعنى أن الكويت دخلت ضمن دائرة نفوذ الدولة العثمانية وانما كان أمراً صورياً فقط ، لأن الخلافة العثمانية كانت تمثل الزعامة الدينية للمسلمين وصار من واجب أى مسلم أن يرفع علمها بوصفها

---

(٢٣) ابو حاكمه ، أحمد ، تاريخ الكويت ، جـ١ ، القسم الاول ، ص ١٧٦ .
CF Brydges, Haford James. N.Account of the Transaction of his Majesty's Mission of Persia, p.p.1810-1.

مسئولة عن رعاية مصالح المسلمين(٢٤) ٠

وكان أن حرصت الدولة العثمانية على كسب ود أمير الكويت ، فلم تلزمه بدفع جزية الا خلال سنوات قليلة ٠ ويعـــود هذا الى أن الدولة العثمانية كانت فى أمس الحاجة الى مساعدات مشيخة الكويت التى تمتلك أسطولا بحريا كبيرا اعتمدت عليه الدولة العثمانية فى حماية شط العرب، كما كان للكويت قوة بحرية يمكنها أن تسهم فى حماية النفوذ العثمانى فى المنطقة ، الأمر الذى حدا بالدولة العثمانية أن تعفى أمير الكـــويت من الجزية ٠ ولم تكتف بذلك بل دفعت له معونة سنوية مقابل ما يقدمه لها من خدمات دفاعية(٢٥) ٠

والواقع ان الدولة العثمانية كانت تعتمد على الكويت عسكريا لصد بعض هجمات القبائل العربية على متصرفية البصرة ٠ ففى عام ١٢٢٩هـ (١٨١٣م) أغارت مجموعة من قبـــائل بنى كعب على مدينة البصرة ، فاستنجدت الأخيرة بالكويت التى أمدتها عسكريا بعدد من السفن الحربية المحملة بالسلاح والرجال ، مما قوى جانب الدولة العثمانية وجعلها تضرب حصارا حول البصرة حتى استطاعت أن تقضى على هذا التمرد وعادت البصرة مرة ثانية تحت الحكم العثمانى(٢٦) ٠

وجدير بالذكر أن الكويت رفضت رفع العلم البريطاني رغم تهديدات بريطانيا لها بعدم التعاون معها ، الأمر الذى جعل الدولة العثمانية تصدر فرمانا يمنح الكويت مائة وخمسين كارة من التمر سنويا ، مما يدل على حرص الدولة العثمانية على كسب صداقة وود حكام الكويت الذين تحملوا عبء حماية شط العرب من أى معتد خارجى ٠ وبذلك استقلت الكويت

---

(٢٤) القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ١٠ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٤٠٦ ٠

(٢٥) القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ١٤ – ١٥ ، قاسم، جمال ، الخليج العربى ، ص ٤٠٧ ، الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، جـ١ ، ص ٩٤ ، لوريمر ، ج٠ج٠ ، دليل الخليج العربى ، جـ٣ ، ص ١٥١٣ ٠

(٢٦) قاسم ، جمال ، دراسات لتاريخ الامارات العربية ، ص ١٤٧ ٠

استقلالا ذاتيا على الرغم من أن السفن الكويتية كانت ترفع العلم العثمانى(٢٧) .

وقد استمرت العلاقات فى تحسن مستمر بين الكويت والدولة العثمانية حتى عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) حين تولى مقاليد الحكم الشيخ مبارك آل صباح الذى وصل الى الحكم بعد أن تخلص من أخويه (محمد وجراح) ، ثم أعلن نفسه حاكما على البلاد . وقد ذكر الرشيد أن هناك بعض الأسباب دفعت مبارك الى فعلته هذه :

أولا : ان مباركا كان بطبيعته يميل الى اظهار القوة والباس ويعشق الطعن والنزال على خلاف أخويه (محمد وجراح) اللذين كانا لا يتفقان معه فى ذلك .

ثانيا : حاول اخواه محمد وجراح ابعاده وتقريب يوسف آل ابراهيم(٢٨) وتسليم مقاليد الأمور اليه حتى اوشك يوسف هذا أن يكون الحاكم ، وكان مباركا لا يمت لهما بصلة .

ثالثا : قام محمد وجراح بتضييق الخناق على مبارك خاصة من الناحية المالية .

وتحت تاثير العوامل السابقة وما صاحبها من ظروف قرر مبارك التخلص من أخويه ، ثم أعلن نفسه حاكماً على البلاد ، ففر أبناء محمد وجراح الى البصرة برفقة يوسف آل ابراهيم الذى سعى لتصعيد القضية

---

(٢٧) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، جـ١ ، ص ٩٨ ، القناعى ، يوسف، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ١٤٠ ، العقاد صلاح، التيارات السياسية ، ص١٨٠. Tome,/XVII, 1903, Cinquiem Periode Seedso Whighan The Persian Problem, P.P.102-103, Ravire, La question de galfe Persique: CF le Reglement des questions des mascale et de Kuweit Revue des Decx, Mandes, P.P.370-371 (1.0)&S/C239,Affairs of Kuwait.

(٢٨) كان يوسف آل ابراهيم هذا أحد الأثرياء وملاك الاراضى فى ولاية البصرة ، وتربطه صلة قرابة بأبناء محمد وجراح من ناحية الام . أنظر : الصالح ، نورية . علاقات الكويت السياسية ، ص ٦٦ .

لدى والى البصرة حمــدى باشا فسمح له بالالتجاء والحماية ، هو ومن معـــه(٢٩) ٠

واستمر يوسف فى محاولاته حتى أستطاع اقناع حمدى باشا بتأليب السلطان العثمانى على الشيخ مبارك ، لكن الأخير لم يستسلم للأمر فقام بتوضيح الحقائق لوالى بغداد وبين له ما قام به والى البصرة (حمدى باشا)٠وكان أن اقتنع والى بغداد، ووقف فى صفه،وأخذ فى تحذير الدولة العثمانية من التدخل فى شئون الكويت الداخلية ٠ وصدر فى عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) أمر سلطانى بتعيين الشيخ مبارك قائمقام للكويت ٠ ومنـذ ذلك التاريخ بدأ اسمه يرد فى المكاتبات الرسمية التى تصدر من البصرة ، ومنح راتباً قدره (١٥٠) كارة من التمور فى السنة ، ثم تحول بعد ذلك الى راتب سنوى يقدر بـــ (٣٠٠) جنيه ٠ وهذا هو الخيط الذى تحاول حكومة العراق أن تمسك به لتدعى أن الكويت تابعة لولاية البصرة دون أى سند تاريخى حقيقى(٣٠) ٠

لقد فات هؤلاء الطامعين أن البصرة عندئذ لم تكن ولاية عـــراقية مستقلة وانما كانت تابعـــة للدولة العثمانية ويحـــكمها والى عثمانى ، فالتبعية هنا ان كان لها وجود تبعية للدولة العثمانية وليست لدولة غيرها٠

وقد رضى الشيخ مبارك بهذه التبعية غير الرســـمية أمام الظروف الداخلية التى كانت تمر بها الكويت ٠ يضاف الى ذلك خوفه من ضايع ممتلكاته وممتلكات أسرته وحرصه على المحافظة على جزيرة الفاو ، فوجد أنه من الأفضل الموافقة على طلب الدولة العثمانية بان يكون قائمقام ، لكنه لم يرض بأن يكون تابعا لوالى البصرة العثمانى الذى سعى لاخضاعه

---

(٢٩) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٥٧ ، ابراهيم ، عبد العـــزيز ، السلام البريطانى ، ص ٢٥ ـ ٢٦ ، العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٨٢، الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٢٨ ـ ١٣٩ ، الصالح ، نوريه ، علاقات الكويت السياسية ، ص ٦٦ ٠

(٣٠) لوريمر ، ج٠ج٠ ، دليل الخليج ، ج٢ ، ص ١٥٢٧ ـ ١٥٢٨ ، قاسم ، جمال، الخليج العربى ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ ٠

لسلطانه . وحدا هذا بالشيخ مبارك للعمل على كسب ود الدولة العثمانية وضمان وقوفها الى جانبه ضد والى البصره ويوسف آل ابراهيم الذى كان يطمع فى تولى حكم الكويت بمساعدة الوالى العثمانى (حمدى باشا) هذا الى ان الشيخ مبارك أراد أن يضفى على حكمه الصبغة الدينية بذلك الرباط الواهى الذى ربطه بالخلافة الاسلامية(٣١) .

على أن تلك الأحداث لم تلبث أنغيرت نظرة الدولة العثمانيةللكويت، بحيث تحولت الى اطماع سياسية خاصة بعد أن لمست أهميتها الجغرافية وقوتها البحرية . وكان ان بدات تعمل تبسط سلطانها عليها ، مما جعل الشيخ مبارك يفكر فى طريقة أخرى لانقاذ بلاده من اطماع العثمانيين ، فقرر عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) أن يلجا الى قوة أخرى تحميه من المطامع العثمانية وطلب حماية الحكومة البريطانية التى كانت تسيطر عندئذ على معظم الممرات المائية فى الخليج. وكانت بريطانيا آنذاك قد ربطت غالبية مشايخ الخليج باتفاقيات حماية ماعدا الكويت وقطر(٣٢) .

وفى تلك المرحلة أخذت مخاوف بريطانيا تزداد لظهـــور المطامع التوسعية الروسية والألمانية ، فحاولت روسيا مع الباب العالى الحصول على حق تزويد سفنها بالفحم من ميناء الكويت ، فى حين سعت المانيا للسماح لها باقامة محطة بالكويت لنهاية سكة حديد بغداد . وقد فكرت حكومة الهند البريطانية فى وسيلة تستطيع أن توقف بها هذه الأطماع فاصـــدرت تعليماتها الى المقيم البريطانى فى الخليج الكولونيل ميـــد (Mead) بالتوجه الى الكويت وكسب صـــداقة أميرها ومنحه مبلغ (١٥،٠٠٠) جنيه استرلينى كمكافاة له . وكان ان طلب الشيخ مبارك من ميـد (Mead) وعدا بحمايته وحماية بلاده مقابل التوقيع على اتفاقية حماية . وبعد مفاوضات دامت مدة طويلة تم الاتفاق بين الطرفين على توقيع معاهدة الحماية التى من بنودها :

---

(٣١) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٥٦١ ، النجار ، مصطفى ، التاريخ السياسى لعلاقات العراق الدولية ، ص ٢٢٦ ـ ٢٣٦ .

(٣٢) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٨٥ ، بوشى بريتون ، كوبر ، بريطانيا والخليج الفارسى ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(أ) ألزام شيخ الكويت بعدم تأجير اراضيه الى أية دولة اخرى دون موافقة بريطانيا ٠

(ب) يتعهد الشيخ مبارك وذريته بعدم استقبال وكلاء أو ممثلين لدولة أجنبية دون موافقة الحكومة البريطانية ٠

وقد وقع الطرفان هذه الاتفاقية عام ١٣١٧هـ (يناير ١٨٩٩م) ٠ وعلى الرغم من أنها وقعت فى سرية تامة الا أن الاخبار تسربت الى الدولة العثمانية التى اعلنت رفضها التام لها ، وبدأت تحشد قواتها فى ولاية البصرة لضرب الكويت ٠ وشجع الدولة العثمانية على ذلك أن واليها (حمدى باشا) كان يسعى الى ضمها لممتلكاته ٠ وما أن علمت بريطانيا بذلك حتى سارعت بارسال سرب بحرى بريطانى لمياه الكويت ، وكلفت سفيرها فى الآستانة « آوكوتور » بابلاغ الباب العالى عن قلق بريطانيا ازاء هذا التصرف الذى قام به والى البصرة(٣٣) ٠

وفى تلك الاثناء علم « راسلو » Wratslaw القنصل البريطانى بأن المانيا جادة فى مساعيها لمد الخط الحديدى ، كما علم بأن الفريق الالمانى فى طريقه الى الكويت ٠ وكانوا يرون أن نجاح المشروع يعتمد على عاملين هامين :

أولا : ان تكون نهاية الخط فى الكويت وليست فى البصرة ٠

ثانيا : أن تقوم الدولة العثمانية بدعم المشروع ماديا ٠

وقد أوصى الفريق الالمانى الشركة بمناقشة المشروع مع السلطان العثمانى وليس مع الشيخ مبارك ، مما أغضب الحكومة البريطانية فى الهند ، فشعرت بأن أى اتفاق مع السلطان مباشرة يضعف موقفها فى المنطقة ، لذا رأت أن تقف فى وجه السلطات العثمانية لعدم اكمال هذا

---

(٣٣) العابد ، فؤاد ، سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ، جـ٢ ، ص ٩٢ ـ ٩٤. ابراهيم ، عبد العزيز ، سياسة الأمن لحكومة الهند ، ص ٨٨ ، الصالح ، نوريه ، علاقات الكويت السياسية بشرق الجزيرة ، ص ٦٨ ٠

الخط ، واخذت تضغط على الشيخ مبارك من أجل أن يمنع أية جهة أجنبية من استخدام أراضيه(٣٤) ٠

وكان ان رأت بريطانيا ان تعلق الآمال على المعاهدة التى وقعت مع شيخ الكويت والتى بموجبها تصبح الكويت دولة ذات سيادة تحت الحماية البريطانية ٠ لكن هذا أغضب الدولة العثمانية التى سعت لجعل الكويت جزء من امبراطوريتها ، ولم نكن ترى أى حق لشيخ الكويت فى ابرام أية معاهدة دون الرجوع الى الدولة العثمانية واخذ موافقتها مسبقا. غير ان سفير بريطانيا فى الآستانة (السير نيقولا أوكونور) الذى أزاح الستار عن هذه المعاهدة اكد أن بريطانيا التى تربطها بالكويت روابط ودية لا تنوى من خلال هذه المعاهدة احتلال الكويت لكنها لن تقف مكتوفة الأيدى أمام أى تدخل أجنبى يمس مصالحها هناك ٠ وتاكيدا لذلك قام اللورد كيرزن (Cuirzon) حاكم الهند بزيارة للكويت عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٣م) واستقبل استقبالا حافلا ، وتباحث مع أمير الكويت حول مشروع سكة حديد بغداد ، وأسفرت محادثاتهما عن اتفاق الطرفين على رفض هذا المشروع(٣٥) ٠

وقد رأى الشيخ مبارك فاعلية الحماية البريطانية لأراضيه عندما تعرضت الكويت لمواجهة عسكرية من دولة آل رشيد الحاكمة لنجد فى ذلك الوقت ٠ وفى هذه المواجهة منيت الكويت بهزيمة أتاحت للدولة العثمانية فرصة مناسبة لمعاودة الكرة مرة ثانية على الكويت ، فارسلت بارجة لتنفيذ هذا الغرض ٠ غير انها تراجعت عن ذلك بعد ظهور الأسطول البريطانى فى مياه الخليج لمنع أى اعتداء على الكويت ٠ ونتيجة لهذا

---

(٣٤) سعيد ، أمين ، الخليج العربى ، ص ٨٩ ، الصالح ، نوريه ، علاقات الكويت ، ص ٧٣ ، نوار ، عبد العزيز ، تاريخ العرب المعاصر ، ص ٢٤٠ ، الشناوى، عبد العزيز ، الدولة العثمانية دولة اسلامية ، ج٢ ، ص ١٤١٢ ٠

Abu-Hakima, A.Modern History of Kuwait,p.118.

(٣٥) Aitohison, C., Collection of Treaties Vol.XI,P.P.265-266.

Hurewitz, J., Diplomacy in the near ..., Vol. II,p.4,Busch, B., Britain and the Persian Gulf ...,p.p.225-226.

الموقف وقع أمير الكويت معاهدة سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) بعدم التنازل عن أى جزء من اراضيه لأية جهة كانت ، وبقيت هـــذه الاتفاقية سرية كسابقتها التى وقعت عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م)(٣٦) ٠

وفى الوقت الذى ازدادت مطامع بريطانيـا فى الخليج انشـــغلت الدولة العثمانية عن هذه المنطقة بحروب البلقان(*) وطرابلس(*)٠وكان القلق يساورها من انشاء الخط الحديدى الألمانىالذى يستهدف الوصول الى الكاظمة فى الكويت٠ولم يكن باستطاعتها الوقوف بمفردها فى وجه انشاء هذا الخط بعد أن كسبت المانيا موافقة فرنسا وروسيا على الاستمرار فى هذا المشروع ٠ ولذا أخذت تولى هذه القضية كل اهتمامها حتى تستطيع الوقوف فى وجه هذا المشروع وابعـــاده عن الكويت لتكون نهايته ميناء البصرة(٣٧) ٠

وبعد أن يئست بريطانيا من عرقلة مشروع هذا الخط أخذت تسعى الى عقد اتفاق مع الدولة العثمانية لوضع حل لمشاكلها،واهمها منافشةوضع كل من الكويت والبحرين اللتين تعتبران مستقلتين عن الدولةالعثمانية ، لتمتعهما بالحمـــاية البريطانية ٠ ودارت مباحثات طويلة حـــول هـــذا الموضوع حتى توصل الطرفان الى توقيع الاتفاقية البريطانية - العثمانية عام ١٣٣٢هـ (٢٩ يوليو ١٩١٣م) والتى من أهم بنودها البنـــد الذى يتناول وضع الكويت وقطر والبحرين ، فضلا عن وضع الملاحة فى الخليج العربى ومسألة شط العرب ٠ وقد حرصـــت بريطانيا على توقيع هـــذه

---

(٣٦) العقاد صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ٠

(*) حروب البلقان هى التى دارت بين دول البلقان والدولة العثمانية واستمرت من عام ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧م) حتى عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) وانتهت بهزيمة الدولة ٠ أنظر: رونوفن ، بيير ، تاريخ القرن العشرين ، ص ٢٧ - ٢٨ ٠

(*) حرب طرابلس هى التى دارت بين ايطاليا والدولة العثمانية حول طرابلس - ليبيا ، عندما رأت ايطاليا احتلالها فى عام ١٣١٩هـ (١٩١١م) ٠ انظر : الدسوقى ، كمال ، الدولة العثمانية ، ص ٣٢٦ ٠

(٣٧) العابد ، فؤاد ، سياسة بريطانيا ، جـ٣ ، ص ١٩٣ ، نوار ، عبد العزيز ، المصالح البريطانية ، ص ٢١٩ ، عمر ، عبد العزيز ، تاريخ المشرق العربى ، ص ٤٠١ ٠

الاتفاقية لترسيخ نفوذها فى منطقة الخليج العربى(٣٨) ٠

وكان الشك يساور بريطانيا فى أن بحـــرا من النفط يسبح تحت صحراء الخليج العربى ، فأحكمت قبضتها على تلك المنطقة ٠ أما وضع الكويت فى ظل الاتفاقية المشار اليها فقد قبلت الدولة العثمانية بعـــدم التدخل فى شئونها الداخلية ، كما قبلت ان يكون الحكم وراثيا فى آل الصباح ٠ كذلك أعلنت عدم نيتها فى احتلال أى جزء من تلك البلاد ، وأوكلت لأميرها مهمة تعيين وكلاء يرعون مصالح الرعايا الكويتيين فى الولايات العثمانية ، واعترفت بأن الكويت مشيخة مستقلة لها سيادتها مع رفع العلم العثمانى مضافا اليه كلمة (الكويت)٠ كذلك تعهدت باحترام أملاك امير الـكويت فى البصرة ، ومنح الـكويت جـزء من الضرائب ٠ أضف الى ذلك موافقة الدولة العثمانية على الامتيازات البريطانية فى الكويت ٠ ومن الناحية الأخرى تعهدت بريطانيا بعدم احتلال الكويت مادامت الاتفاقية سارية المفعول(٣٩) ٠

ثم ان هذه الاتفاقية حددت حدود الكويت التى تبدأ من الساحل عند مدخل خور الزبير فى الشمال الغربى وتمر مباشرة الى الجنوب من ام قصر،وصفوان، وجبل سنام ـ تاركة لولاية البصرة هذه الأماكن وابارها ـ حتى اذا وصلت لحفر الباطن تبعته نحو الجنوب الغربى فتتركه جانب الكويت ٠ وفى تلك المنطقة يتجه الخط الى الجنوب الشرقى ممتدا الى آبار الصفاة والقرع وانابه ، والوريه ، والأنطع ، ويصل البحر بالقرب من فيفا ، أى أنها تمثل دائرة مركزها الكويت ، وتمتد الى خور الزبير فى أقصى شمالها ، والقـــرين فى أقصى جنوبها ٠ ويدخل ضـــمن الخط الأحمر كل من جزر وربه وبوبيان ومشاجات وفيلـكه وعواد الكبار وقار والمقطع وأم المرادم ، فضلا عن كل الجزر الصـغيرة الواقعة داخل الخط

---

(٣٨) الشملان ، سيف ، من تاريخ الكويت ، ص ٢١٨ ، ابراهيم ، عبد العزيز ، لسلام البريطانى فى الخليج ، ص ١٤٤ ، العابد ، فؤاد ، سياسة بريطانيا ، جـ٢ ٠

(٣٩) المنصور ، الخترش ، تاريخ العلاقات السياسية ، ص ٨٣ ، العقـــاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ٠

الأحمر(٤٠) ٠

وتعد هذه الاتفاقية التى وقعت عليها الدولة العثمانية دليلا واضحا على أن الكويت غدت، دولة مستقلة عن اطار الدولة العثمانية،وأن حدودها قد حددت تماما فى هذه الاتفاقية ، وعلى جميع الدول المحيطة احترامها بعد الاعتراف بها ٠

وعند نهاية الحرب العالمية الأولى اعتبرت بريطانيا الكويت منطقة خاضعة لبنود معاهدة سيفر التى بمقتضاها تخلت الدولة العثمانية عقب هزيمتها فى الحرب العالميـــة الأولى عن جميع ممتلكاتها الواقعة خارج نطاق تركيا الأوربية ، مما مهد لظهور دولة العراق فى شكل مملكة جمعت بين ولايات البصرة وبغداد والموصل ٠

وما أن حل عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م) حتى اعترفت بريطانيا بالحدود التى وضعت بين الكويت ومملكة العراق ، اذ اعترف المنـــدوب السامى البريطانى على بغداد بأحقية الكويت بالمطالبة بحدودها التى نصت عليها اتفاقية ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) ٠ يضاف الى ذلك ان نورى الســـعيد ـ رئيس وزراء العراق آنئذ ـ وافق عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) على هذه الحدود التى تمتد من تقاطع وادى العوجا بالباطن فى اتجاه شمال خط الباطن الى نقطة جنوبى خط عرض صفوان تماما ، ومنها شرقا تمر بجنـوب آبار صفوان وجبل سنام وأم قصر الى العراق ٠ وهكذا حتى مفترق خور زبير وخور عبدالله ٠ وتكون جـــــزر وربه وبوبيان ومسكان وفيلكة وعوهة وكبر وقاروم وام المرادم من نصيب الكويت(٤١) ٠



وقد بقيت هذه الاتفاقية سرية ، اذ حرصـت حـكومة العراق على اخفائها والادعاء بأن لها حقوقا تاريخية فى الكويت ٠ ومن الواضح بعد

---

(٤٠) مسودة المعاهدة الانجلو ـ تركية حول منطقة الخليج العربى نشرت فى ج٠س٠ هيروتيز الدبلوماسية فى المشرقين الأدنى والأوسط ، مســجل وثائقى ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢ ، برستون ، ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) ٠

(٤١) دوكاس ، مارثا ، ازمة الكويت ، ص ١٢ ـ ١٣ ٠

دراسة هـــذه الحقائق التاريخية أنه ليس ثمة اى دليل يثبت أن الكويت كانت فى يوم من الأيام تابعة للعـــراق . وربما كانت العلاقات الودية التى سادت آنذاك بين شيخ الكويت ومتسلم البصرة هى التى حـــدت بحكومة العراق لافتعال تلك المزاعم . أما شيوخ العتوب فقد اتبعوا سياسة الصـداقة والمودة مـــع القـــوى المحيطة بهم فى المنطقة دون تبعية او خضوع لأحد .

الخـــــاتمة :

ان الحقائق والأحداث التاريخية لم تشر الى ان الكويت منذ ظهورها وحتى وقتنـــا الحاضر كان جـــزء مـــن ولاية البصرة ، وانمـــا كانت الكويت مشيخة لها استقلالها فى نطاق الدولة العثمانية ، ورفع اميرها العلم العثمانى لأن أسلافه من أمراء المنطقة ساروا على هذا النمط ، ولأن الدولة العثمانية هى القوة الاسلامية التى هيمنت عندئذ على العـــالم الاسلامى(٤٢) .

وما تدعيه حكومة العراق من تبعية الكويت للبصرة لا أساس له من الصحة ، لأن الكويت ظلت محتفظة بكيانها المستقل ، فضلا عن أن التبعية كانت لولاية عثمانية ، ومحدودة بفترة زمنية قصيرة .

وكما استقل العراق وصار دولة ذات سيادة ، كذلك استقل الكويت وغدا دولة مستقلة يحمل سكانها الجنســـية الكويتية ، وان كان استقلال الكويت قد سبق استقلال العراق بسنوات . وهكذا فان موضوع الحقوق التاريخية التى اعتمدت عليها حكومة العراق فى المطالبة بضم الكويت معيار غير صحيح . ولو أخذنا بهذا الحق لصار لتركيا اليوم ان تطالب بضم العراق بأكمله ، ولطالبت ايران بضم البصرة بل بضم العراق باكمله لانها فرضت سلطتها عليه فترة من الزمن ، ولطالبت بلاد الشام بضم الموصل اليها لانها

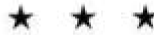
---

(٤٢) مسودة المعاهدة الانجلو ـ تركية حول منطقة الخليج العربى نشرت فى ج.س. هور منتيز ، الدبلوماسية فى المشرقين الادنى والاوسط ، مسجل وثائقى ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢ ، برستون ، ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) .

(1.0)L,P&S/18/B. 18. British Relations with Turkey in, P.G. 1 Dec. 1910.

تعتبر تاريخيا جزء من الشام.وقد ورد فى اتفاقية سايكس بيكو التىوقعت عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) لتقسيم الدولة العثمانية الى مناطق نفوذ ، ورد ان الموصل لفرنسا باعتبارها جزء من بلاد الشام . فهل يرضى العــراق اليوم بتطبيق ذلك المبدأ بناء على أحكام التاريخ ؟

ان الكويت دولة مستقلة ذات سيادة منذ القرن الثامن عشر الميلادى؛ ومن حقها توقيع الاتفاقيات مع اى دولة سواء العثمانية او غيرها ، وذلك فى الوقت الذى كان العراق مجرد مسمى جغرافى لولايات عثمانية موزعة سياسيا . يحكم كل ولاية وال عثمانى . ولم يظهر العراق كقوة سياسية ودولة لها كيان على مسرح التاريخ الحـديث الا بعد قيام الحرب العالمية الأولى .



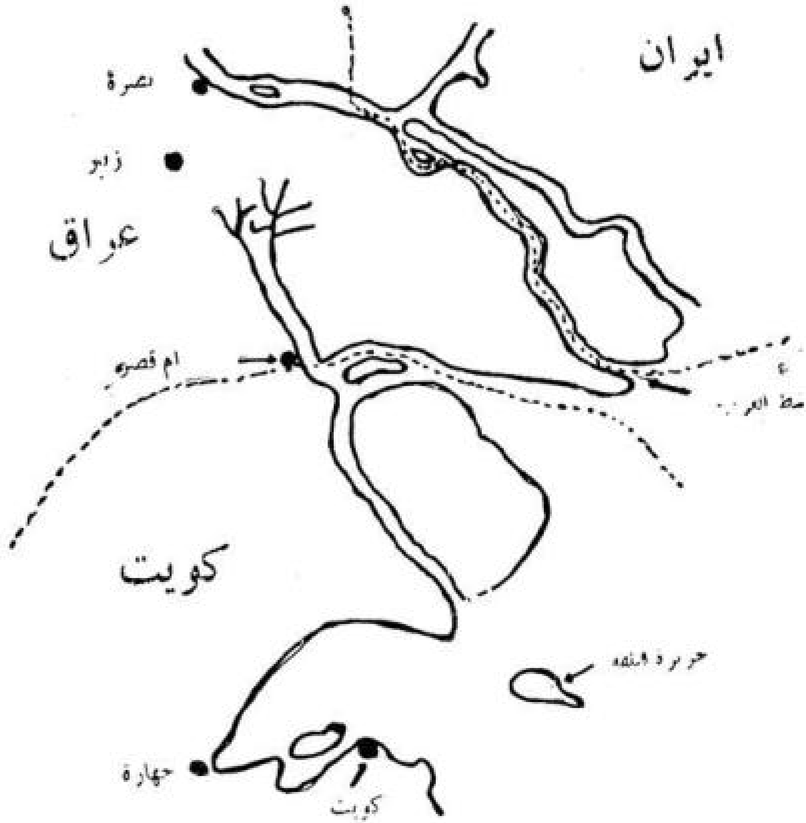
وبعد ، فاننا نخلص من هـــذا البحث بان الدولة العثمانية سلكت جميع السبل لضم الكويت تحت سيادتها لكنها لم تفلح ، واستمرت الكويت ذات سيادة مستقلة ، تربطها روابط شكلية بالدولة العثمانية .

ان ادعاء العراق بان الكويت كانت فى فترة من الزمن تابعة للواء البصرة ادعاء كاذب لأن التبعيــة كانت اســمية فقط ، ثم انها كانت للدولة العثمانية وليست للعراق ، لأن العراق كان هو الآخر تابعاً لهـــده الدولة وخاضعاً لسلطتها ، ولا يمثل دولة ذات كيان مستقل بعكس الكويت الذى كان يتمتع بالاستقلال والحكم الذاتى .

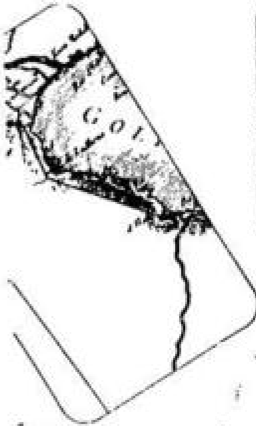
لقد أثبتت الاتفاقية البريطانية ـ العثمانية التى وقعت عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) اعتراف الدولة العثمانية باســـتقلال الكويت الذاتى وبينت الحدود التى تقع تحت حكم أمير الكويت مباشرة . واعترفت بهذا الدولة العثمانية المهيمنة فى ذلك الوقت على معظم البلاد العربية والاسلامية .

أما رفع حكام الكويت للعـــلم العثمانى فلم يكن يعنى التبعيــة السياسية للدولة العثمانية ، بل كان مظهرا من مظاهر الاحترام للخلافة الاسلامية ، ولا شان للعراق أو لحكومة العراق بذلك .

(خريطة الحدود الكويتية ـ العراقية)



الكويت في الخرائط التاريخية

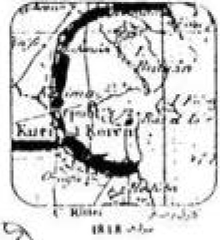




Nicolas Sanson نيكولا سانسون



R. and J. Ottens الأخوان أوتنز
1737 امستردام



C. Ritter كارل ريتر
1818







جمعية نشر المعلومات
1848
The Society for the Diffusion

ظهرت الكويت دولة محددة السيادة منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادي ويؤكد ذلك أن الحدود بين إقليم الكويت وإقليم العراق كانت واضحة ومرسومة منذ البدايات الأولى للأعمال الكارتوغرافية وتمثل تلك الحدود في الخط الفاصل بين العراق وشبه الجزيرة العربية حيث كانت الكويت على الدوام داخلة في إطار شبه الجزيرة العربية ثم تجلى ذلك في عدد من الخرائط التي ظهرت في القرن التاسع عشر، حيث تظهر فيها الكويت منطقة متميزة في حدودها مستقلة عما حولها.

وهكذا يمكن القول بأن أحد المبادئ الدولية الأساسية في تعيين الحدود هو استقرارها تاريخياً، وهذا ما أكدته مجموعة كبيرة من الخرائط العالمية، التي تبين بلا أدنى شك حق الكويت العادل الذي من أجله وقف العالم أجمع معها فلهم الشكر والتقدير ولهم الثناء الدائم

قائمة المصادر والمراجع التى أعتمد عليها البحث

(١) المصادر والمراجع العربية :

— مسودة المعاهدة الانجلو - تركية حول منطقة الخليج العربى كما نشرت فى ج.س. هيروتيز : الدبلوماسية فى الشرقين (الأدنى والأوسط) ، سجل وثائقى بريسنون ، ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) .

— ابراهيم ، عبد العزيز عبد الغنى
سياسة الأمن لحكومة الهند فى الخليج العربى (١٨٥٨ - ١٩١٤م)، الرياض ١٤٠٢/١٩٨٢م .

— السلام البريطانى فى الخليج العربى ١٣١٧ - ١٣٦٧ هـ (١٨٩٩ - ١٩٤٧م) دراسة وثائقية ، الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

— ابو حاكمه ، احمد مصطفى
تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، نشأة وتطور الكويت والبحرين ، ترجمة محمد عبد الله ، بيروت ، بدون تاريخ .

— تاريخ الكويت ، ج١ ، القسم الأول ، الكويت ، ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م الكويت ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

— بوش ، بيروينتون كوبر
بريطانيا والخليج الفارسى ١٣٠٢ - ١٣٣٣هـ (١٨٨٤ - ١٩١٤م)، كاليفورنيا ، ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م) .

— الدسـوقى ، كمال
الدولة العثمانية والمسالة الشرقية ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ (١٩٧٦م) .

— دوكاس ، مارثا
أزمة الكويت ، العلاقات الكويتية - العـراقية ١٣٨١ - ١٣٨٣ هـ (١٩٦١ - ١٩٦٣م) ، بيروت ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

— الرشـيد عبد العزيز
تاريخ الكويت ، ج١ ، بيروت ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

— رونوفن ، بيير
تاريخ القرن العشرين ، ١٣١٨ - ١٣٦٨ هـ (١٩٠ - ١٩٤٨م) ، تعريب د. نور الدين حاطوم ، دمشق ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .

— سعيد أمين
الخليج العربى فى تاريخه السياسى ونهضته الحديثة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

— الشملان ، سيف
من تاريخ الكويت ، الكويت ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

— الشناوى ، عبد العزيز
الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج٣ ، القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

— الصالح ، نورية
علاقات الكويت السياسية بشرقى الجزيرة العربية والعراق العثمانى ١٢٨٣ ض ١٣٢٠هـ/١٨٨٦ - ١٩٠٢م ، الكويت ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م .

— العابد ، فؤاد
سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ١٢٧٠ - ١٣٣٣هـ/١٨٥٣ - ١٩١٤م ، ج٢ ، الكويت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

— العقاد ، صلاح
التيارات السياسية فى الخليج العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

— عمر ، عبد العزيز
تاريخ المشرق العربى ١٣٣٥ - ١٣٤١هـ/١٩١٦ - ١٩٢٢م ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

— قاسم ، جمال
دراسات لتاريخ الامارات العربية ١٢٥٦ - ١٣٣٣هـ/١٨٤٠ - ١٩١٤م ، القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

— الخليج العـــربى
دراسات لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول ، القاهرة ، بدون تاريخ ٠

— القناعى ، يوسف بن عيسى
صفحات من تاريخ الكويت ، دمشق ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م ٠

— كيـلى ، ج٠ب٠
بريطانيا والخليج العـــربى ١٢١٠ - ١٢٧٥هـ/١٧٩٥ - ١٨٥٨م ، لندن ١٩٦٨م ٠

— لوريمر ، ج٠ج٠
دليل الخليج ، ج٣ ، قطر ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ٠

— النبهانى ، محمد بن خليفة
التحفة النبهانية فى امارات الجزيرة العربية ، بغـــداد ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م ٠

الدوريات العـــربية :

— قطينة ، رنده مصرى
الكويت : دراسة تحليلية لقيام الدولة ، مجلة الوثيقة ، العـــدد الثانى ، السنة الأولى ، البحرين ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ٠

رحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج

د. محمد بن فارس الجميل(*)

يستهدف هذا البحث القاء الضوء على رحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج ، وذلك من خلال ما جاء عن تلك الرحلة فى المصادر الأولى وما جاء عنها كذلك فى الدراسات الحديثة ، بغية التعرف على وجهات النظر المختلفة بشان تلك الرحلة وأبعادها الحقيقية .

وقبل التعرض للروايات المتعلقة بامر الرحلة لابد من الحديث عن الخلفية التاريخية لها ،لأن جميع المصادر التى تطرقت الى رحلة سلام الى « السد » لم تشر ـ فيما نعلم ـ الى خلفيتها التاريخية . ذلك انها لم تتعرض الى ما ورد فى السنة النبوية عن سد يأجوج ومأجوج ، كما انها فى ذات الوقت لم تشر الى ما قيل عن محاولات سابقة ، للوصول او لاكتشاف « السد » . وما من شك فى أن الوقوف على ما كان متداولا بين المسلمين من معلومات عن سد يأجوج ومأجوج قبل رحلة سلام الترجمان اليه ، ومقارنة ذلك بما جاءت به بعثة سلام من معلومات عن أمر السد ، سيمكن الباحث من تكوين رأى خاص حول تلك البعثة وما رافقها من حماسة وما أذاعته عن السد وأهله من معلومات .

الواقع ان الاهتمام بالسد وبامر يأجوج ومأجوج لدى المسلمين انما هو اهتمام مرتبط بما جاء عنه فى القرآن الكريم والسنة النبوية . فمما جاء عن السد فى القرآن الكريم قوله تعالى : (حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا يذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) (الكهف : ٩٣ ـ ٩٤) وجاء فى نفس السورة اشارة الى السد بمعنى الردم ، فقال تعالى على لسان ذى القرنين (فاعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما) (الكهف : ٩٥) .

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود .

أما فى السنة النبوية فقد وردت بعض الاشارات الى السـد والى يأجوج ومأجوج ، حيث جاء فى الحديث أن رجلا قال للنبى ﷺ : رايت السد مثل البرد المحبر ، قال : « رأيته » ؛ أى أن النبى ﷺ وافق الرجل وصدق رؤيته للسد وصفته(١) ٠

ولدينا رواية أخرى ربما تكون وثيقه الصلة بالرواية السابقة ان لم تكن ايضاحا لها ، جاء فيها أن رجلا قال :

[انطلقت الى أرض ليس لأهلها الا الحديد يعملونه ، فدخلت بيتا فاستلقيت فيه على ظهرى وجعلت رجلى على جداره ، فلما كان عنـد غروب الشمس سمعت صوتا لم أسمع مثله فرعبت ، فقال لى رب البيت : ٠٠٠ هذا صوت قوم ينصرفون هذه الساعة من عند هذا السد ، افيسرك أن تراه ؟ قلت : نعم ٠ قال : فغدوت اليه فاذا لبنته من حديد كل واحدة مثل الصخرة واذا كانه البرد المحبرة ، واذا المسـامير مثل الجذوع ، فاتيت النبى ﷺ فاخبرته ، فقال : « صفه لى »

فقلت : كانه البرد المحبرة ، فقال ﷺ :

« من سره أن ينظر الى رجل قد أتى الردم فلينظر الى هذا »](٢)

وأشارت مصادر الحديث مرة أخرى الى الردم كما تضمنت الاشارة الى يأجوج ومأجوج ٠ قالت ام المؤمنين زينـب بنت جحش رضى الله عنها [أن النبى ﷺ دخل عليها فزعا يقول « لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق باصبعه الابهام والتى تليها](٣) ٠

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فتح الله من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وعقد بيده تسعين(٤) ٠ أى حلق اصـبعه ٠

كذلك روى أبو هريرة فى مناسبة أخرى أن رسول الله ﷺ ذكـر مرة يأجوج ومأجوج، وما يلقونه من نصب وعنت فى سبيل الخروج من

السد ، فقال : « ان يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا ، فيعودون اليه أشد ما كان ... »(٥) .

هذا مجمل الروايات عن السد أو الردم وعن يأجوج ومأجوج ، التى كانت متداولة فى عصر الرسول ﷺ .

أما فى عصر الخلفاء الراشدين ، وفى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه (ت : ٢٥هـ/ ٦٤٤م) فلدينا رواية تعود الى أحداث فتح أذربيجان (٢٢هـ/٦٤٢م) مفادها أن صاحب أذربيجان ، شهر براز ، أخبر الفاتح العربى عبد الرحمن بن ربيعة عن السد بقوله :

[أيها الأمير : أتدرى من أين جاء هذا الرجل ؟ بعثته منذ سنين نحو السد لينظر ما حاله ومن دونه فانتهى الى الملك الذى السد فى ظهر أرضه ... قال : فلما انتهينا فاذا جبلان بينهما سد مسدود ، حتى ارتفع على الجبلين بعدما استوى بهما واذا دون السد خندق أشد سواداً من الليل لبعده ...(٦)] .

أما فى العصر الأموى وبالذات فى عهد معاوية بن أبى سفيان (ت : ٦٠هـ/٦٧٩م) فاننا نجد فى أحد المصادر المتأخرة ما يشير الى أن معاوية أرسل بدوره بعثة تتألف من خمسة وعشرين رجلا الى سد يأجوج ومأجوج ينظرون كيف هو ، وكتب الى ملك الخزر يجوزهم الى من خلفه ، وأهدى اليهم هدايا ، ففعل حتى انتهوا الى الجبلين ، واذا بينهما مثل البصيص وهو بريق الصفر فى الحديد ، وسمعوا جلبة من داخل السور ورأوا درجا يرقى فيه الى أعلاه فصعد فيه رجل منهم . فلما بلغ وسطه تحير فسقط فمات ، وانصرفوا بقطعة مسحاة وجدوها عند السد ...(٧) .

أما الحلقة الأخيرة المتعلقة بالخلفيةالتاريخية لرحلة سلام الترجمان الى السد فيمكن ربطها بما رواه ابن النديم فى الفهرست حيث يعزو أحد أسباب شغف الخليفة المأمون (ت . ٢١٨هـ/٨٣٣م) بعلوم وثقافة

اليونان الى ما رآه فى منامه من مقابلة لأرسطاليس حكيم اليونان ، وما دار بينهما من أسئلة حول الحكمة وغيرها(٨) .

وبهذا الخبر الأخير تبلغ الخلفية التاريخية لرحلة سلام ذروتها حيث أنه بعد تسع سنوات تقريبا من رحيل الخليفة المامون ، قيل ان الخليفة الواثق (ت : ٢٣٢هـ/ ٩٤٣م) رأى فى المنام أيضا أن سد ياجوج وماجوج مفتوح ففزع لذلك اشد الفزع وأمر بتجهيز بعثة علمية لتقصى حقيقة الأمر (!)(٩) .

ونلاحظ عن رحلة سلام الترجمان أن الكثير من المصادر الأولى ـ خاصة التاريخية والأدبية ـ لم تشر اليها ، على الرغم من أهميتها نظرا لما لها من علاقة بأمر قوم من خلق الله ورد ذكرهم فى القرآن وفى السنة النبوية وهم « ياجوج وماجوج » .

ولعل كتب الجغرافية والرحلات هى المصادر التى تفردت بأمر تلك الرحلة ؛ كما شاركها هذا الاهتمام أحيانا بعض المصادر الأدبية المتاخرة . ويبدو أن كافة المصادر اعتمدت على ما ذكره ابن خرداذبة فى كتابه : (المسالك والممالك) ، وفيما يلى النص حسب رواية ابن خرداذبة الشخصية نقلا عن سلام الترجمان ، حيث قال :

[فحدثنى سلام الترجمان أن الواثق بالله لما رأى فى منامه كان السد الذى بناه ذو القرنين بيننا وبين ياجوج وماجوج قد انفتح ، فطلب رجلا يخرجه الى الموضع فيستخبر خبره . فقال اشناس ما هاهنا احد يصلح الا سلام الترجمان ، وكان يتكلم بثلثين لسانا . قال فدعا بى الواثق وقال : أريد أن تخرج الى السد حتى تعاينه وتجيئنى بخبره . وضم الى خمسين رجلا شباب أقوياء ، ووصلنى بخمسة آلاف دينار ، وأعطانى ديتى عشرة آلاف درهم . وأمر فاعطى كل رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة . وأمر ان يهيأ للرجال اللبابيد وتغشى بالاديم . واستعمل لهم الكستبانات بالفراء والركب الخشب . واعطانى مائتى بغل لحمل الزاد والماء . فشخصنا من سر من رأى بكتاب من الواثق بالله الى اسحاق بن اسماعيل صاحب أرمينية ـ وهو بتفليس ـ فى انفاذنا ،

وكتب لنا اسحاق الى صاحب السرير ، وكتب لنا صاحب السرير الى ملك اللان ، وكتب لنا ملك اللان الى فيلان شاه ، وكتب لنا فيلان شاه الى طرخان ملك الخزر ٠ فاقمنا عند ملك الخزر يوما وليلة حتى وجه معنا خمسة أدلاء ، فسرنا من عنده ستة وعشرين يوما ، فانتهينا الى ارض سوداء منتنة الرائحة ٠ وكنا قد تزودنا قبل دخولها خلا نشمه من الرائحة المنكرة ، فسرنا فيها عشرة أيام ٠ ثم صرنا الى مدن خراب ، فسرنا فيها عشرين يوما ، فسالنا عن حال تلك المدن ، فخبرنا أنها المدن التى كان ياجوج وماجوج يتطرقونها فخربوها ٠ ثم صرنا الى حصون بالقرب من الجبل الذى شعبة منه السد ٠ وفى تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرأون القرآن ، لهم كتاتيب ومساجد ، فسالونا من اين اقبلنا فاخبرناهم انا رسل امير المؤمنين ، فاقبلوا يتعجبون ويقولون امير المؤمنين ؟ فنقول نعم ، فقالوا شيخ هو ام شـاب ؟ فقلنـا شـاب فعجبوا ايضا ، فقالوا اين يكون ؟ فقلنا العراق فى مدينة يقال لها سر من راى ، فقالوا ما سمعنا بهذا قط ٠ وبين كل حصن من تلك الحصون الى الحصن الاخر فرسخ الى فرسخين اقل واكثر ٠ ثم صرنا الى مدينة يقال لها ايكة ، تربيعها عشرة فراسخ ولها أبواب حديد يرسل الأبواب من فوقها ، وفيها مزارع وارحاء داخل المدينة ، وهى التى كان ينزلها ذو القرنين بعسكره ، بينها وبين السد مسيرة ثلاثة أيام ، وبينها وبين السد حصون وقرى حتى تصير الى السد ، فى اليوم الثالث ٠ وهو جبل مستدير ذكروا أن يأجوج وماجوج فيه وهما صـنفان ، ذكروا أن يأجوج أطـول من ماجوج ، ويكون طول أحدهم ما بين ذراع الى ذراع ونصف واقل واكثر ٠ ثم صرنا الى جبل عال عليه حصن ، والسد الذى بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع ، وهو الطـريق الذى يخرجـون منه فيتفرقون فى الأرض ، فحفر أساسه ثلثين ذراعا الى أسفل ، وبنـاه بالحديد والنحاس حتى ساقه الى وجه الأرض ٠ ثم رفع عضادتين ، مما يلى الجبل من جنبتى الفج ، عرض كل عضادة خمس وعشرون ذراعا ، فى سمك خمسين ذراعا ، الظاهر من تحتهما عشر أذرع خارج الباب ٠ وكله بناء بلبن من حديد مغيب فى نحاس ، تكون اللبنة ذراعا ونصفا فى ذراع ونصف فى سـمك أربع أصابع ، ودروند حـديد طرفاه على العضادتين ، طوله مائة وعشرون ذراعا قد ركب على العضادتين على كل

واحدة مقدار عشر أذرع فى عرض خمس أذرع . وفوق الدروند بناء بذلك اللبن الحديد فى النحاس الى رأس الجبل ، وارتفاعه مد البصر ، يكون البناء فوق الدروند نحوا من ستين ذراعا . وفوق شرف حديد فى طرف كل شرفة قرنتان تنثنى كل واحدة منهما على الاخرى ، طول كل شرفة خمس أذرع فى عرض اربع أذرع ، وعليه سبع وثلثون شرفة . وادا باب حديد مصراعين معلقين ، عرض كل مصراع خمسون ذراعا فى ارتفاع خمس وسبعين ذراعا فى ثخن خمس أذرع ، قائمتان‌هما فى دوارة على قدر الدروند . لا يدخل من الباب ولا من الجبل ريح كانه خلق خلقه .
وعلى الباب قفل طوله سبع أذرع فى غلظ باع فى الاستدارة . والقفل لا يحتضنه رجلان ، وارتفاع القفل من الارض خمس وعشرون ذراعا .
وفوق القفل بقدر خمس أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل ،وقفيزاه كل واحد منهما ذراعان . وعلى الغلق مفتاح معلق طوله ذراع ونصف وله اثنتا عشرة دندانكة كل دندانكة فى صفة دستج الهواوين . واستدارة المفتاح أربعة أشبار ، معلق فى سلسلة ملحومة بالباب طولها ثمانى أذرع فى استدارة أربعة أشبار ، والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق.
وعتبة الباب عرضها عشر أذرع فى بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين والظاهر منها خمس اذرع ، وهذه الذراع كلها بالذراع السوداء . ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتى ذراع فى مائتى ذراع . وعلى باب هذين الحصنين شجرتان ، وبين الحصنين عين عذبة ، وفى أحد الحصنين آلة البناء التى بنى بها السد من القدور الحديد والمغارف الحديد ، على كل ديكدان أربع قدور مثل قدور الصابون . وهناك بقية من لبن الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصدأ.
ورئيس تلك الحصون يركب فى كل يوم أثنين وخميس ، وهم يتوارثون ذلك الباب كما يتوارث الخلفاء الخلافة ، يجىء راكبا ومعه ثلثة رجال على عنق كل رجل مرزبة ، ومع الباب درجة فيصعد على أعلى الدرجة فيضرب القفل ضربة فى أول النهار فيسمع لهم جلبة مثل كور الزنابير ثم يخمدون . فاذا كان عند الظهر ضربه ضربة أخرى ويصغى باذنه الى الباب فتكون جلبتهم فى الثانية أشد من الأولى ثم يخمدون . فاذا كان وقت العصر ضرب ضربة أخرى فيضجون مثل ذلك ، ثم يقعد الى مغيب الشمس . ثم ينصرف . الغرض فى قرع القفل أن يسمع من وراء الباب ،

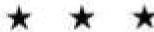
فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء ان هؤلئك لم يحدثوا فى الباب حدثا ، وبالقرب من هذا الموضع حصن كبير يكون عشرة فراسخ فى عشرة فراسخ تكسيره مائة فرسخ ٠

قال سلام : فقلت لمن كان بالحضرة من أهل الحصون هل عاب من هذا الباب شيء قط ؟ قالوا : ما فيه الا هذا الشق ٠ والشق كان بالعرض مثل الخيط دقيق ٠ فقلت : تخشون عليه شيئا ؟ فقالوا : لا ان هذا الباب ثخنه خمس اذرع بذراع الاسكندر يكون ذراعا ونصفا بالاسود، كل ذراع واحدة من ذراع الاسكندر ٠ قال : فدنوت وأخرجت من خفى سكينا فححت موضع الشق فاخرج منه مقدار نصف درهم وأشده فى منديل لاريه الواثق بالله ٠ وعلى فرد مصراع الباب الأيمن فى أعلاه مكتوب بالحديد باللسان الاول [فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا] وننظر الى البناية واكثر ه مخطط ساف اصفر من نحاس وساف أسود من حديد ٠ وفى الجبل محفور الموضع الذى صب فيه الابواب ، وموضع القدور التى كان يخلط فيها النحاس، والموضع الذى كان يحلى فيه الرصاص والنحاس ، وقدور شبيهة بالصفر لكل قدر ثلث عرى ، فيها السلاسل والكلاليب التى كان يمد بها النحاس الى فوق السور ٠ وسالنا من هناك هل رأيتم من ياجوج وماجوج أحدا ، فذكروا انهم رأوا مرة عددا فوق الجبل ، فهبت ريح سوداء فالقتهم الى جانبهم ، وكان مقدار الرجل فى رأى العين شبرا ونصفا ٠ والجبل من خارج ليس له متن ولا سفح ولا عليه نبات ولا حشيش ولا شجرة ولا غير ذلك ، وهو جبل مسلنطح قائم أملس أبيض ٠

فلما انصرفنا أخذ الادلاء بنا الى ناحية خراسان، وكان الملك يسمى اللب ٠ ثم خرجنا من ذلك الموضع وصرنا الى موضع ملك يقال له طبانوين ، وهو صاحب الخراج، فاقمنا عندهم أياما ٠ وسرنا من ذلك الموضع حتى وردنا سمرقند فى ثمانية أشهر ووردنا على اسبيشاب،وعبرنا نهر بلخ ، ثم صرنا الى شروسنة والى بخارا والى ترمذ ، ثم وصلنا الى نيسابور ٠ ومات من الرجال الذين كانوا معنا ومن مرض منهم فى الذهاب أثنان وعشرون رجلا ، من مات منهم دفن فى ثيابه ، ومن مرض

خلفناه مريضا فى بعض القرى ٠ ومات فى المرجع أربعة عشر رجلا ٠ فوردنا نيسابور ونحن أربعة عشر رجلا ٠ وكان أصحاب الحصون زودونا ما كفانا ٠ ثم صرنا الى عبد الله بن طاهر فوصلنى بثمانية آلاف درهم ووصل كل رجل معى بخمس مائة درهم ، واجرى للفارس خمسة دراهم وللراجل ثلثة دراهم فى كل يوم الى الرى ٠ ولم يسلم من البغال التى كانت معنا الا ثلثة وعشرون بغلا ٠ ووردنا سر من راى ، فدخلت على الواثق فاخبرته بالقصة ، واريته الحديد الذى كنت حككته من الباب ، فحمد الله وأمر بصدقة يتصدق بها ، وأعطى الرجال كل رجل الف دينار ، وكان وصولنا الى السد فى ستة عشر شهرا ورجعنا فى اثنى عشر شهرا وأيام ٠

فحدثنى سلام الترجمان بجملة هذا الخبر ، ثم املاه على من كتاب كان كتبه للواثق بالله (١٠)] ٠



ومن المهم جدا أن يدرك الباحث أن جميع المصادر الأولى التى اهتمت بأمر رحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج قد نقلت معلوماتها عن مصدر واحد لا غير ، هو ابن خرداذبة الذى ذكرنا فيما سبق روايته عن الرحلة ٠

وبطبيعة الحال جاء نقل بقية المصادر عن ابن خرداذبة بدرجات متفاوته ، فمنها ما نقل عنه حرفيا ، ومنها مانقل عنه جزء من التقرير ، ومنها ما اكتفى بايراد المعنى دون الخوض فى التفاصيل ٠ وهى فى جملتها حين تنقل عن ابن خرداذبة لا يسلم نقلها من بعض الزيادة او النقص فمثلا :

من الذين اهتموا بأمر السد ورحلة سلام اليه ، الثعلبى (ت ٤٢٧هـ/١٠٣٥م) فى كتابه المعروف : عرائس المجالس ٠ وقد نقل فى كتابه أخبار الاسكندر ، (ذو القرنين) وبناءه للسد ويأجوج ومأجوج ، كما أورد رواية ابن خرداذبة مختلفة بعض الشىء فى بعض التفاصيل الصغيرة(١١) ٠

أما أبو عبد الله الادريسى ، (ت : حوالى ٦٥٠هـ/١١٦٤م) فقد تناول فى كتابه : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، رواية ابن خرداذبة وبعثة سلام الترجمان اليه . ولم ينكر من أمرها شيئا ، بل أنه أضاف اليها ما يفيد عن الطريقة التى انتشر بها الاسلام بين الأقوام المجاورة للسد ، اضافة الى بعض الاختلافات الطفيفة عما جاء عنـــد ابن خرداذبة عن موضوع الرحلة(١٢) .

ويلاحظ على القزوينى وهو متاخر نسبيا ، (ت : ٦٨٢هـ/١٢٢٣م) فى كتابه : آثار البلاد وأخبار العباد ، أن رواية ابن خرداذبة تعرضت على يديه لقدر من الحذف والاضافة والتحريف أحيانا . فعند حديثه عن سد ياجوج وماجوج تعرض بطبيعة الحال الى رحلة سلام الترجمان واورد التقرير المنسوب اليه كاملا تقريبا ، الا انه فى آخر التقرير قال على لسان سلام حين تحدث عن ياجوج وماجوج : « فهبت ريح ســـوداء فالقتهم الينا ...»(١٣) وكما هو واضح فان هذه الاضافة تغير معنى ما جاء عنـــد ابن خرداذبة تغييرا تاما حيث قال : « فهبت ريح سوداء فالقتهم الى جانبهم »(١٤) أى الى داخل السد .

يضاف الى ذلك ما جاء عند القزوينى من اختلاف حول المدة الزمنية التى قضتها البعثة فى رحلتها(١٥) .

والقزوينى فى مصدر آخر لا يكتفى بما جاء عند ابن خرداذبه عن التقرير المنسوب الى ســـلام الترجمان . ففى كتابه : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، يضيف اليه بعض الفقرات التى لم ترد أصلا عند ابن خرداذبه وينسب تلك الاضافات الى أبى حامد الأندلسى فى كتابه العجائب ، نقلا عن سلام الترجمان .

ومن ذلك قوله أن سلاما الترجمان قال : « أقمت عند ملك الخزر أياما ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جدا وجذبوها بالحبال فانفتحت أذن السمكة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حســـنة الصورة أخرجوها الى البر وهى تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح . وقد خلق الله فى وسطها نشاء (غشاء ؟) كالثوب الصفيق ، من سرتها الى ركبتها كانه ازار مشدود على وسطها فامسكوها حتى ماتت»(١٦) .

أما الحميرى (ت : ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) ، صاحب الروض المعطار ، فلعله من أكثر الجغرافيين عناية بأمر رحلة سلام الترجمان ، فقد تتبع ما جاء عن السد فى القرآن والسنة ، وندين له بالمعلومات القيمة التى زودنا بها عن بعض الرحلات التى يقال انها نفذت الى السد قبل بعثة الواثق بأكثر من قرن من الزمان(١٧) .

والحميرى كغيره من الجغرافيين نقل خبر رحلة سلام الى السد عن المصدر الأول لها وهو ابن خرداذبه ، الا أن نقله لم يسلم من الزيادة والنقصان وان لم يغير من جوهر الرواية(١٨) .



هذا ما جاء عن رحلة سلام الترجمان الى السد أو الردم فى المصادر الجغرافية والأدبية الأولى . وكما أوضحنا من قبل فان تلك المصادر تناقلتروابة واحدة مصدرها واحد وهو ابن خرداذبه ، الا أنه من اللافت للنظر أن كل تلك المصادر المشار اليها آنفا تقبلت الرواية بقبول حسن فلم تقف منها موقف الرافض أو على الأقل المتشكك ولو فى بعض جزئياتها .

ولدينا طائفة أخرى من الجغرافيين وقف بعضهم من أمر الرحلة موقف الرافض.وبعضهم شكك فى ما جاءت به من أخبار . وأما البعض الآخر فلم يكن متحمسا لما ذاع عن الرحلة من معلومات .

ويأتى على رأس هؤلاء الجغرافيين ابن رسته (توفى بعد ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) فبعد أن أشار بصورة مقتضبة الى الواثق وما طلب من سلام القيام به ، قال : « وكتبناه نحن لنقف على ما فيه من التخطيط والتزييد لأن مثل هذا لا تقبل صحته فوجدته موافقا »(١٩) .

كذلك تحدث ياقوت الحموى (ت : ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) عن يأجوج ومأجوج بشىء من التفصيل،وتطرق كذلك الى بعثة سلام الترجمان،ونقل معظم ما جاء فى رواية ابن خرداذبه عن أمر البعثة وان لم يشر صراحة الى مصدره (!) ووقع فى روايته بعض الاختلافات الطفيفة عما ورد لدى ابن خرداذبه(٢٠) ، لكن المهم أن الحموى شكك فيما جاء عن البعثة من

أخبار السد ، فقال : « .... قد كتبت من خبر السد ما وجدته فى الكتب ولست اقطع بصحة ما اوردته لاختـــلاف الروايات فيـــه ، والله اعـــلم بصحته ... »(٢١) .

ويلاحظ كذلك أن اهتمام ابن الفقيه (توفى بعد : ٢٩٠هـ/٩٠٣م) بالسد وبناء الاسكندر له كان أكثر من اهتمامه بخبر رحلة سلام الترجمان وما تمخض عنها من معلومات ، فقد أشـــار الى خـــبر تلك البعثة اشارة عابرة لم تتجاوز بضع كلمات(٢٢) . ولعل ذلك يعكس عدم مصداقية الخبر بالنسبة له .

أما المقدسى (توفى حوالى : ٣٩٠هـ/١٠٠٠م) ، فقد نقل رواية ابن خرداذبه فيما يتعلق بصفة السد ورحلة ســـلام الترجمان اليه . وهو الآخر لم يسلم فيما نقله من بعض الأخطاء(٢٣) . وملاحظته الوحيدة حول خبر الرحلة هى انها صححت بعض ما كان لديه من معلومات عن موقع سد يأجوج ومأجوج ، حيث كان يظن انه فى بلاد الأندلس بينما بعثة سلام اثبتت انه فى مكان آخر(٢٤) .



ولعل ما يثير قدرا كبيرا من الشك فى صحة خبر بعثة الواثق وما جاءت به من أخبار عن صفة سد ياأجوج وماجوج هو عدم اهتمام كبار المفسرين بأمرها ، حيث يلاحظ أنهم لم يشيروا اليها فى معرض تفسيرهم لسورة الكهف ، ولم يتحدثوا عن التفاصيل الدقيقة لبناء السد والتى يزعم أن البعثة جاءت بها عنه .

فالطبرى (ت : ٣١٠هـ/٩٢٢م) ناقش فى تفسيره لســـورة الكهف أخبار ذى القرنين ويأجوج ومأجوج وبناء السد(٢٥) ، لكنه لم يشـــر اطلاقا لبعثة الواثق ولا لما أورده ابن خرداذبه من أمرها . ويظن انه لو ثبت لديه ذلك وتحقق من صحة الخبر لما تردد فى الاستفادة من اخبار تلك البعثة فى تفسيره العظيم (!) .

أما الرازى (ت : ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) فقد اشار فى تفسيره بصورة

مقتضبة الى رواية ابن خرداذبة حول بعثة سلام الترجمان ٠ وكان من الواضح انه لم يعرها أدنى اهتمام، حيث انه لم يشر فى تفسيره الكبير الى المعلومات التى كان سلام الترجمان قد جاء بها عن السد وعن ياجوج ومأجوج(٢٦) ٠

وكذلك القرطبى (ت : ٦٧١هـ/١٢٧٣م) ، فقد ذكر فى تفسيره تفاصيل كثيرة عن يأجوج وماجوج وعن ذى القرنين وأمر السد ، لكنه لم يتطرق لرواية ابن خرداذبه ولا الى بعثة الواثق(٢٧) ٠



أما بالنسبة للدراسات الحديثة ، فقد اهتم العلماء الروس منذ وقت مبكر اكثر من سواهم بامر رحلة سلام الى سد يأجوج ومأجوج ٠ ومبعث ذلك الاهتمام يعود الى أن الرحلة ذات اهمية بالنسبة لبلاد السوفييت(٢٨) ٠

وعلى الرغم من ان بعض علماء الروس امثال : غريغورييف Grigoriev ومينورسكى Minorsky قد شككا فى أمر الرحلة ورأيا فيها تضليلا مقصودا ، وحكاية خرافية تنتشر فيها بعض أسماء جغرافية(٢٩) ٠ فان دى خوية De Goeje منذ عام ١٨٨٨م اعتبر الرحلة واقعة تاريخية لاشك فيها وأنها جديرة باهتمام العلماء ٠ وقد أيده فى ذلك خبير ثقة فى الجغرافيا التاريخية هو توماشك Tomaschek (٣٠) ٠

ويرى كراتشكوفيسكى Krachkovski أن سلاما الترجمان فى طريق رحلته قد اتجه شمالا خلال أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) ، الى بلاد الخزر ثم اتجه من هناك شمالا الى بحر قزوين فوصل الى بحيرة بلخش Balkhash وزنغاريا Zhungaria وهو بلا شك قد أبصر سد القوقاز المشهور عند دربند (٣١) ٠

ولا يستبعد كراتشكوفسكى أن يكون سلام قد وصل الى سور الصين العظيم(٣٢) ٠

اما المستشرق الفرنسى كارادى فان Carra De Van فيرى انه من المحتمل أن هذه الرحلة كانت الى الحصون الواقعة فى جبال القوقاز وعلى مقربة من دربند أو باب الابواب(٣٣) ٠

وقد اهتم الدارسون العرب المحدثون مثل غيرهم برحلة سلام الى سد ياجوج وماجوج ، فكانت لهم وجهات نظر متباينة حول البعثة ٠ فمثلا حسين فوزى ، اهتم ببعض الأساطير المنسوبة الى تقرير سلام الترجمان والتى لم ترد أصلا فى المصدر الاساسى وهو ابن خرداذبه ، بل نقلت عن مصادر ثانوية متأخرة(٣٤) ٠ وهو على كل حال لم يناقش امر البعثة الى السد ٠

وكذلك فان زكى محمد حسن ، تحدث عن سلام الترجمان ضمن الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى ، ويرى أن رحلته الى سور الصين الشمالى قد تكون حقيقة تاريخية ، وأن الباعث عليها اشبه بأسطورة خيالية(٣٥) ٠

والملاحظ أن زكى حسن استمد مادته عن رحلة سلام من مصادر متأخرة نسبيا كالادريسى وياقوت الحموى ، ولم يرجع الى ابن خرداذبه وهو المصدر الأول عن الرحلة ٠

ويرى على محسن مال الله ، أن الباعث وراء الرحلة التى أمر بها الواثق قد يكون باعثا سياسيا ، يقصد من ورائه اظهار هيمنته على تلك الاقطار التى مر بها سلام(٣٦) ٠

وهو يرى كذلك أن الرحلة واقعية رغم ما تسرب اليها من الأساطير(٣٧) ٠

ومن الذين أشاروا الى رحلة سلام الترجمان، أحمد رمضان احمد، الذى من خلال عرضه الوجيز للرحلة يظهر أنه لم يطلع على ابن خرداذبه باعتباره المصدر الأساسى لرواية بعثة الواثق ، بل حذا حذو حسين فوزى حين اكتفى بما جاء لدى الادريسى وياقوت الحموى ، وبذلك لم يضف شيئا جديدا لمادة البحث(٣٨) ٠

أما حسين فهيم ، فقد أشار الى رحلة سلام اشارة مقتضبة ورأى فيها رحلة تكليفية ، رسمية ، ولم يدخل فى تفاصيلها(٣٩) .

الخاتمــــة

من العرض السابق للروايات المتعلقة برحلة سلام الترجمان الى سد ياجوج وماجوج يتبين للباحث أن مصدر الخبر عن الرحلة واحد لا غير ، الا وهو ابن خرداذبه وأن بقية المصادر المعاصرة له واللاحقة به اعتمدت على ما جاء فى روايته مع اختلاف يسير فى النقل بزيادة أو نقصان .

وكان للمصادر الأولية ثلاثة مواقف متباينة بشان الرحلة :

(أ) بعض تلك المصادر اتخذ موقفا محايدا حيث نقل عن ابن خرداذبة أمر الرحــــلة واخبارها ولم يعلق على ذلك بشىء ، كالادريسى والقزوينى والحميرى والمقدسى والثعلبى .

(ب) أحد المصادر وهو ابن رسته رفض تقريبا خبر الرحلة ورأى فيه تزيدا وتخليطا .

(جـ) الموقف الثالث ويمثله ياقوت الحموى والذى يرى أن هناك روايات كثيرة ومختلفة بشان الرحلة ويشكك فيما جاء عنها من أخبار .

أما بالنسبة للدراسات الحديثة والتى كثيرا ما ناقشت رحلة سلام بايجاز ملحوظ فانها تكاد تتخذ مواقف متشابهة .

فالدارسون الروس والغربيون يرون أن البعثة ربما حدثت وان كان الباعث عليا خياليا ، وقد يكون سلام قد شاهد جزء من ســـور الصين العظيم أو بعض المنشآت المائية الكبرى كسد القوقاز . كما يرون انه ربما يكون ما شاهده سلام فى تلك الأصقاع وما سمعه هناك من الأســـاطير الشعبية حول السد ويأجوج ومأجوج مضافا اليه خبر السد فى القرآن ؛ كل ذلك دفع بسلام الى رسم تلك الصــورة عن الســد وعن قوم يأجوج ومأجوج(٤٠) .

أما الدارسون المحدثون من العـــرب فيبدو واضـــحا أنهم تابعوا زملاءهم السابقين من الغربيين فى استنتاجاتهم وما ذهبوا اليه ، ولذلك فانهم لم ياتوا بجديد حول الموضوع .

والذى يخلص اليه الباحث هنا، هو أن البعثة قد تكون حدثت فعلا، ولكن ليس بالضرورة الى سد ياجوج وماجوج . وقد يكون سلام شـاهد بعض المنجزات المعمارية كالسد أو شبيه به فى الأصقاع الشمالية ، ولكن الأمر الذى يظل مشكوكا فيه هو ما جاءت به البعثة من أخبار عن السد ومن حوله .

ولعل ما يقوى الشك فى تلك الأخبار هو :

(أ) اغفال المؤرخين المسلمين لذكر حادثة الرحلة برمتها ، حيث لا نجد لها اثرا فى كتاباتهم سوى ما جاء عند بعض المؤرخين اللاحقين كابن كثير وابن خلدون ، وهم لا يضيفون شيئا جديدا بل يرددون ما جاء عند ابن خرداذبه .

(ب) أن المفسرين الكبار كالطبرى والرازى والقرطبى لم يشيروا الى رحلة سلام ولم يستفيدوا من أخبارها عن سد ياجوج وماجوج ، وهم الذين أبدوا فى تفاسيرهماهتماما خاصا بأمة ياجوج وماجوج وبناء السد.

(جـ) من الملاحظ أن كتب التراجم المعـــروفة جميعها تقريبا لم تتطرق لسلام الترجمان ، على الرغم من كونه صاحب الريادة فى اكتشاف ووصف سد ياجوج وماجوج(!) ، علما بان كتب التراجم هذه قدمت لنا معلومات دقيقة ومفصلة عن حياة اناس اقل شـــانا وخطرا من ســـلام الترجمان .

يضاف الى ذلك أن ابن خرداذبه وجميع من جاؤوا بعده ونقلوا عنه خبر رحلة سلام قد اهملوا جميعا تحديد السنة التى تمت فيها تلك الرحلة وهذا أمر يبعث على الدهشة والغرابة .

وأخيرا فان الباحث يرجو أن تكون هذه الدراسة الموجزة قد نجحت

فى الكشف عن الخلفية التاريخية لرحلة سلام الترجمان،حيث انها لم تكن الأولى بل سبقتها عدة محاولات . ويرجو كذلك ان يكون من خلال هذه الدراسة قد نجح فى اثارة بعض التساؤلات عن حقيقة ما جاءت به البعثة من أخبار عن سد يأجوج ومأجوج .

الحواشي والتعليقات

١ - محمد بن اسماعيل البخاري ، **صحيح البخاري** ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، الطبعة الرابعة (دمشق وبيروت : دار ابن كثير واليمامة ، ١٤١٠هـ) .

٢ - كمال الدين محمد بن موسى الدميرى ، **حياة الحيوان الكبرى** ، ويليه : **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** ، لزكريا بن محمد القزوينى ، الطبعة الخامسة (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٩٨هـ) ، ٤٣٢/٢ ؛ شهاب الدين بن محمد الابشيهى ، **المستطرف فى كل فن مستظرف** ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع (بيروت : دار القلم ، ١٤٠١هـ) ، ص ٣٦٥ .

٣ - البخارى ، ١٢٢١/٣ ؛ مسلم بن الحجاج القشيرى، **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤٠٣هـ) ، ٢٢٠٧/٤ - ٢٢٠٨ ، وقارن : محمد بن عيسى بن سورة الترمذى،**سنن الترمذى**،تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، الطبعة الثانية (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٨٩هـ)، ٤٨٠/٤ ؛ محمد بن يزيد القزوينى ، ابن ماجة ، **سنن ابن ماجة**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (بيروت : المكتبة العلمية ، د:ت)، ١٣٠٥/٢ .

٤ - البخارى ، ١٢٢١/٣ ، وانظر : مسلم ، ٢٢٠٨/٤ .

٥ - أحمد بن حنبل ، **المسند** ، (القاهره : مؤسسة قرطبة ، د : ت)، ٥١٠/٢ - ٥١٨ ؛ محمد بن جرير الطبرى ، **جامع البيان عن تأويل آى القرآن** ، الطبعة الثانية (القاهرة ، مطبعة الحلبى ، ١٣٧٣هـ) ، ٢١/١٦ ؛ محمد بن أحمد الانصارى القرطبى ، **الجامع لأحكام القرآن** (القاهرة : مطبعة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦٠هـ) ، ٦٢١١ - ٦٣ .

٦ - محمد بن جرير الطبرى، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق ابوالفضل ابراهيم ، الطبعة الرابعة (القاهرة : دار المعارف ، د : ت) ، ١٥٩/٤ - ١٦٠ ؛ أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى ، **البداية والنهاية** ، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وزملاؤه (بيروت : دار

الكتب العلمية ، د : ت) ، ١٢٧/٤ - ١٢٨ ؛ محمد بن عبدالمنعم الحميرى ، **الروض المعطار فى خبر الاقطار** ، تحقيق احسان عباس (بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٥م) ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ ، وانظر : عبد الرحمن بن خلدون **المقدمة** ، (القاهرة : دار الشعب ، د : ت) ، ص ٧٤ .

٧ - الحميرى ، ص ٣١٠ .

٨ - محمد بن اسحاق النديم الوراق ، **الفهرست** ، تحقيق رضا تجدد ، الطبعة الثالثة (د : م ، دار المسيرة ، ١٩٨٨م) ، ص ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

٩ - انظر : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ، **المسالك والممالك** ويليه **نبذ من كتاب الخراج** لأبى جعفر قدامة بن جعفر البغدادى ، نسخة مصورة عن طبعة ليدن سنة ١٨٨٩م (بيروت: دار صادر ، د : ت) ، صص ١٦٢ - ١٦٣ .

١٠ - ابن خرداذبه ، صص ١٦٢ - ١٧٠ .

* الواثق : هارون بن محمد المعتصم ، يكنى أبا جعفر ، وهو الخليفة العباسى التاسع ، دامت خلافته خمس سنين وتسعة اشهر وبضعة أيام (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) .

١١ - أبو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى المعروف بالثعلبى ، **قصص الأنبياء** المسمى **عرائس المجالس** ، الطبعة الرابعة (بيروت : دار الرائد العربى ، د : ت) صص ٣٦٤ - ٣٦٧ . والاختلافات لديه عما جاء فى الرواية الأصلية لابن خرداذبه ، كبيرة الشبه بما لدى الادريسى .

١٢ - انظر : أبو عبد الله محمد بن محمد الادريسى ، **نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق** ، الطبعة الأولى (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ) ، ٩٣٥/٢ - ٩٣٦ .

ومن الاختلافات الواردة فى رواية الادريسى عما جاء لدى ابن خرداذبه : قوله ان الواثق أمر لسلام الترجمان وأصحابه بمائة بغل بدلا من مائتين ، ٩٣٤/٢ ، وقوله كذلك ان أمير سمرقند عبدالله بن طاهر وصل سلام بمائة الف درهم ووصل كل واحد من أصحابه بخمسة آلاف درهم . بينما الذى جاء عند ابن

خرداذبه أن ابن طاهر وصل سلام بثمانية آلاف درهم ووصل كل واحد من أصحابه بخمس مائة درهم . ومن الاختلافات كذلك قول الادريسى أن الواثق أمر لكل واحد من أصحاب سلام الترجمان بخمسين الف درهم بدلا من الف ٩٣٤/٢ .

أما شهاب الدين أحمدبنعبدالواحد النويرى - وهو مصدر متاخر - فانه ينسب خبر بعثة سلام الى الادريسى صاحب نزهة المشتاق(!) وينقل عنه بشيء من الحذف والاضافة . انظر : **نهاية الأرب فى فنـــون الأدب** للنويرى (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٢هـ) ، ٣٧٤/١ - ٣٧٨ .

١٣ - زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ، **آثار البلاد واخبار العباد** (بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤هـ) ، ص ٥٩٨ .

١٤ - ابن خرداذبه ، ص ١٦٨ .

١٥ - القزوينى ، آثار البلاد ... ص ٥٩٩ ، ذكر القزوينى فى روايته أن مدة البعثة فى الذهاب من سرمن رأى والعودة اليها ثمانية عشر شهرا ، ص ٥٩٩ ، بينما الذى جاء عند ابن خرداذبه ان الرحلة استغرقت ثمانيـــة وعشرين شـــهرا وأيام . انظر : ابن خرداذبه ، ص ١٧٠ .

١٦ - القزوينى ، عجائب المخلوقات ... ، ٩٦/٢ ، بخصوص ما جاء عن الجارية التى خرجت من أذن السمكة . انظر : الأبشيهى ، حيث ينسب هذه الأسطورة الى الشيخ أبى العبـــاس الحجازى نقلا عن أحد التجار ، ص ٣٦٧ .

أما ما ينسبه القزوينى فى عجائب المخلوقات .. الى أبى حامد الأندلسى الغرناطى فى الكتاب المنسوب اليه والمعروف بكتاب : **العجائب** ، فلم نعثر على ذلك الكتاب حتى نتمكن من مقـارنة ما جاء فيه ؛ ولكن عثرنا على كتاب آخر ينسب لأبى حامد وهو كتاب : **تحفة الألباب** ، للشيخ محمد بن عبد الرحيم المعـــروف بأبى حامد الأندلسى الغرناطى الملقب بشيخ عبد الله . نشره فى باريس سنة ١٩٢٥م غابريال فيران Gabriel Ferrand . انظـر فى نفس الكتاب ص ١١٩ للتعرف على أصل أسطورة الجارية التى خرجت من أذن السمكة حيث أن أبا حامد الغرناطى لا ينســب

الأسطورة الى سلام الترجمان كما جاء عند القزوينى فى كتاب عجائب المخلوقات ... بل ينسبها الى أحد التجار .

وبالنسبة لكتاب : **تحفة الألباب** ، انظر ما جاء عنه لدى : انخل جنثالث بالنثيا فى : **تاريخ الفكر الاندلسى** ، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس ، الطبعة الأولى (القاهرة : مكتب النهضة المصرية ، ١٩٥٥م) حيث يرى بالنثيا ان اسم كتاب ابى حامد الغرناطى هو : **تحفة الاصحاب ونخبة الاعجاب** . انظر ص : ٣١٢ ، بينما الأبشيهى وهو من رجال القرن التاسع الهجرى (ت: ٨٥٠ هـ) تقريبا يشير فى مواضع متفرقة من كتابه المستطرف ... الى الشيخ عبد الله صاحب كتاب : **تحفة الألباب** .انظر الصفحات ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ . وهذا ما يقوى الاحتمال بان مسمى : **تحفة الألباب** ، أقرب الى الصواب مما يذهب اليه السيد بالنثيا ، وهو : **تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب** . سيما وان الكتاب المتداول الآن يحمل العنوان الذى اورده الأبشيهى (!) .

وبالنسبة لترجمة أبى حامد الغرناطى ، فالمعلومات عنه مضطربة والمصادر لا تكاد تتفق على معلومات ثابتة عنه ، وبالأخص سلسلة نسبه . انظر : عبد الكريم بن محمد السمعانى ، **الانساب** ، تحقيق عبدالله عمر البارودى ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ) ، ٤/٢٨٧ - ٢٨٨ ، أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى ، **تاريخ الأدب الجغرافى العربى** ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الغرب الاسلامى ، ١٤٠٨هـ) ، صص ٣٢٦ - ٣٣٠ ؛ عبد الرحمن حميدة ، **أعلام الجغرافيين العرب** ، الطبعة الثانية (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٠هـ) ، صص ٢٢٩ - ٣٠٦ .

١٧ - الحميرى ، صص ، ٣٠٨ - ٣١٠ .

١٨ - ينقل الحميرى عن ابن خرداذبه ، أن عبدالله بن طاهر وصل سلام الترجمان بمائة الف درهم ووصل كل رجل معه بخمسة آلاف درهم.ص٣١١، بينما الذى جاء عند ابن خرداذبة : ان ابن طاهر وصل سلام بثمانية الافدرهم ووصلكل رجلكان معه بخمس مائة درهم .. انظر ابن خرداذبه، ص١٦٩، ويذكر الحميرى أيضا أن الرحلة من سرمن رأى والعودة اليها استغرقت ثمانية عشر

شهرا وعشرين يوما ، ص ٣١١ ، والصواب أنها ثمانية وعشرون شهرا وبضعة أيام ولعل هذا الخطأ مرده الى تصحيف وقع فيه بعض النساخ ٠

١٩ ـ أبو على أحمد بن عمر بن رسته ، **الأعلاق النفيسة** ويليه كتاب **البلدان لليعقوبى** ، نسخه مصورة عن طبعة ليدن ، ١٨٩٣م (بيروت : دار صادر) ، ص ٤٩ ٠

٢٠ ـ ياقوت بن عبدالله الحموى ، **معجم البلدان** ، (بيروت : دار صادر ، ١٣٧٦هـ) ، ٢٠٠/٣ ، ومن الاختلافات الواردة لدى ياقوت عما جاء لدى ابن خرداذبه قوله على لسان سلام الترجمان: « فهبت ريح سوداء فالقتهم الى جانبنا » ، ٢٠٠/٣ والصحيح فالقتهم الى جانبهم » أى الى جانب من هم خلف السد اى ياجوج وماجوج ٠ وكذلك قول ياقوت على لسان سلام الترجمان أن الرحلة استغرقت مثانية عشر شهرا فى الذهاب والاياب ، ٢٠٠/٣ ، والصواب حسب ما جاء لدى ابن خرداذبه ثمانية وعشرين شهرا وايام ٠

٢١ ـ ياقوت الحموى ، ٢٠٠/٣ ٠

٢٢ ـ أبو بكر بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه : **مختصر كتاب البلدان** (ليدن : ١٣٠٢ هـ) ، ص‌ص ٢٩٨ ـ ٣٠١ ٠

٢٣ ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى المقدسى ، **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** ، تحقيق د٠ محمد مخزوم (بيروت : دار احياء التراث العربى ، ١٤٠٨هـ) ، ص ٢٧٧ ٠

٢٤ ـ المقدسى ، ص ٢٧٩ ٠

٢٥ ـ محمد بن جرير الطبرى ، **جامع البيان عن تاويل آى القرآن** ، ١٥/١٦ ـ ٢٥ ٠

٢٦ ـ محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازى ، **التفسير الكبير** ، **الطبعة الأولى (القاهرة د : ت) ، ١٦٣/٢١ ـ ١٧١ ٠**

٢٧ ـ القرطبى ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ٥٢/١١ ـ ٦٥ ٠

٢٨ ـ انظر : كراتشكوفسكى ، ص ١٥٦

٢٩ ـ كراتشكوفسكى ، ص ١٥٧ ٠

٣٠ ـ كراتشكوفسكى ، ص ١٥٧ ٠

٣١ ـ كراتشكوفسكى ، ص ١٥٨ ، وانظر كذلك الآراء المتضاربة حول الرحلة فى العرض الشيق الذى قدمه كراتشكوفسكى عنها . صص : ١٥٧ ـ ١٥٩ .

٣٢ ـ كراتشكوفسكى ، ص ١٥٨ .

٣٣ ـ انظر : زكى محمد حسن ، **الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى** (بيروت : دار الرائد العربى ، ١٤٠١هـ) ، ص ١٧ .

٣٤ ـ حسين فوزى ، **حديث السندباد القديم** (بيروت : دار الكتاب اللبنانى ودار الكتاب المصرى ، ١٩٧٧م) ، ص ١٣٤ .

والجانب الذى ناقشه فوزى فى كتابه وأشار فيه الى رحلة سلام الترجمان هو : أسطورة الجارية التى خرجت من أذن السمكة ، حيث نقلها فوزى عن القزوينى فى كتابه : **عجائب المخلوقات...** حول نسبة هذه الرواية الى سلام ، انظر هامش ١٦ ، وعن رأى فوزى وتفسيره لأسطورة الجارية والسمكة راجع كتابه : حديث السندباد ... ص ١٣٥ .

٣٥ ـ زكى محمد حسن ، ص ١٥ ، ويلاحظ أن المؤلف يورد أسطورة السمكة والجارية وكذلك تفسير حسين فوزى لها ، صص : ١٧ ـ ١٨ . وهو يرى : أنه من المحتمل أن يكون سلام سمع من بعض العامة فى بلاد الخزر حديث السمكة فعلقت بذهنه ونسبها الى مشاهداته الخاصة . ص ١٨ .

٣٦ ـ على محسن مال‌الله ، **أدب الرحلات عند العرب فى المشرق** (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٧٨م) ، ص ٣١ .

٣٧ ـ مال الله ، ص ٣٥ ، وقد أخطأ السيد مال الله فى تقديره لمدة الرحلة من سرمن رأى والعودة اليها حيث قال : انها ثمانية عشر شهرا ، ناقلا ذلك من ابن خرداذبه ويبدو انه لم يكن دقيقا فيما نقله ، انظر : ابن خرداذبه ، ص ١٧٠ .

٣٨ ـ أحمد رمضان أحمد ، **الرحلة والرحالة المسلمون** (جدة : دار البيان العربى ، د : ت) ، صص ٣٩ ـ ٤٠ ، فى الحقيقة ان الدكتور أحمد رمضان فى حديثه الوجيز عن رحلة سلام كان يردد ما جاء عند حسين فوزى وزكى حسن خاصة ما جاء عن أسطورة الجارية والسمكة وله رأى فى ذلك حيث قال : « على أننا نرى

غير ما ذهب اليه الأستاذان حسين فوزى وكذا الدكتور زكى ، من أن القصة خرافية [الجارية والسمكة] بل هى حقيقة ، فهناك أسماك تسمى عروس البحر تشبه الى حد كبير الأنثى الآدمية وهى معروفة فى المتاحف ... » ص ٤٠ (!) .

٣٩ - حسين محمد فهيم ، **أدب الرحلات** ، سلسلة عالم المعرفة (الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٤٠٩هـ) صص : ٩٠ - ٩١ .

٤٠ - انظر : كراتشكوفسكى ، ص ١٥٧ ، ١٥٩ .

المصادر والمراجع

— الأبشيهى، شهاب الدين بن محمد، **المستطرف فى كل فن مستظرف**، تحقيق عبد الله انيس الطباع (بيروت : دار القلم ، ١٩٨١م).

— أحمد ، رمضان أحمد **الرحلة والرحالة المسلمون** (جدة : دارالبيان العربى ، د : ت) .

— الادريسى ، أبو عبدالله محمد بن محمد ، **نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق** ، الطبعة الأولى (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ) .

— بالنيثا ، انخل جنثالث ، **تاريخ الفكر الأندلسى** ، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس ، الطبعة الأولى (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م) .

— البخارى ، محمد بن اسماعيل ، **صحيح البخارى** ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، الطبعة الرابعة (دمشق وبيروت : دار ابن كثير واليمامة ، ١٤١٠هـ) .

— الترمذى ، محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، **سنن الترمذى** ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، الطبعة الثانية (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٨٩هـ) .

— الثعلبى ، أبو اسحاق أحمد بن محمد النيسابورى ، **قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس** ، الطبعة الرابعة (بيروت (بيروت : دار الرائد العربى ، د : ت) .

— حسن ، زكى محمد ، **الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى** (بيروت : دار الرائد العربى ، ١٤٠١هـ) .

— حميدة ، عبد الرحمن ، **أعلام الجغرافيين العرب** ، الطبعةالثانية (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٠هـ) .

— الحميرى ، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار فى خبر الأقطار**، تحقيق احسان عباس (بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٥م) .

— الحموى ، ياقوت بن عبد الله ، **معجم البلدان** (بيروت : دار صادر ، ١٣٧٦هـ) .

— ابن حنبل ، أحمد ، **المسند** (القاهرة : مؤسسة قرطبة، د : ت).

— ابن خرداذبه ، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله ، **المسالك والممالك** ويليه نبذ من **كتاب الخراج** لأبى جعفر قدامة بن جعفر البغداد ، نسخة مصورة عن طبعة ليدن١٨٨٩م (بيروت : دار صادر،د:ت) .

— ابن خلدون ، عبد الرحمن ، **المقـــدمة** ، (القاهرة : دار الشعب ، د : ت) .

— الدميرى ، كمال الدين محمد بن موسى ، **حياة الحيوان الكبرى** ، ويليه **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات** لزكريا بن محمد بن محمود القزوينى ، الطبعة الخامسة (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٩٨هـ) .

— الرازى ، محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين ، **التفسير الكبير** ، الطبعة الأولى (القاهرة ، د : ت) .

— ابن رسته ، أبو على أحمد بن عمر ، **الأعلاق النفيسة** ، ويليه كتاب البلدان لليعقوبى ، نسخة مصـــورة عن طبعة ليـــدن ، ١٨٩٣م (بيروت : دار صادر ، د : ت) .

— السمعانى ، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ، **الأنساب** ، تحقيق عبدالله عمر البارودى ، الطبعـــة الأولى (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ)

— الطبرى ، محمد بن جرير **جامع البيان عن تأويل آى القــرآن** ، الطبعة الثانية (القاهرة : مطبعة الحلبى ، ١٣٧٣هـ) .

— **تاريخ الرسل والملوك** ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الرابعة (القاهرة : دار المعارف ، د : ت) .

— الغرناطى ، أبو حامد الأندلسى الغرناطى ، محمد بن عبد الرحيم ، **تحفة الألباب** ، نشرة غابريال فيران (باريس ، ١٩٢٥م) .

— ابن الفقيه ، أبو بكر ، أحمد بن محمد الهمذانى ، **مختصر كتاب البلدان** (ليدن : ١٣٠٢هـ).

— فوزى ، حسين ، **حديث السندباد القديم** (بيروت : دار الـــكتاب اللبنانى ودار الكتاب المصرى ، ١٩٧٧م) .

— فهيم ، حسين محمد ، أدب الرحـــلات ، سلسلة عالم المعـــرفة (الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٤٠٩هـ).

— القرطبى ، محمد بن أحمد الانصارى ، **الجامع لأحكام القــرآن** (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦٠هـ) .

— القزوينى ، زكريا بن محمد بن محمود ، **آثار البلاد وأخبار العباد** (بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤هـ) .

— **عجائب المخلوقات وغــرائب الموجودات** ، بذيل **حيــاة الحيوان الكبرى** للدميرى ، الطبعة الخامسة (القاهرة : مطبعة البــاب الحلبى ، ١٣٩٨ هـ) .

— كراتشكوفسكى ، اغناطيوس يوليانوفيتش ، **تاريخ الأدب الجغرافى العربى** ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشــم ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الغرب الاسلامى ، ١٤٠٨هـ) .

— ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى ، **البداية والنهاية**، تحقيق أحمد ابو ملحم وزملاؤه (بيروت : دار الكتب العلمية ، د : ت) .

— ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزوينى ، **سنن ابن ماجة** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (بيروت : المكتبة العلمية ، د : ت).

— مال الله ، على محسن ، **أدب الرحلات عند العــرب فى المشرق** (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٧٨م) .

— مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيرى ، **صحيح مسلم** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤٠٣هـ).

— المقدسى ، أبو عبدالله محمد بن احمد البشارى ، **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** ، تحقيق د. محمد مخزوم (بيروت : دار احياء التراث العربى ، ١٤٠٨هـ) .

— ابن النديم ، محمد بن اسحاق النديم الوراق ، **الفهرســت** ، تحقيق رضا تجدد ، الطبعة الثالثة (د : ذ ، دار المسيرة ، ١٩٨٨م) .

— النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الواحد ، **نهاية الأرب فى فنون الأدب** (القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٢هـ) .

« الهجرات العربية وانتشار الاسلام فى بلاد شرق افريقية فى العصور الوسطى »

د٠ غيثان بن على بن جريس(*)

اثبتت الكشوف والبحوث التاريخية والأثرية وجود صلات قديمة ومستمرة ذات صبغة اقتصادية أو دينية بين شعوب شرق افريقية والعالم الخارجى ، وذلك منذ اقدم العصور التاريخية ٠ ومن بين البلاد التى كانت لها صلات بشعوب الساحل الشرقىلافريقية نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، الصين والهند ومصر القديمة وبلاد الرافدين ٠ على أن العرب كانوا أهم تلك الشعوب التى اتصلت ببلاد الساحل الافريقى منذ القدم ، وساعد على ذلك عامل القرب الجغرافى ، ونظام الرياح الموسمية الذى ساعد الملاحة فى بحر العرب وتوجيه السفن بحذاء الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية فى اتجاه الشاطىء الشرقى لافريقية(١) ومن الثابت أن العرب تقدموا فى فنون الملاحة منذ القدم على ايام دول معين وسبأ وحمير ٠ وكان للمعينيين بصفة خاصة نشاط بحرى واسع امتد الى بلاد بعيدة فى الشمال ، والخليج العربى فى الشرق ، وسواحل شرق افريقية ٠

وبعد معين تتابعت الدول فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية، فحملت دولة سبأ ثم دولة حمير لواء النشاط البحرى التجارى ؛ ونهضت هاتان الدولتان بدور كبير فى الوساطة التجارية بين شواطىء شرق افريقية من جهة والعالم الخارجى من جهة اخرى(٢) وتشير المصادر الى انه فى العصر الحميرى الأول (١١٥ ق٠م ــ ٣٠٠م) ، نزحت جماعات من اليمن وحضرموت الى الساحل الأفريقى ، ووضعوا أساس الحضارة التى لم تلبث أن ازدهرت فى بلاد الحبشة ، وظلت

(*) استاذ التاريخ الاسلامى المشارك ورئيس قسم التاريخ ــ كلية التربية ــ أبها ــ جامعة الملك سعود ٠

تغذيها هجرات عربية متعددة . ويرجع تأسيس دولة اكسوم الحبشية فى القرن الأول للميلاد الى هذه الجماعات العربية المهاجرة ، حتى غدت اكسوم نواة الدولة الحبشية فيما بعد . ولم يقتصر نفوذ العرب الجنوبيين على الحبشة ، بل توغلوا الى جنوب وادى النيل الأوسط(٣) .

وبخصوص علاقة بلاد العرب ببلاد شرق افريقية قبل الاسلام ، يمكن أن نجمل القول بأن هذه العلاقة أتخذت محورين ، الأول هو علاقة العرب ببلاد الحبشة ، والثانى ، هو اتصال العرب بشعوب أرض الزنج المطلة على المحيط الهندى(٤) أو بحر الهند .

أما عن اتصال العرب ببلاد الحبشة قبل الاسلام ، فتدل المعلومات التى أوردها الكتاب والمؤرخون من اليونان والرومان ، على أن البلاد التى نعتوها بكلمة (اثيوبيا) تعنى المساحات الشاسعة الممتدة جنوبى مصر من افريقية غربا الى آسيا ، وهى المنطقة التى تسكنها عناصر من ذوى البشرة المحترقة أو السمراء او الزيتونية اللون . أما كلمة الحبشة ، ومنها الأحباش ، وهو اللفظ الذى صار فى اللغات الأجنبية (Abyssinia) فيرجع أصلها الى قبيلة عربية هى «حبشت» الساميه التى عبرت البحر الأحمر ، مهاجرة من جنوب بلاد العرب ، واستقرت فى افريقية(٥) . ويرجح أن ذلك تم فى الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد . والغالب أن الموطن الأصلى لهذه القبيلة هو بلاد اليمن . ولما كانت اليمن قد حققت قدرا كبيرا من التقدم والعمران فى ظل ملوك سبأ ، فان هذه القبيلة لاشك كانت أرفع حضارة واسمى مدنية من أهل البلاد الأصليين على الساحل الافريقى ، وهم الذين استقر الأحباش بينهم . ولم تلبث قبيلة حبشت أن حققت لنفسها السيادة فى موطنها الجديد ، وصبغت البلاد بالصبغة الحضارية التى تميزت بها . غير أن أهل البلاد الأصليين لم ينظروا بعين الارتياح أو الرضا الى سيادة هؤلاء الأغراب.ومع ذلك لم يكد يستهل القرن الرابع للميلاد حتى غلب اسم هذه القبيلة السامية على المنطقة التى استوطنتها ، وعلى اهل البلاد انفسهم ، فغدا الجميع احباشا ، واصبحت كلمة الحبشة ترادف اثيوبيا(٦) . أما الحدود القديمة لهذه المنطقة فكانت تمتد من النيل

غربا الى بحر القلزم شرقا ، ومن النوبة شمالا الى ما وراء خط الاستواء جنوبا . وبمعنى آخر فان الحبشة أو اثيوبيا شملت فى ذلك الدور ما هو معروف حاليا باسم بلاد السودان والحبشة وارتيريا والصومال(٧) .

أما المحور الثانى فيدور حول علاقة العرب بالزنج . ومن المرجح أن بلاد الزنج كانت فى المصطلح العربى تشمل المنطقة الممتدة من راس جوردافوى فى شمال الصومال الى رأس دلجادو فى موزمبيق أو سوفالا فى روديسيا . وبعبارة أدق فان هذه المنطقة تحتل مساحة كبيرة فى شرق افريقية ، وتمتد بين خطى عرض ٥ شمالا و ١٠ جنوبا . وكان العرب من أهم الأمم التى اتصلت بالزنج منذ القدم وابقاهم أثرا فى تلك البقعة، وذلك فى الفترة السابقة على ظهور الاســـلام بقرون . ويبدو أن العامل الاقتصادى والسعى وراء الحاصلات والثروات الموسمية لنقلها الى العالم الخارجى ـ كما سبق القول ـ كان من أهم العوامل التى شجعت العرب على ارتياد تلك البلاد . فلما ظهر الاسلام نشطت الدعوة الاسلامية فى بلاد شرق افريقية ، وتعاقبت بعد ذلك الهجرات العربية والاسلامية التى كان لها الفضل الكبير فى نشر الاسلام والثقافة الاسلامية فى تلك البـــلاد . وهكذا تعددت دوافع الهجرات العربية الى الحبشة وأرض الزنج ما بين دينية وسياسية ، فضلا عن العامل الاقتصادى الذى كان بارزا فى جميع الأحيـــان(٨) .

والواقع ان الدعوة للدين الاسلامى نشطت فى اثيوبيا منذ ظهور الاسلام . ويمكن أن يؤرخ لدخول الاسلام فى اثيوبيا بهجرة المســلمين الأولى.واظهار النجاشى ارماح (اصمحه) للاسلام . وبعد ذلك كثر توافد المسلمين لتحقيق مصالح تجارية بعد ان توحدت بلاد العرب ، واضحى العرب المسلمون يتحكمون فى طـرق القوافل داخل الجـزيرة العربية ولا سيما بين عدن وصنعاء . ولم يلبث ان اسهم المسلمون بنشاط كبير فى التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق بحر القلزم . وكان ان عبرت جماعات من تجار العرب الى بلاد الساحل الغربى لبحر القلزم ، بل ان بعضهم اجتاز الحدود الحبشية واسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج داخل بلاد الحبشة . كذلك استطاع العرب المسلمون بنشاطهم أن يتحكموا

فى ميناء عدوليس Adulis وهو ثغر الحبشة ، مما أدى الى حرمان الحبشة من استخدامه ، والى قطع صلاتها بالعالم الخارجى الا عن طريق العرب الذين فرضوا حصارا على تجارة الحبشة الخارجية ، حتى انتهى الأمر بالقضاء على تجارة الحبشة الخارجية وتناقص عدد التجار الأجانب من غير العرب بدولة اكسوم(٩) .

وفى الوقت الذى أخذت مملكة اكسوم تسير فى طريق الانحطاط ، كان الاسلام يتقدم بخطى واسعة من الساحل الى الداخل ، فاعتنقته القبائل التى تسكن شواطىء ارتيريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجرى ، كما انتشر فى جزء من قبيلة البلين وفى معظم قبائل البحر كالبنى عامر والهدندوة . كذلك انتشر الاسلام بين كل القبائل المتفرقة المسماة «الجبرته» فى ارتيريا ، وفى قبيلة الدناقل (الدناكل) فى اثيوبيا والصومال . وتكونت على اثر ذلك مراكز استقرار عربية اسلامية على طول الساحل الشرقى لأفريقية، امتدت من سواكن على الساحل الغربى لبحر القلزم الى مقديشو ومركه وبراوه (فى الصومال)، وممبسة ومالندى (فى كينيا حاليا) ، وزنجبار وكلوه (تنزانيا حاليا) على المحيط الهندى(١٠) .

أما فى داخل اثيوبيا فقد امتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم ، وأخذ الاسلام ينتشر تدريجيا ، فاعتنقته عناصر الساهو والعفر فى شرق بلاد الحبشة ، كما امتد الى مناطق السيدامو وشوا الشرقية فى جنوب الحبشة(١١) . ولقد ساعد فى سيطرة العرب المسلمين على تلك الجهات ، انهم تمكنوا من احتلال المناطق الاستراتيجية فى بحر القلزم وبحر العرب ، ومن أهم تلك المناطق مجموعة جزر الدهلك التى استولى عليها المسلمون زمن الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ٥٦ - ٩٩هـ ٧١٥ - ٧١٨م) ، وتتكون هذه المجموعة من عدة جزائر أهمها : دهل وحرات وكيارى ودركه ونوره ونقره وكمران ، والأخيرة كبرى جزر هذه المجموعة(١٢) . كذلك تمكن العرب من احتلال جزر مافيا وبمبا وزنجبار فى المحيط الهندى(١٣) . ومن المناطق الهامة التى استقر فيها

العرب ، ونشروا فيها الاسلام ، منطقة البجه على الساحل الغربى لبحر القلزم . ومن البجه الذين اعتنقوا الاسلام وتحمسوا له قبيلة بنى عامر وقبيلة الهدندوة والبشاريين والأمرار . وقـــد كثر المسلمون فى بلادهم بسبب غنى منطقة البجه بمعـــادن الذهب والزمرد والفضـــه والنحاس والرصاص والحديد .وامتزج العرب بالبجاويين وصاهروهم ، وكان من نتيجة هذا دخول كثير من أهل البجه فى الاسلام . وهكذا تزايد عـــدد المسلمين المهاجرين والمقيمين فى منطقة المعادن بالبجه . واشهر القبائل العربية التى استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان ، الا ان قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر ، حتى ســادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين(١٤) .

وفى داخل الحبشة ، تاسست مملكة اسلامية ، عرفت باسم شوا ، نسبة الى المنطقة التى سادت فيها وهى شوا الشرقية . وقد اشارت المصادر الى أن تلك المملكة قامت فى نهاية القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) ٢٨٢هـ = ٨٩٦م) بزعامة أسرة عـــربية تنتسب الى قبيلة مخزوم القرشية ، وهى التى ينسب اليها خالد بن الوليـــد . ويقال أن اسلاف هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب برئاسة ود بن هشام لتستقر هناك فى منطقة من أخصب مناطقها وهى منطقة شـــوا(١٥) . كذلك قامت فى الحبشة مشيخات اســـلامية أخرى فى مناطق عـــدال (Adal) ومـــورا (Mora) وهـــوبات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) . غير أن هـــذه الوحدات جميعا لم تعمر طويلا نظرا للخلافات والتنافس فيما بينها ، فضلا عن أن جهودها كانت منصبة على شــئون التجارة ، ولا ســـيما تجارة الرقيق ، لذا سرعان ما طوتها أقوى الامارات الاسلامية فى الوطن الحبشى وهى امارة أوفات(١٦) .

وتقع الفترة البارزة فى التوسع الاسلامى فى اثيوبيا بين القرنين الرابع والســادس الهجريين (العاشر والثانى عشر الميلاديين) وتمثل هذه الفترة عصر التوسع الهادىء المنظم للاســلام دينا ودولة ، سواء من ناحية نشر العقيدة الاسلامية، أو دعم سلطان الممالك الاسلامية ، ولو على

حساب بعضها البعض داخل الحبشـــة • وفى تلك الفترة دخلت منطقة نهر جوبا فى الاسلام حوالى عام ١١٠٨م ، وبذلك امتد نفوذ العرب حتى منطقة البحيرات العظمى(١٧) •

وهكذا امتدت الرقعة الاسلامية داخل الحبشة ، امتدادا واسعا . فاصبحت تحيط بالحبشـــة من الناحية الشرقية فى افريقية ، وتواجه اليمن فى الجزيرة العربية • لذلك وصف المؤرخون تلك المنطقة باقليم الطراز الاسلامى « لانها على جانب البحر كالطراز له »(١٨)• واشتهرت فى منطقة الطراز الاسلامى سبع ممالك هى : أوفات ، دوارو ، ارابينى ، هديه ، شرخا ، بالى ، وداره(١٩)• وارتبطت هذه الممالك الاسلامية بالعالم الاسلامى الخارجى ، وتوطـــدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم والاتصال بالفقهاء فى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة وغيرها من مراكز الحضارة الاسلامية • وتعتبر سلطنة اوفات أقوى سلطنة اسلامية قامت فى اثيوبيا بسبب تحكمها فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع ، وقد أسسها قـــوم من قريش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب • وسلطنة اوفات هى التى تزعمت حركةالجهاد ضد الحبشةالمسيحية(٢٠)•ويمكن القول ان الرقعة الاســلامية فى الحبشة فاقت فى مساحتها أراضى مملـكة الحبشـة المسيحية ، الأمر الذى أدى الى عزل مملكة الحبشة عزلا تاما عن العالم الخارجى ، ولا سيما بعد استيلاء العرب على ميناء عدل قرب مصوع (فى ارتيريا حاليا) ، وهو مخرج اثيوبيا الوحيد الى بحر القلزم از البحر الأحمر ، مما أدى الى تدهور أحوال الحبشة(٢١) ، كما سبق ان أوضحنا •

أما عن أهم العوامل التى أدت الى انتشار الاســـلام فى اثيوبيا ، فالمعروف أن اثيوبيا تواجه جزيرة العـــرب ولا يفصل بينهما الا البحر الأحمر • والملاحة فى البحر الأحمر ســهلة طـــول العام ، فلا تهب به زوابع واعاصير الا بضعة ايام فى السنة ولا تستمر هذه الرياح طويلا • يضاف الى ذلك ظروف الحياة القاسـية فى جزيرة العـــرب ، فهى بلد صحراوى اعتمد أهلها على الرعى ونقل التجارة ، بينما كانت الحياة

على الساحل الغربى انعم واهدأ لخصب الأرض وكثرة المطر واشتغال عدد كبير من السكان بالزراعة(٢٢) • وكانت اثيوبيا منذ القدم المهجر الطبيعى لسكان الجزيرة العربية • يضاف الى هذه العوامل عامل احر وهو كثرة الحروب فى الجزيرة العربية مما دفع بالمغلوبين الى الهجرة حيث الامان والحرية • وكانت اثيوبيا أحد الأسواق الهامة التى يقصدها العرب لحمل التجارة منها واليها ، فازدحم البحر الاحمر بالسفن التى تنقل تجارة اثيوبيا الى المراكز العربية التجارية ، وكانت اليمن أهمها، ومنها تنقل التجارة عبر الجزيرة العربية الى الشـــام والعراق وفارس والهند • وبفضل هجرة المسلمين الى الحبشـــة زمن الرسول (ﷺ) ، استمرت العلاقات التجارية قائمة ومستمرة بين اثيوبيا وجزيرة العرب، اذ حمل المهاجرون والتجار الجدد اسلامهم معهم ، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر فى اثيوبيا ويتغلغل صحبة هؤلاء التجار • ثم تقدمت الحضارة وازدهرت فى الدولة الاسلامية تحت حكم الأمويين فالعباسيين ، فنشطت الحركة التجارية ، ونشطت المراكز التجارية وازدحمت بالعرب النازلين فيها ، والذين توغلوا فى الداخل فى طلب الحاصلات الافريقية ، فازداد عدد العرب المسلمين • وثمة عامل هام أدى الى انتشار الاســـلام فى اثيوبيا ، وظهور الامارات الاسلامية فيها ، هو أن الأحـــداث المتتالية التى تعرضت لها الدولة ، سواء أكانت أحداثا سياسية أو اقتصادية دعت كثيرين الى الهجرة • وأول تلك الأحـــداث التى تعرضـــت لها الدولة الاسلامية فى فجر تاريخها هى حركة الردة • وكان اليمنيون والحضارمة اول هؤلاء المهاجرين الى اثيوبيا نتيجة لحروب الردة وقد حمل هؤلاء اسلامهم معهم ولم يرتدوا عنه • وفى أيام الأمويين هاجـــرت جماعات عربية كبيرة الى ساحل شرق افريقية،أهمها جماعة الزيدية - التى سيرد تفصيلها - الأمر الذى جعل الأمويين يستولون على جزر الدهلك لمراقبة الجماعات العربية التى قصدت اثيـــوبيا وغيرها فـــرارا من بطش بنى أمية(٢٣) • ولما حل العباسيون محل الأمويين فى الخـــلافة والحكم ، هاجر الأخيرون واتباعهم الى مناطق مختلفة ، بعضهم الى شرق افريقية، فأستقرت جماعات منهم فى بلاد النوبة ، وواصل بعضهم السير الى اعالى النيل ، وذهب آخرون الى مصـــوع ، واستقر اخـــوان لهم فى اثيوبيا والصومال(٢٤) • وأدت الفتن التى انتشرت خـــلال حـــكم العباسيين

كالصراع بين الأمين والمأمون والنزاع بين الشيعة والعباسيين من جهة ، والعباسيين والخوارج من جهة أخرى ، الى هجرة بعض القبائل العربية الى اثيوبيا حيث الأمن والاستقرار بالاضافه الى الخصب ووفرة الموارد . وقد نمت العلاقات بين مسلمى الحبشة والعواصم الاسلامية الكبرى فى ذلك الوقت . واخذ مسلمو الحبشة يبعثون ابناءهم الى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة وغيرها لطلب العلم على أيدى كبار الفقهاء المعاصرين. وساعد على انتشار الاسلام فى اثيوبيا فى بعض المناطق عدة عوامل، منها انسحاب الاثيوبيين المسيحيين الى الداخل وتخليهم عن بعض المناطق الساحلية الصحراوية الجافة الحارة ليحتلها المسلمون . وهكذا انتشر الاسلام عن رضى وعقيدة واقتناع ، ولمس كثيرون فى الاسلام المساواه والحرية ، فضلا عن ان الاسلام شكل لهم خلاصا من الرق ودرعا يحميهم من الوقوع فى ايدى تجار الرقيق . ويفسر ذلك وقوف كثيرين من اهالى البلاد بجانب العرب دعاة للدعوة الاسلامية وحملة للواء الثقافة الاسلامية (٢٥) .

أما الجزء المعروف بارتيريا والصومال فالراجح أنه عرف الاسلام فى حياة الرسول (ﷺ) اذ اشارت بعض الروايات الى أن جعفر بن ابى طالب حينما خرج مهاجرا أسس فى طريقه مراكز للدعوة فى ارتيريا والصومال ، بمساعدة القبائل العربية المستوطنة هناك . ولم يلبث أن صار الصوماليون من اكبر المتحمسين لنشر الدعوة الاسلامية بل ان الصومال غدا بلدا اسلاميا منذ فجر الاسلام ، وبداية انتشاره(٢٦) ومنذ ذلك الحين ، ومع ازدياد قوة العرب المسلمين وتفوقهم البحرى ، وسيطرتهم على الملاحة فى بحرى العرب والهند ، توافدت على ساحل الزنج الافريقى مجموعات ضخمة من دعاة المسلمين العرب ، فأنشاوا المراكز العربية للتجارة ونشر الدعوة . ومن اهم هذه المراكز مقديشو وممبسة وبراوة ومركه ومالندى وكلوه وزنجبار . وكانت الهجرات العربية التى حدثت أيام الفتنة الكبرى وفى اعقاب مقتل الخليفة الثالث عثمان ابن عفان وخلافة على بن ابى طالب من أهم الهجرات العربية التى استقرت على ساحل شرق افريقية . والراجح أن المهاجرين فى تلك المرحلة كان معظمهم من الخوارج الذين هزمهم على بن ابى طالب فى موقعة

النهروان • وفى أيام دولة بنى أمية هاجرت جماعات عربية من بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية ، واسسوا لهم دولة صغيرة بالقرب من لامو (فى الصومال) • وكانت تلك الهجرة فى خلافة عبد الملك بن مروان • وهكذا يبدو ان معظم الهجرات العـــربيه الى افريقية فى تلك المرحلة جاءت نتيجة للاضطرابات التى سادت البلاد الاسلامية وخاصه بسبب خروج عبد الله بن الزبير،وحركة الخوارج،وحركة عبدالرحمن بن الاشعث الملقب باسد الفرات • وقد أرسل عبد الملك بن مروان فى اعقاب تلك الهجرات الى شرق افريقية فرقة عربية يقودها أخوه حمزة • وقد نجحت تلك الفرقة فى تاسيس مدن تطورت واصبحت امارات عـــربية هامة مثل بيت ومالندى وممبسة وزنجبار ، وقامت بدور كبير فى نشر الاسلام بين القبـــائل الافريقية التى كان من أهمها البـــانتو والزولو والبوشمن(٢٧) •

كذلك نسمع فى زمن عبـــد الملك بن مـــروان (٦٥هـ - ٨٥هـ) (٦٨٥ - ٧٠٥م) عن هجرة سليمان وسعيد الجلندى ، وهما شـــيخان عربيان من عمان من العبادية من قبيلة الأزد وهما من شـــيوخ العــرب الذين ثاروا فى وجه الخليفة عبد الملك • وقد وصل هؤلاء المهاجرون الى أرخبيل لامو (على ساحل الصومالى) الذى يتمتع بخصائص هامة،منها خصوبة الأرض ، وصلاحية مينائه العظيم للرسـو والاقـــلاع ، بجانب الوفرة فى منتجات تلك البلاد المتمثلة فى العاج والذهب والصوف والجلد والتوابل والأخشاب ، بالاضافة الى عنصر الرقيق(٢٨) • ولم نلبث أن أصبحت منطقة ارخبيل لامو من أهم مناطق الدعوة الاسلامية على طول الســـاحل الافريقى ، ومن ثم الى الداخـــل فى كينيـــا وأوغنـــده وتنجانيقا(٢٩) •

ومن الهجرات العربيةالهامة التى ساعدت على نشر الاسلام والثقافة الاسلامية فى أرض الزنج الاسلامية على الساحل الافريقى الشرقى، هجرة العرب الزيدية التى حدثت فى آواخر أيام الدولة الأموية ، زمن هشام بن عبـــد الملك بن مروان • وهؤلاء الزيدية هم أتبـــاع زيد بن على زين العابدين الذى تصدت له جيوش الأمويين زمن خلافة هشام بن عبد الملك

١٠٥ - ١٢٥هـ (٧٢٤ - ٧٤٣م) ، حتى انتهى الأمر بمقتله عام (١٢٢هـ)، وفرار اتباعه الى جهات كثيرة من اهمها ساحل شرق افريقية • وبوصول هذه الجماعة الى مقديشو ، تمكنوا من بسط نفوذهم على منطقة بنادر ثم كونوا لهم دوله عاشت على الساحل اكثر من مائتى سنه • وكانت لهم جهود كبيرة فى نشر الاسلام وزراعة الاراضى بعد أن استفادوا فائدة كبيرة من مياه نهرى جوبا وشبيلى • على ان الظروف اضطرتهم بعد ذلك الى الانسحاب من الساحل الى الداخل بسبب مجىء هجرة عربية اخرى ، - هى هجرة الاخوة السبعة - من ساحل الاحساء ، فرارا من أعمال القرامطة الوحشية فى الجزيرة العربية ،فجاء الاخوة السبعة الى ساحل افريقية الشرقى - وهم شافعية المذهب - فاصطدموا عام ٩١٣م بجماعة الزيدية الشيعة الذين حلت بهم الهزيمة وانسحبوا الى الداخل الافريقى، حيث رحبت بهم جماعات افريقية فى داخل الصومال وكينيا ، هى جماعات قبائل الجالا التى اعتنقت الاسلام على ايديهم(٣٠) •

وقد حدثت هجرة الأخوة السبعة فى خلال العصر العباسى الثانى، وهى من الهجرات العربية الهامة الى ساحل شرق افريقية • وكانت بداية حركتهم فى مستهل القرن التاسع فى حوالى عام ٣٠١هـ (٩١٣م) من الاحساء عاصمة دولة القرامطة ، الذين نشروا الرعب فى انحاء الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق • وتمكن الأخوة السبعة فى فترة وجيزة من الاستيلاء على معظم أجزاء الساحل ، وعلى الأخص ساحل بنادر الذى يشمل معظم بلاد الصومال المطلة على بحر الهند • وامتد نفوذ هذه الجماعة العربية الى جنوبى ممبسة ، كما وصلوا الى جزيرة مدغشقر • ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبح ساحل الصومال شافعيا على المذهب السنى(٣١)• وهكذا تمكن الأخوة السبعة من تكوين دولة قوية عاصمتها مقديشو استمرت من عام ٩١٣ - الى عام ٩٧٥م ، عندما وصلت جماعة اسلامية أخرى قضت على تلك الدولة • وكانت الجماعة الجديدة فارسية، كونت لها دولة استمرت منذ ذلك التاريخ حتى ظهور البرتغاليين على الساحل الافريقى فى عام ١٤٩٧م(٣٢) •



ومن خلال هذا العرض السريع لموجات الهجرات العربيةالمتلاحقة فى اثيوبيا وارض الزنج يمكن ان نقول ان الاسلام واللغة العربية ، قد حققا نجاحا كبيرا فى تلك البلاد ، الامر الذى أدى الى تقدمها وتطورها تحت مظلة الاسلام . هذا الى ان الاسلام أدى الى تهذيب عادات السكان وطور احوالهم . وظلت المدن والمراكز والامارات التى امها أو اسسها المسلمون فى شرقى افريقية طوال قرون عديدة مراكز نشاط ومدنية ، وقواعد لنشر الثقافة الاسلامية بين القبائل الافريقية على الساحل وفى داخلية البلاد . وقد تطورت هذه المدن والمراكز الاسلامية بفضل نشاط العلماء والفقهاء الذين وفدوا اليها من مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس وغيرها من مراكز الحضارة الاسلامية . وأدى هذا كله الى تجاوز شهرة بعض هذه المدن الاسلامية الزاهرة حدود الساحل الافريقى امثال : زيلع ومقديشو وبراوه ومركه ولامو وممبسه ومالندى وكلوه وسوفالا . يضاف الى ذلك جزر زنجبار وبمبا ومافيا، التى ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية ، وغلبت عليها الصبغة العربية طوال فترة العصور الوسطى . ذلك أن العرب فى تلك البلاد أسهموا بالآداب فى اشاعة جو حضارى ظهرت آثاره فى بقية المجتمعات التى تعيش على هذا الساحل الافريقى فضلا عن داخلية البلاد . وقد ظلت الحضارة الاسلامية قائمة حتى ولى نفوذ العرب السياسى بمجىء البرتغاليين الى الساحل الافريقى فى ختام القرن الخامس عشر للميلاد(٣٣) .

ولابد من القول أن أعلام المسلمين فى أثيوبيا وبلاد ساحل الزنج، فكروا بالعقلية العربية الاسلامية ، وكتبوا باللغة العربية ، وهم فى انتاجهم ونشاطهم انما يعبرون عن حضارة عربية واسلامية . ولا غرابة فى ذلك وهم الذين نبتوا فى ظل الاسلام وتعاليمه(٣٤) .

وقد قامت المدن التى أسسها العرب المهاجرون علىالساحل الافريقى بجهود مضنية فى نشر الاسلام بين قبائل الدناقل والجالا والبانتو الوثنية . ووجدت اللغة العربية فى تلك البلاد تربة خصبة للانتشار ، وظلت كذلك حتى عصر الاستعمار البرتغالى . وعندما وصل فاسكو داجاما الى الساحل الافريقى الشرقى عام ١٤٩٧م ، وجد معظم أهل هذه

البلاد يتكلم اللغة العربية ، كما وجد القرآن الكريم شريعتهم · ورأى البرتغاليون والأوربيون عددا كبيرا من المدارس التى تلقن القران الكريم واللغة العربية فى مقديشو وممبسه وكلوه وزيلع · كذلك وجد البرتغاليون ومن أعقبهم من المستعمرين الأوربيين ، جماعات من القبائل الافريقية تتقن اللغة العربية ، وتعنى بانشـاء المكاتب والمدارس الخاصة لتعليم القرآن الكريم ولغته · ورغم الجهود التى بذلها الاوروبيون للقضاء على اللغة العربية فى تلك الجهات ، وتحويل انظـار الافريقيين عن مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق والقاهرة وبغـداد وغيرها من عواصم العالم الاسلامى الكبرى ، فانهم فشلوا فشلا ذريعا ، اذ كان المسـلمون والمستعربون من الافريقيين يعمدون الى انشـاء مدارسـهم ومؤسسانهم الثقافية فى المناطق الوثنية النائية وبخاصة فى زنجبار وكينيا وتنزانيا · ولا تزال الى اليوم الاف الكلمات العربية تستعمل فى بلاد شرق افريقية فى شتى مظاهر الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية ، وفى الحـرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الاجتماعية ، حتى أسماء بعض النباتات والمدن والحيوان والاعلام(٣٥) ·

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم الاسلامية فى شرق افريقية بعهود الامارات الافريقية الاسلامية ، فقد غدت اللغة العربية ، اللغـة الرسمية السائده ، التى استخدمت فى شتى الأغراض ، كما استخدمت فى مجال الحكم والادارة والقضاء · ويكفى أنها غدت لغة المكاتبات الرسمية المتبادلة مع العالم الاسلامى الخارجى · ووجدت فى ديوان الانشاء بمصر زمن سلاطين المماليك صيغ عربية خاصة لمخاطبة حكام تلك البـلاد ، لابد من تصدير المكاتبات بها · كذلك كانت اللغة العربية هى السائدة فى تسجيل شواهد القبور ، وقد عثر على عـدد كبير منها فى المقابر فى مقديشو ولامو وبراوة(٣٦) · وهكذا غدا القلم العربى هو القلم المعروف فى بلاد الساحل الافريقى دون غيره وذلك قبل ظهور الاستعمار · كما صار الدين الاسلامى أساس التشريع والقضاء ومصدر القيم الروحية(٣٧) ·

ولا يفوتنا أن نشـير الى أن الازدهار والرخاء التجارى كانا من العوامل الأساسية التى ساعدت على قيام نهضة علمية وثقافية اسلامية

شامخة . وكان أن كثرت الخلاوى وانتشرت على طول الساحل ، وعقدت فيها حلقات الدرس . هذا ولم تقتصر العلوم الدينية على الرجال ، وانما أمتدت لتشمل النساء ايضا ، فقد نلن حظهن من تعلم القــرآن الكريم والعلوم الدينية واللغة العربية(٣٨) .

وبعد ، فانه يتضح من هذا العرض السريع ، أن دور العــرب كان بارزا فى كافة أوجه الحياة العامة فى بلاد شرق افريقية حتى أصبحت هذه البلاد اسلامية خالصة .



الهوامــــش

(١) للمزيد من التفصيلات أنظر ، جورج فاضلو حورانى · **العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة** · (القاهرة ، ١٩٥٨م) ص ٢١ ، ٢٤ _ ٢٥ ،

R.Reusch. **History of East Africa**(New York 1961)PP.11ff.
R.Coupland. **East Africa and its Invaders,** (Oxford 1938) P.P. 15-18.

(٢) أرض الزنج ممتدة من رأس جوردافوى شمالا جنوبى باب المندب بقليل ، على مقربة من الصومال الشمالى التى عرفها المؤرخون والجغرافيون فى العصور الوسطى بأسم بلاد بونت Paunt ، وتمتد أرض الزنج هذه الى بلاد سوفالا فى موزمبيق أو روديسيا ···· وبونت Paunt أو بنــت Punt ، مشتقة من أصول سامية تعنى أرض الجنوب الأقصى ، ويعتقد أن سكان بونت كانوا ينتشرون حتى رأس حافون بالقرب من سوفالا فى أقصى جنوب شرق أفريقية (روديسياحاليا) · وقد أشار المسعودى الى هذه المنطقة ببلاد جفونى · أنظر أبو الحسن على بن الحسين المسعودى : **مروج الذهب ومعادن الجوهر** · (القاهــرة ، ١٢٨٤هـ/١٩١٤م) جـ١ ، ص ١٠٧ ؛ حمدى السيد · الصومال (القاهرة ، ١٩٥٠م) ص ٣٦ ،
Reusch, Ibid, pp.11 ff.

(٣) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى · **معجم البــلدان** (بيروت ، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) جـ٢ ، ص ٣٤٢ وما بعدها ؛ عبد المجيـد عابدين : **بين الحبشــة والعرب** · (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ٢٤ ، أحمد فخرى : **دراسات فى تاريخ الشرق القديم** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ١٢٥ _ ١٢٦ ، جواد على · **المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام** (بغداد ، ١٩٧٧م)جـ١ ، ص ٤٤ _ ٤٦ ؛ غيثان على جريس · « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز فى صدر الاسلام » **مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية** (العدد الثامن ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص ٤١٢ وما بعدها ·

(٤) حسن ابراهيم حسن : **انتشار الاسلام فى القارة الافريقية** · (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٦ _ ٢٧ ،

C.N.**Stigand. The Land of Zing** (London, 1913) pp.29 ff. See also, Coupland, Op. Cit., pp.18 ff & Reusch pp.11-12, 13-14; A. Alwi Haji Hassan. "The Arabian Commercial Background in Pre Islamic time"**Islamic Culture** Vol. LXI-No-2 (1987) pp.78 ff.

(٥) ورد فى بعض المراجع العربية أن الحبش من نسل حبش بن كوش بن كنعان ابن حام بن نوح · انظر معلومات اكثر فى ، جلال الدين السيوطى : **ازهار العروس فى اخبار الحبوش** ، مخطوط ، ومصور عن نسخة بالاسكوريال ، ميكروفيلم رقم(٣٧) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) ؛ عبد الرحمن بن الجوزى ، **تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش** · مخطوط مصور عن نسخة بالاسكوريال ، ميكروفلم رقم (٣٩) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) ؛ الشاطر بوصيلى عبد الجليل : **معالم تاريخ السودان ووادى النيل** (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص ٧ ، الحفنى القنائى : **الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان** (مخطوط بدار الكتب بالقاهرة) ، عبد الحميد العبادى : « أحابيش قريش هل كانوا عربا أو حبشا » **مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة** (١٩٣٣م) جـ١ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ ؛ غيثان على جريس · **بحوث فى التاريخ والحضارة الاسلامية** · تقديم ومراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور (الاسكندرية ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) جـ١ ، ص ١١ وما بعدها ·

Patricia Crone. **Meccan Trade and the Rise of Islam** (Oxford, 1987) pp. 124 ff.

(٦) المسعودى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨١ ، الشاطر بوصيلى ، المرجع السابق ، ص ٧ وما بعدها ، يوسف فضل حسن : **دراسات فى تاريخ السودان** (جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م) جـ١ ، ص ٣ وما بعدها ، المر أحمد العراقى · « الاسلام ومراكز الثقافة الاسلامية فى اثيوبيا والصومال » **ندوة العلماء الافارقة ومساهمتهم فى الحضارة الاسلامية** · الخرطوم ٢٨/٣٠ يوليو / تموز (١٩٨٣م) (بغداد ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص١٦٤ وما بعدها ، عبد المجيد عابدين ، **المرجع السابق**، ص ١٦٧ ـ ١٦٩ ·

Sir E.A.W. Budge: **A History of Ethiopia & Abyssinia.** Vol.1,pp. 120.

(٧) رسمت حدود الحبشة الحالية بمقتضى معاهدة أديس أبابا (١٩٠٢) بينها وبين السودان ، وذلك من ناحية الشمال والشمال الغربى وحدودها الشمالية الشرقية ارتيريا والصومال باقسامه ، ويحدها من الجنوب أفريقية الشرقية البريطانية ·

See, Budge, Op.Cit, pp.122 ff; J.S. Trimingham. **Islam in Ethiopia** (London, 1962) pp.6-7.

(٨) حمدى السيد ، **المرجع السابق** ، ص ٣٦ ، جورج حورانى ، **المرجع السابق**، ص ٣١ وما بعدها ، مصطفى محمد مسعد · **الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى** (القاهرة ، ١٩٦٠م) ص ٥ وما بعدها ، المر أحمد العراقى « أرض الزنج الاسلامية فى العصور الوسطى » **مجلة كلية الآداب بجامعة ام درمان الاسلامية** (العدد (٢) ،

١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) ص ١٥٩ وما بعدها غيثان على جريس : العــــرب فى مقديشـــو وأثرهم فى الحياتين السياسية والثقافية فى ظل الاسلام ، **مجــلة المؤرخ العــربى** (القاهرة ، ١٩٩٣م) العدد الاول ، ص ١٢٩ وما بعدها ٠

Stigand, Op.Cit, pp. 29 ff; Reusch, Op.Cit, pp.11ff.

(٩) الشاطر بوصيلى ، المرجع السابق ، ص ٩ وما بعدها ، عبد المجيد عابدين، المرجع السابق ، ص ١٦ ــ ١٧ ، مصطفى مسعد ، المرجع السابق ، ص ١٦ ومابعدها أنظر كذلك :

H.R. Hall.**The Ancient History of the Near East** (London,1954) p.246; **Encyc., of Islam, Art.** "Abyssinia". p.99.

(١٠) ذكرت هذه المراكز مرتبة من الشمال الى الجنوب وآخرها سوفالا فى أقصى الجنوب وتقع قرب مصب نهر ريفى جنوبى نهــر زمبيرى ٠ وللمزيد من التفصيلات أنظر : يوسف فضل « انتشار الاسلام فى سودان وادى النيل » **ندوة العلماء الافارقة ومساهماتهم فى الحضارة الاسلامية (الخرطوم ٣٠/٢٨ يوليـــو / تموز ١٩٨٣م)** (بغداد ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ٢٥ وما بعدها ، السر العراقى ٠ « الاسلام ومركز الثقافة » ص ١٥٩ ،

Coupland, Op.Cit, pp.22-25.

(١١) أنظر ، المسعودى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥١ ــ ٥٢ ، السر العراقى « أرض الزنج الاسلامية ٠٠٠ » ص ١٥٨ وما بعدها ،

Stigand, Op.Cit,pp.30 ff; Trimingham, Op.Cit, pp.51-60.

(١٢) وللمزيد من التفصيلات ، الحفنى القنائى ، المصدر الســـابق ، ص ٩ وما بعدها ، المقريزى : **الالمام بمن بأرض الحبشة من ملوك الاسلام** (القاهرة ، د٠ت) ص ٢٢ ــ ٢٣ ، عبد الشافى غنيم عبد القادر « البحر الأحمر طريقا للدعوة الاسلامية» **البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة أبحاث الأسبوع العلمى ١٠ ــ ١٥ مارس ١٩٧٩م** (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ٧٨ وما بعدها ٠

(١٣) أنظر محمد حبيب : **كتاب المنمق فى أخبار قريش** ، تحقيق خورشيد أحمد فاروق ، (بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م) ص ٣١ وما بعدها ، غيثان على جريس «العرب فى مقديشو ٠٠٠ » ص ١٢٨ وما بعدها

Reusch, Ibid, PP.153ff; J.S. Trimingham. **Islam in East Africa** (London, 1964) PP.18-19; Enricu Ceruli. **Encyc. of Islam, Art.** "Makadishu". Vol. III, P. 165.

(١٤) للمزيد من التفصيلات أنظر محمد بن جرير الطبرى : **تاريخ الرسل والملوك،** تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (بيروت ، د٠ت) ج ٣ ، ص ٥٩٨ وما بعدها ، عبد الرحمن بن عبد الحكم ٠**كتاب فتوح مصر وأخبارها** (ليدن ، ١٩٢٠م) ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ، ١٨٨ ، أحمد البلاذرى : **فتوح البلدان** ، تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة، د٠ت) ٢٨٠ ـ ٢٨١ ، عبد الرحمن بن خلدون : **تاريخ بن خلدون** (بيروت ، د٠ت) ج٢ ، ص ٨٤ ـ ٩٠ ، ١١٤ ـ ١١٥ ، المسعودى ٠ المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٨٩، أبو العباس أحمد القلقشندى : **صبح الأعشى فى صناعة الانشاء** (القاهرة ، ١٩٠٦م) ج ٥ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ٠

(١٥) حمدى السيد ، **المرجع السابق** ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، عبد الرحمن زكى : **الاسلام والمسلمون فى شرق افريقية** (القاهرة ، ١٩٦٥م) ج ١ ، ص ٧٧ ، أنظر كذلك:

Trimingham, **Islam in Ethiopia** pp. 50-51.

(١٦) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج٥ ص ٣٢٤ ، السر أحمد العراقى ، « الاسلام ومراكز الثقافة ٠٠٠ » ص ١٥٨ وما بعدها ، غيثان على جريس ٠ **بحوث فى التاريخ والحضارة الاسلامية** ، ج١ ، ص ١١ وما بعدها ، ٢٦٠ ومابعدها ٠

Trimingham, Ibid, PP.62-3.

(١٧) Trimingham, Ibid, PP. 62-3.

(١٨) القلقشندى ، **المصدر السابق** ، ج٥ ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ ، عبد الرحمن زكى ، **المرجع السابق** ، ص ٧٧ وما بعدها ٠

(١٩) انظر ابن فضل الله العمرى : **مسالك الابصار فى ممالك الامصار** (القاهرة، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م) ج١ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ٠

(٢٠) أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ابن بطوطة ٠ **تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار** (القاهرة ، ١٣٢٢هـ) ج٢ ، ص٧٣ ـ ٧٤ ٠

(٢١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٣ وما بعدها ، أنظر ايضا ٠

Budge, Op. Cit, pp. 273-4; Trimingham, **Islam in Ethiopia,** PP.47-8.

(٢٢) انظر ،

Trimingham, **,Islam in Ethiopia,** PP. 33-43; Budge, PP. 140 190-191.

(٢٣) المسعودى ، **المصدر السابق** ، ج١ ، ص ٥١ ـ ٥٢ ، **المقريزى** ، **الالمام من بارض الحبشة** ، ص ٢٢ ، الحفنى القنائى ، الجواهر الحسان ، ص ١٥ ـ ١٦ ٠

Trimingham, **Islam in Ethiopia,** PP.51-60.

(٢٤) الحفنى القنائى ، **الجواهر الحسان** ، ص ١٥ وما بعدها ، أنظر كذلك ، المقريزى ، الخطط (طبعة القاهرة ، د٠ت) ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، المسعودى ، **المصدر السابق** ، جـ١ ، ص ١٨٩ ، **صبح الأعشى** ، جـ ٥ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ٠

(٢٥) وللمزيد من التفصيلات أنظر ، توماس آرنولد ٠ **الدعوة الى الاسلام** ٠ ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ٢٨٧ ، عبد الرحمن زكى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٧٧ ومابعدها ٠

Encyc. of Islam. Art "Makadishu" PP. 165-166.

(٢٦) انظر ، راشد البراوى : **الصومال الكبير حقيقة وهدف** (القاهرة،١٩٦١م) ص ١٠ ، ١٠ ـ ٢٠ ، توماس ارنولد ، **المرجع السابق** ، ص ٢٨٧ ومابعدها ، انظر أيضا ، سيد أمير على : **مختصر تاريخ العرب** (القاهرة ، ١٩٦٧م) ص ٢٦١ ـ ٢٦٦٠ غيثان على جريس العرب فى مقديشو ٠٠٠ » ص ١٢٨ ومابعدها ٠

(٢٧) المصادر نفسها ٠

(٢٨) وللمزيد من التوضيحات انظر :

Marsh & Kingsnorth :-**An Introduction to the History of East Africa** (London, 1966) PP.7-8; M.L. Dames & Hakyut **The Book of Daurte Barbosa** (London, 1918) Vol.3 (1) PP.6-10.

(٢٩) للوقوف على تفصيلات أكثر أبو عثمان الجاحظ : **التبصر بالتجارة** ٠ تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب (بيروت ، ١٩٦٦م) ص ٢٤ وما بعدها ؛ شمس الدين المقدسى ٠ **أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم** (ليدن ، ١٨٧٧م) ، ص ٧٩ وما بعدها ، انظر أيضا ، Reusch, **Hist. of East Africa,** PP.153 ff.

(٣٠) قبائل الجالا من اكبر القبائل فى الصومال فى الوقت الحاضر ، أنظر ٠ حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٠ ، كذلك انظر : ـ

Trimingham, Islam in East Africa, PP. 4-5.

(٣١) سيد أمير على ، **المرجع السابق** ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٦ ٠

(٣٢) المقصود بتلك الدولة الاسلامية التى استمرت فى الازدهار حتى مجىء البرتغاليين للساحل عام (١٩٤٧م) هى امبراطورية الزنج الاسلامية التى تعرف فى المصادر أيضا باسم سلطنة كلوة الاسلامية التى أسسها الشيرازيون بزعامة على ابن حسن الشيرازى عام (٩٧٥م) فى كلوة (تنزانيا حاليا) ٠

(٣٣)
Freeman & Grenville. **The East Africa** Coast(Clarendon-Press, 1962(PP.36-7.

(٣٤) حسن ابراهيم حسن · **انتشار الاسلام فى القارة الافريقية** ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ . صلاح العقاد · **زنجبار** (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص ٢١ ـ ٢٢ ، انظر أيضا : ـ
Reusch, Op.Cit, PP. 219-220.

(٣٥) توماس أرنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ص ٣٤٩ · كذلك انظر : ـ
Duffy James. **Portuguese Africa** (London, 1961), PP. 31-34; M.L.Dames. **The Voyage of Pedro al-Vares Cabral To Brazil and India.** (London, 1938). PP 78ff; R.Sidney & P.D.J.P. Welch. **Portuguese Rule and Spanish Crown in South Africa 1581-1641.** (Cape Town and Johannsburge, 1950) PP.1681 ff.

(٣٦) حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ·

(٣٧) حسن ابراهيم حسن · المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ، حمدى السيد ، المرجع نفسه ٣٤٦ ·

(٣٨) شهاب الدين عرب فقيه : **فتوح الحبشة (تحفة الزمان)** ، مخطوط نشره مع مقدمة بالفرنسية (رينيه باسيه ، حققه فهيم محمد شتلوت (القاهرة ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) ص ٧٥ وما بعدها · حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦ الى ٣٥٣ · انظر كذلك ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى : **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (القاهرة ، ١٢٥٣هـ) جـ١ ، ص ٢٣٢ ، وانظر أيضا ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : **المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى** ، تحقيق أحمد نجاتى (القاهرة ، ١٩٥٦م) جـ١ ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، شهاب الدين بن فضـــل الله العمرى، **المصدر السابق** ، ص ١٨٣ ـ ١٨٥ · المقريزى ، **الالمـــام** ، ص ٩ · محمـــد بن على الشوكانى · **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** (القـــاهرة ، ١٣٨٤ هـ) جـ٢ ، ص ٤٠٢ ، عبد القادر شيخ عبد الله · **تاريخ التعليم فى الصومال** (مقديشو، ١٩٧٨م) ص ٢١ ـ ٢٢ ·

بعض أضواء على مدينة الاشمونين
فى العصر الفاطمى

د٠ عبد الحميد حسين حمودة(*)

١ ـ الموقع الجغرافى :

تقع مدينة الأشمونين على الضفة الغربية لنهر النيل ، بالصعيد الأوسط(١) وهى من الأقسام الادارية القديمة منذ عهد الفراعنة ، وعرفت باسم اونو وقاعدته فمونو الأشمونين»٠ ولها عدة أسماء قديمة ، من جملتها اسمها الدينى Hat Khmoumou ، اذ كانت هذه المدينة المركز الرئيسى لديانة الاله توت المسمى خمنو ، ومن اسم هذا الاله سميت المدينة بالقبطى Chmnon ومنه اشتقت اسمها القديم شمون(٢) او أشمون ٠

على أنه بوجد فى بعض البرديات القديمة اسمان لمدينتين قديمتين تحملان اسم أشمون ، أحداهما أشمون الأولى وتقع على النيل ، وقد هجرها أهلها عند قدوم حملة قمبيز الفارسى لغزو مصر والتجاوا الى المدينة الثانية التى اقاموها على مقربة منها ، وقد اطلق البطالمة على

(*) مدرس التاريخ الاسلامى بكلية التربية ـ الفيوم ـ جامعة القاهرة ٠

(١) أبو الفداء : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص ١١٥ ٠

ينقسم صعيد مصر الى ثلاثة اقسام ، القسم الأول : الصعيد الأسفل ويشمل الا محافظات الجيزة والفيوم وبنى سويف ، القسم الثانى الصعيد الأوسط ويشمل محافظات المنيا واسيوط وسوهاج ، والقسم الثالث الصعيد الأعلى ويشمل محافظتى قنا واسوان ٠ محمود محمد الحويرى : أسوان فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى، دار المعارف القاهرة ١٩٨٠م ص ٧ ٠

(٢) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الثالث ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٥٨م ص ١٧ صلاح أحمد هريدى : دور الصعيد فى مصر العثمانية دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م ، ص ١٠٦ ٠

المدينة الأولى اسم كليوبتريس ، وكانت ميناء على النيـــل وتحمل الآن أسم الروضة وتبعد ستة كيلو مترات عن المدينة الأصلية(٣) .

وفى العصر الرومانى صارت أشمون قاعدة القسم الخامس عشـر بالوجه القبلى ، ثم سمت بالأشومنين بعد الفتح العربى لمصر(٤) .

وفى ذلك العصر الأخير،التحقت بالأشمونين منية ابن الخصيب(٥) التى تنسب الى الخصيب (٦)بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل الخليفة هارون الرشيد(٧) .

وقد أشار الادريسى(٨) الى منية ابن الخصيب بقوله « قرية عامرة لها جنات وأراضى متصلة العمارات وقصـــب وأعشاب كثير ومنتزهات ، ومبان حســـــان ، وهى على الضـفة الشرقية من النيل(٩) » واحتوت

---

(٣) زبيدة محمد عطا : اقليم المنيا فى العصر البيزنطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٢٤ .

محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الرابع ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٥٩ .

(٤) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الرابع ، ص٥٠٩

(٥) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، الطبعة الثانية ، دار العـرب ، القاهرة ١٩٨٨م ، ص ٣٢ .

(٦) أورد لنا ابن بطوطة حكاية غريبة عن خصيب ، أن أحد الخلفاء من بنى العباس غضب على أهل مصر فأراد أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصدا لاذلالهم والتنكيل بهم . وكان خصيب أحرقهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر ، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ، ويقصدهم بالاذية لما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز . فلما أستقر خصـــيب بمصـر سار فى أهلها أحســن سيرة ..... ، انظر ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٣٤م ، ص ٣٧ .

(٧) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٠٥ .

الوزان : وصف افريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، السعودية ، ص ٦١٠ .

(٨) نزهة المشتاق ، الجزء الأول ، مكتبة الثقافةالدينية، القاهرة د.ت ، ص١٢٤.

(٩) قوانين الدواوين لابن مماتى ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، منشـــورات الجمعية الملكية الزراعية صفحات متفرقة .

الأشمونين فى العصر الفاطمى على عدة كور ذكرها ابن مماتى (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩ - ١٢١٠م) فى كتابه قوانين الدواوين (انظر ملحق رقم (١)) ٠

٢ - الوضع الاقتصـــادى :

(أ) الخــــراج :

كان للأشمونين نشاط اقتصادى واضح فى العصر الاسلامى ، وقد عثرنا على عدد من وثائق البردى عبارة عن ايصالات مقابل دفع الخراج، منها ايصال مؤرخ فى شعبان سنة ١٠٣هـ/٢١١ - ٧٢٢م موجه الى دافعى الضرائب(١٠) ، وايصال من العصر العباسى عبارة عن أخطار رسمى يحمل تاريخ عام ١٥٠هـ/٧٦٧م(١١) وايصال ثالث خاص بدفع خراج مؤرخ بسنة ٢٢٣هـ/٨٣٧ - ٨٣٨م(١٢)٠ كذلك عثرنا على وثيقة عبارة عن أمر ادارى موجه من نائب الوزير الفتح بن خاقان الى احد أهالى ضيعة الأمير يحمل تاريخ ٢٤٢ - ٢٤٧هـ(١٣) ٠ ويحتفظ أرشيف وثائق انبردى العربية بايصال من العصر الفاطمى مؤرخ بسنة ٤٠٥هـ/١٠١٤ - ١٠١٥ من ورثة عكاشة لمتولى الخراج(١٤) ٠

ولاشك فى أن هذه الايصالات وغيرها من الوثائق تعبر عن نشـــاط اقتصادى واسع المدى كان للأشمونين وبخاصة فى العصر الفاطمى ، حتى أن متحصل خراج الأشمونيين بلغ فى زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ١٢٧٦٧٦ ديناراً(١٥) وهو مبلغ ضخم ٠

---

(١٠) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الثالث ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١١٥٥ ، ص ١١٥ ٠

(١١) نفسه ، ص ١٦٨ ٠

(١٢) نفسه ، ص ١٠٣ ٠

(١٣) نفسه ، ص ١٣٩ ٠

(١٤) نفسه ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ٠

(١٥) أبو صالح : تاريخ كنائس وأديرة مصر ، طبعة اكسفورد ١٨٩٥ ، ص١٢٠

(ب) الزراعـــــة :

ثم ان كثرة الايصالات المتعلقة بالخراج ، وضخامة المبالغ المتحصلة من الخراج ، كل ذلك يعبر دون شك عن نشاط كبير فى ميدان الزراعة. واعتمدت الزراعة فى الأشمونين على ميـــــاه النيل - كما هو الحال فى سائر انحاء مصر على حد قول الجغرافيين العرب(١٦) « وزروعهم بماء النيل فتعم المزارع من حد أسوان الى حد الاسكندرية .... » .

والواقع ان الفاطميين اهتموا بالزراعة اهتماما كبيرا . ومن مظاهر هذا الاهتمام العناية باقامة الجسور . وقد ذكر ناصر خسرو انهم اقاموا جسرا من التراب ، يمتد من اول الديار المصرية الى اخرها ليسير عليه النـــــاس . واعتمـــدت الدولة لصيانة ذلك الجسر عشرة آلاف دينـــــار سنويا(١٧) .

وكان بمصر نوعان من الجسور السلطانية والبـــلدية . وكان هناك مترف عام لمتابعة الجسور يسمى كاشف الجسور(١٨) ، فكان يوجد على كور مصر مائة وعشرون الف رجل معهم المســـاحى والآلات سبعون الفا للصيعد وخمسون الفا لأسفل الأرض مهمتهم حفر الخليج واقامة القناطر وشق الترع(١٩) .

وانقسمت الدورة الزراعية فى الأشمونين - شانها شان سائر البلاد الزراعية فى مصر - الى قسمين : المحاصيل الصيفية والمحاصيل الشتوية:

وكان قصب السكر من أشهر المحاصيل الصيفية التى انتشرت زراعتها

---

(١٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٤٠ .

- ابن حوقل : صورة الأرض ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ١٣٨ .

- الادريسى : نزهة المشتاق ، ط ، ص ٣٢٤ .

(١٧) ناصر خسرو : سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥م،ص٤٣.

(١٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٤٤ .

(١٩) الكندى : فضائل مصر ، تحقيق ابراهيم أحمد العدوى وآخرين ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبه ، القاهرة ١٩٧١م ، ص ٥٩ - ٦٠ .

فى الأشونين ، وهو يزرع فى نصف برمهات على أثر البرش ، وتبرش أرضه سبع سكك(٢٠) ، وفى أول طوبة تشق الأرض للقصب(٢١) ثم يعزق ثلاث مرات فى شهر بشنس ٠

ويحتاج القصب الى أرض جيدة ومياه متوفرة للرى ثم تنظف الأرض من الحشائش وتحول الى أحواض ويلقى فيها القصب قطعتين متناة وقطعة مفردة ، ويسقى القصب فى أول أنربيع مرة فى الأسبوع(٢٢) ٠

وتشير وثائق البردى العربية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) الى كثرة زراعة القصب فى الأشمونين « ٠٠ ذكر محمد ابن ذيال ان الذى وصل اليه من القصب مائتى حزمة الا اثنا عشر حزمة ، وبعد ذلك وصلت مائتى حزمة ٠٠٠ »(٢٣) ٠

كذلك انتشرت مزارع النخيل فى الأشمونين(٢٤) ، فكان يزرع من أول يناير الى أول حزيران ، ويحفر للنخيل حفرة فى الأرض قدر ذراعين وتملأ بالتراب ، وتوضع النواة فى وسط الحفرة ، ثم ينهال عليها بالتراب ، ويسقى كل يوم حتى ينمو فينقل الى مكان آخر(٢٥) ٠

اما المحاصيل الشتوية فى الأشمونين فكان أهمها القمح(٢٦) ،

---

(٢٠) المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن ، مراجعة يوسف راغب ، المعهد الفرنسى للاثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٤ ٠

ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٢٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص١٠٢ ٠

(٢١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٢٧٥ ٠

(٢٢) المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر ، ص ٤ ٠ المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ١٠٢ ٠

(٢٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء السادس ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ١٦ ٠

(٢٤) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص٤١ ٠ابن حوقل : صورة الأرض،ص١٥٨

- ياقوت : معجم البلدان ، الجزء الأول ، بيروت د٠ت ، ص ٢٠٠ ٠

- على بهجت : قاموس الامكنة والبقاع، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٦م،ص٢٥

(٢٥) ابن العوام : كتاب الفلاحة ، مدريد ١٨٠٢م ، ص ٣٤٤ ٠

(٢٦) اليعقوبى : البلدان ، ليدن ١٩٦٧م ، ص ٣٣١ ٠

ويحتاج الفدان منه فى زراعته الى ويبتين ، ويزرع فى نصف بابه وآخر هاتور ، ويحصد فى شهر بشنس ويزرع القمح على أثر الكتان والشعير ، ويتباين مقدار ما يتحصل من فدان القمح من مكان لآخر حسب جودة الأرض من أردبين الى عشرين أردبا(٢٧) ٠

وتحفل وثائق البردى العربية بالكثير من الطلبات والأوامر المرسلة من أصحاب الضياع الى وكلائهم القائمين على زراعة الأرض فى الأشمونين ، بالتعجيل لارسال القمح نظرا لحاجتهم الشديدة اليه(٢٨) ٠

وكان خراج الصعيد يحصل عينا من الحبوب ، وفرضت على القمح فى العصر الفاطمى ضريبة مقدارها ثلاثة أرادب على كل فدان ٠ وفى العصر الأيوبى خفض صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦ ـ ١١٧٧م هذه الضريبة الى أردبين ونصف لكل فدان(٢٩) ٠ كذلك كان الشعير يزرع فى الأشمونيين حيث ورد ذكره فى وثائق البردى المؤرخة فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، ونستدل على ذلك من كشف حساب تاجر غلال « ٠٠٠ الطحاوى شعير أربعة وعشرة أقداح الكيل ستة الا ثلث، الطلاع شعير خمسة وويبات ٠٠٠ الثمن دينار(٣٠) ٠٠٠ » ويزرع الشعير عزاقا فى الأرض الرطبة، وتقدم زراعته على القمح وكذلك حصاده(٣١)٠

وانتشرت زراعة الكتان فى الأشمونين(٣٢) فى الأرض البرش ٠

---

(٢٧) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٥٨ ٠

ـ المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ١٠١ ٠

(٢٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الخامس ، ترجمة عبد الحميد حسن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢، ٤٣ ، ٨٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ٠

(٢٩) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٥٩ ٠

(٣٠) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ٥ ، ص ١١٨ ـ ١١٩ ٠

(٣١) المخزومى : المنهاج ، ص ٢ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٥٩ ٠

(٣٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٤١ ٠ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٢٥٨ ٠

وتبدأ زراعته فى شهر هاتور ويحصد فى شهر برمودة(٣٣) ، وطريقة زراعته تقتصر على القاء البذور فى الحفائر أو على الماء(٣٤) .

ويتحصل من الفدان حوالى ثلاثين حبلا ؛ ومن البذور من ثلاثة ارادب الى ستة . أما قطيعة الخراج فلم تكن ثابتة فتختلف من موضع لآخر ، وكانت بحكم الديوان ثلاثة دنانير(٣٥) .

كذلك نالت الأشمونين شهرة واسعة فى زراعة الفواكه(٣٦) ، وخشب اللبخ الذى يستعمل فى صناعة السفن ، ويلغ ثمن اللوح الواحد خمسين ديناراً(٣٧) .

٣ - الصناعة :

اشتهرت الأشمونين بصناعة المنسوجات الكتانية(٣٨) ، وفرش القرمز(٣٩) .

وصنعت فى سمالوط من ضواحى الأشمونين المنسوجات المعروفة بالسمالوسيات من شعر الماعز . وامتدح أبو صالح الأرمنى(٤٠) هذا الصنف من المنسوجات بقوله أنه « لا مثيل له فى العالم » . كما راجت صناعة السكر بالأشمونين بسبب وفرة قصب السكر . وقد ورد فى وثائق البردى التى

---

(٣٣) المخزومى : المنهاج ، ص ٢ . ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣٤) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ١٦٣ .

(٣٥) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣٦) الادريسى : نزهة المشتاق ، جـ١ ، ص ١٢٤ .

(٣٧) ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٢٦٦ .

(٣٨) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٨ .

- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٩م ، ص ٦٢ .

(٣٩) على مبارك : الخطط التوفيقية ، الجزء الثامن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٤٨ .

(٤٠) تاريخ كنائس واديرة مصر ، طبعة أكسفورد ١٨٩٥م ، ص ٣٦ .

نرجع الى القرنين الثالث والرابع الهجريين حساب أسبوعى بسكر موزع « يوم الأحد لتسعة خلون منه خمسة عشر ابلوجة(٤١) ، يوم الاثنين لعشر خلون منه خمسة عشر ابلوجه ... »(٤٢) .

٤ - التجارة :

نشطت حركة التجارة فى الأشمونيين بفضل موقعها الجغرافى على الطريق النهرى التجارى القادم من أسوان وقوص الى القاهرة(٤٣) .

وكان هذا الطريق يسلكه الحجاج(٤٤) عندما تعرض الطريق البرى الذى يربط مصر ببلاد الحجاز والشام والعراق عبر سيناء للخطر الصليبى بسبب الغارات المستمرة التى كان يشنها صاحب حصن الكرك على قوافل المسلمين(٤٥) .

وحفلت الأشمونين بالأسواق ، فكان يوجد بها سوق للبن وسوق للعطر(٤٦) ، وشاهد ابن جبير(٤٧) أسواق منية ابن الخصيب العامرة.

---

(٤١) الابلوجة تعادل تسع قنطار ، المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٧٢ .

(٤٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء السادس ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩١٩ م ، ص ٣٧٨ .

(٤٤) المقريزى : الخطط ، الجزء الاول ، بيروت د.ت ، ص ٢٠٢ .

يقول المقريزى « اعلم أن الحاج المصرى والحاج المغربى ، اقاموا نحو ما بين سنتين ثم يتوجهون الى مكة من صحراء عيذاب فيركبون من النيل من ساحل مدينة الفسطاط.يركبون ابايل - ابل من قوص الى صحراء عيذاب ولاتزال عامرة بما يصدر ويورد اليها من قوافل التجارة والحجاج ولم نزل صحراء عيذاب سملك الحجاج ذهابا وايابا من سنة خمس وأربعمائه الى سنة ستين وخمسمائة » .

(٤٥) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، الطبعة الأولى، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨م ، ص ٢٤١ .

(٤٦) الوطواط : مناهج الفكر ومناهج العبر ، تحقيق عبد العال الشامى - الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨١م ، ص ٩٠ .

(٤٧) رحلة ابن جبير ، القاهرة ، ص ٥٦ .

كذلك حظيت أسواق الأشمونين بشهرة واسعة فى تجارة القمح ، فكان للتجار الذين يقيمون فى القاهرة وكلاء بالأشمونين يقومون بنقل القمح الى دكان السمسار الذى يتولى بيعه نظير أجرة معلومة « ووصل كتابك، ووصل القمح ، وقد شلناه الى دكان السمسار يوم كتابى هذا اليك ، وهو يوم الأربعاء وأرجو أن سهل الله لبيعه أروح عندك بالخير ... »(٤٨)٠

وهكذا غدت الأشمونين من مستودعات القمح بمصر ، فكانت تمد القاهرة فى العصر الفاطمى بما تحتاجه من القمح ٠ ونستدل على ذلك من الخطابات المرسلة من التجار الى وكلائهم والتى وردت فى وثائق البردى(٤٩) ٠ أما عن التعامل التجارى فى أسواق الأشمونيين ، فاستخدموا العملة الفاطمية من الدنانير والدراهم التى كانت سائدة بمصر ، لأن المصادر التاريخية لم تشر الى وجود دار لضرب النقود بالأشومنين كما هو الحال فى قوص حاضرة الصعيد الأعلى أو غيرها ٠

وكان الأهالى يستعملون رطل منية ابن الخصيب فى موازينهم والذى بلغ مقداره ١٤٤ درهما(٥٠) ٠

وهكذا نلمس ملامح الازدهار الاقتصادى للأشمونين فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة ٠

البنـــاء الاجتماعى :

تعد دراسة الحياة الاجتماعية للمدن الاسلامية التى تبعد عن حاضرة البلاد ، كالأشمونيين من الأمور الشاقة لندرة المادة التاريخية ٠

لذا ساقتصر فى دراستى للحياة الاجتماعية على البنية الاجتماعية لبعض عناصر السكان كالعرب والقبط،مع الاشارةالى حياتهم الاجتماعية:ـ

---

(٤٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الخامس ، ترجمة عبد الحميد حسن وآخرين ـ دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٦٦٨م ، ص ٤٢ ٠

(٤٩) نفسه ، ص ٤١ ، ٨٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ٠

(٥٠) ابن الاخوة : معالم القرية فى أحكام الحسبة ، تحقيق محمد محمود شعبان وآخرين الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ١٣٩ ٠

اما عن العرب فمن المعروف أن عددا من القبائل العربية وبطونها هاجروا الى الامصار التى فتحها المسلمون وانتشروا بين ربوعها . وكانت مصر مقصدا لعدد كبير من القبائل العربية ، فضلا عن الصحبةوالتباعين. وقد انتشرت قبائل العرب فى الوجهين البحرى والقبلى وازدادت اعدادهم فى أواخر العصر الأموى عندما اشتد ضغط القوى المناوئة لهم ، وبخاصة العباسيين.ومن هؤلاء كانت جماعة من بنى امية - من قريش - نزحوا الى الصعيد ليكونوا بعيدين عن خصومهم . وفى بوصير بالصعيد قتل آخر خلفاء بنى أمية ، مروان بن محمد(٥١) .

وكان يطلق على الأشمونين بلاد قريش ، وسكنت قريش بجوار قبيلة جهينة ، وحدث بينهما سوء تفاهم ، مما أدى الى خلافات كبيرة بين القبيلتين ، حتى تمكنت قريش بمساعدة الفاطميين من طرد جهينة الى أخميم(٥٢) .

كذلك استقرت بالأشمونين جماعة من بنى زهرة بن كلاب بن مرة(٥٣) . وكذلك بنو عروة وهم بطن من الزبير بن أسد بن عبد العزى من قريش.وعروة هذا من التابعين واعيانهم وهو أحد فقهاء المدينة السبعة من التابعة وكان مقامهم بناحية تنذة من الأشمونين(٥٤) .

وهناك البكريون وهم بطن من تيم بن مرة من قريش من

---

(٥١) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، دار الكاتب العربى القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ٧١ .

(٥٢) القلقشندى : نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٢٢٢ .

القريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، الطبعة الاولى ، عالم الكتب ١٩٦١م ، ص ٣٢ - ٣٣ .

عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، الجزء الأول ، المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٩م ، ص ١٠٥ .

(٥٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ، ص ٣٥٥ .

(٥٤) القلقشندى : نهاية الارب ، ص ٣٦٠ .

العدنانية(٥٥)،وهم بنو ابى بكر الصديق ، وكانوا يمثلون بنى تيم فى مصر . وأول من نلقى من البكريين هؤلاء هو محمد بن ابى بكر الذى كان من زعماء حركة اغتيال عثمان فى المدينة سنة ٣٥هـ/٦٥٥ - ٦٥٦م. ثم ولى مصر من قبل على بن ابى طالب سنة ٣٧هـ / ٦٥٧ - ٦٥٨م وظل بها حتى خاض المعركة الفاصلة - موقعة المسناة - بينه بوصفه قائدا لأنصار على - وبين عمرو بن العاص قائد أنصار معاوية، فهزم وقتل سنة ٣٨ هـ/٦٥٨ - ٦٥٩م(٥٦ . كذلك هاجر الى الأشمونيين من البكريين بنو اسحاق ، وهم بطن من البكريين ، وبنو طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن ابن بكر(٥٧) .

اما كنانة(*)فهى قبيلة عربية كبيرة تستمد اهميتها من أن قبيلة قريش والنبى (ﷺ) بالتالى ينسبون اليها . وبعد منتصف القرن الرابع الهجرى هاجرت كنانة بصورة واسعة من الحجاز - ومعها جماعة من اخلاط العرب الى مصر(٥٨) .

وفى الأشمونين استقر بنو فراس أحد بطون كنانة ، وهم بنو ضمرة ابن بكر بن عبد مناة ، ومنهم عمرو بن أمية الضمرى صاحب الرسول (ﷺ) (٦٠) وبنو الليث بن كنانة بن طلحة(٦١) .

---

(٥٥) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ١٢٠ .

(٥٦) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٨١ .

(٥٧) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ٣٧ .

- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ، ص ٣٢٤ .

- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ١ ، ص ٢٠ .

(*) كنانة بكسر الكاف وفتح النون ، وكسر النون الثانية ، تشير الى عدة قبائل منها كنانة قريش .. انظر السمعانى : الانساب ، جـ٥ ، ص ٩٨ .

(٥٨) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٥٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ، ص ٣٥١ ، القلقشندى : قلائد الجماية ، ص ١٣٥ .

(٦٠) القلقشندى : نهاية الارب ، ص ٣٢٠

(٦١) القلقشندى : نهاية الارب ، ص ٧١ .

اما العلويون وهم ذرية على بن ابى طالب رضى الله عنه ـ فقد نزح بعضهم الى مصر فرارا من الاضطهاد الذى حل بهم على أيدى الأمويين ثم العباسيين ٠ ومن هـؤلاء من الذين نزحـوا الى بـلاد الأشمونين كان السلاطفة من بنى الحسن السبط بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويعرفون بأولاد جحيش ، والقيادة فيهم لبنى تغلب ٠

وهناك ايضا الجعافرة الذين ينسـبون الى جعفر بن أبى طالب الطيار ـ رضى الله عنه ـ ابن عم الرسول (ﷺ) (٦٤) وقد نزحت منهم عدة بطون الى الأشمونين هم أولاد عز العرب ، وبنو ادريس وبنو صالح(٦٥) ، وبطن من بنى هاشم بن جعفر الصادق(٦٦) ٠ وتفرع منهم عدة بطون منها الزيانية الذين سكنوا بين منفلوط وسمالوط(٦٧) ٠

كذلك نزح الى الأشمونين بطن من بنى أمية هم بنو ابان بن عثمان ابن عفان بن خالد(٦٨) بن يزيد ، وقد قدمت جماعة من أبنائه واقامت مع سائر بنى أمية وقريش فى منطقة تندة بالأشمونين(٦٩) ٠

أما بنو مسلمة وهم بنو مسـلمة بن عبد الملك ت ١٢٢هـ/٧٣٩ ـ ٧٤٠م الذى تتابعت غـزواته من سنة ٨٦هـ/٧٠٥م حتى سـنة ١٢٢هـ /

---

(٦٢) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٩١ ٠

(٦٣) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ١٣٨ ٠

ـ عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ٢ ، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ ٠

(٦٤) السمعانى : الانساب ، جـ٢ ، ص ٦٦ ٠

(٦٥) المقريزى : البيان والاعراب ، ص ٣٩ ٠

(٦٦) على مبارك :

ـ عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ١ ، ص ١٩١ ٠

(٦٧) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ١٣٨ ٠

(٦٨) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ٨٥ ٠

ـ القلقشندى : قلائد الجماية ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، الطبعة الثانية دار الكتاب المصرى ـ القاهرة ١٩٨٢م ، ص ١٥٢ ٠

(٦٩) القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ١٥٢ ٠

ـ عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٨٧ ٠

٧٣٩ - ٧٤٠م فكانت مساكنهم مع قومهم بنى أمية بتندة وما حولها من بلاد الأشمونين(٧٠) .

ومن بطون بنى امية بنو حبيب بن الوليد بن عبد الملك،وبنو عسكر الذين يزعمون - على حد قول المقريزى - انهم من بنى امية . وكان ابوهم مولى عبد الملك بن مروان ، ونزل بنو خالد بن يزيد بن معاوية ابن ابى سفيان ارض دلجة عند أشمون(٧١) .

فاذا انتقلنا الى القبائل القحطانية التى نزحت الى الأشمونين فاننا نصادف بنى جهينة بن زيد بن ليث ابن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاعة وكانت منازلهم الأولى باطراف الحجاز من جهة الشمال(٧٢) .

ومنهم عقبة بن عامـر بن عبس الجهنى الذى شـــهد فتح مصر ، واحفظ بها وولى الجند بمصر لمعاوية بن ابى سفيان ســـنة ٤٤هـ / ٦٦٤ ٦٦٥م(٧٣) .

أما قبيلة جهينة فقد نزحوا الى الصعيد ، واستقروا فى الأشمونين الى جانب قريش.وحدث بينهما سوء تفاهم الى‌ان تمكنت قريش بمساعدة الفاطميين من طرد جهينة الى أخميم(٧٤) ، كما سبق ان ذكرنا .

هذا عن القبائل والبطون العربية التى نزحت الى اقليم الأشمونين واستقرت به . والى جانب هؤلاء وجدت جالية من القبط وهم أهل البلاد الأصليين الذين اختاروا البقاء على ديانتهم ولم يدخلوا فى الاســلام . وكانت لهؤلاء كنائسهم التى اشار اليها المقريزى فى خططه(٧٥) ، ومنها

---

(٧٠) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ٨٥ .
- القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ١٥٢ .
(٧١) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٣٨ .
- على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ٨ ، ص ٢٤٨ .
(٧٢) القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ٤٤ .
(٧٣) السمعانى : الانساب ، جـ٢ ، ص ١٢٤ .
(٧٤) القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ٤٤ .
(٧٥) الخطط ، جـ٢ ، ص ٥١٨ .

كنيسة بطرس ، وكنيسة ميكائيل وكنيسة الفتية الثلاثة ، فضلا عن كثرة بيع النصارى فى منية ابن الخصيب ٠

وقد بلغ عدد النصارى بطحا - من كور الأشمونين - فى العصر الفاطمى حوالى خمسة عشر الف شخص(٧٦) ، ويبدو أن هـذا الرقم مبالغ فيه٠وكانت غالبية سكان سمالوط فى سنة ٥٣١هـ/١١٣٦ - ١٢٣٧ من طائفة الأرمن النصارى(٧٧) ٠



ثالثا : الحياة الاجتماعية لعناصر السكان :

أما عن الحياة الاجتماعية لعناصر السكان بالأشمونين فلم يرد لها ذكر فى المصادر سوى أشارات عابرة ومتفرقة لا تكفى لرسم صورة واضحة المعالم ٠

وساحاول رسم صورة لحياتهم من خلال تلك الأشارات المتناثرة عن الطعام والشراب والملبس والزواج ٠

كان الخبـز - ومايزال - هو العنصر الرئيسى للطعام عند اهـل الأشمونين - كما هو الحـال فى سـائر انحاء مصـر ، بسبب وفـرة القمح(٧٨) ٠ ولذلك حرصت الدولة الفاطمية على جودة الخبز عن طريق الاشراف الحكومى للمحتسب واعوانه حيث فرضوا شروطا صارمة على الطحانين والخبازين لمنع الغش(٧٩) ٠

أما موائد الطعام فقد حفلت باللحوم الضان، ولحوم الأغنام والماعز التىكانت تربى هناك بكثرة حيث ورد ذكر العديد منها فى قوائم حسابات

---

(٧٦) أبو صالح : تاريخ كنائس واديرة مصر ، ص ٩٨ ٠

(٧٧) نفسه ، ص ٢٦ ٠

(٧٨) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣١ ٠

(٧٩) ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، تحقيق محمد محمود شعبان واخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ١٥٢ ٠

اوراق البردى(٨٠) ٠

واعتمد أهل الأشمونين فى شربهم على ماء النيل بملء الاوانى الفخارية التى تكفى لسد احتياجاتهم ، شأنهم فى ذلك سائر أهالى المدن المصرية ٠

وفيما يختص بملبس أهل الأشمونين فقد ارتدوا الملابس الكتانية المصنوعة بها(٨١) ، الى جانب المنسوجات المصنوعة من شعر الماعز المعروفة بالسمالوسيات(٨٢) ٠

وقد حفلت الحياة العائلية بالعديد من مناسبات الفرح ، أهمها ـ كما هى العادة ـ أفراح الزواج ٠ وقد عثر على عدة عقود ترجع الى القرن الثالث الهجرى فى الأشمونين وهى تشابه العقود التى تم الكشف عنها فى مصر وتتفق معها فى طابعها الاسلامى والقومى العام ٠ ووفقا للاوضاع السائدة عندئذ كانت عملية الزواج تبدأ بالتعرف على أهل الزوجة ثم الخطوبة والاتفاق على المهر ،وهو الصداق الذى جاء ذكره فى أوراق البردى ٠ وفى عقد من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، جاء ما نصه « هذا ما أصدق يحنس شنوده الساكن مدينة أشمون دور ابنت شنودة ٠٠٠ » (٨٣) ٠

وبعد ذلك تاتى مرحلة كتابة عقد الزواج الذى يوقع عليه الشهود(٨٤) من الذين حضروا حفل الزفاف ٠ وكان يتم الاحتفال بزفاف العروسة بالطبل والمزمار فى موكب يخترق وسط البلد حتى تصل الى بيت الزوجية ٠

---

(٨٠) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ٤ ، ص ١٧٢ ٠

(٨١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص١٥٨ ، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرةص٦٢٠

(٨٢) ابو صالح : تاريخ كنائس واديرة مصر ، ص ٢٦ ٠

ـ سلام شافعى محمود : أهل الذمة فى مصر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ٠

(٨٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ١ ، ص ٨٥ ٠

(٨٤) نفسه ، ص ١١٤ ٠

ملحـــق

(١) كور الأشمونين فى العصـر الفاطمى

امشول ، انصنا ، والجزيرة الوسطانية من حقوقها، ابشاده ،ابوان عطية،اتليدم ، اطسا المدينة ، ابيوهة ، الكدية ، الدير المعروف ، بدير بهيو ، الطيبة وهى طيبة واحفار القمدير العرامة ، القلمتين وجزيرتها، السقاية ، المعصرة وهى معصرة بنى نصر ، الـــرير مونيين البرجاية ، الداودية ، البرقا ، ابيهو ، القلندونيات ، المطاولات الحمام ، البركورات وادفا اوسية بو السرى ، البدرمان ، العرين تلا ، تنوف تنيه ، جزيرة بنى حماد ، جزيرة البوصية،جزيرة طوق ، جزيرة حمام ، حصة بلشها، دوط سربام ، ديسر طحنشها ، دمشار وسلول ، دلجة وكفورها ، دير العسل ، ديونجيم وهو دير أسود ، دمشا وهاشم ، دير باهور ، دير بانوب دير ماواس ، دمشير ، دشـــلوط ديمى ، دروط اشمون ريده ، رمجوس ، سفط الحماره ، سنبو ، سلو ، سفط المهلبى،سمالوط، ساقية موسى ، سرقنا ، سمو ، سنفليج ، سجرج طحنشها ، طوخ تنده،وسنجرج من حقوقها طوه ، طحا مجموعة مع ابشاق ، قبالة التلادة من حقوق سملوط ، قوص قام ، قلبه ، قلونة قرى جرى ، كفر باويط ، منفيس ، منهرى ، ملوى وجزايرها ، منية بنى خصـــيب ، منتوب وكفورها ، ميروكفورها ميسارة مقمص ، منشية العز نواجه ، نواى وحصتها هور هفوره ، طهما ، ظهر الجمل(٨٥) ٠

---

(٨٥) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، صفحات متفرقة من ص ١٠٣ الى ص ٢٠٠ ، ص ٣٧٢ ٠



خريطة التقسيم الإداري لصعيد مصر في القرن العاشر الهجري نقلا عن حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٣١٧ (خريطة ١٥٠)

قائمة المصـادر والمراجـع

اولا ـ المصـادر :

١ ـ ابن الاخوة : (محمد بن محمد بن أحمـد القرشى ت ٧٢٩ هـ) « معالم القربة فى أحكام الحسبة » تحقيق محمد محمود شعبان وآخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م .

٢ ـ الادريسى : (أبو عبد الله محمد بن محمـد بن عبد العزيز ت ٥٦٤) « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د.ت .

٣ ـ الاصطخرى : أبو القاسم ابراهيم بن محمـد (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) .
«المسالك والممالك» تحقيق محمد جابر عبدالعال القاهرة ١٩٦١م.

٤ ـ ابن بطوطة : (ابو عبد اللـه محمد بن عبد الله ت ٧٧٩ هـ) « مهذب رحلة ابن بطوطة» الجزء الأول، تحقيق احمد العوامرى وآخرين ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٣٤م .

٥ ـ ابن جبير : (أبو الحسن بن أحمد ت ٦١٤هـ) « رحلة ابن جبير» القاهرة د.ت .

٦ ـ جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجـزء الأول ، تحقيق : حسن ابراهيم وآخرين ـ الجزء الثالث ، تحقيق : حسن ابراهيم حسن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤ . الجزء الجزء الرابع ـ الجزء الخامس ، تحقيق عبد الحميـد حسـن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٨م .
الجزء السادس ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٤ .

٧ ـ ابن حوقل : (أبو القاسم أحمد النصيبى توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) « صورة الأرض » بيروت ١٩٧٩م .

٨ - السمعانى : (أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ت ٥٦٢هـ) « الانساب » الأجزاء الثانى والخامس تقديم وتعليق : عبد الله عمر البارودى ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٨م .

٩ - ابن شاهين : (غرس الدين خليل الظاهر ت ٨٧٣ هـ) « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » تصحيح بولس روايس ، باريس ١٨٩٤م .

١٠ - أبو صالح : (الشيخ أبو صالح الارمنى توفى فى أوائل القـرن السابع الهجرى « تاريخ كنائس واديرة مصر » طبعة اكسفورد ، ١٨٩٥م .

١١ - ابن ظهيرة : (جمال الدين محمد بن محمد نور الدين بن ابى بكر ت ٩٨٦هـ) : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٩م .

١٢ - ابن العوام : (أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد) : « كتاب الفلاحة » مدريد ١٩٨٠م .

١٣ - أبو الفداء : (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢هـ) « تقويم البلدان » باريس ١٨٤٠م .

١٤ - القلقشندى : (شهاب الدين أبى العباس أحمد بن على ت٨٢١هـ) « صبح الأعشى فى صناعة الانشاء » ١٤ جزء دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٩م .

١٥ - ـــــــــــ : (نهاية الارب فى معرفة انساب العرب » تحقيق ابراهيم الابيارى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٨٠م .

١٦ - ـــــــــــ : « قلائد الجمان » تحقيق : ابراهيم الابيارى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصرى القاهرة ١٩٨٢م .

١٧ - الكنـدى : (ابو بكر بن محمد بن يوسف المتوفى بعد ٣٥٥هـ) « فضائل مصر » تحقيق : ابراهيم أحمد العدوى مكتبة وهبـــة القاهرة ١٩٧١م .

١٨ - المخزومى : (ابو الحسن على بن عثمان ت ٥٨٥ هـ) « المنتقى من كتاب النهاج فى علم خراج مصر » تحقيق : كلود كاهن ، مراجعة يوسف راغب . المعهد الفرنسى للاثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٦م .

١٩ - المقريزى : (تقى الدين ابو العباس أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) « المواعظ والاعتبار بذكـــر الخطط والآثار المعـروف بالخطط المقريزية » جزءان بيروت د.ت .

٢٠ - ـــــــــــ : البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب ، تحقيق : عبد المجيد عابدين ، الطبعة الأولى ، عالم الكتاب ، القاهرة ١٩٦١م .

٢١ - ابن ممـاتى : (الأسد الخطير شرف الدين أبى المكارم أبى سعيد ت ٦٠٦هـ) ، « قوانين الدواوين » تحقيق : عزيز سوريال عطية الجمعية الملكية الزراعية ، القاهرة ، ١٩٤٣م .

٢٢ - ناصر خسرو : (علوى الفارسى ت ٤٧٦ هـ) « سفر نامة » تحقيق: يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥م .

٢٣ - الوزان : (أبو الحسن بن محمد الوزان) « وصف افريقيا » ترجمة : عبد الرحمن حميدة ومراجعة على عبد الواحد .

٢٤ - الوطواط : (جمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى الوراقى الكتبى ت ٧١٨ هـ) « مناهج الفكر ومناهج العبر » تحقيق : عبد العال الشامى ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨١م .

٢٥ - ياقوت : (شهاب الدين أبو عبـــد اللـــه الرومى ت ٦٢٦ هـ) « معجم البلدان » الجزء الأول ، بيروت د.ت .

٢٦ - اليعقـــوبى : (أحمد أبى يعقـــوب بن جعفـر ت ٢٧٤ هـ) « البدان » ليدن ، ١٩٦٧م .

ثانيا ـ المراجع :

١ ـ حسين مؤنس : (دكتور)
« أطلس تاريخ الاسلام » مكتبة الزهراء ، القاهرة .

٢ ـ راشد البراوى : (دكتور)
« حالة مصر الاقتصادية فى عهد انفاطميين » الطبعة الاولى دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨م .

٣ ـ زبيدة محمد عطا : (دكتورة)
« اقلم المنيا فى العصر البيزنطى » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢م .

٤ ـ سلام شافعى محمود : (دكتور)
« أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والايوبى » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م .

٥ ـ صلاح أحمد هريدى : (دكتور)
« دور الصعيد فى مصر العثمانية » دار المعارف ، القاهرة١٩٨٤م.

٦ ـ عبد الله خورشيد البرى : (دكتور)
« القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ». دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٧م .

٧ ـ على بهجت : « قاموس الأمكنـــة والبقاع » الطبعـــة الأولى ، القاهرة ١٩٠٦م .

٨ ـ على مبارك : « الخطط التوفيقية » الجزء الثامن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٠ .

٩ ـ عمر رضا كحالة : « معجم قبائل العرب » الجزء الأول ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٤٩م .

١٠ ـ محمد رمزى : « القاموس الجغرافى باسماء البـــلاد المصرية »

القسم الثانى ، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٥٨م . ـ القسم الثانى، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٦٣م .

١١ ـ محمود محمد الحويرى : (دكتور)
« أسوان فى العصور الوسطى » الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠م .

بواعــث ازدهار النشــاط
الاقتصادى فى العصر العباسى الأول
(١٣٢ ـ ٢٣٢هـ / ٧٤٩ ـ ٨٤٧م)

د٠ ضيف اللـه يحيى الزهرانى(*)

شهد قيام الدولة العباســية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م اكتمال بناء الدولة الاسلامية التى امتدت من الاندلس وبحر الظلمات غربا حتى الهند وجوف القارة الآسيوية شرقا٠وكان أن افاد المسلمون من ذلك الموقع الفريد فى قلب العالم المعروف ، وتلك الموارد الاقتصــادية الضــخمة التى فاضت بها خزائنهم فى بناء اكبر صرح حضارى عرفه العالم فى العصور الوسطى ٠ ومن المعروف إن الاقتصاد يمثل عماد أية قوة سياسية أو نهضة حضارية ، ولذا أهتم الخلفاء العباســيون الأوائل برعاية الأوضاع الاقتصــادية ، وتكاتفت عدة عوامل لتجعل ذلك النشاط الاقتصادى دعامة قوية استندت اليها الدولة فى تحقيق أسباب القوة والعظمة الحضارية ٠

والملاحظ فى الدراسات التاريخية الحديثة أنها فى الكلام عن النشاط الاقتصادى فى العصر العباسى الأول،وجهت معظم اهتماماتها نحو مظاهر هذا النشاط ، دون التطرق الى العــوامل التى ساعدت على ازدهاره والقوى ـ الظاهرة والباطنة ـ التى ساعدت على نجاحه وانتعاشـــه ٠ ولذا رأينا فى هذا البحث أن نحاول القاء الاضــواء على **العوامل التى ساعدت على انتعاش النشاط التجارى والصناعى بوجه خاص** ، حيث أن النشاط الزراعى حظى بدراسات عديدة من نواحى اصلاح الأرض وتوفير الماء ، وبناء السدود والقناطر ، وحفر الترع ومراعاة العدالة فى جمع الخراج وغير ذلك ٠٠٠٠

وفى هذه المقدمة لا يفوتنا أن ننوه أن الله عز وجل امتدح التجارة

(*) استاذ مشارك بجامعة أم القرى ٠

الحلال ، وأن الرسول ﷺ أمتدح التاجر الأمين ، وفى الوقت نفسه حث الاسلام على العمل ـ بأوسع معانيه ـ بما فيه العمل الفكرى واليدوى وغير هذا أو ذاك . فالله عز وجل يقول محلا التجارة الخالية من الربا (وأحل الله البيع وحرم الربا)(١) ، وأما الرسول ﷺ فقد سئل ، أى الكسب أفضل أو أطيب ؟ فقال « عمل الرجل بيده وكل بيع مبرر »(٢) ، وقال الله تعالى فى المجال الصناعى والمواد الأولية التى تستخدم فى الصناعة (وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس)(٣) وهكذا نشطت التجارة والصناعة فى الدولة الاسلامية لفضل ما تهيا لها من عوامل عدة ، وأصبحت تفوق التجارات والصناعات العالمية ، حيث عنى الخلفاء بتنظيم امورهما ، والاشراف المباشر عليها من أجل منع الغش فى التجارة والصناعة والانتاج ، ومنع التحايل والتدليس فى المعاملات(٤) ، والمتأمل فى صادرات الدولة ووارداتها يدرك قوة الازدهار التجارى فى ذلك العصر ، كما ان المتأمل فى عدد المصانع فى بغداد وحدها ، يدرك قوة الازدهار الصناعى ، فقد قدر عدد الطواحين بـ (٤٠٠ رحى) مائية ، و (٤٠٠٠) معمل لصنع الزجاج و (٣٠,٠٠٠) معمل لصنع الخزف(٥) . هذا الى أن الحرف والمهن التى أوردتها كتب الحسبه(٦) ، والتى تعج بعديد الصناعات المتنوعة تدل على قوة الصناعة وتطورها . وقد خص كل أهل تجارة أو صناعة أو حرفة بسوق خاص، مما أدى الى كثرةالأسواق وتنوعها وبالتالى الى ازدهار النشاط الاقتصادى .

أما عن العوامل التى ساعدت على هذا النشاط والازدهار ـ وهى موضوع دراستنا ـ فنستطيع أن نجملها فيما يلى :

أولا : الموقع الجغرافى :

كانت الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول تمتد امتدادا شاسعا وتضم العديد من الشعوب ذات الأصول المتباينة والجذور المختلفة ، فضلا عن الأقاليم ذات الموارد الاقتصادية المتنوعة . وحسب هذه الدولة عندئذ أنها امتدت من حدود الصين شرقا حتى سواحل بحر الظلمات أو البحر المحيط أو المحيط الأطلسى غربا ، ومن أواسط بلاد النوبة جنوبا حتى حدود دولة الفرنجة وشاطىء بحر بنطش أو البحر الأسود شمالا ،

وبذلك اطلت هـــذه الدولة على محيطات وبحار وخلجان عدة ، حتى غدت الدولة الاسلامية تمثل سرة العالم القديم وحلقة الوصل بين أجزائه وأطرافه ، وصار العراق مركز الخلافة يكون « جسرا بين ايران والهند وأواسط آسيا والصين من جانب ، والجزيرة العربية ، والشام ومصـــر والمغرب من الجانب الآخر »(٧) ، ولا شك أن هـــذا الموقع الجغرافى الفريد ساعد على ازدهار النشاط الاقتصادى فى ميادين التجارة والصناعة.

ثانيا : سهولة التعامل النقدي :

كانت الدولة العباسية تتبع نظام المعدنين Bi-Metallic System اى تتعامل بالدينار الذهب ، والدرهم الفضة فى جميع معاملاتها الرسمية والتجارية(٨) . ولعل سبب شيوع التعامل باحد المعدنين أو بهما معا كان يتوقف على مدى توافر الذهب أو الفضة آنذاك،وبقيمتهما فى السوق. والذى لابد من معرفته هنا هو أن هناك أقاليم فى العصر العباسى الأول شاع فيها استخدام احدى العملتين نظرا لتوافر المعدن الخام بتلك الأقاليم ، ولكن هذا لا يعنى الغاء استخدام العملة الأخرى ، بمعنى أن العملتين سارتا جنبا الى جنب فى جميع المبادلات التجارية ، فمثلا : كان الدينار الذهب يسود فى أقاليم مصر وشمال افريقية وبلاد الشام ، وكان الدرهم الفضة سائدا فى أقاليم العراق وايران ووسط وشرق آسيا(٩) وعد خلفاء العصر العباسى الأول كلا من الدينار والدرهم قاعـــدة للنقد معمولا بها رسميا حتى لا يضار أحد من تجار الدولة سواء فى افريقية أو فى مصر أو فى الشام أو فى العراق أو غيرها من الأقطار .

ثالثا : كثرة الأموال وارتفاع مستوى المعيشة :

يستدل بالنظر الى قوائم الايرادات التى اعتمـدت لميزانية العصر العباسى الأول على كثرة الأموال والثروات الطائلة التى كانت سببا مباشرا للازدهار الاقتصادى المتعدد الوجوه ، وقد ورد ذكر ثلاث قوائم مالية لعهود بعض الخلفاء العباسيين هى :ـ

أولا : قائمة الجهشيارى (١٠) عملها لميزانية الدولة فى عهد الخليفة

هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/٧٨٦ - ٨٠٨م) وكان مقدارها (٥٣٠ر٣١٢ر٠٠٠) درهم ٠

ثانيا : قائمة ابن خلدون(١١) عملها لميزانية الدولة فى عهد الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/٨٢٣ - ٨٣٣م) وكان مقدارها (٣٩٤ر٢٥٤ر٠٠٠) درهم ٠

ثالثا : قائمة قدامة بن جعفر(١٢) ويرجح أنه عملها لميزانية الدولة فى عهد الخليفة المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٨٣-٨٤٢م) وكان مقدارها (٤١١ر٢٣١ر٠٠٧) درهم ٠

ومن هذه القوائم يستدل على ضخامة الثروة ووفرة العملة والنقود ٠ وهذا فى حد ذاته خير مشجع على المشاركة فى النشاط الاقتصادى مـ.. يؤدى الى دفع مسيرة ذلك النشاط ٠٠ ولا شك فى أن كثرة الأموال أدت الى ارتفاع مستوى المعيشة بين أفراد المجتمع ، وهو أمر جاء مصحوبا بقدر من حياة البذخ والترف ٠

رابعا : وفرة الأسواق وتنظيماتها :

زخرت الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول بعدد كبير من الأسواق مثل أسواق (مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وصنعاء ، ودمشق، وبغداد ، والاسكندرية ، والكوفة ، والبصرة والفسطاط ، والقيروان) ومن الواضح أن كثرة الأسواق وتعدد أنواعها تعتبر عاملا هاما فى تنشيط المعاملات الاقتصادية ومظهرا لحيوية المدن واتساع نطاق النشاط الاقتصادى فيها(١٣) ، ونظرا لأهمية الأسواق فقد كان يخطط لها مع تخطيط المدن(١٤) ، وقد وصل أمر تنظيم الأسواق أن خص أهل كل تجارة بسوق خاص ، منفردة ، « وكانت المدن بصورة عامة أسواقا لما يحيط بها من قرى وأرياف ، فهى مخازن لانتاجها ، ومراكز تبيع لها ما تحتاج اليه من مواد »(١٥) ، لذا نجد أن الأسواق قامت بالدور الايجابى المميز فى ازدهار الأنشطة التجارية والصناعية ٠

خامسا : العناية بطرق التجارة :

تنقسم طرق التجارة الى قسمين كبيرين :

اولا : طرق مائية (بحرية أو نهرية) ، وكانت البحار التى تشق عبا بها مراكب المسلمين هى : بحر الظلمات (المحيط الاطلسى) وبحر الهند (المحيط الهندى) وبحر العرب ، وبحر القلزم (البحر الاحمر) وبحر الروم (البحر المتوسط) ، فضلا عن البحار الداخلية مثل : الخليج العربى ، وبحر بنطش (الاسود) ، وبحر الخزر (قزوين) ، اما الانهار فقد تميزت منها ثلاثة أنهار رئيسية هى (النيل ودجلة والفرات) ،وقد قامت هذه البحار والانهار بدور كبير فى النشاطالتجارى اذ غدت طرقا مالوفة للسفن التجارية ، وأسهمت أسهاما واضحا فى النشاط التجارى ، سواء التجارة المحلية الداخلية ، أو التجارة الاقليميه أو العالمية ، ووجدت محطات على امتداد الطرق البحرية والنهريه لجباية الضرائب ، فضلا عن حراسة المراكب(١٦) ٠

أما القسم الثانى : فنعنى به الطرق البرية التى كانت تمثل شبكة داخلية وخارجية واسعة،سهلت على التجار نقل بضائعهم وتسويقها(١٧)٠ وقد ارتبطت بغداد حاضرة الخلافة بشبكة من الطرق البرية على النحو التالى :

١ ـ الطريق الشرقى الى حلوان ثم أواسط آسيا ٠
٢ ـ الطريق الشمالى الى الموصل والجزيرة ٠
٣ ـ الطريق الجنوبى الى واسط ثم البصرة ٠
٤ ـ طريق جنوبى غربى الى الكوفة ثم الى الجزيرة العربية حيث ينتهى باليمن ٠
٥ ـ طريق غربى الى الرقة ثم الى الشام ومصر(١٨) ٠

واقيمت على امتداد هذه الطرق خانات للمسافرين وللتجارة يرتاحون فيها ويحفظون فيها تجاراتهم ٠ وكانت تعقد فيها الصفقات التجارية وعمليات البيع والشراء(١٩) ، ولا شك فى ان وفرة الطرق والعناية بها وتعبيدها وتوفير وسائل الراحة للمسافرين على امتدادها ...

كل ذلك شجع على الرحلة ، وبالتالى على نقل البضائع وسفر التجار من اقليم الى آخر . هذا بالاضافة الى حرص الخلفاء على توفير الأمن للمسافرين والضرب بشدة على أيدى المعتدين والعابثين ، بحيث غدت الدولة الاسلامية تمثل واحة كبيرة يسودها الأمن والسلام مما أدى الى ازدهار النشاط الاقتصادى بوجه عام والتجارى بوجه خاص .

سادسا : تجنب الأساليب التجارية المحرمة :

حرص المسلمون فى معاملاتهم الاقتصادية على الالتزام بالحلال وتجنب الحرام ، فاعرضوا عن كل ما نهى عنه الدين ، وقامت الدولة بتطبيق احكام الشريعة ومراقبة النشاط الاقتصادى فى الأسواق والمحطات التجارية والمدن . وكان أهم ما تجنبه المسلمون فى معاملاتهم هو : -

(أ) الربا : وهو الزيادة غير المشروعة . قال الله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا)(٢٠) ، وقد حرم الربا لعلة فى ذاته ، لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته . ولما كانت بعض جذور الربا راسخة عند التجار من أهل الذمة وخاصة فيما يتعلق بصرف النقود وتسعيرها(٢١) ، فقد كان يتم التعامل معهم فى نطاق ضيق يشوبه الحذر الشديد .

(ب) الاحتكار : وهو احتجاز السلعة لغرض تاخير بيعها حتى يرتفع السعر . قال الرسول صلى الله عليه وسلم « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون »(٢٢) والهدف من تحريم الاحتكار هو كشف الضرر عن عموم الأمة الاسلامية ووقايتهم من المحتكرين فى حبس الأقوات وغيرها من ضرورات الحياة ومنعواستئثارهم بتوزيعها دون سائر المنتجين والموزعين للحيلولة دون التحكم فى أسعارها كما يشاؤون(٢٣) .

ولما كانت المحافظة على حرية التجارة والصناعة هى الهدف السامى الذى من خلاله تتحقق المحافظة على مستوى الحياة الاجتماعية فاننا لم نجد أى ذكر للاحتكار خلال فترة هذه الدراسة .

سابعا : تنشيط العلاقات الاقتصادية مع الدول الأخرى :

تمتعت الدولة العباسية فى عصرها الأول بعلاقات تجارية مميزة مع جيرانها كان لها أكبر الأثر فى ازدهار التجارة والصناعة ٠ ومن الدول والبلاد التى كانت لها علاقات اقتصادية مع الدولة العباسية نذكر ، (بلاد الصين ، والهند ، وشرق افريقية ، واوروبا) (٢٤) ٠ وهذه العلاقات ساعدت على الانتعاش الاقتصادى ، فكانت الدولة الاسلامية تصدر الى العالم الخارجى : (الأقمشة القطنية والمنسوجات الحريرية والتمور وماء الورد ، وبعض أنواع الحبوب والعسل والموازين والصابون والزيت والاقلام والخيل العربية الأصيلة (٢٥) ٠٠٠ الخ) ٠ هذا بالاضافة الى ما يمكن ان نسميه (تجارة المرور) وهى البضائع والغلات التى كانت تمر بأرض الدولة الاسلامية ، بمعنى أنها ترد اليها لتصدر منها الى بلاد أخرى ٠ وكانت ترد الى أسواق الدولة فى العصر العباسى الأول الكثير من التجارات الخارجية مثل : (التوابل والأسلحة ، والأحجار الكريمة والعطور والرصاص وأنواع السجاد (٢٦) ٠٠٠ الخ) ٠ وبعض هذه المنتجات كالتوابل والعطور والبخور والحديد كان يعاد تصديرها ٠

ولا يخفى علينا ما للعلاقات الاقتصادبة من آثار ايجابية فى الدولة العباسية وخاصة فى المجالات التالية :ـ

(أ) تنشيط حركة الموانىء الاسلامية ٠
(ب) ازدهار بعض المدن ، وخاصة الساحلية وبعض الثغور ٠
(ج) توسع المؤسسات المصرفية ٠
(د) زيادة ايرادات الدولة ٠
(هـ) التنوع فى عناصر السكان ٠

يضاف الى هذه الايجابيات انتشار الاسلام فى كثير من البقاع والأصقاع عن طريق النشاط التجارى الكبير الذى مارسه التجار المسلمون ٠

ثامنا : وفرة اعداد الحرفيين والمهنيين :

زخرت الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول بعدد وافر من

عمال الحرف والمهن ، وهذا العدد لم يكن متوافرا بتلك الكثرة قبل حركة الفتوحات الاسلامية . ذلك أن الدولة الاسلامية كانت على قدر كبير من الحنكة والسياسة فى معاملة أهالى تلك البلاد المفتوحة حيث أنها عملت على رعايتهم والاهتمام بهم كل فى مجال تخصصه . كذلك سمحت لهم بممارسة نشاطهم الحرفى فى حرية تامة . وأدى ذلك الى أن تتلمذ كثير من أبناء المسلمين على أيدى أرباب الحرف الفنية وأتقنوها(٢٧) يضاف الى ذلك أن الخلفاء العباسيين [عملوا على استقدام كثير من الأيدى الفنية الماهرة من البلاد الأخرى المجاورة(٢٨) ، وخاصة أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ/٧٥٤ - ٧٧٥م)] ، وهذا يعنى (أيضا) كثرة الأيدى العاملة من ذوى الخبرة والمهارة فى الصناعات بجميع أنواعها.

تاسعا : توافر المواد الخام :

أدى اتساع الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول الى تنوع الثروات ومواردها الأولية ،وذلك لتباين طبيعة الاقاليم التى ضمتها تلك الدولة . ومن أهم هذه الثروات والموارد :

(أ) الثروة المعدنية ، مثل الذهب ، الفضة ، الحديد ، النحاس ، الرخام ، الكبريت ، الرصاص ، النفط ، الزئبق ، الكحل ، الملح طين الختم(٢٩) ، النشادر ، العقيق ، العنبر ، اللؤلؤ .

(ب) الثروة الزراعية ، وخاصة القطن .

(جـ) الثروة الحيوانية ، وخاصة الصوف ، والجلود(٣٠) .

(د) الثروة البحرية وخاصة الاصداف واللؤلؤ والأسماك وغيرها .

هذه الثروات هى التى شكلت كيان العديد من الصناعات المتباينة . هذا بالاضافة الى أن توافر المواد الخام خلق مجالات صناعية متعددة كان لها اكبر الأثر فى ازدهار النشاط الصناعى أولا ثم النشاط التجارى (.مجال التسويق) ثانيا .

عاشرا : تشجيع الدولة ورعايتها للتجارة والصناعة :

كان لدعم خلفاء الدولة العباسية الأولى اثره الواضح والبين فى

ازدهار التجارة والصناعة. ذلك أنهم شجعوها بكل الوسائل المتاحة، فعملوا على بناء الأسواق وتنظيمها ، وفرضوا عليها الرقابة المستمرة من قبل المحتسب(٣١) ، للوقوف على جودة السلع ونظافتها ومدى مطابقتها لحاجات المجتمع .

يضاف الى ذلك ما سبق أن أشرنا اليه من حرص الدولة على توفير الأمن والحماية للتجار والصناع ، فكان للأمن أثره الواضح فى تحقيق الازدهار الاقتصادى . وأسندت الى الشرطة مهمة المحافظة على الأمن الداخلى لئلا ترتكب المحرمات والمخالفات والمحظورات(٣٢). كذلك أسند الى جند الثغور المحافظة على الأمن من الاعتداءات الخارجية ، وبذلك غدا للأمن الداخلى والخارجى اثره فى استقرار التجارة والصناعة ، فنشطت حركة السفن والقوافل التجارية .

احدى عشر : رقى الصناعات وتطورها نتيجة للنشاط التجارى والعكس :

لقد نال قطاع الصناعة كل رعاية واهتمام من خلفاء العصر العباسى الأول ، الأمر الذى نتج عنه ازدهار صناعات عديدة فى مجالات مختلفة على النحو التالى :

(أ)صناعة المواد الغذائية وصناعةالأدوات الزراعية وأدوات البناء.

(ب) صناعة النسيج بمختلف أنواعه .

(ج) صناعة الفخار وأوانى حفظ المياه .

(د) الصناعات المعدنية مثل ، صناعة الأسلحة ، والحدادة والرصاص ... الخ .

(هـ) صناعة أدوات الزينة مثل صناعة العطور والكحل والحلى بمختلف أنواعها .

(و) صناعات أخرى متنوعة مثل ، صناعة الورق والأقلام وصناعة الصفارين(٣٣) .

وهذا التطور الصناعى كان له أكبر الأثر فى تنشيط التجارة الداخلية

والخارجية فقد وجدت أسواق خاصة ببعض الصناعات مثل سوق الشماعين وسوق السلاح وسوق الجوخيين وسوق الصاغة وغيرها(٣٤) ، ومن خلال العرض الذى سبق فى رقم (٧) نتبين من خلال الصادرات مدى قوة نشاط الدولة فى صناعتها وتجارتها. وهذا يقودنا الى أمر مهم ، وهو استقلالية الصناعات من جهة ، ومن جهة أخرى ارتباط الصناعات بمناطق وجود المواد الخام من جهة أخرى(٣٥) .

الثانى عشر : توافر الحرية :

ان الاسلام دين السماحة والعدالة ، فهو يدعو الى المنافسة الحرة الشريفة التى تستهدف الخير لكل من البائع والمشترى . ولم يفرق الاسلام فى المعاملة بين المسلمين وغيرهم فى الأنشطة الاقتصادية،لذا كانت حرية العمل الشريف متاحة للمسلمين وغيرهم.ومع ذلك فان بعض الحرف غلب عليها غير المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى . ويعود ذلك الى عامل الوراثة والظروف الاجتماعية، وأحيانا الى طبيعة العقيدة والدين . وكان الناس احرارا فى اختيار المهنة التى يريدون(٣٧) . من ذلك ان اهل الذمة عندما عملوا فى الأنشطة التجارية والصناعية ، أحترفوا الحدادة وصناعة الحرير والزجاج والدباغة والصباغة ، بالاضافة الى احترافهم مهنة الصرافة(٣٧) .

وقد كفل لهم الاسلام حرية التجارة بين بلدان العالم الاسلامى والخارجى وكانت لهم تجارتهم المميزة ، وبخاصة فى (الفراء ، والسيوف ، والغلمان ، والجوارى ، والديباج ، والعود ، والكافور ، والمسك) ، وكلها تجارات ثمينة .

وهكذا فان حرية الحركة والعملكفلت - بلا شك - الازدهار التجارى والصناعى ، بحيث لم يكن ذلك النشاط مقصورا على أبناء الأمة الاسلامية وحدهم ؛ الأمر الذى يؤكد سماحة الاسلام وعظمته .

ثالث عشر : مرونة أساليب التعامل الاقتصادى :

صاحب نشاط التجارة والصناعة تطبيق بعض الأساليب التى كان

لابد منها من أجل تسهيل مرونة الحركة التجارية والصناعية • ومن هده الأساليب نذكر ما يلى : -

(أ) انتشار الصيرفة : وهى حرفة قديمة جدا ، كان الغرض منها :

١ - تقييم النقود من حيث الجودة والوزن •
٢ - تحويل النقود أو صرفها لأغراض تجارية(٣٨) •

وكان للصيارفة علاقات مباشرة مع الدولة التى يهمها « الاحتفاظ بسمعة سلامة النقود وتوفيرها للتداول فى الأسواق »(٣٩) •

وكان للصيرفة نشاط ملحوظ فى العصر العباسى الأول نظرا لجودة النقود من جهة ثم لازدهار التجارة من جهة أخرى • وأدى اتساع أعمال الصيرفة الى التوسع التجارى والصناعى بشكل طبيعى • ومع ما يتطلبه هذا التعامل مع هؤلاء الصيارفة من الحذر الشديد نظرا لتعاملهم بالربا ، الا ان التجار المسلمين تعاملوا معهم وفقا للضوابط الشرعية فى هذا الشان.

(ب) السفتجة : هى « أن يعطى رجل مالا لآخر وللآخذ مال فى بلد المعطى فيوفيه اياه ، فيستفيد أمن الطريق »(٤٠) فهى وسيلة للأمان ، استعملها التجار لحفظ أموالهم ، وتسهيل حركتهم التجارية ، سواء عن طريق تسوية الديون أو تصفية الحسابات • وقد وجدت فى العصر العباسى الأول منذ عهد الخليفة أبى جعفر المنصور(٤١) •

(ج) الصك : الصك الكتاب ، فارسى معرب والأصل (جك) ، والصك الذى يكتب فيه للعهدة(٤٢) ، وهو وسيلة من وسائل الائتمان القديمة كان يستخدم لدفع الأرزاق والاعطيات لوقت مؤجل(٤٣) ، ولعل أول اشارة نحصل عليها فى استخدام الصكوك فى العصر العباسى الأول ظهرت فى عهد الخليفة هارون الرشيد(٤٤) (١٧٠ - ١٩٣هـ/٧٨٦ - ٨٠٨م) ، وقد اتسع استخدامه نظرا لحاجة التجار والصناع ، والدولة على حد سواء ، وكان عادة يصرف من بيت المال أو المصارف الخاصة(٤٥) •

(د) انشاء الشركات : ذلك أن حركة التجارة ولدت أنواعا مختلفة من الشركات ، وان كان الأمر ليس بجديد فى عصر هذه الدراسة . ولكن توسع التجار والشركاء فى انشاء الشركات خـدمت قطاعى التجـارة والصناعة على حد سواء وكانت على النحو التالى :

١ ـ شركة الأموال ، وهذه تتطلب دفع مبالغ مالية من كل شريك.

٢ ـ شركة الأعمال ، وهذه تتطلب جهودا ذهنية وبدنية .

٣ ـ شركة الوجوه ، وهذه تتطلب الثقة بين الشركاء والمتعاملين معهم نظرا لعدم وجود مبالغمالية لتاسيس شركاتهم لأنهم يأخذون بتاجيل ويبيعون ويتقاسمون الربح .

٤ ـ شركة المضاربة ، وهذه تتطلب العمل من الشركاء أو احدهم مقابل جزء من الربح(٤٦) .

(هـ) انشاء النقابات المهنية ، التى كان شـعارها « الصـناعة نسب »(٤٧) . والنسب كما نعلم يجمع على التحاب والتناصر ، وهـذا بدوره أدى الى تعاون أبنـاء الصنف الواحـد ، وشـعورهم بالارتباط الوثيق مع بعضهم(٤٨) ، فكان لكل حرفة شعارها ومراسيمها ولكل صناعة نقيبها .



من خلال العرض السابق للأساليب التجارية ندرك أن التوسع فى وسائل الائتمان وكثرة المؤسسات المصرفية قـد سـاعد على خلق أجواء متناسبة ومتفاعلة مع الأنشطة التجارية والصناعية .



وبعد ، فانه يتبين لنا مما سـبق ان الازدهار التجارى والصناعى الذى شهدته الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول لم ينبع من فراغ وانما هناك عوامل عدة اسهمت فى تحقيقه وساعدت على رقيه .

الهوامش والتعليقـــات

(١) سورة البقرة . آية (٢٧٥) ٠

(٢) السيوطى : الدر المنثور ، جـ٢ ، ص ١٤٤ ٠

(٣) سورة الحديد ، آية (٢٥) ٠

(٤) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٩٧ ٠

(٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، جـ٢ ، ص ٣٠٩ ٠

وقد يلوح لنا أن هذه الأرقام فيها شيء من المبالغة وان كان كذلك الا أنها تدل فى المقابل على قوة الاقتصاد العباسى ٠

(٦) من كتب الحسبه نذكر : نهاية الرتبه فى طلب الحسبه للشيزرى ، ونهاية الرتبه فى طلب الحسبه ، لابن بسام ، ومعالم القربة فى أحـكام الحسـبه ، لابن الأخوة القرشى ٠

(٧) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١١٩ ، وهذا الموقع المميز للعراقيين جعلهم وسطاء فاعلين فى تجارة العالم المتمدن ٠

(٨) الصابى : تحفة الأمـراء ، ص ١١ ، مسـكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٨ ، التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ١ ، ص ٢٦ ٠ ابن الأثيـر : الكامل فى التاريخ ، جـ٨ ، ص ٤٢ ٠

(٩) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٠٩ ٠

(١١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ٠

(١٠) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٧٩ ٠

(١٢) قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابه ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ٠

(١٣) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٣٣ ٠

(١٤) اليعقوبى : البلدان ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٧ ٠

(١٥) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٣٢ ٠

(١٦) ابن خرداذبه : المسالك و الممالك ، ص ١٥٤ ٠

(١٧) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٥ ٠

(١٨) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٤٣ ٠

(١٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ص ٧ ، ص ٢١٥ ٠

(٢٠) سورة البقرة ، آية ٢٧٥ ٠

(٢١) الجهشياري · الوزراء والكتاب ، ص ١٠٠ ، ٢٢٠ ·

(٢٢) رواه مسلم فى صحيحه ، جـ٣ ، ص ٢١٢ ·

(٢٣) أحمد الشرباصي: المعجم الاقتصادى الاسلامي ، ص١٥٩ ، على عبدالرسول: المبادىء الاقتصادية في الاسلام ، ص ٦٣ ·

(٢٤) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٥٢ ·

(٢٥) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ٧٥ ·

(٢٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥ ·

(٢٧) زكي حسن : فنون الاسلام ، ص ٨٧

(٢٨) اليعقوبى : البلدان ، ص ٢٢٨ ، الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ٤٢ ·

(٢٩) طين الختم : هو الطين السيرافي ، نوع من التراب ، يعجـــن بالماء ، ويستخدم فى ختم الرسائل ، وهو البديل عن الشمع الاحمر اليوم ، انظر ضيف الله الزهرانى ، موارد بيت المال ، ص ١٧٢ هامش (*) ·

(٣٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٣ · أنور الرفاعى : النظم الاسلامية ، ص ٢٥١ ·

(٣١) المحتسب ، نوعان : محتسب متطوع يقوم بالعمل من تلقاء نفسه ، ومحتسب مكلف من قبل ولى الأمر للقيام بمهام الحسبة ، التى تعنى « الأمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، والنهى عن المنكر اذا ظهر فعله » ·
انظر : الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ١٩٧ ·

(٣٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٠ ، ص ٢٢ ـ ٢٤ ·

(٣٣) لمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على رسائل اخـــوان الصفا ، جـ١ ، ص ٢١٩/٢٢٠ · الجاحظ ، التبصر بالمتاجرة ، ص ٢٤/٢٢/٣٣ ·

(٣٤) اليعقوبى : البلدان ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ٢ ، ص ٩٤ وما بعدها ·

(٣٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٣ ·

(٣٦) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٩٢ ·

(٣٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٨٣ ·

(٣٨) عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٦٥ ، أحمـــد الشرباصى : المعجم الاقتصادى الاسلامى ، ص ٢٥٨ ·

(٣٩) صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ، ص٢٩٦·

(٤٠) ابن منظور : لسان العرب ، جـ٣ ، ص ١٢٣

(٤١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٨٩/١٠٩/١١٠ ٠

(٤٢) ابن منظور : لسان العرب ، ج١٠ ، ص ٤٥٧ ٠

(٤٣) المصدر السابق نفسه ، ج١٠ ، ص ٤٥٧ ٠

(٤٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ١٩٦ ٠

(٤٥) الصابى : الوزراء ، ص ٢٣٥ ٠

(٤٦) لمزيد من التفاصيل عن الشركات انظر : السرخسى : المبسوط ، ج١١ ، ص ١٥٢/١٥٦/١٧٣/١٧٩ ٠ عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٢٦ ـ ١٣٠ ٠

(٤٧) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٧ ٠

(٤٨) صباح الشيخلى : الاصناف فى العصر العباسى ، ص ١٢٣ ٠

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصــادر :

القــرآن الكريم

— ابن الأثير : عز الدين ، أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى (ت٦٠٣هـ)
« الكامل فى التاريخ » ، نشر : دار صادر ، ودار بيروت ، لبنان، طبعة بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

— ابن خرداذبه : أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ) .
« المسالك والممالك » ، نشر : مكتبة المثنى ببغــداد ، باعتنــاء دى خويه ، ليدن ١٩٨٩م .

— ابن خلدون : ولى الـدين ، أبو زيد ، عبــد الرحمن بن محمــد (ت ٨٠٨هـ) .
« المقدمة » ، مطبوعات ومنشورات دار الشعب بالقاهرة .

— ابن منظور : جمال الدين ، أبو الفضل ، محمد بن جــلال الدين المصرى (ت ٧١١هـ) .
« لسان العرب » ، دار صادر ، ودار الفكر ، بيروت .

— التنوخى : أبو على ، المحسن بن أبى القاســم على بن محمــد (ت ٣٨٤هـ) .
« جامع التواريخ ، المسمى ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » تحقيق : عبود الشالجى ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣م .

— الجاحظ : أبو عثمان ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) .
« التبصر بالتجارة » ، نشره ، حسن حسنى عبد الوهاب ، المطبعة الرحمانية ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م .

— الجهشيارى : أبو عبدالله ، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ) .
« الوزراء والكتاب » ، تحقيق : مصطفى السقا وابراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شـلبى ، طبعــه ونشره ، مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ/١٩٣٨م .

— السرخسى : ابو بكر محمد بن ابى سهل (ت ٤٩٠هـ) .
« المبسوط » ، طبع ونشر : دار المعارف ، بيروت .

— السيوطى : جلال الدين ، ابو الفضل ، عبد الرحمن بن ابى بكر (ت ٩١١هـ) .
« الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » ، دار القلم بالقاهرة .

— الصابى : ابو الحسن ، هلال بن الحسن بن ابراهيم الحرانى (ت ٤٤٨هـ) .
« تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

— قدامة بن جعفر ، (ت ٣٣٧هـ) .
« الخراج وصنعة الكتابه » ، تحقيق : طلال رفاعى ، طبع ونشر : مكتبة الطالب الجامعى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

— القلقشندى : ابو العباس ، أحمد بن على (ت ٨٢١هـ) .
« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

— الماوردى : أبو الحسن ، على بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ) .
« الأحكام السلطانية والولايات الدينية » طبع ونشر : مصطفى الحلبى وأولاده ، مصر ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

— مسكويه : ابو على ، احمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ) .
« تجارب الامم » ، نشر ، مكتبة المثنى ، ببغداد ، باعتناء دى خويه ، ليدن ، ١٨٧١م .

— مسلم بن الحجاج القشيرى (ت ٢٦١هـ) .
« صحيح مسلم » ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى ، دار احياء التراث العربى .

— المقدسى : محمد بن أحمد ، المعروف بالبشارى ، (ت ٣٨٠هـ) .
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، نشر مكتبة المثنى ببغداد ، باعتناء دى خويه ، ليدن ، ١٩٠٦م .

ثانيا : المراجـــع

ـــ أحمد الشرباصى ، « المعجم الاقتصادى الاسلامى » دار الجيل ، ١٤٠١هـ .

ـــ أنور الرفاعى ، « النظـم الاسلامية » ، دار الفـكر ، دمشـق ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

ـــ حسن ابراهيم حسن ، « تاريخ الاسلام ، السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٤م .

ـــ زكى محمد حسن ، « فنون الاسلام » طبع ونشر : دار الفكر .

ـــ صالح أحمـــد العلى ، « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى » ، طبع ونشر : دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م .

ـــ صباح ابراهيم الشيخلى ، « الأصناف فى العصر العباسى ، نشأتها وتطورها » نشر : وزارة الاعلام العراقية ، طبع : دار الحرية ، بغداد ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

ـــ ضيف الله بن يحيى الزهرانى ، « موارد بيت المـــال فى الــدولة العباسية » طبع ونشر : المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

ـــ عبد العزيز الدورى ، « تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى » طبع ونشر : مكتبة المشرق ، والمكتبة الشرقية ، بيروت، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤م .

ـــ على عبد الرسول ، « المبادىء الاقتصادية فى الاسلام ، والبنـاء الاقتصادى للدولة الاسلامية» طبع ونشر : دار الفكر العربى١٩٦٨م.

صفحة فى تاريخ دولة الروم

العلاقات الاسلامية البيزنطية
فى
فترة حكم النساء وأزواجهن

(١٠٢٨ ـ ١٠٥٦م = ٤١٩ ـ ٤٤٨هـ)

أ٠د٠ علية عبد السميع الجنزورى(١)

كان للعلاقات الاسلامية انبيرنطية على امتداد تاريخ العصور الوسطى دور بارز فى تكييف تاريخ العالم ككل ، وتاريخ المسلمين والبيزنطيين على وجه الخصوص ٠

والواقع أن أغلب حلقات تلك العلاقات نالت حظها الوافر من الدراسة والبحث المستفيض سواء من الجانب الاسلامى أو من الجانب البيزنطى ، ولكن بقيت بعض الجوانب القليلة التى لم يركز عليها الضوء الا قليلا ٠ وقد آثرت ان أتناول احد تلك الجوانب لالقاء بعض الضوء على العلاقات بين الطرفين فى فترة حكم زوى Zoe وثيودورا Theodora ابنتى الامبراطور قنسطنطين الثامن Constantine VIII (١٠٢٥ ـ ١٠٢٨م/٤١٦ ـ ٤١٩ هـ) ، الذى ينتهى باعتلائه العرش البيزنطى العصر الذهبى للامبراطورية البيزنطية ٨٤٣ ـ ١٠٢٥م(٢)/ ٢٢٩ ـ ٤١٦هـ ٠

أما عن قنسطنطين الثامن هذا ، فهو ـ آخر الذكور فى الأسرة

---

(١) أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ بكلية البنات ـ جامعة عين شمس ٠

2. Ostrogorsky (G.): History of the Byzantine State, Oxford, 1968, p.210.

المقدونية - وكان شريكا فى الحكم Co-Emperor (٣) لأخيه باسل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥م /٣٦٥ - ٤١٦هـ) لمدة نصفقرن تقريبا ، الا أنه كان شريكا ضعيفا ، فظل خامل الذكر الى جوار شقيقه القوى . وعندما تقدم به السن صار امبراطورا بالاسم فقط ، فقضى معظم وقته فى حضور مادب الطعام والشراب والاستمتاع بحفلات المسرح التى أنفق وبدد فيها - بطيش واهمال - الايرادات المالية الضخمة للامبراطورية التى كان باسل الثانى قد جمعها . ولذا وصف بانه كان امبراطورا فاسقا مسرفا(٤) .

هذا هو رأى المصدر البيزنطى فى قنسطنطين الثامن ، أما المصدر السريانى فينقله لنا - ابن العبرى - الذى انفرد وحده بالرأى القائل بانه كان « لطيفا مهذبا دمث الأخلاق وكان رجلا ذا نفس عظيمة »(٥) ، وبتعبير آخر كان دمث الخلق بشوشا شهم النفس(٦) .

---

(٣) كان لنظام الامبراطور المشارك فى الدولة البيزنطية أهمية خاصة فى الحفاظ على نظام توريث العرش فى الأسر الحاكمة الشرعية . ولم يكن هذا النظام يخضع للقانون فى بيزنطة كما كان الحال فى روما ، وعليه فقد أخذ أباطرة بيزنطة يتبعون أسلوبا عمليا فى اختيار خليفتهم المرغوب فيه بتعيينه امبراطورا مشاركا ، وذلك فى فترة حكمهم وقبل وفاتهم.وكان هذا الامبراطور يلبس التاج ويمنح اللقب الامبراطورى. بل ان صورته كانت تظهر غالبا جنبا الى جنب مع الامبراطور الفعلى على النقود، وكان اسمه يدرج فى المراسيم الامبراطورية. وعند وفاة الامبراطور الفعلى ، يحل الامبراطور المشارك محله ويتمتع بكامل سلطات الامبراطور ، وبذلك يحفظ حق بقاء العرش فى داخل الأسرة الامبراطورية ويدعم استمرارية الدولة . ولقد استمر اختيار الامبراطور المشارك من الأسرة الحاكمة الشرعية حتى خرقت تلك القاعدة على عهد الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩م/٣٠١ - ٣٤٩هـ) عندما عين والد زوجته رومانوس ليكابينوس فى ديسمبر ٩٢٠م/٣٠٨هـ امبراطورا مشاركا له . مما كان له أثره فى خروج العرش من الأسرة الشرعية الى أسرة غير شرعية .
(Ostrogorsky : Ibid, P.P. 107,264).

4. Ostrogorsky: Ibid, P.P.298, 302

5. Bar Hebraeus: The chronography of Gregory Abul Faraj, V. 1,P.191.

(٦) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، نقله للعربية الأب اسحق أرملة السريانى ، بيروت١٩٨٦ ، ص ٨٣ .

ومهما يكن الأمر ، فقد توفى قنسطنطين الثامن فى ١٠٢٨م/٤١٩هـ ولم يكن له أولاد ذكور(٧) وترك ثلاث بنات فقط(٨) ، كانت اكبرهن وهى ايودوكيـــا Eudocia مشوهة الوجه من اثر مرض الجدرى ، لذا اختارت حياة الرهبانية(٩) . وعلى ذلك لم تكن كبرى بنات قنسطنطين الثامن هى التى «ملكها الروم»(١٠) عليهم بعد والدها .

واذا كانت بعض المصادر العربية والسريانية قد اشارت الى أنه بوفاة قنسطنطين (ملك الروم) انتقل ملك الى بنت له ، وقام بتدبير الملك والجيوش زوجها وهو ابن خالهـــا»(١١) أو انه أوصى بالمملكة « حين احتضاره لابن أخيه رومانوس » أو « صهره زوج ابنته »(١٢) ، فان المصادر والمراجع الغربية تشير الى أنه على خلاف المعتاد ، وعندما كان الامبراطور قنسطنطين الثامن على فراش الموت ، حاول ان يزوج احدى بناته - أى احدى الأميرتين المسنتين(١٣) - وبحث عن زوج مناسب.وفى اللحظات الأخيرة قبل وفاته وقع اختياره على رئيس المدينة رومانوس ارجيروس Romanus Argyrus الذىكان ممثلا بارزا للارستقراطيةالوطنية فى العاصمة ، وكان يشرفه انتماؤه الى أسـرة بيزنطية عريقة . هـــذا

7. Ostrogorsky: Op.cit, P.321.

(٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٢م - ١٤٠٢هـ ، جـ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ١٩٨٠ ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ ؛

Ostrogorsky: Op.cit, P.321

9. Ibid, P.321.

(١٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشـــندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ .

(١١) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٣٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتـــب ، جـ ٤ ، ص ٢٧٠ . وغالبية المصادر العربية تطلق على امبراطور الروم اسم ملك الروم .

(١٢) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٣ .

(١٣) كانت زوى وثيودورا قد ودعتا سن الشباب ، لكنهما كانتا آخر أعضـاء الأسرة المقدونية ، وعليه فقد قدر لهما أن تلعبا دورا مهما فى التاريخ البيزنطى خلال السنوات التالية .

Ostrorsky: Op.cit, P. 321.

بالاضافة الى وظيفته السامية . ذلك أن وظيفة رئيس المدينة Eparch of the City كانت باستمرار - خاصة بالنسبة للقسطنطينية - وظيفة كبرى . وقد زادت مكانتها فى القرن الحادى عشر ، بعد ان وصف كتاب المراسيم Book of Ceremonies فى القرن العاشر الرئيس او الابرش بانه (ابو المدينة) ، بل قيل ان تلك الوظيفة كانت من المناصب الامبراطورية الرفيعة ، وان صاحبها لا يفرقه عن الامبراطور شيء سوى لبس الأرجوان(١٤) .

وكان أن تزوج رومانوس من زوى فى ١٢ نوفمبر ١٠٢٨م/٢٢ شوال ٤١٩هـ ، وكانت العروس آنذاك فى الخمسين من عمرها . وبعد مرور ثلاثة أيام على وفاة قنسطنطين الثامن ارتقى رومانوس العرش باسم رومانوس الثالث أرجيروس(١٥) وامتد حكمه من ١٠٢٨ الى ١٠٣٤م(١٦)/٤١٩ - ٤٢٦هـ ، وكان على قدر من الثقافة والنضج، اذ كان عند زواجه فى الستين من عمره . أما عن مواهبه الطبيعية كحاكم فكانت ضعيفة تماما ، لكنه « حاول أن يحذو حذو الشخصيات البارزة فى الماضى ، والتى كانت أطيافها تسبح باستمرار امام عينيه »(١٧) .

---

14. Ostrogorsky: Ibid, P.321; Hussey (J.M.) Cambridge Medieval History, vol. IV,The Byzantins Empire, Part 1, Byzantine and its Neighbours, Chapter V, The Later Macedonians, The Comneni and the Angeli 1025-1204, Cambridge 1966, P.195.

ويذكر رنسيمان أن رئيس المدينة كان مسئولا عن الشرطة والأمن وضبط النظام وتوزيع جرايات الخبز وغير ذلك . (رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ١٩٦١ ، ص ٩٤) .

15. Ostrogorsky: Op.cit, P.P.321-322.

كان لابد لرومانوس أرجيروس من أن يطلق زوجته السابقة ، فتحولت الى سلك الراهبات رغم معارضة الكنيسة ، وذلك كى يتم تلك الزيجة الجديدة ويصل الى الحكم ويلبس الارجوان .

(Previte Orton: The shorter Cambridge Medieval History, V.1, P.273, Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V.IV, Part 1, Chapter V, P.195)

16. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.273.

17. Ostrogorsky: Op.cit, P.322.

اما زوجته الامبراطورة زوى ، فكانت الابنة الوسطى للامبراطور الراحل قسطنطين الثامن ، وكانت على قدر كبير من الجمال الذى شهد به بعض المؤرخين المعاصرين ، وعلى رأسهم (بسيلوس Psellus) وثمة صورة رائعة رسمها لها أحد كبار الفنانين بالفسيفساء فى كنيسة سانت صوفيا فى صالة العرض الخاصة بالنساء . وكانت بسبب شدة جمالها تثير الانتباه - حتى فى كهولتها - وذلك ببشرتها الصافية الناعمة وباهتمامها باناقتها ومظهرها(١٨) . ولكنها كانت طموحة ، ساذجة ، تعتقد بشدة فى كلام العرافين والمشعوذين . ولم تكن لديها اية دراية بفن الحكم(١٩) . هذا الى أنها كانت تتصف بالانانية والتهور والتبذير(٢٠) .

هكذا حكم رومانوس الثالث الامبراطورية البيزنطية شريكا للامبراطورة زوى(٢١) وهو الذى اشار اليه المصدر العربى باسم (أرمانوس) (٢٢) .

والواقع أنه منذ اللحظة الأولى لزواج زوى من رومانوس ، ولمدة

---

18. Hussey: Op.cit, Cam Med. Hist, vol.IV,Part1, ChapterV,P.194

هنا قد يتساءل البعض عن سر بقاء تلك الامبراطورة دون زواج حتى سن الخمسين رغم جمالها واناقتها وحسن مظهرها ؟ الا أن الاجابة تستنتج أو تستشف من أن ذلك حدث بعد اخفاقها فى حبها الأول . فقد قرأنا عن مفاوضات دارت من أجل زواج الامبراطور الغربى الشاب أوتو الثالث Otto III منها ، الا أن تلك المفاوضات لم يقدر لها النجاح ، فعندما توجهت الى ايطاليا فى يناير ١٠٠٢م/٣٩٢هـ لتلقى العلم فوجئت بخبر وفاة خطيبها وهو فى ريعان شبابه ، وذلك عند وصولها الى مدينة (بارى) الايطالية .

(Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist. vol. IV, .Chapter V, P.P 184-187).

19. Hussey: Ibid, P.194.
20. Previte Orton: Op.cit, V.1,P.273.
21. Previte Orton: Ibid, P.273, The Encyclopedia Americana, International Edition, V.29, 788.

(٢٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٢٨ ، ٤٩٨ - ٤٩٩ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢٧٠ .

عدة سنوات ، كان هناك حاجز واضح بينهـــا وبينه ، فبمجرد اعتــلاء رومانوس العرش البيزنطى ، نبذ زوى الامبراطورة الكهلة وتركها كما مهملا . هذا بالاضافة الى انه ضيق عليها فى المصروف(٢٣) .

وبخصوص العلاقات الاسلامية البيزنطية فى عهد رومانوس وزوى نجد أن المراجع الغربية اشارت اليها فى شىء من الاقتضاب، حيث قالت « ولسوء حظ رومانوس أرجيروس فانه هزم فى بلاد الشام » . وقـــد تعرضت العاصمة القسطنطينية فى عهـده لعدة كوارث منها الطاعون ، والجراد ، المجاعة والزلزال(٢٤) . أما المصـــادر العـربية والسريانية فقد فصلت الحديث وكشفت النقاب اكثر عن تلك الحلقة من العلاقات بين الجانبين الاسلامى والبيزنطى .

من ذلك ما يقوله ابن الاثير من أن «ملك الروم » - أى الامبراطور البيزنطى - خرج الى بلاد الشام فى ٤٢١هـ/١٠٣٠م(٢٥) بجيش يقدر بثلاث مائة ألف مقاتل ، وتوجه الى حلب التى كانت بيد شـــبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس(٢٦) وعسكروا بالقرب منها« فلحقهم عطش شديد ، وكان الزمان صيفا وكان أصـــحابه مختلفين عليه ، فمنهم من يحسده ومنهم من يكرهه »(٢٧) .

وفى ذلك الموقف الصعب أشار رومانوس على من معه بالتريث حتى يسقط المطر وتتوافر الميـــاه ، لكن « ابن الدوقس » - وهـو من اكابر الروم - رفض تنفيذ هذا الراى وأشار بالاسراع فى الحركة « قصرا لشر يتطرق اليه ، ولتدبير كان قد دبره عليه » ورافقه ابن لؤلؤ فى عشرة الاف

---

23. Ostrogorsky: Op.cit, P.323, Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 196.
24. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.273.

(٢٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٠٤ .

والمقصود بملك أو امبراطور الروم هنا رومانوس الثالث أرجيرس لأن ذلك كان فى فترة حكمه .

(٢٦) قامت أسرة صالح بن مرداس فى حلب ٤١٤هـ/١٠٢٣م واستقلت بالأمر فيها حتى ١٠٧٩م (حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٥) .

(٢٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٠٤ .

فارس وسلكوا طريقا آخر٠عندئذ خلا بالملك أحد أصحابه واعلمه أن ابن الدوقس وابن لؤلؤ قد حالفا أربعين رجلا ، هو احدهم،على الفتك به ٠ وعندئذ خاف رومانوس « ورحل من يومه راجعا »(٢٨) ٠

ولم يلبث ان لحق به ابن الدوقس وساله عن سبب رجوعه ،فارجع ذلك الى اجتماع العرب عليهم وقربهم منهم ٠ ولم يلبث أن قبض على ابن الدوقس وابن لؤلؤ ومن معهما ، ورحل الامبرطوار راجعا فتبعه « العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون »(٢٩) ٠

ويقال أيضا ان سبب عودة الامبراطور الى بلاده أن حشدا قليلا من العرب هاجم القوات البيزنطية « فظن الروم انها كبسة » فاحتاروا فيما يصنعون ، حتى ان ملكهم « لبس خفا أسودا وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر » عندئذ انهـزم البيزنطيون وغـنـم المسـلمون جميع ما كان معهم (٣٠) ٠

اما ابن العبرى فيعطينا تفسيرا دينيا انفرد به ، لذا يجب علينا أن نتناوله بشىء من الحيدة والحذر ، وذلك حين يقول : « ان الملوك السـابقين لرومانوس ، نجحـوا فى التخلص من اضـطهاد المؤمنين لهم ، لذلك ازدهـروا فى كل مكان ٠ لكن هـذا الملك بدأ يضـطهد المسيحيين ، وأبعد عن طريق النفى البطـريرك المقـدس ابن عبدون Mar Abdun وأساقفته ، وذلك اتباعا للعادة القديمة ، وعليه فقد حطم الله الروم المخادعين المضللين وسحقهم أمام أعدائهم»(٣١) ٠

---

(٢٨) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٤ ـ٤٠٥ ٠

(٢٩) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٥ ٠

(٣٠) نفس المصدر والجزء والصفحة ٠

31. Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P.191.

اما مترجم ابن العبرى فيعطينا ترجمة هذا النص على النحو التالى : « ان الملوك السابقين لرومانوس كان النصر حليفهم فى الحروب لأنهم لم يكونوا يتشبثون بالمماحكات الدينية ٠ أما رومانوس هذا فقد عادى بطريركنا القديس ابن عبدون (١٠٠٤ـ ١٠٣٠م/٣٩٤ ـ ٤٢١هـ) وأساقفته ونفاهم جاريا على عادة اليونان المكارين القدماء، ولذا سمح الرب بسحقهم تجاه أعدائهم » ٠ (ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٣)٠

وقد أوضح المؤرخ ابن الأثير خسائر البيزنطيين فى ذلك اللقاء مع المسلمين وحلفائهم.فقال انها كانت : « أربعمائة بغل محملة مالا وثيابا » الى جانب هلاك كثير من البيزنطيين بن شدة العطش ، ولم ينج الا الملك وحده « ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شىء البتة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا »(٣٢) .

اما المصدر السريانى،فيذكر أن خسائر البيزنطيين كانت «سبعين بعيرا محملة نقودا وآنية ذهبية وفضية واقمشة فاخرة وبغالا كثيرة حتى بيع البغل الجيد فى حلب بدينارين » . ولم يبق مع الملك رومانوس فيما قيل « خيمة أو كأس يشرب بها ماء »(٣٣) .

ثم كان ان حدث سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م أن استولى البيزنطيون على مدينة الرها من المسلمين . وتفصيل ذنك أن الرها كانت بيد عطير النميرى ، فاستولى نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر على حران وجهز من قتل عطيرا حاكم الرها . فشفع صالح بن مرداس حاكم حلب الى نصر الدولة ان يعيد الرها الى ابن عطير والى ابن شبل مناصفة ، فقبلشفاعته وسلمها اليهما وذلك فى سنة ٤١٦هـ/١٠٣٣م)(٣٤).وكان فى الرها برجان حصينان احدهما أكبر من الآخر فتسلم ابن عطير الكبير وابن شبل الصغير . وظلت المدينة معهما حتى تلك السنة ٤٢٢هـ ، فراسل ابن عطير الامبراطور البيزنطى رومانوس وباعه حصنه بعشرين الف دينار . هذا بالاضافة الى عدة قرى من بينها أرية سن ابن عطير . وتسلم البيزنطيون البرج الذى كان له ودخلوا البلد عنوة فملكوه ، وهرب منه أصحاب ابن شبل ، عندئذ قتل البيزنطيون المسلمين وخربوا المساجد(٣٥) .

---

(٣٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٠٥ .

(٣٣) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٣ ـ ٨٤

Bar Hebraeus: V,1, P.192.;

(٣٤) ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٧ .

(٣٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤١٣ ؛ أبو الفدا : المصدر السابق نفس الجزء والصفحة وابن شبل هو ابن شبل الدولة بن صالح بن مرداس .

وعندما سمع نصر الدولة الخبر سير جيشا الى الرها ، فحاصرها « وفتحها عنوة » واعتصم من بها من الروم بالبرجين ، واحتمى النصارى بالبيعة الخاصة بهم، « وهى من أكبر البيع واحسنها عمارة »، فحاصرهم المسلمون واخرجوهم ثم قتلوا أكثرهم ونهبوا البلد ٠ وبقى البيزنطيون فى البرجين ، فسار اليهم جيش بيزنطى عظيم يقدر بنحو عشرة آلاف مقاتل ، فانهزم أصحاب ابن مروان أمامهم ، وعندئذ دخل البيزنطيون البلد وما جاوره من بلاد المسلمين وصالحهم ابن وثاب النميرى على حران وسروج « وحمل اليهم خراجا » عنهما(٣٦) ٠ وقد أشار ابن الأثير فى موضع آخر الى استيلاء البيزنطيين على الرها فى عهد الامبراطور رومانوس بشىء من الايجاز بقوله : « وهو الذى ملك الرها من المسلمين »(٣٧) ٠

وفى تلك السنة أيضا ٤٢٢هـ/١٠٣١م استولى البيزنطيون على قلعة افامية بالشام ٠ ويرجع السبب فى ذلك الى أن الخليفة الفاطمى الظاهر(٣٨) أرسل وزيره الدزبرى(٣٩) الى الشام فملكه ٠ ثم قصد

---

(٣٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤١٣ ٠

(٣٧) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٩٨ ٠

(٣٨) هو أبو الحسن على بن منصور بن نزار بن معد ، ولد ليلة الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلاث مئة ٠ بويع له يوم عيد الأضحى سنة احدى عشرة وأربع مئة ٠ (ابن ايبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٦ ، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م ، ص ٣١٣) ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ، جـ ٢ ، القاهرة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م ، ص ١٢٤ ٠

(٣٩) الدزبرى أو التزبرى هو الأمير المظفر أمير الجيوش ، عدة الامام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالى أبو منصور أنوشتكين ، مولده ببلاد ما وراء النهر فى بلد الترك فى البلد المعروف بختل ، وسبى منه وحمل الى كاشغر ، وهرب الى بخارا وملك بها وحمل الى بغداد ثم الى دمشق سنة ٤٠٠هـ فاشتراه القائد تزبر بن أونيم الديلمى ٠ ثم انتقل الى ملكية الحاكم بأمر الله عام ٤٠٣ هـ ، وصار يرتقى حتى سيره مع سديد الدولة ذى الكفايتين الضيف فى العسكر الى الشام عام ٤٠٦هـ ، ثم تولى

حسان بن المفرج الطائى ، والح فى طلبه فهرب منه ،ودخل الى الأراضى البيزنطية « ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى راسه علم فيـــه صليب » وبصحبته جيش كبير ، فسار الى أفامية وباغتها واستولى عليها ، وغنم ما فيها وسبى أهلها واسرهم » . وعندئذ أرسل الدزبرى يستنفر الناس للغزو(٤٠) .

وفى ١١ أبريل ١٠٣٤م(٤١)/جمادى الأولى ٤٢٥هـ مات رومانوس الثالث فى الحمام ، نتيجة لمؤامـــرة دبرت بالاتفاق بين زوى وعشيقها ميخائيل البافلاجونى Michael the Paphlagonian للتخلص منه .

وقد تباينت الآراء فى المصادر والمراجع العربية والأجنبية حول كيفية التخلص من رومانوس منها :

ان زوى وميخائيل أعملا الحيلة فى قتله ، فمرض « فادخـــلاه الحمام كارها وخنقاه » واظهرا انه مات فى الحمام(٤٢) . ومنها أن زوى دست ميخائيل عليـــه فقتله(٤٣) ، أو انه توفى نتيجة لدفع زوى وعشيقها له بالقوة تحت الماء . ومهما يكن الأمر فان زوى بعد أن شاع خبر وفاته اكتفت بأن دخلت الحجرة التى يرقد فيها والقت عليه نظرة واحدة ثم انصرفت(٤٤) .

=

بعلبك ، ثم قيسارية ثم تنقل فى الوظائف حتى انتهى الى ولاية دمشـــق . (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٧١ ــ ٧٥ : المقـــريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ، ص ١٣٢ حاشية (١) للمحقق د. محمد حلمى محمد أحمد) .

(٤٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٢٠ ؛ ابو الفدا : المختصر فى أخبـــار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٨ .

(٤١) Ostrogorsky: Op. cit P.323.

(٤٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠ .

44. Hussy: Op.cit Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chapter V, P 196.

ولم تلبث زوى أن تزوجت بعد ذلك مباشرة من عشيقها الشـــاب ميخائيل البافلاجونى ، رغم المعارضة الشديدة التى تعرضت لها(٤٥) . وكان أن ارتقى ميخائيل العـــرش البيزنطى باســـم ميخائيل الـــرابع Michael IV ١٠٣٤ - ١٠٤١م(٤٦)/٤٢٥ - ٤٣٣هـ « على كره من الروم » على قول ابن الأثير(٤٧) .

وكان ميخائيل من أصـل وضيع(٤٨) اذ كان ابنا لأحـــد فلاحى بافلاجونيا(٤٩) ، وهو الذى أشار اليه ابن الأثير بقوله أنه « رجل صيرفى ليس من بيت الملك وانما بنت قسطنطين اختارته »(٥٠) .

ويدين ميخائيل الرابع بارتقائه العـــرش لأخيـــــه John the Orphantrophus وهو أحد الخصيان ذوى النفوذ والســـطوة فى القصر الامبراطورى ، فأحضره للقصر وصمم على أن ينتزع له العرش - الذى كان محروما منه لأنه خصى - وعنـــدئذ وقعت الامبراطورة العجوز فى حبه وتزوجته(٥١) .

ورغم أن ميخائيل الرابع أثبت أنه حاكم قدير وقائد شجاع(٥٢) ، الا أنه كان يعانى من مرض خطير(٥٣) ، فقد « أصـــابه الصرع ودام

---

45. Ibid: P.196.
46. Ostrogorsky:Op.cit, P. 323. The Encyclopaedia V. 29, P.788.

(٤٧) ابن الأثير · الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ .

48. The new Encyclopaedia Britanica, vol VI, P. 858, The Encyclopaedia Americna, V. 19, P. 11.
49. Ostrogorsky· Op.cit, P.323.

(٥٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٣٨ .

وربما خلط القلقشندى بينه وبين أخيه حنا عندما ذكر أن زوى زوجة رومانوس مالت « الى التحكم فى دولته » (القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠).

51. Ostrogorsky:Op.cit,P.323; The New Encyclopaedia Britannica, vo. VI, 1768, P.858.
52. Ostrogorsky: Op.cit, P.324
53. Ibid : P. 324: Previte Orton : Op. cit, P. 273; Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General

به »(٥٤) . ولذا ترك تصريف دفة الحكم كلية لأخيه الخصى حنا(٥٥) .

أما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى تلك الفترة ، فقد تردد فى المصادر ، أن الروم أســتولوا فى ٤٢٥هـ/١٠٣٤م على قلعة بركوى وكانت متاخمة لبلاد الأرمن ، تحت حكم ابن الهيجاء ابن ربيب الدولة ابن أخت دهسوذان بن مملان ، فاختلف هو وخاله ، فبعث الأخير الى البيزنطيين واغراهم بالاســتيلاء عليها . وبالفعل أرســل الامبراطور البيزنطى جيشا كبيرا استطاع الاستيلاء عليها . ولما وصــل الخبر الى الخليفة القائم بأمر الله « أرسل الى أبى الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة » فاصطلحا بالفعل . لكنهما لم يتمكنا من استعادتها رغم انضمام عدد كبير من المتطوعين اليهم ضد البيزنطيين ، وذلك لثبات اقدام الأخيرين فيها(٥٦) .

وفى ٤٢٦هـ/١٠٣٥م جمع ابن وثاب النميرى جيشا كبيرا من العرب واستنجد بالبيزنطيين الموجودين بالرها « فسار معه منهم جيش كثيف»، وهاجم ممتلكات نصر الدولة ابن مروان، ونهب وخرب . عندئذ توجه ابن مروان بقوات ضخمة لمواجهة ابن وثاب وحلفائه ، مما دفعهم للتراجع . وكان أن أرسل ابن مروان الى امبراطور الروم «يعاتبه على نقض الهدنة،

Editor: Marcel Dunan Honorary Foreword by A. Toyenbee, P. 297; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12;

ابن الاثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ . وهنا يعزى بريفيت أورتون سبب ذلك المرض الى شعور ميخائيل بالندم ، نتيجة اشتراكه فى قتل رومانوس الثالث .

(٥٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ .

55. Previte Orton: Op. cit P.273; The Encyclopaedia Americana, V. 19, p. 12.

(٥٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٣٧ .

كان الخليفة العباسى آنذاك هو القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر ، الذى ولد فى نصف ذى القعدة سنة احدى وتسعين وثلاثمائة . ولى الخلافة عند موت ابيه فى يوم الاثنين الحادى عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وكان ولى عهده فى الحياة ، وهو الذى لقبه بالقائم بأمر الله . (السيوطى : تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الاولى ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ، ص٤١٧).

وفسخ الصلح الذى كان بينهما » . وارسل يستنجد بحكام الأطـــراف ، « فكثر جمعه من الجنـــد والمتطوعة » وعزم على التوجـــه الى الرها ومحاصرتها ، فقدمت رسل الامبراطور البيزنطى تفيد بانه « يعتـــذر ويحلف أنه لم يعلم بما كان».ثم أرسل الامبراطور الى قواته التى بالرها والى قائدهم يستنكر ما قاموا به . وفى نفس الوقت أهدى الى نصر الدولة هدية قيمة ، فتراجع عما كان قد عـــزم عليه من غـــزوهم وفرق القوات المجتمعة معه(٥٧) .

وفى نفس السنة أيضا ٤٢٦هـ/١٠٣٥م تقدمت القوات البيزنطية الى ولاية حلب فخرج اليهم حاكمها شبل الدولة بن صالح بن مرداس ، فاقتتل الفريقان وهزم حاكم حلب البيزنطيين ، وتبعهم الى عزاز ، وغنم غنائم كثيرة وعاد سالما(٥٨) .

أما فى ٤٢٧هـ/١٠٣٦م فقد توجه ابن وثاب النميرى ، حاكم حران ومعه جيش كبير من الأكراد والمعديين الى « (سويرك) وهى للـــروم ودوخها » وقتل من أهلها ثلاثة الاف وخمسمائة شخص وسبى مجموعة من النساء والفتيان . ثم زحف الى الرها وحاصرها ومنع عنها المؤونة. وعندما ضاق الأهالى بالحصار ســـلموه المدينة ، فانهـــزم البيزنطيون وتحصنوا فى برج المدينة،فقاتلهم المسلمون وفتكوا بمائتين وخمسين رجلا وتعذر عليهم الاستيلاء على البرج ، « فنهبوا المدينة » وعادوا . ويقال ان عدد الفتيات والفتيان الذين سبوهم كن ثلاثة آلاف نسمة(٥٩) .

ومن ناحية أخرى ، فانه حدث خلال مدة حكم ميخائيل الرابع مع زوى ، التى استمرت سبع سنوات ، أن عقدت الامبراطورية البيزنطيـــة معاهدة مع الخلافة الفاطمية فى مصر وأحـــرزت انتصارات مؤقتة فى

---

(٥٧) ابن الأثير . الكامل . جـ٩ . ص ٤٢٣ . وهو يسمى الامبراطور البيزنطى هنا (ملك الروم) .

(٥٨) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء . ص ٤٤٤ ؛ ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر . جـ٢ . ص ١٥٩ .

(٥٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان . ص ٨٦ .

جزيرة صقلية(٦٠) ٠

ففى ٤٢٧هـ/١٠٣٦م عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمى المستنصر بالله(٦١) ٠ وفى رجب ٤٢٧هـ/مايو١٠٣٦م تحالف كل من ابن وثاب وابن عطير وتصاهرا وجمعا قواتهما،وامدهما نصرالدولة ابن مروان بجيش كبير ، وسار الجميع الى السويداء ٠وكان البيزنطيون قد اعادوا تجديد بنائها ، فحاصرها المسلمون « وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة الاف وخمسمائة رجل ، وغنموا ما فيها وسبوا خلقا كثيرا » ، ثم توجهوا الى الرها وحاصروها « وقطعوا الميرة عنهـــا » حتى غلت الأسعار بها غـــلاء شـــديدا ، وعندئذ خرج « البطريق » الذى بالمدينة متخفيا الى الامبراطور، واخبره حقيقة الأمر، فانجده خمسة الاف فارس عاد بهم٠ولما علم ابن وثاب وقائد قوات نصر الدولة بذلك كمنا لهم، فلما اقتربوا منهم أخذوهم على غرة فقتل عـــدد كبير من البيزنطيين واسر مثلهم ، كما اسر البطريرك ايضا وحمل الى باب الرها،وخيروا اهلها اما أن يفتحوا لهم باب المدينة أو يقتـــلوا البطريرك والأسرى الذين معـه « ففتحوا البلد للعجز عن حفظه »٠ وتحصنت القوات البيزنطية الموجودة بالمدينة بقلعتها ، فدخل المسلمون المدينة ، وغنموا ما فيها « وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبى واكثروا القتل ، وأرسل ابن وثاب الى آمـد مائة وستين راحلة عليها رؤوس القتلى » ٠ وعندئذ سار حسان بن الجراح الطائى بجيش يقدر بخمسين الف فارس « من العرب والروم نجدة لمن

60. The New Encyclopaedia Britannica, vol VI, (1768), p.p. 857-858.

(٦١) عندما توفى الخليفة الفاطمى الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على بن أبى على المنصور الحاكم فى منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ/يونيه ١٠٣٦م ، متاثرا بداء الاستسقاء الذى ظل يلازمه مدة عشرين سنة منذ صباه ، تولى بعده ابنه أبو تميم معد ، ولقب بالمستنصر بالله ، وكان مولده بالقاهرة سنة عشر واربعمائة ، وفى أيامه كانت قصة البساسيرى وخطب له ببغداد سنة خمسين وأربعمائة ٠ وكان الحاكم فى دولته بدر بن عبد الله الجمالى الملقب بالأفضل أمير الجيوش ٠ (ابن الأثير : الكامل، ج٩ ، ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨) ؛ اما ابن العبرى فيذكر أن الظـــاهر خليفة مصر توفى فى ٤٢٧هـ/١٠٣٥م ٠

(Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, p. 196.

بالرها»، فسمع ابن وثاب بذلك فسار مسرعا لملاقاته قبل وصوله. وعندما خرج البيزنطيون الموجودون بالرها الى حران قاتلهم أهلها . وفى نفس الوقت عاد ابن وثاب مسرعا بمجرد سماعه ذلك الخبر فانقض على البيزنطيين وقتل منهم عددا كبيرا وعاد المنهزمون الى الرها(٦٢) .

أما فى ٤٢٩هـ(٦٣)/١٠٣٨م فقد عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، تم فيها الاتفاق على أن يطلق الامبراطور البيزنطى سراح خمسة آلاف أسيرا مسلما ، على أن يسمح للامبراطور بأن يجدد بنيان كنيسة القيامة . وبالفعل أطلق الامبراطور سبيل الأسرى ، ووجه أحد خبراء العمارة الى بيت المقدس للقيام بتلك المهمة بعد أن أمده بالأموال الوفيرة ، حتى أتم مهمته على الوجه الأكمل ورممها « كما كانت من قبل »(٦٤) .

أما عن صقلية فقد تم الاستيلاء على مسينا ٤٢٩هـ/١٠٣٨م وعلى سيراكوزا ٤٣٢هـ/١٠٤١م ولكنها كانت انتصارات مؤقتة(٦٥) .

والواقع ان الجبهة الشرقية كانت محك العلاقات بين المسلمين والروم فى تلك الحقبة . وقد ذكر ابن العبرى أنه حدث فى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨م) أن هاجم الأتراك الغز أرمينية أكثر من مرة « وقتلوا

---

(٦٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٦٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٠ ؛ د .محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفكر العربى (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م) ص ٢٤٥ ؛ ويذكر المقريزى فى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ، ص ١٨٢ أن ذلك كان فى ٤٢٧ هـ وأن المعاهدة كانت بين الخليفة الظاهر وميخائيل الرابع . أما ما ذكره Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P. 196. وابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٨ فيختلف فى السنة فقط حيث يذكران انها كانت ٤٢٧هـ .

(٦٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٠ ؛ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ . أما ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٨ فيذكر أن عدد الأسرى كان خمسين الفا وأنهم كانوا مسيحيين ومعتقلين فى مصر . والراجح أن ذلك الخطأ راجع للترجمة ، لأن المعاهدة بذلك الشكل تكون لصلحة البيزنطيين دون المسلمين .

65. The New Encyclopaedia Britannica, V. VI (1768), P. 858.

خلقا كثيرا من أكرادها وعربها » واستولوا على غنيمة كبيرة . ثم زحفوا على أورميه باذربيجان فانحدر أكراد الجبل واشتبكوا معهم وانتصر الغز، « وأجهزوا على عدد وافر منهم »(٦٦) ولما وجد الأمير صالح بن وثاب النميرى حاكم حران وارمينية أنه عاجز عن مواجهة البيزنطيين والاتراك فى وقت واحد،عقد الصلح مع البيزنطيين وتخلى لهم عن الرها،فاستولوا عليها وزاد عددهم فيها(٦٧) . عندئذ عمر البيزنطيون الرها « العمارة الحسنة وحصنوها » فخاف المسلمون على حران منهم(٦٨) .

واذا كان ابن العبرى قد ذكر أنه حدث فى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م أن زحف البيزنطيون على بلاد الشام فتصدى لهم الأمير أنوشتكين بجوار حماه وتغلب عليهم وأسر ابن عم الامبراطور « وقتل خصيا كبيرا »(٦٩) . فالراجح أنه أخطأ فى ذكر السنة ، اذ نرجح نحن أنها ٤٣٢هـ استنادا لما دونه ابن الأثير ضمن أحداث تلك السنة الأخيرة ، اذ ذكر انه كانت هناك موقعة بين القوات المصرية والقوات البيزنطية وأن النصر فيها كان للمسلمين « كانت الوقعة بين عسكر المصريين - سيّره الدزبرى - ، وبين الروم ، فظفر المسلمون »(٧٠) . ويعنى بالمصريين هنا الفاطميين .

وقد رأينـــا كيف هادن الفاطميون البيزنطيين فى عهـد الخليفـة المستنصر باللـه الفاطمى وميخائيل الرابع سنة ٤٢٩ هـ ، لكن لم تمر سوى سنوات قليلة ، الا وتمت مراســلات سنة ٤٣٢هـ (١٠٤١م) بين الامبراطور البيزنطى وابن صالح بن مـــرداس . ذلك أن الامبراطور

---

(٦٦) ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٨٩

Bar Hebraeus: Op.cit V. 1, P. 198;

(٦٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٠ ، ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٨٩ Bar Hebracus: Op.cit, V. 1, P. 198; ويذكـر مترجم كتاب ابن العبرى أن الأمير ابن وثاب كان صاحب سورية وارمينية .

(٦٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٠ .

(٦٩) ابن العبرى . تاريخ الزمان ، ص ٩٠

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 199,

ويذكر مترجم ابن العبرى أن الذى قتل كان حاجبا كبيرا لاخصيا (eunuch) كما ورد فى الأصل .

(٧٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩١ .

ميخائيل أرسل الى ابن صالح « يستميله » ، وراسله صالح ليتقوى به على الدزبرى ، خوف أن يأخذ منه الرقة . لكن عندما وصلت أخبار تلك الاتصالات الى الدزبرى ، هدد ابن صالح ، فاعتذر الأخير . ثم ان جمعا من عربان بنى جعفر بن كلاب دخلوا ولاية أفامية فعاثوا فيها ونهبوا عدة قرى ، فخرجت عليهم بعض القوات البيزنطية وقاتلتهم وهزمتهم وشتتت شملهم . وعندما أرسل حاكم حلب الى الدزبرى فى نفس السنة (٤٣٢هـ) يخبره أن البيزنطيين يتجهزون لمهاجمة البلاد « وان القوم على التجهز لقصد البلاد » ، جهز الدزبرى جيشا وجعل حاكم حلب على مقدمته ، فتقابلوا مع الجيش البيزنطى بين مدينة حماه وأفامية « واشتد القتال بينهم ، ثم ان الله نصر المسلمين ، وأذل الكافرين » . وهكذا دارت الدوائر على البيزنطيين وقتل منهم عدد كبير ، وأسر ابن عم الامبراطور فافتدوه بمبلغ ضخم من المال ، وباطلاق سراح عدد كبير من أسرى المسلمين. وقد توقف خطر البيزنطيين بعد ذلك،«وانكف الروم عن الأذى بعدها »(٧١) .



أما عن الامبراطورة زوى فانها بزواجها من ميخائيل الرابع ، أخطات تقدير الأمور مرة أخرى . ذلك أن ميخائيل اهملها كلية ، وفرض قيودا على حريتها الشخصية وتحركاتها ، وجعل من اخيه رقيبا عليها ، وذلك حرصا منه على الا يتعرض للمصير الذى سبق أن تعرض له سلفه رومانوس أرجيروس(٧٢) .

والواقع أن المستفيد الحقيقى من وراء تلك الزيجة كان حنا شقيق ميخائيل الرابع ، اذ خطط بدهاء لاستمرار الحكم فى أسرته ، واخذ فى اعتباره الوفاة المرتقبة لأخيه ، فحصل على موافقة ميخائيل الرابع ،وكذلك اقنع الامبراطورة زوى - بتبنى ابن أخته المسمى ميخائيل ايضا، والذى منح لقب قيصر(٧٣) .

---

(٧١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

72. Ostrogorky: Op. cit, P. 323.

73. Ibid, P.326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1 Chapter V,P. 198.

وكان أن تم لحنا تنفيذ مخططه ، فقد حدث بعد عودة ميخائيل الرابع من احدى حروبه ضد البلغار ، ان اشتد عليه المرض ، فانسحب الى أحد الأديرة ـ بعد أن تبنى ميخائيل ابن أخته ـ الا انه توفى فى نفس اليوم ١٠ ديسـمبر ١٠٤١م(٧٤)/١٤ ربيع الثانى ٤٣٣هـ(٧٥) . وبمجرد وفاة ميخائيل الرابع خلفه ابن أختـه ، وتوج باسم ميخائيل الخامس Michael V (٧٦) .

والحقيقة أن حـكم ميخائيل الخامس الملقـب بالجلفاط(٧٧) The Calker, Calaphates ، ادى بعهد الأسرة البافلاجونية الى نهاية غير متوقعة(٧٨) ، وبمعنى آخر « ادت مطامع البلافلاجونيين الدنيئة وكراهيتهم الى تدميرهم»(٧٩) ذلك ان ميخائيل الخامس قابل احسان خاله اليه بالجحود فقبض عليه ونفاه، دون ان يرتفع صوت واحدا لحماية ذلك الخصى الذى كان مكروها من الجميع(٨٠) ثم ان ميخائيل الجلفاط اظهر مزيدا من الرعونة بعد ذلك فاتجه الى معاقبة الامبراطورة زوى ايضا . ويبدو انه راى منها على حد تعبير (بسللوس) ـ مصدر ازعاج شديد له ، لذلك استمر فى مراقبتها مراقبه صارمة ، كما كان الحال فى عهد ميخائيل الرابع ، ثم اتبع ذلك بمحاولة رادعة لابعادها عن حقل السياسة بعد اتهامها بمحاولة سم الامبراطور . وبالفعل حدث فى يوم عيـد الفصح ١٠٤٢م أن نفيت زوى الى جـزيرة برنسبو Principo

---

74. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; The Encyclopaedia Britannica, vol VI, p.p. 857-858.

(٧٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ .

76. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, 1, Chapter V.P. 198; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.

هنا اخطأ ابن الأثير ، جـ ٩ ، ص ٥٠٢ فى القول بأن ميخائيل الخامس كان ابن شقيق ميخائيل الرابع وليس ابن أخته .

77. Previte Orton: Op.cit, P.274; The Encyclopaedia Ameriana, V. 19, P. 12.

والجلفاط هو الذى يسد شقوق السفينة .

78. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
79. Previte Orton· Op.cit, P. 274.
80. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

فى بحر مرمرة ولم تصحبها سوى وصيفة واحدة(٨١) ٠

ولا عبرة هنا بما جاء فى بعض المصادر العربية عن حقيقة موقف ميخائيل الخامس من زوجة خاله ٠ فقد ذكر القلقشندى انه « احســن السيرة وطلب من زوجة خاله ان تخلع نفسها عن الملك فابت فنفاها الى بعض الجزر واستولى على المملكة سنة ٤٣٣هـ »(٨٢) ٠

وربما كان ابن الاثير اقرب الى الحقيقة عندما ذكر ان ميخائيل الخامس أحضر زوجة خاله « وطلب منها أن تترهب وتنزع نفسها عن الملك فابت ، فضربها وسيرها الى جزيرة فى البحر »(٨٣) ٠

على أن ميخائيل الخامس لم ينعــم بانتصاراته ســوى فتــرة وجيزة(٨٤) فسرعان ما قامت ثورة عارمة ضــمت المخلصــين للأسرة المقدونية وحكم على ميخائيل الجلفاط « الذى تجرأ برفع يده ضد من ولدت فى الأرجون بالعزل » ثم ســملت عيناه فى ابريل ١٠٤٢م(٨٥) شعبان ٤٣٣هـ ، وقيل انه سملت عينا خاله ايضا(٨٦) ٠

عن
81. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chaper V,P. 198. Psellus

بالنسبة لعيد الفصح ، يقال أن المسيح عليه السلام ارتفع بين تلاميــذه الى السماء فى هذا اليوم ، ووعدهم بارسال روح القدس ٠ ويأتى هذا العيد يوم افطارهم بعد صيام اربعين يوما ٠ (الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص ٢٨٠ـ٢٨١) ٠ وعند اليهود يوافق ذكرى خروج بنى اسرائيل من مصر هربا من فرعون عابرين البحر وهو ما تعنيه كلمة فصح «عبور» (د٠ حسين سعيد : الموسوعة الثقافية، دار المعرفة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ص ٦٨٨) ٠

(٨٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ ٠

(٨٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ ٠

84. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.
85. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
86. Hussey: Op.cit, Cam Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.

هنا يعطينا ابن الأثير صورة مفصلة تمثل وجهة النظر العربية عن أسباب الثورة التى أطاحت بأبناء الأسرة البفلاجونية المغتصبة للحكم ، وكيف أعيد العرش لورثة الأسرة المقدونية ، فيذكر انه بعد أن نفى ميخائيل الجلفاط الامبراطورة زوى زوجة ميخائيل الرابع الى جزيرة فى البحر « عزم على القبض على البطرك والاستراحة من تحكمه عليه ، فانه كان لا يقدر على مخالفته »(٨٧) . فطلب منه أن يعمل له طعاما فى دير ذكره بظاهر القسطنطينية ليحضر عنده ، وبالفعل خرج البطريرك الى الدير لينفذ ما طلبه الامبراطور . وعندئذ أرسل الامبراطور « جماعة من الروس والبلغار » ، بعد ان اتفق معهم على قتل البطريرك سرا ، فقصدوه ليلا وحاصروه فى الدير ، فاستمالهم اليه بأن دفع لهم أموالا طائلة ، وخرج متخفيا « وقصد البيعة التى يسكنها وضرب الناقوس » فاجتمع الروم حوله ، فدعاهم الى عزل الامبراطور ، فأجابوه الى مطلبه وحاصروا ميخائيل الخامس أو الجلفاط ، فارسل الأخير الى (زوجته)(٨٨) وطلب منها أن تبراء فرفضت « وأخرجته الى بيعة يترهب فيها »(٨٩) .

ثم يستكمل ابن الأثير روايته بقوله : « ان البطريرك والروم « نزعوا زوجته(٩٠) من الملك » ، وملكوا أختا لها صغيرة - اسمها (تذوره)(٩١) - وجعلوا معها خدم ابيها يدبرون الملك ، وكحلوا ميخائيل ، ووقعت الحرب بالقسطنطينية بين من يتعصب له وبين من يتعصب لتذورة والبطرك، فظفر أصحاب تذورة بهم ونهبوا أموالهم»(٩٢) .

---

(٨٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٨٨) أخطأ ابن الأثير فى كتابه الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ ، عندما ذكر أن ميخائيل الخامس أرسل الى « زوجته وأحضرها من الجزيرة التى نفاها اليها » لأن التى نفيت هى زوجة خاله لا زوجته هو ، وربما كان سبب الخطأ هو أن الاسمين متشابهين تماما أى ميخائيل الرابع وميخائيل الخامس .

(٨٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٩٠) المقصود زوى زوجة خاله لا زوجته هو .

(٩) المقصود ثيودورا .

(٩٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .

نعود مرة أخرى الى وجهة النظر الأخرى لنتابع ما دون فى المصادر والمراجع البيزنطية ، فنستشف منها أن الامبراطورة زوى برزت للجماهير فى نفس اليـــوم الذى تم فيه سمل عينى الامبراطور ميخائيل الخامس وخاله ،وهى فى ثياب الراهبات ،لا فى ثيابها الامبراطورية(٩٣) وكان ان أسرعت الجماهير الى دير Petrion وانتزعت منه أخت زوى الصغرى - ثيودورا - التى كانت قد ترهبت » وجروها رغم ارادتها الى كنيسة سانت صوفيا كى ينادوا بها امبراطورة بالاشـــتراك مع زوى »(٩٤) . وقيل ان ثيودورا كانت قد حجبت وفقا لطلب زوى(٩٥) .

ومرة أخرى نتوقف قليلا لنتعرف عن قرب على شخصية ثيودورا . فنجد أنها الابنة الصغرى للامبراطور قسطنطين الثامن ، وكانت طويلة القامة مثله ، جافة ، سريعة فى لهجتها وكلامها ، ولم تكن على قدر من الجمال ، لكنها كانت تقية وفى نفس الوقت اتصفت بالبخــــل . هـــذا بالاضافة الى أنها كانت على غير وفاق باستمرار مع اختها زوى(٩٦) حتى قيل ان زوى كانت شديدة الغيرة منها، وانها كانت تفضل معاملة ميخائيل السيئة عن مشاركة أختها ثيودورا فى الحكم(٩٧) .

وباعتبار الأختين الممثلتين الوحيدتين الشرعيتين للأسرة المقدونية، انتقل اليهما الحكم معا(٩٨) . ولو أن زوى أصرت على ان تكون لهـــا الأسبقية على أختها(٩٩) .

---

93. Hussey: Op.cit, Cam. Med Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.
94. Idem, P.199.
95. OstrogorsKy: Op.cit, P. 326.
96. Hussey: Op.cit, Cam. Mad. Hist, vol. IV, Part, 1, Chapter V, p.p. 193-194.
97. Idem, P.199.
98. Ensslin (W): The Govermment and administrion of the Byzantine Empire, Cam. Med. vol. IV, Part 11, Chapter XX, P. 5; Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Previte Orton: Op.cit, P. 274.
99. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chaper V. P. 199.

وهكذا حكمت الأختان « المتباينتان الشخصية تماما الامبراطورية البيزنطية »(١٠٠) . ورغم أنهمــا كانتـا الممثلتين الشرعيتين للأسرة المقدونية الا انه كان يعوقهما عن مواصلة السهر على شئون الامبراطورية شيئان ، أولهما : أنهما كانتا فى ذلك الوقت امرأتين طاعنتين فى السن، وكان من الصعب عليهما توجيه الامبراطورية الى الطريق المستقيم ، مما مكن العسكريين والمدنيين خلال فترة حكمهما القصيرة من الاتحاد والعمل معا بانسجام ، بحيث كان الجميع يغتنمون أية فرصة للسيطرة على شئون الحكم(١٠١) وثانيهما : أن العــداوة بين الاختــين كانت متاصــلة حتى أصبح من الضرورى العثــور على رجـــل قوى ليمســك بزمام الحكم(١٠٢) .

أما (بسللوس Psellus فيعلق على حكم زوى وثيودورا القصير بأنه « يمدنا بمثال فريد للحــكم المشــترك والمشاركة فى السلطــة العليا »(١٠٣) .

وهكذا اتضحت حاجة الامبراطورية الملحة الى وجــود رجل قوى على راس الحكومة . ولتحقيق هذا الغرض كان لابد من زواج احــدى الاختين الكهلتين . « وكانت ثيودورا لا ترغب فى الزواج »(١٠٤) ، أما زوى فقد شرعت فى البحث مرة أخــرى ، وبطريقة مستمرة ، عن زوج ثالث لها،رغم أنها كانت قد بلغت الرابعة والستين من عمرها(١٠٥) . وبالفعل وجدت ضالتها فى « الفارس الوسـيم » قسطنطين مونوماخوس Constantine Monomachus (١٠٦) ، الذى كان أحــد أعضــاء مجلس

---

100. Previte Orton: Op.cit, P. 274.
101. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chapter V,P. 199.
102. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
103. Ensslin (W): Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, PartII Chapter XX, P. 5.
عن Psellus.
104. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
105. Idem, P. 326.
106. Larousse Encyclopaedia..., Op.cit, P.297, The Encyclopaedia Americna, V. 7, P. 650.

السناتو البارزين ، فاتخـــذته زوجا ثالثـــا لها فى ١١ يونيه ١٠٤٢م/ ٤٣٣هـ(١٠٧) ٠

والواقع ان ابن الاثير كان أقرب الى الحقيقة حين أوضح فى أحداث سنة ٤٣٣هـ « أن الروم افتقروا الى ملك يدبرهم ، فكتبوا أسماء جماعة يصلحون للملك فى رقاع ، ووضعوها فى بنادق طين وأمروا من يخرج منها بندقة وهو لا يعرف باسم من فيها ، فخرج اسم قسطنطين ، فملكوه وتزوجته الملكة الكبيرة ، واستنزلت أختها الصغيرة تذورة عن الملك بمال بذلتها لها »(١٠٨) ٠

وثمة عبارة فى هذه الفقرة أخذت عن الترجمة العــــربية (للأب اسحق) مترجم كتاب تاريخ ابن العبرى الى العــــربية والذى ســماه (تاريخ الزمان) ، وهذه الترجمة مليئة بالأخطاء التاريخية واللغوية ٠ ذلك انــــه أورد فى أحـــــداث ٤٣٣هـ / ١٠٤٢م ما نصـــــه : « توفى ميخائيل ملك الروم دون عقب ، وتولى شـــئون المملـــكة ابنتاه زواى وثيودورا ثلاثة أشهر ٠ ثم عقـــد الأقطاب المشـــورة وانتقوا منهم ثلاثة أشخاص كفوئين ، وكتبوا أسماءهم فى أوراق وضـــعوها فى صــندوقة ختموها بالشمع وأحضروا صبيا مـــد يده واستخرج أحدها وبها اســـم مونوماخوس فزفرا اليه ثيودورا المذكورة ونادوا به ملكا باسم قسطنطين٠ وأسنت ثيودورا لأختها زواى تسعة قناطير ذهبا بدلا من الملك »(١٠٩) ٠

---

107. Ostrogorsky ، op.cit.P.326.

(١٠٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٠٠ ٠

(١٠٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩١ ٠

هنا يرد ابن العبرى زواى باســـم Zoai أو Zai ، ثيودورا باســـم Theodora ٠ وبمراجعة ترجمة النص من الأصل لابن العبرى نجد فيه عـــدة أخطاء منها دون عقب = دون أبناء ذكور ، وانتقوا منهم ثلاثة = وانتقوا من بين أبنائهم . كفوئين = يصلحون للحكم . وأسنت ثيودورا لأختها = وأعطت ثيودورا أختهـــا ٠

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1,P. 200.

وعندما تناول هذا النص بالتحليل والنقد ومقارنته فى نفس الوقت بتاريخ ابن العبرى الأصلى نلاحظ ما يلى :

أولا : يتفق ابن العبـرى والمترجم على انه فى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٢م سملت عينا ميخائيل الخامس وابعد الى احد الاديرة كما مر بنا ، ولا نعلم ان كان قد توفى فى تلك السنة أم لا ٠

ثانيا : كيف يكون ميخائيل قد توفى دون عقب ، ثم تتولى ابنتاه ، زواى وثئودورا ـ كما سماهما المترجم ـ شئون المملكة ؟ وهنا نجد الرد ببساطة على تساؤلنا فى أن المترجم أخطأ فى ترجمة without sons اى (دون أبناء ذكور) فجعلها (دون عقب) ٠

والواقع أن ابن العبرى خلط هنا بين ابنتى قسطنطين الثامن وبين ابنتى ميخائيل المزعومتين هنا ٠

ثالثـا : أن ثيودورا (ثئودورا) لم تتـــزوج وأن التى تزوجـــت من قسطنطين مونوخوس هى زوى ابنة قســطنطين الثـــامن لا أختها ثيودورا ، وانها اعتلت العرش الى جانبه ، كما ســـنرى ٠ وعليه يكون الجزء الأخير من الفقرة وهو ، أن « ثئودورا اسنت لأختها زوى تسعة قناطير ذهبا بدلا من الملك » لا محل لها من الصحة ٠

أما قسطنطين مونوماخوس فكان ينتمى الى أسرة عريقة(١١٠) ، اتصف بالشهامة ورحابة الصدر والسخاء فى عطائه(١١١) وكانت ثقافته عالية ، الا انه كان فاسقا خليعا(١١٢) ٠ وقد توج امبراطورا فى اليوم التالى لزواجه من زواى ١٢ يونيـه ١٠٤٢م(١١٣)/شوال ٤٣٣هـ باســم

---

110. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hisl, vol. IV. Part1, Chapter, V, P. 199.

هنا يذكر نفس المرجع انه كان قد حبس فى مدينة ملطية كاحد المشكوك فيهـم سياسيا فى عهد ميخائيل الرابع ٠

(١١١) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩١ ٠

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 200 .

112. Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 274.

113. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, 199.

قسطنطين التاسع مونوماخوس ٠ وعند هذا الحد لا تكون تلك الفتــرة الفاصلة من الحكم النسائى(١١٤) التى استمرت حوالى ثلاثة أشهر ، قد انتهت ٠

وقد اختلفت الآراء فى وضع قسطنطين التاسع عنــدئذ ، فالبعض ذكر أنه بتوليه العرش الامبراطورى « تخلت له الســيدتان عن السيادة بصورة آلية »(١١٥) فى حين أوضح رأى آخر أنه أصبح حاكما مشاركا لزوى وثيودورا(١١٦) وأنه لم يحاول أن يضع أى نوع من القيود على شريكتيه فى الحــكم(١١٧) « فتمتعت الاختان مع الامبراطور العـاشق المحب للملذات ، بتبديد الأموال العامة »(١١٨) ٠



أما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى فترة حــكم قنسطنطين التاسع وزوى،فأول ما تسعفنا به المصادر التى بين أيدينا ـ فى حوادث ٤٣٥هـ(١١٩)/١٠٤٤م(١٢٠) هو طــرد الغـرباء المسلمين والنصارى الموجودين فى العاصمة البيزنطية ، والذين بلغ عددهم أكثر من مائة ألف شخص ٠ وكان سبب ذلك أنه سرت شائعة فى العاصمة بأن قسطنطين قتل زوى وثيودورا ابنتى قسطنطين الثامن ، وعنــدئذ ثار الأهالى وأعملوا النهب والسلب فى البلد ، فبرز لهم قسطنطين وسألهم عن السبب فأجابوه أنه قتل الملكتين وأفسد الملك فرد عليهم بنفى تهمة القتل عنه وأخرج لهم الملكتين ٠ فلما رآهما الناس سكنوا ، وعندما تقصى حقيقة الأمر علم أن الغرباء فى القسطنطينية هم سبب ذلك الشغب ، وأشير عليه بابعادهم ، فنودى « أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة ، فمن أقام بعد ثلاثة

---

114. Ensslin (W): Op.sit, Cam. Med. Hist, V.IV, Part XX,5.

(١١٥) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ ٠

116. The New Encyclopaedia Britannica, V.III, P. 102.
117. Ostrogorsky: Op.cit,P.327.
118. Idem: P.327.

(١١٩) ابن الاثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥١٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٥١ ٠

(١٢٠) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ ٠

أيام كحل » - اى سملت عيناه - لذلك رحل عن العاصمة البيزنطية اكثر من مائة الف مسلم ونصرانى « ولم يبق بها اكثر من اثنتى عشر نفسا ، ضمنهم الروم فتركهم »(١٢١) ٠

وقد شهدت سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٦م علاقات ودية بين البيزنطيين والفاطميين فى مصر ٠ يدل على ذلك تلك الهدية القيمة التى أرسلها قسطنطين التاسع مونوماخوس فى ثامن ذى الحجة/يونيه من تلك السنة ، الى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ٠ وقد اشتملت على « ثلاثين قنطارا من الذهب ، وكان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ، كل منهما عليه ثوب ديباج رومى منقوش ثقيل ، وخمسين بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بميناء ، وفيها من الديباج والسندس والأبريسم والعمائم المعلمة مالا يقدر على مثله »(١٢٢) ٠ وقد رد المستنصر بالله على الامبراطور البيزنطى بهدية مثلها « من الجوهر والمسك والعود والطراز ، عمل تنيس ودمياط ، ما هو أكثر قيمة مما بعثه »(١٢٣) ٠

وقد تجددت العلاقات الودية بين المسلمين والبيزنطيين فى٤٣٩هـ/١٠٤٧ - ١٠٤٨م وذلك بتجديد الهدنة « بين صاحب مصر وبين الروم ، وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة »(١٢٤) ٠ لكن حدث فى نفس السنة السابقة ايضا - ٤٣٩هـ - أن سير المعز باديس صاحب افريقية أسطولا الى جزائر القسطنطينية فظفر وغنم وعاد(١٢٥) ٠

---

(١٢١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥١ ؛

كذلك ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ ٠ أما ابن كثير : البداية ج ١٢ ، ص ٥١ فيذكر ان « ملك الروم » اى الامبراطور نفى من القسطنطينية كل غريب له فيها دون العشرين سنة ٠

(١٢٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ١٩٤ ٠ هنا يذكر المقريزى ان القنطار عندهم سبعة الاف دينار ومئتان دينار ٠ أما جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ (عن الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ، فيذكر أن قيمة كل قنطار منها عشرة الاف دينار عربية) ٠

(١٢٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ١٩٤ ٠

(١٢٤) ابن الاثير ٠ الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤١ ٠

(١٢٥) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٤٢ ٠

أما من ناحية الجبهة الشرقية فكان الوضع على عكس ذلك ، بعد ظهور الأتراك السلاجقة ، الذين وفدوا على العــراق من بلاد ما وراء النهر٠وكان تحمسهم للاسلام وللمذهب السنى على وجه الخصوص أبرز ما يميزهم ٠ وقد وجدوا فى بلاد العراق الخصبة وما حولها ، وفى الهيمنة على الخلافة العباسية ماحملهم على التفكير الجدى فى التوسع غربا، فقام زعيمهم طغرلبك١٠٣٨م/٤٣١هـ باحتلال جرجان وطبرستان ثم خوارزم، كما تمكن من هزيمة السلطان مسعود الغزنوى ، واحتل نيسابور عاصمة خراسان ٠ ومازال السلاجقة يواصــلون حركتهم التوسعية حتى دخلوا بغداد فى ١٠٥٥م/٤٤٦ - ٤٤٧هـ٠ وكان من الطبيعى أن يحتك السلاجقة المتحمسون للاسلام بالامبراطورية البيزنطية ، فاخذ السلاجقة فى الاغارة على أطرافها فى البلاد الأرمينية(١٢٦) ٠

من ذلك أنه حدث سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨ - ١٠٤٩م اذ عبر جمع عفير من الأتراك الغز من بلاد ما وراء النهر الى بلاد ابراهيم ينال ، فرأى أن بلاده تضيق بهم وبمطالبهم ، فأخبرهم بذلك واشار عليهم بأن « تمضوا الى غزو الروم ، وتجاهدوا فى سبيل الله وتغنمــوا ، وانا سائر على أثركم ومساعد لكم على أمركم » عندئذ تقدموا الى الحدود الشرقية للدولة البيزنطية ، وسار هو فى اثرهم ، فوصلوا ملازكرد وآرزن الروم وقاليقلا (قيليقية) ،حتى بلغوا طرابزون، فقابلهم جيش من البيزنطيين والأبخار، يقدر بحوالى « خمسين ألفا » ٠ ودارت بينهم عدة معارك ، تبادلوا فيها النصر والهزيمة « وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين » فقتلوا عددا كبيرا من البزينطيين ، وأسروا « جماعة كثيرة من بطارقتهم ٠ وممن أســر قاريط (قاربط) ملك الأبخار » فحاول أن يفدى نفسه بدفع ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف ، فرفض ابراهيم اينال ٠« ولم يزل يجوس فى تلك البلاد وينهبها ، الى أن بقى بينه وبين القسطنطينية خمســة عشر يوما» واستولى المسلمون على تلك النواحى فنهبوها وغنموا مافيها، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس ، واخذوا من الدواب والبغــال والغنائم والأموال مالا يحصى ٠ وقيل أن الغنائم حملت على عشر آلاف عجلة وأن

---

(١٢٦) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ٣٠ - ٣١ ٠

فى جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع(١٢٧) .

ومع كل ذلك اختـــار الامبراطـــور قسطنطين التاسع أن يحتفظ بعلاقاته الودية الهادئة مع المسلمين . وخير دليل على ذلك أنه أرسل الى السلطان طغرلبك هدية عظيمة فى ٤٤١هـ/١٠٥٠م وطلب منه عقد معاهدة سلام بينهما ، فوافق طغرلبك على ذلك ؛ بشرط تعمير مسـجد القسطنطينية ، واقامة الصلاة والخطبة فيه لطغرلبك(١٢٨) . هـذا بالاضافة الى احتفاظ الامبراطور بعلاقات ودية أيضا مع الخلافة العباسية، والتى تمثلت فى تلك الرسالة التى أرسنها فى ٤٤٣هـ/١٠٥٢م الى الخليفة القائم والمكتوبة بالرومية الى جانب ترجمة لها بالعربية تخللت سطورها، وقد رقمت بحروف ذهبية على قطعة أرجوانية(١٢٩) .

والواقع أنه بتقدم زوى فى السن صارت اكثر تسامحا(١٣٠) وظلت كذلك حتى توفيت فى ٢٦ مـــايو ١٠٥٠م أول المحـــرم ٤٤٢هـ(١٣١) « وودعت بذلك حياتها الخيالية الغريبة »(١٣٢) .

وفى ١١ ينـــاير ١٠٥٥ م/ ٩ شـــوال ٤٤٦هـ توفى قســـطنطين التاسع(١٣٣) ، ويبدو أنه كان قد أعطى رأيه فيمن يخلفه على العرش.

---

(١٢٧) ابن الاثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٤٦ أحداث ٤٤٠هـ .

وابخار بالفتح ثم السكون والحاء معجمة وألف وزاى اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب . وهى جبال صعبة المسلك وعرة لا مجال للخيل فيها تجاور بلاد اللان . (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، المجلد الاول ، دار صادر ودار بيروت حرف الألف والباء وما يثالثهما) .

(١٢٨) ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٦٩ .

(١٢٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٧ ــ ٩٨ ، ولقد وردت السنوات فى الأصل على النحو التالى ٤٤٣/١٠٥١م

130. Ostrogorsky· Op.cit, P.327.
131. Idem: P.616: Previte Orton: Op.cit, V.1, P.274.
132. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.274.
133. Ostrogorsky: Op.cit, P.337; Hussey: Op.cit, Cam. Med.Hist, V. IV, ChapterV, P.204.

هنا أخطأ ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٦٠٣ ــ ٦٠٤ ؛

Bar Hebraeus : op.cit, V.1, P.207.

وتم الأمر دون علم ثيودورا ، الممثلة الوحيدة الباقية للبيت المقدونى . وعندما سمعت ثيودورا بما حـــدث عـــادت الى القصر وسيطرت على الحرس الامبراطورى، وفى الحال تقلدت الأطلال الباقية للحكم »(١٣٤) وعادت الى كامل سلطانها(١٣٥) وهـــكذا باشرت ثيودورا السلطة الامبراطورية بمفردها حتى توفيت فى آخر أغسطس ١٠٥٦م(١٣٦) أو بداية سبتمبر ١٠٥٦م(١٣٧) / السبت ١٦ جمادى الآخرة ٤٤٨هـ .

والواقع أن ثيودورا قامت بمحاولة جادة تتصف بالعزم التام على ادارة دفة الحكم . حقيقة أنها لم تتخذ زوجا لكنها اختارت وزيرا لها هو (Leo Paraspondylus) وكان « واقعيا عنيدا جادا فى مواصلة العمل، فعنى بالسياسة الاقتصادية فى الداخل وعمـــل على اقرار الســـلام فى الخارج »(١٣٨) .

ويعقب (استروجورسكى) على نهـاية الأسرة المقـدونية بقوله « وبوفاة ثيودورا انتهت الأسرة المقدونية الشهيرة ، فكانت نهاية غريبة حقا لتلك الأسرة البيزنطية التى جاهدت بشدة كى تدعم نفسـها . وفى النهاية تماسكت بعناد لتواصل البقاء ، وذلك على مدى الثلاثين ســنة الأخيرة ، وبذلك مضت كل أعمالها العظيمة ذات الشهرة البعيدة المدى دون أن يتغنى بها »(١٣٩) .

ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٨ ، فى القول بأن قنســطنطين التاسع كان متزوجا من ثيودورا ابنة قنسطنطين الثامن لأن قنسطنطين التاسع كان متــزوجا من زوى لا ثيودورا . والراجح أن الثانى أخذ عن الأول هذا الخطأ .

134. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V.IV, ,Part 1, Chapter V P.204.

(١٣٥) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ .

136. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part1, Chapter V, P.205.

حيث ذكرت هسى نقلا عن Scylitzes-Cedrenus أن وفاتهـــا كانت فى ٣١ اغسطس ، أما هى فتقول أنها كانت فى ٢١ أغسطس .

137. Ostrogorsky: Op.cit, P.338.

138. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P.204.

139. Ostrogorsky: Op.cit, P.338.

اما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى الفترة الأخيرة من حكم قسطنطين التاسع وفترة حكم ثيودورا حتى نهاية عهد الأسرة المقدونية، فاهم ما يلاحظ فيها بالنسبة للجبهة الشرقية ، أن طغرلبك أنهى الهدنة بين السلاجقة وبين البيزنطيين وتقدم فى أواخر سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٥م الى أرمينية ثم الى ملازكرد التابعة للبيزنطيين فحاصرها وضيق على أهلها ونهب ما جورها من البلاد وخربها . وعندئذ دخل نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر فى طاعته وارسل اليه الهدايا الكثيرة والقوات كى تحارب البيزنطيين تحت لوائه(١٤٠) . وكان أن أوغل طغرليك فى أراضى البيزنطيين وأحرز عليهم انتصارات باهرة ونهب بلادهم وقتل وسبى العديد منهم(١٤١) « وبلغ فى غزوته هذه الى أرزن الروم » ثم عاد الى أذربيجان عندما دخل عليه فصل الشتاء(١٤٢) .

وأما عن العلاقة مع الفاطميين ، فثمة رأى يذكر أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى استغل فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية وعمل على انعاش الحالة الاقتصادية فى دولته ، فأرسل الى الامبراطور قسطنطين التاسع ، على أثر المجاعة التى حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٥م يطلب منه أن يمده بأربعمائة الف أردب من القمح . وقد أظهر الامبراطور استعداده لاجابة هذا الطلب ، لكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الامبراطورة ثيودورا ، فاشترطت لمعونة مصر أن يمدها المستنصر بالجنود اذا ما اعتدى على بلادها أى معتد . غير أن المستنصر رفض هذا الشرط ، فاجابته ثيودورا على ذلك بان حالت دون ارسال الغلال الى مصر(١٤٣) .

---

(١٤٠) ابن الأثير . الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٩٩ .

(١٤١) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة : أبو الفدا : المختصر ، جـ٢ ، ص ١٧٢ : ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٦٥ .

(١٤٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٩٩ .

143. Canard (M.): Byzantium and the Muslim World to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter XVII, P.726.

جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

وقد زاد الوضع تعقيدا بين البيزنطيين والفاطميين عندما أراد الخليفة المستنصر أن يرد اعتبار الفاطميين بارسال جيش فاطمى لمحاربة البيزنطيين ، بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم ، ونودى فى بلاد الشام بالغزو والجهاد(١٤٤) . وكان أن تنقل الجيش الفاطمى فى أجزاء مختلفة من بلاد الشام حتى استقر به المطاف أخيرا عى أنطاكية ، وعندئذ أرسلت الامبراطورة ثيودورا أسطولا الى انطاكية مكونا من ثمانين قطعة « وخرج دوقس انطاكية وبطركها فى جماعة فظفروا بشينيين للمسلمين معهما الغنائم»(١٤٥) . وبذلك حلت الهزيمة بالمسلمين وأسر منهم عدد كبير(١٤٦) وقتل من الفريقين عدد كبير وعاد الأسطول البيزنطى الى اللاذقية(١٤٧) .

وكان أن أرسل الخليفة المستنصر سفارة من قبله ، الى الامبراطورة ثيودورا ، على راسها ابو عبد الله القضاعى(١٤٨) . ولكن نوايا الروم تجاه الدولة الفاطمية اتضحت عندما سمحت الامبراطورة ثيودورا بالخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، اثناء وجود أبى عبد الله القضاعى سفير الفاطميين بالقسطنطينية ٤٤٧هـ/١٠٥٥م(١٤٩) . وقد علل أحد الأساتذة المحدثين هذا الاتجاه بقوله : « أنه لا غرو فقد كان السلاجقة فى ذلك الوقت أشد خطرا على البيزنطيين من الفاطميين الذين اضمحل سلطانهم فى بلاد المغرب وأصبحوا يواجهون كثيرا من الصعاب فى مصر »(١٥٠) .

وكان رد الخليفة المستنصر على تلك الاساءة التى لحقت بسفيره بل

---

(١٤٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ .

(١٤٥) المصدر السابق ، ص ٢٣١ . والشوانى مركب حربية بها مائة وأربعون مجدافا ، وكانت تعد اكبر سفن الأسطول (حاشية عن دوزى ، قوانين الدواوين) .

(١٤٦) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

(١٤٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣١ .

(١٤٨) علية الجنزورى : المرأة فى الحضارة البيزنطية ، ص ١٢٥ حاشية ٦٥١ .

(١٤٩) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ٢ ، حـوادث ٤٤٧هـ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ .

(١٥٠) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

بخلافته كلها أن أخذ نفائس وكنوز كنيسة القيامة(١٥١) » فاحاط بما فى قمامة واخذه وأخرج البطرك منها آلى دار مفردة(١٥٢) هذا بالاضافة الى اغلاقه للكنائس بمصر وزيادة الجزية على النصارى ، بل ومطالبته الرهبان بها عن أربع سنوات(١٥٣) وقد أدت كل تلك الاجراءات الى التوتر الشديد فى العلاقة بين الفاطميين والبيزنطيين(١٥٤) ٠



ولم يلبث أن ضغط حـزب البـــلاط على الامبراطورة ثيودورا فى ١٠٥٦م/٤٤٨ - ٤٤٩هـ كى تختار من يخلفها فى الحكم ٠ فوقع اختيارها على البطـــريرك ميخائيل Michael ، المعـــروف باسـم العجــوز أو (ستراتيوتيكوس Stratioticus) ٠ فلما ماتت ثيودورا فى بداية سبتمبر ١٠٥٦م / منتصف جمادى الآخرة ٤٤٨هـ ، خلفها ميخائيل على العرش باسم ميخائيل السادس Michael VI ٠ ولم تتجاوز مدة حكمه ســنة واحدة ، تالفت أثناءها جبهة لمقاومته محورها الجيش المرابط فى آســيا الصغرى ، وهو الذى نادى بالقائد اسحاق كومنين Isaac Comnenus امبراطورا(١٥٥) ٠

وهكذا طويت فترة عصر الحكم النســائى وهى فترة لا تخلو من أحداث جسام فى الداخل والخارج ، وبخاصة فيما يتعلق بالعـلاقة مع المسلمين ، فضلا عما زخـزت به تلك الفتــرة من اتجاهات تلقى بعض الضوء على ما كان يجرى داخل البلاط البيزنطى ٠

---

(١٥١) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ ٠

(١٥٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ٠

(١٥٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة ٠

(١٥٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ؛ جمـــال سرور : سياســة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٧ ٠

155. Ostrogorsky: Op.cit, P. 338; Larousse Encyclopaedia of Ancient andMedieval History, P.297.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

١ ـ ابن الأثير الجزرى : (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الملقب بعز الدين : الكامل فى التاريخ ، الجزء التاسع ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

٢ ـ ابن أيبك الدوادارى : (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)

أبو بكر بن عبد الله : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

٣ ـ ابن تغرى بردى : (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

جمال الدين يوسف : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، جـ٤ ، (د.م ، د.ت) ، جـ٥ ، من سلسلة تراثنا ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب .

٤ ـ ابن العبرى : (ت ٦٨٥/١٢٨٦م)

أبو الفرج جمال الدين : تاريخ الزمان ، نقله الى العربية الأب اسحق ارملة وصدر تباعا فى مجلة الشرق (١٩٤٩ ـ ١٩٥٦) ، قدم له الأب الدكتور جان موريس فييه فى المناسبة المئوية السابعة لوفاة المؤلف ١٢٨٦ ـ ١٩٨٦ ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ١٩٨٦ .

٥ ـ ابن القلانسى : (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)

أبو يعلى حمزة : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٨٠ .

٦ ـ ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

أبو الفدا الحافظ : البداية والنهاية ، الجزء الثانى عشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٦ .

٧ ـ ابن ميسر : (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)

أبو عبد الله تاج الدين محمد بن على بن يوسف : أخبار مصر ، الجزء الثانى ، مصر ١٩١٩ .

٨ - أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)
عماد الدين اسماعيل : المختصر فى أخبار البشر ، الجزء الثانى ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

٩ - السيوطى : (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)
الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ/١٩٥٢م .

١٠ - القلقشندى : (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
أبو العباس أحمد بن على : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، الجزء الخامس ، بيروت ١٩٨٠ .

١١ - المقريزى : (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)
تقى الدين أحمد بن على : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق الدكتور حلمى محمد أحمد ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م .

١٢ - ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)
شهاب الدين أبو عبد الله : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار صادر ودار بيروت .

ثانيا : المراجع العربية والمعربة :

١ - حســـن حبشى :
الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٨ .

٢ - رنسـيمان : ستفن :
الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة زكى على ، من سلســلة الألف كتاب ، الناشر مكتبة النهضـــة المصرية ، ١٩٦١م .

٣ - علية عبد السميع الجنزورى :
المرأة فى الحضارة البيزنطية ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ .

٤ - محمد جمال الدين سرور :
سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفـكر العــربى ، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

ثالثا : المصادر والمراجع الأجنبية :

— Bar Hebraeus:
The Chronography of Gregory Abul Faraj, The Son of AAron the HebrewPhysician, the First Part of His Political History of the world, Translated from Syriac by Ernest A. Wallis Budge, Volume 1, English translation, Oxford University Press, London, 1932.

— Canard (M.) ·
Byzantium and Muslim world to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist., V. IV, The Byzantine Empire, Part 1, Byzantium and Its neighbours, Chapter XVII.

— Encyclopaedia Americana, V.19.

— Ensslin (W.):
The Government and administration of the Byzantine Empire Cam. Med. Hist, V. IV, The Byzantine Empire Part II, Government, Church and Civilization, Chapter XX.

— Hussey (J.M.) ·
The Later Macedonians, the Comneni and the Angeli 1025-1204, Cam. Med. Hist, V. IV, Part1, Chapter V.

— Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General Editor: Marcel Dunan Honorary, Foreward by Arnold Toynbee.

— Ostrogorsky (G.):
History of the Byzantine state, translated by Joan Hussey, Oxford, 1968.

— Previte Orton (C.W.):
The Shorter Cambridge Medieval History, V.1, Cambridge University Press, 1977.

— The New Encyclopaedia Britannica, V.V1, 1768.

بنو ايلدكز أتابكة أذربيجـــان
وعلاقاتهم بالقوى المعاصرة

(٥٤١ ـ ٦٢٢هـ = ١١٤٨ ـ ١٢٢٥م)

د٠ مسفر بن سالم الغامدى(*)

كانت وفاة السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ايذانا ببروز نظام جديد على مسرح الأحداث فى الشام ، والعراق ، وايران ، وأرمينية ، وأذربيجان(١) ٠ ونعنى بهذا النظام نظام الأتابكيات(٢) الذى أخذ فى التنامى والظهـور نتيجة صـــغر سن بعض أمـــراء البيت السلجوقى من جهة ، وحرص رجال البيت السـلجوقى على ايجاد قائد من القادة العسكريين الكبار يقوم بتربية الابن أو الأمير السلجوقى الصغير وتلقينه الفنون العسكرية والادارية من جهة أخرى ٠

(*) استاذ مساعد التاريخ الاسلامى ورئيس قسم التـــاريخ بكلية الشريعة ـ جامعة أم القرى ٠

(١) أذربيجان : اقليم جبلى واسع بشمال ايران يضم العديد من المدن كتبريز والمراغة وخوى وسلماس وأرمية وأردبيل ومرند وغيرها ، والغالب على أرضها الجبال تكثر بها العسائيه والمياه ، ولغة أهلها اللغـــة الأذرية ٠ واقليم أذربيجان فتح زمن الخليفة عمر بن الخطاب عدما كانت أردبيل عاصمتها ٠ وأذربيجان كانت تعرف باسم أذربايكان وبالفارسية تعرف أذربيجان باسم آزربيجان ٠ وقد صحف اليونان هذا الاسم الى Arropatena ، وأذربيجان احدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى المنحل التى استقلت حديثا وهى مطلة على برفزون ٠ انظر : ياقوت ، معجم البـــلدان ، ج١ ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ؛ ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٩٣ والحاشية رقم ١ بنفس الصفحة ، حسين قاسم عزيز : انتفاضة الشعب الأذربيجانى ضد الخلافة العباسية ، ص ٤٦ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق٢ ، ص ٥٧٢ تعليق المحقق يحيى عباره ٠ ولمزيد من التفصيل عن أذربيجان انظر صابر دياب ، المسلمون وجهادهم ضد الروم ، ص ٤٦ حاشية رقم ١ ٠

(٢) أتابك : لقب تركى يتكون من كلمتين ، أتا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ، انظر ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، ج٤ ، ص ٦٠ وما بعدها ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه الى أن كثيراً من القادة او الاتابكة كان مجبراً على الزواج من أمهات الأمراء السلاجقة الصغار المطلقات او الأرامل(٣) .

وادى هذا الزواج فى نهاية الأمر الى وجود علاقة وطيدة بين الأمير وأتابكة ، أشبه ما تكون بين الابن وأبيه ، مما اضفى على نظام الاتابكيات طابعا خاصا مميزاً . وعلى الرغم من أن هذا النظام قد سلب سلاطين السلاجقة بعض حقوقهم وهيمنتهم العليا على أجزاء الدولة، فقد ادى الى المحافظة على كيان دولتهم فترة زمنية طويلة . فالاتابك عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود مثلا كان لهما الأثر الكبير والواضح فى المحافظة على نفوذ السلاجقة بالشام والجزيرة،بالاضافة الى الدور الرائد والبارز فى جهاد الصليبيين فى الفترة من العقد الثالث من القرن السادس الهجرى حتى أواخر العقد السابع من القرن السابع الهجرى(٤) . على أنه من المبالغة أن نتصور كافة الأتابكيات وقد لعبت دوراً ذا أهمية فى الحفاظ على هيمنة السلاجقة ، والحفاظ على ثغور المسلمين ، اذ ان بعض هذه الأتابكيات قامت بدور سلبى أدى الى اضعاف جانب السلاجقة، فضلا عن اضعاف الخلافة العباسية نفسها .

واذا ما القينا نظرة على أتابكية أذربيجان بزعامة بنى ايلدكز (سنة ٥٤١ - ٦٢٢هـ/١١٤٨ - ١٢٢٥م) فانه يتضح أن هذه الأتابكية وبخاصة فى عهد زعمائها الكبار،تدخل فى قائمة القوى التىعملت بجد واخلاص لا فى الحفاظ على كيان السلاجقة فحسب ، بل ايضا فى جهاد الكرج الجورجان(٥) ثم المغول(٦) فيما بعد . ذلك أن زعماء هذه

(٣- على الغامدى : بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٣١٠ .

(٤) للمزيد من الدراسة عن عماد الدين زنكى ونور الدين محمود انظر : عماد الدين خليل : عماد الدين زنكى ، عليه الجنزورى : عماد الدين زنكى ، عماد الدين خليل : نور الدين محمود الرجل والتجربة ؛ مسفر الغامدى، الجهاد ضد الصليبيين قبل قيام الدولة الايوبية ؛ محمد الشيخ ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها.

(٥) الكرج : عن التعريف بالكرج . انظر فايز نجيب اسكندر ، الكرج والأتراك السلاجقة ، مقال فى مجلة المؤرخ العربى ، العدد الأول سنة ١٩٩٣م ، ص ٢٥٢ وما =

الأتابكية تمكنوا من فرض سيطرتهم على بعض مـدن ايران والجبل وآران(٧) ، وكانت لهم علاقات مع القوى الكبيرة فى المنطقة ، كالكرج والسلاجقة والعباسيين والخوارميين والمغـول والزنكيين فى الموصل والأيوبيين زمن صلاح الدين (٥٦٩ - ٥٨٩) ٠ وفيما يلى يمكن ان نستعرض تاريخ هذه الأتابكية منذ قيامها وعلاقاتها بالقوى المشار اليها أعلاه ٠ بالاضافة الى علاقة زعماء هذه الاتابكية ببعض الامارات الصغيرة فى منطقة الجزيرة وأرمينية ٠

تنسب أتابكية أذربيجان الى مؤسسها شمس الدين ايلدكز(٨) وهو مملوك تركى من مماليك الوزير كمال الدين السميرمى(٩) وزير السلطان

=

بعدها ٠ وقد أشار فايز اسكندر الى ان وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م كانت بداية ازدهار مملكة الكرج فى عهد ملكهم داود الثانى الذى استغل فيما بعد انشغال المسلمين بجهاد الصليبيين فى الشام فرفض دفع الجزية للسلاجقة ، وتمكن فيما بعد من الاستيلاء على تفليس سنة ٥١٦هـ من المسلمين ، (ص ٢٦١ - ٢٦٢) وكذا انظر ، القارفى ، تاريخ مياخارقين ، ص ٩٧ حاشية رقم ٣ ٠

(٦) عن التعريف بالمغول وتحديد موطنهم الأصلى انظر كتاب سعد الغامدى ، سقوط الدولة العباسية ، ص ٥٣ - ٥٦ ٠

(٧) الجبل أو الجبال : اسم يطلق على البلاد المعروفة باسم العجم بالعراق وهى ما بين أصبهان الى زنجان وقزوين وهمـذان والرى ٠ ياقوت ، معجـم البلدان ، جـ٢ ، ص ٩٩ ٠

وأران : اقليم مشهور بأذربيجان وأرمينية وبهذا الاقليم جنزه التى تكتب أحيانا باسم كنجه ٠ انظر ، ابن شداد ، **الاعلاق الخطيرة** ، ص ٧٥٣ من جهد المحقق يحيى عباره ٠ ولمزيد من التفصيل عن آران ، انظر : محمد شيت خطاب ، ارمينية بلاد الروم، ص ٢٦ - ٢٧ ٠

(٨) جاء فى بعض المصادر أن لقبه شمس الدين المسعودى نسبة الى السلطان مسعود ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص ٢١ ٠

(٩) السميرمى : كمال الملك أبو الحسن على بن أحمد السميرمى ، تولى الوزارة السلطان محمود بن محمد سنة ٥١٣هـ ، وظل بها حتى توفى سنة ٥١٦هـ ، كان كما قيل ظالما مجاهرا بالظلم والفسق ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٢ ، ص ٧٥٧ ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص ٥٠ ؛ حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٢٣٠ ٠

محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١ - ٥٢٥هـ/١١١٧ - ١١٣١م) ٠ ويقال أن ايلدكز هذا أشترى من بلاد القفجاق(١٠) ٠ وبعد مقتل الوزير السميرمى سنة٥١٦هـ/١١٢٢م انتقل شمس‌الدين ايلدكز الى خدمة السلطان محمود ، ثم من بعده الى السلطان السلجوقى غياث الدين مسعود بن محمود (٥٢٧ - ٥٤٧هـ/١١٣٢ - ١١٥٢م) حيث مكث يعمل كنديم ومضحك للسلطان ، واخذ يترقى فى بلاطه حتى أكتسب ثقة السلطان وثقة معاصريه فزوجه السلطان مسعود من أرملة أخيه الملك طغرل بن محمود ، وبذلك غدا أتابكاً لأرسلان شاه بن طغرل.وكان طغرل قد توفى سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م(١١) ٠

أما عن اقليم أذربيجان مركز الاتابكية موضوع دراستنا ، فقد كان محل نزاع بين الكرج الجورجان من جهة وبين السلاجقة وكبار الأمراء الأتابكة من جهة أخرى،خصوصاً بعد سقوط تفليس بيد الكرج سنة ٥١٦هـ/١١٢٢(١٢) ٠ وقبل بروز أسرة بنى ايلدكز باذربيجان كان يحكمها الأمير قرا سنقر الاحمديلى الذى وافاه أجله بمدينة أردبيل(١٣) ٠ فانتقل الأمر الى‌الأمير جاولى الطغرلى الذى ظل حاكماً لأذربيجان وبلاد

---

(١٠) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٨ ص ٧٣ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص ٣٧ ، حسن ابراهيم حسن ؛ تاريخ الاسلام ، جـ٤ ، ص ٨٧ ٠

(١١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص ٢٩١ ؛ الاصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣٢٠ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص ٣٧ ٠ وكان السلطان مسعود واليا على اقليم الجبل وأران واذربيجان قبل توليه السلطنة ، ولذلك وجد أن خير من يقوم بهذا الأمر هو الأتابك ايلدكز فعينه واليا عليه ٠

(١٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٢ ، ص ٧٥٧ ٠ وتفليس : مدينة فى جمهورية جورجيا تقع على خط عرض ٥٢° شمالا و ٤٤°طولا وهى بأرمينية الأولى ، والبعض يقول بأران ٠ وهى مدينة أزلية ٠ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٣، ق٢، ص ٧٧٢ من عمل المحقق يحيى عباره ٠

(١٣) أردبيل : احدى مدن اذربيجان ، كانت عاصمتها عندما فتحها المسلمون زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٠ وهى فى أعالى نهر أندراب، عليها سور ، وبها العديد من الأسواق ، كانت قصبة اذربيجان فى المائه الرابعة ٠ ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢، ص ١٤٥ ، ك ليسترنج ، بلدان الخلافة ، ص ٢٠٠ - ٢٠٢ ٠

الجبل حتى وفاته سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م(١٤) . وبوفاة جاولى فى السنة المذكورة تولى الأمر بصورة حقيقية الاتابك شمس الدين ايلدكز . وعلى الرغم من أنه ربيب السلطان مسعود(١٥) فانه خامر على السلطان فى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م واجتمع بكثير من الأمراء ، وأعلنوا عصيانهم عليه . ولم يكتفوا بالعصيان بل قصدوا بغداد بهدف النيل من الخليفة العباسى المقتفى لأمر اللـــه (٥٣٢ ـ ٥٥٦هـ/١١٣٦ ـ ١١٦٠م) . فلما بلغوا حلوان(١٦) أرسل الخليفة العباسى اليهم من يعظهم ويمنعهم من دخول بغداد ، ولكنهم رفضوا وعاثوا فى البلد فساداً ، وكان بصحبتهم الملك محمد بن محمود السلجوقى(١٧) .

أما السلطان مسعود فقد كان مقيماً عندئذ ببلاد الجبل، ومعه الأمير خاصبك الذى كانت علاقته بايلدكز غير طيبة . وكان الأمير خاصبك من أسباب خروج ايلدكز على السلطان مسعود(١٨) . ولم ترق هذه الحوادث التى ارتكبت فى حق ايلدكز والخليفة العباسى ببغداد للسلطان سنجر كبير البيت السـلجوقى (٥١١ ـ ٥٥٢هـ/١١١٧ ـ ١١٥٧م)، ولذلك فانه لم يحجم عن توجيه عتاب شديد للسلطان مسعود الذى كان قد انزعج هــو الآخر من فعل ايلدكز والملك محمد بن محمود ، وما أحدثوه فى بغداد . وكان أن توجه السلطان مسعود الى بغداد سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م لتطييب خاطر الخليفة المقتفى لأمر الله.فكان موضع ترحيب،وأحسن الوزير ابن هبيرة استقباله فى رمضان من السنة المذكورة(١٩) .

---

(١٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ١٥ .

(١٥) السلطان مسعود : أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه ، أصبح سلطانا سنة ٥٢٨هـ وتوفى سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص١٦٨ .

(١٦) حلوان : مدينة على سفح جبل مطل على العراق ، وهى من بلاد الجبل ، تكثر بها أشجار الفواكه بانواعها . ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٢١٤ .

(١٧) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٢١ ـ ٢٢ ، ويشير صاحب المنتظم الى أن دخول ايلدكز بغداد انما كان هربا من السلطان مسعود . ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ١٣٢ .

(١٨) ابن ا لأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

(١٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ١٠ ، ص ١٤٥ ؛ والوزير ابن هبيرة : أبو المظفر =

ولم يمكث السلطان مسعود طويلا فى بغداد ، بل عاد أدراجه الى همذان ٠ ولكن أجله لم يمهله كثيرا فقد توفى فى سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م وبوفاته انتهت على ما قيل سعادة البيت السلجوقى فى العراق(٢٠) ٠

وعلى الرغم من أن السلطان مسعود السلجوقى كان مشغولا بالفتن الداخلية،فان الكرج لم يتمكنوا ولم يجرأوا على الاعتداء على بلاده فى حياته،ولكنهم استغلوا وفاته فقاموا فى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م بالهجوم على أرمينية،وتمكنوا من انزال الهزيمة بصاحب آرزروم، وغنموا من المسلمين غنائم كبيرة(٢١) ٠

وبموت السلطان مسعود سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م برز الأتابك ايلدكز على مسرح الأحداث فى الدولة السلجوقية ،وخصوصاً بين سلاجقة العراق والخلافة العباسية من جهة،والكرج من جهة أخرى ٠ وكان أول معاد برز لأيلدكز فى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م هو الأمير اياز قفجان أحد أكابر امراء العجم،اذ استغاث بالزنكيين بالموصل من جور وظلم ايلدكز،فجهزوا معه العساكر ، وسار باتجاه أذربيجان، وحتى وصل الى سلماس(٢٢) حيث والتقوا بايلدكز واصلحوا الحال بينه وبين اياز(٢٣) ٠

=

يحيى بن محمد سعيد عون الدين بن هبيرة ، كان عالما باللغة والأدب ، والحديث ٠ ولد سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م وتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م انظر : مريزن عسيرى ، الحياة العلمية فى العراق ، ص ٩٦ ، حاشية رقم ١ ٠

(٢٠) ابو الفدا ، المختصر ، ج٣ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن الجوزى ، المنتظم ، ج١٠ ، ص ١٤٧ ، السيوطى ، تاريخ الخلفـــا ، ص ٤٣٩ ؛ الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٩٩ ٠

(٢١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٣ ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٥ ، وارزروم : وقيل آرزن الروم ، هى مدينة جليلة بأرمينية ، وتعرف عند الأرمن باسم Karin وعند الروم باســم Theodosio Polis كى ليسترنج ، بلـــدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٩ ٠

(٢٢) سلماس : مدينة باذربيجان بين تبريز وأرميه ، يوجد فيها مياه معدنية . انظر : القزوينى ، اثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣٩١ ٠

(٢٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٠٦ ٠

وعندما أخذت قوة ايلدكز تزداد ، استغاث به الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله فى سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م ضد السلطان محمد بن محمود ، فتوجه ايلدكز الى همـــذان واسـتولى عليهـا(٢٤) . وكان لذلك أثره فى نفس السلطان محمد بن محمود السلجوقى ، فرفع الحصار عن بغداد ، وعاد الى ايران . ولكنه لم يغفر لايلدكز هذا العمل فقام بحملة تأديبية ضده بأران ، وتمكن من انزال هـــزيمة ساحقة به ، تمكن عقبها من الاســـتيلاء على نخجوان . على انه قبل اعتذار ايلدكز وأخذ عليـه المواثيق والعهـــود بألا يعود الى العصيان عليه(٢٥) .

وفى مجال التدخل فى شئون السلاجقة والخلافة العباسية ، وجـد ايلدكز الفرصة سانحة له بوصفه أتابكاً لربيبه السلطان أرسلان شـــاه بن طغرل للتدخل مباشرة فى شئون سلاجقة العـــراق والخلافة العباسية فى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٣م . وكان أن سار من أذربيجان الى همذان بقصد منع سليمان شاه بن محمد السلجوقى من احتواء السلطنة هناك . وقد تمكن ايلدكز وأرسلان من الاستيلاء على همذان واجلاس أرسلان شاه على عرش السلاجقة بالعراق(٢٦) .

وسرعان ما جنى شمس الدين ايلدكز ثمار هذه الخطوة الجريئة ، فقد أصبح أتابكاً لسلطان السلاجقة فى ايران والعـــراق ، وتلقب بلقب «الأتابك الأعظم »(٢٧) ، ويعلق أحد الباحثين على ذلك فيقول ان

---

(٢٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٥١ ـ ٥٢ ، النويرى ، نهـــاية الارب ، جـ ٢٥ ، ص ٥٨ ـ ٥٩ ، أبو الفدا المختصر ، جـ٣ ص ٣٠ .

(٢٥) الأصفهانى : زبدة التواريخ ، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥ ؛ الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٣٨٣ .

ونخجوان أو نقجوان مدينة تقع الى الشمال من نهر فرس من أعمال أذربيجان انظر : كى ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٠١ .

(٢٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ١٩٦ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٨ . وقد أورد هذا الخبر فى حوادث سنة ٥٥٦هـ ؛ أحمد الســـعيد سليمان ، تاريخ الدولة الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٦٣ .

(٢٧) الأصفهانى ، تاريخ آل سلجوق ، ص ٢٧١ ، ويشير الدكتور حسن الباشا =

وظيفة الأتابك الأعظم أرفع قدراً وأوسع نفوذاً من وظيفة الأتابك ، لأنها تهيىء لصاحبها أن يشرف على الجيش وأعمال الوزراء(٢٨) ٠

أما الخليفة العباسى المقتفى لأمر اللـه فانه لم ينس تلك الأعمال التى قام بها ايلدكز فى العراق سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، ولذلك فانه لم يوافق على اعلان الخطبة فى بغداد باسم السلطان أرسلان شاه فى السنة التالية ٥٥٦هـ/١١٦١م ٠ ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ان رسول ايلدكـز الى الخلافة أهين « واعيد اليه على أقبح حلة »(٢٩) ٠

ولما كان اعلان السلطنة فى بغداد باسم أحد امراء البيت السلجوقى يعتمد على نفوذ هذا الأمـــير أو ذاك ، او على ما يدفع لبطانة الخليفة وأصحاب النفوذ عليه ،فان أرسلان شاه لم ينل رضى الوزير ابن هبيره ، وهو الوزير الذى كان يرغب فى اعلان السلطنة باصفهان وغيرها باسم السلطان السلجوقى سليمان شاه بن محمد ، وذلك بعد وفاة ملكشاه بن محمود بن محمد ٠ ولكن وفاة سليمان شاه سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م افسحت المجال أمام ايلدكز لفرض نفوذه على الأمراء الماجورين له ، من أجل تدعيم مركزه ومركز السلطان ارسلان شاه ، حتى أصبحت شخصية ايلدكز من أكبر الشخصيات بفارس والعراق ، وصار هو الحاكم الفعلى ٠ أما أرسلان شاه فلم يبق له غير الاسم(٣٠) ٠

ولم يكتف شمس الدين ايلدكز بما حصل عليه ،اذ غدا الأتابك الأعظم

=

الى أن الأتابكة قد تلقبوا بألقاب مضافة الى « الدين » ، حســن الباشا ، الألقاب الاسلامية ، ص ٦٥ ٠

(٢٨) عبد النعيم حسنين : دولة السلاجقة ، ص ١٢٢ ٠

(٢٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٧٣ ؛ انظر أيضا أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ٠

(٣٠) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤٠ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٦٧ ؛ عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ١٢٢ ؛ حسن الباشا، الألقاب الاسلامية ، ص ٦٤ وقد أشار المؤلف الى أن كثيرا من الأتابكيات فى العصر السلجوقى « لم تكن تدين للسلطان السلجوقى باكثر من الطاعة الاسمية » ٠

بأذربيجان وهمذان ، وأصفهان لأرسلان شاه، كما غدا ابنه البهلوان محمد صاحب السلطان،بل لقد أخذ فى مكاتبة الأمراء بقصد أخذ الولاء والطاعة منهم للسلطان أرسلان شاه الجديد ، فمنهم من وافق ومنهم من رفض . لذلك لم يجد ايلدكز بدأ من شن حرب على بعض خصومه ، كصاحب الرى اينانج(٣١)، وهى الحرب التى أسفرت فى النهاية عن عقد صلح بين الطرفين ، وعن زواج محمد البهلوان من ابنة اينانج المسماه قتيبة خاتون(٣٢) .

وعلى الرغم من أن هذه المناورات التى قام بها ايلدكز وربيبه أرسلان شاه قد منحته نوعاً من الهيبة والهيمنة على الأمراء المجاورين له، فان خلافة بغداد لم تكن راضية عنه،بسبب عدم تصديه للكرج الجورجان، الذين استغلوا تلك الأوضاع فقاموا فى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م بالهجوم على مدينة آنى ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها . وعلى الرغم من محاولة شاه آرمن بن ابراهيم بن سكمان القطبى صاحب خلاط التصدى للكرج ، الا أن المسلمين لقوا هزيمة منكرة « وقتل أكثرهم وأسر كثير منهم »(٣٣) .

وفى ظل الأوضاع المتردية للمسلمين فان الكرج بزعامة ملكهم جورج الثالث Georga III (٥٥١ - ٥٨٠هـ/١١٥٦ - ١١٨٤م) لم يقنعوا بما استولوا عليه من أراضى المسلمين بل تمكنوا من الاستيلاء على مدينة

---

(٣١) اينانج بك سنقر صاحب الرى ، قتل سنة ٥٦٥هـ بتدبير من وزيره سعد الدين أسعد الذى وزر فيما بعد لشمس الدين ايلدكز . الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٧ .

(٣٢) الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧١ . وقتيبة خاتون هى التى كان قزل أرسلان قد تزوجها عقب وفاة البهلوان ، وهى والدة اينانج محمود بن البهلوان . انظر المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ١٦٤١ .

(٣٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٧٧ . انظر ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٦١ .

أما عن أسرة سقمان القطبى بخلاط فانظر زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ص ٣٤٨ .

دوين(٣٤) باقليم أذربيجان،وفعلوا باهلها الأفاعيل القبيحة،بحيث أسروا الرجال،وأخذوا النساء سبايا بعد تعريتهن واقتيادهن حفاة عراة،كما خربوا الجوامع والمساجد . وقد أثار هذا العمل الشنيع بنساء المسلمين استنكار نساء الكرج اللاتى قلن «ان مثل هذا العمل سيدفع المسلمين الى أن يفعلوا بنا مثلما فعلتم بنسائهم(٣٥)». ويعلل بعض المؤرخين توسع الكرج على حساب المسلمين عندئذ بالأعمال القبيحة التى ارتكبها ايلدكز وأرسلان شاه فى حق سكان أصفهان ، وبانتشار قوات ايلدكز وأرسلان شاه فى حروب كثيرة بايران وفارس(٣٦) .

وقد أزعج عدوان الكرج على المسلمين - شمس الدين ايلدكز - وهو بهمذان.ولكنه ادرك أن لاطاقة له بملاقاة الكرج على انفراد،فطلب المساعدة ضدهم من شاه أرمن صاحب خلاط(٣٧) ، وأقسنقر الأحمديلى صاحب مراغة(٣٨) ، فاجتمعوا - فى عسكر - زاد عدده على خمسين الفا ، متناسين ما بينهم من خلافات . وساروا الى بلاد الكرج والابخاز(٣٩) فى صفر سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م بقصد استعادة ما استولى عليه الكرج من مدن . وفى طريقهم نهبوا البلاد،وسبوا النساء والصبيان،واسروا الرجال ،حتى لقيهم الكرج،فاقتتلوا أكثر من شهر.وكان النصر فى النهاية حليف المسلمين بسبب الخطة العسكرية الناجحة التى اتبعها المسلمون فى تقسيم الجيوش

---

(٣٤) دوين : مدينة تقع بالقرب من آران على حدود أذربيجان . وهى قريبة من تفليس . ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ، ص .

(٣٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٨٠ .

(٣٦) الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٢ .

(٣٧) خلاط : بلدة عامرة مشهورة ، وهى قصبة أرمينية الوسطى ، فتحت على يد القائد عياض بن غنم ، بها بحيرة مشهورة . حكمت من قبل الأيوبيين ، ودخلها الكرج والمغول . انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٣٨٠ ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٢٤ .

(٣٨) مراغه : مدينة فى بلاد أذربيجان ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٤٧٦ .

(٣٩) الأبخاز : أمة من النصارى يسكنون فى ناحية جبل القبق المتصل بباب الأبواب ، وبلادهم جبال صعبة المسالك وعرة ، لا مجال للخيل فيها انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٨٥ .

الى عدة أقسام،بناءاً على مشورة أحد رجال الكرج.وكان قد أسلم حديثاً، فالتف بفرقة عسكرية خلف الجيوش الكرجية وغدر بهم ، فانهزموا وكثر فيهم القتل والأسر . وعاد المسلمون الى بلادهم منصورين قاهرين بعد أن استولوا على غنائم كثيرة(٤٠) .

وكان أن أدت هذه الانتصارات على الكرج الى كسر شوكتهم مؤقتاً والى ارتفاع الروح المعنوية عند شمس الدين ايلدكز وربيبه السلطان أرسلان شاه ، وعلو صيتها فى البلاد ، مما أدى الى خضوع بعض أمراء الأطراف لهما،مثل صاحب نيسابور(٤١) المسمى المؤيد ، وهو الذى أعلن فى سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م خضوعه وطاعته للسلطان أرسلان ببلاد فارس ، وذلك بعد سيطرة أرسلان شاه على قومس بخراسان(٤٢) .

وعلى الرغم من هذه المكانة المرموقة التى حظى بها شمس الدين وربيبه أرسلان شاه بين معاصريهم من القوى الاسلامية،فانهما لم يستغلا هذه الانتصارات التى حققاها على الكرج فى القيام بحركة جهاد شاملة ضد الكرج للاستيلاء على العاصمة تفليس . لذلك عاود الكرج كرتهم مرة أخرى فى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م،واستولوا على مدينة آنى.على أن ايلدكز لم يغفل عن عمل الكرج هذا فتمكن من استعادتها ، ودخلها وأعاد الى حكمها الأسرة الشدادية(٤٣) .

---

(٤٠) الفارقى ، ملخص تاريخ ميافارقين ، ورقة ١٩٤ أ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٧٩ - ٨٠ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة ال سلجوق ، ص ٢٧٤ ؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٦١ ؛ الذهبى ، دول الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٧٢ .

(٤١) نيسابور : مدينة عظيمة من أشهر مدن خراسان ، فتحت أيام عمر رضى الله عنه ، على يد الاخفس بن قيس . يقول أحد الشعراء فى أهلها :

لا تنزلن بنيسابور مغتربا — الا وحبلك موصول بسلطان

ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٣٣٢ .

(٤٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٨٢ .

(٤٣) الفارقى ، ملخص تاريخ ميافارقين ، ورقة ١١٩٦ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٦٢ ، وعن الأسرة الشدادية انظر زامباور ، معجم الأنساب والأسر الحاكمة ، ص ٢٨٣ .

ولم يتوقف الكرج عن غزو بلاد المسلمين،بل قاموا بحركة واسعة فى سنة ١١٦٦/٥٦١م ، فخرجوا من بلادهم فى جموع كثيرة وتمكنوا من الاستيلاء على كثير من بلاد المسلمين،حتى تمكنوا من الاستيلاء على مدينة كنجه « فقتلوا وأسروا وسبوا كثيراً ونهبوا مالا يحصى »(٤٤) · وعلى الرغم من قوة ايلدكز وربيبه السلطان أرسلان شاه،فانهما لم يواجها الكرج هذه النوبة بسبب انشغالهما بأمور داخلية ومنافسات اقليمية ضيقة مع بعض القوى الاسلامية فى فارس ، حتى أنهما قاما فى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م بارسال حملة عسكرية بقيادة البهلوان الى مراغة ضد صاحبها اقسنقر الاحمديلى ، لا لسبب الا لانه طلب من الخليفة العباسى المستنجد بالله (٥٥٦ ـ ٥٦٣هـ) أ نيخطب على منابر بغداد لابن السلطان محمد شاه الذى كان عنده · وقد أسفرت هذه الحملة عن مداهمة مراغه وهزيمة صاحبها والتنكيل به(٤٥) ·

ولم يقف ايلدكز عند هذا الحد من اقحام نفسه فى نزاعات مع القوى الاسلامية فى فارس ، بل قام فى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م بهجوم على الرى،حيث تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة بسبب عصيان صاحبها اقسنقر الأحمديلى عن دفع الأموال المطلوبة منه(٤٦) ·

ومهما يكن من أمر ، فقد أدى هذا النشاط الحربى الى زيادة شهرة ايلدكز وعلو مكانته ، لا فى ايران وأرمينية فحسب ، بل حتى فى منطقة الجزيرة الفراتية، ففى سنة ٥٦٦هـ/١٧٧١م أستنجد به الأمير فخر الدين

---

(٤٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٩٤ · وكنجه : مدينة عظيمة تعتبر قصبة بلاد اران ، ويطلق عليها فى بعض كتب الأدب جنزه ، وتقع بين خورستان وأصبهان· انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٤٨٢ ·

(٤٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص٩٨ ؛ ابن الجوزى، المنتظم ، جـ١٠ ،ص٢١٠·

(٤٦) أبو الفدا ، المختصر ، جـ ٣ ، ص ٤٨ · والرى : مدينة مشهورة فى أمهات البلاد ، كانت تعرف باسم Rhages عند اليونان · وكان يطلق عليها اسم المحمدية نسبة الى الخليفة العباسى محمد المهدى·وفيها ولد هارون الرشيد ، وكان فيها دار ضرب فى العصر العباسى · انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ١١٥ ؛ ليسترنج ، بلدان الخلافة ، ص ٢٤٩ ·

القائم بأعمال الموصل عقب وفاة قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى ضد نور الدين محمود بن زنكى ، عندما عبر الفرات وقدم الى الموصل لتنظيم امورها . فلما بلغ نور الدين موافقة شمس الدين ايلدكز على تقديم المساعدة لفخر الدين أرسل اليه رسالة تنم عن احتقاره لايلدكز الذى أهمل المشرق حتى استولى عليه الكرج(٤٧) . ولم يقف نور الدين محمود عند هذا الحد بل ضمن رسالته تهديدا لشمس الدين ايلدكز قال فيها : « وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون لى معك الحديث على باب همذان ، فانك ملكت هذه المملكة العظيمة واهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت انا ولى مثل ربع بلادك بالفرنج ، فاخذت معظم بلادهم وأسرت ملوكهم »(٤٨) .

ويبدو أن رسالة نور الدين محمود الموجهة الى شمس الدين ايلدكز قد أثرت فى نفسه اذ عدل عن التوجه الى الجزيرة ، وقويت حميته فى التصدى للكرج الذين كانوا فى سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م قد استولوا على مدينة دوين وفعلوا بأهلها الأفاعيل القبيحة(٤٩) . ولذلك لم يستجب لطلب دفع الجزية التى فرضها عليه ملك الكرج ، بل رد على الكرج ردا قبيحا كشف عن قوته وحميته ، وما كان يتمتع به من صدق وعزيمة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل سار بمن معه من عساكر الى مدينة كنجه . فلما بلغ ذلك ملك الكرج رد على ايلدكز رداً اعتذر فيه عن مطالبه ،وتنازل عن طلبه السابق بدفع الجزية(٥٠) .

والواقع ان التفوق العسكرى الذى حققه شمس الدين ايلدكز مكنه من ارهاب خصومه من الكرج وغيرهم وخصوصاً الخليفة العباسى المستضىء

---

(٤٧) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٥٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٩٢ ؛ حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢٢١ ؛ د. مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين ، ص ٢٨٩ ؛ عصام الدين عبد الرؤوف ، بلاد الجزيرة ، ص ٣٤ .

(٤٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٣٣٢ .

(٤٩) الذهبى ، دول الاسلام ، جـ٢ ، ص ٧٨ .

(٥٠) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢ ـ ٣ ؛ الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٢٧ .

بامر الله الحسن (٥٦٦ - ٥٧٥هـ/١١٧٠ - ١١٧٩م) ، الذى كان قد ارسل الخلعوالهدايا اليه بقصد صرفه عن دخول بغداد ،وذلك بعد ان سمع الخليفة العباسى بان ايلدكز سيصل الى بغداد لمطاردة أحد خصومه فى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م(٥١) ٠

وهكذا ظل شمس الدين ايلدكز قويا فى وجه خصومه حتى كثرت أملاكه بأذربيجان ، وبلاد الجبل ، وهمذان ، وأصفهان ، والرى وما والاها من البلاد٠ويعود ذلك الى كثرة جيوشه التى قيل انها بلغت اكثر من خمسين الف جنديا ٠ ولم يكن لربيبه السلطان « أرسلان شاه » معه حكم،انما كانت له جراية تصل اليه ٠ وكان ايلدكز عاقلا حسن السيره ، يجلس بنفسه للرعيه ويسمع شكاويهم "وينصف بعضهم من بعض"(٥٢)٠

ولم يطل عمر ايلدكز بعد هذه المكانة التى حازها ،بل توفى فى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م فى مدينة نخجوان الواقعة بأذربيجان(٥٣) وبعد وفاة ايلدكز تولى الامر بأذربيجان ابنه نصرة الدين محمد البهلوان،المعروف باسم جهان بهلوان (٥٦٨ - ٥٧٢هـ/١١٧٣ - ١١٨٦م) ٠ وكانت شخصيته لا تختلف كثيرا عن شخصية أخيه لأمه السلطان أرسلان شاه،الذى لم يكن له حول ولا قوة ٠ وقد استهل محمد البهلوان أعماله بالهجوم على مراغة سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م التى كانت تحت حكم آقسنقر الاحمديلى ، فى الوقت الذى سير أخاه قزل أرسلان الى مدينة تبريز(٥٤) ٠ ولكن صاحب مراغه ورجاله عرفوا قوة البهلوان،فعقدوا معه صلحا تم بموجبه رفع الحصار عن مراغه ، وتسليم تبريز له ٠ فقبل البهلوان بذلك، "وحلف كل واحد منهما لصاحبه وتسلم البهلوان تبريز، واعطاها أخاه قزل أرسلان،ورحل

---

(٥١) المولوى ، صحائف الأخبار ، ص ورقة ٦٤٠ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢١ ٠

(٥٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١١٩ ؛ انظر : حسن أحمد محمود واحمد ابراهيم الشريف ، العالم الاسلامى ، ص ٦٢٢ ٠

(٥٣) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١١٩ ؛ الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٢٧٥ ٠

(٥٤) تبريز : مدينة من أشهر مدن أذربيجان، ابن حوقل، صورة الأرض ،ص٢٨٩٠

عن مراغه بعسكره »(٥٥) ٠

اما الكرج فقد استغلوا انشغال البهلوان بحروبه ضد صاحب مراغه ، وضد شمله التركمانى الذى كان قد اشاع الخوف فى بلاد الجبل وبغداد، فهجموا على مدينة انى - فى شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م - التى كان شمس الدين ايلدكز قد منحها لسقمان بن ابراهيم المعروف بشاهنشاه، وتمكنوا من الاستيلاء عليها ورتبوا فيها واليا(٥٦) ٠

ولكن لم يهنأ الكرج طويلا بما حققوه من نصر فى مدينة آنى ، اذ تمكن البهلوان ومعه ناصر الدين سقمان صاحب خلاط وبعض القوى الاسلامية من ضرب الكرج والانتصار عليهم،حتى وافقوا على عقد الصلح مع المسلمين ٠ وفرض عليهم ما أراده البهلوان ، الذى عاد بعد ذلك الى بلاده محملا بالغنائم فى سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م(٥٧) ٠



والواقع ان القوة والمكانة اللتين حظى بهما الأتابك شمس الدين ايلدكز وابنه محمد البهلوان ، تعودان بالدرجة الأولى الى انهما حظيا بصحبة السلطان أرسلان شاه السلجوقى ٠ ولذلك فان وفاة هذا السلطان سنة ٥٧٣هـ/١١٧٨م كانت نذيراً بضعف اتابكة أذربيجان ٠ وقد حرص محمد البهلوان على تعيين ابنه طغرل بن أرسلان الثالث (٥٧٠ - ٥٩٠هـ/١١٧٤ - ١١٩٤م) الذى كان صبياً ، وخطب له فى المحرم من السنة المذكورة ٠ واستمر البهلوان يتصرف فى البلاد تصرفاً ممدوحا ، وكان نفوذه قد شمل جميع بلاد الجبل وهمذان والرى واصفهان واران وغيرها من البلاد(٥٨) ٠

---

(٥٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٤ ٠

(٥٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج١٠ ، ص ٢٥٥ ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٦٤ ٠

(٥٧) الفارقى ، ملخص تاريخ ميافارقين ، ورقة رقم ٢٠٨ أ ؛ الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٤٢٨ ؛ الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٢٨٨ ٠

(٥٨) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤٠ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٨، ص ١٤٣ ؛ الاصفهانى ، تاريخ دولة ال سلجوق ، ص ٢٧٥ ٠

والى جانب ارتباط قوة البهلوان بارسلان شـــاه ، فان قوة أتابكة أذربيجان ارتبطت بعلاقاتهم الخارجية مع الكرج والقوى الاســـلامية . ولذلك فان هيبة محمد البهلوان لا تقل عن هيبة وصلابة وقوة والده،بدليل موقفه - الذى يسترعى الانتباه - من الخليفة العباسى المستضىء بامر الله (٥٦٦ - ٥٧٥هـ) فقد رفض البيعة للخليفة المذكور الا بعـد الحاح من رسول الخلافة صدر الدين شيخ الشيوخ . وقيل أنه لولا خوف البهـــلوان من عصيان كثير من عساكره،لما اعلن البيعة للخليفة(٥٩). وان دل هذا على شىء فانما يدل على اعتداده بنفسه وبقوته.وقد ذكر بعض الباحثين المحدثين أن البهلوان شجعطغرل على انتزاع السلطة الزمنية من الخليفة، الا أن ضعف السلطان السلجوقى حال دون تحقيق ماكان يصبو اليه(٦٠).

ولا أدل على قوة وشهرة البهلوان محمد باذربيجان والمشرق من ان عز الدين ابن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل،عندما تعرض لخطر الهجوم من قبل صلاح الدين الايوبى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م لم يجد حرجاً فى الاستعانة ضده بزعيم أذربيجان محمد البهلوان.ولكن عزالدين أدرك فى النهاية أن خطر البهلوان قد يكون أفدح من خطر صلاح الدين، فعدل عن الاستنجاد به(٦١) . ولما كان صلاح الدين رحمه الله حريصاً على الاستيلاء على الموصل من الزنكيين،فقد كتب الى الخليفة العباسى كتاباً أوضح فيه غرضه من الاستيلاء على الموصل ، وهو منع الزنكيين

---

(٥٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٤٩ ؛ الأصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص ١٧٤ وقد ذكر ابن الجرزى فى منتظمه أن سمعة البهلوان ساءت فى بغداد ، ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢١٠ .

(٦٠) بارتولد ، تركستان ، ص ٥٠٠ .

(٦١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٥٨ . وقد اشار ابن الأثير الى أن البهلوان أرســل من قبله قزل أرسلان الى الموصل بقصد اصلاح الأمر بين صلاح الدين والزنكيين فلم يتم ذلك - أما عز الدين مسعود بن قطب الدين فقد توفى سنة ٥٨٩ هـ انظر ترجمته كاملة فى كتاب ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٨٥ - ١٨٦ ؛ وهذا بخلاف ما جاء فى كتاب الاعلاق الخطيره ، لابن شداد ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٢٠ . ولمزيد من الايضاح عن حكام الموصل من بنى زنكى انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ١٢٣٥ .

من الخطبة لصاحب العجم(٦٢) - والمقصود به محمد البهلوان - الذى كان على علاقات سيئة بالخلافة فى بغداد • لذلك سار صلاح الدين سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م متوجهاً الى الموصل ، ولكنه لم يتمكن من الاستمرار فى حصارها بسبب استبسال أهلها وحرارة الجو،بالاضافة الى وصول خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط(٦٣) بمنطقة الجزيرة • وكانت تربطه بالبهلوان علاقات مصاهرة، اذ أنه كان زوجاً لاحدى بنات البهلوان• لذلك وجد صلاح الدين أن المسارعة فى الاستيلاء على خلاط أولى من الاستيلاء على الموصل ، خوفاً عليها من السقوط بيد صاحب العجم • ولهذا غادر صلاح الدين الموصل الى خلاط بدعوة من أهلها والقائمين عليها « مكراً وخديعة » منهم• وكان غرضهم من ذلك دفع البهلوان الذى كان هو الآخر قد وصل قريباً منها « وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبين صلاح الدين، ثم انهم اصلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له»(٦٤)• وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن كان لها دور فى تسيير الحوادث بخلاط ، والا فان البهلوان ليس فى قوة صلاح الدين ولا كثرة عساكره•كذلك لا يستبعد أن يكون لأهل الجزيرة

---

(٦٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص ١٦٦ ؛ عبد الله الغامدى ، صلاح الدين والصليبيون ، ص ٨٨ ولمزيد من التفصيل عن هذه الرسالة • انظر : نص الرسالة الثانية التى ارسلها صلاح الدين الى الخليفة العباسى • محمد القزاز ، الحياة السياسية فى العراق ، ص ٣٨٥ •

(٦٣) شاه أرمن : هو ناصر الدين سكمان الثانى بن ابراهيم • توفى فى ٩ربيع الثانى سنة ٥٨١هـ • وتولى أمر خلاط بعده سيف الدين بكتيمور مملوك ظهير الدين ابراهيم شاه أرمن بن سكمان • زامباور ، معجم الأنساب ، ص ٣٤٩ •

(٦٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص١٦٩ • وذكر ابن واصل ان اهل خلاط ولوا أمرهم للامير سيف الدين بن بكتمر الذى تمكن من تخويف كلا من البهلوان وصلاح الدين بصاحبه ، وبهذه الطريقة عاد كل منهما الى بلاده • ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ - أما العينى فيذكر أن البهلوان ارسل الى صلاح الدين عند محاولة الأخير الاستيلاء على خلاط وقال له : ان هذه بلاد ابنتى والمصلحة أن تعود ، فعاد صلاح الدين الى محاصرة الموصل للمرة الثالثة • العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ص ١٨ •

انظر ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ١ ، ص ١٤٣ ؛ ابن شداد الاعلاق الخطيرة، جـ٣ ، ق٢ ، ص ٤٥١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص ٨٩ •

وميافارقين(٦٥) ميول الى العجم اكثر من ميلهم الى صلاح الدين،الذى أصبح مكروها لدى الزنكيين بصفة خاصة وسكان الجزيرة بصفة عامة،نظرا لسياسته تجاه البيت الزنكى عندما كان يعمل على توحيد الجبهة الاسلامية(٦٦) ٠

ولم تطل حياة محمد البهلوان لنرى هل سيحقق فى جهاده ضد الكرج ما حققه صلاح الدين ضد الصليبيين بالشام ٠ ذلك ان صلاح الدين عندما كان يحارب فى اقليم الجزيرة وشمال الشام ، كان يهدف الى توحيد قوى المسلمين ضد الصليبيين فى بيت المقدس - مما مكنه فيما بعد من تطهير أولى القبلتين من سيطرة المغتصبين سنة٥٨٣هـ/١١٨٧م(٦٧) - أما محمد البهلوان،فان جهوده ضد القوى الاسلامية لم تسفر عن نتائج ذات بال ٠ ويبدو أن سبب ذلك انما كان تشتت قواه بين الكرج والامارات الاسلامية فى فارس والخلافة العباسية فى بغداد ٠

وفى أوج المكانة التى حققها البهلوان بين معاصريه لم يمهله أجله طويلا ، اذ توفى فى أول سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م ٠ وكان كما وصفه معظم المؤرخين عادلا حسن السيرة عاقلا حليما ، ذا سياسة حسنة فى الملك ، ظلت البلاد فى عهده آمنة والرعايا فى اطمئنان(٦٨) ٠

---

(٦٥) ميافارقين : مدينة مشهورة بديار بكر ، بمنطقة الجزيرة ٠ فتحت على يد بن غنم زمن عمر بن الخطاب ٠ انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ٢٢٨ وما بعدها ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٦٥ ٠

(٦٦) حامد غنيم : الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، حـ٢ ، ص٨٠ ، وفى هذا الصدد يعلق الأستاذ الدكتور حامد غنيم بقوله : ان صلاح الدين لم تكن تحركاته فى منطقة الجزيرة بدافع السيطرة أو الرغبة فى الانتقام ، وانما كانت بدافع توحيد الجبهة الاسلامية ٠

(٦٧) ابن واصل ٠ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢١١ ؛ الأصفهانى ، سنا البرق الشامى ، ص ٣٠٩ ، حسنين ربيع ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٣٨ - ٢٤٨ ٠

(٦٨) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤٠ ب ، ويذكر أن الوفاة كانت سنة ٥٨٣هـ ، أما ابن الأثير فى كامله فيذكر أن الوفاة كانت سنة ٥٨٢هـ ٠ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛ عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٤٥ ٠

وقد اتصف محمد البهلوان بالشجاعة وقوة الشخصية،مما مكنه من فرض سيطرته على كامل البلاد التى كانت لوالده . بل لقد تمكن من اخضاع الكرج والحد من طغيانهم على بلاد المسلمين ، وصار له نفوذ بمنطقة الجزيرة الفراتية كما مر بنا ، كما انه وقف موقفا صلبا امام رسل الخلافة عند المبايعة للخليفة العباسى(٦٩) .

وليست هذه الأسباب وحدها هى الدالة على قوة شخصية محمد البهلوان،بل ان هناك الكثير من الدلائل الأخرى.من ذلك ما أعقب وفاته من فتن تفجرت بين السنة والشيعة ،وبين الشافعية والحنابلة.ففى اصفهان ذكر أن الخسائر المادية والبشرية نتيجة الفتن الداخلية فاقت « ما يجل عن الوصف».ولم تقتصر الفتنة بين السنة والشيعة علىأصفهان بل تعدتها الى مدينة الرى التى قتل من أهلها العدد الكبير « وتفرق اهلها ». كل ذلك بسبب عدم وجود الشخصية الكبيرة التى تستطيع أن تخمد مثل هذه الفتن(٧٠) . وفى جانب آخر من جوانب شخصية البهلوان ومدى ما أحدثته وفاته من فراغ ، ان السلطان طغرل بن أرسلان خرج وأعلن العصيان على خليفة البهلوان قزل أرسلان « ولحق به جماعة من الأمراء والجند فاستولى على بعض البلاد ، وجرت بينه وبين قزل حروب » ولما لم يجد مظفر الدين قزل أرسلان بدأ من مجابهة طغرل ، أرسل الى الخلفية العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ/١١٧٩ - ١٢٢٥م) يستنجده فلبى الخليفة طلب طغرل سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م،وأرسل له جيشا جعل على قيادته الوزير جلال الدين بن يونس(٧١) ولكنه منى بالهزيمة. وازاء ذلك أمر الخليفة « بنقض دار السلطنة ببغداد فهدمت الى الارض

---

(٦٩) انظر ما سبق ، ص ١٥ .

(٧٠) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ١٧٤ .

(٧١) الوزير جلال الدين بن يونس : أبو المظفر عبيد الله بن يونس جلال الدين، قتله ابن القصاب سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م . ابن الجوزى ، فضائل القدس ، مقدمة المحقق ص ٣٨ . والوزير له ترجمة كاملة فى كتاب النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى ، جـ٦ ، ص ١٤٢ . وجاء فى ذيل الروضتين أن الوزير ابن القصاب سلم ابن يونس الى ولده أحمد وأوصاه بقتله ، أبو شامه ، ذيل الروضتين ، ص ٩ .

وعفى أثرها »(٧٢) ·

ولم تتح الفتن الداخلية فرصة للأتابك قزل أرسلان لجهاد الكرج ، نظرا لانشغاله بالفتنةالتى قامت بينه وبينالسلطان طغرل الثالث،بالاضافة الى انشغاله بالنزاع مع ابناء أخيه نصرة الدين محمد البهلوان(٧٣)·ولما كانت سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م قتل الأتابك قزل أرســلان بتدبير من زوجته وبعض أمراء العراق تعاطفاً مع السلطان طغرل الثالث الذى كان على علاقات سيئة معه(٧٤) · وكان نهذه الخطوة أثرها فى اضعاف اتابكة أذربيجان · ولم يتوقف الضعف فى صفوف اتابكة أذربيجان عند هذا الحد بل أن أبا بكر بن البهلوان هرب من همذان وتوجه صوب نخجوان حيث لقى من أهلها ترحيباً، فتمكن من بسط نفوذه على آران وأذربيجان التى أصبحت فيما بعد مركزاً لبنى ايلدكز(٧٥) ·



أما بالنسبة لابناء نصرة الدين محمد البهــلوان - أينانج محمود وأمير اميران عمر - فقد ساءهم ماوصل اليه حالأخيهما ابى بكر،فحشدا قواتهما من الأوباش والبطالين وساروا الى تبريز·وقد تمكنا من الاستيلاء عليها ثم واصلا سيرهما باتجاه نخجوان لملاقاة أبى بكر ، الا أن ابا بكر

---

(٧٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ١٨٩ - ١٩٧ ؛ انظر عبد النعيم حسنين، دولة السلاجقة ، ص ١٢٧ · وقد أشار ابن الاثير الى أن صلاح الدين قد علق على حملة الخليفة وقال : ان مصيرها الهزيمة المحققة نظرا لعدم معرفة الوزير بفنون الحرب ·

(٧٣) الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٦ · وجاء فى بعض المراجع أن السلطان صلاح الدين حاول الاصلاح بين قزل وطغرل فلم يفلح فى الأمر ، ونحن نشك فى ذلك · انظر : سعد الغامدى ، أوضاع الدول الاسلامية ، ص ٦٥ - ٦٦ ؛ حافظ حمدى : المشرق الاسلامى ، ص ١٠٦ ·

(٧٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٩٢ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٦ ؛ عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ١٢٩ ؛ براون ، تاريخ الأدب فى ايران ، ص ٥٠٩ ·

(٧٥) الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٥٠ ؛ الأصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٥٧٥ ·

تمكن من هزيمتهما شر هزيمة(٧٦) .

ولم تتوقف سلسلة الحوادث بين الأتابكة ، فقد كان أينانج محمود بهمذان عقب وفاة مظفر الدين قزل أرسلان،وتولى أخوه أبو بكر بن البهلوان السلطة،فجمع جموعه بقصد محاربة أبى بكر؛الا أن الأنباء وصلته فى سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م تفيد أن السلطان طغرل حشد قواته وتوجه صوب همذان للاستيلاء عليها . وفعلا تمكن من الاستيلاء عليها فى الوقت الذى هرب اينانج محمود وتحصن بالرى ، واستنجد بالسلطان الخوارزمى تكش (٥٦٨ - ٥٩٧هـ/١١٧٢ - ١٢٠٠م)(٧٧) ضد السلطان طغرل ، الذى كان قد تزوج بأم اينانج محمود قتيبه خاتون - طمعا فى «المال والملك». ولما كانت سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م قدم تكش نجدة له ، وتمكن من الاستيلاء على بعض قلاع الرى(٧٨) .

ولم تطل اقامة تكش بمهذان،بل عاد الى بلاده بعد أن عقد صلحاً مع السلطان طغرل الثالث .على أن السلطان نقض الهدنة بينه وبين تكش فعاد تكش الى الرى مرة ثانية،وتمكن من ملاقاة السلطان سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م ، وفى معركة غير متكافئة دارت بين الطرفين قتل السلطان طغرل آخر سلاطين السلاجقة بفارس والعراق . وتسلم السلطان خوارزمشاه ، همذان وبعض بلاد الجبل ،وسلمها الى اينانج،وعاد الى بلاده ؛ الا أن اينانج كفر النعمه وعاد الى قتال الوالى الخوارزمى بالرى(٧٩) .

---

(٧٦) الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٣ . ويشير عبد النعيم حسنين فى كتابه دولة السلاجقة ، ص ١٣٠ الى أن الحرب نشبت بشكل كبير وفى فترات متعددة.

(٧٧) عن أسرة خوارزمشاه ونسب هذه الأسرة . انظر : بارتولد ، تركستان ، ص ٥١١ حيث هناك شجرة تبين نسب هذه الأسرة .

(٧٨) المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ١٦٤١ .

(٧٩) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ١٦٤١ ؛ الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٣٧١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ١٣٥ ؛ الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٦ ؛ الأصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣١٢ - ٣١٤ وقد جاء فى حاشية زبدة التواريخ رقم ١ ، ص ٣١٤ أن لسلطان علاء الدين خوارزمشاه تكش لما احتل همذان ، ومعظم مدن وقلاع العراق ، أقطع كثيرا منها لأمرائه ومماليكه.

على أن اينانج محمود لم يستطع المحافظة على مكاسبه فى الرى واصفهان فتمكن الوالى الخوارزمى الجديد من اجباره على مغادرةالرى. ولذا توجه صوب العراق لطلب النجـدة من الخليفة الناصر لدين الـله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) والوزير ابن القصـاب الذى كان بخوزستان(٨٠) . وكان أن تمكن ابن القصاب من أجبار الخوارزميين على الخروج من الرى، كما استولى على همـذان ، الا أن قتلغ اينانج ـ مثلما فعـل مع الخوارزميين فى السابق ـ كفر النعمة وعصى على الوزير « فهرب وتحصن بالرى » . ولكن الوزير تمكن من أخذها منه فهرب « ايناتج ومن معه الى آوه »(٨١) وفى خضم هـذا الصراع ، ورد على ابن القصاب رسـول خوارزمشاه يطلب البلاد ،فلم يجبه.فما كان من خوارزمشاه الا أن أرسل قوة عسكرية وصلت الى همذان سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م . ولكن الوزير مات قبل وصولها (٨٢) ، ولم تتمكن قوات الوزير والخليفة من الصمود أمام قوات الخوارزميين فهزمت وتفرقت(٨٣) .

=

فاقطع أصفهان لقتلغ ايناتج وهمذان لقاراغوز الاتابكى . أما الرى فلانيه يونس خان. ولمزيد من التفصيل انظر : سعد الغامدى ، أوضاع الدول الاسلامية فى الشرق الاسلامى، ص ٧٤ ـ ٧٧ .

(٨٠) كان الوزير مؤيد الدين على بن محمد بن القصاب قد خرج من بغداد لنجدة بعض رجال بنى شمـله المتنافسـين على الحكم : سعد بن حذيفة ، أوضـاع الدول الاسلامية ، ص ٩٠ . وخرزستان : اسم لولاية كبيرة تشبه أرض العراق وجوها ، وهى تنسب الى سكانها المعروفين باسم الخوز . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢،ص٤٠٤.

(٨١) آوه : قرية مشهورة بين زنجان وهمذان ، خرج منها العديد من العلماء. انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ١٨٤ .

(٨٢) كان ابن القصاب قد تسلم الوزارة سنة ٥٩٠هـ بعد قتل سلفه ابن يونس . وكان يميل الى الشيعة الأمر الذى جعله ينكل بأهل السنة،وخصوصا الحنابلة الذين كان على رأسهم عبد الرحمن بن الجوزى الذى نفى الى واسـط ومكث بها خمس سنوات . انظر : ابن الجوزى ، فضائل القدس ، مقدمة المحقق ، ص ٣٨ ؛ أبو شامه، ذيل الروضتين ، ص ٩ .

(٨٣) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤١ب ، ص ٢٣٥ ؛ سعد بن حذيفة : الدول الاسلامية فى المشرق الاسلامى ، ص ٩٠ وما بعدها . أما ابن الأثير فيشير فى حوادث ٥٩١ هـ الى أن قوات الخلافة تمكنت من ملاحقة جيوش الخوارزميين وظفرت بشىء كثير ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٢٣٥ .

وعندما رأى الخوارزميون أن البقاء فى ذلك الاقليم ليس فى صالح قواتهم عادوا الى خراسان ومنها الى جرجانيه(٨٤) باقليم خوارزم،بعد أن استنابوا على الرى وهمذان وبلاد الجبل مملوك السلطان تكش المسمى مياجن،وهو الذى تمكن فى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م من قتـــل الأتابك قتلغ اينانج(٨٥) ٠



اما الأتابك أميراميران عمر بن البهلوان فقد توجه فى خضم هـذا النزاع الى شروان(٨٦) وتزوج من ابنة صاحبها الذى تمكن من اقناعه بالدخول فى حلف مع الكرج ضد أبى بكر بن البهـــلوان ٠ وكدليل على حسن النية توجه أميراميران وصاحبه الى تفليس وقابلا الملكة الكرجية ثمار الكبرى Thamara (٥٨٠ - ٦٠٩هـ / ١١٨٤ - ١٢١٢م)(٨٧) التى أمدتهم بمساعدات عسكرية كبيرة،جعلتقيادتها لزوجها المسمى داود سوسلان٠ وكان أن تمكنوا من هزيمة أبى بكر البهلوان سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م عند بيلقان(٨٨) كما تمكنوا من الاســتيلاء على كنجه ونصبوا عليها أميراميران عمر وعادوا الى بلادهم(٨٩) ٠

ولم يطل عمر أميراميران عمر عقب دخوله كنجه ، اذ توفى بعد اثنين وعشرين يوماً من دخولها ، فقدم اليها أبو بكر بن البهلوان ودخلها

---

(٨٤) جرجانيه : أشهر مدن أقليم خوارزم ، كانت عاصمة الدولة الخوارزمية ، تقع على نهر جيحون ٠ ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ١٢٢ ٠

(٨٥) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤١ب ٠ وقتلغ اينانج أخو الاتابك أبو بكر من أسرة ايلدكز ، وهو ابن لجهان بهلوان حكم فى الفترة من (١١٩١-١٢١٠م) انظر : بارتولد ، تركستان ، ص ٤٩٩ ، حاشية رقم ١٤٣ ٠

(٨٦) شروان : مدينة تقع قرب بحر الخزر من نواحى مدينة باب الأبواب ، محمد شيت خطاب ، ارمينية بلاد الروم ، ص ٢٩ ٠

(٨٧) عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص٥٢٧٠ ٠

(٨٨) بيلقان : مدينة تقع فى السهل الممتد بين التقاء نهر الرسى ونهر الكر،وهى احدى المدن التى بناها قباذ للدفاع عن المنطقة من هجمات الخزر ، وهى قريبة من باب الأبواب ، محمد شيت خطاب ، أرمينية بلاد الروم ، ص ٢٩ ٠

(٨٩) الاصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٨ ٠

ورتب امورها ، وعين عليها حاكماً من قبله ثم عاد الى نخجوان(٩٠).

أما الكرج فانهم بعد سماعهم نبأ وفاة حليفهم وصنيعتهم بكنجه لم يتورعوا عن اعداد حملة عسكرية كبيرة لعلهم يستعيدوا بها هذه المدينة. ولكنهم عجزوا عن ذلك بعد حصار طويل ، فتوجهوا صوب نخجوان التى بها ابو بكر البهلوان . فلما علم بمقدمهم هرب الى تبريز ، وترك المدينة وأهلها يواجهون مصيرهم المحتوم على يد الكرج الذين أسروا من أهلها ما لا يعلمه الا اللـه(٩١) .

ولم يقف أمر تصدع بيت أتابكة أذربيجان من بنى ايلدكز عند حد الانقسام السياسى وضياع الأراضى بل تعداه الى أن أبا بكر بن البهلوان وغيره من كبار رجال بيته وقادته كانوا منهمكين فى الشراب ليلا ونهارا مما سهل للكرج الاستيلاء على معظم اقليم أذربيجان . وقد استمروا فى توسعهم حتى كانت سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م عندما خـرج الـكرج فى جموع كبيرة وتوجهوا الى مدينة دوين القــريبة من حدودهم وفرضـوا عليها حصاراً طويلا . ولما لم يجد أهلها قدرة على الصــمود استنجدوا بابن البهلوان أبى بكر ولكنه لم يتمكن من نجدتهم ، فتمكن الكرج من الاستيلاء على المــدينة وذلك فى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م وفعلوا بأهلها من المسلمين ما تقشعر له الجلود ، فى الوقت الذى لم يتمكن ابن البهلوان من تقديم مساعدات لأهلها . وقد صور المولوى صمت ابن البهــلوان وعدم نجدته للمسلمين بقوله « فكأنهم ينادون صخرة صماء فكرروا الاستغاثة فازداد صمتا وقسوة حتى فعل الكفار ما أرادوا ... بعد تخريب البلاد والقرى. فالله يرحم العباد »(٩٢) .

---

(٩٠) الاصفهانى ، زبدة التواريخ و ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ، وجاء فى الحاشية رقم ٢ بنفس الصفحة أن أبا بكر قد أوعز الى بعض رجاله قتل أخيه أميراميران عمر .

(٩١) نفس المصدر ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٩٢) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٤٤١ب ؛ انظر كــذلك ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٢٦٠ ؛ الاصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ؛ الغسانى، العسجد المسبوك ، جـ٢ ، ص ٢٨٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٣ ، ص ٣٨ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص ١٠٤ .

ويبدو ان هجمات الكرج على أملاك أتابكة أذربيجان لم تكن نتيجة لضعف ابى بكر البهلوان وانشغاله باللهو والشراب فحسب ، وانما ترجع ايضاً الى الفتن الداخلية وظهور بعض الشخصيات القيادية من مماليك البهلوان وأولاده . ففى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م تمكن أحد مماليك ابى بكر ابن البهلوان ، ويدعى ايتغمش ، من قتل والى الرى ويدعى المملوك كوكجا ، واستولى عليها . وحتى يضفى على هذا العمل الشرعية حمل معه أوزبك بن البهلوان(٩٣) .

تلك الحوادث وغيرها ، كفيلة باضعاف جانب أتابكة أذربيجان . ولهذا أغار الكرج على أراضى أذربيجان ،وتمكنوا فى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م من الاستيلاء على مدينة مرند التابعة لاقليم أذربيجان ، وفعلوا بأهلها الأفاعيل ، حتى غدت مضرب الأمثال فى الدمار والأبادة(٩٤) .



ولم تترك هذه الأوضاع القائمة بين أتابكة أذربيجان بعضهم وبعض من ناحية ، وبينهم وبين الكرج من ناحية أخرى-فرصة لتقوية جبهتهم الداخلية . ولذلك لجأ ابو بكر - بعد أن عرف عجزه عن محاربة الكرج - الى مصاهرتهم ، فلما كانت سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م تزوج ابنة ملك الكرج « فسكنت غاراتهم على بلاد المسلمين »(٩٥) .

وبالرغم من المصاهرة التى نمت بين أبى بكر والكرج فان أوضاعه

---

(٩٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٢٦٥ . أما الرى فقد كان البهلوان قد استولى عليها وعلى ما جاورها من بلاد الجبل سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م . أما ايتغمش فيذكر ابن الأثير فى كامله انه شدد الحرب على الاسماعيلية بايران ولولا انشغاله بأبى بكر بن البهلوان لامكنه الاستيلاء على قلعة الموت.ابن الاثير، الكامل ،جـ٩،ص٢٨٢.

(٩٤) الاصفهانى ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٩ . ومرند : من مشاهير مدن أذربيجان ، بينها وبين تبريز مسيرة يومين على الاقدام . ياقوت . معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١١٠ .

(٩٥) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢أ ؛ انظر : الذهبى ، دول الاسلام، جـ٢ ، ص ١٠٩ ؛ ابن الوردى تتمة المختصر ، جـ٢ ، ص ١٧٧ ؛ ابن خلدون ، العبر، جـ ٥ ، ص ٣ .

السياسية الداخلية لم تتحسن ولم تستقر ؛ اذ نظر بعض قادة المسلمين الى هذا الزواج السياسى على انه منتهى الذل والخضوع . ولذلك اتفق صاحب مراغه عـــلاء الدين مع صاحب اربل مظفر الدين كوكبرى سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م على قصد أذربيجان واخذها من صاحبها ابى بكر بن البهلوان بسبب مواقفه السلبية تجاه الكرج . فلما عرف ابو بكر أن هـــذا الحلف قصد تبريز مقر اقامته، حشد قواته واستنجد بايتغمش مملوكه بالرى، فقدم اليه . وكان لأيتغمش دور كبير فى تفكيك هذا الحلف بحيث عاد صاحب اربل الى بلده . اما صاحب مراغه فقـــد صالح ابى بكر بن البهلوان وايتغمش على تسليم حصن من حصونه مقابل اقطاعه مدينتين صغيرتين تابعتين لمراغه ، على أن يعود أيتغمش الى بلاده(٩٦) .

أما الكرج فقد استغلوا انشغال البهلوان بمشاكله مع القوى الاسلامية ، فأغاروا فى نفس السنة على أرمينية وحاولوا الاستيلاء على خلاط . ولكن حماسة المسلمين ورغبتهم فى الجهاد مع كثير من علمائهم أجبرت الكرج على العودة بعد أن قتلوا واسروا منهم أعداداً كبيرة . ولكنهم عادوا فى سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م وتمكنوا من الاستيلاء على مـــدينة قرص(٩٧) من أعمال خلاط « وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد ، فان للـــه وانا اليه راجعون »(٩٨) .

وفى ظل هذه الأوضاع المتردية للمسلمين ، وجد الكرج أن الفرصة مواتيه لهم للهجوم على امارة خلاط بارمينية ، مستغلين فى ذلك انشغال أبى بكر بن البهلوان بأذربيجان بفتنه الداخلية ولهوه، فصبوا جام غضبهم على أمارة خلاط بارمينية. وكان من المتوقع أن يقف أبو بكر بن البهلوان الى جانب صاحب خلاط . ولكنه للأسف لم يسع الى ذلك بل قام فى سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م بهجوم على مراغه ، وتمكن من الاستيلاء عليها عقب وفاة

---

(٩٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٢٨٢ .

(٩٧) قرص : مدينة بارمينية من نواحى خـــلاط ، ياقوت ، معجم البـــلدان ، ج٤ ، ص ٣٢٣ .

(٩٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٢٨٩ ؛ انظر : ابن الساعى ، الجامع المختصر ، ج ٥ ، ص ٢٠٦ .

صاحبها علاء الدين قراسنقر الأحمديلى الذى لم يخلفه احد من أسرته فى حكم بلاده(٩٩) ٠

وبالرغم من الأخطار المحدقة بأبى بكر بن البهلوان فانه « قد بقى على فسقه وشربه ٠٠٠ حتى توفى سنة٦٠٧هـ/١٢١٠م بمدينة تبريز،تجاوز الله عن سيئاته »(١٠٠) ٠ وقد مكث فى حكم أذربيجان أكثر من عشرين سنة ، فتولى الأمر بعده أخوه مظفر الدين أزبك بن البهلوان محمد بن شمس الدين ايلدكز ، وكان قبل توليه الأمر مقيما ببلاد الجبل عند المملوك أيتغمش ، وقبله عند كوكجا ٠ وفى بداية أمره حاول أن يصلح المفاسد التى انتشرت فى أيام أخيـــه ، لكن النزاعات الداخليـــة لم تدع مجالا للاصلاح ٠ وقد تمكن أحد المماليك المسمى منكلى فى سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م من طرد أيتغمش من الرى وأجبره على الخروج منها فوجد الأخير أن الأفضـــل له الذهاب الى بغـــداد للاستنجاد بالخليفة الناصر (٥٧٥هـ/ ٦٢٢هـ)(١٠١) ٠

على أن هذا التصرف من قبـــل منكلى كان له أثره على القـــوى الاسلامية ، فتكون ضده حلف من الخليفة العباسى ، وجلال الدين(١١٢) صاحب الاسماعيلية،وأزبك بن البهلوان ، لقتال منكلى وأخذ البلاد من يده ٠ وقد تمكن هذا الحلف من هزيمته وقتله واقتسام بلاده التى استولى عليها من أيتغمش ، وقسمت بين أعضاء الحلف ، وكان النصيب الأوفر من بلاده لأزبك بن البهلوان ، وصاحب قلاع الاسماعيلية(١٠٣) ٠

---

(٩٩) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ ؛ ابن الأثيـــر ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٩٧ ٠

(١٠٠) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ ؛ انظر : ابن الاثير ، الكامل، ج ٩ ، ص ٣٤٩ ٠

(١٠١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٠٥ ؛ الذهبى ، تاريخ الاســلام ،

(١٠٢) جلال الدين حسن الثالث بن محمد الثانى كان دس له السم فتوفى سنة ٦٠٧هـ ، وتولى بعده زعامة الاسماعيلية علاء الدين محمد الثـــالث الذى عارض الاسماعيلية فى كثير من معتقداتهم ، واقام فى بلاده الآذان والجمعه والجماعة فى الصلاة ، انظر : زامباور ، معجم الانساب ، ص ٣٢٩ ٠

(١٠٣) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ ٠

اما أزبك فقد سلم نصيبه من بلاد الجبل الى مملوك اخيه المسمى اغلمش وذلك سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م ، وهى السنة التى أرسل فيها راس منكلى الى بغداد كدليل على التخلص منه(١٠٤) ٠

ولما كانت طائفة الاسماعيلية لا يؤمن جانبها ، فقد قام بعض رجال هذه الطائفة باغتيال أغلمش ، فأصبحت بلاده مطمعاً للطامعين سواء الاسماعيلية أم الخوارزميين أم صاحب فارس سعد بن زنكى(١٠٥) ، وكان أن تسابق الجميع للاستيلاء عليها، الا أن علاءالدين محمد خوارزمشاه زعيم الخوارزميين (٥٩٧ ـ ٦١٨هـ/١٢٠٠ ـ ١٢٢١م) تمكن من الاستيلاء على بلاد الجبل والرى وهمذان بعد أن أسر سعد بن زنكى ، واجبر أزبك على مغادرة أصفهان الى أذربيجان ٠ وأستقرت القاعدة بينه وبين أزبك صاحب أذربيجان على أن يخطب له ازبك ببلاده ويدخل فى طاعته(١٠٦) ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل قام الاتابك أزبك بضرب السكة باسم السلطان الخوارزمى وارسل اليه الهدايا والتحف٠ على أنه أعتذر عن دفع ما طلبه السلطان من أموال بسبب قلة دخل البلاد ، وكثرة الأنفاق على المجاهدين ضد الكرج ٠ ولما عرف السلطان هذا الأمر تجاوز عن المال المطلوب من أزبك، وأرسل الى الكرج يحذرهم من الاعتداء على أذربيجان باعتبارها أصبحت من أملاكه الخاصة(١٠٧) ٠

---

(١٠٤) نفس المصدر ، ورقة ٦٤٤ ٠

(١٠٥) هو سعد الاول بن زنكى تولى أمر اتابكية فارس من أسرة بنى سلغر فى سنة ٥٩٩ هـ وأسره خوارزمشاه سنة ٦١٢ هـ وأعاده عاملا على بلاد فارس ، وكانت علاقاته طيبة مع جلال الدين منكبرتى زعيم الخوارزميين انظر : زامباور ، معجم الأنساب ، ص ٣٥٠ ٠

(١٠٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٣١٣ ؛ الجوينى ، تاريخ جهانكشاى ، جـ٢ ، ص ٨ ؛ حافظ حمدى ، الدولة الخوارزمية ، ص ٤٧ ٠

(١٠٧) النسوى ، سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٥٨ ؛ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ١٢٨ ؛ فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ، جـ١ ، ص ٧١ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٩٣ ٠

وهكذا تعتبر هذه الخطوة نقطة تحول فى تاريخ أتابكية اذربيجان لم يسبق لها مثيل من قبل فى اعلان الطاعة للخوارزمين ٠ ولا يخرج ذلك عن كونه تعبيراً عن قوة طموح علاء الدين محمد خوارزمشاه ، الذى كان قد قضى على الغوريين(١٠٨) هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فقد ساعد علىذلك ضعف أزبك،اذ سلك مسلكأخيه فى ادمان الشرب والانهماك فى ملاذه حتى تمكن الكرج والمغول من الاستيلاء على معظم أملاكه ٠



ولم يقف تدهور أتابكة أذربيجان عند هذا الحد مناقتطاع أراضيها، وخصوصا تلك التى ببلاد الجبل والرى وهمذان وآران على يد الكرج او الخوارزميين ، بل ظهر على المسرح عدو جديد (المغول) اجتاح المشرق بكامله ٠ ذلك أنه حدث سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م أن وصلت جموع هذا العدو الى أذربيجان٠وعندما اقتربو من تبريز التى كان بها أزبك فانه « لم يخرج اليهم ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصـــدده من أدمان الشرب ليلا ونهاراً » وارســـل اليهم الأموال والدواب والهـــدايا ، فلم يتعرضوا لبلاده واتجهوا الىموقان(١٠٩)على ساحل بحر قزوين(١١٠)٠

ويبدو أن المغول قنعوا مؤقتاً بما حصـلوا عليه من هدايا وتحف من أزبك،فاتجهوا صوب بلاد الكرج ، وقد انضم اليهم أحد مماليك أزبك ويسمى أقوش ، وساروا حتى وصلوا قرب تفليس بعد أن هزموا الكرج بزعامة ملكهم جورج لاشا الرابع George IV (٦٠٩ - ٦١٩هـ/١٢١٢ - ١٢٢٣م) فى نهاية سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م(١١١) ٠

---

(١٠٨) لمعرفة كيفية القضاء على الغوريين انظر : عبد المعطى الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص ٦٣ - ٦٥ ٠

(١٠٩) موقان : ولاية عظيمة بأذربيجان بين أردبيل وتبريز،ويوجد بموقان عدد من القرى الجبلية ، انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٢٢٥ ٠

(١١٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ؛ انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٤٧ ؛ الذهبى ، المختار ، ص ١٠٠ ؛ عصام عبد الرؤوف ، الدول الاسلامية المستقلة ، ص ٢٦٥ ٠

(١١١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٩ ؛ ابن واصل ، مفـــرج =

ولم يتوقف المغول عند هذا الحد بل تمكنوا فى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م من الاستيلاء على مراغه ،وتابعوا سيرهم حتى وصلوا حدود العراق بعد الاستيلاء على همذان • ومن همذان سار المغول مرة ثانية الى أذربيجان واتجهوا صوب تبريز التى كانت تحت حكم شمس الدين الطغرائى(١١٢) بعد أن هرب منها ازبك الى نخجوان • ولما عرف الاهالى بهرب اميرهم افتدوا أنفسهم بأموال كثيرة ، وتركوها وتوجهوا الى بيلقان سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م • وبعد الاستيلاء عليها وقتل معظم أهلهـــا توجهوا الى كنجه « وهى أم بلاد أران » ولكنهم عدلوا عنها بسبب معرفتهم بقوة أهلها وشدة مراسهم على الحرب وقبلوا من أهلها « المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فســـاروا عنهم »(١١٣) • ونتيجة للضعف الذى أصاب حكام أذربيجان من أسرة ايلدكز فضلا عن الكرج على يد المغول ، فان الكرج لم يستكينوا لهذا الوضع بل قاموا فى سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م بهجوم على آران، وتمكنوا من دخول بيلقان التى لم يكن أهلها علىاستعداد لمحاربة الكرج، فأعملوا فيهم السيف • هذا فى الوقت الذى كان ازبك قابعا فى تبريز « لا يتحرك فى اصلاح ولا يتجه لخير بل قنع بالأكل والشرب والنساء فقبحه الله ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم »(١١٤) •

وعلى الرغم من هذه الأخطار المحدقة بالمسلمين من جانب المغول والكرج فى الشرق والصليبيين فى الشام ، فان نزاعاتهم الاقليمية العنيفة لم تنقطع • ففى سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م قام صاحب الموصــــل بدر الدين

=

الكروب ، جـ ٤ ، ص ٥٣ ، حافظ حمدى ، الدولة الخوارزمية ، ص ٥٦ : رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص ٤٢٦ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٥٢٧ •

(١١٢) شمس الدين الغرائى : لم أقف له على ترجمة •

(١١٣) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٥ ، ص ٤٢٤ ؛ انظر : ابن الأثير ، الكامل، الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٤٨ ـ ٥٤ •

(١١٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٤٩ ؛ انظر : الغسانى ، العســـجد المسبوك ، جـ٣ ، ص ٢٩٢ ؛ عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٨٥ •

لؤلؤ(١١٥) بالاستيلاء على قلعة شوش(١١٦) ، وأجبر صاحبها - عماد الدين زنكى بن نور الدين أرسلان شاه - على التوجه الى أزبك بن البهلوان لطلب النجدة منه. على انه لم يجد منه مساعدة للعودة الى بلاده « فبقى عنده ولم يعد الى الموصل »(١١٧) . واستمراراً للضعف والخذلان الذى أصاب أزبك فانه فى سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م ، وحينما وصل المغول الى تبريز لم يسع الى المحافظة على المسلمين الخوارزميين الذين لجاوا اليه ، بل قتل كثيراً منهم واسر البعض وسلمهم مع جملة من الهدايا الى المغول الذين هاجموا بلاده ، فعدلوا عنه « وعادوا عن بلاده نحو خراسان »(١١٨).وان دل هذا على شىء فانما يدل على ضعف وهوان المسلمين بعضهم على بعض . ولم يعد فى مقدور ازبك بن البهلوان الدفاع عن بلاده، لا من المغول ولا من الكرج الذين كانوا قد استغلوا هذهالأوضاع المتردية فقاموا فى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وتوجهوا الى كنجه الا أن أهلها تمكنوا من الدفاع عنها ، واعادوا الكرج من حيث أتوا . على أن الكرج تمادوا فى غيهم تجاه المسلمين فخرجوا مرة أخرى فى عهد الملكة روسودان Roussoudan (١٢٢٣ - ١٢٤٨م) من تفليس الى بلاد ازبك بأذربيجان . ولكن المسلمين تمكنوا من هزيمة الكرج فى أحد المضايق ، وانزلوا بهم هزيمة ساحقة(١١٩).

---

(١١٥) بدر الدين لؤلؤ : الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الاتابكى . صاحب الموصل توفى عن عمر يناهز الثمانين ، حكم الموصل ، حوالى خمسين سنة . وقام من بعده ابنه الصالح اسماعيل وكانت وفاته سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م . انظر : ابن العماد الحنبلى . شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص ٢٨٩ .

(١١٦) قلعة شوش : قلعة عظيمة العلو قرب عقر الحميدية ، من أعمال الموصل . ياقوت . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٣٧٢ .

(١١٧) المولوى . صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ب .

(١١٨) ابن الاثير . الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٥٣ ؛ عصام الدين عبد الرؤوف . الدول الاسلامية المستقلة فى الشرق ، ص ٢٦٥ .

(١١٩) الاصفهانى . البستان الجامع ، ورقة ١٩٠ ب ؛ ابن الاثير . الكامل ، جـ٩. ص ٣٥٥ - ٣٥٧ . وقد ذكر العينى أن ملكة الكرج روسودان قامت بعد وفاة زوجها وتزوجت من مغيث الدين طغرل شاه ابن صاحب أرزن الروم . العينى . عقد الجمان . جـ ٢٥ ، ص ٤٣٨ .

وعلى الرغم من أن المسلمين هزموا الكرج فى محاولتهم الأخيرة للاستيلاء على أذربيجان فان ابن الأثير صور حالة زعماء المسلمين وما اصابهم على يد الكرج والتتار فى تلك الآونة ، وما كان عليه حالهم من الخذلان فقال : ان ملوك المسلمين لا تتعدى همة الكثير منهم بطنه وفرجه(١٢٠) .

وعلى الرغم من أن القوى المتصارعة بفارس وأذربيجان فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، لم تحدد ايا منها يمكن ان تكون لها السيادة المطلقة على بقية القوى فان قوة المغول كانت هى القوة التى استولت على أكبر مساحة جغرافية من فارس والعراق وارمينية واذربيجان.على ان قوتهم لم تتخذ لها مركزا سياسا تنطلق منه الى بقية المراكز ، فلا هم لهم الا التخريب والتدمير ثم الرحيل ، ولما كان الخوارزميون اكبر القوى الاسلامية التى تعرضت للضربات الموجعة والمفجعة من بين جميع القوى ، فقد أفرز هذا الضغط المغولى زعامة اسلامية جديدة ممثلة فى شخصية جلال الدين منكبرتى(١٢١) ،وما بقى معه من القوات الخوارزمية المشردة . ذلك أنه ركز همه على تجميع وحدة المسلمين فى الجنوب الشرقى والجنوب الغربى من ايران بعد عودته من الهند سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ولم تات سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م حتى أصبحت قوة جلال الدين القوة الضاربة فى فارس وأذربيجان والعراق العجمى(١٢٢) .

ولما كان جلال الدين منكبرتى يطمع فى توحيد القوى الاسلامية فانه تمكن فى سنة ٦٢٣/١٢٢٦م من الاستيلاء على مراغه وتبريز وكنجه بعد أن هرب الأتابك أزبك بن البهلوان تاركاً زوجته وافراد اسرته

---

(١٢٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٣٦ .

(١٢١) جلال الدين منكبرتى : محمود علاء الدين محمد خوارزمشاه ، على يد جده زالت الدولة السلجوقية ، ولاه والده ولاية العهد بعد الغزو المغولى للدولة الخوارزمية.انتصر على المغول فى معركة بيروان سنة ٦٢٠هـ . تمكن احد فلاحى خلاط من قتله غيلة سنة ٦٢٨هـ . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٢.

(١٢٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٣٥٧ ؛ العرينى ، المغول ، ص ١٦٩ .

بتبريز . ومن تبريز نقل جلال الدين منكبرتى زوجة أزبك الى قلعة خوى معززة مكرمة(١٢٣) .

وفى تبريز أحسن جلال الدين منكبرتى الى سكانها ، ووعدهم بأخذ الثار م نالكرج الذين لم تنقطع غاراتهم على المسلمين . ولم يقف عند هذا الحد بل خرج الى بلادهم وانزل بهم هزيمة ساحقة،واستولى على عاصمتهم تفليس . ولكنه لم يقم فى بلادهم بل عاد الى تبريز حيث بلغه ان سكانها حاولوا التعاون مع أنصار ازبك وانتقم ممن كان وراء هـذا التدبير ، وتزوج من زوجة أزبك بعد أن ثبت لديه طلاقها من زوجها السابق ، وأجبر أزبك على الاحتماء بقلعة كنجه(١٢٤) .

ولم تطل حياة أزبك بعد هذه الضربات المتلاحقة،فقد وافته منيته فى تلك السنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م بعد خمسة عشرة سنة أمضاها فى حـــكم اتابكية أذربيجان.وخلفه ولد له اسمه خاموس فتولى أمره مملوك لأبيه اسمه قراجه؛الا أن امر بنى ايلدكز كان قد انفرط.وبذلك انقرضت اتابكية أذربيجان من بنى ايلدكز(١٢٥) .



(١٢٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ٣٥٩ ؛ العرينى ، المغول ، ص ١٦٨ ؛ براون ، تاريخ الادب فى ايران ، ص ٥٧١ . وخوى : ويقال لها مدينة حسنة على نهر يجرى شمالا فيصب فى نهر ارس Arazes وهى ذات سور عظيم وبساتين كثيرة بها عين ماء حار ماؤها فى الشتاء بارد فى الصيف ، ويتبع المدينة اكثر من ثمانين قرية . انظر : ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(١٢٤) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩، ص ٣٦٠ ـ ٣٦٧ . جاء فى كتاب معجم الانساب لزامباور ، ص ٣٤٩ أن زوجة ازبك هى فلانة بنت طغرل بن ارسلان السلجوقى .

(١٢٥) المولوى ، صحائف الاخبـــــار ، ورقة ٦٤٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٣٦٧ .

الخــــاتمة

وبعد فانهذه دراسة متواضعة عن أتابكة أذربيجان من أسرة شمس اليدن ايلدكز التى امتد حكمها لأذربيجان وبلاد الجبـل فى الفترة من ٥٤١هـ حتى ٦٢٢هـ٠وقد تمكن زعماء هذه الأسرة من فرض سيطرتهم على البلاد السلجوقية وتحكموا فى أمر الدولة السلجوقية فترة زمنية ٠ كذلك تمكن زعماء هذه الأسرة من الوقوف فى وجه الـكرج الجورجان الذين كانوا يحاولون ما بين حين وآخر مد نفوذهم على بلاد الاسلا ٠ وقد أضحت فى دراستى لهذه الامارة العلاقات الايجابية والسلبية لهذه الأسرة مع القوى السياسية وغيرها فى فارس والعراق واقليم الجـــزيرة وارمينية ٠ وكيف أن زعماء هذه الأتابكية ذهب كثير من جهودهم فى حروب اقليمية ضيقة اكتشفها نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبى ، مما شجع الكرج على احتلال كثير من بلاد المسلمين ٠ وقد ادرك صلاح الدين عـــدم جدوى الدخول فى نزاع مع زعماء هذه الأتابكية التى قـــد تصرفه عن جهاد الصليبيين فى الشام ٠

ومما توصلت اليه فى دراسة هذا الموضوع بيان التحول فى ضعف هذه الأتابكية عقب وفاة محمد البهلوان وتمرد الرعايا والسلاطين السلاجقة على خلفائه ، الأمر الذى أدى الى أن استعان هؤلاء الخلفـــاء بقوى خارجية كالخلافة العباسية ، والدولة الخوارزمية والكرج أحيانا ٠ وكان لهذا التصرف من قبل بعض أفراد هذه الأسرة أثره فى ضياع هيبتهم امام خصومهم٠ثم ان الدراسة أوضحت تلك المواقف المعيبة لبعض زعماء هذه الأتابكية وانغماسهم فى الشراب واللهو وعدم الاستعداد لحماية مكاسب أسلافهم أو حتى القيام بفريضة الجهاد ضد الكرج ٠ وكانت حصيلة هذه المواقف السلبية من زعماء هذه الأسرة أن تعرضت أملاكهم الى طغيان الـــكرج واستبدادهم بالاستيلاء على معظم أراضيهم ٠ هذا فضلا عن عدم قـدرة هذه الأسرة على الوقوف والتصدى للمغول ولقوة جـــلال الدين منكبرتى زعيم الخوارزميين فيما بعد ، وهو الذى تمكن من القضاء على هـــذه الأتابكية وضم الى حوزته ما كان قد بقى فى أيديهم من أملاك سنة ٦٢٢هـ، ثم توج جهوده بالاستيلاء على تفليس من الكرج فيما بعد ٠

المصـــادر والمراجع

※ المخطـــوطات :

— الأصفهانى (محمد بن محمد صفى الدين الملقب عماد الدين الكاتب الأصفهانى ت ٥٩٧ ق/١٢٠١م) ٠
البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ٠
صورة بمركز البحث العلمى بجامعة أم القرى برقم ١٠٢٨

— الفارقى (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق الفارقى ، ٧٥٢هـ) ملخص تاريخ ميافارقين ٠ صورة بمركز البحث العلمى بجامعة ام القرى برقم ١٢٦٦ ٠

— المولوى (أحمد رده بن لطف الله المولوى الرومى ، ت ١١١٦هـ) صحائف الأخبار فى وقائع الأعصار ، صورة بمركز البحث بجامعة أم القرى تحت الرقم ١٠٤٢) ٠

※ المصادر المطبوعة :

— ابن الاثير (أبو الحسن بن ابى الكرم محمد بن عبد الكريم الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ)

١ ـ الكامل فى التاريخ ٩ أجزاء ، طبعة بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م٠

٢ ـ التاريخ الباهر ـ الدولة الاتابكية،تحقيق عبد القادر طليمات، ط ، القاهرة ٠

— ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو الحسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى ، ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٦ ، ط القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ٠

— ابن الجوزى (أبو الفرجة عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ت ٥٩٧هـ/١٠٢١م)

١ - فضائل القدس ، ط

٢ - المنتظم ، جـ١٠ ، ط بيروت .

- ابن حوقل : (أبو القاسم محمد بن على ، ت ق ٤ هـ) .
صورة الأرض ، ط القاهرة ، بدون تاريخ .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط بيروت ١٩٧٥م .

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ، ت ٦٨١هـ/١٢٨٤م) وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٩٧هـ .

- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر ، ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)
الجوهر الثمين ، تحقيق د. سعيد عاشور ، ط مكة .

- ابن الساعى (أبو طالب على بن أنجب المعروف بابن الساعى الخازن ، ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م)
الجامع المختصر جـ٩ ، تحقيق مصطفى جواد ، ط بغداد ١٣٥٣هـ.

- ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن مانع ت ٦٣٢هـ/١١٣٤م)
النوادر السلطانية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ، ١٣٨٤هـ) .

- ابن شداد (عزالدين أبى عبد الله محمد بن على بن ابراهيم الحلبى ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)
الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، جـ٣ ، ق٢ ، تحقيق يحيى عباره ، ط دمشق ١٩٧٨م .

- ابن ظافر الأزدى (جمال الدين أبى الحسن على بن ظافر بن الحسين بن غازى الحلبى ، ت ٦١٣هـ/١٢١٦م)
أخبار الدول المنقطعة ، تاريخ الدولة العباسية ، تحقيق محمد الزهرانى ، ط المدينة المنورة سنة ١٤٠٨هـ .

— ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج بن هارون ، المعروف ، بابن العبرى ت ٦٦٠هـ/١٢٨٦م) ٠
تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٩٥٨م ٠

— ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)
زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى دهان ، ط دمشق ١٣٧٠هـ/١٩٥١م ٠

— ابن الحنبلى (أبو الفرج عبد الحى بن على بن محمد ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٨ أجزاء ، ط بيروت ٠

— الغسانى (الملك الأشرف الغسانى ، ت ٨٠٣هـ)
العسجد المسبوك جزآن تحقيق ، شاكر عبد المنعم ، ط بغداد١٣٩٥هـ

— ابن القلانسى (أبو يعلى حمزه بن القلانسى ،ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)
ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨م ٠

— ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)
البداية والنهاية ١٢ جزء ، ط بيروت ١٩٦٦م ٠

— ابن واصل (جمال الدين بن محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ/١٣٩٨م)
مفرج الكروب ، جـ٢ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٥٣م والجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع ، ط القاهرة ، ١٩٧٢م ٠

— ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر بن أبى الفوارس ، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
تتمة المختصر ، تحقيق أحمد البدراوى ، ط بيروت ١٣٨٩هـ ٠

— أبو شامه (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)

١ - كتاب الروضتين فى أخبـــار الدولتين ، جزآن ، ط القاهرة ١٢٨٨هـ ٠

٢ - ذيل الروضتين ، نشر ومراجعة الســـيد عزت العطار ، ط بيروت ١٩٧٤م ٠

— أبو الفدا (الملك المؤيد بن عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)

المختصر فى أخبار البشر - ٣ أجزاء - بيروت ٠

— الأصفهانى (أبو عبد الله معاد الدين محمد بن بن حامد المشهور بالعماد الكاتب ، ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)

١ - الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمـــد صبح ، ط القاهرة ١٩٦٥م ٠

٢ - تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح النبزارى ، ط بيروت ١٩٧٨م ٠

— النسوى (نور الدين محمد بن أحمد بن محمد المنشى كان حيا سنة ٦٣٩هـ)

سيرة جلال الدين منكبرتى ، تحقيق حافظ حمـــدى ، ط القاهرة ١٩٥٣م ٠

* المراجع الحـــديثة :

— أحمد السعيد سليمان :

تاريخ الدول الاسلامية ومعجـــم الأسرات الحاكمة ، جزآن ، ط القاهرة ١٩٦٧م ٠

— بدرى محمد فهد :

تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ط بغداد ١٣٩٣هـ ٠

براون أدورد جرانفيل :

تاريخ الأدب فى ايران ، ترجمة ابراهيم الشواربى ، ط القاهرة ١٣٧٣هـ ٠

ـ حافظ حمـــدى :

١ ـ الدولة الخوارزمية ، ط القاهرة ، بدون تاريخ ٠

٢ ـ الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ط القاهرة ١٩٥٠م ٠

ـ حامد غنيم ابو سـعيد :

الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، جـ١ ، ط القاهرة ١٩٧١م ٠

ـ حسن ابراهيم حسـن :

تاريخ الاسلام السياسى ، جـ٤ ، ط القاهرة ١٩٦٧م ٠

ـ حسن أحمد محمود واحمد الشريف :

العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ط القاهرة ، بدون تاريخ ٠

ـ حسـن الباشـا :

الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ط القاهرة ١٩٨٣م ٠

ـ حسـنين ربيع :

دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ط القاهرة ، ١٩٨٣م ٠

ـ حسـين أمين :

تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ط بغداد ، ١٣٨٥هـ ٠

ـ حسين قاسم أمين :

البابكية أو انتفاضة الشعب الأذربيجانى ، ط بيروت ١٩٦٦م ٠

ـ حسـين مؤنس :

نور الدين محمود ، ط بيروت ١٤٠٨هـ ٠

ـ رنسيمان استفين :

تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ أجزاء ترجمة السيد الباز العرينى ، ط بيروت ١٩٦٧م ٠

ـ زامبـــاور :

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ط بيروت بدون تاريخ ٠

— سعد محمد حذيفة الغامدى :

١ - أوضاع الدول الاسلامية فى الشرق الاسـلامى ، ط مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ .

٢ - الدول الاسلامية فى الشرق الاسلامى ، ط مؤسسة الرساله .

— سـعيد عاشـور :

الحركة الصليبية جزآن ، ط القاهرة ١٩٧٦م .

— السيد الباز العرينى :

المغول ، ط القاهرة بدون ناريخ .

— صابر محمد دياب :

١ - آرمينية ، ط القاهرة ١٩٣٨هـ .

٢ - المسلمون وجهادهم ضد الروم ، ط القاهرة ١٤٠٤هـ .

— عبد الله سعيد الغامدى :

صلاح الدين والصليبيون ، ط بيروت ١٤٠٤هـ .

— عبد النعيم حسنين :

١ - سلاجقة ايران والعراق ، ط القاهرة ، ١٣٩٠هـ .

٢ - دولة السلاجقة ، ط القاهرة ١٣٩٥هـ .

— عصام الدين عبد الرؤوف :

١ - بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى ، ط القاهرة١٩٧٥م.

٢ - الدول الاسلامية المستقلة ، ط بيروت ، بدون تاريخ .

— عليـه الجنزورى :

امارة الرها الصليبية ، ط القاهره بدون تاريخ .

— على محمد الغامدى :

بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ط بيروت ١٤٠٤هـ .

— عفاف صـبره :

دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ط القاهرة ، ١٤٠٦هـ .

ـــ عماد الدين خليـــل :
عماد الدين زنكى ، ط بيروت ١٣٩١هـ ٠

ـــ فؤاد الصـــياد :
المغول فى التاريخ ، جـ١ ، ط بيروت ١٩٨٠م ٠

ـــ كى ليسـترنج :
بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة كوركيس عواد ، وبشير فرانسيس، ط بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ٠

ـــ محمد شيت خطاب :
أرمينية بلاد الروم ، ط بيروت ١٤١١هـ ٠

ـــ محمد صالح القزاز :
الحياة السياسية فى العراق فى العصر العباسى الأخير ، ط النجف، ١٣٩١هـ ٠

ـــ مريزن عسيرى :
الحياة العلمية فى العراق فى العصر السلجوقى ، ط مكة ١٤٠٧هـ ٠

ـــ مسفر سالم الغامدى :
الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الاسلامى ، ط جدة ١٤٠٦هـ ٠

بعض أضـــواء جـــديدة
على وظيفة
ناظر البيمارستان المنصورى

د٠ ليــلى عبد الجــواد(١)

يعتبر البيمارستان المنصــورى من أشــهر البيمارستانات(٢) التى اقيمت فى الدولة الاسلامية ، فضلا عن انه يعتبر ظاهرة حضارية مميزة لعصر سلاطين المماليك بوجه عام وعصر المنصور قلاوون (٦٧٨ ــ ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩ ــ ١٢٩٠م) بوجه خاص ٠

وقم أقام المنصور قلاوون هـــذا البيمارستان فى الدار القطبية(٣) بخط بين القصرين ؛ وكانت هذه الدار فى يد مؤنســـة خاتون ابنة الملك العادل ابى بكر بن أيوب ، حينما أرسل اليها المنصــور قلاوون الأمير علم الدين ســنجر الشجاعى(٤) ، ليشترى منها هذه الدار ٠ ويروى العينى أن مؤنسة خاتون لم تلتفت اليه ، وردته رداً جميلا ، فارســل اليها السلطان قلاوون الطواشى حسام الدين ، وعرفها ان السلطان يقصد

---

(١) استاذ مساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة ٠

(٢) البيمارستان او المارستان ويقال كذلك المرستان لفظ فارسى مركب من مقطعين (بيمار) بمعنى المريض (وستان) بمعنى محل أو مكان أو دار ، أى أن البيمارستان هو مستشفى لمعالجة جميع الأمراض ، ولكن بمرور الزمن اقتصر الاسم على المكان الذى يعد لاقامة المجانين ٠ انظر المقريزى السلوك ، جـ١ ، ق٣ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ص ٧١٦ ، حاشية ٦ ، أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٩م ، ص ٤ ٠ هذا ويذكر الخالدى أن البيمارســتان كلمــة فارسية تعنى بيت الضعيف ، أنظر المقصد الرفيع ، مخطوط ، ورقة ١٢٣ ٠

(٣) الدار القطبية تنسب الى الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العــادل أبى بكر بن أيوب ، انظر المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، م٢ ، ص٤٠٦ ٠

(٤) انظر ترجمة علم الدين سنجر الشجاعى فى : ابن تغرى بردى ، المنهل ، جـ٦ ، ص ٨٠ ــ ٨٣ ، النجوم ، جـ٨ ، ص ٥١ ــ ٥٢ ٠

أن يعمر هذه الدار مارستاناً ، ويقف عليه الأوقاف ؛ فقالت له : كما يروى العينى - « شيء يكون لنا فيه أجر ففيه السمع والطاعة ، أما لأجل السكنى فنحن أحق بالسكنى من غيرنا »(٥) .

ويتضح من رواية العينى ان مؤنسة خاتون قبلت بيع هذه الدار للسلطان طالما انه سيستغلها فى عمل خيرى ، رات فيه حسن الأجر والثواب .

وفى ١٨ ربيع الأول ٦٨٢هـ/١٧ يونيه ١٢٨٣م عهد السلطان المنصور قلاوون الى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بالاشراف على عمارة هذه الدار لتكون مارستانا فاظهر الاهتمام والاحتفال بما لم يسمع بمثله ، وتممه فى مدة يسيرة ، اذ اكتملت عمارة البيمارستان فى ربيع الآخر / يونيه من العام التالى (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) أى أن عمارته لم تستغرق سوى أحد عشر شهراً(٦) .

وافتتح السلطان المنصور قلاوون هذا البيمارستان فى حفل مشهود حيث جلس به ومعه الأمراء والقضاة والعلماء . ويحدثنا النويرى عن مراسيم هذا الاحتفال فيذكر ان بعضا ممن شهد الحفل أخبره بأن السلطان استدعى قدحاً من الشراب فشربه ، ثم قال [قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى]. وأوقفه السلطان على الملك والمملوك والجندى والأمير ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكر والانثى(٧) . وجاء هذا

---

(٥) العينى ، عقد الجمان ، حـ٢ ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٩٠م ، ص ٢٥٧ .

(٦) المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، م٢ ، ص ٤٠٦ ، السلوك ، جـ١ ، ق٣ ، ص ٧١٦ - ٧١٧ ، النويرى نهاية الارب ، حـ٣١ ، تحقيق السيد الباز العرينى ، ص ١٠٦ ، القاهرة ١٩٩٢م ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م٧ ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٤٢م ، ص ٢٧٨ ، العينى ، عقد الجمان ، حـ٢ ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٨م ، ص ٣٢٦ ، وانظر ايضا : أحمد عيسى تاريخ البيمارستانات ص ٨٥ ، محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ١٥٨ ، ١٥٩.

(٧) النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، وانظر ايضا المقريزى المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٦ ، ابن الفرات ، م٨ ، ص ٩ ، وانظر كذلك أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٨٦ .

اعلاناً صريحاً من السلطان المنصور بأباحة استخدام البيمارستان لجميع الطبقات،العليا منها والدنيا،دون تفرقة بين غنى وفقير أو رجل وامرأة.

وقد نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون المؤرخة فى ١٢ صفره/١٠ ابريل ١٢٨٦م(٨) على ذلك اذ جاء فيها : « وهـــذا البيمارستان الذى وقفه مولانا السلطان المنصور قلاوون ... لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنســاء من الأغنيــاء المثرين والفقــراء المحتاجين بالقاهرة ومصر وضواحيها...على اختلافأجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم..»(٩).

وأوقف السلطان المنصـــور قلاوون الكثير من املاكه للصرف على مصالح البيمارستان ، حتى يضـــمن له الاستمرار فى أداء مهمته وتحقيق الغرض الذى انشا من أجله . وكانت هذه المخصصات تشمل رباعاً(١٠) وبساتين وقياسر(١١)وحوانيت وحمامات واحكاراً ، وغير ذلك من ضياع الشام وما يتحصل من أجر ذلك وريعه وغلاته فى كل شهر(١٢) .

أما عن تفاصيل هذه الأوقاف فقد وردت فى وثيقتى وقف المنصور

---

(٨) قام بنشر هذه الوثيقة أ.د. محمد محمد أمين وأوردها فى ملاحق كتاب ابن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، الجزء الاول ، والذى قام بتحقيقه كذلك القاهرة ١٩٧٦م .

(٩) انظر نص الوثيقة فى تذكرة النبيه ، حـ١ ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

(١٠) رباع ومفردها ربع ويقصد به فى العمارة فى العصر المملوكى مبنى به مجموعات من الوحدات السكنية وغالبا تعلو خان أو وكالة أو حوانيت ، وكل مجموعة من الوحدات السكنية لها مدخل وسلم خاص بها ربع ، أى من الممكن أن يكون بالمبنى الواحد أكثر منربع . انظر : محمد محمد أمين وليلى على ابراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، مصر ١٩٩٠م ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(١١) قياسر مفردها قيسارية وهى وحدة معمارية تشبه سوقا مستقلا ، تحيط بها من الخارج حوانيت وفى الداخل صحن داخلى تحيط به حوانيت أيضا وحواصل، ويكون لها عدة مداخل ، وتعلوها وحدات سكنية يسكنها فى الغالب الصناع الذين يبيعون انتاجهم بالحوانيت .

انظر محمد محمد أمين وليلى ابراهيم ، المصطلحات المعمارية ، ص ٩٢ .

(١٢) المقريزى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٦ ، ابن الفرات ، م٨ ، ص ٩ ، بيروت ١٩٣٩م ، وانظر أيضا أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٨٥.

قلاوون المؤرختين فى ١٢ صفر/١٠ ابريل ، ٢١ صفر/١٩ ابريل عـــام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م(١٣) على النحو التالى :

الرباع ومنها «الربع الكامل المعروف بالعلمى أرضا وبناء،الذى هو بالقاهرة المحروسة بالقرب من قيسارية جهاركس ٠٠٠٠ ويشتمل هذا الربع على ثلاث فرجات ٠٠٠ وعدة حوانيت ٠٠٠٠ »(١٤) ٠

ومن البساتين تذكر وثيقة قلاوون « جميع البستان المعروف بظاهر القاهرة المحروسة خارج باب الشعرية والفتـــوح ٠٠٠٠ ومساحته احـــد وعشرون فدانا وربع فدان وسدس فدان وثمن فدان ٠٠٠ »(١٥) ٠

اما القياسر فمنها جميع القيسارية التى بالقاهرة المحروسة بأول بين القصرين ٠٠٠ وتشتمل على حوانيت ٠٠٠ وجمـــلة ما فى القيارسية من الحوانيت بطنا وظهرا ثلاثة وستون حانوتا واربعة مقاعد ٠٠٠ »(١٦) وقيسارية أخرى بالقاهرة المحروســـة بين القصرين التى سفلها حوانيت وعلوها دسترقات ٠٠٠(١٧) وبباطن هذه القيسارية حوانيت عدتها ستة وثلاثون حانوتا ٠٠٠(١٨) ٠ وقيسارية ثالثة تقع بجوار الحمام المعروف بحمام البياطرة ٠٠٠ وتشـــتمل على حوانيت متجاورة ومتقابلة عدتها اثنان وخمسون حانوتا ٠٠ »(١٩) ٠

ومن الحمامات : جميع الحمام الواقع بجوار المصنع المعلق (اى

---

(١٣) قام بنشر هاتين الوثيقتين د٠ محمد محمد أمين ٠ انظر ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، حـ١ ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ٠

(١٤) لمزيد من التفاصيل عن محتويات هذا الربع انظر وثيقة وقف المنصـــور قلاوون فى تذكرة النبيه ، حـ١ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠ ٠

(١٥) وثائق المنصور قلاوون ، ص ٢٣٨ ـ ٢٤١ ٠

(١٦) وثائق المنصور قلاوون ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ ٠

(١٧) مسترقات مفردها مسترقة وهى عبارة عن خزانة توجد فى مكان بين أدوار المبنى وهى التى نسميها الآن المسروقة ٠ انظر محمد محمد أمين وليلى ابراهيم، المصطلحات المعمارية ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ٠

(١٨) وثائق وقف المنصور قلاوون ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ ٠

(١٩) وثائق وقف المنصور قلاوون ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ٠

حوض خزن المياه)(٢٠) ، وكذلك جميع الحمامين المتجاورين بالقاهرة المحروسة بخط الخرنشف(٢١) وأسطبل الجميزة(٢٢) ٠

وقد قدر ابن عبد الظاهر الدخل السنوى الذى كان يتوافر من ريع هذه الأوقاف المتعددة التى شملها كتاب وقف المنصور قلاوون على مصالح البيمارستان ، فقال : « كانت أوقاف البيمارستان تشتمل فى كل سنة على ستين الف دينار »(٢٣) ٠ فى حين قدر المقريزى هذا الدخل بالدرهم فقال : « انه كان يتوافر من جملة الأملاك الموقوفة على البيمارستان فى مصر وغيرها ما يقارب الف الف درهم فى السنة »(٢٤) ٠

وتحدث ابن شاهين الظاهرى عن كيفية توزيع هذا الريع فذكر ان المنصور قلاوون قرر وقفه فى كل سنة أربعين الف مثقال ذهب ، وأفرد من ذلك بعمارته وخدامه أربعة آلاف ، وقرر مصروفه فى كل يوم مائة مثقال(٢٥) ٠

والى جانب أوقاف المنصور قلاوون على مصالح البيمارستان المنصورى كانت هناك أوقافاً أخرى من أمثلتها وقف السيدة جانم عتيقة الجمالى يوسف وزوجة الأمير يشبك خازندار الملك المنصور قلاوون ، اذ توجد وثيقة وقف أخرى مثبتة بالهامش الأيمن لوثيقة السلطان المنصور قلاوون المؤرخة فى عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ، وهذه الوثيقة باسم السيدة

---

(٢٠) عن المصنع انظر محمد محمد أمين وليلى ابراهيم المصطلحات المعمارية . ص ١٠٨ ٠

(٢١) خط الخرنشف يقع بين حارة برجوان والكافورى ٠ وعنه انظر المقريزى . المواعظ ، م٢ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠

(٢٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحمامات انظر وثائق المنصور قلاوون ، ص ٣٥٣ . أما عن اسطبل الجميزة فيقع بجوار القصر الغربى الفاطمى . وعرف بهذا الاسم لوجود شجرة جميز كبيرة فى وسطه . انظر المقريزى، المواعظ ، حـ١،ص٤٦٤ ٠

(٢٣) نقلاً عن ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ق١ ، ص ٣٥٣ ٠

(٢٤) المقريزى ، المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٦ ٠

(٢٥) ابن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، تحقيق بولس روايس ، باريس ١٨٩٤م ، ص ٣٩ ٠

جانم(٢٦) . وتنص على ايقاف « مائة وثمانية وستون فـــدانا بناحية اطفيح ، وقد أوقفت السيدة المذكورة ثلث ربع هذا الوقف على مصالح تربتها...أما ثلثى ربع هذه الأراضى فقد أوقفتها على مصالح البيمارستان المنصورى المحددة فى كتاب وقفه على مصالح المرضى به وأرباب وظائفه طبقا لشروط الواقف »(٢٧) .

واهتم عدد من السلاطين بعد المنصور قلاوون بوقف الأوقاف على مصالح البيمارستان المنصورى أســـوة بالسلطان المنصـــور . ومن هؤلاء المنصور حاجى آخر أحفاد قلاوون فقد أصـــدر مرسوماً مؤرخاً فى ١٧ ذى الحجة سنة ٧٩١هـ/٨ ديسمبر ١٣٨٨م ونصه : « برز المرسوم الشريف السلطانى الملكى المنصورى خلد الله ملكه ان ينعم على مستحقى ريع وقف البيمارستان المنصورى ما يخص بيت المال السلطانى من ارث من يتوفى من أرباب وظائفه ومباشريه وسكان أوقافه ... نعمة مستمرة على الدوام والاستمرار لا يتغير حكمها ولا يندرس رسمها ، ولعنـة اللـــه على من يسعى فى تبديله أو ابطاله ، فمن بدله بعد ما سمعه فأنما اثمه على الذين يبدلونه »(٢٨) .

وخصص السلطان الاشرف برسباى كذلك فى جمادى الأولى ٨٣٤هـ/ يناير١٤٣٠م ثلث ربع ناحية كنيسة سردوس(٢٨) على مصالح البيمارستان

---

(٢٦) وهى وثيقة رقم ٧٠٦ جديد أوقاف ، وقد قام بنشرها محمد سيف ، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك . رسالة دكتوراة غير منشورة ، آداب سوهاج ١٩٨٠م ، ص ١٣٨ ، ص ١٠٤ .

(٢٧) محمد سيف ، منشآت الرعاية الاجتماعية ، ص ١٣٨ .

(٢٨) انظر

Van Berchem : Materiaux pour Un Corpus Inscriptorum Arabicarum, P.1, p. 134 — Egypt, Paris,1903

وانظر أيضا محمد سيف ، منشآت ، ص ٨٧ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار ، القاهرة ١٩٦٦م ، حـ٣ ، ص ١٢١٧ .

(٢٩) سردوس قرية تابعة لبلدة دسوق بالغربية ، وتقع شمالها بنحو خمســـة كيلو مترات ونصف .

المنصورى،وذلك فى وثيقة وقفه المسجلة بواجهة خانقاته بالصحراء(٣٠).

كذلك أوقف طبيب العظام الشهير (المجبر) أبو زكريا يحيى بن موسى فى عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م عدة أوقاف على البيمارستان المنصورى ، ومنها ما يقع خارج باب زويلة وهى عبارة عن قاعة واسطبل ومطبخ ، وقاعة اخرى كبيرة ومنافع وحقوق . وقد جعل أبو زكريا ريع هذه الأوقاف ثلاثة اثلاث ، ثلث للبيمارستان المنصورى ، وثلث للحرم المكى، وثلث لمدينة طيبة الشريفة (أى المدينة لمنورة) . وفى حالة تعذر صرف ريع هذه الأوقاف على فقراء ومساكين الحرمين الشريفين ، يؤول الريع الى البيمارستان المنصورى(٣١) .

وأوقف الطبيب أبو زكريا أيضا أوقافا أخرى خارج القاهرة المحروسة وعند باب الفتوح وباب الشعرية ، ومنها الدار الواقعة بزقاق الكحل ، واشترط أبو زكريا ان يقسم ريع هذه الأوقاف بالسوية بين البيمارستان المنصورى وبين الخانقاه الصلاحية بدار سعيد السعداء .واذا تعذر الصرف على الخانقاة ، ينقل الريع الى البيمارستان المنصورى . كذلك اشترط أبو زكريا مشاركة ناظر البيمارستان المنصورى والخانقاة الصلاحية لناظر وقفه(٣٢) .

يتضح مما سبق أن البيمارستان المنصورى كانت له أوقاف عديدة منذ نشأته وطيلة عصر سلاطين المماليك . وطبقا لنظام الوقف الاسلامى كان لكل وقف ناظر ، يتولى ادارة شئونه ورعاية مصالحه . وجرت العادة فى العصر المملوكى أن يتولى الواقف النظر فى أوقافه اثناء حياته ، ثم يعهد بذلك من بعده لأولاده وذريته أو لمن يعينهم من الأمراء الذين يخلفونه فى وظيفته ، أو الشيوخ أو القضاة.وربما قد يكون النظر مشاركة

---

(٣٠) Van Berchem, I, p.p. 369-370
وانظر أيضا محمد سيف ، منشآت ، ص ١٠٥ .

(٣١) انظر وثيقة وقف الطبيب أبو زكريا ، محفظة ٢٤ حجة ١٥٤ (وثائق محكمة الاحوال الشخصية والولاية على النفس) .

(٣٢) انظر وثيقة وقف الطبيب أبو زكريا .

بين أحد الأمراء بحكم منصبه أو أبناء الواقف أو عتقائه(٣٣) ٠

وفيما يختص بالبيمارستان المنصورى نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون المؤرخة فى ٢١ صفر سنة ٦٨٥هـ على « ان السلطان المنصور قلاوون جعل النظر فى هذا الوقف والولاية عليه لنفسه الشريفة ٠٠٠ أيام حياته ٠٠٠ ثم من بعده ٠٠٠ للأمثل فالأمثل من أولاده وأولاد أولاده ان سفلوا ، ثم الأمثل فالأمثل من عتقائه،ثم لحاكم المسلمين الشافعى المذهب بالقاهرة ومصر المحروستين ، فان لم يكن فللحاكم على أى مذهب كان »(٣٤) ٠

وهكذا فان السلطان المنصور كان هو الناظر على البيمارستان المنصورى وأوقافه ٠ غير أن مشاغله الكثيرة كانت تجعل من الصعب عليه مباشرة النظر على هذا البيمارستان وأوقافه بنفسه ،لذلك كان يلجا الى تعيين نائب عنه ، وقد نصت الوثيقة على ذلك اذ جاء فيها « وله ان يستنيب عنه فى ذلك ان شاء »(٣٥) ٠ ولذلك وكل السلطان المنصور الأمير عز الدين ايبك الافرم الصالحى أمير جندار(٣٦) فى النظر على ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم(٣٧) ٠ وورد ذلك مفصلا فى وثيقة وقف المنصور قلاوون المؤرخة فى ١٢ صفر ٦٨٥هـ اذ نصت على : « فتقدم أمره الشريف العالى٠٠ الى ولى دولته ٠٠ والمتشرف بخدمته والمخصوص فى هذا الوقف بوكالته ، الجناب الأميرى الأجلى ٠٠ أبى سعيد ايبك بن عبد الله الملكى الصالحى النجمى المعروف بالافرم

---

(٣٣) انظر وثيقة وقف الامير اخور كبير قراقجا الحسنى ، دراسة ونشر وتحقيق عبد اللطيف ابراهيم ، بحث منشور بمجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، م ١٨ ، حـ٢ ، دسمبر ١٩٥٦م ، ص ٣٠٤ ٠

(٣٤) انظر نص وثائق المنصور قلاوون فى ملاحق ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، حـ١ ، ص ٣٩٢ ، ٣٦٩ ٠

(٣٥) انظر وثيقة قلاوون ، ص ٣٩٢ ٠

(٣٦) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، حـ٣ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٢ ، النجوم ، حـ١ ، ص ٨٠ ـ ٨١ ، العينى ، عقد الجمان ، حـ٣ ، ص ٢٢٨ ـ ٢٣٩٠

(٣٧) المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، م٢ ص ٤٠٧ ٠

أمير جاندار الملكى المنصورى السيفى ... ان يقف عنه .. ويحبس ويسبل جميع ما هو جار فى ملك السلطان الملك المنصور »(٣٨) .

ومن الواضح أن اختيار السلطان المنصور قلاوون وقع على واحد من كبار الأمراء بالديار المصرية ، ممن يحتلون مكانة كبيرة عنده ليوليه النظر على أوقاف البيمارستان المنصورى نيابة عنه . وقد عبر القلقشندى عن هذا الاختيار فى عبارة نصها : « ويتولى النظر فيها عادة من العسكريين أكبر الأمراء بالديار المصرية »(٣٩) .

وبعد وفاة السلطان المنصور قلاوون فى ٦٨٩هـ/١٢٩٠م كان من الطبيعى أن يخلفه ابناؤه فى نظر البيمارستان المنصورى طبقا لنص وثائق وقف المنصور قلاوون نفسه ، غير أن المصادر لم تذكر شيئا عن ذلك خلال سلطنة الاشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣م) بينما تذكر المصادر أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ولى - الأمير جمال الدين أقوش بن عبد الله الاشرفى(٤٠) - نظر هذا البيمارستان فى جمادى الآخرة ٧٢٣هـ/يونيه ١٩٢٣م وذلك كنائب عنه . وكان هذا الأمير يجلس رأس الميمنة ، ويقوم له السلطان ، واذا دخل ميزة عن غيره(٤١) . وهذا يعنى أن من ينوب عن السلطان فى نظر البيمارستان المنصورى كان على درجة من سمو المكانة بحيث يجلس رأس الميمنة فى حضرة السلطان .

وبعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون ارتقى عرش السلطنة ابنه المنصور أبى بكر فى (٧٤٢هـ/١٣٤٢م) وعين فى عهده الأمير جنكلى بن البابا(٤٢) ناظرالبيمارستان المنصورى بالنيابة فى ٣ صفر ٧٤٣هـ/ ٩

---

(٣٨) انظر وثيقة وقف المنصور قلاوون ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٣٩) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٤ ، ص ٣٨ .

(٤٠) من مماليك الاشرف خليل ، ولى نيابة الكرك ، فنيابة دمشق ، وتوفى فى ٧٣٦هـ/١٣٣٥م ، انظر ترجمته فى المنهل الصافى ، جـ٣ ، ص ٢٧ - ٣٠ .

(٤١) ابن تغرى بردى ، المنهل ، جـ٣ ، ص ٢٧ .

(٤٢) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل ، جـ٥ ، ص ٢٢ - ٢٤ ، النجوم

يوليو ١٣٤٢م • فجلس هذا الأمير بدوره رأس الميمنة كعادة من يلى هذا المنصب(٤٣) •

ومن المعروف أنه خلال عصر أبنـــاء الناصر محمـــد وأحفاده كان السلاطين صغاراً ضعافاً ، ولذلك تولى أمرهم اتابكة العساكر ، وأصبح هؤلاء هم المتحكمون فى البلاد ،وصاروا القائمين بأمورها مقام السلاطين، لذلك آلت اليهم وظيفة نيابة نظر البيمارستان المنصورى• يذكر القلقشندى فى هذا الصدد « ويكون نظر البيمارستان المنصورى بالقاهرة مع اتابك العساكر »(٤٤) • وعلى سبيل المثال حدث خلال سلطنة الاشرف شعبان الثانية (٧٦٨ ـ ٧٧٨هـ/١٣٦٦ ـ ١٣٧٦م) أن تولى عدد من الأتابكة نيابة نظر البيمارستان المنصورى ، ومن هؤلاء منكلى بغا الشمسى(٤٥) (فى رجب ٧٦٩/فبراير ١٣٦٨م)(٤٦) ثم الجاى اليوسفى(٤٧) فى (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) وخلفه بعد وفاته (١٠ محـــرم ٧٧٥هـ/٣ يوليـــو ١٣٧٣م) أيدمـــر الشـــمسى(٤٨) فى الأتابكية ونظـــر البيمارستان المنصورى(٤٩) •

كذلك تولى عدد من الاتابكة نيابة نظر البيمارستان المنصورى فى عهد المنصور على بن الاشرف شعبان (٧٧٨ ـ ٧٨٣هـ/١٣٧٦ ـ ١٣٨١م)

حـ١٠ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، حـ٢ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، الصفدى، أعيان العصر وأعوان النصر ، مخطوط ، حـ١ ، ورقة ٣٠٠ ـ ٣٠١ •

(٤٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٠ ، ص ١٤٤ •

(٤٤) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٤ ، ص ١٨٤ •

(٤٥) انظر ترجمته فى الدرر الكامنة ، حـ٥ ، ص ١٢٧ ، المنهل ، حـ٦ ، ص ٢٢٧ ، النجوم ، حـ ١١ ، ص ٤٩ ، ١٢٤ ـ ١٢٥ •

(٤٦) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ١٥٧ •

(٤٧) انظر ترجمته فى المنهل ، حـ٣ ، ص ٤٠ ـ ٤٤ •

(٤٨) انظر ترجمته فى الـــدرر الكامنة ، حـ١ ، ص ٤٥٨ ، المنهـــل ، حـ٢ ، ص ١٧٧ ـ ١٧٩ •

(٤٩) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٢٣٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ق٢ ، ص ١٤٢ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، حـ٢ ، ص ٢٣٦ •

ومن هؤلاء الأمير قرطـــاى الطازى(٥٠) فى (المحـرم ٧٧٩هـ/مايو ١٣٧٧م) ثم خلفه الأمير اينبك البدرى(٥١) بعـــد وفاته فى (صـفر ٧٧٩هـ/يونيه ١٣٧٧م)(٥٢) ٠

ومع بداية عصر دولة المماليك الجراكسه وارتقاء السلطان الظاهر برقوق العرش فى (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) أصبح زمام الأمور فى يده لكونه سلطاناً رشيداً٠ لذلك تولى نظر البيمارستان المنصورى كناظر شرعى عملا بما جاءفى وثائق وقف المنصور قلاوون ، وخرج برقوق بنفسه لتفقـــد أحوال البيمارستان،فتذكر المصادر(٥٣) فى رجب من عام ٧٨٥هـ/١٣٨٣م ان السلطان برقوق نزل بالبيمارستان المنصورى ، وتفقد أحواله وعـــاد المرضى ، ووصاهم بالضعفاء وبالأوقاف والمستأجرات ٠ ثم ما لبث السلطان برقوق ان اناب عنه فى نظر البيمارستان المنصورى عدد من الاتابكة وذلك لكثرة مشاغله ، ومن هؤلاء الاتابكة : الأمير سيف الدين قرا دمرداش(٥٤) فى جمـــادى الأولى ٧٩١هـ/مايو١٣٨٩م(٥٥) ٠ والأمير ســيف الدين كمشبغا الكبير(٥٦) وذلك خلال سلطنة برقوق الثانية (٧٩٢ - ٨٠٢هـ/ ١٣٨٩ - ١٣٩٩م) ، وتحدث فيـــه كمشبغا على العادة(٥٧) ٠ وبعـــد

---

(٥٠) انظر ترجمة قرطاى فى ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ١ ، ص ٢٥٦ ٠

(٥١) انظر ترجمة اينبك البدرى فى المهنل ، حـ٣ ، ص ٢٢١ - ٢٢٤ ٠

(٥٢) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١١ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ق٢ ، ص ٢٠٣. ليلى عبد الجواد ، اتابك العساكر ، ص ٧٨ ٠

(٥٣) الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ١ ، ص ٧٤ ، ابن حجر ، انباء الغمـــر ، حـ٢ ، ص ١٣٤ ، النجوم ، حـ١١ ، ص ٢٣٥ ٠

(٥٤) انظر ترجمة قرا دمرداش فى ابن حجر ، الدرر ، حـ٣ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ٠

(٥٥) انظر ابن الفرات ، م٩ ، حـ١ ، ص ٧٤ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق٢، ص ٦٠٦ ٠

(٥٦)) انظر ترجمة كمشبغا فى السخاوى ، الضـــوء اللامع ، حـ٦ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ ٢٤ ، ص ٧٧ - ٧٩ ، محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى ، حـ ١ ، ص ١٧٨ - ١٨٠ ٠

(٥٧) المقريزى ، السلوك ، حـ ٣ ، ق٢ ، ص ٧٦٦ ، ابن الفرات ، م٩ ، حـ٢ ، ص ٣٠١ ٠

القبض على كمشبغا الحموى فى شعبان ٥٨٠٠هـ/نوفمبر ١٣٩٧م خلع السلطان على الأمير ايتمش البجاسى(٥٨) بأتابكية العساكر وباستقراره فى نظر البيمارستان المنصورى(٥٩) ٠

ومنذ ذلك التاريخ الذى تولى فيه ايتمش البجاسى اتابكية العساكر ونيابة نظر البيمارستان المنصورى (شعبان ٨٠٠هـ/نوفمبر ١٣٩٧م) استمرت نيابة نظر البيمارستان المنصورى مع كل من يلى الاتابكية بمصر، كما يذكر ابن تغرى بردى(٦٠) ٠ وبذلك جرى العرف على أن تكون ولاية نظرالبيمارستان المنصورى لاتابك العساكر بالديار المصرية ٠ ومع ذلك فقد اهتم السلاطين بالاشراف على البيمارستان المنصورى وبصفة خاصة فى فترة شغور الاتابكية ٠ ومن أمثلة هؤلاء السلطان المؤيد شيخ والسلطان برسباى ٠ ويذكر ابن حجر « ان السلطان مؤيد شيخ ركب هو وولده الأمير ابراهيم فى ١٦ جماده الأولى ٨٢١هـ/٢٢يونيه ١٤١٨م والأمراء ، ونزل الى البيمارستان المنصورى وهو بثياب جلوسه ، فزار المرضى ، وتفقد أحوالهم ، ثم دخل الى المجانين وتفقد أحوالهم كذلك »(٦١) ٠

أما عن السلطان برسباى فقد نزل من القلعة فى ربيع الآخر ٨٣٧هـ/ نوفمبر ١٤٣٣م بعد الخدمة ، وصحبته القاضى عبد الباسط ناظر الجيش والكمال ابن البارزى كاتب السر ، والتاج الشويكى والى القاهرة ، وتوجه الى البيمارستان لتفقد أحواله ، وليلى التحدث فيه بنفسه ـ لأنه لم يول نظره أحداً بعد الأمير سودون عبد الرحمن ، والأتابكية شاغرة منذ عزله منها ـ ولما وصل السلطان الى البيمارستان رسم للطواشى صفى الدين

---

(٥٨) انظر ترجمة ايتمشى البجاسى فى الضوء اللامع ، حـ٢ ، ص ٣٢٤ ، المنهل حـ ٣ ، ص ١٤٣ ـ ١٥١ ٠

(٥٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٢ ، ص ٧٩ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق٢ ، ص ٨٩٧ ، الصيرفى ، نزهة النفوش ، حـ١ ، ص ٤٦٣ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ١ ، ق٢ ص ٤٩٨ ٠

(٦٠) النجوم ، حـ١٢ ، ص ٧٩ ٠

(٦١) ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ٧ ، ص ٣٠٧ ٠

جوهر الخازندار ان يتكلم على البيمارستان لما عساه يحدث من أمور ، فاستمر على ذلك حتى عين السلطان برسباى اينال الجكمى(٦٢) فى الاتابكية فى (رجب ٨٣٧هـ/١٤٣٤م) ونظر البيمارستان المنصورى فى شعبان من نفس العام(٦٣) .

وكان الأمير الكبير الذى يلى نيابة النظر بالبيمارستان المنصورى يعهد بدوره الى أحد المتعممين بنظر البيمارستان المنصورى نيابة عنه ، وذلك لكثرة أعبائه ومشاغله . ويشترط فيه كما يذكر الخالدى أن يكون « ممن يؤهله نظره ، ولا ينفرد به فى أمر مهم ، بل عليه بمراجعة الأمير الكبير وتوقيعه »(٦٤) .

لذلك لا غرابة فى أن يضع القلقشندى صحابة أو نيابة نظر البيمارستان المنصورى بين الوظائف الديوانية ، وكذلك بين الوظائف الدينية معا ، فهو يذكر عند ترتيبه للوظائف الديوانية أن « الوظيفة الثالثة والعشرين لارباب الوظائف الديوانية هى صحابة ديوان البيمارستان وموضوعها التحدث فى كل ما يتحدث فيه ناظر البيمارستان »(٦٥) .

وقد وضع القلقشندى صحابة نظر البيمارستان بين الوظائف الديوانية على أساس أن السلطان هو الذى يعين صاحبها، لا بوصفه سلطاناً وانما بوصفه ناظراً شرعياً على أوقاف البيمارستان المنصورى . وذكر القلقشندى أيضا صحابة نظر البيمارستان المنصورى عند ذكره لارباب الوظائف الدينية فقال : « والمتحدثون على جهات البر العامة المصلحة : كنظر الاحباس والبيمارستان المنصورى وما أشبه ذلك فتوليته الى

---

(٦٢) انظر ترجمة اينال الجكمى فى المنهل ، حـ٢ ، ص ١٩٦ ـ ١٩٩ .

(٦٣) المقريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق٢ ، ص ٩٠٧ ـ ٩٠٨ ، ٩١٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٣٧ ، ٤٠ ، الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ٣ ، ص ٢٧٧، ٢٨٢ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ٢ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٦٤) الخالدى ، المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٣ .

(٦٥) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٤ ، ص ٣٤ .

نوابها ... »(٦٦) .

ويرجع اختيار أحد المتعممين بالذات ليلى صحابة نظر البيمارستان المنصورى الى أن هذه الوظيفة من الوظائف الأكثر حساسية ، اذ تتعلق بالنواحى المالية ، ولذلك لابد وان تتوفر فى صاحبها الامانة والكفاية والعدل والأهلية، الى جانب الاخلاق العالية والعلم الوفير وقوة الشخصية، حتى يصبح باستطاعته القيام بواجبات هذه الوظيفة ومسئولياتها بجدارة وعلم وعلى الوجه الأكمل . وقد جاء فى نسخة توقيع كتبت لأحد صحابة نظر البيمارستان ذكر للصفات التى يجب ان يتحلى بها الناظر ومنها « النزاهة والتعفف ، وكرم السجايا والطباع ، وسعة الصدر فى تلقى المهمات الى جانب حسن معرفته واطلاعه »(٦٧) . وهذه من الشروط الأساسية التى كان يجب توافرها فى المتعممين من مشايخ وقضاة ومحتسبين وغيرهم ، مما دفع من يتولوا صحابة نظار البيمارستان المنصورى من الأمراء الى اختيار المتعممين نواباً عنهم فى نظر البيمارستان المنصورى . وقد توافرت هذه الشروط فى عدد كبير من المتعممين الذين تولوا نيابة النظر بالبيمارستان المنصورى ، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر شهاب الدين أحمد بن عبادة الأنصارى الذى كان يتصف كما تذكر المصادر(٦٨) بالنزاهة والأخلاق العالية فضلا عما عرف عنه من حرمة قوية،وما تمتع به من خبرة فى الشئون المالية ، حتى أنه كان وكيل السلطان الناصر محمدبنقلاوون والمتحدث فى أملاكه.

كذلك اتصف القاضى فخرالدين عثمان بن مصطفى التركمانى(٦٩) بالأخلاق العالية والعلم الوفير والشخصية القوية والأمانة، مما جعل الأمير

---

(٦٦) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٩ ، ص ٢٥٦ ، حـ١١ ، ص ٣٨ .
وانظر أيضا : ابن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٥ .

(٦٧) انظر نسخة التوقيع فى القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ٣٦٢ .

(٦٨) انظر ابن حجر ، الدرر ، حـ١ ، ص ٢٢٢ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ٨٢ .

(٦٩) ولد فى ٦٦٠هـ ، وتفقه على مذهب الحنفية وبرع فيه ، وشرح الجامع الكبير فى عدة مجلدات ، انظر ترجمته فى الدرر ، حـ٣ ، ص ٤٩ .

جمال الدين أقوش(٧٠) يعهد اليه نيابة نظر البيمارستان المنصورى ، وظل يشغل هذا المنصب حتى توفى فى عام ٧٣١هـ/١٣٣٠م(٧١) .

ومن المتعممين أيضا الذين اتصفوا بالكفاءة والأمانة ضياء الدين يوسف الشهير بابن خطيب بيت الآبار الشامى(٧٢) . ويذكر اليوسفى أنه أظهر فى مباشرة البيمارستان « النهض والكفاية والأمانة »(٧٣) . ومن أجل ذلك ولى نيابة نظر البيمارستان المنصورى ثلاث مرات .

ومن جهة أخرى فانه من المتعممين - الذين تولوا نيابة نظر البيمارستان - من افتقر الى الشروط السابقة فكانت تنقصه الكفاءة والمقدرة ، مع كثرة مهاداة رجال الدولة . ومن هؤلاء : علاء الدين بن الاطروش(٧٤) الذى باشر نيابة نظر البيمارستان المنصورى بعد عزل الضياء الشامى فى ١١ ذى القعدة ٧٤٥هـ/١٧ مارس ١٣٤٥م وحتى المحرم من عام ٧٥٢هـ/ مارس ١٣٥٠م ، عندما قام السلطان الصالح الحسن بن محمد بن قلاوون بعزله واعاد الضياء الشامى ثانية . ويذكر المقريزى أن من الأسباب التى دفعت السلطان الى عزله جهل ابن الاطروش بالحساب وهو شرط أساسى يجب توافره فيمن يتولى نيابة النظر بالبيمارستان المنصورى ، فقد جاء فى كتاب الوقف : « ويكون الناظر عارفا بالحساب وامور الكتابة »(٧٥) . هذا الى جانب عدم اهتمام ابن الاطروش بالكشف على أحوال المرضى

---

(٧٠) عن جمال الدين اقوش انظر ما سبق .

(٧١) المقريزى السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٧٢) انظر ترجمة ابن خطيب بيت الآبار فى ابن حجر ، الدرر ، حـ٥ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ . الصفدى ، أعيان العصر وأعوان النصر ، مخطوط ، حـ٢ ، ورقة ٢ .

(٧٣) اليوسفى ، نزهة الناظر فى تاريخ الناصر ، ص ٢٩٦ - ٢٧٩ وانظر أيضا المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٣٩٤ ، ٤١٤ .

(٧٤) هو علاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن الاطروش الحنفى توفى ٧٥٨هـ/١٣٥٦م .

انظر المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٣٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ٣ ، ص ٣٢٧ .

حتى تلفت فراشهم على قول المقريزى(٧٦) ـ بعد أن مضى عليها ثلاث سنين ولم تغير • وبذلك اساء ابن الاطروش التصرف ووجب عزله •

ورغم عزل ابن الاطروش الا أنه لم تكد تمضى شهور حتى عاد الى نيابة نظر البيمارستان المنصورى، وذلك فى شعبان ٧٥٢هـ/اكتوبر١٣٥١م رغم عدم أهليته وذلك « بعناية جماعة من الأمراء لكثرة مهاداته لهم » كما يذكر المقريزى(٧٧) • وزاد الموقف سوءآ ان القاضى ابن الاطروش انفرد بالكلام فى البيمارستان وتعطل نظره من متحدث تركى،وذلك خلال الفترة من (٧٥٢ ـ ٧٥٥هـ/١٣٥١ ـ ١٣٥٤م) • ويرجع ذلك لانه كان يكثر من مهاداة أمراء الدولة ومدبريها(٧٨) • وهكذا يبدو واضحا أن بعض رجال الدولة عندما ساءت أحوالها كانوا لا يتحرجون عن التوسط لبعض الأفراد الجهلاء ممن يفتقرون الى الكفاية والمقدرة لتعيينهم فى المناصب الحساسة والخطيرة فى الدولة مثل نيابة نظر البيمارستان المنصورى •

ومن المتعممين الذين اساءوا السيرة واهملوا واجبهم ولم يكونوا أهلا لتولى نيابة نظر البيمارستان المنصورى ولى الدين السفطى(٧٩) الذى استقر فى نظر البيمارستان فى (ربيع الآخر ٨٤٩هـ/يوليو١٤٤٥م) • وقد تولى هذه الوظيفة وغيرها من الوظائف التى كانت فى يده ، مثل نظر الكسوة ووكالة بيت المال ومشيخة الجمالية وغيرها ، عن طريق الرشوة ، وببذل قدره ثمانية آلاف دينار(٨٠) • وكانت سيرته فى النظر

---

(٧٥) المقريزى ، السلوك ، حـ ٢ ، ق٣ ، ص ٨٣٥ ـ ٨٣٦ •

(٧٦) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٣ ، ص ٨٣٦ •

(٧٧) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٣ ، ص ٨٥٢ •

(٧٨) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٧ ـ ٨ •

(٧٩) أصله من سفط الحناء بالوجه البحرى ، وتقع فى محافظة الشرقية حاليا• انظر ترجمته فى المنهل ، حـ٤ ، ص ٣٠١ ، السخاوى ، الذيل على رفع الأمر ، ص ٢٤٥ ـ ٢٥٥ ، ٢٧٥ ، التبر المسبوك ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم حـ ١٥ ، ص ٥٥٥ ـ ٥٥٨ ، السيوطى ، نظم العقيان ، ص ١٣٩ •

(٨٠) السخاوى ، الذيل ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ ، التبر المسبوك ، ص ١٤٤ ، ٣٢٥، ابن حجر ، انباء ، حـ٩ ، ص ٢٣٤ •

- كما يذكر ابن تغرى بردى - سيرة سيئة « فأخذ ما لا يستحقه واعطاه لمن لا يستحقه ، وأجمع الناس على أنه كان يخرب الأوقاف ويأخذ منها شئيا لنفسه »(٨١) ٠

كذلك يذكر ابن تغرى بردى : « أنه سلك فى الناس طريقاً غير محمودة من الحط على الفقهاء والترسيم عليهم ، ولا سيما المتحدثون على الأوقاف والمباشرون على الأوقاف ، فانهم قاسوا منه خطوباً ومحناً »(٨٢) ٠ كما أنه - على نحو ما يذكر ابن تغرى بردى فى موضع آخر - « امعن فى أذاهم وبهدلتهم بالضرب والحبس والترسيم وقطع معاليم (رواتب) جماعة كبيرة من الطلبة المرتبة على الأوقاف الجارية تحت نظره ٠ ولقى منه الناس شدائد كثيرة ، وصار لا يمكن المرضى من دخول البيمارستان للتمرض به الا برسالة ، ثم يخرج المريض بعد أيام قليلة »(٨٣) ٠

أما السخاوى فيذكر عنه أنه أكثر التحرى فى المريض المنزل فيه بحيث زاد عن الحد ، وقل من المرضى فيه العدد ، وتحاشى الناس المجىء اليه بانفسهم أو بمرضاهم ، وأمر بمسح دهاليزه وكنسه ، وعدم التمكين من المشى فيه بالنعال حتى ان السخاوى يذكر ان الشيخ ابا عبد الله الراعى انشده فى هذا المعنى :

مرستانكم يشكو الخلاء وما به
من الكنس والمسح الذى ليس ينفع
وناظره اذ جار فى حكمه له
فيمنعه المرضى ومن ذا يجعجع(٨٤)

ونظراً لتعسف السفطى فقد نفرت منه القلوب وكثر الدعاء عليه

---

(٨١) حوادث الدهور ، حـ١ ، ص ٩٥ ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٣٧١ ٠
(٨٢) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور ، حـ١ ، ص١١٢ ٠
(٨٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ ١٥ ، ص ٥٥٧ ٠
(٨٤) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٨٧ ٠

حتى ان ابن تغرى بردى يذكر « ولقد شاهدت بعض الناس يدعو عليه فى الملتزم بالبيت العتيق فى هدوء الليل »(٨٥) ٠

حقيقة ان السفطى بذل جهده فى تنمية أوقاف البيمارستان ومساجراته وسائر جهاته حتى الاحكار ، واهتم بتحصيل ريعه ٠ كذلك أكثر التحرى فى مرضى البيمارستان والحرص على نظافته بكنسه ومسحه؛ الا أنه ضيق على مباشريه وعلى مرضاه كذلك(٨٦) ٠ ونتيجة لذلك تجمعت له من الأوقاف أموال كثيرة تفوق الوصف كما يذكر السخاوى(٨٧) ٠ حتى أنه صعد الى السلطان جقمق فى سلخ ذى الحجة ٨٥١هـ/١٤٤٧م باربعة عشر الف دينار من حاصل البيمارستان فعرضها عليه فشكره على ذلك ، وغفل عن كونه لم يعمل فيه بمراد الواقف وان هذه المتحصلات مخصصة لمرضى البيمارستان(٨٨) ٠ غير ان السلطان جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ/١٤٣٨ - ١٤٥٣م) مالبث أن اصدر أمراً بعزل ولى الدين السفطى ومصادرته (ربيع الآخر ٨٥٢هـ/يونية ١٤٤٨م) بعد أن ثبت قبح أفعاله واظهار معايبه ، ووضع السلطان يده على أكثر ما نماه من متحصل البيمارستان وغيره(٨٩) ٠

وممن باشر نيابة النظر من المتعممين ولم يكن أهلا لها أيضا يوسف السمين نائبا عن أبيه أبى الفتح المنوفى(٩٠) اذ مشى - كما يذكر الصيرفى - مع أهل البيمارستان على قالب لا يرضون عنه ، وصار لا يلتفت اليهم ، وانفرد بالكلمة مع وجود القاضى عبد الباسط الجيعان،

---

(٨٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٥٥٧ ٠

(٨٦) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ، الذيل على رفع الأصر ، ص ٢٤٨ ٠

(٨٧) التبر المسبوك ، ص ٢٣٦ ، الذيل ، ص ٢٤٨ ٠

(٨٨) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٨٧ ، ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور، حـ١ ، ص ١١٥ ٠

(٨٩) السخاوى ، الذيل على رفع الأصر ، ص ٢٥١ ، ابن تغرى بردى النجوم ، حـ ١٥ ، ص ٣٨٢ ، ٥٥٧ - ٥٥٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٢ ، ص ٢٦٣ ٠

(٩٠) انظر ترجمة ابو الفتح المنوفى فى السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٩ ، ص ١٧٩ ، الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ٠

كما أنه اساء التصرف فى أموال البيمارستان ، فصار يتغذى فى كل يوم فى البيمارستان بمائتى درهم ويأخذ ذلك من صيرفى البيمارستان أو أحد من جباته ، ويتصرف فيه تصرف الملاك(٩١) .

هذا بالاضافة الى ان يوسف السمين لم يعمل بمشورة الاتابك ازبك ابن ططخ(٩٢) ، فقد حدث أن شخصاً من فراشى البيمارستان يسمى أحمد بن الصلف نزل عن ثيابه فى البيمارستان أو عن فراشه ، وأمضى يوسف السمين ذلك بخطه من غير مشورة الاتابكى ازبك ، وهو الناظر الحقيقى للبيمارستان . لذلك أمر أزبك فى ذى الحجة ٨٧٦هـ/مايو ١٤٧٢م بضربه وبطحه ، فضرب ضرباً مبرحاً على اخفافه نحواً من خمسمائة عصى ، ثم أمر الاتابكى بصفعه فصفع من المماليك الى أن اخرجوه من البيمارستان(٩٣) . وارجع الصيرفى سبب عدم أهلية يوسف السمين الى أنه « كان شاباً صغيراً بلا لحية عديم الأدب»(٩٤) .

وبالاضافة الى ما سبق ، فاننا نلاحظ على نواب نظار البيمارستان المنصورى من المتعممين أيضا عدة ملاحظات : ـ

اولا ـ ان ناظر البيمارستان المنصورى من المتعممين كان يشغل عدة وظائف الى جانب نظارته للبيمارستان : فقد جمع الضياء الشامى بن خطيب بيت الآبار بين نظر البيمارستان المنصورى ونظر الأوقاف وحسبة القاهرة فتذكر المصادر ان السلطان بحث عن محتسب ناهض ، وولى ناهض فشكر له الناس فى ضياء الدين ناظر البيمارستان والأوقاف فاستدعاه السلطان وولاه الحسبة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) وجمع بذلك بينها وبين نظر البيمارستان ونظر الأوقاف(٩٥) . وعندما عزل الضياء من

---

(٩١) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

(٩٢) تولى ازبك صحابة نظر البيمارستان المنصورى فى عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م واستمر يشغل هذا المنصب حتى عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م . انظر ترجمته فى السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٢ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢ ، ابن تغرى بردى ، المنهل ، حـ٢ ، ص

(٩٣) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

(٩٤) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٣٨ .

(٩٥) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٣٩٤ ، ٤١٤ .

هذه الوظائف تولى عوضه الحسبة ونظر البيمارستان علاء الدين الاطروش وجمع بذلك بين الوظيفتين(٩٦) .

وفى جمادى الآخرة ٧٦٦هـ/مارس ١٣٦٥م خلع على القاضى تاج الدين المعروف بشاهد الجمالى(٩٧) واستقر فى وكالة الخاص بالاضافة الى نظارة البيمارستان المنصوى(٩٨) . كذلك جمع الصاحب كريم الدين شاكر بن ابراهيم بن غنام(٩٩) بين نظر البيمارستان المنصورى وبين الوزارة الى جانب نظر البيوت ونظر دار الطراز (٧٧٤هـ/١٣٧٣م)(١٠٠) . وفى رجب ٧٧٥هـ/يناير ١٣٧٤م خلع على برهان الدين بن بهاء الدين بن الحلى(١٠١) ناظر بيت المال ، واستقر فى نظر البيمارستان المنصورى مضافاً لما بيده من الوظائف(١٠٢) . وخلع أيضا على محتسب القاهرة جمال الدين محمود العجمى(١٠٣) فى ربيع الآخر ٧٨٠هـ/اغسطس ١٣٧٨م واستقر فى نظر البيمارستان

---

(٩٦) الشجاعى ، تاريخ الناصر محمد بن قلاوون ، ص ٢٧٤ .

(٩٧) شغل تاج الدين بن شاهد الجمالى عدة مناصب منها مفتى دار العدل ، وشاهد الجيش ووكيل الخاص وغيرها ، وتوفى ٧٧٢هـ/١٣٧١م . انظر المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ١٩٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١١ ، ص١١٨ .

(٩٨) عين شاهد الجمالى فى نظر البيمارستان المنصورى (٧٦٣هـ/١٣٦١م) من قبل السلطان الملك المنصور واستمر فى نظارته حتى وفاته شعبان ٧٧٢هـ/فبراير ١٣٧١م . انظر : السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٩٩ ، ١٩١ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ١ ، ق٢ ، ص ١٨٠ ، ١٠٢ .

(٩٩) انظر ترجمة ابن غنام فى الدرر ، حـ١ ، ص ٢٠١ .

(١٠٠) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٢٢١ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ١ ، ص ٧٧ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ١ ، ق٢ ، ص ١٢٨ .

(١٠١) انظر ترجمة برهان الدين الحلى فى ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ١ ، ص ١٥٩ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ١ ، ق٢ ، ص ١٢٩ .

(١٠٣) وهو قاضى القضاة الحنفية جمال الدين ابو الثناء محمود بن نور الدين على الشهير بالعجمى الرومى . انظر الصيرفى ، نزهة النفوس والابدان ، حـ١ ، ص ٤٥٠ _ ٤٥١ .

وانظر أيضا أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، ص ١٧٦ .

المنصورى نيابة عن الأمير بركة(١٠٤) • وجمع بذلك بين الحسبة ونظر البيمارستان شانه فى ذلك شان الضياء الشامى وابن الاطروش •

وخلع السلطان الظاهر برقوق فى شوال ٧٩٤هـ/اغسطس ١٣٩٢م على الشريف فخر الدين ناظر البيمارستان المنصـــورى نيابة عن الأمير سيف الدين كمشـــبغا الكبير(١٠٥) - وولاه مشـــيخة الشيوخ بخانقاه سرياقوس(١٠٦) • وفى ربيع الآخر ٨١٥هـ/أغسطس ١٤١٢م أستقر شهاب الدين أحمد الصفدى موقع الأمـــير شيخ فى نظر البيمارستان المنصورى عوضاً عن كاتب السرفتح الله ومعها نظر الاحباس عوضاً عن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله(١٠٧) • وخلع ايضا على القاضى نور الدين ابن مفلح(١٠٨) ناظر البيمارستان المنصورى واســتقر - فى شــوال ٨٤٠هـ/ابريل ١٤٣٧م - وكيل بيت المال عوضا عن شمس الدين محمد بن يوسف ، وجمع بذلك بين نظارة البيمارستان ووكالة بيت المال(١٠٩) •

وشغل ايضا ابو الخير النحاس(١١٠) ناظر البيمارستان المنصورى (ربيع الآخر ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) عدة وظائف منها نظر الجوالى ونظـر

---

(١٠٤) المقريزى ،السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٣٣٥ ، ابن اياس ، بدائع ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٣٣٠ : وانظر ترجمة بركة فى المنهل حـ٣ ، ص ٣٥١ - ٣٥٥ •

(١٠٥) عن الأمير كمشبغا انظر ما سبق •

(١٠٦) ابن الفرات ، م٩ ، حـ٢ ، ص ٣٠٩ ، الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ١ ، ص ٣٤٨ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق٢ ، ص ٧٧١ •

(١٠٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ ١٣ ، ص ٢٠٥ ، حـ ١٤ ، ص ١٤٢ ، ابن حجر ، انباء ، حـ٧ ، ص ٦٦ •

(١٠٨) شغل القاضى نور الدين بن مفلح نظر البيمارستان منذ عام ٨٣٢هـ/١٤٢٩م وحتى وفاته ٨٤١هـ/١٤٣٧م وفى عهود الاتابكة جارقطلو ، وسودون عبد الرحمن ، واينال الجكمى وجقمق العلائى • انظر اللاحق •

(١٠٩) انظر الصيرفى ، نزهة ، حـ٣ ، ص ٣٨٤ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق٢ ، ص ١٠٠٩ ، ابن حجر ، انباء ، حـ٩ ، ص ٢٤٥ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ٢،ص٠٧٦

(١١٠) عن ابو الخير النحاس انظر : السخاوى ، الذيل على رفع الأمر ، ص ٢٥١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٣٨٢ ، ٥٥٧ - ٥٥٨ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ٢ ، ص ٢٦٣ •

الكسوة ووكالةبيت المال وغيرها من الوظائف التى كان يشغلها سلفه ولى الدين السفطى(١١١) . وتذكر المصادرايضا انه فى جمادى الآخرة ٨٥٤هـ/يوليو ١٤٥٠م خلع على شرف الدين موسى التتائى(١١٢) باستقراره فى جميع الوظائف التى كان يشغلها أبو الخير النحاس وهى عدة وظائف من اهمها نظر البيمارستان المنصورى ، ونظر الجوالى ونظر الكسوة ووكالة بيت المال ونظر خانقاه سعيد السعداء ، ووكيل السلطان وعدة وظائف أخرى دينية ومباشرات(١١٣) . يتضح مما سبق ان نظار البيمارستان المتعممين جمعوا بين نظارة البيمارستان المنصورى وعدة وظائف أخرى،ولم يكن عملهم قاصراً على نظر البيمارستان وحده.

ثانيا ـ اتخذ بعض المتعممين ممن تولوا نظر البيمارستان المنصورى نوابا عنهم فى نظر البيمارستان،فقد استناب القاضى محبالدين محمد بن الأشقر(١١٤) . ـ حينما استقر فى نظر البيمارستان المنصورى فى ربيع الآخر ٨٤٢هـ/أكتوبر ١٤٣٨ ـ عنه أخاه البدر حسين(١١٥) . فى نظر البيمارستان المنصورى . وظل البدر حسين يلى النظر نيابة عن محب الدين الأشقر حتى مات الأول فى ٨٤٧هـ/١٤٣م(١١٦) . وعندما

---

(١١١) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، حـ١ ، ص ١٢٤ ، ابن اياس ، بدائع حـ٢ ، ص ٢٨٠ .

(١١٢) موسى التتائى أصله من قرية تتا وهى قرية بالمنوفية ، ولد بها ونشأ أيضا ، انظر ترجمته فى الضوء اللامع ، حـ١٠ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ، الدليل الشافى ، حـ٢ ، ص ٧٥٠ .

(١١٣) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، حـ١ ، ص ٢٢٢ ، النجوم ، حـ١٥ ، ٤١٧ ، السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٣١٩ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ ٢ ، ص ٢٨٠ .

(١١٤) انظر ترجمة محب الدين بن الاشقر فى السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٨ ، ص١٤٣ ، الذيل على رفع الأمر ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ ، السيوطى ، نظم العقيان فى تاريخ الاعيان ، ص ١٥٣ .

(١١٥) حسين بن عثمان بن بدر الدين انظر ترجمته فى السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٧٩ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ٩ ، ص ٢٥١ .

(١١٦) السخاوى ، رفع الامر ، ص ٢٧٥ .

خلع على شرف الدين عبد الباسط بن البقرى(١١٧) بنظارة البيمارستان المنصورى فى المحرم ٨٧٠هـ/اغسطس ١٤٦٥م اناب عنه الشيخ جلال الدين ابن الأمانة(١١٨) فى نظر البيمارستان المنصورى(١١٩) .

غير ان السلطان كان يعترض على ذلك فى بعض الأحيان فعندما خلع على القاضى فتح الدين ابى الفتح المنوفى(١٢٠) واستقر فى نظر البيمارستان المنصورى ونظر الأوقاف (جمادى الآخرة ٨٧٤هـ/ديسمبر ١٤٦٩م) ، اراد أبو الفتح ـ كما يروى الصيرفى(١٢١) ـ ان يجعل له نائبا بالبيمارستان، كما كان للذى قبله وهو ابن البقرى ، فطلب القاضى تاج الدين الاخميمى(١٢٢) وقرره فى نيابته ، وتوجه القاضى تاج الدين الى البيمارستان ، فبلغ السلطان ذلك فارسل اليه غلاما من الطشتخاناه ليمنع القاضى تاج الدين من التكلم فى البيمارستان ، فحصل له بذلك نوعاً من الكسر(١٢٣) .

واستمر ابو الفتح المنوفى يلى النظر على البيمارستان والأوقاف بنفسه حتى (شعبان ٨٧٦هـ/يناير ١٤٧٢م) عندما خلع عليه السلطان واستقر فى شادية بندر جدة ، وطلب منه السطلنا أن يسافر بنفسه من

---

(١١٧) هو عبد الباسط بن يحيي شرف الدين بن العلم بن البقرى . انظر ترجمته فى الضوء اللامع ، حـ٤ ، ص ٣١ .

(١١٨) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عثمان الجلال ويعرف بابن الامانة . انظر ترجمته فى السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٤ ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(١١٩) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٨ .

(١٢٠) هو أحد أعيان المماليك السلطانية وعمل فى خدمة السلطان قايتباى وشغل وظيفة ثانى قلم ، انظر السخاوى ، الضوء ، حـ٩ ، ص ١٧٩ ، الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(١٢١) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٨ .

(١٢٢) هو محمد بن ابراهيم التاج عبد الوهاب الاخميمى الاصل ، القاهرى الشافعى ويعرف بالتاج الاخميمى ، انظر ترجمته فى السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٦ ، ص ٢٥٨ .

(١٢٣) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٨ .

غير أن يرسل نائبا من جهته ، ولذلك باشر نظر البيمارستان المنصورى عنه ابنه يوسف السمين(١٢٤) ٠

ثالثا - حدث احيانا أن تولى عدة أفراد من أسرة واحـدة منصب ناظر البيمارستان المنصورى ٠ من ذلك ما حدث خـلال سلطنة الناصر فرج بن برقوق (٨٠٢ - ٨١٥هـ/١٣٩٩ - ١٤١٢م) ان أكثر من فرد من أسرة محمد بن أحمد بن عبـد الملك الشمسى الدميرى القاهرى المالكى تولوا ذلك المنصب ٠ ومن هؤلاء القاضى شمس الدين محمد بن أحمـد الدميرى(١٢٥) الذى ولى نظر البيمارستان المنصورى نيابة عن الاتابك بيبرس الدوادار(١٢٦) ٠ وعن نظارته يذكر السخاوى « أنه كان عارفا بالمباشرة ، وحصل من البيمارستان مالا كثيراً جداً ، وفره مما كان غيره يصرفه فى وجوه البر وغيرها ، واتفق ان الناصر أخـذ منه فى بعض التجاريد جمـلة مستكثرة »(١٢٧) ٠ كذلك تولى نظـر البيمارستان المنصورى ابنه وهو محمد زين الدين بن القاضى شمس الدين محمد بن أحمد الدميرى ، وقد سار على قاعدة أبيه حيث تحدث فى البيمارستان المنصورى نيابة عن الأمير الكبير ٠ هذا الى جانب توليه حسبة القاهرة مراراً(١٢٨) ٠ واستمر ابنه محمـد بن زين الدين(١٢٩) فى مشارفة

---

(١٢٤) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ ٠

(١٢٥) كان القاضى شمس الدين أيضا مفتيا لدار العدل كما ولى الحسبة عدة مرات ٠ انظر ترجمته فى الضوء ، حـ٦ ، ص ٣٢٩ ، الدليل الشافى ، حـ٢ ، ص ٥٩٢، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ٦ ، ص ٢٥٦ ٠

(١٢٦) ولى بيبرس الدوادار نظر البيمارستان المنصورى من قبل الناصر فرج فى رجب ٨٠٢هـ/مارس ١٤٠٠م ، انظر ترجمه فى المنهل ، حـ٣ ، ص ٤٨١ - ٤٨٣ ، الضوء اللامع ، حـ ٣ ، ص ٢١ ٠

(١٢٧) الضوء اللامع ، حـ٦ ، ص ٣٢٩ ٠

(١٢٨) انظر السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٩ ، ص ٢٣ - ٢٤ ، المقـريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق٢ ، ص ٤٨٩ ، الصـيرفى ، نزهة النفـوس ، حـ٣ ، ص ٢١٤ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ٨ ، ص ٢٢١ ؛ ابن اياس ، بدائع ، حـ٢ ، ص ١٣٣ ٠

(١٢٩ انظر ترجمته فى الضوء اللامع ، حـ٩ ، ص ١٩٥ ، وانظر أيضا أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ١٢٧ ٠

البيمارستان(١٣٠) . وهكذا تعاقب أفـــراد أسرة الدميرى فى نظـــر البيمارستان المنصورى واحداً بعد آخر .

رابعا - يتضح من خـــلال تراجم المتعممين الذين تولوا نظـــر البيمارستان المنصورى أن منهم من كان شافعى المذهب ومنهم أيضا من كان حنفيا أو مالكيا وان كانت الغالبيةالعظمى منهم على المذهب الشافعى وذلك عملا بما جاء فى وثيقة المنصور قلاوون من أنه « يكون النظر لحاكم المسلمين الشـافعى المذهـــب بالقاهرة ومصر المحروستين ، فان لم يكن فللحاكم على أى مذهب »(١٣١) . ومن النظار الحنفية القاضى فخرالدين عثمان بن ابراهيم بن مصطفى التركمانى(١٣٢) . والقاضى جمال الدين محمود العجمى قاضى قضاة الحنفية(١٣٣) ، والشيخ محمد بن محمد النسـفى أمـير الدين الخلواتى(١٣٤) وكان من أئمة الحنفية ، والقاضى نور الدين عمر بن مفلح(١٣٥) ، والقاضى محب الدين بن الأشقر(١٣٦) ، كما كان القاضى علاء الدين بن الاطروش حنفى المذهب كذلك(١٣٧) .

---

(١٣٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ ٩ ، ص ١٩٥ .

(١٣١) انظر نص الوثيقة فى مـــلاحق ابن حبيب ، تذكرة النبيـــه ، حـ١ ، ص ٣٦٩ ، ٢٩٢ .

(١٣٢) عنه انظر ما سبق ، ص ، وانظر أيضا ابن حجر ، الدرر ، حـ٣ ، ص ٤٩ ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ١٣٤٠ .

(١٣٣) عنه انظر ما ســبق ، وانظـــر أيضـــا الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ١ ، ص ٤٥٠ - ٤٥١ .

(١٣٤) انظر ترجمته فى النجوم ، حـ١١ ، ص ٣١٣ ، الدليل ، حـ٢ ، ص ٦٨٤ ، الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ١ ، ص ١٦٤ ابن حجر ، انبـــاء الغـــمر ، حـ٢ ، ص ٢٧٦ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ص ٤٨٤ ، ٥٧٢ .

(١٣٥) انظر ما سبق .

(١٣٦) وهو خليفة نور الدين بن مفلح فى نظر البيمارستان المنصورى،وليه منذ ربيع الآخر ٨٤٢هـ/سبتمبر ١٤٣٨م ، وحتى ربيع الآخر من عام ٨٤٩هـ/يوليو ١٤٤٧م. انظر السخاوى ، الذيل ، ٢٦٦ - ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، حـ٩ ، ص ٣١ ، السيوطى ، نظم العقيان ، ص ٥٣ ، ابن اياس ، بدائع ، حـ٢ ، ص ٢٥ .

(١٣٧) انظر ما سبق ، انظر أيضـــا المقـــريزى ، الســـلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٣٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٠ ، ص ٣٢٧ .

ومن النظار المالكية القاضى تاج الدين أبو عبد الله محمد المعروف بابن شاهد الجمالى ٠ وافراد أسرة الدميرى الثلاثة كانوا مالكية أيضا وكذلك القاضى ناصر الدين محمد بن المخلطة(١٣٨) وكان أحد نواب الحكم المالكية واحد أخصاء الملك الاشرف أينال(١٣٩) ٠

مراسيم تعيين ناظر البيمارستان المنصورى :

تبدأ مراسيم تعيين ناظر البيمارستان المنصورى بأن يكتب لصاحبها توقيع(١٤٠) بنظارة البيمارستان المنصورى ثم يخلع عليه السلطان الخلع ويلبسه التشريف(١٤١) وأخيراً ينزل الناظر الى البيمارستان فى موكب حافل ٠

أما عن التوقيع فكان يكتب - كما يذكر الخالدى(١٤٢) - وكذلك صاحب التثقيف(١٤٣) - فى قطع النصف ، وبقلم الثلث ٠ وكانت كتابة التواقيع قد أصبحت مختصة بارباب الوظائف الدينية والديوانية من المتعممين بصفة خاصة ٠ وتوقفت التواقيع التى كانت تكتب لارباب السيوف فى فترة من الفترات الا انه استثنى من هذه القاعدة بعض ارباب السيوف ومن بينهم صحابة نظر البيمارستان المنصورى حيث ظل يكتب لهم تواقيع بنظر البيمارستان(١٤٤) ٠

---

(١٣٨) انظر ترجمته ابن المخلطة فى الضوء ، حـ١٠ ، ص ٢٧ ، النجوم ، حـ٦ ، ص ١٧٠ ٠

(١٣٩) تولى ابن المخلطة نظر البيمارستان المنصورى فى ربيع الآخر ٨٥٧هـ/ ابريل ١٤٥٣م ، انظر ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، حـ١ ، ص ٢٧١ ٠

(١٤٠) التوقيع يقصد به قرار التعيين فى منصب ناظر البيمارستان المنصورى ٠

(١٤١) التشريف وهو الخلعة أو الملابس المهداة من السلطان الى كبار الأمراء ورجال الدولة فى مناسبات خاصة ، ومن أهمها التعيين فى الوظائف الكبرى ٠ انظر سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١١ ٠

(١٤٢) المقصد الرفيع ، مخطوط ، ورقة ١٢٤ ٠

(١٤٣) ابن ناظر الجيش (المحبى) ، كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف. تحقيق رودلف فسلى ، القاهرة ١٩٨٧م ، ص ١٤٥ ٠

(١٤٤) المحبى ،تثقيف التعريف ، ص ١٤٥ ، وانظر أيضا القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ١١٤ ٠

وقد أورد القلقشندى صورتى توقيع احداهما لمن تولى صحابة نظر البيمارستان المنصورى من أرباب السيوف،والأخرى لمن تولاها من أرباب الأقلام او من المتعممين ٠ اما عن صورة التوقيع الأولى فكانت تكتب على النحو التالى : ـ

« توقيع شريف ان يفوض الى المقر الكريم او الجناب الـــكريم أو العالى (قدر رتبته) الأميرى الكبيرى الفلانى ، فلان الناصرى مثلا : اعز الله أنصاره ، أو نصرته أو ضاعف الله تعالى نعمته (بحسب مايليق به) ـ نظر البيمارستان المعمور المنصورى على أجمل العوائد وأكمـــل القواعد ، بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ما شرح فيــــه »(١٤٥)٠

واما عن نسخة توقيع أرباب الاقلام من المتعممين والتى أوردها القلقشندى كذلك ، فكانت من انشـــاء الشيخ شـــهاب الدين محمـــود الحلبى(١٤٦) ٠ وتستهل بالحمد لله والثناء عليه ثم بالشهادة والصلاة على رسول الله وعلى أصحابه ، ثم ياتى ذكر ما يليق بالوظيفة والمتولى لها ، اذ نص التوقيع على انه يكتب بنظارة البيمارستان الى الشخص الذى « تحققنا صلاحه ، وتيقنا نجاحه، واعتقدنا تنميه أمواله ، واعتمدنا فى مضاعفة ارتفاعه وانتفاعه على اقواله وأفعاله»(١٤٧٠ ثم يذكر اسم الشخص الذى كتب له التوقيع بعد ذكـــر الاوصاف التى يجب أن تتوافر فيه ، ثم يفوض اليه نظر أوقاف البيمارستان المنصورى(١٤٨) ٠

وبمقابلة توقيع أرباب السيوف مع توقيع أرباب الاقلام يتضح ان الأول جاء مختصراً وقاصراً على القاب الأمير الكبير ، اما الثانى فقد

---

(١٤٥) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ١١٧ ٠

(١٤٦) انظر نص التوقيع عند القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢ ٠

(١٤٧) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ ، وانظر ايضـــا الحلبى ، تثقيف التعريف ، ص ١٤٦ ٠

(١٤٨) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ٢٦١ ٠

جاء مفصلا ومركزاً على الصفات التى يجب أن يتحلى بها ناظر البيمارستان ،والمهام الملقاة على عاتقه مما يدل على ان عبء نظر البيمارستان المنصورى وقع على عاتق المتعممين بالدرجة الأولى ٠

وبعد ان يكتب لصحابة نظر البيمارستان المنصورى ونوابه التوقيع، كان السلطان يخلع عليهم خلعة نظر البيمارستان وتشريفة اذ كان للناظر تشريف خاص ٠ ففى ١٩ من المحرم ٧٧٩هـ/٢٩ مايو ١٣٧٧م أستقر الأمير قرطاى فى نظر البيمارستان ، ونزل اليه بتشريفه على نحو ما يذكر المقريزى(١٤٩) ٠ وفى ٢١ جمادى الآخرة ٨٠٨هـ/ ١٥ ديسمبر ١٤٠٥م أستقر يشبك الشعبانى فى نظر البيمارستان المنصورى ، ونزل اليه ، وعليه التشريف السلطانى على العادة(١٥٠) ٠ وخلع السلطان الناصر فرج على الأمير الكبير تمرتاش (دمرداش) المحمدى تشريفا بنظر البيمارستان المنصورى فى المحرم ٨١٤هـ/مايو ١٤١١م(١٥١) ٠ وخلع السلطان جقمق على الأمير اينال العلائى فى شعبان ٨٤٩هـ/نوفمبر ١٤٤٥م خلعة نظر البيمارستان المنصورى(١٥٢) ٠ وفى ربيع الآخر ٨٥٢هـ/يونيه ١٤٤٨م خلع على الأمير اينال العلائى ثانية ، والبس خلعة الاستمرار فى نظر البيمارستان المنصورى وهى : « فوقانى بطرز ذهب »(١٥٣) ٠ وخلع السلطان تمربغا كذلك على الاتابك قايتباى فى جمادى الأولى ٨٧٢هـ/ديسمبر ١٤٦٧م خلعة نظر البيمارستان المنصورى(١٥٤) ٠

ولم تكن خلع صحابة نظر البيمارستان المنصورى قاصرة على

---

(١٤٩) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق ١ ، ص ٣٠٤ ٠

(١٥٠) المقريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق١ ، ص ١٠ ٠ وانظر أيضا : الصيرفى ، نزهة النفوس ، حـ١ ، ص ٢١٦ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ق٢ ، ص ٧٤٣ ٠

(١٥١) المقريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق١ ، ص ١٧٥ ، وانظر أيضا ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ ١٢ ، ص ١٢٠ ٠

(١٥٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٣٧٠ ٠

(١٥٣) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٢٠٨ ، ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، حـ١ ، ص ١٢٣ ٠

(١٥٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٦ ، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ ٠

الأمراء وأرباب السيوف دون المتعممين فقد شملت الجميع فتذكر المصادر أنه فى ربيع الآخر سنة ٨٤٩هـ/يوليو ١٤٤٥م لبس الشيخ ولى الدين السفطى أو الولوى السفطى خلعة ونزل الى البيمارستان(١٥٥) . كذلك لبس أبو الخير النحاس فى ١١ ربيع الآخر ٨٥٢هـ/١٥ يونية ١٤٤٨م خلعة نظر البيمارستان المنصورى عوضاً عن السفطى ، وفى جمادى الآخرة ٨٥٤/يوليو ١٤٥٠م لبس شرف الدين موسى التتائى خفاً ومهمازاً عوضاً عن أبى الخير النحاس وشغل نظر البيمارستان المنصورى(١٥٦).

وبعد أن يرتدى صحابة نظر البيمارستان الخلع والتشاريف كانوا ينزلون اليه فى موكب كبير ؛ فيذكر ابن اياس فى جمادى الأولى ٧٧٤هـ/ نوفمبر ١٣٧٢م أن السلطان « اخلع على الاتابكى الجاى اليوسفى وقرره ناظر البيمارستان ، فنزل من القلعة فى موكب حفل »(١٥٧) . كذلك يذكر ابن اياس فى موضع آخر ان الأمير اينال العلائى بعد أن أخلع عليه بنظارة البيمارستان المنصورى « نزل من القلعة فى موكب حافل»(١٥٨) ويذكر الصيرفى أيضاً أنه خلع فى صفر ٨٧٣هـ/أغسطس ١٤٦٨م على ازبك ططخ خلعة البيمارستان المنصورى ... وتوجه اليه فى محفل عظيم وهوتك جسيم »(١٥٩) . ويلاحظ ان الأمثلة السابقة قاصرة على أرباب السيوف دون أرباب الاقلام من المتعممين وذلك لأن المصادر لا تذكر أية أمثلة خاصة بهؤلاء المتعممين .

وكان رنك ناظر البيمارستان المنصورى من أرباب السيوف يضرب على البيمارستان ، فيذكر ابن تغرى بردى فى ١٣ ربيع الأول ٨٣٧هـ/ ٢٩ أكتوبر ١٤٣٣م ضرب رنك السلطان برسباى على البيمارستان المنصورى بالقاهرة ، وكانت العادة جرت من عدة سنين أن كل من يلى

---

(١٥٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٢ ، ص ٢٥٠ ، السخاوى ، الذيل ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ ، التبر المسبوك ، ص ٢٣٥،١٤٤ ، ابن حجر، انباء الغمر، حـ٩ ،ص٢٢٤.

(١٥٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٤١٧ .

(١٥٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ١ ، ق٢ ، ص ١١٢ .

(١٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، حـ٢ ، ص ٢٥٢ .

(١٥٩) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥ .

الامرة الكبرى يكون هو الناظر على البيمارستان المنصورى ، فلما نفدت هذه الوظيفة تكلم السلطان على نظرها وضرب اسمه على بابها(١٦٠) . وفى ٢٤ صفر ٨٧٣هـ/٥ سبتمبر ١٤٦٨م وبعد أن خلع على الاتابك ازبك ابن ططخ بنظر البيمارستان ، نزل اليه فكشفه ... وضربت رنوكه على نحو ما يذكر الصيرفى(١٦١) .

مهام صحابة نظر البيمارستان المنصورى :

تعددت مهام ناظر البيمارستان المنصورى وتنوعت بين فنية وادارية ومالية ، فالناظر باعتباره المسئول الأول عن أوقاف البيمارستان كان عليه ان يقوم برعاية هذه الأوقاف وبعمارتها واصلاحها والعمل على انمائها وزيادة ريعها وحسن استغلالها طبقا لشرط الواقف . وقد حددت وثائق وقف المنصور قلاون على البيمارستان المنصورى مهام ناظر البيمارستان ورتبتها على النحو التالى :

أولا ـ تأجير أوقاف البيمارستان المنصورى فقد نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون على أن يقوم الناظر بنفسه أو نائبه بتأجير اوقاف البيمارستان ، وان تكون مدة الاجارة ثلاث سنوات فما دونها بأجرة المثل فما فموقها « ولا يدخل عقد على عقد »(١٦٢) . وينطبق هذا على العقارات ، وكذلك على الأراضى التى تدخل فى وقف البيمارستان .

كذلك على الناظر أن يتحرى عن الشخص الذى يؤجر له العقار فيتأكد من أنه ـ كما تذكر الوثيقة ـ « ليس متشرداً ولا متعذراً ولا تخشى سطوته ، ولا لمن ينسى الوقف فى يده »(١٦٣) . وهذا يعنى أنه يجب على الناظر أن يتحرى الدقة عند تأجيره لأوقاف البيمارستان .

---

(١٦٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٣٦ .

(١٦١) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥ .

(١٦٢) انظر نص وثيقة وقف المنصور قلاوون فى ملاحق تذكرة النبيه ، حـ١ ، ص ٣٦١ ، ٣٩١ .

(١٦٣) انظر الوثيقة ، ص ٣٦١ .

ثانيا : عمارة البيمارستان واصلاح أوقافه : -

كان على ناظر البيمارستان أن يقوم بعمارة البيمارستان واوقافه ، والقيام باعمال الاصلاح والترميم اللازمة له . فقد جاء فى وثيقة وقف المنصور قلاوون على البيمارستان المنصورى والمؤرخة فى (١٢ صفر ٦٨٥هـ) ما يلى : « يبدأ الناظر بعمارة ما تجب عمارته فى الوقف والبيمارستان من اصلاح وترميم أو بناء هديم ، على وجه لا ضرر فيه ولا ضرار ، ولا اجحاف باحد فى عمل ولا اضرار »(١٦٤) وجاء ايضا فى وثيقة وقف قلاوون المؤرخة (٢١ صفر ٦٨٥هـ) : « وعلى الناظر ان يقوم بعمارة الموقوف ومرمته باصلاحه وتجديد ما تهدم من بنيانه ، وانشاء ابنية على ما يراه الناظر سفلا وعلوا بالات العمارة ، على ما يراه مما تظهر فيه المصلحة ويعود بالنفع على الوقف وأهله »(١٦٥) .

ومن أمثلة عمليات الاصلاح والترميم التى قام بها صحابة نظر البيمارستان المنصورى ، عملية العمارة والاصلاح والترميم التى قام بها الأمير جمال الدين اقوش ، وذلك فى مستهل عام ٧٢٦هـ/ديسمبر ١٣٢٤م؛ فقد أمر باخلاء الدواوين والقاعات من المرضى ، ولم يبق بالبيمارستان الا بعض المرضى ذوى الحالات الخطيرة ، وشرع فى العمارة . واستمرت عمليات الاصلاح والترميم شهوراً حتى انتهت فى يوم الثلاثاء ١١ جمادى الأولى ٧٢٦هـ/يوليو ١٣٢٦م باضافة قاعة جديدة الى قاعات البيمارستان المنصورى . وقد اجرى اقوش هذه العمارة وما اضافه من قاعة جديدة من ماله الخاص دون مال الوقف(١٦٧) .

---

(١٦٤) انظر الوثيقة ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(١٦٥) انظر الوثيقة ، ص ٣٩١ .

(١٦٦) لمزيد من التفاصيل انظر : المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، م٢ ، ص ٤٠٧، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ٢٧٣ ، محمد سيف ، منشآت الرعاية الاجتماعية ، ص١٠٤.

(١٦٧) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ٢٧٤ ، المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٧ ، وانظر أيضا أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٩٤ - ٩٥ ، محمد سيف منشآت ، ص ١٠٤ .

وقام الأمير صرغتمش(١٦٨) أيضا بعمليـــات ترميم واصـــلاح للبيمارستان المنصورى وأوقافه عندما تولى صحابة نظر البيمارستان فى ذى القعدة ٧٥٥هـ/نوفمبر ١٣٥٤م من قبل السلطان الناصر حسن . فقد أهتم صرغتمش بالكشف على ما يحتاج اليـــه البيمارستان وأوقافه من العمارة ، وركب مع القـــاضى ابن خطيب بيت الآبار - وكان الأمـــير صرغتمشى قد ولاه أمر التحـــدث فى البيمارستان - ومعهما المهندسون لكشف ما يحتاج اليه البيمارستان من العمارة . ويذكر المقريزى «أنه كتب تقدير المصروف ثلثمائة الف درهم ، فرسم بالشروع فى العمارة ، فغمرت الأوقاف حتى ترقع ما فسد منها ونودى بحماية من سكن فيها »(١٦٩) .

كذلك قام الأمير جارقطلوا بن عبد الله الظاهرى(١٧٠) عنـــدما تولى صحابة نظر البيمارستان المنصورى فى ٥ جمادى الآخرة ٨٣١هـ/ ٢٣ مارس ١٤٢٨م بعملية ترميم واصلاح أخـــرى لأوقاف البيمارستان ، فيذكر الصيرفى(١٧١) انه ابتدأ فى أول رمضان ٨٣٢هـ/٤ يونية ١٤٢٩م بهدم حوانيت الصيارف وسوق الكتب وحوانيت الدواوين .. فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية وهى جارية فى وقف البيمارستان المنصورى لتجدد عمارتها فى أيام ناظرها المقر الاتابكى جارقطلوا والقاضى نورالدين ابن مفلح(١٧٢) .

ثالثا - قيام الناظر بتحصيل ريع الأوقاف :-

فقد اشترطت وثيقة وقف المنصور قلاوون على ناظـــر البيمارستان

---

(١٦٨) انظر ترجمة صرغتمش فى المنهل ، حـ٦ ، ص ٢٤٢ - ٣٤٤ ، الدرر ، حـ٢ ، ص ٢٠٥ ؛ المقريزى ، المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(١٦٩) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٨ .

(١٧٠) انظر ترجمة جارقطلوا فى المنهل ، حـ٤ ، ص ٢١٢ - ٢١٥ ، الضـــوء اللامع ، حـ٣ ، ص ٥١ .

(١٧١) نزهة النفوس ، حـ٢ ، ص ١٥٩ .

(١٧٢) انظر ترجمة القاضى نور الدين بن مفلح عند السخاوى ، الضوء اللامع ، حـ٦ ، ص ٣٩ ، وانظر أيضا ابن تغرى بردى ، النجوم ، حـ١٥ ، ص ٢٢٠ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٤ ، ق٣ ، ص ١٩٦٥ .

المنصورى أن يتحرى الدقة ويتبع كافة الحيل فى تحصيل ريع الأوقاف على أكمل وجه ، فقد نصت على أن :ـ

« يتحرى الناظر فى تحصيل ريع الوقف أحسن الحيل على حسب الامكان ، ويطلب ذلك حيث كان فى كل جهة ومكان ، بحيث لا يفرط ولا يفرط .. ولا يهمل حقا معينا ، ولا يغفل عن أمر يكون صلاحه بينا »(١٧٣) .

واظهر بعض النظار نوعاً من التشدد فى تحصيل ايجارات أوقاف البيمارستان.ومن هؤلاء الأمير علم الدين سنجر الجاولى(١٧٤) ، الذى ولى صحابة نظر البيمارستان المنصورى فى جمادى الآخرة ٧٣٥هـ/ فبراير ١٣٣٥م ـ فيذكر اليوسفى(١٧٥) أنه اتفق فى ولاية علم الدين سنجر للبيمارستان امور كثيرة من العسف ، فانه طلب حساب البيمارستان ، فوجد فيه مائة ألف درهم متاخرة من البواقى بقيت على سكان الدكاكين وسكان الرباع من الأوقاف وشىء من القروض على الناس ، فطالب بها ، ورسم ان يستخلصها من الناس ، وكان منهم متأخر من عشرين سنة واقل ، وشعر الناس بالم كبير ، وعرفه بعضهم ان جميع أموال هذا البيمارستان صدقة لله تعالى من صاحبها ، فلم يلتفت الى ذلك ، واشتد امره على الناس ، والقى ببعضهم فى السجون بسبب هذا الدين . وهكذا أظهر الجاولى نوعاً من التشدد فى جباية أموال الأوقاف الخاصة بالبيمارستان المنصورى ، ولعل تشدده هذا ينبع من حرصه على ريع البيمارستان ودخوله .

وبلغ من تشدد الأمير سنجر الجاولى أيضا أنه لم يخرج مال الصدقة من ريع البيمارستان ؛ فيذكر المقريزى فى حوادث عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م « فيها كثر ضبط الأمير علم الدين سنجر الجاولى لأوقاف البيمارستان ،

---

(١٧٣) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ .

(١٧٤) انظر ترجمة سنجر الجاولى فى المنهل ، حـ٦ ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ، الدرر الكامنة ، حـ٢ ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ ؛ الصفدى ، اعيان العصر ، مخطوط ، ورقة ٤٠٧ ـ ٤٠٩ . السبكى ، طبقات الشافعية ، حـ٦ ، ص ١٠٦ .

(١٧٥) نزهة الناظر فى تاريخ الملك الناصر ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

وتوقفه فيما يصرف منه للصدقات »(١٧٦) مما دفع السلطان الى أن يرسل اليه ، ويطلب منه الا يضيق على الناس لأن المرستان كله صدقة(١٧٧) ، خاصة بعد أن تشدد كذلك فى الاشربة والأدوية ، فكان اذا طلب أحد اشياف(١٧٨) للعين يعد له واحدة بعد واحدة ، واذا كتب له أربع اواق شراب أو غيره يصرفها أوقيتين ، وضيق على سائر مباشرى البيمارستان وغيرهم من الفقراء والصعاليك - كما يذكر اليوسفى(١٧٩).

رابعا - تعيين موظفى البيمارستان :-

من مهام الناظر أيضا تعيين جميع موظفى البيمارستان بداية من شيخ الطب أو رئيس الأطباء وحتى القومة ؛ فتذكر وثيقة وقف المنصور قلاوون : « ويصرف الناظر لمن ينصبه شيخاً ... للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه فى الأوقات التى يعينها له الناظر »(١٨٠) .

ويقوم الناظر أيضا بتعيين جميع أطباء البيمارستان من طبائعية (أى أطباء الأمراض الباطنية) وكحالين (أطباء العيون) وجرائحيين (أى من يقومون بالعمليات الجراحية) ،وله الحرية فى تحديد اعدادهم كما يتراءى له(١٨١).ولم تقتصر مهمة الناظر على مجرد تعيين أطباء البيمارستان،بل كان عليه ان يشرف على سير اعمالهم ، وكيفية تطبيقهم لنظام المناوبة ، ويكون ذلك باذن منه ، فقد نصت الوثيقة على : « يباشر

---

(١٧٦) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٤١٢ .

(١٧٦) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٤١٣ .

(١٧٧) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق٢ ، ص ٤١٣ ، اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٥٥ .

(١٧٨) الاشياف عبارة عن دواء مسحوق يستعمل للعيون كما انها أيضا الدواء الذى يعمل منه قمعا أو تلبيسة (فتيلة) لمعالجة أمراض المستقيم . انظر محمد محمد أمين ، الاوقاف ، ص١٦٢ ، هامش١ ، محمد سيف منشآت الرعاية الاجتماعية ،ص٥٧.

(١٧٩) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٥٥ .

(١٨٠) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٦ .

(١٨١) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٥ .

الأطباء المرضى المختلين ـ الرجال والنساء ـ بهذا البيمارستان مجتمعين أو متناوبين ٠٠٠ باذن الناظر فى التناوب »(١٨٢) ٠

ويعين الناظر أيضا خازناً وامينا ـ وهما اشبه بالصيدلى والممرض فى عصرنا الحديث ـ ، فتنص وثيقة وقف قلاوون على : « ويرتب رجلين مسلمين موصوفين بالديانة والأمانة يكون أحدهما (خازن) لخزن حاصل التفرقة ٠٠٠٠ ويكون الآخر (أمينا) ٠٠٠٠ وللناظر أن يزيد عليهما فى العدة اذا لم يكفيا ما اشترط عليهما مباشرته »(١٨٣) ٠

ويرتب الناظر أيضا القومة من الرجال والنساء لخدمة المرضى ٠٠٠ وهو الذى يحدد عدد هؤلاء القومة والفراشين بحيث لا يزيد فى العدد كما تذكر الوثيقة(١٨٤) ٠

وكان السلطان المنصور قلاوون ـ بصفته الناظر الشرعى لهذا البيمارستان أول من قام بترتيب الحكماء الطبائعية والكحالين والجرائحين والمجبرين بهذا البيمارستان »(١٨٥) ٠ ويذكر اليوسفى أيضا أن الأمير علم الدين سنجر الجاولى رتب فى المرستان جماعة من الحكماء لم يكونوا مستحقين ، وتدخل السلطان ، ورسم بصرف اثنين من هؤلاء الحكماء الذين استجدهم الأمير علم الدين بالمرستان(١٨٦) ٠

وقد اهتم ناظر البيمارستان المنصور بانتظام العمل فى البيمارستان وانتظام العاملين فى أداء أعمالهم ومداومتهم عليها ، فكان الأمير جمال الدين أقوش يدخل اليهم على غفلة ، ويتفقدهم ، ويجد بعضهم لم يحضر فى الليل ، وكذلك يصعد الى علو المأذنة ، ويتفقد المؤذنين ، ويعلم من حضر ومن غاب ، فيجد جماعة ، ويدخل أماكن الدرس وغيرها ، فيجد من حضر ويعرف من غاب ، وذات يوم نزل من الخدمة ، وأوصى

---

(١٨٢) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ٠

(١٨٣) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ٠

(١٨٤) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٧ ٠

(١٨٥) انظر النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص١٠٧؛ ابن الفرات ، م٨ ، ص ٩٠

(١٨٦) نزهة الناظر ، ص ٣٥٥ ٠

ان يحضر سائر من له وظيفة فى البيمارستان ، ونزل فوجد الجميع قد حضروا ، فسلم لمماليكه العصى بايديهم ، وراح يدعوهم الواحد بعد الآخر ، وكل من دخل اخذته أيدى مماليكه بالعصى على اكتافه ضربا مؤلما الى أن فعل بالجميع هذا . ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع احد موظفى البيمارستان عن وظيفته ابدا كما يروى اليوسفى(١٨٧) .

خامسا ـ الصرف على مصالح البيمارستان من ريع أوقافه : ـ

من مهام الناظر أيضا ما يتعلق بالنواحى المالية ، لأن الناظر بعامة هو « من ينظر فى الأموال وينفذ تصرفاتها ، ويرفع اليه حسابها لينظر فيه ويتأمله فيمضى ما يمضى ، ويرد ما يرد »(١٨٩) . أى أن الناظر أشبه بالمشرف المالى أو بمعنى آخر المشرف الرسمى على الايراد والمنصرف، ولديه جميع البيانات الخاصة بالمتحصلات والمصروفات والبواقى والفوائض والمتأخرات(١٩٠) .

وحددت نسخة توقيع ناظر البيمارستان المنصورى من أرباب الاقلام مهام الناظر المالية ومنها : « اقامة وظائفها واعتبار مصارفها ... وتمييز حواصلها بما يستدعى اليها من الاصناف التى يعز وجودها ... وضبط تلك الحواصل التى لا خزائن لها أوثق من أيدى امنائه وثقاته »(١٩١) .

وكان الناظر يقوم بالصرف على مصالح البيمارستان من ريع أوقافه ، وقد حددت وثيقة وقف المنصور قلاوون أوجه الصرف هذه على النحو التالى : ـ

١ ـ صرف رواتب العاملين بالبيمارستان من مشد وناظر ومشارف

---

(١٨٧) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

(١٨٨) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ق١ ، ص٨ . محمد سيف ، منشآت ، ص ١٠٥ .

(١٨٩) القلقشندى ، صبح الأعشى ، حـ٥ ، ص ٤٦٥ ، ضوء الصبح ، ص٢٤٧ .

(١٩٠) محمد قنديل البقلى ، التعريف بمصطلحات صبح الاعشى ، ص ٣٤١ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، حـ٣ ، ص ١١٧٧ .

(١٩١) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ١١ ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

وشاهد وكاتب وخازن(١٩٢) « فيصرف لكل منهم من ريع هذا الوقف أجرة مثله عن تصرفه فى ذلك وفعله »(١٩٣) . ويصرف الناظر أيضا رواتب الخازن والأمين (أى الصيدلى والممرض) من ريع الوقف من غير حيف ولا شطط ، كما نصت الوثيقة(١٩٤) . كذلك يقوم الناظر بصرف رواتب الأطباء بمختلف تخصصاتهم فتنص الوثيقة على : « ويصرف الناظر ... لأطباء المسلمين الطبائعين والكحالين والجرائحيين بحسب ما يقتضيه الزمان ... وهو مخير فى تقرير الجامكيات ما لم يكن فى ذلك حيف ولا شطط »(١٩٥) . ونصت الوثيقة كذلك على « ان يصرف الناظر لمن ينصب شيخا للاشتغال بعلم الطب ... ما يرى صرفه اليه »(١٩٦) . ويقوم الناظر أيضا بصرف رواتب القومة والفراشين من الرجال والنساء بهذا البيمارستان نظير قيامهم بخدمة المرضى،فقد نصت الوثيقة على أن « يصرف الناظر للقومة والفراشين .. ما يرى صرفه الى كل منهم بحسب عمله ... على ما يراه من التقدير بحيث لا يزيد فى المقادير عن الحاجة اليه فى ذلك »(١٩٧) .

٢ ـ المشتريات : وتتضمن ـ كما جاء فى الوثيقة ـ شراء احتياجات البيمارستان من سرر حديد أو خشب ولحف محشوة قطنا وطراريح(١٩٨)

---

(١٩٢) المشارف عمله طلب التفاصيل الكاملة عن اية جهة من الجهات الضريبية التى تقع فى دائرة عمله ويدخل فى عهدته جميع المتحصلات المالية بعد ختمها . انظر محمد قنديل ، التعريف ، ص ٣١٢ . وعن الشاهد انظر القلقشندى ،صبح الاعشى ، حـ ٥ ، ص ٤٦٦ ، محمد قنديل ، التعريف ، ص ١٩١ . وعن الخازن ، انظر القلقشندى ، حـ٤ ، ص ٢٩ .

(١٩٣) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ .

(١٩٤) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

(١٩٥) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٥ .

(١٩٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٣٦ .

(١٩٧) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، وانظر أيضا النويرى ، نهاية الارب، حـ٣١ ، ص ١٠٧ ، ابن الفرات ،م ٧ ، ص ٩ .

(١٩٨) الطراريح هى كل ما يطرح ويفرش وهى المراتب والحشايا ، وهى المرتبة أو الكرسى الذى توضع عليه وسادة طرية . انظر محمد سيف ، منشآت ، ص ٥٣ ، حاشية ٢ .

محشوة بالقطن ايضا ، وملاحف قطن ، ومخاد طرح أو أدم لطيفة حسب ما يتراءى للناظر ، وهو مخير بين أن يشترى هذه الأشياء أو المفروشات جهازة أو يشتريها قماش، ويصرف أجرة خياطتها وثمن حشوها، وبحيث يوفر لكل مريض الفرش الذى يتلاءم مع مرضه(١٩٩) ٠

وتشمل المشتريات ايضا شراء الأدوات التى يستعملها المرضى ومنها فخار برسم أغذيتهم ، وأقداح زجاج ، وخزف برسم اشربتهم ، وكيزان وأباريق فخار ، وقصارى فخار وسرج وقناديل وزيت للوقـــود ٠ كذلك يصرف الناظر ثمن مكبات خوص لأجـــل تغطية أغذيتهم عند صرفها ، وثمن مراوح خوص لأجل استعمالها ايام الحر وفى فصل الصيف ليبعـد بها الذباب(٢٠٠) ٠

هذا الى جانب شراء المـــواد التى تســتخدم فى صناعة الادوية وتحضيرها ، فقد نصت الوثيقة على أن يصرف الناظر ثمن ســكر لصنع الاشربة المختلفة وعمل المعاجين ، وثمن ما يحتاج اليه من فواكه وخمائر ، وثمن ما يحتاج اليه من الادوية والعقاقير والمعاجين والمراهم والاكحال والشيافات والـذرورات(٢٠١) والســفوفات(٢٠٢) والترياقات(٢٠٣) والاقراص وغير ذلك(٢٠٤) ٠

٣ ـ الصرف على جهات البر ومنها تجهيز ودفن من يمت من المرضى فى البيمارستان ومن يمت بين أهله خاصة من الفقراء، فتنص الوثيقة على:

---

(١٩٩) انظر الوثيقة ، ص٣٦٣ ، وانظر أيضا ، المقريزى ، المواعظ ، م٢،ص٤٠٦٠

(٢٠٠) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٤ ، وانظر أيضا محمد سيف ، منشآت ، ص ٥٣٠

(٢٠١) الزرورات هى الادوية القاطعة للدم فى الجراحات وانتفاخ الشرايين . وتنفع فى علل الانف والبواسير والرعاف والاورام ٠ انظر محمد سيف ، منشآت ، حاشية ٢ ، ص ٥٧ ٠

(٢٠٢) السفوفات هى الادوية الممسكة او المسهلة وهى على شكل مسحوق يأخذ بواسطة الفم ٠ انظر محمد سيف ، منشآت ، ص ٥٧ ، حاشية ٣ ٠

(٢٠٣) الترياقات جمع ترياق وهو دواء مركب لعلاج السموم ، انظر محمد محمد أمين ، الاوقاف ، ص ١٦٤ ، حاشية ١ ٠

(٢٠٤) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٣ ٠

« ويصرف الناظر ما تدعو الحاجة اليـــه من تكفين من يموت بهـــذا البيمارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف اليه ما يحتاج اليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته فى قبره على السنة النبوية والحالة المرضية »(٢٠٥) . ونصت الوثيقة كذلك على : « وان مات بين أهله صرف اليه الناظر فى يوم تجهيـــزه وتغسيله وتكفينه وحمله الى مدفنه ومواراته فى قبـــره ما يليق به بين أهله »(٢٠٦) .

كذلك حرص الناظر على صرف اعانات للخارجين من البيمارستان بعد شفائهم فقد نصت الوثيقة على : « ومن حصل له الشفاء والعافية ممن هو مقيم بالبيمارستان صرف اليه الناظر عن ريع هذا الوقف كسوة ... وذلك وفق ما يراه ، ويؤدى اليـــه اجتهاده وبحسب ما تدعـــو اليه الحاجة »(٢٠٧) .

وقد اظهر بعض نظار البيمارستان كفاءة كبيرة فى ادارة حسابات البيمارستان ومن هؤلاء النويرى ، الذى باشر نظره فى شوال ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) وحتى آخر رمضان من عام ٧٠٧هـ/مارس ١٣٠٧م ويذكر فى هذا الصدد : « باشرت نظر البيمارستان المنصورى وما معه من الأوقاف المنصورية ... ورفع الى حساب المياومة »(٢٠٨) .

وبفضل مباشرة النويرى انتظمت الى حد كبير حسابات البيمارستان المنصورى وزادت ايراداته وريع أوقافه ، حتى عهد خليفته شهاب الدين ابن عبادة(٢٠٩) اذ حدث فى عام ٧١١هـ/١٣١١م ان اشترى السلطان

---

(٢٠٥) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ .

(٢٠٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ .

(٢٠٧) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٢٠٨) انظر النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٨ ، وانظر أيضا أمينـة محمد جمال الدين ، النويرى وكتابه نهاية الارب ، القاهرة ١٩٨٤م ، ص ٥٥ .

(٢٠٩) انظر ترجمة ابن عبادة فى الدرر ، حـ١ ، ص ٢٢٣ ، وانظر أيضا السلوك حـ٢ ، ق١ ، ص ٥٥ .

الناصر محمد بن قلاوون جواهر من تجـــار الفرنجة بمصر وغيرها من الحاجيات بمبلغ ستة عشر الف دينـــار ، واحالهم بها على كريم الدين اكرم(٢١٠) ٠ ناظر الخاص ، غير أنه لم يكن لديه شىء من هذا المبلغ ، فاستشار الأمير علاء الدين بن هلال الدولة(٢١١) والصـلاح الشرابيشى فحسنا له ان يستعين بايرادات البيمارستان المنصورى ٠ مما يدل على مدى الثقة التى تمتعت بها حسابات هذا البيمارستان(٢١٢) ٠

ومما يدل ايضا على انتظام حسابات البيمارستان وزيادة ريع أوقافه بفضل كفاءة نظاره ومعرفتهم بالحساب ما يذكره المقريزى من ان الأمير جمال الدين اقوش عندما استقر ناظراً على البيمارستان فى جمادى الاخرة ٧٢٣هـ/يونيه١٣٢٣م « وجد حاصله أربعمائة ألف درهم ، سوى السكر وغيره قيمته مائة ألف درهم »(٢١٣) ٠

وتزايد ايضا ريع أوقاف البيمارستان فى عهــــد الأمير صرغتمش بفضل كفاءته وكفاءة نائبه ضياء الدين يوسف بن بيت الآبار لتصــل الى « أربعين ألف درهم فى الشهر»(٢١٤) ٠ وظلت دخول أوقاف البيمارستان فى زيادة حتى أن الرحالة ابن بطوطة يذكر : « ان مجبـــاه ألف دينار كل يوم »(٢١٥) ٠

وقد حددت وثيقة وقف المنصور قلاوون ما يجب ان يفعله الناظر فى

---

(٢١٠) عبد كريم الدين اكرم انظر ، الدرر ، حـ١ ، ص٤٢٩ ـ ٤٣١ ، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ٩٥ ٠

(٢١١) هو على بن جلال الدولة الشيزرى ولد بشيزر ثم قدم مصر وباشر شد العمارة وخدم عند أحمد بن عبادة فى نظر الخاص والاوقاف ، توفى بشيزر ســنة ٧٣٩هـ ٠ انظر ترجمته فى الدرر ، حـ٣ ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ ٠

(٢١٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ١ ، ص ٢٤٠ ، المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ق١ ، ص ١٣ ، وانظر أيضا أمينة جمال الدين ، النويرى ، ص ٥٧ ٠

(٢١٣) المقريزى ، السلوك ، حـ٢ ، ق١ ، ص ٢٤٧ ٠

(٢١٤) المقريزى ، السلوك ، حـ٣ ، ق١ ، ص ٨ ٠

(٢١٥) ابن بطوطه ، الرحلة ، ص ٣٣ ٠

حالة اذا ما نقص ريع أوقاف البيمارستان عن استيعاب المصـــاريف التى سبق ذكرها ، اذ نصت على : « أن يقـــدم الناظر صرف الأهم فالمهم من ذلك ... ويقدم الاحوج فالاحوج بحسب ما تقضيه المصلحة ... وعلى الناظر فى هذا الوقت ان .. لا يقدم صاحب جاه على ضعيف ولا قوى على من هو أضعف منه ، ولا متاهل على غريب بل يقدم من فى الصرف اليـه »(٢١٦) .

معاونو ناظر البيمارستان المنصورى .

كان يعاون الناظر فى أداء مهامه مجموعة من الموظفين، فقد وردفى وثيقة المنصـــور قلاوون المؤرخة فى ١٢ صـــفر ٦٨٥هـ من بين موظفى البيمارستان « الخزان الامنـــاء والمباشرين وغيرهم »(٢١٧) . ونصت الوثيقـــة فى موضـع آخـــر على انه « ليس للناظـــر .. أن يـــنزل بهذا البيمارستان ... من المباشرين ولا من ارباب الوظائف يهـــودياً ولا نصرانياً »(٢١٨) . وكان من بين هؤلاء المباشرين «مباشرو العمارة» ويقوم هؤلاء بشراء المواد اللازمة لعمل الترميمات والاصلاحات اللازمة ، مع مراقبة مختلف الابنية الموقوفة واستخدام الصناع والعمال . وقد حدد النويرى اختصاصاتهم - بوصفه ممن تولوا نظر البيمارستان المنصورى - فذكر : « اما العمارة فلها مباشرون ينفردون بها من ابتياع الأصناف ، واستعمال الصناع ، ومرمة الأوقاف وغير ذلك مما يدخل فى وظيفتهم ... ويكتبون فى كل شـــهر استحقاق(٢١٩) بثمن الأصـــناف وارباب الأجر »(٢٢٠) ثم يرسلون هذا السجل أو الاستحقاق الى الناظر ليتولى عملية الصرف وسداد الأموال الى مستحقيها(٢٢١) .

---

(٢١٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٨ .

(٢١٧) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٠ .

(٢١٨) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ .

(٢١٩) يقصد بالاستحقاق اجراء سجل او جريدة بما هو مستحق لارباب الجامكيات أى الرواتب . انظر النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، تحقيق السيد الباز العرينى ، ص ١٠٨ ، حاشية ٤ .

(٢٢٠) النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٩ .

(٢٢١) حياة الحجى ، البيمارستان المنصورى ، ص ٢١ .

ويعاون الناظر فى تحصيل ايجارات أوقاف البيمارستان عدد آخر من المباشرين ويعرف هؤلاء « بمباشرى الصندوق والرباع » ويحدد النويرى أيضا اختصاصاتهم بقوله : « واليهم يرجع تحرير جهات الأوقاف فى الخلق والسكون والمعطل ، واستخراج الأموال ، ومحاسبات المستاجرين ، وصرف الأموال بمقتضى حوالة(٢٢٣) ٠

ويساعد الناظر أيضا جماعة ثالثة من المباشرين يعرفون باسم « مباشرى الادارة » ومهمتهم ابتياع ما يحتاج اليه البيمارستان من الأصناف ، وضبط ما يدخل الى المكان وما يخرج منه خاصة من غير أن يكون لهم تعلق فى استخراج(٢٢٤) ، ويكتبون فى كل شهر عمل استحقاق لسائر أرباب الجامكيات والجرايات من سائر أرباب الوظائف والمباشرين، يكتبه العامل ، ويكتب عليه الشهور ، ويأمر الناظر بصرفه ، ويخلد فى ديوان الصندوق ويعرفه على حكمه(٢٢٥) ٠

وقد خصصت لهؤلاء المباشرين أجور نظير قيامهم بهذا العمل ،فقد نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون على : « ثم ما فضل بعد ذلك صرف منه الناظر ما يرى صرفه لمن يتولى ايجار ذلك ، واستخراج أجرته وعمارته »(٢٢٦) ٠

وكان لصحابة نظر البيمارستان المنصورى ديوان يطلق عليه

---

(٢٢٢) الحوالة وثيقة تجيز لحاملها ان ينال ما هو مستحق له من المرتبات من المتحصل من الجهات المقررة له بها ٠ انظر النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٦ ، حاشية ٥ ٠

(٢٢٣) النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٩ ٠

(٢٢٤) صندوق المستخرج أو ديوان الصندوق يختص بالنظر فى جهات الوقف ، وما طرأ عليها من زيادة أو ركود أو تعطيل ، كما يختص باستخراج الاموال ومحاسبات المستاجرين وصرف الاموال ٠ انظر النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٩ ، حاشية ٣ ٠

(٢٢٥) النويرى ، نهاية الارب ، حـ٣١ ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، وانظر أيضا المقريزى، المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٧ ٠

(٢٢٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ ٠

القلقشندى اسم « ديوان صحابة نظر البيمارستان »(٢٢٧) وليس هذا بالغريب لأن من تولوا صحابة نظر البيمارستان المنصورى أو نيابته كانوا من كبار الأمراء بالديار المصرية . وجرت العادة أن يكون لكل امير ديوان . وقد تألف ديوان صحابة نظر البيمارستان على نحو ما جاء فى وثيقة المنصور قلاوون من « مشد وناظر ومشار وشاهد وكاتب وخازن »(٢٢٨) . ويلاحظ هنا ان المشد تقدم على الناظر مما يظهر اهمية وظيفته للبيمارستان.والمشد أو الشاد لفظ استخدم فى دولة المماليك للدلالة على موظف كان له حق التقوية وما يتبع ذلك من سلطان المراقبة والاشراف والتفتيش والمعاونة والتوجيه والتعمير والاستثمار وغير ذلك . وتدل هذه اللفظة على وظائف مختلفة لكل منها اختصاصاتها بحسب نوع الشد الذى يتولاه الموظف ، وكثيراً ما أضيف كلمة شاد الى اسم الادارة أو الجهة التى يتولى الموظف شدها ، مثال ذلك شاد الاحباس ، وشاد الاوقاف ، وشاد العمارة ، وشاد البيمارستان وغيرها(٢٢٩) .

ونظراً لأن وظيفة المشد جاءت فى الوثيقة غير متبوعة بما يوضح نوعية هذا الشد ، فضلا عن كونها من وظائف ديوان صحابة نظر البيمارستان ، فمن المحتمل ان يقصد بالمشد هنا مشد عمائر البيمارستان وما يتبعه من أوقاف . وكان واجب هذا المشد أن يحرص على مصالح الوقف والمستحقين له ، بأن يجدد ويصلح مبانى الوقف ، وأن يشرف على أرباب الصناعات المختلفة فى العمائر ، ويحثهم على العمل مع الرفق بهم ، والا يستعمل أحداً فوق طاقته ، وعليه ايضا ان يمكنه من الأكل ، وان يطلق سراحه أوقات الصلوات؛ومن عمله ايضا انه يعاون فى جباية ريع الوقف(٢٣٠) .

ولم تذكر المصادر اسماء من تولوا وظيفة الشد بديوان صحابة نظر

---

(٢٢٧) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٤ ، ص ٣٤ .

(٢٢٨) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ .

(٢٢٩) حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، حـ٢ ، ص٦٠٥ ـ ٦٠٧ .

(٢٣٠) السبكى ، معيد النعم ، ص ١٢٩ ، وانظر ايضا حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف ، حـ ٢ ، ص ٦١٧ .

البيمارستان المنصورى، اللهم الا الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى عهد اليه السلطان المنصور قلاوون بشـــد عمـــارة البيمارستان عنـــد بنائه(٢٣١) ٠

اما الناظر فهو الذى ينظر فى الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع اليه حسابها لينظر فيه ويتأمله فيمضى ما يمضى ويرد ما يرد(٢٣٢) اى انه المشرف الرســـمى على جميع ايرادات الديوان ومصروفاته ؛ ولا بد من توقيعه على كل ما يخرج من الديوان من أوراق(٢٣٣) ٠

وعن المشارف يذكر ابن مماتى(٢٣٤) ان أمره جار على أمر الناظر وهو يزيد على الناظر بأن يكون الحاصل من المستخرج فى مودعه وتحت حوطته بعد أن يكون مختوماً عليه ، ومهمته ايضـــا هو والناظر ضبط عامل الديوان والشد منه ٠

ومن موظفى ديوان صحابة نظر البيمارستان أيضا الشاهد والكاتب والخازن٠أما الشاهد فهوالذى يشهد بمتعلقاتالديوان نفياً وأثباتا(٢٣٥)٠ وقيل أيضاً انه هو الذى يضبط كل شىء مما هو شاهد فيه،وعليه أن يكتب الحساب الموافق لتعليقه وعليه أيضا ضبط الحواصل لا غير(٢٣٦) ٠

ونظراً لأن تشكيل ديوان البيمارستان يخلو من العامل فان الكاتب هنا يجرى مجرى العامل فى كل ما يتعلق به أى انه يتولى عمل الحسابات

---

(٢٣١) انظر ما سبق ص ٢ ، وانظر أيضا بيبرس المنصورى ، مختار الاخبار ، تحقيق عبد الحميد صالح مروان ، القاهرة ١٩٩٣م ، ص ٨٥ ٠

(٢٣٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٥ ، ص ٤٦٥ ٠

(٢٣٣) انظر حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ، ص ٨٤ ، محمد قنديل البقلى ، التعريف ، ص ٣٤١ ٠

(٢٣٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز ســوريال عطية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٣٠٢ ؛ ٣٠٣ ٠

(٢٣٥) القلقشندى ، صبح الاعشى ، حـ٥ ، ص ٤٦٦ ؛ وانظر أيضا محمد قنديل ، التعريف ، ص ١٩١ ٠

(٢٣٦) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٤ ، وحاشية ٨ ٠

ورفعها والكتابة على ما يرفعه غيره من معاملته منها بالصحة والموافقة(٢٣٧) ٠

أما الخازن فهو الذى يتولى خزن الغلات واخراجها ، ويلزمه عمل الأعمال بها ، ويطالب بما قد يعجز منها(٢٣٨) ٠ وهنا تجدر الاشارة الى أنه كان بالبيمارستان المنصورى اكثرمن خازن ،فقد نصت وثيقة المنصور قلاوون على ذلك اذ جاء فيها « والخزان الامناء ٠٠ »(٢٣٩) ٠ ولكن مما يؤسف له ان المصادر لم تذكر اسماء من تولوا وظائف ديوان صحابة نظر البيمارستان المنصورى ٠



يتضح من العرض السابق لمهام ناظر البيمارستان المنصورى انها كانت كثيرة ومتعددة ، مما تطلب أن يساعده فى تأديتها مجموعة من الموظفين سواء داخل ديوان البيمارستان أم خارجه ٠ ونظرا لتعدد مهام صحابة نظر البيمارستان المنصورى فكان ولابد أن يتولى هذه الوظيفة شخص مؤهل فكريا واداريا وماليا وعلميا بل وفنيا ايضا حتى يصبح بامكانه القيام بواجباته ومسئولياته بجدارة وليحقق الأهداف المرجو من وراء نشأة البيمارستان ٠ وقد أظهر العديد من نظار البيمارستان المنصورى فيما بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، كفاءة ومقدرة ،وكانوا أهلا لتولى هذا ، المنصب ،وان كانت هناك قلة قد تسلقت هذا المنصب وهى تفتقر الى المقدرة والكفاءة والاستحقاق والأهلية والجدارة ،وذلك عن طريق المهاداة والبذل والرشوة ٠وازدادات هذه الظاهرة فشوا فى الشطر الأخير من دولة سلاطين المماليك عندما اختلت نظمها وساءت أحوالها وتفشت فيها الأمراض الاجتماعية التى أدت الى سقوطها ٠

---

(٢٣٨) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٢ ٠

(٢٣٨) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٦ وعن الخازن انظر أيضا القلقشندى ، صبح الاعشى ، ح٥ ، ص٤٦٢-٤٦٣ ، محمد قنديل ، مصطلحات ،ص١١٢٠

(٢٣٩) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٠ ٠

قائمة المصادر والمراجع

أولا : الوثائق :

— وثائق وقف المنصور قلاوون على البيمارستان المنصورى ، دراسة ونشر وتحقيق محمد محمد أمين : ملاحق ابن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه .
الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٦م .

— وثيقة وقف الطبيب أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن موسى رئيس المجبرين والجرائحيين بالبيمارستان المنصورى على مصالح البيمارستان وغيره .
محفظة ٢٤/حجة ١٥٤ مؤرخة ٢٢ ذو الحجة/٨٧١هـ وثائق محكمة الأحوال الشخصية (الولاية على النفس) .

— وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى
دراسة ونشر وتحقيق عبد اللطيف ابراهيم ، مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة ، م ١٨ ، حـ٢ ديسمبر ١٩٥٦م .

ثانيا : المخطوطات :

— الخالدى (محمد بن عطف الله ت ٩هـ/١٥م)
المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا - مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٤٥ .

— صلاح الدين الصفدى (خليل بن ايبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
اعيان العصر واعوان النصر
ثلاثة أجزاء - مخطوط مصور عن مجموعة عاطف أفندى ، المكتبة السليمانية استانبول .
معهد تاريخ العلوم العربية الاسلامية ، المانيا ١٩٩٠م .

ثالثا : المصادر العربية :

— ابن اياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور
٥ أجزاء ، فيسبان (١٩٧٥ - ١٩٨٣م) .

— ابن تغرى بردى (جمال الدين ابوالمحاسن يوسف ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
الأجزاء من ٧ - ١٢ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
حـ ١٣ تحقيق فهيم شلتوت ، القاهرة ١٩٧٠م
حـ ١٤ تحقيق جمال محمد محرز وفهيم شلتوت القاهرة ١٩٧١م.
حـ ١٥ تحقيق ابراهيم طرخان ، القاهرة ١٩٧١م
حـ ١٦ تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم شلتوت ، القاهرة ١٩٧٢م

= حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور
حـ ١ تحقيق فهيم شلتوت ، القاهرة ١٩٩٠م .

- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٤ - ١٩٩٠م
والأجزاء ٣ ، ٥ تحقيق نبيل عبد العزيز ، القاهرة ١٩٨٦ - ١٩٨٨م .

— ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)
- انباء الغمر بابناء العمر ، تسعة أجزاء فى خمسة مجلدات ، بيروت ١٩٨٦م .
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة
تحقيق محمد سيد جاد الحق ، خمسة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٦م.

— ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)
- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه

الجزء الأول ، حوادث وتراجم (٦٧٨ - ٧٠٨هـ/١٢٧٩-١٣٠٨م)
تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٧٦م .

— ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل بن شاهين)
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
تحقيق بولس راويس ، باريس ١٨٩٤م .

— ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)
تاريخ ابن الفرات
الجزء السابع تحقيق قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٤٢م
الجزء الثامن تحقيق قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٩م .
الجزء التاسع تحقيق قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٣٦م .

— ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين : تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٩١م .

— السبكى (تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)
معيد النعيم ومبيد النقم
تحقيق محمد على النجار ، أبو زيد شلبى ، محمد أبو العيون ، القاهرة ١٩٤٨م .

— السخاوى (محمد بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر بن عمان ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)
- التبر المسبوك فى ذيل السلوك .
تصحيح أحمد زكى ، بولاق - مصر ١٨٩٦م .
- الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة
تحقيق جودة هلال د. محمد محمود صبح ،مصر ،بدون تاريخ .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .
١٢ جزء ، القاهرة ١٣٥٤ - ١٣٥٥ هـ .

— السيوطى (جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)
نظم العقيان فى أعيان الأعيان
(تراجم مشاهير القرن التاسع الهجرى)
حرره فيليب حتى ، المطبعة السورية الامريكية فى نيويورك ، ١٩٢٧م .

— الشجاعى (شمس الدين الشجاعى)
- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده
حققه وعربه الى الالمانية بربارة شيفر
القسم الأول : النص العربى فيسبادن ، ١٠٧٨م .

— الصيرفى (الجوهرى على بن داود ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)
- نزهة النفوس والابدان فى تواريخ أهل الزمان
أربعة أجزاء ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٤م، ١٩٩٤م .
- انباء الهصر بأبناء العصر
تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠م .

— القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
- صبح الأعشى فى صناعة الانشا
١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٢ - ١٩٢٢م
- ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر
طبع وتصحيح محمود سلامة ، مصر ١٩٠٦م .

— محب الدين (تقى الدين عبد الرحمن الشهير بابن ناظر الجيش
كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف
تحقيق رودلف فسلى
منشورات المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٧م.

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)
السلوك لمعرفة دول الملوك
الأجزاء من ١ - ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة .
الأجزاء ٣ ، ٤ تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠م ، ١٩٧٢م .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
مجلدان ، بيروت بدون تاريخ عن طبعة بولاق ١٢٧٠هـ .

- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)
- نهاية الارب فى فنون الأدب
حـ ١٣ تحقيق السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٩٢م .

- اليوسفى (موسى محمد بن يحيى ت ٧٥٩هـ/١٣٥٨م)
نزهة الناظر فى تاريخ الملك الناصر
تحقيق ودراسة محمد حطيط ، بيروت ١٩٨٦م .

رابعا : المراجع العربية :

- أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٩م.

- حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، حـ٢ ، حـ٣ ، القاهرة ١٩٦٦م .

- حياة ناصر الحجى ، « البيمارستان المنصورى منذ تاسيسه وحتى نهاية القرن ٨هـ/١٤م » بحث منشور فى المجلة العربية للعلوم الانسانية ،م٨ ، العدد ٢٩ ، الكويت ، شتاء ١٩٨٨م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور :
- العصر المماليكى فى مصر والشام - القاهرة ، ١٩٩٤ .
- حضارة الاسلام - القاهرة ، ١٩٨٨ .

- محمد حمزة اسماعيل الحداد ، السلطان المنصور قلاوون (تاريخ - أحوال مصر فى عهده - منشآته المعمارية) القاهرة ، ١٩٩٣م .

— محمد سيف النصر أبو الفتــوح ، « منشــآت الرعاية الاجتماعية فى القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك » .
رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة أسيوط ، ١٩٨٠م .

— محمد قنديل البقلى ، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، القاهرة ١٩٨٤م .

— محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ١٩٨٠م .

— محمد محمد أمين وليلى على ابراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) ، مصر ، ١٩٩٠م .

خامسا : المراجع الأجنبية :

Van Berchem, · Corpus Inscriptorum Arabicarum, Premiére Partie. (Egypte — Paris, 1903)

هبــة اللــه بن ملــكا
ونظرته الى المعارف والعلوم

د٠ مريزن سعيد عسيري(*)

مقــدمة :

حفل تاريخ الحضارة الاسلامية بالعــديد من الشخصيات العلمية البارزة التى كان لها دور رائد فى تطور العلوم بشكل عام ، بل أن بعضهم انجز من الأعمال العلمية ما يمـكن اعتباره اكتشــافات جــديدة اثرت فى مسيرة الحضارة البشرية ٠

وقد تناول المستشرقون العديد من هذه الشخصيات الاسلامية بالدراسة والتحليل ، وقضى البعض منهم ســنين عــديدة فى دراسة آثار هؤلاء العلماء ، مثلما فعل المستشرق سخاو مع البيرونى ٠ حتى اوضح أن ذلك العالم من اعظم الشخصيات التى ظهــرت فى العصــور الوسطى ، وانه لولا دراساته لتأخرت مسيرة علم الفلك قروناً عديدة ٠

ومن علماء المســلمين الجديرين باهتمام الباحثين ، ابو البركات هبة الله بن ملكا البغدادى ، الذى تبدو عبقريته فى كتابه (المعتبر فى الحكمة) ٠ ويعتبر هذا الكتاب افضــل ما ظهر حتى عصره فى موضوع الحكمة ، اذ اشتمل على دراسات قيمة كانت وليدة أفكاره المحضة بعد ان حرر فكره من آراء السابقين ٠ لقد حاول بشكل جدى أن يقــدم دراسة مبنية على الفكر والتأمل واعمال العقــل فى صحيفة الوجود ، كما قال ، فعالج فى دراساته تاريخ المعرفة والعلم : بداياتها وتــكونها وكيف تتم ، والعلاقة بين المعرفة والعلم ، حتى توصل الى اكتشاف المعــرفة العلمية (الابستيمولوجيا) وكان ذلك أجمل ما تحدث عنه فى الجزء الأول من

(*) أستاذ مشارك بقسم الحضارة والنظم الاسلامية ـ جامعة أم القرى ٠

كتابه المخصص لدراسة علم المنطق . أما الجزء الثانى من كتابه ، فقد خصصه للحديث عن العلوم الطبيعية باقسامها وتفصيلاتها . ومن يطلع على هذا الجزء من كتابه هذا ويتفحص دراساته ومباحثه بروية وتامل، يدرك ان المؤلف قدم دراسات جديدة ، وتوصل الى حقائق علمية محضة، دعمها بالبرهان والدليل العقلى . ويبدو أن اغلب ما توصل اليه من جديد كان سببه اعتماده فى ذلك على الملاحظة الدقيقة ، والتجربة احيانا ، ثم استنباط النتائج. كل ذلك أدى به الى أن يحلل ويفسر الكثير من الظواهر الطبيعية بشكل واقعى ومنطقى . وهكذا فان ما توصل اليه علماء عصر النهضة الأوروبية فى كثير من الانجازات سبقهم اليها هبة الله بن ملكا ، وخاصة فيما يتعلق بظواهر الحركة والجاذبية وحركة المياهالجوفية ولاسيما العيون الفواره ، وغير ذلك كثير .

أما الجزء الثالث من كتابه هذا فقد أفرده للحديث عن الالهيات وما وارء الطبيعة . وعلى الرغم من اقتفائه منهج أرسطو فى دراسته هذه ، الا انه لم يتبعه فى رأيه ولم يقر آراء من اتبعه من الحكماء والفلاسفة ، بل كانت آراؤه مبنية على تفكيره الخاص وما توصل اليه بعقله . وقد شهد له شيخ الاسلام ابن تيمية بذلك .

وفى هذه الدراسة نقدم عرضا عن شخصية ابن ملكا وحياته العلمية، مما نعتبره المدخل أو الخطوة الأولى لدراسة آرائه وأفكاره فيما يخص المعرفة والعلم ، وخاصة ان كتابه المعتبر فى الحكمة لم يجد حتى اليوم الاهتمام الذى يستحقه من قبل الباحثين فى تاريخ العلوم الاسلامية .

وتنقسم هذه الدراسة الى قسمين : -

القسم الأول : ونتناول الحديث فيه عن شخصية المؤلف وحياته العلمية وأهمية كتابه (المعتبر فى الحكمة) .

والقسم الثانى : وقد افردناه لآرائه ودراساته فى المعارف والعلوم.



القســـم الأول

ابن ملــكا حياته ، ثقافته ومصنفاته

حيــــاته :

هو أوحد الزمان ابو البركات هبة اللــه بن على ملــكا البغدادى ، ولد فى بلد(١) ، ولكن نشأته واقامته كانت ببغداد .

وعلى الرغم من المكانة العالية التى حظى بها فى حياته سواء فى النواحى الثقافية والعلمية والتطبيبية او الاجتماعية ، الا أن المصـــادر المختلفة التى كتبت عنه لا تعطينا صورة كاملة ومفصلة عن أحداث حياته . ويكفى أن نعرف أن الرجل كان من أساطين المعرفة ، ومن الفلاسفة القلائل الذين يظهرون على مسرح التــاريخ بين الآونة والأخـــرى ، وقد لقب بأوحد الزمان ، وبفيلسوف العراقين(٢) ، ولم يعرف فى الفترة الواقعة بعد ابن سيناء من بلغ رتبته فى العلوم الحكمية ، بل ان مباحثه ودراساته فيها فاقت من ظهر قبله على مر العصور ، ومن جاء بعده حتى غروب شمس الحضارة الاسلامية .

ومع علو مكانته ، واهمية كتابه « المعتبر فى الحكمة » الا أن تقييم جهوده فى هذا الكتاب لم يتم الا فى العصور اللاحقة ، لا سيما فى العصر الحـــديث .

والواقع انه مما يستثير الدهشة حقا ان شخصية لها هذه المكانة من سمو الفكر تظل بعيـــدة عن أضـــواء الباحثين ، فى حين حظى غيرها بالكثير من التقدير والاجلال فى كتب التراجم وكتابات المؤرخين . ذلك أنه على الرغم من كثرة كتب التاريخ والتراجم التى ظهرت فى زمنه أو

---

(١) بلد : ذكر ياقوت عدة مواضع بهـــذا الاسم . على ان الأرجح منهـــا وهو ما يعنينا هنا انها مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل . وينسب لهذه البلدة العديد من العلماء المسلمين . ياقوت : معجم البلدان حـ١ . ص ٤٨١ .

(٢) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام . ص ١٥٢ .

بعده بقليل الا ان أحداً لم يعطه حقه من العنــاية ، اللهم ســوى تلك المؤلفات التى ظهرت بعده والتى تعرضت لسير الأطباء والحكماء ، ومع ذلك فان هذه الاشارات الى ابن ملكا وكتابه جاءت غير كافية ولا تتوازى مع شهرته الفكرية وما تميز به عن نظرائه فى العصور الاسلامية .

من ذلك ان المصادر لم تمدنا بمعــلومات كافية عن ولادته ببلد ، وكذلك سنة وفاته لم تحظ باتفاق بين ســائر من كتب عنه . ومثل ذلك يقال عن اسلامه وحياته .

يقول البيهقى انه توفى سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م . ويعلل لوفاته بانه لم يوفق فى علاج السلطان مسعود بن محمــد بن ملـكشاه(٣) بسـبب قولنج(٤) اصابه ، فخاف ابن ملكا على نفسه فمات ضحوة ، لاسيما وان والد مسعود السلطان محمد بن ملكشاه(٥) كان قــد اتهمه بالتقصير فى المداواة قبل ذلك ، مما أدى الى حبســه فترة من الزمن(٦) . على ان الصفدى يذكر انه توفى سنة ٥٦٠/١١٤٦م(٧) .

أما سنة ولادته فلا تذكر المصادر شيئا عنها ، سوى ان البعض ذكر مدة حياته ، فجعلها البيهقى تســعين عاما(٨) . اما ابن أبى اصيبعة

---

(٣) مسعود بن محمد بن ملكشاه ، عقد له الخليفة المقتفى بالسلطنة سنة ٥٢١هـ/١١٢٦م . كانت ولايته مليئة بالاحداث والحروب بينه وبين أهله من ابنــاء البيت السلجوقى توفى سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م . صدر الدين الحسينى زبدة التواريخ . ص ٢٠٧ ـ ٢٢٩ . الحسينى : العراضة فى الحكاية السلجوقية . ص ١١٧ .

(٤) القولنج : مرض معوى مؤلم يتعسر معه خروج ما يخرج بالطبع . والقولنج بالحقيقة اسم لما كان السبب فيه فى الامعاء الغلاظ قولون . ابن سيناء : القانون حـ٢ . ص ٤٥٢ .

(٥) غياث الدين ابى شجاع محمد طبر بن ملكشاه تولى السلطة بعد وفاة اخيه بركيارق سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م وتوفى سنة ٥١١هـ/١١١٧م . صدر الدين الحسينى : زبدة التواريخ . صص ١٦٧ ـ ١٧١ .

(٦) تاريخ حكماء الاسلام . ص ١٥٢ ـ ١٥٣

(٧) نكت الهميان . ص ٣٠٤ .

(٨) تاريخ حكماء الاسلام . ص ١٥٢ .

فجعلها ثمانين عاما(٩) ، وبهذا الاختلاف الذى ذكرته المصادر فى سنة وفاته وكم عاش من السنين لايمكن بحال وعلى وجه التاكيد اعطاء سنة محددة لولادته . على أنه من المؤكد انه ولد بعد منتصف القرن الخامس الهجـــرى .

كان ابن ملكا يهودى النحلة ثم اســـلم . وتذكر المصادر روايات مختلفة ايضـا عن كيفيـــة اســـلامه(١٠) ، ولا تهمنا هـــذه الروايات كثيرا بقدر ما يهمنا ان الاسلام جلب عليه السـعادة ، واعطاه مركـزا مرموقا بين عامة الناس وخاصتهم ، فعاش عيشة هنيئة ، وقصده طلاب الطب والحكمة من الآفاق لينهلوا من علمه ومعارفه(١١) .

على أنه جاء فى المصادر أن ابن ملكا كانت أخلاقه لا تتسم وسمعته الحكمية والطبية . ذلك أنه عرف بالكبر ، هذا علاوة على التنافر الذى كان بينه وبين معاصره الطبيب الحاذق أبى الحسن هبة الله بن صاعد ابن التلميذ (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م)(١٢). ويذكر البعض فى ذلك أحداثاً حدثت بينهما ، حتى نقد بعضهما الآخر فى مجلس الخليفة(١٣) .

يذكر ابن خلكان ان ابن التلميذ كان يكره ذلك الكبر فى ابن ملكا ، فقال فيه(١٤) :

لنـــا صـــديق يهودى حماقته   اذا تـكلم تبـدو فيه من فيـــه
يتيه والـكلب اعـز منه مـنزلة   كانه بعـد لم يخرج من التيـه

---

(٩) عيون الانبياء ، ٣٧٦ .

(١٠) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٣ ، القفطى : اخبار العلماء ، ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ، صدر الدين الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٢٠٩ ؛ الشهرزورى : نزهة الارواح ، ص ٨٠ ؛ ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٥ .

(١١) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٥ .

(١٢) ، (١٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، حـ٦ ، ص ٧٤ ؛ ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٤٩ ـ ٣٧٦ .

(١٤) وفيات الاعيان ، حـ٦ ، ص ٧٤ .

وكذلك هجاه البديع الاسطرلابى بقوله(١٥) :

أبو الحسن الطبيب ومقتفيه ... أبو البركات فى طرفى نقيض
فهذا بالتواضع فى الثريا ... وهذا بالتكبر فى الحضيض

ويتفق ما قاله الاسطرلابى مع الواقع ، لأن أمين الدولة بن التلميذ كان مشهوراً بنبل الأخلاق والكرم والمروءة ، حتى ان تلامذة المدرسة كانوا ياتون اليه عند مرضهم فيطببهم بدون مقابل ، ويقوم بخدمتهم حتى اذا شفى احدهم وهبه دينارين وصرفه(١٦) .

اما كيف استطاع ان يتحصل بادىء الامر على علوم الطب والحكمة فتذكر المصادر ان أبا الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين(١٧) كان متفردا فى عصره بعلوم الطب ، وكان له مجلس علمى يتناوب فيه التلامذة عليه . على انه لم يكن يستقبل التلامذة اليهود فى مجلسه . وكان ابن ملكا يرغب فى أن يلتقى به ويتعلم على يديه ، ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا . وقد دعاه ذلك الى أن طلب من بواب ابن هبة الله ان يسمح له بالجلوس فى دهليز يستطيع السماع منه لدروس ابن هبة الله ، وما يجرى فى مجلسه من مناقشات وبحث . وبعد مدة سنة طرح فى مجلس الشيخ مسالة دار حولها النقاش دون أن يتوصلوا بأمرها الى جواب شاف . وحينئذ دخل ابن ملكا بعد استئذانه ، وطلب منه ان يدلى برأيه فى المسالة ، فتكلم عليها بأحسن الكلام ، واعجب الشيخ بذكائه وفصاحته وقال : « من يكون بهذا المثابه ما نستحل أن نمنعه من العلم ، وقربه من ذلك الوقت ، وصار من أجل تلامذته »(١٨) .

---

(١٥) وفيات الاعيان ، حـ٦ ، ص ٧٥ ؛ القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٦ ؛ ابن أبى اصيبعة ، عيون الانباء ، ص ٣٥٠ .

(١٦) ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٥٠ .

(١٧) كان سعيد بن هبة الله من المتميزين فى عصره بصناعة الطب ، ومشهورا فى علوم الحكمة ، خدم بالطب الخليفة المقتدى والمستظهر . وكان موجودا الى سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م . وله مصنفات حسان فى الطب . ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٤٢ .

(١٨) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ ؛ الشهرزورى : نزهة الارواح ، حـ٢ ، ص ٧٩ .

وهكذا كان تلقيه العلم على يد الشيخ سعيد بن هبة الله الذى لازمه مدة واستملاه كتابه الشهير « التلخيص النظامى »(١٩) ۰ وعندما شعر ابن ملكا بانه نال حظا جيدا من العلم ، بدأ يمارس أعمال الطب والمداواة واشتهر فى الآفاق ، وأصبح له مجلس علم مشهور ، قصده التلامذة من كل مكان ، لا سيما من أهل بغداد الذين استفادوا منه كثيرا ونهلوا من معارفه وعلومه(٢٠) ، وكان أشهرهم ممن كان يملى عليهم كتابه المعتبر عندما عمى فى أواخر أيامه : جمال الدين بن فضـلان ، وابن الدهان المنجم ، وابن يوسف والد الشيخ موفق الدين عبد اللطيف البغدادى صاحب كتاب الاعتبار المشهور ، والمهذب بن النقاش(٢١) ، وهؤلاء الأربعة كانوا من كبار الأطباء والحكماء الذين اشتهروا فى زمنهم ۰

ثقافتـــــه :

لقب ابن ملكا باوحد الزمان(٢٢) وبفيلسوف العراقين(٢٣) ، مما يشير الى تفرده فى عصره بالثقافة وســـعة المعرفة والتفنن فى العلوم ۰ وعلى الرغم من شهرته الطبية ، الا انه لم يعـــرف فى عصره والعصور اللاحقة ، ولم يشتهر الا بكتابه (المعتبر فى الحكمة) اذ كان له اهتمام بالغ بالعلوم الحكمية وفطرة فائقة فيها(٢٤) ، حتى نال مرتبة أرسطو ، وكان له طبع وقاد(٢٥) ۰

وقد اثنى عليه شيخ الاسلام أحمد بن عبـــد الحليم بن تيمية رحمه اللـــه(٢٦) فى بعض كتبه التى أفردها للرد على الفلاسفة والمناطقة ومن

---

(١٩) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٤٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان، حـ٦ ، ص ٧٥ ۰

(٢٠) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٥ ۰

(٢١) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٥ ۰

(٢٢) نفسه ، ص ٣٧٤ ۰

(٢٣) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ ۰

(٢٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ ۰

(٢٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ ۰

(٢٦) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ ۰

سار على نهجهم من علماء المسلمين ، وذلك على الرغم من اختلافه معه فى بعض الأمور ، فجعله من حذاق الحكماء(٢٧) ومن ائمة الفلاسفة واساطينهم(٢٨) ، وقال عنه : « واما ابو البركات صاحب « المعتبر » ونحوه ، فكانوا بسبب عدم تقليدهم لأولئك ، وسلوكهم طريق النظر العقلى بلا تقليد ، واستنارتهم بأنوار النبوات ، اصلح قولا ... »(٣٠).

كذلك قال عنه : « وأبو البركات لما كان معتبرا لما ذكره ائمة المشائين لايقلدهم ، ولا يتعصب لهم ، كما يفعله غيره مثل ابن سيناء وامثاله ـ نبه على أن ما ذكره وأصحابه فى هذا الموضع مما لم تعرف صحته ولا منفعته »(٣١) .

وكان من أهم ما أعجب به ابن تيمية فى ابن ملكا ، اعتماده فكره وتمثيله لعقله ، وتقليب الأمور والتفكير فيها دون ان يقلد من سبقه من الفلاسفة ، فرد عليهم الكثير من المسائل ، واثبت ذلك بالدليل العقلى . يقول ابن تيمية : « وأبو البركات وأمثاله قد ردوا على ارسطو ما شاء الله ، لأنهم يقولون : انما قصدنا الحق ، ليس قصدنا التعصب لقائل معين ، ولا لقول معين »(٣٢) .

ويعلل شيخ الاسلام هذا التوجه السليم لابن ملكا فى رده أقوال القدماء وتابعيهم قائلا : « ولكن ابن سيناء نشأ بين المتكلمين والنفاه للصفات ، وابن رشد نشأ بين الكلابية ، وابو البركات نشأ ببغداد بين

---

(٢٧) أشهر من أن يعرف عاش بالشام ومصر ، كثير البحث فى فنون الحكمة ، من علماء الاصلاح المشاهير ، له العشرات من المصنفات أشهرها فى التفسير والأصول توفى ٧٢٨هـ/١٣٢٨م . الكتبى : فوات الوفيات ، حـ١ ، صص ٧٤ ـ ٨٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، حـ٩ ، ص ٢٧١ .

(٢٨) درء تعارض العقل والنقل ، حـ٢ ، ص ٥٤٧ .

(٢٩) منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص٢٦٨ ، كتاب الرد على المنطقيين ، ص٢٣٢.

(٣٠) منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص ٢٤٨ .

(٣١) درء تعارض العقل والنقل ، حـ٣ ، ص ٣٢٤ .

(٣٢) كتاب الرد على المنطقيين ، ص ٢٠٧ .

علماء السنة والحديث ، فكان كل من هؤلاء بعده عن الحق بحسب بعده عن معرفة آثار الرسل ، وقربه من الحق بحسب قربه من ذلك »(٣٣) .

وفى ميدان العلوم الطبيعية(٣٤) كان لهبة الله بن ملكا آراء رائعة وصائبة ، رد فيها على أقوال القدماء كارسطو وامثاله من علماء اليونان ، وعلى ابن سينـاء وغيره من علمـاء الطبيعة فى الاسـلام ، وناقش العديد(٣٥) من مسائل الطبيعة كالحـركة والسكون وصور الاجسـام الطبيعية وبسائطها ، والسماء ، والقمر والكواكب والمجرات والافلاك ومحركاتها وغاياتها ، والحر والبرد ، والجبال والبحار والأودية والانهار والعيون والآبار ، والزلازل والمعادن ، وعلاقة الكيمياء بالعلم الطبيعى ، والحيوان والنبات وخواص كل منهما وصفاته وطبائعه .

ومما كان يعتبره القدماء فى باب الآثار العلوية ، وهو جزء من العلم الطبيعى الذى يرتبط بالارض ، ناقش ابن مـلكا موضـوعات الرياح ، كالسحاب والمطر والثلج والبرد ، والرعد والبرق والصواعق وقوس قزح.

كل ذلك من الأمور التى كانت موضع دراسة ونقاش منذ العصـور القديمة حتى العصور الاسلامية . على أن الشىء المهم والجديد فى دراسة ابن ملكا أنه كما ذكرنا لم يقف عند حدود علوم القدماء مثل أرسطو ، فعلى الرغم من تقديره لهذا العالم الا أن كتابه المعتبر باجمعه كانما وضع على شكل ردود علمية منطقية مدعمة بالبرهان على ما تركه أرسطو فى كتبه المنطقية والطبيعية وما وراء الطبيعة ، اذ لم يتبعه ابن ملكا ولم يسر على ما سار عليه بقوة من علماء الطبيعة المسلمين الذين كانوا ينظرون الى دراسات أرسطو فى هذا الباب كمسلمات لاتقبل الجدل أو التغيير .

---

(٣٣) منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص ٣٥٤ .

(٣٤) يقول ابن ملكا العلوم الطبيعية هى : العلوم الناظرة فيما تقع عليـه الحواس من الطبيعيات كالأجسام واحوالها ، وما يصدر عنها من حركاتها وافعالها وما يفعل ذلك فيها من قوى ، والأمور غير المحسوسة فان هذا العلم يتعرض لاظهرها فاظهرها أولا ويترقى منه الى الأخفى ، والاظهر عندنا من ذلك هو الاعرف والاقدم . المعتبر ، حـ٢ ، ص ٦ .

(٣٥) انظر الجزء الثانى من كتابه المعتبر .

حقاً ان بعض آراء أرسطو لاسيما فيما يخص العلم الطبيعى المبنى على التجربة صادف نقداً وتعديلا لدى بعض العلماء المسلمين قبل ابن ملكا ، مثل شكوك جابر بن حيان الكوفى فى كتابه « البحث » . ولكن ابن ملكا درس تلك العلوم عند القدماء دراسة وافية كاملة وفاحصة ، ثم اعمل فكره فيها بترو ، وقاس كل ذلك على الحكم العقلى بعد ان تحرر فكره من مؤثرات القدماء . لذلك جاءت دراساته فى العلم الطبيعى اكثر نضوجا ، وأعمق تحليلا ، واقرب الى الواقع . يقول فى كتابه : « فكنت اجتهد بالفكر والنظر فى تحصيل المعانى وفهمها والعلوم وتحقيقها ، فيوافق فى شىء لبعض ، ويخالف فى شىء آخر لبعض من أقوال القدماء فى أقاويلهم،وتحصل باشباع النظر فى صحيفة الوجود من ذلك»(٣٦) .

ان ما ذكره ابن ملكا هنا ماهو الا دليـــل على نجاح منهجه الذى أعتمده فى دراساته ، والذى ادى الى ما قام به من أعمال علمية بعد ذلك عن طريقين :

الاول : التعلم بالقصـــد والارادة ، « وهو الذى يكون بالاخبـــار والاستخبار والتامل والاعتبار واعمــــال الأذهان والأفكار ، فيتعلم من المعلمين ويتبصر من المبصرين»(٣٧) ، وكان هذا الطريق هو الذى بدا به ابن ملكا حياته العلمية مع شيخه سعيد بن هبة الله .

والثانى : التعلم بالطبع والاتفاق : والمعلم فى هذه الحالة هو العقل والتفكير ، وهى المرحلة الثانية لابن ملكا، بعدما أخذ حقه من علم المشايخ وحصل من المعرفة ما يمكن أن يبدأ به طريق المعرفة والتعـلم الذاتى . وهذا هو العامل الأساسى الذى استطاع ابن ملكا عن طريقه تاليف كتابه المعتبر ، فيقول ان هذا النوع من التلامذة « يعلمهم الزمان بتردد الأذهان والعقول والأفكار فى موجودات الاعيان ومتصورات الأذهان وتكرار نظرهم وتكررها فيها عليهم »(٣٨) .

---

(٣٦) المعتبر ، حـ١ ، ص ٣ .

(٣٧) نفسه ، حـ٢ ، ص ٣ .

(٣٨) ابن ملكا : المعتبر ، حـ٢ ، ص ٢ .

أما تفننه فى العلوم الطبية علما وعملا ، فالمصادر تثنى عليه كثيراً فى هذا الباب ، فما كاد اسمه يشتهر حتى طلبه للتطبب والمعالجة خلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقه ، وقصده التلامذه لتعلم الطب على يديه(٣٩) ٠ وهكذا عمل فى خدمة الخليفة المسترشد بالله (ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م)(٤٠) ، وكذلك خدم الخليفة المستنجد (ت ٥٦٦د/ ١١٧٠م)(٤١) ، وخدم من سلاطين السلاجقة السلطان محمد بن ملكشاه(٤٢) ٠ أما السلطان محمود بن محمد(٤٣) فقد صحبه كثيراً وقام على تطبيبه وتطبيب أهل بيته(٤٤) ٠

وتذكر المصادر أنه كانت له معالجات لطيفة « فكان موفق المعالجة لطيف الاشارة »٠ ومن أجمل معالجاته التى أوردها لنا ابن أبى اصيبعة والتى استخدم فيها علمه كحكيم وعالم نفسى(٤٥) مع خبرته الطبية ، أنه عالج أحد المرضى ببغداد ، ظل زمانا يتوهم أن على راسه دنا لا يفارقه أبدا ، وما استطاع الاطباء فهم مرضه ولا أفادوه ، حتى عرض على ابن ملكا الذى عالجه من نفس الطريق الذى كان يعانى منه المريض، اذ امر غلاما بادارة خشبة من فوق رأسه ، وآخر رمى جرة أمام المريض الذى صاح لكسرهم اياها ، فاثر فيه الوهم وبرىء من علته.وقال ابن أبى اصيبعة عن ذلك : « وهذا باب عظيم فى المداوة»(٤٦) ٠

---

(٣٩) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٥ ٠

(٤٠) صدر الدين الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٢٠٩ ٠

(٤١) ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ ٠

(٤٢) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ ٠

(٤٣) محمود بن محمد بن ملكشاه ، كانت أيامه فقيرة ، وزاد الأمر فقرا وسوءا فتنته مع الخليفة المسترشد ، الا أنه كان قوى المعرفة بالعربية حافظا للاشعار ، عارفا بالسير والتواريخ توفى سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م ٠ الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٩٥ ٠

(٤٤) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ٠

(٤٥) كان متفننا فى هذا الباب الى حد بعيد ، جعله من أجزاء العلم الطبيعى . وألف فيه مقالة رائعة تدل على فهم ووعى وادراك بمسائل النفس ومدى تاثيرها على الانسان فى صحته ومرضه ، ولا أعتقد أن أحدا تناول هذا الموضوع بمثل هذا الفهم والدقة والجدية ، مما جاء به ابن ملكا (المعتبر ، حـ٢ ، ص ٢٩٨ ، ٤٤٤) ٠

(٤٦) عيون الانباء ، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ٠

وهناك اشارات لطيفة ومعالجات جميلة ذكرتها المصادر ولا مكان لها هنا ، وهى تدل بشكل او آخر على أن ابن ملكا كان من حذاق الأطباء فى زمنه ، حتى أن الاطباء أنفسهم كانوا يأتون اليه فى بيته وفى مجلسه العلمى فيسألونه عن بعض الأمراض ، وكيف يتعاملون معها ، فيجيب عنها بخطه ، وينقلون ذلك عنه فى أوراق ، حتى أجتمع من تلك الأسئلة والأجوبة كتابا ظلوا يقرؤونه ويتناقلونه فيما بينهم(٤٧) ٠

مؤلفـــاته :

يقول ابن أبى اصيبعة ان تصانيفه ودراساته كانت فى نهاية الجودة والاتقان(٤٨) ، وتنقسم كتبه الى قسمين(٤٩) :

الأول : يشتمل على مصنفاته فى الحكمة وعلوم الطبيعة وهى :ـ

- المعتبر فى الحكمة ، وهو من أهم كتبه وأجلهـــا ، بل انه أهم ما كتب فى الحكمة فى زمانه ٠
- مقاله فى سبب ظهور الكواكب ليلا واختفائها نهارا ٠
- رسالة فى العقل وماهيته ٠
- كتاب النفس(٥٠) ٠

الثانى : كتبه الطبية ، وليس له فى هذا الباب من المصنفات التى تصل الى درجة كتبه الحكمية ٠ ويبدو أنه اشتهر بالطب العملى والممارسة العملية دون التاليفية ٠ ومن كتبه الطبية :

---

(٤٧) القفطى ، اخبار العلماء ، ص ٢٢٦ ٠

(٤٨) عيون الانباء ، ص ٣٧٤ ٠

(٤٩) نفسه ، ص ٢٧٦ ؛ البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ ٠

(٥٠) ذكره البيهقى ولا نعلم هل المقصود به مقالته فى النفس الموجودة بالجزء الثانى من كتابه المعتبر ، أم انه كتاب اخر ، والارجح أن الكتاب هو نفس المقالة اذ ربما دونها النساخ لأهميتها فى كتاب منفصل عن المعتبر ليسهل تداولها ، وليستفيد منها التلامذة ٠

ـــ اختصاره للتشريح ٠

ـــ كتاب الاقرباذين(٥١) ٠

ـــ مقالة فى الدواء الذى ألفه المسمى برشعثا ؛ استقصى فيه صفته وشرح أدويته ٠

ـــ مقاله فى معجون ألفه وسماه أمين الأرواح ٠

على أن الذى يهمنا من كتبه هذه مما له علاقة بهذه الدراسة ، هو كتابه « المعتبر فى الحكمة » وهو من أجل الكتب التى ظهرت فى عصره فضلا عن العصور الاسلامية اللاحقة الى أيام ابن تيمية ، الذى أكمل ما بدأه ابن ملكا فى تحقيق ودراسة ماله علاقة بموضوع الالهيات ٠ ذلك أن ابن تيمية تناول هذا الموضوع بكل اقتدار ورد فيه على أقوال الفلاسفة القدماء والمحدثين بمنطق العقل والنقل ٠

ولا نريد أن نتعرض لدراسات وابحاث أبى عبد الله محمد بن عمر ابن الحسين القرشى التيمى المعروف بفخر الدين الرازى(٥٢) والذى عاش فى الفترة الواقعة بين ابن ملكا وابن تيمية ٠ ذلك أنه يلاحظ أن ابن تيمية اختلف معه فى كثير من القضايا ، ورد عليه فى مسائل كثيرة مما أورده فى كتابه « المباحث المشرقية » اذ أن توجهه فى كتابه هو توجه الفلاسفة المشائيين(٥٣) على الرغم من مخالفته لهم فى كثير من قضايا

---

(٥١) الاقرباذين ٠ وهى الكتب التى تبحث فى علم الأدوية المفردة والمركبة ٠ ابن سينا : القانون ، حـ٣ ، ص ٣٠٩ ٠

(٥٢) كان من الأئمة فى أصول الشافعية والعقائد الاشعرية ، متفننا سائر العلوم الشرعية والحكمية ، قوى النظر فى صناعة الطب ومباحثها عارفا بالأدب كان يسمى فى هراه بشيخ الاسلام ، ولقبه ابن أبى اصيبعة بسيد الحكماء المحدثين ، له عشرات المصنفات ، أشهرها فى الحكمة كتابه « المباحث المشرقية » ٠ ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٤٦٢ ٠

(٥٣) المشاؤون : فى اليونانية معناها ما ينجز أو الانجاز أثناء السير ، وهم اتباع فلسفة أرسطو ، وقد وجدت هذه المدرسة المشائية لما يقرب من الف عام حتى عام ٥٢٩م ، وكانت مركزا عظيماللعلم القديم : روزنتال: الموسوعة الفلسفية ،ص٤٧٨٠

الالهيات ، وعليه فان اللقاء الفكرى فى هذه القضايا بين ابن تيمية وبين ابن ملكا أكثر اتفاقا وأشمل منه فيما بين ابن تيمية والفخر الرازى. ذلك ان ابن ملكا على الرغم من تقديره لأرسطو الا انه لم يكن يقول بقوله ولا يأخذ برأيه ولا برأى أحد من المشائيين ، انما كان يقول بفكره وينبع عقله فى دراسة المسائل المعلقة فى الالهيات بين الاسلام والفلسفة .

يقول القفطى عن ابن ملكا وكتابه المعتبر : « وقف على كتب المتقدمين والمتأخرين فى هذا الشان واعتبرها واختبرها ، فلما صفت لديه وانتهى أمرها اليه صنف فيها كتابا سماه المعتبر ، أخلاه من النوع الرياضى ، وأتى فيه بالمنطق والطبيعى والالهى ، فجاءت عبارته فصيحة ، ومقاصده فى ذلك الطريق صحيحة ، وهو أحسن كتاب صنف فى هذا الشان فى هذا الزمان »(٥٤) .

ويقول ابن ملكا فى الدافع الذى دعاه الى تأليف كتابه هذا(٥٥) ، انه كان من عادة القدماء قبل أرسطو فى العلوم انهم يتناقلونها بالرواية والمشافهة ، وكانوا لأجل الحفاظ على قيمة العلم لا يعطونه الا ذوى الفطنة من المتعلمين ، فكان علمهم لا يصل الا الى أهله ممن كانوا يتوسمون فيه الاستعداد والقدرة على حمله وأدائه لمن بعده .

ثم أنه فى فترات لاحقة قل عدد العلماء وقصرت الهمم وتداعت العلوم لقلة المتعلمين ، فأخذ العلماء فى تدوين الكتب الحافظة لهذه العلوم ، واستخدموا فيها الغامض من العبارات والخفى من الاشارات حتى لا يفهمها الا أهل الفطنة . واضطر مع ذلك من جاء بعدهم من العلماء والمتعلمين الى اختصار وشرح هذه الكتب لتسهل على المتعلمين ، فخلطوا أفكارهم ونزعاتهم المختلفة بتلك الكتب « حتى كثرت الكتب والتصانيف وخالط أهلها فيها كثير من غير أهلها ، واختلط فيها كلام الفضلاء المجودين بكلام الجهال المقصرين »(٥٦) .

---

(٥٤) اخبار العلماء ، ص ٢٢٤ .
(٥٥) المعتبر ، حـ١ ، ص ٢ ـ ٣ .
(٥٦) المعتبر ، حـ١ ، ص ٣ .

ويقول انه نظر فيما تركه الفلاسفة القـدماء واللاحقين فيما يتعلق بالعلوم الحكمية ، وصرف فى ذلك وقتا وجهـدا عظيما بسبب استغلاق كتب القدماء ، وصعوبة فهمها ، واختصارها ، واختلال عبارتها ، بسبب نقلها بين اللغات . أما كتب اللاحقين منهم فانه كان يعـوزها وضوح الشروحات ، والدليل والحجة ، فكان يشـوبها الغموض والاعراض : « فيتعذر الفهم لأجل العبارة والشرح ،والعلم لأجل الدليل والبيئة ، فكنت أجتهد بالفكر والنظر فى تحصيل المعانى وفهمها والعلوم وتحقيقها »(٥٧) .

ويؤكد ابن ملكا أن أغلب دراساته وابحاثه فى كتابه هذا انما هى من تحرير فكره ، التى وافق فى بعضها ما توصل اليه القدماء ، والبعض الآخر كان مخالفا لآرائهم . وقد توصل الى ذلك عن طريق التفكير والتأمل فى صحيفة الوجود(٥٨) ، وكان يسـجل ملاحظاته وأفكاره فى أوراق مبعثرة « فلما كثرت تلك الأوراق وتحصل فيها من العلوم ما لا يسـهل تضييعه ، مع تكرار الالتماس ممن تتعين اجابتهم ، الى تصنيف هـذا الكتاب فى العلوم الحكمية الوجودية الطبيعية والالهية . وسميته بالكتاب المعتبر لأننى ضمنته ما عرفته واعتبرته وحققت النظر فيه وتممته ؛ لا ما نقلته عن غير فهم أو فهمته وقبلته من غير نظر واعتبار . ولم أوافق على ما أعتمدت عليه فيه من الآراء والمذاهب كبيرا لكبره ولا خالفت صغيرا لصغره ، بل كان الحق من ذلك هو الغـرض ، والموافقـة والمخالفة فيه بالعرض »(٥٩) .

وعلى الرغم من انه انتهج فى تأليف كتابه هذا منهج أرسطو فى الترتيب والتنظيم ، الا أن دراسته لكل مسألة كانت تتم باستعراض آراء المعتبرين من أهل الحكمة . ثم يدلى هو بوجهة نظره فى كل مسألة يخالف فيها القـدماء مع تدعيمها بالبيانات والحجج والبراهين . ويؤكد انه وضع جميع تلك المسائل وحكمها بالعقل « ثم تعقبتها بالاعتبار واعتمدت من

---

(٥٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٣ .
(٥٨) نفسه ، حـ١ ، ص ٣ .
(٥٩) نفسه ، حـ١ ، ص ٤ .

جملتها على ما رجحت به فى المعقول لغة الميزان واقتصر وثبت بالدليل والبرهان ، ورفضت ما عداه كائنا ما كان وممن كان»(٦٠) ٠

ويشتمل كتابه هذا على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ويشتمل على العلوم المنطقية ، ويقع تحته ثمان مقالات ، كل مقالة تحتوى على عدة فصول ، ماعدا المقالات الثلاث الأخيرة ففى السادسة فصل ، والسابعة فصلان ، والثامنة فصل واحد ٠

وتحدث فى مقالاته هذه عن المعرفة ، والعلوم، والقياس ، والبرهان والجدل ٠

القسم الثانى : وقد افرده للحديث عن العلوم الطبيعية وجعله فى ستة أجزاء ، تحدث فيها عن علم الحركة ، وصور الأجسام الطبيعية وخواصها وقواها ، والتغير والاستحالة والكون والفساد ، والاثار العلوية ، والنبات والحيوان ، وعلم النفس ٠

القسم الثالث : وكان حديثه فيه عن الالهيات ، وما وراء الطبيعة ، وجعل هذا القسم فى مقالتين ٠

وبوجه عام فان لدراسات ابن ملكا فى كتابه هذا من الأهمية والقوة والنضوج ما يمكن القول معه بأنه افضل الكتب التى عرفت فى تاريخ الاسلام فى بابه ٠ ولقد شهد له بذلك شيخ الاسلام ابن تيمية ، واكثر من النقولات عنه ٠ واستشهد بآرائه فى الرد على أفكار القدماء والمحدثين من الفلاسفة فيما يتعلق بالالهيات ٠ وأشار فى كتبه الى ردود ابن ملكا عليهم ووافقه فى ذلك،على الرغم من أن هناك مسائل خالفه فيها، وناقش مواضع الخلاف فى ذلك ٠

والمجال لا يسمح بايراد ذلك كله ولكن نذكر على سبيل المثال ، علاوة على ما سبق ذكره :

---

(٦٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٤ ٠

* مناقشته لمسالة قـــدم العـالم ومخالفته لابن ملـكا فى جميع تلك المسائل(٦١) ٠

* ثناءه على ابن ملكا لقوله باثبات الصفات ، اذ يقول « واما اساطين الفلاسفة فهم مثبتون للصفات ، كما قد نقلنا أقوالهم فى غير هذا الموضع ، وكذلك كثـير من ائمتهم المتاخـــرين كابى الـــركات وأمثاله»(٦٢) ٠

* وفى موضع آخر يثنى عليه فى رده على قدماء الفلاسفة وتابعيهم ممن هم على طريق المشائين ولم يقلدهم فيما ذهبوا اليه فقال : « وأما أبو البركات ونحوه ٠٠٠ فاثبت علم الرب بالجزئيات ورد على سلفه جيدا ، وكذلك أثبت صفات الرب وافعاله وبين ما بينه من خطأ سلفه ، ورأى فساد قولهم فى أسباب الحوادث ، فعدل عن ذلك الى أناثبت للرب ما يقوم به الارادات الموجبة للحوادث(٦٣) ٠

* ذكر اختلاف الفلاسفة فى مسالة نفى المعانى عن الرب سبحانه ، وعدم مسايرة ابن ملكا لآرائهم فى ذلك ، ولذلك سماه بالحاذق اذ يقول : « ولهذا كان الحاذق من هؤلاء كابى الحسن البصرى ،وابى البركات صاحب المعتبر وغيرهما ، قد خالفوهم فى ذلك ، وبينوا أنه ليس لهم دليل عقلى بنفى ذلك ، وأن الأدلة العقلية والشرعية توجب ثبوت ذلك»(٦٤) ٠

* مخالفة ابن ملكا لأرسطو واتباعه فى مسالة اثبات قيـــام الافعال الاختيارية للـــه تعالى ، فقال ان ابن ملكا يثبت ذلك(٦٥) ٠

---

(٦١) ابن تيمية : منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص ١٧٨ _ ١٩٤ _ ١٩٥ _ ٢١٩_ ٢٢٨ ، دره تعارض العقل والنقل ، حـ٢ صص ١٦٤ _ ١٧٣ ٠

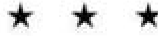
(٦٢) ابن تيمية : منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص ٢٦٨ ، الرد على المنطقيين ، ص ٢٣٢ _ ٣١٤ _ ٣٧٠ ٠

(٦٣)ابن تيمية : منهاج السنه النبوية ، حـ١ ، ص ٣٤٨ ٠

(٦٤) نفسه ، حـ٢ ، ص ٥٤٧ ٠

(٦٥) ابن تيمية : دره تعارض العقل والنقل ، حـ ٢ ، ص ٢٠ ٠

* اما فى مسالة علم الله تعالى وما ذكره الفلاسفة فى ذلك مثل أرسطو وابن رشد وابن سيناء ، فقد اعتمد ابن تيمية دراســة ابن ملكا لآرائهم وردوده عليهم فى هذه المسالة وتفريعاتها المختلفة ، وايده فى أغلب ما ذهب اليه(٦٦) ٠



القسم الثانى

نظرة ابن ملكا الى المعارف والعلوم

افرد ابن ملكا الجزء الأول من كتابه (المعتبر فى الحكمة) للحديث عن العلوم المنطقية ، وجعله فى خمس مقـــالات بين فيها وجهة نظره ومنهجه فى البحث العلمى ٠ واعتمد فى ذلك على قناعته الشخصية فى فلسفة المعارف والعلوم ، والعلم والتعليم ، مستشهدا بآراء بعض الفلاسفة القدماء ، وبخاصة أرسطوطاليس الذى يميل كثيرا الى آرائه فيما يخص هذا الجزء(٦٧) ٠

واتسمت مباحثه فى كتابه عامة ـ وفى هذا الجزء بشكل واضح ـ بالنضج واتساع المعرفة ، والقدرة على التحليل والربط الواضح الموثق بين جميع مقالاته ودراساته ، اذ كتب فى المعرفة الانسانية ، والعلوم من باب

---

(٦٦) درء تعارض العقل والنقل ، حـ٩ ، صص ٣٩٧ ـ ٤٢٤ ، حـ١٠ ، صص ٣ ـ ١١ ، صص ١٠١ ـ ١٠٤ ٠

(٦٧) أرسطوطاليس : ابن بيقوماخس ، من أولاد اسقلبيادوس أبو الطب عنـــد اليونانيين ، من أعمدة الحكمة السبعة ، كان متفننا فى العلوم الطبية ، وعلوم الحكمة فى الاخلاق والسياسة والطبيعة ٠ تتلمذ على افلاطون عشرين سنة ، حتى اخلفه مكانه فى دار التعليم ، وبعد وفاته خرج أرسطو الى لوقيون واتخذ بها دارا لتعليم الحكمة المنسوبة الى المشائين ، وقد صنف ما يزيد على مئة كتاب ٠ ابن النديم : الا فهرست ، ص ٣٠٧ ، المبشر بن فاتك : مختار الحكم ومحاسن الــكلم ، ص ١٧٨ ، القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢١ ، ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٨٦ ٠

واسع كان فيه أكثر دقة ووضوحا وادراكا لما يكتبه من آخرين تناولوا نفس هذه المواضيع بالدراسة ٠

وفى هذه الدراسة الموجـــزة لم نات على مباحث ابن ملكا جميعها لندرسها دراسة كاملة مستوفاة من كافة جوانبها، وبكل دقائقها وتفاصيلها، وانما اقتصرنا على ما له علاقة بآرائه فى تطور المعرفة الانسانية ، وتاريخ العلوم ، والكيفية التى يمكن بواسطتها الحصول على المعارف والعلوم ٠ وبعبارة أخرى فان حديثنا يقتصر على علاج القضايا التالية :

أولا : مذهبه فى المعرفة ٠
ثانيا : مذهبه فى العلوم وتحصيلها ٠
ثالثا : نظرته الى العلوم وتصنيفها ٠

أولا : مذهبه فى المعـرفة :

فى تعرضه لهذه الناحية عامة نجد ابن ملكا لا يتوقف عنـــــد آراء القدماء ، بل يذكر فحوى دراساتهم وآرائهم ، ثم يعقب على كل قضـية ناقشوها برأيه الخاص فيما يوافقهم فيه ، او ما يخالفهم ، مدعما رايه بالأدلة والحجج والبراهين فيما يرمى اليـــه لايضاح وجهات نظره التى يطرحها فى كل مسألة(٦٨) ٠

ذلك انه يبدأ حديثه عن المعارف والعلوم وكيف تكونت بشكل عام ، وماهى علاقتها بالمنطق ، ويوضح فى ذلك آراء قدامى المفكرين الذين نقلوا فكرهم الى تلامذتهم وفق تتابع الأجيال، سماعا ومشافهة لا تدوينا. ثم يعرض موقف أولئك التـــلامذة من الاراء والافكار التى استقوها من أساتذتهم ٠ ذلك أن عدم الفهم واللبس وســوء الظن كانت فى رأيه هى السمة العامة لكافة المتعلمين بسبب عدم اتفاق القدامى واختلاف آرائهم وتباين مشاربهم ومذاهبهم فى النظـــر الى المنطق وعلاقته بالمعـــارف والعلوم(٦٩) ٠

---

(٦٨) ابن ملكا : المعتبر ، ص ٧ ٠
(٦٩) نفسه ، جـ١ ، ص ٥ ٠

وكان أن أخذ أصحاب الهمم من الباحثين اللاحقين يتشككون فى آراء السابقين ، فقالوا مادام الاختلاف قد سرى بين كبار أساتذتهم فان القضية لن تقف عند حد معين يمكن الوصول معه الى حقيقة ثابتة غير قابلة للتغيير مع مرور الزمن . لذلك بدأوا بانفسهم فى دراسة هذه القضية والبحث فيها « فدعا هذا الفكر وامثاله من أهل النظر من العلماء والمتعلمين الى طلب ما لأجله يصل الى علم الحق ومعرفته ، من الطالبين من يصل ، ويضل عنه من يضل ، ويقصر من يقصر ، ويصيب فيه من يصيب ، ويخطىء فيه من يخطىء ، فقالوا فى ذلك اقوالا متفرقة(٧٠) .

فعندما ظهر ارسطو كانت الأقوال فى المعارف والعلوم قد هذبتها الأنظار ، وأتمتها الافكار فالف فى ذلك كله كتابا أسماه علم المنطق(٧١) تناول فيه فنون الأنحاء التعليمية الفكرية النظرية وبين فيه الأسباب الكامنة وراء اختلاف المفكرين فى مذاهبهم وعلومهم حتى وصل منهم الى الصواب من وصل واخطأ من أخطأ(٧٢) .

---

(٧٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٥ . ويلاحظ انه منذ بداية القرن التاسع عشر ظهرت مئات من الدراسات التى تناولت موضوع تطور العلم والمعرفة فى التاريخ، وعقدت حول ذلك المؤتمرات وتضافرت جهود مؤرخى العلم وعلماء الطبيعة لصياغة اتجاه جديد لنطق التطور العلمى ، تناولت حركة العلم ، وتحليل تطور بنيته ، ومناهج تحصيل المعارف ، وتعددت بذلك وتعقدت الدراسات بتعقد وتطور المعرفة ، وظهر اتجاه جديد لدراسة مظاهر اطراد التقدم العلمى : وعرف هذا الاتجاه باسم (علم العلم) Scienology or Science of Science
حتى ان دراسة توماس كون Thomas Khun والتى تعد أهم الدراسات الحديثة فى هذا الميدان تعرضت للنقد من قبل المفكرين لأنه اعتبر دراسات القدماء فى هذا الباب على قدم المساواة مع دراسات علماء العصور الوسطى وبداية الحديثة . وهذا يعنى ان هناك احتمالا لعودة نظرية قديمة لتحل محل أخرى جديدة . كون : ابنية الثورات العلمية ، ص ٩ ـ ١٠ ، ص ١٦ ، كما وانظر ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٧١) وهى مجموعة مقالات فى المنطق ، ذكرها ابن النديم بقوله « ترتيب كتبه فى المنطقيات وهى تسعة كتب ، نقلت جميعها الى اللغة العربية وكان لحنين فى ذلك النصيب الأوفر ، كما شرحت ، واختصرت من قبل الكثير من المفكرين فى الدولة الاسلامية » . الفهرست ، صص ٣٠٨ ـ ٣١٠ ، كذلك انظر ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ١٠٤ .

(٧٢) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٥ .

ثم تعرض ابن ملكا بعد ذلك لموقف العلمـــاء الذين خدموا مختلف علوم الحكمة ، وذكر اختلافهم فى علاقة علم انطق بمسالة تحقيق المعارف والعلوم ، وجعلهم على قسمين :

القسم الأول يقول : ان موضوع المنطق هو : « ما به يتوصل الى معرفة المجهولات والعلم بها ، وهو المعانى السابقة الى أذهان الناس قبل نظرهم فيما يرومون تحصيله من المعـارف والعـلوم الاكتسابية ، فانه يستعملها فى ذلك بتصرفه فيها تصرفا يكسبها صورا تاليفية »(٧٣) .

اما مطالب هذا العلم من وجهة نظرهم فهى « انه كيف يتوصـل الانسان بالمعرفة والعلم السابقين الى تحصيل المعـــرفة والعلم المكتسبين بالطلب وعلى أى وجه»(٧٤) .

وأما غاية هذا العلم فى نظر هؤلاء المفكرين فهى « افادة ما يتوصل به الانسان الى اكتساب المعارف والعلوم المجهولة ، ومعرفة الحق فيها من الباطل والصدق مما يقال فيها من الكذب»(٧٩) .

هذا عن القسم الأول . وفى القسم الثانى قالوا : ان موضوع المنطق هو الألفاظ من حيث دلالتها على المعانى ، وهذا الراى خطاه ابن منكا وقال : ان ذلك هو مما له علاقة بعلم اللغات(٧٦) .

وغرض المنطق ومنفعته على هـــذا الراى يدل على أن اســتخدام الألفاظ هنا بالعرض فقط أى للمفاوضة فى العلوم ، فالتصرف هنا يكون بالذهن فى تعرف المجهولات من المعارف والعـــلوم ، بناء على المعارف والمجهولات السابقة ، من غير حاجة الى الألفاظ(٧٧) .

---

(٧٣) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٦ .
(٧٤) نفسه ، حـ١ ، ص ٦ .
(٧٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٦ .
(٧٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٦ .
(٧٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٦ .

ويحاول ابن ملكا الجمع بين آراء القسمين الأول والثانى ويبدى وجهة نظره فيقول أنه قد تحصل مما قيل أن(٧٨) :

منفعة علم المنطق هى : هداية الأذهان الى حقائق المعارف والعلوم وردها عن الزلل والزيغ فيها ·

وغرضه هو : معرفة ما به تكون الهداية والرد كيف يكونان ·

وموضوعه هو : ما به يتوصل الىالهداية والرد المذكورين من المعارف والعلوم السابقة الى الأذهان من حيث يتوصل بها الى ذلك ·

اما مطلوباته فهى : القوانين التى تستفاد من المعارف والعـــلوم المكتسبة من جهة المعارف والعلوم السابقة الى الأذهان ·

وقبل ان نتعرف على وجهة نظره فى دراسته للمنطق ، ينبغى ان نوضح أسبقية ابن ملكا على غاليليو(٧٩) وديكارت فى الكشف عن عمل هذا العلم وغرضه ودلالته فى دراسة العلوم، اذ يقول : « وأما العلوم فقد عرفت أنها تنقسم الى ثلاثة أصناف ، علم الموجودات ، وعلم المعلومات، وعلم العلم · فعلم الموجودات قيل فيه فى الطبيعيات ، وعلم المعلومات قيل فيه فى علم النفس ، وعلم العـــلم قيل فيه فى الفن المنطقى»(٨٠) ومن هذا يبدو أنه أطلق على المنطق علم العلم ·

ويؤكد أحد الباحثين المحدثين أن القرن السابع عشر الميلادى هو البداية الفعلية التى عرف فيها المنطق بعلم العلوم على يد غاليليو الذى اعتمد فى دراسته للميكانيكا على الرياضيات ، لتصبح الموافقة تامة بين العلم الرياضى وظواهر الطبيعة(٨١) » وهكذا قام منطق العلوم على

---

(٧٨) نفسه ، حـ١ ، ص ٧ ·

(٧٩) غاليليو : عالم طبيعى فلكى وفيلسوف ، له آراء فى الميكانيكا وعلم الحركة، وكان يؤمن بالملاحظة والتجربة فى العلوم · روزنتال : الموسوعة الفلسفية ، ص ٣١٧·

(٨٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ٢ ، ص ٢١٤ ·

(٨١) وهذا هو ما فعله ابن ملكا فى دراسته لعلم الحركة ، اذ اتبع المنهــج الرياضى فى ذلك انظر الجزء الثانى من كتابه المعتبر ·

المنطق الأرسطى»(٨٢) ٠

ويؤكد هذا الباحث بعـــد ذلك أن ديكارت (ت١٦٥٠م)(٨٣) هو المؤسس الحقيقى لمدرسة رفض منطق أرسطو كمعيار للعلم ، وكذلك من جاء بعده من الفلاسفة(٨٤) ٠

لقد كان ابن ملكا من فلاسفة وحكماء العصور الوسطى ، وكان يرى ان المنطق هو العلم الذى يدرس العلوم ، وهذا هو ما جاء به بنعبد العالى فى حق منطق غاليليو وديكارت اذ يقول : « موضوع هذا المنطق الجديد هو العلم ، انه علم العلوم ،أى العلم الذى يتخذ موضوعا له العلوم ،ليسجل الطـــرق التى يتبعها العلماء فى ميـــادينهم المختلفـــة فينتقد تلك الطرق»(٨٥) ٠

وكما ذكرنا سابقا فان ابن ملكا فى كتابه هـــذا لا يقف عند حدود اقوال القدماء ومن جاء بعدهم حتى حكماء الدولة الاسلامية ، بل كانت له رؤية وفلسفة خاصة فى كثير مما قالوه ، بحكم التطور الذى حظيت به العلوم فى تاريخ الدولة الاسلامية ٠ وهو يؤكد أن نفوس العلماء تختلف فى الطبائع والغرائز والتوجهات الفـــكرية ، وان ما يدلى به من راى حول موضوع المعارف والعلوم وعلاقتها بالمنطق انما يعبر عن وجهة نظره التى يؤمن بها فى ظل التوجه الفكرى والتطور المعرفى الذى وصل الى ما وصل اليه فى زمنه ؛ فيقول :

ان العلوم منها أولية ومنها تعليمية(٨٦) :

---

(٨٢) بنعبد العالى : الابستيمولوجيا ، ص ٢٩ ٠

(٨٣) ديكارت : فيلسوف فرنسى ، من رواد الفلســفة فى العصر الحـــديث ، وكان أيضا رياضيا متمكنا واستهدف ديكارت فى تفكيره ثلاثة أمور هى : ايجاد علم يقينى ، تطبيق هذا العلم بشكل عملى ، ايجاد وسيله لحل المشكلة القائمة بين الدين المسيحى والعلم ، له مؤلفات كثيرة ٠ نفسه ، حـ١ ، ص ٤٨٨ ـ ٤٩٩ ٠

(٨٤) بنعبد العالى : الابيستيمولوجيا ، ص ٢٩ ٠

(٨٥) نفسه ، ص ٣٠ ٠

(٨٦) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٧ ٠

فالأولية هى : الحكمة الغريزية الموجودة بالفطرة فى بعض النفوس.

والتعليمية هى : القوانين الصادرة عن تلك الفطرة ، يتعلمها فاقد الحكمة الغريزية من واجدها .

وجعل واجدى الحكمة على قسمين :

فهناك واجد على فطرته وغريزته .

وواجد فسدت فطرته بما طرأ عليها من آراء وتعاليم أخرى .

وكذلك فاقدو الحكمة جعلهم قسمين قابل للحكمة وغير قابل. فالقابل لها هو من ليست لديه حكمة غـــريزية بالفطرة ، وهـــذا النوع بامكانه الاهتداء اليها بالتعلم .

واما غير القابل للحـكمة فهو من انعـــدمت لديه الحكمة الغريزية بالفطرة وبالتعلم بالطبع .

اما وجهة نظره فى رأى من قال ان موضوع المنطق هو الألفاظ من حيث دلالتها على المعانى ، وبالتالى فى المعارف والعلوم ، فيقول : ان العلم والتعليم يحتاجان الى الألفاظ ضرورة ، ولكن بالعـــرض من جهة مفاوضة العلم للمتعلم عموما ، وذلك معروف فيما تلقنه الناس وتعلموه من اللغات ، على انه لكل علم الفاظ اختصت وعرفت به دون غيره من العلوم الأخرى(٨٧) .

وتحدث ابن ملكا بعد ذلك فى معرض حديثه عن الألفاظ ، مما له علاقة بعلم المنطق الى نســـبة تلك الألفاظ الى معانيها ، ومفهوماتها ، واختلاف أوضاعها ودلالتها ، وبين أيضا دلالتها فيما يخص موجودات الأعيان - ما يشاهده الانسان - ومتصورات الأذهان فى تحقيق المعارف والعلوم(٨٨) .

---

(٨٧) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٧ - ٨ .

(٨٨) نفسه ، حـ١ ، صص ٨ - ١٦ .

وتتبع بعد ذلك ما قاله الحكماء فى الأوصـــاف الذاتية والعرضية وكيفياتها المتنوعة ، ودلالتها فى تحديد المعارف . وهنا ناقش وجهة نظر أحد الحكماء وما ارتآه فى ذلك حيث أتى فى دراسته هذه بالفكرة تلو الأخرى ، ورد عليها بوجهة نظره المدعمة بالبراهين(٨٩) .

ويقول ان معرفة الأشياء انما تتحقق بمعرفة صفاتها الذاتية المميزة والمعرفة لها بالتحديد ، دون ان يكون للأوصاف العرضية أهمية كبرى فى تحديد ذلك الشيء المعرف(٩٠) . ويؤكد فى ذلك أن « كل سائل عن شيء فهو يعرفه من جهة بها اهتدى الى طلبه والسؤال عنه ، ويجهله من جهات لأجلها افتقر الى الطلب والسؤال ، فكل سائل انما يوفى جوابه من المجيب اذا أجابه عما جهل لا عما علم ، وتترتب فى ذلك المعارف فى تمامها ونقصانها وعمومها وخصوصها»(٩١) .

ثم تحدث المؤلف عن التصـور والفهم والمعرفة والعلم والفرق بينها فقال :

ان الصورة فى الأذهان مما يشاهده الانسان يسمى تصورا ، وأن دلالة الألفاظ يسمى فهما ، وأن الموافقة بعد التمثـل والادراك يسـمى معـــرفة(٩٢) .

ويفرق بين العلم والمعرفة ، فيقول أن ما : « صـدق فى الأذهان يسمى علما ، ولأن المعرفة بالمفردات والعلم بالمؤلفات وكـل مؤلف فيه أفراد هو مؤلف منها،ففى كل علم معرفة هى تصور مفرداته ، ولأنه ليس فى كل مفردات تأليف بل قد تلحظ المفـردات من غير تأليف ، فلذلك لا ينعكس الأمر ولا يكون مع كل معرفة علم . فالمعرفة قبل العلم وأعم منه وقوعا ، اذ يكون مع كل علم معرفة وليس مع كل معرفة علم»(٩٣) .

---

(٨٩) نفسه ، جـ١ ، صص ٢٢ ـ ٢٩ .

(٩٠) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٩١) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٣٣ .

(٩٢) نفسه ، حـ١ ، ص ٣٥ .

(٩٣) نفسه ، حـ١ ، ص ٣٦ .

ويقول فى ذلك ايضا ان المعرفة محصول الأمور الجزئية ومعانيها، والعلم محصول المعانى الكلية ، ويؤكد على أهمية وجهة نظره هذه فى الفرق بين المعرفة والعلم قائلا : «فلنستعمل ذلكونفهمه بحسب ما قررناه، وان كان لغيرنا أن يستعمله ويفهمه على ما يريده»(٩٤) .

ثم انتقل بعد ذلك الى تحديد أنواع المعرفة فى كمالها فيقول : ان الانسان قد يتحصل على معـــرفة ناقصـــة ، أو تامة ، أو خاصـة ، أو عـــامة(٩٥) .

فالمعرفة الناقصةهى : معرفة الشيء ببعض أوصافه أو معانيه الذاتية.

والمعرفة التامة هى : معرفة الشيء بسائر أوصافه ومعانيه الذاتية .

والمعرفة الخاصة هى : كالمعرفة التامة من جهة أن المعروف بهـــا يعرف بما يتميز به عن غيره .

وأما المعرفة العامة فهى انقص المعــارف لأن المعـــرفة تتم باعم المعـــانى .

وتحدث ابن ملكا ـ وفى فصول متعددة ـ عن الطرق والكيفيات المتعددة والمختلفة التى يمكن عن طريقها الحصول على المعارف والعلوم، فقال باديء ذى بدء ان كل ما يستفيده الانسان من المعارف والعلوم بوجه عام اما أن يكون تحصيله من غير طلب وبغير قصـــد ، واما ان يكون تحصيله بقصد ونيل بعد طلب فيستنبطه ويدركه.ولكن مع ذلك فان « كل مجهول يروم الانسان معرفته ويطلب العلم به ، فلابد أن يكون طلبه له بعد معرفة تقدمت الطلب ، ... فكل ما يطلبه الانسان فهو يعرفه من جهة بها يهتدى الى طلبـــه ، ويجهله من جهـــة لأجلهـــا يحتاج الى طلبه»(٩٦) .

ونجده يعارض قدماء الحكماء فى تسميتهم للمستفاد من المعـــارف

---

(٩٤) نفسه ، حـ١ ، ص ٣٦ .

(٩٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٣٧ .

(٩٦) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٤٠ .

والعلوم بروية وطلب تعليما وتعلما ، وأن ما ينتج عن ذلك يسمى علما. ذلك أنهم ربطوا ذلك بما سموه بالأسباب المؤدية الى السانح والمطلوب من المعارف والعلوم ، فيختلف ابن ملكا معهم ويقول : « لـكن ليس الأسباب كلها علوما ومعارف»(٩٧) .

وتناول هنا بالتفصيل أسباب طلب العلوم والمعارف ، فيؤكد « أن المستفاد من المعارف والعلوم بقصد وطلب يكون طلبه من جملة أسـباب حصوله واستفادته لا محاله ، لأنه يحصـل ويستفاد اذا طلب »(٩٨) ، وبناء على كلامه هذا فهو يجزم أن المعارف والعلوم المتحصله والسابقة للمعارف والعلوم المجهـولة هى أسـباب لطلبها ؛ والطلب من أسباب أصابتها . أما كيف يكون المجهول المطلوب معروفا ومعلوما ، فيعلل ذلك ويجعله تبعا لوجوه المعرفة ، اذ أن منها « كلية وجزئية ذاتية ، وعرضية عامية ناقصة وتامة خاصة جنسية ونوعية»(٩٩) ، فالمطلوب يعرف من وجوه منها ويؤدى طلبها الى معرفة المجهول منها .

وأما عن الطـرق والقوانين التى يمكن بواسطتها الحصـول على المجهولات بالطلب فيقول : انها كثيرة ومتعددة وذلك بحسب كثرة جهات المطلوب فى المعرفة والجهل ، ومن ضمن هذه الطرق(١٠٠) :

١ ـ ما يكون باحضار المطلوب لمعـرفته بالحس ، أو الصـوت ، أو الرائحة ، أو الطعم .

٢ ـ ومنها مايكون بتمثيله ، كمن يسال عن لون فيقال هو مثل هذا .

٣ ـ ومنها مايكون بتنبيه النفس وتذكيرها كمن يسال عن الغضب فيقال له هو ما تشعر به من حالك وقت كذا .

٤ ـ ومنها مايمكن معرفته بالاستدلال والتفكير .

---

(٩٧) نفسه ، حـ ١ ، ص ٤٠

(٩٨) نفسه ، حـ١ ، ص ٤١ .

(٩٩) نفسه ، حـ١ ، ص ٤١ .

(١٠٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٤٧ .

٥ ـ ومنها ما يمكن معرفته عن طريق الخبر ٠ وهذا النوع من المعارف والذى يتم عن طريق الألفاظ المقولة لا يؤدى الى معرفة المجهولات الا بالعرض ٠

٦ ـ ومن المعارف مايمكن الحصول عليه بتصفية الذهن ، وصرفه عن جميع ماذكر من وجود المعرفة ، حتى يتوصل الى معرفة المطلوب بطريق العقل والتفكير ٠

والمعرفة فى كيفية الحصول عليها تنقسم عند ابن ملكا الى اكتسابية وأوليـة ٠

فالمعرفة الاكتسـابية هى ما اجتمع فيها الحـد الحقيقى(١٠١) ، والحد الرسمى(١٠٢)٠ فالحد الحقيقى يفيد معرفة حقيقة ذاتية ، والرسم يفيد معرفة عرضية ، ومحصول الاثنين يسمى بالمعرفة الاكتسابية(١٠٣)٠

أما المعرفة الأولية فهى ماعدا ذلك من المعارف كمحصول المشاهدات الحسية والادراكات الذهنية والاطلاعات العقلية(١٠٤) ٠

ويقول ايضا ان من المعـارف والعـلوم مالا يكتسب ولا يكتسب به غيره ،كمعرفة البسائط التى هى مفـردات الحقائق ، وكذلك أن من العلوم مايمكن الوصول الى حقائقها بالفعل وبدون حجة ، فبذلك لايكون هذا العلم المتحصل أوليا ولا اكتسابيا(١٠٥) ٠

ولذلك فان المعارف والعلوم عند ابن ملكا تستفاد كلها وتستحصـل

---

(١٠١) الحد الحقيقى : وهو عبار عما يميز الشىء عن غيره بذاتياته ٠ فاذا ذكر مع ذلك جميع ذاتياته العامة والخاصة فهو تام ، والا فيعتبر ناقصا ٠ الآمدى : المبين فى شرح معانى الفاظ الحكماء والمتكلمين ، ص ٧٤ ٠

(١٠٢) الحد الرسمى : وهو عبارة عما يميز الشىء عن غيره تمييزا غير ذاتى، وتمامه ونقصانه بما به تمام الحد ونقصانه ٠ نفسه ، ص ٧٤ ٠

(١٠٣) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٤٤ ٠

(١٠٤) ابن ملكا : المعتبر ، حـ ١ ، ص ٤٤ ٠

(١٠٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٤٥ ٠

بعد عدم معرفتها ، ولا يدخل ذلك لديه تحت عنوان المعارف والعلوم المكتسبة ، فما يكتسب من المعارف والعلوم انما هو استفادة معرفة بمعرفة، وعلم بعلم متقدم عليه تقدم السبب على المسبب ، وفى هذه الحالة لابد من علم اولى(١٠٦) ، ولا يجب مع ذلك كله ان تهمل دلالات الالفاظ ومواقعها فى معرفة وجوه اكتساب المعارف .

ولا أرى أن هناك بونا شاسعا فيما دكره ابن ملكا هنا فى تفريقه بين المعارف الأولية والمعارف العلمية ، اذ نلاحظ انه بنى المعرفة العلمية على معرفة مكتسبة مبنية على معارف أولية ، وهذا هو نفس ما نادى به باشلار(١٠٧) فيما سماه بالأبستيمولوجيا « نظرية المعرفة العلمية » التى تختلف عن نظرية المعرفة العلمية » التى تختلف عن نظرية المعرفة التقليدية بأنها تبحث فى المعرفة العلمية ، وانها تدرس كل علم من العلوم على حدة(١٠٨) . وهذا ما قاله ابن ملكا : فالمعرفة اليقينية عنده هى تلك المعرفة التى توصل اليها بمعرفة مكتسبة مبنية على معرفة أولية. أما فيما يخص تفصيل دراسة المعرفة للعلوم كلا على حدة ، فنجد ابن ملكا يقول فى حديثه عن الألفاظ المستخدمة فى المعارف والعلوم : « ولكل تعليم وتعلم ضرورة الى الفاظ ، وهى موجودة فيما تلقنه الناس ونشئوا على تعلمه من اللغات وعلى طريق الخصوص فى علم علم من جهة ألفاظ يختص وضعها وعرفها بذلك العلم»(١٠٩) .

ثم تحدث بعد ذلك عن الأوقايل المعرفة ودورها فى تحديد المعارف المكتسبة من حيث انها تجرى على الألفاظ ، تتداول فى المفاوضات والمحاورات ، فى التعلم والتعليم . وجعل هناك ثلاثة أنواع من

---

(١٠٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٤٦ .

(١٠٧) باشلار : فرنسى اشتهر بدراساته فى فلسفة العلم ولد سنة ١٨٨٤م ، عين أستاذا لتاريخ العلوم وفلسفتها فى السوربون وله فى ذلك العديد من المؤلفات . بدوى: موسوعة الفلسفة ، حـ١ ، ص ٢٩٢ .

(١٠٨) بنعبد العالى : درس الأبيستيمولوجيا ، ص ٨ ـ ٢٩ .

(١٠٩) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٧ ـ ٨ .

الألفاظ(١١٠) :

الأول منها : مايقال لتعرف بها المعانى التى هى أسماء موضوعة لها ، وهى لا تفيد فى معرفة المجهول . وهذا التعريف عام لسائر الألفاظ من حيث هى ألفاظ .

والثانى : ألفاظ تقال لتعرف بها ألفاظ أخرى موضوعه للمعانى التى هى أيضا أسماء موضوعة لها . وهذا التعريف يعرض للألفاظ المختصة بتعليم الاصطلاحات اللغوية ، وتفسير بعضها لبعض .

والثالث من الألفاظ : مايقال لتعرف بالمعانى التى هى أسماء موضوعة لها معانى أخرى غير التى هى موضوعة لها . وهذا النوع هو التعريف الاكتسابى المخصوص تعلمه بهذا العلم ، وهذا منه :

التعريف بالحد : وهو قول معرف بجملته لشىء واحد هو المحدود لدلالته بمفردات ألفاظه على آحاد معانيه الذاتية التى هى أجزاء مقومة لحقيقته(١١١) .

التعريف بالرسم : وهو قول بجملته لشىء واحد هو المرسوم ، لدلالته بمفردات ألفاظه على أوصاف يتميز بها عن جميع ما عداه تميزا عرضيا(١١٢) .

تعريف التمثيل : وذلك يكون بتعريف الشىء بنظائره واشباهه(١١٣) .

يقول ابن ملكا ان الأقاويل المعرفة بالحدود والرسومات وتمثيلات لها اعاقات تحول دون فهم المعارف ، وبالتالى لا يتم الوصول اليها ، الا اذا كانت تلك الأقاويل صحيحة وتامة ، أما ما يتمثل فيه الاعاقه فهو

---

(١١٠) نفسه ، حـ١ ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(١١١) نفسه ، حـ١ ، ص ٤٧ .

(١١٢) نفسه ، حـ١ ، ص ٤٨ .

(١١٣) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٤٨ .

الفاسد والناقص من الأقاويل المعرفة(١١٤) ، وفسر ذلك كله ثم أجمل مراده بقوله : « وبالجملة فان المعرفة تكون ذاتية أو عرضية ، واكتساب الذاتية يكون بالاقاويل المؤلفة من اسماء المعانى الذاتية ، أعنى الحدود. واكتساب العرضية يكون بالاقاويل المؤلفة من اسماء المعانى العرضية ، أعنى الرسوم والتمثيلات . ومحصول التمثيلات يرجع الى محصول الرسوم ، لأن المماثلة والمشابهة والمخالفة أوصاف عرضية ، ومنها تلتئم الأقاويل التمثيلية ، فافضل الحدود ما اشتمل على سائر الأوصاف الذاتية بترتيب يتقدم فيه عامها على خاصها ،واعرفها على ما ليس بأعرف ، ودل بالفاظ معروفة مالوفة عند المعرف واختصر الالفاظ مع استيفاء المعانى»(١١٥) .

وفى حديثه عن الأقاويل المعرفة يقول : أن هناك وسائل يمكن استخدامها ؛ وهى تعين على اكتساب الاقاويل المعرفة ، ويتم ذلك بتصرفات عقلية محكومة بقوانين تعليمية ، وهى جمع وتفريق وجودى وذهنى لما يتصرف العقل فيه ويتوصل اليه به(١١٦) .

وعرف الجمع بأنه اكتساب المفردات المتكثرة ، الذوات وحدة عرضية وجعله قسمين(١١٧) .

تاليفى وهو الذى تتميز آحاده فى اجتماعها ،
والتركيبى وهو الذى تختلط آحاده وتتحد أجزاؤه ولا يدرك كل منها لوحده .

وقسم التاليفىالى قسمين وجودى - موجود فى العيان - ، وذهنى. وكذلك التركيبى جعله قسمين وجودى ، وذهنى ، والوجودى جعله أيضا قسمين طبيعى وصناعى ، وأعطى الأمثلة لكل نوع من انواع تقسيمات الجمع(١١٨) .

---

(١١٤) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٠ - ٥١ .
(١١٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٤ .
(١١٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٥ .
(١١٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٥ .
(١١٨) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٥٥ .

أما التفريق فعرفه بأنه تكثر الوحدات العرضـــية ، وتمييز الآحاد لاجتماعية الاختلاطية التركيبية والتاليفية ، فان وحدة الواحد قـــد تكون ذاتية وقد تكون عرضية(١١٩) ٠

وقسمه الى قسمين تفريق آحاد التاليف ويسمى قسمة وتفـــريقا ، والثانى هو تمييز احاد التركيب ويسمى تحليلا ٠ والقسمة جعلها قسـمة كلى الى جزئياته ، وجعله على ثمانية أنواع ، وقسمة الكل الى أجزاء متشابهة(١٢٠) ٠

وأما التحليل فيقول أنه مقابل ومعاكس للتركيب ، فهو فى مقابلة التركيب الذهنى يكون فى المعانى الكلية ويسمى تحليل الحد والرسم ٠ وأما فى مقابلة التركيب الوجـــودى فيسمى التحليل بالعكس ، وهو اما طبيعى - كتحليل جسم الانسان الى الاخـــلاط - ، واما صناعى فذلك كتحليل السكنجبين(١٢١) الى الخل والعسل(١٢٢) ٠

وفى الكيفية التى يمكن بواسطتها استفادة الحدود والرسوم يقول : ان الحدود ما دامت عبارة عن معان مؤلفة ، فكذلك تحصـــيلها انما يتم بتحصيل المعانى المفردة التى تتالف منها الحدود ، وقد تعرف مفردات الحقائق برسوم وصفات عرضية(١٢٣) ٠

وبناء على ذلك فان اكتساب الحدود انما يتم أولا عن طريق تحصيل البسائط المفردة التى تكون حقائق المحدود ، ويتم ذلك عن طريق التدبير العقلى ، وكذلك الرسوم فان تحصيل بسائطها من الأوصاف العرضية انما

---

(١١٩) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٦ ٠

(١٢٠) نفسه ، حـ١ ، ص ٥٦ ٠

(١٢١) السكنجبين : هو المركب من الخل والعسل ، ثم يسمى بهذا الاسم ، وان كان مكان العسل سكر أو مكان الخل لب السفرجل ٠ وأنواعه واخـــلاطه كثيرة ٠ الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ابن سينا : القانون ، حـ٢ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ٠

(١٢٢) ابن ملكا : المعتبر ، جـ١ ، ص ٥٦ - ٥٧ ٠

(١٢٣) نفسه ، حـ١ ، ص ٦١ ٠

يتم بالتحليل والتدبر ، أو الوجودى ، أو الاستدلالى(١٢٤) ٠

ثانيا : مذهبه فى العلوم وتحصيلها :

وبعد حديثه عن المعرفة والفرق بينها وبين العلم ، أكد ان العلوم « تكون بألفاظ ومعان مؤلفة ، والأقاويل هى الألفاظ الدالة عليها من حيث هى علوم لا من حيث هى معان»(١٢٥) ويقول ان العلوم يلزمها الصدق والكذب ، اذا ما نسبت الى الوجود فى الموافقة والمخالفة. على أن التصديق والتكذيب لتلك العلوم ينطوى تحت حكم النفس لها وفيها(١٢٦) ٠ وقسم المعلومات المتحصلة الى صنفين :

الأول : وهو ما سماه بالعلم ، وهو الحكم فى القضايا بالاثبات والنفى(١٢٧) ٠

الثانى : وهو المعلومات المبنية على الأمور الوجودية التى تلك معانيها ، على أنه يستثنى من ذلك أشياء لا يحكم بمعانيها على أمور وجودية ، اذ أن من المعلومات ما يتقدم على الموجودات وتكون أسبابا للعلوم(١٢٨) ٠

ويقسم ابن ملكا المعلومات عامة ـ وهو ما عناه بالقضايا(١٢٩) ـ الى حملية وشرطية(١٣٠) فالحملية هى التى تحكم بشىء ويسمى

---

(١٢٤) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٦١ ٠

(١٢٥) ابن ملكا : المعتبر فى الحكمة ، حـ١ ، ص ٧٠ ٠ يقول د٠ كارناب : « ونحن نقصد بالعلم هنا مجموع العبارات المعروفة ، ولست أعنى العبارات التى يصوغها العلماء فحسب ، بل انى أقصد كذلك العبارات التى نصادفها فى حياتنا العادية فليس من الممكن فصل هذه عن تلك فصلا دقيقا » بنعبد العالى : درس الابيستيمولوجيا ، ص ٤٨ ٠

(١٢٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٧٠ ٠

(١٢٧) نفسه حـ١ ، ص ٧٠ ٠

(١٢٨) نفسه ، حـ١ ، ص ٧٠ ٠

(١٢٩) القضية : هى القول الجازم ، مثل فلان كاتب ، أو فلان ليس بكاتب ٠ الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٠ ٠

(١٣٠) ابن ملكا : المعتبر فى الحكمة ، حـ١ ، ص ٧٠ ٠

محمولا أنه لشيء يسمى موضوعا ، أو أنه ليس له حكما متصلا ، والحكم بأنه له يسمى ايجابا ، وبانه ليس له يسمى سلبا(١٣١) ، والحكم بالاثبات والنفى فى القضايا الحملية اذا كان ذلك حتما غير متوقف على شرط مجهول كقوله « الشمس طالعة »(١٣٢) ٠

وأما الشرطية فانها تقع تحت شرط مجهول الحكم والحصول ، معلوم اللزوم كقوله « ان كانت الشمس طالعة فالنهار موجود » اذ أن الحكم بوجود النهار فى هذه القضية غير جازم بل متوقف على شرط مجهول وهو طلوع الشمس(١٣٣) ٠

وفرق بين القضايا الحملية والشرطية بأن الحملية بسيطة اذا ما قيست على الشرطية ٠ وفى الشرطية تركيب لأن أجزاء القضية الشرطية قضيتان حمليتان قد صارتا قضية واحدة من أجل الحكم(١٣٤) ٠

ويذكر بعد ذلك تفصيلات كثيرة عن القضايا الحملية والشرطية حسب موضوعها حين يكون جزئيا أو كليا ، وما يمكن أن تتصف به كل قضية منها اما أن تكون محصورة أو مهملة أو مخصوصة(١٣٥) ٠

م تحدث عن جهات(١٣٦) القضايا والعوارض الخارجية التى يمكن أن تؤثر فيها ، بحيث لا يمكن معها الحصول على معلومة محددة، فذلك يقال فيه ممكن لأنه ليس على الوصف الذى قيل أنه ممكن ولا يمتنع

---

(١٣١) نفسه ، حـ١ ، ص ٧٠ ٠

(١٣٢) نفسه ، جـ١ ، ص ٧٢ ٠

(١٣٣) ابن ملكا : المعتبر فى الحكمة ، حـ١ ، ص ٧٢ ٠

(١٣٤) نفسه ، حـ١ ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ٠

(١٣٥) المعتبر ، حـ١ ، ص ٧٥ . وفى تعريف القضايا المهملة والمحصورة والمخصوصة ٠ انظر الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٠ ٠

(١٣٦) الجهات : هى ما فى الاذهان من الظنون والاعتقادات على الحقيقة ٠ ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٨٤ ٠

ان يكون عليه ، كان يقال : الهواء بارد أو غير بارد ، فانه لايكون باردا بذاته ولا يمتنع عنه الحر والبرد بسبب العوارض الخارجية(١٣٧) ٠

طرق الاستدلال :

وفى الكيفية التى يمكن بواسطتها الحصول على المعرفة والعلم ، يتحدث ابن ملكا فى ذلك عن طريقين هما :

الاول : القياس(١٣٨):

يقول ان القياس له دور رئيسى فى سبيل الحصول على المعرفة والعلم ، وذلك بتالف القضايا بعضها مع بعض على صورة يستفاد بعلمها الحاصل علم بمجهول(١٣٩) ٠ على أنه لا يمكن أن يكون العلم الحاصل موجبا للعلم المستفاد كيفما اتفق ، وانما لابد من اعمال العقل والتفكر فى المجهول والمعلوم ، اذ لو كان الأمر كذلك فان الانسان لايحتاج فى تعلم العلوم المكتسبة من العلوم الحاصلة الى فكر وزمان ، ذلك أن العقل سينتهى من أول علم بمعلوم الى اقصى حدود المعلومات المكتسبة بغير كلفة ولا فكر ولا روية وفى اقصر زمان(١٤٠)

وذلك سيؤدى الى الغاء الفكر والتروى ، وهذا ليس من الامور المنطقية عند العلماء ، اذ أن « العلم الحاصل انما يفيد علما بمجهول يحصلها الذهن بالروية والتفكير عن طريق البحث والطلب ، فيؤدى ذلك البحث والتفكير الى علم المجهول بالمعلوم واستفادته به »(١٤١) وذلك

---

(١٣٧) نفسفه ، حـ١ ، ص ٧٨ ٠

(١٣٨) القياس : عبارة عن قول مؤلف من أقوال ، يلزم عن تسليمها لذاتها قول اخر ، فان كان المطلوب أو نقيضه مذكورا فيه سمى استثنائيا ، وان كان غير مذكور فيه سمه اقترانا ٠

الآمدى : المبين فى شرح معانى الفاظ الحكماء والمتكلمين ، ص ٨١ ، الجرجانى: التعريفات ، ص ١٩٠ ٠

(١٣٩) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ ٠

(١٤٠) نفسه ، حـ١ ، ص ١١٠ ٠

(١٤١) نفسه ، حـ١ ، ص ١١٠ ٠

بواحد من الطرق التالية :

* اما بغريزة النفس وفطرتها كهداية الطفل الى الرضاع ٠
* واما بالبحث والتفكير فى المعلومات التى تؤدى الى الصواب الموجب لذلك العلم المستفاد بالعلم السابق ٠
* واما بطريق تعليمى قانونى يعلمه أهل النظر والاعتبار من ارباب الغرائز المطبوعة ، والفطر السليمة الملهمة(١٤٢) ، وهذا الأخير هو ما عناه ابن ملكا ، فيدور القياس فى الوصول الى العلوم والمعارف عن طريق العلم بالمعلوم الذى يؤدى الى العلم بالمجهول ، لنسبة وصلة موجودة بينهما تؤدى الى اعمال الفكر فى استخراج تلك الصلة المجهولة(١٤٣) ٠

وفى هذه الحالة قد يهتدى الانسان الى ذلك بعد زمان طويل من الدراسة والبحث والتفكير ٠ وقد يتوصل اليها الهاما او بمحض المصادفة فى زمن قصير جدا ، وفى الحالتين هو ما حصل للقدماء من العلماء « فقد نظروا فى المعلومات وحكموا فى العلوم ، وقالوا الصدق من غير أن يعرفوا كيفية علمهم ونظرهم كيف كان ، وقد سبق الى العلوم والقول فيها من سبق قبل أن تكتب هذه الكتب المنطقية»(١٤٤) ٠

ويؤكد ابن ملكا أن القضية الموجبة والسالبة فى الحمليات ، والقضية الشرطية والجزائية فى الشرطيات تسمى اذا دخلت فى تركيب القرائن القياسية مقدمة(١٤٥) ، وهو القول السابق علمه وتقريره فى الذهن ليستتبع بالعلم المطلوب ٠ وهذه القرائن القاسية بعضها مفيد ومنتج ويؤدى الى العلم بالمجهول ، والبعض منها لا يؤدى الى ذلك(١٤٦) ٠

---

(١٤٢) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ١١٠ ٠

(١٤٣) نفسه ، حـ١ ، ص ١١٠ ٠

(١٤٤) نفسه ، حـ١ ، ص ١١٣ ٠

(١٤٥) المقدمة : هى القضية تقدم فى صنعة القياس ، الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٠ ٠

(١٤٦) ابن ملكا : المعتبر ، حـ ١، ص ١١٣ ٠

على أن القرائن المنتجة تختلف من جهة مقدماتها وما فيها من علم حاصل، فان منها ما علمه يقينى ، ومنها ما يغلب عليه الظن الصادق • ومنها ماهو مقنع • ومنها المعلومة الموهمة والمغلطة ، ومنها ما يؤثر فى النفس من غير ظن ولا تصديق(١٤٧) •

ويعقد ابن ملكا بعد ذلك دراسة مطولة يذكر فيها عكوس المقدمات(١٤٨) ، والقرائن القياسية(١٤٩) ، وضروب القياسات من القضايا المطلقة ، واشكال القياسات وضروبها من القضايا الضرورية والممكنة والمختلطة ، والمقاييس المؤلفة من القضايا الشرطية الاستثنائية والاقترانية ، والقياسات المركبة ، واكتساب المقدمات ، وتحليل القياسات ودور ذلك كله فى استقرار النتائج ومعرفةالصادقة منها من الكاذبة(١٥٠)•

وعن الوسائل القياسية التى يمكن التوصل عن طريقها الى العلم والمعرفة ، ذكر ابن ملكا طرقا متعددة تناولها الكثير من العلماء المسلمين بالدراسة والبحث كالرازى ، وابن سينا ، والغزالى • ومازالت الى اليوم موضوع دراسة العلماء ، ولا زالت قابلة للبحث والنقاش وهى :ـ

١ ـ قياس التمثيل(١٥١) : قال ابن ملكا انه يتكون من أربعة حدود : أكبر كلى ، وأوسط كلى محمول على الأصغر لأنه محمول على

---

(١٤٧) نفسه ، حـ١ ، ص ١١٣ •

(١٤٨) العكس فى المقدمة : هو تصيير محمولها موضوعا وموضوعها محمولا مع بقائها على ما كانت عليه من الايجاب والسلب • نفسه ، حـ١ ، ص ١١٧ •

(١٤٩) القرائن القياسية : هى قول مؤلف من اقوال فيها مواضع تصديق وتكذيب، وموضع التصديق والتكذيب فى القول هو الحكم الجازم أو الشرطى • نفسه ، حـ ١ ، ص ١٢٢ •

(١٥٠) نفسه ، صص ١١٧ ـ ١٧٤ •

(١١) التمثيل : هو ما يعبر عنه بالقياس فى اصطلاح الفقهاء • الآمدى : المبين ص ٨٨ •

ويقول الجرجانى : « هو اثبات حكم واحد فى جزئى لثبوته فى جزئه اخر لمعنى مشترك بينهما ، والفقهاء يسمونه قياسا • التعريفات ، ص ٦٩ •

شبيهه فيكون الأصغر وشبيهه حدين ، والاكبر يحمل على الأوسط لحمله على شبيهه الأصغر كما يكون الأكبر(١٥٢) ٠

٢ ـ قياس المقاومة(١٥٣) : وهى مقدمة تؤخذ كبرى لانتاج قضية مقابلة لمقدمات القياس حتى يبطل بذلك القياس المعقود(١٥٤) ٠

٣ ـ قياس الرأى : وهو عبارة عن مقدمة كلية يميل اليها السامعون ولا تردها الأذهان ببديهتها ، تؤخذ فى قياسات خطبية وجدلية(١٥٥)٠

٤ ـ قياس العلامة : ويجعلها قضـــية اما ضرورية واما محمـــودة مظنونه ، يكون الحد الأوسط فى القياس الكلى منها علامة لوجود شيء ، وهو اما ان يصلح أن يكون حدا أو وسطا موضوعا لهما ، واما ان يصلح ان تجعل الأوسط محمولا عليهما جميعا(١٥٦) ٠

٥ ـ قياس الفراسة(١٥٧) : جعله علما قائما بذاته من جملة العلم الطبيعى ، يكون للأنفس السليمة ، غـريزة يصـــدر عنها الحكم لذاتها وطباعها ٠ وهذا علم ذلك الحكم الذى هو للنفس بغريزتها وفطرتها من غير تعليم معلم ، كما تصدر الأشياء الطبيعية عن القوى الفعالة من غير فكر ولا روية(١٥٨) ٠

---

(١٢) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠١ ٠

(١٥٣) يقول الآمدى ان المقاومة عبارة عن قياس مؤلف ، لابطال مقدمة فى قياس آخر باثبات قضية أخرى هى اشد عموما منها ، مخالفة لها فى الكيف على ســبيل التخيل ٠ المبين ، ص ٨٧ ٠

(١٥٤) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠١ ٠

(١٥٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠١ ٠

(١٥٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٢ ، كذلك انظر الآمدى : المبين ، ص ٨٩ ، وانظر امثلة كل حالة فى المصدرين ٠

(١٥٧) الفراسة : هو ما يعبر عنه عند الفقهاء بقياس الدلالة ٠ الآمـــدى : المبين ، ص ٨٨ ٠

(١٥٨) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠٢ ٠

٦ - القياس البرهانى(١٥٩) : وخصص ابن ملكا لعلم البرهان مقالة كاملة تقع فى سبعة فصول ، وفى حديثه عن قياس البرهان يقول : انه مرحلة أخيرة من مراحل البحث للحصول على المعرفة الحقة ، او المعلومة الصادقة ، فكان أن تحدث عن الاقاويل المعرفة فى التعليم والتعلم بالعبارة . وتبعه الحديث فى التعليم والتعلم فى الأقاويل المعنمة التى سماها بالقياسات . وتبين من ذلك ان التعليم فيه يكون من أشياء لأشياء باشياء ، فالذى منه فهو المقدمات ؛ وأما الذى له فالنتائج ، وأما الذى به فصور القياسات والقرائن المنتجة الموجبة للعلم ، فالقياس بعلم النتائج من المقدمات تصور القرائن فى القياسات ، فيلزم فيه تصديق النتيجة من تصديق المقدمات ، اذا كانت على صورة الاقتران المنتج(١٦٠) .

وذلك كله يبين كيفية انتقال الذهن من تصديقه بالمقدمات الى تصديقه بالنتيجة(١٦١) .

ثم يقول فى تحديد البرهان : ان القياسات المؤلفة من تلك المقدمات والنتائج التى تنتج فيها تسمى برهانية ، ويسمى القياس الذى يؤلف عنها برهانا . والبرهان هو الحجة التى تفيد العلم اليقين الذى لاشك فيه(١٦٢) .

والقياس البرهانى ما كان من جملة القياسات المنتجة مؤلفا من هذه المقدمات ، اذ أن القياس المؤلف من مقدمات لاريب فيها بتاليف لا ريب فيه يفيد نتيجة يقينية الصدق لاريب فيها(١٦٣) .

---

(١٥٩) البرهان : هو الحجة ، وهو عبارة عن قياس يقينى المادة ، فان كان الحد الأوسط منه هو العلة الموجبة للنسبة بين طرفى المطلوب سمى « برهانا لميا » ، وان لم يكن هو العلة الموجبة لنفس النسبة بل الموجبة للتصديق بوقوع النسبة سمى « برهانا انيا » . الآمدى : المبين ، ص ٩٠ .

(١٦٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(١٦١) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٤ .

(١٦٢) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٤ .

(١٦٣) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٤ .

وأما من لا يشـــك فى شىء من ذلك فانه لايشـــك فى النتيجة ولا يرتاب بها فهذا هو البرهان ٠ والقياسات والنتائج البرهانية فالمقدمات هى القضايا التى تؤلف منها النقياسات لتحصل منها النتيجة التى هى المطلوب ٠ والنتيجة هى قضية حصل العلم بها(١٦٤) ٠

وفى اثناء الحديث عن القياس البرهانى لم ينس ابن ملكا اهمية وضرورة الادراك العقلى والادراك الحسى ، او اهميتهما معا فى تكوين المعارف والعلوم ٠فضرورة العقل هى : ما كان الحكم فيها بغريزة النفس وفطرة العقل ، حتى اذا ما تصور العاقل فيها القضـــية بمفهومها حكم بفطرته فيها بايجاب(١٦٥) ٠

اما ضرورة الحس فهى فيما كان من الحكم بمقتضى ما أدركه الحس فى المحسوسات،كنور الشمس وظلمة الليل وحرارة النار وبرودة الثلج. أو ما جربه الحس ، فان العقل يحكم فى ذلك بما أدركه الحس(١٦٦) ٠

ويتابع حديثه فى ذلك الى ان يقول : « فهذه هى أصناف المقدمات ولأوليات العقلية ٠ والحسية منها هى مقدمات البرهان الذى تكتسب به العلوم الحكمية على نظام وترتيب كما قيل ، نتيجة عن مقدمة ، ومقدمة لنتيجة على ترتيب واجب فى الطبع ، وكل تعليم لا يجرى على نسقه وقانونه فليس من العلوم الحكمية »(١٦٧) ٠

٧ ـ القياس الجدلى(١٦٨) : وهى المسلمات التى لا يوقف أمرها على بيـــان ، بل تتسلم مع تصديق أو تكذيب ، او من غير تصديق

---

(١٦٤) نفسه ، حـ ١ ، ص ٢٠٥ ٠

(١٦٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٥ ٠

(١٦٦) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠٥ ٠

(١٦٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٠٨ ٠

(١٦٨) الجدل : تقرير الخصم على ما يدعيه ، من حيث اقر حقا كان أو باطلا ، أو من حيث لا يقدر الخصم أن يعانده ، لاشتهار مذهبه ورأيه فيه ٠ الخـــوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٤ ٠

ولا تكذيب(١٦٩) ، وتاليف هذه القياسات الجدلية من مقدمات ذائعة مشهورة ، اما على الاطلاق وهى التى يؤمن بها جمهور الناس ، واما ذائعة بالاضافة وهى التى يراها أكثر الأمم ويعتبرونها(١٧٠) .

الثانى : الاســتقراء(١٧١):

يقول ابن ملكا : « الاستقراء هو أن يتبين وجود شيء كلى لشيء ، أو سلبه عنه لوجوده أو عدم وجوده فى جــزئيات ذلك الكلى، فيكون الشيء الذى يتبين به هو موضــوعات الشيء المبين له ، فيـكون الكلى المحمول بالايجاب والسلب كالطرف الأكبر ، وتلك الموضوعات كالطرف الأصغر ، والكلى المحكوم عليه كالطرف الأوسط ليتبين بأحـد الطرفين وجود الطرف الآخر للواسطة»(١٧٢) .

وابن ملكا هنا يتحدث عما يتحــدث عنه الاستقرائيون فى العصر الحديث فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، على الرغم من المعارضة الشـــديدة التى وجهــت الى منهجهم الذى يؤكد على أهمية الاستقراء فى الوصول الى المعرفة العلمية ، فالاستقرائيون يقولون : ان العلوم الاستقرائية تتميز بانها تستخدم الطرق الاستقرائية Inductive Methods وهم بذلك يؤكدون على أن منطق الكشف العلمى يتفق مع المنطق الاستقرائى(١٧٣) . على أن بوبر(١٧٤) وهو من أشد معارضى

---

(١٦٩) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠٨ .

(١٧٠) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٣٤ .

(١٧١) الاستقراء : عبارة عما يوجب نسبة كلى الى آخر بايجاب أو ســلب لتحقيق نسبة تلك الكيفية الى ما تحت الكلى المنسوب اليه من الموضوعات . وقيــل هو : تعديد الجزئيات ثم الحكم بالقضية الكلية بعد . الآمدى : المبـين ، ص ٨٧ ، وعرفه الخوارزمى بقوله : هو تعرف الشيء الكلى بجميع أشخاصه : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٣ .

(١٧٢) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ١٩٩ .

(١٧٣) محمد على : نظرية المعرفة العلمية ، ص ٤٣ .

(١٧٤) بوبر : كارل : باحث فى فلسفة العــلوم أصله نمساوى ولد فى فينا =

المنهج الاستقرائى يقول « ان الاستدلال الاستقرائى الذى ينتقل من القضايا الجزئية الى القضايا الكلية التى تتسم بالعمومية Generality ليس له ما يبرره »(١٧٥) لأن ذلك قد يؤدى الى نتيجة كاذبة « والعلوم تتقدم من خلال محاولتها تكذيب القضايا الكلية»(١٧٦) ٠

ولقد اعتمد بيكون (ت١٦٢٦م)(١٧٧) ايضا فى دراسته للعلوم لا سيما الحركة، على مبدأ الاستقراء الذى يعتمد على التجربة التى وضع لصلاحيتها ثمان نقاط(١٧٨) ، كان جابر بن حيان قد تحدث عنها فى كتابه « كتاب البحث »(١٧٩) ، واخذها عنه كل من جاء بعده من علماء الطبيعة من المسلمين ، ومن بعدهم من الأوروبيين حتى روجر بيكون نفسه ٠ وقد أفرد ابن ملكا فى الجزء الثانى من كتابه عدة فصول للحديث عن الحركة ، سواء عن حركة الافلاك ، أو الحركة الميكانيكية التى توصل فيها الى نتائج رائعة لا تختلف عما نعرفه اليوم(١٨٠) وقد اتبع فى دراسته تلك التجربة ثم أثبت ذلك كعلم عن طريق الاستقراء واستنباط النتائج ٠

ويجعل ابن ملكا الاستقراء شبيها بالقياس الاقترانى ، الا أنه يختلف معه بأن الشىء الذى يجب أن يكون حدا أصغر فى القياس يكون

=

١٩٠٢م ودرس الفيزياء والرياضيات والفلسفة فى جامعة فينا ، ثم أصبح أستاذا للمنطق فى جامعة لندن ٠ بدوى ، موسوعة الفلسفة ، حـ١ ، ص ٣٦٩ ٠

(١٧٥) محمد على : نظرية المعرفة العلمية ، ص ٤٣ ٠

(١٧٦) نفسه ، ص ٣٥ ٠

(١٧٧) بيكون : فيلسوف وسياسى انجليزى ، كانت حياته مضطربة بالاحداث ، اشتغل بالفلسفة والعلوم والسياسة وصنف فيها مصنفات عديدة لمعلومات موسعة انظر .بدوى : موسوعة الفلسفة ، حـ١ ، صص ٣٩٣ ـ ٣٩٩ ٠

(١٧٨) الجابرى : مدخل الى فلسفة العلوم ، حـ٢ ، ص ٢٠ ٠

(١٧٩) ميكروفيلم مركز البحث واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٧٦ معارف عامة ٠

(١٨٠) شوقى : تراث العرب فى الميكانيكا ، ص ٨٧ ٠

واسطة فى الاستقراء ، ولذلك فالاستقراء أقرب الى الأذهان ، والقياس أقدم بالطبع(١٨١) ٠

ثالثا : نظرته الى العلوم وتصنيفها :

يقول ابن ملكا ان لكل علم منفرد خاص من العلوم موضوع واحد خاص به ٠ وجعل ذلك سمة للعلوم النظرية والعملية ٠ فالعلم النظرى ينظر فى ذلك الموضوع ويبحث عن أوصافه حتى يحصل له معلومة ، كالسماء لعلم الهيئة(١٨٢) ٠

وأما العلم العملى فينظر فى الموضوع لأجل عمل يعمله وتأثير يؤثر فيه ، فى أعراضه وخواصه التى له حسب ذلك العلم مثل بدن الانسان لصناعة الطب(١٨٣) ٠

والعلم الكلى له موضوع كلى ، وجزئيات ذلك الموضوع تكون تبعا لأجزاء ذلك العلم ومسائله ، فتكون الموضوعات فى القضايا - مطالب ذلك العلم - جزئيات لذلك الموضوع الكلى ، فتميزت العلوم بذلك عن بعضها البعض بتميز موضوعاتها(١٨٤) ٠

والموضوع الواحد عادة تشترك فيه العديد من العلوم ، ولكنها تختلف وتتباين فى الجهات ، فجسم الانسان لايكون موضوعا لصناعة الطب من كل وجه ، بل من جهة ما يصح ويمرض فقط ، ولعلم الفراسة من جهة شكله وخلقه اللذين يستدل بهما على ملكته واخلاقه(١٨٥ ٠

والعلم اليقينى عند ابن ملكا يمكن التوصل اليه فى ضوء العوامل التالية(١٨٦) :

---

(١٨١) ابن ملكا . المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٠٠ ٠

(١٨٢) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢١ ٠

(١٨٣) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢١ ٠

(١٨٤) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢١ ٠

(١٨٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٢ ٠

(١٨٦) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٢٢ ٠

(أ) الموضوع : وهو مشترك لسائر المطالب والمسائل ٠

(ب) المحمول(١٨٧) : والمحمولات كثيرة فى مسـائله ، وهى الصفات والاعراض التى تعرض له بذاته ٠

(جـ) المبادىء : وهى التى تستخدم فى قياسـات ذلك الموضوع مقدمات لها ، تبرهن العلوم ٠

(د) المسائل وهى القضايا التى تبرهن فى العلوم ٠

(هـ) الأغراض والغايات : وجعل هـذا زيادة خاصة بالعـلوم العملية ، وغرضها تحقيق علة العمل كالصحة لصناعة الطب ٠ فالعلوم قد تكون المسائل المعلومة فيها هى الغايات المطلوبة ، وليست الأعمال هى الغايات ٠ ومثال ما تقدم عن صناعة الطب ، فموضوعها بدن الانسان ، ومبادئها تكون من العـلم الطبيعى والحس والتجربة ٠ ومسائلها هى : كيف تحفظ الصحة ويزال المرض وبماذا ٠ ومحمولاتها المصح والممرض والنافع والضار ، وغايتها حفظ الصحة وازالة المرض(١٨٨) ٠

أن هذا الطريق الذى اتبعه ابن ملكا والمتمثل فى النقـاط الخمس السابقة الذكر هى الفكرة الأساسية التى أعتمـد عليها فرانسيس بيكون (ت ١٦٢٦م) وكذلك ديكارت (ت١٦٥٠م) ، فى نظرتهما الى المعرفة والعلوم ، وكيفية الحصول على الحقيقة العلمية بالتجريب فى العلوم التطبيقية٠ اما المنهج الفرضى الاستنتاجى والذى دعى اليه ديكارت(١٨٩) فهو يتمثل حقيقة فيما أكده ابـنملكا ، اذ يقول ديكارت :

« لقد عملت أولا على الحصول على المبادىء الأولى التى هى علة كل ما يوجد ، ثم بحثت بعد ذلك عن الموجودات العامة التى ننسبها الى

---

(١٨٧) المحمول : هو مايحكم على شىء آخر بانه هو أو ليس هو ٠ الآمدى : المبين ، ص ٧٥ ٠

(١٨٨) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ٠

(١٨٩) الجابرى : مدخل الى فلسفة العلوم ، حـ٢ ، ص ٥٠ ٠

هذه الأسباب الأولى»(١٩٠) ٠

ويعلل ابن ملكا سبب تفصيل العـــلوم الى الأصناف التى فصلت اليها ، ولم تبق علما واحدا ، فيقول : ان سبب ذلك يعود الى المتعلمين فى تعلمهم ٠ ذلك ان المجهولات انما تعرف وتعلم بامور هى اعرف منها وأسبق علما ، وذلك نفسه يؤدى الى تعـــلم علم ثان وثالث ورابع ، اذ ان العلوم والمعلومات لو اتسقت على نسق واحد بترتيب واحد من أعرف الى ما ليس بأعرف ، لصح ان يكون العلم واحدا(١٩١) ٠

على ان ذلك لا يمكن أن يكون سنة ، فتشعبت العلوم الجزئية عن الكلية بتشعب الموضوعات ومبادىء البيانات ، والمطالب فى النظريات، والاغراض فى العمليات ٠ فخرجت من العلم الكلى علوم أخرى تتحد معه فى الموضوع وتختلف معه فى الجهات والغـــايات ، « فعلم الطب من العلوم الجزئية تحت العلم الطبيعى من حيث هو علم نظرى ، ومن جهة غايته العملية فهو صناعة خاصة مخالفة للعـــلم الطبيعى فى الغاية دون الموضوع»(١٩٢) ٠

وفى مسالة تصنيف العلوم الحكمية وترتيبها يقول : أن العلوم منها ما هو موجود فى الأعيان ـ المحســوسة منها ـ ومنها الذهنيـة ، ومن الموجودات ماهو متقدم فى المعرفة ، ومنها ما هو متاخر فى المعرفة ، فالعلوم مترتبة على ذلك النحو أيضا فمنها ما هو أولى بالتأخــير وهو المتاخر فى المعرفة عن ذلك المتقدم(١٩٣) ٠

ولذلك تصنفت العلوم الى أصناف عدة ، ولم ترتب فى التعليم على شكل مسائل متتالية يشتمل عليها علم واحـــد ، فخرج من العــــلوم الحكمية(١٩٤) :

---

(١٩٠) ابن ملكا : المعتبر ، حـ٢ ، ص ٥٣ ٠

(١٩١) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٣ ٠

(١٩٢) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٤ ٠

(١٩٣) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٥

(١٩٤) ابن ملكا : المعتبر ، حـ١ ، ص ٢٢٦ ٠

(ا) علم المنطق ٠

(ب) علم الطبيعات ٠

(جـ) علم الرياضيات ٠

(د) علم الالهيات ٠

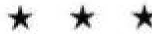
وكذلك صنفت العلوم الذهنية الى(١٩٥) :

(ا) ذهنية صرفة لا يتعدى حكمها ما فى الأذهان ٠

(ب) ذهنية يتعلق حكمها باشياء وجودية ٠

والذهنية الصرفة منها علم العلم ، وهو المنطق الذى يفيد القوانين العقلية التى لا بد منها فى عمليات التعلم والتعليم ، والقبول والرد ، والتصديق والتكذيب ٠ ومنها العـــلم وهو علم الكميات ، اى المقــادير والاعداد ويجمعها علم الهندسة ويشاركها علم العدد ٠ وعلم الاعداد منه علم خواص الاعداد وهو الارثماطيقى ، ومنه علم الحساب الذى يتعلق بالجمع والتفريق فى الاعداد(١٩٦) ٠

واما العلوم الذهنية التى يتعلق حكمها باشياء وجودية فهى علم هيئة الأفلاك وحركاتها ، وهى أقرب الى الموجودات منها الى الذهنيات، ولكنها نسبت الى الذهنية من أجل ارتباطها بالهندسة والحساب(١٩٧) ٠



وبعد ، فهذه صفحة من صفحات تاريخ العلوم عند المسلمين ، تعبر عن وجه مشرق من أوجه الحضارة الاسلامية ٠٠٠ وعن علم من أعلام الفكر الاسلامى فى صورة من صوره البناءة ٠

---

(١٩٥) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٦ ٠

(١٩٦) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٦ ٠

(١٩٧) نفسه ، حـ١ ، ص ٢٢٦ ٠

قائمة المصادر والمراجع

اولا : المصادر الخطية :

— جابر بن حيان : أبو موسى الـــكوفى (ت٢٠٠هـ/٨١٥م) (كتاب البحث) ميكروفيلم مركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى (١٧٦ معارف عامة) ٠

ثانيا : المصادر المطبوعة :

— ابن ابى اصيبعة : أبو العباس موفق الدين احمد بن القاسم بن خليفة السعدى (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) ٠
(عيون الانباء فى طبقات الأطباء) تحقيق د/نزار رضا ،منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٣٨٥هـ ، ١٩٦٥م ٠

— ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتابكى (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) ٠
(النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) دار الكتب المصرية ، المؤسسة العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر١٣٨٣هـ/١٩٦٣م٠

— ابن تيمية : أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبـــد الحليم (ت ٨٢٧هـ/١٣٢٨م) ٠
(درء تعارض العقل والنقل) تحقيق الدكتور/محمد رشاد سـالم الأجزاء ٢ - ٣ - ٩ - ١٠ ، طبعة جامعة الامام محمد بن سـعود الاسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ٠
(منهاج السنة النبوية) تحقيق الدكتور/محمد رشاد سالم الأجزاء ١ - ٢ - ٥ ، طبعـــة جامعة الامام محمد بن ســعود الاســلامية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م (كتاب الرد على المنطقيين) نشر ادارة ترجمان السنه ، لاهور ، باكستان ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ٠

— ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) ٠

(وفيات الأعيان وانباء الزمان) حققه د/احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

ـ ان سينا : الشيخ الرئيس الحسين بن على (ت ٤٢٨هـ) .
(القانون فى الطب) مكتبة المثنى ، بغداد ، (د.ت) .

ـ ابن ملكا : أبو البركات هبة الله البغدادى (ت ٥٤٧هـ/١١٥٢م).
(الكتاب المعتبر فى الحكمة) الأجزاء ١ ـ ٢ ـ ٣ دائرة المعارف العثمانية ، الطبعة الأولى ، حيدر اباد الدكن ١٣٥٧هـ .

ـ الآمدى : سيف الدين (٦٣١هـ/١٢٣٣م) .
(المبين فى شرح معانى الفاظ الحكماء والمتكلمين) تحقيق د/حسن محمود الشافعى ، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

ـ البيهقى : ظهير الدين أبى الحسن على بن زيد (ت٥٦٥هـ/١١٧٠م)
(تاريخ حكماء الاسلام) تحقيق/محمد كرد على ، المجمع العلمى العربى بدمشق ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

ـ الجرجانى : على بن محمد الحسينى (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م) .
(التعريفات) مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٨م .

ـ الحسينى : الوزير محمد بن محمد بن عبد الله ابن النظام (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م) .
(العراضة فى الحكاية السلجوقية) ترجمة د/عبد النعيم حسنين ، حسين أمين ، جامعة بغداد ١٩٧٩م .

ـ الخوارزمى : محمد بن أأحمد بن يوسف (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) .
(مفاتيح العلوم) اعداد د/عبد اللطيف محمد العبد ، دار النهضة العربية ، القاهر ، (د.ت) .

ـ الشهرزورى : شمس الدين محمد بن محمود (ت٦٨٧هـ/١٢٨٨م).
(نزهة الأرواح وروضة الأفراح فى تاريخ الحكماء والفلاسفة) جزآن ، الطبعة الأولى دائر المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

— صدر الدين الحسينى : ابو الحسن على بن ناصر (ت بعد ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) .

(زبدة التواريخ - أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) تحقيق د/ محمد نور الدين ، الطبعة الأولى ، دار اقرأ ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

— الصفدى : صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) .

(نكت الهميان فى نكت العميان) المطبعة الجمالية ، مصر ١٣٢٩هـ/١٩١١م .

— القفطى : الوزير جمال الدين على بن القاضى الاشرف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) .

(اخبار العلماء بأخبار الحكماء) ، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت . لبنان (د.ت) .

— المبشر بن فاتك : الأمير أبو الوفا (ت ٥٠٠هـ/١١٠٦م) .

(مختار الحكم ومحاسن الكلم) تحقيق د/عبد الرحمن بدوى ، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت١٩٨٠م.

— ابن النديم : محمد بن اسحاق (ت٤٣٨هـ/١٠٤٦م) .

(الفهرست) تحقيق تجداد بن على المازندرانى ، ط٣ ، دار المسيرة ١٩٨٨م .

— ياقوت : ابن عبد الله الحموى (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

(معجم البلدان) دار صادر ، بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

ثالثا : المراجع العربية :

— بدوى عبد الرحمن

(موسوعة الفلسفة) جزآن ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٤م .

— بنعبد العالى : عبد السلام ، يفوت : سالم

(درس الابيستيمولوجيا) دار توبقـــال للنشر المغـــرب ، الدار البيضاء ١٩٨٥م ٠

— الجابرى : محمد عابد

(مدخل الى فلسفة العلوم) دراسات ونصوص فى الابيستيمولوجيا ، جـ٢ ، مطبعة دار النشر المغربية (د٠ت) ٠

— روزنتال : م ـ يودين : ب ٠

(الموسوعة الفلسفية) ترجمة سمير كـــرم الطبعة الثانية ، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٨٠م ٠

— شـوقى : جلال

(تراث العرب فى الميكانيكا) ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٣م ٠

— كون : توماس ٠

(بنية الثورات العلمية) ترجمة شوقى جلال ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٩٢م ٠

— محمد على : د/ماهر عبد القادر ٠

(نظرية المعرفة العلمية) دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ٠

وثيقة عربية نادرة فى أرشيف البندقية

أ٠د٠ عبد المنعم ماجـــد(*)

لفظة الأرشيف اصـــلها فى كلمة : « "Archeia" (١) ، وتعنى وثائق ومخطوطات ومستندات وأوراق هـــامة ؛ فيما يتعلق بدولة أو بلدة أو اسرة ؛ وان أصبحت تعنى دارا ومستودعا للمستندات ، بمعنى خزانة الوثائق فى اللغة العربية ٠

ويعـــد أرشيف البندقية المعـــروف باسم : أرشيف دولة البندقية 'Archivio di Stato di Venezia'' ؛ اكبر أرشيف أوربى ؛ لوجود عدد كبير من الوثائق الأصلية فيه ، مع أن هذا الأرشيف تعـــرض للحريق عدة مرات ٠

وقد بدات البندقية تهتم بارشيفها منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ولذلك فان وثائقها الأولى المسماة : "Patti" ـ أى الأحداث العامة ، وهى فى تسعة أجزاء ـ تعتبر أقدم مجموعة من الوثائق الأصلية ٠ وبالاضافة الى هذه المجموعة ظهرت بعد ذلك مجموعات أخرى من الوثائق بعناوين متباينة ؛ تتصدرها مجموعة : "Commemoriali" ، أى سجلات الأحداث الهامة ٠ واذا كانت مجموعة : "Patti" ؛ لا تمس العـــلاقات مع مصـــر الا فى حدود ضيقة ؛ فان مجموعة : "Commemoriali" ، على العكس تستكمل ما نقص منها لتنوعها ؛ كما انها شديدة الصلة بمصر ٠ ذلك أن هـــذه المجموعة تشتمل على مراسلات عديدة بين ســـلاطين المماليك فى مصر وادواق ـ دوقات ـ البندقية "Ducis Venecia" ، من أيام بيبرس حتى الغورى ، أى الى وقت سقوط دولة سلاطين المماليك فى مصر ؛ بحيث غدت هذه المراسلات روتينية بين كل سلطان ودوق ٠ ثم انها لم تقتصر

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس ٠

على المراسلات بين السلاطين والأدواق فقط ، وانما امتــدت أيضا الى موظفيهم الكبار ، مثــل تلك المراســلات بين أمير الاسكندرية ودوج البندقية(٢) . كذلك توجد نماذج متعددة مترجمة ، عن أحوال البنادقية فى مصر ، مثل : تعليمات السلطان الى أمــير الاسكندرية ، بخصــوص كيفية التعامل مع البنــادقة والامتيازات الممنــوحة لهم فى ماعملاتهم التجارية مع سلطان مصر وهــو الأمر الذى يتضح فى شكل اتفاقيات ؛ تعتبر نموذجاً للتعامل التجارى(٣) . كذلك توجد وثائق خاصة بتجار من البنادقة كانوا يترددون على مصر وسجلوا ذكرياتهم فيها . وهؤلاء قاموا برحلات فى مواسم كل مدة وهو ما عبر عنه باللفظة العربية : المدة "Mudda" (٤) ؛ لتعنى مواسم النقل البحرى ووصول السفن ورحيلها ؛ هذا كله بالاضافة الى مذكرات القناصل والســفراء البنادقة . وتنقسم هذه المجموعة الكبيرة الى اقسام من عشرين جزءا(٥) ؛ حيث يتناول الجزء الأول السنوات من ١٣٠٠ الى ١٣١٧م ، ويتناول الجزء العشرون السنوات من ١٥٠٢ الى ١٥٢٤م ، أى بعد انتهاء دولة سلاطين المماليك فى مصر . ومن الواضح ان هذه المجموعة ذات أهمية بالنســبة لتاريخ مصر ، وهى مفهرسة فهرسة جيدة ، وتضم تلك الفهارس ملخصات لها.

وهناك مجموعة أخــرى فى هـــذا الأرشيف تســمى بالايطالية "Senato Misti" ، وباللاتينية "Secreta" ، وهى خاصة بالمداولات السرية لمجلس السناتو البندقى "Senatus Veneta" أو ما عرف بمجلس الشيوخ البندقى "Comunis Signoria Venetiarum" ، وهى منسوخة بالحبر الأسود ، وتتطلب الماماً بعــلم الباليوجرافيا "Paléographie" أو الخبرة فى فهم مضمون نص قديم . وهـــذه المداولات السرية الهامة لمجلس السناتو ، تتناول فترة عريضة فى تاريخ البنـــدقية ، تمتد من القرن الثالث عشر الميلادى الى القرن الثامن عشر الميلادى ، أى حتى سقوط جمهورية البندقية عام ١٧٩٧ ، وتقع فى عــدة مجلدات ضخمة تضم آلاف الصفحات ، من الورق المصنوع من الرق ، وسطورها متقاربة جدا ، وجوانبها مملوءة بالحواشى ، وبعضها مكتوب على الوجهين ، وغلاف مجلداتها مصنوع من الخشب ، ولكى تصل الى الباحث تحمــل اليه على عربة خاصة ؛ حيث يتناولها بكل حرص ؛ بسبب طبيعة ورقها .

ويعنينا من وثائق هذه المجموعة ما يتصل بتاريخ مصر ، وهو ما يتطلب دائما القدرة على فك الغاز نصوصها ، وبخاصـــة أنها غير مفهرسـة ، ولا توجد عنها نبذ كما هو الحال بالنسبة للمجموعة السابقة ، لذلك فان اغلبهـــا لايزال مجهولا تماماً فى مجـــال البحث التاريخى فى الشرق والغـــرب .

وتوجد ايضا بارشيف البنـــدقية مجموعة من وثائق الاتفاقيات فى ثلاثة أجزاء ، الأول بعنوان : "Albus" ، والثانى بعنوان "Blancus" والثالث بعنوان : "Pactorum" — Pacta وهذه الاتفاقيات كانت بين البندقية وغيرها من الدول ، فيما بين القرنين ١٤ و ١٥ ، ومنها عهود أمان للتجار البنـــادقة من قبـــل ســـلاطين مصر ، ليس فقط فى ثغر الاسكندرية ،وانما أيضا فى كافة انحاء مصر "Totam Terram Aegypti" وهذه المجموعة من الوثائق الهامة ، مفهرسة فهرسة جيدة ؛ ومزودة بنبذ قيمة مختصرة منها .

وأخيراً ، توجد مجموعة من الوثائق غير المسجلة فى قوائم ارشيف البندقية ، وانما توجد معلومات عنها فى مجلد مفـــرد ، يعرف باسم : "Regestri Bombaci" ؛ نسبة للعالم الايطالى الذى كتب نبذة بالايطالية عن كل وثيقة منها ؛ وهى مرتبة ترتيباً زمنياً "Redazione in ordine cronologico" ,مكتوبة باللغة التركية "Documenti Turci" ، اى أنها وثائق تركية .



وقد صدرت اغلب هذه الوثائق السابق ذكـــرها عن ديوان الانشاء البندقى "Chancelleria Ducati" ، وهى مكتـــوبة أو مترجمة الى اللاتينية ، أو الايطالية الدارجة على لهجة البنادقة المسماة : "Volgare" وهى التى تحولت الى الايطالية الحديثة . ومع وجود وثائق تركية فى هذا الأرشيف ؛ الا انه لا توجد فيه غير وثيقة مملوكية عربية واحدة ؛ وقد يفسر عدم وجود وثائق عربية أخرى فى أرشيفالبندقية ؛ بأنالبندقية كانت تبقى على أصول وثائقها بالعربية فى مصر لدى قناصلها او عند التجار

المترددين على مصر ، وتقنع هى بتسلم ترجمة لها ، وهذه التراجم هى التى تشكل وثائق فى ارشيف البندقية الآن(٦) ٠

ومن ناحية أخرى ؛ فان وثائق البندقية التى لها علاقة بمصر ، والتى تعد بالآلاف لا توجد لها نصوص وتراجم فى مؤلفات المسلمين المعاصرين ، واغلبها يحتوى على مضمون من طرف واحد ، وهو أرشيف البندقية ٠ حتى الاديب القلقشندى وحده الذى أورد نسخاً من وثائق قليلة جداً لها علاقة بالصلات بين البندقية ومصر ؛ نجد أن نصوصه غير أصلية ، وهى عبارة عن ردود لمراسلات وصلت من البندقية ؛ كما انه لم يورد اى نص لوثيقة مرسلة من قبل السلاطين انفسهم الى حكام البندقية ؛ على الرغم من استمرار المكاتبات بين الجانبين ٠

ومع ذلك ؛ فانه من المؤكد أنه كان يوجد بديوان الانشاء المملوكى من يتولى كتابة المراسلات مع البندقية أو غيرها ،وترجمة الوارد منها الى العربية ، بمعنى أنه كان يوجد فيه من الكتاب من يعرفون اللسان الفرنجى ، الذى يعتبره القلقشندى من اللغات الأعجمية ، التى لها قلم يخصها وتكتب به(٧) ٠ ولدينا اسماء بعض من كانوا يترجمون المراسلات الواردة من دولة البندقية ، مثل : شمس الدين سنقر ، وسيف الدين سودون ، فى أيام السلطان فرج(٨) ٠ وكان لابد من أن تقرأ الترجمة على السلطان المملوكى ، ويعتمد ما يكتب به من جواب(٩) ٠ وقد لاحظ القلقشندى أنه لا يوجد فى ديوان الانشاء البندقى من يراعون بصفة خاصة توافر الفصاحة والبلاغة فى مراسلاتهم(١٠) ، مثلما هو الحال فى ديوان الانشاء المصرى ؛ كذلك ذكر القلقشندى أن المراسلات والخطابات التى تخرج من ديوان الانشاء المملوكى وتوجه الى الخارج كانت تختم بالشمع الأحمر ، وهى طريقة مأخوذة عن الفرس ، اما الفرنجة ؛فاتبعوا طريقة طى الكتاب(١١) ، والتوقيع عليه(١٢) ٠

والواقع أن وثائق أرشيف البندقية المتعلقة بمصر ؛ أصبحت معروفة لدى الباحثين الأوربيين على الخصوص ، مثل Mas-Latrie و Da Mosto ، و Baschet ، و Minotto ، و Rocca و Lombardo ، و Tafel ، وغيرهم ٠ وفى المقابل نذكر أستاذ

علم الوثائق المصرى الأستاذ توفيق اسكندر ، خـــريج مدرســـة الوثائق "L'Ecole des Chartes" ، فى باريس ، وقـــد ترجم لأول مـــرة الى العربية بعض الوثائق الخاصة بمصر فى أرشيف البندقية(١٣) .

أما الوثيقة المملوكية العربية الفريدة ، التى أطلعنا عليها فى مكان حفظها بأرشيف البندقية ، فتوجد فى مجموعة "Regestri Bombaci" وهى غير مسجلة مع غـــيرها من الوثائق التركية فى قوائم الأرشيف ، فى الحافظة(١٦) برقم (X2) . ولم تذكر اسمى مرسـلها والمرسـل اليه ؛ الا أنه يستدل من تاريخها فى ١٠ من شعبان سنة ٨٧٧هـ (٨ يناير ١٤٧٣) ؛ أن مرســـلها هو السلطان الاشرف ، ســـيف الدين ، قايتباى (٨٧٣ – ٩٠١هـ/١٤٦٨ – ١٤٩٦م) وان المرسل اليه هو الدوق نيقولا مارسيللو "Doge Nicola Marcello" وان قاصـــده هـــو جيوفانى امو "Giovanni Emo" ، وهى من الناحية الشكلية ، مكتوبة بالخط النسخ ، وعلى وجه واحد من ورق رق أصفر ، وتقع فى حوالى عشرين طية متصلة مع بعضها بدون قطع ؛ وان كانت بدايتها مقطوعة ، وكل قطعة ٣٩ × ٢٧ سم ، وبآخر قطعة منها يوجد توقيع كاتبها فى صورة جميلة ولكن لا يمكن تبين اسمه .

ومن اليقين انها وثيقة أصلية ؛ ويتبين من مضمونها ، أنها تلقى بعض الأضواء على العلاقات التجارية بين مصر والبندقية ، بمعنى انها ليست اتفاقية بين أفراد وانما بين كيانين سياسيين ، وبخاصة أن البندقية غدت بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر للميلاد اغنى دولة فى حوض البحر المتوسط .وكان البحر المتوسط قد أصبح عندئذ حلقة للتجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وعلى وجه الخصـــوص التجارة مع دولة سلاطين المماليك فى مصر . وقد عاد هذا النشاط التجارى على البندقية بالخير العميم حتى غدت دولة البندقية تمثل بداية الرأسمالية الأوربية ؛ مما دفعها الى أن تسعى لأن تكون لهـــا سياســـة دولية تتفق وازدهارها الاقتصادى .

يضاف الى ذلك ، أن مضـــمون هـــذه الوثيقة يبين قوة الصلات

والروابط التجارية بين مصر والبندقية وقتذاك . فكانت ترد الى مصر من البندقية سبائك الذهب والفضة لسك العملة المملوكية ؛ واعتبر البنادقة وقتذاك ملوك الذهب فى العـــالم ، وصـارت عملة البندقية المســماة : الدوكات الذهبيـــة(١٥) "Ducato d'Oro" أكـــثر رواجاً فى مصر لجودتها(١٦) ، حتى غدا الدوكات البندقى أشبه بالدولار الأميركى فى وقتنا اليوم . كذلك كان الجوخ البندقى الوارد الى مصر يفوق كل أنواع الأجواخ الأخرى ، وكان شائع الاستعمال عند المماليك . اما الصادرات الى البندقية من مصر ؛ فكانت أهمها التوابل والبهار . ومع انه كانت لتجارة التوابل جماعة متخصصة اشـــتهر افـــرادها بتجار الكارم(١٧) "Curiam" ؛ الا انه يظهر فى هذه الوثيقة احتكار سلاطين المماليك لها ؛ بحيث انهم قاموا مقام التجار فى تلك الغلة . وقد قامت البندقية بدور الوسيط فى تجارة التوابل "Transito" ؛ فتنقلها فى سفنها الى أوربا ، وتتقاضى عمولة باهظة مقابل ذلك(١٨) . وقد بلغ عدد أنواع التوابل ٣٨٦ نوعاً(١٩) ، منها الفلفل على وجه الخصوص ، وهو الذى كانت البندقية تدفع ثمنه لمصر ذهباً وفضة . وظهر اثر هذه الثروة فى عظمة منشآت المماليك فى مصر ، وفى النهضة الحضارية الضخمة التى عمت مصر فى ذلك العصر . وفى ذلك يقول ابن خلدون(٢٠) : « وليس أوفر اليوم فى الحضارة من مصر . فهى أم العالم ، وايوان الاسلام ، وينبوع العلم والصنائع » . أما القلقشندى(٢١) فيقول عن القاهرة انها : « أم الممالك ، وحاضرة البلاد ، وهى فى وقتنا دار الخلافة ، كرسى الملك ، ومنبع الحكماء ، ومحط الرجال » .

ويتبين من خلال مضمون هذه الوثيقة العربية النادرة ؛ أن سلطان المماليك كان يسهل للبنادقة نشاطهم التجارى ليس فقط فى مصر ؛ ولكن فى بقية الأقطار الاسلامية التى تستظل بحكمه . كذلك كان السلطان يعامل قصاد الدوج بأعظم قدر من الحفاوة ، يفوق ما كان يحظى به قصاد ملوك الفرنج الواردين على أبواب السلطنة المملوكية. كذلك كان السلطان يحرص على صداقته ، ويكن له احتراماً كبيراً ؛ فيخاطبه بحضرة الدوج، ويلقبه بالألقاب الكثيرة ، والنعوت والأدعية ، ويتبادل معه الهدايا .

كذلك يبين مضمون الوثيقة أن السلطان المملوكى كان متيقظاً تماماً فى معاملاته التجارية مع دوج البندقية ؛ بحيث تتفق تلك المعاملات مع ما هو معتمد بين الطرفين من قواعد وشروط . ففى هذه الوثيقة ينكر السلطان على الدوج وجود غش فى الذهب والفضة مما يرد من البندقية، بل حتى فى الجوخ فهو غير كامل فى المقاس ، وردىء فى صناعته ، وأشار الى أن بعضه مقطوع من الوسط ؛ وذلك على عكس الفلفل المصدر من مصر اليه ؛ فانه سالم من التراب والبلل والخلط . ويطالب السلطان الدوج بتاديب الغشاشين ، ومنع الغش فى بضائعه وصادراته لأن ذلك يخالف ما جرى به العرف فى التعامل معه . كذلك يشكو السلطان من بحارة المركبين اللتين قامتا بالقرصنة فى الثغر السكندرى ؛ وانهم اعتدوا على امراة مسلمة ، ويطالبه بالبحث عن الجناة وعقابهم ـ وهو فى ذلك لا يقبل عذراً ولا حجة .

وهكذا يتبين أن هذه الوثيقة على جانب كبير من الأهمية بوصفها الوثيقة العربية الوحيدة فى أرشيف البندقية التى لم تحقق حتى الآن . واذا كان أستاذ الوثائق الراحل توفيق اسكندر قــد نقل مضمونها الى تلميذه ، فاننا نامل أن نكون قد حققناها فى هذا البحث وفق القواعد المتبعة فى تحقيق النص العربى . وفيما يلى نص الوثيقة محققا .

نص الوثيقة العـــربية محققاً

بســـم اللـــه الرحمن الرحيم

الموقر ، المحتشم ، الخطير ، الباســـل ، المفخم ، الضرغام(أ) ، السميدع(ب) ، الهمام ، مجد الملة المسيحية ، جمال الطايفة الصليبية ، دوج البندقية والمايسية(ج) ، دوج كراك(د) ، دنن(هـ) فى المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالى بهجته ، وجدد مسرته . على ابوابنا الشريفة ، على يد المحتشم قاصده ، واحطنا علماً بها ، وتقـــدم مثالنا(و) الشريف الى حضرة الدوج أعلمناه فيه بوصول القاصد المذكور، وبما عاملنـــاه به من الاحســـان باعظم من جميع قصـــاد ملوك الفرنج الواردين على أبوابنا الشريفة ، لما نحققه من اخلاص حضرة الدوج فى محبتنا ، ودعائه لمقامنا الشريف ، وأن مراسيمنا الشريفة برزت بقضـــاء جميع أشغاله وضروراته ، على حكم ما سال فيه صداقاتنا(ز) الشريفة ، ورسمنا بكتابة مراسيم(ح) شريفة الى الممالك الاسلامية بالوصية بجميع تجار البنادقة ، وأحوالهم عندنا مسددة ، ورسمنا ايضا بأن فلفل ذخيرتنا الشريفة ، الذى يعطى لهم يكون سالماً من التراب والبلل والخلط ، كل ذلك لأجل خاطر حضرة الدوج ؛ وغير ذلك . مما نعرف به حضرة الدوج، أن الذهب والفضة ، التى صارت تصل فى القطايع وغـــيرها الى الثغر السكندرى وغيره ، يوجد فيها الغش ؛ بحيث أن المائة درهم من الفضة اذا أضيفت لم تقارب ستين درهماً ، وغالبها نحاس ، وأما القماش الذى يصل الى أبوابنا الشريفة من المخمل المنقوش ؛ فغالبه مغشوش بالنحاس،

(أ) الجمع ضراغمة أو ضراغيم .

(ب) ربما المسموع له .

(ج) ربما من الماس ، يعنى الكبار .

(د) لعله يقصد الأماكن التى يحكمها .

(هـ) أى لا شبيه له .

(و) هى ورقة رسمية فى ديوان الانشاء المملوكى .

(ز) فى الأصل : صدقاتنا .

(ح) هى ورقة رسمية فى ديوان الانشاء المملوكى .

وأما الجوخ فجرت العادة أن يكون ذراع كل خرقة خمسة وخمسين ذراعاً، وقد صار الجوخ الآن كل خرقة منه لا تبلغ ثلاثين ذراعاً ، وفيه ما هو مقطوع من الوسط ، وتضرر تجار المسلمين بواسطة ذلك ، وتعجبنا كل العجب من هذه الأمـــور ، وكون يتفق من تجـــار حضرة الدوج ذلك ، ولا يقابل المعتمد لذلك بما يليق به من تعنيف وتاديب ؛ وقد أعلمنا حضرة الدوج بذلك كله ؛ ليصير على خاطره . ومما نعرفه به أن المركبين اللتين حضرتا صحبه المحتشم قاصده ؛ تعرض من فيهمـــا من الفرنج لجماعة من المسلمين بالمير(أ) الاسلامية ، وأخذوا منهم وأسروا ، ومن جمـــلة ما اعتمدوه أنهم أخذوا امراة مسلمة وفســـقوا فيها ، وأنكرت حواطرنا الشريفة ذلك ؛ فانه لم يكن جرت عادة جماعة البنادقة أن يعتمدوا شيئا منه ؛ فحضرة الدوج يطلب تجار البنادقة باجمعهم ، ويعلمهم بذلك ، ويحتم عليهم أن لا يحضروا ذهباً ولا فضة مغشوشة ، ولا يجهزوا جوخاً ولا قماشاً الا كاملا ؛ علىما جرت به العادة القديمة ، وانهم لا يعتمدوا قطع شيء من الخرق الجوخ ولا غيره ، ويؤكد عليهم فى ذلك ، ويعرفهم أنهم متى حصـــل منهم شيء من ذلك ، من الآن ؛ يقابلهم على ذلك ، ويصغى حضرة الدوج لما يطالعه <أى القاصد> من المشافهة الصادرة عنا، ويطلب حضرة الدوج البنـــادقة ، الذين كـانوا بالمركبين المذكورتين ، ويقابلهم على ما اعتمدوه مع المسلمين ، ويلزمهم باعادة ما اخذوه بتمامه وكماله ، ويجهز ذلك والمراة المســـلمة الى أبوابنـــا الشريفة ، ويقابل الفرنجى البندقى الذى كان قبض عليه ورسمنا باطلاقة ، فانه هو الذى تحدى ، وفعل ذلك ، واقدم عليه ، ولا يقبل له ؛ ولا لمن كان معه فى ذلك عذر(ب) . ولا حجة ، وأن حصل منهم تهاون فى ذلك ، فيجهزهم الى ابنوابنا الشريفة ؛ لنقابلهم على ذلك بالعدالة الشريفة . وقد اعـــدنا قاصد حضرة الدوج اليه بهذا الجواب الشريف ، بعد أن انعمت مقاصدنا الشريفة عليه ، وعلى جماعته بخلع(أ) شريفة ونفقة ، وجهـــزنا على يده لحضرة الدوج <و> على سبيل الهدية ، ما تضمنته القائمة المجهزة،

(أ) أى أماكن التجار المسلمين . انظر Dozy : Suppl,2,p. 628.

(ب) فى الأصل : عذرا .

(أ)هى هدايا رسمية مثل الملابس والخيل وغيرهما .

طى هذا المثال الشريف ، فحضرة الدوج يتسلم ذلك ، ويطيب خاطره وخاطر تجار البنادقة ، ويعلمهم أنهم مشمولون بنظرنا الشريف، وعنايتنا الشاملة ؛ فنحيط علماً بذلك ، والله الموفق من كرمه ؛ ان شاء الله تعالى.

فى عاشر شعبان المكرم ، سنة سبع وسبعون وثمانمائة ، حسب المرسوم الشريف . <و> الحمد لله وحده ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

الهـــوامش

(١) انظر Nuovo Archivi Veneta, 1906, p.160. ؛ نعيم ، طـــرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى ١٩٧٢ ، ص ٢٦٧ وما بعدها ٠

(٢) انظر Commemoriali, TI. 1 (216)

(٣)نعيم ، طرق ؛ انظر ٠

(٤) نفسه ، ص ٢٦٩ وما بعدها ٠

(٥) Volume I, 1300 — 1317.
II, 1317 — 1325.
III, 1325 — 1342.
IV, 1342 — 1353.
V, 1353 — 1358.
VI, 1358 — 1362.
VII, 1362 — 1376.
VIII, 1376 — 1395.
IX, 1395 — 1405.
X, 1405 — 1417.
XI, 1418 — 1427 e 1428.
XII, 1426 e 1427 — 1436.
XIII, 1435 e 1436 — 1446.
XIV, 1446 — 1455 e 1456.
XV, 1455 e 1436 — 1470 e 1471.
XVI, 1470 — 1482.
XVII, 1482 — 1495.
XVIII, 1495 — 1504.
XIX, 1502 e 1503 — 1513.
XX, 1502 — 1524.

(٦) انظر ٠ توفيق اسكندر ، سفارة بييرو دييدو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص ١٤٩٠ ، القاهرة ١٩٥٦ ، مقدمة ، ص ب ٠

(٧)ـ صبح الأعشى ، ٣ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٧ ٠

(٨) نفسه ، ٨ ص ٢٧ : انظر · جوزيف نسيم ، علاقات مصر بالممالك الايطالية فى ضوء وثائق صبح الاعشى ، مستخرج من مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ١٩٧١ ·

(٩) صبح ، ٦ ، ص ٢١٢ ، ٢١٦ ·

(١٠) نفسه ، ٦ ، ص ٢٩٩ ، ٣٠١ ·

(١١) نفسه ، ٦ ، ص ٣٥٢ ·

(١٢) انظر : Ency of Isl, (art Diplomatic) ,2ed, T 2, p.305.

(١٣) نص : Senato Secreta XXXIV f.30,33;

توفيق اسكندر ، انظر ·

La Mission de Piero Diedo et la Cession de Chypre 1490. Le Caire, 1956.

وترجمه الى العربية بعنوان : سفارة بييرو دييدو ، ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص ص ١٤٩٠ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص أو ما بعدها ·

ـ وتفاصيل ، انظر ، ماجد ، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة تحليلية للازدهار والانهيار : القاهرة ١٩٨٨ ، صفحات ٢٢٧ ـ ٢٢٨ (أرسلت البندقية سفيرها الخاص بييرو دييدو Piero Die do ، بصحبة ممثلها فى قبرص ، وهو ماركو ماليبرو Marco Malipiro ، ومعه تعليمات بالشفرة وهدايا من دوج Doge البندقية : بربا ديجو Parpadigo ؛ لعقد اتفاق مع السلطان المملوكى قايت باى ، ليتنازل السلطان عن جزيرة قبرص : لقاء جزية سنوية، قدرها ١٦ الف دوكات ؛ الا أن السفير البندقى توفى فى مصر ؛ فقام كاتب سره بورجى Giovanni-Borghi ـ بتجديد الاتفاق · فعقد قايت باى معه اتفاقية التنازل ؛ عملت على حسب المراسيم الواجبة ، ووقع عليها القاضى والشهود ، والحقت بها ترجمة باللغة الايطالية الدارجة "Volgare" ، وهى الاتفاقية التى توجد بنصها البندقى فى أرشيف البندقية Archivio Venet ، ومحررة فى ١٧ من ربيع الآخر سنة ٨٩٥/مارس ١٤٩٠ ·

عنها ، انظر أيضا : نعيم ، الطرق التجارية وملاحق ·

(١٤) انظر : Commemoriali, XVII fo 122, 124; Tomo v. Libro 17.

(١٥) صبح ، ٢ ص ٤٤١ ـ ٢ ·

(١٦) ابن حجر ، انباء الغمر بأبناء العمر ، حسن حبشى ، ٣ ص ٤٠٦ ٠

(١٧) صبح ، ٤ ص ٣٢ ، ٥ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ ؛ انظر ٠ Wiet :
Les Marchands d'epices sous les Mamloukos, Cahier Série VII Fasc 3, Juin, 1955, p.55 sqq. Hist du Commerce, 2, p.59. :Heyd

ولعلها محرفة عن كانم ، وهى البلد الأفريقى ؛ مما قد يعنى أن أصلها منها ٠

انظر ٠ :Dozy Suppl, 2, p. 460

. ماجد ، نظم المماليك ، ط ٢ ، ١ ص ١٢٥ ٠

انظر ٠

١٨) توفيق اسكندر ، سفارة ، ص ١٢ ٠

(١٩) الخطط ، بولاق ، ١ ص ٤٢٠ وما بعدها ؛ انظر ٠ نعيم طرق التجارة ، ص ١٩٧ ٠

(٢٠) المقدمة ، ص ٤٥٣ ٠

(٢١) صبح ، ٣ ص ٣٧١٠ ٠

النشاط التجارى بالسلط فى القرن التاسع عشر وآثاره الاجتماعية

د٠ عبد الحليم على أبو هيكل(*)

شهدت المنطقة الواقعة شرقى الأردن مع بداية القرن التاسع عشر نشاطا اقتصاديا ملحوظاً خاصة فى المجال الزراعى والتجارى لأسباب متعددة، منها ما ارتبط بازدياد نشاط التجارة العالمية فى تلك الحقبة ، وجهود الدولة العثمانية فى اصلاح بنيانها خاصة الجانب الاقتصادى منه ، الأمر الذى يتمثل فى صدور قانون الأراضى العثمانية عام ١٨٥٨م ، وما ترتب على ذلك من ضرورة احكام القبضة على الولايات التابعة لها ، وذلك

(*) قسم التاريخ ـ كلية الاداب ـ جامعة القاهرة ٠

(١) جاء ذكر هذه المدينة فى المصادر العربية مرسوما على النحو التالى :

«الصلت» بفتح الصاد وسكون اللام ، « بلدة وقلعة من جند الاردن وهى فى جبل الغور الشرقى جنوبى عجلون على مرحلة منها ، وهى تقابل اريحـــا ، مشرفة على الغور ٠ وينبع من تحت قلعة « الصلت » عين كبيرة ويجرى ماؤها ويدخل فى بلدة الصلت ٠ «وللصلت» بساتين كثيرة ، وحب الرمان المجلوب منها مشهور فى البلاد ، وهى بلد عامر ، آهل بالناس » ٠

انظر أبو الفدا : تقويم البلدان ، طبعـة باريس ١٨٤٠م ، صص ٢٤٤/٢٤٥ كما ورد ذكرها بنفس الرسم عند المؤرخين المعاصرين مثل ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حـ١٠ ، حوادث سنة ٥١٢هـ ، ص ٥٤٣ ٠

كذلك المقريزى : كتاب السلوك ، حـ١ ، ص ١٠٩ ، ٢٢٥ ، ٣١٨ ٠

اما المحدثون من المؤرخين والجغرافيين فى عصرنا الحديث فقد استخدموا مصطلح « السلط » بفتح السين وسكون اللام والطاء ٠ انظر على سبيل المثال ما صدر عن أهل المنطقة مثل كتاب أسماء المواقع الجغرافية فى الاردن وفلسطين تاليف ٠د حسن عبد القـادر ، قسطندى نقولا أبو حمود ، عادل شحاده كموشة ، محمـد محمود المريانى ، عمان ، ١٩٧٣ ، ص ٩٨ وغيرها ٠

وما ورد فى كتاب سليمان موسى : الحركة العـربية ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٦٧٢ والمصادر والمراجع عن أهل المنطقة التى وردت بالبحث ٠ وقد آثرنا استخدام هـذه الصورة الشائعة الاستعمال فى المراجع الحديثة ٠

باتخاذ اجراءات أمنية وادارية متتالية(٢) ٠ وكان أن شهد النصف الثانى من ذلك القرن صدور سلسلة من القـــرارات التنظيمية المتعاقبة الخاصة بالولايات،كان منها نصيب الجزء الجنوبى انشرقى من بلاد الشام كبيرا، اذ استمر هذا الاقليم بما فيه بلدة « السلط » تابعاً للواء دمشق حتى عام ١٨٦١م عندما لحق بلواء حوران ومعه (عجلون وقضاء الكرك) ٠

على أن هذا التنظيم لم يســـتمر طويلا ، ففى عام ١٨٦٨م الحقت (السلط) ومعها (الـكرك) ، و (الطفيلة) بلواء (البلقاء) ، وفى عام ١٨٧٩م ضم (قضاء معان والكرك) للواء نابلس ٠ أما (قضاء السلط) الذى الحقت به (عمان) فقد استمر تابعاً للبلقاء حتى عام ١٨٨٨م حيث انتقلت تبعيته الى (لواء حوران) ثم كانت الخطوة الأخيرة فى هــذه الحركة الادارية عام ١٨٩٣م بتشكيل (لواء معان) الذى شمل (الكرك والسلط مع معان)(٣) ٠

نلاحظ ان هذا التغيير السريع فى التقســيم الادارى لم ينبع من فراغ وانما كمنت وراءه ـ بالاضافة الى الهـدف الرئيسى وهو النهــوض بالدولة العثمانية(٤) ـ عوامل رئيسية جغرافية واقتصادية على النحو التــالى :

فمن الناحية الجغرافية يمثل هذا الاقليم امتداداً صحراوياً مترامياً ، حافلا بصعاب واضحة فى التضاريس والبنية البشرية مما جعــل الدولة عاجزة عن ضبط الاشراف عليه اجتماعيا واقتصادياً ٠ وهكذا غدا هــذا

---

(٢) شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلال الخصــيب ١٨٠٠/١٩١٤م ٠ ترجمة د٠ رؤوف عباس حامد ، ط١ ، بيروت ١٩٩٠ ، ص ٤٠٣ ٠

(٣) أنظر تفاصيل هذا التقسيم الادارى لبلاد الشام فى :

أ ـ د٠ أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الادارى لسورية فى العهــد العثمانى (حولية كلية الاداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١ ، مايو ١٩٥١ ٠

وكذلك ب ـ عبد العزيز محمــد عوض : الادارة العثمانية فى ولاية ســورية ١٨٦٤/١٩١٤م القاهرة ١٩٦٩ ، صص ٦١/٧٩ ٠

(٤) بازيلى : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركى ، ترجمة د٠ يسر جابر ومراجعة د٠ منذر جابر ، ط١ ، بيروت ١٩٨٨ ، صص ٢٣٢/٢٢٣ ٠

الجزء من شرقى الأردن يمثل نقطة ضعف وسط عـد من الولايات العثمانية منها بلاد الشام التى تتصف بالنشاط والحيوية ووفرة الامكانات الاقتصادية ، والحجاز بمركزه الدينى، والعراق بموقعه الجغرافى الغنى، وفلسطين بموقعها الذى جعل منها حلقة ربط بين الشام ومصر(٥) .

أما العامل الاقتصادى فقد تمخض عنه العامل الأول عندما هيمنت قبائل البـدو على ذلك الاقليم وفرضت نفوذها على القوافل التجـارية المتنقلة بين الكيانات السابقة بتحصيل (رسـوم العبور) أو (الاتاوة) مقابل التامين ، كما كان يحدث بالنسبة لقوافل الحج ايضا .

وقد نظرت الدولة الى التجمعات البشرية المنتشرة فى ذلك الاقليم من بلاد الشام على أنها مجتمعات طفيلية لا اكثر تعتمد فى وجودها على ذلك التوافق بين المتطلبات الاقتصادية لأهل البادية من ناحية وبين طبيعة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لانصاف المزارعين على ضفات نهر الاردن من ناحية أخرى(٦) . أما وقد أضحت الرغبة ملحة فى توفير مزيد من الأموال لدفع عجلة الاصلاح الشامل للدولة الى الامام فقد بات ضروريا احكام الاشراف على هذه المواقع الهشة(٧) ، لاسيما أن هـذه المنطقة احتوت على امكانات زراعية واضحة جعلتها مؤهـلة لانتاج الكثير من المحصولات ، فضلا عن وفرة بعض المعادن(٨) .

وكان المزارعون وخاصة فى اقليم السلط قد اقاموا عدداً من الأسواق البدائية التى اعتمدت أساسا على الانتاج الزراعى . ولما وجدوا أن هذا النشاط التجارى فى حاجة الى قـدر من الحماية دفعوا الاتاوات لشيوخ

---

(٥) F.O.78/2016, Report from Rogers to Bulwer, 12/2/1861.

(٦) Lamar and Thompson : The Frontier in History, New Haven, N.4.1981, P.7.

(٧) مانتران (روبير) : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعى ، حـ٢ ، ط١ ، القاهرة ١٩٩٣ ، صص ٩٩/١٠٤ .

(٨) F.O.78/1118, From Wood to Clarendon, Damascus, 12/2/1855.

نقلا عن شارل عيسوى: التاريخ الاقتصادى ـ المصدر السابق ، صص٤٥٢-٤٥٣ .

القبائل لتوفير هذه الحماية • وهكذا استفاد شيوخ البدو من هذا النشاط مما ادى الى قدر من الترابط بينهم وبين المزارعين المستقرين • وبالرغم من ندرة التزاوج بين القبائل والقرويين نتيجة لتباين التقاليد المتبعة فى هذا الشان ، الا أن كثيراً من الروابط الاجتماعية الأخـــرى ربطت بين الطرفين ، وبخاصة فى مناسبات الأفراح والأحزان والأزياء وكرم الضيافة؛ حتى أن كثيراً من الرحالة الغربيين فى الربع الأول من القـــرن التاسع عشر لم يتمكنوا من التمييز بين تصرفات المزارعين القرويين وحياة البدو فى تلك المنطقة(٩) •

ومع التوجهات الاصلاحية للدولة العثمانية صـــار من الصعب أن تستمر تلك الأوضاع على هذا النمط ، وخاصة بعـــد السماح للكثير من الجراكسة والتركمان الذين استقدمتهم الادارة ، بتملك اقطاعات واسعة من الأراضى منذ عام١٨٥١م فى اربد والسلط عام ١٨٧٦م والكرك ومعان•

وفيما يلى بيان بمساحة هذه الأراضى وتوزيعها ذلك عام ١٨٦٠م/ ١٢٧٧هـ(١٠) :

المنطقة	المساحة بالدونم للجراكسةوالتركمان
اربد	٢٨٥٠ دونم
السلط	٣٠٣١ دونم
الـكرك	١١٧٤ دونم

كذلك قدرت بعض المصـــادر عـــدد العائلات الجركسية فى ولايات

---

(٩) Burckhardt (J.L.), Travels in Syria and Holy Lands London, 1922, P.351 وكذلك :
Buckingham (J.S.) Travels Among The Arab Tribes- London 1925, P.50.

(١٠) أرشيف استانبول . مجلس والا ، وثيقة رقم ١٩٧٠٢ فى ١٢ جمادي الآخرة ١٢٧٧هـ •

الفدان = ٤ دونم . أو ١٫٠٣٨ هكتار

الشام بـ ٥٥٤٠ عائلة تركزوا فى القنيطرة وعمان ، والأخيرة قريبة من السلط(١١) (انظر الخريطة الملحقة) .

وكان ان أدى اقطاع الأراضى للجراكسة مع وضعهم الرئيسى كجماعات للحراسة الى استقطاب الى باتجـــاه الخط المستطيل شرقى نهر الاردن الذى يبدأ من جنوب نهر اليرموك بمنطقة اربد حتى الكرك الى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، وفى المنتصف تقريباً (السلط) التى تقع فى الشمال الغربى لمدينة (عمان) حاليا .

وجاء هذا التركيز (الزراعى والاجتماعى) مواكبا لما شهدته بلاد الشام من تحول واضح ، وتدنى ملحوظ لمراكزها التجارية،خاصة (حلب) مع شمال البلاد وانتقال الاهتمام الى الجنوب وذلك نتيجة لعاملين :

اولهما : ما أصاب المنطقة الشمالية من الشـام من كوراث متلاحقة خلال القرن التاسع عشر كزلزال عام ١٨٢٢م ، والصراعات الأهلية التى شهدها النصف الأول من القرن حتى عام ١٨٦٠م ، ومذابح الأرمن عام ١٨٩٥م(١٢) ، وما أشارت اليه المصادر البريطانية من تعرض البلاد عام ١٨٨٠م للمجاعة التى أدت الى وفاة المئـــات وما خلفتـــه من ســـلبيات اجتماعية وركود اقتصادى(١٣) .

ثانيهما : مؤثرات حركة التجارة العالمية وركود خطوط المواصلات التجارية عبر شمال الشام وانتقال هذا النشـــاط الى المناطق الجنوبية ، نظراً لانتقال مواقع المنافسة الأوربية من المراكز والمـــدن الايطالية الى الموانىء والطرق البحرية التجارية باتجاه الهند ، مما أدى الى انهيار مركز حلب التجارى منذ بداية القرن ١٨م (١٤) .

---

(١١) شارل عيسوى : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(١٢) شارل عيسوى : المصدر السابق ، ص ٧٢/٧١ .

(١٣) F.O. 195/2766, From Henderson to Layard, 22/8/1880

(١٤) د. أحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة، (علاقة سورية التجارية بأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) ط٢ ، بيروت ١٩٨٤ ، صص ٢٢٨/٢٢٧ .

وقد تمخضت تلك التطورات عن تحقيق حـــــالة من التوازن بين المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية للسكان القدامى (من انصاف مزارعين والبدو) من ناحية والسكان الجدد من (الجراكسة) من ناحية أخرى ، وذلك على النحو التالى :

أولا : زيادة رقعة الاستقرار الاجتماعى المصـــحوب بانتشار الأمن وهو ما كانت تنشده الدولة العثمانية والسكان جميعا على حد سـواء . وأدى هذا التطور الى زيادة حجم النشاط الاقتصادى وخاصة ما يتعلق بكثرة الكم الانتاجى فى المحصولات الزراعية ، الأمر الذى تطلب تحقيق قدر من التكامل والربط بين المواقع الحضرية شرقى وغربى نهر الاردن.

ثانيـا : نتج عن هذا التوازن ظهور التحول التدريجى من الاقتصاد الاستهلاكى للبدو وانصاف المزارعين الى الاقتصاد الانتاجى لهم جميعا ، فضلا عن خلق سوق استهلاكى أشبع متطلبات السكان والدولة على حـد سواء فى تحقيق الاستقرار بهذا الاقليم .

وانعكست هذه التطورات بصورة خاصة على موقعين أساسيين ،هما (السلط والكرك) ؛ وكانا حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر مجرد مواقع تجارية وأسواق استهلاكية بين الامتداد الصحراوى الشمالى لشبه الجزيرة العربية ، والمدن الفلسطينية وشمال الشام ، (السلط مع نابلس، ثم المثلث الذى كانت القدس على رأسه ، وقاعدته السلط والـكرك) . انظر الخريطة الملحقة .

وعندما زار (بوركهات ـ Burckhardt) السلط عام ١٨١٢م استطاع احصاء ما يقرب من عشرين حانوتاً تجاريا لمســتلزمات السكان من البدو والقرويين(١٥) . ثم جاءت زيارة (باكنجهام Buckingham) بعد ذلك بأربع سنوات فوصف (السلط) بأنها أضحت مركزا رئيســيا للتجار ،وسوقاً يفد اليه كل ذى شان لقضاء مستلزمات حياته (حيث اضحت من أشهر المراكز التجارية بالمنطقة ويقيم بها اكثر الناس ثراء) وضرب

---

(١٥) Burckhardt (J.L.), Travels in Syria and Holylands, London, 1822 P.350.

مثلا على ذلك بتاجر يدعى (أيوب) بلغ اجمالى ثروته خمسة آلاف قرشا اى ما يوازى اكثر من مائتين وخمسين جنيها استرلينا كما ذكر أن هناك أعداد كثيرة من التجار كان متوسط راسمالهم ما قيمته عشرة جنيهات استرلينية .

وبناء على تلك الملاحظات التى أوردها بوركهارت وباكنجهام عن أعداد التجار وراسمالهم بالسلط نستطيع القول أن قيمة البضائع التجارية التى كان يتم التعامل بها فى الربع الأول من ق ١٩ لم تقل عن (٦٥٠) جنيها استرالينيا .

ولم تتوقف مهمة أصحاب المحلات التجارية فى السلط عند كونهم مصبا للحاصلات الواردة من القرى وفائض البدو ثم بيعها لأصحاب الحاجة، بل قام هؤلاء التجار أيضا بما يشبه مهمة (الوكلاء التجاريين) نظير عمولة كانوا يحصلون عليها من تجار المدن الفلسطينية ودمشق وحمص وحلب وحماة،بعدما نقلكثير منهؤلاء التجار انشطتهم باتجاه ـ الجنوب،عندما تعرضوا للضغوط السابق ذكرها،ونظراً لارتفاعالأسعار فى (السلط) بما لا يقل عن ٥٠٪ عن مثيلاتها فى (دمشق) تبعاً لما رآه بوركهات(١٧) .وكانت أهم البضائع التى وجد لها سوق رائج هى(الملابس والمفروشات) باعتبارها من الضروريات الأساسية التى كان البدو فى أشد الحاجة اليها ، كما وصف باكنجهام محلات (أيوب) سابق الذكر بأنها أحتوت على الملابس القطنية الواردة من (نابلس) والملابس البدوية بمختلف أنواعها وأشكالها(١٨) والتى كانت ترد خصيصاً لبيعها للقبائل العربية ، كما لاحظ أيضا انتشار الأسلحة والذخائر بشكل واضح فى محلات (السلط) وكان أشهر من مارسها تاجر يدعى (عبيد) ، حاز على ثقة الكثير من السكان فاتخذوه (تاجر جملة) ورئيسا لبقية اسواق المدينة(١٩) .

---

(١٦) Buckingham (J.S.), Travels among The Arab Tribes, London, 1925 PP.34/35

(١٧) Burckhardt Op.cit, P.351.

(١٨) Buckingham, pp. 34/35.

(١٩) Buckingham, op.cit, P.15.

وكانت درجة انسياب البضائع تخضع للكيفية التى يتم بها تنظيم القوافل وحراستها بالقوة المسلحة بواسطة افراد القبائل التى تمر القافلة عبر موطنها ودروبها الصحراوية خوفا من هجمات اللصوص . وكما يقول باكنجهام (كانت هناك اتصالات قائمة ومستمرة بين المدن على ضفتى نهر الاردن شرقه وغربه ، من القدس الى الناصرة الى نابلس الى السلط وعجلون . ودخلت مع هذه المنظومة القرى المحيطة بتلك البقاع) حيث كانت القوافل الشهرية تمر عبر نابلس ، ويحصل أفراد الحراسة ورجال تامين العبور على جزء من الارباح مقابل الحماية(٢٠).كذلك استطاع عدد من الرحالة العرب وغير العرب تكوين جماعات من بينهم للدفاع عن انفسهم خلال هذه الرحلات .

أما الصادرات من السلط الى فلسطين وشمال الشام فقد تولى امرها التجار والبدو من المدينة . وكان ابرز تلك الصادرات (السمن) و (الاخشاب) حيث توفرت كميات ضخمة منها ، كما لاحظ بوركهارت وجود كميات كبيرة من (ريش النعام) التى وجدوا لها سوقا رائجة خاصة فى مدينة دمشق(٢١) . كذلك مارس البدو جمع الصمغ واعداده للبيع باعتباره مادة أساسية لدباغة الجلود المنتشرة حينئذ فى (القدس) وبعض (القلويات) من الأعشاب الصحراوية التى استخدمت كمادة ضرورية لصناعة الصابون الذى اشتهرت به نابلس .

وقدر بوركهارت حجم تجارة (السلط) فى الصمغ بحمولة خمسمائة بعير سنويا أى ما يقرب منمائتين وخمسين الف رطل ، تراوح سعرها ما بين ١٥ الى ١٨ قرشا لكل مائة رطل ، اى ان أجمالى تجارته كان حوالى ٢٥,٠٠٠ قرشا أو ما يقرب من ١٧٥٠ جنيها استرلينيا(٢٢) .

كذلك حدد المصدر نفسه حجم المواد المستخرجة من الأعشاب والمستخدمة فى صناعة الصابون،والتى كانت تصل الى (نابلس) بحمولة

---

٢٠) Burckhardt, op.cit, P.342.
(٢١) Burckhardt, op.cit, P.351.
(٢٢) Ibid, P.351.

سنوية تقدر بثلاثة آلاف من الابل أو (١٣٦٠٠) رطلا ، قدر ثمنها بحوالى ١٧٠٠ جنيها استرلينيا(٢٣) .

وفى خريف كل عام كان المحصول السنوى من عصارة تلك الأعشاب تقدمه القبائل البدوية الى مختار القرية او للوالى . وكان تجار (نابلس) الذين احتكروا تلك التجارة يتوافدون على السلط لشراء تلك المواد . وتبعا للاعراف القائمة اتخذ هؤلاء التجار لأنفسهم مقاراً خاصة بهم فى المدينة للاقامة اثناء جمعهم لتلك البضاعة ومن ثم ضرورة تحمل اعباء معيشتهم ومعهم رفاقهم ، مما كان يمثل فرصة لأهالى المدينة لتنشيط الحركة التجارية ، فقد كانت اشهر الخريف بمثابة (موسم) يس تفيد منه الأهالى كثيرا(٢٤) .

ومما ساعد ايضا على ازدياد الحركة التجارية بالسلط ، ما كان يحصل عليه شيوخ القبائل من (خوة) تدفعها القوافل التجارية المارة بموطنهم.وكانت تتراوح بين (عشرة وخمسة قروش) تبعا للمسافة التى تعبرها القافلة،كما كان شيخ القبيلة يحصل ايضا على (قرشين) مقابل الامداد بالمياه ومثلهما للخدمات الاضافية المقدمة لرجال القافلة كالحراسة والراحة مثلا . وبذلك اذا كان عدد الابل المحملة بالقافلة (٢٠٠٠) فان على القافلة دفع (رسوم للقبائل) مقدارها (٣٠ر٠٠٠) قرش أو ١٥٠٠ جنيها استرلينيا ، مما حتم على التجار اضافة تلك الرسوم الى ثمن السلعة الأساسى . على انه من الأمور الجديرة بالتسجيل أن تجار السلط كانوا يقومون بدفع تلك (الجباية) على قوافلهم الى شيوخ القبائل ، فى حين رفضوا دفع أية مستحقات للسلطة العثمانية .

وفى اتجاه آخر اتسمت معدلات تدفق القوافل من شتى انحاء بلاد الشام بالثبات وبخاصة من دمشق وفلسطين على فضاء السلط،وذلك عندما أخذت الأوضاع تتخذ فيها شكلا أكثر استقرارا.وكان ذلك فى الوقت الذى استمرت القلاقل تحيط بمنطقة حوران وما حولها نظرا لاضطراب الاوضاع

---

(٢٣) Ibid, P.354.

(٢٤) Burckhardt, op.cit, P.355.

الاجتماعية فى القرى بسبب الندرة السكانية وكثافة الضغط القبلى وما سببه كل ذلك من خلل فى الجزء الشمالى من بلاد الشام . وقد افاضت المصادر والمراجع فى ذكر تلك الأوضاع والتعـرض لها(٢٥) ، حيث لم يتحقق لها الاستقرار النسبى الا فى مواسم مرور قوافل الحج السنوية . وتهافت البدو لتحصيل (الخوة) ولو بالقوة خاصة عند مزيريب التى يلتقى عندها كثير من الدروب والطرق الصحراوية(٢٦) . ومن خلال هذا التباين فى الأوضاع نشطت (السلط) تجاريا ، وامتدت تطلعات تجارها الى توثيق علاقتهم بالقبائل البدوية المجاورة حماية لأنفسهم وأموالهم وبضائعهم . ومع امتداد نفوذ السلطة العثمانية على تلك القبائل مع بداية عام ١٨٦٧م ، أخذ الحرفيون والبائعون يقدمون دون خشية على عرض بضائعهم ومحصولاتهم بشكل مباشر على البدو . ويحكى أحد أفراد الارسالية البروتستانتية فى السلط عن تلك الظاهرة فيقول : (خلال تفقدى للأسواق المجاورة لمدينة السلط عام ١٨٧٠م رغبة فى الحصول على بعض مستلزماتى المنزلية من الاوانى والماكولات نظرا لانخفاض أسعار تلك الأسواق البدوية عن مثيلاتها داخل المدينة ، شد انتباهى الكثير من الباعة الجائلين الوافدين من بيروت، والصاغة الوافدين من حلب والناصرة ودمشق، وهم يجادلون البدو داخل خيامهم حول أسعار مالديهم من بضائع اشتملت على الأقمشة وبعض الحلى والأوانى المنزلية، مما جعلنى استغرق وقتا طويلا ومسافة أطول لامتداد القبائل ومواطنها الضاربة شرقى مدينة السلط لمسافة زادت على خمسة كيلومترات) . وقد حدث ذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر سواء باصدار قوانين تنظيم الطرق المعابر أو تحديد جزء من الموارد المالية للدولة يخصص للحماية والصيانة(٢٨) .

---

(٢٥) انظر فى ذلك مثلا : ملحم خليل عبده وأندروس شخاشيرى : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨ .

وكذلك : Tibawi (A.L.), A Modern History of Syria, London, 1969.

(٢٦) Hill (Gray), A Journey of Petra, 1896, London 1897.

(٢٧) P.M.R. (Protestant Missionaries Resident), Report from F.A.Klein, Salt, October 1871.

(٢٨) على الحسنى : تاريخ سورية الاقتصادى ، دمشق١٣٤٢هـ ،صص٢٤٢/٢٤٤ .

وقد استثمر التجار الجدد القادمون من أنحاء الشام باتجاه السلط هذه التوجهات من قبل الدولة العثمانية وقاموا بافتتاح عدد من المحلات التجارية على جانبي تلك الطرق فى القـــرى المطـــلة عليها وأوردت المصادر بيانا بالاعداد التقريبية لتلك المحلات على النحو التالى :

الطريق من السلط ـ مويلح ـ الزرقاء	٣٥ محلا
من السلط ـ عمان	٢٧ محلا
من القصر ـ الكرك	١٨ محلا
من الكرك ـ الطفيلة	٢٢ محلا (٢٩)

وكانت مقدمات هذا الاستقرار التجارى والأمنى عاملا مشجعا لمزيد من التجار للقدوم الى (الســلط) وبالتالى ازدياد الاعــداد السنوية والشهرية للقوافل التجارية القادمة من المدن الفلسطينية وشمال الشــام بصورة ملحوظة ، حيث بلغت أعدادها وزيادتها على النحو التالى(٣٠):

العـام	عدد دواب القافلة فى العام
١٨٦٠	٢٦٩٥
١٨٦٢	٢٨٠٢
١٨٦٤	٣٠٠٠
١٨٦٦	٣٠٥٠
١٨٦٨	٢٩٦٠
١٨٧٠	٣٢١٥

ومع ازدياد عدد القوافل القادمة الى السلط ، بدأ صغار التجار الذين توافدوا على المنطقة قبيل التركيز العثمانى بالدخول ضـــمن فئة كبار التجار الذين ازدادت أعدادهم بالضرورة ، واتسعت حلقة النشاط التجارى

(٢٩) F.O.406/26, Letter from Col. Burnaby to Russel 16/1/1861

(٣٠) P. M. R./O/72/266, Annual Report from Protestant Missionaries Resident in Salt, October1871.

وغدت اكثر قوة فى أواخر عام ١٨٧٠م . وقد قدر عدد التجار الذين ارتفع راس مالهم عن ٣٥٠٫٠٠٠ قرشا بخمسة وثلاثين تاجرا عام ١٨٥١م ، ثم ارتفع هذا العدد الى ما يزيد على أربعة وثمانين فى عام ١٨٧٠م، وهؤلاء اتخذوا من المدينة مركزاً لتجميع البضائع ونوزيعها على القرى والقبائل البدوية المحيطة(٣١) . ومع نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر بدأ سكان السلط يستشعرون مدى ما يتمتع به تجار (فلسطين) و (الشام) القادمون عليهم من استقرار وامن على بضائعهم وارواحهم ، وكيف انهم فى وضعهم المالى غدوا افضل بكثير مما كان عليه سكان المدينة الأصليين وتجارها(٣٢) .

وكان من الصعب على هؤلاء التجار الكبار الاعتماد فى حماية أنفسهم وتجارتهم على البدو على نحو ما كان عليه الوضع عند بداية قدومهم أول مرة ، أو الركون فقط الى تبادل المنفعة بينهم وبين أنصاف المزارعين باعتبارهم شريان الامداد الرئيسى للتجارة(٣٣) . كذلك لم تكن هناك امكانية تحول هؤلاء التجار الذين انتشروا فى اقليم البلقاء عامة والسلط بصفة خاصة الى ممارسة الزراعة مع القصور فى عناصر قيامها (ندرة الأمطار) و (قلة خصوبة التربة) . مما حتم ضرورة الاستمرار فى النشاط التجارى فى ظل الأوضاع الجديدة التى فرضتها السلطة العثمانية. وكان ان ازداد النشاط التجارى سواء داخل بلاد الشام نفسها ، أو بين الأخيرة وأوربا منذ أواخر عام ١٨٥٦م ، وصارت (السلط) مركزاً رئيساً من مراكز التوجه التجارى نحو تلك البقاع(٣٤)، وكان التركيز فى بداية الأمر على هذا النشاط التجارى (المحدود) دون سواه ، والبعد عن الانغماس فى مجال الاستثمارات الأخرى داخل المنطقة .

ومما شجع ايضا على هذا الاتجاه ذلك التدفق المتزايد فى أعداد الوافدين الى (السلط) خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر من

---

(٣١) Ibid
(٣٢) C.M.S./O/36/11/ , From Khalil AL Jamal, 29/11/1879.
(٣٣) Schileher (Linda), The Huran Conflicts of The 1860, London, 1881, P.174.
(٣٤) Ibid

دمشق وبغداد والقدس بهدف التجارة أو لتأدية فريضة الحج ٠ واتخذ الوافدون من المدينة نقطة (التقاء) سواء للراحة أو المتاجرة بما معهم من بضائع ٠ وأوردت المصادر بيانا تقريبيا عن تلك الاعداد العابرة خلال الخمس سنوات الأولى من العقد التاسع للقرن التاسع عشر على النحو التالى(٣٥) :

العام	من دمشق	أعداد الوفود منفلسطين (يافا/نابلس)	بغداد
١٨٩٢	٣٢٣٠	٢٨١٥	٢٠٥٥
١٨٩٣	٣٥٥٠	٣٣٧٠	٢٨٠٠
١٨٩٤	٤٢٠٠	٣٦٠٠	٤١٠٠
١٨٩٥	٥١٠٠	٤١٥٠	٤٥٥٦

ولا شك فى أن الحبوب كانت تأتى على رأس قائمة السلع المتداولة، وحقق كبار التجار من المتاجرة فيها أرباحاً طائلة ، فكان سعر المكيال من القمح فى السلط (قرشين) فى عام ١٨٦٠م ، ثم وصل الى قرشين ونصف القرش فى نوفمبر ١٨٦٩م ٠ وفى موسم الجفاف قفز سعر القمح ووصل الى ذروته فبلغ أربعة عشر قرشا(٣٦) ٠ وفى ذلك الوقت كان اقليم (حوران) فى مركز متقدم لبلاد الشام فى انتاج الحبوب وسرعان مالحقت به السلط بعد عام ١٨٨٨م ٠ وأوردت بعض المصادر بيانا عن مقدار انتاج بعض اقاليم الشام على النحو التالى(٣٧):

(٣٥) N.A. 890/31, Report From U.S. Consulate Jerusalem, Syria, to Tomas Cridler, Washington, August 1900.

(٣٦) L.P.J. (Latin Patriarchate of Jerusalem), MeM. of Jean Morétain, 1869, PP.466/492

(٣٧) F.O.195/2097, From Richards to O'Conor, 3/10/1901

نقلا عن شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى ، ص ٤٦٥

الاقليم	عددالسكان	المساحةالمزروعة	القمح	الشعير
حوران	٥٣ر٥٤٠	٢٩٧ر١٧٥	١ر٠٦٣ر٧٤١	٤٤٧ر٧٠٨
جبل الدروز	٣٣ر٠٩٠	٢٤٥ر١٤٠	٧٩١ر٧٠٠	٤١٦ر٩٦٧
عجلون	٣٠ر٠٠٠	٢٢٥ر٠٠٠	١ر٦٨٠ر٠٠٠	٦٢٠ر٠٠٠

ولكثرة انتاج (حوران) من الحبوب اضطر مزارعو الاقليم الى دفع نصف الحمولة الى المكارى ـ صاحب الجمل ـ نظير نقله الى عكا(٣٨) ، التى نشطت تجاريا بسبب تدفق كميات الحبوب من حوران عليها ، والى (ميناء حيفا) حيث اكد مشاقة (ان الأكثرية من حبوب حوران تتجه نحو حيفا)(٣٩) . واوضح تقرير آخر لنفس المصدر عام ١٨٩٩م أن ما مجموعه (٢ر٠٥٢ر٠٠٠) كيلة من مجموع انتاج حوران من الحبوب البالغ كميته (٥ر٩٢٠ر٢٥٠) كيلة كان يأتى من (عجلون)(٤٠) .

واذا كانت (حوران) قد تفوقت فى انتاجها من الحبوب وتصديرها الى الخارج أو ارسالها الى بلاد الشام الشمالية ، فان السلط ومعها الكرك ومعان قد تنوع انتاجها الزراعى بصورة ملحوظة عن غيرها من المناطق ، مما ساهم فى ازدياد نشاطها التجارى ؛ فكان انتاجها على النحو التالى :

---

(٣٨) عيسوى : المصدر السابق ، ص ٣٦٠ .

(٣٩) N.A.890/O, Record Book, Damascus, Vol.I (1900/1908) PP.269/270.

(٤٠) N.A.890/15, Report on The Trade of Damascus 16/9/1900

المحصول	الكمية	
القمح	٢٠٠ر٠٠٠	طن
الشعير	٥٦ر٠٠٠	طن
الذرة	٧٥ر٠٠٠	طن
السمسم	٢٠٠ر٠٠٠	كيلوجرام
الصمغ العربى	٢٠ر٠٠٠	»
البطيخ	٥ر٠٤٠ر٠٠٠	بالعدد
العنب	١ر٠٠٠ر٠٠٠	بالكيلو
الفاكهة عامة	١ر٠٠٠ر٠٠٠	بالكيلو
اعلاف حيوانية	١ر٥١٠ر٠٠٠	»
خضروات	٥٠٠ر٠٠٠	»
أخشاب	٥٠ر٠٠٠	»
بقول	١ر٦١٣ر٠٠٠	»
تبغ	٢١ر٥٠٠	»
العدس	٤٢٠ر٠٠٠	»
زيت الزيتون	١٠ر٠٠٠	كيلو
زيتون	١٥ر٠٠٠	»
قطن خام	١٤٠ر٠٠٠	»
صوف	١٠ر٠٠٠	»
عسل وشمع	٧ر٠٠٠	»
محصولات أخرى متنوعة	١٠ر٠٠٠	(٤١)

يتضح من هذا الجدول الذى ورد ضمن أوراق الارسالية ان أرقامه اعتمدت على(التقريب)بما يعنى أن الارقامتقديرية وتعبر عن رؤية خاصة، كما نعتقد أن هناك قصور لحق بتلك القائمة ، مثلما يبدو فيما ورد بها عن كمية انتاج (العنب) الطازج ، وهذا صحيح من حيث وجود زراعة

(٤١) A.C.M.S. (Archives of The Church Missionary society) 41/289/2/93, 12 12 1899.

تلك الفاكهة بالمدينة وما حـــولها ، الا أن البيــان لم يرد به شيء عن (الزبيب) خاصة وأن (السلط) معروفة بانتاجه وتصنيعه وتصدير كميات ضـخمة منه الى المدن القريبة وبخاصة (القــدس ونابلس) ٠ وقد أورد القنصل امريكى بالقدس تاكيداً لذلك عندما ذكر أن كميات الزبيب التى ترد الى المدينة من مناطق انتاجه وتصنيعه فى (السلط) بلغ متوسطها السنوى ٣٨٠طن ٠ أى ما يوازى فى قيمته ١٩٫٠٠٠ دولاراً حسب التقدير الذى أورده عام ١٨٩٧م(٤٢) ٠

كذلك اغفل تقرير الارسالية (القلويات) المستخرجة من الأعشاب حيث ذكر القنصل الأمريكى أن الكميات المصـــدرة من (السلط) الى (نابلس) بغرض صناعة الصابون أو دباغة الجلود ، قد تراوحت سنويا بين (٧٦٠) و (١٢٠٠) كيلو جرام فى عام ١٨٩٥م ٠ ثم تراجع هذا الرقم بعد ذلك ليصبح المتوسط الســنوى بين ٥٣٠ و ٨٥٠ كيلوجرام ، نتيجة للاتجاه نحو استخدام الكيماويات الصناعية الأرخص سعرا من قبل معامل الصابون ودباغة الجلود فى القدس ، من خلال التجار الاوربيين المقيمين فى القدس(٤٣) ٠

وعلى الرغم من تلك الملاحظات المتعلقة بالأرقام التى أوردتها وثائق الارسالية باعتبارها أرقاماً تقريبية غير محددة تحديدا دقيقا ، مع اغفال بعض المنتجات الرئيسية التى اشــتهرت بها (السلط) ، الا أن الحقيقة المؤكدة فى ذلك هى أن المدينة وتوابعها خــلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر اضافت بانتاجها الزراعى ، مع ما كان يقوم به كبار التجار ، دفعة جديدة كثفت من خلاله نشاطها التجارى ، فاكدت المصادر الأمريكية أن ما يقرب من ٦٠٪ من الانتاج الزراعى للسلط كان يعد للتصدير باتجاه البلدان الواقعة غربى نهر الاردن (نابلس ، القدس ، حيفا) والى دمشق وحلب فى شمال الشام ، كما أن ١٥٪ من حجم التجارة كانت ترسل الى اقليم الحجاز ومصر وأوربا(٤٤) ٠

---

(٤٢) N.A. 890/O/17, Report From M.Wallace, Jerusalem 12/1/1898.

(٤٣) N.A.890/O/17, Op.cit.

(٤٤) Ibid—.

وكان طبيعيا مع ازدياد هذا النشاط التجارى وتنوع مصادره ، أن تظهر فئة من كبار الراسماليين ساهموا بقسط وافر فى اثراء النشاط التجارى من خلال ما كانوا يقدمونه من قروض عينية ومالية للتجار أو المزارعين . وقد بدا واضحا أن اغلبية هؤلاء الراسماليين كانوا من الوافدين الى السلط من فلسطين ومن نابلس بصفة خاصة . وصاحب عمليات الاقراض ارتباك واضح من خلال الأسلوب الذى كانت تتم به ، عندما تولت (المحكمة الشرعية) بالمدينة أمر تسجيل القروض، وذلك نظرا للتفاوت الزمنى على مدار الايام بين التوقيت الهجرى والميلادى، وتمسك الأطراف المعنية بما يناسبها من توقيت لنهاية القرض. هذا بالاضافة الى أن كثيرا من الشهود الذين كانوا يوقعون على الصكوك المالية وقعوا فريسة للاغراء المالى لصالح أحد الاطراف فغيروا شهاداتهم رغبة أو رهبة ، نظرا لأن الأغلبية الساحقة منهم اتخذت مسألة الشهادة (حرفة للحصول على المال)(٤٥) .

ويتضح مما تضمنته سجلات المحكمة الشرعية لمدينة السلط خلال الفترة من عام ١٨٨٥م حتى ١٨٩٠م أن عدد قضايا القروض التى حكم فيها (١٢٤) قضية مالية ، وأن هناك (٦٠) قرضاً قدمت من التجار الفلسطنيين ، (٣٥) قرضا من الدمشقيين كما بلغ عدد الذين حصلوا على قروض من مدينة السلط فى ذات الفترة (١١١) مواطناً(٤٦) .

ومع استمرار حلقة القروض المالية والعينية ، أضحت عناصر القوة لمدينة السلط بايدى كبار الراسماليين الذين وردت اسماؤهم فى سجلات المحكمة الشرعية للمدينة ، ومن أبرز تلك الأسماء (عبد الرازق طوقان وداود أفندى طوقان وعبد الرحمن بك طوقان) وهم جميعا كما هو واضح من أسرة واحدة ، ارتبطت أصولهم ونشاتهم بمدينة (نابلس) لكنهم هاجروا واقاموا بالسلط خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر،

---

(٤٥) N.A.890/O/21,Report on The Trade of Jerusalem, 1/2/1900

(٤٦) المحكمة الشرعية بالسلط مجلد رقم ٢ . ص ١١ . والصورة لتلك السجلات، موجودة بمكتبة الكونجرس الامريكى (القسم القانونى) تحت مسمى (محاكم شرعية ـ الشام) .

وغطت قائمة القروض التى مارسوها ثمان صفحات فى سجلات المحكمة الشرعية ، وبلغ عددها (٢٤٣) قرضاً قيمتها (٣٩٫٣٨٣) قرشاً قدمت بشكل نقدى ٠ اما قروضهم العينية فكانت على النحو التالى :

١٣٫٦٣٣ صاعاً من القمح و ٣٫٠٦٢ صاعاً من الشعير و ٢٫٢٢٧ قدراً السمن ٠ كذلك قدرت كمية الحبوب الموجودة بمخازنهم فى ذات المدينة بـ (٦٠٠٠) صاعاً من القمح و (٨٠٠) من الشعير(٤٧) ٠

وبالاضافة الى ال طوقان ، برز ايضا اسم (الحاج عبد القادر جعبير) ، وتبعا لما جاء فى ذات السجل بلغت قيمة القروض المقدمة منه (١٢٠٫٠٠٠) قرشاً ، وعينيا (١٥٫٠٠٠) صاعاً من القمح ، وحوت مخازنه (٧٠٠٠) صاعاً من القمح ، و (٢٠٠٠) من الشعير ، وقدرت السجلات قيمة ما يمتلكه من بضائع فى المدن الأخرى (دمشق وبيروت) بما قميته (٤٠٫٠٠٠ قرشا(٤٨) ٠ وتشير الملاحظات التى وردت فى السجلات المتعلقة بهذا الاسم الى انه كان من الرجال الذين مارسوا عددا من الأنشطة الاقتصادية المتنوعة ٠ فبالاضافة الى ممارسة عمليات اقراض الأموال وتجارة الغلال واعدادها للتصدير ، فقد كان نشطا ايضا فى استيراد البضائع السورية واعدادها بالسلط من أجل الاستهلاك المحلى بها(٤٩) ٠

هذا بالاضافة الى وجود (كثرة) من أمثال هؤلاء الراسماليين بالسلط بلغت قيمة رؤوس اموالهم فى عام ١٨٩٥ مبلغا قدره (٦٥٫٠٠٠) قرشا(٥٠) ، وعلى جانب آخر شجع نمو راس المال بالسلط اعدادا أخرى من مدن فلسطين ودمشق للقدوم الى السلط واتجه نشاطهم بصفة خاصة

---

(٤٧) سجل المحكمة الشرعية بالسلط عن اعوام (١٣١٥/١٣١٩هـ) ، صص ١٦٩/١٧٨ ، ٢ رمضان ١٣١٨هـ ، ٢٥ ديسمبر ١٩٠٠م ٠

(٤٨) نفس المصدر ٠

(٤٩) نفس المصدر ٠

(٥٠) سجلات المحكمة الشرعية بالسلط : المصدر السابق ٠
N.A.890/29, M.Wallace; Commercial Report for 1895,

نحو الاستثمار الزراعى وامتـــلاك الأراضى حتى عام ١٨٩٥م ، وفقــا للجدول التالى(٥١) :

العدد	رأس المال	متوسط الملكية بالدونم
١١	٣٥٠ر٠٠٠ قرش	١٥٥ دونم
١٧	٢٨٠ر٠٠٠ »	١١٠ »
١٣	١٩٠ر٠٠٠ »	٩٥ »
٢٣	١٣٠ ر٠٠٠ »	٧٠ »

وكان الهدف من مجىء هؤلاء التجار الى السلط هو جمع أكــبر قدر من الثروة والسيطرة على مركز رأس المال من خلال العمل كصيارفة فى أول الأمر ، ثم ممارسة تجارة الحبوب التى تشتهر بها المنطقة ، الى جانب مباشرة عملية الاستيراد والتصدير ، واستطاعوا بمثل هذه السبل ان يصبحوا من كبار ملاك الأراض ليس فقط حـــول منطقة السلط بل تجـاوزوها الى معظم اجـــزاء المنطقة الجنـــوبية الشرقية من بلاد الشام(٥٢) ، وما ان اقترب القرن التاسع عشر من نهايته حتى أضحى هؤلاء الراسماليين (أمراء) خاصة من قدم منهم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث اقترنت اسماؤهم بالقاب مميزة فى سجلات المحكمة الشرعية بالسلط فلقبوا بذوى المقام العالى والقدر الكبير،والقاب أخرى تبدو فى النص التالى : ـ

(الكبير ، ذائع الصيت ، الموثوق فى أمانته السيد غايد افندى ابن المرحوم الرئيس الأمين عالى المقام والقـــدر التاجر السيد حسن افندى النابلسى)(٥٣) .

---

(٥١) Jerusalem, 30/6/1896.

(٥٢) نفس المصدر ، والفدان = ٤ دونم .

(٥٣) المحكمة الشرعية للسلط ، سجل رقم ٤ ، ٢٢ جمادى الأولى ١٣٢٨هـ / ١ يرنية ١٠١٠ .

وكان أن أضحى لتلك الفئة الجديدة سمة مميزة لحياتهم الاجتماعية فاتخذوا لاقامتهم القصـــور الفخمـــة التى استحضروا لبنائها عمالا من فلسطين ، وذلك وفق طابع من البناء مميز بعيد عن الطراز (الصحراوى) الغالب على بيوت السلط . واتسمت مبانى هــؤلاء الأغنيـاء بالفخامة والســعة ومظاهر الثراء ، وجرى بناؤها بادوات فنية مســتوردة من الخارج كما زينت بالفسيفساء على غــرار ما تميزت به منشآت المــدن التاريخية القديمة(٥٤) .

على أنه من الملاحظ ايضا أن تلك القصـــور لم تكن مجرد مبــان للاقامة فقط ، انما الحقت بها مخازن لحفظ البضائع ، وأخرى حولها اتخذت مقراً للبيع ، وبجـــوارها مكاتب لمباشرة النشـــاط الاقتصادى والأمور الادارية وللاشراف على الأرض والعمـــال بها(٥٥) . وخلصت المصادر فى هذا الى ان العدد التقريبى للتجـــار فى السلط بلغ ثمانمائة تاجراً فى حين بلغ سكان المــدينة وما حــولها ٤٢٠٠ نسـمة أى بنسبة ١ : ٥(٥٦) . على ان تلك الأرقام لاعـــداد التجار عامة والتى أوردتها المصادر الأمريكية،لم تتوقف عند أعداد (كبار التجار) كما هو ملاحظ، وانما كانت الغالبية العظمى من تلك الاعداد مجـــرد (تجار وسطاء) أتخذوا من أعمال (السمسرة) و (تجارة الجملة) و (مباشرة أعمال الصيرفة) حرفة لهم ، وهم فى هذا حلقة وصل بين الفئات العليا والدنيا، لكنهم ابتعدوا فى كثيرا من الأحيان عن الاقامةالى جوار كبار الراسماليين، (امـــلا فى جمع أكبر عـــدد من الاتباع حتى يتمكنوا من جمع عناصر القوة)(٥٧) التى تدفع بهم الى فئة الراسماليين . ومع ذلك فان هؤلاء (الوسطاء) كانوا فى نهاية الأمر بالنسبة لسكان المدينة والحضر من حولها معدودين من التجار (وأصحاب الأموال)(٥٨) .

---

(٥٤) N.A.890/O/15, From Wallace, Jerusalem, 14/11/1908.

(٥٥) N.A.890.3, From Selah Merrill, Annual Report on Affaires in Palestine, Jerusalem, 1893.

(٥٦) Ibid .

(٥٧) Ibid.

(٥٨) N.A.890.3, Op.cit.

وعلى جانب آخر فى التطور الاجتماعى للسلط وبشكل ملفت للنظر فقد تمكن تيار التدفق التجارى من سحب البساط من تحت اقدام المجتمع التقليدى (التداخل الزراعى البدوى) القائم منذ زمن بعيد حتى منتصف القرن التاسع عشر ليتجه بسرعة بعد ذلك نحو (مجتمع زراعى تجارى) بكل سماته وعلاقاته الانتاجية ٠

وقد جاء فى تقرير البطريركية البروتستانتية أن مجتمع السلط فى اواخر القرن التاسع عشر انقسم الى قسمين : الأول وهم السكان الأصليون الذين ارتبطت حياتهم وتجـزأت بين طبيعة المجتمع الزراعى وقبائل الصحراء وربما خلقته تلك العلاقة من سمات تبادل للمنافع بعيدا عن يد الدولة صاحبة السيادة ٠ والثانى هم الذين قدموا الى المدينة من بلاد الشام وغيرها وانصبت انشطتهم على التجارة واقراض الاموال،ثم تحولوا بعد ذلك الى ملاك للأراضى الزراعية أو كوسطاء ٠ وأرتبطت عناصر هذا القسم ارتباطا قويا بالجراكسة اللذين منحتهم الدولة العثمانية أراضى زراعية ارتبطوا بها جميعا (تجارا وملاك) حرصا على استمرار مصالحهم ٠ كما أرتبطت بهذا القسم الثانى اعداد وفيرة من القسم الأول، بعدما وجدوا أن هذا (الارتباط المستقر) جعلهم فى مأمن من تقلب أهواء ونزاعات القبائل التى كانت قائمة قبل ذلك(٥٩) ٠

وفى هذا يقول لورنس (أوليفية) (Lawrence Oliphant) الذى زار السلط عام ١٨٨٠م (ان مناخ الأمن السائد فى الاقليم كان عاملا من عوامل الجذب للاقامة والاستقرار بالمركز ـ السلط ـ وأن الوافدين من التجار العرب استطاعوا الحصول على مزيد من الأرباح والأموال من جراء نشاطهم المتزايد فى تجارة المحصولات والمواشى)(٦٠)٠

ولا شك فى أن علاقات الانتاج الجديدة والتطور الاجتماعى وليد النشأة لم يكن ليكتب لهما البقاء بعيدا عن مصلحة الدولة العثمانية التى

---

(٥٩) P.M.R. (Protestant Missionaries Resident, 15/13 Report from Bellamy, Al Salt; October, 1871.

(٦٠) Oliphant (L.), The Land of Gilead, N.Y.1881, P.181.

استرعى نظرها تطورات النشـــاط الاقتصادى لقضـــاء السلط وامكانية الاستفادة منه ، بما يحقق خططها فى الاصلاح الذى كانت تتطلع اليه ، خاصة بعدما غرست بالمنطقة فئات موالية لها بدءا بالجراكسة ووصـولا الى التجار ليشكلوا خط دفاع بشرى ضد فوضى الضغوط البدوية الملاصقة . واستطاعت الدولة من خلال ذلك تحقيق هدفين أساسيين :

الاول : الهدف الامنى باستقطاب هذه العناصر البدوية داخل اطار المجتمع الأكثر استقرارا والتخلى عن ممارسـة الاغارة والسلب والنهب . وقد أوردت بعض الوثائق التركية النتائج الايجابية لهذا التطور بانحسار عدد الهجمات من جانب البـــدو على الأراضى الزراعية والقرى فيما بين عام ١٨٧٦م وعام ١٨٩٣م على النحو التالى(٦١) :

العـام	حوادث الاعتداء
١٨٧٦م	٢١٦ حادثة
١٨٩٣م	٦٧ حادثة فقط

الثانى : وهو الهدف المالى اذ حدث تحسن ملحوظ فى زيادة ايرادات الدولة من ضريبة (ويركو التمتع)(٦٢) وهى الرسوم التى كانت تحصل على النشاط التجارى بصفة خاصة والتى تراوحت نسبتها منـــذ منتصف القر ن التاسع عشر بين ٣٠ و ٥٠ فى الألف قرشا . وقد لوحظ مدى الزيادة المضطردة فى قيمتها على النحو التالى(٦٣) :

---

(٦١) أرشيف استانبول : بيلديز سراى . أوراق رقم ٩٢٧ . ظـــرف رقم ٦٢ عام ١٣١١هـ .

(٦٢) كلمة تركية بمعنى المال الميرى أو الضريبة الرسمية .

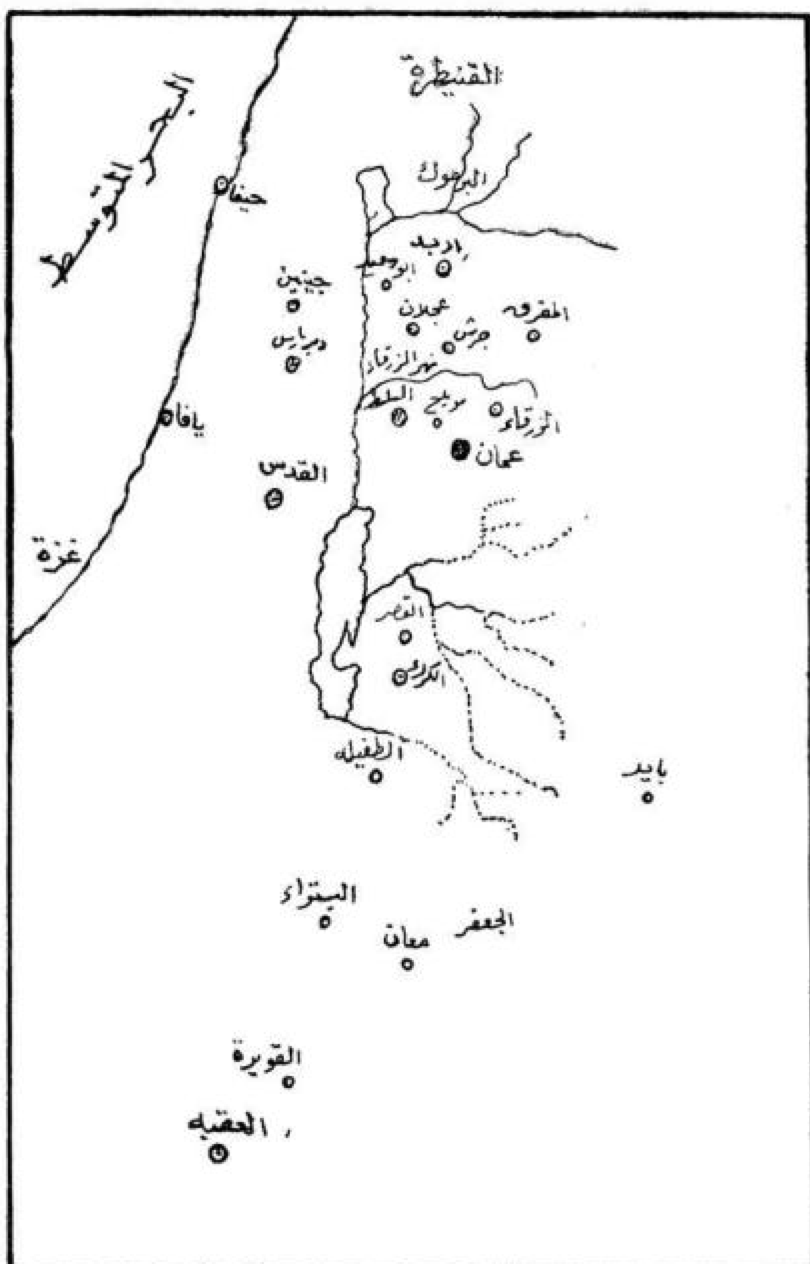
(٦٣) أرشيف استانبول : مالية . وثيقة رقم ٦٥٢٣٠١ بتاريخ ٧ جمادى الاولى عام ١٣١٠هـ .

العام	الايراد من الضريبة بالقروش
١٣٠٥هـ/١٨٨٧م	٢٧٥/٥١٦ قرشا
١٣٠٦هـ/١٨٨٨م	٢٨٩/٢٠١ «
١٣٠٧هـ/١٨٨٩م	٢٩٥/٨٧٤ «
١٣٠٨هـ/١٨٩٠م	٣٢٧/٦٤٢ «
١٣٠٩هـ/١٨٩١م	٣٤٨/٠٣٢ «

وبهذا النجاح الامنى والمالى للدولة العثمانية والاستقرار الاجتماعى والنمو الاقتصادى ، بدأت السلط تأخذ طابعا جديدا فى انماطها المتعددة حتى غـدت فى نهـاية المطاف نواة للاستقرار والنمو لكثير من البقاع المحيطة بها خاصة (عمان) التى كانت فى وقت من الأوقات مجرد قرية تابعة لقضاء السلط حتى عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠م(٦٤) ٠

واغلب الظن من خلال استقراء تلك التطورات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ان قيام امارة شرق الاردن عقب الحـرب العالمية الأولى لم يات من فراغ وانما كمنت وراءه الكثير من الأهداف الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية ٠ ومن بين هذه الأسباب والأهداف كان موقع السلط وتنامى مركزها مع الرغبة فى احكام القبضة على المنافذ الجنوبية لبلاد الشام وشمال شبه الجزيرة العربية لتعويض ما تطلع اليه الطامعون من سيادة على سورية ، وما خسروه فى جبهة (الحجاز) عقب الثورة العربية عام ١٩١٦م ٠

(٦٤ـ عبد العزيز عوض : المرجع السابق ، ص ٧٩ ٠



الموقع والخريطة منقولة من كتاب :
(أسماء المواقع الجغرافية فى الاردن وفلسطين)
اعداد : د٠ حسن عبد القادر / قسطندى ابو حمود / عادل شحادة
ومحمد السريانى ، عمان ١٩٧٣ ٠

مصـــادر البحث

أولا : وثائق بلغة أجنبية :

(أ) وثائق بريطانية

1. F.O.406/26, 16/1/1861
2. F.Oè1951/2706, 22/8/1890
3. F.O.78/20/6, 12/2/1861

هذا بالاضافة الى الوثائق المنقولة والمترجمة من كتاب :

شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلال الخصيب ١٨٠٠/١٩١٤ ، ترجمة د٠ رؤوف عباس حامد ، بيروت ١٩٩٠ ٠

(ب) وثائق أمريكية : N.A.

1. N.A. 890/3/ , August, 1860
2. N.A. 890/3, 1893
3. N.A. 890/29, 30/6/1896
4. N.A. 890/0/17 12/1/1896
5. N.A. 890/2/ 1/2/1900
6. N.A. 890/15/ 16/9/1900
7. N.A.890/O/ 1900/1908
8. N.A. 890/15 14/11/1908

(حـ) وثائق الارساليات التبشيرية بالقدس والسلط

وأصول تلك الوثائق موجودة فى لنـــدن F.O. وصور منها فى مركز الوثائق القـــومى الأمريكى وتشـــمل (الارســالية البروتستانتية وبطـــرياركية اللاتين ، والكنيســـة الكاثوليـــكية ، وبلغت وثائق تلك الارساليات أربعة عشر مصنفا ، جمعت عى طياتها تقارير عن النشاط الذى كانت تقوم به تعليميا وثقافيا وصحيا فى بلاد الشـــام منذ بداية

القرن التاسع عشر ، بعضها احتوى على أرقام مسلسلة والآخر بدون ، واقتصرت غالبيتها على الفهرسة الزمنية ،وما تم الاطلاع عليه فقط ما يلى:

1. Protestant Missionaries Resident : (P.M.R.) P.M.R.6/72/266, October, 1871
2. Latin Patriarchat of Jerusalem, (L.P.J.) 1869
3. Archives of Church Missionary Society (C.M.S.) O13611/O 29/11/1879

   C.M.S. 12/12/1899

ثانيا : سجلات محكمة السلط الشرعية : وصور منها أيضا موجـودة بمكتبة الكونجرس (القسم القانونى) الشام ٠

١ ـ سجل المحكمة الشرعية بالسلط ، المجلد رقم ٢ ٠
٢ ـ سجل المحكمة الشرعية بالسلط عن أعوام (١٣١٥/١٣٢٩م) ٠
٣ ـ سجل المحكمة الشرعية بالسلط رقم ٤ جمادى الأولى ١٣٢٨هـ٠

ثالثا : المصادر التركية :

١ ـ أرشيف استانبول : مجلس والا ، رقم ١٩٧٠٢ ، ١٣ جمادى الآخرة ١٢٧٧هـ ٠

٢ ـ أرشيف استانبول: ييلديز سراى، ٩٢٧ ظرف رقم ١٣١١/٦٢هـ٠
٣ ـ أرشيف استانبول : مالية ، رقم ٦٥٢٣٠١ عام ١٣١٠هـ ٠

رابعا : المصادر والمراجع العربية :

١ ـ د٠ أحمد عزت عبد الكريم : دراســات تاريخية فى النهضـة العربية الحديثة (علاقة سورية التجارية بأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) ط٢ بيروت ١٩٨٤ ٠

٢ ـ بازيلى : سورية ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركى ، ترجمة د٠ يسر جابر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٨م ٠

٣ ـ د٠ حسن عبد القادر وآخرون : اسـماء المواقع الجغرافية فى الاردن وفلسطين ، عمان ١٩٧٣ ٠

٤ ـ شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلال الخصيب ١٨٠٠هـ/ ١٩١٤م ترجمة د. رؤوف عباس حامد ، ط١ ، بيروت ١٩٩٠ .

٥ ـ عبد العزيز محمد عوض : الادارة العمانية فى ولاية سورية ١٨٦٤هـ/١٩١٤م ، القاهرة ١٩٦٩ .

٦ ـ على الحسنى : تاريخ سورية الاقتصادى ، دمشق ١٣٤٢هـ .

٧ ـ ملحم خليل عبده وآندروس شخاشيرى : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، ١٩٠٨م .

٨ ـ مانتران (روبير) : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعى ، ط٢ ، ط١ ، القاهرة ١٩٩٣ .

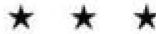
خامسا : المصادر والمراجع الأجنبية :

1. Burchardt (J.L.), Travels in Syria and Holy Lands London, 1922
2. Buckingham (J.S.), Travels Among The Arab Tribes, London, 1925
3. Hill (Gray), A Journey of Petra, London 1897
4. Lamar and Thompson, The Frontier in History, New York, 1981
5. Schileher (Linda), The Huran Conflicts of the 1860 London 1881
6. Tibawi (A.L.), A Modern History of Syria London, 1969

سادسا : حولية كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، ما يو ١٩٥١ .

باب عــرض الكتب (*)

نعرض فى هذا الباب أربعة كتب صدرت حديثا ، أحدها صدر فى أواخر عام ١٩٩٣ ، والثلاثة الأخرى صدرت عام ١٩٩٤م ، وكلها لأعضاء عاملين فى اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة • وهيئة تحرير المجلة ترجو كل من يبعث اليها بكتاب من تاليفه أن يرفق به نبذة قصــيرة للتعريف بشخصه وعمله ونشاطه العلمى وانتاجه •



١ ـ الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبى والمملوكى :

كتاب صدر فى دمشق ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م ، تاليف الأستاذ الدكتور ابراهيم زعرور • والكتاب يقع فى نحو مائتين وثمانين صفحة ، وقدم له الأستاذ الدكتور سهيل زكار بمقدمة علمية مسهبة •

ومن المعروف ان علم التاريخ يشــكو دائما من نقص خطــير فى الجوانب الحضارية بوجه عام ، والاجتماعية والاقتصادية بوجه خاص • والفكرة السائدة عند الكثيرين هى أن التاريخ لا يعنى اكـــثر من السرد السياسى للأحداث ، وما يرتبط به من قيام دولة أو حاكم وسـقوط احرى أو آخر • وهكذا تاتى الحوادث المرتبطة بالحكومات ، والمواقع الحربية المرتبطة بالحروب والهجرات ، والثورات المرتبطة بالمشاعر والاحاسيس أو بالأطماع •• تاتى فى كتب التاريخ فى اطار رؤية سياسية ، غالبة ، بحيث يندر أن يتعرض باحث للظواهر والأسباب الاقتصادية أو للنتائج والاوضاع الاجتماعية التى كثيرا ما ترتبط بالمسيرة السياسية •

وربما أدى الى هذه الظاهرة أن الباحث فى دراســته لا يجد عن الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية فيما تحت أيديه من مصادر سوى اشارات عابرة متناثرة • وحسب صاحب المصدر أن يعنى فى حولياته أو تراجمه

(*) يستهدف هذا الباب التعريف بالكتب التى أصدرها الأساتذة أعضاء الاتحاد فى العام السابق مباشرة •

باخبار الحكام من خلفاء وملوك وسلاطين وأمراء ويسهب فى الحديث عن اعمالهم فى ميادين الحرب والسلم ، دون أن يتطرق الى معيشتهم او يحاول تقصى ما يرتبط بحياتهم الخاصة ، وحياة رعاياهم على تباين فئاتهم وطبقاتهم • ومن هنا تاتى صعوبة البحث فى التاريخ الاجتماعى بوجه خاص ، لأن الباحث فى هذا الباب لايجد أمامه فى المصادر مادة علمية وفيرة يقتطف منها ويبنى عليها بحثه ، وانما هى اشارات مبعثرة لا تربط بينها وبين بعض روابط ، وربما جاء ذكرها عن طريق المصادفة العـــابرة •

وقد اختار الدكتور ابراهيم زعـــرور أن يخوض فى هـــذا المجال الصعب • ولا شك فى أنه تحمل الكثير حتى أخرج لنا كتابه عن الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبى والمملوكى • ومن الثابت أن هذه الحقبة الزمنية التى تحرك الباحث داخل اطارها غنية بالأحداث، اذ يكفى انها شهدت ظهور بيوت حاكمة جديدة،وقيام عناصر غير عربية فى حكم بلاد هى أجزاء من صميم الوطن العربى • وهؤلاء الوافدون حملوا معهم الكثير من العادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية ، مما أحـــدث تفاعلا بينهم وبين أهالى البلاد الأصليين • ومثل هذا يقال عن مجىء الصليبيين من غرب أوربا الى بلاد الشام ، يحملون حـــرابهم وسيوفهم ويحملون أيضا أصولهم الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم • ولاشك فى أن بقاء الصليبيين على أرض الشام وبين اهلها قرابة قرنين من الزمان - شغلت العصر الأيوبى باكمله وشطرا من فجر عصر سلاطين المماليك - أدى الى ظهور تاثيرات غربية - ولو طفيفة - فى المجتمع الشامى ، وان كانت دون التاثيرات التى خلفها المجتمع الاسلامى فى الصليبيين •

فى هذه الميادين الصعبة المتفرقة ، تحرك الباحث - الدكتور ابراهيم زعرور - فقدم للقارىء دراسة دسمة عن ماهية الحياة الاجتماعية واوجه النشاط فى المدن الشامية ، وعرض حياة المزارعين وأهل البادية • وكل ذلك من منظور اجتماعى ، وباسلوب هادىء متزن ، معتمدا على عدد كبير من أمهات المصادر المعاصرة والمراجع الحديثة •

٢ - بحوث فى التاريخ والحضارة الاسلامية - الجزء الأول :

تاليف دكتور غيثان بن على بن جريس - أستاذ التاريخ الاسلامى المشارك ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية - جامعة الملك سعود - فرع ابها .

كتاب فى نحو ثلثمائة وثلاثين صفحة ، صدر عن دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية سنة ١٩٩٤م .

والكتاب يضم أربعة عشر بحثا فى التاريخ الاسلامى ، فى موضوعات متفرقة متباينة لا يربط بينها الا وحدة الفكر ووحدة التعبير بوصفها جميعا بقلم باحث واحد ، فضلا عن أنها جميعا تدور داخل اطار التاريخ الاسلامى .

وفى المقدمة التى قدم بها الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور لهذا الكتاب ، اشار الى انه صار من المألوف أن يلجأ باحث الى جمع عدد من بحوثه التى نشرها فى أماكن متفرقة - وربما فى أوقات متباعدة - ليصدرها فى مجلد أو اكثر ، حتى يتسنى لأكبر عدد من الباحثين الرجوع اليها والافادة منها . ذلك أن غالبية بحوث الباحثين تنشر فى مجلات علمية ضيقة الانتشار ، مما يجعلها صعبة المنال .

وهكذا نحا الدكتور غيثان بن على بن جريس نحواً محموداً ، فجمع عددا مختاراً من بحوثه التى تعرضت لجوانب شتى فى التاريخ الاسلامى ، واصدرها فى هذا الكتاب . وتتصف هذه البحوث بالأهمية حيث أنها تتعرض لجوانب فى التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى ، مثل العلاقات بين الحجاز من جهة وبلاد الحبشة من جهة أخرى فى صدر الاسلام ، وطرق التجارة البرية والبحرية التى ربطت الحجاز بالعالم الخارجى فى فجر الاسلام ، وعلاقة علماء الحجاز بالخلفاء العباسيين ، وهيئة الملابس العربية فى صدر الاسلام ... وغير ذلك من الموضوعات الجديدة الشيقة التى تجعل من هذا الكتاب مطلبا محموداً فى مجال دراسة التاريخ الاسلامى .

٣ ـ الدولة اليهـــودية :

تاليف تيودور هرتسل ، ترجمة محمد يوسف عـــدس ، مراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور عادل حسن غنيم .

كتاب فى مائة وأربعين صفحة ، صدر عن دار الزهــراء للنشر ، ١٩٩٤م مؤلف الكتاب احد أقطاب الفكر الصهيونى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، والنصف الأول من القرن العشرين (١٨٦٠ ـ ١٩٤٩م) وهو مجرى المولد والنشاة ، كرس حياته الطويلة لخـــدمة الصهيونية ، وتحديد أهدافها العالمية ، والتخطيط لسياستها فى الداخل والخارج ، فى الباطن والظاهر . ويكفى أن نشير الى أن هـــذا الرجل هو صاحب الدعوة للمؤتمر الصهيونى الأول الذى عقـد فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ ، وهو المؤتمر الذى فتح الباب أمام خمسة مؤتمرات أخرى عقدت كلها فى حياة هرتسل ، وجاءت متممة للمؤتمر الأول .

وفى هذا الاطار تحرك هرتسل بوصفه المخطط للسياسة الصهيونية ، الموجه لمسيرتها ، وعبر عن آرائه وتصوراته وخططه فى هذا الكتاب الذى لم يلبث أن غدا بمثابة دستور للحركة الصهيونية العالمية ، حتى أن كثيرا من اليهود اعتبروا هـــذا الكتاب فى أهميته يأتى مباشرة بعـــد التوراة والتلمود .

يقارن هرتسل فى كتابه بين فسـلطين والأرجنتين ، وايهما أصلح لتكون مقرا لدولة يهـــودية فيقول « ان فلسطين وطننا التاريخى الذى لا تمحى ذكراه . ان اسم فلسطين فى حد ذاته كفيل بأن يجتذب شعبنا بقوة وفعالية رائعة . فاذا منحنا جلالة السلطان (العثمانى) فلسطين ، سنأخذ على عاتقنا بالمقابل تنظيم الاوضاع المالية فى تركيا . ومن تلك البقعة سوف نسهم فى دعم استحكامات أوربا فى مواجهة آسيا ، بحيث نشكل موقعا اماميا للحضارة فى مواجهة البربرية . وعندئذ علينا كدولة طبيعية تقوم على أرض فلسطين أن نظل على اتصـــال بكل أوربا التى سيكون من واجبها أن تضمن بقاءنا » .

هكذا كان يخطط اليهود لدولتهم منـــذ ســنوات بعيدة فوضعوا قواعد السياسة التى تتبعها دولة اسرائيل اليوم .

وربما كان من العوامل التى أضرت بقضـــية العرب ازاء قيام دولة يهودية على أرض فلسطين ، انهم لم يحاولوا فى الوقت المناســب فهم نوايا أعدائهم وخططهم ، وأسلوبهم فى التنظيم والعمل ، فقاطعوا الفكر اليهودى ضمن سياستهم فى مقاطعة اسرائيل ، وبذلك ظلوا بعيدين عما تستهدفه السياسة الاسرائيلية من أهداف ٠

واذا كان الاستاذان محمد يوسف عدس والدكتور عادل حسن غنيم قد حرصا على ترجمة كتاب تيودور هرتسل عن الدولة اليهــودية الى العربية ، فان هذا العمل فى الواقع يعتبر اسهاما منهما فى تبصرة الفكر العربى والانسان العربى بحقيقة الخطر الصهيونى ، وأسلوب الصهاينة فى العمل والتخطيط ٠

والكتاب يتصف بدقة الترجمـــة وأمانة التعبير وســلامة الاسلوب والحرص على تقديم المعنى على حرفية اللفظ ٠

٤ ـ دور العرب فى اكتشاف العالم الجديد :

تاليف الباحث الأردنى دكتور فهمى توفيق مقبل ٠

كتاب فى نحو مائة وخمسين صفحة ، صدر عن دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة ، ١٩٩٤ ٠

يعالج المؤلف فى هذا الكتاب حلقة هامة فى تاريخ العرب فى عالم البحار ٠ ذلك أن السائد عذ الباحثين هو أن نشـــاط العــــرب البحرى ـ وبخاصة تحت مظلة الاسلام ـ اقتصر معظمه على الجانب الشرقى من العالم المعروف ، اعنى على البحار المحيطة بشبه الجـــزيرة العربية ، والممتدة الى شرق آسيا وجنوبها الشرقى ٠

هذا بالاضافة الى الدور الخالد الذى نهض به العرب فى بحر الروم، حتى فجر العصور الحديثة ٠

وحول هذه المحاور تحرك العـــرب يقطعون البحـــار ، تجارا ومهاجرين ، طلاب دين ورزق وعلم، دعاة فكر وعقيدة ، غزاة وفاتحين. أما البحر المحيط ، وهو المحيط الواسع الذى نطلق عليه اليـــوم اسم

المحيط الاطلسى ، فقد وقف أمامه العـــرب وقفـــة المتخوف حتى انهم أطلقوا عليه اسم بحر الظلمات ونظروا اليه نظرة تفيض بكل ماتعبر عنه الظلمة من آفاق مجهولة .

ولكن الدكتور فهمى توفيق مقبل ، أثبت علميا أن هـــذه القطيعة بين العرب والبحر المحيط - أو بحر الظلمات - لم تطل ، وأن العـرب عندما استقرت لهم الأمور فى الجناح الغربى للدولة الاسلامية ، قـرروا اقتحام ذلك العالم المجهول للوقـــوف على اسراره . وربما كان ايمانهم بكروية الأرض - وهى الحقيقة التى الح عليها وتمسك بها الجغرافيون المسلمون - سببا حفزهم لاقتحام بحر الظلمات فى محاولة للوصول الى شرق القارة الآسيوية .

وفى مهارة الباحث المدقق الذى لا يستهدف الا الوصول الى الحقيقة تتبع الدكتور فهمى توفيق مقبل نشاط العرب البحرى فى بحر الظلمات - مستعينا بما جاء فى أدق وأوفى المصـــادر التاريخية والجغرافية من معلومات واشارات ، مستشهدا بنصوص واضحة لا مجال للشك فيها او الاقلال من قيمتها .

ثم ان الباحث لم يكتف باثبات أن العرب فى ظل الاسلام استخدموا عددا من الأجهزة العلمية فى ارتياد البحار ، ووضعوا الخرائط الجغرافية الدقيقة التى مكنتهم من عبور بحر الظلمات ، وانما استطاع الباحث ان يبرز حقيقتين :

الأولى : هى ان العرب كانوا أســبق من كريستوفر كولمبس فى اكتشاف العالم الجديد . والحقيقة **الثانية** هى أن كولمبس نفسه استعان بالخرائط التى وضعها العرب والأجهــزة التى استخدموها فى ارتياد المحيط .

والكتاب فى مجموعه دراسة علمية - تاريخية جغرافية - تشـــهد لصاحبها بالكفاية والقدرة على الاتيان بجديد فى عالم البحث .

رئيس التحرير

استـــدراك لمقـــال

«حول العلاقات بين مصر وجنوب الجزيرة العربية فى العصر الفرعونى»

للأستاذ الدكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد

المنشور فى العدد الثانى من المجلد الاول ص ٣٣ ـ ٧١

وقعت بعض اخطاء مطبعية فى هذا المقال بسبب صـــعوبة رســـم الحروف والكلمات ، كما كانت بعض نقاطه محـــل استفسارات من بعض الزملاء ، وفيما يلى تصحيح الاخطاء المطبعية وتوضيح النقاط الغامضة ٠

ص٣٢ سطر٣ (من أسفل) : كتبت عبارة « نصوص معينة » وصحتها « نصوص معينية » (نسبة الى دولة معين القديمة فى شمال اليمن) ٠

ص٣٩ السطر الأول وتوضيحه كما يلى : « ورغم هـــذه الحقائق الواضحة ، فان بعض الباحثين المصريين الذين نشروا بحوثا فى مجال نشاط المصريين فى البحر الاحمر مازالوا ينادون ٠٠٠٠٠ (الى آخر الفقرة) ٠

ص٣٩ سطر٧ (من اعلى) وصحته كما يلى : « تفسيرات خاطئة لبعض النصوص والرسوم ٠٠٠٠ »

ص٣٩ سطر ١٣ (من أعلى) كلمة « رم » صحتها « ارم » ٠

ص ٤٥ السطر الثالث (من أسفل) وصـــحته كما يلى : « هـــذه الاستنتاجات اسست على معلومات نقلت من مصادرها نقلا غير صحيح»٠

ص٥٠ سطر ١١ (من اعلى) وصحته كما يلى : « وبطبيعة الحال ليست هناك حاجة لمناقشة ترجماته لهذه النصوص » ٠

ص٥٠ سطر ١٥ (من أعلى) صحه هذا السطر كما يلى : يجعل ترجمات الباحث لهذه النصوص لا تستند الى اى اساس » ٠

ص ٥٠ نقل السطر الهيروغليفى من الأصل بترتيب مختلف للعلامات الهيروغليفية وفيما يلى قراءة هذا السطر بالترتيب الصحيح للعلامات وبالحروف العربية تيسيرا لعملية الطبع :

« سبر نسو وبت ار تا ـنثر ـ انتى ام ـ خت ٠ اف تبى ام وروو نو بونت »

ص ٥١ مثل السطر السابق نقل هـــذا السطر الهيروغليفى بترتيب مختلف وفيما يلى قراءته بالتربيب الصحيح :

« نجا حنع٠ان ان نهوت عنتيو حريت ـ ايب تا ـنثر بر امن »

ص٥١ السطر الثانى أسفل النص الهيروغليفى المذكور اعلاه : كتب رقم الحاشية (٥٦) وصحته (٥٧) ٠

ص ٥٦ السطر الأخير فى النصف الايمن من الصفحة : كتبت عبارة « وادى الحمامات » وصحتها «ووادى الحمامات» (اضافة واو العطف).

ص٥٦ السطر الثالث من أســـفل فى النصف الأيسر من الصفحة : كتبت كلمة « اون » وصحتها « ا ن و » ٠

ص٥٧ السطر الأخير صحته كما يلى « « ويبدو أن السبب فى هذه الاستنتاجات غير المنطقية للباحثة ٠٠ » ٠

ص٥٨ سطر ١٢ (منأسفل) كتب رقم الحاشية (٨٩) وصحته (٨٠)

ص٦٣ السطر الرابع (منأعلى) يصحح كما يلى : « فان مؤلفات ودراسات الباحثين المصريين عامة والمتخصصين منهم فى هذا المجـــال خاصة مازالت للأسف الشديد تخلو ٠٠٠٠ » ٠

وكذلك يضاف الى نهاية هذه الفقرة المراجع التالية :

ـ عبد العزيز صالح ، « شبه الجزيرة العربية فى النصوص المصرية القديمة « مجلة عالم الفكر ، الكويت ١٩٨٤ ، ص ٢٩٣ ـ ٣٢٢ ٠

ـ أبو العيون بركات ، « بونت بين المصـــادر المصرية واليمنيـة القديمة » مجلة اليمن الجديد ، صنعاء ، فبراير ١٩٨٦ ، ص٩٤ ـ ١٠٩٠

ص٦٣ سطر٨ (من اعلى) سقط رقم الحاشــية لهذا المرجع الألماني والتعليق عليه وهما كما يلى :

4. M.Hilzheimer; "Zur Geographischin Lokalisierung Von Punt" Z.A.S.68 (1932), S. 112-114.

ورغم مرور ما يقرب من ستين عاما على نشر هــذه المعلومة التى توصل اليها هلسهيمر ورغم انتشارها فى كل المؤلفات الأجنبية ، ورغم اننى نشرتها فى بحثين احدهما صــدر عــام ١٩٧٤ بعنوان « محاولة لتحديد موقع بونت » ص ٢٣ ، والآخر عام ١٩٧٩ بعنوان « الجزيرة العربية ومناطقها فى النقوش القديمة فى مصر » ٠

ص٤١ ، ورغم أن الباحث رجع الى هــذا البحث الأخير ، الا انه نقل عنى هذه المعلومة نقلا خاطئا عندما نسب الى اننى ذكرت فى بحثى الثانى أن حيوان الزراف الذى ظهر فى رسوم بعثة حتشبسوت الى بونت كان ضمن السلع المنقوله الى مصر (ابة العيون بركات ، بونت ، ص ١٠٩ هامش رقم ١) وأن هذا الحيوان لم يظهر داخل القرية فى مناظر بونت (نفس المصدر ص ٩٤) وذلك لكى يثبت أن بونت تقع فى اليمن٠

ص٦٣ حاشية رقم (٦) : تصحح كلمة «المؤتمرات» الى «المؤثرات» وتوضح هذه الحاشية كما يلى :

(٦) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، « دراســة تاريخية للصـلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الأحمر ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة كلية آداب الاسكندرية ، (١٩٧٣) ص ٤٨ وما بعدها ، والمصدر الأساسى الذى اعتمدت عليه فى هذه المعلومات هو:

E.Schiaparelli; La Geografia dell'Africa Orientale secondo le Monumenti Egiziani, Roma, (1916) pp.115-119.

وقد ظهر فى السنوات الأخيرة كتاب يعالج نفس الموضوع ويتبع نفس

طريقة هذا المؤلف ويتضح لمن يراجع الكتابين أن مؤلفة الكتاب اعتمدت اعتمادا اساسيا على كتاب سكياباريللى هذا ولكن للأسف دون أن تشير اشارة واحدة اليه ، وعنوان هذا الكتاب هو :

Karola Zibelius, Afrikanische Orts-und Völkernamen in hier ›gly-phischen und hieratischen Texten, Wiesbaden, 1972.

ص٦٤ حاشية (25) تصحح كما يلى "p. 173 No. 427p.213"

ص٦٧ حاشية رقم (٥٨) كتب رقم الصفحة «٧» وصحته «٨٧» .

ص٦٧ حاشية رقم (٦٣) كتب اســم المؤلف R.Falker وصحته R.Faulkner

ص ٦٧ سطر٣ (من أسفل) صحته كما يلى « فان الاقــرب الى الصواب أن يكون الاله ..... »

ص٧٠ حاشية رقم (٨٩) طبعت الكلمة الهيروغليفية مقلوبة .

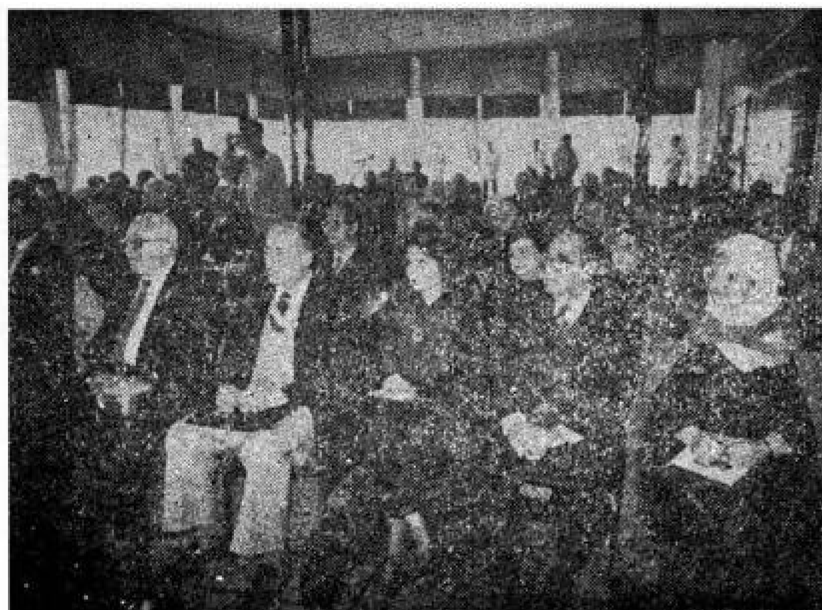
مؤتمــــــــر

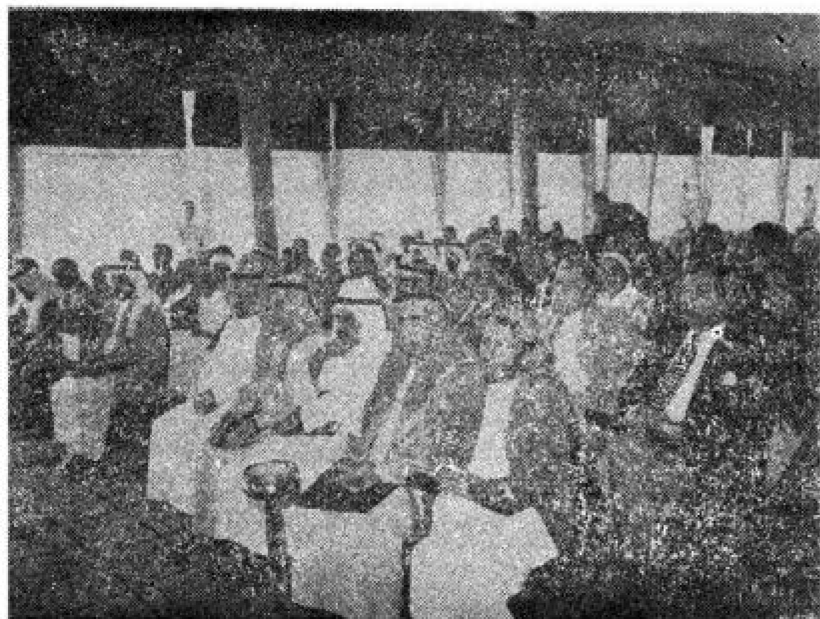
الجمعيـــة العمومية الثـــانية
لاتحـــاد المؤرخـــين العـــرب

القـــاهرة

جمادى الآخرة ١٤١٥هـ/نوفمبر ١٩٩٤م











بسم الله الرحمن الرحيم

جمعية
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

—

برنامـــج
الجمعية العموميــة الثانيـــة

٢٣-٢٤ جمادي الآخرة ١٤١٥ هـ
٢٦ - ٢٧ نوفمبـــر ١٩٩٤ م

اليوم الأول

(السبت ٢٣ جمادي الآخره ١٤١٥هـ - ٢٦ نوفمبر ١٩٩٤م)

الجلسة الأولى الساعة العاشرة صباحا (١٠ - ١٢)

- تقريـر رئيـس الاتحـاد
- مناقشة تقرير رئيس الاتحاد

استراحة وتناول الشاي لمدة نصف ساعة

الجلسـة الثانيـة (١٢,٣٠ - ٢)

- التقرير المالي يقدمه الأستاذ الدكتور أمين الصندوق ومناقشته.

الغـــــذاء (الساعة الثانية)

الجلسـة الثالثـــة (٤ - ٦)

عمليات انتخاب :

- رئيـس للاتحـاد.
- نائب رئيس للاتحاد.
- أعضاء لجنة الأمناء أو مجلس الإدارة.

اليــــوم الثانـــــي

(الأحد ٢٤ جمادي الآخرة ١٤١٥هـ - ٢٧ نوفمبر ١٩٩٤م)

الجلســة الرابعــة (١٠ - ١)

- آراء ومناقشات ومقترحات الأعضاء.
- قـــرارات.
- ختـــام.

الغـــذاء (الساعة الواحدة)

جولـــــة حــــرة

السابعة مساء مغادرة الفندق لتناول العشاء بالخارج

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــرير رئيس الاتحـــاد

حضرات الاخوة الزملاء أعضاء اتحاد المؤرخين العرب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

مرحبا بكم فى رحاب اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، وفى ظل هذا الاجتماع الثانى لجمعيته العمومية ، وهو الاجتماع الذى ينعقد وفقا لأحكام اللائحة الأساسية للاتحاد ، الصـــادرة فى جمادى الآخرة سنة ١٤١٢هـ/ديسمبر سنة ١٩٩١م ٠

حضرات الاخوة الزملاء

الآن ، وقد انقضت ثلاث سنوات على قيام اتحاد المؤرخين العـرب بالقاهرة ، لابد من وقفة قصيرة لمراجعة النفس ، والتحقق من ســلامة المسيرة ، والنظر فى الانجازات التى تحققت ، والكشف فى أمانة عن الصعوبات التى واجهت الاتحاد فى هذه السنوات ، والكيفية التى يمكن بها التغلب على هذه الصعوبات ٠

حضرات الاخوة الزملاء أعضاء اتحاد المؤرخين العرب

تذكرون جميعا أن هذا الاتحاد ولد فى القاهرة فى ظـــروف صعبة بناء على طلبكم ٠ والوليد لا يمكن أن يولد كبيرا ناضجا مكتملا ، وانما هو ينمو مع الوقت حتى يشتد عوده ويقوى بنيانه ٠ ولابد فى مرحـــلة النمو هذه من أن تعترضه بعض صعوبات ، فيكون ذلك اختبارا للوقوف على حسن الاستعداد ومدى القدرة على الثبات ٠ وليس عيبا أن يتعرض الانسان العامل لصعوبة ولكن العيب هو ألا يحاول الاستفادة من التجارب التى يمر بها والصعوبات التى يصادفها فى مسيرته البناءة ٠

وعندما شرفنى الاخوة الزملاء منذ ثلاث سنوات باختيارى رئيسا

لاتحادهم ، أدركت منذ اللحظة الأولى أن الامانة ضخمة وأن الحمل ثقيل ، ولكن بعون الله وبعونكم وضعنا لهذا الاتحاد الوليد أساسا سليما ، وفر لهذا البنيان دعائم قوية قوامها حسن النوايا وسلامة الخلق والجدية فى العمل . لقد اعلنها هذا الاتحاد منذ مولده بالقاهرة انه قام لا ليصفق لفرد ايا كان أو ينحنى أمام نظام تحت تاثير الخوف والرعب والتهديد والابتزاز ، وانما قام للحفاظ على التراث العربى وحمايته وتنقيته مما لحق به من شوائب ، فضلا عن الحفاظ على كرامة المؤرخ العربى بعد أن جعل منه اتحاد حكومة بغداد البائد دمية ماجورة لا عمل لها الا ان ترقص امام حاكم بغداد وتسبح بحمده وتبارك سياسته العدو انية فى الداخل والخارج .

حضرات الاخوة الزملاء

ان عدد المقبلين على الانضمام الى اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة فى تزايد مستمر ، حتى قارب الثلاثمائة عضوا . واذا كنا نفخر اليوم بنمو المدرسة التاريخية العربية على الصعيدين المحلى والعالمى ، فما احوجنا الى العمل على حماية هذه الأسرة مما قد تتعرض له من صعاب ، مع الحرص على تماسك بنيانها ووحدة صفها وتحقيق الترابط بين اعضائها تحت مظلة العروبة . وهذا الاتجاه كفيل بأن يجعل المؤرخ العربى يشعر فعلا بان له كيانا جديرا بالتقدير والاحترام فى مجتمع يعتز بتراثه واصوله وتاريخه المشرف .

حضرات الاخوة الزملاء

لا نريد أن نتهم بالمبالغة فى تقدير ما انجزناه فى هذه السنوات القليلة من أجلكم ومن أجل اتحادكم ، لكننا مضطرون لان نعلنها فى تواضع أننا بفضل الله وبفضل تاييدكم لنا وبفضل معونة اعضاء اللجان - وبخاصة أعضاء مجلس الاتحاد - الذين دابوا على مراسلتنا وامدادنا بأرائهم السديدة ، امكننا أن نحقق الكثير فى حدود الزمان والامكانات المتاحة لنا ، وما كلف الله نفسا الا وسعها . وعندما نشكر الأعضاء والزملاء جميعا بلا استثناء الذين قدموا لنا ولاتحادكم الكثير من الجهد والعطاء ، أرى من واجب الأمانة أن أذكر اسم الرجل المتواضع الذى يفضل دائما

أن يكون بعيدا عن الأضواء ، الأخ الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل نائب رئيس الاتحاد ووكيل جامعة الامام محمد بن سعود بالرياض، ويكفى أن أقول أنه قدم لاتحادكم الكثير فى صمت وهدوء .

حضرات الاخوة الزملاء

لقد بدأ هذا الاتحاد مسيرته قبل أن يكون له مقر أو مأوى ، ولكن بناء على دعم من رئيس جامعة القاهرة السابق ـ الأستاذ الدكتور مأمون محمد سلامة ـ حصلنا على مقر مؤقت بجامعة القاهرة . ومازلنا نسعى لدى الحكومات العربية حتى قامت حكومة الكويت بشراء المقر الحالى فى مكان هادىء بمدينة نصر بالقاهرة ، وقدمته للاتحاد ليكون مقرا له.

وما كدنا نطمئن على أن اتحاد المؤرخين له بيت يمكن أن تباشر منه شئونه الادارية وينطلق منه نشاطه العلمى ، حتى بادرنا بالسعى لتسجيله رسميا وفقا لقوانين الدولة التى استضافت الاتحاد.وتم عن طريق مكتب كبير من مكاتب المحاماة بالقاهرة اشـــهار الاتحاد رسـميا برقم ١٠٩٢ وتاريخ ٢٢ مارس ١٩٩٢ وبذلك صار الاتحاد هيئة مرخصة معترف بها رسـميا .

ثم كان أن أخذنا فى تجهيز المقر الجـديد بالأثاث المكتبى اللازم والاضاءة الكافية ، واعـددنا فيه قاعة للمحاضرات والندوات واللقاءات المحدودة العدد . أما الاجتماعات الموسعة الكبرى مثل اجتماعنا اليوم ، فلا يوجد ما يحول دون اختيار احدى القاعات الفسيحة لعقدها فيها ، وهذه ظاهرة تتكرر بين حين وآخر . وسننظم فى الساعة الرابعة من بعد ظهر الغد زيارة لمن يرغب منكم للمقر الجـديد لتقفوا بأنفسكم على ما أنجزناه فى اعداده وما نبذله من جهود .

ولم يقف نشاط الاتحاد فى هذه السنوات الثلاث عند هذا الحد ، وانما أرسينا أسس اصدار مجلة المؤرخ العربى فى وضع جديد منتظم ، وصدر منها العددان الأول والثانى ، ويجرى الاستعداد لاصدار العـــدد الثالث قريبا ان شاء الله . وقد راعينا فى هذه المجلة أن تكون بحوثها

محكمة حتى تصبح منارا لعلم التاريخ بوجه عام وتاريخ العرب والعروبة بوجه خاص ، كما فتحت المجلة صدرها لأعضاء الاتحاد من الباحثين على تباين درجاتهم العلمية بحيث لا يحرم المؤرخ الناشىء من أن يجد له مكانا يمكنه من شق طريقه ليصبح مؤرخ المستقبل ٠ كل ذلك فى حدود الالتزام بالمنهج التاريخى السليم والحرص على المستوى العلمى المنشود. ومع التمسك بالحيدة المطلقة أخذت مجلة المؤرخ العربى تشق طريقها فى الأوساط العلمية ، حتى أن بعض الهيئات على المستوى العالمى طلبت منا تزويدها بانتظام بالاعداد التى تصدر من هذه المجلة ٠ ومع كل ذلك فاننا نشعر بأن مجلة الاتحاد فى حاجة الى مزيد من الجهد لتصبح فى مجال الريادة العلمية فى عالمنا العربى ٠

وفى اطار النشاط العلمى للاتحاد فى هذه السنوات الثلاث تم عقد ندوتين ، تعقد ثالثتهما بعد غد ان شاء الله ٠ الندوة الأولى شارك فيها الاتحاد قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، بوصفها الجامعة التى استضافت الاتحاد قبل أن ينتقل الى مقره الجديد ، وكان موضوع هذه الندوة « مصر والجزيرة العربية بين الماضى والحاضر والمستقبل ». وقد عقدت فى ابريل سنة ١٩٩٣ ٠ أما الندوة الثانية فكان موضوعها « الحضارة الاسلامية وعالم البحار» ٠ وقد عقدت فى نوفمبر سنة ١٩٩٣، وشارك فيها عدد كبير من الأعضاء ببحوثهم وآرائهم وتم عقدها بمقر الاتحاد فى مدينة نصر ، وأصدر الاتحاد كتابا يضم بحوث هذه الندوة ٠

حضرات الاخوة الزملاء

لقد وضعنا سياسة لاتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد ، محورها دعم الصلات الروحية والفكرية بين أعضاء الاتحاد ومركزه فى القاهرة ٠ ولعل هذا يفسر كثرة المراسلات المتبادلة بيننا وبينكم والتى تستهدف اطلاع الزملاء على مسيرة الاتحاد من جهة والحفاظ على الخيوط التى تربط أفراد الأسرة الواحدة بعضهم ببعض من جهة أخرى ٠ واذا كان البعض قد شكا من عدم وصول رسالة اليه ، فاننا نرجو الا يعتبر ذلك تقصيرا منا ، وانما هو الخلل فى وسائل المواصلات ومنها البريد ، مما نعرفه جميعا ٠

ويسوقنا هذا الى الاشارة الى الصعاب الأساسية التى واجهها ويواجهها الاتحاد فى مرحلة الفطام الحالية • وأولى هذه الصعاب ما يتعلق بالتمويل • فاتحاد المؤرخين العرب الذى يشعر بجسامة مسئولياته وخطورة رسالته فى خدمة الأمة العربية ينتظر أن تكون المعونة التى يتلقاها من الحكومات العربية القادرة تتناسب مع أهمية رسالة الاتحاد وثقل أعبائه • وقد وجهنا نداءا الى كافة الحكومات العربية لتقدم العون لاتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد ، وهى الحكومات التى كان بعضها يمد اتحاد بغداد البائد - تحت تاثير الارهاب والخوف - بالأموال والدعم السخى ، ولكننا لم نظفر للأسف الا بمعونة محدودة ولكنها محمودة من سمو الأمير سلطان بن محمد القاسمى حاكم الشارقة ، وحكومة الكويت ، فضلا عن الأجهزة المختصة فى حكومة المملكة العربية السعودية •

واذا كان مطلوبا من اتحاد المؤرخين العرب أن يمارس نشاطا واسعا متعدد الآفاق ، فان هذا النشاط يتطلب نفقات لا يقوى الاتحاد فى ظل وضعه المالى الحالى على الوفاء بها • ونحن لا نطلب معونة لتوزيعها فى صورة أموال (وأوسمة) على الأتباع من المأجورين والمرتزقة وأصحاب الذمم الخربة مثلما كان يفعل اتحاد حكومة بغداد ، وانما نطلب معونة لننفق منها تحت اشرافكم ورقابتكم على أوجه نشاط الاتحاد البناءة • وبعبارة أخرى فاننا نامل فى أن تكون للاتحاد موارد ثابتة تمكنه من مواصلة نشاطه بصفة مستمرة دون توقف •

ومرة أخرى نهيب بالحكومات العربية الواعية أن يتفهم العاملون فيها والمسئولون عن سياستها حقيقة ما يمكن ان يقدمه اتحاد المؤرخين العرب فى وضعه النقى الجديد الى بلادهم وعروبتهم من خدمات • وعلى هذه الحكومات تقع مسئولية العمل على احياء تراث هذه الأمة وحمايته من الضياع وربط الحاضر بالماضى ، فمن لا ماضى له لا حاضر ولا مستقبل له ، واليوم نبع من الأمس ، وغدا ينبع من اليوم • وليذكر هؤلاء أنهم سيحاسبون أمام محكمة التاريخ فى يوم من الأيام على تقصيرهم أو على سياستهم ذات الوجهين ، والتاريخ لا يرحم •

(مجلة المؤرخ العربى)

ولا أخفى عن حضراتكم أن مقر الاتحاد الجديد مازال فى حاجة الى مكتبة لائقة تضم مصادر التاريخ الأساسية فضلا عن بعض الأجهزة العلمية وغير العلمية الأساسية، منها آلة تصوير ونسخ الأوراق ، وكمبيوتر لحصر أسماء الأعضاء والمؤلفات والبحوث التاريخية ، وجهاز لقراءة المخطوطات Projector وفانوس وشاشة لعرض اللوحات والصور ، وميكروفون ، وأربعة أجهزة على الأقل للتكييف ... وهذه كلها قد تبدو بسيطة ولكنها متطلبات أساسية ليصبح مقر الاتحاد مهيئا لممارسة نشاطه العلمى والادارى . هذا وقد زودنا المقر بخطى تليفون وجهاز فاكس أهداه للاتحاد الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل .

حضرات الاخوة الزملاء

لقد أدت الصعوبة المالية التى يعانى منها الاتحاد الى تعذر تنفيذ بعض ما جاء فى لائحة الاتحاد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانه اتضح من واقع الممارسة أن هناك بعض بنود فى هذه اللائحة فى حاجة الى تعديل . ومن المعروف أن العبرة ليست بوضع اللوائح والقوانين وانما العبرة بالقدرة على تنفيذ أحكام هذه اللوائح والقوانين . والمحك هو التجربة والتطبيق .

وأولى الصعاب التى واجهتنا عند التنفيذ هى تدبير نفقات دعوة أعضاء مجلس الاتحاد - وعددهم ثلاثة عشر عضوا - لعقد جلسات شهرية فى القاهرة للنظر فيما يعرض عليهم من أمور . والملاحظ أن لجنة مجلس الاتحاد هذه تضم أعضاء يمثلون مختلف أجنحة وبلدان العالم العربى من المغرب الى الخليج ، ومعنى هذا أن نفقات انتقالهم الى القاهرة لحضور اجتماع واحد يتطلب نحوا من عشرين الف دولار . فاذا تكررت هذه العملية كل شهر ، فمن أين نحصل على المورد أو المصدر الذى يمدنا فى العام الواحد بأكثر من مائة ألف دولار لتغطية نفقات انتقال أعضاء لجنة الأمناء ، بصرف النظر عن نفقات الاقامة. لقد اقترح بعض الاخوة الزملاء أن يتحمل أعضاء المجلس نفقات تنقلاتهم ، ومع أننا لا نقر هذا المبدأ ، الا أننا فى ضوء ما تقرونه نأمل أن يكون حضورهم للاجتماع مرة كل ستة أشهر على أن تتحمل جامعاتهم أو الأجهزة المختصة فى بلادهم نفقات انتقالهم والأمر مطروح عليكم لاتخاذ القرار المناسب .

وما دمنا بصدد الصعوبات التى تواجهنا فى التنفيذ ، فلا بأس من ان نطلب من الاخوة الزملاء ان يسهلوا علينا مهام العمل ،بالحرص على تسديد اشتراك العضوية الزهيد فى موعده ، وعلى من يريد الانضمام الى أسرة الاتحاد أن يبادر بطلب العضوية فى الوقت المناسب لا قبل انعقاد الجمعية العمومية بايام أو أثناء انعقاد هذه الجمعية،فهذا أمر مرفوض. وننتهز هذه الفرصة لنعلنها فى وضوح أنكم غير مستعدين لقبول عضوية أصحاب الوجهين ممن يرقصون لاتحاد حكومة بغـــداد ويترحمون على سالف عطائه،مما كان يبتزه ابتزازا تحت تأثير التهديد والارهاب ، وفى الوقت نفسه يتسترون وراء أقنعـــة زائفة للتمسح بعضـــوية اتحادنا فى القاهرة . هؤلاء هم المنافقون الذى قال الله تعالى فيهم :

[الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا الم نكن معكم].

وقد طلب بعضهم عن طرق متعددة ـ توجيه الدعوة اليهم لحضور هذا الاجتماع ، ولكننا اعتذرنا وكان ردنا واضحا هو أن هناك اجراءات لطلب العضوية معروفة،فاذا اراد أحدهم الحضور فليحرر استمارة العضوية ويزكيه اثنان من الأعضاء ، يشهدان على انه قد قطع صلته تماما باتحاد بغداد البائد ، وعندئذ يمكن النظر فى أمر قبـــوله وفقا لأحكام اللائحة الأساسية للاتحاد ، فاذا قبل طلبه وصار عضوا توجه اليه الدعوة للحضور وعفا الله عما سلف .

حضرات الاخوة الكرام

مرة أخرى نرحب بكم ونامل الخير على أيديكم ، فاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة منكم وبكم ولكم . انه يعمل فى وضح النهار لا فى ظلمة الليل . يعمل فى اطار متين من الخلق والمبادىء الحميدة بعيدا عن جو التهريج والنفاق وشراء الذمم والارهاب والابتزاز . يعمل من أجلكم ومن اجل العروبة ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها . لقد آن الأوان لأن يدرك الجميع أن العروبة وقضاياها ليست مجالا للمتاجرة بالشعارات والألفاظ وشراء الذمم ... لقد آن الأوان لأن يدرك الجميع أن تاريخ العـــروبة ليس أداة لخدمة الطغاة وتبرير سياستهم العدوانية التعسفية داخل بلادهم وخارجها ... وبفضل الله وفضل جهـــودكم ـ يمضى اتحاد المؤرخين

العرب فى طريقه ليدخل مرحلة الانطلاق ، رافعا راية أمة أراد لها اللـه عز وجل أن تكون خير أمة أخرجت للناس ٠

« وقالوا الحمد للـه الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا اللـــه »

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

أ٠د٠ سـعيد عبد الفتاح عاشور

٢٣ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ
٢٦ نوفمـــبر ١٩٩٤م

اتحاد المؤرخين العرب
القـــاهرة

تقرير أمين الصـندوق

لما كانت أصعب الفترات التى تواجه مؤسسة جـــديدة من الناحية المالية هى الفكرة التاسيسية فان السنوات الثلاثة التى انقضت من عمـــر الاتحاد كانت تتطلب جهدا خاصا ٠

الجانب الأول من الجهد يتمثل فى توفير الموارد المالية التى تمكن من استمرار المؤسسة ، لا انتهاء أعمالها بانتهاء اعمال الجمعية العمومية.

ولما كانت اشتراكات أعضـــاء الاتحاد لا تكاد تفى بالقليـــل من احتياجاته فقد عمدنا الى الآتى :

١) تحويل أغلب ما تبقى من التبرع الكريم الذى كان قد قدمه الاستاذ الدكتور الشيخ سلطان القاسمى أمير الشارقة للانفاق على أعمال الجمعية العمومية الأولى - وقدره ثمانون ألف دولار - الى وديعة بالأجل فى بنك القاهرة فى افضـــل الأوعية الادخارية (١٤٠ الف جنيه) للانفـاق من عائدها على الأعمال الجارية للاتحاد مع الاحتفاظ بمبلغ فـى الحساب الجارى لموجهات هـــذا الانفاق كان يزداد باستمرار من عوائد الوديعة (٤٥٠٦٦ جنيها) ٠

٢) الاحتفاظ بحساب بالدولار فى بنك باركليز لتلقى التبرعات عليه

٣) مناشدة أعضاء الاتحاد والمسئولين فى بعض الدول العربية بمد يد العون للاتحاد للاستمرار فى رسالته من خلال التبرعات والتى أسفرت عن تقديم بعض التبرعات كان أهمها التبرع الذى قدمه مرة أخرى سمو الأستاذ الدكتور الشيخ سلطان القاســمى وقدره ١٠٠ الف دولار والذى اودعناه فى بنك القاهرة ليصل حجم الوديعة الى ٤٧٥٫٣٥٩ جنيها اى ما يقرب من نصف مليون جنيه مصرى ٠

٤) أدت تلك المناشدة فى نفس الوقت الى أن وفرت دولة الكويت مقرا للاتحاد «فيلا» من دورين فى مدينة نصر ـ ٧ شارع بدوانى ـ الحى الثامن ٠

٥) بعد استخدام بعض الأثاث القديم فى الفيللا كقاعة استقبال كان مطلوبا اعادة تأثيثها على نحو يسمح بعقد الاجتماعات والندوات فضلا عن تزويدها بخطوط التليفون (خطان) والفاكس مما أدى الى نفقات مثلت الجانب الأكبر من مصروفات الاتحاد خلال الفترة الماضية (٣٧٠٨٥ جنيها) ٠

أما الجانب الثانى من الجهد فكان يقوم على الوفاء بالاحتياجات اليومية وحاولنا قدر طاقتنا خلال هذه الفترة الانشائية التقليل ما أمكن من المصروفات الادارية التى اقتصرت على حارس مقيم فى مبنى الاتحاد فضلا عن موظف بعض الوقت ، ثلاثة أيام فى الأسبوع ، الأمر الذى لم تزد معه قيمة المكافآت الادارية خلال العامين المذكورين عن سبعة آلاف جنيه ٠

والجانب الأخير من الجهد يبدو فى سعى أمناء الاتحاد على الا يعفى الانصراف الى الجانب التأسيسى الى عدم قيام الاتحاد بما يفترض أنيقوم به من نشاطات كان أبرزها اصدار عددين منالمجلة (بند الطباعة ٦٢٢٥ جنيها)،ثم اقامة ندوتين (بند الضيافة والاستقبال ٧٣٦٢ جنيها) وها نحن بصدد اقامة ندوة ثالثة متمنين أن ينتعش الاتحاد فى دورته القادمة بعد أن استقرت أحواله المالية خلال الفترة الماضية ذات الطابع التأسيسى ، على الأقل فى الجانب الذى يكفل استمرار ما هو قائم ، وأن يبقى الاتحاد فى حاجة الى الدعم المالى للتوسع ٠٠ بناء مكتبة ، هيئة موظفين للارشفة وجهاز الاتصالات وما الى ذلك مما يمكنأن تقرره الأمانة الجديدة للاتحاد ٠٠

والله من وراء القصد ٠٠

أمين صندوق الاتحاد

أ٠د٠ يونان لبيب رزق

١٩٩٤/١١/٢٠

Bulletin
of
The Arab Historians Society

Academic Bulletin Concerned with
Historical studies

VOL. 1 NO. 3 **March, 1995** **Cairo - Egypt**

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربى

تصــدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد الرابع | المجلد الأول | مارس ١٩٩٦

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الرابع ـ المجلد الأول

مارس ١٩٩٦م

هـــــذه المجـــــلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، تستهدف الحقيقة التاريخية صـــافية نقية بعيـــدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .

- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام ، على أن تصـلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعـــد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين : أصل وصورة .

- تخصص اقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم اجازتها للنشر بالمجـــلة .

- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها واجازتها للنشر ولا علاقة اطلاقا بين هذا الترتيب ومكانةالباحث أو درجته العلمية.

- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب (كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ أورمان ـ جيزة ـ مصر) .

المؤرخ العـــــربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الرابع ـ المجلد الأول ـ مارس ١٩٩٦

فى هــذا العــدد

بسـم اللـه الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح :

أمانـــة الأجيـــال

العمل الصالح أمانة ... وبناء الأجيال أمانة ... والأخذ بأيدى الناشئين أمانة ... والتواضع فى العلم والمعرفة أمانة ...

ان رسالة الأجيال متتابعة ، متكاملة ... وعلى كل جيل أن يحاول الارتفاع بالبناء الحضارى بحيث يسلمه للجيل التالى أكثر علوا وشموخا وأسمى مكانة وارتفاعا ، وبذلك تخطو الحضـــارة البشرية نحو الامام جيلا بعد جيل ، مما يعود على الانسان والمجتمع بالخير والبركة .

ان أخطر ما يهدد الانسان فى مسيرته الحضارية أن تتوقف بعض الأجيال عن الافادة ، وأن يقتصر دورها على الأخذ دون العطاء ، فعندئذ تتعرض الحضارة للجمود ،وربما أصيبت بنكسة تعود على البشرية بالعجز والافــلاس .

ولا يمكن للحضارة البشرية أن تزدهر الا اذ أخذ كل جيل متقـدم بأيدى الأجيال الصاعدة ، بحيث يستفيد الناشئون من خبـــرة وتجارب الكبار المحنكين ، ويتخذوا من هذه الخبرة ركيزة تمكنهم من مراجعة النفس ، وتصحيح الخطأ ، وتقويم البنيان ، تمهيدا للارتفاع به لتحقيق مالم يحققه السابقون .



اقول هذا وأمامى رسالة من زميل عضو بالاتحاد ، بعث برسالته من دولة عربية شقيقة ، يطالبنى فيها بأن تقتصر مجلة اتحاد المؤرخين العرب على نشر البحوث التى يتقدم بها الأساتذة المشاركون فما فوق ، وتتوقف عن نشر بحوث من هم دون ذلك من أصحاب الدرجات العلمية .

ولا شك فى أن الزميل الكريم حسن النوايا ، سليم المقصد ، يستهدف الوصول بالمجلة الى أرفع مستوى ننشده جميعا لها . ولكن مهلا ، أيها الأستاذ الزميل . عليك أن تذكر أن هذا الاتحاد اتحاد مؤرخين وليس اتحاد أساتذة... عليك أن تذكر أن من أهداف هذا الاتحاد الكبرى اعداد أجيال المستقبل ، الذين سيناط بهم فى يوم من الأيام حمـــل الأمانة ، والوفاء بالعهد والرسالة ، والحكم للتاريخ وعلى التاريخ ... علينا أن نذكر أن الجيل الذى لا يعبأ باعداد من يخلفه من النابهين ، سينتهى دوره، ان عاجلا أو آجلا، تاركا وراءه فراغا يدينه بالتقصير والقصور ...

ان معيد اليوم هو عميد الغد . فلنأخذ بيده ، ونحســن توجيهه لكى يكون خير خلف لخير سلف . وعلى أساتذة اليوم أن يذكروا انهم لم يولدوا أساتذة ، وأنهم مروا بمرحلة النشأة فى الأيام الخالية . وكان أن أحسن الله اليهم ، فيسر لهم من اضاء الطريق أمامهم وأرشدهم الى سواء السبيل . فلا اقل من أن يحسنوا كما أحسن الله اليهم .



ان مجلة المؤرخ العربى ستمضى قدما فى طريقها : طـــريق الحق والاعتدال . تفتح صدرها لبحوث الكبار الراسخين ، ولا تغلق أبوابها فى أوجه الناشئين من المتخصصين المستوفين لشروط الزمالة والبحث ؛ بحيث تعرض البحوث جميعا على الأساتذة المحكمين ، لرفض ماليس أهلا للنشر وما هو دون المستوى المنشود ، وتقويم ما يتطلب التقويم ، وتعديل ما هو فى حاجة الى تعديل ، واقرار ما هو صالح للنشر . وبذلك يكون الرأى الأول والأخير لأهل التخصص من المحكمين . والتحكيم هنا لا يعنى التعالى والعسف والتسلط ؛ وانما هو الحـــكم العادل المتزن . واللــه عز وجل « أحكم الحاكمين » .

هكذا يمضى اتحاد المؤرخين العرب قدما ، ليجمع بين دفتيه بين الوالد والابن ، بين المعلم والمتعلم ، بين الكبير المتقدم والناشىء المتطلع ... الكل اعضاء فى أسرة واحدة ... كل جيل يؤدى دوره بأمانة للحفاظ على سلامة المسيرة .

لا عيب فى أن تتفاوت البحوث المنشورة فى مسـتواها ، ولكن العيب فى أن يتعرض بعض اعضاء الأسرة للحرمان ارضاء لرأى لا يخلو من قسوة « وفوق كل ذى علم عليم » .

رئيس التحـــرير

وصية معاوية بن أبى سـفيان لابنه يزيد

(دراسة نقدية تحليلية)

دكتور يوسف بن أحمد حوالة(*)

ترك الخليفة الأموى معـاوية بن أبى سـفيان ، الذى اتصلت خلافته من سنة احدى وأربعين للهجرة حتى سنة سـتين منها ، وصية مهمة لابنه وولى عهده يزيد ، الذى كان قد جعل اليه أمر الخـلافة من بعده . والوصية من الأهمية بمحل كبير فى مجال الدراسات التاريخية ، وبخاصة فى حقل التاريخ الاسلامى ، مما يجعلها جديرة بالدراسة وعناية الباحثين .

وقد قسمنا دراستنالهذه الوثيقةالى قسمين اثنين : النقد ثم التحليل.

النقـــد

لعل أول ما يسترعى نظرنا هو أن الوصـية التى وجهها الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لابنه يزيد ، وصية سياسية محضة ، ليس فيها ما يشير الى الجوانب الأخـرى الشرعية ، أو الأسرية ، أو الاجتماعية(١) . ثم ان هذه الوثيقة تتمتع بأهمية خاصة بوصفها فاتحة هذا النوع من الوصايا السياسية التى يتركها الملوك لأبنائهم فى التاريخ الاسـلامى ، والتى يرسمون فيها النهج الذى يريدون لأبنائهم انتهاجه ، والسير بمقتضاه(٢) . حقيقة أن هناك وصـايا سياسية عرفتها الدولة الاسلامية فى عهود الخلفاء الراشدين . بيد أن الأمر مختلف هنا ، لأننا عندما نقول ان وصية معاوية رضى الله عنه ، هى فاتحة هذا النوع من الوصايا ، انما نعنى وصايا الملكية الوراثية ، اذ تأخذ الوصايا عند الحكام والملوك لأبنائهم طابعا أسريا ، بجانب السمة السياسية لهـذه الوصايا . والا فالحق أن عصر الراشدين عرف شيئا من هذه الوصـايا التى تركها

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى المشارك ـ كلية التربية بالمـدينة ـ جامعة الملك عبد العزيز .

الخلفاء الراشدون لمن يخلفهم ، سواء نص على هـذا الشخص أو لم ينص(٣) . ثم علينـا الا ننسى أن معـاوية اعتـبر اول الملوك فى الاسلام ، وأن الطابع السياسى كان غالبا على حكومته . هذا وان كانت بعض مظاهر هـذا الطابع قد ظهـرت معالمها فى عصر الخلفـاء الراشدين(٥) .

والواقع اننا نجد أنفسـنا مدفوعين دفعا الى التوقف عنـد هذه الوصية بعينها ـ علاوة على ما سلف ـ لأنها فى ذاتها تعد ذات قيمـة ومضامين سياسية مهمة ، اذ توضح كيفية التعامل مع المواقف والأزمات ، مما يجعلها مرجعا للساسة والقادة يستمدون منه أبجديات السياسة وفنونها، كما سيوضحه التحليل لاحقا ان شاء الله . ذلك أنها تدل دلالة واضحة على شخصية الخليفة المؤسس معاوية ، الذى أشادت كثير من المصادر والمراجع قديمها وحديثها ببراعته السياسية(٦) . والحق ان هـذه الوصية هى الدليل أو الأنموذج الأوضح لمقدار ما تمتع به الخليفة معاوية من حصافة وكياسة سياسية ، اذ جاءت فقراتها جميعها لتؤكد على الحذق السياسى، والسبل الناجعة الكفيلة بالتعامل مع الأزمات والخصوم . وفوق هـذا وذاك ، فانها تدل على الخبرة النفسية الواسـعة بطباع الناس الذين خبرهم معاوية ، وعجم بهم ومعهم عود الحياة طـوال فترة اضطلاعه بالمسؤولية منذ بدء نجمه السياسى يبزغ : حاكما أو واليا على دمشق بعد أخيه يزيد ابن أبى سفيان(٧) ، ثم واليا على بلاد الشام كلها فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه(٨) ، ثم خليفة من بعده لمـدة أكثر من تسعة عشر عاما(٩) .

ومن دواعى الدراسة النقدية ، لهذه الوصية ايضا انها جاءت فى نصين لاثنين من الاخباريين : هما أبو مخنف : لوط ابن يحيى الأزدى ، وعوانة بن الحكم الكلبى . أقول ان الوصية ، وهى بذلك تمثل لنا صورة لظاهرة للوضع والاختلاق التى ظهرت فى بعض حلقات التاريخ،مما فطن اليه مؤرخو الأمة الثقات وعلماؤها . وسنتوسع فى هـذا التحليل ان شاء اللـه .

وفى مجال نقد هذه الوصية ، لابد من التطرق الى التحديد الزمنى

لها ، ثم المصادر التى أشارت الى الوصية بنصيها معا ، أو اشارت الى أحد النصين فقط . ثم نورد النصين معا ، مع التعرض للظروف المحيطة التى استدعت اصدار الوصية . على أن نعقد مقارنة بين النصين من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون . ويلى ذلك مقتضيات رد أحد النصين سندا ومتنا ، مع ما يستلزم ذلك من التعريف بأطراف رواية الوصية وأقوال العلماء فى هذا الشأن .

التحديد الزمنى للوصية :

يبدو أن توجيه هذا النوع من الوصايا ، يتم غالبا عندما يستشعر الشخص الموصى دنو أجله(١٠) . وثمة حالات تاريخية تؤكد هذا القول، فالخليفة العباسى أبو جعفر المنصور مثلا وجه لابنه وولى عهده محمد الذى لقب بالمهدى فيما بعد وصية سياسية جامعة مانعة فى السنة التى شعر فيها بدنو أجله (١١) . وكذا الشأن فيما يتعلق بتلك الوصية السياسية المهمة ـ أيضا ـ التى تركها المنصور بن أبى عامر العامرى الأندلسى ـ الذى أسس له ولأسرته دولة عامرية داخل الدولة الأموية فى الأندلس ـ لابنه عبد الملك ، فقد استودعها اياه وهو على فراش الموت(١٢) .

ومع هذا ، فان ما جاء من تأكيد على أن الخليفة معاوية لم يوجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، بل استودعها اثنين من أخلص رجاله ، هما الضحاك بن قيس الفهرى الذى كان صاحب شرطته (١٣) ، ومسلم بن عقبة المرى(١٤) ـ أحد رجالات العرب اليمنية المشهورين فى الشام ـ على أن يبلغاها ابنه يزيدا الذى كان غائبا وقتها خارج دمشق عندما مات والده معاوية ، يؤكد أن الخليفة فعل ذلك عندما استشعر دنو أجله فعلا، عندئذ بعث فى الرجلين فأتياه ، فأبلغهما فحوى وصيته لابنه يزيد(١٥) . وما أن علم يزيد بنبأ وفاة أبيه حتى عاد سراعا الى دمشق، فتولى الخلافة على الفور بعد أن أدى اليه الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة وصية والده اليه . وفى هذا الصدد سنجد عند حديثنا عن القسم الآخر من هذه المعالجة ، أى التحليل أن ثمة قولا آخر مفاده أن الخليفة

معاوية بن أبى سفيان وجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، وهـــذا مبحث آخر يحتاج الى توثيق ، ولعله بالتحليل الصق وأقرب ٠

المصادر التى أشارت الى الوصية :

الحق اننا مدينون للمؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبرى - رحمه الله - الذى دلنا على هذه الوصية بنصيها ٠ ولقد جهدنا أن نجد لها أثرا عند المؤرخين الذين ســبقوا الطبرى كخليفة بن خياط ، واليعقوبى فى تاريخه ، ثم صاحب الكتاب المنسوب للمحدث اللغوى : ابن قتيبة ، أعنى كتاب : الامامة والسياسة(١٦) ، وهم أبرز الذين سبقوا الطبرى الى التدوين التاريخى فى صــورته الشــمولية ، اى التى تؤرخ للأحـداث والوقائع منذ بدء الخليقة ، فتتناول التاريخ الانسانى منذ آدم عليـــه السلام حتى عصر كل واحد منهم على نسق الحوليات أو تتناول التاريخ الاسلامى منذ بدايته ٠ أقول جهدنا أن نجـــد للوصية أثرا عند هؤلاء المؤرخين المتقدمين عن الطبرى فلم نوفق(١٧) ٠ وهكذا نحن مدينون الى هذا المؤرخ العظيم - أى ابن جرير الطبرى(١٨) - ومن هنا سيكون اعتمادنا عليه فى نقله للوصية بنصيها(١٩) معا ٠ أما من جاء بعد ابن جرير ممن أشار الى الوصية ، فهو لاحق له ، وقد يكون أخذ عنه ، ولذا فلن نشير الى روايته ، اللهم الا عند توقفه - عند بعض نصوص الوصية مبديا رأيا ما ، كما فعل ابن كثير فى كتابه : البداية والنهاية ٠

الظروف المحيطة التى استدعت توجيه الوصية :

يبدو فى ضوء ما سبق أن هذه الوصية تعد افرازا طبيعيا لقضية أو مسالة ولاية العهد ليزيد ، وهى قضية مشهورة من القضايا التاريخية التى حظيت بأقوال وتعليقات وآراء العديد من الباحثين(٢٠) ٠

نص الوصية عند أبى مخنف ؛ لوط بن يحيى الأزدى :

قال الطبرى(٢١) : (وفيها - أى سنة ستين - التى توفى فيها معاوية رضى الله عنه عهد الى ابنه يزيد حين مرض فيها ماعهد اليه فى النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد حين دعاهم الى البيعـــة ، وكان عهده الذى عهده ماذكره هشام بن محمد عن أبى مخنف ، قال : حدثنى

عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن مخرمة أن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقال : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطات لك الأشياء ، وذللت لك الأعـــداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وانى لا اتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فاما عبد الله بن عمر ، فرجل قد وقذته العبادة واذا لم يبق غيره بايعك ، واما الحسين بن على فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحما ماسة وحقا عظيما ، وأما ابن ابى بكر فرجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ليس له همة الا فى النساء واللهو . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويرأوغك مرواغة الثعلب ، فاذا امكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه اربا اربا) .

نص الوصية عند عوانة بن الحكم الكلبى :

قال الطبرى فى كتابه سالف الذكر ، اى تاريخ الأمم والملوك(٢٢) بعد أن أورد نص أبى مخنف مباشرة ، قل نقلا عن هشام بن محمد نفسه ما نصه : (قال هشام قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى ســنة ٦٠ هجرية وكان يزيد غائبا ، فدعـــا الضحاك ابن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فاوصى اليهما فقال : بلغا يزيد وصيتى : أنظر أهـــل الحجاز ، فانهم أصلك فاكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . وانظر أهـــل العراق ، فان سالوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عــزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة الف سيف . وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان نابك شىء من عدوك فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم ، فانهم ان اقاموا بغـــير بلادهم أخذوا بغير اخلاقهم . وانى لست اخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك ، وأما الحسين بن على فانه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل اباه وخذل أخاه . وان له رحما

ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ . ولا اظن اهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فان قدرت عليه فاصفح عنه ، فانى لو أنى صاحبه عفوت عنه . وأما ابن الزبير فانه خب وضب فاذا شخص لك فالبد له الا ان يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت) .

المقارنة بين النصين من حيث الشكل :

وهكذا نجد أنفسنا أمام روايتين للوصية لراويين اثنين أشارا الى الوصية كل على حدة . ونلاحظ بادىء ذى بدء على الوصية بنصيها أنها قصيرة موجزة ، وان كان نص أبى مخنف : لوط بن يحيى أقصر من نص عوانة . ويبدو لنا من خلال ما تميزت به الوصايا كلون من الوان النثر الأدبى(٢٣) أن طبيعة الوصية أن تكون هكذا : قصيرة السطور ، وجيزة التعبير ، فذلك ادعى وابلغ فى التاثير المطلوب . وبالطبع فلا نستطيع ان نبنى حكما على ذلك فنقول ان معاوية وهو يواجه الموت أراد لوصيته ان تكون هكذا ، الا ان ما نريد قوله ان معاوية اتبع هذا المنهج سليقة وفطرة كما يفعل بعض الشعراء الذين لم يدرسوا العروض اى الشعر الموزون المقفى : سليقة وفطرة . وكان الايجاز هو الطابع الغالب على هذا النوع من الوصايا سواء قبل عهد معاوية أو بعده (٢٤ - ٢٧) .

المقارنة بين النصين من حيث المضمون :

على اننا نلحظ بعد هذه الملاحظات الشكلية ان ثمة اختلافا غير يسير ، لا ينحصر فى مجرد الألفاظ والكلمات وانما هو اختلاف جوهرى فى المضمون بين النصين . فنص أبى مخنف فيه زيادة ونقص - معا - عن نص عوانة بن الحكم . أما الزيادة فى نص أبى مخنف والتى خلا منها نص عوانة فهى المتمثلة فى الجزء الذى يشكل صدر الوصية ، أعنى تلك الأسطر التى ذكرها هشام بن محمد الذى أسند اليه الطبرى رواية الوصية بنصيها ، حسبما هو واضح مما مر من ايراد النصين ، والتى قال فيها نقلا عن أبى مخنف (حدثنى عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله ابن مخرمة أن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقال : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك

الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، واخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد) ٠

واما النقص فى نص ابى مخنف ، مقـــارنة بنص عوانة ، فهـو المتمثل فى ذلك الوصف الذى خص به معاوية رضى الله عنه أهل الحجاز والشام والعراق بما خصهم به ، اذ جاء النص الذى أسنده الطبرى أنى هشام بن محمد راوى نص عوانة حسبما مر من قبل على النحو التالى :

(قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذاك فى سنة ٦٠ وكان يزيد غائبا ، فدعا الضحاك بن قيس الفهرى ، وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبـة المرى فأوصى اليهما فقال : بلغا يزيد وصيتي « أنظر أهل الحجاز ، فانهم أصلك فاكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق ، فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا ، فافعل فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة الف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان نابك شيء من عدوك ، فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم ، فاردد أهل الشام الى بلادهم ، فهم ان اقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم) ٠

يبقى بعد هذا أن نشير الى موطن الاتفاق بين الرجلين ، فالحق ان الشبه جد واضح فى الجزء المتصل بالتحـــذير أو التخويف الذى بثه معاوية روع ابنه يزيد من النفر الذين خالفوه من قريش فى التابى عن بيعة يزيد ٠ هذا الجزء الذى يحذر فيه معاوية ابنه من هؤلاء النفر الذين حددهم وذكرهم له صراحة ، هو الذى التقى عنده الرجلان ، وهو الذى كان عرضة للدخل والاختلاق عند واحد من هذين الرجلين ٠ تعمدنا ارجاء ذكر اسمه حتى ناتى على تمام الملاحظات الأولية على النصين ، ثم نشرع فى التحليل بعد ٠ ولا تظل لنا وقفة بعد هذا فى هذا الاطار الا عند جزءيتين لا نخال القارىء الكريم الا قد فطن اليهما ، أولاهما تلك التى يمكن أن نعبر عنها بالقول : انه مع الاتفاق بين الراويين على أن الوصية موجهة ليزيد وهو المعنى بها الا أن الاختـــلاف وقع فى هل وجهت ليزيد مباشرة أم نقلت اليه نقلا ؟ والجزئية الثانية أننا نلحظ أن راويا واحدا أورد نص الوصيتين هو : هشام بن محمد الذى سنعرض له

فيما بعد ، وبوسعنا أن نلحظ أن ثمة اختلافا يسيرا آخر فى أن هناك شخصا آخر أسند اليه أبو مخنف روايته فيما ذكره هشام بن محمد من حديث الوصية ، هو عبد الملك بن نوفل بن مســاحق بن عبد الله بن مخرمة ، وسنقف عنده بعد ان شاء الله ، فيما خلــت رواية عوانة من ذلك ٠ (٢٨ - ٢٩) ٠

● التعريف بأطراف رواية الوصية :

قبل ان نعرض الى أقوال العلماء فى أطــراف رواية الوصية ، علينا أن نعرف بأطراف الوصية الأربعة فى نصيها الواردين عند الطبرى٠ اما ابو مخنف : فهو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدى ، المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة(٣٠) ٠ يعــد أبو مخنف فى أوائل الاخباريين الذين اعتنوا بالرواية التاريخية تصنيفا وتاليفا ٠ ولقد تتبع أحد الباحثين مؤلفاته التى الفها عن العراق بخاصة - وغيرها من الأقطار - بعامة كما تتبع جميع ماقيل عن ابى مخنف من حيث نشأته ومذهبه الى غير ذلك(٣١) ٠ ولعلنا هنا نكتفى بالاشارة الى أنه شيعى المذهب باجماع المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل ٠

اما عوانة بن الحكم ، فهو عوانة بن الحــكم بن عياض بن وزر الكلبى العلامة الاخبارى ، أبو الحكم الكوفى الضرير ، أحد الفصحاء ٠ له كتاب : التاريخ وكتاب سير معاوية وبنى أمية ، توفى سنة سبع وأربعين ومائة(٣٢) ٠

وأما هشام بن محمد ، فقد سرد لنا الذهبى ترجمته كذلك فى كتابه آنف الذكر أى : سير أعلام النبلاء(٣٣) ، فقال عنه : العلامة الاخبارى النسابة الأوحد أبو المنذر : هشام بن الاخبارى الباهر محمد بن السائب ابن بشر الكوفى ، تصانيفه جمة ٠ توفى سنة أربع ومائتين على الصحيح٠ وأما عبد الملك بن نوفل الذى يصرح لوط بن يحيى بالقول أنه حدثه بخبر الوصية فهو : عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد اللــه بن مخرمة العامرى ، عامر قريش ، مدنى ، يكنى أبا نوفل(٣٤-٦٦) ٠

● **مقتضيات رد أحد النصين متنا :**

الحقيقة أن المتن الذى سنفصل الحديث عنه ، وهو الذى يهدم ـ مع السند ـ رواية أبى مخنف، يمثل الصورة الأوضح للتهافت والضعف والسقم الذى تميزت به بعض الروايات التاريخية التى لاكها نفر من الاخباريين الضعاف.ففى البدء يسترعى نظرنا خطأ أبى مخنف التاريخى المتمثل فى قوله : ان معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه فقال : يابنى ... الخ . وهذا خطأ لأن يزيدا فى الوقت الذى اشتد فيه المرض على معاوية وبات يتوقع حلول أجله المحتوم ، كان فى حوارين(٦٦) البعيدة عن دمشق ، لقد نص على ذلك بعض ثقات المؤرخين من أمثال الذهبى وابن كثير وابن الأثير وغيرهم(٦٧)

ثم اذا وقفنا عند الجزء الذى تشابه فيه النصان : نص أبى مخنف ونص عوانة ، وهو المتمثل فى التحذير والتخويف من أولئك النفر من أبناء الصحابة رضى الله عنهم،لرأينا أن ثمة خطأ تاريخيا ثانيا تميزت به رواية أبى مخنف . هذا الخطأ هو المتمثل فى قوله : ان معاوية رضى الله عنه حذر ابنه من أربعة نفر من قريش هم : عبد الله بن عمر ، الحسين ابن على ، عبد الرحمن بن أبى بكر ، وأخيرا عبد اللـــه بن الزبير . ويكمن الخطأ فى ذكره لعبد الرحمن بن أبى بكر ضمن هؤلاء . فالحقيقة أن الصواب هو ما ذكره عوانة بن الحكم فى روايته من أنهم ثلاثة نفر لا أربعة . ذلك لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما ـ وهو ثالث الأربعة فى رواية أبى مخنف ـ كان قد توفى قبل معاوية بعامين ، أى أنه توفى على المشهور والأرجح سنة ٥٨هـ . وهذا ما ذكره مؤرخو تراجم الصحابة رضى الله عنهم(٦٨) ، وهذا مالاحظه ابن كثير(٦٩) الذى تدخل معلقا بعد أن أورد نص أبى مخنف فبلغ فى الحديث هـــذه النقطة ، فقال العبارة التالية : كذا قال ، يعنى كذا قال أبو مخنف ، ثم أردف قائلا : والصحيح أن عبد الرحمن كان قـــد توفى قبل موت معاوية بسنتين كما قدمنا . ويعنى ابن كثير بهذه العبارة ماكان قـــد تحدث عنه من ذكر وفيات بعض المشاهير سنة ٥٨هـ ومنهم عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

ولسنا ندرى حقيقة سبب هذا الفعل من أبى مخنف ٠ هل يعود الى غفلة غير مقصودة أوقعته فى هذا الخطأ التاريخى ، مع أنه شىء مثير للاستغراب أن يغيب عنه هذا ، والتدوين التاريخى كان آنذاك شديد الاهتمام بتحديد وفيات الأعيان ؟ أم أن فى الأمر قصدا متعمدا لاظهار معاوية فى صورة تهيج عليه النفوس ، بالاشارة الى أن ابن الخليفة الراشد الأول كان من الممتنعين على معاوية ؛ مثل غيره من أبناء الصحابة رضى الله عنهم(٧٠) ٠

وثمة خطأ تاريخى ثالث لايقل فداحة عن هذا الخطأ بل يزيد عليه، اذ نرى فيه صورة واضحة للاساءة للصحابة رضى اللـــه عنهم ، ذلك أنه جاء فى نص أبى مخنف الذى يقول فيه على لسان معاوية : وأما ابن أبى بكر ، فهو رجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ، ليست له همة الا فى النساء واللهو(٧١ ـ ٧٤) ٠

وننتقل الى وصف معاوية الذى ذكره أبو مخنف أنه قاله فى حق الصحابى ابن الصحابى : عبد الله بن الزبير رضى اللـــه عنهما ، مما تتبدى فيه كما يتراءى لنا اساءة للرجلين معـــا : معـــاوية وابن الزبير (٧٣ ـ ٧٨) ٠ ونعنى بذلك تلك العبارة التى يقول فيها معاوية ليزيد ـ حسب رواية أبى مخنف ٠٠٠ فان فعلها بك ـ أى خرج عليك ، فقطعه اربا اربا ٠

الارب فى اللغة : العضو ، واربا : قطعا ، واربا اربا : العضو قطعه كاملا كما فى الذبيحة التى تقطع اربا اربا : عضوا عضوا(٧٠)٠ هذا من حيث اللغة ٠ ومن حيث المعنى السياسى لا يمكن لسياسى حصيف محنك مثل معاوية أن يطلب من ابنه مثل هذا المطلب ٠ وهو الذى ماجـــرب عليه أن سفك دم أحد الصحابة قتلا ؛ فيما عـــدا حجر بن عدى(٨٠) وحادثته(٨١) لانملك دليلا على قيام معاوية بالفتك بأحد الصحابة ٠

ثم ان معاوية رضى الله عنه مع معرفته بموقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، الرافض لموضوع البيعة ليزيد بولاية العهد(٨٢) ، ومع

افصاحه عما يتميز به عبد الله بن الزبير من صفات سياسية(٨٣) لا نظن أنه يحرض ابنه على قتل عبد الله بن الزبير ، حتى ولو امتنع عليه . ولعل الأولى أن يطلب منه تركه وشـــانه ـ مادامت بيعته قد انعقدت شرعا ـ كما فعل هو نفسه ـ أى معاوية ـ عنـــدما ترك النفـــر الأربعة وشأنهم ، وان كان قد أظهر للناس أنهم بايعوا(٨٤) . لقد كان فى وسع معاوية أن ينصح ابنه باتخاذ نفس الموقف لو واجهه هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم ـ ومنهم عبد الله بن الزبير بموقفهم الرافض .

ونخلص من هذا كله الى القول باننا سنعتمد رواية عوانة بن الحكم لملائمتها سندا ومتنا للواقع التاريخى (٨٥-٨٦) .

التحليـــــــل

لنمض الآن فى تحليل وصية معاوية رضى الله عنه ، متحررين من تاثير أبى مخنف : لوط بن يحيى وروايته ، وان كنا سنعود اليها بين الفينة والفينة للمقارنة بينها وبين نص عوانة ، ولكى يتاتى لنـــا ذلك يحسن بنا أن نجزىء نص عوانة الى فقرات عدة هى :

١ ـ قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠هـ ، وكان يزيد غائبا .

٢ ـ فدعا الضحاك بن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فاوصى اليهما .

٣ ـ فقال : بلغا يزيد وصيتى : انظر أهل الحجاز ، فانهم أصلك فاكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

٤ ـ وانظر أهل العراق فان سالوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف

٥ ـ وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان نابك شيىء من عدوك فانتصر بهم ، فاذا اصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم .

٦ ـ وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

٧ ـ فأما ابن عمر ،فرجل قد وقذه الدين،فليس ملتمسا شيئا قبلك .

٨ ـ وأما الحسين بن على . فانه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل اباه ، واخاه . وان له رحما ماسة ، وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ .ولا اظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فان قدرت عليه ، فاصفح عنه ، فانى لو انى صاحبه عفوت عنه .

٩ ـ وأما ابن الزبير ، فانه خب وضب ، فان شخص لك ، فالبد له، الا ان يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل ، واحقن دماء قومك ما استطعت .



من الواضح أنه ليس هناك مايقال بصدد الفقرة الأولى التى قال فيها الطبرى ، قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا ... الخ ، فلقد سبق لنا التعريف بهشام بن محمد بن السائب الكلبى فى القسم الأول من الدراسة النقدية ، كذا الشأن فيما يتصل بعوانة مما لا داعى لاعادته . غير أن مايلفت النظر هنا هو عبارة عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر ان معاوية ... الخ ، فهل هذا يعنى أن عوانة قد سبق له الاطلاع على نص ابى مخنف سابق الذكر ، فقال ماقال اعتمادا على مصدره الذى وثق فيه ؟ يتراءى لنا أن هذا هو ماتوحى به هذه العبارة . على أننا نستغرب الا يشير عوانة الى الشخص الذى نقل عنه خبر الوصية مثلما فعل ابو مخنف الذى أسند روايته لعبد الملك بن نوفل بن مساحق . وبعيد جدا أن يكون عوانة معاصرا للأحداث وهو الذى توفى سنة ١٤٧هـ . فهنا انقطاع يصل الى اكثر من قرن . ترى ما الذى يعنيه هذا ؟ هل يعنى التقليل من قيمة الرواية لانقطاع السند مدة طويلة ؟ ربما يكون الأمر كذلك ، ولكن هذا لا يقلل من أهمية روايته التى لها شاهد ، هو نص أبى مخنف نفسه .

وبعد هذا لايبقى لنا ما نقوله عن هذه الفقرة سوى التذكير بأن سنة ٦٠ هـ ، هى السنة التى توفى فيها معاوية باجماع مؤرخى ترجمنه فى

كتب التاريخ العام وكتب التراجم والطبقات ، ولم يشذ عنها مؤلف البتة بخلاف ذلك . وهذا القول يشمل كذلك عبارة : (وكان يزيد غائبا) التى حققنا أمرها من قبل فى الدراسة النقدية . وتبين لنا أن هناك اجماعا على أن يزيدا كان غائبا عن دمشق عند وفاة أبيه . وهذا هو نفسه ما عاد ابو مخنف فاشار اليه فى موضوع آخر من روايته للأحداث التاريخية ، حسبما نقل عنه الطبرى ومن بعده ابن كثير(٨٧) .

ونمر بالفقرة الثانية مرورا عابرا وهى التى ذكـــر فيها عوانة أن معاوية دعا الضحاك بن قيس الفهرى صاحب شرطته ومسلم بن عقبة المرى فاوصى اليهما . وذلك بالطبع لأنه قد سبق لنا التعريف بالضحاك ومسلم بن عقبة المرى فى الدراسة النقدية . هذا شىء والشىء الآخر أننا انتهينا بالأدلة والشواهد التاريخية الى أن معاوية استودعهما الوصية مباشرة، بخلاف ماجاء فى نص ابى مخنف من أن معاوية بث الوصية روع ابنه يزيد مباشرة . واذا استقام هذا فلننتقل الى الفقرة الثالثة التى قال فيها عوانة عن معاوية للرجلين ـ الضحاك ومسلم ـ بلغا يزيد وصيتى : أنظر اهل الحجاز فانهم أصلك ، فاكرم منْ قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

ان هذه الفقرة ـ وما تبعها من فقرات تؤكد دون ريب أى رجل كان معاوية !! . انه وهو السياسى الذى عركته الأحداث والتجارب يعرف أن الحجاز مركز ثقل سياسى لا يستهان به البتة ، بوصـــفه موئل دولة النبوة والخلافة الراشدة وعش صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم الذين ينظر اليهم أهل الأمصار الاسلامية الأخرى بالتجلة والاحترام . ثم أن معاوية يعرف ويدرك أنه ما وصل الى ما وصل اليه من السلطان والنفوذ الا بعراقته الحجازية ، فهو القرشى المكى العبدمنافى ، أى أنه فى الذروة من بيوتات الحجاز . ومن هنا فليس فى الأمر غرابة ان يدل معاوية ابنه يزيد على هذه البدهية(٨٨-٩١) .

ودليل آخر أنه عندما عزم على الاعلان عن بيعته لابنـــه يزيد ، حرص أن يستمزج رأى أهل الحجاز ، وهم هنا ـ أهل المدينة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين ، اذ انه بعث الى عامله مروان بن الحكم بذلك، ودارت بينه وبين عامله الكتب عن مواقف أهل المدينة من البيعة.ولما تبين

له أن ثمة ممانعة ، حرص على المجىء بنفسه الى المدينة ، وهذا ماحدث فعلا سنة ٥٦ هـ عندما جاء معتمرا ، فقابل النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، فناقشهم وناقشوه طويلا(٩٢) ٠

اما الفقرة الرابعة ، فيقول فيها معاوية : ٠٠٠ وانظر اهل العراق، فان سالوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف ٠

رؤية او فلسفة من فلسفات التـــاريخ السياســية عميقة : أن تدع العاصفة تمر ، او كما عـــبر عنها معاوية نفســـه : طاطىء لها تمر فتجاوزك(٩٣) ٠ أجل لا تثريب من التراجع عندما يقتضى الأمر ذلك ، ولا غضاضة من مسايرة الأحداث بحسب الواقع والزمان ، ولقـــد كان معاوية رضى الله عنه سيد هذه المواقف ، اليس هو صاحب المبدأ السياسى المشهور بشعرة معاوية(٩٤) ؟ اوليس هو نفسه الذى قال فيه وفى حقه الصحابى الجليل عبد الله بن عباس : قد علمت بم غلب معاوية الناس ؟ كان اذا طاروا وقع واذا وقعوا طار(٩٥) ٠

فمعاوية هنا يريد من ابنه أن يسمح للعاصفة أن تمر مادام هنـــاك داعيا لها ٠ وملاحظة معاوية هذه لم تات من فراغ ، فمعاوية الخبـــير بأحوال العراق ، القطر الهائج المائج آنذاك ، كان يقرأ الأحداث بعين يقظة مفتوحة (٩٦ – ١٠٠) ٠

هذه هى النصيحة التى اراد معاوية أن يوجهها لابنه ولولى عهده يزيد ٠ اراد منه ان يكون سياسيا ماهرا لا يفلت الأمر من قبضته حتى لو استدعى الحال أن يعزل عن أهل العراق كل يوم عاملا – وذلك بعيد – فليفعل مادام الزمام بيديه ٠ ثم تعال فانظر هـــذه العبارة ذات المغزى السياسى العميق : ٠٠ فان عزل عامل احب الى من أن تشهر عليك مائة الف سيف ٠ حكمة بالغة ٠ أن تعزل عاملا هو بلاشك أمر قد يوجد حالة من الاستقواء عند اهل ذلك القطر ٠ فلربما رأوا فيه دليل ضعف النظام ولربما استمرؤا ذلك ، ولكن لأن الهدف اكبر والمضمن اعمق فلا ضير أن يلبى الحاكم الدعوة بعزل عامل(١٠١) أو عاملين أو ثلاثة ، بل حتى

كل يوم ـ وهو بعيد،وانما هو للمبالغة والتهويل ، اذا استدعى الأمر ذلك لئلا تعم الفوضى وتشيع البلبلة ، وترتفع سيوف وتعلو رماح · فالعزل قضية فردية ، أما الشغب ، وأما الفوضى فجماعية ، ومن هنا لا ضير من فعل ذلك تهدئة للأحوال وسدا للذرائع ·

واخيرا يبدو ان عبارة : ··· (مائة الف) هذه ، التى حملت صيغة مبالغة · يبدو أنها كانت شائعة آنذاك فى الشارع العام ·· نطالع سيرة الأحنف بن قيس التميمى ، وقد اشتهر بالحلم هو الآخـــر ، فنجد فى وصفه انه اذا غضب غضب له مائة الف لا يسالونه فيم غضب · ولعــل المفارقة هنا ان قائل هذه العبارة هو معاوية بن ابى سفيان ، وقد قالها لخاصته من كبار رجال الدولة لما سالوه عن هذا الرجـــل الذى يواجهه مواجهة شديدة ، فلا يملك معاوية الا أن يدع العاصـــفة تمر(١٠٢) ، أوليس هو الذى يقول : انى لا أحول بين الناس وألسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا(١٠٣) ·

ويقودنا تحليل الى الفقرة الخامسة ، التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : (··· وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان نابك شىء من عدوك ، فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم ، فانهم أن اقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم) · هنا رؤية سياسية ثانية يهديها الأب الى ابنه · على أننا قبل أن نتطـــرق اليهما ، نود الوقوف عند المعنى اللغوى لكلمتى : البطانة والعيبة ، فالبطانة : أصفياء الرجل يكشف لهم أسراره(١٠٤) أما العيبة : فهى من الرجل موضع سره، يقال فلان عيبة فلان : موضع سره(١٠٥) · اذن فالأب يطلب من ابنه أن يكون اعتماده على أهل الشام وحدهم ، لأنهم أثبتوا له طاعة عمياء ، وانقيادا تاما · ولقد ذهبت الأمثلة بطاعة أهل الشام لمعاوية مذ جاءهم عاملا على بعض الشام ، حتى غدا خليفة ، أمضى معهم نحوا من أربعين سنة ألقوا اليه بعصا الطاعة وخبرهم وخبر نفسياتهم وعرف مدى اخلاصهم له ولأسرته(١٠٦) · من هنا يؤكد على ابنه ان يجعل أهل الشام محل سره واهتمامه وأن يثق فى وقوفهم الى جانبه متى واجهه موقف ما · وليثق بأنهم سيلبون نداءه ، فليوجههم الى خصومه ، ثم عليه أن يعيدهم

شامهم حتى لا تتغير أخلاقهم . ولسنا ندرى هل هناك حالات فردية أو جماعية دلت على ذلك ، أم هو التخمين والحدس فقط ؟ نقول هذا لأننا لم نعثر على دليل تاريخى حدث فيه هذا الذى يخوف معاوية ابنه منه . ولكن ربما يكون الحس السياسى الرفيع عند معاوية هو الذى دفعه الى هذا .

وقبل ان نترك الحديث عن هذه الفقرة نريد القول بأنه بنهايتها ينتهى المتن الذى اختلف فيه نص عوانة عن نص أبى مخنف . وهنا نقف وقفة عند أبى مخنف لنتساءل : لم اهمل أبو مخنف الوصف الذى وصف به معاوية أهل الأمصار الثلاثة : الحجاز والعراق والشام ؟ أهى رغبته فى بث صورة منفرة لمعاوية تهيج النفوس ضده فعمد الى اظهار معاوية بمظهر العسوف المستبد ، ولذا اغفل هذه الرؤية السياسية الهادئة الصائبة ، وولج الى وصف معاوية للرجال الذين خالفوه ، ثم سمح لنفسه بالتزيد والتنقيص هناك ؟ لاندرى ولكننا نجد قرينة ربما توضح ذلك ، هى التى جاءت فى صدر الوصية - برواية أبى مخنف بالطبع - اى تلك المتعلقة بالعبارات التى صدر بها أبو مخنف الوصية التى ساقها ربما للتدليل على عسف معاوية - من وجهة نظره هو - وهى : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطات لك الاشياء ، وذللت لك الأعداء، واخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد .

ومع أننا لا ننكر أن فى بعض هذه الأسطر شىء كبير من الصحة ، الا ان اعتراضنا على اهمال ذلك النص واثبات هذه الأسطر وحدها.وننهى الحديث عن هذه الفقرة بالتذكير بأن هذه الأسطر السالفة هى التى خلا منها نص عوانة بن الحكم حسبما ألمحنا الى ذلك فى النقد .

ونسير مع الوصية فى فقرتها السادسة،وهى التى يقول فيها معاوية لابنه : ... وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد اللهبن عمر ، وعبد الله بن الزبير . الحقيقة ان هذه الفقرة لن تستوقفنا طويلا ، فلقد سبق لنا القول بأن هذه الفقرة ، هى فاتحة التشابه بين نص عوانة ونص أبى مخنف ، ثم تليها الفقرات الثلاث الأخريات . لكن مالم نذكره آنذاك هو ان الفقرات الأربع هذه ، وان

تشابهت فى النصين الا أن التشابه ليس متطابقا فيها جميعا ، اذ ثمة اختلاف يسير بين رواية عوانة وأبى مخنف . وهكذا فانه فيما يتصل بهذه الفقرة السادسة من نص عوانة نلاحظ أن ثمة اختلافا بينها وبين الفقرة المماثلة فى نص أبى مخنف.فابو مخنف يقول : .. وانى لاأتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا أربعة نفر من قريش : الحسين ابن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن ابى بكر . ففى الحين الذى جاء نص عوانة يقول : انى لست أخاف من قريش الا ثلاثة ، جاء نص أبى مخنف بزيادة انحصرت فى أمرين هما : الاشارة بالقول الى انه لا يتخوف أن ينازعه الأمر الذى استتب له ، ثم الاشارة الى أنهم أربعة نفر . ولقد اكدنا فى النقد أن الصواب أنهم ثلاثة لا اربعة كما زعم ابو مخنف .

ثم نتابع المسيرة نحو الفقرة السابعة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد،بعد ان ذكر له الثلاثة نفر الذين يخافهم :(..فأما ابن عمر ، فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك) . فى البدء لابد من الاشارة الى أن ثمة اختلافا يسيرا كذلك بين نص عوانة هذا ونص أبى مخنف . فأبو خنف يقول : (... فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، واذا لم يبق غيره بايعك) .

واذا تركنا هذا الاختلاف اليسير فلنمض فى تحليل فقرة عوانة : المعروف فعلا أن عبد الله بن عمر والحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر قد امتنعا عنالبيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية. ولئن غيب الموت عبد الرحمن بن أبى بكر قبل أن يصدر معاوية وصيته لابنه يزيد،فانه مازال يستشعر الخطر على ابنه من مواقف هؤلاء الثلاثة النفر من سادة الصحابة . على أنه يطمئن ابنه يزيد من ابن عمر الصحابى ابن الصحابى ، وهو الرجل الذى وقذه الدين،أى غلبه.وهذا هوالمعنى اللغوى لعبارة وقذه(١٠٧) الدين ، فلقد انصرف ابن عمر رضى الله عنهما الى الدين والعبادة بكليته ، وكثيرة هى المواقف التى وضح فيها زهده رضى الله عنه فى المناصب والسلطان(١٠٨) . ومعاوية بتفهمه لنفسيات الرجال ، ادرك أن ابن عمر الذى غلبه الدين والعبادة لن يكون

له خطر على يزيد ، وربما يريد الأب من ابنه أن يحرص على عـــدم استعداء هذا الرجل كبير الشأن عند المسلمين(١٠٩) ٠

وننتقل بعد هذا الى الفقرة الثامنة من نص عوانة التى يقول فيها: (واما الحسين بن على فانه رجل خفيف ، فارجو ان يكفيكه الله بمن قتل اباه وخذل اخاه ، وان له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ ولا أظن أن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فانى لو انى صاحبه عفوت عنه) ٠

لابد لنا من التذكير بأنه مع تشـــابه هـــذه الفقرة مع الفقـرة المماثلة من نص أبى مخنف الا أن ثمة اختلافا كذلك بينهما ، ففقرة أبى مخنف تقول : (٠٠ أما الحسين بن على فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه) ٠ يلاحظ هنا أنه مع التطابق فى ذكر حدس معاوية من تأثير أهل العراق فى الحســين فى موضوع الخـــروج ، فان هذا الحدس جاء فى صدر فقرة ابى مخنف ، فى حين جاء عند عوانة فى آخر الفقرة٠ هذا شىء،والشىءالآخر هو أن هناك تطابقا فىموضوعالرحم والحق العظيم للحسين ، وكذلك موضوع الصفح ٠ وتبقى بعد ذلك الاشارة الى الزيادة فى نص عوانة ، وهى المتمثلة فى قول معاوية عن الحسين (فانه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخـــذل أخاه) ، ثم زيادة جملتين وهما : ٠٠٠(وقرابة من محمد ﷺ)،وكذلك (فانى لو انى صاحبه عفوت عنه)٠هذا من ناحية الشكل ، فاذا دلفنا نحو تحليل فقرة عوانة، لرأينا معاوية يخوف ابنه يزيد من خروج الحسين بن على رضى الله عنهما عليه ، وما من شك أن الحسين رضى الله عنه لم يكن راضيا عن بيعة يزيد يبدو ذلك فى الموقف الذى وقفه هو وعبد اللـه بن عمر وعبد اللـه بن الزبير وعبد الرحمـــن بن ابى بكر من هـــذا الموضـــوع وجاهروا به معاوية(١١٠) ٠

ومعاوية هنا يمضى فيبين مخاوفه من أن الحسين رضى الله عنه ربما خالف يزيدا وخرج عليه٠ومع توقعه من ان شيئا من ذلك قد يحدث الا أنه يطمئن ابنه أن أهل العراق سوف لن يمضوا طويلا فى تاييدهم للحسين٠ ولقد ساق اليه موقفين سابقين لأهل العراق مع على بن أبى طالب والد

الحسين ، والحسن بن على أخـاه ، وكلاهما يوضح مواقف أهـــل العراق منهما(١١) • فمعاوية هنا يطمئن ابنه بانه حتى لو حــدث شىء من ذلك فلايجزع • لكن الأهم عند معاوية أن يرعى يزيد حق الحسين وصلته بالرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ، ثم يشدد عليه بأن يصفح لأنه لو حدث هذا فى أيامه هو ، فانه ســيبادر الى الصفح رعاية لحق الحسين ورحمه •

ونختم بالقول أن هذا ليس بمستغرب من معاوية ،فالرجل يعرف من هو الحسين بن على • ثم انه يرى - وهو السياسى المحنك - أن الحكمة كل الحكمة والحنكة كل الحنكة تكمن فى تجاوز الأمر • وياليت يزيد فعل هذا فى تلك الأحداث المعروفة المعلومة •

ونخلص الى الفقرة التاسعة والأخيرة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : ••• وأما ابن الزبير ، فانه خب وضب ، فاذا شخص لك فالبد له الا ان يلتمس منك صلحا فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت) •

قبل أن نمضى فى تحليل الفقرة لابد اقتضاء لما سرنا عليه - من ملاحظة الفروقات بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف •• ففقـــرة أبى مخنف تقول فى موضوع عبد الله بن الزبير : (•• واما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه اربا اربا) • نلاحظ هنا فرقا واضحا من حيث الشكل ومن حيث المضمون • واذا كنا قد فندنا هذه الفقرة مضمونا فى النقد فان مما لافائدة منه أن نبحث عن التشابه بين الفقرتين من حيث الشكل ، فالفرق بينهما جد واضح • على كل حال فلندع هذا ولنمض فى تحليل فقرة عوانة : فى البدء يصف معاوية لابنه يزيد ، عبد الله بن الزبير بالخب والضب • أما الخب فى اللغة فهو : خب خبا : خدع وغش ، فهو خب(١١٢) • واما الضب فان من معانيه : الحقـــد والغيظ الكامن فى الصدر ، ويقال رجل خب ضب : مراوغ خداع(١١٣) • واذا ما تركنا هذا المعنى اللغوى لكلمتى : الخب والضب الى التحليل ، لقلنا أنه سبق لمعاوية أن وصف عبد الله بن الزبير بهـــذا الوصف(١١٤) ، وكانه كان يتحسس أن ابن الزبير رضى الله عنه سيكون له موقف مشهود

من يزيد ، لذا طلب منه انه اذا شخص اليه ، أى خرج عليه كما يفهم من معنى الكلمة اللغوى(١١٥) فاليلبد له أى : فاليلصق به الصاقا شديدا ، وهو المعنى اللغوى لكلمة : لبد(١١٦) ٠

ان معاوية يحذر ابنه من ابن الزبير تحذيرا واضحا،فيدعوه الى عدم التهاون فى الأمر،اللهم الا أن يجنح الى الصلح ٠ فان فعل فليقبل منه ذلك وكأنه يشدد عليه فى هذا ، وهو ما تدل عليه عبارة : واحقن دماء قومك ما استطعت ٠ نعم هذا هو معاوية الذى نعرفه صاحب السياسة الهادئة وصاحب المواقف التى تتفاوت : رغبة ورهبة ، الميالة الى الاغضاء والتسامح ، هذا هو الدرس الذى يريد من ابنه أن يعيه ويحتذيه مذكرا اياه بضرورة الحرص على الدماء من أن تسفك بكل ما أوتى من ســعة صدر ورحابة فؤاد ٠ وشتان بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف القاسية الملتهبــة ٠



وبعد،فهذه هى وصية معاوية لابنه وولى عهده يزيد٠وقد أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلية ، ولعل القارىء يلحظ أننا سرنا بحذر شديد ـ وهذا ما نحسبه ان شاء الله ـ فى كل ما يتعلق بآراء الصحابة(١١٧)٠

الهــــوامش والتعليقات

(١) تشكل الوصايا - جمع وصية - محورا أو غرضا مهما من فنون الأدب ٠ وحسب القارىء أن يلقى نظرة فاحصة على المؤلفات التى عالجت قضايا الأدب وفنونه ليجد الوصايا تمثل مكانا رفيعا فى تلك المؤلفات وهى - أى الوصـــايا - بشـــتى نواحيها : الدينية والأسرية والسياسية ، تشكل هذا المحور ، أو اللـــون الأدبى ٠ ولعل تعريفها الاصطلاحى الأدبى يوحى بذلك ، فهى : قول يراد به الترغيب فيما ينفع وعما يضر ، وتكون لقوم معينين فى زمن معين كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو المـــوت ٠

انظر ابن منظور (ت٧١١هـ) : لسان العرب ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥م ، ١٥ مجلدا ، المجلد ١٥ ، ص ٣٩٤ ٠

(٢) يقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءا ثم مجلد للفهارس ، المجلد الرابع ، الجزء الثامن ، ص ١٦ - ١٧ ، ١٣٥ يقول : والسنة أن يقال لمعاوية رضى الله عنه : ملك ولا يقال له خليفة ٠

(٣) عن وصايا الخلفاء الراشدين لمن سيخلفهم ، انظر مثلا : رفيق العظـــم : كتاب أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة (سيرة الراشدين ومن اشتهر فى دولتهم) منشورات دار الرائد العربى ، بيروت ، ط ٦ ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ، مجلدان، ٤ أجزاء ، الجزء الأول : ص ١٣٥ ٠

(٤) نشرته دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، والجملة المستقاة من الكتاب وردت فى ص : ٢٨ ٠

(٥) ليس ذلك باطلاق - كما لاخفاء - فقد يحدث بالخليفة عارض من مرض أو موت ، أو يحدث فى الاسلام حدث يوجب خلعه أو عزله ٠

عن الخلافة وشروطها المعتبرة ، والصفات المعتبرة واجبة التوفر فى الخليفة ، انظر الماوردى (ت ٤٥٠هـ) : الاحكام السلطانية ، عنى بتصحيحه السيد محمـــد بدر الدين النعسانى الحلبى ، ط١ ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ، ص : ٦ - ٨ ، ١٧ ، ٢١ ،

(٦) يكفى أن نقف عند مؤرخ قديم واحد هو الذهبى وباحث محدث هو : محمـــد منير الغضبان الذى كتب كتابا بعنوان : معاوية بن أبى سفيان صحابى كبير وملك مجاهد ، سعى فيه الى أن يسير على منهج المحدثين فى نقد الرواية سندا ومتنا ٠

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، مجلد ٤ ، ج٨ ، ص : ٢١ ، ١١٨ ، ١٢٤ حيث التأكيد على ولايته لدمشق فقط ٠

(٨) ابن كثير : نفس المصدر والمجلد والجزء أعلاه ، ص : ١٢٤ ، حيث التأكيد على أنه تولى الشام كلها فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ٠

(٩) ابن كثير : نفسه ، ص : ٢١ حيث الاشارة الى أن توليه الخلافة سنة ٤١هـ، ص : ١٣٦ ، ١٤٣ حيث الاشارة الى وفاته سنة ٦٠هـ ٠

(١٠) لا تنفرد الوصية السياسية بهذه الخصيصة ، بل تشترك معها الوصية الشرعية فى ذلك ٠ ومن المعروف أن الوصية مشروعة ابتداء ، ومشروعة أكثر فاكثر عند الموت ٠ وهناك نصوص قرآنية ونبوية مليئة بهذا الندب الشرعى ٠

عن الوصية الشرعية ومشروعيتها وحكمتها وشروطها ، أنظر سـيد سابق : فقه السنة ، المجلد الثالث ، ص : ٤١٤ ـ ٤٢٢

(١١) توفى المنصور سنة ١٥٨هـ ، وهى السنة التى كان قد حج فيها ، وقـد استودع ابنه محمداً وصيته قبيل مغادرته العراق الى مكة ٠

عن هذه الوصية وظروف توجيهها ، أنظر الطبرى (ت : ٣١٠) : تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، منشورات دار التراث العربى ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء ، الجزء الثامن ، ص : ١٠٢ ـ ١٠٤ ٠

(١٢) عن هذه الوصية التى وجهها المنصور بن أبى عامر لابنه عبـد الملك ، أنظر ابن بسام الشنتريتى (ت : ٥٤٢هـ) : « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » تحقيق احسان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيـروت ط١ ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان ، القسم الرابع ، المجلد الأول، ص ٧٦ ـ ٧٨ ٠

(١٣) الضحاك بن قيس بن خالد الفهرى ٠ قال البخارى : له صحبة ، وكان ذا خاصة بالخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وتولى له ولاية بعض المـدن بالاضافة للشرطة ، قتل فى موقعة مرج راهط التى حدثت سنة ٦٤ أو ٦٥ للهجرة بين أنصار عبد الله بن الزبير وأنصار مروان بن الحكم ٠

راجع ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الثالث ، ص : ٤٧٩ ، كذلك راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ٢٤١ وما بعدها ٠

(١٤) مسلم بن عقبة بن رباح المرى (وعند ابن كثير : المزنى) أبو عقبة ، قائد من القادة القساة الفتاك فى عهد يزيد بن معاوية ، وكان مع معاوية من قبل فى معركة صفين ، عهد اليه يزيد بقيادة الجيش الأموى الذى وجهـه لأهـل المـدينة الذين خرجوا عليه ٠

انظر الزركلي : الاعلام ـ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠م ، ٨ مجلدات ، المجلد السابع ، ص : ٢٢٢ ٠

(١٥)انظر نص الوصية عند الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ ، حيث الاشارة الصريحة الى أن معاوية لما حضره الموت ، وجه وصيته لابنه يزيد ، الذي كان غائبا عن دمشق وقتها ٠

(١٦) أبو محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٨٦هـ ، عالم لغوي محدث فوق كونه مؤرخا ٠ له العديد من الكتب المهمة كعيون الأخبـــار ، والمعارف ، وأدب الكاتب ، ومشكل القرآن ، وكتاب مختلف الحديث ٠ ولقد ساور الشك مجموعة من القدامى والمؤرخين المحدثين : عربا وأجانب في نسبة كتاب الامامة والسياسة اليه نظرا لأنه لا يعقل أن يكتب هذا العالم المدافع عن السنة كتابا فيه تهجم وقدح في الصحابة رضي الله عنهم ، علاوة على وجود أخطاء تاريخية بينة فيه ، وانتهوا الى أن الكتاب منحول عليه ٠

انظر تفاصيل هذا الموضوع عند : عبد الحميد سندي الجندي : ابن قتيبة ـ العالم الناقد الأديب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي للتأليف والترجمة والطباعة والنشر تحت سلسلة أعلام العرب (رقم ٢٢) القاهرة ، ١٩٦٣م ص ١٦٩ ـ ١٧٢ ٠ وهذا الكتاب في الأصل رسالته للدكتوراه ٠ ثم انظـــر كذلك : عبد اللـــه عبد الرحيم عسيلان : كتاب الامامة والسياسة في ميزان التحقيق العلمي ، منشورات مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ٠ وانظر بعناية كذلك ص : ٢١ وما بعدها حيث الاشارة الى قرائن تفيد بأن المؤلف لهذا الكتاب ربما يكون رجـــلا أندلســـيا أو مغربيا ٠

(١٧) نستدرك هنا فنقول : نعم وجدت عند أبي حنيفة الدينوري ، صاحب الأخبار الطوال ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ الا أنه أوردها ـ أعني الوصية ـ متداخلة في نصيها ، أي نص أبي مخنف ، ونص عوانة بن الحكم مع اسقاط السند ٠

انظر الدينوري (ت ٢٨٢هـ) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ الادارة العامة للثقافة القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م ، ص : ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ٠

(١٨) انظر شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ـ دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الاسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣م جزءان ، الجزء الاول ، ص ٧٤ وما بعدها حيث الاشارة الى بدء التدوين

التاريخى ، ثم ص : ٢٠٢ وما بعدها حيث الاشارة الى الطبرى الذى عده المؤلف قمة من قمم التاريخ الحقيقى ٠

(١٩) يورد الذهبى فى سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ١٥٩ فى معرض سياق ترجمة معاوية رضى الله عنه ، نصا من ٣ أسطر ، عن وصية أخرى لمعاوية تختلف اختلافا كبيرا عن الوصية التى نعنيها بنصيها معا ، وذلك نقلا عن الواقدى ٠ ولكن هذه الوصية لم يشر اليها أحد من المؤرخين الكبار على خلاف الوصية التى أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلية التى أشار اليها عدد من كبار المؤرخين حسبما بينا فى المتن ٠ أخيرا يورد الذهبى فى نفس ترجمته لمعاوية ، ص : ١٦٠ نصا يفهم منه أن معاوية رفض أن يوصى ٠ وهذا خلاف المشهور ٠

(٢٠) الواقع اننا لسنا معنيين هنا مباشرة بالحديث عن عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد بالخلافة ، وهى القضية التى أفرزت مسألة ولاية العهد لأول مرة فى التاريخ الاسلامى ، كما أننا لسنا معنيين بمناقشة الاقوال التى دارت حول فعل معاوية رضى اللـــه عنه ، والموقف منه ٠ وللوقوف على هـــذه الأقوال يكفى أن نحيل القارىء الى كتـــاب : تحـــذير العبقرى من محاضرات الخضرى أو افادة الأخيار ببراءة الأبرار لمحمد العربى التبانى الذى نشرته دار الكتب العلمية ببيروت ط٢ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م فى جزئين ، الجزء الثانى ، ص : ١٨٩ ـ ٢٠٠ ٠

(٢١) تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ ٠

(٢٢) نفسه ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ٠

(٢٣) راجع تعريف الوصية فى الأدب ، قبل ، ص : ٣٩ ، حاشية (١) ٠

(٢٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، المجلد الأول ، الجزء الاول ص : ١٧١ ٠

(٢٥) رفيق العظم : أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة ، ج١ ، ص : ٨٣٥ ج٤ ، ص : ٤٧٩ ٠

(٢٦) ابن كثير : نفسه ، ص ٦٧ ٠

(٢٧) ابن كثير : نفسه ، ص : ١٨٢ ٠

(٢٨) عن الوضع والوضاعين ، وعن هذه المنهجية العلمية الاصيلة التى أهداها المسلمون الى مسيرة الحياة العلمية بخاصة ، والحضارية بعامة ، وما اقتضاه ذلك من نشأة علمى : مصطلح الحديث ، والجرح والتعديل ، انظر مثلا :

مصطفى السباعى : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ، منشورات المكتب الاسلامى ، بيروت ـ دمشق ٠ ط٤ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الفصول ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ص : ٧٥ ـ ١٣٢ ـ صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم

للملايين ، بيروت ، ط١٥ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٧٣ ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١٠ ، ١٩٦٩م ، ص ، ٢٠٨ ـ ٢١٩ ـ ٢٢١ ـ ٢٢٤ ٠

(٢٩) الدعوة الى اعادة صياغة التاريخ الاسلامي وفق قواعد المحدثين ـ ما امكن ذلك ـ انطلقت من فترة ليست طويلة من أناس عديدين ، ثم طرحت على هيئات وتنظيمات عالية اسلامية ٠

(٣٠) ساق ابن النديم (ت ٣٨٠هـ) : الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص : ١٣٦ ـ ١٣٧ ترجمة طويلة مسهبة لأبي مخنف ، اكتفينا منها فقط بما تم ايراده في المتن ٠

(٣١) هذا الباحث هو : يحيى بن ابراهيم بن علي اليحيى الذى أعد رسالته للماجستير بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة بعنوان : مرويات أبى مخنف في تاريخ الطبرى ـ عصر الخلافة الراشدة ـ دراسة نقدية ، وقد نشرت هذه الرسالة بهذا العنوان ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠هـ ٠

(٣٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ج٧ ٠ بتحقيق على أبى زيد ، ص : ٢٠١ ٠

(٣٣) الجزء العاشر بتحقيق محمد نعيم العرقسوس ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ ٠

(٣٤) ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) : تقريب التهذيب، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، جزءان ، دون سنة الطبع ، الجزء الأول ، ص ٥٢٤ ٠

(٣٥) ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) : الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ـ ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء ، الجزء السابع ، ص : ١٨٢ ٠

(٣٦) ابن عدى (ت ٣٦٥هـ) : الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء ، الجزء السادس ، ص : ٩٣ ٠

(٣٧) نفس الجزء والصفحة أعلاه

(٣٨) حققه على محمد البجاوى ، ونشرته دار المعرفة ببيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م فى ٤ أجزاء ، والعبارة المشار اليها فى المتن وردت فى الجزء الثالث ، ص : ٤٣٠ ٠

(٣٩) الجزء السابع ص : ٣٠١ ـ ٣٠٢ بتحقيق على أبى زيد ٠

(٤٠) البابة : الوجه ، وقد علق محقق الجزء السابع من سير أعلام النبلاء على أبى زيد فى الحاشية رقم ٢ ص : ٣٠٢ أن مراد الذهبى هنا أن أبا مخنف

مسار للثلاثة الذين ذكرهم فى ترجمته لأبى مخنف فى الضعف والمنزلة · وقد عاد المحقق فى تحقيق معنى البابة اللغوى لابن السكيت فى كتابه : اصلاح المنطق ·

(٤١) سيف بن عمر الضبى الأسدى ، ويقال التميمى البرجمى ، ويقال السعدى الكوفى ، مصنف الفتوح والردة (أى أخبار الردة) وغير ذلك ·

للمزيد من الترجمة له واقوال علماء الجرح والتعديل فيه ، أنظر الذهبى ، ميزان الاعتدال ، ج٢ ، ص : ٢٥٥ ·

(٤٢) عبد الله بن عياش الهمدانى ، توفى سنة ثمان وخمسين ومائة ، اخبارى صدوق كما قال الذهبى ، ميزان الاعتدال ، ج٢ ص : ٤٧٠ حيث نقلنا عنه ·

(٤٣) منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر المحمية ، ١٣٢١ هـ ، جزءان وبهامشه المسمى بيان موافقة صريح المعقول لصحيح النقل ، له نفسه أى لابن تيمية · والنص المنقول فى المتن ورد فى الجزء الأول ص : ١٣ ·

(٤٤) منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، ص : ١٧ وما بعدها ·

(٤٥) اسحاق بن بشر ، أبو حذيفة البخارى صاحب كتاب المبتدأ · توفى سنة ٢٠٦هـ ، كما يقول الذهبى فى ميزان الاعتدال ، ج١ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٦ حيث عقد له بجانب هذا التعريف ترجمة طويلة ـ الى حد ما ـ حشاها بعبارات علماء الجرح والتعديل ، مثل : تركوه أى علماء الجرح والتعديل ، وكذبوه ، وكذلك ضعيف···الخ

(٤٦) منشورات دار الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٠هـ ، ٧ أجزاء ، الجزء الرابع ص : ٣٨٦ ·

(٤٧) ص ١٣٤ ·

(٤٨) منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م منقحة ومصححة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ، ٢٠ جزءا ، مجلد ٨ ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٦ ـ ١٣٩ ·

(٤٩) الجزء السابع ، ص : ٢٠١ ·

(٥٠) حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار الكتب العلمية · بيروت ، دون سنة الطبع ـ ٤ أجزاء ، الجزء الأول ، ص : ١٧٦ ·

(٥١) منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ، ٤ مجلدات ، المجلد الأول ص : ٢٤٣ ·

(٥٢) الجزء السابع ص : ٢٠١ ·

(٥٣) الجزء الرابع ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ٠

(٥٤) الجزء العاشر ، ص : ١٠١ ـ ١٠٣ ٠

(٥٥) الجزء الثانى ، ص : ٥٢٤ ٠

(٥٦) راجع مقدمة ابن حجر فى كتابه تقريب التهذيب ، ج١ ، ص : ٣ ـ ٧ حيث الاشارة الى منهجه ٠

(٥٧) ص ٨٨ ؟ ٠

(٥٨) المرجع السابق ، ص : ١٤٠ ٠

(٥٩) راجع الحاشية ، ص ٤٩ ٠

(٦٠) المصدر السابق ، ص : ١٣٤ ٠

(٦١) المجلد الثامن ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٨ ٠

(٦٢) عن الاخباريين وميولهم والتدوين التاريخى وما نتج عنه من نشأة المدارس التاريخية ، راجع أحمد أمين : ضحى الاسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط ١٠ ، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء ، ج٢ ص : ٣٢٨ـ٣٤٢ ٠ شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون ، الجزء الأول ، الفصول ٥،٤،٣،٢ ولا سيما الفصل الخامس ، ص : ١٦٩ ـ ٢٠٠ ٠

(٦٣) المرجع السابق ، والجزء أعلاه ، ص : ١٨٠ ٠

(٦٤) كتب كثير من الباحثين المحدثين عن هذه العلاقة بين الأمويين وقبيلة كلب اليمنية منذ أن بدأت هذه العلاقة بزواج الخليفة الأموى المؤسس معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه من ميسون بنت بحدل الكلبية وهى أم ابنه يزيد ، وتكرست هذه العلاقة أكثر عندما وقفت اليمنية مع الأمويين فى معركة مرج راهط سنة ٦٥هـ ضد أنصار عبد الله بن الزبير القيسية ، وتتابعت مظاهر هذا الموقف المؤيد وبالتالى الاستفادة منه طوال العهد الأموى ، ولم تتغير مواقف الخلفاء الأمويين من اليمنية الا فى عهود بعض الخلفاء المتأخرين الذين ناصبوهم العداء وتحيزوا للقيسية ضد خصومهم ٠ ومن المعروف أن العصبية القبلية تعد أحد أسباب سقوط الدولة الأموية ٠

للاستزادة عن هذا الموضوع راجع مثلا ، محمد الطيب النجار : الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ، ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة ،ط٣ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص : ١٣٨ ـ ١٥٠ ، يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص : ١٨٤ ـ ١٩٢ ٠

(٦٥) أى أنصار عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، الذين روجوا لدعوته ، ثم أيدوا مواقفه سواء بالتأييد الحسى أو بالتأييد المعنوى عن طريق كتابة الروايات عن أحقيته بالخلافة ، راجع محمد الطيب النجار : المرجع السابق أعـــلاه ، ص : ٧٥ وما بعدها ، على حسن الخربوطلى : عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والأنباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص : ٢٥٨ وما بعدها حيث الاشارة الى التيار المؤيد لعبد الله بن الزبير رضى الله عنه من الأدباء وغيرهم ٠

(٦٦) حوارين : بالضم وتشديد الواو ، قرية من قرى حلب معروفة ، وحوارين: حصن من ناحية حمص ٠

ياقوت الحموى/معجم البلدان ، منشورات دار صادر بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص : ٣١٥ - ٣١٦ ٠ ويبدو أن حوارين الثانية ، أى الحصن الذى من ناحية حمص ، هو المقصود هنا ، على خلاف تلك القريبة من نواحى حلب البعيدة عن دمشق كثيرا ٠ وهى التى مات بها يزيد ٠

(٦٧) بجانب ما كتبه الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، ج٣ ، ص : ١٦١ - ١٦٢ فى ترجمته لمعاوية بن أبى سفيان من تأكيـــد على أن يزيدا كان خارج دمشـــق فى حوارين ، عاد فذكر الأمر نفسه فى الجزء الرابع ص : ١٣٦ فى ترجمته ليزيد بن معاوية ٠ وقد أكد على ذلك أيضا ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) : الكامل فى التاريخ ، عنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الكتاب العـــربى بيروت ط٢ ، ١٤٠٠/١٩٨٠م ١٠ أجزاء ، الجزء الثالث ، ص : ٢٦٠ حيث عبارات التأكيد التى ختمها بقوله : وهو الصحيح ، ثم أكد ابن كثير كذلك عليه - حسبما أكدنا فى المتن - فى المجلد الرابع ، الجزء الثامن من المصدر السابق ص : ١٤٣ ، وقال هو رأى الجمهور ٠

(٦٨) أنظر ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد ابراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبـــة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء الجزء الثالث ، ص : ٤٦٦ - ٤٦٩ ٠

ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الرابع : ص ٣٢٥ - ٣٢٨ ، وانظر كذلك ابن عبد البر (ت ٤٦٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص :٣٩٤٠

(٦٩) نفسه ، ص : ١١٥ ٠

(٧٠) ابن كثير : نفسه ، ص : ٧٩ ٠

(٧١) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، الجزء الثانى ، ص ٤٧١ - ٤٧٣ مع الحواشى ، ابن حجر : الاصابة ، القسم الرابع ، ص : ٣٢٨ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ٩٠ ٠

(٧٢) نفس المصدر أعلاه والجزء ص : ٤٧٢ - ٤٧٣ ٠

(٧٣) انظر ابن حجر : نفسه ، ص : ٣٢٨ ٠

(٧٤) ابن كثير ، نفسه ، ص : ٧٩ - ٨٠ ٠ وعنده أن عدد النفر الذين امتنعوا عن اعطاء البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية خمسة ، هم اولئك الذين ذكرناهم فى المتن ، اضافة الى عبد الله بن عباس ٠ وهذا خلاف المشهور والراجح عند المؤرخين من أنهم أربعة ٠

(٧٥) انظر ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد المجيد ومحمد على النجار : المعجم الوسيط ، اشراف عبد السلام هارون ، منشورات دار احياء التراث العربى ، المكتبة العلمية ، طهران، دون سنة للطبع،جزءان ، الجزء الأول ، ص ١٠٧٠

(٧٦) انظر النويرى : نهاية الأرب ، ج٩ ، ص : ٢٢٩ حيث الاشارة الى عادات وصفات الأسـود ٠

(٧٧) ابراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، ج١ ، ص : ٢٨٤ ٠

(٧٨) انظر النويرى : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص : ٢٧٩ حيث الاشارة الى صفات الثعالب ٠

(٧٩) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفس المعجم والجزء أعلاه ص : ١٢ ٠

(٨٠) حجر بن عدى بن معاوية بن جبلة الكندى ، يعرف بحجر بن الأدبر ، وحجر الخير ، اختلف فى صحبته ، والأشهر أنه صحابى ، كان من كبار أشياع الخليفة على بن أبى طالب ، قتل سنة ٥١ وقيل ٥٣هـ ، بأمر من معاوية ٠ ابن حجر ، نفسه ٠ القسم الثانى ، ص : ١٦٨ ٠

(٨١) مقتل حجر رضى الله عنه بأمر معاوية رضى الله عنه من القضايا التى يحسن بنا أن نمسك عنها ٠ ولقد لامت السيدة عائشة رضى الله عنها معاوية لفعله ذلك ، فوضح لها أنه رأى فى ذلك اصلاحا للأمة ٠ أنظر ابن كثير : نفسه ، ص :٥٥٠

(٨٢) راجع خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق اكرم ضياء العمرى ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ودمشق ، ط ٢ ، ١٣٩٧هـ/ ص : ٢١٥ وما بعدها واسنادها صحيح ٠

(٨٣) انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٨٥ ٠

(٨٤) راجع خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص : ٢١٧ ٠

(٨٥) كتب كثير من العلماء والمؤرخين الثقات عن فضـــــل ومكانة الصحابة رضوان الله عليهم وعن الموقف الذى يجب أن نقفه مما شجر بينهم من خلاف ، كانوا فيه بين مجتهد مصيب ، ومجتهد مخطىء متأول ، وقد ألفت فى ذلك بعض الكتب ٠

للوقوف على هذا الموضوع ، راجع محمد العربى التبانى : تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى ، ج١ ، ص : ٣٦ ـ ٤٣ ، ١٧٨ ـ ٢١٨ ، ج٢ ، ص : ٢٦ ـ ٢٨، ٥٦ ـ ٨٧ ، حيث فيه جمع أقوال علماء السلف فى ذلك ٠ وانظر كذلك محمد صامل السلمى : منهج كتابة التاريخ الاسلامى ص : ١٨٩ ـ ٣٦٩ ٠

(٨٦) ابن العربى (ت : ٥٤٣هـ) : العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ ، خرج أحاديث وعلق عليه محمود مهدى الاستانبولى ، حققه وكتب حواشيه محب الدين الخطيب ، ص : ١٣٩ حيث استلت هذه العبارة من تعليقه ـ أى محب الدين الخطيب ٠

(٨٧) نفسه ص : ١٤٣ ٠

(٨٨) من أشهر الوصايا فى هذا الصدد وصية عبد الملك بن مروان لابنائه ، عن هذه الوصية انظر ابن كثير ، نفسه ، ص : ٨٥ ٠

(٨٩) أنظر هذه الحالات والمواقف عند ابن كثير : نفسه ، ص : ٣٧ ، ٤٢ ، ٩٤ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ـ ١٣٨ ٠ وقد ألف أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد ابراهيم الشريف مؤلفا بعنوان : دور الحجاز السياسى فى القرنين الأول والثانى الهجريين ٠

(٩٠) انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٣٧ ـ ١٣٨ ٠

(٩١) كان ذلك فى سنة ٤٤هـ على الأرجح ٠ راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٣١ ـ ١٣٢ ٠

(٩٢) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢١٣ ـ ٢١٥ ٠

(٩٣) أنظر ابن كثير ، نفسه ص : ١٣٥ ٠

(٩٤) قال معاوية : ٠٠ لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل كيف يا أمير المؤمنين ، قال : كانوا اذا مدوها خليتها ، واذا خلوها مددتها ٠

راجع اليعقوبى ، (ت : ٢٨٤هـ) تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر ، بيروت مجلدان ، دون سنة للطبع ، المجلد الثانى ، ص ٢٣٨ ٠

(٩٥) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص : ١٥٤ ٠

(٩٦) أنظر أمثلة ذلك والتحقيق الأصولى الجيد فى توضيح أسباب ذلك لدى

محمد العربى التبانى ، المرجع السابق ، ج١ ، ص : ٢٠٤ ـ ٢٠٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ٠

(٩٧) أنظر محمد العربى التبانى : نفس المرجع السـابق ، ج٢ ص : ٢٠٥ وما بعدها حيث توسع فى هذا الجانب الذى عاد فيه الى عدد كبير من المصـادر والمراجع ذات الصلة ٠

(٩٨) أنظر الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، ج٣ ، ص : ١٢٤ ، ابن كثير : نفسه، ص : ١٢٩ ٠

(٩٩) راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٦ ، ١٣٥ ـ ١٣٧ ٠

(١٠٠) أنظر أمثلة هذا عند الذهبى : نفسه ، ج٣ ص : ١٣٢ ـ ١٣٣ ، ابن كثير نفسه ص : ١٢٦ ، ١٣٥ ـ١٢٧ ٠

(١٠١) انظر الذهبى ، نفسه ، ج٤ ، ص : ٩٥ حيث الاشارة الى عزل معاوية عامله على العراق عبيد الله بن زياد ، بطلب من أهل العراق ثم اعادته بعد ذلك ٠

(١٠٢) أنظر ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) « وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء ، ج٢ ، ص : ٥٠٠ ٠

(١٠٣) ابن كثير : نفسه ص : ١٣٩ ٠

(١٠٤) ابراهيم مصطفى وآخرون ، ج١ ، ص : ٦١ ٠

(١٠٥) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج٢ ، ص : ٦٤٥ ٠

(١٠٦) أنظر الذهبى : نفسه ، ج٣ ، ص : ١٢٨ ، ١٣٣ ـ ١٤١ ، ابن كثير ، نفسه ، ص : ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٨ ـ ١٢٩ ٠ وانظر فى هذا الصدد يوسـف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ص : ١٥٦ ـ ١٦٢ حيث تحليل سياسى واسع لمواقع بلاد الشام ونظرتها لمعاوية ٠

(١٠٧) أنظر ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج٢ ص : ١٦٠١ ٠

(١٠٨) نحيل القارىء الى ترجمة ابن عمر لدى الذهبى : نفسه ، ج٣ ، ص: ٢١٦ ، ٢١٩ ، ١٢٤ ، ٢٦٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ٠

(١٠٩) يقول الذهبى : نفسه ، ص : ٢٢١ نقلا عن الامام مالك بن أنس ان عبدالله ابن عمر رضى الله عنهما ظل اماما للناس يفتيهم مدة ستين سنة ٠

(١١٠) أنظر قبل ، ص : ٢٢ ـ ٢٤ مع الحواشى ٠

(١١١) الحقيقة أن الموقف الذى ذكره معاوية رضى الله عنه عن خذلان أهـل

العراق للحسن بن على رضى الله عنهما انما هو حقيقة فعلا ، وقد ذكرها المؤرخون ٠ ومعاوية يقصد هنا حادثة طعن أحد جنود معسكر الحسن له فى الجيش الذى جيشه للقاء معاوية بقيادة قيس بن سعد بن عبادة ، ولقد نهب معسكره كذلك ، وهى الحادثة التى أصابت الحسن رضى الله عنه بالمرارة من أهل العراق ٠

أنظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٤ ـ ١٥ ، ١٧ ٠

لكن الواقع ان الموقف الأول الذى عبر عنه معاوية رضى الله عنه بالقول ان أهل العراق قتلوا عليا بن أبى طالب ، يحتاج الى توقف ٠ فالمعلوم أن عليا رضى الله عنه قتل على يد أحد أشقياء الخوارج الذين كان رأيهم فى على ومعاوية رضى الله عنهما معا سيئا ٠

(١١٢) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج١ ص : ٢١٢ ٠

(١١٣) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج١ ، ص : ٥٣٤ ـ ٥٣٥ ٠

(١١٤) ابن كثير ، نفسه ، ص : ١٣٧ ٠

(١١٥) ابراهيم مصطفى : نفسه ، ج١ ، ص : ٤٧٨ ٠

(١١٦) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج٢ ، ص : ٨١٨ ٠

(١١٧) راجع محمد بن صامل السلمى : المرجع السابق ، ص : ٢٠٩ ـ ٢٢٣ ٠

قائمة المصادر والمراجع

اولا : المصـــادر :

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)

١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمـد ابراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء .

٢ - الكامل فى التاريخ ، على بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الـكتاب العـربى ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ١٠ أجزاء .

ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) :

٣ - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احســان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ . ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ٤ اقسام ويقع فى كل قسم مجلدان .

ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)

٤ - الرد على البكرى ، منشـــورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ .

٥ - منهاج السنة ، منشورات المطبعة الـكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، القاهرة ، ١٣٢١هـ جزءان وبهامشه الكتاب المسمى ببيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، له نفسه .

ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) :

٦ - كتاب الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء .

ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) :

٧ - الأصابة فى تمييز الصحابة ، حقق أصوله وضبط اعلامه ، ووضع

فهارسه على محمد البجاوى ، منشورات دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ٨ أقسام ٠

٨ - تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، دون سنة للطبع ، جزءان ٠

٩ - لسان الميزان ، منشورات دار الأعلمى للمطبوعات، بيروت ، ط٢ ١٣٩٠هـ ، ٧ أجزاء ٠

ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) :

١٠ - وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء ٠

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) :

١١ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق اكرم ضياء العمرى ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ، دمشـــق ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧م ٠

أبو داود السجستانى (ت٢٧٥هـ) :

١٢ - سنن أبى داود ، راجعه على عـــدة نسخ وضبط أحاديثه وعنق حواشيه محمد محى الدين عبد الحميد ، منشورات دار احيـــاء السنة النبوية ، القاهرة ، دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء ٠

الدينورى (ت ٢٨٢هـ) :

١٣ - الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى ، الادارة العامة للثقافة، القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م ٠

الذهبى (ت ٧٤٨هـ) :

١٤ - سير أعلام النبلاء ، أشرف على تحقيق الكتاب وخـــرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ٢٥ جزءا ٠

١٥ - العبر فى أخبار من غبر . حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨ذ/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات .

١٦ - ميزان الاعتدال ، حققه على محمد البجاوى ، نشرته دار المعرفة، بيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م ، ٤ أجزاء .

الطبرى (ت ٣١٠هـ) :

١٧ - تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، منشورات دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء.

ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) :

١٨ - الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ، منشورات دار الكتاب العربى، بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .

ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) :

١٩ - العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، تقديم ممدوح حقى ، منشورات دار الفكر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ٤ مجلدات ، ٨ أجزاء .

ابن عدوى (ت ٣٦٥ هـ) :

٢٠ - الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء .

ابن العربى (ت ٥٤٣هـ) :

٢١ - العواصم من القواصم ، خرج احاديثه وعلق عليه محمد مهدى الاستانبولى ، حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب ، منشورات مكتبة السنة ، القاهرة ، ط٥ ، ١٤٠٨هـ .

ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ) :

٢٢ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات .

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) :

٢٣ ـ البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءا ثم مجلد الفهارس .

الماوردى (ت ٤٥٠هـ) :

٢٤ ـ الأحكام السلطانية ، عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى ، ط١ ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م .

ابن منظور (ت ٧١١هـ) :

٢٥ ـ لسان العرب ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥م ، ١٥ مجلدا .

ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) :

٢٦ ـ الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

النويرى (ت ٧٣٣هـ)

٢٧ ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، سلسلة من تراثنا ، القاهرة ، ٣٠ جزءا .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) :

٢٨ ـ معجم الأدباء ، منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، منقحة ومصححة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ، ٢٠ جزءا .

٢٩ ـ معجم البلدان ، منشورات دار صادر ، ودار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء .

اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) :

٣٠ ـ تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، مجلدان .

ثانيا : المراجـــع :

ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ومحمد على النجار :

١ - المعجم الوسيط ، منشورات دار احياء التراث العـربى ، مجمع اللغة العربية ، المكتبة العلمية ، طهران ، دون ســنة للطبع ، جزءان .

أحمـــد أمين :

٢ - ضحى الاسلام : منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ط ١٠ ، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء .

٣ - فجر الاسلام ، منشورات دار الكتاب العـربى ، بيروت ط ١٠ ، ١٩٦٩م .

أحمد حســن الزيات :

٤ - تاريخ الأدب العربى ، منشورات دار نهضة مصر ، ط ٢٥ .

اكرم ضياء العمرى :

٥ - المجتمع المدنى فى عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الأولى - محاولة لتطبيق قواعد المحدثين فى نقـــد الروايات التاريخية ، منشورات المجلس العلمى لاحياء التراث الاســلامى بالجامعـــة الاسلامية بالمدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

رفيق العظم :

٦ - اشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة (ســيرة الخلفـــاء الراشدين ومن اشتهر فى دولتهم) منشورات دار الرائد العربى، ط٦ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مجلدان ، ٤ أجزاء .

الزركلى :

٧ - الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنســاء من العـــرب

والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ط٥ ، ١٩٨٠ ، ٨ مجلدات ٠

سيد سابق :

٨ - فقه السنة ، منشورات دار الفكر للطبـــاعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م ٣ مجلدات ٠

شاكر مصطفى :

٩ - التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣، ١٩٨٣ ، جزءآن

صبحى الصالح :

١٠ - علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم للملايين بيروت، ط ١٥ ، ١٩٨٤م ٠

عبد الله عبد الرحيم عسيلان :

١١ - كتاب الامامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ ٠

عبد الحميد سندى الجندى :

١٢ - ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى للتاليف والترجمة والطباعة والنشر تحت سلسلة أعلام العرب رقم (٢) القاهرة ١٩٦٣ م ٠

عبد الوهاب النجار :

١٣ - الخلفاء الراشدون ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م ٠

على حسنى الخربوطلى :

١٤ - عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتاليـف

والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ م ٠

محمد الزحيلـى :

١٥ ـ الامام الطبرى ، شيخ المفسرين ، وعمدة المؤرخين ، ومقـــدم الفقهاء والمحدثين ، صاحب المذهب الجريرى ، منشورات دار القلم ، دمشق تحت سلسلة أعلام المسلمين رقـــم (٣٣) ، ط ١ ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م ٠

محمد بن صامل العليانى السلمى :

١٦ ـ منهج كتابة التاريخ الاسلامى،منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ٠

محمد الطيب النجار :

١٧ ـ الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة ، ط٣ ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ٠

محمد العربى التبانى :

١٨ ـ تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى أو افادة الأخيار ببراءة الأبرار ، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ، ط ٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ٠ جزآن ٠

محمد منير الغضبان :

١٩ ـ معاوية بن أبى سفيان : صحابى كبير وملك مجاهد ، منشورات دار القلم ، دمشق ، بيروت سلسلة أعلام المسلمين ، رقم (٢١)، ط ١ ، ١٤٠٠/١٩٨٠م٠

مصطفى السباعى :

٢٠ ـ السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى، منشورات المكتبالاسلامى، بيروت ، دمشق ، ط ١٥ ، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م ٠

يحيى بن ابراهيم بن على اليحيى :

٢١ ـ مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى ـ عصر الخلافة الراشدة ـ دراسة نقدية ، منشورات دار العاصمة ، الـــرياض ، ط ١٠ ، ١٤١٠ هـ ٠

يوسف العش :

٢٢ ـ الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنـــة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ط٢ ، ١٩٨٥ ٠



أضواء على العلاقات بين الامارة الصفارية
والدولة العباسـية
فى القرن الثالث الهجرى

د٠ عبد العزيز عبد الله السالم(*)

المقــــدمة :

يتناول هذا البحث دراسة لطبيعة العــلاقات التى ربطت الامارة الصفارية بالدولة العباسية خلال القرن الثالث الهجرى ٠

اما عن امارة الصفارية فقد قامت فى اقليم او ناحية سجستان التى وصفها ياقوت بانها « ناحية كبيرة وولاية واسعة » من نواحى المشرق جنوبى هراة « كلها رملة سبخة والرياح فيها لا تسكن أبدا » ٠

وكانت مقاطعة « سجستان » تعيش فى ظـــروف صــعبة بسبب الاضطرابات السياسية والأمنية لأن بها « كثير من الخوارج ، يظهرون مذهبهم ولا يتحاشون منه » ، الأمر الذى جعل سيطرة الطاهريين تضعف امام حركاتهم ضد السلطات المحلية ٠ وفى تلك الظروف قامت الامارة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠هـ/٨٦٧ ـ ٩٠٣م) على انقاض الدولة الطاهرية٠ ذلك انه ظهرت حركة متطوعة برئاسة صــالح بن النضر الكنانى لاعادة الاستقرار السياسى والأمنى فى سجستان فانضم يعقوب بن الليث الصفار واخوه عمرو الى تلك الحركة وأخذ يعقوب رئاسة تلك الحركة بعد موت بن النضر الكنانى فاســتقل بولاية سجستان وبذلك ظهــر على مسرح الاحداث ، لا سيما بعد ان استطاع أن يغزو خراسان ٠

وكان ان ادت الجهود والخدمات التى قدمها الصــفاريون لولاية سجستان الى تدعيم مكانة الامارة الصفارية ، لأنها جاءت فى وقت كانت

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد ـ جامعة الملك عبد العزيز ٠

الخلافة العباسية تعانى من سيطرة الأتراك عليها، اضافة الى عجزها عن السيطرة على الثورات التى قام بها الخوارج فى سجستان ٠

ولم يلبث يعقوب بن الليث الصفار أن قام بمحاربة الأتراك الدرارى، وافشل جميع مخططاتهم وحال دون تحقيق أطماعهم ، كما تمكن من نشر الاسلام فى تلك البقاع ، الأمر الذى جعل عددا من ملوك المناطق المجاورة يعترفون بسلطته بل ويعقدون معه معاهدات صداقة وتحالف ٠ أما الخلافة العباسية فلم تعترض على هذه التطورات ، بل لقد رأت فى تلك الأعمال التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار حماية للدولة العباسية ٠ ذلك أن قيام ولاية أو امارة فى المشرق الاسلامى فى تلك الظروف العصيبة التى كانت تمر بها الدولة العباسية شكل درعا يقى الجناح الشرقى للخلافة من خطر الأتراك الذين اشتدت هجماتهم على بلاد الاسلام ٠

والواقع ان الامارة الصفارية كانت امارة عسكرية ، اذ أن الصفاريين فرضوا أنفسهم فى الحكم بقوة السلاح بل لقد انكروا عدة مرات سلطة الخليفة ٠ ولكنهم مع ذلك احسوا بانه من الضرورى لهم الحصول على تاييد الخليفة ليكسبوا سلطتهم صبغة شرعية ٠ وقد اضطر الخليفة المعتز بالله (٢٥١ - ٢٥٥هـ) ثم المهتدى بالله (٢٥٥ - ٢٥٦هـ) ثم المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) ثم المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) الى اقرارهم فى حكم ولاياتهم والاعتراف بسلطتهم ، وذلك دفعا لشرهم وحسما لمخالفتهم وحرصا على اتحاد وترابط دولة الاسلام واجتماع كلمة المسلمين ليكونوا يدا واحدة ٠

على ان علاقة الامارة الصفارية بالخلافة العباسية اتسمت بالشك وعدم الاطمئنان وانعدام ثقة كل طرف بالآخر ٠ ويبدو أن شخصية يعقوب واهدافه وخططه لم تتضح تماما للخلافة ٠ ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائما أبعاده عن فارس ، وانها لا تطمئن اليه ، وانها تشك فى نواياه ، اعتبر آل طاهر اصحاب النفوذ فى خراسان وفارس مسئولين عن ذلك ، فقضى على نفوذهم فى سنة ٢٥٩هـ ٠ لكن الخلافة اذاعت بين أهالى خراسان وجرجان والرى وطبرستان أن يعقوب خارج على سلطة الخلافة،

وعندئذ قرر يعقوب تحدى الخلافة العباسية عسكريا مما أجج الصدام بين الجانبين ٠

على أن يعقوب لم يلبث أن اتجه الى المجتمع فى « سجستان »، فاخذ يصلح أحواله حتى اشاع جوا من الاستقرار وأخذ يدعو الناس الى التمسك بالاسلام ، كما اتجه الى بلاد الترك المتاخمين لسجستان ودعاهم للاســلام ٠

ويبدو ان نشاة يعقوب فى سجستان بين الخوارج كانت من العوامل القوية التى جعلته يتاثر ببعض افكارهم السياسية ، ولــكن المصــادر التاريخية لم تبين مدى تأثر يعقوب بعقيدتهم ٠

والواقع ان معظم المصادر التاريخية المعاصرة التى سجلت احداث التاريخ العباسى فى عصر نفوذ الاتراك ابرزت جانبا كبيرا من النشاط السياسى والحربى للصفاريين ، فى حين أهملت الجوانب الحضارية التى ندمتها الامارة الصفارية ٠



وفى دراستنا لطبيعة العلاقات بين الامارة الصــفارية والدولة العباسية فى القرن الثالث الهجــرى لا نستطيع أن نطلق على « الامارة الصفارية » لقب دولة مثلما ذكر بعض المؤرخين ، لأن الدولة عبارة عن مجموعة كبيرة من الناس تعيش على قطعة ثابتة من الأرض ، ويقوم على تنظيم هذه الجماعة وادارة شئونها فى الداخل والخارج فى السلم والحرب هيئة حاكمة وفق تنظيم سياسى معين(١) ٠

ومن هذا التعريف يبدو انه لكى توجد الدولة يتعين أن تتوافر لها أركان ثلاثة : شعب ، وأرض ، وسلطة سياسية حاكمة ، فاذا توفر لأى مجتمع هذه العناصر الثلاثة فان هذا المجتمع يكون دولة ٠ وبعبــارة اخرى فان الدولة عبارة عن مجموعة من الناس تعيش حياة مستقرة دائمة على أرض ذات معالم وحدود واضحة معــلومة ، فى حين أن السلطة السياسية الحاكمة تمثل القيادة العليا المســتقلة فى تصريفها وادارتها

وعلاقاتها • واذا لم تتوفر للمجتمع هذه العناصر فانه لا يصح فى عـرف القانون الدولى ان نطلق عليه « دولة » •

وبالنسبة للامارة الصفارية فانها لم تضم شعبا مستقرا داخل حدود ثابتة ، وانما هى جموع قلقة فى عـالم مضطرب ، فى حين اعتمد الصفاريون على القوة العسكرية فى حكم ما وقع تحت أيديهم من بلدان الخلافة العباسية • وبعبارة أخرى فان الصفارين لم يحكموا أرضا ذات معالم وحدود واضحة باستثناء ـ سجستان ـ وانما حـكموا عدة اقاليم متداخلة ، حتى تقلص نفوذهم وانزوى فى جزء من سجستان •

وقد قامت الامارة الصفارية فى ولاية سجسـتان فى الوقت الذى ساءت الأوضاع الأمنية فى سامراء وبغداد بسبب الحـرب الأهلية بين المستعين والمعتز • ومن ناحية أخرى كانت الأوضاع الأمنية فى ولاية سجستان مضطربة منذ سنة ٢٤٣هـ بسبب فسـاد الخوارج فيها • أما مقاطعة «سجستان» فكانت تابعة لآل طاهر فى خراسان ، ولكن حكمهم كان مضطربا غير مستقر ، مما جعـل سجستان فى ذلك الدور مأوى للصوص وقطاع الطرق(٢) وكثيرا ما انضـم هؤلاء الى الخوارج فى ثوراتهم ضد الحكم المحلى ، الأمر الذى جعل سيطرة الطاهريين عليها تضعف أمام نفوذ الخوارج •

على ان أهل سجستان اتصفوا بعدة صفات كشدة الشكيمة وعـزة النفس ومواساة الضعيف والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(٣) • فلما رأوا ان الطاهريين عاجزون عن اقرار الأمن والنظام فى ولايتهم ، قرروا تكوين فرق عسكرية متطوعة ، تكون مهمتها الأولى اقـرار الأمن فى ولايتهم • وقد تزعم هذه الحركة رجل من قريش يعرف باسم : صالح بن النضر الكنانى(٤) • وكان أن انضم الى حـركة المتطـوعة كثير من المغامرين الذين نظروا اليها على أنها خير وسيلة للوصول الى مراكـز اجتماعية وسياسية مرموقة ، فضلا عن تحقيق مكاسب مادية • ومن أبرز هؤلاء المغامرين يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو • وكان يعقوب يمارس احدى الصناعات المحلية فى بلدته «قرنين» احدى مدن سجستان • ويبدو أنه اشتغل بالنحاس وغيره من المعادن الصفراء ، ومن مهنته هذه اشتق

لقبه . وكان يتقاضى من عمله خمسة عشر درهما فى الشهر ، الأمر الذى جعله شارد الذهن كثير التفكير والتأمل(٥) لأن مهنته هذه كانت لايمكن ان تحقق له مركزا اجتماعيا ذا قيمــــة فى مجتمعه ، كما انها لا تحقق طموحه وآماله العريضة . لذلك هجر مهنته(٦) وانضم هو وأخوته الى خاله كثير بن رفاق الذى تجمع حوله عدد من وجوه الخوارج ، فقاد ثورة ضد السلطة المحلية المتمثلة فى عمال آل طاهر ؛ ولكن هؤلاء قضوا على الثورة فى مهدها وتمكن آل الليث بزعامة أخوهم الأكبر يعقوب من الفرار الى بست احدى مدن سجستان الهامة(٧) .

وفى «بست» رأى يعقوب أن أفضل وسيلة للحصول على السلاح والخيل والمال هى قطع الطرق ، لأن الظروف التى كانت تعيشها سجستان فى تلك الفترة أتاحت لمن يمتلك تلك الأدوات أن يكون لنفســـه مركزا اجتماعيا وسياسيا مرموقا . لذلك جمع حوله عددا من المغامرين وكون منهم عصابة لقطع الطريق ونشط هو وأصحابه فى ذلك ، حتى اصبحت الطرق التى تربط كرمان بسجستان ، وفارس بسجستان ، غير مأمونة . ولما وصل اليهم خبر قـــدوم قافلة تجارية كبيرة من البصرة والأهواز فى طريقها الى اصفهان ، خرج اليها يعقوب ورجاله وترصدوا لهـــا وهاجموها ، واستولوا على الخيل والسلاح . وبهذه الطريقة حصـــل يعقوب على ما يحتاج اليه من المال والســـلاح لاستخدامه فى نشاطاته البعيدة المدى(٨) . ولم يلبث أن رجع يعقوب وأصحابه الى سجستان ، ومعهم اعداد كثيرة من الخيل والسلاح ، فاستقبلهم صـــالح بن النضر الكنانى(٩) ودعاهم للاشتراك معه فى المحافظة على الأمن والاستقرار فى ولايتهم ومطاردة الخوارج وغيرهم . وكان أن اظهر يعقوب بطولات نادرة فى مطاردة الخوارج ، والقضاء على كثير من زعمائهم المتطرفين ، وبذلك استطاعت حركة المتطـــوعة بزعامة الكنانى ومســـاعدة يعقوب الصفار ان توفر الأمن والاستقرار فى ولاية سجستان . وبعد ذلك كانت الخطوة التالية وهى أن هذه الجماعة أرادت ان تتوج انتصاراتها على الخوارج بالحصول على مكاسب سياسية ، فاعلن قائدها الخروج على طاعة بنى طاهر والتغلب على ولاية سجستان . ولكن طاهر بن عبد الله استطاع أن يقضى على حركة الكنانى سنة ٢٣٧(١٠) .

وفى سنة ٢٤٣هـ تزعم درهم بن الحسين حــركة المتطوعة حينما عبث الخوارج بامن واستقرار سجستان · وكان يعقوب هو الموجه لهذه الحركة لما تمتع به من شخصية قوية ومهارات قتالية ، ولما بذله من جهود كثيرة فى مطاردة الخوارج الذين رفضوا التعاون مع الحركة · وبعد أن ساد الأمن والاستقرار ولاية سجستان أعلنت الحركة زعامتها للبلاد ، ولكن أمير خراسان طاهر بن عبد الله استطاع أن يعمل الحيلة فى أبعاد درهم بن الحسين الى بغداد وتم ذلك حوالى سنة ٢٤٧هـ(١١) · وبذلك خلا الجو ليعقوب الصفار ، اذ أصبح قائدا عاما للحركة دون منافس · وعندما توفى طاهر بن عبد الله سنة ٢٤٨هـ استطاع يعقــوب أن يستقل بولاية سجستان فى الوقت الذى كان الوضع فى خراسان مضطربا بسبب حداثة سن محمد بن طاهر (٢٤٨هـ - ٢٥٩هـ) الذى أسندت اليه ولاية خراسان· هذا فضلا عن ضعف شخصيته وعدم مقدرته القيادية والادارية فقرر يعقوب سنة ٢٥٣هـ ان يغزو هران وبوشنج · وبعد معركة حربية جرت بينه وبين محمد بن أوس الانبارى عامل محمد بن طاهر استطاع يعقوب ضمهما اليه ، وقبض على عدد من بنى طاهر فى بوشنج فعظم أمره ، وهابه أمير خراسان وغيره من الحكام(١٢) ·

ولم تلبث ان استقرت الأحوال الأمنية والسياسية فى ولاية سجستان بفضل الجهود التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار الذى رأى أنه أحق بولاية سجستان من الطاهريين الذين بدت عليهم امارات الضعف والعجز· وكان أن أعلن نفسه حاكما عاما على ولاية سجستان دون أن يستند فى ذلك الى تقليد شرعى من الخليفة العباسى(١٣) صاحب السلطةالشرعية· وكانت الخلافة العباسية فى تلك الفترة تمر بظروف لا تمكنها من اقرار الوضع فى سجستان ، فتركت ليعقوب مهمة اقرار الأمن والنظام فيها ·



وفى الوقت الذى كانت الحكومة العباسية عاجزة عن اقرار الأمن والنظام فى عاصمتها والمدن المجاورة لها ، والذى كانت فيه الادارة الطاهرية فى خراسان تعانى الانحــلال والضعف ، أخــذ الخوارج يرفعون راية الثورة والعصــيان فى ســجستان ، مما شــجع رتبيل

سجستان(١٤) ، وغيره من ملوك وامراء الترك الدراري الذين كانت تربطهم بالدول الاسلامية عقود ومعاهدات ، على أن يعلنوا خروجهم وتمردهم على السيادة العربية الاسلامية ، ويمتنعوا عن دفع الخراج(١٥) ، بل انهم أخذوا يتهيئون لضرب الوجود الاسلامى فى سجستان ، واستعادة نفوذهم عليها ... وفى تلك الظروف وفى ذلك الدور ظهرت قوة الصفاريين على المسرح فى ولاية سجستان ليفسدوا مخططات الترك مما حال دون تحقيق أطماعهم . ذلك أن يعقوب بن الليث الصفار ما كاد ينجح فى تهدئة الأوضاع الداخلية فى سجستان ويقضى على شوكة الخوارج فيها حتى أخذ يستعد لاعداد جيش قوى لملاقاة رتبيل سجستان وغيره من ملوك وامراء الترك الدرارى بعد ان اتضح أن خطر أولئك الترك على أمن واستقرار الولاية صار اشد واقوى من خطر الخوارج عليها . وكان أن قاد يعقوب حملة عسكرية لدفع خطر الترك على أراضى الدولة الاسلامية فى سجستان ، حتى تمكن من قتل رتبيل سجستان وثلاثة من ملوك الترك ، كما استطاع أن يصل الى كابل ويفتح غزنة ، وأن ينشر الاسلام فى تلك البقاع ، مما جعل عددا من ملوك البلاد المجاورة يعترفون بسلطته(١٦) ، ويعقدون معه معاهدة سلام ، ومن هؤلاء ملك « المولتان » وملك « الرخج » وملك زابلستان ، وملك « السند ومكران »(١٧) . كما أرسل اليه ملك الهند وفدا تفاوض مع يعقوب(١٨) على جسر بسط .



أما عن علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية فى ذلك الدور ، فقد تأثرت بعدة مؤشرات اسهمت اسهاما كبيرا فى تكييف تلك العلاقة وتوجيهها ، ومن اهمها :

١ - الشك والحذر وعدم ثقة كل منهما بالآخر .

٢ - الاصلاح الديني والاجتماعى .

٣ - الفكر السياسى للخوارج واثره فى توجيه حركة الصفاريين.

٤ - الطبيعة العسكرية للامارة الصفارية واثرها فى نشاط الصفاريين .

يضاف الى هذه المؤثرات عوامل أخرى مساعدة كفقدان الأمن واضطراب الأحوال السياسية فى ولايات المشرق(١٩) ، وعجز الطاهريين عن اقرار الأمن والنظام فى ولاياتهم ، وضعف سلطة الخلافة العباسية، مما كان له اثر بارز فى رسم الخطوط العريضة للروابط والصلات التى كيفت علاقة الامارة الصفارية بدولة الخلافة العباسية . فعندما تتفق مصالحهما تتوافق العلاقات بينهما ،ولكن دون ان تصل الى درجة ثقة كل واحد منهما فى الطرف الآخر . وحين تتعارض مصالحهما تنفصم عرى الروابط والصلات بينهما ، وتسوء علاقة كل منهما بالآخر وتتصف بالتوتر والاضطراب .

أما بالنسبة للعامل الأول فيما يتعلق بتكييف العلاقات بين الصفاريين والخلافة العباسية فنجد أن يعقوب بن الليث أخذ يوجه نشاطه بتحريض من أهل سجستان الى بلاد الترك الدرارى المتاخمين لولاية سجستان، لأن خطرهم على سجستان كان كبيرا (٢٠) . ولكن يعقوب قاتل ملوك تلك البلاد حتى وصل الى غزنه وكابل ، ثم عاد الى سجستان وقد حمل معه بعض رؤوس الترك ، فزدات هيبته ، بعد أن غنم من بلاد الترك غنائم كثيرة(٢١) .وقد نظرت الخلافة العباسية الى هذه الأعمال بارتياح، ولذلك لم تعترض على أعماله . هذا بينما كان يعقوب يظهر التمسك بطاعة الخليفة المستعين بالله ، فلما تولى المعتز بالله الخلافة سنة ٢٥٢هـ ، كتب الى يعقوب بولاية سجستان(٢٢) . على أن علاقة الدولة العباسية لم تتوثق تماما بيعقوب لأن شخصيته وأهدافه وخططه لم تتضح للخلافة . وفى سنة ٢٥٣ هـ رأى يعقوب أن الأوضاع فى ولاية هرات وأعمالها قد ساءت واضطرب الأمن فيها ،فقرر ضمها اليه وقبض على عدد من الطاهريين . ولكن الخلافة العباسية تحركت عندئذ لأن يعقوب تعرض لأحد حلفائها المخلصين - محمد بن طاهر - فارسل الخليفة المعتز بالله الى يعقوب رسولا يحمل كتابا منه اليه يحذره من التعرض لعمل الطاهريين فى خراسان ويطلب منه فك أسرى الطاهريين . وفى سنة ٢٥٤هـ أرسل يعقوب الى الخليفة المعتز بالله يطلب ولاية كرمان،ويذكر عجز الطاهريين وعدم قدرتهم على ادارتها واستيفاء خراجها ، وتحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . وأعلن يعقوب ولاءه وطاعته للخليفة فاجابه

الى طلبه ، وقلده ولاية كرمان . وكان المعتز بالله يعلم أن يعقوب يظهر له طاعة لا حقيقة لها(٢٣) ، الا أن الظروف التى كانت تعيشها الخلافة فى العاصمة ، والظروف التى أحاطت بولايتى فارس وكرمان عندئذ ، دفعت الخليفة الى تقنيد يعقوب ولاية كرمان . ولم يكن ذلك ناتجا عن ثقة الخليفة فى يعقوب وفى ولائه اخلاصه للخلافة ، فاراد يعقـــوب أن يتقرب الى الخلافة لعله يزيل شكها فيه وعدم ثقتها به . لذلك أخذ يدعو للخليفة العباسى عندما استولى علىفارس ويتقرب منه.وحينما طلب منه على بن الحسين ابراز كتاب الخليفة اليه بولاية فارس رد عليه يعقوب قائلا : « فان البلد لأمير المؤمنين ، ونحن عبيده نتصرف بأمره فى أرضه وسلطانه وفى طاعة الله وطاعته »(٢٤) ، ثم أرسل الى الخليفة المعتز بالله هدية ثمينة(٢٥) وكتب اليه يعلن طاعته . ومع كل ذلك لم يكن الخليفة مطمئنا تماما الى عمل يعقوب وتصرفاته ، فحينما غادر يعقوب فارس أرسل الخليفة اليها عمالا(٢٦) . وفى سنة ٢٥٧هـ استولى يعقوب على فارس مرة أخرى . وفى هذه المرة أراد أن يتحدى سلطة الخلافة ، ولكن الخليفة العباسى الموفق بالله اتجه نحو تسوية الموقف بين الصفاريين والخلافة ، فاسند اليه بعض أعمال الولايات التى كان معظمها تحت يده كبلخ وطخارستان والسند وسجستان ، ليبعده عن فارس . ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائما أبعـــاده عن فارس ، وأنها لا تطمئن اليه ، واستمرت تشك فى نواياه وخططه ولا تثق فى ولائه وطاعته،أعتقد أن السبب فى ذلك هم آل طاهر أصحاب النفوذ فى خراسان وبغـــداد وفارس ، فأراد أن يصفى حسابه مع آل طاهر لعله يحظى بثقة الخلافة . وكان أن استولى على خراسان ، وقضى على نفوذ الطاهريين بها فى سنة ٢٥٨هـ، ولكن الخلافة ماكانت لتستبدل الطاهريين بالصفاريين،فازداد شكها فى الصفاريين واصدرت أمرها الى عاملها على بغداد بأن يجمع حجاج خراسان وجرجان وطبرستان والرى ويعلمهم بأن الخليفة لم يول يعقوبا أيا من تلك الولايات ، وانه من المخالفين الخارجين على سلطة الخلافة . فلما أيقن يعقوب أن الخلافة لم تغير موقفها منه وان ثقتها فيه انهارت قرر أن يلتحم معها عسكريا(٢٧) ، وتم ذلك فى دير العاقول ٢٦٢هـ . وكان هذا اللقاء العسكرى بين يعقوب وقوات الخلافة العباسية يمثل قمة انعدام ثقة كل طرف فى الآخر .

وعلى الرغم من أن عمرو بن الليث الذى خلف أخاه على الامارة كان اكثر مرونة وتعاونا وتقربا الى الخلافة، الا أن الخلافة العباسية كانت تسند اليه ولاية الاعمال وترسل اليه التقاليد مداراة له ودفعا لخطره ، لا ثقة فى ولائه وطاعته لبنى العباس . وكانت الخلافة تتحين الفرص للقضاء على عمرو ونفوذه ، حتى أتيحت الفرصة للمعتضد بالله سـنة ٢٨٧هـ فاستعان بالسامانيين فى تنفيذ سياسته .

وقد أعلن يعقوب عـدم ثقته وكرهه للعباسيين حيث قال : « ان العباسيين قد ثبتوا حكمهم على الحيلة والخديعة. ألم تشاهد ما عملوه مع ابى سلمة وابى مسلم وعائلة البرامكة على الرغم من كل ما قدمه هؤلاء الرجال للدولة العباسية ، فلا تدع أحدا يثق فيهم أبدا »(٢٨) .

وقد ادخل الصفاريون تقليدا جديدا على علاقة الامراء المستقلين بالخلافة العباسية، فاحتفظوا لأنفسهم بما جمعوه من خراج مناطقهم ، ولم يرسلوا منه شيئا الى بيت المال ببغداد ، واقتصروا على ارسال الهدايا. وكان يعقوب أول من أدخل اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة ، هذا فى حين كان عمرو اول من نقش اسمه على الدنانير . كذلك كان الصفاريون أول من هاجم سلطة العباسـيين فى فارس ، وحاولوا انقاص سلطتهم الدنيوية الى أدنى حد(٢٩) .

أما عن العامل الثانى الذين أثر فى تكييف العلاقة بين الصفاريين والعباسيين، فانه من الملاحظ أن يعقوب بن الليث الصفار تأثر فى اصلاحاته الدينية والاجتماعية بفلسفة حركة المتطوعة ، فانضم الى حركة المتطوعة واصبح أحد أعضائها النشيطين، حتى استطاع بقوة شخصيته(٣٠) وتأثيره وحسن معاملته لاتباعه وأصحابه أن يتزعم الحركة(٣١) . ذلك انه أخذ يتقرب الى افرادها حتى اسـتحوذ على قلوبهم فأطاعـوه طاعـة مطلقة(٣٢) . فلما قضى على كثير من زعماء الخوارج المتطرفين الذين رفضوا التعاون معه ، وأقر الأمن والنظام فى سجستان ، اتجه الى المجتمع فى سجستان فأخذ يصلح أحواله ويقضى على المفاسد فيه . وكان يأخـذ بعضا من أموال الأغنياء فيوزعها على الفقراء والضعفاء ، واظهر الأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر ، فازدادت محبة الناس له(٣٣) . وقد اظهر يعقوب لأصحابه وخاصة العلماء منهم أن الخليفة قد ولاه سجستان وأمره بقتال الخوارج ، لئلا يظهر فى نظرهم بمظهر العاصي الخارج على سلطة الخلافة . وبعد أن استقر الوضع في سجستان وصلحت أحوال المجتمع فيها اتجه الى بلاد الترك المتاخمين لسجستان فاخذ يدعوهم للاسلام ليظهر امام اتباعه واعدائه على حد سواء بمظهر المجاهد فى سبيل الله . وبعد أن رجع الى سجستان قصد بعض املاك الطاهريين فى هرات وبوشنج فضمهما اليه مظهرا أن الدافع من وراء ذلك هو عجز الطاهريين عن تحقيق الأمن والاستقرار للأهالي . ثم اتجه الى املاك الطاهريين فى كرمان واملاك الدولة العباسية فى فارس متخذا من عجز الطاهريين وفساد الادارة وفقدان الأمن وفساد الاكراد فى كرمان حجة لبسط نفوذه(٣٤) . وكانت الخلافة العباسية جتى نهاية عصر المهتدى بالله (٢٥٦هـ) لا ترى فى حركة يعقوب التي اظهرها بمظهر الاصلاح الاجتماعي والديني خطرا يهدد أمنها واستقرارها ، بل لقد رات فيها محاولة لتوطيد الأمن فى فارس وكرمان ؛ ولكن سياسة الخلافة العباسية تجاه يعقوب تغيرت حينما تقلد الخلافة المعتمد على الله ٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ اد أصدر المعتمد الى محمد بن طاهر منشورا بولاية خراسان وسجستان ، وبهذا لم يعترف المعتمدبولاية يعقوب على سجستان(٣٥) .

أما العامل الثالث فى تكييف علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية ، فهو الفكر السياسى للخوارج وأثره فى توجيه حركة الصفاريين ذلك أن يعقوب لم يكن ذا عقيدة خاصة كما صوره بعض المؤرخين ، وانما كان رجلا عاديا اظهر الدفاع عن الاسلام ، ولكنه كان ذا طموح سياسى دفعه الى ان يتعاون مع الخوارج ليستقوي بهم على الخلافة(٣٦) وكانت نشاته فى سجستان بين الخوارج من العوامل القوية التى جعلته يتأثر ببعض أفكارهم السياسية ، كما جعلته يتقرب الى الخوارج ويستميلهم ، وخاصة الذين اظهروا المرونة وقبلوا التعاون معه . ومن المعروف أن الخوارج كانوا يتمتعون بكفاءة عسكرية ممتازة(٣٧) .

وعلى الرغم من أن يعقوب الصفار تعاون مع الخوارج واستفاد من

حركتهم الا ان المصادر التاريخية التى بين أيدينا لم تبين مـدى تاثر يعقوب بعقيدة الخوارج ومذهبهم . ويبدو ان المصـادر التاريخية التى نعتت يعقوب بأنه خارجى(٣٨) قصدت من اللفظ معناه السياسى ، ولم تقصد معناه المذهبى والفكرى . ذلك أن يعقوب عاش حياة فيها نوع من الزهـد والتقشف ، وكان لا يكشـف لأصحـابه عن آرائه وافكاره واسراره(٣٩) . على ان نشاة يعقوب الصفار فى بيئة سجستان التى كان للخوارج فيها صولة وجولة ، وكانوا فيها من الكثرة والقوة مما جعلهم يتفاخرون بمذهبهم عند البيع والشراء(٤٠) ، كل ذلك جعـل يعقوب يتأثر بفكرهم السياسى.وكان لهذا التاثر أثره فى علاقته مع دولة الخلـ العباسية ، الأمر الذى يتضح لنا فى ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : كان سنة ٢٥٤هـ حينما اتجه يعقوب بجيشـه الى فارس ليستولى عليها ويضمها الى ولايته ، فلما طلب منه على بن الحسين بن قريش والى فارس - فى عهد الخليفة المعتز بالله - ان كان معه عهد من الخليفة ان يبرزه له ، رد عليه يعقوب بأن معـه عهدا من الخليفة لا يستطيع أن يبرزه الا بعد أن يدخل البلد . فلما قبض يعقـوب على على بن الحسين ودخل شيراز أخرج سيفا وقال : هذا عهدى(٤١)

وكان الموقف الثانى : حينما دخل يعقوب الصفار نيسابور فى شوال من عام ٢٥٩هـ وقبض على محمد بن طاهر ، اخذ علماء ووجهاء واعيان المدينة يتناجون فيما بينهم وكل يسال صاحبه : امعه عهـد وتقليد من الخليفة ؟ فلما علم بما يتهامسون به أمر جنوده بان يطوفوا فى المدينة يدعون الناس وخاصة العلماء واعيان نيسابور حتى يعرض عليهم منشور الخليفة ، فلما اجتمعوا عنده التفت يعقوب الى حاجبه وقال له : « احضر منشور أمير المؤمنين حتى اقراه عليهم ، فوضع الحاجب أمامه سـيفا براقا فقال يعقوب : هذا هو منشور الخليفة . ان هذا السيف هو الذى اعطانى خراسان ، وبذلك فانا والخليفة سيان فى الحجة(٤٢) .

وأما الموقف الثالث : فكان حينما انهزم يعقوب بن الليث الصفار أمام جيش الخلافة العباسية بقيادة المعتمد على الله سنة ٢٦٢هـ اذ اتجه

الى جند يسابور وأقام هناك يعالج جراحه • وفى تلك الأثناء أراد الموفق بالله أن يستغل هزيمة يعقوب لكى يتفرغ لحرب الزنج ، فارسل اليـــه رسولا يحمل تقليدا ليعقوب بعمل بعض الولايات البعيدة عن العراق • فلما وصل رسول الخليفة الى جند يسابور سنة ٢٦٥هـ كان يعقوب على فراش الموت وبجانبه سيفه فقال يعقوب لرسول الخليفة : قل للخليفة اننى عليل فان مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وان عوفيت فليس بينى وبينك الا هذا السيف(٤٣) •

وجملة القول انه كان لبيئة سجستان التى عاش فيها آل الصفار ، ولتعاونهم مع الخوارج وتعاون الخوارج معهم دور كبير فى تاثر يعقوب بالفكر السياسى للخوارج،مما ادى الى توتر العلاقة بين الامارة الصفارية ودولة الخلافة العباسية ، وجعل تلك الامارة تحتكم فى كثير من المواقف الى السيف والقوة، مثلما كان يفعل الخوارج حينما يصطدمون عسكريا بالخلافة العباسية •

أما العامل الرابع فهو الطبيعة العسكرية للامارة الصفارية : ذلك أن الامارة الصفارية فى سجستان وصفت بأنها كانت امارة عسكرية ، وكان يعقوب وأخوه عمرو جنديين عبقريين(٤٤) يتمتعان بكثير من الصفات القيادية والعسكرية ، كما كان ليعقوب منهج خاص فى تنظيم جيشـــه وتزويده بالعناصر الجديدة واعداده وتهيئته للقتال(٤٥) •

وكان معظم جند جيشيعقوب من أهالى سجستان وهى منطقة سهلية رملية تقل فيها الجبال وذات مناخ حار(٤٦)، مما جعل يعقوب لا يحقق مكاسب استراتيجية ثابتة فى منطقة الترك الدرارى ذات الجبال الوعرة والمناخ البارد الذى لم يالفه رجال جيشه الذين اعتادوا الهواء الحار وخفة الحركة وقلة المؤنة(٤٧) • لذلك نلاحظ ان الامارة الصفارية اتجهت فى توسعها الى المنطقة الجنوبية لسجستان وهى فارس وكرمان والى المنطقة الغربية لها وهى خراسان(٤٨) ، مما جعلها فى صراع مستمر مع الخلافة العباسية • وكان لذلك اثره القوى فى توتر العلاقة مع العباسيين •

ومن ناحية أخرى فقد كان يعقوب وعمرو يريان دائما ان قوتهما

رجع لسبب عسكرى بحت ، لا لأية اعتبارات أخرى . وهذا يؤكد سيطرة الروح العسكرية على الامارة الصفارية ،مماجعل علاقتها بالخلافة العباسية علاقة متذبذبة مضطربة لا تستقر على قرار . وعلى كل حال فان شهرة يعقوب وأخيه عمرو تعود الى شجاعتهما ومقدرتهما السياسية والعسكرية ، لا الى ثقافتهما ودعمهما وتشجيعهما للحـــركة العلميـــة والأدبية فى سجستان . أما الذين كتبوا عن الامارة الصفارية فكانوا غالبـــا من الفرس(٤٩) الذين اندفعوا وراء العاطفة فجعلوا يعقوب وأخاه بطلين قوميين بعثا مجد فارس القديم ، فنسبوا اليهما أمورا كثيرة تتعلق بالعناية بأمجاد فارس وتاريخها وتراثها وادبها . وهناك طائفة أخرى تحدثت عن الصفاريين من خلال نشاطهم السياسى ومعاركهم العســكرية دون أن تتعرض لما خلفوه من تراث حضارى فلم تذكر جانبا من نشاطهم العلمى ، او طرفا من دورهم فى ازدهار المشرق وحضارته . ولعل السبب فى اغفال المصادر التاريخية للجوانب العلمية والأدبية التى أسهم فيها الصفاريون ابان امارتهم على سجستان وغيرها من ولايات المشرق ، يعود الى توتر علاقة الصفاريين بالحكومة العباسية ،والتى اتخذت طابع المواجهة الحربية بينهما حين اعلن يعقوب الحرب ضد الخليفة المعتمد على الله ، وأعلن اخوه عمرو الذى أعقبه على الامارة عدة مرات تمرده وعصـــيانه على الخليفتين المعتمد على الله والمعتضد بالله ، مما جعل المصادر التاريخية التى سجلت أحداث التاريخ العباسى فى عصر نفوذ الأتراك تبرز جانبا كبيرا من النشاط السياسى والمعارك الحربية للصفاريين ،دون ذكر الجوانب الحضارية التى أسهموا فيها والتي سارت جنبا الي جنب مع نشاطهم السياسى(٥٠) . وهكذا صار من الصـــعب ابراز دور الامارة الصفارية احدى الامارات الاسلامية التى حكمت المشرق فى العصر العباسى فى تقدم ولاية المشرق وازدهارها الحضارى فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، بسبب اغفال المصادر التاريخية نشاط الصفاريين الثقافى ومساهمتهم فى حضارة المشرق ، وبسبب حماس واندفاع المؤلفين الفرس الذين نظـــروا الى الامارة الصفارية نظرة قومية عاطفية فقالوا : ان نهضه امارة المشرق الأدبية خاصة فى القرن الثالث الهجرى تدين لهم وخاصـــة فيما يتعلق بالعناية باللغة الفارسية وآدابها .

وللحقيقة والتاريخ نقول ان الحركة العلميـــة والأدبية فى ولاية سجستان ، وخاصة فى مدينتى "زرنج" و "بست" شهدت ازدهارا ونشاطا ملحوظا فى الفترة التى تعاقب فيها على الامارة الصفارية يعقوب بن الليث واخوه عمرو ، وذلك لاستتباب الأمن واستقرار الأوضاع فيهـا ، وللرخاء الاقتصادى الذى عاشته الولاية فى عهديهما ، فقـــد تخرج من « بست » فى تلك الفترة علماء كثيرون فى الفقه والتفسير والأدب واللغة منهم الخطابى أبو سليمان احمد بن محمد البستى صاحب معالم السنن وغريب الحديث(٥١) .

ولكن على الرغم مما شهدته ولاية سجستان فى عصرى يعقوب وعمرو من نشاط فى الحركة العلمية والأدبية الا أن المصادر التاريخية ، وكتب الأدب لم تسجل لنا صورة أو حدثا تاريخيا يمكن الاستفادة منه فى بيان دور آل الصفار فى دعم وتشجيع الحركة العلمية فى سجستان وخراسان. اللهم الا ما يذكره المسعودى عن احسان يعقوب ، وبره لاتباعه وجنده دون تمييز ، وما يذكره أيضا عن طـــريقته ومنهجه فى استقبال الوفـــود والرؤساء(٥٢) . كذلك يذكر ابن خلكان أن عمرا انتهج سياسة ونظما ادارية فى حكمه لخراسان تعد فريدة فى ذاتها(٥٣) . والامارة الصفرية ـ كما ذكرنا ـ وان كانت السمة العامة لها أنها امارة عسكرية فى خططها وثقافتها ، الا أن الباحث المتحرى للحقيقة لا يستطيع أن ينكر أن يعقوب وأخاه عمرو بذلا جهودا واعمالا أسهمت فى الازدهار الحضارى لولاية المشرق .

وكانت عناية الصفاريين بالآداب الفارسية على ما يبدو أكثر من عناية الطاهريين ، لأنـــه لم يكن لطاهـــر وبنيه دراية تامة باللغـــة الفارسية(٥٤) ، بينما ولد يعقوب وأخوه عمرو فى ولاية سجستان ، أى مركز انتشار اللغة الفارسية . ويذكر باريزى : ان يعقوب لم يكن له علم باللغة العربية . وينبغى أن ندرك أن رأى باريزى وغـــيره من المؤلفين الفرس القائل بأن اللغة العربية لم تنتشر فى سجستان فى ذلك الوقت أمر مجاف للحقيقة ، فقد انتشرت اللغة العربية فى مدن سجستان الهامة مثل "بست" و "زرنج" وتخرج فى بست عدد من علماء اللغة العربية ،

ولا أدل على انتشار اللغة العربية فى زرنج قاعدة الولاية من كون خطبة الجمعة بها كانت باللغة العربية - وصفوة القول أنه يمكن ابراز مجهود الامارة الصفارية ودورها فى حضارة المشرق فى عدة جوانب تشمل النقاط التـالية :

(أ) اقرار الأمن والنظام فى سجستان ، وبذلك توافر للحـــركة العلمية جو علمى بعيد عن الفوضى والاضطراب ٠

(ب) العناية بالمنشآت العمرانية وخاصة بناء المساجد واقامة بعض المبانى للادارات والأجهزة الحكومية فى نيسابور واقامة بعض الأسواق فى زرنج(٥٥) ٠

(جـ) الاهتمام بالصحة العامة والرعاية الصحية وتشجيع الحركة الطبية فى سجستان ٠ ويتضح ذلك من أن عمرو بن الليث أوقف جزءا من دخل السوق الذى بناه فى زرنج ليصرف على البيمارستانات(٥٦) فيها وبذلك صار للبيمارستانات دخل منتظم ساعدها على أداء رسالتها وعلى نشر الوعى الصحى بين الناس ٠

الهـــــوامش

(١) د٠ محمد عبد القادر ابو فارس : النظام السياسى فى الاسلام ، ص١٣١٠
د٠ فتحى عبد الكريم : الدولة والسيادة فى الفقه الاسلامى ، ص ١٥١ ٠

(٢) يراجع فى ذلك ابن منظور : لسان العرب ، وكذلك حاشية جيش الصفاريين بقلم : قحطان عبد الستار الحديثى ، ص ٢٣٨ ٠

(٣) القزوينى : اثار البلاد واخبار العباد ، ص ٢٠٢ ٠

(٤) سى ٠ أى ٠ بوزورث : جيش الصفاريين ترجمة : د٠ عبد الجبار ناجى ، ص ١٩٦ ٠

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ ص ٤٣٠ ٠

(٦) الحموى : معجم البلدان ج٤ ص ٣٣٣ ٠

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٦ ص ٤٠٢ ٠
والحديثى : وفيات الاعيان ج٦ ، ص ٤٠٢ ٠

(٨) ف٠بارتولد : تاريخ الدولة الصفارية ٠
ترجمة : د٠ منذر البكر : مقالة فى مجلة المربد كلية الآداب بجامعة البصرة ـ السنة الثانية ٠

(٩) يراجع فى ذلك ٠ سيى٠اى٠بوزوت : جيش الصفاريين ٠
ترجمة : د٠ عبد الجبار ناجى ، ص/ط ٠

(١٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٢٩١ ٠
وابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤١٦ ٠

(١١) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٢ ٠

(١٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٣٣٨ ٠

(١٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص٢٩١ ٠

(١٤) السمعانى : الانساب ، ج٧ ، ص ١٣ ٠

(١٥) الشلقانى : الرواية فيما وراء العراق ، ص ٢٥ ٠

(١٦) بارتولد : تركستان ، ص ٣١٩ ٠

(١٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٤ ٠

(١٨) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٠ ٠

(١٩) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢٧٠ ٠

(٢٠) النرشخى : تاريخ بخارى ، ص ١٠٨ ٠

(٢١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٣ ٠

(٢٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص ٢٩٤ ٠

(٢٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج١١ ، ص ١٥٩ ٠

(١٤) ابن خلكان : ج٦ ، ص ٤٠٨ ٠

(٢٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٢٤١ ٠

(٢٦) باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٤٨ ٠

(٢٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٣٦٣ ٠

(٢٨) سى٠ى٠بوزورث : جيش الصفاريين ، ص ١٩٠ ٠

(٢٩) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٢ ٠

(٣٠) ابن الاثير : الكامل ، ج٥ ، ص ٣٣٨ ٠

(٣١) نفس المرجع ٠

(٣٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٦ ، ص ٤٠٣ ٠

(٣٣) حمزة الاصفهانى : تاريخ سنى ملوك الارض ، ص ١٧٠ ٠

(٢٤) ابن الاثير : ج٥ ، ص ٣٤٠ ٠

(٣٥) د٠ ابراهيم باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٤٦

(٣٦) د٠ فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٢٢٣ ٠

(٣٧) س٠اى٠بوزورث :جيش الصفاريين ، ص ٢٠٢ ٠

(٣٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٢ ٠

(٣٩) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٣ ٠

(٤٠) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٩٠ ٠

(٤١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٧ ٠

(٤٢) باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٦٢ ٠
ود٠ فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٢٢٢ ٠

(٤٣) باريزى : يعقوب بن الليث ، ص ١٦٣ ٠ ذكر ياقوت أن جند نيسابور مدينة بخوزستان

(٤٤) سى٠اى٠بوزورث : جيش الصفاريين ، ص ١٨٩ ٠

(٤٥) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٥ ٠

(٤٦) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٥ ٠

(٤٧) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ ٠

(٤٨) ابن طيفور : تاريخ بغداد ، ص ١٧ ٠

(٤٩) يمثل هؤلاء صاحب تاريخ سيستان ، ومن الباحثين المحدثين :

د٠ ابراهيم باستانى باريزى : أستاذ التاريخ بجامعة طهران فى كتابه : يعقوب بن الليث الصفار ٠

ود٠ رضا زاده شفق : أستاذ الادب الفارسى فى جامعة طهران فى كتابه : تاريخ الأدب الفارسى ٠

(٥٠) يمثل هؤلاء الطبرى فى كتابه : تاريخ الامم والملوك ، والمسعودى فى كتابه: مروج الذهب ، وابن الاثير فى كتابه : الكامل ، وابن خلكان فى كتابه : وفيات الاعيان وقد تميز المسعودى وابن خلكان بالاشارة الى طرف من نظـــم الصفاريين الادارية والمالية والعسكرية ٠

(٥١) الحموى : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤١٥ ٠

(٥٢) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٤٠

(٥٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٢١ ٠

(٥٤) حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسى ، ج١ ، ص ١١٧ ٠

(٥٥) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ ٠

(٥٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ ٠

المصـادر :

— ابن الاثير : أبو الحسن على بن ابى الكرم محمـــدد ٠ ت ٦٣٠هـ ٠ الكامل فى التاريخ ٠

دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ٠

— الحموى : أبو عبد الله ياقوت : ت ٦٢٦هـ
معجم البلدان ، بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٦هـ ، ١٩٥٧م ٠

— ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على ٠ ت ٣٦٧هـ ، صورة الأرض منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ٠

— ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ٠ ت ٨٠٨هـ
تاريخ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتـــاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٦٦م

— مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ٠

— ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ٠ ت٦٨١هـ
وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، تحقيق : د٠ احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ٠

— السمعانى : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ٠ ت ٥٦٢هـ ٠

— الاصطخرى : أبو اسحاق ابراهيم بن محمـــد الفارسى ٠ ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ٠
المسالك والممالك ، تحقيق : محمد عبد العال الحسينى ، دار القلم ١٣٨١هـ ٠

— الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير٠ ت٣١٠هـ تاريخ الأمم والملوك٠

— ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب ٠ ت ٢٨٠هـ بغداد٠ طبع سنة ١٣٨٨هـ/١٣٦٨م ٠

— القزوينى : زكريا محمد . ت٦٨٢هـ
آثار البلاد وأخبار العباد . دار صادر ، بيروت .

— المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين . ت ٣٤٥هـ
مروج الذهب ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٥هـ .

— المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد . ت٣٨٨هـ
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبع فى مطبعة بريل بلندن عام ١٩٠٩م .

— ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . ت٧١١هـ
لسان العرب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

— اليعقوبى : أحمد بن يعقوب ، دار صـــادر ودار بيروت للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ .

المراجع :

— د٠ حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة الطبعة الأولى ١٩٥١م ٠

— د٠ عبد الحميد الشلقانى : الروية فيما وراء العراق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥م٠

— عبد العزيز الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتاخرة ، الطبعة الأولى ، مطبعة السريان ، بغداد ١٩٤٥م ٠

— د٠ عبد الفتاح السرنجاوى : النزعات الاستقلالية والخلافة العباسية، الطبعة الرابعة ، نشر دار الكتب الاهلية بمصر ١٣٦٣هـ/١٩٤٥م ٠

— د٠ فارق عمر : الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرية ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٧٧م ٠

— د٠ فؤاد محمد النادى :نظرية الدولة فى الفقه السياسى الاسلامى، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ٠

الكتب المترجمة الى العربية :

— باريزى : د٠ ابراهيم باستانى :
يعقوب بن الليث الصفار
ترجمة من الفارسية : د٠ محمد فتحى يوسف الريس ، دار الرائد العربى ٠

— بارتولد فاسيلى : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ترجمة د٠ صلاح الدين عثمان هاشم
منشورات المجلس الوطنى للثقافة والفنون ، الكويت ١٤٠١هـ ٠

— بوزورث ٠ سى٠اى : جيش الصفاريين ، لندن ، ١٩٧ ٠

— د٠ رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى :
ترجمه من الفارسية : محمد موسى هنداوى ، دار الفكر العربى ١٩٤٧ ٠

— النرشخى : ابو بكر محمد بن جعفر ٠ ت ٣٨٤هـ ، تاريخ بخارى ، ترجمة : د٠ أمين عبد المجيد البدوى ، دار المعارف بمصر ٠

النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الأندلسى

د. سعد عبد الله البشرى(*)

خطا المجتمع الأندلسى منذ ان استقر المسلمون فى شبه الجزيرة الايبيرية خطوات سريعة فى مدارج التطور الحضارى والازدهار المدنى. وقد احتفظت لنا مصادر التاريخ والحضارة بالكثير من الأمثلة والبراهين على ما حققه الأندلسيون من حضـــارة ومدنية راقيـــة لازالت تدهش الدارسين ، وتثير اعجاب الباحثين فى تاريخ الحضارة البشرية . وقد اخترت أن أدرس جانبا مهما من جوانب الحضـــارة الأندلسية ، وهو ما يتعلق بظاهرة النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الأندلسى ، فتتبعنا بالدراسة النشاط الحضارى المتصل بالنظافة والصحة العامة فى الأسواق وما تضمه من الحرف والصناعات ، وكذلك فى الطرق والدروب والساحات والجوامع ، ومراعاة صحة البيئة ومكافحة التلوث بصورة عامة . هذا فضلا عن نظافة البـــدن واهتمام المجتمع الأندلسى بالاستحمام وظاهرة انتشار الحمامات بوصفها ظاهرة حضــــارية راقية ، وتأثير ذلك فى المجتمعات الأوربية .

أما عن مراعاة النظافة ومكافحة الأقذار والتـــلوث والنفايات فى الأسواق، وهى الظاهرة التى يترتب على اهمالها أوخم العواقب الصحية مما يؤدى الى تدهور خطير فى رقى الأمم وصعودها الحضارى ، فمن المعروف أن ولاة الأمر والقائمين على شئون المجتمع الاسلامى عنوا بهذا الأمر عناية كبيرة ، وخصصوا لذلك وظيفة كبيرة هى وظيفة الحسبة، واحتفظوا لنا من خلال ما كتبوه فى شئون الحسبة بمعلومات قيمة ونادرة عن اختصاصات المحتسب وواجباته فيما يتعلق بمراقبة الأسواق والباعة، للتأكد من اتباعهم قواعد الأمانة والنظافة وسلامة ما يقدمونه للناس من بضائع ، وخاصة فى كل مايتعلق بالطعام والشراب. ويأتى فى المقدمة أهل

(*) أستاذ مشارك بقسم التاريخ ـ كلية الشريعة ـ جامعة أم القرى .

الحرف والصناعات والمهن المختلفة . ولتيسير هذه المهمة وتطبيقها على خير وجه نبه ابن عبدون التجيبى - وهو من كبار المحتسبين فى الأندلس - الى أهمية ترتيب الصناع والحرفيين ، وذلك بتخصيص موضع لكل حرفة او صنعة ، وذكر أنها أجل وأتقن(١) .

وقد لفتت هذه الظاهرة - أى العناية بتنظيم اماكن الحرف والصناعات المختلفة - نظر المؤرخين الذين اشادوا بما رأوه وشاهدوه وسمعوا به ، فهذا الادريسى يشير على سبيل المثال الى مدينة طلبيرة فيقول عنها : (وهو بلد واسع المساحة شريف المنافع وبه أسواق جميلة الترتيب وديار حسنة التركيب ..)(٢) .

كما يلاحظ انه كان لكل صنعة من الصناعات أمين يعود اليه الناس فى حال الاختلاف للاستهداء برأيه ، وهذا تنظيم حضارى كبير لازلنا نشاهده ماثلا فى حياتنا المعاصرة .

ولنا أن نتساءل : ما العلاقة بين ترتيب الحرف والصناعات وبين النظافة وصحة البيئة ؟ فنقول : ان لذلك علاقة وثيقة ، اذ ينبغى أن تكون أسواق ومحال المأكولات والأطعمة والأشربة فى أماكن بعيدة عن أماكن الحرف المتعلقة بالدباغة أو بيع الفحم والحطب والجص،وغير ذلك من المهن التى يترتب على مزاولتها والاشتغال بها الوان من التلوث والنفايات المضرة بالانسان وصحة البيئة ، بل لقد امر باعة الأسماك بان يتخذوا موضعا بمعزل عن الطريق لما يتسببون فيه من روائح ولما يبدو عليهم من رثاثة الحال(٣) .

وهذا ابن عبدون يؤكد على ما اشرنا اليه اذ يقول : (يجب أن يكون لبيع الحطب موقف ولا يترك أحد منهم يمشى فى الأسواق فانهم يؤذون الناس ويمزقون الثياب . وان عثر على من يمشى بالحطب فى الأسواق أدب.وكذلك بائعو الجير وغير ذلك يتخذ لهم مواضع فتقصدهم الناس. وبائعو الفحم يجب أن تكون لهم مجارد لا مجارف،فانها تجرف التراب والغبار ويؤمروا بعزل الغبار منه . ويباع بجهة لمن شاء ان يشتريه)(٤).

وتجدر الاشارة الى أن تعدد الوان الحرف والمهن والصناعات أدى الى مراقبة ورصد واسعين من قبل المسئولين عن الأسواق وصحة البيئة ، وادى هذا الى وضع معايير وتوجيهات محددة فى سبيل المحافظة على مستوى النظافة الخاصة والعامة فى المجتمع الأندلسى،ومكافحة كل ما يؤدى الى تشويه المظهر الجمالى والصحى فيه ، وبالتالى سوف نتطرق الى الحديث عن تلك المعايير والتوجيهات للحرفوالمهن المتصلة بمحور البحث ،·وبخاصة ما هو متصل بالأطعمة والأشربة ٠

وهنا تجدر الاشارة الى أن المحتسبين الأندلسيين شددوا على أهمية أن يكون المشتغل بالحرف المتعلقة بالأطعمـــة والماكولات والمشروبات ـ لائقا صحيا لممارسة مهنته ، فلا يشتغل بها مجذوم ، أو مبروص(٥) ، أو من به مرض جلدى ، أو مرض معدى ٠ وهذه لفتة حضارية راقية لازلنا نلمس أهمية تطبيقها فى عصرنا الحاضر ٠ وفى حـــرفة الجـــزارة نبه المحتسب الى ضرورة ذبح الحيوانات وسلخها فى القصـــارى ، وعلى المشتغلين بهذه المهنة أن يجمعوا الدم وزبل الكروش وينقـــلوها خارج الأسواق أو الى الأماكن النائية ٠ وعلى الجزار أن يغسل رؤوس الضأن قبل بيعها وذلك لضمان أن لا يؤذى مشتريها الناس بما قد يكون فيها من دماء فى الطرق الضيقة أو أماكن الزحـــام ٠ وكان على الجزارين أن لا يضايقوا المارة بما يعرضونه من اللحوم المعلقة خارج حوانيتهم مما يكون سببا فى تلويث ثياب المارة فضلا عن تضييق الطريق(٦) ٠

كذلك كان على الجزارين تنظيف مواضعهم وازالة ما قد يكون فيها من فضلات اللحوم والعظام وغيرها ، والتنزه عن الأقذار ، ومكافحة الذباب ، وان يستخدموا لتقطيع اللحم لوحا من الخشب صليبا نظيفا ٠ وعليهم بعد الانتهاء من العمل أن يغسلوا أدواتهم وما يقطعون عليه من الواح وتغطيتها وحفظها بعيدا عن الحشرات ، وكان عليهم رش الملح على الألواح التى يقطعون عليها لتحول دون حـــدوث العفونة وتراكم الأقذار(٧) ٠

وكان بيع لحوم الطيور وبعض الحيوانات البرية يخضع لارشادات

معينة ، فكان لا يباع الحجل والطير المذبوح الا بعد نتف ريش مؤخراتها؛ وذلك ليتبين للمشترى فسادها أو جــودتها ، كما لا تباع القنليات(٨) الا بعد سلخها ؛ ليتضح ما اذا كانت صالحة أو فاسدة ، وذلك لأن بقاءها فى جلودها مداعاة لفسادها وتعفنها(٩) .

اما باعة الأسماك والمشتغلون بقليها فكانوا يؤمرون باتخاذ تدابير محددة لضمان النظافة والتنزه عن الأقذار والتلوث.وأول ماكانوا يلزمون به أن يتخذوا لهم مكانا خاصا بحرفتهم ، وقد سبقت الاشارة الى الزام باعة الأسماك باختيار موقعهم بمعزل عن الطريق ، نظرا لما يتسببون فيه من روائح ، ولما هم عليه من هيئة قد لا تكون حسـنة ، كذلك كان عليهم تنظيف ساحاتهم ، وينهون عن تمليح الأســماك التى مر عليها يومان أو ثلاثة ، لما قد تولد فيها من العفـونة اذ من الأفضــل تمليحه طـريا(١٠) .

ويتبع هذه التوجيهات الزام باعة الأسماك بعدم حملها فى أيديهم والتجول بها فى الأسواق والطرقات ، بل يحملونها فى أوعية أو أوان نظيفة لئلا تلوث أثواب المارة . ومن يخالف هــذا الأمر يؤدب بوضع ما يحمله فى حجره(١١) .

والواقع ان المشتغلين ببيع وعمل الأطعمة كانوا أكثر أهل السوق استهدافا من قبل القائمين على مكافحة الغش ومحاربة التلوث والأقذار ، وكانت التوجيهات والتعليمات التى يلزمون باتباعها صارمة وعليهم التقيد بها ، فمنها : أن لا يطبخوا بالليل أو الســحر ولا فى الأماكن النائية والمواضع الخفيـــة ، وعليهم أن يتخــذوا لهم حوانيت مجصصة(١٢) ومسطحة يسهل تنظيفها وغسلها فى كــل حين ، ويلزمون أثناء الطبخ بتوفير الانارة والضوء بحيث يتم ذلك وفق طريقة سليمة ونظيفة وتحت اشراف العارفين منهم . وفى أثناء الطبخ يتعهد أحدهم بذب الذباب عن الأوانى واللحوم حتى يتم الطبخ على أحسن ما يكون ، وبالتالى يطمئن الناس الى نظافة وأمانة الطباخ وما يطبخ . ويشير السقطى الى أهمية الاشراف الدقيق على عمل الطباخين ومعرفة ما يطبخون ، فيذكر حالات من الغش والتلاعب التى كشفها أثناء ممارسة عمله كمحتسب ، حتى أنه

قبض على عدد من الطباخين الذين كانوا يمارسون مهنتهم فى خفاء ، عندما تبين له قيامهم بذبح حيوانات قذرة كالكلاب وطبخ لحمها . ولهذا نبه الى أن يتم الطبخ فى مواضع قريبة وميسور الاطلاع عليها من قبل اهل الحسبة واعوانهم(١٣) .

وكان المحتسب يتفقد أحوال الطباخين صباحا ومساء ، فى الصباح ينظر هو وأعوانه فى نوع اللحم الذى يطبخه الطباخون ومدى نظافته وصحته ؛ وفى المساء يقوم المحتسب أو أعوانه بجولاتهم الميدانية فيتفقدوا اماكن الطبخ ومدى مراعاة الطباخين لقواعد النظافة والأمانة،بعدم خلط ما بقى من اللحوم مع اللحوم فى اليوم التالى وتقديمها للناس على أنها لحوم طازجة وجديدة ، وفى ذلك تحايل ومجافاة للنزاهة(١٤) .

وكان على القلائين تنظيف السمك قبل قليه واستخراج ما فى جوفه وتنظيفه بصورة تامة ، وأن يراعوا نظافة الزيت ، فلا يقلوا الأسماك فى زيت عكر ورديء ، اضافة الى مراعاة النظافة فى أدوات القلى فيتعهدوا أوانى القلى بالغسل وازالة ما علق فيها من الزيوت والأطعمة . وكان المتهاون فى ذلك يلقى العقوبات الصارمة(١٥) .

ويشير التجيبى الى قواعد صحية تراعى فى اختيار أدوات الطبخ وما يستلزمه من أوان وقدور ، فينبه الى عدم صلاحية الأوانى المصنوعة من النحاس فى عملية الطبخ ، وفضل عليها ما يصنع من الحديد اذا ما روعى غسلها وتنظيفها باستمرار والحيلولة دون صدئها . وذكر انه لا بأس بأوانى القصدير قدورا وصحافا ، وكذلك ما يصنع من الزجاج لسهولة تنظيفها . ونبه الى الحرص على تغطية القدور وغيرها عند الطبخ باغطية مثقوبة ثقبا أدق ما يكون.ونهى عن الطبخ فى أوانى النحاس اذ كرر ذلك عند حديثه عن القلى ، فذكر أنها خطيرة جدا ، وخاصة اذا ما قلى فيها مواد كثيرة الدسم تختلط ببعض مكونات النحاس(١٦) .

ولم يكن التجيبى وحده هو الذى نصح بعدم الاعتماد على أدوات الطبخ المصنوعة من النحاس ، بل أشار الى ذلك عدد من الأطباء وأهل الحسبة ، منهم : الطبيب (ابن زهر) الذى يقول : (يجب أن تعلم أن

كل شيء فيه الخل اذا لقى آنية نحاس حدثت فيه قوة رديئة مذمومة تضر بالأبدان ، وبالجملة فان النحاس يجب أن يتجنب طبخ الاشربة فيه الا ان بولغ فى تبييضه بالقصدير(١٧) ٠

كما أن ابن عبدون والسقطى نبها الى خطورة استخدام قــدور النحاس عند الهراسين والقلائين وغيرهم ، وذكر ، انها لا تكون صالحة للاستخدام الا اذا كانت مرصصة ، اذ يتولد عن امتزاج الزيت بالنحاس اثناء الطبخ مادة سمية خطيرة(١٨) ٠

فاذا انتقلنا الى غير ذلك من العاملين بالأسواق فى بيع وصناعة الاطعمة والمأكولات كالخبازين ، لمسنا مدى عناية وحرص القائمين على نظافة وسلامة البيئة بفضل ما وضعوه من قواعد صارمة من أجل المحافظة على النظافة والنزاهة وسلامة الناس ٠

ذلك أنه كان على الخبازين غسل أدواتهم وأوانيهم التى يعجنون فيها كل يوم ، وكذلك ما يرتدونه من ملابس أثناء العمل ، ويمنعون من ممارسة أعمالهم قبل الفجر لحداثة عهدهم بالنوم ، وبالتالى يتهاونون فى مراعاة قواعد النظافة ، ويلزم الخبازون بالاغتسال والنظافة فى أكثر الاوقات وخاصة فى أيام الصيف(١٩) ٠

وعلى الخبازين الاهتمام بنظافة الماء الذى يعجنون به ، وتجنب أخذه من المواضع القذرة ٠ وكذلك مراعاة ذلك عند جمع الحطب لما يترتب عليه من الاضرار بالخبز ، وينبهون أيضـــا الى المحافظة على نظافة رقائق العجين قبل ادخالها الفرن ، وذلك بتغطيتها بقماش نظيف يحول دون سقوط الأقذار عليها ، وعند الانتهاء من العمـــل يقومون بتنظيف أدواتهم ، ومنها ما يفردون به الخـــبز ، وما يوصلونه به الى داخـــل الفرن ؛ فتجرد الأدوات وتغسل ، كما كان عليهم أن يكنســوا الفرن من الرماد والتراب قبل أن يبدأوا العمل فيه من جديد فى اليوم التالى(٢٠) ٠

ومن القواعد التى يجب الالتزام بها لمن يبيع الأطعمة ومنها الخبز أن يكون البائع نظيفا سليما من الأمراض ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك،

ولأهمية أن يكون الخبز نظيفا سليما من الاقذار فقد شدد المحتسب فى ان لا يبيعه حوات او جزار أو من تستقذر مهنته · وكان على باعة الخبز تغطيته وحفظه من وقوع الذباب والأقذار عليه ، وأن يبتعدوا عن مجاورة أصحاب الحرف التى يغلب عليها طابع التلوث والقذارة،كبائعى الأسماك ومحترفى البيطرة والحجامة ، ويلزم باعة الخبز بتنظيف ملاحتهم وساحاتهم(٢١) ·

وامتد هذا الاهتمام بالنظافة الى بقية أصناف الباعة وأصحاب المهن الأخرى ، فقد نبه أهل الحسبة الى ضرورة أن يهتم اللبانون والجبانون بتنظيف اوانيهم ومواضع عملهم ، وان يكون لهم موضع خاص بهم بعيدا عن المشتغلين بحرف يتولد عنها تلوث أو قذارة · وكان على المحتسب أن يمنعهم ـ أى اللبانون ـ من أن يبيعوا مع اللبن أو الجبن ما لا يتوافق معه كالسمك أو اللحم(٢٢) ·

وفيما يتعلق بالأدوات التى يغرفون بها اللبن فيلزمون بأن تكون من حنتم(٢٣) أو من خشب ، ويحظر عليهم استخدام ما يصنع منها من النحاس لما فيه من ضرر · وكان على اللبانين مراعاة النظافة بصورة دقيقة وخاصة فيما يتصل ببيع اللبن الرائب لأنه سريع العفن والتخمر ، ولهذا اشترط ابن عبدون أن لا يباع اللبن الرائب الا فى انزقاق ، لسهولة غسلها وتنظيفها · وأما الذى فى المجابين فقد يتعرض للفساد والتلوث(٢٤) ·

وقد اتبع المشتغلون بصناعة الهريسة والمجبنات تلك القواعد الصحية ، فكان عليهم الاهتمام بتظنيف أبدانهم وشعورهم ، والحرص على نظافة أوانيهم ومن تحتها اغطية أخرى(٢٥) ، وذلك مبالغة فى نظافة ونزاهة ما يحترفونه من أعمال ، حيث انه لا يؤمن ان يتسرب اليها بسبب التهاون كثير من الوان التلوث والأقذار ، وهو امر خطير لارتباط ذلك بصحة الانسان وحياته ·

أما المشتغلون ببيع الخضار والفواكه فكان عليهم أن يعنوا عناية كبيرة بنظافة مايعرضونه منالخضار والفواكه ؛ كما كان منالأهمية بمكان

ضرورة غسلها وازالة ما علق بها من الاتربة . ولا يكون هذا الغسل فى البرك أو الصهاريج ، لما قد يكون فيها من الاقذار بل يجب غسلها على ضفاف الانهار أو المياه الجارية العذبة(٢٦) .

فى الطرقات والساحات :

حظيت الطرق والدروب فى المدينة الاندلسية بعناية فائقة من قبل القائمين على رعاية المظهر الحضارى والوجه الجمالى لمرافق المدينة . وكان عليهم لبلوغ ذلك الهدف الحضارى الراقى أن يضعوا قواعد وتنظيمات دقيقة تثير الاعجاب ، وخاصة بمقاييس ذلك العصر . فمن هذه القواعد الحضارية : أن يلتزم أفراد المجتمع بنظافة الدروب والطرق، وذلك بعدم طرح النفايات والاقذار فيها ، والعمل على اصلاح مستوى الطريق ، وذلك منعا لتجمع المياه والأوحال فى المواضع المنخفضة منه. وعلى أصحاب البيوت والدور ـ ان كانت لهم قنوات تحمل المياه الى الطريق ـ أن يعملوا لها سربا تنصرف فيه المياه والاقذار بعيدا عن الاعين ، ويمنع من تصريف المياه والاقذار فى الطريق(٢٧) .

ومن السلوكيات المذمومة التى حاربها المجتمع الاندلسى قضاء الحاجة فى الطرقات والساحات ، لما لذلك من تاثير سىء سواء على مظهر المدينة الحضارى أو صحة الانسان . وكان على القائمين بأمر النظافة ردع من يقوم بذلك السلوك المشين ، فان عاد ادب ، وان كان صغيرا فعلى وليه التعهد بعدم تكرار ذلك(٢٨) . وفى هذا اشارة مهمة الى ما أولاه المجتمع الاندلسى لنظافة المجتمع من اهتمام وعناية .

اما النفايات والقمامة المتجمعة من البيوت والأسواق فكانت تنقل خارج المدينة . وكان المحتسب وأعوانه حريصين على مكافحة الاقذار وعدم تكديسها داخل الأحياء وبين المنازل والدور ، اذ على السكان أن يبادروا الى نقل ما تجمع منها بعيدا عن الأحياء والتجمعات السكانية . وعلى صاحب الدار فى حالة تنظيفه ما تجمع من مياه واقذار المجارى فى منزله أن ينقل ذلك بعيدا عن الدور . وقد تستخدم تلك الفضلات فى المزارع ، أو تجمع فى مواضع معلومة معدة لذلك . ويجب على من فتح

سربا وافرغه من المياه القذرة والفضلات أن ينقلها الى خارج المدينة ، وعليه تبعا لذلك أن يسوى موضع السرب بما يتفق مع مستوى الشارع وبما يحقق السلامة والنظافة للعابرين(٢٩) ٠

وجدير بالذكر أن الأندلسيين من العاملين فى تنظيف المجـــارى والقنوات توصلوا آنذاك الى صنع أو تكوين مواد معينة يستخدمونها فى تفتيت ما تصلب من المواد داخل المجارى أو القنوات ، فيقول أبو مروان ابن زهر عندما أشار الى تحليل الأورام بالأدوية : (فانك متى ألححت مدة فى التحليل أبقيت من الخلط المرض بقية لا تقبل التحليل كأنها قد تحجرت ، وان العوام يشعرون بمثل هـــذا فانا نراهم متى أردوا أن يخرجوا جوهرا غليظا من القنوات المدفونة لم يقتصروا على تقطيعـــه بالغسل حتى يخلطوا معه ما يميعه فيصبون الماء فى القنوات فتســهل جريته ٠٠)(٣٠) ٠

وكان على الكنافين أو المشتغلين بتنظيف ما يعــرف فى عصرنا الحاضر بالمجارى أن يتلزموا قواعد محددة فى أعمالهم : وذلك حرصا على نظافة البيئة ، فالزموا فى عملية نقل المياه والاقذار المفرغة من الحمامات والمواضع التى تتجمع فيها باستخدام أكواب كبيرة ، يحمل كل كوب اثنان ، ليضمنا بذلك عـدم سقوطه أو تناثر ما فيه من الأقذار ٠ والزموا أيضا بأن يحمل أحدهما أثناء النقل جرسا ينبه المـــارة الى الابتعاد عنهما ، وحظر على أحدهما أن يحمل لوحده كوبين : لما يترتب على ذلك من أضرار وفساد يتنافى مع ما يجب مراعاته من نظافة ونزاهة البيئة والمجتمع(٣٢) ٠

ومن التنظيمات الحضارية الراقية المحافظة على نظافة الطـــرق وجمالها ومكافحة كل ما يخالف ذلك ، فيحظر انشاء الحوانيت التى يمارس أصحابها حرفا ينتج عنها تلوث البيئة أو ممارسة تلك الحرف فى الطرقات ٠ وقد نبه بعض المحتسبين الى أهميـــة ذلك ، وضرورة العناية بنظافة وسعة الطرقات وذكروا (أن عمرا رضى الله عنه أمر بهدم كير الحداد الذى مر به فى الطريق) كما أمروا بضرورة منع الصباغين ومن شاكلهم من نشر الثياب المصبوغة المبلولة على الطرق ؛ لما تتسبب فيه من

تلويث المارة ۰ وكان يحظر انشاء الأفران فى الطـــرق لما تـســببه من تلوث(٣١) ۰

والزم أصحاب الحرف والمهن أن يتخلصوا من النفايات والأزبال التى تتخلف عن صناعاتهم وبيعهم وكل ما يتصل بممارساتهم الحرفية ، كالمشتغلين ببيع الفواكه والخضار والحبـوب ، والعاملين فى التجارة والحدادة والدباغة والحطابة وبيع الفحم وغير ذلك ۰

الجوامع ـ الأنهار ـ المقابر :

كانت الجوامع والمساجد فى مقدمة المواضع التى حظيت باهتمام المسئولين عن النظافة فى المجتمع الأندلسى ۰ وما من شك فى أن المسجد نال عناية فائقة فى الاسلام ، وكان الاهتمام به وبنظافته وطهارته من الأمور التى اشار اليها القرآن الكريم وســنة المصطفى عليه السلام ۰ وبالاضافة الى ما تقدم فقد كان للأندلسيين آدابهم وسلوكياتهم الحضارية التى جاءت لتؤكد عظمة المسجد وحرمته ومنزلته ۰ وفى ضوء التطور الحضارى الذى بلغه الأندلس وضع بعض العلماء والمحتسبين قواعد تحفظ للمسجد نظافته وحرمته وقدسيته ۰ فلــكى يبقى المســجد على نظافته وطهارة فرشه كان على المصلين أن لا يدخلوه بنعالهم أو بأحذيتهم فى اقدامهم ، وأن ينتبهوا الى ازالة ما قد يكون عالقا بها من الأوساخ والطين وحك بعضها ببعض أو فى الأرض قبل الدخول ۰ وكان من الأمور المرعية مراعاة نظافة المســاجد ورحابها وما حــولها ، ومنع انفــاء الأزبال والقاذورات فى رحابها وما حولها ، وينهى بحزم من يقدم على ذلك ، فان عاد عوقب بلا تردد(٣٣) ۰

ومما يتصل بنظافة المسجد العناية بفرشه ، فان بلى الفرش نقل الى حيث يحتاج اليه فى السجون أو للفقــراء ۰ وكان من السلوكيات الحضارية والانسانية أن تبنى سقائف بجوار الجامع ليقيم فيها الغرباء أو من انقطعت بهم السبل(٣٤) ۰

وقد روعى فى أرضية الجامع أو المســجد أن تكون فى اعتدال واستواء ، واذا كان فيها موضع منخفض يسوى بحيث لا تجتمع فيه مياه

الأمطار والأوحال ، وقـــد رتب لتنظيف الحمامات فى الجامع عامل أو عمال يقومون بتنظيفها وتصريف ما يتجمع فيها من الأقذار ، وهؤلاء العمال أجورهم أو مرتباتهم من الأحباس(٣٥) ٠

كذلك كان للمسجد موظفون يقومون على نظافته والمحافظة عليه من الأوساخ ٠ وقد وضع بعض المحتسبين لهؤلاء الموظفين قاعدة يسيرون عليها ، فكان عليهم كنس المسجد أو الجامع ونفض الحصر والفرش فى كل يوم اثنين ، وكل يوم جمعة ، ويضاف الى ذلك تنظيف قناديلها فى أول يوم من الشهر وفى منتصفه(٣٦) ٠

ولما كان يوم الجمعة يشهد اجتماع اعداد كبيرة من المصـــلين فى الجوامع ، فان بعض الباعة استغلوا هذه المناسبة ليعرضوا فى رحاب الجوامع سلعهم وحاجاتهم ، لذلك أمر عمال الجـوامع بتنظيف رحاب الجامع فى صباح يوم الجمعة كما أمر الباعة بعدم بسط سلعهم وبضائعهم قبل الصلاة وانما بعدها ٠

ومن دلائل عنايتهم بطهارة المسجد ونظافته تأكيدهم البالغ على أن لا يتم تأديب الأطفال والصبيان فى رحاب الجامع ، وذلك لعـــدم تحفظهم واحترازهم من النجاسات التى قد تكون فى أقدامهم وملابسهم ، ويتم تأديبهم وتعليمهم فى السقائف(٣٧) ٠

ويضاف الى ذلك حرص القائمين بأمر نظافة أماكن العبادة على تنزيه الجوامع والمساجد ليس فقط من الوان التلوث والأقذار التى يتسبب فيها الانسان ، وانما أيضا مما تتسبب فيه بعض الحيوانات ، فقد حظر على المصلين ربط دوابهم فى رحاب الجامع لما ينتج عن ذلك من قـــذارات ونجاسات اذا راثت أو تبولت ، وهذا يؤدى الى انتشار النجاسة وبالتالى عدم صلاحية الموضع للصلاة فضلا عما يلحق النـــاس من الأذى ٠ وقد شدد المحتسب على احـــراج الدواب الى مواضع بعيـــدة عن أماكـــن الصلاة(٣٨) ٠

★ ★ ★

ومن الوان العناية بالنظافة والنزاهة التى شملت شتى مرافق الحياة فى المجتمع الأندلسى ، حفاظا على صحة البيئة والانسان ، العناية بمصادر المياه ، مثل . الأنهار ، والأودية ، وينابيع المياه ، والعيون . وقد نبه المحتسب ابن عبدون على أهمية المحافظة على ضفة الوادى الذى هو مرسى المدينة ، وذلك بحظر ان يباع منه شىء أو يبنى فيه ،نظرا لأهميته باعتباره منفذا بحريا يحط فيه التجار والمسافرون والغرباء ، وموضعا لاصلاح السفن،فهو ملك للدولة لا يتصرف فيه غيرها(٣٩) . وقد استهدف هذا نوع من التنظيم الرقى بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى ، وفيه مالا يخفى من النزوع نحو تحقيق صورة مجالية للبيئة الأندلسية .

وكان المحتسب حازما فى مكافحة الوان التلوث وخاصة فى الأنهار والأودية والعيون ، كما كانت هناك مواضع تم تخصيصها للسقائين يستقون منها . من ذلك أنه نبه الى ضرورة منع الغسل والاغتسال بالقرب من مواضع السقاية لما يؤدى اليه ذلك من تلوث وقذرات .وكان على من يريد الغسل وخاصة من النساء أن يذهبن الى موضع معين بحيث لا يتسببن فى تلويث المياه الجارية . كذلك كان من الأمور التى يحظرها المحتسب أن يعمد الناس الى رمى الأقذار والنفايات على ضفة الوادى أو الأنهار ، ومن يفعل ذلك كان يعاقب بحزم(٤٠) .

وتجدر الاشارة الى أهمية ما أولاه أهل الحسبة من عناية للمحافظة على الثروة النباتية والسعى الى انمائها وغراسة ألوان الأشجار والنباتات لزيادة مساحة الرقعة الخضراء ، فكان من واجبات الدولة حماية الغابات وتشجيع الساكنين بقرب ضفاف الأنهار على زراعة الأشجار والمحافظة على الغابات وصيانتها من العبث والتقطيع الجائر(٤١) لما تمثله من ثروة اقتصادية ، وما تعكسه من جمال طبيعى ، فضلا عن دورها فى تقليل التلوث فى البيئة والهواء .

ومن مهام المحتسبين والمسئولين عن النظافة وصحة البيئة فى المجتمع الأندلسى السعى الى محاربة المظاهر الاجتماعية الفاسدة التى تتسبب فى تشويه المظهر الحضارى والوجه الجمالى للمدينة ، فكان يحظر التسول وما يسلكه البعض من مسالك قبيحة فى سبيل استدرار

عواطف الناس ، فهناك من يتخبط فى الاســـواق ويوهم النـــاس أنه مصروع ، وهناك من يتظاهر بالشلل أو يبدى فى جسده بعض القروح والأورام (وذلك كله منهم حيلة لأخذ أموال الناس بالباطل ، فيجب على صاحب الحسبة أن يقف من ذاك كله على صحته ويعاقب من يحتل منهم بتلك الحيلة)(٤٢) .

ولم تقتصر عناية المسئولين عن نظافة البيئة على ما تقدم ، اذ امتد هذا الاهتمام الى ما يتصل بحياة الانســـان بعد موته بمراعاة حرمته وكرامته من خلال العناية بالمقابر والحرص على نظافتها وحرمتها ومنع العبث والفساد بها . وكان من القواعد المتبعة أن يلتزم حفارو القبور بتعميقها بحيث لا تنتشر روائح الموتى ، وفى الوقت نفسه تكون بعيدة عن عبث السباع ، وأن يراعى حرمة الميت فيستر ما يظهر من العظام ولا يتركوه على وجه الأرض(٤٣) . وقد عاب ابن عبدون على أهل بلده - اشبيلية - ضعف اهتمامهم بهذا الجانب اذ عمدت طائفة من الناس الى السكنى فوق المقابر بل وأجروا فوقها أو خلالها السروب والمجارى . وكان لبعض المحتسبين - كما يقول ابن عبـــدون - موقف حـــازم ازاء تلك الظاهرة ، فهدموا ما بنى فى المقـــابر وما أنشىء بها من الدور ، ونصح ابن عبدون بتخصيص بعض المواضع ليكون مقبرة لأهل اشبيلية.وقد نبه ابن عبدون الى المحافظة على نظافة المقـــابر وتطهيرها من الأرجاس والأقذار ، وأن لا يستغل موضعها بعض أهل الحرف المستقذرة كالمشتغلين بالدباغة ومن يشاكلهم(٤٤) .

النظافة الشخصية :

فاذا انتقلنا الى الحديث عن النظافة الشخصية فى المجتمع الأندلسى وجدنا ما يؤكد ويقرر هذا المسلك الحضارى الراقى . يذكر المقرى نقلا عن ابن سعيد أن (أهل الأندلس اشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك فيما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه ، فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها ..)(٤٥) .

والنظافة الشخصية ترتبط بالنواحى التالية : الجسد ، الملبس ، والمنزل . فيما يتعلق بالجسد ونظافته وطهارته نذكر أن الأندلسيين عنوا عناية بالغة بنظافة أجسادهم ، فكانت ظاهرة الاغتسال والاستحمام من السلوكيات الاجتماعية التى اهتموا بها اهتماما بالغا . ولذلك أكثروا من بناء الحمامات العامة حرصا على نظافة أبدانهم وطهارة أجسامهم . ولم يكن ارتياد الحمامات وقفا على الرجال بل وجدت حمامات خاصة بالنساء أيضا .

وكان الأطباء يوصون بارتياد الحمام والمحافظة على الاستحمام ، لما فى ذلك من فوائد صحية واجتماعية ، فهو (ينقى الجلد ، ويزيل الوسخ ، ويطهر البدن ، ويفتح مسامه ، ويحلل الأبخرة ، ويرطب الأبدان وينميها ويزيد فى حرها الغريزى ويفرح النفس ويذهب الحزن)(٤٦) .

يذكر ابن زهر أن الاستحمام فى كل عشرة أيام من غير أن يكون الانسان متخما بالطعام فيه ما يحفظ الصحة . وأشار الى أن من القواعد التى يفضل اتباعها استخدام الماء العذب ، وأن يكون معتدلا بين الحرارة والبرودة ، وأن يكون المستحم صائما . وأن فيه ما يعين على دوام الصحة والعافية(٤٧) .

وتجدر الاشارة الى أن الطبقة الثرية فى المجتمع الأندلسى كانت لها حماماتها الخاصة الملحقة بمنازلها ودورها ، وكانوا يمارسون بها عادة الاستحمام بصورة مترفة وباذخة . أما الطبقات الأخرى التى لا تستطيع تأمين ذلك فى منازلها فكان عليها أن تقصد الحمامات العامة التى كانت منتشرة بوفرة كبيرة فى المدن الأندلسية . من ذلك أن مدينة قرطبة وحدها كان بها مايزيد على ٧٠٠ حمام(٤٨) وقد عد ذلك من مفاخر قرطبة ودلائل رقيها وتمدنها . ومن الطريف أن الحمامات لم تكن منتشرة فقط فى المدن بل امتدت هذه الظاهرة الى القرى والأرياف ، ومازالت منطقة البشرات (جنوب غرناطة) والمناطق المحيطة بغرناطة بها آثار واضحة لحمامات كان يرتادها الناس ويستحمون فيها . وفى هذا ما يدل دلالة واضحة على المدى الذى وصلت اليه عناية الأندلسيين

بالنظافة وبالتالى تميزهم بذلك القدر من السلوكيات والتقاليد الاجتماعية الراقيـة ٠

وكان الحمام العام يتالف من ممر يؤدى الى غرفة كبيرة بها خزانات خشبية تعلق بها الملابس وتسمى هذه الغرفة «المشلح»(٤٩) ومنها يدخل المستحم الى غرفة المياه الباردة والى جـوارها سرير خشبى مستطيل يضطجع عليه من يرغب فى التدليك ، ثم ينتقل الى الغـرفة الساخنة حيث يغسل جسمه بالمياه الساخنة بواسطة مغارف خشبية ٠ وأخيرا هناك موضع للمزينين ينتهى اليه المستحم ليكمل نظافته وزينته ٠ وتصل المياه الحارة الى الحمام عن طريق أنابيب تنقله من صهريج تسخن فيه المياه بالحطب ويقع خارج الحمام ، وكان الضوء ينفذ الى الداخل بواسطة نوافذ زجاجية مثبتة فى السقف(٥٠) ٠

ولما كانت الحمامات من المرافق الصحية والاجتماعية ذات التأثير الكبير على حياة الفرد والمجتمع ، فقد كان من الضرورى متابعة نشاطها وحالها من حيث الالتزام بقواعد النظافة وسلامتها من الأقذار ٠ من ذلك أن العاملين فى الحمامات الزموا بنظافة ملابسهم وأدوات النظافة التى يستخدمونها فى تنظيف الأبدان وحك الأقدام، فكانوا يضعونها فى الملح والماء كل ليل لئلا يصيبها العفن والتلوث والروائح الكريهة ، كما وجب عليهم أن يغسلوا ملابس العمل كل ليلة بالصابون(٥١) ٠

اما عن المياه المستخدمة داخل الحمـــام فكان يراعى فى صهاريج الحمامات أن تكون مغطاة باحكام لئلا تتسرب اليها النجاسات وما يلوثها٠ وكان من الآداب المرعية أن لايمارس المشتغلون فى الحمامات عملهم ـ كالحكاك والطياب والحجام ـ الا بعـــد أن يرتدى كـــل منهم التبان والسروال(٥٢) ٠

وهناك قواعد وآداب استحسن بعض الأطباء الالتزام بها لبلوغ اقصى درجات النفع والفائدة من دخول الحمام ، اذ يشير الطبيب الأندلسى ابن خلصون الى أن دخول الحمام يكون على خلاء من المعدة ، وفور القوة ، ونشاط النفس ، واعتدال الفصل ، واعتدال النهار ، واذا دخل

المستحم فلا يتجرد من ثيابه الا فى البيت الأول حيث يصب على جسمه من الماء الفاتر من غير أن يبل راسه ، ثم يدخل الى البيت الثانى فيصب على راسه ثلاث غرفات من الماء الحار ويتجنب الماء البارد ، ثم يغسل راسه فى البيت الثالث بالماء الحار ، ويصب فيه على بدنه الماء الحار ايضا ، ومنه ينتقل الى البيت الأوسط للاحتكاك وازالة الوسخ عن البدن وتدليكه بعد ذلك ، ثم يعم البدن بالماء الفاتر حتى ينظف جسمه ، ويختتم ذلك بالاغتسال بالماء البارد لأن فى ذلك ما يعدل حرارته ويرطب البدن. ويلتزم مراعاة الحال من حيث قدرة الجسم على احتمال ذلك وعدم اصابته بالبرد والرعدة ، وبالتالى الحميات . فاذا فرغ من ذلك يعمد الى تنشيف جسمه بقطعة من الكتان . ويجفف شعره ثم يلبس ثيابه ، ويغطى راسه ، ويسد أنفه بيده ليحميه من البرد والريح ، ثم يجلس خارج الحمام ساعة حتى تستقر حرارة الجسم ويعود الى طبيعته(٥٣) .

ولما كانت عادة الاستحمام والمحافظة على نظافة الأبدان وطهارتها من المظاهر الحضارية الرفيعة التى اتسم بها المجتمع الاسلامى بوجه عام، والأندلسى بوجه خاص فقد كان ذلك السلوك من الاداب الأصيلة القوية الجذور فى حياة الأندلسيين ، فحافظوا عليه رغم ما حل بهم من ويلات الحروب واستيلاء النصارى على بلادهم ، يشير المؤرخ امريكو كاسترو الى عظم التأثير الحضارى للمسلمين فى حياة الأسبان النصارى وخاصة فى المناطق التى سيطر عليها النصارى فى شمال اسبانيا ، اذ أن قرى صغيرة فى قشتاله لا تعرف حمام الماء الساخن فى عصرنا الحاضر ، كانت تتمتع به سواء فى عصر السيادة الاسلامية او عصر المدجنين(٥٤) ، ويتضح هذا فى لوائح البلديات . وفى الحمام كانت النساء تجدن مبتغاهن من حيث النظافة والتجمل بعيدا عن تلويث المنابع والأنهار أو حتى فى المنازل(٥٥) ، ومن بين تلك القرى ذوريتا Zorita وبريهويجا Brihuega فى وادى الحجارة ، وأوساجرى Usager فى بطليوس . وقد نصت لوائح بلديات المدن أنه ينبغى على صاحب الحمام أن يقدم لمرتادى الحمام الماء الساخن والصابون والمناشف(٥٦).

كذلك نجد اشارات تاريخية الى أنه كان فى ميووقه ومدريد

حمامات ترتادها النساء المدجنات . وقد شهد الحى الاسلامى فى مدينة ترسونا فى الشمال الشرقى من الأندلس بناء أحد الحمامات سنة ٧٧٦هـ ـ ١٣٧٥م ، وكان يقصده الناس جميعهم الا انه حظـــر على النصـــارى واليهود دخوله فى الأعياد الاسلامية وأيام الجمع(٥٧) .

وفى بعض الحمامات خصصت أيام محددة لكل من الرجال والنساء، حتى لا يقع الاختلاط المؤدى الى الفتنة والفســـاد . واستمر وجـــود الحمامات فى الأندلس حتى خروج المسلمين منها نهائيا . وتشير الرواية التاريخية الى انه بعد اخماد ثورة الموريسكيين على السلطات الاسبانية سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٨م تقرر طردهم ومحو كل ما يتعلق بحياتهم الاجتماعية وعاداتهم ، فاغلقت حماماتهم وحرم عليهم ارتيادها . وكان لذلك تأثير مؤلم على الموريسكيين حيـــث قال أحـــدهم ويدعى فرنسيسكو مولاى Francisco Munez Muley : (ان الحمـــامات اقيمت لتنظيف الأجسام ، والقول بانه يجتمع فيها الرجال والنساء افتراء لا يصدقه العقل والحمامات موجودة فى كل مكان ومنتشرة فى سائر الاقاليم . واذا كان ابناء مملكة غرناطة قد تمسكوا بالحمامات ، فان ذلك بسبب حرصهم على على أن يكونوا أطهار الأبدان ، فاذا حرم عليهم الاستحمام فى الحمامات وفى الينابيع والأنهـــار والبيـــوت فالى أين يذهبـــون للغســـل والاستحمام ؟)(٥٨) .

وبنهاية القرن السادس عشر تم هدم كـــل الحمامات فى انحاء اسبانيا ، ورفض الأسبان الأوربيون عادة الاستحمام لأنها عادة ارتبطت فى نظرهم بالحياة الاســـلامية فى الأندلس ، واستمر الحال على ذلك حتى ظهرت الحمامات بعد ذلك من جديد فى انجلترا(٥٩) .

ومن الطريف أن نجد الاســـبان يتاثرون أيضا بظاهرة حضارية اسلامية،وهى : غسل وتنظيف الميت قبل دفنه ، فتشير الرواية التاريخية حول ملحمة فرنان جونثالت التى يعود تاريخها الى سنة ٦٢٨هـ/١٢٤٠م الى أن الكونت فرنان جونثالث قام بغسل عدوه كونت دى تولوز قبل أن يلفه فى الأكفان ، والى هذا أشارت المدونة العامة لألفونسو الحكيم(٦٠) .

وقد نادى الأطباء المسلمون بالأندلس بضرورة مراعـــاة النظافة الشخصية والعناية بنظافة الأبدان وطهاراتها للوقاية من بعض الأمراض. من ذلك ما يذكره الطبيب ابن زهر عن حالات مرضية تلحق بالجلد أو الشعر أو الأسنان، وهى من الاعضاء والأطراف التى تمس المظهر الجمالى للانسان،فاشار الى تولد القشرة فى جلدة الرأس ووصف لها موادا طبية لغسل الراس ، ومنها : خل العنب ، والخل مع العســل . كما نبه الى أهمية القطران فى ازالة القشرة ، ووصف علاجات لمكافحة القمل المتولد من الوسخ اللاصق بالجلد ، وذلك بغسله بالخل والقطـــران ، وأوصى بالاستحمام وغسل الراس وعدم اهمال النظافة فى ذلك(٦١) .

كذلك ذكر الادريسى عند حديثه عن مدينة طليطلة أنه تقع بالقرب منها قرية تسمى بمغام ، وان بها تراب يستعمله الناس فى تنظيف وغسل شعر الراس(٦٢) .

ولما تعرض ابن زهر للأسنان وما يعتريها من ضعف وتشوه ، وصف علاجا لتقويتها وتبييضها وجليها ، كما نصح بتجنب تناول ما هو شديد الحموضة أو شديد السخونة أو شديد البرودة(٦٣) .

وكان الأندلسيون يولون اهتماما كبيرا بنظافة أيديهم وأفواهم عقب تناول الطعام والشراب . وقد احتفظ لنا أحد أعلام الأندلسيين وهو ابن رزين التجيبى بعدد من الوصفات لتنظيف الأيدى والأفواه واللثة والأسنان واسماها (الغاسولات) وهذه عناوين بعضها :

١ ـ اشنان ينظف اليد ويطيب الرائحة ويصلح الفم واللثة ويذهب روائح الأطعمة الدسمة .

٢ ـ أشنان طيب الرائحة كثير المنفعة يزيل الكلف والنمش ويرطب الأطراف .

٣ ـ أشنان يطيب البدن والنكهة ويشد اللثة وهو ملوكى .

٤ ـ غاسول ينقى الأيدى ويذهب الروائح الدسمة(٦٤) .



فاذا انتقلنا الى نظافة اللباس عند الأندلسيين لمسنا مدى حرصهم وعنايتهم بهذا الجانب من جوانب الشخصية الأندلسية • وقد ذكرنا آنفا ما قاله ابن سعيد الأندلسى من أن أهل الأندلس اشد الناس اعتناء بمظهرهم ونظافة ما يلبسون ويفرشون ، وان أحدهم ربما لم يكن معه الا قوت يومه فيحتفظ به ويطوى يومه صائما ليشترى بما يملك صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فى حال تزدريه الأعين •

وكانت هذه الظاهرة من الظواهر الاجتماعية التى اشتهر بها المجتمع الأندلسى ، فيذكر الادريسى أن أهل قرطبة : (اليهم الانتهاء فى السناء والبهاء •• ذكروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزى فى الملابس والمراكب وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ••)(٦٥) •

ولئن كان هذا الوصف قد ورد فى أهل قرطبة فان الحضارة الاسلامية الراقية فى الأندلس لم تكن وقفا على مدينة قرطبة وانما كانت شاملة لما سواها من المدن الأندلسية الأخرى •

فعلى سبيل المثال يقول الأدريسى عن مدينة بسطة : (ومدينة بسطة مدينة متوسطة المقدار ، حسنة الوضع ، عامرة آهلة ، لها أسوار حصينة ، وسوق نظيفة ، وديار حسنة البناء رائقة المعنى ••)(٦٦) •

ولما تحدث ابن الخطيب فى مقدمة كتابه الاحاطة عن أهالى مملكة غرناطة وصفهم بصلاح العقيدة ، وجميل السيرة وحسن الصورة ، ثم ذكر أزياءهم وملابسهم وعنايتهم بها حتى ليبدون فى أيام الجمع (كأنهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة)(٦٧) •



وعنى الأندلسيون بنظافة منازلهم ودورهم ، اذ من الطبيعى بعدما أشرنا اليه سابقا أن يكون للمنزل أو الدار مكانتهما الاجتماعية اللائقة • ويمكن استخلاص بعض المفاهيم التى تؤكد جمال المظهر المدنى ورقى السلوك الاجتماعى ، من خلال تتبع تلك النصوص التاريخية التى كتبها

الرحالة الجغرافيون عن المدينة الأندلسية ووصفها ببديع البنيان ، وحسن التنظيم ، ووصف أهلها بجميل السيرة ، ومنتهى البهاء والسناء ، وطيب العوائد والأخلاق(٦٨) ٠

ومن الطريف أن نجد المحتسب لا يقتصر دوره فى رعاية الجانب الجمالى على الأسواق والشوارع والساحات بل كان له اهتمامه الواضح أيضا بنظافة المنازل ومكافحة الأقذار فى الدور ، فكان يحث الناس على العناية بنظافة دورهم وصيانتها من تراكم الأوساخ والنفايات(٦٩) ٠

وكان يفضل بناء المنازل فى المواقع العالية لئلا تصلها المياه ولا تتأثر بالندى ، ولكى يشرف قاطنـــوها على ما تحتها من الأراضى الزراعية والبساتين ٠ ويفضل أن أمكن أن تبنى الدار على شاطىء نهر ، مستقبلة رياح الشمال والشرق حتى تشرق الشـمس من أبوابها ونوافذها ، لأن الرياح الشرقية أصح من سواها ، ودخول الشمس الى المنزل تدفع عن ساكنيه الأسقام والأدواء ٠ ويوصى بتوسيعها ورفع سقوفها(٧٠) ٠

ونبه ابن زهر الى أهمية اختيار موقع الســكن من حيث نظافته وصحة هوائه ، فمن الخطر السكن بجوار المقابر ، اذ قـــد يسبب ذلك تلوث الهواء المحيط بمجاورة جثث الموتى المتحللة ، كما أن من أسباب تلوث الهواء وجود المستنقعات والمياة الراكدة(٧١) ٠

ونلمس عند ابن زهر ملاحظات وتوجيهات حضارية راقية حـــول المسكن وموقعه ونظافته وعلاقة ذلك بصحة الانسان ، فهو عند الحديث عن الأورام الطاعونية يشدد على أهمية اصلاح المسكن ونظافته الى جانب عوامل أخرى ٠ وكان يوصى بأن يفرش المنزل بالريحان ، ويبخر أحيانا بالقطران ، وفى أحيان أخرى يرش المنزل بالخل المركز ٠ ونبه فى هذه الحال الى أن الغرف العلوية خير من البيوت السفلية(٧٢) ٠

ومن المؤسف أن التاريخ لم يحتفظ لنا بنصوص تاريخية وافرة عن البيت الأندلسى وعادات أهله من حيث النظافة والأناقة ٠ ويمكن أن نشير الى بعض ما كتبه بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مملكة غرناطة

فى أواخر الحكم الاسلامى وما سجلوه من مشاهدات المجتمع الأندلسى ، ففى عام٨١٧هـ/١٤١٤م زار غرناطة الرحالة الألمانى خيرونيمو مونزر ، وقد ادهشته نظافة الغرناطيين الشديدة ، ويذكر أن طرقات المدينة كانت ضيقة ، وان منازل المسلمين كانت صغيرة الحجم وتضم عددا من الغرف . ويضيف أن المنازل كانت بسيطة المظهر من الخارج ، ولكنها تتميز بجمالها ونظافتها من الداخل(٧٣) . واذا كانت النصوص التاريخية لم تعن بأوصاف البيت الأندلسى من الداخل ، فان البقايا الاثرية مازالت قائمة تشهد على جمال هذه البيوت وحسن تنسيقها .

وكانت ظاهرة النظافة وما عرف عن المجتمع الأندلسى من تمسك بها وحرص على الالتزام بها فى الحياة الخاصة والعامة ، مثار اعجاب الغربيين . ويشير ستانلى لينبول الى ذلك بقوله : (فى حين كان مسيحيو العصور الوسطى ينهون عنالنظافة ويعدونها من عمل الوثنيين، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذراتهم ، حتى أن راهبة دونت بعض مذكراتها فى صلف وعجب أنها الى سن الستين لم يمس الماء منها الا اناملها عندما كنت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس ، نقول بينما كانت القذارة من مميزات القداسة ، وكان المسلمون شديدى الحرص على النظافة ولا يجرؤون على مباشرة عبادتهم الا اذا كانوا متطهرين . وحينما عادت أسبانيا الى الحكم المسيحى أمر فيليب زوج مارى ملكة انجلترا بهدم كل الحمامات العامة لأنها من آثار المسلمين(٧٤) .

ومن خلال هذا الوصف وما يتعلق بنظافة الانسان المسلم ونزاهته بهذه الصورة المتمدينة صارت البيئة الأندلسية والمحيط الذى كان يعيش فيه الأندلسى مثالا لما كان ينبغى أن تكون عليه المجتمعات الأخرى. وها هو المؤرخ الأمريكى فكتور روبنسون يشير الى أن (أوربا كانت فى تلك العصور فى ظلام حالك فى الوقت الذى كانت قرطبة تضىء شوارعها وساحاتها المصابيح ، وكانت أوربا قذرة بينما كانت قرطبة تتباهى بأنها تضم الف حمام ، وكانت أوربا غارقة فى الوحل تسودها الهوام والحشرات بينما كان الأندلسيون مثال النظافة والرقى الحضارى)(٧٥).

★ ★ ★

وأخيرا نختتم هذا البحث المتواضع بالاشارة الى عدد من الأمثال السائرة والحكم المعبرة التى تداولتها السن العوام الأندلسيين حول أهمية النظافة وقيمتها كمظهر من مظاهر التمدن والسلوك الأخلاقى الجميل ، ونفورهم من كل ما يخالف ذلك من ألوان القذارة واهمال العناية بنظافة الجسد وطهارة المنظر والسلوك العام لدى الانسان . ومن الأمثال الأندلسية التى لها صلة بالبيت الأندلسى ما ينم عن صفات ربة المنزل وضرورة أن تكون رمزا للنظافة . فاذا كان أمرها يخالف ذلك فان التخلص منها هو العلاج الأمثل-لذلك دعوا الى تطليق المرأة التى تمتخط فى قناعها أو تدخل أصبعها فى انفها ، فيقول المثل الشعبى : « اذا ريت المرا تمخط فى قنعها (خمارها) وتخرج المفتول باصبعها لا تبقى معها) (٧٦) .

ويقول المثل أيضا حول المرأة : (كل شىء يهون الا الغزل المعفون) (٧٧) .

ومثل آخر : (سمج ومقذور حر غير مشكور) (٧٨) .

ومن أمثالهم حول الطبخ وأهمية مراعاة النظافة فيه ان هناك أنوانا منه لا يصلح طبخها الا فى قدور مخصوصة تراعى نظافتها وخلوها من الأقذار والملوثات يقول المثل : (قدرة الزفت ما يطبخ فيها معسل) (٧٩) .

كذلك بالغوا فى وصف أولئك الذين اهملوا النظافة فقالوا : (أقذر من ولد ناصر الطباخ ، الذى كان يقتل القمل على صلب المغرفة ، ويمسح المغرفة فى صلب الكلب) (٨٠) .

ولم يفت الأندلسيون فى أمثالهم أهمية نظافة الطريق والبيت وتنزيههما عن الأقذار ، فظاهرة البصق على الأرض من الأفعال المستقبحة والعادات المستقذرة . ويقول المثل : (بحل (بحال) ربى (حبر اليهود) فى شنوغ (معبد اليهود) يتحرك ويبزق) (٨١) .

ويقول المثل الآخر مستحسنا كنس المواضع وتنظيفها :

(كنس وجلس)(٨٢) ٠

وكانوا يبغضون انتشار الذباب والحشرات ويعدونها من المنغصات فيقول المثل :

(ما كفى العيش المر الافيه الدبان) (وما كفى الزيت المر الا فيه الدبان)(٨٣) ٠

الهـــوامش

(١) رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة ، ص ٤٣ (وتقع هذه الرسالة مع رسالتين أخريين فى الحسبة وهما رسالة أحمد بن عبد الرؤوف فى آداب الحســبة والمحتسب ورسالة عمر بن عثمان الجرسيفى فى الحسبة فى كتاب وقــد قام على نشرها ليفى بروفنسال تحت عنوان ثلاث رسائل اندلسية فى اداب الحسبة والمحتسب سنة ١٩٥٥م .

(٢) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ج٢ . ص ٥٥١ وانظر أيضا ص ٥٤٣.

(٣) ابن عبد الرؤوف ، رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ، ص ٩٧ .

(٤) رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٨ .

(٥) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٤ .

(٦) ابن عبد الرؤوف ، ص ٤٤ و ص ٤٧ .

(٧) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٣ ـ السقطى ، ص ٤٩ .

(٨) القنليات : جمع قنلية ، وهو حيوان شبيه بالأرنب لحمه لذيذ وفراؤه مرغوب فيه للباس ، انظر المقرى ، نفح الطيب ، ج١/١٩٨ لحاشية (٤) .

(٩) ابن عبدون : ص ٤٣ .

(١٠) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٦ ـ ٩٧ . وانظر ابن عبدون ص ٤٥ والسقطى ص ٥٠ .

(١١) السقطى : فى آداب الحسبة ، ص ٨٣ .

(١٢) مجصصة : أى مطلية بالجص (لسان العرب ، ج٧ مادة جصص) .

(١٣) فى آداب الحسبة ، ص ٥٠ ـ ٥١ ـ وانظر التجيبى : فضالة الخوان ص ٣١ .

(١٤) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٦ .

(١٥) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٨ .

(١٦) فضالة الخوان ، ص ٣١ .

(١٧) التيسير : ص ٤٩٩ .

(١٨) ابن عبدون ـ القضاء والحسبة ، ص ٤٥ ـ السقطى ، آداب الحسبة ، ص ٥٣ . والقدور المرصصة أى : المطلية بالرصاص (لسان العرب ، مادة رصص).

(١٩) السقطى ، ص ٤٥ .

(٢٠) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٠ ـ ٩١ .

(٢١) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٠ .

(٢٢) ابن عبد الرؤوف ـ رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ، ص ٩٢ ٠

(٢٣) الحنتم ـ نوع من الطين تصنع منه الأوانى المزججه من الداخل ٠ وفى لسان العرب : مادة حنتم أنه جرار خضر تضرب الى الحمرة ٠

(٢٤) ابن عبدون ، ص ٤٢ ـ ٤٣ ٠

(٢٥) السقطى : آداب الحسبة ، ص ٥٢ ٠

(٢٦) ابن عبدون ، ص ٤٢ ٠

(*) السرب حفير تحت الأرض ، أو قناة جوفاء يدخل منها الماء الحائط (لسان العرب ـ مادة سرب) ٠

(٢٧) ابن عبدون : القضاء والحسبة ، ص ٣٧ ٠ ابن عبد الرؤوف : رسالة فى آداب الحسبة ، ص ١١٠ ـ الجرسيفى : رسالة فى الحسبة ، ص ١٢٢ ٠

(٢٨) عبد الرؤوف ، ص ١١١ ٠

(٢٩) ابن عبدون : ص ٣٨ ـ ابن عبد الرؤوف : ص ١١١ ـ يوسف شكرى : غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، ص ١٠٢ ٠

(٣٠) التيسير فى المداوة والتدبير ، ص ١٤٠ ٠

(٣١) الجرسيفى : رسالة فى الحسبة ص ١٢٢ ـ ابن عبد الرؤوف : رسالة فى آداب الحسبة ، ص ١١١ وانظر يوسف شكرى ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ص١٠٢٠

(٣٢) السقطى : آداب الحسبة ، ص ٨٣ ٠

(٣٣) ابن عبد الرؤوف : فى آداب الحسبة ، ص ٧٣ ٠ أنظر ص ١١١ ٠

(٣٤) ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٢٢ ٠

(٣٥) السقطى ، ص ٨٤ ٠

(٣٦) ابن عبدون ، ص ٢٣ ٠

(٣٧) ابن عبدون ، ص ٢٤ ٠

(٣٨) ابن عبدون ، ص ٢٤ ٠

(٣٩) ص ٣٠ ٠

(٤٠) ابن عبدون ، ص ٣٢ ٠ رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٢ ٠

(٤١) ابن عبدون ، ص ٣٦ ٠

(٤٢) ابن عبد الرؤوف ، ص ١١٢ ٠

(٤٣) السقطى ، ص ٨٤ ٠

(٤٤) ابن عبدون ، ص ٢٦ ـ ٢٧ ٠

(*) ابن سعيد على بن موسى مؤرخ وأديب أندلسى له تآليف فى تاريخ الأندلس كالمغرب فى حلى المغرب والقدح المعلى ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ٠

(٤٥) نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٢٣ ٠

(٤٦) ابن خلصون : حفظ الصحة ، المقالة الثالثة ٠ ضمن كتاب الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية ، تأليف محمد العربى ج٢ ، ص ٢٠ ٠

(٤٧) التيسير ، ص ٩ _ ١٠ ٠

(٤٨) ابن غالب : فرحة الانفس ، جزء من الكتاب المفقـــود ٠ تحقيق لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج١ ، الجزء الأول ، ص ٢٩٦ ٠

(٤٩) وردت فى دائرة المعارف الاسلامية ، المســلخ والصحيح ما ذكـــرناه والمشلح موضع خلع الثياب فى الحمام من التشليح وهو خلع الثياب ٠ وانظر تقسيمات الحمام فى دائرة المعارف الاسلامية مادة : حمام ٠

(٥٠) يوسف شكرى : غرناطة ، ص ١٣٢ ٠

(٥١) السقطى : فى آداب الحسبة ، ص ٨٣ ٠

(٥٢) ابن عبدون : رسالة القضاء والحسبة ، ص ٤٨ ٠

(٥٣) حفظ الصحة : المقالة الثالثة ٠ ضمن كتاب الطـــب والأطباء ، ج٢ ، ص ٢٠ _ ٢١ ٠

(٥٤) المدجنون هم المسلمون الذين عاشوا فى ظل الحكم النصرانى بعد سقوط المدن الأندلسية فى أيدى الأسبان ٠

(٥٥) حضارة الاسلام فى أسبانيا ، ترجمة سليمان العطار ، ص ٤٧ _ ٤٨ ٠

(٥٦) لطفى عبد البديع : الاسلام فى أسبانيا ، ص ٩٢ ٠ نقلا عن النســخة الأسبانية من كتاب Americo Castro : Espana en su historia. P83.91

(٥٧) يوسف شكرى : غرناطة فى ظل بنى نصر ، ص ١٣٣ ٠

(٥٨) لطفى عبد البديع : المرجع السابق ، ص ٩٢ _ ٩٣ ٠

(٥٩) أمريكو كاسترو ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠ يوسف شكرى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ٠

(٦٠) امريكو كاسترو ، حضارة الاسلام فى أسبانيا ص ٤٨ ٠ وانظر لطفى عبد البديع ٠ الاسلام فى أسبانيا ، ص ٩٣ _ ٩٤ ٠

(٦١) ابن زهر ، التيسير ، ص ٢٢ وما بعدها ٠

(٦٢) نزهة المشتاق ، ج٢ ، ص ٥٥٢ ٠

(٦٣) التيسير ، ص ٢٤ _ ٤٥ وفيها انظر وصفا كاملا للعلاجات والوصفات الطبية لمعالجة الاسنان وتنظيفها ٠

(٦٤) فضالة الخوان فى طيبات الطعام والألوان ، ص ٢٧٧ وما بعدها وفيها تفصيل كل صفة وما تتكون منه من مواد عطرية وأعشاب ٠

(٦٥) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ج٢ ، ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ ٠

(٦٦) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٦٨ وانظر ايضا الاشارة الى مدينة شلب ، ص ٥٤٣ ٠

(٦٧) الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ج١ ، ص ١٣٥ ٠

(٦٨) انظر الادريسى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٥٧٥ ، ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ـ الحميرى ٠ الروض المعطار ، ص ٤٥٦ وما بعدها ، ابن الشباط : قطعة فى وصف الأندلس من كتاب صلة السمط ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، ص ١٣٩ ـ ١٤٢ ـ ١٥٠ ـ ابن سعيد : المرب ، ج١ ، ص ٢٩٣ ٠

(٦٩) انظر ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٧ ٠

(٧٠) ابن حجاج ، المقنع فى الفلاحة ، ص ٩ ٠

(٧١) التيسير ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ ٠

(٧٢) التيسير ، ص ٤٢١ ٠ ونجد فى كتاب المقنع لابن حجاج وصف مواد لمكافحة الفئران والبراغيث والنمل والذباب والبق والبعوض وكثير من الحشرات ٠

(٧٣) أحمد الطوخى : غرناطة الاسلامية فى نظر الرحالة الاجانب مقال ، بمجلة أوراق (العدد الرابع ، ١٩٨١م ، ص ١٤٣) ٠

(٧٤) قصة العرب فى أسبانيا ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ٠

(٧٥) محمد حامد منصور ، ذكريات ومشاهدات اندلسية ، (مقال منشور بمجلة الفيصل ، العدد ١٩٨ ، ١٤١٣هـ ، ص ٤٩ ٠

(٧٦) الزجالى (أمثال العاوم) ٠ تحقيق محمد بن شريفه ٠ ق٢ ، ص ١٣ ٠

(٧٧) المصدر والقسم نفسه ، ص ٢٥٥ ، ص ٤٢٦ ٠

(٧٨) المصدر نفسه والقسم ، ص ٤٢٦ ٠

(٧٩) ق٢ ، ص ٤١٨ ٠

(٨٠) ق٢ ،ص ١١٥ ٠

(٨١) ق٢ ، ص ١٤٤ ٠

(٨٢) ق٢ ، ص ٢٦٨ ٠

(٨٣) ق٢ ، ص ٣٤٦ ٠

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصــادر :

— الادريسى . محمد بن محمد (ق٦هـ)
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (د.ت) .

— التجيبى . على بن محمد (ق٧هـ)
فضالة الخوان فى طيبات الطعام والألوان . تحقيق محمـــد بن شثرون دار المغرب الاسلامى . الرباط . ط الأولى ١٩٨٤م .

— الجرسيفى عمر بن عثمان (ق٦هـ)
رسالة فى الحسبة . تحقيق ليفى بروفنسال . مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥م .

— ابن حجاج . أحمد بن محمد (ق ٥هـ)
المقنع فى الفلاحة . تحقيق صلاح جرار ، جاسر أبو صـــفية . مجمع اللغة العربية الاردنى ، ١٤٠٢هـ .

— الحميرى . محمد بن عبد المنعم (ت حوالى ٧١٠هـ)
الروض المعطار فى حبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة بيروت . ط الثانية ١٩٨٠م .

— ابن الخطيب . لسان الدين محمد (ت ٧٧٦هـ)
الاحاطة فى أخبار غرناطة.تحقيق محمد عنان . مكتبة الخانجى. القاهرة . ط الأولى ١٣٩٤هـ .

— ابن خلصون . محمد بن يوسف (ق ٧ هـ)
فصول من المقالة الثالثة من كتابه الأغذية وحفظ الصحة . منشورة فى كتاب الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية لمحمـــد العربى ، ج٢ ، دار الغرب الاسلامى . بيروت ، ط الأولى ١٩٨٨م .

ــ الزجالى • عبيد الله بن أحمد (ت ٦٩٤هـ)
أمثال العوام • دراسة محمد بن شريفة • مطبعة محمد الخامس • فاس ١٣٩١هـ •

ــ ابن زهر • عبد الملك بن أبى العلاء (ت ٥٥٧ هـ)
التيسير فى المداواة والتدبير • تحقيق ميشـيل الخورى • دار الفكر • دمشق ط الأولى ١٤٠٣هـ •

ــ ابن سعيد • على بن موسى (ت ٦٨٥هـ)
المغرب فى حلى المغرب • تحقيق شوقى ضيف • دار المعارف القاهرة ط الثالثة •

ــ السقطى • محمد بن أبى محمد (ق ٥هـ)
فى آداب الحسبة • تحقيق د• حسن الزين • مؤسسة دار الفـكر الحديث • بيروت ١٤٠٧هـ •

ــ ابن عبد الرؤوف • أحمد بن عبد الله (ق ٥هـ)
رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب • تحقيق ليفى بروفنسال مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية • القاهرة ١٩٥٥م •

ــ ابن عبدون • محمد بن أحمد (ق ٥هـ)
رسالة فى القضاء والحسبة • تحقيق ليفى بروفنسال • مطبعـة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية • القاهرة ١٩٥٥م •

ــ ابن غالب • محمد بن ايوب (ق ٦هـ)
فرحة الأنفس • تحقيق لطفى عبد البديع • مجلة معهد المخطوطات العربية • ج١ الجزء الأول (٢٧٢ ــ ٣١٠) •

ثانيا : المراجـع :

ــ امريكو كاسترو : حضارة الاسلام فى اسبانيا • ترجمة د• سليمان العطار ، دار الثقافة • القاهرة ١٩٨٣م •

- ستانلى لينبول ، قصة العرب فى اسبانيا ، ترجمة على الجارم دار المعارف ، مصر .

- لطفى عبد البريع ، الاسلام فى اسبانيا ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١٩٦٩م .

- يوسف شكرى ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، المؤسسة الجامعية للدراسات الجامعية والنشر ، بيروت ، ط الأولى .

ثالثا : المقــالات :

- أحمد الطوخى ، غرناطة الاسلامية فى نظــر الرحالة الأجانــب (مقالة منشورة بمجلة أوراق ، المعهد الاسبانى العربى للثقافة) .

- محمد حامد منصور ، ذكريات ومشاهدات أندلسية (مقالة منشورة بمجلة الفيصل العدد ١٩٨ ، ١٤١٣هـ) .

- دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة أحمد الشنتناوى وآخرون ، دار الفكر ، ١٩٣٣م .

آل الجنابى بين الفاطميين والعباسيين
فى
القرنين الثالث والرابع للهجرة

د. يمنى رضـــوان(*)

دعوة الباطنية وآل الجنابى : ـ

آل الجنابى طائفة من الباطنية(=) . ومن المعـــروف أن الدعوة الباطنية قام بتأسيسها عدة أشخاص منهم ميمون بن ديصان(×) المعروف بالقداح ، وقد ادعى أنه من نسل عقيل بن أبى طالب . وعندما دخل فى دعوته قوم من غلاة الرفض(١) والحلولية(٢) ادعى أنه من ابناء محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، فاستجاب له كثير من الناس(٣) .

وقد ولى عبد الله بن ميمون القداح زعامة الدعوة بعد وفاة والده ، وعندما علم العباسيون بنشاطه أمروا بالقبض عليه ففر هو وزميل آخر يدعى الحسين الأهوازى الى سلمية(٤) واتخذاها دار هجرة ومركـزا رئيسيا لهم يرســـلون منها الدعاة لنشر دعوتهم فى أنحـاء العـــالم الاسلامى(٥) . وبعد وفاة عبد الله بن ميمون ولى ابنه أحمـــد زعامة الدعوة وقام بارســـال الداعى الحســـين الأهـــوازى عام ٢٦٤هـ (٨٧٧م) الى العراق حيث التقى بحمدان بن الاشعث(٦) قرمط(٧) ـ الذى تنسب اليه القرامطة ويعتبر مؤسس الدعـــوة الاســـماعيلية بين القرامطة(٨) ـ وافضى اليه بأسرار الدعوة بعد أن أخذ عليه العهـــد ، ـ والعهد هو القسم ـ بأن يجعل للحسين الاهوازى وللامام على نفسه عهد الله وميثاقه بأن لا يخرج سر الامام الذى علمه . ولا يفشى سر الحســين الأهوازى(٩) . وقد ترك الحسين الأهوازى أمر الدعوة فى سواد العراق

(*) مدرس التاريخ الاسلامى ـ كلية التربية ـ جامعة القاهرة ـ فرع الفيوم .

الى حمدان قرمط ، الذى تمكن من بث دعاته فى السواد ليأخذ على الناس العهد ، فانتشرت الدعوة الاسماعيلية بفضله انتشارا كبيرا (١٠) .

وكان من دعاة حمدان صهره عبدان (١١) ، وكان يدعو الى الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر (١٢) وممن استجاب اليه فى دعوته ابو سعيد (١٣) الجنابى (١٤) الذى أسس دولة للقرامطة فى بلاد البحرين (١٥) وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال أى شمال غرب بلاد العراق وبادية السماوة (١٦) وبعض بلاد الشام (١٧) .

وعندما تمكن حمدان من احكام السيطرة على اتباعه حلل لهم ترك الفرائض، مؤكدا انهم غير مطالبين بالصوم والصلاة وغير ذلك من أركان الدين، وان أموال ودماء المخالفين لهم أصبحت مباحة لهم ؛ ومعرفة صاحب الحق - الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الذى يدعو اليه - تغنى عن التكاليف الدينية الأخرى . وهذا الامام لم يمت ، وهو المهدى المنتظر الذى سوف يظهر فى آخر الزمان (١٨) .

وكان حمدان بن الأشعث قرمط يراسل دعاة الفاطميين بسلمية. ولكنه لاحظ تغييرا فى أسلوب الرسائل التى كان يرسلها اليه رئيس الدعاة فى سلمية. وعندما أرسل عبدان ليستكشف له الأمر، وجد ان الشخص الذى كانوا يراسلونه وهو أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح قد توفى وخلفه ابنه الحسين ، فسأل عبدان الحسين عن الامام الذى يدعو اليه ، فساله الحسين بتعجب ومن هو الامام ؟ فقال عبدان أنه محمد بن اسماعيل (١٩) بن جعفر الذى دعا له أحمد بن عبد الله وكان حجته ، فانكر الحسين ذلك وقال (ان الامام كان والدى وأنا الآن أحل محله) .

استنكر حمدان أن يتولى الحجة رتبة الامام ، وبالأصح ان يتولى الامامة شخص لا يمت الى العلويين بصلة . ولذلك أمر حمدان دعاته بايقاف الدعوة فى المناطق التابعة له ، لكنه لم يستطع ايقافها فى الأماكن الأخرى ، فقد تسربت الدعوة وامتدت الى سائر الأقطار (٢٠) .

وسرعان ما اختفى حمدان قرمط وقتل عبدان لانتقاضهما على

رياسة الدعوة وعلى ابناء القداح(٢١) ٠ وكان لانفصال حمدان عن الدعوة عدة نتائج منها انقطاع العلاقات بين دعاة الفاطمين فى الشام - سلمية - ، والقرامطة ، بعد أن كانت الدعوتان متفقتين(٢٢) ، كما ان دعـــوة القرامطة خمدت فى العراق وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه بن مهـــرويه الدندانى ، ونحو الجنوب على يد ابى ســـعيد الجنابى(٢٣) ٠

تاسيس دولة آل الجنابى فى بلاد البحرين :

وكان أن لاقت الدعوة الاسماعيلية على يد حمدان بن الأشعث - الملقب بلقب قرمط - وصهره عبدان الكثير من النجاح واستجاب لها الكثير من الناس منهم أبو سعيد الجنابى الذى أسس دولة القرامطة فى بلاد البحرين ٠

وكان عبدان صهر حمدان قد أرسل أبا سعيد الجنابى - أحد دعاة القرامطة - الى جنوب ايران ،فانتشرت تعاليمه بنجاح كبير ، لكنه سرعان ما اختفى عندما اكتشفت الشرطه أمره وأخذت تبحث عنه ، فاستدعاه حمدان قرمط ثم أرسله الى البحرين لينشر دعوته هناك ، فأحرز نجاحا كبيرا(٢٤) حتى تمكن من الاستيلاء على بلاد البحرين(٢٥) ٠

ومن الواضح أن المؤرخين لم يتفقوا على السنة التى ظهرت فيها دعوة القرامطة فى البحرين ، فالبعض يقول ان ذلك كان عـــام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) مثل ابن خلدون(٢٦) وآخرون(٢٧) يقولون ان ذلك كان عام ٢٨٦هـ (٨٩٩م) مثل الطبرى(٢٨) وابن الجوزى(٢٩) وابن الأثير(٣٠) وابى المحاسن(٣١) ٠

ويبدو أن كلا الرايين على صواب ، فالدعوة أخذت طـــريقها الى البحرين منذ عام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) ، ثم ظهرت وانتشرت وأسس القرامطة دولة لهم بالبحرين منذ عام ٢٨٦هـ (٨٩٩م) ٠

وعندما قام أبو سعيد الجنابى بنشر دعوته فى بلاد البحرين(٣٢) ، دعا الى امام من أهل البيت ، قيل انه محمـــد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل انه محمد بن الحنفية(٣٣) ٠ وكان أبو سعيد يدعى أنه

ينتسب الى العلويين ، كما ادعى أنه المهدى القائم بدين الله حتى يجذب الناس(٣٤) ، فتقبل الأهالى دعوته وخاصة الاعـــراب الذين أسرعوا بالانضمام اليه والالتفاف حوله(٣٥) ، لأنـــه خفف عنهم الفرائض ، فاختصر الصلاة وجعلها فرضين صباحا ومســاء ، واعفاهم من صـــوم رمضان ٠ ولذا أحب البدو أبا سعيد واكبروه وعظموه ، وقالوا أنه الامام المنتظر بعينه(٣٦) ٠

ومما هو جدير بالذكر ان انضمام الاعراب الى ابى سعيد لم يكن ناتجا عن ايمانهم بدعوته وانما سعيا وراء مصلحتهم الخاصة ، والسماح لهم بالسلب والنهب(٣٧) ٠

والواقع ان هناك ظروفا كثيرة وعوامل عديدة ساعدت على انتشار دعوة القرامطة فى الشرق الاسلامى،منها حالة الضعف التى اتصفت بها الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، وازدياد نفـــوذ الاتراك واستبدادهم بأمور الخلافة،وانشغال الخلفاء العباسيين فى أواخر القرن الثالث الهجرى بالقضاء على الفتن والثورات التى أثارها الأتراك والتى اثارها صاحب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠هـ/٨٦٨ - ٨٨٣م(٣٨) ٠ هـــذا الى أن المشرق الاسلامى تميز فى ذلك الدور بسوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، فازدادت الضرائب وتعسف الجباة فى جبايتها ٠ يضاف الى ما سبق انتشار الفقر وزيادة ظلم الملاك للفلاحين ، وغير ذلك ٠ وقد استفادت الحـــركة القرامطية من تلك العوامل وجذبت اليها الساخطين والمتذمرين ووعدتهم باجابة مطالبهم ، فالتف حولها الكثير(٣٩) ٠ ومما ساعد على انتشار دعوة القرامطة تقسيم الدعوة الى درجات مبسطة حتى يسهل فهمها وجذب الناس اليها(٤٠) ومن الواضح أن طبقة العامة لم تكن على درجة كافية من الوعى والثقافة تجعلها تستطيع ان تكتشف مـــدى صـــدق هـــذه الدعوة(٤١) ٠ هذا الى أن العناصر غير العربية - وبخاصة الفرس - كان هدفها القضاء على سيادة العرب ، اذ كان الموالى يحقدون على العرب وعلى ما يتمتعون به من سيادة دينية وسياسية ، لذلك شايعوا اية حركة ثورية للقضاء على نفوذهم(٤٢) ٠ وهناك بعض اسر عربية فى منطقة السواد استجابت لدعوة القرامطة مثل أسرة آل سنبر التى اجابت الحسن بن بهرام الجنابى الى دعوته(٤٣) ٠

وهكذا اشتدت شوكة ابى سعيد بمن انضم اليه ، فأخذ يقتل أهلى القرى المجاورة الذين رفضوا تلبية دعوته ، واتجه نحو القطيف(٤٤) حيث قتل من بها من الأهالى . ولم يمتنع على ابى سعيد سوى هجر - عاصمة البحرين . وفى سنة ٢٨٧هـ (٩٠٠م) أغار قرامطة البحرين على هجر وحاصرها أبو سعيد لمدة سنتين(٤٥) . وخلال هذا الحصار أخذ القرامطة يقتربون من البصرة(٤٦) ، فأرسل أحمد بن محمد بن يحيى الواثقى- معاون البصرة وكور دجلة الى بغداد بأمر القرامطة ، وشرع فى بناء سور حول البصرة للدفاع عنها(٤٧) . وعندما سمع الخليفة العباسى المعتضد(٤٨) (٢٧٩ : ٢٨٩هـ/٨٩٢ : ٩٠١م) بأمر القرامطة ، أسرع بارسال جيش كبير من البصرة بقيادة العباس بن عمرو الغنوى - بعد أن ولاه على اليمامة والبحرين - والتقى العباس بن عمرو بأبى سعيد الجنابى عام ٢٨٩هـ(٩٠١م)عند هجر، واستمر القتال بينهما طوال يومين انتهى بنجاح ابى سعيد فى هزيمة العباس واسره وقتل جميع من كان معه ، ثم حرقهم بالنار واستولى على ما معهم(٤٩) .

على أن أبا سعيد الجنابى اطلق سراح العباس بن عمرو الغنوى وأرسل معه رسالة ليسلمها الى الخليفة المعتضد(٥٠) . وقد اختلف المؤرخون فى أمر هذه الرسالة ، فالبعض(٥١) ذكر ان الرسالة لم تكن قد دون بها شىء . وعندما تسلم المعتضد الرسالة ولم يجد بها شيئا قال أنه يعنى من هذه الرسالة اننى ارسلتك اليه على رأس جيش كبير العدد فردك بمفردك . والبعض(٥٢) الآخر ذكر ان ابا سعيد عندما أطلق سراح العباس اعطاه رسالة ليسلمها الى المعتضد يأمره فيها أن يكف عن ارسال الجيوش اليه ، كما أنه هدده بأنه سيتغلب على اى حملة يرسلها ويبيدها، مثلما فعل مع العباس بن عمرو.وهذا يدلنا على مدى ثقة أبى سعيد بنفسه وامتلاكه عناصر كثيرة من القوة مما هيا له النجاح ، حتى امتلك مدينة هجر بعد أن منح أهلها الأمان(٥٣) وبذلك بسط نفوذه على البحرين والأحساء(٥٤) واليمامة(٥٥) .

سياسة آل الجنابى تجاه الفاطميين :

اتصفت العلاقة بين ابى سعيد وبين الخلافة الفاطمية الناشئة

بالفتور ؛ لأن أبا سعيد كان أشبه بملك مستقل وليس تابعا للدولة الفاطمية . ولذا لم يتقيد فى سياستة بآراء زعماء الدعوة الاسماعيلية ، وانما كان صريحا فى نشر آراء المذهب الاسماعيلى . ذلك أن المجتمع القرمطى كان مجتمعا اسماعيليا بحتا - وذلك على عكس سياسة الفاطميين التى قامت باخفاء آراء هذا المذهب عن رعاياهم .

وكان آل الجنابى يخضعون فى دور الستر لرياسة الدعوة فى سلمية . غير ان هذا الخضوع فتر قليلا ، فعز على زعمائهم أن يسلبوا بعض نفوذهم نظرا لظهور الامام المستور فى شخص عبيد الله المهدى الفاطمى ٢٩٧ - ٣٢٢ هـ (٩٠٩ - ٩٣٣م) ، ولذلك لم يعد أبو سعيد الحسن يتحمس للخلافة الفاطمية تحمسه للامامة المستورة .

ولما ادرك الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/٩٠٧ - ٩٣٢م) ووزيره على بن عيسى فتور العلاقة بين ابى سعيد والفاطميين ، ومدى الخطر الذى ستتعرض له الخلافة العباسية اذا اتحد أبو سعيد الجنابى وعبيد الله الفاطمى ، عملا على جذب ابى سعيد اليهما . ومما يدل على التقارب بين ابى سعيد والعباسيين أنه لم يمد يد العون والمساعدة للفاطميين خلال حملتهم على مصر عام ٣٠١ - ٣٠٢هـ/٩١٣ ، ٩١٤م مما ساعد على فشل تلك الحملة(٥٦) .

على أنه يبدو أن فتور العلاقة بين أبى سعيد والفاطميين كان من أهم العوامل التى أدت الى قتله . ويقال انه كان لدى أبى سعيد خادم صقلبى قام بقتل سيده بايعاز من الخليفة عبيد الله المهدى الذى شعر بخروجه عن سياسته(٥٧) وكذلك يقال ان هذا الخادم لاحظ أن سيده لا يصلى ولا يصوم شهر رمضان ، لذلك قام باغتياله فى الأحساء عام ٣٠١هـ(٥٨) (٩١٣م) .

ولم يتوقف الفتور بين آل الجنابى والفاطميين بموت أبى سعيد الجنابى ، وانما استمرت الجفوة فى عهد ابنه أبى القاسم سعيد ٣٠١ - ٣٠٥هـ (٩١٣ - ٩١٧م) - الذى آلت اليه زعامة آل الجنابى . ذلك أن

أبا القاسم سار على سياسة أبيه فى التقرب الى العباسيين والتباعد عن الفاطميين.ومما يدل على ذلك الرسالة التى أرسلها أبو القاسم سعيد الى على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر العباسى والتى اعلن فيهـــا ولاءه للعباسيين وانه يدين بالعقائد السنية.هذا الى أن أباالقاسم سعيد ولى الحكم بالوراثة - فقد عهد اليه أبوه بذلك قبل وفاته - ولم يتم تعيينه من قبل الفاطميين . ولاشك فى أن هذا الاتجاه أثار الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى الذى كان يعمل لتكون له الزعامة المطلقة على جميع الاسماعيلية.

على أن القرامطة انقسموا الى فريقين ، فريق يناصر سعيد ،وهذا الفريق كان قليل العدد . وفريق ظل على ولائه للفاطميين ، وكان يضم أبا طاهر سليمان أخى أبى القاسم سعيد . وهؤلاء كانوا كثره(٥٩) ،لذلك عملوا على عزل أبى القاسم سعيد عن الزعامة ثم قتله وقام الفاطميون بتولية أخيه أبى طاهر سليمان عام ٣٠٥هـ (٩١٧م) ، وأرسل عبيد الله المهدى كتابا اليه بتوليته(٦٠) .

وهكذا نجح الخليفة الفاطمى فى ادخال آل الجنابى دائرة التبعية للدولة الفاطمية .

والواقع أن علاقة الفاطميين فى بلاد المغرب بآل الجنابى فى بلاد البحرين غدت طيبة منذ أن ولى أبو طاهر عام ٣٠٥هـ (٩١٧م) وحتى نهاية حكمه عام ٣٣٢هـ (٩٤٣م) . ذلك أن أبا طاهر سليمان التزم بتبعيته الفاطميين ، وشايعهم فى سياستهم التى تهدف الى القضاء على الخلافة العباسية ، ولهذا تحالف مع عبيد الله المهدى فى سياسته العدائية ضد العباسيين ، واتفقا على اتباع سياسة موحدة من ثلاث شعب : -

الأمر الأول : هو أن يســـاعد أبو طاهر الفاطميين فى فتح مصر وذلك بأن يشن هجوما عليها من الشرق ليلتقى بجيوش عبيد الله بها ، أو أن يعمل الحيلة على الخلافة العباسية حتى لا تستطيع ارسال جيوشها لنجدة مصر .

الأمر الثانى : هو ان يشغل العباسيين بالهجــوم عليهم فى بلاد العراق حتى يتمكن عبيد الله المهدى من تنظيم شئون المغرب ٠

الأمر الثالث : الاغارة على مكة وعلى قوافل الحجاج حتى يقلل هذا من هيبة الخليفة العباسى كزعيم للمسلمين٠

وفيما يختص بالأمر الأول اتفق الفاطميون مع القرامطة عام ٣٠٧هـ (٩١٩م) على القيام بهجوم مزدوج على مصر بحيث تهاجمها جيوش القرامطة من الشرق وجيوش الفاطميين من الغرب ويلتقى الطرفان فى مصر ٠ ولكن هذه الخطة فشلت ، اذ أسرعت الخلافة العباسية بارسال الجيوش من بغداد الى مصر بقيادة مؤنس الخادم، الذى تمكن من ايقاع الهزيمة بجيش أبى القاسم بن المهدى قبل ان تصل اليه جيوش أبى طاهر٠ وبذلك فشلت الحملة الفاطمية الثانية على مصر،ولكنها رغم فشلها أثبتت ولاء أبى طاهر للفاطميين كما أنها القــت الرعــب فى قلوب أهالى البلاد(٦١) ٠

آل الجنابى والخلافة العباسية :

اما بالنسبة للأمر الثانى فنلاحظ ان أبا طاهر سليمان شن عــدة حملات على الخلافة العباسية فى المشرق ، حتى يتمكن عبيد الله المهدى من بسط نفوذه على المغرب ، فقام بعدة غزوات متتالية للاستيلاء على البصرة ٠ من ذلك أنه سار الى البصرة عام ٣٠٧هـ (٩١٩م) واستولى على خيراتها وقتل أهلها وخرب أراضيها(٦٢) ٠ وفى عام ٣١١هـ (٩٢٣م) تمكن من دخول البصرة وقتل أهلها وحاميتها واميرها المســمى سبكا المفلحى، وأستولى علىأموالها وضرب جامعها وأراضيها٠ومكث فيها سبعة عشر يوما ثم عاد الى بلده٠وتعتبر هذه من أشد الغزوات التى قام بها على البصــرة ٠

ومن ناحية أخرى فانه اعترض احدى قوافل الحجاج عام ٣١٢هـ (٩٢٤م) أثناء عودتها من مكة،واستولى على ما مع الحجاج وأسر الكثير منهم وقتل الأسرى(٦٣) ٠

وعندما علم بقية الحجاج بمـــا حدث للقافلة الســـابقة مكثوا فى فيد(٦٤) حتى نفدت مؤنتهم، فاسرعوا عائدين الى طريق الكوفة،وعندئذ اعترضهم القرامطة واستولوا على ما معهم ٠ ثم عاد ابو طاهر ومن معه الى هجر،وترك الحجاج مشردين فى البادية فمات أكثرهم عطشا من شدة حرارة الشمس ٠

ولما أرسل الخليفة المقتدر الى ابى طاهر يطلب منه أن يطلق سراح أسرى الحجاج،اطلقهم وطلب منهم ابلاغ الخليفة برغبته فى تولى البصرة والأهواز٠غير أن الخليفة رفض ، فخرج ابو طاهر من هجر واعترض الحجاج(٦٥) ـ الذين كان يتزعمهم جعفر بن ورقاء الشيبانى ، متولى اعمال الكوفة وطريق مكة ٠ وكان يقوم بحمايتهم قادة الجيش ـ فقاتلهم وأخذ يتبع القافلة حتى باب الكوفة وانهزم عساكر الخليفة ولم يتم الحج لأحد(٦٦) ٠ وتمكن أبو طاهر بذلك من دخـــول الــكوفة عام ٣١٢هـ (٩٢٤م) وخربها وفعل بها اشد مما فعله بالبصرة،واستولى على أموالها وقتل أهلها ، وظل بها ستة أيام ثم عاد الى هجر(٦٧) ٠

وفى عام ٣١٥هـ (٩٢٧م) توجه أبو طاهر لمحاربة يوسف بن أبى الساج الذى كان بواسط حيث أرسله الخليفة العباسى لمحاربة القرمطى ٠ ولكنه لم يستطع المسير الى بلدة أبى طاهر أمير القرامطة لكثرة جيوشه وصعوبة الأرض ، فلجأ الى الحيلة وارسل اليه واظهر له المودة « وأطمعه فى أخذ بغداد » فسر بذلك ورحل ومعه أتباعه وحاشيته وجيشه فى كامل عدته واتجه نحو الكوفة ٠ وكان يوسف بن ابى الساج قد اتجه بجيشه من واسط الى الكوفة،ولكن ابا طاهر سبقه اليها واستولى على الكوفة وعلى المؤن التى كانت بها والتى اعدت لأبن أبى الساج(٦٨) ٠ وكان أن نشب القتال بين أبى طاهر ويوسف بن ابى الساج حتى تمكن الأول من هزيمة القائد العباسى ابن أبى الساج وأسره(٦٩) ٠

وهكذا ازداد نفوذ أبى طاهر القرمطى حتى شرع فى مهاجمة بغداد فى عام ٣١٦هـ(٩٢٨م)٠وكاد يستولى عليها لولا مهارة مؤنس الخادم قائد الخليفة العباسى الذى أرسل القوارب المليئة بالفاكهة المسمومة الى جند

القرامطة ، فكثرت الميتة فيهم(٧٠)٠ كذلك قطع القنطرة التى توصل الى هذه المدينة ليحول دون تحقيق هدفهم فى السيطرة على بغداد٠وبذلك انهزم جيش القرامطة بقيادة أبى طاهر وتكبد خسائر فادحة(٧١) ٠

وعلى الرغم من هزيمة ابى طاهر أمام بغداد،الا أنه ظل يأمل فى السيطرة عليها والدعوة فيها للمهدى الفاطمى ٠

وفى عام ٣١٦هـ (٩٢٨م) تمكن أبو طاهر من بسط نفـوذه على الرحبة(٧٢) بعد ان دارت بينه وبين أهلها عدة حروب ٠ وعندما علـم بهذا أهل قرقيسياء(٧٣) أسرعوا بطلب الأمان منه،فمنحهم الأمان ٠وبعد ذلك اتجه نحو الرقه وبسط نفوذه عليها،ثم عاد الى بلاد البحرين وبنى بها دار هجرة(٧٤) ٠

وكان من نتائج انتصار القرامطة ان ظهـرت اعـداد ممن كانوا يدينون بمذهبهم ويخفون عقيدتهم ٠ وقد اجتمع هؤلاء فى سواد الكوفة واختاروا رئيسا لهم هو حريث بن مسعود ، كما اجتمعت مجموعة أخرى من القرامطة فى عين القمر(٧٥) وولوا شئونهم رجـلا يعرف بعيسى واخـذوا ينهبون ويقتلون ٠ وقد أرسـل الخليفة المقتدر العباسى هارون بن غريب الى حريث بن مسعود ، وصافيا البصرى الى عيسى بن موسى٠وتمكن كل من هارون وصافيا من هزيمة تلك الجموع وأسر كثير منهم ، وتم ارسالهم الى بغداد حيث قتل معظمهم(٧٦) ٠

وهكذا استمر أبو طاهر بن أبى سعيد الجنابى يغير على البلاد ويسلب ويقتل ويخرب ، حتى قوافل الحجاج لم تسلم من شره ٠ وكان يهدف من وراء هذا كله أن يؤكد اخلاصه للفاطميين وأن يشغل العباسيين بهذه الحروب حتى يتمكن عبيد الله المهدى من توطيد نفوذه فى المغرب٠

وفى عام ٣١٧هـ (٩٢٩م) قام القرامطة بفعلة شنعاء ، اذ اقتحموا مكة وهى مكتظة بالحجاج ، واستطاع أبو طاهر سليمان (٧٧) أن ينفذ الى المسجد الحرام فى يوم الترويه(٧٨) حيث فعـل أفعالا لا يفعلها المشركون ولا اليهود بمكة(٧٩) ٠

ذلك أنه قام بذبح الحجاج أثناء وجودهم بالمسجد الحرام وأثناء طوافهم ، وخلال سيرهم فى طرقات مكة دون أن يراعى حرمة هذا البلد الأمين ، كما قتل الكثير من عساكر المسلمين · وعندما خرج اليه ابن مجلب(٨٠) أمير مكة ومعه بعض الاشراف لمحاربته ، تمكن ابو طاهر من هزيمتهم وقتلهم جميعا ، وردم بئر زمزم بجثثهم ، كما دفن الباقين فى المسجد الحرام دون ان يكفنهم أو يصلى عليهم(٨١) وقيل ان الجنابى استملك من النساء والغلمان اعدادا ضخمة ضاق بهم الفضاء وأنه قتل بمكة الوفا(٨٢) ، بلغوا ثلاثة عشر الفا ·

ويقال أن أبا طاهر جلس يوم الترويه على باب الكعبة يشاهد الحجاج وهم يتساقطون صرعى حوله وأخذ ينشد(٨٣) :

انا لله وبالله أنا   يخلق الخلق وافنيهم انا

وبعد ذلك قام ومن معه بنهب أموال الحجاج وسلب متاع أهل مكة وقلع قبة بئر زمزم وقلع باب الكعبة وستائرها ، وارسل رجلا من أصحابه ليصعد ويقلع المرزاب (الميزاب) ، ولكنه وقع على رأسه ومات · ثم قام بقلع كسوة الكعبة وقسمها بين أصحابه · ولم يكتف بهذا بل تجرأ واقتلع الحجر الأسود ، كما اقام الخطبة فى مكة للخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى بدلا من الخليفة العباسى المقتدر(٨٤) ·

قيل انه اثناء قيامه بهذه الأفعال البشعة أخذ يردد : -

فلو كان هذا البيت لله ربنا   لصب علينا النار من فوقنا صبا
لانا حججنا حجة جاهلية   مجللة لم تبق شرقا ولا غربا
وانا تركنا بين زمزم والصفا   كتائب لا تبغى سوى ربها ربا
ولكن رب العرش جل جلاله   فلم يتخذ بيتا ولم يتخذ حجبا

وبعد أن ظل أبو طاهر(٨٥) فى مكة أحد عشر يوما ، عاد الى الأحساء ومعه الحجر الأسود والأسرى وما سلبه من مكة(٨٦) · وقد استمر الحجر الأسود فى حوزة القرامطة بالبحرين اثنتين وعشرين سنة

تقريبا من ٣١٧ - ٣٣٩هـ (٩٢٩ - ٩٥٠م)(٨٧) وعندما عاد أبو طاهر الى بلده ابتلاه الله بمرض الجدرى،وتقطع جسده وهو ينظر اليه(٨٨).

ومن الواضح انه لم يأخذ الحجر الأسود من مكة سعيا وراء المال. ذلك ان بجكم والى بغداد - فى أيام الخليفة العباسى المستكفى (٣٣٣ - ٣٣٤هـ/٩٤٤ - ٩٤٥م) بذل للقرامطة خمسين الف دينار من الذهب لكى يردوا الحجر الأسود،لكنهم رفضوا(٨٩). وانما كان الهدف طعن الخلافة العباسية واظهار ضعفها أمام المسلمين وعجزها عن حماية الحجاج . هذا بالاضافة الى رغبة القرامطة فى جذب المسلمين للحج الى بلادهم بدلا من مكة(٩٠) . ويتضح لنا ذلك من أخذهم الحجر الأسـود الى بلادهم(٩٠) . ولكن على الرغم من أن الحجر الأسود ظل فى البحرين اثنتين وعشرين سنة ٣١٧ - ٣٣٩هـ (٩٢٩ - ٩٥٠م)(٩١) الا أن أحدا من المسلمين(٩٢) لم يتردد على بلاد القرامطة لزيارته .

وكان من نتائج هذه الحادثة - ان اعتنق ضعاف العقيدة من أهالى العراق مذهب أبى طاهر بعد ان افتتنوا به(٩٣) . هذا الى أن هـذا الحادث أظهر فعلا مدى ضعف الخلافة العباسية وعجـزها عن حماية الحجاج ورعاية المسـلمين ، وهـذا هو ما كان يسـتهدفه القرامطة والفاطميون(٩٤) .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان عبيد الله المهدى عندما علم بما قام به أبو طاهر أسرع بارسال رسالة(٩٥) اليه يهدده ويوبخه لما فعله(٩٦) . واذا صح ذلك فاننا نرى أن هدف الخليفة الفاطمى تبرئة نفسه من تلك الجريمة التى اهتز لها العالم الاسلامى بأسره .

ولم يكن هذا هو كل ما قام به ابو طاهر ، فبعـد أن هاجم مكة وبسط نفوذه عليها واقام الخطبة فيها لعبيد اللـه المهدى ، فرض على الحجاج اتاوة عام ٣٢٧هـ ٩٣٨م يدفعونها اليه مقابل عدم التعرض لهم. وكان الحج قد توقف منذ سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) فلم يحج احد من العراق - خوفا من القرامطة - الا بعد عشر سنين تقريبا عندما أرسل أبو على عمر بن يحيى العلوى الى أبى طاهر القرمطى وطلب منه ان لا يتعرض

للحجاج مقابل أن يعطيه عن كل حمل خمسة دنانير ، فوافق وادى الناس فريضة الحج ذلك العام « وتعتبر هذه أول سنة أخـــذ فيه المكس من الحجاج »(٩٧) ٠

اضطراب العلاقة بين الفاطميين وآل الجنابى :

استمر ابو طاهر سليمان الجنابى على اخلاصـــه للفاطميين حتى توفى عام ٣٣٢هـ (٩٤٣م) بمرض الجدرى كما سبق أن أشرنا ٠ ولم يترك رغم كثرة أبنائه من يصلح للحكم،فقد كان سابور بن ابى طاهر اكبر ابنائه العشرة لا يزال طفلا لا يمكن الاعتماد عليه ٠ لذلك قام الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤هـ/٩٣٣ - ٩٤٥م) بتعيين - أخى أبى طاهر - احمد بن أبى سعيد(٩٨) الملقب بأبى المنصور فى حكم دولة آل الجنابى فى البحرين ، وجعل سابور بن ابى طاهر وليا للعهد(٩٩)٠

وقد اتبع أمير القرامطة أحمد بن سعيد (٣٣٢ - ٣٥٩هـ) (٩٤٣- ٩٦٩م) سياسة أخيه فى ولائه للفاطميين ، فاعاد الحجر الأســـود من الأحساء الى الكعبة عام٣٣٩هـ(٩٥٠م) خلال خلافة الخليفة المطيع(١٠٠) بدون مقابل(١٠١)، وقال من ردوه « اخذناه بأمر واعدناه بأمر »٠ ومن هذا يبدو أن احمد بن أبى سعيد رد الحجر الأسود عنـــدما أمره بذلك الخليفة المنصور الفاطمى ، مما يدل على مدى خضوع قرامطة البحرين للفاطميين ٠ ولما شرع آل الجنابى فى رد الحجر الأسود حملوه الى الكوفة وعلقوه بجامعها حتى رآه الناس ثم حملوه الى مكة(١٠٢) ٠

وكان أبو منصور أحمد يفضـــل أن ينولى العهـــد من بعده ابنه « الحسن الاعصم » بدلا من « سابور » ابن أخيه ٠ لذلك نشب النزاع بين بيت أحمد بن أبى ســعيد والـــد الحســن وبيت أبى طاهـــر بن أبى سعيد ، فقام سابور بالقبض على عمه أبى منصور أحمـــد عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م)،ولكن سرعان ماخرج ابو منصور أحمد من معتقله وقتل سابور بن أبى طاهر عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) ونفى أخوته وأتباعه الى جـــزيرة أوال(١٠٣) ٠

وقد ظهر عداء آل الجنابى الصريح للفاطميين بعد قتل سابور ، اذ أدى قتله الى قيام النزاع بين آل الجنابى والفاطميين فترة من الزمن، لأن الفاطميين قاموا بتولية سابور العهد بعد عمه أحمد واعتبروا قتله خروجا على طاعتهم(١٠٤) ، وعلى القاعدة التى وضعوها منذ عهد عبيد الله المهدى الفاطمى وهى القاعدة التى تهدف الى جعل الخليفة الفاطمى هو المتحكم فى تعيين رؤساء القرامطة أو عزلهم(١٠٥) ٠

ومما زاد الفاطميين حنقا على بيت أحمدبنأبى سعيد أنآلالجنابى جنحوا نحوا الاستقلالعن الفاطميين والتصرف دون الرجوع لهم(١٠٦)٠ بعد أن كانوا لا يحاربون الا بوحى من الفاطميين ٠ من ذلك أن القرامطة أغاروا فى عهد اميرهم أحمد بن أبى سعيد مرتين على بلاد الشام فى زمن الاخشيديين،وذلك فى عامى ٣٥٣هـ ، ٣٥٧هـ (٩٦٤م،٩٦٧م) ٠ ففى الحملة الأولى التى تعرف بحملة طبرية عام ٣٥٣هـ (٩٦٤م) تمكن القرامطة - وعلى راسهم الحسن الاعصم - بمساعدة الحمدانيين - من الانتصار على الوالى الاخشيدى الحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشيد الذى كان يتولى الشام من قبل الأخشيديين(١٠٧) ٠ وفى المرة الثانية عجز الأخشيديون ايضا عن صد حملة القرامطة على دمشق ، وبذلك امتد نفوذ قرامطة البحرين على بلاد الشام ، وتمكنوا من بسط نفوذهم على الرملة،مما اضطر الحسنبنعبيداللهبن طغج الأخشيد الى أن يتفق معهم، على أن يدفع لهم ثلاثمائة الف دينار سنويا ٠ وقد أبرموا هذا الاتفاق دون الرجوع للفاطميين ، فاعتبر الفاطميون هذا خروجا على رياسة الدعوة الاسماعيلية(١٠٨) ٠ وهكذا بدا أن القرامطة أخذوا يعملون لحسابهم الخاص دون التقيد بزعامة الفاطميين ٠

على انه نجم عن مقتل سابور واتفاق القرامطة مع الاخشيديين على الاتاوة دون الرجوع للفاطميين انقسام القرامطة الى فريقين احدهما بزعامة بيت أبى طاهر ظل على ولائه للفاطميين ، والآخر بزعامة بيت احمد بن أبى سعيد وكان يحنق على الفاطميين ويعمل على التقرب الى العباسيين ٠ وكان على رأس الفريقالآخير الحسن الأعصم الذى ولى امارة بلاد البحرين (٣٥٩ - ٣٦٧هـ/٩٦٩ - ٩٧٧م) بعد وفاة أبيه ٠



في ضوء هذه الاحداث صار لابد من قيام حـــرب بين القرامطة المعارضين والفاطميين . وقد حدث عندما مات احمد بن أبى سعيد أن استبد ابنه الحسن الأعصم بالحكم واتبع سياسة جديدة تجاه الفاطميين تخالف سياسة الود التى اتبعها من سبقه ، اذ أخذ يعمل على التقرب من العباسيين(١٠٩) . من ذلك أنه عندما كان الحسن الأعصم بمكة سمع الخطبة تقام للخليفة العباسى المطيع فلم يعترض عليها . وفى ذلك يقول ابن خلدون(١١٠) « وولى ابنه ابو على الحسن بن احمد ويلقب الاعصم وقيل الاغنم ، فطالت مدته وعظمت وقائعه ونفى جمعا كثيرا من ولد أبى طاهر.يقال اجتمع منهم بجزيرة آوال نحو من ثلثمائة.وحج هذا الأعصم بنفسه ولم يتعرض للحج ولا انكر الخطبة للمطيع » . وفى هذا ما يؤكد انحياز الاعصم للعباسيين وابتعاده عن الفاطميين .

والواقع أن هناك عوامل عديدة أدت الى توتر العلاقات ونشوب الحروب بين آل الجنابى والفاطميين فى عام ٣٥٩هـ(٩٦٩م)، منها تدخل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ - ٣٦٥هـ/٩٥٢ - ٩٧٥م) فى شئون القرامطة الداخلية ، وقتل سابور على يد أحمد بن أبى سعيد ، واستبداد الحســـن الاعصم بزعـــامة القرامطة دون الرجـــوع الى الفاطميين الذين كانوا يتحكمون فى تعيين الدعاة . ومن أهم هـــذه العوامل أيضا أن الفاطميين عندما فتحوا دمشق عام ٣٥٩هـ (٩٦٩م) - كما سيأتى - رفضوا دفع الاتاوة السنوية التى كان يدفعها الاخشيديون للقرامطة(١١١) . ويجرنا هذا الى الحديث عن النزاع بين آل الجنابى والفاطميين حول بلاد الشام ومصر . ذلك أن الخليفة المعز لدين اللـــه الفاطمى رأى ضرورة فتح مصر حتى يتمكن من تحقيق آماله فى ضرب الخلافة العباسية واسقاطها.وربما كان من اهداف الخليفة المعز أيضا تاديب القرامطة ، بدليل أن جوهر الصقلى اعلن فى كتاب الأمان الذى قراه على المصريين أن المعز أرسله لكى ينقذهم من ظلم العباسيين ويصد عنهـــم أخطار القرامطة الذين غزوا بلاد الشـــام عام ٣٥٣هـ(٩٦٤م) ، ٣٥٧هـ (٩٦٧م) وتعرضوا للحجاج ومنعوهم من أداء فريضة الحج(١١٢) .

وفى هذا البيان ما يدل على أن توتر العـــلاقات بين الفاطميين

والقرامطة بدأ قبل استيلاء الفاطميين على دمشق ومنعهم الاتاوة عن القرامطة ٠

وقد حتمت الضرورة على الفاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر أن يتجهوا لفتح الشام حتى يؤمنوا حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى ، ولكى يقضوا على القرامطة الذين أخذوا ينتهجون سياسة جديدة تجاه الفاطميين(١١٣) ٠

لذلك أرسل جوهر الصقلى القائد جعفر بن فلاح الكتامى على رأس قوة لفتح بلاد الشام فى أواخر عام ٣٥٩هـ (٩٦٩م) فنجح فى بسط نفوذه على بلاد الشام واستولى على الرملة وطبرية ودمشق ٠ ولكنه ترك لجنوده كامل الحرية فى معاملة الأهالى دون ضبط أو ربط فعاملوهم معاملة سيئة ، مما اثار سخط الناس عليه وعلى الفاطميين الذين كانوا يخالفونهم فى المذهب الدينى(١١٤) ٠

ولكن جعفر بن فلاح سرعان ما واجه خطر قرامطة البحرين بعد استيلائه على بلاد الشام ٠ وكان هؤلاء القرامطة قد بسطوا نفوذهم على بلاد الشام عام ٣٥٧هـ(٩٦٧م)٠وعندما طلب الحسن الاعصم من جعفربن فلاح دفع الاتاوة التى كان يدفعها له الأخشيديون رفض دفعها ٠ ولذا خطب الحسن الأعصم للخليفة العباسى المطيع (٣٣٤ - ٣٦٢هـ/٩٤٥ - ٩٧٢م) وارتدى السواد شعار العباسيين(١١٥) ٠ بل لقد أرسل الى الخليفة المطيع العباسى والأمير البويهى عز الدولة بختيار فى العراق يطلب منهما المساعدة حتى يتمكن من استرداد بلاد الشام من الفاطميين، وتعهد بأن يحكم هذه البلاد باسم الخليفة العباسى ، فاستجابوا لطلبه وامدوه بالأموال والرجال ٠ هذا الى أن عز الدولة بختيار طلب من الحمدانيين بالموصل أن يمدوا الحسن الأعصم زعيم القرامطة بالأموال والرجال فلبوا طلبه ٠وقام الحمدانيون بمده بالأموال والرجال وسمحوا لجنودهم بالتطوع فى جيش الحسن ، وشجعوا الأخشيديين والكافوريين الذين فروا اليهم على الانضواء تحت لواء الحسن الاعصم كما أن الحسن الاعصم أخذ يجمع الاعراب مستعينا فى ذلك بالأموال التى أخذها من الخليفة العباسى(١١٦) ٠

وبعد أن استكمل استعداداته ، اتجه الحسن الأعصـــم على رأس جيوشه نحو دمشق فى عام ٣٦٠هـ (٩٧٠م)٠وكان جنوده يحملون الاعلام السوداء وعليها اسم الخليفة المطيع العباسى وعبارة « السادة الراجعون الى الحق »(١١٧) ٠ ودارت رحى الحرب بين الحسن الأعصم أمـــير القرامطة وجعفر بن فلاح القائد الفاطمى فى ناحية الدكه - التى تقع على نهر يزيد بالقرب من دمشق - وانتهت المعركة بهزيمة جعفر وقتله هو ومعظم اتباعه،وبهذا بسط الحسن الاعصم نفوذه على دمشق(١٨٨)٠

وهناك أسباب عديدة أدت الى هـــزيمة الجيش الفاطمى فى بلاد الشام منها استهانة جعفر بالقرامطة وعدم اعداده القوات الكافية لصدهم٠ ويبدو انه لم يكن يتوقع ان يهاجمه هؤلاء بقوات ضخمة بدليـل أنه لم يطلب النجدة من القائد الأعلى جوهر الصقلى ٠ هذا فضـلا عن ســوء العلاقة بينه وبين قائده ٠ وقد اعتقد جعفـــر انه يستطيع أن يقضى على القرامطة بمفرده دون الاستعانة بجوهر الصقلى ٠

وأما الحسن الاعصم فقد اتبع فى دمشق سياسة تهدف الى التودد لأهلها فمنح أهلها الأمان بعـــد أن فتحها كما أنه دعا للخليفة العباسى المطيع فى مساجد دمشق،وحذف اسم الخليفة الفاطمى المعز من الخطبة٠ ولم يكتف بهذا بل امر بلعن الخليفة الفاطمى على منابر المسجد الأموى بدمشق ، الأمر الذى قابله أهالى دمشق بالترحاب لأنهم كانوا على المذهب السنى ومعادين للشيعة(١١٩) ٠

وبعد ذلك زحف الحسن الأعصم تجاه الرملة،وكان يليها سعادة بن حيان القائد الفاطمى٠وعندما علم سعادة بن حيان بمسير الحسن الأعصم اليه اسرع نحو يافا حتى يكون على اتصال بمصر عن طريق البحر ٠ اما الحسن الأعصم فقد تتبع القائد الفاطمى وفرض عليه الحصار بيافا . وبهذا تمكن امير القرامطة من بسط نفوذه على الرملة وعلى كل المـــدن الواقعة بين دمشق والرملة ، واقام فيها الدعوة للخليفة العباسى(١٢٠)٠ وفى هذا يقول المقريزى « واقام القرامطة الدعوة للمطيع لله العباسى فى كل بلد فتحوه وسودوا اعلامهم ورجعوا عما كانوا يمخرقون به »٠

ثم كان أن ترك الحسن الاعصم ظالم بن موهوب العقيلى وابا المنجا بن منجا مع بعض القرامطة لمحاصرة الفاطميين بيافا،واتجه هو بجيوشه نحو مصر(١٢١) ، وذلك فى أواخـــر عام ٣٦٠هـ (٩٧٠م) ليقضى على حكم الفاطميين ويمنعهم من مهاجمته مرة أخرى . وبعد أن استولى على الفرما هاجم مدينة القلزم (مدينة السويس) وتمكن من دخولها وأسر واليها الاخشيدى عبد العزيز بن يوسف ، وبهذا تحكم فى برزخ السويس. وفى عام ٣٦١هـ (٩٧١م) وصل الى عين شمس - وأخذ يهدد القاهرة . وقام انصار الحسن الأعصم بالقاء منشـــوراتهم الثـــورية بجامع عمرو بالفسطاط لتحريض المصريين ضد جوهر(١٢٢) .

وعندما علم جوهر الصقلى بوصول القرامطة الى برزخ السويس بدأ يعد العدة لمحاربتهم . فحفر خندقا كبيرا حول القاهرة لتحصينها . وأرسل بعض رجاله ليندسوا فى معسكر القرامطة ويتظاهرون بالسخط على الفاطميين وعلى جوهر ، داعين أن ينتقل الحكم من الفاطميين الى القرامطة . وبهذا انتشرت الفوضى بين صفوف جيش الأعصم(١٢٣) .

وفى عام ٣٦١هـ (٩٧١م) دارت معركة طاحنة عنـــد باب مدينة القاهرة بين القرامطة بزعامة الحسن الأعصم وبين المغاربة بزعامة جوهر الصقلى . واستمرت الحرب بين الطرفين عدة ايام ، انتصر القرامطة فى بادىء الأمر على الفاطميين ، ولكنهم انهزموا فى النهاية ورحلوا الى الاحساء ، فاقتفى جوهر أثرهم ، وتمكن من استرداد الفرما . ثم اتجه نحو يافا وهاجم القرامطة الذين كانوا يحاصرون من بها من الفاطميين وارغمهم على التقهقر الى دمشق كما أنه استعاد جميع مدن فلسطين عدا دمشق التى ظلت بيد القرامطـــة(١٢٤) . وكان لانتصـــار الفاطميين على القرامطة نتائج كثيرة منها ان الاخشيديين والكافوريين انفضوا من حول الحسن الاعصم بل أن بعضهم دخـــل فى طاعة الفاطميين ، كما استرد جوهر مدينة الفرما .

ومن الواضح أن هزيمة القرامطة لا ترجع الى شجاعة جند جوهر فحسب بل انها ترجع أيضا الى سياسة الخليفة المعز الذى أخذ يكيـــد

للأعصم ويعمل على التخلص منه لانضمامه للعباسيين وقتله جعفر بن فلاح وهجومه على مصر . وكان أن نجح الخليفة المعز فى اشعال نار الفتنة فى بلاد البحرين ضد الحسن الاعصم (١٢٥)، مما جعل الأعصم يرتد عن مصر عام ٣٦١هـ (٩٧١م) ليتمكن من اخماد الثورة التى اشعلها أبناء عمه أبى طاهر . وقد أناب الحسن الأعصم عنه على دمشق أبو المنجا القرمطى وظالم بن موهوب العقيلى . وبعد أن تمكن الأعصم من اخماد ثورة أبناء عمه فى البحرين بمساعدة العباسيين عام ٣٦٢هـ(٩٧٢م) عاد واسترد نفوذه على بلاد الشام ثم أخذ يعد العدة لشن حملة ثانية على مصر(١٢٦) .

ولما علم الخليفة المعز وهو بالقيروان بأمر القرامطة حضر الى القاهرة فى أواخر عام ٣٦٢هـ (٩٧٢م) للدفاع عنها . وقد رأى أن يرسل الى الحسن الاعصم كتابا قبل أن يبدأ القتال فربما يستطيع أن يثنيه عن رايه(١٢٧) . وفى هذا الكتاب أخذ الخليفة المعز يذكر الحسن الاعصم بأهله الذين كانوا عبيدا لدى الفاطميين ثم أصبحوا سادة بفضلهم ، كما ذكره بأن أهله القرامطة كانوا يقيمون الدعوة له ولأبنائه ، وعليه أن يتخذ منهم عبرة . ثم أخذ يتساءل عن سبب عدائه للفاطميين وانضمامه للعباسيين ، ثم سبب ما قام به فى بلاد الشام وقتله جعفر بن فلاح وغيره.

وأخيرا عرض الخليفة المعز على الحسن الأعصم ثلاثة حلول ليختار أحدها قائلا : « ونحن معرضون ثلاث خصال ـ والرابعة أردى لك وأشقى لبالك ، وما احسبك تحصل الا عليها ـ فاختر : اما قدمت نفسك لجعفر بن فلاح ، واتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان، ورد جميع ما كان لهم من رحال وكراع ومتاع الى آخر حبة من عقال ناقه وخطام بعير ـ وهى أسهل ما يرد عليك .واما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ولا سبيل لك الى ذلك ولا اقتدار . واما سرت ومن معك بغير زمام ولا أمان فاحكم فيك وفيهم بما حكمت، وأجريكم على احدى ثلاث : اما قصاص ... واما فدى . فعسى أن يكون تمحيصا لذنوبك واقالة لعثرتك وان أبيت الا فعل اللعين »(١٢٨) .

والحق أن هذا الكتاب يوضح العلاقة القديمة التى كنت تقوم على أساس المودة بين القرامطة والفاطميين ، ويؤكد أن الفاطميين أصل الاسماعيلية وان القرامطة فرع منهم ٠ ورغم ما فى هذا الكتاب من تهديد ووعيد الا أن الحسن الاعصم لم يبال به واستمر فى اتباع سياسته واصراره على القيام بالحرب ، فأرسل الى الخليفة المعز ردا على رسالته يدل على الاستهانة به ، حيث كتب اليه : « وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام » (١٢٩) ٠

وهكذا سار القرامطة بزعامة الحسن الأعصم فى عام ٣٦٣هـ(٩٧٣م) من الأحساء تجاه مصر، وفرضوا عليها حصارا شديدا،ولم يستطع الخليفة المعز مواجهتهم لكثرة قواتهم٠لذلك لجأ الى الحيلة حتى يتمكن من تمزيق كلمتهم ٠ وبالفعل تمكن من استمالة حسان بن الجراح الطائى - رئيس الطائيين الذين كانوا من أقوى العناصر التى يتالف منها جيش الأعصم - فقد اتفق الخليفة المعز مع حسان على ان يدفع له مائة الف دينار على أن يتظاهر بالهزيمة عندما تنشب الحرب بينهم وبين الفاطميين ، فوافق على طلبه ، فارسل اليه الأموال المتفق عليها،ولكنها كانت مزيفة(١٣٠)٠ يقول ابن الأثير : « فضربوا أكثرها دنانير من صفر والبسوها الذهب وجعلوها فى أسفل الاكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤوسها وحمل اليه ٠٠٠ »(١٢١) ٠

ولما نشبت الحرب بن القرامطة وجند المعز واشتد القتال ، ارتد حسان ابن الجراح منهزما الى الشام ، فتعجب الحسن الاعصم من أمره وأستمر يقاتل بمن معه لكن جند المعز شددوا حملاتهم عليه ، فاسرع منهزما الى بلاد الشام ، وتمكن الفاطميون من أسر الكثير من القرامطة(١٣٢) ٠

ولكن على الرغم من الهزيمة التى منى بها الحسن الأعصم فانه أصر على طرد الفاطميين من مصر والاستيلاء عليها ، الأمر الذى يؤكده هذان البيتان اللذان أنشدهما بعد فراره من مصر ٠

زعمت رجال الغرب(١٣٢) أنى هبتها
فدمى اذن ما بينها مطلول(١٣٤)
يا مصر ان لم أرو ماءك من دم
يروى ثراك ، فلا سقانى النيل

وقد أرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى قواته بقيادة أبى محمود ابن جعفر بن فلاح لتتبع القرامطة فى الشام،والقضاء عليهم حتى لايعودوا مرة أخرى الى مهاجمة مصر . وتمكنت الجيوش المغربية من اللحاق بهم فى أذرعات(١٣٥) ، فترك الحسن الأعصم بلاد الشام وعاد الى البحرين، وذلك بعد أن ترك على دمشق أبا المنجا القرمطى واليا عليها(١٣٦).

ولم يلبث الخليفة المعز ان تمكن من استرداد دمشق ،اذ انتهز فرصة وجود خلاف بين أبى المنجا القرمطى حاكم دمشق من قبل الحسن الأعصم، وظالم بن موهوب العقيلى - أحد انصار الحسن الأعصم - وعمل على استمالة ظالم بن موهوب،فأرسل اليه كتابا يطلب فيه أن يقبض على أبى المنجا ويرسله الى مصر،فنفذ ظالم ما طلبه منه المعز،وقبض على أبى المنجا وابنه ومن معهم من القرامطة . لذلك قام الخليفة المعز بتقليده ولاية دمشق عام ٣٦٣هـ (٩٧٣م) ، وبذلك بسط الفاطميون سلطانهم على بلاد الشام بعد أن انتزعوها من القرامطة(١٣٧) .

على أن الأوضاع لم تستقر فى دمشق بتولية ظالم بن موهوب العقيلى ولايتها ، فقد نشب نزاع بين أهالى الشام السنيين وبين الفاطميين ، فأرسل الخليفة المعز بعض قواته بقيادة أبى محمود بن جعفر ليحافظ على الأمن.لكن هؤلاء الجنود سرعان ما انصرفوا الى العبث والفساد . ودب النزاع بين عساكر أبى محمود وبين اهل الشام حتى تم الاتفاق على اخراج ظالم بن موهوب من البلد ٣٦٤هـ (٩٧٤م) وتولية جيش بن الصمصامة محله فى ادارة أمور دمشق بالاشتراك مع ابن أخيه أبى محمود ابن جعفر(١٣٨) .

ومع ذلك فان الهدوء لم يسد دمشق ، اذ سرعان ما نشب النزاع من جديد بين أهالى دمشق والمغاربة ، وأدى هذا النزاع الى تخريب البلاد

واضطراب الناس ووفاة الكثير منهم ٠ وعندما علم الخليفة المعز الفاطمى بهذا ارسل الى ريان الخادم ـ واليه على طرابلس ـ وامره بالتوجه الى دمشق وان يتولاها ويعزل عنها أبا محمود بن جعفر ويعمل على قمع الفتن ونشر الأمن بين الأهالى وجند المغاربة(١٣٩) ٠

وفى تلك الأجواء استغل افتكين(١٤٠) التركى ـ أبو منصور التركى الشرابى ـ الاضطرابات التى سادت بلاد الشام وضعف الحكم الفاطمى فيها وتمكن من دخـــول دمشـــق ومعـــه فريق من الأتراك عام ٣٦٤هـ (٩٧٤م)(١٤١) ٠ فرحب اشراف دمشق وشيوخها بقدوم افتكين وخرجوا لاستقباله وطلبوا منه أن يتولى حكم بلادهم ويخلصهم من المغاربة الشيعة وظلمهم ٠ فأجابهم الى طلبهم ووعدهم بالحماية ، فعزل ريان الخادم عن دمشق واقام الخطبة للخليفة الطائع العباسى (٣٦٢ ـ ٣٨١هـ/٩٧٢ ـ ٩٩١م) بدلا من الخليفـــة المعـــز لدين اللـــه الفاطمى ، كما قضى على الفتن(١٤٢) ٠

وبعد أن بسط افتكين التركى نفوذه على دمشـــق خشى أن تهاجمه قوات الفاطميين ورأى أن يستميل الخليفة المعز لدين الله ، فارسل اليه رسالة يتظاهر فيها بالطاعة له ، فأرسل اليه الخليفة المعز يدعوه للحضور حتى يقره على ولايته ، لكن افتكين لم يثق بما أرســله ، ورفض الذهاب اليه(١٤٣) ، فجهز الخليفة المعز عساكره لمحاربة افتكين ، ولكنه مرض ومات عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) وولى بعده ابنه العزيز(١٤٤) ٠

اما افتكين فقد بسط نفوذه على صيدا وعكا وطبريه بالاضافة الى دمشق،وقد انزعج الخليفة العزيز الفاطمى (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/٩٧٥ـ٩٩٥م) لذلك،وعمل على استرداد بلاد الشام من افتكين(١٤٥) ، وأرسل جوهر الصقلى على رأس حملة قوية الى دمشق ٠ ولما وصل جوهر الى الرملة عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) أرسل الى افتكين رسالة أوضح له فيها أن الخليفة العزيز بالله يمنحه الأمان ، فأرسل اليه افتكين الرد الذى علم منه جوهر انه مصر على الحرب(١٤٦) ٠

ولم تلبث أن دارت رحى الحـــرب بين أفتكين وجوهر الصـــقلى

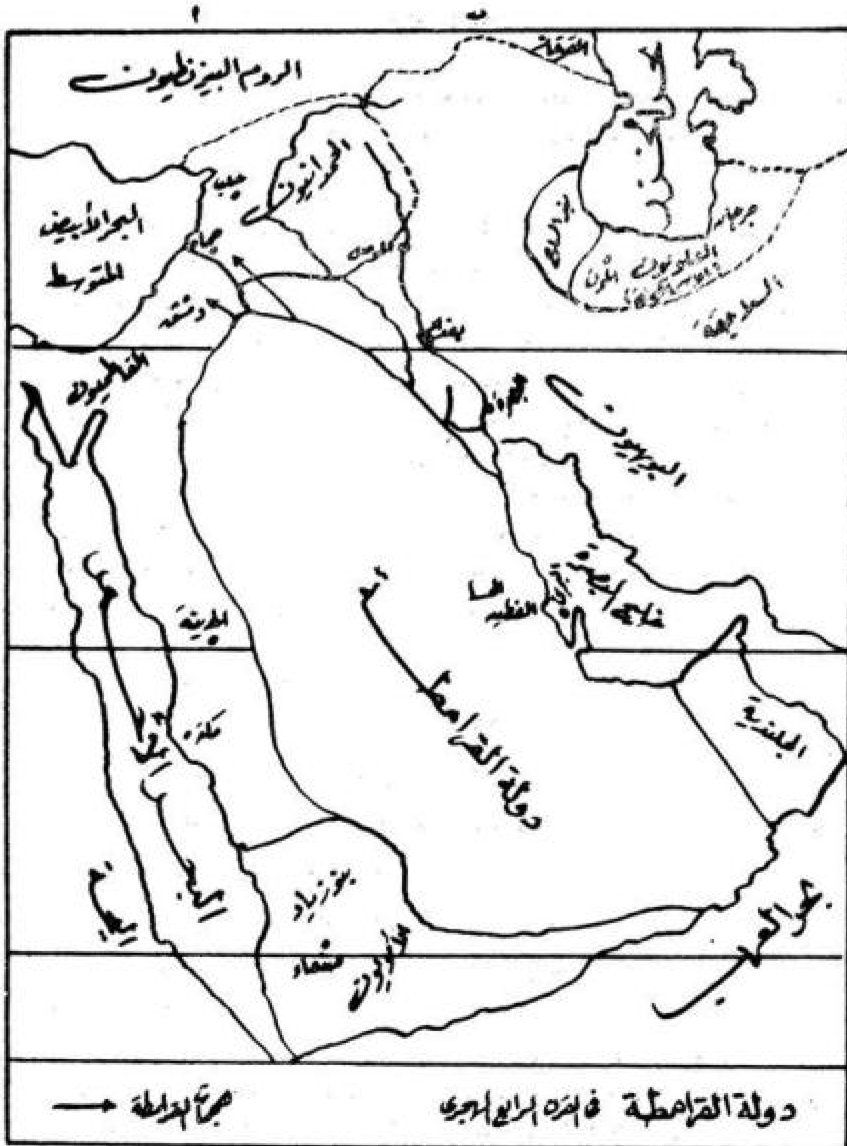
واستمرت عدة أشهر ، ظهرت فيها شجاعة افتكين ومهارته ومن معه ٠ وفرض جوهر الصقلي الحصار على مدينة دمشق ٠ وعندما طال الحصار أشار أهل دمشق على افتكين بأن يستدعى الحسن بن أحمد القرامطة من البحرين للوقوف بجانبه فى محاربة جوهر ، فأجابهم الى طلبهم ٠ وعندما علم جوهر الصقلى بمسير القرامطة نحوه اضطر الى رفع الحصار عن دمشق لخوفه من أن يقع بين عدوين ، وتراجع نحو الرملة فتبعه الحسن الأعصم وافتكين، وقاتلاه قتالا شديدا ٠ وعندما عجز عن مقاومتهم اتجه نحو عسقلان ، فتبعه أفتكين والقرمطى وفرضا عليه حصارا شديدا٠ ولما طال الحصار وقلت المؤن طلب جوهر مقابلة أفتكين ، فلبى طلبه (١٤٧) ٠ واجتمع به فقال له جوهر : « وقد دعوتك الى الصلح والموادعة ٠٠ فابيت الا القبول ممن يشب نار الفتنة ٠٠٠ واريد أن تمن على بنفسى وبهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى وتذم لى لامضى واعود» (١٤٨) فوافق أفتكين على ذلك بشرط أن يخرج جوهر ومن معه من تحت سيفه ورمح الحسن بن أحمد على باب عسقلان (١٤٩) ٠

ووافق جوهر على ذلك ومر هو وأصحابه من تحت السيف والرمح قاصدين القاهرة فى وضع يتصف بالذلة والهوان ٠

ولما عاد جوهر الصقلى الى مصر التقى بالخليفة العزيز بالله الفاطمى وأوضح له ما دار بينه وبين القرامطة وافتكين ، فقرر الخليفة الخروج بنفسه لمحاربتهما ، وجهز الجيوش وجعل جوهرا على مقدمتها ٠ وعندما علم افتكين والحسن القرمطى بمسير الخليفة اليهما عادا الى الرملة وأخذا يعدان للقتال ٠ وكان أن دار القتال بين الفريقين عام ٣٦٧هـ (٩٧٧م) وأسفر عن هزيمة افتكين والحسن بن أحمد القرمطى وفرارهما وقتل الكثير من جنودهما (١٥٠) ، وكان ذلك خاتمة لنفوذ آل الجنابى فى بلاد الشام ومصر ٠

وأخيرا عاد الحسن الأعصم الى الاحساء بعد هزيمته أمام الخليفة العزيز الفاطمى ، ثم توفى عام ٣٦٧هـ (٩٧٧م) ، فنشبت الخلافات بين قرامطة بلاد البحرين حيث انكروا السياسة التى اتبعها الحسن الأعصم وما قام به من مبايعة بنى العباس وعدائه للفاطميين ، وقرروا أبعاد أبناء

أبى سعيد الجنابى عن الحكم وقامـــــوا بتولية رجلين منهم هما جعفر واسحق(١٥١) ، فذهب بنو أبى سعيد الى جزيرة آوال ، وهناك تعرضوا للقتل على ايدى خصومهم(١٥٢) . وبذلك انتهى نفوذ آل الجنابى فى بلاد البحرين .



عدنان العطار ـ الأطلس التاريخي

(مجلة المؤرخ العربي)

الهـــوامش

(=) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص١٨٥ فهو يقول «ومن الاشخاص البارزة بين الباطنية (حمدان بن الأشعث) الملقب بقرمط فى سواد الكوفة ··· وأبو سعيد حسن بن بهرام الجنابى » ·

وقد عرف الباطنية بهذا الاسم لزعمهم أن لكل ظاهر باطنا ،ولكل تنزيل تأويلا انسلاخا من الدين ! (١) ويقال ان دعوة الباطنية ظهرت أولا فى زمان المأمون وانتشرت فى زمان المعتصم · (ب) وقد أطلق مؤلفو العرب اسم الباطنية على فرق عديدة متباينة كان لها شأن سياسى هام وأهمها القرامطة والاسماعيلية . (حـ) فالاسماعيلية يسمون بالباطنية لأنهم يقولون ان لكل ظاهر من الاحكام الشرعية باطنا ولكل تنزيل تأويلا · (د) وقيل ان من أهداف الباطنية الدعوة الى دين المجوس ومما يؤكد ذلك ان زعيم الباطنية الأول ميمون بن ديحان كان مجوسيا من سبى الأهواز ، والبعض ينسب الباطنية الى الصابئيين الذين هم بحران ، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية ، واستدل أيضا بأن صابئة حران كانوا يكتمون عقائدهم ولا يظهرونها الا لمن كان منهم والباطنية أيضا لا يظهرون دينهم الا لمن كان منهم بعد احلافهم اياه على ان لا يذكر أسرارهم لغيرهم ·

(١) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ١٨٨ ·

ـ الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٧٢ ·

(ب) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٨ ·

(حـ) دائرة المعارف الاسلامية المجلد السادس ص ٨٦ ·

(د) المعرى : رسالة الغفران ص ٣٥٧ ·

(و) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٧٧٧ ، ٢٧٨ ·

(×) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ كان مولى لجعفر بن محمد الصادق وكان من الاهواز ·

(١) الرافضة أهل ضلال وهم ثمانى عشرة فرقة والقرامطة فرقة من هـــذه الفرق (١) فالرافضة صنف من أصناف الشيعة وقد سموا رافضة لرفضهم امامة أبى بكر وعمر وهم مجمعون على أن الرسول (ص) نص على استخلاف على ابن أبى طالب باسمه وأظهر ذلك واعلنه (ب) ، وقيل سموا الرافضة ، لرفضهم زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ورفضهم الخروج معه ، عندما سألوه البراءة من أبى بكر وعمر، فلم يجبهم الى ذلك(حـ) ·

أ - الملطى : التنبيه والرد ص ٢٥ : ٢٨ ٠

ب - الأشعرى : مقالات الاسلاميين جـ١ ، ص ٨٧ ، ٩٨ ٠

حـ - أبو سعيد نشوان : الحور العين ص ١٨٤ ٠

(٢) زعم بعض الحلولية أن « الله تبارك وتعالى بعث جبريل الى على ، فاخطأ جبريل وصار الى محمد عليه السلام ، فاستحيا الرب وترك النبـــوة فى محمد (ص) وجعل عليا وزيره والخليفة بعده ٠ وبعض الحلولية زعموا أن عليا ومحمدا عليهما السلام شريكان فى النبوة وان عليا نبى بعد محمد (ص) واحتجوا بقول النبى (ص) « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » ٠

الملطى : التنبيه والرد ص ٢٩ ٠

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ ٠

(٤) سلمية : بلدة فى ناحية البرية من أعمال حماة ببلاد الشام(أ) وقد اتخـ الائمة الاسماعيلية سلمية دار هجره لهم منذ عهد المأمون ٠

أ - ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٥ ص ١٩٣ ٠

ب - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٤٤ ٠

(٥) فاضل عبد اللطيف الخالدى : الحياةالسياسية ونظم الحكم فى العراق ص٧٠٠

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٣٠ ٠

(٧) هناك تفسيرات عديدة لهذا اللفظ منها أن حمدان بن الأشـ ث كان قصير القامة ورجلاه قصيرتين ، فكان يقرمط فى سيره أى كانت خطواته متقاربة لهذا لقب بلقب قرمط (أ) ، ومن هذه التفسيرات أيضا أن لفظ قرمط مشتق من لفظ اقرمط ويعنى غضب ، وهذا اللفظ آرامى مشتق من «قرمطونا» التى تعنى المدلس أو الخبيث أو المكار أو المحتال وان هذه التسمية لم يتخذها القرامطة أنفسهم الذين اشتهروا بهذه الصفات بل أطلقها عليهم الذين لم يؤمنوا بدعوتهم(ب) وأرى ان هذا التفسير هو اقرب التفسيرات الى الصحة ٠

أ - البغدادى الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ ٠

ب - المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٣٠ ، ٢٠٥ ٠

وهناك تفسيرات أخرى للفظ قرمط ولمزيد من التفاصيل انظر ٠ -

المقريزى : أتعاظ الحنفا ، ص ٣٠ ، ص ٢٠٥ ٠

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٣ ص ١١٩ ٠

مجد الدين الفيروزبادى : القاموس المحيط حـ٢ ص٢٧٩ ٠

لويس معلوف اليسوعى : المنجد ص ٦٥٩ ٠

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٣٢٥ ٠

(٨) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٦٤ ٠

(٩) الغزالى : فضائح الباطنية ص ١٢ ، ١٣ ٠

(١٠) المقريزى : :اتعاظ الحنفا ص ٢٠٨ ٠

(١١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٣٢٦ ٠

(١٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٠٩ ٠

(١٣) هو أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى ـ فارسى الأصل ـ كان يعمل الفراء سافر الى سواد الكوفة ،

المقريزى : اتعاظ الحنفا حـ١ ص ١٥٩ ٠

(١٤) سمى الجنابى نسبة الى جنابة وهى بلدة صغيرة من سواحل فارس يدخل اليها فى المراكب فى خليج من البحر الملح يكون بين المدينة والبحر نحو ثلاثة أميال أو أقل ، وأمامها فى وسط البحر جزيرة خارك التى نشأ بها أبو سعيد الحسن الجنابى القرمطى ٠

خير الدين الزركلى : الاعلام حـ١ ص ٢٢١ ٠

(١٥) كانت البلاد الواقعة على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان تدعى البحرين وقيل هى قصبة هجر وقيل هجر قصبة البحرين ٠٠٠ وأحيانا كانت اليمامة تعد من أعمال البحرين هذا كان فى أيام بنى أمية ، فلما ولى بنو العبـــــاس صيروا عمان والبحرين واليمامة عملا واحدا(أ) ٠ وربما كان سبب تسمية هذه المدن باسم البحرين لأنها تقع على شاطىء البحرين ، بحر عمان ، وبحر فارس (ب) ٠

أ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٢ ص ٧٢ ، ٧٣ ٠

ب ـ أمين الريحانى : ملوك العرب حـ٢ ص ٢٠٢ ٠

(١٦) السماوة بفتح أوله وبعد الألف واو وسميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر بها والسماوة ماءة بالبادية وبادية السماوة التى هى بين الكوفة والشام قفرى أظنها مسماة بهذا الماء ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٥ ص ١٢٠ ٠

(١٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ، ص ٣٢٦ ٠

(١٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٢ ٠

(١٩) ان محمد بن اسماعيل غير ميمون القداح وان هذا حجة وذاك امام ، وان ميمون من نسل سليمان الفارسي ومحمد بن اسماعيل من نسل على وفاطمة ٠

حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٥٠ ٠

(٢٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٢٣ ٠

(٢١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ، ص ٢٢٦ ٠

(٢٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٢٤ ٠

(٢٣) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١٦٨ ٠

(٢٤) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١٦٣ ٠

(٢٥) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤١ ٠

(٢٦) العبر حـ ٤ ص ٨٨ ٠

(٢٧) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٠٠

(٢٨) تاريخ الأمم والملوك حـ١٣ ص ٢١٨٨ ٠

(٢٩) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم حـ ٦ ص ١٨ ٠

(٣٠) الكامل فى التاريخ حـ٧ ص ١٧٥ ٠

(٣١) النجوم الزاهرة حـ٣ ص ١١٩ ٠

(٣٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حـ١٣ ص ٢١٨٨ ٠

(٣٣) أمين الريحانى : ملوك العرب ص ٢١٢ ٠

(٣٤) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٠٠ ٠

(٣٥) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والامم حـ٦ ص ١٨ ٠

(٣٦) أمين الريحانى : ملوك العرب ص ٢١٢ ٠

(٣٧) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ ١٣ ص ٢١٨٨ ٠

(٣٨) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٩ ٠

(٣٩) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٦ ، ١٨ ٠

(٤٠) لمزيد من التفاصيل انظر الحياة الدينية ٠

(٤١) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٧ ٠

(١٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٢ ، ٢١٣ ٠

(٤٣) عارف تامر : القرامطة ص ١٣٨ ٠

(٤٤) القطيف : بفتح أوله وكسر ثانيه تعد من أعظم مدن البحرين ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٧ ص ١٣١ ٠

(٤٥) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ ٠

(٤٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا حـ١ ص ١٦٠ ٠

(٤٧) ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ١٨ ٠

(٤٨) يذكر ابن خلدون فى كتابه العبر حـ٤ ص ٨٨ ان الخليفة المعتمد هو الذى أرسل العباس بن عمرو وهذا خطأ والصواب هو الخليفة المعتضد ٠

(٤٩) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ ٠

ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٤ ٠

(٥٠) يذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب حـ٢ ص ٤٨٤ أن الخليفة المعتضد خلع على العباس بن عمرو عندما عاد ولكن هذا لم يحدث ، فهل عاد منتصرا حتى يخلع عليه - بالطبع لا - فجميع المصادر تجمع على انه عاد يجر اذيال الخيبة والهزيمة ٠

(٥١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٧ ص ١٧٧ ٠

(٥٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٨ ، ٢١٩ ٠

(٥٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ ٠

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر حـ٢ ص ٤٨٤ ٠

(٥٤) بالفتح والمد جمع حسى بكسر الثاء وسكون السين ، وهو الماء الذى تنشفه الأرض من الرمال ، فاذا صار الى صلابة أمسكته فتصفر العرب عنه الرمل فتستخرجه ... والحسى الرمل المتراكم أسفله جبل صلد ، فاذا مطر الرمل نشف ماء المطر فاذا انتهى الى الجبل الذى تحته أمسك الماء ومنع الرمل وحر الشمس أن ينشف الماء ، فاذا اشتد الحر نبث وجه الرمل عن الماء فنبع باردا عذبا(أ) ٠

والاحساء أصلها قلعة فى البحرين وهى مركز ناحية تحمل الاسم نفسه(ب) ٠

(أ) ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ ٠

ب - دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثانى ص ٢٥٢ ٠

(٥٥) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٠٠ ٠

(٥٦) حسن ابراهيم وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ١١١ ، ٢١١ ، ٢١٢

(٥٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٢٣٩ ٠

(٥٨) مسكويه : تجارب الأمم حـ ٥ ص ٣٣ ٠

(٥٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢١٤ : ٢١٦٠

(٦٠) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٨ ، ٨٩ ٠

(٦١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمـــــد شرف : عبيد الله المهدى ص ١٨٠ ، ٢١٨ ، ٢٩١ ٠

(٦٢) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٩ ٠

(٦٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ٠

(٦٤) فيد : بالفتح ثم السكون ودال مهملة بليدة تقع فى منتصف الطريق بين مكة والكوفة ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ ٦ ص ٤٠٨ ٠

(٦٥) محمد الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية ص ٤٧٨ ، ٤٧٩ ٠

(٦٦) مسكويه : تجارب الامم حـ٥ ص ١٤٥ ٠

(٦٧) النويرى : نهاية الأرب حـ١٣ ص ٧٢ ٠

(٦٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ٠

(٦٩) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٤٧ ٠

(٧٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٨٢ ٠

(٧١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤٤ ٠

(٧٢) الرحبة : تقع على شاطىء الفرات بين الرقه وبغداد أسفل قرقيسياء ٠

(٧٣) قرقيسياء : بلدة تقع على الفرات بالقرب من رحبة مالك بن طوق ٠

(٧٤) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم حـ٦ ص ٢١٥ ، ٢٦١ ٠

(٧٥) عين القمر : بلدة قريبة من الانبار غربى الكوفة ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٦ ص٢٥٢ ٠

(٧٦) محمد الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية ص ٤٨١ ، ٤٨٢ ٠

(٧٧) يقول الحمادى فى كتابه « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، ص٢ ، ٢٠١ وأبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة ٠٠٠ » حـ٣ ص ١٢٠ أن الذى أغار على مكة هو أبو سعيد ٠ وهذا خطأ لأن أبا سعيد قتل عام ٣٠١هـ (٩١٣م) والاغارة على مكة كانت عام ٣١٧هـ (٩٢٩م) والصواب أن الذى اغار عل ىمكة أبو طاهر سليمان ٠

(٧٨) المسعودى : مرج الذهب حـ٢ ص ٥٧٤ ٠

مسكويه : تجارب الامم حـ٥ ص ٢٠١ ٠

(٨٩) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة حـ٣ ص ٢٢٤ ٠

(٨٠) وقيل اسمه ابن محارب ٠

(٨١) مسكويه : تجارب الأمم حـ٥ ص ٢٠١ ·

(٨٢) المعرى : رسالة الغفران ص ٢٨ ·

(٨٣) الحمادى : كشف أسرار الباطنية واخبار القرامطة ص ٢١١ ·

(٨٤) مسكويه : تجارب الأمم حـ٥ ص ٢٠١ ·

ابن الجوزى المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ص ٢٢٣ ·

(٨٥) عاصر أبو العلاء المعرى آل الجنابى وكتب عن الجنابى يقول « لو عوقب بلد بمن يسكنه ، لجاز أن تؤخذ به جنابة ولا يقبل لها انابة ، ولكن حكم الكتاب المنزل أن لا تزر وازرة وزر أخرى » ·

أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ص ٢٢٨ ·

(٨٦) الحمادى : كشف أسرار الباطنية واخبار القرامطة ص ٢٠١ ، ٢١١ ·

(٨٧) النويرى : نهاية الارب حـ٢٣ ص ١٨٩ ·

(٨٨) ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٢٣ ·

السيوطى : تاريخ الخلفاء ص خلافة المقتدر ·

(٨٩) النويرى : نهاية الارب حـ٢٣ ص ١٨٩ ·

(٩٠) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٩ ·

(٩١) أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران حـ١ ص ٢٨ ·

(٩٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٢٣ ·

(٩٣) عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق ص ١٣٥ ·

(٩٤) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٢٥ ·

(٩٥) يذكر محمد الخضرى فى كتابه تاريخ الأمم الاسلامية ص ٤٨٢ هو ان أبا طاهر قام برد الحجر هو أخوه أبو المنصور أحمد عام ٣٣٩هـ كما سيأتى ·

(٩٦) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٩ ·

(٩٧) ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٩٦ ·

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٣ ص ٢٢٧ ، ٢٦٤ ·

(٩٨) يذكر أبو المحاسن فى كتابه النجوم حـ٣ ص ٢٨١ أن أبا طاهر مات وولى مكانه أخوه أبو القاسم سعيد لكن هذا غير صحيح والذى ولى مكانه أخوه أبو منصور أحمـــد ·

(٩٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ٢٨١ ·

حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٩٩ ·

(١٠٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٣ ص ٣٠١ ٠

(١٠١) يذكر أحمد حسين فى كتابه موسوعة مصر ، حـ٢ ص ٥٢٢ عن الحجر الأسود انهم ردوه بعد أن دفع فيه للقرامطة خمسين الف دينار ولكن هذا غير صحيح لانهم ردوه عندما أمرهم أبو منصور أحمد بهذا دون أن يأخذوا مالا ٠

(١٠٢) النويرى : نهاية الارب حـ ٢٣ ص ١٨٩ ٠

(١٠٣) أوال : بالضم ، ويروى بالفتح : جزيرة بالبحرين بها نخل وبساتين صفى الدين عبد المؤمن : مراصد الاطلاع حـ١ ص ١٢٨ ٠

(١٠٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٣٤٠ ـ ٣٤٤ ٠

(١٠٥) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف ٠ المعز لدين الله ص ١٠٥ ٠

(١٠٦) عارف تامر : القرامطة ص ١١٧ ٠

(١٠٧) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٧٣ ٠

(١٠٨) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١١٦

(١٠٩) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ ٣ ص ٣٤٥ ٠

(١١٠) العبر حـ٤ ص ٩٠ ٠

(١١١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١٠٣ : ١٠٥٠

(١١٢) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٤٧ ، ٤٨ ٠

ـ حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٩٧ ٠

(١١٣) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٩١ ، ٩٢ ٠

(١١٤) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١١٨ ، ١١٩ ٠

(١١٥) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٩٠ ٠

(١١٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١ ٠

ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حـ٨ ص ٢٢٠ ٠

(١١٧) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف المعز لدين الله ص ١٠٩ ٠

(١١٨) ابن القلانسى ٠ ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٢ ٠

ـ ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٢٤ ٠

(١١٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٠ ـ ١١٢٠

(١٢٠) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حـ٨ ص ٢٢٠ ٠

ـ ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٢١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ٠

(١٢٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق جـ١ ص ٢ ٠

(١٢٣) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١١٣ ٠

(١٢٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٢ ٠

ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٢٠ ٠

(١٢٥) انتهز ابناء واتباع أبى طاهر فرصة انشغال الأعصم بحرب الفاطميين فى مصر وخرجوا من جزيرة «أوال» وتمكنوا من احتلال الاحساء ، لهذا اضطر الاعصم الى الارتداد عن القاهرة وأسرع بالعودة الى البحرين وتمكن من اخماد فتنة أبناء عمه آل طاهر ٠

عارف تامر : القرامطة ص ١٤٧ ٠

(١٢٦) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٥ ـ ١١٧٠

(١٢٧) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٢٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٥٨ ـ ٢٦٥ ٠

(١٢٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٨ ـ ١٢٠٠

(١٣٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٣ ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٣١) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٢٩ ٠

(١٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٣ ٠

(١٣٣) رجال الغرب يقصد بهم الفاطميين والمغاربة ٠

(١٣٤) مطلول = مسفوك ٠

(١٣٥) أذرعات بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان ٠

ياقوت الحموى : معم البلدان حـ١ ص ١٣٠ ٠

(١٣٦)ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٠ ٠

(١٣٧) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٣٨) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ، ٥١ ٠

(١٣٩) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣١ ٠

(١٤٠) افتكين : هو أحد موالى عز الدولة بختيار أمير بنى بويه بالعـــراق ، وعندما انهزم فى المعركة التى دارت بينه ومن معه من الأتراك وبين الديلم ترك بغداد وسار قاصدا بلاد الشام ٠ وعندما علم ظالم بن موهوب العقيلى بقدومه حاول القبض عليه ومنعه من التقدم لكنه لم يستطع وتمكن افتكين التركى من الوصول الى دمشق عام ٣٦٤هـ (٩٧٤م) ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥١ ٠

(١٤١) د٠ سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٤ ، ١٣٥ ٠

(١٤٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٨ ص ٢٣٧ ٠

(١٤٣) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٥ ٠

(١٤٤) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٨ ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥١ ، ٩٠ ٠

(١٤٥) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٦ ٠

(١٤٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١٥ ، ١٦ ٠

(١٤٧) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٧ ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٢ ٠

(١٤٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١٧ ٠

(١٤٩) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٢٩٤ ٠

(١٥٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١٨ ، ١٩ ٠

ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٨ ٠

(١٥١) وهما من القرامطة الستة الذين يلقبون بالسادة ٠

ابن الأثير : الكامل حـ٧ ص ١٢٦ ٠

(١٥٢) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٩١ ٠

قائمة بأسـماء الخلفـاء
المعاصرين لدولة آل الجنـابى

الخلفاء الفاطميون

- عبيد الله المهدى ٢٩٧هـ = ٩٠٩م
- القائم بأمر الله ٣٢٢هـ = ٩٣٣م
- المنصور ٣٣٤هـ = ٩٤٥م
- المعز لدين الله ٣٤١هـ = ٩٥٢م
- العزيز ٣٦٥ - ٣٨٦هـ = ٩٧٥ - ٩٩٥م

الخلفاء العابسـيون

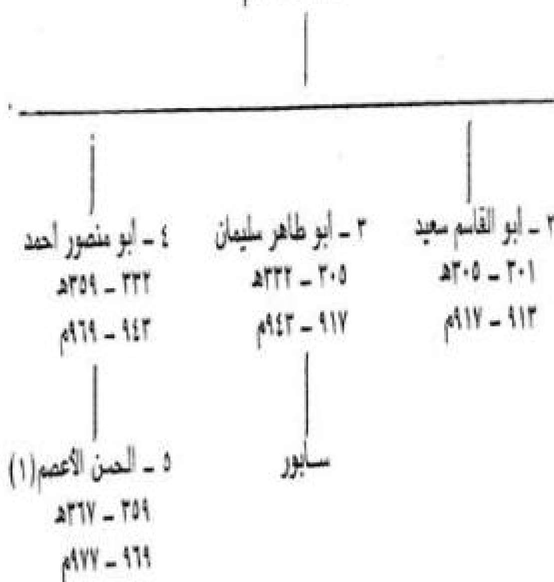
- المعتضد ٢٧٩هـ = ٨٩٢م
- المكتفى ٢٨٩هـ = ٩٠١م ٠
- المقتدر ٢٩٥هـ = ٩٠٧م
- القاهر ٣٢٠هـ = ٩٣٢م
- الراضى ٣٢٢هـ = ٩٣٣م
- المتقى ٣٢٩هـ =٩٤٠م
- المستكفى ٣٣٣هـ =٩٤٤م
- المطيع ٣٣٤ هـ =٩٤٥م
- الطائع ٣٦٢ - ٣٨١هـ = ٩٧٢ - ٩٩١م

آل الجنابى ببلاد البحرين

١ ـ ابو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى

٢٨٣ ـ ٣٠١هـ

٨٩٦ ـ ٩١٣م



(١) هذا الجدول من واقع هذا البحث .

المصــــادر

١ ـ القرآن الكريم ٠

٢ ـ ابن الاثير : (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م) على بن احمد ابى الكرم
الكامل فى التاريخ ٠

٣ ـ الأشعرى : (ت ٣٣٠هـ) ابو الحسن على بن اسماعيل
« مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ٠

٤ ـ البغدادى : (ت٤٢٩هـ،١٠٣٧م) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر
الفرق بين الفرق (دار الافاق الجديدة بيروت ١٩٧٣م)

٥ ـ ابن الجوزى : (ت ٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن ابى الحسن على ٠
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٠ الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧هـ ٠

٦ ـ الحمادى : (ت اواسط القرن الخامس الهجرى) محمد بن مالك بن ابى الفضائل ٠
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (مكتبة الخانجى مصر والمثنى ببغداد ١٣٤٧هـ/١٩٥٥م ٠

٧ ـ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر الجزء الرابع (دار الكتب) ٠

٨ ـ خير الدين الزركلى
الاعلام (المطبعة العربية بمصر ١٨٢٧م)

٩ ـ أبو سعيد : ت ٥٧٣هـ) نشوان بن سعيد بن نشوان الحميرى
« الحور العين » حققه وعلق عليه كمال مصطفى ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م

١٠ ـ السيوطى : (ت ٩٣١هـ ، ١٦٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ٠

١١ ـ الشهرستانى : (ت ٥٤٨هـ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم
الملل والنحل ٠

١٢ ـ صفى الدين : (ت٧٣٩هـ) عبد المؤمن عبد الحق البغدادى
« مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع » تحقيق وتعليق على محمد البجاوى ، دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ٠

١٣ ـ الطبرى : (٣١٠هـ ، ٩٢٢م) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى
تاريخ الأمم والملوك (مكتبة الخياط ١٩٦٩م) ٠

١٤ ـ الغزالى : (ت ٥٠٥هـ ، ١١١١م) الامام ابو حامد محمد بن محمد ابن أحمد ٠
فضائح الباطنية (الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م) ٠

١٥ ـ ابن القلانسى : (ت٥٥٥هـ) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على
ذيل تاريخ دمشق ٠ (بيروت ١٩٠٨م) ٠

١٦ ـ كشاجم : أبو الفتح محمود بن الحسن
ادب النديم مكتبة الخانجى القاهرة ١٢٩٨م

١٧ ـ لويس معلوف اليسوعى
المنجد فى اللغة والأدب والعلوم«المطبعة الكاثوليكية بيروت١٩٠٨م

١٨ ـ مجد الدين الفيروزابادى
القاموس المحيط الطبعة الخامسة ٠

١٩ ـ أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ ، ١٤٦٩م)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية ١٩٣٢م) ٠

٢٠ ـ المسعودى : (ت ٣٤٦هـ ، ٩٥٦م) أبو الحسن على بن الحسين بن على ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦م) ٠

٢١ - مسكويه : (ت ٤٢١هـ ، ١٠٣٠م) أبو على أحمد
تجارب الأمم (مصر ١٩١٤م) ٠

٢٢ - المعرى : (٣٦٣ : ٤٤٩هـ) أبو العلاء
رسالة الغفران شرح وايجاز كامل الكيلانى مطبعة المعارف مصر ١٩٣٨م ٠

٢٣ - المقريزى : (ت ٨٤٥هـ ، ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على
اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا تحقيق جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربى ١٣٦٧هـ ، ١٩٤٨م ، القاهرة ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م ٠

٢٤ - الملطى : (ت ٣٧٧هـ) أبو الحسن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن
التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م ٠

٢٥ - النوبختى : (من اعلام القرن الثالث للهجرة ت أوائل القرن الرابع الهجرى) أبو محمد الحسن بن موسى ٠
« كتاب فرق الشيعة » المطبعة الحيدرية بالنجف ٠

٢٦ - النويرى : (٦٧٧ - ت ٧٣٣هـ) أحمد بن عبد الوهاب
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » تحقيق د٠ أحمد كمال زكى مراجعة د٠ محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م ٠

٢٧ - ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ ، ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبدالله الحموى ، معجم البلدان (دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥م ، ١٩٠٦ ٠

المراجع العـــربية

٢٨ ـ أحمد حسين
« موسوعة تاريخ مصر » (دار الشعب ١٩٧٢م) .

٢٩ ـ احمد عبد الرازق
« الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى » دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩٠م .

٣٠ ـ السيد عبد الله بن خليفة وعبد الملك يوسف
« البحرين عبر التاريخ » .

٣١ ـ امين الريحانى
« ملوك العرب أو رحلة فى البلاد العربية » ـ الجزء الثانى بيروت ١٩٢٥م .

٣٢ ـ حسن ابراهيم حسن
« تاريخ الاسلام السياسى » حـ٣ .

٣٣ ـ « الفاطميون فى مصر » (المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٢م) .

٣٤ ـ حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف
« المعز لدين الله » (مطبعة النهضة المصرية ١٩٤٧م) .

٣٥ ـ عبيد الله المهدى ، (مطبعة الشبكشى عام ١٩٤٧م) .

٣٦ ـ عارف تامر
« القرامطة » (دار الكاتب العربى بيروت) .

٣٧ ـ عبد العزيز الدورى
« دراسات فى العصور العباســية المتاخرة » (مطبعة السريان ـ بغداد ١٩٤٥م) .

٣٨ ـ عدنان العطار
« الأطلس التاريخى للعالمين العـــربى والاسلامى » دمشق ـ القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

٣٩ ـ فاضل عبد اللطيف الخالدى
« الحياة السياسية ونظم الحكم فى العـــراق » مطبعة الايمان ـ بغداد ١٩٦٩م .

٤٠ ـ محمد جمال الدين سرور
« سياسة الفاطميين الخارجية (دار الفكر العربى الطبعة الرابعة ١٩٧٦م) .

٤١ ـ محمد بك الخضرى
« تاريخ الأمم الاسلامية » (مطبعة دار احيـــــاء الكتب العربية ١٩٣٠م) .

٤٢ ـ محمد عبد الفتاح عليان
« قرامطة العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجريين » الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ١٩٧٠م .

٤٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية المجلد السادس .

المراجع العربية المترجمة

٤٤ ـ زامبـــاور
« معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى » أخرجه د. زكى محمد حسن بك وحسن أحمد محمود واشترك فى ترجمة بعض فصوله د. سيدة اسماعيل الكاشف وحافظ أحمـــد حمـدى وأحمد ممدوح حمدى ، القاهرة ١٩٥٢ .

٤٥ ـ كارل بروكلمان
« تاريخ الشعوب الاسلامية » نقله الى العـــربية د. نبيه فارس والأستاذ منير البعلبكى (دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى ١٩٤٩م) .

٤٦ ـ ناصر خسرو ، أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المرذوى « سفر نامه » ترجمة وتقديم الدكتور أحمد خالد البدلى ـ الرياض السعودية .

المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر
فى المــــيزان

د٠ نورة محمد عبد العزيز التويجرى(*)

يعتز التاريخ الاسلامى بجناحه الغربى مثلما يعتز بجناحه الشرقى٠ ففى اقصى الطرف الغربى للدولة الاسلامية ، قامت للمسلمين دولة فى شبه جزيرة ايبريا ـ هى دولة الأندلس ـ قدر لها أن تنهض بدور خالد فى ميادين السياسة والحرب والجهاد من ناحية ، وفى ميادين الحضارة بمختلف آفاقها ومظاهرها من ناحية أخرى ٠ وفى تتبعنا لهذا النشاط المتعدد الأوجه نصادف شخصيات فذة خلـــدت اسماءها فى التاريخ ، ومازالت جديرة بالمزيد من عناية الباحثين ، لالقاء الأضواء على جوانبها ، وكشف ما خفى من بطولاتها واسهاماتها الحقيقية ، أو للحكم عليها حكما أمينا صادقا يزيح عنها ما قد تكون قد تعرضت له من غبن أو نكران ٠

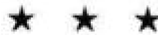
ومن هذه الشخصيات المنصور محمد بن عبد اللــه بن أبى عامر المعافرى ، الذى قام بالوصاية على هشام المؤيد عقب وفاة أبيه الحـــكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦م) ٠ وقد أثبت المنصــور محمد أنه سياسى بارع ومحارب شجاع ، بذل الكثير دفاعا عن دولة الاسلام فى الأندلس وحفاظا على كيان المسلمين فى تلك البــلاد البعيدة عن قلــب الدولة الاسلامية فى الشرق ؛ ومع ذلك لم يلق المنصــور التقــدير الكافى من معاصرية وكثير من المؤرخين ، فغلبوا الزلات على الحسنات ، واغفل بعضهم حقه ولم يذكروا الا أخطاءه ٠ بل ان البعض تجنى عليه ، واطلقوا عليه من الصفات ما يتنافى مع الواقع والحقيقة ، فوصـفوه بالاحتيال والخيانة ٠ ومن المحدثين من وصــفه بالدكتاتورية ووصــف عهــده بالدكتاتورية العــامرية ، ولم يروا فيــه الا الطمع والاستبداد ، بل الوصولية والممارسات اللاأخلاقية ٠

(*) كلية التربية ـ الرئاسة العامة لتعليم البنات ـ الرياض ٠

ولكن فى ضوء الكثير من المصادر والمراجع التى رجعت اليها والتى تهتم بالتاريخ الأندلسى فى تلك الحقبة الزمنية التى عاصرها المنصور وما حفلت به من أحداث كان للمنصور محمد بن أبى عامر ذكر فيها ، تبلورت أمامى هذه الشخصية فى ضوء طبيعة العصر وأجوائه وظروفه ، واتضحت جهود هذا الرجل التى لا تنكر فى الحفاظ على الاسلام ودولته فى الأندلس . وكان أن رأيت من الانصاف أن نضع هذه الشخصية التاريخية فى الميزان ، لنواجه من نظروا اليها من جانب واحد فقط ، متجاهلين ما لها من جوانب مضيئة فى التاريخ الاسلامى بصفة عامة وفى التاريخ الأندلسى الاسلامى بصفة خاصة . وبعبارة أخرى فاننى فى هذا البحث اقف أمام هذه الشخصية محاولة الرد على المتحاملين عليها ، والذين نظروا اليها من جانب واحد مظلم وأهملوا جانبها المضيء .

ذلك أنه من الأمانة العلمية الا نغمط هذا الرجل حقه ، والا نتجاهل ما قام به من أعمال أدخلت الفزع والرعب فى قلوب أعداء الدولة الاسلامية فى الأندلس.وحسبه ان وفاته أحدثت موجة من الفرح والسرور فى الأوساط الأسبانية حتى أن الحوليات اللاتينية التى كانت تدون فى الكنائس والأديرة اهتمت بتسجيل تاريخ موته ، وعبرت عن ذلك بقولها :

« وفى سنة ١٠٠٢م توفى المنصور ، وذهب الى الجحيم » .ويكفى هذا الاحساس من جانب الخصوم والأعداء ليضفى عليه أهمية فى نظر الأهل والأصدقاء .



شخصية المنصور محمد بن أبى عامر :

أما عن المنصور فهو أبو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى ، من قبيلة معافر اليمنية احدى قبائل حمير(١) قدم جده عبد الملك الى الأندلس ، وكان من أوائل الداخلين تلك البلاد مع الجيوش الاسلامية الفاتحة ، واتخذ من الجزيرة الخضراء مستقرا له حيث حصل على اقطاعات كبيرة فى بلدة طرش Torrox (٢) مكافأة له ، لما أظهره

من شجاعة وبسالة فى المعارك ، التى خاضها فى الفتح الاسلامى لبلاد الاندلس ٠ وفى تلك القرية - قرية طرش - ولد المنصـــور محمد سنة ٣٢٨ هـ ٠

أما والده عبد الله المكنى بابى حفص فكان من أهل الدين والزهد فى الدنيا والعزوف عن السلطان ٠ وقد سمع الحديث ، وقام بأداء فريضة الحج ، وتوفى بمدينة طرابلس الغرب بليبيا عندما كان عائدا من الحج ٠

وكانت امه بريهة بنت يحيى بن زكريا من قبيلـــة تميم المعروفين ببنى ترطال (٣) ٠ تلقى محمد بن ابى عامر تعليمه فى جامع قرطبة ، وكان حسن النشاة مغرما بالتعلم يتصف بالذكاء والنجابة ، أحـــب علم التاريخ ، واهتم بقراءته ، والتحق بالقضاء فى بداية حياته ، وقرأ اللغة والأدب على معلميه أبى على القالى وابى بـكر بن القـــوطية ، ودرس الحديث على يد استاذه أبى بكر بن معاوية القرشى (٤) ٠ وكان ينظر الى المستقبل نظرة المتفائل مؤمنا بانه سيكون له دور مهم على مسرح الحوادث ٠ يحكى انه فى حديثه مع بعض زملائه عن المستقبل قال لهم : لابد لى ان املك الاندلس ، واقود العسكر وانفذ حكمى فيها (٥) ٠

وقد تغنى عدد من الشعراء به مشيدين بشجاعته وبطولاته ، وحسن نسبه ، منهم الشاعر ابو عمر أحمد ابن محمد بن دراج المعروف بالقسطلى حيث قال فيه :

تلاقت عليـه من تميم ويعـــرب ... شـموس تلألأ فى العــلا وبدور
مــن الحميريين الذين أكفـــهم ... سحائب تنّدى بالندى وبحور (٦)

ولقد تولى محمد بن أبى عامر عـــدة مناصب فى الدولة الأمويه بالأندلس ٠ ذكرت بعض المصادر التاريخية أن كل منصب تولاه كانت تسانده فيه الأميرة (صبح) زوجة الخليفة الحكم المستنصر ، وام الخليفة هشام المؤيد ٠ وكان أول منصب تولاه عندما عين وكيلا لخدمة الأميرة (صبح) وولديها عبد الرحمن وهشـــام ، ثم تولى ادارة أموال وضياع الأميرة صبح ، ثم شؤون الخزانة العامة لأموال الدولة ، وبعدها تولى

خطة المواريث ثم قضاء اشبيلية(٧) وليلة واعمالهما ثم أمينا لدار السكة، ثم وكيلا للخليفة هشام المؤيد . وقد أسند اليه الخليفة الحكم المستنصر كثيرا من المهام السياسية ؛ وذلك لما لاحظه عليه من الذكاء والفطنة ، كما كان محل ثقة وتقدير الخليفة الحكم ، حيث أرسل معه كمية كبيرة من الأموال والهدايا الى البربر لينضموا الى جانبه .

وهكذا استطاع محمد بن ابى عامر بما أوتى من ذكاء وفطنة أن يصل الى أعلى وظائف الدولة فى قصر الخلافة وذلك خلال مدة قصيرة، لا تتجاوز عدة أعوام ، كما استطاع أن يصل الى الملك بالرغم من انه لم يكن من أسرة مالكة ، وهذا ما ذكره عن نفسه .

وقد اختلفت الروايات التاريخية حول كيفية اتصال محمد بن أبى عامر بالخليفة المستنصر وزوجته صبح حتى استطاع أن يصل الى حكم بلاد الأندلس ، فبينما يذكر المقرى أن اتصاله بهما تم عندما طلبت الأميرة صبح مديرا لأموالها فذكر لها عدد من فتيان القصر محمد بن أبى عامر الذى كان يملك دكانا صغيرا مقابل قصر الخلافة ، حيث كان يكتب الشكاوى والمعاريض للناس ، ومن يريدون الدخول الى الخليفة الحكم المستنصر ، فاستحسنت أسلوبه وعينته أمينا لبعض أمورها الخاصة(٨).

ولم يلبث أن استطاع ان يستحوذ على اعجاب زوجات الخليفة الحكم المستنصر بفضل لباقته وحسن معاملته وعطائه ، فلفت ذلك انتباه الخليفة الحكم المستنصر فدخله الشك حيث قال لأحد من يثق بهم من رجاله «مالذى استلطف هذا الفتى ؟ حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يضعن الا هداياه ولا يرضين الا ما آتاه . انه لساحر عظيم ، أو خادم لبيب ، وانى خائف على ما بيده »(٩) .

وكان أن دفع هذا الشك احد خصوم محمد بن أبى عامر الى اتهامه أمام الحكم المستنصر بأنه مسرف فى أموال الدولة ، مبدد لها ، ينفقها فى سبيل مصالحه الشخصية ، وتكوين الأنصار والمؤيدين له . وعندئذ تأكد شك الخليفة المستنصر فيه ، وطلب منه ان يقدم له حساب الخزانة

العامة لأموال الدولة التى كان المسئول الأول عنها . وكانت الخزانة تعانى عندئذ عجزا كبيرا فيها ، مما دفع المنصور أن يلجأ الى أحد المقربين له ، وهو الوزير (ابن حدير) وكان مشهورا بثرائه ، فأخذ منه المنصور المال الكافى الذى استطاع به أن يغطى هذا العجز فى خزينة الدولة ، فزالت شكوك الخليفة فيه ، وازدادت ثقته به .

وهناك رواية أخرى تذكر كيفية اتصال محمد بن أبى عامر بالخليفة الحكم المستنصر ، أوردها ابن بسام حيث يذكر أن ذلك الاتصال تم عندما كان الخليفة الحكم المستنصر يريد ان يعين مشرفا لادارة أملاك ابنه عبد الرحمن . فاسند هذه المهمة لمحمد ابن ابى عامر بناء على ترشيح الوزير جعفر بن عثمان المصحفى له . ثم أخذ محمد بن ابى عامر يتقلب فى مناصب الدولة ، بفضل وقوف الأميرة صبح وراءه فى كل منصب يتولاه مساندة ودافعة له .

وتذكر بعض المصادر أن من ضمن المناصب التى تولاها محمد بن ابى عامر صاحب الشرطة الوسطى فى عهد الحكم المستنصر سنة ٣٦١هـ، ثم قاضى العدوة ، وخطة المواريث(١٠) .

كذلك قام بمهام سياسية بتكليف من الخليفة الحكم المستنصر ، ومن هذه المهام ان الخليفة المستنصر جعله يرأس الوفد المكلف باستقبال يحيى ابن على بن حمدون أحد أمراء بنى خزر من أمراء قبيلة زناتة البربرية، وهم ممن استعان بهم الخليفة الحكم للقضاء على الدولة الفاطمية ببلاد المغرب .

وهكذا اخذ شان المنصور محمد بن ابى عامر يعلو ويثبت فى الدولة الأموية فى الأندلس بعد أن تولى الاشراف على تربية الأمير هشام بن الحكم المستنصر ، وذلك بتكليف من والده الخليفة الحكم ، كما أسند اليه مهمة تنظيم البيعة بولاية العهد لابنه القاصر (هشام المؤيد) . وقد مكنه ذلك من الاستيلاء على السلطة فى الأندلس بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر .

وكانت له جهود فى الحفاظ على منصب الخلافة للخليفة هشام بن الحكم المستنصر ، وذلك بعد أن قام باحباط المؤامرة التى كان يخطط لها الفتيان الصقالبة،صاحب البردةوالطراز فائق وجؤذر صاحب الصاغة، واستهدفت هذه المؤامرة خلع الخليفة هشـــام وتولية عمـــه المغيرة بن عبد الرحمن ، بشرط أن يعهد المغيرة للخليفة هشام بولايةالعهد من بعده.

المميزات العامة لشخصية المنصور بن أبى عامر :

وفى دراستنا لشخصية المنصور محمد بن أبى عامر يتضح لنـــا أن اهم ما كان يميز هذه الشخصية ذكاؤه وفطنته وقـــدرته على تصريف الأمور ومواجهة المصاعب ، هذا فضلا عن أن طموحاته الشخصية كانت لا تعرف حدا • وكثيرا ما كان يعبر عن طموحاته فى حديثه مع أصحابه ، فيدفعهم ذلك للاستهزاء به والسخرية منه •

ولكنه كان يصر علىموقفه مخاطبا اياهم بقوله : تمنوا على ،فتمنى كل منهم أمنية خاصة به الا صديقه موسى بن عزورن ، فقد استبعد حدوث ذلك الشيء ، فقال ساخرا له : اذا أمضى اليك الأمر يا صاحبى فأمر أن يطاف بى فى قرطبة على حمار ووجهى الى الذنب ، وانا مطلى بالعسل ليجمع على الذباب(١١) •

كذلك امتاز المنصور بمميزات اعلت من قدره ورفعت من شأنه • فالمتتبع للأحداث التى جاء فيها ذكر المنصور بن أبى عامر أثناء حكمه، يدرك تماما انه لم يكن ذلك الرجل المتعسف الظالم ، بل انه حرص كل الحرص على أن ينشر العدل ؛ دون أن يعمل حسابا للفروق الاجتماعية• كما كان حريصا علىأن يشمل عدلهالعامة والخاصة ؛ من ذلك أن رجلا من العامة تقدم اليه فى مجلسه فشـــكا اليه مماطلة القاضى عبد الرحمن بن فطيس فى قضية بينه وبين أحد فتيانه صاحب الدرقة(١٢) وذلك لمكانة صاحب الدرقة فى بلاط المنصور ، فما كان من المنصور محمد بن أبى عامر ، الا ان أنكر على القاضى عبد الرحمن بن فطيس تصرفه هذا ، وعجزه وتهاونه فى الحسم فى هذه القضية بقوله : ما اعظم بليتنا من هذه الحاشية ؟ ، ثم نظر الى الفتى الصـــقلبى وطلب منـــه أن يدفع

«الدرقة» الى أحد رجاله ، وأن ينزل صاغرا الى مقام خصمه حتى يرفع الحق بينهما(١٣) .

وقد عرف المنصور من قبل رعيته بالعدل والانصاف ، بحيث كان كل من شعر باغفال ، أو هضم لحقه يحاول أن يوصل شكواه الى المنصور بن ابى عامر فلا يخذله ، ويأخذ الحق له . وقد حكى عن أحد تجار المغرب انه جرت بينه وبين أكبر خدم المنصور والمشرف على داره ويدعى (البورقى) خصومة وجب فيها اليمين على (البورقى) ، فدافع عند الحكم ؛ ظنا منه أن منصب (البورقى) وجاهه عند المنصور لايستدعى استحلافه . فما كان من التاجر الا أن وقف للمنصور بن أبى عامر وهو فى طريقه للمسجد الجامع لتأدية الصلاة فيه ، وطلب منه انصافه من هذا التاجر ، فطلب المنصور أن تحال قضية التاجر المغربى للحاكم لينظر فيها ، كما امر ان يعزل خادمه (البورقى) من الخدمة ونفاه الى الأندلس(١٤) .

وكان من الأشياء التى تشغل بال المنصور ، ويصرف اليها جل وقته اهتمامه بتوفير الأمن والطمأنينة لرعيته ولدولته ، فكان دائم السهر على مصلحتها . وقد أنكر عليه أحد خدمه الملازمين له طول سهره ، وطلب منه ان يأخذ قسطا من الراحة ، فما كان رد المنصور عليه الا ان قال له : حارس الدنيا لا ينام اذا ما نامت الرعية ، ولو استوفيت نومى لما كان فى هذا البلد عين نائمة ... »(١٥) .

وهكذا جمع المنصور بين سياسة العدل والسهر على مصالح الرعية ، وسياسة الحزم والعزم واليقظة ـ اذا ما استدعت الأمور ذلك . كل ذلك مع حسن معاملة الرعية والحرص على اكرامهم ، وبذلك كسب محبتهم له واقبالهم عليه(١٦) .

ولعل ما ذكره عنه ابن عذراى لأوضح دليل على ذلك ، اذ يقول « احتاج الناس اليه ، وغشوا بابه فاسألهم ، وبلغ الغاية من أصحاب السلطان معه سعة صدر ، وكرم لقاء ، وسهولة حجاب ، وحسن أخلاق ، فعرف جاهه ، وعمر بابه »(١٧) .

كذلك كان المنصور محبا للعفو مشجعا عليه . من ذلك أن أحد فتيان قرطبة وهو من أهل الأدب كان فى شىء من العـوز والحاجة ، فاشـتغل فى خـزانة الدولة فامتدت يده الى بعض المـال فأخـذ مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، فبلغ أمـره المنصور محمـد بن أبى عامر ، فاستدعاه واستجوبه فيما نسب اليـه ، فاعترف الفتى بذلك .. فأمر المنصور بحبسه والتشديد عليه . فانشد الفتى أبياتا قال فيها :

أواه أواه وكـــم ذا أرى ... أكـثر مـن تذكـار اواه
ما لامـرىء حـول ولا قوة ... الحـول والقـوة للـه

فلما سمع بها المنصور بن أبى عامر ، طلب احضار الفتى اليـه وساله بقوله : أتمثلت أم قلت ... فقال الفتى : بل قلت . فعفا عنـه المنصور ثم انشد الفتى هذه الأبيات :

امـا تـرى عفو ابن عامر ... لابـد أن تتبعـه منـه
كـذلك اللـه اذا ما عفـا ! ... عن عبده أدخله الجنـة(١٨)

فلما سمع المنصور بذلك ، أمر بالعفو عنه ، وكافاه بالمال .

وكان المنصور شديد المخافة من الله ومن عقابه ، فكانت تعرض عليه أسماء من طالت مدة سجنهم للنظر فيهم والعفو عنهم . وكان من ضمن هذه الأسماء اسم لأحد خدامه ، كان قد غضب عليه المنصور فأمر بحبسه ، ووضع تحت اسمه : لا سبيل فى اطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية. فعرف الرجل السجين بما تم فى شانه ، فأخـذ يدعو ربه ويناجيه ، فاصاب المنصور القلق والأرق فى نومه ، حيث كان يأتيه عند نومه شخص عنيف ليطلب منه اطلاق سراح الرجل ويتوعده على حبسه . فما كان من المنصور الا ان امر باطلاق سراحه. فى كتاب قال فيه « هذا طليق اللـه على رغم أنف ابن أبى عامر »(١٩) .

كذلك كان للمنصور هيبة فى جنده ورجاله لم يؤتها ملك قبله ، فكان مكان الاحتفال الذى يحضره المنصور بن أبى عامر يعمه الصمت

والسكون والاطراق ، حتى ان الخيل تمتثل لانصات فرسانها ، فلا تكثر الصهيل أو الهمهمة(٢٠) .

ولعل ما أورده خلف بن حيان والد الامام أبى مروان حيان بن خلف من حادثة تبين مدي ما كان عليه المنصور من هيبة واحـــترام فى نفوس رجاله وحاشيته ، وما كان عليه من تواضع ورفق بالرعية . ذكر ابن حيان أن المنصور قد لاحظ عليه حالة الفزع والهيبـــة من سلطانه ، فاستدعاه عندما فرغ مجلسه من الحضور ، وسأله عـــن سبب فزعه ، واستنكر ذلك عليه بقوله : من وثق باللـــه برىء من الخون والقوة، وانما انا آلة من آلات الله تعالى أتصرف بمشيئته وأسطو بقدرته ، واعفو عن اذنه ، ولا أملك لنفسى الا ما أملك لى ، فازل عنك روعك ، فانما انا ابن امرأة من تميم ، طالما تقوتت بثمن غزلهـا ، ثم جاء من اللـــه تعالى ما تراه(٢١) .

وكان المنصور يتصف بالعطف والرحمة على أفراد رعيته . هـذا ما أورده المقرى عنه فى حادثة يذكر فيها : أنه بينما كان المنصور عائدا من أحد غزواته على مملكة نبرة النصرانية ، لقيته امرأة وشكت اليه أن لها ابنا أسيرا فى بلاد الافرنج وعرفته باسم تلك البـــلاد ، فما كان من المنصور الا أن طمأنها وقام بفتح تلك البلاد وأطلق من فيهـــا من أسرى المسلمين(٢٢)

وهكذا كان المنصور رجلا حازما قويا ، مما مكنه من ضبط الأمور الداخلية فى دولته حتى جعل منها دولة قوية صامدة ، بالرغم من الأوضاع السياسية المضطربة التى أوشكت أن تعصف بها عندما ولى أمورها . وقد عبر ابن عذارى عن ذلك بقوله : « فقام بتدبير الخلافة واقعد من كان له فيها انافة .. وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب أخشن دياسة. واستشعر اليمن كل فريق ، وملك الأندلس نصفا وعشرين ، ولم تدحض سعادتها حجة ، ولم تزخـــر المكروه بها لجه ، لبســت فيها البهـــاء والاشراق»(٢٣) .

كذلك كان المنصور شديد الخشية من الله والرغبة فيما عنده ، يتبين

ذلك من قوله لابن حيان فى احدى مخاطباته له « يا ابن حيان ، أن افضل الناس غرسا من غرس الخير ، وان أفضل السلطان غرسا ما أثمر فى الآخرة . ومن انا من الله تعالى لولا عطفى على المستضعف المظلوم، وقصمى للجبار المغشوم اللاهى عن حقوق ربه بفسوقه ودنسه »(٢٤) .

وحسب المنصور قول عبد الله بن بلكين آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة عنه :(٢٥)

« وكان ـ المنصور ـ بالرغم من أعباء الحكم ، وكثرة غزواته ، واتصال جهاده محبا للعلم ، شغوفا بالأدب ، مقدرا من ينسب اليهما ويفد عليه . وكان دقيقا فى اختيار هؤلاء الشعراء والتمييز بين قدراتهم الشعرية » .



أما أهم ما يميز سياسة المنصور محمد الخارجية والحربية ، فكان جهاده الصادق للحد من أطماع القوى المسيحية فى الممتلكات الاسلامية فى شمال الأندلس . وقد انطلقت سياسة المنصور محمد بن أبى عامر العسكرية من خطة محددة ذات أبعاد واضحة استهدفت سحق القوى العسكرية للممالك النصرانية واخضاع سادتها ؛ ولم يكن الهدف من حروبه التى شنها على القوى المسيحية فى الشمال ـ كما قال بعض المغرضين طريقا للوصول الى قلوب جماهير المسلمين فى أسبانيا ووسيلة لدعم طموحاته السياسية(٢٦) . ذلك أن المنصور استطاع فعلا أن يحول بين النصارى وأطماعهم فى بلاد المسلمين ، اذ لم تقتصر جهوده على رد هجماتهم على الدولة الاسلامية فى الأندلس ، بل امتدت الى الفتح والتوسع فى بلادهم الواقعة شمال الأندلس وبذلك أصبح قوة يخشاها ملوك تلك البلاد مما أثار الفزع فى قلوبهم .

ثم انه عمل على نشر الاسلام فى البلاد التى غزاها ، ويقال انه كان يغزو فى السنة مرتين احداهما فى الصيف وتعرف بالصائفة والثانية فى الشتاء وتعرف بالشاتية . وأدت هذه الغزوات الى استنزاف قوة

النصارى ، وشل حركتهم التوسعية ؛ مما دفع كثـيرا من الشـعراء الى التغنى ببطولته(٢٧) ٠

وقد تباينت المصادر فى ذكر عدد غزوات المنصور لبلاد النصارى ، فمنهم من ذكر انها خمسون غزوة ٠ ومنهم من ذكر انها اثنتان وخمسون غزوة ٠ وقيل : اربع غزوات وقيل سبع غزوات٠ وقد ذكر ابن خلدون بأنها اثنتان وخمسون غزوة كلها تمت تحت قيادته ٠ وفى ذلك يقول ابن خلدون « ورد الغزو بنفسه الى دار الحرب ، فغزا اثنتين وخمسين غزوة فى سائر ايام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ، ولا غل له جيش ، ولا أصيب له بعث ، ولا هلكت سرية»(٢٨) ٠

وكا نمن الطبيعى أن يهتم المنصور بتقوية الجيوش الاسـلامية فى الأندلس ؛ لتستطيع مواجهة الأعداء ، فعمل على دعم جيشه وتجهيزه بكل المستلزمات الحربية٠وزاد من عدد الجيش ، ورتب للجند معاشات شـهرية مجزية ، لتشجعهم على مواصلة الجهـاد ، كما كان يصرف للجنود مكافآت مغرية بعد كل غزوة أو سرية ، يتحقق له فيها النصر ٠ ولاشك فى أن سياسة المنصور الحربية ودأبه على مواصلة حركة الجهاد ، ادت الى زعزعة كيان الممالك النصرانية شمال الأندلس حتى بلغت فى عهد المنصور درجة شديدة منالتمزق والضعف٠ولم يقبل المنصور من أعداء الاسلام صلحا ولا مهادنة ، مما جعل القوى المسـيحية تلجأ الى تغيير خططها العسكرية ، فتحولت من الهجوم على الممتلكات الاسلامية الى الدفاع لمواجهة قوة المنصور العسكريه الساحقة ٠

ومن اشهر حروب المنصور محمد ، تصديه لاطماع الملك (ردمير الثالث) ٣٥٥ - ٣٧٢هـ/٩٦٦ - ٩٨٢م ملك ليون الذى حاول الهجوم على الممتلكات الاسلامية مستغلا صغر سن الخليفة هشام المؤيد ٠ فقام بالهجوم على قلعة (رباح) وهى احدى الكور الاسلامية المهمة ؛ وساعد فى هـذا الهجوم أهالى امارة فشتالة فعاثوا فى بلاد المسلمين فسادا وتخريبا مما دفعهم الى الاستنجاد بالحاجب جعفر المصحفى القائم على دولة الأندلس فى بداية عهد الخليفة هشام المؤيد ٠ وعندما رأى المنصور محمد تقاعس

الحاجب المصحفى عن حماية بلاد المسلمين ، أعد جيشا خرج به من قرطبة فى الثالث من شهر رجب سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م . قاصدا أراضى ليون وقشتالة(٢٩) فحاصر حصن (الحامة) فى جليقية ، وأنزل بأهله هزيمة فادحة ، وقام بفتح الربض التابع له ، والذى تم بناؤه على يد الملك ردمير الثالث(٣٠) وعاد الى قرطبة منتصرا(٣١) . ثم قام بحملة أخرى انطلقت من مدينة طليطلة وتمكن بها من فتح كثير من الحصون النصرانية . كذلك تمكن المنصور من فتح مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غرب مملكة ليون. ومن غزوات المنصور المهمة غزوه مملكة ليون ، لمعاقبة ملكها ردمير الثالث فتمكن من هزيمته وقام بهدم مملكته واستباحها لجنده .

ومن أهم غزوات المنصور تلك الغزوة التى عرفت باسم (اوشنت ياقب) - أى القديس يعقوب - وهى عاصمة اقليم (جليقية) فى الشمال. وقد اشتهرت هذه المدينة بأنها من أعظم معالم اسبانيا ؛ لمكانتها الدينية التاريخية ، كما تعتبر من أمنع معاقل اسبانيا النصرانية وأشدها صعوبة لموقعها الجبلى الوعر الذى حال دون وصول المسلمين الفاتحين اليها. ولم يفكر أحد هؤلاء الفاتحين قبل المنصور بن أبى عامر فى اقتحامها ، حتى غزاها المنصور بن أبى عامر ٣٨٧هـ/٩٩٧م على رأس جيش وبمعاونة الأسطول البحرى ، وتمكن من اقتحامها(٣٢) .

وكان لانتصار المنصور فى هذه الحملة صدى واسع ، وفرحة كبيرة فى نفوس المسلمين فى الأندلس ، واشاد ابن دراج القسطلى بهذه الحادثة التاريخية بقوله(٣٣) :

ووقفت دون الدير فيها وقفة ... كانت لنصر الله فيها موعدا
وبرأى عينى يوم خضت لفتحها ... بحرا من البيض الصوارم مزبدا

وبعد أن غزا المنصور مملكة ليون تطلع لغزو بقية الوحدات المسيحية فى شمال شبه الجزيرة ، فقام بغزو امارة قشتالة سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م ؛ وذلك لمواجهة الحلف العسكرى النصرانى الذى نظمه أميرها (سانشو غرسيه) ، والذى كان يضم عددا من ملوك النصرانية . وقد واصل فتوحاته فى أراضى قشتالة الى أن وصل الى عاصمتها (برغش) سنة

٣٩٠هـ/١٠٠٠م • وفى هذه الغزوة اظهر المنصور وجنده روحا عالية ، وخاصة بعد أن اهتز بعضهم أمام ضخامة جيش العدو وفكروا فى الفرار ، لولا أن من الله على المسلمين بالنصر وعندئذ وجه المنصـــور الى جنوده وقواده بيانا عسكريا قال فيه : « وكثيرا ما فرط من قولكم انكم تجهلون قتال المعاقل والحصون ، وتشتاقون ملاقاة الرجال الفحول ، فحين جاءكم شاغبة بالأمنة وقائلكم بالشريطة انكرتم ما عرضتم ونافذتم حتى فررتم فرار اليعافير(٣٤) من أسار(٣٥) الفيل ، واجفلتم اجفال الرئال(٣٦) من المقتصين • ولولا رجال منكم دحصوا عنكم العار ، وحرروا رقابكم من الذل ، لبرئت من جماعتكم وشملت بالموجـــود كافتكم ، وخرجت للامام والأمة من عهدتكم ونعمت المسلمون فى الاستبدال بكم ، ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصر ، وحسن عقبى • فلابد أن ينصر دينه بمن شاء»(٣٧) وقد كان الشاعر ابن دراج شاهدا أيضا هذه الوقعة حيث تمثل فيها هذه الأبيات :

ان تفخـــر الدنيا فانت فخارها او تختر العليا فانت خيـــارها
وعدا على الله حقا نصر من نصره وحكم سيفك فى هامات من كفر

الى أن يقول :

هلال بنور السعد والحق مقمـــر أهل على الاسلام الله أكبر(٣٨)

ومن الجوانب المضيئة فى حياة المنصور انه استطاع أن يشمل بلاد المغرب بنفوذه ، بغرض القضاء على النفوذ الفاطمى ، وبذلك استطاع أن يوسع نفوذ الدولة الأموية بالاندلس حتى غدا يضم مراكش كلها بما فيها مدينة (فاس) ، ولا شك فى ان المنصور استغل اضطراب الأحوال السياسية فى منطقة الشمال الافريقى ، وذلك بعد ان نقل المعز لدين الله الفاطمى مقر الدولة الفاطمية من بلاد المغرب الى مصر • وقد استطاع المنصـــور محمد بحنكته السياسية وحسن معالجته للأمور ان يكسب محبة وموالاة معظم أهل المغرب البربر الزيانية فأحبوه ، وتفانوا فى طاعته(٣٩) •

ولا شك فى ان المنصور أحس بالزهو والفخر بعد أن حقق هذا القدر من الانتصارات فى سبيل الدفاع عن الدولة الاسلامية فى الاندلس والحفاظ عليها . وقد عبر عن ذلك ببعض الأبيا تالشعرية ، التى يقول فيها :

الم ترنى بعت الاقـــامة بالسـرى
ولين الحشـــايا بالخيول الضوامر ؟
تبدلت بعـــد الزعفـــران وطيبـــه
صدا الدرع من مستحكمات المسامر
ارونى فتى يحمـــى حمـــاى وموقفى
اذا اشـتجر الأقـران بين العسـاكر
انا الحاجب المنصـــور من آل عامر
بسيفى اقـــد الهام تحـــت المغافر
فلا تحسبوا أنى شـــغلت بغـــيركم
ولكن عهدت الله فى قتل كافر(٤٠)

وبالاضافة الى شجاعته فى ميدان الحرب ، كان المنصـــور سياسيا محنكا استطاع أن يكسب بسياسته احترام أعدائه فى نفوسهم ، مما دفـع كثيرا منهم الى التقرب منه ، ومحاولة كسب وده فعقدوا الصـــلح معه ، وأرسلوا السفارات لكسب صداقته . ومنهم على سبيل المثل : شانجه بن غرسيه حاكم امارة (نافار) . وعندما قام شانجه بن غرسيه بنقض الصلح مع المنصور قام المنصور بعدة هجمات على امارته ، وعندئذ اسرع الملك النصرانى (شانجه) باعلان طاعته للمنصور وتجديد العهد معه ، بل لقد اهدى ابنته له ، فتزوجها المنصور ، وانجبت منه ابنه (عبدالرحمن) الذى عرف باسم (شنجول) تصغيرا لجده لأمه .

وهكذا توالت على بلاط المنصور سفارات متعـــددة من قبل ملوك النصارى فى الشمال معلنة ولاءها له . ومن بين هـــذه السفارات تلك السفارة التى كانت برئاسة ولى عهد امارة قشتالة ، وكان موفدا من قبل أبيه غرسيه .

كذلك كان من بين السفارات التى قدمت على بلاط المنصور ســـعيا

لكسب صداقته وحسن رضائه تلك السـفارة التى كانت برئاسـة الأمير « غنر شلب » ابن شانجه بن غرسيه (ملك نافار) الى المنصور ، وكان ذلك عام ٣٨٣هـ/٩٩٣م وقد أشاد بها ابن دراج بقوله :

ورمى «ابن شنج» اليك نفس محكم
نهـج الخضوع لها سـبيل رشادها

الى أن يقول :

مسـتنجد منـه مـذلة خاضع
غنم الحيـاة أبوه باستنجادها(٤١)

وفى الداخل حكم المنصور البلاد بحزم ،فتصدى لكل حركةاستهدفت اثارة البلبلة والشغب فى الدولة لتحقيق أطماع خاصة بها ٠ ومن هـذه الحركات حركة زيرى بن عطية الذى أعلن الثورة سنة ٣٨٦هـ/٩٩٧م على المنصور ، متهما اياه باغتصاب الحكم من الخليفة هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ٠ فدخل فى حرب مع المنصور بن أبى عامر ، ولكن المنصور تمكن من انزال هزيمة نكراء به سنة ٣٨٨هـ/٩٨٨م ٠

اصلاحات المنصور ومنجزاته الداخلية :

(أ) منشآت المنصور العمرانية :

لم تقتصر الجوانب المضيئة فى حياة المنصور على الجانب الحربى فقط ، بل شملت أعمال المنشآت العمرانية فى البلاد الأندلسية ٠ ومن أجل أعماله توسعاته الكبيرة فى المسجد الجامع بقرطبة سـنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م ٠ وذلك حين لاحظ أن المسجد بدأ يضيق بالمصلين ، فقام بشراء الدور المحيطة بالمسجد من أصحابها ، وأمر بهدمها ، وادخل أراضـيها فى ساحة المسجد ٠ وقد استغرقت هـذه التوسعة ما يقرب من العامين والنصف تقريبا(٤٢) ٠ وقد حرص المنصور على توخى العدل والالتزام به ، حينما أقدم على شراء هذه الدور من أصحابها ؛ حتى لا يحيق ظلم أو غبن بهم ٠ من ذلك أنه راعى أن يكون شرائها عن طيب خاطر من صاحبها ، كما أنه ترك له الحرية فى طلب المبلغ الذى يرغبه(٤٣) ٠

ومن أعماله الانشائية كذلك انشاء القصور والمدن فى الانحاء التى تتميز بحسن طبيعتها واعتدال مناخها داخل الدولة الاسلامية فى الأندلس . وكانت الصفة الغالبة على هذه القصور هى جمال التصميم وحسن التنفيذ . ومن هذه القصور قصر الزاهرة على نهر قرطبة وقد أطلق عليه اسم قصر الزاهرة نسبة الى المدينة ، التى قام بتأسيسها المنصور سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م شمال شرق قرطبة لتكون مقرا له . وكذلك انشاء قنطرة قرطبة على نهر قرطبة سنة ٣٧٨هـ ، وذلك لتخفيف الضغط على القنطرة التى قام بانشائها عبد الرحمن الداخل ، والتى تعرضت للسقوط عدة مرات ، بسبب جرف السيول لها . وقد ربطت هذه القنطرة شمال قرطبة بجنوبها ، وبذلك سهلت حركة مرور السكان من جهة الى أخرى . ومن أعمال المنصور أيضا انه قام باعادة بناء قنطرة مدينة طليطلة سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م وكانت قد هدمت بأمر الأمير محمد بن هشام من حفدة عبدالرحمن الناصر والملقب بالمهدى ، وذلك انتقاما من أهلها الثائرين عليه(٤٤) . وأمر المنصور ببناء قنطرة نهر اشتجه وهو نهر شنيل ، فسهل بذلك الطريق الوعرة والشعاب الصعبة(٤٥) .

ولم تقتصر أعمال المنصور محمد بن أبى عامر العمرانية على الانحاء الواقعة داخل الدولة الاسلامية فى الأندلس ، بل امتدت الى الأجزاء التى فتحها فى بلاد النصارى فى الشمال . ويتضح ذلك من أنه عندما حضرته الوفاة ، كان بحضرته صاحب كوثر الفتى ، فرآه باكيا فسأله قائلا « مم تبكى يا مولاى لا بكت عيناك ؟ » قال : « مما جنيت على بلاد المسلمين . فلو قتلونى وأحرقونى ما انتصفوا منى » فسأله متعجبا قائلا له « وكيف ذلك ، وأنت اعززت الاسلام وفتحت البلاد ، وأذللت الكفر ، وجعلت النصارى ينقلون التراب من أقصى بلاد الروم الى قرطبة حين بنيت بها جامعها ؟! » فقال له : « لما فتحت بلاد الروم ومعاقلها عمرتها بالأقوات من كل مكان وبنيت بها حتى عادت فى غاية الامكان ، ووصلتها ببلاد المسلمين ، فاوصلت العمارة » ثم أبدى مخاوفه ممن سيخلفه فى عدم قدرته على المحافظة عليها ؛ لانشغاله بملذاته الشخصية ، الى أن قال : « فيجىء العدو فيجد بلادا عامرة حاضرة ، فيقوى بها على محاصرتها ، فلا يزال يتغلبها شيئا فشيئا ، ويطويها طيا

حتى يملك أكثر هذه الجزر ، ولا يترك فيها الا معاقل يسيرة ٠ فلو الهمنى الله فى تخريب ما تغلبت عليه ، واخلاء ما تملكت ، وجعلت بين بلاد المسلمين وبلاد الروم عشرة أيام فيافى وقفارا ، لايزالون لو راموا سلوكها حيارى ، فلا يصلون الى بلاد الاسلام الا بعد جهد ومشقة»(٤٦) ٠

ومن أعمال المنصور ايضا انه أعاد بناء مدينة سلا ، وهى رباط من ربط المسلمين٠وكانت قد تخربت على يد المارقين عن الاسلام (برغواطة) فامر المنصور باعادة بناء أسوارها ، وبنى فيها مارستانا فخما ، وقصرا لمقر الجند ، كما بنى بها جامعا بديعا ، وقاعة للصلاة مزينة باللازورد، والفسيفساء ،والنوافد الزجاج الملون(٤٧) ٠

تنظيم الجيش :

بعد أن استتب الامر للمنصور محمد بى ابن عامر فى الدولة الاسلامية فى الأندلس ، أدرك انه هو المسئول الاول عن بقائها وحمايتها. ورأى أن من أول واجباته العناية بالجيش ، لأنه عماد الدولة الأول والركيزة الأولى التى تعتمد عليها فى بقائها وقوتها ٠ لذلك حرص المنصور ابن أبى عامر على بناء جيش قوى متماسك يتناسب قوة وعددا مع الجيوش الاسبانية النصرانية المعادية للدولة الاسلامية والمعارضة لقيامها وكان أن فتح باب التطوع للانضمام الى الجيش الاسلامى وجعل الدخول فيه متاحا لجميع أفراد طبقات المجتمع الأندلسى الاسلامى ، كما قام بالغاء النظام الذى كان معمولا به من قبل فى الجيش وهو نظام التجنيد الاجبارى ، واحل محله نظام التطوع ، بحيث ترك حرية الانخراط فى الجيش للأفراد ٠ وقد اعلن المنصور ذلك بأمر أصدره سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م بعد عودته من احدى غزواته فقال : ان من تطوع خيرا فهو خير ، ومن خف اليه فهو مبرور ومأجور ، ومن تثاقل فهو معذور(٤٨) ٠ وكان لهذا النظام أثره فى نفوس أهل الأندلس اذ سارعوا بالانضمام الى الجيش ؛ رغبة فى نيل الأجر والثواب من عند الله ٠ وكان لذلك أثره البالغ فى عدد جهادهم ، وتفانيهم فى مواجهة الأعداء ٠

كذلك عمل المنصور على ازالة النظام التقليدى المعمول به فى

الجيش ، والذى كان يعتمد على زعماء العرب والبربر ، الذين استقروا وسط المزارع فى قلب البلاد ، فى وضع اقرب الى ما هو معــــروف فى النظام الاقطاعى ٠ ويسمح لهم باستثمار الأرض مقابل النهوض بمهمة القتال والجهاد ومعهم اتباعهم ، عندما يدعوهم الأمير الى ذلك ، وعندما ينتهى القتال يعودون الى مزارعهم بما حصلوا عليه من مغانم(٤٩) وقد ادى ذلك النظام مع مرور الوقت الى نشـــاة تكتلات عسكرية ذات طابع سياسى فاصبحت مناطق اقامتهم شبه مستقلة عن الدولة واشعلوا كثيرا من الثورات وحركات التمرد ٠ وصحب ذلك ظهور نزعات اســـتقلالية وانفصالية ، كادت أن تودى بوحدة البلاد وأمنها ، لولا أن تدارك هـــذا الأمر المنصور بن أبى عامر وعمل على الغائه ٠

ومن الملاحظ أن المنصور تحاشى الاعتمــــاد على طبقة الصقالبة كعنصر فعال فى الجيش بعد أن قويت شوكتهم فى زمن الحكم المستنصر ، فعمل المنصور على إبعادهم وعمل جيشا موحـــدا متماسكا يتالف من جميع فئات أهل الأندلس ، وبذلك يقضى على النزعات القبلية العنصرية داخل الجيش(٤٩) ٠

اهتمامه بالقضـــاء :

ومن النظم المهمة فى الدولة ، التى اختصها المنصور بالكثير من عنايته واهتمامه ، نظام القضاء ، اذ عمل على ضبطه وسيره فى الوجهة الصحيحة ٠ ذلك انه تصدى لكل من حاول الاخلال بالقضاء ، أو ادخال شيء مناف عليه ٠ يذكر المقرى عن المنصور انه سد باب الشفاعات ، وقمع اهل الفسق والزعارات ، حتى ارتفع الباس وأحس الناس بالأمن ، وأمنت البلاد عادية المجرمين(٥٠) ٠ وقد اولى اختيار القضاة جل اهتمامه ، وتوخى فيهم حسن السلوك ، وحسن السيرة ، رغبة منـــه فى اشاعة العدل بين أفراد مجتمع الدولة الاسلامية ٠ وكان اختياره للقاضى يقوم على أساس كفاءته التامة ونزاهته المطلقة ودرجة علمـــه ٠ كذلك كان حريصا على فصل السلطة الزمنية عن السلطة القضائية ، بحيث منـــع التدخل فى شئون القضاء منعا باتا مع معاقبة من يثبت تدخله فى سير القضاء ، مهما يكن منصبه ، أو مكانته فى الدولة ٠

اهتمامه بالثقافة والعلم :

أما عن الناحية الثقافية والعلمية فى البلاد زمن حكم المنصور محمد ابن أبى عامر ، فقد احتلت الثقافة اهمية كبرى فى نشاطه ، ولم تشغله عنها اعباء الحكم ، او جهاده المتواصل ، فكان محبا للعلم والعلماء ، كثير اللقاء بهم ، والاستماع الى آرائهم ، الى جانب احترامه واهتمامه بأهل العلم والأدب والشعر(٥١) وقد خصص لهم اماكن مستديمة فى مجلسه . ويحكى عنه أن له تذوق للأدب والشعر ، حيث كان يفرق بين جيده ورديئه ، بحيث كان يمتحن قدرة الشعراء ، وموهبتهم الشعرية قبل السماح لهم بالقاء قصائدهم أمامه(٥٢) وكانت مكتبته زاخرة بكتب العلم والأدب والثقافة ،كما أنه أسند الى العلماء وظائف القضاء والتدريس فى مسجد قرطبة الجامع(٥٣) . والمعروف عن المنصور بن أبى عامر أن نشاته منذ صغره كانت فى بيت علم ، وأدب ، وشعر .



وقد حظيت شخصية (المنصور بن أبى عامر) باهتمام المؤرخين القدامى والمحدثين ، واختلفت وجهات النظر حول الحكم على هذه الشخصية الفريدة ، ما بين مادح لها ، وطاعن فيها . ونحاول نحن خلال الصفحات التالية عرض هذه الآراء ، وبيان وجه الحقيقة فيها .

أولا : مصادر اشادت بالمنصور بن أبى عامر :

١ - **ابن حيان :** وصف المؤرخ ابن حيان جهاد المنصور المشرف ؛ لأجل اعلاء كلمة الله فى عبارة ، نقلها عنه ابن عذارى ، وفيها يقول « تمرس المنصور ببلاد الشرك اعظم تمرس ، ومحا من طواغيتها كل متعجرف ومتغطرس ، وغادرهم صرعى البقاع ، وتركهم اذل من وتد بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع ، وسدد الى أكبادهم سهام الفجائع ، واغص بالحمام أرواحهم ، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم»(٥٤) .

٢ - **الأمير عبد الله بن بلقين آخر امراء بنى زيرى بغرناطة :** قال هذا الرجل فى مذكراته عن المنصور : « وعلى الرغم من أن المنصور لم يكن من أسرة عريقة بالملك ، فانه حصل على ذلك بدهائه وعبقريته ،

وتدرجه فى المناصب ، وحسن تدبيره فى الدولة ، وايضا كثرة غزواته وانتصاراته على النصارى ، والتى كانت تقابل باستحسان لدى أهــل الأندلس ... » الى ان يقول « وقد نال الاسلام فى عهده بالاندلس عــزا ونصرا ، لم تشهده الأندلس من قبل ، ووصل بالمسلمين الى بلاد النصارى وما كان لأى حاكم قبله أن يصل اليها »(٥٥) .

٣ ـ **المؤرخ ابن عذارى :** أعجب هذا المؤرخ بشخصية المنصــور ، ووصفه بصفات جليلة ، ورفع قدره بين الحكام والملوك ، وذلك فى رواية يقول فيها « كان المنصور بن ابى عامر متسما بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه ،وخوفه من ربه ، وكثير جهاده . واذا ذكر بالله ذكر ، واذا خوف من غقابه ازدجر . وكان يكثر من قراءة القرآن الكريم ، ومايزال متنزها عن كل ما تغن به الملوك . وكان يهتم بالعلماء ، ويعلى مراتبهم ويجزل العطاء لجنده وكان ذا عقل بصير بالحرب»(٥٦) .

ثانيا : باحثون محدثون أشادوا بابن أبى عامر :

١ ـ **محمد عبد الله عنان :** وقد ذكر هذا الباحث خلاصة ايجابيات وانجازات المنصور ، فذكر انه كان قائدا مغوارا ، انشأ فى الأندلس جيشا منظما ، حارب به اعداءه (نصارى الاسبان) وأن أيامه فى الأندلس كانت أياما خالدة ، ساد فيها الأمــن والاســتقرار ، وازدهرت فيها التجارة والصناعة ، وتقدمت فيها العلوم والآداب ، وكثرت الأموال فى خزائن الدولة فى عهده(٥٧) .

أما بخصوص اهتمامه بالعلوم والفنون ، فقد كان يشجع العلوم والفنون ، وقام بانشاء دور العلم . وكان يقوم بزيارات للمدارس والحلقات العلمية فى المساجد ، كما انه كان يمنح المكافآت لمستحقيها من طـلاب العلم . واثر عنه كثرة مجالسته للعلماء ومناظرتهم ، اذ كان له فى كل أسبوع مجلس يجتمع فيه مع العلماء ، والادباء والشــعراء ، للمناظرة والبحث(٥٨) .

٢ ـ محمد لبيب البتانونى : أشاد هذا الباحث بشخصية المنصور ، وامكاناته الأدبية الفائقة ، ومهاراته وبعد نظره فى سياسة البــلاد فى

عهده ، فيقول « وكان من أكبر ملوك الأندلس سلطانا وفضلا ، وعلما وحسبا . له فى السياسة اليد الطولى ، وفى ادارة الحكم القدرة الفائقة. وكانت له مميزات فى صفاته وبعد نظره ، وفكر ماهر وقدرة كبيرة على تحمل الشدة(٥٩) .

٣ - **المؤرخ الأسبانى ماسديه** : أعجب هذا الباحث الغربى بقدرات المنصور السياسية ، ونجاحه فى توحيد مملكته ، وقوة شخصيته ، وحسن معاملته لمن استسلم نجنده من أهالى المدن النصرانية التى تم فتحها على يديه ، ويعبر عن ذلك بقوله « كان المنصور سياسيا كبيرا وقائدا عظيما ، أخمد الثورات التى كانت تعصف بمملكته . واكتسب محبة الشعب بجميع طبقاته ، وبرز فى شهرته وهيبته على كثير من القواد ، بما اجتمع فى أحكامه من الصراحة واللين ، والقصاص والعفو . وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ولكنه لم يسمح - قط - لجنـــده أن تسىء معاملة مدينة سلمت طوعا»(٦٠) .

٤ - **المؤرخ منندیث پیدال** : قارن هذا الرجـــل بين حال الدولة الاسلامية بالأندلس أيام المنصور بن ابى عامر وما وصلت اليه من مجد وفخار ، وبين ما انحدرت اليه ممالك النصارى فى الشـــمال من ضعف وهزال .وقد وصف هذا الوضع بقوله : « عاش الاسلام فى اسبانيا أرفع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال الى حالة دفاع ، وكانت أيامهم مقرونة بالمحن . ولاح كأنهم لم يعيشوا الا لتأدية الجزية ، والســـلاح ، والأسرى . والمجد للخلافة الأموية »(٦١) .



على أن التاريخ لا ينظر الى الأمور من زاوية واحدة ، وعلى ذلك لابد من الاشارة الى الرأى الآخر فى حكمه على المنصور . ويكون ذلك بتحديد الاتهامات التى وجهت الى المنصور ، والمآخذ التى أخذت عليه .

الاتهام الأول - أنهم المنصور بانه اغتصب حكم بلاد الأندلس لنفسه، وحكم البلاد حكما مركزيا مطلقا . وذلك بأن حجر على الخليفة الشرعى (هشام بن الحكم) حتى أصبح هو الآمر الناهى فى كل صغيرة وكبيرة

من شئون الدولة ، وهكذا غدا شبيها بامير الأمراء فى بغداد وقد وصف ابن عذارى(٦٢) المنصور بانه استاثر بكل سلطان الخليفة ، ولم يعد يكلف نفسه مجرد استشارة هشام ، او اعلامه بما يجرى حوله ، كما اعتاد أن يفعل فى السنوات الأولى من حكم هشام المؤيد « لقد قصر الخليفة من جميعه ،وصيره بمعزل عن سامعه ومطيعه ، وشد باب قصره عليه ، وجد فى خبر الا يصل اليه . وجعل من يثق به من صنائعه على باب القصر ، لضبط حركة الدخول والخروج واوقف الحراس والبوابين ، يلازمونه ليل نهار . أما الخليفة هشام فهو خفى الذكر ، عليـــل الفكر ، محجوب عن الأحباب لا يراه خاص ولا عام ، ولا يعهد اليه الا الاسم الســلطانى فى السكه والدعوة ، وقد نسخه ، ولبس أبهته ، وطمس بهجته ، وأغنى الناس عنه ، وازال أطماعهم منه ، وصيرهم لا يعرفونه» .

وهذا القول مردود عليه بان المنصور رأى صغر سن الخليفة هشام وبلاهته ، وضعف عقله ، فقدر ان ظروف الدولة الحرجة أمام الصراعات فى الداخل ، وتربص الأعداء فى الخارج ، لا تحتمل ترك مقدرات الأمة الأندلسية فى يد طفل صغير .

ويرى أحد الباحثين المحدثين أن المنصور(٦٣) - عزل هشاما ، وحجبه عن شئون الدولة برضاء أمه ، اذ كان الخليفة مشغولا بمعاشرة القيان والجوارى والخدم ، مما أفسد خلقه ، وأضعف رجولته ، وحد من قدراته العقلية . فانى له أن تكون مقاليد الدولة بيديه ؟!

الاتهام الثانى : ان المنصور تزوج من (أسماء) وهى ابنة القـــائد الغالب عبد الرحمن(٦٤) ، مستهدفا المكر والخديعة ، والوصـول الى اطماعه الشخصية .

ويرد على ذلك بان المنصور لم يســتهدف من ذلك الزواج المـــكر والخديعة ، وانما اراد ابطال ما كان يدبره الحاجب (جعفر المصحفى) ، الذى كان ينوى تزويجها الى ابنه (عثمان) ، لتحقيق شىء من التفاهم والوئام بينه وبين القائد غالب ابن عبـــد الرحمن ، عن طريق هـــذه المصاهرة ، والتى عن طريقها يتم التحالف بين هـــذين الرجلين ضد

الخليفة هشام بن الحكم ، فيعملان معا على انتزاع السلطة منه ٠ وكان المنصور يخشى قيام حروب وفتن فى البلاد ، لوجود منافسين آخرين لهما ، مما سيؤدى الى اضطراب أمور الدولة ٠

فاراد المنصور أن يسبقه الى الزواج من ابنة غالب ، ليقطع دابر الفتنة ، ويئدها فى مهدها ٠

الاتهام الثالث :

اتهم المنصور بعدم الانسانية ، وباتخاذ كافة السبل والوسائل غير الاخلاقية ، لأجل تحقيق مصالحه الذاتية ٠ وأنه كان يسعى للوصول ولو على جثث الآخرين ٠ ومن ذلك : اشتراكه مع القائد غالب بن عبدالرحمن فى غزوة (الصائفة ، والشاتية) ضد النصارى بمدينة (مجريط)٠ورغم أن النصر تم على يد غالب الا أنه نسب الى المنصور ٠ وتم ذلك بناء على اتفاق أبرم بينهما ، يتم بمقتضاه قضاء المنصور على الحاجب (جعفر المصحفى)٠وكان ذلك عن طريق تقريب الخليفة هشام للمنصور ، لما علمه من تحقيق النصر على يديه ، ولما جلبه من غنائم وسبى ٠ وكانت نتيجة هذا التقارب ايقاع المنصور بين هشام والمصحفى ٠ ونجحت الوقيعة بأن أصدر هشام أمرا بعزل المصحفى من رئاسة الشرطة والمدينة ، واسناد ذلك الى المنصور ٠ هذا بالاضافة الى ما قام به المنصور من تعذيب وسجن ونهب لآل المصحفى ، حتى هلك المصحفى فى السجن ذليلا ٠

ويرد على ذلك بأن هناك عوامل دفعت المنصور الى التخلص من المصحفى أهمها عاملان :

الأول ـ استبداد المصحفى بالسلطة فى الدولة بحكم مركزه فيها ٠ اذ كان يعد الرجل الحقيقى الأول فيها ٠

الثانى ـ نقمة المنصور عليه ، واتهامه اياه بالتقصير فى الدفاع عن ثغور الاندلس ، ومواجهة اعتداءات النصارى على المسلمين الآمنين ٠ لقد استنجد بالمصحفى أهل قلعة (رباح) ؛ لانقاذهم من ملك ليون (رومير الثالث ٣٥٥ ـ ٣٧٢هـ) ، الذى زحف بقواته على ذلك الثغر الاسلامى بمساعدة ادارة قشتالة ، فعاثوا فى الأرض فسادا ٠ ولكن المصحفى وقف

موقفا سلبيا من هؤلاء المستضعفين رغم ما يملكه من عتاد ورجال وأموال. وكان كل ما نصحهم به أن يهدموا سد نهر (آنه) ، لتحـول مياهه دون عبور الأعداء اليهم . لذلك رأى المنصور ضرورة عزله لتهاونه وعدم قدرته على حماية بلاد المسلمين .

الاتهام الرابع :

اتهم ابن أبى عامر بانه رجل متعطش الى سفك الدماء ، مخادع ما كر على استعداد لعمل أى شىء فى سـبيل الوصـول الى أغراضـه ومطامعه ، وأن صيرورة أمر هذه المملكة الاندلسية اليه بعـد أن كان عبد الرحمن الناصر قد حقق لهـا وحـدتها ، أدى بها الى الضـعف والانحلال(٦٥) .

لقد قال البعض فى المنصـور أنه كان ميكافيلليا قبـل أن يولد ميكافيللى بقرون ، وأدرك أنه فى سبيل الوصول الى الحكم لابد من أن ينحى الضمير والوازع الأخلاقى جانبا . ولذا فانه قتـل كل من كان يخشاه من أمراء البيت الأموى فى الأندلس . ولم يكتف المنصور بذلك ، بل كان يقضى على مراكز القوى الثانوية التى تنافسه . فمثلا قضى على عبد الرحمن ابن مطـرف التجيبى من عائلة هاشـم ، وكان يحكم (سرغوسه)(٦٦) .

ويرد على ذلك بأن المنصور ادرك ان كل امير فى البيت الأموى يطمع فى ان تكون الخلافة له من دون هشام بن الحكم ، فرأى ضرورة التخلص منهم ، لأن وجودهم سيؤدى الى اشعال الفتن والحروب الأهلية فى الدولة ، ويوجه نظر أعدائها من الاسبان نحوها ، بغرض الاستيلاء عليهـا .

لقد كان الخليفة هشام غير قادر على تحمل مسئولية الخلافة اذ كان يعيش لملذاته الخاصة . وقد وصفه ابن سعيد بأنه (نشأ جامد الحركة ، أخرس الشمائل ، لا يشك المتفرس فيه أنه نفس حمار فى صورة آدمى) الى أن قال عنه : (وكلما زاد سنا نقص عقلا) بل مما يدل على سذاجته وبلاهته الشديدة ، أنه عندما خلفه الخليفة محمد بن هشام بن عبد الجبار

على اثر تنازله عن الخلافة بعبد الرحمن بن المنصور،لم يكن يشغله فى ذلك الحدث الجلل الا طائره (الهدهد) الذى كان يتولى العناية به ، حيث قال لأحد غلمانه : بالله انظر هدهدى ان كان سلم ، وتفقده لئلا يهلك بالجوع والعطش فانه من ذرية الهدهد الذى دل سليمان على عرش بلقيس(٦٧) . هذا الخليفة المعتوه كان من السهل خلعه ، وانتزاع أمراء بنى أمية فى الأندلس عرشه ، ولذا كان لابد من موقف صارم لابن ابى عامر تجاه بقاء هشام فى الحكم(٦٨) .

اما ما يتعلق بحكام منطقة (سرغوسة) ، فقد خشى المنصور أن تثير هذه الأسرة الحاكمة القلاقل والفتنة داخل الدولة الاسلامية بالأندلس، خاصة اذا عرضنا تواطؤ حكامها وتعاملهم مع النصارى أعداء المسلمين فى مقاطعة الشمال الذين كانوا لا يتوانون فى القضاء على الاسلام ودولته.

الاتهام الخامس :

يؤخذ على المنصور تخليه عن العنصر العربى ، واعتماده على العنصر البربرى ، والصقالبة فى الجيش .

ويرد على ذلك بان المنصور لم يتخل عن العنصر العربى تماما فى الجيش وانما حد من أعدادهم لازالة العصبية القبلية عن الجيش ، حيث ان الجيش فى عهد خلفاء بنى امية فى الأندلس قبل تسلم المنصور زمام الأمور - كان يتالف من العنصر العربى فقط ، أو لعل هذا العنصر كان هو العنصر الغالب فى الجيش ، مما سبب الفوضى ، وأوجد الحزازات والعصبية داخل الدولة . وقد رأينا أن المنصور ، عمل ليجعل الجيش جيشا نظاميا ولذا أدخل فيه عناصر بشرية متباينة من تلك العناصر المكونة للمجتمع الأندلسى ، وقسم الجيش الى فرق متعددة كل فرقة تعبر عن أحد العناصر المتباينة التى تالف منها المجتمع الأندلسى كالبربر ، والعرب والصقالبة(٦٩) .

وجدير بالذكر أن المنصور نكب صقالبة القصر ، وأن ذلك العمل رفع من قدره فى نظر الأندلسيين عموما ، وأهالى قرطبة خصوصا.لأن الجميع كرهوا تلك الفئة الدخيلة المتغلبة على شئون القصر والبلاد .

الاتهام السادس :

وصف المنصور بن ابى عامر بالجبروت والعسف : نتيجة قتله ابنه وفلذة كبده : عبد الله · ونحن لانستطيع - ولا نقر - له عذرا فى مثل هذا التصرف الأخرق ، ولكن نترك المنصور نفسه يبرر تصرفه فيقول : أن ابنه عبد الله تآمر عليه مع خصومه التجيبيين أصحاب الثغر الأعلى ، كما تآمر مع خصوم ابيه فى قرطبة والزاهرة ، وذلك بالتجائه الى عدو المسلمين (غرسيه) كونت قشتالة ، الذى كان يكن الحقد والكراهية لأبيه - لقد اقدم المنصور على التخلص من ابنه ليحد من مؤامراته ، التى كانت تهدد بالقضاء على دولته وعلى دولة الاسلام فى الأندلس · وكان المنصور يدرك جيدا نوايا ابنه الخبيثة ، وما يدبره له من مكايد · وقد افصح عن ذلك لأحد اعيان البربر (طرزون بن زتراء البرازالى) ، وعندما استنكر عليه قتل ابنه ، فقال « لا يسؤك ذلك ، فلو لم أفعل لقلتنى »(٧٠) ·

الاتهام السابع :

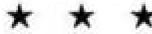
يؤخذ على المنصور فى مجال الحياة الثقافية أنه كان يكره الفلسفة والفلاسفة ، ولا يأنس الى علماء الفلك والتنجيم · وقد عبر عن نهجه هذا بصراحة ، حين أخرج بعض ما كان فى خزانة الخليفة الحكم المستنصر من نوادر المؤلفات الفلسفية والعقلية ، وأحرقها بمحضر عـــدد من أكابر الفقهاء والعلماء ·

ويرد على ذلك أنه ربما أحس بأن بعض كتب الفلسفة التى أحرقها كان فيها ما يخالف الدين وعقائده · وكان المنصور يحرص على الظهور بمظهر المدافع عن الدين كما كان حريصا على استحباب رضاء العلماء ، وكسب تأييد عوام الناس فى قرطبة(٧١) ·

الاتهام الثامن والأخير :

اخذ على المنصور أن فتوحاته لبلاد النصارى لم يرافقها استيطان للمسلمين فى تلك البلاد المفتوحة · ولو أنه حقق ذلك الاستيطان ، لصعب على النصارى استردادها بعد ذلك ·

ويرد على ذلك بأن ظاهرة الاستيطان ترتبط بالعامل النفسى عند الجنود المسلمين المحاربين فى جيش المنصور ، اذ من الواضح أنهم كانوا لا يرغبون فى الاستيطان فى تلك المناطق لعدم تأقلمهم وفق طبيعة تلك البلاد ، الى جانب احساسهم بأن بقاءهم فيها لا يدوم ، وربما تعرضوا للافتتان عن دينهم عند استرجاع النصارى لبلادهم(٧٢) ٠



واخيرا فاننا فى حكمنا على المنصور محمد بن عبــد الله بن أبى عامر وتقويمنا له ، نرى :

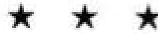
١ ـ لا نستطيع أن ننكر المواهب والكفاءات والمهــارات السياسية والقيادية ، التى تمتع بها المنصــور ، والتى اهلته لكسب ثقة الحكم المستنصر ، وجعلته يتدرج فى المناصب المهمــة التى ترقى اليها ، حتى وصل الى مرتبة الحاجب ، منافسا غيره من رجالات الدولة الكبار ، وعلى راسهم (جعفر المصحفى) ٠

٢ ـ ولا ننكر ـ أيضا ـ أن الظروف خدمت المنصور للوصول الى ما وصل اليه من مجد ٠ ذلك أنه لم يكن من أهل بيت ملك فى عصر كان العظماء يتوارثون الملك كابرا عن كابر ٠ فسعادة جده (حظه)(٧٣) مع ذكائه الفذ ، كل ذلك مكنه من الوصول الى أهدافه ، عن طريق التخطيط السليم ، متخطيا كل العقبات التى صادفت طريقه ، سواء تخطاها بسبل شرعية أم غير شرعية ٠

٣ ـ اذا كان يحسب للمنصور أنه صان وحــدة الأندلس وحقق له الاستقرار تحت قيادته ، وحمى بلاد المسلمين من غزو النصارى لها ، بل لقد فتح كثيرا من بلادهم فى الشمال ، حتى غدا مصــدر رعب وفزع مستديم لهم(٧٤) الا انه كانسان اجتهد فى سياســته ، فأصاب أحيانا ، وأخطأ حينا ٠ ويمكن تركيز خطاه فى مسالتين : احداهما داخلية ـ وذلك بالاكثار من استخدام البربر فى ديوان جيشه ، اذ تذكر المصادر أن عددهم بلغ ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس(٧٥) ، حقيقة أنه كان يستهدف تقوية

الجيش الاسلامى المجاهد بهم ، ولكن ذلك أثار حقد العرب عليه ، وامتد هذا الحقد الى ما بعد وفاته ، وظهرت نتائجه فى عهد ابنه عبد الرحمن (شنجول) ، مما كان سببا فى اشعال الفتنة بين أهالى قرطبة والبربر ، وأدى - فى النهاية - الى سقوط الدولة العامرية بالأندلس .

والثانية خارجية - وهو خطأ اعترف به المنصور نفسه ، اذ حرص على المحافظة على البلدان والمدن والحصون التابعة لنصارى الشمال عندما قام بغزوها والاستيلاء عليها ، رغبة منه فى استفادة المسلمين منها فيما بعد . وبدلا من ان يعمل على تخريبها وفقا لروح العصر قام بتعميرها ، وخزن الاقوات بها ، تسهيلا لاستمرار الفتوحات الاسلامية للبقاع النصرانية . فلما ضعفت الدولة الاسلامية بعد ذلك ، كانت تلك المناطق عونا للنصار فى الاغارة على الثغور الاسلامية فى الأندلس .



وبعد ، فاننا لا يسعنا فى ختام هذا البحث سوى أن نردد ما نقش على قبره من شعر بعد وفاته وذلك اشادة بما قام به من أعمال جليلة فى خدمة الاسلام والمسلمين :

آثاره تنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله ... أبدا ولا يحمى الثغور سواه(٧٦)

الهـــــوامش

(١) المراكشى : المعجب ص ٧٣ ٠

(٢) ذكر ياقوت أن طرش ، بضم أوله وتشديد ثانيه وضمه أيضا ، ناحيـــة بالأندلس تشتمل على ولاية وقرى ٠

(٣) ابن بسام : الذخيرة ٣٩/١ ـ ٤٠ ٠

أحمد العبادى : تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٢ ٠

(٤) ابن الخطيب : نفس المصدر السابق ٢ ص ٧٧ ـ ٧٨ ـ نفس الصفحة ٠

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق٢ ص ٧٧ ـ ٧٨ ٠

(٦) ديوان ابن دراج القسطلى ، ص ٢٠٠ ٠

(٧) ابن حيان : المقتبس ص ١٢٣ ٠

(٨) المقرى : نفح الطيب ١٨٧/١ ٠

(٩) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٦٨/٢ ٠

(١٠) ابن حيان : المقتبس ص ١٢٢ ٠

(١١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٧٨/٧٧ ٠

(١٢) الدرقة : الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب (أى : ولا غصب تعمل من الأوتار) ٠

والمقصود : المسئول عن التروس المصنوعة من الجلد الخالص ٠

(المعجم الوسيط مادة (د٠ر٠ق ـ حـ/ص٠٢٩) ٠

(المعجم الوسيط مادة ع٠ق٠د ـ حـ ٢ ص ٦٣٦) ٠

(١٣) نفح الطيب (دار صادر) : ٤٠٩/١ ـ ٤١٠ ٠

(١٤) السابق : ٤١٠/١ ٠

(١٥) السابق : ٤١٦/١ ٠

(١٦) المقرى / نفح الطيب ١ /٤١٣ ـ ٤١٨ ٠

(١٧) ابن عذارى / البيان المغرب ٢٥٨/٣ ٠ والاحاطة ١٠٣/٢ ـ ١٠٤ ٠

(١٨) المقرى/نفح الطيب ٤١٨/١ ـ ٤١٩ ٠

(١٩) مخطوط الزهرات المنشورة فى نكت الاخبار المأثورة/ابن سماك تحقيق : محمود على مكى ص ٨٤/٨٣ ٠

(٢٠) نفس المرجع السابق ٠

(٢١) نفس المرجع السابق ، ص ٨٥ ٠

(٢٢) المقرى/نفح الطيب ٥٩٧/١ ٠

(٢٣) ابن عذارى/البيان المغرب ٢٥٨/٢

ابن سماك المرجع السابق ٠

(٢٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٥ (طبعة دار المعارف ـ تحقيق : بروفنسال)٠

(٢٥) ابن دراج القسطلى/تحقيق محمود على مكى ص ١٦ ٠

(٢٦) عبد المجيد نعنعى/تاريخ الدولة الأموية فى الأندلس ص ٤٤٦ ٠

المقرى/نفح الطيب ٥٩٨/١ ٠

(٢٧) ومنهم ابن دراج القسطلى حين قال للمنصور عندما كان مودعا اياه فى احدى غزواته :

سر سار صنع الله حيث تسير قدما وساعد عزمك المقدور
وقضى لك الرحمن أنك قاهر حزب الضلال وأنه مقهور
فانهض بحزب الله يقدم جمعه حفظ الاله وسعيك المشكور

(٢٨) ابن خلدون العبر ٣٢١/٤ ٠

(٢٩) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ٧٠/١ ٠

(٣٠) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ص ٥٢٩ ٠

(٣١) كان يرافقه فى هذه الغزوة ، فاعجب بشجاعته وبطولته فعبر عن شعوره ذلك بقوله :

أهلا بمن نصر الاله وأيدا وحمى من الاشرار أمة أحمدا

ديوان ابن دراج القسطلى ص ٥١ ٠

(٣٢) المقرى : نفح الطيب ٤١٣ ٠

(٣٣) ديوان ابن دراج ـ تحقيق محمود مكى ، ص ٢٧٣ وما بعدها (ط٢٠) ٠

(٣٤) اليعافير : جمع يعفور ، وهو الظبى لونه كلون العفر (التراب) ، أو هو ولد البقرة الوحشية ٠

(٣٥) أسار : الأسر ، والأسارى : الاسرى (جمع أسير) : م٠ الوسيط (مادة ٠أ٠س٠) حـ١ ،ص ١٧ ٠

(٣٦) الرئال : جمع رأل ، وهو فرخ النعام (ما أتى عليه حول منه) (السابعة: مادة/ر٠أ٠ل) ٣٣٢/١ ٢٦٢/١ ٠

(٣٧) الوثائق السياسية والادارية فى الأندلس وشمال أفريقيا/تحقيق : محمد ماهر حمادة نقلا ن ابن الخطيب/تاريخ اسبانيا النصرانية ص ٧٢ ٠

(٣٨) المرجع السابق ص ٥٣١ ٠

(٣٩) أحمد مختار العبادى/تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ ٠

(٤٠) ومما يؤثر عن شعره رحمه الله قوله :

رميت نفسى هول كل عظيمة ... وخاطرت والحر الكريم بخاطر
وما صاحبى الاجناف مشيع ... وأسمر خطى وأبيض باتر
ومن شيمتى انى على كل طالب ... أجود بمال لاتقيه المعاذر

ابن الخطيب/الاحاطة ٢/١٠٤ ، وانظر ابن الأبار/الحلة السراء ١/٢٧٥ـ٢٧٦٠

(٤١) ديوان ابن دراج (ط٢) تحقيق : د٠ محمود مكى ، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ ٠

(٤٢) ابن عذراى : البيان المغرب ٢/٤٢٩ ٠

(٤٣) المقرى : نفح الطيب ١/٥٤٦ (ط٠ دار صادر) ٠

(٤٤) ابن عذراى : البيان المغرب ٢/١٤٤ ٠

(٤٥) نفح الطيب للمقرى حـ١ ، ص ٤٠٩ ٠

(٤٦) أحمد مختار العبادى التاريخ العباسى والأندلسى ص ٤٥٦ ٠

(٤٧) الاسلام والمسلمون فى افريقية الشمالية ٠
عبد العليم عبد الرحمن خضر ص ٢٨٨ عالم المعرفة للنشر والتوزيع ٠

(٤٨) اعمال الاعلام : ابن الخطيب ص ١٠١ ٠

(٤٩) تاريخ الدولة الأموية بالأندلس : عبد المجيد نعنعى ، ص ٤٦٢ ٠

(٥٠) المقرى : نفح الطيب ٠

(٥١) البيان المغرب/ابن عذراى ٢/٤٢٠ ٠

(٥٢) مقدمة ديوان القسطلى للمحقق : د٠ محمود مكى ، ص ٤٢ ٠

(٥٣) تاريخ الدولة الأموية فى الأندلس/عبد المجيد نعنعى ٠

(٥٤) البيان المغرب ٢/٢٧٤ ٠ وكذلك ورد فى (نفح الطيب) للمقرى ١/٤٠٣ ٠

(٥٥) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥ ٠

(٥٦) البيان المغرب ـ المكان السابق ٠

(٥٧) الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ، ص ٨٣ ، ٨٩ ٠

(مجلة المؤرخ العربى)

(٥٨) البيان المغرب لابن عذارى ٢٨٦/٢ والدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ، ص ٨٩ .

(٥٩) رحلة الأندلس ، ص ٧٠ .

(٦٠) محمد عبدالله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية، ص٩٥ .

(٦١) محمد عبد الله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ص٩٥ نقل ذلك عن :

R.M. Pidal : La Espana del Cid, P. 72

والدولة العامرية فى الأندلس : دراسة سياسية وحضارية ، لعلى أحمد القحطانى ، ص ١٠٧ .

(٦٢) البيان المغرب ٢١١/٢ ، ٢١٤ .

(٦٣) د. عبد المجيد نعنعى : تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، ص ٤٢٤ .

(٦٤) نفح الطيب للمقرى ، جا ، ص ٤٠٠ .

(٦٥) ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ص ٧٧ ، وبطرس البستانى : معارك العرب الأندلس، ص ٥ ، وأحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، ص ٤٤ .

(٦٦) د. عبد المجيد نعنعى : تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، ص ٤٣٨ .

(٦٧) المغرب فى حطى المغرب ١٩٤/١ ـ ١٩٥ .

(٦٨) يقول ابن الخطيب عنه : « وكان هشام مندرجا فى طى كافله الحاجب المنصور رحمه الله بحيث لا ينسب اليه تدبير ، ولا يرجع اليه من الأمور قليل أو كثير ، اذ كان فى نفسه وأصل تركيبه ضعيفا مهينا مشغولا بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات » (أعمال الاعلام ٥٨/٢ـ٥٩) ، ولا شك أن المنصور كان يسعد ويسجد لله عندما يسمع الروايات التى تروى عنه وسفه هشام. وكان يقول ان السلطان الذى تصلح معه الرعية اثنان : اما سلطان قاهر ذو رأى ، عارف بما يأتى ويذر ، مستبد بنفسه . واما سلطان مثل هذا (يعنى هشاما) تدبر الدنيا باسمه ، ولا يخشى المتفرغ لحراسة سلطانه نمائلة . والمتوسط يهلك ويهلك » المغرب لابن سعيد ١٩٥/١ ـ ١٩٦ » .

(٦٩) أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، ص ٤٥٢ .

(٧٠) البيان المغرب ٨٨٥/٢ .

(٧١) نفح الطيب (تحقيق : احسان عباس ٣٢١/١) .

(٧٢) وقد قامت حملات تبشيرية على يد رجال الدين المسيحى ، وأرغموا فيها المسلمين على التنصير ولو ظاهريا بعد سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وعرفوا بـ/ (الموريسكيين) وطردوا من الأندلس نهائيا بعد فشل تنصيرهم .

(انظر تاريخ مسلمى الأندلس لعبد الله حله ، ص ١٧٢ ، وبحث د. عبد اللهجمال الدين (طرد المسلمين من الأندلس : آثاره ونتائجه) .

(٧٣) نثبت هنا - ما ذكره الأمير عبد الله من ارتباط نجاح المنصور بطالعه، رغم عدم اقتناعنا بذلك ، يقول قد حصل على عظائم بداعائه ومخرمته على العامة مع ما هيأت السعادة له ، وكانت اقوى الأسباب فى سلطانه وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس ، كان أعظم الأسباب فى سلطانه ، أو عقاره » (مذكراته ص ١٥) .

(٧٤) وقد سعد النصارى بوفاته وسجلت حولياتهم ما يلى : فى سنة ١٠٠٢م (٣٩٢هـ) (مات المنصور وذهب الى جهنم) .

(٧٥) البيان/المغرب ٤٢٨/٢ .

(٧٦) أعمال : الأعلام ، ص ٨١ ، نفح الطيب ٣٩٨/١ .

(الدعـوة الزيدية فى مصر)

« من منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) الى منتصف القرن الثالث انهجرى (التاسع الميلادى) »

د٠ حسن خضيرى أحمد(*)

تمهيـــد :

تنسب الزيدية الى زيد بن على زين العابدين بن الحسن بن على بن أبى طالب(١) ، الذى ظهر على المسرح السياسى فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م ، وكون أتباعا يشايعونه سياسيا ومذهبيا عرفوا بالزيدية(٢) ٠

ذلك أن زيد بن على خـــرج على الخليفـــة الأموى هشـــام بن عبد الملك ، واتخذ من الكوفة مركزا لدعوة أهلها ، فنادى فيهم قائلا :

« انما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ورد المظالم ، وفعل الخير ، ونصرة أهل البيت ، فان اجبتم ســـعدتم ، وان ابيتم خسرتم ولســـت عليكم بوكيل »(٣) ٠

ولما علم يوسف بن عمر الثقفى (١٢٠ ـ ١٢٦هـ/٧٣٨ ـ ٧٤٤م) والى العراق ـ بأن زيدا يدعو لنفسه سرا فى الكوفة ، كتب الى عامله هناك ـ الحكم بن الصلت ـ بتتبع زيد والقضاء على حركته(٤) ٠ ومالبث زعماء أهل الكوفة ان نكثوا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم لزيد ، حين اجتمعوا معه ، وسالوه عن رأيه فى الشـــيخين أبى بكر وعمر ، فقال : غفر الله لهما ، ما سمعت أحدا من أهلى يتبرأ منهما ، ولا يقول فيهما الا خيرا ٠ قالوا : فلم تطلب اذن بدم أهل هدا البيت ؟ فكان جواب زيد :

(*) مدرس بكلية الآداب بقنا ـ جامعة جنوب الوادى ٠

«انا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين ... وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ... فان انتم احببتمونا سعدتم ، وان انتم ابيتم فلست عليكم بوكيل .. » فرفضوه ، فقال لهم : اذهبوا فأنكم الرافضة(٥) .

وكان أن واصل زيد جهاده مع نفر قليل من أصحابه - جلهم من الفقهاء - فى معركة غير متكافئة مع جند والى العراق ، أسفرت عن اصابة زيد بسهم فى جبينه ، سقط على أثره صريعا يوم الجمعة ٢ من صفر سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م ،(٦) وحفر له أصحابه فى ساقية ، وأجروا عليه الماء ، حتى لا يعلم بأمره ، بيد أن الوالى علم بمكانه ، فأخرجه من قبره ، واحتز رأسه ، ثم بعث به الى هشام بن عبد الملك ، فنصبه فى دمشق ، ثم أرسله الى المدينة فنصبه هناك(٧) ، وأما جثمانه فقد صلب بكناسة الكوفة(٨) ، ومكث مصلوبا سنين عددا ، الى أن تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦هـ/٧٤٣ - ٧٤٤م) فكتب الى يوسف ابن عمر يأمره « باحراقه وذروه فى الرياح »(٩) . وأما عن مصير رأس زيد بن على فتتفق الروايات التاريخية على نقله الى مصر يوم الأحد ١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م مع أبى الحكم بن أبى الأبيض العبسى(١٠) ، حيث طيف بها ثم نصبت على المنبر بجامع عمرو . فسرقه اهل مصر ودفنوه فى الموضع الذى يعرف الآن بحى زين العابدين(١١) ، والذى كن يعرف من قبل باسم (الحمراء القصوى)(١٢) . ثم بنى عليه مشهد فى عصر الدولة الفاطمية ، أشار اليه المقريزى بقوله(١٣) : «هذا المشهد فيما بين الجامع الطولونى ، ومدينة مصر تسميه العامة مشهد زين العابدين ، وهو خطأ وانما هو مشهد رأس زيد بن على المعروف بزين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب » كذلك ذكر المقريزى نقلا عن كتاب الجوهر المكنون : « زيد بن على زين العابدين .. الشهيد بالكوفة ، ولم يبق له عليه السلام غير رأسه التى بالمشهد الذى بين الكومين بمصر بطريق جامع ابن طولون وبركة الفيل .. وهو مشهد صحيح »(١٤) .

ويروى المقريزى أن الأفضل بن بدر الجمالى ، لما بلغته حكاية رأس

زيد ، أمر بكشف المسجد يوم الأحـــد ١٩ من ربيع الأول سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م ، وكان وسط الأكوام ، واندثرت معالمه ولم يبق منه الا المحراب، فوجد الراس ، وحمله الى داره حتى عمر هذا المسجد(١٥) ٠

على ان هناك لوحة تذكارية مثبتة على مدخل المسجد بالواجهة الغربية ، كتب عليها ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا مشـــهد الامام على زين العابدين بن الامام الحسـين بن الامام على ابن أبى طالب ، صلوات الله عليهم أجمعين فى سنة ٥٤٩هـ »(١٦) ٠

كذلك هناك لوحة أخرى بالمسجد تعود الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى كتب عليها ما يلى :

هـذا مقام قـــد شـرف قـــدره — مذ دخـــل فيه من تكامل فخرا
زيد بن زين العابدين بن الحسين — بن الفاطمة البتــول الزهــراء
بنت النبى المصطفى اكــرم بـذا — نسـبا عليا قـــد تطهــر طهــرا
من زاره نال المســرة والمنــا — وســعادة الدنيـا كذاك الآخـرة
بشـــرى لعثمـــان اغـا ببنائه — حاز الســيادة والهنا والآخــرة
يـــارب زده نعمـــة ومهـــابة — وارفـــع لـه بين البرية قـــدرا
فهو الذى أحيا لنا هـــذا البنــاء — فى مسجد زان المساجد ناظرا

سنة ١٢٢٥هـ(١٧)

وبمراجعة اللوحتين نجد ان اللوحة الثانية رغم أنها متأخرة زمنيا، الا انها تؤكد ما اجمعت عليه الروايات التاريخية من دفن رأس زيد بن على فى هذا الموضع ، « وليس قبر أبيه فى مصر بل قبره بالبقيع»(١٨) ٠ ويبدو أن اللوحة الأولى اختلط على كاتبها الأمر ، ونسب المشهد الى زين العابدين بدلا من ابنه زيد ٠ ومن هنا يمكن القول بأن أول ظهور للزيدية كان فى مصر عند قـــدوم راس زيد بن على زين العابدين الذى يعتبر بحق مؤسس المذهب الذى نسب اليه ٠

اما علمه وفقهه فقد أجمع أهل السنة والمرجئة والمعتزلة والشيعة على امامة زيد فى العلم(١٩) ، وانه كان حجة فى الفقه ، كما أجمع العباد والزهاد وغيرهم على أنه لم يكن له نظير فى علمه وخلقه(٢٠) ، ويصفه

الامام ابو حنيفة النعمان بقـوله : « .. شــاهدت زيد بن على ، كما شاهدت أهله ، فما رأيت فى زمانه افقه ولا أعلم منه ، .. لقد كان منقطع القرين »(٢١) .

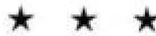
ويذكر الشهرستانى(٢٢) أن زيد بن على ، التقى بواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وأخذ عنه آراءه فى الاعتزال ، وبلغ نهاية التقدم فى علم الكلام(٢٣) . أما عن مبدىء زيد نفسه فهى بايجاز :

— أن الامامة تقتصر علىأولاد على بن أبى طالب من نسل فاطمة حسنا كان أم حسينيا(٢٤) .

— خروج الامام شـاهرا سـيفه حاملا راية الجهاد على الظلم والجور(٢٥) .

— أن يدعو الامام لنفسه بعد أن يستوفى شروط الامامة من العلم والزهد والفقه ، وأن يدعو الى كتاب الله وسنه رسوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ورد مال المستضعفين ، والرضا من آل محمد(٢٦).

والواقع أن ثورة زيد كانت ثورة لها شأنها ، وكانت فاتحة للدعوة الزيدية التى انتشرت من بعد زيد على يد اتباعه وتلاميذه ، الذين رحلوا الى الاقطار الاسلامية ، ينشرون الدعوة ، ويفقهون الناس(٢٧) . وكانت مصر من بين هذه الأقطار ، حيث ضمت بين ثراها رأس مؤسس هذه الدعوة ، وهذا ما سنقف عليه فى هذه الدراسة .



بدء الدعوة الزيدية فى مصـر :

سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م ، وجاء حكم العباسيين ، امتدادا للظلم والاستبداد الذين مارسهما الأمويون من قبل ضد العلويين، بسبب موقفهم المعارض لخلافة آل العباس ، وحقهم فى الامامة دونهم. ذلك انهم انكروا البيعة بالخلافة لكل من أبى العباس وأخيه أبى جعفر من بعده . وقدم العلويون ابرز رجالهم وقتذاك وهو محمدبنعبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية(٢٨)،

فدعا لنفسه بالأمامة بالحجاز سرا ، فضلا عن الكوفة التى جاءها أخوه ابراهيم وقام فيها بنشاط كبير ٠ أما مصر فقد جاءها ابنه على داعيا لأبيه وعمه(٢٩) فى أوائل سنة ١٤٤هـ/٧٦١م ٠ ويرجع اختيار مصر مركزا للدعوة الزيدية والاعداد للثورة بها لعدة أسباب منها :

أن مصر ذات مركز اقتصادى متميز ، فهى درة ولايات الخلافة ، « ومن فضائلها أنها تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم(٣٠)» ٠ ثم ان موقعها الاستراتيجى ، وبعدها عن حاضرة الخلافة يكفل الحماية للدعوة ونجاح الثورة ٠ أما على الصعيد السياسى ففيها شيعة على بن أبى طالب، هذا فضلا عن ميل المصريين لآل البيت(٣١) ٠ أضف الى ذلك أن كثيرا من تلاميذ زيد رحلوا الى مصر وغيرها من الأقطار الاسلامية داعين للمذهب الزيدى(٣٢) ٠ ومن أهمهم غوث بن سليمان الحضرمى (ت ١٦٨هـ/٧٨٤م) الذى كان على قضاء مصر ابان قدوم على بن محمد اليها سنة ١٤٤هـ/٧٦١م ، « واتهم أن يكون غيبه عنده »(٣٣) ، الأمر الذى جعل ابا جعفر يكتب الى واليه بحبس هذا القاضى وصرفه عن القضاء فى رمضان سنة ١٤٤هـ/٧٦١م(٣٤) ٠ وكذلك عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمى (ت ١٧٤هـ/٧٩٠م) الذى تولى قضاء مصر عشر سنين (١٥٥/ ٧٧١ ـ ١٦٤هـ/٧٨٠م) للخليفة المنصور(٣٦) ، كان على مذهب زيد بن على ، ومفرطا فى التشيع »(٣٧) ٠

أما عن موقف والى مصر حميد بن قحطبة الطائى من هذا الداعى الزيدى الوافد ، فيذكر الكندى(٣٨) ان على بن محمد لما قدم الى مصر نزل على عسامة بن عمرو المعافرى ، فأخبر صاحب السكة الوالى أمر هذا الداعى ومكانه ، وطلب القبض عليه « فقال حميد : هذا كذب ، ودس عليه فتغيب ، ثم بعث اليه من الغد فلم يجده » ، فما كان من صاحب السكة الا أن كتب الى الخليفة يعلمه بالأمر ، وتهاون الوالى فى القبض عليه ، مما جعل الخليفة يحنق على واليه ، ويأمر بعزله عن امرة مصر ومساءلته ، فرحل من مصر متوجها الى العراق فى ٢١ من ذى القعدة سنة ١٤٤هـ/أبريل٧٦١م ٠

ونستشف من هذه الرواية ، أن الوالى العباسى كانت له ميول

المتشيع ، دون أن يكشف ذلك خشية بطش أبى جعفر . والمعروف أن والده قحطبة بن شبيب وابنه الحسن بن قحطبة كانا من رجالات الدعوة العباسية فى خراسان وقت الاعداد للثورة العباسية ، ووليا قيادة الجيش الزاحف من خراسان صوب العراق .

على اية حال عزل أبو جعفر واليه لمساءلته ، وان كان هذا الوالى قد نجح فى اقناع الخليفة بولائه وقبول عذره ، فولاه قيادة الجيش لمحاربة النفس الزكية بالحجاز فى رمضان سنة ١٤٥هـ/ابريل٧٦٢م(٣٨) ، مستفيدا من كفاءته ، وتطبيقا لسياسته « لا ابالى ايهما قتل صاحبه » .

ثم عقد الخليفة أبو جعفر ولاية مصر ليزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، فقدمها فى ١٥ من ذى القعدة سنة ١٤٤هـ/ابريل ٧٦١م(٣٩) وقد استفحل فيها خطر الدعوة الزيدية ، وطار ذكرها بين المصريين ، « وتكلم بها الناس ، وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله »(٤٠) ، وذلك بفضل جهود خالد بن سعيد بن ربيعة بن حبيش الصدفى(٤١) ، أحد زعماء الصدف من العرب اليمنية بمصر ،وكان قد ورث عن جده وقبيلته الميل للعلويين ، « فقد كان جده ربيعة بن حبيش من خاصة على بن أبى طالب رضى الله عنه وشيعته »(٤٢) . وهكذا اتخذ خالد بن سعيد داره مركزا لنشر الدعوة ومقرا للبيعة للنفس الزكية ، واستطاع أن يضم اليه بعض الأمويين فى مصر من أبناء الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان(٤٣) ، الى جانب العناصر المتذمرة التى ربما لم يكن لديها أى ولاء للعلويين أو تفهم للدعوة الزيدية ، ولكنهم أملوا بأن المهدى الجديد سوف ينقذهم من الظلم ، ويوفر لهم حياة أفضل . وكان ان اخذت هذه العناصر تدعو لهم ، سواء كان ذلك باخلاص ، أو لمجرد التظاهر لاتخاذهم واجهة سياسية تحقيقا لغايات أخرى مبيتة .

ولاشك فى أن الدعوة لآل البيت تكفى لكسب الأنصار ، لمالهم من مكانة روحية عظيمة فى قلوب المسلمين عامة ، والمصريين خاصة . وقد مس آل البيت الضر الكبير على أيدى الأمويين ثم غبنهم العباسيون حقهم فى الأمامة . لهذا التف الناس حول على داعية أبيه محمد (النفس الزكية) ، الذى قضى بمصر نحو عام ، والتقى بشيعة جده من الصدف

والمعافر ، واستطاع أن يجوس خلال الديار يكسب فيها الأنصار(٤٤) ، ومنهم عدد غير قليل من المصريين رحبوا بالدعوة حتى « تكلم بها الناس، وبايع كثير منهم لبنى الحسن فى الباطن ·· وماجت الناس بمصر ، وكاد امر بنى الحسن أن يتم »(٤٥) ·

ولما علم خالد بن سعيد بظهور محمد النفس الزكية وثورته بالحجاز، عزم بدوره على تفجير الثورة فى مصر ، فعقد مجلسا بداره ضم زعماء من قدموا البيعة ، واستشارهم فى الأمر ، فاقترح عليه دحية بن مصعب - احد رجال البيت الاموى - أن يضرم النار فى مدينة العسكر ، حيث مقر الوالى العباسى وجنده · بيد ان هذا الرأى لم يجد قبولا من باقى الزعماء ، خشية الدخول فى مغامرة غير محمودة العواقب · واتفق رايهم على الاجتماع فى المسجد الجامع بالفسطاط ، وبدء الثورة بالاستيلاء على بيت المال · بيد أن رجلا من المجتمعين دس الخبر الى صاحب شرطة الفسطاط عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، الذى أخبر بدوره الوالى يزيد بن حاتم ، وبذلك فقدت الثورة عنصر المفاجاة · وعندما توجه خالد بن سعيد على رأس أنصاره وأتباعه من المصريين الى جامع عمرو فى جنح الظلام ليلة العاشر من شوال سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م للاستيلاء على بيت المال(٤٦) ، تصدت لهم قوة أرسلها الوالى بقيادة صاحب الشرطة · ثم بدا واضحا فشل هذه الثورة بتخلف احدى القوى الموالية للعلويين ممثلة فى أبى حزن المعافرى · والمعروف أن المعافر قوة لها ثقلها الحربى والسياسى فى ذلك الوقت(٤٧) ، فضلا عن انسحاب نفر من المصريين لحقوا بجيش يزيد بن حاتم(٤٨) ·

وكان أن وقف صاحب الشرطة بالمسجد وخاطب خالد بن سعيد بكلمة قبطية أن يخرج · وعند خروجه رماه أحد جند العباسيين بنشابة ، فانتزعها ، وخرج يتبعه ابناه ابراهيم وهدبة · وهكذا فشلت الثورة بهزيمة خالد ومقتل ثلاثة عشر رجلا ، وفرار خالد واختفائه عند يحيى ابن جابر أبى كنانة الحضرمى سبعين ليلة حتى هدأت الأحوال وسكن الطلب(٤٩)·

أما مصير زعماء الانتفاضة من أصحاب خالد فقد يسر صاحب الشرطة

هروبهم واختفائهم . وكان الضرب هو العقوبة الوحيـــدة التى حلت بعامة من اشترك فى تلك الحركة ، مما يدل على ما يبطنه صاحب الشرطة هذا من ميل للعلويين . أما مصير على بن محمد النفس الزكية فتباينت اقوال المؤرخين فى أمره ، فمنهم من يذكر انه اخذ بمصر ، فمات فى حبس محمد بن أبى جعفر الملقب بالمهدى(٥٠) ومنهم من يذكر أنه اختفى عند عسامة بن عمرو أحد رجالات المعافر ، فانزله قرية طره ، وتوفى فيها ودفن بها ، مما عرض عسامة هذا للحبس ، ثم حمل الى العـراق ، وأودع فى سجن أبى جعفر المنصور(٥١) ولم يخرج منه الا فى عهـد الخليفة المهدى (١٥٨/٧٧٤ - ١٦٩هـ/٧٨٥م) بعـــد أن تشفع له أبو عبيد الله الأشعرى - كاتب المهدى - وبعد أن اقر عسامة للمهدى بأن عليا ابن محمد مات فى بيته،فصدقه المهدى وعفا عنه ، ورده الى مصر(٥٢). والراجح أنه اختفى بمصر الى أن مات فيها .

وهكذا كانت انتفاضة ومصير أول علوى من آل البيت قدم مصر لنشر الدعوة الزيدية بها(٥٣) .

على أن هذه الانتفاضة ، وان كانت قــد انتهت سريعا على ذلك الوجه ، فانها تركت آثارا بعيدة المدى على مستقبل الدعوة الزيدية ، التى انتشرت بين عدد غير قليل من المصريين ، حتى غدت مصر مكانا يؤمه ائمة الزيدية من آل البيت فيما بعد . أما الآثار المباشرة ، فقــد تحرجت الحـالة بمصر ، وســادت موجة من التذمر والســخط بين المصريين(٥٤) ، مما حدا بالوالى العباسى أن يمنع أهل مصر من الحج سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م . ولم تهدأ الحال فى مصر الا بعد أن قدم البريد برأس ابراهيم بن عبدالله بن الحسن قتيل باخمرا فى ذى الحجة سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م فنصبت فى المسجد الجامع أياما ثم طيف بها(٥٥) ثم دفنت فى الضاحية التى تعرف بمنية مطر (المطرية حاليا)(٥٦) .

ويرجح بعض الباحثين(٥٧) أن السبب فى اختيـــار جهة المطرية مقرا لرأس ابراهيم - أحد ائمة الزيدية - هو ابعــاد الناس عن زيارة المقبرة ، حتى تخمد الثورة ، وتخبو الدعوة ، فقد كانت منطقة المطرية، غير آهلة بالسكان ، لبعدها عن العاصمة وهى الفسطاط ثم العسكر ، كما

أن مقابر المسلمين فى ذلك الوقت كانت عند جبل المقطم . ومما يجدر ذكره انه يوجد بالمطرية الآن ضريح ومسجد ابراهيم بن عبد الله فى شارع ماهر المعروف بشارع سيدى ابراهيم ، المتفرع من شارع المطراوى .

ولا يفوتنا أن نذكر من بين آثار هذه الانتفاضة الزيدية فى مصر ، انها أتاحت الفرصة لذوى الأغراض المختلفة للخـــروج على الخـــلافة العباسية ، فاستمرت المعارضة الأموية فى مصر . ورفع راية المعارضة دحية بن مصعب بن الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، وهو احد زعماء ثورة على بن محمد النفس الزكية فى مصر . وقد خرج فى صعيد مصر سنة ١٦٥هـ/٧٨١م ، ودعا الى نفسه بالخلافة ، وملك عامة الصعيد . واستمرت ثورته حتى سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م(٥٨) ، حيث قتل وصلب فى تلك السنة .

ويمثل عهد الخليفة المهدى (١٥٨/٧٧٤ - ١٦٩هـ/٧٨٥م) فترة وفاق علوية عباسية قصيرة. وسرعان ما تحركت الزيدية بعد ذلك بثورة ثانية بالحجاز فى عهد الخليفة الهادى (١٦٩/٧٨٥ - ١٧٠هـ/٧٨٦م) ، كان لها آثار خطيرة فى تاريخ الدولة العباسية ، حيث خرج الحسين بن على بن الحسن المثلث بن على بن أبى طالب سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م(٥٩) ، يدعو لنفسه ويتطلع الى الامامة . وكان أن جمع انصاره والتقى بالعباسيين فى موقعة فخ(٦٠) ، التى تقرر فيها مصـــير العلويين ، وكثر فيهـــا ضحاياهم ، ومنهم الحسين بن على نفسه . وقد بلغ من قســـوة التنكيل بالعلويين فى هذه المعركة ان قرنها المؤرخون لهولها ونتائجها بمعركة كربلاء ، فقال بعضهم : لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ .

ولم ينج من هذه الكارثة الا القلائل الذين فروا الى أطراف البلاد ، منهم يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ، الذى ذهب الى بلاد الديلم جنوبى بحر قزوين(٦١) . أما أخوه أدريس بن عبد الله فقد فر بنفسه صحبة مولاه راشد من مكة الى مصر ، واستقر بها فترة عنـــد أحد المصريين المتشـــيعين لآل البيت ، فبالغ فى اكرامهما والاحســـان اليهما(٦٢) ، وقال لهما : « لتطمئن نفوسكما ، فانى من شـــيعة آل البيت ، وأول من كتم سرهم ، فانتما من الآمنين »(٦٣) ، ولم يكتف

هذا المصرى باخفاء أمر ادريس فحسب ، بل يسر له ولمولاه راشد طريق الخروج من مصر ،وأمدهما بالدواب ، وسار معهما الى برقة ، وجدد لهما طعاما وودعهما(٦٤) ٠

وكان على امرة مصر فى ذلك الوقت على بن سليمان الهاشمى (١٦٩هـ/٧٨٥م - ١٧١هـ/٧٨٧م) الذى علم بمكان ادريس وسعى الى لقائه سرا ، فساله ادريس بالله والرحم الا يكشف أمره ، وأنه متوجه الى المغرب ، فستر عليه ، وقال « : وانى أكره أن أتعرض لدماء آل البيت »(٦٥) ٠

ويزيد بعض المؤرخين(٦٦) ، أن واضحا مولى صالح بن المنصور - صاحب البريد فى مصر وقتذاك - كان متشيعا لآل البيت ، وأنه علم بشأن ادريس وأتاه الى الموضع الذى كان مختبئا فيه ، فمهد له الطريق وأمده بمن يرشده الى أرض المغرب ٠ وقدم له دواب البريد ، فحملته الى طنجة سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ، حيث أخذ يدعو لنفسه ، ولقى التأييد والعون من البربر ٠ وكان أن أرسل دعاته الى مدن المغرب ، فاجابه خلق كثير، وجدوا فى دعوته ومذهبه حركة مضادة للخلافة العباسية التى يعارضونها، وبذلك استطاع أن يكون دولة عمرت طويلا حتى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م(٦٧)٠

وكان جزاء عامل البريد على تهريب ادريس العقاب الشديد فقد أمر الرشيد بضرب عنقه،وولى بريد مصر وأخبارها رجلا يدعى الشماخ(٦٨)٠

وهكذا حفظ لنا التاريخ دور مصر ثانية ، فى ايوائها أحد أئمة الزيدية ، واخفاء أمره ، وتيسير هربه ، ليكون أول دولة للعلويين وهى دولة الادراسة ٠ وكان من الممكن تجنب قيام هذه الدولة لولا ذلك المصرى ووالى مصر وصاحب بريدها ٠



القاسم الرسى والدعوة الزيدية فى مصر :

هو القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب(٦٩) ٠ ولد فى سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م استنادا الى

ما تذكره المصادر على أنه توفى سنة ٢٤٦ هـ/٨٦٠م عن عمر يناهز سبعة وسبعين عاما(٧٠) .

اما عن سنى حياته الأولى فالمصادر لا تمدنا بالكثـــير عن ذلك . والراجح انه نشا فى المدينة ، حيث درس الحديث على أبى بكر عبدالحميد ابن عبد الله بن ابى أويس المدنى (ت ٢٠٢هـ/٨١٧م)(٧١) ، كما درس الفقه على أحد شيوخ بنى الحسن ، والتقى بالكثير من علماء اللغـــة ايضا(٧٢) واشترك والد القاسم فى ثورة الحسين الفخى سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م(٧٣) .واما جده اسماعيل الملقب بالديباج فكان من جملة المسجونين فى حبس أبى جعفر المنصور(٧٤) .

ويعتبر القاسم من اهم الشخصيات الزيدية . دعا الى نفسه سرا فى مصر فى بداية القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى ، دون أن يقوم بثورة تحقق له الامامة . واستطاع عن طريق دعاته أن يمهد لقيام أول دولة زيدية فى طبرستان سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م . هذا فضلا أنه أسس لنفسه قاعدة فى اليمن استفاد منها حفيده الهادى الى الحق يحيى بن الحســـين بن القاسم فى اقامة دولة زيدية باليمن سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م ، استمرت ما يربو على ألف سنة . ومن هنا اثرنا أن نلقى مزيدا من الضوء على حياته فى هذه الدراسة .

جاء القاسم الى مصر فى أواخر القرن الثانى الهجرى،عندما ثار أخوه محمد بن ابراهيم على المأمون سنة ١٩٦هـ/٨١٥م فى الكوفة ، فأرسله الى مصر ليأخذ له البيعة من المصريين ويقوم بالدعوة(٧٥) ، وتذكر المصادر الزيدية أن القاسم قدم الى مصر وهو شاب فى الســـادسة والعشرين أو السابعة والعشرين(٧٦) .

ويبدو أن أخاه أرسله الى مصر ليبعده عن أعين العباسيين ، حتى لا تتكرر المآسى السابقة التى راح ضحيتها كثـــير من العلويين ، وكذلك ليختبر مدى استعداد المصريين للاستجابة للدعوة الزيدية . لكن القاسم لم يمكث بمصر طويلا نظرا لما كان يجتاحها من اضطرابات بسبب الحرب الأهلية بين أنصـــار كل من الأمين والمـــأمون (١٩٥/٨١٠ - ١٩٨هـ/

٨١٣م)(٧٧) ، الأمر الذى عجل برحيله الى بنى عمه الأدارسة بالمغرب الأقصى ، حيث قضى فترة من الوقت(٧٨) ، وأتاه هناك خبر وفاة أخيه محمد سنة ١٩٩هـ/٨١٥م ، فرثاه بقصيدة نقتبس أبياتا منها(٧٩) ٠

يادار دار غـــرور لا وفـاء لهـا … حيث الحـوادث بالمكروه تستبق
ابرحت أهلك من كد ومن أسف … بمشرع شربه التصـدير والرنق

الى أن يقول :

فأيما حـــدث تخشـى غوائـــله … من بعد هلـكك يغنينى به الشفق

ثم كان أن عاد القاسم الى مصر سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م وقد عزم على الدعوة لنفسه بعد وفاة أخيه ، فبث دعاته ، وهو على حال الاستتار على أساس الرضا من آل محمد(٥٧) ٠ وانتشر ذكر القاسم فى الآفاق ، فأجابه عالم من الناس من بلدان مختلفة ، وجاءته بيعة أهل مكة والمدينة والكوفة واهل الرى وقزوين وطبرستان(٥٨) ، وتخوم الديلم ، كما كاتبه أهل العدل من البصرة والأهواز وحثوه على الظهور(٥٩) ٠ واجتمع اليه فى مصر اصحاب هرثمة بن أعين البالغ عـددهم نحو عشرة آلاف ، فأقام بينهم فى خفية عشر سنوات(٦٠)٠ وعندما تأهب للخروج على الخلافة العباسية ، واعلان الثورة فى مصر ، لم يتمكن من ذلك لأسباب اختلف فيها المؤرخون ، فمنهم من ارجع السبب فى ذلك الى أنه « سـمع فى عسكره صوت طنبور ، فقال : لا يصلح هؤلاء القـوم ابدا ، وهـرب وتركهم »(٦١) ، أو بسبب آرائه فى الشيخين أبى بكر وعمر ، فانفض عنه كثير من أتباعه(٦٢) ، أو ان الطلب قد اشتد عليه من قبل والى مصر عبد الله بن طاهر (٢١١هـ/٨٢٦م) ، فلم يمكنه المقام ، فعاد الى بلاد الحجاز وتهامه(٦٣) ٠

ويبدو أن شدة الطلب من الخليفة المأمون،واحكام الرقابة من جانب الوالى عبد الله بن طاهر ، كانت أحد الأسباب الرئيسية وراء مغادرة القاسم مصر وعدوله عن الثورة فيها ٠ كذلك لا يستبعد أن يكون الكثير من المصريين قد أنسحبوا من صفوف القاسم ، بعـد ما تبين لهم رأيه فى

الشيخين ، لما لهما من مكانة روحية عظيمة فى قلوب المصريين ، فخشى على نفسه الوشاية ، وانسل راجعا الى الحجاز ٠

على اية حال غادر القاسم مصر يتوجس خيفة ، ميمما وجهه صوب الحجاز وتهامة ، بعد نحو عشر سنوات قضاها فى مصر ، نشر خلالها الدعوة الزيدية فى مصر وبعض بـــلاد المشرق ، ولاقت قبولا كبيرا من المصريين ، فقدموا له كل عون ومساعدة واكرموا وفادته ٠ ومن الحجاز استمر القاسم فى الدعوة فبعث جماعة من دعاته من بنى عمه وغيرهم الى بلخ والطالقان والجوزجان ، فبايعه كثير من اهلها ،وطلبوا منه ان يرسل لهم احد ابنائه ليظهروا الدعوة ، بيد ان عيون الخلافة العباسية، كشفت أمره فارسلت اليه جيشا يتتبع أثره ، مما حدا به أن ينحاز الى حى من البدو حيث ظل مختفيا طيلة عصر المأمون(٦٤) ٠

ولما توفى المامون ، وتولى المعتصم الخلافة ، اجتمع أمر أهل البيت على مبايعة القاسم البيعة الجامعة سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م اماما للزيدية ، لما اتصف به من علم وفقه وشجاعة ، وهى من شروط الزيدية ٠ وتمت البيعة فى منزل محمد بن منصور المرادى بالكوفة(٦٥) ، وعندئذ عزم القاسم على الخروج فى المدينة ، فاشار عليه أصحابه بأن لا يفعل ذلك « لأن المدينة والحجاز تسرع اليهما العسكر ، ولا يتمكن فيها من الميرة»(٦٦)٠ لذلك لم يتمكن القاسم من الخروج ، وفضل الاختفاء والتنقل فى الصحراء بسبب الملاحقة التى تعرض لها من جيوش المعتصم(٦٧) ٠

على أن القاسم لم يحمل السلاح مطلقا ضد العباسيين ، ولم يقد ثورة مسلحة ، طبقا لقاعدة خروج الامام عند الزيدية ، وانما اكتفى بالدعوة واشتغل بالدين والعلم ٠ ويعلل الهارونى(٦٨) ذلك بان الغرض من الدعوة هو الانتصاب للأمر ، واظهار مباينة الظالمين والتجرد لقصدهم ودفعهم ، وليس الغرض منها تجييش الجيوش فى مباشرة الحروب ،لأن ذلك مشروط بالتمكن والقدرة ، واجتماع الأصحاب والأنصار ٠ والقاسم قد بلغ النهاية فى اظهار الدعوة ، ودعا الناس اليها ، وباين الظالمين وهاجر عنهم ٠ ومن مذهبه أن الهجرة من الدار التى يغلب عليها الظالمون واجبة لا يصح الاخلال بها ٠ وكان أن استقر القاسم فى آخريات حياته فى

جبل الرس بالقرب من المدينة فى أرض اشتراها لنفسه ولأولاده بالقرب من ذى الحليفة(٦٩) ٠ وهناك اشتغل بالتدريس ، وعمـل على نشر مبادئه بين الحجاج الذين كانوا يعرجون الى المدينة بعـد الانتهاء من حجهم فيلتقون به ، وينهلون من علمه وأفكاره ، ومن ثم ينشرونها بين مواطنيهم بعد عودتهم لبلادهم ٠ومن بين هذه الدروس التى كان يلقيها القاسم كتابه « سياسـة النفس » الذى استقطب الكثـير من آل البيت واتباعهم « وغناهم عن اللجوء لغيره »(٧٠) ٠ ولم يلبث أن توفى القاسم سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م ، بعد أن قضى أكثر عمره مستترا(٧١) ٠



الأثر السياسى والفكرى للقاسم الرسى :

قضى القاسم فى مصر قرابة عشر سنوات ، وهى فترة طويلة نسبيا ، استطاع خلالها أن ينشر الدعوة الزيدية بين قطاع كبير من المصريين ٠ واذا كان قد غادر مصر ، فانه ترك فيها بعضا من اخوته وذويه ، ظلوا بمثابة دعاة له ٠ ومازالت شـيعة على بمصر الى ان ورد كتاب الخليفة المتوكل الى اسحاق بن يحيى (٢٣٥/٨٤٩ - ٢٣٦هـ/٨٥٠م) واليه على مصر ، يامره باخـراج آل على بن أبى طالب من مصر ، فاخرجوا من الفسطاط سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م الى العراق ، ثم اخرجوا من هنـاك الى المدينة(٧٢) « واستتر من كان بمصر على رأى العلوية »(٧٣)٠

ويبدو أن الذين بقوا فى مصر من العلويين ، اضطروا الى النزوح والتسلل الى الصعيد ، خاصة قفط(٧٤) التى تشير بعض المصادر الى أن أهلها كانوا من الشيعة(٧٥) ، وانها « وقف على العلوية من أيام أمير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنه ، وليس فى ديار مصر ضيعة وقف ولا ملك لأحد غيرها »(٧٦) وتشـير الدراسات الحـديثة الى وجود العلويين بالصعيد فى القرن الثالث الهجرى(٧٧) ٠

وهكذا يمكن القول أن العلويين والشيعة فى مصر أصبحوا غير آمنين على انفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد الخليفةالمتوكل(٧٨) ٠ ويكفى للتدليل على ذلك أن يزيد بن عبد الله (٢٤٢/٨٥٦ - ٢٥٣هـ/٨٦٧م)

ضرب رجلا من الجند فى شىء وجب عليه ، فاقسم عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه ، فزاده ثلاثين درة . ولما علم الخليفة بذلك أرسل كتابا الى يزيد يأمره بضرب ذلك الجندى مائة سوط ، وحمل بعدها الى العراق(٧٩) . وتتبع هذا الوالى الشيعة فى مصر ، وحملهم الى العراق. ولم يكن عهد الخليفة المنتصر (٨٦١/٢٤٧ - ٢٤٨هـ/٨٦٢م) أحسن حالا من عهد ابيه ، فقد استمر فى اضطهاد العلويين ، حيث بعث كتابا الى والى مصر يامره«بأن لايقبل علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولايسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ...»(٨٠) .

وفى خلافة المستعين (٨٦٢/٢٤٨ - ٢٥٢هـ/٨٦٦م) وضح ضعف الخلافة العباسية فى ظل سيطرة الأتراك ، مما هيأ الفرصة للعلويين ، وتابعهم فيها المصريون المتأثرون بدعوة القاسم الرسىللقيام بخمس ثورات فى فترة عشر سنوات . واتخذت الخروج شعارا لها طبقا لمبادىء الزيدية. وعندما خرج محمد بن على بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، تمكن الوالى العباسى من اخماد حركته ، وحمله الى العراق بصحبة جمع من آل ابى طالب سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م(٨١) . وبعد أربع سنوات قامت ثورة أخرى قادها عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الذى يقال له ابن الأرقط ، وانضم الى جابر بن الوليد المدلجى من بنى الهجيم ، الذى ثار فى الاسكندرية وانتهى أمره بأن اخرج الى العراق سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م(٨٢) .

كذلك نسمع عن رجل من العلويين يدعى أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن ابى طالب والمعروف ببغا الأكبر(٨٣) ، وهو حفيد عبد الله شقيق القاسم الرسى . وقد خرج هذا الرجل فى الصعيد ، بيد أنه هزم سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م على يد أرجون التركى والى مصر (٢٥٤هـ/٨٦٨م)(٨٤). وخرج علوى آخر يدعى أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا ، ، ويقال له بغا الأصغر سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م فيما بين الاسكندرية وبرقة ، ثم سار فى جمع الى الصعيد ، وهزم على يد أحمد بن طولون ،

وقتل فى المعركة واتى برأسه الى الفسطاط(٨٥). كذلك ثار فى الصعيد ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله المعروف بابن الصوفى العلوى سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م ، ودخل اسنا فى ذى القعدة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م ونهبها وقتل أهلها ، فبعث اليه ابن طولون بجيش استطاع ابن الصوفى أن يهزمه ، ولم تزل ثورته قائمة حتى سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م عندما هزمه أبو عبد الله العمرى بأسوان(٨٦) .

وهكذا يتضح أن الدعوة الزيدية التى عرفت طريقها الى مصر منذ منتصف القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى عن طريق دعاة وأئمة الزيدية ، والتى غذاها القاسم الرسى ، لم تنته برحيله عن مصر ، بل تركت أثرا كبيرا فى نفوس المصريين الذين ساندوا الثوار العلويين من اقارب القاسم الرسى . وبحلول النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ازدادت شريحة العلويين فى قطاعات الشعب المصرى ، حيث نصادف فى سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم نقيبا للطالبيين بمصر فى عهد الطولونيين(٨٧) . ومازال امر الشيعة يقوى بمصر الى أن دخلت سنة ٣٥٠هـ/٦١م(٨٨) فى عهد الأخشيديين . وكان للعلويين بحكم بمركزهم الروحى مكانة شعبية رفيعة ذات أثر خطير فى الحياة المصرية(٨٩) .

أما عن القاسم الرسى نفسه فقد أحاط بعلوم الدين وأخصها الكلام والفقه . ومشهود له بعلو الكعب فى النشاط الفكرى . يصفه الحاكم الجشمى(٩٠) بقوله :

« نجم آل الرسول وفقيههم ، وعالمهم المبرز فى اصناف العلوم ، ومن يضرب به المثل فى الزهد والعلم » وكان القاسم على علم دقيق بالمذهب الحنفى مع فقه الحجاز . وشغل أثناء اقامته فى مصر بالعمل بالمسائل الفقهية ، التى يقترب فيها الى حد كبير من مذهب أبى حنيفة. وجدير بالذكر أن الزيدية تعد أبا حنيفة واحدا من رجالها ، لأنه أخذ عن زيد بن على واولاده(٩١) ، كما أن كثيرا من الزيدية فى الأمصار الاسلامية يستترون ، بمذهب أبى حنيفة وهو المذهب الرسمى للدولة العباسية(٩٢) .

وقد ترك لنا القاسم الكثـــير من المؤلفات منها : كتاب الفرايض والسنن ، وكتاب الطهارة ، وكتاب صلاة اليوم والليلة ، وكتاب الناسخ والمنسوخ ، وكتاب الامامة(٩٣) ، وكتاب سياسة النفس(٩٤) ٠

أما علم الكلام ، فقد بلغ القاسم فيه شأوا عظيما ، كأنه فنه الذى نشأ عليه ٠ يصفه جعفـر بن حرب(٩٥) ، وهو من عيـــون المتكلمين والمتبحرين فى علم الكلام بقوله(٩٦) :

« ٠٠ أين كنا من هذا الرجل ، فولله ما رأيت مثله » ، كان القاسم منقطع النظير ، بل كان من علماء الاسلام ذوى الشأن(٩٧) ، يصفه بعض الشعراء بقوله :(٩٨)

ولو أنه نـادى المنـادى بمـكة بخيف منى فيمن تضم المواسـم
من السيد السباق فى كـل غاية لقال جميع النـاس لاشك قاسم

وترك القاسم الرسى تراثا ضخما من المؤلفات والرسائل فى عـلم الكلام ، تناول فيها الكثير من مناحى الفكر الاسلامى ، الذى التزم فيه بالقرآن والنظريات الدينية للاسلام ، مما ميزه عن الفكر الفلسفى وجعله ثمرة للفكر القرآنى(٩٩) ، نذكر منها : الدليـــل الكبير فى الرد على الفلاسفة(١٠٠) ، والدليل الصغير(١٠١) ، كتاب العدل والتوحيد(١٠٢) ، والرد على ابن المقفع ، والرد على المجبرة وتاويل العرش والكرسى فى الرد على المشبهة(١٠٣) ، وكتاب الرد على النصارى ، وكتاب الخمسة أصول وهو أقدم كتاب فى عقائد الزيدية(١٠٤) ٠

ويبدو أن القاسم الف الكثير من مصنفاته أثنــاء اقامته فى مصر ، فقد الف كتاب الرد على الملحد ، الذى كان يبحث فيه عن شخص قبطى اسمه (سلمون)(١٠٥) كذلك استطاع القاسم باجتهاداته وآرائه أن يكون مذهبا نسب اليه يعرف بالقاسمية(١٠٦) ، كان متوسطا بين مذهب جده زيد بن على ومذهب حفيده من بعده الهادى الى الحق يحيى بن الحسن: تارة يوافق السلف ، وتارة يوافق الخلف(١٠٧) ٠

وأما نظرية القاسم فى الامامة فهى عنـده « من أفرض الفرائض

واوكدها لأن جميع انفرائض لا تقـــوم الا بها »(١٠٨) ، ويحددها ويحصرها فى موضع مخصوص(١٠٩) ، وهم أبناء الحسن والحسين طبقا لمبادىء الزيدية ٠ وادخل القاسم تعديلات على مبدأ الخروج الذى ظل معلما يميز بين الزيدية وغيرها من فرق الشيعة ٠ وجعـــل من الزيدية خوارج الشيعة(١١٠) ، فقد كيف القاسم مبدأ الخروج مع وضعه كامام لم يخرج ٠ ولم يقد ثورة مسلحة ضد خلفاء بنى العباس وحوله الى هجرة فردية عن طريق قطع الفرد علاقاته مع الحكام الظلمة(١١١) ٠

ومما يجدر ذكره ان آراء القاسم الكلامية تقترب من الفقه أكثر مما تقترب من الفلسفة ، وهذا ما يميز الزيدية بعامة عن المعتزلة(١١٢) ، هذا الى أن افكار القاسم اكتسبت أهمية كبيرة لا لكونها أول دليل على التلاقى بين الزيدية والمعتزلة فحسب ، بل لأنها الى جانب ذلك بمثابة توثيق للفكر المعتزلى نفسه(١١٣) ٠

وفى الوقت الذى عرفت الدعوة الزيدية طريقها الى مصر فى أوائل العصر العباسى ، وكان علماء الاسلام قد شرعوا فى تدوين الحديث والفقه والتفسير منذ سنة ١٤٣هـ/٧٦٠م(١١٤) ٠

وكان من بين هؤلاء العلماء كوكبة من علمـــاء مصر ومحـــدثيها وفقهائها ، نذكـــر منهم ـ عبد اللــه بن لهيعة المصرى ـ (ت ١٧٤هـ/ ٧٩٠م)(١١٥) ، والليث بن سعد (ت ١٧٥هـ/٧٩١م)(١١٦) وعبد الله بن وهب بن مسلم المصرى (ت ١٩٧هـ/٨١٢م)(١١٧) ٠ وفى هذا التاريخ قام علماء الزيدية بتدوين فقه الزيدية وحديثهم حول مجموع الامام زيد، الذى يعتبر اقدم مرجع فقهى فى تاريخ المذاهب الاسلامية(١٨) ٠ يقول يحيى بن الحسين(١١٩): « وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون فى حفظهم ويروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة » ٠

وهكذا يمكن القول ان ظهور الفقه الزيدى تزامن مع ظهور المذاهب السنية فى العصر العباسى ٠ وكان من الطبيعى أن تتأثر مصر بجانب الزيدية بمذاهب أهل السنة التى تأثرت بها وأثرت فيها ، مثل مذهـــب شيخ الرأى أبى حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م)(١٢٠)٠

ويذكر ان الامام ابا حنيفة التقى بالامام زيد بن على فى الكوفة ، وكان من رجـاله(١٢١) ، « وكان أبو حنيفة على بيعته ومـن جمـلة شيعته »(١٢٢) ، وعندما سئل كيف جاء اليه هذا العلم قال : « كنت فى معدن العلم ، ولزمت شيخا من شيوخه » أى الامام زيد(١٢٣) ٠

ويصف الشهرستانى(١٢٤) الزيدية بقوله : « ٠٠ وأما فى الفروع فهم على مذهب ابى حنيفة الا فى مسـائل يوافقون فيهـا الشـافعى رحمه الله » ٠

لعل هذا يفسر لنا القول بأن الزيدية معتزلة فى الأصول ، وأحناف فى الفروع ، لما بينهما من ارتباط وثيق ٠

أما ثانى مذاهب أهل السنة ، وهو مذهب الامـام مالك بن أنس الاصبحى (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م)(١٢٥) فان هذا الامام ساند الامام الزيدى محمد بن عبد الله النفس الزكية فى خـروجه على الخليفة المنصـور العباسى ، وأفتى لأهل المدينة عندما سألوه عما اذا كان أبو جعفر له بيعة فى رقابهم بقوله :«انما بايعتم مكرهين،وليس على مكره يمين»(١٢٦)٠

وعلى الرغم من أن مذهب ابى حنيفة يعتبر اقدم المذاهب الا أن مذهب مالك كانت له الأولوية فى دخول مصر ، والانتشار فيها ، اذ قدم كثير من أصحاب مالك الى مصر(١٢٧) ٠

أما ثالث هذه المذاهب فهو مذهب الامام محمد بن ادريس الشافعى، الذى أتى الى مصر فى سنة ١٩٨هـ/٨١٣م ، وكون بها مذهبه ، وتوفى بها سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م(١٢٨) وكانت اقامته ووفاته بمصر سببا فى ذيوع مذهبه وانتشاره فيها ٠ وكان الشافعى مولعا بحب آل البيت ، يؤثر عنه قوله فى حبهم(١٢٩) :

ان كان رفضـا حب آل محمـد   فليشـهد الثقـلان أنى رافضى

ثم يأتى رابع هذاه المذاهب هو مذهب الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٨٥م) ولم يكن له ذيوع كبير فى مصر الاسلامية(١٣٠) ٠

ومن الواضح ان المذهب الزيدى ، كان فيه الاختيار من المذاهب السنية كثيرا ، كما انه واسع الرحاب ، الأمر الذى أدى الى نمائه وتلاقيه مع فقه بقية الأئمة(١٣١) . لذلك صار هذا المذهب بمثابة حديقة غناء تلتقى فيها أشكال الفقه الاسلامى المختلفة ، وأغراسه المتباينة ، والمذهب كالماء الجارى يحمل من الأرض التى يمر بها خواصها ، فيحمل من أهل كل بلد عرفه وعاداته ، وتقاليده وأفكاره(١٣٢) .

وعن انتشار المذهب الزيدى فى مصر ، تحفظ لنا طبقات الزيدية وصفا لأحد قضاة مصر وكبار محدثيها عبد الله بن لهيعة انه « .. كان من أوعية العلم ، .. وكان يروى من حفظه ، وصحف حديثه ، وكان مفرطا فى التشيع »(١٣٣) . ومن قبله كان غوث بن سليمان الحضرمى الذى كان على قضاء مصر ابان قدوم على بن محمد النفس الزكية واتهم بايوائه. هذا فضلا عن أن العلويين فى مصر كانوا على مذهب زيد بن على ، لأنه مذهب آل البيت الذى نهل منه الامام أبو حنيفة النعمان. ولا غرو فى ذلك فمعظم الثورات الزيدية كان يساندها الفقهاء ، حتى سميت ثوراتهم ثورات الفقهاء وأهل العلم ، ومن هنا يمكن القول أن المذهب الزيدى هو أقرب مذاهب الشيعة الى أهل السنة حتى اعتبر خامس مذاهب السنة .

وتشير الدراسات الحديثة(١٣٤) الى أن المذاهب التى لاتعد من مذاهب أهل السنة مثل الشيعة والخوارج ، وغيرها من المذاهب ، لم يكن لها اثرها فى مصر الا فى ظروف سياسية معينة ، اذ لم يقبل المصريون عليها ، ولم تعمر طويلا فى وادى النيل .

ومن المرجح أن المذهب الزيدى انتشر فى مصر منذ دخول الدعوة الزيدية فى مصر سنة ١٤٤هـ/٧٦١م ، وحتى قدوم القاسم الرسى اليها ، وان ظل بعد ذلك محصورا فى نطاق ضيق ، اذا قورن بمذاهب أهل السنة لاستتار معتنقيه بمذهب ابى حنيفة أو الشافعى « .. ومن الزيدية أخلاط فى امصار السنة ، يستترون بمذهب أبى حنيفة ، لأن أبا حنيفة كان من رجال زيد بن على »(١٣٥) . ولأن المذهب الزيدى مذهب ثورى ينطوى على أفكار سياسية ، ولدواعى الأمن وخوفا من بطش العباسيين

واضطهادهم ، كان أصحاب هذا المذهب يدخلون تحت المذهب الحنفى أو الشافعى . يقول الاستاذ الشـــيخ أبو زهرة(١٣٦) : « وأحيانا يبدو المذهب الزيدى فى لباس مذهب آخر حتى ليتوهم الناس أنهم من أهل ذلك المذهب » . أضف الى ذلك بعد الزمان بين معتنقيه وبين الامام زيد ، وانقطاعهم فى الأرض مما جعلهم غير ظاهرين فى مصر .



الهـــــوامش

(١) راجع ترجمته عند : الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠/١٢٢م): تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة (١٩٦٠ ـ ١٩٦٩م) ج٧ ،ص ١٦٠ ـ ١٧٢ ، الأصفهانى ، أبو الفرج على بن الحسين بن محمد (ت٣٥٦/ ٩٦٧م) : مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩ ص١٢٧ ـ ١٥١، ابن حزم ، أبو محمد على بن حزم الأندلسى الظاهرى (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م) : جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٥٦ ٠

(٢) الحاكم الجشمى ، أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمى البيهقى (ت ٤٩٤هـ/١١٠٠م) : شرح عيون المسائل ، مخطوط مصور من مكتبة الامام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ميكروفيلم رقم (٣٠٦) ، ج ١ ، ورقة ٥ ، نشوان الحميرى أبو سعيد (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م) : الحور العين ، تحقيق كمال مصـــطفى ، بيروت ١٩٨٥م ، ص ٢٢٨ ٠ THE Encyclopaedia of Islam, Art (Zaidia)

(٣) الحسنى ، أبو العباس أحمد بن الحسن (ت ٣٥٢هـ/٩٦٣م) : المصابيح ، مخطوط مصور من مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ميكروفيلم رقم (٨١) ورقة ٦٩ ، الهارونى ، أبو الحسن أحمد بن الحسين بن هـــارون (ت٤١١هـ/ ١٠٢٠م) : كتاب فى نصرة مذاهب الزيدية ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، ١٥٦٧ علم الكلام ، ميكروفيلم رقم (٢٢٥) ورقة ١٧٢ ، نشوان الحميرى : الحور العين، ص ٢٢٩ ٠

(٤) ابن طباطبا ، محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى (ت٧٠٩) : الفخرى فى الآداب السلطانية ، والدول الاسلامية ، القـــاهرة ١٩٦٢ ، ص ٩٧ ، المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ ٠

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل ، ج٧ ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ، نشوان الحميرى : الحور العين ، ص ٢٢٩ ، الذهبى ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م): تاريخ الاسلام ، وطبقات المشاهير والاعلام ، القـــاهرة ١٣٦٩هـ ، ج٥ ، ص ٧٥ المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٤٣٩ ٠

(٦) الطبرى : تاريخ الرسل ، ج٧ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ، الأصـــفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ١٤١ ، الذهبى : تاريخ الاسلام ، ج٥ ، ص٧٤ ٠

(٧) المحلى ، الحسن حسام الدين حميد بن أحمد (ت ٦٥٢هـ/١٢٥٤م) : الحدائق

الوردية فى مناقب الائمة الزيدية ، صورة بالأوفست للمخطوطة ، الجزء الأول والثانى فى مجلد واحد ، دمشق ١٩٨٥ ، جـ١ ، ص ١٤٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٤٠، يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٢٦ ٠

(٨) الدينورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت٢٨٢هـ/٨٩٦م) : الأخبار الطوال، بغداد ١٩٥٩ ، ص ٢٤٥ ، المحلى : الحدائق ، جـ١ ، ص ١٤٨ ٠

(٩) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٢ ، جـ٣ ، ص ٢١٧ ٠

(١٠) الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت١٩٠٨ ، ص٨١ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ،ص٤٣٦٠

(١١) ابن ظهيرة ، أبو الطيب محب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الحسين (٨٢٥ - ٨٨٥هـ) : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٠٣ ٠

(١٢) تقع هذه المنطقة الى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط ، وعليها أسس العباسيون مدينة العسكر ثانية عواصم مصر الاسلامية (المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩) ٠

(١٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

(١٤) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

(١٥) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

(١٦) راجع : سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، جـ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ٠

(١٧) المسجد الموجود حاليا يعود الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى اذ جدده وأعاد معظم مبانيه عثمان أغا مستحفظان ٠ (سعاد ماهر : مساجد مصر ، جـ١ ، ص ١٠٦) ٠

(١٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٤٠ ٠

(١٩) نشوان الحميرى : الحور العين ، ص ٢٤٠ ٠

(٢٠) محمد أبو زهرة : الامام زيد ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠ ٠

(٢١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ١٢٨ ٠

(٢٢) الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م) : الملل والنحل ، مطبعة الأزهر ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ، جـ١ ، ص ٣٠٣ ٠

ويشكك أبو زهرة فى أن زيدا درس على واصل ، لأن واصلا يخطىء على بن أبى طالب فى حربه مع أصحاب الجمل ومع معاوية ، ولأن زيدا وواصلا كانا من سن واحدة ، وان كان أبو زهرة لا ينفى امكان أن يتجادلا مجادلة الأنداد . (أبو زهرة: الامام زيد ، ص ٤٠ ـ ٤١) .

(٢٣) الهارونى : نصرة مذاهب الزيدية ورقة ٧١ ٦ .

(٢٤) الهارونى : نصرة مذاهب الزيدية ، ورقة ٦٥ ٦ ،المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٥٢ .

(٢٥) الحاكم الجشمى : شرح عيون المسائل ، جـ١ ، ورقة ٧ .

(٢٦) الهارونى : نصرة مذاهب الزيدية ، ورقة ٦٣ ٦ .

(٢٧) أبو زهرة : الامام ، ص ٤٨٩ .

(٢٨) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ١٢٠ .

(٢٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨١٣ ـ ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة دار الكتب ، جـ١ ، ص ٣٤٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٣٨ لم يحدد كل من المصدرين تاريخا محددا لقدوم على بن محمد الى مصر فى ولاية حميد بن قحطبة الطائى . (رمضان ١٣ ذو القعدة ١٤٤هـ/ ٧٦٠ ـ٧٦١م) ، نفس المصدرين والمرجع أنه قدمها أوائل سنة ١٤٤هـ .

(٣٠) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٨ .

(٣١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ .

(٣٢) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٨٩ .

(٣٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٦١ .

(٣٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٢ .

(٣٥) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، بيروت ١٩٧٠ ، جـ٣ ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(*) عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمى الغافقى المصرى ، كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ، تولى قضاء مصر مستهل سنة ١٥٥هـ/٧٧١م من قبل أبى جعفر المنصور ، وهو أول قاض ولى مصر من قبل الخليفة وأول القضاة الذين حضروا فى طلب الهلال ، وظل عبد الله بن لهيعة على قضاء مصر الى شهر ربيع الآخر سنة ١٦٤هـ/ ٧٨٠م ، وتوفى بمصر يوم الأحد ١٥ ربيع الأول سنة ١٧٤هـ/أكتوبر ٩٧٠م ، (الكندى: الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ، ص٣٨ـ٣٩).

(٣٦) يحيى بن الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد (ت نحو ١١٠٠هـ) : الطبقات الزهر فى أعيان العصر ، ويعرف باسم طبقات الزيدية ، مخطوط مصور عن مخطوطة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، ورقة ١٦ ٠

(٣٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، وقارن المقريزى : الخطط ،جـ١ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ حيث توجد بعض الاختلافات فى الرواية ٠

(٣٨) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ٢٧٠ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ١ ، ص ١٦٦ ٠

(٣٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ١ ،ص٣٠٧ ٠

(٤٠) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٠٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جـ٢ ، ص ١ ٠

(٤١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ،ص٢٣٨٠

(*) الصدف : بفتح الصاد وكسر الدال المهملتين اخره فاء ، والنسبة اليه صدفى بالتحريك ، قبيلة من كندة ولها بقية فى حضرموت ، حازت فضل السبق بالهجرة والجهاد أيام الفتح الاسلامى ، وشهدت الصدف فتح مصر ، وسجل عمرو بن العاص دورها فى مهاجمة حصن بابليون فى رجزه المشهور : يوم لهمدان ويوم للصدف ٠

(الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (٣٢٤هـ/٩٤٥م) : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٦٦ ، حاشية رقم ١ ، ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد المصرى (ت ٨٠٩هـ) : الانتصار بواسطة عقد الامصار ، بولاق ١٩٨٣ ، جـ٤ ، ص ٤ ٠

(٤٢) الكندى الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقريزى ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ ٠

(٤٣) نفس المصدر ، ص ١١٢ ٠

(٤٤) نفس المصدر ، ص ١١٣ ـ ١١٥ ، عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٦٨ ٠

(٤٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٢ ، ص ١ ٠

(٤٦) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٢ ٠

(٤٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٣ ، عبد الله خورشيد : القبائل العربية ، ص ١٦٤ ٠

(٤٨) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٣ ٠

(٤٩) نفس المصدر : ص ١١٤ ٠

(٥٠) المحلى : الحدائق الوردية ، حـ١ ، ص ١٦٥ ٠

(٥١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٥ ، المقريزى : الخطط ، حـ٢ ، ص٣٢٩٠

(*) لقب المنصور الحق بالخليفة أبى جعفر بعد انتصاره على النفس الزكية ٠

(٥٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٤ ، ١١٥ ٠

(٥٣) نفس المصدر ، ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ، حـ٢ ، ص ٣٣٨ ٠

(٥٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، حـ٢ ، ص ٢ ٠

(٥٥) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٤ ٠

(٥٦) المقريزى : الخطط ، حـ٢ ، ص ٤١٣ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٠٣ ، راجع : سعاد ماهر محمد : مساجد مصر ، حـ١ ، ص ١١٠ ـ ١١١ ٠

(٥٧) سعاد ماهر : مساجد مصر ، جـ١ ، ص ١١٤ ٠

(٥٨) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ٠

(٥٩) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ١ ، ص ١٧٥ ، الحسنى : المصابيح ، ورقة ٨٩ ٠

(٦٠) فخ : بالخاء المعجمة من فوق ، من فجاج مكة ، بينه وبين مكة ثلاثة أميال، وقيل ستة أميال ، وبفخ كانت وقعة الحسين بن علي ٠ (الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت ٨٦٦هـ/١٤٦١م) : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٤٣٦ ، ٤٣٧) ٠

(٦١) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ، ص٤٣١ . ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٨٣، جـ٤ ، ص ٢٣ ٠

(٦٢) السلاوى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، جـ١ ، ص ١٥٣ ٠

(٦٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٣١ ٠

(٦٥) نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١٥٤ ٠

(٦٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٨ ، ص ١٩٨ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٢٤ ٠

(٦٧) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ١ ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦ وراجع السلاوى : الاستقصا ، جـ١ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧

(٦٨) المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت نحو ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، نشرة دى خويه ، ليدن ١٩٠٦ ، ص ٢٤٤ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٤٦ ٠

(٦٩) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحاق المعروف بالوراق (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) : الفهرست ، طهران ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، ص ٢٤٤ المحلى : الحدائق ، ج ٢ ، ص ٢ ، الحاكم الجشمي : شرح العيون ، جـ١ ، ورقة ٢٧ ٠

(٧٠) الحاكم الجشمي : شرح العيون ، جـ ١ ، ورقة ٢٩ الأصفهاني : مقاتل الطالبين ، ص ٥٥٦ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٦ ، دائرة المعارف الاسلامية (مادة الزيدية) ، وراجع : ايمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٢٨ ٠

— Madelung W., Der Imam al - Qasim ibn Ibrahim und dia Glaubenslhre des Zaidten,, Berlin 1965, P.87.

— Binyamin Abrahamov : Al - Kasim Ibn Ibrahim's Argumnet From Design, Oriens, Journal of the International Society for Oriental Research, Brill, 1986 V., 29-30, P. 259.

(٧١) ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) : تهذيب التهذيب ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٢٦هـ ، جـ٦ ، ص ١١٨ ٠

Madelung, OP. Cit., P. 89.

(٧٢) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٢ ٠

(٧٣) نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١٧٨ ٠

(٧٤) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١٠٩ ، المحلى : الحدائق ، جـ١ ، ص ١٩٧ ٠

(٧٥) المحلى : الحدائق ، جـ١ ، ص ٢٠ ، يحيى بن الحسين طبقات الزيدية ، ورقة ١٦ ، المتوكلي ، اسماعيل بن أحمد بن على : انباء الزمن في تاريخ اليمن ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم١٣٤٧ تاريخ ، ميكروفيلم رقم٢٠٣٣٨ ، ورقة٢١٠

(٧٦) المحلى : الحدائق ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ورقة ٣٦ ٠

(٧٧) المقريزي : الخطط ، جـ١ ، ص ٣١٠ ٠

(٧٨) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٩ ٠

(٧٩) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ، ص ٥٥٣ ٠

(٥٧) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٤ ٠

(٥٨) طبرستان : بلاد جبلية تقع على بحر الخزر (قزوين) ، يحدها من الشرق جرجان وقوص ومن الغرب الديلم ومن الجنوب الرى وأهلها اشرف العجم (اليعقوبى أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) : البلدان ، ليدن ١٨٩٢ ، ص ٤١ ، وفتحت طبرستان سنة ١٤٣هـ/٧٥٩م وأكبر مدنها الجبل وبها

مستقر الولاة ، وكانوا من قبل يسكنون سارية . (الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٨٣ _ ٢٨٤) .

(٥٩) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٤ ، المتوكلى : أنباء الزمن ورقة ٢١ .

(٦٠) المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة ٢١ .

(٦١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ٥٥٦ .

Madelung, Cit., P. 93.

— Binyamin Abrahamov, Al - Kassim Ibn Ibrahim's Theory of the Imamate, Revue D'etudes Arabes, Leiden 1987, Tom XXX Iv PP. 82-88.

(٦٣) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٤ ، المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة ٢١ .

(٦٤) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٤ .

(٦٥) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١١٠ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٧ .

(*) محمد بن منصور المرادى الزيدى ، أحد علماء الزيدية وفقهائها ، أخذ علومه على القاسم الرسى ، وكان يروى عن القاسم من غير واسطة ، وله من الكتب : كتاب التفسير الكبير ، وكتاب التفسير الصغير ، وكتاب أحمد بن عيسى ، وكتاب سيرة الأئمة العادلة ، وله كتب فى الاحكام ، علاوة على كتب الفقه ، توفى سنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م . (راجع : ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٧) .

(٦٦) المحلى : : الحدائق ، جـ٢ ، جـ٤ .

(٦٧) الحاكم الجشمى : العيون ، جـ١ ، ورقة ٢٨ .

(٦٨) الهارونى : نصرة المذاهب الزيدية ، ورقة ٧٢ .

Binyamin Abrahamov, op. cit., p. 81.

(٦٩) الحاكم الجشمى : العيون جـ١ ، ورقة ٢٩ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ ٢ ، ص ٦ .

Madelung, op. cit., p. 259.

(٧١) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٦ ، المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة٢٢.

Binyamin, op. cit. 259.

(٧٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٩٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ص ٢٨٣ _ ٢٨٤ ، وراجع : سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الولاة ، الهيئة العامة للكتاب ، ص ٩٥ .

(٧٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ ٠

(٧٤) قفط : مدينة بشرقى النيل ، وهى من المدن المذكورة فى الصعيد حسنا ونظافة بنيان واتقان (ابن جبير ، محمد بن أحمد الأندلسى (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م : رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ص ٦١ ، ولها سور وبينها وبين قوص أربعة أميال وفيها مزارع كثيرة البقول وأهلها شيعة ، وفيها بعض بقايا الروم (مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٨٧ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٤٧٧)، وهى رأس طرق القوافل التى كانت تخترق الصحراء بين وادى النيل والبحر الأحمر، (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، جـ٤ ، ص ١٧٧) ، وهى الآن احدى مدن محافظة قنا ٠

(٧٥) الادريسى ، أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥١م): صفة المغرب وأرض السودان والأندلس ، تحقيق دوزى ، امستردام ، ١٩٦٩ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ، الحميرى : الروض ، ص ٤٧٧ ٠

(٧٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٧ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ٠

(٧٧) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٩٣ ٠

(٧٨) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ٩٥ ٠

(٧٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٠٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٣٢٩٠

(٨٠) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٢٩ ٠

(٨١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٢٩ ، راجع سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ٩٥ ٠

(٨٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، المقريزى : الخطط : جـ٢ ، ص ٣٢٩ ٠

(٨٣) نفس المصدر ، ص ٢١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ ٠

(٨٤) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١١ ٠

(*) ورد ذكره عند الكندى (أزجور التركى ، ص٢١٠ـ٢١١ بينما ورد اسمه عند المقريزى أرجون وقد أخذنا بما ورد عند المقريزى ، جـ٢ ، ص ٣٢٩) ٠

(٨٥) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٢٩ ٠

(٨٦) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ ٠

(٨٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٥٠٩ ـ ٥١٣ ٠

(*) كان ابن طباطبا كريما فاضلا ، صاحب رباع وضياع ونعمة ظاهرة وعبيد وحاشـية ٠

(٨٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ ٠

(٨٩) عبد الله خورشيد : القبائل العربية ، ص ٩٣ ٠

(٩٠) الحاكم الجشمى : شرح العيون ، جـ١ ، ورقة ٢٨ ٠

(٩١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٠ ٠

(٩٢) نفس المصدر ،ورقة ٤ ٠

Binyamin, OP. Cit., P. 81.

(٩٤) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٣ ٠

(٩٥) جعفر حرب ، ويكنى أبا الفضل ، واحد دهره فى العلم والصدق والورع والزهد والعبادة ، وله كتب كثيرة فى علم الكلام ، وعده ابن المرتضى من الطبقة السابعة ، (ابن المرتضى ، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٦م) : طبقات المعتزلة ، تحقيق سوسنة ديفيلد فلرز ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٧٢ ٠

(٩٦) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٢ ٠

(٩٧) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٩٦ ٠

(٩٨) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١١٠ ٠

(٩٩) راجع : القاسم الرسى : رسائل العدل والتوحيد ، تحقيق محمد عمارة، نشر دار الهلال ، ص ٣٠ ـ ٣٤ ، على محمد زيد: معتزلة اليمن، بيروت ١٩٨١،ص٣٣٠

(١٠٠) كتاب الدليل الكبير نشره المستشرق بنيامين ابراهما ، واردفه بتعليقات باللغة الانجليزية ، ليدن ١٩٩٠ ٠

(١٠٥) Binyamin., " Al Kasim Ibn Ibrahim,s Argument., pp. 260-261.

(١٠٢) القاسم الرسى : أصول العدل والتوحيد ، ص ٩٦ ـ ١٤٠

(١٠٣) نفس المصدر ، ص ١٠١ ـ ١١١ وراجع : أحمد محمود صبحى : الزيدية، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١١٥ ٠

(١٠٤) نفس المصدر ، ص ٧٣ ٠

(١٠٥)ء Medelung OP. Cit., P. 89.

(١٠٦) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤ ٠

(١٠٧) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٨ ٠

(١٠٨) القاسم الرسى : الامامة ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم ٢٤٣ ، ورقة ٨٦ ٠

Binyamin, " Al Kasim Ibn Idrahim's Theory, P. 85.

(١٠٩) القاسم الرسى : الامامة ، ورقة ٨٦ ٠

(١١٠) على محمد زيد : معتزلة اليمن ، ص ٣٣ ٠

(١١١) القاسم الرسى : الامامة ، ورقة ٨٢ الى ورقة ٨٧ ، الهـــاروني : نصرة المذاهب الزيدية ، ورة ٧٢ ٠

(١١٢) أحمد صبحى : الزيدية ، ص ١٣٨ ٠

(١١٣) على محمد زيد : معتزلة اليمن ، ص ٣٣ ٠

(١١٤) الذهبى : تاريخ الاسلام ، جـ٦ ، ص ٥ ـ ٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١ ، ص ٣٥١ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ٠

(١١٥) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ ، ابن خلــكان : وفيـــات الأعيان : جـ٣ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ ٠

(*) ترك عبد الله بن لهيعة مجموعة مدونة من الحديث تعتبر أقدم مجموعة حتى الآن ، وهى ضمن مجموعة أوراق البردى بمدينة هيدلبرج (سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٣) ٠

(١١٦) أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن امام أهل مصر فى الفقـــه والحديث ، قال عنه الشافعى : « الليث بن سعد أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به » سمع علماء المصريين والحجازيين ، وروى عن عطاء بن أبى رباح وابن شهاب الزهرى (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ١٢٧) ٠

(١١٧) الذهبى : تاريخ الاسلام ، جـ٦ ، ص ٥ ـ ٦ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ٠

(١١٨) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ، وراجع : أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٥٨ ٠

(١١٩) نفس المصدر ، ورقة ٤ ٠

(١٢٠) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٣٢٤ ٠

(١٢١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ، ١٠ ٠

(١٢٢) الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ١ ، ص ٣١٢ ٠

(١٢٣) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٣ ٠

(١٢٤) الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ١ ، ص ٣١٧ ٠

(١٢٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ١٣٧ ٠

(١٢٦) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ٢٨٣ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ ١ ، ص ١٦٤ ٠

(١٢٧) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٧ ٠

(١٢٨) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٢٢٤ ، ٤٤١ ٠

(١٢٩) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٤٢ ٠

(١٣٠) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٢٤ ، راجع سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٨ ٠

(١٣١) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٢٧ ٠

(١٣٢) نفس المرجع ، ص ٤٨٨ ٠

(١٣٣) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ورقة ٦ ٠

(١٣٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٨ ٠

(١٣٥) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ٠

(١٣٦) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٨٩ ٠

« قائمة المصادر والمراجع »

اولا : المصادر العربية :

(أ) مصادر مخطوطة :

١ ـ الحاكم الجشمي : أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقى (ت ٤٩٤هـ/١٠٠م) « شرح عيون المسائل » مخطوط مصور من مكتبة الامام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٣٠٦) ٠

٢ ـ الحسنى : أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن الحسن (ت ٣٥٢هـ/٩٦٣م) « المصابيح » مخطوط مصور من مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٨١)٠

٣ ـ القاسم الرسى : القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن على بن ابى طالب (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) : « كتاب الامامة » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٣٤٣) ٠

٤ ـ المتوكلى : اسماعيل بن احمد بن على : « أنباء الزمن فى تاريخ اليمن » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ميكروفيلم رقم (٢٠٣٣٨) ٠

٥ ـ الهارونى : أبو الحسن أحمد بن الحسين بن هارون (ت٤١١هـ/١٠٢٠م) : « كتاب فى نصرة مذاهب الزيدية » مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ١٥٦٧ علم الكلام،ميكروفيلم رقم(٢٢٥)٠

٦ ـ يحيى بن الحسين : يحيى بن الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد (ت نحو ١١٠٠هـ) : « الطبقات الزهر فى أعيان العصر» ويعرف باسم طبقات الزيدية ، مخطوط مصور عن مخطوطة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ٠

(ب) مصادر مطبوعة :

٧ ـ الادريسى : أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥١م) : « صفة المغرب وارض السودان والأندلس » من نزهة المشتاق ، تحقيق دوزى ، امستردام ١٩٦٩ .

٨ ـ الاصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م) : « مقاتل الطالبيين » تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩ .

٩ ـ ابن تغرى بردى : ابو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) : « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » جـ١ ، جـ٢ ، القاهرة ، طبعة دار الكتب (بدون تاريخ) .

١٠ ـ ابن جبير : محمد بن احمد الاندلسى (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) : «رحلة ابن جبير» ، دار الكتاب اللبنانى، بيروت (بدون تاريخ) .

١١ ـ ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أبو الفضل احمد بن على (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) : « تهذيب التهذيب » جـ٦ ، حيدر آباد ـ الدكن ، ١٣٢٦هـ .

١٢ ـ ابن حزم : أبو محمد بن على بن حزم الاندلسى الظاهرى (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م): « جمهرة أنساب العرب » ، القاهرة ١٩٧١ .

١٣ ـ الحميرى محمد عبد المنعم (ت٨٨٦هـ/١٤٦١م) : « كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار » ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٨٠ .

١٤ ـ ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » جـ٤ ، بيروت ١٩٨٣ .

١٥ ـ ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) : « وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان » ، جـ٣ ، جـ٤، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧١ .

١٦ ـ ابن دقماق : ابراهيم بن محمد المصرى (ت٨٠٩هـ) : « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ، جـ٤ ، بولاق ١٨٩٣ .

١٧ ـ الدينورى : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٦م) : « الأخبار الطوال » ، تحقيق الدكتور عبد المنعم ماجد ، بغداد ١٩٥٩ .

١٨ ـ الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م): « تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام » جـ٥ ، جـ٦ ، مكتبة القدسى ، القاهرة ١٣٦٩هـ .

١٩ ـ السلاوى : الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م): « الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى » الدار البيضاء ١٩٥٤م .

٢٠ ـ الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) : «الملل والنحل» جـ١ ، تحقيق محمد بن فتح الله بدران، مطبعة الأزهر ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

٢١ ـ ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطب المعروف بابن القطقى(ت ٧٠٩هـ) : « الفخرى فى الآداب السلطانية ، والدول الاسلامية » القاهرة ١٩٦٢ .

٢٢ ـ الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) : « تاريخ الرسل والملوك » جـ٧ ، جـ٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ .

٢٣ ـ ابن ظهيرة : ابو الطيب محب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الحسين (٨٢٥ ـ ٨٨٥هـ) : « الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة » تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٦٩ .

٢٤ ـ القاسم الرسى : القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل (ت ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م) : « رسائل العدل والتوحيد » تحقيق محمد عمارة ، نشر دار الهلال ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٢٥ - الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى (ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م) : « كتاب الولاة وكتاب القضاة » ، بيروت ١٩٠٨

٢٦ - المحلى : الحسن حسام الدين حميد بن أحمد (ت٦٥٢هـ/١٢٥٤م): « الحدائق الوردية فى مناقب الائمة الزيدية « صورة بالأوفست للمخطوطة الجزء الأول ، والثانى فى مجلد واحد ، دمشق ١٩٨٥ .

٢٧ - ابن المرتضى : أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٧م) : « طبقات المعتزلة » تحقيق سوسنة ديفيلد فلرز ، بيروت ١٩٦١ .

٢٨ - المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م) : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » جـ٣ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ١٩٨٢ .

٢٩ - المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : « الخطط - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » جـ١ ، جـ٢ ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة (بدون تاريخ) .

٣٠ - مؤلف مجهول : « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

٣١ - ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب اسحاق المعروف بالوراق (ت٣٨٠هـ) : « الفهرست » تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

٣٢ - نشوان الحميرى : أبو سعيد (ت٥٧٣هـ/١١٧٧م) : الحور العين؛ تحقيق كمال مصطفى ، بيروت ١٩٨٥ .

٣٣ - الهمدانى : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) : « صفة جزيرة العرب » تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٣ .

٣٤ - ياقوت الحموى : ياقوت بن عبد الله الرومى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م): « معجم البلدان » جـ٨ ، بيروت ١٩٨٤ .

٣٥ ـ اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفـــر بن وهب بن واضح (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) : « البلدان » ليدن ، ١٨٩٢م ٠

ثانيا : المراجع الحديثة :

١ ـ أحمد محمود صبحى : « الزيدية » ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٤) ٠

٢ ـ اين فؤاد سيد : « تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى » (الدار المصرية اللبنـــانية ، القاهرة ١٩٨٨) ٠

٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية ٠

٤ ـ سعاد ماهر محمد : « مساجد مصر وأولياؤها الصالحون » جـ١ ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة (بدونتاريخ) ٠

٥ ـ سيدة سماعيل كاشف : « مصر فى عصر الولاة » ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ٠

٦ ـ عبد الله خورشيد البرى : « القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة » ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

٧ ـ على محمد زيد : « معتزلة اليمن » ، بيروت ، ١٩٨١ ٠

٨ ـ محمدمحمد أبو زهرة : « الامام زيد » ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

٩ ـ محمد رمزى : « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية » جـ١ ، جـ٤ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (١٩٥٤ ، ١٩٦٣) ٠

١٠ ـ يوليوس فلهوزن : « تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية » نقله الى العربية الدكتور محمد عبدالهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ ٠

(1) Binyamin Abrahamov :

* "Al - Kasim Ibn Ibrahim's Argument From Desing". Oriens Journal of the International Society for Oriental Research, V. 29-30, Brill, 1986.

* "Al - Kasim Ibn Ibrahim's Theory of the Imamate".

Revue D'etudes Arabes, Tome XXXIV, Leiden, 1987.

(2) Encyclopaedia of Islam.

(3) Madelung (W.,) :

* "Der Imam Al - Qasim ibn Ibrahim die Glaubensiehre der Zaidited Berlin, 1965.

الفكر التاريخى عند تاج الدين السبكى

د٠ سليمان الرحيلى(*)

ارتبط علم التاريخ ارتباطا واضحا بعلم الحديث فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة٠وتاثر التاريخ بالحديث وقتذاك من حيث المنهج ، وظهر كثير من أبوابه فى كتبه ٠ كذلك قامت عــلاقة وثيقة بين التاريخ وعلم الفقه فى القرون التالية ، وعقل الفقهاء دراسة الفكر التاريخى سياسة ، وحضارة ، وحتى نقدا ، بكثيرا من آرائهم القيمة،وجمع عدد منهم بين دراسة التاريخ والفقه اما ضمن مؤلفاتهم فى فقــه المذاهــب وطبقاتها والسياسة الشرعية ، أو مفردا بمؤلفات مسـتقلة كان للآراء والأحكام الفقهية اثر كبير فيها ٠

وقد وضح هذا التلازم بين الفقه والتاريخ منذ القرن الرابع ، اذ كان لفقهاء ذلك القرن آراؤهم فى سياسة الدولة واقسام ادارتها وتقويم اعمالها والحكم أو الموقف منها ، ومن هؤلاء الماوردى فى المشرق وابن حزم فى الغرب(١) ٠

وهكذا حتى كان القرن السابع فتتابع ظهور عدد من الفقهاء الذين أولوا الفكر السياسى عنايتهم ، وكتبوا فى سياسة الدول وصـلاح ادارتها وما يحفظ قوتها أو يؤدى الى سقوطها ، مع التعليل لذلك وذكر العوامل المؤثرة فيه ، كما عنوا بحمــل الواقع التاريخى على الجادة الشرعية والمصالح العامة ، وتحقيق مقاصــدها فى أفعــال الدول ومؤسساتها المخالفة ، وبين نتائج الاتباع ومحاسن الحــرص على ذلك ، وعواقب المخالفة ومصائر الاستمرار فيها ٠ ومن أولئك العلماء ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) وتاج الدين السبكى ، والمالقى ، وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) ٠وكان واحد من هؤلاء تولى القضاء فى حياته،وبذلك أثروا الفقه والتاريخ معا،

(*) أستاذ التاريخ والحضارة المشارك ـ جامعة الامام محمــد بن ســعود الاسلامية ـ الرياض ٠

وتركوا لنا فيهما ثروة نفيسة . والواقع أن التاريخ كان محظوظا بعناية هؤلاء . واذا كانت آراء ابن خلدون فى دراسة التاريخ وأحوال الحضارة أو ما أسماه هو العمران البشرى نالت الشهرة وجذبت الاهتمام فى العصر الحديث ، فان آراء الآخرين جديرة أيضا بالدراسة ،وتستحق المزيد من عناية المؤرخين ، وعلى رأس أولئك تاج الدين السبكى .

تاج الدين السبكى :

هو أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى ، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٨هـ . ونشأ فى بيت علم ورياسة فى دولة سلاطين المماليك ،فأبوه تقى الدين على السبكى ولى منصب قاضى القضاة فى بلاد الشام لمدة طويلة(٢) .

أما هو فقد أحسن والده توجيهه وظهرت عليه علامات الذكاء والنجابة ، فحفظ القرآن وكثيرا من علوم الحديث والفقه والعربية ، وتتلمذ على يد مشاهير علماء الاسلام فى بلاد الشام ، حتى انه كان يتلقى عن الامام الذهبى مرتين فى اليوم ، وعن المزى (ت٧٤٢هـ) مرتين فى الأسبوع . ولم يلبث الذهبى أن عده فى الطبقة العليا بين طلاب العلم وقتذاك ، ووصفه لوالده بأنه محدث جيد(٣) . وهكذا كان ، فقد تولى الافتاء وهو فى سن العشرين ، وتولى التدريس والخطابة فى الجامع الأموى فى دمشق ، بالاضافة الى وظائف أخرى ، حتى اذا ما ضعف والده ، وترك وظيفته ورحل الى مصر تولى ابنه تاج الدين منصبه وهو قاضى القضاة فى بلاد الشام سنة ٧٥٦م فى سلطنة الناصر محمد المملوكى الثانية . واستمر فيه حتى وفاته سنة٧٧١هـ عن عمر قليل لم يتجاوز الأربعة والأربعين عاما(٤) ، قضاها بين طلب العلم وولاية القضاء . وكان طوالها مثال العالم العامل الذى يحاول الاصلاح جهده ، دون أن تأخذه رهبة وال أو لومة لائم . ولهذا لم تخل حياته من حسد أو كيد له ممن ينافسونه الفضل ، أو يخافون نقده ومخالفة هواهم ، وعلى رأسهم نائب الشام وقتذاك الذى أمر بعزله عن منصبه سنة ٧٦٩هـ. لكنه لم يلبث أن أعيد اليه بعد قليل .

وقد عاصر عددا من المؤرخين منهم شيخه الذهبى ، وابن فضل الله العمرى (ت٧٤٩هـ) وخليل بن أيبك الصفدى (ت٧٦٤هـ) وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) ٠

وله عدد من المؤلفات منها : جمع الجوامع في أصـــول الفقه ، الأشباه والنظائر الفقهية ، وتكملة شرح منهاج القـــاضى البيضاوى ، وطبقات الشافعية الكبرى ، وكتاب معيد النعم ومبيد النقم ٠ وقد اشتمل الكتابان الأخيران على فكره التاريخى وآرائه الاصلاحية ، اذ ضمن كتاب الطبقات قاعدة جليلة سماها قاعدة فى المؤرخين(٥) ٠ كما ضمنه ذكر بعض احداث الغزو المغولى للعالم الاسلامى على يد جنكيز خان وهولاكو وفظائع جرمه ، وهول صدمته(٦) ٠ وقد أوجز فيها اكتفاء بما افرد من المصنفات فى أخبارها(٧) ؛ واعتمد على ابن الأثير فى كتابه الكامل فى الغالب(٨) ، وكان منهجه فى ذكرها لا يختلف عنه كثيرا ٠ اما آراؤه الأخرى فيهم فقد جاءت بايجاز فى كتابه معيد النعم ٠ وقد ضمن هـــذا الكتاب كثيرا من آرائه في الأحوال الادارية والاجتماعية ومدارها والغاية منها بعدا أو قربا من منهاج الشرع الحكيم فيها ، وتحقيق الصالح العام منها ، ومراعاة ما يبقيها ، واجتناب عوامل زوالها ، كالأغراض والقصور والفساد من قبل القائمين عليها ٠ وهى آراء ومواقف عديدة لتاج الدين السبكي لا ينقصها روح العالم ، وسعة الاطلاع ، وخبر أحوال المجتمع ، ومعرفة أوضاع مؤسساته،ومخالطة موظفيه ومعايشة عامته ، كما سيأتى٠

ولم تقتصر آراؤه على وصف الوظائف والمهـــن فى عصره ، وانما اشتملت علي تنظيم واصلاح لها ، يصلح لها في كـــل وقت أو مكان فى المجتمع ، فضلا عن افادتها فى معرفة تاريخ مسمياتها ، ومجال أعمالها خلال عصر المماليك وما اخذوه فى ميدانه عن غيرهم ، أو أثروا به فيما تلا عهدهم من عصور،حتي أن بعضها ظل باقيا حتى العصر الحاضر(٩) ٠

تتلخص موارد تاج الدين السبكى فى فكره فى تلقيه عن عدد من العلماء الأعلام ، مثل المزى (ت٧٤٢هـ) ، والذهبى (ت٧٤٨هـ) ، ووالد تاج الدين تقى الدين السبكى (ت٧٥٦هـ) ٠ وكلهم من العلمـــاء الذين

أثروا عصرهم بالعديد من المؤلفات والآراء وحلقات الدرس ٠ وكان لكل منهم أيضا عناية بالتاريخ وأحوال الواقع المعاصر لهم وتولى أعماله مثل القضاء والتدريس ، فتأثر بهم تاج الدين السبكى وعنى بعلوم التاريخ والاصلاح المبتغى للحياة ، ولا سيما ما يرتبط بعصره الذى عاش فيه وهو العصر المملوكى ، وقد ساعده فى ذلك ثلاثة أمور هى :

الأول : تبحره فى علم الفقه وأبوابه مما جعله يجيد مظاهر الحياة الاجتماعية ورصد الواقع التاريخى لها ، وبيان الحكم أو ما ينبغى أن يكون الحال عليه ٠

الثانى نبوغه فى أصول الفقه والتاليف فيه مما جعل منهجه فى آرائه واضح الترتيب قوى الحجة فى ايراده والاقناع به ٠ وكذلك سهولة ذكر القواعد والأصول للوظائف والأعمال وتحديد الأصلح فى وسائلها وأهدافها ٠

أما الثالث : فهو خبرته فى أعمال الدولة وتوليه وظيفة القضاء والتدريس لمدة طويلة مما أتاح له معايشة مختلف فئات المجتمع ، فخبر أحوالهم عن قرب مما أثرى آراءه وجعلها أكثر قبولا ، وتدل فى الغالب على أنها صادرة عن عالم قرن العلم بالعمل ٠

أما الفكر التاريخى عند تاج الدين السبكى فينقسم الى قسمين :

أحدهما : فكر منهجي يختص بالشروط اللازمة للمؤرخ وآرائه فى المؤرخين ومؤلفاته ٠ وبالذات كتابه تراجم الأعلام والسير والطبقات ٠

والثانى : فكر يتعلق بالاصلاح الادارى والاقتصادى والتعليمى والاجتماعى ، وابداء الرأى فى أحوال الدولة واخبارها وما ينبغى أن تكون عليه أعمال ادارتها ووظائفها المختلفة ، ولاسيما ما كان قائما منها فى عصره ، حتى أن أحد الباحثين قرن آراءه الاصلاحية بآراء الشيخ محمد عبده فى تاريخ مصر الحديث(١٠) ٠

وسوف نتناول فى هذا البحث آراءه فى كل مجال بالدراسة والتحليل والتفصيل ، ما أمكن ٠

أولا ـ الفكر المنهجي :

كان لتاج الدين السبكي ميل كبير لدراسة التاريخ وولع بين بتاريخ السير والأعلام منه. ويندرج كتابه الضخم طبقات الشافعية الكبرى تحت هذا الفن من فروع التاريخ . وقد أوفى فيه وأحكم ، وتعهده منذ صباه بالاهتمام . فلما نضج علمه واتسعت تجربته اخرجه بالتمام والاتقان ، بما يفيد الفقيه والأديب والمؤرخ(١١) ، فيجد فيه (تراجم يعز على المنقب وجدانها) ، ووصفه في مقدمته بأنه كتاب تاريخ ، حتى ضمن مقدمته وصفا موجزا لأحداث الغزو المغولي الذي هز العالم الاسلامي ابان القرن السابع(١٢) .

وقد قرر أن الصفات الواجب توافرها في المؤرخ مثل الصدق والعدالة والبعد عن الهوى هي مما يشترط في بعض الوظائف المهمة الأخرى في الدولة مثل الامامة والقضاء ، بالاضافة الى صفات أخرى يقتضيها كل مجال ويتطلبها دون آخر .

وقد أورد تاج الدين السبكي كثيرا من آرائه التاريخية من خلال التعليق والاضافة على موجز نفيس لوالده تقي الدين في المؤرخين في كتابه ـ أي تاج الدين ـ الطبقات الكبرى ، فضلا عن آرائه الأخرى فيهم في كتابه القيم ، معيد النعم ومبيد النقم . أما آراء تقي الدين السبكي التاريخية فقد وصلتنا عن **طريقين :**

أحدهما : ابنه تاج الدين السبكي ، وقد نص على ذلك أكثر من مرة فقال : « فالرأي عندنا أن لا يقبل مدح وذم من المؤرخين الا بما اشترطه امام الأمة ، وهو الشيخ الامام الوالد رحمه الله ، حيث قال ونقلته من خطه في مجاميعه»(١٣) .

ويقول تاج الدين : « وذكر أن كتابته لهذه الشروط ـ أي كتابة والده تقي الدين السبكي لها ـ كانت بعد أن وقف على كلام ابن معين في الشافعي ... » الخ(١٤) .

وعنونها تاج الدين السبكي بعنوان : قاعدة في المؤرخين ، على

غرار قاعدة أخرى كتبها فى الجرح والتعديل وسبقها بها ، وأضاف اليها بعض آرائه التى كانت فى الغالب تفريضا وشرحا لآراء ابيه كما سيأتى ٠

الثانى : عن طريق خليل بن ايبك الصفدى فى مؤلفه الكبير : الوافى بالوفيات؛قال :«نقلت من خط الامام العلامة الحجة شيخ الاسلام قاضى القضاة تقى الدين أبى الحسـن على بن عبد الكافى السـبكى الشافعى ما صورته »(١٥) ثم أورد آراءه وشروطه فى المؤرخ ٠ كما عد المؤرخين من العلماء مثلهم مثل المفسرين والفقهاء والأصوليين والنحويين من حيث حاجة الأمة لهم ، وخطورة فساد وظيفتهم أسوة بفسـاد أى من وظائف العلماء الآخرين(١٦) ٠

ونظرا لأن تاج الدين السـبكى وضع عنـوانا لشروط والده فى المؤرخين سماه (قاعدة فى المؤرخين) ثم شرحها وفسر بعض مقاصدها ، وأوردها فى سـياق قاعدة أخرى فى الجرح والتعديل ، فان هذا أوحى بأنها له ليست لوالده لأن آراء تاج الدين فى المؤرخين لم تكن مجرد نقل لآراء والده فيهم أو تعليقا عليها ، وانما تبن لها ومنـاداة بها ٠ حتى نسبت له كثيرا(١٧) ، بينما صلب تلك القواعد هى لوالده تقى الدين ٠ ولهذا فان خليل بن أيبك الصفدى أوردها بنصها منسوبة الى تقى الدين السبكى ولم يشر الى آراء ابنه أو شىء من جهده البتة(١٨) ٠ بينما أورد السخاوى (ت٩١١هـ) شواهد من آراء الاثنين(١٩) ٠

ومن باب الانصاف ينبغى أن يشار الى آراء كل منهما فى مناسباتها ٠ وعندما ينسب بعضها هنا الى تاج الدين ويضاف الى آرائه فهو من باب التغليب ، لا سيما أنها عرفت كثيرا من خلال كتاب الطبقات فضلا عن شهرة اهتمام الابن بالتاريخ اكثر ٠

اما **شروط المؤرخ عند تاج الدين** نقلا عن والده تقى الدين السبكى فهى تنقسم الى مجموعتين :

● **الأولى** فى المنقول عنه وتشمل عدة شروط هى :أولا الصدق(٢٠) ، وهى صفة مهمة ولازمة من لوازم المؤرخ ، وهى مايعبر عنه بالعـدالة والضبط التام(٢١) ٠

ثانيا : أن يعتمد المؤرخ اللفظ دون المعنى فيما ينقله ، وهذا بالنسبة للنصوص فى الأقوال ، لأن التعبير عنها بالمعنى قد يؤدى الى ائتلاف فى الحكم المترتب عليها بين لفظ القائل وعبارة الناقل . اما ماعـــدا ذلك فاشتراطه نقل اللفظ دون المعنى هو أحد مظاهر الأمانة العلميـــة التى ينبغى أن يتحلى بها الراوى وما فى حكمه من وسائل ، فيكون بذلك قد ادى ما تلقاه أو سمعه أو شاهده كما حـــدث بالضبط ، ويترك للمؤرخين وغيرهم مهمة التفسير والتعليل والاستقراء . ولهذا اشترط فيما يكتبه هؤلاء من انفسهم المعرفة بدلالات الألفاظ وقرن ابنه تاج الدين بقوة بينها وبين العلم(٢٢) ، وهو مما يلزم المؤرخ حتى يتمـــيز عن الراوى أو الأخبارى أو حتى الوكالة فى العصر الحديث .

ثالثا : عدم الانقطاع بين وقت الخبر وتدوينه ، فالمعاصرة للحدث او المترجم له أو القرب منه تعطى الكتابة التاريخية قيمة أكبر .

رابعا : النص على المصدر المنقول عنه وتسميته من أخذ عنهم اذا كانوا رواة(٢٣) . ولا يجزم الا بما يتحققه سندا ومتنا اذ ينبغى على المؤرخ الا يكتفى بنقل الشائع لمجرد شيوعه دون ترو وتحر ، فان ذلك فضلا عن أنه اثم ومفسدة فانه يحط عمله وينفر منهالعقلاء والعلماء(٢٤) .

● **أما المجموعة الثانية من شروط المؤرخ عند تاج الدين** : فهى شروطه فيما يكتبه المؤرخ بنفسه ولا سيما فى باب التراجم والسير ، ومنها ان يكون المؤرخ عارفا بحال المترجم له علما ودينا ، ويقتضى هذا أن يكون فى منزلة المترجم فى الناحية العلمية أو قريبا منها . والأفضل أن يكون مشاركا له فى التخصص ، وهذا شرط مهم ، وقد وصفه هو بأنه عزيز جدا . ذلك أن المؤرخ عندما يعايش الحدث أو يكون فى منزلة من يترجم له ملازما له ، تتاح له معرفته عن قرب ويستطيع أن يقومه أكثر من غيره(٢٥) .

واتبع السبكى هذا الشرط بشرط آخر فى المؤرخ لا يقل اهمية عن الشرط السابق ، هو حسن التصور للمكتوب عنه ، فيصور حاله كما هو بالضبط دون زيادة أو نقصان ، فتصور الشىء فرع عنه(٢٦) .

وعندما أورد خليل بن أيبك الصفدى شروط تقى الدين السبكى، عقب عليها بقوله : « هذه الشروط تلزم الذى يعمل تاريخا على التراجم ، أما من يعمل تاريخا على الحوادث فلا يشترط فيه ذلك ؛ لأنه ناقل الوقائع التى يتفق حدوثها فيشترط فيه أن يكون مثبتا ، عارفا بمدلولات الألفاظ، حسن التصور جيد العبارة »(٢٧) .

ورأى الصفدى هنا يظهر انه تعليق على شرط المعرفة بحال صاحب الترجمة وحسن تصور حاله ، حتى يمكن قبوله . أما بقية الشروط كالصدق والعدالة والثقة فى المصدر أو غيره فهى شروط لازمة فى المنهج التاريخى سواء كان المكتوب به تراجم أو حوادث تاريخية .

وقد حث بدر الدين العينى - وهو أحد أعلام المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى - على هذا النوع من الكتابة ووصف ما يكتب المؤرخ بنفسه عن مشاهدة وعيان بانه مطلب حسن ، وأمر محظوظ عليه ، وانه لا يوازيه الا النقل عن الثقات بالنسبة لما مضى(٢٨) .

ولما كان الهوى آفة من آفات الكتابة التاريخية ، فقد نص تقى الدين السبكى على شرط التجرد من الهوى فيها حتى لا يتعصب أو يمدح من يشاء ، ويهمل أو يذم آخر ، فيطنب فى الأول ويوجز أو يترك الثانى ، أو يطنب فى عيوب المذموم ، ويقصر فى مدحه ، أو يطنب فى مدح آخر ويوجز أو يغفل عيوبه . ومثل ذلك التعصب والهوى يكون للمذهب أو الأقليم أو المدينة أو الدولة ، مما لا تخفى شواهده وآثاره فى بعض المؤلفات التاريخية .

ومن الواضح أن ما حذر منه تقى الدين السبكى وقع فيه بعض المؤرخين ، وعلى سبيل المثال فقد حابى اليعقوبى الشيعة فى تاريخه، ومالأ ابن طيفور البغدادى الدولة العباسية ، وتعصب أبو المطهر المقدسى فى كتابه البدء والتاريخ لمذهب المعتزلة .

كذلك نص تاج الدين السبكى على أن أداة التجرد من الهوى والتعصب هو التزام العدل والانصاف وابتغاء الحقيقة(٢٩) .

وشرط الصدق وذكر الحقيقة فى الحادثة التاريخية ؛ والبعد عن الهوى والعاطفة عند تاج الدين السبكى يجعل المنهج التاريخى يقف فى مصاف مناهج العلوم الأخرى سواء كانت شرعية مثل الحديث ـ كما سبقت الاشارة اليه ـ أو تجريبية مثل العلوم والطب ، منذ ان قرر الحسن ابن الهيثم (ت٤١١هـ) أن غرض الباحث فى جميع ما يستقرؤه ويرصده هو العدل وطلب الحق لا اتباع الهوى أو الميل مع الآراء(٣٠) . فهو يتسق مع الغاية والأهداف التى تؤدى لها مناهج العلوم عند المسلمين ويسعى لها الباحث المنصف فى التاريخ وغيره .

فاذا التزم المؤرخ بكل ذلك فيما ينقل منــه ، أو يكتب عنه ، أو يترجم له ، فان ذلك يحتاج الى أداة ناجعة ووسيلة مفيدة فى ايصــاله للقارىء ، فكم من كاتب أعياه أسلوبه فى ايصال مراده ، وكم من جهد أضاعه سوء الأسلوب واستغلاق العبارة ، ولهذا يلزم المؤرخ أن يكون حسن العبارة مجيدا لدلالات الألفاظ(٣١) .

وكان أكثر المتلقين لآراء تقى الدين السبكى وشرحها ابنه تاج الدين. ويعود هذا لقربه من والده وتأثره بثقافته ، ثم الى اهتمام تاج الدين نفسه بالتاريخ.فكتابه الطبقات كتاب تراجم وسير أعلام ، كما ضمن كتابه معيد النعم صورا من النقد التاريخى ، اذ عاب فيه المؤرخين وعـــدهم من الطبقات التى يحتاج عملهم الى تقويم ووصفهم بأنهم « على شفا جرف هار لأنهم يتسلطون على أعراض الناس وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من صادق أو كاذب »(٣٢) .

ثم بعد ذلك يوضح فيما ينبغى أن يكون عليه المؤرخون ـ مثلهم مثل الطبقات الأخرى فى ايضاح المنهج السوى لها ـ فقال : « لابد ان يكون المؤرخ عالما عدلا عارفا بحال من يترجمه ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ماقد يحمله على الغض منه »(٣٣) .

ومن الطف تعليقات تاج الدين السبكى على آراء والده أن الكتابة

التاريخية أمانة علمية خاضعة لناموس الثواب والعقاب ، فان حاد المؤرخ عن الحق مبالغة أو غمطا او مدحا أو قدحا ، فانه يكون قد خان الأمانة ونال ما يستحقه من العقوبة العاجلة والآجلة ، والعكس صحيح(٣٤) ٠

ذلك أن الكتابة على عمومها مثلها مثل الأعمال الأخرى من حيث الأثر فى الفرد والمجتمع ، ومن ثم ضرورة توخيها للصواب من عدمه ٠

ولهذا لم يخف تاج الدين السبكى انتقاده للمؤرخين ، ووجد فى ايراد شروط والده فيهم فرصة مناسبة ٠ فقال عنهم : « ان أهل التاريخ ربما وضعوا من اناس ، ورفعوا اناسا ، اما لتعصب أو لجهل أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به ، أو لغير ذلك من الأسباب »(٣٥) ٠

وفى ضوء هذه الاعتبارات، وجه نقدا لادعا لتاريخ الذهبى، ووصفه بانه مشحون بالتعصب ، وهو آفة قل ان يخــلو منها تاريخ فى رأيه ٠ وربما جاء بهذا ليخفف من نقــده للذهبى ، والا فكثــير من المؤلفات التاريخية تخلو أو يندر فيها التعصب مثل تاريخ الطبرى والكامل لابن الاثير وغيرهما كثير ٠ وهذا يضطرد مع قوله بان لا يقبل مدح أو ذم من المؤرخين الا بالشروط المذكورة من قبل ٠

ولم يحدد تاج الدين السبكى ان كان نقده يشمل كــل المؤرخين أو خاصا بمؤرخى عصره ، ولكن ما ذكره فى صورة مثال عن تاريخ الذهبى يجعل ذلك أقرب الى مؤرخى زمانه ٠

وعلى اية حال فالجميع عنده اكثر جهلا وتعصبا من أهل الجرح والتعديل ٠ لكن قبل التسليم بذلك ، فان المقارنة بين المؤرخين وأهـل الجرح والتعديل فيها نظر من حيث الشروط المطلوبة فى كل منهم ومجال علمه ٠ وقد تساهل السلف من قبل فى شروط المؤرخ ومنزلة روايته وفرقوا بين راوى الحديث وراوى التاريخ من حيث درجة العدالة والضبط ٠

وعاب ابن خــلدون المؤرخين ، وذكــر أن المؤرخين الحقيقيين ـ بميزانه ـ لا يتجاوزون الأنامل ، وأما ما عداهم فهو (بليد الطبع

والعقل)(٣٦)؛ واتهمهم بأنهم أساءوا للتاريخ حتى صار على أيديهم واهيا ومختلطا واصبح بحثه وانتحاله مجهلة(٣٧) ٠

ولا شك فى أن مؤلف السخاوى - (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) - جاء ردا على بعض من قلل من أهمية دراسة التاريخ ومعرفة فوائده وعلاقته بمختلف المجالات والرفع من شان أهل الاختصاص فيه ٠

ومن يتتبع شدة تاج الدين السبكى وابن خلدون على المؤرخين ويمعن النظر فى فقرات كتاب الاعلان ، يدرك أن السخاوى تتبع التهم الموجهة للمؤرخين وفنذاك والرد عليها ، ولهذا جاء عى مقدمته أن اسم كتابه : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ٠

واخيرا تتضح منزلة آراء تاج الدين السبكى وأهميتها من خلال مقارنتها بآراء بعض معاصريه من المؤرخين ، ومنهم خليل بن أيبك الصفدى (ت٧٦٤هـ) ، فقد تحدث فى علم التاريخ وفائدته فى مقدمة كتابه الكبير الوافى بالوفيات ٠ وذكر اول من صنف فيه فى الاسلام ، ثم مدد تواريخ الامم من عرب وقبط ونحوهم ، ثم أصل كلمة تاريخ وكيفية كتابة التاريخ بالسنوات والأيام كقولهم لتسع بقين من المحرم وخمس عشرة ليلة خلت(٣٨) ٠ ومعرفة كيفية نسبة الأعلام الى القبائل والأماكن والبلدان ، وبعض ما يحتاجه المؤرخ من صور الاملاء ثم معرفة الطريقة الحولية فى كتابة التاريخ والترتيب الهجائى فى تاريخ الأعلام ٠

ثم ذكر مجموعات من المؤلفات التاريخية وفق الأقاليم وأخرى من التواريخ العامة ، وثالثة من تواريخ الموضوعات كتواريخ الخلفاء والملوك والوزراء والقضاة والعلماء والشعراء والأطباء(٣٩) ٠

ومن خلال ذلك يتضح الفارق الكبير بين آراء تاج الدين السبكى وشروطه فى المؤرخ ، وبين مادونه خليل بن ايبك الصفدى فيما يلزم المؤرخ ٠ فما ذكره الأول هى صفات ينبغى أن يتحلى بها المؤرخ فى كل حال زمان ، فصفة العدل او الصدق وذكر الحقائق والوقائع هى صفات لازمة لأى مؤرخ فى أى عصر كان ٠

أما ذكره الثانى فهى فوائد مما يلزم المؤرخ معرفته اى صفات فنية ودربة مهنية تساعد المؤرخ فى سبك معلوماته ، منها ما يثريها ومنهـــا ما يظهرها فى صياغة لغوية صحيحة . وهى من باب الأدوات والوسائل المهمة للمؤرخ فى كتابته للتاريخ ثم انها قابلة لأن يستزيد منها ، واجادد ما يستجد منها فى كل عصر .

كذلك فان الأولى تنبىء عن صدورها عن عالم يهتم بالمبادىء وأدب التاريخ الذى ينبغى أن يحـــكم المؤرخ وان يتحلى بمعطياته باعتباره مؤتمنا على رسالته فى هذا المجال من العلوم . أما الثانية فهى صادرة عن كاتب كان له مقامه وشأنه فى ديوان الانشاء ، ولهذا جاء أثر عمله وخبرته فى بابه واضحا فى الفصول التى صدر به كتابه الوافى بالوفيات فى قواعد الكتابة الاخرى أو مما تختص به عن غيرها مما يعرض للمؤرخ كثيرا اثناء كتابة وتدوين التاريخ .

أما ابن خلدون فان الأسباب المؤدية الى الكذب فى الأخبار وتزيين التاريخ عنده هى التشيع للآراء والمذاهب والثقة فى الرواة دون تعديلهم، ومجاراة أهل التجلة والمراتب والدعاية لهم أو لدولهم . وسببها الحقيقى فقدان المؤرخ للشروط التى يجب ان يتحلى بها ، والتى ذكرها تاج الدين السبكى من قبل ببلاغة وايجاز ، مثل الصدق والعدالة والضبط فيه او فى روايته ، وعدم الميل للهوى أنى كانت عوامـــله . فالاثنان متفقان فى النتيجة أو الفائدة التى ينبغى أن يعيها المؤرخ نحو الأخبار والأحداث ، والقارىء فى الحكم أو الموقف من جهده او كتابته فى مطابقته للواقع صدقا أو مخالفته له كذبا وما يترتب على كل وجه من نتائج .

وعلى الرغم من ان تاج الدين السبكى اوجز فى شروط المؤرخ وذكر صفات من يخالفها ، فان ابن خلدون فصـــل وعلل لذلك أكثر بما فيـــه الكفاية وحقق الغاية ، فيما ينبغى أن يكون عليه المنهج التاريخى .ويعود الاختلاف بينهما حول التفصيل والايجاز فى هذا المجال الى أمرين :

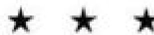
أولهما : المقام الى وردت فيه تلك الآراء ، فتاج الدين السبكى وان

جاءت عنده قصدا لكنها وردت فى عـــرض كتـــاب فى طبقات المذهب الشافعى فحيز التفصيل فيها ضيق وفقا لهذا الاعتبار ٠

ثانيهما : يعود الى ميل ومجال علم كل منهما ٠ فالتاج يميل اكثر الى الفقه وبيان الشروط والأحكام ، وابن خلدون يميل الى التاريخ أكثر وبيان أحوال العصور والدول والأسباب فى وقوع الحوادث والافادة منها٠ واذا كان السخاوى ذكـــر بوضـــوح آراء تاج الدين السبكى ونقله لآراء والده(٤٠) فان ابن خلدون الذى أدرك تاج الدين السبكى لم يشر الى شىء من شروطه فى المؤرخين على الرغم من مجيئه بعـــد ظهور كتب تاج الدين السبكى ٠

وعلى العموم فان الفكر التاريخى عند تاج الين السبكى يشبه فى بعض الوجوه الفكر التاريخى عند ابن خلدون من حيث ضوابط دراسة التاريخ ، وقواعد النقد فيه ، وأحوال العمـــران والاجتماع البشرى ، والعوامل المؤدية الى قوة الدولة وصلاح مؤسساتها أو ســـقوطها وضعف ادارتها ، وما ينبغى أن تكون عليه الوظائف والحرف والصنائع فيها ، لاسيما أن كلا منهما نقيه وله ولع بدراسة التاريخ والعيش فى عصر واحد الا أن الاخير أكثر شهرة تاريخية بدون شك ٠

ولا معنى لأن يتجاهل روزنتال جهـود تاج الدين السبكى وآراءه حول التاريخ وشروطه فى المؤرخ عندما كتب فى علم التاريخ عند المسلمين٠



ثانيا ـ الفـكر الاصلاحى :

عنى العلماء المسلمون بالاصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى كثيرا خلال القرنين السادس والسابع ٠ وكان المجال السياسى ابرزها وضوحا ، فقد حدد الشيزرى (ت٥٨٩هـ) الأسس التى تقوم عليها الدولة بانها تتمثل فى الوزارة والرعية والقوة والمال ٠ ووصفها بأنها فيها بمثابة الأركان للبناء(٤١) ؛ حتى ذكر ما يحفظ على الحكام صـــحتهم ويدرأ عنهم مكائد الأعداء وغوائل الأصحاب(٤٢) ٠

ووصف سبط بن الجوزى (ت٦٥٤هـ) كتابه بانه الجليس الصالح والانيس الناصح للحاكم وكبار رجال دولته ، وما ينبغى لهم من السيرة وادارة الامور أو استعماله من الرجال الاكفاء • والى جانب هذا فهو يزودنا بمعلومات قيمة عن طبقات المجتمع فى عصره(٤٣) •

وكانت مؤلفاتهم تختلف عن مفاهيم الوعظ وذكر المحاسن التى تضمنتها كتب مرايا الحكام والامراء مثل كتاب التاج للجاحظ من قبل أو حتى كتاب المنهج المسلوك فى سياسة الملوك الذى الفه عبد الرحمن بن عبد الله فى القرن السادس للملك الناصر صلاح الدين •

على ان الارجح أن تاج الدين السبكى اعتمد أكثر على مؤلفات وآراء علماء القرن الثامن سواء الذين عاصروه ، أو عاشوا قبله بقليل ؛ وعلى رأسهم ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) الذى قرر قاعدة المحافظة على الدين وعدم مخالفة الوظائف والاعمال لقواعده وأحكامه ، وعد ذلك من أهدافها ووظائفها الكبرى فى كتابه المهم السياسة الشرعية(٤٤) ، وهو المبدا الذى نادى به تاج الدين السبكى ، وبنى عليه كثيرا من فكره الاصلاحى• كذلك فصل كثيرا فى أعمال الوظائف الكثيرة التى أوردها ابن تيمية سردا(٤٥) ، وعد كل منهما أن ولاية القضاء بحق من أفضل القربات(٤٦) •

ويبدو أن السبكى تابعه - فيما نرجح - فى الحديث بايجاز عن الغزو المغولى وهول وقعه ، وفظائع صنيعه فى العالم الاسلامى وقتذاك

كذلك تتضح أهمية كتابه واختلاف مفهومه والارتقاء بموضوعه من خلال مقارنته بمؤلف ابن رضوان المالقى (ت٧٨٣هـ) الذى أسماه الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، وتحدث فيه باسهاب عن الخلافة والوزارة والشورى والعدل والجهاد والبريد وغيرها(٤٧) مما كان دارجا عليه منهج هذا النوع من المؤلفات •

وثمة فرق بين فى المقصد والدافع فى ايضاح هذه الآراء والتاليف، بين تاج الدين السبكى وبين ابن رضوان المالقى فقد قصد الاول النقد

والاصلاح وعلاج الواقع من تلقاء نفسه ، بينما جاء تاليف الثانى بنـــاء على تكليف أحد سلاطين بنى مرين له(٤٨) للافادة مما يذكره أو يشير به عليه ، ولا يخفى أثر وقوة وحتى استقلال آراء كل منهما تبعا لاختلاف الدوافع .

وقد أولى تاج الدين السبكى صلاح أرباب الوظائف الـــكبرى فى الدولة اهتماما كبيرا ، اذ ابتدأ بهم ، وقـــدمهم على غيرهم من حيث الاثر والمنزلة والقدوة بهم عنـــدما يؤدون وظائفهم كما ينبغى أو عكس ذلك ، وقسمهم الى فئات وفقا للمعهود من وظائفهم فى عصره . ونص على ماينبغى ان تكون عليهكل طبقة تبعا لمسئوليتها وخطرها فى المجتمع .

ولما كانت مقاصد الأعمال الحقة هى خدمة الصالح العام ، وتحقيق مقاصد الشرع منه فانه يرى أن صاحب أى وظيفة ينبغى ألا ينشـــغل بمصالحه أو يوجه تلك الوظيفة لتحقيقها ، أو يســـخر من يعاونه فيها لخدمتها .

ولهذا جاء نقده وتقويمه لأوضـــاع عصره تاما من جميع الجوانب والمستويات . ذلك انه نقد الوضع السياسى وأصحاب وظائفه ، والوضع الاقتصادى وتقويم وظائفه المالية ، والجوانب الاجتماعية وضرورة استقامة أدائها وجودة انتاجها . وبهذا شمل نقده الســلم الاجتماعى من أعلى وظيفة فيه الى أدنى أخرى فى قاعدته ، فى مفهوم متكامل الغاية لاصلاح المجتمع ومؤسساته ، لكى تدوم عليه النعمة وتستديم .

اما عندما يعم الفساد والقصور بعض مؤسساته ، فالبناء والهـدم لا يجتمعان ، وذلك مما يزيل النعمة ويوجب النقمة .

وقد صاغ تاج الدين السبكى عنوان كتابه معيد النعم ومبيد النقم بعناية تنبى عن مقصده فى المنهج الذى ينبغى أن تسير عليه الأوضاع فى المجتمع فى ضوء حفظ كل ما يفيده فى مختلف المجالات ويذهب الفساد والقصور بمختلف ألوانه ، وهو المعنى أو المبدأ نفســه الذى قصده امام الحرمين الجوينى عندما سمى أحد كتبه غياث الأمم فى التياث الظلم .

وفيما يلى نقده وتقويمه لبعض جوانب عصره :

اولا ـ السلطة العليا :

وتشمل وظائفها السلطان ونوابه والوزراء والقواد وكاتب السر وصاحب الرسائل وصاحب بيت المال ومأمور الاقطاعات وصاحب البريد ٠

وكانت هذه الأعمال من أخطر الوظائف خلال العصور الاسلامية ، وكان لصلاحها أو فسادها أثر كبير فى كيان الدول ٠ وعلى الرغم من أن السبكى عنى منها بما كان قائما فى دولة المماليك التى عاش فيها ، بدليل استخدامه لمسمياتها المعروفة وقتذاك ، مثل الدوادار والخازندار ، فانه يحاول أن يقدم ما يساعد على اصلاحها وذكر ما ينبغى أن تكون عليه ونقد المخالف منها لذلك ٠ وضرب الأمثلة على استقامة أحوالها أو فسادها مما يبقى النعمة وآثارها على متوليها ومجتمعهم أو يبيدها ٠

والحكم عند تاج الدين السبكى من وظائف الوالى العام أو السلطان، وقد لخص وظائفه فى تجنيد الجنود واعداد الجيوش ، واقامة فرض الجهاد ضد الأعداء(٤٩) ٠ وكذلك اقامة الصلوات وعمارة المساجد ٠ وقد عاب على بعض سلاطين عصره الاكثار من ذلك فى الوقت الذى تقاعس فيه عن عمارتها بالجمع والجماعات ؛ أو انهم تسموا بها ليقال هذا جامع فلان ونحوه ، بينما هى عمرت من أموال الرعايا(٥٠) ٠

وقد أوجز تاج الدين السبكى فيها اكتفاء بما أورده العلماء عنها من قبله ، مثله الماوردى والفراء والغزالى وابن الجوزى كما مر من قبل ٠ واشار هو بوضوح الى ذلك عندما ذكر أن الفقهاء أكثروا الحديث فيها ٠ ووصف عمله فيها بأنه بحث مختصر(٥١) ٠

وهذا اختصار ، يقابله تفصيل فى مهام الوظائف الأخرى فى المجتمع ٠

ومن هذه الوظائف أنه ركز بوضوح على وظائف الحكم المحيطة بالسلطان ، فهو يعزو عوامل بقائه ونجاحه وقوته أو ضعفه وزواله الى

اخلاص أصحاب تلك الوظائف المساندة له فى كل حين من عدمه ؛ فقد حذر النواب من الاستبداد دونه والحجاب ، أو الدوادارية من الوقوف بين الرعية والسلطان والحيلولة دون وصول حاجاتهم اليه • وحث صاحب البريد على القيام بالصالح العام بعيدا عن الاستغلال له من قبل رجال الدولة فى شؤونهم الخاصة وهو ما عبر عنه بالأغراض الدنيوية(٥٢) •

وهو يتفق هنا مع المعيار الذى وضعه ابن تيمية من قبل ، والمطلوب اتباعه فى اى جهة أو مصلحة ، وهو أن يستعان فيها او يستعمل أصلح من يجده القائم عليها(٥٣) • وان على صاحب الأمر فيها أن يستعمل اصلح الموجودين وأن يحرص فى كل منصب أو وظيفة على أن يختار للقيام بها الأمثل فالأمثل(٥٤) •

أما هو ، فمن حق الولاية ـ وهى من اكبر الوظائف ـ عنده القيام بامور الرعية ونفع الناس ، وعدم اذاهم ، وتجنب الهوى فى ادارتهم ، حتى انه يستوى لديه من هو صالح فى ذاته ومن هو تارك لوظيفته ، ومنشغل بملذاته عن امور الناس فيقول : « ولو أنك تركت الناس هملا يأكل بعضهم بعضا وجلست فى دارك تصلى وتبكى على ذنبوك لكنت مسيئا على ربك »(٥٥) فالقيام بحقوق الوظيفة وتطبيق مقتضاها نحو المستفيدين منها مقدم على مايعود للذات ـ اى لصاحبها نفسه ـ حتى وان كان ذلك عبادة(٥٦) •

الوظائف العسكرية : وتشمل ناظر الجيش والسلحدار أى صاحب السلاح والجمقدار ، وهو حامل العتاد ، وحرس السلطان ، وهى وظائف عنى بها المماليك ورتبوا لها الجند كلا فى مجاله • ويلحق بها وظائف اخرى مثل امير علم وهو القائم على الطبول والرايات • والسبكى كثيرا ما يوضح طبيعة عمل الوظائف التى يذكرها(٥٧) •

وقد بكت على كثير من هؤلاء ممن يدعى أن أعجميته التركية لا تمكنه من معرفة المبادىء الاسلامية والتطبيق العملى لها فى صدر الاسلام أو فى بعض الفترات اللاحقة(٥٨) •

ولما اشتملت عليه الادارة العسكرية فى عصره من فساد وجهل وبطش بالناس فقد نقدها السبكى كثيرا ، فمرة يصف القواد بالجهل والعصبية ، وأخرى يعيب عليهم احتجان الأموال وامتلاك القناطير المقنطرة منها ، وارتكابهم المنكرات وانشغالهم بالحصول عليها عن وظائفهم الأساسية(٥٩) ٠

الحرف والصناعات :

ذكر السبكى اكثر من عشرين حرفة شائعة فى المجتمع ، وذكر كثيرا من أوجه اعمالها ، ودورها فى الحياة العامة ٠ وهو من العلماء القلائل الذين عنوا بهذه المهن ، ونادوا بتنظيمها ، والاهتمام بها ، والرقابة عليها ، وتحسين مسنواها ، ورفع وعيها ، ليجنى المجتمع من وراء ذلك عملا متقنا ونتاجا مفيدا ، فهى تسهم فى كثير من الصناعات والخدمات التى لا غنى له عنها ٠

وتعد آراؤه فى أصحاب الحرف والصناعات دستورا مهما ، لا من حيث انواعها فى عصره والحال الذى كانت عليه ، وانما من حيث حملهم على مراعاة الأمانة والاخلاص فيها من حيث المطلب الشرعى ومقتضى العرف المهنى والاتقان فيها ٠ والأول لسلامة الهدف وتحقيق الغاية الكفائية فيها ٠ والثانى أداء حق المهنة والاختصاص فيها ٠ وقد زاد من قبولها حسن التوجيه والرفق بهذه الطبقة مقارنة بموقفه ونقده لأصحاب الوظائف السلطانية ٠

وقد دافع عن الفلاحين مثلا فقال : « والفلاح حر لا يد لآدمى عليه ، وهو أمير نفسه »(٦٠) ، وقد حذر من تدخل الادارة العسكرية فى أمور الزراعة والزام الفلاحين ما لا يطيقون ٠ ففى ذلك تعطيل لخبرتهم واشغال لأولئك ـ أى العسكر ـ بما ليس من عملهم ، وفيه ترك لوظيفتهم الأساسية ٠ ولازال تدخل تلك الادارات فى أمور الزراعة مضرا باقتصاد الأوطان حتى فى العصر الحديث ٠

أهداف مؤسسات المجتمع :

يوضح تاج الدين السبكى هدف مؤسسات المجتمع باختلاف مجالاتها، بأنه خدمة الصالح العام ، وتحقيق مطالب الناس فى بابه ، واحتساب الاجر والثواب فى القيام به ، ومخالفة زوال الفوائد والمصالح المترتبة عليه .

وفى المقابل يحذر من انحراف أغراض تلك المؤسسات الى تحقيق المصالح الخاصة والأغراض الدنيوية للقائمين عليها ، ومن ثم تعطل نشاطها وانقطاع فوائدها وحلول النقمة والعقاب عاجلا أو آجلا .

وهو كثيرا ما يذكر الصورة الصحيحة لعمل كل ادارة ومهام كل وظيفة ، ويتبع ذلك ايضا بأوجه القصور بل والانحراف والفساد فى أدائها ، ويضرب عليه الأمثلة من عصره كما سيأتى .

والعمل هو الأساس الذى بنى عليه آراءه فى أحوال المجتمع ومعايش الناس ، ولهذا عنى كثيرا بقيمة العمل مهما دنا وتواضع شأنه أو اعتباره فى المجتمع ، طالما اغنى صاحبه عن السؤال ونحوه ؛ وأداه وفق مقتضاه الشرعى والمهنى فى أمثاله ، فهو أسعد حالا ومالا من أعمال أكبر منه فيها معصية لشارع وتلف لأهلها أو المجتمع . فالأول مهىء للنفع والبقاء والثانى مؤذن بالفساد والزوال(٦١) .

كذلك عد المسئولية الذاتية فى العمل أنى كان مجاله مسئولية فردية من حيث التبعية فى العقاب والثواب ، وما يترتب عليها من آثار ونتائج فى المجتمع . لا يغير من ذلك ارضاء وال ، أو طاعة مدير ، وفقا لمبدأ أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقد حث فى الوظائف الكبيرة نواب السلطان مثلا على مراجعته اذا ما أصدر ما يخالف الشرع أو ما يلغى أو يصادم مصلحة عامة ، وأن يكون هذا المفهوم حاضرا لدى كل أصحاب الوظائف والمهن . ولهذا يرى استواء الكافة فيه من شرائح المجتمع ، حتى أن الساقى لا يجوز أن يقدم لمخدومه أو فى رواد محله ما يحرم تقديمه أو تناوله . فالأصول عنده مراعاة قواعد الشرع وما يحفظ على الناس صحتهم(٦٢) ، دون مجاراة لأحد أو تحقيق مصلحة ذاتية عاجلة .

ويدل ذكره للوظائف الصغرى فى المجتمع على عدة مفاهيم ، منها علو قيمة العمـــل ، ومنزلة صاحبه مهما كان ، ومنها أنها ضرورة من ضرورات المجتمع والحياة فيه ، ومنها أن الحاجة لها قائمـــة فى أى مجتمع مثل أى الوظائف الكبرى فيه ، مع التسليم بالتفاوت فيها من حيث الاهمية والآثار . ومنها أن مؤسسات المجتمع مهما علت أو دنت لابد من شرط الصلاح والاخلاص فيها حتى لا يكون هناك تصادم بين انشطتها ونتائج اعمالها ، لمـــا لهـــذه الوظائف من أثر فى القاعـــدة الاجتماعية ، أو الرأى العام ، يغفل عنه بعض المفكرين أو يولون الوظائف الكبرى فى المجتمع اهتماما أكبر منه . وحتى لا يكون هناك ارتقاء فى جوانب فيه ، وقصور أو انحطاط فى أخرى .

لهذا كله فان من شروط الوظيفة الكبرى فى المجتمع عنده معرفة حدود عملها وميادينه والا فلا يزاحم عليها من هـــو أكفأ منه وأدرى بمسئولياتها(٦٣) .

وقد عاب على بعض الاتراك فى عهده تصديهم لبعض الوظائف التى تتعلق بمصائر الناس دون معرفة حدودها والواجب فيها(٦٤) .

وعلل امام الحرمين الجوينى لذلك من قبل بقوله : « انما ينسل عن ضبط الشرع من لم يحط بمحاســنه ، ولم يطـــلع على خفـــاياه ومكامنه »(٦٥) .

واذا كان معاصره ابن جماعة عرض قواعد الحكم والوظائف الكبرى فى الدولة الاسلامية ، كالامامة والوزارة والقضاء والجهـــاد وفـــروعها واحكامها من ناحية السياسة الشرعية(٦٦) ، فان تاج الدين السبكى فى ذكره كان اعم من حيث شموله لكثير من جوانب الحياة . ثم انه أكثر قربا من الواقع المعاصر له ، وتنظيمه ونقد بعض أوضاعه . لهذا حاول تقويم ادارات الدولة بعدا ، أو قربا ، تطبيقا ، أو تركا لمفهوم العمل وحـــق ادائه ، وفق القواعد والأحكام المنظمة له فى الاسلام . وقد استوت عنده فى ذلك الأعمال الكبيرة كالادارات العسكرية والمالية والقضاء ، والحرف الصغيرة كالبنائين وسائس الليل وحتى الاسكافية .

هذا الى أن فكرة العمل عنده سامية تحتكم الى الأحكام والقواعد الاسلامية فى مجاله ، وهى الأحكام والمبادىء التى تتخذ من خدمة الصالح العام وسد حاجة المجتمع فى كل مجال ، وبذل غاية الجهد فى ذلك ، معيارا عاما للعمل · ثم تربط بين ما يتحقق من فوائده للجميع فى الدنيا والثواب عليه فى الآخــرة ، وتبعا لذلك يكون بقاؤه باتباعهـا رزواله بمجانبتها ·

وهكذا فالرقابة عليه ذاتية من قبـــل صاحبه ان كان يعرف تلك الأحكام أو من قبل جهة تختص بذلك · من حيث الهدف والجهد والمستوى الذى ينبغى أن يكون عليه ·

فالعمل هنا له غايتان متلازمتان دينية ودنيوية لا يمكن أن تنفصلا؛ ولهذا فان فكره عنه بعيد عن مفهوم خلق العمل وشرف المهنة التى تنادى بها بعض مدارس الفكر الحديث ·

رعاية العـلم والعلماء :

ومن أبرز آراء تاج الدين الفكرية الاهتمام بالعلم ورعاية أهله ، فذلك علامة ارتقاء نهوض الأمم ، والحرص على هذا المنهج والاستمرار عليه علامة من علائم بقاء النعم ، ودوام الاستقرار عنده · فالعلم لو لم يطلب الا لذاته ولعلو منزلته فى الحياة لكفى صحبه همة ونبلا ، فضلا عن أن يطلب لاقامة الحياة على أسسه واصلاح أحوالها ، وتعليمه للنس، ومحاولة أداء صنائعهم ، ومعايشتهم ، وفق مفاهيمه ·

ونادى بأن يكون العلم غاية للسلطة ، وأن تكون علاقتها به قائمة على التلازم والتطبيق الحقيقى له،ففى ذلك بقاء لها وقوة · ومن ثم حث أهل السلطة فى عصره على احترام العلماء وتقديرهم ، فهم حملة العلم ومنائر وجوده ؛ والا تصدق فيهم وشاية أو دسيسة بسهولة(٦٧) · حتى ان ابن تيمية قبله نص على أن أولى الأمر فى الدولة هم الأمراء والعلماء وذكر أن كلا منهم ركن فى صلاح أحوالها(٦٨) ·

واعتبر النيل من العلماء ، أو تحقيرهم أو عـدم رعاية علمهم وتشجيعه والافادة منه أو من حملته فى وظائف الدولة ، من الجهل بمكان . ومن مظاهر ذلك أيضا الاستخفاف بهم والتقتير عليهم ، أو استكثار أرزاقهم . وقد عاب الأوضاع فى دولة عصره ضمنا عندما أشار الى أن مرتب أكبر فقيه هو دون رزق أقل مملوك فيها(٦٩) .

كذلك عاب على ولاة عصره اتخاذهم الحراس والأموال والأطباء فى كل منشط ، فى حين لا يتخذون أحدا من العلماء ينير لهم سبل الحياة وما ذاك الا لأن أمر أبدانهم عندهم أهم من أمر معاشهم ومعادهم(٧٠) .

وكان تاج الدين السبكى منصفا فى آرائه ، فحتى العلماء - وهو واحد منهم - عاب على بعضهم الاشتغال بالاختلاف حول الفروع والتعصب للمذاهب ، والانحراف فى المناظرات فيما بينهم ، وتركوا كثيرا من عظائم الأمور فى الحياة مهملة دون أن يؤمر بها ، كما تركوا كثيرا من المحرمات تؤتى دون أن ينهى عنها(١٧١) : وباب الدعوة دون طرق ، وتركوا مسلمين جددا من أهل الذمة أو غيرهم دون رعاية وتعهد(٧٢) .

وكثيرا ما يحدد السبكى واجبات كل ظفية ، ويحد قواعد العمل فى مجالها دون تداخل مع غيـرها ، بل انه يوضح فى بعض الأحيان ماطرأ على مفهومها فى عصره من تحديد او تغيير : فهو يقول عن الوزير : « وهو اليوم اسم لمن ينظر فى المكوس وغيرها من الأموال التى ترفع الى السلطان وبيت المال »(٨٣) .

كذلك لم يقف عند بيان مهام كل وظيفة وحدود عملها وانما اهتم بالعقاب المترتب على الانحراف أو القصور فى القيام بها ، وذكر أنواعه ودرجاته ، كأن يعزل فاعله أو يضرب أو يطاف به فى الأسواق(٧٤) .

وتاج الدين السبكى لم يكن مشرعا باعتباره فقيها بالمعنى الحديث لهذا المصطلح فحسب ، وانما كان رجل دولة من الطراز الأول ، فعندما ننظر الى رأيه فى موضوع أو جانب من علاقات الدولة الخارجية نجد فيه صدق التفكير وبعد النظر وصلاح تطبيقه الى اليوم . يقول عن مهام رئيس

المراسم : « المهمندار اسم لمن يقوم بامور قصاد الملوك ورسلهم ، فمن حقه ان يعتمد مصلحة الاسلام ، ويرهب القصاد ، ويوهمهم قوة المسلمين وشدة باسهم ، وعظيم سطوتهم ، واتفاق كلمتهم ، وقيامهم فى حوزة الدين ... وحفظ النظام ، وان ينهى أمور القصـــاد الى الملك بمقدار ما يكون فيه المصلحة . (وان يقدر) من يتعين عليه المبادرة الى اكرامه ومن يتعين عليه الكف عن اعظامه بحسب ما تقتضيه الحال . ومن الحق على الملك ونوابه الاحتفال عند حضور قصاد الملوك ، واظهار القوة وحسن الملبس وكثرة الجيش ، واستعدادهم على الوجه الشرعى»(٧٥) .

وهكذا فان آراء تاج الدين السبكى الاصلاحية تتسق مع الوحدة فى النظام الاسلامى ، وموقفه من ادارة الحياة ومؤسساتها المختلفة ، والصيغة النظامية التى تتميز بها شريعته ، ومطالبتها بأن يكون التطبيق العملى وفقها انى واين كان القائم به . فالموظف صغيرا كان أم كبـــيرا مكلف بالقيام بالمصالح العامة باختلاف ميادينها ، وتعهدها بالرعاية والاتقان ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وما فوق قدرته يعذر فيه . كما أن مظاهر عنايته بمختلف الوظائف والطبقات بما فيها الصغرى ، ومفهومه الشامل للاصلاح وقربه من الواقع تجعل آراءه أدق وأكثر قبولا .



الخاتمـــة :

وبعد ، فمما لا شك فيه ان السبكى عاش فى صـــميم الحياة فى عصره ، وعرك مختلف جوانبها ، وخبر مستوى الأداء ، واوجه القصور ، وانواع الأهداف والمقاصد ، والقرب فيها من قواعـــد الشرع ، ومقتضى الوفاء بحق كل عمل من عدمه ، وساهم بنصيب فكرى عظيم مستقرأ من الواقع العملى .

اما اهل زمانه فان تاج الدين السبكى قصدهم مع غيرهم ، وخصهم بانهم لن يصلوا الى مقام الاصلاح الذى ينشده ، ولكن لعلهم على الأقل يرجعون أو يقصرون عما هم فيه(٧٦) .

كل ذلك بعد ان استقرأ أحداث التاريخ ، ووقف على مشاكل عصر وقدح فكره فى نقدها ، وتقديم الحلول لها .

والسبكى فى فكره التاريخى الاصلاحى لا ينبع من مثاليات أو جدليات فلسفية على غرار كثير من الفلاسفة وأصحاب المدن الفاضلة من قبله ، وانما يقوم فكره على ثلاثة أسس واضحة هى :

الأول : حكم العمل وموقعه من المبادىء التى تحكم المجتمع ، اذ من حق أى مجتمع أن تكون الأعمال فيه موافقة ومنسجمة مع مبادىء شريعته أو قانونه ، وهذا أمكن لقبول المجتمع لهـا وأنجح لنشاطها ومردودها المادى فيه .

والثانى : الاخلاص فيه واتقانه كما يجب وبذل الجهد فيه دائ للوصول الى مستويات أفضل سواء غلب عليه الطابع الوظيفى أم المهنى.

والثالث : الاعتماد فى التقويم على الواقع التاريخى ونقد القائم منه من وظائف أو أعمال وبيان مظاهر القصور ، ومطامح الارتقاء ، والعوامل والوسائل المؤدية الى كل مستوى ، وذكر القرائن والنظائر له من ماضى المجتمع نفسه أو من المجتمعات الأخرى .

ولهذا ، فان آراءه تمثل صفحة أخرى من أصالة الفقه السياسى والادارى عند المسلمين ، وبعده عن التبعية الفارسية أو اليونانية وأثر الطبقية والفلسفة فيهما . كما أنها تمثل أحد مظاهر نضج علم السياسة او علم الاجتماع السياسى فى مصر والشام خلال القرن الثامن وهو القرن الذى شهد نضوجه فى المغرب على يد ابن خلدون .

الهـــوامش

(١) من مؤلفات ابن حزم فى هذا الباب كتاب السياسة ٠

(٢) ابن قاضى شهبة : طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص ١٠٦ ٠

(٣) الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢٤٦ ٠

(٤) ابن قاضى شهبة : طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص ١٠٦ ٠

(٥) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١ ، ص ٢٢ ٠

(٦) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٤٥ ٠

(٧) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٤٢ ٠

(٨) ابن الأثير ، جـ٩ ، ص ٣٥٧ وما بعدها ٠

(٩) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ٠

(١٠) محمد الصادق حسين : البيت السبكى ، ص ٤٢ ٠

وقد ظهر كتاب البيت السبكى منذ ٤٨ عاما تحدث فيه مؤلفه عن نسب البيت السبكى والتعريف بأعلامه وأوضاع مصر فى عهد المماليك ، واقتباسات من كتاب معيد النعم ٠ ومجموع صفحاته ٩١ صفحة ٠

(١١) تاج الدين السبكى : طبقـــات الشـــافعية الـكبرى ، جـ١ ، ص ٢٠٩ ؛ ٢٢٩ ، ٢٤٢ ٠

(١٢) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٤٥ ٠

(١٣) تاج الدين السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٢ ، ص ٢ ٠

(١٤) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٣ ٠

(١٥) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٦ ٠

(١٦) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٧٥ ٠

(١٧) أخرج الشيخ عبد الفتاح أبو غدة مجموعا محققا ضمنه قاعـــدة فى المؤرخين لتاج الدين السبكى ، وقد حوى المجموع بالاضافة الى قاعدة له فى الجرح والتعديل ، وكذلك المتكلمون فى الرجال للسخاوى ، كذلك ذكر من يعتمـــد قوله فى الجرح والتعديل للذهبى ٠ كما ضم لها ما أورده عن المؤرخين فى كتابه معيد النعم وكلها جاءت فى حدود صفحتين عدا التعليقات والهوامش ٠

(١٨) خليل بن أيبك الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ١ ، ص ٧٦ ـ ٤٧ ٠

(١٩) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ٠

(٢٠) تاج الدين السبكى : الطبقات ، جـ١ ، ص ٢٣ .

(٢١) السخاوى : الاعلان ، ص ١١٤ ـ ١٢٧ .

(٢٢) الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٤ .

(٢٣) تاج الدين السبكى : الطبقات ، جـ١ ، ص ٢٣ .

(٢٤) السخاوى : الاعلان ، ص ١٣٦ .

(٢٥) تاج الدين السبكى : الطبقات ، ص ٢٣ .

(٢٦) نفســـه .

(٢٧) الوافى بالوفيات ، جـ١ ، ص ٤٧ .

(٢٨) السخاوى : الاعلان ، ص ٩٩ .

(٢٩) تاج الدين السبكى : الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٤ .

(٣٠) على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، ص ٢٤٧ .

(٣١) تاج الدين السبكى : الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٣ .

(٣٢) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ٧٤ .

(٣٣) نفســه .

(٣٤) تاج الدين السبكى : الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٣٥) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٢ .

(٣٦) المقدمة ، ص‌ص ٤ ـ ٥ .

(٣٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٨ .

(٣٨) خليل بن أيبك الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ١ ، ص ٢٠

(٣٩) المصدر السابق ، جـ١ ،ص ٥١ ـ ٥٣ .

(٤٠) الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٢ .

(٤١) الشيزرى : المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، ص ٢٠٠ ـ ٢٢٣ .

(٤٢) الشيزرى : المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥ .

(٤٣) سبط بن الجوزى : الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص ٦٣ ،٧٣، ١٣١.

(٤٤) ص ٤ ، ٦ .

(٤٥) السياسة الشرعية ، ص ٥ .

(٤٦) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ١١ ، تاج الدين السبكى : معيـــد النعم ، ص ٥٨ .

(٤٧) ابن رضوان المالقى : الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، ص ٥٦ ، ٢٠٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٤٩) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ١٦ .

(٥٠) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٥١) المصدر السابق ، ص ٢ .

(٥٢) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٣٢ .

(٥٣) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ٤ ، ٥ .

(٥٤) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٥٥) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ١٤ .

(٥٦) نفســه .

(٥٧) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٣٣ ـ ٣٧ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٦٠) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٣٤ .

(٦١) تاج الدين السبكي : معيد ، ص ١٤٥ .

(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢١ ـ ٢٢ ، ٣٨ .

(٦٣) تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٤٢ .

(٦٤) المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٦٥) غياث الأمم ، ص ١٧٠ .

(٦٦) ابن جماعة : تحرير الأحكام في تدبير أهل الاســلام ، ص ٥١ ـ ٥٣ ، ٧٥ ـ ٧٧ ، ٨٨ .

(٦٧) تاج الدين السبكي : معيد النعم ،ص ٤٨ .

(٦٨) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ٨٩ .

(٦٩) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٤٩ .

(٧٠) المصدر السابق ، ص ٢ .

(٧١) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٧٢) نفســه .

(٧٣) تاج الدين السبكي : معيد النعم ، ص ٢٧ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٧٥) المصدر السابق ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٧٦) تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٢٠ .

المصـادر والمراجع

— **ابن الأثير** : عز الدين على بن محمد :
الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥م ٠

— **تاج الدين السبكى** : أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى :
ـ طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطناحى ، مطبعة البابى عيسى الحلبى ، القاهرة ١٩٦٤م ٠
معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمـــد على النجار وزميليه ٠ جماعة الأزهر للنشر والتاليف ، القاهرة ١٩٤٨م ٠

— **ابن تيمية** : تقى الدين أحمد بن عبد الحليم :
السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ٠ المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٦٧م ٠

— **ابن جماعة** : بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله ٠
تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاسلام ، تحقيق فؤاد عبـــد المنعم أحمد ، ط٣ ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٩٨٨م ٠

— **الجوينى** : امام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله :
غياث الأمم فى التياث الظلم ، تحقيق د٠ فؤاد عبد المنعم وزميله ، دار الدعوة ، الاسكندرية ، (د٠ت) ٠

— **ابن حجر** : شيخ الاسلام أحمد بن حجر العسقلانى :
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جـــاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة (د٠ت) ٠

— **ابن خلدون** : عبد الرحمن :
المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، (د٠ت) ٠

— **ابن رضوان المالقى** : أبو القاسم :
الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، تحقيق د٠ على سامى النشار ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ١٩٨٤م ٠

— **سبط الجوزى** : يوسف قزلو بن عبد الله :
الجليس الصالح والأنيس الناصح ، تحقيق فواز صالح فواز ، دار رياض الريس ، لندن ، ١٩٧٧م ٠

- **السخاوى** : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن :
الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق فرانزروزنثال ، ترجمة د. صالح العلى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) .

- **الشيزرى** : عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر :
المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، تحقيق على عبد الله الموسى ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ١٩٨٧م .

- **الصفدى** : خليل بن أيبك :
كتاب الوافى بالوافيات ، باعتنـــاء هملوت ريتر ، ط٢ ، نشـــر فرانزشتاينر ، فسبادن ١٩٦٢م .

- **ابن قاضى شهبة** : أبو بكر بن أحمد بن محمد :
طبقات الشافعية ، باعتناء د. الحافظ خان ، عالم الكتب ، بيروت، ١٩٧م .

- **محمد الصادق حسين** :
البيت السبكى ، دار الكاتب المصرى ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

- **النشـار** : على سامى :
مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، ط٣ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م .

رسالة صلاح الدين الأيوبى الى بلدوين الرابع
ملك بيت المقـــدس
(٥٦٩هـ = ١١٧٤م)

د٠ عادل عبد الحافظ حمزة(*)

أورد القلقشندى نص رسالة أرسلها «صلاح الدين الأيوبى» (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م ـ ٥٨٩هـ/١١٩٣م) سلطان الدولة الأيوبية الى الملك « بلدوين الرابع » (١١٧٤م/٥٦٩هـ ـ ١١٨٥م/٥٨٠هـ) ملك بيت المقدس ،يعزيه فى وفاة والده الملك « عمورى الأول ـ (أملريك الأول) (١١٦٣م/ ٥٥٨هـ ـ ١١٧٤م/٥٦٩هـ) ويهنئه ـ فى الوقت ذاته ـ بجلوسه على عرش مملكة بيت المقدس ، والرسالة من انشاء « القاضى الفاضل » ونصها هو :

« أما بعد : خص الله الملك العظيم حافظ بيت المقـدس بالجد الصاعد والسعد الساعد والحــظ الزائد والتوفيق الوارد ، وهناه من ملك قومه ما ورثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ، فان كتابنا صادر اليه عنـــد ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق،والنعى الذى وددنا أن قائله غير صادق بالملك العادل الأعز الذى لقاه الله خير ما لقى مثله وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله ، معزيا بما يجب فيه العزاء ، ومتأسفا لفقـــده الذى عظمت به الأرزاء ٠ الا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعـــل ولده الوارث ، وأنسى المصاب بأن حفظ به النصاب ووهبه النعمتين الملك والشباب ، فهنيئا له ما حاز وسقيا لقبر والده الذى حق له الفداء لو جاز٠ ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين ، أدام الله سلامته ، قائم عنا باقامة العزاء

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد ـ كلية الآداب ـ جامعة المنيا ٠

من لسانه ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، ووده الذى هو ميراثه عن والده من ودادنا ، فليلق التحية بمثلها ، وليأت الحسنة ليكون من اهلها ، وليعلم انا له كما كنا لأبيه مودة صافية وعقيدة وافية .. ومحبة ثبت عقدها فى الحياة والوفاة ، وسريرة حكمت فى الدنيا بالموافاة ، مع ما فى الدين من المخالفات فليسترسل الينا استرسال الواثق الذى لا يخجل ، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذى لا يحمل عن والده ما تحمل ، والله يديم تعميرة ، ويحرس تاميره ويقضى له بموافقة التوفيق ، ويلهمه تصديق ظن الصديق »(١) .

هذا هو نص الرسالة كما ذكرها القلقشندى .

وبدراسة هذه الرسالة يبدو أن السلطان « صلاح الدين » حرص على أن يظهر انه حزن حزنا شديدا لوفاة « عمورى » الأول ملك بيت المقدس ، وعبر عن هذا الحزن بعبارات قوية مثل « والنعى الذى وددنا ان قائله غير صادق » و « متأسفا لفقده الذى عظمت به الأرزاء » و«كيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه » و « ليعلم انا كنا له كما كنا لأبيه مودة صافية وعقيدة وافية » . وفى الوقت نفسه أظهر صلاح الدين سعادته بتولية « بلدوين الرابع » مكان والده الملك « عمورى الأول » حيث يقول « الا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعل ولده الوارث » وعبر صلاح الدين عن مشاعره نحو الملك الجديد بأن تعهد بأنه « سيصادق من يصادقه الملك الجديد « بلدوين الرابع » ويحافظ على « وده الذى هو ميراثه عن والده من ودادنا » .

وربما قيل أن هذه الرسالة تعبر عن مهارة صلاح الدين فى مجال علاقاته السياسية مع الصليبيين،فالحرب خدعة والمعاملات السياسية مع الأعداء تتطلب قدرا من الذكاء والمراوغة بحيث يظهر الانسان لعدوه غير ما يبطن . وبالرجوع الى مصادر تاريخ تلك الحقبة او الحلقة ندرك أن

صلاح الدين كان لايمكن أن يغفر للملك «عموري الأول» الصليبي ملك بيت المقدس ، تطلعه الى السيطرة على « مصر » منذ تولى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ١١٦٣م/٥٥٨هـ ، عندما اشتد النزاع بين «شاور» و « ضرغام » على كرسى الوزارة فى مصر(٢) ، وكيف أن الملك «عمورى الأول» حاصر بقواته « اسد الدين شيركوه » - عم صـلاح الدين - فى بلبيس لمدة ثلاثة أشهر سنة ١١٦٣م/٥٥٩هـ(٣) ، ولم يرفع « عمورى الأول » الحصار الا بعد أن كثف نور الدين محمود هجماته على الصليبيين فى الشام(٤) ، بل ان « صلاح الدين نفسه عانى من حصار الصليبيين له فى الاسكندرية لمدة أربعة أشهر عندما كان قائدا فى جيش « أسد الدين شيركوه » بمصر سنة ١١٦٦م/٥٦٢هـ ، ولم يرفع الصليبيون الحصار عنه الا بعد مفاوضات طويلة تمت بين « أسد الدين شيركوه » والصليبيين ، فضلا عن ضغط « نور الدين محمود » عليهم بالشام(٥) .

وما أن تولى « صلاح الدين » الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد خلفا لعمه « أسد الدين شـيركوه » فى جمادى الآخـر ٥٦٤هـ/مارس ١١٦٩م(٦) ، حتى بدأ يهاجم الصليبيين - قوات مملكة بيت المقدس - على حدود مصر ، ففتح ايله سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م ، وهاجمهم فى عسقلان والرملة(٧) وصدهم ابان مشاركتهم البيزنطيين فى الهجوم البحرى والبرى على مصر(٨) واحبط فى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م دور الصليبيين فى المؤامرة الكبرى التى اشترك فيها الملك « عمورى الأول » نفسه والحشيشية ووليم النورمانى وعناصر من الداخل كانت تهدف الى القضـاء على « صـلاح الدين(٩) . وقد عدد « صلاح الدين » العناصر التى شاركت فى هذه المؤامرة - وذكر منهم الصليبيين - فى الرسالة التى أرسلها الى الخليفة العباسى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م(١٠) .

وفى هذه الأجواء مات الملك « عمورى الأول » فى ١١ من يوليو ١١٧٤م/٩ من ذى الحجة ٥٦٩هـ(١١) وذلك بعـد وفاة « نور الدين محمود » بحوالى ستة وخمسين يوما تقريبا ، وذلك فى المرحلة التى اخذ صلاح الدين يتطلع لأن يرث سيده نور الدين فى دولته بالشام ومصر. وكان صلاح الدين يدرك جيدا أن طموحاته ستصدم بمقاومة شديدة من

جانب مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولذا فان صلاح الدين حرص على اخفاء نواياه من جهة وخديعة بلدوين الرابع(١٢) ملك بيت المقـــدس الجديد من جهة أخرى ٠

وربما كان مصدر ارتياح صلاح الدين أن ملك بيت المقدس الجديد ـ بلدوين الرابع ـ كان مريضا ، صغير السن ، غير متمرس فى فنـــون الحرب والقتال ، مما يعطى فرصة لصلاح الدين ليوحد المسلمين فى الشام والجزيرة ومصر تحت زعامته ، وبذلك يعيد بناء الجبهة الاسلامية تمهيدا لتوجيه ضربات مباشرة ضد الصليبيين ٠

ولكن « بلدوين الرابع » لم يلبث عقب توليه الحكم أن مد نشاطه العسكرى ضد « صلاح الدين » ، فهدد دمشق سنة ١١٧٥م/٥٧٠هـ ، كما حاول منع صلاح الدين من الاستيلاء على حلب،بمشاركة «ريموندالثالث» أمير طرابلس الصليبى وعلى اقليم البقاع الذى كان « تورانشاه » أخو « صلاح الدين » يرابط لدفع خطر الصليبيين عنه(١٣) ٠

وعندما أخـذ صــلاح الدين يهاجـــم الصليبيين فى سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م(١٤) ، انتهز الصليبيون فرصة تقدم « صلاح الدين » بجيشه فى اتجاه القدس تاركا بعض قواته لمحاصرة عسقلان فى جمادى الآخرة ٥٧٣هـ/١١٢٧م ، وانقضوا عليه ٠ وقد شارك الملك « بلدوين الرابع » بنفسه فى هذا الهجوم ، الذى انتهى بهـــزيمة جيش « صلاح الدين » جنوبى شرق الرملة٠وقد اطلق بعض المؤرخين علىهذه المعركة اسم معركة « تل الجزر »(١٥) ولم يكتف الملك « بلدوين الرابع » بذلك بل حاول استغلال الحملة الفلمنكية ليوجهها ضـــد مصر بقيادة فيليب الالزاسى » الذى كان يزور بيت المقدس آنذاك ، لكن الأخير رفض واكتفى بشـــن اغـــارات على حمـــاه وحمص فى نوفمبر ١١٧٧م/جمادى الآخـــرة ٥٧٣هـ(١٦) ٠

ثم كان أن عاد « صلاح الدين » الى مصر بعد هزيمته فى معركة تل الجزر ليعيد تنظيم قواته ، حتى اذا ما أتم ذلك توجه الى الشام فى شعبان ٥٧٣هـ/١١٧٨م(١٧) ، حيث انزل الهـــزيمة بالصليبيين فى مرج

عيون(١٨) ، كما خرب حصن بيت الأحزان فى ربيع الأول ٥٧٥هـ/يونيه ١١٧٩م ، الذى بناه الصليبيون ، وكان قد طالبهم بهـــدمه ، فرفضوا وطلبوا منه تعويضا كبيرا مقابل ذلك(١٩) . وهكذا لم يهدأ الحال بين « صلاح الدين » و « بلدوين الرابع » حتى تم عقد الصلح بين الجانبين لمدة سنتين اعتبارا من سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م(٢٠) .

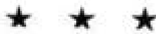
ويلاحظ أنه بالرغم من هذا الصلح فان بعض الأمـــراء الصليبيين قاموا بأعمال عسكرية ضد المسلمين منهم « رينالد دى شاتيون » (أرناط) الذى هاجم القوافل الاسلامية فى بلاد الشام فى سنة ١١٨٠م/٥٧٥-٥٧٦هـ، كما اعد اسطولا فى البحر الأحمر سنة ١١٨٢م/٥٧٧ - ٥٧٨هـ واستولى على ايله التى كان « صـــلاح الدين » قد استردها من قبل كما ســبق ذكره(٢١) .

يضاف الى ذلك بعض المعارك المحلية التى دارت عندئذ بين صلاح الدين وبلدوين الرابع خلال عام ٥٧٧ - ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، اذ حاصر صلاح الدين بيروت برا وبحرا فى ربيع الثانى ٥٧٨هـ/أغسطس ١١٨٢م ، فأمر بلدوين الرابع باعداد الأسطول الصليبى فى عكا وصيدا لتخليص بيروت من حصار صلاح الدين(٢٢) .كذلك أراد صلاح الدين أن ينتقم من أرناط - رينالد دى شاتيون - فاتفق مع أخيه العادل الأيوبى بمصر على محاصرة امارة الكرك الصليبية التابعة لهذا الأمير الصليبى . وبالفعل بدأ صلاح الدين يحاصرها سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، غير أنه لم يستمر فى هذه العملية بسبب ما بلغه من قدوم القوات الصليبية ومعها بلدوين الرابع ملك بيت المقدس محمولا فى محفة لشدة مرضه آنذاك ، فرفع صلاح الدين الحصار عن الكرك فى نفس العام لأنه لم يكن عندئذ على استعداد تام للقيام بعمل عسكرى كبير ، والدخول فى حرب مباشرة ضد الصليبيين حيث ان ذلك سابق لأوانه عندئذ(٢٣) . ومع ذلك فقد حاول صلاح الدين مرة أخرى حصار امارة الكرك فى ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ/صيف ١١٨٤م ، غير أنه لم يحقق غرضه لقوة تحصينها ، فاقلع عنها واتجه الى دمشق بعد أن أرسل سرية لمهاجمة اقليمى الجليل ونابلس الصليبيين(٢٤) .

ومما سبق يمكن القول ان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لم يتأثر برسالة صلاح الدين،ولم يتزحزح عن سياسة والده العدائية،ولم يكف عن هجماته ضد المسلمين الا بعد ان اشتد عليه المرض ولازم الفراش فى أوائل عام ١١٨٣م(٢٥) ٠ وكان أن توفى فى مارس ١١٨٥م وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، بعد أن قام بدوره فى شجاعة نادرة ضد صلاح الدين طوال فترة حكمه(٢٦) (١١٧٤ - ١١٨٥) ٠

وقد تولى مملكة بيت المقدس بعده بلدوين الخامس فى الوقت الذى ساءت أحـــوال المملـكة الصليبية من جانب وازدادت هجمات رينالد دى شاتيون الصليبى صاحب الكرك على القوافل الاسلامية من جانب آخر ، وذلك فى أواخر سنة ١١٨٦م/٥٨٢هـ ، الأمر الذى أدى بصلاح الدين الى توجيه ضربته الى الصليبيين فى حطين فى يوم السبت ٢٥ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ/٤ من يولية ١١٨٧م ٠

وفى هذه الأجواء أرسل صلاح الدين رسالته الى بلدوين الرابع معزيا اياه فى وفاة أبيه ، مهنئا بقيامه فى حكم المملكة الصليبية فى بيت المقـدس ٠



وايا ما كان الأمر فان السؤال الأول الذى يفرض نفسه حول هذه الرسالة التى أوردها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، هو : هل ورد لهذه الرسالة ذكر فى بقية المصادر المعاصرة فى الشرق أو فى الغرب ؟

الواقع أنه بالاطلاع على المصادر المعاصرة والمراجع الحـــديثة لم نحصل على أية اشارة الى هذه الرسالة ٠ وكان أحرى بوليم الصورى ليس بصفته مسجلا للأحداث فحسب ، بل بحكم عمله فى ديوان المراسلات وخاصة فى نهاية عهد عمورى الأول ، كان أحرى به أن يشير الى هذه الرسالة لما لها من أهمية ولما حوته من عبارات وكلمات منسوبة الى صلاح الدين تفيض بالود والمسالمة ٠ ولكن هذا لم يحدث ، ولم يرد للرسالة ذكر فى سجلات مملكة بيت المقدس الصليبية ٠

وإذا تركنا المصادر الغربية جانبا ورجعنا الى المصادر العربية التى عاصرت تلك الحقبة بصفة عامة وحياة صلاح الدين بصفة خاصة ، ثم المصادر اللاحقة بها بفترة ليست طويلة ، نجد أن هناك عددا لا بأس به يشير الى ما حدث فى مملكة بيت المقدس من موت ملك وقيام آخر ولكن دون أدنى اشارة الى رسالة صلاح الدين التى نحن بصددها ٠ ومن هذه المصـــادر :

١ ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، ولم يذكر عن وفاة عمورى الأول الا العبارة الآتية فى حوادث عام ٥٦٩هـ "وفيها هلك ملك الفرنج مرى لعنه الله ، واظنه ملك عسقلان ونحوها من البلاد ، وقد كان قارب أن يملك الديار المصرية لولا فضل الله ورحمته بعبـــاده المؤمنين » وذكر أيضا « أن مرى ملك الفرنج ـ لعنه الله ـ مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة ، فلما توفى خلف ابنا مجذوما عاجـــزا عن تدبير الملك فمملكة الفرنج صورة لا معنى لها » ٠

٢ ـ وهناك سيرة صـلاح الدين المسماة بـ « النوادر الســلطانية والمحاسن اليوسفية » التى الفها بهاء الدين ابن شداد (شداد جده لأمه)٠ وقد التحق بخدمة صلاح الدين سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وسجل فى هذا الكتاب بعض الجوانب العامة من حياة صلاح الدين منذ وصوله الى مصر أول مرة مع أسد الدين شيركوه حتى وفاته(٢٧) ٠

٣ ـ كتاب « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان « لشـــمس الدين بن المظفر بن قزاو غلى التركى وهو سبط الشيخ جمال الدين الجـــوزى ، المعروف بـ (سبط ابن الجوزى) المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ٠ وقد تناول جوانب كثيرة من تاريخ الدولة الأيوبية ٠ وليست به اشارة الى هذه الرســالة ٠

٤ ـ كتاب « الروضتين فى أخبـــار الدولتين » و « الذيل على الروضتين » لمؤلفهما شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن المعروف بأبى

شامه المتوفى سالة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ، وقد كتب كثيرا عن الدولة الأيوبية ولكنه لم يذكـــر عن وفاة عمورى الا العبـــارة الآتية « ورد كتاب من الداروم(٢٨) يذكر انه لما كان عشية الخميس تاسع ذى الحجة (٥٦٩هـ/ ١١ يولية ١١٧٤م) هلك مرى ملك الفرنج لعنه الله ونقله الى عذاب كاسمه مشتقا واقدمه على نار تلظى لا يصلاها الا الأشقى »(٢٩) ٠

هذا فضلا عن عدد آخر من المصادر التى عالجت تاريخ صلاح الدين وبنى أيوب فى تلك الحقبة منها :

٥ ـ مخطوطة « الروض المهضوب فى حلى دولة بنى أيوب» الجزء الثانى لأبى سعيد ابى الحسن على بن موسى المغربى المتوفى سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م ٠

٦ ـ وكتاب « البرق الشامى » من تاليف الأصفهانى ، واختصره الفتح بن على البندارى تحت اسم « سنا البرق الشـــامى »(٣٠) وهو يتنـــاول من سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م الى سـنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م فى تاريخ الدولة الأيوبية ٠

٧ ـ و « المختصر فى أخبار البشر » تاليف عماد الدين اسماعيل ابى الفدا صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م ، فقد تعرض للدولة الأيوبية زمن صلاح الدين ٠

٨ ـ وكتاب « وفيات الأعيان وانباء أبنــــاء الزمان » لأبى العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م(٣١) ٠

٩ ـ أما قاضى القضاة مجير الدين الحنبلى المتوفى سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م ، فقد ألف كتابين أحدهما « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب» والآخر « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ٠

والشىء الذى يسترعى الانتباه هو أن كافة هـــذه المصادر لم يرد بها ذكر لرسالة صلاح الدين التى أوردها القلقشندى ٠

وهنا نواجه سؤالا آخر هو : لماذا لم تشر المصادر الغربية والعربية الى تلك الرسالة التى يذكرها القلقشندى دون غيره من المعاصرين ٠واذا كانت المصادر العربية لم يرد بها ذكر أو اشارة لهذه الرسالة ، فهل أمر صلاح الدين بعدم تسجيلها لأنها مرسلة الى الملك الصليبى بلدوين الرابع ونظرا لما تحويه من عبارات الود تجاه الكيان الصليبى ببلاد الشام ؟ واذا كان هذا صحيحا فلماذا أوردت بعض هذه المصادر المراسلات التى كانت بين الملك الأرمنى(٣٢) والامبراطور البيزنطى(٣٣) من جانب وصلاح الدين من جانب آخر ؟ واذا كانت هذه المصادر العربية قد امتنعت بالفعل عن تسجيل هذه الرسالة بناء على رغبة صلاح الدين فلماذا لم تشر اليها المصادر الصليبية وخاصة سجلات مملكة بيت المقدس ، ووليم الصورى الذى كان يتولى ديوان الانشاء فى المملكة الصليبية ببيت المقدس فى الفترة (من ١١٧٠ - الى - ١١٧٤م)(٣٤) ثم مجموعات الحروب الصليبية التى أوردت تقريبا اغلب ما كتب عن الحروب الصليبية ٠

واذا كانت هذه الرسالة صحيحة ، فمن أين استقاها القلقشندى وهو الذى ولى رئاسة ديوان الانشاء فى دولة سلاطين المماليك بعد قرنين تقريبا من تاريخ تلك الرسالة على أيام صلاح الدين ؟



الواقع ان انفراد القلقشندى بذكر هذه الرسالة فى كتابه صبح الأعشى ، مع اعراض من سبقه وخلفه من المؤرخين عن نقلها أو الأخذ بها يجعلنا نشك فى صحتها ، وخاصة بعد أن لمسنا ما فاضت به من مشاعر ودية مبالغ فيها تجاه الصليبيين مما لا يتفق وروح العصر ٠ واذا كانت هذه الرسالة تعلوها مسحة من اسلوب القاضى الفاضل ، فاننا لا نستبعد أن يكون واضع الرسالة قد تعمد ذلك بمهارة ليزيل عنها الشكوك، ويضمن الصاق الرسالة بصلاح الدين ٠

ان التاريخ يعتمد على الحقائق والأدلة والبراهين والرؤية المنطقية الصادقة وليس على مجرد العبارات الانشائية التى تنسب الى فرد أيا كانت مكانته ، والتى يعوزها الدليل والبرهان ٠ علينا أن نذكر أن صلاح الدين

كان له خصوم ، اما من اتباع الدولة الفاطمية وبقاياها واما من اتباع نور الدين محمود واسرته • ولا نستبعد ان يكون واحد من هذا الفريق أو ذاك قد دس هذه الرسالة على سيرة صـــلاح الدين ليتشفى من ذلك البطل الذى اتصف بصدق الايمان وقوة العقيدة والحرص على كل ما فيه كرامة الاسلام والمسلمين •

الهـــوامش

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشـــا . القاهرة ١٩١٤ ، جـ٧ ، ص ١١٥ ـ ١١٦ ٠

وانظر : المخطوط ، صبح الأعشى فى صناعة الانشـــا ورقة رقم ١١٧ ، ١١٨ ، الجزء الرابع ، المجلد الاول ، دار الكتب المصرية رقم ١٨٨٨٠ ز ميكروفيلم رقم ٢٤٣١٤

(٢) انظر : سعيد عاشـور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠ ص ١٢ ـ ١٤ ٠

(٣) ابن أيبك الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب تحقيق : ســعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، جـ٧ ، ص ٢٧ ٠

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م ، جـ١١ ص١٢١، وأبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين لبنان ١٨٧١م ، جـ١ ، ص ١٢٢ ، وسبط ابن الجوزى مرأة الزمان فى تاريخ الأعيان الهند ١٩٥١م ، ق٢ ، جـ٨ ، ص ٢٤٦ ٠ وسعيد عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، جـ٢ ، ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦ ٠ وستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٨م ـ ١٩٦٩م ، جـ٢ ، ص ٥٩٥ ٠

(٥) أبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ١٤٤ ٠ وابن أيبك الدوادارى : مصدر سابق جـ٧ ، ص ٢٨ ، وابن الأثير : مصدر سابق جـ١١ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ ٠ وانظر : ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوط بدار الكتب ورقة ٠٧، وابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى ، بيروت ١٩٧٠م ، جـ٢ ، ص ١١١ ٠ وابن كثير : البداية والنهاية بيروت ، ١٩٦٦م ، جـ١٢ ، ص ٢٥٢ ، وستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٦٠٦ ٠

(٦) ابن الأثير : مصدر سابق جـ١١ ، ص ١٣٧ ، وأبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ١٦٠ ، وسعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٦٨٢ ٠

(٧) ابن الأثير : مصدر سابق جـ١١ ، ص ١٤٧ ٠ وسبط ابن الجوزى : مصدر سابق ق١ ، جـ٨ ، ص ٢٨٣ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، تحقيق رمضان ششن بيروت ، ١٩٧١م ، ق١ ، ص ١٠٨ ٠

عسقلان : من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ، ويقال لها عروس الشام استولى عليها الصليبيون فى جمـادى الآخـــرة ٥٤٨هـ/سبتمبر ١١٥٣م ٠ انظر ياقوت الحموى : معجـــم البلدان ، بيــروت ، ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ ، جـ٢ ، ص ٤١ ٠

- الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين انظر : ياقوت الحموى : نفس المصدر ، جـ٣ ، ص ٦٩ ـ ٧٠ ٠

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦٨٨ ٠

(٩) ابراهيم الحنبلى : مصدر سابق ورقم ٢٢ ٠ وابن الوردى : مصدر سابق جـ ٢ ، ص ١٢٨ ٠ وابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق : محى‌الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ جـ٦ ، ص ١٦٥ ٠ والبندارى : مصدر سابق ق١ ، ص ١٦٩ ، وسعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٧٠٥ ـ ٧٠٧ ، وستيفن رنسيمان : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٦٥٠ ٠

(١٠) أبو شامة : مصدر سابق جـ١ ، ص ٢٤٣ ٠

(١١) ستيفن رنسيمان : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٦٤٦ ٠ وسعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٧٠٧ ٠

(١٢) سعيد عاشور : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٧٠٨ ٠

(١٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٧٢٠ ـ ٧٢٢ ٠

(١٤) ابن الوردى : مصدر سابق جـ٢ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ ٠

(١٥) أبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ٢٧٣ ، وابن شـــــداد : النوادر السلطانية ، تحقيق جمال الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص ٥٣ ٠ وستيفن رنسيمان : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٦٧٢ ٠

(١٦) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٤ ـ ٧٢٦ ٠

(١٧) Riemoud (M) : Notice sur La vie de Saladin, Sultand' Egypte et Syria, Journal Asiatique, Tome 5, pp. 226:237.

(١٨) مرج عيون : بسواحل الشام : انظر : ياقوت الحموى : مصدر سابق ، جـ٥ ، ص ١٠١ ٠

(١٩) شاهنشاه بن أيوب : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، مخطوط بجامعة الدول العربية ، ورقة ٩١ ، ٩ب ٠ وأبو شامة : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١١ ٠

ابن الوردى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٣٥ ، وابن كثير : مصدر سابق ، جـ١٢ ، ص ٣٠٢ ، وانظر : سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٣٥ ٠

(٢٠) ستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٦٧٩ ـ ٦٨٠ ٠ وسعيد عاشور: مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٣٥ ٠

(٢١) ابن الوردى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٤٠ ، وابن كثير : مصدر سابق، جـ١٢ ، ص ٣١١ ، وأبو شامة : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ٣٥ ـ ٣٧ ٠

(٢٢) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٤٤ ـ ٧٤٦ ٠

(٢٣) ابن شداد : مصدر سابق ، ص ٦٢ ٠ وابن كثير مصدر سابق ، جـ١٢،ص ٣١٤ ، وستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧١١ ـ ٧١٢ ٠

(٢٤) ابن الاثير : مصدر سابق ، جـ١١ ، ص ٢٠٦ وستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧١٤ ٠

الجليل : تقع على ساحل الشام بين حمص ودمشق ، انظر : ياقوت الحموى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ٠

نابلس : تقع بفلسطين ، بينها وبين بيت المقـــدس عشرة فراسخ ٠ انظر : ياقوت الحموى : مصدر نفسه ، جـ٥ ، ص ٢٤٨ ٠

(٢٥) ستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٦٩٨ : ٦٩٩ ، ٧٠٢ : ٧٠٣ ٠

(٢٦) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧١٠ ٠

(٢٧) حقق هذا الكتاب جمال الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م ٠

(٢٨) الداروم : قلعة بعد غزة فى طريق القادم الى مصر ، بينها وبين البحر مقدار فرسخ ، وقد خربها صلاح الدين عنـــدما ملك الســاحل سنة ٥٨٤هـ/١١١٨ ـ ١١٨٩م ٠ انظر : ياقوت الحموى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ٤٢٤ ٠

(٢٩) أبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ٢٣٤ ٠

(٣٠) حقق القسم الأول من هذا الكتاب رمضان ششن ونشر فى بيروت ١٩٧١م٠

(٣١) الجزء السادس من هذا الكتاب حققه محمد محى الدين عبد الحميد ونشر فى القاهرة سنة ١٩٤٨م ٠

(٣٢) ابن شداد : مصدر سابق ، ص ١٢٦ ٠

CF : Rohricht (R.) : Op. Cit., No. 694, p. 185.

(٣٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق١ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٠م ، ص ١٢٢ ٠ وسعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٩٤ ـ ٧٩٥ ، ونظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٢٠٢ ٠

CF : Brand (Charles-M) : The Byzantines and Saladin (VV85-1192), Speculum V. 37, America, 1962, pp. 168.

(٣٤) انظر : عمر كمال توفيق : مرجع سابق ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧ ٠

(٣٥) لمزيد من المقارنة انظر :

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، جـ٧ ، ص ١١٨ ، جـ٨ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر ٠

مصادر ومراجع البحث :

اولا : المصادر والمراجع العربية والمترجمة :

— ابن الأثير : (ابو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الملقب بالجزرى) ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م .
الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، ١٨٧٣م .

— أحمد عزت عبد الكريم :
مقدمة كتاب «ابو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى»، الجمعية المصرية التاريخية القاهرة ، ١٩٧٣م .

— ابن ايبك الدوادارى : ت ٧٣٣هـ/١٣٢١م
كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب « تحقيق سعيد عاشور » ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

— البندارى : (قوام الدين الفتح بن على)
سنا البرق الشامى ، القسم الأول تحقيق/رمضان شش ، وهو مختصر البرق الشامى للعماد الأصفهانى ، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٧١م .

— سبط ابن الجوزى : (شمس الدين ابن المظفر يوسف بن قرا وغلى التركى) ت ٦٥٤هـ/١٢٥٧م .
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ، الجزء الثامن ، الهند ١٩٥١م .

— الحنبلى : (قاضى القضاة أبو اليمن مجير الدين الحنبلى) ت ٩٢٨هـ/١٥١٩م
- الأنس الجليل بتاريخ القدس الخليل جزآن ، بيروت ١٩٧٣م.
- شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوط بدار الكتب .

— ابن خلكان : (ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .
- المجلد الثانى ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٩م .
- الجزء السادس ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨م .

— ستيفن رنسيمان :
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ثلاثة أجزاء ، بيروت ، ٦٨ - ١٩٦٩م .

— سعيد عاشور :
- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠م .
- الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
- أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى ، مقال فى كتاب أبو العباس القلقشندى ، الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

— أبو شامة : (شهاب الدين ابن محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسى الشافعى) ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م .
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، بيروت ، ١٨٧١م .

— ابن شداد : (بهاء الدين) ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق جمال الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

— شاهنشاه بن أيوب : (الملك المنصور محمد بن الملك المظفر عمر بن شاهشناه) ت ٦١٧هـ/٢٠ - ١٢٢١م .
مضمار الحقائق وسر الخلائق ، مخطوط بجامعة الدول العربية ، حققه حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

عبد القادر أحمد طليمات :
وثائق القلقشندى ، مقال فى كتاب « أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى » الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م ٠

— عمر كمال توفيق :
الدبلوماسية الاسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، الاسكندرية ، ١٩٨٦م ٠

— قدرى قلعجى :
صلاح الدين الأيوبى ، بيروت ، ١٩٦٦م ٠

— القلقشندى : (أبو العباس) ت ٨٢١هـ/١٤١٨م ٠
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ، ١٩١٤م ٠
ومخطوط بدار الكتب المصرية ، الجزء الرابع ، المجلد الأول رقم ١٨٨٨٠ز ميكروفيلم /٢٤٣١٤ ٠

— ابن كثير : (الحافظ الدمشقى) ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م ٠
البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٦٦م ٠

— محمد عبد الله عنان :
مقال فى كتاب « أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى » الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م ٠

— محمد كامل الفقى :
الأدب فى العصر المملوكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧٦م٠

— محمد ماهر حمادة :
وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الاسلامى ٠ (٤٨٩-١٢٠٦هـ/١٠٩٦ - ١٤٠٤م) بيروت ، ١٩٧٩م ٠

— المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م ٠
السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٠م ٠

— نظير حسان سعداوى :
ـ التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة، ١٩٥٧م ٠
ـ الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، القاهرة ، ١٩٦١م ٠

— ابن الوردى : (زين الدين على) ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ٠
ـ تتمة المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى، بيروت ، ١٩٧٠م ٠

— ياقوت الحموى : (شهاب الدين أبو عبد الله) ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م
ـ معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٧٧م٠

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية :

— Archer (T. A.) :
The Crusades The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1919.

— Brand (C. M.) :
The Byzantines and Saladin (1185-1192), Speculum, V. 37, America, 1962.

— Conder (C. R.) :
The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897.

— Duggan (A) :
The Story of the Crusades (1097-1291), London, 1963.

— Ehrenkreutz (A. S.) :

Saladin, Speculum, V. 49, New York, 1972.

— Jean (M.) and Brial (J.) :

Recueil Des Historiens Des Gaules et De La France, Paris, 1888.

— King (E. J.) :

The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.

— Michaud (J. F.) :

Histoire des Croisades, T. 2-3, Paris, 1816-1822.

— Poole (S.L.) :

Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, New York, 1898, 9162.

... Reinaud (M.) :

Notice sur la vie de Saladin Sultan d'Egypte et Syrie, Journal Asiatique. T. 5, Paris, 1824.

— Rohricht (R.) :

Regesta Regni Hiersoloy Mitani (1091-1291) Berelin 1892.

— Setton (K. M.) :

A History of the Crusades, V. 1, New York, 1955, V. 2, London, 1962.

— Stevenson (W. B.) :

The Crusaders in the East, Beirut, 1969.

— Thatcher (O. J.) and McNeal (E. H.) :

A Source Book for Medieval History, America, 1905.

— Vinsofs (G.) :

Itinerary of Richard I and Others to the Holyland, London, 1848, New York, 1969.

— William of Tyre.

A History of Deeds Done Beyond the Sea, V. 1-2, Translated and Annotated by Babcock (E.A.), New York, 1943.

فتح الرياض وموقف القوى الكبرى منه

د. حيـــاة محمد البســـام(*)

احوال نجد قبل قيام الدولة السعودية الأولى :

كانت بلاد نجد خاصة والجزيرة العربية عامة قبل قيام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب بدعوته الاصلاحية الدينية فى القرن الثانى عشر للهجرة تعج بالخلافات السياسية ؛ اذ كان القـــوى ينقض على الضعيف ، دون وجود قانون يحكم البلاد . أما الوعى بأحكام الدين فكان ضعيفا ، مما أدى الى انتشار الخرافات والاوهام التى أساءت الى الدين الاسلامى . وهكذا بدا أن الوضع فى هذه المنطقة يحتاج الى اصلاح دينى وسياسى فقيض الله لها ذلك المصـــلح الدينى الذى انبرى للقضـــاء على هـــذه الخرافات ، وعمل على توحيد البلاد تحت اسم دولة يكون هدفها اقامة شرع الله . أما عن هذا المصلح ـ وهو الشيخ محمد بن عبـــد الوهاب ـ فقد نشأ وتربى فى بيت دين وعلم ، اذ كان جده ســـليمان قاضـيا فى العيينة ، وأبوه رجل علم ، ومن هذا المنطلق برز الشيخ ليدعو أبناء بلده الى العودة لدين السلف الصالح . وكانت هذه الدعوة بعد عودته من رحلاته العلمية بين نجد والحجاز والعراق والاحساء(١) .

والواقع ان دعوة الشيخ محمـــد بن عبـــد الوهاب كانت دينيـــة اجتماعية ، مما جعله يصطدم بالكثيرين من المعارضين له ، فى البصرة وحريملاء والعيينة ، ولكن الله قيض له فى امارة العيينة أميرها (عثمان ابن معمر) الذى ساعده وسانده بالجهر فى دعوته الدينية الاصلاحية ؛ فخرج معه وقاما بهدم ما وضع على القبور من انصاب وقباب ، ودمرا معاقل الشرك المنتشرة فى تلك المنطقة ؛ مما جعل خبره ينتشر فى أنحاء البلاد النجدية فازداد اعداؤه . وهكذا حتى وصل خبره الى أمير الاحساء فى ذلك الوقت وكان يدعى سليمان بن محمد ابن عريعر ـ من بنى خالد

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك عبد العزيز .

حكام الاحساء ذوى النفوذ القوى والسلطة النافذة فى غالبية بلاد نجد -
فأرسل ذلك الحاكم خطابا الى أمير العيينة عثمان بن معمر يأمره بقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ولكن عثمان الذى تربطه بالشيخ صداقة قديمة أطلعه على هذه الرسالة وطلب منه مغادرة العيينة ، فغادرها فى عام ١٧٤٥م/١١٥٨هـ متجهـا الى الدرعيـة التى يحكمها محمد بن سعود(٢) .

وكان أن استقبل امير الدرعية الشيخ محمد بن عبد الوهاب استقبالا حسنا وسانده فى نشر دعوته الاصلاحية ، وبذلك غدت الدرعية مركزا لطلاب العلم الذين يأتون من مختلف البلاد النجدية لطلب العلم على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وعندما ازدهرت الدرعية اقتصاديا مكنها ذلك من مد سلطانها على باقى أنحاء نجد وتوحيدها تحت لواء كلمة التوحيد ، ورفع راية الجهاد من أجل اعـلاء كلمة الحق ومناصرة دين الاسلام . وكانت هذه هى الشعارات التى رسمت لخطة التوسع للدولة السعودية ، فدارت معارك طاحنة بين الأمير محمد بن سعود يسانده الشيخ محمد ، وبين امير الرياض دهام بن دواس . وكان النصر حليف محمد بن سـعود ، الذى استطاع انزال الهـزيمة بخصـمه وضـم الرياض والوشم وسدير الى الدرعية . ويعتبر هذا النصر نواة لتأسيس الدولة السعودية الأولى ، حيث واصل محمد بن سعود جهاده حتى ضم غالبية مناطق نجد(٣) .

وقد أراد زعيم بنى خالد حاكم الاحساء ويدعى عريعر بن دجين أن يضرب هذه الدعوة فى مهدها فحاول تثبيط عـزم زعيم الدرعية ، ولكنه فشل فى ذلك مما زاد من حماسة جنود الدرعية ، وعلى رأسـهم زعيمهم محمد بن سعود . لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، بل واجه دعوة الشيخ وقيام هذه الدولة الفتية خصم عنيد فى الحجاز هو شريف مكة المكرمة ، ويدعى غالب بن مساعد ، الذى أظهر العداء بعد أن خاف على سلطانه من امتداد نفوذ الدعوة ، مما جعله يقف فى وجهها . وكانت الدعوة قد استطاعت أن تعصف بنفوذ بنى خالد فى الاحساء وتضمه تحت حكمها وتكوين دولة مستقلة تضم نجد والاحساء . وبعـد ذلك تطلعت

لتخليص الحجاز من ظلم الشريف غالب ، فزحفت جنود الدولة السعودية واستطاعت أن تضم الحجاز بعد أن منى الشريف بهزيمة ساحقة(٤) ٠

وهكذا فرضت الدولة السعودية سلطانها على الحجاز وصارت تهيمن على الأماكن المقدسة فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، مما جعل الدولة العثمانية تشعر باهتزاز مكانتها الدينية فى نظر العالم الاسلامى ٠ وقد رات الدولة العثمانية فى الدولة السعودية خطرا يهدد هيبتها فى نظر المسلمين ؛ لذا قررت استعادة مكانتها فى شبه الجزيرة العربية فارسلت جيوشها ، أو ما أسمته الحملة الأولى ، تحت قيادة طوسون باشا ابن محمد على ؛ ولكن هذه الحملة تكبدت خسائر فادحة وقتل فيها طوسون ، فاتبعتها بحملة ثانية تحت قيادة ابراهيم باشا الذى دخل نجد ودمرها وأحدث بها الخراب ، وخاصة الدرعية (عاصمة آل سعود) التى خربها ودمرها تدميرا ، ثم غادرها بعد أن وضع عليها واليا من قبله(٥) ٠

ولا شك فى أن سقوط الدرعية يعنى سقوط الدولة السعودية الأولى ، ولكن ذلك لم يكن معناه انتهاء هذه الدولة ، وانما كان بمثابة غيابها لفترة وجيزة عن الساحة السياسية حيث أن ذكراها لم تغب عن نفوس الكثير من النجديين الذين أحبوا أفراد هذه الأسرة وما قامت به من مساعدة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ٠ ومن جهة أخرى فان آراء وتعاليم هذه الدعوة ظلت راسخة فى أذهانهم ، يضاف الى ذلك المخاوف من تزايد أطماع الدول الأجنبية فى سواحل الخليج ، وبخاصة النفوذ البريطانى الذى أخذ ينتشر على السواحل العربية ٠

وسرعان ما عادت الأسرة السعودية الى الظهور على مسرح الأحداث السياسية على يد أحد أبنائها - ويدعى تركى بن عبد الله - الذى يعتبر المؤسس الأول لهذه الدولة ٠ وقد اتخذ من الرياض عاصمة له بعد تدمير الدرعية على يد جنود ابراهيم باشا ٠ ثم خلفه فى الملك ابنه فيصل الذى يعتبر المؤسس الثانى للدولة(٦) ٠

وسرعان ما ازدهرت الدولة السعودية الثانية واسترجعت ما ضاع منها من أملاك ، وعندئذ بدأ الخطر يلوح بظهور قوة جديدة منافسة لقوة

آل سعود هى قوة آل الرشيد فى حائل ، وخاصة بعد أن ألقى القبض على فيصل بن تركى وأرسل الى مصر • وكانت تلك الحقبة الزمنية مرحلة توقف للدولة السعودية الثانية ، ولكنها عادت للظهور مرة أخرى بقيادة فيصل بن تركى نفسه الذى حكم البلاد مرة أخرى وبسط سلطانه عليها حتى وصل الى الحجاز وعسير • ولم تستقر الأمور بعد وفاته الا فترة وجيزة ، اذ دب الخلاف بين أولاده مما جعل ابن الرشيد فى حائل- وهو الذى كان يتحين الفرصة - ينقض على حكم آل سعود ويسيطر على نجد برمتها • وكان أن خرج الامام عبد الرحمن بن فيصل « والد الملك عبد العزيز » ترافقه أسرته من الرياض الى منطقة الخليج بعد أن جال فى الصحراء مدة من الزمن ثم استقر بالكويت حيث لقى هو وأسرته الترحاب من حكام هذه المنطقة من آل الصباح(٧) •

وقد بقى عبد العزيز فى الكويت فترة،يتطلع الى حكم أجداده الذى سلب منهم ، حتى صمم على استعادته وأحياء الدولة السعودية الثالثة تحت راية التوحيد ، وتم له ذلك فأسس المملكة العربية السعودية •

نشأة عبد العزيز وتربيته :

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركى بن عبد الله آل سعود فى مدينة الرياض بقصر الامارة المعروف بالصفاة فى التاسع عشر من ذى الحجة عام ١٢٩٧ هـ الموافق ١٨٨٠م • وكان مولده فى أسرة حاكمة محبة للعلم ، هيأت له أسباب التعليم فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن كاملا ، ثم أخذ يتدرب على ممارسة الفروسية بكل ضروبها من ركوب الخيل وفنون القتال واستعمال آلات الحرب حتى أجادها وهو مازال صبيا • يضاف الى ذلك ماعرف به عبد العزيز من حدة الطبع وشدة الذكاء ، وحب الحركة ، وتطلع للزعامة منذ طفولته(١) •

وقد شهد عبد العزيز بن عبد الرحمن الخلاف الذى دب بين أفراد أسرته قبل رحيلهم الى الكويت ، وعاصر الظروف الصعبة التى مرت بها الأسرة ، وعاش شطرا من حياته فى كل من البحرين والكويت ، فى

حين رأى بلاده (نجد) وقد سيطر عليها آل الرشيد مما جعله يزداد تصميما على الاستعداد للقتال (٢) ٠

وفى ذلك الوقت أخذ آل الرشيد يحكمون سيطرتهم على نجد تحت قيادة عبد العزيز بن متعب بن الرشيد ، وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ٠ وتم ذلك بمساندة الدولة العثمانية التى كانت المهيمنة على العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ٠ ثم كان أن أخذ عبد العزيز بن الرشيد يتطلع الى الكويت طامعا فى ان تكون له حدود ساحلية تطل على هذا الممر الهام الذى يعتبر شريان الحياة وهمزة الوصـــل بين الشرق والغرب ؛ اذ كانت بلاده من البلاد الداخلية التى تفتقر الى سواحل لتغذية نشاطها الاقتصادى ٠ ومن هذا المنطلق فكر ابن الرشيد فى ضم الكويت الى أملاكه ؛ ولكن هذا لم يكن بالأمر اليسير ، خاصة بعد أن تضامنت قبائل المنتفك مع أمير الكويت مبارك آل الصباح لصد هجوم ابن الرشيد ٠ وقد ساندت هذه القبيلة - المنتفك - قبائل أخرى منها آل مرة ومطير وعجمان (٣) ٠

وما أن حل عام ١٣١٩هـ (١٩٠١م) حتى بدأت المواجهة الحقيقية بين الطرفين المتنازعين (مبارك وابن الرشيد) ، فشن ابن الرشـــيد هجوما على أطراف الكويت ، واستطاع مبارك صد ذلك الهجوم ، وأخذ فى تشجيع الصبى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، الذى كان يراوده الأمل فى استرجاع حكم أجداده ٠ وعندما اشتبك عبد العزيز بن الرشيد مع مبارك حاكم الـكويت فى معـــركة الطريق ، انتهز عبد العزيز بن عبد الرحمن الفرصة - وهى انشغال قوات ابن الرشيد فى تلك المعركة - وسار بأعوانه ، بعد أن أخذ موافقة مبارك ، لفتح الرياض ٠ ولكن ابن الرشيد استطاع أن يهزم قوات مبارك اذ أنزل بهم هـــزيمة ساحقة ، هم ومن ساعدهم ، واسترد أرضـهم وفرض عليهم ضرائب باهظة ونزع أسـلحة أهلهـا (٤) ٠

فتح الرياض :

والواقع ان عبد العزيز كان يعد نفسه لفتح الرياض واسترجاع ملك

الأجداد منذ نعومة أظفاره . وقد وجد الفرصة مواتية بعد موقعة الصريف التى كانت بين ابن الرشيد ومبارك آل الصباح ، والتى انتهت بهزيمة مبارك ، مما ساعد ابن الرشيد على بسط نفوذه على البلاد النجـــدية بأسرها واحكام سلطانه عليها(١) .

وقد رأينا كيف ان عبد العزيز بن عبد الرحمن انتهز فرصة انشغال عبد العزيز بن الرشيد فى معـــركته مع مبارك ومحاولاته لضم الكويت تحت نفوذه ، وسعى لتنفيذ ما كان يصبو اليه ، بعد ان اقنع مبارك بأن يسير بجيشه لمحاربة خصمه ابن الرشيد وفتح جبهة ثانية أمامه ، مما يؤدى الى تشتت قواته وضعف مقاومته .

ونالت هذه الخطة استحسان امير الكويت وشجع عبد العزيز على ذلك ، فسار الأخير بجيشه من الشوكى حتى وصل بعد يومين الى أسوار الرياض . وحين وصوله اليها تصدت له حاميتها التى كانت بقيـــادة عبد الرحمن بن ضبعان . لكن عبد العـــزيز استطاع أن يدخل الرياض بقواته مما اضطر الحامية الى الاحتماء بحصـــنها المعـــروف باســـم المصمك(٢) .

وكان ان استنجد عبد العزيز بن الرشيد بالدولة العثمانية لترسل له قوات مساندة حتى يستطيع احتلال الكويت ، فاستجابت له وأرسلت احدى سفنها لهذا الغرض . ولـــكن بريطانيا التى كانت ترقب الموقف أجبرت السفينة العثمانية على الانسحاب تنفيذاً لاتفاقية الحماية(٣) .

وبعد تحصن الحامية فى المصمك وصل خبر انهزام الشيخ مبارك أمام ابن الرشيد الى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فاضطر عبد العزيز للانسحاب من الرياض بعد ان مكث بها حوالى أربعة أشهر . لكن خروجه هذه المرة كان مؤقتا حيث اخذ يعد العدة للفتح الأكبر لهـــذه المدينة . يضاف الى ذلك أن هذه الحملة أكسبت عبد العـــزيز خبرة فى طـــرق الصحراء وما بها من صعاب لأنه عاش فى صحراء النفود المعروفة بقسوتها وشدة حرارتها أياما(٤) .

وعلى الرغم من فشل هـــذه المحاولة لفتح الرياض ، وانسحاب عبد العزيز ، الا أن ذلك كان حافزا لهذا الشاب الطموح للقيام بمحاولة أخرى، بعد أن رسم لها خطة محكمة . ذلك أنه عرف الرياض وأحس بما يكنه أهلها لأسرته من محبة ، فعاود المحاولة مرة أخرى فى عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) . وكانت خطته تلك المرة تستهدف ضرب القبائل التى تدين لابن الرشيد بالولاء ، حتى يضمن التفاف غالبية القبائل فى تلك المنطقة حوله . وقد اعد لذلك جيشا مكونا من أربعين جملا وثلاثين بندقية وبعض العتاد . وسار بهذا الجيش نحو هدفه بعد أن انضمت اليه بعض القبائل مثل عجمان وسبيع وآل مرة مما دعم جيشه . ثم واصل السير فى صحراء الدهناء فضرب قبائل قحطان ومطير ونال منهم ما شد عزمه . وفى ذلك الحين كان ابن الرشيد يحارب من أجـــل ضم الكويت ، وكانت قواته متمركزة على أطراف تلك المنطقة ، ولم يعر ما يقوم به عبد العزيز بن عبد الرحمن أى اهتمام بعد أن فشل فى حملته الأولى(٥) .

ولم يلبث أن احس عبد العزيز بن الرشـــيد بخطورة ما يقوم به عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فأخذ فى تهديد القبائل التى والت خصمه حتى استطاع أن يخرج بعضا منهم عن طاعة عبد العزيز خوفا من بطش ابن الرشيد . ولم يكتف بذلك ، بل تقدم بشـــكوى الى الدولة العثمانية وشرح لها الخطر الذى يهدده من تحركات عبد العزيز ، مما دفع بالدولة الى ايقاف المعونة التي كانت تأتيه من الاحساء(٦) .

لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن لم يكترث بما فرضـــته عليه الدولة العثمانية من عقوبات ، بل واصل سيره الى الرياض حتى وصـــل الى منطقة تبعد عن هدفه حوالى سبعة كيلو مترات . وهناك بقى بها أياما يعد جنده ومساعديه لهذا الفتح . أما خطته فقامت على أن يدخل الرياض بعدد بسيط من الرجال قدر عددهم بحوالى اربعين رجلا ، حتى لا يشعر به أحد . وسار بهؤلاء حتى وصل الى سور الرياض ، وهناك أبقى ثلاثا وثلاثين من رجاله خارج السور ، وأخذ معه سبعة رجال تسلق معهم سور المدينة حتى وصلوا الى منزل رجل يكن لآل سعود المحبة ، فمد لهم يد العون والمساعدة ، وعرف عبد العزيز وأخفاه فى منزله . وفى الليل

استطاع أن يخرج متسللا الى منزل أمير الرياض من قبل آل الرشيم ويدعى عجلان ؛ وكان عجلان هذا لا ينام فى منزله بل يذهب للمبيت فى المصمك الذى لا يبعد عن منزله الا حوالى مائة متر تقريبا(٧) ٠

وبقى عبد العزيز بن عبد الرحمن فى منزل عجلان الى شروق الشمس ، وبعدها بقليل خرج عجلان من باب المصمك ومعه عدد من جنوده غير المسلحين وسار يتفقد الخيل ، وما هى الا لحظات حتى كان عبد العزيز ورفاقه يصوبون اليه افواه بنادقهم من الفتحات الموجودة فى جدران القصر ، فاحس عجلان بحركة غير عادية تحيط به ، وحاول العودة الى المصمك للاحتماء به ٠ وفى هذه اللحظة انطلق عبد العزيز ومن معه نحوه واغلقوا الباب فى وجهه وتسلل بعضهم الى داخل المصمك٠ ولكن عجلان استطاع الخلاص من قبضة عبد العزيز ودخل المصمك وأخذ يركض محاولا الصعود الى الطابق الثانى ٠ ولكن لم يتمكن من ذلك وكان عبد الله ابن جلوى يلاحقه الى أن ضربه بسيفه وقتله(٨) ٠

هكذا قتل عجلان ومعظم اعوانه ، واستسلم الباقون لعبد العزيز ٠ وقد أخذ رفاق عبد العزيز فى مطاردة الفارين من أعوان عجلان ، فلاذ الكثير منهم بالفرار حتى وصلوا الى دار آل سويلم حيث استسلموا ٠ هذا فى حين ترك عبد العزيز اخاه محمدا مع من بقى من الرجال فى محاصرة الحصن حتى استسلموا له ؛ وكان ذلك فى شهر شوال عام ١٣١٩هـ الموافق ١٩٠٢م(٩) ٠

وبعد هذه المعركة استسلمت الرياض لعبد العزيز بعد أن أمن الجميع على أرواحهم وأموالهم ٠ وكان ان اعلن فى الرياض أن حكم هذه المدينة عاد للمرة الثانية الى آل سعود ، واعتبر يوم الخامس من شهر شوال ١٣١٣هـ الموافق ١٥ يناير ١٩٠٢م يوما مشهودا فى تاريخ هذه المدينة ٠ وقد خرج اليه اهالى الرياض فرحين بهذا النصر ، ومهنئين بعودة الحكم الى أسرة آل سعود التى اشتهر حكمها بنشر الأمن والعدل فى أرجاء البلاد ، وخاصة بعدما قاسى أهالى الرياض الكثير من ظلم عجلان وأعوانه(١٠) ٠

ولا شك فى ان عودة الرياض الى الحظيرة السعودية يعد حدثا تاريخيا كبيرا ، لفت انظار العالم لهذه المنطقة وبخاصة الدولة العثمانية المهيمنة عندئذ على العالم الاسلامى عامة والعالم العربى خاصة . وقد أخذت الدولة العثمانية تسترجع ما قام به اسلاف عبد العزيز من مد نفوذهم على غالبية اقاليم شبه الجزيرة العربية والخليج العربى ، حتى دخلت الأماكن المقدسة فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت سلطانهم ، مما هز مكانة الدولة العثمانية الدينية . لذلك أخذت ترقب الموقف بحذر وتحاول مد يد العون لابن الرشيد الذى لم يهتم كثيرا لهذا الحدث ، اذ كان همه الأكبر ضم الكويت الى أملاكه . لذلك تمركز فى منطقة حفر الباطن ينتظر المدد من الدولة العثمانية الحامية له غير مهتم بما يدور حوله من احداث فى الرياض . وربما اعتقد أن استرجاع الرياض سيكون أمرا سهلا بعد ضم الكويت لما لهذه المنطقة من أهمية كبيرة(١١) .

وفى هذه الاثناء أرسل عبد العزيز بن عبد الرحمن الىوالده والشيخ مبارك فى الكويت يعلمهما بما من الله عليه من نعمة النصر ، وأن هذا يعود بعد فضل الله الى ما أمداه به من تشجيع وعون ، حتى استطاع ان يقوم بهذا العمل . وطلب من والده العودة الى الرياض ليتسلم حكمه الذى أنتزع منه . ولكن الامام عبد الرحمن رفض هذا المنصب وتنازل عنه لأبنه البطل عبد العزيز الذى قبل هذه المهمة الصعبة برحابة صدر(١٢) .

وكان ان أخذ عبد العزيز ينظم شئون حكمه فى الرياض ويوسع رقعة ممتلكاته ، فبسط سلطانه على الخرج ، والحوطة ، والحريق ، والأفلاج ، حتى وصل الى وادى الدواسر . وكان ينظم شئون كل منطقة يفتحها ويجعل فى كل منطقة دانت له بالطاعة جيشا معدا للدفاع عنها وعن أهلها من غزوات ابن الرشيد المتوقعة(١٣) .

وأخيرا انتبه ابن الرشيد الى خطورة ما يحدث فى الرياض ، فاعد جيشا كبيرا لاستعادتها ، وأعد خطة لهذا الغرض محورها فرض حصار اقتصادى على تلك المنطقة باكملها.لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن

فطن الى ما كان يهدف اليه عبد العزيز الرشيد ، فعمد هو الآخر الى حيلة تجعل ابن الرشيد يكون فى حيرة من أمره ٠ فاشاع انه ينوى التوجه بفرقة من جيشه جنوبا ، مما جعل ابن الرشيد يخشى ذلك ، ويغير خطته لمنع عبد العزيز من التوسع جنوبا ، فاتجه هو بجيشه جنوبا ٠ وعندئذ سار عبد العزيز بجيشه نحو الشمال مما أوقع ابن الرشـيد فى حصار اقتصادى حيث استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن أن يقطع عليه طريق المواصلات والمدد ٠ واخيرا اشتبك الطرفان فى معـركة كان النصر فيها حليف عبد العزيز بن عبد الرحمن ٠ وقد تكبد ابن الرشيد خسائر فادحة فى هذه المعركة مما اضطره الى الانسحاب من الدلم الى السليمة ، ولكن عبد العزيز لحق به وانزل به هزيمة أخـرى قضـت على ما بقى لديه من أمل(١٤) ٠

وبعد هذه الهزيمة الساحقة تأكد لابن الرشيد أنه ليس باستطاعته استرجاع الرياض ، فشرع فى تحصين ما بقى تحت يده من مدن نجدية٠ ذلك أن عبد العزيز كان قد بسط سلطانه على نواحى نجد الجنوبية مما دفع ابن الرشيد الى تحصـين الوشم ، وسـدير والمجمعة مخافة أن يشن عليها عبد العزيز هجوما ، ثم يضمها الى ملكه(١٥) ٠

أما ابن الرشيد فقد اتجه الى مدينة شقراء حيث ضمن وقوف أهلها الى جانبه ، ثم انتقل الى القصيم يتفقد أحوال أهلها هنـاك ويحاول معرفة موقف أهلها حيال هذه الأوضاع الطارئة بعد انتشار خبر استرجاع الرياض وعودتها الى حكم آل سعود ،مما جعل باقى المدن النجدية تنتظر الفرج على يد عبد العزيز بن عبد الرحمن ، والخـلاص من حكم آل الرشيد بسبب ما أصابهم من بلاء ومحن طوال فترة حكم آل الرشـيد للبـلاد(١٦) ٠

وما أن رأت القبائل والمدن النجدية اختلال ميزان القوى فى تلك المنطقة ورجوحه لصالح عبد العزيز الذى استطاع خلال فترة زمنية قصيرة وبجيش قليل العدة والعتاد ان يحكم نجد ويسيطر علىعاصمتها الرياض، بعد أن كان منذ وقت قصير لاجئا فى الكويت لا حول له ولا قوة ، حتى أخذت تنضم اليه وتدخل طاعته ٠

موقف القوى الكبرى فى الخليج من فتح الرياض :

لا شك فى ان ظهور عبد العزير بن عبد الرحمن بهذه القوة السريعة اثار مخاوف الدولة العثمانية صاحبة السيادة على المنطقة والحامية لابن الرشيد فى نجد • وقد رأت الدولة العثمانية فى استرجاع السعوديين للرياض نذيرا بظهور الدعوة السلفية مرة أخرى ، وخاصة بعد نجاح تلك الدعوة فى ضم غالبية البلاد تحت سلطانها وبالأخص الأماكن المقدسة فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فضلا عن بعض اقاليم الخليج مثل البحرين • لذلك رأت الدولة العثمانية فى عودة عبد العزيز بن عبد الرحمن تجديدا لمخاوفها • يضاف الى ذلك أن ظهوره واستقلاله بمناطق نجد ربما شكل مثلا يحتذى من قبل الدول العربية الأخرى • وفى ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية تعانى من الضعف الذى أخذ ينتشر فى أجزائها المترامية ، بعد أن عمت الفوضى والاضطرابات كل جزء منها ، فظهرت العنصريات التى ساعدت على التفكك ، وانتشر الضعف الاقتصادى ودب الخور فى أوصالها وفصائل جيشها • وظهر هذا بوضوح فى حالة الجند العثمانى الموجودين فى منطقة القصيم ، اذ وصلت بهم الحال الى أن يبيع الجندى سلاحه من أجل لقمة العيش • يضف الى ذلك انسلاخ كثير من ولايات الدولة واستقلالها ، مثل اليمن التى انسلخت عن الدولة العثمانية بعد ثورة الامام يحيى بن حميد الدين عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٤م) ، وكذلك بعض دول الخليج التى ارتبطت مع بريطانيا بمعاهدات لحماية نفسها ، دون استشارة الدولة ، مما كان له أثره فى موقف الدولة من فتح الرياض(١) •

ورغم كل ماسبق فقد أحس العثمانيون بالخطر الذى يهددهم من جراء تزايد قوى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فارادوا أن يحدوا من هذا النفوذ ومن هذه القوة عن طريق تعزيز قوة ابن الرشيد ضده ، مخافة امتداد نفوذه الى منطقة الاحساء والاتصال بالانجليز • لذلك ارسلت الدولة العثمانية لابن الرشيد جيشا مزودا بالعدة والعتاد لمساندته ضد خصمه ، واسترجاع ما ضاع له من املاك • وكان ان انضم هذا الجيش العثمانى لجيش ابن الرشيد ، واشتبكا مع عبد العزيز بن عبد الرحمن فى معركة كبيرة عرفت باسم البكيرية ، وكان ذلك فى عام ١٩٠٤م/

١٣٢٢هـ ، حيث خطط عبد العزيز لضربة قاضية ضد خصمه ، فقرر تطويق الجيش العثمانى الرشيدى، حتى يوقعه فى شرك أعده له،فالتحم الفريقان فى معركة ضارية كانت فيها خسائر الفريقين جسيمة ، ولكن النصر فى النهاية كان حليف قوات عبد العزيز(٢) ٠

وبعد هذا الفشل الذريع الذى منيت به القــوات العثمانية غيرت الدولة سياستها ، فاخذت فى التودد لابن سعود والتخلى عن ابن الرشيد، وعملت على التقرب من عبد العزيز صاحب القوة الجديدة فى المنطقة ؛ بعد ان ادرك السلطان عبد الحميد أنه من الصواب كسب ود عبد العزيز، وخاصة بعد أن تمكن الانجليز من احتلال عدن ٠ يضــاف الى ذلك أن الانجليز عمدوا الى ربط شيوخ مناطق الخليج بمعاهدات حماية ؛ لذا راى السلطان العثمانى فى عبد العزيز المنقــد فى هــذه المنطقة ، وأنه يستطيع بكسبه اياه الى جانبه ترقيع هيكل الدولة الذى بدأ يتصدع ٠ وكان ان اعترفت الدولة العثمانية بما تحت يد عبد العزيز من أرض ، شريطة ان تضع الدولة العثمانية لها فى نجد مستشارين وقوات ٠ ولكن عبدالعزيز وحكومته لم يقبلوا ذلك العرض(٣) ٠

ولم تيأس الدولة العثمانية ، وانما أخذت تكرر محاولاتها لضــم عبدالعزيز الىصفها وعقد اتفاق معه بحيث تكون لها الكلمة العليافى نجد٠ لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن رفض ذلك الاتجاه بتشجيع من والده الامام عبد الرحمن ، وهو ذلك السياسى المحنك صاحب النظرة السياسية الفاحصة ، الذى استطاع أن يعرف ما تهــدف اليه الدولة العثمانية من وراء هذا الاتفاق ٠ لذلك طلب من ولده أن يرفضه ، مما جعل الحرب تستانف من جديد بين عبد العزيز وابن الرشيد ؛ فدارت معارك كثيرة كان النصر فيها بجانب عبد العزيز حتى انتهت بمعركة روضة مهنا عام ١٩٠٦م/١٣٢٤هـ وهى المعركة التى قتل فيها عبد العزيز بن الرشيد ٠ وبموت ابن الرشيد استطاع عبد العزيز التخلص من معول الهدم الذى سلطته الدولة العثمانية لعرقلة مسيرته فاستطاع استرجاع ملك أجداده ٠



أما القوة الثانية فى الخليج التى كانت ترقب الموقف حيال فتح الرياض فهى بريطانيا ، التى حرصت على أن تكون على دارية بتطور الأحداث فى هذه المنطقة . ولا شك فى أن بريطانيا كانت تخفى مخاوفها من تجدد الدولة السعودية للمرة الثالثة ، وهى التى ظلت تذكر المحاولتين السابقتين لاقامة الدولة السعودية الأولى والثانية ، وما كانتا تستمتعان به من نفوذ ومحبة فى نفوس أهالى منطقة الخليج . كذلك عملت بريطانيا على الوقوف فى وجه أى قوة تظهر فى المنطقة بعد ان مرت بتجربة القواسم الذين اقلقوا راحتها . لذلك أخذت ترقب الموقف بحذر ؛ حيث أن سياستها حالت بينها وبين التدخل فى الشئون الداخلية لأهالى المنطقة . وكان اهتمامها ونشاطها منحصرا فى السواحل فقط . وجاء ذلك فى الوقت الذى أخذ نفوذ هذا الشاب الطموح - عبد العزيز - يمتد الى السواحل فى المنطقة الشرقية من بلاده(٤).

وشاءت الظروف أن ظهور عبد العزيز بن عبد الرحمن على مسرح الأحداث - والذى تمثل فى فتح الرياض واسترجاع ملك أجداده - صادف انشغال بريطانيا بامور كثيرة هامة ، منها انشغالها فى صد أطماع الدول الأوربية عن منطقة الخليج . وكان اهتمام بريطانيا بعدن يفوق اهتمامها بباقى المناطق ؛ لأن هذه المنطقة كانت أهم ميناء لها فى جنوب غرب الجزيرة العربية . وقد حاولت بريطانيا شراء هذا الميناء فى مطلع القرن التاسع عشر من سلطان لحج ولكنه رفض طلبها هذا ، فما كان منها الا أن احتلته فى سنة ١٨٣٩م الموافق ١٢٥٥هـ ، ومن ثم فقد حرصت على بقائه فى قبضتها لأنها اعتبرت عدن قاعدة أساسية لها(٥).

والواقع ان بريطانيا شغلت عندئذ بعقد معاهدات الحماية مع مشايخ القبائل الخليجية ، وبالأخص مع القبائل القاطنة حول عدن مثل العبدلى والفصلى والعقرب والحوشى والعلوى ، ويافع السفلى . وكانت تستهدف من وراء هذه المعاهدات الوقوف فى وجه التقدم العثمانى ، الى جانب مشاكلها الأخرى فى أوروبا . وكل هذه المشاكل جعلت بريطانيا فى شغل شاغل عما يدور داخل الجزيرة العربية من أحداث وبالأخص عن فتح الرياض .

وهكذا اخذت بريطانيا تجدد محاولاتها للتودد لهذا الفاتح الجديد، وذلك لاحياء العلاقات الودية القديمة التى كانت تربطها بأسلافه حكام الدولة السعودية الأولى ، وخاصة أنه لم يتعـــرض للقبائل التى تربطها بها معاهدات حماية( ) ٠

الخاتمـــــة :

وبعد ، فلعلنا قد توصلنا فى هذا البحث الى النتائج التالية :

ان بلاد نجد كانت قبل قيام الدولة الســـــعودية الأولى تعيش فى فوضىواضطراب،اذ تسلط عليها الحكامالأقوياء امثال بنى خالد فىالاحساء وفرضوا كلمتهم على أمراء المناطق الصغيرة ٠ وبعد حلف الدرعية الذى تم بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب بداية ظهور أول دولة ذات كيان سياسى منظم فى نجد ، وهو الكيان الذى امتد الى باقى المناطق المجاورة مثل الأحساء والحجاز ٠

وقد أوضحنا ان حملات محمد على باشا والتى كانت بقيادة ابراهيم باشا لم تقض على الأسرة السعودية الا لوقت محدد فى حين بقيت ذكراها راسخة فى نفوس أبناء نجد ٠ وكانوا يتحينون الفرصة لظهور أحد أفراد هذه الأسرة للالتفاف حوله ٠

وكان ظهور تركى بن عبد الله مؤشرا لعودة هذه الأسرة الى مسرح الأحداث السياسية ، فالتف حوله أبناء نجد وعادت الدولة الى الظهور فى طور جديد ٠

وبعد حملات ابراهيم باشا على نجد واختفاء الدور السعودى عن مسرح الأحداث ظهرت المطامع الأوروبية فىمنطقة الخليج ٠ وقد تبين لنا أن عودة الدولة الســـــعودية الثانية فى طورها الجـــديد كان قويا كسابقتها ، اذ بسطت سلطانها على شبه الجزيرة العربية برمتها ٠

أما عبد العزيز بن عبد الرحمن فقد عاصر مرحلة ضـــعف الدولة السعودية الثانية وانهيارها ، حتى انتهت باستيلاء آل الرشيد على الحكم

وخروج الامام عبد الرحمن وافراد أسرته ومعهم عبد العزيز الى منطقة الخليج ، فاتجهوا للبحـــرين واستقروا بها بعض الوقت ثم انتقلوا الى الى الكويت التى قضى بها عبد العزيز فترة من طفولته ٠

كذلك أوضحنا أن عبد العزيز بن عبد الرحمن تربى تربية حربية ، وتعلم فنون القتال ، وتدرب على استعمال الكثير من الأسلحة الحربية منذ صغره ٠

وقد تبين لنا أن عبد العزيز انتهز فرصة انشغال ابن الرشيد فى محاولاته الفاشلة لضم الكويت ، ودخل الرياض لأول مرة ، وبقى بهـــا قرابة الأربعة أشهر ، ثم انسحب منها ٠

وكانت محاولة عبد العزيز الأولى فى فتح الرياض درسا تلقاه فى معرفة الطرق المؤدية لهذه المدينة ، والصعاب التى تعترض طريقه فى الصحراء ٠ يضاف الى ذلك معـــرفته بما يكنه أهلها من محبة لأسرته واستعدادهم للالتفاف حوله ٠

وقد توصلنا الى أن عبد العزيز بن الرشيد انزل العقاب الشـــديد باهالى وقبائل المناطق التى ساعدت مبارك فى معركة الطريف التى كان فيها النصر حليف ابن الرشيد ، ففرض عليهم عقوبات صارمة منها انه قرر ضرائب باهظة عليهم ونزع أسلحتهم ٠

وبعد فتح الرياض الأول أخذ عبد العزيز بن عبد الرحمن يعد العدة للمواجهة مع ابن الرشيد ، فانتهز فرصة انشغال ابن الرشيد فى محاولاته لضم الكويت ودخل الرياض بعدد قليل من الرجال ، واستطاع أن يقتل أميرها من قبل آل الرشـيد (المدعو عجلان) بعد أن لجا الأخير الى المصـمك ٠

ومن الواضح أن ابن الرشيد لم يعر دخول عبد العزيز الرياض أى اهتمام ، وظن أن الأمر سهلا وأن بامكانه استرجاع الرياض بيسر حين عودته ٠ ولم يعلم أن عبد العزيز أخذ فى تحصين هذه المنطقة وضــم اليه بعض المناطق القريبة منها ٠

وقد حاول ابن الرشيد الاستنجاد بالدولة العثمانية لأخذ الكويت فاستجابت له وأرسلت سفنها لنجدته ومساعدته ، لكن السفن البريطانية تصدت لهـــا ، وذلك بموجب معاهدات الحماية التى عقدتها بريطانيا مع الكويت ٠

واتضح لنا أن ابن الرشيد أحس بخطر عبد العزيز بن عبد الرحمن بعد فوات الأوان ، فاخذ فى تهديد القبائل التى انضمت اليـــه ، حتى استطاع أن يخرج بعضها عن طاعة عبد العزيز وذلك خوفا من بطشه ٠

كذلك تبين لنا أن العقـــوبات الاقتصادية التى فرضـــتها الدولة العثمانية على الرياض لم تثن عبد العزيز عن مواصلة جهوده لاسترجاع حكم أسرته ٠

وقد حاول عبد العزيز ترسية قواعد حكمه بأن بســـط نفوذه على على الخرج ، والحوطة ، والحريق ، والأفلاج الى أن وصل الى وادى الدواسر ٠ وحرص على أن ينظم شئون هذه المناطق المفتوحة ويكون فى كل واحدة منها جيشا من أهلها للدفاع عنها ٠

واوضحنا أن ميزان القوى فى نجد اختل لفترة زمنية معينة بعد فتح الرياض ٠ ومن ثم رجحت كفته مع عبد العـــزيز بن عبد الرحمن الذى استطاع فى وقت قصير أن يبسط نفوذه على عدد كبير من المناطق التابعة للرياض ٠

وكان ظهور عبد العزيز بهـــذه القوة التى مكنته خـــلال مدة قصيرة من بسط سلطانه على الكثير من المنطق النجدية أمرا أثار مخاوف الدولة العثمانية ، التى استرجعت ما لهذه الأسرة من أمجاد عظيمة طوال الفترتين السابقتين التى حكمت خلالهما شـــبه الجزيرة العربية وبعض دول الخليج ٠

وتزامن فتح الرياض مع الضعف الذى سرى فى أوصـــال الدولة العثمانية وجعلها محط أطماع الدول الأوروبية بسبب انتشار الفوضى والاضطراب بين أجزائها المترامية ٠

وقد حاولت الدولة العثمانية ضـم عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فساومته على الاعتراف بما لديه من أراض مقابل تعيين مستشارين وقوات تابعة لها فى منطقة نجد . لكن طلبها هـذا رفض بعـد استشارة والده عبد الرحمن ، اذ تبين أن الدولة العثمانية تهدف لارضاخ عبد العزيز لسلطانها .

ويتضح أن بريطانيا لم تتدخل فى الصراع الدائر بمنطقة نجد ؛ لأن سياستها فى هذه المناطق اتسمت بعدم التدخل فى الشئون الداخلية ، وكان جل اهتمامها مركزا على السواحل التى تسـيطر عليها بما عقدته مع حكامها من معاهدات حماية .

وقد أخذت بريطانيا ترقب الموقف بحذر وتراقب تحركات عبدالعزيز ابن عبد الرحمن ، وكانت تحاول عـدم اقترابه من سـواحل الخليج ، لأن ذلك قد يعيد للأذهان ما قام به أسـلافه حكام الدولة السـعودية الأولى وجيرانهم القواسـم من قوة هـددت المصالح البريطانية فى تلك المنطقة .

وتوصلنا الى أن بريطانيا كانت تسعى لعدم ظهور قوة عربية تهدد مصالحها فى المنطقة وتضم تحت لوائها باقى حكام الخليج التى تسيطر عليهـم .

ومن الواضح أن فتح الرياض وظهور عبد العـزيز على مسرح الأحداث تزامن مع انشغال بريطانيا بعقـد معاهدات حماية مع مشايخ القبائل الخليجية التى اسـتهدفت من وراء العمـل الوقوف فى وجه التقدم العثمانى .

ولكن بريطانيا لم تهمل مراقبة تحركات عبد العزيز ، وكذلك لم تخف خوفها من ظهوره كقوة عربية مستقلة قد تحذو حذوها باقى دول الخليج .

ولذلك حاولت بريطانيا كسب عبدالعزيز الىجانبها لاحياء العلاقات القديمة التى كانت تربطها بأسلافه حكام الدولة السعودية الأولى .

الهـــــوامش

(أ) التمهيــــد :

(١) ابن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ط١ ، ص ٧ ـ ٨ ، البســـام ، عبد الله ، علماء نجد خلال ستة قرون ، ج٢ ، ص٨٩٦ .

(٢) الغرايبة ، عبد الكريم ، قيام الدولة السعودية العربية ، ص ٤٤ ، العريفان، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١٠٧ ، رسالة دكتوراه .

(٣) خزعل ، حسين خلف ، تاريخ الجزيرة فى عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ١٦١ ، العثيمين ، عبد الله ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٦٠ .

(٤) موزل ، (تاريخ الدولة السعودية) مجلة العرب ، ج٣ ـ ٤ ، س ١١ ، ص ٢١٥ ، سبتمبر ـ اكتوبر ١٩٧٦م ، جمعة ، محمد كمال ، انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية ، ص ٤٧ ، عطار ، أحمد ، محمد بن عبد الوهاب ، ص ١٢٤ ، ابن عيسى ، ابراهيم ، تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ، ص ١٢٥ .

(٥) عسه ، أحمد ، معجزة فوق الرمال ، ص ٢٣ .

(٦) الرشيد ، ضاوى ، نبذة تاريخية عن نجد ، ص ١٢٦ ، درويش ،مديحة ، تاريخ الدولة السعودية ، ص ٥٨ ، الزركلى ، خير الدين ، شبه جزيرة العرب فى عهد الملك عبد العزيز ، ج١ ، ص ٤٦ .

(٧) المانع ، محمد ، توحيد المملكة ، ص ٣٦ ، ابن عيسى ، ابراهيم ، بعض حوادث نجد ، ص ١٩٦ ، بلغث ، الليدى آن ، رحلة الى بلاد نجد ، ص ٢٢٢ .

Alvin, J. Coltrell : The Persian Gulf States, P. 57.

(ب) نشـــاة عبد العزيز وتربيته :

(١) الزركلى ، خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ١٧ .

(٢) الدريب ، سعود ، الملك عبد العزيز ، ص ٩ .

(٣) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج٥ ، ص ١١٢ .

Phil by, H. Saudi Arabia, P. 238.

(٤) المختار ، صلاح الدين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج٢ ، ص ٢٧ ، الخترش ، فتوح ، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص ٥٧ ، الزركلى،

خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٢٣ ، الجاسر ، حمد ، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ، ص ١١٥ ·

Philby, H : Saudi Arabia, P. 239.

(جـ) فتـــح الرياض :

(١) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج٥ ، ص ١٢٠ ·

(٢) الزركلى : خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٢٢ ·

(٣) القلعجى ، قدرى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٩ ·

(٤) حمزة ، فؤاد ، البلاد العربية السعودية ، ص ٢٠ ·

(٥) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، جـ٥ ، ص ١٨٤ ، كشك ، محمد جلال ، السعوديون والحل الاسلامى ، ص ٢٧٦ ·

(٦) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، جـ٥ ، ص ١٢١ ، المانع ، محمد ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ٤٤ ، العرينان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١١٦ ـ ١١٧ ·

(٧) العرينان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١١٧ ·

(٨) آل خميس ، ابراهيم ، أسود آل سعود ، ص ٩

(٩) آل خميس ، ابراهيم ، أسود آل سعود ، ص ٩ ·

(١٠) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، جـ٥ ، ص ١٢٤ ، البـــديوى ، محمد منير ، المتوكل على الودود عبد العزيز بن سعود ، ص ١٢٠ ، المانع ، محمد، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ٤٦ ·

(١١) الحيدرى ، ابراهيم ، عنوان المجد فى أحوال بغداد والبصرة ونجد ، ص ٨٥ ، الزمل عبد الله ، الملحمة الشعبية ، ص٦٤ ، الجمعة ، ابراهيم ، الأطلس التاريخى للدولة السعودية ، ص ١٣٨ ·

(١٢) العرينان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١١٩ ، الخثرش ، فتوح ، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص ٦٧ ·

(١٣) المختار صلاح الدين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٤٦ الزركلى ، خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٣٠ ·

Armstrong, G : Lord of Arabia, P. 65.

(١٤) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٩٢ ·

(١٥) آل عبد المحسن ، تذكرة أولى النهى والعرفان ، جـ٢ ، ص ٥٠ ، رحمو ، محمد ابراهيم ، أضواء حول الاستراتيجية العسكرية ، ص ٧٠ ، ابراهيم ، سيد

محمد ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ص ١٨٧ ، الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، جـ٥ ، ص ١٣٢ ، فيلبى ، عبد الله ، تاريخ المملكة العربية السعودية ص٢١٩٠

(١٦) جمعة ، ابراهيم ، الأطلس التاريخى ، ص ١٣٩ ٠

(١٧) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٥٧ ٠

(١٨) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٥٢ ٠

(د) موقف القوى الكبرى فى الخليج من فتح الرياض :

(١) حمزة ، فؤاد ، قلب جزيرة العرب ، ص ١٤٠ ، داوود ، محمود ، الخليج العربى ، ص ١٤٦ ٠

(٢) درويش ، مديحة ، تاريخ الدولة السعودية ، ص ٨١ ٠

(٣) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٣٢ ٠

(٤) داوود ، محمود ، الخليج العربى ، ص ١٤٦ ٠

(٥) سالم ، مصطفى ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٥٧ ، العريفان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١٢٤ ، داوود ، محمود ، الخليج العربى ، ص١٤٦ ٠

6 — 1. O. No. 7 Dated on The 11th of January 1906, From Government of India Foreign Department To : His Majesty, S. Secrtary of State.R. 15, 1:556 For India.

قائمة المراجـع

١ ـ ابراهيم ، سيد محمد :
تاريخ المملكة العربية السعودية ، الرياض : ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٢ ـ ابن بشر ، عثمان النجدى :
عنوان المجد فى تاريخ نجد ، جـ١ ، الرياض ، بدون تاريخ .

٣ ـ البديوى ، محمد منير :
المتوكل على الودود عبد العزيز بن سعود ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

٤ ـ البسـام ، عبد الله :
علماء نجد خلال ستة قرون ، مكة المكرمة ، ١٣٩٨ .

٥ ـ عيسى ، ابراهيم :
تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ، الرياض ، بدون تاريخ.

٦ ـ الجاسـر ، حمـد :
مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ، مصر ، ١٣٨٦هـ .

٧ ـ جمعة ، ابراهيم :
الأطلس التاريخى للدولة السعودية ، بدون تاريخ .

٨ ـ جمعة ، محمد كمال :
انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خـارج الجـزيرة ، الرياض ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٩ ـ حمزة ، فـؤاد :
البلاد العربية السـعودية ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م .

١٠ ـ الحميرى ، ابراهيم :
عنوان المجد فى أحوال بغداد ، والبصرة ، ونجد ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١١ - **الخترش ، فتوح :**
تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ١٨٩٠هـ/١٩٢١م ، الكويت ، بدون تاريخ .

١٢ - **خزعل ، حسين خلف :**
تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

١٣ - **داوود ، محمود :**
الخليج العربى والعلاقات الدوليـــة ، ١٨٩٠م/١٩١٤م ، جـ١ ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١٤ - **درويش ، مديحة :**
تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القـــرن العشرين ، الطبعة الثانية ، جدة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

١٥ - **الدريب ، ســعود :**
الملك عبد العزيز ووضع قواعد التنظيم القضـائى فى المملـكة ، جدة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

١٦ - **آل عبد المحسن ، ابراهيم :**
تذكرة أولى النهى والعرفان بايام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان ، الرياض ، بدون تاريخ .

١٧ - **رحمو ، محمد ابراهيم :**
اضواء على الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز فى حروبه، الطبعة الثانية ، الرياض ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .

١٨ - **الرشـيد ، ضاوى :**
نبذة تاريخية عن نجد ، الظهران ، بدون تاريخ .

١٩ - **الزامل ، عبد اللـه العلى :**
الملحمة الشعبية فى تاسيس الملك عبد العـزيز آل سعود للمملـكة العربية السعودية ، الرياض ، ١٣٩١هـ/١٩٧٩م .

٢٠ ـ **الزركلى ، خير الدين :**
شبه جزيرة العرب فى عهد الملك عبد العزيز ، جـ٢ ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧ ٠

٢١ ـ **سالم ، مصطفى :**
تكوين اليمن الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، بدون تاريخ ٠

٢٢ ـ **عسه ، أحمد :**
معجزة فوق الرمال ، لبنان ، ١٩٦٥م ٠

٢٣ ـ **عطار ، أحمد :**
الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ حياته وفكره ، الرياض ، بدون تاريخ ٠

٢٥ ـ **العقاد ، صلاح :**
التيارات السياسية فى الخليج العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢م ٠

٢٦ ـ **الغرابية ، عبد الكريم :**
قيام الدولة السعودية العربية ، معهد البحوث والدراسات ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧٤م ٠

٢٧ ـ **فلبى ، عبد الله :**
تاريخ المملكة العربية السعودية ، أو الذكرى العربية الذهبية ، ترجمة مصطفى كامل فايد ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م ٠

٢٨ ـ **القلعجى ، قدرى :**
الخليج العربى ، بيروت ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ٠

٢٩ ـ **كشك ، محمد :**
السعوديون والحل الاسلامى ،لندن ١٤٠١هـ/١٩٨١م ٠

٣٠ ـ **مختار ، صلاح الدين :**
تاريخ المملكة العربية السعودية/ماضيها وحاضرها ، جـ٢،بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م ٠

٣١ ـ المانع ، محمـــد :
أسود آل سعود ، بدون تاريخ .

وثائق أجنبيـــة :

1 — I. O. No. 7 Dated, 11 January 1906, From Government Of India Foreign Department To:His Majesty's Secrtary of State For India, R 15, 1:556.

مراجع أجنبيـــة :

1 — ALVIN, J. COTTRELL.
The Persian Gulf States.
United States Of America, 1980.

2 — ARMSTRONG.H.E.
Lord Of Arabia, Ibn Saud, London, 1934.

3 — PHILBY.J.
Saudi Arabia.
Lebanon Book Shop.
Beirut, 1968.

الدوريات :

١ ـ مجلة العرب ، ج٣ ـ ٤ السنة الحادية عشر ، رمضان وشـــوال ١٩٣٦هـ ، سبتمبر واكتوبر ١٩٧٦ . ترجمة كتاب المستشرق لويس موزل ، تاريخ السعودية .

أضـــواء جديدة على بعض
منشآت امراء المماليك فى القرنين السابع والثامن للهجـرة
(الثالث عشر والرابع عشر للميلاد)
منشآت الأمير الجاولى وسلار بمصر والشام

د٠ عبد الله كامل موسى عبده(*)

مقـــــدمة :

يتصف عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام بالثراء الكبير ، مما انعكست صورته فى الحياتين الاجتماعية والفنيـــة ، بوجـــه خاص ، والحضارية بوجه عام ٠ ومازالت بعض المنشآت الأثرية التى ترجع الى ذلك العصر قائمة على أرض مصر والشام تعبر عن روعة الفن وجماله من جهة ، وثراء سلاطين المماليك وامرائهم من جهة أخرى ٠

ومن هذه المنشآت ما يرتبط باسمى اثنين من كبار أمراء المماليك ـ هما الأمير الجاولى والأمير سلار ـ ، وهى منشآت متعددة لم تحظ حتى الآن بقدر كاف من عناية الباحثين ٠ وفى هذا البحث نلقى مزيدا من الأضواء الجديدة على منشآت هذين الأميرين ٠

ولعله من المناسب فى هذه المقدمة أن نوضح أن الأميرين الجاولى وسلار ارتبطا سويا برباط وثيق من الصـــداقة ، حتى أنهمـــا دفنا فى ضريحين متلاصقين ، الأمر الذى جعلنا نجمع بينهما فى هذه الدراسة ، بوصفهما يمثلان كيانا واحدا فى حلقة واحدة من حلقات التاريخ ٠

هذا ، ويشتمل البحث على الجوانب الآتية :

أولا : ترجمة للأميرين معا حتى عام ٧٠٦هـ/١٣٠٦م وهى السنة التى نفى فيها الجاولى الى دمشق ٠ ذلك أنه من الصعب الفصل بينهما

(*) قسم الآثار الاسلامية ـ كلية الآداب بقنا ـ جامعة جنوب الوادى ٠

خلال الفترة التاريخية التى امتدت من عهد السلطان العادل كتبغا وحتى سلطنة الملك الناصر محمد الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٨ - ١٣٠٨م)، حيث ارتبط كل منهما بالآخر ارتباطا وثيقا .

ثانيا : اعمال الجاولى وسلار المعمارية بمصر وبلاد الشام ، وهى الأعمال التى لم تحظ بالقاء قدر كاف من الضوء عليها من قبل الباحثين، كما سبق أن اشرنا .

ثالثا : دراسة اثرية للمنشاة الدينية التى شـيدت بالكبش والتى اقترنت بهذين الأميرين فى ضوء عـدم العثور على وثيقة تثبت هـذه النسبة ، فضلا عن أن النصوص التاريخية المدونة على جدران هذه المنشاة لم تنسبها الى احدهما ، وقد تناولت هذه الدراسة الخاصة بالمنشاة مايلى:

اولا مناقشة الآراء حول منشئها .

ثانيا : مناقشة الآراء حول تسـميتها وماهية الوظيفة التى كانت تؤديهـا .

ثالثا : دراسة تحليلية للواجهة والتخطيط من الداخل ، والقباب الضريحية .

الجاولى وسـلار :

اما عن الجاولى فهو سـنجر بن عبد اللـه الجاولى الأمير الكبير علم الدين ابو سـعيد(١) الشـافعى(٢) الملـكى(٣) الناصرى(٤) المنصورى(٥) . ولد بآمد(٦) فى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، ثم صار من مماليك الأمير جاول احد أمراء السلطان الظاهر بيبرس فعرف بالجاولى نسبة اليه ، وقد عرف والده بالمشد ، ثم انتقل الى بيت المنصور قلاوون فعرف بالمنصورى(٧) .

خرج الجاولى فى عهد السلطان الاشرف خليل بن قلاوون ٦٨٧ - ٦٩٣هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣م الى الكرك(٨) واستقر فى جملة البحرية بها الى أيام السلطان العـادل زين الدين كتبغا ٦٩٣ - ٦٩٦هـ/١٢٩٣ - ١٢٩٧م ، ثم قدم الى مصر فى عهده بحال زرى ، فسلمه السلطان الى

مملوكه بثخاص ليكون نائبه بالحوائجخاناه(٩) ، ثم اقامه على الخوشخانة السلطانية(١٠) ٠

وقد صحب الجاولى فى ذلك الوقت سلار بن عبد الله الأمير سيف الدين الملكى الناصرى المنصورى(١١) ٠ وكان الأمير سلار تركى الجنس،وكان ابوه أمير شكار (أمير الصيد)(١٢) عند صاحب الروم٠فلما غزا الملك الظاهر بيبرس التتار والروم كان سلار ممن أسر فاشتراه قلاوون واعطاه لولده الصالح صالح ٠ وبعد موت الصالح عاد الى ملك المنصور قلاوون ثانيا وصار من أعيان مماليكه ، ثم صار فى خدمة السلطان الاشرف خليل من جملة أعيان الأمراء الى ان قتل عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م(١٣) ٠

وفى سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين ٦٩٦ - ٦٩٨هـ/ ١٢٩٧ - ١٢٩٩م استقر الرأى على نزول الخليفة العباسى من القلعة الى مناظر الكبش(١٤) ، وابعاد الملك الناصر محمد الى الكرك٠وكان سلار من الأمراء الذين اشترطوا على لاجين أن يكون كأحدهم ولا ينفرد برأى عنهم ولا يسلط يد أحد من مماليكه ، فلما تسلطن رتب سلار استادارا(١٥) ٠

ثم كان أن اتفق الأمراء علىاعادة الملكالناصر محمد من الكرك فكانت سلطنته الثانية ٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٨ - ١٣٠٨م ٠ وقد توجه من القاهرة بطلبه الأمير الحاج آل ملك والأمير الجاولى ، وذلك بعد قتل السلطان لاجين ٠ وولى السلطان الناصر الأمير سلار نيابة السلطنة(١٦) ، فقد أورد ابن حبيب ما نصه « وفى جمادى الأولى منها ولى الأمير سيفالدين سلار المنصورى نيابة السلطنة بالديار المصرية عوضا عن الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى بحكم قتله »(١٧) ٠

مما تقدم يتضح أن بداية صحبة الجاولى لسلار كانت فى سلطنة الملك العادل زين الدين كتبغا ، وقد توطدت هذه الصداقة فى سلطنة الناصر محمد الثانية ٠ وترتب على ذلك أن صار الجاولى يدخل على الملك الناصر ويخرج ويراعى مصالحه فى أمر الطعام ويتقرب اليه ، حتى صار استادارا(١٨) ٠

ويتضح ذلك من النص التاسيسى لضريح سلار والذى ينص على انه كان يشغل وظيفة « نائب السلطنة المعظمة » ، كمــا يتضح من النص التاسيسى لضريح الجاولى انه كان يشغل وظيفة « استادار العالية » ، وذلك فى سلطنة الملك الناصر محمد الثانية ، وكــل من النصين مؤرخ بتاريخ سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ٠

وفيما يتعلق بالجانب الأثرى ، فان سلطنة الملك الناصر محمد الثانية فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م شهدت الفراغ من عمارة منشاة دينية على قدر كبير الأهمية من الناحيتين المعمارية والزخرفية ، اقترنت بهذين الأميرين : علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سلار المنصورى ٠ وقد ادى ذلك الى خلاف فى الراى حول نسبتها الى اى منهما ٠ كذلك حدث خلاف حول تسميتها ،وماهية الوظيفة التى كانت تؤديها ،اذ نعتت بعدة مسميات فذكرت فى المصادر التاريخية والاثرية فى قائمة المدارس والخانقاوات والمساجد ، الأمر الذى سنتعرض له لاحقا بالبحث والدراسة ٠

أعمــال ســلار :

نهض الأمير سلار فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وذلك عقب زلزلة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م بعمارة جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر ، والجامع الأزهر، والجامع العمرى بمصر ٠ يقول المقريزى فيما يتعلق بجامع عمرو مانصه « وتولى الأمير سلار عمارة جامع عمرو بمصر ، فاعتمد سلار على كاتبه بدر الدين ابن خطاب فهدم الحد البحرى من سلم السطح الى باب الزيادة البحرية والشرقية واعاده على ما كان عليــه »(١٩) ، اما فيما يتعلق بالجامع الأزهر فقد اورد ما نصه « وتولى الأمير ســلار عمارة الجامع الأزهر »(٢٠) ، وفى ذلك يذكــر بدر الدين العينى « وتصدى الأمير سيف الدين سلار لعمارة الجامع الأزهر واصلاحه واصلاح ماذنته واصلاح الواجهة التى وقعت ، وجدد فيه جميع اماكنه ، وبلطه وبيضه ، وانفق عليه نفقات كثيرة ، وكان للأمير شمس الدين سنقر الأعسر مشاركة له فى الجامع الأزهر(٢١)» ٠

كذلك أورد العينى فيما يتعلق بالجامع العمرى ما نصه « أصلح

الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ما هدم من الجامع العمرى بمصر وصرف عليه مالا جزيلا »(٢٢) ٠

وقد شهدت سلطنة الملك الناصر محمد الثانية فى عام ٧٠٦هـ/١٣٠٦م نزاعا كبيرا بين الأميرين بيبرس وسلار بسبب خلاف وقع بين كاتب بيبرس التاج بن سعيد الدولة وصديق سلار الأمير الجاولى ، حيث قام بيبرس فى نصرة كاتبه وقام سلار فى نصرة صاحبه ٠ وكادت الفتنة أن تقع بينهما ، ولكنهما استدركا أمرها خوفا من الملك الناصر ، وخرج تاج الدولة بخلعة الوزارة من دار النيابة بقلعة الجبل الى قاعة الصاحب بها ، فى حين امسك بيبرس الأمير الجاولى وصادره ثم نفاه الى دمشق على امرة طبلخاناه(٢٣) ، وولى مكانه استادارا الأمير ايدمر الخطيرى٠ وبعد وصول الجاولى الى الشام بمدة انعم عليه باقطاع وامرة(٢٤) ٠

على أن السلطان الناصر محمد لم يلبث أن ضاق بالحجر عليه من قبل الأميرين بيبرس وسلار ، فخرج فى شوال ٧٠٨هـ/١٣٠٨م الى الكرك بعد أن تظاهر بتوجهه الى الحجاز الشريف٠وهناك استقر بقلعتها مقيما وأعرض عن الملك (٢٥) ٠

وكان أن رأى الأمراء تولية الأمير سلار عرش السلطنة ، ولكنه اعتذر خوفا من بيبرس ، فوقع اختيارهم على بيبرس وبايعوه بالسلطنة فى عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م ، وعين سلار نائبا للسلطنة ٠ ومن مآثر سلار فى هذا العام بناء خان بحمراء بيسان(٢٦) ، وهو ما أشار اليه ابن حبيب بقوله « وفيها بنى الأمير سيف الدين سلار المنصورى خانا بحمراء بيسان وحصل به رفق كثير للمسافرين »(٢٧) ٠

ومن ناحية أخرى ، فان نفوذ الناصر محمد أخذ يزداد أثناء اقامته بالكرك حتى صارت الأمور ممهدة له لاسترداد عرشه فى مصر وعندئذ خرج من دمشق فى رمضان ٧٠٩هـ/١٢٩٩م ودخل مصر حيث استقبل استقبالا حافلا شارك فيه سلار وبقية الأمراء ، وبذلك بدأت سلطنته الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١هـ/١٣٠٩ - ١٣٤١م) ٠ وكان سلار قد كتب الى الملك الناصر بنزول بيبرس عن الملك وسير بذلك اصلم الدوادار ، ثم خرج سلار للقائه،

وقدم سماطا جليلا بلغت النفقة عليه اثنى عشر الف درهم(٢٨) ٠

كذلك قدم سلار للملك الناصر عدة من المماليك والخيول والجمال وثياب القماش ما قيمته مائتا ألف درهم ، فقبل السلطان شيئا ورد الباقى ٠ وطلب سلار الاعفاء من الامرة والنيابة وان ينعم عليه بالشوبك(٢٩) فاجيب الى ذلك ٠ ولما فرغ السلطان من أمر بيبرس واصحابه ولم يبق عنده من يخشاه سوى سلار ، كتب اليه كتابا بحضوره فاعتذر سلار ، ثم ارسل السلطان الأميرين بيبرس الدوادار وسنجر الجاولى لاحضاره ، فوعدهما ان يحضر وكتب بذلك ، وبعد ان استشار سلار اصحابه توجه الى مصر فقبض عليه وسجن بقلعة الجبل(٣٠) ، حيث توفى بعد قليل ، فى ربيع الآخر سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م ، وقيل فى العشرين من جمادى الآخرة(٣١) ٠

واغلب الظن أنه توفى فى ربيع الآخر ، فقد أورد ابن حبيب ما نصه « وفى سلخ ربيع الآخر منها قبض على الأمير سلار»(٣٢) ٠ وكان سلار ذا حشمة ورياسة ، اقترح اشياء من الملابس كثيرة مثل السلارى وغيره(٣٣) ٠ ومن جملة صدقاته أنه بعث الى مكة فى عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م فى البحر عشرة آلاف أردب قمح ففرقت فى أهل مكة ٠ وكذا فعل بالمدينة ٠ وكان فارسا اذا لعب الكرة لا يرى فى ثيابه عرق ٠ وكذا فى الرمح ٠ وله اليد البيضاء فى قتال التتار ٠ وكان رنكه(٣٤) أبيض وأسود(٣٥) ٠

وقد أذن السلطان للجاولى ان يتولى خزانة سلار وجنازته ودفنه فدفن بتربته عند الكبش ، وأخذ السلطان ما كان له من الرزق(٣٦) وغيرها وأضاف ذلك لخاص السلطان(٣٧) ٠

أعمال الجاولى فى الشام :

أما عن الجاولى فلم يزل بدمشق منذ نفاه بيبرس الى أن تحرك الناصر محمد من الكرك ، ولم يكن له فى سلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس حل ولا عقد ولذلك قدم مع الناصر محمد الى مصر حيث ولاه وظيفة شد الدواوين(٣٨) ٠

وقد ظل الجاولى بمصر حتى ولاه الملك الناصر نيـــابة غزة فى جمادى الأولى ٧١١هـ/١٣١١م وأضاف اليه الســاحل والقــدس وبلد الخليل(٣٩) وجبل نابلس(٤٠) كما اعطاه اقطاعا كبيرا ، بحيث كان للواحد من مماليكه اقطاع بعمل عشرين الفا وخمسة وعشرين الفا(٤١).

وكانت غزة تارة تكون نيابة وتارة تكون تقدمة عسكر ، ومقدم العسكر بها يراجع نائب الشام فى أموره . وقد أورد القلقشندى نسخة تقليد بنيابة غزة كتب به للأمير علم الدين الجاولى من انشــاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى ، كما أورد نسخة تقليد بتقدمة العسكر بغزة المحروسة(٤٢) .

وقد شهدت غزة نهضة عمرانية كبيرة فى عهد الجاولى ، بل أنه يمكن القول ان الجاولى يعد من خيرة النواب الذين تولوا غزة خــلال العصر المملوكى، فقد أورد ابن حبيب ما نصه «ولى نيابة غزة عدة سنين، ومدنها ومضرها ، وعمــر بها جامعــا محكما ، ومدرســة للشافعية وبيمارستانا ، وقصرا للنيابة ، وحماما انيقا ، وخانا للسبيل ، وله أوقاف غير ذلك ، وبر ومعروف(٤٣)» ، وكان أن شهدت مدينة غزة فى عهد الجاولى ازدهارا كبيرا فى منشآتها الدينية والمدنية والحربية . وتميزت هذه المنشآت بالروعة والفخامة . وقد أورد ابن بطوطة - وهو معاصر - وصفا رائعا لمدينة غزة ، فقال ما نصه « ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة ، وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر ، متسعة الأقطار ، كثــيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد العديدة والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامع حسن(٤٤)» .

كذلك شهدت بقية المدن التى اضيفت للجاولى ازدهارا كبيرا ، فقد أورد ابن بطوطة عند زيارته الخليل « وهى مدينة صغيرة المساحة ، كبيرة المقدار ، مشرقة الأنوار ، حسنة المنظر ، عجيبة المخبر ، فى بطن واد ، ومسجدها أنيق الصنعة ، محكم العمل ، بديع الحسن ، سامى الارتفاع، مبنى بالصخر المنحوت(٤٥)» .

أما بيت المقدس فقد قال عنها « ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله ، ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله ﷺ تسليما ، ومعرجه الى السماء ، والبلد كبيرة منيفة بالصخر المنحوت(٤٦) » ٠

كذلك قال عن الرملة ما نصه « ثم سافرت منها (عسقلان) الى مدينة الرملة وهى فلسطين ، مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ، حسنة الأسواق ، وبها الجامع الأبيض(٤٧) » ٠ ثم قال عن نابلس « ثم خرجت منها (الرملة) الى مدينة نابلس ، وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الانهار من اكثر بلاد الشام زيتونا ، ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق ، وبها تصنع حلواء الخروب ، وتجلب الى دمشق وغيرها ٠٠٠ والمسجد الجامع فى نهاية الاتقان والحسن ، وفى وسطه بركة ماء عذب(٤٨) » ٠

وقد تميزت عمائر الجاولى بالروعة والفخامة ، أورد ابن بطوطة وصفا رائعا للجامع الجاولى بغزة ، فقال « والمسجد الذى تقام به الجمعة فيها بناء الأمير المعظم الجاولى ، وهو أنيق البناء ، محكم الصنعة ومنبره من الرخام الأبيض(٤٩) » ٠

ويقع هذا الجامع فى الطرف الجنوبى الشرقى لمدينة غزة ٠ وقد أمدنا القاضى مجير الدين الحنبلى فى الأنس الجليل بمعلومات غاية فى الأهمية عن هذا المسجد ، حيث يقول « ويظاهر السور السليمانى من جهة الشرق مسجد فى غاية الحسن،وبين السور السليمانى وهذا المسجد الدهليز وهو معقود مستطيل عليه الابهة والوقار ، والذى عمر هذا الدهليز والمسجد الأمير ابو سعيد الجاولى ناظر الحرمين الشريفين (حرم الخليل عليه السلام ، وحرم القدس) ونائب السلطنة،فعرف هذا المسجد بالجاولية وهو من العجائب(٥٠) » ٠

وقد ورد فى الأنس الجليل ان الابتداء فى عمارة هذا المسجد كان فى ربيع الآخر ٧١٨هـ/١٣١٨م وكان الفراغ من العمارة فى ربيع الآخر ٧٢٠هـ/١٣٢٠م ، وقد نقش فى جداره ان سنجر عمر ذلك الجامع من خالص ماله ، ولم ينفق عليه شيئا من مال الحرمين(٥١) ٠ واغلب الظن

أن الجامع بنى فى عام ٧١٤هـ/١٣١٤م ، حيث عثر على النص التأسيسى منقوشا على حجر نقل الى الجامع الشمعة(٥٢) بحى الزيتون بغزة،ضمن الأحجار التى نقلت اليه بعد تهدم الجامع الجاولى . ويحمل هذا النقش تاريخ انشاء الجامع ، الا أنه غير مكتمل ، حيث ورد ما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا اللـــه فعسى أولئـــك أن يـكونوا من المهتدين . أمر بانشاء هذا الجامع المبارك ابتغاء مرضات الله واتباع سنة رسول الله العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبد الله الجاولى الملكى الناصرى نائب السلطنة الشريفة بالأعمال الساحلية والجبلية بغزة المحروسة، أعز الله أنصاره بتاريخ ذى الحجة سنة أربعة ... »(٥٣) .

ولما كانت ولاية الجاولى قد بدأت بغـــزة فى جمادى الأولى عام ٧١١هـ/١٣١١م وانتهت فى الثامن عشر من شعبان سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م فمن المرجح أن تاريخ انشـــاء الجامع كان فى ذى الحجة سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م .

أورد القاضى مجير الدين عن هيئة المسجد أنه قطع فى جبل . قيل ان مكانه كان مقبرة يهود ثم قطعه الجاولى وجوفه ، وشيد السقف والقبة. وهو مرتفع على اثنتى عشرة سارية قائمة فى وسطه ، وفرش أرض المسجد وحيطانه وسواريه بالرخام ، وعمل شبابيك حديد على آخره من جهة الغرب . اما فيما يتعلق بذرع المسجد فقد ذكر ان هذا المسجد طوله من القبلة بشام ثلاثة وأربعون ذراعا وعرضه شرقا بغرب خمســـة وعشرون ذراعا بذراع العمل(٥٤) .

كذلك انشأ الجوالى بغزة مدرسة للشافعية تقدم ذكرها ، ومـــن المرجح أنها شيدته على غرار مدرســـته بقلعـــة الكبش وانشـــأ بها بيمارستانا ووقف عليه عن الملك الناصر محمد أوقافا جليلة(٥٥) ، وجعل النظر فيه لنواب غزة ، وكان قسما منه مخصصا لمداواة أصحاب الأمراض العصبية . وظل هذا البيمارستان عامرا حتى عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م حيث خرب خلال الحملة الفرنسية(٥٦) .

ومن مآثر الجاولى بغزة انه عمر قصرا للنيابة ، وحماما أنيقا ، وخانا للسبيل(٥٧) ، والميدان ؛ كما شيد جامعا ببلد الخليل عليه السلام، وشيد جامعا فى لد(٥٨) من عمل الرملة(٥٩) . كذلك شيد خانا بقاقون(٦٠) ، وخانا بقرية الكثيب ، والقناطر بغابة ارسوف ، وخان رسلان بحمراء بيسان ، وقد تميزت عمائره بالروعة والفخامة ، يقول المقريزى ما نصه«وسائر عمائره ظريفة أنيقة محكمة متقنة مليحة»(٦١). ومن مآثره أيضا ما أورده ابن حبيب فى حوادث عام ٧١٣هـ/١٣١٣م « فيها رسم السلطان ايده الله باجراء الماء من عين بلد الخليل عليهالسلام الى القدس الشريف ، فامتثل ما رسم به وباشر اجراءه وما يحتاج اليه من العمارة الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، واهتم به واجتهد فيه الى ان وصل الماء الى بيت المقدس ، وارتفق الناس به »(٦٢) .

وقد قيل عن هذه العمارة :

طوبى لملك ليس يحصر أجره
اجرى القناة بارض بيت المقدس
روى الورى وعن الحيا اغناهم
واليهم أهدى حياة الأنفس(٦٣)

وفى تلك السنة أيضا ندب السلطان الأمير علم الدين سنجر الجاولى لعمل الروك بدمشق(٦٤) .



وقد ظل الأمير الجاولى يباشر نيابة غزة حتى ساءت الأحوال بينة وبين الأمير تنكز نائب الشام بسبب دار كانت له تجاه جامع تنكز خارج دمشق من شمالها ؛ اراد تنكز أن يبتاعها منه فابى عليه ، فكتب فيه الى الملك الناصر محمد فامسكه فى ١٨ شعبان ٧٢٠هـ/١٣٢٠م واعتقله نحوا من ثمان سنين.وقيل أمسكه بسبب أنه لما راك البلاد الشامية اختار لمماليكه خيار الاقطاعات فلم يعجب تنكز . ثم لما أمر الناصر أمراء البلاد كلها اختار أن يكون تنكز واسطة بينهم وبين الناصر ، فغضب الجاولى ، ونم

عليه بعض مماليكه بأنه يريد أن يهرب الى اليمن ، فأرسل الناصر محمد من قبض عليه(٦٥) .

ثم أطلق الملك الناصر سراح الجاولى فى عـــام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م ، وقيل فى عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م وأعطاه امرة أربعين ، ثم اعطاه بعد مدة امرة مائة وقدمه على الف ، وجعله من أمراء المشورة . وفى ذلك يقول ابن حبيب عن الجاولى « أحد أمراء المشورة الذين يجلسون فى حضرة السلطان ، كان كبيرا جليلا ، اثيرا اثيلا ، مدبرا مشيرا ، عارفا لسياسة الملك ، خبيرا سمع الحديث ورواه ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وافتى وصنف ، واجتمع بأهل العلم وأحسن اليهم(٦٦) »، وقد قضى الجاولى فترة اعتقاله ينسخ القرآن وكتب الحديث(٦٧).

ولم يزل الجاولى من أمراء المشورة الى أن توفى الملك الناصر محمد ابن قلاوون عام ٧٤١هـ/١٣٤١م ، فتولى غسله ودفنه . وكان الجاولى قد أشار عليه أن يعهد بالملك الى أحد أولاده ، فأجاب الى ذلك وجعل ابنه أبا بكر سلطانا(٦٨) .

وفى عهد الملك الصالح اسماعيل بن الناصر محمد ٧٤٣ -٧٤٦هـ/ ١٣٤٢ - ١٣٤٥م تولى الجاولى نيابة حماه(٦٩) عوضـــا عن الأمير طقزدمر ، فاقام بها مدة ثلاثة أشهر ، ثم نقل الى نيابة غزة ، فاقام بها نحو ثلاثة أشهر أخرى ، ثم احضره الى القاهرة ، وقـــرره على ماكان عليه ، وولى نظر البيمارستان(٧٠) بعد نائبالكرك عندما اخرج الى نيابة طرابلس (البيمارستان المنصورى) . ثم توجه لحصـــار الناصر أحمد بن الناصر محمد وهو فى الكرك ، وبالغ فى حصاره حتى تمكن من قتله وعاد الى مصر ولم يزل على حاله الى أن توفى فى منزله بالكبش يوم الخميس تاسع رمضان ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ، ودفن بمدرسته وخانقاته ، وكانت جنازته حافلة الى الغاية(٧١) .



وفيما يلى دراسة لمنشآت الجاولى وسلار فى تلك الفترة المزدهرة من تاريخ دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام .

مدرسة وخانقاه سنجر الجاولى بالكبش ٧٠٣هـ/١٣٠٣م (شكل ١) (لوحة ١) :

شهدت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية فى عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م الفراغ من عمارة المدرسة الناصرية(٧٢) ببين القصرين ، كذلك شهدت ايضا فى نفس العام الفراغ من عمارة مدرسة وخانقاه الأمير الجاولى ، وهى منشأة دينية على قدر كبير من الأهمية ، اذ لعبت هذه المنشأة مع المدرسة الناصرية دورا بالغ الأهمية فى تطور العمارة الدينية من الناحيتين المعمارية والزخرفية بمصر خلال العصر المملوكى الاول من جهة ونظرا لما أثير حولها من آراء من جهة أخرى . ذلك انها اقترنت باميرين جليلين من أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون هما الأميران علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سلار المنصورى ، وهو الأمر الذى اثار نقاشا حول نسبتها الى أى منهما ، فضلا عن الخلاف حول تسميتها ، وماهية الوظيفة التى كانت تؤديها .

اما فيما يتعلق بتاريخ انشاء هذه المنشأة فان النصوص التأسيسية التى وجدت أعلى عتب المدخل العمومى (لوحة ٢) ، واعلى ضريح سلار ، واعلى ضريح الجاولى تشير الى أن الانتهاء من الانشاء كان فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م بما نصه « عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » ، وهو الأمر الذى يؤكد ان ما ذكره المقريزى من أن عمارتها تمت فى عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ليس صحيحا . وقد أشار المقريزى الى ذلك فى موضعين فذكر المدرسة الجاولية فى المدارس ، والخانقاة الجاولية فى الخانقاوات ، وقال « انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة »(٧٣) .

اما فيما يتعلق بمنشئها فقد اختلفت الآراء كذلك فى نسبتها الى أى من الأميرين الجاولى وسلار ، حيث أنه على الرغم من ان النصين التأسيسيين المدونين على الضريحين الملحقين بهذه المنشأة تضمنا ماهية المكان واسم المنشىء والقابه ووظيفته وتاريخ الانتهاء من الانشاء ، الا أن النص التأسيسى المدون أعلى المدخل العمومى والنصوص التاريخية المدونة على جدران المنشأة ذاتها لم تتضمن اسم المنشىء ، وهو الأمر الذى جعل

الأستاذ حسن عبد الوهاب يرجح نسبة هذه المنشاة الى الأمير سلار ،على الرغم من ان معظم المصادر التاريخية تنسب هـــذه المنشاة الى الأمير الجاولى . وقد جاء ترجيح الأستاذ حســـن عبد الوهاب اعتمادا على ما ذكره المؤرخ ابراهيم بن مغلطاى عند ذكره وفاة سلار ونصه (ونقل الى تربته التى على الكبش فدفن فيها». وكذلك اعتمادا على مشكاة له يقرأ عليها ما نصه « مما عمل برسم تربة العبد الفقير الى اللــــه تعالى سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة عفا الله عنه »(٧٤) .

والواقع إن ما استند اليه الأستاذ حسن عبد الوهاب نقلا عن المؤرخ ابراهيم بن مغلطاى لا يرجح أن منشئها هو سلار ، حيث ان المنشــأة تحتوى على ضريحين متجاورين (لوحة ١) أحدهما الذى تقدم ذكره والخاص بسلار ، والآخر الملاصق له وهو خاص بالجاولى ، وقد أجمع المؤرخون على ان كلا من الأميرين دفن بتربته التى على الكبش . أما فيما يتعلق بما ورد على المشكاة من كتابات ، فهى ايضا لا ترجح نسبة المنشاة لسلار لأنه من الضرورى أن ضريح الجاولى كان يحتوى على مشكاوات مماثلة لمشكاة سلار وان لم تصل الينا. وأرجح أنها كانت تحتوى على كتابات نصها « مما عمل برسم تربة العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبد اللـــه الجاولى استادار العالية عفا الله عنه » ، حيث أن الضريحين شيدا فى تاريخ واحد هو عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن ما استند اليه الأستاذ حسن عبد الوهاب فى نسبة المنشاة الى الأمير سلار يمكن أن يستند اليه فى نسبة المنشاة للأمير الجاولى .

ونرجح أن منشئها هو الأمير الجاولى . وقـــد أورد المقريزى فى السلوك ما نصه « ومات الأمير علم الدين سنجر .. ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش»(٧٥) ، كما أورد فى الخطط عند ذكره المدارس « هـــذه المدرسة بجوار الكبش فيما بين القاهرة ومصر ، انشاها الأمير علم الدين سنجر الجاولى »(٧٦) ، كما أورد عند ذكره الخانقاوات « هذه الخانقاة على جبل يشكر بجوار مناظر الكبش فيما بين القاهرة ومصر انشاها الأمير علم الدين سنجر الجاولى »(٧٧).

كذلك أورد ابن حجر فى الدرر عند ذكره الجاولى ما نصه « وهو صاحب المدرسة التى بالكبش »(٧٨) . كما أورد ابن تغرى بردى فى النجوم فى حوادث عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م عند ذكره وفاة الجاولى « ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش(٨٩) » . وأورد ابن اياس فى بدائع الزهور عند ذكره وفاة سلار ما نصه « ولما مات بالقلعة ، غسل وكفن ، ودفن فى المدرسة الجاولية ، التى عند الكبش»(٨٠) . وذكر فى موضع آخر عند ذكره وفاة الجاولى ما نصه « توفى الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وهو صاحب المدرسة المعروفة به(٨١)» ، كذلك قال ابن العماد الحنبلى ما نصه « وبنى .. وخانقاه بظاهر القاهرة .. ودفن بالخانقاه التى انشأها(٨٢)» .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه فى ضوء عدم العثور على وثيقة للأمير سلار فان معظم المؤرخين الذين ذكروا وفاة الأمير سلار لم يرد فى مؤلفاتهم انه انشأ مدرسة أو خانقاه و جامع بالكبش أو أى عمارة دينية داخل مصر أو خارجها ، وهو أمر غير مألوف ، لما كان عليه سلار من جاه وثراء . يقول ابن حبيب عنه ما نصه «ولى نيابة السلطنة بالديار المصرية اكثر من عشر سنين ، وبلغ من التمكن ونفاذ الكلمة والاستقلال بالأمر وكثرة الاقطاعات وسعة الأموال والمتاجر وغير ذلك ما لم يبلغه نائب سلطنة قبله(٨٣)». واذكر من بين هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال ابن شاكر الكتبى فى وفاة الوفيات(٨٤) ، وابن حبيب فى تذكرة النبيه(٨٥) ، والمقريزى فى السلوك(٨٦)، وفى الخطط المقريزية(٨٧)، وابن حجر فى الدرر(٨٨) ، وابن تغرى بردى فى النجوم(٨٩) ، وفى المنهل الصافى(٩٠) ، وابن اياس فى بدائع الزهور(٩١) . ومما يرجح أيضا أن منشئها هو الامير الجاولى ، أن دار الجاولى كانت بمناظر الكبش مجاورة لهذه المنشأة الدينية ، وهى الدار التى كان يسكنها . وقد كانت للجاولى دار أخرى جعلها وقفا على هذه المنشاة ، اذ يذكر المقريزى ما نصه « هذه الدار من جملة الحجر ... وهى تجاه الخان المجاور لوكالة قوصون انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى وجعلها وقفا على المدرسة المعروفة بالجاولية بخط الكبش جوار الجامع الطولونى ، وعرفت فى زماننا بقاعة البغاددة لسكنى عبد الصمد الجوهرى البغدادى بها هو

وأولاده ... وهى من الدور الجليلة الا انها قد تشعشت لطول الزمن(٩٤)». وفى ضوء هذه الحقائق يتضح ان الأمير الجاولى هو الذى قام بانشاء هذه المنشاة الدينية وليس سلار .

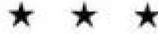
اما دار الأمير سلار فقد كانت بخط بين القصرين بعيدة تماما عن هذه المنشاة ، اذ يذكر المقريزى عند ذكره رحبة سلار(٩٥) « ودار الأمير سلار نائب السلطنة هى أيضا من جملة الفضاء الذى بين القصرين»(٩٦)، وقد تعرضت هذه الدار لحريق فى عام ٧٢١هـ/١٣٣١م (٩٧) . يذكر الأستاذ محمد رمزى انها اندثرت ، وكانت واقعة على يسار الداخل فى درب قرمز فى المنطقة التى تحد الآن من الجنوب بدرب قرمز وكان فيه الباب ، ومن الشرق بعطفة قرمز ، ومن الشمال بشارع التمبكشية بقسم الجمالية بالقاهرة(٩٨) .

وقد كانت للأمير سلار دار أخرى ، وهى دار النيابة بالقلعة(٩٩).

ومما يرجح نسبة هذه المنشاة الى الأمير الجاولى اضافة لما تقدم ، أن هذا الأمير كان مولعا بتشييد العمائر بصفة عامة،والعمائر الدينية بصفة خاصة ، وقد أورد السبكى ما نصه « وكان رجلا فاضلا يستحضر كثيرا من نصوص الشافعى وصنف (شرح مسند الشافعى)» . جمعه من شروح الرافعى وابن الأثير وشرح مسلم للنووى ، ونقل عبارة كل واحد بنصها وله عمائر كثيرة : خانات ومدارس وغيرها(١٠٠). هذا بينما اهتم الأمير سلار بجمع المال فلم يشيد سوى خان بحمراء بيسان وهو الخان الذى تقدم ذكره(١٠١) .

وأرجح أن الجاولى هو الذى شيد للأمير سلار تربته التى بالكبش حتى يدفن بجواره ، واختصه بالضريح الاكبر مساحة تقديرا له واعترافا بفضله فى ترقيه خلال عهود السلطان العادل زين الدين كتبغا ، والسلطان حسام الدين لاجين ، والسلطان الناصر محد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، فقد ربطت بينهما صداقة وطيدة يدل عليها ما أورده ابن تغرى بردى ونصه « فاخذه الأمير علم الدين سنجر الجاولى باذن السلطان وتولى غسله وتجهيزه ودفنه بتربته التى انشاها بجانب مدرسته

على الكبش خارج القاهرة بالقرب من جامع ابن طولون بصداقة كانت بين الجاولى وسلار قديما وحديثا(١٠٢)» ٠



اما عن تسمية هذه المنشاة وماهية الوظيفة التى كانت تؤديها فقد نعتت بعدة مسميات فذكرت فى عداد المدارس والخانقاوات والمساجد، نظرا لعدم العثور على وثيقة تحدد وظيفتها تحديدا دقيقا ٠ من ذلك أن المقريزى ذكرها فى المدارس فاورد ما نصه « هذه المدرسة بجوار الكبش٠٠ انشاها الأمير علم الدين سنجر الجاولى وعمل بها درسا وصوفية ولها الى هذه الأيام عدة أوقاف(١٠٣)» ، كذلك ذكرها ابن حجر فاورد « وهو صاحب المدرسة التى بالكبش »(١٠٤) ، أما ابن تغرى بردى فيقول « ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش »(١٠٥) ، وقال ابن اياس ما نصه « ودفن فى المدرسة انجاولية(١٠٦) » ، وذكر فى موضع آخر « وهو صاحب المدرسة المعروفة به » (١٠٧) ، أما على مبرك فقد ذكرها ضمن المدارس(١٠٨) ٠

كذلك أطلق عليها اسم خانقاه ، فذكرها المقريزى فى الخانقاوات وأورد ما نصه « هذه الخانقاة على جبل يشكر ٠٠ وقد تقدم ذكرها فى المدارس(١٠٩) ٠ أما ابن العماد فاورد « ٠٠٠ ودفن بالخانقاه التى انشأها »(١١٠) ، أما على باشا مبارك فقد ذكرها من جملة الخانقاوات(١١١) ٠ كذلك عرفت بالجامع فذكرها على باشا مبارك فى الجوامع ، كما أطلق عليها مدرسة وجامع ، حيث وردت فى فهرس الاثار الاسلامية بمدينة القاهرة « مدرسة ومسجد »(١١٢) ويذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب أن تصميم هذه المنشاة شاذ عن تصميم المساجد والمدارس فلا هو مسجد ولا هو مدرسة ، كما ان النصوص التاريخية لم تحدد ذلك، ويرى أنه أقرب الى تصميم الخوانق(١١٣) ٠

وأرى أن الأمير الجاولى انشاها مدرسة للشافعية وشيد على غرارها مدرسة للشافعية بغزة(١١٤) ، فقد أورد السبكى ما نصه « وعمل نيابة السلطنة بغزة مدة فبنى بها مدرسة للشافعية(١١٥) » ، كما أورد مانصه

« وله عمائر كثيرة : خانات ومدارس »(١١٦) ٠

وقد ذكر المقريزى(١١٧) هذه المنشاة فى مواضع عديدة باسـم مدرسة ، بينما لم يذكرها سوى مرة واحدة باسم خانقاة ، كما أطلق عليها كل من ابن حجر فى(١١٨) الدرر ، وابن تغرى بردى(١١٩) فى النجوم ، وابن اياس(١٢٠) فى بدائع الزهور مسمى (مدرسة) ٠

ومما يرجح أن الجاولى انشأها مدرسة ما أورده ابن تغرى بردى فى حوادث عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣م ونصه « وتوفى القاضى شـهاب الدين أبو العباس احمد بن الضياء المناوى الشافعى شيخ المـدرسة الجاولية بالكبش »(٢١) ٠

وكان يدرس بهذه المدرسة الفقه الشافعى ، كما كان يدرس بمدرسته بغزة ،بجانب حضور وظيفة التصوف ، وهو الأمر الذى عبر عنه المقريزى بقوله « وعمل بها درسا وصوفية(١٢٢) » ٠ ومن الملاحـظ أن تدريس المذهب الواحد لم يقتصر على المدارس ذات الايوان الواحد مثل المدرسة البقرية(١٢٣) ، ومدرسة ايتمش(١٢٤) ، بل درس أيضا بالمنشآت ذات الايوانين كما فى جامع السنبغا البوبكرى(١٢٥)، كما درس فى المدارس ذات الأربعة ايوانات كما فى مدرسة صرغتمش(١٢٦) ٠ وكذلك درس المذهب الواحد فى مدارس تخطيطها من أروقة دون الصـحن كما فى المدرسة الطيبرسية(١٢٧) ٠ وهكذا نجد أن طلبة العـلم أصبحوا هم الصوفية المنزلين ، وهو الأمر الذى أوضحه المقريزى وتقدم ذكره ، لذا فانه يمكن اطلاق مسمى مدرسة وخانقاه الأمير علم الدين سنجر الجاولى على هذه المنشاة ، خاصة وأنه لم يكن ثمة فرق كبير بين عمارة المدرسة وعمارة الخانقاة فى تلك المرحلة ٠



دراسة تحليلية لمدرسة وخانقاه الجاولى

أولا : الواجهة (لوحة ١) :

تشرف مدرسة وخانقاه الجاولى على الشارع العمـومى (شارع

مراسينا) من خلال واجهة حجرية بديعة فى الجهة الشمالية الشرقية ، يبلغ طولها ٢١٫٦٣ مترا ، كما يبلغ ارتفاعها حتى قمة الشرافات المسننة حوالى ١٣٫٣٤م ، وفى الطرف الأيسر يوجد المدخل العمومى ٠ وقد قسم المعمار هذه الواجهة الى ثلاثة مستويات الأول من أسفل شيد على الصخر مباشرة ينتهى بشطف حجرى ٠ ثم يبدأ منه المستوى الثانى الذى يتكون من تسعة مداميك حجرية خالية من الزخرفة تتوجه حلية قالبية تمتد بامتداد الواجهة والمدخل ، ثم يلى ذلك المستوى الثالث والذى يتكون من احدى وعشرين مدماك حجرى ، ويزدان هذا المستوى الأخير بست دخلات مستطيلة رائعة ترتكز على المدماك الأول الذى يلى الحلية القالبية مباشرة وتتوج هذا المستوى حلية حجرية ثانية تمتد بامتداد الواجهة والمدخل على غرار الحلية الأولى ، وقد أوجد المعمار الحليتين كاطارين للدخلات من أسفل ومن أعلى ٠

والواقع أن الواجهة فى مجملها تمثل مرحلة متطورة للغاية ، حتى اننا نكاد نلمس بها روح واجهات عمائر القاهرة الدينية الجركسية ٠ ويظهر هذا التطور واضحا جليا فى الدخلات التى تزدان بها فى المستوى الثالث ، حيث تميزت بتصميماتها المعمارية الدقيقة ، وزخارفها النباتية والهندسية البديعة ، ومقرنصاتها الزخرفية الرائعة التى تنوعت بين مقرنصات بلدية وحلبية ٠ وقد أراد المعمار فوق ذلك اعطاء هذه الواجهة مظهر الروعة والفخامة فأقام قبتين جميلتين ومئذنة غاية فى الروعة ، كما أوجد تناسقا معماريا بديعا بين عمارة المئذنة وبين القبتين ٠ وكذلك أوجد تناسقا زخرفيا رائعا بين تضليعات مبخرة المئذنة وبين تضليعات كل من القبتين فجاءت هذه الواجهة بحق من أجل واجهات عمائر القاهرة الدينية فى عصر دولة المماليك البحرية ٠

وقسم المعمار دخلات الواجهة الى قسمين ، بحيث يشرف كل من الضريحين على الشارع العمومى من خلال ثلاث دخلات ، تفصل بينها واجهة الجدار الفاصل بين الضريحين ، وقد ميز المعمار الدخلة الوسطى بأن جعلها أكثر اتساعا من الدخلتين الجانبيتين ٠ أما فيما يتعلق بدخلات واجهة ضريح الجاولى (لوحة ٣) التى تقع فى القسم الأيمن من الواجهة

فقد شغل المستوى الأسفل منها بشبابيك ذات مصبعات لانارة وتهوية الضريح من الداخل ٠ ويتميز شباك الدخلة الوسطى بانه أكثر اتساعا من الشباكين الجانبيين بحيث يتناسب واتساع الدخلة نفسها ، يعلوه عتب يزدان بزخارف نباتية وهندسية قوامها اشكال خماسية هندسية تحصر بداخلها أوراق نباتية ٠ ثم يعلو العتب نفيس يزدان بزخارف نباتية قوامها ورقة ثلاثية تتوسط التكوين الزخرفى ، يخرج منها من أسفل فرع نباتى يتجه يمينا ، وآخر يتجه يسارا ، وتخرج منها أوراق احادية الفصوص ، ويعلو النفيس عقد عاتق من صنجات حجرية ٠

ويعلو كل من الشباكين الجانبيين عتب من صنجات حجرية يعلوه نفيس يزدان بزخارف نباتية على نفس النمط ، الا أن العناصر الزخرفية نفذت بحجم اقل لكى تتناسب مع المساحة المخصصة لها ٠ ثم يعلو النفيس عقد عاتق أقل ارتفاعا عن مثيله فى الشباك الأوسط ٠ يلى هذه الشبابيك شريط محفور أعد لنقش كتابى ، الا انه خال من الكتابات ٠ ويمتد هذا الشريط بامتداد الواجهة والمدخل ، وقد حلى فى بدايته ونهايته بشكل زخرفى نباتى بديع على هيئة ورقة نباتية ثلاثية يخرج منها فرع نباتى يتجه الى أعلى وآخر يتجه الى أسفل ، يشكلان حدود الشريط ٠

ويتوج هذه الدخلات مقرنصات تمثل مرحلة متطورة للغاية ٠ وجاءت مقرنصات الدخلة الوسطى من أربعه صفوف شكلت على هيئة ثلاثة تكوينات زخرفية هرمية ، يتميز التكوين الأوسط بان قمته تزدان فى داخلها بتضليعات ٠ وقد تنوعت عقود المقرنصات بين مدببة ونصف دائرية ٠ اما الدخلتان الجانبيتان فمقرنصاتهما من خمسة صفوف ذات عقود منكسرة فى شكل زخرفى بديع ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن المعمار قد نوع فى تصميم المقرنصات فى هذه الدخلات مما أوجد تباينا زخرفيا بديعا فى دخلات ضريح الجاولى ٠

اما فيما يتعلق بدخلات ضريح سلار (لوحة ٤) فهى على نفس النمط ، فيما عدا تصميم مقرنصاتها ، حيث جاءت مقرنصات الدخلة الوسطى من خمسة صفوف شكلت على هيئة اربعة تكوينات بديعة هرمية

عقودها منكسرة ، وهى بذلك تختلف ومقرنصات الدخلة الوسطى فى ضريح الجاولى،مما أوجد تباينا زخرفيا جميلا بين الدخلتين·ومقرنصات هذه الدخلة فى حالة جيدة عن تلك التى بضريح الجاولى · اما الدخلتان الجانبيتان فقد جاءت مقرنصاتهما من ثلاثة صفوف على هيئة عقد ثلاثى حلى الفص الأوسط منه فى داخله بتضليعات · وقــد تنوعت هــذه المقرنصات فى عقودها بين مدببة ونصف دائرية ، وهى بذلك تختلف وتصميم مقرنصات الدخلة الوسطى ، كمــا تختلف ومقرنصات كل من الدخلتين الجانبيتين فى ضريح الجاولى ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه ان المعمار أوجد تبيانا فى تصميم دخلات كل ضريح ، ثم أوجد تباينا آخر فى تصميم مقرنصات الضريحين ·

وتعلو الدخلات حلية قالبية حجرية ثانية ، ثم تتــوج الواجهــة شرفات هرمية من ستة مدرجات ترتكز على مدماك حجرى يعلو الحلية ، وقد زخرف التدرج الأخير للشرافات على هيئة ورقة نباتية ثنائية ·

اما فيما يتعلق بالشرافات التى وجدت بمدرسة وخانقاه الجاولى فقد تنوعت بين شرافات مدرجة (لوحة ١) ، وشرافات على هيئة زهرة الزنبق ذات الوريقات الثلاثة (لوحة ٥) وفيما يتعلق بالنوع الأول فقد وجدت بقايا من الشرافات المدرجة فى بداية العصر المملــوكى البحرى فوق المدخل الجنوبى الغربى لجامع الظاهر بيبرس ، كما تظهــر فى ضريح فاطمــة خاتون ٦٨٣هـ/١٢٨٤م ، ومجمــوعة السلطان قلاوون ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وضريح زين الدين يوسف ، ومدرسة الناصر محمد · اما النوع الثانى فانه يظر للمرة الأولى فى مصر فوق قبة الصوابى حوالى ٦٨٤هـ/١٢٨٥ - ٨٦م(١٢٨) ·

والواقع ان عنصر الشرافات ذات الوريفات الثلاثية ظهر زخرفيا قبل ان يظهر معماريا ، فقد امتدت على افريز من مئذنة جامع الحاكم بامر الله الغربية نقش حجرى زخرفى بديع علىهيئة شرافات ثلاثية الوريقات· وقد نسقت فى هذا الافريز سيقان واوراق نباتية فى اشكال هندسية بديعة متشابكة (لوحة ١٦) ·

اما المدخل العمومى فيقع فى الطرف الأيسر من الواجهة (لوحة ٧) وهو من المداخل غير المباشرة (١٢٩) بسبب طبيعة المنشأة ، فقد اقتضى الموقع ان يفتح المدخل على دركاة تؤدى بدورها الى دهليز يفضى الى داخل المنشأة ، ويرتفع المدخل عن مستوى أرضية الطريق بحوالى ٧٠ر٢م ، يتوصل اليه من خلال سلم يحتوى على درج جانبى من جهة واحدة . ويؤدى الدرج الى بسطة مستطيلة تتقدم تجويف المدخل الذى يرتفع بارتفاع الواجهة تتوجه مقرنصات زخرفية من ثلاثة صفوف : الأول من أسفل مخلق تتوجه عقود مدببة ونصف دائرية ، يليه صف من مقرنصات ذات دلاليات . اما الصف الأخير فتتناوب مقرنصاته بين غائرة ومسطحة فى تباين بديع . ويوجد على جانبى تجويف المدخل مكسلتان. يتوسط صدر تجويف المدخل فتحة باب مستطيلة اتساعها ٦١ر١ مترا ، ارتفاعها ٩٤ر٢ مترا بعمق ٣٥ سم . ويعلوها هذا العتب لوحة تأسيسية مستطيلة حليت فى طرفيها بزخرفة على هيئة ورقة ثلاثية على غرار الشريط العلوى الذى يتوج الواجهة أسفل المقرنصات ؛ وقد نقش عليها سطران بالخط النسخى (لوحة ٢) يتضمن السطر الأول نقش نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام » وفى السطر الثانى « الصلاة واتى الزكاة ولم يخش الا الله عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » ، وعلى ارتفاع مدماكين من النقش الكتابى أوجد المعمارى شباك من مصبعات لاضاءة وتهوية ايوان القبلة من الداخل باتساع ٤٣ر١ مترا وارتفاع ٨٦ر١ مترا ، ثم يلى ذلك عتب مستطيل يعلوه نقش يزدان بزخارف نباتية قوامها أفرع نباتية وأوراق احادية وثلاثية الفصوص.ثم يلىذلك عقد عاتق من صنجات حجرية فى تكوين زخرفى رائع على هيئة اشكال ثلاثية متداخلة ، يعلوه الشريط الكتابى الذى يمتد بامتداد الواجهة أسفل مقرنصات الدخلات ، ثم يتوج المدخل المقرنصات التى تقدم ذكرها .

ثانيا : التخطيط من الداخل (شكل ١) :

تتبع المدرسة والخانقاه النظام الايوانى ، حيث تتكون من صحن وايوانين خصصا للمذهب الشافعى ، يشغل الصحن ساحة مستطيلة مكشوفة يبلغ طولها ٢٩ر٩ مترا وعرضها ٧٦ر٨ مترا يغطيها سقف خشبى

حديث ، يفتح عليه من الجهة الشمالية الشرقية ايوان القبلة من خلال فتحة اتساعها ٢٫٤٠ مترا بعمق ٩٫٦٧ مترا وترتفع أرضيته عن أرضية الصحن بمقدار ٣٨سم ٠ وقد وجد ايوان القبلة فى هذه الجهة من الصحن نظرا لوجود المحراب بالجانب الأيمن من الايوان وليس بصدره ، حيث ان حنية المحراب بها انحراف شديد لمحاولة توجيهها جهة القبلة بسبب طبيعة الموقع ٠ هذا بينما نجد أن المعمار جعـــل محراب كل من القبتين الضريحيتين فى سمت الجدران(١٣٠) فى الوضع الصحيح ٠

ويغطى هذا الايوان سقف خشبى حديث ٠ وقد أوجد المعمار بهذا الايوان فى الجهة الشمالية الغربية المقابلة للمحراب دخلة يغطيها قبو مدبب زخرف اطاره الخارجى بجفت لاعب ذو ميمات ٠ وجاءت الدخلة باتساع ٥٦ر٠م بعمق ٢٨ر٠م بها دخلة مصـــمتة يتوجها عقد مدبب ترتفع عن أرضية الايوان بمقدار ٤٢ سم بعمق ٥٠سم ، تقابلها دخلة أخرى أكثر عمقا ، حيث جاءت بعمق ٥٥ر٠م ٠ وبصدر دخلة الايوان أوجد المعمار دخلة نافذة تقدم ذكرها عند ذكر المدخل ، الى اليسار منها دخلة أخرى مصمتة ٠ (لوحة ٨) ٠

اما الايوان المقابل لايوان القبلة فهو أقل مساحة يقع فى الجهـــة الغربية من الصحن (لوحة ١) ، ويفتح على هذا الصحن من خلال فتحة يبلغ اتساعها ٧٨ر٢م بعمق ٢٦ر٣م ٠ وهو يرتفع عن أرضية الصحن بمقدار ٤٥سم يغطيه قبو مدبب ٠ وقد أوجد المعمار على جانبى هـــذا الايوان حجرة تشرف على الصحن من خلال فتحة مستطيلة يتوجها عقد مدبب حـــدوى ٠

وتشرف الجهة الجنوبية الشرقية على الصحن من خـــلال أربعة مداخل ، منها مدخل فرعى للمنشأة جهة ايوان القبلة ، اما بقية المداخل فهى من فتحات مستطيلة تتوجها عقود مدببة حدوية ٠

أما الجهة الشمالية الغربية فتشرف على الصحن بدخلتين ،احداهما مجاورة لباب الدخول الى الصحن على هيئة شبه منحرف تتميز بعمقها واتساعها وارتفاعها ، حيث جاءت باتساع ٦٥ر١م ، جانبها الأيمن بعمق

٢٫٤٨م ، اما الأيسر فبعمق ٢٫٠٢م ٠ وترتفع أرضيتها عن الصحن بمقدار ٦٠سم ، سجل على يمينها تاريخ تجـديد لجنة حفظ الآثار العـربية ١٣١٦هـ٠ويغطى هذه الدخلة قبو حجرى مدبب٠اماالدخلة الثانية فهىعلى هيئة شبه منحرف ايضا الا أنها أقل عمقا واتساعا ، حيث يبلغ اتساعها ٤٠ر١م ، جانبها الأيمن بعمق ٥٧ر١م ، أما جانبها الأيسر فقد جاء بعمق ٢٢ر١م ٠ تشرف على مساكن الصـوفية والدهليز الذى يتقـدم القباب الضريحية من خلال زخارف نباتية بديعة مفرغة فى الحجر (لوحة ١٠) قوامها أوراق احادية وثلاثية الفصوص وأفرع نباتية تمثل مرحلة متطورة للغاية لزخرفة التوريق العربى (الارابسك) ٠

وقد وجدت الزخارف النباتية المفرغة فى الحجر بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز الذى يتوصل من خلاله الى القباب الضريحية بين الدعائم الحجرية الضخمة التى ترتكز عليها العقود المدببة ٠ (لوحات ١١ ، ١٢ ، ١٣) ٠

ثالثا : المئـــذنة(١٣١):

تمثل مئذنة مدرسة وخانقاه الجاولى من خـلال تكوينها المعمارى العامحلقة هامة من حلقات تطور المئذنة المصرية ، حيث احتـوت على طابق مربع المسقط يمثل القاعدة ، ثم طابق مثمن يعلوه طابق مستدير تتوجه قمة على هيئـة مبخرة ٠ وهى أول مئذنة قائمة على حالها فى عمارة مآذن القاهرة تتعاقب طوابقها مربعة فمثمنة فدائرية ٠ وهـــذا التكوين نتاج تطور محلى مرت به المئذنة المصرية منذ نشأتها(١٣٢) ٠

وترتفع القاعدة فوق مستوى الواجهة الى عـــلو ٣٨ر٦م ، وهى مربعة،تتميز باستطالتها،طول ضلعها ٥٠ر٤م ، بنيت من الحـجر٠يتوسط مدخلها واجهتها الجنوبية الغربية ، وهو مدخل يتوجه عقد ثلاثى بديع على جانبيه مكسلتان ٠ وهو مدخل فريد يماثل مدخل المنشاة الذى جهة قلعة الكبش والذى جاءت طاقيته من مقرنصات من ثلاثة صفوف (لوحة ١٤) ٠ ويظهر هذا المدخل المئذنة كانها منشاة معمارية قائمة بذاتها ٠

اما المبخرة فقد بنيت من الاجر ، تتكون من طاقية بديعة مقسمة الى ضلوع محمولة على أربعة صفوف من المقرنصات ، وتمثل هذه المبخرة مرحلة متطورة للغاية، وهى امتداد لما وجد فى مئذنة مشهد أبى الغضنفر اسد الفائزى ، ومئذنة المدرسة الصالحية ، ومئذنة زاوية الهنود ، ومئذنة جامع احمد بن طولون ٠

رابعا : القباب الضريحية :

يتوصل الى القباب من خلال مدخل بصدر البسطة التى تلى السلم مباشرة ، حيث تفتح على ممر تغطيه أقبية حجرية متقاطعة ٠ ويشغل هذا الممر مساحة مستطيلة يبلغ طولها ١٤م وعرضـها ٣م ، بالجهة الجنوبية الغربية منه أربعة عقود مدببة ترتكز على دعائم حجرية ضخمة ، وبالجهة الشرقية فتحة باب تؤدى لضريح سلار ، وفى نهاية الممر فتحة أخرى تؤدى الى ضريح الجاولى ، وبصدره عقد كبير يفضى الى قاعة مربعة طول ضلعها ٦٢ر٤م ذات شباكين صغيرين يطلان على مساكن الصوفية ٠

ويتوصل الى مساكن الصوفية من خلال هذا الممر ، وهى عبارة عن ساحة غير منتظمة ، بها محراب مهدم طاقيته على هيئة عقد نصف دائرى تعلوه زخارف هندسية جصية وكتابات نسخية قرآنية (آية ٧٧ من سورة الحج) ٠ ويعلو المحراب رفرف بشرافات خشبية أسفله ازار من كتابات نسخية قرآنية (آية ١٨٥ من سورة آل عمران) ، وخلف جدار المحراب بقايا طابقين من خلاوى الصوفية اندثرت الآن(١٣٣) ٠

ضريح سـلار (لوحة ٤) :

يتوصل اليه من خلال فتحة الممر الأولى بالجهة الشمالية الشرقية، يعلوها لوحة تأسيسية نقش عليها كتابة نسخية من ثلاثة أسطر تشـمل كتابات نسخية قرآنية (آية ٢٦ ـ ٢٧ من سورة الرحمن) ثم وظيفـة المنشاة واسم المنشىء ووظيفته والقابه وتاريخ الانتهاء من الانشاء ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م ٠ والضريح يشغل مساحة مربعة طول ضلعها ٦٠ر٧م تتوسطه تركيبة خشبية ، وبصدد جداره الجنوبى الشرقى محـراب بديع(١٣٤)

تكتنفه دخلتان. وبالجهة الشمالية الشرقية ثلاثة شبابيك يشرف من خلالها الضريح على الشارع العمومى . ويعلو جدران القبة شريط كتابى نسخى قرآنى (آيات ١٩١ ـ ١٩٣ من سورة آل عمران) . والواقع أن التخطيط المربع أتبع فى معظم أضرحة هذا العصر سواء كانت مستقلة أو كانت ملحقة بمنشاة من العمائر الدينية . وقد حقق المعمار ـ بتخطيط الضريح مكونا جزءا من أجزاء الواجهة الرئيسية ـ رغبة المنشىء فى التباهى بظهور ضريحه مطلا على الشارع . كذلك فان المعمار قد حقق الموضوع الملائم للقراء الذين يقرأون القرآن الكريم عادة بشبابيك هذه القباب المشرفة على الشارع ، حيث شاعت هذه العادة فى العصر المملوكى حتى أن القارىء أخذ تسميته من هذه الشبابيك فسمى قارىء شباك . كذلك فان وجود هذا الضريح فى هذا الموقع من المنشاة حقق رغبة الفقهاء فى أن لا يكون الضريح أمام مستقبل القبلة(١٣٨).وتتكون مناطق انتقال القبة من ثلاثة صفوف من المقرنصات معقودة بعقد منكسر تتكون كل من الحطة الأولى والثانية من ثلاث حنيا،أما الثالثة فمن أربع حنايا. وتعد مناطق الانتقال بذا التصميم امتدادا لما وجد فى قبة الصالح نجم الدين أيوب ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وفى قبة زين الدين يوسف ، وقد أوجد المعمار بين مناطق الانتقال نافذة من أربع فتحات على هيئة مثلث ملئت بزخارف جصية وزجاج معشق . وتحتوى رقبة القبة على عشرين نافذة مفتوحة معقودة بعقد منكسر ، كما فى قبة زين الدين يوسف ، وتعلو الرقبة القبة وهى من الاجر زخرفت من الخارج بكتابات جصية نسخية بديعة قرآنية (آيات ١٠١ ـ ١٣ من سورة الأنبياء) ، وقد اهتم المعمار بزخرفة ظاهر القبة بأسلوب التضليع (لوحة ١٥) ومن القباب الاجرية التى ازدانت وفقا لهذا الاسلوب قبتى أيدكين البندقدارى ٦٨٣هـ/١٢٨٣م ، والصوابى حوالى ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وزين الدين يوسف ، وقراسنقر ، وعلى بدر الدين القرافى .

ضريح الجاولى (لوحة ٣) :

يتوصل اليه من خلال فتحة الممر الثانية بالجهة الشمالية الشرقية، يعلوها لوحة تأسيسية نقش عليها كتابة نسخية من ثلاثة أسطر تشمل كتابة قرآنية (آية ٢٦ ـ٢٧ من سورة الرحمن) ، ثم وظيفة المنشاة واسم

المنشىء ووظيفته والقابه وتاريخ الانتهاء من الانشاء ٧٠٣هـ/١٣٠٣م(١٤٥)٠ ويشغل الضريح مساحة مربعة طول ضلعها ٦٫٤٧م اقل من مساحة ضريح سلار ، وبصدر الجدار الجنوبى الشرقى محراب حجرى(١٣٦)٠ وبالجهة الشمالية الشرقية الجنوبية الغربية دخلات على نفس نمط دخلات ضريح سلار ٠ وباعلى أركان مربع الضريح شريط من الكتابة النسخية الحجرية القرآنية (آيت ٢٨٤ ـ ٢٨٦ من سورة البقرة) ٠ يتوسط مربع القبة تركيبة خشبية ٠ وباعلى أركان المربع منطقة انتقال من ثلاث حطات من المقرنصات المعقودة بعقد منكسر تتكون كل حطة منها من خمس حنايا ٠ وقد وجدت مناطق الانتقال بنفس الأسلوب فى قبة ايدكين البندقدارى الثانية ، وقبة الاشرف خليل ٦٨٧هـ/١٢٨٨م ، وقبة حسام الدين طرنطاى ٦٨٩هـ/١٢٩٠م ، وقبة فوارة جامع ابن طولون ٦٩٦هـ/١٢٩٦م ، وقبة المدرسة الناصرية ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ، وقد أوجد المعمار بين مناطق الانتقال نافذة مماثلة كتلك التى بضريح سلار ٠

اما رقبة القبة فتحتوى على أربع وعشرين نافذة معقودة بعقد منكسر ، الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن نوافذ الرقاب لم تتبع نظاما واحدا من حيث عددها ٠ وقد وجد هذا العدد من الفتحات فى قبة ايدكين البندقدارى الثانية ٠ وتعلو الرقبة القبة وهى من الاجر زخرفت رقبتها من الخارج بكتابات جصية قرآنية (آية ١٣٥ـ١٣٦ من سورة آل عمران)، وقد زخرفت القبة باسلوب التضليع من الخارج (لوحة ١٦) ٠

القبة الثالثة الحجرية :

يتوصل اليها من خلال عقد بالنهاية الشمالية الغربية للممر ، وهى قبة صغيرة حجرية خالية من النقوش (لوحة ١٧) منطقة انتقالها من حطتين ٠ وقد أشار الأستاذ حسن عبد الوهاب الى انها تعد أقدم قبة حجرية باقية ٠ وقد عرفت هذه القبة بقبة عبد الله الذاكر ٠ ولعل المدفون فيها أيضا الأمير بشتاك ، المنقول اليها من الاسكندرية فى عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤١م(١٣٧) ٠

وجاء تخطيط هذه القبة من مساحة عريضة ، منطقة انتقالها من

حطتين من المقرنصات تتكون كل واحدة منها من ثلاث حنايا ذات عقود منكسرة ٠

خاتمـــة :

وبعد،فاننى ارجو ان تكون هذه الدراسة قد القت بعض الضوء على الأميرين علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سـلار ، وعلى أعمالهما المعمارية ٠ وقد تعرضت الدراسة لتاريخ سلار وصفاته منذ سلطنة الناصر محمد الثانية وحتى وفاته ٧١٠هـ/١٣١٠م ، كما شـملت ايضا أعمال الأمير علم الدين سنجر الجاولى المعمارية وترقية خـلال سلطنة الملك الناصر محد الثانية وحتى وفاة سلار٧١٠هـ/١٣١٠م٠كذلكشملت الدراسة أعمال الأمير علم الدين سنجر الجاولى المعمـارية وترقيه خلال سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ٧٠٩ ـ ٧٤١هـ/١٣٠٩ ـ ١٣٤١م ٠

وقد شهدت دولة سلاطين المماليك وبخاصة بلاد الشام نهضة عمرانية عظيمة ، توجتها منشات الأمير الجاولى الدينية والمدنية والحـربية ٠ ذلك ان هذه المنشآت نميزت بالروعة والفخامة ، وهو الأمر الذى شهد به المعاصرون مثل ابن بطوطة فى تحفة النظار والمقـريزى فى خططه ، والقاضى مجير الدين الحنبلى فى الأنس الجليل ٠

ومن بين أعمال الأمير الجاولى بغـزة الجامع البديع الذى يؤرخ تاريخ عمارته بعـام ٧١٤هـ/١٣١٤م ٠ وكذلك كان من مآثر مـدرسة الشافعية ، وبيمارستان ، وقصر للنيابة ، وحمام أنيق ، وخان للسبيل ، وميدان ٠ ومن مآثر الجاولى ببلد الخليل انه انشأ جامعا ، كما شـيد جامعا فى لد ، وخانا فى قاقون ، وخانا بقرية الكثيب ، وقناطر بغابة ارسوف ، وخان رسلان بحمراء بيسان ، وهى عمائر وصفها المقريزى بانها « ظريفة أنيقة محكمة متقنة مليحة » ٠

كذلك ناقشت فى هذا البحث الآراء التى ترجح نسـبة المنشاة التى اقترنت بالأميرين الجليلين الجاولى وسلار بالكبش الى الأمير سـلار وانتهيت الى ترجيح نسبة المنشاة الى الأمير الجاولى ٠

ورجحت فى هذه الدراسة أن يكون الأمير الجاولى أنشأ هذه المنشأة لتكون مدرسة للشافعية يدرس بها الفقه الشافعى كما كان يدرس بمدرسته بغزة بجانب حضور وظيفة التصوف .

ولعلنا قد وفقنا فى الدراسة التحليلية الخاصة بهذه المنشأة ، لاسيما فيما يتعلق بواجهتها المطلة على الشارع العمومى (شارع مراسينا) وما احتوته هذه الواجهة من عناصر معمارية وزخرفية . هـــذا فضـــلا عن التخطيط من الداخل ، والقباب الضريحية والمئذنة .

الهـــوامش

(١) وردت هذه الألقاب والكنى والتى تتمثل فى « الأمــــير الكبير علم الدين أبو سعيد » فى المصادر التاريخية ٠ انظر عن هذه الألقاب ٠

ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق ، جـ٢ ، ص ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى الاتابكى (جمال الدين أبو المحاسن) : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، تحقيق د٠ محمد محمد أمين ، جـ٦ ، ص ٧٤ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ٠

(٢) عرف الأمير علم الدين سنجر بالفقيه الشافعى ٠ وقد أورد ابن حبيب عنه ما نصه « سمع الحديث ورواه ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وافتى وصنف ، واجتمع بأهل العلم وأحسن اليهم » ، كما أورد المقريزى فى خططه أنه سمع الحديث وروى وصنف شرحا كبيرا على مسند الشافعى وافتى فى آخر عمره على مذهـــب الشافعى ٠ انظر : ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق د٠ محمد محمد أمين ، جـ٣ (حوادث وتراجم ٧٤١ ـ ٧٧٠هـ/١٣٤٠ ـ ١٣٦٨م) ص ٧٦ ، المقـــريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (المعروف بالخطط المقريزية) ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ٠

(٣) الملكى : بفتح اللام من ألقاب الملك وألقاب أتباعه المنسوبين اليه من الأمراء والوزراء ومن فى معناهم ، وقد ورد هذا اللقب على لوحة تأسيسية تعلو مدخل ضريح الأمير الجاولى ، كما ورد أيضا على لوحة تأسيسية كانت بجامعه الذى أنشاه بغزة ٠ انظر : القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، جـ٦ ، ص ٣٠ ٠

(٤) الناصرى : لم يرد هذا اللقب فى المصادر التاريخية ، الا أنه وجد على اللوحة التأسيسية التى تعلو مدخل ضريح الأمير الجاولى ، كما ورد هـــذا اللقب أيضا على اللوحة التأسيسية التى كانت بجامعه الذى أنشاه بغزة ٠

د٠ سعاد ماهر : مســـاجد مصر ، جـ٣ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ٠

٥) لم يرد هذا اللقب فى المصادر التاريخية ، الا أنه ورد فى اللوحة التأسيسية التى تعلو مدخل ضريح الجاولى ، وقد خلت اللوحة التأسيسية لجامعه بغزة من هذا

اللقب ، حيث جاء بها ما نصه « ... العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبدالله الجاولى الملكى الناصرى نائب السلطنة الشريفة ...» .

سليم عرفات : المرجع السابق ، ٢٢٤ .

د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٦) آمد : بكسر الميم بلد قديم حصين مشيد بالحجارة السود على نشز دجلة .

ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ج١ ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٧) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن حجر العسقلانى : المصدر السابق، ج٢ ، ص ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٦ ، ص ٧٤ .

(٨) الكرك : بفتح أوله وثانيه وكاف أخرى كلمة أعجمية ، اسم لقلعة حصينة فى طرف الشام من نواحى البلقاء فى جبالها بين ايلة وبحر القلزم وبيت المقدس ، وهى على سن جبل عال تحيط به أودية الأمن جهة الربض .

ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٥١٤ .

الحميرى (محمد عبد المنعم) : الروض المعطار فى خير الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، ص ٤٨٣ .

(٩) الحوائج خاناه : معناها بيت الحوائج ، ومنها يصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطانى والدور السلطانية ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين ، وغيرهم من أرباب الرواتب .

لمزيد من التفاصيل انظر : القلقشندى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٢ .

(١٠) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٨ .

(١١) وردت هذه الألقاب فى اللوحة التأسيسية التى تعلو مدخل ضريحه بما نصه « سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة الملكى الناصر المنصورى ، وهى نفس ألقاب الأمير الجاولى التى تقدم ذكرها .

د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٤٨ .

(١٢) أمير شكار : هو لقب الأمير الذى يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد .

القلقشندى : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٤٦١ .

(١٣) ابن حجر العسقلانى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٦ ، ابن تغرى بردى: المنهل ، ج٦ ، ص ٦ .

(١٤) مناظر الكبش : ذكرها المقريزى فاورد ما نصه « هذه المناظر آثارها الآن على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى مشرفة على البركة التى تعرف اليوم ببركة قارون على الجسر الأعظم الفاصل بين بركة الفيل وبركة قارون انشاها الملك الصالح نجم الدين فى أعوام بضع وأربعين وستمائة » ٠

(١٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ابن تغرى بردى: النجوم ، جـ٨ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ ٠

استاذ دار : عرفت هذه الوظيفة بصيغ مختلفة منها استادار ، واستاذ الدار، ستدار ، واستاذ ذار ، واستاذ الادر ، واستذار ٠

مزيد من التفاصيل انظر : القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢١ ، د٠ حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ١ ، ص ٣٩ ـ ٥٨ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ٠

(١٦) نيابة السلطنة : يعبر عن صـــاحبها بالنائب الكافل ، وكافــل الممالك الاسلامية ، وهو يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم فى التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك ٠

لمزيد من التفاصيل انظر ٠ القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص١٧ـ١٨ ٠

(١٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢١٣ ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ١ ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ، الشوكانى (محمد بن على) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ص ٢٦٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص ١١٦ ٠

(١٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣٩٨ ٠

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ ، ابن أيبك الدوادارى (أبى بكر بن عبد الله): كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق هانس رويرت رويمر ، جـ٩ ، ص ١٠١ القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ٠

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ ٠

(٢١) العينى (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، عصر سلاطين المماليك ـ حوادث وتراجم ٦٩٩ ـ ٧٠٧هـ/١٢٩٩ ـ ١٣٠٧م). تحقيق د٠ محمد محمد أمين ، جـ٤ ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ٠

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ ٠

(٢٣) طبلخاناه : لفظة فارسية بمعنى بيت الطبل ، وهو أحد الدور الخاصــة

بالسلطان تحفظ فيه الطبول والابواق وما يتعلق بها من الأدوات ، د٠ حسن الباشا : الفنون الاسلامية ، جـ١ ، ص ٢٣١ ــ ٢٣٦ ٠

(٢٤) العينى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٤٢٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣ ٠

(٢٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٨١ ــ ٢٨٦ ٠

(٢٦) حمراء بيسان : بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة مدينة من جند الأردن ، وهى صغيرة بلا سور ٠

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ص ١٦٢ ، القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٠٣ ــ ١٠٤ ٠

(٢٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٨٧ ــ ٢٩٠ ٠

(٢٨) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص٤ــ٦٠

(٢٩) الشوبك : بلدة صغيرة من جبل الشراه ، لها قلعة مشيدة من الحجـــر الأبيض على تل مرتفع مطل على الغور من شرقيه ٠

القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٥٦ ــ ١٥٧ ٠

(٣٠) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١١ ، ١٦ ــ ١٩ ٠

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٨ ــ ١٩ ٠

(٣٢) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٠ ٠

(٣٣) السلارى : أورد المقريزى ان سلار استجد القباء الذى يعرف بالسلارى وكان قبل ذلك يعرف ببغلوطاق ٠

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٩ ، ماير : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، ص ٤٣ ــ ٤٥ ٠

(٣٤) من عادة كل أمير ، كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ما بين هناب أو دواه أو بقجة أو فرنيسة ونحو ذلك ، بشطفة واحدة أو شطفتين بألوان مختلفة ، كل أمير بحسب ما يختاره ويؤثره من ذلك ٠

القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٦١ ــ ٦٢ ٠

(١٣٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١٩ ــ ٢٠ ، المنهل ، جـ٦ ،ص٧ــ٩٠

(٣٦) الرزق : مفردها رزقة وهى المخصصات التى كان يعطيها الخلفـــاء والملوك والسلاطين بمقتضى حجج شرعية أو تقاسيط ديوانية الى بعض النـــاس على سبيل الاحسان والانعام ٠ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٥٤ هامش ٦ ، د٠ محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ١٠٨ ــ ١٠٩ ٠

(٣٧) ابن شاكر الكتبى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧١ ، ابن تغرى بردى: النجوم ، جـ٩ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٣٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨.

شد الدواوين : موضوعها ان يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدثا فى استخلاص الأموال وما فى معنى ذلك وعادتها امرة عشرة . القلقشندى : المصدر السابق،جـ٤ ، ص ٢٢ ، د. حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ، جـ٢ ، ص ٦١١ ـ ٦١٣ ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

(٣٩) الخليل : اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس بينهما مسيرة يوم . ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٤٣ .

(٤٠) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بينها وبين المقدس عشرة فراسخ . ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، الحميرى : المصدر السابق، ص٥٧١ ـ ٥٧٢ .

(٤١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ .

(٤٢) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ١٢ ، ص ٢١٢ ـ ٢١٩ .

(٤٣) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

D. Margoliouth S., : Cario; Jerusalem, Damascus, London, 1907, P. 86.,

Meinecke (Michael) · Die Mamlukische Architektur in Agypten und Syrien (648-1250 Bis 923-1517), tell II, Verlag J.J. Augustin GMBH. Glück stadt, 1992, p. 117, 122, 128.

(٤٤) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٥٠) القاضى مجير الدين (أبو اليمن عبد الرحمن العليمى المقدسى) ت ٩٢٧هـ : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ١ ، ص ٥٨ .

حسين روحى : المختصر فى جغرافية فلسطين ، ص ١٠٥ ، القدس ، الطبعة الاولى ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م ٠

(٥١) مجير الدين الحنبلى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٨ ٠

(٥٢) يقع هذا الجامع فى ناحية من حى النجـــارين (حارة الزيتون) وسبب تسميتهبهذا الاسم غير معروف ، كما لا تتوافر معلومات عن منشئه ٠

محمود على خليل عطا الله : نيابة غزة فى العهد المملوكى ، ص ٢٢٨ ٠

(٥٣) سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ، البنايات الاثرية الاسلامية فى غـــزة وقطاعها ص ١٠٤ (لوحة ١١٢) ، محمود خليـــل : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ٠

(٥٤) مجير الدين الحنبلى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٨ ٠

ومن الأوقاف التى وقفها الأمير الجاولى على جامعه بغزة قرية سمسم ٠

سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٨ ٠

(٥٥) من الأوقاف التى وقفها الجاولى على هذا البيمارستان عن الملك الناصر محمد ملاقص ضمن أراضى بربر ، صميل عند عامورة ، قرية هربيا ، بطانى الشرقى ، قرية البها شرق غزة ، مزرعة تل العجول ٠

المرجع نفسه ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٨ ٠

(٥٦) محمود على خليل : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ ٠

(٥٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ٠

Meinecke (Michael) : Die Mamlukische, tell 11, p. 128.

(٥٨) لد : بالضم والتشديد وهو جمع الد ، قرية بيت المقدس من نواحى فلسطين بالشام تنزل الرفاق الواصلة من الشام الى مصر والقافلة من مصر الى الشام وفيه كنيسة محكمة البناء واسعة الفناء ٠

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٧ ـ ١٨ ٠

الحميرى : المصدر السابق ، ص ٥١٠ ٠

(٥٩) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين كانت رباطا للمسلمين ٠

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٧٩ ـ ٨١ ، ابن أيبك الدوادارى: المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٢٩٠ ٠

(٦٠) قاقون : مدينة لطيفة غير مسورة بها جامع وحمام ، وقلعة لطيفة وشربها

ماء الابار · ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٢٩ · القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٠٠ ·

Meinecke (M.) : Mamlukische, tell 11, p. 128.

(٦١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ·

(٦٢) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٤ ·

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٥٤ ·

(٦٤) الروك : كلمة قبطية اصطلح على استعمالها للقيام بعملية قياس الأرض وحصرها في سجلات وتثمينها أى تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها ، ويقولون راك البلاد يروكها أى فك زمامها ·

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٣٦ ، ٤٢ هامش ١ ·

(٦٥) المقريزى : الخطط ،جـ٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ·

(٦٦) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ·

(٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٩٠ ·

(٦٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ ·

(٦٩) حماه بالفتح مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم ، وبظاهر السور حاضر كبير فيه أسواق كثيرة وجامع مشرف على نهرها المعروف بالعاصى ·

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ ·

(٧٠) نظر البيمارستان : يقول القلقشندى عند ذكره نظر البيمارستان « والمراد البيمارستان المنصـــورى الذى انشأه المنصـــور قـــلاون بين القصرين ·· وهى من أجل الوظائف واعلاها ، وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصـرية » ·

القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٨ ·

انظر ايضا عن البيمارستان المنصورى ·

د· محمد سيف النصر أبو الفتوح : منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة فى نهاية عصر المماليك ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط، يناير ١٩٨٠ ، ص ٨١ وما بعدها ·

(٧١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٠ ، ص ٩٢ ـ ٩٣ ٠

(٧٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٥١ ، د٠ على محمود سليمان المليجى : عمائر الناصر محمد الدينية فى مصر ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ص ١٢٩ ـ ٢٠٢ ٠

(٧٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ، ٤٢١ ٠

Creswell (K.A.C.) : The Muslim Architecture of Egypt, 11, Ayyubids and Early Bahrite Mamlúks, Oxford, 1959, p. 245.

(٧٤) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ، ص ١٢٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤م ، د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ٠

(٧٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ٢ ، ق٣ ص ٦٧٤ ٠

(٧٦) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ٠

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ ٠

(٧٨) ابن حجر : المصدر السابق ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ،جـ٢ ،ص٢٦٧٠

(٧٩) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ١١٠ ٠

(٨٠) ابن اياس (محمد بن أحمد الحنفى) ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، جـ١ ، ق١ ، ص ٤٣٦ ٠

(٨١) المصدر نفسه ، ص ٥٠٤ ٠

(٨٢) ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) ت ١٨٠٩هـ : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٦ ، ص ١٤٣ ٠

(٨٣) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ٠

(٨٤) الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد) ت ٨٦٤ هـ : فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ١ ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٢ ٠

(٨٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٠ ٠

(٨٦) المقريزى : السلوكلمعرفة دول الملوك ، جـ٢ ، ق١ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ٠

(٨٧) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٣٩٨ ٠

(٨٨) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨ ٠

(٨٩) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٢١٧ ٠

(٩٠) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٦ ، ص ٦ ـ ٧ ٠

(٩١) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ق١ ، ص ٤٣٦ ٠

(٩٢) ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٩ ٠

(٩٣) الشوكانى : المصدر السابق ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ٠

(٩٤) انظر عن الدارين :

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٦٥ ، ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٦ ، ص٧٥ـ٧٦٠

(٩٥) الرحبة باسكان الحاء وفتحها الموضع الواسع وجمعها رحاب والرحاب كثيرة لا تتغير الا بأن يبنى فيها فتذهب ويبقى اسمها أو يبنى فيها ويذهب اسمها ويجهل وربما انهدم بنيان وصار موضعه رحبة أو دار أو مسجد ٠

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٧ ٠

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ٤٨ ٠

(٩٧) ورد ابن تغرى بردى فى حوادث عام ٧٢١هـ ان حريقا وقع بالقاهرة ومصر يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى ، وكان مما احترق فيه الربع الذى بالشوايين من أوقاف البيمارستان المنصورى ، ثم فى حارة الديلم قريبا من دار كريم الدين الكبير ، انظر مزيدا من التفاصيل فى :

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص٦٣ ـ ٦٦ ٠

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ١٩ هامش ٢ ٠

(٩٩) المصدر نفسه ، جـ ٨ ، ص ١٧١ ٠

(١٠٠) السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى) ت ٧٧١هـ : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناحى ، د٠ عبدالفتاح محمد الحلو ، جـ١٠ ، ص ٤١ ٠

(١٠١) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٩٠ ٠

(١٠٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١٨ ـ ١٩ ٠

(١٠٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٩٨ ٠

(١٠٤) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ٠

(١٠٤) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ٠

(١٠٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ١١٠ ٠

(١٠٦) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ق١ ، ص ١٣٦ ٠

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ٥٠٤ ٠

(١٠٨) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، جـ٦ ، ص ١١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م ٠

(١٠٩) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٢١ ٠

(١١٠) ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٤٣ ٠

(١١١) على باشا مبارك : الخطط ، جـ٦ ، ص ١٤٢ ٠

وردت أيضا فى المراجع الاثرية باسم خانقاه ٠ انظر د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٠ ، د٠ محمد حمزة اسماعيل الحداد العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعمارى للمدرسة فى العصر المملوكى ، ص ٢٩٧ (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ـ تاريخ المصريين (٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٢م٠

شفيقة قرنى سيد : دراسة أثرية عمرانية لشارع الصليبة بالقاهرة حتى العصر الجركسى مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الاثار ـ جامعة القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م٠ ص ١٠٠ ـ ١٠٥ ٠

(١١٢) على باشا مبارك : المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ،١٩٨٠م٠

جرمار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمـــة د٠ ايمن فؤاد سيد ، ص ٣٩٠ ٠

Devonshire (R.L.) : L' Egypte Muslmane et les Fondateurs des ses monuments, Paris, 1926, p. 89, PI. XXI.

(١١٣) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٢٥ ٠

(١١٤) غزة : بفتح أوله وتشديد ثانيه وفتحه ، فى الاقليم الثالث طولها من جهة المغرب أربع وخمسون درجة وخمسون دقيقة وعرضها اثنتان وثلاثون درجة ، وهى مدينة فى اقصى الشام من ناحية مصر ٠

المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٧٤ ، ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٤، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، الحميرى : المصدر السابق ، ص ٤٢٨ ٠

(١١٥) السبكى : المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٤١ ٠

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ٤١ ٠

(١١٧) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٧٤ ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٦٥ ، ٣٩٨ ٠

(١١٨) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ٠

(١١٩) ابن تغرى بردى النجوم ، جـ١٠ ، ص ١١٠ ٠

(١٢٠) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ق١ ، ص ٤٣٦ ، ٥٠٤ ٠

(١٢١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٢ ، ص ١٣٨ ٠

(١٢٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ٠

(١٢٣) ذكرها المقريزى فقال « هذه المدرسة فى الزقاق الذى تجاه باب الجامع الحاكمى المجاور للمنبر ٠٠ بناها الرئيس شمس الدين شاكر بن غزيل ٠٠ المعروف بابن البقرى ٠٠ وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية »٠

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩١ ٠

(١٢٤) ذكرها المقريزى فاورد « هذه المدرسة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل براس التبانة انشاها الامير الكبير سيف الدين ايتمش البجاسي ثم الظاهرى ٠٠ وجعل بها درس فقه للحنفية » ٠

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٠٠ ٠

(١٢٥) د٠ عادل شريف : النصوص التأسيسية على العمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه كلية الآداب ، جامعة أسيوط ، ١٩٨٦م ، ص ٢٨٨ ٠

(١٢٦) أورد المقريزى ان الأمير صرغتمش جعل هذه المدرسة وقفا على الفقهاء الحنفية ٠ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٠٤ ، د٠ حسن سيد جـودة القصاص : المدرسة الصرغتمشية ، دراسة اثرية معمارية ، مخطوط رسالة ماجستير ، كليـة الآداب ، جامعة القاهرة ، ٩٣٩٢ ـ ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص ١٢ ٠

(١٢٧) انشأ هذه المدرسة الأمير علاء الدين طيبرس وقرر بها درسا للفقهاء الشافعية ٠ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٨٣ ٠

لمزيد من التفاصيل انظر ٠ د٠ على سليمان اليجى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ ـ ١٨٥ ٠

(١٢٨) د٠ شاهنده فهمى : جوامع ومساجد (مخطوط رسالة دكتوراه) ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤ ٠

(١٢٩) د٠ محمد سيف النصر أبو الفتوح : مداخل العمائر المملوكية بالقاهرة الدينية والمدنية (من سنة ٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٥٠ ـ ٢٣٨٢م) ، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٤٤ ـ ٤٧ ٠

(١٣٠) د٠ حسنى محمد نويصر ، عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ـ تاريخ المصريين ٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ٠

Abuo Seif (D.) : Islamic Architecture in Cairo, the American University in Cairo Press. P. 103.

(١٣١) تناولت فى رسالتى للدكتوراه هذه المئذنة بالدراسة الوصفية ثم بالدراسة التحليلية • انظر أيضا د• عبد الله كامل موسى عبده : تطور المئذنة المصرية بمدينة القاهرة من الفتح العربى وحتى نهاية العصر المملوكي (دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الاسلامى) ، مخطوط رسالة دكتوراه كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ص ١٧٥ ـ ١٨٢ ، ٥٤٠ ـ ٦٢٦ •

(١٣٢) **Creswell (K.A.C.) : The Evolution of the Mineret, Burlington, Magazine (Mars-Mai, Juin, 1926).**

(١٣٣) د• سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨ •

(١٣٤) انظر عن هذا المحراب وزخارفه :

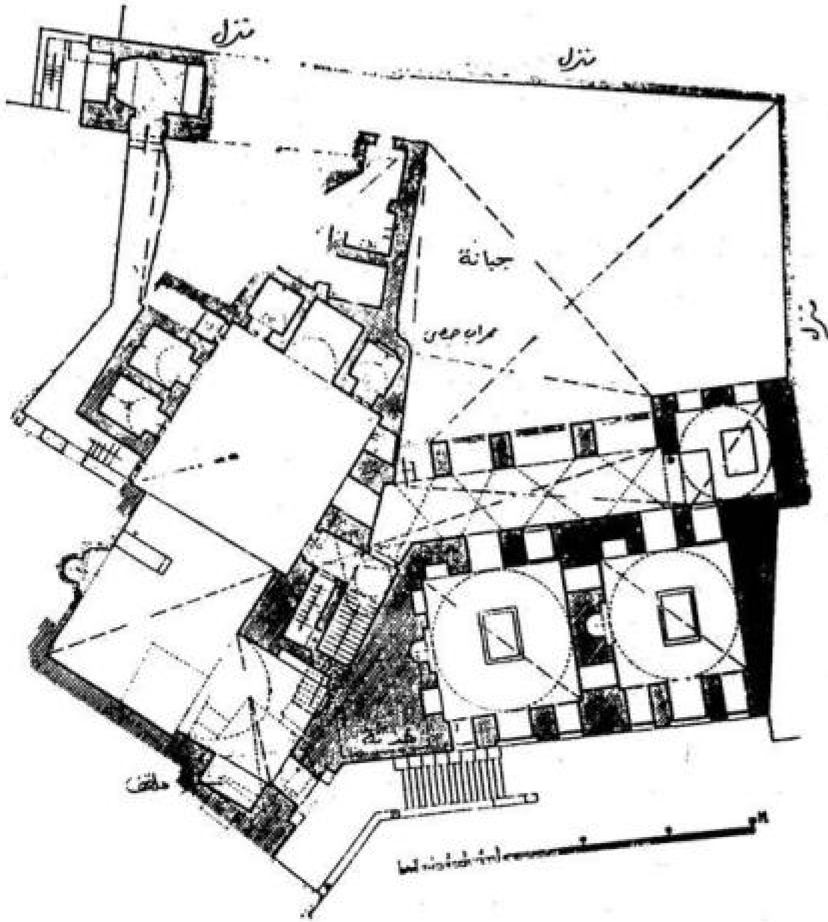
د• حسين مصطفى حسين : المحارب الرخامية فى قاهرة المماليك البحرية (دراسة أثرية فنية) ، مخطوط رسالة ماجستير/كلية الآثار ـ جـامعة القاهرة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ،ص ١٥٤ ـ ١٥٧ •

(١٣٥) د• محمد عبد الستار عثمان : نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، ديسمبر/١٩٧٩م ، ص ٣١١ •

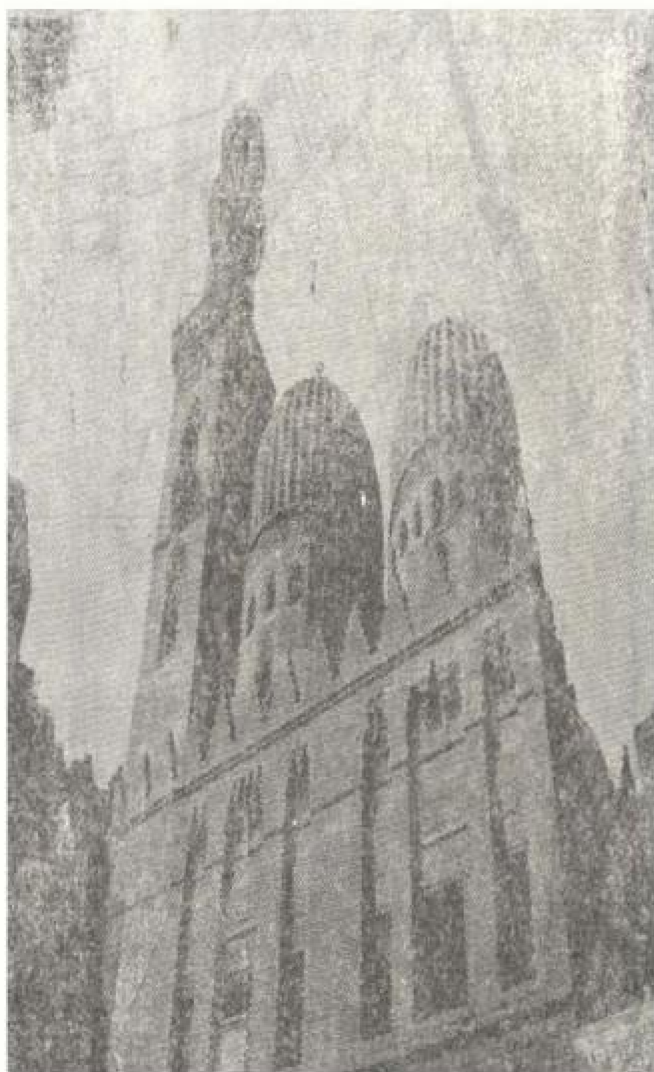
د• محمد حمزة اسماعيل الحداد : القباب فى العمارة المصرية الاسلامية ، ص ٧٣ ـ ٧٥ •

(١٣٦) د• حسين مصطفى حسين : المحاريب الرخامية (مخطـــوط رسالة ماجستير) ، ص ١٥٤ •

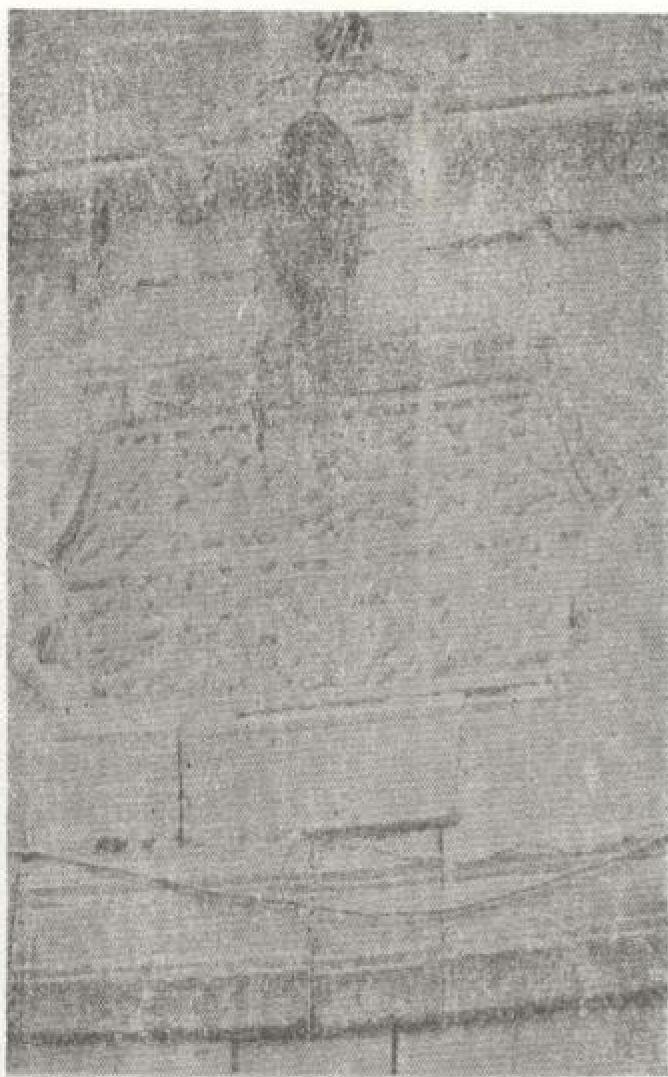
(١٣٧) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ •



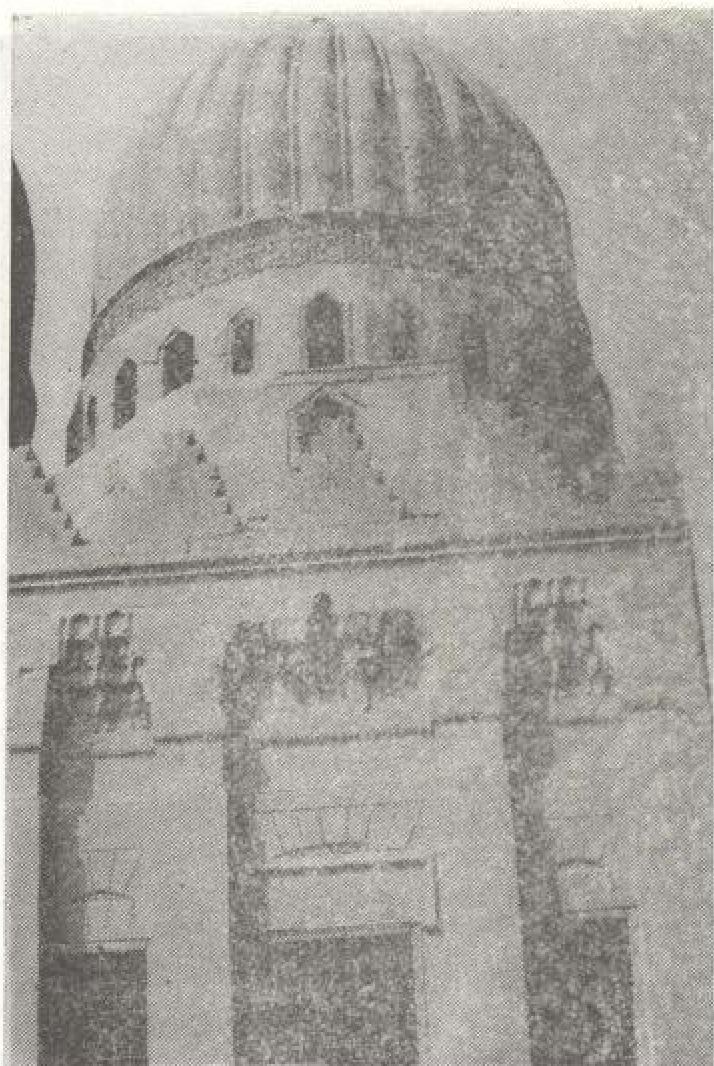
شكل (١) : المسقط الأفقى لمدرسة وخانقاه الجاولى • عن Creswell



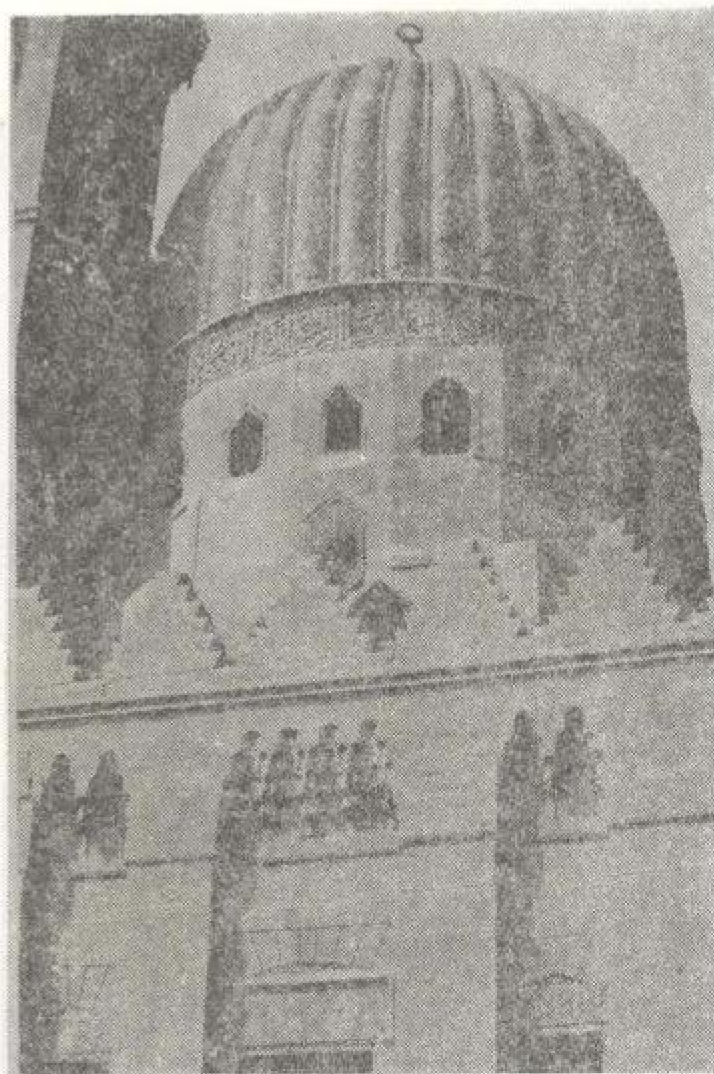
لوحة (١) : مدرسة وخانقاه سنجر الجاولى بالكبش



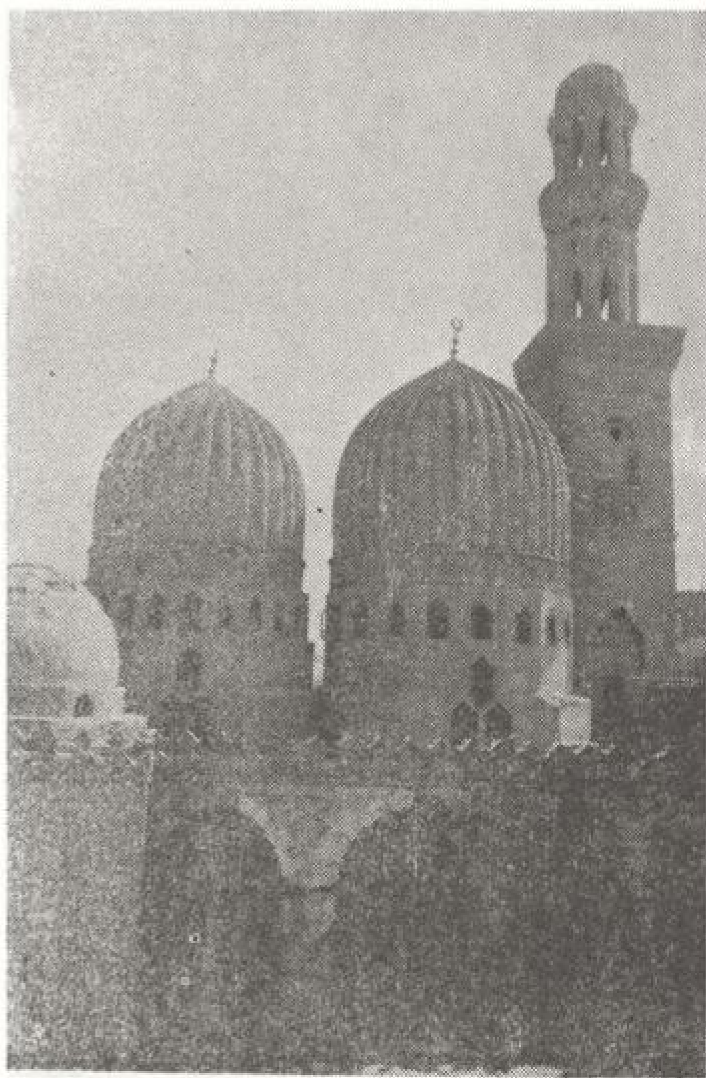
لوحة (٢) : النص التأسيسي اعلى عتب المدخل العمومي



لوحة (٣) : دخلات واجهة ضريح الجاولى



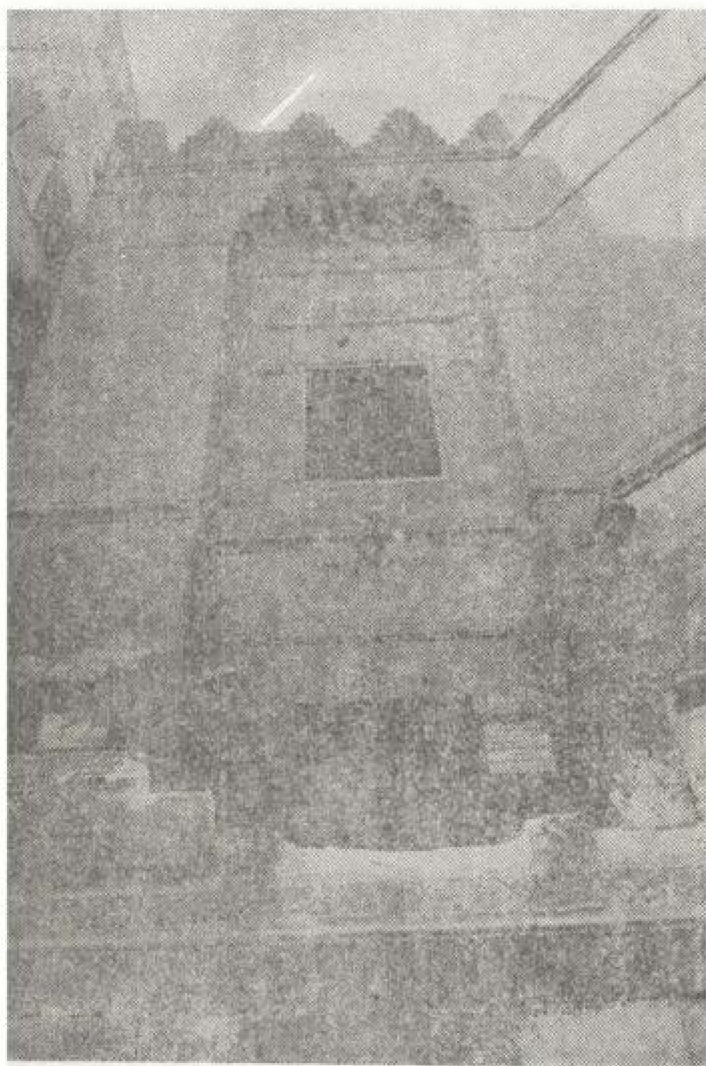
لوحة (٤) : دخلات واجهة ضريح سـلار



لوحة (٥) : الشرافات ذات الوريقات الثلاثية



لوحة (٦) : افريز من مئذنة جامع الحاكم بأمر الله الغربية



لوحة (٧) : المدخل العمومى لمدرسة وخانقاه الجاولى



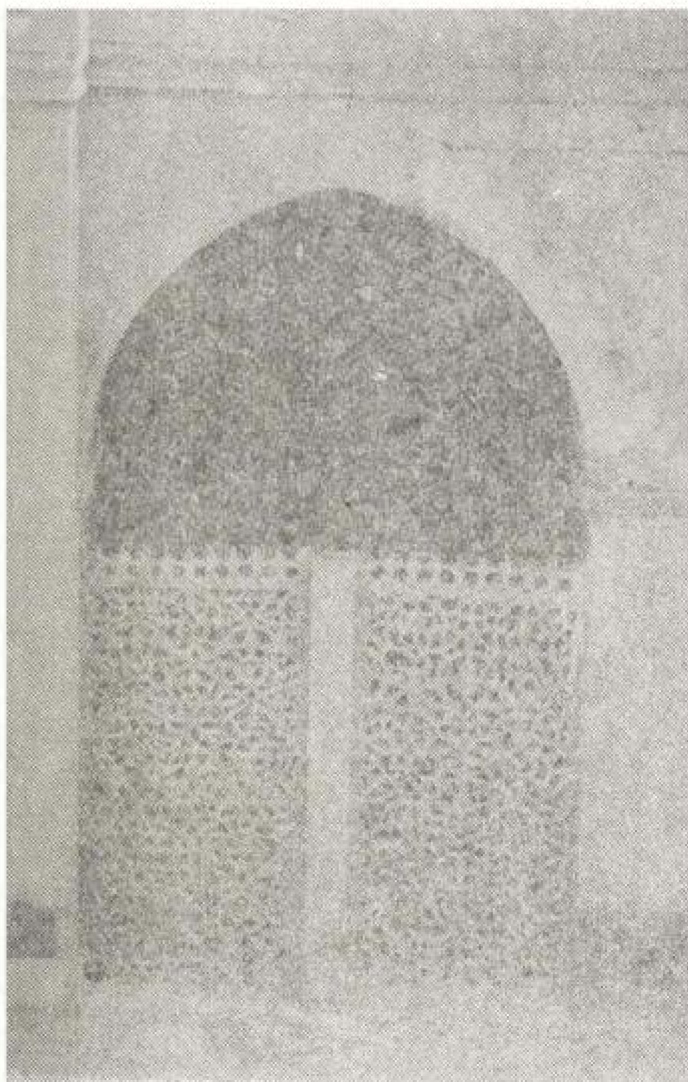
لوحة (٨) : دخلة داخل ايوان القبلة



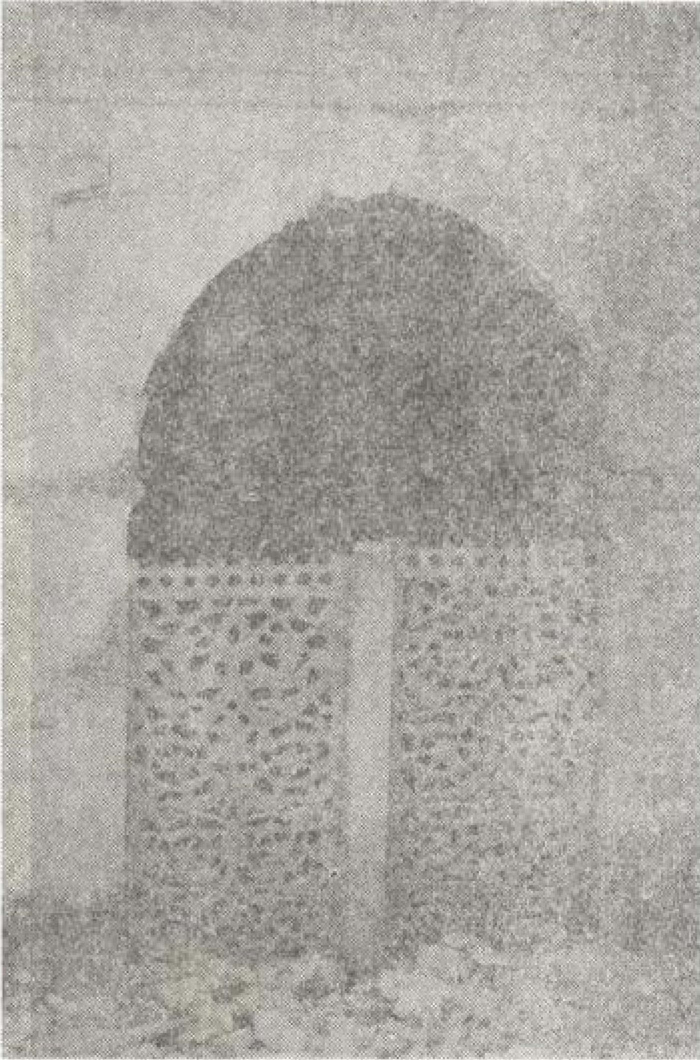
لوحة (٩) : الايوان المقابل لايوان القبلة



لوحة (١٠) دخلة بالجهة الشمالية الغربية للصحن تزدان
بزخارف مفرغة فى الحجر



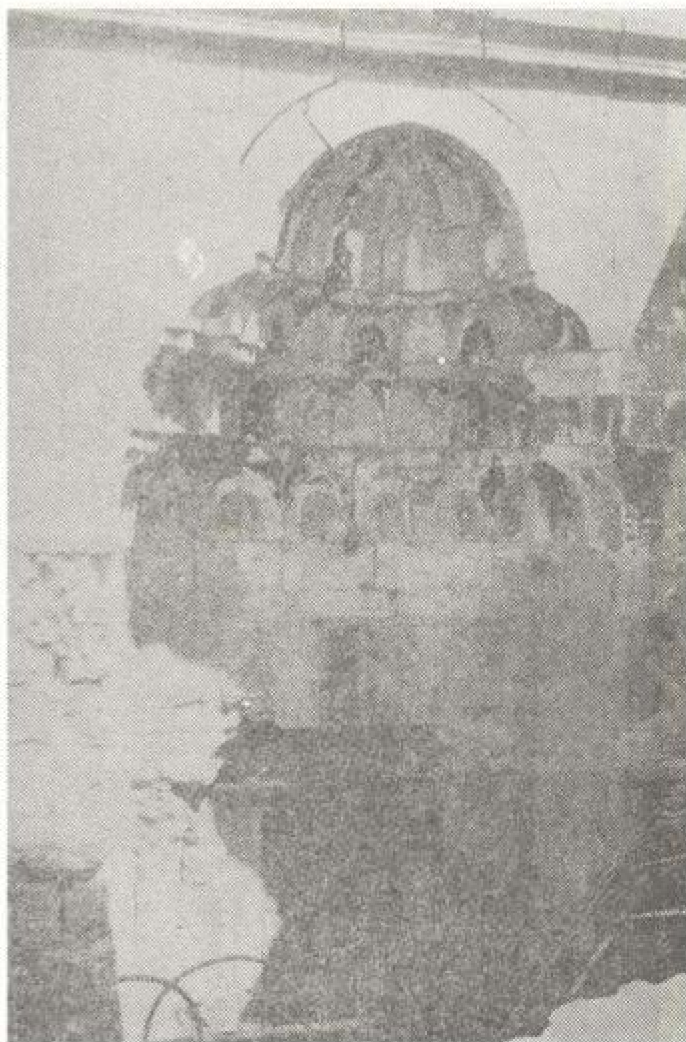
لوحة (١١) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر
بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز



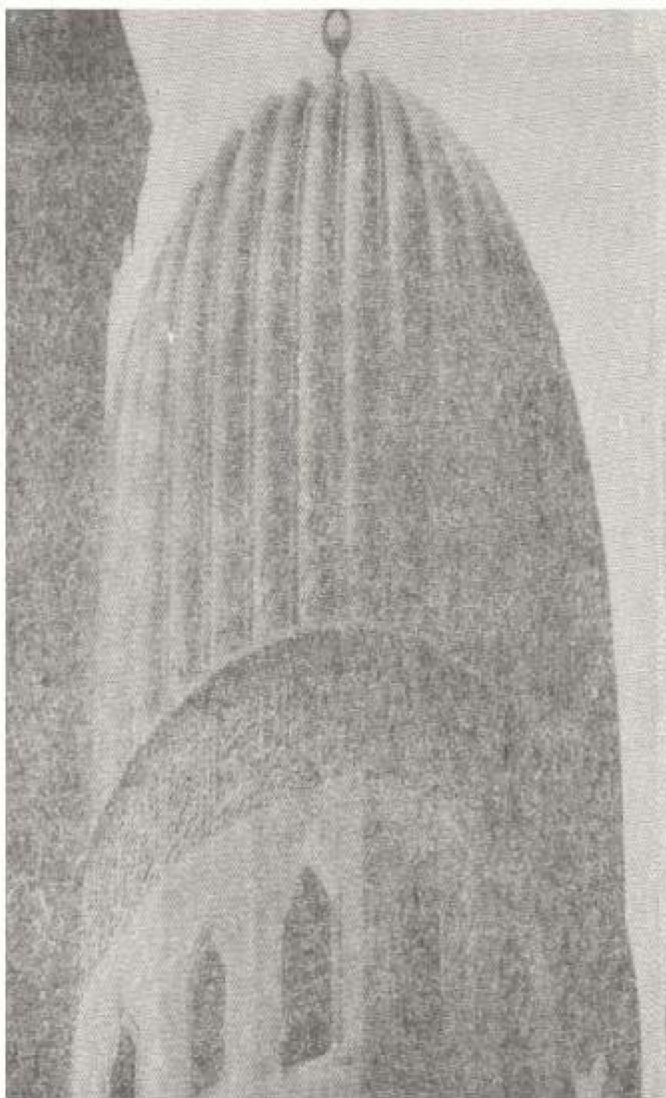
لوحة (١٢) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر
بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز



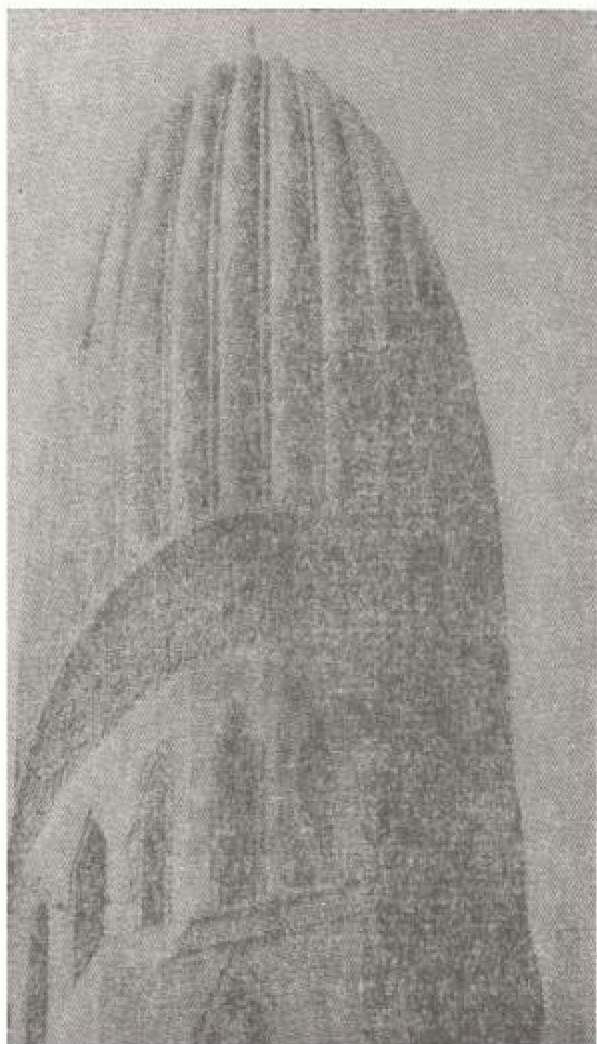
لوحة (١٣) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز



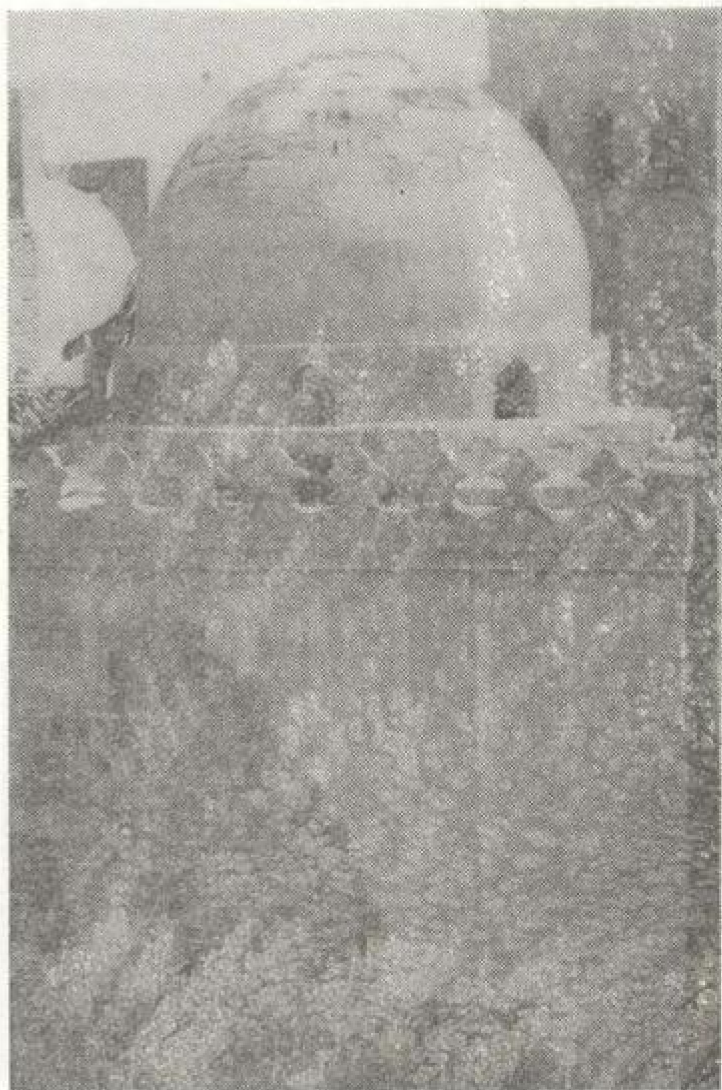
لوحة (١٤) : مدخل مدرسة وخانقاه الجاولى جهة قلعة الكبش



لوحة (١٥) : تفصيل من قبة سلار



لوحة (١٦) : تفصيل من قبة الجاولي



لوحة (١٧) : القبة الثالثة الحجرية

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية المطبوعة :

ـــ ابن اياس (ابو البركات محد بن أحمد الحنفى) ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م: بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، خمسة أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ - ١٩٨٤ ٠

ـــ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م :
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ٠

ـــ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ٦ أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٢١ - ١٩٧٢م ٠
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، خمسة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٨٥ - ١٩٩٠م ٠

ـــ ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر) ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م
تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق د٠ محمد محمد أمين، ٣ أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م٠

ـــ ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد) ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م :
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة،تحقيق محمد سيد جادالحق، ٤ أجزاء ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م ٠

ـــ ابن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م :
فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ١ ، النهضة المصرية ، ١٩٥١م ٠

ـــ ابن العماد (أبو الفتح عبد الحى) ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م :
شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، جـ٦ ، بيروت - لبنان ٠

- ابن ايبك الدوادار (أبو بكر بن عبد الله) :
كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق هانس رويمر ، جـ٩ ، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

- الحميرى (محمد عبد المنعم) :
الروض المعطار فى خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت، ١٩٨٤م .

- السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى) ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م :
طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمد محمد الطناحى ، عبد الفتاح محمد محمد الحلو ، جـ١٠ ، الطبعة الثانية ، ١٤٣هـ/ ١٩٩٢م .

- الشوكانى (محمد بن على) ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م :
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ.

- العينى (بدر الدين محمود) ت٨٥٥هـ/١٤٥١م :
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، تحقيق د. محمد محمد أمين، جـ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ت٨٢١هـ/١٤١٨م :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ،١٤ جزء ،القاهرة ١٩١٢-١٩٣٨م.

- مجير الدين الحنبلى (أبو اليمن عبد الرحمن العليمى المقدسى) ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م :
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ١ ، القاهرة .

- المقـــدسى :
أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، القاهرة ، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ت٨٤٥هـ/١٤٤١م :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الاثار(المعروف بالخطط المقريزية)، جزآن الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د٠ محمد مصطفى زيادة ، د٠ سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٧٣م ٠

— ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م: معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ٦ أجزاء ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ٠

ثانيا : المراجع العربية الحديثة :

— د٠ أحمـــد فكرى :

مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ، دار المعارف بمصر ٠

— جـــومار : وصف مدينة القاهرة ، ترجمة :

د٠ ايمن فؤاد سيد ، مكتبة الخانجى بالقاهـــرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ٠

— د٠ حســن الباشا :

الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضـــة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧م ٠

— د٠ حسن سيد جودة القصاص :

المدرسة الصرغتمشية ، دراسة أثرية معمارية ، مخطوط رســالة ماجسير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة، ١٣٩٢ - ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م

—٠ حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الاثرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعـــة الثانية ، ١٩٩٤م٠

— د٠ حسنى محمد نويصر :

عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية (تاريخ المدارس فى فى مصر الاسلامية - تاريخ المصريين (٥١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ٠

ـــ حســـين روحى :
المختصر فى جغرافية فلســطين ، القـــدس ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م ٠

ـــ د٠ حسين مصطفى حسين :
المحاريب الرخامية فى قاهرة المماليك البحرية ، دراسة أثرية فنية، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ٠

ـــ د٠ ســعاد ماهر محمد :
مساجد مصر وأولياؤها الصالحين ، خمسة أجزاء ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية وزارة الأوقاف بمصر ٠

ـــ سليم عرفات المبيض :
غزة وقطاعها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م ٠
البنايات الآثرية الاسلامية فى غزة وقطاعها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥م ٠

ـــ شاهنده فهمى كريم :
جوامع ومساجد امراء السلطان الناصر محمد بن قلاون ، مخطوط رسالة دكتوراة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م٠

ـــ شفيقة قرنى ســـيد :
دراسة اثرية عمرانية لشارع الصليبية بالقاهرة حتى العصر الجركسى، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الاثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ٠

ـــ د٠ عادل شـــريف :
النصوص التاسيسية على العمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ـ جامعة أسيوط ، ١٩٨٦م ٠

ـــ د٠ عبد الله كامل موسى عبده :
تطور المئذنة المصرية بمدينة القاهرة من الفتح العربى وحتى نهاية

العصر المملوكى ، دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الاسلامى ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآثار ـ جامعة القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ٠

ـــ على باشا مبارك :
الخطط التوفيقية الجديدة ، جـ٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م ٠

ـــ د٠ على محمود سليمان المليجى :
عمائر الناصر محمد الدينية فى مصر ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ٠

ـــ د٠ فـــريد شـافعى :
العمارة العربية فى مصر الاسلامية (عصر الولاة) ، المجـــلد الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م ٠

ـــ مايـــــر :
الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

ـــ د٠ محمد حمزة اسماعيل الحداد :
العلاقة بين النص التاسيسى والوظيفة والتخطيط المعمارى للمدرسة فى العصر المملوكى (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ـ تاريخ المصريين(٥١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٢م ٠
القباب فى العمارة المصرية الاسلامية ، مكتبـــة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ٠

ـــ د٠ محمد سيف النصر ابو الفتوح :
منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، يناير ١٩٨٠م ٠

مداخل العمائر المملوكية بالقـــاهرة الدينية والمدنية ، (من سنة ٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٥٠/١٣٨٢م) مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار.

— محمد الششتاوى ســـند :
متنزهات القاهرة فى العصرين المـــلوكى والعثمانى ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

— د. محمد عبد الستار عثمان :
نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، ديسمبر ١٩٧٩م .

— د. محمد محمد أمين :
الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، دار النهضـــة العربية ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠م.

— محمود على خليل عطا الله :
نيابة غزة فى العهد المملوكى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

— Abou Seif (D.) :
* Islamic Architecture in Cairo, the American University in Cairo Press.

— Creswell (K.A.C.) :
* The Muslim Architecture of Egypt, 11, Ayyubids and Early Bahrite Mamluks, Oxford, 1959.
* The Evolution of the Minaret, Burlington, Magazine (Mars, Mai, Juin, 1926).

— Devonchire (R.L.) :
* L' Egypte Mauslmane et les Fondateurs des ses monuments, Paris, 1926.

— D. Margoliouth. S., :
* Cairo, Jeursalem, Damascus, London, 1907.

— Meinecke (Michael) :
* Die Mamlukische Architektur in Agypten und Syrin (648-1250 Bis 923 - 1517), tell 11,
Verlag J.J. Augustin G.m BH. Gluck stadt, 1992.

باب عـــرض الكتب (*)

نعرض فى هذا العدد خمسة كتب اصدرها بعض أعضاء الاتحاد هذا العام ، وأمدوا الاتحاد بنسخ منها للتعريف بها • وهذه الكتب هى :

اولا :

تاريخ المغرب العربى - الجزء الرابـــع [المرابطون : صـــنهاجة الصحراء الملثمون فى المغرب والسودان والأندلس] •

كتاب صدر عن منشاة المعارف بالاسكندرية ، تاليف الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد • الكتاب صدر عام (١٩٩٥م) ، يقع فى أربعمائة وعشرين صفحة ، عدا فهارس المصادر والمراجع وكشـــافات الاســماء ونحوها •

مؤلف الكتاب غنى عن التعريف ، فهو الأستاذ الدكتور المؤرخ سعد زغلول عبد الحميد الأســـتاذ المتفـــرغ حاليا بكلية الآداب بجامعـــة الاسكندرية ، وعميد كلية الآداب ورئيس قسم التاريخ وأســـتاذ التاريخ الاسلامى بنفس الكلية والجامعة سابقا •

والكتاب أيضا غنى عن التعريف ، فقد سبق اصـــدار ثلاثة أجزاء منه ، وهذا هو الجزء الرابع الذى يعالج فيه الباحث موضوع المرابطين، من بربر صنهاجة الملثمين ، وحركة الاحياء التى قاموا بها فى الصحراء والسودان والأندلس • والموضوع - كما يبدو - صعب ، تتعطش المكتبة العربية اليه ، حيث تشكو من جدب واضح فيه • وربما نجـــم ذلك عن صعوبة الموضوع ووعورة مسالكه وخلو بعض حلقاته من المصـــادر خلوا واضحا • ولكن الأستاذ الدكتور المؤلف استطاع أن يروى ظمأ المتعطشين اليه ، فقدم لهم جرعة - لا نقول مسكنة وانما شافية - فى الموضوع،وبذلك

(*) يستهدف هذا الباب التعريف بالكتب التى أصدرها الأساتذة أعضاء الاتحاد فى العام السابق مباشرة •

قدم للمشتغلين فى حقل التاريخ الاسلامى عملا سد به فعلا فراغا ملموسا فى التاريخ · وجاء ذلك على حساب جهد كبير شاق بذله الباحث وتبدو صورته فى كل صفحة بل فى كل سطر من صفحات الكتاب واسطره ·

لقد مهد المؤلف لدراسته عن المرابطين بعدة فصول عن طبيعة البلاد وبنائها البشرى ، وقبائل الملثمين بالصحراء الكبرى ، ثم عن صـورة الصحراء ـ أو كما أسماها خريطة الصحراء ـ الثقافية مع مطلع القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ·

وباسلوب قويم ومنهج علمى راسخ الجذور ، أخذ الباحث ينتقـل من فصل الى آخر من فصول الكتاب ، فتعرض لحركة التجديد الثقافية التى شهدتها صحراء الملثمين ، ثم عن القواعد التاسيسية والسياسية التى قامت عليها دولة المرابطين ، وانتقل من ذلك الى يوسـف بن تاشفين ودوره فى استكمال فتوح المغرب الشمالية من ناحية ونشاطه على ساحة الأندلس حيث دارت رحى حرب الاسترداد من ناحية أخرى · وهـكذا حتى كان عهد على بن يوسف بن تاشفين ، وبلوغ دولة المرابطين الذروة تمهيدا لبداية الانحلال والتدهور ·

والمؤلف فى علاجه للموضوع لا يقف عند حد السرد ، وانما يحرص على التعليل والمقارنة والنقد والربط بين المصادر المعاصرة من جهـة والمراجع الحديثة ـ أوربية وغير أوربية ـ م نجهة أخرى · هذا الى أنه زود هذه الدراسة الثمينة بعدد كبير من الخرائط والكشافات ، وبذلك مهد الطريق أمام الباحثين للوقوف على صورة مكتملة لحلقة ظلت شبه مفقودة من حلقات التاريخ الاسلامى ·

ثانيا : المتصوفة فى المغرب الأقصى ـ فى عصر المرابطين والموحدين
(٤٥٤ ـ ٦٦٨هـ = ١٠٦٢ ـ ١٢٦٩م)

كتاب فى مائة وسبعين صـفحة ، تاليف الدكتور حسـين سـيد عبد الله مراد عضو هيئة التدريس بمعهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة ·

والكتاب يحمل تاريخ ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ورقم ايداع٩٤/١١٥٢٨ ٠

والباحث كما هو واضح يعرض لموضوع له أهميته الدينية والفكرية والاجتماعية ، حيث أن التصوف ظاهرة لها جـذورها الدينية من جهة وآثارها الحضارية والاجتماعية بوجه خاص من ناحية أخرى ٠

ومن الملاحظ أن هذه الظاهرة تقوى وتشتد عندما يحس الفرد أو المجتمع بحاجته الى الرجوع الى الله للخلاص من أزمة يمر بها ٠ وكان هذا هو الاتجاه الذى ساعد على اشتداد تيار التصوف فى المغرب الاسلامى على عصرى المرابطين والموحدين ، بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السابع للهجرة ، عندما ساءت أحوال المسلمين فى المغرب والأندلس وأحسوا بضعفهم أمام ضربات القوى المسيحية فى شمال الأندلس وغرب حوض البحر المتوسط ٠

وقد عالج الباحث هذه الظاهرة فى اطار منهج علمى سليم ، فمهد لموضوع بحثه بمقدمة عرف فيها التصوف ، ثم قسم دراسته الى خمسة فصول استهلها بمحاولة للوقوف على عوامل انتشار التصوف فى المغرب الاسلامى ، وانتقل من ذلك الى الكشف عن دور المتصوفة فى الحيـاة السياسية من جهة وفى حركة الجهاد ضد الأسبان من ناحية أخرى ٠ وبعد أن تكلم عن انتشار ظاهرة التصوف فى المغرب العربى ، تطرق الى أثر التصوف فى تكييف الحياة الاجتماعية ، وتضمن ذلك القاء الضوء على الدور الاجتماعى للمتصوفة ، ونصيب المرأة فى حركة التصوف ، ومكانه الصوفية فى المجتمع ٠ وكان من الطبيعى فى مثل هذه الدراسة أن يتطرق الباحث لأوجه النشاط الحضارى لحركة التصوف فى المغرب ، فقـدم عرضا طيبا لدور المتصوفة فى النشـاط الاقتصادى والحياتين الدينية والفكرية ٠ وبعد خاتمة لخص فيها الباحث ما توصل اليه فى بحثه ، أورد عددا من الخرائط والفهارس وقائمة المصادر والمراجع التى استعان بها فى البحث ٠

والكتاب فى مجموعة يعبر عن دراسة علمية جادة تستحق التقدير٠

ثالثا : تاسيس مملكة البرتغال ٠

كتاب فى نحو مائتين وستين صـفحة ، صـــدر عن مؤسسة عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية بالقاهرة ٠

تاليف دكتور محمد محمود النشـــار ـ مدرس تاريخ العصـــور الوسطى ـ كلية الاداب ـ جامعة طنطا ٠

يعالج الباحث فى هذا الكتاب موضوع السياسة الخارجية لألفونسو هنريكز ملك البرتغال (١١٢٨ ـ ١١٨٥م) ٠ وقـــد يبدو الموضوع فى ظاهره اكثر ارتباطا بالتاريخ الأوربى ، ولكن الباحث اعطى أهمية خاصة لعلاقة ملك البرتغال بدولة المرابطين من ناحية ثم بالموحدين من ناحية اخـــرى ، وذلك بعد ان تكلم فى الفصلين الأول والثانى من كتابه عن الأوضاع السياسية فى دولة البرتغال فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر وكذلك علاقة الملك الفونسو هنريكز بملوك قشتالة وليون والبابوية ٠

والدراسة فى مجموعها تتصف بالعمق ، تلقى اضواء على جوانب لم تحظ بقدر كاف من عناية الباحثين ، وبخاصة فيما يتعلق بعـــلاقة البرتغال بالمرابطين والموحدين ٠ وقد عالج الباحث هذه العلاقة فى ضوء التيار الصليبى الذى جرف عديدا من قوى الغرب الأوربى ضد المسلمين فى ذلك الدور ٠ وزود الباحث دراسته بعدد من الملاحق التى تشتمل على وثائق وجداول ، بذل جهدا واضحا فى نقلها الى العربية ٠ هذا فضلا عن الكشافات والفهارس وقائمة المصادر والمراجع ٠

والحق ان الكتاب يعبر عن اضافة جديدة للمكتبة العربية ٠

رابعـــا : الزط ، والأصول الأولى لتاريخ الغجر ٠

كتاب صدر فى القاهرة فى مائة وثلاثين صفحة ، يحمل رقم الايداع ٩٤/١١٥٢٩ (١٤١٥هـ) تاليف دكتور عبادة عبد الرحمن كحيلة أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ٠

يتعرض الباحث فى ها الكتاب لأصل جماعة لعبت دورا كبيرا فى

تاريخ العالم - سياسيا واجتماعيا واقتصاديا - ومع ذلك مازال الغموض يحيط بجذورها الحقيقية . ومن العوامل التى تجعل دراسة تاريخ الغجر من الصعوبة بمكان ، انهم ظلوا محتفظين عبر القرون بكيانهم شبه المستقل دون ان يذوبوا فى المجتمعات التى احتكوا بها او عاشوا على هوامشها . ومع احتفاظهم بخصائصهم لم تكن لهم لغة مكتوبة خاصة بهم، وبالتالى لم يعنوا بكتابة تاريخ لهم .

وفى قلب هذه التيارات والأمواج المتلاطمة ، أقحم الباحث نفسه محاولا الوصول الى الجذور الحقيقية لجماعات الغجر ، وتتبع خصائصهم واوجه نشاطهم ، واحوالهم الاجتماعية ومكانتهم فى المجتمع البشرى الكبير . وقد نجح الباحث فعلا فى الكشف عن كثير من هذه الحقائق بفضل ما تحمله من جهد فى البحث فى أعماق العديد من المصادر والمراجع العربية والاوربية ، وبذلك قدم للتاريخ شيئا جديدا يجمع بين طرافة الموضوع وجدية المنهج .

خامسا :

دور العرب فى اكتشاف العالم الجديد

كتاب فى مائة وخمسين صفحة ، بما فيها قائمة المصادر والمراجع والفهارس . الكتاب تاليف دكتور فهمى توفيق مقبل،الأستاذ المساعد بكلية التربية - جامعة الملك فيصل،صدر الكتاب عن دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، ويحمل رقم الايداع ٧٢٦٥ لسنة ١٩٩٤ .

وقد وضع المؤلف هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف النصف الثانى للكرة الأرضية . وفيه القى المؤلف أضواء ساطعة ، وكشف عن حقائق جديدة تتعلق بالجهود الرائدة التى بذلها العرب فى مجال الملاحة البحرية بوجه عام ، والملاحة فى بحر الظلمات او المحيط الأطلسى بوجه خاص ، حتى كان لهم شرف السبق فى اكتشاف العالم الجديد . وباسلوب علمى متزن ، وفى اطار منهج سليم ، اثبت الباحث أن كولومبس اعتمد على الخرائط التى وضعها العرب ، وعلى

الاجهزة التى استخدموها فى عالم البحار • وتطرق المؤلف خلال دراسته الى اثر الفكر الجغرافى ـ العربى الاسلامى ـ فى أوربا ، وكيف أقبل الاوربيون فى صحوتهم فى فجر العصور الحديثة على ترجمة والتقاط ما توصل اليها العرب من نتائج وما حققوه من انجازات علمية ، بنوا عليها معارفهم ومكنتهم من الوصول الى ما وصلوا اليه على طريق نهضتهم الحديثة •

والكتاب فى مجموعه دراسة علمية جادة جديرة بالتقدير •

Bulletin
of
The Arab Historians Society

Academic Bulletin Concerned with
Historical studies

VOL. 1 NO. 4 March, 1996 Cairo - Egypt

اتحاد المؤرخين العرب
بالقـــاهرة

مجـلـة
المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد الخامس — المجلد الأول — مارس ١٩٩٧

أحداث تاريخية فى الأدب المصرى القديم(*)

د. علاء الدين عبد المحسن شاهين(**)

١ - تمهيد

تميز الأدب المصرى القديم بأصالته وبتعبيره عما كان يدور فى عقول المصريين القدماء . وقد تعددت أنماطه وأشكاله الأدبية من قصص ومغامرات وأساطير دينية ، وتنبؤات وحكم وأمثال - فيما عرف بأدب الحكمة - عكست خبرة كاتبها ، وما تضمنته من نصائح مفيدة ، يجب على سامعها إتباعها بغية الوصول إلى طريق الكمال . هذا فضلاً عن الرسائل الشخصية والقصائد الشعرية المتعددة الموضوعات ، والتراتيل الدينية لصالح آلهة مصرية متعددة . وقد دوّن الجزء الأكبر من الأدب الفرعونى بالخط الهيراطيقى والديموطيقى ، وذلك على ورق البردى أو قطع الأوستراكا ، وعكست تلك النصوص ملامح متعددة من جوانب الحياة اليومية للمصريين القدماء ، وملمحًا مختلفًا عمّا درج المرء على معرفته فيما يتعلق بحضارة مصر القديمة ، بما غلب عليها من طابع جنازى ، وما طُبعت عليه النظرة الأولى لتلك الحضارة على أنها مكرّسة لعالم ما بعد الموت(١) .

وقد عكست النصوص الأدبية فى مصر الفرعونية بعض الوقائع التاريخية فى ارتباط مع أوضاع مصر السياسية الداخلية منها أو الدولية ، وبالمثل العلاقات الاجتماعية المتشابكة أحيانًا بين أفراد الأسرة الملكية ، وجهود بعض حكامها فى تأمين حدود مصر اتقاء لأخطار خارجية ، أو لإعادة السلطة المركزية على كامل

(*) هذا البحث الموسع كان موضوع محاضرة عامة أُلقيت فى إطار الموسم الثقافى لرابطة أدباء الكويت - الكويت (إبريل ١٩٩٦) .

(**) كلية الآثار جامعة القاهرة، ومعار حاليًا بقسم التاريخ ، كلية الآداب - جامعة الكويت.

شطرى وادى النيل (دلتا وصعيد مصر) إلى نصابها (انظر خريطة(١)) . ومن أهم تلك النصوص الأدبية فى إطار ما عرف بالقصص المصرى قصة خوفو والسحرة (بردية وستكار) ، القروى (الفلاح) الفصيح ، سنوهى ، نجاة (الملاح الغريق) ، قصة أبوفيس وسقنن رع (بردية ساليه) ، خطة تحوتى فى الاستيلاء على يافا وقصة ون آمون . ومن بين نماذج أدب الحكمة والنقد السياسى سنتناول تحذيرات إيبوور ، نبوة نفررهو (نفرتى) ، تعاليم خيتى إلى ابنه مريكا رع ، وتعاليم أمنمحات الأول . أما نصوص الرسائل فسنقصر حديثنا فيها على الرسالة الملكية إلى حرخوف ، رسائل حقانخت ، ومجموعة رسائل أواخر عصر الرعامسة . وسنتناول تلك النصوص الأدبية ليس بهذا التقسيم الأدبى الحرفى، ولكن من منظور تاريخى عبر فترات الأحداث التاريخية لمصر الفرعونية منذ عصر الدولة القديمة (٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق. م.) إلى أواخر الحضارة المصرية فى بدء فترة الانتقال (الإنهيار) الثالث والأخير (١٠٨٥ - ٦٦٤ ق. م.) .

٢ - من أدب الدولة القديمة (٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق. م.) :

لعل من أهم النماذج الدالة على ما يمكن استنباطه من النصوص الأدبية من فترة الدولة القديمة لفهم تلك التغيرات السياسية التى تمت أواخر الأسرة الرابعة وأوائل الأسرة الخامسة هو ما ورد ضمن النص الأدبى المعروف باسم " قصة خوفو والسحرة " أو " بردية وستكار "(٢) المحفوظة حاليًا فى متحف برلين برقم ٣٠٣٣ والتى عكست نصوصها ما هدف إليه مؤلفها من أنصار آله الشمس " رع " من بحث عن أصول قدسية ، ومولد إلهى لأوائل ملوك الأسرة الخامسة (٢٤٩٤ - ٢٣٤٥ ق. م.) كتبرير لاغتصابهم العرش الملكى ، وبدء فرع جديد لأسرة حاكمة ، وكيف أن هؤلاء الملوك قد حملت بهم زوجة كبير كهنة رع ذاته :

" انظر إنها زوجة كاهن رع فى بلدة سخبو وهى التى حملت فى ثلاث أطفال لرع رب سخبو ، وقد أخبرها أنهم سيتولّون هذه الوظيفة (ملوكًا على

مصـر) فـى كـل هـذه البـلاد ، وأن أكبرهـم سيكون الكـاهن الأعظـم فـى عـين شمس[٣] " .

وتلقى نصوص هذه البردية الضوء على الأوضاع السياسية فى نهاية الأسـرة الرابعة وما صاحبها من ازدياد النفوذ الدينى للعقيدة الشمسية . وقـد ارتبـط بفـترة حكم ملوك هذه الأسرة الخامسة ازدياد نفوذ الديانة الشمسية ، وما ارتبط بها مـن إنشاءات خاصة لمعابد الإله رع كتقليد معمـارى جديـد ارتبـط بفـترة حكـم هـذه الأسرة ، وهو ما عرف باسم " معبد الشمس "[٤] (انظر شكل ١ أ - ب) .

إضافة إلى ذلك فإن النقوش المصريـة القديمـة لبعـض كبـار رجـال الحكـم ، خلال فترة الدولة القديمة تعتبر فيما يعرف باسم " السير الذاتية " مصدرًا أدبيًا هامًا يمكن الاستفادة منه فى معرفة بعض الأحداث والوقـائع الهامـة - مـن وجهـة نظـر كاتبها - شارك فيها ، أو لعب دورًا بحكم منصبه فى تنفيذها من قتال دفاعًـا عـن مصر ، أو ملقيًا الضوء على مؤثرات داخلية ومظاهر للتحلل والانهيار فـى سياسـة الدولة المركزية مما قد لا تعكسه المصادر التاريخية الرسميـة للدولـة ، أو ربمـا تعـرض كشفًا جغرافيًا هامًا بحثًا عن موارد اقتصادية مثلما يتضح بصفة خاصة من نصـوص القائد المصرى " ونى " ، وحاكم أسوان " حرخوف " .

وقد أشارت نصوص الرسالة الملكية التى تلّقاها " حرخوف " حاكم أسوان فى صعيد مصر من مليكه " مرن رع " والمـدون علـى جـدران مقبرتـه بأسـوان[٥] مدى اهتمام حاكم مصر آنـذاك مـن الأسـرة السادسـة بتكليـف مـن يـراه مناسبًا لأعمال الكشف الجغرافـى إلى جنوبـى مصـر بحثًـا عـن مـوارد اقتصاديـة مرغـوب فيها[٦] وبدون الحاجة إلى وسيط تجارى ، وهو الدور الذى مارسته جماعـات مـن أهل منطقة النوبة السفلى آنـذاك . وبالإضافـة إلى ذلـك فإنـه يمكـن لنـا مـن تلـك النصوص استنباط وجود أول محاولة سياسية لتوحيد بعض المجموعات البشـرية فـى النوبة تحت إمرة حاكم واحد ، وهو الأمر الـذى لم يرد لـه ذكـر فـى أى مصـدر

تاريخى آخر . وأخيرًا توضح لنا نصوص حرخوف مدى التداخل المصرى جغرافيًا إلى الجنوب من الجندل الثالث ، أو منطقة بوتانا ، أو إلى الجنوب الغربى من السودان باتجاه مناطق السافانا الأفريقية استنادًا على التباين فى تحديد الموقع الذى ذهب إليه حرحوف فى منطقة (إ) يام فى رحلاته الكشفية .

٣ - من أدب فترة الانتقال الأول (٢١٨١ - ٢٠٤٠ ق. م.) :

حدث خلال فترة الانتقال الأول (عصر اللامركزية الأولى) (٢١٨١ - ٢٠٤٠ ق. م.) أن انهارت السلطة المركزية ، وانقسمت مصر إداريًا إلى مقاطعات عديدة ، وضعفت أثناءها يدها القوية سياسيًا وعسكريًا على حدودها الشرقية ، مما مكن بعض الجموع الآسيوية من التداخل إلى شرق دلتا وادى النيل حيث عاثت فسادًا . وقد عكست لنا بعض النصوص الأدبية تصويرًا لما حاق بمصر آنذاك من انهيار سياسى واقتصادى ، ومن خلل فى الأمن الداخلى والخارجى . ومن أهمها نصوص بردتى إيبو - ور ونفرتى ، القروى الفصيح ، ونصائح الملك " خيتى " إلى ابنه مريكارع . وتتمثل أهمية تلك المصادر الأدبية فى كونها المصدر الأساسى لفهم الأحداث التاريخية خلال تلك الفترة الزمنية لانهيار السلطة المركزية، الأمر الذى جاء مصحوبًا بعدم توافر مصادر تاريخية رسمية ملكية الطابع ، أو ما يمكن نسبه إلى كبار رجال السلطة المركزية من جهة ، ولعدم توافر الآثار الملكية المدنية منها أو الجنازية من جهة أخرى .

وتوضح لنا نصوص بردية إيبوور (بردية ليدن رقم ٣٤٤)(٧) مدى الفوضى السياسية التى حاقت بمصر فى أوائل فترة الانتقال الأول والإشارة إلى التداخل الآسيوى فى شرق دلتا وادى النيل ، ومدى ما أثارته تلك النصوص من جدل تاريخى حول الربط بين هؤلاء الآسيويين وبين ما يعتقد أنه اندفاع أموري (شمال غرب آسيا) ضد فلسطين(٨) ، مما أدى إلى اندفاع بعض المجموعات البشرية الآسيوية باتجاه مصر .

ودعمت تلك الآراء ما عُثر عليه من آثار أجنبية الأصل مشابهة لمثيلاتها فى غرب آسيا(٩) وقد عكست لنا نصوص " إيبو - ور " تلك الفوضى السياسية والتداخل لبعض العناصر الأجنبية لمصر :

" ما عاد أحد يبحر اليوم نحو جبيل ، فما الذى سوف نفعله بخصوص أخشاب الأرز ، التى اعتدنا أن نصنع منها توابيتنا ، والزيوت التى يحنّط الكبراء بها، وترد من هناك ، ومما يجاور كفتيو . ما عاد يأتى من ذلك شىء ، وانعدم الذهب (فى الخزائن) ، وقلّت موارد كل الأعمال حتى أصبح مجئ أهل الواحات بمنتجاتهم (البسيطة) شيئًا ذا بال "(١٠) .

إضافة إلى ذلك ، فإن نصوص " إيبو - ور " تتميز بمدى ملموس من الجرأة السياسية فى مخاطبة أحد أفراد الشعب لحاكمه ، بل وإلقاء اللوم عليه فيما ألم بالبلاد من انهيار سياسى ، وتداخل لعناصر أجنبية للمكان :

" إن أصدقاءك قد كذبوا عليك . البلاد تعمل ، والناس على شفًا الهلاك . ما هذا الذى حدث فى مصر ؟ لديك الحكمة والبصيرة ، ولكنك تترك الفساد ينهش البلاد ، الحقيقة أنك أوصلت البلاد إلى هذا الدمار ، الحقيقة أنك تتفوه كذبًا(١١) " .

أما نصوص بردية " القروى (الفلاح) الفصيح " من الأسرة التاسعة الاهناسية الأصل (٢١٦٠ - ٢١٣٠ ق. م.) فقد ألقت ضوءًا هامًا على تصوّر إعادة هيكل الحكم المركزى لملوك تلك الأسرة ، وما تلتها(١٢) . ويستنبط من هذا النص الأدبى الذى يعتبر نموذجًا لروح الفصاحة والبيان فى الأدب المصرى وجود مقر حكم (عاصمة سياسية) وحكم ووزراء قائمين على تصريف شئون الحكم ، وسلطة أمن داخلى لمساعدة الحاكم ولتسيير أمور الدولة ولفرض مفهوم العدل وتطبيقه على الجميع ، مما يوضح لنا أن مصر خلال فترة انهيارها السياسى (الانتقال الأول) بدأت تضع أولى لبنات العودة إلى مفهوم الحكم المركزى

وفرضت سلطتها السياسية على مقاطعات شمال صعيد مصر ووسطه وحتى حدود مناطق التماس مع مملكة طيبة فى منطقة العرابة المدفونة . وبالمثل كشفت لنا تلك النصوص قدرة مصر على تنظيم أمورها الإدارية ، وإعادة تجييش الأفراد للخدمة العسكرية (الجيش المحلى) مما مهد الطريق أمام ملوك أواخر فترة الانتقال الأول لتحقيق حلم الوحدة السياسية الشاملة لشطرى وادى النيل ، تحت إمرة حاكم واحد .

وتتضح تلك الملامح نحو إعادة هيكلة الدولة أيضًا فى النص الأدبى المعروف بنصائح خيتى إلى ابنه مريكارع أحد ملوك الأسرة العاشرة الاهناسة الأصل (٢١٣٠-٢٠٤٠ ق.م.) والمحفوظ حاليًا فى متحف لينينجراد برقم ١١١٦ أ.[١٣] ويستنبط من هذا النص الأدبى تمكن الحاكم المصرى من تأمين مقاطعات غرب الدلتا وحتى شاطئ البحر ، واستمرارية التواجد الآسيوى فقط فى شرق الدلتا ، وكذلك حث الملك لابنه على تنظيم نوع من الوجود العسكرى والبشرى يمتد من وادى الطميلات إلى القنطرة فى شرق الدلتا للتمكن من مواجهة وصد تسللات الآسيويين :

" إذا قامت بلادك من جهة الجنوب بثورة فإن ذلك يكون حافزًا لقيام الأجانب فى الشمال بحروب ضدك . فعليك إذن أن تقيم مدنًا فى الدلتا . والبلد الآهلة بالسكان لا تمس بسوء ، فابن مدنًا "[١٤] .

وأخيرًا نستنبط من هذا النص الأدبى ملامح الصراع العسكرى بين مقاطعات صعيد مصر ممثلاً فى مملكتين : أهناسيًا فى شمال ووسط الصعيد حتى إقليم " ثنى " (العرابة المدفونة) ، وطيبة (الأقصر حاليًا) إلى الجنوب من ذلك وحتى أسوان ، كما نستنبط غلبه النصر التمهيدى لاهناسيًا ، واندفاعها العسكرى ضد الجنوب [١٥] ، وتمكن المملكة الطيبية من فرض سيادتها العسكرية والسياسية آخر الأمر ضد المملكة الاهناسية ، وتمكنها فى مرحلة تالية من إكمال النفوذ

المصرى لمملكة الجنوب على كامل تراب مصر فى عهد الملك " نب حبت رع مونتو حتب " حوالى ٢٠٤٠ ق. م.(١٦) .

٤ – من أدب الدولة الوسطى (٢١٣٣ – ١٧٨٦ ق. م.) :

ومع إعادة كامل الوحدة السياسية لشطرى وادى النيل على يد " نب حبت رع مونتوحتب " من الأسرة الحادية عشر الطيبية الأصل ، ثم خلال فترة حكم ملوك الأسرة الثانية عشر فيما عُرف بعصر الدولة الوسطى (٢١٣٣ - ١٧٨٦ ق. م.) نجد العديد من المصادر الأدبية التى تلقى المزيد من الضوء – إلى جانب بعض المصادر الملكية والخاصة – على علوّ مكانة مصر السياسية والحضارية داخليًا وخارجيًا فى المنطقة الجغرافية إلى جنوب مصر : النوبة ، أو فى مناطق شرق حوض البحر المتوسط أيضًا ، أو انعكاسًا لمفهوم النبوءة السياسية للتمهيد لحكم ملك ما ، أو سرد لاغتيال سياسى . ولعل من أهم تلك النصوص ما يعرف ببردية تنبؤات نفررهو (نفرتى) ، سنوهى ، نصائح الملك أمنمحات الأول إلى ابنه ، قصة نجاه الملاح (الملاّح الغريق) ، وكذلك نصوص رسائل الكاهن المزارع حقًا نخت إلى ابنه .

وتوضح نصوص بردية " تنبؤات بردية " تنبؤات نفرهرو (نفرتى) المحفوظة حاليًا بمتحف لينتجراد برقم ١١١٦ ب (١٧) ملامح الضعف السياسى لمصر أثناء فترة الانتقال الأول ، وتداخل الآسيويين إلى مصر خلالها :

" ظهر الأعداء فى الشرق (حرفيًا : الآسيويون على الأرض تواجدوا فى الشرق) ، واقتحم القبليون (الأسيويون) مصر (حرفيًا : لقد نزل العامو إلى مصر) لقد أصبحت البلاد خرابًا فلا يوجد من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ، ولا من يذرف الدمع ، فأية حال تلك التى عليها البلاد"(١٨) .

وتتمحور نصوص البردية بعد ذلك حول النبوءة التى تبشر بظهور المخلص (المنقذ) أميى (أمنمحات) ، وقدرته على إعادة الأمن والأمان لمصر كنوع من

الدعاية السياسية . إضافة إلى ذلك ، فإنه يمكن الاستنباط من نصوص هذه البردية قدرة أمنمحات الأول على تنفيذ سياسة " السلام المسلح " باهتمامه بحدود مصر الشرقية ، ودوره فى طرد بقايا فلول الآسيويين من شرق الدلتا ، وتشييده لسلسة من الحصون على تلك الحدود .

" إن جدار الأمير (حصن) سوف يشيدّ ، وسيمْنع الأسيويون من الدخول إلى مصر ، وأنهم سيستجدون الماء من مصر ثانية كمألوف عادتهم ، لكى تردها أنعامهم[١٩] .

ولقد تردد صدى تلك التحصينات أيضًا فى النص الأدبى المعروف بقصة سنوهى ، وربما كان أكثرها فى مدخل وادى الطيملات (فى محافظة الشرقية) . وتعتبر البردية نموذجًا جيدًا للدعاية السياسية قصد بها كاتبها تبرير استيلاء الملك على الحكم[٢٠] .

وتضيف لنا نصوص قصة سنوهى[٢١] مزيدًا من المعلومات عن بعض أهم الأحداث التاريخية فى فترة حكم أول ملوك الأسرة الثانية عشر : الملك أمنمحات الأول (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م) ، وولى عهده سنوسرت الأول من مشاركة فى السلطة ، وفى اشرافه على نشاط مصر العسكرى ضد القاطنين على حدودها الغربية والذين ذكرتهم النصوص المصرية باسم التمحو والتحنو (ليبيا) .

" وكان قد أرسل جلالته جيشًا إلى أرض التمحو وكان بكر أولاده سنوسرت الطيب ، ضابطًا فيه ، وقد كان فى هذه الأثناء عائدا بعد أن استولى على أسرى من التحنو ، وكان أنواع الماشية التى يخطئها العد[٢٢] " .

وتعكس نصوص البردية فى معرض السرد صورة لهروب سنوهى من مصر شرقًا باتجاه سيناء ومنها إلى فلسطين واجتيازه لنقاط المراقبة والحصون المعروفة باسم " جدار (سور) الحاكم " الأمير " والمشيدة لصد البدو ساكنى الرمال :

" لقد ربضت بين الأعشاب خوفًا من أن يرانى ذلك الحارس القائم بالعمل فوق الجدار . وفى الليل استأنفت السير[٢٣] " .

كذلك فإن نصوص سنوهى حال عودته إلى مصر بعد صدور العفو الملكى عنه تشير إلى استخدامه الطريق البرى الشهير باسم " طرق حورس " ، وهو نفسه الذى وردت إشارات عديدة إليه فى النصوص المصرية وخاصة من عصر الدولة الحديثة أثناء مجد مصر الامبراطورى (٢٤) ، وكذلك تشير إلى انتظار سنوهى عند إحدى تلك النقاط للمراقبة على الحدود لحين وصول الإذن الملكى للسماح له بالدخول إلى منطقة شرق دلتا النيل ، وهو ما تم بالفعل ، إضافة إلى سفينة خاصة أرسلت لنقله إلى البلاط الملكى :

" توقفت عند القنطرة . وأرسل الضابط المكلف بالحراسة هناك رسالة إلى القصر ليعلن حضورى . فعمل صاحب الجلالة الترتيبات اللازمة لمجئ رسول خاص، وتبع هذا الرسول عدة صنادل (مراكب) بالهدايا . للآسيويين المرافقين معى . بدأت رحلة العودة ، ورفعت الشراع . وقد أعدت لى كميات من الجعة الطازجة على ظهر السفينة حتى وصلت مساء العاصمة ."(٢٥)

ويذكرنا ما حدث لسنوهى ما أوردته نصوص الدولة الحديثة – والتى بلغت مصر خلالها قمة مجدها – من اضطرار مجموعة آسيوية قدمت إلى مصر إلى الانتظار عند إحدى نقاط المراقبة (الحصون) لحين إصدار الأمر الملكى بالسماح لها باجتياز المكان إلى داخل شرق الدلتا وذلك ضمن النص المعروف بتقرير موظف الحدود :

" تقرير آخر إلى سيدى نحيطه بأننا قد سمحنا لتلك القبائل البدوية القادمة من إدوم بالمرور عبر قلعة " مرنبتاح حتب حر ماعت " له الحياة والرخاء والصحة الموجودة فى تكو (فى نهاية وادى الطميلات) للابقاء أحياء عليهم ، وعلى قطعانهم بفضل " كا " جلالته لها الحياة والرخاء والصحة "(٢٦) .

كذلك تعكس نصوص سنوهى بعد هروبه من مصر ، وإقامته فى آسيا ، تمتعه بمكانة اجتماعية مميزة بالمكان كيف أن ملامح الحضارة المصرية كانت سائدة

هناك ، وأن اللغة المصرية القديمة مألوفة ، وأن هناك حركة رسل ومراسلات قائمة بين مصر وموانئ الساحل الشرقي لحوض البحر المتوسط :

" كانت الرسل التي تذهب إلى الشمال أو تتجه إلى بلاد الملك في الجنوب تنزل عندى إذ كنت أستضيف جميع الناس ، وأسقى الظمآن ، وأهدى الضال إلى الطريق وأحمى المحرومين(٢٧) " .

وأخيرًا يتميز النص الأدبى لسنوهي بإشارته إلى تلك القبائل الأسيوية المعروفة باسم " حقا وخاسوت " التى أشاعت قلاقل بالمكان ، مما اضطر معه أمير " رتنو " إلى أن يعين سنوهي قائدًا عامًا لجنوده لملاقاة هذا الخطر . وتمكن سنوهى من إنجاز ذلك ، والتغلب على قائد تلك المجموعات المسمى " عامونانشى " . ولعل هذه التسمية التى تعنى فى اللغة المصرية القديمة " حكام الأراضى الجبلية (الصحراوية) ". هى التى حرف عنها لفظ الهكسوس ، والذى عرفت به تلك المجموعة الآسيوية التى أقامت عنوة بمصر خلال فترة الإنتقال الثانى .(٢٨) وأخيرًا فإن من بين أهم ما يلفت النظر فى نص سنوهى أيضًا ما يتعلق بالنظرة المصرية إلى الأراضى الأجنبية (خاصة كدمى ، الفنجو وفلسطين) وبعض حكامها الموالين لمصر وحاكمها ، وتشبيه سنوهي لأرض فلسطين بأنها " مِلْك حاكم مصر(٢٩) .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن النص الأدبى المعروف بـ(نصائح الملك أمنمحات إلى ابنه "(٣٠) يلقى الضوء ، وبصورة أدبية مميزة - على أهم أحداث تلك الفترة التاريخية الخاصة بقصة الاغتيال السياسى لحاكم مصر ، بينما كان ابنه وولى عهدى سنوسرت منهمكًا فى حملة حربية على حدود مصر الغربية ضد التحنو - التمحو الليبيين ، وهو ما انعكس أيضًا من قبل فى نصوص سنوهى:

" بعد تناول العشاء وحلول الليل ، ذهبت للنوم لأنى كنت متعبًا ، وفجأة سمعت قعقعة الأسلحة ولقد كنت وحيدًا ورأيت اشتباك الحراس مع الأعداء ، ولو أني أسرعت وبيدى سلاحي لقاتلت هؤلاء الجبناء ، ولكن لا شجاع فى الليل

ولاقتال لمن كان وحده . فلقد حدث ما حدث وأنا وحيد بدونك ... إن الذى أكل طعامى هو الذى شجّع الثورة [التمرد] ضدى([٣١]) " .

وبالإضافة إلى ما سبق من نصوص الدولة الوسطى الأدبية فإن قصة الملاّح الغريق (أو بالأحرى نجاة الملاّح) المحفوظة حاليًا فى متحف لينتجراد برقم ١١١٥([٣٢]) برغم صورها المبالغة فى الخيال([٣٣]) - توضح لنا معرفة أهل مصر باستخدام الطرق الملاحية عبر البحر الأحمر وتمكن بحارتها من الوصول إلى بونت وشبه جزيزة سيناء بغرض الحصول على ما ترغب فيه مصر من موارد اقتصادية " البخور واللبان ، والنحاس والفيروز على التوالى "([٣٤])

وأخيرًا تجب الإشارة إلى رسائل الكاهن المزارع " حقا نخت " الذى عاش فى عهد المناتحة (الأسرة الحادية عشر ٢١٣٣ - ٢٠٤٠ق.م) وهو شيخ شحيح ماكر من صغار الملاك اضطر إلى السفر إلى الشمال (الدلتا) لإنجاز بعض الأعمال، وترك بقية أفراد عائلته فى طيبة تحت رعاية ابنه الأكبر " مرسو " وأرسل له عدة رسائل تصوّر لنا جوانب متعددة من الحياة الزراعية والعلاقات الاجتماعية ومدى التنافر أو المحبة بين أفراد هذه الأسرة ، ومدى العبء الأسرى الملقى على عاتق الابن الأكبر تجاه مراعاة مصالح أبيه الاقتصادية من جهة ، والتعامل باحترام ، أو خوفًا من انزال عقوبة به تجاه زوجة أبيه الجديدة ومحظيته([٣٥]) . ولعل أهم ما تضمنته تلك النصوص الأدبية لرسائل حقا نخت من وقائع تاريخية ، الإشارة إلى انخفاض مستوى نهر النيل ، والشح الذى حاق بالبلاد :

" لماذا أخذوا يأكلون الرجال والنساء هنا [الدلتا] ، لا يوجد أحد فى أى مكان يحصل على مثل هذه المؤن ، يجب أن تدبروا أنفسكم حتى أصلكم ، فإننى سأقضى شهور الصيف هنا "([٣٦]) .

ولعل هذا ارتبط مع ما سبقت الإشارة إليه من آراء للباحث " بوتزر " Butzer في الربط بين مستوى انخفاض فيضان نهر النيل أو ارتفاعه وبين إنهيار الحضارة المركزية المصرية أو قوتها .

٥ – من أدب فترة الانتقال الثانى (١٧٨٩ – ١٥٦٧ق.م) :

بدأت مصر دورة سياسية أخرى من التفكك السياسى ، وزاد عليها تمكّن بعض المجموعات البشرية من أصل أسيوى من التداخل إلى شرق الدلتا ، وتأسيس هيكل سياسى خاص بها ، وعرفت هذه المجموعات في المصادر التاريخية باسم " الهكسوس " وذلك خلال فترة الانتقال الثانى (اللامركزية الثانى) (١٧٨٦ – ١٥٦٧ق.م) . وقد توزعت السلطة السياسية على مصر خلال تلك الفترة بين أسرات حاكمة متعددة بين عواصم سياسية مختلفة . ومع أواخر فترة الانتقال الثانى تركزت أمور السلطة السياسية بين مملكتين أساسيتين : الهكسوس فى الدلتا وأسرة محلية مصرية تدين بالولاء الأسمى لحكم الهكسوس ، فى منطقة طيبة فى جنوب صعيد مصر وهى المعروفة بالأسرة السابعة عشر الطيبية . ولقد توفر لنا بعض المصادر التاريخية عن أخريات تلك الفترة الانتقالية حينما بدأت مصر تستعد لشن حملة معاكسة لتوحيد مصر سياسيًا ، ولتحرير أرضها من موجود الهكسوس وخاصة من فترة حكم سفن رع أمير طيبة . ومن أهم النصوص الأدبية التى يستنبط منها بعض الأحداث التاريخية ما يعرف ببردية ساليية(١) المدونة فى عصر الرعامسة نقلاً عن مصادر قديمة([37]) والتى تصور لنا ببلاغة مدى القلق الذى ساور حاكم الهكسوس " أبوفيس " فى شرق الدلتا فى مقر حكمة " حت وعرت " (أواريس) من بوادر التمرد السياسى لحاكم طيبة " سفنن رع " وكيف أنه لا يستطيع النوم فى قصره بسبب أصوات فرس النهر فى طيبة ؟ بالرغم من البعد المكانى (الجغرافى) بين العاصمتين :

" لقد أرسل الملك " أبوفيس " يقول : مر بأن يهجر فرس النهر بحيرته التى في ينبوع المدينة الجارى (المدينة = طيبة) لأنه (فرس النهر) لا يسمح للنوم أن يغشانى ليلاً أو نهارًا ، إذ أن أصواته المزعجة فى أذنى .(٣٨)

وبالرغم من عدم حفظ نصوص البردية لباقى الأحداث التاريخية إلا أن مومياء سقنن رع المحفوظة بالمتحف المصرى خير دليل على إنشغال صاحبها بالكفاح المسلح ضد الهكسوس ، وعن استشهاده فى ميدان القتال متأثرًا بجرح قاطع فى جمجمته .(٣٩)

٦ – من أدب عصر الدولة الحديثة " الامبراطورية "(١٥٦٧–١٠٨٥ ق. م.) :

تمكنت مصر خلال عصر الدولة الحديثة أو عصر الامبراطورية (١٥٦٧ – ١٠٨٥ق. م.) الذى انقسم إلى ما عرف باسم عصر التحامسة (الأسرة الثامنة عشر) ، وعصر الرعامسة (الأسرتان : التاسعة عشر والعشرين) تمكنت من تشييد امبراطورية ضخمة لها شملت مناطق النوبة وحتى الجندل الرابع (فى منطقة نباتا " جبل برقل " فى السودان) والتى تم تمصيرها ، وضمها إلى وحدة الأراضى المصرية ذاتها ، والمناطق إلى الشمال الشرقى من مصر فى آسيا فيما يقابل الوحدات السياسية الحالية : فلسطين ، الأردن ، لبنان ، وجنوب سوريا ، والتى خضعت لسيادة مصر العسكرية والسياسية . كذلك دان لسيادة مصر الحضارية ، ورغبت فى التعايش السلمى معها مناطق وادى الرافدين ، وبلاد الأناضول وجزر البحر المتوسط . وقد تعددت المصادر التاريخية والخاصة عن أحداث تلك الفترة الهامة ، ولكن يظل لبعض المصارد الأدبية أهميتها لتضمنها بعض الأحداث التاريخية التى لم يشر إليها فى تلك الوثائق الملكية ، والتى تضيف عددًا تفصيليًا آخر عن بعض الوقائع الهامة . ومن أهمها ما تضمنته نصوص القائد الحربى " تحوتى " الذى شارك ملكية فرعون مصر الخالد " تحتمس الثالث " (١٥٠٤ – ١٤٥٠ق. م.) (انظر شكل ٢) فى حروبه الآسيوية ، وما نجم عنها من جزى وهدايا حملها أهل

تلك المناطق إلى مصر (انظر شكل ٣) . وقد شارك " تحوتى " فى الاستيلاء على أحد الحصون المنيعة فيما يعرف بقصة الاستيلاء على يافا([٤٠]) والتى وردت فى بردية هاريس ٥٠٠ ، والمحفوظة حاليًا فى المتحف البريطانى برقم ١٠٠٦٠ ، وبطريقة ذكية ماهرة تذكرنا بأحداث قصة على بابا والأربعين حرامى([٤١]) حيث تمكن من خداع حاكم الحصن الأسيوى بانفصاله عن خدمة مليكه تحتمس الثالث وأنه قادم إليه محملاً بالهدايا (فى زكائب) ، وهى فى واقع الأمر جنوده المحاربون. والجدير بالملاحظة أن أحداث هذه الخديعة الحربية لم يرد لها أى ذكر فى مجموعة تقارير حروب تحتمس الثالث المعروفة تاريخيًا باسم " قوائم تحتمس الثالث " وهى تلك المدونة على جدران معبد الكرنك بالأقصر الحالية .

وخلال فترة حكم الأسرة العشرين (١٢٠٠ - ١٠٨٥ق.م) ، بدأت تظهر ملامح التصدع الداخلى ، وأثر الإنهاك العسكرى نتجية مشاركة مصر فى حروب متعددة وعلى جبهات متعددة : الشمالية الشرقية الآسيوية والغربية الليبية والسواحل الشمالية . وزاد على ذلك ما نستنبطه من نصوص بردية هاريس عن مؤامرة سياسية لاغتيال فرعون مصر "رمسيس الثالث " فيما عرف باسم " مؤامرة الحريم " بإشراف مجموعة من نساء القصر بقيادة الملكة " تتى" لتنصيب إبنها " بنتاؤر " على عرش مصر عنوة ، وتمكن رمسيس الثالث من القضاء على تلك المؤامرة ، وعلىمن شارك فيها ([٤٢]) . كذلك أوضحت لنا مجموعة النصوص الأدبية المعروفة بمجموعة " رسائل أواخر عصر الرعامسة " من قرية عمال دير المدينة بغرب الأقصر ملامح الانهيار الاجتماعى ، وبدء القلاقل السياسية ، والضعف الاقتصادى الذى حاق بمصر مع نهاية فترة حكم رمسيس الرابع ومن تلاه من الملوك ، وحتى نهاية الأسرة العشرين ، وإنتهاء مجد مصر السياسى والعسكرى ، وإنهيار مجدها الامبراطورى ، وتقوقع مصر ثانية داخل حدودها الطبيعية ، وفقدها لممتلكاتها السياسية التاريخية([٤٣]) . وتتكون هذه المجموعة من

الرسائل من خمسين رسالة تشير بعض نصوصها إلى الاضراب عن العمل ، وتنفيذ سياسة " العصيان المدنى ":

" ساقنا إلى هنا الجوع والعطش ، فليس لدينا كساء ولا دهون ، ولا سمك ولا خضر ، فاخطروا مولانا الملك . اكتبوا إلى الوزير الذى يتولى أمرنا حتى يعطينا ما يقيم أودنا ."

كذلك تضمنت تلك الرسائل إشارات إلى أعمال شغب داخلى نفذها بعض الأفراد من جنود مصر من أصل أجنبى (المرتزقة) ، وخاصة من ذوى الأصول الليبية (عنصر المشوش) ، مماقد يعكس بداية لتسلالات ليبية الأصل عبر صحراء مصر الغربية أيضًا ، انتظار لفرصة سانحة ، وهو ما تحقق بالفعل أثناء عصر الانتقال الثالث حال إنهيار سلطة مصر المركزية ، وتمكن العناصر الليبية من تأسيس أسرة حاكمة اعتلت عرش مصر . كذلك أوضحت نصوص تلك الرسائل إشارة إلى " قمع أمنحتب " وإلى الدور الذى لعبه " بانحسى " مما يعكس مدى التردى فى الأوضاع السياسية الداخلية فى مصر أثناء أواخر عصر الرعامسة . وبالمثل إشارة إلى نشاط عسكرى محدود فى النوبة ربما نتيجة لضغط بمجموعات بشرية خارج مناطق النفوذ التقليدى المصرى على النوبة .

٧ – من أدب فترة الانتقال الثالث (١٠٨٥ – ٦٦٤ق. م.) :

يعكس النص الأدبى المعروف بقصة " ون – آمون " المحفوظ حاليًا بموسكو برقم ١٢٠ ، والذى يرجع إلى أوائل فترة الانتقال الثالث (١٠٨٥ – ٦٦٤ ق.م) مدى ما لحق بمصر من ضعف سياسى فى الخارج بلغ أقصى مداه بامتهان كرامة إلهها السياسى " آمون رع " فى منطقة لبنان ، وامتهان كرامة رسوله الكاهن ون – آمون وعدم تلبية احتياجاته التى سافر من أجلها إلى لبنان لاحضار أخشاب الأرز اللازمة لمركب إلهه المقدس . كذلك تعرض ون آمون للسرقة والمهانة فى طريقه إلى لبنان على يد أحد البحارة من " الثكر " أحدى المجموعات البشرية لما

عرف تاريخيًا باسم " شعوب البحر " ذات الأصول المينوية خلال عصر الرعامسة([٤٤]) .وتضيف النصوص إلى أن ون - آمون لم يحصل على حقه حين تقدم بشكواه - حال وصوله إلى صور - إلى الأمير ذى الأصل المشترك مع البحار " الثكرى " وإدعاء هذا الأمير بعدم وجود سلطة له على السفن الأجنبية الموجودة فى مينائه . ولعل ما واجهه كاهن آمون من تهكم على يد أمير جبيل أيضًا ، يعكس مدى ما لحق بمصر وبسمعتها فى الخارج من تأكيد أمير جبيل أنه " ليس تابعا لمصر " ، وأنه ليس هناك ما يجبره على ارسال الأخشاب دون دفع ثمن لها ومقارنة ذلك بما عكسته نصوص ومناظر عصر الدولة الحديثة من تقبيل للتراب بين قدمى فرعون مصر طلبا لمنحهم " نسمة الحياة " . بالرغم من هذا الجانب المظلم للنص الأدبى لقصة " ون - آمون " فأنه يعكس أيضًا بين ثناياه الكثير من نفوذ مصر الأدبى فى لبنان برغم انقضاء السيادة المصرية عليها ، وأفول قوتها العسكرية حيث يتضح مدى المام أمير البلاد باللغة المصرية القديمة . كما توضح النصوص أن بعض القائمين على خدمة هذا الأمير ومن فى صحبته ، كانوا من المصريين . وأخيرًا فإن هذا النص الأدبى يعكس وجود خط ملاحى منتظم بين جبيل (لبنان) وصان الحجر فى دلتا النيل أثناء تلك المرحلة ، ووجود تجار آسيويين مقيمين فى الموانئ المصرية([٤٦]) . ولعل ما كشفت عنه النصوص المصرية من وجود جاليات من أصول أجنبية " لبحارة " فى منياء منف القديم ما يدعم ذلك .

* * *

وخلاصة القول أنه يتضح مما سبق أن هناك العديد من الأحداث التاريخية عبر فترات متعددة من تاريخ مصر القديم تردد صداها ثنايا نصوص الأدب المصرى القديم بمختلف أنماطه ، وأن هذه النصوص أضافت أحيانًا نقاطا جديدة لم يرد لها ذكر فى المصادر النمطية الملكية ، أو أعطت تفصيلات أخرى ووجهات نظر توضيحية ساعدت فى استكمال صورة التاريخ المصرى القديم .

هوامش البحث

(١) بوزنر (ج) وآخرون ، **معجم الحضارة المصرية القديمة** ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص١٢ - ١٣.

(٢) تناول النص بالشرح والتعليق العديد من المولفين ومن بينهم :

Erman. A. **The Literature of Ancient Egypt**. London: 1927, p. 86.; Lichtheim, M. **Ancient Egyptian Literature,** Vol., I, Berkely: 1973, pp. 215-160.

حسن (سليم) **الأدب القديم أو أدب الفراعنة** . الجزء الأول : **في القصص والحكم والتأملات والرسائل** .مطبوعات كتاب اليوم القاهرة : ١٩٩٠ ، ص٨٤ - ٩٧ ، مهران (محمد بيومى) **تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم** ، القاهرة : ١٩٨٥ ، ص٤٠ ، فخرى (أحمد) **مصر الفرعونية** ، الطبعة السابعة ، القاهرة : ١٩٩١ ، ص١٣٠ .

(٣) حسن سليم ، **المرجع السابق** ، ص٩٣ ، مهران (محمد بيومى) ، **الحضارة المصرية القديمة** ، الجزء الأول : **الأداب والعلوم** ، الاسكندر ١٩٨٩ ، ص٧٧ - ٧٨ .

(٤) توفيق (سيد) ، **معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية** ، القاهرة : ١٩٧٨ ص ١٣١ ، حسن (سليم) ، **مصر القديمة** ، الجزء الأول : **في عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر الاهناسى** ، القاهرة : ١٩٩٢ ، ص٣٧٢ .

(5) Erman, A. " Der brief des Konigs nefer- Ke- er ". **ZÄS** 31, pp.62 - 70, حسن ، **المرجع السابق** ، ص ٣٨٢ - ٨٤

فخرى ، **المرجع السابق**، ص١٥٥

(6) O'Connor D. " Relations between the Sudan and Egypt, 3000-715B. C.
Unpublished paper, pp. 14 - 16 .

(٧) تناول البردية بالإشارة والتحليل :

Gardiner, A. **The Admonitions, of an Egyptian Sage,** Leipzig: 1909; pp. 37-38; Breasted, J. H. **The Dawn of Conscience,** New York " 1933, pp. 193-200; Erman, **The Literature of Ancient Egyptians**, p. 92 ff.

حسن ، **الأدب المصرى القديم** ، ص٣٠٩ - ٣٣٢ ، فخرى المرجع السابق ، ص١٦١

(٨) صالح (عبد العزيز)، حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، القاهرة: ١٩٦٢، ص ٣٨٤-٨٥، جاردنر (ألن)، مصر الفراعنة، القاهرة: ١٩٧٣، ص١١٦-١١٧

(9) Shaheen, A. " A Possible Synchronization of EB IVC Ceramic Ware in Syro - Palestinian and Egyptian Sites, **GM** 131 (1992) PP. 101-109.

(١٠) حسن، المرجع السابق، ص٦٤، ٦٥

(١١) توفيقن المرجع السابق، ص ١٦٠، ص ٢٣٢

حاول البعض الربط بين انهيار السلطة السياسية أو قوتها وضعف مصر الاقتصادى أو قوتها مع ظاهرة انخفاض فيضان نهر النيل أو ارتفاعه، وتتبع تلك الظاهرة عبر تاريخ مصر القديم، وتزامن ذلك خلال عصور الانتقال الأول - الثالث وهي تلك التي انهارت بالفعل خلالها السلطة المركزية للدولة.

CF Butzer, K. **Early Hydraulic Civilization in Egypt.** Chicago and London, Chicago Uiniveristy press: 1976.

(12) Simpson, W K The Literature of Ancient Egypt. London 1977, pp 16-30; Lichtheim, **op. citl.** p. p. 216-22.

حسن (سليم)، مصر القديمة، الجزء الثاني: في مدنية مصر وثقافتها في الدولة القديمة والعهد الاهناسي، القاهرة: ١٩٩٢ ن ص٤٣٦ ٤٤٨، بوزنر (جورج...)، روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني، القاهرة ١٩٦٢، ٣٩٤، مهران، الحضارة المصرية، ص١٤٠ - ١٥٧، فخرى (أحمد)، "الأدب المصري القديم"، تاريخ الحضارة المصرية القديمة، العصر الفرعوني، القاهرة، ص ٨٠ ٩٣

(13) Golenischeff W **LesPapyrus hieratiques nos. 1115, 11161 et 1116 B de I,Ermitage Imperiai á Saint** Petersburg, Petersburg 1913, Erman, Op. cit., p. 75 ff.

حسن، الأدب المصرى القديم، ص٢٠٠ ٢٠٧، مصر القديمة، ج ٤، ١، ص٤٢٠ - ٤٢١.

(١٤) حسن، المرجع السابق ص ٤٢٧.

(١٥) حسن، المرجع السابق ص ٤٢٢ - ٤٢٤.

(16) Hayes, W. " The Middle Kingdom in Egypt; **CAH**1, 2 Cambridge University Press: 1908, p. 465.

(17) Wilson, J. A " Egyptian Prophecy of neferrohu, " **ANET,** I, Edited by H. Britchard Princeton University press: 1972, pp. 252-57; Erman, **Op. cit.,** p. 110 ff;

حسن ، **الأدب المصرى** ، ص ٣٣٣ - ٣٩ ، مهران ، **تاريخ مصر الفرعونية** ، ص٧٥ .

(١٨) شاهين (علاء الدين) شبه جزيرة سيناء : دراسة تاريخية وأثرية حتى نهاية الدولة
الوسطى ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨١، ص٣١٧-٣٢٠

(١٩) حسن ، **مصر القديمة** جـ٢ ، ص٤٥٨ .

(٢٠) توفيق ، **المرجع السابق** ، ص٢٠٦ .

(21) Willson, J. " Egyptian Myths and Tales: The Story of Sinuhe:, ANET I, Edited by J. Pritchard, Princeton University Press: 1975, pp. 5-11; Cardiner, A. **Notes on the Story of Sinuhe,** Paris: 1915.

حسن ، **الأدب المصرى** ، ص ٤١ - ٥٦ ، فخرى ، **مصر الفرعونية**، ص ٢٢١.

(٢٢) حسن ، **المرجع السابق** ص٤٤ .

(٢٣) حسن ، **المرجع السابق** ص ٤٥ - ٤٦ ، توفيق ، **المرجع السابق** ص٢٣٥ .

(٢٤) مهران ، **الحضارة المصرية** ، ص١٠٥ .

(٢٥) بوزنر وآخرون ، **المرجع السابق** ، ص٩٧ .

(26) Willson, J. " Egyptian Historical Texts: The Report of a frontier official, " ANET I, Edited by J. Pritchard, Princeton University Press: 1975, pp. 183-84.

(٢٧) فخرى (أحمد) ، **دراسات فى تاريخ الشرق القديم** ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص٦٨ .

(٢٨) فخرى ، **المرجع السابق** ، ص ٦٨ ، مهران ، **الحضارة المصرية** ، ص١٠١ .

(٢٩) حسن ، **المرجع السابق** ص ٥٣ .

(٣٠) فخرى ن **مصر الفرعونية** ، ص ٢٢١ ، حسن ، **المرجع السابق** ، ص ٢٠٩ - ٢١٧ .

(٣١) توفيق ، **المرجع السابق** ص ٢٠٧ -٢٠٨ ، حسن ، **المرجع السابق** ص ٢١٠ ، فخرى، **المرجع السابق** ص٢٢٢ .

(32) Gardiner, A. " Notes on the Tale of the Shipwreckes Sailor." **ZÄS** 14. P. 60 ff. Erman. Op. cit., p. 29 ff, Golenschiff, w, **Le Conte du Naufrage,** Le Caire: 1912 Simpson, Op. cit., pp. 50-56.

حسن ، المرجع السابق ص ٥٧ - ٦٤ .

(٣٣) بوزنر وآخرون ، المرجع السابق ص ٢٣٨ ، مهران الحضارة المصرية ، ص ١١٠.

(٣٤) راجع علاء الدين شاهين ، شبه جزيزة سيناء ؛ لمزيد من المعلومات عن الطرق الملاحية المؤدية إلى سيناء .

(٣٦) توفيق ، المرجع السابق ص ٢٣٤ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٢٠٩.

(37) Erman, Op, cit. p. 165ff

(٣٨) حسن ، الأدب المصرى القديم ، ص١١٥ - ١١٩ ، فخرى ، المرجع السابق ص٢٦٢ ، حسن ، المرجع السابق ص ١١٨ .

(٣٩) توفيق ، المرجع السابق ص ٢٥٨ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٢٦٣ ز

(40) Gardiner, A. Late Egyptian Stories, **BA, I** Brussels; 1932. pp. 82-85; Erman, Op, cit. p. 197 ff.

حسن ، المرجع السابق ص ١١٩ ، مهران ، الحضارة المصرية القديمة ص١١٦-١١٩

فخرى " الأدب المصرى " ص ٤٠٨-٤٠٩ ، لوفيفر ،، المرجع السابق ص ١٨٨-١٩٢

(٤١) بوزنر وآخرون ، المرجع السابق ص ٣٨ .

(٤٢) توفيق ، المرجع السابق ص ٣٣١ ، مصر الفرعونية ، ص ٣٩٦ - ٣٩٨.

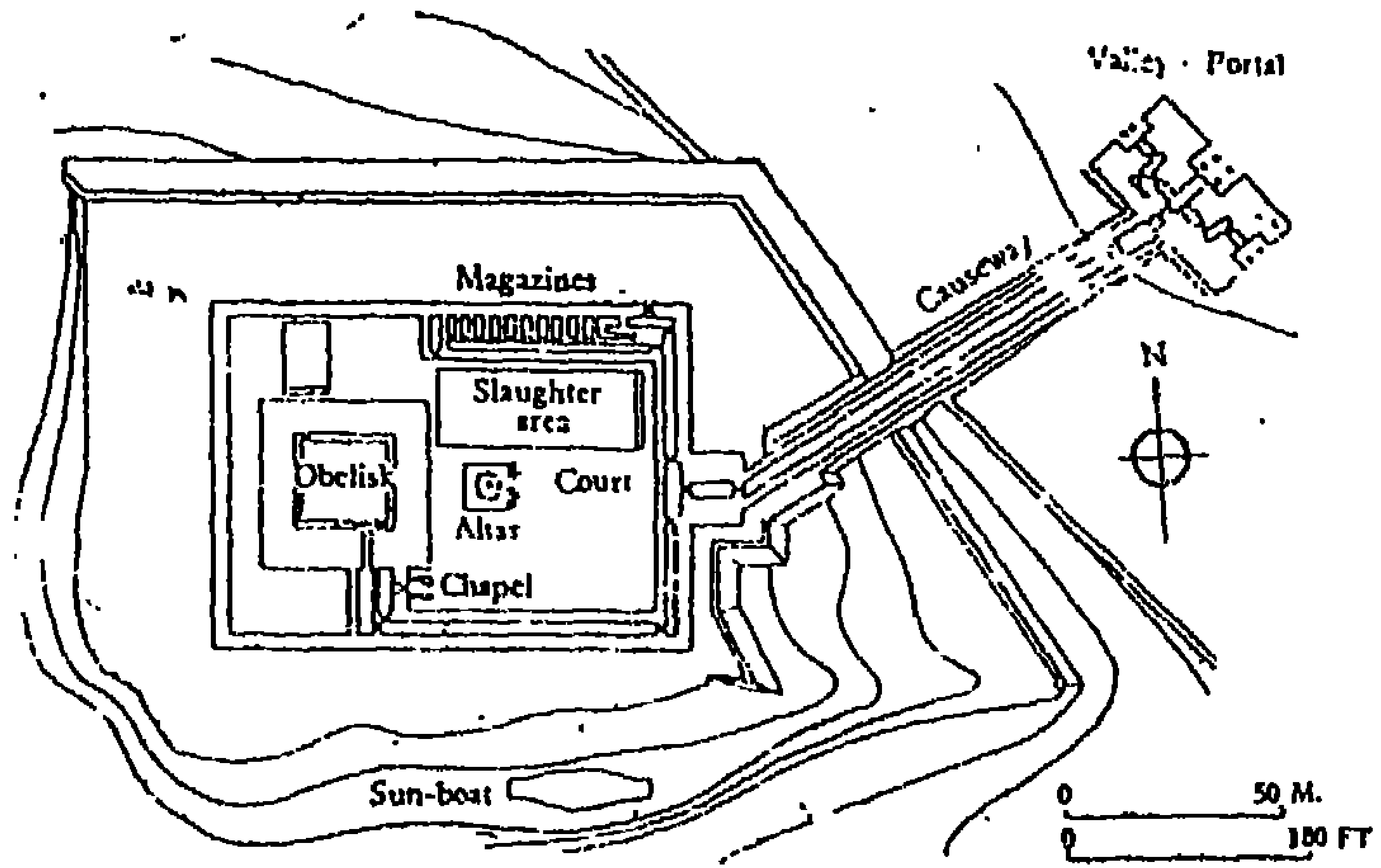
(٤٣) بوزنر وآخرون ، الموجع السابق ص٢٢ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٣٩٦.

(٤٤) فخرى ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم ن ص٩١ - ١٠١ ، حسن ، المرجع السابق ص١٧١ - ١٨٠ .

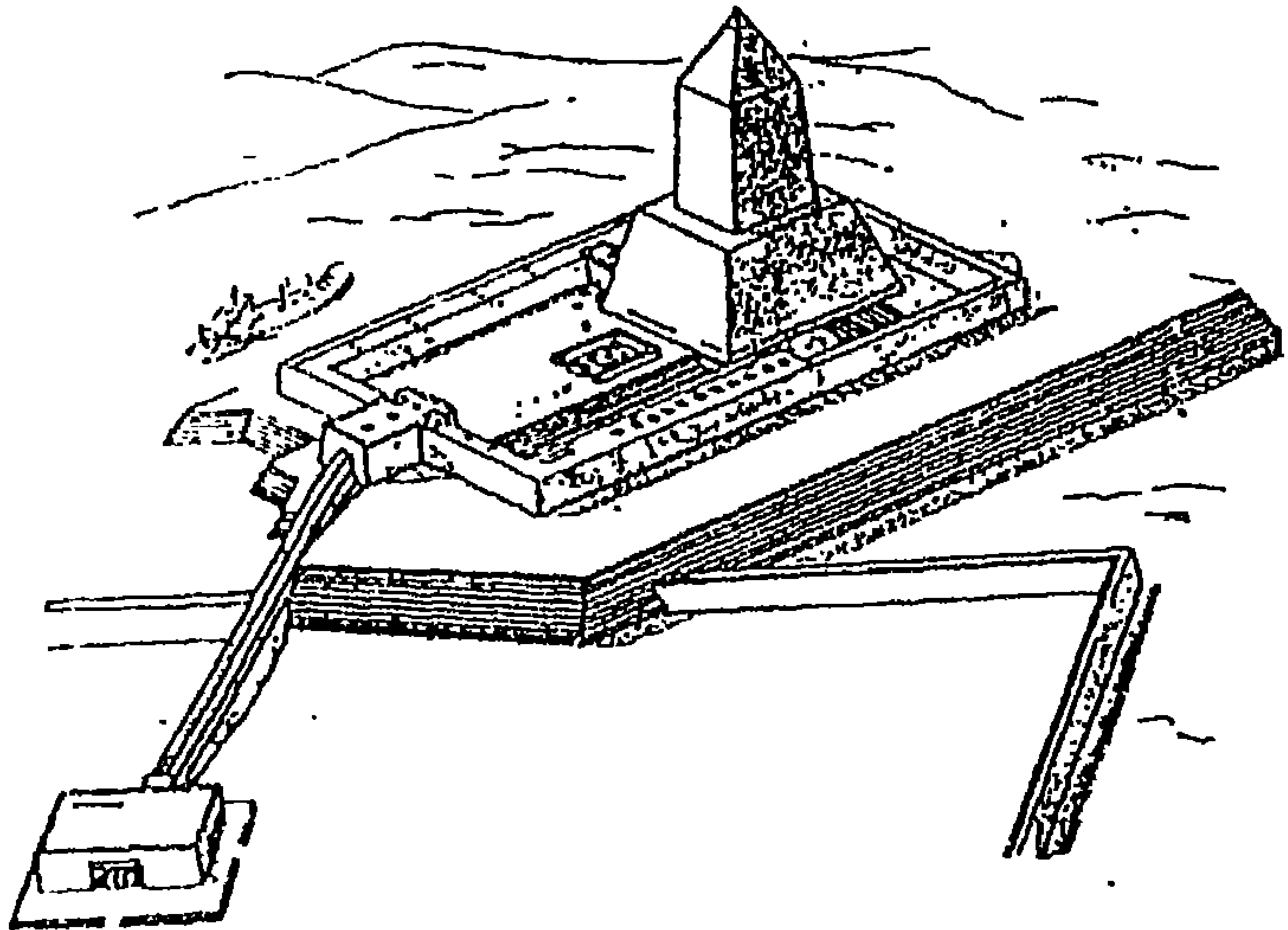
(٤٥) فخرى ، المرجع السابق ص١٠٠ ، " الأدب المصرى القديم " ، ص٤٠٢ - ٤٠٦ ، جارنر ، المرجع السابق ص ٣٣٦ - ٣٤٢ .

(٤٦) فخرى ، المرجع السابق ص١٠٠ .

خريطة (١) أهم المواقع الأثرية فى مصر القديمة



شكل ١ (أ) رسم تخطيطي لمعبد الشمس



شكل ١ (ب) رسم تصوري لمعبد الشمس



شكل (٢) تحوتمس الثالث



شكل (٣)

بعض الزعماء السوريين وقد أتوا بهداياهم إلى مصر وبخاصة الأوانى الذهبية الجميلة الصنع ،

وترى أحد الزعماء وقد اصطحب معه ابنته الصغيرة

من مقبرة رقم ٦٣ فى طيبة ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد

ظهور إمارة الحيرة

فى التاريخ العربى ومجالها الحضارى

(العمران والثقافة)

أ. إبراهيم عنانى*

على بعد ثلاثة أميال جنوبى الكوفة ، وعلى مسيرة ساعة إلى الجنوب الشرقى من النجف الأشرف (مشهد على رضى الله عنه) ، وعلى ضفاف بحيرة نجف التى جفت أو كادت على تخوم الصحراء ، تقع هذه المدينة الجميلة ، قصبة الملوك اللخميين التى سميت : (الحيرة البيضاء) لما شهدته من بناء وعمران ، ولما اشتهرت به من قصور أهمها : الخورنق ، والسدير([1]) . والحيرة – هذه المدينة القديمة– طيبة التربة ، مفترشة البناء ، كبيرة ، هواؤها وترابها من الكوفة([2]) ، يرويها نهر الحيرة([3]) . وقد حاول القدماء اكتشاف السر فى تسمية هذه الإمارة (بالحيرة) وتوهم البعض أن اللفظ من (حار) و (تحير) بمعنى ضل الطريق . فابن الفقيه يرى أنها سميت الحيرة لأن كذلك تبعاً لما سار إلى موضع الحيرة أخطأ الطريق ، وتحير هو أصحابه فسميت الحيرة([4]) ويرى ياقوت الحموي أنها سميت لأن تبعاً الأكبر لما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك الموضع وقال لهم : (حيروا به) أى أقيموا به . وثمة وجهة نظر أخرى فى التسمية ينقلها لنا ياقوت فى معجمه ، إذ يقول : (وقال الزجاجى)([5]) : كان أول من نزل بها مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد .. فلما نزلها جعلها حيرا واقطعه قومه، فسميت الحيرة بذلك([6]) ، وقريب من ذلك ما يروى فى بعض أخبار أهل السير من أن أردشير سار إلى الأردوان ملك النبط ، وقد اختلفوا عليه ، وشاغبه ملك من ملوك النبط يقال له يابا ، فاستعان كل واحد منهما بمن يليه من العرب ليقاتل بهم الأخر، فبنى الأردوان ..حيرا فأنزله من أعانه من العرب ، فسمى ذلك الحير

---

* باحث فى التاريخ . وعضو اتحاد المؤرخين العرب .

الحيرة ، كما تسمى القيعة من القاع(٧) . على أن الأرجح أن هذه التسمية : (بالحيرة) ، أرامية الأصل ، جاءت من الكلمة السريانية (حرتا) (حيرتو) ومعناها المخيم والمعسكر وهى تقابل فى العبرية كلمة (حاصير)،كما أن (حيرتا)، و(حيرة) فى التواريخ السريانية التى تحدثت عن الغساسنة تقابل مصطلح (عسكر) عند الإسلاميين(٨) .

وقد غلبت تسمية الحيرة على الحيرة والكوفة كلتيهما ، فقالوا : الحيرتان تثنية الحيرة والكوفة ، كقولهم القمران ، والعمران(٩) ولأهمية هذه المدينة فى تاريخ العرب ، فقد عرفت (بالحيرة مدينة العرب)(١٠) كما اشتهرت أيضا بحيرة النعمان(١١) . وربما يرجع ذلك إلى أهمية الأحداث التاريخية والأعمال الحضارية التى تمت فى عهد ملوكها المسمين بالنعمان ، إذ من المعروف أن النعمان الأكبر- الذى تملك على الحيرة ثلاثين سنة هو بانى قصر الخورنق(١٢) وقصته شهيرة فى التنسك والزهادة . أما النعمان بن المنذر الذى جاء على فترة بعد جده النعمان الأكبر هذا ، وهو الذى ينسب إليه الزهر المعروف : بشقائق النعمان(١٣) فقد كثرت عنه الأحاديث وشاعت الأساطير التى منها : نديما النعمان ويوما نعيمه وبؤسه . وشهير أيضاً وفود النابغة عليه بمدحه ، ويعتذر له . ويروى المؤرخون أن قتل النعمان عدى بن زيد العبادى الشاعر الحيرى - مترجم كسرى وكاتبه - وقد تسبب فى قتل كسرى التعمان بن المنذر ، ومن ثم فى وقوع حرب ذى قار بين العرب والفرس .

الظروف التاريخية :

أما عن الظروف التاريخية التى احاطت بنشأة الحيرة فترتبط بإنحطاط الدولة الفارسية على أثر الهزيمة التى أنزلها الأسكندر المقدونى بدارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ق. م. وقد قسم الأسكندر بلاد الفرس إلى دويلات صغيرة يحكمها ملوك يعرفون بملوك الطوائف ، حتى لا يقووا على الإغارة على بلاد اليونان . واستمر ملوك الطوائف ، يتولون حكم بلاد الفرس إلى سنة ٢٢٦م ، حين نبغ أردشير بن

بابك مؤسس الطبقة الرباعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة[١٤] . واستمر أردشير فى الحكم إلى السنة ٢٤١م ، واستطاع أن يوحد كلمة الفرس من جديد ، كما أعاد إلى سلطانة الأراضى العربية المتاخمة لبلاده ومنها الحيرة والأنبار ومنحها الاستقلال ، ليمنع أهلها من الإغارة على تخوم بلاده، وليستعين بهم على الرومان وعلى العرب الذين يغيرون على بلاد الفرس[١٥] .

والواقع إن تاريخ الحيرة قبل الميلاد غامض لانكاد نعرف من أمره شيئا ، فلم يرد خبرها فى نص تاريخى مدون أو كتابة مدونة الميلاد[١٦] . غير أن ذلك يتخذ دليلاً على أنه لم يكن لها وجود قبل هذه العهد[١٧] . واقدم كتابة تتضمن اسم الحيرة (حيرتا) نص يرجع إلى سنة ١٣٢ من التاريخ الميلادى[١٨] . ونستدل من هذا النص على أن الحيرة اقيمت فى عصر سابق للعصر الساسانى[١٩] .

ويختلف الإخباريون فيمن اسس الحيرة فى التاريخ العربى القديم ، فمنهم من يرجع عهد هذه الإمارة إلى أيام (بختصر)[٢٠] فى حين يرى أهل اليمن أنها من بناء تبع الأكبر[٢١] .

هجرة التنوخيين إلى العراق ، وظهور الحيرة فى التاريخ العربى :

يرى بعض الباحثين المحدثين أن تاريخ إمارة الحيرة يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، واستمر إلى ظهور الإسلام[٢٢] . وعن هجرة التنوخيين إلى بادية العراق يحدثنا حمزة الاصفهانى بأنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب إلى العراق والشام ، فكانت تنوخ – وهم حى من أحياء الأزد – ممن تمزق إلى العراق ، ذلك أنه اتفق مجئ مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان الازدى من بنى نصر بن الأزد فى جمهور من الأزد ، ومجئ مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن قضاعة فى جمهور من قضاعة ، لما افترقت قضاعة عند تهامة إلى البحرين ؛ فقال مالك بن فهم الازدى لمالك القضاعى : نقيم بالبحرين ، ونتحالف على من نوانا ، فتحالفوا فسموا تنوخا ، وبذلك فى أيام ملوك الطوائف، فنظروا

إلى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهى شاغرة ، فخرجوا عن البحرين وسارت الأزد إلى العراق مع مالك بن فهم الأزدى ، ثم سارت قضاعة إلى الشام مع مالك بن فهم القضاعى ، فملك القضاعيون طائفة من الشام ثمت سليخ بن حلوان فى قضاعة فصار الملك فيها ، ثم منها فى لضجاعمة فبقى الملك فيهم إلى أن أغلب على الملك بنوجفنة مالك بن فهم . وتملك على تنوخ العراق مالك بن فهم فى زمان ملوك الطوائف . وكان منزله بالأنبار(٢٣) . تلك رواية حمزة الاصفهانى عن هجرة العرب إلى الحيرة ، وهى أكثر دقة مما رواه الطبرى(٢٤) وابن الأثير(٢٥) عن ابن الكلبى(٢٦) ، أنه لما مات بختنصر ، انضم الذين كان اسكنهم الحيرة من العرب إلى أهل الأنبار ، وبقيت الحيرة خراباً ، فغبروا بذلك زمانا طويلاً لا تطلع طالعة من بلاد العرب ولا يقدم عليهم قادم .

وبالأنبار أهلها ومن انضم إليهم من أهل الحيرة من قبائل العرب من بنى إسماعيل وبنى معد بن عدنان ، فلما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معه من قبائل العرب ، وملوؤا بلادهم من تهامة وما يليها ، فرقتهم حروب وقعت بينهم وأحداث حدثت فيهم ، فتشتتوا . واقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين وبها جماعة من الأزد كانوا نزلوها فى دهر عمران بن عمرو من بقايا بنى عامر ، وهو ماء السماء بن حارثة وهو الغطريف بن ثعلبه بن امرئ القيس بن مازن ابن الأزد . وكان الذين أقبلوا من تهامة من العرب مالك وعمرو أبنا فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلبـ بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، ومالك بن زهير ابن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة فى جماعة من قومهم ، والحيقار بن الحيق بن عمير بن قنص بن معد بن عدنان فى قنص كلها . ولحق بهم غطفان بن عمرو بن الطمثان بن عوذ مناة بن يقوم بن أقصى بن دعمى بن أياد ابن بن نزار بن معد بن عدنان ، وزهر بن الحارث بن الشلل بن زهر بن اياد ، وصنح بن أفصى بن دعمى بن أياد . فإجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب ، فتحالفوا

على التنوخ وهو المقام ، وتعاقدوا على التوازر والتناصر فصاروا يدا على الناس وضمهم اسم تنوخ([٢٦]) . وتنخ على تنوخ بطون من نمارة بن لخم . ودعا مالك بن زهير جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدى إلى التنوخ معه، وزوجة أخته لميس ابنة زهير ، فتنخ جذيمة ومن كان من الأزد ، فصار مالك وعمرو ابنا فهم والأزد خلفاء دون سائر تنوخ وكلمة تنوخ كلها واحدة .

أما اجتماع من اجتمع من قبائل العرب بالبحرين وتحالفهم وتعاقدهم ، فكان على حد قول ابن الكلبى فى أزمان ملوك الطوائف الذين ملكهم الأسكندر وفرق البلدان بينهم عند قتله دارا بن دارا ملك فارس ، إلى أن ظهر أردشير بن بابك ملك فارس على ملوك الطوائف وقهرهم ، ودان له الناس . وفى هذا العهد- عهد ملوك الطوائف على حد قوله أيضاً - تطلعت انفس من كان بالبحرين من العرب إلى ريف العراق وطمعوا فيه واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف فأجمعوا على السير إلى العراق . وكان أول من طلع منهم الحيقار بن الحيق فى جماعة قومه واخلاط من الناس ، فوجدوا الأرمانيين (بنى أرم) ، وهم الذين بأرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل ، يقاتلون الأردوانيين ، وهم ملوك الطوائف ، فاستفادوا من ذلك وانتشروا فى السواد . وسكن قسم منهم بين عرب الأنبار ، وسكن قسم آخر منهم بين عرب الحيرة .

ثم طلع مالك وعمرو ابنا فهم بن تيم ا لله ومالك بن زهير بن تيم ا لله ، وغطفان بن عمرو بن الطمثان وزهر بن الحارث ، وصنح بن صنح ، فيمن تنخ عليهم من عشائرهم وخلفائهم على الأنبار على ملك الأرمانين . فطلع نمارة بن قيس بن نمارة والنجدة ، وهم قبيلة من العماليق ، يدعون إلى كندة ، وملكان بن كندة وملك وعمرو ابنى فهم ومن حالفهم وتنخ معهم على (نفر) على ملك الأردوانيين ، فأنزلهم الحير ، أى الحيرة ، فلم تزل طالعة الأنبار وطالعه (نفر) على

ذلك لا يدينون للأعاجم ولا تدين لهم الأعاجم حتى قدمتها تبع وهو أسعد أبو كرب بن ملكيكرب ، في جيوشة فاستولى عليها ، ونزل الحيرة فيمن معه(٢٧) .

روى ابن الكلبي أيضاً أن كثيراً من تنوخ نزلوا الأنبار والحيرة وما بين الحيرة وطف الفرات وغربيه إلى ناحية الأنبار وما والاها ... نزلوا فى المظال والأخبية لا يسكنون بيوت المدر ، ولا يزاوجون أهلها . وكانوا يسمون (عرب الضاحية) . فكان أول من ملك منهم فى زمان الطوائف مالك بن فهم وكان منزله مما يلى الأنبار . ثم مات مالك بن فهم ، فملك من بعده أخوه عمرو بن فهم ، فملك من بعده جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدى(٢٨) .

وتختلف هذه الرواية التى رواها الطبرى عن ابن الكلبى ، بشأن كيفية مجئ العرب العراق ، وسكنى تنوخ الحيرة ، تختلف عما رواه ابن أسحق ، حيث ترجع مجئ ربيعة بن نصر اللخمى إلى العراق ، إلى الرؤيا التى رآها ، وتعبير سطيح فشق لها بغلبة الحبشة على اليمن فى المستقبل . فأمر عندئذ بنية على نحو ما تخبرنا الرواية بالذهاب إلى العراق، وكتب لهم كتابًا إلى سابور بن خرز اذ فاسكنهم الحيرة(٢٩) .

هذه هى أقوال الإخباريين فى كيفية مجئ العرب إلى العراق وفى سكنا الحيرة والانبار وما بين المكانين من أرضين . وهى أقوال فيها شئ من الحق الواقع لكن فيها أيضًا شيئًا من الخطأ . فنحن لا نريد أن ننكر هجرة القبائل العربية من الجزيرة إلى العراق . فهذا أمر ليس إلى أنكاره من سبيل ، ولكننا لا نستطيع إن نوافقهم على أقوالهم فى مبدأ تلك الهجرة وفى كيفيتها ، فتلك أمور لا يعرفها الأخباريون . كما أننا لا نستطيع أن نوافقهم فى زعمهتم عمن قاد تلك الهجرة أو الهجرات التى تلتها من رجال . فنحن نعلم حق العلم إن من تحدثوا عنهم وجعلوهم فى الدهر الداهر ، وفى العرب العاربة ، أو فى أيام ملوك الطرائف هم فى الأكثر أناس عاشوا بعد الميلاد ، وبينهم رجال لا تبعد أيامهم كثيرًا عن الإسلام ، وبينهم أناس اخترعتهم مخيلة الإخباريين (٣٠) . ومن المعروف إن تنوخ اسم قبيلة

عربية يمنية ورد ذكرها فى جغرافية بطليموس ([٣١]) ، وكانت منازلهم فى الجنوب ... وهى السلسة الجبلية التى رأى البعض أنها نفس جبال شمر ([٣٢]) ولكن الإخباريين يرجعون منازلهم إلى تهامة . ومدينة الأنبار التى هاجر إليها عرب تنوخ قديمة البنيان ، وقد تبين من دراسة إثارها إنها من المواقع السابقة على عصر الدولة الساسانية . وقد ازدهرت هذه المدينة وعمرت فى عصر شابور الثانى (٣١٠ - ٣٧٩م) الذى حصنها بالقلاع والأسوار ، لكى تسهم فى مقاومة غارات الروم على بلاده ، وحفر إلى الجنوب منها نهرًا يصل الفرات بدجلة كان يعرف باسم نهر عيسى . واكتسبت الأنبار بفضل هذا النهر أهمية عظمى ، إذا أصبحت مركزًا تجاريًا هامًا ومخزنًا للأموال . واسم الأنبار القديم بمعنى المخزن يعبر عن الشهرة التجارية النى أصابتها.

وقد أدرك القدماء هذا المعنى ، وفسروها به ، يقول الطبرى : " إنما سميت أنبار ، لإنها كانت تكون فيها أنابير الطعام ، وكانت تسمى الأهراء ، لإن كسرى يرزق أصحابه رزقهم منها .

العلاقة بين الحيرة والجزيرة العربية :

من المعروف إن الصراع بين الإمبراطوريتين الفارسية ، من جانب ، والبيزنطية من جانب آخر ، انسحب على المملكتين التابعتين لهما : المناذرة فى الحيرة ، والغساسنه فى الشام ، فاتخذتا موقفًا عمليًا من هذا الصراع . و قد لاحظ البعض إن جهود الفرس للسيطرة على منطقة الحجاز كانت سببًا فى ضعف نفوذ تميم ، وارتفاع سلطان غطفان . وكان إن قامت مملكة لخم بتنفيذ هذه السياسة ، أعنى ساسة الأيقاع بين القبائل لأضعاف شأنها ، وذلك لكى يحصلوا على موطئ قدم فى هذه المنطقة ([٣٣]) . وسياسة (فرق تسد) قديمة قدم الدول الكبرى ، إذ تقوى شوكتها بأضعاف الوحدات السياسة الصغيرة . وقد اصطنع الفرس هذه السياسة ، ونفذها لهم الأمراء اللخميون - فيما يرى روزشكا - فغدت وسيلتهم

فى الوصول إلى السيطرة والنفوذ . وربما كان أهل المدينة أحرارًا لا سلطان للفرس أو الروم عليهم فيما يرى بعض المؤرخين الغربيين (٣٤) إلا إن البعض الآخر يرى إن عامل المدينة - يثرب - فى فترة من الفترات كان ممثلاً لملك الحيرة ، يناصره (ملوك) قريظة والنضير (٣٥) . ويميل كستر إلى هذا الفريق الثانى استنادًا إلى رواية لابن سعيد فى كتابة : (نشوة الطرب) ، تعطى هذه الرواية تفصيلات مهمه حول سيطرة الساسانين على المدينة بعد إن أوشكت سلطة اليهود على الانتهاء (٣٦) . ويروى ابن سعيد إن المعارك كانت دائمًا تأخذ مكانها بين الفريقين المتخاصمين (أى بين اليهود وبين الأوس والخزرج) و لم يستقم لهم إن يستبد بهم ملك إلى إن دخل على النعمان بن المنذر ملك الحيرة - عمرو بن الاطنابة الخزرجى فملكه على المدينة . ويؤكد أبو عبيدة ، إن عمرو بن الاطنابة كان صديقًا لخالد ابن جعفر زعيم كلاب الذى كان على صلة وثيقه بأمير الحيرة ، والذى قتل من قبل الحارث بن ظالم فى بلاط النعمان . ويستدل كستر من أسماء الأشخاص المذكورين فى القصص حول عمرو بن الاطنابة مثل الحارث بن ظالم ، وزيد الخيل ، وخالد بن جعفر ، والنعمان بن المنذر ، على أن عمرًا هذا عاش فى النصف الثانى من القرن السادس (٣٧) .

ويرجح كستر أيضًا صحة الرواية التى تقول بتعيين النعمان لعمرو بن الاطنابة الخزرجى (ملكًا) أو بالأحرى ممثلاً للحيرة ، وجابى ضرائب على المدينة ، مستدلاً على رأيه ببيتى ثابت الخزرجى ، وهو ما يؤكد فى نظر كستر استمرار السيطرة الفارسية على المدينة خلال القسم الثانى من القرن السادس الميلادى (٣٨).

يعنى هذا على أى الأحوال سيطرة الساسانيين على المدينة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى الذى عاش خلاله النعمان بن المنذر الحيرى .

الحيرة بعد ظهور الإسلام :

يحدثنا المؤرخون بإن شروع سعد بن أبى وقاص فى أنشاء الكوفة سنة ١٧هـ (٦٣٨م) كان إيذانا بتدهور الحيرة وتناقص عمرانها . ذلك إن انقاض قصورها استخدمت فيما يروى فى بناء المسجد الجامع بالكوفة ، وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم . وكانت الحيرة قد فتحت صلحًا كما إن خبرات أهلها التجارية أتاحت لها مجالاً واسعا للإفادة المادية من الفتوح الإسلامية . وهكذا ظلت الحيرة بأديرتها المعروفة مزارًا للمسحيين ، ومتنزها لغير المسحيين ، ينشدون فيها طيب الهواء وراحة المقام (٣٩) . كذلك ذاعت شهرة بعض الآلات الموسيقية فى الحيرة ، مثل العود الحيرى والمزمار ، والدف . كما كان للحيرة دور هام فى خدمة الفتوح الإسلامية الأولى فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فها هو ذا الدينورى (٤٠) يحدثنا فى (الأخبار الطوال) ، بإن المثنى ابن حارثة الشيبانى ، وسويد بن قطبه العجلى ، كانا يغيران على أرض فارس ، وقد أفضى الملك إلى بوران بنت كسرى ، وإن المثنى كتب إلى أبى بكر رضى الله عنه يعلمه ضراوته بفارس ، ويعرفه مواضع الضعف منهم ، ويسأله إن يمده بجيش ، الأمر الذى جعل خليفة المسلمين يكتب إلى خالد بن الوليد – وكان قد فرغ من أهل الردة – إن يسير إلى الحيرة فيحارب الفرس ، ويضم إليه المثنى ومن معه . وقد تم ذلك فسار خالد والمثنى بأصحابهما حتى أناخا على الحيرة وتحصن أهلها فى القصور الثلاثة . ويروى الدينورى إنهم صالحوا خالدا وقد نزل إليه عمرو بن بقيلة من القصور الثلاثة على مائة ألف درهم يؤدونها فى كل عام إلى المسلمين (٤١) . وبينما خالد فى طريقة إلى الشام ليمد أبا عبيدة بن الجراح بمن معه من المسلمين ، تلبية لكتاب أبى بكر رضى الله عنه ، وبعد إن خلف خالد بالحيرة عمرو بن حزم الأنصارى مع المثنى ، انحط على عين التمر ، وكان بها مسلحة لأهل فارس ، فحاصر أهلها حتى استنزلهم بغير أمان ، فضرب أعناقهم ، وسبى ذراريهم (٤٢) .

وقد ظلت الحيرة مدينة معمورة بالسكان فى العصر الأموى ، إلا إنها فى العصر العباسى أخذت فى الاضمحلال (٤٣) . ويحدثنا المسعودى إن عمرانها لم يزل يتناقص فى العصر العباسى إلى أيام المعتضد عندما حل بها الخراب (٤٤) ، بعد إن كان جماعة من خلفاء بنى العباسى كالسفاح والمنصور والرشيد وغيرهم ينزلونها ، ويصلون المقام بها ، لطيب هوائها ، وصفاء جوهرها ، وصحة تربتها، وصلابتها ، وقرب الخورنق والنجف منها (٤٥) . فالمسعودى (٤٦) يحدثنا إن المتوكل أحدث فى أيامه بناء على النمط الحيرى لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيرى ، والكمين ، والأروقة . وذلك إن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بنى نصر أحدث بنيانًا فى دار قراره ، وهى الحيرة ، على صورة الحرب وهيئتها ، فكان الرواق فى مجلس الملك وهو الصدر والكمان ميمنة وميسره، ويكون فى البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه وفى اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفى الشمال ما احتيج إليه من الشراب والوراق . فسمى هذا البنيان إلى ذلك الوقت بالحيرى والكمين ، إضافة إلى الحيرة . وأتبع الناس المتوكل فى ذلك ائتمامًا بفعله . وهكذا أعطت الحيرة المدينة الجاهلية أسلوبًا فى العمارة ونمطًا حضاريًا فى البناء ، ينشده خلفاء بنى العباس بعد أمراء الحيرة بقرون ، ويحتذونه مثلاً وطريقة فى التشييد .

فن العمارة :

اشتهرت الحيرة بقصورها التى ضربت الأمثال فى عظمتها ، مثل قصرى الخورنق والسدير - وقد سبق الحديث عنهما وعن سنمار : بانى الخورنق . وكذلك اشتهرت باديرتها التى أقيمت بها منذ إن انتشرت المسيحية بين سكانها(٤٧) . وقد ذكر شعراء الحيرة الجاهليون القصرين فى قصائدهم وظل الشعراء فى الإسلام ، حتى العصر العباسى يتحدثون عنهما . ومن قصور الحيرة

كذلك : قصر سنداد ، وكان يقع فيما بين الحيرة والأبلة وذكر ابن الكلبى إن أيادا كانت تنزل فيه (٤٨) .

ومنها أيضًا قصرًا : العذيب والصنبر اللذان بناهـا أمـرؤ القيـس بـن النعمـان بالقرب من الفرات . وقصر الفرس ، وقصر الـزوراء ، وقصـر مقـاتل (٤٩) . ومـن هذه القصور قصر العدسيين ، وكان يقع فى طرف الحيرة ، وهو أول القصور التى استولى عليها المسلمون . ومنها قصر بنـى بقيلـة الـذى بنـاه عبـد المسيح . وكـان لتنصر المناذرة أثـر فـى تنشـيط حركـة بنـاء الأديـرة والكنـائس . ولقـد حفـظ لنـا الأخباريون أسماء كثيرة من هذه المنشآت المسيحية ، التى أقيمت فى عصـر المنـاذرة بعد إن أصبحت الحيرة أسقفية تابعة لكرسي جاثـاليق المدائـن . ومـن بـين كنـائس الحيرة كنيسة تنسب إلى قـوم مـن الازد ... مـن بنـى عمـرو بـن مـازن الغسـانيين وتسمى ببيعة بنى مازن ، ومنها بيعـة بنـى عـدى التـى تنسـب إلى بنـى عـدى بـن الذميل من لخم ، ومنها كنيسة الباغوتة التى اعتبرها الهمدانى إحدى مراكـز سبعة للعبادة عند العرب ، ومنها بيعة دير اللج بظاهر الحيرة ، وغيرها من الكنـائس (٥٠) إما الأديرة فبعضها ينسب إلى ملوك الحيرة وأمرائها والبعض الآخـر ينسـب لأفـراد من العباد الإشراف (٥١) . وأهـم أديرة الملوك والأمراء فيما يروى الكبرى ويـاقوت – دير اللج ، ودير مارة مريم ، ودير هند الكبرى ، ودير هند الصغرى .

١ – دير اللج(٥٢) :

بناه أبو قابوس النعمان بـن المنـذر ، أيـام توليـه أمـارة الحـيرة ، وهـو أجمـل ديارات الحيرة ، فلم يكن فى هذه الديارات أحسن منه بناء ولا أنزه موضعًا . كان النعمان يركب فى كل أحد إليه ، وفى كل عيد ، ومعه أهـل بيتـه خاصـة مـن آل المنـذر ، عليهـم حلـل الديبـاج المذهبـة ، وعلـى رؤسـهم أكـاليل الذهـب ، وفـى أوساطهم الزنانير المقصصـة بـالجواهر ، وبـين أيديهـم إعـلام فوقهـا صلبـان . وإذا

قضوا صلاتهم انصرفوا إلى مستشرفه على النجف ، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه، وخلع ووهب، وحمل ووصل . وكان ذلك فيما يرى البكرى أحسن منظر وأجمله.

٢ - دير مارة مريم :

دير قديم ، بناه المنذر ، حسن الموضع ، حيث يقع بين الخورنق والسدير ، وبين قصر أبى الخصيب ، مشرفًا على النجف يروى البكرى عن أبى الفرج أنه كان فيه قس يقال له يحيى ، وله ابن يقال له : بوشع ، وكان الفتيان يألفون هذا الدير ، ويشربون عنده على قراءة النصارى ، وضرب بالنواقيس . وقد ظل الدير قائمًا إلى زمن الواثق العباسى ، فزاره ومعه أسحق بن إبراهيم الموصلى وأعجب بموقعه وعمارته .

٣ - دير هند الكبرى :

بنته هند أم عمرو بن هند ، وهى هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر أكل المرار الكندى . وكان فى صدره مكتوب : بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ، أمة المسيح ، وأم عبده وبنت عبيده ، فى ملك ملك الأملاك : خسرو أنو شيروان ، فى زمن مار أفريم الأسقف ، فالإله الذى بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ، ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بها ، وبقومها إلى إقامة الحق ، ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر . ويقع هذا الدير على طرف النجف فيما يذكر البكرى . وهذا يعنى إنه قريب فى موقعه من دير اللج . ويروى إن الرشيد كان قد خرج ومعه يحيى بن خالد البرمكى ، إلى الحيرة ، لمشاهدة إثار المنذر ، وللتنزه ، وإنه لدى زيارته هذا الدير تأثر من أبيات قرأها على أحد جدرانه .

٤ - دير هند الصغرى :

بنته هند بنت النعمان بن المنذر ، وهى التى تعـرف فيمـا يـروى بحرقـة ، أو الحرقة ، ويقال : حريقة . كان يقع هذا الدير فى موقع نزه ، قريبًا مـن خطـة بنـى عبد الله بن دارم بالكوفة ، مما يلى خندق القادسية . ويذكر ياقوت إن هندًا إقامت فى هذا الدير ، إلى إن ماتت ودفنت فيه . ويروى شعرًا انشدته فى حوار طويـل ، زعم ياقوت إنه دار بينها وبين خالد بن الوليد - رضى الله عنه . وفـى هـذا الديـر أكثر الشعراء من شعرهم الذى يذكرونه فيه ، ومن هؤلاء معن بن زائدة الشيبانى الأمير.

* * *

وإما الأديرة التى بناها بعض العباد أو ...الإشراف ، فلعل أهمها : دير بنـى مرينا ، ودير الجماجم ، ودير المسيح ، ودير قرة ، ودير نجران ودير حنة ، الشـهير (بالاكيراح) ودير ابن وضـاح . وأغلب الظن إن هذه الأديرة علـى هـذه النحـو قد انتشـرت وتعددت فى أنحـاء أمارة الحيرة ونحن إنما نكتفـى بالإشـارة السـريعة إلى بعض منها.

١ - دير بنى مرينا :

بظاهر الحيرة ، فى موضع يعرف بجفر الأملاك ، يقال إنه ضربت فيه أعنـاق بنى الملك حجر بن عمرو أكل المرار بأمر الملك المنذر بن النعمان .

٢ – دير الجماجم :

ويقع بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها فى اتجاه البصرة . وأغلب الظن إنه سمى كذلك ، لأن ... بلال الرماح بن محرز الايادى قتل قومًا من الفرس ، ونصب رءوسهم عند الدير فسمى دير الجماجم (٥٣) .

٣ – دير حنة :

دير قديم ، بناه بالحيرة حى من تنوخ ، يقال لهم بنو ساطع ، تحاذيه منارة عالية كالمرقب . وكان فتيان الحيرة يألفونه ويشربون فيه .

٤ – دير حنة آخر بالاكيراح :

بناحية البليخ ، بلد كثير البساتين والرياض والمياه ، وبالبحيرة أيضا موضع يقال له الاكيراح ، وفيه دير بناه عبد بن حنيف من بنى لحيان ، الذين كانوا مع لخم ، وملك الحيرة منهم ملكان (٥٤) .

* * *

ولا شك فى إن هذه النهضة فى مجال العمارة ، وإن هذه القصور الفخمة والأديرة الكبيرة التى شيدها الحيريون ، تجعلنا نعود من حيث بدأنا لكى نتذكر أوصاف الحيرة ، فقد وصفها الأخباريون بالبياض فقالوا : الحيرة البيضاء ، معبرين عن وضاءة مبانيها ، وبهائها . فقد أصبح البياض سمة لعمارة الحيرة . وكذلك وصفها الأخباريون ، فيما ذكرنا بالحيرة الروحاء دليلاً على الأمتداد ، والاتساع، وحسن الجو ، وراحة المقام .

وكان عرب الحيرة أرقى عقلاً ومدنية من عرب الجزيرة لتحضرهم ولمجاورتهم حضارة الفرس العظيمة واتصالهم بهم اتصالاً وثيقًا . وكان منهم من يعرف اللغة الفارسية ويجيدها . وجدير بالذكر إن عدى بن زيد (الحيرى) كان

من تراجمة أبرويز (ملك الفرس) وإن أباه زايدًا كان شاعرًا خطيبًا وقارئًـا كتاب العرب والفرس . ولا شك فى إن معرفة بعض هؤلاء الحيريين للغـة الفرس كانت واسطة شئ من حضارتهم وأدابهم إلى العرب (٥٥) . بـل إن عـرب الحـيرة هـؤلاء فيما يحدثنا الأستاذ / أحمد أمين تسرب إليهـم شيئ مـن علـوم اليونـان وأدابهـم . ذلك إن الحكومة الفارسية فى عهد هرمز الأول أنشـأت مستعمرات كونتهـا مـن أسرى الحرب الرومانيين ، وكان من بين هؤلاء الأسرى من ثقف بالثقافة اليونانية، ومنهم من كل يفوق الفرس فى الفن والهندسة والطـب، فاستخدموه فـى مهـام شئونهم . ومن هؤلاء الأسرى من نزلوا الحيرة (٥٦) . وكانت الحيرة بالإضافـة إلى ما ذكرنا سوقا تجاريًا كبيرة ، مما أعد لإن تتحضر وإن تتأثر بالثقافة الفارسية ، التى كانت تعم تلك الأنحاء (٥٧) . ومعروف ما كان لعرب الحيرة وأمرائهـم وتـاريخهم من أثر كبير فى الأدب العربى والحيـاة العقليـة للعـرب عامـة ، فأحـاديث جذيمـة الابرش وأسـاطير الزبـاء ، والتغنـى بـالخورنق والسـدير ، والأقـاصيص التـى دارت حـول سنماربانى الخورنق ، والأمثـال التى ضربت فيه وفى غـيره فـى غضـون ما يحكى الأخباريون من الأساطير ، ويومًا النعمـان اللـذان وتحدثنـا عنهمـا . كـل ذلك مما شغل جزءا كبـيرًا مـن الأدب العربـى (٥٨) . وكـان أمـراء الحـيرة مقصـدًا لشـعراء الجزيـرة ينفحونهـم المـال الكثـير ليبشــروا بهـم بـين البـدو وفــى أنحـاء الجزيرة(٥٩) وكان هناك تبار بين أمراء كل من الحيرة وغساسنة الشام على أحتـواء الشـعراء ، وجذبهـم لمديحهـم وبيـان أفضليـة الأمـير الحيرى علـى نـده الغسـانى ، والعكس . وقد سبق إن أشرنا إلى النابغة مثالاً على مـا نقـول . ومـن ذلـك أيضًـا وفود حسان بن ثابت على الحارث الغسانى يمدحه ، وكان من قبل يمـدح النعمـان بن المنذر .

وللشـعراء الذيـن كـانوا يحيـون فـى البـلاط الحـيرى ، فـى كنـف الأمـراء ، ولقصائدهم ، قصص وأخبار مع بعض هؤلاء الأمراء أو زوجاتهم أو بعض بناتهم،

ترويها كتب الأدب ، على نحو ما شهر عن المنخل وتشبيبه ، والنابغة وتشبيبه أيضًا.

وتحكى لنا هذه الكتب مناظرات بين كسرى والنعمان ابن المنذر وغيره ، هى من قبيل النثر الفنى الذى تحكمه خصائص قوامها المحاجة ، ومحاولة الإتيان بالدليل القوى ، والبرهان القاطع لبيان فضل العرب على غيرهم من الأمم . وقد مر بنا ما كانت عليه الحيرة من ازدهار أدبى فى عهد عمرو بن هند ووفود الشعراء عليه ، وعطاؤه الغامر لهم .وقصة مقتله على يد عمرو ابن كلثوم التغلبى الشاعر من القصص الشهيرة . والواقع إن أمارة الحيرة فى الجاهلية كانت أوفر البقاع العربية من العلم . وقد يكون الحاريون قد عرفوا الكتابة ، وهم عرفوها بغير شك. من ذلك ما يرويه صاحب الأغانى إن المرقش الأكبر وأخاه حرملة تعلمًا الكتابة فى الحيرة على أحد النصارى من أهلها (٦٠) . ومنه ما يرويه (ابن رسته) فى (الأعلاق النفسية) إن أهل الحيرة علموا قريشًا الزندقة فى الجاهلية ، والكتابة صدر الإسلام(٦١) . وكل هذا يعنى وجود الكتابة فى الحيرة فى الجاهلية وإتقان بعض أهل الحيرة للكتابة حتى لقد علموها بعض العرب ، فى الجاهلية والإسلام . ولكن هذا لا يعنى صحة ما يروى عن حماد الراوية من أن النعمان ابن المنذر " أمر فنسخت له أشعار العرب فى الطنوخ – الكراريس – ثم دفنها فى قصره الأبيض " وأنه " لما كان المختار بن أبي عبيد – حوالى سنة ٦٧هـ – قيل له : إن تحت القصر كنزًا ، فاحتفره ، فاخرج تلك الأشعار " . وربما تسرب هذا الوهم إلى ابن سلام حيث تراه يقول . " وقد كان عند النعمان بن المنذر منه – من شعر العرب فى الجاهلية – ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه " . ويكفى إن يكون أصل الخبر حمادًا المتهم فى روايته لنشك فيه (٦١) . وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يجمع فى مصحف واحد إلا بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، وبعد مشاورة بين أبى بكر رضوان الله

عليه والصحابه ، فذلك وحده كاف لبيان إن العرب لم تنشأ عندهم فى الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه فى كتاب ، إنما نشأ ذلك فى الإسلام وبمرور الزمن . أما فى الجاهلية فكانوا يعتمدون على الرواية ، وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها (٦٢) . ويرجع بعض المؤرخين المسلمين إن الخط العربى منشأة الحيرة ، وإنه نقل منها إلى مكة والحجاز . غير إن النقوش الحجازية وغير الحجازية تصور انتقال الخط الآرامي إلى خط نبطى ثم انتقال هذا الخط إلى الخط العربى (٦٣) .

وقد حملت النقوش إلى علماء الساميات الدليل القاطع الذى لا يطعن فيه على هذه الحقيقة ، إذ عثروا على نقوش فى شمالى الحجاز ، وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطى تطورًا سريعًا إلى الخط العربى . وأهم هذه النقوش على الترتيب نقش عثر عليه ليتمان فى قرية أم الجمال غربى حوران ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٧٠م وهو لفهر بن سلى الذى كان مربيًا لجذيمة ملك تنوخ ، وخطه نبطى ، إلا إنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف . ويليه نقش النمارة الذى أكتشفه " دوسو " و " ماكلر " سنة ١٩٠١ على بعد ميل من النمارة القائمة على أطلال معبد رومانى شرقى جبل الدروز ، بالقرب من الأماكن التى عثر فيها على الكتابات الصفوية . وقد كتب شاهدًا لقبر ملك الملوك اللخميين يسمى أمرؤ القيس بن عمرو (٦٤) . وقد يكون مرجع هذا الظن فى روايات المؤرخين الإسلاميين إن الخط الكوفى نما وازدهر فى الكوفة ، فظنوا إن هذه البيئة هى التى ابتكرت الخط العربى ، وإنه نما وتطور فى الحيرة و الجدير بالذكر إن أهل الحيرة إما وثنيين يعبدون الأصنام ، أو صابئة يعبدون الكواكب ، أو مجوسًا يعبدون النار أو نصارى ويهودًا (٦٥) . ومن أصنامهم الصنمان الشهيران بالحيرة ، المعروفان (بالضيزنين) ، كان جذيمة يستسقيهما ويستنصر بهما على العدو . وقد عرفت الحيرة عبادة القمر (٦٦) . وانتقلت إلى الحيرة بغير شك تلك الديانات

المعروفة بالزرادشتية والمزدكية ومر بنا انتشار تلك الديانات الأخيرة لعهد قباذ . ومن ثم كانت الحيرة مركزًا للزندقة فى العصر الجاهلى وانتقلت منها إلى قريش . وعلى الرغم من إن ملوك الحيرة كانوا وثنيين ، إلا إن النصرانية تغلغلت فى الحيرة، فكان يعتنقها العباديون .

وأغلب الظن إنهم سموا بذلك تمييزًا لهم من جيرانهم الوثنيين (٦٧) . وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر فى اعتناق المسيحية (٦٧) . ويذكر ابن حزم إن تنوخ ، وكان كل من سكن الحيرة من تميم كانوا نصارى (٦٩) وهكذا كانت الحيرة مركزا ثقافيًا ودينيًا أدبيًا هامًا فى الحياة العربية الجاهلية ، مما جعلها إحدى شهيرات مدن الشرق لعهد المناذرة اللخميين . وكان تأثيرها ، وتأثير أهلها فى مجال الموسيقى كبيرًا حتى أصبح غناء أهل الحيرة وما له من سمات خاصة ، علامة بارزة فى تاريخ الموسيقى العربية .

وهكذا اجتمع لهذه المدينة من مقومات الحضارة ما لم تشهده عاصمة عربية أخرى قبل الإسلام .

الهوامش

(١) " ياقوت – معجم البلدان مج " (بيروت ١٩٥٦) وانظر ابن الفقيه – مختصر كتاب البلدان ١٨١ ، وجواد على – تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/٧ – ٨ ودائرة المعارف الإسلامية ٨/١٦١ ، ١٦٢ (الحيرة) وانظر أيضًا (الخورنق) .

(٢) الاصطخرى – المسالك والممالك ٥٨ وابن حوقل – صورة الأرض ١/٢٣٩ ، ٢٤٠ ، وانظر المقدسى (شمس الدين) أحسن التقاسيم ١١٩ ، وجواد على ٤/٧ ، ٨ .

(٣) انظر مقال الدكتور صالح أحمد العلى (منطقة الحيرة دراسة طبوغرافية) ، العدد الخامس من مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد – نيسان ١٩٦٢م .

(٤) نفس المصدر ١٨١ .

(٥) معجم البلدان – مج ٢ مادة (حيرة) .

(٦) نفس المصدر .

(٧) فى القاموس المحيط (مادة حار) : الحير شبه الحظيرة الحمى ، وقصر كان يسر من رأى ، وأصبحت الأرض .. حيرة أى مخضرة مبقلة . فالحير بفتح وسكون – المكان الأخضر الذى يعطى نباتًا وحياة .

(٨) ياقوت / معجم البلدان / مادة (حيرة) .

(٩) ياقوت – معجم البلدان ، وفى القاموس المحيط – مادة (حار) : أو الحيرتان : الحيرة والكوفة . وفى معجم البلدان : (والحيرة أيضًا : محلة كبيرة مشهورة بنيسابور ، ينسب إليها كثير من المحدثين ، والحيرة أيضًا : قرية بأرض فارس فيما زعموا) وهما بالطبع ليست حيرة العراق التى ندرسها .

(١٠) جواد على : ٤/٦ .

(١١) نفس المصدر .

(١٢) القرمانى : أخبار الدول وأثار الأول – بهامش الجزء الثالث من ابن الأثير ص٥٢ .

(١٣) نفس المصدر ص٥٣ بهامش ابن الأثير .

(١٤) يحدثنا ابن الأثير عن طبقات ملوك الفرس فـى كتابه : (الكـامل فـى التـاريخ) فيذكـر ملوك كل طبقة وسنى ملك كل منهم . هذه الطبقات الأربع هى - الطبقة الفيشـداذية ، ثم الكيانية ، ثم الأشغانية ، ثم الطبقة الرابعة وهى الساسـانية وأول ملوكهـا اردشـير بـن بابك وهو أول من أطلق عليه لقب (شاهنشاه) من ملوك الفرس وقـد دانـت لـه الكثير من البلدان كما دان له أهل الحيرة ، والأنبار - ابن الأثير ٣٧٧/١ - ٣٨٤ .

(١٥) (حسن إبراهيم حسن) : تاريخ الإسلام السياسى ٤٣/١ .

(١٦) جواد على ٩/٤ .

(١٧) نفس المصدر .

(١٨) جواد على ٨١/٣ ، ٦/٤ .

(١٩) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى الجاهلية ٢٤٤ .

(٢٠) حمزة ص٨٦ والطبرى ٦٠٩/١ وما بعدها ، وانظر ابن الأثير ٢٧١/١ ، ٢٧٢ .

(٢١) ياقوت : معجم البلدان / مادة (حيرة) .

(٢٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ٤٣/١ .

(٢٣) حمزة ٨٣ ، ٨٤ .

(٢٤) الطبرى : ٦٠٩/١ وما بعدها .

(٢٥) ابن الأثير : مج ٣٤٠/١ وما بعدها .

(٢٦) جواد على : ١٧/٤ ، ١٨ ، ١٩ .

(٢٦) قال صاحب القاموس : تنخ بالمكان تنوخًا : أقام ... ومنـه تنـوخ قبيلـة لأنهـم اجتمعـوا فأقاموا فى مواضعهم .

(٢٧) الطبرى : ٦٠٩/١ وما بعدها .

(٢٨) الطبرى : ٦١١/١

(٢٩) جواد على : ١٩/٤ - ٢٠ ، وانظر الطبرى ٦٢٨/١ .

(٣٠) جواد على : ٢٠/٤ .

(٣١) السيد عبد العزيز : تاريخ العرب فى الجاهلية ٢٤٣ ، وانظر جواد على ٤١١/٣ .

(٣٢) جواد على : ٣٦٩/٣ .

(٣٣) نفس المرجع ص١٠ .

(٣٤) هو شبرع - كتابة (اليهود فى بلاد العرب) ، انظر كستر ص١٢ .

(٣٥) المؤرخان : ألت هايم وشيتل - كستر ص١٢ .

(٣٦) نفس المرجع ص١٢ ، ١٣ .

(٣٧) كستر - الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية ص١٤ .

(٣٨) نفس المرجع والصفحة .

(٣٩) السيد عبد العزيز سالم ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٤٠) انظر الخبر فى الدينورى ١١١ - ١١٢ .

(باب حروب العرب مع العجم) .

(٤١) الدينورى - الأخبار الطوال ١١٢ .

(٤٢) الأخبار الطوال ١١٢ .

(٤٣) السيد عبد العزيز سالم ٢٩٤ .

(٤٤) المسعودى - مروج الذهب ١٠٤/٢ .

(٤٥) مروج الذهب ١٠٤/٢ .

(٤٦) المسعودى - مروج الذهب ٨٧/٤ .

(٤٧) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٢ .

(٤٨) ياقوت - معجم - مج ٢٦٦/٣ .

(٤٩) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٢ .

(٥٠) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٤ ، ٢٠٥ .

(٥١) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٥ .

(٥٢) على لفظ لج البحر - البكرى - معجم ما استعجم ص ٥٩٥ .

(٥٣) ياقوت - معجم البلدان - مج ٥٠٣/٢ ، ٥٠٤ .

وانظر البكرى - معجم ما استعجم ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

(٥٤) المرجع السابق ص٥٧٨ ، ص٥٧٩ .

(٥٥) أحمد أمين - فجرالإسلام ١٧ ، ١٨ .

(٥٦) نفس المرجع ١٨ .

(٥٧) شوقى ضيف - العصر الجاهلى ٤٧ .

(٥٨) أحمد أمين - فجر الإسلام ١٨ .

(٥٩) نفسه .

(٦٠) الأغانى ٥/٣٧٥ .

(٦١) أحمد أمين - فجر الإسلام ١٨ .

(٦٢) شوقى ضيف - العصر الجاهلى ١٤١ .

(٦٣) العصر الجاهلى ١٤١ .

(٦٤) نفس المرجع السابق ٣٥ .

(٦٥) شوقى ضيف - العصر الجاهلى ٣٤ .

(٦٦) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ٣١٠ .

(٦٧) العصر الجاهلى ١٠٠ .

(٦٨) نفسه .

(٦٩) ابن حزم الأندلسى - جمهرة أنساب العرب ٤٥٧ .

الترتيبات المالية فى تاريخ غزوة خيبر

بواعثها ونتائجها

د. صلاح التجانى محمد حمودى(*)

الموضوع وأهميته التاريخية :

خصص أصحاب السير والمغازى ، وبخاصة الواقدى(١) ، حيزًا كبيرًا فى كتبهم للحديث عن غزوة خيبر(٢) التى وقعت فى السنة السابعة للهجرة ، مما يؤكد أهمية هذه الغزوة وأهمية النتائج التى ترتبت عليها .

وانطلاقًا من ذلك رأيت أن أقوم بالبحث فى هذا الموضوع ، لأن الترتيبات المالية التى نتجت عن هذه الغزوة تشكل ، فى رأيى ، جزءًا هامًا من التاريخ الحضارى للأمة الإسلامية . أضف إلى ذلك أن هذه الترتيبات المالية انعكس تأثيرها على الحياة الاقتصادية فى عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين .

وسنبدأ حديثنا بالتعرض للأسباب والمبررات التى دفعت الرسول ﷺ والمسلمين لغزو خيبر .

الأسباب والمبررات :

كانت خيبر إحدى مناطق الحجاز التى تسكنها مجموعات من اليهود مثلما كان عليه الحال فى يثرب (المدينة) وفدك وتيماء ووادى القرى(٣) وكان يهود المدينة أول من احتك بهم المسلمون . فعندما هاجر الرسول ﷺ إلى هناك ، وجد أعدادًا من اليهود يقيمون فى المدينة ، كانت من أهمهم ثلاث مجموعات رئيسية هى بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة . وكان لا بد من توضيح وتنظيم

(*) أستاذ مساعد - كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز .

علاقات هؤلاء اليهود بالأمة الإسلامية الناشئة ، التى أصبحت تضم المهاجرين والأنصار ، فقام الرسول ﷺ بكتابة الصحيفة ، وهى كتاب حدد فيه علاقة الأمة الإسلامية باليهود وشرط لهم واشترط عليهم(٤) فنال اليهود بمقتضى هذا الاتفاق حرية البقاء فى المدينة أو الخروج منها ، وحرية العمل الزراعى والتجارى وغيرهما من الأعمال ، فضلاً عن الحرية الدينية . وفى المقابل كان عليهم المحافظة على أمن واستقرار مجتمع المدينة وعدم تقديم المساعدة لأعداء الأمة الإسلامية ، والوقوف مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة فى حالة تعرضها لغزو خارجى ، والمساهمة مع المسلمين فى نفقات الحرب .

كانت هذه هى السمات الرئيسية للاتفاق مع اليهود . غير أنهم لم يحافظوا طويلاً على عهدهم مع المسلمين ، إذ أدت النجاحات الحربية التى حققها المسلمون ضد أعدائهم فى الخارج ، وبخاصة ضد قريش فى غزوة بدر ، أدت إلى إثارة الحقد والحسد فى نفوس اليهود فى المدينة ، فسعوا إلى نقض عهدهم مع الرسول ﷺ . وكان أول من نقض عهده مع المسلمين هم يهود بنى قينقاع ، وذلك عقب غزوة بدر الكبرى فى السنة الثانية للهجرة . ولسنا هنا بحاجة إلى معرفة تفاصيل ما بدر من هؤلاء اليهود وأدى بالتالى إلى طردهم من المدينة ، بقدر ما نحن بحاجة لمعرفة ما ارتبط من أخبار يهود المدينة بغزوة خيبر . ففى السنة الرابعة للهجرة أعلن الرسول ﷺ الحرب ضد مجموعة أخرى من يهود المدينة ، هم بنى النضير ، بسبب نقضهم العهد مع الأمة الإسلامية ، فقد ذكر أن الرسول ﷺ توجه إليهم فى حصونهم ليطلب منهم المساعدة فى دفع دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين عن طريق الخطأ . وكان الرسول ﷺ فى قلة من أصحابه ، فأراد يهود بنى النضير الغدر به وإلقاء صخرة عليه من أعلى أحد حصونهم . ولكن الله كشف أمرهم لرسوله ﷺ ، ومن ثم أعلن عليهم الحرب وحاصرهم فى حصونهم . ولم يستمر حصارهم أكثر من ست ليال حتى قذف الله الرعب فى نفوسهم ، " فسألوا

الرسول ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ففعل ... فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام ، فكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر : سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها"(٥) .

وكان خروج غالبية بنى النضير إلى خيبر ، وبخاصة زعمائهم ، بسبب امتلاكهم لكثير من أراضى خيبر الزراعية(٦) . وقد اتضحت هذه القوة الاقتصادية والسياسية التى كان يتمتع بها بنو النضير ، فى أن يهود خيبر ، رغم كثرتهم ، دانوا لهم بالسيادة والزعامة .

غير أن يهود بنى النضير لم يكن غرضهم الوحيد من الذهاب إلى خيبر هو استغلال أراضيهم الزراعية فيها والتعويض بها عما فقدوه من أراضى فى المدينة ، ومن ثم العيش فى سلام بعد الدرس الذى تلقوه من جراء نقضهم للعهد وطردهم من المدينة ، وإنما كانوا ينوون التآمر ضد المسلمين وتأليب أعدائهم ضدهم مستغلين فى ذلك كثافتهم العددية وكثرة أسلحتهم وأموالهم . وكانت أكبر مؤامراتهم فى السنة الخامسة للهجرة عندما خططوا لغزوة الخندق ، فقد روى ابن هشام(٧) أنه كان من حديث الخندق أن نفرًا من اليهود منهم : سلام بن أبى الحقيق النضرى ، وحيى بن أخطب النضرى ، وكنانة بن أبى الحقيق النضرى ، وهوذة بن قيس الوائلى ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا : إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ... ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه " .

ويبدو أن اليهود اكتفوا بالمساهمة المالية والمعنوية ، ولم يشترك رجالهم اشتراكًا فعليًا فى القتال فى غزوة الخندق ، حيث لم يذكرهم ابن هشام ضمن من

اشترك من الأحزاب(٨) ، ما عدا حيي بن أخطب الذى كانت لـه مهمـة محـددة ، هى تأليب يهود بنى قريظة ، آخر من تبقى من يهود فى المدينة ، وكانوا لا يزالون على عهدهم مع رسول الله ﷺ ، تأليبهم لكى يطعنـوا المسـلمين مـن الخلـف أثنـاء تعرضهم لهجمات الأحزاب من جهة الخندق . وقد نجح حيي فى مهمته واستطاع أن يقنع كعب بن أسد زعيم بنى قريظة لينقض عهده مع الرسـول ﷺ(٩) ، ووعـد حيي كعبًا أن يدخل معهم فى حصونهم إن سارت الأمـور علـى غـير مـا تشـتهى أنفسهم . وبـالفعل ، عندمـا انسـحبت جنـود الأحـزاب بعـد فشـلهم فـى اقتحـام الخندق ودخول المدينة ، دخل حيي بن أخطب إلى حصون بنى قريظة ليواجه نفس المصير الذى واجهوه(١٠) . فبعد أن حاصر الرسول ﷺ بنى قريظـة فـى حصونهـم لمعاقبتهم على نقضهم العهد، استسلموا بعد حصار دام خمسًا وعشرين ليلة ، فقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونساءهم ، وكان حيي من ضمن من ضربت أعناقهم .

ولا شك فى أن اندحار قريش والأحزاب فى غـزوة الخنـدق ، ومقتـل بنـى قريظة ومعهم حيي بن أخطب ، قد أثار الرعب فـى نفـوس يهـود خيـبر وجعلهـم يتوجسون خيفة من المسلمين . غير أن الرسول ﷺ رأى أن يصفى حسابات الأمـة الإسلامية مع قريش أولاً ، قبل أن يلتفت إلى يهود خيبر .

لقد أُحدثت غزوة الخندق تحولاً هامًا فى ميزان القوى بين المسلمين وقريش، فبعد انسحاب قريش والأحزاب من الخندق قـال الرسـول ﷺ : " والله لا يغزوننـا بعدها أبدًا ، وإنما نغزوهم نحن "(١١) . غير أن الرسول ﷺ أراد لحملته الأولى على قريش أن تأخذ طابعًا سلميًا ، وذلك عندما أمر المسلمين فى شهر ذى القعـدة مـن السنة السادسة للهجرة بالاستعداد للخروج لأداء العمرة . وكان الرسول ﷺ يعلم أن قريشًا ستعترض طريقهم وتحاول منعهم من الدخـول إلى مكـة . ولكنـه أراد أن يفرض على قريش أن تعترف بحق المسلمين فى زيارة البيت الحرام ، فتم له ما أراد، وعُقدت اتفاقية الحديبية ، التى بمقتضاها وافقـت قريـش علـى السـماح للمسـلمين

بدخول مكة فى العام الذى يلى ذلك . وكان من ضمن شروط الاتفاق أن تكون هناك هدنة يتوقف فيها القتال بين الفريقين . وبذلك يكون الرسول ﷺ قد أمن جانب قريش وضمن حيادها فى أى نزاع قادم بينه وبين اليهود . ومن هناك ترتبط أحداث الحديبية بغزوة خيبر ، فتحييد قريش معناه عدم تقديمهم أى مساعدة ليهود خيبر ، وبالتالى فتح المجال أمام الرسول ﷺ والمسلمين لغزو خيبر وتأديب يهودها على تآمرهم ضد الأمة الإسلامية .

هناك سبب آخر من أسباب خروج الرسول ﷺ إلى خيبر ، وهو سبب يرتبط أيضًا بأحداث الحديبية ، فعندما عزم الرسول ﷺ على الخروج إلى مكة لأداء العمرة فى عام الحديبية ، دعا المسلمين فى المدينة ومن حولها من الأعراب للاستعداد للخروج معه ، فتباطأ الكثيرون من الأعراب حول المدينة من الخروج مع رسول الله ﷺ . ولذلك عندما خرج الرسول ﷺ عليه وسلم إلى خيبر أمر ألا يخرج معه إلا من اشترك فى الحديبية ، وكان عددهم حوالى ألف وأربعمائة . وكان يستهدف من وراء ذلك جعل خيبر غنيمة لأهل الحديبية مكافأة لهم دون سواهم من المسلمين ، أما من أراد أن يخرج للجهاد فقط دون أن يكون له نصيب فى الغنائم فلا بأس من خروجه(١٢) . ولو فُتح باب الاشتراك فى غزوة خيبر لكل من رغب ، لصحب الرسول ﷺ عدة آلاف من الأعراب ، لمعرفتهم بما فى خيبر من أموال كثيرة وطعام وفير . وهناك تتأكد لنا حقيقة هامة ، هى أنه على الرغم من القوة العددية التى كانت فى خيبر من اليهود ، وقوة حصونهم وكثرة أسلحتهم ومائهم وطعامهم إلا أن الرسول ﷺ كان واثقًا من النصر . كذلك كان من خرج معه من المسلمين ، على قلتهم بالمقارنة لأعداد اليهود ، واثقين أيضًا من إحراز نتائج إيجابية . وهذا يقودنا الآن للحديث عن أوضاع خيبر الحربية والاقتصادية ، حيث إننا ، كما ذكرنا آنفًا ، يمكن أن نعتبر هذه الأوضاع من الأسباب المؤدية لغزوة خيبر .

قوة خيبر :

أورد الواقدى([١٣]) فى كتاب المغازى ما يعبر أصدق تعبير عن القوة العسكرية ليهود خيبر ، فقال : " وكانت يهود خيبر لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم ، كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ هيهات ! هيهات ! وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبى ﷺ إلى خيبر : ما أمنع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات فى ذرى الجبال ، والماء فيها واتن (أى دائم لا ينقطع) ، إن بخيبر لألف دارع ، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم ، فأنتم تطيقون خيبر ؟ فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبى ﷺ ، فيقول أصحاب النبى ﷺ : قد وعدهم الله نبيه أن يغنمه إياها " .

من هذا يتضح مدى الخطر الذى أصبح يشكله يهود خيبر على الأمة الإسلامية . وقد رأينا من قبل تآمرهم مع قريش وغيرها من القبائل العربية ، وهجومهم على المدينة فى غزوة الأحزاب ، أو الخندق ، سنة ٥هـ . ولا شك فى أن تدمير القوة العسكرية لليهود فى خيبر فيه إضعاف لقريش ولغيرها من القبائل العربية الموالية لها ولليهود والمعادية للمسلمين ، مثل قبيلتى غطفان وأسد([١٤]) . وفى المقابل ، فإن تدمير هذه القوة العسكرية فيه تقوية للمسلمين ولقوتهم الحربية، وذلك بما حصلوا عليه من سلاح وأموال غنيمة من خيبر ، كما سنرى .

أما القوة الاقتصادية ليهود خيبر فقد كانت تتمثل فى الأراضى الخصبة التى كانوا يمتلكونها هناك ، وفى الإنتاج الزراعى الوفير لهذه الأراضى . وقد عرفت خيبر بأنها ريف الحجاز طعامًا وودكًا وأموالاً([١٥]) . وستتضح لنا كثرة ما فيها من هذه الأشياء مما غنمه المسلمون فيما بعد .

أما الأمر الهام الذى تجدر الإشارة إليه فهو أن استيلاء المسلمين على هذه الأراضى والأموال يعتبر تحولاً هامًا فى الحياة الاقتصادية والمعيشية للأمة الإسلامية فى ذلك الوقت ، كما أنه يعتبر من جهة أخرى ضربة شديدة وجهت لقريش ولمصالحها التجارية .

والآن بعد أن استعرضنا الأسباب والمبررات التى أدت إلى غزوة خيبر ، ننتقل للحديث عن مسير الرسول ﷺ بجيشه إلى خيبر وموقف القوى المختلفة من هذه الغزوة .

* * *

المسير إلى خيبر ومواقف القوى المختلفة :

أدى قرار الرسول ﷺ الخروج إلى خيبر وغزوها إلى ردود فعل متباينة لدى جهات مختلفة . وأول رد فعل كان من بعض الأعراب المقيمين حول المدينة ، والذين انضموا للأمة الإسلامية دون أن يرسخ الإيمان فى قلوبهم بعد . وقد تبين هذا من موقفهم عندما أمر الرسول ﷺ أصحابه " بالتهيؤ للغزو فهم يجدون " ، كما يحدثنا الواقدى ، وتجلب من حوله من الأعراب يغزون معه ، وجاءه المخلفون يريدون أن يخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فقالوا نخرج معك . وقد كانوا تخلفوا عنه فى غزوة الحديبية وأرجفوا بالنبى ﷺ وبالمسلمين ، فقالوا : نخرج معك إلى خيبر ، إنها ريف الحجاز طعامًا وودكًا وأموالاً ، فقال رسول الله ﷺ : لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا . وبعث مناديًا فنادى : " لا يخرجن معنا إلا راغب فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا "(١٦) .

فالرسول ﷺ ، إذا ، لم يمنع أحدًا من المسلمين من الاشتراك معه فى هذه الغزوة إن كان راغبًا فى الجهاد . أما ما يمكن أن يحصلوا عليه من غنائم فى هذه الغزوة فلا نصيب فيه لأحد لم يسبق له الاشتراك فى الحديبية . ولا أحسب أن

الاشتراك بهذه الصورة كان مغريًا لكثير من الأعراب الذين كانوا يطمعون فى غنائم خيبر .

أما رد الفعل الثانى فد كان يتمثل فى موقف اليهود الذين لازالوا يقيمون فى المدينة فى ذلك الوقت . تقول رواية الواقدى : " فلما تجهز الناس إلى خيبر شق ذلك على يهود المدينة الذين هم موادعون لرسول الله ﷺ ، وعرفوا أنهم إذا دخلوا خيبر أهلك الله خيبر كما أهلك بنى قينقاع والنضير وقريظة . قال : (أى الراوى) فلما تجهزنا لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه "(١٧) .

وكان يهود المدينة يهدفون من وراء ذلك تعطيل أكبر عدد من المسلمين عن الاشتراك فى هذه الغزوة ، وذلك بإلزامهم بسداد ما عليهم من ديون قبل خروجهم إلى خيبر ، وكانوا يعلمون تمام العلم أن هؤلاء الذين استدانوا منهم لا يملكون شيئًا وغير قادرين آنئذ على سداد هذه الديون .

ولم يكتف يهود المدينة بذلك ، بل أنهم حاولوا أيضًا أن يضعفوا من معنويات المسلمين ، وذلك بإظهار يهود خيبر بمظهر القوة التى لا يمكن للمسلمين مجابهتها . فقال أحدهم ، ويدعى أبو الشَّحْم ، لأحد المسلمين : " تحسب أن قتال خيبر مثل قتال من تلقونه من الأعراب ؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل " . كذلك كان من بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهيز النبى ﷺ إلى خيبر : " ما أمنع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات فى ذرى الجبال والماء فيها واتن ، إن بخيبر لألف دارع ، ما كانت أسد وعطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم " فأنتم تطيقون خيبر ، فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبى ﷺ "(١٨) .

كذلك حاول يهود المدينة من جهة أخرى مساعدة إخوانهم يهود خيبر ، وذلك بتشجيعهم ورفع روحهم المعنوية ، والتقليل من شأن المسلمين ، وإظهارهم

بمظهر الضعف . فبعثوا أحد الأعراب من بنى أشجع وجدوه بالمدينة قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كنانة بن أبى الحقيق ، زعيم يهود خيبر ، يخبرونه بقلة المسلمين وقلة خيلهم وسلاحهم ويقولون لهم : فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم ، فإنه (أى الرسول ﷺ) لم يلق قومًا يحسنون القتال ، وقريش والعرب قد سروا بمسيره إليكم لما يعلمون من موادكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم"(١٩).

هذا هو إذا موقف يهود المدينة من غزوة خيبر ، محاولة لعرقلة خروج المسلمين وتثبيط هممهم . وفى المقابل تشجيع يهود خيبر ورفع روحهم المعنوية ، فماذا كان موقف يهود خيبر ؟

أما يهود خيبر من جانبهم ، فإنهم كانوا " لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم . فكانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ هيهات ! هيهات ! "(٢٠) .

لا شك فى أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك إظهار قوتهم الزائفة ومحاولة تخويف المسلمين . ويقال إنهم بعثوا بأعرابى من بنى أشجع (ولعله نفس الأعرابى الذى أرسله إليهم يهود المدينة) ليعترض طريق جيش المسلمين وقالوا له : "أحرزهم لنا وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به ، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا ، فإنهم لن يدعوا سؤالك ، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم "(٢١) وبالفعل أخذت طليعة المسلمين هذا الأشجعى ، وعندما سألوه عن يهود خيبر ، أخبرهم أن " كنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس سارًا فى حلفائهم من غطفان فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة ، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر ودخلوا معهم فى حصونهم ، وفيها عشرة آلاف مقاتل ، وهم أهل الحصون التى لا ترام وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم ، وماء واتن يشربون فى حصونهم ، ما أرى لأحد بهم طاقة "(٢٢) .

وهكذا حاول هذا الأعرابى الذى بعثه يهود خيبر ، أن ينفذ ما طلب منه ، فهول قوة اليهود وأكد سلامة موقفهم ؛ بينما يهود خيبر فى واقع الأمر يرتعدون خوفًا من المسلمين ، وما لجوؤهم إلى غطفان لنصرتهم إلا لخوفهم ولا حساسهم بالضعف رغم كثرة عددهم وتوفر طعامهم ومائهم . أضف إلى ذلك أن الخوف أفقدهم التفكير السليم فأصبحوا وهم مختلفون فيما بينهم ، فبعضهم يرى ضرورة الخروج لمواجهة الرسول ﷺ والمسلمين خارج حصونهم ، والبعض الآخر يرى أن البقاء فى الحصون والمدافعة عنها أجدى لهم(٢٣) . وقد ظهرت حقيقة يهود خيبر وزيف قوتهم بمجرد أن نزل الرسول ﷺ بساحتهم ، " فأصبحوا وأفئدتهم تخفق وفتحوا حصونهم معهم المساحى والكرازين والمكاتل (وهى الآلات التى يستخدمونها فى زراعتهم) فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ قد نزل بساحتهم قالوا: " محمد والجيش ، فولوا هاربين حتى رجعوا إلى حصونهم "(٢٤) .

* * *

أما الغطفانيون فلم يتعظوا بالفشل الذى لاقته الأحزاب (وكانوا هم أحد هذه الأحزاب) ، فى غزوة الخندق . ففى تلك الغزوة نجد الرسول ﷺ حاول إبعادهم عن هذا التحالف بإعطائهم جزءًا من تمر المدينة . غير أن الأنصار ، عندما استشارهم الرسول ﷺ ، رفضوا أن يطمعوا بنى غطفان فيهم وفى ثمارهم ، ورأوا تحمل مشاق الحصار والتضحية فى سبيل دينهم(٢٥) . فضاعت على بنى غطفان فرصة الحصول على ما كانوا يتطلعون إليه من كسب مادى ، فلا هم حصلوا عليه من حلفائهم اليهود ، ولا هم نالوا غرضهم من المسلمين .

ومرة أخرى ، وبعد حوالى عامين من إنتهاء غزوة الخندق ، نجد بنى غطفان أيضًا يراهنون على الفرس الخاسر ، وذلك بتحالفهم مع يهود خيبر . فعندما تنامى إلى سمع يهود خيبر أن الرسول ﷺ يستعد لغزو خيبر ، خرج زعماؤهم ، وعلى رأسهم

كنانة بن أبى الحقيق وهودة بن قيس فى أربعة عشر رجلاً من يهود يستنصرون ببنى غطفان ، ووعدهم بإعطائهم تمر خيبر سنة ، جعلوا لهم نصف تمر خيبر .(٢٦)

ويبدو أن الرسول ﷺ علم بتحركات يهود خيبر واستنفارهم لبنى غطفان، ولذلك نجده عندما خرج من المدينة إلى خيبر يتخذ طريقًا يجعله يحول بين بنى غطفان وبين دخولهم خيبر، ولكنهم كانوا بالفعل قد خرجوا فىأربعة آلاف رجل(٢٧) ودخلوا حصن ناعم بالنطاة قبل قدوم الرسول ﷺ إلى هناك بثلاثة أيام(٢٨) .

وكان الرسول ﷺ يعلم أن بنى غطفان يسعون وراء الكسب المادى ، ولا يهمهم نصر اليهود بقدر ما يهمهم الحصول على غنائم . ولذلك نجده من جانبه يحاول أيضًا أن يغريهم ويجعلهم ينصرفون عن خيبر ، فأرسل سعد بن عبادة إلى عيينة بن حصن زعيم غطفان ليعرض عليه نصف تمر خيبر سنة ، وفى رواية أخرى ، تمر خيبر سنة(٢٩) وقد أخبرهم الرسول ﷺ أنه وُعِد خيبر . ولكن عيينة وقومه غرتهم أنفسهم وأعماهم الطمع ، فتمسكوا بالعرض الذى قدمه لهم يهود خيبر ، ورأوا ضمانًا أكثر ، ظانين أن كثرة أعداد اليهود وكثرة سلاحهم وحصونهم المنيعة ستحقق لهم النصر على المسلمين .

ومن جهته أراد الرسول ﷺ أن يثبت لبنى غطفان سوء اختيارهم ، وفى نفس الوقت أراد إضعاف معنوياتهم . لذلك نجده يأمر بأن يكون أول حصن يهجم عليه المسلمون هو حصن ناعم ، وهو الحصن الذى دخله الغطفانيون واحتموا به مع حلفائهم اليهود .

ثم كانت الضربة الثانية التى تلقاها الغطفانيون عندما سمعوا صائحًا يقول إن ديارهم وأهليهم قد هوجموا ، فخافوا خوفًا شديدًا وظنوا أن المسلمين خالفوهم على بلادهم ، فلم يترددوا فى الخروج مسرعين نحو ديارهم ، فسقط فى أيدى

اليهود الذين خذلهم حلفاؤهم من الغطفانيين ، وبذلك حقق الرسول ﷺ هدفًا آخر بإضعاف معنويات يهود خيبر[٣٠] .

وكان أن وصل الغطفانيون إلى بلادهم بحيفاء[٣١] فوجدوا أهلهم آمنين مطمئنين لم يرعهم شئ ، فقال عيينه ، إنها مكيدة كادهم بها رسول ﷺ . وبعد أن مكث فى أهله أيامًا راودته نفسه مرة أخرى بالخروج إلى خيبر ، مدعيًا أنه يريد نصرة حلفائه من يهود . ولكنه ما إن وصل إلى هناك حتى وجد المسلمين قد فتحوا بعض حصون خيبر ويحاصرون بعضها الآخر . وعندما شاهد عيينة المسلمين وهم يحملون الغنائم من الحصون التى فتحوها ، امتلأ قلبه حسرة وندمًا ، طلب منهم أن يعطوه ما يعلف به دوابه ، ولكنهم شتموه[٣٢] ، فذهب عيينة إلى الرسول ﷺ يسأله أن يعطيه شيئًا من الغنائم مدعيًا أنه انصرف عنه وعن قتاله وخذل حلفاءه من يهود عن قصد ، ولكن الرسول ﷺ كشف له عن كذبه وأخبره أنه إنما رجع إلى أهله بسبب ما سمعه من صياح بوقوع هجوم على بلادهم (وكان هذا هاتفًا من السماء) . وعندما ألح عيينة على الرسول ﷺ أن يعطيه شيئًا ، قال له : لك ذو الرقيبة ، وهو ما رآه عيينة فى منامه أن الرسول ﷺ يعطيه له[٣٣] .

وهكذا يتضح لنا أن الظروف المعيشية القاسية التى كان يمر بها بنو غطفان هى التى دفعتهم لهذا التذبذب الذى أفقدهم الفرصة للحصول على جزء من غنائم خيبر إن هم قبلوا نصح الرسول ﷺ .

* * *

موقف قريش :

ذكرنا من قبل أن الرسول ﷺ عقد اتفاقية الحديبية مع قريش فى نهاية العام السادس للهجرة ، ثم خرج فى مطلع العام السابع غازيًا خيبر . ويهمنا أيضًا أن نعرف موقف قريش من هذه الغزوة بسبب علاقاتهم باليهود ومصالحهم المشتركة.

الحقيقة إن أصدق ما يعبر عن موقف قريش من خروج الرسول ﷺ لغزو خيبر هذه القصة الطريفة التى كان بطلها أحد المسلمين ، ويدعى الحجاج بن علاط السلمى . تبدأ القصة عندما قدم شخص يدعى عباس بن مرداس السلمى إلى مكة فأخبر القرشيين " أن محمدًا سار إلى خيابر ، وأن خيابر قد جمعت الجموع ، فمحمد لا يفلت ، إلى أن قال عباس هذا : من شاء بايعته لا يفلت محمد فبدأت المراهنات، وانقسم القرشيون إلى فريقين ، فريق يرى أن الرسول ﷺ سيظهر على اليهود ، وفريق آخر يرجح كفة اليهود وحلفائهم(٣٤) .

فى هذه الأثناء كان الحجاج بن علاط السلمى قد خرج ، كما تقول الرواية السابقة ، فى بعض غاراته ، فذكر له أن رسول الله ﷺ بخيبر ، فأسلم وحضر مع رسول الله ﷺ خيبر .. وكان الحجاج متزوجًا من امرأة تدعى أم شيبة بنت عمير بن هاشم ، وهى أخت الصحابى مصعب بن عمير . وكان الحجاج مكثرًا ، له مال كثير من معادن الذهب التى بأرض بنى سليم . فقال : يا رسول الله ائذن لى حتى أذهب فآخذ مالى عند امرأتى ، فإن علمت بإسلامى لم آخذ منه شيئًا . فإذن له رسول الله ﷺ ، وقال : لابد لى يا رسول الله من أن أقول . فإذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء . قال الحجاج :

فخرجت فلما انتهيت إلى الحرم هبطت فوجدتهم بالثنية البيضاء(٣٥) ، وإذا بهم رجال من قريش يستمعون الأخبار ، قد بلغهم أن رسول الله ﷺ قد سار إلى خيبر ، وعرفوا أنها قرية الحجاز ريفًا ومنعة ورجالاً وسلاحًا ، فهم يتحسبون الأخبار مع ما كان بينهم من الرهان . فلما رأونى قالوا : الحجاج بن علاط عنده والله الخبر ! يا حجاج ، إنه قد بلغنا أن القاطع(٣٦) قد سار إلى خيبر بلد اليهود وريف الحجاز . فقلت : بلغنى أنه قد سار إليها وعندى من الخبر ما يسركم . فالتبطوا(٣٧) بجانبى راحلتى يقولون : يا حجاج أخبرنا . فقلت : لم يلق محمد وأصحابه قومًا يحسنون القتال غير أهل خيبر . كانوا قد ساوروا فى العرب

يجمعون له الجموع وجمعوا له عشرة آلاف ، فهـزم هزيمـة لم يسـمع قـط بمثلهـا ، وأسر محمد أسرًا ، فقالوا : لن نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فنقتله بين أظهرهم بمن قتل منا ومنهم ! ولهذا فإنهم يرجعون إليكـم يطلبـون الأمـــان فـى عشـائرهم ويرجعون إلى ما كانوا عليه ، فلا تقبلوا منهم وقد صنعوا بكم مـــا صنعـوا. قـال : فصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر ، هذا محمد إنما ينتظر أن يقدم به عليكـــم . فقلت : أعينونى على جمع مالى على غرمائى فأنا أريد ان أقدم فـأصيب مـن محمـد وأصحابه قبل أن تسبقنى التجار إلى ما هناك . فقـاموا فجمعـوا إلى مـالى كـأحث جمع سمعت به ، وجئت صاحبتى ، وكان لى عندها مالى فقلت لها : مـالى ، لعلـى ألحق بخيبر فـأصيب مـن البيـع قبـل أن يسـبقنى التجـار إلى مـن انكسـر هنـاك مـن المسلمين . وسمع ذلك العباس (بن عبد المطلب) فقام ، فانخذل ظهره فلم يسـتطع القيام ، فأشفق أن يدخل داره فيؤذى ، وعلم أن سيؤذى عند ذلـك ، فـأمر ببـاب داره يفتح وهو مستلق ، فدعا بابنه قثم ، وكـان يشـبه بـالنبى ﷺ ، فجعـل يرتجـز ويرفع صوته ألا يشمت به الأعداء ، وحضر باب العباس بين مغيظ محزون ، وبـين شـامت ، وبـين مسـلم ومسـلمة ، مقهوريـن بظهـور الكفـر والبغـى . فلمـا رأى المسلمون العباس طيبة نفسه طابت أنفسهم واشتدت منتهم(٣٨) ، ودعـا غلامًـا لـه يقال له أبو زبينة فقال له : اذهب إلى الحجاج فقـل ، يقـول العبـاس : " الله أعلـى وأجل من أن يكون الذى تخبر حقًا " . فجاءه فقال الحجاج : قـل لأبـى الفضـل : أحلّنى فى بعض بيوتك حتى آتيك ظهرًا ببعض ما تحب ، فاكتم عنـى . فـأقبل أبـو زبينة يبشر العباس " أبشر بالذى يبشرك " فكأنه لم يمسه ، ودخـل عليـه أبـو زبينـة فاعتنقه العباس وأعتقه وأخبره بالذى قال ، قال العباس : لله على عتق عشر رقـاب ! فلما كان ظهرًا جاءه الحجـاج فناشـده الله : لتكتمـن علـى ثلاثـة أيـام . فواثقـه العباس على ذلك ، قال : فإنى قد أسلمت ولى مال عند امرأتى ودين على الناس ، ولو علموا بإسلامى لم يدفعوا إلى ، تركت رسول الله ﷺ قد فتح ، وجرت سـهام الله ورسوله فيها وانتثل(٣٩) ما فيها ، وتركته عروسًا بابنة حيى بن أخطب ، وقتـل

ابن أبى الحقيق . قال : فلما أمسى الحجاج من يومه خرج ، وطال على العباس تلك الليالى ويقال : إنما استنظر العباس يومًا وليلة، وجعل العباس يقول : ياحجاج انظر ما تقول فإنى عارف بخيبر ، هى ريف الحجاز أجمع وأهل المنعة والعدة فى الرجال ، أحقًا ما تقول ؟ قال : إى والله فاكتم عنى يومًا وليلة ، حتى إذا مضى الأجل ، والناس يموجون فى شأن ما تبايعوا عليه ، عمد العباس إلى حلة فلبسها ، وتخلق الخلوق وأخذ فى يده قضيبًا ، ثم أقبل يخطر حتى وقف على باب الحجاج بن علاط ، فقرعه فقالت زوجته : لا تدخل ، أبا الفضل ! قال : فأين الحجاج ؟ قالت : انطلق إلى غنائم محمد ليشترى منها التى أصابت اليهود منهم قبل أن يسبقه التجار إليها . فقال لها العباس : فإن الرجل ليس لك بزوج إلا أن تتبعى دينه ، إنه قد أسلم وحضر الفتح مع رسول الله ﷺ ، وإنما ذهب بماله هاربًا منك ومن أهلك أن يأخذوه . قال : أحقًا يا أبا الفضل ؟ قال : أى والله ـ قالت : والثواقب إنك لصادق . ثم قامت تخبر اهلها ، وانصرف العباس إلى المسجد وقريش يتحدثون بما كان من حديث الحجاج ، فلما نظروا إليه وإلى حاله تغامزوا وعجبوا من تجلده ، ثم دخل فى الطواف بالبيت ، فقالوا : يا أبا الفضل ، هذا والله التجلد لحر المصيبة أين كنت منذ ثلاث لا تطلع ؟ قال العباس : كلا والذى حلفتم به ، لقد فتح خيبر وترك عروسًا على ابنة ملكهم حيى بن أخطب ، وضرب أعناق بنى أبى الحقيق البيض الجعاد الذين رأيتموهم سادة النضير من يثرب ، وهرب الحجاج بماله الذى عند امرأته . فقالوا : من خبرك بهذا ؟ قال العباس : الصادق فى نفسى ، الثقة فى صدرى ، فابعثوا إلى أهله ، فبعثوا فوجدوا الحجاج قد انطلق بماله واستكتم أهله حتى يصبح ، فسألوا عن ذلك كله فوجدوه حقًا ، فكبت المشركون وفرح بذلك المسلمون ، ولم تلبث قريش خمسة أيام حتى جاءهم الخبر بذلك .

* * *

ونخلص من استعراضنا للمواقف المختلفة للقوى التى كان لها ارتباط بغزوة خيبر أن الوضع الاقتصادى الهام لمنطقة خيبر بأراضيها الخصبة ، لعب دورًا مهمًا فى تحديد موقف كل فئة من هذه الفئات التى أثرت فيها غزوة خيبر ، فالرسول ﷺ باستيلائه على خيبر يكون قد حقق هدفين مهمين ، أولهما القضاء على القوة الحربية والاقتصادية ليهود خيبر ، والتى كانت تستخدم فى حرب المسلمين والأمة الإسلامية . وثانيهما وضع يد الأمة على مورد غذائى هام كانت فى أشد الحاجة إليه(٤٠) .

أما اليهود فقد بذلوا كل ما فى وسعهم للأحتفاظ بوضعهم العسكرى والاقتصادى المتفوق فأخذوا يتحالفون مع بعض القبائل العربية فى مقابل إعطائهم كل ما تنتجه خيبر من تمر سنة كاملة .

أما حلفاء يهود ، وبخاصة بنو غطفان وقائدهم عيينة بن حصن ، فقد أعماهم الطمع وغرتهم قوتهم وقوة اليهود الزائفة ، فرفضوا ما عرضه عليهم الرسول ﷺ الذى كان واثقًا من النصر ، فأضاعوا على أنفسهم فرصة ثمينة .

أما قريش فيتضح لنا من قصة الحجاج بن علاط السلمى التى ذكرناها ، أنها أصبحت فى موقف ضعيف ومقيدة باتفاق الحديبية ، بحيث لا تستطيع أن تمد يد المساعدة لحلفاء الأمس ، يهود خيبر . وكان بإمكان قريش أن تنقض عهدها مع الرسول ﷺ وتهاجم المسلمين من الخلف أو تستغل فرصة خروج الرسول ﷺ من المدينة فتهجم عليها ، ولكن قريش كان قد أصابها ضرر شديد لحق بتجارتها من جراء الغزوات والسرايا العديدة التى وجهها الرسول ﷺ ضد قوافل تجارتها ، فأصبح لزامًا عليها التزام جانب الحياد ، وكانت تأمل أن يتمكن اليهود وحلفاؤهم من القضاء على المسلمين . غير أن انتصار الرسول ﷺ والمسلمين على يهود خيبر جاء ضربة أخرى مؤلمة وجهت لقريش . فاستيلاء الرسول ﷺ والمسلمين على خيبر وضع تحت أيديهم ، ولأول مرة منذ نشأة الأمة الإسلامية ، أراضى زراعية

خصبة ، وإنتاجًا زراعيًا كافيًا أمن لهم سبل عيشهم فى هذه المرحلة ، وجعلهم يتفرغون للمهمة الأساسية بنشر الدعوة الإسلامية . وفى نفس الوقت لم تعد قريش قادرة على الإنتفاع بما تنتجه خيبر التى أصبحت ملكًا للمسلمين .

والآن ، بعد أن استعرضنا الأسباب التى أدت إلى غزوة خيبر ، والظروف التى أحاطت بها ، وموقف كل فئة من الفئات التى كان لها ارتباط بهذه الغزوة ، ننتقل للحديث عما حققه الرسول ﷺ والمسلمون من إنجازات حربية فى خيبر ، وما تمخض عن ذلك من ترتيبات مالية .

* * *

سقوط حصون خيبر فى أيدى المسلمين :

كانت حصون اليهود بخيبر تقع فى ثلاث مناطق ، هى الشق والنطاة والكتيبة ، وهى تقع بدورها فى واديين من أودية خيبر هما وادى السرير ووادى خاص([٤١]) . كانت الشق والنطاة تقعان فى وادى السرير ، بينما تقع الكتيبة فى وادى خاص . وقد ذكرنا من قبل أن الرسول ﷺ أمر أن يكون أول حصن يهاجمه المسلمون هو حصن ناعم الذى نزل به الغطفانيون حلفاء اليهود ، مما أدخل الرعب والخوف فى نفوسهم . ثم كان أمر ما سمعوه من هجوم وقع على ديارهم وأهليهم، فخرجوا مسرعين إلى هناك . ويقال إن كنانة بن أبى الحقيق ، الذى كان آنذاك فى الكتيبة ، عندما سمع بانصرافهم سقط فى يده وذل وأيقن بالهلكة([٤٢]) .

أما الرسول ﷺ فإنه بمجرد أن خرج عبينة والغطفانيون أمر المسلمين بالهجوم على الحصون ، إلى أن وصل جيشهم إلى حصن ناعم ، وكان عبارة عن مجموعة من الحصون . ورغم انسحاب بنى غطفان ، إلا أن اليهود دافعوا عن حصن ناعم دفاعًا مستميتًا بعد أن حشدوا فيه أشجع مقاتليهم ، غير أن المسلمين استطاعوا فى نهاية الأمر الاستيلاء على هذا الحصن .

وبعد سقوط حصن ناعم تحول المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ ، وقد حشد فيه اليهود خمسمائة مقاتل ، كما أن هذا الحصن كان يحوى الكثير من الطعام والودك والماشية والمتاع . وكان المسلمون بحاجة شديدة إلى هذه المواد الغذائية ، لأنهم كانوا يقاتلون منذ عشرة أيام ، حتى أصابهم الجهد والجوع ، فركزوا هجومهم على هذا الحصن وتمكنوا من فتحه بعد قتال شديد وقع بينهم وبين اليهود المدافعين عن الحصن(٤٣) .

وقد حصل المسلمون فى حصن الصعب بن معاذ على الكثير من الطعام الذى لم يظنوا أن يكون هناك بهذه الكثرة . فقد وجدوا الشعير والتمر ، والسمن والعسل ، والزيت ، والودك . ووجدوا كذلك الكثير من الدواب والأنعام مثل الحمير والبقر والغنم ووجدوا الأعلاف ، وآنية كثيرة من نحاس وفخار كان اليهود يستخدمونها للأكل والشرب . ووجدوا من البز عشرين عكمًا(٤٤) محزومة من غليظ متاع اليمن ، وألف وخمسمائة قطيفة ، ووجدوا عشرة أحمال من الخشب ، أمر به فأخرج من الحصن ثم أحرق ، كذلك وجد المسلمون خوابى السكر مليئة بالخمر فكسرت وأريق الخمر . أما آلة الحرب فقد وجدوا منها أيضًا الكثير ، مثل المنجنيق والدبابات(٤٥) .

وقد سمح الرسول ﷺ للمسلمين أن يأخذوا ما يكفيهم من الطعام والأعلاف لهم ولدوابهم دون أن ينقلوا منه شيئًا إلى بلادهم . وأصبح هذا الطعام مشاعًا للمسلمين لم يمنع منه أحد ، ولم يكن فيه خمس(٤٦) ، أى أن الرسول ﷺ لم يأخذ فيه خمسًا كما كان يفعل فى غزواته الماضية .

وبعد أن استولى المسلمون على حصن الصعب بن معاذ أمروا أن يزحفوا نحو حصن آخر من حصون النطاة ، وهو المعروف باسم قلعة الزبير ، وكان حصنًا منيعًا يقع فى رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه . وقد

أغلق اليهود أبواب الحصن عليهم . وبعد حصار استمر ثلاثة أيام جاء رجل من اليهود يقال له غزَّال إلى الرسول ﷺ فقال له :

أبا القاسم ، تؤمنى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق ، فإن أهل الشق قد هلكوا رعبًا ؟ قال : فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله . فقال اليهودى : إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا ، لهم دبول تحت الأرض ، يخرجون بالليل فيشربون بها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، وإن قطعت عليهم ضجوا . فسار رسول الله ﷺ إلى دبولهم فقطعها ، فلما قطع عليهم مشاربهم لم يطيقوا المقام على العطش ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، وقتل من المسلمين يومئذ نفر ، وأصيب من اليهود ذلك اليوم عشرة ، وافتتحه رسول الله ﷺ ، فكان آخر حصون النطاة(٤٧) تحول بعده الرسول إلى الشق الذى كان يتكون أيضًا من عدة حصون .

وكان أول حصن بدأ به الرسول ﷺ من حصون الشق هو حصن أُبىّ ، ولم يستغرق فتح هذا الحصن وقتًا طويلاً حيث اقتحمه المسلمون فهرب من كان فيه من اليهود إلى حصن آخر من حصون الشق يعرف بحصن النِّزار . غير أن معنويات اليهود كانت قد انهارت تمامًا . ولم يلبث المسلمون أن دخلوا حصن النِّزار . فلما رأى أصحاب الحصون الباقية من الشق ما حدث من سرعة تداعى حصنى أبىّ والنِّزار حتى ولوا هاربين نحو حصون الكتيبة . وقد أدرك الرسول ﷺ أن حصن النِّزار سيشهد ، آخر مقاومة لليهود ، فبعد أن سقطت جيمع حصون النطاة وجيمع حصون الشق ، لم تعد لأهالى حصون الكتيبة المقدرة على مواجهة المسلمين ، ولذلك فضلوا أن يصالحوا الرسول ﷺ ، فأمن الرجال والذرية ، وكان فى حصون الكتيبة أكثر من ألفين منهم.(٤٨)

وكانت ممن أخذ فى حصن النِّزار من النساء صفية بنت حيى بن أخطب التى كانت زوجًا لكنانة بن أبى الحقيق ، ومعها ابنة عم لها وبعض من نساء

يهود." ولم يسب فى حصون النطاة من النساء والذرية أحد ولا بالشق ، إلا فى حصن النزار "(٤٩) . وذلك أن اليهود فرَّغوا حصون النطاة للمقاتلة ، وحولوا النساء والأطفال إلى حصون الكتيبة . وكان حصن سلالم بالكتيبة هو حصن آل أبى الحقيق . غير أن كنانة بن أبى الحقيق رأى أن حصن النزار أحصن ما هنالك ، ولذلك حَّول إليه أهله بمن فيهم صفية فى الليلة التى تحول فيها الرسول ﷺ إلى حصون الشق ، ولهذا السبب وجدت صفية فى حصن النزار عندما فتحه المسلمون. والمعروف أن الرسول ﷺ تزوج صفية بنت حيى بن أخطب فيما بعد .

وعندما أكمل الرسول ﷺ والمسلمون فتح حصون الشق تحولوا إلى الكتيبة، كما ذكرنا ، والتى كان بها حصن سلالم ، وهو حصن آل أبى الحقيق ، وحصن الوطيح ، وحصن القموص . وقد لجأ إلى هذه الحصون كل فل كان قد انهزم من النطاة والشق ، وأغلقوا عليهم أبواب هذه الحصون لا يخرجون منها للقتال أو لمبارزة المسلمين كما كانوا يفعلون من قبل فى الحصون التى سبق فتحها ، فحاصرهم الرسول ﷺ أربعة عشر يومًا فلما رأى أنهم لا يخرجون للقتال ، كما أنهم لم يتأثروا بطول الحصار ، هم أن ينصب عليهم المنجنيق ، فأصباهم الخوف وتملكهم الذعر وأيقنوا بالهكلة . فأرسل كنانة بن أبى الحقيق رجلاً من اليهود يقال له شمّاخ إلى النبى ﷺ يقول : " أنزل إليك أكلمك " ، فلما نزل شماخ أخذه المسلمون فأتى به النبى ﷺ فأخبره برسالة كنانة فقبل الرسول ﷺ ، فنزل كنانة فى نفر من اليهود فتم الصلح بينه وبين الرسول ﷺ على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال أو أرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة(٥٠) ، وعلى البز إلا ثوبًا على ظهر إنسان ، وكان حصيلة

ماوجده المسلمون من السلاح : مائة درع ، وأربعمائة سيف ، وألف رمح ، وخسمائة قوس عربية بجعابها .

كذلك كان لآل أبى الحقيق كنز وحلى كثيرة مشهورة ، فلما سأل الرسول ﷺ كنانة عنها أدعى أنهم انفقوه جميعًا فى الحرب . ولكن الرسول ﷺ شك فى كلامه ، ولذلك حذره من مغبة الكذب ، وأنه إن اتضح خلاف ذلك برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله ، وتصبح أموالهم ودماؤهم حل له . ورغم هذا التحذير أصر كنانة على انكاره ، فأشهد الرسول ﷺ على قوله جماعة من الصحابة وعشرة من اليهود .

و لم يلبث أن فضح أمر كنانة عندما سأل الرسول ﷺ ثعلبة بن سلام بن أبى الحقيق ، وكان رجلاً ضعيفًا(٥١)، عن الكنز ، فأخبر الرسول ﷺ أنه لا يعلم شيئًا، ولكنه رأى كنانة يطوف بخربة بجوار الحصن ، ولعله دفن فيها الكنز . فأرسل الرسول ﷺ نفرًا من المسلمين فحفروا فى الخربة حيث أشار ثعلبة ، فأخرجوا الكنز . ونتج عن ذلك أن استحل دم كنانة واستحلت أموالهم وسبى ذراريهم .

أما الكنز المذكور فقد كان يتكون فى معظمه من أسورة الذهب ، ودمالج الذهب ، وخلاخل الذهب وقرطة الذهب ، ونظم من جوهر وزمرد ، وخواتم ذهب ، وفتخ بجزع ظفار مجزع بالذهب .(٥٢)

والآن بعد أن رأينا كيف سقطت جميع حصون اليهود فى أيدى المسلمين ، ووقع فى أيديهم الكثير من الغنائم المنقولة ، ننتقل للحديث عن الكيفية التى تم بها التصرف فى هذه الغنائم وطريقة توزيعها على المسلمين .

* * *

كيفية التصرف فى الغنائم :

حصل المسلمون نتيجة فتحهم حصون خيبر على الكثير من الغنائم التى تشمل الأثاث والبز والقطائف والسلاح والغنم والبقر ، وكميات ضخمة من الطعام والأدم وعلف الدواب . وقد جعل الرسول ﷺ الطعام وعلف الدواب حقًا مشاعًا لجميع المسلمين المشتركين فى الغزوة ، يأخذ كل منهم حاجته وما يكفيه أثناء وجوده بخيبر ، ولا يحق لأحد يحمل من الطعام والأعلاف شيئًا إلى بلاده .

كذلك أشاع الرسول استخدام السلاح الذى غنم لجيمع المسلمين المقاتلين بخيبر ، ويحق لكل واحد أن يأخذ ما يحتاجه من السلاح ليقاتل به ، بشرط أن يرده بعد انتهاء القتال . ثم جمعت الغنائم المنقولة بما فيها السلاح ، وقسمت إلى خمسة أجزاء ، أخرج منها خمس للرسول ﷺ ، والأربعة أخماس الأخرى للمقاتلين . وبعد ذلك تم بيع جميع الغنائم بالمزايدة ، أى لمن يزيد ويدفع أعلى سعر ، وكان حق الشراء والبيع مفتوحًا للجميع ، مسلمين ويهود . وقد وكل الرسول ﷺ أمر بيع هذه المنقولات إلى فروة بن عمرو البياضى . ورغم كثرة الغنائم المنقولة إلا أنه تمكن من بيعها فى يومين فقط(٥٣) .

وكان الرسول ﷺ حريصًا على ألا يغل أحد شيئًا من الغنائم ، أى يأخذه وينتفع به دون سائر المسلمين ، مهما صغر هذا الشئ وقل ثمنه ، وذلك حتى يتحقق العدل والمساواة بين جميع المقاتلين .

أما الذين انتفعوا من غنائم خيبر فكانوا عدة فئات ، أولهم الذين شهدوا الحديبية مع الرسول ﷺ ، حتى الذين غابوا عن خيبر ولم يشهدوها لكنهم كانوا من أصحاب الحديبية ، كان لهم نصيب فى هذه الغنائم مثلهم مثل غيرهم من المقاتلين . وهناك من ماتوا فى الفترة ما بين الحديبية وخيبر ، وهؤلاء أعطى نصيبهم لورثتهم . كذلك الذين استشهدوا فى معارك خيبر نفسها حفظ لهم

حقهم فى الغنائم وأعطى لورثتهم . وهناك ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن القتال بسبب المرض ، وهم سويد بن النعمان ، وعبد الله بن سعد بن خيثمة ، ورجل من بنى خُطامة ، وهؤلاء أيضًا أعطاهم الرسول ﷺ نصيبهم(٥٤) .

وكان المجموع الكلى للمقاتلين فى خيبر الذين شملتهم الفئة ألفًا وأربعمائة رجل ، منهم مائتا فارس ، وقد تولى إحصاء هؤلاء المسلمين المشتركين فى خيبر الصحابى زيد بن ثابت(٥٥) ، وجعل الرسول ﷺ نصيب الفارس من مال الغنائم المنقولة ثلاثة أسهم ، سهم للفارس وسهمين لفرسه . ويبدو أن بعض الصحابة كان له أكثر من فرس بخيبر ، أحدهما قاتل عليه ، والآخر أو الأخرى أعطاها لبعض المسلمين على أن يكون نصيب الفرس الزائد ، وهو سهمان ، لصاحب الفرس ، وهذا يعنى أن من كان له فرسان نال خمسة أسهم ، أربعة لفرسيه وسهم له . ويقال إن الرسول ﷺ لم يسهم لأكثر من فرسين ، ووفق رواية أخرى أنه لم يسهم إلا لفرس واحد(٥٦) .

أما الفئة الثانية التى جعل لها الرسول ﷺ نصيبًا فى غنائم خيبر ، فكانوا عشرة من يهود المدينة غزا بهم الرسول ﷺ خيبر ، ويقال إنه أسهم لهم كسهمان المسلمين ، غير أن هناك رواية أخرى تقول إنه لم يسهم لهم وإنما أحذاهم ، ولعل المقصود بذلك أنهم نالوا مكافأة لمرة واحدة دون أن يتكرر اعطاؤهم ، وفى الغالب فإن هذا يتعلق بغلة الأرض التى أصبحت حقًا ثابتًا للمسلمين المشتركين فى خيبر ولأسرهم توزع عليهم سنويًا أو موسميًا . أما الغنائم المنقولة فقد وزع ريعها فى وقته ، ونال هؤلاء اليهود العشرة نصيبهم منها بحكم اشتراكهم فى الغزوة إلى جانب المسلمين .

كذلك كان مع هؤلاء اليهود العشرة بعض مماليكهم ، وقد أعطاهم الرسول ﷺ أيضًا شيئًا من مال الغنائم(٥٧) .

أما الفئة الثالثة التى أسهم لها الرسول ﷺ من غنائم خيبر دون أن يكونوا من أصحاب الحديبية ، فقد كانوا جماعة من المبعوثين على رأسهم محيصة بن مسعود الحارثى ، أرسلهم الرسول ﷺ إلى فدك ليتفاوضوا مع يهودها على شروط الصلح الذى قبل يهود فدك إتمامه مع الرسول ﷺ (٥٨) .

وكان قد صحب الرسول ﷺ فى غزوته إلى خيبر عشرون امرأة من نساء المسلمين . وقد تطوعن لإغاثة المسلمين بتوفير السقاء لهم ومداوة الجرحى وغيرها من الأعمال . ولم يحرم الرسول ﷺ هؤلاء النسوة ثمرة جهودهن وحقهن فى غنائم خيبر . وتكاد جيمع الروايات تجمع على أن الرسول ﷺ رضخ لهؤلاء النسوة ولم يسهم لهن(٥٩) أى إنه لم يجعل لهن أسهما أسوة بالرجال ، وإنما وزع عليهن بعض الغنائم . من ذلك مثلاً إنه رضخ لكل امرأة خرزًا وأوضاح(٦٠) من فضة وقطيفة فدكية وبردًا يمانيًا وخمائل وقدرًا(إناة) من صفر (أى نحاس) . وفى رواية أخرى أن الرسول ﷺ قسم بينهن خرزًا وأعطى كل واحدة قطيفة وبردًا يمانيًا ودينارين(٦١) .

وخلاصة القول فإن الغنائم المنقولة وزع جزء منها ، وبخاصة الحلى ، على النساء اللاتى صحبن الرسول ﷺ فى غزوة خيبر ، وتم بيع ما تبقى فى مزايدة مفتوحة لمن يريد أن يشترى ، ثم وزع ريعها من المال على المقاتلة وعشرة من يهود المدينة ، ومبعوثى الصلح إلى فدك .

أما الأرض الزراعية وما تحويه من نخل وزروع ، فهذه كان لها ترتيب آخر.

توزيع غلة أراضى خيبر :

ذكر الواقدى أن الرسول ﷺ كلف زيدًا بن ثابت بإحصاء المسلمين المقاتلين الذين اشتركوا فى غزوة خيبر ، فوجد أن عددهم يبلغ ألفًا وأربعمائة رجل ، ومعهم مائتا فرس . وكما ذكرنا من قبل ، ليس من الضرورى أن تكون هذه

الخيل ملكًا لمائتى مسلم ، لأن البعض كان له أكثر من فرس ، قاتل على واحد منها ، وأعطى الآخر لرجل آخر من المسلمين . فإذا أخذنا فى الإعتبار ضعف الرواية التى تقول إن الرسول ﷺ أسهم للرجل الذى له فرسان مثلاً ، خمسة أسهم، أربعة لفرسيه وسهم له ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه هو : من الذى أخذ سهمى الفرس الاخر ، هل هو صاحب الفرس ، أم الشخص الذى قاتل عليه؟ ولابد أولاً أن نثبت حقيقة هامة وهى أن الرسول ﷺ أسهم لمئتى فرس ، إذ ذكر الواقدى أن الرسول ﷺ جعل السهمان ثمانية عشر سهمًا ، كل سهم منها مائة سهم ، ليصبح عددها ألفًا وثمانمائة سهم ، وكان نصيب المقاتلين من ذلك ألفًا وأربعمائة سهم بمعدل سهم لكل رجل ، بينما كان نصيب الخيل أربعمائة سهم بمعدل سهمين لكل فرس(٦٢) . غير أنه ليس واضحًا من الذى استفاد من سهمى الفرس الذى يقاتل عليه شخص غير صاحبه . ولعل الاتفاق كان يقضى بأن يتقاسم هذا الرجل وصاحب الفرس السهمين ، والله أعلم .

هذه الألف وثمانمائة سهم(٦٣) كانت فى أراضى النطاة والشق ، وكان لكل مائة شخص سهم كبير له رئيس يقسم على أصحابه ما خرج من غلة الأرض . وكان النطاة خمسة أسهم هى : سهم الزبير بن العوام ، سهم بياضة ، سهم أسيد بن حضير ، سهم بلحارث بن الخزرج ، سهم ناعم (رجل يهودى) .

أما الشق فقد كانت على ثلاثة عشر سهمًا على النحو التالى :

سهم عاصم بن عدى ، سهم على بن أبى طالب ، سهم عبد الرحمن بن عوف ، سهم طلحة بن عبيد الله ، سهم بنى ساعدة ، سهم بنى النجار ، سهم بنى حارثة بن الحارث ، سهم أسلم وغفار ، سهما سلمة ، سهم عبيد السِّهام ، سهم أوس ، سهم عبيد(٦٤) .

هذا وقد أبيحت عملية بيع وشراء الأسهم بين المسلمين ، فيقال مثلاً إن الرسول ﷺ اشترى من رجل من بنى غفار سهمه بخيبر ببعيرين بعد أن قال له :

"أعلم أن الذى آخذ منك خير من الذى أعطيك ، والذى أعطيك دون الذى آخذ منك " فقبل الرجل رغمًا عن ذلك .

كذلك اشترى عمرو بن الخطاب من الرسول ﷺ فى سهم ، واشترى عمر أيضًا من أصحابه الذين يشتركون معه فى السهم الكبير ، وعددهم مائة ، حتى صار السهم كله لعمر. كذلك ابتاع محمد بن مسلمة من سهم أسلم سهمين(٦٥) .

هذا فيما يتعلق بأراضى النطاة والشق ، أما أراضى الكتيبة فقد ورد فيها قولان مختلفان : فمن قائل إن الكتيبة كانت للنبى ﷺ خالصة ، ولم يوجف عليها المسلمون (أى لم يقاتلوا عليها) .(٦٦)

أما القول الآخر ، وهو الأقرب للصواب والقول ، فهو أن الرسول عندما انتهى من فتح خيبر جزأ النطاة والشق والكتيبة جيمعها إلى خمسة أجزاء ، ثم جعل خمس بعرات ، وأعلم فى بعرة منها وجعلها لله ، ثم قال : اللهم اجعل سهمك فى الكتيبة . فكان أول ما خرج منها الذى مكتوب فيه على الكتيبة ، فأصبحت الكتيبة نتيجة لهذا الخمس الخاص بالنبى ﷺ يتصرف فيه كيفما يشاء ، وأصبحت النطاة والشق هى أربعة الأخماس للمقاتلين بخيبر . ومما يدعم هذا القول ، أى أن الكتيبة صارت خمس رسول ﷺ ، أنه كان يطعم من أطعمهم فى الكتيبة وينفق على أهله منها ، كما أن الرسول ﷺ لم يطعم أحدًا من الشق والنطاة التى جعلها سهمانًا للمسلمين(٦٧) .

وهكذا أصبحت أراضى خيبر وما تنتجه من غلال وتمر ملكًا للمسلمين ، وهى أول أرض يمتلكها المسلمون خارج المدينة ، فكيف كان تصرفهم ازاءها ؟ هذا ما سنراه بعد قليل .

الاتفاق مع يهود خيبر بشأن الأرض :

لم يكن من السهل على المسلمين فى هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية التى تتطلب التفرغ للجهاد ونشر الدعوة الإسلامية ، أن ينصرفوا لفلاحة هذه الأراضى التى آلت ملكيتها لهم ، أو الإشراف عليها وعلى نخلها وزرعها إشرافًا مباشرًا . ولهذا لم يرفض الرسول ﷺ العرض الذى تقدم به يهود خيبر ليتركهم يعملون فى الأرض مقابل نصيب من إنتاجها . فوافق الرسول ﷺ على أن يقرهم فى أراضى خيبر مقابل حصولهم على نصف إنتاجها[٦٨] . وكان هذا الاتفاق يسرى على أراضى الشق والنطاة والكتيبة جميعها . واختار الرسول ﷺ أحد الصحابة من الأنصار ، وهو عبد الله بن رواحة ، ليخرص عليهم النخل ، ويقال إنه خرص عليهم أربعين ألف وسق[٦٩] . وعندما توفى عبد الله بن رواحة فى غزوة مؤتة سنة ٨ هـ بعث الرسول ﷺ أبا الهيثم بن التيهّان خارصًا إلى خيبر . وفى رواية أخرى أنه بعث جبار بن صخر أو فروة بن عمرو (البياضى) [٧٠] لهذه المهمة . والجدير بالذكر أن جميع هؤلاء الرجال الذين تولوا هذه الوظيفة كانوا من الأنصار من أهالى المدينة الذين كانت لهم خبرة بالنخل وإنتاجها من التمر .

إنتاج الكتيبة وكيفية توزيعها :

لعل ما أوردته بعض المصادر[٧١] عن إنتاج الكتيبة يعطينا فكرة عما كانت تنتجه أراضى خيبر من تمر ومحصولات زراعية أخرى . فقد ذكر أن الكتيبة ، وهى تشكل خمس الرسول ﷺ (بمعنى آخر خمس خيبر) كان إنتاجها كالآتى :

٨٠٠٠ وسق تمر لليهود نصفها ، أربعة آلاف .

٣٠٠٠ صاع شعير ، للرسول ﷺ ١٥٠٠ ولليهود ١٥٠٠ صاع .

١٠٠٠ صاع نوى تمر ، للرسول ﷺ نصفه .

ولعل هذا الإنتاج كان شبه ثابت ، أو ربما يمثل متوسط ما كانت تنتجه أراضى الكتيبة ، لأن الرسول ﷺ كان يطعم نساءه وأقرباءه وبعض الفقراء طعمًا على النحو التالى :

٨٠ وسق تمر و٢٠ وسق شعير لكل زوجة من زوجاته .

٢٠٠ وسق للعباس .

٣٠٠ لفاطمة وعلى من الشعير والتمر ، منها ٨٥ وسق شعير ، لفاطمة من ذلك ٢٠٠ وسق .

١٥٠ وسق لأسامة بن زيد (٤٠ شعير و٥٠ نوى) .

١٥ وسق شعير للمقداد بن عمرو .

٥٠٠ أوساق شعير لأم رمثة بنت عمر بن هاشم بن المطلب .

١٠٠ وسق لأبى بكر .

١٤٠ وسق لعقيل بن أبى طالب .

٥٠ وسق لبنى جعفر بن أبى طالب .

١٠٠ وسق لربيعة بن الحارث .

١٠٠ وسق لأبى سفيان بن الحارث بن المطلب .

٣٠ وسق للصلت بن مخرمة بن المطلب .

٥٠ وسق لأبى نبقة .

٥٠ وسق لركانة بن عبد يزيد .

٥٠ وسق للقاسم بن مخرمة بن المطلب .

٣٠ وسق لمسطح بن أثاثة بن عباد وأخته هند .

٤٠ وسق صفية بنت عبد المطلب .

٣٠ وسق بحينة بنت الحارث بن المطلب .

٤٠ وسق ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب .

١٠٠ وسق الحصين وخديجة وهند بنت عبيدة بن الحارث .

٣٠ وسق أم الحكم بنت الزبير بن عبد الطلب

٤٠ وسق أم هانى بنت أبى طالب .

٣٠ وسق جمانة بنت أبى طالب .

٣٠ وسق أم طالب بنت أبى طالب .

٥٠ وسق قيس بن مخرمة بن المطلب .

٥٠ وسق أبو أرقم .

٤٠ وسق عبد الرحمن بن أبى بكر .

٤٠ وسق أبى بصرة .

٣٠ وسق ابن أبى حبيش .

٥٠ وسق عبد الله بن وهب وإبنيه (٤٠ لابنيه) .

٥٠ وسق نميلة الكلبى من بنى ليث .

٣٠ وسق أم حبيبة بنت جحش .

٣٠ وسق ملكان بن عبده .

٣٠ وسق محيصة بن مسعود .

إذا أحصينا مجموع هذه الطعم المذكورة آنفًا نجده يقل كثيرًا عن ثلاثة آلاف وسق ، بينما إنتاج الكتيبة كان يزيد كثيرًا . ومن ناحية أخرى فإننا نلاحظ ليس واضحا ما ناله كل شخص من الأنواع المختلفة من المحصول ، ما عدا فى حالات قليلة . أما مابقى من إنتاج الكتيبة فلابد أن الرسول ﷺ أطعم منه آخرين من فقراء المسلمين ، كما أنه كان يحمل منه فى سبيل الله ، ويعطى منه من يأتيه من وفود العرب ليتألفهم للإسلام . ومن هذه الفئات أناس صادف قدومهم إلى الرسول ﷺ عند فتح خيبر ، دون أن يشتركوا فيه ، فأطعمهم الرسول ﷺ من الخمس . ومن هؤلاء الرهاويون الذين أوصى لهم بجاد مائة وسق (أى مما يجمع من تمر) والداريون ، - وكانوا عشرة قدموا من الشام إلى رسول الله ﷺ - فأوصى لهم بطعمة مائة وسق . كذلك أوصى للأشعريين بجاد مائة وسق .(٧٢)

وأصبحت كل هذه الطعم التى قسمها الرسول ﷺ من الخمس حقًا ثابتًا لكل من أعطاهم ؛ ينالونه فى حياة الرسول ﷺ وخلافة أبى بكر . أما من مات من المطعمين أو قتل فى حياة الرسول ﷺ وأبى بكر فإنه يرثه تلك الطعمة من ورث ماله .(٧٣) غير أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما تولى الخلافة كان له رأى فى هذا الأمر . إذ يقال إنه قبض طعمة كل من مات و لم يورثه ، فقبض طعمة زيد بن حارثة ، وقبض طعمة جعفر بن أبى طالب ، وكلمة على بن أبى طالب فأبى ، وقبض طعمة صفية بنت عبد المطلب فكلمه الزبير (بن العوام ، ابنها) فى ذلك حتى غالظه فأبى عليه برده ، فلما ألح عليه قال : أعطيك بعضه . ولكن الزبير رفض وأصر على أخذها كلها . كذلك يقال إن عمر قبض طعمة فاطمة فكلم فيها فأبى أن يفعل(٧٤) .

غير أن الخليفة عمر استثنى من ذلك أزواج رسول ﷺ ، فكان يجيز ما صنعن ، فماتت زينب بنت جحش فى خلافته فخلى بين ورثتها وبين تلك الطعمة ، وأجاز ما صنعن فيه من بيع أو هبة . وورث ذلك كل من ورثهن ، و لم

يفعل بغيرهن ، وأبى أن يجيز بيع من باع الطعمة وقال : " هـذا شئ لا يعرف إذا مات المطعم بطل حقه ، فكيف يجوز بيعه " (٧٥) .

غير أن هناك رواية أخرى تنفى استثناء عمر لأزواج الرسول ﷺ وعلى قول هذه الرواية فإن عمر قبض طعمة زينب حجش زوج الرسول ﷺ التى توفيت سنة ٢٠هـ فى خلافته وأبى أن يعطيها الورثة وقال : إنما كانت مـن النبـى ﷺ طعمـة ما كان المرء حيًا فإذا مات فلا حق لورثته(٧٦) .

وبغض النظر عن الروايتين المختلفتين ، فإن الخليفة عمـر لابـد أن تكـون لـه أسباب دفعته لوقف وراثة الطعمة بعد أن استمر العمل بها فى عهدى الرسـول ﷺ والخليفة أبى بكر . ولعل السبب فى ذلك هو تبـدل الأحـوال المعيشـية للمسـلمين وارتفاع مستواها بعد سنة ٢٠هـ وبعد الفتوحات التى تمت وكثرة الأموال بـأيدى الناس . أو ربما رأى عمر أن هذه الطعم مـن حـق ولى الأمـر بعـد الرسـول ﷺ أن يتصرف فيها بطريقته ، وأن بيت مال المسلمين أحـق بهـا لينفـق منهـا فـى الجهـاد وغيره من المصلحة العامة . لعل كل ذلك وغيره من الأسباب (٧٧) جعل عمر يـرد هذه الطعـم لبيـت مـال المسـلمين ويوقـف توارثهـا . والمعـروف أن الخمـس كـان الرسول ﷺ ينفق منه على الفئات التى حددتهـا الآيـة الكريمـة : ﴿ واعلَمـوا أنَّمـا غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسـول ولـذى القربـى واليتـامى والمسـاكين وابـن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يـوم الفرقـان يـوم التقـى الجمعـان والله على كل شئ قدير ﴾ .(٧٨)

أما بعد أن أصبح ورثـة ذوى القربـى فـى وضـع معيشـى مريـح ، فأنـه مـن الممكن توجيه هذا الخمس لمصلحة المسلمين العامـة . والجدير بـالذكر أن الخليفـة عمر لم ينفرد بهذا الرأى ، فقد تبعه على ذلك الخليفة عثمان بن عفان الذى رفض أيضًا نقض ما اتخذه عمر فى شأن الطعمة(٧٩) .

ومما يدعم قولنا أن إجراءات الخليفة عمر قد تمت فى الغالب فى أواخر عهده ، وأن عمر عندما عزم على إخراج اليهود من خيبر وفدك ، أثبت لأصحاب الطعم الأخرين ولبعض ورثة من توفى منهم حقهم فيها . وعلى ضوء ذلك فإنه من المؤكد أن الخليفة عمر لم يتعرض لما ناله المسلمون الآخرون الذين اشتركوا فى غزوة خيبر من أرض أو إنتاج ، لأن هذا أساسًا حقهم ويختلف عن وضع الخمس . ولذلك لم نسمع أن الخليفة عمر منع أحدا من هؤلاء المسلمين من التصرف فى حقه ببيع أو شراء ، أو حال دونه ودون ورثته ، كما سنرى عندما نأتى للحديث عن الأسباب التى أدت لإخراج اليهود من الحجاز .

أما الان فننتقل للحديث عن صلح فدك واتفاق الرسول ﷺ معهم ومع يهود تيماء ووادى القرى ، لأنها تمت أثناء غزوة خيبر أو عقبها مباشرة فاعبترت مكملة لغزوة خيبر .

أمر فدك ووادى القرى وتيماء :

جاء فى كتاب المغازى للواقدى أنه " لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها بعث محيصة بن مسعود إلى فدك يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم أن يغزوهم كما غزوا أهل خيبر ويحل بساحتهم " فذهب إليهم محيصة وأقام عندهم يومين لإقناعهم بقبول الصلح . ولكن يبدو أنهم كانوا يؤملون فى أن يفشل المسلمون فى فتح خيبر لما فيها من رجال وحصون وسلاح . غير أنهم لم يلبثوا أن عدلوا عن رأيهم بعد أن بدأت أخبار أولى الانتصارات التى حققها المسلمون فى خيبر تصل إلى مسامعهم . ففت ذلك فى أعضادهم ووافقوا على أن يبعثوا مع محيصة رجالاً منهم يأخذون لهم الصلح من الرسول ﷺ . فعرضوا على الرسول ﷺ أن يخرجوا من بلادهم ولا يكون للنبى ﷺ عليهم من الأموال شئ ، وإذا كان جذاذها جاءوا فجذوها . فأبى النبى ﷺ أن يقبل ذلك . وعرض عليهم من جانبه أن يحقن دماءهم ويجليهم ويخلو بينه وبين الأموال(٨٠) .

وقد لعب محيصة بن مسعود دورًا بارزًا فى الوصول إلى حل وسط ، فنصح يهود فدك بقبول الصلح لأن وضعهم ضعيف وليست لهم منعة ولا رجال ولا حصون . وبالفعل تم الصلح بين الرسول ﷺ وبينهم أن لهم نصف الأرض بتربتها ، ولرسول الله ﷺ نصفها ، فأقرهم الرسول ﷺ على ذلك ولم يغزهم . وبقى هذا الاتفاق ساريًا حتى خلافة عمر بن الخطاب . وسنرى فيما بعد ما فعله الخليفة عمر مع يهود فدك وغيرهم من يهود الحجاز وأطراف الشام المتاخمة للحجاز .

وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من فتح خيبر عزم على المسير إلى وادى القرى التى كان بها أيضًا مجموعات من اليهود . فلما وصل هو والمسلمون إلى هناك أظهر اليهود المقاومة . وكان قد انضم إليهم أناس من العرب فبادروا برمى المسلمين بسهامهم . ولكن على الرغم من ذلك فإن الرسول ﷺ عرض عليهم الإسلام ، وأنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله . فرفضوا هذا العرض ، وخرج منهم رجال يدعون للمبارزة ، فتصدى لهم رجال من المسلمين وتغلبوا حتى قتل من اليهود أحد عشر رجلاً . ولم يطل القتال كثيرًا، ففى صبيحة اليوم التالى تمكن الرسول ﷺ والمسلمون من فتح وادى القرى عنوة ، وغنم منهم أموالاً وأثاثًا ومتاعا كثيرًا ، فقسم الغنائم على أصحابه ، وترك النخل والأرض بأيدى اليهود وعاملهم عليها(٨١)

ومع أن الوقدى لم يوضح طبيعة الاتفاق بدقة ، إلا أنه فى الغالب كان شبيهًا باتفاق الرسول ﷺ مع يهود خيبر وفدك ، أى على المناصفة للمحصول ، وربما للأرض كذلك .

أما يهود تيماء فإنهم عندما بلغتهم أخبار انتصارات الرسول ﷺ على خيبر وفدك ووادى القرى ، فضلوا أن يصالحوه قبل أن يسير إليهم ، فصالحهم الرسول ﷺ على الجزية ، وهو مبلغ محدد من المال أو جزء متفق من محصولهم يؤدونه فى

مقابل احتفاظهم بأموالهم وأراضيهم . وظل اتفاقهم هذا سارى المفعول حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، كما سنرى بعد قليل .

أما الآن ، وبعد أن رأينا ما حدث من غزو الرسول ﷺ لخيبر ووادى القرى وما نتج عنه من اتفاقات بينه وبين أهاليهما وأهالى فدك وتيماء من اليهود ، ننتقل للحديث عن تعديات يهود خيبر على بعض المسلمين فى عهد الرسول ﷺ ثم فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وما نتج عنها .

تعديات يهود خيبر على المسلمين ونتائجها :

١ - في عهد الرسول ﷺ :

كان أول اعتداء يقع من يهود خيبر على رجل من المسلمين بعد حوالى عشرة أشهر من غزوة خيبر ، لأن هذه الغزوة كانت فى ملطلع عام ٧هـ وحدث الاعتداء عندما كان الرسول ﷺ يستعد لعمرة القضية فى شهر ذى القعدة من نفس العام . والذى حدث هو أن بعض المسلمين ، وفيهم محيصة(٨٢) وعبد الله بن سهل خرجوا إلى خيبر بسبب ما أصابهم من جهد ومجاعة بالمدينة ، وأخذوا ينتقلون ما بين مزارع الشق والنطاة إلى أن استقر بهم المقام فى الكتيبة حيث وجدوها خيرًا لهم قاموا بها أيامًا (٨٣) . ثم عن لأحدهم ، وهو عبد الله بن سهل ، أن يذهب بمفرده إلى الشق رغم تحذير صاحب له من اليهود فلما استبطأ قدومه غدا فى أثره يسأل عنه حتى الشق فأخبره بعض أهلها أنه مر بهم حين غابت الشمس يريد النطاة ، فذهب إلى هناك ، ولكنه لم يجد له أثرًا ، إلى أن دله غلام يهودى على مكانه ، فوجده وقد قتل وألقيت جثته فىجب . فاستعان ببعض اليهود على إخراجه من الجب ثم كفنه ودفنه ، وخرج سريعا إلى المدينة فأخبر قومه الخبر . فخرج مع محيصة ثلاثون رجلاً منهم أخوه حويصة ، وعبد الرحمن بن سهل أخو القتيل ، وذهبوا إلى الرسول ﷺ . وكان الخبر قد بلغه ، فأخبروه أنهم

يتهمون اليهود بقتل عبد الله بن سهل فكتب النبى ﷺ إليهم فى ذلك ولكنهم انكروا التهمة ، فقال الرسول ﷺ لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن ولمن معهم : تحلفون خمسين رجلاً خمسين يمنيًا بالله أنهم قتلوا صاحبكم وتستحقوا الدم ، فقالوا: يا رسول الله لم نحضر و لم نشهد . فقال الرسول ﷺ لهم : تحلف لكم اليهود خمسين رجلاً خمسين يمنًا بالله ما قتلوه . فقالوا : يا رسول الله كيف نقبل إيمان قوم كفار . ويقال إن الرسول ﷺ جعل دينه على اليهود لأنه قتل بحضرتهم ولكنه أعانهم ببضعة وثلاثين بعيرًا(٨٤) .

فكان هذا أول اعتداء يحدث من اليهود بخيبر بعد الغزوة ، وقد استطاع الرسول ﷺ أن يجد حلاً للمشكلة وعالجها بطريقة حكيمة ، واعتبرها فى الغالب حادثًا فرديًا ، ولكن هل ارعوى اليهود واعتبروا بهذه المعاملة الكريمة ؟ الواقع أنهم لم يفعلوا .

٢ - فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب :

وقع الاعتداء الثانى على المسلمين فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان المعتدى عليه هذه المرة ابنه عبد الله بن عمر ، الذى كان قد خرج هو والزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى أموالهم بخيبر يتعاهدونها ، حيث اعتاد الخليفة أبو بكر ، ومن بعده عمر أن يبعثا إلى خيبر من يطلع على أراضيهم وينظر فى أمرها . فلما قدم عبد الله وصحبه إلى خيبر تفرقوا للقيام بهذه المهمة ، فوقع الاعتداء على عبد الله بن عمر ليلاً وهو نائم ، حيث صرعت يداه ، أى جذبتا جذبًا عنيفًا إلى الخلف حتى أصبحتا وكأنهما موثوقتان ، فأصلحهما أصحابه ، وقدم عبد الله المدينة وأخبر أباه بما صنع به(٨٥) والحقيقة أننا لا ندرى ماذا فعل عمر إزاء ذلك ولكنه فى الغالب سكت عن هذا الحادث لأن أحدًا لم يقتل .

غير أن اعتداء ثالثًا وقع على رجل مسلم يدعى مظهر بن رافع الحارثي ، وكان قد أقبل من الشام بعشرة أعلاج(٨٦) يعلمون له في أرضه ، فجاء بهم إلى خيبر . وبعد أن مكث ثلاثة أيام دخل عليهم رجل من اليهود فقال : " أنتم نصارى ونحن يهود وهؤلاء قوم عرب قد قهرونا بالسيف ، وأنتم عشرة رجال ، أقبل رجل واحد منهم يسوقكم من أرض الخمر والخير إلى الجهد والبؤس ، وتكونون في رق شديد ، فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه . قالوا : ليس معنا سلاح. فدسوا إليهم سكينتين أو ثلاثة . قال : فخرجوا فلما كانوا بثبار (٨٧) قال لأحدهم ، وكان الذى يخدمه منهم : ناولنى كذا وكذا . فأقبلوا إليه جميعا وقد شهروا سكاكينهم ، فخرج مظهر يعدو إلى سيفه ، وكان في قراب راحلته . فلما انتهى إلى القراب لم يفتحه حتى بعجوا بطنه ، ثم انصرفوا سراعًا حتى قدموا خيبر على اليهود فآووهم وزودوهم وأعطوهم قوة فلحقوا بالشام(٨٨) .

وصلت أخبار هذا الاعتداء إلى الخليفة عمر فخطب في الناس وأخبرهم باعتداء اليهود على مظهر بن رافع وقتلهم إياه ، واعتدائهم من قبل على عبد الله ابن عمر ، كما أعاد إلى الأذهان الجريمة التى ارتكبوها في عهد الرسول ﷺ عندما قتل عبد الله بن سهل فيخيبر . وقال عمر إنه لا يشك في أن اليهود هم الفاعلون لأنه ليس للمسلمين هناك عدو غيرهم . وقد قرر عمرالخروج بنفسه إلى خيبر لإخراج اليهود منها وتقسيم أراضيها وتسليمها لأصحابها .

كان الخليفة عمر يعلم أن الرسول ﷺ عندما صالح يهود خيبر وترك لهم الأرض يزرعونها بالمناصفة ، قال لهم : أقركم ما أقركم الله ، ومعنى ذلك أنه قد يحين وقت يأمرهم فيه هو أو أحد خلفائه بالخروج من خيبر . وكان مما قوى من موقف الخليفة عمر أنه بلغه أن الرسول ﷺ قال في مرضه الذى توفى فيه : " لا يجتمع بجزيرة العرب دينان"(٨٩) ففحص عن ذلك عمر حتى وجد عليه الثبت من لاينهم، فأرسل إلى يهود الحجاز أن الله قد أذن في جلائهم ، فمن كان له منهم

عهد عند الرسول ﷺ فهو قاضيه له . وقد سرى قرار عمر بإخراج اليهود على يهود خيبر وفدك فقط، و لم يخرج يهود تيماء ووادى القرى لأنهما داخلتان فى أرض الشام ، وكان عمر يرى أن ما دون وادى القرى إلى المدينة حجاز ، وأن ما وراء ذلك من الشام(٩٠) .

إعادة تقسيم خيبر فى عهد الخليفة عمر :

عندما اتخذ الخليفة عمر قراره بإخراج اليهود من خيبر ، كان لابد له من إعادة تقسيم الأنصبة فيها على أساس الاتفاق الذى عقده الرسول ﷺ مع اليهود هناك ، حيث أنه بخروج اليهود يصبح هذا الاتفاق لاغيًا وتنتهى بذلك مسألة المناصفة التى كان اليهود بمقتضاها يحصلون على نصف إنتاج خيبر من المحاصيل الزراعية . فخرج عمر إلى خيبر مصطحبًا معه أربعة قسَّام (أى الأشخاص الذين سيتولون التقسيم) وهم فروة بن عمرو البياضى ، وحباب بن صخر السلمى ، أبو الهيثم بن التيهان ، وزيد بن ثابت. وفى رواية أخرى أن الخليفة عمرصحب معه رجلين من القسام هما جبار بن صخر وزيد بن ثابت ، وهما قاسما المدينة وحاسباها(٩١).

وقد جاء تقسيم عمر متفقًا مع تقسيم الرسول ﷺ ، فجزأ أراضى الشق والنطاة على ثمانية عشر سهمًا ، ثلاثة عشر سهمًا منها فى الشق ، وخمسة أسهم فى النطاة ، وسمى رؤساء هذه الأسهم فجاءت على النحو الذى ذكرنا من قبل .

أما بالنسبة لكتيبة ، وهى خمس الرسول ﷺ ، فيقال إن الخليفة عمر خير أزواج النبى ﷺ فى طعمهن التى أطمعنهن الرسول ﷺ فى الكتيبة ، إن أحببن أن يقطع لهن من الأرض والماء طعمهن ، أو يمضى لهن الوسوق (أى نصيبهن من المحصول) وتكون مضمونة لهن ، فكانت عائشة وحفصة رضى الله عنهما ممن اختار الأرض والماء ، وكان سائرهن أخذن الوسوق مضمونة (٩٢) . ويظهر مما

روى عن السيدة عائشة أن من اختارت الأرض والماء كان اختيارها موفقًا أكثر ممن اخترن الطعم ، إذا يبدو أن مروان بن الحكم ، عندما أصبح واليًا على المدينة من قبل معاوية بن أبى سفيان ، لم يلتزم إلتزامًا تامًا بحق أصحاب الطعم ، فكان مرة يعطيهم ومرة ينقصهم ومرة لا يعطيهم شيئًا .(٩٣)

وهناك رواية أخرى تقول إن عمر خير الناس كلهم فمن شاء أخذ الطعمة كيلاً ومن شاء أخذ الماء والتراب ، كما أنه أذن لمن شاء أن يبيع نصيبه . وقد قام البعض بالفعل ببيع نصيبه ، ومن هؤلاء الأشعريون الذين باعوا نصيبهم ، وهو مائة وسق ، من عثمان بن عفان بخمسة آلاف دينار . كما باع الرهاويون نصيبهم من معاوية بن أبى سفيان بمثل ذلك(٩٤) ولكن فى الغالب أن البيع لعثمان ومعاوية تم أثناء خلافة كل منهما ، وبذلك يوحى الثمن الذى بيع به مائة وسق ، لأنه مهما عل السعر فإنه لن يبلغ هذا الحد فى خلافة عمر بن الخطاب .

إعادة تقسيم وادى القرى :

وبعد أن فرغ الخليفة عمر من خيبر توجه ومعه القسام الأربعة السابق ذكرهم إلى وادى القرى ، فقسموها على أعداد السهام . والحقيقة أن ما جاء فى المصادر عن وادى القرى والكيفية التى تعامل بها الرسول ﷺ مع أهله مقتضب جدًا وليس واضحًا تمامًا . ففى الوقت الذى ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ عندما فرغ من خيبر انصرف إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم انصرف راجعًا المدينة دون أن يشير إلى أن الرسول ﷺ فتح وادى القرى أو اتفق مع أهله على العمل بالأرض نظير جزء من محصولها ، نجد الواقدى يقول إن الرسول ﷺ فتح وادى القرى عنوة فغنمة الله أموالهم وأثاثًا ومتاعًا كثيرًا ، فقسم الرسول ﷺ الغنائم بين أصحابه خلال الأيام الأربعة التى أقامتها بوادى القرى . أما النخل والأرض فتركها بأيدى اليهود وعاملهم عليها.(٩٥)

ومهما يكن من أمر فإن رواية الواقدى لا تعطينا تفصيلاً عن هـذا الاتفـاق، هل كان مثلاً بالمناصفة مثلما كان مع يهـود خيـبر ، أم كـان شـبيهًا بالاتفـاق مـع يهود فدك ، أم أنه غير ذلك . وماذا عن نصيب المسلمين فى هذا الاتفاق ؟ هل تم توزيعه على المقاتلة مثلما حدث فى خيبر ؟ وهل تم إخراج الخمس من ذلك ؟ هذه كلها أسئلة لا تجد لها إجابة ، وقد انعكس عدم الوضوح هذا على التقسيم الـذى أجراه الخيلفة عمر فيما بعد فى وادى القرى. فهنا نجد الحديث عن تسمية جديدة، فبدلاً عن طعمة ورد لفظ " خطر " الذى عرفه الواقدى بأنه يعني السهم . أما ابـن هشام فقد ذكر أيضًا هذه التقسيمات ، مع العلم بأنـه لم يشـر إليهـا مـن قبـل فـى حديثه عن مسير الرسول ﷺ إلى وادى القرى ، أما الخطـر فقـد فسـره ابـن هشـام بأنه النصيب.(٩٦)

أضف إلى ذلك أنه مما يزيد فى الغموض أن هـذه التقسيمات شملـت أفـرادًا بعضهم كان له نصيب فى خيبر والبعض الآخر لم يرد لـه ذكـر فـى قائمـة أسـهم خيبر . وكان عدد هذه الأخطار (إن جازلنا أن نجمعهـا هكـذا) ثمانيـة وعشـرين خطرًا ، وزعت على ثلاث وثلاثين شخصًا ، حيث نال بعضهم نصف خطر بينمـا اشترك البعض ، كل اثنين منهم فى خطر .

الخاتمـــة :

كانت غزوة خيبر خاتمة لسلسلة من المعارك التى خاضتهـا الأمـة الإسـلامية ضد يهود الحجاز ، بدءًا بيهود المدينة (بنى قينقاع وبنى النضير ، وبنـى قريظـة) وانتهاء بيهود خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى . فبعد أن أخرج الرسول ﷺ يهود بنى النضير من المدينة ، توجه معظمهم ، وعلى رأسهم زعماؤهم ، إلى خيبر فـدان لهم يهودها على كثرة أعدادهـم وقلـة بنـى النضـير ، فـأصبحت خيـبر ، بسـكانها وحصونها وأراضيها الخصبة ومزراعهـا ، تشـكل قـوة حربيـة واقتصاديـة واضحـة المعالم . وليت اليهود فى خيـبر انصرفـوا لمـا فيـه مصلحتهـم ومصلحـة جـيرانهم ،

وبخاصة الأمة الإسلامية ، ولكنهم بدأوا يستغلون أموالهم فى محاربة الإسلام والمسلمين ، فكان تأليبهم للأحزاب فى غزوة الخندق .

وقد أدرك الرسول ﷺ مدى الخطر الذى أصبح يشكله يهود خيبر على الأمة الإسلامية الناشئة ، فكان هذا من أهم الأسباب المؤدية لغزوهم .

وكان توقيت غزوة خيبر أيضًا مناسبًا جدًا ، حيث أن الرسول ﷺ قبل ذلك بقليل كان قد عقد اتفاقية الحديبية مع قريش والتى اتفق فيها على هدنة بين الجانبين لمدة عشر سنوات . وبذلك أصبحت قريش مقيدة بتلك الاتفاقية ولا تستطيع أن تمد يد العون لحلفائها من اليهود .

ومن الأسباب لغزوة خيبر أيضًا أن الله وعد رسوله خيبر أن يغنمها له لتكون مكافأة للملسمين الذين خرجوا مع الرسول ﷺ إلى الحديبية وبايعوه بيعة الرضوان . وإننا لنجد فى انتصار الرسول ﷺ والمسلمين على اليهود فى خيبر تصديقًا لهذا الوعد . فإذا حكمنا العقل المنطق دون غيرهما وتساءلنا : كيف يمكن لنا أن نفسر انتصار ألف وأربعمائة رجل على عشرة آلاف رجل من اليهود مدججين بالسلاح فى حصون على ذرى الجبال يتوفر فيها الماء والطعام ، بخلاف أنه نصر من الله ؟هذا هو تفسيرنا من وجهة نظر باحث مسلم ، فلينظر من يرى غير هذا ليجد ما يبرر به هزيمة اليهود فى خيبر وهم بهذه الكثرة والقوة .

أما رأينا حول هزيمة اليهود فيتمثل أيضًا فيما وصفهم به القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ .(٩٧)

والحقيقة أن ما جاء فى الآية الكريمة ينطبق تمامًا على وضع وأحوال يهود خيبر . فبالإضافة إلى حصونهم واحتمائهم بها فهناك الكثير من قرائن الأحوال التى نستخلصها من أخبار غزوة خيبر ما يؤكد لنا ذلك :

١ - أولها أنه على الرغم من إظهار يهود المدينة تعاطفهم مع يهود خيبر إلا أن هناك عشرة من اليهود اشتركوا مع الرسولﷺ في غزوة خيبر إلى جانب المسلمين ، مما يؤكد أن هناك فئة منهم لا تؤيد يهود خيبر .

٢ - أما يهود خيبر أنفسهم ، فرغم مظاهر القوى والحدة التى بدت منهم إلا أنهم كانوا من بداية أمرهم مختلفين ، فبعضهم كان يرى الخروج لمواجهة المسلمين بينما رأى البعض الآخر البقاء داخل حصونهم .

٣ - عندما وصل الرسولﷺ إلى جهات خيبر خرج رجل من اليهود يدعى سماك وجاء إلى معسكر المسلمين وطلب من الرسولﷺ أن يأمنه ، ففعل ، فأخبره بعورات اليهود وخوفهم منه ، وأطلعه على المكان الذى خبأوا فيه بعض سلاحهم .كما نقل إليه خبر انسحاب بنى غطفان من خيبر وتركهم مساعدة حلفائهم من اليهود . وعندما فتح الرسولﷺ الحصن الذى فيه الذرية رد لهذا اليهودى زوجته ، وتدعى نفيلة .

٤ - رجل آخر من اليهود يدعى غزَّال خرج للرسولﷺ وبعد أن أمنه على حياته كشف له ثغرة فى حصن الزبير مما مكان المسلمين من فتحه .

٥ - عندما تداعت معظم الحصون و لم يبق إلا حصن آل أبى الحقيق وأيقن كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق بالهكلة ، أرسل رجلاً إلى الرسول ﷺ ليصالحه ، فوافق الرسول ﷺ على ذلك ونزل إليه كنانة ، فكان من شروط صلحه ألا يخبئ عنه شيئًا خاصة فيما يتعلق بأموالهم وكنوزهم ، فادعى كنانة أنهم أنفقوها جميعًا فى حربهم ، فأشهد الرسول ﷺ جماعة من الصحابة وعشرة من اليهود على ذلك . ويقال إن أحد اليهود قام فقال لكنانة : إذا كان عندك ما يطلب منك محمد أو تعلم فأعلمه فإنك تأمن على دمك ، وإلا فوالله ليظهرن عليه ، قد أطلع على غير ذلك بما لم نعلمه ، فزبرة .(أى زجرة) ابن أبى الحقيق فتنحى اليهود فقعد .

٦ - وكانت المفاجأة أن الذى كشف للرسول ﷺ المكان الذى أخفى فيه كنانة الكنز هو ابن عمه ثعلبة بن سلام بن أبى الحقيق .

٧ - شئ آخر يشير إلى أن يهود خيبر لم يكونوا قلبًا وقالبًا خلف زعمائهم ، وهو أنه بمجرد أن انتهت المعارك وبدأت حركة بيع وشراء الغنائم نجد اليهود الذين أمنهم الرسول ﷺ يشتركون مع غيرهم من المسلمين فى بيع وشراء غنائم خيبر ، وكأنها لم تكن لهم ولقادتهم .

من كل ذلك نستطيع أن نستشف أن يهود خيبر لم يكونوا على وفاق مع زعمائهم من بنى أبى الحقيق وبخاصة كنانة ، ولعلهم كانوا يحقدون عليهم استئثارهم بالثروة ويحسدونهم على مكانتهم السياسية والاجتماعية . ولعل كنانة أيضًا لم يكن بالزعيم المحبوب ، وليس أدل على ذلك من موقفه مع زوجته ؛ فيقال إنه تزوج صفية بنت حيى بن أخطب وأعرس بها قبل قدوم الرسول ﷺ بأيام وقد حكت هى أنها رأت فى النوم كأن قمرًا أقبل من يثرب يسير حتى وقع فى حجرها فلما ذكرت ذلك لكنانة لطم عينها حتى أخضرت وقال لها : ما هذا إنك تمنين مَلك الحجاز محمدا(٨٩) .

والمعروف أن الرسول ﷺ استصفى صفية لنفسه وتزوجها فأصبحت من أمهات المؤمنين .

* * *

أما ما نستخلصه من نتائج عن الترتيبات المالية التى تمت نتيجة لغزوة خيبر فيمكن أن نصوغه على النحو التالى :

- كانت أراضى خيبر أول أرض يحصل عليها المسلمون خارج حدود المدينة لقد هيأت أراضى خيبر الزراعية الخصبة ومزارع نخيلها مصدرًا غذائيًا هامًا

للمسلمين فى هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية بما تنتجه من تمر ومحاصيل زراعية .

- نظرًا لانشغال المسلمين بالجهاد ولعدم توفر العمال عند المسلمين فى ذلك الوقت ، فإن الرسولﷺ وافق على أن يترك هذه الأراضى لليهود يزرعونها بالمناصفة ، أى أن يكون نصف إنتاجها للمسلمين ونصفه لليهود .

- من الواضح أن تقسيم الرسولﷺ لخيبر كان يعنى تقسيم الإنتاج الزراعى وليس الأرض لأن التقسيم الذى أورده المؤرخون يتحدث عن أنصبة بالمكيال وليس عن مساحة أرض .

- استمر العمل بالترتيب الذى وضعه الرسولﷺ حتى نهاية خلافة أبى بكر الصديق وصدر خلافة عمر بن الخطاب . وعندما عزم الخليفة عمر على إخراج اليهود قام بإعادة التقسيم . ويبدو أن عمر هذه المرة قسم الأرض لأنه اصطحب معه إلى خيبر قسَّام المدينة وحاسبيها وهم أشخاص مختصون فى هذه المسائل .

- هناك ما يشير إلى أن الخليفة عمر قسم الأرض بين مستحقيها وورثتهم ، لأنه خير نساء الرسولﷺ بين الطعمة مضمونة وبين الأرض ، فاختار البعض منهن الطعمة ، والبعض الآخر اختار الأرض .

- عندما فتح المسلمون العراق والشام ومصر أراد الذين اشتركوا فى فتحها من الخليفة عمر بن الخطاب أن يقوم بتقسيم هذه الأراضى الزراعية عليهم كما قسم الرسولﷺ خيبر ، حسب زعمهم . غير أن الخليفة عمر لم يكن موافقًا على هذا الطلب ، وكان يرى أن تترك هذه الأراضى فى أيدى الفلاحين فى البلاد التى فتحها المسلمون يزرعونها ويؤدون عنها الخراج . وقد وافقه على

رأيه ذلك عدد من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار مما قوى من موقفه وقرر عدم تقسيمها .(٩٩)

وهكذا فإن الترتيب الذى وضعه الرسولﷺ فى خيبر أصبح نموذجا يحتذى فى كيفية التعامل مع أراضى البلاد التى فتحها المسلمون فيما بعد ، لأن الرسولﷺ فى واقع الأمر لم يقسم أرض خيبر وإنما قسم إنتاجها . وكان استعماله لليهود فيها بالمنصافة إجراءً مؤقتا زال بزوال أسبابه ، فجاء الخليفة عمر فأخرج اليهود منها ، وكان عمر فى الحقيقة هو الذى قسم أراضى خيبر وحدد حدودها . ولعله أدرك أن هذا الإجراء لا يمكن أن يتبع فى الأراضى الشاسعة التى امتلكها المسلمون فى البلاد المفتوحة ، لأنه لو قسمها عليهم لما وجد من جاء بعدهم شيئًا، فوفق الله عمر لهذا الرأى السديد .

ونختم حديثنا بتعليق للأستاذ الريس حول هذا الموضوع حيث يقول : "كان هذا قرارًا بالغ الخطورة ، فيه أصبحت الأراضى التى فتحها المسلمون ، وكذلك ما يمكن أن يفتحوه بعد ، أصبحت فيئًا موقوفًا ، أى ملكًا عامًا للأمة الإسلامية كوحدة بجميع أجيالها بدل أن تكون ملكا متقاسمًا بين الأفراد يتداولونه ويرثه الأبناء عن الآباء " (١٠٠) .

الهوامــش

(١) الواقدى ، محمد بن عمر : " **كتاب المغازى** " ، ٣ أجزاء ، تحقيق مارسدن جونز ، أكسفورد (١٩٦٦) ، الجزء ٢ ، ص ص٦٣٢ - ٧٢١ . ابن هشـام ، أبو محمد عبـد الملك : "**السـيرة النبوية** " ، الطبعة الثانيـة ، ٤ أجـزاء ، بـيروت ، دار الكتـاب العربى (١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م) ، الجزء ٣، ص ص ٢٧٥ - ٣٠٦ . ابن سعد ، أبو عبد الله محمـد : " **كتاب الطبقات الكبرى** " ٨ أجزاء ، بيروت ، دار صادر (١٩٦٠) الجزء ٢ ص ص ١٠٦ - ١١٧ . ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا اسماعيل : " **السيرة النبوية** " ٤ أجزاء ، تحقيـق مصطفى عبد الواحـد ، القاهـرة ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشـركاه (١٣٨٤ هـ/١٩٦٤) الجـزء ٣ ص ص ٣٤٤ - ٤١٦ .

الحقيقة أن ما كتبه الواقدى عن غزوة خيـبر لا يدانيـه فيـه أحـد ممـن كتـب فـى السـير والمغازى وإن الإنسان ليقف بكل فخر وإعجاب أمام مـا أورده هـذا المؤرخ الكبـير مـن مـادة غزيرة وتفاصيل دقيقة عن هذه الغزوة وغيرها من الغزوات .

(٢) خيبر : وهى ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام . يطلق هـذا الاسـم على الولاية، وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير . أما لفظ خيبر فهـو بلسان اليهود الحصن ، ولكون هذه البقعة تشتمل على هـذه الحصـون سميت خيـابر ، وخيـابر جمع خيبر ، كأنها جمعت بما حولها . (انظر : ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبـد الله : " **معجم البلدان** "، ٥ أجزاء ، بيروت ، دار صادر (١٣٩٧هـ/١٩٧٧) ، الجزء ٢ ، ص٤٠٩.

(٣) فدك : قريـة بالحجاز بينهـا وبين المدينة يومان وقيـل ثلاثـة (يـاقوت : معجـم ، الجزء ٤، ص ٢٣٨) .

تيماء : بليد فى أطـراف الشـام ، بين الشـام ووادى القـرى على طريـق حـاج الشـام ودمشق (ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص٦٧) .

وادى القرى : وهو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة (ياقوت :معجم ، الجـزء ٥ ص٣٤٥).

(٤) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٢ ، ص ص ١٤٣ - ١٤٦ . أورد نص الصحيفة أيضًا، مع الشرح والتعليق : أبو عبيد ، القاسم بن سلام : " **كتاب الأموال** " ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، (١٣٨٨ - ١٩٦٨) ، ص ص ٩٠ - ٢٢٩٧ ، وكذلك أوردها ابن كثير : السيرة النبوية ، الجزء ٢ ، ص ص ٣٢٠ - ٢٣ .

(٥) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٢ ، ص ص ١٤٤ - ١٤٥ .

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا اسماعيل : " **البداية والنهاية** " ، الطبعة الأولى ، ٢٤ جزءًا ، بيروت ، مكتبة المعارف ، الرياض ، مكتبة النصر ، (١٩٦٦) الجزء ٤ ، ص٧٦. ابن كثير : السيرة النبوية : الجزء ٣ ، ص ١٤٧ .

(٦) انظر ابن كثير : السيرة النبوية ، الجزء ٣ ، ص ٣٧١ .

(٧) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٦٦ - ١٦٧ . ابن سعد : الطبقات ، الجزء ٢ ص ص ٦٥ - ٦٦ . ابن كثير : البداية والنهاية ، الجزء ٤ ، ص ٩٤ . كذلك ابن كثير: السيرة النبوية ، الجزء ٣ ، ص ١٨١ -٨٢ .

(٨) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٦٧ - ١٧١ - ٧٢ .

(٩) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٧٢ - ٧٣ .

(١٠) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٨٦ ، ١٩٠ - ٩١ .

(١١) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٢٠٣ .

(١٢) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ . ابن هشام السيرة، الجزء ٣ ، ص٢٧٩.

(١٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٧ .

(١٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٧ . ابن هشام السيرة،الجزء ٣ . ص٢٧٨.

(١٥) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ . الودك : الدسم معروف ، وقيل دسم اللحم ... ودهنه الذى يستخرج منه (ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : " **لسان العرب** "، ١٥ جزءًا/بيروت ، دار صادر (١٣٨٨ / ١٩٦٨) ، الجزء ١٠ ، ص ٥٠٩.

(١٦) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ .

(١٧) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ .

(١٨) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٣٤ ، ٦٣٧ .

(١٩) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٤١ .

(٢٠) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٧ .

(٢١) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٤١ .

(٢٢) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٤٠ .

(٢٣) انظر الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٣٧ - ٣٨ .

(٢٤) الواقدى: المغازى، الجزء ، ص ص٦٤٢-٤٣ ابن هشام: السيرة ، الجزء٣، ص٢٧٧

(٢٥) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص١٧٤ - ٧٥

غطفان بن سعد : بطن من حرام بن جذام ، من كهلان من القحطانية ، وهم بنو غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام " انظر كحالة ، عمر رضا : " **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة** " ، ٣ أجزاء ، بيروت ، دار للملايين ، (١٣٨٨ -١٩٦٨) ، الجزء٣، ص٨٨٩ .

(٢٦) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٤٠ ، ٦٤٢.

(٢٧) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٣٩ - ٦٥٠.

(٢٨) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٥٠ - ٥١ .

النطاة : قيل : هو اسم لأرض خيبر ، وقال الزمخشرى : نطاة حصن بخيبر ، وقيل عين بها تسقى بعض نخيل قراها وهى وبئة (انظر ياقوت : معجم ، الجزء ٥، ص ٢٩١) .

(٢٩) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٣٠) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٤٦ ، ٦٥١ . وكان الذى حمل خبر خروج غطفان ورجوعهم إلى بلادهم للرسولﷺ أحد اليهود .

(٣١) حيفاء : موضع بالمدينة ، منه أجرى النبىﷺ الخيل فى المسابقة (ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٣٣٢) .

(٣٢) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٦٥ .

(٣٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٧٥ - ٧٦ وذو الرقيبة جبل بخيبر .

(٣٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٧٠١ ٢ . انظر الهامش رقم (٢) لشرح خيابر .

(٣٥) الثنية البيضاء : عقبة قرب مكة تهبطك إلى فخ وأنت مقبل من المدينة تريد مكة، أسفل مكة من قبل ذى طول (ياقوت : معجم الجزء ٢ ، ص ٨٥).

(٣٦) يريدون بذلك ، لعنهم الله ، الرسول ﷺ .

(٣٧) اللبطة : أن يضرب البعير بيديه ، ولبطه البعير يلبطه لبطا : خبطه واللبط باليد كالخبط بالرجل (ابن منطور : لسان ، الجزء ٧ ، ص ٣٨٨) .

(٣٨) المنة : بالضم ، القوة منظور : لسان ، الجزء ١٣ ، ص ٤١٥) .

(٣٩) انتثل : أى استخرج (ما فيها من أموال) (ابن منظور : لسان ، الجزء١١ ، ص٦٤٥) .

(٤٠) بطانية ، محمد ضيف الله : " **فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الجزء الثانى : الحياة الاقتصادية فى صدر الإسلام** " عمان ، الأردن الفرقان ، (١٤٠٧/١٩٨٧) ص٥٩. العمرى ، اكرم ضياء: بالمدينة المنورة المجلس العلمى (١٤٠٣ / ١٩٨٣) ، ص١٧١

(٤١) الشق : من حصون خيبر (ياقوت ، الجزء ٣ ، ص ٣٥٥) .

الكتيبة : وهو حصن من حصون خيبر (ياقوت: معجم، الجزء ٤ ،ص٤٣٧)

وادى السرير : ووادى خاص : (وفق رواية ابن إسحاق) وكان واديًا خيبر، وادى السرير ووادى خاص ، وهما اللذان قسمت عليهما خيبر ، ووادى الكتيبة الذى خرج فى خمس الله ورسوله وذوى القربى وغيرهم (ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٣٣٨).

(٤٢) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٥١ .

(٤٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٥٦ - ٥٩ ، ٦٦٢ - ٦٤ .

(٤٤) العكم : عكم الثياب الذى تشد به العكمة . يقال : عكمت الثياب إذا شدت بعضها إلى بعض (ابن منظور : لسان ، الجزء ١٢ ، ص٤١٥) .

والبز : الثياب ، وقيل ضرب من الثياب ، وقيل البز من الثياب أمتعة البزاز ، وقيل البز متاع البيت من الثياب خاصة (ابن منظور : لسان ، الجزء ٥ ، ص ٣١٢) .

(٤٥) الدبابة : آلة من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه، وتقيهم ما يرمون به من فوقهـم ، وسميت بذلك لأنها تدفع فتـدب (ابن منظور : لسان، الجزء ١ ، ص ٣٧١) . أما المنجنيق فهو ما يعرف بالنار الإغريقيـة ، وهـى عبارة عن حجارة مشتعلة تقذف من على بعد .

(٤٦) الواقدى : المغازى، الجزء ٢ ، ص٦٦٥ .

(٤٧) الواقدى : المغازى، الجزء ٢ ، ص٦٦٦ - ٦٧ .

(٤٨) الواقدى : المغازى، الجزء ٢ ، ص٦٦٩ .

(٤٩) الواقدى : المغازى، الجزء ٢ ، ص٦٦٩ .

(٥٠) فى الحديث أن الرسولﷺ صالح أهل خيـبر علـى الصفـراء والبيضـاء والحلقـة ، فالصفراء : الذهب ، والبيضاء : الفضة ، والحلقة : الدرع ، أما الكراع فقد تعنى البقر والغنـم، وقد تعنى الخيل والسلاح ، وقد تعنى السلاح ، (انظر : ابن منظـور : الجـزء ٤ ، ص ٤٦٠ ن والجزء ٨ ، ص ٣٠٧) .

(٥١) الواقـدى : المغـازى، الجـزء ٢ ، ص ٦٧٦ . ابـن هشـام السـيرة ، الجـزء ٣ ، ص٢٨٦.

(٥٢) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٧٣ .

الدملج والدملوج : المعضد من الحلى (ابـن منظـور : لسـان ، الجـزء ٢ ن ص ٢٧٦) الفتخة والفتخة : خاتم يكون فى اليد والرجل بفص وغير رفص ، وقيل هـى الخـاتم أيا كـان ، وقيل هى حلقة تلبس فى الأصبـع كالخـاتم ، وكـانت نسـاء الجاهليـة يتخذنهـا فـى عشـرهن ، والجمع فتخ وفتوخ وفتخات ، وقيل الفتخةحلقة من فضة لا فص فيها ، فـإذا كـان فيهـا فـص فهى الخاتم (ابن منظور : لسان ، الجزء ٣ ، ص ٤٠) .

(٥٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٠ .

(٥٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٤ .

(٥٥) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٩ . هناك رواية أوردها الواقدى تقول أن عدد الفرسان كان ثلثمائة فارس .

(٥٦) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٨-٤٣ . ابن هشام : السيرة ، الجزء٣، ص٢٩٨ . حول هذا الموضوع كتب أبو سيف (يعقوب بن إبراهيم : " **كتاب الخراج** " الطبعة الخامسة ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها (١٣٩٦) ، ص ٢٠) قال : " وكان الفقيه المقدم أبو حنيفة يقول : للرجل سهم وللفرس سهم ، وقال : لا أفضل بهيمة على رجل مسلم : " وما جاء من الأحاديث والآثار أن للفرس سهمين وللرجل سهم أكثر من ذلك وأوثق والعامة عليه ، ليس هذا على وجه التفضيل ... إنما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر وليرغب الناس فى ارتباط الخيل فى سبيل الله . ألا ترى أن سهم الفرس إنما يرد على صاحب الفرس فلا يكون للفرس دونه " ثم يضيف أبو سيف قائلاً : " فى الرجل يكون فى الغزو ومعه الأفراس ، قال : " لا يقسم له من الغنيمة لأكثر من فرسين " انظر أيضًا : القرشى ، يحى بن آدم : " **كتاب الخراج** " صححه وشرحه ووضع فهارسه أحمد محمد شاكر ، الطبعة الثانية ، المطبعة السلفية ومكتبتها (١٣٨٤ هـ) ص ص ١٨ - ١٩) وأيضًا : البخارى، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم : " **صحيح البخارى** " ثمانية أجزاء ، استنانبول ، تركيا ، الكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، (دون تاريخ) ، الجزء ٥ ، ص٧٩ .

(٥٧) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٤ .

(٥٨) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٤-٤٣ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣، ص ٢٨٦ . الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير : " **تاريخ الرسل والملوك** " تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، دار المعارف (دون تاريخ) ، الجزء ٣ ، ص١٩.

(٥٩) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٥ - ٨٧ . وفى راية أخرى للواقدين (ص٨٧) ص١٧ .

(٦٠) الأوضاح : حلى من الدراهم الصحاح (ابن منظور: لسان ، الجزء ٢، ص ٦٣٥).

(٦١) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٨٦ - ٨٧ ، ٦٨٨ .

(٦٣) هناك بعض الخلط وعدم الوضوح فيما أورده الواقدى عن هذه الأسهم ، فنجده فى مكان من كتابه (الجزء ٢ ، ص ٦٨٩ - ٩٠) يذكر أن الرسول ﷺ جعل النطاة والشق ثمانية عشر سهمًا فوضى (أى بدون تحديد) وكان كل سهم يضم مائة رجل وله رأس . ولكننا نجده فى نفس المكان يقول : " فكانت سهمان المسلمين التى أسلمها رسول ﷺ فى

النطاة أو فى الشق ثلاثة أسهم فوضى لم تعرف على عهد رسول الله ﷺ ولم تحج ولم تقسم " وليس واضحًا تمامًا العلاقة بين الثمانية عشر سهمًا التى ذكرها آنفًا وبين الثلاثة أسهم فى كل من النطاة والشق . أضف إلى ذلك إنه عندما عدد الأسهم وبعض رؤسائها (الجزء ٢، ص ٦٨٩ - ٩٠) ذكر أربعة رؤساء سهمان . بينما نجده فى مكان آخر (ص ص ٨١٧ - ١٩) يعدد مرة أخرى الأسهم ورؤساءها ، فنجد أن عددها هنا ثمانية عشر سهمًا لسلمة وسهم لعبيد السهام ، الذى لم يذكره فى المرة الأولى. ولعل تفسير ذلك أن عبيد هذا قد قام بشراء أسهم من كانوا يشتركون معه فى السهم الكبير بحيث أصبح كله باسمه ، وقد سمى عبيد السهام لكثرة ما اشترى منها (الواقدى ، الجزء ٢ ، ص ٧١٩) . أضف إلى هذا أن هناك بعض الخلط فى اسم الرجل اليهودى الذى كان له سهم فنجده مرة باسم عبيدة (ص ٦٩٠) ومرة أخرى باسم عبيد (ص٧١٩).

(٦٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٧١٨ - ١٩ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣، ص ص٢٩٧ - ٩٩ .

(٦٥) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٠.

(٦٦) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩١ - ٩٢ .

(٦٧) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩٢ - ٩٣ .

(٦٨) قال أبو سيف (الخراج ، ص ٥٤) أن الرسول ﷺ دفع خيبر إلى اليهود مساقاة بالنصف ، وكان يبعث إليهم عبد الله بن رواحة فيخرص عليهم ثم يخيرهم أى النصفين شاءوا أو يقول لهم : اخرصوا أنتم وخيرونى . انظر كذلك : يحى بن آدم : الخراج ، ص٢١ وأبو عبيد : الأموال ، ص ص ٧٩ - ٨٠ ، والبخارى : صحيح ، الجزء ٥ ، ص ٨٤ .

(٦٩) أصل الخرص : التظنى فيما لا تستيقنه ، ومنه خرص النخل والكرم إذا حرزت التمر لأن الحرز إنما هو تقدير بظن لا إحاطة ، والاسم الخرص بالكسر ، والخرص حرز ما على النخل من الرطب تمرًا (ابن منظور : لسان الجزء ٧ ، ص ٢١) . أما الوسق والوسق : مكيلة معلومة : وقيل هو حمل بعير وهو ستون صاعًا بصاع النبى ﷺ وهو خمسة أرطال وثلث (ابن

منظور : لسان ، الجزء ١٠ ، ص ٣٧٨) . انظر كذلك زلوم ، عبد القديم: " **الأموال في دولة الخلافة** " الطبعة الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، (١٩٨٣-١٤٠٣ هـ) ، ص ٦٣.

(٧٠) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢، ص ص٦٩١ - ٩٢ . ابن هشام : السيرة ، الجزء٣، ص٣٠٢ ذكر ابن هشام أن جبار بن صخر هو الذى خرص عليهم بعد مقتل ابن رواحة.

(٧١) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩٣ - ٩٥ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠ . ابن كثير : البداية ، الجزء ٤ ، ص ٢٠٠ .

(٧٢) انظر الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٥ . فى الغالب المقصود هنا " بجاد مائة وسق " أنه اعطاهم أو جاد عليهم بكذا .

أما الأشعر فهم من قبائل كهلان من القحطانية ... قدموا على النبىﷺ فقال لهم : "نعم الحى ، والأشعريون لا يفرون فى قتال ولا يغلون ، هم منى وأنا منهم . وكانوا أول منتقض بعد انتقال النبىﷺ سنة ١١هـ بتهامة فقاتلهم أبو بكر فانهزموا (كحالة : معجم ، الجزء ١ ، ص ص ٣٠ - ٣١) . أما الداريون فهم : الدار بن هانئ ، بطن من لخم من القحطانية وهو بنو الداربن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم (كحالة : معجم ، الجزء ١ ، ص ٣٧٠) ، أما الرهاويون فهم رهاء بن منبه ، بطن من مذحج بن كهلان من القحطانية . (كحالة : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٤٤٨) .

(٧٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٧.

(٧٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩٧ - ٩٨.

(٧٥) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٨.

(٧٦) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٩.

(٧٧) لعل من الأسباب لذلك الديوان الذى وضعه الخليفة عمر بن الخطاب وأصبحت الأموال بمقتضاه توزع على جميع المسلمين فعم الخير الكل .

حول وضع الخليفة عمر لديوان العطاء وتوزيع الأموال انظر : ابن سعد : الطبقات ، الجزء ٣ ، ص ص ٢٩٦ - ٣٤٠ .

(٧٨) القرآن الكريم ، سورة الأنفال ، الآية ٤١ ، وقد ذكر ابن هشام (السيرة ، الجزء ٢ ، ص ٢٤٧) أن العمل بالخمس بدأ عقب سرية نخلة التى كانت فى السنة الثانية للهجرة قبيل معركة بدر الكبرى . ولكن من الواضح أن آية الخمس المشار إليها نزلت بعد غزوة بدر.

(٧٩) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩٨ - ٩٩.

(٨٠) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٠٧ - ٧ . ابن هشام : (الجزء ٣ ، ص ٢٨٦ وص٣٠١) فى خبر فدك أنه لما فرغ الرسولﷺ من خيبر قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر ، فبثو إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بالطائف ، أو بعد ما قدم المدينة ، فقبل ذلك منهم . انظر كذلك الطبرى : تاريخ ، الجزء ٣ ، ص ٢٠ . أما أبو عبيد (الأموال ، ص ١٦) فقد ذكر أن أهل فدك قد أرسلوا إلى رسولﷺ فبايعوه على أن لهم رقابهم ونصف أراضيهم ونخلهم ولرسول اللهﷺ شطر أرضهم ونخلهم .

(٨١) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٧١٠ - ١١ . ابن هشام : (السيرة ، الجزء ٣ ، ص٢٨٨) أن الرسولﷺ لما فرغ من خيبر انصرف إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم انصرف راجعًا إلى المدينة .

(٨٢) هو محيصة بن مسعود بعثه الرسولﷺ فى أمر الصلح ليهود فدك .

(٨٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص٧١٣ .

(٨٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧١٢ . تقول ثلاث روايات أوردها ابن هشام (السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٣٠٣) أن الرسولﷺ هو الذى دفع دية هذا القتيل من عنده.

(٨٥) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧١٦ . من جهة أخرى ابن هشام (السيرة الجزء ٣ ، ص ٣٠٥) ذكر ما يدعو للاعتقاد أن الخليفة عمر بن الخطاب اتخذ قراره بإخراج اليهود بعد حادثة ابنه عبد الله فذكر أن عمر قال ذلك للصحابة ، وأنه لا يشك أن اليهود هم الذين فعلوا ذلك ، وأنه مخرجهم ، فمن كان له مال بخيبر فيلحق به . انظر: الهمشرى ، مصطفى : " النظام الاقتصادى فى الإسلام. من عهد بعثة الرسولﷺ إلى نهاية عصر بنى أمية"، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار العلوم للطباعة والنشر (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥) ، ص١٤٥ .

(٨٦) العلج : الرجل من كفار العجم ، والعلج الكافر ، ويقال للرجل القوى الضخم من الكفار علج (ابن منظور : لسان ، الجزء ٢ ص ٣٢٦) .

(٨٧) ثبار : بالكسر وآخره راء موضع على ستة أميال من خيبر ، وقد روى بالفتح (ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص٧٢) .

(٨٨) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧١٦ .

(٨٩) ابن أنس ، مالك : " الموطأ " الطبعة الأولى ، قدم لها وراجعها ونسقها فاروق سعد ، بيروت ، دار الأفاق الجديدة (١٩٧٩) ص ص ٧٨٠ - ٨١ . الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧١٧ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص٣٠٤ .

أبو داود ، سلميان بن الأشعث السجستانى الأزدى : " سنن أبى داود " ، الطبعة الأولى ، خمسة أجزاء ، حمص ، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع (١٩٦٩/١٣٨٨) الجزء ٣ ، ص ١٥٤ الطبرى : تاريخ ، الجزء ٣ ، ص٢١ .

(٩٠) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧١١ .

(٩١) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٧١٨ - ٢١ هناك اختلاف فى الأسماء فابن هشام (السيرة ، الجزء ٣ ص ٣٠٥) ذكر جبار بن صخر بدلاً عن حباب بن صخر الذى ذكره الواقدى . أما الآخر فقال عنه ابن هشام أنه يزيد بن ثابت بينما ذكره الوقداى باسم زيد بن ثابت . الواقدى ذكر أيضًا أربعة أشخاص بينما ذكر ابن هشام اثنين فقط . أما الرواية الثانية فنجدها تتفق مع رواية ابن هشام فى ذكر اثنين فقط .

(٩٢) يحى بن آدم الخراج ، ص ٣٧ . الواقدى ، المغازى ، الجزء٢ ، ص ٧١٩-٢٠)

(٩٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧٢٠ . يوحى هذا بأن مروان بن الحكم استغل نفوذه عندما كان واليًا على المدينة فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وهناك ما يشهد على ذلك، وهو أن معاوية عندما تولى الخلافة أقطع فدك لمروان فوهبها مروان لابنيه عبد العزيز وعبد الملك (ويبدو أنه فعل هذا نكاية فى آل على بن أبى طالب الذين كانوا يتمتعون بجزء من إنتاج فدك منذ عهد الرسولﷺ ثم جاء عمر بن عبد العزيز فردها إلى آل على بن أبى طالب (ياقوت : معجم ، الجزء ٤ ص٢٤٠) .

(٩٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧٢٠ .

(٩٥) الواقدى: المغازى، الجزء ٢ ، ص ٧١١ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ص٢٨٨

(٩٦) الواقدى : المغازى ، الجزء٢ ، ص٧٢١ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ص ص٣٠٥-٦

(٩٧) القرآن الكريم : سورة الحشر ، الآية : ١٤ .

(٩٨) الواقدى: المغازى ، الجزء٢ ، ص٧٢١ . ابن هشام : السيرة ، الجزء٣ ص ص٢٨٥-٨٦

(٩٩) يقول يحى بن آدم (الخراج ، ص ٢٠) قال بعض الفقهاء : الأرض لا تخمس لأنها فئ وليست بغنيمة لأن الغنيمة لا تتوقف والأرض إن شاء الإمام وقفها وإن شاء قسمها كما يقسم الفئ ، فليس فى الفئ خمس ولكنه لجميع المسلمين ، كما قال الله عز وجل : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (القرآن الكريم : سورة الحشر ، الآية : ٧) انظر كذلك أبو يوسف : الخراج ، ص ص ٢٨ - ٢٩ . أبو عبيد : الأموال ، ص ص ٨١ ، ٨٥ . زلوم : الأموال فى دولة الخلافة ، ص٤٨ .

(١٠٠) الريس ، محمد ضياء الدين : " **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية** " الطبعة الثالثة، مصر ، دار المعارف ، (١٩٦٩) ص ١١٧ .

وصية معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد

– دراسة نقدية تحليلية –

د/ يوسف بن أحمد حوالة *

ترك الخليفة الأموى الأول معاوية بن أبى سفيان ، الذى اتصلت خلافته من سنة إحدى وأربعين للهجرة حتى سنة ستين منها ، وصية مهمة لابنه وولى عهده يزيد ، الذى كان قد جُعِل إليه أمر الخلافة من بعده . والوصية من الأهمية بمحل كبير فى مسيرة الدراسات التاريخية كما يتراءى للباحث . ومن هنا استقر عزمه على إن يخضعها لدراسة تاريخية دقيقة ، راسمًا لنفسه منهجًا يقوم على تقسيم هذه المعالجة التاريخية إلى قسمين اثنين : النقد ثم التحليل .

– النقـــد –

لعل أول ما تقتضيه دواعى الدراسة النقدية وموجباتها ، التأكيد على إن الوصية التى وجَّهها الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لابنه يزيد ، هى وصية سياسية محضة . وليس فيها ما يشير إلى الجوانب الأخرى المعروفة عن الوصايا بشتى مناحيها ، أى الشرعية ، أو الأسرية ، أو الاجتماعية(١) . وثمة أمر ثان من موجبات الدراسة النقدية يفرض نفسه ، هو الأهمية التاريخية التى تكتسيها هذه الوصية السياسية ، فهى بادئ ذى بدء فاتحة هذا النوع من الوصايا التى يتركها الملوك لأبنائهم فى تاريخ الإسلام ، حيث يرسمون خلالها النهج الذى يريدون لأبنائهم انتهاجه ، والسير بمقتضاه . والمعروف إن معاوية بن أبى سفيان ، هو أول ملوك الإسلام(٢) . نقول هذا تقريرًا للحقيقة التاريخية ، ونقول معه كذلك إن علينا الإعتراف بأن ثمة وصايا سياسية عرفتها الدولة الإسلامية فى عهود

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك – كلية التربية – جامعة الملك عبد العزيز المدينة المنورة .

الخلفاء الراشدين . بيد إن الأمر مختلف هنا ، فما نقصده إن وصية معاوية رضى الله عنه ، هى فاتحة هذا النوع من الوصايا ، إنما نعنى به ذلك المتصل بوصايا الملكية الوراثية . ولذلك ترتدى الوصايا عند الحكام الملوك طابعًا أسريًا ، بجانب السمة السياسية لهذه الوصايا . وإلا فالحق إن عصر الراشدين عرف شيئًا من هذه الوصايا التى تركها الخلفاء الراشدون لمن ياتى بعدهم ، سواء نص على هذا الشخص أو لم ينص(٣) . ثم علينا ألا ننسى أخيرًا إن الحكومة الراشدة لها بعض الشبه بالملوكية ، أعنى النظام الملكى ، إذا يلحظ على الخليفة كما يقول عبد الوهاب النجار فى كتابه : " الخلفاء الراشدون "(٤) عند حديثه عن نوع الحكم فى الخلافة الإسلامية (يلحظ على الخليفة فى انتخابه الدوام دون إن يكون ذلك إلى زمن معين يكون معزولاً عن الخلافة بانقضائه)(٥) .

والموجب الثالث الذى تفرضه دواعى الدراسة النقدية موجباتها هو المتضمن القول بأننا نجد أنفسنا مدفوعين دفعًا إلى الوقوف عند هذه الوصية بعينها - علاوة على ما سلف - فهى عدا إنها فى ذاتها تعد ذات قيمة ومضامين سياسية مهمة نحو كيفية التعامل مع المواقف والأزمات ، مما يجعلها معينًا أو مرتعًا مخصبًا للساسة والقادة يجدون فيه أبجديات السياسة وفنونها ، كما سيوضحه التحليل لاحقًا إن شاء الله - فهى تدل دلالة واضحة عى شخصية الخليفة المؤسس معاوية ، الذى أشادت كثير من المصادر قديمها وحديثها ببراعته السياسية (٦) . نعم يمكننا القول إن الوصية هى الدليل أو الأنموذج الأوضح لمقدار ماتمتع به الخليفة معاوية من حصافة وكياسة وحنكة سياسية ، فلقد جاءت فقراتها جميعها لتؤكد على الحذق السياسى والسبل الناجعة الكفيلة بالتعامل مع الأزمات والمخاصمين . وفوق هذا وذاك لعلها تدل من نحو ثالث على موفور الخبرة النفسية بطباع الناس الذين خبرهم معاوية وعجم بهم ومعهم عود الحياة طوال فترة اضطلاعه بالمسؤولية منذ بدء نجمه السياسى يبزغ : حاكمًا أو واليا على دمشق بعد أخيه يزيد ابن أبى سفيان(٧) ، ثم

واليًا على بلاد الشام كلها فى عهد الخليفة عثمان بن عفـان رضى الله عنـه (٨) ، ثم خليفة من بعده لمدة أكثر من تسعة عشر عامًا (٩) .

والموجب الرابع الـذى تفرضـه دواعـى الدراسـة النقديـة ، إن الوصيـة وقـد جاءت فى نصين لاثنين من الإخباريين : هما أبو مخنف : لوط ابن يحيـى الأزدى ، وعوانه بن الحكم الكلبى ، أقول إن الوصيـة وقـد جـاءت كذلـك تمثـل لنـا واقعـة تاريخية حية للوضع والإختلاق الذى رافق كمًا غـير يسـير مـن الروايـات التاريخيـة لأمة الإسلام التـى فطـن إليهـا مؤرخـو الأمـة الثقـات وعلماؤهـا ، وحسـبنا بهـذا التسطير كفاية هنا ، لأننا سنوسع هذا الأمر بحثا ودراسة فى التحليل إن شاء الله .

وإذ استقام هذا فإن ثمة خطوات تتصل أوثق الاتصال بهذا القسم الأول مـن البحث ، أعنى النقد . أجل ثمة حديث لابد منه عن التحديد الزمنى للوصيـة ، ثـم المصادر التى أشارت إلى الوصية بنصّيهامعًا أو اشارت إلى واحد من النصين فقـط، ثم نورد النصين معًا ، ثم الظروف المحيطة التى استدعت توجيه الوصية ، ثـم نعقـد مقارنة بين النصين من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون ، ويلى ذلك مقتضيات رد أحد النصين سندًا ومتنًا ، مع ما يستلزم ذلك من التعريف بأطراف رواة الوصية وأقوال العلماء فيهم .

التحديد الزمنى للوصية :

بوسعنا القول عن التحديد الزمنى للوصية ، أى تحديد الزمن الذى وجه فيـه معاوية رضى الله عنه الوصية لابنه يزيد إن الشئ القريب من الطبـع يـدل علـى إن توجيه هذا النوع من الوصايا ، يتم غالبًا عندما يستشعر الشخص الموصى دنو أجله (١٠-١٢) .

ومع هذا فإن ما جاء من تأكيد على إن الخليفة معاوية لم يوجه وصيته لابنـه يزيد مباشرة ، بل استودعها اثنـن مـن أخلـص رجالـه ، همـا الضحـاك بـن قيـس

الفهرى الذى كـان صـاحب شرطته(١٣) ، ومسـلم بـن عقبـة المرى(١٤) -أحـد رجالات العرب اليمنية المشهورين فى الشـام - علـى إن يبلغاهـا ابنـه يزيـدًا الـذى كان غائبًا وقتها خارج دمشق عندما مات والده معاوية ، يؤكد إن الخليفة قد فعل ذلك عندما استشعر دنو أجله فعلاً ، ومن هنا بعث فى الرجلين فأتيـاه ، فأبلغهمـا وصيته لابنه يزيد(١٥) . وبالفعل فما إن علم يزيد بنبأ وفاة أبيـه حتـى عـاد سـراعًا إلى دمشق ، فتولى الخلافة على الفور بعد إن أدى إليه الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة وصية والده إليه . وفى هذا الصدد سنجد عند حديثنا عن القسم الآخـر مـن هذه المعالجة ، أى التحليل ، إن ثمـة قـولاً آخـر مفـاده إن الخليفـة معاويـة بـن أبـى سفيان وجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، وهذا مبحث آخر يحتاج إلى توثيق ، ولعلـه بالتحليل ألصق وأقرب .

المصادر التى أشارت إلى الوصيَّة :

الحق أننا مدينون للمؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبرى - رحمه الله - الذى دلَّنا على هذه الوصية بنصَّيها . ولقد جهدنا إن نجد لها أثـرًا عنـد المؤرخـين الذيـن سبقوا الطبرى كخليفة بن خياط ، واليعقوبى فى كتابه المنسوب إليـه كذلـك، أى تاريخ اليعقوبى ، ثم صاحب الكتاب المنسوب خطأً للمحدث اللغوى: ابن قتيبـة ، أعنى كتاب : الإمامة والسياسة (١٦) ، وهم ابرز الذين سبقوا الطبرى إلى التدوين التاريخى فى صورته الشمولية ، أى التى تؤرخ للأحداث والوقائع منذ بدء الخليقـة، فتتناول التاريخ الإنسانى منذ آدم عليه السلام حتى عصر كل واحـد منهـم ، علـى نسق الحوليات ، أو تتناول التاريخ الإسـلامى منـذ بدايتـه . أقـول جهدنـا إن نجـد للوصية أثرًا عند هـؤلاء المؤرخـين المتقدمـين عـن الطـبرى فلـم نوفـق (١٧) . نعـم مدينون نحن إلى هذا المؤرخ العظيم - أى ابن جرير الطبرى - الذى بلغ به التدوين نهاية عمر التكوين والنشأة فى هذا النوع من الكتابة التاريخية الشاملة(١٨) ، ومـن هنا سيكون اعتمادنا على ابن جرير الطبرى فى نقله للوصية بنصيها(١٩) معًا . أمـا من جاء بعد ابن جرير ممن أشار إلى الوصية ، فهـو لاحـق لـه ، وقـد يكـون عالـة

عليه، ولذا فلن نشير إلى روايته ، اللهم إلا عند توقفه - أى هذا المؤرخ - عند بعض نصوص الوصية مبديًا رأيًا ما ، كما فعل ابن كثير فى كتابه: البداية والنهاية، وهو الأمر الذى سننظر إليه بعين التجلة والاحترام عند تحليل نصوص الوصية فى القسم الثانى ، وفق المنهج الذى رسمناه .

الظروف المحيطة التى استدعت توجيه الوصيَّة :

الحق إن الأمر بَين يدل عليه العنوان ابتداءً ، ثم الموجبان الثانى والثالث من مقتضيات الدراسة النقدية . ولعلنا نفصل أكثر فنقول إنها - أى ظروف إملاء الوصية أو توجيهها - تعد إفرازًا طبيعيًا لقضية أو مسألة ولاية العهد ليزيد ، القضية المشهورة التى يخيل إلى الباحث إنها من القضايا التاريخية القليلة التى حظيت بأقوال وتعليقات وآراء ما انقطع سيلها مذ بدأت الكتابة التاريخية عن تلك الحقبة وحتى الآن .

زد على ذلك إنها من قضايا التاريخ الشامل للدولة الإسلامية ، إذ هى فاتحة هذا الشكل من أشكال الحكم فى الدولة الإسلامية كما لإخفاء (٢٠) .

أما موضوعها فلحمته وسداه : توضيح واقعى أو قل : تبصير واقعى بكيفية التعامل مع أولئك الذين خالفوا معاوية رضى الله عنه وعنهم فى رأيه فى تعيين ابنه يزيد ، أعنى أولئك النفر من أبناء الصحابة الذين كان لهم موقف من البيعة ليزيد، هو التأبى والإمتناع . وهذا التوضيح أو التبصير يكاد يشكل نصف مادة الوصية ، وينضاف إليه تحذير يمثل رؤية صائبة فى كيفية التعامل مع أهل بعض الأمصار فى خلافته أو إن شئت قلت : مملكته حسبما سنفصل لاحقًا فى التحليل إن شاء الله.

نص الوصية عند أبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدى :

قال الطبرى(٢١) : (وفيها - أى سنة ستين - التى توفى فيها معاوية رضى الله عنه - عهد إلى ابنه يزيد حين مرض فيها ما عهد إليه فى النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد حين دعاهم إلى البيعة ، وكان عهده الذى عهده ما ذكره هشام بن محمد عن أبى مخنف ، قال : حدثنى عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن مخرمة

إن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه فقال : يا بنى إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعتُ لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وإنى لا أتخوف إن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلاّ أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما عبد الله بن عمر ، فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق غيره بايعك ، وأما الحسين بن على فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحمًا ماسَّة وحقًا عظيمًا ، وأما ابن أبى بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ليس له همَّة إلاّ فى النساء واللهو . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربًا إربًا) .

نص الوصيَّة عند عوانة بن الحكم الكلبى :

قال الطبرى فى كتابه سالف الذكر ، أى تاريخ الأمم والملوك (٢٢) بعد إن أورد نص أبى مخنف مباشرة ، قال نقلاً عن هشام بن محمد نفسه ما نصه : "قال هشام قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لمّا حضره الموت ، وذلك فى سنة ٦٠ هجرية وكان يزيد غائبًا ، فدعا الضحاك ابن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فأوصى إليهما فقال : بلّغا يزيد وصيَّتى. انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإن عزل عامل أحبُّ إلىّ من إن تشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن نابك شئٌ من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فإنّهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ، وإنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن على وعبد الله بن عمر ، وعبد

الله بن الزبير . فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئًا وأما الحسين ابن على فإنه رجل خفيف وأرجو إن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه . وإن له رحمًا ماسَّة وحقًا عظيما وقرابةً من محمد ﷺ . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه ، وأما ابن الزبير فإنه خب وضب فإذا شخص لك فالبد له إلا إن يلتمس منك صلحًا ، فإن فعل فأقبل ، وأحقن دماء قومك ما استطعت " .

المقارنة بين النصَّين من حيث الشكل :

ها نحن أولاء إذن أمام روايتين للوصية اثنين أشارًا إلى الوصية وفق ما أرتاه أو صاغه كل واحد منهما ، ولا أريد إن أعجل بالقول - هنا على الأقل - : ووفق ميول كل واحد منهما كذلك ، فلعل الحديث عن هذه النقطة لمّا يحن بعدُ . نلاحظ بادئ ذى بدء على الوصيَّة بنصّيها أنها قصيرة موجزة ، وإن كان نص أبى مخنف : لوط بن يحي أقصر من نص عوانة ، ويبدو لنا من خلال ما تميَّزت به الوصايا كلونٍ من ألوان النثر الأدبى(٢٣) إن الوصيَّة إن تكون هكذا : قصيرة السطور ، وجيزة التعبير ، فذلك أدعى وأبلغ فى التأثير أو لنقل فى بث التأثير المطلوب .

وبالطبع فلا نسطيع أن نبنى حكمًا على ذلك فنقول إن معاوية وهو يواجه الموت أراد لوصيته إن تكون هكذا ، إلاّ أن ما نريد قوله إن معاوية هُدى إلى هذا الأمر سليقةً وفطرة كما يهتدى بعض الشعراء الذين لم يدسوا العروض أى الشعر الموزون المقفى : سليقةً وفطرة .

وإذا ما تركنا الشكل الأدبى إلى الوصايا التاريخية التى نعرفها قبل عهد معاوية رضى الله عنه وبعده ، سنجد كذلك الطابع العام الذى يميزها هو : القِصَرْ. خذا إليك مثلاً وصية الملك الفارسى أردشير إلى ابنه ، فهى وصيَّة لم تزد عن بضعة

سطور(٢٤) ، ثم خذ إليك مثلاً وصيَّة الخليفـة أبى بكـر الصديـق رضـى الله عنـه لعمر بن الخطاب رضى الله عنه(٢٥) . وبعد معاوية خذ إليك مثلاً وصيَّـة الخليفـة عبد الملك بن مروان إلى ابنه وولى عهده : الوليد ، إذ لم تزد عن بضعة سطور هـى الأخرى (٢٦-٢٧) .

المقارنة بين النصيَّن من حيث المضمون :

على أننا نلحظ بعد هذه الملاحظات الشكلية أن ثمّة اختلافًا لا نقول يسـيرًا، ينحصر فى الألفاظ والكلمات ، وأنمـا هـو اختـلاف جوهـرى فـى المضمـون بـين النصين . فنص أبى مخنف فيه زيادة ونقص - معًا - عن نص عوانة بن الحكم . أما الزيادة فى نص أبى مخنف والتى خلا منها نص عوانة فهى المتمثلة فى الجزء الـذى يشكل صدر الوصية ، أعنى تلك الأسطر التى ذكرها هشام بن محمد الـذى أسـند إليه الطبرى رواية الوصية بنصيها حسبما هو واضح مما مر من إيراد النصيَّن ، والتى قال فيها نقلاً عن أبى مخنف : " حدثنى عبد الملك بن نوفل بـن مسـاحق بـن عبـد الله ابن مخرمة أن معاوية لمّا مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقــال : يا بنى إنى قد كفيتـك الرحلـة والترحـال ، ووطـأت لـك الأشـياء ، وذلَّلـت لـك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد " .

أما النقص فى النص أبى مخنف ، مقارنةً بنص عوانة ، فهو المتمثل فى ذلـك الوصف الذى خصَّ به معاوية رضى الله عنـه أهـل الحجـاز والشـام والعـراق بمـا خصهم به ، إذا جاء النص الذى أسنده الطبرى إلى هشـام بـن محمـد راوى نـص عوانة حسبما مرَّ من قبل على النحو التالى : " قال هشام ، قال عوانة : قـد سمعنـا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠ وكان يزيد غائبًـا ، فدعا الضحاك بن قيس الفهرى ، وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبـة المـرى فأوصى إليهما فقال : بلّغا يزيد وصيتى ، انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك فـإكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غـاب ، وانظـر أهـل العـراق ، فـإن سـألوك أن

تعزل عنهم كل يوم عاملاً ، فافعل فأن عزل عامل أحب إلى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن نابك شئ من عدوك ، فانتصر بهم ، فإذا اصبتهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم " .

يبقى بعد هذا إن نشير إلى موطن الإتفاق بين الرجلين ، فالحق إن الشبه جد واضح فى الجزء المتصل بالتحذير أو التخويف الذى بثه معاوية روع ابنه يزيد من النفر الذين خالفوه من قريش فى التأبى عن بيعة يزيد ، هذا الجزء الذى يحذر فيه معاوية ابنه من هؤلاء النفر الذين حددهم وذكرهم له صراحة ، هو الذى التقى عنده الرجلان ، وهو الذى كان عرضة للدخل والاختلاق عند واحد من هذين الرجلين ، وقد تعمدنا إرجاء ذكر اسمه حتى نأتى على تمام الملاحظات الأولية على النصين ، ثم نشرع فى التحليل بعد . ولا تظل لنا وقفة بعد هذا الإطار إلا عند جزءيتين لانخال القارئ الكريم إلاّ قد فطن إليهما ، أولادهما تلك التى يمكن أن نُعَبِّرَ عنها بالقول : إنه مع الإتفاق بين الراويين على إن الوصية موجهة ليزيد وهو المعنى بها إلاّ إن الاختلاف وقع فى هل وجهت ليزيد مباشرة أم نقلت إليه نقلاً ؟ الثانية أننا نلحظ إن راويًا واحدًا أورد نصَّ الوصيتين هو : هشام بن محمد الذى سنعرض له فيما بعد ، وبوسعنا أن نلحظ إن ثمة اختلافًا يسيرًا آخر فى أن هناك شخصًا آخر أسند أليه أبو مخنف روايته فيما ذكره هشام بن محمد من حديث الوصيَة ، وهو عبد الملك ابن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة ، وسنقف عنده بعد إن شاء الله ، فيما خلت رواية عوانة من ذلك .

مقتضيات رد أحد النصين سندًا :

وإذا استقام لنا الفراغ من حديث المقارنة بين النصين من حيث الشكل والمضمون علينا الشروع توًا فى حديث مقتضيات رد أحد النصين سندًا حسبما

ألزمنا به أنفسنا ، على أن ذلك لا يستقيم له معنى ولا يطرد له قياس دون إن نقدم له بحديث ضاف - بعض الشئ .

وقر فى نفس الباحث شك مذ وقع بصره على نصيى الوصية فى تاريخ الأمم والملوك للطبرى مفاده إنَّ ثمة اختلافًا ووضعًا داخل رواية أبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدى ، فما يعرفه من أقوال علماء الجرح والتعديل والمؤرخين الثقات فى أبى مخنف وإجماعهم على الرأى السئ فيه لا يفارق وعيه . هذا ، ومن نحو آخر فإن المادة التى أوردها أبو مخنف تبدو - فيما خلا صدر الوصية - مقززة منفرة فيها تطاول وقدح فى حق الصحابة رضوان الله عليهم ، سواء أولئك الذين خالفوا معاوية فى موضوع البيعة لابنه يزيد ، أو فى حق معاوية رضى الله عنه نفسه - بيد إن الباحث وجد نفسه تجاه الراوى الآخر للوصية ، وهو : عوانة بن الحكم الكلبى ، فى مأزق ، فرأى علماء الجرح والتعديل وأصحاب كتب التراجم والطبقات وبعض الفقهاء فى عوانة غير بعيد عن رأيهم فى أبى مخنف ، وإن لم يحكموا عليه تجريحًا بمثل ما حكموا به على أبى مخنف ، ولكنه على كل حال متهم عندهم كذلك . ومن هنا بات الباحث فى حيرة من الأمر ، أى النصين يعتمد فى بحثه هذا ، أهو نص أبى مخنف أم هو نص عوانة ؟ ... نعم نستدرك هنا فنقول لما بقىَ من الصورة إن المادة التى أوردها عوانة عن النص لا يشتم منها قدح أو مذمة فى حق معاوية أو من خالفه من أبناء الصحابة ، وهذا أمر مهم للغاية ، كان الباحث وما يزال يضعه نصب عينه بل يسعى إليه .

على كل فلنعرض شخصية أبى مخنف بوصفه راويًا وإخباريًا على ميزان النقد العلمى ، وعلينا إن نعرض روايته على منهج المحدثين الذين حرَّروه لنا فى منهجية علمية دقيقة رصينة ، خلص إلينا وفقها حديث رسول الله ﷺ صافيًا نقيًا من شوائب الوضع والوضاعين ، أى منهج نقد الرواية سندًا ومتنًا . أقول فلنعرض شخصية أبى مخنف وروايته تلك على هذا المنهج الذى يقوم على نقد الرواية نقدًا

داخليًا ونقدًا خارجيًا أو ما يعرف بنقد السند والمتن(٢٨) ، وهو المنهج الذى غدًا مطروحًا ومطلوبًا من قبل فريق من المؤرخين والباحثين المحدثين فى تمحيص الرواية التاريخية ولاسيما فترة صدر الإسلام ، إى التى تشمل العصر النبوى ، وعصر الراشدين والعصر الأموى ، وذلك من أجل تنقيح تاريخنا ممَّا خالطه من الدخل والشوائب(٢٩) . أجل فلنفعل ذلك لنصل إلى الحقيقة - ما أمكننا الجهد وبلغتنا الطاقة - ثم نفعل الشئ ذاته مع عوانة ونصه ، ثم ننثنى فنعرض إلى هشام بن محمد، وعبد الملك بن مساحق اللذين جاء ذكرهما فى النصين .

التعريف بأطراف رواية الوصيَّة :

قبل أن نعرض إلى أقوال العلماء فى أطراف رواية الوصية . علينا أن نعرِّف بأطراف الوصية الأربعة فى نصيَّها الواردين عند الطبرى . أمَّا أبو مخنف : فهو لوط ابن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدى ، المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة(٣٠) . يّعد أبو مخنف فى أوائل الإخباريين الذين اعتنوا بالرواية التاريخية تصنيفًا وتأليفًا ، ولقد تتبع أحد الباحثين مؤلفاته التى ألفها عن العراق بخاصة - وغيرها من الأقطار - بعامة كما تتبع جميع ما قيل عن أبى مخنف من حيث نشأته ومذهبه إلى غير ذلك(٣١) . ولعلنا هنا نكتفى بالاشارة إلى إنه شيعى المذهب بإجماع المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل .

إما عوانه بن الحكم ، فهو عوانة بن الحكم بن عياض بن وزر الكلبى العلامة الإخبارى ، أبو الحكم الكوفى الضرير ، أحد الفصحاء . له كتاب : التاريخ وكتاب سير معاوية وبنى أمية ، توفى سنة سبع وأربعين ومائة(٣٢) .

وأما هشام بن محمد ، فقد سرد لنا الذهبى ترجمته كذلك فى كتابه آنف الذكر أى : سير إعلام النبلاء (٣٣) ، فقال عنه : العلامة الإخبارى النسابة الأوحد أبو المنذر : هشام بن الإخبارى الباهر محمد بن السائب بن بشر الكوفى ، تصانيفه

جمّة ، توفى سنة أربع ومائتين على الصحيح . وأما عبد الملك بن نوفل الذى يصرح لوط بن يحيى بالقول أنه حدثه بخبر الوصية فهو : عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة العامرى ، عامر قريش ، مدنى ، يكنى أبا نوفل(٣٤).

أقوال العلماء فيهم :

وإذ فرغنا من التعريف بأطراف نقل خير الوصية الأربعة فى نصيها معًا ، يحسن بنا إن نورد أقوال العلماء فى كل واحد منهم . أما أبو مخنف : لوط بن يحيى فقد قال عنه علماء الجرح والتعديل كلامًا مهمًا فى تجريحه ، فهذا ابن أبى حاتم الرازى(٣٥) يقول عنه : متروك الحديث ، وهذا ابن عدى(٣٦) : - وهو رأس فى علم الجرح والتعديل - يقول عنه ما نصه : " حدث بإخبار من تقدم من السلف الصالحين . ولا يبعد منه إن يتناولهم وهو شيعى محترق صاحب أخبارهم ، وإنما وصفته للإستغناء عن ذكر حديثه " . وفى موضع آخر يقول(٣٧) : وله من الأخبار المكروه الذى لا استحب ذكره ، ثم هذا الإمام المحقق الثبت شمس الدين الذهبى - وهو علم فى فن الجرح والتعديل - يقول عنه فى كتابه : ميزان الإعتدال(٣٨) : " إخبارى تالف لا يوثق به " . أما فى كتابه سير أعلام النبلاء(٣٩) فقد قال بعد إن ذكر عددًا من الذين سماهم ممّن رووا عنه ، قال ختمًا لكلامه... وطائفة من المجهولين ، وهو من بابة(٤٠) سيف بن عمر التميمى(٤١) ، صاحب الردة ، وعبد الله بن عياش المنتوف(٤٢) وعوانة بن الحكم .

وإذ ما تركنا هذا النفر من علماء الجرح والتعديل الذين اكتفينا بهم من غيرهم من العلماء فى هذا الشأن إذا ما تركنا هؤلاء إلى الفقهاء ، لرأينا إن رأيهم فى أبى مخنف لا يقل جرحًا عن علماء الجرح والتعديل أولئك . فهذا ابن تيمية مثلاً يقول فى كتابه منهاج السنة(٤٣) فى معرض كتابه عن الشيعة : " وعلماؤهم يعتمدون على نقل مثل أبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدى ، هشام بن محمد

السائب وأمثالهما من المعروفين بالكذب عن أهل العلم " . وفى كتابه الرد على البكرى(٤٤) يقول : " وأمَّا جمهور المصنفين فى الأخبار والتورايخ والسير والفتن من رجال الجرح والتعديل ، فهم من هو فى نفسه متهم أو غير حافظ كأبى مخنف: لوط بن يحيى الأزدى ، وهشام بن محمد السائب الكلبى وإسحاق بن بشر(٤٥) وأمثالهم من الكذابين " .

أما عوانة بن الحكم فلقد جهدت فى البحث عن ترجمة له فى مظانها المشهورة ، أى كتب الجرح والتعديل ، فلم أعثر على ترجمة له عندهم ، اللَّهم إلاَّ ما سطره ابن حجر فى لسان الميزان(٤٦) من القول بأنه كان صدوقًا فى نقله . أما كتب التواريخ العامة وكتب التراجم فقد ترجم له ابن النديم فى الفهرست ، المقالة الثالثة ، الفن الأول(٤٧) ، وياقوت الحوى فى معجم الأدباء(٤٨) ، والذهبى فى سير إعلام النبلاء(٤٩) ، وكذلك كتابه العبر فى أخبار من غبر(٥٠)، ثم ابن العماد الحنبلى فى كتابه : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب(٥١) . وهذه التراجم جميعها متقاربة ، وبوسعنا إن نشير فقط إلى ترجمة الذهبى له فى كتابه آنف الذكر، أى سير إعلام النبلاء(٥٢) ، ولاسيما وقد عُمْدنا إليه من قبل فى التعريف بعوانة ، فلقد قال بعد أن سرد لنا نسبه : ... أبو الحكم الكوفى الضرير ، أحد الفصحاء ، له كتاب سير معاوية وبنى أمية ، وغير ذلك . يروى عنه: هشام بن الكلبى ، وكان صدوقًا فى نقله قال محمد بن إسحاق النديم : توفى سنة سبع وأربعين ومئة وهناك قول بأن وفاته كانت سنة ثمان وخمسين ومائة حسبما ألمعنا إلى ذلك من قبل .

وأما هشام بن محمد السائب الكلبى فحسبنا إن نشير إلى ما ذكره الذهبى عنه فى ميزان الاعتدال(٥٣) ، فلقد قال عنه ما نصه : " قال أحمد بن حنبل : إنما كان صاحب سمر ونسب . ما ظننت إن أحدًا يُحَدِّث عنه ، وقال الدار قطنى وغيره-متروك ، وقال ابن عساكر : رافضى ، وقال كذلك : وهشام لا يوثق به".

وفى كتاب سير إعلام النبلاء(٥٤) ، قال الذهبى كذلك بعد أن ساق نسب هشام، مما سبق لنا إن سردناه آنفًا ، قال : " ... أحد المتروكين كأبيه ... وتصانيفه جمة بلغت مائة وخمسين مصنفًا ، وكان أبوه مفسرًا ، ولكنه لا يوثق به أيضًا وفيه رفض كإبنه ".

وننتهى إلى الطرف الرابع فى الوصية ، أى عبد الملك بن مساحق لنقول إننا لم نوفق فى العثور على ترجمة له سوى التى أشرت إليها والتى أوردها ابن حجر العسقلانى فى كتابه : تقريب التهذيب(٥٥) التى أوردنا فيها ذكر اسمه ونسبه . ونورد هنا قوله فيه : مقبول من الثالثة ، ويعنى بالثالثة الطبقة الثالثة من الرواة – بحسب ترتيبه هو للرواة – وهى الطبقة الوسطى من التابعين . وذكر إنه خرج له من أصحاب كتب الصحاح : أبو داود ، والنسائى . ويعنى ابن حجر بقوله مقبول ، أى من خلال المراتب التى عقدها للرواة ، يعنى تلك الطبقة التى ليس لها من الحديث إلا القليل و لم يثبت فيه ما يُترك حديثه من أجله فإليه الإشارة بلفظ مقبول " هى عبارة ابن حجر بنصها " حيث يتابع(٥٦) .

ونستدرك أخيرًا فنقول إننا وجدنا اسمه ، أى عبد الملك بن نوفل بن مساحق فى الشجرة التى رسمها يحيى بن إبراهيم بن على اليحيى فى كتابه : مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى – عصر الخلافة الراشدة – دراسة نقدية(٥٧) ، المار ذكره سابقًا . بيد أنه لم يشر إلى ترجمته .

وإذ فرغنا من حيث التعريف بأطراف رواية الوصية ثم أقوال العلماء فيهم ، علينا إن ننتهى تأسيسًا على ما مر إلى القول بأن رواية أبى مخنف متهافتة واهية ساقطة سندًا ، إذ قد رأينا أى مكانة علمية لأبى مخنف : لوط بن يحيى ، وليس علينا من تثريب بعدئذ من القول إن أقوال العلماء أطبقت على تضعيفه فى الحديث وعلى تركه . وليست الروايات التاريخية بأفضل حالاً من الحديث . فلقد ناقش يحيى بن إبراهيم(٥٨) روايات أبى مخنف فى عصر الخلافة فقط ، حيث قصر عليها

جهد فتبين له بعد مناقشة طويلة سقوطها وتهافتها . وللمناسبة فقد بلغت نحوًا من أربعة وأربعين رواية . وهكذا فإن روايته لذلك النص ساقطة من حيث السند لا يعتد بها .

أما عوانة بن الحكم ، فإن حكم علماء الجرح والتعديل عليه وفيه لا يرقى إلى حكمهم على أبى مخنف . ولابد إن أعيد هنا القول إننى لم أعثر له على ذكر فى كتب الضعفاء والمتروكين ، بل لقد رأينا ابن حجر يصفه بالصدوق فى كتابه لسان الميزان . ولئن كان الإمام شمس الدين الذهبى قد وضعه فى درجة مساوية لأبى مخنف وسيف بن عمر الضبى وعبد الله بن عياش المنترف . وذلك فى كتابه : سير إعلام النبلاء حسبما مر بنا سابقًا ، فإنه لم يفعل أو بمعنى أدق لم يترجم له فى كتابه النقدى الصارم : ميزان الإعتدال ، ثم إنه ذكر فى كتابه سير إعلام النبلاء نفسه فى سياق ترجمته لعوانة بأنه كان صدوقًا فى نقله(٥٩) .

ولئن قال ابن النديم (٦٠) وتابعه ياقوت الحموى فى معجم الأدباء(٦١) إنه كان عثمانيًا يضع أخبارًا لبنى أمية ، أى أنه كان ذا ميل للأمويين وأنه يتعصب لهم ولا سيما عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهى قضية تدخل فى عداد قضية ميول الإخباريين وأهوائهم التى تعددت مشاربها بين مآرب نفسية طورًا ومآرب مذهبية طورًا ثانيًا ومآرب إقليمية طورًا ثالثًا(٦٢) ، أقول لأن وصفه ابن النديم بما وصفه به ، فإننا نرى وجاهة فى قول شاكر مصطفى (٦٣) فى مقارنته بين عوانة بن الحكم وبين أبى مخنف من حيث الرواية التاريخية ، إذ يرى إن عوانة روى وكتب كتبًا عامة لا تتناول موضوعًا خاصًا ضيقًا ولكن أكثر سعة، هى مطالعة التاريخ الإسلامى العام على خلاف أبى مخنف . ثم علل أسباب كتابته كتابًا عن بنى أمية عنوانه - سيرة معاوية وبنى أمية - بأن ذلك يعود إلى معرفة قوية بدخائل العهد الأموى بحكم كونه كلبيًا أى من قبيلة كلب اليمنية التى ارتبطت بروابط متينة مع الأمويين فى أغلب فترات حكمهم(٦٤) . ولقد ذكر شاكر مصطفى - وليس ثمة

ما يدعو لمخالفته - إن ذلك لا يعنى أنه - أى عوانة - يتعصب للأمويين لذلك الارتباط ، بل لأنه لا يهمل الآراء المعارضة لهم ولا الروايات العراقية والمدينة فقد تبين له من التقصى فى بعض المصادر التاريخية وجود الكثير من النصوص لعوانة جاءت قوية مؤيِّدة للزبيريين(٦٥) وأخرى ضد الحجاج ، ونصوص أخرى مؤيدة للعلويين ، وأخرى ضد الكوفة .

يبقى أخيرًا إن نؤكّد هنا إن مقتضيات التحقيق هى وحدها التى فرضت علينا الإشارة إلى هشام بن محمد السائب الكلبى بوصفه الشخص الذى أسند إليه الطبرى رواية نصى الوصية عن أبى مخنف وعوانة ، وكذا الأمر فيما يتعلق بعبد الملك بن نوفل شيخ أبى مخنف . نقول هذا لحقيقة العلمية لتأخذ الدراسة النقدية حقها من الطرح ، دون إن ننحى عليهما بأى لائمة ، إذ يبدو إن التحريف والوضع - الذى ستكشفه الدراسة النقدية للمتن - يتحمل تبعته أبو مخنف : لوط ابن يحيى الأزدى ، الذى أتضح للعلماء بجلاء تشيعه الشديد . هذا شئ والشئ الثانى إن تشيع هشام ابن محمد السائب الكلبى الذى أشار إليه عدد من علماء الجرح والتعديل حسبما مر بنا سابقًا ، لم يمنعه من رواية نص عوانة الذى يختلف عن نص أبى مخنف . والشئ الثالث إن عبد الملك بن نوفل بن مساحق وصفه ابن حجر - وهو رأس فى علم الجرح والتعديل - بأنه مقبول الرواية حسبما مربنا سابقًا . هذا شئ ، والشئ الآخر أن عبد الملك بن نوفل كان معاصرا لمعاوية وروى عنه(٦٦) ، وليس يبعد إنه سمع خبر الوصية أو رواها له أحد الرجلين : الضحاك أو مسلم بن عقبة المرى ، وقد توفيًا بعد معاوية بأربع سنوات، كما أن عبد الملك بن نوفل سليل بيت كانت له صلته الوثيقة بالبيت الأموى(٦٧) . ومن هنا لا نجد مبررًا لتقوّل عبد الملك على معاوية ، ولكن التحريف وقع من أبى مخنف ، فلا تثريب إذن من إسقاط رواية أبى مخنف سندًا .

مقتضيات رد أحد النصَّين متنًا :

الحقيقة إن المتن الذى سنفصِّل الحديث عنه وهو الذى يهدم - مع السند - رواية أبى مخنف ، يمثل الصورة الأوضح للتهافت والضعف والسقم الذى تميزت به بعض الروايات التاريخية التى لاكها نفر من الإخباريين الضعاف . ففى البدء يلفت نظرنا خطأ أبى مخنف التاريخى المتمثل فى قوله : إن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه فقال : يا بنى ... إلخ . نقول خطأ تاريخيًا، لأننا وقد أجرينا استقصاءً واسعًا حول هذه النقطة تبين لنا خلالها إن يزيدا كان فى الوقت الذى اشتد المرض على معاوية وبات يتوقع حلول أجله المحتوم ، كان فى حوارين(٦٨) البعيدة عن دمشق ، ولقد نص على ذلك بعض ثقات المؤرخين من أمثال الذهبى وابن كثير وابن الأثير وغيرهم(٦٩) .

ثم إذا وقفنا عند الجزء الذى تشابه فيه النصان : نص أبى مخنف ونص عوانة، وهو المتمثّل فى التحّذير من أولئك النفر من أبناء الصحابة رضى ا لله عنهم، لرأينا أن ثمة خطأ تاريخيًا ثانيًا تميزت به رواية أبى مخنف . هذا الخطأ هو المتمثل فى قوله : إن معاوية رضى ا لله عنه حذر ابنه من أربعة نفر من قريش هم : عبد ا لله بن عمر ، الحسين بن على ، عبد الرحمن بن أبى بكر ، وأخيرًا عبد ا لله بن الزبير . ومكان الخطأ يكمن فى ذكره لعبد الرحمن بن أبى بكر ضمن هؤلاء ، فالحقيقة أن الصواب هو ما ذكره عوانة بن الحكم فى روايته من أنهم ثلاثة نفر لا أربعة . وذلك لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى ا لله عنهما - وهو ثالث الأربعة فى رواية أبى مخنف - كان قد توفى قبل معاوية بعامين ، أى أنه توفى على المشهور والأرجح سنة ٥٨هـ . وهذا ما ذكره مؤرخو تراجم الصحابة رضى ا لله عنهم(٧٠)، ثم هذا هو عينه ما لاحظه ابن كثير(٧١) الذى تدخل معلّقًا بعد أن أورد نص أبى مخنف فبلغ فى الحديث هذه النقطة ، تدخل معلقًا فقال العبارة التالية: كذا قال ، يعنى كذا قال أبو مخنف ، ثم أردف قائلاً : والصحيح أن عبد

الرحمن كان قد توفى قبل موت معاوية بسنتين كما قدمنا . ويعنى ابن كثير بهذه العبارة ما كان قد تحدث عنه من ذكر وفيات بعض المشاهير سنة٥٨هـ ومنهم عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

ولسنا ندرى حقيقة سبب هذا الفعل من أبى مخنف ، لسنا ندرى هل يعود إلى غفلة غير مقصودة أوقعته فى هذا الخطأ التاريخى ، مع أنه شئ مثير للإستغراب أن يغيب عنه هذا ، والتدوين التاريخى كان آنذاك شديد الإهتمام بذكر وفيات الأعيان ؟ أم أن فى الأمر قصدًا متعمدًا لإظهار معاوية فى صورة تهيج عليه النفوس، بالإشارة إلى أن ابن الخليفة الراشد الأول كان من الممتنعين على المعاوية . ولقد كان بالفعل من الممتنعين على معاوية مثل غيره من أبناء الصحابة رضى الله عنهم ، بل كان أكثرهم استياءً(٧٢) ، ولكن هذا لا يعنى أن يستغل أبو مخنف هذا لميوله المذهبية التى تدفعه إلى تهييج النفوس على معاوية وبنى أمية وأن يستغل هذه الواقعة التاريخية فيلوى ذراع الحقيقة ويحشر اسم رجل كان قد توفى قبل ظهور النص بعامين ، وهو الذى اقترن بوفاة معاوية .

وثمة خطأ تاريخى ثالث لا يقل فداحة عن هذا الخطأ بل يزيد عليه ، إذ نرى فيه صورة واضحة للإساءة للصحابة رضى الله عنهم . لقد تدخلت ميول أبى مخنف المذهبية فيه دون مراء ، إذ أن من الطبيعى أن يقف أبو مخنف موقف العداء من معاوية وإن يهيج النفوس عليه ، وإن تأتى عباراته ملتهبة قاسية مغلوطة لا تصيب معاوية وحده فحسب ، بل وبعض من جاء ذكرهم فى الوصية من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . فأبو مخنف لم يكتف بالخطأ التاريخى الذى وقع فيه ، وهو جعله عبد الرحمن بن أبى بكر فى عداد النفر الذين حذر معاوية ابنه يزيد منهم، ولكنه أورد قولاً على لسان معاوية فيه إساءة لمعاوية وعبد الرحمن معًا.

هذا القول هو الذى سبق لنا أن رأيناه فى نص أبى مخنف الذى يقول فيه معاوية : وأما ابن أبى بكر ، فهو رجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ،

ليست له همه إلاَّ فى النساء واللهو . هنا نجد أبا مخنف يظهر عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما بمظهر الامعة الذى لا رأى لـه . ثـم لم يكفـه هـذا ، بـل زاد فوصفه بالمضياع المتلاف لهمته التى ما وسعت من الأمور إلاَّ النساء واللهو .

ترى هل كان أبو مخنف وهو يورد هـذه العبـارة يريـد أن يمـرر هـذا القـول الظالم معتمدًا على ما اشتهر من أمر تولع عبد الرحمن بن أبى بكر بابنـة الجـودى ، وهو الموضوع الذى أشار إليه بعـض المؤرخـين(٧٣) فظـن أن ذلـك ألـزم لحجتـه ؟ الحقيقة أنه وإن تولع عبد الرحمن بن أبى بكر بابنة الجودى ، فقد انتهى به الأمر إلى النكاح الشرعى حيث كرمَت عنده. ثم لم نعد نسمع شيئًا ما عن موضوع النساء. ثم لو كان على عبد الرحمن من لوم هنا لكان قد لامه عمر بن الخطاب رضـى الله عنه ، ولكانت قـد لامتـه أختـه السيدة عائشـة رضـى الله عنهـا . لننظـر مـا قالـه الذهبى(٧٤) هنا فى ترجمة عبد الرحمن بن أبى بكـر : " كـان أسـن أولاد الصديق وكان من الرماة المذكورين الشجعان ، قتل يوم اليمامة سبعة من كبارهم ... وقـد هوى ابنة الجودى وتغزل فيها بقوله ... فقال عمر لأمير عسكره إن ظفـرت بهـذه عنوة فادفعها إلى ابن أبى بكر ، فظفر بها فدفعها إليه ، فأعجب بهـا وآثرهـا علـى نسائه ... إلخ " .

ثم كيف يتهم عبد الرحمن بالأمعة ، بـل كيـف يتهـم معاويـة عبـد الرحمن بالإمعة ، وهو الذى تصدى لمروان بـن الحكـم ، عـامل معاويـة علـى المدينـة ، لمَّـا أخبره هو ونفر من أهل المدينة بعزم معاوية العهد لابنه يزيد تصدى له ، فقال معبرًا عن استيائه : جعلتموها هرقليه أو قيصرية . كلمـا مـات هرقـل أو قيصـر ، خلفـه قيصر أو هرقل(٧٥) . وكرر هذا القـول دون مواربـة لمَّـا جـاء معاويـة إلى الحجـاز لأخذ البيعة لابنه يزيد ومقابلة النفر الذين امتنعوا عن البيعة له ، وفيهم عبد الرحمن ابن أبى بكر(٧٦) .

وننتقل إلى وصف معاوية الذى ذكره أبو مخنف أنه قاله فى حق الصحابى ابن الصحابى : عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، ممّا تتبدّى فيه كما يتراءى لنا إساءة للرجلين معًا : معاوية وابن الزبير ، فى البداية لسنا نقصد عبارات : وأمّا الذى الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، وهما المعنيان اللذان درج العرب على أن يُشبهوا بعض الرجال بهاتين الصفتين المشهورتين عن الأسد والثعلب ، أى : الجثوم والمراواغة . الجثوم لزوم المكان وعدم مبارحته أو اللصوق بالأرض(٧٧) ، وهى ما اشتهر به الأسد(٧٨) ، والمرواغة : الاحتياد يمنه ويسرة فى سرعة وخديعة(٧٩) ، وقد اشتهر بها بين الحيوانات الثعلب(٨٠) .

لسنا نقصد هذا ، ولكننا نقصد تلك العبارة التى يقول فيها معاوية ليزيد حسب رواية أبى مخنف : ... فإن فعلها بك أى خرج عليك فقطّعه إربًا إربًا .

الإرْبُ فى اللغة : العضو ، وإربًا : قطِعَ ، وإربًا إربًا : العضو قطّعه كاملاً كما الذبيحة التى تقطع إربًا إربًا : عضوًا عضوًا(٨١) . هذا من حيث اللغة ، ومن حيث المعنى السياسى لايمكن لسياسى حصيف محنك مثل معاوية أن يطلب من ابنه مثل هذا المطلب . وهو الذى ما جُربَ عليه أن سفك دم أحد الصحابة قتلاً ، ففيما عدا حجر بن عدى(٨٢) وحادثته(٨٣) لا نملك دليلاً على قيام معاوية بالفتك بأحد الصحابة .

ثم أن معاوية رضى الله عنه مع معرفته بموقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما الرافض لموضوع البيعة ليزيد بولاية العهد(٨٤) ، ومع إفصاحه عما يتميز به عبد اله بن الزبير من صفات سياسية(٨٥) لانظن أنه يحرض ابنه على قتل عبد الله بن الزبير ، حتى ولو امتنع عليه . ولعل الأولى أن يطلب منه تركه وشأنه – ما دام أن بيعته قد انعقدت شرعًا – كما فعل هو نفسه – أى معاوية – عندما ترك النفر الأربعة وشأنهم ، وإن كان قد أظهر للناس أنهم بايعوا(٨٦) . لقد كان فى وسع

معاوية أن ينصح ابنه باتخاذ نفس الموقف لو واجهه هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم - ومنهم عبد الله بن الزبير - بموقفهم الرافض .

ونخلص من هذا كله إلى القول بأننا سنعتمد رواية عوانة بن الحكم لملائمتها سندًا ومتنًا للواقع التاريخى من نحو ، ولما نعتقده يقينًا فى الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا من الخيرية والصلاح من نحو ثان(٨٧) ، ولما عرف عن معاوية رضى الله عنه من السجايا والخلال على رأسها الإغضاء والحلم والدهاء - التى دلت عليها سيرته وسلوكه من نحو ثالث ، فذلك " أدعى فى حدس الخبر ومعرفة صحته من ضعفه "(٨٨) .

التحليـــل

ولنمض الآن فى تحليل وصية معاوية رضى الله عنه ، متحرِّرين من تأثير أبى مخنف : لوط بن يحيى وروايته ، على أننا سنعود إليها بين الفينة والفينة للمقارنة بينها وبين نص عوانة ، ولكى يتأتّى لنا ذلك يحسن بنا أن نجزئ نص عوانة إلى فقرات عدة هى :

١ - قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لمّا حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠هـ، وكان يزيد غائبًا .

٢ - فدعا الضحاك بن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فأوصى إليهما .

٣ - فقال : بلّغِا يزيد وصيَّتى : أنظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

٤ - وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فإفعل فإن عزل عامل أحب إلى من تشهر عليك مائة ألف سيف .

٥ - وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن نابك شيئ من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم .

٦ - وإنى لست أخاف من قريش إلاّ ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير .

٧ - فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين ، فليس ملتمسًا شيئًا قبلك .

٨ - وأمَّا الحسين بن على . فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه ، وخذل أخاه، وإن له رحمًا ماسة، وحقا عظيمًا وقرابة من محمد ﷺ . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فإن قدرت عليه ، فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه .

٩ - وأمَّا ابن الزبير ، فإنه خب وضب ، فإن شخص لك ، فالبدله ، إلاّ أن يلتمس منك صلحًا ، فإن فعل فاقبل ، واحقن دماء قومك ما استطعت .

* * *

ويخيل إلى أنه ليس هناك ما يقال بصدد الفقرة الأولى التى قال فيها الطبرى، قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا ... إلخ . أجل ليس هناك ما يقال عن هذه الفقرة ، فلقد سبق لنا التعريف بهشام بن محمد بن السائب الكلبى فى القسم الأول من الدراسة النقدية ، وكذا الشأن فيما يتصل بعوانة مما لا فائدة من إعادته . غير أن ما يلفت النظر هنا هو عبارة عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية ... إلخ ، فهل هذا يعنى أن عوانة قد سبق له الإطلاع على نص أبى مخنف سابق الذكر ، فقال ما قال اعتمادًا على مصدره الذى وثق فيه ؟ يتراءى لنا أن هذا هو ما توحى به هذه العبارة .على أننا نستغرب ألا يشير عوانة إلى الشخص الذى نقل عنه خبر الوصية مثلما فعل أبو مخنف الذى اسند روايته لعبد الملك بن نوفل بن

مساحق . وبعيد جدًا أن يكون عوانة معاصرًا للأحداث وهو الذى توفى سنة١٤٧هـ . فهاهنا انقطاع يصل إلى أكثر من قرن . ترى ما الذى يعنيه هذا . هل يعنى التقليل من قيمة الرواية لانقطاع السند مدة طويلة ولأن السند مجهول كذلك ، وهو الذى قل أن روى حديثًا مسندًا كما ذكر مؤرخو ترجمته(٨٩) ؟ ربما يكون الأمر كذلك ولكن هذا لا يقلل من روايته التى لها شاهد ، هو نص أبى مخنف نفسه . نرجو الا يبادر القارئ الاستغراب من قولنا هذا الذى ربما رأى فيه تناقضًا فالأمر ليس كذلك ، فنص أبى مخنف يؤكد فعلاً أن معاوية ترك وصية ، ولكن الاعتراض على أبى مخنف ينحصر فى التغيير والتبديل الذين أحدثهما - مدفوعًا بميوله المذهبية كما يبدو - فى نص الوصية . ومن هنا شابهَ نص أبى مخنف عوانة فى عدة جوانب ، وخالفه فى جوانب أخرى . هذا هو كل شئ فيما يتراءى لنا .

وبعد هذا لا يبقى لنا ما نقوله عن هذه الفقرة سوىالتذكير بأن سنة ٦٠هـ، هى السنة الى توفى فيها معاوية بإجماع مؤرخى ترجمته فى كتب التاريخ العام وكتب التراجم والطبقات ، ولم يشذ عنها مؤلف البتة بخلاف ذلك. وهذا القول يشمل كذلك عبارة : وكان يزيد غائبًاالتى حققنا أمرها من قبل فى الدراسة النقدية ، تبيَّن لنا أن هناك إجماعًا على أن يزيدًا كان غائبًا عن دمشق عند وفاة أبيه. وهذا هو نفسه ما عاد أبو مخنف فاشار إليه فى موضع آخر من روايته للأحداث التاريخية حسبما نقل عنه الطبرى ومن بعده ابن كثير(٩٠) .

ونمر بالفقرة الثانية مرورًا عابرًا وهى التى ذكر فيها عوانة أن معاوية دعا الضحاك بن قيس الفهرى صاحب شرطته ومسلم بن عقبة المرى فأوصى إليهما ، وذلك بالطبع لأنه قد سبق لنا التعريف بالضحاك ومسلم بن عقبة المرى فى الدراسة النقدية . هذا شئ والشئ الآخر أننا انتهينا بالأدلة والشواهد التاريخية إلى أن معاوية استودعهما الوصية مباشرة بخلاف ما جاء فى نص أبى مخنف من أن

معاوية بث الوصية روع ابنه يزيد مباشرة . وإذا استقام هذا فلننتقل إلى الفقرة الثالثة التى قال فيها عوانة عن معاوية للرجلين - الضحاك ومسلم - بلغا يزيد وصيتى : انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، فاكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

إن هذه الفقرة - وماتبعها من فقرات - لتؤكد دون ريب أى رجل كان معاوية . إنه وهو السياسى الذى عركته الأحداث والتجارب يعرف أن الحجاز مركز ثقل سياسى لا يُستهان به البتة ، كيف لا ، وهو موئل دولة النبوة والخلافة الراشدة ؟ كيف لا وهو : عش صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم ، الذين ينظر إليهم أهل الأمصار الإسلامية الأخرى بالتجلة والاحترام ؟ . ثم إن معاوية يعرف ويدرك أنه ما وصل إلى ماوصل إليه من السلطان والنفوذ إلا بعراقته الحجازية ، فهو القرشى المكى العبد منافى ، أى فى الذروة من بيوتات الحجاز . ومن هنا فليس فى الأمر غرابة أن يدل معاوية ابنه يزيد على البدهية ، وهى أن أهل الحجاز أصله ومعوله . ويزيد نفسه ليس فى حاجة إلى تذكيره بهذا. فهذه بدهية لا تستوقف أحدًا ، ولكن الأب السياسى والأب الباحث عن الرحم ، والمقدر لها حق قدرها لا يرى من تثريب فى أن يؤكد على ابنه القول ، حتى وإن كان بدهيًا مفروغًا منه . وللأمر اشباه ونظائر ، فالأب عندما يلح على إبنائه فى وصيته التى يتركها لهم على ضرورة التراحم وجمع الشمل ، مع أنه يعرف أن هذه أمور بدهية، فإنما يفعل ذلك زيادة فى التوثق(٩١) .

انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك ، فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . هذا هو ما كان يفعله معاوية مذ آلت إليه الخلافة أو إن شئت قلت الملك . لطالما كان يكرم من يقدم عليه من أهل الحجاز ، ولطالما بالغ فى ذلك مما كانت ألسنتهم تلهج به ، مما ذكرته لنا المصادر ورصدته ، ولطالما كان يتعاهد من غاب(٩٢) . وقصته مع عبد الله بن جعفر بن أبى طالب معروفة معلومة(٩٣) .

أجل هذا مايريده الأب من ابنه ، ثم إن شواهد التاريخ تدل على أن معاوية كان لا يسقط أهل الحجاز من حساباته السياسية بل كان حريصًا على ذلك . ومما يدل عليه أنه جاء بعد مضى سنوات من بدء خلافته التى نعرف أنها جاءت بعد أحداث عاصفة معروفة معلومة ، وفى وقت كانت الأمة ترى فيه أن هناك من هو أحق من معاوية بالأمر لمكانته وفضله وسابقته . جاء المدينة ليواجه الصحابة رضوان الله عليهم وأبناءهم بإلقاء بيان سياسى مهم جدًا يوضح كل معطيات الموقف ، بل تضمن نظرته الإستشرافية للمستقبل(٩٤) .

دليل آخر أنه عندما عزم على الإعلان عن بيعته لإبنه يزيد ، حرص على أن يستمزج رأى اهل الحجاز ، وهم هنا - أهل المدينة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين ، فبعث إلى عامله مروان بن الحكم بذلك ، ودارت بينه وبين عامله الكتب عن مواقف أهل المدينة من البيعة . ولمّا تبيَّن له أنَّ ثمة ممانعة ، حرص على المجئ بنفسه إلى المدينة ، وهذا ما حدث فعلاً سنة ٥٦هـ عندما جاء معتمرًا ، فقابل النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، فناقشهم وناقشوه طويلاً(٩٥) .

ونلوى صعودًا نحو الفقرة الرابعة ، وهى التى يقول فيها معاوية ... وانظر أهل العراق ، فإن سألوك إن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإن عزل عامل أحب إلىّ من أن تشهر ألف سيف .

رؤية أو فلسفة من فلسفات التاريخ السياسية عميقة أن تدع العاصفة تمر ، أو كما عبَّر عنها معاوية بنفسه : طأطئ لها تمر فتجاوزك(٩٦) ، أجل لا تثريب من التراجع عندما يقتضى الأمر ذلك ، ولا غضاضة من مسايرة الأحداث بحسب الواقع والزمان ، ولقد كان معاوية رضى الله عنه سيد هذه المواقف ، أليس هو صاحب المبدأ السياسى المشهور بشعرة معاوية(٩٧) ؟ وأليس هو نفسه الذى قال فيه وفى حقه الصحابى الجليل عبد الله بن عباس : قد عملت بم غَلَبَ معاوية الناس؟ كان إذا طاروا وقع وإذا وقعوا طار(٩٨) .

فمعاوية هنا يريد من ابنه أن يسمح للعاصفة أن تمر مادام أن هناك داعيًا لها. وملاحظة معاوية هذه لم تأت من فراغ ، فمعاوية الخبير بأحوال العراق ، القطر الهائج المائج آنذاك ، كان يقرا الأحداث بعين يقظة مفتوحة . ينظر فيرى قطرًا هائجًا مائجًا على عمَّاله . يرجع البصر كرة أخرى فيرى أن الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو من هو ، يعزل عمالاً له فى العراق لا لريبة فيهم ولا لشبهه . عمَّال من أمثال سعد بن ابى وقاص الصحابى الجليل وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، أبى موسى الأشعرى وأبى هريرة ، يعزلهم ، وهو الخبير بهم وبعدلهم ونزاهتهم . يفعل ذلك تهدئة للأحوال(٩٩) ، بل كان للفاروق عمر رضى الله عنه رأى مماثل فى عزل الولاة عن الكوفة بخاصة ، حتى لو اضطر الأمر إلى عزل عامل كل يوم(١٠٠) .

ومعاوية رضى الله عنه الذى وقف من الخليفة الراشدى الرابع على ابن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه ذلك الموقف الذى رصدته كتب التاريخ ، كان يعرف كم عانى رضى الله عنه من أهل العراق حتى ملَّهم(١٠١) . ثم كم عانى هو نفسه - أعنى معاوية - وعمَّاله من ثوارتهم من بعدُ فى العراق كثيرًا(١٠٢) .

ثم إن معاوية الذى كان يحلم على الشخص يواجهه بكلام شديد لا يصمد له إلاَّ الحليم من الرجال - وقد ذاع صيته بهذا ذيوعًا شديدًا(١٠٣) ، أليس بالحرى أن يكون حليمًا مع القطر ومع الرعية بصفة العموم ؟ .

هذه هى الرسالة التى أراد أن يوجهها لابنه ولولى العهد يزيد . أراد منه أن يكون سياسيًا ماهرًا لا يفلت الأمر من قبضته حتى لو استدعى الحال أن يعزل عن أهل العراق كل يوم عاملاً - وذلك بعيد - فليفعل ما دام الزمام بيديه . ثم تعال فانظر هذه العبارة ذات المغزى السياسى العميق : ... فإن عزل عامل أحب إلىَّ من أن تشهر عليك مائة الف سيف . حكمة بالغة . أن تعزل عاملاً هو بلاشك امر قد يوجد حالة من الاستقواء عند أهل ذلك القطر . فلربما رأوا فيه دليل ضعف

النظام ولربما استمرءوا ذلك ، ولكن لأن الهدف أكبر والمضمون أعمق فلا ضير ان يلبى الحاكم الدعوة بعزل عامل(١٠٤) أو عاملين أو ثلاثة ، بل حتى كل يوم - وهو بعيد ، وإنما هو للمبالغة والتهويل ، إذا استدعى الأمر ذلك لئلا تعم الفوضى وتشيع البلبلة ، وترفع سيوف وتعلو رماح . فالعزل قضية فردية ، أمّا الشغب ، وأمّا الفوضى فجماعية ، ومن هنا لا ضير من فعل ذلك تهدئة للأحوال وسداً للذارئع .

وأخيرًا يبدو أن عبارة : ... مائة ألف هذه حملت صيغة مبالغة . يبدو أنها كانت شائعة آنذاك فى الشارع العام .. نطالع سيرة الأحنف بن قيس التميمى، وقد اشتهر بالحلم هو الآخر ، فنجد فى وصفه أنه إذا غضب غضب له مائة ألف لا يسألونه فيم غضب . ولعل المفارقة هنا أن قائل هذه العبارة هو معاوية بن أبى سفيان نفسه ، وقد قالها لخاصته من كبار رجال الدولة لمّا سألوه عن هذا الرجل الذى يواجهه مواجهة شديدة ، فلا يملك معاوية إلا أن يدع العاصفة تمر(١٠٥) ، أوليس هو الذى يقول : إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا(١٠٦) .

ويقودنا التحليل إلى الفقرة الخامسة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : ... وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن نابك شئ من عدوك ، فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم . هنا رؤية سياسية ثانية يهديها الأب إلى ابنه . على أننا قبل أن نتحدث عنها ، نود الوقوف عند المعنى اللغوى لكلمتى : البطانة والعيبة ، فالبطانة : أصفياء الرجل يكشف لهم أسراره(١٠٧) أما العيبة : فهى من الرجل موضع سره ، يقال فلان : عيبة فلان أى موضع سره(١٠٨) . إذن فالأب يطلب من ابنه أن يكون اعتماده على أهل الشام وحدهم ، لأنهم أثبتوا له طاعة عمياء ، وانقيادًا تامًا . ولقد ذهبت الأمثلة بطاعة أهل الشام لمعاوية مذ جاءهم عاملاً على

بعض الشام ، حتى غدا خليفة أمضى معهم نحوًا من أربعين سنة ألقوا إليه بعصا الطاعة وخبرهم : خبر نفسياتهم وعرف مدى إخلاصهم له ولأسرته(١٠٩) . من هنا يؤكد عل ابنه أن يجعل أهل الشام محل سره واهتمامه وأن يثق فى وقوفهم إلى جانبه متى ما واجهه موقف ما ، وليثق بأنهم سيلبون نداءه ، فليوجهم إلى خصومه، ثم يعيدهم إلى شامهم حتى لا تتغير أخلاقهم . ولسنا ندرى هل هناك حالات فردية أو جماعية دلّت على ذلك ، أم هو التخمين والحدس فقط ؟ نقول هذا لأننا لم نعثر على دليل تاريخى حدث فيه هذا الذى يخوف ابنه منه . لا ندرى ولكن ربما يكون الحس السياسى الرفيع عند معاوية هو الذى دفعه إلى هذا .

على أننا قبل أن نغادر الحديث عن هذه الفقرة نريد القول بأنه بنهايتها ينتهى المتن الذى اختلف فيه نص عوانة عن نص أبى مخنف . وهنا نريد أن نقف وقفة عند أبى مخنف لنتساءل : لَمَ أهمل أبو مخنف الوصف الذى وصف به معاوية أهل الأمصار الثلاثة : الحجاز والعراق والشام ، أهى رغبتة فى بث صورة منفَرة لمعاوية تهيَج النفوس ضده فعمد إلى اظهار معاوية بمظهر العسوف المستبد ، ومن هنا أغفل هذه الرؤية السياسية الهادئة الصائبة ، وولج إلى وصف معاوية للرجال الذين خالفوه ، ثم سمح لنفسه بالتّزيد هنا والتّنقيص هناك ؟ لا ندرى ولكننا نجد قرينة ربما توضح ذلك ، هى التى جاءت فى صدر الوصية - برواية أبى مخنف بالطبع - أى تلك المتعلقة بالعبارات التى صدر بها أبو مخنف الوصية التى ساقها ، ربما للتدليل على عسف معاوية - من وجهة نظره هو - وهى : يابنى إنى قد كنت إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد .

مع أننا لا ننكر أن فى بعض هذه الأسطر شيئا كبيرا من الصحة ، ولكن اعتراضنا على إهمال ذلك النص واثبات هذه الأسطر وحدها . وننهى الحديث عن

هذه الفقرة بالتذكير بأن هذه الأسطر السالفة هى التى خلا منها نص عوانة بن الحكم حسبما ألمحنا إلى ذلك فى النقد .

ونسير مع الوصية فى فقرتها السادسة ، وهى التى يقول فيها معاوية لابنه : ... وإنى لستُ أخاف من قريش إلاّ ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير . الحقيقة أن هذه الفقرة لن تستوقفنا طويلاً ، فلقد سبق لنا القول بأن هذه الفقرة ، هى فاتحة التشابه بين نص عوانة ونص أبى مخنف ، ثم تليها الفقرات الثلاث الأخريات ، لكن ما لم نقله آنذاك أن الفقرات الأربع هذه وإن تشابهت فى النصَّين إلاّ إن التشابه ليس متطابقًا فيها جميعًا ، إذ ثمة اختلاف يسير بين رواية عوانة وأبى مخنف . وهكذا فإنه فيما يتصل بهذه الفقرة السادسة من نص عوانة نلاحظ أن ثمة اختلافًا بينها وبين الفقرة المماثلة فى نص أبى مخنف . فأبو مخنف يقول : ... وإنى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلاّ أربعة نفر من قريش : الحسين ين على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر . ففى الحين الذى جاء نص عوانة يقول : إنى لست أخاف من قريش إلاّ ثلاثة ، جاء نص أبى مخنف بزيادة انحصرت فى أمرين هما : الإشارة بالقول إلى أنه لا يتخوف أن ينازعه الأمر الذى استتب له ، ثم الإشارة إلى أنهم أربعة نفر . ولقد أكدنا فى النقد أن الصواب أنهم ثلاثة لا أربعة كما زعم أبو مخنف .

وإذ وضح هذا فلنمض نحو الفقرة السابعة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد بعد أن ذكر له الثلاثة نفر الذين يخافهم عليه : ... فأمَّا ابن عمر ، فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسًا قبلك . فى البدء لابد من الإشارة إلى أن ثمَّة اختلافا يسيرًا كذلك بين نص عوانة هذا ونص أبى مخنف . فأبو مخنف يقول : ... فأمَّا عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، وإذا لم يبق غيره بايعك .

وإذا تركنا هذا فلنمض فى تحليل فقرة عوانة . المعروف فعلاً أن عبد الله بن عمر والحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر قد امتنعوا عن البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية ، ولئن غيب الموت عبد الرحمن بن أبى بكر قبل أن يصدر معاوية وصيته لابنه يزيد فإنّه ما زال يستشعر الخطر على ابنه من مواقف هؤلاء الثلاثة النفر من سادة الصحابة . على أنه يطمئن ابنه يزيد من ابن عمر الصحابى ابن الصحابى ، وهو الرجل الذى وقذه الدين ، أى غلبه . وهو المعنى اللغوى لعبارة وقذه(١١٠) الدين ، وهذه حقيقة فلقد انصرف ابن عمر رضى الله عنهما إلى الدين والعبادة بكلّيته ، وكثيرة هى المواقف التى وضح فيها زهده رضى الله عنه فى المناصب والسلطان(١١١) . ومعاوية بتفهمه لنفسيات الرجال إدرك أن ابن عمر الذى غلبه الدين والعبادة لن يكون له خطر على يزيد ، وربما يريد الأب من ابنه أن يحرص على عدم استعداء هذا الرجل كبير الشأن عند المسلمين(١١٢) .

وننتقل بعد هذا إلى الفقرة الثامنة من نص عوانة التى يقول فيها : وأمّا الحسين بن على فإنه رجل خفيف ، فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وإن له رحمًا ماسة وحقًا عظيمًا وقرابة من محمد ﷺ . ولا أظن أن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه .

لابد لنا من التذكير كذلك إلى أنه على تشابه هذه الفقرة مع الفقرة المماثلة من نص أبى مخنف إلاّ أن ثمّة اختلافا كذلك بينهما ، ففقرة أبى مخنف : .. وأمّا الحسين بن على فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه . يلاحظ هنا انه على التّطابق فى ذكر حدس معاوية من تأثير أهل العراق فى الحسين فى موضوع الخروج ، فإن هذا الحدس جاء فى صدر فقرة أبى مخنف ، فى حين جاء عند عوانة فى آخر الفقرة . هذا شئ والشئ الآخر أن هناك تطابقًا فى موضوع الرحم والحق العظيم للحسين ، وكذلك موضوع الصفح . ويبقى بعد ذلك الإشارة إلى الزيادة

فى نص عوانة ، وهى المتمثلة فى قول معاوية عن الحسين ، فإنه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، ثم زيادة جملتين وهما ... وقرابة من محمدﷺ ، وكذلك : فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه . هذا من ناحية الشكل، فإذا دلفنا نحو تحليل فقرة عوانة ، لرأينا معاوية يخوف ابنه يزيد من خروج الحسين بن على رضى الله عنهما عليه ، ومامن شك إن الحسين رضى الله عنه لم يكن راضيًا عن بيعة يزيد وتترجم ذلك فى الموقف الذى وقفه هو وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن ابن أبى بكر من هذا الموضوع وجاهروا به معاوية(١١٣) .

ومعاوية هنا يمضى فيبين مخاوفه من أن الحسين رضى الله عنه ربما خالف يزيدا وخرج عليه ومع توقعه من أن شيئًا من ذلك قد يحدث إلا أنه يطمئن ابنه أن أهل العراق سوف لن يمضوا طويلاً فى تأييدهم للحسين . ولقد ساق إليه موقفين سابقين لأهل العراق مع على بن أبى طالب والد الحسين ، والحسن بن على أخيه، وكلاهما يوضحان مواقف أهل العراق منهما(١١٤) . فمعاوية هنا يطمئن ابنه بأنه حتى لو حدث شئ من ذلك فلا يجزع . ولكن الأهم عند معاوية أن يرعى يزيد حق الحسين وصلته بالرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ثم يُشدِّد عليه بأن يصفح لو حدث شئ مما يتخوفه ، ويؤكد عليه أنه لو حدث هذا فى أيامه هو، فإنه سيبادر إلى الصفح إرعاء لحق الحسين ورحمه .ونختم بالقول إن هذا ليس بمستغرب من معاوية ، فالرجل يعرف من هو الحسين بن على ، ثم أنه يرى وهو السياسى المحنك إن الحكمة كل الحكمة والحنكة كل الحنكة تكمن فى تجاوز الأمر، فياليت يزيدًا فعل هذا فى تلك الأحداث المعروفة المعلومة .

ونخلص إلى الفقرة التاسعة والأخيرة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : ... وأما ابن الزبير ، فإنه خب وضب ، فإذا شخص لك فالبدله إلا إن يلتمس منك صلحًا فإن فعل فأقبل واحقن دماء قومك ما استطعت .

وقبل أن نمضى فى تحليل الفقرة لابد إقتضاء لما سرنا عليه - من ملاحظة الفروقات بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف ... ففقرة أبى مخنف تقول فى موضوع عبد الله بن الزبير : ... وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربًا إربًا. يلاحظ فرقًا واضحًا من حيث الشكل ومن حيث المضمون ، وإذا كنا قد فندنا هذه الفقرة مضمونًا فى النقد فإن مما لا فائدة منه إن نبحث عن التشابه بين الفقرتين من حيث الشكل ، فالفرق بينهما جد واضح . على كل حال فلندع هذا ولنمض فى تحليل فقرة عوانة . فى البدء يصف معاوية لابنه يزيد ، عبد الله بن الزبير بالخب والضب . أما الخب فى اللغة فهو خَبَّ خبًا : خدع وغش ، فهو خَبْ(١١٥) . وأما الضب فإن من معانيه : الحقد والغيظ الكامن فى الصدر ، ويقال رجل خب ضب : مراوغ خداع(١١٦) . وإذا ما تركنا هذا المعنى اللغوى لكلمتى : الخب والضب إلى التحليل ، لقلنا إنه سبق لمعاوية أن وصف عبد الله بن الزبير بهذا الوصف(١١٧) وكأنه كان يتحسس إن ابن الزبير رضى الله عنه سيكون له موقف مشهود من يزيد ، لذا طلب منه أنه إذا شخص إليه ، أى خرج عليه كما هو معنى الكلمة اللغوى (١١٨) فاليلبد له أى : فاليلصق به إلصاقًا شديدًا ، وهو المعنى اللغوى لكلمة : لَبَدَ(١١٩) .

إن معاوية يحذر ابنه من ابن الزبير تحذيرًا واضحًا فيدعوه إلى عدم التهاون فى الأمر اللهم إلا إن يجنح إلى الصلح ، فإن فعل فليقبل منه ذلك وكأنه يشدد عليه فى هذا ، وهو ما تدل عليه عبارة : وأحقن دماء قومك ما استطعت . نعم إنه معاوية الذى نعرفه صاحب السياسة الهادئة وصاحب المواقف التى تتفاوت : رغبة ورهبة ، الميالة إلى الإغضاء والتسامح ، هذا هو الدرس الذى طلب من أبنه أن يعيه ويحتذيه مذكرًا أياه بضرورة الحرص على الدماء من أن تسفك بكل ما

أوتى من سعة صدر ورحابه فؤاد ، وشتان بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف القاسية الملتهبة .

* * *

وبعد فهذه هى وصية معاوية لابنه وولى عهده يزيد ، وقد أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلة . ولعل القارئ يلحظ أننا سرنا بحذر شديد - وهذا ما نحسبه إن شاء الله - فى كل ما يتعلق بأراء الصحابة : معاوية والنفر الذين امتنعوا عليه فى بعضهم بعضًا ، فعلنا ذلك لئلاً تزل قدم بعد ثبوتها . وهذا هو المطلوب من المسلم أن يمسك عما شجر بين الصحابة ، وعن آرائهم فى بعضهم(١٢٠) بعضًا . هذا شئ والشئ الآخر لعل القارئ لاحظ كذلك أننا ركزنا جهدنا على تحليل الوصية فى فقراتها المختلفة داخل إطار عهد معاوية وحده دون أن نقف عند عهد يزيد والأحداث التى وقعت خلاله ، والدور الذى اضطلع به كل من الحسين بن على رضى الله عنهما ، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فى تلك الأحداث . ذلك لأن الموضوع يخرج بنا عن الهدف الأساسى للدراسة النقدية لوصية معاوية .

الهوامش والتعليقات

(١) تشكل الوصايا - جمع وصية - محورًا أو غرضا مهمًا من فنون الأدب وبحسب القارئ أن يلقى نظرة فاحصة على المؤلفات التى عالجت قضايا الأدب وفنونه ليجد الوصايا تمثل مكانًا رفيعًا فى تلك المؤلفات . وهى - أى الوصايا - بشتى نواحيها : الدينية والأسرية والسياسية ، تشكل هذا المحور، أو اللون الأدبى . ولعل تعريفها الإصطلاحى الأدبى يشى بذلك ، فهى : قول يراد به الترغيب فيما ينفع وعما يضر ، وتكون لقوم معينين فى زمن معين كوصية الرحل لأهله عند النقلة أو الموت .

انظر للدلالة على اندراج الوصايا ضمن قضايا الأدب أو فنونه مثلاً : أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربى ، منشورات دار نهضة مصر ، القاهرة ، الطبعة الخامسة والعشرون - الفهرس ، وعن التعريف الأدبى الإصطلاحى للوصايا ، انظر ص : ١٨ - ١٩ .

صادر ، بيروت ، ١٩٥٥م ، ١٥ مجلدًا ، المجلد ١٥ ، ص : ٣٩٤ .

(٢) يقول ابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر، طبعة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءًا ثم مجلد للفهارس . المجلد الرابع ، الجزء الثامن ، ص : ١٦ - ١٧ ، ١٣٥ يقول : والسنة أن يقال لمعاوية رضى الله عنه : ملك ولا يقال له خليفة ، لحديث سفينه مولى رسول الله ﷺ الذى رواه عنه ﷺ وهو : خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتى الله الملك من يشاء ، والمعلوم أن الرسول ﷺ توفى سنة إحدى عشرة من الهجرة فى شهر ربيع الأول ، وتنازل الحسن بن على لمعاوية عن الخلافة فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين " الذى عُدَّ عام الجماعة الأول " ، فكان ذلك كمال الثلاثين سنة لخلافة النبوة ، وهو من دلائل نبوته ﷺ .

(٣) عن وصايا الخلفاء الراشدين لمن سيخلفهم ، انظر مثلاً : رفيق العظم : كتاب أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة " سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر فى دولتهم " منشورات دار الرائد العربى ، بيروت ، ط ٦ ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ، مجلدان ، ٤ أجزاء ، الجزء الأول : ص١٣٥ حيث الإشارة إلى وصية أبى بكر الصديق لعمر بن الخطاب خليفته من بعده ، الجزء الثانى ، ص : ٤٧٩ حيث الإشارة إلى وصية الصديق لمن يخلفه دون تحديد للاسم.

(٤) نشرته دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، والجملة المستقاة من الكتاب وردت فى ص : ٢٨ .

(٥) ليس بإطلاق - كما لاخفاء - فقد يحل بالخليفة عارض من مرض أو موت ، أو يحدث فى الإسلام حدثًا يوجب خلعه أو عزله .

عن الخلافة وشروطها المعتبرة . والصفات المعتبرة واجبة التوفر فى الخليفة ، انظر الماوردى (ت : ٤٥٠هـ) : الأحكام السلطانية ، عنى بتصحيح السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى ، ط١ ، ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩ ، ص: ٦-٨ ، ١٨ ، ٢١ .

(٦) يكفى أن نقف عند مؤرخ قديم واحد هو الذهبى وباحث محدث هو : هو محمد منير الغضبان الذ كتب كتابًا بعنوان : معاوية بن أبى سفيان صحابى كبير وملك مجاهد ، سعى فيه إلى أن يسير على منهج المحدثين فى نقد الرواية سندًا ومتنًا . أقول يكفى أن نشير إلى هذين المؤلفين لنرى كثرة النصوص الدالة على حنكة ودهاء معاوية من خلال أقواله وأفعاله .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، مجلد ٤ ، جـ٨ ، ص : ٢١ ، ١١٨ ، ١٢٤ حيث التأكيد على ولايته لدمشق فقط .

(٨) ابن كثير نفس المصدر والمجلد والجزء أعلاه ، ص : ١٢٤ ، حيث التأكيد على أنه تولى الشام كلها فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٩) ابن كثير : نفسه ، ص ٢١ حيث الإشارة إلى أن توليه الخلافة سنة ٤١هـ، ص : ١٣٦ ، ١٤٣ حيث الإشارة إلى وفاته سنة ٦٠هـ .

(١٠-١٢) لاتنفرد الوصية السياسية بهذه الخصيصة ، بل تشترك معها الوصية الشرعية فى ذلك ، ومن المعروف أن الوصية مشروعة ابتداء ، ومشروعة أكثر فأكثر عند الموت ، وهناك نصوص قرآنية ونبوية طافحة بهذا الندب الشرعى ، المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص٤١٤ - ٤٢٢ .

من ذلك الوصية التى وجهها الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور قبل وفاته لابنه وقد توفى المنصور سنة ١٥٨هـ ، وهى السنة التى كان قد حج فيها ، وعن هذه الوصية وظروف توجيهها ، انظر الطبرى (ت : ٣١٠) : تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، منشورات التراث العربى ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء ، الجزء الثامن ، ص١٠٢ - ١٠٤ .

ومن ذلك أيضًا الوصية التى وجهها المنصور بن أبى عامر لابنه عبد الملك ، انظر ابن بسام الشنترينى (ت : ٥٤٢هـ) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ط١ ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص : ٧٦ - ٧٨ حيث الإشارة إلى الظروف المحيطة التى أملت على المنصور توجيه وصيته لابنه عبد الملك مباشرة .

(١٣) الضحاك بن قيس بن خالد الفهرى . قال البخارى : له صحبة ، وكان ذا خاصة بالخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وتولى له ولاية بعض المدن بالإضافة للشرطة ، قتل فى موقعة مرج راهط التى حدثت سنة ٦٤ أو ٦٥ للهجرة بين أنصار عبد الله بن الزبير وانصار مروان ابن الحكم .

راجع ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الثالث ، ص : ٤٧٩. كذلك راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ٢٤١ وما بعدها .

(١٤) مسلم بن عقبة بن رباح المرى " وعند ابن كثير : المزنى " أبو عقبة ، قائد من القادة القساة الفتاك فى عهد يزيد بن معاوية ، وكان مع معاوية من قبل فى معركة صفين ، عهد إليه يزيد بقيادة الجيش الأموى الذى وجّهه لأهل المدينة الذين خرجوا عليه ، فجاء فخاض مع أهل المدينة الوقعة المشهورة المعروفة بموقعة الحرة سنة ثلاث وستين للهجرة .انظر الزركلى : الإعلام - تراجم الرجال النساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠م ، ٨ مجلدات السابع ، ص : ٢٢٢ .

(١٥) انظر نص الوصية عند الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ ، حيث الإشارة الصريحة إلى أن معاوية لما حضره الموت ، وجه وصيته لابنه يزيد ، الذى كان غائبًا عن دمشق وقتها .

(١٦) أبو محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٦هـ ، عالم لغوى محدث فوق كونه مؤرخًا . له العديد من الكتب المهمة كعيون الأخبار ، والمعارف ، وأدب الكاتب ، ومشكل القرآن ، وكتاب مختلف الحديث انظر : عبد الحميد سندى الجندى : ابن قتيبة العالم الناقد الأديب، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى للتأليف والترجمة والطباعة والنشر تحت إعلام العرب (رقم ٢٢) القاهرة ، ١٩٦٣م ص ١٦٩ - ١٧٣ ، ثم انظر كذلك : عبد الله عبد الرحيم عسيلان : كتاب الإمامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ .

(١٧) نستدرك هنا فنقول : نعم وجدَتْ عند أبى حنيفة الدينورى ، صاحب الأخبار الطوال ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ إلا أنه أوردها - أعنى الوصية - متداخلة فى نصيها ، أى نص أبى مخنف ، ونص عوانة بن الحكم مع إسقاط السند .

انظر الدينورى (ت : ٢٨٢هـ) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى - الإدراة العامة للثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ، ص : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(١٨) انظر ، شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون - دراسة فى تطور علم التاريخ ومعروفة رجاله فى الإسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٣م جزءان ، الجزء الأول ، ص : ٧٤ وما بعدها وكذلك انظر محمد الزحيلى : الإمام الطبرى شيخ المفسرين وعمدة المؤرخين ومقدم الفقهاء المحدثين ، صاحب المذهب الجريرى ، منشورات دار القلم ، دمشق ، بحث فى سلسلة أعلام المسلمين (رقم ٣٣) ط١ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

(١٩) يورد الذهبى فى أعلام النبلاء ، جـ٣ ، ص١٥٩ فى معرض سياق ترجمة معاوية رضى الله عنه يورد نصًا من ٣ أسطر ، عن وصيَّة أخرى لمعاوية تختلف اختلافًا كبيرًا عن الوصية التى نعنيها بنصيَّها معًا ، وذلك نقلاً عن الواقدى ، ولكن هذه الوصية لم يشر إليها أحد من المؤرخين الكبار على خلاف الوصية التى أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلية التى أشار إليها عدد من كبار المؤرخين حسبما بيَّنا فى المتن . أخيرًا يورد الذهبى فى نفس ترجمته لمعاوية، ص: ١٦٠ نصًّا يفهم منه أن معاوية رفض أن يوصى . وهذا خلاف المشهور .

(٢٠) الواقع إننا لسنا معنيين هنا مباشرة بالحديث عن عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد بالخلافة . وهى القضية التى أفرزت مسألة ولاية العهد لأول مرة فى التاريخ الإسلامى ، كما أننا لسنا معنيين بمناقشة الأقوال التى دارت حول فعل معاوية رضى الله عنه ، والموقف منه ، ويكفى أن نشير إلى أن ثمة أقوالاً ، دارت حول هذه القضية بين معترض عليها وبين مؤيد لها ، وفريق - وهم علماء الأمة ومؤرخوها الثقات - ذكروا أن معاوية رضى الله عنه كان فيها مجتهدًا . وللوقوف على هذه الأقوال يكفى أن نحيل القارئ إلى كتاب : تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى أو إفادة الأخبار ببراءة الأبرار لمحمد العربى التبانى الذى نشرته دار الكتب العلمية بيروت ط٢ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م فى جزئين ، الجزء الثانى ، ص : ١٨٩ - ٢٠٠ حيث الإشارة إلى التحقيق الأصولى لهذه القضية وكذلك راجع محمد منير الغضبان : معاوية بن أبى سفيان - صحابى كبير وملك مجاهد ، ص : ٣٠٨ - ٣٢٠ ، وفيها تحقيق تاريخى وأصولى جيد فى معظمها .

(٢١) تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ .

(٢٢) نفسه ، ص : ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢٣) راجع تعريف الوصية فى الأدب ، قبل ، ص : ٣٩ ، حاشية (١) .

(٢٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، المجلد الأول ، الجزء الأول ص : ١٧١ .

(٢٥) رفيق العظم : اشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة ، جـ١ ، ص : ٨٣٥ جـ٤ ، ص : ٤٨٩ .

(٢٦) ابن كثير : نفسه ، ص : ٦٧ .

(٢٧) ابن كثير : نفسه ، ص : ١٨٢ .

(٢٨) عن الوضع والوضّاعين ، وعن هذه المنهجية العلمية الأصيلة التى أهداها المسلمون إلى مسيرة الحياة العلمية بخاصة ، والحضارية بعامة ، وما اقتضاه ذلك من نشوء علمى مصطلح الحديث ، والجرح والتعديل ، انظر مثلاً :

مصطفى السباعى : السنّة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ، منشورات المكتب الإسلامى ، بيروت - دمشق . ط٤ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الفصول ٢،٣،٤،٥، ص : ٧٥ - ١٣٢ - صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١٥ ، ١٩٨٤ ، ص٢٦٣ - ٢٧٣ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط١٠ ، ١٩٦٩م ، ص : ٢٠٨ - ٢١٩ ، ٢٢١ - ٢٢٤ .

(٢٩) الدعوة إلى إعادة صياغة التاريخ الإسلامى وفق قواعد المحدثين - ما أمكن ذلك - انطلقت من فترة ليست بالطويلة من أناس غيورين ، ثم طرحت على هيئات وتنظيمات عالمية إسلامية ، وفى المملكة العربية السعودية أخذت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة على عاتقها توجيه طلاب الدراسات العليا التاريخية بها ، إلى إجراء دراسات تاريخية تطبيقية وفق قواعد المحدثين لفترة صدر الإسلام .

وللتوسع والاستزادة عن هذا الموضوع راجع : محمد بن صامل العليانى السلمى : منهج كتابة التاريخ الإسلامى مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين ، منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ط١ ١٤٠٦/١٩٨٦م ، ص : ٨ - ١٤ وراجع كذلك ، أكرم ضياء العمرى : المجتمع المدنى فى عهد النبوة : خصائصه وتنظيماته الأولى .. محاولة لتطبيق قواعد المحدثين فى نقد الروايات التاريخية ، منشورات المجلس العلمى لإحياء التراث الإسلامى بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ ، ص : ٩ - ٣١ .

(٣٠) ساق ابن النديم (ت ٣٨٠هـ) : الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ص : ١٣٦ - ١٣٧ ترجمة طويلة مسهبة لأبى مخنف، اكتفينا منها فقط بما تم إيراده فى المتن .

(٣١) هذا الباحث هو : يحيى بن إبراهيم بن على اليحيى الذى أعدّ رسالته للماجستير بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان : مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة - دراسة نقدية ، وقد نشرت هذه الرسالة بهذا العنوان ، دار العصمة ، الرياض، ط١ ، ١٤١٠هـ .

(٣٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ، حـ٧ . بتحقيق على أبى زيد ، ص : ٢٠١ ، هذا ما أشارت إليه أكثر مصادر التاريخ ، بيد أن ابن حجر العسقلانى يؤكد على أن وفاته كانت سنة ١٥٨هـ . انظر ابن حجر (٨٥٢هـ) : لسان الميزان ، منشورات دار الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م ، ٧ أجزاء ، حـ٤ ، ص : ٣٨٦ .

(٣٣) الجزء العاشر بتحقيق محمد نعيم العرقسوس ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣٤) ابن حجر : تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، جزءان ، دون سنة للطبع ، الجزء الأول ص : ٥٢٤ ، وفى كتابه تهذيب التهذيب تفصيل كبير فى ترجمة عبد الملك ، ولعلنا نعود إليها فيما بعد ، انظر ابن حجر : تهذيب ، منشورات دار مطبعة مجلة دائرة المعارف النظامية فى الهند (حيدر آباد) ط١ ، ١٣٢٦هـ ، ١٢ جزء ، حـ٦ ، ص : ٤٢٨ .

(٣٥) ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) : الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند - ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء ، الجزء السابع ، ص: ١٨٢

(٣٦) ابن عدى (ت ٣٦٥هـ) : الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء ، الجزء السادس ، ص : ٩٣ .

(٣٧) نفس الجزء والصفحة أعلاه .

(٣٨) حقّقه على محمد البجاوى ، ونشرته دار المعرفة ببيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م فى ٤ أجزاء ، والعبارة المشار إليها فى المتن وردت فى الجزء الثالث ، ص : ٤٣٠ .

(٣٩) الجزء السابع ص : ٣٠١ - ٣٠٢ بتحقيق على أبى زيد .

(٤٠) البَابَه : الوجه ، وقد علّق محقّق الجزء السابع من سير أعلام النبلاء على أبى زيد على الحاشية رقم ٢ ص : ٣٠٢ أن مراد الذهبى هنا أن أبا مخنف مساوٍ للثلاثة الذين ذكرهم فى ترجمته لأبى مخنف فى الضعف والمنزلة ، وقد عاد المحقق فى تحقيق معنى البابة اللغوى لابن السكيت فى كتابه : إصلاح المنطق .

(٤١) سيف بن عمر الضبى الأسدى ، ويقال التميمى البرجمى ، ويقال السعدى الكوفى مصنّف الفتوح والردة (أى أخبار الردة) وغير ذلك .

للمزيد من الترجمة له وأقوال علماء الجرح والتعديل فيه ، انظر الذهبى ، ميزان الاعتدال، حـ٢ ، ص : ٢٥٥ .

(٤٢) عبد الله بن عياش الهمدانى المنتوف ، توفى سنة ثمان وخمسين ومائة ، إخبارى صدوق كما قال الذهبى ، ميزان الاعتدال ، حـ٢ ص : ٤٧٠ حيث نقلنا عنه .

(٤٣) منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر المحمية ، ١٣٢١هـ ، جزءان وبهامشه الكتاب المسمى بيان موافقه صريح المعقول لصحيح النقل ، له نفسه أى لابن تيمية ، والنص المنقول فى المتن ورد فى الجزء الأو ص : ١٣ .

(٤٤) منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، ص : ١٧ وما بعدها .

(٤٥) إسحاق بن بشر ، أبو حذيفة البخارى صاحب كتاب المبتدأ . توفى سنة ٢٠٦هـ ، كما يقول الذهبى فى ميزان الاعتدال ، حـ١ ص١٨٤ - ١٨٦ حيث عقد له بجانب هذا التعريف ترجمة طويلة - إلى حد ما - حشاها بعبارات علماء الجرح والتعديل ، مثل : تركوه أى علماء الجرح والتعديل ، وكذّبوه ، وكذلك ضعيف ... إلخ .

(٤٦) الجزء الرابع ، ص : ٣٨٦ .

(٤٧) ص١٣٤ .

(٤٨) منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م منقّحة ومصحّحة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ، ٢٠ جزءًا ، مجلد ٨ ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٦ - ١٣٩ .

(٤٩) الجزء السابع ، ص : ٢٠١ .

(٥٠) حققّه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار الكتب العلمية . بيروت ، دون سنة للطبع-٤ أجزاء ، الجزء الأول ، ص:١٧٦.

(٥١) منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات ، المجلد الأول ص : ٢٤٣ .

(٥٢) الجزء السابع ص : ٢٠١ .

(٥٣) الجزء الرابع ، ص : ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٥٤) الجزء العاشر ، ص : ١٠١ - ١٠٣ .

(٥٥) الجزء الثانى ، ص : ٥٢٤ .

(٥٦) راجع مقدمة ابن حجر فى كتابه تقريب التهذيب ، حـ١ ، ص : ٣ - ٧ حيث الإشارة إلى منهجه .

(٥٧) ص : ٨٨ أ .

(٥٨) المرجع السابق ، ص : ١٤٠ .

(٥٩) راجع الحاشية ص ٤٩ .

(٦٠) المصدر السابق ص : ١٣٤ .

(٦١) المجلد الثامن ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٨ .

(٦٢) عن الإخباريين وميولهم والتدوين التاريخى وما نتج عنه من نشأة المدارس التاريخية، راجع أحمد أمين: ضحى الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط ١٠، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء ، جـ٢ ص : ٣٣٨ - ٣٤٢ . شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ، الجزء الأول ، الفصول ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ولا سيما الفصل الخامس. ص : ١٦٩-٢٠٠.

(٦٣) المرجع السابق ، والجزء أعلاه ، ص : ١٨٠ .

(٦٤) كتب كثير من الباحثين المحدثين عن هذه العلاقة بين الأمويين وقبيلة كلب اليمنية منذ أن بدأت هذه العلاقة بزواج الخليفة الأموى المؤسس معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه من ميسون بنت بحدل الكلبية وهى أم ابنه يزيد .

للاستزادة عن هذا الموضوع راجع مثلاً ، محمد الطيِّب النجار:الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ، ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة .ط٣ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص:١٣٨-١٤٠ ، يوسف العش . الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهَّدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص : ١٨٤-١٩٢.

(٦٥) أى أنصار عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، الذين روَّجوا لدعوته ، ثم أيَّدوا مواقفه سواء بالتأييد الحسى أو بالتأييد المعنوى عن طريق كتابة الروايات عن أحقيته بالخلافة ، راجع محمد الطيِّب النجار : المرجع السابق أعلاه ، ص : ٧٥ وما بعدها ، على حسن الخربوطلى : عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والأنباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤م، ص : ٢٥٨ وما بعدها حيث الإشارة إلى التيار المؤيِّد لعبد الله بن الزبير رضى الله عنه من الأدباء وغيرهم .

(٦٦) ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ٦ ، ص : ٤٢٨ .

(٦٧) ابن حجر : ابن حجر : نفس المصدر أعلاه ، جـ١٠ ، ص : ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٦٨) حُوَّارين : بالضم وتشديد الواو ، قرية من قرى حلب معروفة ، وحُّوارين : حصن من ناحية حمص .

ياقوت الحموى / معجم البلدان ، منشورات دار صادر بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء ، الجزء الثاني ، ص : ٣١٥ - ٣١٦ . ويبدو أن حُوَّارين الثانية ، أى الحصن الذى من ناحية حمص ، هو المقصود هنا ، على خلاف تلك القرية من نواحي حلب البعيدة عن دمشق كثيرًا . وهى التى مات بها يزيد .

(٦٩) بجانب ما كتبه الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، جـ٣ ، ص : ١٦١ - ١٦٢ فى ترجمته لمعاوية بن أبى سفيان من تأكيد على أن يزيدًا كان خارج دمشق فى حُوَّارين ، عاد فذكر الأمر نفسه فى الجزء الرابع ص : ١٣٦ فى ترجمته ليزيد ابن معاوية وقد أكّد على ذلك أيضًا ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) : الكامل فى التاريخ ، عُني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الكتاب العربى بيروت ط٢ ، ١٤٠٠/١٩٨٠م ١٠ أجزاء ، الجزء الثالث ، ص : ٢٦٠ حيث عبارات التأكيد التى ختمها بقوله : وهو الصحيح . ثم أكّد ابن كثير كذلك عليه حسبما أكّدنا فى المتن . فى المجلد الرابع ، الجزء الثامن من المصدر السابق ص: ١٤٣ وقال هو رأى الجمهور .

(٧٠) انظر ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م، ٧ أجزاء الجزء الثالث ، ص : ٤٦٦ - ٤٦٩ .

ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الرابع : ص ٣٢٥ - ٣٢٨ ، وانظر كذلك ابن عبد البر (ت ٤٦٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص : ٣٩٤ .

(٧١) نفسه ، ص : ١١٥ .

(٧٢) ابن كثير : نفسه ، ص : ٧٩.

(٧٣) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، الجزء الثانى ، ص : ٤٧١ - ٤٧٣ مع الحواشى ، ابن حجر : الإصابة ، القسم الرابع ، ص : ٣٢٨ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ٩٠ .

(٧٤) نفس المصدر أعلاه والجزء ص : ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٧٥) انظر ابن حجر : نفسه ، ص : ٣٢٨ .

(٧٦) ابن كثير ، نفسه ، ص : ٧٩ - ٨٠ . وعنده أن عدد النفر الذين امتنعوا عن إعطاء البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية خمسة ، هم أولئك الذين ذكرناهم فى المتن ، إضافة إلى عبد الله بن عباس . وهذا خلاف المشهور والراجح عند المؤرخين من أنهم أربعة .

(٧٧) انظر إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد المجيد ومحمد على النجار : المعجم الوسيط ، إشراف عبد السلام هارون ، منشورات دار إحياء التراث العربى ، المكتبة العلمية ، طهران ، دون سنة للطبع ن جزءان ، الجزء الأول ، ص : ١٠٧ .

(٧٨) انظر النويرى : نهاية الأرب ، جـ٩ ، ص : ٢٢٩ حيث الإشارة إلى عادات وصفات الأسود .

(٧٩) إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط جـ١ ، ص : ٣٨٤ .

(٨٠) انظر النويرى : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص : ٢٧٩ حيث الإشارة إلى صفات الثعالب .

(٨١) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفس المعجم والجزء أعلاه ص : ١٢ .

(٨٢) حجر بن عدى بن معاوية بن جبلة الكندى ، يعرف بحجر بن الأدبر ، وحجر الخير ، اختلف فى صحبته ، والأشهر أنه صحابى ، كان من كبار أشياع الخليفة على بن أبى طالب،قتل سنة ٥١ وقيل ٥٣هـ، بأمر من معاوية. ابن حجر، نفسه ، القسم الثانى،ص: ١٦٨.

(٨٣) مقتل حجر رضى الله عنه بأمر معاوية رضى الله عنه من القضايا التى يحسن بنا أن نمسك عنها ، إذ أننا لسنا معنيين بالتدخل فيما شجر بينهما - أى الصحابة - من الخلاف - ولقد لامت السيدة عائشة رضى الله عنها معاوية لفعله ذلك ، فوضّح لها أنه رأى فى ذلك إصلاحًا للأمة . انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٥٥ .

(٨٤) راجع خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى، منشورات دا القلم ودار الرسالة ، بيروت ودمشق ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص : ٢١٥ وما بعدها وإسنادها صحيح .

(٨٥) انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٨٥ .

(٨٦) راجع خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص : ٢١٧ .

(٨٧) كتب كثير من العلماء والمؤرخين الثقات عن فضل ومكانة الصحابة رضوان الله عليهم وما الموقف الذى يجب أن نقفه ممّا شجر بينهم من خلاف كانوا فيه بين مجتهد مصيب ، ومجتهد مخطىء متأول وقد أُلّفت فى ذلك بعض الكتب .

للوقوف على هذا الموضوع ، راجع محمد العربى التبانى : تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى ، جـ١ ، ص : ٣٦ - ٤٣ ، ١٧٨ - ٢١٨ ، جـ٢ ، ص : ٢٦ - ٢٨ ، ٥٦ - ٨٧، حيث فيه جماع أقوال علماء السلف فى ذلك . وانظر كذلك محمد صامل السلمى : منهج كتابة التاريخ الإسلامى ص : ١٨٩ - ٢٦٩ .

(٨٨) ابن العربى (ت : ٥٤٣هـ) : العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ ، خرَّج أحاديث وعلّق عليه محمود مهدى الاستانبولى ، حقّقه وعلّق حواشيه محب الدين الخطيب ، ص : ١٣٩ حيث استلت هذه العبارة من تعليقه - أى محب الدين الخطيب - .

(٨٩) انظر مثلاً ابن حجر : لسان الميزان ، جـ٤ ، ص : ٣٨٦ .

(٩٠) نفسه ص : ١٤٣ .

(٩١) من أشهر الوصايا فى هذا الصدد وصية عبد الملك بن مروان لإبنائه ، عن هذه الوصية انظر ابن كثير ، نفسه ، ص : ٨٥ .

(٩٢) انظر هذه الحالات والمواقف عند ابن كثير : نفسه ، ص : ٣٧ ، ٤٢ ، ٩٤ ، ١٣٢ ، ١٣٧ - ١٣٨ . وقد ألّف أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد إبراهيم الشريف مؤلّفا بعنوان : دور الحجاز السياسى فى القرنين الأول والثانى الهجريين .

(٩٣) انظر بن كثير : نفسه ، ص : ١٣٧ - ١٣٨ .

(٩٤) كان ذلك فىسنة٤٤هـ على الأرجح. راجع ابن كثير: نفسه ، ص١٣١-١٣٢.

(٩٥) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص : ٢١٣ - ٢١٥ .

(٩٦) انظر ابن كثير ، نفسه ص : ١٣٥ .

(٩٧) قال معاوية : .. لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل كيف يا أمير المؤمنين ، قال : كانوا إذا مدُّوها خليتها ، وإذا خلوها مددتها .

راجع اليعقوبى ، (ت : ٢٨٤هـ) تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر ، بيروت مجلدان ، دون سنة للطبع ، المجلد الثانى ، ص : ٢٣٨ .

(٩٨) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ص : ١٥٤ .

(٩٩) انظر أمثلة ذلك والتحقيق الأصولى الجيِّد فى توضيح أسباب ذلك لدى محمد العربى التبانى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص : ٢٠٤ - ٢٠٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(١٠٠) انظر محمد العربى التبانى : نفس المرجع السابق ، جـ٢ ص : ٢٠٥ وما بعدها حيث توسع فى هذا الجانب الذى عاد فيه إلى عدد كبير من المصادر والمراجع ذات الصلة .

(١٠١) انظر الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، جـ٣ ، ص : ١٢٤ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٩ .

(١٠٢) راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٦ ، ١٣٥ - ١٣٧ .

(١٠٣) انظر أمثلة هذا عند الذهبى : نفسه ، جـ٣ ص : ١٣٢ - ١٣٣ ، ابن كثير : نفسه ص : ١٢٦ ، ١٣٥ - ١٣٧ .

(١٠٤) انظر الذهبى ، نفسه ، جـ٤ ، ص : ٩٥ حيث الإشارة إلى عزل معاوية عاملة على العراق عبيد الله بن زياد ، بطلبٍ من أهل العراق ثم إعادته بعد ذلك .

(١٠٥) انظر ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء ، جـ٢ ، ص : ٥٠٠ .

(١٠٦) ابن كثير : نفسه ص : ١٣٩ .

(١٠٧) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ١ ، ص : ٦١ .

(١٠٨) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ٢ ، ص : ٦٤٥ .

(١٠٩) انظر الذهبى : نفسه ، جـ٣ ، ص : ١٢٨ ، ١٣٣ - ١٤١ ، ابن كثير ، نفسه، ص : ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٨ - ١٢٩ . وانظر فى هذا الصدد يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدَّت لها ابتداءً من فتنة عثمان ، ص : ١٥٦ - ١٦٢ حيث تحليل سياسى واسع لواقع بلاد الشام ونظرتها لمعاوية .

(١١٠) انظر إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ٢ ص : ١٦٠١ .

(١١١) نُحيل القارئ إلى ترجمة ابن عمر لدى الذهبى : نفسه ، جـ٣ ، ص : ٢١٦ ، ٢١٩ ، ١٢٤ ، ٢٦٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ .

(١١٢) يقول الذهبى : نفسه ، ص : ٢٢١ نقلاً عن الإمام مالك بن أنس إن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ظل إمامًا للناس يفتيهم مدة ستين سنة .

(١١٣) انظر قبل ، ص : ٢٢ - ٢٤ مع الحواشى .

(١١٤) الحقيقة أن الموقف الذى ذكره معاوية رضى الله عنه عن خذلان أهل العراق للحسن بن على رضى اللع عنهما إنما هو حقيقة فعلاً وقد ذكرها المؤرخون ومعاوية يقصد هنا حادثة طعن أحد جنود معسكر الحسن له فى الجيش الذى حيَّشه للقاء معاوية بقيادة قيس بن

سعد بن عبادة ، ولقد نهب معسكره كذلك ، وهى الحادثة التى أصابت الحسن رضى الله عنه بالمرارة من أهل العراق . انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٤ - ١٥ ، ١٧ .

لكن الواقع أن الموقف الأول الذى عبَّر عنه معاوية رضى الله عنه بالقول إن أهل العراق قتلوا عليا بن أبى طالب ، يحتاج إلى توقُف فالمعلوم أن عليًا رضى الله عنه قُتل على يد أحد أشقياء الخوارج الذين كان رأيهم فى على ومعاوية رضى الله عنهما معًا سيئًا .

(١١٥) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ١ ص : ٢١٢ .

(١١٦) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ١ ، ص : ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(١١٧) ابن كثير ، نفسه ، ص : ١٣٧ .

(١١٨) إبراهيم مصطفى : نفسه ، جـ١ ، ص : ٤٨٧ .

(١١٩) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ٢ ، ص : ٨١٨ .

(١٢٠) راجع محمد بن صامل السلمى : المرجع السابق ، ص : ٢٠٩ - ٢٣٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) :

١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء .

٢ - الكامل فى التاريخ ، عُنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، منشورات دار الكتاب العربى ، ط٢ ، ١٤٠٠ - ١٩٨٠ ، ١٠ أجزاء .

ابن بسام الشنترينى (ت ٥٤٢هـ) :

٣ - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ . ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان .

ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) :

٤ - الرد على البكرى، منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ.

٥ - منهاج السنة ، منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، القاهرة ، ١٣٢١هـ جزءان وبهامشه الكتاب المسمى ببيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، له نفسه .

ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) :

٦ - كتاب الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء .

ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) :

٧ - الإصابة فى تمييز الصحابة ، حقق أصوله وضبط أعلامه ، ووضع فهارسه على محمد البجاوى ، منشورات دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ٨ أقسام .

٨ - تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، دون سنة للطبع ، جزءان .

٩ - تهذيب التهذيب ، منشورات مطبعة مجلة دائرة المعارف النظامية بالهند ، (حيدر آباد) ، ط١ ، ١٣٢٦هـ ، ١٢ جزءًا .

١٠ - لسان الميزان ، منشورات دار الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، ط٢ ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، ٧ أجزاء .

ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) :

١١ - وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء .

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) :

١٢ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ، دمشق ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

أبو داود السجستانى (ت ٣٧٥هـ) :

١٣ - سُنن أبى داود ، راجعه على عدّة نسخ وضبط أحاديثه وعلّق حواشيه محمد محى الدين عبد الحميد ، منشوارت دار إحياء السنة النبوية ، القاهرة، دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .

الدينورى (ت ٢٨٢هـ) :

١٤ - الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة لثقافة والإرشاد القومى ، الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .

الذهبى (ت ٧٤٨هـ) :

١٥ - سير النبلاء ، أشرف على تحقيق الكتاب وخرَّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م ، ٢٥ جزءًا .

١٦ – العبر فى أخبار من غبر . حقّقه وضبطه على مخطوطتين أبـو هـاجر : محمـد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيـع ، بيروت ، ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات .

١٧ – ميزان الاعتدال ، حقّقه على محمد البجاوى ، نشرته دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م ، ٤ أجزاء .

الطبرى (ت ٣١٠هـ) :

١٨ – تاريخ الأمم والملـوك ، تحقيـق محمـد أبـو الفضـل إبراهيـم ، منشـورات دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء .

ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) :

١٩ – الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، منشـورات دار الكتـاب العربـى بـيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .

ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) :

٢٠ – العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، تقديم ممدوح حقى ، منشـورات دار الفكر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ٤ مجلدات ، ٨ أجزاء .

ابن عدى (ت ٣٦٥هـ) :

٢١ – الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء .

ابن العربى (ت ٥٤٣هـ) :

٢٢ – العواصم من القواصم ، خرَّج أحاديثه وعلّق عليه محمد مهـدى الاستانبولى ، حقّقـه وعلـق حواشيه محـب الديـن الخطيـب ، منشـوارت مكتبـة السـنة ، القاهرة، ط٥ ، ١٤٠٨هـ .

ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ) :

٢٣ – شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات .

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) :

٢٤ - البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءًا ثم مجلد الفهارس .

الماوردى (ت ٤٥٠هـ) :

٢٥ - الأحكام السلطانية، عُنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى، ط١ ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م .

ابن منظور (ت ٧١١هـ) :

٢٦ - لسان العرب، منشورات دار صادر، بيروت ، ١٩٥٥م ، ١٥ مجلدًا.

ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) :

٢٧ - الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

النويرى (ت ٧٢٣هـ) :

٢٨ - نهاية الأرب فى فنون الأدب ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر سلسلة من تراثنا ، القاهرة ، ٣٠ جزءًا .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) :

٢٩ - معجم الأدباء ، منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، منقّحة ومصحَّحة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ٢٠ جزءًا .

٣٠ - معجم البلدان ، منشورات دار صادر ، ودار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء .

اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) :

٣١ - تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر، بيروت ، دون سنة للطبع ، مجلدان.

ثانيًا : المراجع

إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ومحمد على النجار:

١ - المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، جزءان ؛ ١٩٦٠م .

أحمد أمين :

٢ - ضحى الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط١٠ ، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء .

٣ - فجر الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ط١٠ ، ١٩٦٩م .

أحمد حسن الزيات :

٤ - تاريخ الأدب العربى ، منشورات دار نهضة مصر ، ط٢٥ .

أكرم ضياء العمرى :

٥ - المجتمع المدنى فى عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الأولى - محاولة لتطبيق قواعد المحدِّثين فى نقد الروايات التاريخية ، منشورات المجلس العلمى لإحياء التراث الإسلامى بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

رفيق العظيم :

٦ - أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة (سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر فى دولتهم) منشورات دار الرائد العربى ، ط٦ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، مجلدان ، ٤ أجزاء .

الزركلى :

٧ - الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،منشورات دار العلم للملايين، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠ ، ٨ مجلدات.

سيد سابق :

٨ - فقه السنة ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ٣ مجلدات .

شاكر مصطفى :

٩ - التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الإسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٣ ، جزءان .

صبحى الصالح :

١٠ - علوم الحديث ومصطلحه ، منشوارت دار العلم للملايين ، بيروت ،ط١٥، ١٩٨٤م .

عبد الله عبد الرحيم عسيلان :

١١ - كتاب الإمامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات مكتبة الدار، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ .

عبد المجيد سندى الجندى :

١٢ - ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى للتأليف والترجمة والطباعة والنشر تحت سلسلة أعلام العرب رقم (٢) القاهرة ١٩٦٣م .

عبد الوهاب النجار :

١٣ - الخلفاء الراشدون ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

على حسنى الخربوطلى .

١٤ - عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٤٣، القاهرة ، ١٩٦٤م .

محمد الزحيلى :

١٥ - الإمام الطبرى ، شيخ المفسرين ، وعمدة المؤرخين ، ومقدم الفقهاء والمحدثين صاحب المذهب الجريرى ، منشورات دار القلم ، دمشق تحت سلسلة أعلام المسلمين رقم (٣٣) ، ط١ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

محمد بن صامل العلياني السلمي :

١٦ - منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

محمد الطيب النجار :

١٧ - الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة ، ط٣ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

محمد العربي التباني :

١٨ - تحذير العبقري من محاضرات الخضري أو إفادة الأخبار ببراءة الأبرار، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م . جزءان.

محمد منير الغضبان :

١٩ - معاوية بن أبي سفيان : صحابي كبير وملك مجاهد ،منشورات دار القلم ، دمشق ، وبيروت سلسلة أعلام المسلمين ، رقم (٢١) ، ط١ ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

مصطفى السباعي :

٢٠ - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت ، دمشق ، ط١٥ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

يحيى بن إبراهيم بن علي اليحيى :

٢١ - مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري - عصر الخلافة الراشدة - دراسة نقدية ، منشورات دار العاصمة ، الرياض ، ط١٠ ، ١٤١٠ هـ .

يوسف العش :

٢٢ - الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهّدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ط٢ ، ١٩٨٥م .

الإسلام واللغة العربية فى دول الطراز الإسلامى
خلال العصور الوسطى

د/ غيثان بن على بن جريس *

لعبت الهجرات العربية الإسلامية إلى شرق أفريقية دورًا هامًا فى تشكيل تاريخ تلك المنطقة اقتصاديًا وسياسيًا ودينيًا . ذلك أن الإمارات والمراكز التى أنشأها العرب المسلمون فى كل من بلاد الحبشة والصومال أسهمت إسهامًا إيجابيًا فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى إلى الساحل الأفريقى ، ومن ثم إلى الداخل(١).

و لم تكن سواحل الحبشة والصومال مجهولة لدى العالم الخارجى منذ أقدم العصور ، فقد كشفت البحوث التاريخية والأثرية عن صلات قديمة ومستمرة بين أهالى هذه السواحل وشعوب العالم الأخرى ، ليس فقط الشعوب القريبة جغرافيًا، ولكن أيضًا الشعوب البعيدة مثل الهنود والصينيين . ومن خلال اشتغال العرب بالدراسات الجغرافية والفلكية والطبيعية والتجارية ، عرفوا الساحل الأفريقى . ومن أشهر الرواد العرب الذين تحدثوا عن الساحل الشرقى لأفريقية من الناحيتين العلمية والنظرية : المسعودى وابن حوقل والإدريسى وياقوت الحموى وابن بطوطة والقلقشندى والمقريزى وأبو الفداء وغيرهم(٢).

يضاف إلى ذلك تقدم العرب فى فنون الملاحة وما يقتضيه من معارف ، أهمها معرفة الطرق البحرية الآمنة ، ونظام سير الرياح ومواقيتها ومواقع البلاد والجزر ، ووقوفهم على الآلات التى ساعدتهم على الملاحة مثل البوصلة والإبرة المغناطيسية فضلاً عن رسم الخرائط ، وكل ذلك أدى إلى تسهيل الروابط مع شرق أفريقية . والعرب الذين اشتهروا بصناعة السفن هم عرب الجنوب فى الجزيرة

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك - كلية التربية - جامعة الملك سعود - فرع أبها .

العربية ، ولا سيما عرب عمان . وقد عرف عرب عمان بمهارتهم فى صناعة السفن وتفوقهم فى أعمال الملاحة ، وسارت سفنهم فى المحيط الهندى حتى وصلت سواحل شرق أفريقية(٣) .

والثابت أن العرب كانوا أهم الشعوب التى اتصلت ببلاد الحبشة والصومال منذ القدم ، وأبقاهم أثرًا فى تلك البقعة من القارة . وساعد على ذلك عامل القرب الجغرافى ، وقد نشطوا فى الاتصال بأثيوبيا والصومال منذ زمن دول **معين وسبأ وحمير** التى كان لها نشاط كبير فى الحركة التجارية البرية والبحرية ، وتمكنت من السيطرة على تجارة العالم القديم فى المحيط الهندى وسواحل أفريقية الشرقية . كذلك كان لعرب الحجاز دور كبير فى الاتصال والتجارة ، وقد سيطروا سيطرة تامة على التجارة وطرق القوافل بعد تدهور دول الجنوب منذ القرن السادس الميلادى(٤) .

ثم كان أن قامت الدعوة للدين الإسلامى فى أثيوبيا منذ ظهوره ، ويمكن أن يؤرخ لدخول الإسلام فى أثيوبيا بهجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة ، وخاصة بعد أن أظهر النجاشى أرماح (أصحمة) اعتناقه للإسلام . وقد تدفقت على أثر ذلك مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من عرب وغيرهم لإنشاء مراكز عربية ثابتة ، ونشر الإسلام بين القبائل التى كان من أهمها : الصوماليون والأحباش والدناقل والجالا والبجة والبانتو ، فضلاً عن الاريتريين وغيرهم . وكثر توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية بعد أن دانت لهم بلاد العرب ، وأصبحوا يتحكمون فى طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ولا سيما بين عدن وصنعاء ، كما أسهموا بنشاط كبير فى التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر . وعبرت مجموعات قليلة من تجار العرب إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كما اخترق عدد من هؤلاء الحدود الحبشية وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج ،

بل إن العرب المسلمين استطاعوا بنشاطهم أن يتحكموا فى ميناء عدوليس (Adulis) وهو ثغر الحبشة وميناؤها العظيم(٥) .

وكانت مملكة أكسوم الحبشية فى ذلك الوقت فى طريقها إلى الإنحطاط . وفى الوقت نفسه كان الإسلام يتقدم بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل ، حيث بدأ المسلمون فى الإمتزاج بالوطنيين وصاهروهم ، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجيًا ، فأعتنقته عناصر الساهو والعفر فى شرقى الحبشة ، كما أنه امتد إلى المناطق السيدامو وشوا الشرقية فى الجنوب من الحبشة(٦) .

كذلك انتشر المسلمون شمالاً فى ارتيريا ومنظمة البجة ، وشجعهم على ذلك غنى تلك المناطق بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد . وقد تزايد عدد المسلمين فى الحبشة واريتريا ومنطقة البجة ، وأشهر القبائل العربية التى استقرت فى هذه المناطق قوم من ربيعة وقحطان ، إلا أن قبائل ربيعه كانت أقوى العناصر ، حتى سادت وغلبت على ما جاورها من العرب القحطانيين(٧) .

وهكذا امتدت الرقعة الإسلامية على طول منطقة القرن الأفريقى ، وفى داخلها حتى منطقة وادى النيل الجنوبى والأوسط ، حيث قامت مشيخات إسلامية فى فترة التوسع الإسلامى البارزة التى تقع ما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (العاشر والثانى عشر الميلاديين) ، وهى فترة التوسع المنظمة للإسلام دينًا ودولة ، من ناحية نشر العقيدة الإسلامية عن طريق الدعوة الهادئة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتدعيم سلطان الممالك والمشيخات الإسلامية داخل البلاد ، على حساب مملكة أكسوم الحبشية المتداعية . وقد تحولت كل منطقة نهر جوبا للإسلام ، وامتدت الرقعة الإسلامية حتى منطقة البحيرات العظمى وذلك فى عام (٥٠٢هـ / ١١٠٨م)(٨) .

وقد تلا ذلك قيام المشيخات الإسلامية التى سبقت الإشارة إليها مثل عدال وهرر وهوبات ، والتى لم تعمر طويلاً نظرًا للخلافات التى قامت فيما بينها ، فضلاً عن أن عنايتها كانت منصبة على شئون التجارة ، ولا سيما تجارة الرقيق ، ثم تلا ذلك قيام ممالك إسلامية قوية ومزدهرة ، أصبحت تحيط بالحبشة من كل جانب ، وغدت هذه الممالك الإسلامية تسيطر على كل الرقعة الإسلامية الممتدة من سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وأجزاء من أفريقية الشرقية ممتدة على الساحل إلى الداخل الأفريقى . وبفضل هذا الوضع الجغرافى الممتاز أصبحت تحيط بالحبشة من الناحية الشرقية وتقابل اليمن فى الجزيرة العربية ، ولذلك نعتها المؤرخون بمنطقة الطراز الإسلامى ، لأنها على جانب البحر كالطراز له(٩) .

وقد اشتهر فى هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك ، هى **أوفات** ، **دوارو**، **أرابينى** ، **هدية** ، **شرخا** ، **بالى** ، **وداره**(١٠) وهذا عدا مشيخات الساحل الصومالى التى امتدت على طول الساحل المعروف بساحل الزنج(١١) . وقد أفردنا لمملكة أوفات الإسلامية حيزًا خاصًا فى مقالين مختلفين(١٢) .

والملاحظ أن تكوين هذه الممالك اتسم بالطابع السلمى التجارى أو الاقتصادى بصفة عامة ، هذا فضلاً عن أن هذه الممالك ارتبطت بالعالم الإسلامى، وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق والقاهرة . وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز ،فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد الأموى بدمشق ، وكذلك أفرد رواق لهؤلاء بالأزهر يعرف برواق الجبرتية(١٣) .

ثم إن هذه الممالك التى أمها المسلمون لقرون عديدة ظلت مراكز نشاط ومدنية ، وارتكزت شهرتها على أنها وسيطة بين عواصم العالم الإسلامى الكبرى وبقية أجزاء أفريقية المجاورة فى نقل الفكر والثقافة الإسلامية .

ومن ناحية أخرى فقد تطورت هذه الممالك الإسلامية بفضل تجمع العلماء والفقهاء الذين وفدوا إليها من مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة ، فظلت الصبغة العربية هى البارزة والمميزة فى منطقة القرن الإفريقى خلال فترة العصور الوسطى . وأسهم العرب فى هذه البلاد بالآداب والعادات التى اتصفوا بها ، وظلت الثقافة العربية تشع وتنتشر حتى بعد انكماش النفوذ العربى الإسلامى فى القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع الميلادى) . وكان أعلام المسلمين فى هذه البلاد يفكرون بالعقلية العربية الإسلامية ، ويكتبون باللغة العربية ، وهم فى إنتاجهم ونشاطهم إنما يعبرون عن حضارة عربية إسلامية سادت منطقة الطراز الإسلامى ردحًا من الزمن(١٤) .

وعلى الرغم من أن المجتمع الإسلامى فى بلاد القرن الأفريقى يتكون من أجناس متعددة ، وأمم مختلفة فى صفاتها وعاداتها وثقافاتها ، فإنها بعد إسلامها وبسببه أخذت تنصهر جميعًا فى بوتقة الحضارة الإسلامية فى ظل رعاية دول الطراز الإسلامى وكنفها ؛ لأن الدين الإسلامى عامل هام من عوامل الانسجام بين الشعوب التى تدين به ، والدين الإسلامى فضلاً عن أنه عقيدة ، فإنه كذلك نظام اجتماعى كامل ، ومجموعة من الأخلاق والقواعد والأنظمة التى يستطيع الناس أن يعيشوا بمقتضاها(١٥) .

١ - سلطنة أوفات :

كانت سلطنة أوفات أقوى سلطنة إسلامية قامت فى الحبشة بسبب تحكمها فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع . وقد أسسها قوم من قريش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب ، قدم أولهم من الحجاز واستوطنوا مدينة أوفات . وقد اشتهرت جماعة منهم بالصلاح ، وظهر من بينهم رجل يسمى عمر ويلقب " ولشمع " حكم مدينة أوفات وأعمالها واعترف بسلطان النجاشى . ولم يتضح تاريخ أوفات إلا فى حوالى (٧٠٠هـ / ١٣٠٠م)

حين أورث عمر هذه المملكة لأولاده الأربعة أو الخمسة الذين تولوا عرشها واحدًا بعد آخر ، وذلك بموافقة ملك الحبشة . ومع ذلك فإن سلطنة أوفات هى التى تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة ، وقامت مع غيرها من دول الطراز الإسلامى بدور كبير فى نشر الإسلام والثقافة الإسلامية(١٦) .

٢ - سلطنة بالى :

تقع جنوبى سلطنة دارة ، ويحدها شمالاً نهر وبيى ، ومن الجنوب نهر حرانا إلى دوريا ، وبهذا الوضع تتحكم فى وادى الصومال . والعنصر الغالب على سكانها عنصر السيداما ، ويسكن جنوبه فريق من عنصر الجالا . وتعتبر هذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة ، وتختلف عن شقيقاتها الإسلامية فى أن الملك لم يظل كغيرها ، محفوظًا فى أسرة معينة ، بل حدث فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أن انتقل الحكم إلى رجل ليس من بيوت الملك ، وذلك بمساعدة ملك الحبشة(١٧) . وفى سائر المظاهر تقترب هذه السلطنة من بقية السلطنات وتسير المعاملة فيها بالتبادل ، وأهلها على المذهب الحنفى(١٨) .

٣ - سلطنة هدية :

تقع إلى الغرب من دول الطراز الإسلامى وتجاور أرابينى ، وتشغل مساحة واسعة بين نهرى هواش وجيبى ، وليست حدودها معروفة بدقة شأنها شأن باقى الولايات الإسلامية وتتكون من (١٨) مقاطعات(١٩) ، وبرغم أنها دون أوفات فى المساحة والامكانيات ، فإنها أقوى الممالك السبع وأكثرها خيلاً ورجالاً ، ويقال إن عدد جنودها بلغ نحوًا من (٤٠) ألف فارس سوى الرجالة الذين يبلغون ضعف هذا العدد تقريبًا . ومع أن الطبقة الحاكمة فيها إسلامية ، فإن أغلب رعاياها كانوا على الوثنية ، وهؤلاء الرعايا من السيداما والجوارجى والشابو ، وهذا الأخير خليط من العنصرين الأولين(٢٠) .

وتقترن شهرة هدية بتجارة الخصيان الذين يجلبون إليها وهؤلاء يعرفون فى مصر باسم الطواشية . وقد حظر ملك الحبشة هذه العلمية الوحشية ، غير أن اللصوص ما فتئوا يسطون على العبيد ويأتون بهم إلى بلدة وشلو القريبة من هدية . وسكان وشلو هذه همج متخلفون ، يخصى العبيد عندهم لدرايتهم بالخصى ، وهذا أمر يهتم به التجار النخاسة ، إذ إن الخصى أرفع ثمنًا من غيره . وبعد إتمام عملية الخصى يحمل هؤلاء إلى هدية حيث يعالجون مرة أخرى حتى يبرأوا من الجراحة التى أجريت لهم ، ولأهل هدية دراية بعملية العلاج والتطبيب . ومع ذلك فإن العدد الذى يموت من الخصيان بسبب هذه العملية أكثر من الذى تكتب له الحياة ليباع مصدرًا من هدية(٢١) .

٤ – سلطنة دارة :

تقع على حدود أوفات العربية وشمال شرقى هدية فى منطقة السيداما . وتعد أضعف إخواتها حالاً ، وأقلها خيلاً ورجالاً ، ولكنها تستطيع أن تقيم جيشًا يعادل فى قوته جيش أوفات إذ عنيت بهذه الناحية.ولا تختلف كثيرًا عن غيرها من الإمارات الإسلامية، فأهلها مسلمون على المذهب الحنفى ومعاملتها بالمبادلة(٢٢).

٥ – الإمارات الإسلامية الأخرى :

أما الإمارات الإسلامية الأخرى : دوارو وأرابينى وشرخا ، فهى إمارات صغيرة قليلة الأهمية ، ولم يذكر عنها سوى أن أهلها مسلمون أحناف ، وأن عدة عساكر الأولى تقرب من قوة أوفات فى الفارس والراجل ، وفرسان الثانية نحو عشرة آلاف غير الرجالة ، بينما لا تتجاوز قوة الأخيرة ثلاثة آلاف فارس سوى الرجالة(٢٣) .

* * *

ولم تكن هناك سيادة عامة مستمرة لإحدى تلك الدول التى عرفت بالطراز ، وإنما وجدت سيادات مؤقتة فى بعض الفترات ، تحققت عن طريق القوة

أو الدبلوماسية أو المصاهرات . وكانت فى معظم الأحيان مستقلة داخليًا وتدفع الجزية أحيانًا كثيرة ، وذلك عندما تنضوى تحت لواء سلطنة أوفات أكبر دول الطراز الإسلامى فى منطقة القرن الأفريقى خلال فترة العصور الوسطى(٢٤) .

ويعنينا أنها أسهمت إسهامًا إيجابيًا فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى والعربى فى منطقة القرن الأفريقى وفى داخل بلاد أثيوبيا أو الحبشة . هذا بالإضافة إلى الدور الذى لعبته فى تاريخ المنطقة اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا ، فاستمر تيار الحضارة الإسلامية فى تلك المنطقة فى الانتشار والازدهار حتى بلغ أقصى مداه فى نهاية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، وذلك فى زمن المجاهد الإسلامى الكبير أحمد الجران (أحمد بن جرا) ، عندما أشتدت الدعوة لمناهضة النصرانية ونشر الإسلام واللغة العربية فى هذه البلاد(٢٥) .

ومن الثابت أن الدعوة الإسلامية فى بلاد الطراز الإسلامى والحبشة المسيحية ، كما فى غيرها من المناطق - ارتبطت باللغة العربية ، بوصفها لغة القرآن والعلوم الإسلامية . وسار الإسلام واللغة العربية جنبًا إلى جنب مع الجهاد فى سبيل نشر الدين وتوسيع رقعة البلاد الإسلامية ، فضلاً عن تنشيط الحركة التجارية(٢٦) .

ومنذ فجر التاريخ والقلم العربى هو القلم المعروف فى شرق أفريقية دون غيره . وكانت هناك علاقة قديمة بين العرب وبين الحبشة والزنج ، ترجع إلى ما قبل القرن التاسع الميلادى ، أى قبل دخول الإسلام فى القارة الأفريقية . وقد اشتهرت عدة طرق للقوافل ، كانت تبدأ من زيلع وهرر وسواكن وأوفات ، فتجتاز هضاب الحبشة إلى الداخل حتى منطقة البحيرات . وقد تولى العرب أمر هذه التجارة منذ أزمان بعيدة ، حيث يجتازون الصعاب ، ويخترقون الهضاب والوديان التماسًا للرزق .وكان العرب ينشدون الذهب والعاج والأبنوس والرقيق والبخور ، مقابل بضائعهم التى كانوا يحضرونها معهم والتى كانت تتمثل فى

الحرير والسروج والسيوف والنحاس والملح وأنواع شتى من المنسوجات ، فيبيعونها ويشترون الذهب والجلود والعاج والعبيد وغير ذلك(٢٧) .

ونستطيع القول إن هذه العلاقة التجارية بين العرب المسلمين ومنطقة القرن الأفريقى والحبشة التى بدأت فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) وازدهرت بعد القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أدت إلى انتشار اللغة العربية فى تلك البلاد . ولقد نمت هذه العلاقة بطريقة سليمة طبيعية منذ ذلك التاريخ إلى أن تمت بانتشار الإسلام فى كل بلاد أفريقية الشرقية . فالتجارة بطبيعة الحال تلزمها لغة التفاهم بين البائع والمشترى ، كما تولد الصلة بينهما ، وبما أن اللغة العربية كانت أرقى من اللغات المحلية ، فقد كان من الطبيعى أيضًا أن تكون هى المستعملة فى تلك الجهات . ومن الطبيعى أيضًا أن يلتقطها التجار والأهالى المحليون من إخوانهم العرب وينشروها فيما بينهم . فهذه العلاقة التجارية إذن هى التى وضعت الحجر الأساسى للغة العربية فى أفريقية الشرقية ، وبدأ أولئك التجار يدخلون كلمات وتعابير عربية فى تلك المناطق ، فانتشرت تلك الكلمات والتعابير تدريجيًا حتى توغلت فى ربوع أفريقيـة ، واندمج بعضها فى اللهجات المحلية ، وخاصة بعد انتشار الإسلام . ومما يؤكد هذا وجود كلمات عربية كثيرة فى بعض اللغات الأفريقية مثل لغة السواحيلى والأحباش ، وخاصة أسماء تلك البضائع التى كانت تصدر إليها من اليمن وعمان والحجاز فى تلك القرون الماضية ، هذا فضلاً عن الكلمات والتعابير الإسلامية التى دخلت مع الإسلام . فنجد فى اللغة السواحيلية والأثيوبية مثلاً أن أسماء هذه البضائع عربية ، فكلمات السرج والحرير والزعفران واللجام والقلم والدواة وأمثالها ، كلها وافدة على اللغة السواحيلية والأثيوبية ، وتنطق بتحريف بسيط(٢٨) . لذلك يمكن القول أن اللغة العربية قد تركت آثارها فى عدد من اللغات المحلية لدرجة كبيرة . وظهر هذا الأثر واضحًا فى لغة السواحيلى وبعض اللهجات الأثيوبية والصومالية والأرتيريه إذ يوجد فى هذه اللغات الكثير من الكلمات ذات الأصول العربية ، بل إن الحروف العربية

استخدمت فى كتابة اللغة العربية السواحيلية منذ زمن مبكر ، كما استخدمت فى اللغات الصومالية والأمهرية(٢٩) .

وقد ساعد على انتشار اللغة العربية والتمسك بها ، فضلاً عن الجانب الدينى المرتبط بها ، أن الكثير من الشعوب الأفريقية فى منطقة القرن الأفريقى وعلى طول الساحل الشرقى الممتد من زيلع شمالاً إلى سوفالا جنوبًا ، ادعت الأصول الشرقية . لقد ادعى ملوك أوفات وهرر وزيلع ومقديشو وكلوه وغيرهم، أنهم انحدروا من الشرق . كذلك من العوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فى أفريقية الشرقية الإسلامية هجرة القبائل العربية إلى تلك البلاد واستقرارها فيها . وهذه الهجرات - كما سبق القول - قديمة وسابقة على دخول الإسلام . وازدادت بانتشار الإسلام . ثم أن مصاهرة العرب مع القبائل الأفريقية ساعد على انتشار اللغة العربية بجانب الإسلام مثل قبائل الأمهرة والدناقل والاريتريين والأحباش والصوماليين . وهكذا ظفر الإسلام واللغة العربية بنجاح كبير فى هذه البلاد ، فأدى ذلك إلى تقدمها وتطورها ، وتطلعت إلى البلاد الإسلامية فى الشرق والشمال الشرقى من أجل العقيدة والمدنية ، ولم تحل صعاب البحر والمحيط دون الاجتياز(٣٠) .

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم العربية الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى بصفة خاصة ، وبلاد شرق أفريقية بوجه عام ، بعهود الدول الإسلامية الكبرى ، أوفات ، زيلع ، هدية ، مقديشو وكلوة ، وبقية دول الطراز الإسلامى بصفة عامة . ذلك أن اللغة العربية صارت هى اللغة الرسمية السائدة فيها ، واستخدمت فى شتى الأغراض وأوفت بها ، كما استخدمت فى مجال الحكم والإدارة والقضاء ، ثم صارت لغة المكاتبات الرسمية بين هذه الدول والعالم الإسلامى الخارجى . ووجد فى الدواوين المصرية زمن المماليك صيغ عربية لمخاطبة ملوك تلك البلاد ، لابد من تصدير المكاتبات بها(٣١) .

* * *

يتضح من هذا العرض السريع أن اللغة العربية كانت اللغة السائدة فى العصور الوسطى فى تلك البلاد الإسلامية ، واستمرت كذلك حتى بداية التدخل الأوروبى فى شئون البلاد الأفريقية الإسلامية . فكانت اللغة العربية طيلة هذه القرون هى لغة الدين والثقافة والتجارة ، ثم إنها لغة الحكومة والإدراة والقضاء ، كما أصبحت لغة التفاهم فى كثير من بلاد الأحباش والصومال والسواحيلى بصفة عامة(٣٢) مع وجود اللغات المحلية كلغة الأمهرا والتيجرى والبنى عامر والدناقل والصومال والسواحيلى . هذا بالإضافة إلى بعض اللهجات الأفريقية القديمة كلغة البانتو والبوشمن والهوتنتوت . كذلك كانت اللغة العربية ، هى لغة المراسلات الدولية والوثائق والمعاهدات(٣٣) .

وقد مر ازدهار اللغة العربية الذى جاء مقرونًا بانتشار الإسلام فى إفريقية بوجه عام ، بمراحل عديدة :

ذلك المعروف أن الإسلام أخذ ينتشر فى تلك البلاد منذ ظهوره ، وساهم الأفريقيون مع العرب فى نشر الدعوة الإسلامية منذ مطلع القرن الأول الهجرى ، كما إن إزدياد الهجرات العربية والإسلامية أدت إلى ازدياد الداخلين فى الإسلام. كذلك ساعد على ذلك أن الصلة التجارية والثقافية قديمة منذ الأزمنة السحيقة بين بلاد القرن الأفريقى (الحبشة والصومال) وبلاد العرب . وتحت مظلة الإسلام كثرت هجرات المسلمين ، من العرب والفرس وغيرهم . واحتكر التجار المسلمون عملية الاتصال بهذه البلاد لأسباب دينية وتجارية ، واستقرت أعداد كبيرة منهم فى تلك البلاد ، يضاف إلى ذلك جهود دول الطراز الإسلامى ، (٣٤) التى تفانى ملوكها فى نشر الإسلام واللغة العربية بين سكان هذه البلاد من الأمهرا والتيجرى والصوماليين والأحباش والارتيريين . وقد بلغت هذه الدول ذروة قوتها وعظمتها خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادى عشر الميلاديين) ، فقامت بدور كبير فى نشر الإسلام والعلوم الإسلامية العربية(٣٥) .

ولا أدل على ذلك مما ذكره ابن بطوطة من أن ملوك هذه البلاد كانوا شديدى الحماسة لنشر الإسلام واللغة العربية بين قومهم وبين القبائل الأفريقية المجاورة من ناحيتي فى الغرب والجنوب(٣٦) . وكانت حماسة هؤلاء الملوك من العناصر الهامة التى أسهمت فى ازدياد انتشار الإسلام ، كما أن الصلات المتنوعة والجهود البارزة لملوك دول الطراز الإسلامى أدت إلى اتساع رقعة البلاد الإسلامية فى شرق أفريقية . ولما كانت الحبشة جزءًا من شرق أفريقية ، فلا ريب أن الإسلام داخلها وانتشر بين سكانها ، بدرجات متفاوتة ، وذلك بفضل جهود ملوك دول الطراز المجاورين لها ، أو الخاضعين لسيادتها فى بعض الفترات . والراجح أن عددًا كبيرًا من سكان الحبشة المسيحية قد اعتنق الإسلام، وأن مظاهر هذا الدين من الشعائر والمساجد والثقافة واللغة العربية ، قد وجدت طريقها إلى بلاد الحبشة منذ زمن مبكر ، قبل قيام الطراز الإسلامى ، بدليل بروز آثار الطراز الإسلامى فى بلاد الحبشة والقرن الأفريقى بوجه عام، وبخاصة فى هدية وأوفات ودوارو وأرابينى وشرخا وبالى وهرر وزيلع . وقد ضمت أوفات وحدها نحو اثنى عشر مسجدًا ، وكذلك هدية وهرر ، وألحق بكل مسجد مدرسة لتعليم القرآن وقواعد الدين واللغة العربية . هذا إلى أن نواحى هذه البلاد كانت ملأى بالعلماء والفقهاء والأئمة ، (٣٧) وأصبحت مدن هذه البلاد مثل أوفات وزيلع وهدية وشرخا وهرر مراكز ثقافية عربية إسلامية ،كما كانت مراكز لنشر الدعوة الإسلامية . وكانت اللغة العربية هى لغة العبادة والثقافة الوحيدة فى البلاد ، هذا إلى جانب كونها لغة التجارة المستعملة فى التبادل التجارى والمكاتبات . وتبوّأت هذه اللغة فى الحبشة والطراز الإسلامى المكانة التى تبوأتها اللغة اللاتينية فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى ، بل زادت عليها ، إذ بقيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة الدين والثقافة حتى فى العهد الاستعمارى فى أفريقية ، بينما زالت اللغة اللاتينية تدريجيًا أمام زحف اللغات الجرمانية القومية بأوروبا بتلك العصور . وقد شهد بعض المكتشفين والمستعمرين فى مطلع العصور الحديثة ، بأن إلمام سكان شرق أفريقية باللغة العربية ، يفوق إلمام أوروبا باللغة اللاتينية فى العصر الوسيط(٣٨).

ومما يذكر أن ملوك دول الطراز الإسلامى كانوا يرسلون العلماء لبث العقيدة الصحيحة . وكان أن أقبل الأفريقيون المسلمون من سكان هذه البلاد على مناهل العلم العربية فى حماسة تلقائية ، بسبب ما اتصف به انتشار الإسلام ولغته من تسامح وفضائل ، وبفضل ما أمتاز به المسلمون الذين استقروا فى هذه البلاد ، والذين اتصلوا بتلك البلاد ، من كفاءة وخبرة وأمانة وصدق فى شتى الميادين الاقتصادية والإدارية فضلاً عن الجانب الثقافى ، ذلك أن المسلمين يمثلون حضارة رفيعة ومدنية سامية ، بدليل استعانة ملوك دول الطراز بهم فى أجل أعمالهم . والمسلمون فى بداية الأمر كانوا وحدهم هم الذين يعرفون القراءة والكتابة ، لذلك كانوا عونًا للملوك(٣٩) ، وهذا دليل على انتشار الثقافة الإسلامية التى توسعت وانتشرت مع ازدهار دول الطراز الإسلامى .

وبالإضافة إلى الدور الذى قام به التجار والدعاة فى نشر الإسلام فى بلاد القرن الأفريقى وما جاورها شمالاً وغربًا وجنوبًا ، هناك عامل آخر ساعد على نشر الإسلام واللغة العربية فى تلك البلاد المجاورة من الحبشة وارتيريا حتى الصومال الشمالى وهضبة البحيرات وأعالى نهر النيل الأزرق ، وذلك بفضل الهجرة التى قام بها التجار المسلمون من مقديشو ومركه وبراوة إلى مدن القرن الأفريقى ، وخاصة أثر غزو الشيرازيين الفرس لتلك البلاد والاستيلاء عليها ، فانتشر التجار فى هذه البلاد وأقاموا مراكز تجارية أصبح لبعضها أهمية عظيمة وأثر كبير فى نشر الدين والثقافة العربية فى شرق أفريقية(٤٠) .

وكان أن وجدت المدارس الكثيرة أيضًا فى جميع المدن المشهورة بجوار المساجد ، مثل مدارس هدية وبالى وشرخا وأوفات . ويقول ابن بطوطه أن أهل مدينة زيلع قدماء فى الإسلام ولهم ديانة وطلب علم . وبجانب الاهتمام بالقرآن ، كما ذكر ابن بطوطه ، هناك الاهتمام بلغة القرآن ، وهى اللغة العربية التى

أكتسبت مسحة من التقديس عند مسلمى شرق أفريقية عامة(٤١). ولم تكتف قبائل هذه الدول بدخول الإسلام ، بل طبعت بطابع عربى بسبب انتشار اللغة العربية في تلك البلاد . وهناك خصائص معينة فى نطق الحروف العربية عند مسلمي شرق أفريقية ، أما طريقة الكتابة ، فهى طريقة الخط الكوفى .

وقد ساعد ازدهار دول الطراز الإسلامى ، واتساع رقعتها وعظمة ملوك المسلمين فيها وتفانيهم من أجل خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية ، على أن تترك اللغة العربية أثرًا قويًا فى اللغات المحلية ، ولا سيما لغات السواحيلى والأمهرا والتيجرى ، فاستخدمت اللغة العربية منذ ذلك التاريخ فى كتابة اللغة السواحيلية ولا تزال إلى اليوم .

كذلك كان العامل التجارى من عوامل ازدهار اللغة العربية وانتشارها على نطاق واسع حول هضبة الحبشة والبحيرات وما جاورها . وكانت طرق القوافل التجارية تبدأ من زيلع وأوفات وتتجه إلى الجنوب عن طريق هدية وبالى إلى أن تصل أكسوم وهرر إلى داخل أثيوبيا . وهذا مما سهل وصول التجار المسلمين إليها وبالتالى دخول الإسلام وتعلم اللغة العربية . ولا شك أن التجار هم الذين ادخلوا الإسلام فى تلك المنطقة(٤٢) .

لقد استطاع ملوك هدية وبالى وأوفات فى أيام ازدهار دولهم إيجاد علاقة سياسية وتجارية بين حكوماتهم والبلاد العربية الإسلامية ، وخاصة الحجاز واليمن ومصر . وبالطبع فهناك الكثير من المراسلات التى جرت بين هذه الدول وتلك البلاد العربية والظاهر أن العلاقة مع الحجاز كانت قوية بسبب الحج ، إذ إن من المعروف أن كثيرًا من ملوك أوفات وهدية كانوا يؤدون تلك الفريضة(٤٣) .

ولا شك أن العلاقة التى كانت موجودة فى تلك القرون الغابرة قد ساعدت كثيرًا فى نشر الثقافة العربية الإسلامية فى تلك المنطقة ، فقد انتشر فيها

التعليم وكثر من يتكلم باللغة العربية ، وكثر العلماء . ومما ساعد فى نشر اللغة العربية وجود عدد كبير من العرب الوافدين إليها من اليمن ، ومن قبائل ربيعة التى استقرت بعض بطونها فى بعض مدن هذه البلاد حتى ارتيريا(٤٤) .

ويضاف إلى هذه الأدوار ما قامت به بعض القبائل العربية مثل قحطان وربيعة وبعض القبائل اليمنية مثل الأزد وغيرهم ، وقد اشتدت حماسة هذه القبائل لنشر الإسلام فى زمن ازدهار دول هدية وبالى وأرابينى ، فانتشرت الثقافة العربية الإسلامية بفضل جهود ملوكها الذين نشروا الإسلام والثقافة الإسلامية فى مناطق عديدة يقع بعضها فى الهضبة الحبشية وبعضها الآخر فى منطقة البحيرات ، لذلك تمثل هذه الدول وقبائلها العربية العصر الذهبى لازدهار وانتشار اللغة العربية وتقدم العلوم والثقافة الإسلامية فى بلاد شرق أفريقية(٤٥) .

وعندما قام الإمام أحمد ابن جرا بالجهاد ونشر الإسلام فى القرن العاشر الهجرى ، كان أكبر همه بعد تحطيم الوثنية والقضاء على الحركة الصليبية النصرانية، نشر مبادئ الإسلام الصحيحة والثقافة العربية . ولم يكن أيضًا حكام هذه البلاد الذين نظموا دولهم وإماراتهم حسب النظم الإسلامية يدعون أنفسهم أو يدعوهم الناس سلاطين أو أمراء ، إنما كانوا يدعون مؤدبين أو معلمين أو شيوخًا لعلمهم وورعهم بالإضافة إلى أهميتهم ومكانتهم .

إن هؤلاء الحكام هم الذين باشروا الحكم بين رعيتهم حسب الشريعة الإسلامية ، كما كانوا يباشرون الأمور السياسية ، ويؤمونهم فى الصلاة . وفضلاً عن ذلك فقد كانوا يقومون بتدريس العلوم الدينية فى أوقات فراغهم، وكانوا مثلاً فى التواضع والزهد . وعلى الرغم من أن دول الطراز الإسلامى لم تفتتح مدارس رسمية نظامية على النظام المدرسي الحديث ، فإنها شجعت التعليم تشجيعًا بالغًا ، فكان معظم الملوك والحكام دعاة ومعلمين . كذلك كان الوزراء والقضاه ، وكانوا كلهم يجعلون بيوتهم مدارس ويفتحون أبوابهم على مصاريعها لطلاب

العلم ولغير الطلاب من كافة المسلمين ، وكان من الطبيعى أن يقلد الطلاب قادتهم وأساتذتهم ، ومن ثم كثرت المدارس القرآنية ، وتعددت المجالس العلمية فى معظم مدن دول الطراز الإسلامى وانتشر التعليم الدينى ، وكثر التأليف ، فأصبح ذلك العصر عصر النهضة فى شتى العلوم النقلية وغيرها . ويمكن القول إن تعليم اللغة العربية نال اهمية كبيرة فى فترة ازدهار هذه الدول(٤٦) .

ولم تكن مناهج الدراسة فى تلك المدارس القرآنية منظمة تنظيمًا دقيقًا كالذى نعرفه الآن فى المدارس ، ولم تكن محدده . لكن ينتقل الصبى فى تلك المدارس الكثيرة من المرحلة الأولية وهى المدارس القرآنية ، حتى يصل إلى مستوى الكبار ، ثم يدخل فى سلك العلماء ويقتفى أثرهم فيدرس كما يدرسون . وكان الطلبة دائمًا يعتمدون على الكتب التى تدرس ، وعلى المدرس الذى يدرسها على طريقة الأزهر القديم ، حيث إن أساس التعليم مبنى على الشيخ والكتاب فقط . وكان الطالب ينتقل من مدرس إلى آخر ، وربما كان الانتقال فى بعض الأحيان من بلد إلى آخر التماسًا للعلم حتى يأخذ كفايته(٤٧) . لقد عكف العلماء على تعليم اللغة العربية وتعلموها لغة وأدبًا ، وألفوا بها كتبًا كثيرة فى شتى الفنون . وأنتج العلماء والأدباء فى تلك الفترة كثيرًا ، وألفوا كتبًا ورسائل عالجوا فيها الكثير من المشكلات الدينية والاجتماعية والسياسية(٤٨) .

وقد أعطى المجتمع الإسلامى فى بلاد شرق أفريقية العلم منزلة عالية ، وتمنى كل طالب أن يكون عالمًا من علماء الدين ، واندفعوا إلى مجالس الفقهاء والعلماء للتزود من مناهلهم العلمية . وبذل العلماء مجهودات هائلة لأداء رسالتهم العلمية، وساعد على ذلك قرب المنطقة من مواطن الحضارة الإسلامية فى مكة والمدينة والقاهرة ودمشق . ونزحت إلى هذه البلاد جميع الفرق والمذاهب المعروفة – آنذاك – فى العالم الإسلامى ، كما رحل كثير من أبنائها إلى تلك البلاد ، فتوحدت الحياة الثقافية . وركز سلاطين الطراز على الالتزام بخلق الإسلام فى المجتمع ، وفى الإدارة الحكومية ، كما اتخذوا ألقابًا متصلة بالدين كسعد الدين وجمال الدين

ومعز الدين وغيرها . كذلك أصبح العلماء مجموعة ذات وجود مؤثر فى البلاط السلطانى فى الحياة الثقافية والاجتماعية فى هدية وأوفات وهرر وزيلع وارابينى . وقاد العلماء حركات الجهاد كالشيخ محمد أبى عبد الله والشيخ حق الدين الثانى وأحمد بن إبراهيم الجران ، كما تولى بعضهم مهمة السفارات كالشيخ عبد الله الزيلعى(٤٩) .

ومهما يكن من أمر ، فقد ازدهرت الحركة العلمية ، وتعدد العلماء والفقهاء الذين يقومون بأمور الدولة ، وبتدريس الدين واللغة العربية التى تدون بها الدواوين على الطريقة الإسلامية . كما كان لدول الساحل الإسلامية مثل كلوه وأوفات وهدية وأرابينى قضاه ومحاكم شرعية وأئمة للمساجد وكتبة ، مما استدعى وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية . كذلك ساعد ازدهار دول الطراز واتساع رقعتها ، وعظمة ملوكها ، وتفانيهم فى خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية ، على استمرار هجرة العلماء فى أيام السلطان جمال الدين الثانى من سلاطين الطراز الإسلامى ، وقد نزل عدد من هؤلاء فى مدينة برية عام (٨٣٤هـ/١٤٣٠م) ، ثم انتشروا فى مدن دول الطراز المختلفة(٥٠) .

وبفضل هجرة العلماء واستمرارها ظلت العقيدة والثقافة الإسلامية ثابتة ، حتى فى أصعب أوقات الشدة التى تعرضت لها هذه الدول فى نضالها المستمر ضد حملات الصليبين عليها من وقت لآخر . وأدى ازدهار الحركة العلمية فى ربوع هذه البلاد إلى تعدد المؤلفات العلمية وكتب الفقه والحديث والتفسير . ومن أهم ما وصل إلينا منها كتاب " **تاريخ عمر ولشمع وامبراطوريته** " " **للشيخ أبى بكر باعلوى**"، وفتوح الحبشة لشهاب الدين الجيزانى " **عرب فقيه** "(٥١) .

ومما ساعد على ازدهار الحركة العلمية ، وانتشار اللغة العربية فى بلاد الطراز ، انتشار الطرق الصوفية وظهورها فى شرق إفريقية فى فترة العصور الوسطى . وكان أوسع تلك الطرق انتشارًا الطريقة القادرية والشاذلية ، بجانب

طرق أخرى مثل الرفاعية والأحمدية والإدريسيه وغيرها . وكانت لكل طائفة زواياها الخاصة التى يجتمع فيها المريدون للذكر . وقد امتدت الطوائف على طول مدن الساحل وجزره ، بل لقد امتدت لتشمل الداخل أيضًا . وساهمت هذه الطرق بقدر وافر فى نشر الإسلام والثقافة الإسلامية فى ربوع الطراز الإسلامى(٥٢) .

وفى ضوء ما تقدم ، يتضح أن حركة التعليم ونشر الثقافة العربية الإسلامية قد تطورت ووصلت منزلة رفيعة خلال فترة ازدهار دول الطراز الإسلامى فى الحبشة؛ لأن هذه الدول قامت على أساس إسلامى خاضع لقوانين شرعية ونظم دقيقة لابد من دراستها ومعرفتها قبل تطبيقها . ولما كانت هذه الدول تقوم على نظم إسلامية ، فقد كان من الطبيعى أن تدور فيها الدواوين على الطريقة الإسلامية ، وأن تكون فيها محاكم شرعية وقضاه . لذلك أدرك المستعمرون عند دخولهم هذه البلاد خطورة اللغة العربية حيث كانت اللغة الرسمية ولغة الثقافة ، فحاولوا بكل ما يستطعون من قوة أن يزيلوا اللغة العربية من مكانها ، ليجعلوا اللغات الإنجليزية والإيطالية والفرنسية هى الرسمية فى تلك البلاد ، وجعلوا هذه اللغات هى المستخدمة فى الدواوين والمكاتب الحكومية . كذلك استبدلت الحروف العربية التى كانت تكتب بها اللغات واللهجات الأفريقية بالحروف اللاتينية فى المدارس الحديثة التى أنشأوها ، وشجعوا الإرساليات والمنظمات المسيحية فى هذه البلاد ، وسهلوا لها كل الطرق والوسائل لنشر الدين المسيحى والثقافة المسيحية . لكن برغم ذلك تركت اللغة العربية أثرها البارز فى شعوب أفريقية المختلفة ، ويظهر ذلك واضحًا وجليًا فى لغاتهم المحلية . ولا تزال إلى اليوم آلاف الكلمات العربية مستخدمة فى شرق أفريقية فى شتى مظاهر الحياة : الدينية والثقافية والاقتصادية، سواء فى الحرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الاجتماعية، وحتى فى أسماء الأعلام والمدن والحيوانات والنباتات . ولا تزال اللغة العربية

متفوقة من حيث سعة الانتشار والبقاء بسبب مكانتها الدينية ؛ بوصفها لغة القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية .

وبعد ، فإن شرق أفريقية كان وما زال جزءًا هامًا من دار الإسلام ، متميزًا فى إطارها ، نابضًا بكل ما نبضت به الحضارة الإسلامية فى أثناء القرون الوسطى من ألوان الحياة الفكرية والعلمية والنظم السياسية والاجتماعية وإبداعاتها الأدبية والفنية ، متفاعلة معطياتها فى كل تلك الأبواب مع معطيات مثيلاتها من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية فى القارتين الآسيوية والأفريقية .

الهوامش والتعليقات

(١) للحصول على تفصيلات أكثر عن وصول ثم انتشار الإسلام فى كل من بلاد الحبشة والصومال ، انظر . جلال الدين السيوطى . **أزهار العروش فى أخبار الحبوش .** مخطوط مصور عن نسخة بالأرسكوريال ، ميكروفيلم رقم(٢٧) تاريخ، دار الكتب بالقاهرة ؛ عبد الرحمن بن الجوزى . **تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش .**

مخطوط مصور عن نسخة بالأرسكوريال ، مكروفيلم رقم(٢٩) تاريخ ، دار الكتب بالقاهرة ؛ أبو محمد عبد الملك ابن هشام . **السيرة النبوية .** تحقيق مصطفى السقا وآخرين (د.ت) ، جـ١،ص٣٢١-٣٢٢ ، ابن حجر العسقلانى . **فتح البارى .** تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ومحب الدين الخطيب (د.ت)،جـ٧،ص١٨٨؛

غيثان بن على بن جريس . **بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية .** (الأسكندرية ، ١٩٩٤م) جـ١،ص١١-٣٧ ؛ للمؤلف نفسه " تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز فى صدر الإسلام " . **مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .** العدد (٨) رجب (١٤١٣هـ) ص ٤١٢-٤٣٣ .

J . Spencer Trimingham . **Islam in Ethiopia** (London,1976) pp 46 ff.

(٢) للمزيد من التفصيلات ، انظر : أبو الحسن على بن الحسن المسعودى . **مروج الذهب** ومعادن الجوهر . (القاهرة ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) جـ١،ص١١٢ وما بعدها ؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى . **معجم البلدان** (بيروت ، ١٣٢٤ هـ/١٩٠٦م) جـ٣،ص٣٤٣ وما بعدها ؛ فاضلو حورانى . **العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور الوسطى القديمة وأوائل القرون الوسطى.**

ترجمة يعقوب بكر (القاهرة ، ١٩٥٨م) ص٥٢، وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس " العرب فى مقديشو وأثرهم فى الحياتين السياسية والثقافية فى ظل الإسلام " **مجلة المؤرخ العربى .** العدد الأول ، المجلد (١) (القاهرة،١٩٩٣م) ص١٢٨-١٥٨ ؛ للمؤلف نفسه . **الهجرات العربية إلى ساحل شرقى أفريقية فى العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجرى** (كتب نشر من مركز بحوث كلية التربية بفرع جامعة الملك سعود بأبها ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م) ص٥ وما بعدها .

G .S .P Freeman & Grenville **The East African Coast (Select Documents from the first to the earlier Nineteenth Century** (Clarendon Press , 1962) PP . 33 ff ; R.Reusch.**History of East African** (Newyork , 1916) PP . 11 ff; R. Coupland . **East Africa and its Invaders** (Oxford , 1938) pp . 15 ff .

(٣) محمد بن حبيب . كتاب **المنمق فى أخبار قريش** . تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م) ص٤٠١ وما بعدها ، غيثان أبو عثمان الجاحظ . **التبصر بالتجارة** . تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب (بيروت ، ١٩٦٦م) ص ٣٤؛ إبراهيم رزقانه ، ومحمد صفى الدين . **الجغرافية الطبيعية** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٩٢ وما بعدها .

M.J.Kister

. " Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam " **Studies in Jahiliyya and Early Islam** (London , 1980) pp . 61 ff ; Patricia Crone . **Meccan Trade and the Rise of Islam** (Oxford , 1987) pp . 23 ff ; Coupland , **East African its Invaders** , pp . 16 ff , Reusch , **History of East African** , pp . 12 ff.

(٤) للمزيد من التوضيحات انظر . ياقوت الحموى . **معجم البلدان** ، حـ٣ ، ص ٣٤٢ وما بعدها ؛ جواد على . المفضل على . المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد ، ١٩٧٧م) حـ١، ص٤٤ وما بعدها ، أحمد فخرى . **دراسات فى تاريخ الشرق القديم** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ١٢٥ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس . **الهجرات العربية إلى ساحل شرقى أفريقية فى العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية** ... ص٨ وما بعدها، للمؤلف نفسه " العرب فى مقديشو ..." ، ص١٢٨-١٣١ ؛ جورج حوارنى ، **العرب والملاحة فى المحيط الهندى** ، ص وما بعدها .

Patricia Crone Meccan Trade **and the Rise of Islam** , pp . 20 ff , 124 ff .

(٥) وللإطلاع على تفصيلات أكثر حول علاقة العرب بالجزء الشرقى من أفريقية، وعن انتشار الإسلام فى تلك الأجزاء ، انظر . محمد بن عمر الواقدى . **كتاب المغازى** .تحقيق مارسدن جونس (بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) حـ٣،ص٩٨٣ وما بعدها ؛ محمد بن إسحاق الفاكهى . **كتاب المنتقى فى أخبار أم القرى** (نشرة وستفلد) حـ٢، (ليبزج،١٨٥٩م) ص٤٤ وما بعدها ؛ يوسف فضل حسن . **دراسات فى تاريخ السودان** (جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م) حـ١،ص٣ وما بعدها ، غيثان بن على بن جريس . **بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية** ، حـ١،ص١١-٢٧،٢٥٩-٢٧٣ ؛ للمؤلف نفسه " تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز " ، ص٤١٤ وما بعدها ؛ السر سيد أحمد العراقى . " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا " **ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم فى الحضارة العربية الإسلامية** ، الخرطوم ٢٨/٣٠يوليو م " (بغداد ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص١٦٤ وما بعدها .

Sir E.A.W. Budge. **Ahistory of Ethiopia & Abyssinia** (London , 1928) VOL.I , pp . 120 ff ; Trimingham , **Islam in Ethiopia** pp . 44ff.

(٦) ابن هشام ، السيرة ، جـ١،ص٣٢٨-٣٣٥ ، محمد بن جعفر بن جرير الطبرى . **تاريخ الرسل والملوك** . تحقيق أبو الفضل إبراهيم (بيروت ، د.ت)جـ٢ ص٣٢٨ وما بعدها ، عماد الدين ابن كثير . **البداية والنهاية** . (بيروت،١٩٧٨م) جـ٣ ، ص٦٦ ، ٧١ وما بعدها، أحمد حفنى القنائى . **الجواهر فى تاريخ الحبشان** (القاهرة ، ١٣٢١هـ) ص، ج ؛ الشاطرة بوصيلى عبد الجليل . **معالم تاريخ السودان ووادى النيل** " (القاهرة، ١٩٧٥م) ص٩ وما بعدها ؛ عبد المجيد عابدين . **بين الحبشة والعرب** (القاهرة ،١٩٤٧م) ص١٦ وما بعدها . محمد محمد أمين . **تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى** (القاهرة ، ١٩٧٧م) ص٣٣ وما بعدها ، إبراهيم على طرخان . " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى " . **المجلة التاريخية المصرية** (القاهرة ، ١٩٥٩م) المجلد الثامن ، ص٥ وما بعدها . عبد الشافى غنيم عبد القادر . " البحر الأحمر طريقًا للدعوة الإسلامية " **البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، أبحاث الأسبوع العلمى ١٠-١٥مارس ١٩٧٩م** (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص٧٨ وما بعدها .

(٧) للمزيد من التفصيلات انظر . المسعودى ، **مروج الذهب** ، جـ١،ص٥١-٥٢ ؛ أحمد بن على المقريزى . **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام** (القاهرة ، د.ت) ص٢٢ وما بعدها ، أحمد حفنى القنائى . **الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان** ، ص١٥-١٦ ، يوسف فضل " انتشار الإسلام فى سودان وادى النيل " **ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم فى الحضارة الإسلامية** (الخرطوم ٢٨/٣٠يوليو تموز ١٩٨٣م) (بغداد ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص٢٥ وما بعدها ، غيثان بن على بن جريس . " الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية فى العصور الوسطى . **مجلة المؤرخ العربى** . العدد الثالث ، المجلد (١) (القاهرة ، ١٩٩٥م) ص٧٤-٧٧ ، للمولف نفسه . " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ/١٢٠٠-١٥٠٠م) " **مجلة المؤرخ المصرى** . العدد (١٦) (يوليو /١٩٩٦م) ١٥٧-١٦٠ ؛ Triminigham , **Islam in Ethiopia** , pp.5-7) C.N. Stigand . **the Land of Zing** (London , 1913) pp . 104 ff , R.Reusch. **History of East Africa** pp.18-12; Yusuf Fadl Hassan . **The Arabs and the Sudan** (Khartoum , 1973) pp.59-66.

(٨) أبو العباس أحمد القلقشندى . **صبح الأعشى فى صناعة الإنشا** (القاهرة ، ١٩٠٦م) ؛ حسن أحمد . **الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص٤٣٥ وما بعدها ؛ جامع عمر عيسى , **مقديشو ماضيها وحاضرها** (مقديشو ، ١٩٧٩) ص٣٣٢ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس . **بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية** ، جـ١، ص١١ ، ٢٦٠ ؛ للمؤلف نفسه " العرب فى مقديشو ... " ص١٢٩ وما بعدها ؛ للمؤلف نفسه ." الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد وشرق أفريقية ... " ص٧١-٧٢

Triminigham , **Islam in Ethiopia,** pp. 5,7,32-ff. Kamerer, Abyssinie et la Mer. Rauge(Le Cairo, 1992) p.57ff.

(٩) للمزيد عن تلك الدول الإسلامية التى ظهرت فى القرن الأفريقى خلال العصر الإسلامى الوسيط ، انظر . المقريزى ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص٢١ وما بعدها ، إبراهيم طرخان "الإسلام والممالك بالحبشة ..." ص٣٠ وما بعدها ؛ محمد المعتصم سيد . دول إسلامية شرق أفريقيا (هرر والصومال) (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص٢٥ وما بعدها ؛ ترمنجهام . **الإسلام فى شرق أفريقيا – ترجمة** محمد عاطف النداوى (القاهرة ، ١٩٧٣م) ص٣٢ وما بعدها . وغيثان بن على بن جريس " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى ..." ص١٥٩ وما بعدها ، للمؤلف نفسه " سلطنة أوفات الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وعلاقاتها مع العلم الإسلامى خلال العصر الإسلامى الوسيط " بحث مقبول للنشر فى الجزء الأول من العدد التاسع عشر بحولية كلية البنات بجامعة عين شمس

(١٠) للمزيد انظر ، أحمد القنائى ، **الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان** ، ص ١٥ وما بعدها ، المقريزى ، **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام** ، ص٢٣ وما بعدها ؛ إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة " ، ص٣٣ وما بعدها .

(١١) حمدى السيد . **الصومال قديمًا وحديثًا** (مقديشو ، ١٩٦٥م) جـ١ ،ص٢٧ وما بعدها ؛ إبراهيم طرخان ، **الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة** ،ص٣٢ وما بعدها .

(١٢) لقد أفردنا بحثين مستقلين عن مملكة أوفات الإسلامية ، أحدهما بعنوان : – " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠ –٩٠٠هـ/١٢٠٠–١٥٠٠م) ، وتم نشره فى مجلة المؤرخ المصرى ، وقد أشرنا لهذا البحث فى ملاحظة (٧) من هذه الدراسة . أما البحث الثانى فهو بعنوان : – " سلطنة أوفات الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وعلاقاتها مع العالم الإسلامى خلال العصر الإسلامى الوسيط " وسوف ينشر فى حولية كلية البنات بجامعة عين شمس ، وقد أشرنا لهذه المعلومات فى ملاحظة (٩) من هذه الدراسة أيضًا .

(١٣) للمزيد انظر . محمد بن حبيب . كتاب **المنمق فى أخبار قريش** ، ص٣٣ وما بعدها ، محمد ابن عبد الله اللواتى (ابن بطوطة) . **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** . (بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) جـ١ ، ص٢٦٩ وما بعدها ؛ حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص٢٦ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس . " العرب قديشو ... " ص١٣١ وما بعدها .

(١٤) حسن أحمد محمود . **الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا** ، ص٤٣١، سير توماس أرنولد . **الدعوة إلى الإسلام** . ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين (القاهرة ،

١٩٧٠م) ص٣٧٢ وما بعدها ، عبد القادر شيخ عبد الله . **تاريخ التعليم فى الصومال** (مقديشو ، ١٩٧٨م) ص١١ وما بعدها .

(١٥) للإطلاع على تفصيلات أكثر عن انتشار الدين الإسلامى بين الشعوب الأفريقية، وذلك لما يتميز به الإسلام من محاسن ومناقب تختلف عن الأديان الأخرى . سيرتوماس أرنولد . **الدعوة إلى الإسلام** ، ص٣٢٢ وما بعدها ، حسن إبراهيم . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص ٢٤ وما بعدها .

(١٦) للمزيد من التفصيلات عن مملكة أوفات ، انظر . غيثان بن على بن جريس "سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ ... " ص١٥٣-١٨٩) للمؤلف نفسه " سلطنة أوفات الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وعلاقاتها مع العالم الإسلامى خلال العصر الإسلامى الوسيط " بحث مقبول للنشر فى الجزء الأول من العدد (١٩) حولية كلية البنات بجامعة عين شمس (أكتوبر/١٩٩٦م) .

(١٧) انظر القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، حـ٨ ، ص ٣٣٢ وما بعدها .

(١٨) عماد الدين أبو الفداء . **كتاب تقويم البلدان** (باريس ، ١٨٤٠م) ص ، ١٦٠-١٦١ ؛ القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، حـ٨ ، ص١٣٠ .

(١٩) أبو الفداء ، **كتاب تقويم البلدان** ، ص ١٦٠ ، الشاطر بوصيلى عبد الجليل . **معالم تاريخ سودان ووادى النيل** ، ص٦-٧ .

Trimingham , **Islam in Ethiopia** , pp.58-9.

(٢٠) للمزيد من التفصيلات عن مملكة هدية . انظر : أبو الفدا ، **كتاب البلدان** ، ص١٦٠ وما بعدها ؛ زاهر رياض . **الإسلام فى أثيوبيا فى العصور الوسطى** (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص٩٥-٩٧ .

Trimingham , **Islam in Ethiopia** , pp . 60-2 .

(٢١) للمزيد انظر ، إبراهيم طرخان " **الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة**" ص٣٤-٣٧ .

(٢٢) القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، حـ٥ ، ص٣٣٤ وما بعدها ، إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ... " ص٣٣ وما بعدها .

(٢٣) انظر القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، حـ٥ ، ص٣٣٥ وما بعدها ، إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة " ص٣٦-٣٨ .

(٢٤) حمدى السيد . **الصومال قديمًا وحديثًا** ، ص٣٩٤ وما بعدها ، غيثان بـن علـى بن جريس " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠ - ٩٠٠ هـ ...) ص١٥٣ وما بعدها .

(٢٥) لمزيد من التفصيلات ، انظر . شهاب الدين أحمد بن عبد القـادر عـرب فقيـه . **تحفة الزمان (أو) فتوح الحبشة** . مخطوط نشره مع المقدمة بالفرنسية، رينيـة باسـيه ، وحققـه فهيم محمد شلتوت (القاهرة ، ١٣٩٤م) ص٧٥-٧٩ ؛ فتحى غيث . **الإسلام والحبشة عبر التاريخ** (القاهرة ، د.ت) ص٥٣ وما بعدها .

(٢٦) انظر ، عبد الشافى عبد القادر " البحر الأحمر طريق للدعوة الإسلامية " ص٧٩ وما بعدها ؛ يوسف فضل " انتشار الإسلام فـى سودان وادى النيـل " ، ص٢٧ وما بعدهـا ؛ السر سيد أحمد العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا والصومـال " ، ص١٦٦ ما بعدها .

(٢٧) الجاحظ ، **التبصر بالتجارة** ، ص٣٣ وما بعدها ، شمس الدين المقدسى . **أحسن التقاسيم فـى معرفـة الأقـاليم** . تحقيـق دى غـوى (ليـدن ، ١٨٧٧م) ص٧٩،٩٧ إبراهيـم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة " ص٣٨ وما بعدها .

(٢٨) عبد الرحمن زكى . **الإسلام والمسلمون فى شرق إفريقيـة** (القـاهرة، ١٩٦٥م) ص٧٧ وما بعدها ؛ سيرتوماس أرنولد . **الدعوة إلى الإسلام** ، ص٢٧٨،٣٦٩ وما بعدها .

(٢٩) عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون فى شرق إفريقية ، ص٧٦ وما بعدهـا ؛ السر سيد أحمد العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا والصومال " ص١٦٨وما بعدها .

(٣٠) لمزيد من التفصيلات ، انظر ، حسن أحمد محمود . **الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا** ، ص١٣٤ وما بعدها ، عبد الرحمن زكى . **الإسلام والمسـلمون فـى شـرق أفريقيـة** ، ص٧٧ وما بعدها .

(٣١) للمزيد انظر ، شهاب الدين بن فضل الله العمرى . **مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار** . تحقيق أحمد زكـى باشـا (القـاهرة ، ١٩٢٤م) جـ١،ص١١-١٢ ؛ انظـر كذلـك الجزء الثانى من هذا الكتاب الذى لازال مخطوطًا بجامعة الأزهر تحت رقم (٤٤١ / ٦٧٣٥) ، القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، جـ٥،ص٣٢٣ وما بعدها .

(٣٢) ابـن بطوطـة ، **تحفـة النظـار فـى غرائـب الأمصـار وعجـائب الأمصـار** ، جـ١،ص٦٨، وما بعدها .

(٣٣) ابن فضل الله العمرى / **مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار** ، حـ٢، ورقة ١٨٤ وما بعدها ، ابن بطوطة . **تحفة النظار فى غرائب الأمصار** ، حـ١،ص٢٦٩ وما بعدها .

(٣٤) لمزيد من التفصيلات انظر ، فاضلو حورانى . **العرب والملاحة فى المحيط الهندى** ، ص٥١ وما بعدها ؛ محمد محمد أمين . **تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى** ، ص٣٢ ومابعدها ، غيثان بن على بن حريس . بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية ، حـ ١ ، ص١١-٣٧ ، للمؤلف نفسه " الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية " ص٧١ وما بعدها ، للمؤلف نفسه " الهجرات العربية إلى ساحل شرقى أفريقية فى العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية ... " ص٩ وما بعدها ، للمؤلف نفسه أيضًا " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ / ١٢٠٠-١٥٠٠م) ص١٥٣ -١٨٩ .

(٣٥) ابن بطوطة . **تحفة النظار فى غرائب الأمصار** ، حـ١ ، ص٢٦٨ ، المقريزى ، **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام** ، ص٢٧ وما بعدها. محمد محمد أمين . **تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى** ، ص٣١ وما بعدها ، غيثان بن على بن حريس " العرب فى مقديشو ... " ص١٢٩ وما بعدها .

(٣٦) ابن بطوطة ، **تحفة النظار فى غرائب الأمصار** ، حـ١ ، ص٢٦٩ وما بعدها .

(٣٧) لمزيد من التفصيلات انظر ، القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، حـ٥ ، ص٣٢٣-٣٢٧ ؛ العمرى ، **مسالك الأبصار** ، حـ١ ، ص١٢-١٥ ؛ زاهر رياض. **الإسلام فى أثيوبيا** ، ص٦٤ وما بعدها ؛ عبد المجيد عابدين . **بين الحبشة والعرب** ، ص٢٤٢ وما بعدها .

(٣٨) توماس أرنولد ، **الدعوة الإسلامية** ، ص٨٧ ، وللإطلاع على التفصيلات أكثر انظر ، محمد المعتصم سيد . دول إسلامية شرق أفريقيا (هرر والصومال) ، ص٣٦ وما بعدها، حسن أحمد محمود . **الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا** ، ص٤٢٦ وما بعدها .

(٣٩) انظر ، إبراهيم طرخان ، **الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى** ، ص٣٧-٤٠ .

(٤٠) الشاطر بوصيلى . **معالم تاريخ السودان ووادى النيل** ، ص٥٣-٥٥، غيثان بن على بن حريس " العرب فى مقديشو ... " ، ص١٣٢ وما بعدها؛ **Trimingham , Islam** pp . 18-21 .

(٤١) ابن بطوطة ، **تحفة النظار فى غرائب الأمصار** ، حـ١ ، ص٢٧٩ وما بعدها .

(٤٢) لمزيد من التفصيلات ، انظر . عبد الرحمن بن خلدون . **مقدمة ابن خلدون** (القاهرة ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨) جـ٢ ، ص٥٧١-٥٧٣ ؛ شهاب الدين عرب فقيه ، **تحفة الزمان (فتوح الحبشة)** ، ص١٧-٢٣ .

(٤٣) حمدى السيد . **الصومال قديمًا وحديثًا** ، ص٣١٧ وما بعدها ؛ حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص٢٤٠-٢٤٢ ، صلاح العقاد . **زنجبار** (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص٢١-٢٢ ؛ غيثان بن على بن حريس " سلطنة أوفات الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وعلاقاتها مع العالم الإسلامى خلال العصر الإسلامى الوسيط ... " .

(٤٤) لمزيد من المعلومات ، انظر . شمس الدين الأنصارى الدمشقى . **نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر** (بطرسبورج ، ١٢٨١هـ / ١٨٦٥) ص١٦٢-١٦٣؛ حمدى السيد . **الصومال قديمًا حديثًا** ، ص٣٤٦.

(٤٥) حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص٢٣٩-٢٤٢ .

(٤٦) المسعودى ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، جـ٢ ، ص٧-٩ ؛ المقريزى ، **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام** ، ص١٣٣-١٣٥ .

(٤٧) عبد القادر شيخ عبد الله . **تاريخ التعليم فى الصومال** (مقدبشو ، ١٩٧٨م)، ص١٤ وما بعدها

Freeman & Grenville , **the East African Cost** , pp.39-41
Reusch , **History of East African** , pp.154-41.

(٤٨) حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص٢٤٦ وما بعدها . Marsh & Kingsonrth .**An Introduction to the History of East Africa** (London , 1966) pp.31-4 .

(٤٩) لمزيد من التفصيلات ، انظر . ابن بطوطة . **تحفة النظار** ، جـ١ ، ص٩٣-٩٤،١٠٧،٢٦٨ وما بعدها ؛ حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص٢٤١ وما بعدها .

(٥٠) حسن إبراهيم حسن . انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ، ص٢٤٤ وما بعدها ، Freeman & Grenville **The of East Afican Coast** pp.172-3 ; **History of East Africa** pp.123-129 .

(٥١) شهاب الدين عرب فقيه . **تحفة الزمان** (فتوح الحبشة) ، ص١٧-٢٥ .

(٥٢) Trimingham , **Islam in Ethiopia** pp . 135-7
Marsh & Kingsonorth, **An Introduction to the History of East African,** pp . 23 ff.

علاقة الإمارة الصفارية بالدولة العباسية

فى القرن الثالث الهجرى

د. عبد العزيز عبد الله السالم*

المقدمة :

يتناول هذا البحث دراسة لطبيعة العلاقات التى ربطت الإمارة الصفارية والدولة العباسية خلال القرن الثالث الهجرى .

أما عن الإمارة الصفارية فهى إحدى الدويلات التى قامت على حساب الدولة العباسية عندما تعرضت للضعف والتمزق ، وكان قيامها فى إقليم سجستان الذى شهد كثيرًا من الاضطربات السياسية بسبب كثرة الخوارج فيه ، حتى قال عنه ياقوت الحموى : " وبسجستان كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم ولا يتحاشون منه " .

وقد أدت الجهود والخدمات التى قدمها الصفاريون لولاية سجستان إلى تدعيم مكانة الإمارة الصفارية لأنها جاءت فى وقت كانت الخلافة العباسية تعانى من سيطرة الأتراك عليها إضافة إلى عجزها عن السيطرة على الثوارت التى قام بها الخوارج فى سجستان .

واستطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقدم خدمات جليلة حيث قام بمحاربة الأتراك الدرارى وأفشل جميع مخططاتهم وحال دون تحقيق أطماعهم وتمكن من نشر الإسلام فى تلك البقاع الأمر الذى جعل عددًا من ملوك المناطق المجاورة يعترفون بسلطته بل ويعقدون معه معاهدات صداقة وتحالف ، ولم تعترض

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد – جامعة الملك عبد العزيز .

الخلافة العباسية على ذلك لأن تلك الأعمال التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار جاءت لصالح الدولة العباسية التى كانت فى حاجة إلى قوة لحماية جناحها الشرقى من هجمات الترك وغيرهم من العناصر الأسيوية .

والواقع أنه يمكن اعتبار الإمارة الصفارية فى كثير من فترات حكمها إمارة عسكرية إذ فرض الصفاريون أنفسهم فى حكم ولاياتهم بقوة السلاح . ومع أنهم أنكروا عدة مرات سلطة الخليفة ، إلا أنهم وجدوا من الضرورى الحصول على تأييد الخليفة ليكسبوا سلطتهم صبغة شرعية . ومن جهة أخرى اضطر الخليفة المعتز با لله ثم المهتدى با لله ثم المعتمد على ا لله ثم المعتضد با لله إلى إقرارهم فى حكم ولاياتهم والاعتراف بسلطتهم وذلك دفعًا لشرهم وحسمًا لمخالفتهم ، وحرصًا على اتحاد وترابط دولة الإسلام .

وفى الوقت نفسه اتجه يعقوب إلى المجتمع فى " سجستان " فأخذ يصلح أحواله حتى استقر الوضع ، ثم اتجه إلى بلاد الترك المتاخمين لسجستان ودعاهم للإسلام .

ويبدو أن نشأة يعقوب فى سجستان بين الخوارج كانت من العوامل القوية التى جعلته يتأثر ببعض أفكارهم السياسية ، وإن كانت المصادر التاريخية لم تبين مدى تأثر يعقوب بآراء الخوارج .

والواقع إننا لا نستطيع أن نطلق على " الإمارة الصفارية " لقب دولة كما يردد بعض الباحثين لأن الدولة عبارة بجموعة كبيرة من الناس تعيش على وجه الدوام على قطعة ثابتة من الأرض ، ويقوم على تنظيم هذه الجماعة وإدارة شئونها فى أوقات السلم والحرب هيئة حاكمة وفق تنظيم سياسى معين(١) .

ومن هذا التعريف يتضح أنه لكى توجد الدولة يتعين أن تتوافر لها أركان ثلاث : شعب وإقليم ، وسلطة سياسية حاكمة ، فإذا توفر لأى مجتمع تلك الأركان الثلاثة فإن المجتمع يوصف بأنه دولة .

أما الإمارة الصفارية فإن تعريف الدولة بأركانها لا ينطبق عليها إلا في جوانب ضيقة فهي لا تمثل شعبًا مستقرًا وإنما هي عبارة عن جموع من البشر تحيا حياة مضطربة قلقة والأسرة الحاكمة فيها اعتمدت على القوى العسكرية واتخذت منها أسلوبًا تحكم به البلاد والعباد ، ثم إنها لا تضم أرضًا ذات معالم وحدود واضحة باستثناء - سجستان - في بعض الفترات ، وإنما حكمت عدة أقاليم ، مما أدى إلى قصر عمرها وتقلص نفوذها حتى انزوت في جزء من سجستان .

* * *

قامت الإمارة الصفارية في ولاية سجستان في الوقت الذي كانت هذه الولاية تابعة لآل طاهر في خراسان ، وكان الوضع السياسي فيها مضطربًا غير مستقر ، فضلاً عن أن سجستان في ذلك الوقت كانت مأوى للصوص والخوارج وقطاع الطرق(٢) ، ولذا كثرت فيها الاضطرابات والثورات ضد الحكم المحلي ، الأمر الذي جعل سيطرة الطاهريين عليها تضعف أمام نشاط حركة الخوارج . ولما رأى أهل سجستان أن الطاهريين عجزوا عن إقرار الأمن والنظام في ولايتهم . قرروا تكوين فرق عسكرية متطوعة ، تكون مهمتها الأولى نشر الأمن والاستقرار في بلادهم ، وتزعم هذه الحركة رجل من قريش يعرف باسم : صالح بن النضر الكناني(٣) . وكان أن انضم إلى حركة المتطوعة كثير من المغامرين الذين وجدوا فيها خير وسيلة للارتقاء إلى مراكز اجتماعية وسياسية مرموقة فضلاً عن الحصول على مكاسب مادية . وكان من أبرز هؤلاء يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو . وكان يعقوب يشتغل في إحدى الصناعات المحلية في بلدته " قرنين " إحدى مدن سجستان ، حيث احترف العمل في المعادن وبخاصة النحاس الأصفر ، ومن ذلك اشتق لقبه ، وكان يتقاضى عن عمله خمسة عشر درهمًا في الشهر مما جعله يعيش شارد الذهن كثير التفكير والتأمل(٤) لأن مهنته هذه كانت لا يمكن أن تحقق له مركزًا اجتماعيًا ذا قيمة في مجتمعه ، ولا تحقق له طموحه وآماله العريضة ، ولذا هجرها(٥) وانضم هو وأخوته إلى خاله كثير بن رفاق الذي جمع

حوله عددًا من وجوه الخوارج ، وقاد ثورة ضد السلطات المحلية المتمثلة فى عمال آل طاهر . ولكن هذه الثورة فشلت وأمكن القضاء عليها فى مهدها وإن كان آل الليث بزعامة أخيهم الأكبر يعقوب قد تمكنوا من الفرار إلى بست إحدى مدن سجستان الهامة(٦) .

وفى " بست " رأى يعقوب أن أفضل وسيلة للحصول على السلاح والخيل والمال هى قطع الطريق ، لأن الظروف التى كانت تعيشها سجستان فى تلك الفترة تتيح لمن ينجح فى مثل هذه الأعمال أن يحقق لنفسه مركزًا اجتماعيًا وسياسيًا مرموقًا ، فجمع حوله عددًا من الناس وكون منهم عصابة لقطع الطريق . ونشط هو وأصحابه فى قطع الطرق ، حتى أصبحت الطرق التى تربط كرمان بسجستان وفارس بسجستان غير مأمونة . ولما وصل إليهم نبأ قدوم قافلة تجارية كبيرة من البصرة والأهواز فى طريقها إلى أصفهان خرج إليها يعقوب ورجاله وترصدوا لها وهاجموها ، واستولوا على الخيل والسلاح ، وبهذه الطريقة حصل يعقوب على ما يحتاج إليه من المال والسلاح لاستخدامه فى نشاطاته البعيدة المدى(٧) . وذلك أن يعقوب عاد إلى سجستان هو ورفاقه ومعهم أعداد كثيرة من الخيل والسلاح فاستقبلهم صالح بن النضر الكنانى(٨) ودعاهم للاشتراك معه فى المحافظة على الأمن ، والاستقرار فى ولايتهم ، ومطاردة الخوارج وغيرهم . وكان أن أظهر يعقوب بطولات نادرة فى مطاردة الخوارج ، والقضاء على كثير من زعمائهم المتطرفين ، وبعد أن استطاعت حركة المتطوعة بزعامة الكنانى ومساعدة يعقوب الصفار أن توفر الأمن والاستقرار فى ولاية سجستان أردات أن تتوج انتصارتها على الخوارج بالحصول على مكاسب سياسية ، فأعلن قائدها الخروج على طاعة بنى طاهر والتغلب على ولاية سجستان ، ولكن طاهر بن عبد الله استطاع أن يقضى على حركة الكنانى سنة ٢٣٧(٩) . وفى سنة ٢٤٣ هـ تزعم درهم بن الحسين حركة المتطوعة حينما عبث الخوارج بأمن واستقرار سجستان .

وكان يعقوب هو الموجه لهذه الحركة لما تمتع به من شخصية قوية ومهارات قتالية، ولما بذله من جهود كثيرة فى مطاردة الخوارج الذين رفضوا التعاون مع الحركة . وبعد أن ساد الأمن والاستقرار ولاية سجستان أعلنت الحركة التغلب عليها . ولكن أمير خراسان طاهر بن عبد الله استطاع أن يعمل الحيلة فى إبعاد درهم بن الحسين إلى بغداد، وكان ذلك حوالى سنة ٤٧ هـ(١٠) . وبذلك خلا الجو ليعقوب الصفار ، وأصبح قائدًا عامًا للحركة دون منافس . وبعد أن توفى طاهر بن عبد الله سنة ٢٤٨ هـ استطاع يعقوب أن يستقل بولاية سجستان فى الوقت الذى كان الوضع فى خراسان مضطربًا بسبب حداثة سن محمد بن طاهر (٢٤٨ هـ - ٢٥٩ هـ) الذى أسندت إليه ولاية خراسان . هذا بالإضافة إلى ضعف شخصيته وعدم مقدرته القيادية والإدارية فقرر يعقوب سنة ٢٥٣ هـ أن يغزو هراان وبوشنج . وبعد معركة حربية جرت بينه وبين محمد بن أوس الأنبارى عامل محمد بن طاهر ، استطاع يعقوب ضمهما إليه ، وقبض على عدد من بنى طاهر فى بوشنج فمعظم أمره ، وهابه أمير خراسان وغيره من الحكام(١١) .

وبعد أن استقرت الأحوال الأمنية والسياسية فى ولاية سجستان بفضل الجهود التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار ، رأى أنه أحق بولاية سجستان من الطاهريين الذين بدت عليهم إمارات الضعف والعجز ، فأعلن نفسه حاكمًا على ولاية سجستان ، دون أن يستند فى ذلك إلى تقليد شرعى من الخيلفة العباسى(١٢) صاحب السلطة الشرعية . وكانت الخلافة العباسية فى تلك الفترة فى ظروف لا تمكنها من إقرار الوضع فى سجستان ، فتركت ليعقوب مهمة إقرار الأمن والنظام بها .

ومما يكشف عن قيمة الجهود والخدمات التى قدمها الصفاريون لولاية سجستان أنها جاءت فى وقت كانت الحكومة العباسية عاجزة عن إقرار الأمن والنظام فى عاصمتها والمدن المجاورة لها . وقد زامن ضعف الحكومة العباسية فى

بغداد ضعف الإدارة الطاهرية فى خراسان مما جعل الخـوارج يرفعون رايـة الثورة والعصيان فى سجستان . وشجعت هذه الظروف راتبيـل سجسـتان(١٣) ، وغـيره من ملوك وأمراء الترك الـدرارى الذيـن كـانت تربطهـم بـالدول الإسـلامية عقـود ومعـاهدات ، لأن يعلنـوا خروجهـم وتمردهـم علـى السيادة العربيـة الإسـلامية ، ويمتنعوا عن دفع الخراج(١٤) ، بل أنهم أخذوا يتهيئون لضرب الوجـود الإسـلامى فى سجستان ، واستعاده نفوذهم عليها . ولكن قيام إدارة عسكرية قوية فى ولايـة سجستان فى تلك الفترة أفشل مخططات الترك وحال دون تحقيق أطماعهم . ذلـك أن يعقوب بن الليث الصفار لما نجح فى تهدئـة الأوضـاع الداخليـة فـى سجستان وقضى على شوكة الخوارج فيها ، أخذ يستعد لإعداد جيش قـوى لملاقـاة رتبيـل سجستان وغيره من ملوك وأمـراء الـترك الـدرارى ، لأن خطـر أولئـك علـى أمـن واستقرار الولاية كان أشد وأقوى من خطر الخوارج عليهـا . وقـاد يعقـوب حملـة عسكرية لدفع خطر الترك عن أراضى الدولة الإسلامية فـى سجسـتان ، وكـان أن نجح يعقوب فى حملاته العسكرية الموفقة فى قتل رتبيل سجستان وثلاثة من ملـوك الترك ، كما استطاع أن يصل إلى كابل ويفتح غزنة ، وأن ينشر الإسلام فى تلـك البقاع ، مما جعل عددًا من ملوك البلاد المجاورة يعترفون بسـلطته(١٥) ، ويعقـدون معه معاهدة سلام مثل : ملك " المولتان " " وملك " الرخج "وملك " زابلستان "، وملـك " السند ومكـران "(١٦) . كمـا أرسـل ملـك الهنـد وفـدًا تفـاوض مـع يعقوب(١٧) على جسر " بسط " .

* * *

وقد اتسمت علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية بعدة سمات أسهمت إسهامًا كبيرًا فى صياغة تلك العلاقة وتوجيهها ومن أهمها :

١ - الشك والحذر وعدم ثقة كل منهما بالآخر .

٢ - الاصلاح الدينى والاجتماعى .

٣ - الفكر السياسى للخوارج وأثره فى توجيه حركة الصفاريين .

٤ - الطبيعة العسكرية للإمارة الصفارية وأثرها فى تكييف حركة الصفاريين .

كان لهذه المؤثرات وغيرها من العوامل المساعدة الأخرى كاختلال الأمن ، واضطراب الأحوال السياسية فى ولايات المشرق(١٨) ، وعجز الطاهريين عن إقرار الأمن والنظام فى ولاياتهم ، وضعف سلطة الخلافة العباسية ، أثر بارز فى رسم الخطوط العريضة للروابط والصلات التى حكمت علاقة الإمارة الصفارية بدولة الخلافة العباسية فكانت العلاقات بينهما تستقر حين تتفق مصالح الطرفين ولكنها لم تصل إلى درجة ثقة كل واحد منهما فى الطرف الآخر . أما حين تتعارض مصالحهما فكانت تنفصم عرى الروابط والصلات بينهما .

وبالنسبة للعامل الأول أخذ يعقوب بن الليث يوجه نشاطه بتحريض من أهل سجستان إلى بلاد الترك الدرارى المتاخمين لولاية سجستان ، لأن خطرهم على سجستان كبير(١٩) ، فقاتل ملوك تلك البلاد حتى وصل إلى غزنة وكابل ، ثم عاد يعقوب إلى سجستان وقد حمل بعض رؤوس الترك معه ، فزادت هيبته ، وغنم من بلاد الترك غنائم كثيرة(٢٠) ، وكان ذلك كله فى صالح الخلافة العباسية ولذلك لم تعترض الخلافة على أعماله . وكان يعقوب يظهر التمسك بطاعة الخليفة المستعين بالله ، فلما تولى المعتز بالله الخلافة سنة ٢٥٢هـ ، كتب إلى يعقوب بولاية سجستان(٢١) ، ولكن علاقة الدولة العباسية به لم تتوثق لأن شخصيته وأهدافه وخططه لم تتضح بعد للخلافة .

وفى سنة ٢٥٤ هـ أرسل يعقوب إلى الخليفة المعتز بالله يطلب ولاية كرمان ويذكر عجز الطاهريين وعدم قدرتهم على إدارتها واستيفاء خراجها وتحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . وأعلن يعقوب ولاءه وطاعته للخليفة فأجابه إلى طلبه وقلده ولاية كرمان وكان المعتز بالله يعلم أن يعقوب يظهر له طاعة ظاهرية لا حقيقة لها(٢٢) . ولكل الظروف التى كانت تعيشها الخلافة العباسية عندئذ الأوضاع التى أحاطت بولايتى فارس وكرمان دفعت الخليفة إلى تقليد

يعقوب ولاية كرمان . ولم يكن ذلك ناتجًا عن ثقة الخليفة فى يعقوب أو فى ولائه وطاعته للخلافة ، وإنما أراد يعقوب أن يتقرب إلى الخلافة لعله يزيل شكها فيه وعدم ثقتها به فبادر حينما استولى على فارس بالخطبة للخليفة العباسى والدعاء له. وحينما طلب منه على بن الحسين إبراز كتاب الخليفة إليه بولايته رد عليه يعقوب قائلاً : " فإن البلد لأمير المؤمنين ، ونحن عبيده نتصرف بأمره فى أرضه وسلطانه ، وفى طاعة الله وطاعته"(٢٣) ، ثم أرسل إلى الخليفة المعتز بالله هدية ثمينة(٢٤) ، وكتب إليه يعلن طاعته . ومع ذلك ، فإن الخليفة لم يكن مطمئنًا إلى عمل يعقوب وتصرفاته ، فحينما غادر فارس أرسل إليها عمالاً(٢٥) .

وفى سنة ٢٥٧ هـ استولى يعقوب على فارس مرة أخرى ، وأراد أن يتحدى سلطة الخلافة ، ولكن الخليفة ، العباسى الموفق بالله حرص على تسوية الموقف بين الصفاريين والخلافة فأسند إليه بعض أعمال الولايات التى كان معظمها تحت يده ، كبلخ وطخارستان والسند وسجستان ليبعده عن فارس ، ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائمًا إبعاده عن فارس ، وأنها لا تطمئن إليه ، ولا زالت تشك فى نواياه وخططه ولا تثق فى ولائه وطاعته ، اعتبر أن السبب فى ذلك هم آل طاهر أصحاب النفوذ فى خراسان وبغداد وفارس ، فأراد أن يصفى حسابه مع آل طاهر لعله يحظى بثقة الخلافة ، فاستولى على خراسان ، وقضى على نفوذ الطاهريين بها فى سنة ٢٥٩ هـ ، ولكن الخلافة ما كانت لتعدل الصفاريين بالطاهريين ، فازداد شكها فى الصفاريين وأصدرت أمرها إلى عاملها على بغداد بأن يجمع حجاج خراسان وجرجان وطبرستان والرى ويعلمهم بأن الخليفة لم يول يعقوبًا أيا من تلك الولايات ، وإنه من المخالفين الخارجين على سلطة الخلافة ولما رأى يعقوب أن الخلافة لم تغير موقفها منه وأن ثقتها فيه انهارت قرر أن يلتحم معها عسكريًا(٢٦) ، وتم ذلك فى دير العاقول ٢٦٢ هـ . وكان هذا اللقاء العسكرى ، بين يعقوب وقوات الخلافة العباسية يمثل قمة الشك وعدم ثقة كل طرف فى الآخر .

ورغم أن عمرو بن الليث الذى خلف أخاه على الإمارة كـان أكثر مرونـة وتعاونًا وتقربًا إلى الخلافة ، إلا أن الخلافة العباسية كانت تسند إليه ولاية الأعمـال وترسل التقاليد مداراه له ودفعًا لخطره ، لا ثقة فـى ولائـه وطاعتـه لبنـى العبـاس . وكانت الخلافة تتحين الفرص للقضاء على عمرو ونفوذه ، فلمـا أتيحـت الفرصـة للمعتضد با لله سنة ٢٨٧ هـ على يد السامانيين لم يتردد فى ذلك .

وقد أعلـن يعقـوب ، عـدم ثقتـه وكرهـه للعباسـيين فـى روايـة حيـث قـال يعقوب: " إن العباسيين قد ثبتوا حكمهـم علـى الحيلـة والخديعـة . ألم تشـاهد مـا عملوه مع أبى مسلم وعائلته البرامكة على الرغم من كل ما عمله هـؤلاء الرجـال بالنسبة للدولة العباسية ، فلاتدع أحد يثق بهم أبدصا ."(٢٧)

وقد ادخل الصفاريون تقليدًا جديدًا على علاقـة الأمـراء المستقلين بالخلافـة العباسية فاحتفظوا لأنفسهم بما جمعوه من خراج مناطقهم ،ولم يرسلوا منه شيئا إلى بيت المال ببغداد ، واقتصروا على إرسال الهدايا . وكـان يعقـوب أول مـن أدخـل اسمه فى الخطبة مع اسم الخليفة ، كما كان عمرو أول من نقش اسمه على الدنانير. والصفاريون هم أيضًا أول من هاجم سلطة العباسيين فى فـارس ، وحـاولوا الحـط من سلطتهـم الدنيوية إلى أدنى حد(٢٨) .

أما العامل الثانى وهو جهود الصفاريين فـى الاصـلاح الدينـى والاجتمـاعى فلقد تأثر يعقوب بن الليـث الصفـار بفلسـفة حركـة المتطوعـة ، فـانضم إلى تلـك الحركة وأصبح أحد أعضائها النشـيطين ، واستطـاع بقـوة شـخصيته(٢٩) وتأثـيره وحسن معاملته لاتباعه وأصحابه أن يتزعم الحركة(٣٠) . ثم أنـه أخـذ يتقـرب إلى أفرادها حتى استحوذ على قلوبهم فاطاعوه طاعة مطلقة · فلما قضى على كثير من زعمـاء الخوارج المتطرفين الذيـن رفضـوا التعـاون معـه ، وأقـر الأمـن والنظـام فـى سجستان اتجه إلى المجتمع فى سجستان فأخذ يصلح أحواله ويقضـى علـى المفاسـد التى انتشرت فيه وكـان يـأخذ بعضًـا مـن أمـوال الأغنيـاء فيوزعهـا علـى الفقـراء

والضعفاء . وأظهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٣١) فازادات محبة الناس له(٣٢) . وقد أظهر يعقوب لأصحابه وخاصة العلماء منهم أن الخليفة ولاه سجستان وأمره بقتال الخوارج ، لئلا يظهر فى نظرهم بمظهر العاصى الخارج على سلطة الخلافة . وبعد أن استقر الوضع فى سجستان ثم إصلاح أحوال المجتمع فيها اتجه إلى بلاد الترك المتاخمين لسجستان وأخذ يدعوهم للإسلام ليظهر أمام اتباعه وأعدائه على حد سواء بمظهر المجاهد فى سبيل الله . وبعد ذلك قصد بعض أملاك الطاهريين فى هرات وبوشنج فضمها إليه مظهرًا أن الدافع من وراء ذلك هو عجز الطاهريين عن تحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . ثم اتجه إلى الطاهريين فى كرمان وأملاك الدولة العباسية فى فارس متخذًا من عجز الطاهريين وفساد الإدراة وفقدان الأمن حجة لبسط نفوذه(٣٣) . وكانت الخلافة العباسية حتى نهاية عصر المهتدى بالله (٢٥٦) لا ترى فى حركة يعقوب التى أظهرها بمظهر الإصلاح الاجتماعى والدينى خطرًا يهدد آمنها واستقرارها ، بل رأت أنها تستفيد منها فى توطيد الأمن فى فارس وكرمان . ولكن سياسة الخلافة العباسية تجاه يعقوب تغيرت حينما تقلد المعتمد على الله ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ الذى أصدر إلى محمد بن طاهر منشورًا بولاية خراسان وسجستان ، وبهذا لم يعترف المعتمد بولاية يعقوب على سجستان(٣٤).

أما العامل الثالث وهو : الفكر السياسى للخوارج وأثره فى توجيه حركة

وعلى الرغم من أن يعقوب الصفار قد تعاون مع الخوارج واستفاد من حركتهم إلا أن المصادر التاريخية التى بين أيدينا لم تبين مدى تأثر يعقوب بعقيدة الخوارج ومذهبهم . ويبدو أن المصادر التاريخية التى نعتت يعقوب بأنه خارجى(٣٧) قصدت من اللفظ معناه السياسى ، ولم تقصد معناه المذهبى والفكرى . فيعقوب عاش حياة فيها قدر من الزهد والتقشف وكان لا يكتشف لأصحابه عن آرائه وأفكاره وأسراره(٣٨) . ونتيجة لأن يعقوب الصفار عاش فى بيئته سجستان التى كان للخوارج فيها صولة وجولة ، وكانوا فيها من الكثرة والقوة ما جعلهم يتفاخرون بمذهبهم عند البيع والشراء(٣٩) ، فقد تأثر يعقوب بفكرهم السياسى ، وكان لهذا التأثر أثره فى علاقته مع دولة الخلافة العباسية ، ويتضح لنا ذلك فى ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : كان سنة ٢٥٤ هـ حينما اتجه يعقوب بجيشه إلى فارس ليستولى عليها ويضمها إلى ولايته ، فلما طلب منه على بن الحسين بن قريش والى فارس – فى عهد الخليفة المعز با لله – إن كان معه عهد من الخليفة أن يبرزه له رد عليه يعقوب بأن معه عهد من الخليفة لا يستطيع أن يبرزه إلا بعد أن يدخل البلد ، فلما قبض يعقوب على على بن الحسين ودخل شيراز أخرج سيفه قال : هذا عهدى(٤٠) .

وكان **الموقف الثاني** : حينما دخل يعقوب الصفار نيسابور فى شوال من عام ٢٥٩ هـ وقبض على محمد بن طاهر ، إذ أخذ علماء ووجهاء وأعيان المدينة يتناجون فيما بينهم وكل يسأل صاحبه : أمعه عهد وتقليد من الخليفة ؟ فلما علم بما يساورهم أمر جنوده بأن يطوفوا فى المدينة يدعون الناس وخاصة العلماء وأعيان نيسابور حتى يعرض عليهم منشور الخليفة فلما اجتمعوا عنده التفت

يعقوب إلى حاجبه وقال له : " احضر منشور أمير المؤمنين حتى اقرأه عليهم فوضع الحاجب أمامه سيفًا براقًا فقال يعقوب : هذا هو منشور الخليفة إن هذا السيف هو الذى أعطانى خراسان ، وبذلك فأنا والخليفة سيان فى الحجة(٤١) .

أما الموقف الثالث : فحينما انهزم يعقوب بن الليث الصفار أمام جيش الخلافة العباسية بقيادة المعتمد على ا لله سنة ٢٦٢ هـ حيث اتجه إلى جند يسابور وأقام هناك يعالج جراحه . وفى تلك الأثناء أراد الموفق بـا لله أن يستغل هزيمة يعقوب لكى يتفرغ لحرب الزنج ، فأرسل إليه رسولاً يحمل تقليدًا ليعقوب بعمل بعض الولايات البعيدة عن العراق . فلما وصل رسول الخليفة : إلى جند نيسابور سنة ٢٦٥ هـ كان يعقوب على فراش الموت وبجانبه سيفه فقال يعقوب لرسول الخليفة : قل للخليفة أننى عليل فإن مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وأن عوفيت فليس بينى وبينك إلا هذا السيف(٤٢) .

وجملة القول ، كان لبيئة سجستان التى عاش فيها آل الصفار ولتعاونهم مع الخوارج وتعاون الخوارج معهم دور كبير فى تأثر يعقوب بالفكر السياسى للخوارج ثم فى توتر العلاقة بين الإمارة الصفارية ودولة الخلافة بما جعلها تحتكم فى كثير من المواقف إلى السيف والقوة ، مثلما يفعل الخوارج حينما يصطدمون عسكريًا بالخلافة العباسة .

أما العامل الرابع فهو الطبيعة العسكرية للإمارة الصفارية : إذ توصف الإمارة الصفارية فى سجستان بأنها كانت إمارة عسكرية ، وكان يعقوب وأخوه عمرو جنديين عبقريين(٤٣) يتمتعان بكثير من الصفات القيادية والعسكرية ، وكان ليعقوب منهج خاص فى تنظيم جيشه وتزويده بالعناصر الجديدة واعداده وتهيئته للقتال(٤٤) .

وكان معظم جند جيش يعقوب من أهالى سجستان ، وهى منطقة سهلية سبخة رملية تقل فيها الجبال وذات مناخ حار(٤٥) ، مما جعل يعقوب لا يحقق مكاسب استراتيجية ثابتة فى منطقة الترك الدرارى ذات الجبال الوعرة والمناخ البارد ، لأن جيشه تعود على الهواء الدافئ وخفة الحركة وقلة المؤنة(٤٦) . لذلك نلاحظ أن الإمارة الصفارية اتجهت فى توسعها إلى المنطقة الجنوبية لسجستان ، وهى فارس وكرمان وإلى المنطقة الغربية لها وهى خراسان(٤٧) ، مما جعلها فى صراع مستمر مع الخلافة العباسية . وكان لذلك أثره القوى فى توتر العلاقة مع العباسيين . وكان يعقوب وعمرو يريان دائمًا أن قوتهما ترجع لأصل عسكرى بحت ، لا لأى اعتبارات أخرى ، وهذا يؤكد سيطرة الروح العسكرية على الإمارة الصفارية ، مما جعل علاقتها بالخلافة متذبذبة مضطربة لا تستقر على حال. وعلى كل حال فإن شهرة يعقوب وأخيه عمرو تعود إلى شجاعتهما ومقدرتهما السياسية والعسكرية ، لا إلى ثقافتهما ودعمهما وتشجيعهما للحركة العلمية والأدبية فى سجستان . والذين كتبوا عن الإمارة الصفارية إما فرس(٤٨) ، اندفعوا وراء العاطفة فجعلوا يعقوب وأخاه بطلين قوميين بعثا مجد فارس القديم فنسبوا إليهما أمورًا كثيرة تتعلق بالعناية بأمجاد فارس وتاريخها وتراثها وأدبها ، إما من طوائف أخرى تحدثت عن الصفاريين من خلال نشاطهم السياسى ومعاركهم العسكرية دون أن تتعرض لما خلفوه من تراث حضارى ، فلم تذكر جانبًا من نشاطهم العلمى ، أو طرفًا من دورهم فى ازدهار المشرق وحضارته . ولعل السبب فى اغفال المصادر التاريخية للجوانب العلمية والأدبية التى أسهم فيها الصفاريون إبان إمارتهم على سحستان وغيرها من ولايات المشرق ، يعود إلى توتر علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية ، والتى اتخذت طابع المواجهة الحربية بينهما حين أعلن يعقوب الحرب ضد الخليفة المعتمد على الله ، وأعلن أخوه عمرو الذى أعقبه على الإمارة عدة مرات تمرده وعصيانه على الخليفتين المعتمد على الله والمعتضد بالله ، مما جعل المصادر التاريخية التى سجلت أحداث التاريخ العباسى فى

عصر نفوذ الأتراك تبرز جانبًا كبيرًا من النشاط السياسى والمعارك الحربية للصفاريين دون ذكر الجوانب الحضارية التى أسهموا فيها والتى سارت جنبًا إلى جنب مع نشاطهم السياسى(٤٩) لذلك فإن إبراز دور الصفارية كإحدى الإمارات الإسلامية التى حكمت المشرق فى العصر العباسى فى المجال الحضارى من الأمور التى تتطلب جهدًا كبيرًا ، لأن هذا الجانب ضاع بين إغفال المصادر التاريخية التى أغفلت نشاط الصفاريين الثقافى ومساهمتهم فى حضارة المشرق ، وبين حماسة واندفاع المؤلفين الإيرانيين الذين نظروا إلى الإمارة الصفارية نظرة قومية عاطفية، فقالوا إن نهضة المشرق الأدبية خاصة فى القرن الثالث الهجرى تدين لهم وخاصة فيما يتعلق بالعناية باللغة الفارسية وآدابها .

وللحقيقة والتاريخ فإن الحركة العلمية والأدبية فى ولاية " سجستان " وخاصة فى مدينتى " زرنج " و " بست " شهدت إزدهارا ونشاطًا ملحوظًا فى الفترة التى تعاقبت فيها على الإمارة الصفارية يعقوب بن الليث وأخوه عمرو ، وذلك لاستتباب الأمن واستقرار الأوضاع فيها ، وللرخاء الاقتصادى الذى عاشته الولاية فى عهدهما . وقد تخرج فى بست " بست " فى تلك الفترة علماء كثيرون فى الفقه والتفسير والأدب واللغة ، منهم الخطابى أبو سليمان أحمد بن محمد البستى صاحب معالم السنن وغريب الحديث(٥٠) .

وعلى الرغم مما شهدته ولاية سجستان فى عصر يعقوب وعمرو من نشاط فى الحركة العلمية والأدبية إلا أن المصادر التاريخية ، وكتب الأدب ، لم تسجل لنا صورة أو حدثًا تاريخيًا يمكن الاستفادة منه فى بيان دور آل الصفار فى دعم وتشجيع الحركة العلمية فى سجستان وخراسان ، اللهم إلا ما يذكره المسعودى عن إحسان يعقوب ، وبره بأتباعه وجنده دون تمييز ، وما يذكره أيضًا عن طريقته ومنهجه فى استقبال الوفود والرؤساء(٥١) . كذلك يذكر ابن خلكان أن عمرًا انتهج سياسة ونظمًا إدارية فى حكمة لخراسان تعد فريدة فى ذاتها(٥٢) ، والإمارة

الصفارية - كما ذكرنا - وإن كانت السمة العامة لها أنها إمارة عسكرية فى خططها ونفقاتها - ، إلا أن الباحث المتحرى للحقيقة لا يستطيع أن ينكر أن يعقوب وأخاه عمرو بذلا جهودًا أسهمت فى الازدهار الحضارى لولاية المشرق .

وكانت عناية الصفاريين بالآداب الفارسية على ما يبدو أكثر من عناية الطاهريين ، لأنه لم يكن لطاهر وبنيه دراية تامة باللغة الفارسية(٥٣) ، ويذكر باريزى : أن يعقوب لم يكن له علم باللغة العربية . وينبغى أن ندرك أن رأى باريزى وغيره من المؤلفين الفرس القائل بأن اللغة العربية لم تنتشر فى سجستان فى ذلك الوقت أمر مجاف للحقيقة ، فقد انتشرت اللغة العربية فى مدن سجستان الهامة مثل " بست " و" زرنج " وتخرج فى بست عدد من علماء اللغة العربية . ولا أدل على انتشار اللغة العربية فى زرنج قاعدة الولاية من أن خطبة الجمعة فيها كانت باللغة العربية .

والخلاصة أنه ويمكن إبراز مجهود الإمارة الصفارية ودورها فى حضارة المشرق فى عدة جوانب تشمل النقاط التالية :

(أ) إقرار الأمن والنظام فى سجستان وبذلك أتاحوا للحركة العلمية فى مدن سجستان جوا علميًا بعيدًا عن الفوضى والإضطراب .

(ب) العناية بالمشآت العمرانية وخاصة بناء المساجد وإقامة بعض المبانى للإدارات والأجهزة الحكومية فى نيسابور وإقامة بعض الأسواق فى زرنج(٥٤)

(جـ) الاهتمام بالصحةالعامة والرعاية الصحية وتشجيع الحركة الطبية فى سجستان . ويتضح ذلك من أن عمرو بن الليث أوقف جزء من دخل السوق الذى بناه فى زرنج ليصرف دخله على البيمارستانات(٥٥) فيها فأصبح لها مورد ساعدها على أداء رسالتها وعلى نشر الوعى الصحى بين الناس .

الهوامش

(١) د. محمد عبد القادر أبو فارس : النظام السياسى فى الإسلام ص١٣١

د. فتحى عبد الكريم : الدولة والسيادة فى الفقه الإسلامى ص١٥١

(٢) يراجع فى ذلك ابن منظور : لسان العرب ، وكذلك حاشية جيش الصفاريين بقلم قحطان عبد الستار الحديثى ، ص٢٣٨

(٣) سى . أى . بوزورث : جيش الصفاريين ترجمة : د. عبد الجبار ناجى ، ص١٩٦

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص ٤٣٠

(٥) الحموى : معجم البلدان جـ٤ ، ص٣٣٣

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٢

والحديثى : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٢

(٧) ف . بارتولد : تاريخ الدولة الصفارية .

ترجمة : د. منذر البكر : مقالة فى مجلة كلية الآداب جامعة البصرة – السنة الثانية .

(٨) يراجع فى ذلك : سى . أى . بوزورث : جيش الصفاريين .

ترجمة : د. عبد الجبار ناجى ص/:ط

وفيات الأعيان جـ٥ ، ص٢٩١

(٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٥ ، ص٢٩١

ابن خلكان :وفيات الأعيان جـ٦ ، ص

(١٠) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٢

(١١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٣٣٨

(١٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٢٩١

(١٣) السمعانى : الأنساب جـ٧ ، ص١٣

(١٤) الشلقانى : الرواية فيما وراء العراق ص٢٥

(١٥) بارتولد : تركستان ص٣١٩

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦، ص٤٠٤

(١٧) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٠

(١٨) ابن حوقل : صورة الأرض ص٢٧٠

(١٩) النرشخى: تاريخ بخارى ص١٠٨

(٢٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٣

(٢١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ٣ ، ص٢٩٤

(٢٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ١١ ، ص١٥٩

(٢٣) ابن خلكان : جـ٦ ، ص٤٠٨

(٢٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٢٤١

(٢٥) باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ص١٤٨

(٢٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٣٦٣

(٢٧) سى . ى . بوزورث : جيش الصفاريين ص١٩٠

(٢٨) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص٢٠٢

(٢٩) ابن الأثير : الكامل جـ٥ ، ص٣٣٨

(٣٠) نفس المرجع .

(٣١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٣

(٣٢) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٧٠

(٣٣) ابن الأثير : جـ٥ ،ص٢٤٠

(٣٤) د. إبراهيم باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ص١٤٦

(٣٥) د. فاروق عمر : الخلافة العباسية ص٢٢٣

(٣٦) سى . أى بوزورث : جيش الصفاريين ص٢٠٢

(٣٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٢

(٣٨) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٣

(٣٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٣ ، ص١٩٠

(٤٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ٦ ، ص٤٠٧

(٤١) باريزى : يعقوب بن الليث الصفار حـ٦ ، ص٤٠٧

د. فاروق عمر : الخلافة العباسية ص٢٢٢

(٤٢) باريزى : يعقوب بن الليث ص١٦٣

(٤٣) سى . أى بوزورث : جيش الصفاريين ص١٨٩

(٤٤) المسعودى : مروج الذهب حـ٤ ، ص٢٠٥

(٤٥) المسعودى : مروج الذهب حـ٤ ، ص٢٠٥

(٤٦) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٠

(٤٧) ابن طيفور : تاريخ بغداد ص١٧

(٤٨) يمثل هؤلاء صاحب تاريخ سيستان ، ومن الباحثين المحدثين :

د. إبراهيم باستانى باريزى : أستاذ التاريخ بجامعة طهران فى كتابه : يعقوب بن الليث الصفار .

ود. رضا زاده شفق : أستاذ الأدب الفارسى فى حامعة طهران فى كتابه : تاريخ الأدب الفارسى .

(٤٩) يمثل هؤلاء الطبرى فى كتابه : تاريخ الأمم والملوك ، والمسعودى فى كتابه: مروج الذهب ، وابن الأثير فى كتابه : الكامل ، وابن خلكان فى كتابه : وفيات الأعيان . قد تميز المسعودى ، وابن خلكان بالإشارة إلى طرف من نظم الصفاريين الإدارية والمالية والعسكرية

(٥٠) الحموى : معجم البلدان حـ ١ ، ص٤١٥

(٥١) المسعودى : مروج الذهب حـ٤ ، ص٢٠٤

(٥٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ٦ ، ٤٢١

(٥٣) حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسى حـ١ ، ص١١٧

(٥٤) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٠

(٥٥) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٠

المصادر والمراجع

المصـــــادر :

ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد . ت٦٣ هـ .

- الكامل فى التاريخ .

دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

الحموى : أبو عبد الله ياقوت : ت ٦٢٦ هـ .

- معجم البلدان .

بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .

ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على . ت ٣٦٧هـ .

- صورة الأرض

منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون . ت ٨٠٨هـ .

- تاريخ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٦٦م .

- مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد . ت٦٨١هـ

- وفيات الأعيان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

السمعانى : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور . ت ٥٦٢هـ .

- كتاب الأنساب (لندن ١٩١٢) .

الاصطخرى : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى - ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .

- المسالك والممالك .

تحقيق : محمد عبد العال الحسينى ، دار القلم ١٣٨١ هـ .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير . ت٣١٠ هـ
- تاريخ الأمم والملوك .

ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر الكاتب . ت٢٨٠ هـ .
بغداد . طبع سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٣٦٨ م.

القزوينى : زكريا محمد . ت٦٨٢ هـ .
- آثار البلاد وأخبار العباد .
دار صادر بيروت .

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين / ت ٣٤٥هـ
- مروج الذهب ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد . الطبعة الرابعة ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٥ هـ .

المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد . ت٣٨٨ هـ .
- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبع فى مطبعة بريل عام ١٩٠٩ م .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . ت٧١١ هـ .
- لسان العرب .
الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

اليعقوبى : أحمد بن يعقوب ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٣٧٩ هـ .

المراجـــــع :

د. حامد عبد القادر :
- قصة الأدب الفارسى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة الطبعة الأولى ١٩٥١ م

د. عبد الحميد الشلقانى :
- الرواية فيما وراء العراق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥

عبد العزيز الدورى :
- دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، الطبعة الأولى، مطبعة السريان، بغداد ١٩٤٥.

د. عبد الفتاح السرنجاوى :

- النزعات الاستقلالية والخلافة العباسية ، الطبعة الرابعة : نشر دار الكتب الأهلية بمصر ١٣٦٣ هـ/١٩٤٥ م .

د. فاروق عمر :

- الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرية ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٧٧ م .

د. فؤاد محمد النادى :

- نظرية الدولة فى الفقه السياسى الإسلامى ، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ .

الكتب المترجمة إلى العربية :

- **باريزى** : د. إبراهيم باستانى
  يعقوب بن الليث الصفار
  ترجمه من الفارسية : د. محمد فتحى يوسف الريس
  دار الرائد العربى .
- **بارتولد فاسيلى** : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، ترجمة د. صلاح الدين عثمان هاشم .
  منشورات المجلس الوطنى للثقافة والفنون الكويت ١٤٠١ هـ .
- **بوزورث . سى . أى** : جيش الصفلريين ، لندن ، ١٩٧٧ .
- **د. رضا شفق** : تاريخ الأدب الفارسى .
  ترجمه من الفارسية : محمد موسى هنداوى
  دار الفكر العربى ١٩٤٧
- **النرشخى** : أبوبكر محمد بن جعفر . ت ٣٨٤ هـ تاريخ بخارى .
  ترجمة : د. أمين عبد المجيد البدوى ، دار المعارف بمصر .

محاولة المهتدى بالله الإصلاحية
وأثرها على الخلافة العباسية

د/ على بن صالح المحيميد*

مقدمة :

يمثل الخليفة المهتدى بالله (حكم بين عامى ٢٥٥ و٢٥٦هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠م) ، نموذجًا حيًا وصادقًا لمجموعة الخلفاء الصالحين الذين سطر التاريخ الإسلامى بمراحلة المختلفة سيرتهم وجهودهم الخيرة بحروف من نور ، فقد كان المهتدى بالله دينًا على منهج الخلفاء الراشدين ، وضعه الإمام السيوطى يرحمه الله ضمن الاثنى عشر خليفة الذين ورد ذكرهم فى الحديث الشريف : " لا يزال هذا الأمر عزيزًا إلى اثنى عشر خليفة كلهم من قريش "(١) ، وقال عنه الإمام الحافظ ابن كثير : " لقد كانت خلافته بحمد الله خلافة صالحة "(٢) ، وامتدحه الإمام الذهبى قائلاً: " إنه من أحسن أهل زمانه "(٣) .

ولقد استهدفت المحاولة الإصلاحية التى تولى كبرها الخليفة المهتدى بالله قلب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتردية التى عانت الخلافة العباسية من ويلاتها وآثارها السلبية منذ فجر عصرها الثانى الذى بدأ سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦ م بسبب ضعف السلطة المركزية فى العاصمة سامراء من ناحية ، وتفاقم نفوذ الموالى الأتراك ، وتدخلهم المستمر فى شؤون الخلافة من ناحية أخرى .

مدخل :(الحياة السياسية فى سامراء قبيل عهد المهتدى ٢٣٢-٢٥٥هـ):

أضحت الخلافة العباسية منذ مطلع العصر العباسى الثانى ٢٣٢هـ / ٨٤٧م تئن تحت وطأة نفوذ العناصر التركية التى وفدت إلى حاضرة الخلافة العباسية فى العراق(٤) بأعداد هائلة أثناء عهد الخليفة المعتصم(٥) .

---

* أستاذ مساعد بكلية العلوم العربية والاجتماعية، بالقصيم جامعة الإمام محمد بن سعود.

وعندما اعتلى الخليفة المتوكل(٦) (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٧ - ٨٦١م) عرش الخلافة حاول مقاومة النفوذ التركى والتخلص منه ، فزج ببعض القواد الأتراك فى السجن(٧) ، وأقدم سنة ٢٣٥هـ / ٨٥٠م على خطوة جرئية أخرى هدفت إلى الحد من سيطرة الأتراك ، ومنعهم من التدخل فى شئون فى شؤون الخلافة ، وحرمانهم من اختيار الخليفة العباسى . ذلك أنه عقد البيعة لأبنائه الثلاثة : محمد المنتصر بالله(٨) ، والزبير المعتز بالله(٩) ، وإبراهيم المؤيد بالله(١٠)، وأقطع كلا منهم ناحية مهمة من بلدان الخلافة العباسية(١١) .

وبذلك حرم المتوكل الأتراك مما كان فى أيديهم من الولايات والمناصب المهمة . ومن الطبعى أن يولد هذا الإجراء كرها فى نفوسهم تجاه المتوكل ، فاشتد حقدهم عليه ، وأشاعوا الاضطرابات والفتن(١٢) داخل العاصمة العباسية سامراء(١٣) .

وقد شعر المتوكل بذلك فقرر الابتعاد عنهم ، وانتقل من العراق إلى الشام حيث وصل دمشق سنة ٢٤٣هـ / ٨٥٧م سعيًا وراء كسب تأييد العناصر العربية التى كانت تشكل آنذاك غالبية سكان بلاد الشام . ولكن المتوكل لم يستطع تحقيق ما كان يصبو إليه ، بل شغب عليه جند الشام(١٤) فعاد إلى سامراء بعد أن غاب عنها قرابة شهرين(١٥) .

ولما عاد إليها وجد ابنه وولى عهده المنتصر قد تغير موقفه ، وصار يتعاطف مع بعض قواد الأتراك . فقام بعزله من منصبه ، وجعل ابنه المعتز وليًا للعهد . وعندئذ أنضم المنتصر إلى الأتراك ، وشايعهم ضد أبيه . فعزم المتوكل على الفتك بابنه وبعض أعوانه الأتراك (١٦) ، ولكنهم اغتالوه سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م ، وبايعوا ابنه المنتصر بالخلافة (١٧) ، وأوعزوا إليه عزل أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد، فاستجاب لطلبهم وهم المتورطون معه فى قتل أبيه (١٨) . ثم انقلب عليهم وراح يسبهم فى مجالسه بقوله : " هؤلاء قتلة الخلفاء "(١٩) . ولما شعروا بالخطر دسوا

عليه طبيبه حيث فصده بريشة مسمومة مات متأثرًا بها سنة ٢٤٨هـ/ ٨٦٢م(٢٠). وبوفاة المنتصر اتفق الأتراك على حجب الخلافة عن أولاد المتوكل كى لا يجدو فرصة للأخذ بثأر أبيهم وأخيهم ، وبايعوا أحمد بن المعتصم(٢١) ، ولقبوه بالمستعين قائلين : " هو ابن مولانا "(٢٢) .

تولى المستعين الخلافة وقلّد عددًا من قواد الأتراك بعض المناصب فى الدولة، وأناب بعضهم عنه فى الولايات ، ثم فرق عليهم الأموال (٢٣) . ولكنه ما لبث أن غير معاملته لهم ، وأمر بقتل اثنين منهم ، فتنكروا له ، ثم خاف على نفسه منهم ولجأ سنة ٢٥١هـ / ٨٦٦م إلى بغداد(٢٤) .

وكان أن قرروا مبايعة المعتز بالله بن المتوكل ، وعندئذ أصبح للدولة العباسية خليفتان وحاضرتان فى آن واحد . أحدهما المعتز فى سامراء ، والآخر المستعين فى بغداد . واندلعت الحرب بين أنصار الخليفتين فكثر القتل ، وغلت الأسعار ، وعظم البلاء . ولم تضع هذه الحرب أوزارها إلا بعد أن أقدم المستعين على خلع نفسه سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٧م(٢٥) .

فى تلك السنة تولى المعتز الخلافة ، وكان أول إجراء قام به أنه خلع أخاه المؤيد من ولاية العهد ، وضربه ، وقيده فمات بعد أيام(٢٦) ، ثم قبض على أخيه طلحة الموفق(٢٧)، وزج به فى السجن، ثم سيره إلى بغداد وظل مقيمًا بها(٢٨).

وكان المعتز طيلة مدة حكمه واقعًا تحت سيطرة أمه (قبيحة)(٢٩) ، ولهذا أصبح مستضعفًا من جانب الأتراك الذين طالبوه بأرزاقهم ، فطلب من والدته بعض المال ، ولكنها رفضت . ولم يجد الأتراك بدًا من الهجوم عليه ، وأمروه بخلع نفسه ، فلما رفض خلعوه ، وسلموه إلى من يقوم بتعذيبه ، فمنعه من الطعام والشراب ثلاثة أيام ، ثم أدخلوه سردابًا وجصصوا عليه فمات(٣٠) . وعندئذ أحضروا محمد بن الواثق من بغداد وبايعوه بالخلافة سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م، ولقبوه المهتدى بالله(٣١) .

نبذة عن الخليفة المهتدى با لله :

هو أمير المؤمنين ، المهتدى با لله ، أبو عبد ا لله محمد بن الواثق هارون ابن المعتصم محمد بن الرشيد العباسى (٣٢) . ولد بالقاطول(٣٣) فى خلافة جده المعتصم سنة ثمان أو تسع عشر ومائتين هجرية(٣٤) وأمه أم ولد رومية تسمى قرب(٣٥) .

رشحه البعض لتولى منصب الخلافة عقب وفاة أبيه الواثق سنة ٢٣٢هـ ، ولكن فئة من قواد الأتراك عارضوا هذا الإجراء بسبب صغر سنه ، فحال ذلك دون وصوله إلى الخلافة آنذاك(٣٦) . فجرى ترشيح المتوكل جعفر بن المعتصم مكانه فى الخلافة(٣٧) .

وقد بويع المهتدى بالخلافة فى آخر شهر رجب سنة ٢٥٥هـ ، وكان عمره يومئذ سبعًا وثلاثين سنة ، وقيل : تسعًا وثلاثين سنة(٣٨) . ولما بويع أقر جعفر بن محمود الاسكافى(٣٩) على وزارته ، ثم عزله(٤٠) واستوزر سليمان بن وهب(٤١) وجعل صالح بن وصيف(٤٢) حاجبًا له وأسند القضاء إلى الحسن بن أبى الشوارب(٤٣) .

يقول الخطيب البغدادى : " كان المهتدى با لله من أحسن الخلفاء مذهبًا ، وأجملهم طريقة ، وأظهرهم ورعًا ، وأكثرهم عبادة " (٤٤) . أما ابن العمرانى فقد قال عنه : " كان زاهدًا صوامًا قوامًا لم تعرف له زلة ، سهل الحجاب ، كريم الطباع "(٤٥) .

ويقول ابن الجوزى : " لم يزل المهتدى صائمًا منذ جلس للخلافة إلى أن قتل "(٤٦) .

وقد تحدث بعض المؤرخين عن سياسة التقشف التى انفرد بها هذا الخليفة عن غيره من خلفاء بنى العباس ، وذلك فى ملبسه ومأكله ومشربه وسائر شؤون

حياته ، فقد روى الخطيب البغدادى (٤٧) أن أحد أصحاب المهتدى تناول معه طعام الإطار فى رمضان ، وكان الطعام قطعًا قليلة من الخبز وبجانبها آنية فيها ملح وخل وزيت فدعا المهتدى صاحبه إلى الطعام ، ولكنه تأخر فى بدء بالأكل ظنًا منه أنه سيؤتى بطعام آخر . فقال له الخليفة : " كل فليس ها هنا من الطعام غير ما ترى" . وعندئذ تعجب صاحبه وحاول أن يثنيه عن إفراطه فى التقشف حيث أخذ يذكره بما أسبغ الله عليه من النعم ، وبما بسطه من الرزق وكثرة الخير، فرد عليه المهتدى ردًا بليغًا أبان فيه بعضًا من فصاحته فى القول ، وحكمته وتقديره للأمور، إذ قال لصاحبه : " إن الأمر لعلى ما وصفت فالحمد لله ، ولكنى فكرت فى أنه كان فى بنى أمية عمر بن عبد العزيز ، وكان من التقلل والتقشف على ما بلغك ، فغرت على بنى هاشم ألا يكون فى خلفائهم مثله فأخذت نفسى بما رأيت"(٤٨).

وكان الناس يروون عن سفيان الثورى (٤٩) قوله : " الخلفاء الراشدون خمسة ، ويُعدّ فيهم عمر بن العزيز " ، ثم أجمع الفقهاء ، وأصحاب الحديث ، والقرآن أن السادس هو المهتدى با لله(٥٠) .

وبينما المهتدى يُطل على الناس من أعلى قصره فى أحد الأيام سمع رجلاً يقول لآخر : نصبت ميزاب سطحك فى ملكى ، بينى وبينك أمير المؤمنين ، فسجد المهتدى ، ثم رفع رأسه وبكى ، وقال : الحمد لله الذى أرانى الدنيا هكذا، هذا وا لله قد طيب على الموت(٥١) .

وكان المهتدى يُكثر من الصلاة والركوع والسجود إلى أن يدركه الصباح، ويُكثر من الدعاء خصوصًا وقت الأفطار إذا كان صائمًا ؛ وكذلك كان يكثر من الدعاء على خصومه ويسأل ربه بأن يكف عنه شرهم(٥٢) . ولما قتل أخرج رجل من الموضع الذى كان هذا الخليفة يأوى إليه فأصيب له سفط(٥٣) مقفول فتوهم المقربون منه أن فيه مالاً أو جواهرًا ، فلما فتح وجد فيه جبة صوف ، وقيل جبة

شعر ، فلما سألوا خادمه ، أخبرهم أن المهتـدى إذا جـن عليـه الليـل لبسـها وغـل نفسه بها(٥٤) .

محاولة المهتدى الإصلاحية :

قبل أن نتطرق إلى محاولة المهتـدى الإصلاحيـة يجـدر بنـا أن نشـير إلى حـال البيت العباسى نفسه وقت تسلم المهتدى مقاليد الخلافة .

ذلك إن البيت العباسى كان عندئذ يعانى من حالة ضعف وتفكك لم يسبق لها مثيل ، وذلك بسبب انصراف أكثر أبنائه عن شؤون الرعية ، وميلهـم إلى حيـاة البذخ والترف ، وانسياقهم خلف أهواء الموالى الأتـراك الذيـن أحكمـوا سيطرتهم على بعض المناصب المهمة فى الخلافة ، وتمكنوا من غـرس بـذور الفتنـة بـين أفـراد الأسرة العباسية . وفأوجد ذلك جـوًا مـن العـداء والكراهيـة والشـك فيمـا بينهـم ودخلوا فى مشاحنات لا طائل من ورائها سوى إنهاك القـوة العباسـية ، والتقليـل من محبة ومكانة العباسيين وهيبتهم فى قلوب الناس . فاستغل الأتراك ذلك وصاروا بمثابة حلقة اتصال بين الرعية والخلفاء(٥٥) . وكان القواد قد أجمعوا بعـد أن خلـع المعتز نفسه عن الخلافة على أنه ليس فى أولاد الخلفاء أفضل ولا أعقـل مـن محمـد بن الواثق(٥٦) .

ولما تبوأ المهتدى مكانه فى دار الخلافة وجد أن الفرصة باتت مواتية لتحقيق ما كان يدور فى ذهنه مـن قبـل . إذ لم يستطع هـذا الخليفـة تحمـل رؤيـة مظـاهر الفساد والفوضى وقد أضحت تعم أرجاء الدولة ، فكان أول إجراء إصلاحى أقدم عليه حينما جرى ترشيحه للخلافة رفضه قبول البيعة مـن أحـد مـا لم يعلـن سلفه الخليفة المعتز أمام الملأ عدم قدرته على تصريف أمور الخلافة ، ورغبته فى تسـليمها إليه عن رضا وقناعة واختيار منه . وكان المهتدى قد قال لأنصـاره حينمـا تقدمـوا إلى مبايعته المثل السائر :" لا يجتمع فحلان فى شول، ولا سيفان فى غمد" (٥٧).

ولما حضر المعتز ومثل أمام المهتدى سلم عليه بالخلافة ، فطلب الحاضرون من المهتدى أن يأخذ مكانه فى صدر المجلس ، ولكنه أبى ، وقال : " لا ارتفع على العرش إلا أن يرفعنى الله بخلافته " . ثم تحدث إلى ابن عمه المعتز قائلاً : "يا أمير المؤمنين خلعت أمر البرية من عنقك طوعًا ورغبة ، وكل من كانت لك فى عنقه بيعة فهو برئ منها " فأجابه المعتز إلى ذلك ، ثم قام المهتدى إلى صدر المجلس ، وبايعه الناس فى سامراء(٥٨) .

ويبدو أن المهتدى قصد من وراء قيامه بهذا الإجراء تحقيق أمور عدة :

أولها : أن يؤكد لمن حوله بأن وصوله إلى الخلافة لم يكن مغنمًا وهدفًا قد خطط له وسعى من أجل الوصول إليه ، بل كان مغرمًا وجد نفسه فجأة فيه .

ثانيها : إنه كان يخشى من وقوع فى الفخ نفسه الذى نصبه بعض قواد الأتراك من قبل للخليفة المعتز حينما بايعوه بالخلافة ووافقهم على ذلك ، بينما كان سلفه المستعين ما زال قائمًا على رأس الخلافة فى بغداد ، فأدى ذلك إلى تأجج نيران الفتنة أواخر سنة ٢٥١هـ / ٨٦٦م بين المعتز وأنصاره فى سامراء والمستعين وأعوانة فى بغداد ، وسقط فيها عدد ليس بالقليل ما بين قتيل وجريح(٥٩) .

ثالثها : حاول الحصول على أوسع تأييد ، حيث إن مبايعته الشعبية المسبقة تعد بمثابة تأييد لكل ما كان يخطط لتنفيذه من إصلاحات إدارية واجتماعية .

لقد أدرك المهتدى بثاقب نظره وحكمته وتواضعه أن يبدأ قبل فرض محاولته الإصلاحية على عامة الناس بإصلاح البيت العباسى نفسه من الداخل ، بعد أن انغمس أكثر أفراده فى الملذات فحرى بهم إن يكونوا فى سائر أحوالهم وتصرفاتهم قدوة حسنة ومثلاً أعلى للناس كافة . ولكن المهتدى قبل أن يأمر أهل بيته بذلك ، بدأ أولاً بنفسه حيث عاش حياة زهيدة مما جعل أهل عصره يشبهونه بالخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز .

قال عنه الإمام الأزدى فى أخبار الدول المنقطعة : " يكاد يكون فى الهاشميين كعمر بن عبد العزيز فى بنى أمية هديًا وصدقًا "(٦٠) .

وقال عنه مؤرخ آخر : " لم يل الخلافة بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن العزيز أصلح منه "(٦١) ، وكان المهتدى كثيرًا ما يردد قوله : " إنى لأستحى أن يكون لبنى مروان عمر بن عبد العزيز وليس لبنى العباس مثله ، وهم آل الرسول عليه الصلاة والسلام وبه ألزم ، وإليه أقرب "(٦٢) .

وكان المهتدى يلبس الصوف الخشن تحت ثيابه ، وظل فى أثناء خلافته يلبس الثوب الواحد فيبقى عليه أيامًا كثيرة لا يستبدله بغيره(٦٣) . وكان يقول : " لو لم يكن الزهد فى الدنيا ، والإيثار لما عند الله من طبعى لتكلفته وتصنعته فإن منصبى يقتضيه ، أنى خليفة الله فى أرضه ، والقائم مقام رسوله ، النائب عنه فى أمته "(٦٤) .

ولما تولى المهتدى الخلافة صار يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب بالحاضرين ، ويعظهم ويذكرهم بالآخرة ، ويصلى بهم(٦٥) .

وكان المهتدى قد انفرد بعمله هذا عن غيره من خلفاء العصر العباسى الثانى الذين سبقوه فقد كان هؤلاء يندبون عنهم من يخطب بالناس أيام الجمع والأعياد(٦٦) .

لقد أبطل المهتدى إبان خلافته الملاهى ، وأمر بإخراج القيان والمغنين والمغنيات من سامراء(٦٧) ، وأمر بطمس وإحراق الصور التى كانت فى المجالس، وبإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم ، وأمر بذبح الكباش والديوك التى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء(٦٨).

كذلك أولى المهتدى النواحى المالية قدرًا كبيرًا من الأهمية ؛ إذ كان يعلم أن السياسة المالية ذات قيمة كبرى فى سير أعمال الدولة ، بل هى العنصر النابض

في حياة الأمم ، وكثير من المشاكل تحدث من سوء التنظيم المالى . ولـذا فقـد بـدأ هذا الخليفة بنفسه وخصص مائة درهم يوميًا لنفقاته الشخصية(٦٩) ، وبلغ إجمـالى نفقاته على أهله وولـده وخدمـه وحشـمه طـوال مـدة حكمـه خمسـة عشـر ألـف دينار(٧٠) فى حين كان الخلفاء الذين سبقوه ينفقون على موائدهـم فـى كـل يـوم عشرة آلاف درهم(٧١) .

واتسعت دائرة إصلاحاته المالية فشملت رواتب الجنـد حيـث قـرر أن تدفـع هذه الرواتب على أساس الأيام بدلاً من الشهور ، ليكـون فـى مـأمن مـن ثـورات الجند ، حتى إذا نقصت الأموال فى خزينة الدولة حسم ذلـك اليـوم عليهـم بـدون مشاغبة(٧٢) .

ولما كان الجيش العباسى يتألف من فرق عسـكرية عـدة تشـكلت علـى مـر العصور وتعاقب الخلفاء ، فقـد رأى المهتـدى أن تدفـع رواتـب الجنـد فـى الجيـش العباسى على حسب نوعية الفرق العسكرية التى ينتمـون إليهـا ، فقـد كـان الفـرد الواحد من فرقة الأتراك يتقاضى درهمين يوميًا مقـابل درهـم واحـد لزميلـه الـذى يخدم فى فرقة المغارية " المنسوبة إلى مصر "(٧٣) .

وما من شك أن هـذا التمـيز فـى مرتبـات الجنـد العباسـى وإعطـاء الأتـراك أفضلية دون غيرهـم ، يعكس بوضوح مدى قوة نفـوذ العنـاصر التركيـة وتحكمهـم فى مركز القرار السياسى داخل البلاط العباسى ، كما أنه يبين مدى الضعف الذى بلغه العنصر العربى إبان هذه المرحلة فى تاريخ الدولة العباسية .

لقد كان المهتدى يقصد من وراء تلك الإصلاحـات الماليـة ترشـيد النفقـات العسكرية ، والعمل على الوصول إلى توازن مصروفات الخلافة مـع إيراداتهـا التـى أختلت أمورها فى عهود من سبقه ، لدرجة أن خزينــة الدولـة عنـد توليـه الخلافـة أصبحت شبه خاوية بعد أن عبث بها القادة الأتراك وبعض نساء وأمهات الخلفاء.

ولما كانت فترة الفوضى السياسية التى سبقت خلافة المهتدى قد أتاحت الفرصة لبعض ضعاف النفوس فى الوصول إلى المراتب العليا فى الدولة ، كالوزارة والدواوين العامة وغيرها ، فأساءوا استخدام هذه المؤسسات وأخفقوا فى إدارتها لأنهم جاءوا إليها بقصد تحقيق مكاسب ذاتيه لهم ، فقد باشر المهتدى الإشراف بنفسه على الخراج والدواوين حيث خصص يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع للجلوس فيها والكتاب بين يديه يقومون بعمل الحسابات(٧٤) .

ولما تبين له أن جماعة من الوزراء والرؤساء أهملوا فى أعمالهم لم يتوان فى القيام بتأديبهم ، حيث فوض أمرهم إلى كبير حجابه صالح بن وصيف فسجن الوزير أحمد بن إسرائيل(٧٥) والكاتب عيسى بن إبراهيم(٧٦) ، ثم أمر بإخراجهما إلى باب العامة فى سامراء وجلد كل واحد منهما خمسمائة سوط ، ثم طيف بهما على بغلين أمام الناس وماتا متأثرين بذلك(٧٧) .

لقد بالغ الحاجب ابن وصيف فى تعذيبهما بهدف التخلص منهما ، فقد فعل فيهما ما لم يطلبه الخليفة منه ، إذ إن المهتدى لما بلغه ما حل بهذين الكاتبين غضب عليه ، ومن شدة تأثره بما حدث لهما قال : "أما عقوبة إلا السوط أو القتل؟ أما يقوم مقام هذا شئ ؟ أما يكفى ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون " وكان يقول ذلك ويسترجع مرارًا(٧٨) .

لقد كان المهتدى بالله خليقًا للإمارة ، بطلاً ، شجاعًا ، قويًا فى أمر الله(٧٩) ، حازمًا ضد من يخرج عن جادة الصواب حتى ولو كان من أفراد أسرته فقد طال عقابة ثلة منهم لما بلغه أنهم اختلسوا شيئًا من أموال الدولة فأصدر قرارًا بنفى قبيحة والدة المعتز وابنها عبد الله(٨٠) ومعهما أبا أحمد الموفق إلى مكة(٨١).

وأهتم الخليفة بالمهتدى بالقضاء وشهدت خلافته - رغم قصرها - انتعاشًا لمكانة القضاء ، فنظر الناس إليه بشئ من الإكبار والإعجاب(٨٢) . ولم يتردد فى

تأديب اثنين من قضاة سامراء ، هما حماد ابن إسحاق(٨٣) ، والحسن بن أبى الشوارب ، حيث أمر بإركاب الأول على بغل وطيف به فى سامراء ، ثم نفاه إلى الأهواز(٨٤) ، وذلك عندما بلغه أنه كاتب دون علمه ابن عمه الموفق أثناء إقامته فى منفاه بمكة(٨٥) . أما القاضى الثانى فقد عزله المهتدى عن القضاء وألقاه فى السجن سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م وولى بدلاً منه القاضى عبد الرحمن البصرى(٨٦) .

ويأتى هذا الإجراء فى إطار حملة قام بها المهتدى ضد بعض ذوى المناصب المرموقة فى الدولة ، كالوزير الإسكافى والحاجب ابن وصيف ، بعد أن كثر كلام الناس فيهم ، وفى سوء سيرتهم ، وميلهم الشديد إلى الدنيا(٨٧) .

لقد شيد المهتدى فى عهده قبة لها أربعة أبواب سماها (قبة المظالم) ، وجلس فيها للخاصة والعامة من الناس ، حيث صار يخاطب أصحاب الحوائج بنفسه(٨٨) . وكان المهتدى إذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كوانين الفحم عندما يشتد البرد فى أروقة ومنازل قبة المظالم ، فإذا أدخل المستظلم أمر بأن يدفأ ويجلس ليسكن ويثوب إليه عقله ، ويتذكر حجته ثم يدني ويسمع منه ويقول : كيف يُدلى المتظلم بحجته إذا لم يُفعل به هذا وقد تداخلته رهبة الخلافة وألم البرد ؟(٨٩) .

ولما علم المهتدى بأن عمال الخراج دأبوا منذ عصر خلفاء بنى أمية على مطالبة أهل البلدان بدفع الكسور فى الأوزان والمعاملات المالية ، رفض ذلك وأمر بإسقاطه عن الناس ، وقال : " معاذ الله إن ألزم الناس ظلمًا تقدم العمل به أو تأخر ، على أن أقرر حقًا وأزيل ظلمًا وأن أجحف بيت المال "(٩٠) .

وانتشر خبر إنصافه وعدله فى سائر الأقطار الإسلامية فقصده الناس من كل مكان ، فقد كان يجلس للنظر فى أمور المسلمين فى دار العامة ، فتقرأ عليه قصص الناس من أولها إلى آخرها . فيأمر بالتوقيع فيها وإنشاء الكتب لأصحابها وتُختم وتُدفع إلى صاحبها بين يديه(٩١) . وكان قد قدم عليه رجل من مدينة الرملة(٩٢)،

وأعطاه كتابًا يشكو فيه من ظلم عامله على هذه المدينة ، فأخذه المهتدى ، وكتب فيه أسطرًا بخطه إلى الوالى يـأمره بإنصافـه . ولما أراد هـذا الرجـل الانصـراف مـن مجلس الخليفة سقط مغشيًا عليه فنهض المهتدى يعاينه بنفسه حتى أفاق وسـأله عـن سبب ذلك فأجابه بأنه ما كان يتوقـع أن يعيـش حتـى يـرى هـذا العـدل . فقـال المهتدى : كان الواجب علينا أن ننصفك وأنت فى بلدك ولا تحتـاج إلى كـل هـذا التعب والكلفة ، وأعطاه خمسين دينارًا من بيت مال المسلمين ، وقـال لـه : " إنـى لا أملك مالاً فخذها لنفقتك قادمًا وراجعًا ، واجعلنا فـى حـل مـن تعبـك وتـأخر حقك "(٩٣) .

ولما وقعت فى عهد المهتدى خصومة بين أحد أبنائه ورجـل مـن سـامراء لم يتوان لحظة واحدة فى استدعاء ابنه وطلب منه بـأن يقـف بجـوار خصمـه ، فسـأله عما ادعاه عليه ، فأقر به ابنه ، وعندئذٍ أمر برد حقـه عليـه ، وكتـب إليـه الخليفـة كتابًا بذلك ، فقال له الرجل : وا لله يا أمير المؤمنين ما أنت إلا كما قال الشاعر:

حَكّمتموه فقضـى بينـكم أبلج مثـل القمـر الزاهـر

لا يقبـل الرشوة فى حكمه ولا يبـالى غبن الخاسـر

فقال المهتدى : أما أنت أيها الرجل فجزاك ا لله خيرًا ، وأما أنا فمـا سمعـت بهذا الشعر ، ولكنى أذكر قول ا لله عز وجل : ﴿ وَنَضَـعُ الْموَازِيـنَ القِسْـطَ لِيَومِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وإن كان مِثْقَالَ حَبَّـةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَـا وكَفَـى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٩٤).

وقد أحاط المهتدى العلماء ببره ، وإحسانه ، ورفع منازل الفقهـاء والأدبـاء والكتاب فكانوا لا يفارقون مجلسه . ومن أبرز هؤلاء العلامة شيخ الحنفية أبى بكر الشيبانى المعروف بالخصاف(٩٥) ، الذى صنف كتاب "الخـراج" للمهتـدى ، ولما قُتِل هذا الخليفة نهبت دار الخصـاف ، وذهبـت بعـض كتبـه(٩٦) . ومـن الكتـاب

المبرزين فى دواوين المهتدى الوزير الكبير والكاتب الشهير سليمان بن وهب ، روى أنه كان جالسًا فى مجلس المهتدى فدفع إليه هذا الخليفة كتابًا ليجيب عليه ، فلما قام قال المهتدى : " ليس فى صناعته له نظير ، غير أنه يُفْسِد نفسه بحبه الشديد للمال "(٩٧) .

ولقد أنشد البحترى(٩٨) قصيدة بديعة فى المهتدى وصف فيها زهده وسيرته وأولها :

إذا عرضت أحداج ليلى فنادها سقتك غوادى المن صوب عهادها

ولما فرغ البحترى من إنشاد هذه القصيدة اعتذر منه المهتدى لأنه ليس لديه مال يكافئه به ، ولا يرى له حقًا فى بيت المال فيعطيه منه . وأحضر بعض أفراد أسرته وقال لهم : " أبو عبادة - يقصد البحترى - خطيب بيتنا ، وشاعر دولتنا ، وليس فى يدى شئ سوى أموال بيت المال وهى وديعة فى يدى ، والله يسألنى عنها يوم القيامة ، ويحاسبنى عليها . فأجيزوا أبًا عبادة عنى . فجمعوا له فى الحال مائة ألف درهم . فقال المهتدى : يا أبًا عبادة والله ما ملكت عُشرها قط ولا أملكه إن شاء الله "(٩٩) .

وهكذا كان المهتدى حريصًا على استقرار الأمور الداخلية فى عهده كى يتسنى له المضى قدمًا فى تنفيذ محاولته الإصلاحية دون أن يواجه عقبات تذكر . واقتضى ذلك منه أن يقف فى بداية عهده على الأقل موقفًا وسطًا من الحركات الفكرية والمذهبية التى كانت تموج بها بعض الولايات الإسلامية ، وخصوصًا فى مدن العراق والمشرق الإسلامى . ولكنه لم يتردد رغم ذلك فى المجاهرة فور توليه بمناصرته للسنة وأهلها وبعدائه للتشيع وأهله . وذلك عكس السياسة التى انتهجها قبله كل من جده المعتصم وأبيه الواثق . وأقوى دليل على ذلك قيامه بنفى وزيره جعفر الإسكافى إلى بغداد حينما بدرت منه تصرفات توحى بميله إلى الشيعة(١٠٠).

وكان المهتدى لما ذاكره أحد أصحابه بقضية خلق القرآن الكريم وموقف أبيه وجده من الممتنعين عن القول بذلك ، كالإمام أحمد بن حنبل(١٠١) ، أقر بأنه ظل يقول : إن القرآن مخلوق صدرًا من خلافة أبيه الواثق حتى سمع مناظرة جرت في عهد أبيه فرجع عن هذه المقالة منذ ذلك اليوم . وقال المهتدى لصاحبه : " رحم الله أحمد بن حنبل ، والله لو جاز لى أن أتبرأ من أبى لتبرأت منه "(١٠٢).

ونخلص مما سبق : إلى أن الإصلاح الذى حاول المهتدى القيام به كان متسع النواحى ، فقد بدأ بنفسه ثم انتقل إلى أسرته ليعطى المثل الكامل لشعبه ، ولأولئك الجند والموالى الذى يحيطون به ، وكذلك أصحاب المصالح الذين حاولوا عبثًا ثنيه عن المضى فى مشروعه الإصلاحى . ولكنه أصر على موقفه ، ورفض الإذعان لرغبتهم فأجبرهم على قبول ما كان يعتزم القيام به ، والانطلاق فى ذلك إلى أبعد مدى : حقًا لقد امتدت يده الإصلاحية إلى الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فأعاد لبيت المال توازنه ، وحفظ للقضاء مكانته ، وجلس للمظالم ، وأشرف بنفسه على أعمال الدواوين ، فكان من البدهى والحالة هذه أن تستقيم الأمور ، ويسود قدر من العدل والإنصاف أكثر من ذى قبل فى عهده .

أسباب فشلها :

كادت محاولة المهتدى الإصلاحية ترى النور ، وتؤتى ثمارها ، ولكن الأوضاع العامة من حوله كانت فوق طاقته . ففى مستهل خلافته بدأت الفتن والاضطرابات ، وظهرت بعض حركات المعارضة السياسية والمذهبية التى لم يقتصر ظهورها على حاضرة الخلافة العباسية سامراء فحسب ، بل قامت فى مدن وأقاليم شتى داخل العراق وخارجه مثل بغداد والبصرة(١٠٣) والموصل(١٠٤) وسجستان(١٠٥) غيرها .

وقد لخص الطبرى مجمل حال الخلافة أبان عهد المهتدى بقوله : " وكانت ولايته والدنيا كلها من أرض الإسلام مفتونة "(١٠٦) .

أما ابن الأثير فقد شخص هو الآخر واقع الخلافة آنذاك قائلاً : " ولما ولى - يقصد المهتدى - كانت الدنيا كلها بالفتن منسوخة "(١٠٧) .

ويقول بعض المؤرخين(١٠٨) : " لقد كان المهتـدى بـا لله بطـلاً ، شـجاعًا، مهيبًا ، قويًا فى أمر ا لله ، كأنما خلق للإمارة لكنـه لم يجـد معينًـا ولا نـاصرًا علـى الحق ، والوقت قابل للإدبار " .

وقد بدأ العلامة ابن خلدون(١٠٩) حديثه عن هذا الخليفـة بقولـه : "كـانت الفتن فى عهده قائمة ، والدولة مضطربة ، فشمر لأصلاحها لو أمهـل ، لكـن ابـن وصيف غلب على أمره " .

والواقع أن محاولة المهتدى الإصلاحية لم تكن من الأساسى محل رضا وقبول من بعض العناصر المتسلطة داخل البلاط العباسى ؛ إذ إن من شأن نجاحه فى ذلـك سلب هؤلاء كل الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها . وهذا يفسر ريـاح المعارضـة التى أثاروها فى وجه هذه الحركة ، ويفسر مجاهرتهم فى وجه الخليفة بعدم تقبلهم لخطواته الإصـــلاحية ، فقد قالوا له : تريد أن تحمل الناس على ســـيرة عظيمـة لم يألفوها فى خلافة من سبقك ! ولكن المهتدى تصدى لهـم بكـل حزم وإصـرار قائلاً : " أريد أن أحملهم على سيرة الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام ، وأهـل بيتـه والخلفاء الراشدين "(١١٠) . ثم عادوا إلى الحوار معه وقالوا : ولكن الرسول عليـه الصلاة والسلام كان مع قوم قد زهدوا فى الدنيا ورغبـوا فـى الآخـرة كـأبى بكـر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم . وأنت إنما رجالك تركى وجزرى ومغربى وغيرهم من العجـم ، لا يعلمـون مـا يجـب عليهـم مـن أمـر آخرتهـم ، وإنمـا غرضهـم مـا استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة . وقـد دار بينه وبينهم جدل طويل فى هذا الأمر حتى استطاع فى النهايـة أن يجـبر كثـيرًا مـن معارضيه على تقبل سياسته الإصلاحية(١١١) .

وبدهى القول أن بروز هذه المعارضة المبكرة ضد لإصلاحات المهتدى كانت كفيلة بإحباط معنوياته أو على الأقل تثبيط عزيمته عن المضى قدمًا فى تنفيذ ما كان يسعى إليه ، ومع ذلك كان المهتدى على يقين تام بأن هذه المشكلات التى بدأت فى الظهور هنا وهناك ، لم تكن موجهة ضده شخصيًا وليس الغرض منها النيل من ذاته ، أو الاعتراض على توليه هذا ، المنصب بقدر ما كانت تعبيرًا صريحًا عن رفض الرأى للواقع المرير الذى أضحت الخلافة العباسية تئن تحت وطأته ، منذ أن تغلبت العناصر التركية على شئونها ابتداء من العصر العباسى الثانى (٢٣٢هـ / ٨٤٧م) حتى عصر المهتدى بالله . فقد شهدت هذه الحقبة الزمنية القصيرة تولى عدد من الخلفاء الذين لم يكونوا مؤهلين أساسًا للوصول إلى هذا المنصب فقد كان بعضم ضعيف الشخصية أو صغير السن ، وبعضهم الآخر غير مبال بأحوال الرعية ، وكان منصرفًا تمامًا عن شئون الدولة . وقد ذكرنا فى - مدخل هذا البحث - نماذج من هؤلاء كالمنتصر والمستعين والمعتز .

ولعل من سوء حظ المهتدى أن ترشيحه للخلافة جاء بعد أولئك الخلفاء مباشرة ، فى الوقت الذى كان الناس قد يئسوا فيه من ظهور خليفة لديه الكفاية والمقدرة على إصلاح وتجديد أوضاع الخلافة .

ولهذا كانت النفوس مهيأة لشق عصا الطاعة على الخليفة الجديد ، بعد أن ضاق الناس ذرعًا وسئموا من عدم وفاء الخلفاء الذين سبقوه بالوعود التى قطعوها على أنفسهم لتبديل حال الخلافة .

ومن ثم نظر الناس إلى سياسة المهتدى على أنها امتداد لسياسة من سبقه خصوصًا تجاه الأتراك ، إذ كانت هذه السياسة ترمى إلى تقريب هؤلاء من البلاط العباسى ، ومنحهم المناصب المهمة فى الدولة ، وإغداق الأموال الطائلة عليهم .

لقد سار أوائل خلفاء العصر العباسى الثانى على ذلك النهج اعتقادًا منهم أن مثل هذا الإجراء من شأنه أن يقوى الصلات بينهم وبين أولئك الأتراك ، وبالتالى يكون فيه ضمان لسلامتهم وبقائهم أطول مدة ممكنة فى الحكم العباسى.

وكانت فى طليعة المشكلات التى واجهت المهتدى أنه لما جرى ترشيحه للخلافة أواخر شهر رجب سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م ، تردد أهل بغداد فى مبايعته إذ فضلوا عليه الموفق بن المتوكل(١١٢) ،فكان ذلك الحدث غير المتوقع بمثابة صدمة للمهتدى بالله فى فجر حياته السياسية ، وهو الذى كان قد قبل منصب الخلافة بغرض الإصلاح ، والعمل على تطهير مؤسسات الدولة من كل مظاهر الفساد التى كانت تفشت بها .

ورغم أن بعض المؤرخين (١١٣) قد ذكروا أن سبب إقدام بغداد على هذه الخطوة يعود إلى عدم معرفتهم بما جرى فى العاصمة سامراء من إجماع الناس على ترشيح المهتدى للخلافة ، فإننا نرى أن أهل بغداد فضلوا الموفق على ابن عمه المهتدى لكون الأول يقيم بينهم فى بغداد . هذا بالإضافة إلى أنه كان شخصية قيادية بارزة وقتذاك ، بعكس المهتدى ، الذى لم يكن معروفًا على المسرح السياسى فى الدولة العباسية .

فالموفق هو ابن الخليفة المتوكل ، وأخو الخليفتين المنتصر بالله والمعتز . وكان قائد جيش الخلافة فى عهد أخيه المعتز ، فضلاً عما كان يقوم به من نشاطات سياسية أخرى فى خلافة أخيه ألقى بسببها فى السجن ، ثم نفى إلى البصرة ، ولكنه أعيد إلى بغداد قبيل وفاة أخيه ، وتولى المهتدى الخلافة(١١٤) .

ويبدو لنا أن ما حصل من أهل بغداد تجاه الموفق كان له صلة وثيقة بالقرار الذى اتخذه المهتدى حينما تولى الخلافة ، حيث قام بنفى الموفق إلى مكة المكرمة(١١٥) .

وكان والى الشرطة فى بغداد سليمان آل طاهر(١١٦) قد حاول إجبار الناس على مبايعة المهتدى بالقوة ، فغضب هؤلاء وهاجموا داره(١١٧) . ولما وصلت الأنباء إلى المهتدى فى سامراء ، طلب من الوالى عدم اللجوء إلى استخدام القوة

لثنى الناس عن رغبتهم ، فما كان من الوالى إلا إن قام بتوزيع الأموال عليهم ، فسكنت الفتنة وأقبل سكان بغداد على مبايعة المهتدى با لله(١١٨) .

ولم يكد الخليفة يفرغ من فتنة العامة فى بغداد حتى أثار الجند فتنة أخرى ، وذلك احتجاجًا على إيواء والى الشرطة نفسه جموعًا من الخراسانين الفرس الموالين للدولة الطاهرية(١١٩) ، وكان هؤلاء أثناء إقامتهم فى بغداد قد أساءوا معاملة أهلها ، وارتكبوا أعمالاً شنيعة ، فحقد الناس عليهم ، وتطورت هذه الفتنة بعد أن رأى أهل بغداد تعاطف الوالى مع أولئك الفرس لدرجة أنه اختلس أموال الجند وقام بتوزيعها عليهم . وعندئذٍ لم يستطع الجند كبت مشاعر الغيرة والغضب ، فأعلنوا العصيان على الخليفة ، ووجدوا مساندة قوية من عامة الناس التى لم تهدأ ثورتهم بعد ، وبذلك خرجت بغداد مرة أخرى عن طاعة المهتدى با لله(١٢٠) .

وقد اشتدت هذه الفتنة ضراوة عندما اقتحم الجند السجن فى بغداد ، وأطلقوا سراح السجناء . واندلعت الحرب بين الخراسانيين وجند بغداد فى الشوارع والميادين ، فاضطر القائد الخراسانى محمد بن أوس(١٢١) إلى النزوح ناحية مناطق الجزيرة الفراتية ، واقتفى أثره حوالى مائة ألف شخص من أهل بغداد وعسكرها ، واشتبك الطرفان فى شمال العراق حتى حلت الهزيمة بالخراسانيين(١٢٢) .

ونتيجة لذلك أصبح موقف والى الشرطة ابن طاهر حرجًا للغاية أمام المهتدى با لله ، نظرًا لانتماء الوالى المذكور إلى الأسرة ذات النفوذ القوى فى كل من بغداد وخراسان . وتفاقم خطر هذه الفتنة ربما يؤدى إلى فقدان أسرته تلك المكانة المرموقة التى كانت تحظى بها آنذاك لدى البيت العباسى . لذلك طلب ابن طاهر من القائد الخراسانى محمد بن أوس أن يرحل نهائيًا عن إقليم العراق ، وأن يعود مع إتباعه إلى خراسان(١٢٣) .

ونلحظ مما سبق أن جانبًا من علة الخلافة الحقيقية في عصر المهتدى با لله يكمن في وجود ولاة غير مخلصين له ، فابن طاهر على سبيل المثال انحاز إلى أبناء جنسه الفرس وأهمل مصلحة الخلافة ، فاستفحل أمر الفتنة التي كان الوالي سببًا في نشوئها ، وتعد واحدة من العقبات التي واجهت المهتدى في مستهل خلافته ، واعترضت طريق حركته الإصلاحية .

ومن المشكلات التي شُغل بها فكر الخليفة المهتدى با لله في بداية حكمه الخلاف الذى نشب بين كبير حجابه صالح بن وصيف ووالدة الخليفة المعتز قبيحة التركية ، فقد كانت هذه المرأة ذات نفوذ ومال وجاه في عهد ابنها . وقد تواطأت مع نفر من أنصارها على قتل صالح بن وصيف الذى كان وقتذاك مُقدّم قواد الأتراك ، ولكنه اكتشف هذه المؤامرة ، فلما قُتِل ابنها اختفت داخل سرب في قصرها وظلت فيه مدة من الزمن(١٢٤) .

ولما تولى المهتدى الخلافة اضطرت إلى الخروج ، وسعت إلى مصالحة ابن وصيف ، فوافق على طلبها ، شريطة أن تسمح له بمصادرة أموالها التي قدرت بـ (مليون وثمانمائة ألف دينار) . هذا فضلاً عما عُثِر عليه لديها من خزائن وجواهر مدفونة تحت الأرض . فوافقت على تسليم هذه الأموال إليه(١٢٥) .

لقد أوجس المهتدى خيفة في نفسه من ظهور قبيحة والدة المعتز ، كما أقلقته محاولتها الرامية للتقرب من حاجبه ابن وصيف ، وذلك بهدف إحياء ما كان لها من نفوذ وجاه في خلافة ابنها ؛ إذ أن ذلك يشكل تهديدًا لسلطته ولمحاولته الإصلاحية . وهذا ما دفعه إلى إبعادها عن العاصمة سامراء ، فنفاها إلى مكة المكرمة ، حيث سيرت إليها بصحبة بعض رجاله ، وظلت فيها إلى أن تولى المعتمد على ا لله(١٢٦) الخلافة سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م فردها إلى سامراء(١٢٧) .

ومن أهم العقبات التي واجهت المهتدى با لله في مبتدأ خلافته ، وكان لها دور مؤثر في إرباك خطته الإصلاحية ثورة الزنج التي اندلعت في شوال سنة٢٥٥هـ / ٨٦٩م قرب مدينة البصرة في جنوب العراق(١٢٨) .

وكان زعيم الزنج قد أدعى أنه ينتسب إلى آل البيت(١٢٩) ، وأراد أن يستغل الفوضى السياسة والاجتماعية الضاربة أطنابها فى هذه المدينة المزدحمة بالسكان ، خاصة أن البصرة كانت تزخر آنذاك بجموع العبيد الذين كانوا يستوطنون السباخ ويقومون باستصلاح الأرضى الزراعية (١٣٠) . هذا بالإضافة إلى أن هذه المدينة كانت وقتذاك مسرحًا لبعض الحروب العصبية حيث كان الصراع القبلى على أشده بين قبيلتى البلالية والسعدية(١٣١) . والواقع أن صاحب الزنج رجل مغامر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، فقد رأى اضطراب أحوال الخلافة العباسية ، وأرد أن يكون له شأن وسط هذا الجو المضطرب . لقد كانت ثورة الزنج على جانب كبير من الأهمية من حيث طابعها ودوافعها وآثارها على الدولة العباسية ابتداء من عهد المهتدى با لله ، فقد كانت حلقة فى سلسة متصلة من الأحداث الاجتماعية والسياسية والفكرية الهائلة التى عبرت إبان هذه المرحلة عن السخط العام من ناحية ، وعن تفكك الدولة العباسية من ناحية ثانية(١٣٢) .

وكان زعيم الزنج قد بدأ حركته فى خطبة ألقاها على أتباعه العبيد يوم عيد الفطر سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م حيث أخذ يَعِدُ أصحابه بالحرية ، ونقض الرق وتحقيق العدل الاجتماعى ، وغلظ لهم الإيمان بألا يغدر بهم ، ولا يخذلهم ولا يدع شيئًا من الإحسان إلا أتى به إليهم(١٣٣) .

أخذ زعيم الزنج فى بداية خلافة المهتدى يزحف على بلدان الخلافة العباسية الواقعة جنوب العراق ، حيث بدأ بالبصرة نفسها ، وجرت بينه وبين أهلها معركة البيداء التى انتصرت فيها . وسميت بهذا الاسم لكثرة ما سقط فيها من القتلى والجرحى غالبيتهم من العلويين وألقى صاحب الزنج برؤوسهم فى النهر رغم زعمه بأنه من سلالة الخليفة على بن أبى طالب رضى ا لله عنه(١٣٤) .

والواقع أن الخليفة المهتدى با لله لم يتحرك بشكل إيجابى لقمع حركة الزنج فى مهدها، فقد ترك أهل البصرة وحدهم يتحملون مواجهة تيار الزنج العنيف(١٣٥).

ولكننا لو أمعنا النظر فى ظروف الخلافة وقتذاك ، لوجدنا للمهتدى بعض العذر فى ذلك ، فقد تزامن قيام حركة الزنج مع نشوب فتنة العامة ثم فتنة الجند فى بغداد ، وهبوط الروح المعنوية لأفراد الجيش العباسى بسبب قيام والى بغداد باختلاس مرتباتهم(١٣٦) .

ولما استقرت الأمور فى بغداد ولى الخليفة المهتدى وجهه شطر البصرة فأرسل جيشًا محدود العدد والعدة لمساعدة أهلها ضد زعيم الزنج ، ولكنه انهزم أمام الزنج قرب نهر الريان(١٣٧) ولقى حوالى ألف وخمسمائة من أفراده مصرعهم(١٣٨) .

ولما انتصر صاحب الزنج على جيش الخلافة اشتد بأسه ، وخاف منه أهل البصرة ، وأمسكوا عن حربه ، وكتبوا إلى الخليفة يطلبون منه التدخل ، وعندئذ فقط وجه إليهم المهتدى مددًا بقيادة جُعْلان التركى ، وفى الوقت نفسه عين قائدًا آخر يدعى أبا الأحوص الباهلى (١٣٩) واليًا على مدينة الأبلة(١٤٠) .

ويأتى هذا الإجراء من جانب المهتدى للحيلولة دون وقوعها هى الأخرى تحت سيطرة الزنج ، إذ إن هذه المدينة تتمتع بموقع جغرافى على شاطئ نهر دجلة فى زاوية الخليج (العربى) بالقرب من البصرة(١٤١) .

وقد أثارت سيطرة الزنج على البصرة ، وما جاورها من المدن جوًا من الهلع والفزع بين سكانها ، وألحقت بها خرابًا كبيرًا .

ولما كانت البصرة تُعد باب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع ، وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا ...(١٤٢) ، حيث وصفها المقدسى بأنها : " فرضه البحر ومطرح البر "(١٤٣) . وتقع على مرمى حجر من حاضرة الدولة العباسية ، فمن الطبعى أن تتأثر بقية مدن العراق من جراء سقوطها بيد الزنج ، حيث أختلست طرق المواصلات بينها وبين هذه المدن ، وألحق الزنج بزراعتها وتجارتها أضرارًا بالغة(١٤٤) .

لقد كان لحركة الزنج آثار ونتائج سيئة تمثلت فـى الأضرار المادية كـالقتل الجماعى والتخريب العشوائى ، وما أصاب الزراعة من شلل ترتب عليه عجـز فـى موارد بين المال وارتفاع الأسعار وقلة الأقوات(١٤٥) .

وتزامن ظهور حركة الزنـج فـى البصرة مع إعلان يعقوب بن الليث الصفار(١٤٦) عن قيام الدولة الصفارية فى إقليم سجستان ، وذلك سنة٢٥٣هـ/ ٨٦٧م (١٤٧) . ولم يتوقف طموح الصفار عند هذا الحد ، فقد شرع فى مد نفوذه غربًا ناحية مركز الخلافة فى العراق حيث خضعت لسيطرته سنة٢٥٥ هـ / ٨٦٨م ولايتا كرمان(١٤٨) وفارس(١٤٩) ، وأصبح على مقربة من البصرة معقل حركة الزنج . وعندئذ صارت الخلافة تخشى أن يواصل الصفار زحفه نحو ، العراق ويسعى إلى إحياء النفوذ الفارسى هناك من ، جديد أو تقوم بينه وبين صاحب الزنج اتصالات خفية تلتقى خلالها أهدافهما السياسية ، ومن ثم ينشأ بينهما تحالف سياسى يكون موجهًا ضدها فيصعب عليها مواجهة هاتين القوتين فى آن واحد . وهكذا فإنه لم تمض على تسلم المهتدى با لله زمام الحكم سنة واحدة حتى وجد نفسه مضطرًا للمحاربة على جبهات ثلاث فى وقت واحد . فبالإضافة إلى حركتى الزنج والصفار فى الجبهة الجنوبية من العراق ، ظهرت حركة الخوارج(١٥٠) بقيادة مُساور الشارى(١٥١) فى إقليم الموصل بشمال العراق(١٥٢) .

وكان زعيم الخوارج فى بداية أمره قد اتخذ من بلدة الحديثة(١٥٣) دارًا لهجرته ، فلما قوى شأنه ، وازداد أتباعه ، قصد الموصل سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م واستطاع أن يدخلها دون حرب بعد أن اقتحم دار والى الخلافة عبد ا لله بن سليمان(١٥٤) وأحرقها(١٥٥) .

وهكذا لم يجد مساور أدنى صعوبة فى السيطرة على الموصل ، وذلك لميل أهلها إلى الخلاف ، ورغبتهم المستمرة فى الخروج عن طاعة أمير المؤمنين(١٥٦).

وفى هذه الأثناء هاجم زعيم الخوارج المسجد الجامع فى الموصل وقت صلاة الجمعة ، وصعد المنبر ، وخطب فى الناس ، فوجه المهتدى با لله جيشًا إليه ، التقى بالخوارج الذين ألحقوا بالجيش العباسى هزيمة قاسية(١٥٧) اشتدت على أثرها شوكة الخوارج فى شمال العراق ، وبصفة خاصة بعد أن تغلب قائدهم مساور على أشد خصومه هناك ويدعى عبيدة العمرى(١٥٨) الذى لقى مصرعه عند نواحى جهينة قرب الموصل فى مطلع سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م(١٥٩) .

وكان مساور الخارجى قد رفض أن يرسل خراج الموصل إلى الخليفة المهتدى با لله ، فضاقت الأرزاق على الجند العباسى . فجهز المهتدى جيشًا آخر لقتال الخوارج . وقد جعل على مقدمته بعض قواد الأتراك . غير أن خلافًا حادًا نشب بين الخليفة وقواد الجيش أدى إلى توقفه عن مواصلة سيره ، ولم يتمكن من بلوغ هدفه فى الموصل(١٦٠) . وما من شك أن اندلاع حركة الخوارج فى الموصل كان أحد العوامل المؤثرة التى أصابت محاولة المهتدى الإصلاحية بالشلل . فالموصل معقل هذه الحركة ذات موقع استرتيجى مهم بالنسبة للخلافة العباسية من الناحيتين السياسية والاقتصادية فقد كانت آنذاك باب العراق ، ومفتاح خراسان(١٦١) ، ومنها يُقصد إلى ولاية أذربيجان(١٦٢) .

ويقول ياقوت الحموى : " كثيرًا ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاث ، نيسابور(١٦٣) ؛ لأنها باب الشرق ، ودمشق ؛ لأنها باب الغرب ، والموصل ؛ لأنه القاصد إلى هاتين الجهتين لابد أن يمر بها(١٦٤) .

ولم تكن الأحوال الداخلية فى بقية مناطق الخلافة العباسية أكثر أمنًا واستقرارًا مما كانت عليه داخل العراق ، فقد كانت الأوضاع هناك مضطربة خصوصًا فى مصر حيث ظهرت فى مطلع خلافة المهتدى با لله بعض الحركات العلوية ، كانت الأولى بقيادة أحمد بن طباطبا(١٦٥) ، وكان ميدانها بين بَرْقَة(١٦٦) والإسكندرية . ثم نقل ابن طباطبا حركته إلى الصعيد (١٦٧) جنوب

مصر ، وهناك ازداد نصاره وادعى الخلافة ، فأوعز المهتدى إلى واليه على مصر أحمد بن طولون(١٦٨) بأن يقتفى أثر هذا العلوى . وقد تمكن ابن طولون من سحق هذه الحركة بعد أن قتل قائدها وحُملت رأسه إلى مصر(١٦٩) .

أما الحركة الأخرى فقد تولى كبرها ابن الصوفى العلوى (١٧٠) الذى ظهر فى صعيد مصر ، وملك مدينة إسنا(١٧١) فى ذى القعدة سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ، ثم نهب هذه البلاد وقتل أهلها(١٧٢) . ولقد سير إليه أحمد بن طولون جيشًا ، هزمه ابن الصوفى ، وأسر قائده ، وقطع يديه ورجليه ، ثم صلبه ، وذلك فى ربيع الأول سنة٢٥٦هـ / ٨٦٩م(١٧٣) . ثم سير إليه ابن طولون جيشًا آخر تمكن من هزيمته ، وقتل كثيرًا من رجاله ، ولاذ ابن الصوفى نفسه بالفرار إلى إحدى الواحات القريبة فى الصعيد(١٧٤).

كذلك كانت الحالة الأمنية فى الشام سيئة ومضطربة إلى حد كبير ، فقد ثار فيها عيسى بن الشيخ (١٧٥) ، واستولى على دمشق ، وقطع الخراج عن بغداد(١٧٦) .

ونلحظ مما سبق أن أقاليم العراق ومصر والشام والموصل التى تعد أهم بلدان الخلافة العباسية من الناحيتين السياسية والاقتصادية كانت فى عهد المهتدى با لله مسرحًا لعدد من الحركات والثورات المختلفة فى دوافعها وأهدافها ، مما أدى إلى تعطيل المرافق العامة فى هذه النواحى ، التى أصبحت عرضة للسلب والنهب من جانب الخارجين عن طاعة الخليفة . وقد أثر ذلك بشكل كبير عل خراج تلك البلدان الذى كان يعد أحد الموارد الأساسية لبيت المال فى العصر العباسى . لقد كان لتدهور الحالة الاقتصادية فى عصر المهتدى نتائج سلبية للغاية فقد وقفت الخلافة عاجزة عن صرف مرتبات الجند فتأخرت أرزقهم لعدة أشهر ، واضطرت إلى استمالة قواد الجيش بكل الوسائل المتاحة ، حيث قامت بمنحهم الإقطاعات ، وإعفائهم من الزيادات والرسوم(١٧٧) . وانعكس ذلك بشكل تلقائى على

نفسيات الجند ، فبدأت تظهر بينهم حالة من الاستياء والسخط . وكانت أولى ردود الفعل تجاه ذلك قد ظهرت فى أوساط الجند المرابطين فى ولاية الرى(١٧٨) إذ ترك هؤلاء مواقعهم ، وعادوا إلى العراق خصوصًا حينما أشيع بينهم أن أمراء الأتراك فى سامراء قد نهبوا أموال الدولة بعد مقتل الخليفة المعتز(١٧٩) .

وقد بذل الخليفة المهتدى محاولات شتى لإقناع العسكر بالبقاء فى الرى ولزوم ذلك الثغر ، وأخذ يحذرهم من أن انسحابهم سيؤدى إلى تغلب العلويين بقيادة الحسن بن زيد(١٨٠) على البلاد التى سوف يتركونها خلفهم . ولكن لما تبين للمهتدى عزم الجند على ترك مواقعهم ، أفضى لقوادهم بأنه يعانى من ضائقة مالية لا يستطيع معها صرف مرتبات الجند العائدين إلى سامراء(١٨١) لكن محاولاته باءت بالفشل ، وعاد الجند إلى العراق ، وأقاموا بالقرب من سامراء ، وطلبوا من الخليفة أن يرسل إليهم أحد أخواته ليحملوه رسالة إليه ، فندب لهذه المهمة أخاه عبد الله بن الواثق(١٨٢) . وفى أثناء المفاوضات بين الطرفين اعترف الجند بأن بعض قوادهم يدبرون مؤامرة لعزل المهتدى بالله عن الخلافة ، وكتبوا بعض المطالب التى نقلها ابن الواثق إلى أخيه ، وتعهدوا للمهتدى فى حال تنفيذه لها بأن يقفوا إلى جانبه ، ويقتلوا كل من يريد أن يمسه بسوء(١٨٣) . ورغم أن المهتدى وعدهم بتحقيق ما طلبوا ، إلا أن الظروف السياسية والاقتصادية من حوله لم تمكنه من الوفاء بوعده ، فقد كان الخليفة طيلة مدة حكمه محاطًا بطغمة من أمراء الأتراك الذين لم يتركوا له سبيلاً إلى الإصلاح . وكان على رأس هؤلاء كبير حجابه صالح بن وصيف الذى ازداد ظلمه ، واشتد جبروته بعد مقتل المعتز وجلوس المهتدى مكانه ، فقد قام بتصفية كبار رجال الدولة والقواد الذين يخشى منهم أن ينافسوه على السلطة فى البلاط العباسى .

ولما رأى بعض القواد الأتراك أن صالح بن وصيف تخلص من كبار منافسيه، ولم يقف فى طريقه أحد خافوا على أنفسهم ، فثاروا عليه يتقدمهم موسى بن

بُغا(١٨٤) . ولكنه اختفى عنهم . ثم اتهموا الخليفة المهتدى بالتواطؤ معه ، وطلب موسى من المهتدى مناظرته ، فرفض الخليفة طلبه فى بادئ الأمر ، ولكنه ما لبث أن عاد ، ووافق على ذلك ، ثم تناظرا . وفى أثناء ذلك قام رجال موسى وحملوا المهتدى على دابة ، ونهبوا ما كان فى مجلسه ، وأدخلوه إلى دار أحدهم(١٨٥) ثم أخذوا عليه عهدًا بألا يمايل صالحًا عليهم ، وأصروا على أن يقوم المهتدى بتسليمهم ابن وصيف لكى يحاسبونه على أفعاله(١٨٦) .

ولما احتدم النزاع بين الثوار والخليفة فكروا فى خلعه ، وشاع هذا الخبر فى أوساط الناس ، فقام هؤلاء وكتبوا رقاعًا ألقوها فى المساجد " معاشر المسلمين ادعوا لخليفتكم العدل الرضا المضاهى عمر بن عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤنه ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه"(١٨٧)، وعندما بلغ الأمر المهتدى خرج إلى الثوار متقلدًا سيفه ، وخطب فيهم بعد أن نفى علمه بالمكان الذى يختفى فيه صالح بن وصيف قائلاً : " بلغنى ما أنتم عليه ، ولست كمن تقدمنى ، مثل المستعين والمعتز ، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط ، وقد أوصيت إلى أخى بولدى ، وهذا سيفى ، والله لأضربن به ما استمسك بيدى ، والله لئن سقط منى شعرة ليهلكن أكثركم ، أما دين ، أما حياء ؟ كم هذا الخلاف على الخلفاء ، والإقدام والجرأة على الله ؟ "(١٨٨) .

وعلى الرغم من قوة الخطاب الذى وجهه المهتدى إلى الثوار فإنه لم يترك أثرًا كبيرًا فى نفوسهم ، فما أن فرغ منه حتى نادى قائدهم أنه من جاء بصالح بن وصيف فله عشرة آلاف دينار ، فاشتد عليه الطلب ، فلما عثروا عليه قتلوه ، وذلك فى شهر صفر سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م(١٨٩) .

وهكذا نلحظ مما سبق أن الأتراك سلبوا الخليفة المهتدى سلطته ، وأساءوا التصرف فى شؤون دولته حتى إنه صار يرجو الخلاص منهم . وليس أدل على ذلك مما رواه الطبرى من أن المهتدى عندما أشغل باله موسى بن بُغا رفع يديه

إلى السماء قائلاً : " اللهم إنى أبرأ إليك من فعل هذا القائد ، فقد أخل بالثغر، وأباح العدو ، اللهم تول كيد من كايد المسلمين ، اللهم إنى شاخص بنيتى واختيارى إلى حيث نكب المسلمون فيه ، ناصرًا لهم ودافعًا عنهم ، اللهم فآجرنى بنتيى إذا عدمت صالح الأعوان " ! ثم انحدرت دموعه ، وبكى(١٩٠) .

ولقد تفاقم الخلاف بين المهتدى وبعض قواد الأتراك عندما اتهم اثنين منهم – هما موسى بن بُغا وأخوه محمد – بنهب أموال الجند واختلاسها(١٩١) . ووقع ذلك فى وقت كان فيه صبر المهتدى على تصرفات الأتراك قد نفد . وفوق ذلك فإنه لم يعد يتحمل رؤية ما يدور بينهم من صراعات. ويبدو أنه أدرك أن الوقت قد حان للتخلص منهم ورأى أن أنجع وسيلة لذلك هى ضرب بعضهم ببعض .

وكانت أولى الخطوات التى أقدم عليها الخليفة فى هذا الاتجاه قيامه باستدراج محمد بن بُغا ، ومصادرة أمواله ، وقتله فى سامراء . وقام على إثر ذلك بتنحية أخيه موسى عن قيادة الجيش العباسى (١٩٢) .

ولما تخلص المهتدى من هذين القائدين رنا ببصره إلى قائد تركى آخر يدعى بايكباك عُرف بميله إلى العبث والفساد ونهب الأموال ، وقتل الناس ظلمًا . وأمره الخليفة بالكف عن ذلك مرات كثيرة ، ولكنه لم ينته(١٩٣) ، وأسند إليه قيادة الجيش مكان موسى بن بُغا ، وطلب منه أن يواصل زحفه إلى الموصل لحرب زعيم الخوارج مساور الشارى ، وأوعز إليه كذلك بأن يقبض على موسى ، ويقتله(١٩٤) .

ويبدو واضحًا أن المهتدى عندما زج بهذا القائد فى الحرب ضد الخوارج لم يكن مقتنعًا بكفاءته وإخلاصه بقدر ما كان يرغب فى التخلص منه ، أو عل الأقل إبعاده عن العاصمة العباسية سامراء ، وضرب قواد الأتراك بعضهم ببعض . ولكن

بايكباك كان يقظًا لما يدبره الخليفة ضده ، فاتصل بالقائد موسى بن بُغـا ، وأخـبره بتدبير المهتدى ضده ، فاتفقا على وضع خطة للإطاحة بـه ، ومـن أجـل هـذا عـاد بايكبـاك فجـأة إلى سـامراء ، وبصحبتـه نفـر مـن قـواد الأتـراك ، ودخلـوا إلى دار الخلافة في شهر رجـب سنة٢٥٦هـ / ٨٦٩م ، فـأخذت تسـاور المهتـدى بعـض الشكوك من عودة بايكباك ، فأصدر أمرًا بالقبض عليه، وإلقائه فى السجن(١٩٥).

ولما بلغ أصحاب بايكباك ما جرى لقـائدهم ، اجتمعـوا ، وطـالبوا المهتـدى بالإفراج عنه ، ولكنه قبل أن يُبت فى ذلـك استمع إلى مشـورة مـن أحـد الأفـراد الأسرة العباسية ؛ إذ قال له : " لقد كان أبو مسـلم الخراسـانى(١٩٦) أعظـم شـأنًا عند أهل خراسان من بايكباك عند أصحابه ، فلما طرح رأس أبى مسلم سـكتوا ، ولو فعلت بهذا مثلـه لسـكتوا . وعندئـذٍ أمـر المهتـدى بقتـل بايكبـاك ، فاسـتراح منه(١٩٧) .

وبعد مصرع بايكباك دق ناقوس الخطر فى دار الخلافة ، فقد تجمهر حـوالى سبعين ألف تركى مـن أعـوان هـذا القـائد وطـالبوا بدمـه ، فـالتقى بهـم المهتـدى وأنصاره فى ميدان العاصمة سامراء فى نحو عشرة آلاف فارس من الـترك والعـرب والفـرس وغـيرهـم ، فحـاربهم . ولكنهـم كسـروه لأن الأتـراك الذيـن كـانوا فـى عسكره غدروا به أثناء القتال وانضموا إلى إخوانهم أتباع بايكباك . وولى المهتـدى منهزمًا ، وفى حلقه مصحف معلـق ، والـبردة فـى كتفيـه ، والسـيف بيـده(١٩٨) وأخذ ينادى : يا معشر المسلمين ! أنا أمير المؤمنـين ، قـاتلوا عـن خليفتكـم ! فلـم يجبه أحد من العامة إلى ذلك ، فسار إلى باب السجن ، فأطلق من فيـه وهـو يظـن أنهم يعينونه، فهربوا ، و لم يعنه أحد ، فاتجه إلى دار صاحب الشرطة ودخلها وهـم فى أثره ، فدخلوا عليه وأخرجوه ، وحملوه على بغل ، وحبسوه فى أحـد الـدور . ثم عرضوا عليه أن يعزل نفسه عن الخلافة مقابل الإفراج عنه ، ولكنه أبى ، ووافق على أن يكتب لهم بخطه كتابًا يتعهد فيه بألا يغدر بهـم ، ولا يغتـالهم ، ولا يفتـك

بهم ، وأنه متى فعل ذلك فُهم فى حل من بيعته ، ويصبح الأمر إليهم يستخلفون شخصًا غيره . ولكنهم لم يصغوا لطلبه ، وقاموا بتعذيبه حتى مات فى الثامن عشر من شهر رجب سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م ، ودُفن بمقبرة المنتصر فى سامراء(١٩٩) ، بعد أن استمرت خلافته كلها أحد عشر شهرًا وخمسة وعشرين يومًا فقط ، وكان عمره حين أدركه الأجل ثمانيًا وثلاثين سنة(٢٠٠) .

* * *

وخلاصة القول: إن محاولة المهتدى لم تنجح أولاً لأنه مكث سنة واحدة فى الخلافة ، وأن صفاته الشخصية الإيجابية لم تكن لتكفى فى هذا العصر الملئ بالمؤامرات والفتن .

وثانيًا : أن من يريد تبنى سياسة مضادة لما هو سائد ، لا يكفيه قوة منطقه ووضوح الحق فى جانبه، بل يحتاج إلى القوة، فالحق بلا قوة يضيع، والسياسة تحتاج إلى قوة. والمهتدى لم يكن يملك القوة فى الجيش أو فى الوجهاء من القوم .

وثالثًا : أن الرجل كان يشعر بضعفه وسط أعاصير عصره ، فمال إلى الانعزال وابتغاء آجل الآخرة بدلا من عاجل الدنيا .

ورابعًا : أن المهتدى لم يمتلك خطوط منهج إصلاحى واضح متكامل سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وعسكريًا ، وإنما كان يمتلك مبادئ تمثلها واقتبسها من سير الصالحين الأوائل ، فعرف بها ونقلت عنه .

وخامسًا : أن المهتدى لم يبادر إلى إصلاح الخلل الأكبر فى جسد الدولة المتمثل فى الاعتماد الكبير على الجند والقادة الأتراك . فقد ركن هذا الخليفة إليهم وهادنهم و لم يواجههم ، وبذلك أصبح مثل سابقيه فاقدًا لقوة الجموع الأخرى من الأمة ، وخاصة العرب الذين أسقطهم العباسيون من حسابهم منذ قيام دولتهم .

ثم إن المهتدى كان فى حاجة إلى كل نصير خصوصًا من أفراد أسرته ، ولذلك فإنه أخطأ حينما قام بنفى الموفق إلى مكة بدلاً من احتوائه وضمه إلى جانبه فى مواجهة التيار العنيف الذى ثار ضد محاولته الإصلاحية .

أثر هذه المحاولة على الخلافة العباسية :

لم تذهب محاولة المهتدى با لله عبثًا ، فقد كشفت قواد الأتراك أمام جنودهم حتى أن هؤلاء طالبوا الخليفة المهتدى فى أواخر أيام خلافته بأن يوكل قيادة الجيش إلى أحد أفراد الأسرة العباسية(٢٠١) ، وقد تنبه المعتمد إلى ذلك حينما تولى الخلافة، فأدار ظهره للأتراك ، وجعل قيادة الجيش لأخيه الموفق(٢٠٢) .

وكان لمحاولة المهتدى أثر فى استرداد البيت العباسى بعض سلطانه ، بعد أن استطاع هذا الخليفة الحد من نفوذ الأتراك بضرب بعض قادتهم أمثال محمد بن بُغا وصالح بن وصيف وبايكباك ، ولذا لم يجد الخليفة المعتمد صعوبة عند اختيار ابنه جعفر وليًا للعهد(٢٠٣) ، ثم إنه لما مات الموفق سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١م جرت مبايعة ابنه أحمد بولاية العهد بعد جعفر المفوض ، ولُقب بالمعتضد با لله(٢٠٤) .

ولما خلع المعتمد با لله جعفرًا من ولاية العهد فى محرم سنة٢٧٩هـ / ٨٩٢م أسند ولاية العهد للمعتضد(٢٠٥) ، ولم يواجه خلال ذلك مضايقة من الأتراك كما كانوا يفعلون من قبل فى مثل هذه الظروف ، وبذلك حرم البيت العباسى الأتراك من فرصة اختيار من يرون مصلحتهم فى استخلافه .

حقيقة أن هذه المحاولة الإصلاحية كانت بمنزلة حجر الأساسي الذى قامت عليه مرحلة الانتعاش التى مرت بها الخلافة ، وشملت كثيرًا من جوانب الحياة ، ودامت حوالى أربعين سنة ، حكم فيها ثلاثة خلفاء هم : المعتمد على الله ، ثم المعتضد ، ثم ابنه الكتفى . وعاش هؤلاء الخلفاء فى دست الخلافة آمنين من عدوان الأتراك عليهم ، بل إن الأتراك فى أيامهم عادوا خدامًا للدولة ، كما كان

شأنهم عند بدء ظهورهم فى بغداد وبذلك سكنت الفتن التى كانوا يثيرونها ، ولم يجرؤ واحد منهم على إسخاط خلفاء هذه الفترة أو معارضتهم .

ومهما يكن من أمر فقد ترتب على عزل المهتدى بالله ووأد محاولته الإصلاحية فى مهدها آثار سلبية عديدة على الخلافة ، فقد نشطت إثر ذلك مباشرة الحركات المناوئة للخلافة منتهزة فرصة الفراغ السياسى ومرحلة الانتقال التى مرت بها الخلافة العباسية ما بين وفاة المهتدى ووصول القائد المحنك أبى أحمد الموفق إلى قيادة الجيش ، وضبطه لشؤون الدولة فى ظل خلافة أخيه المعتمد . ففى البصرة اشتدت شوكة صاحب الزنج ، وصار يتطلع إلى توسيع دائرة نفوذه بهدف بسط كامل سيطرته على جنوب العراق . والواقع أن قائد الزنج حقق لنفسه ما يريد فقد استغل ظروف الخلافة ، واستولى إبان هذه الفترة على بعض المدن الهامة فى المنطقة الواقعة جنوب شرقى إقليم العراق وضمها إلى مركز حركته فى البصرة . ولم يواجه زعيم الزنج فى هذه الأثناء أدنى مقاومة من الخلافة العباسية(٢٠٦) .

وفى الموصل انتهز الخوارج كذلك فرصة الاضطراب التى وقعت داخل الدولة العباسية فسعى قائدهم مساور الشارى إلى إحياء حركته الانفصالية من جديد ، والتقى بجيش الخلافة قرب بلدة خانقين(٢٠٧) . وقُتل من أصحاب مساور جمع كثير ، وكان ذلك فى سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م(٢٠٨) . وفى خضم هذه الأحداث التى شهدتها الخلافة نتيجة لعزل المهتدى عن الخلافة وفشل مشروعه الإصلاحى ، انتعشت بعض الحركات العلوية المعارضة للحكم العباسى ، فقد ظهر أحد العلويين فى الكوفة ويدعى على بن زيد(٢٠٩) وتمكن من الاستيلاء عليهما بعد أن أزاح الوالى العباسى عنها(٢١٠) .

وفى المشرق الإسلامى استطاع الحسن بن زيد العلوى مؤسس الدولة الزيدية فى طبرستان بسط سيطرته على ولايتى الرى وجرجان(٢١١) .

ومما ساعد على ظهور هاتين الحركتين سوء أحوال عمال الخلافة فى بعض الولايات الإسلامية ، فقد استهان أكثرهم بأمر الخلفاء بسبب الضعف السياسى والاقتصادى الذى انتاب الخلافة وقتذاك . ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال الوالى العربى عبد العزيز بن أبى دلف(٢١٢) نائب الخلافة فى الرى الذى فارق ولايته دون سبب ، الأمر الذى مكن الحسن بن زيد من السيطرة عليها والإساءة إلى أهلها . وكذلك نائب الخلافة فى الكوفة الذى أهمل شأن ولايته مما جعل على بن زيد يستولى عليها دون مقاوم(٢١٣) .

وفى الشام حاولت العناصر العربية التى كانت تشكل غالبية السكان هناك الإفادة من الأحداث السياسية التى جرت فى العراق من أجل استعادة ما كان العرب يتمتعون به من هيبة ونفوذ فى الدولة الإسلامية . وكان أن جاهر الأمير العربى عيسى بن الشيخ فى عدائه للخلافة العباسية ، ولم تتوقف أطماعه السياسية عند حدود السيطرة على دمشق ، وقطع الخراج عن بغداد ، بل إنه تمادى إلى ما هو أبعد من ذلك فقد نهب خراج مصر الذى حمله والى الخراج هناك أحمد بن المدبر(٢١٤) عن طريق الشام إلى بغداد ، وكان يُقدر بسبعمائة ألف دينار . وفى الوقت نفسه رفض ابن الشيخ إقامة الدعوة للخليفة المعتمد على الله بعد توليه الخلافة مباشرة . وبدلاً من أن يقوم هذا الخليفة بتأديبه على تصرفه فقد كافأه بولاية أرمينية(٢١٥) . وقد قبل ابن الشيخ ذلك ظنًا منه أن الشام تكون بيده إضافة إلى أرمينية ، ولكن المعتمد أنفذ جيشًا لطرد ابن الشيخ من الشام ، فالتقى الجيشان قرب دمشق وانهزم عسكر ابن الشيخ ، فلاذ بالفرار إلى أرمينية(٢١٦) .

وفى العراق حاول كذلك مغامر عربى يدعى سعد الباهلى(٢١٧) أن يتغلب على البطائح(٢١٨) ، ولكن أحد قواد الخلافة قبض عليه ، وساقه أسيرًا إلى سامراء، فضُرب سبعمائة سوط حتى مات(٢١٩) .

وفى إقليم فارس سعت العناصر الفارسية بدورها علـى الظهـور مـن جديـد لإنعاش ما كان لها من نفوذ فى العصر العباسى الأول ، وهو النفـوذ الـذى انـزوى بعد تقدم العناصر التركية فى العراق ، فقد ازدادت أطماع يعقوب الصفار مؤسس الدولة الصفارية وتحرك لضم أجزاء من بلدان الخلافة إلى دولته التى كـان مركزهـا فى سجستان ، حيث زحف الصفار فور علمه بنبأ خلع الخليفة المهتدى غربًـا نحـو إقليم العراق ، واضطرت الخلافة إلى صرفه عن هـذه الناحيـة فعهـدت إليـه ببعـض ولايات المشرق الإسلامى ، فقبل فى بادئ الأمر ذلك ، ولكنه ما لبـث أن تراجـع وعاد إلى العراق ، وحارب جيش الخلافة(٢٢٠) .

ومما سبق نستطيع القـول : إنـه علـى الرغـم مـن انهيـار محاولـة المهتـدى الإصلاحية فى مهدها نتيجة لعزل هذا الخليفة فإنها فى واقع الأمر تركـت وراءهـا آثار إيجابية وسلبية عديدة على الخلافـة العباسـية . وقـد استفاد الخلفـاء خصوصًـا الثلاثة الأوائل الذين حكموا بعد المهتـدى مـن الآثـار الإيجابيـة ، وقـاموا بتوظيفهـا لصالحهم . وفى الوقت ذاته حرصوا على تجنب ما نتج عنها من آثار سلبية حتى لا تتكرر الأحداث السياسية والاقتصادية نفسها التى وقعت فى خلافة المهتدى با لله.

الخاتمـــــة :

عندما تولى المهتدى با لله الخلافة كان غالب الناس قد فقدوا الثقة بخلفاء بنى العباس نتيجة ضعفهم ، وعدم مبالاتهم بشؤون الرعيـة ، وسيطرة المـوالى الأتـراك على مقاليد الخلافة، حيث بلغ سلطانهم آنذاك ذروته لدرجة ، أنهم أصبحوا بمنزلة حلقة اتصال بين الخليفة والرعية ، و لم يكن أحد يستطيع أن يجرؤ على معارضتهم.

لقد كان المهتدى با لله حقيقة من أفضل خلفاء البيت العباسى زهـدًا وعـدلاً وتواضعًا ، ومن هذا المنطلق حاول إصلاح ما فسد من أحـوال دولتـه مقتديًـا فـى ذلك بسيرة الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، فشـرع فـى إحيـاء بعض السـنن

والعادات الحميدة التى كان يقوم بها خلفاء الدولة الإسلامية ، والتى كادت قبل توليه أن تندثر بسبب إهمال الخلفاء الذين سبقوه لها . ونذكر من ذلك على سبيل المثال : حضوره إلى المسجد الجامع ، ومصلى العيد فى أيام الجمع والأعياد لإلقاء الخطبة وإمامة الناس فى الصلاة ، وكذلك جلوسه للمظالم ، والإشراف بنفسه على الدواوين .

لقد شملت محاولة المهتدى الإصلاحية كثيرًا من جوانب الحياة فقد أهتم هذا الخليفة بالنواحى المالية ، وأولى القضاء اهتمامًا خاصًا حيث شهدت خلافته انتعاشًا مكانة القضاء ، ومن مآثره قبة المظالم التى شيدها فى العاصمة سامراء . وكان المهتدى حازمًا مع المخالفين حتى ولو كانوا من أقربائه ، أو من كبار رجال الدولة فقد طال عقابه ثلة من هؤلاء ، ولم يفرق بين قريب وبعيد .

لقد تأججت نيران الفتن والاضطرابات فى عهد المهتدى بشكل لم يسبق له مثيل . وكان أول الوهن الذى أصاب جسد الخلافة فى مستهل حكمه رفض أهل بغداد مبايعته فى بادئ الأمر . ثم ازداد الوضع سوءًا عندما اندلعت ثورة الجند فى بغداد ، وعاد الجند ، المرابطون فى الثغور الشرقية من أرض الخلافة إلى ثكناتهم قرب العاصمة سامراء مطالبين بأرزاقهم المتأخرة لعدة أشهر . وفى هذا الوقت خرج صاحب الزنج فى جنوب العراق ، وشق الخوارج عصا الطاعة على الخلافة فى شمال العراق . وعندئذٍ أسقط بيد المهتدى ، وأصبح فى حيرة من أمره، فهل يمضى بحركته قُدمًا إلى الإمام أم يتوقف عن ذلك ويتفرغ للقضاء على هذه الحركات المناوئة للخلافة ؟

وكان لقيام هذه الحركات انعكاسات اقتصادية خطيرة على الخلافة فقد عجزت موارد الدولة من الأقاليم المتمثلة وقتذاك فى رسوم الضرائب والخراج وغيرهما عن الوفاء باحتياجات بيت المال ، لدرجة أن المهتدى أصبح غير قادر حتى على دفع مرتبات الجند ، مما أدى إلى تسلل الإحباط والملل إلى نفوسهم .

وعندئذٍ فقد الخليفة السيطرة عليهم ، ولم يُعد بإمكانه أن يركن إليهم لقمع أولئك الخارجين عن طاعته ، وتأديبهم وإعادتهم إلى جادة الصواب .

والواقع أن المهتدى بالله لما شرع فى محاولته الإصلاحية لم يجد من يناصره، أو يشد من أزره، بل كان محاطًا بطغمة من الأتراك لم تترك له سبيلاً إلى الإصلاح. ومن سوء حظه أنه لم يلبث فى الحكم طويلاً ، وبالتالى فإن محاولته هذه لم تأخذ وقتًا كافيًا لكى تقف على قدميها لترى النور ، وتؤتى ثمارها.

الهوامش

(١) ورد هذا الحديث بعدةِ ألفاظ وطرق منها : " لا يزال الإسلام عزيزًا إلى اثنى عشر خليفة " ، و " لا يزال أمر الناس ماضيًا " ، و " لا يزال الدين قائمًا حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش " .

انظر : صحيح مسلم : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٣/١٤٥٢ - ١٤٥٣) . ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، بيروت ، ص١١ .

(٢) البداية والنهاية ، ط٦ ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م (١١/١٨) .

(٣) العبر فى خبر من غبر ، بيروت (١/٣٦٦) .

(٤) الأزدى : أخبار الدول المنقطعة (تاريخ الدولة العباسية) تحقيق ودراسة د. محمد الزهرانى ، المدينة المنورة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص١٨١ . ؛ السيوطى : نفسه ، ص٣١٠ .

(٥) المعتصم : (أبو إسحاق بن هارون الرشيد) ، ولد سنة ش١٧٨هـ ، بويع بالخلافة فى رجب سنة ٢١٨هـ ، وكانت وفاته فى ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ (ابن العمرانى : الإنباء فى تاريخ الخلفاء تحقيق د. قاسم السامرائى، ط٢ ، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص١٠٤).

(٦) المتوكل : (أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى ، بويع فى ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ ، وقُتل فى شوال سنة ٢٤٧هـ . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، (١/٣٥٠) .

(٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، (٥/٣٠٢).

(٨) المنتصر بالله : (أبو جعفر محمد بن المتوكل ، بويع له بعد مقتل أبيه مباشرة سنة ٣٤٧هـ ، ومات مسمومًا على يد طبيبه سنة ٢٤٨ . (ابن العمرانى : الإنباء ١٢١ - ١٢٣).

(٩) المعتز بالله : (محمد وقيل الزبير بن جعفر المتوكل) ، بويع له عند خلع المستعين سنة ٢٥٢هـ ، ولم يل الخلافة قبله أحد أصغر منه ، توفى سنة ٢٥٥هـ . (ابن قتيبة : المعارف، ط٢ ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، دار المعارف، مصر ، ص٣٩٤ . ؛ الأزدى : أخبار الدول المنقطعة / ص١٩٣ - ١٩٤) .

(١٠) المؤيد : (إبراهيم بن جعفر المتوكل) كان وليًا للعهد فى أثناء خلافة أخيه المعتز، ولكنه عزله فى رجب سنة ٢٥٢هـ ، وضربه وقيده فمات متأثرًا بذلك بعد أيام . (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٣) .

(١١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (٣٠٦/٥) .

(١٢) السيوطى ، نفسه ، ص٣٢٤ .

(١٣) سامراء : مدينة تقع بين بغداد وتكريت وقامت على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، بناها الخليفة المعتصم ، ونقل إليها دار الخلافة سنة ٢٢١هـ. (ياقوت الحموى : معجم البلدان، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، (١٧٣/٣ - ١٧٤) .

(١٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصر ١٣٤٦هـ (٣٨٩/٢) .

(١٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (٣٢٧/٥)

(١٦) نفسه ، (٣٣٥/٥) .

(١٧) ابن العمرانى : الإنباء ص١٢٠ . ؛ ابن الأثير : الكامل فى تاريخ ، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م . (٩٧/٧ - ٩٩) .

(١٩) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٠ .

(٢٠) ابن الأثير : الكامل ، (١١٤/٧ - ١١٥) .

(٢١) أبو العباس أحمد بن المعتصم بن الرشيد ، أخو الخليفة المتوكل ، ولد سنة ٢٢١هـ، تولى الخلافة عقب وفاة المنتصرة سنة ٢٤٨هـ ، ثم خلع نفسه سنة ٢٥٢هـ . وفى هذا العام لقى مصرعه على يد أحد حجابه الأتراك . (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٢).

(٢٢) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٢٣ .

(٢٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٣٥٤/٥) ؛ ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٢٤؛ ابن الأثير : الكامل ، (١١٩/٧ - ١٢٠) .

(٢٤) المسعودى : مروج الذهب ، (٤٠٧/٢ - ٤٠٨) .

(٢٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٢ .

(٢٦) الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ، ص١٩٣ . ؛ ابن الأثير : الكامل ، (١٧١/٧).

(٢٧) الموفق : هو الأمير أبو أحمد طلحة بن المتوكل بن المعتصم ، كان بيده الحل والعقد فى خلافة أخيه المعتمد ، ومات قبل أن يتولى الخلافة فى صفر سنة ٢٧٨هـ . (الذهبى: سير أعلام النبلاء ، ط١٠ ، بيروت ١٤١٤هـ ، ١٦٩/١٣) .

(٢٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤١٤/٥ ، ٤٣٢) .

(٢٩) قبيحة أم المعتز سماها زوجها المتوكل بهذا الاسم لحسنها وجمالها ، كانت من ربات السياسة والدهاء والنفوذ والسلطان . ولما قُتل ابنها المعتز ظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال طائلة وكنوز وجواهر ثمينة ، توفيت في ربيع الأول سنة ٢٦٤هـ بعد أن أعيدت من مكة إلى سامراء مكرمة معززة : انظر : (ابن الأثير : الكامل ، ٧/٢٠٠ . ، عمر كحالة : أعلام النساء ، ط٣ ، بيروت ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م ، (٤/١٨٤ - ١٨٧) .

(٣٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٣١) .

(٣١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٣ .

(٣٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٣١) . ؛ الذهبى : سير أعلام النبلاء ، (١٢/٥٣٥) .

(٣٣) القاطول : أحد روافد نهر دجلة ، حفره هارون الرشيد فى موضع سامراء قبل بنائها . (الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، بيروت (٣/ ٣٤٧). ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، (٤/٢٩٧) . ؛ لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص٨٢) .

(٣٤) البغدادى : تاريخ بغداد ، (٣/ ٢٤٨) .

(٣٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٣١) .

(٣٦) ابن الأثير : الكامل ، (٧/٣٣) .

(٣٧) نفسه ، (٧/٣٣) .

(٣٨) المسعودى : مروج الذهب ، (٢/٤٣١) .

(٣٩) أبو الفضل جعفر بن محمود الإسكافى . تولى الوزارة فى عهد المعتز ، كان قليل الحظ من العلم والأدب ، ولكنه سعى إلى استمالة الناس بالمنح والعطايا ، وكان متهما بالتشيع، وثارت بسببه فتنة ، فعزله المعتز . (ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، ص٢٤٤) .

(٤٠) ابن طباطبا : نفس المصدر والصفحة .

(٤١) سليمان بن وهب بن سعيد بن حُصين الحارثى ، أصبح كاتبا للخليفة المأمون، ولما تولى المهتدى جعله وزيرًا له ، وشغل أيضًا منصب الوزارة فى خلافة المعتمد على الله .

انظر : (ابن طباطبا : نفسه ، ص٢٤٧ - ٢٤٩ . ؛ الذهبى : سير أعلام النبلاء ، (١٣/ ١٢٧) .

(٤٢) هو صالح بن وصيف الكبير " شيخ الموالى " كان والده من أمراء الأتـراك ممـاليك المعتصم ، وكان ابنه صالح أحد مقدمى الأتراك فى بلاط المعتز ، ثم جعله المهتدى حاجبًـا لـه ، وقد قتل صالح بسامراء فى صفر سنة ٢٥٦هـ على يد نفر من الموالى الأتراك . (ابن العمرانى : الإنباء ، ص٢٨٦ ، هامش (٣٣٧).؛ ابن الأثير : الكامل ، (٢٢٥/٧) .

(٤٣) الحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب الأموى تـولى القضـاء فـى عهـد المتوكل ثم عزل ، وأسند إليه مرة أخرى فى عهد المهتـدى ، توفـى سـنة ٢٦١هــ . (وكيـع : أخبار القضاة ، بيروت ، (٣٠٣/٣) . ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهـرة فـى ملـوك مصر والقاهرة ، مصر (٣٤/٣) .

(٤٤) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، (٣٤٨/٣) .

(٤٥) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٣ .

(٤٦) المنتظم ، (٨٤/١٢) .

(٤٧) تاريخ بغداد ، (٣٥٠/٣) .

(٤٨) نفسه .

(٤٩) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى ، كان إمامًـا فـى علـم الحديث وغيره من العلوم ، وقد أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقتـه ، وهـو أحـد الأئمة المجتهدين ، ولد سنة٩٥هـ ، وتوفى بالبصرة سنة ١٦١هـ .

(الأصبهانى : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط٢ ، دار الكتـاب العربـى ، بـيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، (٣٥٦/٦) .

(٥٠) ابن العمرانى : الإنباء ، ص ١٣٣ .

(٥١) نفسه .

(٥٢) المسعودى : مروج الذهب ، (٤٣٦/٢) .

(٥٣) السَّفط : وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النســاء . ووعـاء مـن قضبـان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها . (المعجـم الوسـيط ، عنـى بطبعـه ونشـره عبد الله الأنصارى ، دار إحياء التراث الإسلامى ، قطر ، (٤٣٣/١) .

(٥٤) المسعودى : مروج الذهب ، (٤٣٦/٢) .

(٥٥) د. حسن محمود وأحمد الشريف . العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ط٤ ، الكويت ١٩٨٠م ، ص٣٤٣ .

(٥٦) اليعقوبى : تاريخ ، بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ، (٢/٥٠٥) .

(٥٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٣١ - ٤٣٢) ، ابن العمرانى : الإنباء ص١٣٣ .

(٥٨) ابن العمرانى : نفس المصدر والصفحة .

(٥٩) انظر تفاصيل هذه الحادثة فى تاريخ الطبرى ، (٥/٣٧٠ - ٣٧١).

(٦٠) أخبار الدول المنقطعة ، ص١٩٦ .

(٦١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، (٣/٢٦) .

(٦٢) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٣ .

(٦٣) اليعقوبى : تاريخه ، (٢/٥٠٥) .

(٦٤) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٣ .

(٦٥) المسعودى : مروج الذهب (٢/٤٣١) .

(٦٦) كتب سعيد بن عبد الملك - وهو أحد الكتاب فى ديوان المهتدى با لله - رسالة فيها بأحد الخلفاء وقوة فصاحته وخطبته فى عيد الفطر . ومن المحتمل أنه يقصد بتلك الرسالة خليفته المهتدى با لله . وللإطلاع على نص هذه الرسالة . انظر : أحمد زكى : جمهرة رسائل العرب ، بيروت ، (٤/٢٦١) . ؛ د. شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، ط٧ ، دار المعارف ، مصر ، (٤/٥٥٤) .

(٦٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (٥/٤٣٩) ابن الأثير : الكامل ، (٧/٢٠٣).

(٦٨) المسعودى : مروج الذهب ، (٢/٤٣٦) .

(٦٩) نفسه .

(٧٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٦٢) .

(٧١) المسعودى : مروج الذهب ، (٢/٤٣٦) .

(٧٢) د. ضيف الله الزهرانى : النفقات وإدارتها فى الدولة العباسية ، ط١ ، مكة المكرمة ١٣٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، ص٢٩٩ .

(٧٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٧٠) .

(٧٤) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، (٣/ ٣٥٠) . ؛ ابن الجوارى : المنتظم ، دراسة وتحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا ، ط١ ، بيروت ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م ، (٨٤/١٢) .

(٧٥) أحمد بن إسرائيل بن الحسين الأنبارى ، كان ذا مكانة رفيعة عند الخليفة المعتز ، استوزره سنة٢٥٢هـ ، فنهض بأعباء الوزارة ، وجمع بين الذكاء وسرعة الحفظ . وقد اعتمد عليه المعتز فى حساب الديوان ، ظل فى الوزارة ثلاث سنين حتى قتله صالح بن وصيف بالضرب فى عهد المهتدى با لله سنة ٢٥٥هـ .

(الذهبى : السير ، (١٢/ ٣٣٢ - ٣٣٣) . ؛ الصفدى : الوافى بالوفيات ، ط٢ ، تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية،دار صادر، بيروت ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ،(٦/ ٢٤٣- ٢٤٤).

(٧٦) أبو نوح عيسى بن إبراهيم ، من الكتاب المبرزين فى عهد المعتز . وقد أتهم باختلاس الأموال مع الوزير أحمد بن إسرائيل والكاتب الحسن بن مخلد ، فصودرت أموالهم ، وأمر كبير الحجاب صالح بن وصيف بضربهم ، ولقى أبو نوح حتفه بسبب ذلك ، كان لا يزال نصرانيا وذلك فى٢٧رمضان سنة٢٥٥هـ .(الطبرى:تاريخ الأمم والملوك٥/٤٣٤-٤٣٥).

(٧٧) الطبرى : نفسه ، (٥/ ٤٣٥) .

(٧٨) نفسه .

(٧٩) الذهبى : السير ، (١٢/ ٥٣٦) .

(٨٠) أبو العباس عبد ا لله بن المعتز بن المتوكل ، كان أديبًا بليغًا شاعرًا مقتدرًا مجالسًا للعلماء والأدباء ، بايعه رؤساء الأجناد ووجوه الكتاب بالخلافة فى خلافة المقتدر ، ولقبوه المرتضى با لله، وأقام فى الخلافة يومًا وليلة ، ولكن المقتدر قبض عليه وسلمه إلى القائد مؤنس الخادم فقتله فى شهر ربيع الآخر فى السنة نفسها (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/ ٧٦).

(٨١) اليعقوبى : تاريخه ، (٢/ ٥٠٥) .

(٨٢) د. عادل محيى الدين : الرأى العام فى القرن الثالث الهجرى ، ط١، ١٩٨٧م ص١٩٤.

(٨٣) حماد بن إسحاق بن إسماعيل بن الإمام حماد بن زيد . أخو القاضى إسماعيل بن إسحاق ، كان حماد من أهل العلم ، ومن حفظه الحديث ، وكان فقيها على مذهب مالك ، وكان يحضر مجلس المهتدى مع غيره من الفقهاء . تولى قضاء بغداد مرة واحدة ، ومات

بالسُّوس سنة ٢٦٧هـ . (وكيع : أخبار القضاة ، (٢٨٠/٣) . ؛ الذهبي : السير ، (١٦/١٣) .

(٨٤) الأهواز : ولاية تقع بين البصرة وفارس ، وقد أطلق العرب المسلمون عليها هذا الاسم بعد فتحهم لها حيث كان الفرس يسمونها خوزستان .

(ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، تحقيق : د. محمد مخزوم ، ط١ ، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، ص٤٨ . ؛ ياقوت :معجم البلدان ، (٢٨٥/١) .؛ لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٢٦٧) .

(٨٥) وكيع : أخبار القضاة ، (٢٨٠/٣) .

(٨٦) عبد الرحمن بن نائل بن نجيح البصري ، ولاه المهتدى با لله قضاء سامراء في ذي الحجة سنة ٢٥٥هـ بعد أن عزل القاضي الحسن بن أبي الشوارب.

(وكيع : المصدر السابق ، (٣٠٣/٣) ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٥٧/٥)؛ ابن الأثير : الكامل ، (٢١٧/٧)) .

(٨٧) الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ، ص١٩٨ .

(٨٨) ابن العمراني : الإنباء ، ص١٣٣ .

(٨٩) البيهقي: المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م ، ص٥٤٠.

(٩٠) الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، مصر ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص٨٠ - ٨١ .

(٩١) الآجُري : الشريعة ، تحقيق محمد الفقي ، ط١ ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ، ص٩١ . ؛ البُرّي : الجوهرة ، ط١ ، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، (٤٥٨/١) .

(٩٢) الرَّمْلَة : مدينة بفلسطين ، وهناك مدن أخرى تحمل الاسم نفسه مثل محلة الرملة الواقعة نحو شاطئ دجلة مقابل الكرخ ببغداد ، رقرية الرملة بالبحرين ، والرملة كذلك محلة بسرخس في خراسان . (ياقوت : معجم البلدان ، (٦٩/٣)

(٩٣) ابن العمراني : الإنباء ، ص١٣٤ .

(٩٤) سورة الأنبياء الآية٤٧ . هذه الرواية ساقها الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، (٣٤٩/٣) ؛ وابن العمراني : الإنباء ، ص١٣٤ .

(٩٥) أبو بكر أحمد بن عمرو بن مُهير الشيبانى . الفقيه الحنفى ، المحدث عن وهب بن جرير وأبى عامر العقدى ، والواقدى ، وخلق كثير ، وكان الخصاف زاهدًا ورعًا . حريصًا على أن يأكل من صنعته رحمه الله ، ومات ببغداد سنة ٢٦١هـ ، وكان عمره قرابة ثمانين سنة. (الذهبى : السير ، (١٢٣/١٣ - ١٢٤) .

(٩٦) من أشهر كتبه : الحيل ، والشروط الكبير ، والرضاع وأدب القاضى ، وذرع الكعبة ، والمسجد والقبر وأحكام الوقوف ، وغيرها . (الذهبى : نفسه ، ص١٢٤) .

(٩٧) الذهبى : المصدر السابق (١٢٧/١٣ - ١٢٨) .

(٩٨) البحترى : أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى ، ولد بمنبج فى حلب سنة٢٠٦هـ ، وفيها نشأ ثم خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء أولهم المتوكل على الله ، ويقال له : البحترى نسبة إلى بُحتر وهو أحد أجداده . وقد توفى البحترى سنة ٢٨٤هـ فى مدينة منبج مسقط رأسه .

(ياقوت : معجم الأدباء ، دار المستشرق ، بيروت - لبنان ، (٢٤٨/١٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان ، (٢١/٦) .

(٩٩) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٦ .

(١٠٠) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٥ .

(١٠١) الإمام : شيخ الإسلام أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال... الشيبانى المروزى البغدادى . أحد الأئمة الإعلام ، ولد فى شهر ربيع الأول سنة ١٦٤هـ ، وطلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، كان إمامًا فى الحديث والفقه والسنة . وله مصنفات عديدة فى هذه العلوم . وكان ممن امتنع عن القول بخلق القرآن فى عهد الخليفة المأمون وتعرض نتيجة ذلك للسجن والتعذيب ، وقد أصر على موقفه فى عهد المعتصم وابنه الواثق حتى تولى المتوكل على الله الخلافة فأظهر الميل إلى السنة ، ونصر أهلها ، ورفع المحنة ، وكتب بذلك إلى الآفاق وذلك فى سنة ٢٣٤هـ . توفى الإمام أحمد محمومًا فى ربيع الأول سنة ٢٤١هـ . (الأصبهانى: حلية الأولياء ، (١٦١/٩) ؛ الذهبى : السير ، (١٧٧/١١)، العبر ، (٣٤٢/١) ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٢٠ .

(١٠٢) الآجرّى : الشريعة ، ص٩٢ ، ٩٥ ، البرى : الجوهرى ، (٤٥٩/١ ، ٤٦١) ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٥ .

(١٠٣) البصرة : مدينة مشهورة في جنوب العراق تقع على رأس الخليج العربي قرب مصب نهر دجلة ، (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٦٥) .

(١٠٤) المَوْصِلُ : مدينة معروفة تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة شمال العراق .

(ياقوت : معجم البلدان ، (٢٢٣/٥) . ؛ لسترنج : المرجع السابق ، ص١١٥) .

(١٠٥) سِجِسْتَانُ : ولاية جنوب خراسان . (ياقوت : المصدر السابق ، (١٩٠/٣).

(١٠٦) تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣٩/٥) .

(١٠٧) الكامل ، (٢٠٣/٧) .

(١٠٨) الذهبي : السير ، (٥٣٦/١٢) ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين ، ط١ ، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، (١٥٣/١) .

(١٠٩) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط١ ، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، (٣٧٢/٣) .

(١١٠) المسعودي : مروج الذهب ، (٤٣٣/٢) .

(١١١) نفسه .

(١١٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣٢/٥) . ؛ ابن الأثير : الكامل ، (١٩٨/٧ - ١٩٩) .

(١١٣) تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣٢/٥) .؛ ابن كثير : البداية والنهاية،(١٧/١١).

(١١٤) الطبري : نفسه .؛ ابن الأثير : نفسه .

(١١٥) اليعقوبي : تاريخه ، (٥٠٥/٢) .

(١١٦) سليمان عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رُزَيق بن ماهان الخُزاعي، أحد أفراد الأسرة الطاهرية التي حكمت خراسان ، وكان سليمان عاملاً على طبرستان ولم يتول حكم الدولة الطاهرية حيث أصبح واليًا على الشرطة في بغداد سنة ٢٥٥هـ ، وكانت وفاته سنة٢٦٦هـ .

(ابن الأثير : نفسه ، (١٣٠/٧ ، ٢٠١ ، ٣٣٣ .؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٨٣/٣) .

(١١٧) الطبري : المصدر السابق . (٤٣٢/٥) .

(١١٨) نفسه ، (٤٣٣/٥) .

(١١٩) الدولة لطاهرية : أسسها طاهر بن الحسين الذى وُلد فى بوشنج بخراسان سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م ، وهو من أصل فارسى . وقد صعد نجمه أثناء الصراع الذى تشب بين الأمين وأخيه المأمون ، ولما استقرت الأمور فى بغداد للمأمون اختار طاهر بن الحسين وعهد إليه بحكم المشرق سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م . وأقام طاهر فى مدينة مرو بخراسان التى أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة للدولة الطاهرية . وتوفى طاهر سنة ٢٠٧هـ ، وتدرج أفراد أسرته فى حكم تلك الدولة حتى سقوطها سنة ٢٥٩هـ/٨٧٣م .

وللإطلاع على تفاصيل واسعة عن قيام هذه الدولة . انظر : د. فتحى أبو سيف : المشرق الإسلامى بين التبعية والاستقلال ، القاهرة ١٩٧٨م ، ص٩٥ - ١٣٨ .؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ، ترجمة د. محمد علاء الدين منصور ، القاهرة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص١٣-١٨) .

(١٢٠) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٣٦) .

(١٢١) محمد بن أوس البلخى . كان الغالب على أمر سليمان آل طاهر أيام ولايته على طبرستان . وكان محمد قد فرق أولاده فى مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء ، فتأذى بهم الرعية . وقد قدم محمد على رأس جند خراسان الموالين الطاهرية إلى بغداد وذلك سنة ٢٥٥هـ. ومنذ سنة ٢٦٤هـ انقطعت أخبار ابن أوس ولا نقف له على سيرة . (ابن الأثير : الكامل ، (٧/١٣٠ ، ٢٠٢ ،٢٧٦ ، ٢٩١ ، ٣١٠) .

(١٢٢) ابن الأثير : نفسه ، (٧/٢٠٢) .

(١٢٣) نفسه ، (٧/٢٠٢ - ٢٠٣) .

(١٢٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٣٣) .

(١٢٥) ابن الأثير : الكامل ، (٧/٢٠٠) .

(١٢٦) المعتمد على الله : هو أبو العباس أحمد بن المتوكل ، بويع له فى رجب سنة ٢٥٦هـ ، وتوفى بغداد فى رجب سنة ٢٧٩هـ . (الأزدى : أخبار الدولة المنقطعة ، ص١٩٩).

(١٢٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٣٣) .؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٤ .

(١٢٨) الطبرى : نفسه ، (٥/٤٤١) .

(١٢٩) زعم صاحب الزنج أن اسمه ونسبه : على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى ابن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وذكر البعض أن اسمه : على بن محمد بن عبد الرحيم ، ونسبه فى عبد القيس ، وأنه وُلد ونشأ فى إحدى قرى مدينة الرى (طهران حاليًا) وكان قبل ظهور حركته وإعلان زعامته للزنج يتنقل بين سامراء والبحرين وهجر ومناطق البادية لنشر أفكاره وادعاءاته بين سكان هذه البلاد . ولمعرفة أوسع التفاصيل عن حركة الزنج . طالع : (الطبرى : المصدر السابق ، (٥/٤٤١ ، ٤٥٧) .؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١/١٨ - ١٩) .

(١٣٠) ابن الأثير : الكامل ، (٧/٢٠٥) .

(١٣١) اليعقوبى : تاريخه ، ٥٠٦ .؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/ ٤٤٣) .

(١٣٢) د. بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية ، مصر ، ص١٥٨ .

(١٣٣) ابن الأثير : الكامل ، (٧/٢٠٩) .

(١٣٤) ابن الأثير : نفسه ، (٧/٢١٤ - ٢١٥) .

(١٣٥) د. بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية ، ص١٦١ .

(١٣٦) الطبرى : تاريخ الأم والملوك ، (٥/٤٣٢) .

(١٣٧) نهر الريان : أحد الأنهار الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة جنوب العراق. (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٦٩) .

(١٣٨) ابن الأثير : الكامل ، (٧/٢١١) .

(١٣٩) أظهر جُعْلان عجزه للخليفة فى التصدى لصاحب الزنج داخل البصرة ، فصرفه عن حرب الزنج وأسند الخليفة هذه المهمة لقائد تركى آخر يدعى سعيد الحاجب . أما أبو الأحواص الباهلى فقد لقى مصرعه أثناء هجوم الزنج على الأبلة فى أواخر شهر رجب سنة ٢٥٦هـ.
(الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٥٧ ، ٤٧٦ - ٤٧٧) .؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، (٧/ ٢٣٦) .

(١٤٠) الطبرى : نفسه ، (٥/٤٥٧) .

(١٤١) ياقوت : معجم البلدان ، (١/٧٧) .

(١٤٢) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن عبد الوهاب ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٦م ، ص٥ .

(١٤٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ط٢ ، ليدن ١٩٠٩م ، ص١٢٨.

(١٤٤) أحمد على : ثورة الزنج ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ص١٠٤ .؛ د. بدر عبد الرحمن : الدولة العباسية ، ص١٧٠ .

(١٤٥) د. عادل الألوسى : الرأى العام فى القرن الثالث الهجرى ، ص١٦٢.

(١٤٦) يعقوب بن الليث ، مؤسس الدولة الصفارية ، وقد حكمت منطقة إيران خمسًا وأربعين سنة (٢٥٣ - ٢٩٨هـ/٨٦٧ - ٩١٠م) ، وكان يعقوب نحاسًا فعُرف بلقب الصفار ، ثم برز كقائد عسكرى فى إقليم سجستان سنة ٢٥٣هـ ، ومات يعقوب سنة ٢٦٥هـ/٨٧٩م ، ثم خلفه أخوه عمرو بن الليث فى حكم هذه الدولة .

انظر : ستانلى لين بول : الدول الإسلامية ، ترجمة محمد صبيحى فرزات ، دمشق ، (٢٦٣/١) .؛ د. على المحيميد : دراسات فى تاريخ المشرق الإسلامى، ط١ ، الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، ص٩ .

(١٤٧) ابن الأثير : الكامل ، (١٨٤/٧) .

(١٤٨) كرمان : ناحية تقع بين فارس ومكران وسجستان وخراسان . ياقوت : معجم البلدان ، (٤٥٤/٤) .

(١٤٩) فارس : ولاية تقع جنوب إيران حاليًا وكانت قصبتها شيراز (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٢٨٣) .

(١٥٠) بدأ ظهور الخوارج فى الموصل سنة ٧٦هـ/٦٩٥م ، وكانوا بقيادة صالح بن مُسرح التميمى . وقد دعا صالح أصحابه إلى الخروج على طاعة أمير المؤمنين ، وإنكار الظلم ، وجهاد المخالفين لهم . وقد قاموا بعدة حركات فى العصر العباسى كان أولها سنة ١٣٧هـ فى عهد أبى جعفر المنصور .

انظر : ابن الأثير : الكامل ، (٣٩٣/٤) ؛ ابن خلدون : العبر ، (١٩٠/٣) .

وللإطلاع على مزيد من المعلومات عن حركات الخوارج فى الموصل . انظر : سعيد الديوه جى : تاريخ الموصل ، مطبوعات المجمع العراقى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م (٦٧ ، ٧٦) .

(١٥١) مُساور بن عبد الحميد بن مساور الشارى البجلى الموصلى . كان مبدأ خروجه بالبوازيج فى الموصل سنة ٢٥٢هـ . ومنذ ذاك التاريخ قاد عددًا من ثورات الخوارج هناك ضد الخلافة العباسية حتى سنة ٢٦٣هـ (ابن الأثير : الكامل ، (١٧٤/٧ ، ٣٠٩) .

(١٥٢) ابن الأثير : نفسه ، (٢٠٥/٧) .

(١٥٣) الحديثة : بليدة كانت تقع على الجانب الشرقى لنهر دجلة قرب الزاب الأعلى، وتسمى حديثة الموصل تمييزًا لها عن حديثة الفرات . (ياقوت : معجم البلدان ، (٢٣٠/٢) . لسترنج : بلدان الخلافة ، ص١١٩) .

(١٥٤) لم تذكر المصادر التى لدينا سوى أنه كان أمير الموصل وقت استيلاء مساور الخارجى عليها سنة ٢٥٥هـ . (ابن الأثير : الكامل ، (٢٠٥/٧)

(١٥٥) ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة .

(١٥٦) نفسه .

(١٥٧) نفسه ، ص٢٠٥ ، ٢١٥ .

(١٥٨) عُبَيْدة من بنى زهير العمروى . (ابن الأثير : نفسه ، ٢٢٦/٧) .

(١٥٩) نفسه .

(١٦٠) نفسه ، ص٢٢٦ - ٢٢٧ .

(١٦١) خراسان : هو الإقليم الشرقى من بلاد فارس ، وهى حاليًا قسمة بين إيران وأفغانستان وجزء منها يتبع روسيا . (محمود شاكر : تركستان ، بيروت ، ص٢٦) .

(١٦٢) أذربيجان : هى الدولة المعروفة الأن بجمهورية أذربيجان الواقعة فى منطقة القفقاس ، عاصمتها مدينة (باكو) . (محمود شاكر : تركستان ، ص١٠٨) .

(١٦٣) نيسابور: إحدى مدن خراسان، وقد أصبحت حاضرة ذلك الإقليم بعد مدينة مرو. (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٤٢٤) .

(١٦٤) ياقوت : معجم البلدان ، (٢٢٣/٥) .

(١٦٥) هو أحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن طباطبا ، لقى مصرعه فى صعيد مصر سنة ٢٥٥هـ . (ابن الأثير : الكامل ، ٢١٧/٧) .

(١٦٦) بَرْقة : اسم ناحية كبيرة تشتمل على مدن وقرى تقع بين الإسكندرية وإفريقية. (ياقوت : معجم البلدان ، (٣٨٨/١) .

(١٦٧) الصعيد : بلاد واسعة فى مصر تشتمل على مدن عدة أهمها أسوان فى أقصى الجنوب . (ياقوت : المصدر السابق ، (٤٠٨/٣) .

(١٦٨) الأمير التركي أبو العباس أحمد بن طولون ، صاحب الديار المصرية والشامية والثغور ، كان الخليفة المعتز قد ولاه على مصر ، ثم استولى على الشام فى مدة اشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج . ولُد أحمد بسامراء سنة ٢٢٠هـ ، وتوفى فى مصر سنة ٢٧٠هـ (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٧٣/١ - ١٧٤) .

ولمزيد من التفاصيل عن الدولة الطولونية . انظر : د. محمد أحمد زيود : العلاقات بين الشام ومصر فى العهدين الطولونى والأخشيدى ، ط١ ، دمشق ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

(١٦٩) ابن الأثير : الكامل ، (٢١٧/٧) .

(١٧٠) هو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد على بن أبى طالب ويُعرف بابن الصوفى . (ابن الأثير : الكامل ، (٢٣٧/٧) .

(١٧١) إسنا : مدينة بأقصى صعيد تقع على الشاطئ الغربى لنهر النيل . (ياقوت : معجم البلدان ، (١٨٩/١) .

(١٧٣) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، (٧/٣) .

(١٧٤) ابن الأثير : الكامل ، (٢٣٩/٧) .

(١٧٥) عيسى بن الشيخ بن السليل من ولد جساس بن مرة بن ذهل الشيبانى ، عقد له الخليفة المستعين سنة٢٥٢هـ على مدينة الرملة ، ثم استولى على فلسطين كلها ، وتغلب على دمشق وأعمالها . ولكنه تنكر للخلافة واستبد بالأموال ، وحارب جيش الخلافة فى عهد المعتمد على الله ، ولما انهزم سار إلى أرمينية حيث توفى فيها سنة ٢٦٩هـ . (ابن الأثير : الكامل ، (١٧٦/٧ ، ٢٣٨ ، ٣٩٧) .

(١٧٦) ابن الأثير : نفسه ، (٢٣٨/٧) .

(١٧٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٦١/٥) .

(١٧٨) الرى مدينة تقع فى الطرف الشمالى الشرقى من إقليم الجبال ، قامت على أنقاضها مدينة طهران عاصمة إيران حاليًا . (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٢٤٩ - ٢٥٢) .

(١٧٩) الطبرى : نفسه ، (٤٤٠/٥) ؛ ابن الأثير : الكامل ، (٢٠٤/٧)

(١٨٠) الحسن بن زيد بن إسماعيل بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على أبى طالب مؤسس الدولة الزيدية فى طبرستان سنة ٢٥٠هـ ، وقدحكم حوالى عشرين سنة حتى

وفاته سنة ٢٧٠هـ ، ثم خلفه أخوه محمد بن زيد (ابن الجوزى : المنتظم ، (١٢/٣٤) ؛ ابن الأثير : الكامل ، (٧/٤٠٧) .

(١٨١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٤١) .

(١٨٢) أبو القاسم عبد الله بن الواثق ، ظهر على مسرح الحوادث السياسية فى خلافة أخيه المهتدى بالله. ولم يجلس على عرش الخلافة قط. (ابن الأثير: الكامل،(٧/٢٢١-٢٢٤).

(١٨٣) ابن الأثير : نفسه ، (٧/٢٢٣) .

(١٨٤) موسى بن بغا الكبير . ابن خالة الخليفة المتوكل . كان أحد قواد الأتراك البارزين فى الدولة العباسية منذ عهد المتوكل ، وقد سطع نجمه فى خلافة المعتمد على الله . (ابن الأثير : نفسه ، (٧/٩٨ ، ٢٩١ ، ٣٠٥) .

(١٨٥) الطبرى : تاريخ الأمم والموك ، (٥/٤٥٨) .

(١٨٦) نفسه .

(١٨٧) نفسه ، (٥/٤٦١) .

(١٨٨) نفسه ، (٥/٤٦٠) .

(١٨٩) نفسه ، (٥/٤٦٦ - ٤٦٧) .

(١٩٠) نفسه ، (٥/٤٤١) .

(١٩١) ابن الأثير : الكامل ، (٧/٢٢٨) .

(١٩٢) نفسه .

(١٩٣) ابن العمرانى ، الإنباء ص١٣٦ .

(١٩٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٦٨) ، ابن الأثير : الكامل ، (٧/٢٢٨) .

(١٩٥) الطبرى : نفسه ، (٥/٤٦٨ - ٤٦٩) .

(١٩٦) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى ، كانت ولادته سنة ١٠٠هـ ، فى إحدى قرى خراسان ، وأخذ يدعو للعباسيين سنة ١٢٩ هـ . لقى أبو مسلم مصرعه سنة ١٣٧ هـ على يد أبى جعفر المنصور بسبب خلافات حادة نشبت بينهما .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/١٤٥ - ١٥٥) .

(١٩٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك،(٤٦٩/٥)، ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٢/١١) .

(١٩٨) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، (٢٢٩/٧) .

(١٩٩) ابن الأثير : الكامل ، (٢٣٠/٧) .

(٢٠٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (٤٧٦/٥) .

(٢٠١) نفسه ، (٤٦٣/٥) .

(٢٠٢) نفسه ، (٤٨٠/٥ ، ٤٨٨) .

(٢٠٣) نفسه ، (٥٠٢/٥) .

(٢٠٤) المعتضد با لله : أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن المعتصم ، ويكنى : أبا العباس ، ولد بسامراء سنة ٢٤٣هـ ، وبويع له بالخلافة سنة ٢٧٩هـ .

(ابن الجوزى : المنتظم ، (٣٠٦/١٢) ؛ ابن الأثير : الكامل ، (٤٤٤/٧) .

(٢٠٥) الطبرى : نفسه ، (٦٠٤/٥) .

(٢٠٦) ابن الجوزى : المنتظم ، (١٠٨/١٢) .

(٢٠٧) خانقين : بلدة تقع شرق مدينة حلولاء . ويمر به حاليًا الطريق الذى يربط بين بغداد وإيران . (ياقوت : معجم البلدان ، (٣٤٠/٢) ؛ لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٨٧) .

(٢٠٨) ابن الأثير : الكامل ، (٢٤٠/٧) .

(٢٠٩) على بن زيد العلوى ، صاحب الكوفة ، قتله قائد الزنج سنة ٢٦٠هـ (الطبرى : تاريخ الأمم والملوك . (٤٩٩/٥) .

(٢١٠) الطبرى : نفسه . (٤٧٨/٥) .

(٢١١) جرجان : إقليم يقع فى جنوب شرقى بحر قزوين (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٤١٧) ، ولمزيد من المعلومات عن هذه الأحداث انظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٧٨/٥ ، ابن الأثير : الكامل ، (٢٤٨/٧) .

(٢١٢) عبد العزيز بن أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى ، كان والده أبو دلف أحد قواد المأمون ثم المعتصم . وقد عهدت الخلافة سنة ٢٥٢هـ إلى الأمير عبد العزيز بحكم بلاد الجبل، ولقى هذا مصرعه سنة ٢٦٥هـ . (ابن الأثير : الكامل ، (٧ / ١٧٦ ، ٣٢٧) : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٧٣/٤).

(٢١٣) ابن الأثير : الكامل ، (٧/ ٢٤٠ ، ٢٤٩) .

(٢١٤) أحمد بن محمد بن عبيد الله بن المدبر الضبي ، كان والى الخراج فى مصر فلما قدمها ابن طولون سنة ٢٥٤هـ كف يده عن الخراج ، وقبض عليه ، وسجنه ، ثم أمر بقتله سنة ٢٧٠هـ (ابن الأثير: نفسه،(٧/٨٧)، الذهبى: السير إعلام النبلاء، (١٣/١٢٥-١٢٦).

(٢١٥) أرمينية : ناحية واسعة تنقسم إلى قسمين : آرمينية الكبرى وعاصمتها خلاط ، والصغرى عاصمتها تفليس . أما حدود آرمينية الحديثة فيحدها من الشمال جمهورية جورجيا ، ومن الجنوب إيران ، ومن الغرب تركيا ، ومن الشرق جمهورية أذربيجان . (ياقوت الحموى: معجم البلدان ، (١/١٥٩ - ١٦٠) ؛ مروان المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ط١ ، بيروت ١٩٨٢م ، ص٥٧٥) .

(٢١٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، (٥/ ٤٧٩)، ابن الأثير: الكامل، (٧/٢٣٨).

(٢١٧) سعد أحمد بن سعد الباهلى ، ظهر فى البطائح ، وحاول أن يتغلب عليها سنة ٢٥٧هـ ، ولكن الخلافة أرسلت إليه القائد أحمد المولد ، فقبض عليه وضرب حتى مات .

ابن الأثير : نفسه ، (٧/٢٤٨) .

(٢١٨) البطائح : ناحية فى العراق تقع بين مدينتى واسط والبصرة .

ياقوت : معجم البلدان ، (١/٤٥٠) .

(٢١٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/٤٨٧) ؛ ابن الأثير : الكامل، (٧/٢٤٨).

(٢٢٠) ابن الأثير : نفسه ، (٧/ ٢٤٧ ، ٢٩٠) .

المصـــــادر والمراجــــــع

أولاً : المصـــادر :

- ابن الأثير : عز الدين على بن محمد الشيبانى (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م).
الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

- ابن تغرى بردى: جمال الدين أبى المحاسن يوسف(ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م).
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة .

- ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن على (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) .
المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، دراسة وتحقيق محمد ومصطفى عطا ، ط١ ، بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

- ابن خرداذبة : أبو القاسم عبد الله بن عبد الله(ت٣٠٠هـ / ٩١٢م) .
المسالك والممالك ، تحقيق محمد مخذوم ، ط١ ، بيروت ١٩٨٨م .

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط١ ، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م).
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ، بيروت.

- ابن دقماق : إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ) .
الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، تحقيــق محمـد كمـال الديـن ، ط١، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ،

- ابن طباطبا : محمد بن على بن الطقطقى (ت ٧٠٩هـ) .
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت .

- ابن العمرانى : محمد بن على بن محمد (ت فى حدود سنة ٥٨٠هـ)
الإنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق د. قاسم السامرائى ، ط٢، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١١٩٨م.
- ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)
المعارف ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، ط٢ ، مصر .
- ابن كثير : أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقى (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م).
البداية والنهاية ، ط٦ ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- الآجرى : أبو بكر محمد بن الحسين (ت٣٦٠هـ) .
الشريعة، تحقيق محمد حامد الفقى، ط١ ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.
- الأزدى : جمال الدين على بن ظافر (ت٦١٣هـ / ١٢٧٦م) .
أخبار الدول المنقطعة ، تاريخ الدولة العباسية ، تحقيق ودراسة د. محمد الزهرانى ، المدينة المنورة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- الأصبهانى : الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت٤٣٠هـ)
حلية الأولياء وطبقات الآصفياء ، ط٢ ، بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- البرى : محمد بن أبو بكر بن عبد الله الأنصارى التلمسانى .
الجوهرة فى نسب النبى ﷺ وأصحابه العشرة، ط١ ، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- البيهقى : إبراهيم بن محمد (ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م) .
المحاسن والمساوئ ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .
- الجاحظ : عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) .
كتاب التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن عبد الوهاب ، القاهرة ١٩٦٦م .
- الخطيب البغدادى : أبو بكر أحمد بن على (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) .
تاريخ بغداد، بيروت .

- الذهبى : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ / ١٣٧٤م) .
سير إعلام النبلاء ، ط١٠ ، بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ . العبر فى خبر من غبر ، تحقيق أبو هاجر محمد بن بسيونى ، بيروت .
- السيوطى : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ)
تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، بيروت .
- الصفدى : خليل بن أيبك (ت٦٧٤هـ).
الوافى بالوفيات، بيروت ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
- الطبرى : محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) .
تاريخ الأمم والملوك ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- الماوردى : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ) .
الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط٣ ، مصر ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م
- المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصر ١٣٤٦هـ .
- المعجم الوسيط ،مجمع اللغة بالقاهرة ، ١٩٦٠ .
- المقدسى : أبو عبد اله محمد بن أحمد (ت ٣٧٨هـ / ٩٧٨م) .
أحسن التقاسيم فىمعرفة الإقاليم ، ط٢ ، دارصادر ، بيروت ، ليدن ١٩٠٩م.
- النيسابورى : الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ) .
صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، دار إحياء الكتب العربية .
- وكيع : محمد بن خلف بن حيان (ت٣٠٦هـ / ٩١٨م) .
أخبار القضاة ، عالم الكتب ، بيروت .
- ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الملك الحموى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .
معجم الأدباء ، بيروت ، لبنان .
معجم البلدان ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

- اليعقوبى : أحمد بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) .
تاريخ اليعقوبى، بيروت ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .

ثانيـًا : المراجـع :

- أحمد زكى : جمهرة رسائل العرب ، بروت .
- أحمد على : ثورة الزنج ، مكتبة الحياة ، بيروت .
- بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية ، مصر .
- د. حسن محمود وأحمد الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ط٤ ، الكويت ١٩٨٠م .
- ستانلى لين بول : الدول الإسلامية ، ترجمة محمد صبيحى فرزات ، دمشق .
- سعيد الديوه جى : تاريخ الموصل، مطبوعات المجمع العلمى العراقى١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
- د. شوقى ضيف : تاريخ الآدب العربى ، ط٧ ، دار المعارف ، مصر .
- د. ضيف الله الزهرانى : النفقات وإدارتها فى الدولة العباسية ، ط١ ، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- عادل محى الدين الألوسى : الرأى العام فى القرن الثالث الهجرى ، ط١ ، ١٠٨٧م.
- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ترجمة د. محمد علاء الدين منصور ، القاهرة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- د. على الحميد : دراسات فى تاريخ المشرق الإسلامى ، ط١ ، الرياض ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- عمر رضا كحالة : إعلام النساء ط٣ ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- د. فتحى أبو سيف : المشرق الإسلامى بين التبعية والاستقلال ، القاهرة ١٩٧٨م .
- لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ط٢، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- د. محمد أحمد زيود : العلاقات بين الشام ومصر فى العهدين الطولونى والأخشيدى، ط١ ، دمشق ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .
- محمد شاكل : تركستان ، بيروت .
- مروان المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ط١ ، بيروت ١٩٨٢م .

العلاقة بين مغول فارس ومغول القفجاق
بعد معركة عين جالوت
١٢٦٠ - ١٢٧٠ م

أ. د. محمود سعيد عمران(*)

مات الخان الأعظم للمغول مونكو Mongka فى أغسطس عام ١٢٥٩م ، فأوقفت القوات المغولية عملياتها العسكرية فى بلاد الشام . وكان للخان الأعظم ثلاثة أخوة كبار هم قوبيلاى Kubilai وهولاكو Hulagu الذى كان يقود القوات المغولية فى بلاد الشام، وأريق بوقا Arigboga كما كان له إخوة صغار أقل أهمية. وأشارت الدلائل إلى ترشيح قوبيلاى لمنصب الخان الأعظم . وكان قوبيلاى فى تلك الأثناء يقود حملة عسكرية على حدود بلاد الصين ، فساندته القوات المغولية المرافقة له فى حملته ليكون خانا أعظم ، وبدأ يستعد للعودة إلى العاصمة المغولية حتى سيطر على الموقف داخل العاصمة(١) .

وفى ظل هذه الأحداث انقسمت الأسرة الحاكمة المغولية إلى قسمين ، أحدهما يساند قوبيلاى والآخر يساند أريق بوقا . وانتهى الأمر باختيار قوبيلاى خانا أعظم للمغول (١٢٦٠ - ١٣٩٤م) وعندئذ انسحب هولاكو ومعه قواته إلى بلاد فارس ليراقب الأحداث فى حين ترك قائده كتبغا مع باقى القوات المغولية فى بلاد الشام . وصادف ذلك مولد دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام فكان عليها أن تحمل راية الجهاد لإثبات وجودها وقوتها فى المنطقة حتى تكون جديرة بالحكم بوصفها وريثة البيت الأيوبى فى حكم مصر والشام .

وكانت بداية الاحتكاك بين المغول والمماليك عندما أرسل هولاكو سفارة إلى القاهرة فى أوائل عام ١٢٦٠ م تطلب من سلطان قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠)

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

الاستسلام والخضوع للسيادة المغولية . ولكن السلطان أمر بقتل الرسل ، ومعنى ذلك أن الحرب قائمة لا محالة بين الطرفين . وعلى ذلك استعد قطز للقتال فحشد قواته ، وانضم إليه ما تبقى من القوات الخوارزمية وعساكر المغيث عمر الأيوبى حاكم إمارة الكرك (١٢٣٩ - ١٢٦١م) حتى أصبحت القوات الإسلامية تفوق أعداد القوات المغولية التى قدرها البعض بحوالى عشرة آلاف مقاتل(٢) .

فى نهاية يوليو ١٢٦٠م اجتاز قطز وقواته الحدود المصرية ، وتولى قيادة المقدمة القائد بيبرس الذى نجح فى الانتصار على طلائع القوات المغولية التى كانت مرابطة فى نواحى مدينة غزة بقيادة القائد بيدرا Baidar . وعلى إثر هذه الهزيمة أرسل بيدرا إلى القائد المغولى كتبغا Kitbuqe المقيم فى مدينة بعلبك يخبره بالوقائع(٣) .

وكان أن نظم كتبغا قواته ، وكان مع القوات المغولية قوات كرجية و أرمينية ، وعناصر من مغول القفجاق(٤) ، كما كان يرافق كتبغا من البيت الأيوبى الملك السعيد صاحب الصبيبة ، والملك الأشرف موسى صاحب حمص(٥). ورغم هذا كله فقد كانت القوات المغولية أقل عددًا من القوات الإسلامية . وحول أعداد القوات الأرمينية فقد ذكرت أحد المصادر الأرمينية أن عدد القوات التى أرسلها الملك الأرمنى هيثوم الأول Hethim I (١٢٢٦) - ١٢٦٩ م) كانت حوالى خمسمائة(٦) .

أما عن قوات مغول القفجاق فقد ذكر ابن عبد الظاهر أن كشافة المماليك وجدوا جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى الباب الشريف لأنهم من أصحاب الملك بركة - خان مغول القفجاق - وكانوا نجدة عند هلاون أى هولاكو . فلما وقع بينهما ، أى وقع الخلاف بين بركة وهولاكو ، كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه ، وإن لم يقدروا على ذلك يتجاوزون إلى عسكر الديار المصرية ، ويذكرون أن العدواة قد استحكمت بينهما - أى بين هولاكو وبركة - وكان عددهم فوق المائتى فارس ، فكتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم ، وحمل الخلع إليهم وإلى نسائهم ، وأحسن إلى مقدميهم الأربعة(٧) .

أما كتبغا فقد تقدم من بعلبك حتى وصل إلى مدينة الناصرة ، ثم إلى عين جالوت التى وصلها يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨ / الثانى من سبتمبر ١٢٦٠م . وعند عين جالوت دارت المعركة الفاصلة بين المغول بقيادة كتبغا والمماليك بقيادة قطز ، فانكسر المغول وسقطوا بين قتلى وأسرى ، فى حين ظل كتبغا يقاتل حتى هلك فرسه ، فوقع فى أسر المسلمين ، وحمل مقيدا بالأغلال إلى السطان فأمر بقتله . كما وقع فى الأسر الملك السعيد الأيوبى وقد أمر السلطان بقتله أيضًا . أما الملك الأشرف فقد فارق العسكر المغولى وطلب الأمان من السطان فأمنه ، وأقره على ما بيده وهى مدينة حمص ومضافاتها . وتقدم قطز ودخل دمشق ظافرا(٨) .

وكان لجنكيز خان Jenghiz Khan أربعة أولاد حسب كبر السن هم جوجى Juji ، وجغتاى Jagatai ، ووأوكيتاى Ogodai ، وطولوى Tului . وفى أيام جنكيز خان كان مركز الحكومة فى العاصمة قراقورم فى إقليم منغوليا ، أما بعد وفاته فقد تم نوع من التقسيم الإدارى ، فأصبح أوكيتاى خانا بالإضافة إلى إقليم منغوليا، أما جغتاى فقد اختص بإقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية منذ عام ١٢٢٧ م، وفى سلالته التى استمرت حتى عام ١٣٧٠ م.وفيما يختص بإقليم فارس فقد تولى حكمه هولاكو بعد موت والده طولوى وذلك منذ عام ١٢٥٦(٩) .

أما جوجى فقد حكم القبيلة الذهبية الذى كان لون مخيماتها ذهبيًا فعرفت بهذا الاسم ، وقد حكم بعده ولدان هما باطو وعرفت سلالته باسم القبيلة الزرقاء، وحكمت جنوب روسيا وغرب بلاد القفجاق منذ الفتح حتى عام ١٣٨٠م ، والثانى هو أوردا Orda الذى عرفت سلالته باسم القبيلة البيضاء واستمرت حتى ١٤٨١ م ، وحكمت فى سيبريا وشرقى بلاد القفجاق .

ويعنينا فى هذا البحث مغول فارس ومغول القبيلة الزرقاء الذين أطلق عليهم مغول القفجاق . ويلاحظ أن كلمة القفجاق أطلقت على البلاد التى تقع إلى شمال

البحر الأسود والتى تعرف حاليًا باسم أوكرانيا ، وكان يعيش فيها فى تلك الحقبة وما قبلها عناصر البشناق Pechenegs ثم عناصر الكومان Cumans(١٠) ، وهى الأراضى التى وردت فى المصادر العربية والفارسية باسم القفجاق ، وقد أتخذ هؤلاء من مدينة سراى Sarai على نهر الفولجا عاصمة لهم (١١) .

أما مغول فارس فقد تولى هولاكو حكم بلاد فارس وأذربيجان وجزء من غربى بحر قزوين وأتخذ من مدينة شيراز عاصمة له عام ١٢٥٦م وحتى عام ١٢٦٥ ، وخلفه ابنه أباقا أو أبغا ١٢٦٥ - ١٢٨٢ م ، ثم تكوادار ١٢٨٤ - ١٢٨٤ م ، وأرغون ١٢٨٤ - ١٢٩١م .

أما عن مغول القفجاق فكانوا تحت حكم بركة بن جوجى منذ عام ١٢٥٧م أى قبل معركة عين جالوت وحتى عام ١٢٦٧م ، ثم حكمها منكو تيمور ١٢٦٧ - ١٢٨٠م ، وتلاه تودا منكو ١٢٨٠ - ١٢٧٨ ، وغياث الدين ١٢٩٠- ١٣١٢ م .

وإذا كان البحث يتركز على علاقة مغول فارس بمغول القفجاق بعد معركة عين جالوت ، فلتكن البداية عن العلاقة بين الخان هولاكو والخان بركة . والواقع أن توسعات هولاكو عند حدود بلاد القفجاق كانت السبب فى العداوة بين الطرفين، فقد أورد العينى إن هولاكو طمع لظروف عائلية فى التوسع فى بلاد القفجاق ، لذلك تجهز بجيشه وسار فى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥ م بعد جلوس بركه على سرير الملك ، وعندما علم بركة بذلك سار إليه بعساكره وهزمه ، وكان بينهما نهر " ترك " ، وقد جمد ماؤه لشدة البرد ، فعبر هولاكو وعساكره متخطيًا إلى بلاد بركة . وانتهى الأمر بهزيمة هولاكو وعسكره " فولوا على أدبارهم وتكردسوا فى النهر الجامد ، فانفقأ الجمد من تحتهم فغرق منهم جماعة كثيرة ، وأفلت من نجا منهم من المصاف والغرق صحبه هولاكو راجعين إلى بلادهم ، وصارت العداوة بين الطائفتين متمكنة " ، وقد لعب القائد المغولى نوغاى Nogay

الـذى أسمـاه العينى نَوغَيْـة دورًا كبـيرًا فـى هـــذه المعركــة التــى أدت إلى هزيمــة هولاكو(١٢) .

ويذكر أبو المحاسن أن الخان بركة كان يميل إلى المسلمين ميلاً زائـدًا ويعظـم أهل العلم ويقصد الصلحاء ويتبرك بهـم . ووقـع بينـه وبـين ابـن عمـه هولاكـو ، وقاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله وغيره من المسلمين(١٣) . وهكذا نشبت الحرب بين الطرفين منذ ذلك الحين ، وصارت العداوة بـين الطرفـين مورثـة(١٤) . وإذا كان العداء بين الطرفين قد ظهر قبل معركة عين جالوت بخمس سنوات فإنهـا لم تتفاقم إلا بعد موت الخان الأعظم مونكو وإنقسام الامبراطورية المغولية إلى وحـدات سياسية ، وهذا لم يتضح إلا بعد معركة عين جالوت .

وكان الخان بركة يميل إلى الإسلام والمسـلمين فـإعتنق الإسـلام فـى مرحلـة لاحقة ، وهى نقطة فى غاية الأهمية فى تاريخ العلاقات بـين الخـان بركـة والخـان هولاكو . ومسألة تحديد الزمن الذى اعتنق فيه الخان بركـة الإسـلام أمـر يصعـب تحديده بدقة ، ولكن الباحث سيحاول الوصـول إلى تـاريخ معقـول ومقبـول ، إذ يرى البعض أنه تحول للإسلام قبل اجتياح المغول لمدينة بغـداد فـى عـام ١٢٥٩م ، وأنه اعترض على التخريب الوحشى الذى ألحقه المغول بالمدينـة(١٥) ، ثـم تصـاعد الخلاف بين الطرفين بعد معركة عين جالوت ، وهو الأمر الذى دفـع الخـان بركـة إلى سحب قواته التى كانت تحارب إلى جانب قوات هولاكو فى بلاد الشام(١٦).

وحول الزمان الذى أسلم فيه الخـــان بركـة فقـد سبق أن ذكرنـا أن جماعـة كبيرة من التتار مستأمنيين وفدوا إلى الباب الشريف ، أى سـلطنة الممـاليك لأنهـم من أصحاب الخان بركة ، وكانوا بجده ، فلما وقع بينهمـا كتـب إليهـم بـالحضور ويعتبر طلب الخان بركة من عساكره الدخول إلى الديار المصرية أمرًا له دلالته . إذ لا يعقل أن يطلب الخان بركة من عساكره ذلك إلا إذا كانت العلاقات طيبـة بـين السلطان بيبرس والخان بركة . وحول إسلام الخان بركة ذكر العينى أنه أسلم على

يد أحد تلامذه الشيخ الباخرزى الذى إتخذ من بخارى مقرًا له ، وقد أورد ذلك فى عام ٦٥٢ هـ/١٢٥٤م ، وقال أيضًا إنه عندما ملك الخان بركة البلاد " أسلم وحسن إسلامه "(١٧) .

ولعل فى ذلك إشارات واضحة إلى إسلام الخان بركة ، ولكن إعلام الظاهر بيبرس بإسلام الخان بركة جاء بعد ذلك . فقد ذكر العينى أنه فى عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م وصلت رسل بركة خان مخبرين بإسلامه وعلى أيديهم كتاب منه يتضمن ذكر من أسلم أيضًا من بيوت التتار(١٨) .وعلى ذلك يمكن القول أن إسلام الخان بركة كان قبل عام ١٢٦٢م ، وأن السلطان بيبرس قد تلقاه بصورة رسمية فى عام ١٢٦٢ م .

وحول العلاقات بين مغول فارس ومغول القفجاق يهمنا فى هذه الصفحات التعرض للطرق التى تربط بين الطرفين . ومن المعروف أنه لا يوجد طريق بين الدولتين إلا طريق بحر قزوين . وليس لدى المغول قوة بحرية فى تلك المرحلة . أما الطريق البرى فيمر من بلاد فارس إلى أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) وآسيا الصغرى حيث دولة سلاجقة الروم ، وأخيرًا الامبراطورية البيزنطية التى قامت فى المنفى وإتخذت من مدينة نيقية عاصمة لها ، والدولة اللاتينية التى أقامها الصليبيون فى القسطنطينية على أنقاض الامبراطورية البيزنطية .

وفيما يتعلق بدولتى أرمينية والكرج فقد خضعتا للخان هولاكو ، واشتركت قوات الدولتين فى معارك المغول ضد المسلمين ، فى معركة عين جالوت وغيرها من المعارك ، خاصة التى دارت فى أعالى بلاد الشام والفرات. كذلك كانت دولة سلاجقة الروم فى طاعة هولاكو . ويذكر ابن العبرى أن هولاكو أرسل قبل معركة عين جالوت فى طلب السلطان عز الدين وأخيه ركن الدين ليذهبا إلى خدمته فأطاعاه . وطلب من الأخوين بأن يتولى عزالدين من مدينة قيصرية فى آسيا الصغرى إلى تخوم أرمينية ، وركن الدين من

مدينة أقسرا حتى ساحل البحر بحدود الامبراطورية البيزنطية .. وعاد الأخوان مسرورين وأتخذ ركن الدين مدينة سبسطية عاصمة له ، وأقام عز الدين فى قونية ، ووضع هولاكو قوات مغولية لترابط فى أراضى سلاجقة الروم(١٩) .

وعلى هذه الصورة لم يتبق فى آسيا الصغرى خارج سلطان هولاكو سوى الامبراطورية البيزنطية فى نيقية ، وعلى الطرف الآخر القسطنطنية حيث كان اللاتين يحكمون بقية الأراضى البيزنطية بعد ما سقطت فى أيديهم منذ عام ١٢٠٤م على أيدى قوات الحملة الصليبية الرابعة .

* * *

وقد استفاد الظاهر بيبرس من الخلافات التى وقعت بين مغول فارس ومغول القفجاق ، حتى أنه يمكن القول بأن فكرة التقارب بين مغول القفجاق ودولة المماليك ظهرت فى تلك المرحلة . ولكن مثل هذا التقارب لم يكن وضعه على أرض الواقع بين الطرفين لأن الطريق البرى بين بلاد الشام ومغول القفجاق تقطعه الدول المتحالفة مع مغول فارس . هذا إلى أن الطريق البحرى عبر بحر مرمرة كان يتحكم فيه اللاتين الذين يحكمون فى القسطنطينة . ولكن الظروف هى التى خدمت هذه القضية ، ففى عام ١٢٦١ م نجح الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaiologos (١٢٥٨ - ١٢٨٢م) فى القضاء على امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الحاجز البحرى الوحيد بين دولة القفجاق ودولة المماليك هو بحر مرمرة الذى يقع تحت سلطان الامبراطورية البيزنطية .

والواقع أن العلاقات بين الظاهر بيبرس والامبراطور ميخائيل أصبحت طيبة منذ عام ٦٦٠هـ - ١٢٦١م على الأقل . وهناك العديد من الأمثلة على حسن العلاقة بين الطرفين ، ومن ذلك أنه فى عام ١٢٦١م وصلت كتب الامبراطور ميخائيل " وهو يقسم أنه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة ، ساعدت بكل ما تقدر سلطنتى عليه " . وقد رد السلطان عليه وأرسل إليه هدية " منها الزرافات وجماعة من التتار الأسارى بخيولهم التترية وعدتهم "(٢٠) .

ويتضح من النصوص أن هذه الأحداث وقعت قبل إنتقال الامبراطور من مدينة نيقية إلى القسطنطينية ، فقد ذكرت المصادر أن الأمير فارس الدين أقوش المسعودى كان قد توجه رسولاً إلى الامبراطور ميخائيل الذى طلب من السلطان بيبرس أن يرسل إليه بطرقا للنصارى الملكانيين ، فعين السلطان الرشيد الكحال لذلك ، وأرسله فى صحبة الأمير فارس الدين ١٢٦٠م . فأكرمه الامبراطور وأكرم من فى صحبته من الأساقفة . وتصادف وصول هذه الجماعة من قبل السلطان بيبرس مع فتح الامبراطور للقسطنطينية ، واصطحب الامبراطور السفارة المصرية لمشاهدة المدينة ، ثم عبروا على مكان به مسجد يبدو أنه مسجد أبو أيوب الأنصارى - فأبقى الامبراطور عليه ليكون ثوابه للسلطان(٢١) . وهكذا غدا الطريق مفتوحًا أمام حسن العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق ، مما جعل إقامة تحالف بين الدولتين أمرًا يسهل تحقيقه .

والواقع أن الرسل والمراسلات نشطت بين الطرفين . وهناك العديد من الأمثلة على ذلك(٢٢) . والذى يعنينا فى هذا البحث هو ما سجل عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م عن وصول رسل من الامبراطور البيزنطى ، ورسل سلطان سلاجقة الروم ، ورسل الخان بركة إلى أبواب سلطنة المماليك . وهذا كله يؤكد حسن علاقة الظاهر بيبرس بهذه الدول وحكامها ، وما ترتب عليها من آثار فى العلاقات بين مغول فارس ومغول القفجاق .

وسوف نركز فى هذه السطور على الكتب التى أرسلها الخان بركه إلى السلطان ، وقد ورد بها " السلام والشكر وطلب الأنجاد على هلاون " هولاكو " والإعلام بما هو عليه من مخالفة شنكرخان " جنكيز خان " وشريعة أهله ، وأن كل ما فعله من اتلاف النفوس بطريق العدوان منه ، وأننى قد قمت أنا وأخوتى الأربعة قربة من سائر الجهات لإقامة منارة الإسلام وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت علبه من العمارة ، وذكر الله والآذان والقراءة والصلاة ، وأخذ ثأر الأئمة والأمة".

ثم التمس الخان بركه من السلطان بيبرس " إنفاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك الطريق على هلاون ، ويوصى على السلطان عز الدين [سلطان سلاجقة الروم] ويستمد مساعدته "(٢٣) .

ويتضح مما سبق عدة أمور أهمها ، أن الحرب كانت قائمة بين مغول فارس ومغول القفجاق ، وأن هناك ترابط وتفاهم واتفاق تام بين زعماء مغول القفجاق المسلمين لمحاربة هولاكو فى جميع الجبهات لرفع راية الإسلام . والأمر الثانى هو طلب الخان بركه إقامة تحالف عسكرى بين المماليك فى مصر والشام ومغول القفجان يتم بموجبه قيام الجيش المملوكى بقطع الطريق على قوات مغول فارس فى جهة الفرات ، وهو الطريق الذى يتقدمون منه لمهاجمة مغول القفجاق . والأمر الثالث هو قيام السلطان بيبرس بالتوسط بين الخان بركه وبين عز الدين الذى يحكم بلاد سلاجقة الروم مع أخيه ركن الدين(٢٤) ، لأن دولة سلاجقة الروم كانت خاضعة للخان هولاكو وبها حاميات من مغول فارس(٢٥) ، وإذا ما أنضم سلاجقة الروم إلى جانب الخان بركه ضد هولاكو يكون ذلك فى مصلحة دولة مغول القفجاق ودولة المماليك جميعًا .

وكان أن أكرم السلطان بيبرس سفراء الخان بركه ، وأعادهم ومعهم رسل من قبله محملين بالهدايا . يضاف إلى ذلك أن بيبرس طلب أن يُدعى للخان بركه بعد الدعاء له فى مساجد مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقدس الشريف . وأرسل السلطان عُمرة إلى مكة نيابة عن الخان بركه(٢٦) . وعلى أية حال ، فالعداء بين بيبرس وهولاكو قائم ، والعداء بين الخان بركه وهولاكو قائم ، كما أن الظاهر بيبرس يرجع أصله إلى بلاد القفجاق وهى بلاد الخان بركه(٢٧) .

ولم يلبث الحلف الذى تم بين بركه والظاهر بيبرس إن دخل حيز التنفيذ ، ففى جمادى الأولى من عام ٦٦٢هـ / مارس ١٢٦٤م وصل إلى السلطان بيبرس فى مصر جماعة من عربان خفاجه ، وذكروا أنهم يغيرون على التتار ، وإن غاراتهم تصل إلى أبواب بغداد والبصرة ، كما أخبروا السلطان بأخبار مدينة شيراز، وقد أكرمهم السلطان وأنعم عليهم(٢٨) .

كذلك اهتم السلطان بيبرس بمعابر الفرات التى تؤدى إلى بلاد الشام ، فطلب من نائب حلب أن يتوجه إلى هذه المناطق حيث نهر الساجور ، ويقيم بمن معه من عسكر حلب ويحفظ معابر الفرات لئلا يعبرها أحد من التتار قاصدًا الشام(٢٩) .

واستهدفت سياسة بيبرس تدمير المناطق إلى يلجأ إليها مغول فارس إذا ما قدموا إلى حلب سواء للإغارة أو لشق طريقهم إلى بلاد القفجاق . من ذلك أنه كتب إلى النواب بحلب بإحراق الأعشاب ، كما سير جماعة إلى مدينة آمد ومواضع الأعشاب التى اعتادت قوات مغول فارس نزولها إذا ما وصلوا إلى حلب، وقد تم إحراق هذه الأعشاب لمسافة مسيرة عشرة أيام إلى أن صارت رمادًا ، وتم ذلك أيضًا فى أعشاب مدينة خلاط(٣٠) .

ومن ناحية أخرى فإن الحرب بين بركة وهولاكو لم تتوقف كما تطالعنا النصوص ، فقد ورد أن قوات بركه انتصرت على قوات هولاكو عدة مرات فى البر والبحر(٣١) . ولعل المقصود هنا بكلمة البحر نهر الفرات . وقد أدى ذلك إلى توقف التجارة فى تلك المناطق وتعرض العديد من التجار للنهب والقتل . وكان فى ذلك فرصة طيبة لدولة المماليك التى تسيطر على مياه شرق البحر المتوسط(٣٤) . ويتضح من ذلك أن تحالف الخان بركه مع الظاهر بيبرس ضد هولاكو قد نجح تمامًا ، وأن الخان بركه كان بعيد النظر عندما تحالف مع الدولة المملوكية ، هذا التحالف الذى عاد على المماليك ومغول القفجاق بفوائد كثيرة .

وفى تلك الأثناء ، ظل السلطان الظاهر بيبرس يراقب حركات مغول فارس " محترزًا من مكائدهم ، أخذا بالحزم فى أمورهم ، وقصاده لا تنقطع من بغداد وخلاط وغيرهما من بلاد الشرق ... " وكان يبعث بالكشافة – أى الجواسيس – لاستطلاع أمورهم" وأمسك من وسط التتار ناسًا أخذ الأخبار منهم..."(٣٢).

أما عن العلاقات بين الخان بركة والظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل فقد ظلت طيبة ، ولكن صفو العلاقات بين الخان والإمبراطور تعكر لبعض الوقت، وذلك بسبب اعتداء قوات مغول القفجاق على الأرضي البيزنطية . وقد أدى ذلك إلى منع الإمبراطور لرسل الظاهر بيبرس من التوجه إلى بلاد القفجاق مما أثار غضب الظاهر بيبرس ، واعتبر أن الإمبراطور قد نكث بوعوده ، " فأخرج أيمان الأشكرى (الإمبراطور ميخائيل) وقال قد نكث بإمساك رسلى ومال إلى جهة هولاكو " ، وأرسل بيبرس إلى الإمبراطور يقول : " إن كان إمساك رسلى فساد حالك مع الملك بركة ، وكون عساكره أفسدت فى بلادك ، فأنا أصلح الحال بينك وبينه ، كما كتب إلى خان بركة بذلك أيضًا "(٣٣) .

ويبدو أن السبب الرئيسى لتوتر العلاقات بين الخان والإمبراطور يرجع إلى التقارب الذى تم بين الإمبراطور وهولاكو ، فقد رأى الأخير أن التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية فى غاية الأهمية لضرب مغول القفجاق وإيجاد نوع من التوازن السياسى والعسكرى فى آسيا الصغرى . لذلك أرسل هولاكو إلى الإمبراطور يطالب بزوجة له بعد موت زوجته النسطورية طقز خاتون(٣٤) . وقد وافق الإمبراطور على طلبه وشرع فى إرسال ابنة غير شرعية له هى ماريا Marie ، وقبل أن تصل ماريا إلى بلاط المغول فى فارس مات هولاكو، فتزوجت من ابنه أبغا (١٢٦٥ - ١٢٨١م) ، وعرفت فى البلاط المغولى باسم دسبينا خاتون Despina Khatun . وقد وجد المسيحيون فيها حامية جديدة للمسيحية بعد رحيل طقز خاتون ، وأجلها المسيحيون والمغول لما اشتهرت به من حب الخير والحكمة(٣٥) .

وفى تلك الأثناء وصل رسل الظاهر بيبرس الذين أوفدهم للتوسط فى الصلح بين الخان بركة والإمبراطور ، إلى العاصمة البيزنطية ، وعادوا ومعهم كتاب من الإمبراطور يتضمن رجوعه عن رأيه فى معاداة مغول القفجاق ، وأنه

أقسم على ذلك . ويضيف الإمبراطور أن سبب تأخره فى الرد على السلطان هو وفاة الخان بركه . كما طلب استمرار الصلح مع الظاهر بيبرس ، وسأله أيضًا الدخول فى الصلح مع أبغا بن هولاكو ، بعد أن أقر الصلح مع بيت بركه . وقد رد الظاهر بيبرس على الإمبراطور بالموافقة على طلب الصلح ، عدا الصلح مع أبغا وقال : "وأما أبغا فماله إلا السيف ، وهو مطلوب منا بثأر المسلمين"(٣٦) .

ويرى البعض أن من أسباب التوتر بين هولاكو والإمبراطور والخان بركه ، ما حدث عام ١٢٦٢م ، ففى أواخر صيف هذا العام تأهب عز الدين سلطان قونيه للقدوم لخدمة هولاكو لأن السفراء كان يلحون عليه فى ذلك . ولما ضرب عز الدين خيامه خارج مدينة قونيه استعدادًا للرحيل جاء من يخبره أن أخاه ركن الدين والقائد المغولى فى تلك النواحى سوف يقيدونه بالسلاسل ويذهبا به إلى ملك الملوك هولاكو . ولما سمع عز الدين خاف وترك خيامه وأخذ أهل بيته واتجه إلى الإمبراطور ميخائيل(٣٧) . ويضيف آخرون أن السبب الرئيسى يرجع إلى أن عز الدين سلطان قونيه الذى أقامه هولاكو أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يذكر فيها أنه تنازل له عن نصف بلاده . وقد وافق الظاهر بيبرس وشرع فى تجهيز نجدة للسلطان عز الدين . ثم وصل كتاب آخر من عز الدين إلى الظاهر بيبرس يخبره فيه أن قوات هولاكو علمت بما تم الاتفاق عليه بينه وبين سلطان مصر ، فخاف وولى هاربًا(٣٨) .

وإزاء هذا التوتر الذى ساد آسيا الصغرى وأعالى الشام وبلاد القفجاق لم يكن أمام الإمبراطور البيزنطى وهو الدبلوماسى البارع إلا التصرف بسرعة للحفاظ على عرش الإمبراطورية الذى استعاده بقوة السلاح وسط محيط هائل من العداء شمل كل دول المنطقة التى تمتد من بلاد فارس شرقًا حتى أوربا غربًا . لذلك بدأ الإمبراطور فى تغيير سياسته وعمل على مزيد من التقارب مع مغول القفجاق وعرض زواج إبنته من الأمير نوغاى Nogai الوزير الأول فى دولة مغول القفجاق وقائد قواتها(٣٩) .

ومما لا شك فيه أن هذا التصرف أغضب هولاكو علاوة على غضبه من إيواء الإمبراطور للسلطان عز الدين . ويبدو أن الإمبراطور أراد إرضاء الخان هولاكو فعرض عليه الزواج من إحدى بناته فوافق هولاكو على ذلك ، ومن الواضح أيضًا أن السلطان عز الدين خاف من غدر الإمبراطور به فأرسل إلى الخان بركه يخبره سرًا بذلك ، فعرض الخان بركه استضافته فسافر عز الدين متخفيا إليه(٤٠) ، وقد منحه حكم منطقة القرم(٤١) .

والحقيقة أن الإمبراطورية البيزنطية كانت فى وضع حرج للغاية منذ استعادة الإمبراطور ميخائيل لعرش الإمبراطورية . ذلك أنه ظهرت فى غرب أوربا حركة لاستعادة الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وساند هذه الفكرة البابا أوربان الرابع Urban (١٢٦١ - ١٢٦٤م) الذى وعد فى عام ١٢٦٢م بتقديم عرش صقلية وجنوب إيطاليا إلى شارل أف أنجو Charles of Anjou (١٢٦٦-١٢٨٥م) أخ الملك لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٠م) . وقد ناصب شارل الإمبراطورية البيزنطية العداء لإرضاء البابوية التى أخذت تطالب الإمبراطور ميخائيل بتنفيذ وعده وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية(٤٢) .

وفى الوقت نفسه كان هولاكو يسعى للتحالف مع الغرب الأوربى لضرب دولة المماليك واستعادة القدس ، وفى هذا ما يزعج الظاهر بيبرس . وكان بيبرس يعلم أن البيزنطيين ليس لديهم رغبة فى إتمام مثل هذا التحالف الذى سيعرضهم للخطر .كما أن الغرب الأوربى نادى بحملة صليبية فى عامى ١٢٦٣ - ١٢٦٤م ضد مغول القفجاق لقيامهم بغزو بولندا . وكان الأرمن والمسيحيون النساطرة يرون أن المغول هم إرادة الله لتدمير القوى الإسلامية ، وقد قام النساطرة الذين كانوا فى دولة مغول فارس بجهود جبارة من أجل إتمام هذا التحالف(٤٣) .

وفى حوالى عام ١٢٦٣م أرسل هولاكو أول سفارة إلى البابا ، وكانت هذه السفارة بداية لسلسلة من الاتصالات الدبلوماسية المتبادلة بين خانات فارس

والغرب الأوربى استمرت حوالى أربعين عامًا حتى دخل مغول فارس فى الديانة الإسلامية(٤٤) .

ومما لا شك فيه أن أنباء تقارب الغرب الأوربى مع هولاكو أزعج منطقة الشرق الأدنى الإسلامى ، خاصة أن المغول اقترحوا هجومًا مغوليا على مصر ، وأنهم سوف يقدمون القدس للصليبيين ، هذا إلى أن تقدم القوات الصليبية كان فيه إزعاج كبير للإمبراطورية البيزنطية التى باتت تخشى على نفسها تكرار الحملة الصليبية الرابعة . ومع موت الخان هولاكو فى عام ١٢٦٥م ، والخان بركه فى العام التالى ١٢٦٦م ، ظهر شبه تحالف بين مغول القفجاق ودولة المماليك والإمبراطورية البيزنطية من جانب ضد خانات فارس والإمارات الصليبية والغرب الأوربى من جانب الآخر ، رغم التصاهر الذى تم بين الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن وبين أبغا خان مغول فارس .

أما عن التحالف الثلاثى فقد استهدف شق صفوف الغرب الغرب الأوربى بعامة وبين جنوة والبندقية بخاصة ، حتى لا يدخل التحالف بين أوربا وبين مغول فارس حيز التنفيذ ، لأن هذا التحالف سوف يدخل منطقة الشرق الأدنى فى صراع يعود بالضرر على الأطراف كلها . وخطط ميخائيل باليولوج لضرب الترابط الأوربى رغم أنه كان واهيًا ، عن طريق بذر الشقاق بين جنوة والبندقية ، فى ضوء ما كان بينهما من صراع قديم ومتكرر ، خاصة أن هذا الصراع قد تجدد فى عام ١٢٦٥م فى مدينة عكا الصليبية ، وهى الحرب المعروفة باسم حرب القديس سابا Saint sabas وقد استمرت هذه الحرب لأكثر من خمس سنوات هزم خلالها الجنوية فى معركة بحرية عام ١٢٥٨م ، ولم يتم الصلح بينهما رغم توسط البابوية حتى عام ١٢٦١م(٤٥) .

وقد استغل الإمبراطور هذه الفرصة ، ووجد أن البندقية تعتبر دعامة قوية للصليبيين ، وأنها هى التى قادت الحملة الصليبية الرابعة وأسقطت الإمبراطورية ،

لذلك بدأ فى التقرب إلى دولة جنوة المنافسة الأولى لدولة البندقية ، وعقد معها معاهدة فى الثالث عشر من مارس ١٢٦١م عرفت باسم معاهدة نيمفايون Nymphaion نسبة إلي المنتجع الذى كان الإمبراطور يقضى فيه فصل الشتاء . وبموجب هذه المعاهدة تم التحالف بين جنوة وبيزنطة ضد البندقية ، ووضعت جنوة خمسين سفينة تحت تصرف الإمبراطورية لمقاومة سفن البندقية ، كما منحت جنوة كل الامتيازات التجارية التى كانت ممنوحة للبنادقة من قبل ، وأصبح للتجار الجنويين حق التجارة المعفاة من الضرائب فى كل موانئ الإمبراطورية وفى البحر الأسود أيضًا . وقد تعاملت جنوة بالذات فى تجارة الرقيق والسلع الأخرى مع مصر ومغول القفجاق(٤٦) .

ورغم المتاعب اللاحقة لهذه الاتفاقية بين البنادقة والإمبراطور ميخائيل الذى أتهم البنادقة بالتآمر عليه مع ما نفرد Manfred ملك صقلية وجنوب إيطاليا ١٢٥٨- ١٢٦٦م ، فإن سفن الجنويين عززت وجودها فى البحر الأسود . وسارت هذه السفن بصفة دائمة عبر مضيقى البسفور والدردنيل لتصل إلى موانى الشام ومصر . ومن خلال هذا الاتصال فإن ثروة مغول القفجاق ازدهرت رغم محاصرة مغول فارس للطريق البرى . ويتضح من ذلك أن هذا الاتصال التجارى لم يكن يتم طالما بقيت القسطنطينية فى أيدى اللاتين(٤٧) .

ولم يسلم مغول فارس من تهديد أعدائهم المنافسين ، فقد استمرت الحرب بين مغول فارس ومغول القفجاق بعد موت هولاكو عام١٢٦٥م والخان بركه عام ١٢٦٦م . ورغم أن مغول فارس نجحوا فى الحفاظ على أراضيهم إلا أنهم لم يتمكنوا من التوسع بعد ذلك فى جهة الغرب بعامة ، كما أنهم فشلوا تمامًا فى السيطرة على بلاد الشام بخاصة .

والواقع أن مغول فارس كانوا يحاربون على جبهتين ، جبهة مغول القفجاق وجبهة بلاد الشام . وكان خانات مغول فارس يأملون فى التحالف مع الغرب

الأوربى ولذا وأطلقوا العديد من السفارات إلى البابوية وإلى حكام أوربا من أجل إقامة هذا التحالف . ولكن أوربا التى كانت متمثلة فى إنجلترا وفرنسا بعد ضعف الإمبراطورية الرومانية المقدسة بوفاة الإمبراطور فريدريك الثانى Fredrick II عام ١٢٥٠م كانت تهتم بمشاكلها الداخلية أكثر من الاهتمام أكثر بالقضية الصليبية والتحالف مع المغول . هذا إلى أن أوربا لم تنس هجوم المغول الوحشى عليها وكانت تخاف من تقدم المغول مرة أخرى . يضاف إلى ذلك أن أوربا سبق إن توهمت أن مغول فارس سوف يتحولون إلى الديانة المسيحية ولكن هذا لم يحدث .

ومن جانب آخر تطلع شارل أف أنجو إلى قيادة حملة صليبية ضد القسطنطينية وإسقاط الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى . لذلك لم يكن لدى شارل النية فى الصراع مع الظاهر بيبرس أو مهاجمة أملاكه فى مصر أو الشام . ويرى البعض أن شارل أقنع أخاه الملك لويس التاسع بأن يتوجه بحملته الصليبية إلى تونس فى عام ١٢٧٠م ، وليس إلى مصر كما حدث فى عام ١٢٥٠م .

وكان للإمبراطور ميخائيل باليولوج أهمية عظمى فى الصراع الذى دار بين مغول فارس ومغول الفجاق ، فقد كان كل ما يعنيه هو استمراره على عرش الإمبراطورية ، كما إن الإمبراطورية لم تنس ما فعله الغرب الأوربى عندما أسقطوا الإمبراطورية عام ١٢٠٤م ، ولذا فإنه كان عدوا لدودا للغرب الأوربى ، وكان ذلك كافيا للظاهر بيبرس ، كما أن تحالف الإمبراطور مع مغول القفجاق كان سندا قويا له .

وحقيقة الأمر أن مغول فارس كان بوسعهم الانتقام لهزيمتهم فى معركة عين جالوت والانتصار على دولة المماليك الناشئة فى مصر ، وذلك إذا كانت دولة المغول قد استمرت موحدة ، وإذا كانت الحكومة اللاتينية قد استمرت مسيطرة على القسطنطينية . ولكن طرد الإمبراطور اللاتينى بلدوين الثانى Baldwin II عام

١٢٦١م سهل كثيرًا من مهمة السلطان بيبرس فى الدفاع عن الشام ومصر ضد مغول فارس .

* * *

وفى ختام هذا البحث يود الباحث أن يؤكد حقيقة تاريخيه ، وهى إن المعارك لا تقاس بوقائعها وإنما تقاس بنتائجها . لقد كانت معركة عين جالوت صغيرة فى أحداثها ولكنها كبيرة فى نتائجها على إمبراطورية المغول بعامة وخانات مغول فارس ومغول القفجاق بخاصة ، وعلى دولة الكرج وأرمينية وسلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية ، ثم على الدولة المملوكية وعلى شمال أفريقية حيث قامت الدولة الحفصية فى تونس . وتطالعنا المصادر الأراجونية بأن السفارات تبودلت بين مغول فارس والملك جيمس الثانى James II ملك أراجون (١٢١٣ - ١٢٧٦م) وأن أسطول أرغوان أبحر إلى الشرق فى ما يشبه حمله صليبية للتحالف مع المغول ومحاربة المسلمين(٤٨) .

وهكذا يبدو فى ضوء النصوص أن معركة عين جالوت كانت لها نتائج على دول حوض البحر المتوسط بأكمله ، بل أنها ربما تجاوزت ذلك إلى عمق أوربا الشرقية والغربية .

الهـوامش

(١) الهمذانى ، رشيد الدين : جامع التواريخ - دار النهضة العربية - لبنان - ١٩٨٣، ص ١٥٠ - ١٥٢ .

(٢) ابن العبرى : تاريخ الزمان - دار المشرق - بيروت - ١٩٨٦ - ص٣١٦ .

(٣) أبـو الفـدا : المختصـر فـى تـاريخ البشـر - ٤أجـزاء - بـيروت (د.ت) جــ٣ ، ص٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٣٧ .

(٥) أبو الفدا : المصدر السابق - جـ٣ ، ص٢٠٥ .

(6) Sambat, La Chronique, Paris 1980, p.106.

(٧) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٣٧.

(٨) أبو الفدا : المصدر السابق - جـ٣ - ص٢٠٥ ، ابـن العـبرى : المصـدر السـابق ، ص٣١٧ ، ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص٦٦ .

(٩) الهمذانى : المصدر السابق - ص١٦ ، ٩٦ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ٢٥٢.

(10) John Kinamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, New York. 1976, p.65, Marco Polo, The Travels, Penguin, p.335 .

(١١) قسطنطين برونيروجنيتوس . إدارة الإمبراطورية البيزنطيـة ، ترجمـة محمـود سـعيد عمران - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨٠ ، ص٥٣ - ٥٥ .

أبو الفدا : المصدر السابق - جـ٣ ، ص١٢٨ ، العينى : عقد الجمان - دولـة سـلاطين المماليك ، ص٧٦ - ابن سباط ، تاريخ ابـن سـباط - طرابلـس ١٩٩٣ - جــ٢ ، ص٢٧٦ ، ٥٨٥ .

الهمذانى : المصدر السابق ، ص٢٨ ، ٣٢ .

(١٢) العينى : المصدر السابق - ص١٠٨ - ١٠٩ .

(١٣) أبو الحسن : المصدر السابق - جـ٢ - ص٢٢٢ .

(١٤) الهمذانى : المصدر السابق - ص١٢٥ ، بيروت المنصورى : التحفة المملوكيـة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٧ - ص٣٦ .

(١٥) أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٩٢ - ١٩٣ .

(١٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٣٧ .

(١٧) العينى : المصدر السابق - ص٩٠ - ٩١ .

(١٨) العينى : المصدر السابق ص٣٦٠ .

(١٩) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣١٥ - ٣٢٥ .

(٢٠) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص٨٨ .

(٢١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٢٩ .

(٢٢) أبو المحاسن : المصدر السابق - جـ٧ -ص٢٢٢ .

(٢٣) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٧٠ - ١٧١ .

(٢٤) أبو المحاسن : المصادر السابق - جـ٧ - ص٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢٥) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٩٢ .

(٢٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٧٤ .

(٢٧) أبو المحاسن : المصدر السابق - جـ ٧ - ص٩٤ .

(٢٨) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٩٤ .

(٢٩) أبو المحاسن : المصدر السابق - ص١٩٤ .

(٣٠) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٣٦ .

(٣١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٤٩ .

(32) Sanuders, Muslim and Mongols, Canterbury 1977, p.73.

(٣٣) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٩٥ - ١٩٦ .

(٣٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣٥) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣١٤ - ٣١٥ - محمود سعيد عمران - المغول وأوربا - دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦ - ص٦٥ .

(٣٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣٧) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣٢٢ .

(٣٨) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٢٥ - ١٢٨ .

(39) Saunders, op. cit., p.73 .

(٤٠) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣٢٤ .

(٤١) الهمذانى : المصدر السابق - ص٢٠٠ .

(42) Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge, 1958, pp. 68-9, 138-40

(٤٣) محمود سعيد عمران : المرجع السابق - ص٢٣٠ وما بعدها .

(٤٤) محمود سعيد عمران : المرجع السابق - ص٢٥٥ وما بعدها .

(45) Saunders, op. cit., p. 74 .

(46) Nicol, Donald. The last Centuries of Byzantium 1261 - 1453, London 1972, p.38 .

(47) Saunders, op. cit., pp. 74 - 5 .

(48) James of Aragon, The Chronicle, London 1883, II, pp. 578 ff

حياة التسلية والترفيه فى المجتمع الأندلسى

د . سعد عبد الله البشرى*

دراسة الحياة الاجتماعية فى أى قطر من أقطار الدولة الإسلامية من الدراسات التى ينبغى العناية بها وتسليط الضوء على جوانبها المختلفة ، إذ فيها ما يعين على كشف الكثير من الجوانب الخفية والنواحى الغامضة فى التاريخ الإسلامى ، ويقدّم تفسيرات مهمة لعدد كبير من وقائع وأحداث التاريخ . وانطلاقًا من هذه الحقيقة رغبت فى دراسة جانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية فى الأندلس، هو ما يتصل بحياة التسلية والترفيه فى المجتمع الأندلسى، وركزت فى هذا البحث على ما يتعلق بوسائل التسلية التى كان يمارسها الأندلسيون ويجدون فيها المتعة والترويح عن النفس . وكان اهتمام الباحث منصبًا أكثر على ألوان الألعاب والرياضيات المسلية وبعض الوسائل الأخرى البريئة . ولم نتعرض خلال البحث إلى وسائل أخرى ندرك أنها اتصفت بشئ من ألوان المجون أو الابتذال ، مثل مجالس الطرب والغناء . ونرجو من خلال هذه الدراسة المتواضعة أن نكون قد ألقينا بعض الضوء على جانب له أهميته فى تاريخ المجتمع الأندلسى والكشف عن بعض جوانبه التى تلامس مشاعر الناس وتمس أحاسيسهم، وكما أن هناك تاريخ لآلامهم فهناك صفحات باسمة فى حياتهم .

الألعاب :

عرف الأندلسيون فى تاريخهم عددًا من الألعاب التى مارسوها بقصد التسلية والترويح عن النفس ، وكان البعض يمارس لعبة أو ألعابًا مختلفة بدافع الارتزاق والحصول على المال .

• أستاذ مشارك التاريخ الإسلامى - جامعة أم القرى .

وتجدر الإشارة إلى تنوع الألعاب ، فمنها ما يمكن أن نطلق عليه : الألعاب الرياضية كسباق الخيل ، والرماية ، ورياضة الصيد والقنص ، ومصارعة الثيران . ويلحق بذلك لاعبو الحركات الغريبة أو ما عرف عند الأندلسيين بـ (العجائبى)، وهو ما يعرف اليوم بالبهلوان ، الذى يقوم بألعاب تتطلب المهارة فى الحركة وإثارة إعجاب النظارة . وهناك أنواع من الألعاب الأخرى كلعبة خيال الظل ، ولعبة الشطرنج وغيرهما . ومن أنواع الألعاب ما يستخدم فيه الحيوان ، كمصارعة الإنسان للحيوان ، أو صراع الحيوانات بعضها مع بعض ، أو استخدام الحيوان لتأدية حركات معينة كألعاب القّرادين .

أما عن ألعاب الرياضة والفروسية فإن هذا اللون من الألعاب حظى بعناية واهتمام الأندلسيين . وليس هذا بدعًا فى سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم فقد ورثوا الولع بهذا الصنف من الألعاب عن آبائهم وأجدادهم ، إذ هى من الرياضات التى شغف بها العرب منذ جاهليتهم(١) وزادها الإسلام عناية ، لما فى ذلك من مظاهر الشجاعة والرجولة والفروسية . فسباق الخيل لون من ألوان الفروسية نال عناية الأندلسيين وولعوا به حكامًا ورعايا ، فكانت رياضة سباق الخيل من الرياضات التى يشاهدها أمراء بنى أمية ويشجعون الناس على ممارستها ، ويغدقون الجوائز على الفائزين فى حلبات السباق . كما كان يصاحب هذه السباقات عروض أخرى من رياضيات الفروسية كاللعب بالسيوف والرماح . وكان يوم المهرجان الذى يحتفل به الأندلسيون ، من الأيام التى تشهد سباق الخيل بصورة واسعة . وقد تحدث عنها الشعراء(٢) ومما عمق الاهتمام بهذه الرياضة روح الجهاد ومجابهة مخاطر القوى النصرانية فى شمال الأندلس وحماسة المسلمين إلى النفير وتلبية داعى الجهاد ، ولا يتم ذلك إلاّ لمن توفرت فيه مؤهلات الفروسية والقدرة البارعة على الكرّ والفرّ .

وكان أهل الحسبة والمشتغلون بالتأديب يعمدون إلى تشجيع الناس على تعلم الرماية ، والسباحة ، وألعاب الفروسية ، وذلك بدلاً من ممارسة غير النافع من ألوان اللهو(٣) .

وكان الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) حريصًا على مشاهدة ألعاب الفروسية وسباق الخيل (حتى لظل أيام علته ... يتطلع على فرسان البرابر إذا تحركوا للعب ، شاخصًا إليهم معجبًا بهم ويقول لمن حوله : انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيلوهم فكأفنهم الذين عناهم الشاعر بقوله :

فكأنما ولدت قياماً تحتهم   وكأنهم وُلِدوا على صهواتها

ما أعجب انقيادها لهم . كأنها تفهم كلامهم ...(٤) .

يذكر ابن عذارى أن الناس فى قرطبة كانوا يخرجون لرؤية العساكر المتأهبة للغزو ، وحدث أن خرج الناس رجالاً ونساءً وأخذت طائفة من الناس تحاكى صفى القتال و تمثل أسلوب الكر والفر فى القتال(٥) . ويبدو أن هذه الظاهرة كانت معروفة لدى الأندلسيين وكانوا يمارسونها من باب الإعجاب بالفروسية وفنون القتال .

كذلك كان الموحدون يمارسون ألعاب الفروسية على ظهور الخيل . ويصف ابن صاحب الصلاة إحدى احتفالاتهم التى شارك فيها الخليفة يعقوب المنصور سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥م فيقول (وتجاولت الخيل من فرسان العساكر بالجرى واللعب والدفاع بالحملات والكرات ، والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى أذان الظهر من اليوم المذكور ، حتى حمل الأمير بنفسه فى تلك الوقعات سرورًا فأظهر من ركوبه وفروسيته أمرًا عجيبًا)(٦) .

وعندما قدمت جموع العرب من أفريقية للانضمام لجيوش الموحدين على عهد الخليفة أبى يعقوب المنصور ، وذلك فى ربيع الثانى ٥٦٦هـ ١١٧٠م أعد لهم استقبالاً حافلاً . وللتعبير عن سروره بقدومهم طلب من عساكر العرب وعساكر الموحدين أن يحمل بعضهم على بعض (جريًا ولعبًا وفرحًا وطربًا . ورأى الحاضرون والنظار منهم عجبًا ودام ذلك اللعب والطرب ، والطبول تضرب إلى أن مضى أكثر النهار)(٧) .

وقد عرفت هذه الألعاب والسباقات وإظهار فنون الفروسية بحملات الخيل ، ولا تزال تجرى فى بلاد المغرب إلى يومنا هذا ، وخاصة عند الأفراح والمواسم(٨).

وأولى بنونصر ملوك غرناطة عنايتهم هذا الجانب ، وكانوا أنفسهم يمارسون سباق الخيل ، وألعاب الفروسية . وقد أثنى ابن الخطيب على السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج ٧٢٥ - ٧٣٣هـ فوصفه بقوله : (حلس ظهور الخيل ، أفرس من جال على صهوة ، لا تقع العين - وإن غصَّت الميادين - على أدرب بركض الجياد منه مغرمًا بالصيد ، عارفًا بسمات الشفار وشيات الخيل ...)(٩) .

وكان السلطان النصرى محمد الخامس (٧٥٥ - ٧٩٢هـ) ممن شغف بالجياد وسباقها . وكان يشهد حفلات السباق ، ويحتفى بالفائزين فيه ، وفى ذلك يقول وزيره أبو عبد الله بن زمرك :

لك الجياد إذا تجرى سوابقها ... فللرياح جياد ما تجاريها

إذا انبرت يوم سبق فى أعنتها ... ترى الروق طلاحًا لا تباريها(١٠)

وبلغ من اهتمام بنى نصر ورعاياهم بألعاب الفروسية وسباق الخيل أن جيرانهم من رعايا مملكتى أرغون وقشتالة كانوا يقصدون غرناطة للمشاركة فى ألعاب الفروسية(١١) .

واشتهر من رجال الدولة النصرية بالفروسية وألعابها المختلفة كإجادة الرماية والمبارزة : محمد بن أحمد بن قطبة الدوسى الذى وصفه ابن الخطيب - وكان أحد أصحابه - فقال : (ومناقبه يقصر عنها الكثير من أبناء جنسه ، كالفروسية والتجنّد والبسالة والرماية والسباحة والشطرنج ، متحمّد بحمل القنا مع البراعة ...)(١٢) .

ومن وسائل الترويح والتسلية [الصيد] ، وهو من ألوان الرياضات التى عرفها العرب قديمًا . ولما دخلوا الأندلس ورأوا ما بها من ألوان الحيوانات والطيور، زاد شغفهم بالصيد والقنص . وكان نهر الوادى الكبير الذى يقع عليه عدد من المدن الأندليسية منها قرطبة وأشبيلية ، من المواضع التى يخرج إليها الناس للنزهة والصيد .

وكان الصيد يتم بوسيلتين : (**الأولى**) بالبزاة (جمع بازى) والجوارح ويعرف البيزرة ويسمى صاحبها : بازيًا . و(**الثانية**) بالكلاب والفهود ويُسمى صاحبها : الكلاّب والفهّاد(١٣) .

وقد أعطى حكام وأمراء الدولة الأموية فى الأندلس هذه الرياضة المثيرة الكثير من اهتمامهم ، حتى أنهم خصصوا فى دولتهم خطة للبيزرة ، يتولاها بعض كبار رجال الدولة كالحاجب بدر بن أحمد وفطيس بن أصبع ، والفتى خوذر الصقلبى(١٤) وكان أشهر من تولاها على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر نجم بن طرفه(١٥) .

ونظرًا لما كانت تحظى به هذه الرياضة المسلية من اهتمام بنى أمية وشيوع ممارستها بين الأهالى ، قال الناس عن الأمير هشام الرضا عندما أصلح قنطرة قرطبة، وبالغ فى ذلك : (إنما بناها لتصيده ونزهته) فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة(١٦) .

ولم تكن هذه الرياضة حكرًا على الحكام فقط ، فهذا مطروح بن سليمان الأعرابى أحد الثائرين على الأمير هشام الرضا ، كان مولعًا بالصيد ، وقد لقى حتفه غدرًا فى إحدى متصيداته(١٧) .

وكان الملوك والأعيان يدربون صقورهم وجوارحهم على الصيد فى نواحى أشبونة ، وجبال شرق الأندلس وجزر البليار . وكان المسئولون عن الصيد بالبزاة والصقور والجوارح يولون مواسم الصيد اهتمامهم ، حيث تكثر فيها أنواع الطيور ومنها الغرانيق فى الوادى الكبير(١٨) ويبدو أن نهر الوادى الكبير كان من المواطن المفضلة لصيد أنواع الطيور والحيوانات ، وكان من الأماكن التى يخرج إليها الناس خاصة وعامة للنزهة والتصيد(١٩) .

ومن الطريف أن نشير إلى أن من أنواع الحيوان الذى شغف الناس بصيده حيوان (السمور) الذى يستخدم وبره فى الفراء الفاخر . ويذكر أحد الأطباء أنه حيوان يكون فى بحر الروم ولا يحتاج منه إلا إلى خصاه فيؤخذ وتقطع ويطلق(٢٠).

وفى مقامة للوزير أبى حفص عمر بن شهيد (حيًا فى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) يشير إلى حياة الصيد والطراد فيقول : " ثم رحلنا وتذكرنا الطّراد فمشيت الجياد ، وتواثبت آساد ، واستُعدّ بباز وكلاب فإذا بحر من بِرَكٍ يخرقه سفين من بُرك(١٢) ، وفى السيّور صقور إذا نظرت . وليوث إذا جُردّت . تنظر من أمثال الدنانير ، وتتخطف بأشباه المرهفة الذكور ، فأرسلناها إرسال سهام الأحداق إلى قلوب العشاق، فلم نر إلا ريشًا محلوجًا . ومنسرًا يُحسن توديجًا(٢٢) ".

ونجد نصوصًا متفرقة عن الصيد بالجوارح والحيوانات فى عصر ملوك الطوائف ، إذ كان هؤلاء ممن ولعوا بهذه الرياضة المسلية . وكان ولاتهم وعمالهم يتقربون إليهم بإهداء أنواع متميزة من الصقور والجوارح ، وبعض الحيوانات المدربة على الصيد . وفى أحيان أخرى يمنحها الحكام أو الملوك رجالاتهم

وأعوانهم . من ذلك إهداء ابن طاهر أمير مرسية المنصور بن محمد بن أبى عامر ملك بلنسية بعض الصقور المدربة وإهداء ابن المرغوى الأشبيلى للملك المعتمد بن عباد كلبة صيد وصفها فى شعر بقوله :

لم أر ملهى لذى اقتناص ومكسبًا مقنع الحريص

كمثل خطار ذات جيد أتلع فى صفرة القميص

كالقوس فى شكلها ولكن تنفذ كالسهم للقنيص

إن تخذت أنفها دليلاً دل على الكامن العويص(٢٣)

وللشاعر الأديب أبى العباس ابن حمدين القرطبى المتوفى (٥٢١هـ/ ١١٢٧م) وصف ممتع لأحد كلاب الصيد ومنها ما أورده شعرًا حيث يقول :

إذا عدا واشتد فى طلابه يكاد يخرج من إهابه

متقدًا كالنار فى التهابه لا يطعن الصيد بغيرنابه(٢٤)

ومن الآثار التى تدل على الولع بحياة الصيد بالحيوانات كالفهود فى القرن السادس الهجرى ، ما نجده منقوشًا على علبة محفوظة بمجموعة أو كتافيو ، هومبرج ، ويمثل النقش فارسًا يركب خلفه فهد(٢٥) . وكان محمد بن عبد الملك ابن سعيد المتوفى (٥٨٩هـ / ١١٩٣م) إذا ركب فى الصباح الباكر للصيد من داره الواقعة بجوار جامع غرناطة ، شوّش على المصلين صلاتهم بأصوات دوى الجلاجل بالبزاة ، ومناداة الصيادين ، ونباح الكلاب(٢٦) .

و لم تنقطع هواية الصيد فى القرون التالية ، فقد مارسها سلاطين بنى الأحمر ملوك غرناطة ، واشتهر منهم بذلك : السلطان محمد الرابع والسلطان محمد الخامس . وقد احتفظت الكتب التى أرخت لهم بمقطوعات شعرية تتضمن الإشارة إلى ذلك(٢٧) .

وكانت الحيوانات البرية كثيرة فى جبال شلير ، ومنها الدببة والغزلان ، إلى جانب ما حفلت به المناطق الغرناطيـة بـأنواع الطيـور والحجـلان والبـط والـدراج والحمام الـبرى ، وكـانوا يستخدمون لاصطيادهـا طيـور البـاز التـى لقيـت عناية واهتمام الغرناطيين(٢٨) .

وتجدر الإشارة إلى أن من بـين كثير مـن القطـع الأثريـة التـى حفظـت مـن الضياع ، والتى تعود إلى تاريخ مسلمى الأندلس ، ما يحمل فـى زخرفتـه ونقوشـه ورسومه مـا يـدل على ولـع الأندلسـيين بـالصيد ، سـواء كـان صيـد الحيوانـات كالغزلان والأيل أو صيد أنواع الطيور المختلفة(٢٩) .

المصارعة – والمبارزة – الصوجان – الكرة :

ومـن الألعـاب الرياضيـة التـى مارسـها الأندلسيون المصارعـة والمبـارزة ، وتوضح لنا بعض التحف الأندلسية التى سلمت من الضياع ، – ومنها علبة المغيرة بمتحف اللوفر – ما لقيته رياضة المصارعة من اهتمام ، إذ يصور نقشـها مصـارعين يمسك أحدهما بالآخر ويحاول أن يطرحه أرضًا . وفى تحفة فنية أخرى تنسب لعبد الملك بن المنصور العامرى ثلاثة نقوش ، ثلاث صور ، فـى الأولى رجـلان يركبـان فيلين بينهما شجرة ، وقد تسلحا بترس وسيف ، وفى النقش الثانى يبـدو فارسـان يحاول أحدهما طعن آخر برمحه الطويل فيتلقاه الثانى بدرعه ويهـم بطعنـه بسـيفه ، وفى النقش الثالث صورة فارسين يستعدان للمبارزة(٣٠) .

وكان كثير من الناس – وليس الأمر وقفًا على الفرسان وحدهـم – يلعبـون بالسيوف والرماح ، ويمارسون لعبة المبارزة والطعن بالرماح ، وما أشـرنا إليـه مـن الرسومات والنقوش فيه ما يؤكد ذلك .

كذلـك مـن أنـواع الرياضـات المسلية التـى عرفهـا الأندلسـيون (لعبـة الصولجان) ، وهى رياضة تمارس من فوق صهوات الخيل . وقد نقلها العـرب عـن

الفرس . والصولجان اسم العصا التى يُلعب بها ، هى المضرب التى تضرب بها الكرة ، وفى نهايتها ما يشبه رأس المطرقة مصنوع من الخشب . والكرة التى تستخدم فى رياضة الصوالجة كانت بحجم البرتقالة وتصنع من الجلد المضغوط ، ويتدافعها اللاعبون بمضاربهم وهم فوق خيولهم لإدخالها المرمى ، وهو عبارة عن قائمين بينهما مسافة هى سعة المرمى(٣١) .

وممن مارس هذه الرياضة فى الأندلس الأمير الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢١م) إذ كان يلعبها مع رجاله داخل قصره ، ولم تكن القلاقل التى اندلعت فى عهده تمنعه عن ممارسة هواياته ورياضته المسلية(٣٢) .

وما من شك فى أن هذه الرياضة كانت من الرياضات المفضلة عند حكام وأعيان الأندلس ، فهى من الرياضات الملوكية التى لقيت إقبالاً واسعًا لدى هذه الفئة من المجتمع . ومما يشير إلى ممارسة الأندلسيين لهذه اللعبة (الصولجان) قول الشاعر أبى الحسن على بن إبراهيم بن الزقاق (ت قريبًا من ٥٣٠ / ١١٣٥م).

يحنيه طول ضرابه هام العدى ... حتى يُرى بيديه منه صولج(٣٣)

وقول الشاعر عبد الوهاب بن أحمد بن حزم (ت ٤٣٨هـ)

لما رأيت الهلال منطويًا ... فى غُرة الفجر قارن الزُّهرة
شبهته والعيان يشهد لى ... بصولجان أوفى لضرب كُرة(٣٤)

ومن بين الألعاب التى عرفت عند الأندلسيين ومارسوها (لعبة المخراق) وهى من ألعاب الصبيان . يقول ابن مقانا الأشبونى(٣٥) مادحًا ابن حمود الإدريسى صاحب مالقه فى مطلع القرن الخامس الهجرى :

البرق لائح من أندرين ... ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية ... كمخاريق بأيدى لاعبين(٣٦)

والمخاريق جمع مخراق وهو ما تلعب به الصبيان من الخرق المفتولة . والمخراق منديل أو نحوه يلوى فيضرب به ، أو هو ثوب يُلَفّ ويضرب به الصبيان بعضهم بعضًا(٣٧) .

ونجد إشارة لطيفة لدى أحد الأطباء الأندلسيين ، ينصح فيها بممارسة الرياضة ثم يقول : (وأحمد الرياضة اللعب بالكرة الصغيرة وهو آمنها)(٣٨) فهل عرف الأندلسيون اللعب بالكرة سواء كان ذلك اللعب يتم بالأيدى أو الأرجل ؟ إننا لا نستطيع الجزم بذلك مع أن أحد المشتلغبن بالرياضة فى عصرنا الحاضر أمدنا من خلال أحد كتبه بصورة تمثل أندلسيًا يلعب الكرة ويتبادل لقفها(٣٩) بيديه . ولا نستبعد ذلك لأن العرب - حتى فى فترة مبكرة من تاريخهم فى الإسلام - عرفوا الكرة وهذه الشاعرة ليلى الأخيلية فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى تصف قطاة تدلت على فراخها فتقول :

تدلت على حصٍّ ظماء كأنها ... كرات غلام فى كساءٍ مؤرنب

فهى تشبه القطاة بالكرة التى كُسيت بكساء من جلد الأرنب .

ويذكر ابن منظور (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) فى كتابه " نثار الأزهار " أن الدبوق كرة شَعَرية ترمى فى الهواء ، ثم يتلقاها الغلام ضاربًا لها تارة . بصدر قدمه، وتارة بالصفح الأيمن من ساقه اليمنى، رادًا إياها إلى العلو على الدوام(٤٠).

أما لعبة الشطرنج فكانت (٤١) من الألعاب التى شغل بها الكثير من رؤساء ووجهاء الأندلس . ومن هؤلاء عدد كبير من الأمراء الأمويين وخاصتهم من الوزراء والقادة . فممن اشتهر بلعبها والتهمم بها الأمير الأموى محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨ - ٣٠٠هـ / ٨٥٢ - ٩١٢م) . ويذكر ابن حيان أن أحد فتيان الأمير ويدعى أيدون كان ماهرًا فى لعبة الشطرنج ، وأنه غلب فى ذلك الأمير وعددًا من أصحابه ، ثم انبرى له أصحاب الأمير ويدعى تمام بن عامر ،

وكان الأمير قد أقصاه عن مجلسه بسبب خلاف ، فتمكن تمام من التغلب على أيدون فى جولات متعددة ، فسُرَّ بهذا الأمير وأدناه ووصله وأعاده إلى مجالسته . وذاعت هذه القصة بين الناس فسارع الكثير من الفتيان والأدباء إلى تعلم الشطرنج، بغية الوصول إلى ما ما وصل إليه تمام . وكان من أولئك المتطلعين إلى الجاه والنفوذ ابن أخت الشاعر يحيى الغزال ، فعاب عليه خاله انشغاله ولهوه بالشطرنج وقال :

عمل فى غير بِرًّ ... واختلاف ولزوم
إنما أسسها ويحـ ... ـك شيطان رجيم
هبك فيها ألعب النـ ... ـاس فماذا يا حكيم ؟
لعبة الشطرنج شؤم ... فاجتنبها يا شؤوم
فليقل ماشاء من شاء ... فقولى مستقيم
إنما جاءت بمهر ... واحد وهو وخيم
والذى ينزى عليها اليـ ... ـوم من يُنزى عقيم
وسبيلو صدق مافسرت ... فيها من يروم
إنما هى لأناس ... شأنهم شأن عظيم
ملك يجبى إليه ... أو وزير أو نديم
أو رجال ورثوا الأمـ ... ـوال للدهر سلوم
فادّكر ما بيد القا ... ئم عنها إذ يقوم
هل سوى شئ يسير ... من سرور لا يدوم
فإذا ما أبلغ البيـ ... ـت فمسحور ملوم(٤٢)

ويتضح من خلال الأبيات السابقة أن لعبة الشطرنج كانت فى الغالب لعبة الخاصة ، إذ أن العكوف عليها والاشتغال بها فيه ملهاة عن شئون الحياة الأخرى . ولا يستغرق فى لعبها إلاّ عِلية القوم وأثرياء المجتمع ، الذين يزجون أوقات فراغهم بمثل هذا اللعبة وغيرها من الألعاب . ولهذا فاشتغال العامة بها ضرب من الغباء ، لأنهم أحوج إلى الوقت المضاع .

وكان لبعض الفقهاء موقفهم الحازم من هذه اللعبة ، حتى ألّف أحدهم وهو الفقيه محمد بن الفخار المالقى ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م كتابًا فى تحريم الشطرنج هو (استواء النهج فى تحريم اللعب بالشطرنج)(٤٣) .

وعلى الرغم من ذم هذه اللعبة لما يترتب عليها من ضياع الوقت وتضييع المصالح والاشتغال عما ينفع المرء ، إلاّ أننا نجد هناك فئة من أهل العلم عُرف عنهم لعب الشطرنج ، بل والمهارة فى ذلك . وسوف نذكر عددًا منهم حسب الترتيب الزمنى .

فممن اشتهر بلعب الشطرنج من الخاصة أحمد بن عباس وزير زهير العامرى صاحب المرية فى عصر ملوك الطوائف ، وقد وصفه أحد جلسائه بالشغف الشديد بالشطرنج وذكر أنه أغلب الشهوات عليه وأنه فى أحد الأيام واصل اللعب بالشطرنج نهاره كله وبعض ليله(٤٤) .

وذاع صيت الوزير محمد بن عمار فى الدولة العبادية فى أشبيليه فاشتهر بالمهارة الفائقة فى لعبة الشطربج ، ووصف بأنه (طبقة بالأندلس لا يقوم له أحد فيها) وكان المعتمد ابن عباد قد بعثة لمفاوضة الفونسو السادس ملك قشتالة الذى كان قد خرج لغزو أشبيلية وقرطبة ، فسار إليه ابن عمار لمفاوضته ، وتمكن ابن عمار عن طريق الحيلة والدهاء من إقناع الفونسو بالدخول معه فى تحدٍ على أيهما يغلب فى الشطرنج . فأخذت الفونسو العزة بالإثم ووعد بأن يهب لابن عمار ما

يشاء إذا غلبه عمار فى لعبة الشطرنج ، فلعب الاثنان وأحرز ابن عمار الظفر ، وأذعن الفونسو لمطالب ابن عمار التى تمثلت فى أن يعود عن غزو أشبيلية وقرطبة، فاستجاب الفونسو بعد أن حصل على أتاوة كبيرة من المعتمد(٤٥) .

وممن اشتهر بلعب الشطرنج من أهل العلم الطبيب الأديب أبو بكر محمد زهر الأشبيلى (ت ٥٩٠هـ ١١٩٣م) وكان هذا العلامة عارفًا بعدد من العلوم والفنون ، واشتهر إلى جانب ذلك بالبراعة فى الشطرنج(٤٦) .

وكان العلامة أبو بكر بن أبى الحسن الزهرى (ق ٧هـ) قد عرف فى مستهل حياته بالولع الشديد بلعبة الشطرنج ، حتى عرف عند الناس بالشطرنجى فكره أن يوصف بذلك ، فاشتغل بدراسة علم الطب حتى نبغ فيه وذاع صيته بالطب(٤٧) .

وممن شاع ذكره فى هذه اللعبة العلامة محمد بن عبد المنعم الصنهاجى (ق٨هـ) ، وصفه ابن الخطيب بأنه من صدور الحفاظ وأهل الصلاح ، ثم قال (طبقة فى الشطرنج يلعبها محجوبًا)(٤٨) كذلك كان معاصره الأديب الكاتب محمد بن أحمد بن قطبة الدوسى الغرناطى بارعًا فى عدد من الألعاب ، كالرماية، السباحة ، ماهرًا فى الشطرنج وكان من أصحاب ابن الخطيب(٤٩) .

ومما له صلة بالشطرنج أو قريب منه لعبة الخمسية . فإذا كان الشطرنج لعب الخاصة وأرباب الجاه والسلطة فإن لعبة الخمسية كانت لعبة العامة . ويبدو أن الفرق بين اللعبتين ومن يلعبهما كان مضرب المثل فى التمايز الطبقى فى المجتمع الأندلسى ، ولهذا يرد المثل الشعبى الأندلسى إذ يقول (لسنة الشطرنج كلعب الخمسية)(٥٠) .

مصارعة الحيوانات :

أما عن مصارعة الحيوانات فإن أول الإشارات المهمة التى تفيد أن هذا اللون من الرياضات والألعاب الخطيرة والمثيرة كان سائدًا ومألوفًا فى حياة الأندلسيين ، ما تشير إليه نقوش بعض التحف الفنية ، ومنها صندوق خشبى منسوب إلى عبد الله بن منصور العامرى ت (٣٩٢-٣٩٧هـ/١٠٠١-١٠٠٦م) ويحمل هذا الصندوق نقشًا يمثل صيادًا مقاتلاً يصارع أسدين فى وقت واحد ، ويوجه إلى أحد الأسدين طعنة برمحه فى حين يمسك الأسد أحد ساقى الرجل وينهش مؤخره . وفى ذات الوقت يكون المقاتل مشغولاً بدفع الأسد الآخر الذى يهاجمه من الأمام بدرعه . والنقش يتميز بالحيوية والإثارة .

وعلى غطاء الصندوق نفسه نقش يمثل فارسًا يطعن وحشًا فى رقبته فيلتفت برأسه فاغر الفم ألمًا وتحفزًا ، بينما تعلو وجه الفارس نشوة الظفر(٥١).

وتجدر الإشارة إلى أن مصارعة الثيران السائدة الآن فى أسبانيا ودول أمريكا اللاتينية كانت معروفة لدى الأندلسيين فى مملكة غرناطة ، إذ يذكر ابن الخطيب أن هذه اللعبة كانت منتشرة بين علية المجتمع فى غرناطة ، ويصف طريقه مصارعة الثيران بأن يطلق الثور أو البقر الوحشى كما أسماه ، وتطلق عليه كلاب اللان المتوحشة فتأخذ فى نهش جسمه وأذنيه متعلقة بها كالأقراط . والهدف من هذا هو الحد من قوة الوحش وتهذيب حركته ، وهو ما يقوم مقامة اليوم عمل رماة السهام وطاعن الرمح ، وذلك تمهيدًا للقاء المصارع . ويصف ابن الخطيب المصارع بالفروسية والإقدام ، وأنه يصارع الثور وهو ممتط فرسه المدرب ، ثم يجهزا أخيرًا على الثور بطعنة من رمحه(٥٢) وهذا اللون من المصارعة لا يزال موجودًا إلى يومنا ، ويسمى الفارس المصارع باسم رخونيا دور Rejoneador نسبة إلى الرمح القصير الذى يستعمله فى قتل الثور واسمه رخون Rejon . ويشير د / أحمد مختار العبادى إلى أن هذا النص الذى احتفظ لنا به ابن الخطيب الغرناطى

هو أقدم نص وجدناه عن هذه المصارعة المشهورة ، ونبُه إلى أن هذا النص لم يرد ذكره فى الموسوعة الكبرى التى ألفها خوسية ماريا قوسيو عن الثيران (Jose Maria Cossi: Ios Toros, 3 Tomos) (٥٣) .

وكانت مصارعة الثيران على هذه الصورة معروفة فى بلاد المغرب ، إذ يذكر ابن الخطيب أنه عندما كان لاجئًا مع سلطانه محمد الخامس ببلاد المغرب - وكان ذلك سنة ٧٦٠ - ٧٦٣هـ / ١٣٥٨ - ١٣٦١م - حضر أثناء إقامته احتفالاً لسلطان المغرب أبى عنان فارس ، وذلك بمناسبة اختتان أحد أبنائه . وكان من بين عروض الاحتفال مصارعة جرت بين ثيران وكلاب رومية . وكيف أن الكلاب كانت تهاجم الثور وتمسكه فى أذنيه بأسنانها كالأقراط ، ويصف ذلك فى شعره ومنه :

وطاردت مقدام الصوار بجارح	يُصابُ به منه الصماخ أو الإبط
متين الشّوا فى رأسه سمهرية	مقصرة عنهن ما يّنبت الخطُ
وقد كان ذا تاج فلما تعلقا	بسامعتيه زانه منهما قرط(٥٤)

ولا يعلم على وجه الدقة أى القطرين : الأندلس أو المغرب كان الأسبق إلى ممارسة هذه الرياضة المثيرة ، ولكن أرجح أن الأندلس هى السابقة إلى ذلك. وقد يكون لهذه الرياضة أصل لدى الشعوب القديمة كالرومان ، ومن انتقلت إلى الأندلسيين ، وإن كانت المصادر التاريخية شحيحة بالمعلومات حول هذه اللعبة ، وذلك فى القرون الأولى من تاريخ الأندلس .

والحق يقال : إن هذه اللعبة فى صورتها التى يعمد فيها الإنسان إلى التسلى بقتل الحيوان بعد إثخانه بالجراح ، فيها ما يوحى بغرابتها عن المجتمع الإسلامى ، وما كان عليه من أخلاق تدعو إلى الرحمة والشفقة ليس بالإنسان فقط وإنما

كذلك بالحيوان . ويبدو لى أن هذا اللون من الرياضيات لم يكن معروفًا لدى الأندلسيين فى القرون الأولى ؛ وذلك عائد إلى ما كان يتحلى به المجتمع الأندلسى آنذاك من صفات وخلال أكثر التزامًا وإنسانية . ومما يؤكد ذلك أننا لم نعثر - حسب الطاقة - على نص أو معلومة تشير إلى ممارسة الأندلسيين لهذه الرياضة القاسية العنيفة ، وأن هذه الرياضة لم تعرف إلاّ فى أواخر العهد الإسلامى فى الأندلس، الذى سادفيه تدهور الأخلاق ، والبعد عن نهج الدين الإسلامى الحنيف.

و لم تكن هذه اللعبة تجرى بتلك الصورة فقط إنما كانت تتم أيضًا بصورة أخرى، وذلك بأن تكون المنازلة بين ثور وأسد . وقد شاهد أحد شعراء الأندلس وهو أبو عبد الله محمد بن جزى (ت ٧٥٧هـ/١٣٥٦م) لدى سلطان المغرب أبى عنان مصارعة بين الثور والأسد فقال ابن جزى المذكور :

لله يوم بدار الملك مربه ... من العجائب ما لم يجر فى خلدى

لاح الخليفة فى برج العلا قمرًا ... يشاهد الحرب بين الثور والأسد(٥٥)

* * *

والحديث عن مصارعة الحيوانات سواء مع الإنسان أو مع بعضها البعض يقودنا إلى الحديث عن أنواع أخرى من الألعاب التى تشارك فيها الحيوانات أو الجوارح . ومن هذه الألعاب ما تشارك فيه القردة إذ يتم تدريبها على أداء حركات رياضية تثير الدهشة والإعجاب . وكان يطلق على أصحاب هذه اللعبة (القرّادين) وكانوا يمنعون من دخول الدور والمنازل لما فى ذلك من ترويع للحوامل والأطفال(٥٦) .

وكان البعض يفضل مشاهدة القتال بين الديكة وكانت هذه اللعبة من الألعاب الشعبية ، وراجت على وجه الخصوص فى القرى والأحياء الشعبية بالمدن(٥٧) .

لعبة خيال الظل :

يجدر بنا فى البداية توضيح مفهوم هذه اللعبة وأصل منشأها ، فنشير إلى أنها تمثيلية تُستخدم الظلال فى إبراز مشاهدتها ، وذلك باستخدام شاشة من النسيج الأبيض يوضع خلفها مصدر ضوئى ، ويرفع اللاعب مجموعة من الدمى المصنوعة من الجلد أو الورق ويحركها بأصابعه المعقودة بخيوط رفيعة ، فتنعكس ظلال هذه الدمى على الشاشة البيضاء أمام المشاهدين ، وتكون مصحوبة بألحان أو حوار يلقيه اللاعب. وتعتبر الصين المهد الأول لهذا الفن إذ كان من الفنون المعروفة بها منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم انتشر منها إلى سواها فدخل البلاد العربية ومنها مصر ، التى ارتقى فيها خيال الظل ، ومنها انتشر إلى تركيا ، وبلاد البلقان، وإلى بلدان شمال أفريقيا . وقد بقى لنا من المصنفات حول هذا الفن تمثيليات الطبيب المصرى محمد دانيال ، ويُسمى كتابة (طيف الخيال)(٥٨) ، نشر المستشرق الألمانى ارلنجر ثلاثة أجزاء منه عام ١٩١٠م .

ويبدو من خلال بعض ما وصلنا من شذرات تاريخية ومعلومات محدودة أن هذه اللعبة المسلية دخلت الأندلس بصورة مبكرة نسبيًا ، وذلك منذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، إذ نجد إشارة طريفة يوردها أحد أدباء الأندلس وهو عمر بن الشهيد التجيبى وكان حيًا سنة (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) وذلك فى مقامة أدبية يقول فيها : (وصلنا إلى منزل بدوى ذى هيئة وزى ... فهش وبش ، وكنس منزلة ورش ... ثم مال بنا إلى بيت مُكنس ، منوع مجنّس ، قد جلّله حصرًا بلدية وغشاه بُسطًا بدوية ، ومد فيه شرائط وحبالاً كأنه يريد أن يخرج خيالاً ...(٥٩) .

وما من شك فى أنه هنا يعنى خيال الظل . وقد تكون هذه اللعبه قد انتقلت فى مرحلة من مبكرة من العراق أو مصر إلى الأندلس . وربما كان ناقلها أحد الأندلسيين المترددين على المشرق ، أو قد يكون ذلك على يد أحد المشارقة .

وليس هذا بغريب فكثير من التأثيرات الاجتماعية التى كـانت سـائدة فـى المشـرق انتقلت إلى المغرب ، والأندلس ، ولنا فى قصة زرياب وانتقاله إلى الأندلس وتأثيره فى الحياة الاجتماعية أبلغ دليل . ونقع على اسم أحد الوافدين المصريين ، ويدعى أبو القاسم الخيالى ، وقد وصل إلى قرطبة فى القرن الرابع الهجرى ، وقد يكون لقبه المذكور له صلة بحرفته حول لعبة الخيال ، مع أننا لا نملك نصًا واضحًا يفيد ذلك، وإن كان هناك ما يشير إلى أحدى جواريه وتدعى بستان كانت من بين من استدعا هن الخليفة محمد بن هشام لتسليته ومجونه(٦٠) .

ونجد فى أزجال ابن قزمان إشارات مهمة إلى هذه اللعبة ، تفيد أنها شاعت فى أوساط المجتمع الأندلسى ، ففى إحد أزجاله يقول :

ليس على قميص ذاب   إلا قميصًا مرقـع
وطويشـر غفـاره   الُطّـر كلٌ مقطـع
سـل لـو كانِ لعنقـى   أو كان على رأس قُنْزع
(بابه) كنت أنا نرقص   فى لعبـة القليـانى

ويشير عبد العزيز الأهوانى إلى أن الكلمة التى لم تنقط فـى أول القفـل هـى (بابه) وهى لفظة اصطلاحية تستخدم فى لعبة (خيال الظل) ، ويراد بهـا الفصـل أو المشهد من تمثيلية خيال الظل . ويدل النـص علـى أن هـذه اللعبـة عرفـت عنـد الأندلسيين (بلعبة القليانى) ووصف لباسه بالمهلهل والممزق يـدل علـى أن اللعبـة فى الأندلس مثلما كانت فى الشرق تعتمد على الهزل والإضحاك(٦١) .

والقليانى قد تكـون نسبة إلى أحـد الخيـاليين المـاهرين ومنسـوب إلى قليانـة Juliana (جليانة) وهى بلدة من أعمال وادى آش إلى الجنوب من غرناطة .

وإضافة إلى ما سبق نجد لمحات محدودة عن لعبة خيال الظل فى أشعار بعـض الأندلسيين وبعض رسائلهم ، ففى ديوان أبى الحسـن الششـترى يقـول فـى زجلـه الذى جعل فى قفلة :

(وما الناس إلاّ كما الخيال فانظر إلى ماسك الصور)

وهى إشارة واضحة إلى لعبة خيال الظل ، وأن الدنيا بمن فيها من أناس وما قدر لهم من حياة وسعى وحركة ، ما هم إلاّ كالدمى التى يحركها لاعب الخيال ، ثم يزول كل ذلك ويفنى . وإلى مثل هذا المعنى أشار الشاعر المملوكى ضياء الدين بن عبد الكريم حيث قال :

تجئ وتمضى بابة بعد بابه وتفنى جميعًا والمحرك باق(٦٢)

وهناك إشارات للعبة الخيال فى رسائل أبى عبد الله محمد بن عباد الرندى وهو من أعلام الزهد فى الأندلس وكان حيًا فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى(٦٣) .

* * *

ألعاب تقوم على المهارات الحركية :

كان من بين الألعاب التى استحوذت على اهتمام الأندلسيين ، وأثارت إعجابهم تلك الألعاب التى يؤديها بعض الأشخاص من ذوى المهارات والأداء المتميز . ويشبه هؤلاء فى عصرنا الحاضر ما يطلق عليه البهلوان ، الذى يشاهد فى السيرك وهو يقوم بأداء حركات تثير إعجاب النظارة . وفى ديوان ابن الخطيب أبيات شعرية طريفة يصف فيها أحدهم وهو يتلاعب على الحبل ويتدلى منه حينًا ، ويرتقى حينًا آخر بين حركة سريعة ، وثبات عجيب :

وبحرى تلاعب فى شريط وجئ الفعل متصل الصّموت
تدلى وارتقى وسما وأهوى فأعجب فى التماسك والثبوت
فقلنا إن يكن بشرًا سويًا ففيه غريزة من عنكبوت

يشير د. محمد بن شريفة إلى هذه الأبيات ويقول تعليقًا عليها : إن كلمة بحرى التى وردت فى أول البيت الأول (إنما هى تحريف لكلمة غجرى نسبة إلى الغجر المعروفين فى الأندلس)(٦٤) ولكن الباحث يستبعد ذلك ، لأنه لو حلّ لفظ غجرى محل بحرى لاختل وزن البيت ، إذ لو قطّعنا كلمة بحرى حسب العروض لكانت على هذا النحو : وحرى ، وغجرى(٦٥) .

وبالتالى لا نطمئن إلى تعليل الأستاذ ابن شريفة . فضلاً عن أن لفظ غجرى فيما يبدو لى لم يكن معروفًا عند الأندلسيين وإنما كان ذلك فى القرون التى اعقبت خروج المسلمين من الأندلس .

ويصف الشاعر الغرناطى محمد بن يوسف بن زُمرَك (ت ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) أحد اللاعبين المهره وهو يؤدى حركاته المثيرة على الحبل فيقول :

ومنوع الحركات قد ركب الهوا يمشى على خط به متوهم
فإذا هوى من وجوه ثم استوى أبصرت طيرًا حل صورة آدميَ
يمشى على فنن الرشاء كأنه فيه مساور ذابل أو أرقم

وقد أطلق فى الأندلس على من يحترف هذه الألعاب ويؤديها بمهارة وبراعة [العجائبى] وذلك لما يثيره من دهشة وإعجاب المشاهدين .

وكان هذا الشخص يؤدى ألعابًا مختلفة ، من بينها اللعبة المشار إليها وهى اللعب على الحبال . وقد احتفظ لنا أبو المطرف بن عميرة بوصف نادر وطريف لأحد هؤلاء العجائبيين وهو يلعب بالصحائف فارغة ومليئة بالماء ، فيقذفها فى الهواء ويتلقاها بيديه فى حركات عجيبة ، ومهارات بارعة . ويقول ابن عميرة : (هذا ولإحدهما وصف يزيد على الأوصاف ، وعمل هو المشار إليه فى الصحاف ، تصفُّ له فى مداره ، وتلقى بمجال إقباله إدباره . فيأخذها بأصبعين ويديرها لرأى العين ، فترى عجبًا من نصب وإماله ، وإثبات وإزالة ، واتساق بغير قد ، والصاق

دون ود ، وربما أكفأها فى الهواء ، وقد غمرها بالماء ، فتحسبه جمد فما يقطر ، أو عاد سرابًا فى عين من ينظر ، ويمر بها فيجعلها تحت ذيلـه ، ثـم يقتلعها بجملة سيله فيفقدها العيان ، ويخلى منها المكـان ، ويخلـع الثيـاب لا أثـير هنـاك ، وينزع السراويل فلا زيادة على تلك وذاك، فإذا استوفى فى بعض جوانبه ، وقضى وطـرًا من عجائبه ، ارتج من الأمام والوارء وقام عنها كتاركـة بيضها بـالعراء) . ومـن مهاراته الحركية وألعابه المدهشة ما يقوم على اللعب بالنار فيقول : (ويؤتى بالنـار وحرها مرهوب ولهيبها مشبوب ، فيودعها ذاك المستودع ، ويبدع فى شأنها فوق ما أبدع) وفى طور آخر يلعب بقلال الماء ، (وربما وضعت له القلة بمائهـا ، فـلا ترى أعجب من إخفائها يختطفها اختطافًـا وقـد هـزَّ منهـا أعطافًـا وركّـب فوقهـا صحافًا فيحمل منها جنينًا حش(٦٦) ، ودفينًا يأمن النبش ثم يقوم عنهـا عجـلان ، ويترك شخصها كما كان ، وهذا خلال نغمات حسان سماعية وهيآت إيقاعية) .

ولهـذا العجـائبى ألعـاب يؤديهـا بصحبـة أحـد أصحابـه ، تقـوم علـى أداء حركات بارعة يستخدم فيها العمائم والملابس (ولهما فى مركز المـدار ، وموقـف الاختيار ، نشروطى ونشر للعمائم ولى ، وربما أعدها بعد إلقاء ، وقلبا الثياب لغير استسقاء ، فيرجع الطالع آفلا ، ثم يعود العالى سافلاً ...)(٦٧) .

وهكذا يتبين لنا أن هذه الألعاب التى تقوم على البراعـة والمهـارة فـى الأداء والحركة بالأرجل والأيدى والأصابع ، وتسـتخدم فيهـا وسـائل متعـددة مـن أوان وحبال وعمائم وقلل وغيرها مما نشاهده حاليًا فى السيرك أو غيره ، نقول إن هـذه الألعاب كانت تسـتقطب جمهـورًا كبيرًا مـن النـاس وكـانت فـى مقدمـة وسـائل التسلية والمتعة لديهم .

ولعل مـن أهـم الدلائـل التـى تشـير إلى ولـع النـاس بمثـل هـذه الألعـاب أن صاحبها وهو العجبائى لا يزال له ذكر ووجود فى بعـض بلـدان المغـرب ، بـل إن

بعض الألعاب التى أشرنا إليها لا تزال تعرض فى ساحة جامع الفناء بمدينة مراكش(٦٨) .

ونظرًا لخفة ورشاقة العجبائى أثناء تأديته إحدى ألعابه فقد أطلق عليه (الزريزير) وهو اسم طائر عرف حركته وسرعته فى القفز(٦٩) .

ومما له صلة بمثل هذه الألعاب أولئك الذين يقومون بحركات تدعو إلى الضحك والتسلية . ويرتدى أحدهم فى سبيل ذلك ثيابًا مناسبة لدوره ، وربما وضع له شعرًا كثيفًا على حاجبيه وشاربه وعلى رأسه قلنسوة ، وهو أشبه فى عصرنا الحاضر بما يسمى (المهرج) الذى يؤدى دوره أمام الجمهور سواء فى السيرك أو المسرح . وقد أمدنا ابن بسام بمعلومات طريفة حول أحدهم وما يقوم به من حركات مضحكة(٧٠) .

وقد نبّه السقطى إلى عدم ترك أمثال هؤلاء المهذرجين والمهذرين يمارسون ألعابهم وحركاتهم إلا فى الشوارع السالكة والساحات العامة(٧١) .

* * *

المنتزهات :

ومن وسائل التسلية التى عرفها المجتمع الأندلسى خروج الناس إلى المنتزهات. وبلاد الأندلس من البلدان التى اشتهرت بجمال طبيعتها ، وخاصة فى الجزء الأوسط الجنوبى . وبطبيعة الحال توفر لأهلها عدد من مواضع النزهة والفرجة . وكان أمراء وخلفاء بنى أمية ، ومن تبعهم من الملوك والسلاطين لهم جناتهم وبساتينهم التى يقضون بها كثيرًا من الوقت طلبًا للمتعة والترويح . وكان أول أمراء بنى أمية ومؤسس ملكهم بالأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام - المعروف بالداخل - قد اتخذ له جنانًا وبساتين فى منية الرصافة بقرطبة. وحدث عندما نظر منها إلى نخلة أن هاجت شجونه فقال :

تبــدت لنـــا وســط الرصــافة نخلـة ... تناءت بأرض الغـرب عن بلـد النخل

فقلـت شبيهى فى التغـرب والنــوى ... وطـول التنـاءى عـن بُنّى وعن أهلـى

إلـــــــخ ......(٧٢) .

وفى عصر الخلافة الأموية - على عهد الخليفة الحكـم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) أهدى أحد الفتيان الصقالبة - ويدعـى درى الأصغر - إلى الخليفة الحكم بستانًا عرف بالرمانية . وكان درى هذا قد بالغ فى العناية بـه وزراعة مختلف أنواع الأشجار والأزهار فيه ، حتى غدا فى أبهى صورة ووضع فيه أنواعًا من الحيوانات ، ثم قدَّمه هداية للخليفة فقبله ، وعهد إليه بالقيام عليـه . ثـم دعاه درى لإستضافته فى البستان ، فسار إليه الخليفة بحاشيته، وقد أبدى درى مـن ضروب الضيافة والإكرام للخليفة ما عمَّ ذكره ، وأجمـع مـن حضر تلـك المناسبة أنهم لم يشاهدوا فى المنتزهات السلطانية أكمل مما رأوه(٧٣) .

وهذه صورة من صور التنزه والفرجة لدى الطبقة الحاكمة آنذاك . ونكتفـى بها لنركز الضوء أكثر على ما يتصل بالرعية وأفراد المجتمع الأندلسى ، وذلـك لأن طبقة الخاصة كان لها منتزهاتها الخاصـة الملحقـة بـالقصور والـدور ، ممـا لا سبيل لعامة الناس إليه .

فمن أشهر المنتزهات الشعبية ما عرف بحصن الحمة ، وهو من مدينة بجانة . وفى هذا الموضع عين ماء يقصدها الناس للاستشفاء . وكان أهل المريـة يقصـدون ذلك الموضع فى أيام الربيع مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم ، ويتزودون خلال ذلك بألوان الطعام والشراب . ونظرًا لكثافة من يقصدها من المتنزهين ، فإن أسعار المساكن وايجاراتها ترتفع خلال ذلك بصورة كبيرة(٧٤) .

وكانت مدينة سرقسطة من أجمل مدن الأندلس حتى قال ابن سعيد : (ولا نعلم فى الأندلس مدينة يحدق بها أربعة أنهار سواها ، وكـأن كـل جهـة تغـايرت

على اتحافها فأهدت إليها نهرًا يلثم من أعطافها ، وأشهرها نهر جلق ، وشرب موسى بن نصير فاتح الأندلس من ماء نهر جلق فاستعذبه وحكم أنه لم يشرب بالأندلس ماء أعذب منه ، وشبَّه ما عليه من البساتين بغوطة دمشق ، ... ومن متفرجاتها الحلقين ، ووادى الزيتون)(٧٥) .

واشتهرت مدينة أشبيلية بمتنزهاتها ، ومنها مرج الفضة ، والعروس ، والسلطانية ، وشنتبوس. وكانت المتفرجات والمتنزهات مقصدًا للناس فى أعيادهم، وأيام سرورهم ، ويجدون بين خمائلها وطبيعتها الخلابة المتعة والسرور(٧٦) .

واشتهر وادى العسل فى الجزيرة الخضراء بجمال طبيعته وكثرة بساتينه .

* * *

الألعاب التى حظرها المحتسب لما بها من الخداع والاحتيال :

كان للقائمين على الاحتساب دور بالغ فى مراقبة أصحاب الألعاب ، والمشتغلين بألوان اللهو الذى يقوم على الخداع أو السحر ، فسعوا إلى محاربة أصحابها ، ومنهم أهل التخيل : (الذى يظهر أنه شيئًا من غير فعله ويخيل بمثل النواريج(٧٧) وقلب العين ، والسندى(٧٨) الذى يهيج نفسه عن القدر ينهى عن ذلك وإلا أُدِّب(٧٩) .

وينهى السقطى عن ترك المبهرجين والمهذرين يمارسون ألعابهم وحركاتهم إلا فى الشوارع السالكة ، وعند تجمعات الناس(٨٠) .

وكان هناك من أصحاب الألعاب من يستخدم فى ألعابه الحيات والعقارب، ومنهم من يعمد إلى المرآة فيضعها تحت الشمس فتحرق ما تحتها ، ويستغلون ذلك فى خداع السذج من العامة ، فكانوا يمنعون من ذلك(٨١) .

ويبدو أن من الألعاب الشعبية التى عرفت لدى الأندلسيين وخاصة أيام الأفراح والمواسم ما يفعله الصبيان من رش الأسواق والشوارع بالماء ، ليكون سببًا فى تزليق ، الناس والضحك عليهم ، فنهى المحتسب عن ذلك(٨٢) .

ومن بين الألعاب التى نهى المحتسب عنها لما قد تجر إليه من أذى وضرر الألعاب التى يُلعب فيها بالمقارع والعصى فى الشوارع(٨٣) .

الأعياد ومظاهر التسلية والترفيه :

كان من الطبيعى أن يحتفل الأندلسيون بعيدى الفطر والأضحى ، ولكنهم ابتدعوا أعيادًا ومواسم يحتفلون فيها ، ويتخذونها وسيلة للتسلية والابتهاج . وقد زَلَّ كثير منهم فى مشاركة أهل الذمة فى أعيادهم ومناسباتهم ، ومنها عيد يناير ، وفيه يصنعون ألوان الحلوى التى يعملونها على شكل مدن صغيرة ذات أسوار(٨٤).

ومن أشهر المناسبات التى يشارك فيها الأندلسيون النصارى ما يُسمى بعيد العنصرة أو المهرجان ، ويأتى فى اليوم الرابع والعشرين من حزيران ، وهو اليوم الذى زعموا أن يحيى بن زكريا ولد فيه . وقد اشتهر بشعلة النار التى كانوا ينصبونها ويقفزون فوقها . وورد فى أمثالهم الشعبية : (الكبش المصوّف ما يكفز (ما يقفز) العنصرة)(٨٥) .

وفى هذا اليوم يعمد الأطفال والصبيان إلى رش الشوارع والأسواق بالماء ، ويلعبون بالمقارع والعصى ، وكان فى ذلك ما يسبب الأذى للمارة ، فشدد المحتسب على منعه(٨٦) .

وكان الناس يلبسون فى هذا العيد الثياب ذات اللون الأبيض . وكان الفنان زرياب هو الذى سَنَّ هذا اللون لهم(٨٧) .

ويبدو أن هذا العيد ، أو ما يعرف بيوم المهرجان ، كان مشهورًا لدى الأندلسين . وتمدنا كتب الأدب بالكثير من النصوص والأشعار التى نظمها الأدباء والشعراء حول هذا الموسم . من ذلك ما قاله الشاعر أبو بكر الدانى (ت٥٠٧هـ/ ١١٧٤م) واصفًا مشاركة الأسطول الاحتفال بيوم المهرجان :

بشـــرى بيـوم المهرجـــان فإنــه　　　يـوم عليــه مــن احتفــائك رونق
طــارت بنــات المــاء فيه وريشها　　　ريش الغراب وغير ذلك شـوذق(٨٨)

ويقول الشاعر عبد الرحمن بن عثمان الأصم(منتصف القرن الرابع الهجرى):

أرى المهرجــان قــد استبشــرا　　　غــداة بكــى المـزن واستعــبرا
وســربلت الأرض أفوافهــــا　　　وجللت الســندس الأخضــــرا
وَهَــزَّ بـه الريــاح صنابيرهـــا　　　فضــوّعت المســك والعنــبرا
تهــادى بــه النـــاس ألطافهم　　　وســامى المقـلُ بــه المكثـرا(٨٩)

وكان من بين الألعاب التى يمارسها الناس يوم المهرجان سباق الخيل . يقول الشاعر عبد العزيز بن الخطيب وكان مسجوناً فى يوم المهرجان :

رويـدك أيهـا الشـوق المذكّــى　　　لنــــار صبــابتى بالمهرجــــان
لقــد أذكــرت منى غـير نـاس　　　وهجــت لـى الصبابة غـيروان
أيــوم المهرجان أعــذر فحـالى　　　تراهــا فى البـــلاء كما ترانى
ولــو لم يثنــى طبــق وقيــــد　　　لرحت وقيّد لى قصب الرهان(٩٠)

وما من شك أن هذه الأعياد والمواسم ليست مما شرع للمسلمين ، بل تـأثر هؤلاء بأهل الذمة بحكـم المجاورة والاختـلاط . وقـد بلـغ الأمـر بتقليـد النصـارى ومشاركتهم هذه الأعياد مدى خطيرًا نبه الفقهاء والعلمــاء إلى ذلـك ، ودعـوا إلى نبذ هذه العادات وعدم التشبه بالنصارى . ومن هؤلاء العلماء عبد الملك بن حبيب الذى ذم تقليد النصارى . ويحيى بن عمر الذى نهى عن اجراء الخيل ورش الماء فى يوم المهرجان . وأكبر من تصدى لهذا الظاهرة الفقيه محمد بن وضاح الذى صنـف

كتابًا أسماه (البدع والنهى عنها) حمل فيها على مجاراة النصارى وتقليدهم فى أفراحهم وأعيادهم(٩١) .

ومن العادات التى اشتهر بها أهل غرناطة خروجهم فى موسم جنى العنب إلى المنتزهات ، والمروج الخضراء وهم يلبسون أبهى الثياب والأزياء، ويظلون عدة أيام فى نزهة وتسلية مع أخذ الحيطة والحذر من عدوان النصارى عليهم(٩٢) .

وكان لأهل الجزيرة الخضراء جنانًا وبساتين على ضفافه ، وكان مقصدهم للتنزه ونيل أونقات من الراحة والاستجمام(٩٣) .

واشتهرت مدينة غرناطة بمنتزهاتها الرائعة ، وخاصة ما أطلق عليه فحص غرناطة La Vega de Granada . وقد شبه هذا الفحص أو المرج بغوطة دمشق، فوصف بكثرة جداوله وكثافة روضاته وجناته ، وكان فى غاية الجمال والنضارة يقصده الناس للتنزه ، وكان أكثر ذلك فى ليالى الصيف(٩٤) .

وكان أهالى غرناطة يخرجون للتنزه فى موسم نضج العنب ، ويقصدون المروج الخضراء وضفاف الأنهار ، وخاصة نهر شنيل ، الذى ولع الشعراء بوصفه وما عليه من البساتين والرياض ، وفيه قال أبو الحجاج يوسف بن سعيد :

أحنّ إلى غرناطة كلما هفت ... نسيم الصبا تهدى الجوى وتشوق
سقى الله غرناطة كل منهل ... بمنهل سحب ماؤهن هريق
وما شاقنى إلا نضارة منظر ... وبهجة وادٍ للعيون تروق
تأمل إذا أملت حوز مؤمل ... ومُدّ من الحمرا عليك شقيق
وأعلام نجد والسبيكة قد علت ... وللشفق الأعلى تلوحُ بروق
وقد سلّ شنيل فرندًا مهندًا ... نضى فوق در ذُرّ فيه عقيق
إذا نم منه طيب نشر أراكه ... أراك فتيت المسك وهو فتيق

ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ثغـور أقـاح للريـاض أنيـق(٩٥)

ولـو تتبعنـا أمـاكن التـنزه ومواضـع الفرجـة عنـد أهـل الأندلـس لطـال بنـا الحديث؛ لأن بلاد الأندلس - كما سبق - كانت فى مجملها من أجمل البلدان وأخلبها طبيعة ، فلا يعدم أهلها حينـذاك أن يجدوا فـى كـل ناحيـة منهـا موضعًـا يقصدونه للمتعة وجلب السرور .

سرد القصص والحكايات :

ومن وسائل التسلية التـى عرفهـا الأندلسيون سـرد القصـص والحكايـات . وتشير كتب التاريخ إلى ولع كثير من الخلفاء والحكام بالقصص ، فاتخذوا لهـم مـن أربـاب الأخبـار والتـاريخ والأدب مـن يقومـون بسـرد نـوادر الأخبـار وطرائـف الحكايات والآثار . ويهمنا ما يتصل بالأندلس:

ففى العهد الأموى كان الأمراء والخلفاء يقربون فى مجالسهم ومنتدياتهم وأسمارهم أصحاب النوادر والقصص والآثار ، ويقضون معهم سـاعات عديـدة كل ليلة ، يتسامرون ويتذاكرون طرائف الأخبار ونوادر الحكايات والقصص . واشتهر من هؤلاء الذين حظوا بمكانـة لـدى أمـراء بنـى أميـة : يحيـى الغـزال ، وعباس بن فرناس ، وذلك على عهدى الأمير الحكم الربضى وابنه عبد الرحمن الأوسط ، كما اشـتهر الأديـب الفنـان زريـاب بنـوادره وطرائفـه التـى أثـارت إعجاب الأمير عبد الرحمن الأوسط ورعيته(٩٦) .

وعلى عهد الخلافـة الأمويـة كـان الخليفـة النـاصر مولعًـا بالتـاريخ وأخبـار الأوائل ، فأهداه إمبراطور القسطنطينية كتاب أورسـيوس فـى تـاريخ العـالم(٩٧) . وأما ابنه الحكم المستنصر فكان يجد متعته فى قراءة الكتب ومطالعتها ومجالسة أهـل العلم والأدب والتاريخ(٩٨) .

وكان الحاجب المنصور بن أبي عامر (٣٦٦ - ٣٩٣هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٢م) مولعًا بالأدب والنوادر والقصص والحكايات فصنف له الأديب صاعد بن الحسن كتاب " الفصوص " في الأدب ، وفي الحكايات كتابي (الهجفجف ابن عدقان بن يثربي مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف) و(كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء) . وقد أثنى حزم الظاهري على الكتاب الأخير ووصفه بالملاحة ، وأن المنصور كان شغوفًا به حتى رتب له من يخرجه أمامه في كل ليلة(٦٩) .

وألف الأديب حسان بن مالك للمنصور بن أبي عامر كتابًا اسماه (ربيعة وعقيل) وكان سبب تصنيفه أنه دخل على المنصور وبين يديه كتاب من كتب السمر لأحد أدباء المشرق ، فخرج حسان إلى داره واعتكف على تصنيف كتابه المذكور ، فجاء به بعد أسبوع وقدمه للمنصور فكافأه عليه وأجزل صلته(١٠٠) .

وكان من أشهر القصاصين والأخباريين أبو أيوب بن حجاج (ت٣٣٨هـ/ ٩٤٩م) وصف بسعة حفظه للأخبار القديمة ، وبراعته في عرضها ، وحسن سردها(١٠١) . وكان أبو عبد الله الغابي من أحفظ الناس لأخبار أهل الأندلس ، وآدابهم وما دار بينهم من الأخبار والفكاهات ، وكان يفد على الخليفة عبد الرحمن الناصر فيجد لديه كل برٍّ وإكرام(١٠٢) .

ومن الطريف تأثر حكام أسبانيا النصرانية بالعرب في هذا الجانب ، فقد أشار المؤرخون إلى ولع السيد القمبيطور بالقصص العربية ، وكان معجبًا بسيرة المهلب بن أبي صفرة ، وحروبه ، كثير التطلع والسؤال عن أخباره ، وقصصه مع أعدائه(١٠٣) .

وكان القصاصون يتخذون لهم مواضع في الأسواق والساحات . وقد نهى المحتسب بعضهم عن سرد القصص والحكايات التي يسندونها إلى النبي ﷺ ،

وذلك لجهلهم ، وكذبهم ، وزياداتهم ، وأبـاح لهـم أن يـرووا القصـص عـن بنـى اسرائيل(١٠٤) .

ولا يتسع المجـال لسـرد أسمـاء البـارزين مـن القصـاصين وأصحـاب السـير والأخبار، إذ تحفل كتب التراجم بأعداد كبيرة من هؤلاء(١٠٥) .

الخـــــاتمة :

وأخـيرًا فهـذه أبـرز وسـائل التسـلية التـى عرفهـا الأندلسـيون فـى تـاريخهم الاجتماعى . وما من شك فى أن بعض هذه الوسـائل كـانت معروفـة منـذ القـدم عند العرب ، ومنها رياضة الصيد وبعض ألعاب الفروسية كسباق الخيـل والمبارزة وغيرها ، كما أن فيها من الألعاب ما نقله الأندلسيون عن غيرهـم مـن الشـعوب ، ومنها لعبة الشطرنج وهى لعبة فارسية ، نقلهـا العـرب عنهـم أدخلوهـا معهـم إلى الأندلس . ومثل ذلك خيال الظـل وهـى - كمـا مـرَّ - مـن الألعـاب التـى نقلهـا المسلمون عن الصينيين ، ومـن ثـم انتشـرت فـى أقطـار العـالم الإسـلامى ، ومنهـا الأندلس . ولا نعلم على وجه اليقين ما يتصل بتاريخ لعبة بمصارعة الثيران ومـا إذا كان الأندلسيون هم الذين ابتكروها ، أم كان ذلك من تأثير حضارة أخرى . وفى هذا كله ما يدل دلالة واضحة على الامـتزاج الحضـارى الـذى انصهـر فـى بوتقـة الحضارة الأندلسية ، فكان الأندلس - كأى قطرفى الدولة الإسـلامية - صـاحبت حضارته وحياة الأفراد فيه ظواهر اجتماعية مختلفة ، راوحت بـين التـأثر والتأثـير . ومثلما تأثر الأندلسيون بغـيرهم مـن الشـعوب أثـروا أيضًـا فيهـم مـن خـلال أهـم ألعابهم التى اشتهروا بمزاولتها فى المجتمعات والأقطار الأخرى ، ونعنى بها رياضـة مصارعة الثيران ، التى تعد من أشهر الألعاب إن لم تكن أشهرها فى أسبانيا ودول أمريكا الوسطى والجنوبية ، هذا على الرغم من تحفظنا إزاء تلك اللعبة التـى تفتقر إلى الرحمة والشفقة بالحيوان .

وبعد فهذه لوحة اجتماعية أردنا تقديمها عن جانب مهم فى حياة الأندلسيين ، ونمط سلوكهم الفكه ، وطرائفهم المختلفة للترويح عن أنفسهم ، وإبعاد السأم والملل عنها ، وذلك على الرغم من تاريخهم المليء بالأحداث والوقائع المؤلمة ، سواء على مستوى الجبهة الداخلية وما حفل به تاريخ الأندلس من تعاقب الحكام والدول وما تخلل ذلك من قلاقل وفتن ، أو على مستوى الجبهة الخارجية المتمثل فى استفحال القوى النصرانية تحفزها للعدوان .

الهوامش

(١) نذكر فى هذا الصدد أن الحرب التى اندلعت بين عبس وذبيان والتى عرفت بحرب داحس والغبراء كانت سبب اتهام المتسابقين لبعضهم بالغش فى نتيجة السباق بين داحس وهو حصان لقيس بن زهير والغبراء وهى فرس لحذيفة بن بدر (انظر ، ابو عبيدة ، أيام العرب ، جمع وتحقيق عادل جاسم / ١٤٨ وما بعدها .

(٢) انظر الحميدى ، جذوة المقتبس / ٢٨٩ - عبادة كحلية ، تاريخ النصارى فى الأندلس . / ١٧٦

(٣) ابن عبد الرؤوف : آداب الحسبة والمحتسب / ١١٣

(٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحبجى / ١٩٣

(٥) البيان المغرب . ج ٢٢٢/٢

(٦) المن بالإمامة / ٢١٥

(٧) ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ، ٣٤٣

(٨) المصدر نفسه والصفحة حاشية رقم (١) .

(٩) اللمحة البدرية / ٩٠

(١٠) المقرى : نفخ الطيب ج ١٧٤/٧

(١١) يوسف شكرى ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر / ١٣٦

(١٢) الإحاطة ، ج٢ / ٢٥٠

(١٣) السيد عبد العزيز سالم (صور من المجتمع الأندلسى) مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج١٩/٧٢-٧٣

(١٤) ابن عذارى . البيان المغرب ج٢/١٥٩و٢٥٩

(١٥) ابن جلجل ، طبقات الأطباء . تحقيق فؤاد سيد /١٠٧ - ابن حيان ، المقتبس ، ج٥/٤٧١

(١٦) ابن عذارى , البيان الغرب ج ٦٦/٢

(١٧) ابن عذارى . المصدر السابق ج ٦٣/٢

(١٨) السيد عبد العزيز (صور من المجمع الأندلسى) مقال بمجلة الدراسات الإسلامية بمدريد ص٧٢

(١٩) المقر ، نفح الطيب ج ٢٠٨/١

(٢٠) المقرى ، المصدر نفسه ج ١٩٨/١ . وبحر الروم هو البحر الأبيض المتوسط .

(٢١) البرك . جمع البركة . طائر مائى صغير أبيض . انظر (لسان العرب مادة : برك) .

(٢٢) ابن بسام ، الذخيرة ق١ ، ج٦٨٣/٢ والتوديج الفصد انظـر الصفحة المذكـورة ح رقم٤ ، انظر أيضًا وسالة طردية فى صيد الظباء لأبى عبد الله محمد بن الحنـاط فـى خريـدة القصر ج٢٩٧/٢-٢٩٨

(٢٣) انظر السيد عبد العزيز سالم : المقال السابق /٧٢-٧٣

(٢٤) الأصفهانى خريدة القصر ج٢/ ٣٠٢-٣٠٣

(٢٥) السيد عبد العزيز سالم . صور من المجتمع الأندلسى ٧٨

(٢٦) ابن الخطيب ، الإحاطة ج٢١٥/٣ وكان أخوه أحمد مولعًا بالصيد انظر المقرى ، النفح ج٤ / ١٨٠-١٨١

(٢٧) انظر على سبيل المثال المقرى ، أزهار الرياض ، ج٢ /١٠٥-١٠٦

(٢٨) يوسف شكرى ، مرجع سبق ذكره ١٣٦

(٢٩) انظر السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع الأندلسى ٧٤ وما بعدها .

(٣٠) السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع الأندلسى / ٧٩

(٣١) أمين الخولى . الرياضة والحضارة الإسلامية / ٢٨٤

(٣٢) انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٢ / ٧٩

(٣٣) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج٣٢٨/٢

(٣٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ج٢ / ٣٨١

(٣٥) نسبة إلى مدينة أشبونه وهى لشبونه عاصمة البرتغال حاليًا .

(٣٦) ابن بسام ، الذخيرة ق٢ . ج٢ / ٧٨٦ وما بعدها .

(٣٧) انظر لسان العرب . مادة خرق .

(٣٨) بن زهر ، كتاب الأغذية ١١٤

(٣٩) أمين الخولى ، الرياضة والحضارة الإسلامية ٢٧٢

(٤٠) أمين الخولى ، نفس المرجع / ٣٠٠

(٤١) شرح المسعودى ما هية هذه اللعبة وصفتها وآلاتها ، للوقوف على ذلك ، انظر مروج الذهب ج٤ / ٣٢٥

(٤٢) المقتبس . تحقيق محمود مكى ١٨٠ - ١٨١ وما بعدها .

(٤٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ج٣ / ٩٤

(٤٤) ابن بسام ، الذخيرة ق١ ج١ ٢/ ٦٦٧

(٤٥) المراكشى ، المعجب / ١٧٩

(٤٦) ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء / ٥٢٢

(٤٧) ابن أبى صعيبة - نفس المصدر / ٥٣٦

(٤٨) الإحاطة ج٣ / ١٣٤

(٤٩) ابن الخطيب ، الإحاطة ج٢ / ٢٥٠

(٥٠) انظر الزجالى ، أمثال العولم ق١ ، ص٢٥٦

(٥١) السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع التدلسى ، (بحث مبجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد مـ١٩ ١٩٧٦ - ١٩٧٨ ص٧٨

(٥٢) أشار إلى هذا النص د. أحمد مختار العبادى نقلاً عن ابن الخطيب . الإحاطة (نسخة الاسكوريال لوحة ٤٤١) .

(٥٣) انظر أحمد مختار العبادى / مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس ٦/٠ حاشية رقم (١) .

(٥٤) انظر المقرى . نفح الطيب ج ٦/ ٤٥٩ - ٤٦٠ وما بعدها .

(٥٥) المقرى . النفح ج٥ / ٥٣٠ - ٥٣١

عرفت المصارعة بين الحيوانات فى الشرق فيُذكر أن المعتز (منتصف القرن الثالث) الهجرى كان يحب مشاهد العراك بين الحيوانات وكان يدعو ضيوفه لمشاهدة العراك بين الأسد والفيل (انظر آدم متز) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٢/٢٦٤ .

(٥٦) الجريسفى . رسالة فى الحبسة ١٢٣ - ١٢٤

(٥٧) شكرى ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ١٣٧

(٥٨) انظر أحمد عطية الله ، القاموس الإسلامى ج٣ / ٣٠٦ - ٣٠٧ - دائرة المعارف الإسلامية ج٩/٥١-٥٢

(٥٩) ابن بسام . الذخيرة ق١ ج٢/٦٧٧ وانظر ترجمة الأديب ابن الشهيد لدى الحميدى .

الجذوه / ٣٠٢ وقد أشار محقق الذخيرة إحسان عباس إلى أن النص يشير فى الأغلب إلى (خيال الظل) . كما أورده عبد العزيز الأهوانى فى مقالة المنشور بعنوان (على هامش ديوان ابن قزمان ، بمجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ج١٩، ١٩٧٦ - ١٩٧٨م / ٥٤ - ٥٥) .

(٦٠) انظر ابن عذارى،البيان الغرب ج٣/٨٠ وكذلك الزجالى،أمثال العوام ق١/٢٥٤

(٦١) على هامش ديوان ابن قزمان ، بحث بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج١٩ / ٥٥ وأورد محمد ابن شريفة فى تحقيقه لأمثال العوام إشارة إلى زجل ابن قزمان إلاّ أنه لم يربط بين لعبة القليانى وخيال الظل .

ابن قزمان هو أبو بكر محمد بن عيسى عبد الملك أمام الزجالين بالأندلس ولد حوالى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م وتوفى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م (انظر ابن سعيد ، المقتطف من ازاهر الطرف ٢٦٣) .

(٦٢) انظر عبد العزيز الأهوانى على هامش ديوان ابن قزمان ٥٥ - ٥٦

(٦٣) انظر الزجالى ، أمثال العوام ، ق١ / ٢٥٤ حاشية رقم ٦

(٦٤) الزجالى . أمثال العوام . ق١ / ٢٥٢

(٦٥) الأبيات المذكورة أعلاه من بحر الوافر الذى وزنه :

مفاعلتن مفاعلتن فعولن   مفاعلتن مفاعلتن فعولن

وكلمة (ويجرى) دخلها زحاف فنُقلب من مفاعلين وهذا يسمّى [معصم] أما كلمة (وَغَجَرِىُ) فى تستقيم أبدًا مع وزن الأبيات . ولا مع بَحْرِهَا .

(٦٦) أى الجنين الذى ييس فى البطن : انظر لسان العرب ، مادة حش .

(٦٧) انظر محمد بن شريفة . أبو المطرف أحمد بن عميرة ١٩٤ نقلاً عن الرسائل ١٤٩ (محفوظ بالخزانة لعامة بالرباط تحت رقم ٢٣٢) .

(٦٨) الزجالى . أمثال العوام ، ق ١ / ٢٥٣ .

(٦٩) الزجالى . نفس المصدر والقسم والصفحة .

(٧٠) انظر الذخيرة ، ق١ ج٢/٦٥٤ ، الزجالى ، أمثال العوام ق١/٢٥٤

(٧١) رسالة فى آداب الحسبة /٨٣

(٧٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢/٦٠

(٧٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجى ١٠٧

(٧٤) الإدريسى ، نزهة المشتاق ج٢/٥٦٦

(٧٥) المغرب فى حلى المغرب ج٢/٤٣٤-٤٣٥

(٧٦) انظر ابن سعيد ، القدح المعلى ٧٣ - ٧٥

(٧٧) النواريج مفردها النيرج وهو أُخَذٌ تشبه السحر وليست بحقيقة وإنما هو تشبيه وتلبيس (لسان بالعرب . مادة نرج) .

(٧٨) ابن عبد الرؤف ، آداب آداب الحسبة والحتسب ١١٣

(٧٩) الإشارة إلى السندى هنا قد تكون عائدة إلى لعبة معينة أدخلها أحد الهنود إلى الأندلس فعُرفت به ويبدو أنها قريبة مما يعرف فى عصرنا هذا برياضة اليوغا .

(٨٠) رسالة فى آداب الحسبة ٨٣

(٨١) ابن عبد الرؤف . آداب الحسبة والمحتسب ١١٢

(٨٢) الجرسيفى ، رسالة فى الحسبة ١٢٣ - ١٢٤

(٨٣) الجرسيفى ، نفس المصدر والصفحة .

(٨٤) انظر الزجالى . أمثال العوام ، القسم الأول ٢٣٩

(٨٥) الزجالى ، المصدر نفسه والجزء ٢٤٠

(٨٦) الجرسيفى ، رسالة فى الحسبة ١٢٣ - ١٢٤

(٨٧) المقرى ، ج٣/٢٨

(٨٨) المراكشى ، العجب ، المعجب ٢٢٥

(٨٩) الحميدى ، حذوة المقتبس ٢٧٦

(٩٠) الحميدى ، الجذوة / ٢٨٩ وانظر أيضًا أمثلة أخرى لدى الأصفهانى، خريدة القصرج ٢ / ١٣١

(٩١) عبادة كحيلة ، تاريخ النصارى فى الأندلس ١٧٦ - ١٧٧

(٩٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ج١/١٣٨

(٩٣) ابن سعيد ، القدح المعلى /٩٥ وتحفة القادم /٦٨

(٩٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ج١/٩٩

(٩٥) ابن الخطيب المصدر نفسه ج١/١١٧ - ١٣٨

(٩٦) انظر المقريزى : نفح الطيب ج٣/١٢٧ حيث وصفه بأنه (حوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية مام لم يجده أحد من أهل صناعته) .

(٩٧) ابن أبى صيبعة ، عيون الأنباء / ٤٩٣ - ٤٩٤

(٩٨) ابن الأنبار ، الحلة السيراء ج١/ ٢٠٢

(٩٩) الحميدى ، حذوة المقتبس ٢٤٠

(١٠٠) الحميدى ، الجذوة ١٩٦

(١٠١) الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ٣٠٠

(١٠٢) الزبيدى ، نفس المصدر ص ٢٩٠

(١٠٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ق٣ ج١/١٠٠

(١٠٤) ابن عبد الرؤف ، آداب الحسبة والمحتسب ١١٢ - ١١٣

(١٠٥) انظر على سبيل المثال الإحاطة ج٣/٨٥ - ٩٧-١٦٠-١٩٦-٢٢٨ وكذلك ج٢/٧٣ . وأصحاب التراجم المذكورة هناك كانوا فى قرون متأخرة من تارخ الأندلس .

(قائمة المصادر والمراجع)

(١) ابن أبي أصيبعة . (ت ٦٦٨ هـ)

عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا .

دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٦٥م .

(٢) الإدريسى ، محمد بن محمد (ق ٦هـ)

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . مكتبة الثقافة الدينية القاهرة .

(٣) الأصفهانى ، عماد الدين محمد (ت ٥٧٩هـ) .

خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد العروسى وآخرين ، الدار التونسية للنشر ، ط الثالثة .

(٤) ابن بسام ، على بن بسام (ت ٥٤٢ هـ) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٣٩٨هـ .

(٥) الجرسيفى ، عمر بن عثمان (ق ٦هـ) .

رسالة فى الحسبة ، تحقيق ليفى بروفينسال ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسى للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥م .

(٦) الحميدى ، محمد بن أبى نصر (ت ٤٨٨هـ) .

جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس . الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦م .

(٧) ابن حيان ، حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ) .

المقتبس فى أخبار بلد الأندلس . تحقيق عبد الرحمن الحجى . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٥م وكذلك الجزء الذى حققه محمود مكى دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٣م .

(٨) ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيـق محمـد عنـان ج١ ط الثانية ح٢و٣و٤ ط يالأولى مكتبة الخانجى القاهرة .

(٩) الزبيدى ، محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ) .

طبقات النحويين اللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل . دار المعارف ط الثالثة.

(١٠) الزجالى ، عبد الله بن أحمد (ت٦٩٤هـ) .

أمثال العوام فى الأندلس ، دراسـة وتحقيـق د / محمـد بـن شـريفة منشـورات وزارة الدولة المكلفة بشئون الثقافة . مطبعة محمد الخامس بفاس .

(١١) ابن زهر ، عبد الملك بن زهر (ت ٥٥٧هـ) .

الأغذية . تقديم وتحقيق . إكسبيراثيون غارثيا المجلس الأعلى للأبحاث العلميـة معهد التعاون مع العالم العربى ، مدير ١٩٩٢م .

(١١) ابن سعيد ، على بن موسى (ت ٦٨٥هـ) .

(١) المغرب فى حلى المغرب. تحقيق شوقى ضيف. دار بالمعارف ، القاهرة ١٩٦٤م.

(٢) القدح فى التاريخ المحلى . اختصره محمد بن عبد الله بـن خليـل ، تحقيـق إبراهيم الأبيارى ، دار الكتب اللبنانى ، بيروت ط الثانية ١٩٨٠م .

(١٢) ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك (ت ٥٩٤هـ) .

المن بالإمامة ، تحقيق عبد الهـادى التـازى . دار المغـرب الإسـلامى . بـيروت ١٩٨٧م .

(١٣) ابن عبد الرؤوف ، أحمد بن عبد الله (ق ٥هـ) .

رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب . تحقيـق ليفـى بروفنسـال . مطبعـة المعهـد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥م .

(١٤) أبو عبيدة ، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) .

أيام العرب . جمع وتحقيق عادل جاسم . مكتبـة النعضـة العربيـة بيروت ، ط الأولى ١٩٨٧م .

(١٥) ابن عذارى ، أبو عبد الله محمد (ق ٨هـ) .

البيان المغرب فـى أخبـار الأندلـس والمغـرب . ج٢ . تحقيـق ومراجعـة ج.س كولان وليفى بروفنسال . دار الثقافة بيروت .

(١٦) المسعودى ، على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) .

مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق محمد محى الدين عبد الله عبد الحميـد. مطبعة السعادة . القاهرة . ط الرابعة ١٩٦٤م .

(١٧) المراكشى ، عبد الواحد بن على (ت ق ٧هـ) .

المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تصحيح وتعليـق . محمـد سعيد العريـان ومحمد العربى العلمى . دار بالكتاب . الدار البيضاء . ط السابعة ١٩٧٨م .

(١٨) المقرى ، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ) .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق إحســان عبـاس . دار صـادر بيروت ١٩٦٨م .

(١٩) ابن منظور ، جمال الدين محمد .

لسان العرب . دار صادر ، بيروت .

(أ) المراجع :

- **أحمد عطية الله** : القاموس الإســلامى ، ج٢ مكتبـة النهضـة المصريـة القـاهرة ١٩٦٦م .
- **أحمد مختار العبادى** : مشاهدات لسان الدين بـن الخطيـب . مؤسسـة شـباب الجامعة . الإسكندرية ١٩٨٣م .
- **آدم متز** : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابـع الهجـرى . تعريـب محمـد عبـد الهادى أبو ريده . دار الكتاب العربى ، بيروت ط الرابعة ١٩٦٧م .
- **أمين الخولى** : الرياضـة والحضـارة الإسـلامية . دار الفكـر العربـى القـاهرة ١٩٩٥م .

- **عباده كحيلـه** : تـاريخ النصـارى فـى الأندلـس ، المطبعـة الإسـلامية الحديثـة القاهرة ١٩٩٣م .
- **محمد بن شريفه** : أبو المطـرف أحمـد بـن عمـيرة حياتـه وآثـاره ، منشـورات المركز الجامعى للبحث مطبعة الرسالة . الرباط ١٩٦٦م .
- **يوسف شكرى** : غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات الجامعية والنشر ، بيروت ط الأولى .

(ب) الدوريات :

- **السيد عبد العزيز سالم** : صور من المجتمع فـى عصـر الخلافـة الأمويـة وعصـر دويلات الطوئف من خلال النقوش فى علب العـاج ، (بحيـث بمجلـة معهـد الدراسات الإسلامية مدريد ج١٩ سنة (١٩٧٦ - ١٩٧٨م) .
- **عبد العزيز الأهوانى** : على هوامش ديوان ابـن قزمـان (بحـث بمجلـة معهـد الدراسات معهد الإسلامية فى مدريد ج١٩ سنة ١٩٧٦ - ١٩٧٨م .
- **دائرة المعارف الإسلامية** : تعريب أحمد الشنتناوى وإبراهيـم زكـى خورشـيد وعبد الحميد يونس . دار الفكر .

الصرب بين البيزنطيين والبلغار

د. عادل عبد الحافظ حمزة(*)

أصل الصرب :

قيل فى تفسير كلمة " الصرب " إنها ترجع إلى أصل قوقازى هو لفظ "صير" Ser ، بمعنى رجل ، مع إضافة علامة الجمع التى تلحق بآخر الكلمة وهى "بى" ، فتصبح " صربى " : أي " رجال " . وقد ورد اسم الصرب للمرة الأولى فى القرن السادس الميلادى فى كتابات الجغرافى فيبيوس سكويسبوس Vibius Sequespus(١) فى حين يذكر بعض البيزنطيين أن كلمة " صرب " تعنى فى لغة الرومان " العبيد " وأنها باللغة الدرجة " صربولا " Serbula بمعنى الذين يلبسون النعال الحقيرة(٢) ويبدو أن هذا التفسير قد ألحق بالصرب للحط من شأنهم ، فى ضوء خضوع الصرب للبيزنطيين ردحا طويلاً من الزمن .

أما عن أصل الصرب فقد أرجعه كثير من المؤرخين إلى السلاف Slaves الجنوبيين أو اليوجسلاف(٣) . وهؤلاء من العناصر الآسيوية التى تنتمى لمجموعة الشعوب الأوربية القديمة الذين قطنوا المنطقة الواقعة خلف جبال الكربات شمالاً ما بين نهرى الفيزل والدينيير(٤) وينقسم الصرب داخليًا إلى قسمين : صرب يوجسلاف، يبدو أنهم من مجموعة سلافيه تشمل (السلوفان والكروات والصرب والبلغار) ومجموعة الشرق الروسية(٥) غير أن الصرب انشقوا عن السلاف ، وظهروا فى بداية القرن السادس الميلادى فى ألمانيا بمناطق " ماجد بورج " Mageburg وانهالت Anhalt(٦) حيث عاشوا بين نهرى الإلب Elbe والسال

---

* أستاذ مساعد بكلية الآداب – جامعة المنيا .

Sale(٧) ونتيجة لضغط الأقار أوغل الصرب وكذلك الكروات في تراقيا ومقدونيا(٨) .

وكان أن حدث صراع على الميراث بين ولدى رئيس الصرب في أوائل القرن السابع ، فلجأ أحدهما مع أتباعه إلى الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠ - ٦٤١هـ) ليساعدهم في للاستقرار في مكان جديد . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى وجدها فرصة ليستغل هؤلاء ضد الآفار الذين يقلقون الإمبراطورية البيزنطية ، مما يوضح أن هذه الجموع الصربية كانوا في تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم قادرين على صد الآفار بدليل استجابة الإمبراطور البيزنطى لطلبهم(٩) . على أية حال فإن الإمبراطور وطن جزءًا من الصرب في الأماكن التى طرد الآفار منها وخاصة إقليم تسالونيكا Thessalonica ، وفى المنطقة شمالى جبال أو لمبياس Olympus وهى التى أطلق عليه " صربيليا " Serblia . ويتعجب بعض المؤرخين من قدرة هذا المكان على استيعاب تلك الأعداد من الصرب(١٠) وأن كان يمكن القول أن أعداد تلك الجموع لم تتعد بضعة آلاف ، فضلاً عن إن جزءًا منهم فقط هو الذى استقر في المكان الجديد وليس كل الصرب كما سبق القول .

وقد مكث هذا الفريق من الصرب فترة ليست طويلة ثم عاودهم الحنين للعودة مرة أخرى إلى أماكنهم الأصلية حيث بقية بنى جلدتهم يعيشون فيما بين نهرى الألب والسال إلى جانب الهنغاريين ، وذلك في المنطقة التى يطلق عليها اسم بوجكى Bijki المجاورة لكرواتيا التى تسمى البيضاء(١١) . ولكن حدث أثناء عودتهم - عند عبورهم نهر الدانوب - أن عدلوا عن رأيهم ، وفكروا في العودة مرة ثانية إلى أحضان الدولة البيزنطية . لذلك أرسل أميرهم بورجا Porga إلى الإمبراطور البيزنطى هرقل يطلب منه من الصرب منطقة أخرى يستقرون فيها ، فسمح لهم الإمبراطور البيزنطى بالاستقرار في إقليم نسب إليهم وعرف باسم بلاد الصرب serbia بالإضافة إلى عدة مناطق تحمل أسماء الباجانى والزاكلومى

Zachlumi وتربونيا Terbounia والكانـاليت Kanalites وهـذه الأقـاليم كـانت خاليةبعد ما هجرها أهلها من الرومان إمام الزحف السلافى(١٢).

ويبدو كما يرى بعض الباحثين أن الذى كـان قـد دفـع الصربيـين إلى اتخاذ قرار العودة إلى بلادهم هو أن الأرض التـى حـاولوا الاسـتقرار فيهـا كـانت مجدبـة فقيرة وأنهم لم يفلحوا فى أن يعايشوا أهل البلاد الأصليين من اليونانيين فضلاً عمـا ألقى عليهم من بعض الالتزامات ، مما دفعهم إلى الاتجاه نحـو الدانـوب . هـذا مـن ناحية ؛ ومن ناحية أخرى ربما دفعهم إلى تغيير رأيهم عند وصولهـم إلى الدانـوب ، و التفكير فى الاستقرار فى شبه جزيرة البلقان ، أنهم أدركوا أن هناك أرضـا لهـم، وأن أتباعهم وذويهم من القبائل الأخرى استقروا فيها(١٣) .

وهكذا أخذت قوافل الصرب تتجه نحو المناطق الآنفـة الذكـر التـى منحهـم إياها الإمبراطور البيزنطى هرقل فى أوائـل القـرن السـابع الميـلادى . غـير أنهـم لم يقنعوا بما صار تحت أيديهم من بلاد ، وإنما تطلعوا إلى غـرب أوربـا ، شـأنهم فـى ذلك شأن غيرهـم من الشعوب التى استقرت فى شرق أوربا ، مثل الهنغـاريين بعـد ذلك . على أى حال فإن هنــاك إشـارات فـى المصـادر تشـير إلى هجـوم الصـرب خلال القرن الثامن الميلادى على إقليم ثورنجيا سنة ٧٨٢م ، حيث احتكوا بقـوات الفرنجة(١٤) ، التى تصدت لهم وجعلت حركتهم التوسعية تقتصر على شبه جزيرة البلقان . وكان أن استطاعوا فى بدايات القرن التاسع الميلادى احتلال بعض المـدن وتدمير ما قاومهم واعترض سبيلهم ، مثل سـنجو دينـوم Singidunum "بلجـراد " Belgrade وفيمينا سيوم Vimindeum وكوستولان Kostolan على نهر الدانوب، وديوشيا Diociea وتيتـو جـراد Titograd فـى مونتنجـرو Mentenegro وسـالونا Salona التى انقسمت إلى دلـا شـيا(١٥) هـذا بالإضافـة إلى أن الصربيـين فرضـوا سيطرتهم على القبائل السلافية بين نهرى الألب والساله(١٦) واستقروا فـى تلـك المنطقة حيث كونوا دولة يحدها مـن الشـمال الغربـى كرواتيـا Croatia والبوسـنة

Bosnia ومن الغـرب هرسـكجوفينا Hercegovina ومنونتنجـرو ، ومـن الجنـوب العربى البانيا Albania ومن الجنوب مقدونيا ، ومن الشرق بلغاريا ورومانيا ، ومن الشمال المجر(١٧) ، وكانت جبال الألب الديناريه تحوط بلاد الصرب من الغـرب، ومن الشمال جبال الألب الألبانية " بروكلتيـى " Prokletige ، وجبـال شـار فـى الاتجاه الجنوبى الغربى وجبال البلقان فى الشرق ، بالإضافة إلى نهر الدانواب الذى يتدفق من الشمال إلى الجنوب ليفصل بين يوغسلافيا ورومانيا(١٨) ومن ثم تكون دولة الصرب قد امتدت من بلجراد إلى شاطئ البحر الأدرياتى(١٩) .

هذا عن المكان الذى استقر فيه الصرب ، أما عن لغتهم فهى تشـبه إلى حـد كبير اللغـة الكرواتيـه باسـتثناء بعـض اختلافـات لغويـه فـى المفـرادات واسـتخدام الأحرف الهجائية المختلفة . والكروات يستخدمون الحروف الرومانيـة اللاتينـة فـى حين أن الصرب يستخدمون الحروف السيرليه و النصوص الأولى التى وجدت فـى اللغه الصربية والكرواتية يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر الميلادى(٢٠) .

الصراعات الداخلية بين أمراء الصرب :

وهكذا لم يكن ينتصف القرن التاسع الميلادى إلا وكانت الشعوب والقبـائل الصربية قد كونت كيانًا سياسيًا وعسكريًا لها ، وتلقب أميرهم الذى تـولى القيـادة السياسية بلقب زوبان Zupan (٢١) وسرعان ما غدت مجموعة مدن صربيا عامرة بالسـكان ، مثـل دسـتنيكون Destinikon وتزرنـا بوسـكى Tzernabouskei وبجـيرتوس Megyretous ودرسـنيك Dersneik ولسـنيك Lesnik وسـالينس Salines ، وفى إقليم البوسنة Bosona توجد مدن كاتيرًا Katera وغيرها(٢٢) .

ولاشك فى أن هذا المجتمع الصربى الأخذ فـى النمـو والاستقرار قـد واجـه مشاكل سياسية داخلية لعدم استقراره استقرارًا كاملاً مـن ناحيـة ، ووجـود كثـير من الطامعين فيه من ناحية ثانية ، ولتطلع معظم الأمراء إلى السلطة من ناحية ثالثة.

وقد أعقب موت أمير الصرب بورجا Porga ابنه ثم حفيده ، ثم توالى الحكم فى هذه الأسرة واحد بعد الآخر . وقد شهد النصف الأخير من القرن التاسع اشتداد الصراع حول الحكم بين الأبناء بعضهم وبعض ولأخوة والأعمام ، مما أتاح فرصة للبلغار للتدخل فى شئون دولة الصرب .

ويمكن القول أن أمراء البيت الحاكم فى صربيا ، أعطوا الفرصة للبلغار للتدخل ، ومن ثم زاد لهيب الصراع بين أفراد ذلك البيت . ولم يقف الصراع عند هذا الحد ، فقد تدخلت بيزنطة هى الأخرى ليس ضد بلاد الصرب فحسب ، بل ضد التدخل البلغارى أيضًا ، حيث أرسل الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول Romanus 1 من القسطنطينية الأمير زكريا من بريبسلاق بن مونتيمير الصربى لينتزع الحكم من بولس بن برانواس أمير الصرب الذى سانده الأمير سيمون البلغارى ، وبذلك يكون الإمبراطور البيزنطى قد حاول الحد من النفوذ البلغارى فى بلاد الصرب . وهكذا صارت الحرب الأهلية بين أمراء الأسرة الحاكمة فى الصرب ، عبارة عن حرب بين البيزنطيين والبلغار على أرض صربية ، وقد انتهت هذه الحرب ، بانتصار بولس بن برانوس على زكريا بن بريبسلاف ، فسلم الأمير بولس غريمة الأمير زكريا للبلغار الذين أو دعوه فى السجن(٢٣) .

على أن الأمير بولس لم يلبث أن ضاق ذرعًا بالسيطرة البلغارية عليه ، ومن ثم لم يستمر على ولائه للبلغار . وعندما أدرك البلغار ذلك فكروا فى إرسال الأمير زكريا المسجون عندهم وغريم الأمير بولس ، ليحل محله فى صربيا ، وكان أن استولى الأمير زكريا على الحكم فى صربيا بمساندة البلغار لمدة أربع سنوات (٩٢٠ - ٩٢٤هـ) . غير أن الأمير زكريا لم يلبث بدوره أن سئم سيطرة البلغار عليه ، فأراد التخلص منهم . ولما أحس البلغار بذلك رأوا أنه لابد من تعديل سياستهم ، فعينوا على صربيا الأمير تزيسلاف Tzeeslav بن كلوينيمير البلغارى الأم الصربى الأب ، وسليل الأسرة الحاكمة الصربية ، وأرسله الأمير سيمون

البلغارى صحبة جيش بلغارى . وقد دبر الأمير سيمون مؤامرة قبض بمقتضاها على أمراء الصرب كلهم ، وكان من بينهم الأمير تزيسلاف نفسه . أما الأمير زكريا حاكم الصرب ، فقد فر إلى كرواتيا . وقد مكث هؤلاء الأمراء فى بلغاريا بضع سنين إلى أن استطاع تزيسلاف الهروب من بلغاريا ، ودخل صربيا من مدينة بريسلاف واستولى عليها . وعندئذ وجد البلاد وقد هجرها أهلها ، بحيث لم يبق فى صربيا إلاّ عددًا قليلاً من الناس يعيشون على الصيد . ولما كان تزيسلاف له تجارب سابقة مع البلغار ، وعلى يقين من رغبتهم فى السيطرة الجامحة على صربيا، فإنه لم يلبث عندما دخل صربيا أن تخوف من هجوم بلغارى عليه ، الأمر الذى دفعه إلى طلب المساعدة العسكرية من الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول (٩١٩ – ٩٤٤م) على أن يكون تابعًا له . ولاشك فى أنها كانت فرصة عظيمة للإمبراطور البيزنطى ، تمكنه من السيطرة على صربيا وأمرائها ، فأرسل قوات عسكرية لأمير الصرب بريسلاف . وعندما شعر الصربيون الذين فروا من بلادهم إلى بلغاريا وبيزنطة وكرواتيا بسبب الحرب الأهلية من ناحية والهجوم البلغارى البيزنطى من ناحية أخرى بالأمان ، أخذوا يعودون إلى بلادهم صربيا ، فى حين عمل تزيسلاف (٩٢٧ – ٩٥٠) على النهوض بالعمارة فى بلاده وتوطين الصربيين فيها(٢٤) . وبذلك يكون الصراع البيزنطى البلغارى قد أتخذ من بلاد الصرب ساحة له ومن أمرائها أداة لتدمير هذه البلاد وتشتيت سكانها وتخريب ديارهم وإشاعة الفوضى وعدم الاستقرار بين ربوعها .

الصرب والمسيحية :

كانت القبائل الصربية أيا كان مصدر هجراتها وثنية فى أول أمرها ، وخاصة إذا علمنا أن تحرك هذه القبائل بدأ غالبا قبل القرن السادس الميلادى ، فى وقت لم تكن المسيحية قد انتشرت انتشارًا واسعًا فى شرق أوربا . وبعبارة أخرى فإن القبائل الصربية التى استقرت فى الإمبراطورية البيزنطية أوائل القرن السابع

الميلادى أبان عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) كانت وثنية ، ولم تكن قد اعتنقت المسيحية بعد(٢٥) وقد دفع ذلك الإمبراطور إلى أن يطلب من روما إرسال مبشرين لتنصير الصربيين وليشرحوا تعاليم المسيحية وجوانبها(٢٦) .

وهكذا أخذت الإمبراطورية البيزنطية على عاتقها القيام بعملية تنصير الصرب واستمرت هذه السياسة بعد عهد الإمبراطور هرقل ، إذ يشير بعض المؤرخين إلى أن هناك محاولات فى هذا الصدد بذلت من قبل الإمبراطورية البيزنطيه فى عهد الإمبراطور باسيل الأولى Basil 1 (٨٦٧ - ٨٨٦م)(٢٧) ، وقد واكب ذلك فترة حكم أمير الصرب مونتيمير Montimer الذى اعتنق المسيحية على المذهب الأرثوذكسى عام ٨٧٩(٢٨) . وبذلك أخذت المسيحية تشق طريقها فى المجتمع الصربى خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد(٢٩) وكان أن أخذت الكنائس تظهر فى صربيا اعتبارًا من عهد راستكو Rastko الذى عرف بالقديس سافا Sava ، حيث أسس سنة ١٢١٩م كنيسة أرثوذكسية تحمل اسمه(٣٠) ، وعين نفسه أول أسقف لها ، فضلاً عن تأسيسه عددًا من الأسقفيات الجديدة بعد ذلك(٣١) وكان للقديس سافا طائفة ربطت المسيحية الصربية بالمراكز الدينية التى زارها ، وهى جبل أثوس Athos ، والقدس ، والقسطنطينية، و" ترنوفو " Trnovo وعند وفاته نقل رفاته من بلغاريا إلى الدير الملكى فى ملسيفا Mileseva بصربيا عام ١٢٣٧م(٣٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن صربيا أخذت بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسى ولم يتهاون أمراء صربيا ضد كل من حاول أبعاد الصربيين عن الأثوذكسيه ، وليس أدل على ذلك مما ورد فى الدستور الذى وضعه ستيفن دوشان (١٣٣١ - ١٣٥٥م) بشأن معاقبة كل من يحاول تحويل الرعايا الأرثوذكس إلى البدعة اللاتينية (الكاثوليكية) كذلك الزواج بين الأرثوذكس وأنصاف المؤمنين ، يعنى الكاثوليك . ولا شك فى أن هذا الاتجاه يحمل بين ثناياه

عداء بين ستفن دوشان والبابوية . غير أن هذا العداء كان لا يبدو إلا فى أوقات السلام الصربى فقط ، أما إذا توترت العلاقات بين الصرب والبيزنطيين فإن ستيفن كان يمالئ البابويه(٣٣) على أية حال فإن ستيفن دوشان بذل جهدا كبيرًا لدعم المسيحية الأرثوذكسية الصربية وحسبه أنه أنشأ البطريركيه الصربية(٣٤) .

ولا شك فى أنه بالإضافة إلى جهود أمراء صربيا فى نشر المسيحية بين الصرب لا ننسى دور البيزنطيين فى هذا المضمار . وقد حرصت الدولة البيزنطية على إرسال البعثات التبشيرية إلى صربيا خوفًا من تغلغل النفوذ الدينى البلغارى فيها ، لما هناك من عداء مستمر بين البيزنطيين والبلغار ، وعليه فقد انتشرت المسيحية الأرثوذكسية فى صربيا(٣٥) .

علاقة الصرب بالبيزنطيين والبلغار :

كان للصرب منذ وقت مبكر أطماعهم التوسيعه على حساب جيرانهم مما أوقعهم فى صدام مع هؤلاء الجيران ، وهو ما يشير إليه التاريخ فى موقف شار لمان منهم وسيطرته على بعض القبائل الصربية(٣٦) ويغلب على الظن أن قوات شارلمان لم تصل إلى بلاد الصرب إلا فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، وذلك بعد أن هاجمت بعض القبائل الصربية إقليم ثورنجيا عام ٧٨٢م(٣٧) .

كذلك حدث صدام بين الإلمان وأقوى قبيلة صربية وهى اللوساكيين Luscians (٣٨) ، كما أصطدم التشيك Czechs بالصرب(٣٩) .

وهناك بعض المؤرخين ذكر أن السكسون هجموا على الصرب فى بلادهم فى ربيع سنة ٩٢٩م تقريبًا ، وخاصة على قبيلة الدالمنيزى Daleminzi الصربية(٤٠) .

هذا فيما يخص المناوشات التى حدثت بين الصرب وبعض القوى الغربية . ومن الواضح أنها لم تستمر طويلاً ، وإنما كانت عبارة عن هجمات خاطفه من

الجانبيين ، فهى إذا كانت من جانب الصرب فهى على ما يبدو بهدف البحث عن مكان للاستقرار ، أو البحث عن غنائم ، أو وضع اقتصادى أفضل . وإذا كانت الهجمات من جانب القوى الأوربية الغربية سواء من الفرنجة أو التشيك أو السكسون فهى فى الغالب لاحتواء قبائل الصرب حتى لا تقلقها أو لأسكاتها حتى لا تكرر هجماتها .

أما علاقة الصرب بالدولة البيزنطية والبلغار فقد اختلفت اختلافًا بينًا . ويبدو إن الصرب عاشوا فى وئام مع الإمبراطورية البيزنطية بعد عصر هرقل خلال القرون السابع والثامن والتاسع للميلاد . وانتهج الصرب نفس السياسية تجاه البلغار ، بل كانت هناك - أحيانًا - صداقة قائمة بين الطرفين لأنهما سويا يخشون قوة الإمبراطورية البيزنطية(٤١) .

والذى لا شك فيه هو أن قوة الصرب أقل بكثير من قوة البلغار ، الأمر الذى كان يدفع الصرب إلى التودد للبلغار ، ولكن البلغار كانت لهم أطماع سياسية فى بلاد الصرب ، أدناها إخضاع أمراء الصرب للسيطرة البلغارية ، ومن ثم فإن هناك محاولات بذلت من جانب البلغار لتنفيذ مخططاتهم ضد الصرب . وبدأت أولى هذه المحاولات فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى فى عهد أميرهم برسيام Persiam (٨٣٦ - ٨٥٢م) إذ شنوا حربًا ضد الصرب استمرت قرابة ثلاث سنوات ، وكان أمير الصرب عندئذ هو بلاستيمير Blastimer . غير أن البلغار لم يتمكنوا من الانتصار على الصرب بل حلت بهم الهزيمة ، وبالتالى ذهبت أمال البلغار تلك المرة أدراج الرياح فى محاولة الاستيلاء على بلاد الصرب . ثم كرر البلغار المحاولة مرة أخرى عندما استغلوا الانقسام الأسرى الذى ساد بين الأمراء فى بلاد الصرب والذى نشب بين أولاد بلاستيمير الثلاثة بعد وفاة والدهم، فزحف الأمير البلغارى ميخائيل بوريس Michael Boris بن برسيام لتحقيق آمال والده فى بلاد الصرب وينتقم منهم ، لكن الصرب هزموه هزيمة ساحقة ، وأسروا

ابنه فلاديمير Vladimer . وعندئذ لم يكـن أمـام أمـير البلغـار ميخـائيل إلا التفكـير جديًا فى أمرين هامين هما ؛ إطلاق سراح ابنه من الأسر ، والخروج بجيشـه سـالمًا من بلاد الصرب . لذلك طلب من أمير الصرب مونتيمير أن يفـك أسـر فلاديمـير ، ويحميه بقواته حتى يخرج من بلاد الصرب ، بالفعل أرسل مونتيمير ولديه بوريـنـاس Borenas وستيفن Stephen ليصحبا الأمير البلغارى ميخائيل وجيشه إلى أن غـادر بلاد الصرب ، ووصل إلى بلاده آمنًا . ويبدو أن الأمير البلغارى اعتبر مغادرته بلاد الصرب دون المساس به وبقواته جميلاً أسداه له الأمير الصربـى . وليـس أدل علـى ذلك من إرساله الهدايا الفاخرة للأمير الصربى مونتيمير الذى اعتقد أن ما فعله أمير البلغار يعبر عن صفاء سماء العلاقات بينهما ، وأن ذلك إيذانًا بفتح صفحة جديـدة بينهما . والدليل على ذلك أنه رد على هدايا الأمير البلغارى بإرساله ثمانيـة عشـرة قطعة من الفراء وكلبين وصقرين وعبدين له. غير أن الأمير البلغارى ومن معه مـن أمراء البلغار اعتبروا هذه الهدايا تعبيرًا من أمير الصرب عن ولائـه وخضوعـه لأمـير البلغار ، أى أنها بمثابة إتاوة(٤٢) . على أية حال ترتب علـى هـذا توطيـد العلاقـة بين الصرب والبلغار ، ووصل الأمر إلى زواج الأمير الصربى كلونيمـير Klonimer بن ستروعير من امرأة بلغاريه ، أنجب منها تزيسلاف Tzeaslav (٤٣) .

ومهما يكن من أمر هذه الفترة من العلاقات الصربية البلغارية ، فـإن حكـم الأمير الصربى بطرس بن جوينيكوس بن بلاستيمير (٨٩٢ - ٩١٧م) عاصر فترة حكم كل من الأمير البلغارى سـيمون (٨٩٣ - ٩٢٧م) والإمـبراطور البيزنطى ليو السـادس Leo VI (٨٨٦ - ٩١٢م) . ويذكـر بعـض المعـاصرين أن الأمـير بطرس الصربى من جانبه ناشد السلام مع الأمـير البلغـاري سـيمون ، كمـا دان - بطرس - بالولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطى ليو السادس . غـير أنـه حـدث بعـد وفاة الأخير وإعلان الوصاية على الإمـبراطور القـاصر قسـطنطين السـابع، أن جـاء الحاكم العسكرى البيزنطى لإقليم دايرًا كيوم ، وكان يدعى ليـو رابدوكـوس Leo

Rhabduchus إلى إقليم باجانى الصربى لينافس الأمير بطرس حول بعض الموضوعات . وقد أزعج ذلك مخيائيل أمير زاكلومى (٩١٣ - ٩٢٦م) ، فكتب إلى الأمير سيمون البلغارى يذكر له أن الإمبراطور البيزنطى أرسل إلى الأمير بطرس الصربى يطلب منه مساعدة الصرب للهنغاريين(٤٤) لمحاربة البلغار. ولا شك فى أن ذلك أدى إلى استياء الأمير البلغارى من المكائد البيزنطية ضده ، الأمر الذى ترتب عليه حدوث معركة بين البيزنطيين والبلغار فى ٢٠أغسطس ٩١٧م عرفت بمعركة أخيلو Achelo . ولم يكتف الأمير سيمون البلغارى بهذا بل وجه جهوده العسكرية ضد الأمير بطرس الصربى فأرسل جيشًا بقيادة سيجر يتيس تيودور Sigritzis Theodor ومارمياس Marmais سنة ٩٢٠م . وكانت خطة الأمير البلغارى تستهدف خلع الأمير بطرس من بلاد صربيا وتعيين أمير صربى موال للبلغار ويكون على عداء مع بطرس . وقد وجد البلغار ضالتهم المنشودة فى الأمير الصربى بولس بن برانوس بن مونتيمير بن بلاستيمير الذى كان بطرس قد سمل عينى والده وحتى لا يلجأ البلغار إلى حرب طاحنة مع الصرب تكون نتيجتها الفشل كما سبق ، لجأ البلغار إلى الحيلة والخداع ضد الأمير الصربى بطرس ، فأظهروا له أنهم أصدقاء منذ القدم ؛ وأن هناك روابط ودلائل تشير إلى ذلك ، ولا داعى للتخوف منهم . وبالفعل اطمأن الأمير بطرس تمامًا وقابلهم . وعندئذ خانوا القسم الذى اقسموه على أنفسهم بأنهم لن يخونوه وتنصلوا من تعهداتهم، فقبضوا عليه وخلعوه من الحكم وعينوا بدلاً منه أميرهم الصربى بولس الذى جاءوا به من بلغاريا . أما بطرس فقد أخذه البلغار وسجنوه عندهم حتى مات وهو فى السجن(٤٥) .

وإزاء هذا التدخل البلغارى السافر فى صربيا ، لم تستطع بيزنطة الوقوف مكتوفة الأيدى . فإذا كانت بلغاريا قد فرضت أميرًا صربيًا من قبلها على صربيا ، فإن معنى ذلك الحد من النشاط البيزنطى فى المنطقة أمام انتشار النفوذ البلغارى .

وهـذا مـا لا تحتمله بيزنطـة : وإمـام هـذه الأعمـال البلغارية فـى صربيـا ، قـام الإمبراطور البيزنطى روما نوس الأول (٩١٩ - ٩٤٤م) بإرسال الأمـير الصربـى زكريا بن بريبسلاف بن مونتيمير بـن بلاستيمير الـذى كـان مقيمًـا فـى بيزنطـة ، مؤيدًا عسكريًا منها ليحارب الأمير الصربى بولس المعين من قبـل البلغـار ، ودخـل الأميران فى صراع انتهى بانتصار الأمير بولس على الأمير زكريـا المدعـم بمسـاعدة بيزنطية ، وأسره وسلمه لبلغار الذيـن أخـذوه والقـوا بـه فـى السـجن مثلمـا ألقـوا بيطرس من قبل(٤٦) .

لقد حكم بولس بلاد الصـرب ثـلاث سنوات تحـت رعايـة البلغـار ، لكنـه ضاق ذرعًا بالتدخل البلغارى وأعلن العداء لهـم . ولم ينتظـر البلغـار حتـى تتدخـل بيزنطة ، وتسـتغل هـذا العـداء ، لـذا أرسـلت بلغاريـا الأمـير الصربـى زكريـا بـن بريبسلاف المسجون عندها ، وقد سبق أن أرسله بولس أسيرًا إليها . على أية حال تمكن زكريا هذه المرة بفضل المساعدة البلغارية من الأنتصـار علـى بولـس وهزيمتـه وطرده من صربيا . وغدا زكريا أميرًا على الصرب تحت السـيطرة البلغاريـة (٩٢٠ - ٩٢٤م) . وفى الصدام بين البيزنطيين والبلغار قرر الأمر زكريا الوقوف إلى جانب الإمبراطور البيزنطى ، فأخذ يرسل المبعوثين إلى أباطرة الإمبراطورية البيزنطيـة أثنـاء حكمه لصربيا تحت رعاية البلغار ، وكافة رسائله إلى الإمبراطور البيزنطى تشير إلى طلب التبعية والخضوع لبيزنطية(٤٧) .

وإذا لم نسلم بما أوردة قسطنطين بورفيجنيتـوس عـن طلـب الأمـير الصربـى الخضوع لبيزنطة ، فإن بيزنطة كانت تتحين الفرصة - بلا شك - للسـيطرة علـى صربيا من حين لآخر . وأيما كان الأمـر أمـام العـداء الـذى أعلنـه الأمـير الصربـى زكريا للبلغار ، كان على أمير البلغار سيمون أن يضع حدا لسياسة الأمير زكريـا . ولم يكن أمامه غير الخيار العسكرى ، لأن البلغار لا ينظرون إلى الصرب بوصفهـم أندادا لهم ، وإنما هم إتباع . ولذا فإنه لم يكن هناك مجال للمفاوضات السياسـية .

وكان الحل الوحيد أمام البلغار هو إخضاع الصرب وأميرهم بالقوات العسكرية . وللمرة الثانية فى عهد سيمون أرسل جيشًا على رأسه ثلاثة من القادة ، يصحبهم أمير صربى هو تزيسلاف ، البلغارى الأم ، الصربى الأب . وهذه القوات فاقت فى عدها وعتادها مقدرة الأمير زكريا العسكرية ، ولذا لم يستطيع الصمود أمامها ففر إلى كرواتيا . ومرة أخرى خضع أمراء الصرب إمام وعود البلغار وخرجوا إليهم ، فقبض عليهم البلغار جميعًا بمن فيهم تزيسلاف نفسه سنة ٩٢٤م تقريبًا ، بالإضافة إلى كثير من أهالى صربيا ، وأخذوهم أسرى . أما الباقون من الصربيين فقد فروا إلى كرواتيا وراء الأمير زكريا ، وتركوا صربيا خاوية ، شبه خالية تمامًا من السكان . وتماديا من البلغار فى قطع الطريق على زكريا وإتباعه من الصرب الذين فروا إلى كرواتيا ، فقد أمر سيمون بإرسال فرقة عسكرية إلى كرواتيا لقتالهم، وحتى لا يفكر الأمير زكريا فى الاستغاثة بهم والعودة إلى صربيا مرة أخرى(٤٨) .

أما تزيسلاف الأمير الصربى الذى كان من المنتظر أن يعينه البلغار أميرًا على صربيا فقد جاءوا به معهم ثم خدعوا به أمراء الصرب وأسروهم جميعًا وهو معهم. وقد عاش بعد ذلك قرابة سبع سنوات فى بلغاريا يتحين الفرصة للعودة إلى بلاده أميرًا . و لم يكن فى إمكان تزيسلاف تحقيق هذا الهدف فى ظل وجود أمير البلغار سيمون لما له من شكيمة ، لذلك ما أن مات الأخير سنة٩٢٧م(٤٩) ، حتى هرب تزيسلاف من بلغاريا ومعه أربعة رجال ودخل صربيا من مدينة بريسلاف ، فاستولى على هذه المدينة . وقد خشى من هجوم بلغارى جديد على الصرب ، ولذا استغاث بالإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول ، وطلب منه قوات عسكرية بيزنطية للمساعدة ، مقابل قيام الأمير تزيسلاف بإعلان التعبيه والولاء للإمبراطور البيزنطى ، بحيث يكون خادمة الأمين ورهن إشارته ، مثلما فعل أمراء الصرب الأولين . ولا شك فى إن هذا كان كل ما يتمناه الإمبراطور البيزنطى ، فاستجاب

للأمير الصربى وأرسل إليه ما أراد من عون عسكرى ، وبذلك أصبحت صربيا فى حماية البيزنطيين . وكان بدأت صربيا مرحلة جديدة فى طريق استقرارها ، وأخذ أهالى صربيا الذين فروا منها إلى كرواتيا ، وأسرهم البلغار أو أستأ منهم الإمبراطور البيزنطى فى إمبراطوريته ، يعودون إلى صربيا . ومن ناحيته بدأ الأمير الصربى تزيسلاف (٩٢٧ - ٩٥٠م) يعمل على تعمير صربيا وتنظيمها مستغلاً ما أرسله إليه الإمبراطور البيزنطى من معونة وهدايا فاخرة وثمينة(٥٠) .

ومن هنا فإن صربيا وتوابعها مثل راسكيا Rascia وليم The Lim وإيبار Ibar وزيتا Zeta وزاكلوميا وباجانى وغيرها ، ظلت فى حماية الإمبراطورية البيزنطية حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى(٥١) إلى أن ظهر أمراء صربيون أقوياء أخرجوا أنفسهم من التبعية البيزنطية التى فرضها أمراء صربيا السابقون عليها(٥٢) مثل راسكيا التى أعلنت الحرب على الإمبراطورية البيزنطية للتخلص من الخضوع لها . وقد وقفت هنغاريا بجوار راسكيا ضد بيزنطة ، الأمر الذى ترتب عليه قيام أباطرة الإمبراطورية البيزنطية من أسرة كومنين بأنفسهم بحملات عسكرية ضد هنغاريا لمساعدتها المدن الصربية للتحرر من السيطرة البيزنطية . وأبان هذه الحركات التى قامت بها المدن الصربية ضد بيزنطة ، لجأ البيزنطيون إلى عزل أمراء الصرب ، وتعيين غيرهم موالين لبيزنطية ، لكن هذا الأسلوب وغيره مما أتبعته بيزنطة مع الصرب لم يكن ناجحًا ، فإذا رجعت القوات البيزنطية إلى بلادها سرعان ما انقلب الصرب ثانية ضد بيزنطة(٥٣) .

وعندما تولى عرش صربيا الأمير ستيفن ثيمانى Stephen Temani (١١٦٧ - ١١٩٦م) حاولت الإمبراطورية البيزنطية فرض سيطرتها على صربيا ، فاستغلت النزاع الذى ساد بين أمير صربيا وأخواته ، وشجعتهم على تقسيم صربيا ، وحصل ستيفن على نصيبه ، فزادت مكانته وأصبح هو الأمير الأكبر (الزوبان الكبير) . وعندئذ عمل على التخلص من السيطرة البيزنطية ، لكن

الإمبراطور البيزنطى ما نويل كومنـين (١١٤٣-١١٨٠م) Manuel Comnenus لم يتركه يهدأ بذلك ، إذ قام بحملة ناجحة على بلاد الصـرب أخضـع بهـا ستيفن ثيمانى ، وأعلن تابعا له عام ١١٧٢م(٥٤) .

وقد احتفل بذلك الإمبراطور مانويل كومنـين عنـد دخولـه القسـطنطينية(٥٥) ، ولكن وفاة الأخير عام ١١٨٠م كان نكبة على الإمبراطوريـة البيزنطيـة ، إذ زادت هجمات الهنغاريين والنورمان عليها ، وسـعت بلغاريـا إلى التخلـص مـن السيطرة البيزنطية . وفى نفس الوقت كان فردريك الأول يخترق بحملتـه الصليبيـة الأراضـى البزنطية فى جو من سـوء تفـاهم بينـه وبـين الإمـبراطور البـيزنطى إسـحق الثـانى انجليوس Isac Angelus (١١٨٥ - ١١٩٥م) وأمام هذا الوضع لم يـترك ستيفن ثيمانى هذه الفرصة تمر مد يده ، فهو لم يعمل على التخلص من السيطرة البيزنطيـة فحسـب ، بـل عمـل علـى توسيع أمـلاك الصـرب علـى حسـاب الإمبراطوريـة البيزنطية، إذ استولت راسكيا على بعض المناطق ، وخاصة ما تبقى من إمارة "زيتا" وكذلك المـدن السـاحلية مثـل سـكوتارى Scutari وبـار Bar وأولسينى Ulciny وكوتور Kotor (٥٦) ويضيف بعـض المؤرخـين أن ستيفن ثيمـانى استغل قـدوم الإمبراطور فردريك الأولى بحملته الصليبية إلى الشرق ، وأعلن الترحيب به وقدم له المؤن من شعير ودقيق وأغنام وبقـر ، وهدايـا عبـارة عـن " فـرس البحـر وخنـازير وثلاثة غزلان حيه متوحشه " ، كما وزع على كل أمير مجموعة من المؤن والخمـر واللحم(٥٧) وقد فسر بعض المؤرخين هذا الموقف من أمير الصرب تجاه الإمبراطور الألمانى بأنه نكاية فى الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى انجليوس ، وإنه ربما يكـون الأمير الصربى قد طلب المساعدة العسكرية من الإمبراطور الألمـانى فردريـك الأول ضد الإمبراطور البيزنطى(٥٨) .

ولم يقف الإمبراطور البيزنطى مكتوف الأيدى أمام تصرفـات الصـرب تجـاه الدولة البيزنطية واستغلالها الأوضـاع التـى أضحـت فيهـا ، فشـن حربًـا ضدهـم ،

وتقابل مع الصرب على نهر مورافيا Moravia سنة ١١٩٠م فهزمهم وأجبرهم على طلب السلام والتخلى عن المكاسب التى حققوها على حساب البيزنطيين . ولم يكن من السهولة بمكان على الصرب تقبل شروط الإمبراطور البيزنطى ، إذ كان ما استولوا عليه خلال عشر سنوات يصعب التخلى عنه غداة معركة واحدة، ولذا ظلت مساحات كبيرة من الأراضى البيزنطية تحت السيطرة الصربية . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى آخذ يدرك مدى قوة الصرب ، فلم تعد صربيًا هى تلك المناطق والشعوب التى تسعى للحماية البيزنطية الآن كما كانت من قبل فى عهد هرقل أو رومانوس الأول . وصار على الإمبراطور البيزنطى أن يعيد النظر فى علاقته بالصرب ، ولذا لجأ إلى تحقيق كسب سياسى عن طريق المصاهرة مع الصرب بحيث تتزوج ايودكيا Eudocia ابنة الكسيوس انجليوس Alexius Angelus من ستيقن بن ستيفن ثيمانى(٥٩) .

ومهما يكن من أمر ، فإن ستيفن ثيمانى أمير صربيا تنازل عن الحكم سنة ١١٩٦م لابنه ستيفن الثانى (١١٩٦ - ١٢٢٧م) . وكان ستيقن الأول يعتقد أنه بذلك العمل ستسود العلاقة طيبة بين الصرب والإمبراطورية البيزنطية لما بينهما من صلات نسب ، وقد أقر ابنه ستيقن ليحقق هذا الغرض ، فى حين أن الأمير ستيفن الأول أقر ابنه الأكبر فوكان Vukan على المقاطعات الصربية البحرية التى كانت بيده مثل زيتا Zeta وتريبنى Trebinge . ولا شك فى أن حرمان الابن الأكبر من تولى العرش قد أدى إلى نزاع أسرى استعان فيه فوكان بالهنغاريين وستيفن الثانى بالبلغار ، وبالتالى تدخلت القوى الخارجية فى مشاكل صربيا الداخلية من جديد ، مما اضطر الأخوان فوكان وستيفن الثانى للانسحاب إلى المناطق البحرية . وعلى الرغم من أن البلغار ساعدوا ستيفن الثانى فى استعادة العرش ، إلا أن الأخوين توصلا إلى سلام ، وبذلك قدر صربيا أن تفيق من هذه الاضطرابات الأسرية ، وأخذت تلعب دورًا جديدًا على الساحة البلقانية فشنت

حروبًا على خلفـاء الأمـس (بلغاريـا وهنغاريـا)(٦٠) ، وأصبح الطريـق مفتوحًـا أمامهم ناحية الامبراطورية البيزنطية ، بعدما سقطت بيزنطة عام ١٢٠٤م فى أيدى اللاتين ، وبذلك انزاحت هذه القوة التى ظلت جاثمة على قلب صربيـا ردحًـا مـن الزمن(٦١) . و لم تفلح صلة النسب بين الصرب والبـيزنطيين فـى توطيـد الصـلات الطيبة بينهما ، إذ تعددت القوى السياسية فى البلقان ، وطمعت فى السيطرة علـى صربيـا . وشـكل حلـف ضـم كـل مـن الإمـبراطور اللاتينـى هـنرى أف فلانـدرز Henry of Flanders فـى القسـطنطينية والإمـبراطور البلغـارى " بوريـل " Boril وحاكم ابيروس Eprius ميخائيل الأول Michael I . و لم يكن أمام ستيفن الثـانى الصربى إلا الصمود أمام هذا الحلف فى المنطقة ، حتى تمكن مـن صـده ، وأوقـف خطره على الصرب . وإن دل هذا على شيئ فإنما يدل على مكانة صربيا فى عهـد ستيفن الثانى بصفة خاصة وفى القرن الثالث عشر بصفة عامة(٦٢) .

ومن هنا يمكن القول أن علاقات صربيا بالدولة البيزنطية والبلغار تأثرت إلى حد كبير بوضع صربيا فى منطقة البلقان وسط القوى السياسـية المحيطـة بهـا . و لم تقتصر علاقات صربيًا على هاتين القوتين فحسب ، بل تعددت علاقاتها بكثير من القوى فى غرب أوربا كما رأينـا ، وبعـد سـقوط بيزنطـة فـى أيـدى اللاتـين عـام ١٢٠٤ م ، صار لصربيا علاقات مع أبيروس Epirus ونيقيـة Nicaea ، وأحيانًـا مع هنغاريا Hungary فضلاً عن الأنجويين Angevins فى صقلية ونابلى(٦٣) .

الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية :

عندما استقرت القبائل الصربية فى منطقة البلقان ، كان من الصعـب عليهـا فى البداية التخلص من الأوضاع القبلية العشـائرية التـى ألفهـا الصـرب . ويصـف البعض نظام الصرب عندئذ بأنه نظام عشائرى ديمقراطى ، يرتبط بالمصالح المباشـرة لقبيلة أو عشيرة معينة . و لم يكن لدى القبيلـة إحسـاس قـوى بـالوحدة أو المصـالح المشتركة بينهما وبين القبائل الأخرى ، الأمر الذى أدى إلى إشاعة جو من الفوضى

ترتب عليهم ضعفهم بالرغم من كثرتهم العددية (٦٤) . وبطبيعة الحال لم يستمر هذا الوضع القبلى لدى الصرب بعد استقرارهم . ويرجع ذلك إلى الاحتكاك بينهم وبين البيزنطين ، إذ بدأ التأثير البيزنطى تظهر ملامحه على المجتمع الصربى ، خاصة بعد توزيع الأراضى التى استولى عليها الصرب من أصحابها الأصليين ، مما ترتب عليه أن أصبح الصرب هم أصحاب الأرض ، وغدا أصحابها الأصليون عبيدًا لهم(٦٥) .

يضاف إلى ذلك أن القبائل الصربية تجمعت فيما بينها وعملت اتحادات فيداراليه Plemes ، ثم تحولوا إلى ولايات تحت رئاسة صغار الأمراء " الزوبان " إلى أن خضعت لسيطرة الأمير الكبير " الزوبان الكبير " فى القرن العاشر الميلادى(٦٦) ولعل هذا الوضع الذى أضحى فيه المجتمع الصربى دفع بعض المؤرخين إلى وصفة بأنه كان " شبه إقطاعيات زراعية صغيرة "(٦٧) .

و لم يقف التأثر الصربى عند هذا الحد ، بل أخذ التاثير البيزنطى يضرب بجذوره فى المجتمع الصربى ، فيطور البلاط بحيث غدا يضم طبقة النبلاء من الرؤساء والكونتات أو البارونات ، فضلاً عن هيئة مبجلة وغنية من رجال الكنيسة(٦٨) ، ويتضح ذلك خاصة فى راسيكا Rascia إذ كان البلاط يتكون من ممثلى الطبقة الاستقراطية والمسئولين الحكوميين ورجال الدين ، ويجتمعون مع الأمير فى المناسبات الرسمية مثل التتويج - أو اصدار القوانين الجديدة أو تعيين رؤساء أساقفة أو تأسيس دير(٦٩) .

هذا فيما يخص بعض الملامح العامة للجانب الاجتماعى عند الصرب . أما الجانب الثقافى ، فقد أجمع كثير من المؤرخين على أن ثقافة صربيا لم تبدأ إلاّ فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى(٧٠) وأن جانبًا من هذه الثقافة تأثر بالتراث السلافى الذى طوره البلغار ونقلوه إلى الصرب وغيرهم(٧١) . غير أن الجانب الأكبر من هذه الثقافة كان بيزنطيًا ، وخاصة فى المناطق القريبة للدولة ، على

الدانوب وسافا Sava وفى مونتنجرو Montengro (الجبل الأسود) ودلماشيا والبوسنة وراسيكا وعلى حافة فاردار Vardar عن طريق مقدونيا - ومنطقة مورافيا Moravia(٧٢) ، وهناك تأثير قوى فى حوض نهر ايبار Ibar وسهل كوسوفو Kosov . وعلاوة على ذلك فإن المناطق الصربية من الادرياتيكى تأثرت بالغرب فى الناحية الفنية فقط . ومن المناطق التى تأثرت بها صربيا فى هذا الجانب " بار " Bar وانتبارى Antibari ودوبر فينيك Dubrovnik وديراكيوم (ديراتشيوم) Dyrrachium (٧٣) .

ويمكن القول أن هذا المجتمع الصربى ، الذى كان فى أصله غير منظم ومستقر ، تحول عندما أتيحت له فرصة الاستقرار والنهوض إلى الشكل الآنف الذكر ، وكون مجتمعًا وثقافة متأثرة بالبيئات التى نشأ عليها من ناحية والحضارات المجاورة له من ناحية ثانية ، فضلاً عن تعطشه للتشرب بروح العصر من ناحية ثالثة - فلا غرابة عندما نجد بعض المؤرخين يذكر أن معدل الثقافة فيه برزت على المستوى الأوربى ، وخاصة فى عصر النضج والاستقرار اعتبارًا من القرن الثالث عشر على حد قول البعض(٧٤) .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن على بساط البحث ؛ إذا كان هذا هو بعض جوانب الأوضاع الاجتماعية والثقافية عند الصرب ، فكيف كان حالهم الاقتصادى ؟ لاشك فى إن الحياة فى هذه المنطقة قبل وبعد استقرار الصرب وتقريبًا حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، كانت قائمة على أساس الرعى فوق الجبال والقرصنه على ساحل . وهناك تربية الماشية وزراعة بعض الفواكة مثل الأعناب ، وقد بدأ النمو الصربى وتغير نمط الحياة نتيجة للتأثير البيزنطى من ناحية وزيادة عدد سكان الصرب من ناحية أخرى بحيث غدا لا يقل عن نصف مليون صربى(٧٥) .

وإلى جانب الحياة الرعوية والزراعية ، وجدت بعض المعادن فى صربيا ، مثل الفضة والنحاس والحديد ، وبدأ التفكير فى استخراج هذه المعادن من مناجمها(٧٦) . ولعل وجود هذه المناجم مع توسط موقع صربيا ، دفع بعض عمال

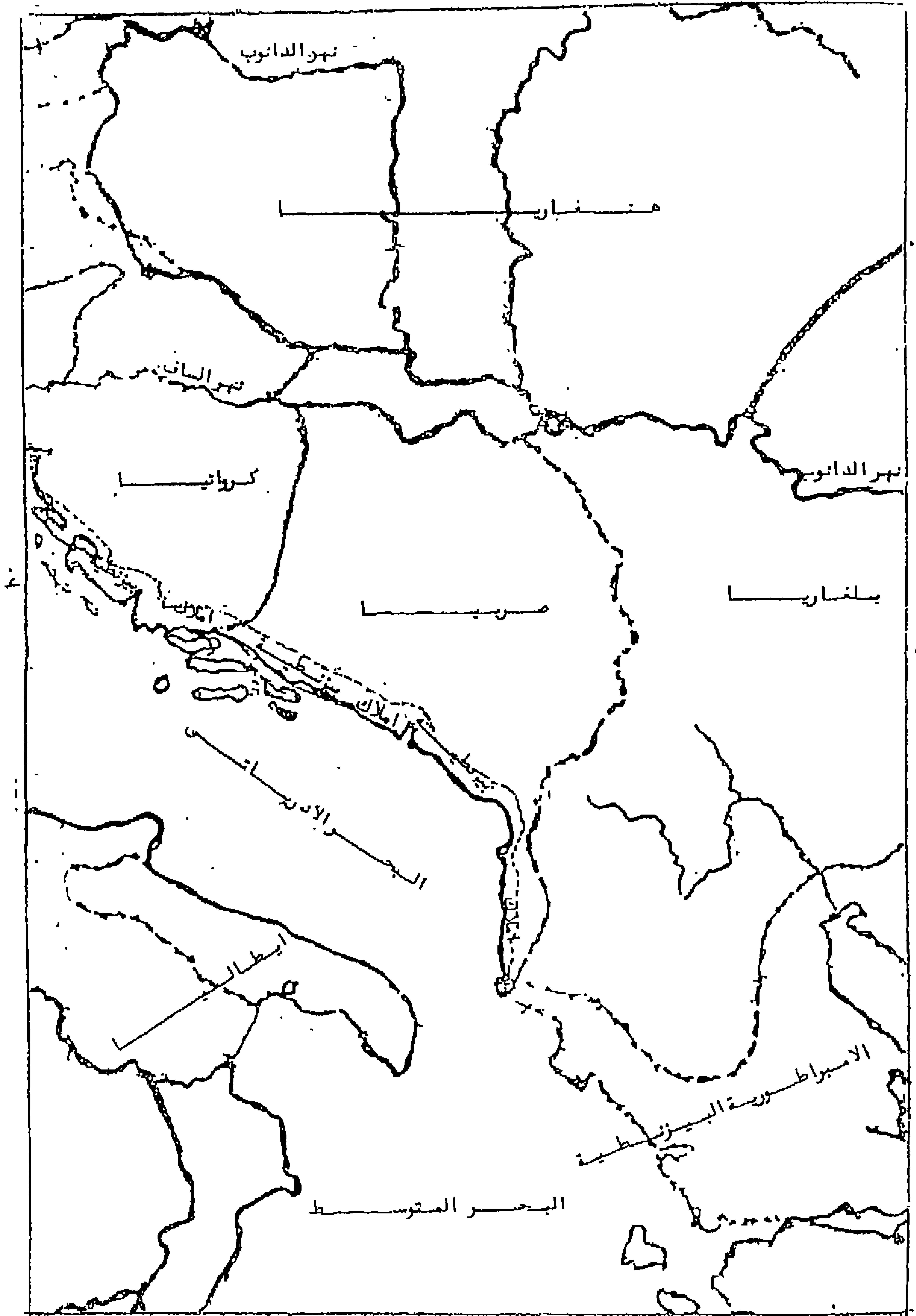
المناجم فى ألمانيا وسكونيا للعمل فى صربيا ، وهؤلاء استقروا فى صربيا وأسسوا ما يشبه المستعمرات لهم ، ثم أصبحت مدنًا فيما بعد مثل نوفو Novo وبرسكوفو Brskovo فى وادى تارًا Tara فى مونتنجرو Montengro ورودنيك Rudnik . و لم تلبث تطورت الحياة فى صربيًا واتجهت إلى الصناعة والتجارة وسك العملة والبحرية اعتبارًا من القرن الثالث عشر الميلادى(٧٧) .

* * *

وصفوة القول أن صربيا نشأت فى منطقة البلقان ، وسط بعض القوى مثل الدولة البيزنطية والبلغار . ويبدو أن المجتمع الصربى فى البداية لم يكن عنده خبره بسياسة الحكم ، مما دفع القوى المجاورة لها إلى أن تنتهز الفرصة وتستغل هذا الوضع لغرض السيطرة عليها من جانب والزج بأفراد الأسرة الحاكمة فى صراعات داخلية من جانب آخر .

ولا يمكن إنكار الدور الذى قامت به الدولة البيزنطية فى صربيا لإدخال الصرب خطيرة المسيحية وغرس هذه الديانة فى قلوب الشعب الصربى ، والذى لاشك فيه هو أن هذا الدور البيزنطى كان مقترنًا بالسيطرة السياسية حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى .

ثم جاء أمراء صربيون رفضوا السيطرة البيزنطية والبلغارية واستقلوا تمامًا عن كليهما . والأدهى من ذلك أن الصرب تطلعوا إلى استقطاع أجزاء من أملاك الدولة البيزنطية وخاصة بعد سقوطها فى يد اللاتين سنة ١٢٠٤م . والملاحظ أن المجتمع الصربى بتركيبته الاجتماعية القبلية وأمرائه وسكانه ، أهتم بالجانب الدينى والثقافى والاقتصادى على الرغم من الأوضاع السياسية التى كان يعيش فيها سواء داخلية أو خارجية ، وما عرف عن أخلاق الصربيين من قسوة تصل إلى حد الوحشية ، ولا شك فى أن هذه البنية كانت نواة لما ظهرت عليه صربيا فيما بعد فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد وحتى السيطرة العثمانية .



خريطة صربيا فى العصور الوسطى

CF : Dvormik (F) : op. cit, p. 269. 330 .

- الزاكلومى : Zachlumi تعنى فى لغة السلاف ما وراء الجبـل ، والجبـل المقصـود بـه هنا جبل كلومس Chlumos ، وهناك نهر يسمى زاكلوما . وقـد سـكن هـذا الإقليـم الرومـان الذين نقلهم دقلديانوس من روما ، وظل هذا الإقليم خاضعًا للإمبراطور البيزنطى حتى استولى عليه الأفار الذين طردهم الصرب وأقرهم الإمبراطور البيزنطى فيه . Ibid, p. 161

- التربونيون والكاناليت : هى بلاد واحده ، وتيربونا تعنـى فـى لغـة السـلاف المكـان الحصين ، وكانالى Kanali تعنى العربه المشحونه ، وتوجد مدن عامره فى هاتين المنطقتـين هـى أورموس Ormos وريستا Rhisena ولوكاباتاى Loukabetai وزتليبى Zetlibe . Ibid, p.163.

- الباجانى : ويســمون الارنتـانى ؛ وتعنـى فـى اللغـة السـلافيه والرومانيـة والإنجليزيـة الوثنيين . وفى باجانيا مدن عامرة هى موكرون Mokron وبروليا Beroulia واستروك Ostrok وسلافينتزا Slavinetza ، ويمتلكون جزيـرة كبـيرة تسـمى كوركـرًا Kourkral وأخرى يطلـق عليها مالوزيتيا Malozetai Ibid, p.165.

(١٣) ليلى عبد الجواد إسماعيل : المرجع السابق ص١٣٢

(١٤) اينهارد : المصدر السابق هامش ص٩٨

(15) The Encyclopedia Americana, V.24 , pp.571 - 572.
CF : The New Encyclopedia Britannica, v. 9, p.65.
CF : Ostorgorsky (G) : History of the Byzantine state, new Jersy , 1954. p.94 .

(16) Dvornik (F) : Op. Cit., p.13 .

(١٧) تبلغ المساحة الإجمالية لبلاد الصرب تقريبًا ٣٤,١١٦ ألف ميل مربـع أى حـوال ٨٨,٣٦٦كم

CF : The New Encyclopedia Britannica, V.9 , p. 65, V. 24, p.571 .

(18) Lec.cit.

(١٩) سعيد عاشور : المرجع السابق ص٦١٣

وانظر عن اللغة العربية

(20) Ibid, v. 9, p. 60. CF : Byzantion, Tome , 4, p.278

وإبراهيم أنيس : اللغة بين القومية والعالمية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ص١٤٠، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥١

(21) The Encyclopedia, Britannica, v. 9, p.65 .

(22) Constantine Porphyrogenitus : op. cit., p.161.

(23) Ibid, pp.157, 159 .
(24) Ibid, pp. 159,161.

وعن الصراع البيزنطى البلغارى انظر CF : Ostrogorsky (G) : Op. Cit., 236 - 237

وكذلك : وسام عبد العزيز فرج : السلاف فى شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها ، مجلة الجمعية المصرية مجلد ٣٠ - ٣١ لسنة ١٩٨٤م ص ١٤١ - ٢٠١

(25) CF : Constantine Porphyrogenitus : cit.,pp.161, 163, 165.
(26) Ibid, P.155.
(27) Boissonnade : Life and work in Medieval Europe, Londan, p.58.

وانظر : ليلى عبد الجواد إسماعيل : المرجع السابق ص٣٣١ - ٣٣٢

(28) The New Encyclopedia, Britannica, v. 9, p.65.

(٢٩) اينهارد : المصدر السابق ص٨٦

(30) The Encyclopedia Americana, v. 9, p. 66, v. 24 , p. 572.
(31) Cam - Med - Hist, v. 4, part. I, pp. 531 - 532 .
(32) Dimtri Obolensky : The Byzantine Commonwealth, London, 1971, p.248.
(33) Camb - Med - Hist, v. 4 , Part. I , p.540 .
(34) Ibid, p. 522.
(35) Runciman (S) : Byzantine civilisation, London, 1961, p.282.

(٣٦) اينهارد : المصدر السابق ص١٠

(٣٧) المصدر نفسه ص٩٨

(38) Dvornik (F) : Op. cit , pp. 48, 56 .
(39) Ibid, p. 92 .
(40) Ibid, p. 20.
(41) Constantine Porphyogenitus : Op. cit., p. 155.

وانظر السيد البار العرينى : الدولة البيزنطية ، بيروت ١٩٨٢م ص١٢٩

(42) Ibid, p. 155.
(43) Ibid, p. 157.

(٤٤) لقد أورد قسطنطين بروتينيوس هنا أن الإمبراطور البيزنطى طلب مساعدة الصرب للأتراك ضد البلغار ؛ ويبدو أن المقصود بالترك هنا هم المنغاريون (المجريون) وليس الأتراك المعروفين لدينا ، لسببين ؛ **الأول** : أن عنصر من عناصر الأتراك لم يظهر بعد فى هذه المنطقة من أوربا ؛ **وثانيًا** : أنه فى هذه الحقبة التاريخية ظهر المنغاريون فى تلك المنطقة ؛ كثرت اغاراتهم على غرب أوربا والدولة البيزنطية ، وقد أطلق عليهم البعض " ترك أوربا " ومن هنا

يغلب على الظن أن المقصود بالترك هنا هم الهنغاريون ، انظر : أحمد مختار العبادى : خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٢م . مجلة المناهل ، المغرب عدد ٢٩ سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

(45) Constantine Porphyrogenitus : op. cit , p. 157.
CF: Franzius (E) : History of the Byzantin Empire, New York, 1967, p. 208.
(46) Constantine Porphyrogenitus : op. cit., p.159.
(47) Ibid, p. 159.
(48) Lecit .
(49) Franzius (E) : op. cit., p.208.
(50) Constsntine Porphyrogenitus : op. cit., pp. 159, 162.
CF : Franzius (E) : op. cit., p. 208.

وعن الصراع البيزنطى البلغارى . انظر :

Ostrogorsky (G) : op. cit., p. 236 .
CF: Diehl (C) : Byzantiun Greatness and Decline, New Jersey, 1957, 0. 186.
(51) Camb . Med - Hist, v. 4 , part, I , p. 519.
(52) Setton (k) : History of the Crusades, V. I .New York, 1955 , p.510 .
(53) Camb - Med - Hist , v. 4 . part , I , p. 520 .

للمزيد انظر : ليلى عبد الجواد إسماعيل : حملات مانويل كومنين على بلاد المجر ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية .

(54) Ibid , pp. 521 - 522.

(٥٥) حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٩٣م ص٢٢٨

(56) Camb - Med - Hist, V.4, part,1, p.521 .
CF : Diehl (c) : op. cit, p.186.

(٥٧) ستيفن رنسيمان : الحروب الصليبية جـ٣ ترجمة السيد / الباز العرينى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٠ ص٣٦

(58) Michaud (J.E) : Historia de Criosades, Tome, 2, Paris, 1816, p. 78 .
CF: Setton (K.M) : History of the Crusades, v. 2, London, 1962, v. 2 , p. 99
(59) Camb - Med - Hist , v. 4, Part, I , p.521.
CF Diehl (C) : Op. Cit., p.186.
(60) Camb - Med - Hist, v. 4, part, pp. 530 - 531.
(61) Obolensky (D) : Op. cit., p. 247 .
(62) Camb - Med - Hist , v.4, part , 1 pp.526, 531, 533. 543.
CF Diehl (C) : op. cit., pp. 186 , 200, 206 .

وعن العلاقات بين البيزنطيين والبلغار انظر :

Byzantion , Tome, 9, Bruxeles, 1934, pp. 301 - 309, 311, 319, 322.

CF: Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, B. G. Niebuhrii, v. 3, Bonnae, 1855, pp. 148, 169, 557, 566.

وانظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ص٦١٣ - ٦٢٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣

وحسنين محمد ربيع : المرجع السابق ص٢٩١ - ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .

CF : Lodge (M.A) : The Close of the Middle Ages (2172 - 1494) London, 1910, pp. 501 - 502 .

(63) CF : Obolensky (D) : Op. cit., p. 247.

وانظر : ستيفن رنسيمان المرجع السابق جـ٣ ص٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٧١٧

(64) The Enclopedia Americana , v. 24. p.572.

(65) Boissonnad e : Op. cit., pp. 58, 271 .

(66) Franzius (E) : Op. cit., p. 208 .

(68) Boissonnade : Op. cit., p.58 .

(69) Obolonsky (D) : Op. cit., pp. 249.

(70) Runciman (S) : Op. cit., p. 284.

(71) Dvornik (F) : Op. cit., p.19.

CF : Setton (K) : Op. cit., p. 510.

(72) Boissonnade : Op, cit., pp. 57 - 58 .

(73) Obolensky (D) : Op. cit., pp. 247 - 249 .

(74) The Encyclopedia Americana, v.24., p.572.

CF : Obolensky (D) : Op. cit., pp. 250 - 254 .

CF : Runciman (S) : Op. cit ., pp. 284 - 285 .

CF : Camb - Med - Hist , v.4 , part , I, pp. 545 - 549.

(75) Boissonnade : Op. cit , p. 58 .

(76) Ibid , p . 269.

(77) Obolensky (D) : Op. cit., pp. 247 - 250.

CF : Camb - Med - Hist , v. 4, part , 1 pp.532 - 433 , 540

(المصادر والمراجع الأوربية)

- **Atiya (Aziz Syryal) :**

  The Crusade of Nicopolis, London, 1939.

- **Boissonnade :**

  Life and Work in Medieval Europe, London .

- **Byzantion :**

  Tome 4, Paris, 1929.

  Tome 9, Bruxeles, 1934 .

- **Corpus :**

  Scriptorum History Byzantinae, v.3, Bonnae, 1844, 1855.

- **Constantine Porphyrogenitus :**

  An Administamdo Imperio, Translated by R. J. H. Jenking, Budapest , 1949 .

- **Diehl (Charles) :**

  Byzantium : Greatness and Decline, New Jersey, 1957 .

- **Obolensky (Dimitri) :**

  The Byzantine Commonwealth, London , 1971 .

- **Dvornik (Francis) :**

  The Making of Central and Eastern Europe London , 1949 .

- **Franzius (Enne) :**

  History of the Byzantine Empire, Mother of Nations, New York, 1967 .

- **Ahrweiler (Helene) :**

  Byzance et La Mer, Paris, 1966.

- **Pirenne (Henri) :**

  A History of Europe from the Invasions to the 16 Century, London, 1948 .

- **Lodge (M - A) :**
The Close of the Middle Ages (1272 - 1494) London, 1910 .
- **Michoud (J - F) :**
Historia des Croisades, Tome 2-3 , Paris , 1816-1822 .
- **Baynes (Norman) and . L . B. moss :**
Byzantium, Oxford, 1948.
- **Ostrogorsky (G) :**
History of the Byzantine State New Jersey, 1957.
- **Runicman (Steven) :**
Byzantine Civilistion, London, 1961 .
- **Southern (R - W) :**
The Making of the Middle Ages, London
- **Setton (M . Kenneth) :**
A History of the Crusades, V. I New York , 1955 , v . 2 London , 1962 .
- **The Cambridge Medieval History :**
v . 4, part I . Cambridge, 1964 .
- **The Encyclopedia Americana :**
v . 24, America, 1824 .
- **The Encyclopedia Britannica :**
v . 9, Chicago, 1973-1974 .

(المراجع العربية والمترجمة)

- **إبراهيم أنيس :**
اللغة بين القومية والعالمية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
- **أحمد مختار العبادى :**
خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٢م . مجلة المناهل ، المغرب سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

- اينهارد :

سيرة شارلمان ، ترجمة/عادل زيتون ، الطبعة الأول دمشق ١٩٨٩م/١٤١٠هـ .

- حسنين محمد ربيع :

دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية . القاهرة ١٩٩٣م .

- زبيدة محمد عطا :

الترك فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٦م .

- ستيفن رنسيمان :

تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ترجمة السيد الباز العرينى ، بـيروت ط٢ ١٩٨٠ م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور :

أوربا العصور الوسطى ، جـ١ الطبعة السادسة القاهرة ١٩٩١م

- السيد الباز العرينى :

الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١م) بيروت ١٩٨٢م .

- ليلى عبد الجواد إسماعيل :

(١) الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين القاهرة ١٩٨٥م.

(٢) حملات ما نويل كومنين على بلاد المجر ، مقال بالجمعية التاريخية المصرية .

- وسام عبد العزيز فرج :

الســلاف فى شبه جزيرة البلقـان وجهـود الإمبراطوريـة البيزنطيـة لاسـترداد سيادتها . مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية مجلد ٣٠ - ٣١ سنة ١٩٨٤م .

فئات القضاة فى الدولة العثمانية

وأفراد ينتمون إليهم

د. سعيد بن سعد سفر الغامدى*

اهتمت الدولة العثمانية بأمر القضاء اهتمامًا كبيرًا ، ووضعت نظامًا دقيقًا لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة أعمالهم ، وكانت ولاية القضاة تشمل جميع أنحاء الدولة العثمانية فى القارات الثلاث : آسيا وأوربا وأفريقية . والجدير بالذكر أن الولاية القضائية ظلت تمتد إلى الأقاليم التى ضعف فيها النفوذ العثمانى سياسيًا أو عسكريًا أو إداريًا ، مثل بلاد القرم وشمال إفريقية . وعلى ذلك فالقضاء العثمانى كان أكثر نفوذًا وبقاءًا واستقرارًا فى الولايات العثمانية من النفوذ العسكرى أو السياسى أو الإدارى للدولة فى تلك الأقاليم وأمثالها .

كانت المحاكم الإسلامية تنظر جميع أنواع القضايا ، سواء كانت قضايا مدنية أو جنائية ، وسواء كانت من اختصاص الشريعة أو القوانين الوضيعة أو العرف أو غير ذلك . وكان القضاة جميعهم مسلمين ، ويفصلون فى القضايا فى ضوء مذهب الإمام أبى حنيفة(١) ، وهو المذهب الرسمى للدولة . وقد اهتم السلاطين بتقرير هذا المذهب مذهبًا رسميًا فى الأقاليم الإسلامية التى فتحتها القوات العثمانية ؛ وكان هذا التغيير المذهبى أحد التغييرات الرئيسية والقليلة التى أدخلتها الدولة فى أقاليم العالم الإسلامى التى فتحتها . وقد أبقت الدولة العثمانية على المذاهب الأخرى ، ولكن اشترطت أن يكون كبير القضاة أو رئيس المحكمة حنفيًا، وكان يطلق على شاغل هذا المنصب قاضى القضاة ، أو قاضى عسكر أفندى أو رئيس القضاة(٢) .

---

* أستاذ مشارك فى التاريخ الحديث والمعاصر - كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد ابن سعود .

ولكن لم تمتد هذه الولاية القضائية لتلك المحاكم لتشمل جميع الأشخاص في الدولة ، إذ كانت في الدولة هيئات معترف بها لها محاكمها الخاصة التي تنظر في قضايا أفرادها ، مثل طبقة القولار ، وهم العبيد . ومثل الأشراف الذين هم من سلالة أسرة النبي ﷺ .

أما رعايا الدولة النصارى فكانت قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم خارجة عن اختصاص المحاكم العادية ، وكانت تنظرها محاكم كنسية خاصة بهؤلاء النصارى ، يرأسها رئيس " الملة " ، وله أن يستعين ببعض رجال الدين النصراني . كذلك كانت هناك قضايا خاصة بإدراة أراضٍ معينة من أراضي الأوقاف ، فكانت تنظر أمام محاكم خاصة يرأسها عضو من الهيئة القضائية الإسلامية العادية . وعلى العموم فإن قضاة الهيئة الإسلامية كانوا ينظرون جميع القضايا التي تتعلق بالشريعة الإسلامية في جميع أنحاء الدولة سواء بين المسلمين بعضهم وبعض ، أو بين المسلمين والنصارى ، إلا إذا كان المسلم ينتمي إلى هيئة لها نظام قضائي يختص بها مثل القولار ، والأشراف(٣) .

وكان القضاة بوجه عام يحصلون على جزء كبير من دخلهم من مصدرين(٤) : الرسوم القضائية ، والغرامات التي يحكم بها . وكلا المصدرين يدران إيرادًا وفيرًا . وكانوا يتقاضون جزءًا من الرسوم المقررة على معاينة التركات وتقسيمها ، والمبايعات ، وعلى الأوراق الرسمية التي تصدر عن المحاكم ويطلق عليها الحجج الشرعية . وتسجل كل حجة التصرفات العقارية ، ورسوم الزواج المقررة على زواج البنت البكر وزواج الثيب ، وكان رسم زواج البنت(٥) أسيرًا أو أقجة(٦) بينما كان رسم زواج الثيب(٧) أسيرًا .

١ – قضاة العسكر (٨) :

أنشأت الدولة العثمانية على رأس النظام القضائى منصب قاضى القضاة(٩) ، أو رئيس القضاة ، أو قاضى عسكر(١٠) . وكان مقره الأساسى العاصمة أستانبول ، وقد استحدث هذا المنصب فى الدولة العثمانية فى عهد السلطان مراد الأول . وأول قاضى عسكر هو " جاندارلى قره خليل " ومن أهم أعماله الإشراف على أعمال القضاة فى سائر أنحاء الدولة العثماينة ، فيقوم بترشيح القضاة لشغل المناصب القضائية . ويرفع هذا الترشيح إلى شيخ الإسلام للمصادقة عليه ، كما يقوم قاضى العسكر بمراقبة أعمال القضاة والتأكد من نزاهتهم وحرصهم على تطبيق الشريعة الإسلامية فى الأحكام ، وأسلوب تعاملهم مع الناس ، كذلك يقوم بالإشراف على حركات التنقل والترقية ، وتعرض عليه التقارير والمذكرات التى يبعث بها قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضى العسكر أجهزة فنية وإدارية ، يعمل فيها موظفون بمثابة مساعدين له . وكانت بعض هذه الإدارات لمتابعة أعمال القضاة ، واستقبال التقارير التى ترفع عنهم ، والبعض الآخر لمتابعة تنقلاتهم ، وتعيين قضاة جدد فى المناطق والمدن المحتاجة ، والبعض الثالث من هذه الإدرات يتعلق بالشئون المالية وصرف استحقاق القضاة ومرتباتهم ، بينما كان يحتفظ بعض هذه الإدارات بصور من أختام القضاة للتحقق من صحة الأختام على المذاكرات والتقارير التى ترفع إلى قاضى العسكر منعًا للتزوير(١١) .

وكان قاضى القضاة يتمتع بنفوذ أدبى كبير لم يظفر به من قبل قاضى القضاة فى أى بلد إسلامى . وعلى سبيل المثال كان الصدر الأعظم قرمان محمد باشا يخشى أن يتضاءل نفوذه بجانب نفوذ قاضى القضاة ، فاقترح على السلطان محمد الثانى (الفاتح) أن ينشئ منصبًا ثانيًا لوظيفة قاضى عسكر ، وأن يطلق على شاغل الوظيفة الأولى قاضى عسكر الروملى ، والوظيفة الثانية يطلق على شاغلها

قاضى عسكر الأناضول ، وأن يتقاسم الاثنان الاختصاصات التى كان يمارسها قاضى العسكر ، فيختص أحدهما بقضاء الأناضول ، بينما يختص الآخر بقضاء بلاد البلقان وبقية الأقاليم العثمانية فى أوربا . وكان الصدر الأعظم يقصد من وراء هذا الاقتراح كسر النفوذ الواسع العريض الذى كان يتمتع به قاضى العسكر، حيث كان هو الرئيس المباشر لقضاة الدولة . وقد أخذ السلطان محمد الفاتح بهذا الاقتراح ، وتم إنشاء المنصب الجديد فى عام ٨٨٥ هـ/١٤٨٠ م قبل وفاة السلطان بسنة واحدة(١٢) .

هذا بينما تشير بعض الوثائق العثمانية إلى أن السبب فى إنشاء منصب ثانٍ لوظيفة قاضى عسكر هو تزايد الأعباء والمسئوليات على رئيس القضاة بعد فتح القسطنطينية ، وتوسع الفتوحات العثمانية فى بلاد شرق أوربا . لهذا رأى السلطان محمد الفاتح إنشاء وظفتين بمسمى قاضى عسكر ؛ لتوزيع المسئوليات ، مما يساعد على أدائها على أحسن وجه(١٣) .

وعلى هذا النحو وجد فى الدولة العثمانية منصبان يحمل شاغل كل منهما لقب قاضى عسكر ، مع إضافة الاسم الجغرافى الذى يحدد مناطق ولايته القضائية إلى اسمه . ولكن كان قاضى عسكر الروملى أعلى مركزًا من زميله قاضى عسكر الأناضول ، وكان الأول يصحب الجيش العثمانى فى فتوحاته الكثيرة فى شرق أوربا ، كما كان من اختصاصاته تعيين جميع القضاة الذين يعملون فى شرق أوربا ، وكذلك العاملين فى المساجد التى أنشأت فى الولايات العثمانية الأوربية . وكان قاضى عسكر الأناضول يمارس مثل هذه الاختصاصات فيما يختص بالأقاليم فى آسيا ، إلا أن الحروب كانت أقل ، وتكاد تكون منحصرة فى إخماد الفتن التى تظهر فى الأناضول فى بعض الأحيان . وكان هذان القاضيان الكبيران يليان شيخ الإسلام فى المرتبة(١٤) .

ولا تساع رقعة الدولة العثمانية بعد أن ضم السلطان سليم كلا من الشام ومصر والحجاز واليمن إلى رحاب الدولة العثماينة ، استحدث السلطان سليم وظيفة ثالثة بمسمى قاضى عسكر البلاد العربية(١٥) .

وبعد دخول الشمال الإفريقى فى حوزة العثمانيين(١٦) ، استحدث السلطان سليمان القانونى ابن سليم الأول وظيفة رابعة أطلق على شاغلها مسمى " قاضى عسكر الشمال الإفريقى "(١٧) . وكان القضاة فى شمال إفريقيا يتبعون قاضى عسكر الأناضول قبل استحداث السلطان سليمان القانونى وظيفة قاضى عسكر الشمال الإفريقى .

وكان قضاة العسكر أعضاء فى الديوان الهمايونى(١٨) . وكانوا يشتركون إشتراكًا فعليًا مع رئيسه الصدر الأعظم للنظر فى القضايا التى تعرض على محكمة الديوان ، كما كان يشارك فى هذا العمل إلى جانب قضاة العسكر مجموعة من القضاة من فئة مولى الكبير، وهذا ما سأشير إليه فيما بعد .

وقد أضفت الدولة العثمانية على قضاة العسكر الكثير من الامتيازات والتشريفات منها : أن يقام حفل رسمى كبير لقاضى العسكر عند تعيينه ، وكان على الصدر الأعظم أن يحضر هذا الحفل من باب التقدير والتكريم ، وكان لا يجوز للصدر الأعظم أن ينيب أحدًا عنه فى حضور الحفل . وكان الصدر الأعظم يقدم لقاضى العسكر رداء التشريفة ، وهو فروسمور ، ويساعده على ارتدائه فى أثناء الحفل(١٩) . وكانت تخصص لكل قاضى عربة يستقلها فى تنقلاته ، وإذا قامت الحرب فى آسيا صحب قاضى الأناضول الجيش العثمانى إلى ساحة الحرب، أما إذا كانت الحرب فى أوربا فإن قاضى عسكر الروملى هو الذى يرافق الجيش ، وفى كلتا الحالتين كانت تقدم لكل منهما أطواخ(٢٠) تنصب أمام خيمته التى تكون بمجاورة لخيمة السلطان وخيمة الصدر الأعظم .

ومن امتيازات قاضى العسكر صلاحية مقابلة السلطان بلا دعوة فى السفر. وكان ينفذ المعاملات المتعلقة بالعساكر أو من فى حكمهم ، وكانت له مخازن للشعير ، ولهذا كانت تأتيه مبالغ كبيرة من تلك المخازن ومن إيراداته الخاصة . وكان قاضى العسكر يستقبل الوزراء عند الديوان ، ويرافق السلطان فى مراسيم الأعياد . وكان يتناول الطعام فى مأدبة خاصة فى الديوان . بينما كان الوزراء وأركان الدولة يتناولون الطعام فى القصر معًا فى أيام الديوان وسائر الأيام الرسمية(٢١) .

قضاة التخت :

كان يلى قضاة العسكر فى الدرجة والمركز قاضى استنابول ويطلق عليه ، استانبول أفنديسى(٢٢)، والقضاة الثلاثة لضواحيها الثلاث ، وهذه الضواحى هى: سكوتارى Scutari وهو اسم يرجع إلى العهد البيزنطى ، ولذلك يطلق على هذه الضاحية أيضًا الاسم التركى أسكودار(٢٣) Uskudar ، ثم ضاحية جلاطة Galata ، ثم ضاحية أيوب(٢٤) وكان يطلق على هذه الضواحى الثلاث اسم " بلاد ثلاثة " أى البلاد الثلاثة . وهذا المصطلح له مدلول قضائى ومدلول إدارى، فقضاة هذه النواحى يتمتعون باستقلال قضائى عن قاضى استانبول ويرتبطون بقاضى عسكر الأناضول ، كما كان لهذه الضواحى بعض الاستقلال فى شئون الشرطة . وكان هؤلاء القضاة يحضرون جلسات الديوان الهمايونى يومًا واحدًا فى الأسبوع ، كما يحلون مكان قاضى العسكر فى حالة تغيبه ، كما يقومون بمساعدة الصدر الأعظم رئيس الديوان فى نظر القضايا . وكان يطلق على هؤلاء القضاة الأربعة – قاضى استانبول ، وقضاة الضواحى – اسم معبر " تخت قاضيسى " أى قضاة التخت ، لأنهم يقيمون بصفة دائمة فى العاصمة وعلى مقربة من العرش السلطانى ، الذى كان يطلق عليه التخت . وكان الصدر الأعظم عقب إنتهاء جلسة المحكمة يذهب فى صحبة قاضى استانبول فى جولة تفتيشية ميدانية فى

العاضمة . ومما هو جدير بالذكر أن قضاة التخت الأربعة كانوا ينتمـون إلى طائفـة القضاة من فئة المولى الكبير(٢٥) .

٢ – القضاة من فئة مولى الكبير(٢٦) :

يختلف عدد القضاة من فئـة مـولى الكبـير مـن عصـر إلى عصـر ، وقـد بلـغ عددهم – فى أواخر عهد السـلطان سـليمان القـانونى (منتصـف القـرن السـادس عشر الميلادى تقريبًا) – خمسة وعشرين قاضيًا(٢٧) موزعين على النحو التالى :

قاضى عسكر الرّوملى .

قاضى عسكر الأناضول .

قاضى عسكر البلاد العربية .

قاضى عسكر الشمال الإفريقى .

قاضى استانبول .

قاضى أسكودار .

قاضى جلاطة .

قاضى أيوب .

قاضى مكة الكرمة .

قاضى المدينة المنورة .

قاضى بروسه(٢٨) .

قاضى أدرنة(٢٩).

قاضى لاريسيا(٣٠) .

قاضى سالونيك(٣١) .

قاضى فيلبية(٣٢) .

قاضى إزمير (٣٣) .

قاضى القدس .

قاضى دمشق .

قاضى بغداد .

قاضى القاهرة .

قاضى الجزائر .

قاضى تونس .

قاضى طرابلس .

قاضى اليمن .

وكان شيخ الإسلام هو الذى يعين هؤلاء القضاة الخمسة والعشرين ، ويوافق الصدر الأعظم على تعيينهم(٣٤) . ثم يصدر السلطان فرمانًا بتعيينهم فى مناصبهم . ومن المميزات التى أعطيت لأصحاب هذه المناصب القضائية ، أنهم يشغلونها مدى الحياة ، إلا أنه كانت تصدر فى بعض الأحيان حركة ترقيات أو تنقلات لهؤلاء القضاة حرصًا على المصلحة العامة . وكان يتبع كل قاض من هؤلاء جهاز إدارى كبير يتكون من مراقبى الحسابات ، وأمناء الخزانة ، ومجموعة من الكتاب والمساعدين . ومن الاختصاصات التى اختص بها القضاة من فئة مولى الكبير حق عقد الجسات القضائية فى بيوتهم أحيانًا . بينما كان سائر القضاة ينظرون القضايا فى المحاكم(٣٥) .

المفتشون :

يعد المفتشون من رجال القضاء ، وإن كان اسمهم لاينم عن مهنتهم القضائية . وكان عددهم قليلاً يصل إلى خمسة مفتشين . وكانوا جميعًا قضاة من فئة مولى الكبير ، ويختصون بالإشراف على الأوقاف الخيرية فى الدولة العثمانية ، فيقومون بجمع إيراداتها والانفاق على المؤسسات الدينية والخيرية وكافة أوجه البر والخير . وكان بعض هذه الأوقاف تحت إشراف شيخ الإسلام ، والبعض الآخر تحت إشراف الصدر الأعظم ، والبعض الثالث تحت إشراف رئيس الخصيان البيض(٣٦) . وكان مقر ثلاثة من أولئك المفتشين فى استانبول ، يختص كل منهم بقسم من الأقسام الثلاثة لهذه الأوقاف : فكان أحدهم يعمل مع شيخ الإسلام ويسمى " شيخ الإسلام مفتشى " ، وكان الثانى مع الصدر الأعظم ويسمى " وزيرى أعظم مفتشى " ، وكان الثالث يسمى " حرمين مفتشى " ، لأنه كان يشرف على الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . وظل هذا الأخير فى منصبه حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، ثم تقاسم مع زميله رئيس الخصيان السود(٣٧) الإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين ، ثم انفرد رئيس الخصيان السود بالإشراف على هذه الأوقاف فى القرن الثامن عشر الميلادى . أما المفتشان الآخران فكان أحدهما يباشر عمله فى مدينة أدرنة ، والآخر فى مدينة بروسة . وكانا يتبعان رئيس الخصيان . وكان لكل مفتش من هؤلاء المفتشين جهاز إدارى يضم عددًا كبيرًا من الموظفين المساعدين الذين يتجولون فى مناطق الأوقاف(٣٨) .

٣ – القضاة من فئة مولى الصغير :

كان القضاة من فئة مولى الصغير يعملون فى أكثر من سبع عشرة مدينة من مدن الصف الثانى ، مثل : بوسناسراى(٣٩) ، وصوفيا(٤٠) . بلغراد ، كوتاهية ،

قونية ، فيلوبوليس ، مرعش ، ديار بكر ، عنتاب(٤١) . حلب ، بيروت ، الموصل، البصرة ، حيفا ، الإسكندرية ، عسير(٤٢) .

وكان هؤلاء القضاة من فئة مولى الصغير أقل فى درجتهم ومستوى تعليمهم من القضاة من فئة مولى الكبير ، لذلك يعينون فى المناطق والمدن الصغيرة.

أما من حيث الأعمال التى يقومون بها ، فهى فصل الخصومات بين الناس، وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عليهم . أما القضايا الكبرى مثل القصاص والرجم وما إلى ذلك فترفع عادة إلى شيخ الإسلام للبت فيها ، وفى بعض الأحيان ترفع إلى قاضى العسكر (قاضى القضاة) . أما تقسيم التركات وفض المنازعات القبلية ، فنظرًا لأهميتها وحساسيتها فقد ربطت بشيخ الإسلام ، الذى يقوم بدوره بإرسال لجنة من كابر القضاة تشرف على توزيع التركات ، وتفض المنازعات بين القبائل حسب تعليمات شيخ الإسلام والصدر الأعظم(٤٣) .

كذلك كان يتولى القضاة من فئة مولى الصغير الإشراف على المساجد والمدارس فى مدنهم الصغيرة ، ويقومون أيضًا بالإشراف على الأوقاف الخيرية .

٤ - القضاة العاديون :

كان القضاة العاديون يشكلون الغالبية العظمى من عدد قضاة الهيئة الإسلامية الحاكمة . وقد اختلف عددهم من فترة إلى أخرى حسب اتساع الدولة العثمانية وانكماشها . وقد بلغ عددهم فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى حوالى ستمائة قاض ، يباشرون القضاء فى المدن الصغيرة ، فى ثلاث قارات هى آسيا وأوربا وأفريقيا(٤٤) . وكان عددهم فى أوربا يصل إلى مائتى وخمسين قاضيًا تقريبًا ، يتبعون قاضى عسكر الروملى . أما قضاة الأناضول وشمال العراق ، فكانوا يتبعون قاضى عسكر الأناضول ، بينما يتبع القضاة فى الجزيرة العربية والشام لقاضى عسكر البلاد العربية ، ويتبع القضاة فى شمال أفريقيا قاضى عسكر

شمال إفريقيا (٤٥) . وكان يجرى فى بعض الأحيان بعض التغييرات بما يتمشى مع أهمية الولاية ومصلحة الدولة ، فمثلاً القضاة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة تبعوا فى بعض الأحيان قاضى استانبول وارتبطوا فى بعض الأحيان بشيخ الإسلام مباشرة . وكذلك القضاة فى القدس وبعض المدن الفلسطينية ارتبطوا فى منتصف حكم السلطان عبد الحيمد الثانى بشيخ الإسلام مباشرة ، وكذلك الحال بالنسبة لولاية بيروت . أما الحال فى مصر فقد كان القضاة يتبعون فى بعض الفترات كبير القضاة فى الأناضول ، والذى يسمى قاضى عسكر الأناضول ، كما كانوا يتبعون فى بعض الفترات قاضى القضاة فى استانبول(٤٦) .

ورغم انحسار النفوذ السياسى والإدارى للدولة العثمانية من شرق أوربا عقب هزيمتها فى حربها مع روسيا ، وعقد معاهدة سان استفانو(٤٧) . ومؤتمر برلين سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م(٤٨) ، إلا أن نفوذ القضاة بقى كما كان ، وظلوا يمارسون عملهم فى القضاء والفصل فى الخصومات بين الناس ، ولم يؤثر فى عملهم تغيير نظام الحكم فى بلاد شرق أوربا إلا فى عصور متأخرة .

٥ - النواب والمفتون :

النواب :

كانت وظائف النواب تمثل أدنى درجات السلم الوظيفى القضائى فى الهيئة الإسلامية الحاكمة فى الدولة العثمانية . وكانوا يباشرون اختصاصاتهم القضائية فى المدن الصغيرة ، أو فى القرى الكبيرة ، كما كانوا يحلون محل القضاة أثناء تغيبهم عن عملهم عند قيامهم بالإجازة ، أو فى أثناء مرضهم أو آدائهم لفريضة الحج . وكان بعض النواب يرافقون بعض كبار القضاة ويشركونهم فى جلسات المحاكم الشرعية لمساعدتهم وتخفيف العبء عنهم . واختلف عدد النواب من فترة إلى أخرى ، وقد بلغ عددهم فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ما يقرب من

مائتى نائب ، كانوا يباشرون عملهم فى مختلف أنحاء الدولة العثمانية(٤٨) . وكان النائب يعين فى منصبه ولا يتقاضى مرتبًا من الحكومة . ولكنه كان يحصل على إيرادات ضخمة من حصيلة الغرامات المالية التى يحكم بها على المخالفين ، والذين يرتكبون أعمالاً مخلة بالآداب العامة ، وما إلى ذلك(٤٩) .

ووجد إلى جانب شيخ الإسلام عدد من النواب ، للنظر فى بعض القضايا العادية مما يساعد على تخفيف بعض الأعباء عن شيخ الإسلام وقضاة استانبول . وكان شيخ الإسلام وقضاة العسكر يرسلون بعضهم فى مهمات رسمية إلى بعض الولايات فى الدولة العثمانية(٥٠) .

المفتون :

كان المفتون يشكلون قطاعًا هامًا للغاية فى الهيئة الإسلامية الحاكمة إلى جانب القضاة . وكان المفتون يعينون فى المدن الهامة ويقومون بمهام مناصبهم بجانب القضاة ، ولكن كان مركزهم يأتى بعد مركز القضاة . ويظلون فى مناصب الإفتاء مدى الحياة، أى دون التقيد ببلوغهم سنًا يحالون عندها إلى التقاعد. وكانت مهمتهم تتمثل فى إصدار الفتاوى فى المسائل التى يطلب منهم بحثها ، فيعكف المفتى على دراسة هذه المسألة فى ضوء مذهب الإمام أبى حنيفة ، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة رسمية معدة ومختومة من قبل المحكمة ، تشبه الإستمارة . وكان الرأى الذى ينتهى إليه المفتى يسمى فتوى(٥١) .

وكان عدد المفتين فى جميع أنحاء الدولة العثمانية يصل إلى ما يقرب من ثلاثة مفتين(٥٢) . وكانت غالبيتهم تعمل فى المدن الهامة بجانب القضاة - كما ذكرت ذلك من قبل - بينما عمل البعض الآخر بجانب كبار رجال الحكم فى الدولة ، يمدونهم بالرأى الصحيح فى المسائل العامة من حيث عدم تعارضها مع مبادئ الشريعة الإسلامية . فكان كل منهم يشغل ما يمكن أن نطلق عليه فى المصطلح الحديث منصب المستشار الدينى .

وكان هناك بعض المفتين إلى جانب السلطان ، كما كان هناك بعض المفتين إلى جانب الوزراء والأمراء ، وحكام الولايات فى الدولة ، يوضحون لهم رأى الشريعة فى أى قضية ما ، ورأى القانون ، وأوجه التطابق أو التعارض . ومثل هذه الفتوى التى تصدر عن المفتى يؤخذ بها جملة وتفصيلاً ، وتحسم الموقف سواء فى المسألة العامة أو فى القضية المطروحة(٥٣) .

ولكن قلما لجأ القضاة أو رجال الحكم المحلى إلى المفتين لإصدار الفتاوى لهم ، فقد كان القضاة يباشرون الفتاوى بأنفسهم . أما الوزراء والأمراء وحكام الولايات ورجال الحكم فى الدولة ، فكانوا يطلبون معظم الفتاوى من دار الإفتاء التابعة لشيخ الإسلام(٥٤) ، ولا يحيلون إلى المفتى إلا بعض الأمور البسيطة الخالية من التعقيد . لذلك نعتهم بعض الباحثين بأن نشاطهم كان يشوبه الخمول أو الركود . ولكن اتسعت آفاق العمل حينما سمح للأفراد بالالتجاء إلى المفتين ؛ لإصدار الفتاوى الشرعية فى القضايا المطروحة أمام المحاكم ، فكان المفتى يصدر رأيه كتابةً ومسجلاً على ورقة رسمية ، على غرار الفتاوى التى يصدرها للجهات الحكومية ، ويأخذ المواطن هذه الفتوى ويقدمها للمحكمة كمستند يدعم موقفه فى القضية . وكانت مثل هذه الفتوى تحسم القضية فى العادة لصالحة .

ويلاحظ أنه لم يكن فى تلك العصور محامون محترفون يتولون المرافعة أمام المحاكم ، لذلك كان المفتى عنصرًا ضروريًا وهامًا ونافعًا فى النظام القضائى . وقد رحب المفتون بالفتاوى التى تصدر عنهم للأفراد ؛ لأنها جاءت بمورد مالى جديد تمثل فى الرسوم التى يدفعها طالب الفتوى ، وكان للمفتين نصيب كبير من هذه الرسوم ، فكان يأتيهم رزقهم رغدًا من كل مكان(٥٥) .

وكان المفتون فى الأقاليم أقل درجة ومرتبة من القضاة . وكانت وظائف المفتين لا تحاط بأى نوع من أنواع المظهرية التى كانت تحاط بها المناصب الأخرى فى نفس المدينة أو الإقليم أو الولاية .

وقد أسدى المفتون للدولة العثمانية أجل الخدمات ، فقدموا لها - بصفتهم حراس الشريعة - قوة الإسلام ، وهى أعظم قوة روحية عملت فى هدوء ومثابرة واستمرار على تماسك الدولة ومجتمعاتها الإسلامية دون أن تتعرض هذه القوة الروحية لهزات أو تغيرات ، بل مضت فى طريقها تطبع العثمانيين وحياتهم الخاصة والعامة بالطابع الإسلامى العميق .

٦ - امتيازاتهم ودورهم فى تطبيق تعاليم الإسلام :

كان القضاة - وبخاصة من فئة مولى الكبير - يتمتعون بعدة امتيازات ، إذ كان لكل منهم الحق فى ارتداء عباءة من الفرو السمور فى الاحتفالات الرسمية من قبيل التكريم والتشريف . وكان هذا النوع من العباءات يرتديه الباشوات وحكام الولايات ومن إليهم من كبار موظفى الدولة . وكان من تقاليد الدولة العثمانية أن يقام حفل رسمى كبير - سواء فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الولايات - لتقديم هذا الرداء للشخص أو للأفراد الذين ينعم به عليهم ، ويحضر هذا الحفل كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين ، ويتولى ورئيس الحفل مساعدة القاضى فى ارتداء الفرو السمور(٥٤) .

وكان من امتيازات كبار القضاة أن يتبعهم فى غدواتهم وروحاتهم وكافة تنقلاتهم عدد من الرجال يختص بعضهم بحراسة القاضى ، ويختص البعض الآخر بخدمته باختلاف أنواعها(٥٥) .

وكانت توجه الدعوة إلى أولئك القضاة وإلى كبار أساتذة مدارس الشريعة والقانون باستانبول ، وكبار المدن العثمانية لحضور الاحتفالات التى تقام عند اعتلاء سلطان جديد العرش العثمانى ، ويقدم فيها كبار الموظفين الولاء له . وكانت هذه الدعوة تتكرر - بعد ذلك - مرتين على مدار السنة ، المرة الأولى عند حلول عيد الفطر المبارك ، والمرة الثانية عند حلول عيد الأضحى . فكان يقام

فى كل عيد من هذين العيدين حفل استقبال رسمى فى القصر السلطانى . وكان كبار القضاة يشهدون هذين الحفلين كما يشهدهما شيخ الإسلام والصدر الأعظم . وكانت تقام احتفالات مماثلة فى عواصم الولايات ، يحضرها القضاة والقادة العسكريون ، وكبار الموظفين فى الولاية تحت رعاية الوالى . وكان القضاة لهم قصب السبق فى تلك الاحتفالات(٥٦) .

كذلك كان هؤلاء القضاة يدعون للمشاركة فى بعض الاحتفالات التى كانت تقميها الدولة العثمانية فى بعض الأحيان عقب انتصارها فى معركة حاسمة لها أثر كبير فى تقدم الفتوحات العثمانية وهزيمة الأعداء . وكانوا - أى القضاة - يقدمون فى بعض هذه الاحتفالات على بعض القادة العسكرية(٥٧) .

وتذكر بعض الوثائق العثمانية(٥٨) أنه كان يسند إلى بعض القضاة من فئة مولى الكبير قيادة بعض الجيوش العثمانية الفاتحة ، كما كان يسند إليهم قيادة بعض الجيوش العثمانية الموجهة لإخماد فتنة شبت فى بعض أنحاء الدولة العثمانية . وقد حقق الكثير منهم انتصارات كبيرة سجلها التاريخ لهم(٥٩).

كذلك كان معظم هؤلاء القضاة أعضاء رئيسيين فى ديوان الولاية ، لايبت أمر بدونهم ، فكل قاضٍ من هؤلاء مسئول عن الشئون القضائية فى ولايته(٦٠) .

وقد قام العلماء والقضاة بدور كبير وبارز فى تطبيق تعاليم الإسلام فى أحكامها وتصرفاتهم الشخصية ، فقد كانوا على اختلاف رتبهم ومناصبهم وتخصصاتهم قدوة طيبة للمجتمع العثمانى ، وقد ميزتهم الدولة العثمانية فى زيهم الخارجى فكانوا يرتدون العمامات والفرو المميز لهم فى لونه وشكله العام ، مما يجعلهم محط أنظار الناس ، وقدكانوا أهلاً لذلك . ولم يكن تميزهم مقصورًا على المظهر الخارجى . وإنما كان التميز أصلاً فى تمكنهم فى العلوم الشرعية ، وحرصهم الشديد على تطبيق تعاليم الإسلام ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فى أماكن تجمعات الناس فى الطرقات والأسواق .

وكان كثير من القضاة يتولى الإمامة بالمسلمين فى الجوامع والمساجد الكبيرة ، كما يؤمون الناس فى الأعياد وأيام الجمع ، وكانوا يحثون الناس فى خطبهم على التمسك بالدين ، ووجوب تطبيقه نصًا وروحًا فى كل صغيرة وكبيرة من أمورالحياة .

غير أن القضاة لم يكونوا جميعًا على درجة واحدة من النزاهة والاستقامة ، فهناك عدد قليل من القضاة لعبت الرشاوى دورًا كبيرًا فى صرفهم عن إصدار الأحكام الإسلامية الصحيحة ، خاصة فى الفترة الثانية من حكم سلاطين الدولة العثمانية ، وهى الفترة التى استشرى فيها الضعف والفساد ، وعم معظم الأجهزة الحكومية ، فاستغل ذلك بعض القضاة والقادة العسكريين وصغار الموظفين لجمع مكاسب مالية على حساب الدولة وأفراد المجتمع . وقد أورد بعض المؤرخين الأتراك نماذج من تقارير مرفوعة من لجان التفتيش والتحقيق إلى السلطان وإلى شيخ الإسلام تذكر أن بعض القضاة باعوا ضمائرهم ، وخانوا الأمانة التى أوكلت إليهم فى سبيل جمع المال(٦١) .

وفيما يلى نماذج مختصرة لعدد من القضاة وشيوخ الإسلام لعبوا دورًا هامًا فى التاريخ العثمانى . وخلفوا آثارًا كبيرة من المؤلفات الشرعية والكتب التاريخية واللغوية وغيرها ...

ابن الجزرى :

شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن على بن يوسف الجزرى ، فقيه وحجة فى القراءات وشاعر . ولد بدمشق ليلة السبت الموافق ٢٥ رمضان عام ٧٥١هـ/ ٣٠ نوفمبر - أول ديسمبر - عام ١٣٥٠ م، وحفظ القرآن عام٧٦٣هـ/ ١٣٦٣م . وبعد أن صرف جزءًا من عنايته فى الحديث درس القراءات المختلفة ، وأجاد فيها . وفى سة ٧٦٨هـ/١٣٦٧هـ ، حج إلى مكة المكرمة والمدينة ، ثم ذهب إلى القاهرة حيث أجاد القراءات ، ولما رجع إلى دمشق انصرف إلى دراسة

الحديث والفقه ، وعاد إلى القاهرة لدراسة البلاغة وأصول الفقه . ثم ذهب إلى الإسكندرية ليحضر على تلاميذ ابن عبد السلام . وفى عام ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م أجاز له أبو الفداء الإفتاء . كما أجاز له الإفتاء أيضًا كل من ضياء الدين عام ٧٧٨هـ/١٣٧٣ م ، وشيخ الإسلام البلقينى عام ٧٨٥ هـ/١٣٨٣ م . وبعد أن درس القراءات مدة من الزمن عُين قاضيًا بدمشق عام ١٣٩١/٧٩٣ م . ولما صودرت أملاكه بالقاهرة عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥ م ذهب إلى بلاط السلطان العثمانى بايزيد بن عثمان فى بروسه ، ولازمة ما يقرب من ست سنوات ، وتولى منصب " مفتى الأنام " بعد أن تدرج فى الوظائف الإدارية والقضائية فى الدولة العثمانية . وبعد وقعة " أنقرة " فى عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م أوفده تيمورلنك إلى بلاد ما وراء النهر ، ثم بعد ذلك إلى سمرقند ، وألقى فيها على الناس دروسًا ، وذهب ابن الجزرى بعد وفاة تيمور فى عام ٨٠٧هـ/١٤٠٥ م إلى خراسان ثم إلى هراة فاصفهان ، فالبصرة ... ثم إلى مكة المكرمة فالمدينة المنورة عام ٨٢٣ هـ/١٤٢٠م. وبعد أن مكث عدة سنوات فى هذه البلدان رجع إلى شيراز ، وتوفى بها يوم الجمعة ٩ ربيع الأول ٨٣٣ /٢ ديسمبر ١٤٢٩ م .

مؤلفاته :

١ - كتاب النشر فى القراءات العشر. ويوجد بمكتبة نورى عثمان رقم٩٧،فهرس الكتبخانة الخديوية، جـ١ ،ص١١٧ ؛المكتبة العبدلية بتونس، جـ١، ص١٧٦.

٢ - تحبير التيسير فى القراءات ، وهو شرح لكتاب " التيسير " للدانى فى القراءات . فهرس الكتبخانة الخديوية ، جـ١ ، ص٩٢ ، برلين رقم ٥٩٠ ، استانبول / مكتبة نورى عثمان ، رقم ٥٩٠ .

٣ - طيبات النشر فى القراءات العشر ، وهى منظومة من بحر الرجز تقع فى ألف بيت عن القراءات العشر ، انتهى من نظمها فى شعبان عام ٧٩٩ هـ/مايو ١٣٩٦ م ، طبعت بالقاهرة عام ١٢٨٢ ، ١٣٠٧هـ .

٤ - الدرة المضية فى قراءات الأئمة الثلاثة المرضية ، وهى منظومة من بحر الطويل فى ٢٤١ بيتًا انتهى منها عام ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م ، طبعت بالقاهرة عام ١٢٨٥ ، ١٣٠٨هـ .

٥ - هدية أو (غاية) المَهَرَة فى زيادة العشرة . وهى منظومة فى نفس الموضوع . توجد بمكتبة أيا صوفيا رقم ٣٩ .

٦ - منجد المقرين ومرشد الطالبين ، وهى رسالة فى سبعة أبواب عن أهمية القراءات .

٧ - لامية من بحر الطويل فى إحدى وأربعين بيتًا تحتوى على أربعين مسألة عن معضلات القراءات .

٨ - المقدمة الجزرية ، وهى أرجوزة فى ١١٠ أبيات عن التجويد ، طبعت فى القاهرة عام ١٢٨٢ ، ١٣٠٧هـ .

٩ - التمهيد فى عام التجويد ، انتهى من تأليفه عام ٧٦٩هـ/١٣٦٧م يوجد بالكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٠٥٩٢

١٠ - كفاية الألمعى فى آية يا أرض ابلعى . وهى فى القراءات المختلفة للآية ٤٦ من سورة هود ، فهرس ، فهرس الكتنخانةالخديوية ، جـ٧ ، ص٥٧٨

١١ - مختصر طبقات القراء المسمى بغاية النهاية ، وهو أصغر كتابيه اللذين يبحثان فى هذا الموضوع . استانبول ، مكتبة نورى عثمان رقم ٨٥

١٢ - مقدمة علم الحديث ، برلين رقم ١٠٨٤

١٣ - الهداية إلى الرواية ، وهى منظومة فى ٣٧٠بيتًا من بحر الرجز عن تناقل الروايات المختلفة فى القراءات بين طبقات القراء .

١٤ – عقد اللآلى فى الأحاديث المسلسة العوالى ، انتهى من تأليفه بشيراز عام ٨٠٨ هـ /١٤٠٥م ، باريس ، المكتبة الأهلية ، رقم ٤٥٧٧ ، ٣

١٥ – الرسالة البيانية فى حق أبوى البنى ﷺ .

١٦ – المولد الكبير ، وهو فى سيرة النبى ﷺ .

١٧ – ذات الشفاء فى سيرة النبى والخلفاء ، وهى أرجوزة فى سيرة النبى ﷺ والخلفاء الراشداين – رضوان الله عليهم – ولمحة سريعة فى تاريخ المسلمين إلى عهد السلطان بايزيد الأول ، ألفها نزولاً على رغبة أمير شيرازبير محمد .

١٨ – الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين ، طبع بالقاهرة عام ١٢٧٩ ، ١٣٤٥ ، وفى عام ١٣٢٢٨هـ .

١٩ – مختصر النصيحة بالأدلة الصحيحة ، وهى رسالة الأخلاق . تعتمد على الحديث ، فهرس الكتبخانة الخديوية ، المجلد السابع ، ص٥٦٤

٢٠ – الزهر الفاتح . وهى رسالة فى الحث على الفضيلة ، طبعت بالقاهرة عام ١٣٠٥ ، ١٣١٠ هـ .

٢١ – الإصابة فى لوزام الكتابة ، برلين ، رقم ٦

٢٢ – منظومة عن الفلك فى اثنين وخمسين بيتًا من الرجز(٦٢) .

خوجة أفندى :

سعد الدين بن حسن جان بن حافظ محمد بن حافظ جمال الدين الأصفهانى ، ويعرف عادة باسم خوجة (سعد الدين) أفندى . مؤرخ عثمانى شهير وشيخ من شيوخ الإسلام النابهين ، ولد عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦ – ١٥٣٧م فى استانبول . وهو ابن رجل يدعى حسن جان ، هاجر من فارس والتحق بخدمة السلطان سليم الأول حاجبًا له ، خلال السنوات السبع الأخيرة من سنوات

حكمه . ولقد قص حسن جان على ولده جميع القصص والأخبار التى تتصل بحياة السلطان سيلم ، فما كان من سعد الدين إلا أن ألف منها كتابًا سماه "سليم نامة" وجعله ذيلاً لتاريخه المشهور ، ولقد ترجم دييز H. F. Diez كتاب " سليم نامة " إلى الألمانية ما عدا المقدمة .

درس سعد الدين الفقه الإسلامى ، واندمج فى زمرة العلماء منذ عهد متقدم . وفى عام ٩٦٣هـ / ١٥٥٥ - ١٥٥٦ م أصبح سعد الدين ملازمًا للفقيه المشهور أبى السعود ، ثم أصبح فى المحرم من عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣ - ١٥٧٤م مدرسًا (خوجة ، وهو اسمه المشهور الذى لا يزال يعرف به إلى الآن بوجه عام) لمراد ولى العهد . وكان فى ذلك الوقت واليًا على مغنيسية . وظل خوجة أفندى مشير مراد الثالث الأمين بعد اعتلائه العرش فى ديسمبر سنة ٩٨١هـ/١٥٧٤م ، واحتفظ برتبة " خوجة سلطانى " أى مدرس السلطان فى عهد محمد الثالث خليفة السلطان مراد . وغدا سعد الدين شيخًا للإسلام فى شعبان عام ١٠٠٦هـ/١٥٩٨- ١٥٩٩ م ، وتوفى وهو يشغل هذا المنصب بعد ذلك بعامين بمدينة استانبول فى الثانى عشر من ربيع الأول عام ١٠٠٨ هـ/١٢ أكتوبر ١٥٩٩م . وقد حمل أربعة من أبنائه الخمسة نعش أبيهم إلى أيوب حيث دفن فى فناء المدرسة الخاصة بتحفيظ القرآن وتلاوته . وقد بلغ بعض أبنائه مناصب رفيعة ، فقد بلغ ولداه محمد ومحمد أسعد(٦٣) منصب الإفتاء ، وعبد العزيز وصالح(٦٤) منصب قاضى عسكر ، أما ولده مسعود فقد مات صغيرًا(٦٥) .

وسعد الدين هو مؤلف التاريخ العثمانى المشهور المعروف باسم " تاج التواريخ " ولا يزال هذا التاريخ يعد بوجه عام من عمدة المصادر فى التاريخ العثمانى ، رغم أن سعد الدين لم يؤلفه بأمر من السطان (لم يكن سعد الدين حاملاً للقب مؤرخ السلطان) . وقد أسدل هذا التاريخ حجب النسيان على جميع

التواريخ المتقدمة الخاصة بآل عثمان ، وهى المعروفة باسم "تواريخ آل عثمان" بل إنه جعلها شيئًا تافهًا مزريًا(٦٦) .

ويتناول هذا التاريخ الكلام عن البيت العثمانى من وقت قيامه حتى وفاة السطان سليم الأول - المتوفى فى ٢١ سبتمبر عام ١٥٢٠م - واستقى هذا التاريخ مادته من كتب المؤرخين المتقدمين ، وهو مكتوب بأسلوب يغلب عليه الإطناب . وتم هذا الكتاب فى عهد السلطان سليم الثانى ، وكان المقصود منه على وجه التحديد أن يكون ذيلاً للكتاب الفارسى " مرآة الأدوار ومرقاة الأخبار " لمصلح الدين محمد اللارى المتوفى عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م ، ونقل سعد الدين هذا الكتاب إلى التركية . وقد ذاع هذا الكتاب ، وأصبح الناس يقرأونه فى عدة مخطوطات إلى أن أصبح فى متناول الأيدى بوجه عام عندما طبع عام ١٢٧٩هـ/١٨٦١م فى مجلدين كبيرين .

وأعد أنطوان كالان Antoine Galland ترجمة فرنسية مخطوطة لكتاب تاج التواريخ فى عام ١٧١٠م ، ويظهر أن المجلد الأول من هذا المخطوط قد فقد، أما الباقى فمحفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس .

ويقال : إن محمد أسعد أفندى ابن سعد الدين قد أتم التاريخ الذى كتبه أبوه(٦٧).

أبو السعود :

هو محمد الآمدى نسبة إلى آمد المعروفة الآن بديار بكر ، فقيه عثمانى من أصل كردى ، ظل شيخًا للإسلام ثلاثين عامًا . وكان من أكبر أعوان السلطان سليمان القانونى ، ولد عام ٨٩٦ هـ/١٤٩٠ - ١٤٩١ م . وكان فى أول أمره مدرسًا للفقيه ثم قاضيًا ، وظل قاضى عسكر الروملى ثمان سنوات متتالية ، ثم عين شيخًا للإسلام . وصنف تفسيرًا للقرآن الكريم استقاه من تفسير البيضاوى ،

والكشاف للزمخشرى . ولما ظهر الجزء الأول من تفسيره رفع مرتبه اليومى من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ آقجة ، ثم رفع إلى ٦٠٠ لما ظهر الجزء الثانى منه . ولما ولى السلطان سليم الثانى العرش شرفه بوضع يده على عمامته واحتضنه بشغف ، ورفع مرتبه إلى ٧٠٠ آقجة فى أول شعبان عام ٩٧٤ هـ / ١١ فبراير ١٥٦٧ . وأفتى أبو السعود فتوى يجيز فيها حملة السطان سليم على قبرص . وقد حزن السلطان سليم حزنًا شديدًا لوفاته عام ٩٨٢هـ/١٥٧٤م . وهو صاحب " قانون نامة " الذى صنفه للسلطان سليمان القانونى ، جمع فيه القوانين التى صدرت خلال فترة حكم هذا السطان ، وخلف شعرًا بالتركية والعربية ، وقد أطلق اسمه على أحد شوارع مدينة استانبول(٦٨) .

خضر بك :

عالم عثمانى وشاعر ، وقاضى قضاة استانبول . ولد فى غرة ربيع الأول عام ٨١٠هـ/ ٦ أغسطس ١٤٠٧م فى " سيورى حصار " ، وهو ابن جلال الدين قاضى تلك المدينة ، وينتمى إلى أسرة " شهيرة " يرد نسبها إلى خوجة نصر الدين. تلقى خضر بك العلم على يد ملا محمد يكن ، وتزوج من ابنته فيما بعد . ولما أتم دروسه أصبح قاضيًا فى مسقط رأسه ، ثم مدرسًا ، واختير بعد ذلك أستاذًا فى بروسة ، ثم قاضيًا فى " اينكول " ثم استدعى آخر الأمر للتدريس فى أدرنة ، وعين قاضيًا للقضاة فى استنابول . وأبناؤه هم : أحمد باشا مفتى بروسة الذى توفى عام ٩٠١هـ/١٤٩٥ م ، وسنان باشا ، ويعقوب باشا قاضى بروسة الذى توفى عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م ودفن فى مسجد ملا فنارى . وعرف هؤلاء الثلاثة بمواهبهم العقلية ، وسعة إطلاعهم . وكان خضر بك نفسه حجة فى العلوم الإسلامية ، على دراية واسعة بآداب اللغات الإسلامية ، وله منظومة فى الوعظ والإرشاد من بحر البسيط عنوانها " النونية فيالعقائد " . وقد شُرحت هذه القصيدة أكثر من مرة مثل شرح داود بن محمد القرصى . وله إلى جانب ذلك عدة

مؤلفات أخرى معظمها فى الشعر . وتوفى خضر بك فى استنابول عام ٨٦٣هـ/١٤٥٨ - ١٤٥٩م ، ودفن فى مقبرة أيوب . ولا تزال قرية قاضى كوى المقابلة لاستانبول على الشاطئ الأسيوى تحمل اسمه ، أى قرية القاضى، وكانت له فيها أملاك شاسعة(٦٩) .

خير الله أفندى :

مؤرخ تركى نابه الذكر ، ولد فى استانبول من أسرة ظلت تخدم السلاطين دون انقطاع أكثر من ١٦٠ عامًا . وأبوه عبد الحق أفندى المشهور (توفى عام ١٢٧٠ هـ/١٨٥٤م) ، كان من رجال الدين والطب ، وبلغ مرتبة " سر أطباء " ثلاث مرات ، ثم خلع عليه لقب التشريف " رئيس العلماء " منذ عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م . وبدأ خير الله حياته مقتفيًا آثر أبيه ، فنشأ نشأة دينية . وكان أول منصب تولاه هو منصب " ملا إزمير " عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢ م ثم اتجه نحو العلوم والطب والتربية ، وأصبح سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م عضوًا فى مجلس التعليم ومجلس الزراعة ، ورئيسًا ثانيًا لمجمع (أنجمن - دانشى) ، ورئيسًا لعدة هيئات عميلة . وشغل مناصب رفيعة فى وزارة المعارف التى ألفت تأليفًا جديدًا ، وظل مدة طويلة ناظرًا لمدرسة الطب ، إلى أن اختير سفيرًا فى طهران عام ١٢٩١هـ/١٨٦٤م ، وتوفى فجأة عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦ م .

ولخير الله ولدان هما : عبد الحق حامد ، أشهر شاعر فى تركيا الحديثة ، وعبد الخالق نصوحى ، وكلاهما اشتغل بالسفارة لتركيا فى الخارج .

ولخير الله عدد من المؤلفات فى التاريخ والجغرافيا والطب والعلوم والزراعة. ومعظم كتبه فى الزراعة مترجمة عن اللغات الأجنبية . وقد طبعت بعض مؤلفاته مثل كتاب " مسائل حكمت ، وبيت دهقانى ، ورحلته إلى أوربا المسماة أوربا سياحت نامة سى " . وتعود شهرته إلى مؤلفاته فى التاريخ ، فله إلى جانب كتابه

" وقائع مصرية " ، تاريخ مفصل للدولة العثمانية عنوانه " دولت عليه عثمانية تاريخى " بدأ صدوره تقريبًا فى نفس الوقت الذى ظهر فيه التاريخ القيم الذى أصدره أحمد جودت - مؤرخ السلطنة - فى أثنى عشر مجلدًا ، وهو يشمل تاريخ الدولة العثمانية فيما بين عامى ١٧٧٤ هـ/١٨٢٦م .

وكان خير الله أفندى يريد أن يكتب التاريخ العثمانى بأجمعه فى مصنف واحد متصل الحلقات . وهو أول مؤرخ تركى حاول أن يتناول التاريخ العثمانى من ناحية مكانته بالنسبة لتاريخ العالم ، وذلك على عكس الطريقة التى كانت مألوفة فى ذلك الوقت عند أصحاب الحوليات من الترك الذين لم يخرجوا فى تأليفهم عن المصادر والشئون التركية دون غيرها .

وكان خير الله فى الواقع أول كاتب نجح إلى حد ما فى كتابة تاريخ شامل للعالم " تاريخ عمومى " . وكان معظم اعتماده على المصادر الفرنسية . ويتبين لنا ذلك من كتابة الأعلام الأجنبية بحسب نطقها الفرنسى ، وكان فى الوقت نفسه يعتمد على المصادر التركية التى لم تكن بعد قد استقلت تمامًا .

وقد خص مجلدًا من كتابه بالمقدمة وبالتاريخ المتقدم للدولة العثمانية ، وهو العهد السابق على حكم عثمان الأول . ووضعت خطة الكتاب بحيث يستغرق عهد كل سلطان من سلاطين آل عثمان مجلدًا من مجلداته . وقد عرض فى الوقت نفسه للحكام المسلمين والنصارى المعاصرين ، ثم يتناول بعد ذلك مادة الكتاب متوخيًا الفائدة من غير اعتبار لسرد الأخبار . ولغة خير الله بسيطة واضحة سهلة الفهم إذا قسناها بلغة المؤرخين المتقدمين الطنانة . ويمتاز تاريخه أيضًا على تواريخ من تقدموه ببعده عن المحاباة والبغض الأعمى للثقافات الأخرى .

وقد ظهر من هذا التاريخ خمسة عشر مجلدًا فقط (١٢٧١ - ١٢٨١هـ/ ١٨٥٣ - ١٨٦٤ م) وهى تبدأ بعهد عثمان الأول، وتنتهى بعهد أحمد الأول (١٠١٢- ١٠٢٧هـ/ ١٦٠٣ - ١٦١٧م) ثم توفى المؤرخ بعد ذلك . فحاول

على شوكت المفتش فى " ديوان أحكام عدلية " أن يتم الكتـاب الـذى لم يستطع خير الله أن ينجز إلا بعضه بعـد مشـقة . ولم يظهـر بعـد ذلـك إلا ثلاثـة مجلـدات أخـرى ، مـن المجلـد السـادس عشـر إلى المجلـد الثـامن عشـر (١٢٨٩ - ١٢٩٢هـ/١٨٧٢ - ١٨٧٥ م) إلى عهـد السـلطان إبراهيـم الأول (١٠٤٩- ١٠٥٨هـ/١٦٣٩ - ١٦٤٨ م)(٦٩) .

صارى كورز :

ويعرف أيضًا باسم صارى كروز ، ففيـه عثمـانى وقـاضى عسكر ، واسمـه الحقيقى نور الدين . وقد ولد فى إقليم " قره سى " . كان أبوه يدعـى يوسـف ، وتلقى صارى دروسه على مشاهير المعليمن ، ومن بينهم قوجـة سـنان باشـا . ثـم اشتغل بعد ذلك بالفقه وأصبح مدرسًا ثم قيمًا ، ثم غدا آخر الآمر قاضى استانبول عـام ٩١٧هـ/ ١٥١١م ، واستخدمه السـلطان بـايزيد الثـانى فـى شئون الدولـة المختلفة . وعين فى عام ٩١٩ هـ/١٥١٣ م إبان حكم السطان سليم الأول قاضى عسكر الأناضول ، وفى عام ٩٢١هـ/١٥١٥ م قـاضى عسـكر الروملـى . وقـد صُـرف عـن منصبه فـى العـام التـالى وأصبـح مـرة أخـرى قيمًـا . وعـين عـام ٩٢٦هـ/١٦١٩م قاضى استانبول مرة أخرى ، وتوفى صارى كورز فى اسـتانبول عام ٩٢٨هـ/١٥٢١م ودفن فى حديقة المسـجد الـذى شيده . وكـان يعيش فـى مكان غير بعيد من المسجد الذى يحمل اسمه(٧٠) ولا يزال حى من أحياء استانبول يعرف باسم صارى كورز نسبة إليـه(٧١) وقـد ألـف صـارى كـورز فـى الفقـه ، وخلف عددًا من الكتب يوجد ثبت لها فى كتاب حاجى خليفة(٧٢) .

خليل أفندى زاده :

أحمد سعيد أفنـدى ، من العلمـاء الذين ظهـروا فى عهـد السلطان محمـود الأول (١١٤٣ - ١١٦٨هـ/ ١٧٣٠ - ١٧٥٤م) وهـو ابـن بركلـى خليـل أفندى . ولى منصب قاضى عسكر الأناضول مرتين . ودرس خليـل علـى أبيـه ثـم

تلقى الدروس المألوفة فى المدرسة ، وبدأ حياته مُلا فى يكى شهر عـام ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢ م . ثم أخذ يرتقى مراتب العلماء حتى بلغ أسماها . واختير شيخًا للإسـلام عام ١١٦٢هـ / ١٧٤٩م ولكنه صرف عن منصبه عام ١٧٥٠م ، بعد أن ظل فيـه عشرة أشهر ، لصلابته وعناده ، ونفى إلى بروسه حيث توفى بها عـام ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م ، ودفن بالقرب من أمير سلطان .

وكان خليل فى نظر الناس عالمًا مـن أصحـاب الأقـلام مؤهـلاً تمـام التـأهيل لكل ما يتطلبه منصبه . وخلف لنا خليل - علاوة على شرحه لتاريخ عينى المتوفـى عام ٧٦٢هـ - ترجمة تركية لجـزء مـن ذلـك الكتـاب . واشـتهر كثـير مـن أبنائـه وأحفاده بالتفقه فى الدين(٧٣) .

جلبى زاده :

عاصم أفندى إسماعيل : شـيخ الإسـلام ومـؤرخ تركـى ، وهـو ابـن رئيـس أفندى كوجك جلبى ، ومن ثم عـرف بهـذا الاسـم . تـولى بـادئ الأمـر القضـاء وتدريس الفقـه ، ثـم اختير آخر الأمـر مؤرخًـا للدولـة العثمانيـة مكـان رشـيد ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م ، وولى على التعاقب قضاء بروسه عام ١١٥٢هـ/١٧٣٩م ، والمدينة المنورة عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م ، واستانبول عام ١١٦١هـ / ١٧٤٨م ثم أصبح شيخًا للإسلام عام ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م وظل فى هذا المنصب حتـى وفاتـه بعد ذلك بثمانية شهور .

ويتناول تاريخه المشهور ، (طبـع بالآسـتانة عـام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠ م) . الفـترة بـين عـامى ١١٣٥ و ١١٤١هـ / ١٧٢٢ - ١٧٢٨م . ولـه ديـوان شـعر كبير يضـم قصـائد فى مـدح السلطان أحمـد الثـالث ومحمـود الأول ، وأبيـات قيلـت فـى الأحـداث الهامـة الـتى وقعـت بـين عـامى ١١٢٧ - ١١٥٥هـ/ ١٧١٦ - ١٧٤٢م(٧٤) .

عارف حكمت بك :

عاش في الفترة (١٢٠١ - ١٢٧٥هـ / ١٧٨٦ - ١٨٥٩م) وتولى مشيخة الإسلام من سنة ١٢٦٢ - ١٢٧٠ هـ / ١٨٤٥ - ١٨٥٤م ، ويعد عارف حكمت من أواخر شعراء وكتاب المدرسة القديمة من الترك . وقد انحدر عارف من أكابر الموظفين ، (كان أبوه إبراهيم عصمت قاضى عسكر ، فى ظل السلطان سليم الثالث) . تولى عارف حكمت منصب (ملا) بيت المقدس سنة ١٢٥١هـ/ ١٨١٦م ثم القاهرة سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠ م ، ثم المدينة المنورة سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م . وغدا من بعد نقيب الأشراف سنة ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م، ثم قاضى عسكر الأناضول سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م ، ثم الرومللى سنة ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م وتقلد أخيرًا منصب شيخ الإسلام ، وظل يشغلة سبع سنوات . وقد عقد عارف حكمت باشا صلات مع أكابر شعراء عصره وخاصة أسعد أفندى ، وزيور باشا ، وطاهر سلام . وكان هو نفسه يقرض الشعر ، ويعد ديوانه الذى يشتمل على قصائد بالتركية والعربية والفارسية ، من أواخر الآثار النابهة لمدرسة الشعر التركية القديمة ، وقد طبع الديوان فى استانبول سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٧م .

ومن الآثار الأخرى " تذكر شعراء " وهو تراجم للشعراء الترك حتى سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م ، وكتاب " الأحكام المرعية فى الأراضى الأميرية " وكتاب " خلاصة المقالات فى مجالس المكالمات "(٧٥) .

٧ - مستشارو السلطان والوزراء :

يأتى فى مقدمتهم " خوجة السلطان " والمعنى الحرفى لهذا المصطلح معلم السلطان . وكان مستشارًا للسطان فى المسائل الدينية ، وكان يشترط فيه تعمقه فى المسائل الشرعية إلى جانب تعمه فى القوانين الدولية المعاصرة . وكان يقدم الرأى القانونى فى أى مسألة يريدها السلطان مبينًا مدى مطابقتها أو تعارضها مع

تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة ، فكما أنه مفتى فى المسائل الشرعية فهو أيضًا يعد مفتيًا فى المسائل القانونية . ولذلك كان يظفر بتقدير عميق ومركز مرموق بين مستشارى السلطان ، وفى دوائر الحكومة . وكان خوجة السلطان فى درجة القضاة من فئة المولى الكبير ، أى قاضى من الدرجة الأولى ، ولذلك كان يرقى من هذا المنصب المرموق إلى الوظائف العليا فى الهيئة الإسلامية الحاكمة . وتذكر بعض الوثائق العثمانية أن محمد عصمت باشا شغل منصب معلم ومستشار السلطان القانونى مدة ثلاث سنوات ، ثم عين رئيس محكمة الصدر الأعظم ، وبقى فى هذا المنصب مدة أربع سنوات ، ثم رقى إلى منصب أعلى وهو قاضى عسكر الروملى ، وبقى فى هذا المنصب سنتان حتى توفى سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م(٧٦) .

وتذكر وثائق عثمانية أخرى أن معظم سلاطين الدولة العثمانية - وبخاصة سلاطين المرحلة الأولى - كانوا يحيطون أنفسهم بعدد كبير من المستشارين الشرعيين والمعلمين . وقد اتخذ السلطان سليمان القانونى فى السنوات الأخيرة من حكمه خمسة وعشرين مستشارًا شرعيًا(٧٧) ، كما عين السلطان عبد الحميد الثانى سبعة عشر قاضيًا على وظيفة مستشار(٧٨).

وكان معظم السلاطين يتنافسون فى تعيين المستشارين الشرعيين من حيث الكثرة والنوعية ، وكانوا يصطحبونهم فى حلهم وترحالهم وحتى فى ميادين القتال والمعارك ، وكانوا يتقيدون بتعليماتهم ونصائحهم ، وبهذا تقدمت الدولة العثماينة تقدمًا مذهلاً فى فتوحاتها الإسلامية فى شرق أوربا . وتذكر بعض المصادر العثمانية أن السطان محمد الفاتح كان له مايزيد عن عشرين مستشارًا ، منهم من يختص بالأمور العسكرية ومنهم من يتولى متابعة أمور الدولة العثمانية الأخرى . وكان معظم هؤلاء لمستشارين ملازمين للسطان محمد الفاتح ويحضرون اجتماعات الديوان الهمايونى ،ويشاركونه فى ساحات الجهاد(٧٩) .

ويتم تعيين هؤلاء المستشارين الشرعين بترشيح من شيخ الإسلام والصدر الأعظم بعد تمحيص وتدقيق ، ثم يرفع هذا الترشيح للسلطان للمصادقة عليه وإصدار قرار التعيين(٨٠) .

ولم يكن السلاطين على درجة واحدة من حيث التقيد أو الأخذ بمشورة هؤلاء المستشارين ، فقد كان السلطان سليم الأول- وهو رجل عسكرى من الدرجة الأولى - يستبد برأيه وبخاصة فى الأمور الحربية ، وإن كان يستمع إلى رأى مستشاريه ووزرائه(٨١) .

ووصل الأمر ببعض السلاطين الضعاف حد تسليم مقاليد الحكم إلى المتسشارين والصدر الأعظم . وصار مثل هذا النوع من السلاطين لا يعرف عن أمور دولته شيئًا إلا عن طريق هؤلاء المستشارين والمعلمين أمثال سليم الثانى ، ومصطفى الأول ، وأحمد الثانى ... وغيرهم(٨٢) .

ولم يكن تعيين المستشارين مقصورًا على السلاطين فحسب ، بل كان كل وزير من وزراء الدولة العثمانية يحيط نفسه بعدد من المستشارين يساعدونه فى إدارة الدولة . كذلك نجد كبار الأمراء من آل عثمان - ممن يشغلون مناصب قيادية فى الدولة - يعينون بعض المستشارين إلى جابنهم(٨٣) .

وكان الوزراء والأمراء - فى فترة قوة الدولة - يستمعون إلى نصحهم وإرشادهم ولا يقدمون على أمر ما أو قرار معين إلا بعد تمحيصه ورداسته دراسة دقيقة والاستماع إلى مشورة المستشارين(٨٤) .

أما فى فترة الضعف التى انتابت الدولة العثماينة بعد وفاة السلطان سليمان القانونى ، فنجد بعض الوزراء والأمراء قد سلموا الأمر والإدارة إلى هؤلاء المستشارين ، فاستبد بعضهم بالحكم واحتكر مصالح الدولة ، وأخذ يعمل لحسابه الخاص نظرًا لانصراف الوزراء والأمراء عن متابعتهم(٨٥) .

ومما زاد الأمر سوءًا وعجل بضعف الدولة العثمانية وسقوطها ، تعيين مستشارين أجانب من الدول الأوربية إنجلترا وفرنسا ، وألمانيا ... إلى جانب السلاطين والوزراء والأمراء . وهؤلاء كانوا يتظاهرون بتقديم النصح والمشورة الصادقة للسلطان وأعوانه ، بينما هم فى الحقيقة على عكس ذلك ، يعملون لحسابهم وحساب دولهم المعادية للدولة العثمانية المسلمة . وكانت مشوراتهم من أسباب ضعف الدولة العثمانية وسقوطها ، لأن بعض السلاطين والوزراء كانوا يأخذون هذه النصائح كأمر مسلم به وينفذونها دون تمحيصها وتدقيقها وأخذ رأى العلماء والفقهاء فيها(٨٦) .

وقد بدأ تعيين المستشارين الأجانب فى الدولة العثمانية منذ أوائل القرن السابع عشر تقريبًا ، ثم ازداد عدد المستشارين الأجانب وبخاصة العسكريين منهم حتى بلغ قمته فى القرن التاسع عشر الميلادى . وكان بلاط السلاطين محمود الثانى وعبد الحميد وعبد العزيز يفيض بهم ، بدعوى محاولة إصلاح الدولة العثمانية وتقدمها ،بينما هم فى الحقيقة يعملون على تغريب الدولة العثمانية وإبعادها عن دينها .

ومن أمثلة الذين تولوا منصب مستشار السلطان والوزراء :

أحمد باشا :

وهو ابن قاضى عسكر ولى الدين ، فقيه وشاعر عثمانى فى عهد السلطان محمد الفاتح . كان فى أول أمره أستاذًا بمدرسة مراد الثانى فى بروسه ثم قاضيًا لأدرنه ، ثم معلمًا للأمراء والوزراء ،ثم عين مستشارًا للسلطان محمد الفاتح ، وبقى فى هذا المنصب حتى وفاته سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م . ودفن بمدينة بروسه بالقرب من المسجد الذى أنشأه ، وهو أول شاعرعثمانى يتميز شعره برقة الأسلوب . ويعتبر أحمد باشا مبدع التعبير الشعرى للأتراك العثمانيين(٨٧) .

بركـوى :

محمد بن بير على ، فقيه تركى ، ولد سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م ، ودرس فى استانبول ، وتدرج فى بعض الوظائف الحكومية فى أدرنة ، ثم أراد أن يعتزل الحياة العامة ، ولكن عطا الله أفندى عينه مدرسًا فى مدرسة (بركى) وظل يعمل فيها فترة طويلة إلى أن عين مستشارًا للسطان سليم الثانى سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م ، وبقى فى هذا المنصب حتى وفاته سنة٩٨١هـ ، ١٥٧٣م . وتشهد مصنفاته وكتبه – التى ألف معظمها باللغة العربية – بطول باعه فى التأليف ، وأغلب مصنفاته فى شؤون الدين بمعناه الواسع ، كتفسير القرآن الكريم وعلم الفرائض والوعظ والمسائل الفقهية مثل شروط الوقف ، وهو موضوع جادل فيه جدلاً عنيفًا . وله مؤلفات فى النحو العربى ، ولكن بركوى يشتهر على وجه خاص برسالة فىأصول الدين باللغة التركية تسمى عادة باختصار "رسالة بركوى" أو " صيت نامة " وقد طبعت وترجمت عدة مرات(٨٨) .

بير محمد باشا :

أحد الصدور العظام فى الدولة العثمانية ، وهو ينتسب إلى أماسيه . اشتغل بالقانون والشريعة الإسلامية حتى أصبح قاضى صوفيًا وسلورى وغلطه ، ثم أشرف على مطاعم (عمارات) محمد الفاتح التى خصصها للفقراء فى استانبول . وفى عهد بايزيد الثانى منح لقب باش دفتردار ، واشتهر فى أيام سليم الأول بمشورته الحكيمة فيما يتصل بغزو فارس حتى عينه السلطان سليم الأول مستشارًا له ، ثم شغل بعد ذلك قائمقام استانبول مدة من الزمن . ولما انتهت الحملة العثمانية على المماليك فى مصرعين صدرًا أعظم مكان يونس باشا ، ثم شغل منصب مستشار السلطان سليمان القانونى حتى وفاته عام ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م . وقد شيد بير محمد باشا بعض المنشآت الخيرية منها : مسجد باستانبول سمى باسمه، ومدرسة ومطعم للشعب(٨٩) .

راشد محمد :

مؤرخ سلطاني عثماني ينتسب إلى استانبول حيث ولد ، وأبوه القاضي ملاّ مصطفى من أهله ملطية . أتم دراسته في مسقط رأسه ، وولي بها منصب المؤرخ الرسمي للدولة ، وظل شاغلاً لهذا المنصب إلى أن عين قاضيًا لحلب عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢٠م . ثم بعث سفيرًا لبلاده في فارس ، ثم شغل بعد ذلك قاضي مكة المكرمة ، ثم قاضي استانبول في شعبان ١١٤٢هـ / ١٧٣٠م ، وصرف عن هذا المنصب بعد ذلك ببضعة أشهر . وفي جمادى الأولى ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م ، عين قاضي عسكر الأناضول ، ثم عين مستشارًا للسلطان محمود الأول لمدة عام ، حيث توفي في ١٨ صفر ١١٤٨/١٠ يولية ١٧٣٥ م في استانبول . وقد كتب راشد محمد ذيلاً لتاريخ نعيما عن الدولة العثمانية من عام ١٠٧١ - ١١٣٤هـ/ ١٦٦٠- ١٧٢١ م يعرف عادة بـ (تاريخ راشده) ، وهو العمدة في تاريخ هذه الفترة ، وخلفه في منصب المؤرخ السلطاني إسماعيل عاصم المعروف بكوجوك جلبي زاده(٩٠) .

سالم محمد أمين :

ويلقب بميرزا زاده ، فقيه عثماني وكاتب لسير العلماء والأدباء . وهو ابن شيخ الإسلام ميرزا مصطفى أفندي . وكانت ولايته في استانبول وتعلم بها حتى أصبح مدرسًا . ثم ترقى في سلم الوظائف الشرعية فتولى القضاء في مكة المكرمة في ذي القعدة عام ١١٣٤هـ/١٣ أغسطس ١٧٢٢ م ، ثم قاضيًا في استانبول في جمادى الأولى عام ١١٤٣ هـ/١٢ نوفمبر ١٧٣٠م ، ثم غدا قاضي عسكر الأناضول . وعهد إليه في ربيع الثاني عام ١١٤٦هـ/١٢ أغسطس ١٧٣٣ م بمنصب قاضي عسكر الروملي . وفي عام ١١٤٩هـ/١٧٣٦م أوفد إلى مكة المكرمة ليتولى القضاء فيها مرة أخرى . ثم عاد بعدها إلى استانبول ، وعين مستشارا للسلطان محمود الأول ، ثم نقل بعد ذلك إلى دمشق ليتولى القضاء بها ،

لكنه توفى فى الطريـق عـام ١١٥٢هـ/١٧٣٧٩م . ولسالم محمد عدة ترجمات وشروح لمصنفات فقهية ، وكتاب فى الجهاد يسمى " نيل الرشاد فى أمر الجهاد " طبع فى الآستانة عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٨م ، انتهى من تأليفه فى ذى الحجة عام ١١٤٥هـ/١٧٣٢ م ، وقد كتبه بأمر من السلطان محمود الأول . وترجم أيضًا إلى التركية التاريخ العام للعينى المتوفى عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م ، المعروف باسم " عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان " وتوجد ثمانية مجلدات من المخطوط الأصلى لهذا الكتاب – وكان فى نية المؤلف أن يجعله فى عشرة مجلدات – فى استانبول بمكتبة نورى عثمانية . وأعظم مؤلفات سالم " تذكرة شعراء " الذى ترجم فيه لـ ٤١٠ شاعر وناظم ، كتبه عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م ، ويوجد المخطوط الأصلى لهذا الكتاب فى مكتبة خالص أفندى باستانبول ، ومنه مخطوط آخر فى فينا ، وقد طبع هذا الكتاب فى استانبول عام ١٣١٥هـ/١٨٩٨م ، ويقع فى ٧٢٦ صفحة(٩١) .

أئمة السلطان والمساجد الخاصة :

تنافس سلاطين الدولة العثمانية والأمراء والوزراء فى بناء المساجد والجوامع فى العاصمة استانبول ، وفى مختلف ولايات الدولة العثمانية . وكان الدافع وراء ذلك إما حبًا للخير ، أو تخليد لذاكراهم .

وكان كل سلطان يبنى جوامع يعهد إلى شيخ الإسلام بتعيين أئمة وخطباء ومؤذنين لتلك الجوامع . وكان عددهم يختلف حسب كبر الجامع أو صغره . وكان خطباء الجوامع الكبيرة يختارون من كبار القضاة ، وينتسبون إلى القضاة من فئة مولى الكبير . وكان السلطان يؤدى صلاة الجمعة أو العيدين فى أحد الجوامع التى بناها، أما بقية الفروض فكان يؤديها مع وزرائه فى المساجد الخاصة فى مقر الحكم ، أو فى مسجده الخاص فى قصره مع أفراد حاشيته(٩٢) .

وكان يشترط فى إمام الجامع أن يكون متعمقًا فى علوم الشريعة الإسلامية إلى جانب إلمامه بالقوانين الوضعية المعاصرة ، وقضايا المجتمع ، حتى يتمكن من

تفقيه الناس وتبصيرهم بأمور دينهم ، ومعالجة بعض الظواهر الاجتماعية السيئة(٩٣) .

وكان بعض السلاطين لهم مجموعة من الأئمة والخطباء يصاحبونهم فى حلهم وترحالهم وتنقلاتهم فى أقاليم الدولة العثمانية المختلفة ، كما كانوا يصاحبون السلطان فى ميادين الجهاد ، ويقومون بإمامة المجاهدين فى جميع صلواتهم ، كما كانوا يقومون إلى جانب بعض القضاة الآخرين بحث الناس على الجهاد والاستبسال فى الجهاد ، ويذكرونهم بما أعده الله للمجاهدين من أجر جزيل وخير كبير فى الدنيا والآخرة(٩٣) .

وكانت مرتبات هؤلاء الأئمة فى الغالب من إيرادات الأوقاف الخيرية التى يوقفها السلطان على مسجده الذى شيده ، وقل أن نجد سلطانًا أو وزيرًا أو أميرًا يبنى جامعًا دون أن يوقف على هذا الجامع مزرعة أو استراحة أو عينًا ما ... يصرف منها على متطلبات المسجد ورواتب الخطباء والأئمة والمؤذنين(٩٤) .

وكان بعض خطباء الجوامع يشاركون فى اجتماعات الديوان الهمايونى ، كما كان البعض الآخر مستشارًا للسطان(٩٥) .

وكان مستشارو السلطان وأئمته ومعلموه من كبار أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، وتمتعوا بنفوذ كبير جدًا فى الدولة ، لأن طبيعة وظائفهم كانت تتطلب أن يكونوا على اتصال مستمر بالسلطان . وكان لهم من ثقافتهم ومن الثقة الكبيرة التى أولاهم إياها السلطان ما جعل الأضواء تسلط عليهم . وكان السلطان يقدر آراءهم ويحترمها .

ومن أمثلة الجوامع والمساجد الخاصة : المساجد التى كان يبنيها الأمراء والوزراء ، وأهل الخير . وكانت الهيئة الإسلامية الحاكمة هى التى تتولى تعيين الأئمة والخطباء والمؤذنين والوعاظ .

ومن الخطباء المشهورين والأئمة كمال الدين خوجندى مؤلف كتاب شرح المقاصد . وكان كمال الدين يؤم السطان بايزيد الصاعقة فى مسجده الخاص . والسيد شريف على الجرجانى مؤلف كتاب " التعريفات " وكان مستشار السلطان محمد الأول وإمامه الخاص . ويازيجى زاده محمد أفندى مؤلف كتاب " محمدية " كان إمامًا وخطيبًا فى مسجد السلطان مراد الثانى فى أدرنه . والشيخ سليمان الجزولى مؤلف كتاب " دلائل الخيرات " من أئمة السلطان محمد الفاتح ، وسيد أحمد البخارى إمام وخطيب فى جامع السلطان بايزيد الثانى ، والشيخ الإمام أحمد القسطلانى مؤلف كتاب " المواهب " إمام وخطيب مسجد السلطان سليم الأول . والشيخ نعمة الله أفندى صاحب كتاب " اللغة " ، وكان من أشهر أئمة السلطان سليمان القانونى ، وأبو السعود أفندى إمام السلطان سليم الثانى ، وعلى القارى مؤلف كتاب" تصانيف " إمام وخطيب جامع السلطان أحمد الأول، والشيخ إسماعيل حقى البورصوى مؤلف " تفسير روح البيان " إمام وخطيب جامع السلطان أحمد الثالث ، والشيخ شمس الدين حبيب إمام السلطان عبد الحميد الأول والشيخ سنبل زاده إمام وخطيب جامع السلطان محمود الثانى(٩٦) .

٩ - أطباء القصور السلطانية :

لم يكن علماء الدين وحدهم الذين ينتمون إلى الهيئة الإسلامية الحاكمة ، بل كانت هذه الهيئة تتسع لتشمل بعض الأطباء والجراحين ... وغيرهم من أصحاب التخصصات العلمية . ولعل مرد هذا الشمول إلى أن فريقًا من الأطباء كانوا يجمعون بين دراسة الطب ، والفقه ، أصول الدين وعلوم البلاغة وغيرها . وكانت لكل منهم فى معظم الأحيان قدم راسخة ، وسأورد بعض الأمثلة على ذلك :

١ - أيدينلى(٩٧)حاجى باشا : وهو خضر بن على بن الخطاب ، وكان معاصرًا للسلطان أبى يزيد الأول (٧٩٠ - ٨٠٦هـ) ، جمع بين دراسة الفقه ، وعلوم البلاغة وبين دراسة الطب . وقد ارتحل إلى القاهرة طلبًا للعلم ، ودرس على

شيوخ عصره فى الأزهر ، حيث درس على يد الشيخ مبارك منتقى ، وأتم دراسته الدينية والفقهية مع الشيخ أكمل الدين ، والشيخ بدر الدين سيهافى . وقد أصيب بمرض صرفه إلى تعلم الطب . وسرعان ما لمع نجمه فيه ، ثم أصبح كبير الأطباء فى (بيمارستان مصر) . وقد عاد بعدئذ إلى آيدين ، واستقر فى بركى بدعوة من آيدين أوغلى محمد بك ، وقيل أصبح من أطباء تيمرلنك ولقن أطباءه العلم ، ثم خدم الأمير سليمان وقضى فى بلاطه وقتًا طويلاً . وكان له بعض الصلات المتفرقة مع السلطان بايزيد الأول بعد عودته من مصر(٩٨) .

وقد ألف فى التخصصات التى درسها عدة رسائل وكتب ومراجع . ويلاحظ أن مؤلفاته الطبية فاقت - من حيث عددها وأهميتها - رسائله فى الفقه والتفسير والمنطق ، وقيل إن كتابيه " الشفاء " وتسهيل الطب " قد نقلا إلى اللغة اللاتينية(٩٩) .

ومن أشهر رسائله فى الفقه والتفسير والمنطق(١٠٠) :

تفسير فى مجمع الأنوار فى جميع الأسرار ، ويقع فى مجلدين .

طوالع الأنوار فىالكلام ، وهو شرح على تفسير البيضاوى للقرآن الكريم.

حواشى على شرح فخر الدين الرازى لكتاب "مطالع الأنوار فى المنطق".

" الشفاء " وضعه باللغة التركية ، ويبحث فى أنواع العلاج ، وقسمه ثلاثة أقسام، تناول فى القسم الأول علم وظائف الأعضاء وعلم التغذية ، وفى الثانى الأطعمة والأدوية ، وفى الثالث أسباب الأمراض وتشخيصها وعلاجها .

- " تسهيل الطب " وهو عبارة رسالة بسط فيها كتابه السابق .
- " شفاء الأسقام ودواء الآلام " .
- " الفريدة فى ذكر الأغذية المفيدة " .

- " التعاليم " .
- " الكيمى الجلالى " .

٢ - بهجت مصطفى أفندى : (١١٨٨-١٢٤٩هـ/١٧٧٤-١٨٣٤م)
تدرج فى المناصب الطبية حتى وصل سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣ م إلى منصب كبير أطباء السلطان سليم الثالث ، ثم انتقل إلى المناصب الدينية والقانونية المرموقة ، كان من بينها منصب قاضى إزمير من فئة مولى ، ثم قاضى مصر سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م ، ثم توج حياته الوظيفية بشغله منصب قاضى عسكر الأناضول سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م ، ثم قاضى عسكر الروميللى (البلقان وبقية الولايات العثمانية فى أوربا) سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م . وكان بهجت مصطفى أفندى يعتبر من رواد الطب الحديث على النمط الأوربى ، أنشئت تحت إشرافه مدرسة طب جديدة ، استقدمت الدولة لها مدرسين أوربيين ، كما أنشئ تحت إشرافه أيضًا مستشفى جديد . وعكف على دراسة لغات أوربية على يد كبير التراجمة فى الباب العالى ، وقام تبرجمة عدد لا يستهان به من الكتب العلمية والطبية ، منها كتاب ينر Jnner عن التطعيم ، وكتاب بوفون Buffon عن التاريخ الطبيعى ، ومصنفات أخرى عن الكوليرا والزهرى وقوبا الغنم . وتولى ترجمة كتاب المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى :" عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" إلى اللغة التركية ، وقصر ترجمته على الجزء الخاص بالحملة الفرنسية على مصر وأطلق عليه "تاريخ مصر" وقد طبع فى استانبول سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥ - ١٨٦٦م(١٠١).

٣ - عاكف أفندى : درس الطب فى إنجلترا ، وبعد عودته عين طبيب السلطان عبد العزيز الخاص ، إلى جانب عمله كمدرس فى مدرسة الطب فى استانبول . وكان أحد الأطباء الستة(١٠٢) الذين قاموا بفحص السلطان مراد الخامس ، وأثبتوا أن الداء الذى أصيب به السلطان مراد داء عضال ، وأنه لن يستطيع أن يستعيد قواه العقلية وسلامه تفكيره ، حتى ولو بعد مدة طويلة . وبعد

تولى السلطان عبد الحميد الثانى مقاليد الحكم عينه طبيبة الخاص ، وبقى فى منصبه هذا مدة سنين ، ثم استبعده السلطان عبد الحميد الثانى لشكه فى إخلاصه له . وكان عاكف أفندى طوال السنين التى عمل فيها طبيبًا لعبد الحميد- كان أيضًا - مستشارًا له فى كثير من الأمور ، لا سيما وأن عاكف أفندى درس الفقه وأصول الشريعة الإسلامية . وتشير الوثائق العثمانية بأن السلطان عبد الحميد قد استدعاه لمراجعة بعض الفتاوى التى أصدرها شيخ الإسلام وبعض القضاة بشأن الحرب الروسية العثمانية ، والتى أصبح بموجبها الجهاد فرض عين على كل مسلم قادر على حمل السلاح(١٠٣) .

وبالإضافة إلى تمكن عاكف أفندى ونبوغه فى الطب والشريعة الإسلامية ، فقد كان على درجة كبيرة من الخبرة والفهم فى الفنون الحربية ، إذ عمل مدرسًا فى المدرسة الحربية فى استابنول وتخرج على يديه عدد من كبار الضباط فى الجيش العثمانى(١٠٤) .

* * *

كان للسطان العثمانى عدد كبير من الأطباء ينتمون إلى الهيئة الإسلامية الحاكمة عند معظم المؤرخين ، وهم طبيب السلطان الخاص ، ويطلق عليه " حكيم باشى " أى كبير الأطباء ، ويعمل تحت رئاسته عدد من المساعدين له ، ثم " جراج باشى " أى كبير الجراجين ، ويعمل معه عشرة من الجراحين بمثابة مساعدين له ، وينتمى هؤلاء جميعًا إلى الهيئة الإسلامية الحاكمة(١٠٥) .

إلا أنه لا ينبغى تعميم هذا الحكم لأمرين :

الأول منهما : أن الشرط الأساسى لانتماء أى شخص إلى الهيئة الإسلامية هو تمكنه من الشريعة الإسلامية ، وليس جميع الأطباء فى تاريخ الدولة العثمانية الطويل قد توفر فيه هذا الشرط .

الأمر الثانى : أن الدارس لسلاطين الدولة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر يجد أن معظم الأطباء الذين كانوا يعملون فى بلاطهم أطباء أجانب من مختلف الدول الأوربية ، وقل أن نجد أطباء عثمانيين مسلمين متمكنين فى علوم الشريعة الإسلامية ، يعملون فى بلاط السلاطين كالذين أشرت إليهم سابقًا . وهذه الاستثناءات القليلة تجعلنا نخصص فى الحكم ولانعم(١٠٤) .

١٠ - نقيب الأشراف ، حامل الراية :

كانت الهيئة الإسلامية الحاكمة تضم بين أفرادها فئة الأشراف ، وهم الذين ينحدرون من آل بيت النبى ﷺ . وكان الأشراف يمثلون أحد نظامين وراثيين وحيدين فى الدولة العثمانية ، والنظام الوراثى الاخر هو وراثة العرش السلطانى ، وكانت هذه الوراثة فى أسرة آل عثمان .

وكان يطلق على الأشراف اسم آخر هو الاسياد ، فيذكر اسم الشريف مسبوقًا بكلمة سيد ، ولكنهم كانوا لا يعدون أعضاء فى الهيئة الإسلامية الحاكمة إلا أذا تلقوا فى المؤسسات التعليمية دراسات فى مستوى الدراسات التى يتعلمها العلماء . وكان بعض الأشراف يكتفون بانتسابهم إلى آل بيت النبى ﷺ ولا يجهدون أنفسهم فى تثقيفها وتعليمها ، وهذا لا يكفى لانتسابهم إلى هيئة العلماء. فالعلم والتمكن من علوم الشريعة الإسلامية شرط أساسى لذلك الانتساب . وكان عدد الأشراف بوجه عام كبيرًا ، ويختلف من عصر إلى آخر ، وقد تسلل إلى صفوفهم عدد من المدعين ، ولذلك لم تكن تصرفات هؤلاء المدعين فوق مستوى الشبهات)(١٠٦) .

وكانت بعض الحكومات والسلطات تعطيهم الحق دون سواهم فى ارتداء العمامة الخضراء ، كما كانت لهم امتيازات شخصية كالإعفاء الضرائبى مدى الحياة ، وإجراء مرتبات مجزية لبعضهم ، كما كان لهم محاكم خاصة بهم ، وقضاتها من الأشراف(١٠٧) .

وفى نطاق الحديث عن الأشراف نسلط الأضواء على شريفين : أحدهما يحمل علم الدولة العثمانية ويسير به فى المواكب الرسمية والعسكرية ، وكان يتقدم على جميع ضباط الجيش ويطلق عليه أمير العلم أوحامل الراية ، وكان يتناوب مع الصدر الأعظم فى رفع العلم فى المعارك الحربية . وأول إشارة عثرت عليها فى الوثائق العثمانية تشير إلى أن حامل العلم من الأشراف كان ذلك فى عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م فى أثناء الحملة التى شنها صالح ريس بكلر بك الجزائر بأمر من السلطان سليمان القانونى لضم مراكش (المغرب) إلى الحكم العثمانى . ولم تنجح هذه الحملة فى البقاء فى مراكش إلا بضعة أشهر ، لأن محمد المهدى السعدى استطاع أن يبعد النفوذ العثمانى والجزائرى عن مراكش(١٠٨) ، كما وردت فيما بعد إشارات كثيرة فى الوقائق العثمانية تشير إلى تناوب حمل البيرق النبوى بين الصدر الأعظم والشريف فى المعارك الحربية ، وبخاصة فى الفتوحات الإسلامية فى شرق أوربا(١٠٩) .

وكان لحمل الشريف العلم فى مقدمة الجيش أثر كبير فى تقدم الجيش واستبساله فىالجهاد حينمايرون علم الدولة يحمله الشريف فىوسط جيشالأعداء.

أما الشريف الآخر فكان رئيس الأشراف ، ويطلق عليه نقيب الأشراف ، وكان يحتل المكانة الثانية فى الهيئة الإسلامية الحاكمة ، وفى الاحتفالات التى تقام خلال شهر رمضان المبارك . وكان نقيب الأشراف يتقدم فى معظم الأحيان على شيخ الإسلام ، وكان يعين فى منصبه مدى الحياة ، ومقره فى العاصمة استانبول . وهو يرأس الهيئة القضائية الخاصة بالإشراف ، وله سلطة مطلقة عليهم، ويتولى محاكمتهم والتحقيق معهم وتنفيذ العقوبات عليه . وكان له جهاز فنى وإدارى يعمل تحت إدارته ، ويوفد بعضًا إلى الولايات العثمانية الإسلامية لتقصى الحقائق عن الأشراف وأوضاعهم وما إلى ذلك(١١٠) ، وكمثال على وضع الأشراف ومدى اهتمام الدولة العثمانية بهم نشير إلى وضع الأشراف فى مصر .

ففى مصر كـان يصـدر تعيـين نقيـب الأشـراف بفرمـان مـن السـلطان فـى استانبول . وكان النقيب يشغل هذا المنصب مـدى الحيـاة ، ولـو أن هـذا المبدأ لم يحترم تمامًا ، وبخاصة عندما ضعفت قبضة الدولة العثمانية على مصر التى اجتـازت فترة سياسية داميـة أطلـق عليهـا عهـد الانقلابـات السياسـية أو عهـد الاضطـراب السياسـى (١٢١٦ - ١٢٢٠ هـ / ١٨٠١ - ١٨٠٥م) . فقـد استطاع أفـاك تركى يدعى " يوسف أفندى " أن يستصدر من السلطان سليم الثـالث فرمانًـا فـى نوفمبر - تشرين الثانى - ١٨٠١م بتعيينه نقيبًا للأشراف فى مصر بدلاً من السـيد عمر مكرم . ولم يستطع الباشا العثمانى فى مصر فـى ذلـك الوقـت ، وهـو محمـد خسرو باشا أن يتجاهل فرمان السلطان سليم ، فقلد هذا الباشا نقابة الأشراف فى ٢ نوفمبر - شباط - ١٨٠٢ م للأفـاك الـتركى يوسـف أفنـدى ، ولكـن أعيـدت نقابة الأشراف إلى السيد / عمر مكرم فـى ١٨ أبريـل سـنة ١٨٠٢ م بعـد مسـاع بذلت لدى السلطان فى استانبول(١١١) .

وكان للمركز المرموق الذى تبوأه نقيب الأشراف فى استانبول أصداء علـى مركز نقيب الأشراف فى مصر ، وإذا كان الأخير أيضًا يتمتع بمكانة كبيرة ، فهـو بحكم منصبه عضو فى ديوان القاهرة ، وكان الباشا العثمانى يرجع إليـه فـى كثـير من المسائل . وكان يقدم للنقيـب فـرو سمـور فـى شـتى المناسـبات ، وفـى فـترات متقاربة على مدار السنة ، وكان أشراف مصـر يدينـون لنقيبهـم بالطاعـة ، وكـان يقدم له كل ثلاثة مرتبات يطلق عليها " جميكية " وكـانت هـذه المرتبـات محـدودة قيمتها ، ومدونة فى سجلات النقابة(١١٢) .

الهوامش

(١) أبو حنيفة : هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه ، ولد فى سنة ٨٠هـ / ٦٩٩م، وهو من المجتهدين فى الشرع الإسلامى ، وإمام للمذهب الحنفى الذى ينسب إليه ، وكانت وفاته يرحمه الله سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م .

(خليفة بن خياط العصفرى : كتاب الطبقات ، ص١٦٧ ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الثانية ، دار طيبة . الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) .

(أحمد بن أبى بكر بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ص٤٠٥ ، ٤١٣، ٤١٤ ، تحقيق إحسان عباس ، الجزء الخامس ، دار صادر ، بيروت " بدون تاريخ ") .

(٢) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (٦١٣) تاريخ ٢ ربيع الأول ٩٨٢هـ/ ٧ أكتوبر١٥٢١م .

- محمد بن أحمد النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص٧٣١ الطبعة الأولى، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . الرياض ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

- طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية . جـ١، ص٣٠٤ ١٣١٩ .

- يلمازا وزتونا : بيوك تركيا تاريخى ، جـ١ ، ص٦٧ . إستانبول ١٩٧٨م .

(٣) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٤٣) تاريخ ٢٣ رجب ٩٦٢هـ/ ١٩ أبريل ١٥٥٥م .

- محمد جمال : وثائق سياسية ، ص١٢٣ . الآستانة ١٣٢٧هـ .

- أحمد رفيق : كدنلر سلطتى ، جـ ١، ص٩٣ . الآستانة ١٣٢٢هـ .

(٤) عبد الصمد بن إسماعيل الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، ص٥٥ - ٦٠ ، تحقيق محمد الحبشى . الطبعة الأولى . منشورات المدينة ، صنعاء ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

(٥) الأقجة : هى وحدة من عملة تركية قديمة . سكت لأول مرة عام ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م فى عهد السلطان أورخان بن عثمان . وكانت على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وحدة قيمتها ٥٠أقجة . ولم يكن عليها تاريخ ، كما لم يذكر محل سكها . قطرها ٢٢مم . ومكتوب على وجهها " أورخان ، خلد الله ملكه " باللغة العربية .

النوع الثاني : وحدة من أقجة واحدة فقط ، بلا تاريخ ولا ذكر المكان . على وجهها الأول أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة وكلمة الشهادة ، وعلى وجهها الثاني " أورخان ، خلد الله ملكه " .

النوع الثالث : على الوجه الأول أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة ، وعلى الوجه الثانى تاريخ ٧٢٩ ومحل سكتها بورصة ، وقطرها ١٨سم . ويتتابع سك الأقجة طوال مدة السلطنة العثمانية حتى عهد السلطان محمود الثانى أى حتى عام ١٢٣٤هـ / ١٨١٨م ، وضربت من فضة عيارها ٩٠٪ .

(دائرة المعارف التركية ، ميدان لاروس ، جـ١ ، ص٢١٣ ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م) .

(٦) قاضى العسكرى (الجيش) تعود تسميته بهذا الاسم إلى أن هذا المنصب فى الأصل قد أنشئ ليكون شاغله قاضيًا للجيش العثمانى يرافقه فى ساحات المعارك . وكان إنشاؤه متقدمًا على وضع قضاة للمدن . وفضلاً عن تكليفه برد الحقوق إلى أصحابها ؛ فقد كان يخوض المعارك مع الجيش ، ولهذا وقعت على عاتقه مهمة ضمان الوحدة المعنوية فى الجيش أكثر مما وقعت على عاتق القواد العسكريين . انظر كلاً من :

- حكمت فقلجملى : المرجع السابق ، ص٢٨٣ .
- محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، ص١١٥ .

(٧) قاضى القضاة : تعود هذه التسمية إلى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/٧٨٦ - ٨٠٩م) الذى يرجع إليه الفضل فى تعيين رئيس للقضاة فى كافة أراضى الدولة الإسلامية .

(جمال صادق المرصفاوى : نظام القضاء فى الإسلام ، ص١٩٧ بحث مقدم لمؤتمر الفقه الإسلامى المنعقد فى جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، طبع سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - الرياض)

(٨) دفتر المهمة رقم (١) ، وثيقة رقم (٦٩٩) تاريخ ٢٥ ذو الحجة ٨٦٤هـ/٢٦ نوفمبر ١٤٥٩م .

(٩) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (٧٠٣) تاريخ ١٠ شعبان ٨٨٥هـ / ١ مارس ١٤٨٠م .

- أحمد رفيق : أوننجى عصر هجر يده إستانبول حيات ، ص١٨٧ الآستانة ١٣٣٣هـ.

- أسعد أفندى : أس ظفر ، ص١٢٥ باريس ١٨٣٣م .

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٢ ، ص٣٣٥ ، إستانبول ١٣٣٨هـ .

(١٠) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة (٧٠٣) تاريخ ٠ شعبان ٨٨٥هـ/ ١مارس ١٤٨٠م.

(١١) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (٧١٠) تاريخ ١٢ شعبان ٨٨٥هـ/٣ مارس ١٤٨٠م .

- وثيقة رقم (٧١١) تاريخ ١٥ شعبان ٨٨٥هـ / ٦ مارس ١٤٨٠م .

(١٢) محمد جمال : وثائق سياسية ، ص٣٠١ ، الآستانة ١٣٢٧هـ .

- أحمد رفيق : كدنلر سلطتى ، جـ١ ، ص٩١ .

(١٣) دفتر المهمة رقم (٤) وثيقة رقم (٥٢٧) تاريخ ١ صفر ٩٢٤هـ / ١٣ يونيه ١٥١٨م .

(١٤) كان دخول الشمال الإفريقى فى حوزة العثمانيين على نحو التالى : فى ٢٨ ذى الحجة ٩٢٢هـ / ٢١ يناير ١٥١٧م دخلت مصر فى حكم العثمانيين . بعد انتصار السلطان سليم الأول على الجيش المملوكى بقيادة السلطان طومان باى فى معركة الريدانية . وفى سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م دخلت الجزائر فى الحكم العثمانى بناءًا على استنجاد أهلها ضد القوى النصرانية الأسبانية . وفى سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م دخلت طرابلس فى الحكم العثمانى بعد استنجاد أهلها بالسلطان سليمان القانونى . أما تونس فقد دخلت فى الحكم العثمانى سنة٩٨٢هـ / ١٥٧٤م بعد معارك هائلة بين القوات العثمانية والقوات الليبية الأسبانية .

(١٥) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٧٧٩) تاريخ ١٠ ربيع الأول ٩٦٨هـ/١٦ كتوبر ١٥٦٠م .

(١٦) لفظة " همايون " فارسية الأصل .ومعناها اللغوى مبارك ، مقدس ، حسن الحظ ، ومن هنا ملكى ، أو سلطانى ، وخطى همايون معناها مرسوم أو أمر كتابى سلطانى .

(سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٣٠٧١ ، الآستانة ١٣٠٨هـ) .

والديوان الهمايونى يشبه بجلس الوزراء ، ولكنه أوسع من ناحية الاختصاص والعضوية. وكان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . واستمر هذا التقليد متبعًا حتى الثلث الأخير من حكم السلطان سليمان القانونى حيث تنازل عن رياسته للصدر الأعظم؛ نظرًا لإتساع رقعة الدولة العثمانية فى عهده وانشغاله بمعالجة أمور الدولة الخارجة عن نطاق اختصاص الديوان ، وليس سب هذا التنازل هو زواج السلطان

سليمان القانونى بزوجته النصرانية روكسلانه وحبه الشديد لها إلى درجة أنه لا يستطيع مفارقتها كما يزعم بعض المؤرخين .

- دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٩١) تاريخ٩ ذو الحجة٩٦٨هـ/٣١ أغسطس١٥٦٠م.

وكان الديوان زمن السلم يعقد جلسات مطولة أربعة أيام من كل أسبوع هى : السبت والأحد والإثنين والثلاثاء ، وتتوقف الجلسات خلال شهر رمضان المبارك ، فكان الاجتماع يستغرق ما يقرب من ثمان ساعات ، وكان يتخلله فترات استراحة وتناول الطعام الذى كانت تقدمه الدولة لأعضاء الديوان وغيرهم من الموظفين الذين تقضى طبيعة عملهم أن يظلوا على مقربة من الأعضاء لتقديم البيانات أو الإيضاحات وما إلى ذلك . وكانت الدولة تستقطع نسبة معينة من مرتبات جميع أعضاء الديوان وموظفيه والحرس ومن إليهم قيمة جزء من تكاليف الطعام الذى تقدمه لهم على مدار السنة ، وكان الطعام يتكون من اللحم والخبز والأرز والفاكهة .

(١٧) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٤٥) تاريخ ٢٥رجب ٩٦٤هـ/ ٢١ أبريل ١٥٥٧م.

- عثمان زادة : حديقة الوزراء ، ص١٢٣ ، الآستانة ١٢٧١هـ .

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص١٥٩ ، الآستانة ١٣١١هـ .

(١٨) أطواخ جمع طوخ وتكتب فى بعض المراجع العربية بحرف الغين على هذا النحو: طوغ وأطواغ . والطوخ هو ذيل حصان معلق فى سارية فى أعلاها كرة من النحاس المطلى بالذهب . وكان كبار موظفى الدولة يتميزون بعدد الأطواخ التى ترفع أمامهم فى المواكب والحفلات الرسمية .

حيث كانت تقدمهم سارية تحمل الطوخ أو الأطواخ المقررة بحكم القانون لكل منهم . وعدد الأطواخ هو الذى يحدد مراكز كبار رجال الدولة . فالسلطان له تسعة أطواخ ، وللصدر الأعظم خمسة أطواخ ، ولشيخ الإسلام خمسة أطواخ ، أما الوزير فترفع أمامه ثلاثة أطواخ .

(علميه سالنامه سى ، ص٤٣٧ ، نشر أحمد رفيق وزميله ، مطبعة إستانبول ١٣٣٤هـ).

(عطائى : ذيل الشقائق ، ص٩٣ ، إستانبول ١٢٦٨هـ) .

(١٩) عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، ص٢٠ ، الآستانة ١٢٦٧هـ .

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى : جـ٢ ، ص٣٦٧ .
- سلانيكى مصطفى أفندى : تاريخ ، ص٨٣ ، الآستانة ١٢٨١هـ .

(٢٠) أفندى لفظة عثمانية شاع استخدامها فى جميع البلاد التى دخلت فى الحكم العثمانى ، وهى لقب يمنح للأشخاص المدنيين المثقفين ثقافة واسعة .
(سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٢٥٩) .

(٢١) أسكودار : كلمة تركية معناها محطة البريد ، وهذا المكان أقدم حى فى إستانبول ، ويقع على الجانب الأسيوى من البوسفور . ويذكر بعض المؤرخين الأتراك أن هذا الحى قد دخل فى الحكم العثمانى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م فى عهد السلطان أورخان بن عثمان ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أن دخوله فى الحكم العثمانى كان فى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م . وفى عهد العثمانى أصبحت أسكودار جزءًا من صميم العاصمه إستانبول ، ولم يزدحم بالسكان إلا فى عهدالسلطان سليمان القانونى . وفى أسكودار عدد كبير من المساجد المشهورة ، أنشأ أكثرها أكبر نساء القصر العثمانى ، كما أن أسكودار أصبح مقر احتماع طائفة الدراويش ، ومركزا للتكايا ، وبهذا غدت مركزًا هامًا لحياة التصوف فى العاصمة ، وأشهر هذه التكايا تكية الخلوتية ، وتكية الرفاعية وغيرها .
(حاجى خليفة : جهانتما ، ص٦٦٣ - ٦٧٠ الآستانة ١١٤٦هـ)
(حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ٢ ، ص١٨٢-١٩٠، الآستانة ١٢٨١هـ).

(٢٢) ضاحية أيوب تنسب إلى الصحابى الجليل " أبى أيب " وهو : خالد بن زيد الأنصارى ، حامل لواء النبى ﷺ . استشهد تحت أسوار القسطنطينية أثناء حصار المسلمين لهذه المدينة عام ٥٢هـ / ٦٧٢م ، ودفن هناك . ويقال إن الشيخ أق شمس الدين عثر على قبره عندما أتى محمد الثانى لمحاصرة هذه المدينة . وقد شيد مسجد فى هذه البقعة عام ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م . وقام بتوسيعه اتمكجى زاده أحمد باشا عام ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م وشيدت له مئذنتان وأروقة عام ١١٣٦هـ / ١٧٣٣م . وقد دفن فى مكان ملحق بالمسجد عدد كبير من مشاهير الرجال ، أمثال : الصدر الأعظم سنان باشا المتوفى عام ١١٢٣هـ/١٧٢٩م. والسلطانه ماه فيروز خديجة ، وأم السلطان عثمان الثالث ، والصدر الأعظم سمبز على باشا ... وقد قامت حول هذا المسجد ضاحيه هامة هى ضاحيه أيوب . ويحتفل فى هذا

المسجد بتتويج كل سلطان جديد من سلاطين آل عثمان : حيث يتقلد السيف ، ويقسم على المصحف على الجهاد فى سبيل الله . وهذا عُرف جرى عليه سلاطين الدولة العثمانية منذ فتح القسطنطينية حتى سقوط الدولة العثمانية .

(٢٣) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٦٥) تاريخ ٢٣صفر ٩٧٠هـ / ١٧ يناير ١٥٦٢م .

- حافظ حسين الأيوانسرايى : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٢٦٧ .

- عطائى : ذيل الشفائق ، ص٩٣ .

(٢٤) المولى : بفتح الميم أو ضمها وسكون الواو وفتح اللام بمعنى سيد أو رئيس أو زعيم أو قيم . وقد حرفت هذه اللفظة فى أقاليم شمال إفريقيا فأصبحت " مولاى " ومن بين الطرق الصوفية المشهورة توجد الطريقة التى أسسها جلال الدين الرومى ، وقد اشتق اسمها من كلمة " مولانا " بمعنى سيدنا ، ويطلق الأكراد إلى الوقت الحاضر لفظة " المولا " على السيد الوقور كبير السن ذى المركز المرموق سواء الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية ، وهى تقابل فى المجتمعات القبلية كلمة شيخ . وأكثر الأكراد استخدامًا لهذا الكلمة هم أكراد العراق. فيذكرون اسم الشخص مسبوقًا بكلمة " مولا " . مثل مصطفى البرزانى زعيم الأكراد .

(عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة الإسلامية مفترى عليها، جـ١ ، ص٤٢٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٨٠م) .

(٢٥) دفتر المهمة رقم (٥) ، وثيقة رقم (١٦٣٩) تاريخ ٥ رجب ٩٦١هـ/ ١ أبريل ١٥٥٤م.

(٢٦) بروُسَّة : وينطقها الأتراك : " بورسة " وكانت تعرف قديمًا باسم " بروسًا " وتقع على خط طول ٤٠° – ٢٦° شرقًا وخط عرض ٣١° – ٤٠° شمالاً ، عند سفح جبل كشيش ، واسمها القديم " أوليمبوس " وبلغ عدد سكانها عام ١٩٠٧م : ٦٦,١٥١ نسمة ، وبها حمامات ساخنة شهيرة بمياهها الكبريتية الحديدية . ومن آثار بروسة المساجد التى شيدها السلاطين الأول من آل عثمان وخاصة " يشيل جامع " الذى شيده السلطان محمد الأول " وأولو جامع " ، ومسجد مراد الثانى ، ومسجد يلدرم ، وأصبح لبروسة شأن فى الإسلام بعد أن فتحها السلطان أورخان بن عثمان ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ، واتخذها عاصمة

للدولة ، وظلت بعده مقر السلاطين إلى أن فتحت مدينة القسطنطينية . حيث نقلت العاصمة إليها .

(عبد الله خلوصى : دوحة الملوك . ص ٨٧) .

(٢٧) أدرنة : تقع على مرتفع من الأرض ، عند ملتقى عدة أنهار فى وسط سهل بالبلقان . وقد حصّنها الروم تحصينًا قويًا لصد غارات البلغار ، فتحتها الجيوش العثمانية فى عهد السلطان مراد الأول سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦٢م ، بعد إنزال هزيمة ساحقة بالأحلاف الصليبية ، وفشلت جهود البابا " أوربان الخامس " الذى بذل جهودًا مضنية فى لم شمل الدول الأوربية فى حرب صليبية ضد الدولة العثمانية . وبعد هذا النصر المؤزر الذى حققه السلطان مراد على الدول الأوربية نقل عاصمته من بروسة إلى أدرنة . وعمرها بالمساجد والمدارس والقصور والمنشآت الخيرية ، واتخذها نقطة إنطلاق لمواصلة الفتوحات الإسلامية فى أوربا . واتسعت أدرنة اتساعاً كبيرًا ، حتى كان بها عام ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠ أكثر من ثلاثين ألف بيت ، يسكنها أكثر من مائة وخمسين ألف نسمة . غير أن هذه المدينة أخذت فى الضمور تدريجيًا بعد الحرب الروسية العثمانية ، وانسحاب الدولة العثمانية من معظم بلاد شرق أوربا ، حيث قدر عدد سكانها فى أعقاب الحرب بثمانين ألف نسمة تقريبًا .

(سامى : قاموس الأعلام ، جـ٣ ، ص١٥٩) .

(٢٨) لاريس Larisse مدينة فى بلاد اليونان ، وتقع فى إقليم تساليا .

(٢٩) سالونيك : بلد من أعمال مقدونية فى طرف خليج سلانيك مصب نهر وردار . وكانت منذ قديم العصور مدينة تجارية لها شأنها وظل هذا حالها فى عهد الإمبراطورية البيزنطية، وكانت تضم فى تلك الأيام جاليات كبيرة وخاصة من أهل البندقية . افتتحها السلطان العثمانى با يزيد الأول سنة٧٩٦هـ / ١٣٩٤م بعد أن أوقع الهزيمة بالأساطيل النصرانية المتحالفة . ولما بدأ الضعف يظهر على جسم الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر الميلادىأصبحت سالونيك أشد تعرضًا لهجوم الأعداء والنفوذ الأجنبى . وقد نص قانون الإصلاح الإدارى الذى عمل سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م على إنشاء ولاية سالونيك ، وامتدت تلك الولاية إلى مساحات كبيرة ، ولكنها لم تلبث طويلاً حتى

انكمشت ، كما أصبحت مركزا لجمعية تركيا الفتاة ، والجمعيات الماسونية اليهودية ، والمعارضين للدولة العثمانية ، نظرًا لموقعها الممتاز ، وضعف نفوذ الدولة العثمانية عليهـا ، وسيطرة الدولة الأوربية عليها . وخسرت الدولة العثمانية سالونيك أثناء الحرب البلقانية، فقد عبر الجيش اليونانى إليها تحت إمرة ولى العهد ، وحاصر سالونيك فى ٨ نوفمبر ١٩١٢م . وفى اليوم نفسه سلم القائد العثمانى حسن باشا المدينة لليونانيين وأدمجت فى بلاد اليونان بمقتضى الصلح الذى تم فى أثينا فى ١٤ نوفمبر ١٩١٣م .

(سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ص٣٤٢ وما بعدها . والآستانة ١٢٧٩هـ) .

(حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، ص٢٥١ . والآستانة ١١٤٦هـ) .

(٣٠) فيلبية : مدينة تقع فى بلغارية .

(٣١) إزمير : أهم مدن تركية آسيا من الوجهة التجارية . ولما غزا السلاجقة آسيا الصغرى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلاد . واستقروا فى إزمير ، ومنها أخذوا يشنون الغارات على جزر الأرخبيل ومضيق الدردنيل ، ولم تعد إزمير إلى الحكم البيزنطى إلا بعد أن أجلى السلاجقة عن نيقية عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م . ولما انحلت مملكة السلاجقة فى قونية ، وأحتل أمير أفسوس المدينة عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م وأصبحت كما كانت من قبل قاعدة لغارات القراصنة على جزر الأرخبيل وسفن الفرنجة التجارية . واتحدت قوات الفرنجة البحرية تحت رعاية البابا للقضاء على هذه القرصنة ، ونجحوا فى دخول إزمير عنوة سنة ٧٤٥هـ / ١٤م وابتنى فرسان جزيرة رودس الذين أنيط بهم حماية المدينة قلعة القديس بطرس ، ثم نجح السلطان العثمانى بايزيد الأول فى إجلائهم ، وتم فتح المدينة ودخلوها فى الحكم العثمانى ، وعمرها سلاطين الدولة العثمانية بالمساجد والمدارس والمنشآت الخيرية . غير أن الزلازل التى انتابت هذه المدينة قضت على معظم هذه المساجد والمدارس والآثار . فقد انتابها زالزال فى ١٢ رمضان عام ١٠٩٩هـ/١٠ يوليه ١٦٨٨م ، وطغت الأمواج على ما يقرب من نصف المدينة، وأما الزلزال الثانى فقد حدث عام ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م ومات فيه عدد كبير من سكان هذه المدينة ، ولا تزال بعض الآثار باقية إلى اليوم .

(حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ١ ، ص٢١١) .

(٣٢) بعد أن أصبح رئيس الديوان الهمايونى .

(٣٣) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة قم (١٦٤١) تاريخ ٢٨ شعبان ٩٦١هـ / ١٩ مارس ١٥٥٤م ، ووثيقة رقم (١٦٦٥) سبق ذكرها .

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص١٦٧ .

- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص٩٠ .

(٣٤) يقوم رئيس الخصيان البيض على الخدمة الداخلية فى أجنحة الحريم السلطانى ، وكان يطلق عليه أحيانًا " باب السعادات أغاسى " أى أغا باب السعادة ، وأحيانًا أخرى " قابى أغاسى " أى أغا البوابة .

(٣٥) رئيس الخصيان السود كان يطلق عليه " قيزار أغاسى " أى أغا البنات .

(٣٦) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٤٦) تاريخ ٢٦ رجب ٩٦٥هـ/٢٢ أبريل ١٥٥٨م.

دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (١٢٤٠) تاريخ ٢١ ربيع الثانى ٩٨٤هـ/٢٦ نوفمبر ١٥٧٥م.

(٣٧) بوسنا سراى هى عاصمة ولاية البوسنة .

(٣٨) صوفيا : عاصمة بلغاريا .

(٣٩) عنتاب : مدينة فى سوريا .

(٤٠) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٧٩٧) تاريخ ٢٤ ربيع الأول ٩٧٠هـ /٣٠ أكتوبر ١٥٦٢م.

(٤١) سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ص٣٦٣ .

- عطائى : ذيل الشقائق ، ص١٤٤ .

(٤٢) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص١٩١ .

- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص١١٣ .

(٤٣) دفتر المهمة رقم (١٠) وثيقة رقم (١٤٠١) تاريخ ١٦ محرم ١٠٠١هـ / ٨ يونيه ١٥٩٢م .

- خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، جـ١١ ، ص٢٨١ الآستانة ١٢٩٢هـ.

(٤٤) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (١٣٢٧) تاريخ ١٧ جمادى الآخرة ٩٩٥هـ / ١٩ ديسمبر ١٥٨٦م .

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص١١٣ .

(٤٥) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (١٣٣٤) تاريخ ١٩ جمادى الآخرى ٩٩٥هـ ٢١ ديسمبر ١٥٨٦م .

– أحمد رفعت : روضة العزيزية ، ص٩١ ، الآستانة ١٢٨٢هـ .

(٤٦) معاهدة سان استفانو : هى من أكثر المعاهدات ضررًا بالدولة العثمانية ، وتعتبر فى القانون الدولى العام من أنواع المعاهدات غير المتكافئة أملتها دولة منتصرة على دولة منهزمة ، وأهم البنود التى جاءت فى هذه المعاهدة :

إنشاء ما يسمى بلغاريا العظمى ، وأفردت لها مساحات شاسعة فى البلقان ذات أربعة أضلاع ، تتحد بنهر الدانوب شمالاً ، والبحر الأسود شرقًا ، وبحر إيجه جنوبا ، والبانيا غربًا . وقررت المعاهدة أن يكون " مأمور " الحكومة وجنودها من النصارى ، وأن يحكمها أمير ينتخبه الأهالى ، بشرط ألا يكون هذا الأمير أحد أعضاء الأسر الحاكمة فى أوربا . ويصدر السلطان فرمانًا بتعيينه بعد موافقة الدول الأوربية الكبرى الموقعة على معاهدة باريس عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م ، وإن يجتمع مجلس " المعتبرين " أى مجلس الأعيان ؛ لوضع دستور للبلاد قبل انتخاب الأمير . وعلى الدولة العثمانية أن تسحب قواتها من بلغاريا ، وعلى الحكومة المحلية أن تهدم القلاع المقامة فى أنحاء البلاد ، وأن ترابط القوات الروسية فى بلغاريا لمدة سنتين ، حتى يتم إنشاء جيش من البلغاريين ، يتكون من ست فرق من المشاة وفرقتين من الفرسان ، ويكون تعدادهم جميعًا خمسين ألفًا . وأن تدفع بلغاريا جزية سنوية للسلطان تودع فى أحد المصارف .

ونصت المعاهدة على منح الاستقلال التام لرومانيا ، وأن يضم إليها ثلثا إقليم دبروجة ، وأن يأخذ منها إقليم بساريبا لضمه إلى روسيا ، كما قررت المعاهدة منح الصرب استقلالها مع إضافة إقليم نيش إليها ، ووضع ولايتى البوسنة والهرسك تحت مراقبة روسيا ، على أن تحتفظ الدولة العثمانية بسيادتها على هاتين الولايتين . وقررت المعاهدة وجوب تنفيذ أحكام اللائحة الأساسية الصادرة عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م فى جزيرة كريت . أما بالنسبة لأرمينية فقد قررت المعاهدة أن تتعهد الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات أساسية حسب الاحتياجات المحلية فى المناطق التى يسكنها أرمن ، وتأمين النصارى من أعتداءات

الأكراد والشراكسة ، وإصدار عفو عام عن المسجونين السياسيين والمعتقلين والمنفيين الأرمن . وأما مكاسب روسيا في الحرب فهي:

١ - تقرير حرية المرور فى البوسفور والدردنيل فى وقت السلم والحرب للسفن التجارية الروسية التى تريد عبور هذه المضايق .

٢ - استيلاء روسيا على أقاليم هامة فى آسيا ، وهى : اردهان ، قارص، باطوم ، وبايزيد مع الأراضى الملحقة بهذه المدن .

٣ - استيلاء روسيا على أقليم هام فى أوربا هو بساربيا مصب نهر الدانواب .

٤ - فرض غرامة فادحة على الدولة العثمانية حدث بمبلغ "١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠ " روبل أى ما يعادل فى ذلك الوقت " ٢٣٥ " مليون جنيه

٥ - المحافظة على أوضاع وحقوق وامتيازات القسيسين والرهبان ومن إليهم من رعايا روسيا القاطنين فى الدولة العثمانية ، وكذلك الزوار الروس .

(٤٧) اعترضت الدول الأوربية على معاهدة سان أستفانو ، وهاجمتها هجومًا عنيفًا ، وذلك لإنفراد روسيا بالمكاسب الهائلة ، والنفوذ الواسع فى البلقان والقوقاز دون أن تنال الدول الأوربية الكبرى نصيبًا من هذه الغنيمة . وتداعت الدول الأوربية لعقد مؤتمر فى برلين ، فأذعنت روسيا لمطالب هذه الدول ، وتم عقد المؤتمر برئاسة المستشار الألمانى بسمارك ، وشارك فيه كل من :

بريطانيا ، فرنسا ، روسيا ، ألمانيا ، النمسا المجر ، والدولة العثمانية ، وإيطاليا ، وأهم مقررات هذا المؤتمر :

أولاً : أن تحتل الإمبراطورية الثنائية - النمسا والمجر - الولايتين العثمانيتين الهامتين البوسنة والهرسك فى غرب البلقان احتلالاً " مؤقتًا " .

ثانيًا : أن تقيم الإمبراطورية الثنائية - النمسا والمجر - حاميات عسكرية، وتحتفظ بطرق عسكرية وتجارية فى صنجق " نوفى بازار " بين الصرب والجبل الأسود ، ومع بقاء الإدارة العثمانية فيها .

ثالثًا : أبقت معاهدة برلين النفوذ الروسى فى شرق البلقان مع تقرير ما جاء فى معاهدة سان أستفانو .

رابعًا : أكدت معاهدة برلين استقلال رومانيا طبقًا للحدود التى وضعتها معاهدة سان أستفانو.

خامسًا : أكدت المعاهدة أيضًا استقلال كل من الصرب والجبل الأسود.

سادسًا : أنقصت المعاهدة من حجم بلغاريا العظمى بتقسيمها إلى قسمين :

(أ) قسم باسم بلغاريا ، وحدت حدوده ، ويكاد يكون مستقلاً وله حكومة نصرانية وقوات نصرانية ، وحاكم نصرانى .

(ب) أما القسم الثانى فيقع جنوب البلقان بين مقدونيًا وأدرنة ، ويسمى "روم إيلى شرقى" بدلا من اسم بلغاريا . وتكون إدارته الداخلية مستقلة .

سابعًا : كما قرر المؤتمر أن تتنازل الدولة العثمانية لروسيا عن أراضى : أردهان ، قارص، باطون ، بايزيد ...

ثامنًا : قامت بريطانيا بالضغط على الدولة العثمانية سرًا فى مؤتمر برلين حتى أجبرتها على التنازل عن جزيرة قبرص لبريطانيا .

تاسعًا : قامت بريطانيا باسترضاء فرنسا ، حينما اعترضت الأخيرة على الاحتلال البريطانى لقبرص ، واستطاعت بريطانيا إقناع فرنسا باحتلال تونس ، وتم ذلك فيما بعد . وكان هدف بريطانيا هو إسكات فرنسا عندما تقوم هى باحتلال مصر.

هذه هى أهم مقررات مؤتمر برلين ، وكانت أشد سوءًا ونكالاً بالدولة العثمانية من معاهدة سان أستفانو ، حيث تكالبت الدول الأوربية وروسيا على أجزاء الدولة العثمانية ، وبذلك انتهى الوجود العثماني تقريبًا من شرق أوربا ، ومن شمال إفريقيا .

(أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩م ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧م ، ص١٩٣ ما بعدها) .

(محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ، ص٣٥٣ وما بعدها) .

(محمد رفعت : تاريخ البحر المتوسط وتياراته السياسية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩م ، ص٧٨ وما بعدها) .

(٤٨) دفتر المهمة رقم (١٠) وثيقة رقم (١٤٩٧) تاريخ ٢٣صفر ١٠٠٧هـ/ ٢٤ يونيه ١٥٩٨م .

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص١٨٣ ، مطبعة إستانبول .

(٤٩) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص١٢١

- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ص٣٥١

(٥٠) منجم باشي : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٩٣ ، الآستانة ١٢٨٥هـ .

- دائرة المعارف التركية ، ميدان لاروس ، جـ١، ص٤٣١ ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م ، إستانبول .

(٥١) دانشمان ظهورى : عثمانلى إمبراطور لوغو تاريخى ، تاريخي جـ١ ، ص٢٨٧ ، إستانبول ١٩٦٥م .

- جمال الدين : عثمانلى ومؤرخلرى ، ص٥٣ ، القسطنطينية ١٣١٤هـ .

(٥٢) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥٤٩) تاريخ ٢٥ ذو الحجة ٩٧٣هـ / ٢٦نوفمبر ١٥٦٥م .

(٥٣) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥٢٧) تاريخ ٢١ ذو القعدة ٩٧١هـ / ٩ يونيه ١٥٦٣م .

(٥٤) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥٣١) تاريخ ٢٢ ذو القعدة ٩٧٢هـ / ١٠ يونيه ١٥٦٤م .

(٥٥) عبد الرؤوف محيي الدين سنو : أثر الغرب الأوربى فى حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية (١٧٨٩ - ١٨٣٩) ، ص٥٢ بيروت ١٩٧٥م .

- أحمد راسم : تاريخ ، جـ١ ، ص١٢٧ ، إستانبول ١٣٢٦ - ١٣٢٨هـ.

(٥٦) دفتر المهمة رقم (٥) ، وثيقة رقم (١٦٤٥) سبق ذكرها .

- حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، ص١٥٣

(٥٧) عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص٤٣

- دائرة المعارف التركية : ميدان لاروس ، جـ١ ، ص٤٥٢

(٥٨) أحمد رفعت : روضة العزيزية ، ص١١٩

- دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٥٠) تاريخ٦ ذو الحجة ٩٦٧هـ/٢٨ أغسطس١٥٥٩م

(٥٩) حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ١ ، ص٥٤

- منجم باشي : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٩١

(٦٠) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٧٨١) تاريخ ١٧ ذو القعدة ٩٦٨هـ / ٥ يونيه ١٥٦٠م .

- وثيقة رقم (٧٨٣) تاريخ ١٢ ربيع الأول ٩٦٩هـ / ١٨ أكتوبر ١٥٦١م.

(٦١) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٥٠) سبق الإشارة إليها .

(٦٢) أحمد راسم : تاريخ ، جـ١ ، ص١٢١

- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ص٣٢١

(٦٣) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص١٤٤ - ١٦١

- برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة سيد رضوان على ، دار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص١٧٩ - ١٨٢

(٦٤) طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية القاهرة، ١٣١٠هـ ، جـ١، ص٣٩

- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية . القاهرة ١٣٢٤هـ ، ص١٤٠

- حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ٢ ، ص١٨٢

- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ص٣٦١

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٢٢١

(٦٥) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ١ ، ص٣٣ ، جـ٤ ، ص١٤٤

(٦٦) محمد ثريا أفندى : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٠٠ - ٣٣٨

(٦٧) محمد ثريا أفندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٣٦٥ وما بعدها .

(٦٨) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون جـ٢ ، ص١١٢ ، دار الكتب العلمية بيروت .

(٦٩) قنالى زاده حسن حلى : تذكرة الشعراء . مخطوط فى فينا رقم ١٢٢٨ . جـ٢ ، ص٣٨٧

- بجوى : تاريخ ، جـ٢ ، ص٢٨٨

- حاجى خليفة : فذلكة ، جـ١ ، ص١٣٠

- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون جـ٢ ، ص٥٤٩

- عطائى : ذيل الشقائق ، ص٤٢٩ وما بعدها .

- بروسلى محمد طاهر : عثمانى مؤلفلرى ، جـ٢ ، ص٢٢ وما بعدها .

- علمية سالنامه سى : ص٤٢٦ وما بعدها .

(٧٠) حافظ الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ٢ ، ص١٩٣

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٢٩٧

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٢ ، ص٣٠٠

- بجوى : تاريخ ، ١٢٣ - ١٤٩
- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ٣٢١
- قنالى زاده حسن جلى : تذكرة الشعراء ، جـ٢ ، ص٣٥١

(٧١) أحمد رفعت : روضة العزيزية ، ص١١٩
- حاجى خليفة : جهاننما ، ص٢٢٣
- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ، ص١٩٧ .
- حاجى خليفة : فذلكة ، جـ١ ، ص١٤٣
- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٢ ، ص٣٢١
- حافظ الأيوانسرايى : حديقة الجوامع . جـ١ ، ص٢١٨
- قنالى زاده حسن جلبى : تذكرة الشعراء ، جـ١ ، ص١١٧

(٧٢) - أحمد رفعت : روضة العزيزية ، ص١٨١ - ١٠٥
- جمال الدين : عثمانلى تاريخ ومؤرخلرى ، ص١٢٥
- سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٢٢٧٤
- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٢ ، ص٣١٩
- سلانيكى مصطفى : تاريخ ، ص ٦١ - ٩٢
- خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، جـ١١ ، ص٢٤١
- أحمد راسم : تاريخ ، جـ١ ، ص١٥٣

(٧٣) حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ١ ، ص١٣٣ وما بعدها .
- أحمد رفيق : كدنلر سلطنى ، جـ١ ، ص٩٣
- محمد اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ، ص٢٢٧
- أحمد راسم : تاريخ ، جـ١ ، ص١٧٧ - ١٨٩
- خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، جـ١١ ، ص٣٢٤

(٧٤) خطأ مشهور ، والأصح صارى كورز . انظر :
- سرى باشا : غلط مشهور ، إستانبول . الطبعة الثانية مادة صارى كوزل .

(٧٥) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . جـ٢ ، ص٤١٣

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى جـ٦ ، ص١٠٨
- حاجى خليفة : سجل عثمانى جـ١ ، ص١٣٤
- عطائى : ذيل الشقائق ص٢٦٥

(٧٦) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ص

- سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٢٠٥٦
- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص٢٨
- نامق كمال : عثمانلى تاريخ ، ص١٩١
- محمد جمال : وثائق سياسية ، ص١٢٣

(٧٧) أحمد راسم : تاريخ ، جـ١ ، ٢٨٣

- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنيفة ، ص٢١١
- حافظ الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ٢ ، ص١١٣

(٧٨) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٢ ، ص٣١٩

- سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٣٠١١
- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٣٧٧

(٧٩) دفتر المهمة رقم (٤) وثيقة رقم (٥٠١) تاريخ ٢٤ شوال ٩٤٤هـ / ١٤ يناير ١٥٣٧م .

(٨٠) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥١٩) تاريخ ٢٠ ذو القعدة ٩٧١هـ / ٨ يونيه ١٥٦٣م .

(٨١) (المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء ، إستانبول ، (يلدز)

- وثيقة رقم (٦٩٥) كرتون ١٨ ، ظرف ٣٨ ، قسم ٢١ تاريخ ١ محرم ١٢٩٥هـ/٥ يناير ١٨٧٨م .
- وثيقة رقم (٧٠١) كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٣ تاريخ ١ شعبان ١٢٩٦هـ/ ٢١ يوليه ١٨٧٩م .

(٨٢) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٣٥٦

- عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، ص١٨٤

(٨٣) حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ٢ ، ص١٩٣

- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٢٤٣

(٨٤) أحمد جواد : تاريخ عسكرى عثمانى ص٤٠٢

- محمد جمال : وثائق سياسية . ص٢٠٢

(٨٥) نهاد سامى بانارلى : دستان ملوك آل عثمان ، ص٣١٤ ، إستانبول ١٩٣٨م .

- أحمد رفعت : روضة العزيزية . ص١٣٣

- عثمان زاده : حديقة الوزراء . ص١٨٧

(٨٦) نامق كمال : عثمانلى تاريخ ، ص١٧٩

(٨٧) سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ص٣١٠

(٨٨) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى جـ٢ ، ص٣٢٧

- أحمد رفيق : أوننجى عصر هجر يده إيتانبول حيات ص٢٢١

(٨٩) طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية جـ٩ ، ص٤٤٧

- جمال الدين : عثمانلى تاريخ ومؤرخلرى ص٧١

(٩٠) بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفرى ، جـ٢ ، ص٣٠٩

- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص٩٧

(٩١) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، جـ٢ ، ص١٤٧

- حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، ص٢٠١ - ٢٠٣

(٩٢) نامق كمال : عثمانلى تاريخ ، ص٢٥١

- حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، ص٣٣٧

(٩٣) سعد الدين : تاريخ التواريخ ، جـ١ ، ص٣٩٧

(٩٤) ممد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص٣

- سامى : قاموس الإعلام ، ص٢٤٩٤

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٢ ، ص٣٣٥

(٩٥) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٣١١ - ٣١٣

(٩٦) حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ١ ، ص٩٥

(٩٧) عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، ص ١١٩

(٩٨) منجم باشى : صحائف الأخبار جـ٣ ،ص٣٢٤

(٩٩) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٤٠١

(١٠٠) منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٢٢١

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص١٨٠ - ١٩١

- عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، ص٥٣ - ٦٧

- عبد القادر أغلو : البوم العثمانيين .

ترجمة محمد خان ، الناشر الدار العثمانى للنشر ١٣٩٧هـ .

(١٠١) أيدينلى نسبة إلى آيدين . وهى مدينة فى آسيا الصغرى . وقد استولى عليها سلاجقة الروم ، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة إمارة أسسها الأمير أيدين وخلع عليها اسمه . وقد ضم حفيده الأمير عيسى هذه الإمارة إلى السلطان العثمانى أبا يزيد الأول ، واستولى السلطان مراد الثانى عليها نهائيًا سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م عند وفاة أميرها الجنيد ، ولكن ظل حكم هذه الإمارة وراثيًا فى أسرة قرة عثمان أوغلى عدة قرون حتى نجح السلطان محمود الثانى فى إنهاء حكمهم لها سنة ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م . (سامى : قاموس الإعلام . جـ٣ ، ص٣٠٩٧) .

(١٠٢) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٢٨٥ - ٢٨٧

- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٣٠٩

(١٠٣) منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٤٠٩

- سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٣٠٤٦

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى . جـ٢ ، ص٣١١

(١٠٤) منجم باشى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٤١٥

- سعد الدين : تاج التواريخ جـ١ ، ص١٩٤

- طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية ، ص٤٦٠

(١٠٥) خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، جـ١١ ، ص٣٠٨ ، الآستانة ١٢٩٢هـ .

- أسعد أفندى : أس ظفر ، ص١٨٧

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى جـ٢ ، ٣٥٧

- علمية سالنامه سى : مصدر سبق ذكره . ص ٥٨٧

- شهاب الدين سليمان: تاريخ أدبيات عثمانية جـ١١ ، ص٣٧٦ الآستانة ١٣٢٨هـ.

(١٠٦) الأطباء الستة هم :

١ - ديسكون : طبي سفارة إنجلترا .

٢ - مروان : طبيب سفارة فرنسا .

٣ - سوتو : طبيب سفارة النمسا .

٤ - موليخ فاسطورى : طبيب سفارة ألمانيا .

٥ - مونجرى .

٦ - عاكف أفندى : أحد أطباء السلطان مراد الخامس .

(١٠٧) المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء - استانبول (يلدز)

- وثيقة رقم (٧١١) كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ تاريخ ١٠ محرم ١٢٩٤هـ/٢٦يناير ١٨٧٧م

- وثيقة رقم (٧١٢) كرتون ٢٩ ، ظرف ٤٣ ، قسم ١٣ تاريخ ٧ ذو القعدة ١٢٩٤هـ / ١٤ نوفمبر ١٨٧٧م .

(١٠٨) المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء - استانبول (يلدز) . وثيقة رقم (٧١٩) كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٥ تاريخ ١ صفر ١٣١١هـ/١٤ أغسطس ١٨٩٣م.

(١٠٩) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٧٠) تاريخ ٢١ محرم ٩٦٦هـ/ ١١ ديسمبر ١٥٥٩م . ووثيقة رقم (١٦٧٣) تاريخ ٢٩ محرم ٩٦٦هـ / ١٩ ديسمبر ١٥٥٩م .

(١١٠) لمعرفة المزيد من أسماء الأطباء المسلمين الدارسين لعلوم الشريعة الإسلامية ، والذين يمكن اعتبارهم أعضاء فى الهيئة الإسلامية الحاكمة انظر : " المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزاراء - استانبول (بلدز) .

- وثيقة رقم (٧٢٧) كرتون ٢١ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١٧ تاريخ ٢ رمضان ١٢٦٢هـ/ ٢٥ أغسطس ١٨٤٦م .

- وثيقة رقم (٧٢٩) كرتون ٢١ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١٧ تاريخ ٥ صفر ١٢٧٤هـ / ٢٦ سبتمبر ١٨٥٧م .

- وثيقة رقم (٧٤١) ، كرتون ٢٧ ، ظرف ٤١ ، قسم ١١ تاريخ ٢ ربيع الأول ١٢٨٥هـ / ٢٤يونيه ١٨٦٨م .

- وثيقة رقم (٧٤٩) كرتون ٢٧ ، ظرف ٤١ ، قسم ١١ تاريخ ٩ صفر ١٣٠٣هـ / ١٨ نوفمبر ١٨٨٥م .

(١١١) علميه سالنامه سي : مصدر سبق ذكره . ص ٤٠٣

- عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، حـ١ ، ص٤٣٩ و ٤٤٠

- عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦م ، ص ٥٣ ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٧٤م .

(١١٢) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : المرجع السابق ، ص٥٣ .

(١١٣) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (١٦٣٩) تاريخ ٥ رجب ٩٦١ هـ / ١ إبرايل ١٥٥٤م .

(١١٤) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (١٦٤٠) تاريخ ٢٨ شعبان ٩٦١هـ / ١٩ مارس ١٥٥٤م

(١١٥) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٥٧٠) مصدر سبق ذكره ، ووثيقة رقم (١٦٧٣) مصدر سبق ذكره .

(١١٦) عبد العزيز الشناوى : عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م ، ص٩٢ - ٩٧ .

(١١٧) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . حـ١ ص٤٤١ .

المصادر والمراجع

القسم الأول : الوثائق العثمانية

١ – وثائق عثمانية غير منشورة من المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الـوزراء إستانبول . BASBAKANLK ARSIVI GENEL MUDURLU

وهى مصنفة على شكل دفاتر مهمة . MUHIMMED EFTERLERL

*** دفتر المهمة رقم (١) :**

– الوثيقة رقم (٦١٣) ، تاريخ ٢٩ ذو الحجة ٨٥٩هـ/٣٠ نوفمبر ١٤٥٤م .

– الوثيقة رقم (٦٩٩) ، تاريخ ٢٥ ذو الحجة ٨٦٤هـ/٢٦ نوفمبر ١٤٥٩م .

*** دفتر المهمة رقم (٢) :**

– الوثيقة رقم (٧٠٣) ، تاريخ ١٠ شعبان ٨٨٥هـ / ١ مارس ١٤٨٠م .

– الوثيقة رقم (٧١٠) ، تاريخ ١٢ شعبان ٨٨٥هـ / ٣ مارس ١٤٨٠م .

*** دفتر المهمة رقم (٥) :**

– الوثيقة رقم (١٦٣٩) ، تاريخ ٥ رجب ٩٦١هـ /١ أبريل ١٥٥٤م .

– الوثيقة رقم (١٦٤١) ، تاريخ ٢٨ شعبان ٩٦١هـ/١٩ مارس ١٥٥٤م.

– الوثيقة رقم (١٦٤٥) ، تاريخ ٢٥ رجب ٩٦٤هـ/٢١ أبريل ١٥٥٧م.

– الوثيقة رقم (١٦٤٦) ، تاريخ ٢٦ رجب ٩٦٠هـ/٢٢ أبريل ١٥٥٨م.

– الوثيقة رقم (١٦٧٠) ، تاريخ ٢١ محرم ٩٦٦هـ /١١ ديسمبر ١٥٩م.

– الوثيقة رقم (١٦٩١)، تاريخ ٩ ذو الحجة ٩٦٨هـ/٣١ أغسطس ١٥٦٠م

– الوثيقة رقم (١٦٥٠)، تاريخ ٦ ذو الحجة ٩٦٨هـ/٢٨ أغسطس ١٥٦٠م

*** دفتر المهمة رقم (٦) :**

– الوثيقة رقم (٧٧٩)، تاريخ ١٠ ربيع الأول ٩٦٨هـ/١٧ أكتوبر ١٥٦٠م

– الوثيقة رقم (٧٨١) ، تاريخ ١٧ ذو القعدة ٩٦٨هـ/٥ يونيه ١٥٦٠م .

– الوثيقة رقم (٧٨٣) ، تاريخ ١٢ ربيع الآخر ٩٦٩هـ/١٨ أكتوبر ١٥٦١م

- الوثيقة رقم (٧٩٧)، تاريخ ١٥ ربيع الأول ١٩٧٠هـ/٢١ أكتوبر١٥٦٢م

*** دفتر المهمة رقم (٧) :**

- الوثيقة رقم (٥١٩) ، تاريخ ٢٠ ذو القعدة ٩٧١هـ/٨ يونيه ١٥٦٣م.
- الوثيقة رقم (٥٢٧) ، تاريخ ٢١ ذو القعدة ٩٧١هـ/٩يونيه ١٥٦٣م .
- الوثيقة رقم (٥٣١)، تاريخ ٢٢ ذو القعدة ٩٧٢هـ/١٠ يونيه١٥٦٤م.
- الوثيقة رقم (٥٤٩)، تاريخ ٢٢ذو الحجة ٩٧٣هـ/٢٦ نوفمبر١٥٦٥م.

*** دفتر المهمة رقم (٨) :**

- الوثيقة رقم (١٢٤٠)، تايخ ٢١ربيع الثانى ٩٨٥هـ/٢٧ نوفمبر١٥٧٦م
- الوثيقة رقم (١٣٢٧)، تاريخ ١٧ جمادى الآخرة ٩٩٥هـ/١٩ ديسمبر١٥٨٦م
- الوثيقة رقم (١٣٣٤) ، تاريخ ١٩جمادى الآخرى ٩٩٥هـ/ ٢١ ديسمبر ١٥٨٦م .

*** دفتر المهمة رقم (١٠) :**

- الوثيقة رقم (١٤٠١) ، تاريخ ١٦ محرم ١٠٠١هـ/٨ يونيه ١٥٩٢م .
- الوثيقة رقم (١٤٩٧) ، تاريخ ٢٣ صفر ١٠٠٧هـ/٢٤ يونيه ١٥٩٨م.

٢ – وثائق الفهرس الأصلى لأوراق قصر يلدز :

YLIDIS ESAS EVRAKI KATAOLGU

- وثيقة رقم (٧٢٧) ، كرتون ٢١ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١٧ .
  تاريخ ٢ رمضان ١٢٦٢هـ/٢٥ أغسطس ١٨٤٦م .
- وثيقة رقم (٧٢٩) ، كرتون ٢١ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١٧ .
  تاريخ ٥ صفر ١٢٧٤هـ/٢٦سبتمبر ١٨٥٧م .
- وثيقة رقم (٧٤١) ، كرتون ٢٧ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١١ .
  تاريخ ٢ ربيع الأول ١٢٨٥هـ/ ٢٤ يونيه ١٨٦٨م .
- وثيقة رقم (٧١١) ، كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٣ .
  تاريخ ١٠ محرم ١٢٩٤هـ/٢٦ يناير ١٨٧٧م .

- وثيقة رقم (٧١٢) ، كرتون ٢٩ ، ظرف ٤٣ ، قسم ١٣ .
تاريخ ٧ذو القعدة ١٢٩٤هـ/١٤ نوفمبر ١٨٧٧م .
- وثيقة رقم (٦٩٥) ، كرتون ١٨ ، ظرف ٣٨ ، قسم ٢١ .
تاريخ ١ محرم ١٢٩٥هـ/٥ يناير ١٨٧٨م .
- وثيقة رقم (٧٠١) ، كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٣ .
تاريخ ١ شعبان ١٢٩٦هـ/٢١ يوليه ١٨٧٩م .
- وثيقة رقم (٧٤٩) ، كرتون ٣٧ ، ظرف ٤١ ، قسم ١١ .
تاريخ ٩ صفر ١٣٠٣هـ/١٨ نوفمبر ١٨٨٥م .
- وثيقة رقم (٧١٩) ، كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٥ .
تاريخ ١ صفر ١٣١١هـ/١٤ أغسطس ١٨٩٣م .

القسم الثاني : المؤلفات

١ - المصادر والمراجع التركية :

- أحمد رفعت : روضة العزيزية ، الأستانة ١٢٨٢هـ .
- أحمد رفيق : كدنلر سلطتى ، جـ١ ، الآستانة ١٣٣٢هـ .
- أحمد رفيق : أوننجى عصر هجر يده إستانبول حيات الآستانة ١٣٣٢هـ.
- أحمد راسم : تاريخ جـ١ ، إستانبول ١٣٢٦ - ١٣٢٨هـ .
- أسعد أفندى : أس ظفر باريس ١٨٣٣م .
- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٢ إستانبول ١٣٣٨هـ .
- جمال الدين : عثمانلى تاريخ مؤرخلرى ، القسطنطينية ١٣١٤هـ .
- حافظ حسين الأيوانسرايى: حديقة الجوامع ، جـ١ ، الآستانة ١٢٨١هـ.
- حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، الآستانة ١١٤٦هـ .
- حاجى خليفة : جهاننما ، الآستانة ١٠٤٥هـ .
- خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، جـ١١ ، الآستانة ١٢٩٢هـ .
- دانشمان ظهورى : عثمانلى إمبراطور لو غوتاريخى ، جـ١ ، إستانبول ١٩٦٥م.
- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، مطبعة إستانبول .
- سلانيكى مصطفى أفندى : تاريخ الآستانة ١٢٨١هـ .
- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ الأستانة ١٢٧٩هـ .
- سرى باشا : غلط مشهور ، إستانبول ، الطبعة الثانية .
- شهاب الدين سليمان : تاريخ أدبيات عثمانية ، الأستانة ١٣٢٨هـ .
- عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، الآستانة ١٢٦٧هـ .
- عثمان زاده : حديقة الوزراء الآستانة ١٢٧١هـ .
- علمية سالنامه سى : نشر أحمد رفيق وعلى أميرى أفندى ، مطبعة إستانبول ١٣٣٤هـ .
- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، ٣ أجزاء الآستانة ١٣١١هـ .

- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ ٣ ، الآستانة ١٢٨٥هـ .
- محمد جمال : وثائق سياسية ، الآستانة ١٣٢٧هـ .
- نهاد سامى بانارلى : دستان ملوك آل عثمان ، إستانبول ١٩٣٨م .
- يلماز اوزتونا : بيوك تركيا تاريخ ، جـ١ ، إستانبول ١٩٣٨م .

٢ - المصادر والمراجع العربية والمعربة :

- أحمد بن أبى بكر بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . وتحقيق إحسان عباس ، الجزء الخامس دار صادر بيروت (بدون تاريخ).
- أحمد عبد الحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩م ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧م .
- برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة سيد رضوان على ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م
- حكمت قفلجملى : التاريخ العثمانى (رؤية مادية) ترجمة فاضل لقمان، دار الجيل (بدون تاريخ) .
- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، جـ٢ ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان .
- خليفة بن خياط العصفرى : كتاب الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمرى، الطبعة الثانية ، دار طيبة ، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
- طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية ، القاهرة ١٣١٠هـ
- عبد الصمد بن إسماعيل الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، تحقيق محمد الحبشى ، الطبعة الأولى ، ومنشورات المدينة ، صنعاء ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦.
- عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٠م .
- عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧م .

– عبد الكريم رافق العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ الطبعة الأولى ١٩٧٤م دمشق .
– عبد القادر ده ده أغلو : البوم العثمانيين ترجمة محمد خان . الناشر الدار العثمانى للنشر ١٣٩٧هـ .
– عبد الرؤوف محى الدين سنو : أثر الغرب الأوربى فى حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية (١٧٨٩ - ١٨٣٩م) بيروت ١٩٧٥م .
– عطائى : ذيل الشقائق . إستانبول ١٢٦٨هـ .
– محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية . القاهرة ١٣٢٤هـ .
– محمد بن أحمد النهروالى: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى الطبعة الأولى. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر الرياض ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .
– محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى . كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أى حد بلغت عظمتها . بيروت ١٩٢٥م .
– محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية . دار الجيل بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
– محمد رفعت : تاريخ البحر المتوسط وتياراته السياسية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩م.

٣ – المخطوطات والقواميس ودوائر المعارف العربية والتركية :

– قنالى زاده حسن جلى : تذكرة الشعراء ، مخطوط فى فينا رقم ١٢٢٨ .
– سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ألاستانة ١٣٠٨هـ .
– دائرة المعارف التركية : ميدان MAYDAN LAROUSSE الطبعة الأولى ١٩٧٣م ، إستانبول .
– جمال صادق المرصفاوى : نظام القضاء فى الإسلام ، بحث مقدم لمؤتمر الفقة الإسلامى النعقد فى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، طبع سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

علاقات الدولة السعودية الأولى بولاة الدولة العثمانية في العراق والشام

د. عايض بن خزام الروقي(*)

كان أول تدخل فى شئون الدولة السعودية الأولى من جانب العراق ، تلك الحملة العسكرية الكبيرة التى قادها ثوينى بن عبد الله بن محمد بن مانع آل شبيب، شيخ قبائل المنتفق سنة ١٢٠١هـ/١٧٨٦م ووصل بها إلى منطقة القصيم . وكان الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود يبذل قصارى جهده فى إصلاح ذات البين ، والمصالحة مع هذا القائد المهاجم ، لأن السعوديين لم يقوموا بأى عمل عدائى ضده . وكل ما هناك هو التجاء أحد أمراء بنى خالد الذى يُطَارَد من إخوانه وعشيرته إلى الدرعية ، ودخولها هربًا بنفسه من الموت . ولكن ثوينى أخذته العزة بقوته وسار حتى وصل إلى بريدة وضرب عليها الحصار ، وإن كان سرعان مافك الحصار وعاد إلى العراق، لأن الأوضاع فى قبيلته اختلت وخشى على مركزه فعاد دون أن يحقق مآربه(١).

وكان رد فعل الدولة السعودية سريعًا على هذا العدوان الذى لا مبرر له ، فقاد الأمير سعود بن عبد العزيز حملة عسكرية سنة١٢٠٣هـ/١٧٨٨م فاجأ بها قبائل المنتفق فى الروضتين – بين المطلاع وسفوان(*) – لتكون هذه الحملة أول حملة عسكرية سعودية تجتاز حدود العراق ، وتظهر لهؤلاء القوم قدرة الدولة السعودية على رد الاعتداءات التى توجه لها عبر تلك الحدود(٢) .

وكان الأمير سعود بن عبد العزيز قد تمكن قبل ذلك من تأديب ثوينى بن عبد الله وبعض قبائله حين أغار عليهم فى الصمان عند اجتماعهم مع قبائل بنى خالد فى نفس العام ، وهزمهم فى تلك المعركة(٣) .

---

* أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر – جامعة أم القرى .

ومما يؤسف له أن يكون موقف بعض المنتسبين إلى العلم الشرعى متأثرًا بالجو السياسى والمصالح الذاتية ، وهذا ما ظهر فى الخطابين المرسلين من قاضى مكة المكرمة وقاضى المدينة المنورة فى أواخر عام ١٢٠٧هـ إلى السلطان العثمانى. ففى الوقت الذى يطالب قاضى المدينة بالقضاء على الدعوة السلفية فى نجد والدولة الداعمة لها لأنها بدأت فى إلا انتشار والوصول إلى المدينة المنورة وأهلها(٤) ، يؤكد قاضى مكة المكرمة أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب المدعومة من الدولة السعودية بدأت تشتد وتقتوى يومًا بعد يوم ، وأن أهل البلدان المجاورة للحرمين الشريفين بدأوا يتسابقون فى الدخول فيها تباعًا ، لذا فإن هذا القاضى يرى أن العلاج يكمن فى محاصرتها والقضاء عليها وأنه يجب تكليف والى بغداد بتلك المهمة وبذل المساعدة العاجلة له لانجاز مهمته(٥) .

ونحن لا نعدو الحقيقة هنا إذا قلنا أن مواقف أمثال هؤلاء القضاة تعبر عن نظرة ذاتية ضيقة ، كانت تلعب دورًا نشازًا فى كثير من مواقف الولاة ورجال السياسة فى الدولة العثمانية . وأثرت هذه المواقف تبعًا لذلك على الدعوة السلفية الإصلاحية التى رعتها الدولة السعودية الأولى .

وتذهب بعض المصادر المعاصرة إلى أن إتساع الدعوة الاصلاحية والدولة السعودية قد خاف أمير مكة ، فسارع بالكتابة إلى السلطان العثمانى فى الأستانة؛ وأطلق كثيرًا من التهم ضد الدولة السعودية ودعوتها . ولكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب سارع بإرسال خطاب توضيحى إلى والى الشام يتبرأ فيه مما نسب إليه من تهم باطلة . وزاد من سوء سلوك أمير مكة منعه لحجاج نجد وحبس جماعة منهم ، وكان قد أرسلهم الإمام عبد العزيز إلى مكة(٦) .

وتؤكد الرويات التاريخية المعاصرة أن والى العراق سليمان باشا الكبير ١١٩٣ - ١٢١٥هـ/١٧٧٩ - ١٨٠١م تلقى عددًا من الرسائل المليئة بالإفتراءات والأكاذيب ضد الدولة السعودية ومنهجها ، وطالب بالوقوف فى وجهها والحد

من خطورتها كما يزعم أصحاب هذه الرسائل(٧) . ولذا قررت الأستانة توجيه حملة عسكرية ضد الدولة السعودية والإيعاز لمتسلم البصرة بمساندة هذه الحملة ودعمها بالعتاد والرجال . وأرسل أحد الأغوات من بيروت للمساعدة والدعم(٨).

وقد أسندت قيادة هذه الحملة إلى شيخ قبائل المنتفق ثوينى بن عبد الله الذى قضى أكثر من أربعة أشهر فى إعدادها وجمع الرجال من بادية العراق وحاضرتها(٩) . وخرج بجيشه اللجب وعتاده المخيف فى أواخر سنة ١٢١١هـ/ أوائل سنة ١٧٩٧م .

ومن ناحية أخرى واستعد رجال الدولة السعودية وبدأوا فى تجهيز قواتهم وتجميع رجالهم . وتوجه الأمير سعود بن عبد العزيز بقواته حتى نزل الحفر(١٠) ، بينما سار ثوينى بقواته حتى نزل على الماء المعروف فى ديرة بنى خالد والمسمى - الشباك - ، وعندئذ هاجمه أحد عبيد جبور بنى خالد والمسمى طعيس بحربة حديدية معه ، وضربه بها بين كتفيه ، وقيل قذفه قذفة بها فى صدره وهو يلعب بين يديه ، فخرج رأسها من ظهره ، وطعيس - يردد الله أكبر - ومات ثوينى حينئذ وتفرق جنده ، فتعقبهم الجيش السعودى وغنم منهم مغانم كثيرة من المدافع والسلاح والإبل والماشية ، وكان ذلك فى شهر محرم سنة١٢١٢هـ/ يوليو ١٧٩٧م(١١) .

ومهما كان اختلاف الروايات التاريخية وكُتّاب التاريخ فى البحث عن الأسباب التى أودت بحياة ثوينى (١٢) ، إلا أن ما تؤيده هذه الدراسة هو ما ذهب إليه أحد المؤرخين فى القول بأن طعيس الذى قام بقتل ثوينى هو " أحد مماليك بَرّاك - بن عبد المحسن أحد زعماء بنى خالد - سابقًا ، وأحد المتحمسين للدعوة الإصلاحية ، .. وقد أصبح ما قام به طعيس مضرب مثل للإقدام ؛ إذ يقال : "باع بيعة طعيس"(١٣) .

ولم يعد أمام قادة الدولة السعودية الأولى بعد ذلك إلا الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم وأرضهم ، فتوجه الأمير سعود بن عبد العزيز فى شهر رمضان ١٢١٢هـ/ فى أوائل سنة ١٧٩٨م بحملة عسكرية إلى أطراف العراق وهاجم بلدة سوق الشيوخ من ضواحى متصرفية البصرة ، ثم اتجه إلى بادية السماوة لتأديب القبائل التى تعاونت مع ولاة بغداد ، ووقعت بينهم معارك غربى مدينة كربلاء . وقد قتل فى هذه المصادمات العسكرية من رجال الدولة السعودية ما يقرب من خمسة عشر رجلاً منهم براك بن عبد المحسن رئيس بنى خالد ، ومحمد آل على شيخ جبل شمر ، بينما قتل من قبائل العراق عدد كبير من أشهرهم مطلق بن محمد الجربا شيخ قبائل شمر العراق . ثم عاد الأمير سعود بعد أن أحرز انتصارات حاسمة، وحقق لدولته مكانة عسكرية قوية(١٤) .

ولم يكن هذا العمل العسكرى الذى قامت به القيادة السعودية هو الوحيد فى تلك المرحلة ، لأنهم أدركوا أن الأخطار باتت تتكانفهم من كل جانب والتآمر يحيط بهم وأن الأعداء يتربصون بهم الدوائر . لذلك خرجت حملة عسكرية سعودية بقيادة أمير القصيم حجيلان بن حمد ، إلى الإطراف الجنوبية من أرض الشام ، وهاجمت هذه القوة عربان الشرارات وغنمت منهم ، ثم عادت إلى أوطانها بعد أن حققت إنتصارات حاسمة ذات أثر معنوى واستراتيجى بالغ(١٥) . وقد تنبه أحد الكتاب الغربيين إلى سلامة المنهج السياسى عند رجال الدولة السعودية الأولى ، وأنهم كسبوا الأنصار والمؤيدين لهم بالتدريج ، ولم يعلنوا الحرب على الحكومتين القريبتين منهم فى العراق والحجاز ، ولم يعتدوا على حقوقهما مؤكدا أن قوافل الحجاج من دمشق وبغداد كانت تعبر أراضيهم دون أن يمسوها بسوء(١٦) .

وكان أن طلب السلطان العثمانى فىالأستانة من الوالى العثمانى فى بغداد إعطاءه تصورًا كاملاً عن ماهية الخلاف الحاصل بين أمير مكة غالب بن مساعد

والإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود ، لأن هذا الخلاف كما اعتقد السلطان ستصل تأثيراته فى يوم ما إلى الحرمين الشريفين . وفى ضوء ذلك تم تكليف والى بغداد ، ووالى جدة وأمير الحاج العثمانى لمحاولة لإصلاح ذات البين بين أمير مكة وأئمة الدولة السعودية الأولى .

ولم يتردد أئمة الدولة السعودية فى الموافقة على الصلح والتعامل الحسن ؛ إلا أن أمير مكة أصر على عدواته وتأجيج الخلاف مع السعوديين رغم القوة المتفوقة لدى السعوديين وكثرة أتباعهم كما يؤكد ذلك والى جدة .

وكتب والى بغداد إلى السلطان العثمانى بهذا الشأن ، مشيرًا إلى أن الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود أرسل رسالة إلى السلطان فى الأستانة مع أحد رجاله ، وكان المأمول كما يقول الوالى العثمانى فى بغداد إتمام الصلح بعد الإطلاع على مضمون هذه الرسالة ، لكن الرجل توفى قبل وصوله إلى الأستانة واختفت معه رسالته مما زاد فى تعقيد القضية ، كما يؤكد الوالى العثمانى .

وحين كُلِّفَ والى الشام بمحاولة إقناع أمير مكة بالصلح مع السعوديين لم يتمكن من ذلك ، لتعنت الأمير ، ووجود محاذير لم يسمها الوالى العثمانى باسمها .

ولعل استقراء هذه الوثيقة يعطى دلالة واضحة على أن الولاة العثمانيين قد لعبوا دورًا مؤثرًا فى تأجيج العداوة بين الدولة السعودية والدولة العثمانية ، حيث أعطى الوالى العثمانى لسلطان الدولة العثمانية صورة خاطئة عن مسلك السعوديين، متهمًا إياهم أنّ ما يظهرونه يخالف ما يبطنونه ، وذَكّر فى رسالته بالحملات العسكرية التى قام بها السعوديون على جنوب العراق وعلى قبائل المنتفق دون أن يشير إلى الأسباب التى حملتهم على القيام بها والتى من أبرزها الحملتان العسكريتان اللتان قام بهما ثوينى بن عبد الله شيخ قبائل المنتفق فى داخل حدود الدولة السعودية الأولى .

وتحدث الوالى العثمانى بإسهاب عن غزوة السعوديين لسوق الشيوخ وغربى مدينة كربلاء وما نتج عن هذه الحملات العسكرية ، ليصل فى نهاية رسالته إلى الهدف الذى يسعى إليه وهو المطالبة بالانتقام من حكام الدولة السعودية والقضاء عليهم . ومع اعترافه ببعد المسافة وصعوبة الطرق إلا أنه طالب بإعداد تجهيزات عسكرية كبيرة مدعومة من الدولة العثمانية . ومع ذلك فأنه يعتقد فى رسالته تلك أنه حتى لو تم التغلب على السعوديين فى أرضهم فمن الصعوبة بل من المستحيلات البقاء فى تلك الجهات والمحافظة عليها . والحل عندئذ كما اعتقد ذلك الوالى هو دعم أمير مكة ، لأن الخطر كما يزعم كبير ، والنفوذ السعودى قوى ومتزايد(١٧) .

ومن خلال ما تقدم يظهر لنا جليًا أن الوالى العثمانى فى بغداد سعى لتشويه مسلك الدولة السعودية ، ووضع المحاذير والافتراضات والعقبات الكثيرة فى سبيل تطوير وتحسين علاقات الدولة السعودية الأولى مع الدولة العثمانية فى الأستانة بداية ، ومع ولايته هو فى بغداد بعد ذلك .

وكان أن سارع والى بغداد سليمان باشا الكبير إلى تجهيز حملة عسكرية ضخمة بعد أن حصل على موافقة الأستانة(١٨) ، وقد ضمت تلك الحملة عناصر مختلفة من الجنود العثمانية النظامية المدربة ، إضافة إلى رجالات بعض العشائر الكردية ، وقبائل الخزاعل الشيعية التى عسكرت على الضفة الغربية من نهر دجلة خارج مدينة بغداد لتستكمل استعدادتها وتجهيزاتها(١٩) .

وغادرت هذه القوة العسكرية الكبيرة بقيادة الكيخيا على باشا(٢٠) بغداد يوم ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢١٣هـ / أكتوبر سنة ١٧٩٨م ، وانضمت إليها فى الطريق أعداد كبيرة من رجالات القبائل العراقية المختلفة ، وتسلحت هذه الحملة بالمدافع وآلات الحرب المدمرة . وفى البصرة انقسمت هذه الحملة إلى قوتين :

قوة الفرسان بقيادة على باشا ، سارت علـى الطريـق البرى إلى الأحسـاء ، وقوة المشاة والمدفعية والمعدات الثقيلة نقلت على السفن التـى استأجرها متصرف البصرة وتوجهت بحرًا إلى البحرين وموانئ الأحساء .

وأخيرًا وصلـت الحملـة بعدتها وعتادهـا إلى المـبرز والهفـوف ، وحـاصرت الحصنين السعوديين فيهما لأكثر من شهرين(٢١) ، واستبسل القـائدان السعوديان ورجالهما أمام هذه القوة الغاشمة ، وعندئذ أدرك على باشا أن الأمـر جـد خطـير . وإذا كان هذا موقف قائدين مع عدد محدود من الرجال فى حصنين اثنين ، فكيف يكون لقاء الجيش السعودى بعدته وعتاده ؟ هكذا دخل الخوف والفزع فـى نفـس القائد العثمانى ورجال جيشه ، وراح جنوده يفكرون فى مصيرهم والهـلاك الـذى ينتظرهم ، فقرر الانسحاب ودفنوا بعض معداتهـم تحـت الأرض وأحرقـوا البعـض الآخر ، وتراجعوا حتى نزلوا الماء المعروف - الشباك - فى حين نزل الأمير سعود بن عبد العزيز مع جنده على الماء المعروف والمسمى - ثاج(٢٢) ، وكـان أن جنـح الباشا إلى السلم وتبادل الرسائل مع الأمير سعود بن عبد العزيز ، وتوصل الطرفـان إلى اتفاق يتم بموجبه انسحاب الكيخيا على باشـا إلى أرض العـراق علـى أن يعـود الأمير سعود إلى الدرعية . وقد تحدثـت المصـادر والمراجـع التاريخيـة بإسـهاب عـن شروط هذا الاتفاق ، وكـل مؤلـف عالجهـا بطريقتـه ، بيـد أن مـا يلفـت الانتبـاه أسلوب الخطاب الذى وجهـه الأمـير سعود إلى الكيخيـا علـى باشـا واورده أحـد المؤرخين المعاصرين ، حيث يقول :

" من سعود بن عبد العزيز إلى على ..

أما بعد : ما عرفنا سبب مجيئكم إلى الأحساء ؟ وعلى أى منـوال جئتـم؟... أما الأحساء فهـى قريـة الآن ليسـت داخلـة فـى حكـم الـروم - أى العثمـانيين - وبعيدة عنكم و لم يحصل منها شئ يسوى - أى يساوى - تعبكم ، ولـو أن جميـع الأحساء وما يليها تؤدى لكم دراهمًا ، ما تعادل مصروفاتكم التى عملتموهـا فـى

هذه السفرة ، ولا يوجد بيننا وبينكم من المضاغنة قبل ذلك إلا ثوينى ، فهو كان المعتدى ولقى جزاءه فالآن مأمولنا المصالحة وهى خير لنا ولكم ، والصلح سيد الأحكام "(٢٣) .

وقد اختلفت آراء وروايات المؤرخين حول تلك الواقعة ومن هو المنتصر فيها من الجانبين ؟ ومن هو الذى طلب الصلح قبل صاحبه ؟ ومن الذى رغب فى الصلح ولم يرغب فى الحرب ؟ كل هذه التساؤلات والآراء يمكن توكيدها بلغة المنطق العلمى من خلال مجريات الأحداث ، فالهزيمة والخوف والتخاذل كلها اعترت جيش الكيخيا على باشا وقادته ، ولو كان قد أحس بشئ من الأمل والانتصار مهما كان يسيرًا لما طلب الصلح والسلم . يكفى أنه يمثل قوة الدولة العثمانية وواليها القوى فى بغداد ، وهو الذى جهز هذه الجحافل من الجيوش من العراق إلى الأحساء عن طريق البر والبحر . وكان هدفه معروفًا ، وهو تدمير الدولة السعودية وجيشها ، فكيف يجنح للسلم وهو فى مواجهة السعوديين ؟! إنه لم يفعل ذلك إلا عندما أحس بالضعف والهزيمة فلجأ إلى الحفاظ على البقية الباقية من كرامته كقائد ؛ وكرامة قادة جيشه ورجاله ، حتى لا تتكرر معه أحداث الحملة التى قادها ثوينى بن عبد الله ، فى العام المنصرم .

لقد كان الإمام عبد العزيز بن محمد حريصًا على الأمن والاستقرار ومراعاة قواعد الجوار ، ولا سيما مع ولاة الدولة العثمانية فى العراق . لكن الطرف الآخر لم يبادلونه نفس الاحساس ، وإنما تربصوا به وبقومه الدوائر ، وتحقق لهم ذلك عن طريق قبيلة الخزاعل بالقرب من النجف إذ اعترضوا قافلة من أتباع الدولة السعودية ، قيل إنهم تجار ، وقيل غير ذلك . لكن المؤكد أن عشائر الخزاعل التابعين لباشوية بغداد غدروا بهذه القافلة وقتلوا منهم حوالى ثلاثمائة رجل وذلك فى عام ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م . ولم يتعجل الإمام عبد العزيز فى اتخاذ القرار ، بل أرسل احتجاجًا إلى والى بغداد بدفع الدية لرجاله كى تُسلّم لأسرهم وفق قواعد

الشريعة الإسلامية . لكن الوالى العثمانى أخذ فى التسويف والمماطلة، وطلب من أحد رجالات العراق واسمه عبد العزيز بيك الشاوى المرور على الإمام عبد العزيز بعد انتهاء الحج ومباحثته فى القضية ، لكن دون الالتزام بشئ للسعوديين . لذا فقد كان مصير هذه المفاوضات الفشل وعدم الوصول إلى نتيجة حاسمة(٢٤) .

لم يعد أمام رجال الدولة السعودية إلا الانتقام لأنفسهم ورد اعتبارهم ، إنطلاقًا من التوجيه القرآنى الكريم : ﴿ الشهرُ الحرامُ بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله وأعلموا أن الله مع المتقين ﴾ الآية(٢٥) .

وكان أن غزا الأمير سعود بن عبد العزيز كربلاء لتأديب عشائر الخزاعل على فعلتهم فى قتل رجاله ، ولأن الوالى العثمانى لم يحرك ساكنًا . وقد نجح الأمير سعود فى دخول المدينة عنوة فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٦هـ / وهو الشهر الثالث من سنة ١٨٠٢م وقام بهجوم خاطف حقق له انتصارًا عسكريًا ومعنويًا ضد تحركات الوالى العثمانى فى بغداد ومن شايعه وسار وفق رغباته ، ثم عاد إلى نجد منتصرًا(٢٦) .

وعندما أدرك والى بغداد سليمان باشا الكبير ضعفه وعجزه عن مقارعة الدولة السعودية عسكريًا ، كتب رسالة للسلطان العثمانى ، تتصف بالغرابة ؛ وأعقب ذلك وفاة ذلك الوالى فى ٨ ربيع الثانى سنة ١٢١٧هـ/ أواخر أغسطس سنة ١٨٠٢م ربما بسبب وباء الطاعون الذى كان عندئذ منتشرًا فى بغداد بصورة كبيرة(٢٧) .

ومازالت تلك الرسالة محفوظة بنصها العثمانى فى أرشيف رئاسة مجلس الوزراء فى إستانبول تحت تصنيف خط همايون ٣٧٦٥ وتاريخ ١٠ ذى القعدة سنة ١٢١٦هـ ، وسيتطرق البحث هنا لأهم عناصرها ، وللتعرف من خلالها على البعد الحقيقى لعلاقات هؤلاء الولاة بالدولة السعودية الأولى .

استهل والى بغداد رسالته الموجهة للسلطان العثمانى بالإفتراء على إمام الدولة السعودية الإمام عبد العزيز بن محمد بأنه أحدث مذهبًا جديدًا ليس من الدين الإسلامى ، ثم تطرق إلى نفوذ الدولة السعودية ، وأشار إلى أن ذلك النفوذ شمل معظم أجزاء نجد وأطراف الحجاز ومنطقة القصيم وسائر عشائر الشام ، وامتد إلى رأس الخيمة وإلى مسقط ، وشمل هذا النفوذ القواسم والعتوب على الساحل الغربى للخليج .

وأشار الوالى العثمانى فى رسالته إلى أن نفوذ السعوديين أصبح متغلغلاً فى أذهان العرب والعجم على السواء ، وأن الولاء فى الجزيرة العربية ومنطقة الخليج أصبح شبه مطلق للسعوديين .

ثم يقول ذلك الوالى فى ختام رسالته ما نصه :

" الدولة السعودية الآن تعتبر فى عنفوان قوتها ، حيث فرضت نفوذها كاملاً على البحر ولا نستطيع حينئذ مجابهتها والتصدى لها بحريًا ، إلا أنه بالإمكان مهاجمتها والتصدى لها عن طريق البصرة برًا . وأما فى الخليج فإن بريطانيا التى تعتبر صديقة وفية للدولة العلية والتى تتحكم فى شبه القارة الهندية والبحار الشرقية، تسعى جديًا لمجابهة الدولة السعودية ، ولعلها تقوم بالمهمة فى الخليج العربى ضد ابن سعود وأتباعه ، وهذا كله إذا تمت الموافقة عليه من عتبة السلطان المحترم ، وعندئذ سيتم تنظيم المواقف كل فيما يخصه "(٢٨) .

وبعد وفاة والى بغداد سليمان باشا الكبير ، أسندت الولاية إلى الكيخيا على باشا ، الذى قاد الحملة العسكرية العثمانية سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ، إلا أنه كان أشد عداء للدولة السعودية من سلفه(٢٩) . ولأنه يعرف القدرة العسكرية عند السعوديين ، من خلال خبرته السابقة ويدرك الصعوبات التى تعترضه فى تنفيذ أهدافه ضد الدولة السعودية ، فأنه أخذ يحيك المؤامرات التى تساعده فى تحقيق

أهدافه ، ووجد ضالته فى أحد المجرمين الذين احترفوا القتل والاغتيـالات ، وسبق له أنجز مهمة كُلِّفَ بها فى مكة المكرمة من هذا القبيل .

ذلك أن الوالى العثمانى - الكيخيا على باشا التقـى بهـذا الرجـل - المدعـو عثمان - (٣٠) وتأكد من أن شخصيته تدعو إلى الثقة فى إنجـاز مهمـة الاغتيـال ، وأن الإغراء والتحريض لا يزيده إلا إصرارًا ، فاتفق معه على قتل الأمير سعود مـع والده . ولكن المجرم تمكـن مـن قتـل الإمـام عبـد العزيـز دون الوصـول إلى ابنـه ، وعندئـذ تعهـد الـوالى العثمـانى لسلطان دولتـه بإكمـــال المهمـــة وبـــذل الجهـــد والإمكانيات للقضاء على الأمير سعود وقتله مثلما قتل والده . وعند وصول هـذه الرسالة إلى السلطان العثمانى ، تَوجها بتوقيعه بـالإطلاع وإبـداء الفـرح والسـرور بإنجاز هذا العمل(٣١) .

هذه الراسلة - الوثيقة - التى بعثها والى بغداد إلى عاصمة الدولـة العثمانيـة وإلى السلطان العثمانى شـخصيًا تُتَرجم بوضـوح ماهيـة العلاقـة بـين ولاة الدولـة العثمانية فى العراق ورجال الدولة السعودية الأولى .

و لم تتوقف مؤامرات الولاة العثمانيين فى العراق عند حد إغتيال أئمَة الدولة السعودية ، وإنما تجاوزتها إلى محاولة قتل أمراء وقادة الدولة السعودية فى أكثر مـن موقع . فهذا هو والى بغداد يرقص طربًا للخبر الذى جاءه من متصرف البصره عن اغتيال أحد قادة الإمام سعود بن عبد العزيز فى الطائف علـى يـد أحـد المجرمـين ، وقد أرسله أمير مكة للقيـام بهـذه المهمـة . وزَفّ الـوالى العثمـانى ذلـك الخـبر إلى سلطان الدولة العثمانية فى إستانبول(٣٢) .

وفى تلك الأثناء بعث برسالة أخرى إلى السلطان العثمانى ، يؤكـد فيهـا أن قواته العسكرية وصلت إلى أطراف نجد ، وأن قواته التقت بالسـعوديين واشتبكت معهم فى معركة قوية وقتلت منهم الكثير ، هو يَعِدُ فى خطابه هذا بمواصلة العـداء والحرب ضد الدولة السعودية(٣٣) .

وفى هذه الأجواء المشبعة بالعدوان صار على السعوديين أن يثأروا لأنفسهم عملاً بقوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ، ولينصرنَّ الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ﴾ الآية(٣٤).

وقد ترجم هذه الحقائق الإمام سعود بن عبد العزيز على أرض الواقع . ففى عام ١٢١٨هـ/١٨٠٣م قاد حملة عسكرية ناجحة على جنوب العراق وداهم مدينة البصرة ومدينة الزبير ، ثم عاد إلى الدرعية منتصرًا(٣٥) .

واستمرت الهجمات السعودية على أطراف العراق الجنوبية وبعض بلدانه مثل البصرة والزبير والنجف طوال السنوات اللاحقة ، حيث غزاها الإمام سعود سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وداهمت قواته كربلاء للمرة الثانية . وتَبِعَ هذه الحملة عدة حملات ناجحة ، تمكنت القوات السعودية فى إحداها من عبور نهر الفرات . ووصل الأمير عبد الله بن سعود فى إحدى تلك الحملات إلى قرب بغداد وهددها تهديدًا مباشرا(٣٦) . وبذلك حققت القوات السعودية قصب السبق فى هذه المواجهة العسكرية مع ولاة الدولة العثمانية فى العراق ، واستطاعت بذلك التغلب على معارضيها والمناوئين لها . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن كثيرًا من القبائل العراقية فى غرب الفرات دفعت الزكاة للدولة السعودية الأولى ، فى تلك المرحلة التاريخية الحاسمة(٣٧) .

* * *

أما عن علاقات الدولة السعودية الأولى مع ولاة الدولة العثمانية فى الشام فقد مرت بنفس الصعوبات وتلك العقبات . وتعتبر الحملة العسكرية التى أرسلها الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى دومة الجندل(٣٨) ، فى سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م ، أول اتصال بين الدولة السعودية وأطراف الشام ، ثم تبعتها

بعد ذلك الحملة السعودية التى قادها حجيلان بن حمد أمير القصيم ، سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م ، حيث أغار على بوادى الشرارات فى أطراف الشام وحقق انتصارًا عسكريًا مؤثرًا رغم بعد المسافة بينه وبين عاصمة دولته(٣٩) .

وكان لهذه الحملات العسكرية تأثير واضح على بعض قبائل الشام التى أقبلت على اعتناق مبادئ الدعوة السلفية ، حتى أن المصادر المعاصرة أكدت على أن بعض القادمين من حلب الشام إلى الدرعية فى زمن الإمام عبد العزيز بن محمد، قدموا على ست نجائب محملات بزكوات بوادى أهل الشام(٤٠) . وهذا الواقع التاريخى الذى أصبحت تعيشه بلاد الشام يبدو جليًا فى الرسائل التى بعث بها قاضى دمشق الشام - محمد راشد حمامى زاده - إلى السلطان العثمانى فى الأستانة . وقد طلب هذا القاضى من الأستانة إرسال فرمان عثمانى(٤١) باللغة العربية إلى قبائل عنزة القاطنة فى حمص وحماه . وعند وصول هذا الفرمان إلى والى الشام الحاج عبد الله باشا العظم ، فإنه سيرسله بدوره إلى هذه القبائل ، لِيُقْرَأَ عليهم على رؤوس الأشهاد ، وأمام جموع الناس لإفهامهم محتواه(٤٢) . وفى الخطاب الثانى طلب القاضى إعداد خطاب مستقل للقبائل القاطنة فى ضواحى الشام وأورد بعض الأسماء لأشهر مشايخ تلك القبائل لمخاطبتهم مباشرة(٤٣) .

لكن يبدو أن الخوف والقلق أخذ يساور ذلك القاضى ، وربما يكون الرجل مدفوعًا من والى الشام العثمانى ، لتكون رسائله أشد أثرًا فى الأستانة من رسائل الوالى التى يبعثها بنفسه . وفى الرسالة الثالثة التى بعثها القاضى المذكور إلى السلطان العثمانى بتاريخ ١٧ ربيع الأول سنة ١٢١٨هـ ، يظهر عليه شئ من الخوف والارتباك ، حيث يتحدث عن الدولة السعودية وتنظيماتها بأسلوب غير مقبول عقلاً ، فهو يشير إلى أن الدولة العثمانية أصبحت فى خطر داهم ، وأن تهديد الدولة السعودية سيصل إلى عاصمة الدولة إذا لم توقف بسرعة وبقوة ، ولم

ينس قاضى الشام أن يطلب من السلطان العثمانى إصدار فرمان عثمانى إلى شيخى بنى صخر(**) فى الزرقاء . وعند وصول ذلك الفرمان إلى والى الشام عبد الله باشا فإنه سيبلغ لهما سريعًا ، لأن هذين الرجلين - كما يقول - شديدًا الولاء للدولة العثمانية ، ووقوفهما مع قبائلهما إلى جانب الدولة سيحقق النصر المنتظر ضد الدولة السعودية وتهديداتها المستمرة على حد تعبيره(٤٤) .

وهكذا ظهر الخوف وكثرت الدعايات المضادة للدولة السعودية فى بلاد الشام ، حتى بلغ الأمر منتهاه بعرض تقارير من ولاة الشام على السلطان العثمانى والصدر الأعظم تتضمن نقل المؤن والذخائر إلى الحرمين الشريفين عن طريق البصرة والخليج العربى ، لأنها الطريق الأفضل والأكثر أمنًا من طريق الشام . وقد وافق الصدر الأعظم فى الدولة العثمانية على تكليف والى بغداد بإنجاز تلك المهمة لأنه يعتقد هو الآخر أن ذلك من صميم مهماته ، لاسيما وأن الدولة السعودية الأولى لازالت متأثرة بحادثة اغتيال الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود(٤٥) .

وتؤكد المراجع التاريخية إنضواء كثير من قبائل الشام بسهولة تحت لواء الراية السعودية ، لأنها وجدت فيها ما لم تجده فى سياسة الولاة العثمانيين . لذلك فإن معظم هذه القبائل رأت فى الانضواء تحت مظلة الدولة السعودية خلاصًا لها من فساد حكم الولاة الذى كانت تعانى منه البلاد(٤٦) .

فى تلك الظروف ، وفى ظل هذه المتغيرات التاريخية التى كانت تمر بها بلاد الشام ، بدأ الارتباك واضحًا فى الإجراءات الإدارية المتبعة فى ولاية الشام ، إذ رفض بعض رجال الدولة الالتزام بالتعليمات التى تصدر إليه من عاصمة الدولة ، أو حتى تنفيذ الفرمانات التى تصدر من السلطان العثمانى نفسه . وظهرت على السطح حينذاك قضية محمد باشا الذى صدر أمر سلطانى منذ سنة ١٢١٩هـ بتعيينه واليًا على جدة ، لكنه رفض الذهاب إلى هناك وأثار كثيرًا من الإشكالات والأشاعات التى انعكست على جند الدولة العثمانية فى الشام وأصابتهم بالوهن

والرعب ، وجعلتهم يتلكأون فى الاستجابة للتعليمات التى تصدر إليهم . وقد خاض المسئولون ورجال الدولة فى هذه القضية وكيفية معالجتها ، حتى أن السلطان العثمانى نفسه طلب من والى الشام المسارعة فى حل هذه القضية دون إثارة مشاكل إضافية ، لأن الوضع فى الشام وفى الجزيرة العربية لا يحتمل مثل هذه الأمور فى ذلك الوقت بالذات(٤٧) .

وكان أن سارع والى الشام إلى إرسال تحريرات مهمة لعرضها على السلطان العثمانى وبرفقها القرار المتخذ من قبل مجلس الشورى فى الولاية ، الذى يطالب بإعداد حملة عسكرية كبيرة من قبل والى الشام قوامها ثلاثة آلاف جندى، والاستعانة بولاية مصر فى دعم هذه الحملة بالذخائر والمهامات ، ليتم إرسالها إلى جد ومهاجمة الدولة السعودية فى عقر دارها(٤٨) .

وبينما أكد والى مصر - محمد على باشا - هذا الرأى فى رسالته التى بعثتها للأستانة بتاريخ ١٧ رجب ١٢٢٠هـ/ أواخر عام ١٨٠٥م ، مبديًا استعداده لتنفيذ التكليف الذى ورده من السلطان العثمانى للمشاركة فى التصدى للدولة السعودية، بيد أن ذلك الوالى زاد من مخاوف الدولة العثمانية حين أكد عجز ولاتها فى الشام والحجاز عن مجابهة السعوديين ، وأنهم فى حاجة إلى الدعم المستمر من مصر ومن الأستانة(٤٩) .

وكان الإمام سعود بن عبد العزيز قد بين للسلطان العثمانى سليم الثالث منهج دولته ، وأن ضم الحجاز للدولة السعودية فيه خير كثير للأهالى والمسلمين ، حيث أنه أمن الناس على أرواحهم وأموالهم ، وألغى الضرائب عن كواهلهم وثبت القاضى المعين من قبل السلطان العثمانى . والشئ الذى طلبه الإمام سعود من سلطان الدولة العثمانية هو منع والى الشام ووالى مصر من حمل الطبول والزمور التى ترافق الحجاج كل عام ، لأنها لا تتناسب مع قداسة الزمان والمكان وليست من الدين الإسلامى(٥٠) .

في سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م ، وهى السنة التى حج فيها الإمام سعود بن عبد العزيز حجته الثالثة ، مَنَع السعوديون والى الشام أمير الحاج الشامى عبد الله باشا العظم من دخول المدينة المنورة ومن ثم مكة المكرمة ، لأن محمل الحج الذى يرافقه تزفه الطبول والزمور ، وهى من الأشياء المخالفة لشعائر الحج . وكان قد طُلِبَ من الوالى العثمانى فى العام السابق عدم اصطحاب هذه البدع فى الحج القادم لكنه لم يلتزم ، فأصبح لزامًا على رجال الدولة السعودية منعه من دخول الأماكن المقدسة(٥١) .

ويذهب البعض إلى أن سبب منع الحاج الشامى وأميره عبد الله باشا العظم من دخول المدينة المنورة ومكة المكرمة ، هو الحيلولة دون التقاء أهل الشام ومن معهم مع أمير مكة غالب بن مساعد ، لكى لا تتاح لهم الفرصة فى التآمر وإحداث قلاقل فى الحج ، لا يعلم مداها إلا الله عز وجل ، لا سيما أن أمير الحاج الشامى يمتلك من الأسلحة والمعدات والعساكر النظامية الشئ الكثير(٥٢). وهذا الرأى من الآراء الراجحة ، خاصة إذا عرفنا أن أمير مكة لم يكن مخلصًا فى ولائه وتعامله مع أئمة الدولة السعودية وهم يدركون ذلك دون أدنى شك ، إضافة إلى أن رجال الدولة السعودية يرفضون من منطلق عقائدى وجود الطبول والزمور فى الحج والتى تأتى عادة مع محمل الحاج الشامى .

وكان أن دفع أمير الحاج الشامى عبد الله باشا العظم ثمن ذلك الإجراء ، حيث أصدر السلطان العثمانى سليم الثالث فرمانًا بعزله من منصبه ، باعتبار أنه تقاعس عن مواجهة رجال الدولة السعودية ، وأرجع الحجاج بناء على طلبهم ، دون أن يقوم بأى عمل عسكرى ، وعين يوسف باشا كنج Genc بدلاً منه فى ولاية الشام سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م(٥٣) .

أما الإمام سعود بن عبد العزيز فقد بعث بأكثر من رسالة إلى والى الشام يوسف باشا كنج ، قال فى إحداها :

" الحمد لله معز من أطاعه واتقاه ، ومذل من أضاع أمره وعصاه ... من سعود بن عبد العزيز إلى جناب حضرة يوسف باشا وزير الشام ... " .

إلى أن قال : " ... وفصل النزاع بين المختلفين عند كتاب الله ، وأصل الدين الذى ندعو إليه الناس هو ما دعا إليه محمد ﷺ إخلاص العبادة لله ، وأقامة الفرائض الذى افترض الله عليه ، ونفى الشرك وتوابعه من كل قبيح ... "

ثم كانت الرسالة الثانية أكثر وضوحًا ، وأرق لفظًا حيث قال الإمام سعود: " ... إلى جناب المكرم والحبيب المحترم يوسف باشا ، بلغه الله من الخير ما شاء ... وقد بلغكم ما نحن عليه وندعو الناس إليه ، ولكن ربما يقع من نقل الأخبار زيادة ونقصان ، فنذكر لكم الآن حقيقة الأمر على وجهه ... فيقيننا الذى نحن عليه وندعو الناس إليه هو : الإخلاص لعبادة الله وحده ، ولا نذبح القربان إلا لله، ولا نرجو إلا هو ولا نخاف إلا منه ولا نتوكل إلا عليه ، وأننا نتبع الرسول ﷺ ونوجب طاعته ... ولا نعبد إلا الله وحده ، ولا نتقرب إلا إليه بما شرع على لسان رسوله ﷺ ، مما دلت عليه النصوص القرآنية والسنة النبوية... "(٥٤) .

لكن يوسف باشا كنج والى الشام كان يبيت للإمام سعود بن عبد العزيز ودولته الحرب والدمار ، فالتعليمات تأتيه تباعًا من الأستانة كى يقوم بتجهيز الحملات العسكرية ضد الدولة السعودية ، وهو لا يرفض هذه الأوامر ، ولكنه يدرك حجمه الطبيعى وعجزه عن القيام بهذه المهمة بمفرده . وقد كتب أكثر من رسالة إلى والى مصر محمد على باشا ، فيها شرح وافى للخطط التى يعتزم القيام بتنفيذها ضد الدولة السعودية ، متعاونًا فى ذلك مع محمد على فى مصر وأمير مكة غالب بن مساعد ، ودعا فى رسائله تلك إلى تظافر الجهود ، وبذل كافة الإمكانات لانجاز تلك المهمة التى تؤرقه هو قبل غيره ، وتؤرق دولته العلية فى الأستانة كما يقول(٥٤) .

والواقع أن الإمام سعود بن عبد العزيز - وهو السياسى المحنك والقائد العسكرى الجسور - أدرك تلك المواقف وعرف كنهها ، ففى الوقت الذى نراه يستقبل قافلة كبيرة للحجاج المغاربة قَدِمت عن طريق البر عن طريق القاهرة ، ويقول عنهم : إنهم قوم متدينون ، ويتصرفون بحشمة(٥٦) ، إذا به وقد قاد قواته العسكرية سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م ، وغزا بها بلاد الشام حتى وصل إلى المزيريب(٥٧) ، وحقق إنتصارات سريعة . ثم أعاد الكرة فى نفس العام ، وتوغل داخل الشام ووصل إلى حوران(٨٥) ، وبصرى(٨٩) ، ومن هناك كاتب ولاة الشام ودعاهم إلى الدخول فى الطاعة واعتناق مبادئ الدعوة . ثم عاد من مهمته تلك بعد أن حقق فيها الانتصارات وأوقف مؤامرات المناهضين لدولته . بيد أن رجال الأستانة أفزعتهم هذه التحركات وأدركوا ضعف والى الشام يوسف باشا كنج ، فأصدروا فرمانًا عثمانيًا بعزله من منصبه وتعيين سليمان باشا واليًا على الشام بدلاً منه(٦٠) .

وكان الهدف من هذا التغيير تعاون الوالى الجديد مع والى مصر محمد على باشا ، غير أن الواقع أثبت عكس ذلك ، فالعلاقات بين محمد على باشا ويوسف باشا كنج كانت فى أحسن حالاتها ، فى حين أن سليمان باشا ومحمد على باشا كانا على طرفى نقيض والتعاون بينهما يكاد يكون معدومًا(٦١) ، وهو ما أثر بعد ذلك فى مجرى الأحداث وزاد من اتساع الهوة بين الرجلين .

أما الوالى الجديد سليمان باشا فلم يوفق فى تحسين علاقات الدولة العثمانية مع الدولة السعودية ، وإنما بدأ ولايته بتوجيه خطاب إلى الإمام سعود بن عبد العزيز فى شهر رجب سنة ١٢٢٥هـ ملأه بالتهديد والوعيد . وزاد من حدة الخطاب أنه ملأه بالتهم والأباطيل ضد الدولة السعودية الأولى ودعوتها السلفية منهجها الذى تسير عليه(٦٢) .

وهكذا أوصل ولاة الدولة العثمانية فى العراق والشام علاقات الدولة السعودية الأولى مع الدولة العثمانية إلى نقطة اللا عودة ، وكأنهم أرادوا بذلك هدم ما بناه السعوديون ، وهو ما تحقق بالفعل بعد ذلك ، لكنه فى تلك المرة لم يكن بأيدى هؤلاء الولاة وأنما بيد والى مصر محمد على باشا .

الخاتمة والنتائج :

كان قيام الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م فى قلب الجزيرة العربية ، يمثل ظاهرة حضارية رائدة فى قيام الدول ، لاسيما أن هذه الدولة قامت على المنهج الإسلامى الصحيح ، وأنها نذرت نفسها للدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة . وكان وقوفها خلف الدعوة الإصلاحية التى نادى بها العالم الجليل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، يمثل مرتكزًا جديدًا لقيام أول دولة عصرية عرفتها الجزيرة العربية فى تاريخها الحديث .

ومع أن المعارضين للدولة والمناوئين لها اختلفت مشاربهم ، وتضاربت مصالحهم ، وسلكوا مختلف الطرق الغير مشروعة للتأثير على منهجية الدولة السعودية وثوابتها الدينية ، إلا أن تلك الدولة لم تغير من مرتكزاتها السياسية التى قامت عليها ، وتعاملت مع هؤلاء القوم وفق المنظور الإسلامى ووفق مقاصد الشريعة الإسلامية ، وتحملت فى سبيل ذلك الشئ الكثير ، ولم تغير من أهدفها وغاياتها ، مما جعلها فى مقدمة الدول الناهضة والقوية فى العصر الحديث .

وعندما نقل المعارضون لهذه الدولة تصوراتهم الخاطئة عنها إلى القوى المجاورة ، وفى مقدمة هذه القوى ولاة الدولة العثمانية فى العراق والشام ، لعبت حينئذ المطامع والمطامح الشخصية دورًا بارزًا فى توجيه حركة الأحداث التاريخية بين هذه الدولة وولاة الدولة العثمانية ، وبالتالى مع عاصمة الدولة العثمانية فى إستانبول .

ولم يتمعن ولاة الدولة العثمانية ورجالاتها فى الأستانة هذا المسلك الذى انتهجه أئمة الدولة السعودية ، فأغمضوا أعينهم ، وصموا آذانهم عن الحجج الواضحة ، والحقائق الساطعة التى نادى بها السعوديون ، وأخذتهم العزة بالإثم فدبروا المؤامرات المختلفة ضد الدولة السعودية ودعوتها الإصلاحية ، وأرسلوا الحملات العسكرية لأطراف الدولة السعودية وعاصمتها ، حينئذ أصبح لزامًا على أئمة الدولة السعودية ورجالاتها الدفاع عن عقيدتهم ودولتهم وانتمائهم ، إنطلاقًا من التوجيه الربانى فى قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (الآية ١٩٠ من سورة البقرة) .

وقد بلغ العداء ذروته حين ساهم ولاة الدولة العثمانية فى العراق بطريقة أو أخرى فى إغتيال إمام الدولة السعودية الأولى الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود .

وسبق هذا الحادث المؤلم إرسال عدة حملات عسكرية كبيرة إلى أراضى الدولة السعودية الأولى فى وسط نجد . ولأن هذه الحملات لم تحقق أهدافها المتوقعة فى القضاء على الدولة السعودية ، لأن السعوديين لم يخضعوا لهذه الحملات بل ردوا عليها بالمثل ، بل بصورة أشد وأقوى فى بعض المواقع ، فقد حاول أولئك الولاة ومن شايعهم تشويه سمعة الدولة السعودية الأولى ، وإطلاق التهم والأكاذيب .

هذا التشويه وهذه الافتراءات الكاذبة وصلت إلى عاصمة الدولة العثمانية فى إستانبول ، وتأثرت بها ولايات الدولة العثمانية وفى مقدمتها ولاية الشام ، التى حاول ولاتها أن يقوموا بنفس الدور الذى قام به ولاة العراق ، لكنهم كانوا أضعف من أن يؤدوا الدور المطلوب منهم ، حتى أن منصب الوالى فى الشام كان مرهونًا بمدى قدرة الوالى فى مهاجمة الدولة السعودية ، فإذا تلكأ أو عجز عن المهمة عُزِل من منصبه . ومن حسن الطالع لهذه الدراسة أننا حصلنا على وثائق من

الأرشيف العثمانى فى إستانبول لم يسبق نشرها من قبل ، أبرزت جملة من النتائج التاريخية التى تعتبر إضافة علمية جديدة :

١ - أن الدولة السعودية الأولى قامت على منهج إسلامى ، وأنها سارت وفق معتقد أهل السنة والجماعة .

٢ - أن من أهداف الدولة السعودية واستراتيجيتها نشر الدين الإسلامى الصحيح، وإزالة البدع والضلالات التى انتشرت داخل الجزيرة العربية في تلك الفترة التاريخية الحاسمة .

٣ - أن هذه الدولة لم تبادر إلى العداء المطلق مع القوى المجاورة ، وأنما حرصت على الدعوة إلى الله بالحجة ، والحوار العلمى البناء ، فبعث أئمة الدولة الرسائل والدعاة إلى أماكن كثيرة ، وكسبوا بذلك الكثيرين من الأنصار المؤيدين .

٤ - إن المعارضين للدولة السعودية ودعوتها الإصلاحية من داخل الجزيرة وفى أطرافها لم يتحروا الحقيقة فى أحكامهم ، ووجهوا التهم والأباطل الكاذبة ضد الدولة السعودية ومنهجها الإسلامى .

٥ - لم تلجأ الدولة السعودية الأولى فى أى وقت من الأوقات إلى محاربة المعارضين لها والمناوئين لدعوتها ، وإنما كانت تدافع عن وجودها كدولة مستقلة ذات معتقد صحيح وهدف سليم .

٦ - إن المعارك التى خاضتها الدولة السعودية الأولى مع ولاة الدولة العثمانية فى العراق والشام كانت تنطلق من محورين أساسيين :

- إما لردع العدوان عن أرضها وكيانها .

- أو لتأديب من يجرؤ على مهاجمتها ، وإثبات قدرتها على التصدى لكل عدوان يوجه ضدها .

٧ - أن ولاة الدولة العثمانية فى العراق والشام شوهوا المنهج السياسى والعقائدى الذى تقوم عليه الدولة السعودية ، وحالوا بذلك دون تحسين العلاقات بين الدولة السعودية والدولة العثمانية ، وأوصلوا العلاقة السياسية بين الدولتين إلى نقطة النهاية .

٨ - أثبتت الدراسة أن الأهداف الشخصية والمصالح الذاتية الآنية كانت ذات أثر فعال فى إضعاف علاقات الدولة السعودية الأولى مع ولاة الدولة العثمانية فى العراق والشام ، وهو ما أعطى الفرصة الكاملة للمعارضين والمناوئين كى يحققوا أهدافهم الهدامة .

٩ - إن الواقع التاريخى لهذه الأحداث يثبت أن أئمة الدولة السعودية ودعاتها كانوا أشد حرصًا من ولاة العراق والشام ومن شايعهم على تطوير وتحسين العلاقات بين الجانبين ، ولو أدرك رجال الدولة العثمانية وولاتها ذلك مبكرًا لتغير وجه التاريخ ليس فى الجزيرة العربية والمشرق العربى فحسب وإنما فى العالم الإسلامى بشكل عام .

الهوامش

(١) حسين بن غنام : تايخ نجد ، جـ١ ، ص١٦١ - ١٦٤

؛ عثمان بن بشر : عنوان المجد ، جـ١ ، ص١٥٧ - ١٦٠

؛ مقبل عبد العزيز الذكير : مخطوطة ...جـ٣ ، ص٣٤ ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى ، رقم المخطوط ١٧٤تاريخ .

(*) سفوان : قرية تقع بين الكويت والبصرة وهى تابعة للعراق ، وسفوان ذكره النابغة الجعدى بقوله :

فضل لنسوة النعمان منا على سفوان يوم أردننانى

وذكره أبو نواس الحسن البصرى بقوله :

يا حبذا سفوان من متربع إذ كان بجتمع الهوى سفوان

وقد صحفه الاستعمال فلا يعرف اليوم عند الناس إلا بصفوان .

انظر : عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، جـ١ ، هامش ص٢١٨ .

(٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ - ١٢٣٢هـ / ١٧٤٥ - ١٨١٨م ، جـ١ ، ص٢٠٤ ، ط٤ ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ١٦٨ .

(٣) مقبل عبد العزيز الذكير : المصدر السابق ، ص٣٥ .

؛ د. عبد الكريم الغرايبة : قيام الدولة السعودية العربية ، ص٧٦ ، منشورات معهد البحوث والدرسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

(4) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - A - Tarihi, 12.10.1207.

(5) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - F - Tarihi, 3.10.1207.

(٦) مخطوطة : " رسالة فى تراجم آل سعود " ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى جامعة أم القرى ، رقم المخطوطة ١٣٦٨ تاريخ .

؛ السيد أحمد بن زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، جـ٢ ، ص٢٣٤ ، ط١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م ، مؤسسة الحلبى وشركاه ، القاهرة .

(٧) حسين بن غنام : المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٩٥

؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ٢١٨ - ٢١٩

(٨) رسول الكركوكلي : المصدر السابق ، ص٢٠٤

؛ مصطفى النحاس جبر : آل سعود في الجزيرة العربية من القبيلة إلى الدولة ، ص١٧ ، ص١ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة.

(٩) د. منير العجلاني : تاريخ البلاد العربية السعودية ، الدولة السعودية الأولى ، جـ٢، عهد الإمام عبد العزيز بن محمد ، ص١٠٣ ، ط٢ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، مطابع دار الشبل بالرياض .

؛ أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، جـ١ ، ص٥٩ - ٦٠ ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض .

(١٠) حفر العتك - وهو المعروف قديمًا بحفر بني سعد ، انظر : عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، هامش ص٢٢٦ .

(١١) حسين بن غنام : المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٩٥ - ٢٠٢

؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٢٥ - ٢٢٨

؛ رسول الكركوكلي : المصدر السابق ، ٢٠٤ - ٢٠٥

؛ تاريخ جودت : الجزء الثاني ، ص١٢٤ ، طبعة ١٩٩٣م ، مطبعة جاويك Cevik - طبع باللغة التركية ذات الأحراف اللاتينية .

(١٢) د. منير العجلاني : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص١٠٦ - ١٠٨

(١٣) د. عبد الله العثيمين : المرجع السابق ،جـ١ ، ص١٥٨ .

(14) Hatt-i, Humayun, No - 3841. Tarihi, 4.2.1213.

؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٤٠ - ٢٤١

؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، ص٣٦

(١٥) عثمان بن بشر ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٤٠

؛ فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب ، ص٣٣٨ - ٣٣٩ ، ط٢ ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض .

(١٦) جوهان لودفيج بوركهارت : مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة د. عبد ا لله الصالح العثيمين، ص٨٠ ، ط١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، مطابع شركة العبيكان ، الرياض .

(17) Hatt-i, Humayun, No - 3841 - Tarihi, 4.2.1213.

(١٨) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢٠٥ .

(19) Sir, Brydges Harford Jones : Anaccount of his Majesty's mission to the court of Persia in the years 1807 - 1810 to which is appended, Abrief History of the wahhaby, Vol, 2. p.19 "London, 1834".

(٢٠) الكيخيا – أو – الكتخدا – لقب إستعمله العثمانيون بمعنى النائب، ويقصد به هنا نائب الوالى ومساعده . وعلى باشا – هـذا نـائب والى بغـداد – سـليمان باشـا الكبـير ، وقـد زوجه ابنته واتخذه نائبًا له . انظر : سول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢١٧–٢١٨ ؛ د. منير العجلانى : المرجع السابق ، جـ٢ ، هامش ٢ ، ص١١٠

(٢١) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥١ – ٢٥٢

؛ مخطوطة رسالة فى تراجـم آل سـعود : ص٢ ، مركـز البحـث العلمـى وإحيـاء الـتراث الإسلامى جامعة أم القرى ، رقم ١٤٦٨ تاريخ .

؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٣٦

؛ عبد المنعم الغلامى : الملك الراشد جلالة المغفور له عبد العزيز آل سعود، ص١١ ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار اللواء للنشر ، الرياض .

– كان قائد قصر المبرز والمعروف بقصر – صاهود – هو القائد السعودى سليمان بن محمد بن ماجد التميمى من بلدة ثادق إحدى بلدان نجد ، وكان عدد الرجال الذين معه داخـل الحصن لا يتجاوز مائة رجل . وقد عَيَّنَ الأمير سعود ذلك القائد أميرًا على الأحساء بعـد إنتهاء هذه الأزمة .

أما قائد قصر الهفوف فهو القائد السعودى إبراهيم بن سـليمان بـن عفيصـان ومعـه عـدد ليس بالكثير من أهل الخرج وغيرهم ، لا يتجاوز عددهم المائة رجل وقد سمى القصر ذاك باسم قائده – قصر إبراهيم .

انظر : ابن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥١ – ٢٥٥

؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٣٦ – ٣٧

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص١٥٩

(٢٢) الشباك : أصبح اليوم هجرة - قرية - كبيرة تسكنها بعض قبائل آل مرة .

؛ ثاج : أصبح هو الآخر هجرة - قرية كبيرة تسكنها بعض قبائل العوازم ، وقد ورد ذكر ثاج فى شعر ذو الرمة ، حين قال :

نحاها ثاج نحـــوه ثــم إنه توخى بها العينين عين متالع

(٢٣) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢٠٨

(٢٤) مخطوطة : رسالة فى تراجم آل سعود ، ص٢ ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، رقم ١٤٦٨ تاريخ .

؛ رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢١٣

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص٢١٦

؛ د. عبد الفتاح حسن أبو عليه : المرجع السابق ، ص٥٤

؛ أمين سعيد : المرجع السابق ، ص٦٢

؛ أحمد عبد الغفور عطار : المرجع السابق ، ص٦٧

(٢٥) سورة البقرة ، آية ١٩٤

(٢٦) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥٧ - ٢٥٨ .

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص٢١٧ .

؛ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، تقديم وتعليق الأمير شكيب أرسلان ، المجلد الثانى ، جـ٢ ، ص١٦٢ - ١٦٢ ، ط٤ ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م ، منشورات دار فكر .

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين ، المرجع السابق ، ص١٦١ .

(٢٧) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢١٧ - ٢١٨ .

(28) Hatt-i, Humayun, No. 3765. Tarihi.10.11.1216.

(٢٩) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥٨

؛ رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢١٩ - ٢٢٣

(٣٠) اختلفت الروايات حول شخصية هذا الرجل ، فبعضها يؤكد أنه كردى من بلدة العمادية بلد الأكراد المعروف شمالى الموصل فى العراق ، والبعض الآخر يقول أنه شيعى من كربلاء أو النحف قدم للانتقام من الإمام عبد العزيز الذى غزا البلدتين سنة ١٢١٦هـ

بينما تؤكد رواية ثالثة أن اسمه عبد القادر وأنه أرسل من ملك العجم ، وأنه فارسى الأصل . وتشير هذه الرواية إلى أنه قد وُجِدَ فى عمامة هذا الرجل عند قتلة ورقة مكتوبة باللغة الفارسية تدعوه إلى قتل عبد العزيز بن محمد بن سعود ، وهناك رواية رابعة أوردها مؤلف لمع الشهاب تؤكد أن والى بغداد على باشا قد أعلن أمام جلسائه عن جائزة كبيرة لمن يقوم باغتيال الإمام عبد العزيز فى الدرعية ، وفى اليوم التالى جاءه هذا الرجل واسمه على واتفق معه على إنجاز المهمة ووهب ولأسرته كثير من المال . انظر فى ذلك عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٦٤ - ٢٦٦

؛ مقبل الذكير : لمصدر السابق ، جـ٣ ، ص٣٨

؛ جوهان لودفيج بوركهارت : مواد لتاريخ الوهابيين ، ص٩٦

؛ د. منير العجلانى : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٢٠٥ - ٢٠٩

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين ، المرجع السابق ، ص١٦٢

؛ لوثروب ستودارد : المرجع السابق ، المجلد٢ ، جـ٤ ، ص١٦٣ - ١٦٤

(31) Hatt-i, Humayun, No.3381. Tarihi. 1218.
(32) Hatt-i, Humayun, No.3381 - B.
(33) Hatt-i, Humayun, No.3381 - S - Tarihi. 26 - 8 - 1218.

(٣٤) سورة الحج ، الآية ٤٠

(٣٥) عثمان بن عبد الله بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٧٩ - ٢٨١

؛ لوثروب ستودارد : المرجع السابق ، المجلد ٢ ، جـ٤ ، ص١٦٤

(٣٦) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢٢٦ - ٢٤٣

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص٢٢١ - ٢٢٢

؛ مخطوطة : رسالة فى تراجم آل سعود ، ص٤ مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى ، مكة رقم ١٤٦٨ تاريخ .

(٣٧) د. عبد الله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص١٦٣

؛ عبد المنعم الغلامى : المرجع السابق ، ص١٣ - ١٤

(٣٨) دومة الجندل - أو الجوف - جوف آل عمرو - وهى التى ذكرها حسان بن ثابت بقوله :

ولقـد يرانى موعـــدى كأننى   بأرض دومة أو سواء الهيكل

واسم الجوف اليوم يطلق على ثلاث قرى فى شمال المملكة العربية السعودية هى – دومـة الجندل وسكاكا والقارة .

(٣٩) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٠٨ – ٢٠٩ ، ص٢٤٠ .

(٤٠) عثمان بن عبد الله بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٦٩ .

(٤١) فرمان كلمة فارسية الأصل ، معناها الأمر ، كانت تستعمل فى الدولة العثمانيـة للأوامـر السلطانية أو يسـمى اليوم بالمراسيم الملكيـة . انظـر : محمـد فريـد بـك : تـاريخ الدولـة العليةالعثمانية ، هامش١ ، ص١٩ ، تحقيق إحسان حقى ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار النفائس ، بيروت .

(42) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - S. Tarihi. 30 - 2 - 1218.
(43) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - B. Tarihi. 17 - 3 - 1218.

(* *) بنو صخر بطن من حذام من القبائل القحطانيـة النازلـة فـى شمـال الجزيـرة العربيـة علـى أطراف الشام الجنوبية .

(44) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - D. Tarihi. 17 - 3- 1218.
(45) Hatt-i, Humayun, No. 3784 - Tarihi. 9 - 12 - 1218.

(٤٦) د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص٢٢٧.

؛ بنوا ميشان : عبد العزيز آل سعود – سيرة بطل ومولد مملكة – نقله إلى العربيـة ، عبـد الفتاح ياسين ، ص٣٢ ، ط١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م ، دار الكاتب العربى ،بيروت .

؛ يلماز أوزتونا : تـاريخ الدولـة العثمانيـة ، جــ١ ، ص٦٥٢ – ٦٥٣ ، الطبعـة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسسة فيصل للتمويل – تركيا – استانبول.

(47) Hatt-i, Humayun, No. 4027.
, Hatt-i, Humayun, No. 4027 - A. Tarihi. 7 - 3 - 1219.
, Hatt-i, Humayun, No. 4030.
, Hatt-i, Humayun, No. 4030 - D. Tarihi. 5 - 2 - 1220.
, Hatt-i, Humayun, No. 4034 - Tatihi. 19 - 3 - 1220.
, Hatt-i, Humayun, No. 4039 - Tarihi. 1220.
(48) Hatt-i, Humayun, No. 3840 - Tarihi. 1220.
(49) Hatt-i, Humayun, No. 3848 - Tarohi. 17 - 7 - 1220.

(٥٠) خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة فى عهد الملـك عبـد العزيـز ، جــ١، ص٣٨ ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

(٥١) عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ٣ ، ص١٨٩ ، دار الجيل ، بيروت ، ب - ت - ن .

؛ د. عبد الفتاح حسن أبو عليه : المرجع السابق ، ص١٤

؛ مخطوطة : رسالة فى تراجم آل سعود ... سبق ذكرها ، ص٤

(٥٢) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٩١ - ٢٩٢

؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، ص٤٢

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص١٦٤

(٥٣) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٩٣

؛ ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص٥٢ ، ط١٩٥٧م، معهد الدارسات العربية العلية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة .

(٥٤) د. منير العجلانى : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٢١٠ - ٢١٧ - نقلاً عن نص الرسالة فى تاريخ جودت باللغة التركية .

(٥٥) محفظة (١) بحربرا وثيقة رقم ٨ بتاريخ ١٩ صفر١٢٢٣هـ ، دار الوثائق القومية بالقاهرة.

؛ محفظة (١) بحربرا وثيقة رقم ٨ مكرر وتاريخ ١٩ صفر ١٢٢٣ ، دار الوثائق القومية بالقاهرة .

؛ الوثيقة رقم ٢١ بتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٢٤هـ .

انظر : د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : من الوثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على ١٢٢٢ - ١٢٣٤هـ / ١٨٠٧ - ١٨١٩م ، جـ٢ ، ص٥٤ - ٦٦ ، ص٨٢ - ٩١ ، ط١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ ، الناشر دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(٥٦) جوهان لودفيج بوركهارت : المرجع السابق ، ص١٠٣ .

؛ لوثروب ستودارد : المرجع السابق ، المجلد ٢ ، جـ٤ ، ص١٦٤ .

(٥٧) المزيريب : قرية من قرى سوريا وهى لا تزال تحمل اسمها إلى اليوم ، وتقع على طريق الحاج بين دمشق ومكة المكرمة .

(٥٨) كورة واسعة فى جنوب دمشق ذات قرى كثيرة ومزارع ، وعاصمتها بلدة درعا، يقول امرؤ القيس عن حوران :

فلما بدت حوران والآل دونهـا   نظرت فلم تنظر بعينيـك منظرًا

انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، حـ٢ ، ص٣١٧ ، ط٤ ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت .

(٥٩) بُصرى : من أعمال دمشق الشام ، وهى قصبة كورة حوران ، نزلها خالد بن الوليد سنة ١٣هـ . يقول النابغة الذبيانى :

سقى الغيث قبرًا بين بصرى وجاسم   بغيث من الوسمى قطر ووابل

انظر فى ذلك : ياقوت الحموى : المرجع السابق ، حـ١ ، ص٤٤١

(٦٠) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، حـ١ ، ص٣٠٨ - ٣١١

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبدالرحيم: الدولة السعودية الأولى ... ص٢٢٨-٢٣٠

؛ د. عبد الفتاح حسن أبو علية : المرجع السابق ، ص٦٤ - ٦٥

(٦١) محافظ الذوات - محفظة رقم ١ - وثيقة رقم ١/٢٦٤ فى ٢٨/٦/١٢٢٥هـ - دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٦٢) د. منير العجلانى : المرجع السابق ، حـ٣ ، ص٢١٨ - ٢٢١

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصـــادر :

(أ) العـربية :

(١) القرآن الكريم .
(٢) أبو محمد عبد الملك بن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخـرون ، ط٢ ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م ، منشورات مصطفى البابى الحلبى - مصر .
(٣) السيد أحمد بن زينى دحـلان : الفتوحـات الإسـلامية بعـد مضـى الفتوحـات النبوية ، ط١٣٨٧هـ/١٩٦٨م ، الحلبى وشركاه ، القاهرة .
(٤) حسين بن غنّام : تاريخ نجد - المسمى روضة الأفكار والأفهـام لمرتـاد حـال الإمام وتعـداد غـزوات ذوى الإسـلام ، تحقيـق نـاصر الديـن الأسـد ، ط٣ ، ١٤٠٣هـ ، الرياض .
(٥) عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبـار ، دار الجيـل - بيروت ؛ ب - ت - ن .
(٦) عثمان بن عبد الله بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، تحقيـق عبـد الرحمـن ابن عبد اللطيف بن عبـد الله آل الشيخ ؛ ط٤ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياش .
(٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار صادر للطباعـة والنشر ، بيروت .

(ب) المصادر غير العربية :

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ط١٩٩٣م ؛ ١٩٩٤م - مطبعة جاويك Cevik - تركيا - وهو مطبوع باللغة التركية ذات الأحرف اللاتينية .
(٢) جوهان لودفيج بوركهات : مواد لتاريخ الوهـابيين ، ترجمـة د. عبـد الله الصـالح العثيمين ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، مطابع شركة العبيكان ، الرياض .

(٣) رسول الكركوكلي : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نورس؛ دار الكاتب العربي ، بيروت - مكتبة النهضة ، بغداد، ط١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

(جـ) المخطوطات :

(١) مقبل عبد العزيز الذكير : مخطوطة في ٣ أجزاء - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى - مكة - رقم المخطوط ١٧٤ تاريخ.

(٢) مخطوط : رسالة في تراجم آل سعود - لمؤلف مجهول - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى - مكة - رقم المخطوط ١٤٦٨ تاريخ .

ثانيًا : الوثائق :

(أ) وثائق عثمانية من أرشيف رئاسة مجلس الوزراء إستانبول - تركيا :

(1) Hatt-i, Humayun, No. 3381. Tarihi, 1218.
(2) Hatt-i, Humayun, No. 3381 - B.
(3) Hatt-i, Humayun, No. 3381 - S. Tarihi. 26 - 8 - 1218.
(4) Hatt-i, Humayun, No. 3765. Tarihi. 10 - 11 - 1216.
(5) Hatt-i, Humayun, No. 3784 - Tarihi. 9 - 12 - 1218.
(6) Hatt-i, Humayun, No. 3840 - Tarihi. 1220.
(7) Hatt-i, Humayun, No. 3841 - Tarihi. 4 - 2 - 1213.
(8) Hatt-i, Humayun, No. 3848 - Tarihi. 17 - 7 - 1220.
(9) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - B. Tarihi. 17 - 3 1218 .
(10) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - D. Tarihi. 17 - 3 - 1218.
(11) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - S. Tarihi. 30 - 2 - 1218.
(12) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - A. Tarihi. 12 - 10 - 1207.
(13) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - F. Tarihi. 3 - 10 1207.
(14) Hatt-i, Humayun, No. 4027.
(15) Hatt-i, Humayun, No. 4027 - A. Tarihi. 7 - 3 - 1219.
(16) Hatt-i, Humayun, No. 4030.
(17) Hatt-i, Humayun, No. 4030 - D. Tarihi. 5 - 2 - 1220.
(18) Hatt-i, Humayun, No. 4034 - Tarihi. 19 - 3 - 1220.
(19) hatt-i, Humayun, No. 4039 - Tarihi. 1220.

(ب) وثائق من دار الوثائق القومية بالقاهرة :

(١) محافظ الذوات - محفظة رقم(١) وثيقة ٢٦٤/١ في ٢٨/٦/١٢٢٥هـ.

(٢) محفظة (١) بحربرا وثيقة رقم ٨ وتريخ ١٩ صفر ١٢٢٢هـ .

(٣) محفظة (١) بحربرا وثيقة رقم ٨ مكرر وتريخ ١٩ صفر سنة ١٢٢٣هـ.

(٤) وثيقة رقم ٢١ وتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٢٤هـ .

الوثائق من رقم ٢ إلى رقم ٤ نشرها الأستاذ الدكتور / عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : فى كتابه : من وثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على ١٢٢٢ - ١٢٣٤هـ/ ١٨٠٧ - ١٨١٩م ، جـ٢ ، فى صفحات ٥٤ - ٦٦ ؛ ص٨٢ - ٩١ ، ط٣ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م - الناشر دار الكتاب الجامعى - القاهرة .

وقد إطلع عليها الباحث فى دار الوثائق القومية بالقاهرة - فى الهيئة المصرية العامة للكتاب يوم السبت ١٤ جمادى الآخر ١٤١٧هـ الموافق ٢٦ إكتوبر ١٩٩٦م ... وللأمانة العلمية فقد اعتمد عليها فى كتاب د. عبد الرحيم ، لأنه أدق فى الترجمة .

ثالثًا : المراجع العربية :

(١) أحمد عبد الغفور عطار : صقر الجزيرة ، جـ١ ، شركة استاندارد للطباعة العربية ، مصر ، ١٣٦٤هـ .

(٢) أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، جـ١ ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض .

(٣) خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

(٤) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط١٩٥٧م ، معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة .

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ - ١٢٣٣هـ/١٧٤٥ - ١٨١٨م ، ط٤ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(٦) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : من وثائق الدولة السعودية الأولى في عصر محمد على ١٢٢٢ - ١٢٣٤هـ / ١٨٠٧ - ١٨١٩م ، ط٣ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(٧) عبد الفتاح حسن أبو علية : محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى ١١٥٧ - ١٢٣٣هـ / ١٧٤٤ - ١٨١٨م ، ط٢ ، ١٤١١هـ / ١٩١١م ، دار المريخ للنشر ، الرياض .

(٨) عبد الكريم الغرايبة : قيام الدولة السعودية العربية ، منشورات معهد البحوث والدرسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

(٩) عبد الله الصالح العثيمين : تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ١ ، ط٦ ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، دار العبيكان للنشر ، الرياض .

(١٠) عبد المنعم الغلامى : الملك الراشد جلالة المغفور له عبد العزيز آل سعود ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، دار اللواء للنشر ، الرياض .

(١١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ط٢ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض .

(١٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار النفائس ، بيروت .

(١٣) مصطفى النحاس جبر : آل سعود فى الجزيرة العربية من القبيلة إلى الدولة ، ط١ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(١٤) منير العجلانى : تاريخ البلاد العربية السعودية - الدولة السعودية الأولى ، ط٢ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، مطابع دار الشبل بالرياض .

(١٥) مهدى رزق الله أحمد : السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية - دراسة تحليلية ، ط١ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض .

رابعًا : المراجع المترجمة إلى العربية :

(١) بنوا ميشان : عبد العزيز آل سعود - سيرة بطل ومولد مملكة - نقله إلى العربية - عبد الفتاح ياسين ، ط١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ، دار الكاتب العربى ، بيروت .

(٢) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، تقديم وتعليق المير شكيب أرسلان ، ط٤ ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٣ ، منشورات دار الفكر .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسسة فيصل للتمويل ، إستانبول - تركيا .

خامسًا : المراجع غير العربية :

(1) Sir, Brydges Harford Jones : Anaccount of his Majesty's mission to the court of Persia in the years 1807 - 1810 to which is appended, Abrief History of the wahhaby, Vol, 2.p.19 "London, 1834" .

سياسة حكام مصر تجاه تجارة الرقيق

(١٢٣٥-١٢٩٤هـ / ١٨٢٠-١٨٧٩م)

د. عمر سالم عمر بابكور*

ما أن استولى محمد على على حكم مصر سنة ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م ، إلاّ وفكر فى تأسيس دولة قوية ذات عز ومنعة(١) فخطط المشاريع للنهوض بها فى مختلف المجالات الزراعية والصناعية والعلمية والعمرانية . و لم تنته طموحات محمد على بتأسيس دولة قوية فى مصر ، بل لعله أمل فى توسيع رقعة بلاده(٢) .

يذكر الجبرتى أن الآراء اختلفت حول فتح محمد على للسودان ، فيقول : " ... وكان الناس قد تقولوا على ذهابه إلى قبلى أقاويل منها أنه يريد التجريد على بواقى المصريين المنقطعين بدنقلا ، فأنهم استحفل أمرهمُ واستكثروا من شراء العبيد وصنع البارود والمدافع وغير ذلك ، ومنها أنه يريد التجريد أيضًا وأخذ بلاد دار فور والنوبة ويمهد الطريق للوصول إليها " . ومنها أنهم قالوا إنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد . على أن ذهابه لجلب الرقيق يكاد يكون إجماع من كتبوا عن غزو محمد على للسودان والذى بدء فى سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م ، بمعنى أن جلب الرقيق كان الهدف الرئيسى لغزو محمد على للسودان،(٣) كما يتضح لنا ذلك - بما لا يدع مجالاً للشك - من الوثائق .

وما أن سيطرت الجيوش الفاتحة على إقليمى سنار وكردفان حتى أظهر محمد على اهتمامًا بالغًا بأمر العبيد ، وحرص على جلب أكبر عدد منهم إلى مصر، حيث أنه بعد نحو شهرين من دخول ابنه إسماعيل سنار بعث محمد على بمكاتبة إلى الكتخدا فى مصر يقول " علمنا من مكاتبة نجلنا صاحب السعادة الباشا

---

* أستاذ مساعد بجامعة أم القرى - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .

سر عسكر السودان الواردة مع بشكيرجيه ، أنه أرسل بصحبة سلحدار سليم أغا نحو ألف وتسعمائة زنجى ، وألفى جمل ، وألف راس من البقر . وحيث أنه من اللازم فرز الذين يصلحون لمصالحنا من ذكور الزنوج المذكورين مهما كانوا وإبقاؤهم فى إسنا . وإذا كان سعادة أخينا محمد بك لم يسافر فتبلغوه صورة إرادتنا وأن تحيلوا على عهدته فرز من يصلح لمصلحتنا من هؤلاء السود الأقوياء منهم - مهما كان عددهم - وإبقاؤهم فى البندر المذكور . وإن إرادتنا تقضى بأنه إن كان يوجد لدينا أشغال يمكن معها استخدام الباقين من قبيل النسوة والصبيان فيستخدمون فيها . وإن لم يوجد فيباعون(٤) " .

وهكذا كان الحصول على الرقيق هدفًا من أهداف محمد على الأولية فى فتح السودان ، نظرًا لاحتياجه إلى أعداد كبيرة منهم لتجنيدهم فى الجيش ، بالإضافة إلى استخدامهم فى أعمال الزراعة والصناعة وغير ذلك من الشئون ، وذلك دون أن يحمل الخزينة المصرية أعباء شرائهم فضلاً عن رغبته فى إحياء تجارة الرقيق نظرًا لما تدره من أرباح(٥) .

وتلقى مكاتبات محمد على لأبنائه وقواده فى السودان الضوء على مستقبل الرقيق والنخاسة فى ظل النظم الجديدة ، لذا يحسن أنه أعرض بعض مقتطفات من هذه المكاتبات التى توضح حرص محمد على فى الحصول على أكبر عدد ممكن من الرقيق(٦) من ذلك أن محمد على يذكر فى رسالته إلى متصرف جرجا " بديهى أننى قد أرسلنا العساكر الجرارة فى معية أولادنا وما زلنا نرسلهم بغية أن يجلب إلينا من ولايات السودان رجال سود نستخدمهم فى أعمال الحجاز وما يماثلها من الخدمات "(٧) وفى رسالته إلى ابنه إسماعيل " إن المقصود الأصلى من هذه التكليفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا إليكم ذلك مرة بعد أخرى ، بل الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا "(٨) كذلك يذكر فى رسالة ثالثة " إن الغرض من انتدابكم إلى

تلك الديار باختيار هذه المتاعب الشديدة ومن تعزيز كم بسواد عظم من الجنود والمهمات واللوازم العديدة ، هو عبارة عن الحصول على العبيد اللازم إنتقاؤهم وفق المطلوب وإيصالهم إلى ثكنات أسوان غير معرضين للضياع والتلف . وليس في نيتنا ولا في نظرنا غاية أعز من هذا الأمل كما هو ظاهر ، وإن قيمة العبيد الصالحين للعمل عندنا بمثابة قيمة الجواهر نظرًا لمتقضى الوقت والحال بل هو أعز من تلك وأجل كما هو بديهى وأظهر "(٩) .

وهكذا انطلقت حملات صيد الرقيق منذ بداية الفتح ، وقام بالإشراف عليها ولداه إسماعيل وإبراهيم(١٠٩) وبقية قواد الجيش ، لتوفير الأعداد التى يلح فى طلبها الباشا. ثم أخذت هذه الحملات صفة رسمية أعيد تنظيمها(١١) بحيث تحقق أكبر صيد من الرقيق ، وأصبح من واجبات الحكومة كل عام أن ترسل الحملات العسكرية فى شهرى سبتمبر وأكتوبر إلى المناطق النائية من السودان للحصول على الرقيق(١٢) .

لقد أكد محمد على أن إرسال الجنود إلى قواده بالسودان مرتبط ارتباطًا وثيق بما يرسلونه من العبيد ، ففى رسالة وجهها إلى ابنه إبراهيم باشا " ... فلترسلوا أنتم من هنا لكم ثلاثة آلاف أسود متماسك الأعضاء صالح لعملنا وخدمتنا ، نرسل لكم من هنا ألف جندى فى مقابلهم !! "(١٣) .

كذلك قال فى رسالة أخرى للدفتر دار : " من البديهى أن الظروف تحتم وجود المشاة والفرسان على الوجه المرفوع . فإن كنتم ترسلون لنا ألف واحد من العبيد الموجودين لديكم فإننا نلحقهم بالمدربين ونرسل لكم أربعمائة عسكرى من العساكر الذين تريدونهم بدلاً منهم ، وأن أرسلتم لنا ألفى عبد فإننا نرسل لكم ثمانمائة . وقد كتبنا لكم هذا من باب التذكار "(١٤) .

وكانت هذه الحملات تخرج سنويًا من مدن الأبيض والخرطوم وسنار إلى ثلاث مناطق رئيسية هى جبال النوبة – جنوبى كردفان ، وأوطان الشلك على

ضفاف النيل الأبيض ، وجبال الفونج(١٥) . ويرى محمد فؤاد شكرى أن انتشار تجارة الرقيق فى السودان قبل الفتح المصرى أدى إلى انتشار الفوضى فى ربوعه(١٦) ، ولكن يبدو أن هذه التجارة كانت معروفة آنذاك فى حدود ضيقة ومشروعة ، لها نظمها وقوانينها فهى لم تكن سببًا لاضطراب الأمن بل أن السبب الرئيسى لذلك هو تلك الغزوات المسلحة التى أرسلها محمد على لاصطياد الرقيق(١٧) .

واستمر المسئولون تحت حكم محمد على باشا يواصلون جهودهم لإرسال الرقيق ، فأرسل إسماعيل فى أواخر سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م تسعمائة من الرقيق أصحاء أشداء على حساب الفرد(١٨) . وبعد مقتل إسماعيل(١٩) واصل الدفتر دار تلك المجهودات حتى بلغ مجموع الرقيق الذين أرسلهم إلى دنقلا ليرسلوا من هناك إلى مصر منذ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ - يناير ١٨٢٤م حتى شوال سنة ١٢٣٩هـ - مايو ١٨٢٤م أربعة آلاف من الرقيق(٢٠) .

ويذكر محمد فؤاد شكرى بأن بورنج يقول أنه عندما زار مصطفى بك حاكم كردفان ، وجده فى ساحة الديوان يفرز نحو أربعمائة من الرقيق بغية توزيعهم على الجند بدلاً من مرتباتهم وكانت رتبة الفرد العسكرية تراعى عند التوزيع .

وعندما طلب الدفتر دار من الباشا فى سنة ١٢٣٧هـ " ١٨٢١ - ١٨٢٢م" مده بكمية من الريالات الفرنسية ليدفع مرتبات الجنود ، اعتذر الباشا وأمر الدفتر دار بأن يدفع لهم جزءًا منها فى شكل بفتة القطن المستعمل كعملة فى ذلك الإقليم ، ويسلموا بقيتها فى مصر(٢١) . وهكذا فقد كان من الصعب دفع مرتبات الجند نقدًا لقلة العملات النقدية المتداولة فى السودان .

ولما كان تأخير دفع رواتب الجنود سببًا لكثير من الثورات العسكرية(٢٢) فقد تحتم على حكومة الباشا أن تفكر فى طريقة أخرى لدفعها ، وإلا تعرض أمن

البلاد وسلامتها لأخطار بالغة . ولحل هذا الإشكال وافق محمد على على إعطاء الجنود العبيد والجوارى بدلاً من علوفتهم(٢٣) .

ولما زاد أحيانًا ثمن العبد الواحد عن استحقاق الجندى ، أعطى كل عدد من الجنود كمية من العبيد اقتسموها فيما بينهم . وبينما ذكر الرحالة (بالم) أن الجنود فى كردفان أعطوا العبيد بدلاً من رواتبهم بواقع ثلاثمائة قرش للرأس الواحد(٢٤) ، ذكر الحكمدار خورشيد عن الغزوة التى قادها لإخماد ثورة أهالى عطبش فى سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩ - ١٨٣٠م أنه أعطى بعض الأسرى لجنود الشايقية بواقع خمسة عشر فرانسة لكل عبد(٢٥) وهكذا شاع استعمال هذه الطريقة الجديدة لدفع مرتبات الجند ، حتى إنها كثيرًا ما تأخرت لحين عودة الغزوات من مناطق العبيد(٢٦) .

وقد شهد عهد الحكمدار خورشيد اهتمامًا ملحوظًا بأمر تنظيم الغزوات وإرسالها لقنص الرقيق . فعندما استلم مقاليد الحكم فى سنة ١٢٤١هـ - ١٨٢٦م أرسل غزوة لبلاد الشلك ، كما قاد فى نفس السنة حملة صغيرة أخرى سارت بحذاء النيل الأزرق حتى وصلت جهاد ود العباس ، وعادت إلى الخرطوم بعد أن استولى خورشيد على كمية من العبيد باعها نيابة عن الحكومة(٢٧) . وفى سنة ١٢٤٢هـ - ١٨٢٧م قاد خورشيد حملة أخرى إلى بلاد الدنكا على ضفاف النيل الأبيض واستطاع بمساعدة الشيخ سليمان أبى روف ، من شيوخ عربان رفاعة ، الوصول حتى نهر سوباط . وعاد من هناك بعد غياب ثلاثة أشهر ، كانت نتيجتها اعتقال خمسمائة من زنوج الدنكا(٢٨) . وفى سنة ١٨٢٨م قاد خورشيد غزوة أخرى نحو بلاد الإنقسنا لجلب العبيد من هناك(٢٩) كذلك شهد عام ١٨٣٠م حملة أخرى قادها خورشيد إلى بلاد الشلك وعاد من هناك بمئتين من الأسرى . وفيما بين عامى ١٨٣١ - ١٨٣٢م قاد خورشيد أكبر قوة تستعمل فى الغزوات حتى ذلك الوقت وهى ستة آلاف جندى ، نحو بلاد التاكة بهدف الحصول على

كميات ضخمة من الماشية والعبيد ، إلا أن تلك الحملة تعرضت لخسارة فادحة ، إذ فقدت ألف وخمسمائة من رجالها(٣٠) وفى سنة ١٢٤٧هـ - ١٨٣٢م غزا خورشيد بلاد فازو غلى غزوة ناجحة جلبت أعدادًا كبيرة من الرقيق(٣١) .

كذلك أعد رستم بك حاكم كردفان فى عهد الحكمدار خورشيد بعض الغزوات لصيد العبيد ، ففى الخامس من شهر شعبان سنة ١٢٤٥هـ ٣٠ يناير ١٨٣٠م قاد حملة لغزو الزنوج فى جبالهم بالقرب من كردفان ، وبعد قتال عنيف بين الجانبين استمر لمدة أيام استطاع رستم بك الانتصار على الأهالى فغنم أموالهم وأملاكهم وأسر منهم ألف وأربعمائة أسير ، اختار منهم ألفًا من صغار السن المقتدرين وأرسلهم مع مصطفى أغا بيكباشى الأورطة السادسة إلى المحروسة(٣٢) . وقاد رستم رستم أيضاً فى سنة ١٢٤٨هـ ١٨٣٢ - ١٨٣٣م حملة أخرى إلى جبال الزنوج فنكث بهم وأسر منهم ألف وخمسمائة عبد(٣٣) .

وتعتبر الحكومة مسؤلة إلى أقصى حد عن ازدهار هذه التجارة بسبب السياسة الاقتصادية التى اتبعتها فى هذا الجزء من قارة أفريقية ، فقد احتكر محمد على باشا التجارة فى السودان ، وامتد هذا الاحتكار فشمل كل المحاصيل بحيث أصبحت الحكومة هى المشترية للصمغ والعاج وجلود الحيوان(٣٤) . وزيادة على ذلك فقد وضعت القيود وفرضت الضرائب الباهظة التى تكفل تنفيذ هذا الاحتكار بكل صرامة ، الأمر الذى أدى بالتجار إلى العمل فيه ، فكانت المتاجرة فى الرقيق أكثر أنواع التجارة ربحًا وخاصة بعد أن كثرت أعداده التى كانت تجلبها حملات الحكومة كل عام ، مما مكن من شرائه بأثمان رخيصة(٣٥) . وقد ساعد الجلابة فى المتاجرة بهذه السلع ما أتاحته لها ضريبة الماشية التى كانت تجمعها السلطات من البدو الذين كانوا يدفعون ضريبتهم عينًا ، وكان جزء منها يرسل إلى مصر والباقى تتخلص منه الحكومة ببيعة للتجار . وكان هؤلاء يقبلون على شرائها ثم يقومون ببيعها لأصحابها الأصليين الذين يظهرون فرحتهم باستعادة ماشيتهم . ولكي

يستردوها كان عليهم تلبية طلبات الجلابة من الرقيق ، فكانوا لذلك ينظمون الحملات لاصطياد الزنوج التعساء(٣٦) . وكان يهم الحكومة استمرار هذه التجارة نظرًا للعوائد والرسوم التى فرضت على القوافل ، والتى أصبحت تمثل دخلاً أساسيًا لها . من ذلك أن دخل حكومة الخرطوم منها بلغ اثنى عشر ألفًا من الجنيهات . وقد أنشئت كذلك مكاتب تحصيل هذه العوائد فى الخرطوم وأسيوط والقاهرة ، وفى كل من هذه الأماكن كان على الجلابة أن يدفعوا الرسوم على رقيقهم ، ففى كردفان كانت تتراوح ما بين عشرين وثمانين قرشًا وفى دنقلة خمسة عشر قرشًا(٣٧) ، وفى أسوان كانت أربعة وثلاثين قرشًا ونصف ، وفى القاهرة تفرض عليهم ضريبة تبلغ أحد عشر قرشًا ، أى أن متوسط الضريبة المفروضة على العبد كان مائة وخمسة قرشًا(٣٨) ولم تكن هذه الرسوم وحدها هى التى تمثل دخل الحكومة إذ أن الحكومة كانت لها تجارتها التى تشرف عليها عن طريق بيع الفائض من الرقيق ، فكانت هناك ضريبة تقضى بدفعها عددًا من الرقيق الأقوياء(٣٩) وبذلك انتعشت تجارة الرقيق وازدهرت أسواقه القديمة فى بربر - الأبيض - الخرطوم - ودنقلة(٤٠) .

وللهيمنة على مصادر الرقيق فى السودان ، كان لابد لمحمد على من أن يتخذ إجراءات حاسمة لمنع تصدير الرقيق السودانى إلى الخارج . فمنذ بداية عهده فى السودان أصدر أوامره الحازمة المشددة إلى حاكم دنقلا لمنع تجار الرقيق من تصدير الرقيق السودانى إلى مصر ، إما بحجزهم فى دنقلا أو بردهم من حيث أتوا(٤١) على أن هذه السياسة لم تأت بالفائدة المرجوة ، إذ تسلل عدد كبير من أولئك النخاسين إلى مصر ، مما اضطر الباشا إلى إصدار توجيهاته بشراء العبيد الذكور منهم ، الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشر والعشرين على أن يسمح لهم بالتوجه مع باقى رقيقهم إلى مصر(٤٢) .

وقد كلف محمد على المسئولين فى السودان بجلب أكبر عدد من الرقيق الذين يصلحون للتجنيد فى الجيش . ومن ثم فقد اهتمت الحكومة بإعداد الغزوات التى درج حكمدار وموظفو الباشا على إرسالها لصيد الزنوج السودانيين ، وتجهيزها تجهيزًا تامًا . وقد ذكر الرحالة Pallme أن الحملة المجهزة الواحدة كانت تتكون عادة من ألف إلى ألفين من القوات المنظمة ، ومن أربعمائة إلى ثمانمائة من المسلحين بالبنادق والمسدسات ، مع ثلاثمائة إلى ألف من الأهالى المشاة المزودين بالسهام والدروع،وثلاثمائة إلى خمسمائة آخرين مسلحين وراكبين على ظهور دوابهم(٤٣).

هذا وقد أمر محمد على بتوفير كل متطلبات المعيشة الطيبة والراحة لهم لأنه كان مسؤلاً عنهم ، مثلهم فى ذلك مثل المصريين وبقية الشعوب الأخرى التى يحكمها(٤٤) ورغم كل الإمكانات التى وضعها محمد على لإنجاح تجربة تجنيد الرقيق فى الجيش ، ورغم كل الجهود التى بذلها المسؤلون لتحقيق رغبته ، فإن التجربة سرعان ما باءت بالفشل ، ربما لأن العدد الذى وصل من الرقيق الصالح للجندية كان غير كاف لتكوين الجيش ، أو ربما بسبب تغير البيئة والمناخ وإصابتهم بالأمراض ، التى لم تفلح معها العقاقير وقتذاك ، الأمر الذى ترتب عليه موت كثيرين منهم ، مما أزعج محمد على وخيب أمله فى إمكان الاعتماد على الرقيق فى تكوين جيش نظامى(٤٥). لذلك اتجه محمد على إلى تجنيد أبناء الفلاحين المصريين، رغم حاجته الشديدة إليهم فى فلاحة الأرض ومواجهة التوسع فى الزراعات الجديدة . ولكن من ناحية أخرى كان تكوين الجيش فى ذلك الوقت ، من الأهمية بمكان ، من حيث الاعتماد عليه فى بناء الدولة المصرية ذاتها ، ومن حيث درء الأخطار التى كانت تحيق بالدولة العثمانية ، والتى كانت تتمثل فى الحركات الثورية فى الولايات التابعة لها .

وعندما لجأ محمد على إلى تجنيد المصريين ، أصبحوا عصبة الجيش النظامى(٤٦) الحديث الذى وصل عدده فى سنة ١٨٢٤م إلى أربعة وعشرين ألفًا من الجنود(٤٧) فى رأى ، وفى رأى آخر حوالى عشرين ألفًا(٤٨) .

وصار هذا الجيش من أحسن الجيوش النظامية فـى الشرق الأوسـط . وقـد ظل هذا الجيش المصرى ينتظـم بـين صفوفـه فرقًـا مـن العبيـد وإن كـان المصريـون يشكلون العنصر الأساسى فى الجيش النظامى . أما الرقيق الذيـن كـانت لا تتوافـر فيهـم شـروط الخدمـة العسـكرية فكـانوا يعملـون فـى مجـالات أخـرى كالزراعـة والصناعة والخدمة فى الدواوين الحكومية(٤٩) .

ولم يتشدد محمد على مـع حكـام السـودان ، بخصـوص إرسـال الرقيـق مـن الذكـور الأقويـاء الذيـن يتجـاوزون الخامسـة عشـر إلى العشـرين سـنة مـن العمـر لتجنيدهم فى الجيش ، حيـث صـار لا يمـانع فـى جلـب الرقيـق - ذكـورًا وإناثًـا، للاستفادة منهم بقدر الإمكان فى المصانع الحديثة التى أنشأها فى البلاد(٥٠) .

وقد عمل محمد على على تهيئة الجو الصالح للمجندين الجـدد مـن الرقيـق ، وتوفير كافة احتياجاتهم حتى يعملوا بكل إخلاص وتفان . ولترغيبهم فى حيـاتهم الجديدة كان عليه أن يعمل على استقرارهم وإسكانهم ، ببناء الثكنات اللازمة لهم فى أسوان . وبما أن هذه الثكنات وإعدادها يستغرق وقتا طويلا ، فقد أرسل محمد على خمسمائة خيمة لإيوائهم إلى أن تجهـز لهـم الثكنـات(٥١) . والواقـع أن محمـد على حاول أن يجعل من الرقيق ، أفراد يفيـدون ويسـتفيدون ، حيـث عـز عليـه أن يتركهم - خاصة بعد عدم نجاح تجربة تجنيدهم - فريسة للبطالة وما يـترتب عليهـا من آثار فهداه تفكيره إلى توجيههـم إلى العمـل فـى مشـروعات التنميـة ، فـأصدر أوامره بضرورة استقرارهم ، وتوفير سبل المعيشة والراحة لهـم وأن يزاولـوا أعمـالاً مفيدة ، تتناسب مع قدراتهم الذهنية والعضلية . وقد أمر بإنشاء قريـة خاصـة بهـم بجوار منفلـوط بـالصعيد ، وأن يقـوم بعـض الفلاحـين المصريـين بتعليمهـم أصـول الفلاحة والزراعة(٥٢) وظل يصدر الأوامر من حين إلى آخر ، بإسكان الرقيـق فـى القرى المصرية الأخرى ، والعمل على ترغيبهم فـى أعمـال الفلاحـة(٥٣) حتـى لا يشعرون بأنهم غرباء عن المجتمع المصرى ، وأن يعـاملوا معاملـة طيبـة ، لأنـه كـان

يهتم ببسط الرفاهية للسودانيين والمصريين على حد سواء ونشر العدل وتعمير الأقاليم السودانية تمامًا كالأقاليم المصرية(٥٤) .

وكان محمد على يهدف من وراء ذلك أن يفيد الزراعة فى مصر من خدمات الرقيق ، حتى يزدهر الإنتاج الزراعى ، وما يترتب عليه من تصدير وقيام صناعات مما كانت الدولة فى أشد الحاجة إليها ، لسد حاجات الجيش . وفى الوقت ذات يكتسب الرقيق أنفسهم خبرة جديدة فى الأعمال الزراعية والصناعية.

وبعد المعارك الدامية التى خاضها الشعب المصرى ضد الحملة الفرنسية ، وبعد حروب محمد على الطاحنة ، فقدت مصر الكثير من خبرة أبنائها ، كما أدى تفشى الأمراض كالحميات والطاعون إلى هلاك آخرين . ومعظم الذين ماتوا كانوا من الرجال مما عرض البلاد لنقص حاد فى الأيدى العاملة كانت فى أمس الحاجة إليهم لاستخدامهم فى المشاريع الصناعية والزراعية التى أنشأها محمد على للسير بمصر قدمًا على طريق التقدم والرخاء الاقتصادى(٥٥) . لذلك ألحق محمد على بعض الزنوج الذين جلبوا لمصر بالمعامل والمصانع التى أنشأها(٥٦) كما حث حكمدارى السودان لإرسال الرقيق ذكورًا وإناثًا ممن يصلحون لأشغال الجفالك(٥٧) .

ولحث أولئك العبيد للعمل بهمة ونشاط فى تلك الأعمال الزراعية ، عمل على استقرارهم وتوفير كل سبل الراحة لهم ، فعين أحد كشافة - وهو جمال الدين أحمد - لإنشاء قرية لإسكانهم فى المحل المسمى كوم كام بجوار منفلوط(٥٨) وأمره بتوفير كافة مسلتزماتهم ، وجلب خمسة أو عشرة أنفار من الفلاحين لتعليمهم " أصول الفلاحة والزراعة "(٥٩) . وبجانب إنشاء هذه القرية ، عمل الباشا على إسكانهم بالقرى المصرية الأخرى ، وأصدر أوامره إلى عبدى أغا مأمور منفلوط لإيوائهم فى قرية قوبتوجة والسعى لترغيبهم فى الأعمال والزراعية التى أوكلت إليهم(٦٠) .

على أن مسألة استخدامهم فى الزراعة ، فشلت هى الأخرى رغم ما بذل من جهود جبارة تشير إليها الوثائق فى ترغيب السود وتعليمهم الفلاحة . فبجانب إعراض البعض منهم عن الأعمال الزراعية وعدم إقبالهم عليها ، فإن البعض الآخر إرتضى الاستقرار ، ومن ثم فإن ذلك تطلب توفير المسكن والمعيشة لهم مما كلف أصحاب المزارع نفقات باهظة ، فى بعض الأحيان ، أكثر مما تغله الزراعة ، الأمر الذى ترتب عليه أن رفض أصحاب المزارع استخدام هؤلاء الرقيق(٦١) .

أما الرقيق ، الذين لا يصلحون للجندية والأشغال الأخرى فقد أمر محمد على منذ بداية عهده ببيعهم لتجار الرقيق فى سنار وكردفان أو فى أسوان أو فى وكالة النحاسين بالقاهرة ، حيث كانت تجارة الرقيق تجارة مشروعة منظمة لها دلالون سمح لهم بأخذ سمسرة(٦٢) .

على أن محمد على ، رغم أنه احتكر التجارة فإنه لم يتاجر فى الرقيق ، ولم أعثر على وثيقة واحدة تشير إلى ذلك بصراحة . وكان فى إمكانه أن يحتكر هذه التجارة ، مثل أية سلعة أخرى كالصمغ والعاج مثلاً ، علمًا بأن التجارة فى الرقيق كانت أكثر ربحًا من أى سلعة أخرى ، ومع ذلك لم يمارسها بل كان كما يقول بورنج " يكرهها ويمقتها "(٦٣) .

ويبدو أن الذى جعل محمد على يتغاضى عن تصرفات بعض حكام السودان فى بيع الرقيق ، رغبته فى سد عجز خزينة البلاد لتغطية نفقات الإدارة والجيش هناك ، فكانت خزينة مصر فى حاجة شديدة إلى الأموال لمواجهة المصروفات وتغطية نفقات مشروعات التنمية ومرتبات الجيش ، لذلك كان يتأخر فى بعض الأوقات عن إرسال الأموال من مصر إلى الإدارة فى السودان .

وإذا صح ما ذكرناه من أن محمد على لم يتاجر فى الرقيق ، ولم يستفد من استمرار التجارة فيه هناك ، بعد الجهود المضنية التى بذلها لإنجاح تجربتهم فى الجيش النظامى وفشل تلك التجربة ، ما هو إذن موقفه منهم بعد كل ذلك ؟

* * *

تشير الأحداث التى جرت بعد ذلك إلى أن محمد على وجه النظام المتبع بشأن الرقيق فى السودان إلى نظام العمل الشريف ، ومن ثم نظر إلى مسألة الرق من زاوية أخرى ، هى وقف الغزوات المسلحة التى كانت ترسل لجلب الرقيق ، والإبقاء على تواجدهم فى قراهم ، والاهتمام بتعليمهم وتدريبهم على الحرف الصناعية والأعمال الزراعية ، أى أن محمد على تحول من هدفه - السابق - الذى كان يرمى إلى إلقاء عبء الأعمال الحربية على عاتق الرقيق المجندين فى الجيش ، إلى استخدامهم فى المشروعات الصناعية التى أقيمت فى السودان نفسه ، وأن يشجع الزنوج على استغلال مواردهم الاقتصادية وينشط من حركة التجارة المشروعة معهم(٦٤) .

وقد تطلب منه ذلك الضرب بشدة على أيدى الحكام الجشعين الذين كانوا يزاولون التجارة فى الرقيق بصورة أو بأخرى ، أو حتى يتساهلون مع التجار وأصحاب القوافل الذين يمارسون هذه التجارة ، فقد اقتضى الأمر تضييق الخناق عليهم ومحاصرتهم سواء كانوا من العرب أو من الأجانب(٦٥) .

هذا بجانب مضاعفة الجهود لتوطيد الأمن والتوسع فى دائرته والاستفادة بخدمات السودانيين أنفسهم فى الإدارة بشكل أكثر ، وتوفير الوسائل البديلة من استخدام الرقيق والمتاجرة فيهم ، حتى يمكن تحقيق انهيار نظام الرق فى السودان(٦٦) .

وقبل أن نشير إلى تلك الوسائل البديلة التى وفرها محمد على ، لتحل محل التجارة فى الرقيق ، أو على الأقل تخفف من انتشارها ، نرى أن نعرف أولاً موقف الدول الأوربية - خاصة بريطانيا - من مسألة الرق فى السودان حيث ذكر البعض أن محمد على لم يعمل على إلغاء تلك التجارة إلا تحت ضغط الدول الأوربية .

نشر الرحالة ، الذين زاروا السودان وغيره من الأقطار الأفريقية التى اشتهرت بتجارة الرقيق فى القرن التاسع عشر ، الأخبار عن أحوال الرقيق وعن

المعاملة القاسية التي تعرضوا لها ، وقيام حركات قوية فـي أوربـا تهـدف إلى إلغـاء الرق وتجارة الرقيق . وقد بادرت الحكومة الإنجليزية بالاتصال بمحمد على بهـدف إلغاء هذه التجارة المشينة(٦٧) . وفى الواقع لم تغب عن محمد على النـداءات التـى كانت تتردد فى أوربا للقضاء على تجارة الرقيق ، وكان محمد علـى يهمـه ألا تثـار مشاكل تمس سمعته وسمعة مصر فى الخارج ، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار ، تطلعه إلى بعض الدول الأوربية لمساندته لدى السلطان العثمانى الذى لا يـزال فـى قـرارة نفسه يحقد عليه . على أن محمد على ، كان أبعد نظرًا من كثير من حكـام الـدول الأوربية ، بخصوص مسألة الرق ، فهو - أى محمد على - يرى أن الـرق نظـام لـه جذور ضاربة وعميقة فى المجتمعات الشرقية ، ومن المستحيل نزعه منهـا بـين يـوم وليلة(٦٨) ولكن من الممكن القضاء عليه بالتدريج ، وذلك بإيجاد الوسـائل البديلـة خوفًا من أن يحدث ما لا يحمد عقباه من السوادنيين أنفسهم . من ذلك ما حـدث من تذمر الأهالى لعدم وجود الرقيق فى الأسواق ، عندما منع تسيير الغزوات لصيد الرقيق فى سنار(٦٩) وكانت بريطانيا فى تلك الفترة ، وخاصة فى الثلاثينـات مـن ذلك القرن فما بعدها ، تحمل راية محاربة الرق فى طول الكـرة الأرضيـة وعرضهـا وخاصة فى القارة الأفريقية . ولم يكن ذلك بدوافع إنسانية أو أخلاقية بقدر ما هو وسيلة لتحقيق أغراض مصلحية وسياسية(٧٠) .

كذلك كان لبعض الدول الأوربية تاريخ فى تجـارة الرقيـق الأفريقـى ، فقـد أخذ البرتغاليون يمارسون تلك التجـارة منـذ عـام ١٤٤٢م ولم يتقصـر الأمـر علـى تزويد الدول الأوربية بالرقيق الأسود(٧١) بل كانوا يزودون به أسـبانيا للعمـل فـى العالم الجديد(٧٢) .

ويقول كل من (GOHNSTON) و(COUPLAND) أن التجار العرب هم الذين فتحوا أبواب تجارة الرقيق ، لكنهم - أى هؤلاء - لا ينكرون فى الوقت نفسه ، أن هـــذه التجارة صــارت تمارس على نطاق واسع على أيدى البرتغاليين

وغيرهم من التجار الأوربيين الذين اندفعوا إلى القارة الأفريقية واستطاعوا عن طريق إمكاناتهم المادية والعسكرية ، أن ينخرطوا فى ذلك الميدان ويحققوا الأرباح الكثيرة(٧٣) .

وقد اشترك الإنجليز فى تجارة الرقيق منذ عام ١٥٦٢م فى عهد الملكة اليزابث عندما كون جون هاوكنز فى لندن شركة للاتجار مع غرب أفريقيا لنقل الرقيق إلى المستعمرات البريطانية فى أمريكا(٧٤) .

ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كانت الحكومة البريطانية من أكبر تجار الرقيق فى العالم ، فلم يقتصر دورها على نقل السود من أفريقيا إلى جزر الهند الغربية بل نشطت السفن البريطانية(٧٥) فى نقل الرقيق من أفريقية إلى خارج القارة(٧٦) .

وعندما تغيرت الظروف الاقتصادية والسياسية فى أوربا نفسها ، نادى بعض الأفراد والجماعات بإلغاء تجارة الرقيق ، بدعوى أنها تخالف المبادئ الإنسانية. والواقع أن السبب الهام لتبنى إنجلترا الدعوة لمنع تجارة الرقيق فى السودان بوجه خاص ، هو أن إنجلترا كانت ترقب بعين الاهتمام ، ما كان يجرى فى السودان ، بعد أن مد محمد على التنظيمات الحديثة إليه ، والتى وصلت إلى جانكير فى الجنوب ، وفى الشرق إلى ساحل البحر الأحمر الغربى . وعندئذ أحست بريطانيا بالخطر الذى من الممكن أن يهدد مصالحها فى تلك المنطقة ، خاصة بعد أن بسط محمد على سيطرته على جنوب الجزيرة العربية وأشرف على سواحل البحر الأحمر ، فأحست بريطانيا أن ذلك البحر خرج من قبضتها . وكانت شركة الهند البريطانية قد نشطت فى تعاملها التجارى مع شعوب تلك المنطقة – فأخذت تعمل حسابًا لإزدياد سيطرة محمد على بل وتحول البحر الأحمر إلى ما يشبه البحيرة المصرية(٧٧) . هذا إلى أن إنجلترا كانت أساسًا لا ترتاح لمحمد على ، بسبب مشروعاته الطموحة من حيث تكوين الجيش واحتكاره التجارة

واتجاهه نحو الصناعة التى ربما تتطور وتنافس الصادرات البريطانية فى مصر وفى الولايات العثمانية الآخرى . يضاف إلى ذلك تقاربه من الفرنسيين ، وتشجيعهم لمشاريعه المختلفة(٧٨) . لذلك إتخذت إنجلترا من مسألة تحريم تجارة الرقيق فى السودان ، تكأة للضغط على محمد على . وليكن الأمر أولاً ، بمثابة جس نبض حتى تشرع فى تنفيذ مخططها نحوه ، طبقًا لمدى تجاوبه فى هذه المسألة . ومن ثم فقد راقبت تصرفات محمد على ، وأخذت تقف له بالمرصاد وتسعى لتأليب الدول الأوربية ضده ، بل والعمل على تحطيم طموحه وتجميد نشاطه الممثل فى سياسته التوسعية واحتكاراته التجارية ، فوجهت إليه فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٧٣م الكولونيل كامبل قنصلها العام فى مصر والدكتور جون بورنج لمقابلة الباشا والتحدث إليه فى هذا الشأن ، وطلبا من الباشا أن " يبادر على الفور بإبطال صيد الرقيق فى الجنوب من تلقاء نفسه قبل أن يطلبا ذلك منه بطريقة رسمية "(٧٩) وقدما مقترحات لوضع حد لهذه التجارة غير الإنسانية . واقترحت البعثة الامتناع عن دفع رواتب الموظفين والضباط والجنود رقيقًا ، الأمر الذى سيؤدى إلى توقف حملات الحكومة لصيده . كذلك منع الموظفين والمسؤولين فى السودان من الاشتراك فى هذه التجارة . وتخفيف حدة الاحتكار الحكومى فى المواد الأخرى ، وإطلاق حرية التجارة فى الجنوب(٨٠) وبالرغم من عدم إقتناع محمد على بإبطال تجارة الرقيق(٨١) ، إلا أنه اضطر تحت ضغط بريطانيا بوعد الرسولين بالعمل فى خطوات وئيدة لإلغائها، إذ أنه لا يمكن القضاء عليها قضاء مبرما مرة واحدة(٨٢).

ولم تغب عن محمد على مغزى هذه المقابلة وما تنطوى عليها من أبعاد ، لذلك كان رده عليهما حاسمًا وقاطعًا ، حيث قال " إنه لم يكن متأخرًا لدى أى من الجنود مبلغ يوازى ثمن عبد "(٨٣) وأنه يعرف أن ضباطه يتاجرون فى الرقيق ، وهو أمر لا يوافق عليه ، لأنه يكره هذه التجارة ويعتبر نفسه سعيدًا إذا تمكن من إلغائها(٨٤) . ثم بادر بالكتابة إلى خورشيد باشا " حكمدار السودان نفسه " فى

مساء اليوم نفسه(٨٥) الذى تمت فيه المقابلة بينه وبين يونج وكاميل يأمره بإبطال هذه التجارة أى تجارة الرقيق . وجاء فى الرسالة التى وجهها إلى خورشيد باشا بتاريخ أول ديسمبر عام ١٨٣٧م " إذا كان هذا الأمر صحيحًا ، فليكن معلومًا لديكم أنه مخالف لرغباتى ، ولهذا أمركم أن تكفوا فى المستقبل عن إعطاء العبيد إلى الضباط والجنود وغيرهم من الموظفين لقاء مرتباتهم " . ولعل الباشا قد ضحى كل هذه التضحية حرصًا منه على حسن العلاقات مع إنجلترا ، إذ قال لخورشيد : " ... ولما كان واضحًا استهجان هذا النظام لدى الدول المشار إليها ، فقد وجب إلغاؤه مراعاة لما استحكم بيننا وبين هذه الدولة من روابط الصداقة المتينة "(٨٦) وأضاف قائلاً " ... يجب عليك أن تعلم أنى لا أريد ربحًا من تجارة لا تشرفنى ، وإنى على استعداد لبذل كل تضحية إذا تطلب إلغاء هذه التجارة تضحيات منى " وأرسل صورة من تلك الرسالة إلى الكولونيل كامبل ليعلمه بذلك . وأرى أن إفادة كامبل بتلك الرسالة ، كانت بمثابة قطع خط الرجعة على الحكومة الإنجليزية ، ودليلاً على أن محمد على لم يعد يتاجر فى الرقيق ولا يرغب فى أن يتاجر فيه رجاله الممثلون له فى السودان ، وأنه ليس أقل من هؤلاء الأوربيين الذين ينادون بتحريم الرق ، إن لم يكن أكثر منهم وعيًا وحكمة بخصوص هذه القضية .

وفى أثناء زيارة محمد على للسودان فى ٤ ديسمبر ١٨٣٨م إتخذ بعض الخطوات حيث أصدر وهو بالخرطوم " الأوامر الرسمية بإبطال صيد الرقيق ، وأذاع المنشورات بين الأهالى والجلا بين يوضح لهم جميعًا أن الجيش والمدفعية التى تتقدم فى بلادهم لا تحمل إلى قراهم وأكواخهم سوى السلام والسكينة "(٨٧) .

كذلك أصدر تعليماته بتحريم الحملات ومنع دفع الرواتب من الرقيق . وأرسلت صورة من هذه الأوامر إلى قواد الجيش ليتوقفوا عن جمعه . وفى يناير سنة ١٨٣٩م أطلق الباشا سراح خمسمائة من الزنوج الأرقاء وتم إرسالهم إلى بلادهم . وصدرت الأوامر بأن تختصر الغزوات على إخضاع الخارجين عن

سلطان الحكومة وتأديب العصاة فقط وأن لا يتعرض الجنود إطلاقًا لأسر الرقيق(٨٨) .

ولا يعنى هذا أن خطر تجارة الرقيق قد قل بل إنها فى الواقع اشتدت وإتسع نطاقها بعد فتح النيل الأبيض للملاحة على أثر رحلات سليم قبودان ، إذ زاد عدد التجار المشتغلين بها وتوغلت حملاتهم جنوبًا فى مناطق الرقيق ، كما أن الحكمداريين أنفسهم استمروا - بالرغم من أوامر محمد على بإيقاف الغزو - فى إرسال الغزوات لاصطياد الرقيق ، إما لحسابهم الخاص أو لسد نفقات الحكومة والإدارة فى السودان(٨٩) .

والواقع أن منع تجارة الرقيق والقضاء على هذه المشكلة لم يكن أمرًا سهلاً يتم عن طريق إصدار الأوامر والمنشورات . فالرقيق فى السودان كما صرح بورنج، يكوّن جزءًا من النظم الاجتماعية والاقتصادية كنسيج متشابك فى كل من السودان ومصر ، بحيث أصبح الأمر يحتاج إلى تحركات كبيرة للقضاء على تجارته أكبر من تلك المنشورات التى أصدرها محمد على(٩٠) لذلك نرى أن تدخل بريطانيا ، كان من باب الوقوف فى وجه محمد على والحد من سياسته التوسعية واحتكاراته التجارية(٩١) . وكانت خطة محمد على أن يتم إلغاء تجارة الرقيق رويدًا رويدًا ، حيث أن هذا هو الطريق الوحيد الذى يمكن بفضله - كما قال - الوصول إلى هذه الغاية المنشودة . والسبب فى ذلك هو أن ما ألفه شعبه من عادات وما درج عليه فى هذه الأمور ، من شأنه أن يضع عقبات كثيرة فى سبيلة من العسير تذليلها إذا هو اعتزام إلغاء تجارة الرقيق دفعة واحدة(٩٢) .

وكان من أثر الإجراءات التى إتخذها محمد على إبطال الرق وتجارته فى السودان أن أوفدت جمعية إلغاء الرق بلندن " ريتشارد مادن " إلى مصر فى عام ١٨٤٠م ، يحمل إلى محمد على شكر الجمعية وإرتياحها لما أصدره من أوامر أبان زيارته للسودان ، فقابل مادن وبصحبته القنصل الإنجليزى Hodges هودجس محمد

علي . وفى أثناء المقابلة قال محمد على " يعظم سرورى إذ ألغيت الرق إلغاء تامًا ، ولكن من الواجب على الإنسان أن يهيئ للشعب قبل ذلك وسائل التربية والتعليم، لأن مسألة الرق فى هذه البلاد من أشق المسائل وأشدها صعوبة على خلاف الحال فى بلادكم ... ذلك أن الناس إعتادوا أن يستخدموا الرقيق لدرجة أنه إذا امتنع وجود الرقيق بالأسواق ، بادروا بالشكوى ، على نحو ما فعلوا سابقًا عندما منعت جنودى من تسيير الغزوات لصيد الرقيق فى سنار ، ومن العسير على الإنسان أن يجعل من هؤلاء السود شعبًا متمدنًا فى بلاده وأن يعودهم العيش وفق أساليب الحياة التى نأخذ بها . لقد حاولت أن أصنع منهم جنودًا منذ سنوات مضت ، ولكنهم صاروا يموتون فى مصر وفى غيرها من الجهات التى أرسلوا إليها . ولم يبق منهم لدى سوى ثلاثمائة أو أربعمائة فحسب . وفضلاً عن ذلك فإنى لا أسمح لشعبى بأن يجهز الحملات لصيد الرقيق وجلب عبيد آخرين(٩٣) .

وهكذا مضى محمد على فى طريقه للتخلص من نظام الرق فى السودان ، ولكن ليس بالطريقة التى أرادها الأوربيون ، فكانت خطته تختلف عن خطط تلك الدول . فبينما كان يعمل على النهوض بالسودان ، كانت الدول الأوربية ، خاصة بريطانيا كما أثبتت الأحداث ، تتخذ من مسألة القضاء ستارًا للتدخل والإستعمار، كما حدث فى تدخل بريطانيا فى شئون سلطان زنجبار ، وتدخلها فى شئون الجهات الخاضعة للإدارة المصرية فى السيطرة على الملاحة فى البحر الأحمر بحجة تفتيش السفن التى تشتبه فى أنها تنقل الرقيق(٩٤) .

وعلى هذا ، إذا كانت تلك هى أغراض إنجلترا من محاربة تجارة الرقيق ، فإن محمد على إتخذ من تلك المسألة وسيلة يغير من تركيبة المجتمع السودانى أولاً ، وأن يعطيه الفرصة ليكيف نفسه مع الزمن لهذا الإجراء ، على أن يترك المشكلة لتحل نفسها بنفسها ، بما يدخله على المجتمع من تغير فى سلوكه اليومى عن طريق البدائل التى أوجدها هناك .

وتشير الوثائق الأصلية ، إلى أنه بعد فشل تجربة استخدام الرقيق ، لم يتشدد محمد على مع حكام السودان فى طلبهم ، بل رأى أن تضاعف الجهود للنهوض بالسودان . ولعل فى تعليماته لخورشيد باشا ، ما يدل على ذلك ، إذ ذكر له فى قرار التعيين ، أن المطلوب منه هو تعمير الأراضى فى سنار وما حولها ورفاهية سكانها وراحتهم . وأرسل له ثمانية من كبار العلماء ومائة وأربعين مساعدًا له فى تعمير البلاد وتقدمها ، وأمره بأن ينفذ ما يراه صالحًا للسكان ، دون الرجوع إليه إلا فى المسائل الهامة(٩٥) .

والواقع أنه عندما استقرت الأوضاع فى السودان ونظمت شئونه لم يأل محمد على جهدًا فى سبيل نهضته المادية ، تمامًا كما فعل بالنسبة لمصر فكان يرسل أوامره من حين لآخر بضرورة تنظيم الأوامر واستغلال موارد البلاد الطبيعية ، وإنزال العقاب بأى مسئول يتهاون فى أداء عمله(٩٦) .

لذلك يمكن القول أن الإدارة المصرية فى السودان نجحت إلى حد كبير فى تنفيذ أوامر حاكم مصر ، وأوجدت الكثير من البدائل لتغير نمط المجتمع السودانى(٩٧) . هذا وقد شملت خطة النهوض بالبلاد كل المجالات ، حتى تكون الدفعة بالمجتمع إلى التقدم متوازنة ، ولا يحدث خلل فى زاوية منها ، وبذلك تتمكن الإدارة من المحافظة على عدم إنهيار المجتمع من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والأمنية . وقد شهد على استتباب الأمن ، العلماء والرحالة الأجانب الذين زاروا السودان فى عهد محمد على ، أمثال هوسنكس وهولوريد وبالم والمستر كامبل وغيرهم من الجنسيات الأوربية ، الذين أشادوا باستقرار الأمن ، ونشر ألوية الحضارة فى ربوع السودان(٩٨) .

وقد ترتب على استتاب الأمن فى السودان ، تغيرات اجتماعية وسياسية ، لعل أهمها استقرار الفرد السودانى بجوار عمله فى المزرعة أو المصنع . وهذا أدى

بدوره إلى التقليل من ترحالهم الذى كانت تشوبة فى بعض الأحيـان ، الكثـير مـن الأنشطة التجارية غير المشروعة .

ولم تقتصر جهود محمد على على الحد من تجارة الرقيق ، بل كـانت خطتـه تستهدف تغيـير التركيـة الاجتماعيـة ، وذلـك بفتـح الـورش والمعـامل الصناعيـة وتدريب السودانيين فيها على الصناعات المختلفة ، التى أمـر محمـد علـى بإدخالهـا هناك ، ليتمكن السودانيون من الاعتماد على أنفسهم(٩٩) .

وكان أن أخذت الأنظار تتجه إلى الإستفادة من موارد البلاد وتحويلهـا إلى سلع وصناعات يستفاد بها ، بعد أن كانت - كمادة خـام - ترمـى علـى الأرض وتضيع هباء منثورًا . وبذلك يستفيد السـودانيون ماديًـا لرفـع مسـتواهم المعيشـى ويتعلمون بعض الحرف الصناعيـة الجديـدة لتمتـص جـزءًا آخـر مـن وقتهـم الـذى كانت تشغله التجارة المشروعة وغير المشروعة ، وتجذب البعض الآخر منهم لكونه عملاً جديدًا - ومن ثم تتسع العمالة المثمرة . وبالتالى يقل الاعتماد على الرقيـق ، ويصبح أكثر تهيؤًا لتقبل التطورات الاقتصادية والسياسية التى تهدف إلى التخلـص من نظام الرق . لذلك أراد محمـد علـى أن يحـدث - إن جـاز لنـا ذلـك التعبـير - إنقلابًا صناعيًا فى السودان ، بالقياس إلى تلك الصناعة البدائية التى كـانت تقتصـر على إنتاج سلع بسيطة وضرورية تقوم على غلات نباتية ومنتجات حيوانية ، فـأمر بإرسال الخبراء والصناع المصريين وإعارة الفنيين من بعض الدول الأوربية ، لينشئ الصناعات فى السودان ، مثل ما حدث فى مصر لمضاعفة الدخل القومى فى تلـك البـلاد ، وليكـون بديـلاً - بصفـة خاصـة - عـن الأربـاح العـائدة مـن تجـارة الرقيـق(١٠٠) وكـان أن أقـامت الإدارة المصريـة ترسـانة ضخمـة فـى الخرطـوم ، وألتحق بها كثير من أبناء السودان للعمل والتعليم ، وكان من إنتاج تلـك الـورش - التى كانت بحق مركـزًا للتدريـب - العديـد مـن السـفن التـى اسـتخدمت فـى البعثـات الثـلاث لمهمـة البكباشـى المصـرى سـليم قبطـان الإستكشـافية فـى النيـل

الأبيض. كذلك أرسلت مصر النجارين والبنائين والغواصين إلى السودان لحفر الآبار وصناعة السواقى ، ليتعلم الأهالى تلك الصناعات من جهة ، ولتوفير المياه لزراعة الأرض ، وذلك لرفع المستوى الاقتصادى من جهة أخرى .

وأنشأت الإدارة المصرية هناك ، العديد من المراكز لدباغة الجلود ، وذلك للاستفادة من جلود الحيوانات ، وليتدرب الأهالى على تلك الصناعة الجديدة(١٠١) ومن ثم فإن الإدارة المصرية فى السودان ، لم تدخر وسعًا فى فتح الورش وإنشاء المصانع ، لتدريب السوادنيين وتعليمهم الحرف المهنية ، وتشجيعهم على الإقبال عليها بكافة السبل ، بجانب رواتب مالية لهم . لذلك استوعبت المصانع الجديدة، التى كثيرًا ما كانت تلحق بها الورش ، العديد من أبناء السودان، للعمل والتدريب فيها . واشتهرت بعض المدن كمراكز للصناعة ، مثل مدينة الكاملين على النيل الأزرق ، حيث وجدت مصانع الصابون والسكر والنيلة .

والواقع أن هذه جهود طيبة ، فكان محمد على ، يرى أن هذه الإجراءات تعتبر علاجًا فعالاً للمجتمع السودانى ، ليخلصه من نظام الرق المزمن فى البلاد . وكان هدفه من وراء ذلك،هو أن ينصب اهتمام الفرد السودانى علىالعمل المنتج ، بدلاً من الاعتماد على الرقيق،وأن يتعود على أن يعمل بنفسه ، وبذلك يقل الإقبال على شراء العبيد واقتنائهم لقلة الحاجة إليهم ، ويتم القضاء على الرقيق السودان .

لقد كانت هذه الخطة فى حد ذاتها ، خطة عظيمة وطيبة ، بدلاً من خطط الدول الأوربية ، التى تقوم على المنع القهرى لمحاربة التجارة فى الرقيق(١٠٢) هذا إلى أن جهود محمد على فى السودان ، خففت إلى حد كبير ، من انتشار تجارة الرقيق ، وإن لم يتمكن من القضاء عليها كلية ، نظرًا لقصر مدة حكم محمد على فى تلك البلاد ، بالقياس إلى تاريخ نظام الرق فى السودان الذى يعود إلى قرون عديدة سابقة . وبالإضافة إلى كل ذلك ، هناك عوامل أخرى ساعدت على استمرار تلك التجارة - وإن كانت بشكل ضعيف - ولعل أهمها ما يلى :

١ - عدم قدرة الحكومة على مراقبة التجار - من عرب وأجانب - لإتساع أرجاء السودان وكثرة نوافذه ، رغم مراقبة البحار وتفتيش السفن .

٢ - كان الهدف من فتح النيل الأبيض ، تسيير الملاحة الحرة وتشجيع التجارة مع الزنوج ، ولكن سرعان ما تحول التجار إلى ممارسة صيد الرقيق لأنه أكثر ربحًا.

٣ - بعض حكام السودان الجشعين ، لم ينفذوا أوامر محمد على الخاصة بتحريم تلك التجارة ، نظرًا لما تدره عليهم من فوائد شخصية .

٤ - تدخل رؤوس الأموال الأجنبية فى التجارة ، الأمر الذى ترتب عليه أن اتسع النشاط ، وبالتالى تنوعت الأساليب والأسلحة المستخدمة .

٥ - وجود بعض الأقاليم مثل دار فور ، لم تكن قد خضعت للحكم المصرى - بعد - استمرت من أهم وأكبر مستودعات الرقيق(١٠٣) .

ويعتبر عهد كل من عباس وسعيد مرحلة حاسمة فى تاريخ الرق وتجارته فى السودان ، إذ بلغت فى قوتها حدًا خطيرًا مكن تجاره من مزاولة نشاطهم على أوسع نطاق ، وأصبحت لهم تشيكلاتهم الخاصة التى استمدوا عن طريقها نفوذًا واسعًا وسيطرة كاملة . وقد تركز مسرح عملياتهم فى النيل الأبيض وروافد النيل العليا(١٠٤) وكان للنهج السياسى الذى صار عليه عباس صداه فى السودان . ولنجاح تجار العاج والرقيق - أوربيين وعرب - فى تحطيم احتكار التجارة فى النيل الأبيض وانتشارهم فى أعالى النيل تحت حماية أعلام دولهم ، أثره فى نمو هذه التجارة الشائنة(١٠٥) وكان أن إختار الوالى طريق الجمود والتزمت بعد محاولات الباب العالى الانتقاص من اختصاصات الوالى وسعى القناصل فى التدخل فى شئون حكومته . وكان كثير الشك فى كل من حوله إلى حد أنه عارض كل تغيير وتمسك بالوضع الرتيب فرضته إتفاقية لندن ١٨٤٠ - ١٨٤١(١٠٦) وانعكست هذه الحالة على السودان الذى لم يلق من الوالى أى اهتمام إلا بالقدر الذى يضمن

له استمرار استغلاله ، فى الوقت الذى أخذ القناصل يتمتعون كزملائهم فى القاهرة بنفوذ كبير. وقد أدى ذلك إلى تسرب الضعف للسلطة فى الخرطوم(١٠٧)، فى الوقت الذى أدى التدخل القنصلى إلى نمو تجارة الرقيق وازدهارها خصوصًا بعد أن نجحوا فى فتح النيل الأبيض للتجارة الحرة أمام تجارة العاج(١٠٨) وفى الوقت نفسه كانت السلطات الحاكمة غير مستعدة للتنازل عن ذلك المصدر الذى كان يدر دخلاً كبيرًا فى الماضى ويساهم فى تغطية نفقات الحكم فى السودان ، وخصوصًا أن الباشا نظر إلى السودان على أنه منحة يجب إستغلالها ، وضمان المحافظة عليها(١٠٩) وقد انتقلت هذه النظرة إلى حكام السودان الذين عملوا فى هذه الفترة على تحقيق ربح شخصى عاجل ، بعد أن نظر عباس إلى هذه البلاد على أنها منفى للمغضوب عليهم ولكل من يشك فى اخلاصهم . ولذلك عمل هؤلاء على استغلال موارد السودان أسوأ استغلال خصوصًا وأن خوف الباشا من استقلالهم كان يدفعه إلى تغييرهم بحيث تولى فى تلك الفترة من حكمه حوالى خمسة حكام ، هم خالد باشا ١٨٤٥ / ١٨٤٦م وعبد اللطيف باشا ١٨٤٦ / ١٨٥٢ ، ورستم باشا ١٨٥٢ ، وإسماعيل حاكى باشا ١٨٥٢ / ١٨٥٣ ، وإسماعيل باشا الجزايرلى ١٨٥٣ / ١٨٥٤(١١٠) لذلك كان على السودان أن يفى بهذه الالتزامات المالية سواء للخزينة المصرية أو لإشباع أطماع هؤلاء الحكام الذين تبعهم صغار الحكام فى الأقاليم بالإضافة إلى تحمله نفقات الحكم . وكان الرقيق يلعب دورًا كبيرًا فى مصادر الدخل فى السودان التى تمثلت فى الضرائب ورسوم احتكار التجارة وحملات صيد الرقيق(١١١) ففى تلك الفترة قاسى السودان إسرافًا كبيرًا فى فرض الضرائب إلى حد إبتزاز المال من الأشخاص ، حتى بلغت ستة جنيهات سنويًا على الفرد ، وأصبح الشيوخ ورؤساء القبائل(١١٢) مسئولين مسئولية مباشرة عن جمع الضرائب من مواطنيهم . كذلك فرض عليهم تقديم أعداد من الزنوج لتجنيدهم فى الجيش . وكثيرًا ما كان يفشل الرؤساء والشيوخ فى دفع التزاماتهم نظرًا لهروب المواطنين من الضرائب الباهظة إلى المناطق الجبلية ،

بعيدًا عن سلطة الحكومة . وكان ينظر إلى هذه العجز على أنه تمـرد(١١٣) ، ومـن ثم يرسل الحكام حملاتهم لغرض ظـاهرى هـو القضـاء علـى هـذا التمـرد وتـأديب هؤلاء الرؤساء ، وفى الحقيقة لاصطياد الرقيق ومصادرة الماشية ، الأمر الذى كـان يدر أرباحًا كبيرة للحكام(١١٤) كذلك فقد أقلع عباس عن سياسة حريـة التجـارة التى كان قد سمح بها فى بداية حكمه عام ١٨٥٠م فى محاولة لزيادة الدخل وعـاد إلى تطبيق الاحتكار الذى رحـب بـه الحكـام وتطرفـوا فـى تطبيقـه تحقيقًـا لأربـاح شخصية . وتحت هذه الظروف أصبحت التجارة فى الرقيق أوفر ممـا كـانت عليـه فى عهد جده محمد على(١١٥) .

وفى عام ١٨٥٤م كان العاج يمثل الباعث الأكـبر الـذى جـذب التجـار إلى الخرطوم ، حيث كافحوا بنجاح للمحافظة على حرية التجارة فى النيـل الأبيـض . وفى نفس الوقت بدأت تجارة الرقيق تخيم على هذه الأرض الجديدة(١١٦) بحيث لم يكد ينتهى عام ١٨٥٤م حتى كان تجار العاج قد تحول الكثير منهم إلى تجار رقيق. ولتفصيل ذلك نقول أنه حدث بعد فتح النيل الأبيض للملاحـة والتجـارة أن وجـد تجار الخرطوم فى العاج حقلاً كبيرًا صالحًا لهذه التجارة ، ووجدوا فى صيـد الفيلـة فى مناطق النيل الأبيض وبحر الغزال والسوباط عمـلاً مربحًـا . وقـد أغـرى التجـار الأثمان المرتفعة للعاج لتنظيم رحلات لصيد لفيلة ، وكان طبيعيًا مـع مـرور الوقـت أن يتناقص عدد الفيلة وبالتالى يتناقص احتياطى الثروة فى هذه الجهات . ولم يكـن فى استطاعة التجار أن يتحملـوا فـى المستقبل النفقـات الكبـيرة لهـذه الرحـلات . ولكى يتحاشى التجار هذه الخسائر لجأوا إلى الأشتغال بالرق(١١٧) ، وذلـك عـن طريق السماح لعملائهم بأن يصطادوا الرقيق كجزء من رواتبهـم . وكـان الرقيـق يجد طريقة للخرطوم بدون عائق(١١٨) . وعنمـا نـدر العـاج وجـد تجاره أنـه مـن الأربح لهم اصطياد الرقيق بدلاً من اصطياد الفيلة ، وهكذا صـار واضحًـا أنـه منـذ عام ١٨٥٥م اندفع صيادو الرقيق فى شراسة نحو الغزال والنيل الأبيض(١١٩) .

وكان تجار الرقيق قادرين على الحصول على تأييد ومساعدة القناصل الأوربيين الذين لم ينجوا من الشبهات(١٢٠) ، حتى إن هذه التهم وجهت إلى رجال مثل جون بيترك القنصل البريطاني . وكلما ازداد نشاط تجار الرقيق كانت السلطات فى الخرطوم تعانى نقصًا فى السلطة والنفوذ ، حتى أصبح نفوذهم فى نهاية هذه الفترة وعند وفاة عباس لا يتعدى سلطة الخرطوم ومدينة الرصيرص على النيل الأزرق وتشلجة(١٢١) ، أما ما وراء ذلك من بلاد فكانت خارجة عن السلطة . وكان المواطنون متحررين من سلطة الحكومة . وفى نفس الوقت شعر الحكام فى المناطق البعيدة مثل منطقة كردفان بحرية التصرف والعمل دون تدخل من جانب السلطة فى الخرطوم .

وعندما تولى سعيد باشا الحكم بعد عباس اصدر سنة ١٨٥٦م منشورًا لتحرير الرق ومنحهم حريتهم كاملة فى مصر ، مع توفير العمل لمن يترك خدمة أسياده(١٢٢) . وفى محاولة لإيقاف إمدادات الرق من السودان أصدر أوامره بتعيين أخيه حلمى باشا حاكمًا على السودان ، وعهد إليه القيام بالاصلاحات التى تحقق مصلحة السودانيين ، والقضاء على أسباب الشكوى والتذمر(١٢٣) . وصدرت التعليمات بأن يرسل حاميات للقيام بدوريات منتظمة فى النيل الأبيض . وقد قام حلمى باشا بإنشاء سلسلة من المحطات العسكرية(١٢٤) التى توغلت جنوبًا حتى التقاء السوباط بالنيل الأبيض . وكانت هذه المحطات ذات غرض مزدوج فهى تحمى التجار من هجمات الزنوج وكذلك تشرف على أوجه نشاطهم فى الأقاليم البعيدة(١٢٥) .

كذلك ألغى احتكار التجارة فى محاولة لتشجيع التجارة المشروعة ، وألغى الضرائب التى كانت تفرض على المشتريات من السودان(١٢٦) ، وبذلت محاولات لتحسين وسائل المواصلات فى السودان . وفى نهاية سنة ١٨٥٦م ، قرر سعيد زيارة السودان . وقد تعددت الأسباب وراء هذه الزيارة ، من بينها محاولة حل

مشكلة الرقيق التى كانت تقلقه ، لا سيما بعد أن وافقت تركيا بعد مساعى بريطانيا على منع هذه التجارة فى ممتلكاتها ، وأبدى الباب العالى رغبته فى أن يرى الوالى وقد نجح فى استئصال هذه التجارة فى ممتلكاته . بذلك تلاقت وجهات نظر سعيد مع الباب العالى فى وضع حد لهذه التجارة .

وفى الخرطوم أصدر سعيد أوامره بمنع الاتجار فى الرقيق ، وكذلك إيقاف رواتب الجند والموظفين بالرقيق مهما كانت الأحوال ، وحرم تقديم الرقيق كجزء من الضرائب . وفى ٢٧ يناير سنة ١٨٥٧م أصدر أربع منشورات تتعلق كلها بتنظيم وجباته الضرائب . وتوقفت حملات الحكومة الصيادة للرقيق إلا فى أقصى حالات الضرورة التى تحتمها امتناع الأهالى عن دفع الضرائب وتكون الحكومة مضطرة لذلك(١٢٧) .

ولكن هذه الثورة من القرارات والمنشورات لم تؤد إلى نتيجة ، وعادت تجارة الرقيق وازدادت عملياتها واشترك المسؤلون فى ذلك . ويعتبر سعيد المسؤول عن فشل هذه الاصلاحات إذ أضفى على جمع الرقيق صفة رسمية عندما كون حرسًا خاصًا من الزنوج فى سنة ١٨٥٩م . وطبقًا لذلك أرسل لحكامه فى السودان يطلب الرقيق ، وبالتالى عادت طلبات استيراد الرقيق مرة ثانية . وتحرك تجار مصر والجلابة وإتخذوا التنظيمات مع تجار العاج لإرسال هؤلاء الزنوج طبقًا لطلبات الباشا(١٢٨) ، ونتيجة لذلك أصبح هناك حافز قوى لمزاولة اصطياد الرقيق من مناطق النيل الأبيض وأعالى النيل ، وهكذا زال آخر قيد رسمى على مزاولة نشاطهم من قبل الباشا نفسه . وكان أن عادت الحكومة ترسل حملاتها لصيد الرقيق والتعامل به فى دفع رواتب الجند والموظفين وتحقيق الربح لهم ، وكذلك إرغام الرؤساء على تقديم أعداد منه كضريبة(١٢٩) . وكما حدث فى عهد عباس أدت تجارة العاج إلى مزاولة صيد الرقيق حتى إذا انتهت هذه الفترة كان تجار العاج قد تحولوا إلى تجار للرقيق . ومن هاجر من هذه المناطق باع منشآته لتجار الرقيق الذين إحتلوا تلك المناطق الشاسعة التى كانت مسرحًا لعمليات صيد الفيلة والبحث عن العاج(١٣٠) .

* * *

ولكى تتضح مدى الصلة بين تجارة العاج والرقيق وكيف مهدت هذه التجارة واسعة النطاق لتجار الرقيق صار من الأفضل أن أتناول هذا الموضوع فى هذه الفترة بشئ من التفصيل حتى تتضح معالم المشكلة التى واجهت إسماعيل باشا فيما بعد .

أخذ التجار فى تكوين شركات تجارية للتجارة فى النيل الأبيض وأعالى النيل . وكانت هذه الشركات تساوم السلطات فى الخرطوم للحصول على حق التجارة فى منطقة معينة(١٣١) . وإذا ما حصلت على هذا الحق أصبحت تحتكر مصادر الثروة فى هذه المنطقة وتستغلها بما يحقق لها أكبر قدر من الربح دون تدخل من سلطات الخرطوم . وامتدت هذه الحقوق حتى شملت أصقاعًا شاسعة جنوبى دار فور وفى كردفان وعلى طول النيل الأبيض حتى غندو كرو . وتقوم هذه الشركات بإرسال وكلائها لاستغلال هذه المناطق(١٣٢) وقد بدأت هذه التجارة هادئة وبالطرق السليمة مع الأهالى ولكن سرعان ما تخلى التجار عن هذه الطرق ولجأوا إلى استخدام القوة للحصول على ربح سريع(١٣٣) . وقد أدى ذلك إلى تكوين جماعات مسلحة تابعة لهم ونقط عسكرية تعتبر بمثابة مستودعات للمؤن والذخائر وتجمعات لبضاعتهم ، مما عاد عليهم بالأرباح الهائلة(١٣٤) .

وأدى هذا النجاح إلى احتلال مناطق فسيحة شملت عدة آلاف من الأميال المربعة . وهذه المساحات فرض عليها تجار العاج والرقيق حمايتهم عن طريق عدد من الزرائب الرئيسية التى كان يتبعها عدد أصغر منها . وقد سيطر على هذه الجهات ما يقرب من ستة شركات كبيرة وبلغت عدد الزرائب أكثر من ثمانين زريبة ، يسيطر عليها حوالى اثنى عشر من كبار التجار وأتباعهم من القواد(١٣٥). وأدى ذلك إلى خروج كل حوض النيل وأجزاء النيل العليا من سلطة الخرطوم . ونستطيع أن نقول أن هذه الفترة قد أفضت إلى حقيقتين :

الأولى : تمتع تجار الرقيق بنفوذ وسلطة لم يصلوا إليها قبل ذلك فى السودان بحيث أصبحوا فى مناطق نفوذهم كحكام .

الثانية : أن إخضاع هؤلاء التجار واستئصال شأفة هذه التجارة من السودان صار يتطلب فتح جديد لهذه الأقاليم . وهذه الوسيلة فرضت نفسها على إسماعيل دون أن يكون هناك مجال لاختيار غيرها . وأتفقت كلمة المعاصرين على أن حكومة مصر وحدها هى التى تستطيع أن تفعل ذلك ويقتضيها الواجب أن تدخل فى حوذتها جهات النيل العليا وتبسط عليها سلطاتها . ووقع عبء ذلك كله على عاتق إسماعيل باشا . والواقع أن تولية إسماعيل حاكمًا على مصر يعتبر بداية جديدة فى تاريخ السودان ، ففى أثناء حكمه إتخذت خطوات حاسمة لمحاربة تجار الرقيق والقضاء عليهم . وقد سلطت الأضواء على هذه المشكلة فى السودان من قبل الرحالة أمثال " سبيك وجرانت " بولوجنس " و" هوجلين " الذين جابوا هذه البلاد فى نهاية حكم سعيد والسنوات الأولى من حكم إسماعيل(١٣٦) .

فعن طريق كتابات هؤلاء الرحالة والمستكشفين نستطيع أن نكشف النقاب عن قصة الأعمال الوحشية التى ارتكبت ضد قبائل هذه الجهات على أيدى هؤلاء التجار الذين زاولوا سلطاتهم ونفوذهم من عدد من الزرائب التى أصبحت قلاعًا لتجار الرقيق والتى أجبر الأهالى على إنشائها وأرغموا على تزويدها بما تحتاجه من حبوب وماشيه . وعن طريقها استطاع هؤلاء التجار أن يحكموا مساحات شاسعة من هذه الأقاليم من أعالى النيل ، والتى لم تظهر فيها أية سلطة لحكومة الخرطوم(١٣٧) ، حتى أن حامياتها الموجودة عند إلتقاء النيل الأبيض والسوباط والتى كان عليها القيام بدوريات تفتيشية أصبحت لا أثر لوجودها(١٣٨) .

وقد قدمت كتاباتهم وتقاريرهم صورة واضحة لما كان يجرى فى مناطق بحر الغزال والسوباط ومنطقة البحيرات الإستوائية من أعمال ، بحيث أصبح العالم

الخارجى على علم بهذه المأساة ، كما قدموا مقترحاتهم للقضاء على هذا الشر. وقد أكدوا جميعًا ضرورة تقوية قوات الحكومة المرابطة عند إلتقاء النيل الأبيض والسوباط حتى يمكن أن تقوم بدوريات تفتيشية ناجحة الأثر . وإذا أريد القضاء على قوة هؤلاء التجار فى غندو كرو فلا بد من وجود قوة قوية فى بحر الجبل . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن لمفرزة من القوات المصرية تتكون من أربعمائة جندى أن تفرض سيطرة الحكومة على منطقة بحر الغزال إذ أصبح من الضرورى أن تمتد سلطة الحكومة إلى هذه المناطق ، وأن تفتح إقليم البحيرات الإستوائية للتجارة المشروعة مع العالم الخارجى ، حتى تكون إجراءاتها ذات فاعلية فى محاربة هذه التجارة(١٣٩) . وفى ضوء هذه الإقتراحات بدأ إسماعيل فى تنفيذ مخططه للقضاء على هذا الشر واستئصاله من السودان(١٤٠) ، فى الوقت الذى تعرض لاتهامات من الصحف الأوربية التى اتهمته بالرغبة التوسعية ومحاولة فرض سيطرته على كل حوض النيل وتكوين إمبراطورية له(١٤١) .

وقد بدأ إسماعيل فى معالجة هذه المشكلة حتى سنة ١٨٧٩م دون أن يلجأ إلى عمليات حربية مع تجار الرقيق ، إذ رأى أن نظام الرق قد تغلغل فى المجتمعات القبلية فى أفريقية . وكان الرقيق يعاملون معاملة حسنة من قبل أسيادهم ، فضلاً عن أن النظم السائدة بين سادة هذه المناطق مكنت تجار الرقيق من أن يزاولوا حرفتهم على أوسع نطاق دون أى عائق(١٤٢) ، حيث أضفوا على هذا النظام صورته البشعة ، إذ اعتمدت تجارته على حرق القرى وقنص الرجال والنساء والأطفال وإثارة الحروب بين القبائل . وبعد رحلة قاسية عبر مئات الأميال يتعرض فيها الرقيق لعوامل الموت يصل إلى الأسواق لبيعه .

وقواد هذه المأساة الذين أصبحوا مصدر خطر على السودان كانوا هدف إسماعيل فى حربه السافرة فى الفترة التى تلت سنة ١٨٧٠م(١٤٣) . ذلك إن إسماعيل اعتقد أن نظام الرق يجب أن ينتهى ويتوقف بين الأهالى ، حتى يمكن أن

يضع نهاية لهذه الأعمال فى تلك الجهات . وفى رأى إسماعيل أن هذه الخطوات لا تتم إلا بتطهير النيل الأبيض ووضع نظام دقيق للإشراف على الملاحة ، وكذلك بفتح مناطق النيل العليا وبحر الغزال للتجارة المشروعة ، وإدخال المدنية والحضارة فى هذه الجهات(١٤٤) .

وقد إتخذت خطوات فعالة لتحقيق المرحلة الأولى من مخطط إسماعيل ، عن طريق دوريات تجوب النيل الأبيض حتى يمكن أن تشل حركة نقل الرقيق . وأصرت السلطات المسؤلة على تفتيش جميع المراكب التى تستخدم هذا النهر ومصادرة رقيقها وحجز رجالها ، حتى يتقرر مصير المراكب ورجالها بتعليمات محددة وصريحة من القاهرة بينما يخلى سبيل الرقيق ويطلق سراحه .

كذلك تمسكت الحكومة ضمن خطتها بالإشراف الدقيق على تصدير الأسلحة والذخائر إلى السودان(١٤٥) ، لحساب تجار الرقيق ، الأمر الذى هدد سلطة الخرطوم . وزيادة على ذلك فقد تطلعت الحكومة إلى وضع حد لسوء استخدام القناصل للإمتيازات الممنوحة لهم ، الأمر الذى دفع إسماعيل إلى مطالبته ممثلى الدول التعاون مع الحكومة المصرية بالتخلى عن حمايتها للتجار ، حتى تستطيع الحكومة المصرية القضاء على تجارة الرقيق فى ممتلكات الباشا التى أصبحت مهددة بنفوذ هؤلاء التجار(١٤٦) .

وكان أن صدرت التعليمات إلى موسى حمدى حكمدار السودان برغبة الباشا فى القضاء على هذه التجارة " إرادة كريمة إلى حكمدار السودان ... إن مبيع وشراء العبيد الذين صار جلبهم من السودان ودارفور صار منعه من طرفنا كليًا . وقد صدر أمر من طرفنا فى هذا التاريخ إلى المالية وإلى مدير جرجا وأسيوط وأسوان فى خصوص عدم إعطاء الرخصة للجلابين المارين عليهم بالأسرى إلى مصر . فحين تصير هذه الممنوعية معلومكم يلزم الدقة والإعتناء التام فى منع مبيع ومشرى الجوارى والعبيد ببلاد السودان سرًا وجهرًا . وإذا وجد جلابين بيدهم

أسرى وقاصدين الجلب إلى مصر يصير حصرهم وإرجاعهم إلى محلهم فتستمر هذه الممنوعية على الدوام بحيث لا يرد أسرى إلى مصر ذكورًا وإناثًا من بعد هذا كليًا ومجازاة من يخالف هذه الإدارة فى حكمداريتكم "(١٤٧) .

وفى مايو ١٨٦٣م أعلن موسى حمدى عن سياسته بالقبض على عدد من القوارب التى تتعامل فى الرقيق عند وصولها الخرطوم من أعالى النيل ، وكان هذا من الإجراءات الشديدة فى ذلك العام ، ثم مصادرة حمولة سبعة مراكب تحمل الرقيق فيما بين " كاكا " و" فاشودة " على النيل الأبيض(١٤٨) . ومنذ ذلك الوقت أخذت السلطات فى الخرطوم تتخذ الخطوات التى تضمن لها سيطرة تامة على النهر كله . وفى نفس العام أرسلت حامية من الخرطوم إلى النيل الأبيض من أجل مراقبة قوارب تجار الرقيق . وفى " كاكا " عسكرت قوة أخرى مكونة من ألف رجل على النيل الأبيض عند فاشودة التى أصبحت مقرًا لمديرية النيل الأبيض. وكذلك أنشئت مراكز أخرى على النيل الأبيض لمراقبة القوارب التى تجوب النيل . ولتدعيم الرقابة أرسلت أربع بواخر من القاهرة إلى الخرطوم للمساعدة فى القبض على تجار الرقيق . وقد عهد لاثنين منها بالقيام بالدوريات فى النيل الأبيض . كذلك أرسلت بعض القوات لتدعيم سلطة الحكومة فى غندكرو(١٤٩) .

و لم يكتف موسى حمدى بهذه الإجراءات إذ أصدر فى نهاية ١٨٦٣م عدة لوائح تهدف إلى منع تجارة الرقيق فى النيل الأبيض . وهذه اللوائح اشتملت على شريحة من الضرائب عرفت باسم " الوركو " فقد فرض ضرائب تتراوح بين مائة ومائتين قرشًا على كل العاملين لحساب الرقيق فى النيل الأبيض سنويًا . و لم يسمح لأى سفينة بأن تغادر الخرطوم إلا بعد أن تحصل على تأشيرة من ديوان الوركو ، وتقوم بتسديد ما عليها . كذلك طلب من القناصل منح السلطات الحق فى تفتيش القوارب التى يملكها التجار الأجانب ، وأصبح فى حكم المقرر أن التجار فى الخرطوم مسئولين ويتحملون نتائج أعمال ممثليهم فى النهر .

وقد قوبلت هذه الإجراءات باستياء من التجار واعتبرت الضرائب مرهقة ، فالرجال يعملون نصف العام لذلك لا يقدرون القيام بدفع هذه اضرائب مما يكسبونه ، ونتيجة لذلك تحمل اسيادهم هذه الضرائب . كذلك اعتبروا أن الهدف من هذه الضرائب هو تدمير تجارتهم وأتهموا سلطات الخرطوم بالرغبة فى العودة إلى احتكار التجارة . واعتقدوا أن الحاكم العام يرغب فوق ذلك فى طرد جميع الأوربيين من النيل الأبيض(١٥٠) . وقد أعلنوا سخطهم بأن إمتنع عدد كبير منهم عن الدفع . ولكن هذا لم يثن عزم موسى حمدى عن تنفيذ سياسته ، بينما صدع للأمر " دى بوبو " و" بونست " فى حين أصرّ على عناده " جون بارترك " وأعلن رفضه الخضوع لهذه الإجراءات ، وأظهر إحتجاجه عليها بأن ترك مراكبة وزرائبه ورجاله للحكومة وهدد بشكوى الحكومة المصرية ومطالبتها بالتعويض(١٥١) .

وفى الحقيقة فقد كان الوركو ضروريًا (أطلق على الديوان الذى أنشأه موسى ويشتمل على لوائح وشرائح ضريبية تحدد فئات الرسوم المفروضة على سفن ورجال الرقيق فى النيل الأبيض ويعطى التصريحات للسفن قبل إبحارها فى النيل الأبيض بما يفيد سدادها) لمحاربة تجارة الرقيق ، فقد تدخلت عدة عوامل مهمة جعلت مهمة الورديات المسلحة فى النيل الأبيض بعيدة عن النجاح إذ كان التجار يعلمون مقدمًا بتحركات سفن الحكومة ، وبالتالى يستطيعون تفريغ حمولاتهم من الرقيق وتهريبها على ضفاف النهر قبل مقابلتهم المسئولين . وبهذه الطريقة كان التجار يتفادون غالبًا إجراءات التفتيش(١٥٢) . ويضاف إلى ذلك أن تجار الرقيق أخذوا يبحثون عن حماية ممثلى الدول الأجنبية برفع أعلام دولهم على مراكبهم ، مما جعل الحكومة المصرية تشكو من نشاط التجار الأوربيين ، فضلاً عن أن الرشوة كانت تجد طريقها عند بعض الموظفين المسئولين .

هذه الأعمال جعلت مهمة دوريات النيل الأبيض تزداد صعوبة ، لذلك اعتبر الوركو وسيلة لتضييق الخناق على تجار الرقيق فى النيل الأبيض(١٥٣) .

وقد امتد تنفيذ هذه السياسة عبر النيل الأبيض فى مناطق النيل العليا ، إذ بدأت الحكومة بتنفيذ سياسة تهدف إلى تجريد التجار من زرائبهم فى بحر الجبل عن طريق فرض ضرائب جديدة على هذه الزرائب . وهذه الضرائب الجديدة مع ضرائب الوركو جعلت تجارتهم غير مربحة .

وفى أثناء حكمدارية صادق باشا تم تدعيم دوريات التفتيش وإتسع نفوذها واعتبرت فاشودة مركزًا حكوميًا . وأرسلت حملة مكونة من ألف رجل لإحتلالها بصفة دائمة . وقد أدى تأسيس هذه المحطة وتدعيمها إلى إغلاق النيل الأبيض فى وجه تجار الرقيق الوافدين من بحر الغزال والسوباط والنيل الأعلى . وكانت نتيجة هذه الإجراءات التى استهل بها موسى حمدى حكمه ، ثم استمر فى تنفيذها صادق باشا ، أن اضطر " دى بونو " إلى التخلى عن تجارته وبيع منشآته وزرائبه للحكومة بثمن زهيد وترك البلاد(١٥٤) .

وقد سار فى هذا الطريق أيضًا جعفر باشا الذى حكم بالقوة والشدة ، وحارب أولئك الذين اتهموا بالرشوة والفساد . وفى ولاية هذا الحاكم أعيد تنظيم الحكم فى السودان بعد أن ألحقت بممتلكات الباشا مصوع وسواكن . وقد استمر مظهر باشا فى تنفيذ سياسة تجريد تجار الرقيق من زرائبهم بعد أن تلقى تعليمات من إسماعيل صريحة لتحقيق هذه الغرض . ذلك أنه طلب من مظهر باشا أن ، يبذل محاولاته فى الإستيلاء على زرائب التجار فى بحر الغزال والنيل الأعلى فى مقابل تعويض عادل ، واعتبرت هذه السياسة استمرارًا لمحاربة تجارة الرقيق(١٥٥) . ويعتبر عام ١٨٦٩م من الأعوام الحاسمة فى تاريخ الرق ، إذ تقرر فيه ضم دارفور وبحر الغزال وفتح المديريات الإستوائية .

أما فى جبهة بحر الجبل وغندوكرو ، فقد أنيطت المهمة إلى سير صمويل بيكر بناء على نصيحة أمير ويلز " الذى أصبح فيما بعد ادوارد السابع "(١٥٦) .

وقد منحه الخديو إسماعيل سلطات مطلقة فى المناطق الواقعة إلى الجنوب من غندركرو حتى خط الإستواء ، وعهـد إليـه إدخـال الوسـائل المشـروعة ، وإنشـاء الملاحة فى البحيرات العظمى الإستوائية وإنشاء سلسلة من النقاط العسكرية يفصل بين كل منها مسيرة ثلاثـة أيـام ، وأن يعمـل علـى إبطـال صيـد الرقيـق أو الإتجـار فيه(١٥٧) .

وقد لقى تعيينه معارضة شديدة من السلطات الرسمية فى مصـر ، لأن الـرق كان من الأمور المعترف بشرعيتها ، فإبطال هذه التجـارة علـى يـد مسـيحى كـان كفيلاً بإثارة الشعور الدينى(١٥٨) ، فضلاً عن أنـه كـان بمثابـة تحـد وإعتـداء علـى حقوق رعايا الخديوى . وقد رأى بعضهـم أن المجتمع المصرى بدون رقيق يكـون - أشبه بالعربة بدون عجلات(١٥٩) .

وأعترض على ذلك التعيين أيضًا جعفر مظهـر حكمـدار عمـوم السـودان ، الذى طالب بأن يتولى ذلك العمل ضبـاط مصريـون ، وحـذر مـن الثقـة بالضبـاط الأجانب فى مثل هذه الحملات الهامة فى أفريقية(١٦٠) .

وكان سير صمويل بيكـر رجـلاً مغـرورًا تعـوزه اللياقـة والسياسـة وحسـن التصرف(١٦١) إذا صادف عصيانًا أو تحديًا ، لجأ إلى القوة والبطش حتى إلى حملـة عسكرية صغيرة .

واعترف غوردون - الذى خلف بيكر - بكراهية الأهـالى الشـديدة لسـلفه بيكر فقال (إن أكبر صعوبة هى استعادة ثقة الأهالى مـرة ثانيـة فقـد لقـوا معاملـة قاسية) وهنا وضع الدكتور هل Hill مجموعة مـن النقـط ، إذ لم يشـأ إن يكمـل عبارة غوردون ، ولكن لورد إلتون إطلع على هذه الوثيقة وأكملها هكذا : (ومن الغريب الكراهية الشديدة هناك لبيكر(١٦٢) . فإذا علمنا أن كتاب Hill نشر فـى سنة ١٨٨١م أدركنا السبب فى حذف هذه العبارة .

ويمكن تلخيص نتائج بيكر فى أنها استطاعت أن تقيم مراكز عسكرية بين غندكرو وفاتيكو ونويرة ، غير أنها فشلت فى تحقيق أهدافها الرئسية وهى إبطال حركة الرقيق ، وفتح البلاد للتجارة المشروعة وإنزال سفن فى بحيرة البرت وقد حققت نجاحًا كبيرًا فى إثارة عداء الأهالى السود لحكومة الخديوى ، وإنشاء حلف بين الأهالى وتجار الرقيق(١٦٣) .

ولست أدرى ما إذا كان التفكير فى تعيين حكام من غير المصريين فى السودان بمثابة تأكيد لنوايا الخديوى وتسجيل لصدق عزيمته فى العمل على إبطال تجارة الرق ، ليفوت فى الوقت نفسه على أية دولة أوربية أن تتدخل فى هذه المناطق بحجة مكافحة الرق مدفوعة بعوامل إنسانية أو دينية ، أو أن الخديوى - من ناحية أخرى - كان قد دخل أو بدأ يدخل ، فى مرحلة الخضوع للضغط الأوربى ، فكانت نصيحة ولى عهد بريطانيا بمثابة إملاء . ومن الجائز أن الأوربيين، بدأوا منذ ذلك الوقت يتطلعون إلى حوض النيل ويملون إرادتهم ، واتخذ ذلك مظهر الإشتراك فى ترشيح أشخاص ، لأن إسماعيل لو كان قصير النظر فلا بد أن يدرك أن الحاكم الذى ينتمى لدولة عظمى لا يمكن أن يتجرد عن قوميته ، ولا يمكن أيضاً أن يخلص له إخلاصاً لا شائبة فيه أو يتخلى عن مصلحة بلاده فى إستعمار تلك المناطق . وليس فى ذلك مبالغة فالحوادث كلها تشير إلى ذلك ، إذ لما إقتضت الظروف إغلاق منافذ تصدير الرقيق على شواطئ البحر الأحمر أرسل الخديوى حملة إلى مصب نهر جوبا بقيادة ماليكوب باشا ، لكنها نزلت فى قسمايو جنوبى المصب ، ثم لم تلبث أن إنسحبت فى ديسمبر ١٨٧٥م إزاء احتجاج إنجلترا ، وإن كان الكثير يعزون فشل الحملة إلى إهمال غردون " المعتمد " تحت تأثر مصالح بلاده وإهماله التقدم من الداخل لمديد العون إلى المصريين على ساحل المحيط الهندى(١٦٤) .

وقد اعتذر غوردون بإنعدام كفاءة قواته غير النظامية . وكذلك أعترف لورد إلتون - وهو آخر من كتب عن غوردون - بأن ذلك الإهمال من جانبه

يرجح إن نزول المصريين على الساحل الشرقى أمر لن تحتمله الحكومة البريطانية(١٦٥) .

وهذا دليل آخر على أن غردون لم يتجرد عن قوميته يوماً .

وقد أثار تعيين غوردون خلفاً لبيكر غضب الدوائر الرسمية وغير الرسمية ، التى كانت ترى فى هذا التعيين لفتة من الخديوى بقصد الحصول على تأييد إنجلترا فى الأزمة المالية المستحكمة فى مصر . وأدعى البعض أنه كان من المنتظر أن يقوم غوردون بمراقبة إسماعيل باشا أيوب حكمدار الخرطوم الذى لم تكن نزاهته فوق مستوى الشبهات(١٦٦) .

هذه هى الآثار التى ترتبت على الفتح الحكومى لمناطق بحر الجبل على أيدى بيكر وغوردون . أما الجبهة الثانية التى إزدهرت فيها تجارة الرقيق ، فقد كانت فى بحر الغزال حيث انفرد بالسلطة الزبير رحمة(١٦٧) ، الذى تحدى سلطة الحكومة ، ورفض أن يسدد لها أية مبالغ عن زرائبه . وقد حاول مظهر باشا حكمدار السودان إضعاف نفوذه بتسليم إدارة بحر الغزال إلى منافس للزبير هو " كجك على " ولكن الزبير قاوم هذا المشروع بحيث لم يعد أمام الحكومة سوى الالتجاء إلى القوة ، فأعدت حملة بقيادة محمد البلالى للاستيلاء على سلطنة دار فور ، وهى أهم موطن للرقيق فى السودان الغربى ، على أن يتم ذلك بعد إخضاع الزبير فى بحر الغزال ، ولكن الحملة هزمت وقتل قائدها(١٦٨) .

وتعتبر هزيمة البلالى أول ضربة أصابت هيبة الحكومة الخديوية فى السودان . غير أن جعفر باشا مظهر لعب دوره بمهارة ، فحين بعث الزبير باحتجاجاته إلى حكومة الخرطوم ، أبلغه الحكمدار أنه أحيط علماً بذلك . وهكذا منع تحويل الصراع إلى حرب مكشوفه(١٦٩) .

وبدلاً من أن تقضى حملة البلالى على الزبير ، أدت إلى نتيجة عكسية ، وأصبح للزبير السيادة على بحر الغزال . غير أن الحوادث سرعان ما تطورت ، فإن

قبيلة الرزيقات " البقارة " نقضت إتفاقها مع الزبير وباتت تعتدى على التجار اللذين يمرون بديارها ، فاضطر إلى محاربتها ، فهزمها وأحتل شكل فى أغسطس ١٨٧٣ م . وخشى السلطان إبراهيم حاكم دارفور من ازدياد نفوذ الزبير ، فتعهد زعماء الرزيقات بحمايته ، فلم يعد أمام الزبير سوى مهاجمة دارفور ذاتها ، وعرض على الحكمدار إسماعيل أيوب إقليم بحر الغزال ، فصدر الأمر بتسميته مديراً على بحر الغزال في نوفمبر ١٨٧٣م . وأعقب ذلك أن زحف الزبير على دارفور من الجنوب ، وتقدم إسماعيل أيوب من الشرق ، وأوقع الزبير الهزيمة بالسلطان إبراهيم فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧٤م(١٧٠) .

وسرعان مادب النزاع بين الزبير وإسماعيل أيوب ، فتوجه الأول إلى مصر فى نوفمبر عام ١٨٧٥م وأستبقاه الخديوى بها .

وبذلك سيطرت مصر على مراكز تجارة الرقيق وصيده فى بحر الجبل وبحر الغزال ودارفور ، إلا أنه وضح إن إقليم يوغوص الواقع بين مصوع والتاكة ، يجد فيه الأحباش ميداناً لصيد الرقيق . وبالفعل أذن الخديوى لمنزنجو حاكم مصوع بدخول يوغوص فتم إحتلال كيرن ، وبعد ذلك تم إحتلال هرر فى الجنوب سنة ١٨٧٥م لسد المنافذ تماماً أمام تجارة الرقيق . على أنه كان من نتيجة ذلك تطويق الحبشة وإثارة شكوك النجاشى بعد أن أحاط المسلمون ببلاده من جميع الجهات . ونشبت حرب الحبشة فى الفترة من سنة ١٨٧٥م - ١٨٧٦م . وترتب عليها نتائج بالغة الخطورة بالنسبة لمصر ، فقد وجهت ضربة شديدة إلى هيبة الإمبراطورية المصرية ، وبدأ السودانيون والأحباش لا يحسبون لها حساباً بعد أن كان للحكومة الخديوية سطوة عجيبة فى السودان ، حتى كان جنديها الواحد يرهب رهطاً من الأهلين(١٧١) فلم يعد للأهالى حاجة للخضوع لحكومة وضحت فيها السيادة للأجانب .

وفى الوقت الذى كانت البلاد تعانى من الآثار التى ترتبت على حرب الحبشة والتى كلفت الخزانة المصرية نفقات طائلة ، عقد الخديوى مع بريطانيا فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م المعاهدة المشهورة الخاصة بتجارة الرقيق(١٧٢) والتى جاء فى المادة الثانية منها إن أى شخص يعمل فى تجارة الرقيق بطريقه مباشرة أو غير مباشرة سوف يعامل معاملة " السارق القاتل " وهى جناية يعاقب عليها فى القانون المصرى بالإعدام . كذلك صدر أمر الخديوى يوم إبرام المعاهدة تنص المادة الأولى منه على تحريم بيع الرقيق من عائلة إلى أخرى فى مصر خلال سبعة أعوام وفى السودان خلال إثنى عشر عاماً . ونصت المادة الثانية على أن اية محاولة للخروج على هذا القانون بعد هذين التاريخين يعاقب مرتكبها بالحبس مدة تتراوح بين خمسة شهور وخمس سنوات(١٧٣) .

وكانت سنة ١٨٧٧م التى وقعت فيها المعاهدة من أحراج الأوقات فى تاريخ الإدارة المصرية فى السودان ، فالخزانة الخديوية على وشك الإفلاس ، مما دفع إسماعيل إلى إتخاذ إجراءات لم تدرس الدراسة الكافية بأمل أن يسهم السودان بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيهات سنوياً ، تتحمل منه مديرية خط الإستواء ثلاثين ألفاً ، ومديرية بحر الغزال ما بين خمسة عشر الفاً . على أن مصادر الإيراد فى هاتين المديريتين كانت قد أتت عليها مصروفات غوردون فى بحر الجبل ، ونفقات حملة دارفور التى قادها الزبير . وفى يونيو من العام التالى ، أمر الخديوى بإتخاذ الإجراءات اللازمة لتحصيل كل الأموال المستحقة للحكومة . ولما كان صرف مرتبات الموظفين معلقاً بتنفيذ هذا الأمر ، فلم يكن له من نتيجة سوى إغضاب الطبقة التى تقوم عليها الإدارة(١٧٤) . وحين صمم غوردون على ضرورة تولية الحكمدارية العامة للسودان ، لم يسع الخديوى سوى النزول على طلبه ، فقد كان يرى أن توتر العلاقات بين غوردون وإسماعيل أيوب جعلت من المستحيل تنفيذ واجبات الأول فى مكافحة الرق خارج نطاق المديريات الاستوائية(١٧٥) .

وتقرر أن يمتد حكم غوردون على السودان جميعه ، ودارفور ، والمديريات الإستوائية على أن يعاونه ثلاثة وكلاء : الأول للسودان ذاته ، والثانى لدارفور ، والثالث لسواحل البحر الأحمر وشرق السودان ، وعهد إليه الخديوى بتسوية مشاكل الحدود مع الحبشة ، كما لفت نظره إلى ضرورة القضاء على تجارة الرق والعمل على تحسين وسائل المواصلات(١٧٦) .

ويرى البعض أن بريطانيا قد وقع اختيارها على غوردون لإتمام عملية نشر الفوضى فى السودان ليسهل عليها وضع يدها عليه بعد إنفصاله عن مصر .هذا فى حين يرى البعض الآخر أن الحكومة البريطانية لم تتعمد اختيار غوردون لنشر الفوضى فى السودان ، إنما رسمت له سياسة محدودة ، هى إلغاء الرق . وهذه السياسة هى التى كانت سبباً فى استنزاف موراد الإدارة المصرية فى المال والرجال. ويقرر البعض أيضاً أن فشل غوردون يرجع إلى ظروف خارجة عن إرادته ، إذ لم يكن للإنجليز عموماً أية دراية بالإدارة بين الشعوب المتخلفة نسبيًا ، فيما عدا الهند التى لم يسبق لغوردون أن عمل بها . ولم يكن لبريطانيا رجال ذو خبرة بهذا العمل الدقيق ، وهو حكم خليط من القبائل الإسلامية والوثنية فى مجاهل أفريقية . هذا بالإضافة إلى أن غوردون نفسه لم تتح له الفرصة لكى يتدرب على مهام وظيفته ، فإسماعيل عهد إليه بحكومة السودان دون أن يمده بالمستشارين ذوى الخبرة والتجربة لكى يوجهوه . وعلى أية حال ، لم يكن غوردون ليقبل نصيحة أى منهم(١٧٧) . ولذا فإنه لما رجع إلى السودان فى مايو سنة ١٨٧٧م كانت كل خبرته بشؤون الحكم والإدارة لا تزيد عن خبرة عامين قضاهما فى المديرية الإستوائية ، وهى مديرية غير إسلامية وغير عربية . وكان ماضيه العسكرى فى الصين والقرم لا يؤهله إطلاقاً لأن يكون سياسياً وإدارياً ، ولا يدربه كيف يسوس شعوباً إسلامية(١٧٨) . وكانت مسالة الرق شغلة الشاغل ، لأنه كان يدرك أنه رغم ما يتمتع به من سلطات مدنية وعسكرية مطلقة ، فإنه لا يتمكن من إبطال

تجارة الرقيق إلا إذا انتشر على طول حدود البلاد سلسلة من حراس الحدود ، على غرار القوزاق الروسى .

لقد نسى غردون أن الخديوى قد استخدمه للإدارة لا لكى يشن حرباً صليبية شعواء على تجار الرقيق . ولا شك فى أن القضاء على هذه التجارة ، كان هدفاً من أهداف الخديوى الذى كان يعلم تمام العلم بأن الأملاك السودانية تسير بخطى وئيدة نحو حياة لامكان فيها للرقيق . فضلاً عن أن معالجة مشكلة الرقيق كان جزءاً فقط من تعلميات الخديوى ، وهو عمل دقيق يحتاج إلى شئ كثير من الدقة واللباقة(١٧٩) .

وعندما رغبت الحكومة الخديوية فى إقامة دوريات بوليسية لمراقبة سواحل البحر الأحمر وخليج عدن لتنفيذ نصوص معاهدة إغسطس ١٨٧٧م ، انتهى الأمر بتعيين الكابتن مالكولم ، وهو ضابط بالأسطول البريطانى ، للإشراف على هذه الدوريات . ولم يلبث غوردون أن إصطدام بمالكولم لأن الأخير اعتقل بعض أفراد عائلة " ابى بكر شحيم " محافظ زيلع بتهمة الاتجار فى الرقيق . وساء غوردون هذا الإجراء خشية أن يؤدى إلى تهديد الحكم المصرى فى هذه الأصقاع البعيدة ، فأطلق سراح المعتقلين ، فما كان من مالكولم إلا أن قدم إستقالته إحتجاجًا ، فاستاءت الحكومة البريطانية ورأت فى ذلك لينا " كما لو كان غوردون لا يحس فى نفسه القدرة على معاداة تجار الرقيق صراحة " .

وشاء غوردون أن يثبت لحكومته أنه لا يقل عن مالكولم أو غيره قوة فى مكافحة الرق ، حيث لجأ إلى الأساليب العنيفة وسياسة الضغط لتنفيذ سياسة الإلغاء ، بل لقد عمل إلى التخلص من الموظفين المصريين وإسناد مناصبهم إلى الأوربيين ، فى وقت كانت الإدارة المصرية فى حاجة ماسة إلى الاستقرار والهدوء، كما تناول المناصب الإدارية الكبرى بالتغيير والتبديل . وقد ترتب على تعيين موظفين أوربيين مسيحيين آثار خطيرة مهدت الطريق للثورة المهدية(١٨٠) .

ومن ناحية أخرى شاء الموظفون الأوربيون أن يثبتوا جدارتهم وإستحقاقهم للمناصب التى يشغلونها ، فأعلنوا حرباً شعواء علـى تجـار الرقيـق . والمعـروف أن السودانيين لم يؤمنوا يوماً بشرعية سياسة إلغاء الرقيق ، فما بالك إذا مـا قـام علـى تنفيذ هذه السياسة أجانب من الأوربيين المسيحيين ، مما يثير الظنون بأن فـى ذلـك إضطهاد للإسلام على يد المسيحية .

وكان الإنجليز أنفسهم بعد إسترداد السودان ، يعلمون أن مسألة إلغاء الـرق شائكة للغاية وينبغى تناولها فى شئ كثير من الحذر ، بدليل ما جاء فى تقرير رفعـه الكابتن مموردو Memurdo مدير مصلحة مكافحة الرق :

" أن الرقيق فى طريقة إلى الزوال ، ولكنه طريق طويل جداً وأمامنا سـنوات طويلة لبلوغ نهايته ، وليس من الطبيعى فى شئ أن نتخلص فى الحال من العـادات والتقاليد التى عاشت لعدة قرون "(١٨١) .

الخاتمة :

يتضح لنا من خلال العرض السابق عدةنقاط أهمها :

أولاً : كان نظام الرق من الأمور العميقـة الجـذور فـى المجتمـع السـودانى ، ومن أهم الأركان الذى قامت عليه اقتصادياته ، ومن ثم كان له تأثيرًا واضح على حياة السودانيين الاجتماعية والسياسية .

ثانيًا : كان هدف محمد على من جلب الرقيق ، الاستفادة منهم فى تكويـن الجيش وإلقاء عبء الأعمال العسكرية علـى عـاتقهم ، وأن يـترك أبنـاء الفلاحـين المصريين ليتفرغوا لأعمال الزراعة والرى ومواجهة التوسع فى المشروعات الإنمائيـة الجديدة ، حتى يعمل الجميع من مصريين وسوادنيين فى إطـار وحـدة وادى النيـل السياسية .

ثالثًا : بعد فشل تجربة استخدام الرقيـق ، فتـح محمـد على أمـامهم أبـواب العمالة التى تتناسب مع قدراتهم الذهنية والعضلية ، حتى لا يقعون فريسة للبطالة.

رابعًا : بالغ الكتاب والمؤرخون الأجانب فى تصويرهم لمسألة إعطاء رواتب الجنود من الرقيق - فى بعض الأحيان - ولم يعالجوا المسألة من جميع زواياها المختلفة ، فكان هدفهم من وراء ذلك اعطاء معلومات مبتورة ترتب عليها تشويه الحقائق .

خامسًا : أثبتت الدراسة أن محمد على ، رغم أنه احتكر التجارة فى البلاد التى كان يحكمها ، لم يتاجر فى الرقيق على الإطلاق ، علمًا بأن تجارة الرقيق - وقتذاك - كانت أكثر ربحًا .

سادسًا : أشارت الدراسة إلى أن محمد على كان يكره التجارة فى الرقيق ويمقتها ، وبالتالى تشدد مع حكامه فى السودان لمحاربتها .

سابعًا : إن تدخل بريطانيا لإلغاء تجارة الرقيق فى السودان ، كان ستارًا يخفى أهدافًا عدائية ضده ، ومخططًا لتحقيق أطماع استعمارية ، كما أثبتت الأحداث فيما بعد .

ثامنًا : كان من الصعب القضاء على تجارة الرقيق بين طرفة عين وانتباهتها، بسبب تركيبة المجتمع السودانى نفسه ، وأهمية الرقيق بالنسبة له ، لذلك أحدثت الوسائل العلمية والعملية المشار إليها فى الدراسة كبديل عن نظام الرق وتعويض عن الأرباح التى كانت تعود من التجارة فيه .

تاسعًا : أوضحت الدراسة أنه مما يؤخذ على غوردون أنه أساء تقدير المهمة التى أنيطت به ، فقد ركز كل اهتمامه فى القضاء على تجارة الرقيق دون النظر أو الاهتمام بالتعليمات الأخرى ، ولم يكن هناك من سبب يدعوه إلى التشدد من تلقاء نفسه فى القضاء على تجارة الرق ، فملكية الرقيق لم يكن فيها أية مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية ، فضلاً عن أن الناس كانوا فى حاجة ماسة إلى الرقيق لإنجاز أعمالهم . فلما توقف ذلك المورد الهام من الأيدى فجأة ، نشبت أزمة هزت الكيان الاقتصادى والاجتماعى للبلاد ، وبدأت الناس يلقون اللوم ، لا على

غوردون ذاته بل على الإدراة المصرية . ودفعهم الغضب إلى الاعتقاد بأن الحكومة – بطريقة ما – تعمل ضد تعاليم الإسلام .

عاشرًا : أثبتت الدراسة آثار تعيين غوردون لأعداد كبيرة من الأوربيين في وظائف لا تناسبهم مما أغضب الأهالى حتى أنهم كرهوا الأجانب عمومًا بمن فيهم المصريين .

حادى عشر : يؤخذ على غوردون أنه بينما كان يعمل فى خدمة الحكومة المصرية لم يستطيع أن يتجرد من قوميته التى جعلت منه أداة لخدمة السياسة البريطانية والقضاء على أعمال إسماعيل فى السودان . ويشاركنا فى هذا الرأى بعض المؤرخين البريطانيين الذى عالجوا شئون الإدارة المصرية فى السودان بنزاهة وأمانة(١٨٢) .

ثانى عشر : أشارت الدراسة إلى أن غوردون لم يحاول أن يبحث فى أسباب الرق ووضعه فى الإسلام ، والطريقة السليمة التى يمكن بها وضع حد له . وقد قيل عنه أنه وجد السودان فى سلام ورخاء ، وتركه فى يوليو سنة ١٨٧٩م مدينًا والثورة على وشك أن تندلع فيه .

الملاحــــق(١٨٣)

نص المعاهدة :

معاهدة الرقيق مع بريطانيا فى أغسطس سنة ١٨٧٧م .

لما كان من أقصى آمال كل من حكومتى جناب ملكة بريطانيا العظمى وإيرلنده الحرة وحضرة خديوى مصر التعاون فى إبطال منع بيع الرقيق بالكلية ، وكان قد صمما على عقد معاهدة للوصول لهذا الغرض ، حصل الرضا والإتفاق للواضعين إماءهم آدناه المأذونين بهذا الشأن على تدوين البنود الآتية :

بند ١ :

حيث أنه سابق صدور لائحة من الحكومة الخديوية بمنع بيع الرقيق السودانى والحبشى فى الجهات التابعة لها فتتعهد الحكومة المشار إليها أن تمنع منعًا كليًا من

الآن فصاعدًا إدخال العبيد السودانيين والحبشيين بأراضى القطر المصرى وملحقاته سواء كان بطرق البر والبحر المارة بتلك الأراضى وأن يعاقب باشد الجزاء على مقتضى القوانين المصرية الجارى العمل بها أو بموجب ما سيأتى بيانه بهذه المساعدة كل من وجد متعاطيًا بيع الرقيق السودانى أو الحبشى مباشرة أو بواسطة غيره وكذالك تتعهد بأن تمنع إخراج الرقيق السودانى أو الحبشى إلى خارج القطر المصرى وملحقاته منعًا مطلقًا مالم تحقق وتثبت صحة منعه أو حريته ولا بد أن يذكر بورقة العتق أو الباسبور الذى يعطى لأولئك السودانيين أو الحبشيين من طرف الحكومة المصرية قبل خروجهم بأنهم أحرار ويمكنهم أن يتولوا أمر أنفسهم كيف شاءوا بلا قيد أو شرط .

بند ٢ :

كل شخص يوجد بأرض مصر أو بحدودها أو بالجهات التابعة لها بوسط أفريقيا متعاطيًا بيع الرقيق السودانى أو الحبشى مباشرة أو بواسطة غيره تعتبره الحكومة المصرية هو ومن يكون مشتركًا معه بمنزلة السارقين القاتلين فإن كان من تبعيتها يحاكم أمام مجلس عسكرى وإلا تحال محاكمته على المجالس الخاصة بذلك وترسل لها المحاضرة المحررة من الجهة العليا الدالة على صحته للحكم فيها بمقتضى قوانين الحكومة التى يكون تابعًا لها مادامت هذه القوانين تجيز ذلك . وما يوجد من الرقيق السودانى أو الحبشى بأيدى أى تاجر كان يصر اعطاؤه حريته ومعاملته بمقتضى المدون ببند ٣ الآتى والمذيل المؤشر بحرف أ المتمم لهذه المعاهدة .

بند ٣ :

نظرًا لكون إعادة الرقيق السوادنيين أو الحبشيين لبلادهم بالتالى سواء كانوا منزوعين من أيدى المتجرين فيهم أو معتوقين يتعذر حصولها وينشأ منها إما هلاكهم من التعب أو الفاقة أو وقوعهم فى ربقة الرق ثانيًا تستمر الحكومة بأن تجرى معهم الإجراءات السابق إتخاذها بمعرفتها فى حق الرقيق ومذكورة فى الذيل المؤشر بحرف أ المحكى عنه .

بند ٤ :

تستعمل الحكومة المصرية سطوتها على قدر الاستطاعة لمنع ما يجرى من المقاتلات بين قبائل أفريقيا الوسطى بقصد الاستيلاء على الرقيق وبيعه وتتعهد بأن يعامل معاملة القاتلين كل من يوجد متعاطيًا بيع الأولاد أو جلبها فإن كان المرتكبون لذلك من تبعية الحكومة المصرية تصير محاكمتهم أمام مجلس عسكرى وإلا تحال محاكمتهم على المجالس المختصة بالحكم وترسل لها المحاضر والأوراق والمستندات للفصل فى الدعوى بمقتضى قانون بلادهم كما هو مذكور ببند ٢ .

بند ٥ :

تتعهد الحكومة المصرية بنشر أمر خصوصى يرفق بهذه المعاهدة ويكون من مقتضاه منع بيع الرقيق بالكلية فى أرض مصر من ابتداء تاريخ يتحدد بالأمر المشار إليه وتخصيص نوع الجزاء التى يترتب على من يخالف منطوقها .

بند ٦ :

لأجل زيادة الوثوق من منع بيع الرقيق السودانى أو الحبشى بالبحر الأحمر ترتضى الحكومة المصرية بأن السفن يجرى التفتيش والبحث والقبض عند اللزوم على أى مركب تكون متعاطيًا تجارة رقيق من السودانيين أو الحبشيين وتسليمها لأحد مراكز الحكومة المصرية القريب من محل الواقعة أو للمركز الأوفق لأجل الحكم على تلك المراكب بما تلزم . وكذلك يصير ضبط أى مركب مصرية تحقق فيها شبهة وجود رقيق للبيع أو تكون قد تعاطت بيع الرقيق أثناء سفريتها . وإجراء التفتيش وضبط الرقيق يكونان بخليج عدن وساحل بلاد العرب وبالجهة الشرقية من أفريقيا وبمياه سواحل مصر والجهات المقابلة لها ما يوجد من الرقيق السودانى أو الحبشى بأى مركب مصرية وتضبط بمعرفة المراكب الإنجليزية لدى التفتيش يبقى تحت إذن الحكومة الإنجليزية . وهى تتعهد بإجراء ما يقتضى لحصوله على تمام الحرية أما المراكب وشحنتها وطقم بحريتها فيصير تسليمه لأقرب مركز من مراكز الحكومة المصرية لمحل الواقعة أو للمراكز اللائق لأجل توقيع الحكم عليها بما يلزم

فإذا لم يتيسر لقبطان المركب الإنجليزى تسليم ما يكون صار ضبطه من الرقيق لمحل تابع لحكومة الإنجليز أو إذا دعت الضرورة من مصلحة الرقيق سوداني أو حبشى لتسليمهم للحكومة المصرية فالحكومة المشار إليها تتعهد بناء على طلب قبودان المركب الإنجليزى أو الضابط الذى تستبينه لذلك أن يقبل الرقيق سودانى أو حبشى يعطيهم حريتهم وتمنحهم الامتيازات التى تمنحها للرقيق السودانى أو الحبشى المضبوط بمعرفة جهاتها ، كذلك تقبل الحكومة الإنجليزية من جهتها بأن أى مركب إنجليزية سائرة ببنديرة إنجليزية فى البحر الأحمر أو خليج عدن أو فى ساحل بلاد العرب أو فى المياه الداخلية بالقطر المصرى أو فى الجهات التابعة لهم متعاطية التجارة فى الرقيق السودانى أو الحبشى يصير تفتيشها بمعرفة الحكومة المصرية إنما المركب بشحنتها وطقم بحريتها يصير تسليمها لأقرب جهة من الجهات الحكومة الإنجليزية لأجل توقيع الحكم عليها . وما يصير ضبطه من الرقيق سودانى أو حبشى تعطى لهم الحرية بمعرفة الحكومة المصرية وتبقى متولية أمره إذا حكم بعدم صحته الجز أو إقامة الدعوى من المجلس المختص بالحكم فالحكومة التابعة لها المراكب التى أجرت ذلك تكون ملزمة بأن تعطى تعويضًا لائقًا بحسب الأحوال لحكومة المركب التى صار ضبطها أو إقامة الدعوى عليها .

بند ٧ :

يكون إجراء العمل بهذه المعاهدة فى القطر المصرى لحد أصوان من تاريخ توقيع الإمضاء عليها وفى ملحقات الحكومية المصرية بأفريقيا العليا وسواحل البحر الأحمر من بعد مضى ثلاثة شهور من ذلك التاريخ بناء عليه فقد تحررت هذه المعاهدة بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م وتوقعت عليها إمضاء وأختام الواضعين أسماءهم فيه أدناه

شريف　　　　فيفيان

* * *

والواقع أنه لا يمكن معرفة الدوافع التى جعلت إسماعيل يوقع على هذه المعاهدة وهى تحوى التزامات كثيرة على مصر من أجل المداومة على مقاومة الرقيق فى الوقت الذى كانت الحالة المالية فيه تسير من سئ إلى أسوأ . ويكفى أن تعلم أن كلا من إنجلترا وفرنسا كانتا قد أرغمتا إسماعيل على إنشاء لجنة صندوق الدين فى مايو ١٨٧٦ لإيجاد وسيلة لتسوية دين مصر البالغ ٩١ مليونًا من الجنيهات والتى كانت أرباحها ٧٪ فى كل عام بل أنهما أجبرتا خديوى مصر بعد ذلك على تعيين مراقبين عموميين لحسابات الحكومة أحدهما إنجليزى يراقب الدخل والآخر فرنسى يراقب المنصرف وهذا النظام عرف بالمراقبة الثنائية .

ونحن نعتقد أن إسماعيل قد وقع هذه المعاهدة للدافع الشخصى ، وهو شهرته وعظمته إذ يقوم بدور مهم فى مكافحة الرقيق وبذلك تجوب سمعته أنحاء أوربا كلها . والرجل كما هو معلوم عنه كان يميل إلى كل ما يتعلق بالمظاهر التى تجعل منه رجلاً عظيمًا فاخرًا مشهورًا فى أوربا كلها . وربما كان توقيع هذه المعاهدة أيضًا نزولاً على رغبة إنجلترا التى كانت قد أوغلت فى التدخل فى شئون مصر .

الهوامش

(١) مكى شبيكة : السودان فى قرن (١٨١٨ - ١٩١٩ م) ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص١٢

(2) DODWELL, THE Founder of Modern Egypt, Astudy of Mohamed Ali, 2nded., Cambridge, 1967, p.50 .

(٣) عبد الرحمن الجبرتى : التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجـزء الرابع ، القاهرة ١٣٦٠ هـ ، ص٣٠٥

(٤) مكـى شبيكة : مقاومـة السـودان الحديـث للغـزو والتســلط ، معهــد البحــوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ص٢٩

(٥) سليمـان بن محمد الغنـام : قـراءة جديـدة لسياسـة محمـد علـى باشـا التوسـعية فـى الجزيرة العربية (١٨١١ - ١٨٤٠) ص٥٠ وكذا

Dodwell, H., The Founder of Modern Egypt, Astudy of Mohamed Ali, 2nded., Cambrdige, 1967, p.50 .

(6) Henry Dodwell The Founder Of Modern Egypt 1931 .

(٧) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ١٤٥ بتاريخ ٢٥ جماد الأولى ١٢٣٧هـ .

(٨) دفتر ١٠ معية تركيى مكاتبة رقم ٣٢٥ بتاريخ غرة القعدة ١٢٣٧هـ .

(٩) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ٤١٥ بتاريخ ١٢ ذى الحجة ١٢٣٧هـ .

(١٠) أحمد كاتب الشونة : تاريخ ملوك السودان تحقيق مكى شيبكى ص٢٣ .

(11) Hill : Egypt In The Sudan., London , P.62 .

(12) Richard Gray : AHistory of Southern Sudan Oxford , 1961,p.5.

(١٣) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبة رقم ٦٤ بتاريخ ٢٣ ربيع أول سنة ١٢٣٧هـ.

(١٤) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة الكاتبة رقم ٢١٨ بتاريخ ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧هـ.

(15) Shukri, M. F., khedive Ismail and Slavery in the Sudan , 1863 - 1879, Cairo, 1937, P. 74.

(١٦) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصـرى فـى السـودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥ ، القـاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٢ - ٣١ .

(١٧) حسن أحمد إبراهيم : محمد علـى فـى السـودان ، دار التـأليف والترجمـة والنشـر الخرطوم (د.ت) ، ص٥٦ - ٥٧ .

(١٨) دفتر معية تركى ، ترجمة المكاتبات رقم ٣٢٥ بتاريخ ١٠ ذو القعدة سنة ١٢٣٧هـ .

(١٩) يرى الأستاذ الشاطر البصيلى أن المماليك هم الذين دبروا مقتل إسماعيل استنادًا إلى أن خطة الغدر التى دبرت لإغتياله لم تكن معروفة فى السودان آنذاك ، كما أن المماليك هم أصحاب المصلحة الحقيقية لإغتياله نسبة للعداء المستحكم بينهم وبين محمد على . انظر :

الشاطر البصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص١٣٤ ورغم أن الوثائق لا تنير الطريق أمامنا فى هذا الموضوع الهام فهى تتركنا وقد غدر إسماعيل ودمدنى وتنتقل بنا فجأة إلى حملات الدفتردار الإنتقامية ، إلا أن الكثير من الرحالة الذين زاروا السودان فى عهد محمد يؤكدون على أن إسماعيل قتل بمؤامرة دبرها نمر زعيم الجعليين . انظر حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق ، ص٥٨(٤) .

(٢٠) دفتر ١٤ معية تركى،ترجمة المكاتبة رقم ٤٢٤ بتاريخ ١٧ شوال سنة ١٢٣٩هـ.

(٢١) كل ثلاثة مقاطع من بفتة القطن تساوى ريالاً فرنسيًا ، دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة الوثيقة رقم ٥٠ بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٣٧هـ .

(٢٢) فى أوائل رجب سنة ١٢٣٧هـ - ١٨٢٢م ثار جنود أحد القواد فى السودان يدعى حسين أغا مطالبين بمتأخرات رواتبهم ، وخوفًا من انتشار الفتنة أمر الدفتردار بصرف مائة قرش لكل واحد منهم ، إلا أنه ما هدأت الفتنة حتى قبض على الرؤوس التى حركتها وأعدمهم رميًا بالرصاص ، دفتر رقم ١٤ معية تركى وثيقة رقم ٤٢١ بتاريخ شوال سنة ١٢٣٧هـ .

(٢٣) دفتر ٢٢١ عابدين " قسم السودان " ترجمة المكاتبة رقم ١٧ ، ١٨ ص٤ بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٥٣هـ .

(٢٤) الوقائع المصرية العدد ١٥٥ بتاريخ الاثنين ٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٥هـ .

(25) Pallme , Travels in kordofan , London 1844,p.342 .
(26) Shukry, M . F., Op.,cit.,p.75 ..
(27) Ipid.,p.76 .
(28) Hill, R.,On The Frontiers of Islam , Oxford, 1970,P.9.
(29) Ibid ., p.p.4-5 .
(30) Hill R., Egypt in the Sudan p 63 .
(31) Hill R.: On the Frontiers of Islam, pp. 12 - 13 .

السبب الرئيسى الذى برر به خورشيد هذا الهجوم على بلاد الشلك هو معاقبة قبائلها لاعتداءاتها المتكررة على العرب الذين سكنوا بالقرب منهم .

(32) Hill , R., op. Cit,.p.13 .

(٣٣) الوقائع المصرية ، عدد رقم ٣٩٩ بتاريخ الثلاثاء ١٥ محرم سنة ١٢٤٨هـ .

(٣٤) الوقائع المصرية ، عدد رقم ٣٨٨ بتاريخ السبت ٣ محرم سنة ١٢٤٨هـ .

(35) Palme,I.,op. cit ,. pp 279 - 280 ..

(36) Hamont, P.A.L'Egypte sous Mehomet Ali , Paris, 1845,pp.579-580 .

(37) Dehrain, Le Sudan EGYPTIEN SOUS MEHOMET Ali, Paris 1940, pp. 189-190.

(٣٨) محمد فؤاد شكرى ومحمد أنيس : نصوص وثائق فى التاريخ المعاصر، ص١٢٣ .

(39) Richard Gray, Op. cit,. p.5 .

(40) Pallme,I.,Op.cit,p.280 .

(٤١) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبة رقم ٥١ ربيع الأول سنة ١٢٣٧هـ .

(٤٢) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبة رقم ١٦١ بتاريخ ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٣٧هـ .

(43) Pallme, I., op,cit.,p.309 .

(٤٤) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ٢٤١ بتاريخ ٨ شعبان ١٢٣٧هـ وكذا .

السيد رجب حراز المدخل إلى تاريخ مصر الحديثة القاهرة ١٩٧٠م ، ص٣٤٠ .

(٤٥) مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل " مصر والسودان فى القرن التاسع عشر " ص٣٤٠ .

(٤٦) مكى شبيكة : مرجع سابق ص٣٤٠ .

(٤٧) د . السيد رجب حراز : مرجع سابق ص٢٢٨ .

(٤٨) سليمان بن محمد الغنام : المرجع السابق ص٥١ .

(49) Hill ,R.Op.cit.,p.108 .

(٥٠) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ٥٤١ بتاريخ ٨ شعبان ١٢٣٧هـ وكذا .

دفتر رقم ٤١٣ معية تركى مكاتبة رقم ٥٨٨ بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى ١٢٦٣هـ .

(٥١) دفتر ٦ معية تركى ترجمة المكاتبة رقم ٧٦٨ ص٣١١ بتاريخ ذى الحجة ١٢٣٦هـ وكذا .

حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق ، ص٥٤ .

(٥٢) دفتر ١٦ معية تركى مكاتبة رقم ١٥٤ بتاريخ ٢٤ جماد أول ١٢٣٩هـ .

(٥٣) دفتر ٢٥ معية تركى مكاتبة رقم ٢٤٤ بدون تاريخ .

(٥٤) دفتر ٦٦ معية تركى أمر ٦٨ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٢٥١هـ .

(55) Shukry, MF.,OP.cit.,P.75 .

(٥٦) دفتر ديوان الخديوى بلا رقم ، وثيقة رقم ١١ بتاريخ ٢١ جمادى الأولى ١٢٤٥هـ .

(٥٧) دفتر ٤١٣ صادر المعيشة السكنية ، ترجمة المكاتبات رقم ٢٠٨٨ بتاريخ ٢٠ ربيع الآخر ١٢٦٣هـ .

(٥٨) دفتر ١٦ معية تركى ، ترجمة الأمر رقم ١٥٤ بتاريخ ٢٤ جماد الأولى سنة ١٢٣٩هـ .

(٥٩) الوثيقة السابقة .

(٦٠) دفتر ٢٥ معية تركى ، ملخص الوثيقة التركيبة رقم ٢٤٤ بدون تاريخ .

(٦١) من تقرير بورنج صاحب التقرير المشهور عن مصر فقد حضر إلى مصر عام ١٨٣٧م وكتب عن أحوال مصر ضمنها ذلك التقرير . ولعل مما أدى إلى خسارة المزارع المصرى سخاؤه ومعاملته الطيبة للرقيق وعدم إرهاقه فى العمل - عكس ما كان يلقاه الرقيق فى أوربا ، فقد كان لا يهم السيد الأبيض إلا استغلال السود مما ترتب عليه تقدم كبير فى اقتصاديات تلك البلاد انظر .. محمد فؤاد شكرى وآخرين : وبناء دولة مصر محمد على ، القاهرة ١٩٦٧م ص٥٦٣ .

(٦٢) دفتر رقم ٧١ صادر المعية ، الوثيقة رقم بتاريخ ٢٧ ذو الحجة سنة ١٢٥١هـ .

(٦٣) من تقرير بورنج : ترجمة د. محمد فؤاد شكرى وآخرين: مرجع سابق ، ص٧٨.

(٦٤) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ١٢٠ بتاريخ ١٢ جمادى أول ١٢٣٧هـ وكذا. تقرير بورنج : محمد فؤاد شكرى وآخرين : مرجع سابق ، ص٥٨٩ .

(٦٥) مارس بعض الأجانب التجارة فى الرقيق فى ظل حماية قناصل دولهم، الذين استغلوا الامتيازات التى كانت لدولهم فى الولايات العثمانية .

(٦٦) شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٦٩ ص٨٧ - ٨٨ .

(٦٧) حسن أحمد إبراهيم ، المرجع السابق ، ص٧٥ .

(٦٨) د . أنجلو ساماركو : رحلة محمد على إلى السودان (تعريب طه فوزى) القاهرة ١٩٤١م ، ص٨٧ .

(٦٩) د . محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، القاهرة ١٩٤٧م ، ص١٦٤ .

(٧٠) سليمان بن الغنام : المرجع السابق ، ص٥٢ .

(٧١) كان يسمى الرقيق الأسود بالعبيد ، ويسمى الرقيق الأبيض بالمماليك.

(72) Goodell , W Slavery and anti - Slavery , London 1852, p.6.

(73) Coupland, R : The British anti - Slavery Movement , London 1933, pp .Johnston ,: History of the Colonization of Africa , cambridg , 1899.p151 .

(74) Goodell , W.,op.cit.p.6.

(٧٥) كانت السفن البريطانية تقوم بما هو معروف بالرحلة المثلثة ، بمعنى أن تقلع من أوربا محملة بالبضائع مثل الأسلحة والخمور وغيرها ، وتحصل فى مقابلها على الرقيق من أفريقيا ثم تتجه به إلى العالم الجديد ، لبيعه هناك وتشترى بثمنه المنتجات والسلع الأمريكية ، وتنقلها إلى الأسواق الأوربية فى رحلة العودة ، وقد ترتب على ذلك تدمير للمجتمعات الأفريقية ، يقابله تقدم وازدهار فى المجتمعات الغربية ، فقد شارك الرقيق الأفريقى بنصيب وافر فى بناء الاقتصاد الأمريكى قبل ظهور الثورة الصناعية وما ترتب عليها من إنتاج واسع .

(76) Harris, H.J.H,. Slavery or Sacred Truth , 1926,pp.10 - 11 .

(٧٧) حسين مؤنس : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص١٦٦ وهكذا Hill , R,Op. cit., p.8.

(٧٨) جورنج يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، تعريب على أحمد شكرى القاهرة ١٩٣٧م ، ص٥٨ .

(٧٩) محمد فؤاد شكرى بناء دولة محمد على ، ص٥٧٨ .

(80) Shukry, M.F., Op. cit,.p.79 .

(٨١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص٥٧٨ .

(٨٢) من رسالة الكولونيل كامبل التى أرسلها إلى يلموستون انظر : محمد شكرى وآخرين : المرجع السابق ٥٧٩ .

(٨٣) من تقرير يونج انظر : نفسه ، ص٥٧٨ .

(٨٤) من تقرير يورنج انظر : محمد فؤاد شكرى وآخرون : المرجع السابق، ص٥٨٢.

(85) Shukry M.F.,:op.cit.,.p.78 .

(٨٦) دفتر ٢٢١ عابدين (قسم السودان) ، ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٨٤/١٧ مسلسل ١٥ اصلى ورقة ١٠٥ ص٤ بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٥٣هـ إلا بالمرسلون لاحظ فى رسالة أسلها إلى كامبل بتاريخ ١٧ يناير ١٨٣٨ أن " هذا الأمر ما يزال فى ظاهره يسمح للضباط في جيش الباشا بأن يحشدوا العبيد أو يقنصوهم ويبعثوا بهم إلى القاهرة حيث يباعون " انظر : محمد شكرى وآخرون : المرجع السابق ، ص٥٨٣ .

(٨٧) حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق ، ص٧٥ .

(88) Shukry , M.F.,op. cit ., p. 86 .

(٨٩) أنجلو ساماركو : رحلة محمد علي للسودان ، تعريب طه فوزى ، القاهرة ١٩٤١ ، ص٣٢ .

(٩٠) من تقرير يرونج : محمد فؤاد شكرى وآخرون مرجع سابق ، ص٥٨٩ .

Madden . R.R ; Egypt and Mohamed Ali " London, 1841pp. 112 - 113 .

(٩١) غضبت بريطانيا من محمد على لاحتكاره تجارة الحرير فى الشام والبن فى اليمن والصمغ والعاج فى السودان بجانب التجارة فى مصر ، فأبرمت مع الدولة العثمانية إتفاقية تجارية فى عام ١٨٣٨م وذلك لفك هذا الاحتكار وضد سياسته التوسعية ، وتمكنت بريطانيا بمقتضى معاهدة لندن عام ١٨٤٠م من أن تحصر قوته وتحددها فى داخل مصر نفسها .

(92) F.O. 78/381 . Repport of Bowting . p.329.

(93) Madden R.R.,: op.cit , pp.110 - 114 .

(٩٤) شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣م – ١٨٧٩م) ص١٤٤ .

(95) Shukry , M.e:Op. Cit , p.55; Hill , R.:op . cit .,p.29 .

(٩٦) عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية فى السودان ، الجزء الثانى القاهرة ١٩٤٩م (ثلاثة أجزاء) الجزء الثاني ، ص١٣ .

(٩٧) دفتر رقم ١٠ معية تركى وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ٧ محرم ١٢٣٧هـ .

(٩٨) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، القاهرة ١٩٤٧، القاهرة ، ص٢٩ .

(٩٩) دفتر رقم ٢٦ معية تركى مكاتبة رقم ١٠٠ وتاريخ ٢٩ رجب ١٢٤٢هـ .

(١٠٠) حورج ياتج : المرجع السابق ص٨٥ .

(101) Shukry M.F., m.f ., The Khedive Ismail and salvery in the Sudan (1863 - 1876) . Cairo 1938) p.55 .

(١٠٢) أنجلو سارماكو : المرجع السابق ، ص٨٧ .

(١٠٣) شوقى عطا الله الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الثانى ، ص٨٠ .

(104) Holt , P.M., A Modern History The Sudan , Oxford 1958 .. P.63.

(105) Walis Budge , E.A., p.43The Egyptian Sudan , VAL.2, ,P.225..

(١٠٦) تمكنت بريطانيا بمساعدة بعض الدول الأوربية وتركيا من فرض ما عرف بالتسوية الدولية (١٨٤٠ - ١٨٤١) التى بمقتضاها قصر دولة محمد على - على مصر والسودان تغلغل الفوذ الأوربى فى البلاد ، حيث صارت مصر نفسها تحت إشراف الدول الأوربية الضامنة لتلك التسوية .

(107) Shukry , M.F.,op.cit,p.61.

(108) Holt, P.M.,op.cit.,p.61 .

(109) Shukry , M.F.,op.cit ., A.95.

(110) Robinson, The Rulers of The Sudan , London ,1928,pp.42-43 .

(111) Shukry , M.F., OP.CIT.,P.96 .

(112) Menlly, G : Khartoum and the Bule and White Nile . vol 2. ' London 1851 ' p.183 .

(113) Shukry, M.F.,: op.,cit.pp 96. 97 .

(114) Burn Rollet;Le Nil Blanc et la soudan , Paris 1855, p.178 .

(115) Walis Badge , E.A., op.cit.p.225.

(116) Holt,p.M., op.cit .,p.63 .

(117) Walis Budge., E.A., op.cit .,pp.- 221 - 222 .

(118) Gray , R.,op.cit ., p.51 .

(119) Shukry , M.F.,op.cit,p.108 .

(120) Walis Budge , E.A., op. cit , p.225 .

(121) Shukry , M.F., op.cit .,p. 109 .

(١٢٢) دفتر ٧١ قيد اللوائح مكاتبة رقم بتاريخ ١٤ ربيع أول ١٢٧١هـ .

(123) Shukry , M.F.,op.cit .,p.112 .

(124) Gray , R., op.cit.,p73 .

(125)Ibid.,

(١٢٦) مكى شبيكة المرجع السابق ص٥٨ .

(127) Shukry , M.F., op.cit.,p.116 .

(128) Shukry M.F.,cit.,p.118 .

(129) Walis Badge E.A,op.cit .,p.225 .

(130) Gary R.,op. cit., p82.

(131) Shukry M.F.,op.cit.,p.118 .

(١٣٢) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى ، ص١٦٦ .

(133) Halt P.M., op.cit ., p.61 .

(١٣٤) المرجع السابق ، ص٧٩ .

(135) Gray R.,op. cit ., p.p 56,61 .
(136) Shukry M.F.,op .124-125 .
(137) Colvile H.E. History of the Sudan 1889 , p4 .
(138) Holt P.M., op. cit ., p.63 .
(139) Shukry M.F., op. cit ., p.127 .
(140) Holt P.M., op. cit ., 66.
(141) Wudlge E.A., op.cit., p.2260 .
(142) Nieber . H. J . Slavery as on Industrial System , 1910,p.137 .
(143) Walis Budge E.A., op. cit., pp . 225 - 226 .
(144) Shukry M.F., op. cit ., p. 131 .

(١٤٥) مكى شبيكة : المرجع السابق ، ص٨٢ .

(١٤٦) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص١٧٣ .

(١٤٧) دفتر ٧١ تركى مكاتبة رقم ١٠ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨١هـ .

(١٤٨) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، الجزء الثانى ، بيروت ١٩٦٧م ، ص٥٢ .

(149) Shukry M.F., op. cit ., p.132 .
(150) Shukry Ibid ., op. cit , p.132.

(١٥١) كان من الثابت أن فى وقت صدور " الوركو " كان رحال " بيترك " يتاجرون فى الرقيق وبعد مراسلاته مع الحكومة المصرية من وجهة ومع الحكومة البريطانية من جهة أخرى وافق إسماعيل على دفع تعويض له عن منشآته بلغت خمسمائة عشر ألف من الجنيهات.

(152) Walis Bude E .A.,op cit., p. 228 .
(153) Shukry M.F., op .cit., p. 139 .

(١٥٤) فؤاد شكرى المرجع السابق ، ص١٧٣ .

(١٥٥) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الثانى بولاق مصر ١٣١٢هـ ، ص٣١٤ ، ٣١٦ .

(156) Allen : Gordon and the Sudan , London 1931 . p.I .

(١٥٧) انظر نص العقد المبرم بين الخديوى وبيكر فى ٢٧ مارس ١٨٦٩م نقلاً عن وثائق عابدين محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢٥٥ .

(158) Holt . P.M., op cit., p.26.
(159) Archer, I.: The War in Egypt and The Sudan , Vol I., London 1886, p. 123.

(١٦٠) إسماعيل سرهنك : المرجع السابق ، ص٣٣٥ .

(160) Halt P.M., op. cit ., P.27 .
(162) Lord Elton , General Gordon , London , 1954., p.170 .
(163) Shukry M.F.,op. cit ., p 174 .
(164) Ibid .,p.264 .

(١٦٥) تعليمات الخديوى إلى غردون فى ١٦ فبراير ١٨٧٤م انظر : محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص٢٦٤ ، ٢٦٧ .

(١٦٦) إبراهيم فوزى : السودان بين يدى غردون وكتشنر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٠٢م ، ص١٠ .

(١٦٧) عن تاريخ حياة الزبير رحمة ، انظر نعوم شقير : المرجع السابق ، ص٦٠ - ٨٨

(168) Shukry M.F.,op. cit p. 152 .
(169) Sobry : M., L egyptien sous Ismaol , Paris 1933. p.339 .

(١٧٠) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص١٨٦ .

(١٧١) نعوم شقير : المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص١٣٨ .

(١٧٢) انظر ملحق رقم (١) فيه نص المعاهد بالتفصيل .

(173) Gordon , H.W.: Events in the Life of Gordon From its Beginning to its End , London 1886 , p.126 .
(174) Holt P.M., op . cot., p.26 .
(175) Cratites , p.: Gordon , the Sudan , and Slavery , london 1933. p .79 .

(١٧٦)محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص٢٠٤ .

(177) HII,R ., op.cit. ,p147 .
(178) Ibid., p.145 .
(179) Ibid., p. 146 .
(180) Holt , P.M., op . cit ., p.30 Shukry ,M.F,. op cit ., pp .297 - 299 .
(181) Cromer The Earl of Modern Egypt Vol. I, New York. 1908. pp. 553-554.
(182) Hill . R., op . cit., pp . 145 - 146 .

(١٨٣) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، الوضع التاريخى للمسألة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص١١٧ / ١٢٠ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : وثائق أصلية :

وهى مودعة بدار الوثائق القومية ، بالقلعة ، فى الدفاتر الآتى أرقامها :

دفاتر معية تركى أرقام : ٦، ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٤١٣ .

دفتر عابدين رقم : ٢٢١ .

دفتر ديوان خديوى تركى بدون رقم :

ثانيًا : وثائق منشورة :

١ - تقرير " جون بورنج "Bowring ويتضمن حالة البلاد من النواحى الاقتصادية والإدارية والعسكرية ، بجانب حديث محمد على عن الرق وتجارته أنظر محمد فؤاد شكرى وآخرون بناء دولة مصر محمد على ، القاهرة ١٩٦٧م ص .

٢ - تقرير باتريك كامبل قنصل إنجلترا العام فى مصر وقد تناول فى هذا التقرير الذى رفعه إلى اللورد بالمستون فى ٦ يوليو ١٨٤٠م ، أحوال مصر الاقتصادية والسكانية ونظام الرق فى السودان والتجارة فيه وقد جاءت ترجمته العربية بكتاب محمد فؤاد شكرى .

ثالثًا : المصادر والمراجع العربية :

- **إبراهيم فوزى** : السودان بين يدى غردون وكتشنر ، القاهرة ١٩٠٢م .
- **أحمد شفيق** : الرق فى الإسلام ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأهلية ١٣٠٩هـ .
- **أحمد كاتب الشونة** : تاريخ ملوك السودان ، تحقيق مكى شبيكة .
- **إسماعيل سرهنك** : حقائق الأخبار عن دول البحار ، جزءان ، بولاق مصر ١٣١٢هـ .
- **السيد رجب حراز** : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ، القاهرة ١٩٧٠م.
- **الشاطر بصيلى عبد الجليل** : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٥م .

- **جورج بانج** : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل تعريب علي أحمد شكرى ، القاهرة ١٩٣٧م .
- **حسن أحمد إبراهيم** : محمد على فى السودان ، دار التأليف والترجمة والنشر ، الخرطوم (د.ت) .
- **حسين مؤنس** : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث القاهرة .
- **سليمان محمد الغنام** : قراءة جديدة لسياسة محمد على باشا التوسعية فى الجزيرة العربية (١٨١١ - ١٨٤٠) تهامة ١٤٠٠هـ .
- **شوقى عطا الله الجمل** : تاريخ سودان وادى النيل، جزءان ، القاهرة ١٩٦٩م.
- **شوقى عطا الله الجمل** : الوثائق التاريخية السياسية ، مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣ - ١٨٧٩) القاهرة .
- **عبد الرحمن الجبرتى** : فى التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، والجزء الرابع ، القاهرة ١٣٦٠هـ .
- **عبد العزيز أمين عبد المجيد** : تاريخ التربية فى السودان ، ثلاثة أجزاء ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٤٩م .
- **عبد الله حسين** : السودان من التاريخ القديم .
- **على عبد الواحد وافى** : حقوق الإنسان فى الإسلام ، الطبعة الخامسة ، دار نهضة مصر ١٩٧٩م .
- **محمد فؤاد شكرى ومحمد أنيس** : نصوص ووثائق فى التاريخ المعاصر .
- **محمد فؤاد شكرى** : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥م القاهرة ١٩٤٨م .
- **محمد فؤاد شكرى وآخرين** : بناء دولة مصر، محمد على ، القاهرة ، ١٩٦٧م.
- **مصطفى مسعد** : اليقط نمط فريد فى مجال العلاقات الدولية فى الإسلام بحث فى مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد الخامس ، الرياض ، ١٣٩٥هـ / ١٩٥٧م .

– **مكى شبيكة** : السودان فى القرن (١٨١٨هـ – ١٩١٩م) ، القاهرة ١٩٤٧م.
– **مكى شبيكة** : تاريخ شعوب وادى النيل ، " مصر والسودان فى القـرن التاسـع عشر " القاهرة .
– **نسيم مقار** : الســودان فـى النصـف الأول مـن القـرن التاسـع عشـر ، القـاهرة ١٩٦١م .
– **نعوم شقير** : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية ، ثلاث أجزاء بيروت ، ١٩٦٧م .

رابعًا : المترجمة :

– **انجلو ساماركو** : رحلة محمد على إلى السودان ، تعريب طـه فـوزى ، القـاهرة ١٩٤١م .
– **بوركهارت (جون لويس)** : رحلات بور كهارت فى بلاد النوبة والسودان ، تعريب فؤاد أندراوس ، القاهرة ١٩٥٥ .

خامسًا : الدوريات :

– الوقائع المصرية : عددهم رقم : ٣٩٩ بتاريخ الثلاثاء ١٥ محرم سنة ١٢٤٨هـ .
– الوقائع المصرية : عدد رقم : ١٥٥ بتاريخ الاثنين ٢٩ ذىالحجة سنة ١٢٤٥هـ.
– الوقائع المصرية : عدد رقم : ٣٨٨ بتاريخ السبت ٣ محرم سنة ١٢٤٨هـ.

خامسًا : الأجنبية :

- Arkell ., History of The Sudan From The Earlest Times to 1821 .
- Allen , B.M. Gordon and The Sudan , London 1931 .
- Archer , T ., The War In Egypt and The Sudan , London 1886 .
- Brace ,. Travels to discover the Source of the Nile , 5 vols . 1970 .
- Cany , Notice Sur Le Darfour et sur Les Cardavans , pARIS 1854 .
- Coupland , R., the British Anti - Slavery Movement , London 1933 .
- Crabites , P., Gordon , The Sudan and Slavery , London 1933 .
- Cromer , The Earl of Modern Egypt . New york 1908 .
- E.Awalis Budge , The Egyptain Sudan , London .
- Doun , G , History da Regna khedive Ismail , Le Caire 1933 .

- Goodell , W ., Slavery and anti - Slavery , London 1922 .
- Gordan , H . W ,. Events in the life of Gordon From its Beginning to its end , London 1886 . - Hair ., The Atlantic Slave Trade and Black Africa , London 1978 .
- Harald Macad Macad cheel . The Sudan 1954 .
- Heneri Diherain , Le Sadan Egyptian Soua Mehemet Ali, Paris 1940 .
- Henry Dod well , The Founder of Modern Egypt, 1931 .
- Hill , R., Egypt in The Sudan , London , London 1959 .
- Hamont , P . A L Egypte Sous Mehomet Ali , Paris 1845 .
- Harris , H . J ., Slavery or Sacred Trath , London 1926 .
- Calvile . H . E . History of The Colonization of Africa , Compeiga . Part I . Press 1889 .
- Johnston , H ., History of the Colonixation of Africa , Camb 1899 .
- Lautare , Netice Sar Le Karda fan , Paris 1851 .
- Lord Elton , : Goneral Gordon , London 1954 .
- Mortin, Stadia Arabica of Islamica. American University of Beirut 1981.
- Madden, R ., Egypt and Mohamed Ali . London 1841 .
- Melly, G., Khartoum and the Blae and White Nile . Vol. 2, London 1851 .
- Nieboer , H,J., Slavery as an Industrial System , 1910 .
- Holt . P . m . Amodorn History of the Sudan , London , 1972 .
- Robinson., The Gray . Ahistory of the Southera Sudan . sfod 1961 .
- Robinson., The Rulers . London 1928 .
- Shukry, M.F., The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan , Cairo 1938 .
- Sbry, M.: L'Empire Egyptien Sous Ismail, 1863-1879. PARIS 1923 .

أضواء على بعض التحف الفنية

التى أهداها السلطان قايتباى للحجرة النبوية

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامى(*)

تحتل دولة سلاطين المماليك(١) (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/١٢٥٠ - ١٥١٧م) مكانة هامة وموقعًا بارزًا فى تاريخ الحضارة الإسلامية . ذلك أن عصر سلاطين المماليك اتصف بالتفوق الحربى والاستقرار الأمنى والنشاط الاقتصادى ، مما انعكست صورته فى الازدهار الحضارى . وساعد على هذا الازدهار وفرة الثراء والمال ، نتيجة احتكار سلطنة المماليك للتجارة العالمية بين الشرق والغرب ، مما عاد على دولة المماليك بالخير فى الداخل والخارج . ويتمثل جزؤ كبير من الازدهار الحضارى فيما خلفه ذلك العصر فى مجال الفنون على تباين فروعها وأوجهها .

ويعتبر عهد السلطان قايتباى(٢) من العصور الذهبية فى دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤ - ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) حيث أمتد حكمه بالديار المصرية والشامية قرابة تسعه وعشرين عامًا (٨٧٢ - ٩٠١هـ/١٤٩٦م)(٣) ، وهى مدة طويلة لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، الذى تسلطن ما يقرب من أربع وأربعين عامًا(٤) .

وفى هذا العهد الطويل أثبت السلطان قايتباى أنه من أمهر سلاطين دولة المماليك الجراكسه سواء فى خبرته وحنكته ودرايته بكافة الأمور ، أو فى شجاعته وبُعد نظره ونشاطه وحزمه وقوة شخصيته . وحسبه أن المؤرخ المعاصر ابن أياس(٥) ، وصفه بقوله : " وعاش عمره كله فى عز وشهامة من حين كان

---

* مدرس الآثار الإسلامية - كلية الآداب - قنا .

خاصكيا(٦) إلى أن بقى سلطانًا ، وافر العقل ، سديد الرأى ، عارفًا بأحوال المملكة ، يضع الأمور فى نصابها " .

أما ابن العماد(٧) ، فقد وصف أيام قايتباى بأنها أكانت كالطراز المذهب فى الخيرات والمبرات ، هذا فى حين قال السخاوى(٨) : " بأن السلطان قايتباى كان له خضوع لمن يعتقد فيه العلم والصلاح " .

وبخصوص اعتقاده فى أهل الدين والصلاح يقول الغزى(٩) : " حكى أنه - أى قايتباى قبل أن يصبح سلطانًا - تنبأ له البعض بأن أمره يؤول إلى السلطنة . وفى موضع آخر يؤكد ابن العيدروس هذا الاعتقاد فيقول : " كان بعض أولياء الله تعالى قد أشار إلى ملكه قبل أن يفضى إليه الملك بزمام ، فقال له فى واقعة : " أنت أيها الملك الأشرف قايتباى " .

ويتفق هذا مع ما عرف عن قايتباى من تهجد وتعبد وترديد أوراد ، مع شهرته بالعفة والديانة والتقوى والصيانة(١٠) . وعن عدله يصفه الصيرفى(١١) فيشير إلى : " تواضعه للضعيف والفقير والبائس والمحتاج مع شدة سطو حرمته على الجبابرة والمتمردين والظلمة والفجار والمتكبرين " .

وصفوه القول أن المؤرخين المعاصرين(١٢) أجمعوا على أن السلطان قايتباى: " كان ملكًا جليلاً ، وسلطانًا نبيلاً له اليد الطولى فى الخيرات والطول الكامل فى أشد المبرات ، جامع أشتات الفضايل والفواصل حاوى المحاسن والمآثر، وكانت محاسنه أكثر من مساوئه " ، وقد ورد بيت الشعر فى هذا المقام :

ومن ذا الذى ترض سجاياه كلها   كفى المرء فضلاً أن تعُد معايبه

وكان أن انعكست هذه الصفات وتلك الشخصية على فترة حكمه فجعلتها من أخصب فترات عصر دولة سلاطين(١٣) . ويهمنا فى هذا البحث أن هذه

الصفات التى تحلى بها قايتباى جاءت مصحوبة بحبه للبناء والتعمير والإنشاء(١٤)، حتى لبست البلاد فى عهده ثوبًا قشيبًا واكتسبت فنًا جميلاً لكثرة عمائره وفخامتها .

وعلى الرغم من أن هناك بعض المؤرخين(١٥) والمستشرقين(١٦) وصفوا قايتباى بالشح والبخل ، فإن آثاره ومنشآته الباقية حتى اليوم تشهد على أنه استغل المال فى الإنشاء والتعمير ، ليس فى مصر فحسب بل فى بلاد الشام والحجاز أيضًا ، بحيث قل أن يخلو حى من أحياء القاهرة أو إقليم من أقاليم الدولة فى بلاد الشام وبلاد الحجاز(١٧) ، من أثر مشهور له . وهكذا ترك اسمه مسطورًا على ما يزيد عن سبعين أثرًا إسلاميًا ما بين إنشاء أو تجديد أو ترميم ، هذا بالإضافة إلى إصلاح آثار أسلافه والتى سجل اسمه عليها أيضًا(١٨) .

وقد بلغ من اهتمام هذا السلطان بالعمارة أنه كان يشرف بنفسه على إنجاز عمائره . وهناك الكثير من المهندسين والمعماريين الذين قاموا بتصميم تلك العمائر، من أشهرهم ،آنذاك المهندس / البدرى حسن بن الطولونى(١٩) . ويعزى تنوع الطرز المعمارية الفنية فى عمائر قايتباى إلى كثرة هؤلاء المهندسين(٢٠) الذين صمموا وأشرفوا على تنفيذ تلك الأعمال من حيث تناسق رسومها وتنوع زخرفها وجمال نقوشها(٢١) .

والحق أن بلاد الحجاز حظيت بقسط وافر من عناية قايتباى(٢٢) نظرًا لما لها من مكانة كبيرة تتناسب مع قدسية وجلال هذه البلاد ، وليثبت للعالم أجمع أن سلطان مصر وبلاد الشام جدير بلقب " خادم الحرمين الشريفين(٢٣) " .

وإذا كان سلاطين المماليك قد واصلوا العناية بإرسال الكسوة إلى الكعبة كل عام(٢٤) وخصصوا لنسج وتطريز هذه الكسوة بالخرنفش مجموعة من مهرة الصناع المصريين من حياكين ونساجين ومطرزين وخطاطين(٢٥) ، فإن السلطان

قايتباى بالغ فى العناية بأمر كسوة الكعبة ، فضلاً عن أنه أنشأ بمكة عند باب السلام بجانب المسجد الحرام(٢٦) مدرسة لطيفة(٢٧) ، وبجانبها رباط للفقراء والطلبة مع إجراء الخيرات لأهلها كل يوم ، كما انشأ سبيلاً عظيمًا(٢٨) ومكتبًا للأيتام .

كذلك اجتهد السلطان قايتباى فى عمارة مسجد نمره ومسجد الخيف بمنى(٢٩) ، كما عمر عين عرفه(٣٠) ، وأصلح بئر زمزم والمقام ، وعمر ساقية سيدنا العباس(٣١) عم الرسول ﷺ .

ومثلما أهتم السلطان قايتباى بمكة المكرمة وعمارتها بوصفها قبلة المسلمين وحجاج بيت الله الحرام ، كذلك أولى عناية كبرى بالمدينة المنورة وبالمسجد النبوى الشريف . يذكر لنا المؤرخ المعاصر ابن أياس(٣٢) ، مدى حرص السلطان قايتباى على إقامة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف كل عام فى شهر ربيع الأول فيقول : " وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلاً ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة ، وكان السلطان شرع فى عمل خيمة كبيرة مدورة برسم المولد الشريف ، وقيل أن مصروفها ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، فنصبها فى ذلك اليوم بالحوش " .

وعندما سقطت صاعقة عظيمة(٣٣) سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م على المسجد النبوى الشريف ، أحرقت المنارة وسقوف المسجد جميعها والمنبر والحوائط والأعمدة والأبواب ، أمر السلطان بإصلاح وتجديد عمارة المسجد وتعويض ما التهمه الحريق من كتب ومصاحف ، وبعث ذلك على يد مؤرخنا الشهير الشيخ السمهودى(٣٤) ، الذى وصف ما حمله معه من مصر إلى المدينة فقال : " بحيث اجتمع من ذلك أكثر مما فات ، وكذلك الكتب بعث بجانب منها ووعد بإرسال ما يحتاج إليه " . كذلك أمر قايتباى بأنشاء مئذنة خامسة(٣٥) للمسجد على باب الرحمة ، ربما محل تلك التى كانت قد شاهدها ابن جبير(٣٦) سنة ٥٨٠هـ فى رحلته

إلى المدينة المنورة وزيارته مسجد الرسول ﷺ ، إذ ذكر عدد المآذن ، فقال : "وللمسجد المبارك ثلاث صوامع أحدها فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة ، والاثنان فى ركنى الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة برجين ، والصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع" ، كما قال أيضًا ابن بطوطة فى سنة ٧٢٦هـ، فى رحلته لمسجد خاتم النبيين ، فقال : " وجعل عمر للمسجد أربع صوامع فى أربعة أركانه " . وقد جدد قايتباى المنبر والحجرة النبوية الشريفة ، وكذلك المصلى النبوى ، وعمل للمسجد قبتين بديعتين(٣٦) ، بالإضافة إلى أنه جعله رباطًا(٣٧) للفقراء والطلبة مع تفرقة الخبز كل يوم ، علاوة على إنشاء سبيل هائل يرتوى منه الغنى والسائل . كذلك تم فى عهده إنشاء مقصورة حديدية جديدة للحجرة النبوية الشريفة فى سنة ٨٨٨هـ/ سنة ١٤٨٣م . يذكر لنا ابن أياس(٤٠) : " أن زنه هذه المقصورة الحديدية أربعمائة قنطار من الحديد ، وقد حملت إلى المدينة المنورة على سبعين جملاً " .

وبالإضافة إلى الإنشاء والبناء والترميم والإصلاح لكثير من أثار أسلافه بالمدينة المنورة ، فقد نقش قايتباى اسمه أيضًا على الكثير من التحف الفنية التى أهديت إلى المدينة من السابقين من الملوك والسلاطين والأمراء والعظماء . ومن هذه التحف الفنية ، الشمعدانان النحاسيان اللذان أوقفهما السلطان قايتباى على الحجرة النبوية الشريفة ، ويحتفظ بهما الآن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

وبالنسبة للشمعدان الأول فهو من النحاس الأصفر(٤٢) (صورة ١)(٤٣)، ويتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية ، البدن وهو الجزء الأسفل والأكبر مساحة ، قوام زخرفته ، كتابة دعائية باستدارة البدن وبخط الثلث المملوكى(٤٤) – على مهاد من الزخارف النباتية – نصها " عز لمولانا السلطان الملك العادل المجاهد سلطان * الإسلام والمسلمين(٤٥) الملك الأشرف أبو النصر قايتباى " ويلاحظ أن ألفات ولامات حروف النص الكتابى السابق ، تتقابل من أعلى مكونة شكل أهلة(٤٦)،

كل هلال داخله وريدة صغيرة . وهكذا استطاع الفنان أن يطوع هامات الحروف العلية ، ويجعل من هامة كل حرفين متجاورين شكل نصف هلال ، مكررًا ذلك في النص . ومما لا شك فيه أن الفنان بتحويره لنهايات تلك الحروف الصاعدة قد أخرج لنا تشكيلاً فنيًا وزخرفيًا رائعًا ، فبدت هذه الحروف في صورة جميلة من التنسيق والتماثل والتكرار .

ويفصل هذان النصان الكتابيان دائرتان مفصصتان من الخارج ، داخل كل منها رنك كتابي(٤٧) ، هذا الرنك مقسم إلى ثلاثة أقسام ، القسم العلوى نقش به بخط الثلث المملوكي عبارة : " أبو النصر قايتباى " و القسم الأوسط وهو الأكبر ونقش عليه بنفس الخط عبارة " عز لمولانا السلطان الملك الأشرف " ، والقسم السفلى وهو مماثل العلوى في المساحة ونقش عليه وبنفس الخط أيضا عبارة " عز نصره " (شكل ١) . ويلاحظ أن هذه الخطوط النسخية كتبت على أرضية من الزخرفة البنائية قوامها وريقات نباتية ثلاثية ؛ مما أضفى على هذه الخطوط وتلك النقوش عنصرًا جماليًا .

ويحف منطقة البدن ، من أعلى وأسفل إطاران رفيعان متماثلان من الخطوط المائلة ، يليهما إطاران متشابهان أعرض من السابقين تزخرفهما رسوم بنائية ذات أفرع تحمل زهورًا وورودًا وأوراقًا مختلفة الأشكال(٤٨) والأحجام .

ويعلو منطقة البدن السفلية ، منطقة الرقبة وهى أسطوانية الشكل وتتعامد على المنطقة السابقة ، وتنقسم إلى ثلاثة أشرطة أو إطارات باستدارة الرقبة ، الشريط الأوسط أوسعهم ، وقوام زخرفته كتابة بخط الثلث المملوكي نصها " عز لمولانا السلطان الملك العادل المجاهد(٤٩) المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى" ويحف هذا الشريط الأوسط شريطين آخرين أقل عرضًا من الأوسط - يحويان زخرفة نباتية من فروع ملتفة تحمل زهور اللوتس وأوراق العنب بالإضافة إلى ورود ذات أشكال مختلفة .

ويربط منطقة البدن بالرقبة ، الكتف ، وهو أفقي ومسطح وقوام زخرفته نص كتابى بخط الثلث المملوكى عبارته " عز نصره * فى شهر رمضان المعظم قدرة " ، ونقش هذا النص الكتابى على مهاد من الزخرفة النباتية ذات الزهور والورود والأفرع النباتية الملتفة .

ويعلو منطقة الرقبة الرأسية ، تجويف علوى لكى توضع به وسيلة الإضاءة من شمع أو خلافة – ويزين هذا التجويف كتابة نسخية بخط الثلث المملوكى على مهاد من الرسوم النباتية نصها " هذا ما أوقف على الحجرة النبوية مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى بتاريخ سنة سبع وثمانين وثمانمايه " (شكل ٢).

ويلاحظ أن المساحة التى نقش عليها النص الكتابى غير كافية لتكملته ، فنجد أن الفنان استكمله على المساحة الأكبر من الكتف بعبارة " عز نصره* " ، "فى شهر رمضان المعظم قدرة " كما ذكرنا من قبل .ويفصل هذا النص الكتابى ، دائرتين صغيرتين مفصصتين من الخارج ، وتنقسم كل منهما من الداخل إلى ثلاثة أقسام ، القسم العلوى نقش عليه بخط الثلث المملوكى : قايتباى ؛ والقسم الأوسط وهو الأكبر ، نقش عليه بنفس الخط عبارة : السلطان أبو النصر ، والقسم السفلى وهو مماثل للعلوى فى المساحة – ونقش عليه أيضًا بنفس الخط عبارة : " عز نصره " (شكل ٣) .

* * *

بالإضافة إلى الشمعدان النحاسى السابق الذكر ، فإن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، يحتفظ كذلك بشمعدان نحاسى آخر (صورة ٢)(٥١) ، أوقفه أيضًا السلطان قايتباى على الحجرة النبوية بمسجد الرسول ﷺ ، وهو يشبه الشمعدان السابق ذكره ، وذلك من حيث الشكل العام والأسلوب الزخرفى والعناصر الكتابية والدعائية ، ولكن هناك اختلاف بسيط(٥٢) فى النص الكتابى على البدن.

وهناك ثمة ملحوظة هامة تجب الإشارة إليها ، هى أن السلطان قايتباى أهدى الحجرة النبوية الشريفة بمسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة ، مايقل عن خمسة شمعدانات وذلك فى عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م حيث كانت - ولا زالت - هذه الأهداءات بمثابة عمل خيرى داوم عليه سلاطين وأمراء دولة المماليك ، وأيضًا حكام الدول الإسلامية على مر العصور . وكانت الحجرة النبوية الشريفة تحوى الكثير من الجواهر الفاخرة والتحف العامرة والذخائر النفيسة التى لا تقدر بثمن من الناحية المادية وكذلك الفنية . ولكن من المؤسف أن كثيرًا ما كانت تتطاول يد الأشرار والمفسدين من ولاة المدينة ذوى النفوس الضعيفة والضمائر المعدومة إلى هذه التحف وتلك الأهداءات(٥٣) ، فينبهون ما يروق لهم .

كذلك كانت تحدث أحيانًا قلاقل وفتن فى المدينة المنورة بسبب عبث بعض الأشراف ، ونشوب بعض الصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، كل هذا كان يؤدى إلى كثير من حالات الاضطراب والفوضى(٥٤) ، ومن هذه الأحداث المؤسفة على سبيل المثال دخول بعض المفسدين الحجرة الشريفة بقوة السلاح ونهب ما فيها من قناديل ذهبية وفضية وختمات شريفة وزيت المصابيح وشموع التراويح . ويضيف السمهودى(٥٥) ، بأنه قد بلغ الحد بهذه الشرذمة إلى سرقة ونهب كسوة الضريح الشريف والقناديل المعلقة حوله .

وأوضح دليل على صحة ما ذكره مؤرخو ذلك العصر من نهب هذه التحف وصول هذين الشمعدانين النحاسيين اللذين أوقفهما السلطان قايتباى ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م على الحجرة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة ، كما هو منقوش وثابت بالنص الكتابى عليهما ، إلى مصر حيث يحفظان اليوم بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

بالإضافة إلى الشمعدانين السابق ذكرهما ، فقد أهدى أيضًا السلطان قايتباى الحجرة النبوية الشريفة مصحفًا كبيرًا أطلق عليه مؤرخو ذلك العصر(٥٦)

" مصحف حمايلى " أى ينوء بحمله الإنسان ، ولا يستطيع ذلك ربما لثقل وزنـه وكبر حجمه . إذ أنه حمل على جمل بمفرده ، وكان من النوادر على حد تعبير ابن أياس.

وقد كتب هذا المصحف الشريف الخطاط الشهير شـاهين النـورى ، ومـات ولم يتمه ، فأكمله الخطاط وكاتب الوثائق خطـاب بـن عمـر الدنجـاوى بـأمر مـن السلطان قايتباى . ويعد غـلاف هـذا المصحـف مـن أبـدع الأغلفـة الجلديـة ذات الزخـارف المضغوطـة(٥٧) والمذهبـة مـن ذلـك العصـر . (صـورة ٣)(٥٨) وقـوام زخرفة هذا الغلاف جامة(٥٩) مستديرة (صورة ٤) ذات تفصيصات نصف دائرية يبلغ عددها ستة عشر تفصيصًا ، داخل كل تفصيص دائرة صغيرة مذهبة . ومثلهـا على الحافة الخارجية ، فيعطى شكل إشعاعي كقرص الشـمس ، بينمـا يخـرج مـن التفصيصين العلويين والسفليين شكل دلاية على هيئة ورقـة نباتيـة ثلاثيـة البتـلات، ويتوسط مركز هذه الجامة شكل نجمى سداسـى الأضـلاع ، يزخـرف كـل ضلـع أشكال هندسية مختلفة تتداخل ويتشابك بعضها مع البعض مكونة أشـكالاً جديـدة (شكل ٤) .

ويزخرف كل ركن من الأركان الأربعة لهذا الغلاف ، حليات نباتية ثلاثيـة البتلات ، كونت شكلاً جميلاً مع الجامة المستديرة . أما عن المصحف الشريف من الداخل ، فورقة " فاتحة الكتاب " ممزقة ومتآكلة ، ويقابلها " سورة البقرة " مذهبة على أرضية زرقاء(٦٠) . وقد كتبـت الأيـات القرآنيـة الخمـس مـن سـورة البقـرة باللون الذهبى ، وبخط الطومار(٦١) ، داخل مستطيل يحيط به أطار خارجى أزرق اللون يحوى زخارف نباتية مورقة وملتفة ومتشابكة (أربيسك) بلون ذهبى(٦٢).

وفى ختام المصحـف الشـريف كتبـت هـذه الآيـة(٦٣) الكريمـة : ﴿ **وتمت كلمات ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم** ﴾ بخـط الثلـث المملوكى ، بلون ذهبى على أرضيـة زرقـاء ، وذلـك داخـل سـبع دوائـر متداخلـة يحدها شكل مستطيل مزخرف بوحدات متضافرة على هيئة جدائل .

وأسفل هذا المستطيل نقرأ بخط الطومار " كتبه خطاب بـن عمـر الدنجـاوى سنة سبع وثمانين وثمان مائة من الهجرة النبوية " (شكل ٥) (٦٤) .

وهذا المصحف المهدى إلى الحجرة النبويـة الشـريفة محفـوظ هـو الآخـر فـى القاهرة بدار الكتب المصرية .

الهوامش

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨م ، ص٧١

– عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٥٤١

– سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٤ ، ص٣٧٨

(٢) لقد بويع قايتباى بالسلطنة سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٨م ، ولُقب بالملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى ، وأُحضر له شعار السلطنه أو المُلك وهو العمامة السوداء والجبة السوداء المطرزة بخيوط ذهبية والسيف العربى وضُربت له البشاير فى القلعة نودى بأسمه فى القاهرة ، وصار حينئذ السلطان الحادى والأربعون من ملوك الترك ، والخامس عشر من الجراكسة وأولادهم بمصر .

– ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ، جـ٨ ، ص٧

– ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م ، جـ٣ ،ص٤

– ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق جمال محرز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١م ، جـ٦ ، ص٣٩٥

– المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ ، جـ٢ ، ص١٨٥

– القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٩-١٩٢٢ ، جـ٣ ، ص٢٧٤

ENCYCLOPEDIA DE ISLAM, TOME II, 1927, P. 704.

(٣) المقدسى : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٠٣ تاريخ تيمور) ، ورقة ١١١ - ١١٢

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص١٢٥ - ١٢٦

– سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م، ص٣١٧

(٥) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٣٢٥

(٦) خاصكى ، والجمع خاصكيون وخاصكية ، وهم جماعة من أخصاء السلطان ، يأتون فى الترتيب بعد الأمراء المقدمين ، كان عددهم فى أول الأمر أربعة وعشرين ، ثم زادوا على الأربعمائة أو نحو خمسمائة نفر منهم أمراء وغيرهم ، وقد تمتع الخاصكية بمكانة كبيرة ، فكانوا يدخلون على السلطان دون استئذان ، وأجزل لهم السلاطين الهبات والعطايا .

- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٨١ ، وسعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤١٧

(٧) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٨ ، ص٨ - ٩

(٨) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ ، جـ٦ ، ص٢٠٢ - ٢٠٣

(٩) ابن العيدروس : النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (حـ٩٧٣٣) ورقة ٢٠ - ٢١

- الغزى : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، بيروت ١٩٤٥ ، جـ١ ، ص٢٩٧ - ٢٩٨

- ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٧

(١٠) السيوطى : تاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم (٦١ تاريخ) .

(١١) ابن الصيرفى : إنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٧م، ص٣٣٨

(١٢) المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٢

- ابن الجيعان : القول المستظرف فى سفر مولانا الملك الأشرف ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢١٠ تاريخ) .

- السخاوى : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص٢٠٢ - ٢٠٣

(١٣) عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص١٨٩

- عبد الرحمن زكى : بناة القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص٦٧

(14) LANE POOLE, THE ART OF THE SCARACENS IN EGYPT, LONDON, 1866,P. 94.

- حسنى محمد نويصر : منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص٨ ، ١١

- كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ، ص٤٧

- فييت (جاستون) ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة د. مصطفى العبادى ، كتاب اليوم ، ١٩٩٠ م ، ص١٥٥

(١٥) ابن أياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص٣٢٦

(١٦) لينبول : سيرة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص٢٠٣

(١٧) سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ، ١٩٨٠م ، جـ ص٢٢٠

(18) ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM, TOME II, P. 705.

(١٩) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٦ ، ص٢٠٨

- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، جـ١، ص٢٧٤

- محمد مصطفى نجيب : العمارة فى عصر المماليك ، مقالة من القاهرة ، تاريخ فنونها. آثارها ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

(٢٠) أحمد تيمور باشا : المهندسون الإسلاميون ، مجلة الهندسة ، العدد٢، ١٩٢٣ ، ص٧٩ - ٨٠

(٢١) لينبول : سيرة القاهرة ، ص٢٠٧

(٢٢) لقد سافر السلطان قايتباى للحج ٨٨٤هـ/١٤٧٩م ، وبدأ بالمدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ﷺ ، وأجزل الهبات والعطايا حتى قيل أنها بلغت أكثر من ستة آلاف دينار .

- ابن أياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٥٩

- السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد دار الباز للنشر ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، جـ١ ، ص٧١٣

(٢٣) خادم الحرمين الشريفين ، ورد لفظ خادم كوظيفة فى كثير من الكتابات على الآثار العربية ، والخادم هو من يقوم بالخدمة ، وفى موضع آخر استخدم لفظ خادم كترجمة تدل على التواضع ، كما دخلت الكلمة فى تكوين بعض الألقاب المركبة الفخرية ، ومنها "خادم حرمى الله ورسوله" ، " خادم الحرمين الشريفين " ويقصد بها المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة . وقد تلقب بهذا اللقب الكثير من سلاطين المماليك ، وذلك للدلالة على سيادتهم على الأقطار الحجازية وحمايتهم للحرمين الشريفين ، كما أنها ترمز إلى شمول نفوذهم على العالم الإسلامى . ومن هؤلاء السلاطين الذين حرصوا

كل الحرص على تشريفهم بخدمة الحرمين الشريفين - ومن ثم كان إطلاق هذا اللقب عليهم في محله - السلطان الأشرف أبو النصر قايتباى . وقد وجد هذا اللقب بصيغة أخرى فى نقش على وكالة تحمل اسمه بباب النصر بتاريخ سنة ٨٨٥هـ وهى " خادم حرمى الله ورسوله " .

- حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ١ ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٥م ، ص٤٣٣ - ٤٣٧

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى تاريخ الوثائق والآثار ، الدار الفنية ، ١٩٨٩م، ص٢٦٦ - ٢٦٩

(٢٤) ابن العيدروس : المخطوط السابق ، ورقة ٢١

- ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٧

(٢٥) وقد استمرت مصر فى نسج وصنع ستور الكعبة الشريفة إلى ما بعد العصر المملوكى وطوال العصر العثمانى ، وكذلك إلى ما بعد الثورة حتى ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، حيث قررت المملكة السعودية ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، أن تصنع الكسوة فى مصنع خاص بالكعبة.

- عبد الله النابلسى : مخطوط " الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤٤ جغرافيا ، ورقة ١٢٥

- ابن بطوطة ، الرحلة ص١٣٤

- على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٩، جـ٣ ، ص٢٧.

- حسن عبد الوهاب : كسوة الكعبة الشريفة ، مجلة منبر الإسلام ، العدد٤ ، ١٣٨٢هـ، ص١٨٢

- على حسن الخربوطلى ، الكعبة على مر العصور ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص١١٤

- أحمد عبد الغفار عطار : الكعبة منذ أربعة الآف سنة حتى اليوم ، بيروت ، ١٩٧٤م، ص١١٨

(٢٦) وقد جهز السلطان قايتباى لهذا المسجد منبرًا عظيمًا فى ٨٧٩هـ/١٤٧٤م .

- ابن العيدروس : المخطوط السابق ، نفس الورقة .

- ابن العماد : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢٧) – المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٣

– الغزى : المصدر السابق ، ص٢٩٩

(٢٨) ابن العيدروس : المخطوط السابق ، ٢١ – ٢٢

(٢٩) ابن الصيرفى : المصدر السابق ، ٢٤٦

– عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة السلطان قايتباى ، والمؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص٣٩٦

(٣٠) لقد أصلح السلطان قايتباى عين عرفة بعد انقطاعها نحو مائة وخمسين سنة فساق الماء من عرفات إلى منى .

– المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٣

– السيوطى : المخطوط السابق .

– ابن الغزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٩٩

– ابن أياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٥٦ – ٥٧

(٣١) ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٧

(٣٢) ابن أياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٦

(٣٣) ويذكر ابن إياس مدى اهتمام السلطان قايتباى بأمر هذه الصاعقة على مسجد الرسول ﷺ فيقول : " أن السلطان شرع فى تجديد عمارة المسجد الشريف ، فعين الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن ، وأرسل معه عدة من البنائين والنجارين والمرخمين وغير ذلك ، وأمر بهدم القبة الشريفة وأعادتها ، وتغيير المقصورة وتجديد غيرها من الحديد المخرم ، وكانت من الخشب ، وتغيير المنبر والمآذن وانتهى العمل فى أواخر سنة ٨٨٧هـ فجاء فى غاية فى الحسن، من أجل الأبنية وأعظمها حتى قيل أن السلطان صرف على بنائه نحوًا من مائة ألف دينار " .

– المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٨٧ – ١٨٨

– إسماعيل أحمد إسماعيل والنبوى حبر سراج ، المسجد النبوى الشريف ومزارات أهل البيت ، ١٩٧٤م ، ص٣٤

– سعاد ماهر : مساجد فى السيرة النبوية ، ١٩٨٧م ، ص١٠٠

(٣٤) السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، حـ٢ ، ص٦٤١ - ٦٤٣

(٣٥) ابن جبير : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، ١٧٣

- ابن بطوطة : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، ص١١٨

(٣٦) السخاوى : المصدر السابق ، حـ٦ ، ص٢٠٦

(٣٧) الرباط ، هو بناء معمارى مأخوذ من الكلمة العربية المرابطة ، وهى بقاء المجاهدين ومرابطتهم فى الحصون والقلاع والثغور للحراسة وقد نشأت هذه الربط فى أوائل العصر الإسلامى ثم تحولت الربط بعد ذلك من مبانى حربية إلى دينية لايواء الزهاد والمتصوفين المنقطعين للعبادة والعلم .

- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، حـ٢ ، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ، ص٤٢٨

- المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، حـ١ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٩م ، ص١٨٢ ، (هامش ٤) .

- سعاد ماهر محمد : مشهد الإمام على فى النجف وما به من الهدايا والتحف ، دار المعارف ، ١٩٦٨م ، ص٣٨١

- محمد توفيق بلبع : نشأة الرباط وتطورة وأهمية نظام المرابطة فى تاريخ المسلمين ، جمعية الآثار بالإسكندرية ، ١٩٦٨م .

- سعاد ماهر : العمارة الإسلامية على مر العصور ، حـ٣ ، دار البيان العربى ، جدة ١٩٨٥ ، ص١٦٨ - ١٦٩

(٣٨) السخاوى : المصدر السابق ، نفس الصفحة .

- ابن الغزى : المصدر السابق ، حـ١ ، ص٢٩٩

(٣٩) ابن العيدروس : المخطوط السابق ، ورقة ٢٢

- المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٣

- ابن الشحنة ، " البدر الزاهر فى نصر الملك الناصر محمد بن قايتباى " مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم (حـ١٢٧٣٧) ، ورقة ٢٥

- ابن العماد المصدر السابق ، حـ٨ ، ص٧

(٤٠) ابن إياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٠٣ - ٢٠٤

(٤١) كانت الشمعدانات توضع فى المساجد ، وعادة ما كان يوضع اثنان فخمان على جانبى المحراب .

- أرنست كونل ، الفن الإسلامى ، ترجمة د. أحمد موسى ، مطبعة أطلس ، ١٩٦١ ، ص١٢٠

(٤٢) محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ، مصر ، ١٣٢٩هـ ، ص٢٤٨ - ٢٥٠

- ALYBEY BAHGAT, HISTOIRE DE LA HOUDYRA MEDINE OU SAILE FUNERAIRE DE PROPHETE A PROPOS D'UN CHANDLIER OFFERT PAR QAYT BAY LE CAIRE, 1944, P.74.

(٤٣) رقم السجل : ٤٠٧٢ ارتفاعه : ٤٨ سم

قطر القاعدة : ٣٨ سم قطر الرقبه : ١١ سم

- WIET. G, CATALOGUE DE GENERAL DU MUSEE ARAB DU CAIRE, OBJETS EN CUIVRE, LE CAIRE, 1932, PP. 107 - 9, PL.XXX III

- ALY BEY BEAHGAT, OP. CIT, PP. 73 - 4 .

- حسين عليوه : المعادن ، القاهرة تاريخها ، فنونها وآثارها ، ص٣٨٢ - ٣٨٣ ، (شكل ٩٥) .

- عائشة التهامى : التحف الفنية فى عهد السلطان قايتباى فى ضوء مجموعات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية آداب ، جامعة طنطا ، ١٩٩١م ، ص٢٥٥ - ٢٥٧ ، (صوره ١١٥ - ١١٦).

(٤٤) كان لنزول القرآن الكريم على النبى ﷺ ، باللغة العربية تأثير قوى لدفع المسلمين للعناية بالخط العربى فى فنونهم ، فاستطاعوا بجهودهم التى بذلوها فى هذا الشأن مضاف إليها طبيعة الخط العربى وأشكال حروفه ، أن يصلوا بفن الخط إلى اسمى مراحل الازدهار، كما استطاع رجال الفن أن يضعوا لهذا الخط وتلك الكتابة قواعد وأصول روعى فيها أن يؤدى صور الحروف حسنا فى العين شبيها بحسن مخارج اللفظ العذب عندالسمع . ويعتبر العصر المملوكى العصر الذهبى للخط النسخ وخاصة ما عرف من فروعه باسم الخط الثلث ، وقد أهتم سلاطين المماليك بالخط العربى اهتمامًا كبيرًا فأنشاوا المدارس لتعليمه وتحسينه . والدليل على ذلك كثرة ما وصلنا من عمائرهم وتحفهم الفنية المختلفة التى ازدانت كلها بالكتابات العربية ذات الخط الثلث .

- أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، مدخل ، ١٩٦٥م ، ص٤٦
- محمد عبد العزيز محمود : تطور الخط العربى فى مصر فى عصرى الأيوبيين والمماليك، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٤م، ص٢٣٨-٢٤٢
- جروهمان (أدولف) : النسخ والثلث ، مقالة بمجلة المورد ، المجلد ١٥ ، العدد ٤ ، العراق ، ١٩٨٦م ، ص١١١ - ١٢٢
- حسن الباشا : الخط الفن العربى الأصيل ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص٢٣
- حسين عليوه : الخط ، مقالة من القاهرة تاريخها فنونها . آثارها ، ص٢٧٩

(٤٥) سلطان الإسلام والمسلمين ، إن إضافة لفظ " السلطان " إلى " الإسلام والمسلمين " يعطى الملقب صفة دينية إسلامية ، إذ تجعله المسلم الأول الذى أختير لتأييد الإسلام والانتصار للمسلمين . وقد جاء اللقب ومترادفاته كأثر لتخلى الخلفاء عن حماية الدين لرجال الدولة من السلاطين . ويعتبر هذا اللقب من أعلى الألقاب المركبة لسلاطين المماليك الذين اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام بعد القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ .

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى تاريخ والوثائق والآثار ، ص٣٣١ - ٣٣٣

(٤٦) محمد عبد العزيز محمود : تطور الخط العربى فى مصر ، ص٢٤٤

(٤٧) رنك كتابى : الرنك كلمة فارسية الأصل تنطق (رنج) وتعنى اللون ، ولكنها عربت وأصبحت بمعنى الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له ، وقد لعبت الرنوك دورًا مهماً وكبيرًا فى العصر المملوكى لم تلعبه من قبل ، لما تميز به هذا العصر من رقى ورفاهية وثراء انعكس أثره على أمرائهم وسلاطينهم . وقد كانت الرنوك فى العصر المملوكى الأول (البحرية) ، أمرا شائعًا ، فكان لكل سلطان رنكًا مميزًا له إما بصورة أسد أو زهوة أو غير ذلك ، أما فى العصر المملوكى الثانى (الجراكسه) فقد كانت الرنوك كتابية وهى خاصة بالسلاطين تسجل أسماؤهم وألقابهم مصحوبة ببعض العبارات الدعائية لهم ، وقد كان رنك السلطان قايتباى كتابيًا ظهر على معظم منشآته المعمارية

وتحفة التطبيقية ، حيث ينقسم الرنك إلى ثلاث مناطق ، المنطقة العليا : أبو النصر قايتباى ، الوسطى : عز لمولانا السلطان الملك الأشرف ، السفلى : عز نصره ، مع وجود بعض الزخارف البنائيه ذات الورقة ثلاثية التبلات .

- VAN BERCHEM, METERAUX POUR UN CORPUS INSRIPTIONUM ARABICARUM, EGYPTE, I, PARS, 1903, P. 325.

- القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٦١ - ٦٢

- MAYER, SARCENIC HERALDRY, OXFORD UNIVERSITY PRESS, 19333, P. 37.

- LANE POOLE THE ART OF THE SARACENS OF EGYPT, LONDON, 1866, P. 22.

- ESIN ATIL, ART OF THE MAMULUKS, WASHINGTON, 1981, P. 240.

- جمال محمد محرز : الرنوك المملوكية ، مجلة المقتطف ، العدد الخامس ، المجلد ٩٨ ، ١٩٤١م ، ص٤٦٦

- أحمد عبد الرازق أحمد :الرنوك على عصر سلاطين المماليك ، مجلة الجمعية المصرية للدرسات التاريخية ، المجلد ٢١ ، ١٩٧٤م ، ص٦٧ - ٩٣

- مايسة داود الرنوك الإسلامية ، مجلة الدارة ، العدد الثالث ، السنة السابعة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص٢٩ - ٣٠

(48) FARID SHAFII, SIMPLE CALYX ORNAMENT IN ISLAMIC ART, CAIRO. UNIVERSITY PRESS, 1927, PP. 142 - 144.

(٤٩) العادل المجاهد : العادل هو اسم مشتق من أسماء الله الحسنى ، وقد لقب به الكثير من الملوك والسلاطين والحكام ونحوهم من ولاة الأمور ، وهو من أعلى الصفات لهم ، لأنه بالعدل تعمر الممالك ويأمن الناس وتصلح أمور البلاد ، وقد عرف هذا اللقب فى العصر المملوكى ، فأطلق على ملوكهم وسلاطينهم ووجد على الكثير من نقوشهم وفنونهم . أما لفظ المجاهد ، فقد استمد هذا اللقب من تعاليم الإسلام الأولى كما بينها القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، حيث ذكر الجهاد والمجاهدون فى آيات قرآنية كثيرة ، ويعتبر المجاهد اختصارًا للجهاد فى سبيل الله " المجاهد فى سبيل الله " وما أشبه ذلك ، وقد أطلق هذا اللقب على الكثير من سلاطين المماليك وإن إضافة كلاً اللفظين العادل والمجاهد إلى ألقاب السلطان قايتباى تعنى أنه كان عادلاً فى حكمه ومجاهدًا فى سبيل الله .

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص٣٨٨ ، ص٤٥١ - ٤٥٢

(٥٠) ويذكر السمهودى حرص سلاطين المماليك ورعايتهم واهتمامهم بالحرم النبوى الشريف يتجلى ذلك فى حبس الكثير من أوقاف مصر عليه ، ومنها الشموع التى بلغت مجموعها مائة وستين شمعة بين كبار وصغار ، وذلك بصفة سنوية ، بالإضافة إلى البخور بأنواعه المختلفة - والتى كانت تصل منها كل عام علبة ضخمة فيها مائه مثقال منه لتجمير المسجد .

- السمهودى : نفسه ، جـ٢ ، ص٦٧١ - ٦٧٢

(٥١) رقم السجل : ٤٢٩٧ ارتفاعه : ٤٨سم قطر القاعدة : ٣٩,٥سم .

- WIET, OBJECTS EN CUIVRE, NO - 4297, PL XXXIV GREAT BRITAN, 1976.
- THE ART OF ISLAM, P. 195, NO-220 .
- ESIN ATIL, ART OF THE MAM LUKS, PP. 100 - 1, PL. 34.

(٥٢) وقد نقش فى الشمعدان كلمة " إسلام " بدلاً من " الإسلام " ، وهناك اختلاف ثانى وهو نقش عبارة " عز نصره " فى النص الكتابى للشمعدان السابق ، ولم تكتب أو تنقش على هذا الشمعدان .

(٥٣) محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ، ص٢٤٨ - ٢٥٠

- سعاد ماهر : مساجد فى السيرة النبوية ، ص٩٩ - ١٠٠

(٥٤) على السيد على : الحياة الثقافية فى المدينة المنورة عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص٣٥

(٥٥) السمهودى : نفسه ، جـ٢ ، ص٥٨٦ - ٥٨٨

(٥٦) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الزهور ، جـ٣ ، ص٣٠٤

(٥٧) كانت الزخرفة بطريقة الضغط تتم قبل تركيب الكسوة الجلدية على الكتاب ، وهى نوعان : الضغط بالقوالب الباردة أى أن الفنان أو الصانع كان يضغط بقوالب معدنية - منقوش عليها الرسم الزخرفى المطلوب - على الجلد وهو مبلول . أما الضغط بقوالب ساخنة - وهو السائد فى التجليد الإسلامى عامة والعصر المملوكى خاصة - فهو يعد الأكثر وضوحًا وبروزًا . وقد تطورت وتقدمت زخرفة القوالب فى العصر المملوكى وتنوعت أشكالها وتباينت نقوشها.

- سهام المهدى : تجليد الكتب فى مصر فى العصر المملوكى ، ص٥٥ - ٥٨

(٥٨) رقم السجل : ١٢٦ أبعاده : ١٠٤,٥ × ٦٨,٥ سم عدد ورقاته : ٣٩٣ ورقة مذهبه وملونه .

(٥٩) لقد ترك التصميم الزخرفى لأغلفة المصاحف أثره فى زخرفة كثير من أبواب المساجد المصنوعة من الخشب المصفح بالنحاس ، وترك أثره كذلك فى كثير من رسوم الطنافس والأبسطة المخملية PILE CARPETS التى تفرش وتبسط فى المساجد والقصور .

- محمد عبد العزيز مرزوق ، المصحف الشريف ، ص١٢٧ - ١٢٨

(٦٠) إن من أحب الألوان إلى الفنانين المسلمين الذين أبدعوا زخرفة المصاحف وكتابتها هما اللونين الأزرق والذهبى ، فقد لعب هذان اللونان دورًا كبيرًا وتأثيرًا عظيمًا فى زخارف الصفحات الأولى والأخيرة من المصاحف الشريفة الأثرية .

- المرجع السابق ، ص١٠٥ - ١٠٧

(٦١) خط الطومار ، مشتق من خط النسخ الفنى ، وقد تولد منه خط الثلث أى خط الطومار ، ويسمى كذلك لأن العرب كانت تكتب به الدرج وهو الملف المتخذ من الورق أو البردى ، وكان سدس هذا الدرج أو الملف يسمى طومار . - نفسه ، ص٨٣ .

- كانت المعارضة قوية فى زخرفة الصفحات الأولى التى تسبق النص القرآنى أو التى تحوى الفاتحة وأول سورة البقرة أو التى توجد فى الصفحات الأخيرة من المصحف ولكن هذه الزخرفة كان هدفها الجمال الفنى ليس إلا .

- محمد عد العزيز مرزوق : المصحف الشريف ، ص١٠١ ، ١٠٢

(٦٣) آية ١١٥ من سورة الأنعام .

(٦٤) يبين زخرفة آخر ورقة من الصحف ، وكذا اسم الخطاط وتاريخ خطة .

شمعدانان من النحاس الأصفر أوقفهما السلطان قايتباى

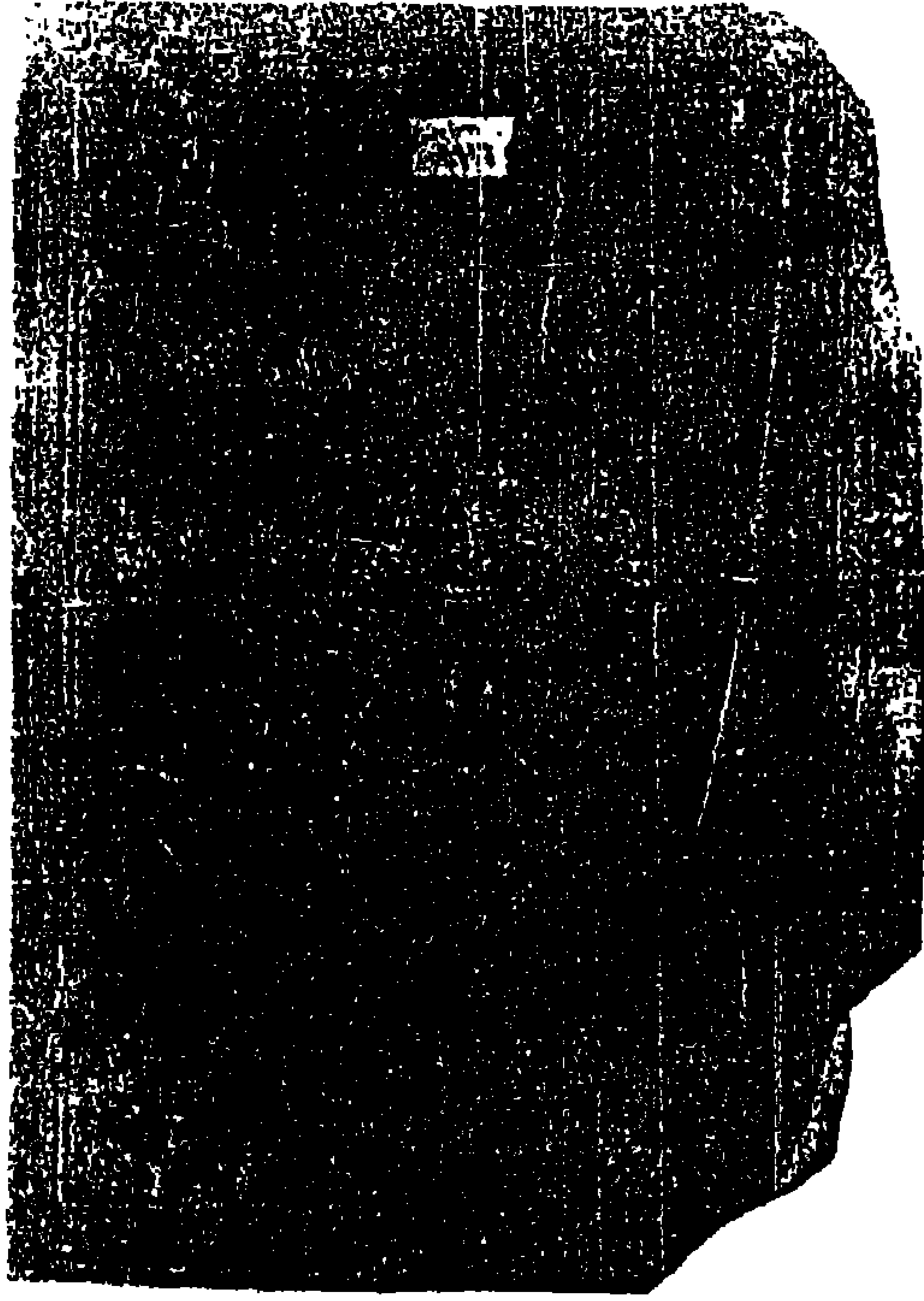
على الحجرة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة .



(صورة ١)

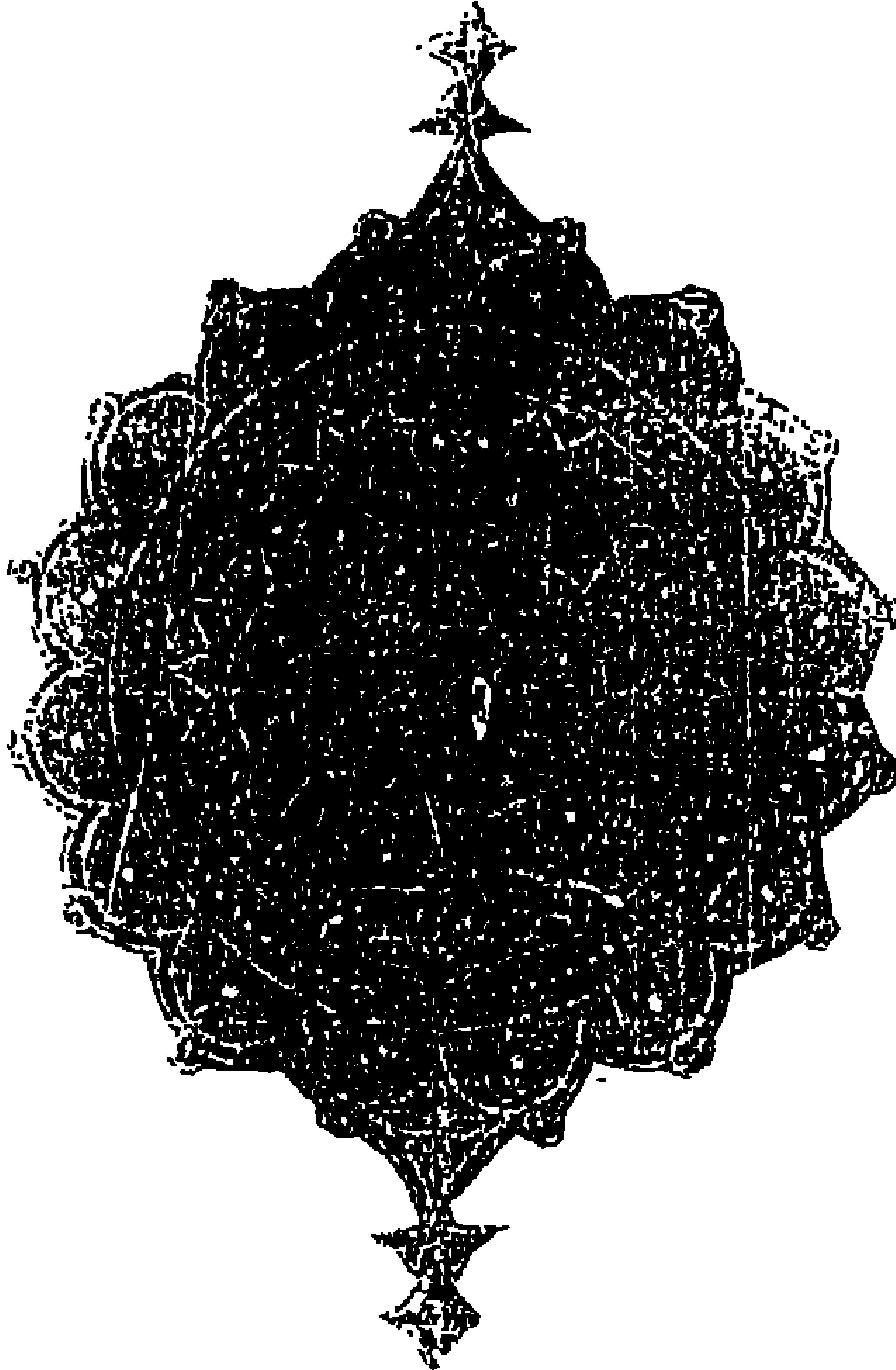


(صورة ٢)



(صورة ٣)

غلاف مصحف شريف أوقفه السلطان قايتباى على الحجرة النبوية بالمدينة المنورة



(صورة ٤)

زخرفة الجامة التى تتوسط غلاف المصحف السابق

(شكل ١)

أشكال مختلفة للرنك الكتابى السلطان قايتباى



(أ)



(جـ)



(ب)



مصادر ومراجع البحث

المصادر العربية المخطوطة :

١ - ابن الجيعان (شرف الدين علم . ت ٨٨٥هـ)
القول المستظرف فى سفر مولانا الأشرف
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢١٠ تاريخ) ميكروفليم ١٣٩٧٥ .
٢ - ابن الشحنة (مؤلف مجهول) .
البدر الزاهر فى نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباى .
نسخة محفوظة بدار الطتب المصرية تحت رقم (ح١٢٧٣٧) ميكروفليم ١٨٤١٦ .
٣ - ابن العيدروس (عبد القادر الهندى . ت١٠٣٨هـ) .
النور السافر فى أخبار القرن العاشر .
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم(ح٩٧٣٣) ميكروفليم ١٠٩٨٩
٤ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ) .
تاريخ الملك الأشرف قايتباى .
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٦١ تاريخ) ميكروفيلم ١٦٣٤١
٥ - المقدسى (مرعى بن يوسف ٩٢٧هـ) .
نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين .
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٠٣ تاريخ تيمور) ميكروفيلم ١٣٣٠٣

المصادر العربية المطبوعة :

١ - ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣هـ/١٥٢٤م) .
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، حققه وقدم لـه د. محمـد مصطفـى ، خمسـة أجزاء الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م .
٢ - ابن بطوطة (عبد الله بن محمد ت ٧٧٧) .
رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٢م .
٣ - ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف ت ٧٨٤هـ / ١٤٦٩م) .
النجوم الزهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، حققه د. جمال محرز ، أ. فهيم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١م .
٤ - ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) .
رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤م .
٥ - ابن العماد (عبد الحى بن أحمد ت١٠٨٩هـ) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ١٨ أجزاء القاهرة ، ١٣٥٠هـ .
٦ - ابن الصيرفى (على بن داود الجوهرى ت٩٠٠هـ) .
أنباء الهصر بأبنـاء العصـر ، تحقيـق د. حسـين حبشـى ، دار الفكـر العربـى ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
٧ - على باشا مبارك .
الخطط التوفيقية الجديـدة لمصـر القـاهرة ومدنهـا وبلادهـا القديمـة والشـهيرة، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٩م .
٨ - الغزى (نجم الدين الغزى) .
الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، حققه جبرائيل سليمان جبور ، جـ١ ، بيروت ، ١٩٤٥م .
٩ - السخاوى (شمس الدين محمد ت ٩٠٢ هـ) .
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، جـ٦ ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ ،

١٠ - السمهودى (نور الدين على بن أحمد ت ٩١١هـ) .
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الباز للنشر ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
١١ - القلقشندى (أبو العباس أحمد ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) .
صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، دار الكتب المصرية ، ١٤ جزء ، القاهرة ، ١٩١٩ - ١٩٢٢م .
١٢ - المقريزى (تقى الدين أحمد ت٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ .
١٣ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ، جـ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ، ١٩٣٩م .

المراجع العربية الحديثة :

١ - أحمد تيمور (باشا) .
المهندسون الإسلاميون ؛ من مجلة الهندسة ، العدد الثانى ، فبراير ١٩٢٣م.
٢ - أحمد عبد الرازق أحمد (دكتور) .
الرنوك على عصر سلاطين المماليك ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلة ٢١ ، ١٩٧٤م .
٣ - أحمد عبد الغفار عطار .
الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، بيروت ١٠٧٨م .
٤ - أحمد فكرى (دكتور) .
مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ، ١٩٦١م .
٥ - إسماعيل أحمد إسماعيل والنبوى جبر سراج .
المسجد النبوى الشريف ومزارات أهل البيت، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٤م.
٦ - جروهمان (أدولف) .
النسخ والثلث ، مجلة المورد ، المجلدة ١ ، العدد٤ ، العراق ، ١٩٨٦م .

٧ - جمال محمد محرز (دكتور) .
الرنوك المملوكية ، مجلة المقتطف ، العدد ٥ ، المجلد ٩٨ ، ١٩٤١م .
٨ - حسن الباشا (دكتور) .
الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦م .
٩ - الخط الفن العربى الأصيل ، مجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، ١٩٦٨م .
١٠ - الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والاثار ، القاهرة ، ١٩٨٩م.
١١ - حسن عبد الوهاب .
تاريخ المساجد الآثرية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٤٦م .
١٢ - كسوة الكعبة الشريفة ، مجلة منبر الإسلام ، العدد ٤ ، ١٣٨٢ﻫ
١٣ - حسنى محمد نويصر (دكتور) .
منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م .
١٤ - حسين عبد الرحيم عليوه (دكتور) .
المعادن ، مقالة فى القاهرة تاريخها فنونها آثارها ، مطابع الأهرام التجارية ، ١٩٧٠م .
١٥ - الخط ، مقالة فى القاهرة . تاريخها فنونها آثارها مطابع الأهرام ، التجارية ، ١٩٧٠ م .
١٦ - زكى محمد حسن (دكتور) .
فنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٨٤م .
١٧ - سعاد ماهر محمد (دكتور) .
مشهد الإمام على فى النجف ومابه من الهدايا والتحف ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م .

١٨ - مساجد مصر أولياءها الصالحون ، خمسة أجـزاء ، المجلس الأعلـى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨١م .

١٩ - العمارة الإسلامية على مـر العصـور ، جـ١ ، دار البيـان العربـى ، جـدة ، ١٩٨٥م .

٢٠ - مساجد فى السيرة النبوية ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ، ١٩٨٧م.

٢١ - سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) .

الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م .

٢٢ - العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

٢٣ - سهام محمد المهدى (دكتور) .

تحديد الكتب فى مصر فى العصر المملوكى مخطوط رسـالة ماجستير ، كليـة الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤م .

٢٤ - عائشة عبد العزيز محمد التهامى (دكتور) .

التحف الفنية فى عهد السـلطان قايتبـاى فـى ضـوء مجموعـات متحـف الفـن الإسلامى ، بالقاهرة ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب، جامعة طنطـا، ١٩٩٢م .

٢٥ - عبد الرحمن زكى (دكتور) .

موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩م.

٢٦ - بناة القاهرة فى ألف عام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م.

٢٧ - عبد اللطيف إبراهيم (دكتور) .

وثيقة السلطان قايتباى ، أوقـاف ٨٨٧ ، المؤتمـر الثـالث للآثـار فـى البـلاد ، القاهرة ، ١٩٦١م .

٢٨ - على حسنى الخربوطلى .

الكعبة على مر العصور ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

٢٩ - على السيد على (دكتور) .

الحياة الثقافية فى المدينة المنورة عصر سلاطين المماليك معهد الدرسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٩٩٤م .

٣٠ - فييت (جاستون) .

القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة د. مصطفى العبادى ، كتاب اليوم، العدد ٣٠٨ ، ١٩٩٠م .

٣١ - كمال الدين سامح (دكتور) .

العمارة الإسلامية فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

٣٢ - لين بول (ستانلى) .

سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

٣٣ - مايسة محمود داود (دكتور) .

الرنوك الإسلامية ، مجلة الدارة ، العدد ٣ ، السنة ٧ ، فبراير ١٩٨٤م .

٣٤ - محمد توفيق بلبع .

نشأة الرباط وتطورة وأهمية نظام المرابطة فى تاريخ المسلمين ، دراسات آثرية وتاريخيه ، جمعية الآثار بالإسكندرية ، ١٩٦٨م .

٣٥ - محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) .

المصحف الشريف دراسة تاريخيه وفنية ، المكتبة الثقافية (٣٢٤) ، ١٩٧٥م.

٣٦ - محمد عبد العزيز محمود (دكتور) .

تطور الخط العربى فى عصرى الأيوبيين والمماليك ، مخطوط رسالة ماجستير ، ١٩٧٤م ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

٣٧ - محمد لبيب البتنونى .

الرحلة الحجازية ، مصر ، ١٣٢٩هـ .

٣٨ - محمد مصطفى نجيب (دكتور) .

العمارة فى عصر المماليك ، مقالة فى القاهرة . تاريخها . فنونها . آثارها . ١٩٧٠م .

المرجع الأجنبية

1 - **Allan,W " James " :**

- Traesures of Islam, Metalwork, Geneva, 1985.

2 - **Aly bey Bahgat :**

- Histoire du la Houdjra du Meine au Saile Funeraire du Prophete a propos d'unchsandelier offert par Qaut - Bay, le Caire, 1944.

3 - **Esin Alil :**

- Art of the Mamluks, Washington, D. C., 1981.

4 - Encydopede de L'Islam. Tomell, Paris, 1972.

5 - **Farid Shafii :**

- Simple Calyx Ornament in Islamic Art, Cairo University Press 1927.

6 - **Lane Poole St :**

- The Art of the Saracens in Egypt, London, 1866.

7 - **Mayer, L. A :**

- Saracenic Heraldry, Oxford Unversity Pres, 1933.

8 - Islamic Metal Workers and their works, Geneva, 1959.

9 - The Art of Islam, The Arts Council of Great Britain, 1976.

10 - **Van Berchem (max) :**

- Meteriaux pour un corpus Inscriptionum, Egypte I, Paris, 1903.

11 - **Wiet, G, :**

- Catalogue General du Musee Arabe du Caire, Objects en Cuirre Cairo, 1932.

آثار درب الهجرة النبوية
فى عصر الدولة العثمانية

دكتور جمال محمود مرسى(*)

خرج النبى مهاجرًا وصديقه ورمى عيون الكفر بالحصوات
أغشى الإله عيونهم لم يبصروا نور النبى مهاجرًا بثبات(١)

أسهمت مع الإدارة العامة للآثار والمتاحف السعودية ، فى الكشف ميدانيًات عن بعض المناطق الآثرية ببلاد الحجاز(٢) ، مما يسر لى دراسة معالمها ومواقعها الإسلامية الباقية عبر طريق جبل الغاير أو المغاير التى سلكها الرسول ﷺ ، عند هجرته الميمونة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فى السابع عشر من شهر ربيع الأول (٩ سبتمبر عام ٦٢٢م) . وهو الطريق الشهير أيضًا بالطريق المدنى، لإيثار أهل المدينة المنورة له عند رحيلهم إلى مكة المكرمة ، لقصر مسافته عن كل من الطريق السلطانى والفرعى والشرقى(٣) . هذا فضلاً عن أن هذا الطريق من ألطف دروب بلاد الحجاز وأكثرها إئتناسا بينابيعه وعيونه وحفائره العذبة الجارية، وآباره المتعددة الغزيرة المتقنة ، وواحاته الكثيرة ومزارعه وبساتينه المونقة(٤) .

وأتناول فى هذا البحث ، مكتشفات المنشآت المعمارية الدينية والمدينة والدفاعية واللقى الفخارية الآثرية(٥) ، المتباينة الأنواع والزخارف والأشكال والوظائف ، والتى عرفتها الحضارة الإسلامية منذ أن توطدت أركانها ، وطوال عصورها المتعاقبة ، وزخرت بها مواضع درب الهجرة النبوية فى العصر العثمانى ، لتوفير الاحتياجات والحماية للمرتحلين بين الرحاب الطاهرة فى مكة المكرمة

---

* استاذ الآثار الإسلامية المساعد ورئيس قسم الآثار – كلية الآداب – جامعة جنوب الوادى.

والمدينة المنورة(٦) . وقد أمكنني حصرها وتصنيفها وتسجيلها وتوثيقها ، إعتمادًا على رؤيتى الذاتية ، ومصادرها ومراجعها العربية والأوربية المتخصصة ، مستهدفا التعريف بمواضعها ، ووصفها ، وإبراز خصائصها من حيث التخطيط ونظام البنيان، وعناصرها المعمارية والزخرفية وأساليبها الفنية . وملحق بالبحث بيان بمواضعها ، وبجموعة من مخططاتها المعمارية ، وصورها الفوتوغرافية ، ورسومها التوضيحية ، فضلاً عن خريطة للدرب .

يتجه مسار درب الهجرة النبوية من مكة المكرمة ، ناحية الشمال الغربى ، مرورًا بموضع ذى طوى الذى بات فيه النبى محمد ﷺ واغتسل بمائه ، وجنان مكة المكرمة المسماة بالزاهر ، وهو وادى بين جبلين ، يضم قبور لبعض الصحابة ، فالتنعيم أو العمرة ، وفيه مساجد ثلاثة تنسب للسيدة عائشة ﷺ ، ثم موضع سرف ، حيث قبر ميمونة الهلالية ، إحدى زوجات النبى محمد ﷺ ، وموضع مر ، وكان لهما مكانتهما التجارية عبر الدرب(٧) ، فوادى مر الظهران أو وادى بطن مر أو وداى فاطمة أو وادى الشريف ، وهو وادى منخفض فسيح ، يضم عددًا من القرى ، أشهرها قرية الجموم ، وكان يوجد بها سوق تجارى . ثم موضع المحيسنية ، فقرية عسفان ، وكانت تقام بها سوق تجارية أيضًا(٨) ، ثم ثنية عسفان أو عقبة مدرج عثمان ، وهى عبارة عن وادى بين جبلين(٩) ، فوادى غيران .

ثم يتخذ الدرب مسارًا ناحية الشمال ، مرورًا بقرية خليص أو الدف أو النتوجه ، وكانت بها سوق حافلة(١٠) .

ويواصل الدرب اتجاهه نحو الشمال الغربى ، مرورًا بالقضيمة ، وموضع سعبر ، فوادى رابغ الذى يعد من أخصب أودية الحجاز ، وتنتهى إليه جداول المياه عقب الأمطار الغزيرة التى تأتيه من أماكن بعيدة ، ويصل إلى رابغ التى كان يقام بها سوق عظيمة ، حيث كان يخرج أهلها من أعراب حرب وغيرهم ، لبيع ما يوجد عندهم من ماء وطعام(١١) .

ثم يتجه الدرب نحو الشمال الشرقى ، ويمر بقرية الأبواء(١٢) ، وبها قبر آمنه بنت وهب ، أم النبى ﷺ ، فبئر مبيرك ، ثم رصفة ، وبها حفائر ماء عميقة وعذبة ، وجبل الغاير أو المغاير ، وعنده ماء دائم عذب ، فبئر الماشية ، وقرية أبيار على أو ذى الحليفة ، فعروة ، ثم جبل مفرح الذى ترى من أعلاه قباب المدينة المنورة وأنوراها (انظر الخريطة)(١٣) .

وتتمثل مكتشفات المنشآت المعمارية الدينية التى شيدت فى العصر العثمانى على جنبات درب الهجرة النبوية ، فى مسجد الروضة الذى يقع على بعد (٦ كم) شمالى شرق قرية الجموم(١٤) ، بوسط فيضة تحيط بها بعض الأودية الصغيرة التى تصب فى وادى فاطمة (مخطط - ١ ، صورة - ١) ، وهذا المسجد مستطيل الشكل (١١,٩٠ × ٧,٥٠م) ، مشيد بأحجار الحرة السوداء المتوفرة بالمنطقة ، وملاط من طمى الوادى والجير (جص) ، للربط بينها وتغطيتها من الداخل والخارج فى أجزائه العلوية ، فضلاً عن أرضيته ، ويتكون من أربع بلاطات مستطيلة ، مغطاة بأربع قبوات مدببة(١٥) ، متعامدة على جدار القبلة الذى يبلغ سمكه (٠,٧٥م) ، ويضم محرابين ، يتخذ الواحد منهما مسقطًا نصف دائرى ، قطره (١,٠٠م) ، وارتفاعه (٢,٤٠م) ، وتتوجه نصف قبيبة مدببة . ويبرز عن سمت الجدار للخارج ، متخذا مسقطًا مستطيلاً (١,٣٥ × ٠,٣٥م)(١٦) - (صورة - ٢) ، وتفصل البلاطات الأربع هذه ثلاث بائكات ، قوام الواحدة منها ثلاث دعامات ، الوسطى منهم ذات مسقط مستطيل (١,٨٠ × ٠,٨٠م) ، والأخرتان تبرزان للخارج ، وكل منهما ذات مسقط مربع (٠,٧٠ × ٠,٧٠م) . ويعلوها عقدان مدببان(١٧) ، بينما يدعم كل من الجدارين الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى ، واللذان يبلغ سمك الواحد منهما (٠,٨٥م) ، دعامتان ، كل منهما ذات مسقط مستطيل (٠,٧٠ × ٠,٦٠م) . وترتفع الدعامات العشر هذه لنحو إرتفاع المسجد (٦,٠٠م) ، وتنتهى بما يشبه نصف عقد مدبب مصمت .

ويدخل للمسجد بواسطة مدخلين مسطحين ومباشرين فى الضلع الشمالى الغربى الذى يبلغ سمكة (٠,٧٥م) ، وهما مقابلان للمحرابين ، عرض الواحد منهما (١,٠٠م) ، وارتفاعه (٢,٤٠م) ، ويعلوه عقد مدبب (صورة - ١) . كما يتخلل كل ضلع من أضلاع المسجد الأربعة شباكان مجاوران لأركانه ، عرض الواحد منهما (٠,٥٥م) وارتفاعه (٠,٨٠م) ، ويعلوه عتب حجرى مستقيم .

وتعتبر بقايا قصر العابدية بمكة المكرمة من مكتشفات المنشآت المعمارية المدنية بدرب الهجرة النبوية(١٨) ، وقد أنشأه أمير مكة المكرمة عبد الكريم بن محمد بن يعلى بن حمزة بن موسى بن بركات بن محمد أبونمى الثانى ، المتوفى فى الخامس من ذى القعدة عام ١١١٦هـ (١ مارس عام١٧٠٥م) ، وعمره أربعة وستون عامًا(١٩) .

وترتفع بعض بقايا هذا القصر الحصين عن مستوى سطح الوادى بنحو (٧,٠٠م) ، وتحتل مساحة مستطيلة (٩٠,٠٠ × ٥٠,٠٠م) - (مخطط - ٢) ، ويشاهد بينها الجدار الشرقى ، وجزء من الجدار الغربى ، وأجزاء من أبراجه الركنية المستديرة الأربعة التى يصعب التأثير فيها (صورة - ٣) ، قوام الواحد منها ثلاثة مستويات . ويدخل إلى المستوى الأرضى ، المغطى بقبة ضحلة(٢٠) ، بواسطة باب صغير ، بينما يصل إلى المستوى الثانى بواسطة مدخلين ، يأتى إليهما بواسطة الممر المكشوف الذى يعلو جدران القصر الخارجية ، للمراقبة والدفاع والمناورة والتنقل بين الأبراج ، أما المستوى الثالث ، فيتمثل فى الدروة التى تعلو البرج . ويلاحظ أن جدران القصر الخارجية والأبراج التى يبلغ سمكها (٠,٩٠م) ، مزودة على مستويين بفتحات للمراقبة والسهام والبنادق ، ويعلو كل منها عتب حجرى مستقيم ، ويرتفع بعضها عن مستوى الأرض بنحو (٢,٠٠م) ، والبعض الآخر يرتفع لنحو (٥,٠٠م) ، بينما يبلغ سمك جدران القصر الداخلية (٠,٦٠م) ، وقد استخدمت الميدات الخشبية لتقوية الجدران والربط بينها فى بعض أجزاء

جدران القصر المرتفعة والممتدة ، والمشيدة من أحجار الحرة السوداء ، وملاط من طمى الوادى والجير (جص) ، كذلك غطيت جدران القصر من الداخل بطبقة من الجص ، كنوع من الزخرفة ، ويوجد بالجهة الجنوبية للقصر جدار طوله (١٥,٠٠م) مزود بقنوات مياه رأسية ، مشابهة للقناة الأفقية التى تقع على بعد (١ كم) إلى الغرب من هذا القصر ، عرضها (٠,٥٠م) وعمقها (٠,٧٠م) - (صورة - ٤) ، وربما كانت تستخدم هذه القنوات الرأسية والأفقية فى تزويد القصر بما يلزمه من مياه .

هذا إلى جانب مسطح مستطيل الشكل (١٠٠,٠٠×٥,٠٠م) من أحجار الشيست والكوارتز والبازلت التى يتخذ معظمها شكلاً مربعًا (٠,٣٠×٠,٣٠م) ، والمتراص بعضها بعناية فى وادى القحا بمنطقة رابغ (٢١) ، والتى تعلو عن مستوى سطحه بـ (٠,١٠م) ، وقد ملئت الفراغات فيما بينها بالحصباء (صورة - ٥) .

كذلك تتمثل مكتشفات المنشآت المعمارية التى حفرت بمواضع درب الهجرة النبوية فى العصر العثمانى ، فى بعض الآبار والأحواض والبرك والقنوات، والمشيدة بالأحجار الجرانيتية الحمراء ، والرملية المائلة للإحمرار ، والجيرية البيضاء، وأحجار الحرة البركانية والبازلتية السوداء ، ويربط بينها ملاط من طمى الوادى والجير (جص) ، وتتخذ الآبار شكلاً أسطوانيًا ، وتتراوح أقطارها ما بين (١,٥٠م) ، (١٥,٠٠م) ، وسمك جدرانها ما بين (٠,٣٠م) ، (١,٥٠م) ، وارتفاع حوافها عن مستوى سطح الأرض ما بين (٠,٥٠م) ، (١,٥٠م) وأعماقها حتى مستوى سطح الماء ما بين (٥,٠٠م) ، (٢٥,٠٠م) . ويهبط إلى بعضها بواسطة قطع حجرية ملاصقة لجدرانها من الداخل ، أو يصعد إليها من الخارج ، إما بمجموعتى درج ، أو مجموعة واحدة ، وتعلو بعضها دعامات تحصر بينها قطعًا خشبية لتثبيت حبال رفع المياه ، كما تضم بعض هذه الآثار أحواضا صغيرة مستطيلة الشكل أو تتخذ شكلاً شبه منحرف ، بينما تتخذ البرك شكلاً

مربعًا أو مستطيلاً . وكانت تمتلئ إما بمياه الآبار المجاورة لها ، أو بمياه الأمطار والسيول ، كما تتخذ مقاطع القنوات شكلاً مربعًا (٠,٥٠ × ٠,٥٠) ، كسى من الداخل بطبقة من الجص ، وغطيت بعضها بألواح حجرية، للمحافظة على المياه من التلوث والتبخر .

ومن ذلك آبار مر الظهران أو وادى فاطمة أو وادى الشريف (مخطط - ٣) ، حيث تضم قرية الجموم ثلاث آبار ، مشيدة بالأحجار الرملية والجيرية المتعددة الألوان(٢٢) ، اتخذ ملاطها من طمى الوادى والجير (جص) ، ومازالت مياهها مستغلة حتى الآن ، تعرف البئر الأولى ببئر أبى عروة (صورة - ٦) ، ويبلغ قطرها (٢,٥٠م) ، وسمك جدارها (٠,٧٠م) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بنحو (٠,٩٠م) ، ويبلغ عمقها حتى سطح الماء نحو (١٠,٠٠م) ، وتعلوها دعامتان حديثتا البناء ، مقام بينهما عارضة خشبية لرفع المياه ، وتقع البئر الثانية جنوبى بئر أبى عروة بنحو (٣٠٠م) ، ويبلغ قطرها (٣,٠٠م) ، وسمك جدارها (٠,٨٠م) ، وعمقها حتى سطح الماء نحو (١٥,٠٠م) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ (٠,٩٠م) وتعلوها حافة أخرى مربعة الشكل حديثة البناء (صورة - ٧ ، أما البئر الثالثة فتبعد نحو (٤٥٠م) ، جنوبى شرقى البئر الثانية ، ويبلغ قطرها (١,٥٠م) ، وسمك جدارها (٠,٦٠م) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ (٠,٧٠م) ، أما عمق البئر فيبلغ حتى سطح الماء نحو (٨,٠٠م) - (صورة - ٨) .

هذا إلى جانب بئر المحيسنية التى لا تزال تنبض بالحياة ، على نحو (٢٥ كم) جنوب شرق قرية عسفان(٢٣) ، وهى مشيدة بالأحجار الرملية والجيرية البيضاء ، وملاط يتكون من طمى الوادى والجير (جص) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بنحو (٠,٥٠م) ، ويبلغ قطرها (٣,٥٠م) ، وسمك جدارها (٠,٥٠م) ، وعمقها حتى سطح الماء حوالى (٦,٠٠م) . وتتعامد عليها

عارضة خشبية تمتد من الشرق إلى الغـرب ، مقامـة علـى جزعـى شـجر ، لتثبيـت الحبال المستخدمة فى رفع المياه من البئر ، كما يلتصـق بـالبئر فـى جهتهـا الجنوبيـة حوض صغير للمياه ، يتخـذ شـكلاً شبه منحـرف ، وارتفـاع حافتـه (٠,٢٥م) وسمكها (٠,١٥م) - (صورة - ٩) .

كذلك تشتمل قرية عسفان بوادى غوله الذى يصب فى البحر الأحمر علـى أربع آبار ، أقيمت من الحجر الجيرى ، واستخدم فى ملاطها طمى الـوادى والجير (جص) بطريقة متقنة (مخطط - ٤)(٢٤) ، أشهرها يعرف ببئر التفله (صورة - ١٠) ، ويبلغ قطر فوهتها (١٠,٠٠م) ، وعمقها حتى سـطح المـاء نحـو (٢٥,٠٠م) ، وسمك جدارها (١,٥٠) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ (١,٥٠م) ، ويصعد إليها بواسطة بمجموعتين من الدرج ، بالجهتين الشرقية والغربيـة ، ويشـتمل كل منهما على أربـع درجـات ، أبعـاد الواحـدة (٣,٠ × ٠,٣٠ × ٠,٢٥م) ، تعلو البئر دعامتان حديثتان من الآجـر ، تعلوهمـا عارضـة خشبية ، تتـدلى منهمـا بكرتان معدنيتان ، لرفع دلو المياه .

أما البئر الثانية فتعرف ببئر الجنانية ، وتقع إلى الشمال الشرقى من بئر التفلة، بمسافة (٥٠,٠٠م) ، ويبلغ قطرها (١٥,٠٠م) وعمقها حتى سـطح المـاء نحـو (٢٠,٠٠م) وسمك جدارهـا (١,٥٠م) ، وترتفـع حافتهـا عـن مستوى سـطح الوادى بنحو (٢,٠٠م) ويصعد إليها من الجهة الغربية ، عن طريق أربع درجات ، فى حين يمكن الوصول إلى داخل البئر من الجهـة الجنوبيـة ، عـن طريـق عـدد مـن الدرجات تمتد فى مساحة مستطيلة (١٥,٠٠ × ٢,٠٠م) ، وتنتهـى عنـد بـاب البئر الذى يبلغ اتساعه (١,٥٠م) ويعلوه عقد مدبب (صورة - ١١) .

والبئر الثالثـة ، يطلق عليها اسم بئر مضحى ، وتقع شمال بئر الجنانية بنحـو (١٠٠م) ، ويبلـغ قطـرها (٣,٠٠م) ، وعمقهـا حتـى مستوى سطح المـاء (٥,٠٠م) ، وسمك جدارها (١,٥٠م) ، وتعلـو حافتهـا فـوق مستوى سـطح

الأرض بـ (١,٥٠م) ، ويمكن الصعود إليها من الجهة الجنوبية ، عن طريق أربع درجات ، وتتعامد عليها دعامتان من الآجر حديثتا للبناء ، تعلوهما عارضة خشبية تتدلى منها بكرة معدنية لجذب دلو المياه ، بالإضافة إلى آلة رفع مياه حديثة (صورة - ١٢) .

أما البئر الرابعة ، فتعرف ببئر الشقمة ، وتقع على بعد (٢٠م) جنوب شرقي البئر الأولى (بئر التفلة) ويبلغ قطرها (٣,٥٠م) وسمك جدارها (١,٥٠م) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الأرض بنحو (١,٣٠م) ، وتعلوها دعامتان ، إرتفاع الواحدة منهما (١,٥٠م) ، ويلتصق بجدار البئر من الخارج ثلاثة أحواض صغيرة (١,٠٠ × ٠,٨٠م) ، وحوض رابع ، مربع الشكل (٢,٠٠ × ٢,٠٠م) حديث البناء - (صورة - ١٣) .

ومن ذلك أيضًا بئر وقنوات وبركة خليص ، وتقع هذه البئر بقرية خليص ، في شرق وادى مروانى ، وقد بنيت بالأحجار الجيرية البيضاء والبركانية السوداء ، المختلفة الأحجام والأشكال ، واتخذ ملاطها من طمى الوادى والجير (جص) ، ويبلغ قطر البئر (٢,٥٠م) ، وترتفع فوهتها عن مستوى سطح الوادى بنحو (٠,٦٠م) ، وسمكها (٠,٣٠م) ، ويصل عمقها حتى مستوى سطح الماء (٥,٠٠م) - (مخطط - ٥ ، صورة - ١٤) ، وينساب الماء فى قناة مبنية من الأحجار الجيرية ، ومبطنة من الداخل بطبقة من الجص ، يبلغ إتساعها (٠,٥٠م) وسمك جدارها (٠,٧٠م) ، ومتوسط عمقها (٠,٥٠م) ، وقد غطيت بألواح حجرية ، وتتجه غربًا لنحو (١ كم) ، ويكشف عن مياهها فى نقاط معلومة للاستفادة منها فى السقاية والوضوء ، إلى أن تصب فى بركة مربعة الشكل ، طول ضلعها (٣٥,٠٠م) ، سمك جدارها (١,٠٠م) ، إلا أنها طمرت برواسب مما جرفته السيول من طمى ، وما حملته الرياح من رمال(٢٥) هذا فضلاً عن قناة أخرى مسقوفة أيضًا بألواح حجرية ، ملاصقة لسفوح المرتفعات ، فى جنوب

وادى مروانى ، ترتفع قاعدتها الحجرية إلى (٢,٠٠م) ، ويبلغ عرضها (٢,٠٠م) ، بينما يبلغ إتساع مجراها (٠,٥٠م) ، وعمقه (٠,٥٠م) - (صورة - ١٥) .

هذا إلى جانب بئر قضيمة الذى يقع على بعد (٥٣ كم) جنوب شرق رابغ(٢٦) ، وهى بئر مطوية بأحجار الحرة السوداء ، وملاط من طمى الوادى والجير (جص) ، تحتوى على سلم ذى درجات ست من الخارج (صورة - ١٦) ، ودرجات تسع من الداخل (صورة - ١٧) ، ترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بنحو (١,٢٥م) ، وسمكها (٠,٦٥م) ، وقطرها (٣,٥٠م) وعمقها حتى مستوى سطح الماء نحو (٨,٠٠م) .

وبئر مبيرك ، تقع عند ملتقى فرع وادى النخيل بوادى القحا (صورة - ١٨ (٢٧)) ، وهى بئر مشيدة بأحجار الحرة السوداء ، وملاط من طمى الوادى والجير (جص) ، ترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ (٠,٨٠م) وسمكها (٠,٦٠م) وعمقها حتى مستوى سطح مائها ، (٩,٠٠م) ، وتعلوها أربع دعامات ذات مقاطع مربعة ، ربما كانت تستخدم فى تغطية البئر ، فضلاً عن رفع المياه .

وبئر الماشية(٢٨) ، وتقع جنوب شرق المسيجيد بنحو (٢١كم) ، عند التقاء وادى الجن بوادى ورجان (صورة - ١٩)(٢٩) ، وهى مشيدة بأحجار الحرة السوداء والجيرية البيضاء والرملية المائلة للاحمرار ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ (٠,٨٠م) ، وقطرها (٣,٨٠م) ، وسمك جدراها (٢,١٠م) ويصل عمقها لنحو (٢٠م) ، ويتصل بها من الجهة الشمالية الشرقية ، حوض مستطيل الشكل (١,٥٠ × ٠,٧٠م) ، وعمقه (٠,٥٠م) ، كما يوجد بجهتها الجنوبية الغربية ، حوض صغيرة مستدير الشكل ، قطره (٠,٥٠م) ، وعمقه (٠,٢٠) ، ويخرج منه مجرى ضيق لتصريف المياه المستخدمة ، ويعلو البئر جزعا شجرتين لرفع المياه .

فضلاً عن بئر وحوض وقناة وبركة ، جنوب غرب أبيار على أو ذو الحليفة بنحو (٧كم)(٣٠) - (مخطط - ٦ ، صورة - ٢٠) ، وهى مشيدة بالحجار الجرانيتية الحمراء والبازلتية السوداء ، اتخذ ملاطها من طمى الوادى والجير (جص) ، ويبلغ قطر البئر (٣,٥٠م) ، وسمك جدارها (٠,٩٠م) ، وعمقها نحو (١٠,٠٠م) ، ويتصل بها من الناحية الجنوبية بركة مستطيلة الشكل (٦,٠٠ × ٤,٠٠م) ، مطمورة بالطمى والرمال ، كما يتصل بهذه البئر من الناحية الشمالية ، حوض مستطيل الشكل (٣,٠٠ × ٢,٥٠) ، وعمقه (١,٠٠م) وسمك جداره (٠,٦٠) . وتخرج من ركنه الشمالى الغربى قناة ، كسى مجراها بالجص ، يبلغ طولها (٣,٠٠م) ، واتساعها (٠,٣٠م) ، وسمك جدارها (٠,٦٠م) ، ويرتفع الحوض والقناة عن مستوى سطح البئر بـ (٠,٧٠م) .

وتتمثل مكتشفات المنشآت المعمارية الدفاعية الباقية من العصر العثمانى بدرب الهجرة النبوية فى تلك القلاع الحصينة(٣١) ، المشيدة على تلال وهضاب وجبال يتراوح ارتفاعها عن مستوى سطح ما بين (١٥ - ٥٠م) أو فى وسط المدن ، بالأحجار الجرانيتية الحمراء والبركانية السوداء والرملية والجيرية البيضاء ، المختلفة الأحجام والأشكال ، والمنتظمة فى صفوف . ويربط بينها ملاط شديد الصلابة ، وقوامه طمى الوادى والجير (جص) ، مضاف إليهما أحيانًا كسر الأحجار الناعم . وقد تكسى بطبقة من الجص ، وذلك وفق مخططات معمارية تلائم وظيفتها ، إما مربعة أو مستطيلة الشكل . وتدعم جدران هذه القلاع التى يتراوح سمكها ، بين (٠,٤٥ ، ١,٥٠م) ، أوتار خشبية لتقويتها والربط بين أحجارها ، كما تتخلل أجزاءها السفلية منافذ طولية معقودة للسهام ، وفى العلوية طاقات مربعة أو مستطيلة الشكل ، للمراقبة والإضاءة والتهوية ، ويدخل إلى هذا القلاع عبر ممرات منكسرة ، تتقدمها أبواب ذات مصاريع خشبية(٣٢) ، تؤدى إلى دركاوات ، تكتنف بعضها مصاطب وحنايا وتنتهى بممر . ومن ثم تشكل هذه

الدركاوات والممرات مداخل منكسرة (باشورة) غير مباشرة لهذه القلاع(٣٣) ، فضلاً عن إمكانية الدخول المباشر إليها من خلال الأبواب التى تتصدر بعض جدران هذه الدركاوات . ويتوسطها عادة صحن مركزى مكشوف ، يدور حوله عدد من الوحدات المعمارية ، تتوزع إما على طابق أو طابقين ، يشتمل الطابق الأرضى على حجرات صغيرة ومخازن ومطابخ ودورات للمياة . ويصعد إلى غرف الطابق الثانى والممرات المكشوفة التى تلتف من الداخل حول الجدران العلوية للمراقبة والدفاع ، بواسطة درج . ويقوم فى كل ركن رئيسى من هذه القلاع ، برج يمكن دخوله من الصحن ويتكون إما من طابق واحد أو طابقين . وقد يتخذ شكلاً أسطوانيًا أو مربعًا أو مثمنًا ، فضلاً عن الأبراج المتصلة بالأضلاع ، والتى يتخذ بعضها شكلاً نصف دائرى . وقد استخدمت فى تغطية بعض الوحدات المعمارية بهذه القلاع ، قبوات مدببة وأخرى نصف دائرية ، فضلاً عن جذوع وفروع أشجار الصرر والنخيل ، كما علت بعض فتحاتها عقود مدببة ، ونصف مستديرة(٣٤) ، إلى جانب جذوع وفروع الأشجار والنخيل أيضًا ، كما اشتملت بعض هذه القلاع على ميازيب خشبية لتصريف المياه ، وشرافات نصف دائرية(٣٥) .

ويتضح ذلك فى قلعة عسفان المستطيلة الشكل (٣٥ × ٢٥م) والمستديرة الأبراج (مخطط - ٧ ، صورة - ٢١) والمشيدة بأحجار جرانيتية وبركانية سوداء كبيرة ، تنتظم فى صفوف عرضية ، وتضم بينها قطعًا صغيرة . ويربط بين هذه الأحجار المختلفة الأشكال والأحجام ، مونه من طمى الوادى والجير (جص) ، والتى ترتفع بقاياها المعمارية لنحو (٥م) ، فوق هضبة تعلو عن مستوى سطح وادى غولة بنحو (١٥م) ، شمال غرب قرية عسفان بنحو (١,٥ كم)(٣٦) . ويستشف التصميم المعمارى للقلعة من هذه البقايا المعمارية التى تضم أبراجها وبعض أساسات الجدران ، وقوامه فناء مكشوف بأربعة جدران سميكة

(١ - ١,٥٠م) ، تبرز عنها للخارج بنحو (٢,٥٠م) برجان مستطيلان بكل ضلع ، كما يوجد برج مستدير قطره (٢م) فى كل ركن من الأركان الأربعة للقلعة ، ويرجح وجود ممر مكشوف يحيط بسور القلعة من الداخل للمراقبة والدفاع ، وأن يكون مدخل القلعة فى ضلعها الشمالى ، وبأرضية القلعة يوجد ممر طوله (٣,٠٠م) وعرضه (١,٥٠م) ، كان يغطى بقبو مدبب ، وينتهى بباب يعلوه عقد مدبب ، يؤدى إلى غرفة مستطيلة (٤,٠٠ × ٣,٠٠م) ، مغطاة بقبوة نصف دائرة ، ترتفع لنحو (٢,٠٠م) ، ربما كانت تستخدم كمخزن للأسلحة والذخائر أو مستودع للوقود أو سجن للمخالفين .

ومن القلاع أيضًا قلعة بقرية خليص ، مقامة بإرتفاع يترواح من (٥,٠٠ : ٨,٠٠م) فوق هضبة بنحو (٥٠,٠٠م) عن مستوى سطح وادى مروانى (مخطط - ٨ ، صورة - ٢٢) ، تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى(٣٧) . وقد شيدت من الأحجار البركانية السوداء ذات الأحجام الكبيرة والمتوسطة ، مع وجود قطع من الأحجار الصغيرة بينها ، وقد ربط بين هذه الأحجار جميعها ، ملاط مكون من طمى الوادى والجير (جص) . وقوام تصميمها المعمارى المربع الشكل (٤٠,٠٠ × ٤٠,٠٠م) ، فناء مكشوف محاط بأربعة أسوار ضخمة ، مزودة فى الأركان بأربعة أبراج مربعة (٤,٠٠ × ٤,٠٠م) قوية فى الأركان ، يتخلل طابقها العلوى فتحات للسهام ، أبعادها من الخارج (٠,٤٠ × ٠,١٠م) ومن الداخل (٠,٤٠ × ٠,٣٥م) . وأبراج أخرى مستديرة فى الأضلاع ، كانت تستغل فى استخدام نوع من السهام يحتاج إطلاقها من الأقواس إلى مساحة رحبة ، وليس من أعلى الكتف مباشرة كالتى تقذف من فتحات السهام ، إذ يشتمل كل ضلع من أضلاع القلعة ، عدا الضلع الجنوبى الغربى ، على برجين مستديرين ، قطر الواحد منهما (٢,٠٠م) . ويدخل إلى القلعة من ناحيتها الغربية ، بواسطة مدخل منكسر (٥,٠٠ × ٣,٠٠م) مغطى

بقبو مستدير . وكان يتقدمة باب خارجي معقـود ، إتسـاعه (١,٠٠م) . ويبرز أساس القلعة للخارج بنحو (٠,٢٠م) كنوع من التقوية . وتوجد بقايا معماريـة فى وسط القلعة تضم جدران يتراوح سمك الواحد منها ما بين (١,٠٠ - ١,٥٠م) ، ويبدو أنه كان يراقب ويدافع أيضًا مـن القلعـة بواسـطة ممـر مكشـوف يلتـف مـن الداخل حول الأسوار .

كذلك يقع فى وسط مدينة رابغ الحاليـة ، أحـد أبـراج قلعتهـا الآثريـة التـى كانت تشمل علـى صهـاريج للميـاه العذبـة وعـدة عنـابر ومخـازن ، لحفـظ المؤن والذخائر ، كما كانت تقيم بها بصفة دائمة فرقة من العسكر ، وعدد كـاف مـن المدافع وأطقمها(٣٨) (مخطط - ٩ ، صورة - ٢٣) . ويتخذ البرج شكلاً مثمن الأضلاع ، تبلغ مساحته نحو (٨٢م٢) ، وسمـك جـداره (٠,٦٠م) ، ويتكـون من طابقين ودروة ، بارتفاع (٦,٠٠م) ، وهو مشيد بالأحجـار الجيريـة البيضـاء المنتظمة فى صفوف أفقية . أما الملاط فمن طمى الوادى والجير (جص) ، كما تغطية من الداخل والخارج طبقة من الملاط ، وتدعمه من الخارج عوارض خشبية لـلربط والتقوية . ويدخل إلى كل طابق عبر مدخل مربع الشكل (١,٠٠ × ١,٠٠م) ، ينفتح فى الجهة الجنوبية ، ويغلق بضلفة خشبية ، ويعلوه عتب من جذوع أشـجار الصرر ، وتتخلل جدران البرج تسع عشـرة فتحـة للمراقبـة والدفـاع ، متسـعة مـن الداخل وضيقة من الخارج ، موزعة على صفين ، وأربع نوافذ يعلو كل منها عقـد نصف دائرى ، ويعلو كل طابق سقف من جذوع أشجار الصرر أيضًا ، وطبقتـان من جريد النخيل والطمـى والحصـير ، ويـبرز مـن أعلـى الـبرج ، ميـذاب خشبى لتصريف مياه الأمطار .

ومن القلاع الباقية أيضًا من العصر العثمـانى بـدرب الهجـرة النبويـة ، قلعـة عروة بالمدينة المنورة (مخطـط - ١٠ ، صـورة - ٢٤)(٣٨) ، وهـى قلعـة مربعـة الشكل ، طول ضلعها (٢٢,٠٠م) مشيدة بالأحجار البركانية السـوداء والرمليـة

والملاط المكون من طمى الوادى والجير (جص) ، ويتراوح سمك جدرانها من (٠,٤٥ - ٠,٥٠م) ، وتغطيها من الداخل والخارج طبقة من الجص . ويتوسط ضلعها الشمالى الغربى مدخل يعلوه عقد نصف مستدير ، يؤدى إلى دركاه مستطيلة المساحة ، تلتصق بجدارها الشمالى الشرقى حجرة صغيرة مستطيلة الشكل ، ودرج يصعد به إلى الطابق العلوى ، بينما تلتصق بجدارها الجنوبى الغربى حجرة كبيرة مستطيلة الشكل ، كما تتعامد الدركاه على قاعة كبيرة مستطيلة الشكل أيضًا ، وتغطى الدركاه وما يتصل بها من وحدات مستطيلة المساحة ، قبوات نصف دائرية ، بينما يعلو أبوابها ونوافذها عقود نصف مستديرة . ويحيط بهذا القسم الرئيسى للقلعة ، ممر مكشوف اتساعه (٣م) ، يحيط به جدار سمك (٠,٥٠م) ، تتخله نوافذ كبيرة ترتفع عن مستوى سطح الأرض بـ (٢,٠٠م) ، كالتى تتخلل جدران القسم الرئيسى للقلعة .

أما عن مكتشفات اللقى الفخارية غير المطلية والمطلية ، والتى أسفرت عنها البحوث الآثرية الميدانية بمواضع درب الهجرة النبوية ، وترجع إلى العصر العثمانى ، وتم تحديد العديد من المواقع الآثرية إستنادا عليها(٤٠) ، فتتمثل فى أجزاء من آنية ومباخر ومسارج وغلايين ، عثر عليها بوادى فاطمة وخليص وبئر مبيرك وبئر الماشية وعروة ، وتميزت ببعض الخصائص الفنية والأساليب الزخرفية البسيطة . وتختلف فيما بينها من حيث تشكيلها ومقدار سمكها ، فضلاً عن تعدد منتجاتها واستعمالاتها ، وقوام زخارفها البارزة والغائرة والملونة ، خطوط عريضة وأخرى دقيقة ، متوازية ومتقاطعة ومنكسرة ، وأشكال معينات وآهلة صغيرة ومتتابعة .

من ذلك قطعتان من الفخار غير المطلى السميك (٨ ملم) المائل للاحمرار ، عثر عليهما بجوار آبار وادى فاطمة ، تمثل الأولى جزءًا من قاعدة إناء (رسم-١) ، والثانية جزءًا من حافة إناء (صورة - ٢٥) .

وقطعتان من صنبورين ، اكتشفتا فى بركة خليص ، من الفخار غير المطلى المتوسط السمك (٥ ملم) ، لونهما بنى فاتح ، قطر الأولى من الداخل (١١ ملم) ومن الخارج (٧ ملم) ، أما الثانية فقطرها من الداخل (١٠ ملم) ومن الخارج (٨,٥ ملم) - (صورة - ٢٦) .

هذا إلى جانب بقايا المنتجات الفخارية غير المطلية ، والتى تغطيها طبقة البطانة من الداخل أو الخارج ، أو من الداخل والخارج معًا ، من ذلك كسرة من بدن إناء من الفخار قليل السمك (٤,٥ ملم) ، عثر عليها بوادى فاطمة ، تغطيها من الخارج طبقة من البطانة البيضاء ، تزينها زخارف هندسية بارزة ، قوامها أشكال معينات (صورة - ٢٧) .

بالإضافة إلى صنبور من الفخار متوسط السمك (٦,٥ ملم) ، يميل لونه للاحمرار ، وتغطيه من الخارج بطانة بيضاء ، ويبلغ قطره من الداخل (١٢ ملم) - (صورة - ٢٨) ، وكسرة من الفخار الرقيق (٣,٥ ملم) ذى اللون البنى الفاتح ، والمبطن من الداخل والخارج باللون الأبيض ، يزينها من الخارج شريط عريض بداخله خطوط دقيقة غائرة متوازية ومتقاطعة ، تكون أشكال معينات (صورة - ٢٩) ، وقد عثر عليهما بخليص ، فى شرق وادى مروانى .

هذا إلى جانب اللقى التى عثر عليها بعروة ، ومنها جزء من حافة إناء من الفخار ، قليل السمك (٤ ملم) به ثقبان ، ربما كان يستفاد منهما فى حمل الإناء . وجزء من مقبض إناء من الفخار السميك (١٠,٥ ملم) ذى اللون البنى الفاتح ، والمبطن من الداخل والخارج باللون الأبيض (صورة - ٣٠) ، فضلاً عن جزأين من مبخرتين مربعتى الشكل من الفخار الخشن السمك (٤ - ١٣ ملم) ذى اللون البنى الفاتح (صورة - ٣١ ، رسم - ٢) ، وفوهة آنية شرب (قلة) من الفخار المتوسط السمك (٦ ملم) ، ذى اللون البنى الفاتح ، والمبطن من

الداخل والخارج باللون الأبيض ، ويلتف حولها من الخارج خطان عريضان وبارزان (صورة - ٣٢ ، رسم - ٣)(٤١) .

كما عثر على أمثلة من بقايا الفخار غير المطلى الأملس المصقول الذى يتميز بدقة صناعته ، بموضع بئر مبيرك ، منها كسرتان من فوهتى غليونين ، سمك أحدهما (٤ملم) ، ويحيط بهما من الخارج خطان غائران ومتوازيان ، يحصران بينهما خطوطًا محزوزة دقيقة متوازية ومتعامدة ، أما الثانية فخالية من الزخارف ، ويبلغ سمكها (٣,٥ملم) - (صورة - ٣٣) .

فضلاً عن أجزاء من آنية ومسارج وغلايين من الفخار المصقول ، عثر عليها ببئر الماشية . من ذلك فوهة آنية من الفخار الوردى اللون ، جيدة الصنع ، ومتوسط السمك (سمك الفوهة ٦ ملم والبدن ٤ ملم) وقطرها من الداخل (١٧ ملم) ، ومضلعة من الخارج (صورة - ٣٤) . بالإضافة إلى جزء من مسرجة مستديرة الشكل(٤٢) ، قطرها (٤٥ ملم) ، تزينه آهلة صغيرة غائرة ومتتابعة ، ويتراوح سمكها ما بين (٤ - ١٥ ملم) ، أما الحافة الخارجية ، فيبلغ سمكها (١,٥٠ ملم) - (صورة - ٣٥) .

أما عن بقايا الفخار المطلى ، فقد عثر فى جنوب وادى مروانى وخليص على خمس كسر من الفخار المطلى من الداخل والخارج ، الأولى عبارة عن جزء من حافة إناء مطلية باللون الفيروزى وثلاثة أجزاء من قواعد آنية من الفخار السميك (٧ - ١٦ ملم) ، مطلية باللونين الأخضر الفاتح والداكن . أما الكسرة الخامسة ، فعبارة عن جزء من بدن إناء من الفخار السميك (٨,٥ ملم) ، والمطلى باللون الأخضر ، يزينه شريط عريض باللون الأخضر الداكن ، قوامة خطوط عريضة منكسرة ومتداخلة (صورة - ٣٦) .

ومما تقدم يتضح مدى أهمية التعرف على المسالك والدروب ذات الدور الحضارى الهام فى إكتشاف معالم مواقع ومناطق أثرية لا تزال مجهولة .

كما يتضح طابع التقشف والبساطة الذى تميزت به المكتشفات الآثرية الثابتة والمنقولة بدرب الهجرة النبوية فى العصر العثمانى(٤٣) ، وقوامها ، مسجد وقصر وأرضية حجرية وبركة وقناتان وأربعة أحواض وثمان آبار وأربع قلاع ، إنفردت بمواقع إستراتيجية وزودت بخصائص وعناصر معمارية تلائم وظيفتها ، كالمحاريب والقباب والقبيبات والقبوات والعقود والأعتاب والدعامات والحنايا والمصاطب والمداخل والمزاغل والنوافذ والأبراج والممرات المكشوفة والدراوى والميدات الخشبية والكسوات الجصية والشرافات ، فضلاً عن اللقى الفخارية غير المطلية والمطلية التى تميزت ببعض الأساليب والعناصر الفنية والزخرفية .

وبعد ، فإننى أرجو أن أكون قد وفقت فى هذا البحث فى إلقاء الأضواء على جانب هام من جوانب التراث الأثرى الإسلامى فى العصر العثمانى .

الهوامــش

(١) عبد الغنى أحمـد ناجى : مجلة الوعـى الإسلامى (العـدد ٣٠١) – فـى ذكـرى الهجرة النبوية – ص٣٦ .

(٢) خلال موسمى مشروع المسح الآثرى الشامل لأراضى المملكـة العربيـة السعودية ؛ موسم (٩ ربيع الأول – ٤ جمادى الآخر ١٤٠٠هـ/ ٢٧يناير – ٢٠ أبريل ١٩٨٠م) وموسم (١ ربيع الآخر – ٣٠جمادى الأولى ١٤٠٢هـ/٢٧ يناير – ٢٦ مارس ١٩٨٢م) .

(٣) محمد لبيب البتنونى: الرحلة الحجازية – ص١٧٤-١٧٦ ، ١٨٦ ، ٢٤١-٢٤٣.

محمد طاهر الكردى : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم-جـ٢-ص٢٤٢-٢٤٣ .

(٤) تعد واحات ومزارع وبساتين درب الهجرة النبوية ، مرتعًا خصبًا لأنواع مختلفة من الخضر والفاكهة والنخيل ، وأشجار الدخن والذرة والمقاثى الكثيرة والشيح والحنظـل والخـردل والحنـا الشـهيرة والآثـل – فضلاً عـن الحبحـب الـذى يصلـح للتـداوى والأعشـاب الطبيــة ، والحشائش الفقيرة والنباتات الصحراوية (انظـر ؛ رينهـات دوزى : تكملـة المعـاجم العربيـة – جـ١ – ص٨٤ ، حليم إبراهيـم جريس ، يوسـف خليـل (دكتـور) ، إحـلال السـباعى : الأطلس العربى – ص١٢) .

(٥) ل ق ى : لُقيَ ، لِقاء ، لُقْياً ، لُقياً ، لُقى ، لقيانا (انظر ؛ أبى القاسـم محمـود بـن عمر الزمخشرى : أساس البلاغة – ص٤١٣) .

– تدين معظم اللقى والتحف الآثرية بوجودها ، إلى أعمال الحفـائر الآثريـة التـى تلقـى أضواء جديدة على الحضـارة الإنسـانية وتاريخهـا (انظـر ؛ ليونـارد وولى : أعمـال المسح الأثرى – ص٥) .

(٦) العياشى : ماء الموائد – ص ٩٣ .

أحمد بن ناصر الدرعى : الرحلة الناصرية – ص٤٢٥ .

فؤاد الماوى (دكتور) : العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز – ص٣٦ .

Shaw, S. J., The Financial and Administrative Organization, p. 250.

(٧) كانت تتداول السلع والبضائع فى العصر العثمانى – إلا فيما ندر – بمكـاييل غـير وافية ، قوامها الصاع أو الربعى وأجزاؤه (الكيلة) ، وبموازين غير صحيحة ، أساسـها الرطـل والأقة والقنطار ، وبأسعار غير معلومة ، وبعملات عديدة (انظر ؛ الجبرتى عجائب الآثـار فـى

التراجم والأخبار - جـ١ - ص٤١٦ ، الجزيرى : الدرر الفرائد - جـ٢ - ص٩١١ ، ٩٧٤ ، ١١٢٩ ، ١١٥٤ ، العياشى : المصدر السابق - ص٢٥ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٣ - ١٦٤ ، أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص١٦١ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ - ٤٤٢، ٤٤٤ ، عبد الرحمن فهمى (دكتور) : النقود المتداولة أيام الجبرتى - ص٥٧٣ ، ٥٧٦، عبد الرحيم عبد الرحمن (دكتور) : وثائق تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى - ص١٥ .

(٨) عسفان ؛ بضم أوله ، وسكون ثانيه ، ثم فاء وآخره نون ، وهى منهلة من مناهل الدرب ، بينها وبين مكة تسعة وأربعون ميلاً ، وبينها وبين البحر الأحمر عشرة أميال ، وهى حد تهامة ، كثيرة الأهل بها نخيل ومزارع ، وماؤها من الآبار (انظر ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان - جـ٤ - ص١٢١ - ١٢٢ ، محمد بن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار - ص٤٢١) .

(٩) كانت تكثر فيه الأوعار من الرمال والأحجار إلى أن مهدت وسويت وعدت ممرًا ضيقًا ، وكان بواسطها لوحة من الرخام ، كتبت عليها بالخط الثلث البسملة ، وأنه أنشئ بأمر سلطانى بمعرفة رضوان بك داود الغفارى فى (جمادى الأولى سنة ١٢٠٠هـ/مارس ١٧٨٦م)، كما كان يوجد بها مسجد صغير (انظر ؛ عبد الغنى النابلسى : الحقيقة والمجاز - ص٤٤٠).

(١٠) كان يباع بها اللحم المشوى والبطيخ والرطب والتمر والملوخية والقرع والباذنجان، (انظر ؛ الجزيرى : المصدر السابق - جـ٢ - ص١٥١٧ ، والنابلسى : المصدر السابق - ص٤٤٠ ، أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٦) .

(١١) رابغ ؛ بعد الألف باء موحدة وآخره غين معجمة ، واد بين البزواء والجحفة دون عزور ، وبين الجحفة وودان ، ورابغ واد من دون الجحفة يقطعه المسافر من دون عزور ، وبطن رابغ واد من الجحفة له ذكر فى المغازى وفى أيام العرب ، وهو على عشرة أميال من الجحفة فيما بين الأبواء والجحفة ، والجحفة جنوب رابغ بنحو عشرة أميال ، وكانت الميقات الذى يحرم الناس منه ، ومن المنازل العامرة ، إلا أنها اندثرت ، وصار الناس يحرمون من رابغ ، ويقال أربغ فلان إبله ، إذا تركها ترد أى وقت شاءت وهى أبل مدبغة أى جيدة ، والرابغ الذى يقيم على أمر ممكن له (انظر ؛ الأزرقى : أخبار مكة المكرمة - جـ٢ - ص٣١ ، ابن حوقل :

صورة الأرض - ص٤٠ ؛ ياقوت الحموى : المصدر السابق - جـ٣ - ص١١ ، العياشى : المصدر السابق - ص٤١ ، أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٥ ، محمد بن عبد السلام الناصرى الدرعى : رحلتا الدرعى - ص١١٠ ، التابلسى : المصدر السابق - ص٤٣٩، إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين - جـ٢ - ص٢٠٣) .

(١٢) الأبواء ؛ قرية من أعمال الفرع من المدينة ، بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً ، وقبل الأبواء جبل على يمين آرة ، ويمين الطريق للمصعد إلى مكة من المدينة ، وهناك بلد ينسب إلى هذا الجبل (ياقوت الحموى : المصدر السابق - جـ١ - ص٧٩).

(١٣) الأزرقى : المصدر السابق - جـ١ - ص١٣٢ - حاشية ٥ ، جـ٢ - ص٣١٠ .

القلقشندى : صبح الأعشى - جـ٤ - ص٢٥٩ ، جـ١٤ - ص٣٨٦ - ٣٨٨ .

أحمد الرشيدى : حسن الصفا والابتهاج - ص٤٥ .

ياقوت الحموى : المصدر السابق - جـ١ - ص٧٩ ، ٢٣٩ ، جـ٢ - ص٢٩٥ .

الجزيرى : المصدر السابق - جـ ٢ - ص٨٣٧، ١٥٥٩ - ١٥٦٠، ١٥٦٢، ١٥٦٦، ١٥٦٨ ، ١٥٧١ .

العبدرى : الرحلة المغربية - ص١٥٧ ، ١٦٥ .

العياشى : المصدر السابق - ص٤٣ - ٤٥ ، ١٢٧ .

النابلسى : المصدر السابق - ص١١٥ ، ٤٣٩ - ٤٤٠ .

أبو القاسم الزيانى : الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برًا وبحرًا - ص٢٢٩.

أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥١ ، ٤٥٥ - ٤٥٨ .

المنالى الزبادى : بلوغ المرام - ص٥٤٣ - ٥٤٤ ، ٥٤٦ .

محمد بن عبد السلام الناصرى الدرعى:المصدر السابق -ص١١٥-١١٦،١١٩-١٢٣، ١٤٧ ، ١٥٥ - ١٥٦ .

محمد لبيب البتنونى : المصدر السابق - ص١٧٤ - ١٧٦ ، ١٨٦ ، ٢٤١ - ٢٤٣ .

إبراهيم رفعت : المصدر السابق - جـ٢ - ص١٤٢ - ١٤٣ ، ١٩٩ - ٢٠٣ .

محمد طاهر الكردى : المرجع السابق - جـ٢ - ص٢٤٢ - ٢٤٣ ، ٢٤٥ - ٢٤٦ .

عبد الكريم كريم (دكتور) : المرجع السابق - ص١٩٠ .

حليم جريس ، يوسف خليل (دكتور) ، إجلال السباعى : المرجع السابق – ص١٢.

Burckardt, J. L., Travels in Arabia, pp. 292 - 293.

(١٤) عند دائرة خط عرض(٤٢َ–٢١ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٤٩َ–٣٩ْ) شرقًا .

– قطع المعماريون فى العصر العثمانى صلتهم بالتصميمات الإسلامية الصميمة للمساجد ، والتى كانت تتمثل فى النموذجين الرئيسيين ، وأولهما النموذج النبوى ذو الصحن والظلات ، وثانيها النموذج السنى ذو الصحن والأيونات ، وانحصر تصرف هؤلاء المعمارين فى تخطيط بيت الصلاة فى توزيع بدانات أو دعامات فى وسطه (انظر ؛ فريد شافعى – (دكتور) : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها – ص١٤٠ – ١٤١) .

(١٥) انتقلت فكرة التغطية بالقبوات من العمائر الساسانية إلى العمارة الإسلامية المبكرة فى العراق والشام ، إذ نشاهدها فى قصر المشتى و قصر الطوبة وفى حمام الصرخ ، ثم فى قصر الأخيضر (انظر ؛ فريد شافعى (دكتور) : المرجع السابق – ص١٦٤) وقد استعملت القبوات نصف الكروية أو المدببة أو المتقاطعة فى تغطية الحجرات والدهاليز فى المبانى الدينية والمدينة والعسكرية) انظر ؛ صالح لمعى (دكتور) : التراث المعمارى الإسلامى فى مصر – ص١٠٦) .

(١٦) يوجد أقدم محراب مجوف فى الجدار الجنوبى الخارجى لمبنى قبة الصخرة فى بيت المقدس (٧٢هـ/٦٩١م) ، (انظر ؛ فريد شافعى (دكتور) : المرجع السابق – ص١٥٢ ، ١٥٤).

(١٧) لم تترك التقاليد والعناصر التى اقتبسها المعماريون فى العصر العثمانى من الطرز البيزنطية إلا مجالاً ضيقًا للعناصر والتفاصيل الإسلامية ، (انظر ، فريد شافعى (دكتور) : المرجع السابق – ص١٤٣ ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية – المجلد الأول – ص١٧٣ – ١٧٤) .

(١٨) أن المنازل والقصور التى ما زالت قائمة بمكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف وغيرها ، والتى يعود معظمها إلى أواخر العصر العثمانى ، لتوضح فى جلاء كبير تلك المستويات التى إنحدرت إليها العمارة فى الأقطار العربية التى دخلت فى حوزة الدولة العثمانية، وذلك على الرغم مما حدث فى العصر العثمانى من الإسراف والمبالغة فى استخدام المواد الثمنية كالرخام والفسيفساء والبلاطات الخزفية والإكثار من استعمال الذهب والتذهيب ، وليس كل ذلك بدليل على ارتفاع المستوى الفنى والمعمارى ، بل لعله يعد أحيانًا وسيلة لتغطية انخفاضه (انظر ؛ فريد شافعى (دكتور) : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها – ص١٤٦).

(١٩) مساعد بن منصور (الشريف) : جداول امراء مكة منذ فتحها إلى الوقت الحاضر - ص٣٥ - ٣٧ .

(٢٠) القبة من العناصر المعمارية المعروفة منذ آلاف السنين وقد استخدم العثمانيون القبة المنخفضة (الضحلة) التى تتميز بالشكل الذى يقل عن نصف الكرة ، وهذه تختلف كثيرًا عن القبة الإسلامية العالية فى مصر ، أما القباب ذات الأحجام الصغيرة ، فكان الكثير منها يغلب عليه القطاع المدبب ، بل كان بعضها يقرب من الشكل المخروطى (انظر ؛ فريد شافعى (دكتور): المرجع السابق - ص١٧٧ ، ١٩٨ ، كمال الدين سامح (دكتور) : العمارة الإسلامية فى مصر - ص٥٢) .

(٢١) عند دائرة خط عرض (١٧َ-٢٣ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٢٤َ-٣٩ْ) شرقًا .

(٢٢) العياشى : المصدر السابق - ص٤٤ .

النابلسى : المصدر السابق - ص٤٤٠ .

أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٧ .

المنالى الزبادى : المصدر السابق - ص٥٤٤ .

(٢٣) عند دائرة خط عرض (٤٥َ-٢١ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٣١َ-٣٩ْ) شرقًا .

(٢٤) العياشى : المصدر السابق - ص٤٣ .

النابلسى : المصدر السابق - ص٤٤٠ .

أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٦ .

(٢٥) الجزيرى : لمصدر السابق - جـ٢ - ص٨٣٧ .

العياشى : المصدر السابق - ص٤٣ .

أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٦ .

المنالى الزبادى : المصدر السابق - ص٥٣٨ .

(٢٦) عند دائرة خط عرض(٢٠َ-٢٢ْ) شمالاً ، ودائرة خط طول (٠٩َ-٣٩ْ) شرقًا.

(٢٧) عند دائرة خط عرض(١٠َ-٢٣ْ) شمالاً ، وادئرة خط طول (٠٩َ-٣٩ْ) شرقًا.

(٢٨) محمد لبيب البتنونى : المرجع السابق - ص١٧٤ ، ١٨٦ .

محمد طاهر الكردى : المرجع السابق : ص٢٤٢ .

(٢٩) عند دائرة خط عرض (٥٥َ-٢٣ْ) شمالاً ، ودائرة خط طول (٠٧َ-٣٩ْ)شرقًا.

(٣٠) الجزيرى : المصدر السابق - جـ٢ - ص١٥٦٦ .

- محمد بن عبد السلام الناصرى الدرعى : المصدر السابق - ص١٥٥ - ١٥٦ .

- عند دائرة خط عرض (٢٤َ-٢٤ْ) شمالاً ، ودائرة خط طول (٣٢ - ٣٩ْ) شرقًا .

(٣١) كلمة القلعة (قلاع) في الأصل مأخوذة عن الكلمة اللاتينية Castellum وتعنى المكان المحصن ، وقد بدأ الإنسان بإنشاء المبانى المحصنة والمراكز الدفاعية لحماية نفسه منذ أقدم العصور التاريخية ، (انظر ؛ حنان الكردى : القلاع الآثرية فى الأردن-ص٢-٣، ٥).

(٣٢) الدركاة ؛ وجمعها دركاوات ، لفظ فارسى مركب من كلمتين "در" بمعنى فى ، " كاة " بمعنى محل ، وهى المساحة الصغيرة المربعة أو المستطيلة التى تلى باب الدخول إلى داخل المبنى (انظر ؛ المقريزى : الخطط - جـ١ - ص٨٥٧ - حاشية ٢٥ ، صالح لمعى مصطفى (دكتور) : المرجع السابق - ص١١٩) وقد وحدت الدركاوات بالمداخل المباشرة ، والمداخل المنكسرة ، وكانت تسقف بأسقف خشبية مسطحة ، أو بقبوات نصف كروية أو متقاطعة أو بقباب ضحلة أو غير ضحلة .

(٣٣) استخدمت المداخل المنكسرة فى القلاع والحصون للتخفيف من حدة إندفاع هجوم العدو (انظر ؛ توفيق أحمد عبد الجواد (دكتور) : تتاريخ العمارة والفنون الإسلامية - جـ٣ - ص١٩٠ انظر ؛ فريد شافعى (دكتور) : العمارة العربية فى مصر الإسلامية - المجلد الأول - ص٤٣٣ ، ٤٣٥) .

(٣٤) عرف العقد نصف الدائرى أيام الرومان ، واستعمل فى العمارة الإسلامية فى قصر الحير الشرقى (١١٠هـ / ٧٢٨م) فى العصر الأموى ، واستعمل فى مصر فى كثير من الفتحات ، وشاع استعماله فى عمارة العصر العثمانى بمصر (انظر ؛ صالح لمعى مصطفى (دكتور) : المرجع السابق - ص٩٧) .

(٣٥) الشرافات ؛ قطع حجرية توضع أعلى المبنى فوق الكورنيش ، تتوج بها الواجهات، وقد تكون مسننة (تدرج بالجانبين على شكل أسنان) أو مورقة (على شكل زهرة) - (انظر ؛ صالح لمعى مصطفى (دكتور) : المرجع السابق - ص١٢١) .

(٣٦) عند دائرة خط عرض (٥٤َ - ٢١ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٢٠َ - ٣٩ْ) شرقًا.

(٣٧) عند دائرة خط عرض (١٠َ-٢٢ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٢١َ-٣٩ْ) شرقًا .

(٣٨) العياشى : المصدر السابق - ص٤١ .

أبو القاسم الزيانى : المصدر السابق - ص٢٢٨ .

أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٤ .

المنال الزبادى : المصدر السابق - ٥٤٢ .

محمد بن عبد السلام الناصرى الدرعى : المصدر السابق - ص١٠٧ - ١٠٩ .

محمد لبيب التبنونى : المصدر السابق - ص٣٦ ، ٢٠٩ .

أيوب صبرى : مرآة جزيرة العرب - جـ١ - ص١٩٧ .

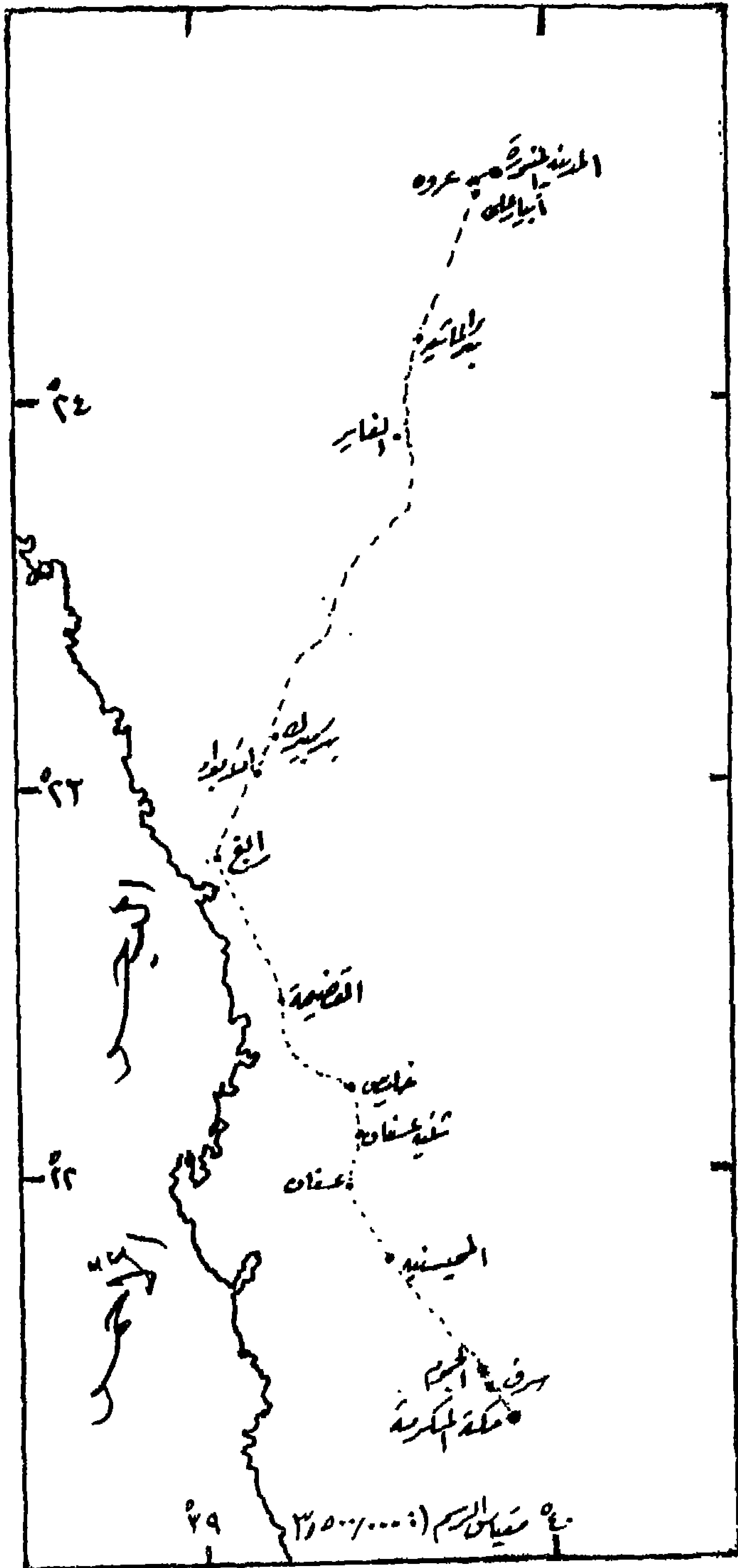
(٣٩) عند دائرة خط عرض (٢٦َ-٢٤ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٢٤َ-٣٩ْ) شرقًا

(٤٠) عرفت البشرية الفخار منذ القدم ، وهو طفل بنى مائل للاحمرار بعضه خشن وبعضه أملس ناعم ، وكان يستخدم بصفة خاصة فى صنع الجرار من قلل وأزيار ، حيث يستفاد من مسامه فى تبريد الماء ، وكانت تصنع تحفة التى تتفاوت فى السمك من الطين المحروق دون طلاء ، كما كانت تغطى بعض منتجاته من البطانة الملساء ، لونها أبيض أو مائل للإصفرار وقد يصقل سطحها فتبدو لامعة ، أو تترك بدون بطانة أو صقل ، وقد عرف الصناع المسلمون طرقًا كثيرة لزخرفة الفخار ، مثل النقش والحفر والتجسيم بطريقة (الباربوتين) - أى صب العجينة المضافة من قمع أو قرطاس - والطبع بالأختام (انظر ؛ زكى محمد حسن (دكتور) : أطلس الفنون الزخرفية - ص٤١١ ، م . س . ديماند : الفنون الإسلامية - ص١٨٠ - ١٨١ ، ٢٢١ ، حسن الباشا (دكتور) : مدخل إلى الاثار الإسلامية-ص٣٦٣، ٣٧٤ ، سعاد ماهر (دكتورة) : الزخرف التركى - ص٣ ، عبد الرءوف على يوسف : القاهرة - تاريخها فنونها آثارها - بحث الفخار - ص٣٢٠ ، G. Rctlinger, Unglazed Relief Pottery from Northern Mesopotamia (in Ars Islamica, Vols. XV - XVI, p. 11 - 22) .

(٤١) القلل الفخارية ؛ من الأوانى الشعبية الشائعة لتبريد المياه ، وقد تفنن الفخاريون أو القلالون فى إبتكار أشكال لطيفة لهذه القلل ، وفى زخرفتها بأساليب مختلفة وزخارف متنوعة ، (انظر ؛ زكى محمد حسن (دكتور) : فنون الإسلام - ص٣٢٧ - ٣٢٨ ، ص٣٣١ - ٣٣٢ ، عبد الرءوف على يوسف : المرجع السابق - ص٣٢٥ - ٣٢٦) .

(٤٢) تعد المسارج الزيتية بأشكالها المختلفة وزخارفها المتعددة من تحف الفخار الشعبى
ذى يمتاز بالبساطة وقلة التكليف وحسن الذوق ودقة الصناعة (انظر ؛ عبد الرءوف على
يسف : المرجع السابق - ص٣٢٣ - ٣٢٥) .

(٤٣) أدى إجتذاب كبار المعماريين والفنانيين والحرفيين من أقطار الدولة العثمانية ذات
تاريخ المعمارى الإسلامى العريق إلى قلب الدولة ، سواء كان ذلك بالأمر أو بالإغراء بالمال ،
، انخفاض كبير فى المستوى المعمارى والفنى فى تلك الأقطار ، (انظر ، فريد شافعى
دكتور) : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - ص١٤٥ - ١٤٦) .



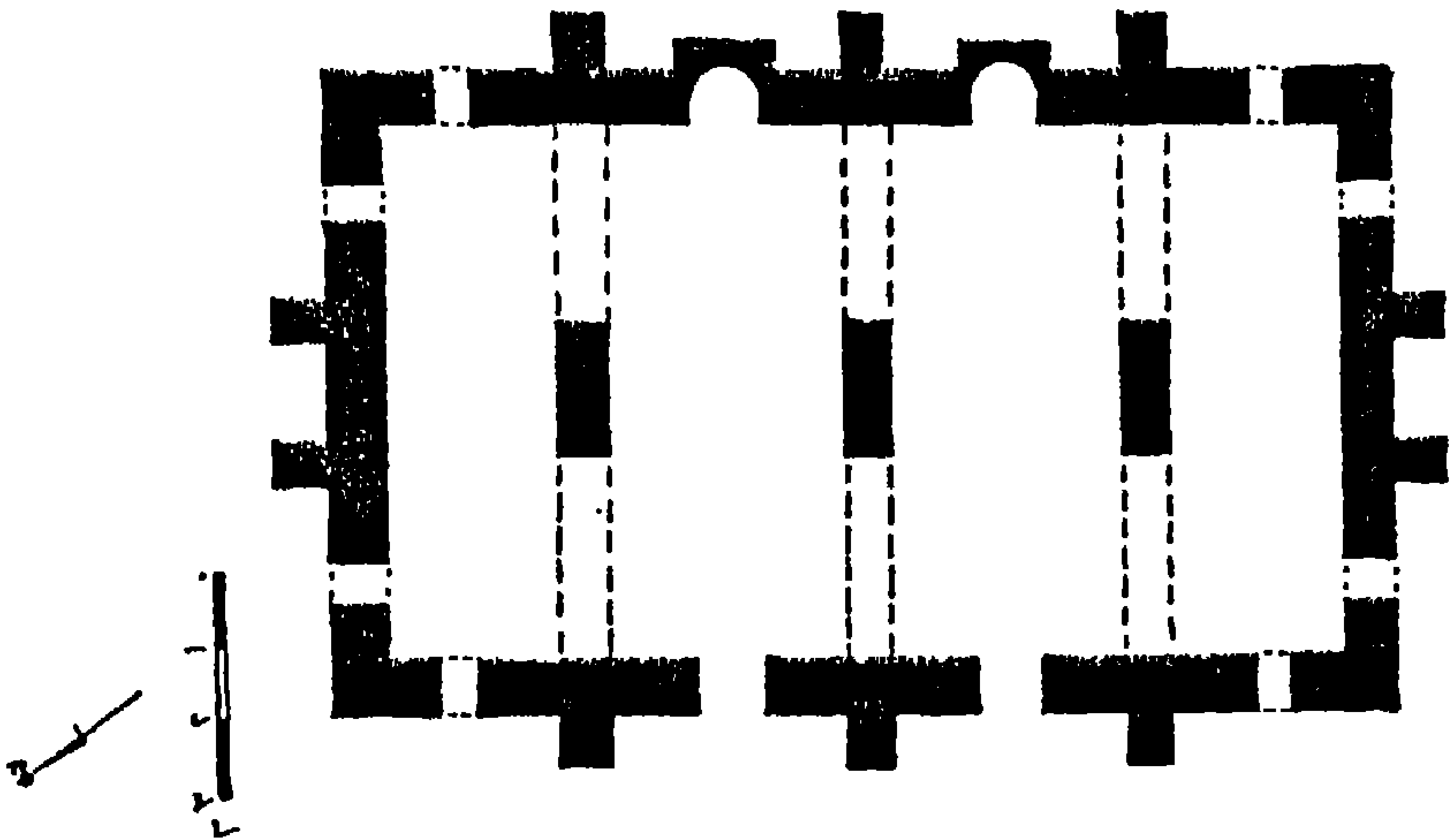
درب الهجرة النبوية

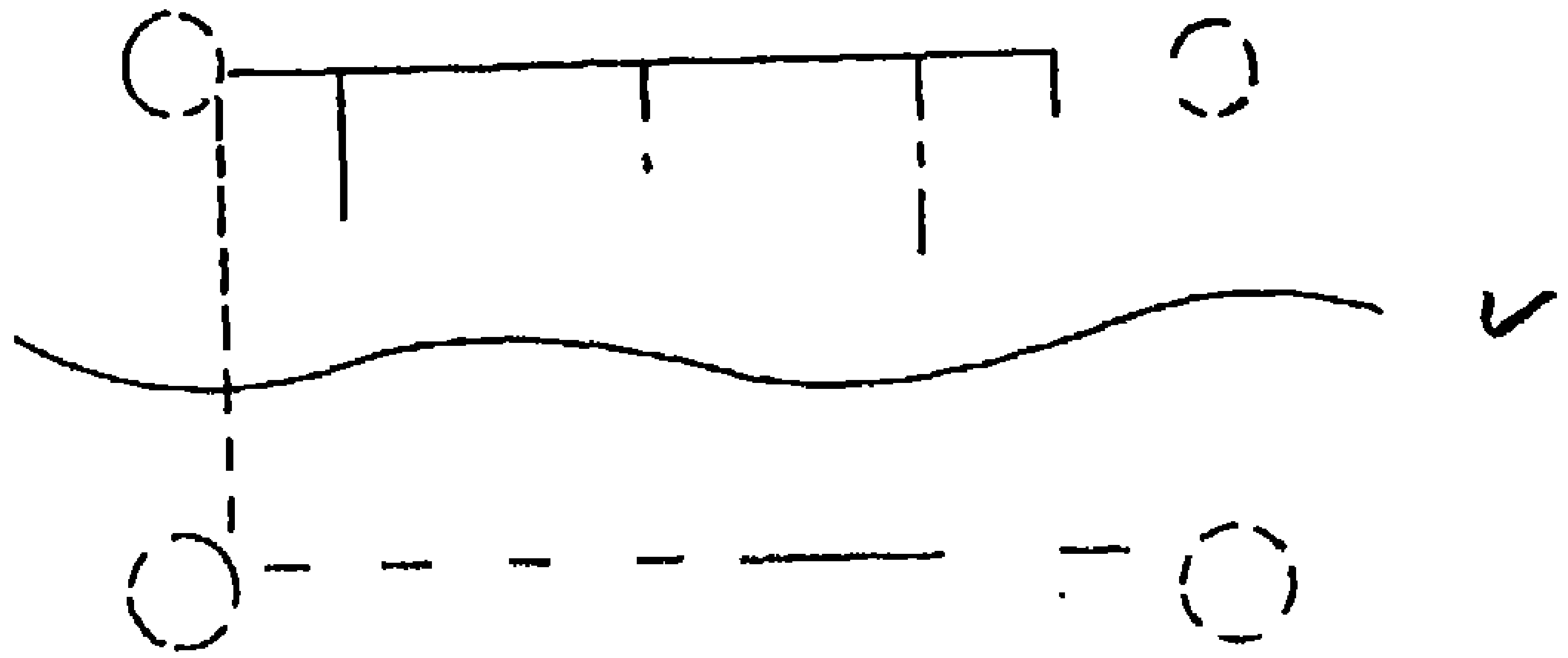
بيان مواضع
مكتشفات المنشآت المعمارية واللقى الفخارية الآثرية وأنواعها
بدرب الهجرة النبوية فى العصر العثمانى

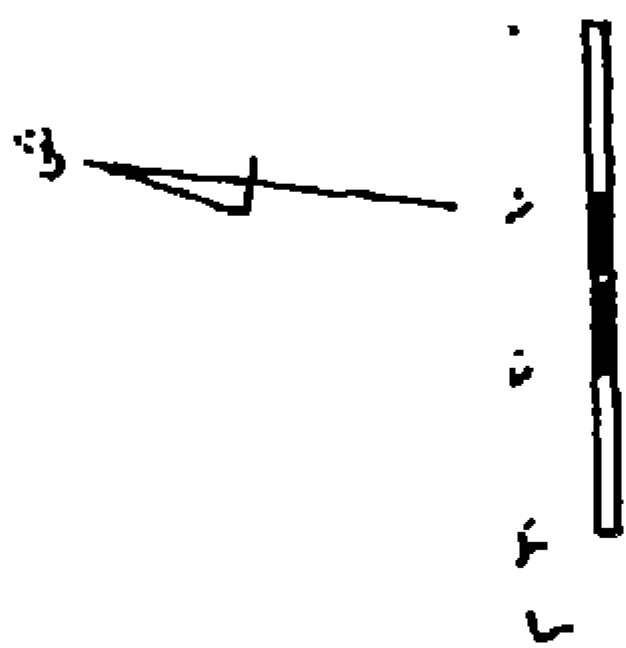
الأنواع / المواضع	المنشآت المعمارية								اللقى الفخارية			
	الدينية	المدنية						الدفاعية	غير المطلية			المطلية
		قصور	أرضيات	آبار	أحواض	برك	قنوات		غير مبطن	مبطن	مصقول	
مكة المكرمة		*										
الجموم	*			*					*	*		
المحيسنية				*	*							
عسفان				*	*			*				
خليص				*		*	*	*	*	*		*
قضيمة				*								
رابغ			*					*				
بئر مبيرك				*							*	
بئر الماشية				*	*						*	
أبيار على				*	*		*					
عروة / المدينة								*		*		

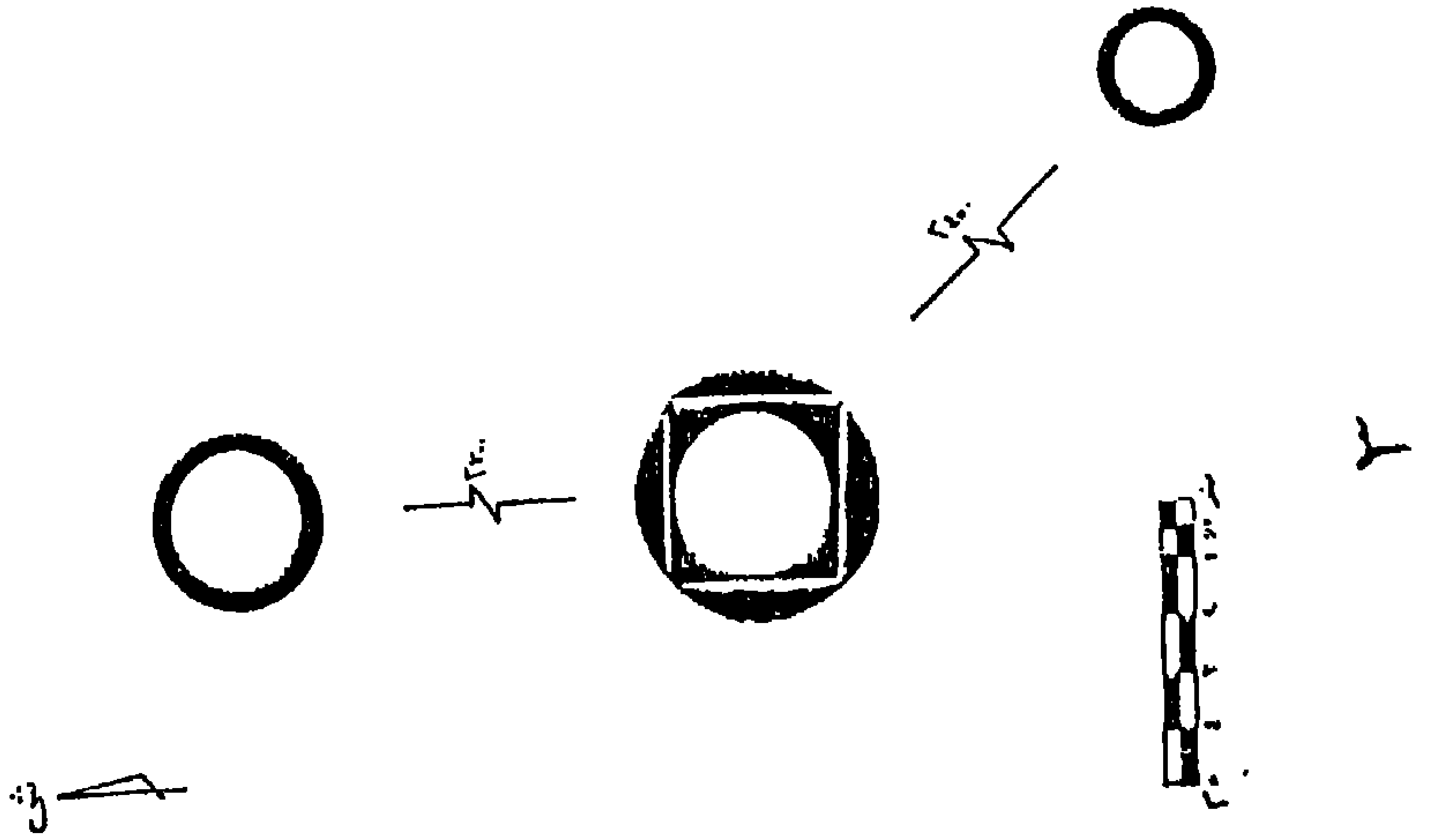
المخططات المعمارية

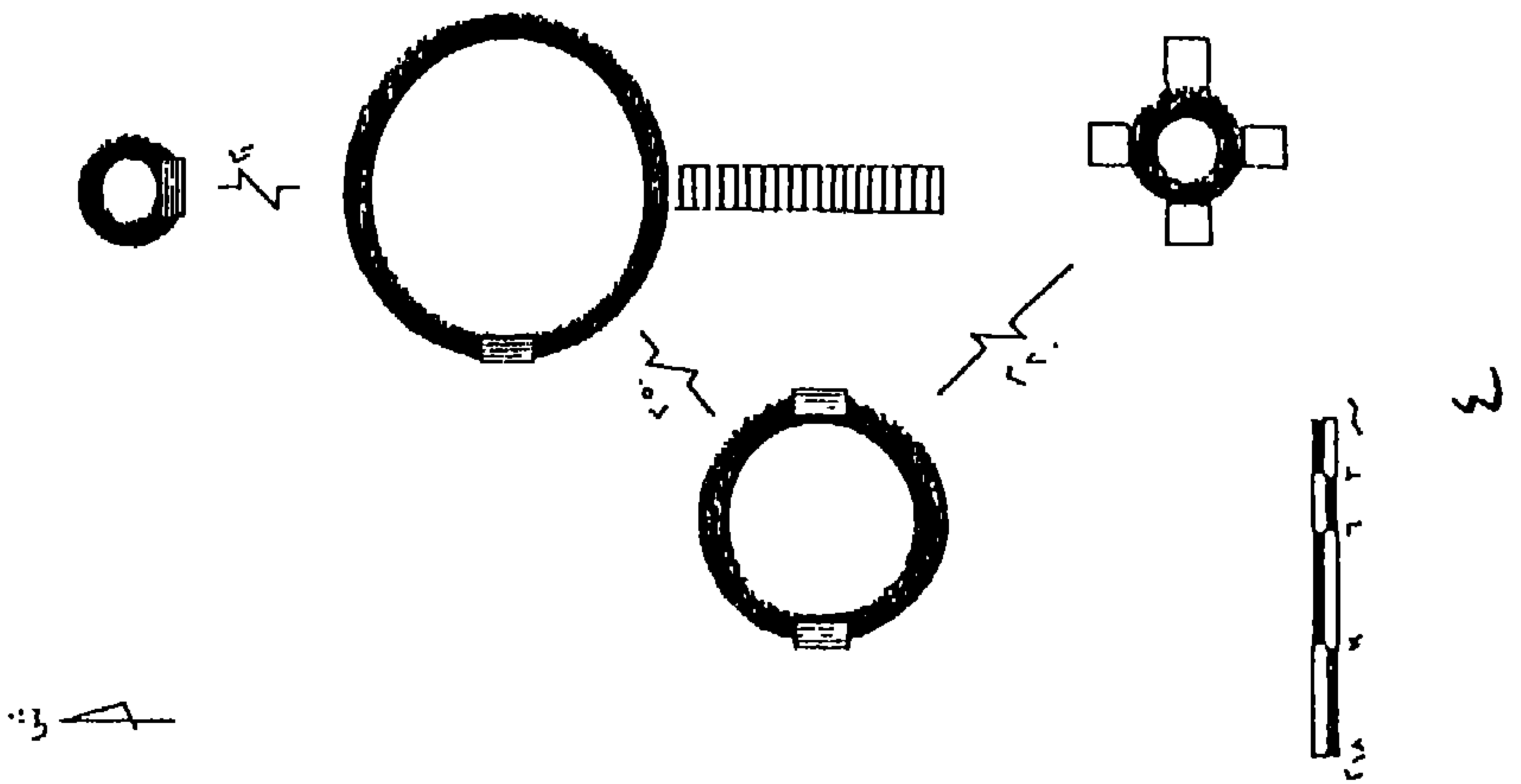
(١ - ١٠)

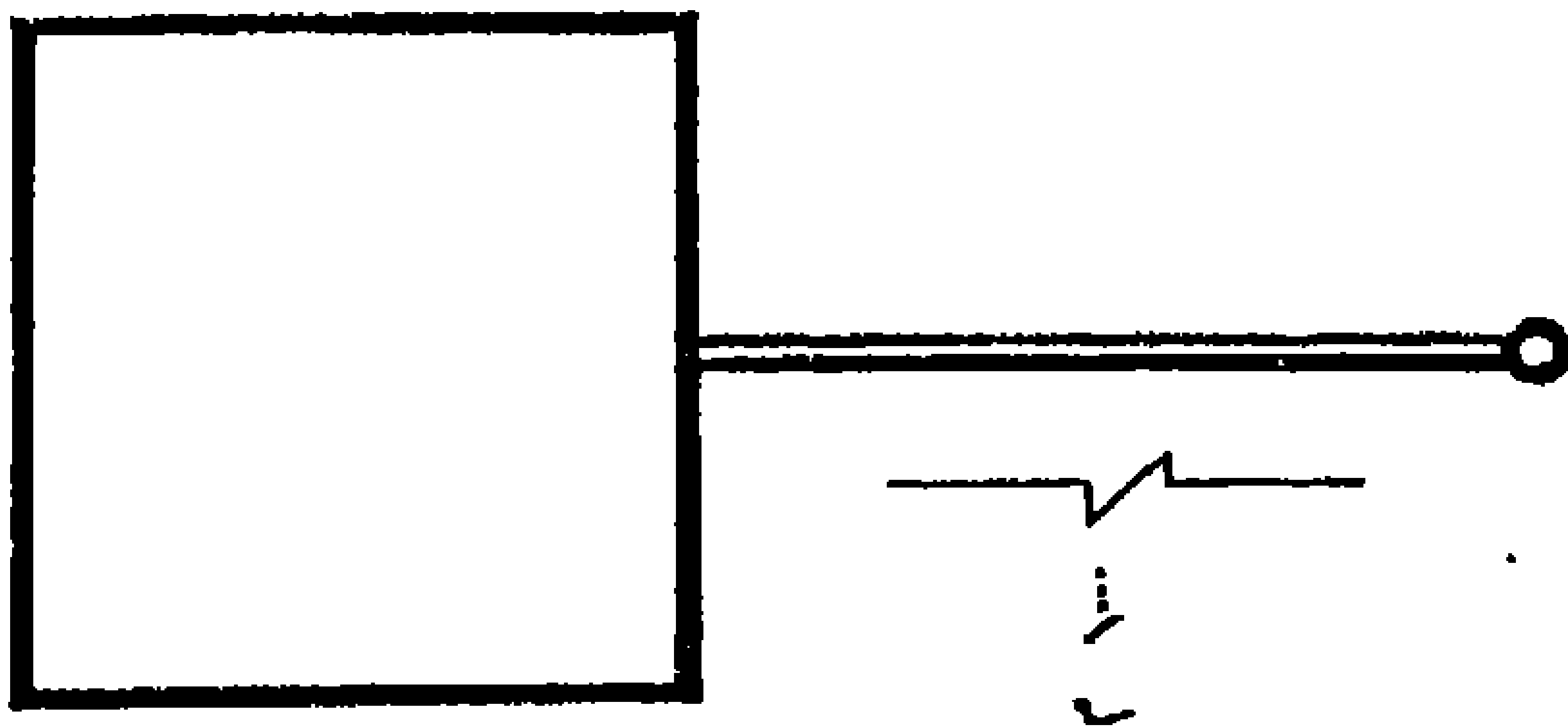








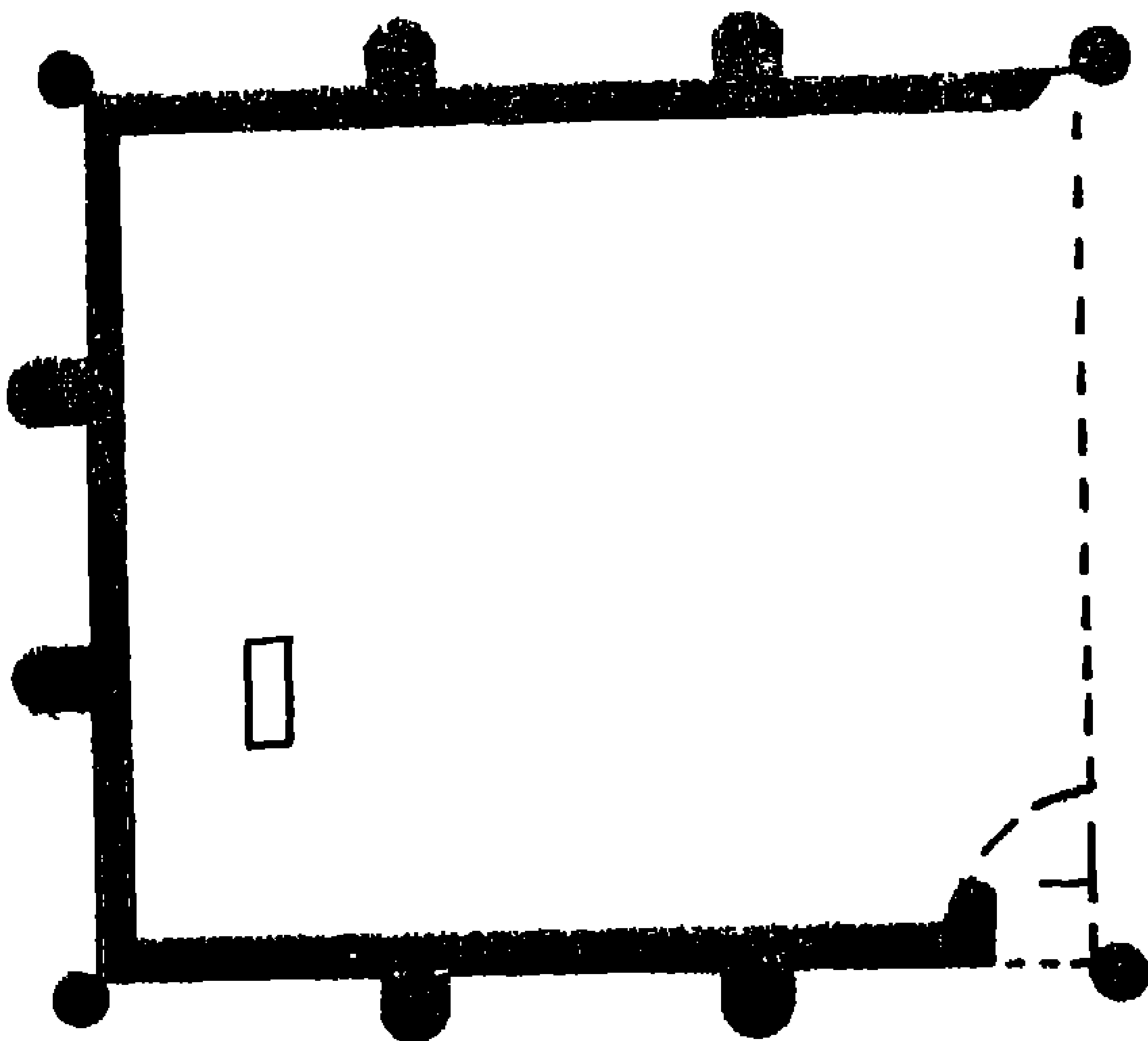


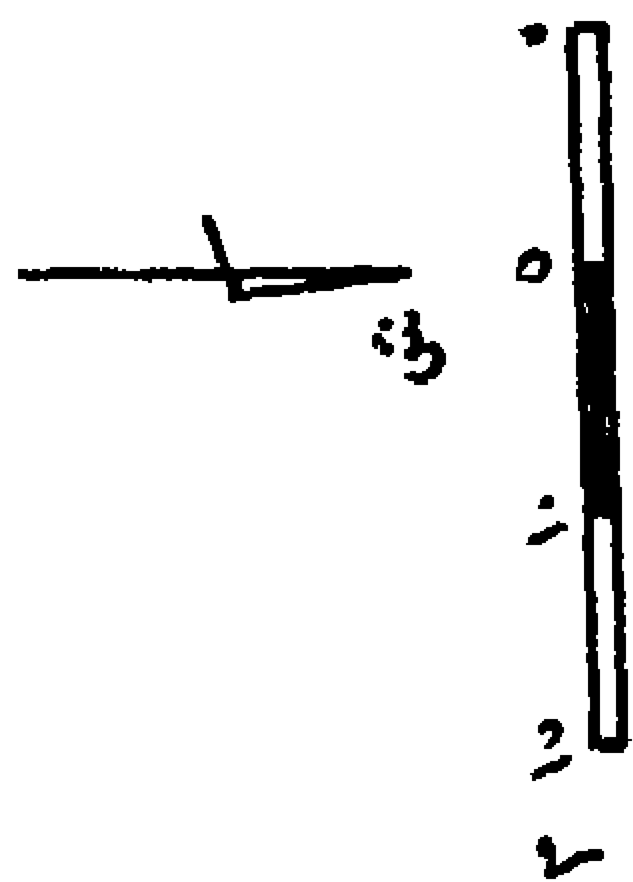


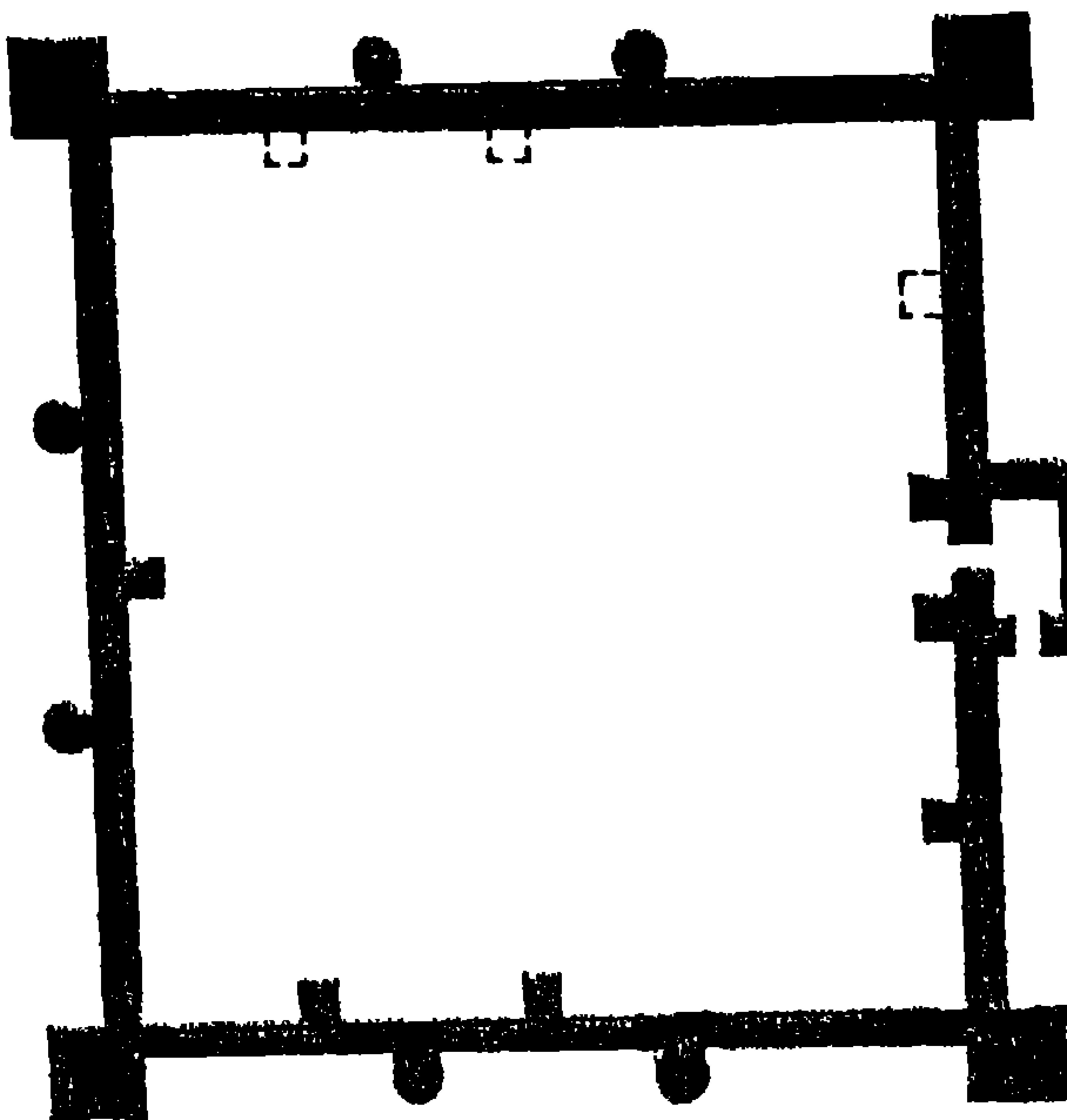
٥

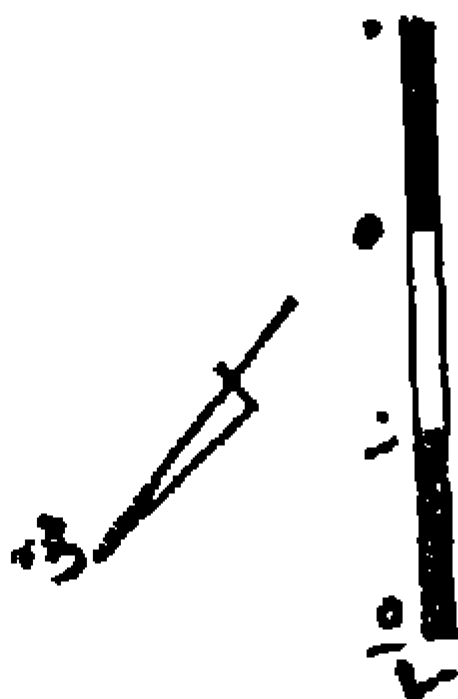


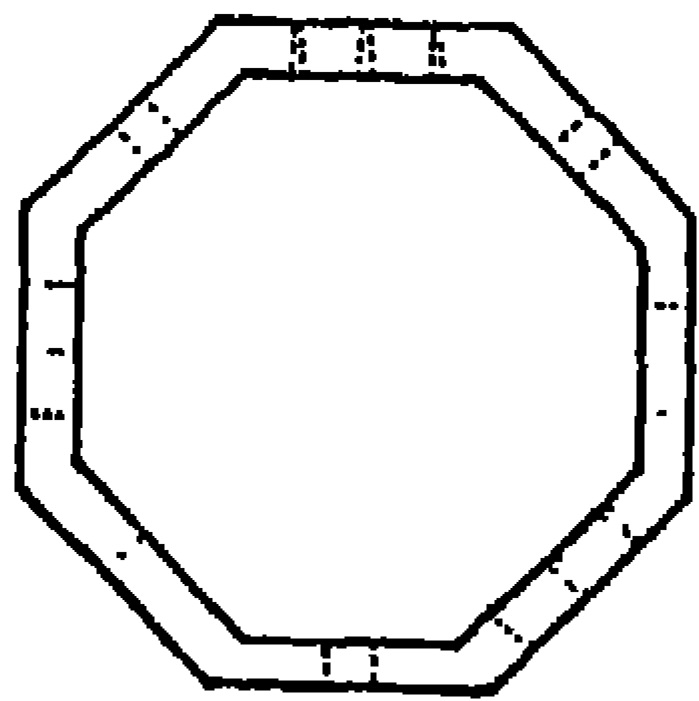
٦

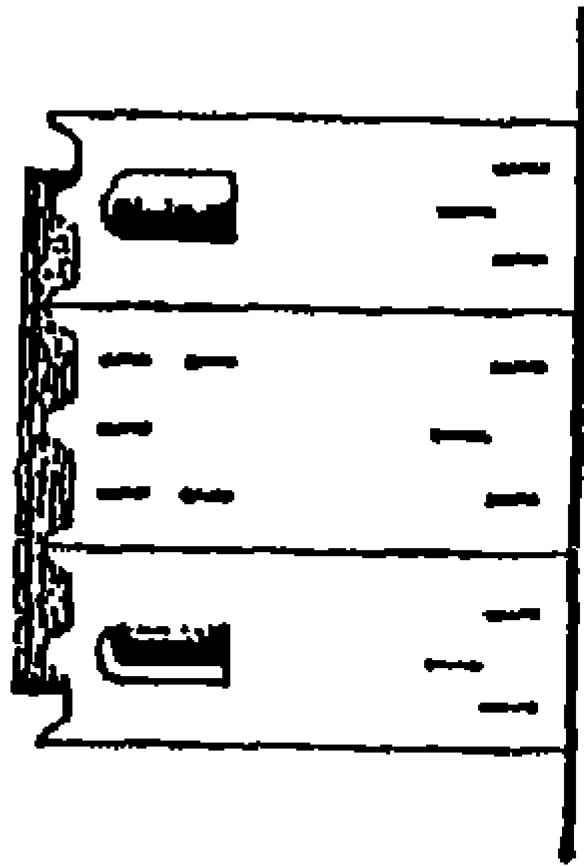




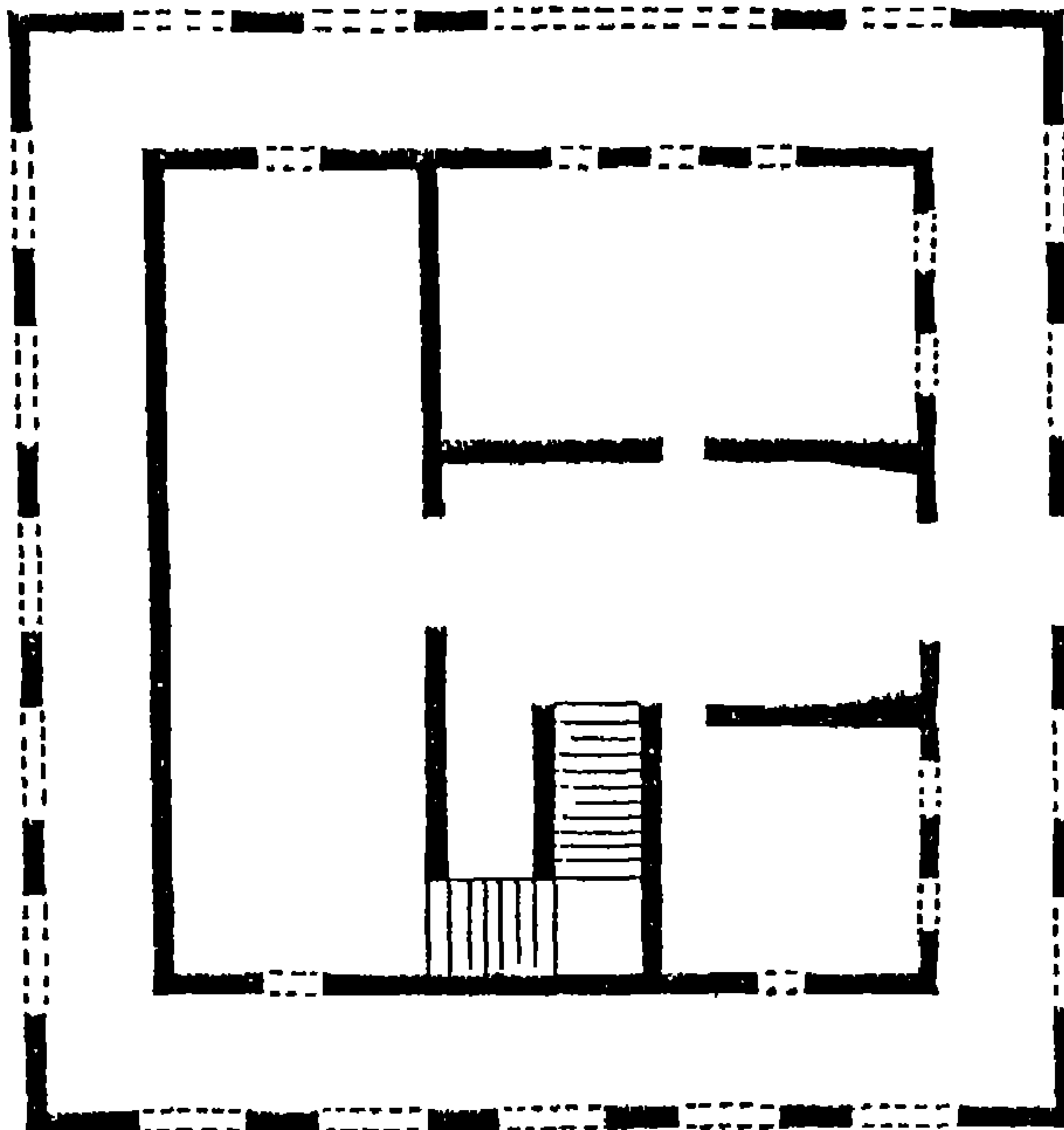


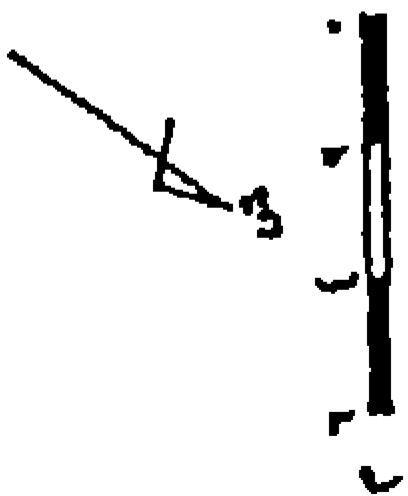






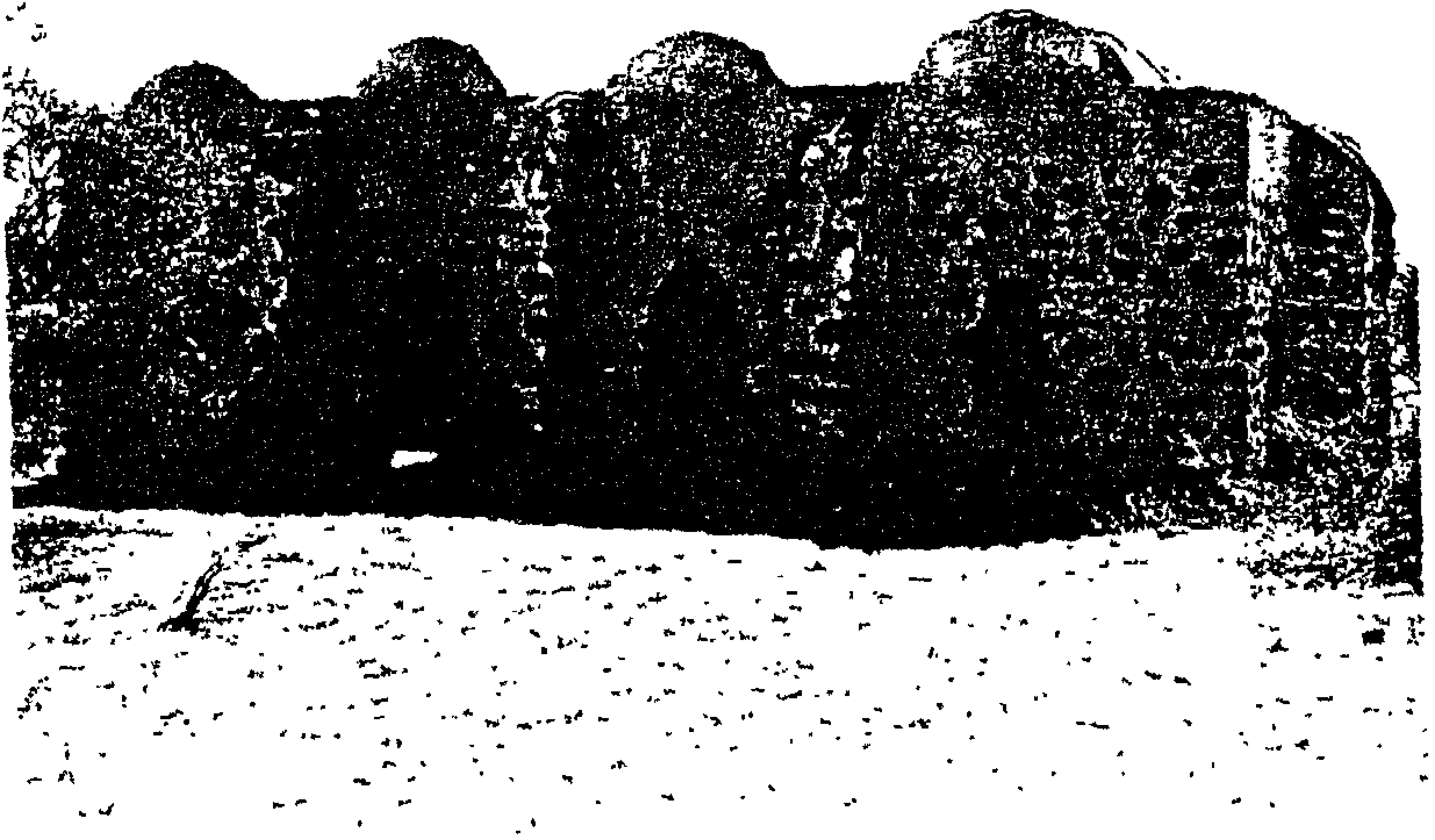




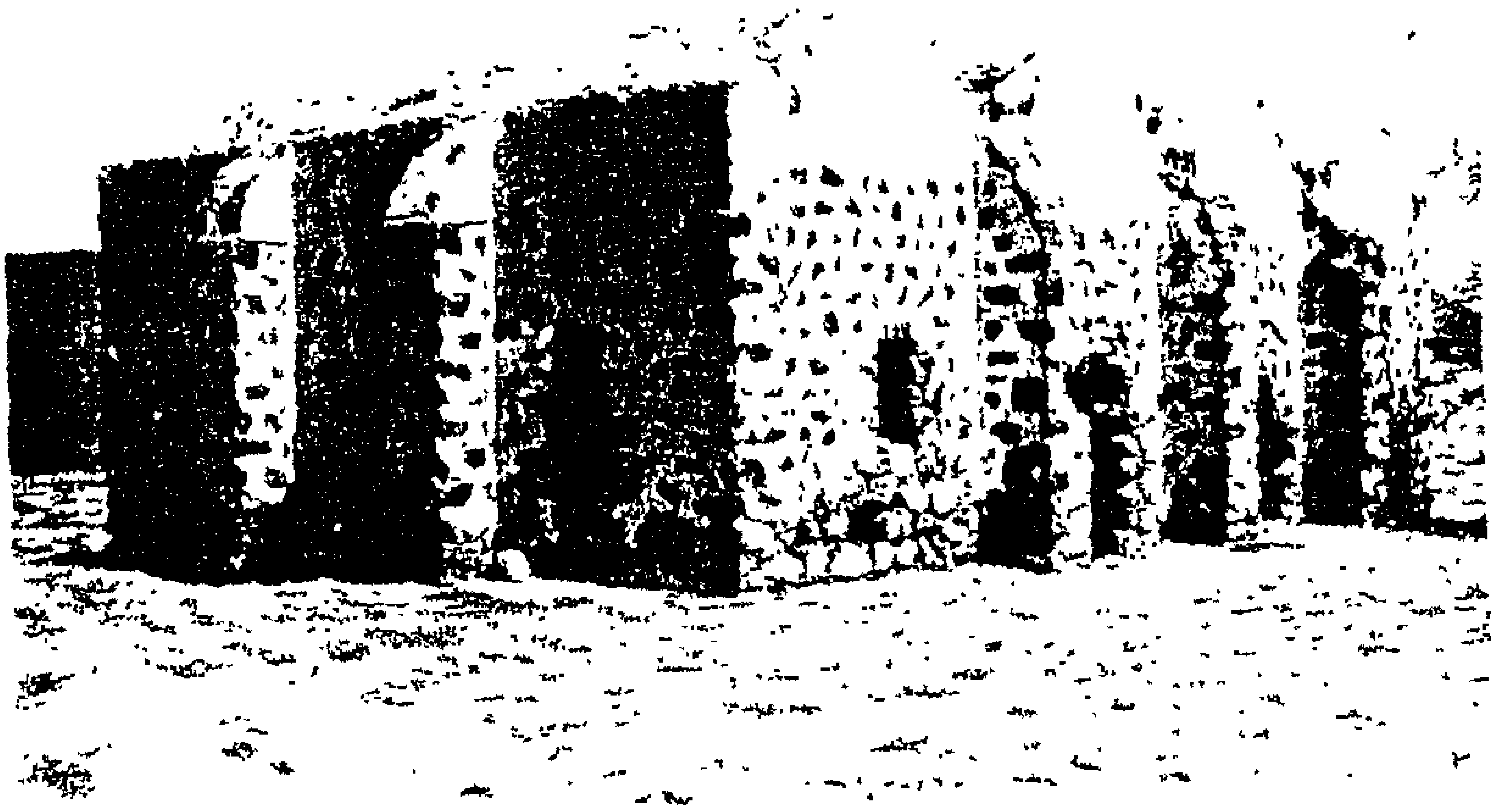


الصور الفوتوغرافية

(١ - ٣٦)



١



٢



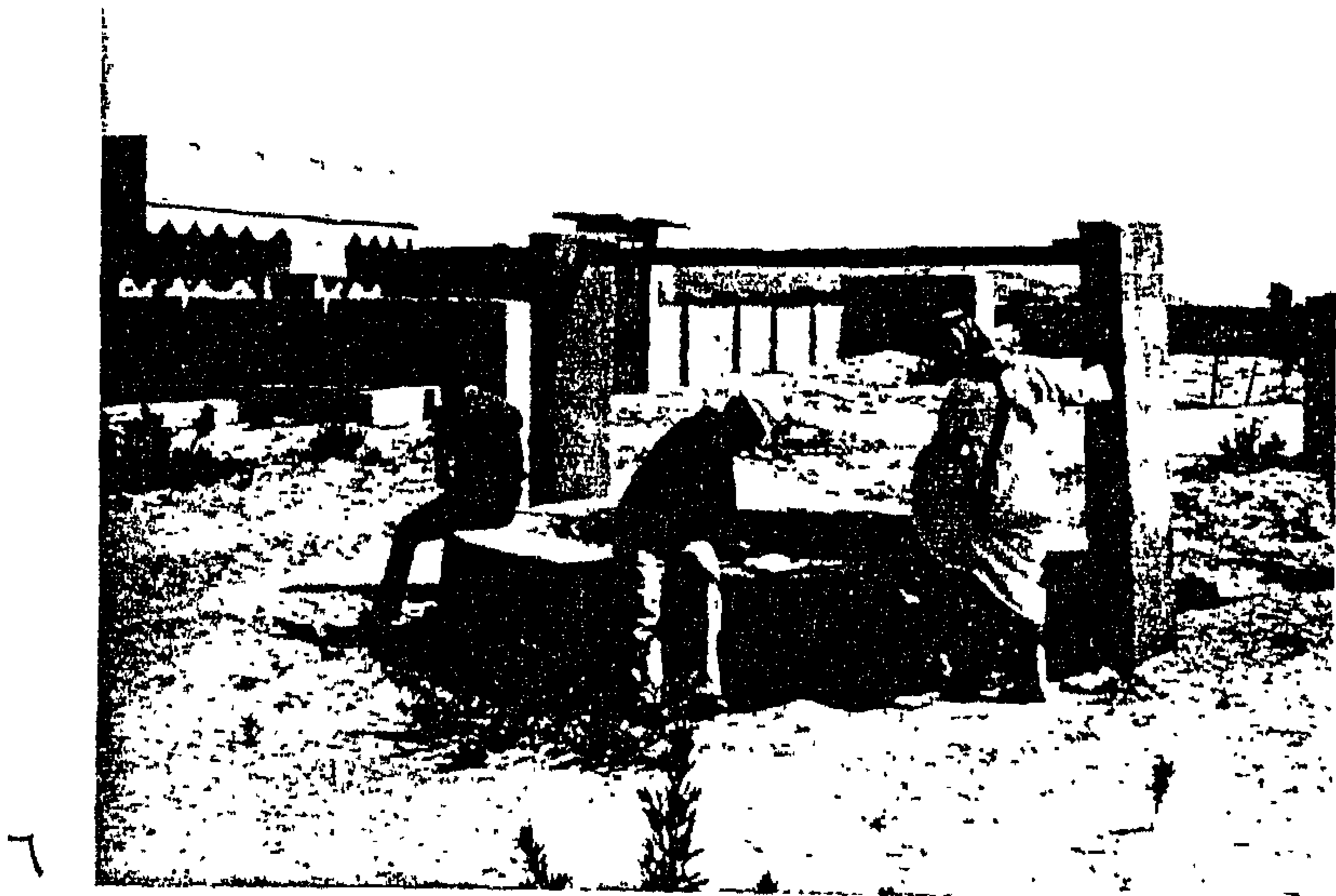
٣



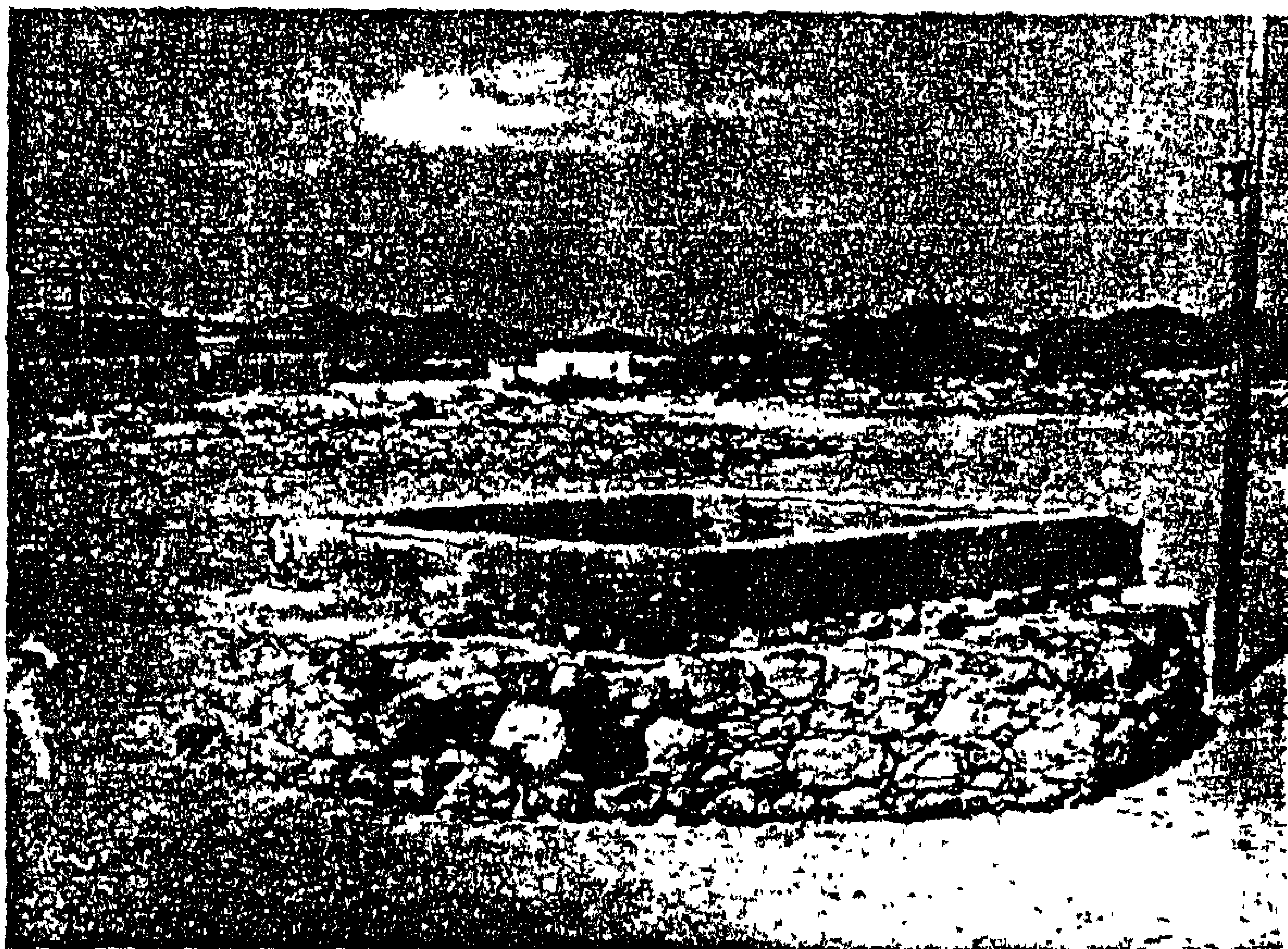
٤



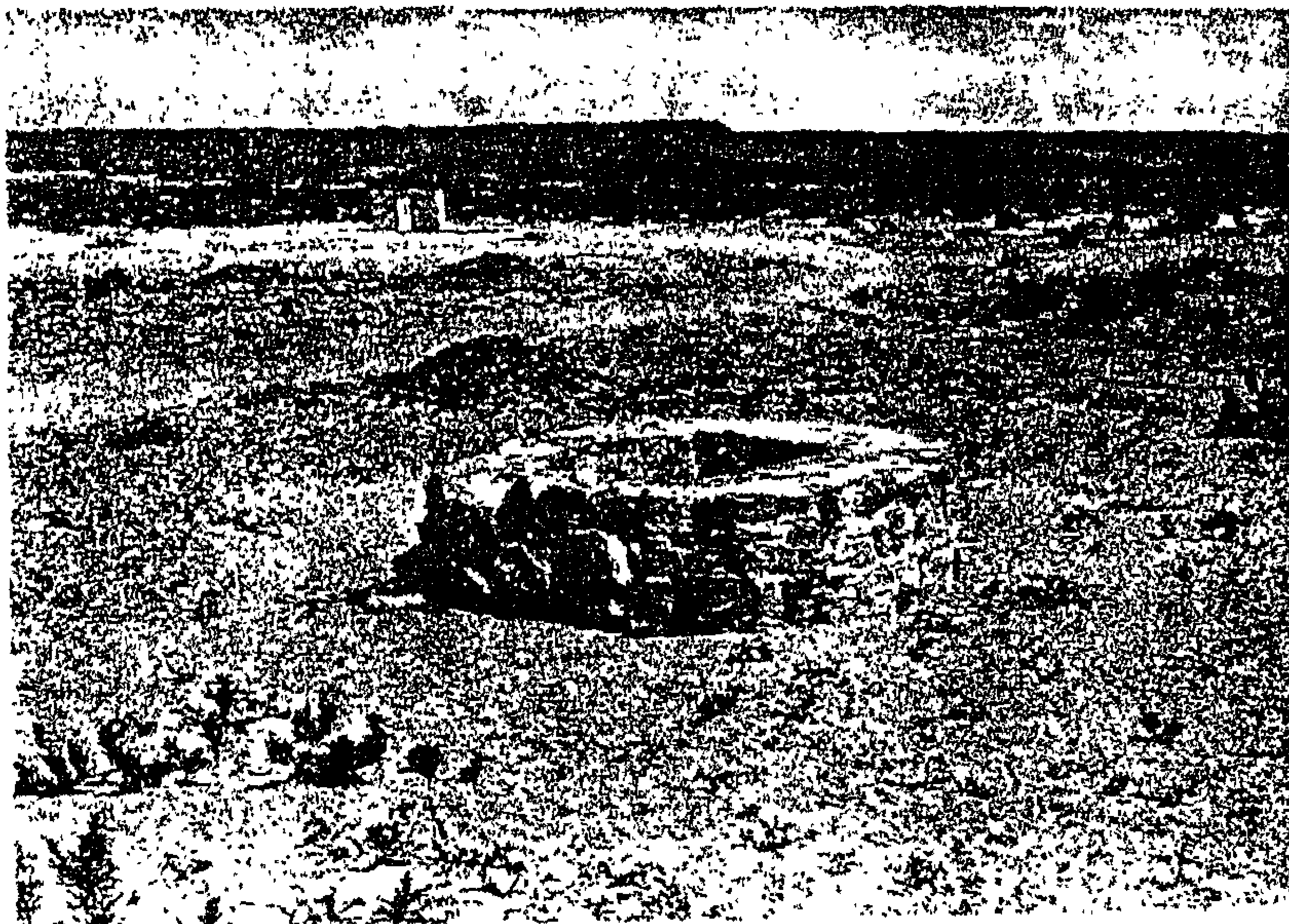
٥



٦



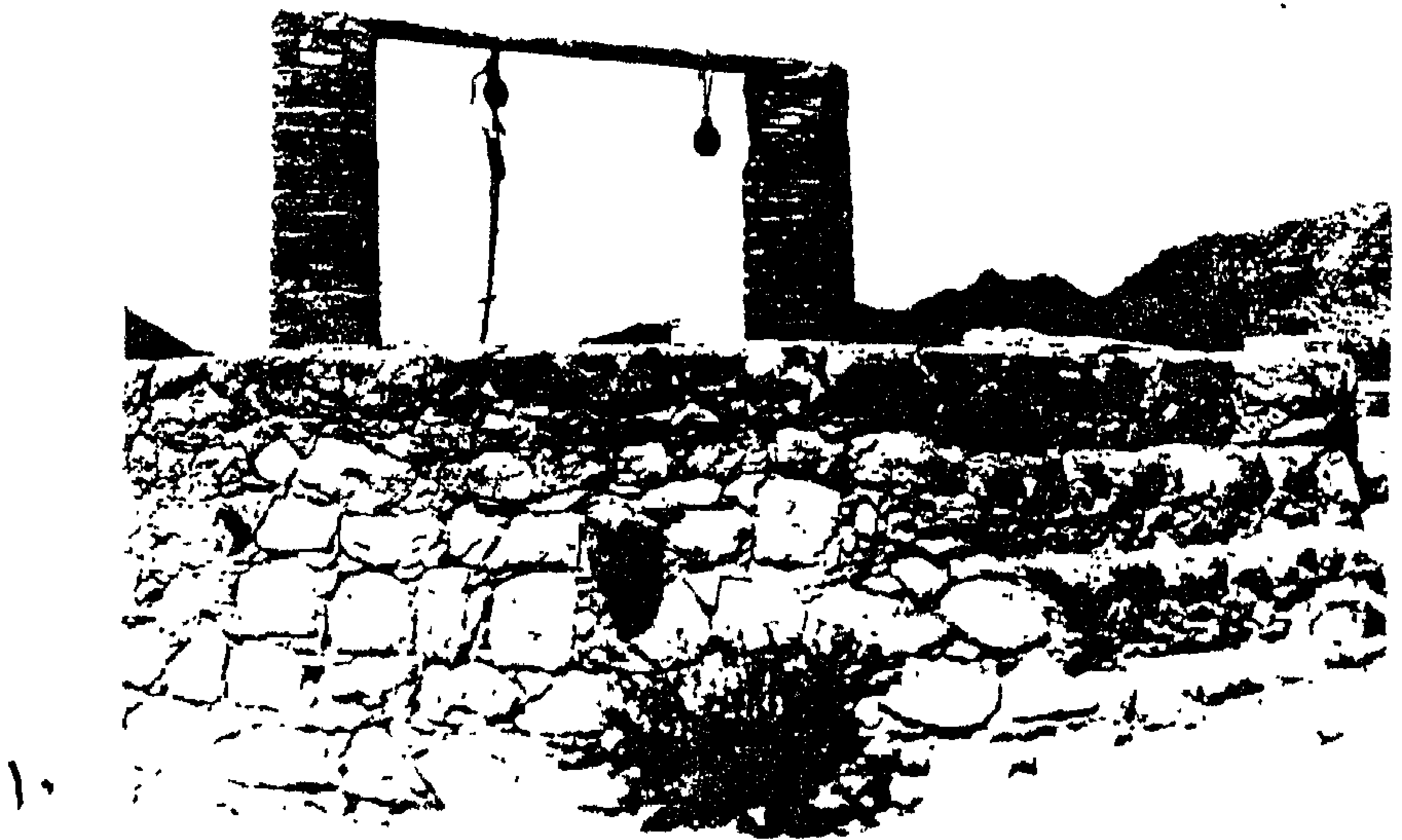
٧



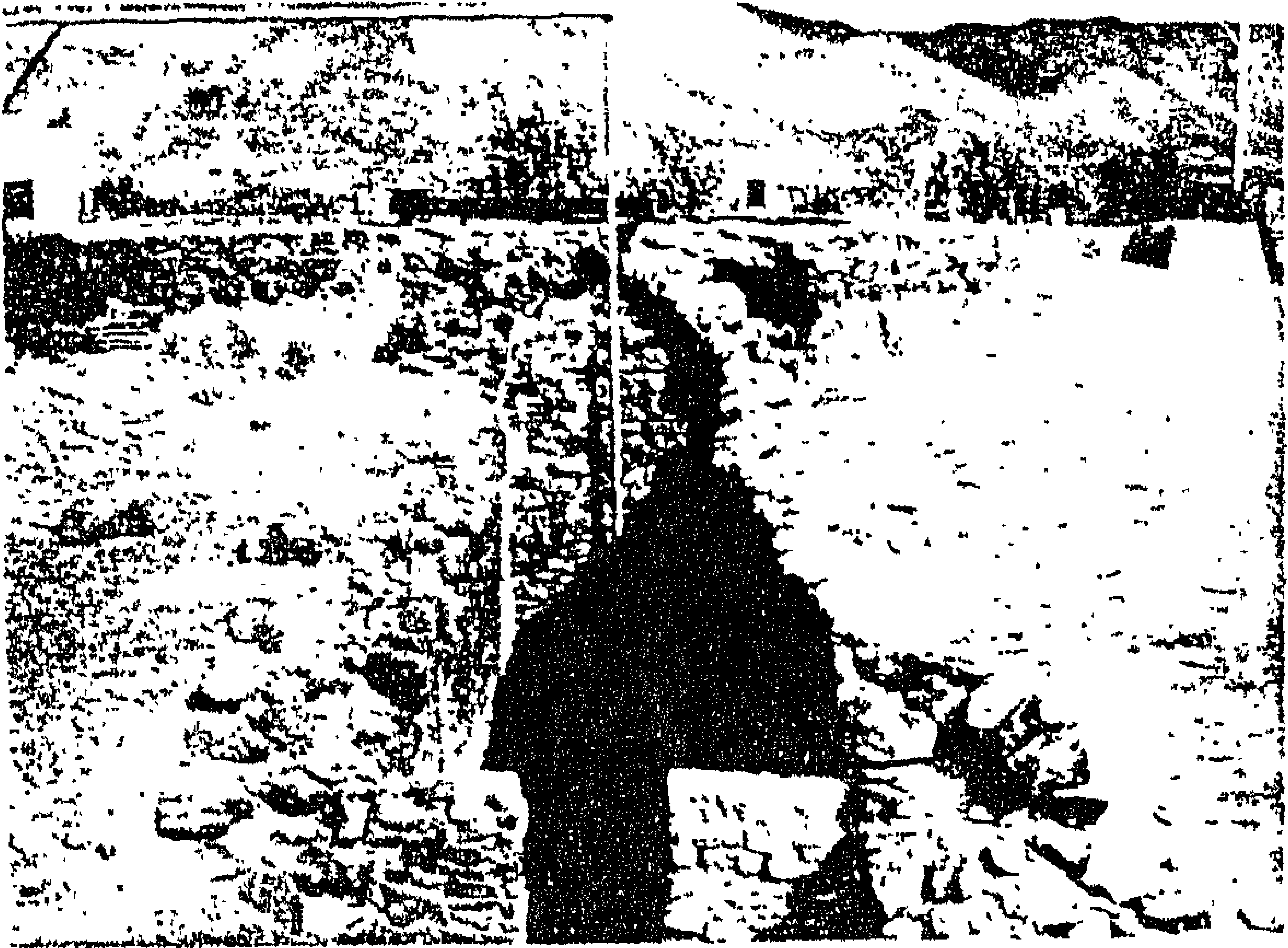
٨



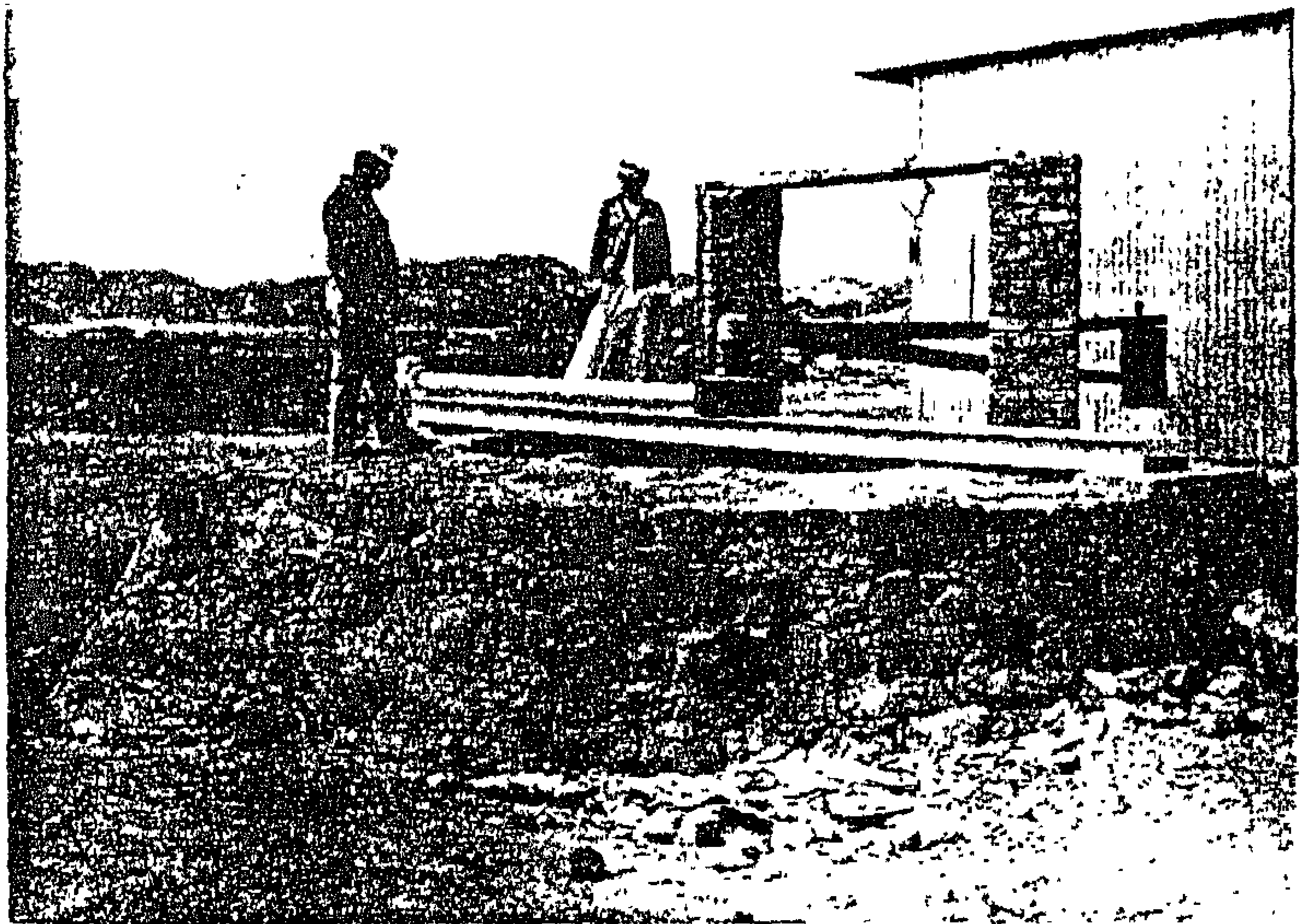
٩



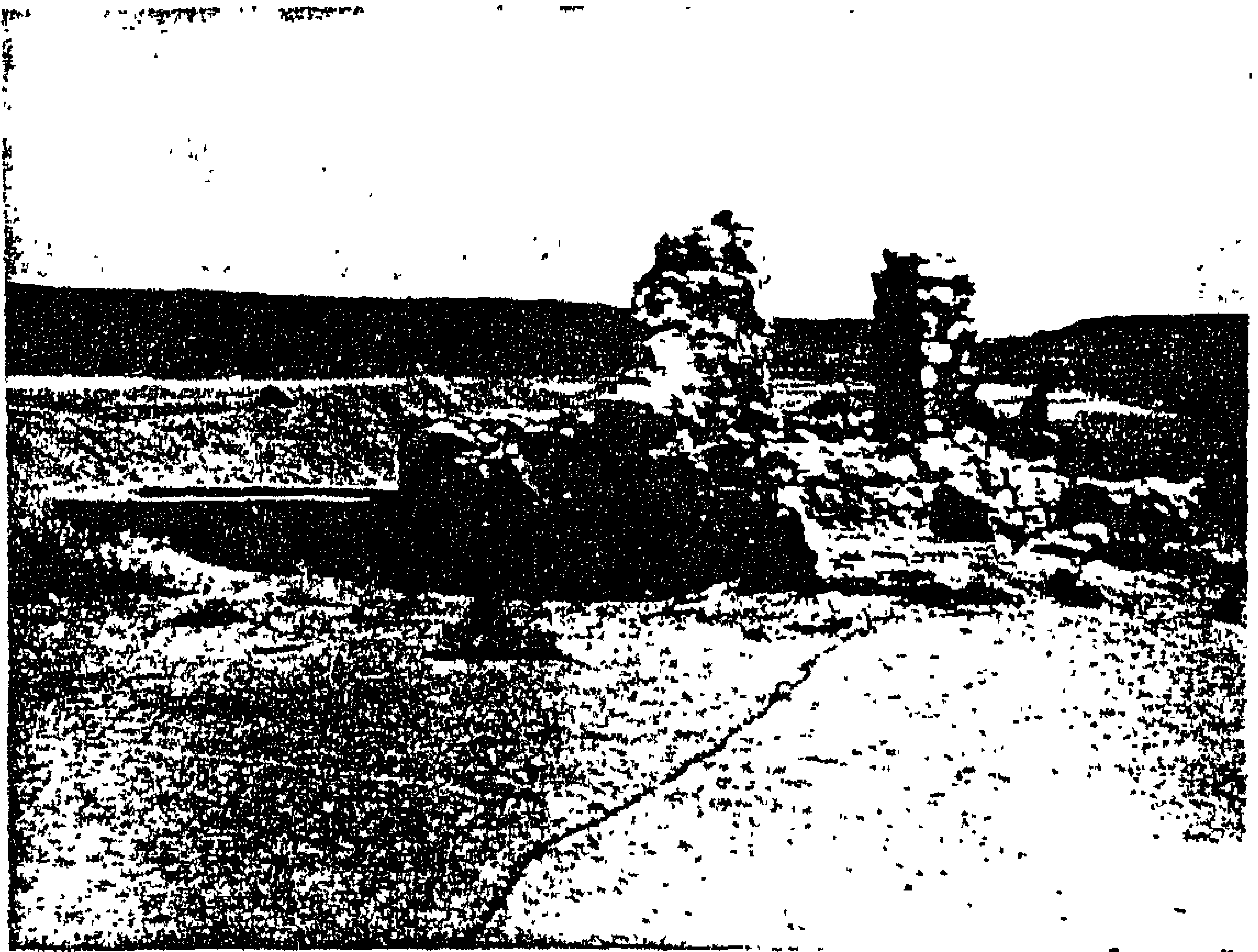
١٠



١١



١٢



١٣



١٤



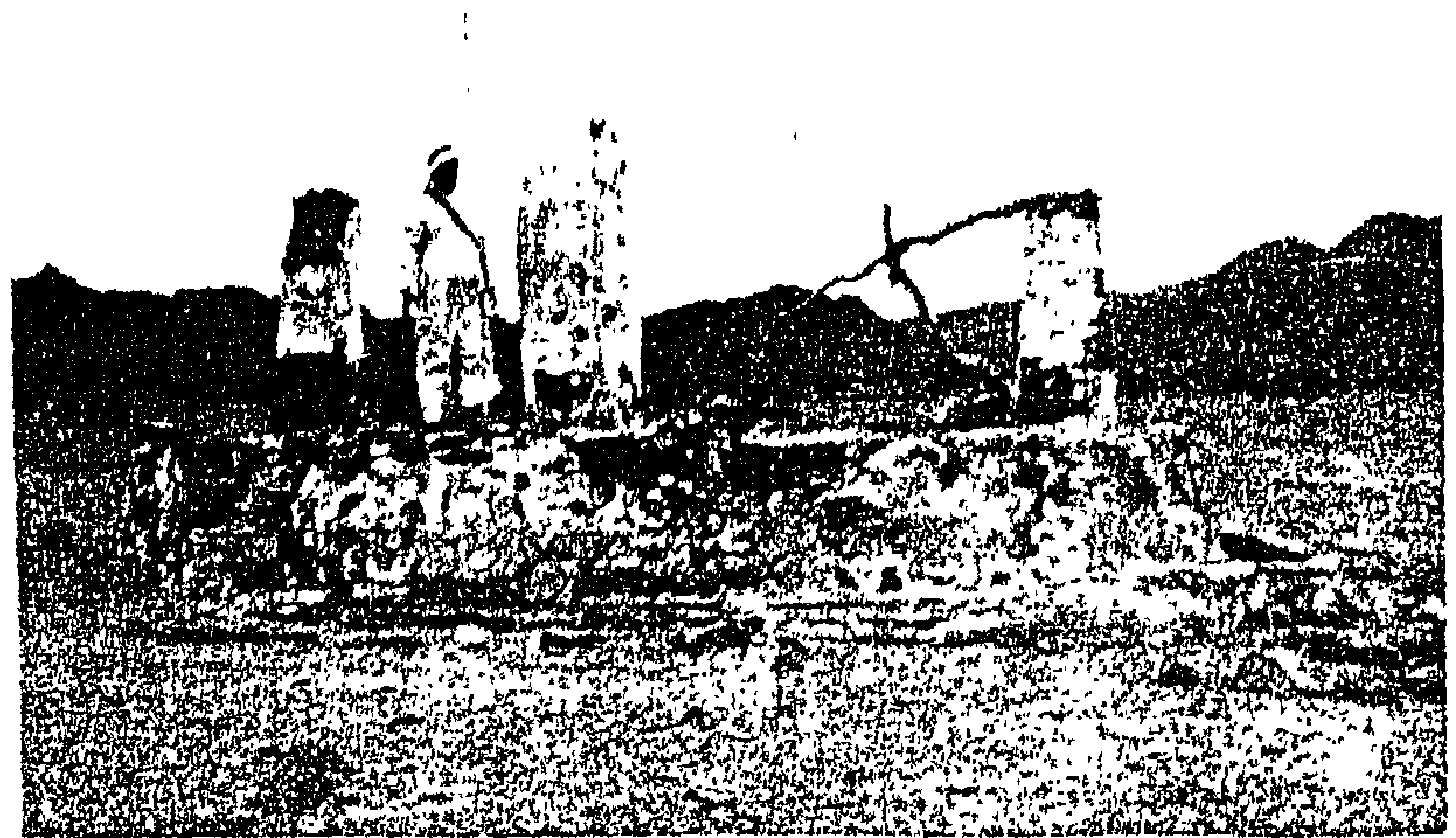
١٥



١٦



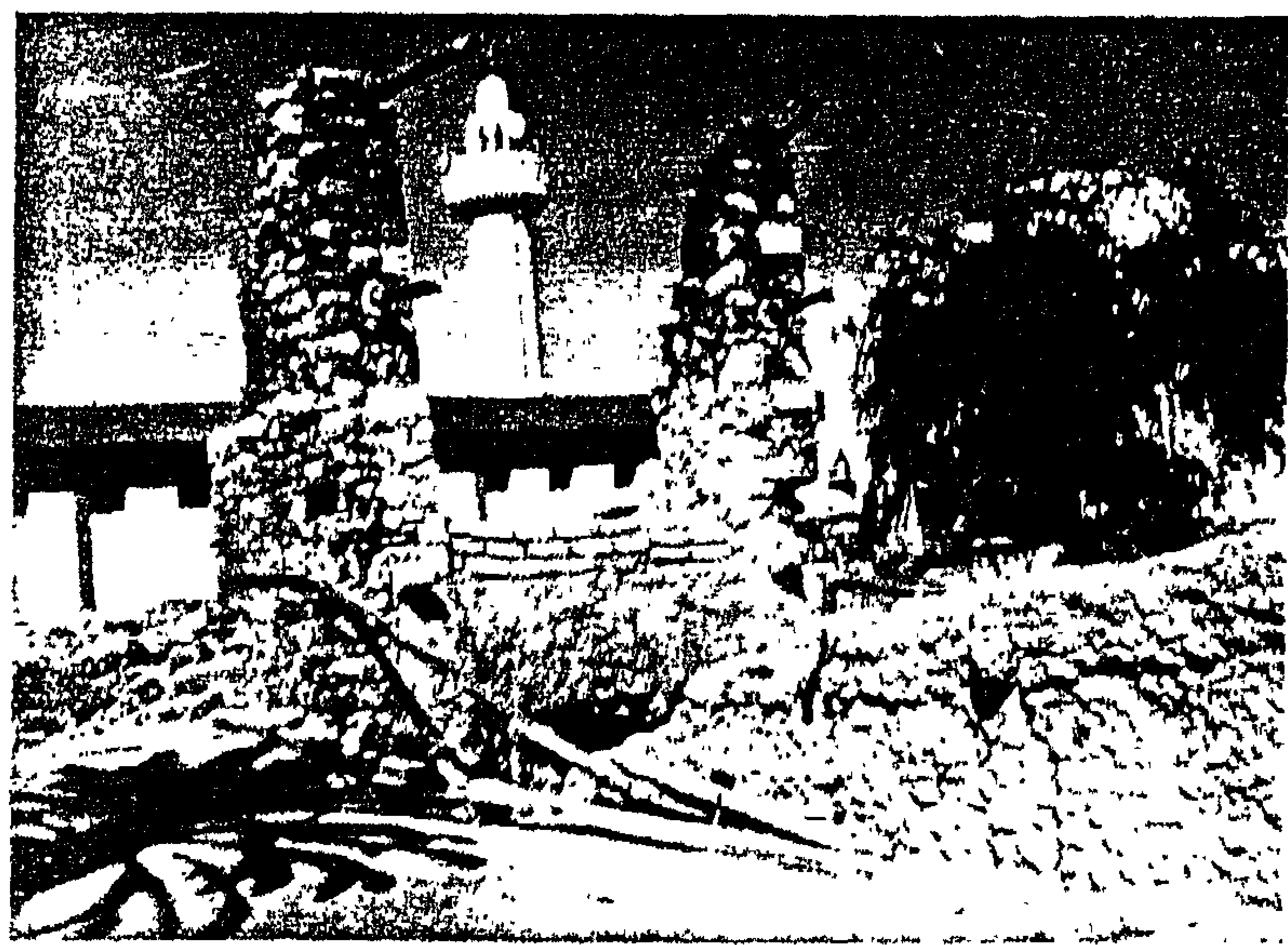
١٧



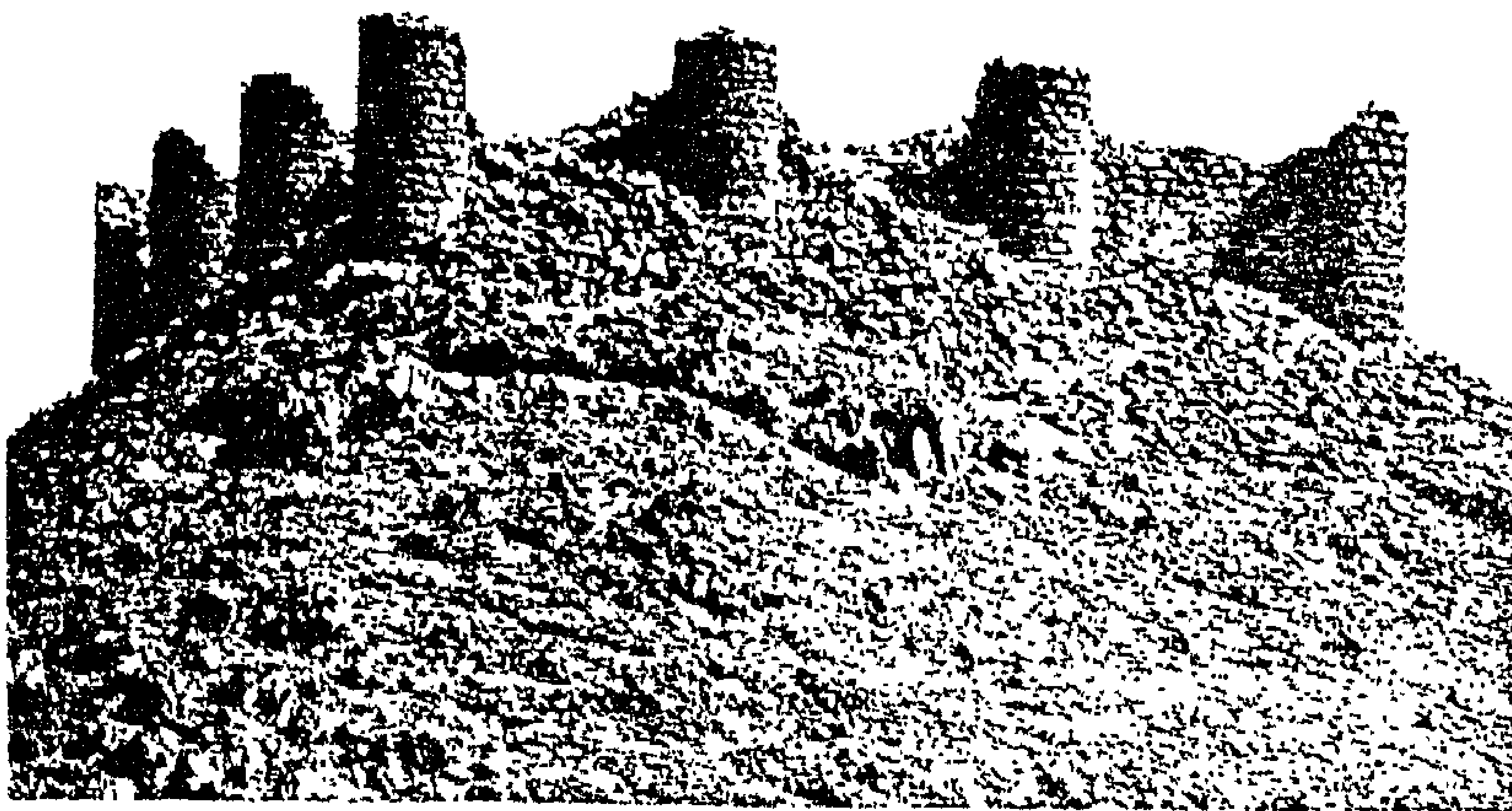
١٨



١٩



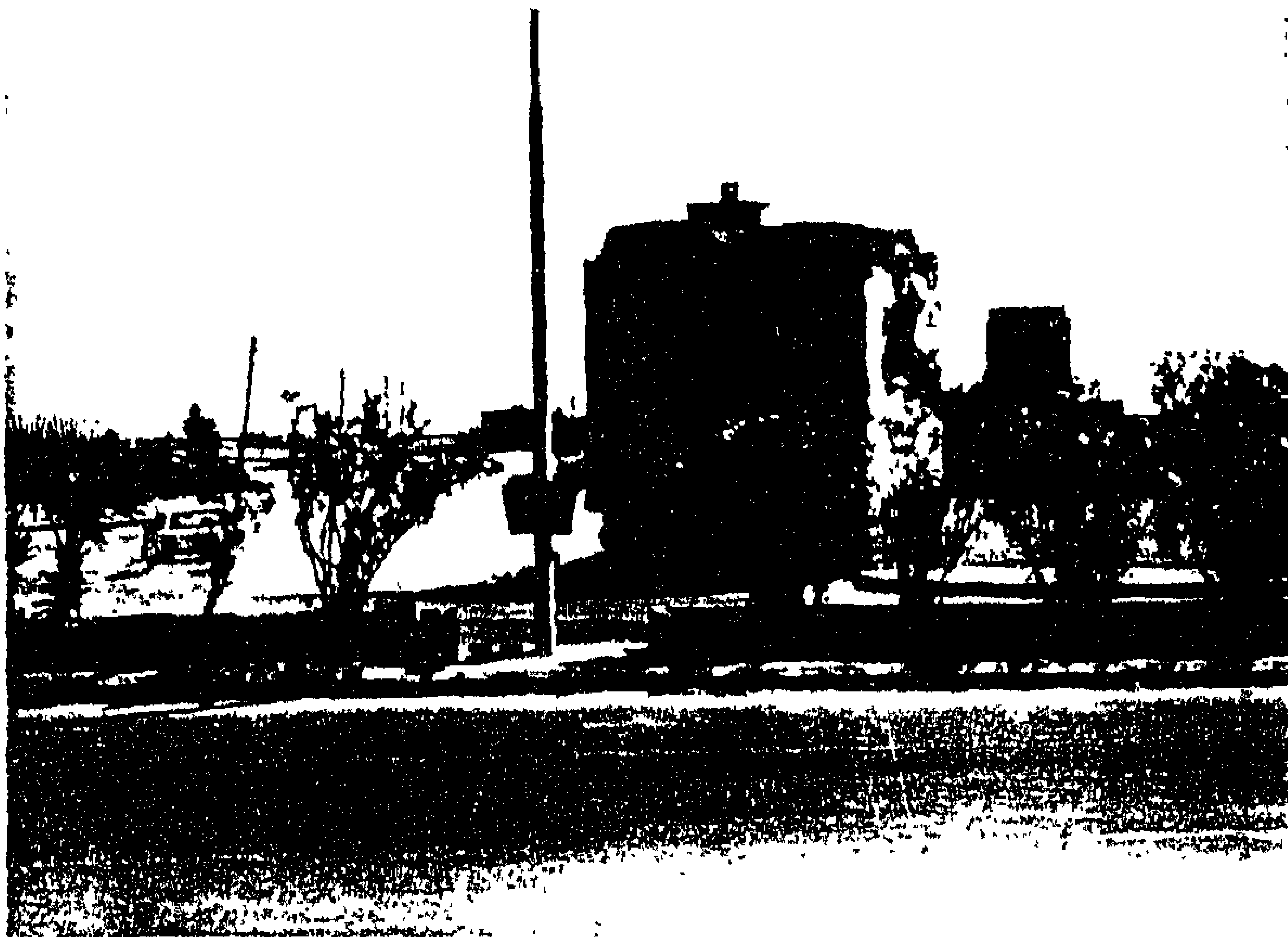
٢٠



٢١



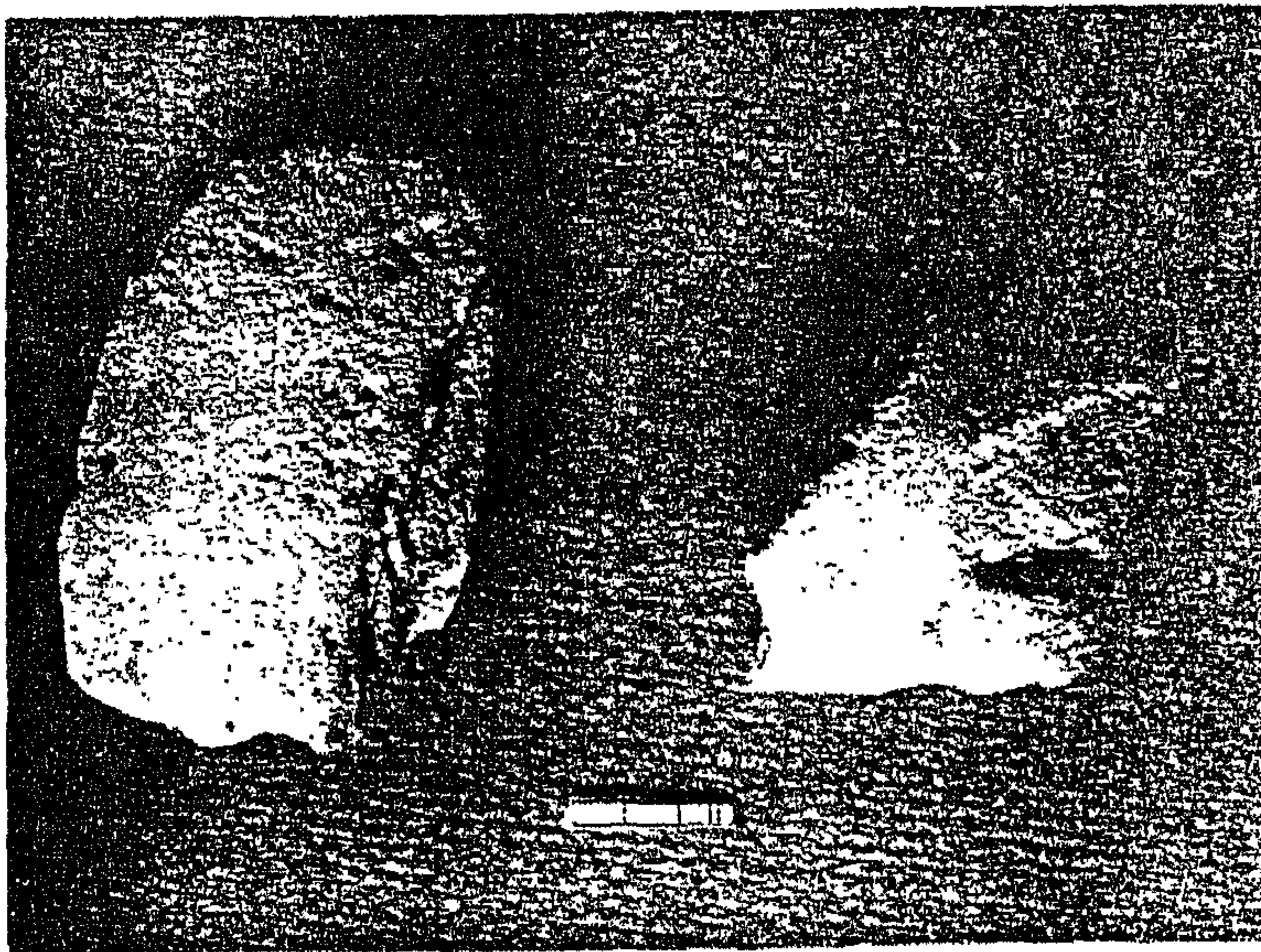
٢٢



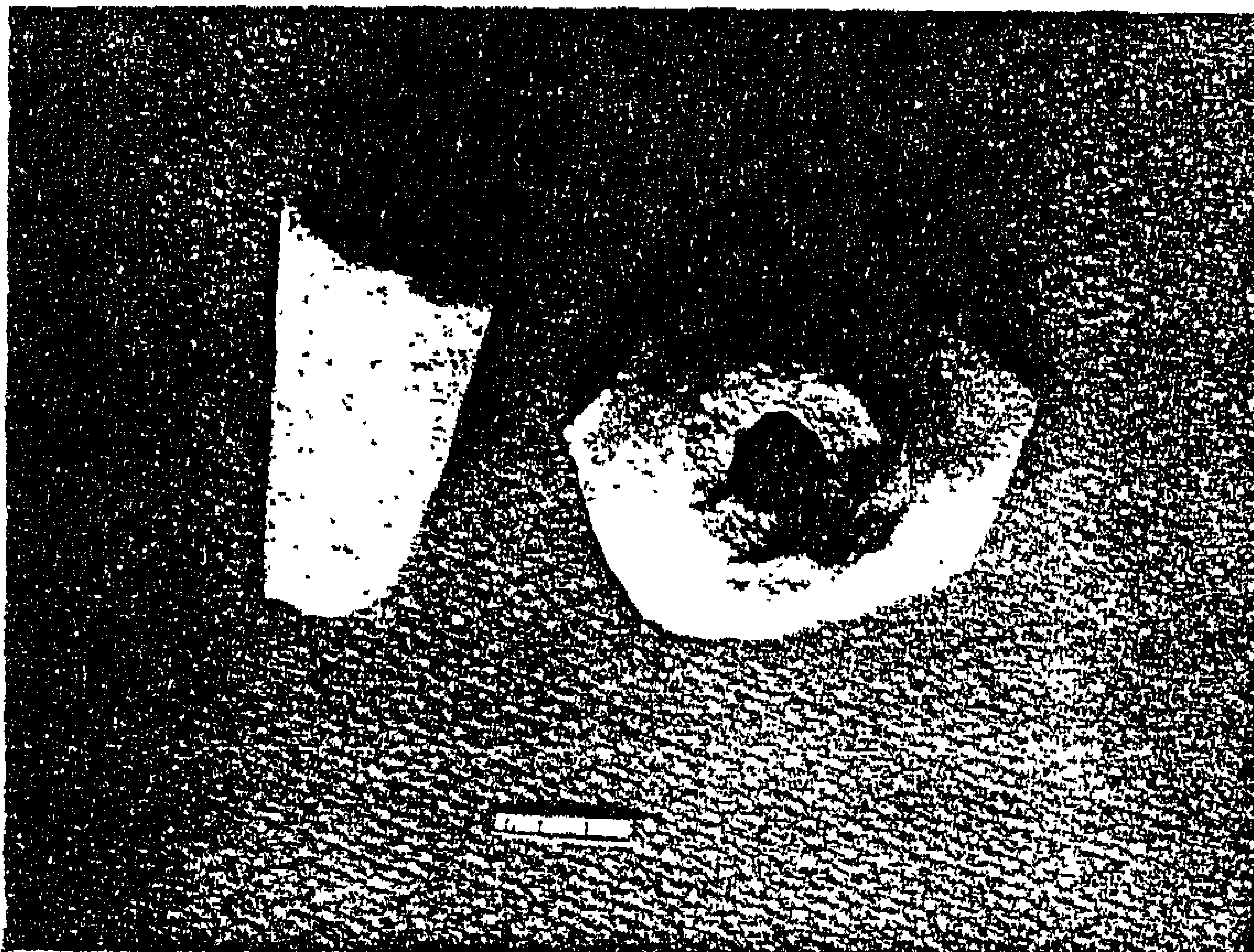
٢٣



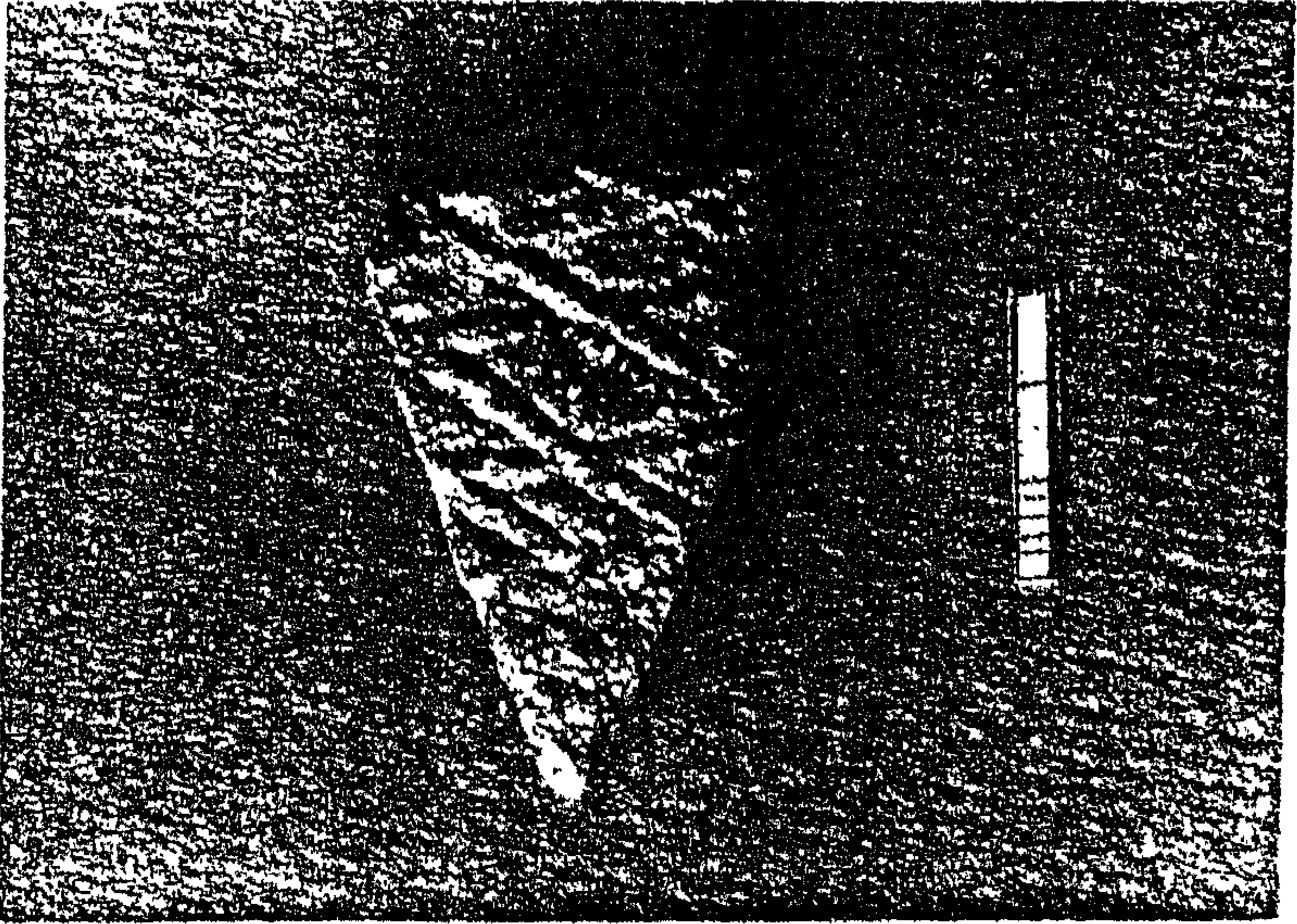
٢٤



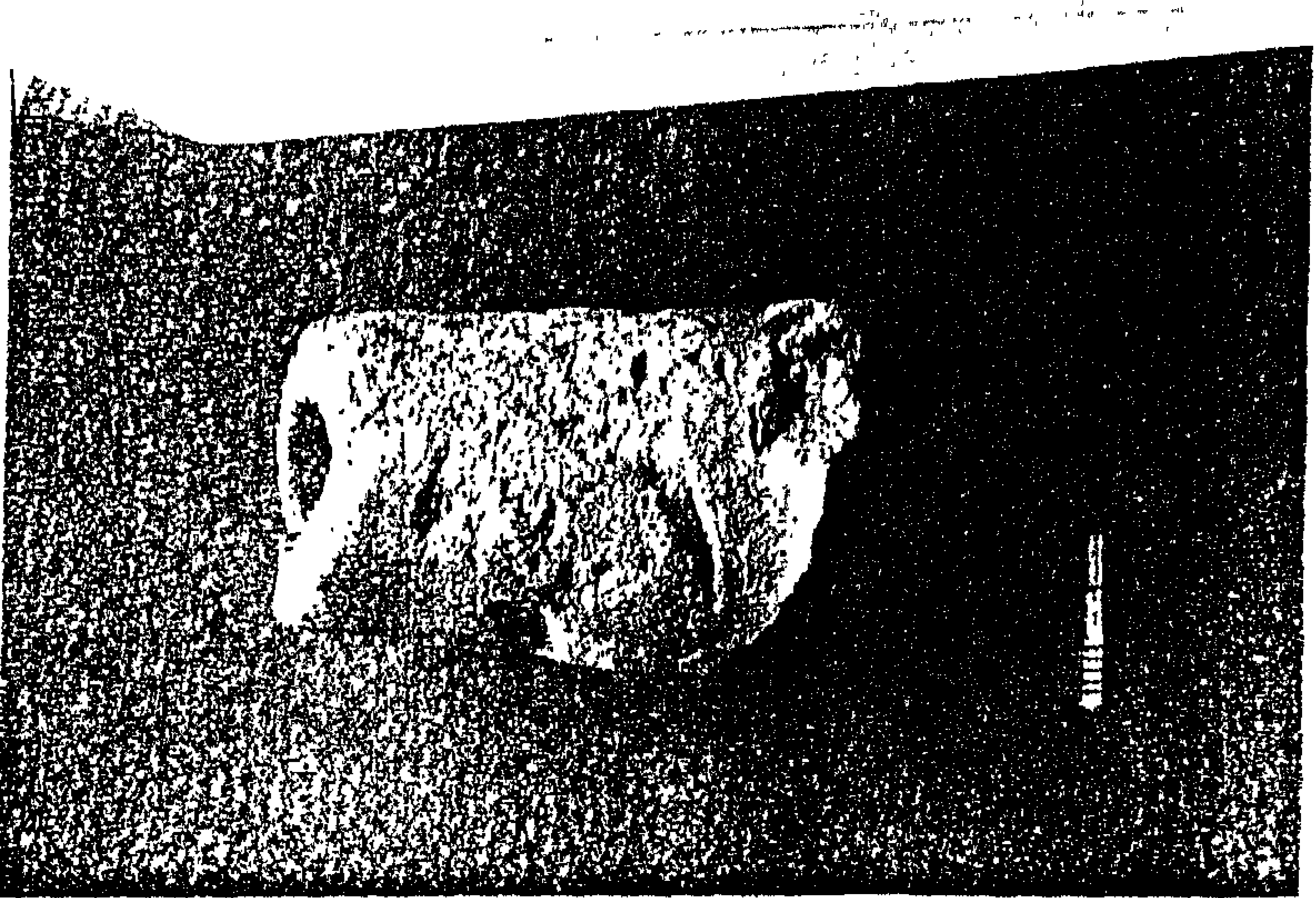
٢٥



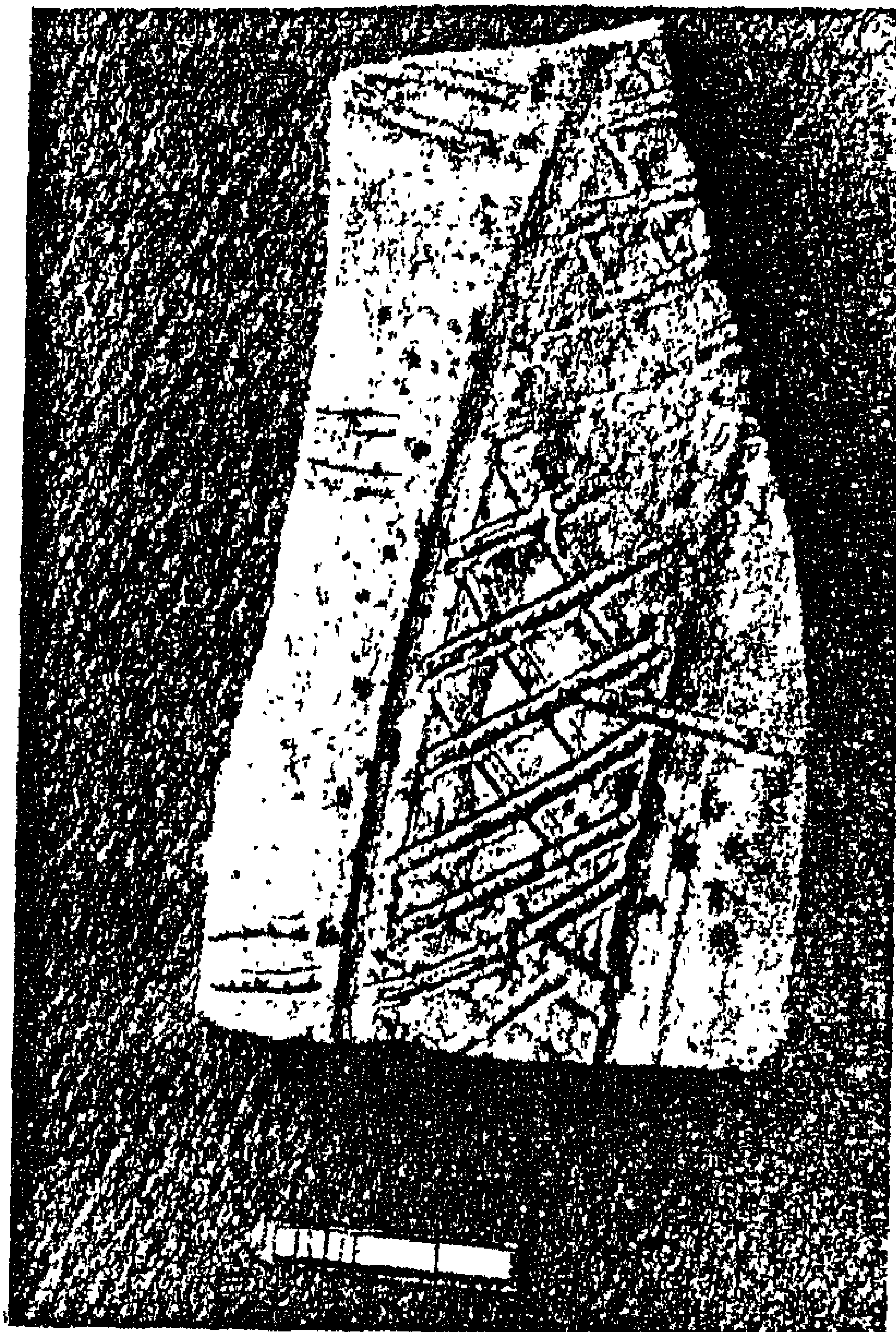
٢٦



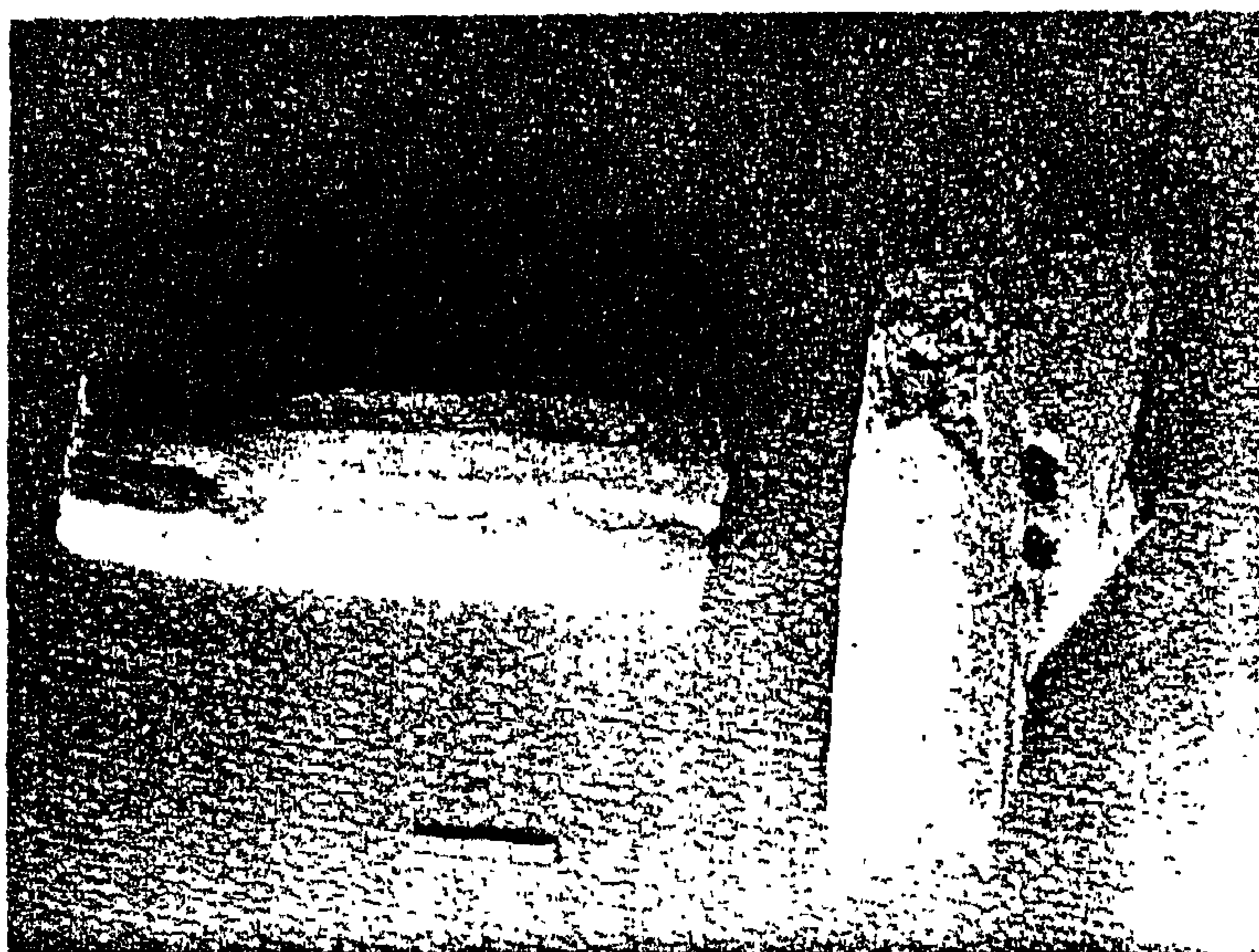
٢٧



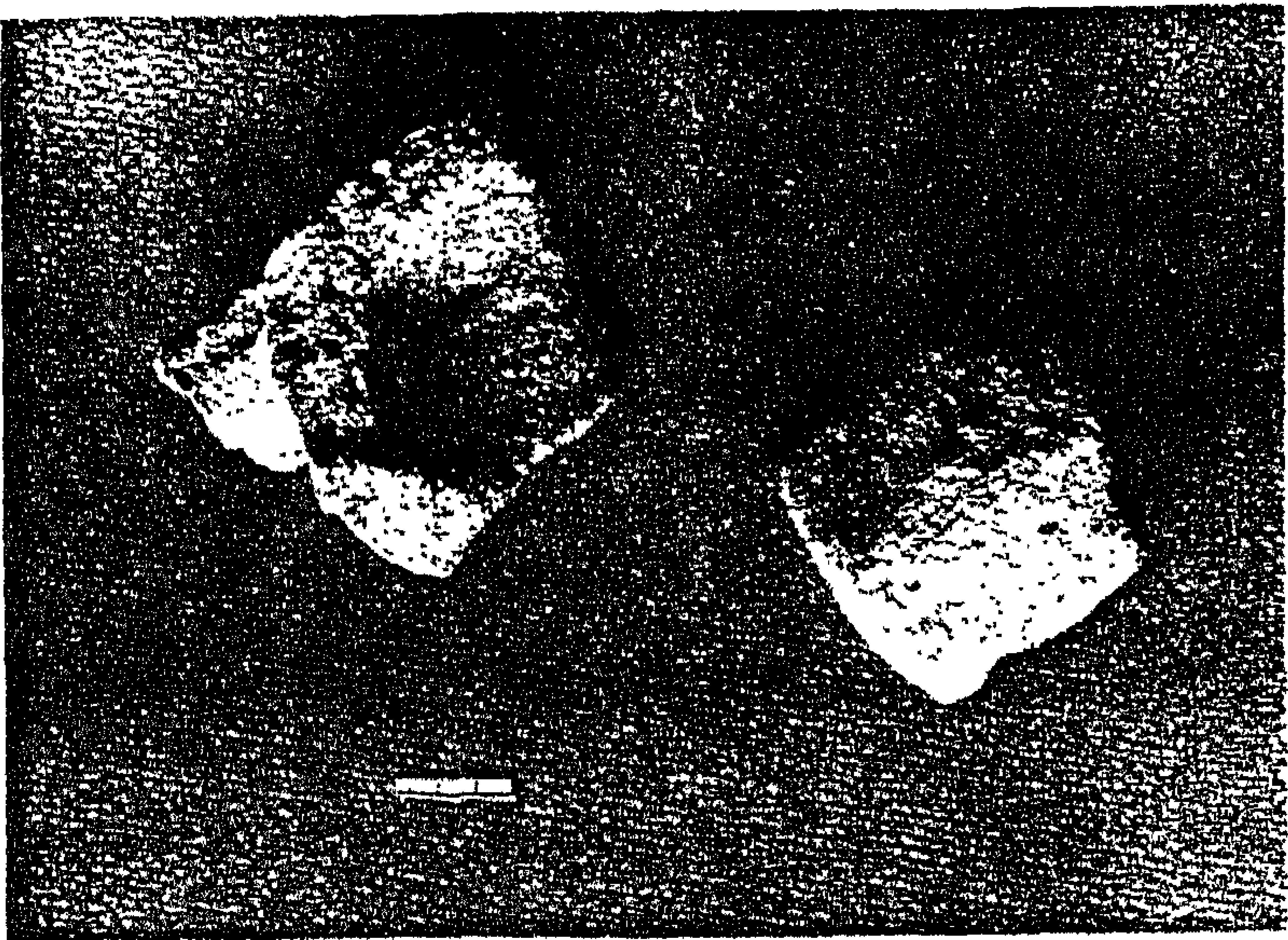
٢٨



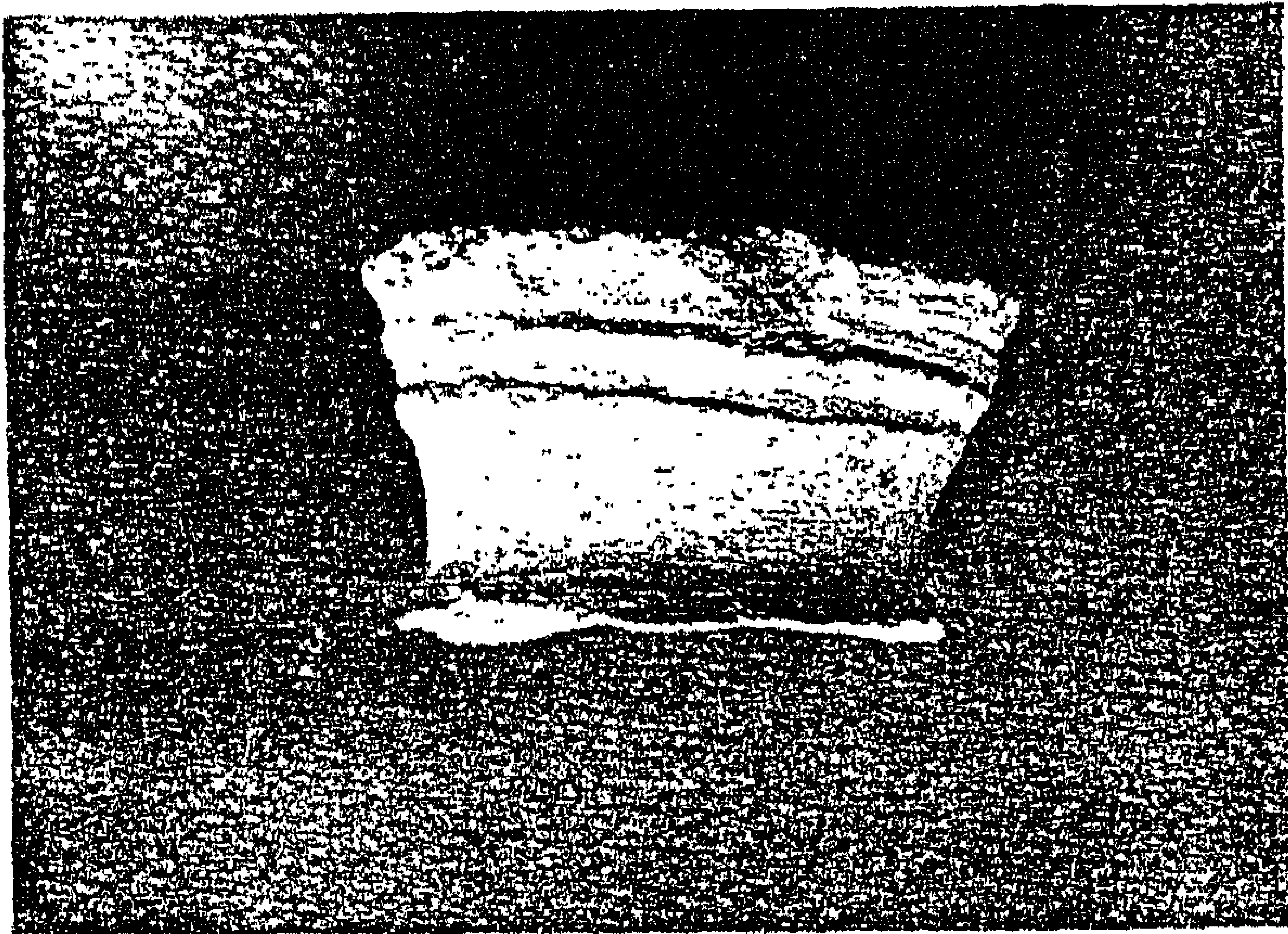
٢٩



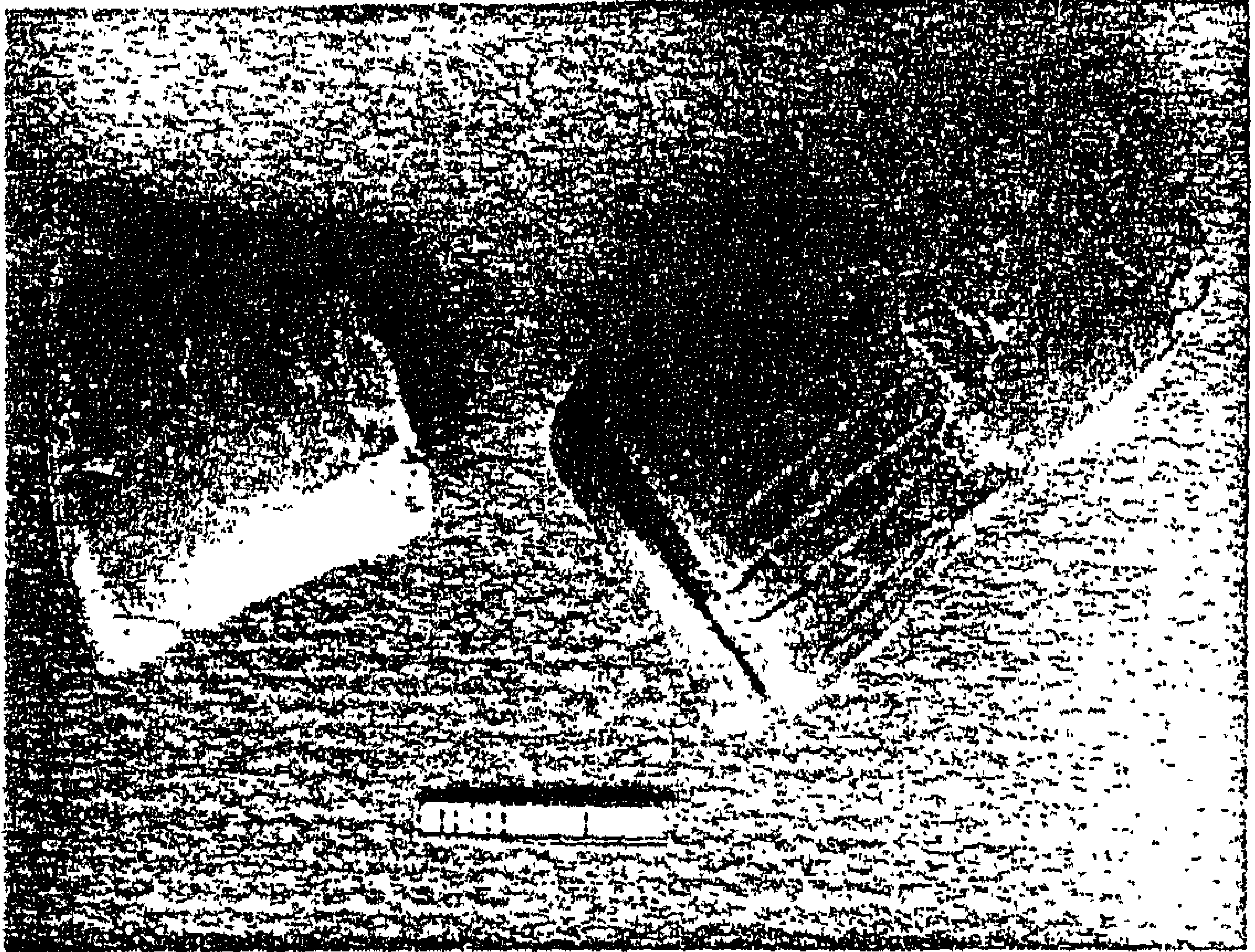
٣٠



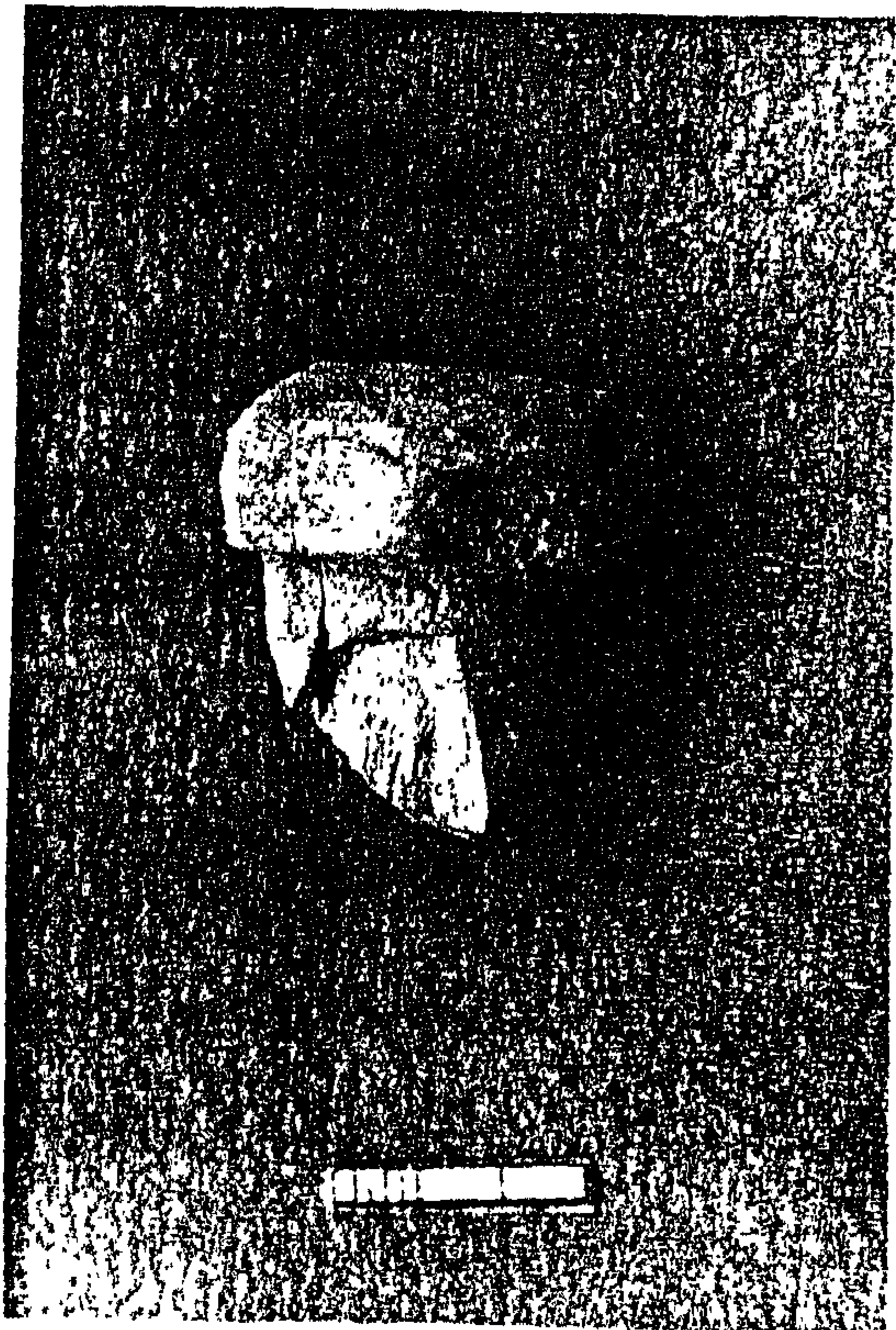
٣١



٣٢



٣٣



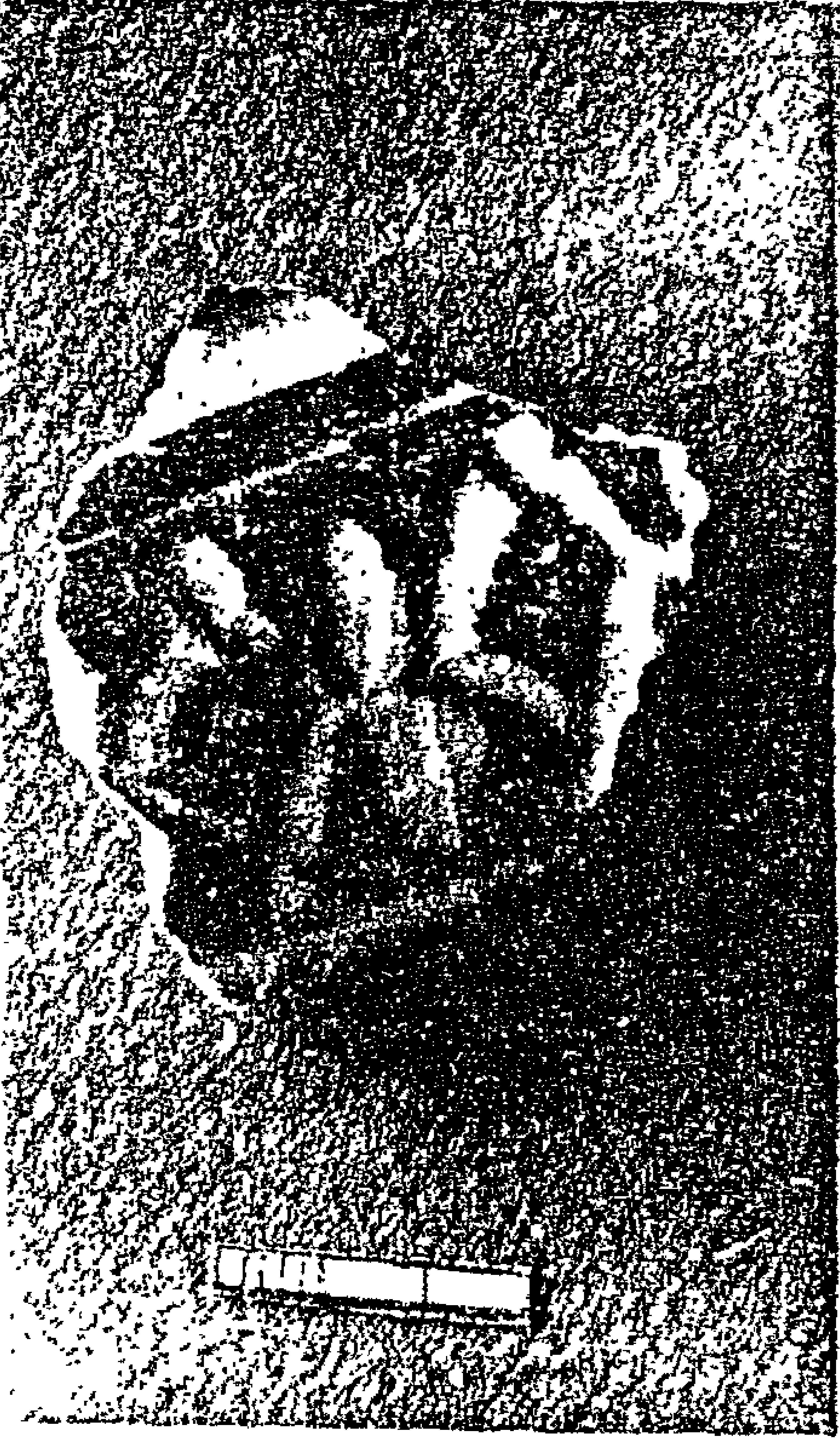
٣٤



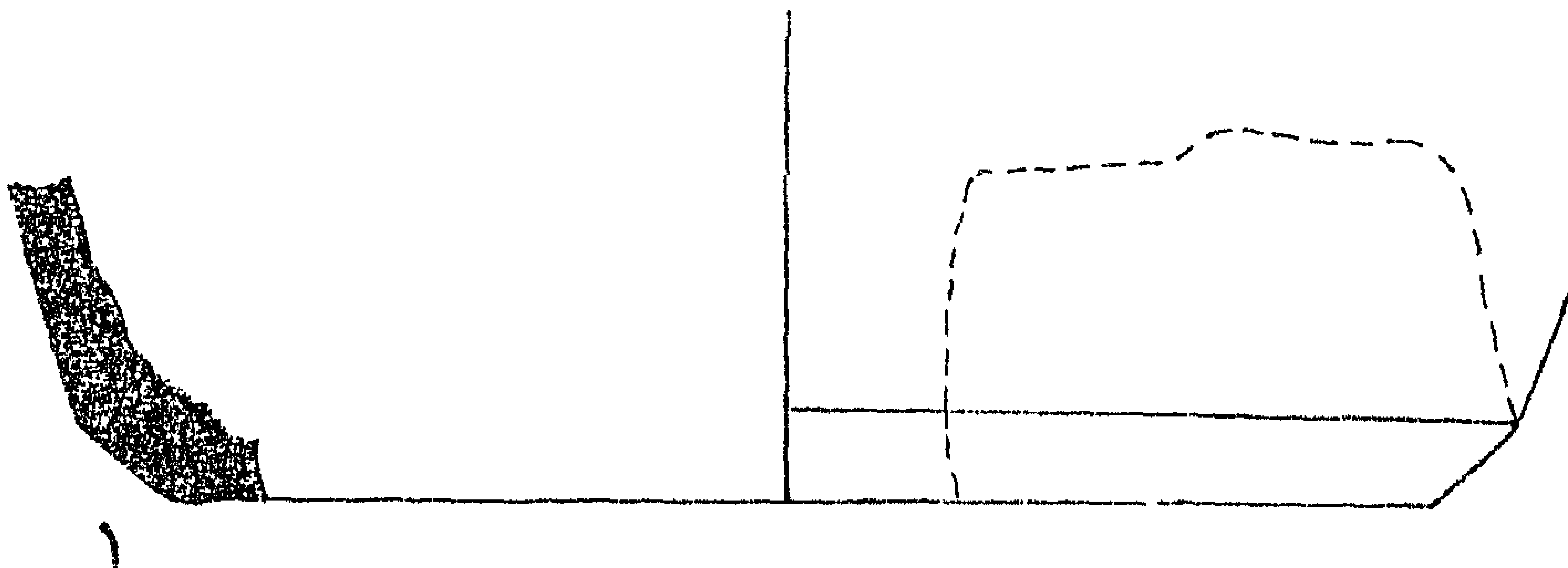
٣٥



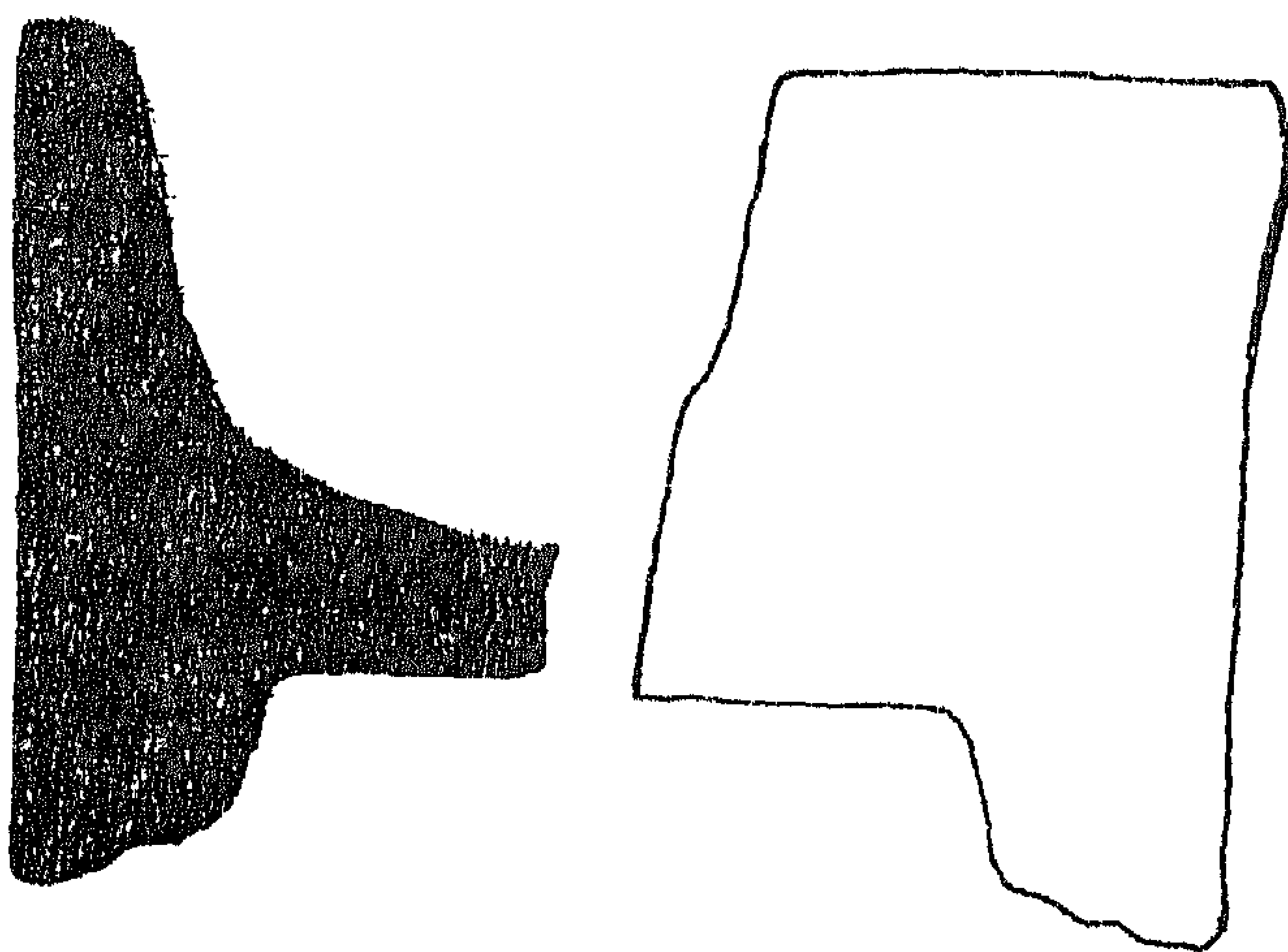
٣٦



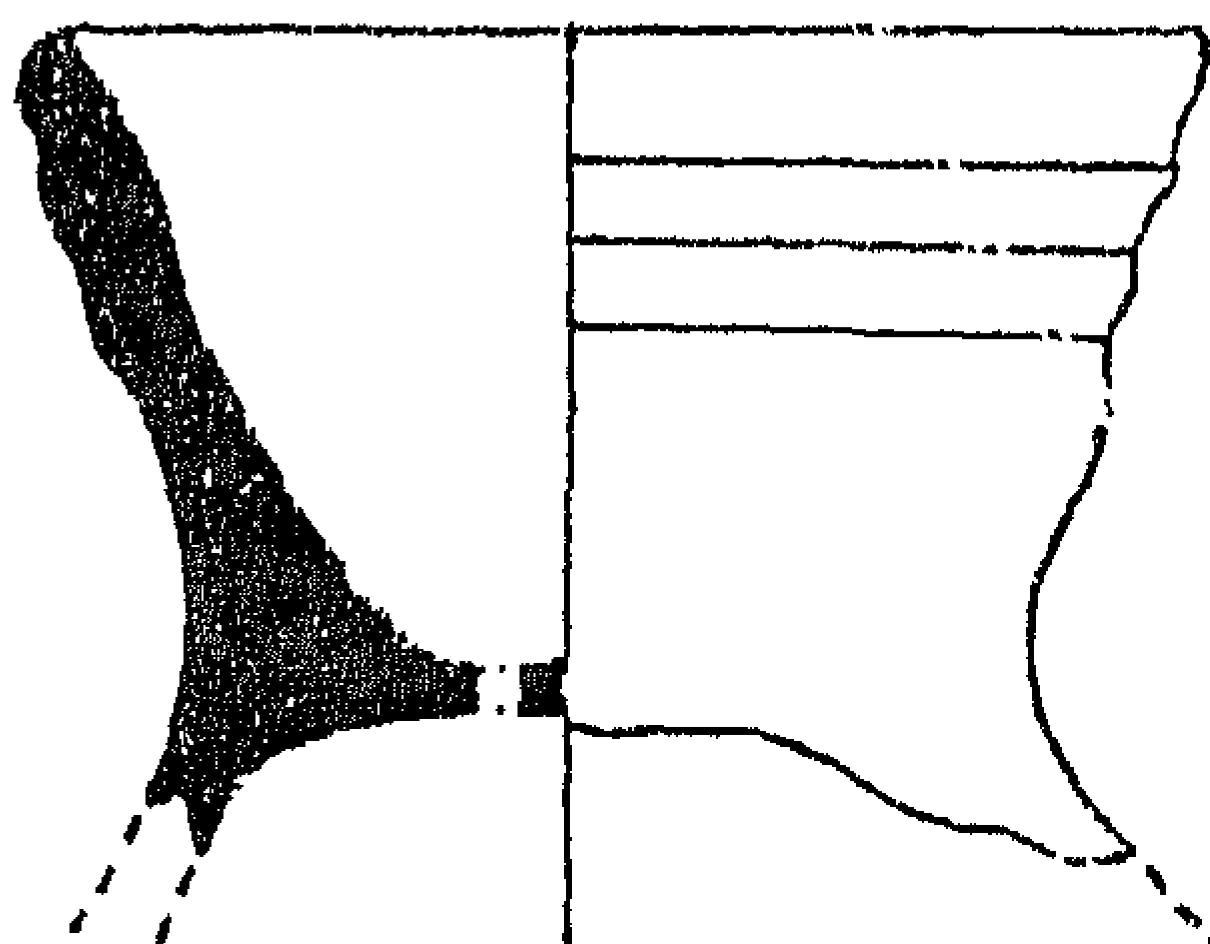
الرسوم التوضيحية
(١ - ٣)



١



٢



٣

ثبت المصادر والمراجع العربية والأوربية

أولاً : المصادر العربية المنشورة :

* أحمد بن على القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا - مولود عام (٧٥٦هـ / ١٣٥٥م) - القاهرة (١٣٣٨هـ/١٩١٩م) .
* أبو القاسم بن حوقل النصيبى: صورة الأرض - منشورات دار الحياة - بيروت.
* أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى : أخبار مكة المكرمة وما جاء فيها من الآثار - جزءان - تحقيق رشيد الصالح ملحس - مطابع دار الثقافة - مكة المكرمة (١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م) .
* أحمد الرشيدى : حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج - تحقيق ليلى عبد اللطيف (دكتورة) - القاهرة (١٤٠١هـ / ١٩٨٠م) .
* أحمد شلبى عبد الغنى الحنفى المصرى : أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات - الملقب بالتاريخ العينى - تقديم وضبط وتصحيح وتحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن .
* تقى الدين أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر محمد المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - المعروف بالخطط المقريزية - أربعة أجزاء - القاهرة (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م) .
* شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى :معجم البلدان - دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر (١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م) .
* عبد الرحمن بن حسن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - تحقيق حسن محمد جوهر - أربعة أجزاء - بولاق (١٢٩٧هـ / ١٨٧٩م) .
* محمد بن عبد المنعم الحميرى : الروض العطار فى خبر الأقطار (معجم جغرافى مع فهارس شاملة) - حققه إحسان عباس (دكتور) - بيروت - الطبعة الأولى (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) .

ثانيًا : القواميس والمعاجم :

* أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (المتوفى سنة ٥٣٨هـ) : أساس البلاغة – تحقيق عبد الرحيم محمود – أحياء المعاجم العربية – مصر (١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م) .

* رينهارت دوزى : تكملة المعاجم العربية – تحقيق محمد سليم النعيمى – الجزء الأول – العراق (١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م) .

ثالثًا : كتب الرحلات :

* إبراهيم رفعت باشا : مرأة الحرمين – جزءان – الطبعة الأولى – مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م) .

* أبو القاسم بن أحمد الزيانى : الترجمانه الكبرى فى أخبار المعمور برًا وبحرًا – حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالى – نشر وزارة الأنباء المغربية – مطبعة فضالة المحمدية (١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) .

* أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى العياشى المغربى المالكى من أهل فاس : ماء الموائد (المعروفة بالرحلة العياشية) – تحقيق حمد الجاسر – دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض – السعودية – الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) .

* أبو عبد الله بن محمد بن أحمد العبدرى : الرحلة المغربية – تحقيق محمد الفاسى– وزارة الشئون الثقافية والتعليم الأصلى – الرباط – المغرب ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

* أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى : الرحلة الناصرية " رحلة إلى بيت الله الحرام " إحدى رحلاته الأربع للحج – عام (١١٢١هـ / ١٧٠٩م) – عرض وتلخيص حمد الجاسر – مجلة العرب – جـ٥ ، ٦س ١٢ لعام ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م – دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر – الرياض .

* عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى : الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز – تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدى (دكتور) – الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٠٧ هـ/١٩٨٦م) .

* عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصارى الجزيرى الحنبلى : الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة - ثلاثة أجزاء - أعده للنشر حمد الجاسر - منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض - الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) .

* عبد المجيد بن على المنالى الزبادى الحسينى الادريسى : بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام - تحقيق حمد الجاسر - مجلة العرب - جـ٧ / ٨س ١٢ عام (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) .

* محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصرى الدرعى المغربى : رحلته الكبرى - عام (١١٩٦هـ / ١٧٨١م) ، رحلته الصغرى - عام (١٢١١هـ/١٧٩٦م) - عرض وتلخيص حمد الجاسر - منشورات دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض - الطبعة الثانية (رمضان ١٤٠٣هـ / يونيو ١٩٨٣م) .

* محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية - الطبعة الثالثة (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) - الناشر مكتبة المعارف بالطائف / السعودية .

رابعًا : المؤلفات المنشورة :

* أيوب صبرى باشا : مرآة جزيرة العرب - جزءان - ترجمة أحمد فؤاد متولى (دكتور) ، والصفصافى أحمد المرسى (دكتور) - الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) - دار الرياض للنشر والتوزيع - السعودية .

* توفيق أحمد عبد الجواد (دكتور): تاريخ العمارة فى الفنون الإسلامية-جـ٣-القاهرة.

* حسن الباشا (دكتور) : مدخل إلى الآثار الإسلامية - دار النهضة العربية بالقاهرة (١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م) .

* حسن محمود الشافعى (دكتور): العملة وتاريخها - القاهرة (١٤٠١هـ/١٩٨٠م).

* حنان الكردى : القلاع الأثرية فى الأردن - مطبعة وزارة السياحة والآثار الأردنية (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) .

* زكى محمد حسن (دكتور) : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية - القاهرة (١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م) .

* : فنون الإسلام - دار الرائد العربى - بيروت (١٤٠١هـ/١٩٨١م) .

* سعاد ماهر (دكتورة) : الخزف التركى - الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية - طبعة (١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) .

* صالح لمعى مصطفى (دكتور) : التراث المعمارى الإسلامى فى مصر - مطبعة جامعة بيروت (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) .

* صامويل برنارد : الموازين والنقود - وصف مصر - ترجمة زهير الشايب - جـ٦ - (١٣٩٨ - ١٣٩٩هـ / ١٩٧٧ - ١٩٧٨م) .

* عبد الرءوف على يوسف : القاهرة تاريخها فنونها آثارها - بحث الفخار .

*عبد الرحمن فهمى (دكتور) : النقود المتداولة أيام الجبرتى - من أبحاث ندوة عبد الرحمن الجبرتى- الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م).

* عبد الرحيم عبد الرحمن (دكتور) : وثائق تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى - من بحوث ندوة تاريخ العرب الحديث بكلية الآداب / جامعة عين شمس (٧ - ١٢ مايو ١٩٧٧م) .

* عبد الغنى أحمد ناجى : فى ذكرى الهجرة النبوية - مجلة الوعى الإسلامى - العدد ٣٠١ .

* عبد الكريم (دكتور) : بلاد الحجاز فى المخطوطات المغربية المدونة خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر للهجرة - من أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ الجزيرة العربية - مجلة العرب جـ ٣/٤ س١٢ - رمضان / شوال (١٣٩٧هـ) سبتمبر / أكتوبر (١٩٧٧م) .

* فريد محمود شافعى (دكتور) : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود - الرياض / السعودية - الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

* فريد محمود شافعى (دكتور) : العمارة العربية فى مصر الإسلامية - المجلد الأول - عصر الولاة (٢١ - ٣٥٨هـ / ٦٣٩ - ٩٦٩م) - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) .

* فؤاد الماوى (دكتور) : العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز من الفتح العثمانى حتى الاحتلال الفرنسى - الكويت (١٤٠١هـ/١٩٨٠هـ) .

* ف . ويستنفيلد : جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها - ترجمة عبد المنعم ماجد (دكتور) ، عبد المحسن رمضان - مكتبة الأنجلو مصرية بالقاهرة (١٤٠١هـ / ١٩٨٠م) .

* كمال الدين سامح (دكتور) : العمارة الإسلامية فى مصر - الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية - مطبعة جامعة القاهرة (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) .

* ليلى عبد اللطيف (دكتورة) : دراسات فى تاريخ ومورخى مصر والشام إبان العصر العثمانى - القاهرة (١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م) .

* ليونارد وولى : أعمال المسح الأثرى - ترجمة حسن الباشا (دكتور) - دار النهضة العربية - القاهرة (يوليو ١٩٥٦م) .

* مساعد بن منصور (الشريف) : جدول أمراء مكة وحكامها منذ فتحها إلى الوقت الحاضر ، مطبعة النهضة الحديثة - سوق الليل - مكة المكرمة - الطبعة الأولى (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) .

* م . س . ديماند : الفنون الإسلامية - ترجمة أحمد محمد عيسى ، ومراجعة وتقديم أحمد فكرى (دكتور) - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - يوليو ١٩٥٨م .

* محمد طاهر بن عبد القادر بن محمد الكردى الشافعى الخطاط : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم - أربعة أجزاء - مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة - سوق الليل - الطبعة الأولى - (٣٠ ربيع الثانى ١٣٨٥هـ / ٢٧أغسطس ١٩٦٥م) .

* محمد فؤاد شكرى (دكتور) وآخران : بناء دولة مصر محمد على - دار الفكر العربى - القاهرة (١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م) .

* مطلق بن بادى العتيبى : ملخص التاريخ الإسلامى - الجزء الأول - الطبعة الأولى (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) - الدمام (ص. ب ٢٠١) .

خامسًا : الأطالس والخرائط :

* حسين حمزة بندقجى : أطلس المملكة العربية السعودية - دار جامعة أكسفورد للطباعة والنشر - (١٣٩٨هـ / ١٩٧٧م) .

* : الخريطة الجغرافية للمملكة العربية السعودية (مقياس ١ : ٢٢٥٠٠٠٠) - طبعت بدار بلانطير / بريطانيا (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) .

* حليم إبراهيم جريس ، يوسف خليل (دكتور) ، إجلال السباعى : الأطلس العربى - ج . م . ع - وزارة التربية - الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية - الإصدار الرابع - الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، رسم وطبع بإدارة المساحة العسكرية بالقاهرة .

* هارى ، هازارد ، لستركوك ، ج . ماك سميلى : أطلس التاريخ الإسلامى ، ترجمة وتحقيق إبراهيم خورشيد ، راجعه محمد مصطفى زيادة ، تقديم محمد عوض محمد - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.

* يوسف خليل (دكتور) ، إجلال السباعى : أطلس الوطن العربى - للناشر مكتبة غريب للطباعة والنشر بالقاهرة .

* خريطة جزيرة العرب (مقياس ١ : ٢٠٠٠٠٠٠) ، المديرية العامة للزيت والمعادن - وزارة المالية والاقتصاد - السعودية - مصلحة المساحة الجيولوجية الأمريكية (١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م) .

* خريطة جغرافية (٢٠٠/ أب) أبحاث جيولوجية مختلفة (مقياس ١ : ٥٠٠٠٠٠) - المديرية العامة للزيت والمعادن - المملكة العربية السعودية ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

* خريطة جغرافية (٢٠٤ / أب) أبحاث جيولوجية مختلفة (مقياس ١ : ٥٠٠٠٠٠) - المديرية العامة للزيت والمعادن - المملكة العربية السعودية - (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) .

* خريطة طبوغرافية للجزيرة العربية (مقياس ١ : ٢٠٠٠٠٠٠) - وزارة المواصلات بالتعاون مع وزارة البترول والثروة المعدنية بالمملكة العربية السعودية - المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .

سادسًا : المراجع الأوربية :

* Abdullah Al - wohailbi, Map of the Northern Hijaz 800- 1150 (scale 1 : 2.000.000) . University of Riyadh.
* Burckhardt J. L., Travels in Arabia, London, 1829.
* G. Reitlinger, unglazed Relief pottery from Northern Mesopetamia (In Ars Islamica), Vols. XV - XVI, 1937.
* John Bartholomew and son LTD, Edinburgh, World Travel Map, Arabian peninsula (Scale 1 : 3.000.000).
* Pitts, Joseph Voyage de 1685, dans Voyages en Egypte Pendant Les Anne'es 1678 - 1701. Institute Fancais D'Arche'ologie Orientale, Le Caire, 1981.
* Shaw, S. J., The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798, New Jersy 1962.
* ———— ,Ottoman Egypt in the Age of the French Revoluition, Cambridge, 1967.

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة

المؤرخ العربى

تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب

بالقاهرة

العدد السادس المجلد الأول مارس ١٩٩٨

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد السادس - المجلد الأول
مارس ١٩٩٨

رقم الإيداع ١٩٩٤/٦٥٤٩

المطبعة الإسلامية الحديثة

٤٢ ش دار السعادة - حلمية الزيتون

القاهرة - ت ٢٤٠٨٥٥٨

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحته ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

- تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولية عما يرد فيها من آراء علمية .

- تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

- لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .

- تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

- البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

المـؤرخ العـربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السادس - المجلد الأول - مارس ١٩٩٨

فى هذا العدد

• ظاهرة ضعف القيم الأخلاقية فى عصر الطوائف بالأندلس

د. أحمد بن صالح السحيبانى

عناصر المرتزقة فى الجيوش المغربية منذ القرن السادس الهجرى حتى القرن الثامن الهجرى
أ. د. رضوان محمد رضوان البارودى

• الأمير سوار بن أيتكين ودوره فى الجهاد ضد الصليبيين

د. عبد الله بن سعيد بن محمد بن سافر الغامدى

• معركة نفارين البحرية فى ضوء الوثائق المصرية

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى

• ولاية جان بردى الغزالى على الشام د. خلف دبلان خضير الوذينانى

• الغزوات الاستعمارية الأسبانية والبرتغالية فى الشمال الأفريقى

د. نبيل عبد الحى رضوان

• الجمعية العمومية الثالثة ٢٧ رجب ١٤١٨هـ / ٢٧ نوفمبر ١٩٩٧م
(كلمة رئيس الاتحاد - محضر الاجتماع)

كلمة الافتتاح

التاريخ علم له أصوله وقواعده وأهدافه ، وصفه ابن خلدون في مقدمته بأنه « فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا ».

ربما يؤخذ على التاريخ أنه في بعض حلقات مسيرته يتطلب من المشتغل به أن يكشف عن خبايا الناس ويتعرض لسرد أخطاء الغير ، ولكن المؤرخ الحق لا يقدم على ذلك تنفيسا عن رغبة تختلج في صدره أو بدافع حب النميمة ، وإنما يفعل ذلك للوقوف على الخطأ ، والبحث عن أسبابه ودوافعه ، وما ترتب عليه من مضار ومساوئ ، وذلك للإفادة وليس للإساءة .

وهنا يبرز دور علم التاريخ كمدرسة كبرى يتعلم فيها الإنسان على مر العصور التالية ، ليستفيد من أخطاء السابقين ويخرج منها بعظات وعبرات ، وبذلك يمكنه الإسهام في بناء حاضر أفضل ومستقبل أعظم .

إن التاريخ علم له منهجه الثابت وقواعده الراسخة . والمورخ الحق يبحث في سير السابقين لا لمجرد النبش للكشف عن مساوئهم وحسناتهم ، وإثارة الشماته بهم أو الفخر بالانتساب إليهم ... وإنما تبدو رسالة المؤرخ أسمى من هذا بكثير ...

وحفاظًا على مكانة التاريخ وأهله ، وجب علينا ألا نتركه بلا حراسة ليخوض فيه الأدعياء ممن لا يمتلكون أدوات وإمكانات هذا العلم ، وأهمها - كما قال ابن خلدون - شرف الغاية ، وأمانة الحكم ، وبعد الرؤية ، وسعة الأفق ، والقدرة على الربط بين الحوادث ، والتعليل لها ، والوقوف على الصلات بين الأسباب والنتائج ، والنظر إلى الأمور بعينين لا بعين واحدة .

وهذا ما يسعى المؤرخ العربي لتحقيقه تحت مظلة اتحادنا ، اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة . ولنتجه إلى الله بقلوبنا مرددين قوله تعالى : ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ وإلى لقاء...

سعيد عبد الفتاح عاشور

المسلات فى مصـــــر الفرعونية

بحث فى نشأة فكرة المسلة وفى طرق

قطع ونقل وإقامة المسلات

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

ملخص البحث

(أ) العقائد القديمة بشأن المسلة : أصل فكرة المسلة ومنشـؤها - حجر البنبن - طائرة الفنكس - الصلة بين المسلة والشمس - مغزى فكرة المسلة - أسماء المسلة قديمًا وحديثًا .

(ب) قطع المسلة من المحجر : خطوات قطع المسلة - اختيار الصخر - نزع طبقات الجرانيت السطحية - تحديد الكتلة - فصل جوانبها - تهذيب سطحها العلوى - اختبار استواء سطحها - تحديد المسلة - فصل جوانبها من الصخـر - فصل المسلة عن الصخر نهائيًا - الآلات التى استخدمها المصريون فى عمل الفجوات .

(جـ) نقل المسلة من المحجر إلى النيل : إخراج المسلة مـن نطـاق المحجـر - رفعها إلى أعلى - طريقـة استخدام الروافـع - رأى المهنـدس الفرنسى شوازى - إرساء المسلة على زحافتها - تمهيد الطريق أمامها ورصفه

(*) أستاذ بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

- جرها إلى شاطئ النيل - الروافع والزحافات والإسطوانات الخشبية - وضع المسلة فى السفينة - الآراء المختلفة بخصوص ذلك .

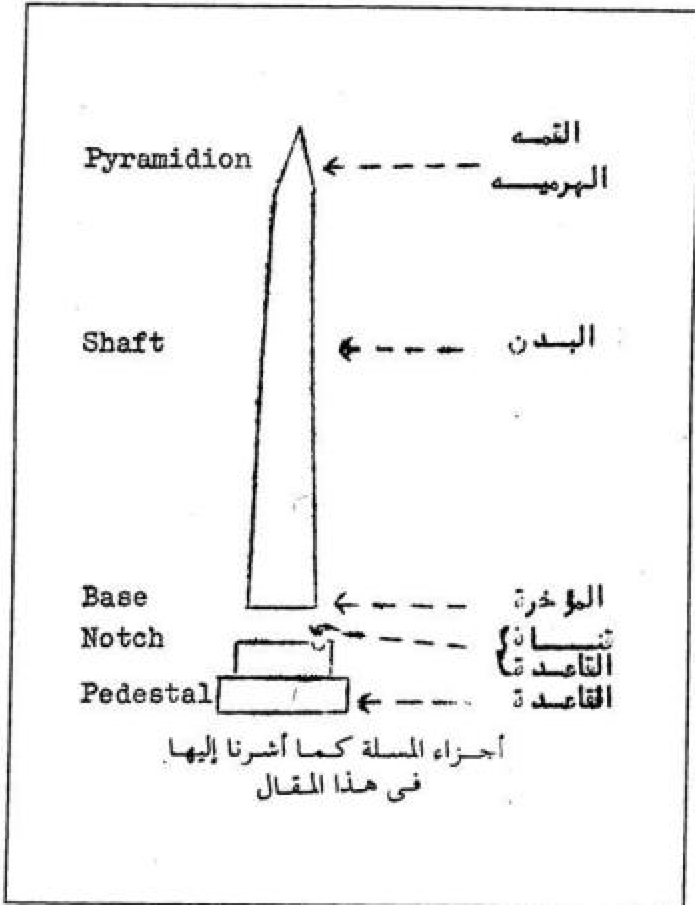
(د) المسلة فى عرض النيل : صناعة السفن فى مصر القديمة - نصوص الوزير أوفى بخصوص ذلك - سفن المسلات - سفن الملكة حتشبسوت - نصوص أنينى المهندس المصرى - رأى سومرز كلارك - نقل المسلة من السفينة إلى المعبد .

(هـ) نصب المسلة أمام المعبد : عدم عثورنا على نصوص قديمة كافية - بردية أنستاسى - إشارتها إلى عملية نصب التماثيل - إشارتها لوجود منحدر - رواية المؤرخ بلينى - آراء العلماء والمهندسين المحدثين - رأى شارب - الاعتراضات عليه - رأى فلندرز بترى - الاعتراضات عليه - نظرية شوازى - نقدها - نظرية الجلباك أو نظرية القمع - الأدلة على صحتها - نظرية شفرييه أو نظرية صندوق الرمل - موازنة بين نظريتى الجلباك وشفرييه - سبب تفضيل نظرية الجلباك .

(و) ما بعد نصب المسلة : عملية الصقل والتلميع - رسم الصور والعلامات الهيروغليفية - كسوة قمة المسلة بالصفائح المعدنية - نوع المعدن - هل كانت المسلات تغطى بأكملها بالمعدن ؟ أنواع أخرى من المسلات - مسلات المقاصير .

ملاحظـــة :

فى عرضنا لموضوع المسلات سنشير إلى مسلة أسوان ومحجرها اللذين رسمـا فى هذا المقال (شكل ٢ ، ٣) .



أجـزاء المسلة كمـا أشرنا إليهـا فى هـذا المقـال

(أ) العقائد القديمة بشأن المسلة

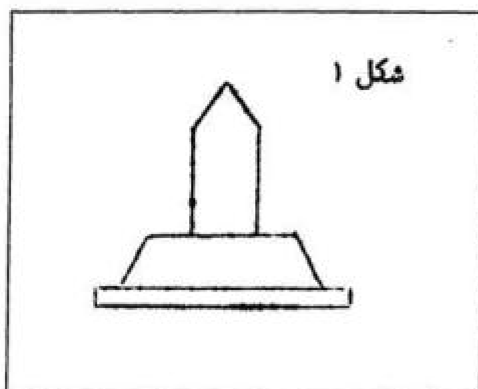
١ - أصل فكرة المسلة ومنشؤها:

فى عصر سحيق جدًا من التاريخ المصرى القديم أو قبل معرفة المصريين للكتابة بالآف السنين كان الأيونتيو(١) سكان مصر الأصليين يقدسون رمزًا حجريًا ممتدق من أعلاه وكان يسمى بِنْ Ben وقد ظهر مخصصه على آثار الأسرة الخامسة قريب الشبه بمسلة صغيرة (٢) .

أما سبب إقامة هذا الحجر وكيف اكتسب قدسيته فغير معروف على وجه التحديد . ومن المحتمل أن قدماء المصرين أنفسهم لم تكن لديهم فكرة محددة عن هذا الموضوع. ففى عصر الأسرات الأولى اعتقد المصريون أن هذا الحجر مقر روح الشمس التى خرجت من طرفه على شكل طائر وقد رسم فى العصور المتأخرة هكذا وكتب اسمه "بنُو" وكان الاعتقاد السائد أن روح الآله رع تتجسد فى هذا الطائر . وتقول النصوص أن هذا الطائر يظهر كل صباح فى الفجر على شجرة البرساء المقدسة الموجودة فى مدينة أون (هليوبوليس أو عين شمس الحالية) حيث شيد له فى العصور المبكرة معبد سمى "حِتُ بِنُو" " أى معبد الطائر بنو " وقد وحَّد الإغريق بين طائر البنو وبين طائر الفونكس Phoenix الذى ذكره المؤرخ هيرودوت فى كتابه عن مصر فقال(٣) :

" وهناك طائر مقدس يسمى الفونكس وأننى لم أره إلا مصورًا فإن زيارته للبلاد نادرة - كل خمسمائة عام فيما يقول أهل هليوبوليس ، وهو يزورهم فيما يقولون - عندما يموت والده ، فإذا كان يشبه الرسم فوصفه كما يأتى : ريش جناحيه بعضه ذهبى وبعضه أحمر وهو شديد الشبه بالنسر فى منظره وحجمه ... وقد أثبت البحث الحديث أن لون هذا الطائر أبيض لا كما وصفه هيرودوت .

وفى المعابد الجنازية المتصلة بأهرام الأسرة الخامسة كان حجر بِـنْ أو حجر الشمس هو رمز الإله رع وهذا الحجر أصبح عبارة عن مسلة قصيرة وسميكة وضعت فوق قاعدة تشبه الهرم الناقص (انظر شكل رقم ١) وفى الجانب الشرقى من هذا الحجر المقدس مذبح لتقديم القرابين . وفى الجانب الشمالى عدة قنوات تنصرف منها دماء الضحايا إلى أوانى مذفونة . وكان المصريون يعتقدون أن روح إلة الشمس ترقب عملية نحر الضحايا من فوق قمة المسلة لتتمتع بالفائدة الروحية للقرابين(٤) وكانت هذه القمة الهرمية تسمى [hieroglyphs] " بنْ بنْ " أى بنْ البِنْ " the Ben of Ben " وكانت المقصورة التى يحفظ فيها حجر الشمس تسمى [hieroglyphs] " بنْ بنِتْ " . وقد فسر الدكتور أحمد بدوى العلاقة بين طائر البِنُو والمسلة فقال(٥) : " كان معبد الشمس القديم فى مدينة هليوبوليس عبارة عن فناء مكشوف لا يحجبه عن السماء سقف وكانت فى هذا الفناء شجرة يتفيأ العابدون من ظلالها إذا ما هجر النهار . وقد شاهد كهان الشمس طائرًا من الطيور النادرة أبيض اللون - قد يكون الطير المعروف باسم مالك الحزين - يحج إلى المعبد فيحط على تلك الشجرة فى حين ويقيم فيها إلى حين ثم يرتحل عنها ليعود إليها بعد حين".



اعتقد المصريون أن هناك صلة بين الطائر وبين الشمس فاتخذوا منه رمزًا للشمس . وعندما تقدم المصريون وارتقوا عرفوا أنه طائر كغيره من الطيور التى تنتقل فى مواسم خاصة من كل عام . ولكنهم ادخروا هذه الصور واحتفظوا بذكراها رغم مر السنين وتعاقب الأجيال حتى جاء الوقت الذى مثلوا فيه صورة المعبد والشجرة والطائر . فأما الفناء المكشوف فقد بنوه وأما الشجرة فاستعاضوا عنها بالمسلة وظهرت الصورة كاملة فى معبد الشمس فى أبى غراب .

٢ - مغزى فكرة المسلة ومعناها :

تتكون المسلة من جزئين البدن Shaft وكان يعتبر نصبًا لإله الشمس والقمة الهرمية وهى رمز أشعة الشمس التى تنتشر لتحتضن الأرض . وكان المصريون مغرمين بالتورية والتلاعب بالألفاظ ففسروا كلمة "بِنْ" على أنها مشتقة من كلمة "وبِنْ" ومعناها يشرق(٦) .

ولما كان البقاء والخلود من صفات الإله رع آله الشمس كانت المسلة و(هى رمزه) تمثل البقاء والاستمرار والتجديد والخصوبة . وقد أصبحت كلمة أو تستعمل بمعنى التجديد والقوة . وليس هناك شك فى أن حجر البِنْ والقمة الهرمية للمسلة يمثلان القوة الخالقة أو القوة الإبداعية لإله الشمس(٧) .

وبما أن المسلة كانت تمثل التجديد ، كان المصريون يعتقدون أنها تجلب للمقبرة أشعة الشمس المجددة للحياة التى تحقق البعث والتمتع بالحياة الأخرى للمتوفى .

وفى عصر الدولة القديمة كانت المقابر " الأهرامات " تبنى على شكل هذا الرمز الحجرى . وفى عهد الدولة الوسطى كانت القمة الهرمية للهرم تنقش بالأدعية والصلوات لإله الشمس .

أما فى عصر الدولة الحديثة فقد أصبحت اللوحات الجنازية تصنع على هيئة أهرامات صغيرة أو على شكل حجر البِنْ وترسم عليها عين الشمس وعين القمر وصور المتوفى يتعبد لها(٨) .

وأقدم المسلات الكبرى القائمة حاليًا هى مسلة المطرية ويقول الملك سنوسرت الأول الذى أقامها أنه فعل ذلك بمناسبة الاحتفال الأول بعهده الثلاثينى. وقد ذكر ملوك الأسرة الثامنة عشرة على مسلاتهم أنهم أقاموها للإله رع أو آمون رع أو آتوم لكى تنعم هذه الآلهة عليهم بالحياة الأبدية .

ويذكر المؤرخ عبد اللطيف البغدادى أنه رأى عددًا من المسلات الصغيرة فى هليوبوليس ويحتمل أنها أقيمت لأغراض جنائزية فهى - كما سبق القول - ترمز إلى التجديد والقوة والبعث . وقد عثر فى مقابر الدولة الحديثة على مسلات كثيرة غير منقوشة يتراوح طولها بين ٩٠ - ١٥٠سم . وربما كانت تؤدى للمصريين نفس الغرض الذى كانت تؤديه الأعمدة الحجرية للساميين أى أنها تحدد المكان الذى تقدم فيه القرابين للمتوفى(٩) .

ومن الأدلة على أن المسلات استعملت لأغراض جنائزية أن مسلة الملك " نب - خبر رع - أنتف " كتب عليها أنه محبوب الآلهين (أوزيريس وآنوبيس) وهى آلهة للموتى .

٣ - أسماء المسلة :

كان قدماء المصريين يطلقون على المسلة كلمة" تِخِنْ " فقد قال الملك تحتمس" أنه أقام مسلات عظيمة ضخمة "

وذكرت حتشبسوت أنها شيدت مسلتين عظيمتين " "

ومن هذا نرى أن المسلة لم تكن تسمى Ben رغم أن مخصص هذه الكلمة الأخيرة كان مسلة فى المعتاد . وكلمة تِخِنْ قديمة جدًا وقد عثرنا عليها فى نصوص الأهرام فقد ورد فى السطر ٣٩١ فى هرم الملك تيتى مسلتين (للإله رع) .

أما كلمة Obelisk الإنجليزية وObelisque الفرنسية فأصلهما من اللغة اليونانية Òβελισκδ أو Òβελòδ " أوبلسكوس " أو " أوبلسوس " ومعناها " سفود " أو " مسلة " وقد أطلق اليونان عليها هذا الاسم للشبه الشديد بين المسلة والسفود .

وعندما دخل العرب مصر ترجموا الكلمة اليونانية - كعادتهم - إلى مسلة (أى المسلة المستعملة فى حياكة القماش) .

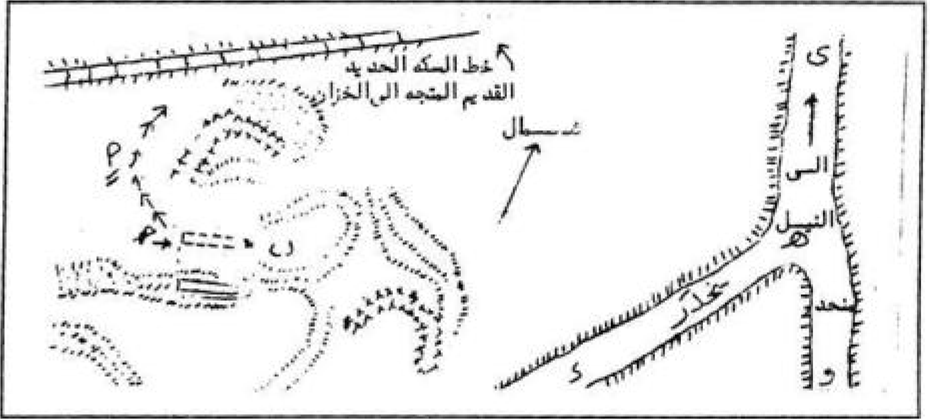
وكانت المسلات عامة تسمى " مسلات فرعون " وهى تسمية حقيقة إلا أن أحداها سميت مسلة كليوباترة (وهى قائمة فى لندن الآن) ويرجح أن المصريين فى العصر الإسلامى أطلقوا عليها هذه التسمية لأنها كانت قائمة فى الإسكندرية وهى المدينة التى اقترن اسم الملكة كليوباترة بها ولأن المسلة (الإبرة الكبيرة) تختص بالنساء أكثر من الرجال لأنها تستعمل فى حياكة الملابس(١٠) .

(ب) قطع المسلة من الحجر

كانت المسلات الكبيرة ومعظم الصغيرة تقطع من محاجر أسوان الجرانيتية . وكانت المحاجر تعرف عند قدماء المصريين باسم " عافرس " وكان الجرانيت يعرف عند المصريين القدماء باسم " مَات " والنوع الجيد منه كان يسمى " مَات رُودِت " أى " جرانيت صلب " .

وتوجد الآن فى محجر أسوان كتل جرانيتية ضخمة ملقاة على الأرض يكفى بعضها لعمل مصراع باب أو مقصورة ، ولكن لا تكفى أحداها بالطبع لعمل مسلة ذات حجم متوسط . لذلك كان لابد من قطع كتلة كبيرة لهذا الغرض وكان ذلك يتم على الخطوات الآتية :

١ - اختيار الصخر للتأكد من خلوه من الشروخ والعيوب : وكان ذلك يحتاج إلى خبره واسعة ، ويحتمل أن الطريقة التى أتبعها المصريون فى ذلك هى حفر آبار صغيرة فى الصخر كمجسات test-shafts وقد عثر على اثنين من هذه الآبار فى هذا المحجر (شكل / ٢ جـ ، د)(١١) .

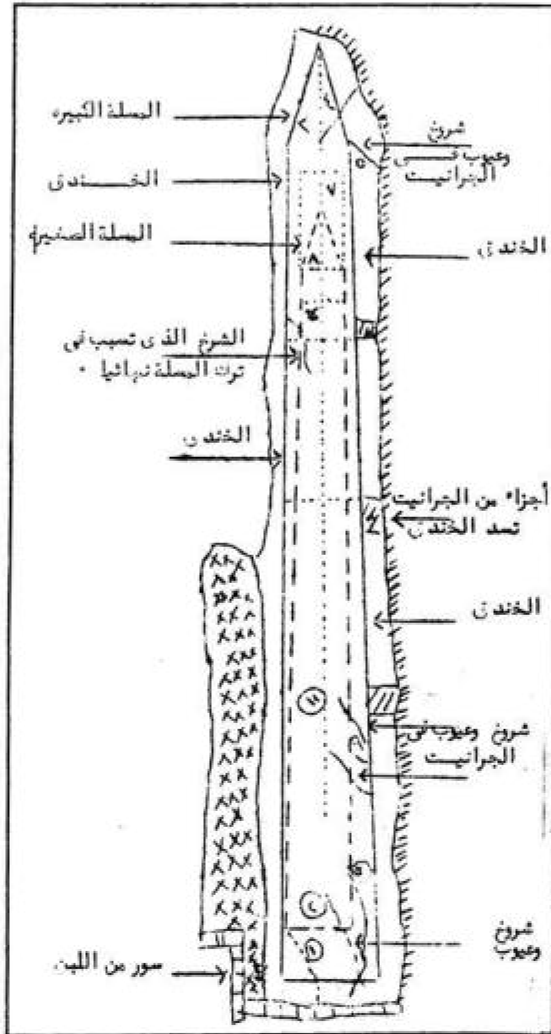


شكل (٢) مسلة أسوان فى محجرها الجرانيتى

(أ) طريق المسلة من المحجر إلى المنحدر

(ب) الصخر الذى كان يجب تكسيره لإخراج المسلة

(جـ) المسلة بعد خروجها من نطاق محجرها



شكل (٣) مسلة أسوان وحولها الخندق

——— حدود المسلة الأصلية   --------- حدود المسلة الصغيرة

.... خطوط تحديد أخرى من عصر المسلة   ﹏﹏ شروخ وعيوب فى الصخر

حدود الخندق   ×××××××× مناطق صلبة

عن كتاب : Engelbach, The problem of the obelisks. pp. 38 - 60

٢ - نزع طبقات الجرانيت السطحية :

من المعلوم أن طبقات الجرانيت الموجودة فوق سطح الأرض تكون متآكلة بفعل التعرية ، لذلك كان لابد من التخلص منها . والطريقة التى اتبعها المصريون تتلخص فى إشعال النار لتسخين الصخر مما يؤدى إلى سهولة كسر هذه الطبقات وخصوصًا إذا صبت عليها المياه ، وكانت هذه الطريقة مستعملة فى الهند حتى عهد قريب . وقد استعمل المصريون نبات البردى فى إشعال النار وكانوا يحيطون منطقة الحرق بسور من اللبن لتحديد مساحتها . ويمكن مشاهدة بقايا هذا الحرق على يسار مسلة أسوان . كما يمكن رؤية الجرانيت المحروق فى أماكن كثيرة من المحجر(١٢) .

٣ - تحديد الكتلة المراد قطعها لعمل المسلة منها :

وكان هذا يتم باستخدام الحبال .

٤ - فصل جوانب الكتلة من الصخر :

والطريقة التى استخدمت فى ذلك هى استعمال الخوابير Wedges ويوجد بمحجر أسوان نوعان من علامات الخوابير Wedge-works أحدهما عبارة عن سلسلة من الفجوات slots المتجاورة وهو معاصر لزمن المسلة والآخر سلسلة فجوات تمتد فى قناة وهو من عصر متأخر .

وكانت فجوات الخوابير تحفر من أعلى ومن الجوانب ومن أسفل . ويقال أن الخوابير نفسها كانت من الخشب وكانت توضع فى الفجوات ثم يصب عليها الماء فيتشرب الخشب به ويتمدد ويضغط على الصخر فيكسره(١٣) . ويقول أنجلباك أنه لا ينكر أتباع المصريين لهذه الطريقة ولكنه لاحظ فى مسلة أسوان أن هذه الفجوات ضحلة وجوانبها ناعمة تؤدى إلى انزلاق الخشب بعد تشربه بالماء

وإندفاعه نحو الخارج بدلاً من ضغطه على الصخر ضغطاً جانبيًا . هـذا فضـلاً عـن أنـه يتعذر وضع الماء فى الفجوات الجانبية والسفلية(١٤) لذلك فهو يعتقد أن الطريقـة التـى اتبعت فى قطع مسلة أسوان هى استعمال خوابير من المعـدن Metal wedges (ربما يكون الحديد) ووضع صفائح معدنية رقيقة (feathers) فـى الفجـوات بـين الخوابير وبين الصخر ثم الدق عليها بمدقات من الحجر وقد عثر فى الجيزة على نمـوذج من هذه المدقات مصنوعة من حجر الجرانيت الأسود ويرجع إلى عصـر الدولـة القديمة(١٥)، كما عثر بترى على خوابير من الحديد ترجع إلى حوالى عام ٨٠٠ ق. م.(١٦) .

٥ – تهذيب السطح العلوى لكتلة الصخر :

والآن وقد تم فصل الكتلة الجرانيتيـة عـن بـاقى الصخـر تبـدأ عمليـة تسـوية سطحها العلوى وتستعمل لهذا الغرض مدقات هى عبـارة عـن كـرات مـن حجـر الدلريت Dolerite تعمل بها فجـوات لإدخـال عصـا أو قضيـب وتسـتعمل للـدق على الحجر من أعلى إلى أسفل(١٧) .

ويتراوح نصف قطر هذه الكرات من ٥ – ١٢ بوصة وتـزن حـوالى ١٢ رطلاً وقد سبق القول أنها توجد فى وديان الصحـراء الشـرقية بحالـة طبيعيـة . ورغم شـدة صلابة هـذه الكرات فقد وجـد بعضهـا مكسـورًا نتيجـة لشـدة الضرب بها مما يرجح اشتراك عدة رجال فى الدق بالكرة الواحدة (إذا كانت كبيرة) .

وما زالت أمثال هذه المدقات الضخمة تستعمل إلى اليوم فى مصـر وتعـرف باسم " المندلة " وينشد العمال الأناشـيد التوقيعية أثناء الدق بهـا تسـهيلاً للعمـل ولا شك أنهم توارثوا ذلك عن أجدادهم .

ونتيجة للدق بهذه الكرات يتفتت الجرانيت ويتحول إلى مسحوق ويصبح عائقًا لقوة الدق حتى تصبح صفرًا ، لذلك يلزم إزالته كل عدة دقائق .

ويمكن رؤية آثار تهذيب الصخر بالدق عند القمة الهرمية وبالقرب من مؤخرة مسلة أسوان .

٦ – اختبار استواء سطح الكتلة :

وكانت الأدوات المستعملة في ذلك هي ما يعرف باسم Boning Rod(١٨) وهي عبارة عن مجموعة من القضبان الخشبية المتساوية الطول . وتتلخص طريقة استعمالها في وضع بعضها قائمة على جانبي الكتلة المراد اختبارها ثم يوضع قضيب ثالث بينهما ويقف رجل في ناحية وينظر من طرف القضيب في اتجاه القضبان الأخرى ليتأكد من أن القضيب الثالث على استقامة الاثنين الأخرين . وقد عثر بترى على أنواع صغيرة الحجم من هذه القضبان يبلغ طولها حوالي ٣ بوصات وتتدلى من أطرافها خيوط(١٩) . ومن الواضح أن هذا النوع الأخير لا يصلح لتسوية سطح المسلات بسبب احتمال ارتخاء الخيط مما يسبب حدوث تقعر في سطح المسلة .

وقد لوحظ أن سطح مسلة باريس محدب قليلاً والظاهر أنه قصد عمدًا لتظهر المسلة في استقامتها الطبيعية إذا نظر إليها من بعيد وهي فكرة بارعة وكانت سائدة فيما بعد في الأعمدة الإغريقية .

وإذا ظهر أقل شرخ أو تغيير في لون الصخر في أي جزء من الكتلة أثناء العمل فسرعان ما يختبر بعناية فائقة لمعرفة مدى امتداده وهناك ثلاث طرق لهذا الاختبار :

الأولى : عمل حفرة متسعة فى الصخر بواسطة كـرات الدلريت مـع تـرك بروز فى وسطها لمقارنة الجرانيت على السطح بالجرانيت فى قـاع الحفرة ويمكن مشاهدة هذه الحفرة على مسلة أسوان عنـد الشـرخ ٩ (شكل ٣) .

والثانية : عمل حفرة مربعة فوق الشرخ مباشرة بحيـث تضيـق تدريجيًـا إلى أسفل وهـذه الطريقـة تستخدم فـى بعـض الأحيـان اقتصـادًا فـى الوقت ويمكن مشاهدة آثارها فى مسلة أسوان عند الشـرخ ٣ ، ٤ (شكل ٣) .

والثالثة : حفر قناة ضيقة بطول الفلق أو الشرخ ، وترى هـذه القنـاة عنـد الشـرخ ١٢ (شكل ٣)(٢٠) .

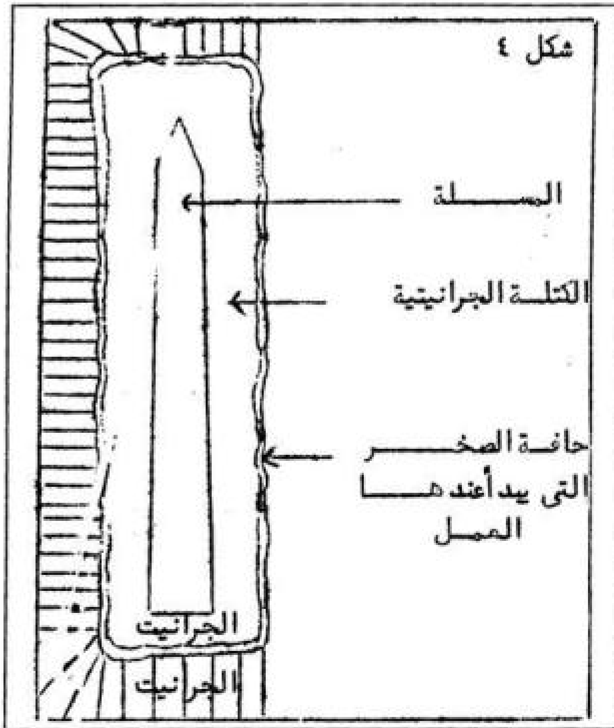
٧ - وضع العلامات فوق الكتلة لتحديد مساحة المسلة المنتظرة:

والطريقـة التى اتبعت فى ذلك هى وضـع حبـل فـى مسحوق المغرة الحمـراء أو السناج المخلوط بالصمغ ثم مده فى خط مستقيم لرسـم محور المسـلة المنتظرة (أو الخط المنصف لها طوليًا) ثم لمس سطح الصخر بالحبل حتى يترك أثرًا عليـه . وبعـد ذلك يحفر هذا الخط على الصخر بواسطة آلات معدنيـة . وقـد عـثر بجوار المسلة على إناء به مادة ملونة .

ومن هـذا المحور أو الخـط المركـزى تقـاس الأبعـاد لرسـم الخطـوط المحـددة للمسـلة .

٨ - فصل جوانب المسلة ذاتها عن الصخر :

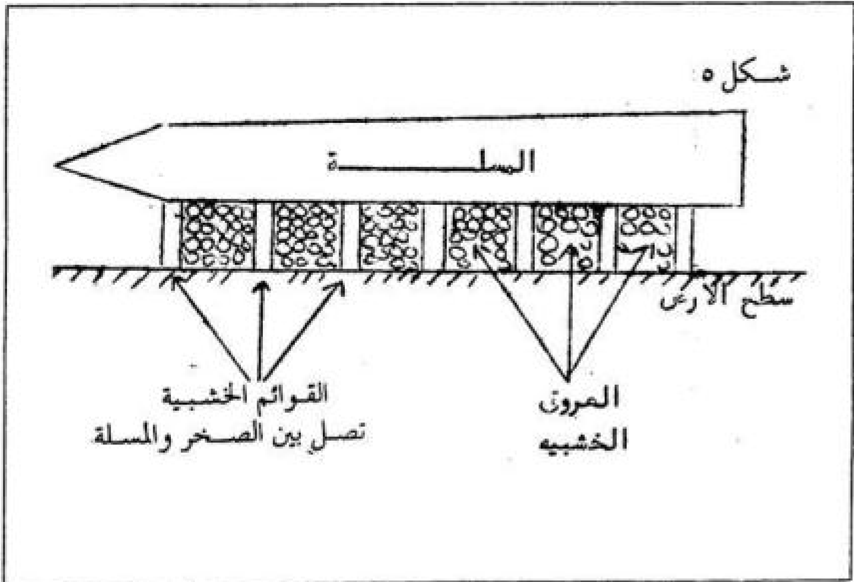
بعد فصل الكتلة كلها وبعد تحديد مساحة المسلة عليها تبدأ أهم عملية ، وهى فصل جوانب المسلة ذاتها من الصخر وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه العملية كانت لا تتعطل لحين الانتهاء من تسوية السطح العلوى للكتلة ثم رسم حدود المسلة عليها ولكنها كانت تبدأ بمجرد فصل الكتلة الجرانيتية عن الصخر وكان العمل يبدأ من عند حافة الكتلة الجرانيتية فى اتجاه المسلة (انظر شكل ٤) .



وطريقة فصل المسلة عن الكتلة الجرانيتية هى حفر خندق لتوسيع الكسر الطولى الذى يفصل الكتلة الجرانيتية عن صخر المحجر وقد تبين من اختبار هذا الخندق من الداخل عدم وجود آثار للأزاميل أو الخوابير كما لوحظ استدارة أركانه(٢١) مما يرجح استعمال كرات الدلريت فى حفره وذلك بالدق Bashing على الصخر لتفتيته ويبلغ متوسط عمق هذا الخندق ٢ قدم ٦ بوصة وقد تبين من فحصه أن حفره استغرق ٧ شهور إذا كان معدل ساعات العمل اليومية ١٢ ساعة فإذا اتخذنا هذا أساسًا للتقدير يبدو أن عمل خندق مسلة حتشبسوت القائمة الآن فى الكرنك استغرق ٤,٤ شهور وتكون عملية قطع المسلة كلها من الصخر استغرقت ٨,٨ شهرًا(٢٢) .

٩ - قطع المسلة من أسفل وفصلها عن الصخر نهائيًا :

كان المصريون يستخدمون طريقة الدق فى تفتيت الصخر أسفل المسلة وكانوا يتركون بعض الأجزاء فلا يكسرونها حتى تقوم بدور القوائم التى تحمل المسلة . ثم يملأ الفراغ بين المسلة وسطح الأرض بعروق ضخمة من الخشب وبعد ذلك تكسر هذه القوائم الحجرية فتستقر المسلة على العروق الخشبية(٢٣) (شكل٥).



وقبل الانتهاء من هذا الجزء علينا أن نتساءل ما هي الآلات التي استخدمها قدماء المصريين في عمل فجوات الخوابير ؟

إن هذه المسألة ما زالت موضع دراسة وجدل بين العلماء فإن المصريين لم يستعملوا هذه الآلات في قطع الجرانيت فحسب بل استخدموها في قطع الأحجار الأشد صلابة كالديوريت والكوارتزيت . ومن البديهي أن المعدن الذي يصلح لصناعة هذه الآلات هو الصلب ولكن ليس هناك دليل على معرفة قدماء المصريين للصلب رغم وجود براهين على معرفتهم الحديد منذ بداية تاريخهم (رغم أن استعمالهم له كان نادرًا).

ويقول انجلباك(٢٤) أن الدليل القوى الذي يبرهن على عدم معرفة المصريين للصلب هو صناعتهم للأسلحة الدقيقة (الأمواس) من النحاس مثل أمواس الأظافر التي وجدت في مقبرة الملكة حتب حرس والدة الملك خوفو .

والمرجح - إلى الآن - أن المصريين صنعوا آلاتهم من النحاس بعد أن أضافوا إليه معادن أخرى لتقويته ، ويمكن تقوية النحاس بإضافة ٢٪ من معادن أخرى إليه ثم طرقه فيكتسب النحاس صلابة تعادل الصلب المتوسط المتانة . ولكن يبدو أن المصريين القدماء - بطريقة ما زالت مجهولة لنا - قد صنعوا آلات أشد متانة من ذلك .

(جـ) نقل المسلة من المحجر إلى النيل

إن هذه العملية تتم على مرحلتين هما إخراج المسلة من نطاق المحجر ثم سحب المسلة على منحدرات حتى شاطئ النيل .

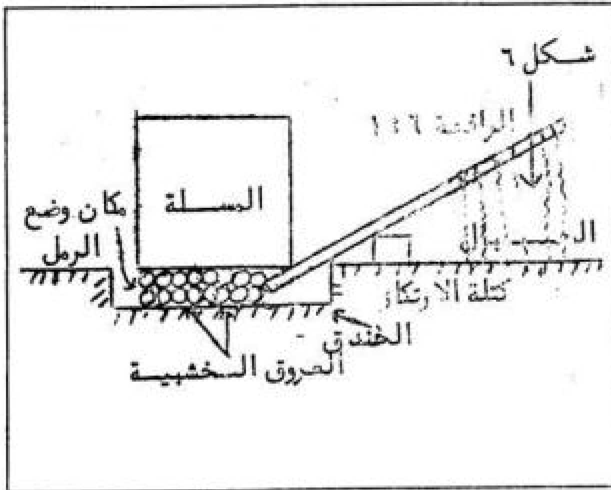
١ - إخراج المسلة من نطاق المحجر :

وهناك طريقتان لذلك الأولى رفع المسلة إلى أعلى والثانية بإزالة الصخر من أمامها ثم سحبها. ولسحب المسلة لابد من عمل منحدرات هابطة لأن سحبها على مستوى أفقي يتطلب ١٣٠٠٠ رجل وهو عدد ضخم لا يتسع له محجر المسلة الضيق .

ويرى انجلباك(٢٥) أن المصريين اتبعوا الطريقتين معا فكانوا يرفعون المسلة إلى أعلى لتوفير جزء كبير من العمل اللازم لإزالة الصخر من طريقها .

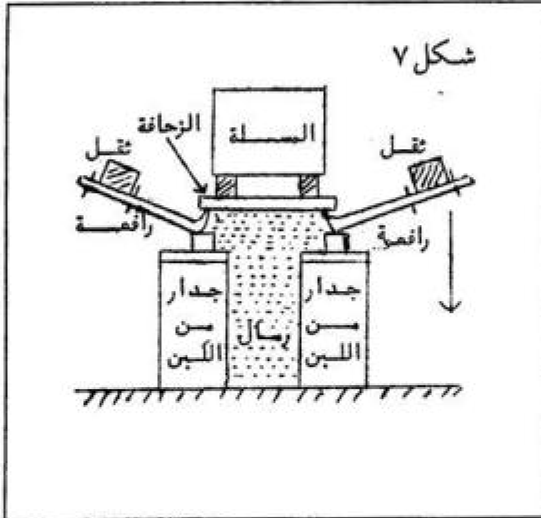
٢ – طريقة رفع المسلة إلى أعلى :

استخدم المصريون في ذلك الروافع Levers وكانت عبارة عن عروق ضخمة من جذوع الشجر يبلغ طول الواحدة ٦ أمتار أو أكثر ونصف قطرها ٦٠سم وطريقة استعمالها هي أن توضع تحتها كتل ترتكز عليها Packing بحيث يكون نسبة الجزء الخالي منها إلى الجزء الواقع تحت المسلة ٦ : ١ ثم تثبت في أعلى كل رافعة حبال يستعملها العمال في شد الرافعة إلى أسفل . وباستعمال هذه الروافع من الجانبين يمكن رفع المسلة إلى مستوى مناسب وذلك بتعلية كتل الارتكاز تحت الروافع كلما رفعت المسلة حتى تصل المسلة أخيرًا إلى ارتفاع ٢,٥ متر فوق سطح الأرض (شكل ٦) وعندئذ يبدأ العمل في إزالة الصخر من طريقها ثم إنشاء منحدر من الرمال لكي تنزلق المسلة عليه .



أما عن عدد الروافع اللازمة لذلك فيمكن القول أنه لو استعمل ٣٠ رافعة واستخدم ٥٠ رجلاً للرافعة الواحدة فإنه يمكن رفع المسلة دون خطر على الروافع (سواء كانت من خشب الجميز أو الشربين أو السرو) من الكسر أو العطب . ورغم ذلك يعتقد انجلباك أن المصريين استعملوا روافع أطول من ذلك كثيرًا بحيث لا يقل عدد الرجال اللازمين لشد الرافعة الواحدة عن ١٠٠ رجل(٢٦) .

وللمهندس الفرنسي شوازى Choisy(٢٧) نظرية في طريقة رفع المسلة ونقلها كانت تعد من النظريات التي وجدت كثيرًا من الأنصار . فهو يقول أنه لرفع المسلة إلى أعلى كانت تستخدم الروافع المحملة بالأثقال لتخفف كثيرًا من العبء عن العمال (انظر شكل ٧) .

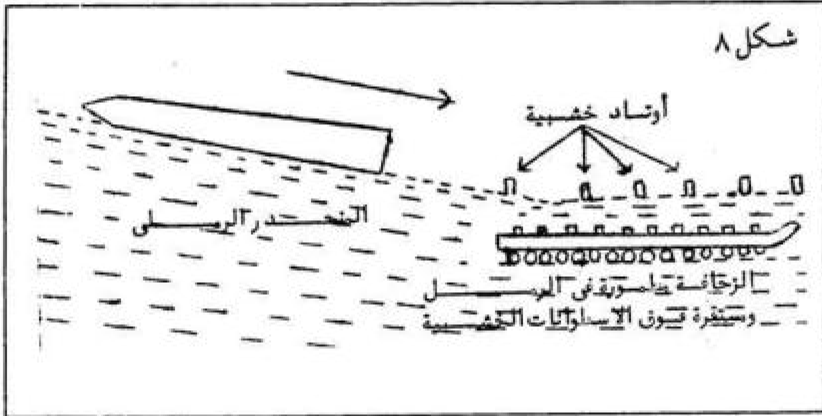


وكانت نقط ارتكاز المسلات تستقر على جداريـن من اللبن توضع بينها الرمال وكلما رفعت المسلة يرفع مستوى الرمل أسفلها حتى يصير مستواه أعلى من جدران اللبن . ثم يقوم العمال بتعلية جدران اللبن حتى يصير في مستوى

الرمل وترفع المسلة إلى أعلى وتضاف طبقة أخرى من الرمل وهكذا حتى تصبح المسلة في مستوى مناسب وعندئذ يعمل منحدر من الرمال لتنزلق المسلة عليه .

٣ – إرساء المسلة على زحافتها(٢٨) :

بعد أن ينتهى عمل المنحدر تبدأ عملية إرساء المسلة فوق زحافتها الخشبية التى ترتكز على أسطوانات خشبية Rollers وطريقة ذلك هى أن توضع الزحافة والأسطوانات الخشبية أسفل المنحدر مدفونة في الرمال (شكل ٨) وتوضع على طول محورها أوتاد لتعين مكانها ثم تسحب المسلة بالحبال إلى أسفل المنحدر حتى تستقر أعلى الزحافة تمامًا . وبعد ذلك يبدأ العمل فى إزالة الرمال من حولها وكلما أزيل جزء من الرمال كلما هبطت المسلة وهكذا تهبط المسلة تدريجيًا حتى تستقر فوق الزحافة تمامًا وبعد تنظيف الزحافة من الرمال تبدأ رحلة المسلة إلى شاطئ النيل .



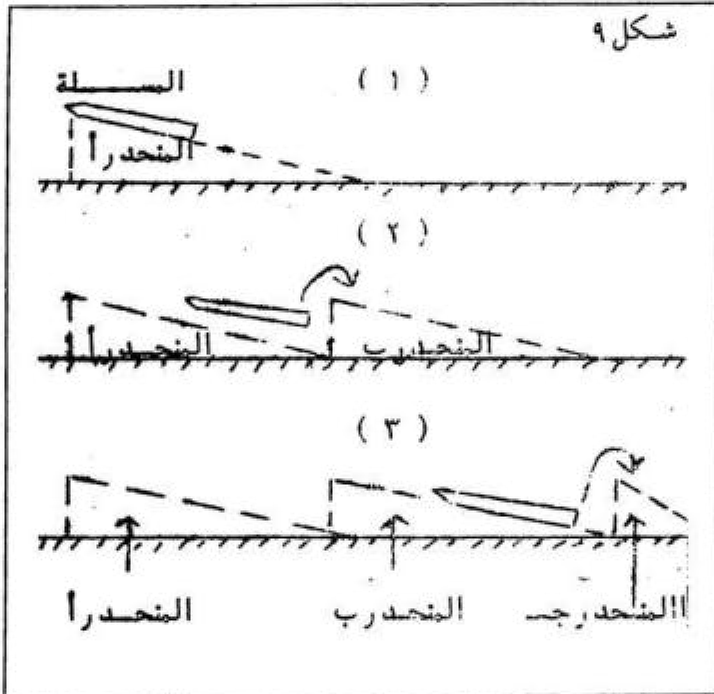
٤ – تمهيد الطريق للمسلة :

كان الطريق الممتد من مكان المسلة إلى شاطئ النيل يمهد بواسطة رصفه بعروق ضخمة من الخشب ترص بالطول لتسهيل مرور الأسطوانات الخشبية عليها(٢٩) وكان هذا الطريق يقع شمال مسلة أسوان ويسير مع امتداد خط السكة الحديد القديم الذى كان يؤدى إلى الخزان (شكل ٢) حتى نقطة اتصاله بالمنحدر وهو

الذى يؤدى إلى النهر ومكان التقاء هذا المنحدر بالنهر يشغله الآن جزء من مدينة أسوان.

٥ – جر المسلة فوق المنحدر إلى شاطئ النيل :

وضّح شوازى(٢٩) هذه الطريقة بعدة رسوم (هى الموضحة فى شكل ٩) وتتلخص فى عمل المنحدر (أ) وترفع إليه المسلة بالطريقة الموضحة فيما سبق (انظر ص٢٨ شكل ٨) ثم تسحب المسلة عليه حتى تصل إلى أسفله حيث يعمل منحدر آخر (ب) ترفع إليه المسلة بنفس الطريقة وتسحب إلى أسفله حيث يعمل منحدر ثالث وهكذا تستمر العملية حتى تصل المسلة إلى شاطئ النيل وقبل الانتقال من هذه النقطة علينا الآن ذكر كلمة عن الأدوات الرئيسية الثلاثة المستعملة فى الخطوات السابقة وهى الروافع والزحافات والأسطوانات الخشبية .



أما عن الروافع Levers فلم يعثر العلماء إلى الآن إلا على أمثلة ضئيلة جداً من الروافع ولكن لا شك أن المصريين عرفوها واستخدموها والدليل على ذلك وجود قنوات صغيرة أسفل الكتل الضخمة التي بني بها معبد الهرم الثالث في الجيزة . ولا شك أن هذه القنوات كانت معدة لتثبيت الروافع فيها لسهولة رفع الكتلة الحجرية.

وأما الزحافات Sledges فمن المسلم به أن المصريين صنعوا أنواعًا ضخمة منها وقد ورد رسم زحافة ضخمة على معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحري وكانت الحبال المستخدمة في الشد تربط إلى هذه الزحافات لا إلى المسلة نفسها .

وأما الأسطوانات الخشبية Rollers(٣١) التي كانت الزحافات تجر عليها فينكر بعض العلماء استخدام المصريين لها وقد اعتمدوا في ذلك على منظر جر تمثال في إحدى مقابر البرشة (شرقي النيل بالقرب من المنيا) ظهرت فيه الزحافة يجرها الرجال بالحبال (الفلنكات Sleepers) .

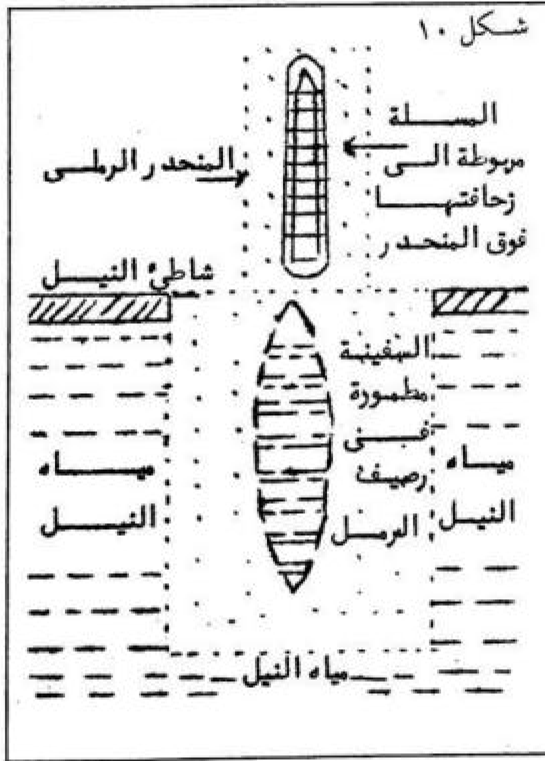
ولكن عندما تعلم أن ١٧٢ رجلاً قد استخدموا في جر هذا التمثال الذى لا يزيد وزنه على ٨ طن ، فكم من الرجال يلزم لجر ١١٧٠طن ؟ (وهو وزن مسلة أسوان) إن عدد العمال اللازمين لذلك لا يقل عن ١١٠٠٠ رجل . وهذا عدد ضخم جدًا لايتسع له الممر الضيق حول المسلة . لذلك ، لابد أن المصريين استعملوا الأسطوانات الخشبية على الأقل لجر الآثار الضخمة كالمسلات(٣٢)، ويرجع السبب في عدم العثور على أمثلة من الروافع والأسطوانات الخشبية إلى تكرار استعمالها حتى يدركها البلى ثم تكسيرها إلى قطع صغيرة واستعمالها في أغراض أخرى .

٦ – وضع المسلة فى السفينة :

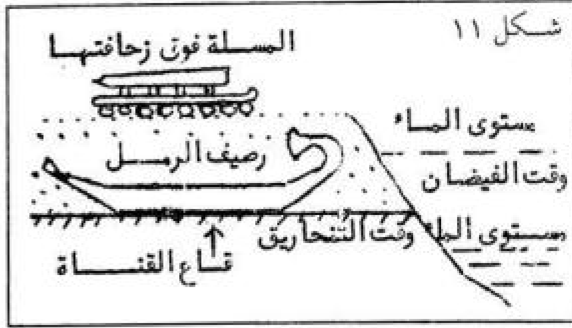
إن السؤال الذى يتردد الآن فى الأذهان هو كيف يمكن وضع المسلة فى السفينة بدون حدوث أى عطب فيها ؟يقول المؤرخ بلينى(٣٣) يصف الطريقة التى اتبعت فى وضع إحدى المسلات فى الأقصر فى السفينة فى عهد الملك بطليموس فيلادلفوس (٢٨٥ – ٢٤٧ ق. م.) " حفرت قناة من النيل إلى مكان المسلة وجئ بسفينتين محملتين بكتل من الحجر يبلغ حجم الكتلة الواحدة قدم مكعب . وكانت حمولة كل سفينة تعادل ضعف وزن المسلة ثم وضعت المسلة فوق القناة بحيث يرتكز طرفاها على جوانب القناة (وتشبه الكوبرى) ثم سيرت السفن أسفل المسلة وبدئ فى تفريغ الشحنات الحجرية منها . وكلما أفرغت حمولة السفن كلما ارتفعت فوق سطح الماء حتى حملت المسلة أخيرًا .

والمؤكد أن طريقة بلينى هذه لم تتبع فى نقل المسلات من محاجر أسوان لأنه لم يعثر على آثار لقنوات فى هذه المحاجر فضلاً عن صعوبة حفر قنوات فى حجر الجرانيت الصلد . ويبدو أن الطريقة التى اتبعت فى ذلك تتلخص فى سحب السفينة حتى تلامس الشاطئ (انظر شكل ١٠) ثم بناء رصيف من التراب أو الرمل بحيث يغطيها ويحيط بها وعمل منحدر يمتد من هذا الرصيف إلى مكان المسلة وبعد ذلك تسحب على هذا المنحدر حتى تستقر فوق السفينة تمامًا وعندئذ يبدأ العمال فى رفع الرمال أو التراب من حول المسلة التى تأخذ فى الهبوط تدريجيًا حتى تستقر فى السفينة .

وبعد إتمام هذه العملية يهدم الرصيف المحيط بالسفينة التى تبدأ رحلتها فى النهر ، ولتفادى (غرز) السفينة فى قاع النهر فى الأماكن الضحلة يحتمل جدًا أن هذه العملية كانت تتم أثناء فصل الفيضان(٣٤) .



وهناك رأى آخر(٣٥) يقول أن نقل المسلة من المحجر إلى شاطئ النيل كان يتم وقت التحاريق وكانت المسلة تجر على منحدر إلى شاطئ النيل حتى تصير على بعد ٦٠ مترًا منه - ثم تحفر قناة جافة من شاطئ النيل إلى مكان المسلة وتوضع السفينة فى قاعها ثم تهال عليها الرمال حتى تغطيها وتملأ القناة وعندما يصير مستوى الرمل فى القناة فى مستوى سطح الأرض تسحب المسلة حتى تستقر فوق السفينة تمامًا ثم يبدأ العمل فى رفع الرمال وكلما أزيل جزء من الرمل كلما هبطت المسلة تدريجيًا حتى تستقر أخيرًا فى السفينة (ويلاحظ أن هذه الطريقة تشبه طريقة إرساء المسلة على قاعدتها المشروحة فى (شكل ١١) .



وأخيرًا تنظف القناة من الرمال ويتم توصيلها بالنيل وعندما يحل وقت الفيضان تدخل المياه فى القناة فتطفو السفينة فوق سطحها ، عندئذ يسحب العمال المسلة إلى النهر لتبدأ رحلتها النيلية ، ويلاحظ أن هذا يتفق مع رأى بلينى فى حفر القناة ولكنه يختلف عنه فى مدى امتداد القناة كما يختلف الاثنان فى طريقة وضع المسلة فى السفينة .

(د) المسلة فى عرض النيل

فى منظر نقل مسلتى الملكة حتشبسوت المرسوم على جدران معبد هذه الملكة فى الدير البحرى رسمت السفينة التى تحمل المسلتين وقد قام بجرها ٢٧ قاربًا من ذات المجاديف مرتبة فى ثلاثة صفوف كل صف به ٩ قوارب وفى مقدمة كل صف يسير قارب القيادة . ويرافق سفينة المسلات ثلاثة قوارب أخرى لحراستها . وفى بعض القوارب يقوم الكهنة بترتيل الصلوات وحرق البخور . وعلى الشاطئ رسمت فرق الجنود والعمال فى انتظار وصول السفينة للقيام بعملية انزال المسلات منها كما مثلت الكهنة تقوم بذبح الضحايا وقد ورد فى نص مجاور لهذا المنظر أن سفينة المسلات مصنوعة من خشب الجميز(٣٦) .

السفن التي استخدمت في نقل المسلات :

ما زلنا نجهل الشئ الكثير عن تفاصيل صناعة السفن . وأقدم نص يشير إلى صناعة السفن الكبيرة يرجع إلى عهد الدولة القديمة فقد جاء على حجر بـالرمو أنه في عهد الملك سنفرو تمكن المصريون من صناعة سفن ذات حمولة كبيرة . كما ورد في نصوص " أوني " الذى عاش في عهد الأسرة السادسة أنه أشرف على صنع سفينة يبلغ طولها ٣٠ مترًا استغرق صنعها ١٧ يومًا(٣٧) . أما السفن حاملة المسلات فلم ترسم غير مرة واحدة في معبد الملكة حتشبسوت المشار إليه آنفا حيث رسمت سفينة بداخلها مسلتان (يحتمل أنهما مسلتا هذه الملكة في الكرنك) متلاصقان من مؤخرتيهما. ولابد أن يكون طول هذه السفينة ٦٠ مترًا على الأقل.

وفى نص للوزير والمهندس أنينى Iineni (الذى عاش في منتصف الأسرة الثامنة عشرة) يذكر أنه أشرف على إقامة مسلتين للملك تحتمس الأول ثم يصف السفينة التى أشرف على صنعها لنقل المسلتين فيقول :

لقد أشرفت على إقامة مسلتين عظيمتين //

عند البوابة المزدوجة للمعبد من حجر الجرانيت

كما أشرفت على بناء قارب بديع (يبلغ)

١٢٠ ذراعًا في طوله و ٤٠ ذراعًا في العرض

لنقل هذه المسلات !

وقد وصل (القارب) في سلام وفى حالة جيدة إلى

الأرض المجاورة لمعبد الكرنك

ويقول سومرز كلارك(٣٨) أنه لنقل مسلتى الملكة حتشبسوت الذى يبلغ طول الواحدة منهما ٣٠ مترًا يلزم سفينة لا يقل طولها عن ٦٧ مترًا وعرضها عن ٢٠ مترًا كما يجب ألا تقل سرعة التيار المائى اللازم لسهولة تسييرها عن ١,٣ مترًا.

وليس من المستبعد أن المصريين تمكنوا من بناء سفن ضخمة تستطيع حمل كتل هائلة من الحجر تزن ٩٠٠ أو ١٠٠٠ طن (مثل تمثال رمسيس الثانى فى الرمسيوم الذى يبلغ وزنه ٩٠٠ طن) .

نقل المسلة من السفينة إلى المعبد :

بعد رسو السفينة على شاطئ النيل المواجه للمعبد تبدأ عملية إخراجها من السفينة ونقلها إلى المعبد . وهذه العملية تشبه كثيرًا عملية وضع المسلة فى السفينة السابق شرحها (انظر ص٣١) ، فيبنى منحدر يمتد من مقدمة المركب بحيث لا يرتفع إلى أعلى من مستوى الأسطوانات الخشبية الحاملة للزحافة ثم تستخدم الروافع فى نقل المسلة من السفينة إلى هذا المنحدر المتجه نحو المعبد والراجح أن مقدمة السفينة كانت تكسر حتى يمكن إخراج المسلة منها .

(هـ) نصب المسلة أمام المعبد

١ - السجلات القديمة :

إن الآثار المصرية - كشأنها فى هذا الموضوع - لم تذكر شيئًا عن طريقة إقامة المسلات فى المعابد وغاية ما ذكر فى هذه الناحية ما ورد على بردية أنسطاسى(٣٩) Anastasi - عند الإشارة إلى نقل إحدى التماثيل الضخمة إذ يقول النص " لقد قيل لك افرغ المخزن المملوء بالرمل والموجود تحت أثر

سيدك (التمثال) الذى أحضر من الجبل الأحمر . أن طوله ٣٠ ذراعًا وعرضه ٢٠ ذراعًا .

وفى نفس البردية إشارة إلى منحدر من المرجح أنه استخدم فى إقامة إحدى الآثار ربما كانت مسلة لأن النص بعد ذلك يشير إلى مشكلة نقل مسلة من المحجر فيشير الكاتب هِرى Heri إلى هذه المشكلة قائلاً " لقد عمل منحدر طوله ٧٣٠ ذراعًا وعرضه ٥٥ ذراعًا ويحتوى على ١٢٠ قسما (؟) ملئت بالبوص وعروق الخشب ويبلغ ارتفاعه إلى قمته ٦٠ ذراعًا وارتفاع الأوسط ٣٠ ذراعًا ونهايته ١٥ ذراعًا وقاعدته(؟) ٥ أذرع . أما مقدار اللبن اللازم له فيطلب من رئيس الجيش..... تأمل مقاساته !! إنها أمام عينيك . إن كل قسم (؟) من أقسامه طوله ٣٠ ذراعًا وعرضه ٧ أذرع " .

وقد وردت فى هذا النص كلمة " قسم " ونظرًا لأن ترجمتها من الهيروغليفية غير مؤكدة فمن الصعب تكوين فكرة عن البناء الداخلى للمنحدر . ويرجح بوخارت Borchardt أن كلمة " الجزء الأوسط " تدل على الفراغ داخل بناء المنحدر الذى كان يملأ بالتراب كوسيلة من وسائل الاقتصاد فى اللبن .

والإشارة إلى المسلة فى هذه البردية جاءت فى رسالة الكاتب حورى إلى كاتب آخر يدعى آمون أم أوبت يقول له فيها أن هذا العمل ليس من اختصاصه ثم يقول " لقد تم أخيرًا عمل مسلة ...... ١٠ أذرع ، ومساحة قاعدتها ١٠ أذرع وطول ضلع مؤخرتها من أسفل ٧ أذرع وقد رفعت فوق منحدر (؟) نحو القمة (؟) .... يجب عليك استخدام كل رجل لجرها " وهذه المقاسات تدل على مسلة غير متناسبة .

وقد أشار المؤرخ الكلاسيكى بلينى إلى إقامة إحدى المسلات فى عهد الملك رمسيس - فقال أن المسلة كان طولها ١٢٠ ذراعًا وقد استخدمت الآلات فى نصبها ولكنه لم يذكر تفاصيل عن هذه الالات فضلاً عن أنه قال أن الملك رمسيس ربط ابنه فى قمة المسلة حتى يحترس العمال كثيرًا فلا تصاب المسلة بخدش أو كسر وهذا القول يدل على أن بلينى كان يستقى أخباره من [illegible] .

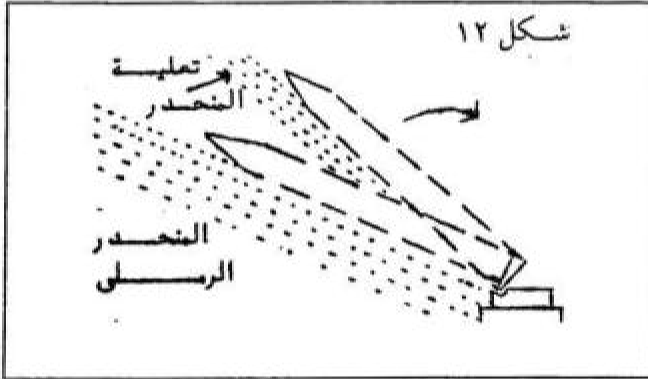
٢ - آراء العلماء والمهندسين :

وقد كتب كثير من العلماء والمهندسين فى هذا الموضوع وأدلى كل منهم برأى وأعلن كل عالم أو مهندس نظرية تخالف النظريات الأخرى ومن هؤلاء العلماء دكلنسون وبنيامين بيكروجورنج وانجلباك وشوازى وفلندرز بترى وشارب وشفريه .

وسنعرض أكثر هذه النظريات شهرة وأقربها إلى التصديق ثم نناقشها .

يقول شارب Sharpe(٤٠) أن قاعدة المسلة المربعة الشكل كانت تثبت فى الأرض وتحفر فى سطحها العلوى قناة جانبية موازية لأحد أضلاعها . ثم ترفع المسلة فوق منحدر بحيث ترتكز حافة مؤخرتها على قناة القاعدة وبذلك تحتفظ المسلة بمكانها أثناء رفعها ثم تستخدم الروافع فى رفعها وكلما رفعت المسلة كلما أضيفت طبقات جديدة إلى كوم الرمل والتراب أسفلها حتى يتكون فى النهاية تل شديد الإنحدار تظهر المسلة فوقه مائلة على جانبها وأخيرًا تشد المسلة بالحبال من أعلاها حتى تستقر نهائيًا على قاعدتها (شكل ١٢)

وقد استعملت هذه الطريقة حديثًا فى إقامة مسلة Seringapatam التذكارية التى لا يزيد وزنها على ٣٥ طن .



وتتلخص الاعتراضات على هذه النظرية فيما يلى :

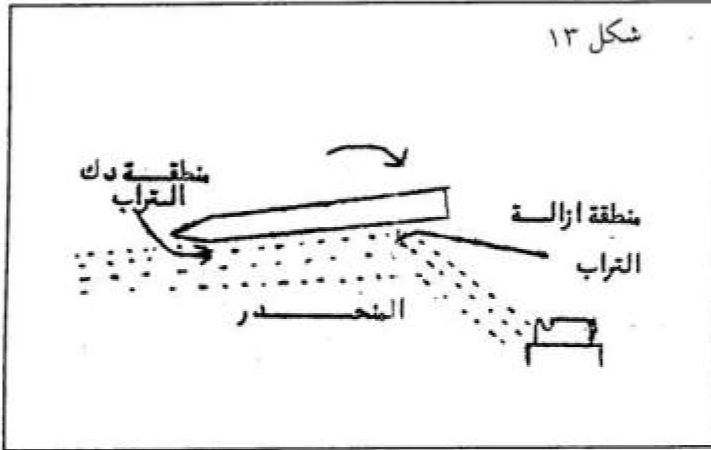
١ - أقام المصريون المسلات داخل الأفنية وجدران المعابد التى هى أقل فى ارتفاعها من المسلات . فالملكة حتشبسوت أقامت مسلتها فى الكرنك بين صرحى والدها تحتمس الأول حيث يوجد فناء به تماثيل أوزيريسيه وليس هناك دليل على هدم هذه الجدران لإقامة المسلة .

٢ - بعض المسلات قريبة جدًا من أبراج المعابد بحيث لا يتسع المكان لوضع الروافع الضخمة .

٣ - ليس هناك ما يمنع المسلة من الانحراف أو السقوط أثناء رفعها بالحبال .

أما فلندرزبترى Flinders Petrie[٤١] فقد أعلن نظرية مؤداها أن المسلات كانت تجر على منحدر من التراب طوله حوالى ١٣٠ مترًا وعرضه ٢٨ مترًا وأقصى ارتفاع له ٣١ مترًا وكانت المسلة تسحب عليه حتى نهايته العليا ثم تمال فوق حافته وكانت إمالتها تتم نتيجة لإزالة التراب تدريجيًا من تحت مؤخرتها

ثم يدك التراب بالتدريج بينها وبين المنحدر حتى تأخذ وضعًا رأسيًا (شكل ١٣) ويتفق رأى السير بنيامين بيكر Benjamin Baker(٤٢) مع رأى بترى ولكنه يضيف إليه فى قوله بأن الحبال كانت تستخدم لشد المسلة لتأخذ وضعًا عموديًا .



والاعتراضات على هذه النظرية هى :

١ - ليس من السهل هدم كوم من التراب أسفل مسلة معلقة تزن ٣٠٠ طن أو يزيد لأن التراب يندفع جانبًا فى جميع الاتجاهات وقد يسقط فوق رؤوس العمال .

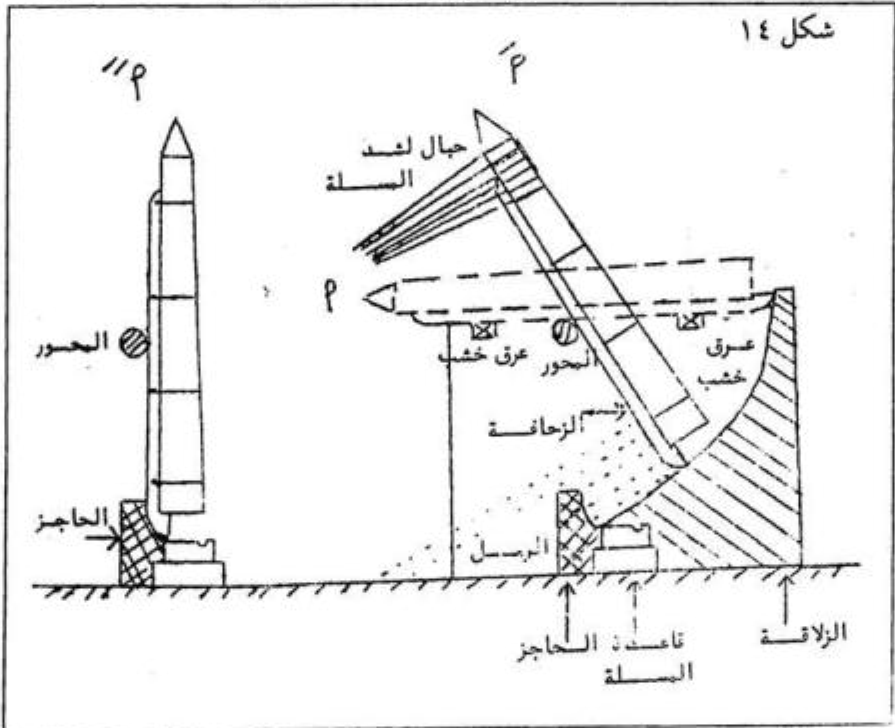
٢ - من البديهى أن عملية إقامة المسلات ليست من البساطة لدرجة أنها تتوقف على مجرد مهارة العمال فى تعبئة التراب .

٣ - إن إنزال مسلة ضخمة من ارتفاع كبير لكى تستقر فوق قاعدة صغيرة بواسطة سحب التراب من أسفل يعد من المستحيلات .

نظرية المهندس الفرنسى شوازى(٤٣): وهى من النظريات التى لاقت رواجًا كبيرًا . ويتم رفع المسلة طبقًا لهذه النظرية على مرحلتين . المرحلة الأولى رفع المسلة عن الأرض بالروافع إلى ارتفاع مناسب . وقد سبق شرحها أثناء الكلام على نقل المسلة إلى شاطئ النيل (انظر ص٢٩) ولأهميتها هنا سنلخصها فيما يلى:

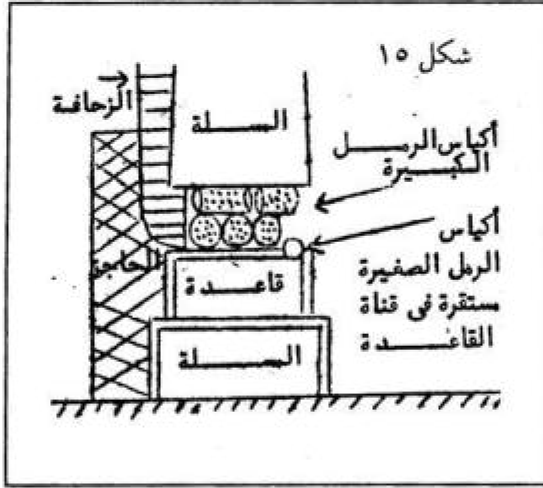
كانت المسلة وزحافتها ترفع بواسطة مجموعة من الروافع المحملة بالأثقال ثم يوضع الرمل أسفل الزحافة بعد كل رفعة وتُبنى جدران من اللبن على جانبي المسلة لاستخدامها لارتكاز الروافع وتتم تعلية هذه الجدران كلما رفعت المسلة .

أما المرحلة الثانية فكانت تبدأ عندما تصل المسلة إلى ارتفاع مناسب وتصبح فى الوضع (أ) (انظر شكل ١٤) عندئذ توضع تحت الزحافة عروق من الخشب ومحور Tourillon ثم يفرغ الرمل من بين الجدارين وتبنى بينهما زلاقة Glissiers مقعرة من جانبها وتثبت قاعدة المسلة مكانها ويبنى فى جانبها البعيد عن المسلة حاجز سنشرح الغرض منه فيما بعد . ثم يملأ الفراغ الواقع بين الجدارين والزلاقة بالرمل وتسحب العروق الخشبية وبذلك تظل المسلة وزحافتها معلقتين فوق المحور من الوسط ومستقرتين على الرمل من الأطراف . بعد ذلك يبدأ العمل فى سحب الرمل تدريجيًا فتهبط مؤخرة المسلة تبعًا لذلك حتى تصل إلى الوضع الرأسى (أ) فوق قاعدتها مباشرة.

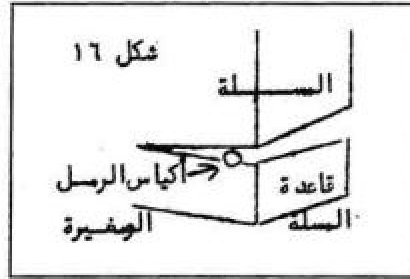


وفائدة الحاجز هنا هو منع المسلة من الجنوح وتجاوز قاعدتها ويساعد الجزء البارز من الزحافة Crosse على ذلك . وقد تربط الحبال فى أعلى المسلة لنفس الغرض.

أما استقرار المسلة فوق قاعدتها بعد اتخاذها الوضع (أ) فكان يتم بواسطة ملء الفراغ بين مؤخرة المسلة والقاعدة بأكياس كبيرة مملوءة بالرمل ووضع أكياس صغيرة إسطوانية Sachets فى قناة القاعدة Rainure ثم نشر الجزء البارز من الزحافة Crosse والمرتكز على القاعدة فتستقر المسلة فوق الأكياس الرملية الكبيرة (شكل ١٥) .



وبعد ذلك يبدأ العمل فى وخز الأكياس الكبيرة فيتدفق منها الرمل ويقل حجمها فتأخذ المسلة فى الهبوط التدريجى حتى يتم تفريغ جميع الأكياس الكبيرة ولا يبقى غير الأكياس الصغيرة الإسطوانية فى القناة . وفائدتها هى منع المسلة من الإنطباق على قاعدتها قبل إخراج الأكياس الكبيرة الفارغة (شكل ١٦) وفى النهاية توخز هذه الأكياس الصغيرة الإسطوانية فيقل حجمها وتهبط المسلة وتنطبق على القاعدة تمامًا وتغوص الأكياس الفارغة الصغيرة فى القناة(٤٤) .



هذه هى نظرية شوازى وهناك اعتراضات كثيرة عليها نلخصها فيما يلى :

١ - لم يذكر شوازى نوع المادة التى يصنع منها المحور الذى ترتكز عليه المسلة ومن البديهى أن هذه المادة لا يمكن أن تكون من الخشب الذى لا يمكنه تحمل ثقل المسلة الهائل .

٢ - لم يذكر أى تفاصيل عن مادة الزلاقة التى تنظم حركة هبوط المسلة .

٣ - من المستحيل ارتكاز المسلة فى الوضع أ على طرف الزحافة الخشبية فلا الزحافة تتحمل ذلك ولا الحبال التى تربطها بالمسلة تتحمل وزن المسلة .

٤ - قال شوازى عن قناة القاعدة أنها أعدت لوضع أكياس الرمل الصغيرة لملء الفراغ الذى يمكن العمال من سحب الأكياس الكبيرة الفارغة والواقع أن الغرض من هذه القناة هو ارتكاز حافة مؤخرة المسلة عليها والظاهر أن شوازى لم يجد دوراً لهذه القناة فى نظريته ففسر الغرض منها هذا التفسير الخاطئ .

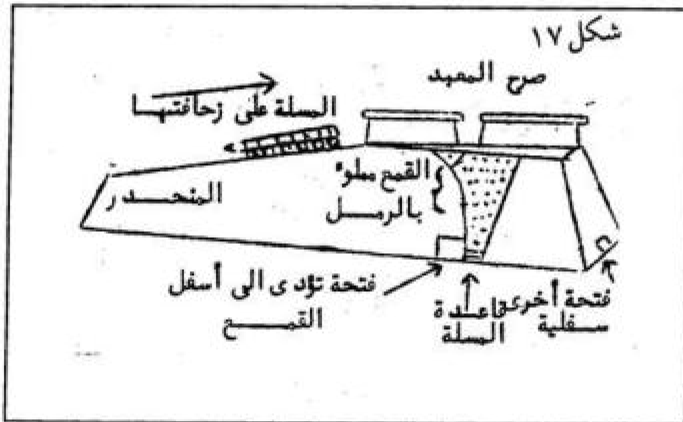
٥ - لا تفسر هذه النظرية سبب انحراف بعض المسلات عن قواعدها مثل مسلة حتشبسوت (انظر ص٣٧) ، وقد قام العالم الأثرى والمهندس انجلباك بعمل عدة تجارب فى معمله عن إقامة المسلات وصنع عدة نماذج مصغرة للمسلة

وصرح المعبد والمنحدر وخرج بنظرية جديدة تسمى نظرية القمع Funnel Theory تتلخص هذه النظرية فيما يلى(٤٥) :

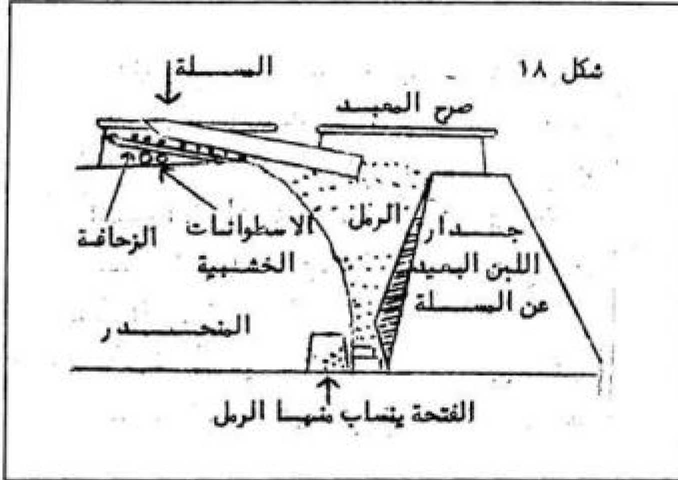
أن المسلة لا تقام بامالتها على منحدر أو على محور ولكن نتيجة لهبوطها التدريجى داخل حفرة على شكل قمع Funnel - shaped pit جدرانها من اللبن وتوجد فى نهاية المنحدر ويحدث الهبوط نتيجة لسحب الرمال من تحتها تدريجيًا وذلك من ممرات تؤدى إلى قاع الحفرة .

وهذه الحفرة التى تشبه كثيرًا قمع البترول Funnel متسعة من أعلاها وضيقة من أسفلها ولكنها أكثر اتساعًا من قاعدة المسلة وتسحب المسلة على المنحدر حتى تصل إلى أعلاه وتستقر مؤخرتها على الرمال التى تملاء الحفرة (انظر الشكل ١٧) ثم يبدأ العمل فى سحب هذه الرمال من خلال الممرات السفلية والفتحة السفلى تقع على سطح الأرض فى واجهة المنحدر وتؤدى إلى داخل القمع فوق قاعدة المسلة مباشرة والشكل الموضح مع هذا الكلام والأشكال التالية هى قطاعات طولية للمنحدر توضح هذه الطريقة خطوات إقامة المسلة طبقا لنظرية القمع :

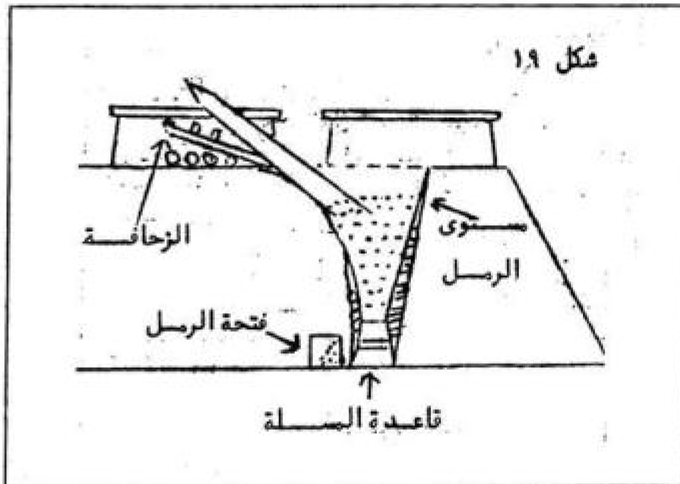
١ - يبدأ العمل فى جر المسلة على زحافتها على المنحدر حتى تصل إلى أعلاه (انظر شكل ١٧) .



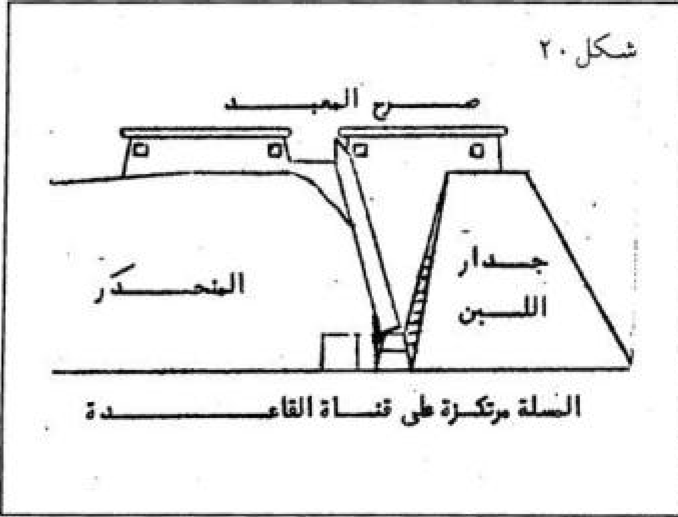
٢ - يفصل الجزء الخلفى من الزحافة وتمال المسلة حتى تستقر مؤخرتها على الرمل ثم يبدأ العمل فى سحب الرمال من الفتحة الأمامية الظاهرة فى شكل ١٨.



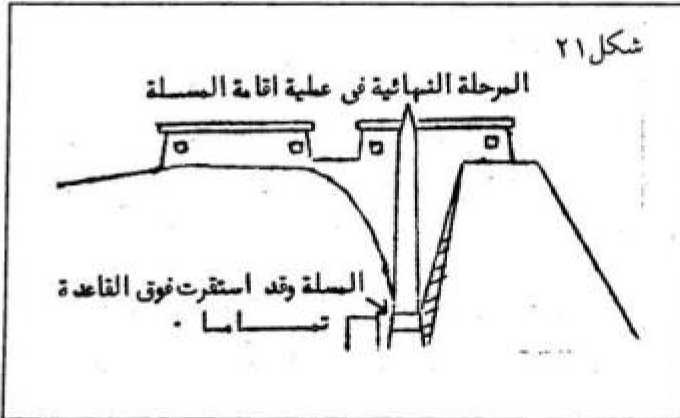
٣ - تبدأ المسلة فى الهبوط ببطء شديد نتيجة لهبوط مستوى الرمل (شكل ١٩) ويرجح أن بعض العمال كانوا يهبطون إلى مؤخرة المسلة من آن لآخر ليحفروا هنا وهناك لتصحيح أى خطأ فى اتجاه المسلة . ولزيادة التأكد من صحة اتجاه المسلة كانوا يضعون عروقا من الخشب بين مؤخرة المسلة وبين جدار الحفرة البعيد عن المسلة حتى لا تنحشر المسلة داخلها .



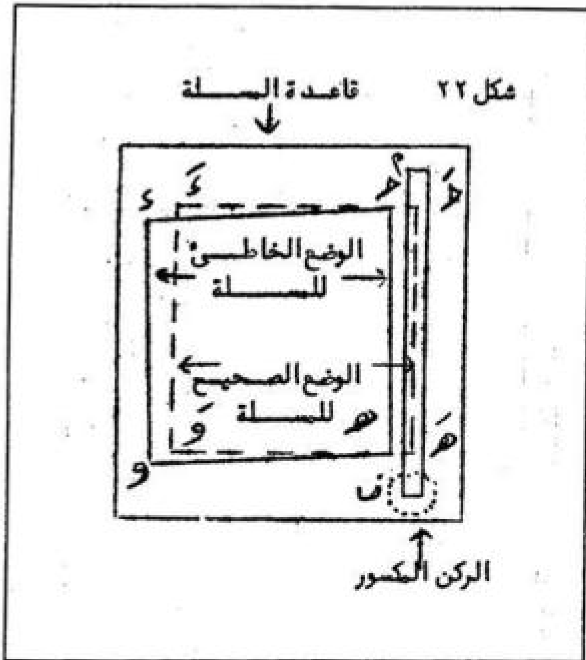
٤ - وعندما ترتكز حافة المسلة على قناة القاعدة (شكل ٢٠) يدخل العمال إلى قاع الحفرة لتنظيف قاعدة المسلة من بقايا الرمال والزلط ثم ترفع الدعامات (العروق الخشبية) ويوضع بدلها بعض نبات الحلفاء ليكون بمثابة وسادة أو متكأ يحمى المسلة من الانحراف والتصادم مع الجدران المحيطة بها .



٥ - وأخيرًا تربط المسلة من أعلاها بالحبال ويقف العمال فوق جدار الحفرة البعيد عن المسلة ثم تشد المسلة فتأخذ وضعها رأسيًا (شكل ٢١)



يتضح مما سبق أن قناة القاعدة لها أهمية كبيرة من حيث ضمان إرساء المسلة على قاعدتها إرساء صحيحا وحماية طرف المسلة من الكسر . ويبدو أن إهمال بعض الاحتياطات المبينة فى الخطوتين ٣ و٤ (وضع العروق الخشبية ونبات الحلفا) أدى إلى انحراف مسلة حتشبسوت القائمة فى الكرنك عن قاعدتها (انظر شكل ٢٢) فأخطأت القناة أ ب واتخذت الوضع الخاطئ وهو جـ و د هـ وبدلا من الوضع جـَ دَ هـَ وَ وهو الصحيح وقد أدى جنوحها إلى كسر ركن القناة عند (ب) فاضطر المصريون لتهذيبه لإخفاء معالم الكسر(٤٧) .



وباختبار مسلة تحتمس الثالث الساقطة أمام صرح تحتمس الأول بالكرنك لوحظ وجود فجوتين مستديرتين فوق قاعدتها بالقرب من المركز . وقد يكون

الغرض منهما وضع كتل من الخشب فيهما ليكونا بمثابة طاسات تصادم Shock absorbers تمنع المسلة من التمايل عند نصبها .

ويقول انجلباك تعزيزًا لنظريته - أن القنوات فى جميع قواعد المسلات لا تتجه ناحية النيل مهما بعدت المسافة بين مكان المسلة وبين شاطئ النهر وحتى قناة قاعدة مسلة تحتمس الثالث التى توجد بقاياها أمام الصرح السابع فى الكرنك (وهو صرح عمودى على الصروح الأخرى الموازية للنهر كما يتبين من الشكل ٢٣) وجدت فى الجهة البعيدة عن النهر وهذا دليل على أن المنحدر قد شيد من الناحية الأخرى البعيدة عن النهر مكان البركة المقدسة رغم أن المسافة بين الصرح السابع وبين النهر تبلغ ٣٦٠ مترًا .

شكل ٢٣ ـــ رسم تخطيطى لمعبد آمون بالكرنك

والسبب فى ذلك وجود مبانى معبد آمون . وهذا دليل على أن المنحدر كان يبنى موازيا لصرح المعبد كما يقول انجلباك لا عموديًا عليه(٤٨) .

ولإثبات نظريته أيضًا لجأ انجلباك إلى النصوص المصرية القديمة حيث فسر كلمة " المخزن " التى وردت فى نص بردية انستاسى(٤٩) الذى يقرأ " لقد قيل لك أفرغ المخزن المملوء بالرمل ... إلخ " على أنها تعنى الحفرة التى على شكل القمع وهى حجر الزاوية فى نظريته .

هذه هى نظرية القمع التى نادى بها انجلباك وقام بعدة تجارب لإثباتها ورغم ذلك يميل بعض العلماء إلى عدم الأخذ بها واعتراضهم الوحيد عليها أنها تبدو معقدة وفوق مستوى تفكير المصريين القدماء(٥٠) .

نظرية شفرييه Chevrier :

وهى أحدث نظريات إقامة المسلات جميعًا وقد نشرها الأثرى المهندس شفرييه سنة ١٩٥٤ فى مجلة مصلحة الآثار المصرية(٥١) .

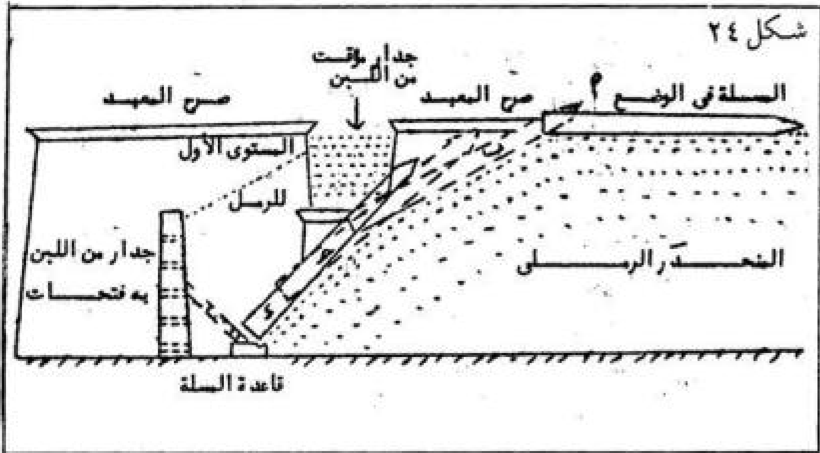
وقد وجد شفرييه أن نقطة الضعف فى النظريات التى سبقته هى أنها لم تدخل فى حسابها خطورة ارتكاز المسلة على مركز ثقلها عند أمالتها على جانب المنحدر وقال أن هذا الوضع يعد خطرًا على المسلة نظرًا لاحتمال انكسارها إلى نصفين .

وعلى هذا فقد وضع شفرييه نظريته على أساس أن المسلة كانت ترتكز على الجزء الأكبر من طولها ليس أثناء عملية نصبها فقط بل من لحظة نقلها من السفينة. كما فسر وجود الفجوات المستديرة فى قواعد المسلات والتى لم تفسر النظريات الأخرى العلة فى وجودها فيما عدا انجلباك الذى قال أنها كانت تقوم بدور طاسات التصادم(٥٢) Shock absorbers .

ويشرح شفرييه نظريته قائلاً أنه لإقامة المسلة كان المصريون يستخدمون بناء ضخمًا سماه صندوق الرمل Caisse à Sable لأنه يشبه الصندوق فى شكله ويتكون من أربعة جدران أحدها هو صرح المعبد الذى ستقام أمامه المسلة والثانى

هو المنحدر الذى تسحب عليه المسلة إلى أعلى أما الجداران الآخران فكانا يشيدان من اللبن (شكل ٢٤ و٢٧) .

وفى حالة مسلتى حتشبسوت اللتين أمام الصرح الخاص فى الكرنك استخدم الصرحان الرابع والخامس كجدارين لهذا الصندوق و لم تحتاج الملكة إلا لبناء جدار واحد هو الواقع نحو الشمال (انظر الشكل ٢٧) .

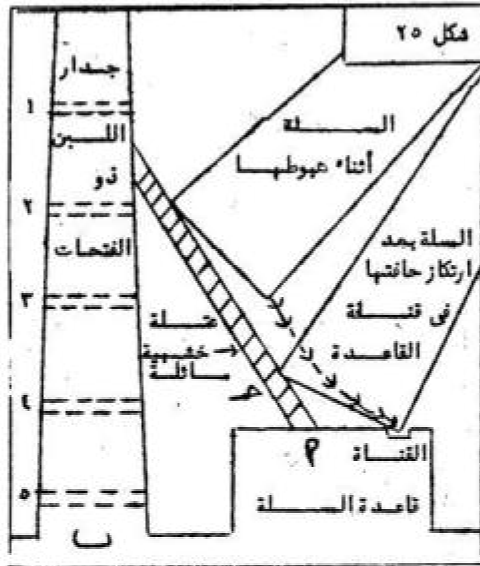


وكان هذا الصندوق يملأ بالرمل إلى ارتفاع يتراوح بين ١٥ و ٢٠ مترًا وعلاوة على قناة القاعدة كان يوجد فى قواعد بعض المسلات (خصوصًا مسلات تحتمس الثالث التى كانت قائمة أمام الصرح الثالث فى معبد الكرنك) فجوتين مربعتين تقريبًا ذات جوانب ملساء مائلة ميلا خفيفًا (شكل ٢٥ أ) الغرض منهما تركيز عرقين خشبيين مائلين Poutres obliques (شكل ٢٥ ج) كانا يستندان على الجدار المواجه للمنحدر . (شكل ٢٥ ب) وكانت هذه العروق تدهن بالطين لتسهيل انزلاق المسلة عليها وتوجهها نحو قناة القاعدة إذا كان هناك قناة أو نحو مكانها من القاعدة إذا لم توجد القناة ويبدو أنه لم يكن من الضرورى عمل هاتين الفجوتين بدليل خلو قاعدة مسلة حتشبسوت الجنوبية منهما والظاهر أن

فائدتهما كانت تنحصر فى وقاية العروق الخشبية من التآكل نتيجة احتكاكهما بسطح القاعدة الخشن وعلى ذلك فالفجوات الملساء لم تكن إلا إجراء من إجراءات الأمان .

ولكى تحتفظ المسلة بتوازنها ولضمان عدم انكسارها أثناء ميلها كانت تتبع الطريقة الآتية :

كان الجدار المواجه للمنحدر (شكل ٢٥ – ب) يحوى عدة فتحات متتالية (من ١ – ٥) وبعد أن تسحب المسلة فوق المتحدر الرملى بحيث تستقر أعلى قاعدتها تقريبًا يبدأ العمل فى سحب الرمل من الفتحة رقم /١ فيهبط مستواه وتهبط معه المسلة ويتم سحب الرمل بهذه الطريقة من الفجوات الأخرى وهذه العملية تؤدى إلى ارتكاز المسلة على الجزء الأكبر من طولها وبذلك تحتفظ بتوازنها فتأمن الكسر وتهبط نحو قاعدتها فى نفس الوقت .

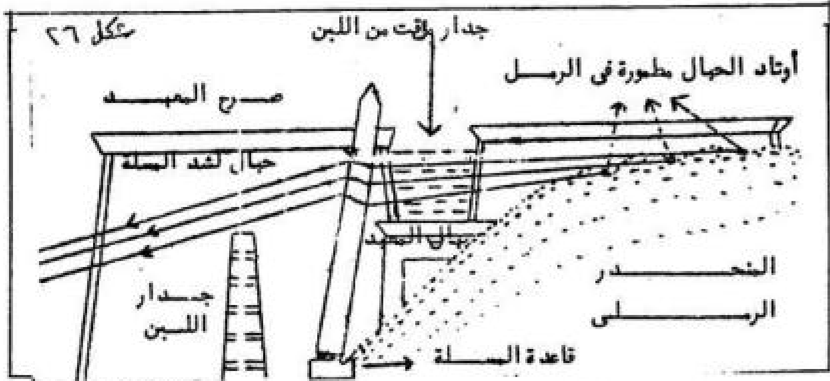


وهذه الطريقة لا تؤدى بطبيعة الحال إلى اتخاذ المسلة للوضع الرأسى التام بل إلى ارتكازها على قاعدتها فى وضع مائل بمقدار ٤٥ درجة .

وفى هذه المرحلة يلعب الرمل المتراكم فى قناة القاعدة دورًا هامًا فى حماية حافة المسلة من الكسر عند ارتكازها فى القناة . إذ أنه يكون بمثابة الوسادة التى تحول دون اصطدام الصخر بالصخر .

وبعد ذلك يجرى العمل فى تنظيف قاعدة المسلة من الرمال المتراكمة فوقها وحولها ثم تبدأ أخطر مرحلة فى عملية إقامة المسلة وهى اتخاذ المسلة للوضع الرأسى دون أن تتأرجح أو تتمايل . ويتم ذلك على عدة خطوات :

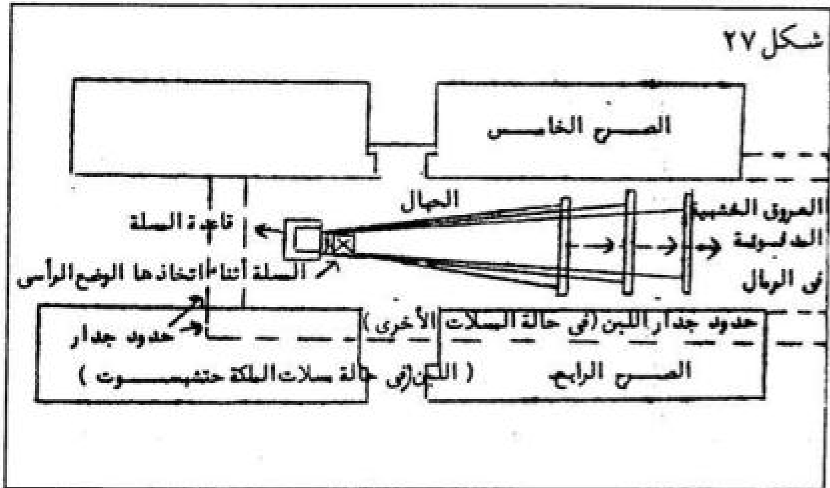
١ - تربط الحبال من منتصفها حول الجزء العلوى للمسلة (قد يبلغ $\frac{١}{٣}$ طول المسلة) (شكل ٢٦) ثم يشد العمال المسلة بهذه الحبال من ناحية جدار اللبن حتى تبتعد عن المنحدر الرملى .



٢ - تربط الأطراف الأخرى للحبال إلى عروق من الخشب Poutres en bois ثم تدفن هذه العروق فى رمال المنحدر على عمق معين بحيث تكون متعامدة على مستوى الاتجاه الأفقى للمسلة (وتشبه فى هذا فلنكات السكة الحديد) (شكل ٢٦و٢٧).

٣ - يشد العمال المسلة بالحبال فتندفع نحوهم ولكن العروق المدفونة فى الرمل تقاوم حركة اندفاعها .

ونتيجة لحركتى الشد والمقاومة تتجه المسلة ببطء نحو الوضع العمودى حتى تستقر أخيرًا فوق قاعدتها . وقد يبدو لأول وهلة أن نقطة الضعف فى نظرية شفرييه هى استحالة عمل فتحات فى جدار اللبن لسحب الرمال منها . نظرًا لأنها ستضعف الجدار مما يؤدى إلى انهياره نتيجة لضغط الرمل المتراكم داخله مضافًا إليه ضغط المسلة على هذا الرمل . ولكن شفرييه يبرر ذلك بقوله أن الرمل يختلف فى خصائصه عن السوائل ، لأن السوائل تضغط على جوانب الإناء الذى يحتويها ، أى أن ضغطها يكون فى جميع الاتجاهات بنسب متساوية أما الرمل فيضغط من أعلى إلى أسفل فى اتجاه رأسى وبذلك لا تتحمل الجدران المحيطة به إلا ضغطًا خفيفًا جدًا(٥٣) .



* * *

هذه هى النظريات المختلفة بخصوص إقامة المسلات وأننى لا استطيع أن أقطع برأى لتفضيل إحداها عن الأخرى إذ أن هذا متروك للمهندسين فهم أقدر من الأثريين على تميز ذلك ومعرفة نواحى الضعف فى كل نظرية . وأننى إذ أنقد بعض هذه النظريات فإنما انقدها من ناحية الفهم العام لها وليس على أساس هندسى أو معمارى . ولكن رغم ذلك فإننى أرى أن مجال الاختيار ينحصر بين نظريتى أنجلباك وشفرييه ، لهذا فاننى سأورد فيما يلى مقارنة بين النظريتين :

نظرية انجلباك	نظرية شفرييه
١ - المنحدر الذى تسحب عليه المسلة إلى أعلى كان يعمل من اللبن	١ - من الرمل
٢ - الحفرة المعدة لهبوط المسلة على شكل قمع .	٢ - على شكل صندوق مستطيل
٣ - الفتحات التى تسحب منها الرمال تقع فى أسفل البناء وكلها على سطح الأرض .	٣ - كلها فى الجدار المواجه للمنحدر وهى مرتبة من أعلى إلى أسفل .
٤ - لتوجيه المسلة نحو قاعدتها كان العمال ينزلون إليها من آن لآخر ويضعون عروقًا خشبية بينهما وبين جدران الحفرة .	٤ - كان يستعمل عرقان من الخشب يميلان على جدار اللبن ويرتكزان فى الفجوتين .
٥ - الغرض من الفجوات التى حفرت فى قواعد بعض المسلات هو وضع قطع من الخشب لتكون بمثابة طاسات التصادم التى تمنع المسلة من التمايل أثناء اتخاذها الوضع الرأسى .	٥ - الغرض من هذه الفجوات هو تركيز العروق الخشبية حتى لا تحتك بجرانيت القاعدة الخشن فتتآكل.

٦ - لضمان عدم اندفاع المسلة وتمايلها كانت توضع الحلفاء والقش بين المسلة وجدار الحفرة لتقوم بدور الوسائد .	٦ - كانت تستخدم فى ذلك عروق من الخشب تدفن فى الرمال وتربط إلى حبال تلف حول المسلة .

يتبين من المقارنة السابقة التشابه الشديد بين فكرة النظريتين إذ يمكن اعتبار نظرية شفرييه امتدادا لنظرية انجلباك رغم اختلافهما فى بعض التفاصيل .

وأننى أميل إلى الأخذ بنظرية انجلباك لأنه اعتمد فى توجيه المسلة نحو قاعدتها على شكل الحفرة نفسها فإن اتخاذها شكل القمع وضيقها التدريجى إلى أسفل يحصر المسلة فى نطاق ضيق ويجعلها تتخذ الوضع الرأسى الصحيح . أما شفرييه فقد جعل اتساع الحفرة (الصندوق) واحدا مما يؤدى إلى صعوبة التحكم فى المسلة . وقد استند فى توجيه المسلة نحو القاعدة على وضع عروق خشبية وبديهى أن الخشب من الوسائل التى لا يمكن الركون إليها لحمل ثقل هائل يزيد على ٥٠٠ طن .

وإذا كان بعض العلماء قد اعترضوا على نظرية انجلباك بقولهم أنها معقدة وتبدو فوق مستوى تفكير قدماء المصريين فإن هذا الاعتراض لا أساس له لأن المصريين الذين برعوا فى فن الهندسة والمعمار لا تعلو على تفكيرهم أمثال هذه الوسائل والطرق .

وقبل الانتقال من هذا الموضوع لدينا كلمة أخيرة وهى أن جميع المسلات القائمة فى أمكانها ليست عمودية تمامًا رغم أن المستوى العلوى لقواعدها أفقى تمامًا والسبب فى ذلك هو صعوبة نحت السطح السفلى للمسلة ذاتها بحيث يكون تام الاستواء وذو اتجاه عمودى على محور المسلة . وقد تمكن المصريون من الوصول إلى حل لهذه المشكلة . فقد تبين من دراسة قواعد مسلات معبد الإله خنسو منقو

وجود فجوات مقعرة ذات شكل نصف كروى Calotte Sphérique Concave مع عدم وجود قنوات بها ويرجح أن السطح السفلى لمؤخرة مسلات هذه القواعد كانت تعمل بـه بروزات محدبة نصف كروية Calotte Sphérique Convexe وعندما ينطبق البروز داخل الفجوة كانت تشبه المفصلة Rotule التى كانت تدهن بالطين لسهولة تحريك المسلة وبذلك يصبح فى الامكان تصحيح وضع المسلة حتى تتخذ الاتجاه الرأسى التام(٥٤) .

(و) ما بعد نصب المسلة

بعد إقامة المسلة فى وضعها الرأسى تبدأ عملية الصقل والتلميع (كانت المسلة تصقل صقلاً خشناً وهى فى المحجر للتخفيف من ثقلها) . ومعلوماتنا عن طريق الصقل والتلميع محدودة جدًا ومن المحتمل أن كرات الدلريت استعملت فى صقل أوجه المسلة(٥٥). ولقياس استواء سطح المسلة كان المصريون يضعون عليها لوحًا مستويا مغطى بالمغرة الحمراء المخلوطة مع الزيت) وكلما كانت الفواصل بين علامات المغرة ضيقة كلما دل ذلك على استواء سطح المسلة(٥٦) .

وبعد ذلك كان يستعمل مسحوق الصنفرة لجعل سطح المسلة ناعم الملمس . وبعد انتهاء العملية ترسم الصور والعلامات الهيروغليفية بالمغرة الحمراء وكانت طريقة حفر هذه العلامات والحروف تتلخص فى حفر حدودها على الجرانيت بواسطة سكاكين من النحاس وبالصنفرة ثم نشرها بمناشير يدوية وكسرها وأخيرًا يصقل مكانها بالمدقات وتستعمل الصنفرة لجعلها ملساء(٥٧) .

ولا ينتهى العمل فى المسلة عند هذا الحد ، بل تبقى عملية كسوة القمة بالصفائح المعدنية ويقول المؤرخ عبد اللطيف البغدادى يصف المسلات التى

شاهدها فى هليوبوليس (ويرجع أغلبها إلى عهد الأسرة ١٢) (٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق . م) أنها كانت مغطاة بالصفائح النحاسية وأن مياه الأمطار قد شوهتها بصدأ النحاس الذى سال على جوانب المسلة . وبطبيعة الحال لم يكن ذلك ليرضى المصريين القدماء لأن المسلة كانت رمز الآله رع فلابد من احتفاظها بمظهر لامع براق . لذلك استعمل المصريون منذ عهد الدولة الحديثة وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة بوجه خاص (١٥٤٠ - ١٣١٥ ق . م) نوعًا آخر من المعدن يمتاز بشدة لمعانه وقوته على عكس الأضواء فضلا عن عدم قابليته للصدأ وكانوا يسمونه " جَعَمْ " ويرجح أنه مخلوط الذهب والفضة أو الذهب الأبيض Electrum . ويقول المؤرخ أن نسبة الفضة إلى الذهب فى هذا المعدن كانت تبلغ ١ : ٥(٥٨) .

ومازلنا نجهل طريقة كسوة المسلة بهذا المعدن كما نجهل مقدار سمك الصفائح المستعملة لهذا الغرض . ولكن لابد أن العملية كانت تحتاج إلى مقدار كبير من المعدن . فقد قالت الملكة حتشبسوت فى معرض الحديث عن مسلاتها :

لقد خصصت لهم معدن " جَعَمْ " البديع
الذى استعملت فى وزنه ال " حِكَت "
مثلما توزن أكياس الحنطة(٥٩) .

وهذا معناه أنها لم تستعمل معيارًا بسيطًا فى وزنه بل استعملت الحكت (ويعادل ٤,٧٨٥ لترا) وهذا يدل على أن كسوة مسلاتها كانت سميكة جدًا . وللأسف لم يبق من هذه الكسوة شئ والظاهر أنها سرقت أثناء ثورة اخناتون الدينية (١٣٧٥ - ١٣٥٨ ق . م)(٦٠) .

ويقول بعض المؤرخين أن المسلات كات تغطى بأكملها بالمعدن . ولكن هذا بعيد الاحتمال فى حالة المسلات الكبيرة كمسلة حتشبسوت ولكنه جائز بالنسبة للمسلات الصغيرة التى كانت تقام على جانبى المقاصير فى المعابد . ومثال ذلك مسلات أمنوفيس الثانى التى وجدت فى معبده فى المدامود (شمال الأقصر بقليل) ومما يؤيد هذا الرأى ما جاء فى حوليات الملك أشور بانيبال(٦١) الذى غزا مصر سنة ٦٦٣ ق .م أثناء صراعه مع الملك النوبى تانوت آمون . فهو يذكر فى معرض حديثه عن الغنائم التى أخذها من مدينة طيبة أنه استولى على عمودين مصنوعين من معدن " زحالو " يزن الواحد منهما ٢٥٠٠ تالنت . ويبدو أنه يشير إلى مسلتين صغيرتين لأن الساميين كانوا يصفون المسلات بأنها أعمدة ولا ريب أن سبب الاستيلاء عليها هو قيمة المعدن الذى يغطيها .

الهوامش

(١) وقد أسس هذا الشعب عدة مدن فى مصر أشهرها مدينة هليوبوليس (عين شمس الحالية) التى كانت تسمى " أون "بمعنى البرج والتى أصبحت أكبر مركز لعبادة الشمس فى مصر . ويلاحظ وجود شبه بين الرمز المذكور وبين المسلة . ويقول بعض العلماء أن الشكل يمثل برجًا كان كهنة هذه المدينة يرصدون منه الشمس ويقول البعض الآخر أنه يمثل عمودًا من الحجر .

(٢) نصوص الأهرام أو ناس سطر ٦٦٣ .

(٣) وهيب كامل : هيرودوت فى مصر ٧٢ .

(4) Budge, Cleopatra, pp. 10-11.

(٥) فى موكب الشمس ، جزء أول ، ص١٤٠ .

(6) Budge, Cleopatra, p. 10.

(7) Ibid. p. 20.

(8) Ibid. p. 12.

(9) Ibid. p. 14.

(10) Budge; Cleopatra, p. 17.

(11) Engelbach; Problem, p. 33.

(12) Engelbach; Problem, p. 33.

(13) Budge; Cleopatra, p.25.

(14) Ibis. p. 34.

(15) Engelbach; op. cit. p. 42 fig. 10.

(16) Petrie; Tools and Weapons, pl. XIII, B16, 17.

(17)Engelbach; op. cit. p. 42.

(18)Engelbach; problem, p. 36.

(19)Petrie : Tools and Weapons,p. XLIX p.p. 44 - 46.

(20) Engelbach, Problem, p. 38

(21) Ibid.p. 42.

(22) Ibd, pp. 48 - 49 .

(23) Budge; Cleopatra, p. 27.

(24) Engelbach; Problem, p. 39.

(25) Engelbach; Problem, p.54.
(26) Ibid, p. 54.
(27) Choisy, L'Art de Batir, p. 122.
(28) Engelbach; Problem, p .60.
(29) Ibid.
(30) Choisy, L'Art de Bater, p. 123.
(31) Engelbach, The Aswan Obelisk, p. 31.
(32) Engelbach, Problem, p. 58.
(33) Pling, Natural History, Book XXXVI, chap. 4.
(34) Engelbach, Problem, pp. 64 - 65.
(35) Budge, Cleopatra, pp. 29 - 31.
(36) Engelbach : problem, p. 63 - 64.
(37) Breasted, Anciant Records, Vol I & 322 Vol II & 105.
(38) Somers Clarke, Ancient Egypt. (1920) Part I & II...
(39) Gardiner, Hieratic Texts XIII.
(40) Budge, Cleopatra, p. 33.
(41) Petrie, Arts and Crafts, p. 76.
(42) Budge, Cleopatra, p. 34.
(43) Choisy, L'Art de Batir p. 124.
(44) Choisy, :'Art de Batir, p. 124.
(45) Engelbach, Problem, pp. 66 - 76.
(46) Engelbach, The Aswan Obelisk, p 51..
(47) Engelbach, Problem, pp. 74 - 75.

(٤٩) انظر ص ٢٧ من هذا البحث .

(50) Budge, Cleopatra, p.55.
(51) Ann. Serv. T. L II, P. 309 - 312.
(52) Engelbach, Problem, p. 74.
(53) Ann. Serv. T. LII p. 309.
(54) Ann. Serv, LII, p.33.
(55) Engelbach, Problem, p. 80 & Budge, Cleopatra, p. 56.
(56) Engelbach, Problem, pp. 80 - 81.
(57) Engelbach, Problem, pp. 81 - 82.
(58) Budge, Cleopatra, p. 37.
(59) Sethe, Urkunden, IV 366.
(60) Budge, op. cit. p. 38.
(61) Ibid, pp. 38 - 39.

المراجع

1. Budge, A. W, Cleopatra's Needle and other obelisks, 1926.
2. Breasted, J. H; Ancient Records of Egypt. (1906) 5 vols.
3. Chevrier, H; " Note sur Lérection des Obelisques " Annales du Service, T. LII (1954) pp. 309 - 313.
4. Choisy, L'Art de Bâtir Chez les Egyptiens (1905).
5. Engelbach, R; The Aswan Obelisk (1922) .
6. Engelbach, R; The Problem of the obelisks (1923).
7. Gardiner, A; Egyptian Hieratic Texts, Part I (Papyrus Anastasi).
8. Gorringe, Egyptian Obelisks (1885).
9. Petrie, M. F.; The Arts and Crafts of Ancient Egypt. (1909).
10. Petrie; Tools and Weapons.
11. Pliny, Natural History.
12. Somers Clarke, Ancient Egypt (Period), (1920) Part I & II.

الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم

د. حسن الشريف(*)

لا تزال الصحراء الكبرى تضن بالكثير من أسرارها ويظل موضوع الفن الصخرى من نقوش ورسوم من أصعب هذه الأسرار وأكثرها غموضاً ، وفى إمكان كل من عالم الأنثروبولوجيا والبليونتولوجيا (علم الاحاثة)، وكذلك عالم اللغات القديمة والمؤرخ والجغرافى ، فى إمكان كل واحد من هؤلاء أن يجد من المستحدثات فى هذه الصحراء ما يفيد فرع تخصصه .

وتشغل هذه الصحراء حزاماً عريضًا ، يمتد من الشرق إلى الغرب آلاف الأميال ، وأما العرض فيقع بالتقريب فيما بين دائرتى عرض ١٨°و٢٨° شمالى خط الاستواء ، أما عن عدد مابها من نقوش ورسوم فحسب إحصائية سابقة ، قدرت بـ ٢٠٠٠٠ مابين نقش ورسم . وقد حاول أحد الباحثين ، أن يسيطر على هذا الكم الضخم من اللوحات ، وما تحتويه من موضوعات ، فاستعان بالحاسب الآلى، من أجل وضع كشاف للسمات الفائقة العدد ، مثل الأشكال المختلفة لقرون البقر، أو الأدوات أو أنواع الحيوانات أو الألوان المستخدمة ، للوقوف على ما يوجد من ظواهر ومخلفات ، وأماكن انتشارها ، ليسهل تتبع حركات الشعوب التى سكنت الصحراء وعلاقاتها المتبادلة مع بعضها البعض ومع جيرانها .

وقد لوحظ بالنسبة للنقوش الصخرية أنها جاءت فى أماكن مكشوفة فى الصحراء ، على مساحات كبيرة من صخور عمودية ملساء ، وعلى جوانب الأودية الكبيرة ، كما لوحظ كذلك أن أماكنها اختيرت عن قصد ، اختارها القدماء ربما للاحتفال بطقوس دينية أو سحرية .

(*) كلية الآداب - جامعة الأسكندرية - فرع دمنهور .

أما الرسوم ، فتختلف بعض الشيء حيث نراها فى ألوان حقيقية مناسبة ، استخدم فيها طلاء جيد وبألوان عديدة . وهى أيضاً فى العراء ، ولكنها فى حمى من أشعة الشمس و المطر . ومن السهل أن ندرك أنه كان لهؤلاء الفنانين القدماء أسرارهم الخاصة ، الأمر الذى لم يتأت لمن جاء بعدهم . وهكذا قاومت أقدم الرسوم فعل الزمن ، بينما لوحظ أن أكثرها حداثة سهلة الإزالة . ويمكن الحكم بشكل عام أنه أعقب الرسوم الأقدم ، اضمحلال تدريجى من حيث التقنية ، وكذا من حيث المهارة الفنية .

وقد بذلت محاولات جاهدة ، لبناء تتابع نسبي لترتيب المجموعات المختلفة من اللوحات ، ترتيباً زمنياً ، معتمدة على دراسة أسلوب التنفيذ ، وتقسيمها إلى فترات وأطوار فى مجموعات رئيسية ، وجاءت كل مرحلة باسم أظهر حيوان اتخذ قرينة نوعية للمرحلة .

وكانت النقوش التى تمثل الحيوانات الوحشية الضخمة أول أطوار هذه الظاهرة ، تليها فترة سميت بمرحلة أصحاب الرؤوس المستديرة ، ثم مرحلة الرعى أو مرحلة الثيران ، حيث ظهرت قطعان عديدة من الماشية المستأنسة ، ثم تلتها مرحلة الحصان أو العربة ، وجاءت مرحلة الجمل فى ختام هذه النقوش .

ولا يزال من الصعب الاعتقاد بأن هذه الأطوار جاءت متفقه وتواريخ محددة، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون جملة افتراضات قائمة على الاستنتاج ليس غير . فهى تختلف مع النتائج التى جاءت حسب إجراءات معملية ، معتمدة على حقائق، من فحص مواد استخرجت من بعض مواقع النقوش ، وأجريت عليها اختبارات الراديو كربون .

وقد أمكن لفبريزيو مورى (Fabrizio Mori) أن يستخلص بعض دلالات زمنية ، من أعماله فى منطقة جبل الأكاكوس من نواحى غات – جنوبى ليبيا .

وحسب ترجيح مورى تعود أقدم تواريخ مرحلة الثيران إلى ما قبل الألف السادسة ق . م . ويمكن أن تعد الألف السادسة هذه خطاً فاصلاً بين مرحلتين : مرحلة الرؤوس المستديرة ومرحلة الثيران .

وهو لذلك يختلف مع الباحثين الذين يعتقدون أن تاريخ تلك النقوش والرسوم لا ينبغى أن يذهب إلى أبعد من مرحلة العصر الحجرى الحديث . واعتماداً على قياس سمك طبقة الزنجار أو ما يطلق عليه أحياناً غبار الزمن : Patine يرجع تاريخ نقوش الحيوانات البرية أو مرحلة التيتل إلى العصر الجليدى المتأخر ، تليها فى حوالى الألف السابعة مرحلة أصحاب الرؤوس المستديرة ، أما عن مرحلة الحصان ، فهى حسب جدول مورى ، تقع فى منتصف الآلف الثانية ق .م . وهو بذلك يتفق مع أغلب الباحثين . وتستمر مرحلة الحصان حتى قبيل التاريخ الميلادى ، حيث يكون الجفاف قد أحكم حلقاته ، وكشفت الصحراء عن أطرافها ويصبح الجمل هو الحيوان السائد .

وقد جاء الطور الأول من هذه النقوش بحيوانات ثدية ضخمة من الأنواع البرية كالفيل والكركدن وفرس النهر والتيتل . ومن المعتقد أن هذه المجموعة كانت أول من غادر الإقليم عندما بدأت ملامح عصر الجفاف فى الظهور . وهذه النقوش نجدها دائماً منعزلة ، ونادراً ما تصاحبها أشكال بشرية . وفسرتها بعض الآراء بأنها من أجل أغراض سحرية ، وهذه هى مرحلة الصيد فى الشمال الأفريقى .

يلى ذلك فى الزمن مرحلة الرؤوس المستديرة حيث يظهر فيها الشكل الإنسانى برأس مستدير بلا تقاطيع . وبينما كانت أشكال المرحلة الأولى تمثل فرادى ، جاءت رسوم هذه المرحلة فى مشاهد جماعية تمثل مناظر من الحياة القبلية أو مناظر للعبادة ، ويغلب على هذه المرحلة أعمال الرسم ، ويندر فيها النقش .

ثم يلى ذلك طور تتعدد فيه المناظر ، منها مناظر للرقص ، حيث يبدو الراقصون غالباً بأقنعة وذيول ، وبالقرب منهم حيوانات كبيرة تشير إلى حاجتهم إلى الصيد ، الذى ربما كان عماد حياتهم . وأهمية هذا الطور أنه يوضح عموماً الطقوس والمعتقدات الراسخة ، وهى دينية أكثر منها سحرية ، إذ نرى فيها إيماءات بعالم روحانى ملىء بأشكال بشرية ممسوخة ، سواء كانت تعنى شياطين أو آلهة أو حتى أبطالاً أرادوا تخليد ذكراهم ، وكل هذا يرتبط بجنس سكان أقرب إلى العنصر الزنجى على الأرجح .

وعلى ما يبدو أنه فى الوقت الذى شهدت بعض أقاليم الشرق الأدنى القديم ، نقطة التحول الكبير ، من مرحلة الجمع والالتقاط ، إلى مرحلة إنتاج الطعام والزراعة والاستقرار وإنشاء القرى الأولى ، تشهد ربوع المغرب القديم ، ذلك التحول الكبير ، ولكن فى ظروف خاصة وسمات محلية ، وذلك باتجاه مجتمعاته إلى استئناس الحيوان . ومن ثم تغير النظام الاجتماعى لسكان هذه الأقاليم تغيراً جوهرياً ، كما عدل فى الوقت نفسه فى أسلوب واتجاهات الرسوم ، فلم تعد تظهر الأشكال البشرية الممسوخة ، وظهرت اتجاهات جديدة مثل تربية الماشية ، وحلب الأبقار ، إلى غير ذلك من نواحى الحياة القبلية . أما رسوم الأشخاص فقد صغرت أحجامها وصورت على الصخور بواقعية أكثر . وتبدو ملامح السكان أنها من جنس البحر المتوسط ، وهنا يغلب الغرض القصصى فى الرسم على الغرض السحرى .

والواقع أن أعمال مورى فى جبال الأكاكوس بنواحى غات فى ليبيا ، جعلته يلمس بوضوح تلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية ، التى صاحبت فترة التحول إلى العصر الحجرى الحديث . فقد كان من الواضح أن الثور لعب دوراً هاماً فى حياة السكان الجدد ، لذلك مثلوه بكثرة فى رسومهم على الصخر ، فظهرت رسوم القطعان الكبيرة مما بعث على الاعتقاد ، بأن هذه الرسوم من أجل أغراض سحرية كأبقائها وإنمائها فى المستقبل .

وقد عبرت رسوم هذه المرحلة عن مقدرة فنانيها وأمانتهم فى تمثيل القطعان، ودرايتهم بتفاصيلها التشريحية ، مما كان له أكبر الأثر فى معرفة خصائص كل نوع : فأمكن بذلك التعرف على أنواع السلالات .

ويبدو أن مرحلة الثيران أو الرعى فى موضوع الفن الجدارى للمغرب القديم كانت بمثابة آخر المراحل الزاهرة ، من حيث التنوع والاتقان ، وجاء فنها وسيطاً بين عالمين ، ففى الفترة التى تلت طور الرعى ، تتغير الرسوم كثيراً وتفقد غموض وإيحاءات الأطوار السابقة ، ويغلب عليها الطابع البشرى ورسوم العجلات بخيول تركض ومناظر صيد الودان والزراف ، وإن استمر الطابع الطقسى ، ومناظر تمثل الموت وغيره من أحداث القبيلة . فإذا ما ظهر الجمل فى المناظر ، فنحن أمام مرحلة طابعها ركاكة الأسلوب وسذاجة التعبير ، مما ينبىء باضمحلال هذا الفن العظيم ، وزوال عصره، وانطواء صفحته .

إن هذا الإرث العظيم من الفن الجدارى ، بلغ فى ماضى المغرب القديم ، ما بلغته الأهرامات فى تاريخ مصر القديمة ، والكاتدرائيات فى تاريخ أوربا فى عصورها الوسطى ، إنه فى حقيقته كتاب تاريخ أفريقيا شمالى الصحراء .

وكان لظاهرة بمثل هذا الحجم أن تستثير من اهتمام الدارسين وهممهم ما يملأ الآن مجلدات ضخمة ، فى محاولة لتأويل بعض مشاهدها ، أو تفسير بعض موضوعاتها ، ومحاولة الخروج ما أمكن بمعلومات عن أصل الحضارات أو اتجاه الهجرات والتأثيرات المختلفة ، وعن أصل الأجناس التى سكنت الشمال الأفريقى ولكن من الأهمية بمكان أن نكون على حذر من أى دراسات شكلية تعتمد على لوحة أو عدة لوحات ، لأن لوحة واحدة من عصر ما قبل التاريخ ليست فى حقيقة الأمر إلا نذراً يسيراً من ثقافة كبيرة تحتوى على آلاف العناصر الأخرى .

وبعبارة أخرى فإنه من الضرورى أن نحتاط فى قبول تلك التسميات ، التى يطلقها بين حين وآخر ، بعض الباحثين من ذوى الثقافات الأجنبية ، على بعض

مشــاهد من تلك النقوش أو الرســوم ، مثل مصطلحات أو أسمـاء : القضـاة ... أو السيدة البيضاء ... أو قالع الإنسان ... أو سكان المريخ ... إلى أخره . ونحن نتفق مع خبير الرسوم الصخرية الأفريقى" زيربو" حين يطلق صيحة يحذر منبهاً إلى أنه من اللازم أن نعتمد مبدءاً عاماً يتلخص فى أن فن ما قبل التاريخ الأفريقى يستوجب أن يؤول أولاً انطلاقاً من مستندات أفريقية أصلية وأنه لا يمكن أن نبحث عن أسباب خارجة عنها إلا إذا لم نحصل على إجابات للمشاكل فى إطارها الزمنى والمكانى والثقافى المحلى .

ولأهمية توضيح ذلك يتعين أن نضرب مثالاً على ذلك :

ففى دراسة سابقة ، وأثناء فحصى لبعض اللوحات من نشر هنرى لوط ، مستقاه من منطقة غات ، توقفت عند إحدى هذه اللوحات . وكانت عبارة عن رسم يمثل دائرة غير منتظمة الشكل يجلس خارجها شخصان ، أما فى داخلها فيرقد شخص على ظهره - كما يبدو - وقد صفت من حوله عدد من الأوانى والأطباق.

فماذا كان تعليق هـ . لوط على هذا المشهد ؟ لقد ذكر أنه مسكن قمىء تجلس فيه امرأة وطفل على جلد حيوان أمام الخطوط العامة للمسكن ، وقد استلقى رجل على ظهره ، ومن حوله أشياء متنوعة .

فالرسم إذاً حسب اعتقاد لوط مسكن ، والأشخاص هم الأحياء الذين يسكنونه . ولكن الواقع يخالف ذلك لأن إنسان ما قبل التاريخ ، لم يكن ليهتم بتصوير مسكنه الذى كان فى الغالب ، إما مغارة فى الجبل أو مأوى بسيط من أغصان الشجر وجلود الحيوان . وحتى إذا قبلنا بتفسير لوط إنه مسكن ، فأين أماكن بقية أفراد الأسرة ؟ وإنه لمن الأقرب أن نقول بأن الرسم لمقبرة وأن الشخص الراقد

داخلها يمثل المتوفى مستلقيا فيها ، وأن الحاجيات التى وضعت بجواره ، هى ما عرف فيما بعد فى العصور التاريخية التالية بالأثاث والمنقولات الجنائزية ، وأن الشخصين الخارجين ما هما إلا أسرة المتوفى ربما كانا يؤديان بعض الشعائر الطقسية أو أحضرا قرابين من نوع ما . واعتقد أن لوط فاته أن يمسك بطرف الخيط الأخر ، وبسبب بعده عن نظام المقابر المصرية - وخصوصاً فى عصور ما قبل الأسرات - لم يدرك ما بين ذلك المشهد وما كانت عليه تقاليد الدفن الشائعة فى الشمال الأفريقى ، وهى عادات تأكدت فى أكثر من مكان ، فقد وجدت مثل هذه العادات فى بلاد النوبة ، وكذلك فى نماذج لمقابر حقيقية عثر عليها فى وادى الأجال من نواحى فزان فى ليبيا . بل لعل هذه العادات ظلت لدى السكان المحليين حتى عصر الطوارق ، فهى نفس طريقة الدفن التى وجدت عليها مقبرة ملكتهم " تين حنان " فى واحة أباليسا بالجزائر .

وتبقى ملاحظة أخيرة حول الرسم المذكور ، تتعلق بالوضع الذى كان عليه الشخص داخل القبر ، إذ ربما جاء مخالفاً للوضع الذى ألفناه فى قبور عصور ماقبل التاريخ ، تلك الوضعية التى توصف بالقرفصاء أو فيها يرقد المتوفى على جانبه وقد ثنيت أطرافه أمام وجهه .

الواقع أنه يمكن الافتراض أن الفنان أراد ذلك ، ولكن فى حالات كثيرة كان حرص الفنان أن يؤكد فكرة ما ، جعله يخالف قواعد الرسم المنظور حسب فهمنا له . ومع ذلك نقول أنه عثر على حالات أخرى ضمن " قبور جبل زنككرا" بوادى الأجال ، الذى سبقت الإشارة إليه ، وجد فيها المتوفى راقداً على ظهره ، وأطرافه مثناه إلى أعلى ، الأمر الذى جعلنا نعتقد أن مثل هذه الوضعية كانت مألوفة لدى مجتمعات الصحراء (انظر لوحة " أ " و" ب " للمقارنة) .

لقد كان لوجودى بجامعة سبها فترة من الوقت ، ما أتاح لى أن أطلع بنفسى على مواقع النقوش فى الجنوب الليبى ، وأن أشهد العديدمن لوحاتها ، وأن استشعر حجم وضخامة هذه الظاهرة ، ومدى كثافة لوحاتها فى بعض المواقع ، إلى الحد الذى يتجاوز كل ما قيل عنها من تفسيرات أو شروح ، وأن من يتأمل وضعية بعض النقوش على الجدران الصخرية ، فى بعض أماكن منطقة غات أو وادى " برجوج" أو وادى " متخندوش" ، وما تحتويه لوحات هذه المواضع من مجموعات حيوانية مختلفة فى تكويناتها ومجموعاتها - ليدرك أن الأمر يتعدى ما قيل فى السابق من أنها لأغراض دينية أو سحرية . فالأمر عندنا أجل من ذلك ... ربما نحن بصدد مفردات للغة أم للصحراء ، فإذا ما تذكرنا كيف كتب كل من المصريين القدماء والسومريين لغتهم بادىء الأمر فى شكل مقاطع ومفرودات لحيوانات وطيور بيئاتهم ، أيقنا أن مجتمعات الشمال الأفريقى والصحراء بعامة ، كانوا على وشك أن يبتدعوا مثلهم نظماً للكتابة .

- أما لماذا لم يتم لهم ذلك ؟ فالسبب فى ظنى يرجع إلى أمرين :

السبب الأول : أن مجتمعات الشمال الأفريقى ، حينما أمسكوا بأرهاصاتهم الأولى لما يمكن أن يمثل لغة مكتوبة تخصهم لم تسعفهم البيئة بمادة خام رخيصة ومتوفرة ليصنعوا منها أدوات كتابتهم ، كما توفر للمصريين القدماء حينما وفرت لهم بيئتهم أحجاراً طيعة للنحت كحجر الشت أو عندما أتاح لهم نبات البردى ، الذى كان ينمو بوفرة فى مناقع الدلتا ، والسناج الذى حصلوا عليه من جدران أوانى الطهى ، أن يمتلكوا أدوات كتابة رخيصة .

وقد توفرت نفس الظروف للسومريين فى جنوب العراق ، مع الفارق هنا ، حيث أمكن لهم هم الأخرون امتلاك أدوات كتابة رخيصة ومتوفرة من مادتى الطين والقصب اللتين وفرهما لهم نهرا دجلة والفرات . والأمر حسبما اعتقد أنه

لا يكفى لمجتمع ما - حتى تكون له لغة مكتوبة ، أن يبتدع أشكالها ورسومها ، ولكن من الضرورى أن يمتلك وسائل تسجيل متاحة لهذه اللغة ، وبشرط أن تكون هذه الوسائل متوفرة فى البيئة المحلية أو يسهل الحصول عليها .

أما السبب الثانى : فقد كان عاملاً بيئياً خارج قدرة إنسان الشمال الأفريقى ، وكان بمثابة كارثة بيئية ، لا يملك إزاءها إلا الرحيل . ونقصد عصر الجفاف ، الذى بدأ فى ضرب مناطق المغرب القديم والشمال الأفريقى بعامة ، فى الوقت الذى كانت هذه الإرهاصات الأولى لتكوين لغة مكتوبة فى حاجة إلى مجتمع آمن ومستقر .

وختاماً لهذا العرض الموجز لموضوع النقوش والرسوم الصخرية ، للمغرب القديم ، أود أن أقدم بعض عينات منه صادفنى الحظ ،أنها تقع فى مناطق قريبة من مقر جامعة سبها ، وأنها لم تجد حظها من اهتمام الباحثين ، ربما لضآلة عددها مما لم يلفت نظر من تناولوا موضوع النقوش .

فى الموقع الأول : " براك " :

تميزت نقوش هذا الموقع بالتنوع واشتمالها على نقوش لأكثر من مرحلة ، وإن كان من الصعب فى مثل حالتنا هذه التيقن من شىء حيث اقتصر عملنا على مجرد التسجيل وإبداء بعض الملاحظات الأولية ، تشمل النقوش على مشهدين لصيد النعام (لوحات ١ ، ٢) ، وعلى الرغم من أن حالة النقشين باهته، توحى أنهما يمثلان أقدم مراحل النقش الصخرى التى يطلق عليها " مرحلة الصيد " ، إلا أننا نعتقد أنهما ربما يعودان إلى " مرحلة الرعاة " أو " الثيران " المتأخرة ، ذلك اعتماداً على أسلوب النقش المتردى ، والذى لا يهتم بإبراز التفاصيل أو إتقان الشكل ، ولأنه لا يجب أن نعتقد أن حرفة الصيد قد أبطلت فيما أعقب مراحل

النقش الصخرى ، يضاف إلى ذلك أداة الصيد هنا كانت القوس والسهم ، وهذا يعنى أن المشهد يعود لما بعد العصر النيوليتى للصحراء .

وقد مثلت الأبقار بكثرة فى هذا الموقع ، (لوحات ٣-٥ على سبيل الانتقاء) ويعود السبب فى رأينا إلى طبيعة المكان ، ووفرة الماء ، والظروف المناسبة لحياة رعوية ميسرة . ولا تزال حتى يومنا هذا تتدفق المياه الباطنية بسهولة من العيون فى كثير من بقاع وادى الشاطىء .

وقد مثلت الأبقار فى جماعات (لوحة ٣) ربما صاحبها حيوانات أخرى (ماعز ؟) ربما أضيفت إلى النقش فيما بعد ، كما نقشت فى حالات أخرى فرادى (لوحة ٥) . ويلاحظ أنه فى الحالات الفردية ، بذل الفنان قدراً أكبر فى العناية بالرسم . ومما يسترعى الانتباه هنا فى موضوع (لوحة ٥) حالة قرنى البقرة أنهما يشبهان القيثارة أى هلالية الشكل ، مما يذكرنا بقرنى البقرة "حتحور" فى مصر الفرعونية . وعلى الرغم من أن هذا النوع من الأبقار صُور كذلك فى رسومات جبل "الأكاكوس " من أعمال"مورى" لكنه لوحظ أنه كان ضمن قطعان أخرى كثيرة من النوع الذى لا تبرز له قرون . وجاءت القرون الهلالية فى رسومات " الأكاكوس " كعناصر ثانوية فى المشهد ولكننا فى حالتنا هنا نحس بقدر من (الإجلال ؟) إزاء مشهد البقرة التى تقف فى وقار وسكون .

وتثير مشاهد الأبقار فى النقوش والرسومات عدد من الفرضيات ، حول وقت ظهورها فى الشمال الأفريقى ، ومصدر قدومها . وحسب جدول " مورى " فى جبل " الأكاكوس " يقترح لها الألف السادس ق. م. أو ماقبله وأنه يفصلها عن المرحلة التى تسبقها (مرحلة الرؤوس المستديرة) فاصل زمنى ليس قصيرا ، له أهمية حضارية خاصة فى مسألة تقويم النقوش زمنيا(١) . الواقع أن مثل هذه المعطيات عن زمن تدجين البقر فى الصحراء ، تجعلنا نعتقد أن الآراء

القائلة بأن البقر المدجن قد أتى إلى الصحراء قادما من الشرق آراء تفتقر إلى الأدلة المقنعة. وعلى العكس من ذلك فإن كثرة مشاهد الرسوم الصخرية فى الصحراء للحيوانات المستأنسة ، تجعل من الأصوب الاعتقاد أن فكرة استئناس الحيوان لم تكن غريبة عن حضارات الصحراء . وأننا يجب أن نناقش جديا كون تربية الأبقار يعود في نشأتها إلى الصحراء(٢).

وقد صُور " الحصان " فى أكثر من نقش (لوحات ٦ - ٩) على سبيل الانتقاء وقد لوحظ فى مناظر " وادى الشاطىء " نهجين : الأول منهما حينما يتناول الفنان تصوير الحصان لذاته فقط ، فيصوره فى أحجام كبيرة مع العناية بإظهار تقاطيع جسده . أما المنهج الثانى فحينما يكون الحصان ممتطيا بواسطة فارس أو مشدودا إلى عربة فهنا تقل أهمية الحصان فى الرسم ويتضاءل حجمه .

ولا يمكننا أن نجزم هنا بشيء ، إلا أن النهجين متفاوتان تفاوتا فى درجة الاتقان .

يبقى موضوع (لوحة ٩) وهو من المناظر الهامة فى موضوع النقوش الصخرية ، إذ يصور لنا العربات التى كانت تجرها أربعة من الخيول والتى جرت العادة بنسبتها لعناصر " الجرامنت " ، وهم الذين استوطنوا وادى " الشاتى " و"الأجال" ، وكانت عناصر هامة فى التاريخ الليبى. ومما يسترعى الانتباه فى الشكل المذكور غياب قواعد فن المنظور لدى الجرمنتى (لاحظ الخيول الأربعة وحالة سائق العربة !) . وربما كان من الأجدر مقارنة رسم العربات لدى الجرامنت بما جاء من مناظر لعربات ينطلق بها زوج من الخيول من نشر أعمال "مورى" فى جبل " الأكاكوس" (تادرارات أكاكوس . لوحتى ١٣٨ ، ١٣٩) . ففى حالة عربات جبل " الأكاكوس " وخيولها يتضح مراعاة الفنان لقواعد المنظور ودرايته بها . هذا من جهة ومن جهة أخرى يلاحظ فى مشاهد " الأكاكوس " أن

الخيول صورت راكضة وكأنها تسبح فى الفضاء وهو ما يصفه " لوط " بأنها نفس الطريقة التى صورت بها مشاهد من الفن " الإيجى "(٣) . وتبعد جبال " الأكاكوس " عن مواطن الجرامنت بحوالى ٦٠٠ ميل ، مما يسمح بالاعتقاد أن عالم الصحراء الكبرى كان زاخرا بثقافات متنوعة .

ولا يسعنا هنا إلا أن نشير إلى نموذج هام وخصب من مصادر البحث العلمى تفتحه أمامنا موضوعات النقش الصخرى ، إذ تمدنا بموضوعات عن حضارات الصحراء ، ما كان لنا أن نلم بها من أى مصدر غيرها .

ونشير إلى (لوحة رقم ٨) فقد أقترن النقش ببعض حروف لغة "التفيناغ"، وهى لغة بعض قبائل المغرب وقد كتبت من حروف بونيقية .

ويمثل موضوع (لوحة ١٠) لوحة " الجمل " ، وهو آخر مراحل الفن الصخرى للصحراء ، والذى يواكب عصر الجفاف ، ويؤرخ ببداية التاريخ الميلادى . ويتضح فى هذه المرحلة من تاريخ الفن الصخرى مدى التدهور الفنى الذى أصابه ، وهو يطوى آخر صفحاته .

يبقى من المشاهد المنتقاة من الموقع الأول ، صورة لِوَدّان (لوحة ١١) وهو حيوان مألوف فى هذه المناطق ، لدرجة أن إحدى المدن الليبية تحمل اسمه . وقد اقترن ظهور هذا النوع بمرحلة الرعاة ، وتم تنفيذ النقش بنفس تقنية موضوعات الأبقار . وتصور (لوحة ١٢) لوحةرجلين أحدهما أكبر من الآخر ، ولا ندرى إذا كان لذلك أى معنى وقد حمل الشخص الآخر ما يشبه " الدرع " وربما كانا يتأهبان لقتال . وقد تم تنفيذ النقش بتقنية " التطريق ".

الموقع الثانى : " برقن "

ربما كانت رسوم " برقن " (لوحات ١٣ - ١٧) امتدادا لرسوم الموقع الأول . وهى فى الغالب لا تذهب أبعد من مرحلة الرعاة ، وهو ما سبقت

الإشارة إليه من ملائمة الوادى لحياة الرعاة وتربية قطعان الماشية . وقد وجدت النقوش فى معظمها قريبة من سطح الأرض ، الأمر الذى قد يوحى بأن هذه القطع الصخرية كانت أجزاء من صخور أكبر وقد تفتت وتناثرت على أرض الوادى بفعل عوامل المناخ (لوحة ١٣) وربما هذا مما سهل عملية النقش ، التى اشتملت على ثلاثة مراحل : الرعاة والحصان والجمل .وقد غطت حروف " التفيناغ " الكثيرمن النقوش .

وفى (لوحة ١٥) لوحة يتضح فى النقش صورة زرافة ،وقد مثلت الزرافة فى أغلب مراحل الفن الصخرى للصحراء بدءا من مرحلة الرؤوس المستديرة وحتى مرحلة الحصان(٤). وينتمى النقش الذى نحن بصدده فى أغلب الظن إلى عصر الرعاة المتأخر ، لأن النقش يماثل فى تقنية تنفيذه نفس نقش البقرة التى تجاوره .

الخلاصة

يتضح من نقوش هذين الموقعين خلوهما من مرحلة الحيوانات البرية ، وهى المرحلة التى جاءت نقوشها على سفوح الجبال على ارتفاعات قد تصل إلى عدة أمتار ، أو على جدران المآوى الصخرية وهو مالا يتوافر فى طبيعة الوديان(٥) كما يلاحظ أن الأعمال الفنية فيهما تمت بطريقة النقش وليس الرسم . ولم تستخدم أى ألوان فى تلوين النقوش . ولقد أمكن عن طريق المقارنة استيضاح بعض الفروق فى المنهج والأسلوب اللذين اتبعهما فنان وادى " الشاتى " عن مواقع للنقش الصخرى فى جبل "الأكاكوس" التى تعد أخصب مناطق الفن الصخرى فى ليبيا وربما فى الشمال الأفريقى .

وتجدر الإشارة في نهاية هذا البحث الوجيز التنويه إلى إغفال مواقع وادى " الشاتى " من خريطة الفن الصخرى لجنوب ليبيا أو الشمال الأفريقى بعامة . وقد يرجع الظن فى رأيى إلى ثراء جنوب ليبيا بمواقع أخرى تزخر بألوان من هذا الفن وثراء فى موضوعات مثل جبل " الأكاكوس " فى منطقة " غات " ونقوش وادى "متخندوش" وكلها مواقع تجذب حتى فى أيامنا هذه الزوار والباحثين ، الأمر الذى يجعل نقوش وادى " الشاتى " متواضعة غير ملفتة للنظر .

الهــوامش

(١) " مورى " ، ف. ب ، " تادرارات أكاكوس " ، الفن الصخرى وثقافات الصحراء قبل التاريخ ، تعريب عمـر البـارونى وفـؤاد الكعبـازى ، منشورات مركـز الجهـاد الليبـى - سلسلة الدراسات المترجمة -١٣ ، طرابلس ١٩٨٨ ، ص ٢٤٧ . وكان قد سبق له ذكـر نفس التقدير الزمنى . انظر : الصحراء الكبرى ، نفس الناشر السابق ، رقم ٢ مـن نفـس السلسلة ، طرابلس ١٩٧٩، ص١٦٠ .

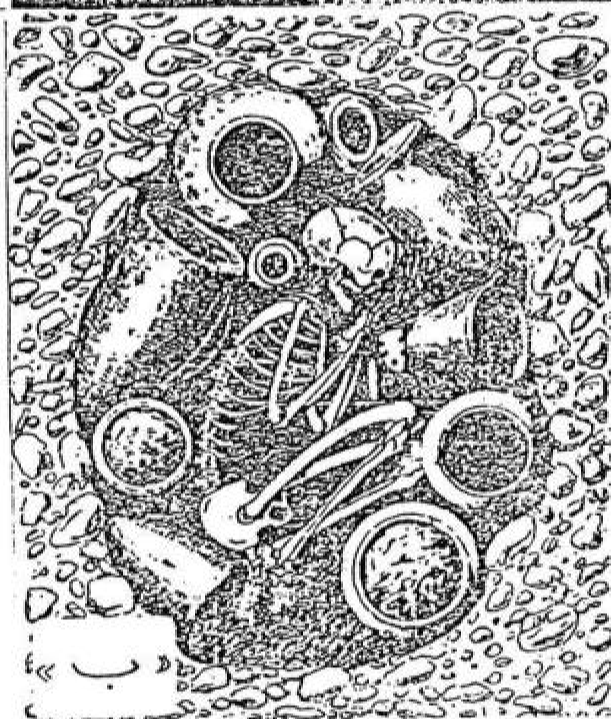
(٢) " شتريتز " ، ك .هـ. الرسوم الصخرية كمصدر تاريخى ، الصحراء الكبرى ، مرجع سابق، ص ١٥٥ .

(٣) " لوط " ، هـ. لوحات تاسيلى ، تعريب أنيس ذكى حسن ، طرابلس ١٩٦٨.

(٤) " أورد مورى " ، نماذج عدة لهذا الحيوان فى مواقع جبل " الأكاكوس " مثلت نقوش مـن دور الرؤوس المستديرة لوحة (٢٠) ودور الرعاة رقم (١٩) ثم دور الحصان رقم (٢١) .

(٥) يكاد يكون من المألوف فى أرجاء الصحراء الكبرى ، أن إنسـان العصر الحجرى القديم كان يفضل العيش إما على الهضاب أو يحتمى بالكهوف ، وهو ما يؤكده الواقع الأثرى ، حيث لا نكاد نعثر على أدوات حجرية من العصر الحجرى القديم إلا فى هذه الأماكن . أما الوديان فلم يهبط إليها الإنسان إلا مع انحسار العصر المطير للصحراء ، واتجاه الإنسان إلى مصادر المياه الدائمة فى الوديان ، وبجوار عيون الماء .


«أ» ٢


«ب» ٤



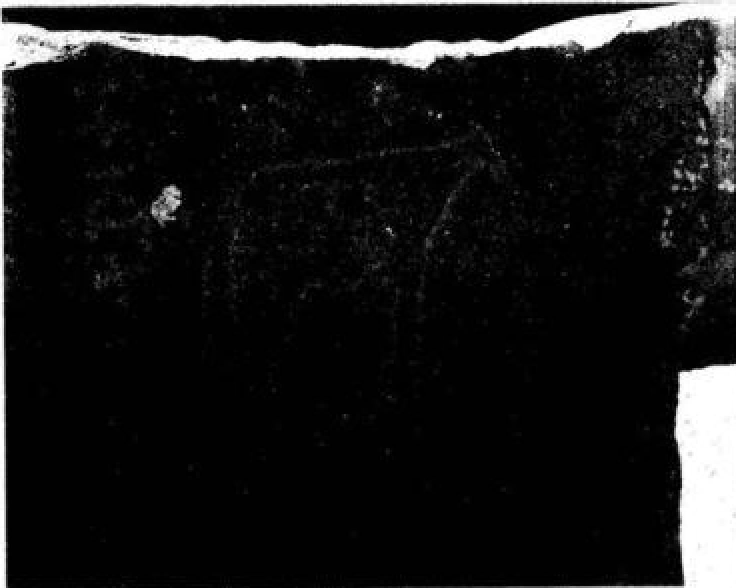
لوحة رقم (١)



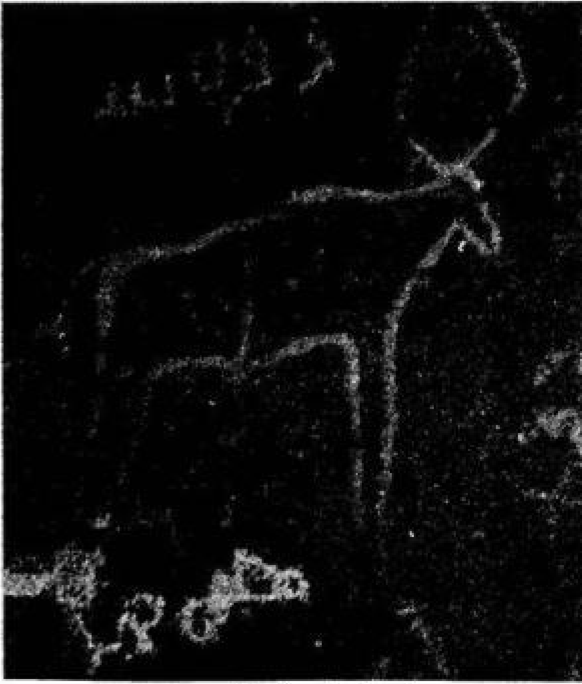
لوحة رقم (٢)



لوحة رقم (٣)



لوحة رقم (٤)



لوحة رقم (٥)



لوحة رقم (٦)



لوحة رقم (٧)



لوحة رقم (٨)



لوحة رقم (٩)



لوحة رقم (١٠)



لوحة رقم (١١)



لوحة رقم (١٢)



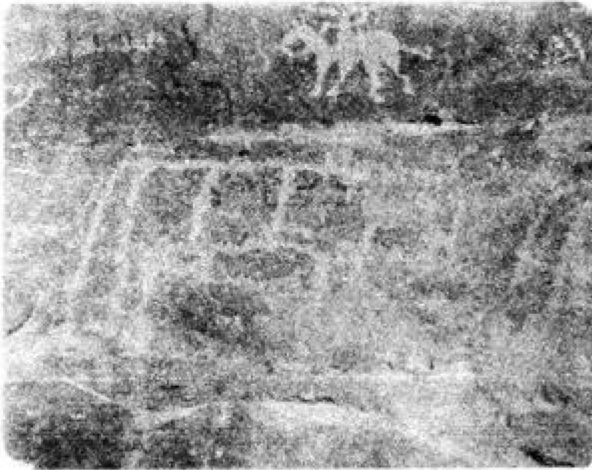
لوحة رقم (١٣)



لوحة رقم (١٤)



لوحة رقم (١٥)



لوحة رقم (١٦)



لوحة رقم (١٧)

يوجورثا – ثائر جزائرى ضد الهيمنة الرومانية

أ. د. محمد السيد محمد عبد الغنى(*)

إن أى دارس لتاريخ الجمهورية الرومانية يعرف شخصية يوجورثا ملك نوميديا (الجزائر حاليًا) فى الجزء الأخير من القرن الثانى ق. م. وسبب تميز هذه الشخصية وبروزها – على هامش أحداث التاريخ الرومانى فى تلك الفترة – أنها ارتبطت فى أذهاننا بظاهرة الفساد والرشوة التى انتشرت حينذاك على أعلى مستوى بين شاغلى المناصب العليا والدنيا من الرومان بعد توسع الدولة الرومانية فى أرجاء البحر المتوسط . لقد صُوِّر لنا يوجورثا فى كتب ومراجع التاريخ الرومانى على أنه شيطان رجيم انتزع عرشًا لم يكن من حقه بطرق غادرة وغير مشروعة وقتل أبناء عمومته تحقيقًا لذلك وأغرق الموظفين الرومان فى مستنقع الفساد لكى يغضوا الطرف عن أعماله المشينة هكذا تكون الصورة عندما يكتب الطرف المنتصر التاريخ (الرواية الرومانية) ولا يصلنا صوت الطرف الآخر المنهزم، فتنطبع فى أذهاننا صورة أحادية الجوانب ؛ وتصبح بفعل التكرار والإلحاح عليها أقرب إلى البديهيات . لكن إلى أى مدى كانت هذه الرواية الرومانية عن يوجورثا صحيحة ؟ هل صحيح أنه لم يقهر عدة جيوش رومانية ولم يحبط كثيرا من مخططات الرومان فى هذه المنطقة إلا بالغدر والرشوة دون سواهما ، هل صحيح أن ماريوس – الذى كان انتصاره على يوجورثا هو نقطة انطلاقة لزعامة الدولة الرومانية – قد هزم يوجورثا وأسره لأن الأول تمتع بالنزاهة والتجرد والكفاءة العسكرية العالية فقط ؟

هذه هى مجمل القضايا التى يناقشها هذا البحث . إن الهدف من هذا البحث – بعد قراءة متأنية للمصدر الرومانى الذى تناول هذه الواقعة بالتفصيل وهو المؤرخ الرومانى ساللوستيوس من القرن الأول ق. م. – هو إعادة فتح هذا

(*) أستاذ التاريخ اليونانى والرومانى – كلية الآداب بجامعة الإسكندرية والمعار حاليًا لجامعة الكويت .

الملف ومراجعة هذه المقولات الرومانية التي تتسم - في تقديري المتواضع - بقدر كبير من التحيز والمبالغة . إن البحث محاولة لإعادة الاعتبار إلى شخصية يوجورثا من خلال المصدر الروماني ذاته(!) الذي استقى منه الباحثون في التاريخ الروماني معلوماتهم وصاغوها بصورة انتقائية مُهمِّشة ليورجورثا ومنحازة للطرف الروماني المنتصر .

ولنتناول الآن نقاط هذا البحث بصورة أكثر عمقًا وتفصيلاً حتى نصل إلى مفهوم أكثر واقعية عن هذا الصراع بين الدولة الرومانية ويوجورثا ملك نوميديا .

ماذا عن شخصية يوجورثا وظروف نشأته ؟

من المعلوم أنه مع نهاية القرن الثالث ق. م. حوالي عام ٢٠٢ تمكنت روما من أن تكسب الحرب البونية الثانية بينها وبين قرطاجة وأن تحطم في موقعة زاما أسطورة البطل والقائد القرطاجي الفذ هانيبعل الذي أذاق روما الأمرين وهزمها هزائم مدوية خلال خمسة عشر عامًا (٢١٨ - ٢٠٣ ق. م.) . كان من بين حلفاء روما في هذا الموقف العصيب قائد نوميدي هو ماسينيسا جد يجورثا الذي كان في صف سكيبيو الإفريقي (القائد الروماني الكبير وبطل موقعة زاما) . وقد كافأه الرومان على وقفته تلك بمساعدته في اعتلاء عرش نوميديا بعد هزيمة هانيبعل والإطاحة بالملك النوميدي الذي كان يؤازره وهو سيفاكس . وهكذا ظل ماسينيسا ملكًا على نوميديا من نهاية الحرب البونية الثانية عام ٢٠٢ ق. م. وحتى وفاته عام ١٤٩ ق. م. (أي قبل تدمير قرطاجة نهائيًا على يد الرومان وتحويلها إلى ولاية أفريقيا الرومانية عام ١٤٦ ق. م. بثلاث سنوات) . وطيلة حكم ما سينيسا في نوميديا كان حليفًا وصديقًا للشعب الروماني ، وكان يشن الهجمات على قرطاجة المنهزمة من روما والمكبلة بشروط معاهدة مهينة ، ويعتدى عليها بين حين وآخر - وبإيعاز من روما - حتى لا تقوى شوكتها فتعود لتشكل خطرًا على روما من جديد . وبعد وفاة ماسينيسا تولى العرش من بعده ابنه الوحيد المتبقي على قيد الحياة ميكبسا (إذ كان له ولدان آخران هما ماستنبال " أبو

يوجورثا " وجولوسا توفيا فى سن مبكرة) . وظل ميكبسا يحكم نوميديا فى الفترة من ١٤٩ إلى ١١٨ ق. م. حين توفى ، وكان يسير على نهج أبيه ماسينيسا فى علاقته بالرومان إذ استمر (حليفًا وصديقًا) لهم ، وهى عبارة توحى بقدر كبير من التبعية للدولة الرومانية لأن التحالف والصداقة الحقيقية تكون فى أغلب الأحوال بين أنداد .

فى خلال فترة حكم ميكبسا فى نوميديا كان يوجورثا (ابن أخيه ماستنبال من إحدى المحظيات) قد شب عن الطوق وبلغ سن الشباب ، فرباه ونشأه فى القصر الملكى مع ولديه الأصغر سنا ادهربال وهيمبسال ، وتبناه قبل وفاته وأوصى به شريكًا فى الحكم مع ولديه ليحكم المملكة من بعده ثلاثة هم ولداه وابن أخيه(١) .

ويتحدث المؤرخ ساللوستيوس عن هذا الأمير الشاب يوجورثا فيذكر أنه كان يتمتع ببنيان قوى ووسامة فى الخلقة " لكنه تمتع فوق كل ذلك بعقلية فذة ، ولم يستسلم لإفساد الترف أو الاسترخاء بل أنه - جريا على عادة قومه - كان يركب الخيل ويرمى الرمح ويتنافس مع أقرانه فى سباقات الجرى . ورغم أنه كان يتفوق عليهم جميعًا فقد كان محبوبًا من الجميع . كما كرس جل وقته للصيد والقنص وكان أول أو من أوائل من صرع ليثا أو غيره من الضوارى . لقد أنجز الكثير والكثير لكنه نادرًا ما كان يتحدث عن نفسه " . ويذكر المؤرخ أن الملك ميكبسا قد انزعج من بطولات ابن أخيه وخشى من طموح ابن أخيه نحو الانفراد بالعرش على حساب ولديه الصغيرين " كما لاحظ الحب والإخلاص الذى غرسه يوجورثا فى نفوس النوميديين ، لذا كان يخشى من اندلاع شغب أو حرب من جانبهم إذا ما أقدم على اغتياله بالحيلة والغدر "(٢) .

وحين بلغ الانزعاج من قوة يوجورثا مبلغه فى نفس الملك ، ورغب فى التخلص منه بطريقة ذكية كان ذلك التصرف فى مصلحة يوجورثا ، وأكسبه خبرة قتالية كبيرة ، كما كان مجالاً لإظهار قدراته العالية المذكورة أعلاه أمام

الرومان مما جعله يحظى بصداقتهم وتقديرهم ورفع أسهمه وزاد من شعبيته - المرتفعة أصلاً - في نوميديا . ذلك أن عمه ميكبسا - في محاولته للتخلص من يوجورثا - بعث به على رأس قوة نوميديا لمعاونة حلفائه الرومان في قمع ثورة مدينة " نومانتيا " الأسبانية عام ١٣٤ ق. م. وكان يأمل في أن يسقط يوجورثا ضحية سهلة لرغبته في استعراض قوته أو لعدو شديد البطش " .

Sperans vel ostentando virtutem vel hostium saevitia facile eum occasurum

لكن الأمور جرت على عكس توقعات ميكبسا تمامًا ، ونال يوجورثا سمعة ممتازة من خلال بطولاته والتزامه بالواجب فأصبح صديقا حميمًا ومصدر رعب للنومانتيين . لقد حقق في الحقيقة معادلة صعبة المنال إلى أبعد حد إذ كان باسلاً في المعارك وحكيمًا في إسداء النصح في آن واحد ، رغم أن إحدى الصفتين وهي الحكمة تؤدي إلى التخوف والأخرى وهي الشجاعة تقود في أغلب الأحيان إلى التهور "(٣) .

هكذا كانت شخصية يوجورثا الحقيقة - باعتراف أعدائه - تجمع بين الشجاعة غير المتهورة والحكمة غير الهيابة والكياسة التي يأسر بها قلوب من يتعامل معه من رومان أو غيرهم ، كما تمتع رغم كل ذلك بالتواضع الجم الذي اجتذب إليه قلوب مواطنيه من النوميديين مما جعل عمه ميكبسا يخشى من أن يغدر به مخافة تمرد وثورة شعبه كما أسلفنا .

أمام أمير يتمتع بكل هذه الصفات التي قلما تجتمع في شخص واحد صار لزاما على عمه الملك ميكبسا أن يتبناه ويجعله ضمن ورثته على العرش - رغم كرهه لذلك - لاسيما بعد أن أوصى القائد الروماني الشهير سكيبيو أيميليانوس - قائد حملة " نومانتيا " الذي دمر المدينة المتمردة - الملك ميكبسا خيرًا بيوجورثا وأشاد به إشادة حارة وهنأ الملك ميكبسا على إنجازات هذا الشاب الرائع الذي تعتز به روما(٤) .

والآن كيف صورت روما يوجورثا بعد أن انقلبت عليه وتصادمت مصالح الطرفين ؟

حين وصل يوجورثا إلى عرش مملكة نوميديا بعد وفاة عمه الملك ميكبسا عام ١١٨ ق. م. - بالمشاركة مع ولدى عمه أدهربال وهيمبسال - ثم تخلصه تدريجيًا من شريكيه فى الحكم - لاعتبارات سنفصلها فيما بعد - شكل ذلك تعارضا مع مصالح روما فى نوميديا وزعمها الحفاظ على الشرعية فى تلك المملكة. وهنا بدأ تصوير يوجورثا يتخذ شكلا مغايرًا للصورة التى رسمها له الرومان أعلاه ، وانعكس ذلك فى سياسات وتصرفات الرومان تجاهه وفى كتاباتهم عنه بعد انتهاء الأمر برمته .

لقد صوروه على أنه ذلك الطامع فى الاستئثار بعرش المملكة وحده الذى سعى بكل السبل - لا سيما الغدر والخديعة - إلى التخلص من أبناء عمه شركائه فى الحكم وأنه بذلك كشف عن جحوده ونكرانه لجميل عمه الذى تبناه وأشركه فى الحكم(٥) . كما صوروا أن روما حاولت أن تحمى شرعية الحكم فى المملكة وترد يوجورثا عن مخططاته للاستئثار بحكم نوميديا - خصوصًا بعد أن اغتال ابن عمه الأصغر هيمبسال - إلا أنه استطاع بمراوغته ودبلوماسيته وسلاح الرشوة الفتاك - قبل هذا وذلك - التأثير فى نفوس فئة غير قليلة من كبار شاغلى المناصب فى روما لمساعدته على المضى فى تنفيذ مخططه فى أن يصبح السيد الأوحد لنوميديا كلها بالصمت عن أفعاله حينا ومؤازرة مواقفه وتبريرها فى السناتو حينا آخر .

لقد بالغ ساللوستيوس فى التركيز على سلاح الرشوة الذى أشهره يوجورثا فى وجه روما وصوره كما لو كان سلاحه الوحيد فى كسب معاركه الدبلوماسية والعسكرية ، ولكن ساللوستيوس لا يُنحى باللائمة فى هذا الموقف على يوجورثا بمفرده بل على ظروف المجتمع الرومانى فى أواخر القرن الثانى ق. م. - بعد تدمير قرطاجة ومصرع الأخوين جراكوس المدافعين عن حقوق العامة فى روما - الذى انتشرت فيه وجوه فساد عديدة من طمع وجشع وصلف ورشوة وظلم وسوء

استغلال للسلطات كنتيجة لحالة السلم التى سادت المجتمع الرومانى بعد إخضاع معظم أعداء روما فى حوض البحر المتوسط وما ترتب على ذلك من وفرة ورخاء لبعض فئات المجتمع الرومانى من النبلاء واحتدام الصراع الحزبى بين النبلاء والعامة(٦) .

يذكر ساللوستيوس أنه فى أثناء هذه الظروف ، وبينما كان يوجورثا يحارب بقواته النوميدية إلى جانب الرومان فى نومانتيا كان هناك من بين النبلاء الرومان من يهتمون بالثروة أكثر من الفضيلة واحترام الذات وبالشهرة الزائفة أكثر من الأمانة . إن هذه الفئة هى التى أشعلت فى نفس يوجورثا - حسب قول المؤرخ - نوازع الطموح والطمع فى عرش نوميديا وألقت فى روعه أن " كل شىء فى روما قابل للبيع " . ويذكر أن قائد الحملة سكبيو أميليانوس - بعد أن أثنى على شجاعة يوجورثا - نصحه بأن يحرص على كسب ود الشعب الرومانى كله بدلاً من كسب ود بعض الأشخاص و " ألا يعتاد على تقديم الرشوة لأنه من الخطر أن تشترى من فئة قليلة ما هو حق للغالبية "(٧) . هذه النصيحة الأخيرة التى يذكر ساللوستيوس أن سكبيو أسداها إلى يوجورثا فى شبابه ربما كانت مفبركة ومقحمة لتخدم سياق الموضوع وتعطى الانطباع بأن هذه النزعة كانت كامنة فى نفس يوجورثا منذ فترة طويلة ومنذ تعاملاته الأولى مع الرومان ، وأن القائد الرومانى ربما فطن إلى هذه النزعة فى يوجورثا أو استشعرها وحذره من مغبتها بالقول " إذا ما استمر يوجورثا على نفس الدرب كما بدأ فإن الشهرة والعرش سوف يأتيانه سعيًا ، أما إن تعجل فسوف يلقى بنفسه فى الهاوية بماله " . يريد المؤرخ أن يُثبتَ فى يقيننا أن هذه النبوّة لسكبيو قد صدقت وتحققت من جراء جشع يوجورثا وتهوره وعدم أخذه بنصيحة القائد الرومانى المخلص له ! قمة فى الدعاية الرومانية بغير شك تصور الرومان وهم يسدون الحكمة للآخرين فإن لم تُجدِ لقنوا هؤلاء المتهورين درسًا قاسيًا بالقوة والبأس .

وبعد هذه المقدمة الموحية عن بدايات نزعة الرشوة والإفساد عند يوجورثا يعدد المؤرخ المناسبات العديدة التى تجلت فيها هيمنة هذه النزعة عليه خصوصًا

بعد وصوله إلى العرش ثم تخلصه من شركائه فى الحكم وهما ابنا عمه ميكبسا . فحين تخلص يوجورثا من ابن عمه الأصغر هيمبسال باغتياله من خلال مؤامرة سيطر الرعب على الأخ الأكبر أدهربال الذى هزم فى معركة أمام يوجورثا وفر إلى ولاية أفريقيا ومنها إلى روما واستعطف السناتو التدخل لنجدته . وفى هذا الظرف أرسل يوجورثا مبعوثيه إلى روما لتفادى غضبها وقام هؤلاء برشوة كل من استطاعوا رشوته " فأرسل مبعوثيه إلى روما بمقدار كبير من الذهب والفضة وأصدر إليهم توجيهاته بأن يُحمّلوا أصدقاءه القدامى أولاً بالهدايا ثم يكتسبون أصدقاء جدد - أى باختصار ألا يتباطؤوا فى كسب ما استطاعوا بالسخاء والهبات"(٨) . ويذكر أن هؤلاء المبعوثين دافعوا أمام السناتو عن وجهة نظر يوجورثا وردوا الاتهامات الموجهة إليه لكن دفاعهم - حسب تدخل المؤرخ - " كان يعتمد ويستند إلى الرشوة أكثر مما يستند إلى عدالة قضيتهم " Iargitione magis quam causa freti (XV. 1) وكانت نتيجة مداولات السناتو بعد مرافعات أدهربال من ناحية ومبعوثى يوجورثا من ناحية أخرى أن اتخذ قرار من السناتو بتقسيم مملكة ميكبسا (نوميديا) بين يوجورثا وأدهربال . هذا القرار فى تقدير ساللوستيوس هو انتصار لرأى الأغلبية المؤيدة ليوجورثا فى السناتو والذين وصفهم بأنهم يعلون من قيمة المال والحظوة على حساب الحق(٩) . ثم يذكر كيف استقبل يوجورثا أعضاء بعثة السناتو المكلفة بتنفيذ تقسيم المملكة استقبالاً حافلاً واستقطب معظمهم بالرشاوى والهدايا والوعود ، وكانت النتيجة مجاملته وإعطاءه الجزء الغربى من المملكة الأكثر خصوبة وسكاناً(١٠) .

وفى الفترة التالية لتقسيم المملكة بين الرجلين خطط يوجورثا للاستيلاء على المملكة بأكملها لكى يصبح هو السيد الأوحد ، ونفذ ذلك عن طريق التحرشات والإغارات الاستفزازية على أملاك أدهربال فى شرق المملكة لكى يخلق لنفسه ذريعة لشن الحرب عليه ، ثم انتقل إلى المواجهة والهجمات الصريحة وحصار مدينة " كيرتا " التى اعتصم بها خصمه وحاصرها وأسقطها وقتل أدهربال رغم احتجاجات وإنذارات روما على مدى عامى ١١٣ / ١١٢ ق. م.(١١) . هذا

الموقف أثار ثائرة الغضب الشعبي الروماني لاسيما بعد مقتل عدد كبير من " الإيطاليين " من تجار مدينة " كيرتا " بعد سقطوها ، ويقول المؤرخ ساللوستيوس أن أعوان يوجورثا وأذنابه في السناتو حاولوا امتصاص هذا الغضب الشعبي من خلال قوة نفوذ وأموال الملك لكن دون جدوى . لقد صدر قرار من السناتو بمحاربة يوجورثا عسكريا وغزو مملكة نوميديا وأسندت هذه المهمة إلى القنصل لوكيوس كالبورسوس بستيا الذى أختار أن يكون مساعده في هذه الحملة أحد النبلاء الأقوياء وهو القنصل الأسبق أيميليوس سكاوروس(١٢) . ورغم ثناء المؤرخ على الصفات الممتازة التي يتمتع بها القائدان من طاقة وحيوية وروح عالية وقدرة على التحمل وذهن حاد وبصيرة ورؤية بعيدة النظر وخبرة عسكرية عالية ورباطة جأش فإنه يعيب على كليهما جشعهما وحبهما الفائق للمال والثروات(١٣) . ويخلص المؤرخ من ذلك الموقف إلى أن يوجورثا لعب على وتر الفساد لدى الرجلين وتوصل معهما إلى تمثيلية محكمة يتظاهر هو فيها بالاستسلام للجيش الروماني ويقدم رموزًا شكلية على هذا الاستسلام المزعوم مثل بعض الفيلة وقطعان من الماشية والخيل تسلم للكويستور الروماني(١٤) ، في حين التقى الملك (يوجورثا) سرا بالقائدين ورتب معهما تفاصيل الصفقة بعد أن قدم رشوة ضخمة من قبل لمهندس هذه الصفقة سكاوروس مساعد بستيا(١٥) .

وحين تسربت هذه الأنباء إلى روما إثر عودة القنصل بستيا إليها للإشراف على الانتخابات اشتعل النقاش حول فساد القنصل في كل مكان في روما لا سيما بين العامة الذين كانوا حانقين جدًا على فساد النبلاء الذين لاذوا بالصمت والتردد . وفي هذا الجو أشعل أحد ترابنة العامة هذا الحنق والغيظ الشعبي المكبوت بخطبه النارية عن مدى الفساد والجشع والأنانية وخيانة المسئولية والأمانة وبيع الوطن للأعداء وهي الجرائم التي تفشت بين صفوف النبلاء . وعلى أثر ذلك ، وبعد خطب التريبون جايوس ميميوس الحماسية ومطالبته بمعاقبة هؤلاء الخونة وإحضار يوجورثا إلى روما - بعد منحه الأمان - ليكون شاهدًا حيا على خيانة وفساد هؤلاء القادة وغيرهم من النبلاء(١٦) . وحين اطمأن يوجورثا على سلامته

من خلال تعهدات البرايتور لوكيوس كاسيوس الذى أنيطت بـه مهمـة اصطحـاب يوجورثا إلى روما ، توجه إلى هناك لكى يدلى بشهادته حول مخالفات ورشاوى تلقاها كبار القادة والنبلاء وذلك أمام الجمعية القبلية فى رومـا . وفـى رومـا لقـى تشجيعًا من أعوانه الرومان واستمال إليه المزيد منهـم وأبرزهـم أحـد ترابنـة العامـة ويدعى جايوس بايبيوس بتقديم رشـوة ضخمـة إليـه(١٧) . وفـى المقـابل قـام هـذا الأخير بدور هام فى إنقاذ يوجورثا من براثن العامة المهتـاجين فـى الجمعيـة القبليـة ومن ضغوط التريبون الآخر الثائر جايوس ميميوس الذى أعد قائمـة اتهـام مفصلـة لأعوان يوجورثا فى روما وألح فى طلب شهادته . عندئـذ تدخـل الـتريبون الآخـر جايوس بايبيوس وطلب من يوجورثا ألا ينبس بكلمة رغم هيـاج العامـة ، وانتهـى الأمر بـأن انفضت الجمعيـة القبليـة وسـط غضـب شـديد ومكتـوم مـن جمـوع العامة(١٨) . وبعد أن اطمأن على مصـيره بعـد هـذا الموقـف شـرع يوجورثـا فـى استغلال نفوذه وأمواله وهو فى روما للتخلص من أحد اللاجئين من العائلة الملكيـة النوميدية فى روما وهو ماسيفا بن جولوسا بن ماسينيسا أحد ورثة عـرش نوميديـا من بعده ، والذى فر من نوميديا بعد سـقوط كيرتـا ومقتـل أدهربـال . وقـد نفـذ يوجورثا هذه الخطة بالفعل حين كلف بها ساعده الأيمـن وموضـع ثقتـه بوميلكـار الذى كان معه فى روما والذى استأجر بعض المحترفين الرومان الذيـن نفـذوا هـذه الجريمة ، بـل واستطاع أن يُهرِّب بوميلكـار سـرا إلى نوميديـا رغـم الاسـتياء والاستهجان الشديد للجريمة من الرومان . ورغم ذلك كله لم يملك الرومان إيـذاء يوجورثا لما كان يتمتع به من حماية وحصانة وإنما طالبه السناتو بمغادرة إيطاليـا ، وبعد أن خرج يوجورثا من بوابات روما آمنا بعد كل ما فعله قال عبارته الشهيرة: " مدينة (روما) للبيع ومقدر لها الدمار السريع لو وجد المشترى "(١٩) .

" Urbem venalem et mature perituram, si emptorem invenerit "

عند هذا الحد قررت روما العودة إلى ميدان القتال ضد يوجورثا مرة أخـرى وعينت هذه المرة القنصـل سبوريوس ألبينـوس لخوض المعركـة عـام ١١٠ ق. م. وبعد أن وصل هذا القنصل إلى أفريقيا وأعد العدة للمعركة ضد يوجورثـا راوغـه

يوجورثا وماطله وتظاهر بالاستسلام حينا وشن الهجمات على الرومان حينا آخر لكسب الوقت ، وهو ما نجح فيه يوجورثا وعاد ألبينوس إلى روما بسبب اقتراب موعد الانتخابات في روما تاركًا أخاه أولوس ألبينوس للاضطلاع بالقيادة . ومن المعروف أن يوجورثا أحرز انتصارًا ساحقًا على هذا القائد بالإنابة وجيشه وأجبرهم على المرور من تحت النير رمزا للإذلال(٢٠) (وهو انتصار سنتناوله فيما بعد) . ويذكر ساللوستيوس أن من بين عوامل انتصار يوجورثا في هذه المعركة هو أن عملاءه قد جعلوا شغلهم الشاغل ليل نهار إغواء الجيش الرومانى من خلال رشوة قادة المئات وقادة سرايا الفرسان لكى يفروا من مواقعهم أو ليتركوها عندما يتلقون إشارة ما(٢١) .

هذه هى حالات الرشوة والإفساد بالمال للقادة والنبلاء وأصحاب المناصب الرومان من قبل يوجورثا كما رصدها المؤرخ ساللوستيوس ، أما فيما تلى ذلك من أحداث فلم يتسن ليوجورثا إغواء القادة الرومان ذوى السلوك المستقيم والسيرة المنزهة عن الفساد مثل متيللوس وماريوس . لكن إلى أى مدى كانت هذه الصورة القائمة عن يوجورثا - بصفته ذلك الشخص النهم إلى السلطة الماكر المراوغ المتعطش للدماء المفسد للقادة الرومان - صحيحة ؟ وهل كانت مهمة القادة الرومان الأقوياء ممن يتمتعون بالنزاهة الأخلاقية مثل ميتيللوس وماريوس سهلة هينة إذا كان أقوى أسلحته يوجورثا ضد الرومان وهو الرشوة - كما يزعم ساللوستيوس مرارًا وتكرارًا(٢٢) قد سقط ؟ هل حارب هؤلاء ممن يوصفون بالنزاهة الأخلاقية معاركهم ضد يوجورثا بأخلاقيات الفارس النبيل الذى يواجه خصمه فى ميدان المعركة العسكرية فقط كما زعم الرومان لأنفسهم فى معاركهم المبكرة ضد المدن الأترورية وضد الملك بيروس ملك ايبيروس الذى حارب مع تارنتوم ضد روما(٢٣) ؟

هذه الأسئلة سوف نحاول الإجابة الموضوعية عنها من خلال المصدر الرومانى نفسه وهو المؤرخ ساللوستيوس الذى تبنى وجهة النظر الرومانية ولكنه قدم - رغم ذلك - تفاصيل جيدة يمكن أن نستشف منها حقيقة الموقف .

والآن نتساءل هل كـان يوجورثا فعلاً ذلك الشخص النهم للسلطة والعرش فى حد ذاتهما ، وهل قام فى سبيل ذلك بالغدر وسفك دم ذوى قرباه وشركائه فى العرش ؟ أم أن هناك دوافع أخرى مختلفة لما فعل ؟

لقد رأينا فى بداية هذا البحث كيف صور الرومان يوجورثا فى شبابه المبكر بأنه ذلك الشاب الجسور القوى الرياضى المتواضـع الـذى غـرس محبته غرسًا فى قلوب مواطنيه ، وكيف نال بعد ذلك حب واحترام الرومان له بعد أن أبلى معهـم بلاء حسنا فى نومانتيا ، وكيف أوصوا به خيرًا ليصبـح أحـد الشركاء فـى عـرش نوميديا بعد وفاة عمه ميكبسا عام ١١٨ق. م. كل ذلك يؤكد أنه كانت تتوافر به كافة المؤهلات ليصبح ملكًا قويًا مهابا لم يسع نحو العرش بل إن جدارته هـى التـى أوجدت وخلقت له الفرصة ليصبـح شريكا فـى العـرش ، بـل والشريك الأقـوى والأكثر جدارة .

لكن تبقى النقطة الأكثر جدارة بالمناقشة هنا وهى : هل عمـد إلى الاستئثار بالعرش والتخلص من شـريكيه بـالغدر وسـفك الدمـاء مـن أجـل الانفـراد بعـرش المملكة فقط ؟

الإجابة ببساطة من واقع الأحداث المذكورة عند ساللوستيوس تخالف هـذا التصور – رغم إلحاح هذا المؤرخ على ترسيخه . إن دوافـع التخلـص مـن الملكيـن الشريكين له كانت تكمـن فـى نوعيـن مـن الدوافـع : ذاتيـة وموضوعيـة . تتمثـل الدوافع الذاتية فـى احتقـار هيمبسـال (الابـن الأصغـر مـن أبنـاء عمـه ميكبسـا) ليوجورثا وحقده عليه وعدم رغبته فى أن يشاركهما يوجورثا فـى حكـم المملكـة وأعرب عن ذلك صراحة فى بداية تولى الثلاثة عرش المملكـة(٢٤) . هـذه المعاملـة من هيمبسـال تجـاه يوجورثـا أثـارت استياء وقلق يوجورثـا نحـوه وصعـدت مـن شكوكه بأن هيمبسال قد يدبر مؤامرة للخلاص منه ، لذلك أخـذ يوجورثـا زمـام المبادرة ورسم مع أعوانه خطة لاغتيال هيمبسال فى داره(٢٥) . ومن الطبيعـى فـى هذا الصدد كذلك ألا يأمن الأخ الأكبر أدهربال الذى لابد – إن ترك وشأنه – أن يثأر لأخيه ذات يوم .

أما الدوافع الموضوعية ليوجورثا فى التخلص من شريكيه فى الحكم وابنى عمه فيأتى على رأسها اختلاف شخصيته عنهما وبالتالى اختلاف نظرته عنهما فى أمور السياسة والحكم ولا سيما موقفه من روما ونظرته إليها . إن علاقة روما بمملكة نوميديا - منذ حكمها ماسينيسا جد يوجورثا بعد موقعة زاما سنة ٢٠٢ وحتى حكم الشركاء الثلاثة عام ١١٨ق. م. - كانت فى ظاهرها علاقة صداقة وتحالف ، لكنها كانت فى حقيقتها علاقة تبعية من نوميديا لروما . ولعل كلمات أدهربال وهو يناشد شيوخ السناتو ويستجديهم الوقوف إلى جواره ضد يوجورثا الذى هزمه وأجبره على الفرار خير شاهد على ذلك . ونورد فيما يلى مقتطفات من خطبة أدهربال هذه تؤكد هذا النهج من قبل ملوك نوميديا السابقين واقتناع أدهربال بصحة وسلامة هذا النهج ، إنه يقول مثلا :

" إن ماسينيسا قد علمنا - أيها الآباء الموقرون - ألا نرتبط بغير الشعب الرومانى وألا نقيم أى تحالفات أو نبرم أى معاهدات جديدة . لقد قال بأن فى صداقتكم الحماية الكافية لنا وأنه إذا تبدلت أقدار امبراطوريتكم فسيكون فى ذلك سقوطنا "(٢٦) .

" أيها الآباء المبجلون ، لقد نصحنى أبى ميكبسا وهو يحتضر أن أضع فى اعتبارى أننى مجرد حاكم على مملكة نوميديا ، أما بقية الأمور من تشريع وسلطة فى المملكة فإنها من شأنكم وبأيديكم . كما نصحنى أن أبذل قصارى جهدى فى تقديم أقصى عون ممكن للشعب الرومانى فى السلم والحرب وأن اعتبركم أهلا لى وقربى وجيران . وقد صرح لى بأننى إن فعلت ذلك فإننى سأجد فى صداقتكم الجيش والثروة والمتاريس التى تصون مملكتى "(٢٧) .

ويختتم أدهربال توسلاته الحارة لرجال السناتو بقوله :

" لا تسمحوا بسقوط مملكة نوميديا التابعة لكم ولا تسمحوا بدمارها من خلال الشر والغدر وسفك دماء أسرتى "(٢٨) .

أما يوجورثا فكانت له وجهة نظر مغايرة تمامًا فى الرومان أفصح عنها حينما وصلت العلاقة بينه وبين روما إلى طريق مسدود وإلى الحرب الفعلية ضد روما فى ميدان القتال ، لا سيما بعد أن أرسلت روما إليه بعضًا من أشجع قادتها مثل ميتيللوس ثم ماريوس . لقد كان يوجورثا يرى فى الرومان طامعين فى بلاده وأن على شعب مملكته أن يدافعوا عن أنفسهم وعن مملكتهم أمام جشع الرومان(٢٩) . كما كان يرى فيهم أمة ظالمة وأطماعها لا تقف عند حد وتناصب الجميع العداء ولديها شهوة السيطرة والتسلط وتقطر كراهية لكافة الممالك لا سيما القوية منها، وضرب أمثلة على ذلك بعدائهم للقرطاجيين والملك بيرسيوس (ملك مقدونيا) من قبل(٣٠) .

لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا حارب إلى جانب الرومان فى قمعهم لتمرد مدينة نومانتيا فى أسبانيا سنة ١٣٤ ق. م. ولماذا اكتسب صداقة وود العديد من رجالهم البارزين بالهدايا وغيرها ؟ لقد فعل ذلك فى شبابه وتنفيذا لأوامر عمه الملك ميكبسا الذى كان حليفًا للرومان يقف معهم حربًا وسلمًا وأراد - من طرف خفى كما رأينا من قبل - أن يتخلص من هذا الشاب القوى الذى تخوف منه على مستقبل ولديه . ولكن من جانب آخر سواء كانت كراهية يوجورثا للرومان قد تولدت قبل مشاركته لهم فى هذه الحملة أو بعدها - وهو الأرجح - فإن مشاركته لهم فى هذه الحملة عادت عليه بفوائد شتى . إذ ربما أدرك خلال هذه الحملة عن كثب مدى ظلم وقسوة الرومان حيث دمروا تلك المدينة التى ثارت عليهم - كما دمروا من قبل مدينتى كورنثه وقرطاجة عام ١٤٦ ق. م. - وكان نفس القائد الذى دمر قرطاجة وهو سكيبو إيميليانوس هو من دمر نومانتيا . كما تعلم من هذه الحملة أساليب القتال الرومانية ووعاها واستفاد منها فى المستقبل حين اضطر لقتالهم . وربما كان من أكبر مكاسبه فى هذه الحملة أنه استطاع أن يعد جيدًا لهدف مرحلى وهو تدعيم فرصته للوصول إلى عرش نوميديا من خلال كسب ثقة الرومان أصحاب الكلمة العليا فى تزكية هذا الأمير كما رأينا . كما أدرك عن قرب نقطة ضعف معظم الساسة الرومان وهو جشعهم

وحبهم للثروات وهو سلاح سيحاول استغلاله ما أمكن فى حربه ضدهـم وكثيرًا ما أثبت فعاليته كما رأينا فعلاً . باختصار لقد درس يوجورثـا فـى نومانتيا عـدوه وعرف عن قرب أنجع الطرق للتعامل معه .

من هنا كان من الطبيعى أن يتخلص يوجورثا - بعد تحقيـق هدفـه المرحلى بالوصول إلى العرش بالمشاركة مع ولدى عمه - من شريكيه فى العـرش لاختلافـه معها جذريًا فى نظرته إلى روما التى يتطلع إلى الخلاص من وصايتهـا علـى مملكتـه وتدخلها الدائم فى شئونها . إن تطلع يوجورثـا لتحقيـق سيادة واستقلال مملكتـه كان يقتضى أولاً التخلص من أذناب روما وأتباعها فـى نوميديـا حتـى لا يعرقلـوا هدفه فى السيادة على نوميديا . لقـد كـان هـدف يوجورثـا إذن أن يحكـم مملكـة نوميديا المستقلة القوية التـى لا تدين بالتبعيـة ولا تتلقـى الأوامـر والتعليمـات مـن السناتو . لكن يوجورثا لم يكن ذلك الرجل المندفع المتهور بل كان ذلك السياسـى الحصيف الداهية الواقعى الذى يدرك أن لا قبل له بالصدام المباشر والتمرد الصريـح على روما منذ البداية ، إن ذلك كان بمثابة نـوع مـن الانتحـار السياسـى . لذلـك وظف يوجورثا كل أسلحته ورتبها لمواجهة الرومان على مراحل ، وتمثلت أسلحته فى المال والدبلوماسية الماهرة التى تعرف كيفية احتواء الخصم ، وبعد هـذا وذاك- وفى نهاية الأمر حين وصلت الأمور بينـه وبـين الرومـان إلى طريـق مسـدود - لم يكن هناك مناص من اللجوء إلى القوة العسـكرية واستخدامها بدرجـة عاليـة مـن الذكاء الذى أربك وأزعج خصومه كثيرًا.

أما عن أسلحة يوجورثا ضد الرومان :

فلقد كان استخدامه لسلاح المـال والهدايـا فـى استقطاب عـدد كبـير مـن الساسة والقادة الرومان إلى صفه - كما رأينا من قبل - أمرًا مشروعًا فـى حـرب بين طرفين غير متكافئين يتفوق أحدهما (الرومـان) علـى الآخـر عـددًا وعتـادًا . فحين أدرك يوجورثا مدى ما وصل إليه المجتمع الرومانى مـن انغمـاس فـى الفسـاد وحب جامح للثروات كان لابد له أن يتسلل إلى مواقعهم الحساسة بهـذا السـلاح الذى أثبت فعالية غير عادية . إن أى جهاز استخبارات فى عالمنا الحديث والمعاصر

يفاخر كثيرًا إذا نجح فى تجنيد عملاء له فى دولة الخصم خاصة إذا كانوا يشغلون مواقع حساسة ، فلماذا ينكر الرومان على يوجورثا ممارسة هذا الأسلوب ؟ الإجابة الطبيعية : لأن ذلك كان ضد مصالحهم كما أن يوجورثا قد مارس هذه السياسة بدهاء شديد و لم يدخلها فى منعطف حاد بمعنى أنه لم يقم بهذا الأمر بصورة سرية – دائمًا –حتى لا توجه لـ " عملائه " من الرومان تهمة " الخيانة " الصريحة ، بل جعل هذا الأمر يبدو فى صورة " هدايا " يقدمها لـ " أصدقاء " .

أما سلاحه الثانى الذى حاول توظيفه بمهارة ضد الرومان فهو سلاح الدبلوماسية الذى حاول من خلاله إقناع الرومان بأنه يكن لهم كل احترام ويرتبط معهم بصداقة وطيدة فى نفس الوقت الذى ينفذ فيه مخططاته كما دبرها . وسنورد هنا بعض الأمثلة الواردة عند ساللوستيوس للتدليل على دبلوماسية يوجورثا مع الرومان إلى أن بدأت نواياه في الاستقلال بنوميديا تتكشف للرومان ، هنا برح الخفاء وزادت حدة الخصومة وأصبح ميدان المعارك العسكرية لا غير هو الفيصل بين الطرفين . فبعد أن اغتال شريكه الأصغر فى الحكم ابن عمه هيمبسال وأرغم أخاه أدهربال على الفرار إلى روما واللجوء للسناتو لإعادته لعرشه بعد توسل واستعطاف شديدين كان يوجورثا قد أرسل مبعوثيه كذلك إلى السناتو لتبرير التصرفات التى أقدم عليها ومحاولة إقناع الرومان بسلامة موقفه . وفى هذه المناسبة حاول هؤلاء المبعوثون – الذين يتحدثون بلسان يوجورثا – تفنيد مزاعم أدهربال وتصوير الموقف بصورة مغايرة : ففيما يتصل باغتيال هيمبسال ذكروا أن النوميديين قتلوه لقسوته ووحشيته ، وعن فرار أدهربال ذكروا أنه شن حربًا دون مبرر ضد يوجورثا ولما هزم و لم يتمكن من إلحاق الأذى بيوجورثا فر واشتكى ، أما عن تخاوف الرومان من انقلاب يوجورثا عليهم وعدم تنفيذه لتعليماتهم فقد أكد المبعوثون من قبله أن يوجورثا صديق الرومان وحليفهم الذى عرفوه فى نومانتيا لم يتغير(٣١) . وكان من نتيجة هذا الدفاع الدبلوماسى الماهر أنه حين طرح الأمر للمداولة بين أعضاء السناتو بعد سماع دفاع الطرفين أن مجموعة كبيرة من أعضاء السناتو – الذين يذكر ساللوستيوس أنهم ممن طالهم إفساد يوجورثا – استهزأوا بدفاع أدهربال وامتدحوا فضائل يوجورثا وسخَّروا كل نفوذهم

وفصاحتهم وكل شيء ممكن للدفاع عن وجهة نظر يوجورثا(٣٢) . وترتب على ذلك صدور قرار من السناتو بتقسيم المملكة بين الطرفين المتحاربين يوجورثا وأدهربال كما أسلفنا .

وفي مناسبة تالية بعد التقسيم وبعد تحرشات واستفزازات وهجمات من يوجورثا حسب رواية ساللوستيوس - لأملاك أدهربال والتحام الطرفين في قتال انتصر فيه يوجورثا واضطر أدهربال إلى أن يلوذ بمدينة كيرتا (قسنطينة) التي كان بها عدد كبير من التجار الإيطاليين . هنا حاصر يوجورثا المدينة حصارًا شديدًا قبل أن يسقطها ، وفي أثناء الحصار وصلت بعثة السناتو مسرعة لكي تعوقه عن إسقاط المدينة وطلبوا منه باسم السناتو والشعب الروماني أن يلقي الطرفان المتحاربان السلاح ويتوصلا لتسوية قانونية لخلافاتهما . ولما كان هذا المطلب يتعارض مع رغبات ومصالح يوجورثا فقد كان رده على مطالب المبعوثين الرومان فيه رفض لهذه المطالب ولكن بدبلوماسية بالغة حيث طمأن الوفد الروماني بأنه يحترم إرادة السناتو ورجاله وأنه يحرص على ذلك منذ شبابه المبكر وتربطه صداقة وطيدة بزعماء الرومان ، ولكنه - هكذا يقول - كلما ازدادت فضائله كلما عافت نفسه أن تطيق الجور والبغي . وذلك أن أدهربال تآمر لاغتياله في خسة وأنه اكتشف وقاوم المحاولة الإجرامية ، وأن تصرف الشعب الروماني لن يكون عادلاً ولا صائبًا إذا ما أبى عليه حقًا من حقوقه حسب القانون الدولي . وقال أنه سيرسل مبعوثين إلى روما على وجه السرعة ليشرح الأمر برمته . وعلى هذا افترق الطرفان دون أن تتاح الفرصة أمام الوفد الروماني للحديث إلى أدهربال(٣٣) ، واستمر يوجورثا في تنفيذ مخططه رغم تلقيه تهديدات عنيفة - لاحقًا - من مبعوثين رومان آخرين وفعل كل ما في وسعه حتى أسقط المدينة وقتل أدهربال بعد تعذيبه(٣٤) .

وبعد سقوط كيرتا بهذه الطريقة اشتعل غضب عامة الرومان بتحريض من التريبون جايوس ميميوس وأرسلت حملة القنصل بستيا التي أخفقت بسبب الرشوة

، وفى النهاية طالب العامة باستدعاء يوجورثا للشهادة حول فساد نبلاء الرومان كما أسلفنا . ما يعنينا فى هذا المقام هو دبلوماسية يوجورثا عندما لم يشأ أن يستفز مشاعر الرومان وذهب إلى روما برفقة المبعوث المرسل لاصطحابه من قبل السناتو الرومانى ، والأهم من ذلك أنه - حرصا على مشاعر الرومان المستنفرة أصلاً - لم يأت إلى روما فى ثياب الملوك وفخامتهم بل ارتدى ملابس تثير الشفقة والتعاطف(٣٥) .

أما السلاح أو الأسلحة الأخرى التى استخدمها فى حربه ضد الرومان فقد كان قدراته العسكرية الفذة من شجاعة فائقة وذكاء خططى وتنظيمى شديد لقواته وقدرة بارعة على المناورة وإذكاء الحماس بين قواته والسرعة والسرية فى تحركاته التى ساعده عليها معرفته الوثيقة بجغرافية مملكته ودروبها التى أحسن استغلالها . إن يوجورثا المقاتل فى ساحات المعارك العسكرية ضد الرومان أثبت أنه لم يكن لقمة سائغة أمام القادة الرومان - حتى من تمتع منهم بسمعة عسكرية متميزة مثل متيلليوس وماريوس - بل كان ندا عنيدًا لهم وكال لهم ضربات موجعة وفاجأهم بمواقف وتكتيكات لم تكن فى حسبانهم .

ولنحاول أن نرصد بعضًا من أبرز المواقف العسكرية والقتالية ليوجورثا ضد الرومان والتى تجلت فيها شجاعته الفائقة وحسن تصرفه ومناوراته الذكية البارعة وبعضا من الضربات والهزائم الموجعة التى ألحقها بالرومان ، إن المواجهة العسكرية الحقيقية بين روما ويوجورثا بدأت عقب عودة الأخير من روما فى زيارته المشهورة التى لم تحقق أهداف الشعب الرومانى بل على العكس استغلها يوجورثا فى تصفية أحد منافسيه على العرش . وبعد عودة يوجورثا إلى بلاده أرسلت روما جيشًا لمحاربته بقيادة القنصل سبوريوس البينوس سنة ١١٠ ق. م. الذى أحسن الاستعداد للحرب ونقل القوات والمؤن والعتاد إلى إفريقيا محاولاً أن يضع نهاية للحرب مع يوجورثا قبل حلول الانتخابات فى روما بآية وسيلة . وفوجىء هذا القنصل المتحمس بخصم مراوغ ذكى أربك خططه إذ عمد يوجورثا إلى التلكؤ

والمناورات لاستهلاك الوقت وتثبيط همة القنصل إذ كان يتظاهر بالخوف والفرار ويقدم وعودا بالاستسلام حينا ويهاجم القنصل وقواته فى ضربات خاطفة من حين لآخر . وبهذه المماطلة المحسوبة أربك القنصل سبوريوس ألبينوس وجعله ألعوبة وهزوا حتى اقترب موعد الانتخابات فى روما فأبحر القنصل إلى هناك للإشراف عليها وترك أخاه أولوس ألبينوس على قيادة الجيش فى نوميديا(٣٦) . وقد حاول هذا الأخ أن ينجز ما أخفق فيه أخوه القنصل وهو إنهاء وحسم الحرب لصالح الرومان فقام باستدعاء الجند من معسكراتهم الشتوية فى يناير وقصد بقواته إلى مدينة " سوثول " فى قلب صحراء نوميديا حيث توجد الخزانة الملكية . ورغم الحصانة الطبيعية للبلدة وسوء الأحوال الجوية أصر أولوس على مهاجمة البلدة وأعد العدة لشن الهجوم . وهنا تعامل يوجورثا مع الموقف بدهاء واقتدار إذ أدرك غرور وقلة كفاءة هذا القائد الرومانى ومع ذلك مد له حبل الغرور طويلاً حين أرسل الملك إليه مبعوثين يطلبون منه الصفح والعفو فى نفس الوقت الذى ابتعد فيه بجيشه إلى الأحراش والطرق الجانبية كما لو كان يريد تجنب المواجهة . هذا الموقف أغرى أولوس ألبينوس بالابتعاد عن سوثول وتعقب يوجورثا وجنده وأمعن يوجورثا فى التظاهر بالتقهقر إلى مناطق قصية وأوعز إلى ألبينوس أنه إنما يفعل ذلك حتى يمكن أن يتوصل معه إلى صفقة أو اتفاق لا يثير الانتباه . وبعد كل هذه الترتيبات والمناورات قام (بمداهمة معسكر أولوس ألبينوس فى جنح الليل بحشد كبير من النوميديين فسادت حالة من الذعر والارتباك بين الجنود الرومان بسبب ضخامة القوة النوميدية وظلام الليل الحالك مما أدى إلى فرار الجند الرومان تاركين أسلحتهم ولاذوا بتل مجاور ، ولولا انهماك النوميديين فى جمع الغنائم ونهب المعسكر لأحرزوا نصرًا ساحقًا) . ورغم ذلك فإن يوجورثا اجتمع فى اليوم التالى بالقائد الرومانى وأخبره أنه (هو وجيشه تحت رحمة النوميديين وأن أمامهم أن يموتوا جوعًا أو قتلاً ، ولكنه - مراعاة لظروف واعتبارات إنسانية - يمكن أن يعفو عنهم إذا مروا من تحت النير (رمز الإذلال) وأبرموا معاهدة مع يوجورثا وأن

يتركوا نوميديا فى غضون عشرة أيام . وقد نفذ الرومان هذه الشروط المهينة ليفلتوا من القتل)(٣٧) .

بعد هذه الهزيمة المهينة التى لاقت ردود أفعال عنيفة فى روما وبعد رفض السناتو التصديق على المعاهدة التى أبرمها القائد المهزوم مع يوجورثا أرسلت روما لمحاربة يوجورثا واحد من خير قادتها سنة ١٠٩ هو القنصل متيللوس . لقد كان هذا القنصل يتمتع بسمعة لا تشوبها شائبة وأعد جيشًا قويًا ومجهزًا وأحسن الاستعداد تمامًا للحرب بكل ما يلزم لها ، وحظى بمساندة قوية من السناتو الذى حشد له كذلك إمدادات من الحلفاء والمدن اللاتينية والملوك من أصدقاء روما(٣٨). لقد تهيأت كل الظروف العسكرية أمام الرومان لخوض منازلة عسكرية صرفة ضد يوجورثا وليس فيها مجال للخديعة أو الرشوة أو أية أسلحة أخرى مما كان يستخدمه يوجورثا حسب إدعاء الرومان . ومع ذلك فقد كانت هذه فرصة سانحة ليوجورثا لإثبات جدارته العسكرية كقائد ومقاتل ومناور ممتاز وها هى الأمثلة التى تبرهن على ذلك .

وبعد أن اجتاح ميتيللوس ريف نوميديا بقواته و لم يجد فيها ما يدل على حالة حرب إذ تظاهر يوجورثا بالهدوء ويقول عنه ساللوستيوس " لقد كان يوجورثا فى غاية الدهاء على دراية كبيرة بالمنطقة وخبيرًا بالأمور العسكرية ، حتى أننا لا ندرى إن كانت خطورته أكثر فى غيابه أم فى حضوره ، فى السلم أم فى الحرب"(٣٩) . كان يوجورثا يتابع تحركات ميتيللوس وجيوشه ويترصدها عن طريق قوات الاستطلاع التابعة له وجمع قواته واستطاع - من خلال خبرته بجغرافية بلاده - أن يسبق جيش ميتيللوس ويرابط بقواته على المرتفعات المحاذية لأحد الأنهار المحلية (نهر موثول) وهى مرتفعات مغطاة بالأشجار والنباتات التى تخفى تحركات جيشه . وأعد يوجورثا قواته إعداد جيدًا لمواجهة خصمه بخطوات مدروسة هى الشحن المعنوى الهائل لقواته ضد أطماع الرومان فى وطنهم وتذكيرهم بأنهم سبق لهم النصر على الرومان وإخضاعهم تحت النير ، ثم أعطاهم

تعليمات بشن الهجوم على مؤخرة الجيش الرومانى من كل جانب بغير التحام مباشر وبقوة وحيوية هائلة ، كما أصدر أوامره لفرسانه بالتراجع متفرقين وبأقصى سرعة إن هاجمهم الرومان لتشتيت انتباه الرومان(٤٠) . هذه الخطة التى نفذها جيش يوجورثا أربكت صفوف الجيش الرومانى وأوقعته فى فوضى عارمة ولم تعطه فرصة القيادة المنظمة وأوقعت فى صفوفه خسائر كبيرة بفضل ديناميكية يوجورثا وحركته الدائبة بين قواته يشجعهم على مواصلة القتال بكل حيلة ووسيلة(٤١) . وبصعوبة شديدة تمكن ميتيللوس من جمع شتات قواته وشن هجومًا مضادًا ناجحًا ضد قوات يوجورثا التى ولى معظمها بسرعة كبيرة ، وهو الأسلوب الذى نصح به يوجورثا فرسانه ، وهنا اعتقد ميتيللوس أنه حقق النصر على قوات يوجورثا(٤٢) .

وحين أدرك ميتيللوس - من خلال قوات استطلاعه - أن انسحاب يوجورثا لم يكن سوى انسحاب تكتيكى الغرض منه تعبئة جيش أكبر فى منطقة غابات ذات مناعة طبيعية قرر ألا يخوض معارك نظامية ضد يوجورثا بل يقوم بتخريب الأراضى الخصبة وحرق المدن لإلقاء الرعب فى النفوس واحتجاز رهائن كثيرين(٤٣) . وفى مواجهة هذا الموقف قرر يوجورثا أن يرد على هذه الأعمال بالطريقة الملائمة فشن حرب عصابات على القوات الرومانية وكان يباغت الجند الرومان فى أوقات راحتهم ويتسلل إليهم هو وفرسانه من طرق جانبية غير مألوفة ويقتل الكثيرين منهم وأسر الكثيرين وبعدها يتفرق النوميديون من حيث أتوا(٤٤). ونتيجة لذلك بدأ ميتيللوس يلزم الحذر الشديد ولا يندفع دون روية فى تدمير المدن والقرى(٤٥) . ومع ذلك لم يكف يوجورثا عن أعمال المقاومة عن طريق حرب العصابات وكان يقوم بتسميم آبار المياه التى يلجأ إليها الرومان ويفسد أعلاف ماشيتهم ، وتباغت قواته قوات ميتيللوس حينا وقوات مساعده ماريوس حينا آخر مهددًا هؤلاء وهؤلاء دون أن يترك لهم أى فرصة لالتقاط الأنفاس أو تنفيذ خططهم(٤٦) .

وهكذا نرى أن يوجورثا رجل لا يعرف الخوف أو اليأس بل يعاود الكرة بأقوى مما كان ، ومناور بارع يعرف كيفية مواجهة كل موقف بما يلائمه من تكتيكات(٤٧) وخطط ناجحة تجعل العدو يرتبك ويتراجع عن تنفيذ خططه الفاشلة ، كما نراه يستفيد كثيرًا من معرفته بجغرافية بلاده فى شن الهجمات المؤثرة على العدو من خلال طرق ودروب غير مألوفة .

وبعد فشل هذه الخطة من ميتيللوس وثبوت عدم جدواها لجأ إلى خطة يستهدف من ورائها إجبار يوجورثا على مواجهة عسكرية يفرض هو (ميتيللوس ظروفها . هذه الخطة الجديدة تتمثل فى فرض الحصار على مدينة " زاما " وهى قلعة وحصن الجزء الشرقى من نوميديا ظنا منه أن ذلك سيجبر يوجورثا على المجىء بقواته لنجدة المدينة المحاصرة . لكن يوجورثا فوت هذه الفرصة كذلك على خصمه حين أبدى تشجيعه ومؤازرته المعنوية الهائلة للمدينة وحث سكانها على التصدى للمعتدين الرومان بكل قوة وأنه سيكون إلى جانبهم عند الضرورة ثم غادر المدينة إلى الصحراء (٤٨) . وأبدت مدينة زاما مقاومة صارمة وباسلة ضد الجيش الرومانى الذى كان يحاصرها وضرب أهلها مثلاً رائعًا فى البطولة وساعدهم على ذلك - إضافة إلى عتادها القوى من السلاح والرجال - منعتها الطبيعية وتحصيناتها القوية(٤٩) . وقد أرهق الحصار الطويل للمدينة - دون جدوى - المقاتلين الرومان الذين تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح ، وأدرك ميتيللوس أن الحصار لم يحقق أيا من أهدافه فلا هو أسقط المدينة القوية ولا هو استدرج يوجورثا إلى معركة لا يريدها ولذلك رفع الحصار عن زاما وغادرها(٥٠) دون تحقيق أى إنجاز يذكر بل على العكس بعد أن منى بخسائر فادحة .

وفى نفس الوقت الذى ترك فيه يوجورثا لأهل مدينة (زاما) مهمة الدفاع عن مدينتهم وهو ما أنجزوه بكل همة ونجاح كما رأينا ، كان هو يتحين الفرص ويكيل الضربات الموجعة للقوات الرومانية فى أماكن أخرى من نوميديا . فبينما كانت القوات الرومانية تحاصر مدينة زاما انقض يوجورثا فجأة على المعسكر

الرومانى بقوة كبيرة واقتحم إحدى بوابات المعسكر . وفى هذا الموقف المفاجىء حل الذعر والاضطراب بجند المعسكر الرومانى فحاول بعضهم الفرار وحاول آخرون تسليح أنفسهم ولكن سقط معظمهم تقريبًا بين قتيل وجريح ، ولم يصمد من بينهم سوى أقل من أربعين(٥١) وهناك قلة تمكنوا من الفرار صوب ميتيللوس ورجاله ولما أدرك الأخير حقيقة الموقف أرسل كل قوات الفرسان على عجل إلى المعسكر وأمر ماريوس أن يلحق به فورا بسرايا الحلفاء وتوسل إليه بالدموع باسم صداقتهما وبلدهما ألا يسمح بأى وصمة خزى أن تلطخ جيشهم المنتصر وألا يدع الأعداء يفلتون بغير عقاب(٥٢) . لكن يوجورثا كان قد أنسحب هو ورجاله إلى مكان آمن ولكن بعد أن فقد عددًا من رجاله الذين انحشروا فى طرقات وتحصينات المعسكر الضيقة أثناء محاولتهم الانسحاب السريع بعد إنجاز مهمتهم بنجاح . ورغم أن ميتيللوس أخذ حذره من هذا الموقف وقام فى اليوم التالى بتأمين المعسكر بحراسة مشددة من الفرسان الذين قاموا بالمرابطة أمام الجهات التى يتوقع أن يأتى منها النوميديون فإن هؤلاء الأخرين باغتوا المعسكر الرومانى بكمين من نقطة أخرى غير متوقعة أربكت وأفزعت الجند الرومان حتى أتى إليهم مدد لنجدتهم من بقية رفاقهم . وكانت محصلة هذا الكمين أيضًا انتصارًا ليوجورثا وهزيمة للمعسكر الرومانى(٥٣) .

وفى مناسبة لاحقة استعد يوجورثا لتوجيه ضربات أخرى للرومان من خلال تعبئة وإعداد المزيد من الجند ومحاولة استعادة بعض المدن التى استولى عليها الرومان وتحصين المواقع ذات الأهمية . وكان من بين المدن التى احتلها الرومان ووضعوا فيها حاميات مدينة تدعى " فاجا " ، ومع ذلك كان أهلها - كما سيتضح - يدينون بالولاء لملكهم يوجورثا . لقد دبر يوجورثا مع وجهاء المدينة خدعة ومؤامرة للقضاء على الحامية الرومانية فى المدينة ، فحددوا موعدًا لاحتفال كبير يقام فى المدينة ودعوا إليه كبار رجال الحامية من قائد الحامية والترابنة العسكريين وقادة المئات ليشاركوهم الاحتفال فى منازلهم . وفى أثناء الاحتفال ذبح النوميديون ضباط الحامية ولم ينج من المذبحة إلا قائد الحامية اللاتينى

توربيليوس الذى أعدمه الرومان لاحقًا لأنه لم يقدم تبريرًا مقنعًا لكيفية نجاته وحده. وبعد هذه المذبحة بين قادة وضباط الحامية داهم النوميديون جند الحامية الذين كانوا يتجولون بلا أسلحة وانقضوا عليهم وشارك وجهاء المدينة وعامتها بل وحتى أطفالها ونساؤها فى القضاء على الجند الرومان قضاء مبرما بأن أغلقوا عليهم بوابات المدينة وحالوا بينهم وبين قلعتهم وأسلحتهم وانقضوا عليهم ذبحًا ، بل أن النساء والأطفال كانوا يرشقونهم بالحجارة وكل ما تقع عليه أيديهم من فوق أسطح المنازل(٥٤) . وبعد الحزن والغضب الذى سيطر على ميتيللوس إثر سماعه بهذه المجزرة بين قوات حاميته انتقم لهم بعد يومين بالحيلة والخديعة أيضًا إذ سار بقواته نحو المدينة وسير فى مقدمة قواته فرسان نوميديين تابعين له ، وحين اقترب من المدينة ظن أهلها أن يوجورثا قادم إليهم فهبوا لاستقباله بفرحة غامرة وفتحوا بوابات المدينة وهنا أسرع الرومان باقتحام المدينة وتدميرها عن آخرها(٥٥) .

وحتى عندما ساءت حظوظ يوجورثا فى ميدان المعركة أمام ميتيللوس حين سقطت واحدة من أهم وأكبر وأغنى مدنه فى صحراء نوميديا وهى مدينة " ثالا " فى أيدى قوات ميتيللوس(٥٦) تمكن يوجورثا من الفرار مع أسرته ومعظم ثروته إلى الجزء الغربى من نوميديا قرب حدود موريتانيا (المغرب الحالية) وكان يقطن ذلك الجزء شعب بدائى يسمى " الجايتوليين " . إن يوجورثا لم يصب باليأس والقنوط بعد هزيمته فى " ثالا " بل استمال إلى صفه هؤلاء الجايتوليين ودربهم ونظمهم وعلمهم أصول الجندية وكون منهم جيشًا جديدًا ، كما اكتسب صداقة الملك بوخوس ملك موريتانيا وأقنعه بالتحالف معه لشن حرب مشتركة ضد الرومان الغاصبين(٥٧) .

وبعد إقصاء ميتيللوس من قيادة الجيش الرومانى فى نوميديا وإسنادها إلى القنصل الجديد ماريوس سنة ١٠٧ ق. م. شن الأخير معارك ناجحة ضد يوجورثا واستطاع - بالغدر والحيلة تارة وبالمصادفة تارة أخرى - إسقاط بعض المدن

والقلاع فى نوميديا كما سنرى لاحقًا . وفى ظل هذه الظروف العصيبة حث يوجورثا حليفة الملك بوخوس على سرعة شن الحرب على الرومان فى نوميديا وطردهم من أفريقيا . وقام الملكان بشن هجوم كبير مفاجىء على قوات ماريوس وهى فى طريقها إلى معسكراتها الشتوية وكان وقت الهجوم قرب غروب الشمس. وتحت وقع المفاجأة حدث ارتباك شديد فى صفوف القوات الرومانية وحاولوا الدفاع عن أنفسهم دون جدوى بسبب الفوضى فى صفوفهم والتفوق العددى للنوميديين والموريتانيين وهجومهم المكثف من كل جانب(٥٨) . وفى هذا الموقف العصيب أوشك الملكان على إحراز نصر ساحق على الرومان لولا أن ماريوس استطاع أن يسحب قواته بصعوبة شديدة إلى تلين مجاورين يتمتعان بحصانة طبيعية وأحاطت بهما جحافل قوات الملكين فى العراء طوال الليل . لكن الملكين أضاعا نصرًا سهلاً كان فى متناول أيديهما حينما سهرت قواتهما التى تحاصر التلين طيلة الليل وهى تتصرف كالمنتصرة فعلاً وتحتفل فى غبطة وسرور وضوضاء حتى حل بهم الإنهاك وخلدوا للراحة(٥٩) . وفى هذه اللحظة هبط الرومان من على التلال وباغتوا القوات المشتركة وهى نائمة مما أصابها بالفزع والذعر الشديدين وأسفر عن هزيمة لقوات الملكين التى أضاعت نصرًا سهلاً كان فى متناول أيديهم فى الليلة السابقة . لقد كانت هزيمة القوات النوميدية والموريتانية فى المرحلة الثانية من هذه المعركة نتيجة خطأ فى التقدير واستهانة بالخصم أكثر من كونها نتيجة لقوة الرومان ، إذ أفلت هؤلاء من هزيمة محققة قبل ساعات قليلة .

وبعد هذه الهزيمة لقوات الملكين يوجورثا وبوخوس أعادا ترتيب قواتهما من جديد وأعدا العدة لمهاجمة قوات ماريوس وهى فى طريقها إلى معسكرها الشتوى فى مدينة " كيرتا " شرق نوميديا . ودارت معركة شرسة بين الطرفين على مقربة من " كيرتا " ، وفى هذه المعركة لجأ يوجورثا إلى الحيلة والخدعة مع الرومان إذ ترك مكانه فى قيادة المعركة فى المقدمة ضد ماريوس سرا وانضم لقوات الملك بوخوس من المشاه الذين يهاجمون مؤخرة الجيش الرومانى . وهناك أشاع بين قوات الجيش الرومانى فى المؤخرة أنهم يحاربون بلا جدوى إذ زعم لهم أنه

(يوجورثا) قد قتل ماريوس بيديه ، وكان لهذه الإشاعة وقع الصدمة بين القوات الرومانية وأشعلت حماس القوات الموريتانية فقاتلت بشجاعة فائقة وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من إحراز النصر على الرومان(٦٠) . ولكن ظهور ماريوس المفاجيء ومعه قوات فرسانه وإحاطتهم بقوات بوخوس ويوجورثا أحبط الضربة المعنوية التي كالها يوجورثا لهم ومكن القوات الرومانية من استرداد زمام المبادرة وهزيمة خصومهم .

من كل هذه المواقف السابقة في المعارك بين يوجورثا وخصومه من كبار القادة الرومان نرى أن يوجورثا لم يكن صيدًا سهلاً للرومان كما لم تكن حملات الرومان عليه في نوميديا نزهة عسكرية . لقد أثبت الرجل ندبته - وفي كثير من الأحيان تفوقه - للرومان وأفصح عن ملكات عسكرية قديرة وثبات وصلابة لا تلين وذكاء في مجابهة أعقد المواقف وحسن استغلال لنقاط ضعف وأخطاء عدوه .

إن انتصار الرومان في نهاية المطاف على يوجورثا لم يكن مرده القوة العسكرية الرومانية وحدها - رغم كفاءة وخبرة وصرامة هذه القوة التي من الخطأ التهوين من شأنها - بل أن هناك عنصرا آخر هامًا استغله الرومان بصورة مكثفة ضد يوجورثا وهو الغدر به وتجنيد أقرب مساعديه وحلفائه لمصلحتهم وتحريضهم على يوجورثا حتى أوقعوا به غدرًا وغيلة .

بعض مواقف الغدر والخديعة من الرومان ضد يجورثا :

بعد أن أدرك الرومان أن يوجورثا مقاتل ومناور غير عادى - لا سيما بعد هزيمة الجيش الروماني بقيادة أولوس ألبينوس المهينة وإجبار الجيش الروماني على المرور " تحت النير " رمز الإذلال - عمدت روما إلى إرسال قادة أقوياء ومشهود لهم بالكفاءة والنزاهة لمجابهة هذا الخطر الجاثم على أنفاسهم . ولنتحدث عن مدى كفاءة هؤلاء القادة الرومان مثل ميتيللوس وماريوس ومدى نزاهتهم . أما كفاءتهم فقد وضعها يوجورثا على المحك - كما رأينا - وألحق بهم ضربات عديدة مؤلمة ومؤثرة وبذلك أثبت أنه كان أكثر من ند لهم . وأما الحديث عن نزاهتهم فقد

كان يقصد به فى العرف الرومانى بعد واحد فقط هو عدم قبولهم للرشوة من عدوهم وعدم إمكان إفسادهم بهذا السلاح كبقية رجال عصرهم فى روما . لكن هؤلاء لم يكونوا منزهين عن الغدر ومحاولة الإيقاع بعدوهم القوى بعيدًا عن ميدان المعركة بأساليب غادرة وبعيدة عن سلوكيات المقاتل النبيل ، بل لقد أزمعوا منذ البداية اللجوء إلى الغدر كخيار أساسى أزمعوا - منذ بداية غزوهم لنوميديا - استخدامه .

حين وصل ميتيللوس إلى نوميديا لأول مرة وكان يوجورثا يدرك مدى استقامته واستحالة رشوته لجأ إلى المناورة معه وأرسل إليه مبعوثين من جانبه للتفاوض معه وأوهمه - عدة مرات - أنه ينوى الاستسلام . وهنا يقول سالوستيوس أنه " لما كان ميتيللوس على علم مسبق - من خلال تجاربه - أن النوميديين شعب غادر وذو مزاج متقلب ومغرم بالتجديد فإنه كان يلتقى المبعوثين (من يوجورثا) فرادى واحد بعد الآخر ، وظل يسبر أغوارهم تدريجيًا وبعد أن أدرك أنهم ملائمون لغرضه أغراهم بكثير من الوعود لكى يسلموه يوجورثا حيا إن أمكن ، إلا إذا تعذر ذلك فيسلمونه مقتولاً "(٦١) . وبعد ذلك حين أخفقت خطة ميتيللوس فى إسقاط مدينة " زاما " بعد حصارها لمدة طويلة دون جدوى وبعد الخسائر الفادحة التى منى بها الرومان هناك جرب أن يستخدم سلاح الغدر ضد خصمه يوجورثا . لذلك أراد ميتيللوس أن يجند لمصلحته أبرز رجال يوجورثا وساعده الأيمن المدعو " بوميلكار " الذى أشرف وخطط لمؤامرة اغتيال ماسيفا أحد أصحاب الحق فى العرش النوميدى فى روما حين كان هناك (بوميلكار) بصحبة سيده يوجورثا وأفلح يوجورثا فى تهريبه إلى نوميديا سرًا بعد تنفيذ عملية الاغتيال . " ونظرًا للصداقة الوطيدة التى تربط هذا الرجل بيوجورثا فقد كان لديه فرصة عظيمة لخداعه، لذلك حاول ميتيللوس اكتسابه إلى صفة بوعوده الكثيرة له. لذا فقد دبر أولاً أن يأتى الرجل للقاء به سرا ثم تعهد بشرفه أنه إن سلمه يوجورثا حيا أو ميتا فإن السناتو سوف يسقط العقوبة عنه (المتعلقة بجريمة اغتيال ماسيفا) وسوف يسترد (بوميلكار) كافة أملاكه . وكان من السهل إغراؤه وإقناعه لأنه كان غادرًا بطبيعته ولأنه كان يخشى - إن تم التوصل إلى سلام مع روما - أن يكون تسليمه لروما وإعدامه هو شرط إحلال ذلك السلام(٦٢) .

ويبدو أن هذا الاتصال السرى بين ميتيللوس وبوميلكار قد أثمر إذ بدأ الأخير يخطط للخلاص من يوجورثا واجتذب نحوه أحد علية القوم كذلك من النوميديين ويدعى " نابدالسا " الذى كان يحظى بشعبية طاغية بين قومه وكان مقربا جدا من الملك يوجورثا وينوب عنه فى بعض الأمور إذا كان الملك مرهقًا أو مشغولاً بأمور أهم . وقد اتفق بوميلكار و " نابدالسا " على التآمر على مليكهما يوجورثا واختارا توقيتًا لتنفيذ المؤامرة وإغتيال الملك على أن يتم حسم وترتيب التفاصيل فى وقت التنفيذ طبقًا لظروف الموقف نفسه . ولكن هذه المحاولة أخفقت عندما جبن " نابدالسا " عن الحضور فى التوقيت المحدد بسبب خوفه من هول الجريمة مما أحبط المحاولة . وهنا أرسل بوميلكار رسالة توبيخ وتعنيف لشريكه بسبب تراجعه عن خطتهم المشتركة وحثه على ألا يتراجع عن الأمر وأخبره أن نهاية يوجورثا قد أوشكت . ولسوء حظ طرفى المؤامرة فإن هذه الرسالة قد وقعت فى يد الملك إذ قام خادم " نابدالسا " بالتقاطها من على سرير سيده وهو نائم . وقد دافع " نابدالسا " عن نفسه وأقسم ليوجورثا أنه كان يزمع إبلاغه بالخطة قبل أن يقوم خادمه بذلك(٦٣) . وهنا قام الملك بإعدام بوميلكار وعدد كبير من المتورطين بهذه المؤامرة . ولكن هذا الموقف أثر بشدة على نفسية يوجورثا وهو يرى الغدر من أقرب المحيطين به فلم يطب له من حينها المقام فى ليل أو نهار وأصبح قلما يثق بشخص أو مكان أو زمان وأصبح يخشى مواطنيه وأعداءه على حد سواء ، وكان فى حالة من الترقب الدائم ويقضى لياليه فى أماكن مختلفة ويصحو على كل صوت ويمسك بأسلحته ، وتملكه خوف مرضى(٦٤) .

فى هذه الظروف النفسية السيئة ليوجورثا ازدادت العزلة الخانقة حوله إذ فقد أصدقاءه حيث قتل هو الكثير منهم وفر بعضهم إلى الرومان والبعض الآخر لجأ إلى الملك بوخوس فى موريتانيا . وهنا تقلبت أحواله وازدادت شكوكه ومخاوفه من الغدر والخديعة وأصبح يغير خططه وطرقه وقادة جيشه . وأخيرًا اعتصم يوجورثا ورجاله بمدينة " ثالا " الصحراوية الكبيرة والغنية التى احتفظ فيها بأسرته ومعظم ثرواته . وربما كانت هذه الظروف النفسية الكئيبة التى مر بها

الملك النوميدى أحد أسباب سقوط هذه المدينة فى يد ميتيللوس بعد حصار طويل وبعد هروب يوجورثا وأسرته ومعه معظم ثروته(٦٥) . هكذا ترك الغدر أثره الواضح على يوجورثا ومعنوياته وحالته القتالية لأنه غدر غير متوقع ومن جانب واحد من أخلص أصدقائه .

ورغم أن يوجورثا تماسك من جديد بعد هذا الموقف وكون جيشًا جديدًا من الجايتوليين وتحالف مع بوخوس ملك موريتانيا ضد الرومان وأحرزوا ضدهم بعض الانتصارات الجيدة التى لم يحافظوا عليها للنهاية فإن الغدر والخديعة عادا للظهور مرة أخرى فى وجه يوجورثا وأوديا به هذه المرة . فبعد معارك عديدة للملكين ضد الرومان - رأينا بعضا منها - كان النصر فيها حليف الرومان فى اللحظة الأخيرة بعد أن كان فى متناول أيدى الملكين وضاع لسوء تقديرهما نجد الرومان يعودون مرة أخرى لاستخدام سلاح الغدر ضد يوجورثا وفى هذه المرة عن طريق حليفه الملك بوخوس . فبعد انتصار الرومان على الملكين فى المعركتين اللتين سبقت الإشارة إليهما بدأ بوخوس يرسل رسله إلى الرومان سرا ويطلب من ماريوس أن يرسل إليه اثنين من كبار ضباطه للتفاوض معهما حول مصالحه ومصالح الرومان . وهنا لعب الكويستور سوللا دورا دبلوماسيا فى غاية الأهمية حين بدأ يستميل بوخوس لصفوف الرومان ويثنى على ميله للسلم مع الرومان ويحاول أن يباعد بينه وبين يوجورثا(٦٦) .

وتكررت البعثات والوفود بين بوخوس والرومان وبدأ يوجورثا يخشى من تأثير الرومان على حليفه ولذلك جعل أحد أعوانه ويدعى " أسبار " يحاول التجسس على مهمة سوللا فى بلاط بوخوس . لكن الأخير استطاع أن يغافل رسول يوجورثا بتمويه متعمد وحديث مقتضب مع سوللا فى حضوره إذ تظاهر سوللا بأن مهمته أن يوصل رسالة من ماريوس إلى بوخوس يسأل فيها القائد الرومانى ملك موريتانيا إن كان يرغب فى السلم أم فى الحرب ويرد الملك بأنه سيرد على هذا السؤال بعد عشرة أيام . وبعد انصراف مبعوث يوجورثا مطمئنا لهذا يعقد سوللا والملك بوخوس اجتماعا سريًا(٦٧) بينهما فى الليل يعبر فيه الملك

عن سروره البالغ بصداقة الرومان ويلتمس الأعذار لعدائه السابق لهم ويبدى استعداده لتلبية مطالبهم ويطمئنهم إلى تخليه عن حليفه يوجورثا وأنه لن يتدخل إلى جانبه فى أى حرب مقبلة مع الرومان ولن يسمح له بعبور نهر مولوخا الفاصل بين المملكتين(٦٨) . ولكن سوللا يفاجئ الملك بأن الخدمة الحقيقية التى يستطيع أن يسديها لروما هى أن يقوم الملك بوخوس بتسليم يوجورثا لها بالحيلة ومناه فى المقابل بالصداقة والتحالف مع روما وبجزء من مملكة نوميديا . وبعد رفض وتردد من بوخوس فى البداية لتلبية هذا المطلب الصعب إلا أنه بدأ يقتنع وأذعن فى نهاية الأمر(٦٩) . ووضع بوخوس خطة غادرة لتحقيق ذلك إذ اتصل بحليفه وصديقه يوجورثا وأفهمه أن الرومان يسعون إلى سلام وأنه يتطلع لمعرفة رأيه ، ووافق يوجورثا على رغبة بوخوس ولكن حذره ألا يأمن غدر الرومان الذين كثيرًا ما ينقضون عهودهم ووافق على حضور اجتماع عام مع بوخوس والمبعوث الرومانى سوللا وطلب من بوخوس أن يسلمه سوللا لضمان جدية الاتفاق وتظاهر بوخوس بالموافقة لكى ينفذ خطته العكسية وهى تسليم يوجورثا إلى سوللا . وأعد الكمين بإحكام بين بوخوس وسوللا ومن معه من أفراد الكمين الرومانى المتأهب فى موقع قريب ، ووصل يوجورثا ومعه بعض رفاقه وهو أعزل من السلاح - مطمئنا إلى وعود حليفه - إلى مكان الاجتماع فانقض أفراد الكمين الرومانى على رفاق يوجورثا وقتلوهم واقتادوا معهم الملك الأسير(٧٠) الذى سقط ضحية الغدر والخديعة و لم يسقط فى ميادين المعارك التى أبلى فيها بلاء حسنا . وهكذا انتهت قصة كفاح ملك عظيم ومناضل ثائر ضد هيمنة الرومان على مقدرات تلك المنطقة نهاية مأساوية غادرة سنة ١٠٥ ق. م.

إن يوجورثا حتى فى حالة سقوطه فى ميدان المعركة العسكرية ضد الرومان كان سيبقى ظاهرة بطولية غير عادية إذ تصدى لقوة عسكرية عاتية ومنظمة وذات خبرة قتالية طويلة ، فما بالنا بأن قوة الرومان الهائلة لم تتمكن من القضاء عليه فى ميادين المعارك العسكرية و لم تحطم إرادته الفولاذية وإنما هزمه الغدر والخذلان دون سواهما . ولا شك أننا أمام بطل ومناضل رائع !

* * *

في الختام يجدر بنا أن نذكر أننا إذا كنا قد توصلنا إلى هذه الصورة الرائعة عن هذا البطل من خلال مصدر كتبه أعداؤه الذين حاولوا جهدهم تشويه صورته فما بالنا لو كانت هناك معلومات عنه من الطرف النوميدى أو من طرف محايد . إن استخلاص هذه الصورة من المصدر الرومانى لم يكن أمرا يسيرا أو هينا ، إذ أن المؤرخ سالّلوستيوس منحاز بصورة واضحة - فى أحكامه وعرضه للأحداث - للجانب الذى يمثله وهو الجانب الرومانى . ولكنه رغم ذلك صور الوقائع بقدر لا بأس به من الموضوعية وهى التى مكنتنا إلى حد كبير من محاولة رسم صورة موضوعية نسبيا عن شخصية يوجورثا ودوره الوطنى لخدمة بلاده ، بعد أن نحينا جانبا عواطف المؤرخ وأحكامه وطريقة عرضه المنحازة للموضوع وركزنا على الوقائع المجردة فى إطارها التاريخى . ولبيان هذه النظرة المنحازة من قبل المؤرخ سنورد بعض الأمثلة التى تناقض فيها مع نفسه أو جانبه فيها الصواب . ففى أحد المواقف التى حدثت بين يوجورثا وميتيللوس فى أثناء حصار الأخير لمدينة (زاما) يبدو تناقض المؤرخ وعدم دقة أحكامه . هذا الموقف يتمثل فى أن ميتيللوس كان قد أصدر أوامره لمساعده " ماريوس" بأن يذهب إلى بلدة تدعى "سيكا " لكى ينهب بعض المؤن والأعلاف منها ، وكان يوجورثا يقتفى أثر هذه القوة وهى تخرج من بوابة البلدة وكان مع يوجورثا مجموعة من أفضل فرسانه طوقوا الرومان عند البوابة وهم خارجين بعد تنفيذ مهمتهم . وصاح يوجورثا بأعلى صوته يحرض أهل " سيكا " لكى يحيطوا بمؤخرة الجيش الرومانى ويطوقوها من كل جانب وحثهم بأن هذه هى فرصتهم لإنجاز رائع ومجد كبير . ورغم أن سالّلوستيوس سبق أن قرر فى سياق هذه الفقرة أن هذه البلدة أول من تمرد على يوجورثا بعد هزيمته إلا أنه يقول فى هذا الموقف أنه لولا أن ماريوس أسرع بالتقدم ومغادرة المدينة لانقلب عليه معظم أهلها - إن لم يكن كلهم - لأن التقلب من شيم النوميديين(٧١) . التناقض فى أحكام المؤرخ هنا واضح إذ يبدو من الموقف أن أهل هذه البلدة لم يتمردوا على مليكهم يوجورثا كما يقرر المؤرخ ، فلو كانوا قد انقلبوا عليه فعلاً لما ذكر المؤرخ أنهم كانوا على وشك الإطباق على ماريوس

وجنده الرومان لولا إسراع الأخير بمغادرة المدينة . إن الموقف يوحى بأن أهل البلدة قد خضعوا للرومان على كره منهم ولكنهم لم يفقدوا ولاءهم لملكهم وإخلاصهم له وكانوا يتحينون الفرص للثأر من الرومان ، ولذا يحكم عليهم المؤرخ بالتقلب وهو ليس بتقلب وإنما موقف أصيل كامن فى نفوسهم وهو كره الرومان والرغبة فى هزيمتهم حين تحين الفرصة . إن هذا الاتهام الزائف من المؤرخ ساللوستيوس للنوميديين بالتقلب والغدر يتكرر فى عدة مواضع فى مؤلفه(٧٢) ، وهو يقصد بذلك تحينهم الفرص للانتقام من الرومان المحتلين لبلادهم وكأنما المطلوب منهم استمراء الاحتلال والإذعان له حتى لا يوصموا بالغدر والتقلب . نفس الموقف ونفس الاتهام من المؤرخ للنوميديين بالغدر والتقلب حدث مع أهل (فاجا) الذين دبروا المذبحة للحامية الرومانية فى المدينة(٧٣) . إنه يتهم أى مقاومة نوميدية للاحتلال الرومانى بأنها غدر وتقلب .

موقف آخر متناقض وغير منطقى يورده المؤرخ ساللوستيوس عن يوجورثا وهو أن الأخير - بعد إلحاح وتوسلات وإقناع من مساعده بوميلكار الذى استغل ضعفا فى سيده وهو منهك يندب حظه - قد اقتنع بالاستسلام للقائد الرومانى ميتيللوس وأرسل له رسلاً يعرضون عليه استسلام يوجورثا . وهنا جمع ميتيللوس أركان حربه من رجال السناتو إلى مقر القيادة واتفقوا على شروط استسلام يوجورثا وهى أن يقدم للرومان مئتى ألف رطل من الفضة وكل ما لديه من أفيال وقدر كبير من خيوله وأسلحته وأنه وافق على هذه الشروط على الفور مقابل تسليم الفارين من جنده لدى الرومان . وأنه بعد تنفيذ كل هذه الشروط تردد مرة أخرى - خوفًا من أن يعاقب على جرائمه السابقة - ورفض الاستسلام(٧٤) ! رواية فى غاية العجب وغير قابلة للتصديق ، ومما يزيد من عجبها واستحالتها هو توقيت حدوثها : يذكر المؤرخ أن ذلك قد تم بعد فشل ميتيللوس فى إسقاط مدينة (زاما) بعد حصارها الطويل الفاشل والخسائر التى منى بها الرومان أثناء الحصار من المدافعين عن " زاما " من ناحية ومن ضربات يوجورثا الموجعة للمعسكر الرومانى مما أجبر الرومان على فك الحصار عن زاما . هذا هو ترتيب الأحداث

كما ورد عند المؤرخ وهو ترتيب يجعل الحديث عن استسلام يوجورثا أو مجرد التفكير في ذلك - فضلاً عن الإقدام عليه - أمرًا غير منطقى وغير وارد ، إذ كيف يفكر قائد منتصر أحبط خطط عدوه ومنعه من تحقيق أى من مآربه وكال له ضربات موجعة فى الاستسلام ؟! صحيح أن المؤرخ ذكر مرارًا فى سياق الموضوع أن يوجورثا عرض أمر استسلامه على كافة القادة الرومان الذين حضروا إلى نوميديا لقتاله من القنصل بستيا إلى سبوربوس ألبينوس وميتيللوس (الذى عرض أمر استسلام يوجورثا أكثر من مرة) من خلال مبعوثى يوجورثا لهؤلاء القادة(٧٥). ولكن اتضح أن هذه العروض للاستسلام من قبل يوجورثا لم تكن سوى مناورات ذكية تكتيكية لكسب الوقت أو التدبير لخطط مناسبة أو لمد حبل الغرور أمام هؤلاء القادة والتظاهر أمامهم بضعفه حتى لا يكشف أوراقه أمامهم ثم يباغتهم بضربات غير متوقعة كما رأينا .

النقطة الأخيرة فى سلسلة هذه الأحكام والروايات الرومانية المتحيزة والمتناقضة التى يطلقها المؤرخ ساللوستيوس هى تهوينه من شأن جند يوجورثا فى بعض المواقف وتبريره لسبل الغدر والخداع الرومانى ضد المدنيين . ففى أحد المواضع يقارن بين الجند الرومان والنوميديين فيصف الرومان بالشجاعة والإقدام أما عن النوميديين فيذكر أن يوجورثا كان يتمتع بكل ما هو ملائم (لشن الحرب) باستثناء جنده ، وهو يلمح بهذا إلى فرارهم السريع عندما يهجم عليهم الرومان(٧٦) . ولكنه هو نفسه (المؤرخ) يشير إلى أن فرارهم السريع - فى الموقف الذى يذكر فيه هذا الحكم - قد ساعد على تقليل خسائرهم إلى أبعد حد بحيث لقى قلة منهم مصرعهم ونجت غالبيتهم ، من خلال فرارهم السريع وقلة دراية الرومان بجغرافية البلاد . وفوق ذلك فإن الفرار المنظم السريع كان تنفيذًا لتكتيكات وخطط قائدهم يوجورثا فى مجابهته للرومان(٧٧) . أما عن تبريره لفظائع الرومان ضد المدنيين فلدينا مثال عليه حين أسقط الرومان - بالغدر والخديعة وليس بالقتال - إحدى المدن النوميدية الحصينة فى قلب الصحراء وهى مدينة "كابسا" ، وبعد استسلام المدينة قام الرومان بحرقها وإعدام شبابها وبيع

الآخرين عبيدا وتقسيم غنائم المدينة بين الجند الرومان . هنا يحاول ساللوستيوس أن يتلمس الأعذار الواهية للقائد المنتصر ماريوس فى انتهاكه لقوانين الحرب بالقول بأن ماريوس لم يفعل ذلك بدافع القسوة أو حب المال بل لأن الموقع المذكور كان مفيدًا جدًا ليوجورثا وكان منيعًا وصعب الاقتحام وأن أهل المدينة متقلبون ولا يوثق بهم(٧٨) .

إن الطبيعة البشرية - كما نرى من رواية الرومان لقصة يوجورثا - لم تتغير ولن تتغير : فالمنتصر المحتل دائمًا ما يحاول أن يبرز من الضحية مثالبها - من وجهة نظره - ويحاول إغفال حقوقها وإيجابياتها وجوانبها المشرقة . كما يحاول أن يبرر لنفسه أشد الجرائم هولا وفظاعة وانتهاكًا لأبسط حقوق الإنسان ويقلب الصورة ليتهم الضحية بهذه الجرائم النكراء .

ولكن مهما تفنن المحتل فى تشويه الصورة وقلب الحقائق فلا يصح - فى النهاية - إلا الصحيح .

هوامش البحث

(1) Sallustius , Bellum Iugurthinum , V , IX : 3 .
(2) Ibid. , VI : 1 - 3 .
VI . 1 :
Sed multo maxume ingenio validus , non se luxu neque inertiae corrumpendum dedit , sed , ut mos gentis illius est , equitare, iaculari , cursu cum aequalibus certare , et cum omnis gloria anteiret , omnibus tamen carus esse ; ad hoc pleraque tempora in venando agere , leonem atque alias feras primus aut in primis ferire , plurumum facere et minumum ipse de se loqui .
VI . 3 :
ad hoc studia Numidarum in Iugurtham accensa , ex quibus si talem virum dolis interfecisset , ne qua seditio aut bellum oriretur anxius erat .
(3) Ibid . , VII. 4 - 7 :
ut nostris vehementer carus , Numantinis maxumo terrori esset . Ac sane , quod diffillumum in primis est , et proelio sternuus erat et bonus consilio , quorum alterum ex providentia timorem , alterum ex audacia temeritatem afferre plerumque solet .
(4) Ibid . , IX . 1 - 2 .
مما يدل على أن يوجورثا كان يدرك أن عمه ميكبسا لم يكن مخلصا نحـوه ولم يكن – في قرارة نفسه – يتمنى أن يشركه في وراثة العرش أنظر : XI . 1
(5) Ibid . , XII - XIII , XX - XXVI .
(6) Ibid . , XLI - XLII .

ومن العبارات ذات الدلالة في هذا السياق قول المؤرخ :

" إن السلام الذي كانت تتوق إليه النفوس في زمن الشدة والعسر أثبت – بعد الحصول عليه – أنه أكثر قسوةً ومرارةً من الشدة نفسها . فلقد بدأ النبلاء يسـيئون استغـلال مناصبهم الشرفية وبدأ العامة يسيئون استغلال حريتهم وأصبح كل شخص يسرق ويدمر وينهـب من أجـل مصالحه الشـخصية . وهكذا انقسـم المجتمع إلى حزبين تمزقت الجمهورية بينهما إرباً "

Ita quod in advorsis rebus optaverant otium postquam adepti sunt , asperius acerbiusque fuit . Namque coepere nobilitas dignitatem , populus liberatem in lubidinem vortere , ubi quisque

ducere , trahere , rapere . Ita omina in duas partis abstracta sunt , res publica , quae media fuerat , dilacerata . (XLI - 4 - 5 .)

(7) VIII . 1 : " Romae omnia venalia esse " .

" كل شيء في روما قابل للبيع " ، وهي عبارة تكررت بعد ذلك أكثر من مرة في هذا المصدر : مرة حين استقبل يوجورثا لجنـــة المبعوثين العشرة من السناتو التي قامت بتقســيم المملكـــة بينه وبين أدهربال بعد مقتـــل هيمبسال واســتقطب معظمهم لصفه بالرشاوى والهدايا والوعود فجاملـــوه وأعطـــوه الجزء الغربي من المملكة وهو الجزء الأكثر خصوبة والمأهول بالســكان ثم غادروا المملكة وحينها اقتنـــع يوجورثا بصدق هذه المقولة (XXI . 1) ، وفي المـــرة الثانية قـــال يوجورثا عبارته الشهيرة " هناك مدينة معروضة للبيع ومقدر لها الدمار السريع لو أن هناك مشتري " والتي قالها وهو يغادر مدينة روما حين استدعي إليها ومنح الأمان سنة ١١١ ق.م. وهناك تآمر وقتل أحد من لهم الحق في تولي العرش في روما (XXXV . 10) .

VIII . 2 " ut potius publice quam privatim amicitiam populi Romani coleret neu quibus largiri insuesceret ; periculose a paucis emi , quod multorum esse " .

(8) XIII . 6 :

Itaque paucis diebus cum auro et argento multo Romam legatos mittit , quis praecipit , primum uti veteres amicos muneribus expleant , deinde novos adquirant , postremo quae cumque possint largiundo parare ne cunctentur .

(9) XVI . 1 - 2 :

Vicit tamen in senatu pars illa , quae vero pretium aut gratiam anteferebat . Decretum fit uti decem legati regnum , quod Micipsa optinuerat , inter Iugurtham et Adherbalem dividerent .

(10) Ibid . 3 - 5 .

(11) XX - XXVI .

(12) XXVII .

(13) XV . 4 :

Aemilius Scaurus , homo nobilis , impiger , factiosus , avidus potentiae , honoris , divitarum , ceterum vitia sua callide occultans .

" أيميليوس سكاوروس ، أحد النبلاء وهو يتسم بالحيوية والروح الحزبية والتطلع النهم إلى السلطة والجاه والثروة ، ولديه مقدرة مؤكدة على إخفاء عيوبه ومثالبه بمهارة ودهاء "

XXVII . 5 :

Nam in consule nostro multae bonaeqaue artes animi et corporis erant , quas omnis avaritia praepediebat ; patiens laborum , acri ingenio , satis providens , belli haud ignarus , firmissumus contra pericula et insidias .

" ورغم أن قنصلنا (بستيا) كان يتمتع بخصال كثيرة ممتازة عقليا وجسديا إلا أن جشعه وحبه للثروات طمســها جميعاً . لقد كان ذا قــدرة فائقة على الاحتمال وذهن حاد وبصيرة كافيــة وخبــرة ودرايــة بالحرب ورباطة جأش فائقة ضد المخاطر والمؤامرات " .

(14) XXIX .

(15) Ibid . (XXIX) . 1 :

Sed ubi Iugurtha per legatos pecunia temptare bellique quod administrabat asperitatem ostendere coepit , animus aeger avaritia facile convorsus est .

ولكن عندما حاول يوجورثا أن يجرب – من خلال مبعوثيه – تأثير المال (على القنصل بستيا) وأوضح له مشقة وصعوبة الحرب التي يزمع خوضها انصرف تفكير القنصل – الذي أفسده حب الثروة – عن هدفه بسهولة .

- 29 . 2 - 3 :

Scaurus , qui tametsi a principio , plerisque ex factione eius corruptis , acerrume regem impugnaverat , tamen magnitudine pecuniae a bono honestoque in pravom abstractus est .

أما سكاوروس فعلى الرغم من معارضته العنيفة للملك من قبل حتى بعد أن طال الفساد والإغواء أغلبية رجال حزبه فقد تحول من الفضيلة والشرف إلى شخص منحرف بمبلغ ضخم من المال .

- 29 . 5 :

reliqua cum Bestia et Scauro secreta transigit .

" أما بقية الأمور فقد دبرها (يوجورثا) سراً مع بستيا وسكاوروس .

(16) XXX - XXXII . 1 .

(17) XXXIII ; 2 :

.... , C. Baebium tribunum plebis magna mercede parat , cuius impudentia contra ius et iniurias omnis munitus foret .

واستمال جايوس بايبيوس تريبون العامة برشــوة ضخمة حتى يحتمي من خلال وقاحته ضد القانون وضد أي إهانات أو عنف شخصي .

(18) XXXIII - XXXIV .

(19) XXXV

(20) XXXVI - XXXIX .
(21) XXXVIII . 3 :

Interea per homines callidos diu noctuque exercitum temptabat , centuriones ducesque turmarum partim uti transfugerent corrumpere , alii signo dato locum uti desererent .

(22) XXXI . 12 - 13 ; XXXII . 4 ; XLIII . 5 .

At qui sunt ei , qui rem publicam occupavere ? Homines sceleratissumi , cruentis manibus , immani avaritia , nocentissumi et eidem superbissumi , quibus fides , decus , pietas , postremo honesta atque inhonesta omnia quaestui sunt . (XXXI . 12 - 13) .

من خطبة للتريبون جايوس ميميوس في أعقاب عودة القنصل بستيا من نوميديا :

" ولكن من هم أولئك الذين يمسكون بزمام الحكم في بلدنا ؟ إنهم أناس عتاة في الشر وأيديهم مخضبة بالدماء وذوو جشع هائل وعتاة في الإجرام ، ورغم ذلك فهم في غاية الصلف والغرور ، وبالنسبة لهم فإن الشرف (الأمانة) والفضيلة والولاء وكل شيء شريف وغير شريف هو مصدر للكسب " .

- tanta vis avaritiae in animos eorum veluti tabes invaserat

لقد كان حب المال الذي اجتاح نفوسهم جارفا كالوباء

- et avaritia magistratuum ante id tempus in Nomidia nostrae opes contusae hostiumque auctae erant .

إن حظوظنا في نوميديا قد تحطمت قبل هذا التاريخ (قبل إرسال ميتيللوس) زادت حظوظ عدونا من جراء جشع أصحاب المناصب (الرومان) وحبهم للثروات .

(23) من قصص التراث الروماني الشهيرة في هذا الخصوص القصة الخاصة بمعلم الأطفال في إحدى المدن الإترورية أثناء قتال روما ضد هذه المدينة في القرن الرابع ق.م. (بعد غزو الغالة لروما ٣٩٠ ق.م.) ، إذ جاء هذا المعلم من هذه المدينة بالأطفال الذين يدرّس لهم من أبناء كبار المدينة ليكونوا رهائن في أيدي الرومان حتى تستسلم المدينة ، وكان يطمع في مكافأة سخية من الرومان . لكن الرومان بدلاً من ذلك أعادوا الأطفال إلى ذويهم وعاقبوا المعلم الخائن . ومن القصص الأخرى قصة طبيب الملك بيروس ملك ابيروس الذي عرض على القنصل الروماني فابريكيوس لوسكينوس سنة ٢٧٨ أن يدس السم للملك بيروس ويخلص روما منه ، لكن القنصل رفض العرض وأعاد الطبيب الخائن وسلمه لبيروس .

(24) XI . 3 :

Sed Hiempsal , qui minumus ex illis erat , natura ferox et iam antea igonbilitatem Iugurthae , quia materno genere impar erat , despiciens .

لقد كان هيمبسال – أصغر هؤلاء الشركاء – متغطرسا بطبيعته ، وكان قد أبـدى من قبل احتقاره ليوجورثا بسبب نسبه الوضيع من جهة الأم ، حيث لم يكن ندا له .

(أنظر كذلك 9 - 5 . XI)

(25) XII .

(26) XIV . 18 :

Postremo Masinissa nos ita instituit patres conscripti , nequem coleremus nisi populum Romanum , ne societates , ne foedera nova acciperemus : abunde magna praesidia nobis in vostra amicitia fore ; si huic imperio fortuna mutaretur , una occidundum nobis esse .

(27) Ibid . 1 :

" Patres conscripti , Micipsa pater meus moriens mihi praecepit , ut regni Numidiae tantum modo procurationem existumarem meam , ceterum ius et imperium eius penes vos esse ; simul eniterer domi militiaeque quam maxumo usui esse populo Romano , vos mihi cognatorum , vos adfinium loco ducerem : si ea fecissem , in vostra amicitia exercitum , divitias , munimenta regni me habiturum .

(28) Ibid ., 25 :

nolite pati regnum Numidiae , quod vostrum est , per scelus et sanguinem familiae nostrae tabescere .

(29) XLIX . 2 :

monet atque obtestatur uti memores pristinae virtutis et victoriae sese regnumque suum ab Romanorum avaritia defendant .

(30) LXXXI . 1 :

يقول يوجورثا وهو يحرّض حليفه الملك بوخوس ملك موريتانيا على الرومان :

Romanos iniutos , profunda avaritia communis omnium hostis esse ; eandem illos causam belli cum Boccho habere , quam secum et cum aliis gentibus , lubidinem imperitandi , quis omnia regna advorsa sint . Tum sese , paulo ante Carthaginiensis , item regem Persen , post uti quisque opulentissumus videatur , ita Romanis hostem fore .

" إن الرومان ظالمـون وأطماعـهم لا تقف عند حد وهم يناصـبون كل الناس العداء ودافعهم لشن الحرب على بوخوس هـو نفس دافـعهم لشن الحرب على أنفسهم وعلى الأمم الأخرى ألا وهو شهوة السيطرة والكراهيـة والخصومة لكافة الممالك . فعدوهم

الحالي هو يوجورثا وقبل قليل كان القرطاجيون والملك بيرسيوس ، وبعد ذلك يتخذون عدواً لهم من يعتقدون بأنه أقوى الأقوياء "

(31) XV . 1 :

legati Iugurthae ....,. paucis respondent . Hiempsalem ob saevitiam suam ab Numidis interfectum , Adherbalem ultro bellum inferentem , postquam superatus sit , queri quod iniuriam facere nequivisset ; Iugurtham ab senatu petere ne se alium putarent ac Numantiae cognitus esset , neu verba inimici anta sua poneret .

(32) Ibid . 2 - 3 :

Fautores legatorum , praeterea senatus magna pars gratia depravata Adherbalis dicta contamnere , Iugurthae virtutem extollere laudibus ; gratia , voce , denique omnibus modis alieno scelere et flagitio sua quasi pro gloria nitebantur .

(33) XXII . 2 - 5 :

Quorum Iugurtha accepta oratione respondit sibi neque maius quicquam neque carius auctoritate senatus esse ; ab adulescentia ita se enisum ut ab optumo quoque probaretur ; virtute , non malitia P. Scipioni summo viro placuisse ; ob easdem artis a Micipsa , non penuria liberorum in regnum adoptatum esse . Ceterum quo plura bene atque strenue fecisset , eo animum suum iniuriam minus tolerare . Adherbalem dolis vitae suae insidiatum ; quod ubi comperisset , sceleri eius obviam isse . Populum Romanum neque recte neque pro bono facturum , si ab iure gentium sese prohibuerit . Postremo de omnibus rebus legatos Romam brevi missurum . Ita utrique digrediuntur . Adherbalis appellandi copia non fuit .

(34) XXIII - XXVI .

(35) XXXIII . 1 :

Igitur Iugurtha contra decus regium cultu quam maxume miserabili cum Cassio Romam venit .

(36) XXXVI . 2 :

At contra Iugurtha trahere omnia et alias deinde alias morae causas facere , polliceri deditionem ac deinde metum simulare , cedere instanti et paulo post , ne sui diffiderent , instare ; ita belli modo , modo pacis mora consulem ludificare .

(37) XXXVII - XXXVIII :

- At Iugurtha , cognita vanitate atque imperitia legati , subdole eius augere amentiam , missitare supplicantis legatos , ipse quasi vitabundus per saltuosa loca et tramites exercitum ductare .

Denique Aulum spe pactionis perpulit , uti relicto Suthule in abditas regiones sese veluti cedentem insequeretur . (38. 1 - 2)

- Intempesta nocte de improviso multitudine Numidarum Auli castra circumvenit ....

Vis magna hostium , caelum nocte atque nubibus obscuratum , periculum anceps , postremo fugere an manere tutius foret , in incerto erat .

Nostri foeda fuga , plerique abiectis armis , proxomum collem occupaverunt . Nox atque praeda castrorum hostis quo minus victoria uterentur remorata sunt . (38 . 4 - 8)

Tametsi ipsum cum exercitu fame et ferro clausum teneret , tamen se memorem humanarum rerum , si secum foedus faceret , incolumis omnis sub iugum missurum . Praeterea uti diebus decem Numidia decederet . Quae quamquam gravia et flagiti plena erant , tamen quia mortis metu mutabantur , sicuti regi lubuerat pax convenit . (38 . 9 - 10)

(38) XLIII . 1 , 3 - 4 :

Metelloque Numidia evenerat , acri viro et quamquam advorso populi partium , fama tamen aequabili et inviolata .

وقد آلت نوميديا إلى ميتيللوس وهو رجل ذو همة ورغم أنه كان مناوئاً للحزب الشعبي فإن سمعته كانت دوما فوق الشبهات .

denique omnia , quae in bello vario et multarum rerum egenti usui esse solent . Ceterum ad ea patranda senatus auctoritate , socii nomenque Latinum et reges ultro auxilia mittundo , postremo omnis civitas summo studio adnitebatur .

وباختصار فقد أعد كل ما رآه ذا جدوى بالنسبة لحرب ذات طابع متغير وتحتاج لإمدادات كبيرة . وبالإضافة إلى هذه فإن السناتو آزره بسلطته كما سانده المدن اللاتينية والملوك بإرسال مدد إضافي ، لقد أبدت الدولة بأسرها أقصى درجات الحماس .

(39) XLVI . 8 :

Nam in Iugurtha tantus dolus tantaque peritia locorum et et militiae erat , ut absens an praesens , pacem an bellum gerens perniciosior esset , in incerto haberetur .

(40) XLVIII - L .

- عن الشحن المعنوي من يوجورثا لجنوده وقواته أنظر : XLIX . 2 - 4 .

- عن النصائح والخطط القتالية من يوجورثا لقواته وتنفيذ هذه الأوامر أنظر : L . 3 - 5 .

Dein repente signo dato hostis invadit . Numidae alii postremos caedere , pars a sinistra ac dextra temptare , infensi adesse atque instare , omnibus locis Romanorum ordines conturbare .

وفجأة أعطى الإشارة لقواته بشن الهجوم ، وقام بعض النوميديين بمهاجمة خلفية الجيش الروماني وهاجم جـزء منهم الميسرة والميمنة وضغطـوا عليهم بضراوة وثبات فأثاروا الارتباك في كافة الصفوف والمواقع الرومانية .

ante iam docti ab Iugurtha equites , ubi Romanorum turma insequi coeperat , non confertim neque in unun sese recipiebant , sed alius alio quam maxume divorsi .

وحسب تعليمات يوجورثا لهم من قبـل فإن الفرسان النوميديين حين كانت سـرية من الرومان تبدأ في الهجوم عليهم كانوا يرتـدّون فرادى وفي اتجاهات متفرقة وينتشرون في أوسع مسافة ممكنة .

(41) LI . 1 :

Ceterum facies totius negoti varia , incerta , foeda atque miserabilis . Dispersi a suis pars cedere , alii insequi , neque signa neque ordines observare , ubi quemque periculum ceperat ibi resistere ac propulsare , arma tela , equi viri , hostes atque cives permixti , nihil consilio neque imperio agi , fors omnia regere .

وهكذا فإن الأمر برمته أصبح مرتبكا يغلب عليه الشك وشائنا وبائساً . إذ تفرق البعض عن رفاقهم وولى بعضهم الأدبـار وهاجـم البعض الآخـر ولم يكن باستطاعتهم متابعة راياتهم أو صفوفهم ، وإنما حين كان الخطر يحدق بأحدهـم كان يثبت مكانه ويدافع عن نفسه . وهكذا اختلطت الأسلحة كما اختلطت الخيـول بالناس والأعـداء بالمواطـنين ، ولم تعد هناك فرصة لنصيحة أو قيادة وإنما تحكم الحظ في كل شيء .

(42) LIV . 1 :

hortatur ad cetera , quae levia sunt , parem animum gerant ; pro victoria satis iam pugnatum , reliquos labores pro praeda fore .

وحثهم (حث ميتيللوس جنده) على الاستمساك بشجاعتهم لإنجاز المهام اليسيرة الأخرى المتبقية وأن قتالهم من أجل النصـر قد وصل إلى نهايتـه ، أما بقية جهودهم فسوف تتركز على الغنائم والأسلاب .

(43) Ibid . 5 - 6 .

(44) Ibid . 9 - 10 :

ipse cum delectis equitibus Metellum sequitur , nocturnis et aviis itineribus ignoratus Romanos palantis repente aggreditur . Eorum plerique inermes cadunt , multi capiuntur , nemo omnium intactum

profugit , et Numidae , prius quam ex castris subveniretur , sicuti iussi erant , in proxumos collis discedunt .

وقد قام هو بنفسه (يوجورثا) مع صفوة منتقاة من فرسانه بتعقب ميتيللوس وهاجم الجند الرومان المتسكعين بغتة أثناء الليل عبر دروب غير معروفة فسقط كثير منهم وهم غير مسلحين وأسر كثيرين ولم يفلت منهم واحد من غير أذى . أما النوميديون فقد تفرقوا في التلال القريبة – كما أمروا – من قبل أن يأتي مدد من المعسكر الروماني .

(45) LV . 4 :

neque post insidias Iugurthae effuso exercitu praedari ; ubi frumento aut pabulo opus erat , cohortes cum omni equitatu praesidium agitabant ; exercitus partem ipse , reliquos Marius ducebat .

وبعد كمين يوجورثا لم يعد (ميتيللوس) ينهب البلاد بجيشه بغير نظام ، وفي وقت الحاجة إلى الحبوب أو الأعلاف كانت السرايا تقوم بمهمة الحراسة ومعها كافة الفرسان ، وكان هو يقود جزءا من الجيش ويتولى ماريوس قيادة الباقين .

(46) Ibid ., 8 :

Eo tempore Iugurtha per collis sequi , tempus aut locum pugnae quaerere , qua venturum hostem audierat , pabulum et aquarum fontis , quorum penuria erat , corrumpere , modo se Metello , interdum Mario ostendere , postremos in agmine temptare ac statim in collis regredi , rursus aliis , post aliis minitari , neque proelium facere neque otium pati , tantum modo hostem ab incepto retinere .

وفي ذلك الوقت كان يوجورثا يشق طريقه عبر التلال يرقب الموقف لتحديد زمان ومكان القتال ويقوم بتسميم الأعلاف وعيون الماء القليلة التي كان يسمع أن الأعداء سيأتون إليها . ثم يظهر لميتيللوس تارة ولماريوس تارة أخرى ويقوم بمحاولة هجومية على مؤخرة الجيش ثم يتقهقر إلى الجبال فورا ويشكل تهديدا لهؤلاء مرة أخرى وبعدها يهدد الآخرين . فلا هو اشتبك في معركة ولا هو خلد إلى الراحة وإنما أعاق أعداءه عن محاولتهم .

(47) LIV . 9 :

Tamen ex copia quod optumum videbatur consilium capit ,

ومع ذلك فقد كان يتبنى أفضل خطة يراها الأنسب حسب الفرصة المتاحة .

(48) LVI . 1 - 3 :

Iugurtham laborantibus suis auxilio venturum ibique proelium fore .

...... " وأن يوجورثا سوف يأتي لمساعدة رعاياه في محنتهم وهناك تقع المعركة "

Oppidanos hortatur moenia defendant ……… Praeterea pollicetur in tempore semet cum exercitu adfore . Ita compositis rebus , in loca quam maxume occulta discedit ,

وحث (يوجورثا) أهل المدينة على الدفاع عن أسوارهم .... ثم وعدهم أن يأتي بنفسه ومعه جيشه إليـــهم في الوقت المناسب . وبعد أن أجرى هذه الترتيبات انسحب إلـــى أماكن قصية وسرية للغاية .

(49) LVII - LX .

(50) LXI . 1 :

Metellus postquam videt frustra inceptum , neque oppidum capi neque Iugurtham nisi ex insidiis aut suo loco pugnam facere et iam aestatem exactam esse , ab Zama discedit ……..

وبعد أن رأي ميتيللوس عبث محاولـــته حيث لم يتم الاســتيلاء على المدينة كما أن يوجورثا لم يلتحم في قتال معهم إلا من خلال الكمائن أو من على أرضه هو (من الموقع الذي يحدده هو) كما أن الصيف كان على الأبواب ، انسحب من زاما .

(51) LVIII . 1 - 3 :

Dum apud Zamam sic certatur , Iugurtha ex improviso castra hostium cum magna manu invadit , ….. portam irrumpit . At nostri repentino metu perculsi sibi quisque pro moribus consulunt ; alii fugere , alii arma capere , magna pars volnerati aut occisi . Ceterum ex omni multitudine non amplius quadraginta memores nominis Romani ,

(52) Ibid ., 5 :

Igitur equitatum omnem ad castra propere misit ac statim C. Marium cum cohortibus sociorum , eumque lacrumans per amicitiam perque rem publicam obsecrat nequam contumeliam remanere in exercitu victore neve hostis inultos abire sinat .

(53) LIX :

2 - Interim Iugurtha ex occulto repente nostros invadit . Qui in proxumo locati fuerant , paulisper territi perturbantur , reliqui cito subveniunt .

3 - sed advorsis equis concurrere , implicare ac perturbare aciem ; ita expeditis peditibus suis hostis paene victos dare .

(54) LXVI - LXVII .

(55) LXVIII - LXIX .

(56) LXXV - LXXVI .

(57) LXXX . 1 - 3 :

Iugurtha postquam amisse Thala nihil satis firmum contra Metellum putat , per magnas solitudines cum paucis profectus , pervenit ad Gaetulos , genus hominum ferum incultumque et eo tempore ignarum nominis Romani . Eorum multitudinem in unum cogit ac paulatim consuefacit ordines habere , signa sequi , imperium observare , item alia militaria facere . Praeterea regis Bocchi proxumos magnis muneribus et maioribus promissis ad studium sui perducit , quis adiutoribus regem aggressus , impellit uti advorsus Romanos bellum incipiat .

وبعد أن فقد يوجورثا مدينة ثالا اعتقد بأنه ليس هناك من شيء يقف في وجه ميتيللوس فسار مع قلة من أتباعه في الصحاري الشاسعة حتى وصل إلى الجايتوليين وهم شعب بدائي غير متحضر لم يكن قد سمع حتى ذلك الحين باسم روما . وقام يوجورثا بجمع شتاتهم في مكان واحد وعودهم تدريجيا على الانتظام في صفوف والانضواء تحت رايات وطاعة الأوامر وتأدية المهام العسكرية الأخرى . ثم اكتسب واستمال إليه أقرب معاوني الملك بوخوس بالهدايا الفخمة والوعود الكبيرة ، ومن خلال مساعدتهم استطاع التقرب من الملك وأغراه بأن يشن الحرب ضد الرومان .

(58) XCVII .

4 - 5 : et priusquam exercitus aut instrui aut sarcinas colligere , denique antequam signum aut imperium ullum accipere quivit , equites Mauri atque Gaetuli , non acie neque ullo more proeli sed catervatim , uti quosque fors conglobaverat , in nostros , incurrunt .

Qui omnes trepidi improviso metu ac tamen virtutis memores aut arma capiebant .

وقبل أن ينتظم الجيش أو تُعبأ الإمدادات وقبل أن تصدر أية إشارة أو أمر باغت الفرسان الموريتانيون والجايتوليون رجالنا ليس في هيئة صفوف أو أي خطة لمعركة بل في جماعات وأسراب حسبما اتفق .

وقد حلّ الارتباك بكافة رجالنا وتملكهم الذعر من هول المفاجأة ومع ذلك تذكروا شجاعتهم وتناولوا أسلحتهم .

(59) XCVIII - XCIX .

98 . 6 : Dein , crebris ignibus factis , plerumque noctis barbari more suo laetari , exultare , strepere vocibus et ipsi ducos feroces , quia non fugerant , pro victoribus agere .

وبعد أن أشعل البرابرة حرائق عديدة قضوا معظم الليل - كما هي عادتهم - في

الابتهاج والجذل الصاخب ، بل وحتى قادتهم الذين تملكهم الفخر والثقة لأنهم لم يجبروا على الفرار تصرفوا تصرف المنتصرين .

- Deinde , ubi lux adventabat , defessis iam hostibus ac paulo ante somno captis , de improviso vigiles , item cohortium , turmarum , legionum tubicines simul omnis signa canere , milites clamorem tollere atque portis erumpere iubet . (XCIX . 1)

ثم حين اقترب النهار وحل الإرهاق بالأعداء أخيرا وخلدوا لتوهم للنوم أمر (ماريوس) بصورة مفاجئة أن يقوم الحراس ونافخوا الأبواق في الكتائب وســرايا الفرسان والفرق بإصدار الإشارة بصوت عال وأن يرفع الجند صيحاتهم ويندفعوا نحو بوابات المعسكر.

- Denique omnes fusi fugatique arma et signa militaria pleraque capta , (99 - 3)

وأخيرا فإن الأعداء هزموا هزيمة نكراء وأجـــبروا على الفرار وتم الاستيلاء على قدر كبير من أسلحتهم وراياتهم الحربية .

(60) CI . 6 - 7 :

Dein Numida cognito Bocchi adventu clam cum paucis ad pedites convortit . Ibi Latine - nam apud Numantiam loqui didicerat - exclamat nostros frustra pugnare , paulo ante Marium sua manu interfectum . Simul gladium sanguine oblitum ostendere ,

...... Quod ubi milites accepere , magis atrocitate rei quam fide nuntii terrentur , simulque barbari animos tollere et in perculsos Romanos acrius incedere .

ثم حين علم النوميدي (يقصد الملك يوجورثا) بوصول بوخوس اتخذ طريقه سرا مع قلة من أتباعه باتجاه مشاة الملك (بوخوس) . وهناك صـــاح باللاتينية – التي تعلم الحديث بها وهو في نومانتيا – أن رجالنا يحاربون بلا جـدوى إذ سـبق له قبـل قليل أن قتل ماريوس بيده . وأبرز سيفا مخضبا بالدماء ...... وحين سمع جنودنا ذلك تملكهم الرعب ليس لأنهم صـدقوا هـذا القول بل بالأحرى لبشاعة الأمر ، وفي الوقت ذاتـه ارتفعت معنويات البرابرة وشنوا هجوما أكثر ضراوة على الرومان المحبطين .

(61) XLVI . 3 - 4 :

Sed Metello iam antea experimentis cognitum erat genus Numidarum infidum , ingenio mobili , novarum rerum avidum esse . Itaque legatos alium ab alio divorsos aggreditur ac paulatim temptando , postquam opportunos sibi cognovit , multa pollicendo persuadet , uti Iugurtham maxume vivom , sin id parum procedat , necatum sibi traderent .

(62) LXI . 4 - 5 :

quod ei per maxumam amicitiam maxuma copia fallundi erat , multis pollicitationibus aggreditur . Ac primo efficit uti ad se colloquendi , gratia occultus veniat , deinde fide data , si Iugurtham vivom aut necatum sibi tradidisset , fere ut illi senatus impunitatem et sua omnia concederet , facile Numidae persuadet cum ingenio infido tum metuenti ne , si pax cum Romanis fieret , ipse per condiciones ad supplicium traderetur .

(63) LXX - LXXI .

(64) LXXII .

1 - Bomilcare aliisque multis , quos socios insidiarum cognoverat , interfectis iram oppresserat , nequa ex eo negotio seditio oreretur .

وبعد إعدام بوميلكار وآخرين كثيرين ممن أثبت تورطهم في المؤامرة كظم غضبه حتى لا يثور تمرد من جراء هذا الأمر .

2 - Neque post id locorum Iugurthae dies aut nox ulla quieta fuit ; neque loco neque mortali cuiquam aut tempori satis credere , civis hostisque iuxta metuere , circumspectare omnia et omni strepitu pavescere , alio atque alio loco saepe contra decus regium nocta requiescere , interdum somno excitus arreptis armis tumultum facere , ita formidine quasi vecordia exagitari .

(65) LXXIV - LXXVI .

(66) CII .

(67) CVIII - CIX .

- Postquam sicuti voluerat congressi , dicit se missum a consule venisse qauaesitum ab eo pacem an bellum agitaturus foret . Tum rex , uti praeceptum fuerat , post diem decumum redire iubet : ac nihil etiam nunc decrevisse , sed illo die responsurum . Deinde ambo in sua castra digressi . Sed ubi plerumque noctis processit , Sulla a Boccho occulte accersitur ; ab utroque tantum modo fidi interpretes adhibentur .

(68) CX .

من أقوال بوخوس لسوللا في هذه المناسبة :

- denique nihil me sciente frustra voles

باختصار فسوف لن أرد لك رغبة طالما كنت على علم بها .

- gerite quod voltis cum Iugurtha bellum . Ego flumen Muluccham , quod inter me et Micipsam fuit , non egrediar neque id intrare Iugurtham sinam .

- شنوا ما تشاءون من حــرب على يوجورثا . ولن أسمح لنفسي ولا ليوجورثا بعبور نهر مولوخا الذي كان يفصل بين حدودي وحدود مكيبسا .

(69) CXI :

1 - Faciundum aliquid , quod illorum magis quam sua retulisse videretur ; id adeo in promptu esse , quoniam copiam Iugurthae haberet . Quem si Romanis tradidisset , fore ut illi plurumum deberetur ; amicitiam , foedus , Numidiae partem quam nunc peteret , tum ultro adventuram .

2 - Rex primo negitare ; cognationem , affinitatem , praeterea foedus intervenisse .

3 - Denique saepius fatigatus lenitur et ex voluntate Sullae omnia se facturum promittit .

١ - إذ لا بد أن يفعل شيئا مختلفا يكون في مصلحتهم (الرومان) أكثر مما يصيب في مصلحته هو (بوخوس) وذلك أمــــر في متناوله لأنه يستطيع السيطرة على يوجورثا . فإذا ما سـلم يوجورثا للرومـــان فسـيكونون مدينين له بشدة وسوف يحظى بالصداقة والمعاهدة وجزءا من نوميديا وهو ما يصبو إليه الآن .

٢ - وقد رفـض الملك في أول الأمر قائــلا بأن علاقته وقرابته وكذلك معاهدته (مع يوجورثا) تحول دون ذلك .

٣ - وأخيرا وبعد قدر كبير من الجهد أذعن لمشيئة سوللا ووعد بتنفيذ كل ما يرغبه .

(70) CXII - CXIII .

Deinde ubi dies advenit et ei nuntiatum est Iugurtham haud procul abesse , cum paucis amicis et quaestore nostro quasi obvius honoris causa procedit in tumulum facillumum visu insidiantibus . Eodem Numida cum plerisque necessariis suis inermis , uti dictum erat , accedit ac statim signo dato undi que simul ex insidiis invaditur . Ceteri obtruncati , Iugurtha Sullae vinctus traditur et ab eo ad Marium deductus est .

وحين أشرق النهار ونما إلى علمه (الملك بوخــوس) أن يوجورثا كان على مقربة تقدم ومعه قلة من الأصدقاء والكويستور ســوللا إلى تلة عالية واضحــة وعلــى مرأى من المختبئين في الكمين ، وكما (لو كان ذهابهم إليه) بمثابــة تكريم له (ليوجورثا) . وقد أتي النوميدي (يوجورثا) إلى نفس المكان مع جماعة من رفاقه وهم عزل من السلاح - حسب الاتفاق ، وفي الحال أعطيت إشارة للمختبئين فاندفعوا من كل اتجاه على الفور . وقتل بقيــة رفاقــه أما يوجورثا فتمت السيطرة عليه وتسليمه إلى سوللا الذي أخذه إلى

ماريوس .

(71) LVI .

3 - quod oppidum primum omnium post malam pugnam ab rege defecerat .

5 - Ac ni Marius signa inferre atque evadere oppido properavisset , profecto cuncti aut magna pars Siccensium fidem mutavissent ; tanta mobilitate sese Numidae gerunt .

(72) أنظر على سبيل المثال :

XLVI . 3 , 6 ; LXVI . 2 ; XC 1 - 7 .

Nam volgus , uti plerumque solet et maxume Numidarum , ingenio mobili seditiosum atque discordiosum erat , cupidum novarum rerum , quieti et odio advorsum . (LXVI . 2)

يتحدث المؤرخ هنا عن أهل مدينة (ثاجا) الذي دبروا مؤامرة ومذبحة لرجال الحامية الرومانية في المدينة فيقول " أما العوام فقد جرت العادة بينهم مثل معظم النوميديين على تقلب المزاج والتمرد والفوضى والرغبة في التغيير وكانوا يكرهون الهدوء والسكينة " .

(73) LXVI . 2 - 4 .

(74) LXII .

(75) XXIX . 4 - 6 ; XXXVI . 2 ; XLVI . 2 ; XLVII . 3 .

(76) LII . 2 , 4 :

2 - Nam Metello virtus militum erat , locus advorsus , Iugurthae alia omnia praeter milites opportuna .

4 - Amisso loco Numidae fusi fugatique . Pauci interiere , plerosque velocitas et regio hostibus ignara tutata sunt .

(77) أنظر هامش رقم (40)

(78) XCI . 7 :

Id facinus contra ius belli non avaritia neque scelere consulis admissum , sed quia locus Iugurthae opportunus , nobis aditu difficilis , genus hominum mobile , infidum , ante ....

الراهب الفرنسيسكانى ريموند لول

ومحاولاته نشر النصرانية فى شمال إفريقية

د. على بن محمد عوده الغامدى(*)

قبل الحديث عن ريموند لول Raymund Lull يجدر أن نشير باختصار إلى أن حركة التنصير الأوربية التى هدفت إلى تحويل المسلمين إلى النصرانية نشأت فى أحضان الحروب الصليبية وانبثقت عنها . فعندما نتتبع تاريخ الحركة الصليبية منذ الحملة الأولى وحتى أواخر القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، لا نجد محاولات واضحة لتنصير المسلمين ، فقد كان الجهد موجهًا لمحاربة المسلمين .

وفى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى/أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلادى قامت فى أوربا حركة إصلاح دينى تسمى حركة الإحياء الإنجيلى ، بدأها فرنسيس الأسيسى ودومنيك القشتالى وذلك زمن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) وكان البابا أنوسنت الثالث Innocent فى ٨ يونية ١١٩٨م قد اختير ليتولى عرش البابوية وهو فى السابعة والثلاثين من عمره(١) وكان صاحب خبرة واسعة فى القوانين الكنسية ، شديد الاعتزار بكنيسة روما الكاثوليكية ، وقد داعب خياله حلم السيادة على العالم ، وتحقق فى عهده حلم البابوية بإخضاع كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية عن طريق الحملة الصليبية الرابعة ، كما نجح فى إثارة أوربا النصرانية للقيام بحرب صليبية شاملة ضد دولة الموحدين فى الأندلس ، فهبت الجيوش من سائر أرجاء أوربا لمساعدة ملك قشتالة الفونس الثامن، وأنزل الصليبيون الهزيمة الساحقة بالموحدين فى معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م وهى المعركة التى قررت مصير الوجود الإسلامى فى الأندلس(٢) .

(*) أستاذ مشارك بجامعة أم القرى – مكة المكرمة .

كذلك استطاع البابا أنوسنت الثالث أن يُخضع فرنسا وإنجلترا لنفوذه بعد أن أوقع قرار الحرمان بملكيهما ، وحصل على الاعتراف من ملوك إنجلترا واراجون والبرتغال بأنهم يتولون مناصبهم كمنحة إقطاعية من البابوية . وتمكن من طرد الألمان من وسط إيطاليا وصقلية ، وأصبح يعين الأباطرة ويعزلهم وفق شروط الكنيسة الكاثوليكية(٣) .

والبابا أنوسنت الثالث ، هو الذى تمكن من القضاء على الحركة الألبيجنسية أو الكاثرية ، التى عجز الأباطرة والبابوات عن إخمادها . والحركة الألبيجنسية حركة هرطقية قامت فى أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وجاءت ردًا على إنغماس الكنيسة الكاثوليكية ، ورجال الدين فى المفاسد والانحراف الخلقى الذى لم تخرج منه إلا بعد نجاح حركة الإصلاح الكلونية . غير أن الحركة الألبيجنسية استمرت قائمة حتى تم القضاء عليها زمن البابا أنوسنت الثالث ، وقد نُسبت هذه الحركة إلى مدينة البى Albi فى جنوب فرنسا حيث انتشرت منها إلى سائر مدن الجنوب الفرنسى ، ويسمى أنصار وأتباع هذه الحركة باسم الكاثريين أى المتطهرين حيث نادى أتباعها بالتطهر والتخلص من الشر والخطايا بنبذ الحياة الدنيا ، فحرموا على أنفسهم الزواج والتملك وأكل لحوم الحيوان ، وحرموا سفك الدماء مهما كانت الأسباب . وأضحوا يعتقدون أن تهذيب النفس بالزهد والتقشف يرقى بها إلى أعلى عليين ، فإذا ما ماتت الأنفس استحالت - على حد قول الألبيجنسيين - إلى أجسام روحانية تصعد فى ملكوت السموات دون توقف أو حساب(٤) .

وقد هددت تلك الحركة الكنيسة الكاثوليكية تهديدًا خطيرًا نظرًا لأنه أصبح فى مقدور أتباعها بزهدهم وتقشفهم التغلب على رجال الكنيسة الذين أفسدتهم عندئذ نعومة الحياة . وأطلقت الكنيسة عليهم اسم الهراطقة وحاربتهم بكل الوسائل ، حتى أنها جردت ضدهم حملة صليبية تعرف فى كتب التاريخ الأوربى بالحملة الصليبية الألبيجنسية . وقد دعا إلى تلك الحرب الصليبية ضد الألبيجنسيين البابا أنوسنت الثالث فى مارس سنة ١٢٠٥م(٥) . واستمرت تلك الحرب ضد

الألبيجنسيين زهاء إحدى عشرة سنة حتى قضت عليهم سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م ولم يكن بالإمكان التغلب على أولئك الكاثريين المتقشفين بقوة السيف وحده ، وإنما بالقوة المعنوية التى تزودت بها الكنيسة بعد أن أنضوت تحت لوائها جماعات الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان(٦) .

ومنذ أوائل القرن السابع الهجرى / أوائل القرن الثالث عشر الميلادى نشأت فى أوربا أربع جماعات رهبانية اعتمدت على الزهد والفقر والتسول :

(أ) الفرنسيسكان أو الإخوان الفرنسيسكان ويدعون فى إنجلترا بالإخوان الرماديين إشارة إلى لون أقبيتهم التى يرتدونها ، ويسمون فى فرنسا الإخوان الفقراء ، ويدعون فى ألمانيا الإخوان الحفاة .

(ب) الدومنيكان ، أو الإخوان المبشرون ، ويسمون فى إنجلترا الإخوان السود إشارة إلى لون أرديتهم التى يلبسونها . وفى فرنسا يسمون اليعاقبة .

(جـ) الرهبان الكرمليون ، أو جماعة مريم العذراء ، ويسمون بالكرمليين نسبة إلى جبل الكرمل فى فلسطين ،كما يعرفون بالإخوان البيض إشارة إلى لون ملابسهم .

(د) الإخوان الأغسطينيون أو جماعة الإخوان الزهاد المنتسبين للقديس أوغطسين.

وقد نشأت فى القرن الثالث عشر الميلادى الكثير من الجماعات الرهبانية المتسولة ولكنها انحلت بعد أن منعها مجمع ليون الثانى Council of Lyons فى سنة ١٢٧٤م(٧) . وكان لكل من المنظمات الأربع السالفة الذكر أصول مختلفة ، وخصائص متميزة ، وقوانين خاصة صارمة(٨) . ولا يهمنا من هذه المنظمات الأربع سوى منظمتى الرهبان الفرنسيسكان والرهبان الدومنيكان ، حيث انبثقت منهما حركة التنصير الأوربية التى هدفت إلى تحويل العالم الإسلامى إلى المسيحية ومنهما ظهر ريموند لول أشهر المنصرين فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية .

أما منظمة الرهبان الفرنسيسكان فمؤسسها هو فرنسيس الأسيسى الذى وُلد فى بلدة أسيس فى مقاطعة أمبريا بوسط إيطاليا سنة Francis of Assisi ١١٨١م أو سنة ١١٨٢م/٥٧٨هـ ، حيث كان أبوه تاجرًا غنيًا من تجار الأقمشة، وقد شب فرنسيس حتى صار شابًا نشطًا يتعشق الفروسية ويهوى حياة الجندية ، واشترك فى أحد الأيام فى معركة وقعت بين بلدته وبلدة بيروجيا المجاورة ، فوقع أسيرًا فى أيدى البروجيين ، وظل فى أسرهم مدة مرض خلالها مرضًا شديدًا كان له أثره فى ظهور نزعته الدينية . فلما أطلق سراحه تخلق بأخلاق جديدة جعلت منه سريع الاستجابة لآلام الغير ، له قدرة بالغة على الإقناع حتى أن بعض المؤرخين الأوربيين يصفه بأنه كان تميمة ساحرة تجمع بين المسيحيين(٩) . وفى أحد الأيام لقى رجلاً أبرصًا فنزل عن بغلته وقبّله دون وجل أو حرج . وزعم أنه سمع هاتفًا يهتف به أن يصلح كنيسة خربة قرب بلدته أسيس ، فتنسك وانقطع عن أهله جميعًا ، وعاش على صدقات المتصدقين وشرع فى العمل بيديه فى ترميم الكنائس المهجورة ، واستمع ذات يوم إلى واعظ بإحدى الكنائس فى بلدته أسيس يقرأ الإصحاح العاشر من إنجيل متى الذى يقول نصه : « وفيما أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات ، اشفوا المرضى ، أبرئوا الأبرص ، وأقيموا الموتى ، وأخرجوا الشياطين ، مجانًا أخذتم ، مجانًا أعطوا ، لا تقتنوا فى بيوتكم ذهبًا ولا فضة ولا نحاسًا ، ولا تتخذوا مزودًا للطريق ، ولا ثوبين ، ولا خفين ، ولا عصًا لأن الأجير مستحق الأجرة "(١٠) فأصابت هذه الكلمات هوىً فى قلب فرنسيس فانطلق على وجهه فى غرب أوربا حافى القدمين يدعو إلى التوبة(١١) .

ومما ساعده على نشر دعوته أن الأحوال الدينية فى أوربا كانت فى غاية القلق والاضطراب . حتى انتشر الجدب الروحى فى كل مكان ، ذلك أن المؤسسات الديرية الضخمة التى لها نشاط فى معظم مقاطعات فرنسا أضحت مشغولة بإدارة ممتلكاتها وبيع أصواف أغنامها والاضطلاع بمختلف المسئوليات التى تنجم عادة عن امتلاك الأراضى الشاسعة . كما أن البابا أنوسنت الثالث كان

مشغولاً بالجرى وراء مشروعاته الطموحية الضخمة الهادية إلى الهيمنة على سائر ملوك أوربا ، وحارت عقول الناس فى أوربا بسبب ما وصلت إليه الكنيسة من غنىً وثروة وطموح جامح ، الأمر الذى أدى إلى انتشار الكثير من المذاهب والهرطقات . فعلى سبيل المثال يقال إنه كان فى مدينة ميلان وحدها سبعة عشر مذهبًا هرطقيًا ، وفى إيطاليا انتشرت الحروب والأحقاد ، وأخذ الناس يتلمسون من البابوية شيئًا يستطيعون الركون إليه فى حياتهم المضطربة القلقة دون أن تستطيع البابوية أن تمدهم بشىء لأنها كانت تعيش بعيدًا عن الفقير والبائس والمحروم(١٢) .

وأخيرًا أدرك البابا أنوسنت الثالث سوء تلك الأحوال التى أمست فيها الكنيسة ورعاياها، فأقرّ بعد شىء من التردد طريقة القديس فرنسيس وأجاز له أن يصبح قسيسًا داخل الهيئة الكنسية ، فاندمج فى سلك الكنيسة قوة دينية هائلة . وقد انخرط الكثير من الرهبان ورجال الدين تحت لواء القديس فرنسيس وانطلقوا فى أنحاء إيطاليا يعظون قومهم ، ويدعون إلى التقشف والتوبة بمختلف القرى والمدن والأرياف وكان لأولئك الرهبان الفرنسيسكان أبعد الأثر فى نفوس قومهم لما رأوه فيهم من بساطة وتقشف وتواضع . وبفضل هذه الصحوة الدينية التى بعثها الراهب فرنسيس تحوّل الكثير من النصارى الذين لم يكن لهم فيما مضى إلا الاسم فأصبحوا متمسكين بنصرانيتهم أشد التمسك بل أن الكثير من الألبيجنسيين وغيرهم من المعارضين اعتنقوا دعوة فرنسيس الأسيسى(١٣) .

* * *

أما الراهب دومنيك القشتالى مؤسس الطريقة الدومنيكانية فيختلف عن الراهب فرنسيس فى أنه تعلم بمدرسة من المدارس اللاهوتية التى تؤهل طلابها لتولى وظائف الكنيسة . وكان دومنيك من كبار رجال الكنيسة فى إحدى الكاتدرائيات الأسبانية . فقد طرأ عليه هو الآخر ما غير حياته رأسًا على عقب ، فبينما كان مشاركًا فى الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين فى جنوب فرنسا قابل أحد دعاة الحركة الألبيجنسية فى مدينة تولوز وناقشه مناقشة طويلة هدف منها

إلى إعادته إلى العقيدة الكاثوليكية . واقتنع دومنيك أنه لا سبيل إلى التغلب على الحركة الألبيجنسية إلا بقوة روحية تساوى تلك القوة الروحية التى عند الألبيجنسيين . ومن أجل ذلك اختار حياة التقشف والزهد ودعا إخوانه ومريديه إلى أن يحذوا حذوه لا حبًا فى التقشف والزهد ، بل كوسيلة من وسائل التأثير فى الناس . ثم التقى دومنيك بفرنسيس الأسيسى فى إيطاليا حيث تحقق أن الإعراض عن متاع الدنيا وسيلة للتغلب على الحركة الألبيجنسية . ولذا عقد دومنيك العزم على تأسيس هيئة للوعظ والإرشاد ، يكون الفقر شعارها ، وتكون طاعتها لرئيس هيئتها وللبابا مطلقة. وقد أجاز البابا أنوسنت الثالث مشروع دومنيك كما أجاز طريقة فرنسيس من قبل . وأصبح فى حوزة البابوية جيش كبير من المخلصين لدينهم(١٤) .

ومن الواضح أن هذا الجيش من الرهبان المتصرين الذى انضوى تحت لواء البابوية اختلف عن أى جيش سبق انضواؤه تحت لوائها ، لأن الرهبان الفرنسيسكان ، والدومنيكان كانوا على استعداد دائم للذهاب إلى أى مكان فى الدنيا ، والقيام بجميع ما يطلب إليهم أن يقوموا به من أعمال ، بعيدة الأسفار أو كثيرة الأخطار ، ذلك أن الأسفار والأخطار لم تكن تشكل عائقًا أمام أولئك الرهبان الذين وهبوا أنفسهم لخدمة دينهم ، وعاشوا خارجين عن سلطة الأسقفيات مستقلين عن كل أسقف ما عدا أسقف روما وهو البابا ، فانتشروا فى سائر أنحاء أوربا ، ولم يقم أحد من المبشرين فى كل العصور بمثل ما قام به الفرنسيسكان والدومنيكان فى البلاد الخارجة عن دائرة النصرانية ، فتنقلوا بين تونس ومراكش والجزائر ، وارتحلوا إلى سواحل أفريقيا ، وإلى بلاد فارس والهند والصين ، وجنوب شرق آسيا ، يدعون إلى النصرانية(١٥) .

ويمكن أن نتصور حجم الأثر الذى أحدثه فرنسيس الأسيسى فيما يسمى بحركة الإحياء الإنجيلى إذا ما علمنا أنه فى عام ١٢٦٤ م - أى بعد نحو نصف قرن من قيامها - أصبح لدى طائفة الرهبان الفرنسيسكان مئتى ألف راهب وستة آلاف دير(١٦) .

وقد قام فرنسيس الأسيسى بنفسه بأول إرسالية تنصيرية إلى بلاد المسلمين ، إذ رافق الحملة الصليبية الخامسة التى دعا إليها البابا أنوسنت الثالث ، والتى وصلت طلائعها إلى عكا سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وهاجم الصليبيون مناطق بيسان وقلعة الطور ، وامتدت غاراتهم إلى منطقة صيدا(١٧) ، وبعد إنسحاب الصليبيين عن قلعة الطور وعودتهم إلى عكا ، كان معهم بعض الأسرى المسلمين وضمنهم مجموعة من الأطفال الصغار فقام رادولف بطريق بيت المقدس وجاك دى فترى أسقف عكا بتعميد الأطفال المسلمين(١٨) ويبدو أن ذلك كان بتأثير الرهبان الفرنسيسكان الذين رافقوا الحملة ، ليكون هذا العمل هو البذرة الأولى فى جهود الغرب الأوربى لتنصير المسلمين وتحويلهم عن دينهم .

وكان أن أقلعت الحملة الصليبية من عكا ونزلت عند دمياط بغية الاستيلاء على مصر . وفرض الصليبيون حصارًا شديدًا على دمياط ، وخشى السلطان الأيوبى الكامل محمد سقوط مصر بأيدى الصليبيين ، فتقدم بعرضه لهم بأن يسلمهم كل ما فتحه عمه صلاح الدين من بلاد بما فيها بيت المقدس مقابل إنسحابهم من أرض مصر ، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس وفرسان الداوية والاسبتارية رفضوا عرض السلطان الكامل(١٩) .

وقد استأذن فرنسيس الأسيسى المندوب البابوى بلاجيوس للسماح له بالذهاب إلى معسكر السلطان الكامل ليدعوه إلى اعتناق النصرانية على المذهب الكاثوليكى ، فأذن له بعد تردد خوفًا عليه إذ خشى بلاجيوس وسائر قادة الحملة أن يفتك به المسلمون . فأخذ فرنسيس معه أحد أتباعه وسار تحت علم الهدنة قاصدًا معسكر السلطان الكامل فى سنة ٦١٦هـ/١٢١٨م ، وقد ساورت الحرس السلطانى الشكوك فيه أول الأمر ، ولما رأوا هيئته وقذارته حيث كان يمشى حافى القدمين ، استمعوا إليه فلم يعرفوا من كلامه سوى ترديده كلمة « صلدان » فعرفوا أنه يريد مقابلة السلطان الكامل ، فأرسلوه إليه ، ولما دخل عليه ، وجده تحيط به حاشيته وخدمه وحرسه ومترجميه الذين يبدو أنهم كانوا من بقايا حملة الأطفال الذين اشتراهم الكامل ، واستأذن فرنسيس السلطان فى الحديث فأذن له ،

وبدأ يُلقى موعظته على السلطان الكامل ، والمترجم يترجم كلامه مباشرة فوصف له النصرانية الكاثوليكية ودعاه إلى الدخول فيها . وقد استمع إليه السلطان فى صبر وأناة وأدب جم ، ولم يسمح لأحد من علمائه بمناقشته . وطلب فرنسيس من السلطان أن يأذن له بإجراء اختبار النار للقفز فوقها كدليل على صدقه ، فأخبره السلطان أنه ليس بحاجة إلى ذلك البرهان ، ثم أكرمه وقدم له هدايا كثيرة . ولما فشل فرنسيس فى إقناع الكامل بعقيدته طلب من السلطان السماح له بالذهاب إلى بيت المقدس لإقامة دير له ولأتباعه فأذن له(٢٠) .

وكان أن وصل فرنسيس الأسيسى إلى بيت المقدس ، وسمح له المعظم عيسى بن العادل ملك دمشق بناءًا على أمر أخيه الكامل بالإقامة فى بيت المقدس، واختار فرنسيس مكانًا فوق جبل صهيون ليقيم عليه الدير يسمى عُلية صهيون . وتزعم الرواية النصرانية أن هذا المكان الذى اختاره هو بقايا بيت يوحنا أحد تلاميذ المسيح ، حيث كان يجتمع المسيح عليه السلام بحوارييه فيها وأن المسيح تناول مع تلاميذه العشاء الربانى الأخير بالجهة الغربية من العلية ، وقد تمكن الرهبان الفرنسيسكان بعد ذلك من الحصول من السلطات الأيوبية على إذن برعاية هذا المكان ثم توسعوا فيه وأنشأوا به كنيسة(٢١) .

ومنذ أن أقام الرهبان الفرنسيسكان فى هذا المكان قاموا بدور مزدوج هما الدعوة إلى النصرانية بين السكان ، والتنصير من ناحية ، والعمل كجواسيس وروابط اتصال مع الدول النصرانية فى أوربا والحبشة للاتفاق على المشروعات الصليبية(٢٢) من ناحية أخرى .

وهكذا توسع نشاط الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان التنصيرى فى سائر الإمارات الصليبية فى بلاد الشام سيما إمارة إنطاكية حيث حرصوا على أن يحلوا محل رجال الدين النصارى فى الكنائس والأبرشيات(٢٣) .

وأخذ دور الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان ينمو ويتعاظم سيما زمن ملك فرنسا لويس التاسع الذى عُرف فى المصادر الأوربية باسم القديس لويس

والذى اشتهر بتعصبه للنصرانية الكاثوليكية . وحين قام سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م بحملته الصليبية المعروفة فى كتب التاريخ بالحملة الصليبية السابعة ، انضم إليه عدد كبير من الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان ، ومنهم على سبيل المثال كاهنه الخاص الراهب الدومنيكانى وليم دى شارتر Guillaume de Chartres الذى ألَّف كتابًا عن سيده لويس ، وساهم فى كثير من الحوادث زمن لويس ، ورافقه فى حملته الصليبية التنصيرية إلى تونس ، وأفاض كثيرًا فى الحديث عن صفات لويس التاسع ، وحضر وفاته وسجل أن آخر ما نطق به لويس وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة قوله : هيا إلى بيت المقدس(٢٤) . ومن الذين رافقوا لويس راهب دومنيكانى اسمه جوفروادى بلييه Geoffroi de Beaulieu كان أبا الاعتراف الشخصى للملك ورافقه أيضًا فى حملته على مصر والشام ، وقد ألَّف هو الآخر تاريخًا عن لويس التاسع وأشاد بفضائله وتقواه(٢٥) .

* * *

وقد حاول لويس التاسع عن طريق أولئك الرهبان نشر النصرانية الكاثوليكية بين المغول حتى يسهل بعد ذلك الإطباق على العالم الإسلامى وتدمير الإسلام وتحويل المسلمين إلى النصرانية بالقوة . والراجح أن تلك السياسة الجديدة التى اتبعها لويس التاسع كانت بتأثير الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان أنفسهم وبتأثير البابا أنوسنت الرابع الذى بادر قبيل إبحار لويس بحملته إلى مصر ، فأرسل البابا إرساليتين تنصيريتين إلى منغوليا لدعوة الخان المغولى إلى اعتناق النصراينة ، وكانت الإرسالية الأولى برئاسة الراهب الفرنسيسكانى يوحنا بيان دل كاربينى Jon of pian del Garpine وقد غادرت فرنسا فى سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م ووصلت إلى بلاط خان المغول بعد سنة ونصف . وأكرم كيون خان المغول رسل البابا . وحينما قرأ رسالته التى يدعوه فيها إلى اعتناق النصراينة ، رد عليها بأن أمر البابا أن يعترف له بالسيادة العليا وأن يأتى إليه مع جميع أمراء الغرب ليقدموا له فروض التبعة والولاء. ثم عادت الإرسالية إلى البابا فى أواخر عام ١٢٤٧م . وقبل وصولها بعث البابا أنوسنت الرابع بإرساليته الثانية إلى المغول برئاسة الراهب

الدومنيكانى اسكلين اللومبارى Ascelin of Lambardy ، وسار اسكلين على رأس بعثته واجتاز بلاد الشام والجزيرة . وفى تبريز التقى بالقائد المغولى بايجونويان وبحث معه أمر التحالف بين العالم النصرانى والمغول ضد المسلمين ، واقترح بايجو أن يطبق هو بقوات المغول على بغداد من الشمال والشرق بينما تقوم حملة صليبيةبإشغال المسلمين فى الشام عنه . وأرفق بايجو من لدنه مبعوثين من النساطرة هما أيبك وسركيس ليصحبا اسكلين فى عودته إلى روما ، ومكثا فى بلاد البابا سنة ثم عادا إلى بايجو بعد أن أخبرهما البابا عن أسفه لأنه لم يطرأ جديد على مشروع التحالف(٢٦) .

وقد داعب الأمل خيال لويس التاسع بتنصير المغول والأطباق على العالم الإسلامى حينما كان فى قبرص وهو فى طريقه إلى مصر بحملته الصليبية حيث تلقى فى قبرص سفارة من جغطاى أحد حكام المغول فى فارس ، وكانت السفارة مكونة من داود ومرقس وهما من النصارى النساطرة ومضمون الرسالة أن يتحالف المغول مع الفرنسيين فى سبيل الاستيلاء على بيت المقدس من المسلمين. ولقد ابتهج لويس التاسع بهذه البعثة المغولية فأكرم رسولى جغطاى وأرسل معهما ثلاثة منصرين من الدومنيكان هم أندريه دى لونجيمو وشقيقه وليم دى لونجيمو وكانا يتحدثان العربية ، ويوحنا الكركسونى . وقد ظهر حرص لويس التاسع على تنصير المغول فى الهدية التى أرسلها مع هؤلاء الرهبان وهى عبارة عن كنيسة متنقلة مكونة من خيمة من قماش على شكل كنيسة ومعها كل ما يلزم مذبحها من المخلفات الدينية والعشاء الربانى وكل ما يحتاجه الرهبان لإقامة القداس النصرانى فى حضرة خان المغول(٢٧) . غير أن البعثة لم تصل إلى بلاط المغول إلا بعد موت الخان كيوك ، وتولت العرش مؤقتًا أرملته قلقميش حتى تم انتخاب منكوخان خانًا أكبر على عرش المغول فاستقبل البعثة ولكنه اعتبر كل تلك الهدية بمثابة جزية بعثها الملك الفرنسى رمزًا لخضوعه وتبعيته للمغول(٢٨) .

وبينما كان لويس التاسع فىعكا وصلته أنباء تزعم أن أحد أمراء المغول ويدعى سارطاق بن باطو قد اعتنق النصرانية فسارع لويس إلى إرسال بعثة

جديدة مكونة من اثنين من الرهبان الفرنسيسكان هما وليم روبـروك وبـارثولوميو الكرموني وتابع لهما ليحثا الأمير المغولي على النهـوض لمساعدة إخوانـه النصـارى ضد المسلمين ولكي يقوما تحت حمايته بالتبشير بالنصرانية بين المغول . وقـد وصـل روبروك وصاحبه إلى معسكر سارطاق ، وحين دخـلا عليـه كـان روبـروك يحمل انجيلاً فأعطاه الملك لويس مسبحة نفيسة أهدتها لـه الملكـة مرجريت بينمـا حمل بارثولوميو صليبًا وكتابًا دينيًا وأمسك التابع بمبخرة وتقدم روبروك بخطـاب لويس إلى سارطاق وطلب منه السـماح لـه بـالدعوة إلى النصرانيـة بـين المغـول ، فأخبره سارطاق أنه لم يعتنق النصرانية ، وأكد له أنه إذا أراد البقاء فيجب أن يحصـل على إذن من والده باطو وأرسل معهما من يدلهما على معسكر والده . ولما دخلا علـى باطو ، أذِن لربروك بالحديث فجثا الراهب على ركبتيه وأخذ يحث إيلخـان بـاطو على اعتناق النصرانية ويشرحها له ، وقال بـأن سيده لويـس أرسـله إلى سـارطاق عندما علم أنه اعتنق النصرانية ، وطلب منه السماح لـه بالتبشير بالكاثوليكيـة فـى بلاده . ولما سأله باطو عن سبب قيام سيده لويـس بحملتـه ، قـال بأنـه يهـدف إلى انتزاع البلاد المقدسة من أيدى المسلمين ، وأنه يأمل فى توحيد جهوده مـع المغـول لتحقيق هذه الغاية . وعند ذلك أخبره باطو أنه يجب عليـه السـفر إلى بـلاط الخـان الأكبر منكوخان لإبلاغ رسالته . وكان أن سافر روبروك فى رحلـة طويلـة شـاقة مسافة ثلاثة أشهر حتى وصل قراقورم عاصمة المغول وقابل منكوخان فى ٤ ينـاير ١٢٥٤ م الذى أبلغ روبروك أنه يجب على لويس التاسع وسائر الحكام فى الغـرب الخضوع له باعتباره سيد العالم(٢٩) . ويستفاد من التقرير الذى كتبه روبروك فـى مذكراته وجود عدد من الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان فى بلاد المغول بهدف التبشير بالنصرانية ، الأمر الذى يشير إلى أن حركـة التنصـير الغربيـة أخـذت تتخـذ شكلاً دوليًا واسعًا لنشر النصرانية بين المغول وغيرهم(٣٠) .

على أن أمل الغرب الأوربى فى التحالف مع المغول وتحويلهم إلى النصرانيـة لم يلبـث أن تحطـم عندمـا اعتنق إيلخانـات المغول الإسـلام فـى القـرن الثـامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى وأعلنوا الإسلام دينًا رسميًا لممالكهم(٣١) .

* * *

وبعد فشل جهود لويس التاسع فى اجتذاب المغول للنصرانية وإقناعهم بالتحالف مع الصليبيين ، عمل على تنصير المسلمين أنفسهم ، فبعث الراهب الدومنيكانى أندريه لونجيمو - الذى سبق وأن أرسله للمغول - إلى تونس ليدعو إلى النصرانية وذلك سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م ودخل فى مناظرات مع المسلمين لمعرفته باللغة العربية ، ثم عاد إلى أوربا واشترك مع لويس التاسع فى حملته الصليبية على تونس ٦٦٨هـ / ١٢٧٠ م والتى كان يأمل من ورائها تحويل أمير تونس الحفصى إلى النصرانية ولكنه هلك دون تحقيق حلمه(٣٢) .

وقد جاء فى المعاهدة التى أبرمها المستنصر الحفصى سنة ١٢٧٠/٦٦٨ م مع ملك فرنسا الجديد فيليب الجرىء وشارل دوق انجو ، أن للرهبان والقساوسة حرية الإقامة بالمملكة الحفصية تحت رعايتها وحمايتها كما لو كانوا فى ديارهم ، ويحق لهم إقامة شعائرهم الدينية وطقوسهم فى الكنائس والأديرة كما لو كانوا فى ديارهم وبين شعوبهم ، وقرر الحفصيون إعطاء النصارى أراض لإقامة دور عبادتهم ، الأمر الذى زاد من عدد النصارى فى بجاية وغيرها من بلاد الحفصيين(٣٣) ومنح لهم الفرصة لمحاولة التنصير فى بلاد المسلمين مما يدل على الضعف الذى أصاب الدولة الحفصية فى هذه الفترة .

* * *

أما الراهب الفرنسيسكانى ريموند لول (١٢٣٥ - ١٣١٥م) فقد انبثق عن حركة الإحياء الأنجيلى التى استعرضنا ظهورها فى الصفحات السابقة وانخرط فى سلك الرهبان الفرنسيسكان . ويعتبر أخطر المنصرين وأشهرهم على الإطلاق على مر التاريخ ، حتى أن المنصر المشهور صمويل زويمر اعتبره أستاذه وقدوته فى كتابه الذى ألفه عنه بعنوان « ريموند لول المبشر الأول إلى المسلمين »(٣٤) أما روبرت سبير Robert E. Speer فقد وصفه بأنه أشهر مبشر ارتحل إلى العالم الإسلامى على الإطلاق ، وأنه أحد أبرز شخصيات الكنيسة الكاثوليكية خلال القرن الثالث عشر الميلادى . ذلك أنه اعتبر نفسه « مسيحيًا بروح عصرية » وأنه

سبق قرونًا كثيرة فى إرساء قواعد ومناهج وتصورات جديدة للتبشير(٣٥) . وقال عنه يوجين ستوك Eugene Stock سكرتير مجمع الكنيسة البروتستانتية بأنه " لا توجد شخصية بارزة أكثر بطولية فى التاريخ الكنسى من ريموند لول المبشر الأول وربما الأعظم إلى المسلمين "(٣٦) . وقد وصفه زويمر نفسه بأنه رائده الأول الذى مهد له الطريق ولذلك يجب إنقاذ الذاكرة من نسيان الرائد الأول على حد قوله ، وأنه يجب أن يكون قدوة لكل المنصرين ، وأنه لا يمكن له ولسائر المنصرين فى العصر الحديث أن يوفوه حقه من التقدير والشكر إلا بتحويل العالم الإسلامى برمته إلى النصرانية(٣٧) .

ويذكر بعض المؤرخين الذين درسوا حياة ريموند لول وكتبه أنه لم توجد برامج وخطط للتنصير فى تاريخ النصرانية لأكثر من ألف سنة قبله كتلك التى اقترحها ودعا إلى تطبيقها(٣٨) ، وضمنّها كتبه التى ألّفها والتى بلغت المئات ، بحيث لم يضارعه فى حجمها أحد من الكتاب النصارى لا قبله ولابعده وأصبحت تلك الخطط هى الدستور والمنهج التى سار عليه واتبعه المنصرون بعده لأكثر من خمسمائة عام(٣٩) .

وُلد ريموند لول فى بالما فى جزيرة ميورقة إحدى جزر البليار فى سنة ١٢٣٥م على الأرجح ، وهو ينتمى إلى أسرة قطالونية مشهورة ، وكان والده جنديًا فى جيش ملك أراجون جيمس الأول الذى انتزع جزيرة ميورقة من المسلمين . وقد كوفىء والد ريموند بقطعة من الأرض فى ميورقة ، حيث نشأ ريموند فى كنف أسرته ، وتزوج فى دور مبكر ثم غادر بالما مع زوجته إلى أسبانيا حيث عمل قهرمانًا فى قصر ملك أراجون جيمس الثانى ، وهى الوظيفة التى يتولى صاحبها الإشراف على المآدب والمراسم . وعاش ريموند لول حياة مليئة بالفسوق والفجور والتهتك فى قصر يعج بالفساد حيث الخمر والنساء والغناء ، شغف بالموسيقى والعزف على القيثار وأصبح مشهورًا بوصفه شاعر البلاط . وقد ساق هو اعترافاته فى أُحد كتبه التى كتبها حيث أشار إلى تلك الحياة الماجنة التى عاشها(٤٠) .

عاد ريموند إلى مسقط رأسه بالما حيث زعم أن المسيح عليه السلام ظهر له في إحدى حظائر الخنزير ومنه تسلم النداء الأخير ، وجعله يتخذ قراره بالتخلى عن الجميع وأن يصبح المبشر بالاستقامة حسب زعمه(٤١) .

قرر ريموند لول سنة ١٢٦٣ م أن يقضى بقية حياته فى خدمة دينه فانخرط فى سلك كنيسة للرهبان الفرنسيسكان فى بالما بجزيرة ميورقة ، وانكب خلال عشر سنوات تالية على دراسة الفلسفة وتعلم اللغة العربية من أسير مسلم . وخلال بقية حياته أظهر لول نشاطًا لا حدود له ، وقد عاصر تساقط المعاقل الصليبية فى بلاد الشام على يد الظاهر بيبرس ، وقلاوون ، وابنه الأشرف خليل ، وارتاع شأنه شأن سائر معاصريه من النصارى الغربيين لسقوط آخر المعاقل الصليبية وهى مدينة عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م واعتبر تلك الحادثة كارثة مروعة حلت بالعالم النصرانى ، ولذلك قرر أن يقضى بقية حياته جاهدا على تنصير المسلمين واستعادة الأراضى المقدسة منهم(٤٢) .

وقد تنقل لول بين المراكز الفكرية فى أوربا ، ودرس ، وحاضر ، وناقش علماء اللاهوت النصارى ، وبحث معهم شئون الأمم الأخرى ، وقابل البابوات واتخذ وضعه فى جلسات كثير من المجامع الدينية . ثم رحل إلى الشرق وإلى شمال أفريقية داعيًا إلى النصرانية . ويعتبره الكثير من أساتذة التاريخ الأوربى أنه من الرواد فى دنيا المعرفة الأوربية فى العصور الوسطى وأنه مثل روجر بيكون - الذى ينتمى إلى الرهبان الفرنسيسكان - يعتقد أن جميع العلوم بمثابة فروع من شجرة واحدة(٤٣) . وقد جعل هدفه الأسمى الذى يسعى إلى تحقيقه هو اجتذاب جميع الأمم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، سواء النصارى المنشقين عنها أو المسلمين أو التتار ، وكرس كل نشاطه وحياته لتحقيق هذا الهدف(٤٤) . وشرع يعمل على إرساء نظام تنصيرى منسق تحت رعاية الكنيسة ، يتكون رجاله من طبقة من المنصرين يجب - فى نظره - أن يتحلى جميع أفرادها بالسلوك الهادىء الودود ، وأن يحاولوا الإقناع بالحجة والمنطق(٤٥) . ويرى ديلا فيل لى رولكس Delavill

le Roulx أن ريموند لول أدرك عدم جدوى استخدام القوة فى حسم الخلاف بين الشرق والغرب ، وأنه تخلى عن فكرة الحملة الصليبية باعتبارها مستحيلة ، ولذلك حاول أن يستميل المسلمين إلى النصرانية عن طريق الاقناع والتعليم(٤٦) . أما المنصر صمويل زويمر فيزعم فى كتابه الذى ألفه عن لول أنه سعى فعلاً إلى تكوين حملة صليبية ولكنها ليست للحرب بل للحب ، أى محبة المسلمين لاجتذابهم إلى الدخول فى النصرانية(٤٧) . ومن المبادىء التى نادى بها ريموند لول وجوب توحيد منظمات الفرسان الرهبان (الجماعات العسكرية ، كالاسبتارية ، والداوية، والتيوتون) حتى يصبح لدى الكنيسة جيش بالغ الضخامة من الفرسان الكنسيين(٤٨) .

وقد قام ريموند لول بدور خطير فى تنصير مسلمى لوجاره فى إيطاليا والتى تقع إلى الشمال الشرقى من نابلى وسكان لوجاره جميعهم مسلمون فقد ذكر المؤرخ جمال الدين بن واصل أنه ذهب فى سفارة من قبل السلطان الظاهر بيبرس إلى الملك مانفريد بن الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ٦٥٩هـ/١٢٦١م ، وحين اجتمع به وجده متميزًا محبًا للعلوم مثل أبيه ، وذكر أنه بالقرب من البلد الذى نزل فيه مدينة تسمى لوجاره أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية وتقام فيها الجمعة وسائر الشعائر الإسلامية " وهى على هذه الصفة من عهد أبيه الامبراطور ، ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين ويُعلن فى معسكره بالأذان والصلاة "(٤٩) . وكان الامبراطور فردريك الثانى قد نقل هؤلاء المسلمين من صقلية إلى لوجاره ، فاشتغلوا فيها بالزراعة ، وأخذ فردريك فى تجنيدهم فى جيشه لبراعتهم فى صنع السهام ورميها، وأصبحت لوجاره بعد ذلك وكأنها جزيرة صغيرة وسط بحر من القوى الصليبية . وبعد سقوط أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية وقيام أسرة انجو الفرنسية فى تلك البلاد اشتد الضغط على هؤلاء المسلمين بقصد تنصيرهم ، غير أنهم تمسكوا بعقيدتهم الإسلامية ولغتهم العربية . وقد أشار ريموند لول على شارل الثانى كونت انجو بأن يقوم بتنصير مسلمى لوجاره عن طريق الاقناع وشىء من

الضغط ، ثم إكراههم على اعتناق النصرانية إذا رفضوا ، وأن يعهد إلى المسلمين الذين يرتدون إلى النصرانية بمناصب ذات أهمية لإغراء الآخرين . زار لول بنفسه لوجاره سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤ م حاملاً رسالة من شارل الثانى كونت انجو إلى جيرار حاكم لوجاره يأمره بتسهيل مهمة لول ومناظرة مسلميها لتحويلهم إلى النصرانية ، وقد تم القضاء نهائيًا على أولئك المسلمين فتفرقوا أيدى سبأ فمنهم من فر إلى أفريقية ومنهم من سافر إلى المشرق أما الذين احتجزوا فقد جرى تنصيرهم كرهًا وأصبحت تلك المدينة مدينة نصرانية خالصة(٥٠) .

وقد ذهب ريموند لول لمقابلة البابا كلستين الخامس (١٢٩٤م) فى نابلى فى نوفمبر ١٢٩٤ م وعرض عليه برنامجه التنصيرى المفصل ، وطلب منه أن يتبنى ذلك البرنامج كسياسة تبشيرية جديدة تحت رعاية البابوية ، وأوضح لول للبابا أنه يجب التركيز أولاً على نشر النصرانية بين التتار ، لأنه يخشى أن يُستَمالوا من قبل أحد المسلمين ويصبحون بالتالى خطرًا على النصرانية(٥١) . وهذا يشير إلى أن لول أدرك قدرة دين الإسلام على الانتشار بين الأمم سيما الأمم الوثنية بحيث يصبح فى مقدور داعية واحد احتذاب أمة بكاملها إلى الإسلام ، إذا تمكن من إيصال دعوة الإسلام بصورتها الصحيحة إلى تلك الأمة . كذلك ناشد لول البابا وحرضه على تجريد حملة صليبية جديدة ، ليس لاسترداد الأراضى المقدسة فحسب ، بل يجب غزو كل البلاد الإسلامية بقوات مسلحة . غير أن البابا كلستين الخامس سرعان ما تخلى عن الكرسى البابوى فى ١٣ ديسمبر ١٢٩٤م واعتزل فى أحد الأديرة(٥٢) .

وبعد اختيار البابا الجديد بونيفيس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣ م) سار ريموند لول إلى روما ليعرض على البابا الجديد خططه وبرامجه ، وحين تمت المقابلة عرض مطالبه السابقة ، ولكى يستثير همة البابا شرح له ما أسماه بالتفوق العددى للكفار - ويقصد المسلمين - بالمقارنة مع النصارى ، وأنه ينبغى على الكنيسة أن تظفر بهم جميعًا وببلادهم وأن تدخلهم فى الدين الصادق - حسب زعمه - وشرح للبابا أن ذلك لن يتحقق إلا بتوفر ثلاثة شروط أساسية هى :

(أ) دراسة لغات تلك الشعوب والتبشير بالإنجيل بينهم بلغاتهم ذاتها .

(ب) حملة صليبية مسلحة ضد المسلمين لتمكين المنصرين من التوغل في بلادهم .

(جـ) تخصيص عشر موارد الكنيسة للاتفاق على هذا المشروع . وهذا كفيل بانجاحه . أما البيزنطيون وغيرهم من الطوائف النصرانية المنشقة عن كنيسة روما فيمكن التفاهم معهم بطريقة عقلية محضة لإثبات خطئهم - حسب رأيه(٥٣) - ويبدو أن نزاع البابا بونيفيس مع ملك فرنسا فيليب الجميل عرقل تنفيذ مشروع ريموند لول .

وفي سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢ م شرع ريموند لول في الإعداد لرحلته التنصيرية الأولى إلى تونس حيث زعم أنه سيرد على سقوط عكا بيد المسلمين بالتبشير بالنصرانية بين مسلمي شمال أفريقية . ويزعم زويمر أن لول أراد أن يظفر بالمسلمين بالحب وليس بالحرب ، وقد غادر باريس ومنها إلى جنوه ثم أبحر إلى تونس ونزل بها ، وقابل قاضي قضاة تونس ويدعى ابن عمار ودخل معه في مناظرات طويلة بهدف إقناعه بالنصرانية . وقد سجل لول أخبار تلك المناظرات في مذكرات نُشرت بعد وفاته بعنوان « المساجلة الدينية بين ريموند وابن عمار » ولكن يبدو من مناقشات ريموند أنها كانت فلسفية تقوم على التهجم على عقيدة التوحيد وعلى شخص النبي محمد ﷺ ، وتسفيه آراء المسلمين والانتقاص من عقيدتهم وزعمه أن عقيدته الكاثوليكية هي الصحيحة ، فشاع خبر تلك التخرصات بين المسلمين في تونس الأمر الذي أثار حفيظتهم وجرى القبض عليه ومحاكمته وصدر ضده حكم بالإعدام ولكن السلطان الحفصي أمر بطرده إلى بلاده، خوفًا من الأثر الذي سيحدثه قتله على علاقاته بالدول الأوربية . ولما أخذ إلى السفينة التي كانت ترسو في ميناء تونس للإبحار إلى جنوه تكاثر عليه الجمهور المسلم الغاضب وأخذ يرشقه بالحجارة وجرت اشتباكات بين الجمهور وبين الرجال الموكلين بحراسته و لم يصل إلى السفينة إلا بصعوبة . ولكنه كان مصممًا على العودة لينقذ أرواح المسلمين - بزعمه - وأنه سوف يجتذبهم إلى النصرانية ويدخلهم في حظيرتها(٥٤) .

وفى سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩ م قرر ريموند لول السفر إلى بلاد الشام حينما سمع بنبأ غزوها من جانب المغول ، وذلك لمقابلة خان غازان - الذى كان قد اعتنق الإسلام - ودعوته إلى الدخول فى النصرانية . ولكنه وصل متأخرًا فلم يستطع مقابلة غازان حيث انسحب المغول قبل وصوله . ثم توجه إلى قبرص وطلب من ملكها الصليبى هنرى الثانى دى لوزجنان أن يساعده فى مهمة تنصير المسلمين ، وزعم له أن خير وسيلة لتحويل المسلمين إلى النصرانية هى أن يكشف لهم - حسب تصوره - خطأ عقيدتهم(٥٥) . ولا تعطينا المصادر تفاصيل عن العمل الذى قام به لول مع ملك قبرص فى سبيل تحقيق هدفه بتنصير المسلمين . ولكننا نعلم أن ملك قبرص كان حينذاك على إلمام بأوضاع بلاد الشام فى تلك الحقبةوأنه كان قد تلقى رسالة من شيخ الإسلام ابن تيمية هى الرسالة المعروفة بالرسالة القبرصية وفيها شرح شيخ الإسلام عقيدة التوحيد التى هىعقيدة الإسلام، وأن الأنبياء جميعًا بُعثوا بدعوة واحدة هى التوحيد وأن لا معبود بحق إلا الله ، وأن النصارى انحرفوا عن عقيدة التوحيد واتبعوا القسيسين والرهبان وما أحدثوه من تحريف فى دين عيسى عليه السلام ، وأشار إلى التناقض الواقع فى عقائد النصارى - والعبادات التى ابتدعوها ثم قارن بين اليهود والنصارى ، وأشار إلى أن أمة محمد ﷺ هى الأمة الوسط . ودعا شيخ الإسلام ملك قبرص إلى أتباع الدين الحق وبحث الأمر بجد وسيجد أن ذلك سوف يفضى به إلى الإسلام ، كما أوصاه بإطلاق سراح الأسرى المسلمين الذين أسرهم القبارصة فى البحر غدرًا(٥٦) .

ويبدو أن ملك قبرص أطْلَعَ لول على رسالة شيخ الإسلام ، وكان ريموند لول - حينذاك - يجمع مادة كتبه ، فرد ريموند لول على رسالة شيخ الإسلام بأن بعث إليه بكتاب قديم ألّفه أحد علماء الكنيسة الشرقية ويدعى بولس الراهب أسقف صيدا الإنطاكى المتوفى سنة ١٥٤هـ / ٧٧٠م(٥٧) . وقد أشار شيخ الإسلام إلى هذا الكتاب الذى بعث به ريموند لول من قبرص إلا أنه لم يصرح باسم المرسل ، ورد شيخ الإسلام على ذلك الكتاب بكتابه الفريد « الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح » وقد صرح شيخ الإسلام بأن سبب تأليفه لكتابه

الجواب الصحيح أن كتابًا ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى ، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم قديمًا وحديثًا ، من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب ، وبيان الخطأ من الصواب لينتفع أولو الألباب ، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب . وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلاً فصلاً ، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعًا وأصلاً ، وعقدًا وحلاً . وما ذكروه فى هذا الكتاب هو عمدتهم التى يعتمد عليها علماؤهم فى مثل هذا الزمان ، وقبل هذا الزمان ، وإن كان قد يزيد بعضهم على بعض بحسب الأحوال ، فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بها موجودة قديمة وهى مضافة إلى بولص الراهب أسقف صيدا الأنطاكي ، كتبها إلى بعض أصدقائه وله مصنفات فى نصر النصرانية ... وقد عظّم هذه الرسالة وسماها : الكتاب المنطيقى الدولة خانى المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأى المستقيم "(٥٨) . ويتضح من نصوص كتاب بولس الانطاكى التى أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية أنها تحاول تشكيك المسلمين فى دينهم وإثبات صحة دين النصارى ، وهى الطريقة التى سار على منوالها ريموند لول . وقد فنّد ابن تيمية تلك الرسالة فصلاً فصلاً وأثبت أن جميع الأدلة التى يستدلون بها على صحة معتقدهم إنما هى أدلة تثبت فساد عقيدة النصارى وانحرافهم عن الدين الحق الذى بعث به سائر الأنبياء . وأثبت بالإدلة القاطعة صحة دين الإسلام وإنه الدين الحق الذى لا يقبل الله تعالى غيره(٥٩) .

ولم تتمخض جهود ريموند لول ورحلته إلى الشرق عن نتائج عملية لصالح النصارى ، فدولة المماليك حينذاك كانت فى أوج قوتها فى مصر والشام وفيها الكثير من العلماء الأفذاذ أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه . إضافة إلى أن الجيش المغولى تعرض للهزيمة مرة أخرى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣ م فى مرج الصفر خارج دمشق(٦٠) .

عاد ريموند لول إلى أوربا وشرع فى تأليف كتابه النهاية Liber de Fine ، وانتهى من كتابته فى إبريل ١٣٠٥ م . وقد أورد فيه آخر ما توصل إليه من آراء

بناءً على رحلاته ومقابلاته وما جمعه من معلومات . ويتكون الكتاب من فصل تمهيدى وثلاثة أبواب ، وفيها يصيغ لول خططه وبرامجه لتنصير المسلمين وتحويلهم عن دينهم وتدمير عقيدتهم . وقد بدأ كتابه بالتفجع والرثاء لحالة العالم الذى لا يشكل فيه النصارى سوى القليل بينما الكفار - بزعمه - هم الأكثر ، وأعدادهم تزداد وأقاليمهم تتوسع عن طريق ما أسماه اغتصاب الأقاليم المقدسة التى هى الحق الشرعى للنصارى - حسب زعمه - وكان فى كل كلامه يوجه النداء إلى البابوية والكرادلة ، والملوك ، والأمراء الأوربيين لتنفيذ مقترحاته ، حتى يتمكن من اجتذاب كل أمم الأرض إلى حظيرة المذهب الكاثوليكى(٦١) .

أما الفكرة العملية التى كانت قد سيطرت على ريموند لول منذ وقت مبكر فهى الدعوة لتعليم اللغة العربية للرهبان المنصرين . فقد تمكن هو من اتقان اللغة العربية فتحدث بها بطلاقة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تمكن من الترجمة منها وترجم بعض مؤلفاته إليها . ولذلك نجح فى إقناع ملك أراجون جيمس الأول بمساعدته فى إنشاء مدرسة ميرامار لتعليم اللغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية وذلك سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦ م فى جزيرة ميورقة والتى يمكن اعتبارها أول مدرسة فى الغرب الأوربى لدراسة اللغة العربية . كذلك حصل من البابوية على الموافقة بإنشاء مدرسة أخرى فى روما(٦٢) . ولذلك نجد لول فى كتاب النهاية يفرد فصلاً سماه " محاجة الكفار " يعنى المسلمين واليهود والمنشقين عن الكنيسة ، والتتار أو الوثنيين ، ودعا إلى إنشاء أربعة أديرة لتعليم اللغات الشرقية يتعلم بها الرهبان الذين سيذهبون فى بعثات تنصيرية ، وهذا سيمكن المنصر من أن يتحادل مع الشعوب المختلفة بلغاتها الخاصة ويتفادى سوء فهم المترجم(٦٣) .

وحث ريموند لول النصارى للعمل بالسيفين ، سيف التنصير ، وسيف الحرب ، وأنه يجب العمل بهما معًا ضد المسلمين ، حيث زعم أن تجريد حملة حربية صليبية ضد المسلمين يوفر للسيد المسيح السعادة الجسدية بينما إرسال جيش المنصرين إليهم يوفر له السعادة الروحية(٦٤) .

وفى القسم الثانى من كتابه النهاية الذى جعل عنوانه « طريقة الحرب » عرض لول خططه الحربية لنجاح الحملة الصليبية المصحوبة بجيش المنصرين ، فدعا فى هذا الفصل إلى أن يكون قائد الحملة الصليبية ملكًا منتخبًا من قبل البابا والكرادلة وأن تتوحد تحت إمرته جميع منظمات الرهبان الدينية والحربية(٦٥) . كما ينبغى على البابا والكرادلة أن يتنازلوا عن عشر دخل الكنيسة ، فيستخدم ثلثا ذلك المبلغ لتجهيز الجيش . ويستخدم الثلث الباقى فى مساعدة الرهبان المنصرين الذين يصحبون الجيش إلى بلاد المسلمين . وضمَّن لول هذا القسم من كتابه آراءه عن تنظيم الجيش وكميات المؤن الغذائية والمواد الحربية ، والتعليمات التى ينبغى أن يلتزم بها المنصرون المرافقون للجيش(٦٦) .

وقد عرض ريموند لول خمسة طرق لمسير الجيش الصليبى يمكن من خلالها شن الحرب على العالم الإسلامى وانتزاع الأراضى المقدسة ، ومن ثمة تحويل المسلمين إلى النصرانية عن طريق المنصرين المرافقين للجيش وتلك الطرق هى :

الأول : عبر أراضى الامبراطورية اليونانية (البيزنطية) وتركيا وأرمينية الصغرى ومن ثم إلى بلاد الشام ، غير أن لول أوضح أن هذا الطريق طويل وباهظ التكاليف وتكتنفه الأخطار(٦٧) .

الثانى : عن طريق جزيرة رشيد الواقعة شرقى الإسكندرية وهى مرفأ أمين للسفن يمكن للفرسان انتزاعها بسهولة واتخاذها قاعدة للإنطلاق منها إلى البر وشن الهجوم ، وهذا الطريق كما يرى لول طويل ومكلف جدًا(٦٨) .

الثالث : طريق بحرى إلى قبرص ثم أرمينية الصغرى (قيليقية) وهذا الطريق أيضًا طويل ويتطلب مقاتلين فى البر والبحر ، إضافة إلى أن هذه البلاد لا تملك الوسائل الكافية لتزويد الجيش والأسطول بالمؤن(٦٩) .

الرابع : الطريق إلى تونس ، والتى كانت قد اُختبرت وأفضت إلى الفشل بواسطة تجربة لويس التاسع الأخيرة(٧٠) .

الخامس : وهو الطريق الذى يعتبره لول أكثر ميادين القتال ملائمة للصليبيين وهو الذى يمكن أن يحققوا عبرة أفضل النتائج فى حرب المسلمين . ويبدأ بطرد المسلمين من الأندلس ، ثم يعبر الصليبيون بحرًا ضيقًا هو جبل طارق إلى شمال أفريقية ، ويشرح ميزات هذا الطريق بأن المريّة ومالقة وغرناطة تقع كلها فى الأندلس ، وموقع غرناطة موقع فريد يسهل السيطرة عليه فهى مطوقة بمياه البحر وبمملكتى قشتالة وأراجون ، ومن الصعب على المسلمين أن يقدموا لها المساعدة . وفوق ذلك فإن الأندلس منطقة خصبة ولديها وفرة فى الخيول ، وكل ذلك فى متناول الصليبيين ، ويستطيع قائد الجيش أن ينتزع بقية بلدان الأندلس قلعة وراء قلعة، ومدينة تلو مدينة . وأن هذا أمر فى غاية السهولة ، وما أن تصبح الأندلس برمتها فى قبضة الصليبيين حتى يصبح فى مقدورهم عبور جبل طارق للانقضاض على البربر فى عقر دارهم ، وأن يبدأ الصليبيون بالاستيلاء على سبتة ثم التحرك تدريجيًا عبر الساحل باتجاه تونس ؛ وفى الوقت نفسه يستطيع الأسطول الصليبى أن يتخذ من جزيرتى مالطة وردوس الخاضعتين للصليبيين قاعدتين لمساعدة الحملة، ومن ثم استرداد الأراضى المقدسة والاستيلاء على مصر(٧١) .

وفى القسم الرابع من كتابه Liber de Fine يقدم لول اثنتى عشرة نقطة فى مخططه العسكرى لو طبقها النصارى لتفوقوا على المسلمين على حد تعبيره . وأبرز تلك النقاط :

(أ) ضرورة قيام الملوك بواجب إمداد الجيش بالقوة العسكرية اللازمة .

(ب) الاستعداد الدائم للقوات المتمركزة على حدود البلاد الإسلامية للتحرك السريع(٧٢) .

(جـ) أن تقوم القوادس(٧٣) بقطع كل أمَل فى أية نجدة قادمة للمسلمين من وراء البحر .

(د) وفيما يتعلق بآلات الحرب ومن أهمها السهام التى يستخدمها النصارى، فيجب أن تكون على درجة من الكفاية تفوق كفاءة آلات المسلمين الحربية .

وضرورة استخدام الأخشاب المتينة الصالحة لصناعة الحراب والرماح التى تشتهر بها قطالونيا وأراجون وقشتالة ، وتوفير المؤن والحديد وغير ذلك . ومن ناحية أخرى لم يغب عن لول فى تلك النقاط أن ينبه النصارى الغربيين إلى أن المسلمين يتميزون على خصومهم بنظامهم القتالى الذى ينفذونه بصرامة ، وامتلاكهم القوس التركى المعروف بجودته ، وتمرسهم فى نصب الكمائن وفن الالتفات فى حروبهم حول عدوهم(٧٤) . وهى الطريقة التى برع المسلمون فيها منذ فجر الحروب الصليبية فى قتالهم ضد الصليبيين . وكل هذه الإرشادات التى أوردها لول تدل على براعته ونضوج فكره العسكرى وكأنه أحد القادة العسكريين الذين خاضوا حروبًا طويلة .

وأوضح لول بعض الأعمال العسكرية التى ينبغى على الصليبيين أن يقوموا بها فعلى قائد الحملة أن يعين فارسًا موثوقًا فيه من جيشه فى منصب أمير البحر الذى يقع على عاتقه قيادة الأسطول والعمليات البحرية ضد المسلمين ، واعتراض طرق المواصلات البحرية التى تتيح اتصالهم بالنصارى المزيفين الذين يعارضون قرارات الكنيسة(٧٥) . ويقصد لول بأولئك النصارى المزيفين البنادقة والبيازنة والجنوية الذين كانت لهم علاقات ومصالح تجارية مع المسلمين ويحرصون على مصالحهم أكثر من حرصهم على تنفيذ أوامر الكنيسة . كما يجب أن تحمل السفن مائة فارس بخيولهم ، ومائة وخمسين رجلاً من رماة السهام وألفًا من المشاة، يجرى استخدامهم لتأمين نزول ناجح فى الأقاليم المعادية بحيث يمكن تجهيز مكان للمعركة يستوعب الفين من الخيالة أو أكثر . وفى هذه الحالة يمكن - حسب تصوره - تدمير جميع مدن المسلمين الساحلية ، ويستطيع القائد البحرى الحصول على المؤن والإمدادات من رودس ومالطة(٧٦) .

أما عن جيش المنصرين المرافق للحملة الصليبية فيجب أن يتوافر لديهم وعّاظ لهم مهارة فائقة وقدرة على الإقناع ، ويجب أن يكون لدى المنصرين رجال يعرفون القانون والطب والجراحة بحيث يمكنهم القيام بمتطلبات الرهبان ، فيهتمون

بالمرضى والجرحى ، وينبغى على سائر المنصرين فى الجيش أن يتعلموا العربية حتى يتقنوها وأن يدرسوا بصفة خاصة المؤلفات التى صنفها فيلسوف العرب الكندى لكى يثبتوا - على حد تعبير لول - بطلان دين محمد ﷺ . وهذا سوف يتيح لهم أن يفهموا مراسلات الحرب السرية للكفار - ويقصد المسلمين - والقيام بمناظرات ناجحة مع الأسرى الذين يمكن إذا اعتنقوا النصرانية منحهم الحرية للعودة إلى بلادهم والعمل على تغيير عقيدة المسلمين(٧٧) .

وإذا كانت ظروف أوربا والبابوية حينذاك - مثل انتقال البابوية إلى افنيون وهو ما عرف باسم الأسر البابلونى ، وظهور النزاعات الكثيرة فى أوربا - لم تساعد على تحقيق خططه العسكرية لاجتياح بلاد المسلمين ، فإن الدول الأوربية نفذت العديد من تلك الخطط فى مهاجمتها لبلاد المسلمين إبان القرون التالية .

وفى سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م ، أى بعد رحلته الأولى بخمس عشرة سنة أبحر ريموند لول للمرة الثانية إلى شمال أفريقية لمواصلة عمله التنصيرى ، ولمحاولة إقناع المسلمين لا سيما البربر باعتناق النصرانية ، وحينما وصل إلى بجاية بالجزائر اتصل بالعلماء المسلمين فوافقوا على مناقشته للوصول إلى الحقيقة فيما يتصل بالدين الحق . وحدد قاضى المدينة موعدًا ومكانًا لمناقشته . وعقدت الجلسة ودار النقاش باللغة العربية ، التى كان لول يتحدث بها بطلاقة . وانتهت الجلسة بسخط أهالى بجاية الذين حضروا النقاش بسبب تعصب لول ، وتهجمه على عقيدة الإسلام ونبى الإسلام محمد ﷺ ، وإصراره على مواقفه ، وعدم اقتناعه بالحقائق الناصعة التى بسطها علماء المسلمين أمامه ، وزعمه الباطل أن الحق إلى جانبه ، وتسفيهه لحجج وآراء العلماء المسلمين . وتحفظت عليه السلطات الحفصية فى السجن لحمايته من سخط الجماهير الغاضبة إلى حين صدور الحكم عليه وقد صدر الحكم عليه بإدانته وسجنه ستة أشهر لإساءته إلى الإسلام والمسلمين . على أنه عومل فى السجن معاملة طيبة ، بل وتمكن أثناء سجنه من إجراء مناقشات كتابية مع أحد

فقهاء المسلمين يدعى عمر . وبعد انتهاء مدة العقوبة قرر حاكم بجاية أبو البقاء خالد الحفصى طرده من البلاد وفى طريق عودته إلى إيطاليا غرقت السفينة التى كان يستقلها على بعد عشرة أميال من بيزا ولكنه نجا بأعجوبة بعد أن فقد جميع كتبه وحاجياته التى كانت معه(٧٨) .

وبناء على مناظراته مع المسلمين فى بجاية قام ريموند لول مرة أخرى بتنقيح ومراجعة القسم الأول من كتابه النهاية وهو القسم الذى عنوانه « محاجة الكفار » وفى هذا القسم المنقح ذكر أن اليهودية ديانة طيبة بقدر ما هى الأساس للنصرانية ، وأن النصرانية - حسب زعمه - أفضل لأنها ديانة أكثر كمالاً . ثم بعد ذلك أبدى مزاعمه حول الإسلام وتهجمه على شريعة محمد ﷺ ، التى يعتبرها مزيفة وخاطئة ثم وضع بعد ذلك الحلول والوسائل التى رآها كفيلة بالتفوق على المسلمين ومن ثمة تنصيرهم وتدمير عقيدتهم ، وتتمثل هذه الوسائل فى ثلاثة أمور هى :

(أ) تأسيس أربعة أو خمسة أديرة لتعليم مختلف اللغات وبخاصة العربية ، والتخصص فى أعمال التنصير لجذب أكبر عدد ممكن من سكان العالم إلى النصرانية .

(ب) توحيد سائر المنظمات الدينية والحربية النصرانية للعمل وفق خطة مشتركة .

(جـ) تخصيص عشر دخل الكنيسة لهذا الغرض .

وأضاف أن ملك أراجون جيمس الثانى أرسل إلى البابا رسالة يعده فيها بأن يضع شخصه وأرضه وجيشه وثروته تحت إمرته لمحاربة المسلمين . وأرسل لول الرسائل مرة أخرى إلى سائر ملوك وأمراء أوربا يطلب منهم المساعدة وجمع الأموال لإخراج هذا المشروع إلى حيز الوجود(٧٩) .

وقدّم ريموند لول مشروعه مرة أخرى إلى مجمع فينا الذى انعقد فى سنة ٧١١ هـ/١٣١١ - ١٣١٢م حيث حضر لول جلسات المجمع وجدد دعوته إلى

القيام بحملة صليبية وإلى العمل على تنصير المسلمين . وقد شاهد مشروعه يتكلل بالنجاح جزئيا عندما قرر هذا المجمع الذى رأس البابا كلمنت الخامس جلساته إنشاء خمسة كراسى لتدريس العربية والعبرية واليونانية فى خمس جامعات كبرى من الجامعات الأوربية ، وهى جامعة البلاط البابوى فى روما . وجامعة باريس فى فرنسا ، وجامعة اكسفورد فى إنجلترا ، وجامعة بولونا فى إيطاليا ، وجامعة شلمنقة فى أسبانيا . وهذا القرار يدل على أن البذور الأولى للاستشراق بدأت بين أحضان الكنيسة الكاثوليكية ومؤسساتها فى غرب أوربا(٨٠) .

عاد ريموند لول مرة أخرى إلى شمال أفريقية ، رغم فشله فى المرتين السابقتين أمام تمسك المسلمين فى هذه البلاد بدينهم الحق وثباتهم عليه ، ورفض كل محاولة للنيل منه وكانت عودة لول للمرة الثالثة والأخيرة إلى شمال أفريقية سنة ٧١٥ هـ/ ١٣١٥م أى بعد ثمان سنوات من رحلته الثانية . وقد تزود فى هذه المرة بخطاب توصية من جيمس الثانى ملك أراجون لسلطان تونس الحفصى ابن اللحيانى (٧١١ -٧١٧هـ / ١٣١١ - ١٣١٧ م) فسمح له السلطان الحفصى بأن يعيش حياة هادئة فى تونس بشرط ألا يجاهر بعمله التنصيرى وألا يثير الشعب أو يمس مشاعر المسلمين . ولكن لول شرع يدعو إلى النصرانية ، ثم اتجه إلى بجاية بالجزائر ، حيث سبق له أن أثار شعور المسلمين سابقًا ، وما أن وصل إلى بجاية فى السنة نفسها حتى اكتشف المسلمون أمره ورجموه بالحجارة على الساحل فى السابع عشر من ربيع الأول ٧١٥هـ/٢١يونية ١٣١٥م ، وأدركه تاجران جنويان وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فحملا جثته وأبحرا به إلى بالما فى جزيرة ميورقة حيث دُفن فى كنيسة هناك وقد بلغ من العمر زهاء ثمانين سنة(٨١) وبذلك تحقق له من المبادىء التى وضعها لاتباعه قوله : « إن مهمة الرهبان الفرنسيسكان لا تقتصر على الدعوة السلمية فحسب بل المستبسلة إلى حد الاستشهاد ضد العقيدة الإسلامية وتعاليمها »(٨٢) .

على أن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو لماذا ركز ريموند لول جهوده التنصيرية على شمال أفريقية دون غيرها من بلدان العالم الإسلامى ؟ يبدو أن لول أدرك أهمية شمال أفريقية وقربها من الغرب الأوربى ، حيث تصور أنه إذا تم تنصير المسلمين فى شمال أفريقية فستصبح تلك البلاد بلدانًا مسيحية ، وبالتالى تصبح صديقة للغرب الأوربى الكاثوليكى بحيث يمكن للجيوش الصليبية الأوربية أن تزحف عبر شمال أفريقية للإطباق على دولة المماليك وكانت تشكل حينذاك قوة الإسلام الضاربة - للقضاء عليها ، ومن ثمة استرداد الأراضى المقدسة فى بلاد الشام بحيث يمكن بعد ذلك التحالف مع التتار وإزالة الإسلام من الوجود . لذلك لا نعجب إذا كانت بلدان الشمال الأفريقى هى أولى البلاد الإسلامية بعد الأندلس التى اتجهت إليها أنظار الغرب الأوربى بغية الاستيلاء عليها والقضاء على الإسلام فيها فتوجهت إليها الحملات الصليبية خلال القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى ، والقرون التالية .

* * *

وبعد ، فقد ألّف ريموند لول مؤلفات ورسائل كثيرة جدًا حتى أن أحد كتاب سيرته أحصاها فبلغت أربعة آلاف عمل(٨٣) . على أن معظمها قد ضاع ، وكانت كتاباته باللغات اللاتينية والقطالونية والعربية(٨٤) . ويقال أن ألفًا منها كان موجودًا فى القرن الخامس عشر الميلادى على أنه لم يكن معروفًا منها سنة ١٧٢١م سوى ٢٨٢ عملاً . وقد جُمع منها ٤٥ عملاً فى عشرة مجلدات ، وظهر منها المجلدان السابع والثامن ، ولا يزال الكثير منها موزعًا بين مكتبات عديدة(٨٥) . ومن كتبه كتاب بعنوان « الرد على اليهود » نشره مع مقدمة وتعليقات خوسيه ماريا مياس . ولكن الكتاب لا يقتصر - كما يظهر من عنوانه - على الرد على اليهود بل يشمل الرد على المسلمين ، ويتكون الكتاب من عدد

كبير من الفصول ، وفى الفصل السادس مناقشة لعقيدة التوحيد فى الإسلام وهى عبارة عن افتراءات وترهات فلسفية يبدو أنها مستمدة من آراء يوحنا الدمشقى وبولس الإنطاكى أسقف صيدا يحاول أن يثبت من خلالها أن العقيدة النصرانية هى الصحيحة(٨٦) . ولكن حسب ريموند لول أن كافة جهوده ومحاولاته التنصيرية باءت بالفشل الذريع .

وجميع كتب ريموند لول يظهر فيها الأثر العميق للمتصوفة المسلمين سيما محى الدين بن عربى وابن سبعين المرسى وغيرهما . وقد درس ذلك التأثير المستشرقان الأسبانيان خوليان ريبيرا وأسين بلاثيوس . كما ولع بالجدل فى كتبه واستخدم القصص فى عرض آرائه ويظهر فى ذلك متأثرًا بالمجموعات القصصية العربية مثل كليلة ودمنة . ومن كتبه « الكافر والعلماء الثلاثة » الذى ألّفه بالقطالونية وترجم إلى عدة لغات وفيه عرض وجهة نظره فى الديانات الثلاث المسيحية واليهودية والإسلام(٨٧) .

* * *

ومن ناحية أخرى فإن الخطط التى وضعها ريموند لول لتنصير المسلمين أصبحت هى المنهاج والدستور الذى سار عليه المنصرون بعده عن طريق التعليم والتدريس وعن طريق الأعمال الإنسانية كالمستشفيات والمؤسسات الخيرية ونحو ذلك مما نجد جذوره فيما وضعه ريموند لول من مناهج وأسس واقتراحات . هذا مع ملاحظة أن تلك الأعمال التى أرسى قواعدها ريموند لول لم تثمر إلا فى الشعوب الوثنية التى تمثل المادة الخام ، من السهل تشكيلها وإكسابها الطابع المطلوب .

الهوامش

(1) Painter, Sidney: A history of the Middle Ages 284 - 1500 . London, 1976, p.290.

(٢) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى حـ١ ص٢٣١ ؛ وانظر عن معركة العقاب : عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص٤٩٠ - ٤٩٧ .

(٣) فشر ، حـ١ ، ص٢٣١ - ٢٣٢ ؛ Painter: op. cit. pp. 290 - 294;

(٤) فشر : حـ١ ص٢٣٨ .

(5) Austin, P. Evans : The Albigensin Crusade in Setton, A History of the Crusades, Vol. 2, London, 1969 pp. 277 - 324.

(٦) فشر : حـ١ ص٢٣٧ - ٢٣٨ ؛

(7) The Cambridge Medieval History, Volume VI Victory of the Papacy, London, 1980. p. 727.

(8) Ibid. pp. 727 - 738.

(٩) فشر : حـ١ ص٢٣٤ - ٢٣٥ .

(١٠) المرجع السابق حـ١ ص٢٣٥ ، وانظر نص الإصحاح فى الكتاب المقدس أنجيل متى ، الإصحاح العاشر ٦ - ١٠ .

(١١) فشر : حـ١ ص٢٣٥ .

(١٢) فشر : حـ١ ص٢٣٥ - ٢٣٦ .

(١٣) فشر : حـ١ ص٢٣٦ - ٢٣٧ .

(١٤) فشر : حـ١ ص٢٣٧ - ٢٣٨ ؛

Zwemer, Samuel, M,D,D,F,R,G,S: Raymund Lull First Missionary to the Moslems, London, 1902. p.13.

(١٥) فشر : حـ١ ص٢٣٩ ؛

The Cambridge Medieval History, Vol. VI, pp. 736 - 762 .

(16) Zwemer:op. cit. p. 14.

(١٧) ابن الأثير : الكامل حـ١٢ ص ٣٢٠ - ٣٢٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ٣ ص٢٥٤ - ٢٥٧ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان حـ٨ ، ص٥٨٣ - ٥٨٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ، حـ٥ قسم ١ ص٢١٩ - ٢٢٢ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص١٠٢ - ١٠٣؛ ابن أيبك : كنز الدرر ، حـ٧ ص١٩١ - ١٩٢ ؛ المقريزى : السلوك ، حـ١ ص١٨٦ - ١٨٧.

(١٨) محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، ص١٨٨ .

(١٩) ابن الأثير : الكامل جـ١٢ ص٣٢٣ - ٣٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ، ص٢٥٢ ، جـ٤ ص٩٤ - ٩٦ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص٦٠٤- ٦٢٠ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص٩٢٤ - ٩٣٨ .

(20) Van Cleve, Thomas, C : the Fifth Crusade, in Setton, A History of the Crusades, Vol.2pp. 415 - 416; Runciman, Steven: A History of the Crusades, Cambride, 1966, pp. 159- 160;

محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ص٥٠ - ٥١ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص٣٠٥ - ٣٠٧.

(٢١) أحمد دراج : وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، ص٢١ - ٢٥ .

(٢٢) أحمد دراج : المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر الميلادى ، ص١٢ .

(23) Cahen, Claud : La Syrie du Nord Al, Epoque des Croisades, Paris, 1940 , pp. 680 - 681 .

(٢٤) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ، جـ٣ ، ص١٧ .

(٢٥) المرجع نفسه ، ص١٦ .

(26) Runciman ; op. cit. Vol. 3, pp. 258 - 259 .

(27) Conder, C.R the Latin Kingdom of Jerusalem, 1099 - 1291 A.D. London, 1897. p.360; Runciman: op. cit. Vol.3 ,pp. 259 - 260

(28) Conder: op. cit. p. 370; Runciman: op. cit. Vol. 3, p 260 .

(29) Lamb, Harold: the Crusades, The Flame of Islam, London, 1931. p. 393 Conder : op. cit. pp 371 - 375 .

(30) Conder: op. cit. p. 376.

(31) Atiya, Aziz, S: The Crusade in the Later Middle Ages, New York, 1970, p.250

(32) Ibid. P.89 .

(٣٣) عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ٢ ص٣٣ .

(34) Zwemer : Raymund Lull First Missionary to the Moslems. P.XI .

(35) Zewemer : op. cit. pp. X - XII .

(36) Ibid . p. XXI.

(37) Ibid . p. XXII.

(38) Atiya : op. cit. p. 77.

(39) Ibid . p. 74.

(40) Zwemer : op. cit. pp. 19 - 28.

(41) Ibid . p. 31 .

(42) Atiya: op. cit. p. 74

(43) Ibid . p.75.

(44) Fine, J : Who's Who in the Later middle Ages, London, 1970. p. 155; Atiya: op. cit. p. 75.

(45) Atiya: op. cit. p 75.

(46) Ibid .

(47) Zwemer: op. cit. pp. 52-53.

(48) Atiya: op. cit. p . 75.

(٤٩) ابن وصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ص٢٤٨ .

(50) Egidi, p: Codice diplomatice dei Saraceni di Lucera 1235 - 1343, Naples, 1917. p33;

على العواجي : جهاد المسلمين ضد الصليبيين في المغربين الأدنى والأوسط ص٩٠ - ٩١.

(51) Atiya : op. cit. p.76.
(52) Ibid .
(53) Atiya : op. cit. pp.76-77
(54) Zwemer : op. cit. pp. 80 - 96 .

برنشفيك : تاريخ أفريقية في العهد الحفصي ، جـ١ ، ص٤٩١ .

(55) Atiya : op. cit. pp. 90-91.

(٥٦) انظر : شيخ الإسلام ابن تيمية : الرسالة القبرصية ، تقديم وتحقيق على السيد صبح المدنى ، ط القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(٥٧) عن بولس الأنطاكى انظر : يوسف الدبس : تاريخ سورية ، ط بيروت ١٩٠٠م المجلد الخامس ، جـ٣ ص٢٦٢ - ٢٦٣ ؛ منير الخورى : صيدا عبر حقب التاريخ من ٢٨٠٠ ق.م إلى ١٩٦٦م ، بيروت ١٣٥ - ١٣٦ .

(٥٨) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، تحقيق على بن حسن بن ناصر ، عبد العزيز إبراهيم العسكر، حمدان بن محمد الحمدان، الرياض ١٤١٤هـ ، جـ١ ، ص ٩٨ - ١٠١.

(٥٩) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص١٠١ وما بعدها .

(60) Atiya : op. cit. p . 91.
(61) Fine : op. cit. p. 157; Atiya : op. Cit. p. 77.
(62)) Fine : op. cit. p. 156; Atiya : op. Cit. p. 89;

أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص١٠٤ .

(63) Atiya : op. cit. pp. 77-78.
(64) Gottron, A: Raman Lulls Kreuzzugsideen in Abhanslungen zur Mittleren und Neueren Geschichte, ed. G.V. Below, H. Fink U.F Meinecke, Heft 39. Berlin and Leipzig, 1912, pp. 70-73.

(٦٥) المقصود بالمنظمات الدينية الرهبان غير المحاربين مثل الفرنسيسكان والدومنيكان ، والمقصود بالمنظمات الحربية الرهبان المحاربين مثل الداوية والاسبتارية والفرسان التيوتون .

(66) Gottron : op. cit. p. 73-74; Atiya : op. Cit. p .78-79.
(67) Gottron : op. cit. p. 80; Atiya : op. Cit. p . 79.
(68) Gottron : op. cit. p. 80; Atiya : op. Cit. p .79-80.
(69) Gottron : op. cit. p. 80; Atiya : op. Cit. p .80.
(70) Gottron : op. cit. p. 81; Atiya : op. Cit. p .80.
(71) Gottron : op. cit. p. 80; Atiya : op. Cit. p .80-81.

(72) Gottron : op. cit. p. 81; Atiya : op. Cit. p .81; Runcim:op. cit. vol 3. pp. 431 - 432.

(٧٣) القوادس ، مفردها قادس ، وهى سفينة بحرية كبيرة تشبه البارجة انظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قلس ؛ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص٣٦٢ .

(74) Gottron : op. cit. p. 81-84; Atiya : op. Cit. p .81.

على العواجى : جهاد المسلمين ضد الصليبيين فى المغربين الأدنى والأوسط فى القرن الثامن الهجرى ص٧٨ .

(75) Gottron : op. cit. p. 84; Atiya : op. Cit. p .81.

(76) Gottron : op. cit. p. 85; Atiya : op. Cit. p .81-82.

على العواجى : جهاد المسلمين ضد الصليبيين فى المغربين الأدنى والأوسط ص٧٨.

(77) Gottron : op. cit. p. 88; Atiya : op. Cit. p. 83.

(78) Zwemwr : op. cit. pp. 104 - 112; Atiya : op. Cit. p .91-92;

على العواجى : جهاد المسلمين ضد الصليبيين فى المغربين الأدنى والأوسط ص٨١-٨٢ .

(٧٩) على العواجى : المرجع السابق ص٨٢ ؛ Atiya : op. cit. p .93 ;

(٨٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : مراجعات لكتابات بعض المستشرقين المحدثين عن الإسلام وحضارته، فى كتاب بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته، القاهرة ١٩٨٧م ص١١- ١٢؛
Zwemer : op. cit. pp. 77-79.

(81) Zwemer : op. cit. pp. 132 - 146; Atiya : op. Cit. p .83-94;

على العواجى : المرجع السابق ص٨٤ - ٨٥ .

(82) Fine : op.cit. p. 156.

(83) Zwemer : op. cit. p. 157.

(84) Ibid.

(85) Ibid.

(86) Lull, Raymund: El Liber Pridicationis Contra Judaeos Primera Edicion Critica con Introduccion Yontas Por Jose Ma Millas Vallicrossa (Consejo Superior de Invesigacines Cientificas Instituto Arias Manano) Madrid - Barcelona 1957.

(٨٧) أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص١٠٥ .

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمترجمة :

- **أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية** : دراسة بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) القاهرة ١٩٧٠ م .
- **ابن الأثير** (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) :
الكامل فى التاريخ ، طبعة بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦ م عن طبعة ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦م .
- **أحمد دراج :**
١ - المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر الميلادى القاهرة ١٩٦١ م .
٢ - وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، القاهرة ١٩٦٨م .
- **ابن أيبك الدواداري** (أبو بكر عبد الله بن أيبك ، ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م) :
كنز الدرر وجامع الغرر . الجزء السابع وعنوانه ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب . تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م .
- **برنشفيك** : تاريخ أفريقية فى العهد الحفصى من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م. ترجمة حماد الساحلى ، بيروت ١٤٠٧هـ .
- **ابن تيمية** (أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ، ت٧٢٨هـ/١٣٢٨م):
١ - الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ، تحقيق على بن حسن بن ناصر ، عبد العزيز بن إبراهيم العسكر ، حمدان بن محمد الحمدان ، الرياض ١٤١٤هـ .
٢ - الرسالة القبرصية « رسالة من ابن تيمية إلى ملك قبرص » القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٣ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .
- **جوزيف نسيم** : العدوان الصليبى على بلاد الشام ، جـ٣ ، هزيمة لويس التاسع فى الأراضى المقدسة ، بيروت١٩٨١م.
- **سبط ابن الجوزى** (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى التركى الشهير بسبط ابن الجوزى ت ٣٥٤هـ/١٢٥٦) :
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، جـ٨ حيدر أباد ١٣٧٠هـ/١٩٥١م
- **سعاد ماهر** : البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ١٩٦٧م .
- **سعيد عبد الفتاح عاشور** :
١ - الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ١٩٧٨م .
٢ - مراجعات لكتابات بعض المستشرقين المحدثين عن الإسلام وحضارته ، فى كتاب بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ، القاهرة ١٩٨٧م .
- **أبو شامة** (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) :
الذيل على الروضتين ، بيروت ١٩٧٤م .
- **عبد الرحمن الجيلالى** : تاريخ الجزائر العام ، الجزائر ١٩٦٥م .
- **عبد الرحمن على الحجى** : التاريخ الأندلسى ، بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .
- **عبد الله الترجمان الأندلسى** : (كان اسمه قبل إسلامه انسلم تورميدا ، ت٨٢١هـ/ ١٤٢٠م) : تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب ، تحقيق محمود على حماية ، القاهرة ١٩٨٤م .
- **على بن محمد العواجى** : جهاد المسلمين ضد الصليبيين فى المغربين الأدنى والأوسط فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، رسالة ماجستير لم تطبع ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٤١١هـ/١٩٩٠م .
- **ابن الفرات**(ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن على ، ت٨٠٧هـ/١٤٠٤) : تاريخ ابن الفرات ، جـ٥ قسم ١ تحقيق حسن محمد الشماع ، البصرة ١٣٨٩ - ١٣٩٠هـ/ ١٩٦٩م - ١٩٧٠ .

- **فشر . هـ . أ . ل** : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، نقلـه إلى العربيـة محمـد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٩ .
- **محمد مصطفى زيادة** : حملة لويس التاسع علـى مصـر وهزيمته فـى المنصـورة ، القاهرة ١٣٨١هـ/١٩٦١م .
- **محمود سعيد عمران** : الحملة الصليبية الخامسـة « حملـة جـان دى بريـين علـى مصر » ٦١٥ - ٦١٨ هـ /١٢١٨ - ١٢٢١م الإسكندرية ١٩٧٨م .
- **المقريزى** (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القـادر ، ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة جـ١ القاهرة ١٩٥٦م.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الديـن محمـد بن مكـرم الأفريقـى المصـرى ، ت ٧١١ هـ) : لسان العرب ، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- **منير الخورى** : صيدا عبر حقب التاريخ ، بيروت ، ١٩٣٠م .
- **ابن واصل** (جمال الدين محمد بن واصل ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٣ تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠م ، جـ٤ تحقيق حسنين محمد ربيع القاهرة ١٩٧٢م .
- **يوسف إلياس الدبس** : تاريخ سورية ، بيروت ١٩٠٠م .

ثانيًا : المصادر والمراجع الأجنبية :

- **Atiya, Aziz, S :** The Crusade in the Later Middle Ages, New York, 1970.
- **Austin, P. Evans :** The Albigensin Crusade, in Setton, A History of the Crusades, Vol. 2, London, 1969
- **Cahen, Claud:**La Syrie du Nord Al, Epoque des Croisades, Paris, 1940 .
- The Cambridge Medieval History, Volume VI Victory of the Papacy , London, 1980.
- **Conder, C.R :** The Latin Kingdon of Jerusalem, 1099 - 1291 A.D London, 1897.

- **Egidi, P** : Codice Diplomatice dei Saraceni di Lucera 1343, Naples 1917.

- **Fine,J :** Who's who in the Later Middle Ages, London, 1970.

- **Gottron' A :** Ramon Lulls Kreuzzugsideen in Abhandlungen Zur Mittleren und Neveren Geschichte, ed. G.V. Below, H. FinkeU.F. Meirecke, Heft 39, Berlin and Leipzig, 1912.

- **Lamb, Harold :** The Crusades, The Falme of Islam, London, 1931

- **Lull, Raymund :** Eliber Predications Contro Hudaeos Premera Edicion Critica con Introduccion Ynotas Por Jose Ma Millas Vallicrossa (Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, Instituts Arias Mantano) .Madrid - Bercelona, 1957.

- **Panter, Sidney** : A History of the Middle Ages 284 - 1500, London 1976.

- **Runciman, Steven :** A History of the Crusades, Cambridge, 1966.

- **Van Cleve, Thomas, C :** The Fifth Crusade in Setton, A History of the Crusades Vol. 2, London, 1969

- **Zwemer, Samuel, M.D.D.F.R.G.S :** Raymund Lull, First Missionary to the Moslems, London. 1902

شارل كونت أنجو
بين القسطنطينية وتونس والقدس
(١٢٦٦ - ١٢٨٥م)

أ. د. محمود سعيد عمران(*)

ينحدر شارل كونت أنجو Charles Count of Anjou من أسرة كابيه Capitian الفرنسية ، وهو ابن لويس الثامن Louis VIII ملك فرنسا (١٢٢٣ - ١٢٢٦م) ، وبلانش القشتالية Blanche of Castile . وقد ولد شارل في بداية عام ١٢٢٧م بعد أشهر قليلة من موت أبيه ، وكان له من الذكور ثلاثة أخوة هم لويس التاسع Louis IX الذى خلف والده فى حكم فرنسا(١٢٢٦ - ١٢٧٠م) و روبرت الثانى كونت أراتو Robert II Count of Artois الذى قتل على أرض مصر فى معركة المنصورة خلال معارك الحملة الصليبية السابعة عام ١٢٥٠(١) ، والفونس أف بواتيه Alfonse of Poitiers الذى تزوج من جوانا أف تولوز Joanna of Toulouse(٢) .

لقد مرت طفولة شارل بحياة متوترة مع والدته التى كانت تعمل على استقرار الأحوال داخل فرنسا بعد موت زوجها أثناء وصايتها على ابنها لويس التاسع وصراعها مع النبلاء(٣) ، فلقد انشغلت الأم بالسياسة أكثر من اهتمامها بأولادها عدا لويس ، وكان أقل أولادها اهتمامًا هو شارل كونت أنجو(٤) .

ويوصف شارل بأنه كان متناسق الجسم مفتول العضلات حمرى البشرة وله أنف طويل شأن آل كابيه ، وكان يتمتع بصحة جيدة ، كما وصفه معاصروه بالحيوية والطموح ، وكثيرًا ما كان يتدرب على الصيد والرياضة العنيفة . وقد نال شارل قسطًا وافيا من التعليم فقد درس فى جامعة باريس وأحب العلم والعلماء، وخاصة ما يتعلق بالشعر والفنون . كما أنه كان لا ينام كثيرًا لأنه اعتقد أن النوم إضاعة للوقت . وكان يتكلم قليلاً ويعمل كثيرًا ، ويبتسم قليلاً ويتصرف

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

كراهب[٥] ، ولعل هذه الصفات والظروف التى عاش فيها قد دفعته إلى الاعتماد على نفسه ، حتى اعتقد أنه يمثل إرادة الله[٦] .

وإذا كانت عائلة شارل قد قصرت معه فى الجوانب الاجتماعية والعاطفية إلا أنها عوضته فى بعض الجوانب المادية ، فقد كان والده يتمنى أن يكون مولوده ذكرًا حتى يحصل على إقطاعية أنجو ومين Maine ، وقد استجاب الله لرغبته ووضعت زوجته بعد وفاته مولودًا ذكرًا هو شارل الذى حصل على هذه الإقطاعية فى عام ١٢٤٧م عندما بلغ العشرين من عمره[٧] .

يضاف إلى ذلك أن والدته وأخاه لويس خططا وهو فى التاسعة عشر من عمره ، أى فى يناير عام ١٢٤٦م لزواجه من بياترس Beatrice أخت مارجريت Margaret زوجه لويس التاسع فتزوجها فى عام ١٢٣٤م ، وكلا الاختين من أبناء ريموند برنجار الرابع Raymond Berengar IV كونت مقاطعة بروفانس Provence ، وكان له بنتان أخريتان هما اليانور Eleanor التى تزوجت فى عام ١٢٣٦م من هنرى الثالث Henry III ملك انجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢م) ، وسانسيا Sanchia وهى البنت المدللة التى تزوجت فى عام ١٢٣٤م من ريتشارد أف كورنول Richard of Cornwall أخو هنرى الثالث . وريتشارد هذا كان له دورًا كبيرًا فى الحروب الصليبية عندما قاد حملته على بلاد الشام ١٢٤٠ - ١٢٤١م[٨] ، كما رشحته البابوية لتولى عرش ألمانيا فى عام ١٢٥٧م عندما انقسم الشعب الألمانى على نفسه عام ١٢٥٦م ، وعندما ألقت البابوية بكل ثقلها فى صراعها ضد أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen[٩] .

وبالإضافة إلى إقطاعية أنجو ومين ، فقد حالف الحظ شارل بزواجه من بياترس أف بروفانس ، فقد كان القانون الاقطاعى يقضى فى حالة عدم وجود أخوة من الذكور ، أن تقسم الإقطاعية بين البنات ، ولكن ريموند برنجار شذ عن هذه القاعدة ، ووهب كل المقاطعة لابنته بياترس لأنه لم يكن راغبا فى تفتيت المقاطعة[١٠] ، خاصة أن بناته الأخريات قد حصلن على بائنات ممتازة . وقد أدى ذلك إلى وجود علاقات غير طيبة بين شارل وزوجة أخيه لويس وبينه وبين والدة

زوجته(١١) . والمهم هنا أن شارل حاز إقطاعية أنجو ومين عن طريق أسرته ، ومقاطعة بروفانس بزواجه من بياترس عام ١٢٤٦م .

و لم ينل شارل حقه في مقاطعتي أنجو ومين حتى زواجه ، لذلك اتجه بعد زواجه في بدايات عام ١٢٤٦م ، إلى مقاطعة بروفانس واصطحب معه عددا كبيرا من رجال البلاط الفرنسي ورجال القانون . أدى هذا إلى سخط أهالي بروفانس عليه ، ومن ذلك قيام بعض النبلاء ومنهم بارال أف ليبو Barral of Les Baux وبونيفاس أف كاستلان Boniface of Castellane بتكوين جبهه معارضة ضد حكم شارل . وعندما ذهب شارل إلى الشمال في العام التالي (١٢٤٧م) ليتقلد منصب كونت أنجو ومين ، كونت ثلاث مدن من الشريط الحدودي مع إيطاليا حلفا ضد شارل ، وقد تولى بارال أمر هذه الحلف (١٢) .

وكان شارل كونت أنجو قد وعد بمشاركة أخيه لويس التاسع في حملته على مصر ، ولذا لم يكن لديه الوقت الكافي لمواجهة هذه المعارضة . وكل ما فعله في تلك المرحلة هو عقد تسوية مع والدة زوجته فتنازل عن أراضي إقليم فولكالكير Forcalquier ، وثلث دخل مقاطعة بروفانس ، واطمأن شارل إلى هذه التسوية وأبحر مع أخيه من ميناء ايجوس - مورت - Aigues Mortes في عام ١٢٤٨م(١٣) ، الواقع في مقاطعة بروفانس التي يحكمها شارل .

وكان أن ثارت الفتنة في المقاطعة بعد رحيله ، ولكن شارل اعتبر نفسه في مهمة مقدسة وهي القتال في صفوف الحملة الصليبية ، وبذلك تكون أراضيه تحت حماية البابوية . وقد سمح له أخوه لويس بالعودة من فلسطين التي أبحر إليها لويس بعد هزيمته وفشل الحملة في مصر ، فعاد شارل ومعه أخوه الفونسو ليرعيا شئون الدولة في غيابه بناء على طلب الملكة الأم . ولما عاد شارل إلى فرنسا بدأ في منازلة معارضيه وانتصر عليهم الواحد بعد الآخر(١٤) .

وطبقًا للنظرية البابوية فقد كانت صقلية تعتبر إقطاعا بابويًا ، فالبابوية هي التي منحت النورمان جنوب إيطاليا وصقلية في القرن الحادي عشر ، وقد ورث

عرش صقلية الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني Frederic II (١٢١٢ - ١٢٥٠م) عن طريق والدته كونستانس Constance ، وعندما أصدر البابا انوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣ - ١٢٥٤م) قرار الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور وشبهه بفرعون في المؤتمر الكنسي الذي عقد في مدينة ليون Lyons في مايو ١٢٤٥م ، اعتبرت البابوية نفسها مسئولة عن عرش صقلية(١٥) .

واستمر العداء بين البابوية وأسرة الهوهنشتاوفن ، ولم تعترف بملوك الأسرة الذين حكموا صقلية وجنوب إيطاليا ، وفي عام ١٢٦١م أصبح الفرنسي جيمس بانتاليون James Pantaleo بطريق بيت المقدس الرسمي (١٢٥٥ - ١٢٦١م) ، البابا تحت اسم أوربان الرابع Urban IV (١٢٦١ - ١٢٦٤م)(١٦) . وقد نجح أوربان في إقناع لويس التاسع بأن نجاح أى حملة صليبية يتوقف على القضاء على أسرة الهوهنشتاوفن . ورشح البابا شارل كونت أنجو ليتولى عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، واعتبرت البابوية أن الحرب ضد أسرة الهوهنشتاوفن حربًا صليبية(١٧) .

وافق الملك لويس على فكرة البابا وترشيح شارل ، وتبنى البابا كلمنت الرابع Clement IV (١٢٥٦ - ١٢٦٨م) ، وهو فرنسي الأصل أيضًا فكرة سلفه ووافق على قيام شارل بغزو جنوب إيطاليا في العام الأول من توليه عرش البابوية ، وقدم الملك لويس وكل بارونات فرنسا الدعم العسكري والمالي لجيش شارل الذي أبحر من مدينة مرسليا Marseilles على متن ثلاثين سفينة كبيرة إلى مدينة روما فوصلها في مايو ١٢٦٥م حيث قابل البابا الذي منحه لقب ملك صقلية وأبوليا ، وقدم له الدعم المادي والروحي(١٨) .

وكان أن تقدم شارل بقواته جنوبًا استعدادًا لدخول جنوب إيطاليا ، والتقى بقواته مع قوات الحاكم الألماني مانفرد Manfred التي كانت تضم في صفوفها بعض العناصر الإسلامية . وكان اللقاء في معركة بنفنتو Benevento التي انتهت في الثامن عشر من فبراير عام ١٢٦٦م ، بانتصار شارل على مانفرد . وبذلك أصبح شارل ملكًا واقعيًا على صقلية وأبوليا(١٩) .

ويبدو واضحًا أنه كان من أهداف ملوك صقلية أن يضموا أو يؤسسوا لهم إمارات فى الجانب الشرقى من حوض البحر المتوسط ، إذ حاول روبرت جويسكارد Robert Guiscard أن يغزو بعض الأراضى البيزنطية(٢٠) . كما ساندت أسرته الحملة الصليبية الأولى ، وتمكن بوهمند Bohemond من إقامة إمارة انطاكية وحكمها (١٠٩٨ - ١١١١م)(٢١) . أما روجر الثانى Roger II (١١٢٩ - ١١٥٤م) ، فقد كان يأمل فى السيطرة على جانب من أراضى الامبراطورية البيزنطية ، وقام فى خريف عام ١١٤٧م بغزو جزيرة كورفو Corfu(٢٢) . كما قام هنرى السادس Henry VI الإمبراطور الألمانى (١١٩٠ - ١١٩٧م) وحاكم صقلية أيضًا - عن طريق زوجته كونستانس Constance - بوضع الخطط ليمد سلطانه على الأمارات الصليبية فى بلاد الشام ، والإمبراطورية البيزنطية وغيرها من الأقاليم الشرقية وأرسل الحملة الصليبية الألمانية عام ١١٩٧م إلى بلاد الشام(٢٣) .

وفيما يتعلق بابنه الإمبراطور فريدريك الثانى ، فإنه لم يحاول أن يتطلع إلى أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، ولكنه كان ملكًا على صقلية ومملكة بيت المقدس الأسمية . أما ابنه مانفرد ملك صقلية (١٢٥٨ - ١٢٦٦م) فقد تزوج فى عام ١٢٥٠ م من هيلينا Helena ابنة مخائيل الثانى حاكم إمارة إيبروس Epirus (١٢٢٧ - ١٢٧١م) بعد تمزق الامبراطورية البيزنطية فى عام ١٢٠٤م(٢٤) .

والحقيقة أن المسألة كلها كانت تسير فى فلك الحروب الصليبية ، فالحملة الصليبية الرابعة التى اجتاحت القسطنطينية واستولت عليها عام ١٢٠٤م أغضبت البابوية ، ولكن بقيام الامبراطورية اللاتينية (١٢٠٤ - ١٢٦١م) على أنقاض الامبراطورية البيزنطية ، فقد البيزنطيين تعاطف أوربا معهم بسبب رفض البيزنطيين الشديد لتقبلهم السيادة اللاتينية الجديدة والمذهب الكاثوليكى . وساد الاعتقاد فى أوربا فى تلك المرحلة وما بعدها أن أى حرب ضد الإمبراطورية البيزنطية تعتبر حربًا صليبية .

وكان للملك لويس التاسع عندئذ رؤية خاصة تتمثل فى أن أى حملة صليبية يجب أن يكون هدفها الأول السيطرة على الأراضى المقدسة فى بلاد الشام وانتزاعها من أيد المسلمين ، ورغم هذا فإنه كان يرى أن تقوية الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وكبح جماح المنشقين البيزنطيين سوف يخدم القضية الصليبية ، واعتنق ذات الفكرة المفكرون الأوروبيون من بعده(٢٥) .

لقد كان فى عودة الإمبراطورية البيزنطية عام ١٢٦١م وإنهيار الإمبراطورية اللاتينية تقوية لهذا الشعور داخل أوربا ، والواقع أن الإمبراطور الألمانى مانفرد كان عدوا للإمبراطورية البيزنطية فى المنفى ، لذلك قدم الدعم للامبراطورية اللاتينية . وكان يأمل من وراء ذلك أن يظهر للعالم المسيحى الأوربى أنه صليبى متحمس ، ويكسب رضا البابوية كذلك فكر مانفرد لبعض الوقت أن يتقرب من البابوية . ولكن ذلك كان بعيدًا عن أفكار البابوية لأنه فى تلك المرحلة كانت قوات شارل كونت أنجو فى طريقها إلى جنوب إيطاليا بدعم من البابا ، وهنا أقلع مانفرد عن مصالحة البابا وعن مساندة الإمبراطورية اللاتينية فى المنفى واستدار لمواجهة مرشح البابا لعرش جنوب إيطاليا وصقلية . ولكن مانفرد هزم وقتل فى معركة بنفنتو وأصبحت هيلينا زوجته أسيرة لدى شارل كونت أنجو(٢٦) .

وبعد هذه الأحداث اعتبر شارل نفسه وريثًا للأمبراطور مانفرد وزوجته فى الأراضى البيزنطية . وبدأ فى إرسال حملة للاستيلاء على الأراضى التى قدمت كبائنة للملكة هيلينا وهى جزيرة كورفو والمدن الواقعة قبالها وهى بوترينتو Butrinto ، وأفلونا Avlona ، وسوبوتو Suboto ، وكان مانفرد قد عهد بحكم هذه الأراضى لأمير البحر فيليب شينادرو Philip Chinardo . وعندما علم فيليب بمصرع مانفرد فى بنفنتو حكم هذه الأراضى لصالحه . وقد حاول ميخائيل الثانى والد هيلينا وحاكم إيبروس استرداد هذه الأراضى ولكنه لم يوفق . ولكى ينقذ ماء وجهه أعلن أنه سوف يقدم هذه الأراضى كبائنه إلى فيليب إذا تزوج من أخت زوجته ، وتم الاتفاق على ذلك(٢٧) .

لم يمنع هذا الاتفاق ميخائيل الثانى من تدبير المكائد ضد فيليب وخطط لاغتياله ، وكان ذلك من حسن حظ شارل فعندما وصلت قوات شارل كونت أنجو إلى السواحل البيزنطية لم تجد مقاومة تذكر ، فاستولت على هذه الأراضى ، وأدعى شارل أن ملكيته لهذه الأراضى هى ملكية شرعية ، وأن هيلينا أرملة مانفرد هى أسيرته ، وأن بائنتها آلت إليه (٢٨) .

ثم قام شارل بتعيين أحد أعضاء فيليب ويدعى جازو Gazo حاكما على تلك الأراضى ، ولكن طموح شارل لم يتوقف عند هذه المرحلة ، بل تطلع إلى القسطنطينية نفسها ، أما الإمبراطور اللاتينىبلدوين الثانى Baldwin II (١٢٢٨ - ١٢٦١م) الذى كان يعيش فى المنفى داخل أوربا ، فإنه فقد أمله فى البلاط الفرنسى بعدما علم بخطط شارل والبابوية فى صقلية وجنوب إيطاليا ، ولم يعد لديه الوقت لمناصرته وإمداده بالرجال أو السلاح أو المال(٢٩) .

وكان أن إتجه بلدوين من فرنسا إلى إيطاليا ، وتقابل مع البابا كلمنت الرابع فى مدينة فيتربو Viterbo فى الرابع والعشرين من مايو عام ١٢٦٧م ، وقد خطط البابا للتوفيق بين بلدوين وشارل . وكان على بلدوين أن يدفع الكثير مقابل مساندة ومساعدة شارل عسكريا له . وكان من طلبات شارل أن يؤكد له بلدوين ملكية بائنه الملكة هيلينا ، وأن يتخلى بلدوين عن سيادة إمارة أخيا Achaea ، وأن يكون للملك شارل حق السيادة على جزء من بحر إيجه عدا الجزر التى تسيطر عليها البندقية ، وجزر لسبوس Lesbos ، وخيوس Chios ، وساموس Samos ، وأمورجوس Amorgos التى سمح لبلدوين الاحتفاظ بها إذا استعادها . وأن يقدم بلدوين ثلث دخل أى مقاطعة يتم استعادتها بما فيها القسطنطينية . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان على فيليب بن بلدوين أن يتزوج من بياترس Beatrice ابنة شارل كونت انجو بشرط أنه فى حالة موت فيليب دون عقب له ، فإن حقوقه فى الإمبراطورية تؤول إلى شارل نفسه ، وتم الاتفاق على ذلك(٣٠) .

وكان شارل على اتصال بوليم الثانى فلهاردوين William II of Villehardouin (١٢٤٦ - ١٢٧٨م) وذهب السفراء من كل جانب إلى

الجانب الآخر فى فبراير ١٢٦٧م . وقد رحب وليم بهذه الصداقة الجديدة التى جعلته يستند إلى حاكم قوى نشيط مثل شارل لكى يقوى بهذه الرابطة موقفه فى إمارته بعد استعادة آل باليولوج Palaeologus عرش بيزنطة فى القسطنطينية عام ١٢٦١م .

ورغم أن وليم كان زوجا لاخت الملكة هيلينا أرملة مانفرد إلا أن ذلك لم يكن له أثر فى الوضع الجديد . ولعل ذلك مرجعه إلى أن وليم كانت له بنتان وليس له ولد ، أكبرهما هى إيزابيلا وريثته ، وقد رشحت للزواج من أندرونيق Andronicus ابن الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن . وقد طلب شارل زواج ابنه فيليب من إيزابيلا وغض النظر عن الترشيح الأول . واشترط شارل أنه فى حال وفاة وليم دون ولد تؤول أراضيه إليه كما فعل مع بلدوين ، وقد تم الزواج على هذا الأساس فى السابع عشر من يونيه عام ١٢٧٠م ، ولكن وليم وضع بعد ذلك وصية سرية تقتضى بأن تؤول أراضيه إلى ابنته الأخرى وهى الصغرى مارجريت(٣٢) .

وبعد أن اطمأن شارل إلى وليم بدأ شارل فى إرسال قواته إلى أخيا ليؤكد سيطرته عليها ، وقد رحب وليم بذلك لانزعاجه من استعادة بيزنطة لعرش الامبراطورية ، وذهب وليم إلى أبعد من ذلك ورحب بأى حملة عسكرية توجه إلى القسطنطينية نفسها(٣٣) .

وكان شارل كونت أنجو قد ذهب بدوره إلى أبعد من ذلك لتطويق الامبراطورية البيزنطية ، ويرى البعض أنه فى عام ١٢٦٧م أرسل سفارة إلى الخان المغولى فى فارس أبغا Abaga (١٢٦٥ - ١٢٨٢م)(٣٤) . ولعل هذه السفارة كانت ضمن وفد السفارة التى أرسلها البابا كلمنت الرابع إلى خان فارس . فقد كان شارل يخشى من قيام تحالف بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، ولكن هذه السفارة فشلت فى مهمتها لعدة أسباب ؛ منها أن أبغا لم يكن متعاطفًا مع الغرب الأوربى ، إلى جانب زواجه من أميرة بيزنطية هى ماريا باليولوج التى عرفت عند المغول باسم دسبينا خاتون Despina Khatun . يضاف إلى ذلك انصراف ابغا إلى القتال الذى دار بينه وبين القبيلة الذهبية فى روسيا(٣٥) .

وبعد فشل هذه المهمة بدأ شارل كونت أنجو فى البحث عن حليف آخر فى أوربا ، وقد وجد ضالته فى مملكة هنغاريا التى كانت حدودها تمتد من مدينة فيينا إلى شبه جزيرة البلقان . وكان ملكها العجوز بيلا الرابع Bella IV (١٢٣٥ - ١٢٧٠م) قد غزا بلاد الصرب وبلغاريا عدة مرات بمساعدة زوج ابنته ملك البوسنة . وكان بيلا قد وعد بقيادة حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية . وبدأ الاتصال بين شارل وبيلا عندما ماتت زوجة الأول بياترس عام ١٢٦٨م ، وقد طلب شارل من الملك بيلا أن يتزوج ابنته مارجريت ولكن مارجريت كانت قد وهبت نفسها للرهبنة . وقد احترمت الأطراف المعنية رغبتها ، وهناك من يقول أنها دخلت سلك الرهبانية للتهرب من هذا الزواج(٣٦) .

واقترح شارل اقتراحًا آخر وهو أن بيلا كان له ولد هو ستيفن Stephen الذى خلف والده فى حكم هنغاريا (١٢٧٠ - ١٢٧٢م) تحت اسم ستيفن الخامس ، وكان للأخير ولد هو لاديسلاس Ladislas وابنة هى ماريا ، وطرح شارل زواج ابنه شارل الثانى أمير سالرنو Salerno من ماريا ، وأن تتزوج ايزابيلا ابنة شارل من لاديسلاس(٣٧) . وقد تم هذا الزواج الذى أدخل أسرة شارل كونت أنجو فى العرش المجرى(٣٨) . وعلى أثر ذلك استعد شارل لغزو القسطنطينية. ولكن تنفيذ خطط شارل توقف لبعض الوقت عندما تدخل كونرادين Conradin ابن كونراد فى إيطاليا بعد مصرع عمه مانفرد ، لمقاتلة شارل . وقد استعد شارل للمعركة القادمة وسانده صهره وليم حاكم أخيا وأرسل إليه حوالى أربعمائة فارس لمساندته ضد كونرادين . وانتهى الأمر بهزيمة كونرادين فى عام ١٢٦٨م ، وتم القبض على كونرادين وعدد من رجاله ، وتم إعدامه وكبار مرافقيه فى الميدان العام بمدينة نابلى . وكان كونرادين يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا ، وبموت كونرادين انتهى فرع آل الهوهنشتاوفن فى حكم ألمانيا ، وحققت البابوية هدفها فى القضاء على عائلة فريدريك الثانى .

وكانت هذه الحرب كلها قد دارت على أساس أن كونرادين ورجاله من أعداء الكنيسة ، ولذلك دفن كونرادين ومن معه تحت رمال سوق المدينة دفنة غير

شرعية باعتبارهم خارجين عن رحمة الكنيسة . وقد غضبت البابوية من تنفيذ حكم الإعدام فى كونرادين ورفاقه ، وكان البابا يرى أن من الأفضل معاقبتهم بالسحن لا الإعدام(٣٩) .

وبعد هذه الأحداث بدأ شارل يستعد لغزو القسطنطينية وحدد صيف عام ١٢٧٠م موعدًا لذلك . وقد استعدت السفن فى البحر الادرياتيكى ، وتم الترتيب مع وليم أمير آخيا للتعاون والتنسيق فى العمليات العسكرية ، والواضح أن أخبار الحملة قد تسربت إلى مسامع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن ، فاستعد بالأسطول البيزنطى رغم صغر عدده ، وحمله بالعتاد ، ولم يكن للإمبراطور حليف فى أوربا غير جنوة التى كانت واقعة تحت سيطرة الجولفيين أعداء آل الهوهنشتاوفن ، وحتى هؤلاء الحلفاء كانت تربطهم علاقات طيبة مع شارل كونت أنجو(٤٠) .

وفى هذه المرحلة ظهرت رغبة لويس التاسع ملك فرنسا فى القيام بحملة صليبية لمقاتلة المسلمين ، وكان يرى أن يتم ذلك بأسرع وقت ممكن لأن صحته فى تدهور مستمر ، فلقد كانت هزيمته فى حملته على مصر لا تبارح خياله ، واعتمد على مساندة أخيه شارل . وكان على شارل أن لا يتخلى عن مساندة أخيه ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يتخلى عن مشاريعه فى شرق البحر المتوسط(٤١) .

ويرى البعض أنه إذا كان على شارل اللحاق بحملة صليبية ، فيجب أن تكون ضد المسلمين الذين يهددون مملكته . فعلى الشاطىء المقابل لجزيرة صقلية توجد مدينة تونس حيث يحكم الأمير أبو عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصى (٦٤٧ - ٦٧٥هـ / ١٢٤٩ - ١٢٧٧م)(٤٢) . وكانت العلاقات سيئة بين المستنصر وشارل ، ومرجع ذلك إلى أن تونس كان عليها أن تدفع جزية سنوية لحاكم صقلية منذ أيام روجر الثانى (١١١٣ - ١١٢٩م) ، ولكن المستنصر توقف عن دفع هذه الجزية ، وكان شارل يأمل فى أن يدفع المستنصر هذه الجزية

التى توقفت منذ سبعة عشر عامًا(٤٣) . يضاف إلى ذلك أنه كان للملك الفونسو العاشر Alfonso ملك قشتاله (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) أخوان ، هما فريدريك وهنرى ، وكانا على خلاف مع الفونسو لعدم رغبته فى إشراك أحدهما فى عرش الدولة . لذلك غادرا قشتاله بحثًا عن حياة المغامرة ، ودخل فريدريك فى خدمة أمير تونس . ثم عبر إلى إيطاليا ليلحق بالملك مانفرد وكان معه فى معركة بنفنتو ، كذلك اشتركت فى هذه المعركة بعض القوات الإسلامية . وبعد هزيمة مانفرد هرب فريدريك وعاد إلى تونس ومعه رجاله حيث دخل تحت رعاية المستنصر . وفى العام التالى أى فى عام ١٢٦٧م كانت جزيرة صقلية فى حالة ثورة ضد حكم شارل وذلك بدعم من بعض العناصر التى وصلت إليها من تونس(٤٤) .

والواقع أن المستنصر كان مسلمًا متسامحًا ، عاش فى بلاطه وفى بلاده الكثير من المسيحيين ، كما تردد على بلاده الكثير من التجار الذين سمح لهم بمزاولة عملهم بكل حرية بل أنه سمح بإقامة أحد الأديرة فى العاصمة تونس . ولعل ذلك مما دفع البعض ومنهم شارل للتفكير فى أن المستنصر ينوى التحول إلى الديانة المسيحية ، إلا أنه يخشى معارضة رجال الدين والأئمة فى بلاده ، واعتقد شارل فى أن يصبح المستنصر حليفًا له وأن يتحكم فى المضيق البحرى الذى يقع بين صقلية وتونس ، وكان يأمل من وراء ذلك كله أن يجنى بعض الأموال التى تساعده فى حملته المقبلة على بيزنطة(٤٥) .

وعن الجانب الصليبى فقد اعتقد الصليبيون وعلى رأسهم لويس وشارل أن نجاح الحملة على تونس يؤدى إلى الاستيلاء على مصر بسهولة وأن بالإمكان فصل مملكة سبته - والمقصود بها المغرب - ، وكذلك مملكة غرناطة - والمقصود بها الأندلس - عن المشرق الإسلامى(٤٦) ، واعتنق لويس هذه الأفكار وتجدد عنده الأمل فى السيطرة على مصر والشام بعد تونس . ولكن بعض مستشارى الملك لم يوافقوا على القيام بأى حملة سواء إلى تونس أو إلى المشرق لاعتلال صحة الملك، وإن كان البعض منهم يرى أن تكون وجهة الحملة إلى الشام حيث الأمارات

الصليبية التى يمكنها تقديم المساعدات العسكرية للحملة . وعندما أصر لويس على توجيه الحملة إلى تونس رفض بعض المقربين إليه الذهاب معه ومن هؤلاء المؤرخ جوانفيل(٤٧) .

وفى نهاية الأمر غادرت القوات الفرنسية بقيادة الملك لويس ميناء إيجوس - مورت ومعه بعض أفراد عائلته ، منهم ابنه الأكبر فيليب ، وزوجته إيزابيلا أف أراجون ، وولديه يوحنا ولويس وملك نافارو تيبالد الثانى Tibald II زوج ابنته إيزابيلا وعدد كبير من النبلاء . وقد ساهم أسطول جنوه فى نقل معظم هذه القوات(٤٩) .

ونظرًا للمخاطر والصعاب التى أحاطت بهذه الحملة ، فقد كان شارل يخشى قيام الملك لويس بإلغاء الحملة من أساسها سواء إلى تونس أو إلى الشام ، لأن شارل كان يعلم أن الكثير من مستشارى الملك كانوا ضد فكرة الحملة على تونس، ولم يتخل شارل عن مشروع مهاجمة القسطنطينية إلا بعد ما تأكد أن الملك لويس قد أبحر إلى تونس فعلاً . وفى تلك المرحلة أمر شارل سفنه بالاتجاه إلى تونس بدلاً من القسطنطينية ، وتجمعت السفن عند صقلية بدلا من تجمعها فى البحر الادرياتيكى . وترك شارل مدينة نابلى فى الثامن من يوليو عام ١٢٧٠م ، واتجه إلى مدينة بالرمو Palermo فى صقلية فوصلها فى الثالث عشر من الشهر نفسه وظل فى انتظار الأسطول . وفى العشرين من أغسطس كان فى مدينة ترابانى Trapani التى تقع فى الطرف الغربى لجزيرة صقلية . وفى مساء يوم الرابع والعشرين من أغسطس أبحر على رأس أسطوله ورسا فى اليوم التالى فى تونس ليتلقى خبر وفاة الملك لويس فى صباح ذلك اليوم(٥٠) .

وكان الجيش الفرنسى قد وصل إلى تونس فى السابع عشر من يوليو عام ١٢٧٠م ورسا عند سواحل المدينة دون مقاومة تذكر . ويتضح من النصوص أن الأمير المستنصر لم يعلن عن تحوله إلى الديانة المسيحية ، بل على العكس من ذلك فكان قد أمر بتحصين المدينة وأعد قواته للدفاع عنها ، وكان لويس قد أقام

معسكره فى أطلال مدينة قرطاج . ويرى البعض أن المستنصر لم يبادر بشن الهجوم على القوات الفرنسية ، بل انتظر حتى وصول بقية القوات ومنها قوات شارل وقوات الأمير الأنجليزى إدوارد Edward(٥١) . ويستدل من ذلك أن المستنصر كان على علم بكافة التحركات العسكرية للحملة . ولعل مصدر هذه المعلومات العناصر الثائرة التى كانت تقيم فى تونس، أو من التجار الأجانب أيضًا.

وخلال فترة الانتظار هذه دارت بعض المناوشات بين الصليبيين والتونسيين فى جو شهر يوليو الحار فى أراضى تونس المتربة . ولعدم معرفة القوات الصليبية بالأراضى التونسية ومناخها فقد تأثرت بهذه الأوضاع وتفشى فيها مرض الطاعون، كما مرض الملك لويس وابنه فيليب . وتولى القيادة يوحنا بن لويس الذى ولد فى مدينة دمياط أثناء أحداث الحملة السابعة ، وكان يبلغ من العمر عشرين عامًا وظل يعمل تحت أمره المندوب البابوى منذ مرض والده لويس حتى وفاته فى الخامس والعشرين من يوليو عام ١٢٧٠م(٥٢) .

وهكذا كان فى وصول الملك شارل وقواته نجدة للجيش الفرنسى ، خاصة أن قواته كانت غير مرهقة وتمكنت من التعامل عسكريا مع القوات الإسلامية التى تزايدت أعدادها وتمركزت على التلال المحيطة بأرض المعارك . وفى الوقت المناسب قام شارل بالهجوم على مدينة تونس حيث دارت بعض الاشتباكات والمناوشات فى معركتين صغيرتين كما دارت بعض الاشتباكات فى البحر أيضًا . ثم وصلت قوات الأمير الإنجليزى إدوارد . ولكن المعارك العسكرية لم تستمر طويلا ، فقد وجدت الأطراف المتصارعة أن السلام أفضل من القتال(٥٣) .

وفى نهاية شهر أكتوبر بدأ وضع شروط السلام بين الطرفين وتم توقيعها فى مطلع شهر نوفمبر . وقد وقع المعاهدة الأمير المستنصر ، ومن الجانب الصليبى الملك شارل كونت أنجو وابن أخيه الأمير يوحنا . وبموجب هذه المعاهدة وافق المستنصر على دفع تكاليف الحملة ، وأن يتم إطلاق سراح الأسرى الصليبيين ، وأن يسمح ببناء الكنائس والأديرة فى تونس وأن يسمح بالتبشير بالديانة المسيحية

أيضًا ، وأن يدفع المستنصر جزية سنوية قدرها عشرين ألف بستول Pistoles من الذهب سنويًا وبعض الشروط الأخرى(٥٤) . ويرى البعض أن مدة الهدنة كانت عشر سنوات ، وقد تم تجديدها بعد ذلك لمدة أخرى(٥٥) .

لقد فعل شارل كونت أنجو كل ما فى وسعه لدعم هذه الحملة وليكون بعيدًا عن الشبهات ، لقد ظن الصليبيون أن بوسعهم الاستيلاء على تونس . ولكن شارل كان يرى أن نصيبه من الغنائم سوف يكون قليلاً لأن الأطراف المشاركة فى الحملة كثيرة ، فهناك أخوه لويس التاسع ، وتيبالد ملك نافارو والأمير الإنجليزى إدوارد ، والبابوية ، والجنويه ، وعدد آخر من النبلاء . لذلك فضل شارل التفاوض من أجل السلام الذى حصل بموجبه على العديد من الامتيازات(٥٦) .

والواقع أن الأمير إدوارد عندما وصل بقواته إلى تونس فى مطلع شهر نوفمبر أصيب بخيبة الأمل عندما علم أن الحرب قد انتهت ، ولكنه أبحر إلى الساحل الشامى حيث نزل فى ميناء عكا ليبدأ مغامرة جديدة مع المغول فى محاولة لاستعادة الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين(٥٧) .

ورغم المزايا التى حصل عليها شارل فإن سوء الحظ لازم الحملة ، فقد ظلت بعض القوات طريحة المرض فى المعسكرات عند مدينة تونس ، وقد مات منها الكثير . كما مرض تيبالد ملك نافارو ثم ما لبث أن مات عندما وصل إلى مدينة تراباتى فى صقلية . وعندما أبحر الأسطول الصليبى من تونس ضربته عاصفة عند الساحل الغربى لجزيرة صقلية ، واصطدمت السفن ببعضها ، وتحطم العديد منها . كما هلك الكثير من الصليبيين من جراء ذلك(٥٨) . وكان الأمر يتطلب عدة أشهر لترميم هذه السفن وإعدادها لحملة مقبلة ضد القسطنطينية .

لقد خسر شارل الكثير بفشل الحملة وأحداث العاصفة وبموت أخيه لويس، وعندما تولى ابنه فيليب عرش فرنسا وقع تحت تأثير والدته التى لم تتعاطف مع عمه شارل ، فعزف فيليب عن مساعدة عمه ، وبذلك فقد شارل كل مساعدة من البلاط الفرنسى(٥٩) .

وفيما يتعلق بعلاقة شارل كونت أنجو ببيت المقدس ، فإن الأحداث ترجع إلى عام ١٢٦٠م قبل معركة عين جالوت ، وذلك عندما قدم القائد المغولى هولاكو إلى ضواحي أنطاكية ، ثم قدم هيثوم الأول Hethoum I ملك أرمينيا (١٢٢٦ - ١٢٦٩م) ، وصهره بوهمند السادس Bohemond VI أمير انطاكية (١٢٥١ - ١٢٦٨م) لزيارة هولاكو فى معسكره ، وقد كافأهم على ما قدموه من مساعدة للجيش المغولى(٦٠) .

ويهمنا فى هذا البحث الأمير بوهمند الذى قدم له هولاكو بعض المدن والحصون التى كانت فى حوزة المسلمين وذلك مقابل موافقة بوهمند على تعيين البطريك الارثوذكسى يوثيموس Euthymius بدلاً من البطريق الكاثوليكى أوبيزو Opizo (١٢٤٧ - ١٢٩٢م) (٦١) . ويرجع ذلك إلى العلاقات الودية التى ربطت هولاكو بالامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوج فى منفاه فى مدينة نيقيه .

واعتبر الصليبيون أن فى ذلك إهانة للكنيسة الكاثوليكية بأسرها ، يضاف إلى ذلك ما كان من التوتر الزائد الذى ساد الأمارات الصليبية كلها نظرًا لزيادة نفوذ البنادقة فى مملكة بيت المقدس الإسمية ، ونمو تجارتهم مع المسلمين فى مصر والشام ، هذا فضلا عن الصراع الذى ساد منطقة شرق البحر المتوسط بين البندقية وجنوة التى ارتبطت بالإمبراطورية البيزنطية بعد عودتها فى عام ١٢٦١م ، وقيام الإمبراطور بمنح العديد من المزايا التجارية التى قدمتها لهم الإمبراطورية فى موانى البحر الأسود وبحر إيجه(٦٢) .

وفى تلك المرحلة كان يتولى أمر مملكة بيت المقدس الأسمية هيو الثانى Hugh II ملك قبرص (١٢٥٣ - ١٢٦٧م) ، باعتباره يلى فى الوارثة كونرادين المتغيب عن البلاد. وكان هيو هذا طفلاً صغيرًا يبلغ من العمر حوالى سبع سنوات. ولم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا إزاء هذه الأحداث لذلك تطلع نبلاء مملكة بيت المقدس إلى شخصية قوية تتولى حماية المملكة والدفاع عنها وتسيير أمورها لمصلحة

القضية الصليبية . وتطلع النبلاء إلى فرنسا كعادتهم حيث وقع اختيارهم على شارل كونت أنجو ، وأرسلوا إليه فى العاشر من مايو ١٢٦٠م ، أى بعد سقوط بغداد وقبل معركة عين جالوت يوضحون له ما دار فى المنطقة من أحداث ، وسيطرة المغول على مدن شمال الشام ، وغير ذلك من الوقائع(٦٣) . وواقع الحال أن شارل كان يخطط للسيطرة على جانب من بعض الأراضى البيزنطية وصقلية وجنوب إيطاليا ، فلم يهتم بطلبات النبلاء الصليبيين .

وفى أواخر عام ١٢٦٧م مات هيو الثانى فخلفه على عرش قبرص هيو الثالث (١٢٦٨ - ١٢٨٤م) ، وأصبح ملكًا أيضًا على مملكة بيت المقدس الأسمية(٦٤) . وفى العام التالى (١٢٦٨م) هزم شارل كونرادين وأعدمه فى العام نفسه . وكونرادين هذا هو ابن كونراد بن فريدريك الثانى الذى كان قد تزوج من يولاند برين Yolande Brienne وريثة عرش مملكة بيت المقدس عن طريق أمها ماريا . وبذلك أصبح فريدريك الثانى ملكًا على مملكة بيت المقدس الأسمية (١٢٢٥ - ١٢٢٨م) ومن بعده ابنه كونراد كملك اسمى (١٢٢٨ - ١٢٥٤م)، ومن بعده ابنه كونرادين صاحب الحق الشرعى فى عرش المملكة . ومع إعدام كونرادين اختلف نبلاء المملكة حول الوريث الشرعى للمملكة . وانحصر الأمر فى أليس أف شامبانى Alice of Champagne ، وهيو الثالث ملك قبرص ، وهيو برين، ورابعة تدعى ماريا(٦٥) .

وتدخل البابا فى الأمر ، واعترض نبلاء مملكة بيت المقدس واعتبروا أن المحكمة العليا فى المملكة هى صاحبة الحق فى حل هذه القضية ، وظل الأمر حتى قيام البابا جريجورى العاشر Gregory X (١٢٧١ - ١٢٧٦م) قبل وفاته باقناع ماريا ببيع حقها فى وراثة العرش إلى شارل كونت أنجو ، وتم التنازل فى مارس

عام ١٢٧٧م فى عهد البابا يوحنا الحادى والعشرين John XXI (١٢٦٧ - ١٢٧٧م)(٦٦) .

ورغم أن هذا التنازل لا يعنى سوى أن شارل حل محل ماريا ، مع بقاء أصل النزاع على العرش كما هو بين الأطراف الأربعة المدعين بحق الوراثة ، إلا أن شارل قام بعد هذا التنازل بحمل لقب ملك مملكة بيت المقدس الأسمية ، وتضع المراجع المتخصصة إلى جوار اسمه وسنى حكمه (١٢٧٧ - ١٢٨٥م) كلمة مغتصب . والمهم هنا أن شارل بادر على الفور بأن أرسل ممثلاً له - هو روجر أف سان سفرينو Roger of San Severine - ومعه بعض القوات إلى مدينة عكا . وقد ساند روجر جماعة فرسان الداوية وعلى رأسهم مقدمهم وليم أف بوجيه William of Beaujeu (١٢٧٣ - ١٢٩١م) والبنادقة . وقد رسا روجر فى ميناء عكا وقدم الوثائق الخاصة بأحقية شارل فى المملكة موقعة من البابا . ولم يرد باليان ابلين حاكم مدينة أرسوف ونائب الملك القبرصى هيو الثالث حتى لا يدخل فى صدام عسكرى فسلم بالأمر الواقع(٦٧) .

وبعد أن استقر الحال إلى حد ما بقبول روجر ممثلاً للملك شارل كونت أنجو، طلب روجر من حكومة عكا ومن نبلاء مملكة بيت المقدس أن يقدموا يمين الولاء والطاعة للملك شارل . ولكنهم ترددوا فى بداية الأمر وطلبوا مهلة ليرسلوا إلى الملك هيو الثالث فى قبرص يطلبون منه أن يحلهم من يمين الولاء الذى سبق أن قدموه له عند تعيينه ملكًا على المملكة ، وقد وافق روجر على ذلك ولكن هيو الثالث رفض مقابلة السفارة ، وهنا هدد روجر بمعاقبتهم ومصادرة أراضيهم إذا لم ينفذوا طلبه ويقدموا الولاء للملك شارل . والواضح أن حكومة مملكة بيت المقدس الأسمية لم يكن لديها من القوات العسكرية ما يمكنها من مواجهة روجر والداوية والبنادقة فاستسلموا وسلموا بالأمر الواقع . وانتهى الحال بخضوع نبلاء حكومة عكا

للملك الجديد شارل . كما اعترف بوهمند السابع أمير طرابلس (١٢٧٥ - ١٢٨٧م) أيضًا بشارل ملكًا على مملكة بيت المقدس وأن روجر نائبًا له فى المملكة(٦٨). أما انطاكية فكانت قد سقطت فى أيدى المماليك منذ عام ١٢٦٨م.

وعلى هذه الصورة نجح روجر فى إقرار سلطة شارل كونت أنجو وملك أبوليا على مملكة بيت المقدس فى عكا ، ثم بدأ العمل على تنظيم الأحوال الإدارية للمملكة ، وساعده فى ذلك بعض المستشارين الفرنسيين الذين حضروا معه من بلاط الملك شارل ، فعين جيمس فيدال James Vidal مارشالا للمملكة ، وريتشارد أف نيوبلان Richard of Neublans كندسطبلا ، وأودو بوالشيان Odo Poilechien صنجيلا(٦٩) .

أما عن موقف الدولة المملوكية من هذه الأحداث فيبدو أن السلطان بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩م) قد استراح كثيرًا بعد فشل حملة لويس التاسع وحلفائه على تونس عام ١٢٧٠م . ولم ينزعج كثيرًا عندما قدم الأمير الإنجليزى إدوارد بحملته على بلاد الشام ، رغم أن بيبرس كان يأمل فى عدم قدوم نجدات أو حملات صليبية إلى بلاد الشام . والمهم هنا أن الأمير إدوارد حاول التحالف مع المغول والقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين ، ولكن هذا التحالف فشل فى إحراز أى نصر على القوات الإسلامية لقلة إمكانيات الأمير الإنجليزى ، وعدم تعاون النبلاء الصليبيين معه بالإضافة إلى عدم التنسيق بين القوات الإنجليزية وما والاها من القوات المغولية(٧٠) . وعندما أحس إدوارد بأن لا فائدة ترجى من بقائه فى بلاد الشام ، بادر قبل رحيله بعقد هدنة بين الصليبيين وبين السلطان بيبرس فى مايو ١٢٧٢م مدتها عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات ، وقد توسط شارل كونت أنجو بسفارة بين السلطان والأمير الإنجليزى لعقد هذه الهدنة(٧١) .

والواقع أن توسط شارل لم يأت من فراغ فقد كان مشغولاً بالتخطيط لمهاجمة القسطنطينية ، وفى الوقت نفسه كان يود الإبقاء على الأحوال الصليبية فى بلاد الشام بأمل أن تكون له في يوم من الأيام ، كما أنه يود الإبقاء على صلات طيبة مع دولة المماليك فى مصر والشام . وفى الوقت نفسه كان السلطان بيبرس يشعر بأن شارل كونت أنجو هو الحاكم الأوربى الوحيد الذى بإمكانه أن يقدم الدعم العسكرى للامارات الصليبية فى بلاد الشام ، وأن تاريخه السياسى والعسكرى يشير إلى ذلك ، فقد ساهم شارل فى الأعمال العسكرية للحملة الصليبية السابعة ، وسافر مع أخيه الملك لويس إلى عكا ، ثم كانت مغامراته السياسية حتى استولى على عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان له دور بارز فى التدخل فى انتخابات البابا لعرش البابوية ، بالإضافة إلى سيطرته على جانب من أملاك الإمبراطورية البيزنطية(٧٢) . لذلك كله حرص السلطان بيبرس على بقاء العلاقات الودية مع شارل خاصة أن الأخير كان لا يحب المغول أعداء بيبرس باعتبارهم أصدقاء الجنويين والأباطرة البيزنطيين .

ولما كانت سياسة شارل قائمة على كراهية البيزنطيين وحلفائهم الجنويين ، لذلك أصدر شارل التعليمات إلى روجر نائبه فى مدينة عكا للإبقاء على التحالف مع البنادقة والداوية لأنهم كانوا سندا له منذ وصوله إلى عكا . هذا بالإضافة إلى إقامة العلاقات الودية مع الحكام المماليك . وبدأ شارل فى الالتفات إلى ملكه الجديد في بلاد الشام ، خاصة عندما أحس أن البابا لا يشجعه على القيام بمحاولة مهاجمة القسطنطينية ، بعد ما وعد الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج بأن تخضع الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية فى القسطنطينية للكنيسة الكاثوليكية فى روما تحت راية البابوية(٧٣) .

ورغم محاولات روجر نائب الملك شارل فى بسط سيطرته على جميع أراضى مملكة بيت المقدس الأسمية فى مقرها بمدينة عكا ، فقد كان هناك من المشاكل ما أزعجت استقرار سلطته . ومحور هذه المتاعب أن شارل تولى حكم المملكة بالخداع والقوة ، وبدون موافقة المحكمة الصليبية العليا فى عكا . ومن القلاقل التى واجهت روجر فى عكا أن جماعة فرسان الاسبتارية وبطريق بيت المقدس توماس أنجى Thomas Angi (١٢٧٢ - ١٢٧٧م) وآخرين لم يساندوا شارل فى دعواه . وقد حاول مقدم الداوية وليم بوجيه أن يضم إلى جانبه يوحنا أف مونتفورت John of Montfort حاكم صور وتبنين (١٢٧٠ - ١٢٨٣م) ، ثم قام بالتوفيق بين يوحنا والبنادقة ، وسمح يوحنا للبنادقة بالعودة إلى ممتلكاتهم وأحيائهم القديمة فى صور على ضوء اتفاق يناير ١٢٦١م ، الصادر من المحكمة العليا ، ورغم هذا كله ظل يوحنا لا يعترف بشارل ملكًا على مملكة بيت المقدس(٧٤) .

وكان روجر يأمل فى المزيد من التأييد للملك شارل ، ولكن حدث غير ذلك ، فقد وصل إلى مدينة صور فى عام ١٢٧٩م هيو الثالث ملك قبرص والمطالب الرسمى بعرش مملكة بيت المقدس (١٢٦٨ - ١٢٨٤م) ، وكان يأمل فى مساعدة النبلاء له وإقرار سلطته كملك على البلاد . والواقع أنه لم يلق التأييد إلا من يوحنا أف مونتفورت . لذلك عاد مرة أخرى إلى قبرص بعد أن ألحى باللائمة على جماعة فرسان الداوية لمساندتهم شارل ونائبه ، ولم يعد بوسعه سوى مصادرة ممتلكاتهم فى جزيرة قبرص . وقد اشتكى مقدم جماعة فرسان الداوية إلى البابا نيقولا الثالث Nicholas III (١٢٧٧ - ١٢٨٠م) ، فطلب البابا من ملك قبرص إعادة أملاك الداوية إليهم ولكن الملك القبرصى لم ينفذ تعليمات البابا(٧٥).

وقد أثمرت سياسة العلاقات الودية التى أقامتها حكومة شارل فى عكا مع الدولة المملوكية . من ذلك أنه فى سبتمبر عام ١٢٨٠م ، نزل فى شمال الشام

فجأة جيش مغولى لمهاجمة القوات المملوكية قبل أن يتمكن السلطان قلاوون (١٢٨٠ - ١٢٩٠م) من تثبيت مركزه فى عرش الدولة ، فقد كان فى تلك المرحلة وصيا على الصبى سلامش ابن السلطان بيبرس . وقد توغل الجيش المغولى حتى وصل إلى حلب فى العشرين من أكتوبر من العام نفسه ، بعد أن سيطر على عين تاب وبغراس ودربساك وغير ذلك بمساعدة القوات الأرمينية ولكن القوات المملوكية نجحت فى التصدى للقوات المغولية فعادت أدراجها إلى ما وراء نهر الفرات(٧٦) .

ويهمنا فى هذا البحث قدوم سفارة مغولية إلى مدينة عكا تطلب من حكومتها التعاون العسكرى لحملة مقبلة للمغول تأتى من شمال الشام . وفى الوقت نفسه كان السلطان قلاوون قد اعتلى عرش الدولة المملوكية وأخذ يتحرى تحركات المغول ، فأرسل إلى حكومة شارل فى عكا يستطلع منهم موقفهم من تحركات المغول ويطلب عقد الهدنة مع مندوب الملك شارل ، ولكن أحد سفراء السلطان قلاوون نصح المسؤلين فى حكومة عكا بعدم عقد الهدنة مع قلاوون لأن بقاءه فى العرش غير مستقر . ونظرًا للعلاقات الودية التى تربط روجر نائب شارل فى عكا بالسلطان ، فقد أرسل روجر إلى قلاوون يبلغه بالأمر . واحتاط قلاوون لحماية عرشه ، وقبض على المتآمرين ووأد المؤامرة فى مهدها . ويبدو أيضًا أنه علم بالتخطيط المغولى المقبل لغزو بلاد الشام من حكومة عكا ، والدليل على ذلك أنه بعد انتصار قلاوون على المغول فى معركة حمص التى وقعت فى نهاية الثلاثين من أكتوبر عام ١٢٨١م ، أى بعد حوالى عام من الغزو المغولى السابق ، وهو أول غزو مغولى بعد التحذير ، قام روجر نائب الملك شارل بالتوجه إلى دمشق أو الروحاء لمقابلة قلاوون وتهنئته بانتصاره على المغول (٧٧) .

وتزعزع مركز حكومة شارل فى عكا فى العام التالى (١٢٨٢م) ، ففى وقت الغروب يوم الثلاثين من مارس حدثت فتنة فى مدينة بالرمو ثم انتشرت فى كل أنحاء صقلية وهلك فيها حوالى أربعة آلاف فرنسى تحت شعار (الموت للفرنسيين) ، وهو ما يعرف فى التاريخ باسم المذبحة الصقلية The Sicilian Vespers(٧٨) . واهتز على أثرها حكم شارل فى صقلية وجنوب إيطاليا ، ولذلك استدعى شارل نائبه روجر من عكا ، فغادر المدينة بحرًا فى نهاية العام بعد أن عين مكانه صنجيل المملكة أودو بوالشيان(٧٩) .

وقد تأثرت دولة المماليك باهتزاز سلطة نائب شارل فى عكا ، إذ خسرت شبه حليف لها ، لذلك بادر السلطان قلاوون بعرض تجديد الهدنة التى سبق أن عقدت بين السلطان بيبرس وحكومة عكا فى مايو ١٢٧٢م وتوسط فيها شارل كونت أنجو . وقد وافق أودو بوالشيان على ذلك ، ولكن وضعه القانونى لم يمكنه من التوقيع على وثائق الهدنة بمفرده ، لذلك وقع معه على الوثائق قومون عكا والداوية فى صيدا وعثليث(٨٠) . ويرى البعض أن الذى وقع على الوثائق مقدم الاسبتارية(٨١) .

وعلى أثر هذه الأحداث حاول هيو الثالث ملك قبرص استعادة حقه فى عرش مملكة بيت المقدس ، فاتجه من قبرص إلى مدينة بيروت ، فوصلها فى أول أغسطس ١٢٨٣م ، ثم أبحر إلى مدينة صور ، ولكنه لم يلق قبولاً من قومون عكا وجماعة فرسان الداوية ، وفضلوا البقاء على ولائهم ومساندة أودو بوالشيان نائب الملك شارل ، و لم يرحبوا بالملك هيو ، لذلك بقى الملك فى مدينة صور حتى ينجلى الموقف ، ولكنه مالبث أن مات بالمدينة فى الرابع من مارس فى العام التالى (١٢٨٤م)(٨٢) .

وخلف هيو ابنه يوحنا على عرش قبرص (١٢٨٤ - ١٢٨٥م) ، الذى حاول استرداد حقه فى مملكة بيت المقدس فأبحر إلى مدينة صور وتوج فى المدينة نفسها ملكًا على مملكة بيت المقدس ، وانتظر لبعض الوقت ، ولكنه لم يجد التأييد سوى من صور وبيروت فعاد إلى قبرص ، ولكنه لم يعش طويلاً فمات فى العشرين من مايو ١٢٨٥م ، بعد أن حكم لمدة عام واحد(٨٣) .

وكان شارل كونت أنجو قد مات فى السابع من يناير من العام نفسه فى مدينة فوجيا Foggia ، ثم نقل جثمانه بعد ذلك ودفن فى كاتدرائية مدينة نابلى(٨٤) ، وخلفه على العرش ابنه شارل الثانى (١٢٨٥ - ١٣٠٧م) ، وانشغل بمشاغله الداخلية و لم يلتفت إلى مملكة بيت المقدس .

وقد خلف يوحنا ملك قبرص أخوه هنرى الثالث (١٢٨٥ - ١٣٢٤م) ، الذى لم يحاول التوجه إلى عكا فى تلك المرحلة حتى ينجلى الموقف . وفى العام التالى (١٢٨٦م) تشجع هنرى وأبحر من قبرص واتجه إلى مدينة عكا مباشرة فوصلها فى اليوم الرابع من شهر يونيه ، واستقبله قومون عكا بالترحاب ، ويفهم من ذلك وجود ترتيب مسبق لقدوم هنرى إلى المدينة ، وأن الطريق أصبح ممهدًا لاستعادة حق أسلافه وحقه فى عرش مملكة بيت المقدس الأسمية . ولكن أودو بوالشيان رفض تسليم قلعة المدينة رغم اختلاف الأوضاع عن الظروف السابقة ، لأن الداوية الذين اعتادوا مساندته من قبل تخلوا عنه تلك المرة وإلتزموا الحياد، كما أن الاسبتارية والتيوتون التزموا الحياد أيضًا فى ذلك الصراع . ولكن المفاوضات والظروف اللاحقة ، وما لمسه أودو من ضعف موقفه أقنعته بتسليم القلعة ، فدخلها هنرى فى موكب حافل فى التاسع والعشرين من الشهر نفسه(٨٥) .

وعلى هذه الصورة يكون حكم شارل فى مملكة بيت المقدس الذى يوصف بالاغتصاب قد انتهى فى عكا ، كما انتهى فى صقلية وجنوب إيطاليا منذ عام

ونصف تقريبًا ، وأبحر أودو بوالشيان ، وعادت مملكة بيت المقدس الأسمية بمركزها مدينة عكا إلى أصاحبها الشرعيين ، ثم ما لبثت أن سقطت عكا فى عام ١٢٩١ م فى أيدى المماليك .

والخلاصة أن شارل كونت أنجو الفرنسى الأصل تطلع إلى أملاك النورمان ومن بعدهم أسرة الهوهنشتاوفن فى صقلية وجنوب إيطاليا بمساعدة شرعية ومادية من البابوية أعداء أسرة الهوهنشتاوفن ومعاونة عسكرية ومادية من أخيه لويس والقوات الفرنسية . ثم امتدت يداه إلى أملاك الدولة البيزنطية ونجح فى ضم بعض الأراضى لفترة محدودة .

كذلك نجح فى تحويل حملة أخيه لويس على تونس لضرب الثائرين عليه والمسلمين الذين ساعدوا مانفرد و كونرادين ، ولكن مكاسبه انحسرت فى جمع بعض الأموال وعقد معاهدة مقابل خسارة أسطوله الذى تحطم عند عودته . كما أنه ادعى أنه ملك مملكة بيت المقدس الأسمية وسيطر لبعض الوقت على مقدراتها ، ونجح فى فرض سلطانه على جانب من هذه المملكة . وأخيرًا يمكن القول أن شارل ولد أميرًا ، وعاش غريبًا فى داره مكروها من عائلته ، وقضى حياته مغامرًا، ومات بعيدًا عن بلاده ودفن فى مدينة نابلى .

الهوامش

(1) Joinville and Villehardouin, Chronicles of The Crusades, Penguin, 1963, pp. 191, 226.

(2) La Mone, The World of the Middle Ages, New York 1949, p. 192.

(3) Hallam, Capitian France (987 - 1328), London 1983, p. 207.

(4) Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge, 1958, p. 71.

(5) Villani, G. Selections From The first Nine Books of The Croniche Florentine. Tran. Rose E. Selefe, Westminster, 1896, pp -199 - 200, Sedgwick, Itlay in The Thirteenth Century, Boston, 1912, Vol.II, pp. 44 - 90.

(6) Runciman, op. cit., pp. 71 - 2.

(7) Hallam, op. cit., p.215.

(8) Matthew Paris, English History. tran. J. A. Giles. London, I, 263 - 8.

(9) Mathew of westminster, The Flowers of History, tran C. D. Yonge, London, 1853, II, p. 354.

(10) Mathew Paris, op. cit., II, p. 43.

(11) Hallam, op. cit., p. 223.

(12) Runciman, op. cit., p. 73.

(13) Joinvill and Villehardouin, op. cit., p. 196.

(14) Runciman, op. cit., pp. 73 - 4.

(15) Mathew of Westminster, op. cit II, pp. 247 - 9.

(16) Mckillian, Chronicle of The Pope, London, 1912, p. 317.

(17) Villani, G, op. cit., pp. 190 - 3.

(18) Ibid, pp. 190, 202 - 3.

(19) Matthew of Westminster, op. cit., II, p. 445.

(20) Anna Comnena, The Alexiad, Penguin, 1969, pp. 124 ff, 135 ff, 142.

(21) Fulcher of Charters, A History of The Expedition to Jerusalem, The University of Tennessee U. S. A. tran. France Rita Ryan, 1969, pp. 98 ff.

(22) John Kinnamos, Deeds of John and Manual Comnenes, New York, 1976, p. 76.

(23) Ernoul, Chronique, Paris, 1871, p.p. 305 ff .

(24) Ducellier, A. Byzance et Le Mond Orthodoxe, Paris, 1986, p315.

(25) Pierre Dubois, The Recovery of The Holy Land, tran. Walther I. Brandt New York, 1956, p. 172.

(26) Villani, G. op. cit., p.p. 213 - 6.

(27) Hendrickx, B. Regestes Des Empereurs Latins De Constantinople (1204 - 1261/ 1272), Thessaloniki, 1988, p.184.

(28) Gesta des Chiprois, R. H. C Arm. vol. II, Paris, p. 763.

(29) Runciman, op. cit., p. 132.

(30) Ibid., Loc. Cit.

(31) Hendrickx, B. op. cit., pp. 184 - 5.

(32) Leonard, E., G. Les Angevins de Naples, Paris, 1954, pp. 105-6.

(33) Hendrickx, B. op. cit., p. 184.

(34) Runciman, op. cit., p. 137.

(٣٥) ابن العبرى : تاريخ الزمان – دار المشـرق – بيروت ١٩٨٦ – ص ٣١٦ ، الهمذانى : جامع التواريخ – دار النهضة – بيروت ١٩٨٣ – ص ١٢٥.

(36) Leonard, E. G. op. cit., pp. 105 - 6.

(37) Vambery, A. Hungary, London, 1889, p. 146.

(38) Runciman, op. cit., p. 138.

(39) Villani, op. cit., pp. 240 - 1.

(40) Runciman, op. cit., p. 139.

(41) Ostrogorsky, G. History of The Byzantine State, tran. Joan Hussey, Oxford, 1956, pp. 405 - 6.

(٤٢) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحديه والحفصية – تونس ١٩٦٦ – ص٣٢.

(43) Matthew of Westminster, op. cit., II, p. 451.

(44) Villani, G. op. cit., pp. 215 - 17.

(45) Runciman, op. cit., p. 141.

(46) Villani, G. op. cit., p. 247.

(47) Joinville, op. cit., pp. 345 - 6.

(48) Villani, G. op. cit., p. 247.

(49) Runciman, op. cit., p.142.

(50) Joinville, op. cit., p. 350, Matthew of Westminster II, op. cit, 451.

(51) Ibid., Loc. Cit.

(52) Joinville, op. cit., pp. 346, 350, Villani, G., op. cit., pp. 249 - 250.

(53) Ibid, p. 249.

(54) Villani, G. op. cit. p. 250.

(55) Runciman. op. cit., pp. 143 - 4.

(56) Villani, G. op. cit., p. 250.

(57) Matthew of Westminsters, op. cit, II, pp. 353 - 5.

(58) Villani, G. op. cit. pp. 250 - 1 .

راجع أيضًا : ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر - تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر - الرياض ١٩٧٦م ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، ٣٨٢.

(59) Runciman, op. cit., p. 145.

(60) Hayton, La Flor des Estoires de Terre d'Orient. in R. H. C. Arm. vol. II, p. 171.

(61) Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d' Anjou in Revue de L'Orient Latin, vol II. Paris 1894. pp. 213 - 4,

ابن العبرى : المصدر السابق - ص ٣٢٤ .

(62) Ostrogorsky, op. cit., p. 399.

(63) Lettre des Chrétiens de Terre Sainte, op. cit., 211 - 215.

(64) Eracles II, L'Estoire, in R. H. G. Occ. vol II, p. 456.

(65) Gesta des Chiprois, pp. 771, 773, 777.

(66) Eracles II, pp. 476 - 7, 479.

(67) Gesta des Chiprois, p. 783, Eracles II, pp. 478 - 9.

(68) Gesta des Chiprois, pp. 783 - 4, Eracles II, pp. 483 - 4 .

(69) Ibid, pp. 478 - 9.

(70) Gesta des Chiprois, pp. 777 - 8.

(٧١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨

Eracles II, p.461.

(72) Mckillian, op. cit., p. 326.

(73) Ostrogorsky, op. cit., p. 402.

(74) Eracles II, pp. 474 - 5, Gesta des Chiprois, p. 783.

(75) Eracles II, pp. 478 - 9.

(٧٦) أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر - دار المعرفة - بيروت - (د . ت) حـ٤ ص١٢ - ١٣ ، بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية فى الدولة التركية - نشر دكتور عبد الحميد صالح حمدان - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة - ١٩٨٧م - ص٩٤ - ٩٥ .

(٧٧) أبو الفدا : المصدر السابق - حـ٤ - ص ١٤ - ١٥ ، ابن العبرى : المصدر السابق ٢٤٠ - ٢٤١ ، بيبرس المنصورى : المصدر السابق - ص٩٧ .

(78) Villani G. op. cit, p. 267 - 8.

(79) Gesta des Chiprios, p. 489.

(٨٠) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور . ونص الهدنة منشور فى Gabrieli, F., Arab Historians of The Crusades, University of California Press, 1969, pp. 326 - 331.

راجع أيضًا المقريزى: السلوك -حـ١ ق٣- القاهرة ١٩٣٩ - الملحق(٨) ص ٩٨٥-٩٩٧.

(٨١) بيبرس المنصورى : المصدر السابق - ص٩٦ .

(82) Gesta des Chiprois, pp. 789 - 91.

(83) Ibid, p. 792.

(84) Villani, G. op. cit., pp. 275 ff.

(85) Gesta des Chiprois, pp. 792 - 3.

منهج نقد الروايات التاريخية من منظور إسلامي

د. محمد بن صامل السلمي (*)

الإنسان محتاج فى حياته إلى معلومات كثيرة لا سبيل له إلى كثير منها إلا بالأخبار ، والأخبار يقع فيها الحق والباطل ، والصدق والكذب ، والصواب والخطأ . وهو مضطر إلى تمييز هذا من ذاك(**) ليعمل بالحق والصدق والصواب ، ويجتنب الباطل والكذب والخطأ.

ولا بد من سلوك منهج يميز به المقبول من المردود . وقد كان للعلماء من سلفنا الصالح جهد كبير فى وضع قواعد لنقد الأخبار وضبطها وخاصة ما يتعلق منها بالشريعة وأحكامها .

والتاريخ أخبار وروايات ووثائق منقولة عمن شاهدها أو دونها أو سمع بها وقد اقتفى الأخباريون الأوائل أثر علماء الحديث النبوى فى تدوين الأخبار موثقة بالأسانيد التى نقلوها بها . وحتى نميز نحن الصحيح من غيره من تلك الأخبار فإننا بحاجة إلى سلوك منهج فى نقدها يصل بنا إلى الحقيقة العلمية . وعلماء الجرح والتعديل وضعوا منهجاً دقيقاً فى نقد الأخبار والأحاديث المنقولة عن النبى ﷺ وهو منهج صالح للتطبيق فى ميدان الأخبار التاريخية مع الأخذ فى الاعتبار طبيعة علم التاريخ وغايته.

وفى عصرنا الحديث شهد ميدان الدراسات التاريخية صحوة فكرية تسعى إلى تأصيل الأبحاث التاريخية واستقلالها عن المناهج الوافدة التى كانت نتائجها على تاريخ الإسلام ورجالاته ونظمه غير حميدة ، فاتجه عدد من الباحثين فى الدراسات الجامعية (الأكاديمية) إلى دراسة المرويات التاريخية ونقدها فكانت تجربة تحقق لكثير منها الجدية والنجاح بحسب قدرات الباحثين وضبطهم لمنهج النقد عند المحدثين .

(*) كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة - أم القرى .

(**) انظر مقدمة عبد الرحمن المعلمى لكتاب الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (ص أ) .

منهج نقد الروايات التاريخية

معنى النقد :

النقد في اللغة : تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها .(١)

وعند المحدثين : هو تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها والحكم على الرواة تعديلاً وتجريحاً (٢).

والعلاقة بين التعريف اللغوى والاصلاحى واضحة وهى تمييز ما يصلح وإخراج ما لايصلح .

معنى الرواية :

المعنى اللغوى : قال ابن فارس : روى، الراء والواو والياء ، أصل واحد ، ثم يشتق منه . فالأصل ما كان خلاف العطش ، ثم يصرف فى الكلام لحامل ما يروى منه . فالأصل رويت من الماء رياً ...ثم شبه به الذى يأتى القوم بعلم أو خبر فيرويه ، كأنه أتاهم بريهم من ذلك (٣).

وقال فى اللسان : الراوى : هو الذى يروى الأحاديث والشعر والأخبار ، ويقال فلان راوية إذا كثرت روايته والهاء للمبالغة فى وصفه بالرواية (٤). وما يحمله ذلك الراوى ويبلغه هو الرواية .

المعنى الاصطلاحى : الرواية التاريخية تعنى بعبارة موجزة نقل الأخبار والأحداث والوقائع التاريخية والإخبار عنها بصور النقل المختلفة ، مثل النقل الشفهى ، ونقل الوثائق ، ونقل الكتب والمؤلفات .

تطور الرواية التاريخية :

لقد كانت الرواية فى أول نشأتها نقلاً يعتمد على الحفظ والذاكرة ، ثم بعد انتشار التدوين أضيف إلى النقل الشفوى رواية الوثائق والرسائل المدونة ، ثم رواية الكتب والمؤلفات واسنادها إلى مؤلفيها بعد تحمل روايتها بطرق تحمل العلم

المعروفة ، مثل السماع من لفظ الشيخ ، والعرض ، والإجازة ، والمكاتبة ، والوجادة (٥) . ومع انتشار التأليف ووفرة الورق وحوانيت الوراقين ، دخل ميدان العلم وروايته من ليس من أهله من القصاص وأصحاب الأهواء ، ولم يلتزموا بطرق تحمل العلم مما ساعد على إشاعة كم كبير من الروايات المكذوبة المفتعلة والقصص الوصفي المنمق الذى يخدم اتجاهات فكرية منحرفة ، وأهواء باطلة مضادة لمنهج أهل السنة والجماعة وتخالف الواقع التاريخي لمسيرة الأمة الإسلامية ، ومن ثم احتيج إلى النظر في تلك الأحاديث والأخبار لنقدها وتمييز صحيحها من سقيمها .

الحاجة إلى نقد الروايات التاريخية :

لقد واجه الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين دعوة الإسلام بأنواع متعددة من المكائد والدسائس التى حاولوا بها الحد من إنتشار الدعوة المباركة وثبات أتباعها على الصراط المستقيم ، فاستخدموا أسلحة متعددة مادية ومعنوية ، وكان سلاح المواجهة العسكرية هو الأظهر ، فلم يفلحوا ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فأدركوا أن السر فى قوة المسلمين وظهورهم عليهم يكمن فى وحدتهم الفكرية التى قامت على المنهج القرآنى والهدى النبوى والتزامهم بهذا المصدر والتلقى منه وحده ، مما ضمن لهم الاستمرار على هذه الوحدة الفكرية والتى انبنت عليها وحدتهم السياسية فى الواقع الجغرافى ، فأصبحت دولة الإسلام بتلك الوحدتين - الفكرية والسياسية - دولة قوية مرهوبة الجانب ، مستعصية على الأعداء ، ولا تؤثر فيها مكائدهم ، أخبر سبحانه وتعالى ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴾.(٦)

فما كان منهم إلا أن لجأوا إلى سلاح الكيد على الحيلة ، والسعى بالتفرقة بين الأمة من الداخل ، فاستخدموا سلاح الصراع الفكرى بإثارة الشبة ، وزرع الأهواء التى أنتجت أحزاباً وفرقاً داخل الأمة الموحدة فى فكرها وواقعها السياسى يوم أن كانت عقيدتها واحدة ، أما بعد ظهور الفرق والأهواء فقد انفكت الوحدة

الفكرية ثم تبع ذلك بعد زمن انفكاك الوحدة السياسية الجغرافية ، وشوه تاريخ الأمة ورجالاتها ومواضع القدوة فيها .

لقد كانت حركة النفاق وظهور المنافقين في العهد النبوى جزءاً من هذا الصراع الذى يجبن عن المواجهة ويستخدم الكيد على الحيلة ، فإن عبد الله بن أبى ابن سلول قد أشار على أتباعه بعد انتصار النبى ﷺ فى معركة بدر بالدخول فى الدين ، لا دخول المؤمن المصدق ولكن دخول المنافق الذى يكيد من الداخل ، وينتهز الفرص لإثارة البلبلة بين المؤمنين ، فقال كما فى صحيح البخارى : "هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول على الإسلام وأسلموا".(٧)

وتثبت الوقائع التاريخية فى العهد النبوى أثر هذا المنافق وأتباعه ، ومحاولاتهم المتعددة لإيقاع الفتنة بين المؤمنين .(٨)

وفى عهد الخلافة الراشدة وبعد الانتصار الساحق على الدولة الساسانية فى معركة القادسية ودخول المسلمين المدائن عاصمة الدولة الساسانية ثم القضاء على المقاومة الفارسية فى معركة تستر سنة١٧هـ(٩)، ثم معركة نهاوند سنة ٢١هـ . والانسياح بعد ذلك فى بلاد المشرق . بعد هذا الظهور للمسلمين قرر ساسة الفرس ورجالاتها أن المقاومة العسكرية غير مجدية ، وأنه لابد من سلوك طريق آخر فى المقاومة فأجمعوا بأنه لابد من الكيد على الحيلة والعمل من الداخل كما يقول ابن حزم (١٠) ، فاظهروا الإسلام ليطمأن لهم ويقبل قولهم ، وقد وفد إلى العراق فى هذه الفترة عبد الله بن سبأ الصنعانى اليهودى الذى أظهر الإسلام ، فالتقى بهؤلاء الحاقدين وتكاتفوا على العمل سوياً ، وقد ظهر أثر الفريقين ، على نشأة الشيعة وأفكارهم (١١) ، وقد انضم إليهم فيما يظهر بعض النصارى (١٢)، وكان أول الخطط ظهوراً اغتيال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ثم نبتت بتأثير أولئك الفتنة الأولى فى تاريخ الإسلام وذلك بالعدوان على الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه حيث قدمت الجيوش من ثلاثة من الأمصار الإسلامية لغزو المدينة عاصمة الخلافة وقتل الخليفة فى داره (١٣)، وهى

سابقة خطيرة تنم عن تنامى أثر الكيد من الداخل وتقدمه عما كان فى حادثة اغتيال عمر رضى الله عنه ووصوله إلى درجة الإعلان عن نفسه بهذه الوسيلة الجريئة والقوية فى نفس الوقت .

وبعد هذه الفتنة قامت الفتنة الثانية (١٤) وتحول الصراع إلى الداخل بدلاً من جهاد العدو فى الخارج فوقع القتال بين المسلمين فى معركة الجمل ، ثم فى معركة صفين ، وظهرت الفرق معلنة عن نفسها ، الخوارج ، الشيعة ، ثم المرجئة والمعتزلة ...(١٥)، وقامت بنشر أفكارها والمجادلة عنها بل وحمل بعضها السيف لإيجاد مكان لها على الخريطة الجغرافية وتمكن من ذلك .

وفى ظل هذه الظروف من التفرق وتشعب الأهواء دخل الوضع والتزوير ميدان الروايات التاريخية ، كما دخل إلى الحديث النبوى (١٦). وقذفت الفرق بعدد كبير من الرواة والأخباريين الذين يضعون القصص والحكايات ويزيدون فى الأخبار ما يخدم أغراضهم ومذاهبهم الفكرية (١٧)، فى حملة إعلامية للتأثير على عدد كبير من الناس ليكونوا لهم أعواناً وأنصاراً .

وهذا كله يبين شدة الحاجة إلى نقد الأخبار والروايات التاريخية وأهمية ذلك ، ويوجب على أهل العلم القيام بهذا الواجب ، وتطبيق مبدأ من أين لك هذا ؟ على الروايات التاريخية ، والتعرف على عقائد واتجاهات رواة الأخبار ومؤلفى الكتب ، وتمييز أهل العدالة والثقة من غيرهم من أهل الأهواء .

وإن فى تراثنا التاريخى والأدبى بل حتى بعض المصنفات الحديثية آلاف الروايات والقصص المدونة على طريقة الجمع والتقميش (١٨)، وهى بحاجة إلى غربلة ونقد من الباحثين المتخصصين قبل الاستدلال بها والاعتماد عليها ليعرف الصحيح من السقيم .

وقد كانت تلك الروايات المكذوبة فى كتب التراث صيداً ثميناً عند المستشرقين فرحوا به ، فعكفوا على استخراجها من بطون الكتب ونشرها

وابرازها لأنها تسير فى نفس الاتجاه الذى يهدفون إليه وتخدم أغراضهم التى فرغوا أنفسهم لها من صد المسلمين عن دينهم عن طريق التشكيك فى دينهم وتشويه تراثهم وتاريخهم ، وقد بنوا على تلك الروايات التى تلقوها عن سلفهم من الرواة الوضاعين أحكاماً تاريخية تجافى الواقع الحقيقى بل وبعضها يناقض الواقع المعلوم بالضرورة من حياة المسلمين وتاريخ رجالاته وأبطاله الأمجاد (١٩).

أصول فى منهج نقد الروايات التاريخية :

نقد الروايات علم له أصول وضوابط ، لابد من معرفتها وتطبيقها ، حتى نصل إلى الصورة الصحيحة للواقعة أو الوقائع التاريخية ، ونصدر أحكاماً عادلة ومنطقية فى نقد الروايات ، فإن الإثبات للواقعة التاريخية أو نفيها ، ثم تفسيرها وتعليلها ، لابد أن يبنى على علم صحيح ، وحتى نصل إلى العلم الصحيح يلزمنا اتباع الأصول التى تيسر معرفة العلم بالواقع التاريخى الذى حدث كما حدث فعلاً من غير تزيد أو تحريف .

كما أن معرفة تلك الأصول يساعد على معرفة الدوافع والأسباب للأحداث التاريخية ، ومن ثم يكون التعليل والتفسير لها صواباً أو مقارباً للصواب.

وقد حرر علماء الحديث الشريف أصول الروايات فى الحديث النبوى ، ووضعوا قواعد بينة واضحة ، ينبغى أن يستفاد منها فى نقد الروايات التاريخية ، وخاصة ما يتعلق منها بتاريخ الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، فهم جيل القدوة ، وجيل التأسيس لبناء الأمة ، وجيل التطبيق المثالى لرسالة الإسلام ، ومما يساعد على هذا أن تاريخهم قد اتبع فى تدوينه - فى الغالب - أسلوب المحدثين وطريقتهم فى نقل الروايات والأخبار مسندة إلى من حضروا الوقائع وشاهدوها .

ومن الأصول النافعة في منهج نقد الروايات التاريخية مايلي:

١- تحديد مصادر التلقي بدقة :

إن مصادر التلقي للمعرفة من الأهمية بمكان ، وحتى تكون المعرفة صحيحة فإنه لابد من تحديد مصادر التلقي وضبطها ، ومصادر التلقي في موضوع نقد الروايات التاريخية على نوعين :

- مصادر أصول الاعتقاد والمنهج الفكري ، الذي يوضح التصور الصحيح عن الله والكون والإنسان ، وأصل هذا الإنسان ووظيفته وغاية وجوده ، فالعقيدة هي النظام الفكري الذي تقوم عليه جميع تصورات الإنسان وتوجهاته ، ومصادر هذا النوع هو الوحي المتلقى عن المعصوم ﷺ في الكتاب والسنة وما بني عليهما من الإجماع والقياس الصحيح . فهذا المصدر لابد أن يكون للباحث حظ منه لتستقيم له وجهته الفكرية ويستطيع كشف الزيف الذي يخالفها .

- المصادر المختصة في بيان طريقة نقد الروايات وفق المنهج العلمي والقواعد المقررة عند العلماء الأثبات الثقات ، فإن لكل علم مصادر خاصة ، تبين أصوله ، وتوضح منهجه ، وترسم قواعده ، فينبغي معرفة هذه المصادر والرجوع إليها والاستفادة من موازينها النقدية .

فنقل الأخبار والروايات له قواعد قررها أهل العلم ، فمثلاً الروايات الواردة عن أهل الكتاب والتي اصطلح أهل العلم عن تسميتها بالاسرائيليات لها ثلاثة أحوال:(٢٠)

(أ) ما جاء موافقاً لما في شرعنا فهذا نصدقه لتصديق شرعنا له .

(ب) ما جاء مخالفاً لما في شرعنا فهذا نكذبه لتكذيب شرعنا له .

(جـ) ما لم يوجد في شرعنا ما يخالفه ولا ما يصدقه ، فهذا تجوز حكايته لا على سبيل الاستشهاد به والتصديق له وإنما على سبيل الذكر والبيان .

كما أن الرواية عن المبتدعة تحكمها ضوابط بحسب نوع البدعة ، وبحسب نوع الرواية إن كانت مؤيدة للبدعة أم لا.(٢١)

وكذا الرواة المتروكون بسبب كذبهم فى الرواية ، أو غلطهم الفاحش . أو الرواة المجهولون إما جهالة العين أو جهالة الحال (٢٢). أو الرواة الضعفاء، وهم الذين تبين للنقاد عدم ضبطهم لما يروون (٢٣)، فكل هذه الأحوال للرواة يرجع فيها إلى المصادر المختصة التى بينت أحوالهم ، وقررت أصول التعامل مع رواياتهم.

٢ - معرفة الاتجاه الفكرى والعقدى لرواة الأخبار والمؤلفين :

إن التعرف على الاتجاهات الفكرية والمنازع العقدية لرواة الأخبار والمؤلفين واعتبار ذلك فى نقد الأخبار من الأهمية بمكان لأن الهوى مرد لأصحابه ، والخصومة حاجز عن إدارك الحق الذى عند الخصم ومانع من انصافه .

وبسبب الخلاف العقدى شاعت مئات الروايات المكذوبة على السلف الأولين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، خاصة فى أحداث الفتنة وذيولها ، حتى اختلط الحق بالباطل على كثير من الناس ، وتداول تلك الروايات عشرات المصنفين فى كتبهم ، حتى طغت الروايات المخالفة للواقع التاريخى على الصورة الصحيحة لذلك الواقع ، ومن ثم تلقتها الأجيال المتأخرة وكأنها حقائق مسلمة لاتقبل النقاش (٢٤)، مع أننا لو عدنا إلى أصول تلك الروايات ومصادرها لوجدناها صادرة من أهل الكذب والتعصب والانحراف عن العقيدة الإسلامية ، من أمثال الأخبارى لوط بن يحى ، ونصر بن مزاحم، واسحاق بن بشير البخارى، وعيسى بن داب ، ومحمد بن السائب الكلبى وابنه هشام ، والهيثم بن عدى ، وعوانة بن الحكم ، واليعقوبى ، وابن أعثم الكوفى والمسعودى ، وأبو الفرج الاصبهانى ، وابن أبى الحديد ، وأضرابهم . أو صادرة عن رواة ضعاف أو مجاهيل يأخذون عمن أقبل وأدبر ، مثل الواقدى ، وسيف بن عمر التميمى ، وأبو الوليد الأزرقى ، ومحمد بن اسحاق الفاكهى ، وأمثالهم .

وإن ذكر تلك الروايات فى كتب المؤرخين المشهورين مثل ابن سعد، وخليفة بن خياط، والطبرى، والخطيب البغدادى، وابن عساكر، وابن الأثير، والذهبى، وابن كثير، لا يعطى لها صفة الصدق والثبوت ما لم تكن صدقاً فى الواقع، لأن هؤلاء العلماء ينقلون على الرواية والحكاية ولا يشترطون الصحة فى كل ما يروون.

٣ - مراعاة القواعد الشرعية والأصول العقدية عند نقد الأخبار والروايات:

مما يجب ملاحظته عند نقد الروايات التاريخية أن لا يكون النص فيه مخالفة عقدية أو شرعية وخاصة إذا كان النص أو الخبر منسوباً إلى أحد الصحابة رضى الله عنهم أو العلماء الثقات الذين يعرفون حدود الله وأحكامه ويلتزمون بها، فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة أربعين من الهجرة أنه قد حج بالناس فى هذه السنة المغيرة بن شعبة. فقال: حدثنى موسى بن عبد الرحمن، قال: حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الخزاعى، قال: أخبرنا اسماعيل بن راشد، قال: لما حضر الموسم - يعنى فى العام الذى قتل فيه علي - كتب المغيرة بن شعبة كتاباً افتعله على لسان معاوية، فأقام للناس الحج سنة أربعين، ويقال إنه عرف يوم التروية، ونحر يوم عرفة، خوفاً أن يفطن بمكانه.(٢٥)

فإنه بصرف النظر عن دراسة السند فإن فى النص من المخالفة الشرعية ما يبطله، وهي الزعم بأنه عرف بالناس يوم التروية وهو اليوم الثامن، وهذا العمل باطل شرعاً فإن هذه العبادة مؤقتة زماناً ومحددة مكاناً، والحج عرفة، ومن لم يقف بعرفة فى اليوم التاسع أو ليلة العاشر فلا حج له.

وقد نبه الحافظ ابن كثير على هذا فقال: وهذا الذى نقله ابن جرير لا يقبل ولا يظن بالمغيرة رضى الله عنه ذلك، وإنما نبهنا على ذلك ليعلم أنه باطل، فإن الصحابة أجل قدراً من هذا، ولكن هذه نزعة شيعية.(٢٦)

كما ذكر الطبرى باسناد مرسل أن زياد بن سميه طلب من معاوية سنة ثلاث وخمسين أن يضم له ولاية الحجاز مع العراق فبلغ ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فدعا عليه ابن عمر، فطعن ومات . فقال ابن عمر حين بلغه الخبر : اذهب إليك ابن سميه فلا الدنيا بقيت لك ، ولا الآخرة أدركت .(٢٧)

فهذا الخبر مرسل لأن الراوى لم يدرك الحادثة ، ولا يعلم ممن تلقاه ، وفى متن النص نكارة وهى القول المنسوب لعبد الله بن عمر الصحابى الفقيه الورع بأن زياداً لم يدرك ثواب الآخرة ، وهذا فيه تألٍ على الله سبحانه وتعالى ومجازفة لا تصدر من هذا الصحابى .

وهذا الأصل نرد به كل رواية فيها قدح فى الصحابة رضى الله عنهم عموماً وخصوصاً ، فإن من المقرر عند علماء العقيدة : وجوب الامساك عما شجر بين الصحابة والسلف الأولين (٢٨) لما ورد من النصوص الشرعية الدالة على هذا مثل قوله ﷺ :" إذا ذكر أصحابى فأمسكوا ، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا"(٢٩) والمراد إذا ذكروا بسوء ، أما فضائلهم فإن نشرها والتحديث بها أمر مرغب فيه ، ولنهيه ﷺ أن يتخذ الصحابة غرضاً بعده.(٣٠)

ونحن نعلم أن الصحابة رضى الله عنهم بشر من البشر يصيبون ويخطئون وليسوا بمعصومين غير أنهم طراز فريد لأثر التربية النبوية المباشرة فيهم ، ولمشاهدتهم نزول الوحى ، ومصاحبتهم لرسول الله ﷺ ، وجهادهم معه بالأنفس والأموال وقد ثبت بالتتبع أنهم لا يتعمدون الخطأ فإذا وقع من أحدهم خطأ محض ونبّه عليه أقلع عنه وأناب ، وما يقع من أحدهم أثناء الغضب فإنه يطوى ولا يروى ، ومواقفهم رضى الله عنهم من المسائل وقع فيها خلاف راجع إلى الاجتهاد ، والمجتهد إذا أخطأ غفر خطأوه وله أجر الاجتهاد .(٣١)

٤- النظر إلى مآل الخبر وما يترتب عليه :

هذا أصل مهم يجب مراعاته فى منهج نقد الروايات التاريخية ، فإن الأمور بمآلاتها.

يقول الشاطبى : النظر فى مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً. (٣٢)

ويقول فى موضع آخر : الأدلة الشرعية والاستقراء التام يدلان على أن المآلات معتبرة فى أصل المشروعية . ثم أورد عدداً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على ذلك .(٣٣)

ولقد تنبه لهذا الأصل عدد من أذكياء العلماء النابهين :

قال الإمام مالك رحمه الله عندما سئل عن قوم يقدحون فى الصحابة رضى الله عنهم : إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح فى النبى ﷺ فلم يمكنهم ذلك ، فقدحوا فى أصحابه ، حتى يقال رجل سوء ، ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين .(٣٤)

وقال أبو زرعة الرازى : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق ، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى ، وهم زنادقة.(٣٥)

وقد اعتبر الإمام أحمد ، وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية القدح فى الصحابة قدحاً فى الدين ، ذلك أنهم هم نقلة الدين إلينا ، وعن طريقهم عرفنا القرآن ونصوص الأحاديث وبيان الأحكام والسنن .

قال الإمام أحمد : إذا رأيت أحداً يذكر أصحاب رسول الله بسوء فاتهمه على الإسلام .(٣٦)

وقال ابن تيمية : القدح فى خير القرون الذين صحبوا الرسول قدح فى الرسول عليه السلام كما قال مالك وغيره من أئمة العلم .(٣٧)

وقال : وهذه الأحاديث مستفيضة بل متواترة فى فضائل الصحابة والثناء عليهم وتفضيل قرنهم على من بعدهم من القرون ، فالقدح فيهم قدح فى القرآن والسنة.(٣٨)

كما أن القدح فى آحاد الصحابة يؤول إلى القدح فى عامة الصحابة ، وهذا الباب إذا فتح لا يغلق ، وإذا هتك ستر أحدهم ولج منه إلى العموم .

يقول عبدالله بن المبارك : معاوية عندنا محنة ، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً اتهمناه على القوم – يعنى الصحابة .(٣٩)

وقال أبو توبة الربيع بن نافع الحلبى : معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ ، فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما وراءه.(٤٠)

فهذه النصوص عن هؤلاء العلماء تدل على اعتبارهم لهذا الأصل وملاحظتهم الدقيقة لمآلات مثل هذه الأخبار المروية وفيها قدح فى الصحابة، وأنهم نظروا إلى نتائجها المستقبلية فالقدح فى الصحابة أو فى أحدهم لاتنحصر آثاره فى كونه قدحاً فى أشخاصهم ، إنما يؤول الأمر إلى القدح فى رسول الله ﷺ إمامهم ومربيهم ، كما أنه قدح فى الشريعة والرسالة التى جاء بها ﷺ .

لذا فإن الأمر يحتاج إلى اعتبار هذا الأصل عند نقد الروايات التاريخية ، فمثلاً الفتنة التى وقعت بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه خلفت آثاراً نشأ عنها تحزب وتفرق وأهواء خالفت سبيل السنة ومن ثم نقلت روايات وأخبار إما مختلقة أصلاً ، أو مزاد فيها بسبب الهوى والعصبية حتى دلت على خلاف أصلها ، والواجب اتباع المنهج العلمى الذى رسمه علماء الحديث لمعرفة الروايات المقبولة من غيرها مع اعتبار هذا الأصل المقرر وإلا فإن كثيراً من الروايات الواردة فى ذلك تؤدى فى مآلاتها إلى القدح فى الصحابة حملة الرسالة الإسلامية ، والقدح فيهم يؤول إلى القدح فى الدين الذى اعتنقوه ، والرسول الذى صحبوه وتربوا على يديه .

وقد ذكر شيخ الاسلام مثالاً على ذلك ما يشيع فى كتب بعض الطوائف من السب والشتم للخلفاء الراشدين ، واتهامهم بالتآمر على جحد حق الإمام المنصوص عليه ، المولى عليهم فولوا فاسقاً وظالماً ، ومنعوا عادلاً وعالماً مع علمهم

بالحق ، فقال : قد عرف بالتواتر الذى لا يخفى على العامة والخاصة أن أبا بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم كان لهم بالنبى ﷺ اختصاص عظيم وكانوا من أعظم الناس اختصاصاً به وصحبة له وقرباً إليه واتصالاً به وقد صاهرهم كلهم وما عرف عنه أنه كان يذمهم ولا يلعنهم بل المعروف عنه أنه كان يحبهم ويثنى عليهم وحينئذ فإما أن يكونوا على الاستقامة ظاهراً وباطناً فى حياته وبعد موته . وإما أن يكونوا بخلاف ذلك فى حياته أو بعد موته ، فإن كانوا على غير الاستقامة مع هذا القرب فأحد الأمرين لازم:

- إما عدم علمه بأحوالهم .

- أو مداهنته لهم .

وأيهما كان فهو من أعظم القدح فى الرسول ﷺ ، كما قيل :

فإن كنت لاتدرى فتلك مصيبة   وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

وإن كانوا انحرفوا بعد الاستقامة ، فهذا خذلان من الله للرسول فى خواص أمته وأكابر أصحابه.(٤١)

فهذا هو مآل أقوالهم فى الصحابة ولازمها .

٥ – اعتبار أحوال العصر وقياس الخبر على أحوال المخبر عنه :

المقولة التى تقول :" الإنسان ابن بيئته وعصره" لها نصيب من الصحة ، فإن المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان له أثر عليه فى سلوكه وأحواله .

وعصر الرسالة والخلافة الراشدة هو أزهى وأزكى عصور الإسلام تمسكاً بالأخلاق الفاضلة والآداب الشرعية وقد بلغ بهم رسول الله ﷺ الغاية فى التربية على آداب الإسلام وتعاليمه فهذا العصر هو جيل الأسوة والقدوة ، والجيل المثالى فى كل مناحى الحياة الإسلامية ، وكذا ما تلاه من العصور الفاضلة حيث بين رسول ﷺ أن خير القرون قرنه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . (٤٢)

فالأجيال الثلاثة ، الأولى لها أفضلية بحسب النصوص الشرعية ، وقد دلّ الواقع التاريخى على صحة ذلك .

وهكذا كل عصر له خصائص ومميزات سواء كانت إيجابية أم سلبية ، فينبغى اعتبار أحوال العصر عند نقد الروايات والنصوص فإن من الوقائع التى يذكرها الأخباريون ما لا تحتمله أحوال العصر المروية عنه تلك الأخبار .

ومن أمثلة ذلك ما يذكره أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى من أخبار الشاعر عمر بن أبى ربيعة فى المجون واللهو ، ثم يضع من الوقائع والقصص ما يفسر ذلك الشعر ، وما يذكره عن مجامع السهر ومواطن اللهو والشراب كما زعم فى مكة والمدينة . وقد اعتمد عليه بعض الباحثين فقرروا آراء شاذة عن مجتمع الحجاز فى القرن الأول(٤٣) وهى مما يجب رده ، فإن أحوال العصر لاتقبله. والأخبار التى يذكرها صاحب الأغانى تركز على الجانب الضعيف فى حياة من يترجم لهم من الشعراء وأهل الأدب وهو جانب اللهو والمرح وإشباع الشهوات ولم يذكر جوانب الأخلاق والشيم الرفيعة والاهتمامات العالية .(٤٤) ثم عممها الباحثون المعاصرون على جميع مجتمع الحجاز وهذا خطأ فى المنهج الذى سلكوه أفسد آراءهم ونتائج أبحاثهم .(٤٥)

ومن الأمثلة أيضاً : ما أخرجه ابن اسحاق فى السيرة النبوية (٤٦) قال: حدثنى عبدا لله بن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث عن سليمان بن يسار عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمرى قال : خرجت أنا وعبيد الله بن عدى ابن الخيار أخو بنى نوفل بن عبد مناف ، فى زمان معاوية بن أبى سفيان ، فأدربنا (٤٧) مع الناس فلما قفلنا مررنا بحمص- وكان وحشى مولى جبير بن مطعم قد سكنها وأقام فيها - فلما قدمناها ، قال لى عبيد الله بن عدى : هل لك فى أن نأتى وحشياً فنسأله عن قتل حمزة كيف قتله ؟

قال : قلت له : إن شئت ، فخرجنا نسأل عنه بحمص ، فقال لنا رجل ونحن نسأله عنه : إنكما ستجدانه بفناء داره ، وهو رجل قد غلبت عليه الخمر ،

فإن تجداه صاحياً تجدا رجلاً عربياً ، وتجدا عنده بعض ما تريدان ، وتصيبا عنده ما شئتما من حديث تسألانه عنه ، وإن تجداه وبه بعض ما يكون به فانصرفا عنه ودَعَاه ، قال: فخرجنا نمشي حتى جئناه ، فإذا هو بفناء داره على طنفسة له ، فإذا شيخ كبير مثل البغاث (٤٨)، فإذا هو صاح لا بأس به .

قال : فلما انتهينا إليه سلمنا عليه ، فرفع رأسه إلى عبيد الله بن عدىّ، فقال: ابن لعدى بن الخيار أنت ؟ قال : نعم ، قال : أما والله ما رأيتك منذ ناولْتك أمك السعدية التى أرضعتك بذى طوى ، فإنى ناولتكها وهى على بعيرها، فأخذتك بعرضيك فلمعت لى قدماك حين رفعتك إليها ، فو الله ما هو إلا أن وقفتَ علىّ فعرفتهما .

قال : فجلسنا إليه فقلنا له : جئناك لتحدثنا عن قتلك حمزة ، كيف قتلته ؟ فقال : أما إنى سأحدثكما كما حدثت رسول ﷺ حين سألنى عن ذلك .

كنت غلاماً لجبير بن مطعم .... ثم قص كيفية قتله حمزة يوم أحد . قلت : هذا الخبر رجال اسناده ثقات ، وصرح ابن اسحاق بالسماع فهو حسن ، لكن فى متن الخبر نكارة وهى قصة الخمر ، وكونه يجلس عند باب داره وهو سكران ، فإن هذا إذا قسناه على أحوال المخبر عنه ، وأحوال ذلك العصر ، نجد أنه غير مقبول ، فالمخبر عنه صحابى وإن كان قتل - وهو مشرك - صحابياً جليلاً هو حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء ، ثم أسلم وحشى بن حرب وشارك فى الجهاد فى سبيل الله وقتل أكذب خلق الله مسيلمة الكذاب ، والإسلام يُجُبّ ما قبله .

ونحن نستخدم هذا المقياس فى تعاملاتنا المتعددة ، فلو بلغنا خبُر عن رجل معروف لدينا ، وأحوال ذلك الرجل لا تحتمل وقوع مثل تلك الحادثة منه لأنكرنا ذلك ، وتوقفنا فى تصديق الخبر . وبخصوص هذه الرواية نجد أن أحوال العصر لا تحتملها لظهور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود وتطبيق الشريعة بكمالها من قبل الدولة والمجتمع معاً .

ثم وجدنا أن الإمام البخارى قد أخرج فى صحيحه (٤٩) هذه القصة من طريق عبد الله بن الفضل عن سليمان بن يسار عن جعفر بن أمية - وهو الطريق الذى أخرج منه ابن اسحاق القصة - ولم يذكر فيها هذه الألفاظ المنكرة مما يدل على اقحامها ، وربما تكون من ذلك الرجل المجهول الذى لم يُسَمَّ .

٦- الرجوع إلى الأمر المعلوم الثابت وترك الموهوم والمحتمل :

وهذا أصل يرجع له عند ورود الروايات والنقول التى تضاد الصورة المعروفة الثابتة ، فإذا لم يمكن نقد الروايات والنصوص عن طريق دراسة السند ، أو لم يكن للنقل سنداً، فإن الباحث يحاول الجمع بين الروايات بشرط أن لا يخالف الأصول فإذا تعذر الجمع فإن الأمر المعلوم الثابت لا يدفع بالأمر الموهوم ، واليقين لا يزول بالشك .

مثال ذلك ما يروى من الأخبار فى قدح بعض الصحابة رضى الله عنهم ، " فإن الأمر المعلوم من الكتاب والسنة والنقل المتواتر من محاسن الصحابة وفضائلهم لا يجوز أن يدفع بنقول بعضها منقطع ، وبعضها محرّف ، وبعضها لا يقدح فيما علم ، فإن اليقين لا يزول بالشك ، ونحن قد تيقنا ما دَلّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف قبلنا ، وما يُصَدّق ذلك من النقولات المتواترة من أن الصحابة رضى الله عنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء ، فلا يقدح فى هذا أمور مشكوك فيها ، فكيف إذا علم بطلانها.(٥٠)

ومن ذلك أيضاً زعم الرافضة النص من النبى ﷺ على خلافة على وذريته رضى الله عنهم فإن أهل العلم بالنقل لا يعرفون ذلك ، وقد ورد من النصوص الثابتة عنه ﷺ ما يدل على استخلاف الصديق رضى الله عنه دلالة إيماء واشارة بل قال بعضهم : إن الدلالة نَصّية ، والصواب الأول ، فإن النبى ﷺ مات ولم يوصى لأحد بالخلافة بعينه (٥١)، وإنما أمر أن يصلى بهم الصديق ، وقال : يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر" (٥٢) فوفق الله المؤمنين لبيعة الصديق كما توقع رسول الله

الله سيوفق المؤمنين لاستخلافه ، فهذا الأمر الثابت المعلوم المتيقن فلا يزول هذا اليقين بالظن وبالأقوال التى لم تثبت .

وإن من الطرق التى يعلم بها كذب المنقول : أن يروىَ خلاف ما عُلمَ بالتواتر والاستفاضة مثل أن نعلم أن مسيلمة الكذاب أدعى النبوة واتبعه طوائف كثيرة من بنى حنيفة فكانوا مرتدين لإيمانهم بهذا المتنبىء الكذاب ، ومثل أن المعراج كان بمكة ، وأن الصفة كانت بالمدينة ، وأن أهل الصفة كانوا من جملة الصحابة ولم يكونوا ناساً معينين ، بل كانت الصفة منزلاً ينزل بها من لا أهل له من الغرباء القادمين ، فإذا روى الجاهل نقيض ذلك علم أنه كذب .(٥٣)

٧- الكلام بالعلم والعدل لا بالجهل والهوى :

العلم والعدل صفتان مطلوبتان وخاصة لمن يشتغل بالحكم وفصل النزاع فى القضايا والمسائل المختلف فيها ، ونقد الروايات والنصوص يحتاج إلى هذه الصفة المهمة فى الناقد ، فلابد من العلم بطرق النقد وضوابطه ، ومناهج العلماء فى ذلك، ومعرفة الرواة وأحوالهم وما قيل فيهم جرحاً وتعديلاً ، وهو علم جليل برع فيه علماء الحديث النبوى ، وقرروا له قواعد مفصلة فى كتب مصطلح الحديث وكتب الجرح والتعديل ، فالدارس للروايات التاريخية ونقدها محتاج إلى هذا العلم وإلى الرجوع إلى أهل التخصص فى هذا الفن وهم علماء الحديث . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : المنقولات فيها كثير من الصدق وكثير من الكذب ، والمرجع فى التمييز بين هذا وهذا إلى أهل علم الحديث كما نرجع إلى النحاة فى الفرق بين نحو العرب ونحو غير العرب ، ونرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة وما ليس من اللغة ، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك ، فلكل علم رجالٌ يعرفون به، والعلماء بالحديث أجلّ هؤلاء قدراً وأعظمهم صدقاً وأمانة وعلماً وخبرة فيما يذكرونه من الجرح والتعديل".(٥٤)

فإذا رجع الناقد للروايات إلى أهل التخصص وسلك طريقهم : كان كلامه بعلم وانتفى عنه الجهل ، لكن تلزمه صفة أخرى وهى العدل وعدم اتباع الميل والهوى .

فإن أكثر ما يقع الخطأ هو من التقصير فى هاتين الصفتين أو إحداهما ، والجهل والظلم آفتان خطيرتان فى الإنسان ، يقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾(٥٥) ولكن لهما دواء إذا استخدمه طالب العلم شفى منهما ، فدواء الجهل العلم ، ودواء الظلم واتباع الهوى العدل والخوف من الله سبحانه وتعالى وسلوك طريق الأمانة ، وبقدر تحققهما فى الناس عامة وطلاب العلم خاصة، يستقيم السلوك الإنسانى ويكثر الصواب ويقل الخطأ.

٨- ملاحظة السنن الربانية والقوانين الاجتماعية :

من المعلوم أن حركة التاريخ تجرى بقدر الله ووفق سنته التى أجراها فى الخلق والحياة . وتحقق السنن الإلاهية الجارية مرتب على سلوك الإنسان فى الحياة الدنيا ومدى استجابته للأوامر والنواهى الشرعية ، والسنن الربانية تقع على أحوال مختلفة :

(أ) منها ما يكون جزءاً على الاستقامة على التوحيد والهدى وطاعة الرسل عليهم السلام ، قال تعالى :﴿ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾.(٥٦)

وقال تعالى :﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم .... ﴾ الآية.(٥٧)

(ب) ومنها ما يكون عقوبة على ترك الاستقامة وتكذيب الرسل ، وظلم العباد ، والواقع فى محارم الله . قال تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا

لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾.(٥٨)

وقال تعالى :﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكرا* فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا﴾.(٥٩)

(حـ) ومنها ما يكون للإبتلاء والاختبار حتى يتميز الخبيث من الطيب، ولرفع درجات أولياء الله الصالحين الصابرين على البلاء .

قال تعالى :﴿ ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾.(٦٠)

وقال تعالى :﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾.(٦١)

(د) ومنها ما يكون للاستدراج والإملاء والإمهال .

قال تعالى :﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾.(٦٢)

وقال تعالى :﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين ﴾.(٦٣)

وقال ﷺ :"إن الله عز وجل ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته".(٦٤) ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾.(٦٥)

فالسنن والقوانين الاجتماعية ذات أثر فى رقى الأمم والدول ، وقيام الحضارات ونشوء المجتمعات وتقدمها المادى والفكرى ، كما أن لها أثراً عكسياً فى تدهور الدول والحضارات وانحطاطها أو زوالها ، وذلك بحسب موقف تلك الدول والمجتمعات واتساقها مع ارادة الله الشرعية أو مخالفتها ، فإن الله لايغير ما

بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فإذا وقع فى المجتمع سواء كان ذلك التغيير إلى الأحسن والأفضل من الاستقامة على الخير والهدى واقامة العدل ، أم إلى عكسه من الانحراف والسقوط فى الرذيلة والظلم ، فإن السنة الإلاهية المناسبة لحالهم والموافقة لقدر الله وإرادته تتحقق .

وقد لاحظ العلامة ابن خلدون أن أحوال العمران البشرى وسننه الاجتماعية لها أثر فى أحوال الدول ومراحل قيامها ثم سقوطها ، وأن الترف مؤذن بخراب البلدان والمجتمعات .(٦٦)

وملاحظة هذه السنن مما يساعد على نقد النصوص والروايات التاريخية وفهمها وتفسيرها .

منهجية نقد الروايات التاريخية

بعد أن تعرفنا على الأصول المهمة التى تراعى عند نقد الروايات التاريخية فإنه يجدر بنا أن نعرض الخطوات العملية فى نقد الروايات التاريخية ، والملاحظات العلمية التى تساعد على نقد النص للوصول إلى نتائج مقبولة وحقائق علمية صحيحة .

وأولى الخطوات فى نقد الروايات :

١ - نقد السند :

الرواية التاريخية إما أن تكون مسندة أو غير مسندة ، فإذا كانت الرواية مسندة أى يتقدم متنها اسناد ، فإن النقد يكون أولاً لإسنادها وفى هذه الخطوة اختصار للجهد لأن السند إذا لم يصمد أمام النقد ، فلا حاجة عندئذ للانتقال إلى الخطوة الثانية وهى نقد المتن.(٦٧) وقد كان المنهج الذى سلكه غالب الأخباريين والمؤرخين الأوائل هو اسناد كل رواية ، فتأتى الرواية التاريخية تتقدمها سلسلة الإسناد ، وهم الرجال الذين يمثلون شهود العيان للخبر التاريخى ومن أخذ عنهم وحمل تلك الشهادة ، ولا شك أن هذه الطريقة فى التدوين قد يسرت على

الباحثين نقد النصوص ، ومعرفة صحة الوثائق من عدمها فإن الاسناد يشترط لصحته أن يكون متصلاً برواية العدل الضابط عن مثله من مبتدأ السند إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة (٦٨). والإسناد هو شاهد الحديث والواقعة ، وعدم إتصال السند يعنى وقوع سقط فى السند ، وهذا يدل على اختفاء شاهد العيان أو من أخذ عن شاهد العيان .

والمنهج المتبع فى السند هو منهج علماء الجرح والتعديل والرجوع إلى أقوالهم فى الرواة ، وإثبات لقيا بعضهم بعضاً أو معاصرتهم على الأقل ،غير أن الأخبار التاريخية يحتمل فيها ما لايحتمل فى الحديث النبوى الذى هو أحد مصادر الأحكام الشرعية (٦٩)، ولذا فقد تساهل أهل العلم فى رواية الأخبار التاريخية فى مسألتين:

(أ) فى صفات رجال الإسناد الذين يروى بعضهم عن بعض ، من ناحية قلة الضبط فى الراوى ، أو الغفلة ، أو أن يكون مستور الحال غير متكلم فيه لا بجرح ولا تعديل .

(ب) فى اتصال الإسناد ، فيكثر فى أسانيد الرواية التاريخية رواية المرسل ، والمنقطع ، والمعضل ، والمعلق (٧٠)، وهذه الأمور قادحة فى الخبر عند علماء الحديث وتجعله من قسم المردود .

والذى ينبغى أن يعلم هو أن هذا التساهل ليس شاملاً لجميع الأخبار التاريخية ، بل لابد أن يقيد ذلك التساهل عندهم برواية الأخبار الواردة عن الحضارة ووصف البلدان والمعارك الحربية وماشابهها (٧١) إذا لم يوجد معارض أصح لتلك الرواية الواردة بهذه الصفة .

أما الأخبار المتعلقة بمسائل العقيدة ، والأحكام الشرعية ، والحكم على الأشخاص ، وبيان المواقف فى الفتن ، وخاصة ما كان بين الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، فيجب عدم التساهل فى رواية الأخبار فى هذه الأنواع ،

ويجب التدقيق والبحث وتطبيق شروط صحة الحديث من حيث العدالة فى الرواة ، والاتصال في الإسناد ، وانتفاء الشذوذ والعلة القادحة . ولهذا قال الكافيجى فى المختصر فى علم التاريخ : يشترط فى المؤرخ ما يشترط فى راوى الحديث النبوى.(٧٢)

وإليك بعض الأمثلة فى نقد السند :

(أ) قال ابن اسحاق حدثنى أهل العلم ، عمن حدثه ، عن محمد بن طلحة، عن عثمان بن عبد الرحمن ، قال : "أصاب رسول الله ﷺ في غزوة محارب وبنى ثعلبة عبداً يقال له يسار فجعله رسول الله ﷺ فى لقاح له كانت ترعى فى ناحية الجماء (٧٣) فقدم على رسول الله ﷺ نفر من قيس كبة (٧٤) من بجيلة فأستوبئوا وطحلوا ، فقال لهم رسول الله ﷺ لو خرجتم إلى اللقاح فشربتم من ألبانها وأبوالها ، فخرجوا إليها ، فلما صحّوا وانطوت بطونهم ، عدو على راعى رسول الله ﷺ يسار ، فذبحوه وغرزوا الشوك فى عينيه ، واستاقوا اللقاح . فبعث رسول الله ﷺ فى آثارهم كرز بن جابر فلحقهم فأتى بهم رسول الله ﷺ مرجعه من غزوة ذى قرد فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم".(٧٥)

فسند هذا النص فيه من لم يسم ، وهو شيخ ابن اسحاق ، وكذا شيخ شيخه ، كما أنه ظاهر الارسال إذ أن عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان التيمى لم يدرك القصة ، فقد ذكر ابن حجر فى الإصابة أن والده من مسلمة الفتح ، أما هو فله رؤية إذ كان صغيراً ، وهذه فى السنة السادسة من الهجرة . ولا يحتج بمثل هذا السند ، ولكن أصل القصة ورد عند البخاريّ ومسلماً (٧٦) وغيرهما من طرق أخرى فهى صحيحة لأجل ذلك .

(ب) قال الطبرى : حدثنى عمر ، قال : حدثنى أبو الحسن ، قال حدثنا أبو مخنف ، عن جابر ، عن الشعبى ، عن أبى الطفيل ، قال : قال على : يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل ، فقعدت على نجفة ذى قار ، فأحصيتهم فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً.(٧٧)

فهذا السند ساقط لا يحتج به ، فيه أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدى شيعى كذاب (٧٨)، وجابر هو الجعفى شيعى غال فى التشيع (٧٩)، والمتن منكر .

(جـ) قال الطبرى كتب إلى السرى ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة ،قالا : علم أهل المدينة بيوم الجمل يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس ، من نسر مرّ بما حول المدينة ، معه شيء متعلقة ، فتأمله الناس فوقع ، فإذا كف فيها خاتم ، نقشه "عبد الرحمن بن عتاب "وجعل مَن بَين مكةَ والمدينة من أهل البصرة من قرب من البصرة أو بَعُد ، وقد علموا بالوقعة مما ينقل اليهم النسور من الأيدى والأقدام (٨٠).

وهذا الاسناد ضعيف جداً ، فشعيب بن ابراهيم ، راويه كتب سيف ليس بالقوى ، ومحمد بن عبد الله ، وطلحة بن الأعلم ، من المجاهيل . وسيف بن عمر التميمى مجروح عند المحدثين وهو عمدة فى التاريخ (٨١). ووجود السند فى هذه النصوص يَسّر لنا نقدها عن طريق الاسناد ، وهذه الخطوة التى هى نقد السند ، يقابلها فى مناهج البحث التاريخى المعاصرة عند الغربيين نقد المصادر ، وتصحيح الوثائق ، ويسمى النقد الخارجى للنص ، على تفاوت فى المنهجين (٨٢)، لأن المصادر الوثائق عندهم ليس لها اسناد ، فلجأوا إلى طرح مجموعة من الأسئلة والإجابة عليها ، فى محاولة للوصول إلى صحة مصدر الوثيقة .

٢- نقد المتن :

المتن : هو النص المروى سواء كان له إسناد أم لا إسناد له .

فإذا كان له إسناد فيبدأ بنقد اسناده كما تقدم ، ثم يعقب ذلك نقد المتن .

فإذا كان السند ضعيفاً فإن المتن المروى بهذا السند يكون ضعيفاً كذلك ما لم يرو من طرق أخرى تقويه .

وإذا كان السند صحيحاً أو حسناً فالغالب أن المتن يكون كذلك إذا سلم من الشذوذ أو العلة (٨٣) القادحة .

وإذا كان النص لا اسناد له كما هو الواقع فى بعض الأخبار التاريخية ، وبعض المؤلفات التى أهملت الاسناد ، فإن النقد يتجه إلى المتن مباشرةً.

وقد اعتنى العلماء بنقد المتون ، واعتبروا ذلك فى تعريف الحديث المقبول بسلامته من الشذوذ والعلة ، وهما يقعان فى المتن كما يقعان فى السند ، ومبنى كلام العلماء فى علل الأحاديث يتناول السند والمتن ، ومباحث الإدراج ، والمضطرب ، والمقلوب ، والتصحيف والوهم ، وزيادة الثقة(٨٤) متجهة لمتن الحديث كما هى متجهه للسند .

وقد وضع الإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح رسالة قيمة فى نقد متون الأحاديث سماها التميز (٨٥) كما أن الإمام ابن الجوزى قد لاحظ مجموعة من القواعد التى قاس عليها متون الأحاديث التى حكم بوضعها فى كتابه الموضوعات .(٦٨)

وقد وضع ابن القيم قواعد لنقد متن الحديث دون النظر إلى سنده فى كتابه: المنار المنيف فى الصحيح والضعيف وذكر فيه ثلاث عشرة قاعدة لمعرفة كون الحديث موضوعاً ، وقد ضرب أمثلة على كل قاعدة .(٨٧)

كما توصل الباحث الدكتور مسفر بن غرم الله الدمينى فى رسالته للدكتوراه والتى بعنوان : مقاييس نقد متون السنة .(٨٨) إلى أن المقاييس المعتبرة عند المحدثين فى نقد السنة سبعة مقاييس هى :

١- عرض الحديث على القرآن .

٢- عرض روايات الحديث بعضها على بعض .

٣- عرض السنة بعضها على بعض .

٤ -عرض متن الحديث على الوقائع والمعلومات التاريخية .

٥- ركاكة لفظ الحديث وبعد معناه.

٦- مخالفة الحديث للأصول الشرعية والقواعد المقررة .

٧- اشتمال الحديث على أمر منكر أو مستحيل .(٨٩)

لذا ينبغى الاستفادة من منهج علماء الحديث واعتبار الأسس التى قرروها فى نقد المتون والأسانيد وذلك للتشابه بين علمى الحديث والتاريخ ، فهما معنيان بجمع الوثائق ونقدها لمعرفة صحيحها من سقيمها .

ونقد متن النص سواء كان مسنداً أو غير مسند يتم باتباع الخطوات التالية :

(أ) المقارنة بين النصوص ومعارضة بعضها ببعض ، وذلك لمعرفة الزيادة والمخالفة فى النص والانفراد بما لم يذكره الآخرون ، وهل من الممكن اعتبار هذه الزيادة شاذة ، أو زيادة مقبولة كما يتبين بها الإدراج فى النصوص ، وينبغى على الباحث أن يستفرغ جهده فى حصر الروايات المتعددة ، والرجوع إلى جميع المصادر التى روت الخبر التاريخى والمقارنة بينها ليصل إلى الحقيقة .

قال الإمام مسلم : فبجمع الروايات ومقابلة بعضها ببعض تتميز صحيحها من سقيمها ، وتتبين رواة ضعاف الأخبار من أضدادهم من الحفاظ .(٩٠)

(ب) سلامة النص من التناقض فلا يكون بعضه مناقضاً للبعض الآخر .

(جـ) عرض النص على الوقائع التاريخية الثابتة حتى يتبين إن كان موافقاً لها أم مخالفاً .

ومثال هذا ما ذكره الذهبى فى ترجمة الخطيب البغدادى من أن بعض اليهود فى زمن الخطيب (ت٤٦٣هـ) أظهروا ببغداد كتاباً فيه اسقاط النبى ﷺ الجزية عن يهود خيبر وفيه شهادة بعض الصحابة ، فعرضه الوزير على الخطيب البغدادى(٩١)، فقال : هذا مزور ، قيل له كيف عرفت هذا ؟ قال : فيه شهادة معاوية بن أبى سفيان وقد أسلم عام فتح مكة بعد خيبر ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات قبل خيبر بسنين .

وأيضاً ما ذكره الطبرى من رواية أبى مخنف فى خطبة أبى بكر الصديق يوم السقيفة من الثناء على الأنصار وأنه قال :" وفيكم جلة أزواجه وأصحابه".

وبالرجوع إلى كتب التاريخ والتراجم والسير نجد أن النبى ﷺ لم يتزوج من الأنصار أبداً .(٩٣)

(د) اشتمال النص على منكر أو مستحيل الوقوع .

ويمثل له بما ذكره المسعودى من أن معاوية بن أبى سفيان قد صلى بأهل الشام وهو فى طريقه إلى صفين صلاة الجمعة يوم الأربعاء(٩٤)، وهذا لاشك فى استحالة وقوعه من معاوية رضى الله عنه .

(هـ) قياس الخبر على أحوال المخبر عنه فرداً أو جماعة أو عصرا ، وذلك لمعرفة امكانية قبول مثل هذا الخبر أم لا.

ذكر المسعودى أن رجلاً من أهل الكوفة دخل إلى دمشق على بعير له وذلك بعد منصرفهم من صفين ، فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال : هذه ناقتى أخذت منى بصفين ، فارتفع أمرهما إلى معاوية ، وأقام الدمشقى خمسين رجلاً بينة يشهدون أنها ناقته ، فقضى معاوية على الكوفى ، وأمره بتسليم البعير إليه ، فقال الكوفى : اصلحك الله إنه جمل وليس بناقة ، فقال معاوية : هذا حكم قد مضى . ثم دس للكوفى بعد تفرقهم فأحضره ، وسأله عن ثمن بعيره ، فدفع إليه ضعفه وبرّه وأحسن إليه ، وقال له : أبلغ علياً أنى أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل .(٩٥)

فهذا الخبر إذا قسناه على أحوال المخبر عنه ، وأحوال عصره دلنا ذلك على كذبه ، وأنه حكاية مصنوعة من الخيال ليس لها نصيب من الواقع .

(و) النقد عن طريق لغة النص وأسلوب كتابته .

فإن لكل عصر خصائص اسلوبية ، ومفردات لغوية يشيع استعمالها فى كتابة الوثائق ودواوين الإدارة .

(ز) النقد عن طريق النظر إلى خط الوثيقة ، نوع الحبر المستعمل فى خطها، ونوع الورق ، وهل هناك اضافات على أصل الوثيقه ، إلى غير ذلك من الأمور الفنية التى يعرفها المتخصصون فى علم الخطوط والوثائق .

ونختم بمثال من تاريخ الإمام الطبرى (٩٦)، فقد ذكر رواية طويلة عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى ، عن أبى مخنف قال :"..... وذكر فيها أن على بن أبى طالب كان دائباً فى جهازِ رسول الله ﷺ ، وذكر مخاصمة حادّة بين عمر والحباب بن المنذر وتهديد الحباب باجلاء المهاجرين من المدينة وأن الأوس ما سارعت لبيعة أبى بكر إلا خوفاً من أن تليها الخزرج".

وهذه كلها ألفاظ منكرة ، ورحم الله شعبة بن الحجاج إذ يقول : لايجيئك الحديث الشاذ إلا من الرجل الشاذ(٩٧)، والروايات الصحيحة تؤكد أن جهاز النبى ﷺ لم يبدأ فيه إلا يوم الثلاثاء ، والسقيفة كانت يوم الاثنين ، وتؤكد أن علياً قد لزم بيته من هول المصيبة ، وكذلك ادعاؤه الخصام الحاد والتهديد بالطرد للمهاجرين يرده قول الله تعالى فى وصف الأنصار : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾.(٩٨)

فكيف يتفق الايثار فى هذه الآية مع الأثره التى تؤكدها الرواية ؟

وكيف يجمع بين المحبة والأخوة وبين البغض والعداوة ؟(٩٩)

والروايات الصحيحة عن بيعة أبى بكر رضى الله عنه يوم السقيفة ، وموقف الأنصار من ذلك ، تؤكد فقه الصحابة رضى الله عنهم وحرصهم الشديد على وحدة الأمة وأتباع الشرع والانقياد لأوامره ودرايتهم بالفقه السياسى لهذا الدين ، وموقفهم الموحد من المرتدين يؤكد ذلك ، ثم إن حركة الجهاد فى بلاد العراق والشام وحماسهم فيه يؤكد هذه الوحدة ، وتمكين الله لهم فى الأرض

ونصره للمجاهدين دليل على سلامة موقفهم وتوفيق الله لهم فى اختيار أبى بكر الصديق كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله : " يأبى الله المسلمون إلا أبا بكر ".(١٠٠)

٣- معرفة مراتب المصادر :

مصادر التاريخ الإسلامى واسعة ومتعددة المناحى منها المصادر التاريخية المباشرة فى الأحداث والوقائع ، أو فى التراجم والطبقات ، ومنها المصادر المساعدة وهى التى تتحدث عن العلوم الأخرى لكن لها صلة بالتاريخ مثل :علوم الشريعة والفتاوى والفرق ، أو النظم الإسلامية والجغرافيا والرحلات وكتب الأدب بفنونه المختلفة .

ويلزم الباحث فى التاريخ الإسلامى الإحاطة بمصادر التاريخ الإسلامى والاطلاع على المصادر الأخرى المساعدة حتى تتسع عنده الدائرة فلا يحصر نفسه فى المصادر التاريخية المختصة لا يتعداها ، وخاصة تاريخ صدر الاسلام ، فإن كثيراً من الأحداث التى ثار حولها جدل كثير لاتزال وصورتها غير واضحة من خلال كتب التاريخ ، بل إن كتب التاريخ برواياتها المتعددة والمتضاربة قد أسهمت فى تشويش الصورة عن تلك الأحداث ، بينما هى واضحة وبينة ومحسومة عند علماء الشريعة والحديث النبوى ، وذلك لما بلغهم من الروايات الصحيحة عن هذه الأحداث ، فالاطلاع على كتب الحديث وشروحه ، وكتب العقيدة ، يساعد فى جلاء الحقيقة ورسم الصورة الصحيحة عن تلك الأحداث ،

والمصادر ليست بمنزلة واحدة وإنما تخضع فى ترتيبها لمقاييس علمية ومنهجية يجب .راعاتها حتى نستفيد من المصادر الفائدة المرجوة ونصل إلى الحقائق العلمية المطلوبة .

وترتيب المصادر هو بحسب مراتبها العلمية ويلاحظ فى ترتيبها جملة من المقاييس العلمية :

(أ) ترتب المصادر بحسب الثقة فى المصدر ، فتقدم رواية المصدر الموثوق على غيره ، والمصدر المعلوم على المصدر المجهول .... وهكذا .

فليس من المعقول أن نأخذ رواية من كتاب الأغانى ، أو كتاب العقد الفريد (مثلاً) ونقدمها على رواية أخرجها مالك فى الموطأ أو البخارى فى الصحيح لاختلاف المراتب من حيث المنهج التوثيقى بين هذه المصادر ، فإن كتابى الموطأ وصحيح البخارى قد سلك صاحباها منهجاً علمياً فى الرواية يقوم على التوثيق العلمى للرواة والروايات . أما كتابى الأغانى والعقد الفريد فإنهما لم يخضعا لهذا المنهج التوثيقى الدقيق ، وأبو الفرج الأصبهانى وابن عبد ربه لا يُوْزنان بمالك والبخارى فى الثقة والإمامة ، ولذلك فما فى الموطأ والصحيح مقدم على ما فى غيرهما من المصادر التى لم تخضع للمنهج التوثيقى .

(ب) ترتب المصادر بحسب المنهج المتبع فى التدوين ، فإن بعض المصادر قد دون على طريقة الجمع والتقميش ، وبعضها الآخر على طريقة النقد والتفتيش ، فالذى خضع لمنهج فى التوثيق عند تدوينه وانتقى الأخبار وفتش عن الصحيح من غيره لايماثله من يجمع الأخبار بمجرد جمع دون ملاحظة الشروط العلمية المطلوبة فى قبول الأخبار .

(جـ) كما ترتب المصادر بحسب القرب من الحادثة المروية ، فالمصدر المعاصر للحدث التاريخى سواء كان عن مشاهدة أو مشاركة فى الحدث أو عن معاصرة عن قرب مقدم على المصدر المتأخر فمثلاً ما كتبه إبن الأثير فى تاريخه عن أحداث الغزو المغولى مقدم على كتابات مؤرخى القرن التاسع أو العاشر الهجرى لأنه عاصر أوائل ذلك الغزو وكتب عن قرب .

(د) وترتب المصادر بحسب التخصص والاهتمام ، فالمختص بالأخبار والمتبع لها أقرب إلى ضبطها ومعرفتها ، ومعلوماته تكون أدق من تلك التى يذكرها غير المتخصص ، ولذلك فروايته معتبرة حتى وإن كان ضعيفاً فى الميزان النقدى عند المحدثين فمثلاً محمد بن اسحاق ، ومحمد بن عمر الواقدى اهتما

بالسيرة وضبطا أخبارها وعُرفا بها ولذلك اعتبرا إمامين فـى المغـازى النبويـة رغـم أنهما عند علماء الحديث يـنزلان عـن درجـة الثقـة علـى اختـلاف بينهمـا ، فـابن اسحاق صدوق مدلس (١٠١) والواقدى متروك رغم سعه علمه "(١٠٢) هذا فى باب الأحاديث والأحكام ، لكنهما معتبران فيما تخصصا فيه .

وكذلك يذكر علماء الجـرح والتعديـل أن عـاصم بـن أبـى النجـود المقـرئ، صدوق وله أوهام (١٠٣) لكنه حجة فى القراءات لتخصصه وصرف أهتمامـه إلى هذا النوع من العلم حتى تقدم فيه وصار إماماً وحجة .

(هـ) ومما يجدر اعتباره فى هذا المقام البحث عن معرفـة الغـرض مـن وضـع المؤلف لكتابه ، فإن المعرفة بهذا مما يساعد على تقدير قيمة الكتاب ومعرفة مرتبتـه بين المصادر ، فبعض الكتب أساس وضعها جمع الحكايات والشائعات ، وأحاديث السمر والتسلية ، دون النظر إلى أدنى مقياس علمى لاختبار صحتها مـن عدمـه ، ومن هذا النوع غالب كتب الأدب مثل كتابى الحيوان ، والبيان والتبين للجاحظ ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهـانى وكتـاب العقـد الفريـد لابـن عبـد ربـه وكتاب حياة الحيوان للدميرى ، وأشباهها .

٤ - معرفة مناهج المؤلفين من المؤرخين وغيرهم :

إن مما يساعد على نقد الرواية التاريخية التعـرف علـى منـاهج المؤلفـين التـى سلكوها فى تأليف كتبهم ، فليس كل مؤلف اشترط أن لا يذكر فى كتابـه إلا مـا صح من الأخبار ، كمـا أنهـم يتفـاوتون بحسـب المصـادر التـى يرجعـون إليهـا : وبحسب الطريقة والمنهـج الـذى سـلكوه فـى التـأليف ، وبحسـب المنـازع الفكريـة والاعتقادية وقد مَرّ التأليف التاريخى من حيث المنهج بمرحلتين :

(أ) مرحلة الجمع والتقميش كما هو حال أغلب المصادر الأولى مثل سيرة ابن اسحاق ، ومغازى الواقدى ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، وتاريخ خليفة بن

خياط ، وأخبار المدينة لعمر بن شبة ، وتاريخ الطبرى ، حيث أنهم قد اعتمدوا على الأسانيد ولهذا يقل فى مصنفاتهم النقد والترجيح .

(ب) مرحلة التصحيح ونقد الأسانيد وانتقاء أفضلها ، وهذه المرحلة لم تتم فى مجال الكتابات التاريخية إلا فى مسائل محدودة مثلما فعل ابن العربى (ت٥٤٣هـ) فى كتابه العواصم من القواصم (١٠٤) الذى خصص الجانب التاريخى منه لتحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة ، وانتقد الأسانيد والروايات الباطلة كما نجد مثالاً لهذه المرحلة عند الحافظ ابن حجر (ت٨٥٢ هـ) فى كتابه البارى شرح صحيح البخارى وذلك خلال ذكره لموضوعات السيرة النبوية ، وبعض الأحداث فى تاريخ الخلفاء الراشدين والعصر الأموى (١٠٥) حيث أنه اشترط أن لا يذكر خبراً فى كتابه إلاما كان عنده صحيحاً أو حسناً وإذا ذكر غير ذلك ينبه عليه.(١٠٦)

لكن هناك نوع من المصادر جمعت بين الطريقتين فأخذت من المرحلة الأولى الجمع والاستيعاب ومن المرحلة الثانية النقد لبعض النصوص والتنبيه على ما فيها من الخطأ والنكارة وترك البعض الآخر اعتماداً على ذكر السند ، وهذا منهج معلوم عند أهل العلوم وخاصة علماء الحديث إما النص على صحة الخبر أو ضعفه. وإما سنده (١٠٧) ، ويرون أن من ذكر السند فقد برىء من العهدة حيث قد وفّر للقارىء سبيل نقد النص من خلال ذكر الإسناد، وذلك بالرجوع إلى أقوال أهل العلم فى رجال الاسناد وما ميزوا به من ثقة أوضعف.

ويمثل هذه المصادر ابن الجوزى (ت٥٩٧هـ) والإمام الذهبى (ت٧٤٨هـ) والحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ) ، فإنهم يسندون الأخبار التى يذكرونها وينبهون على كثير من الأخبار بما يناسبها من الصحة أو الضعف .

كما أنه توجد مصادر لا تذكر الاسانيد وإنما يكتفى بعضها بذكر مصادره فى مقدمة كتابه ، مثل تاريخ اليعقوبى (ت٢٩٢هـ) ، وكتاب الأخبار الطوال للدينورى (ت٢٨٢هـ) ، ومروج الذهب للمسعودى (ت٣٤٦هـ)، وهذا النوع

من المصادر ينبغي أن يتعامل معه بحذر شديد ، ويطبق على نصوصه قواعد نقد المتن والأصول المنهجية العامة .

إن معرفة هذه الطرائق في التأليف ييسر على الباحثين الاستفادة من الكتب التاريخية وغيرها ونقد مابها من نصوص .

وإن وجود الخبر في تاريخ الطبرى أو طبقات ابن سعد أو أخبار المدينة لابن شبة (مثلاً) لا يكفى للاستدلال به قبل أن تُعرّف صحته ، ويُجرَى عليه المنهج النقدى، وما يفعله بعض المؤلفين المعاصرين من الاكتفاء بالإحالة على كتب التواريخ دون محاكمة نقدية لصحة الخبر يعتبر من الخطأ المنهجى .

فإنه لا يكفى تذييل النص بالاحالة على تاريخ الطبرى (مثلاً) إلا مع النص على نقد السند أو ذكر ما فى المتن من النكارة والغرابة ، وعلى أقل الحالات أن يذكر اسناد الطبرى فيقول رواه الطبرى من طريق فلان عن فلان فيذكر السند ، وبذلك يشرك القارىء فى الصورة ويجعله على بينة من أمره ، بجرد الإحالة على الجزء والصفحة فهو هروب من المسؤلية ، وتدليس على القارىء الذى يعرف منزلة الإمام الطبرى ويثق فى علمه وإمامته لشهرته بهذاوهو لا يعرف منهجه فى تدوين كتابه .

٥- الرواية خلاف ما علم بالتواتر والاستفاضة :

ذكر هذه الملاحظة شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة (١٠٨) حيث عقد فصلاً فى بيان الطرق التى يعرف بها كذب المنقول ، وضرب أمثلة كثيرة من الأمور المعلومة بالتواتر والاستفاضة مثل العلم بأن مسيلمة الكذاب ادعى النبوة ، وأن قاتل عمر بن الخطاب هو أبو لؤلؤة المجوسى ، وأن الصديق رضى الله عنه هو الذى كان يصلى بالناس فى مرض رسول الله ﷺ ، وأن المعراج كان بمكة وأن الصفة كانت بالمدينة" فإذا جاءت رواية تخالف هذا المعلوم بالتواتر والاستفاضة من الوقائع التاريخية علم أنها كذب ووجب ردها .

٦- تفرد الواحد والاثنين بذكر ما يعلم أنه لو كان واقعاً لتوفرت الهمم والدواعى على نقله :

فلو أخبرنا أحد بأنه قد تولى الخلافة رجل بين عمر وعثمان ، أو بين عثمان وعلى ، لرددنا روايته لأن مثل هذا الأمر لو كان واقعاً لنقل إلينا نقلاً متواتراً ومستفيضاً لتوفر الهمم والدواعى على نقله و لم ينفرد الواحد والاثنان بذكره(١٠٩) .

قال ابن تيميه : ومن هذا الباب زعم الشيعة بوجود النص من الرسول ﷺ على خلافة على رضى الله عنه ، فإنا نعلم أنه كذب من طرق كثيرة ، فإن هذا النص لم ينقله أحد من أهل العلم باسناد صحيح فضلاً عن أن يكون متواتراً ، ولا نُقل أن أحداً ذكره على عهد الخلفاء مع تنازع الناس فى الخلافة وتشاورهم فيها يوم السقيفة ، وحين موت عمر ، وحين جعل الأمر شورى بينهم فى ستة ثم لما قتل عثمان واختلف الناس على على .

فمن المعلوم أن مثل هذا النص لو كان كما تقوله الرافضة من أنه نصّ على علىّ نصاً جلياً قاطعاً للعذر لعلمه المسلمون ولكان من المعلوم بالضرورة أن ينقله الناس نقل مثله ولابد أن يذكره كثير من الناس بل أكثرهم فى مثل هذه المواطن التى تتوفر الهمم على ذكره فيها غاية التوفر ، فإنتفاء ما يعلم أنه لازم يقضى انتفاء ما يعلم أنه ملزوم .

ومن المعلوم أن الكذب نقيض الصدق ، وأحد النقيضين يعلم انتفاؤه تارة بثبوت نقيضه وتارة بما على انتفائه بخصوصه.(١١٠)

٧- كون الخبر مما يستحيل وقوعه من الناحية العقلية :

وقد أشار إلى هذا ابن خلدون فى المقدمة فقال : القانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار بالإمكان والاستحالة ، وإن تنظر فى الاجتماع البشرى الذى

هو العمران وتميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكــون عارضــاً لا يعتد به ، وما لايمكن أن يعرض له".(١١١)

وضرب بعض الأمثلة علي ذلك مثل ما ذكره المسعودى عن مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سلجماسـة ظفـر بهـا موسـى بـن نصـير فـى غزوته إلى المغرب ، وأنها مغلقة الأبواب وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صَفّق ورمى نفسه فلا يرجع آخر الدهر".

ثم قال فى نقده : هـذا حديـث مستحيل عـادة مـن خرافـات القصـاص ، وصحراء سلجماسة قد نفضها الركاب والأدلاء و لم يقعوا لهذه المدينة على خـبر ، ثم إن هذه الأحوال التى ذكروا عنها كلها مستحيل عادة منـاف للأمـور الطبيعيـة فى بناء المدن واختطاطها ، وأن المعادن غاية الموجود منهـا أن يصـرف فـى الأبنيـة والخُرْثىّ.(١١٢) أما تشييد مدينة منها فكما تراه مـن الاستحالة والبعـد .(١١٣) وهذا المعدن النفيس تحيل العادة أن تبنى به الأسوار والقصـور لأن لـه استخدامات مناسبة لندرته ونفاسته .

هوامش البحث

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، ٤٢٥/٣،مادة نقد.

(٢) ابن أبي حاتم ، الجرح والتعديل ١/٥-٦. وانظر د. محمد مصطفى الأعظمى ، منهج النقد عند المحدثين ، (ص٥).

(٣) معجم مقاييس اللغة ٤٥٣/٢.مادة روى .

(٤) ابن منظور ، المصدر السابق ، (٣٤٨/١٤)، مادة روى.

(٥) لتعريف هذه المصطلحات راجع ابن كثير الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث ،ص١٠٩-١٢٩.

(٦) سورة آل عمران،آية ١٢٠.

(٧) صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، باب ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً﴾، حديث رقم(٤٥٦٦)، وقال ابن حجر فى فتح البارى (٢٣٣/٨) قوله : فبايعوا، بلفظ الماضى ويحتمل أن يكون بلفظ الأمر ، وانظر ابن هشام ، السيرة النبوية ٢٦٩/٢.

(٨) كان قد انخذل بثلث الجيش يوم أحد وترك القتال مع رسول الله (مغازى موسى بن عقبة (١٨٥) نسخة مستخرجة ، وانظر صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة أحد، حديث رقم (٤٠٥٠)(٣٥٦/٧ من فتح البارى) . كما حاول فى غزوة بنى المصطلق إيقاع الفتنة بين المهاجرين والأنصار واستغلال بعض الحوادث العابرة ، وقوله : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم هو الذى تولّ كبر حادثة الإفك (انظر: د. مهدى رزق الله ، السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية،ص٤٣٤-٤٣٩.

(٩) تستر: بالضم ثم السكون وفتح التاء من ارض خوزستان ، فتحها المسلمون سنه١٧هـ بقيادة أبى موسى الأشعرى وحضرها من مشاهير الصحابة ، حذيفة بن اليمان ، وعمار ابن ياسر، وجرير بن عبدا الله البجلى، والبراء بن مالك ، وأنس بن مالك ، والبراء بن عازب، وقد أسر الهرمزان ملك الأهواز وجيء به إلى المدينة (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ٢٩/٢ وعن خبر فتحها انظر ، تاريخ الطبرى ٨٣/٤ وما بعدها).

(١٠) الفصل فى الأهواء والملل والنحل ، ٢/١١٥، وانظر المقريزى ، الخطط ٢/٣٦٢.

(١١) عن ابن سبأ ودوره فى الفتنة ، انظر د. سليمان العودة ، عبدا لله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة فى صدر الإسلام ص٢٨-٥٣و١٤٣-١٥٨.

(١٢) يدل على ذلك أن المشاركين فى اغتيال عمر بن الخطاب ثلاثة : أبو لؤلؤة المجوسى ، الذى نفذ الاغتيال وهو من سبى نهاوند ، والهرمزان ملك الأهواز، وجفينة النصرانى من أهل الحيرة انظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٣/٣٥٥ وقد أخرج خبر اجتماعهم بإسناد صحيح .

(١٣) راجع تاريخ الطبرى ٤/٣٦٥-٣٦٩، ومحمد بن يحيى المالقى ، التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان ص٩٥-١٥٠.

(١٤) المراد بالفتنة الثانية الخلاف الذى نشأ عن الفتنة الأولى ونتج عنه القتال فى الجمل ثم فى صفين.

(١٥) كان بداية ظهور الفرق سنة ٣٧هـ بعد القتال فى صفين وحادثة التحكيم ، حيث ظهرت الخوارج ثم الشيعة فى مقابلها ، ثم القدرية ، والمرجئة .(انظر د. أحمد سعد حمدان ، مقدمة شرح اعتقاد أصول أهل السنة لأبى القاسم اللالكائى ص١٧-٢٦.

(١٦) روى مسلم فى مقدمة صحيحه (١/٢٠٠ مع شرح النووى) عن محمد بن سيرين قال: لم يكونوا يسألون عن الاسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا سموالنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم . كما أخرج من طريق مجاهد (١/١٩٦) قال:جاء بشير العدوى إلى عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله ، قال رسول الله ، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه ، فقال : يا ابن عباس ، مالى لا أراك تسمع لحديثى ، احدثك عن رسول الله ولا تسمع . فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول رسول الله ﷺ ابتدرتة أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف .

فهذا يدل على ظهور الوضع فى الأخبار واحتياط الصحابة وعلماء السلف من الكذابين .

(١٧) انظر على سبيل المثال ،د. عبد العزيز نور ولى ، أثر التشيع على الروايات التاريخية فى القرن الأول الهجرى ، وهى مهمة فى هذا الباب .

(١٨) التقميش: جمع الشيء من هاهنا وهاهنا ، كما في لسان العرب (٣٨٦/٦)، والمراد به عند علماء الجرح والتعديل جمع الروايات قبل نقدها على حد قول يحى بن معين : إذا كتبت فقمش وإذا حدثت ففتش ،(الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٨٥/١١).

(١٩) انظر أمثلة لذلك عند د. عبد العظيم الديب ، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي ،ص٥٤-١٢٤.ود. أحمد غراب رؤية اسلامية للاستشراق ،ص٢٨-٨٤.

(٢٠) راجع ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ،١٤/١.وانظر د. رمزى نعناعة ، الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ، مبحث الاسرائيليات في كتب التاريخ ،ص٢٠٩وما بعدها والمستشرقون والاسرائيليات ،ص٣٨٣وما بعدها .

(٢١) ابن حجر العسقلاني ، نزهة النظر شرح نخبة الفكر ،(ص٥٠-٥١).

(٢٢) مجهول العين : هو من سُمِّيَ وانفرد بالرواية عنه راو واحد . ومجهول الحال : يسمى المستور وهو ما روى عنه اثنان فصاعداً ولم يوثق.(ابن حجر ، المصدر السابق، ص٥٠).

(٢٣) يسمى سيء الحفظ ، وقد يكون ملازماً له فحديثه شاذ ، وقديكون طارئاً ، وهو المختلط. (ابن حجر ، المصدر نفسه ، ص٥١).

(٢٤) من أمثلة ذلك الرواية المشهورة في كتب المؤرخين عن التحكيم ، وهي خلاف الواقع . انظر د. يحى بن ابراهيم ، مرويات أبى مخنف في تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة ، (ص٤٠٤-٤١٨).

(٢٥) تاريخ الرسل والملوك ١٦٠/٥.

(٢٦) البداية والنهاية ١٦/٨.

(٢٧) المصدر السابق ٢٨٩/٥.

(٢٨) الإمام أحمد ، رسالة السنة (ص٧٨) ، ابن أبي زيد القيرواني ، مقدمة رسالته(ص٨) طبع جامعة الإمام ، وكتاب الجامع (ص١١٥) ، ابن بطة العكبرى ، الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ، ص٢٦٨، أبو عثمان الصابوني ، عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، (ص٩٣) ، ابن قدامة المقدسي ،لمعة الاعتقاد ، (ص٤٠)، ابن تيمية ، العقيدة الواسطية (ص١٥٧)، ابن حجر العسقلاني ، فتح البارى ٣٤/١٣.

(٢٩) انظر لتخرجه ، الألباني ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٢/١ حديث رقم (٣٤).

(٣٠) أخرج الترمذي (٦٩٦/٥) حديث رقم ٣٨٦٣، باسناده عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : الله الله في أصحابي ، الله الله في أصحابي لاتتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن أذاهم فقد آذاني . قال أبو عيسى هذا حديث غريب . وقال الشيخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير (برقم ١٢٥٩) ضعيف .قلت: لكن يشهد لمعناه حديث جابر ابن سمرة قال : خطبنا عمر بن الخطاب بالجابية فقال : إن رسول ﷺ قام فينا مقامي فيكم فقال : احفظوني في أصحابي ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ." أخرجه ابن ماجه في سننه ٧٩١/٢ حديث رقم (٢٣٦٣) . وانظر الألباني ، سلسة الأحاديث الصحيحة ١٠٩/٣ حديث رقم (١١١٦).

(٣١) انظر صحيح البخاري (٣١٨/١٣، من فتح الباري) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ .

(٣٢) الموافقات ١٩٤/٤.

(٣٣) المصدر نفسه ١٩٦/٤.

(٣٤) ابن تيمية ، الصارم المسلول على شاتم الرسول ص ٥٨٠ ومجموع الفتاوى ٤٢٩/٤.

(٣٥) الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ص٩٧.

(٣٦) عبد الإله الأحمدي ، المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ٣٦٤/٢.

(٣٧) مجموع الفتاوى ٤٢٩/٤.

(٣٨) المصدر نفسه ٤٣٠/٤.

(٣٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣٩/٨ .

(٤٠) المصدر نفسه ١٣٩/٨.

(٤١) منهاج السنة النبوية ٤٥٨/٧-٤٥٩.

(٤٢) فؤاد عبد الباقي ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١٨١/٣.

(٤٣) د. عبد الله الخلف، مجتمع الحجاز في العصر الأموي بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية، الفصل الأول ص٢٨-١١٠، رسالة دكتوراه (غير منشورة) جامعة الإمام - كلية اللغة العربية .

(٤٤) المصدر نفسه ص٣٤، نقلاً عن الدكتور زكي مبارك .

(٤٥) انظر كتاب الدكتور شوقي ضيف ، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ص٦٨، ٣٣٢-٣٣٨.

(٤٦) انظر ٢/٧٠-٧١.

(٤٧) أدربنا : أي حزنا الدرب للغزو في سبيل الله ، وهو تجاه بلاد الروم (المصدر السابق).

(٤٨) البغاث: قال ابن هشام : هو ضرب من الطير يميل إلى السواد (نفس المصدر).

(٤٩) أخرجه في كتاب المغازي ، باب قتل حمزة بن عبد المطلب (٣٦٧/٧ من فتح الباري).

(٥٠) ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ٣٠٥/٦.

(٥١) انظر الأدلة على ذلك عند البيهقي ، دلائل النبوة ٢٢١/٧-٢٣٠.

(٥٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأحكام ، باب الاستخلاف (٣٠٥/١٣ من فتح الباري) ومسلم في صحيحه حديث رقم (٢٣٨٧).

(٥٣) ابن تيمية ، المصدر السابق ٤٣٧/٧-٤٣٩ بتصرف.

(٥٤) المصدر نفسه ٣٤/٧-٣٥.

(٥٥) سورة الأحزاب ، آية ٧٢.

(٥٦) سورة الجن ، آية ١٦.

(٥٧) سورة المائدة ، آية ٦٥-٦٦.

(٥٨) سورة الأعراف ، آية ٩٧.

(٥٩) سورة الطلاق ، آية ٨-٩، وانظر أمثلة من أنواع العقوبات التي أحلها بالأمم التي كذبت الرسل في سورة الشعراء ، فقد ذكر الله هلاك فرعون وقومه بالغرق الآيات ٥٢-٦٨، ثم قوم نوح بالطوفان الآيات ١٠٥-١٢٢، ثم عاد الآيات ١٢٣-١٤٠، ثم ثمود قوم صالح الآيات ١٤١-١٥٩، ثم قوم لوط الآيات ١٦٠-١٧٥، ثم أصحاب الأيكة قوم شعيب علية السلام الآيات ١٧٦-١٩١.

(٦٠) سورة آل عمران ، آية ١٨٩.

(٦١) سورة محمد ، آية ٣١.

(٦٢) سورة آل عمران ، آية ١٧٨.

(٦٣) سورة الأعراف ، ي.ية ١٨٢- ١٨٣.

(٦٤) رواه البخارى ومسلم وهذا لفظ مسلم ، انظر صحيح مسلم ١٩٩٧/٤ حديث رقم (٢٥٨٣).

(٦٥) سورة هود، آية ١٠٢.

(٦٦) انظر مقدمة ابن خلدون ص١٧٠.

(٦٧) د. أكرم العمرى ، منهج النقد عند المحدثين مقارناً بالميثولوجيا الغربية ، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة بقطر ، العدد الثالث ،ص١١٩.

(٦٨) انظر السخاوى ، فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقى ١٤/١ود. محمود الطحان ، تيسير مصطلح الحديث ص٣٣.

(٦٩) أخرج الخطيب البغدادى فى كتاب الكفاية فى علم الرواية (ص٢١٢) بسنده عن الإمام أحمد أنه قال : إذا روينا عن رسول الله ﷺ فى الحلال والحرام والسنن والأحكام تشدّدنا فى الأسانيد ، وإذا روينا عن النبى ﷺ فى فضائل الأعمال وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا فى الأسانيد " فهذا النص من الإمام أحمد رحمه الله واضح فى أن التساهل فى رواية الأسانيد هو فى أمور مخصوصة لا يترتب عليها وضع حكم ولا رفعه، وأنظر البيهقى ، دلائل النبوة (٣٣/١) .

(٧٠) هذه الأنواع هى من قسم الخبر المردود عند المحدثين بسبب سقط من الإسناد وانظر لتعريفها د. محمود الطحان ، مصدر سابق ، ص٦٨ - ٧٧ .

(٧١) د. أكرام ضياء العمرى ، السيرة النبوية الصحيحة ، ص٤٥ . وانظر مقدمته لتاريخ خليفة بن خياط ص ١٤ - ١٦ .

(٧٢) انظر فرانز روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين ترجمة د. صالح أحمد العلى (ص٣٣٦).

(٧٣) الجماء : جبل يشرف على العقيق غربى المدينة وتسمى جماء تضارع (عاتق البلادى معجم المعالم الجغرافية فى السيرة النبوية) .

(٧٤) كبة :حى من بجيلة وفى رواية البخارى عرينة ، وهى حى من بجيلة (فتح البارى ١ / ٣٣٧) .

(٧٥) السيرة النبوية ٦٤٠/٢ .

(٧٦) صحيح البخارى ، كتاب الوضوء ، باب أبوال الإبل والدواب، ومسلم ٣/١٢٩٦ حديث رقم ١٦٧١ .

(٧٧) تاريخ الرسل والملوك ٤ / ٥٠٠ .

(٧٨) الذهبي ميزان الاعتدال ٣ / ٤١٩ .

(٧٩) المصدر نفسه ١/٣٧٩ .

(٨٠) تاريخ الرسل والملوك ٤ / ٥٤٤ .

(٨١) ابن حجر ، تقريب التهذيب ص٤٢٨ ترجمة رقم (٢٧٣٩) .

(٨٢) انظر لأنجلوا وسينوبوس ، المدخل إلى الدراسات التاريخية ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، (ص٨٦ - ٩٣) .

(٨٣) الشذوذ : هو مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه ، والعلة : سبب غامض خفى يقدح فى صحة الحديث مع أن الظاهر السلامة منه. (د. محمود الطحان، مصدر سابق ص٣٣ - ٣٤).

(٨٤) انظر لتعريفها ، محمود الطحان ، مصدر سابق ص١٠٢ - ١١٨ و ١٣٦ .

(٨٥) طبع بتحقيق د. مصطفى الأعظمى سنة ١٣٩٥هـ ، والطبعة الثانية عن شركة الطباعة السعودية ، الرياض ، ١٤٠٢هـ . مع مقدمة طويلة عن منهج النقد عند المحدثين .

(٨٦) كتاب الموضوعات لابن الجوزى طبع بتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان عند المكتبة السلفية بالمدينة سنة١٣٨٦هـ .

(٨٧) طبع بتحقيق محمود مهدى الاستانبولى .

(٨٨) نشرت الطبعة الأولى بالرياض سنة ١٤٠٤هـ .

(٨٩) انظر المصدر السابق ، ومقاييس ابن الجوزى فى نقد متون السنة (ص ١٨ - ١٩) .

(٩٠) كتاب التمييز ص٢٠٩ .

(٩١) تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٤١ والخطيب البغدادى كانت وفاته سنة ٤٦٣ هـ وقد عرض نفس الكتاب المزور على شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) وقد جاء به عدد من اليهود يزفونه ويجلونه ، وقد غشى بالحرير والديباج فلما فتحه وتأمله بزق عليه وقال : هذا كذب من عدة أوجه وذكرها ، فقاموا من عنده بالذل والصغار ، انظر المنار المنيف لابن القيم (١١٠) وقد ذكر ابن القيم عشرة أوجه لإبطال هذا الكتاب انظرها فى (ص١٠٨ - ١١٠) .

(٩٢) تاريخ الطبرى ٣/٢٢٠ .

(٩٣) د. يحيى بن إبراهيم مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى عصر الخلافة الراشدة ، دراسة نقدية (ص١٢٤) .

(٩٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣ / ٤١ .

(٩٥) المصدر نفسه ٣/٤١ .

(٩٦) تاريخ الرسل والملوك ٣ / ٢١٨ .

(٩٧) الخطيب البغدادى ، الكفاية فى علم الرواية ، ص(٢٢٤) .

(٩٨) سورة الحشر ، آية ٩ .

(٩٩) راجع عن هذا الموضوع الكتاب القيم " مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى " للدكتور يحيى بن إبراهيم اليحيى ؛ ص ١٢٢ - ١٢٥ وما بعدها .

(١٠٠) سبق تخريجه ، هامش (٥٢) .

(١٠١) ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ص٨٢٥ .

(١٠٢) المصدر نفسه ص٨٨٢ .

(١٠٣) المصدر نفسه ص٤٧١

(١٠٤) طبع ما يتعلق بحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة فى القاهرة بتحقيق وتعليق محب الدين الخطيب سنة ١٣٧١ هـ ، كما طبع الكتاب كاملاً بتحقيق د. عمار طالبى ، فى مجلدين بعنوان : آراء أبى بكر بن العربى الكلامية .

(١٠٥) قام الباحث د. يحيى بن إبراهيم اليحيى بإعداد رسالته للدكتوراه فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان : الروايات التاريخية عن الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح البارى جمعًا وتوثيقًا ، ونشرتها دار الهجرة ، الرياض سنة ١٤١٧هـ .

(١٠٦) مقدمة فتح البارى ص٤ .

(١٠٧) قال تقى الدين الفاسى فى ترجمة أحمد بن عبد الله محب الدين المكى الطبرى من كتابه العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ٣ / ٦٢ / وله تواليف حسنة فى فنون من العلم إلا أنه وقع له فى بعض كتبه الحديثية شئ لا يستحسن ، وهو أنه ضمنها أحاديث ضعيفة وموضوعة فى فضائل الأعمال وفضائل الصحابة من غير تنبيه على ذلك ولا ذكر

اسنادها ليعلم منه حالها ، وغاية ما صنع أن يقول : أخرجه فلان ، ويسمى الطبرانى مثلاً أو غيره من مؤلفى الكتب التى أخرج منها الحديث المشار إليه ، وكان من حقه أن يخرج الحديث بسنده فى الكتاب الذى أخرجه منه ليسلم بذلك من الانتقاد ، كما سلم به مؤلف الكتاب الذى أخرج منه المحب الطبرى الحديث الذى خرجه أو يقول : أخرجه الطبرانى مثلاً بسند ضعيف كما صنع غير واحد من المحدثين فى بيان حكم سند الحديث الذى يرون إخراجه ، أو ذكره باسناد المؤلف الذى يخرجونه من كتابه .

(١٠٨) منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية ٧ / ٤٣٧ .

(١٠٩) انظر المصدر نفسه ٧ / ٤٣٩ .

(١١٠) المصدر نفسه ٧/٤٤٠ .

(١١١) المقدمة ص٣٧ .

(١١٢) الخرثى : بضم الخاء وإسكان الراء وكسر الثاء المشددة ؛ أثاث البيت ؛ وقيل أردأ المتاع والغنائم (ابن منظور ، مصدر سابق ٢ / ١٤٥ ، مادة خرث .

(١١٣) المقدمة ص٣٧ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

- د. أحمد سعد حمدان :

مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام اللالكائى - دار طيبة - الرياض .

- د . أكرم ضياء العمرى :

١ - منهج النقد عند المحدثين مقارنًا بالميثولوجيا الغربية ، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة النبوية ، العدد الثالث ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

٢ - السيرة النبوية الصحيحة (مجلدان) ، دار العلوم والحكم ، المدينة .

٣ - تاريخ خليفة بن خياط (مجلد) تحقيق ، دار القلم ، بيروت ، ١٣٩٧هـ .

- الألبانى (محمد ناصر الدين بن نوح نجاتى) :

١ - سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦ مجلدات) ، المكتب الإسلامى ، ودار المعارف بالرياض .

٢ - سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥ مجلدات) ، المكتب الإسلامى ، ودار المعارف بالرياض .

٣ - صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦ أجزاء) ، المكتب الإسلامى ، بيروت.

٤ - ضعيف الجامع الصغير وزيادته (٦ أجزاء) ، المكتب الإسلامى ، بيروت.

- الإمام البخارى (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦ هـ) :

الجامع الصحيح مع فتح البارى (١٣ مجلدًا) ، المكتبة السلفية بمصر .

- ابن بطة (عبيد الله بن محمد العكبرى) .

الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ، تحقيق د. رضا نعسان ، المكتبة الفيصلية بمكة .

- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين ، ت ٤٥٨هـ) .
دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (٧ مجلدات) ، تحقيق عبد المعطى قلعجي ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ .
- الإمام الترمذي (محمد بن عيسى بن سورة ، ت ٢٧٩هـ) .
سنن الترمذي (٥ مجلدات تحقيق أحمد شاكر ، دار أحياء التراث العربي .
- ابن تيمية (أحمد بن الحليم الحراني ، ت ٧٢٨هـ) .
١ - مجموع الفتاوى (٣٧ مجلدا) ، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، ط ٢ ، سنة ١٣٩٩ هـ ، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة .
٢ - العقيدة الواسطية ، شرح محمد خليل هراس ، طبع الجامعة الإسلامية .
٣ - منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية (٩ مجلدات) ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، طبع جامعة الإمام ، سنة ١٤٠٦هـ .
٤ - الصارم المسلول على شاتم الرسول ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٣٩٨هـ .
- ابن أبى حاتم (عبد الرحمن بن محمد أدريس ، ت ٣٢٧هـ) .
تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل ، تحقيق عبد الرحمن المعلمى ، دار الكتب العلمية ، بيروت عن الطبعة الأولى لدائرة المعارف العثمانية بالهند ،١٣٧١هـ .
- ابن حجر (أحمد بن على العسقلانى ، ت ٨٥٢هـ) .
١ - فتح البارى شرح صحيح البخارى (١٣ مجلدًا) ، المكتبة السلفية بمصر .
٢ - تقريب التهذيب (مجلد واحد) ، تحقيق أبو الأشبال صغير أحمد ، دار العاصمة بالرياض ، سنة ١٤١٦ هـ .
٣ - نزهة النظر شرح نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر ، مكتبة الغزالى ، سوريا .
- ابن حزم (على بن حزم الظاهرى ، ت٤٥٦هـ) .
الفصل فى الأهواء والملل والنحل (٥ أجزاء) ، مكتبة المثنى فى بغداد والخانجى بالقاهرة .

- ابن حنبل (أحمد بن حنبل الشيبانى ، ت ٢٤١ هـ) .

١ - المسند (٦ مجلدات) ، دار صادر بيروت .

٢ - السنة ، تصحيح الشيخ إسماعيل الانصارى ، طبع دار الأفتاء بالرياض .

- الخطيب البغدادى (أحمد بن ثابت ، ت ٤٦٣هـ) .

الكفاية فى علم الرواية ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمى ، ت ٨٠٨ هـ) .

المقدمة . دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

- الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان ، (ت ٧٤٨هـ) :

١ - سير أعلام النبلاء (٢٣ مجلدًا) ، دار الرسالة ، بيروت .

٢ - تذكرة الحفاظ (مجلدان) ، تصحيح عبد الرحمن المعلمى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

- د . رمزى نعناعة :

الإسرائيليات وأثرها فى كتب التفسير ، دار القلم بدمشق ، سنة ١٣٩٠ هـ .

- السخاوى (محمد بن عبد الرحمن ، (ت ٩٠٢ هـ) :

فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقى (٤ مجلدات) ، تحقيق على حسين على - دالا الإمام الطبرى ، ط٢ ، سنة ١٤١٢هـ .

- ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع ،(ت ٢٣٠ هـ) :

الطبقات الكبرى (٨ مجلدات) ، دار صادر ، بيروت .

- د. سليمان بن حمد العودة :

عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة فى صدر الإسلام ، دار طيبة، الرياض.

- د. شوقى ضيف :

الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية، دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٦٧م.

- الصابونى (إسماعيل بن عبد الرحمن أبو عثمان ، (ت ٤٤٩هـ) :

عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، تحقيق بدر البدر ، الدار السلفية ، الكويت، سنة ١٩٧٧م .

- **الطبرى (محمد بن جرير ، (ت ٣١٠ هـ) :**

تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر.

- **عبد الإله بن سليمان بن سالم الأحمدى .**

المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل فى العقيدة ، دار طيبة ، الرياض .

- **عبد الله بن سالم الخلف .**

مجتمع الحجاز فى العصر الأموى بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية ، رسالة دكتوراة مطبوعة على الألة الكاتبة فى كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، سنة ١٤٠٧هـ .

- **عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى (ت١٣٨٦هـ) :**

مقدمة كتاب الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- **د. عبد العزيز محمد نور ولى :**

أثر التشيع على الروايات التاريخية فى القرن الأول الهجرى ، دار الخضيرى سنة ١٤١٧هـ .

- **د. عبد العظيم محمود الديب :**

المنهج فى كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامى ، سلسلة كتاب الأمة بقطر ، ربيع الأول سنة ١٤١١ هـ .

- **ابن العربى (أبو بكر محمد بن عبد الله ، (ت ٥٤٣ هـ) :**

١ - العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ ، تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب ، المكتبة السلفية بالقاهرة ، سنة ١٣٧١هـ.

٢ - آراء أبى بكر بن العربى الكلامية (مجلدان) ، تحقيق عمار طالبى ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع .

- ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، (ت ٣٩٥هـ) :

معجم مقاييس اللغة (٦ مجلدات) ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة البابى الحلبى بمصر ، ط٢ ، سنة ١٣٨٩هـ .

- فرانز روزنتال (مستشرق) :

علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة أحمد صالح العلى ، مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٦٣م .

- ابن قدامة (أبو محمد عبد الله بن أحمد موفق الدين ، (ت ٦٣٠هـ) :

لمعة الاعتقاد الهادى إلى سبيل الرشاد .

- القيرواني (عبد الله بن أبى زيد ، (٣٨٦ هـ) :

١ - كتاب الجامع فى السنن والآداب والمغازى والتاريخ ، تحقيق محمد أبو الإجفان وعثمان بطيخ .

٢ - آراء أبى بكر بن العربى الكلامية (مجلدان) ، تحقيق عمار طالبى ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع .

- ابن القيم (محمد بن أبى بكر الزرعي ، (ت ٧٥١ هـ) :

المنار المنيف فى الصحيح الضعيف ، تحقيق محمود مهدى الأستانبولى .

- ابن كثير (إسماعيل بن عمر القرشي ، (ت ٧٧٤ هـ) .

١ - الباعث الحثيث فى اختصار علوم الحديث ، تعليق أحمد شاكر .

٢ - تفسير القرآن العظيم (٨ مجلدات) ، تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد البنا ، دار الشعب بمصر .

٣ - البداية والنهاية (٧ مجلدات) ، دار المعارف ، بيروت .

-لانجلوا وسنوبوس :

المدخل إلى الدراسات التاريخية ، ترجمة عبد الرحمن بدوى .

- **المالقى (محمد بن يحيى بن أبى بكر (ت ٧٤١هـ) :**

التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان ، تحقيق محمود زايد دار الثقافة ، الدوحة ، ١٤٠٥ هـ .

- **محمد مصطفى الأعظمى .**

منهج النقد عند المحدثين ، منشور مع كتاب التميز للإمام مسلم ، مطابع العمارية بالرياض .

- **محمد فؤاد عبد الباقى .**

اللؤلو والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٣ مجلدات) ، دار الباز بمكة .

- **د. محمود الطحان .**

تيسير مصطلح الحديث ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٩ هـ ، دار القرآن الكريم ، بيروت .

- **المسعودى (على بن حسين ، (ت ٣٤٦ هـ) .**

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى .

- **مسفر بن غرام الله الدمينى .**

مقاييس نقد متون السنة ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ .

مقاييس ابن الجوزى فى نقد متون السنة من خلال كتابة الموضوعات ، دار المدنى ، جدة ، سنة ١٤٠٥ .

الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى ، (ت ٢٦١ هـ) .

صحيح مسلم مع شرح الإمام النووى (١٨ جزءًا) مراجعة الشيخ خليل الميس ، دار القلم ، بيروت .

التميز ، تقديم محمد مصطفى الأعظمى ، الطبعة الثانية عن دار مطابع العمارية بالرياض .

- المقريزى (أحمد بن على ، (ت ٨٤٥ هـ) .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، دار صادر ، بيروت .
- ابن منظور (محمد بن مكرم الأفريقى ، (ت ٧١١ هـ)
لسان العرب ، دار صادر ، بيروت .
- موسى بن عقبة الأسدى (ت ١٤١ هـ)
المغازى (نسخة مستخرجة) ، جمع وتحقيق د. محمد باقشيش ، الدار البيضاء.
د. مهدى زرق الله .
السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية ، طبع مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية ، الرياض .
- ابن هشام (عبد الملك الحميرى ، ت (٢١٨هـ) .
السيرة النبوية (٤ أجزاء) تحقيق مصطفى السقا وزملاؤه ، مطبعة البابى الحلبى بالقاهرة ، ط٢ ، سنة ١٣٧٥هـ .
- ياقوت (ياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦ هـ) .
معجم البلدان (٥ مجلدات) ، دار صادر ، بيروت .
- يحيى بن إبراهيم اليحيى :
مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى ، عصر الخلافة الراشدة ، دار العاصمة الرياض ، ط١ ، سنة ١٤١٠هـ .
الروايات التاريخية عن الخلافة الراشدة والدولة والأموية فى فتح البارى جمعًا وتوثيقًا ، دار الهجرة ١٤١٧هـ .

العيارون والشطار
فى العصر العباسى

د. على منصور نصر(*)

المقدمة :

حركة العيارين والشطار من الحركات الاجتماعية الفاعلة ، التى كانت لها استمرارية طوال التاريخ العباسى، أى منذ قيام الدولة العباسية، فى سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م حتى نهاية التسلط الأجنبى وسقوط بغداد فى أيدى المغول فى سنة ٦٥٦هـ ١٢٥٨م.

وتأتى هذه الحركة استجابة طبيعية للتفاوت الاقتصادى ، وما أدى إليه من تمايز طبقى فى الدولة العباسية ، بعد أن أصبحت حاضرة الخلافة العباسية ، بغداد، مركزًا اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا مهمًا ، بدأ من العصر العباسى الأول سنة ١٣٢ - ٢٣٢هـ / ٧٤٩ - ٨٤٦م .

وكان للتسلط الأجنبى المتمثل فى بنى بويه والسلاجقة دور كبير فى ازدياد الفجوة بين الحاكمين والمحكومين ، ونتيجة لذلك التسلط الأجنبى وردًا عليه ازدادت حركة المقاومة الشعبية وعلى رأسها حركة العيارين والشطار .

ففى العصر البويهى (٣٣٤ - ٤٤٧هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥م) أقلق العيارون والشطار بال السلطات البويهية حيث كانوا يصطدمون بها دائمًا ، حتى إنهم أعيوهم ، ولم تسلم دور رجال الحكومة ولا أرواحهم من العيارين ، حيث قتلوا الكثيرين من رجالات الدولة ومن المتعاونين معهم .

وقد تركزت تحركات العيارين والشطار فى المدن العباسية ، وخاصة بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، حيث تميز المجتمع البغدادى بتعقد حياته ، وتطور عمرانه

(*) أستاذ التاريخ والحضارة العربية الإسلامية المشارك ، ورئيس قسم الدراسات العامة ، كلية الآداب - جامعة البحرين .

وامتداد سكانه ، واستطاعت حركة العيارين والشطار استقطاب عناصر كثيرة مختلفة ، من أصحاب المهن والصناعات الصغيرة والعاطلين والمتذمرين من السياسة القائمة . كل تلك العناصر وحد فيما بينها الانضمام إلى حركة العيارين والشطار التي تنادى بمبادئ سامية تدعو إلى تحقيق العدالة والمساواة فى المجتمع العباسى ، ونبذ التمايز والتفرقة .

إن حركة العيارين والشطار أصبحت من القوة ، فى عصر اتسم بالصراع بين الأخوين الأمين والمأمون (١٩٥ - ١٩٨هـ / ٨١٠ - ٨١٣م) ، فقد استطاع الأمين احتواء الحركة ، وسيرها لخدمة حربه مع أخيه ، لكن رغم البلاء الكبير الذى أبلوه فى تلك الحرب ، ورغم الانتصارات التى تحققت لهم ، إلا أن نتيجة المعركة التى حسمت ذلك الصراع جاءت مخيبة لهم ، حيث قتل الأمين ، وانتصر جانب المأمون ، لكنهم ظلوا قوة فاعلة على الساحة العباسية .

ورغم قساوة السلطة البويهية فى تتبع وإخماد حركة العيارين والشطار ، إلا أنها لم تستطع أن تقضى عليهم ، حيث استطاعوا رغم ذلك قيادة حركة المقاومة الشعبية ، وبلغ من شأنهم أن السلطة كانت ترسل لهم الجيوش للقضاء عليهم فلا تنال منهم ، إن لم تهزم أمامهم ، وكانت تتحطم هيبة الدولة بسبب ذلك . فكانت حركتهم ثورة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية الجائرة ، وكثيرًا ما سرقوا ونهبوا وقتلوا ، لكن عملهم كان موجهًا ضد مياسير القوم ومن تبعهم .

وفى العصر السلجوقى ظل العيارون والشطار يمارسون نهجهم فى إقلاق السلطات الغازية ، حيث إن عصر نفوذ السلاجقة ، لا يختلف عن سابقه من الممارسات اللاإنسانية مع الرعب واستشراء الفساد الإدارى والمالى ، ومن حيث بقاء الخليفة العباسى كمركز روحى يملك ولا يحكم ، بينما تركزت السلطة الفعلية فى أيدى الأتراك السلاجقة المستبدين الجدد بالخلافة .

ورغم قساوة السلطة السلجوقية فى التعامل مع الحركات المناهضة ، إلا أن حركة العيارين والشطار لم تتوقف ولو فى أشكال أخرى مثل حركة الفتوة ،

وواصلت حركة العيارين والشطار عملها ضد ممثلى السلطة السلجوقية وأعوانهم وضد التجار وأصحاب المال ووجهاء القوم ونحو الاستيلاء على أموال الأغنياء واستخدامها لطرق مختلفة للوصول إلى مبتغاها .

وكانت حركة العيارين والشطار كغيرها من الحركات الاجتماعية فى العصر العباسى التى ينقصها التنظيم والتدبير والقيادة الواعية ، التى كانت من الممكن أن تستقطب كل القطاعات والمجاميع المتذمرة والمتضررة من السياسات التى انتهجتها مختلف الحكومات على مر التاريخ العباسى ، ولم تكن لهم شعارات تدعو إلى قلب نظام الحكم ، وإن كل ما كانوا يبغونه هو لفت أنظار القائمين على الدولة إلى الأوضاع المأساوية التى يعيشونها ، ومحاولة تغيير تلك الأوضاع بالأساليب التى يعتقدون بأنها تخدم قضيتهم ، لكن الدولة اعتبرتهم خارجين على القانون ، وعاملتهم معاملة المجرمين أصحاب الجنايات ، لا ثائرين أصحاب قضية ورسالة ، مع أن انتفاضاتهم كانت فى أحايين كثيرة صرخة مظلوم مستضعف فى وجه ظالم مستبد .

وفى الوقت الذى كانت حركة العيارين والشطار مرفوضة من الناحية القانونية من قبل السلطة فى العصر العباسى ، فإنها كانت مقبولة من الناحية الاجتماعية خاصة أن عناصرهم من الطبقة العامة الذين اعتبروا أصحاب تلك الحركة أبطالاً فى نظرهم ، ونظروا إلى حركتهم على أنها حركة ثورية يقودها الفقراء ضد الأغنياء فى محاولة لتحسين أوضاعهم ولو بالقوة .

النزاع بين الأمين والمأمون وأثره فى نشأة حركة العيارين والشطار :

مر النزاع بين الأمين والمأمون بدورين ، الأول دبلوماسى سلمى انتهى سنة ١٩٥هـ/٨١٠م ، والثانى عسكرى انتهى بمقتل الأمين سنة ١٩٨هـ/٨١٣م وله تسع وعشرون سنة وثلاثة أشهر(١) .

تولى محمد الأمين با لله الخلافة بعد موت أبيه هارون الرشيد ، وعمره ثلاث وعشرون سنة ، فى النصف من جمادى الآخرة سنة ١٩٣م / ٤ أبريل ٨٠٨م . وكان أبوه قد أوصى له بالخلافة من بعده ، من دون المأمون الذى يكبره سنًا ، بعد أن بويع بولاية العهد وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره ، حيث أنه ولد فى شوال ١٧٠هـ/٧٨٦م ، ونصب فى ولاية العهد سنة ١٧٥هـ/٧٩١م(٢) . وقد أقدم الرشيد على هذا العمل إرضاءًا لزوجته زبيده العربية الأصل .

وبعد نحو سبع سنوات من البيعة للأمين ، عهد الرشيد إلى ابنه " عبد الله " المأمون بولاية العهد ، بعد أخيه الأمين ، ثم ولاه الرشيد بلاد المشرق وولى الأمين بلاد العراق والشام ومصر وبلاد المغرب(٣) .

بعد أن آلت الخلافة إلى الأمين ، سار فى نهج مغاير لطبيعة الخلافة الإسلامية وقادتها ، وأخذ يقبل على اللهو لدرجة أنه فاق من سبقوه فى ذلك ، وعاشر أهل المجون ، وأرسل إلى جميع البلدان فى طلب المهلبيين ، فضمهم إليه وأجرى لهم المرتبات ، وأسرف كثيرًا فى انفاق المال على ملذاته ومتعه ، فقسم ما فى بيوت الأموال ، وما فى حوزته من جواهر على خصيانه وجلسائه وندمائه ، وأمر بيناء أماكن لمنتزهاته ، ومواضع خلوته ، ولعبه ولهوه . ففى اليوم التالى لخلافته ، أمر ببناء ملعب بجوار قصر المنصور ببغداد(٤) ، ليلعب فيه الكرة ، كما أمر ببناء حراقات (سفن) ، فى دجلة تكون على شكل الأسد ، والفيل والحية ، والعقرب والفرس . وأنفق فى بنائها أموالاً طائلة ، لكى يتنزه فيها . ووصفه كثير من المؤرخين بأنه كان سيء التدبير، كثير التبذير، ضعيف الرأى لا يصلح للإمارة(٥).

والواقع أن تربية الأمين المترفة جعلته قليل الصرامة بعيدًا عن تقاليد العباسين الميكافيلية ، لكنه فى المقابل كان فى نهاية القوة والشدة والبطش(٦) .

وكان من أهم نقاط الخلاف بين الأخوين ، مسألة ولاية العهد ، إضافة إلى تغذية الخلافات وتعميقها من قبل مشاورى الاثنين ، الذين لعبا دورًا مهمًا فى ذلك الخلاف .

فبعد موت هارون الرشيد أخذ الوزير الفضل بن الربيع الذى كان مع هارون فى رحلته الأخيرة ، يسرع الخطا إلى بغداد ، على رأس الجند ، ومعه المال ليبايع الأمين ، الذى استوزره أيضًا ، أما المأمون فقد ظهر بمعيته رجل اسمه الفضل ابن سهل ، كان دوره فى الصراع بين الأخوين أكبر من دور المأمون نفسه ، ولعل الفتنة أو الصراع بين الأخوين حدثت نتيجة لتنافس الرجلين القويين وهما الفضل ابن الربيع ، والفضل بن سهل ، على السيطرة على مقدرات الدولة العباسية، منذ أواخر أيام الرشيد . وكان كلما ذكر الأمين والمأمون ابنا الرشيد ، ذكر معهما " الفضلان " الوزيران اللذان تحيز كل منهما إلى أحد الأخوين وأثار بينهما صراعًا شديدًا ، ولاح ذلك فى سنة ١٩٤هـ/٨٠٩م ، وفيها مكر كل واحد منهما بصاحبه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، وظهر بينهما الفساد(٧) .

ومثلما تحمل الفضل بن الربيع مسئولية حمل الأمين على عزل أخيه ، وفتح باب الفتنة بين الأخوين تحمل الحسن بن سهل وأخوه الفضل بن سهل المسئولية أيضًا فى توسيع الشقة بين الأخوين ودفع الأمور إلى الصدام والقتال ، أما الحسن ابن سهل وأخوه الفضل بن سهل فقد ظلا معترضين على تقديم أى تنازلات للأمين(٨) .

وكان أن استعان كلا الأخوين بالقومية التى ينتمى إليها ، فالأمين وهو هاشمى أبًا وأمًا استعان بالقومية العربية ، والمأمون وأمه فارسية ، استعان بالقومية الفارسية ، التى كان يعيش بين أهلها وأراد كل منهما تحقيق أهدافه ، من خلال تلك القومية ، ذلك أن الخلافة العباسية قامت قبل كل شىء على أساس أن تكون خلافة كل القوميات الإسلامية ، وليست خلافة قومية معينة(٩) .

وهكذا أخذ الفضل بن سهل يشجع المأمون ويسعى لتثبيت مركزه ، باسترضاء أهل خراسان من مختلف الطبقات ، ثم أشار عليه باسترضاء الطبقة الارستقراطية ، وتكريم القواد والملوك ففعل ذلك ، وقام باسترضاء عامة الشعب، بأن حط عن " خراسان ربع الخراج " فحسن موقع ذلك من الناس ، وسروا به

وقالوا : " ابن اختنا وابن عم "(١٠) . وكان الفضل بن سهل يدفع المأمون إلى الاستقلال بالمناطق الشرقية من الدولة العباسية (خراسان وما يحيط بها من أقاليم)(١١) . كما طمع الفضل بن سهل لصاحبه بالخلافة ، وليس دون ذلك، وكثيراً ما شد عزيمة المأمون ونصحه بالعناد وألف حوله الأنصار ، وأجاب وفود الأمين بدلاً منه(١٢) .

ورأى الفضل بن سهل أن يحتاط للأمر ، بتقريب بعض رؤساء القبائل إليه ، وأن يظهر المأمون بمظهر الحريص على الحق ، وعلى العمل على إحياء السنن ، وأن يقعد على اللبود ، وأن يرد المظالم(١٣) .

أما من ناحية الأمين فقد رأى له الفضل بن الربيع أن يقدم ابنه موسى(١٤)، ولم يكن هذا رأى الأمين ، عند بدء خلافته ، ويقرر الطبرى ذلك صراحة فى قوله: " ولم يكن من رأى محمد ولا عزمه ، بل عزمه - فيما يذكر عنه - الوفاء لأخويه ، عبد الله والقاسم "(١٥) .

بعد إلحاح شديد من الفضل بن الربيع ، رضى الأمين أن يخلع المأمون ويبايع لابنه موسى ، بولاية العهد . ونهى عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على شيء من المنابر ووجه إلى مكة كتابًا مع رسول من حجبة البيت ، فى أخذ الكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة ، فاحضرهما إلى بغداد فمزقا(١٦) .

ومن المناسب هنا أن نسجل أن الأمين فى محاولته خلع أخيه المأمون لم يأت بجديد فى السياسة العباسية ، ولكنه اتبع السنة التى استنها المنصور ثم اتبعها الخلفاء الذين تولوا بعده حتى الأمين(١٧) .

تحمس الأمين لتنفيذ خطته ، حيث أخذ البيعة من بنى هاشم ، والقواد والجند بولاية ابنه موسى ولاية العهد من بعده فى سنة١٩٥هـ-٨١٠م ، وسماه الناطق بالحق ، والبيعة لابنه عبد الله من بعده وسماه : القائم بالحق ، كما أرسلت الكتب إلى الملوك المحيطين بخراسان مثل الديلم وجبال طبرستان ، بقطع خراسان ، وعين ولاة على الرى وهمدان بقصد أن يفصل مناطق الجبال الفارسية عن خراسان ، بل منع التجار من حمل أى شيء إلى خراسان(١٨) .

وكان الأمين يحاول اضفاء صفة الشرعية على حكمه ، وعلى قراراته ، ولذا أخذ يتقرب من أهل خراسان ، شيعة المأمون بهدف أن يبين لهم أن خلافه مع أخيه قضية عائلية خاصة ، يجب أن لا تمس العامة ، بل رأى أن من واجبه رفع الجور عن الرعية ، والتخفيف من أعباء الخراج عليهم ، ويبدو ذلك فى وصيته لقائده الموجه للقبض على المأمون ، حيث قال : " امنع جندك من العبث بالرعية ، والغارة على أهل القرى وقطع الشجر وانتهاك النساء ، ومن خرج إليك من جند خراسان ووجوهها فاظهر اكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخًا بأخيه ، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج "(١٩) .

وبيت الأمين النية فى الطلب من المأمون التنازل عن بعض أجزاء ولايته ، ليقلل من قوته ، فحذره القاسم بن صبيح من ذلك ، لأنه " توكيد للظن وتقوية للتهمة ، ومدعاه للحذر ، وقال : ولكن تكتب إليه وتعرفه حاجتك إليه ، وشوقك إلى قربه ، وإيثارك الاستعانة برأيه ، ومشورته ، وتسأله القدوم عليك ، فإن ذلك أحرى أن لا يوحشه "(٢٠) .

لكن الأمين طلب من المأمون التنازل عن قسم مضموم لخراسان ، ضمًا مؤقتًا وإرجاعه إلى ما كان عليه ، وهو طلب مخالف لظاهر الشرط ، ولكنه طلب من حق الأمين صاحب السلطان . وقد تلطف الأمين فى صيغة الطلب ، فطلب الصفح أو التجافى عن بعض الكور ، وعلل ذلك فقال : " أن أمير المؤمنين وإن كان أفردك بالطرف وضم إليك من كور الجبل ، فإن ذلك لا يوجب لك فضله من المال ، وقد كان هذا الطرف كافيًا لأمره، وقد ضم إليك إلى الطرف كورًا من أمهات كور الأموال لا حاجة لك بها ، فالحق أن تكون مردودة فى أهلها "(٢١).

وحاول الأمين معرفة مدى طاعة المأمون له ، فى محاولة لإثبات تمكنه من التصرف فى شئون دولته كلها ، وأن سلطانه يشمل ما تحت يد المأمون ، فكتب إلى العباس بن مالك ، عامل المأمون على الرى يأمره بأن يرسل إليه غروس الرى(٢٢) .

أما المأمون فمن جانبه كان يحاول إظهار الأمين بمظهر مغتصب الخلافة ، وناكث العهود ، فكانت حملته الدعائية القوية تتجه فى ذلك الاتجاه . وركز على جند الأمين وقواده ، فأرسل لهم رسائل يذكرهم بالعهود ، ويبين لهم أن أخاه ظالم ومعتد ممزق للمواثيق . وقد أثرت تلك العملية فى بعض قواد الأمين ، فأجابوه . كما أثرت فى بعض وجوه العرب ، من الذين كانوا على مقربة من مسرح الأحداث ، فلم يستجيبوا لرغبة الأمين ، ويخضعوا لهواه فى خلع أخيه ، أو قتاله ، فعبد الله بن خازم وهو ابن خازم بن خزيمة التميمى ، حذر الأمين من عاقبة خلع أخيه ، وقال له : " أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده وميثاقه ، واستخف بيعته ورد رأى الخليفة قبله " لكن الأمين لم يستجب لنصحه وتحذيره ، وقال له : اسكت لله أبوك(٢٣) .

رأى الأمين أخيرًا وضع أخيه أمام الأمر الواقع فى وقف الدعاء للمأمون ، وأعلن بيعة ابنه موسى الناطق بالحق ، بدلاً منه ، وضرب لذلك دراهم ودنانير تذكارية(٢٤) . ثم عزل المؤتمن عن جميع ما كان أبوه هارون الرشيد قد ولاه من عمل الشام وقنسرين(٢٥) . والعواصم والثغور وولى مكانه خزيمة بن خازم . وكان رد المأمون حازمًا لدى علمه بما فعله الأمين مع المؤتمن ، حيث اسقط اسم الأمين من الطرز والضرب على الدنانير ، وقطع البريد عنه(٢٦) .

المواجهة العسكرية ١٩٥ - ١٩٨هـ/ ٨١٠ - ٨١٣م :

ظل النزاع الدبلوماسى قائمًا خلال الحرب ، فالمأمون يلقب نفسه حتى قبل أن يخلع ولاية العهد بالإمام لا بالخليفة ، لكن مع ذلك يبدو أنه كان متسرعًا فى رد الفعل تجاه خطوة الأمين ، بعزل المؤتمن بناء على مشورة الفضل بن سهل ، وبناء على الاستنباط ، حيث رأى أن إقدام الأمين على عزل أخيه المؤتمن ، واستدعائه إلى مدينة السلام ، وأمره بالدعاء لابنه موسى بالأمرة ، ومكاتبة الأمصار بذلك ، تدبير عليه فى خلعه وأنه تدبير الفضل بن الربيع(٢٨) .

وتأكيدًا لدور الدبلوماسية حتى أثناء النزاع المسلح بين الأخوين ، أرسل المأمون سفيرًا إلى أعيان أهل العسكر ببغداد ، طالبًا منهم تأييده ضد الأمين ، أو الوقوف موقف الحياد على الأقل فوصل السفير فى وقت خلع المأمون ، ومكث فى بغداد يحاول استمالة القادة ، ويكتب إلى المأمون بالأخبار . وقد كتب إلى المأمون بعد فحص الوضع ببغداد ما يلى : " وجدت أكثر الناس ولاة السرير (للمأمون) ، ونفاه العلانية ، ووجدت المستمالين بالرغبة إلى الأمين لا يحوطون إلا عنها ولا ينالون ما احتملوا فيها أى قليلى الثبات ، والمنازع مختلج الرأى لا يجد دافعًا عن همة ، والقوم على جد فلا تميلوا للتوانى "(٢٨) .

عندما وصلت الأمور إلى حالة من التأزم بين الأخوة ، وبعد فشل حل النزاع بالطرق السلمية ، عزم الأمين على محاربة أخيه ، فأرسل أول بعث إليه فى أربعين ألفًا ، معظمهم من أعراب البوادى بقيادة على بن عيسى(٢٩) . أحد ولاة خراسان السابقين ، الذى عرف بأحاسيسه العربية ، مما جعله مكروهًا للخراسانيين، ودسوا عليه عند الرشيد ، الذى حبسه ، إلا أن الأمين أطلقه ، وعينه على رأس جيشه . فأعد المأمون جيشًا لمقابلته ، معظمه من الفرس ، من نواحى خراسان ، وبلاد ما وراء النهر ، بقيادة طاهر بن الحسين(٣٠) ، وهو قائد فارسى أخذ يعد العدة للدفاع ويستعد للقتال . وحاول على بن عيسى بن ماهان ، أن يستغل معرفته السابقة بالبلاد ، والاتصال بملوك الديلم وطبرستان وغيرهم من الملوك الوطنيين وإثارتهم . وهؤلاء أجابوه إلى قطع طريق خراسان . واستهان ابن ماهان بأمر طاهر ، إذ تقول النصوص : بأنه لما طلب إليه أصحابه بث العيون وعمل خندق ، قال : مثل طاهر لا يستعد له(٣٠) ، وخرج طاهر من مدينة الرى فى جيش قليل العدد ، نسبيًا ، حيث بلغ تعداده أربعة آلاف مقاتل . وعسكر على بعد قليل منها ، (خمسة فراسخ) ، كما حرص جنده على القتال ، خالعًا الأمين، داعيًا بالخلافة للمأمون(٣٢) .

أما الأمين فقد جمع قواده وأهل بيته ومواليه ، وشرح لهم ما كان من تصرفات المأمون . وحمس الفضل بن الربيع الأمين ، والحاضرين لاتخاذ موقف

متشدد حين قال : " لا حق لأحد في الإمامة والخلافة إلا لأمير المؤمنين محمد الأمين . وأن الله لم يجعل لعبد الله ولا لغيره في ذلك حظًا ونصيبًا(٣٣)"، وانتهى الاجتماع بمنحة تقسم على الحاضرين من موسى الأمين مقدارها ثلاثة ملايين درهم .

وكان من الطبيعي أن الأمين هو الذى سوف يتخذ خطوة اللجوء إلى السلام لحل الخلاف باعتباره الخليفة والرجل الأقوى ، لأن المأمون معتصم منه بولايته البعيدة ، ولهذا سير قائده على بن عيسى ماهان إلى خراسان وعقد له عليها(٣٤) .

أخبر على بن عيسى الخليفة الأمين ، بأن أهل خراسان كتبوا إليه يذكرون ، " أنه إن خرج هو ، أطاعوه وانقادوا إليه "(٣٥) .

حاول المأمون استمالة على بن عيسى بن ماهان إلى جانبه ، أو أن يثبط من عزمه على الحرب . ولكن اغترار على بن عيسى بقوته كان بداية السير في طريق الهزيمة.

وكان طاهر بن الحسين ، قائد جيش المأمون على الجانب الآخر ، يعمل لكل شيء حسابه ، حيث رفض أن يقيم في الرى ، حتى يأتيه المدد من خراسان ، لأن أهل الرى " لعلى هائبون ومن سطوته مشفقون "(٣٦) . واستقر رأى طاهر على محاربة على بن عيسى ، رغم أن عدد جيشه أقل من جيش على ، وذلك حتى يأتيه المدد(٣٧) .

ولم ينتظر على بن عيسى ورود النجدات له من جنوب إيران ، واشتبك عند الرى في معركة مع ابن طاهر بن الحسين ، في شوال سنة ١٩٥هـ/٨١٠م . ورغم ما حققه على بن عيسى في بداية المعركة من انتصارات إلا أن الحال تغير أمام صمود جيش طاهر . ثم جاءت المعركة نتيجة غير منتظرة ، إذ هزم جيش الأمين وقتل على بن عيسى على يد رجل من أصحاب طاهر ، أصابه بسهم وهو لا يعرفه(٣٨) . ولكن آخر يعرف بطاهر الصغير التاجى ، عرفه ، فذبحه بسيفه(٣٩) ، وحمل رأسه إلى طاهر ، وشدت يداه إلى رجليه ، وحمل على خشبة، يدهق كما يحمل الحمار الميت(٤٠) . فأمر طاهر بإلقائه في بئر(٤١) . وذلك في جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ/٨١٠م .

ولا شك فى أن نتيجة المعركة غير المنتظرة وهزيمة جيش الأمين وقتل على ابن عيسى ، كانت كلها أنباء أفرحت المأمون ، وما أن وصلته حتى قعد للتهنئة . ثم أعلن بعد أشهر خلع الأمين ، ودعا لنفسه بالخلافة فى خراسان . وتحول الجيش المدافع إلى جيش مهاجم ، يسير فى منطقة الجبال باتجاه العراق(٤٢) .

وتعزى هزيمة على بن عيسى ، إلى الاعتزاز والثقة الزائدة بالنفس ، حتى أنه كان يحمل معه قيدًا من فضة ، أعطته إياه زبيدة ، أم الأمين لتقييده(٤٣) . لكن السبب الحقيقى وراء هزيمته ، تعود إلى معاداة أهل خراسان له والتفافهم حول أخيه(٤٤) .

ونتيجة لهذه المعركة أعلن طاهر بن الحسين خلع الأمين ، الذى أصبح من حينها يعرف للخراسانية بالمخلوع . أما ابن سهل وزير المأمون ، فقد تلقب بذى الرياستين(٤٥)، أى رياسته للحرب ورياسته للقلم . وعقد له المأمون المشرق ، من جبل همذان إلى التبت طولاً ، ومن بحر فارس إلى بحر الديلم وجرجان عرضًا(٤٦).

الزحف على بغداد :

كانت تلك المعركة فاتحة سلسلة من الانتصارات قادت طاهرًا من الرى إلى بغداد . وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الأمين ، عبد الرحمن بن جبلة ، الذى ولى همذان ، والذى كان يأمل أن يلى كل ما يفتحه من أرض خراسان ، ولكنه كان يضمر الغدر بطاهر ، إذ شن عليه هجومًا شديدًا يائسًا انتهى بقتله وهزيمة أصحابه(٤٧) .

أرسل الأمين جيشًا ثالثًا ، قوامه أعراب من ديار الجزيرة ، بالإضافة إلى جند من الأبناء ، يقودهم أحمد بن مزيد من أسرة مزيد العربية المعروفة ، إلا أن الأبناء تقاتلوا مع الأعراب عند حلوان(٤٨) ، قبل الذهاب إلى فارس . فسعى الأمين إلى تكوين جيش آخر من أهل الشام فى وقت نشوب ثورة حمص وثورة الشام بقيادة على بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية السفيانى(٤٩) . وهذا دليل على أن

العرب لم يأخذوا جانب الأمين فى هذا الصراع . وإن العرب بشكل عام لم يكن لهم فى هذه الحرب الأهلية هدف ولا مصلحة(٥٠) .

وهكذا كثرت الهزائم التى حلت بجند الأمين ، وبلغت الشدة مداها حين بدأت جيوش المأمون تزحف على بغداد ، من اتجاهين ، بعد الانتصارات التى تحققت للمأمون ، على يد قائده طاهر . وقد تمكن طاهر الذى ذهب إلى الأهواز ، من هزيمة جيش محمد بن يزيد بن حاتم المهلبى عامل الأمين على الأهواز ، وقتله رغم استبساله(٥١) . ثم استولى على الأهواز . كما تمكن طاهر من الاستيلاء على واسط .

وأمام الوضع العسكرى المهتز للأمين ، والانتصارات الباهرة لجيش المأمون كان الطريق ممهدًا للوصول إلى بغداد . فبعد السيطرة على واسط بقيادة طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين ، زحف القائدان على بغداد ، وشطراها حصارًا ، حيث حاصر هرثمة القسم الشرقى من المدينة ، وطاهر بن الحسين القسم الغربى(٥٢) ، حيث كان الأمين يقيم فى قصر الخلد ، فى هذه الفترة الأخيرة من حكمه . وكان أن نصبت المجانيق والعرادات(٥٣) . وحفرت الخنادق ، وبنيت الحيطان إيذانًا بحصار قد يطول(٥٤) . هذا فى حين أخذت مدن العراق الأخرى تتساقط واحدة بعد أخرى ، مثل البصرة ، والكوفة ، والموصل . وعقد طاهر بن الحسين إلى يزيد ابن جرير بن خالد القسرى ولاية اليمن . وعين باقى الولاة على قلة والمدينة واليمامة وعمان والبحرين(٥٥) .

وزادت الشدة على الأمين بعد أن انفض عنه بعض رجاله . ففر القائد خزيمة ابن خازم(٥٦) ، ومحمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين ، ولما كان لهذا الرجل من تأثير لدى الأمين ، كان لاستئمانه أشد الأثر عليه ، حيث أنه لما استأمن إلى طاهر أشرف الأمين على الهلاك(٥٧) ، وضعف أمره وأيقن بالزوال(٥٨) .

وكان لضعف معنوية جيش الأمين ، وقلة ثباتهم ، أثر فى الهزيمة ، فجيش على بن عيسى قد مزق مع أنه كان يبلغ أضعاف جيش طاهر بن الحسين . ورجع

الجيش الثالث الذى أرسله الأمين ضد طاهر بقيادة أحمد بن مزيد دون قتال، لأن طاهرًا بث فيه دعاية ولدت الشقاق وأدت إلى تفريقه . كما أفسد الأمين جنده بكثرة العطايا والأموال ، فمثلاً كانوا بعد مقتل على بن عيسى وهزيمة جيشه يشاغبون ، ويطلبون بكل وقاحة الزيادة فى الأرزاق . فمنع الأمين من تأديبهم ، وأمر بتوزيع الأموال عليهم . كما أن الأمين لم يحاول استصفاء قلوب الرعية ، مثلما حاول المأمون ، ولم ينجح فى ذلك ، ولهذا حدثت اضطرابات داخلية ضده فى عاصمته ، فى نفس الوقت الذى كان جيشه ينازع جيش المأمون ، فأصبح بين نارين فتنة داخلية ، وحرب خارجية(٥٩) .

ولا شك فى أن حالة الاضطراب وعدم الاستقرار التى نجمت عن الخلاف بين الأمين والمأمون ، كان لها أثرها فى زعزعه أركان المجتمع مما ساعد فى نمو حركة العيارين والشطار .

الوضع الاجتماعى والاقتصادى للدولة العباسية إبان ظهور حركة العيارين والشطار :

إن النشاط التجارى والاقتصادى الهائل للدولة العباسية ، فى عصرها الأول (١٣٢ - ٢٣٢هـ/ ٧٤٩ - ٨٤٦م) أفرز عدة متناقضات اجتماعية ، منها ازدياد التفاوت الطبقى والتمايز الاقتصادى فى المجتمع العباسى ، نتيجة لسوء توزيع الثروة ، وتمتع الطبقة الخاصة بأغلب الامتيازات . وتشكلت التركيبة الطبقية لمجتمع بغداد فى تلك الحقبة التاريخية من الطبقة الخاصة ، وتشمل الطبقة الحاكمة العباسية والتى بيدها مقاليد الأمور فى البلاد ، والذين قربهم الخليفة العباسى إليه، وجعلهم من خواصه ، وهم الوزراء ، والكتاب ، والقضاة ، والحجاب . أما الطبقة العامة فقد تشكلت من الصناع والطوائف الحرفية والزراع والعيارين والشطار(٦٠) .

وضمن المتناقضات الاجتماعية التى أفرزها النشاط التجارى والاقتصادى ، بلوغ حياة الترف درجة لا توصف عند الطبقة الخاصة ، بسبب انغماس الخلفاء

العباسيين فى حياة البذخ والترف واستغراقهم فـى مظاهر الكسروية على النحو الذى عرفناه من خلفاء بنى أمية ، بل إنهم فاقوهم فـى ذلـك . فقد كـانوا يبلون الأموال عن سعة ، ويبالغون فى إنفاقها فى سبيل الرفه ، واصطناع الأنصار(٦١) . وعاشوا عيشة قوامها البذخ والأبهة فى كل مناحى الحياة المادية والأدبيـة . كـانت قصورهم وقصور الـولاة وقـواد الجند والأمـراء والتجار ، تعج بـأجمل الرياش ، وأنفس التحف وحولها البرك والحدائق الغناء ، حيث الولائـم الكبيرة التى تحتوى على ألوان هائلة من مفاخر الطعام ، ومجالس المنادمة والشراب ، وأجمـل الجوارى وأحذقهن ، فى الموسيقى والغناء(٦٢) . و لم يكتفوا بـإغداق الأموال بـلا حساب على مجالس الغناء والطرب ، بل حتى على حفلات الزواج . فقد أفـاضت الكتب التاريخية بوصف حفلـة زواج الرشيد مـن زبيدة ، إذ لم يـر فـى الإسـلام مثلهـا . وبلغت نفقة هذا الزواج من بيت مال الخاصة ، سوى ما أنفقه الرشيد مـن مالـه ، خمسين ألف ألف درهم(٦٣) . واهتم خلفاء العصر العباسـى الأول بعـد أن استقر الأمر لهم ببناء القصور والمنشآت ، حيث بلغت تكاليف المنشآت فى عهـد المنصور أربعة عشر ألف ألف دينار ، وثلاثة وثمانين ألـف درهـم(٦٤) ، وقـد أخـذ هـؤلاء الخلفاء كثيرًا من نظم الفرس وتقاليدهم . وحذا حذوهم غالبية خلفاء بنى العباس. وتبعهم فى ذلك القواد والأمراء والوزراء ورجالات الدولة(٦٥) . وكـان للبرامكـة تأثير واضح على الرشيد وعلى اهتماماته . وحذا كل من الأمـين والمـأمون، حـذو من سبقهم من الخلفاء ، فاهتم المأمون بإصلاح القصر الحُسنى وهـو قصـر الحسن بن سهل(٦٦) .

وكان للنساء كلمة مسموعة ومؤثرة فى صفوف الطبقة الحاكمـة . وكثيرًا مـا كن يصدرن قرارات فاعلة . وكثيرًا ما أشركت الأميرات وسيدات القصر ، وسـيدات الطبقة الراقية فى بغداد ، فى رحلات موسيقية(٦٧) . ورعى الأمين رجال الموسيقى . فقد ذكر عن إسحاق الموصلى أنه قال : " لو كان بينه وبـين ندمائـه مئة حجـاب خرقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا "(٦٨). وحذا الأمين حـذو أبيه هارون الرشيد فى تبذير أموال الفىء ، بل أنفق الكثير منهـا فـى سـبيل السـفه والطيش ، حيث أجاز لأحد الشعراء بحمل ثلاثة بغال من الدراهم(٦٩) .

وقد ذاع في عهده ضرب جديد من اللهو ، هو عبارة عن حفلات رقص ، كان الأمين يديرها بنفسه في الأبهاء . وكانت كل حلقة تتألف من مئة من أرشق الفتيات ، وأوفرهن جمالاً . وكن يظهرهن في تلك الليالي الساهرة ، بأبهى الحلل الموشاة بالقصب ، المرصعة بالجواهر الثمنية ومما كان يثير الإعجاب والسرور ، أنهن كن يرقصن مجتمعات على أنغام الموسيقى الشجية ، بحركات إيقاعية ، ويتمايلن في بطء رائحات غاديات ملوحات بسعف النخيل ، منحنيات تارة ومنتصبات تارة أخرى في دوائر تشع عليها الأضواء الساطعة(٧٠) .

وكان أن أفرزت تلك الأوضاع مجتمعًا طبقيًا مصحوبًا بازدياد الفقر في صفوف الطبقة العامة . كما هيأت تلك الأوضاع مناخًا مواتيًا لازدهار حركة التمرد والثورة على المجتمع والدولة ، بقيادة الطبقة العامة ، وعلى رأسها العيارون والشطار ، في مجتمع كان يفتقر للنظام والتنظيم والتخطيط لتغير أسلوب الحكم . ولم يكن للقائمين بها من تصور لمجتمع آخر ، ومن ثم فهم لا يشكلون طبقة تاريخية (كالزنج والقرامطة وغيرها) بل لم يخطر ببالهم أساسًا الثورة على نظام الخلافة ، أو ذات الخليفة ، باعتباره خليفة الله على الأرض(٧١) .

لقد كان لهذه الفتنة العمياء أثر كبير على جميع مناحي الحياة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وغيرها ، وخاصة الناحية الاقتصادية إذ استنفدت مخزون الدولة وميزانيتها ، وأهملت الطبقة المتوسطة والفقيرة مما أدى إلى تذمرها وبروز فئة العيارين والشطار ، المطالبين بإنصافهم وإعطائهم بعض حقوقهم وشيئًا من الامتيازات التي تتمتع بها الطبقة الغنية وذوو النفوذ والسيادة .

العيارون والشطار في عصر القوة العباسية :

تردد ذكر العيارين والشطار لأول مرة في عهد الخليفة العباسي أبي عبد الله محمد المهدي(١٥٨ - ١٦٩هـ/ ٧٧٤ - ٧٨٥م) وعهد جعفر هارون الرشيد. أما عن ذكر العيارين والشطار في خلافة المهدي ، فيقول البلاذري : " فلما كثر الصعاليك والزعار - العيارون - وانتشروا بالجبل في خلافة المهدي ، جعلوا هذه

الناحية ملجأ لهم وحوزوا ، فكانوا يقطعون الطريق ويأوون إليها فلا يطلبون"(٧٢).

والجبل هو (عراق العجم) الذى كان يموج انذاك بجماعات الخرمية المحمرة ، حيث كان منهم الصعاليك والدعار ، وأكد الهمدانى ذلك فى حديثه عن مدينة سيسر (بكسر الأول وفتح ما قبل الآخر) وهى إحدى رساتيق همدان وأحد تخومها ، بينهما وبين اذربيجان . حيث يقول : إن الصعاليك (الدعار كثروا فى خلافة الرشيد وتشعثوا سيسر ،فأمر ببنائها ، وتحصينها ، ورتب فيها ألف رجل من أصحاب ما قان الحارثى) . على أن سيسر لم تأخذ شكل المدينة إلا فى أيام الأمين(٧٣).

ورغم كثرة الصعاليك والعيارين فى عهد الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨م) إلا أنهم كانوا لا يشكلون مصدر خطر يهدد سلطة الدولة أو مركز الخلافة ، وربما كان هذا رد فعل طبيعى للتفاوت الطبقى والاقتصادى الذى شهدته الحاضرة العباسية ، إبان عصرها الذهبى ، ولكنهم ، كما تصفهم كتب الأخبار والتاريخ ، " إنما غايتهم أن يطلبوا الشىء الطفيف ، أو يصيبوا ثمرة من أهل السفينة ، أو القافلة ، فيصيبوا ما يمكن اختلاسه " . ذلك أن قبضة الدولة كانت لا تزال قوية ، والخلافة فى أوج مجدها السياسى والحضارى(٧٤) .

وإذا كان المهدى والرشيد قد تمكنا من الحد من امتداد موجة العيارة والشطارة إلى بغداد ، فإن الأمين سمح لها بذلك . وصار العيارون والشطار أصحابه وبه عرفوا . ولفظة العيار فى اللغة تعنى : الكثير التجول والطواف ، الذى يتردد بلا عمل ، يخلى نفسه وهواها . والمعار بالكسر : الفرس الذى يحيد براكبه عن الطريق . والعيار : الكثير المجىء والذهاب فى الأرض(٧٥) ، وقيل هو الذكى الكثير التطواف(٧٦) ، وحكى الفراء : رجل عيار إذا كان كثير التطواف والحركة، ذكيًا(٧٧) ، وقال ابن الإعرابى : والعرب تمدح بالعيار . وتذم به . يقال: غلام نشيط فى المعاصى ، وغلام عيار نشيط فى طاعة الله عز وجل(٧٨) ،

ربما سمي الأسد بالعيار لتردده ومجيئه وذهابه فى طلب الصيد ، والعيار بمعنى الكيال والوزان(٧٩) .

أما الشاطر لغة : فهو من أعيا أهله خبثًا ويقال شطر على أهله وانفصل عنهم بمعنى نزح عنهم وترك موافقتهم وأعياهم خبثًا ولؤمًا . والشطارة : الانفصال والابتعاد والشاطر : هو الذى عصا أباه أو ولى أمره وعاش فى الخلاعة. وشطر فلان شطارة : اتصف بالدهاء والخباثة ، ومفردها شاطر ، والجمع شطار ، وهو المتصف بالدهاء والحيلة والذكاء ، واللص الشاطر الذى يستخدم الحيلة فى موضع الحيلة والقوة(٨٠) . والشاطر هو السابق ، كالبريد الذى يأخذ المسافة البعيدة فى المدة القريبة ، وقال الشيخ فى مشرب الشطار : يعنى أنه لا يتولى هذه الجهة إلا من كان منعوتًا بالشاطر الذى أعيى أهله ونزح عنهم ، ولو كان معهم ، إذ يدعونه إلى الشهوات والمألوفات(٨١) .

والعيارون والشطار هم طائفة من العامة ، برزوا على مسرح الأحداث ، بشكل مؤثر فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، القرن التاسع الميلادى ، على أثر حصار بغداد الأول من قبل طاهر بن الحسين القائد العسكرى للمأمون ، فى يوم الثلاثاء الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ١٩٦هـ الموافق ٢٤ أغسطس ٨١١م بأمر من المأمون نفسه ، حيث استخدمهم الأمين فى أحلك ظروف الحصار والمحنة، فأنجدوه وقادوا مقاومة العامة فى بغداد ، ضد قوات طاهر بن الحسين . وعندما باتت العاصمة قاب قوسين أو دنى من السقوط ، ليلة الأحد (وقيل ليلة الخميس) ٢٥ من محرم سنة ١٩٨هـ/٥ سبتمبر ٨١٣م ، دخلوا عليه ونصحوه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ليس معك من ينصحك ، ونحن سبعة آلاف رجل مقاتل ، وفى أسطبلك سبعة آلاف فرس ، يحمل كل منا على فرس ، ونفتح بعض أبواب المدينة، ونخرج فى هذه الليلة ، فما يقدم علينا أحد إلى أن نصير إلى بلد الجزيرة وديار ربيعة ، فنجبى الأموال ، ونجمع الرجال ؛ ونتوسط الشام وندخل مصر ، ونكثر الجيوش والمال ، وعقود الدولة مقبلة جديدة . فقال : " هذا والله الرأى ، فعزم على ذلك وهم به وجنح إليه "(٨٢) .

إن محاولة بعض المؤرخين التفريق بين العيارين والشطار لم تلق تجاوبًا . ومن ذلك قول جرجي زيدان : " بأن الشطار أكثر انتشارًا في المملكة الإسلامية من العيارين وأطول بقاء منهم "(٨٣) . وآخر يقول : " أن الشطار قاموا بحركات تشبه إلى حد كبير العيارين" (٨٤) .

إن الرد على ذلك يأتي من أن ظهور العيارين والشطار كان في نفس الظروف التاريخية أثناء حصار بغداد ، وأن شيوع التسمية في المرحلة اللاحقة هو الذي جعل زيدان يعممها ، دون أن يبين أن العيارين والشطار في مرحلة نشوء حركتهم ، وحتى وقت متأخر كانوا يمثلون شيئًا واحدًا ، فالفرق في شيوع التسمية (الشطار) لا يتعلق بجوهر الحركة من حيث تركيبتها وأهدافها . ثم أننا لا نجد تفريقًا جديرًا بالملاحظة لدى المؤرخين وفقهاء اللغة ، يدلنا على أن العيارين والشطار يمثلون فريقين متمايزين اجتماعيًا أوتاريخيًا وأن ذلك التفريق يعتبره بعض المؤرخين غير موفق .

وقعة قصر صالح :

ثار العامة في بغداد في أحداث ١٩٧هـ/ ٨١٢م ضد كبار التجار والأثرياء القواد ، وقد ثار عليهم الشطار لتخاذلهم في نصرة الأمين ، أهل السجون ، وخرجوا منها ، وفتن الناس ، وساءت أحوالهم ، ووثب الشطار على أهل الصلاح(٨٥) والأخيار(٨٦) .

كما وقفت العامة موقفًا صلبًا من حصار طاهر بن الحسين وجنده الأغراب لبغداد ، وقاومت ذلك الحصار . وما كادت جيوش المأمون ترميها بالمجانيق والعراوات ، حتى دب الخراب فيها ، قتلا وهدمًا وحرقًا وتدميرًا(٨٧) ، حتى هرب معظم قادة الأمين ، وتخاذل جنده ، واستأمن بعضهم حفاظًا على أرواحهم. ويصف الطبرى ذلك الموقف قائلاً : خذلت الأجناد ، وتواكلت عن القتال ، إلا باعة الطريق والعراة وأهل السجون والأوباش ، والرعاع والطرارين ، وأهل السوق(٨٨) ، فهؤلاء هم الآفة ، على حد تعبير أصحاب طاهر بن الحسين ، لأنهم

لا يتوانون عـن قتالهم(٨٩) ، حيث عجـز طاهر عن دخول بغداد بسببهم ، فظـل " يقاتلهم لا يحيد عن ذلك ولا يمله ، ولا يني فيه "(٩٠) ، أما العامة فإنها وجـدت الفرصة مناسبة للثأر من خصومها نتيجة الحرمان الذى كبلوها بـه . لذلـك كـانت فى ذلك النظام الاجتماعى القائم على التفـاوت الطبقـى أكثر عزمًا وقـدرة علـى مواصلة القتال من أجل تغيير ذلـك الواقـع ، لأن استمراره لـن يغير مـن حـالتهم المعيشية ، وهم لا يملكون شيئًا يخـافون فقدانـه . مـن هنـا جـاءت استماتتهم فـى القتال والدفاع عن بغداد فى معركة من أشرس المعارك الـتـى وقعـت بـين العيـارين وطاهر بن الحسين ، وهى المعركة التى عرفت بوقعة قصر صالح ، بعد أن استسـلم القائد الموكل بقصر صالح وصاحب شرطة الأمين " وكان مجدًا فى نصرة الأمـين " كما استسلم غيرهم من قبـل " فلمـا استأمن هـذا إلى طـاهر أشفـى الأمـين علـى الهلاك، وأقبلت الغواة من العيـارين وباعـة الطريـق والأجنـاد فـاقتتلوا داخـل قصـر صالح وخارجه قتالاً عظيمًا ، إلى ارتفاع النهار . ولم تكن وقعـة قبلهـا ولا بعدهـا أشد على طاهر وأصحابه منها ، ولا أكثر قتيلاً وجريحًـا مـن أصحـاب طـاهر مـن تلك الوقعة "(٩١) .

وفى هذه الوقعة تعرضت بغداد لتدمير عظيم ، من كلا الجـانبين المتقـاتلين ، كل فى الجانب الذى اعتصم فيه خصمه . كما تعرضت كذلك إلى نهـب كبير . فقد تسابق إلى ذلك كل من الجيشين ، مـرة بـأمر مـن طـاهر بـن الحسين ، قـائد المأمون ، ومرة بأمر من حاتم بن الصقر من قادة الأمـين الـذى أبـاح لهـم النهـب . ومرة من الأمين نفسه ، وقد ذكر لنا المؤرخـون نمـاذج مـن أوامر الأمـين نفسـه ، بحرق الأسواق ، وسلب الناس وسبيهم ، بينما يغرق نفسه فى العبث(٩٢) .

وحدث هناك خلط لدى المؤرخين فى نسبة أعمـال الشـغب والتدمير التـى تعرضت لها بغداد إلى العيارين والشطار ، فى حين أن تلك الأعمال من عادة الجند الذين يفتقدون إلى المسلك الحضارى . وتبين لنا القصيدة التى كـان يرددهـا بعـض فتيان بغداد(٩٣) ، والتى رثى فيها ناظم القصيدة ، بغداد رثـاء مـرًا يفيـض حسـرة

عليها ، كما رثاها شعراء كثيرون ، حتى العيارين أنفسهم رثوها ، وفى هذه القصيدة استنكار عام لما حل ببغداد . وتقع القصيدة فى خمسة عشر بيتًا ، ومن أبياتها :

بكيت دمًا على بغداد فقدت غضارة العيش الأنيق

تبدلنا همومًا من سرور ومن سعة تبدلنا بضيق

أصابتنا(٩٤) من الحساد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق

فقوم أحرقوا بالنار قسرًا ونائحة تنوح على الطريق

وصائحة تنادى واصباحا وباكية لفقدان الشقيق

فلا ولد يقيم على أبيه وقد هرب الصديق بلا صديق

ومهما أنس من شىء تولى فإنى ذاكر دار الرقيق(٩٥)

لقد استخدمت كل الأسلحة لتدمير بغداد الخفيفة منها والثقيلة ، وهذا ما أكدته القصيدة حيث أكدت استخدام المنجنيق ، وهذا ما يبعد تهمة الاشتراك فى تدمير بغداد عن العيارين والشطار ، حيث أن سلاح المنجنيق لا تمتلكه آنذاك إلا الجيوش ، وهى جيوش الأمين والمأمون(٩٦) ، أما العيارون والشطار فإنهم لا يتملكون إلا أسلحة خفيفة أغلبها بدائية وتستخدم للدفاع عن النفس ، حيث يمسك العيار فى اليد اليمنى مطرد(٩٧) ، أو رمح القصب بسن من الفولاذ ، أو مذب من ذنب مكنسة أو مقود لجام . وفى اليد اليسرى مقلاع لرمى القلاع أى الحجارة(٩٨) به أو بارية قد قيدت وحشيت بالحصى والرمال لتعمل عمل الدرقة وتسمى ترسًا(٩٩) .

لم يكتف الجانب المأمونى بتحميل العيارين والشطار مسؤلية تدمير بغداد ، بحكم انحيازهم لجانب الأمين ، وأن دفاعهم عن بغداد هو الذى جلب لها الخراب والدمار . ويتضح ذلك من الحملة الدعائية الارستقراطية التى شنها شعراء المأمون من العيارين ، وقد تجلت تلك الحملة فى ازدراء أصولهم الاجتماعية والاستخفاف بأسلحتهم ولباسهم وتفريغ نضالهم من كل معنى نبيل(١٠٠) .

ولكن الطبرى لم ينسب ما حدث لبغداد إلى العيارين ، بل كان محايدًا حين نسب ذلك إلى اللصوص والفساق ، فقال : " وكان لصوصها وفساقها يسلبون من قدروا عليه من الرجال والنساء والضعفاء من أهل الملة والذمة "(١٠١) .

وليس مصادفة أن الطبرى لم يورد العيارين مع اللصوص والفساق ، حيث أن شيم العيارين تمنعهم من ذلك ، لما امتلكوا من مبادىء أخلاقية وإنسانية(١٠٢)، رغم نعوتهم بنعوت مختلفة حتى وصفوهم بأنهم أولاد الزنا(١٠٣) وأنهم عراة لا سلاح معهم(١٠٤) . ويقول المسعودى فى ذلك : " وثارت العراة ذات يوم ، نحو مائة ألف بالرماح والقصب والطرادات من القراطيس على رؤسها . ونفخوا فى بوقات القصب وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من المحمدية (أتباع محمد الأمين) وزحفوا نحو المأمونية (أنصار المأمون) "(١٠٥) . أن هذا العدد الكبير الذى أورده المسعودى ، دليل أيضًا على تعاطف العامة معهم .

وامتلك العيارون والشطار قدرات متتالية عالية ، أسهمت فى تحقيق الانتصارات على جيوش المأمون ، رغم أنهم لا يستفيدون من مناصرة أحد الطرفين ، أو أن تكون لديهم أية طموحات فى الوزارة أو القيادة أوالاستيلاء على السلطة . ويبدو أن فكرة الدفاع عن بغداد من الهجوم الأجنبى (الخراسانى) ، كانت الوسيلة التحريضية التى اعتمدها الأمين وأتباعه من أجل استغلال الامكانيات البشرية والدفاعية التى يتمتع بها العيارون والشطار(١٠٦) ، وقد نجحوا فى ذلك حتى بعد انسحاب رجال الأمين من حوله .

وبعد أن أخذ الميزان العسكرى يميل لصالح طاهر بن الحسين بدأ طاهر يكاتب التجار ويحذرهم من القبض (الاستيلاء) على ضياعهم وأموالهم(١٠٧) . وبعد ممارسته للضغط والتهديد ، رضخ التجار لذلك التهديد وسلخوا الطاعة عن الأمين وتبرءوا منه ، وأعلنوا الطاعة للمأمون ، الذى بات نصره وشيكًا . وكان من الطبيعى أن يغير التجار من ولائهم ، وتبرءوا من جماعات العيارين والشطار ، حفاظًا على مصالحهم . ولكن الأمين ظل صامدًا لم يستسلم بعد ، ولا تزال حوله بقية من هؤلاء العيارين .

وكان أن مشى تجار الكرخ بعضهم إلى بعض ، بعد أن تأكدوا من تقدم طاهر ، فقالوا : ينبغي أن نكشف أمرنا لطاهر ، ونظهر له براءتنا من المعونة عليه ، فاجتمعوا وكتبوا له كتابًا ينم عن تواطؤ ضد العيارين ، وفيه تبرؤوا من هؤلاء السفلة الذين ليس لهم بالكرخ دور ولا عقار ، وإنما هم بين سواط ونطاف وأهل سجون ، وإنما مأواهم الحمامات ، والمساجد والتجار براء منهم باعة الطريق يتجرون فى محقرات البيوع ، قد ضاقت بهم طرق المسلمين ، وما لنا بهم يدان ولا طاقة ولا نملك لأنفسنا معهم شيئًا . وأن بعضنا يرفع الحجر عن الطريق ، وتخليده السجن ، وتنقيته عن البلاد ، وحسم الشر والشغب ونفى الزعارة والطر والسرق وصلاح الدين والدنيا وحاشى لله أن يحاربك منا أحد(١٠٨) .

وهكذا فإن قطع الشر والشغب فى نظر التجار يتم بالقضاء على المعدمين ، وزيادة تشريدهم بإدخالهم السجن وتهجيرهم عن البلاد . وتتجلى نظرتهم الارستقراطية فى اعتبارهم أن حق المواطنة يتحدد بملكية الدور والعقار ، وتقلد الأعمال التجارية الكبيرة ، حتى أنهم بينوا جشعهم وكشفوا تعاليهم ، حينما تبرؤوا من باعة الطريق ، لأنهم يتجرون فى محقرات البيوع(١٠٩) .

وكشف هؤلاء التجار عن أنفسهم ، فهم بعد أن انقلبت دفة الحرب لصالح المأمون أرادوا أن يتخلوا عن الأمين ، الخليفة الشرعى ، ويتنصلون من هؤلاء الغوغاء والسفلة والعيارين الذين دافعوا عنهم وحموا أموالهم ودورهم ، وكان مقدورهم غير ذلك باعتراف التجار أنفسهم ، الذين لا تزال أموالهم بين أيديهم ، ويخشون ذهابها(١١٠) .

ولم تلبث انتفاضات العامة التى قادها العيارون والشطار أن عادت بعد فترة من الهدوء النسبى ، انصرف فيها العيارون والشطار إلى البحث عن الأعمال ، واقتطاع الأموال من التجار ، رافضين دعوة طاهر بن الحسين للكف عن القتال والاستسلام له . وكان أن دارت معركة فاصلة بين الجانبين فى جزيرة العباس ، انتصر فيها فى أول يوم العيارون على أصحاب طاهر ، وكانوا قد اقتتلوا قتالاً

شديدًا ، فوجه إليهم طاهر أحد أصحابه ، من الذين يمتلكون خبرة عسكرية ، وقتالية ، فأوقع بهم وقعة صعبة وغرق في الصدارة بشر كثير ، وقتل آخرون(١١١) .

وعلى الرغم من أن طاهر بن الحسين بدا واثقًا من الظفر بالأمين ، بعد نتائج المعارك الأخيرة إلا أن العيارين أخذوا يثأرون لأنفسهم ، ويهزمون طاهر وأصحابه، مما اضطر طاهر إلى أن يباشر القتال بنفسه . وقاتل من معه بدار الرقيق فهزمهم ، حتى ألحقهم بالكرخ ، ومر طاهر لا يلوى على أحد " أما الأمين ، فقد خرج إلى مدينة أبي جعفر (بغداد) ، لكن عامة جنده تفرق عنه ، كما تفرق عنه خصيانه وجواريه ، في السكك والطرق لا يلوى منهم أحد على شيء . وتفرق الغوغاء والسفلة "(١١٢) . أن المعارك الشرسة التي دارت رحاها ، بين العيارين وجند المأمون والتي استمرت ما يقرب من أربعة عشر شهرًا ، هي عمر حصار بغداد ، دلت على صلابة هؤلاء العيارين الذين خاضوا حربًا حقيقية ، كانت تدور من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت حتى سميت الوقعات باسم الدروب(١١٣) . ولأجل أن يحسم طاهر بن الحسين المعركة ، فرض حصارًا اقتصاديًا على بغداد ، فقطع عن أهلها الأقوات وغيرها ، من البصرة ، وواسط ، وغيرها من الطرق ، فغلت الأسعار في معسكر الأمين ، وقلت الأقوات " وضاقت النفوس من الفرج ، واشتد الجوع "(١١٤) .

ورغم تلك الأوضاع حارب العيارون بشجاعة فائقة ، حتى أن القتل كان في أصحاب طاهر . وحاول الأمين ، وقد اشتدت به الحال والحصار أن يفي بالتزامات هؤلاء العيارين فأمر بجباية الأموال من الأغنياء والتجار ، ورغم أن العراة (العيارين) خسروا في إحدى معاركهم نحو عشرة آلاف ، إلا أنهم كانوا يقاتلون بشجاعة . منقطعة النظير . لكن ذلك لم يوقف تقدم جيش المأمون الذي أخذ يقتطع الشارع بعد الشارع من بغداد ، حتى أدرك الأمين اليأس . وأخيرًا أيقن بالظفر ، وحدث ذلك فعلاً بعدما قرر طاهر قتل الأمين في منتصف ليلة الأحد ٢٤ أو ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨هـ/٢٥ سبتمبر ٨١٣م . وتم قتل الأمين

ذبحًا، بعد استسلامه واجتزت رأسه ، وحملت إلى طاهر . فسيرها إلى المأمون في خراسان ، فنصبه فى صحن داره ، وأمر جنده الذين أجزل لهم العطاء بلعنه . فافرطوا فى ذلك فكفهم ، وحط الرأس ورده إلى العراق ، فدفن مع جثته(١١٥) .

و لم تنته مقاومة العيارين حتى بعد صيرورة الخلافة إلى المأمون ، وانتهاء الحرب ففي ذى الحجة سنة ١٩٨هـ/يوليه ٨١٤م خرج الحسن الهرش على نائبه فى بغداد، وهو الحسن بن سهل بن زاد ، انفرج ودعا إلى الرضى من آل محمد ، وتبعه سفلة الناس (العامة بزعامة العيارين) وجماعة كثيرة من الأعراب، حتى أتى الليل، فجبى الأموال ، وأغار على التجار ، وانتهب القرى واستاق المواشي(١١٦).

مبادئ حركة العيارين والشطار :

إن الازدهار الاقتصادى الذى حظيت به العراق فى العصر العباسى الأول صحبه نشوء تجمعات فقيرة طحنها غلاء المعيشة ، وفرقها الجهل والتشرد ، وجنها بهارج المدينة من سكان القرى والبوادى ، آملة فى الحصول على أعمال مستحدثه ، أو حتى بقايا الموائد وعطايا السلطان(١١٧) . وشكلت جماعات العيارين والشطار منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ، فئة متميزة من الطبقة العامة ، فى وضع يتسم بالسوء والفوضى السياسية للعوام . وقد استطاعت تلك الجماعات أن تشكل عبر معاناتها الطويلة حركة منظمة ، لها أهدافها الاجتماعية الخالصة . وما تلك الحركة إلا ثورة ضد الأسياد السياسيين ، وضد أسياد المال(١١٨) . فقد استهدف العيارون والشطار فى هجماتهم بيوت الأغنياء ، وكبار التجار وأصحاب الشرطة والمتنفذين(١١٩) .

هدف العيارون والشطار من حركتهم الاجتماعية إلى تحسين أحوالهم وتوسلوا فى ذلك بالنهب والسلب والسرقات ، مستخدمين السلاح ، حيث أنهم ليسوا من أهل الشرور . ولا يعدون اللصوصية ضد الأغنياء جريمة . وإنما يعدونها صناعة ، ويحللونها باعتبار أن ما يستولون عليه من أموال التجار الأغنياء زكاة تلك الأموال أوصى الله بإعطائها للفقراء(١٢٠) . وكانوا يشعرون بأنهم مهملون

من قبل أصحاب النفوذ والسلطة . وأن ظروفهم المعيشية سيئة . لهذا اندفعوا إلى القيام بسرقة الحوانيت والأسواق ، وبيوت الأغنياء . لذا فإن حركتهم تمثل صراعًا طبقيًا ، وقد لاقت حركتهم شعبية كبيرة باعتبارها تدعو إلى تطبيق فكرة العدالة الاجتماعية ، والمساواة والاشتراكية ، والقضاء على التوزيع غير العادل ، وغير المتكافئ للثروة ، ولو بطرق غير مشروعة(١٢١) . فحركة العيارين والشطار لم تكن إلا جزءًا من حركة يمكن وصفها بأنها حركة العامة(١٢٢) .

ويؤكد المؤرخون أن النهج الذى اتخذه العيارون والشطار كان نهجًا ثوريًا ، كما كانت حركتهم عنيفة ضد السلطة القائمة ، وأصحاب الثراء . وهم بهذا يختلفون عن الحركات الأخرى المعادية للسلطة كالصوفية مثلاً(١٢٣) . وتحدثنا المصادر التاريخية والأدبية بأن العيارين والشطار كانوا ينزعون إلى حماية الفقراء وإسعادهم ، بالاستيلاء على أموال الأغنياء وأملاكهم ، وتوزيعها على الفقراء(١٢٤) . وهذا يعنى أن العيارين أخذوا على عاتقهم مهمة إصلاح الخلل الاجتماعى والاقتصادى بالقوة . فخافتهم الطبقة المترفة الثرية وعادتهم(١٢٥) .

يشير الدورى : أن بعضًا من المؤرخين لم يفهموا روح حركة العيارين والشطار فسموهم لصوصًا منحطين(١٢٦) ، ولقبوهم بالزعار والدعار والعياق والسفلة والطرارين والذعار والفجرة والسوقة والنطافين والمغامرين ، وغيرها من التسميات الأخرى . وهذه ما هى إلا تسميات متعددة لجماعات وحدت بينها الحالة الاجتماعية ، فالتجأت إلى العنف والحيلة لتأمين حاجاتها .

ولكننا نلاحظ أن كثيرًا من تلك التسميات ما هى إلا نوع من الوصف الذى وصفه خصومهم به ، وفيه من المبالغة والتشويه الشئ الكثير . وهى فى النهاية تسميات ألصقت بالعيارين والشطار نتيجة الموقف الطبقى الذى اتخذوه من نظام المجتمع ، فكانت صادرة عن موقف طبقى أيضًا(١٢٧) . حيث يقول الديوه جى : " بأن الشطار تبعوا العيارين وأنهم فى الطبقات المنحطة "(١٢٨) .

وطبيعى أن تتعرض حركة العيارين والشطار لسوء الفهم ، وأن ينعتوا بالنعوت المختلفة ، إلا أننا نرى فى وضعهم وفى استمرار حركتهم ، ما يبين أنهم يمثلون حركة اجتماعية ثورية بين العامة نتيجة التباين الاقتصادى ، وسوء الوضع المعاش للعامة ، رغم أن بينهم من أهل الصنايع والحرف والباعة(١٢٩) . وقد استقطبت حركتهم جموعًا كبيرة من المتضررين من السياسة الاقتصادية للدولة ، وتأثرت أسواق بغداد إلى درجة كبيرة من حركتهم ، واستفحل أمرهم وتكاثر عددهم ، وكانوا يستفيدون عادة من الفتن والاضطرابات لتحركاتهم(١٣٠) .

وكانت العناصر المكونة للعيارين والشطار مختلفة ، فبينهم العربى البغدادى، والسوادى ، والكردى(١٣١) ، وفيهم العباسى ، والعلوى ، والسنى(١٣٢) ، وبينهم الموالى من الإحباش والسودان والنوبة والبرابر (البربر) والأفارقة ، والصقالبة (الصقالب) ، والسنود ، والهنود ، والنبط والفرس ، والترك وغيرهم(١٣٣) ، وهذا الخليط من البشر يدل على اتساع حركتهم الاجتماعية واتفاقهم فى القيام بحركتهم الموجهة ضد رجال الحكم والأغنياء ، رغم اختلافهم فى النسب أو المنزلة الاجتماعية . وما كان ذلك إلا نتيجة لما كانت تعانيه عامة بغداد من قلق فى الحياة السياسية والاقتصادية(١٣٤) ، والحالة الاجتماعية للعيارين والشطار كانت تدل على أن تكوين جماعاتهم لم تخضع إلى أسس الانتماء إلى العرب أو الفرس ، أو غيرهم ، بل وحدت بينهم حياتهم المتردية ، وأهدافهم فى التمرد على التجار وذوى السلطان(١٣٥) .

وكانت هناك مجموعات من العيارين والشطار من العاملين فى الأسواق من حمالين وعتالين ، وباعة متجولين ونطار ، وغيرهم من أصحاب الأعمال المؤقتة ، بالإضافة إلى العاطلين عن العمل ، المتسكعين فى أسواق الكرخ ، ودروب بغداد ، وجماعات اللصوص الذين أنهكم البحث عن العمل ، فوجدوا فى سرقة الموسرين طريقًا وحيدًا ، وهؤلاء كانوا أكثر تمركزًا خارج بغداد ، وقد عبر عنهم الغزالى بقوله : " أم اللصوص فمنهم من يطلب عونا ويكون فى يديه شوكة وقوة

فيجمعون ويتكاثرون ، ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التلف عند انتهاز فرصة الغفلة وإما أن يكون طرارًا أو سلالاً ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استباطها "(١٣٦) .

وتميزت ظاهرة العيارة والشطارة بملامح وصفات خاصة ، إذ أضحت للعيارين والشطار تقاليد وآداب ، لابد من مراعاتها شأنهم في ذلك شأن الطوائف والأصناف الأخرى . وكانت لهم رسالة واحدة أزعجت السلطات جميعها . فقد رأت فيهم طوائف خارجة على القانون . ولذلك كانت رؤية التاريخ السياسي إليهم سوداء بوجه عام ، إذ أكد على خروجهم على القانون ، ورأى حركاتهم على أنها انتفاضات غوغائية ، يقودها السفلة ضد الارستقراطية والشرعية . أما رؤية الوجدان الشعبي فكانت شيئًا آخر ، يختلف تمامًا عن رؤية التاريخ الرسمي ، فرأى في حركاتهم عبر إبداعه الشعبي المدون ، والشفوى ، حركات ثورية شعبية، ورأى في أبطالها ثوارًا يستحقون الإعجاب والخلود(١٣٧).

وبعد القضاء على حركات التمرد هذه من قبل العيارين لم تقم لهم بعدها قائمة إلا في وقت متأخر حيث استجمعوا قواهم وجندوا جهودهم وعادوا للظهور مرة ثانية عندما رأوا الأمور لا تسير وفق صالح الطبقات الفقيرة .

العيارون والشطار في عصر النفوذ الأجنبي :

أولاً : في عصر بويه (٣٣٤ - ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ - ١٠٥٥م) :

استطاع بنو بويه وهم من بلاد الديلم ، أن يلعبوا دورًا في التاريخ العربي الإسلامي ، منذ أوائل القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) ، بعد أن تمكن معز الدولة ، من دخول بغداد في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) ، وبسط نفوذ البويهين عليها(١٣٨) .

وأقام بنو بويه فى بغداد أمارة وراثية ، مارسوا من خلالها تسلطًا على الخلفاء ، وعلى عامة الناس . فقاموا بخلع المستكفى ، لاتهامه بالتآمر والاستنجاد بالحمدانيين ، وكانت سياسة بنى بويه مع الخلفاء العباسين تنطوى على إضعاف نفوذهم والاستئثار بالحكم(١٣٩) . وصاروا يتدخلون حتى فى تعيين كاتب الخليفة(١٤٠) .

وهكذا ساء حال الخلافة العباسية ، وأصبح الخليفه لعبة بيد البويهيين . ينصبونه ويعزلونه ، ويلحقون الأذى به ، والاعتداء عليه ، حتى صار الخليفة أشبه ما يكون بالموظف ، يخصص له الأمير البويهى راتبًا . وكانوا يتصرفون حسب مشيئتهم فى تخصيص تلك الرواتب . فقد جعل معز الدولة للخليفة المستكفى خمسة آلاف درهم فى اليوم(١٤١) . ثم خفض ذلك المرتب إلى الفىدرهم يوميًا ، عندما عين المطيع(١٤٢) . وتلقب الحكام البويهيون بلقب أمير ، وأنهم استخلفوا وظيفة أمير الأمراء(١٤٣) . وحكم البويهيون كأجانب ، لا تهمهم شئون الأهلين، ولا يعنيهم إلا الحصول على أكبر ما يمكن الحصول عليه من الوارد بالضرائب ، وبغيرها . وبدل من أن يدفعوا رواتب لجندهم ، ذهبوا إلى إقطاعهم الأراضى والقرى . ويأخذون من وارد ضرائبها بدل الرواتب . وهكذا قامت بداية الإقطاع العسكرى ، إذ أن الأراضى والقرى وزعت بالإقطاع على الجند والقادة ، كما أعطيت نسبة أقل بالضمان لبعض المدنيين(١٤٤) .

ونتيجة للسياسة الزراعية فى العصر البويهى ، قاسى الفلاحون من الضرائب العالية ، ومن قلة الرقابة على الجباة ، ومن تدهور نظام الرى ، رغم ما قام به بعض الأمراء البويهيين من إصلاحات فى العراق ، مثل معز الدولة وعضد الدولة . وكان من آثار إهمال الرى ، حدوث فيضانات متكررة ، أضرت بالزراعة فى السواد .

ومنذ بداية التسلط البويهى على العراق ، تصاعد نشاط العيارين والشطار بشكل واضح ، وكان لهم دور مميز فى إقلاق السلطة الغازية ، وتحدى أجهزتها

وأتباعها من ذوى النفوذ السياسى والاقتصادى(١٤٥) . بالرغم من قساوتها وعنفها .

واستعان ابن شيرزاد (أمير أمراء العراق السابق) بالعيارين والشطار ، على حرب معز الدولة ، " فكان يركب الماء ، وهم معه ويقاتل الديلم "(١٤٦) . ولم تنته هذه الحرب بنصر حاسم لأحد الطرفين . فجنح كلاهما للمصالحة ، واستقر الصلح بينهما فى محرم من سنة ٣٣٥هـ/ أغسطس ٩٤٦م . وهكذا اتحد العرب والأتراك والعيارون ضد بنى بويه منذ الوهلة الأولى(١٤٧) .

واستغل العيارون والشطار موقف السلطة البويهية من الاعتداءات المتكررة من جانب الروم على منطقة الحدود الجزرية والشامية فى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م ، حيث شعروا بتمييع هذه السلطة لحركة الجهاد ضد البيزنطيين(١٤٨) . ففجروا الموقف ضد السلطة البويهية ، حتى اشتد خطرهم منذ أواخر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م، " وعملوا ما أرادوا " وأصبحوا من الكثرة ببغداد بحيث أنهم إذا تحركوا ملكوا(١٤٩) .

ثم تجدد خطر العيارين والشطار عندما هددت قوات أبى تغلب بغداد فى ربيع الآخر سنة ٣٦٣هـ/ يناير ٩٧٤م ، واقتصرت كبسات العيارين على الجانب الغربى(١٥٠) ، الذى كان مفتونًا بينما كان الجانب الشرقى آمنًا . ولم يسكن الأثرياء بعض السكون إلا بعد قبض ابن تقية على جماعة من رؤساء العيارين وقتلهم(١٥١) .

واستفحل أمر العيارين والشطار مرة أخرى فى سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م عندما هاجموا أعوان البويهيين ، " حتى ركبوا الخيل (بالأصل الجند) وتلقبوا بالقواد ، وغلبوا على الأمور وأخذوا الخفارة عن الأسواق والدروب "(١٥٢) . فصارت المكوس والأتاوى تؤدى إليهم ، نظير الحماية والأمن . وبرز منهم قواد أشهرهم ابن كبروية ، وأبو الدور ، وأبو الذباب وأسود الزبد ، وأبو الأرضه ، وأبو النوانح(١٥٣) .

ونشطت حركة العيارين والشطار خلال الأعوام من٣٧٩-٣٨٠هـ/٩٨٩ - ٩٩٠م فى بغداد ، وتحدوا سلطة البويهيين جهارًا نهارًا . وقتلوا من قاومهم وتواترت سطواتهم المعروفة بالعملات والكبسات فى نهب الأموال(١٥٤) .

ويلاحظ أنهم استطاعوا تنظيم أنفسهم فى تلك الفترة ، فاتسعت تنظيماتهم، وأصبحت ذات شكل هرمى ، يترأسه الأمير . ووضعوا شروطًا خاصة للانتماء إليهم . وكان لهم فى كل محلة مقدم(١٥٥) ، ولكل عشرة منهم عريف ، ولكل عشرة عرفاء نقيب ، ولكل عشرة نقباء قائد ، ولكل عشرة قواد أمير(١٥٦). وكان عندهم درجة الرئيس ، حيث كان لكل محلة رئيس وقد يجتمع فيها عدة رؤساء(١٥٧) . ولهم مراسيم معينة وحفلات خاصة لقبول الأعضاء الجدد(١٥٨) .

وفى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م ثار العيارون والشطار بزعامة كبيرهم عزيز البا بصرى وطالبوا السلطة البويهية بإنصافهم وإنصاف الشعب . وعندما شعر البويهيون بخطورة هذه الحركة ، جندوا طاقاتهم لقمعها ، وتصدوا لها بقوة . ويبدو أن هذا الأمر دفع العيارين إلى تجميد بعض نشاطهم بعد هذه الحملة القاسية عليهم(١٥٩) .

وفى سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٢م ، استفاض سعار النهب ، والحرق والقتل ، وتدارك بهاء الدولة الموقف ، فاستناب على العراق أبا على الحسن بن جعفر ، أستاذ هرمز بن الحسن ، الملقب بعميد الجيوش . فأصلح الأمور وقمع المفسدين ، ونفذ حد الحرابة فى بعضهم ومنع الناس من إظهار مذاهبهم(١٦٠) . واستطاع بذلك أن يشل نشاط العيارين والشطار بشكل مؤقت(١٦١) .

وقد استغل العيارون والشطار الظروف المواتية لتحقيق أهدافهم ، فى مواصلة نشاطهم ، وذلك عندما بدأت علائم الضعف على السيطرة البويهية فى بغداد سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م ، فقاموا بمصادرة كثير من الأموال(١٦٢) العائدة للبويهيين وأعوانهم . وازداد نشاطهم بشكل واضح فى عام ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م ،

إذ استهانوا بالسلطة البويهية ، وبالغوا فى التحدى والاستهانة ، حتى أنهم كانوا يسيرون ليلا بالمشاعل والشموع . وبلغ من تحديهم أنهم نهبوا خزائن الحاكم البويهى ، مشرف الدولة ، فضلاً عن أموال التجارة العائدة لرجال السلطة وأعوانها(١٦٣) .

وقوى أمر العيارين فى عهد جلال الدولة أبى طاهر المعتز بن بهاء الدولة (٤١٦ - ٤٣٥هـ/١٠٢٥ - ١٠٤٣م) ، ولا سيما فى النصف الأول من أمارته. وترأسهم ربما للمرة الأولى رجل عربى فاتك من قبيلة تميم المفدية النازلة بالبصرة ، اسمه أبو على البرجمى ، الذى عرف بشدته وشدة أصحابه . وكان على ما يظهر يحمل لقب متقدم (درجة القائد ودرجة الرئيس)(١٦٤) ، ورغم ما حكى عن سطوة هذا القائد وفتكاته ، إلا أنه كان مع هذا فيه فتوة ، وله مروءة ، فلم يعرض إلى امرأة ، ولا إلى من يستسلم إليه(١٦٥) . وإن كان قد أسرف فى نهب الأموال(١٦٦) .

وفى سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م حدث نزاع بين عماد الدولة أبو كاليجار مرزبان بن سلطان الدولة صاحب الأهواز ، وخوزستان وفارس ، وبين عمه جلال الدولة ، حول ملكه بالعراق . وأدى ذلك النزاع إلى اهتزاز هيبة الدولة ، فاستغل العيارون ذلك النزاع ، وأكثروا من نشاطهم فى بغداد . وهكذا تتابعت عملات العيارين ضد سراة أهل بغداد ، ومياسيرهم أثناء الليل ، وأطراف النهار ، فى جرأة متناهية ، دونما خشية من السلطان . حتى بات ظهورهم مصدر هلع وفزع للطبقة الثرية . وللحد من نشاطهم طلبت السلطة فى بغداد منهم ترك البلد . إلا أنهم رفضوا ذلك الطلب ، بل استهانوا بها ، وهاجموا مضارب الجنود الديالمة . فأحرق الجند كثيرًا من الدور التى يحتمى بها العيارون(١٦٧) .

وتصاعد خطر العيارين فى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م بزعامة أبى يعلى الموصلى ، الذى اتخذ عبر خارج بغداد مقرًا له ... فهاجم رجالات الشرطة فى بغداد ، وقتل بعضهم ، وهو يحمل السيوف المسلولة مع رجاله ، فاضطر بعض

أفراد الجيش البويهى إلى نقل خيولهم إلى دورهم . كما نقل الحاكم البويهى جلال الدولة دوابه إلى دار المملكة(١٦٨) . وظل أبو يعلى هذا خارجًا على الحكومة مدة تقرب من ثلاث سنين ، كان يشن خلالها الهجمات ، وفى إحدى الهجمات قتل هو وأتباعه خمسة من " الرجاله وأصحاب المسالح "(١٦٩) .

وفى سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م وسع العيارون نشاطهم ، بقيادة البرجمى حيث سطا وأتباعه على مخازن التجار ودور الأغنياء(١٧٠) . وفى محرم سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م تسلل العيارون إلى دار المملكة ، وأخذوا منها الشئ الكثير ، وواصلوا نشاطهم بزعامة البرجمى ، فقتلوا فى ٤٢٤هـ/١٠٣٣م صاحب الشرطة(١٧١) ، بعد أن تصدى لهم فى هجومهم على أسواق الكرخ . وكبسوا دور الأغنياء مرة أخرى . وأصبح البرجمى شخصية معروفة ومشهورة لدى الناس ببغداد .ومن شدة خوف الناس منه ومن أتباعه ، كانوا إذا دخلوا إلى الدار التى يريدون سرقتها لا يستطيع أحد من الجيران أن يغيث المسروقين مهما استغاثوا . وكانوا لا يتورعون عن سرقة الدار حتى إذا كانت مجاورة لدار المملكة (مقر السلطة البويهية)(١٧٢). وكان البرجمى قد اتخذ له مقرًا فى أجمة بالأجمرية ، يلجأ إليها هو وجماعته(١٧٣) فى حال تحركهم . ولم يرهبه وجود العسكر البويهى ببغداد(١٧٤) ، حيث أصبح من السطوة ، وعقد اتفاقًا مع العامل فى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م ، على أن يأخذ منه فى كل شهر عشرة دنانير ، وأن يسمح له بجعل سفينتين كبيرتين تسيران فى إحدى المواضع ، بدون دفع رسوم عنها ، وأن يقوم البرجمى ، مقابل ذلك ، بحماية ذلك الموضع بدلاً من الحكومة . ولم يكتف بهذا النصر على الحكومة بل واصل هجومه على الجانب الشرقى(١٧٥) من بغداد .

وعندما أرادت السلطات البويهية أن تضع حدًا لتحدى البرجمى لها ، قام الوزير البويهى بمطاردته وعهد إلى محمد ابن النسوى ، رئيس الشرطة بتلك المطاردة . وقلده النظر فى المعونة ، ومنحه لقب الناصح ، واستحجب وخلع عليه، فاستدعى جماعة من العيارين ، فأقامهم أعوانًا ، وأصحاب مسالح(١٧٦) . ليغرى

بقية العيارين بالتخلى عن البرجمى . لكن ما أن قتل أحد أصحاب ابن النسوى ، حتى هرب هو نفسه وترك بغداد تحت سيطرة البرجمى وجماعته(١٧٧) . وازداد التأييد للبرجمى ، وبلغ مداه ، حتى ثار العامة بالخطيب عند خطبة الجمعة فى جامع الرصافة ، ومنعوه من إكمال خطبته ، ورجموا القاضى أبا الحسين العريف الخطيب ، وقالوا : " إما أن تخطب للبرجمى وإلا فلا تخطب لخليفة ولا لسلطان ولا لغيره"(١٧٨) .

وبلغ الأمر بسكان بغداد ، أنهم لم يجرؤا أن يلفظوا اسم البرجمى الصريح ، بل كانوا يكنوه بالقائد أبى على(١٧٩) ، وهذا يظهر مدى كثرة أتباعه ومؤيديه الذين جعلوا الناس فى خوف من أن ينقل قولهم فيه إليه . وصار له فى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م من النفوذ والسيطرة ، ما جعل عمال السلطة البويهية يلتزمون بأوامره وصار يقف على قدم المساواة مع الخليفة العباسى والوزير البويهى(١٨٠) .

وفى نفس السنة ٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م ، أصيبت حركة العيارين والشطار بنكسة كبيرة . وذلك عندما وقع البرجمى فى براثن قرواش أمير بنى عقل ، فى شرك نصبه له على ما يبدو جلال الدولة البويهى ، حيث أن قرواشًا قبض على عامله على مدينة عكبر بشرقى دجلة فى شمال بغداد ، ويدعى ابن القلعى . فجاء البرجمى يتشفع فى إطلاقه ، لمودة بينهما ، فغدر به واعتقله . وافتدى البرجمى نفسه بمال كثير ، فأخذ قرواش الفدية وأغرقه بدل من أن يطلق سراحه(١٨١) .

وقد حاولت السلطة البويهية استثمار مقتل البرجمى لتفتيت حركة العيارين، فأصدرت أمر الأمان لهم ، ودعتهم للتفاوض . وطلب منهم فى اجتماع موسع ، الانخراط فى مؤسسات السلطة ، أو مغادرة البلد . فخرجوا من البلد مؤقتًا(١٨٢)، حتى عادوا وجددوا نشاطهم واستهدفوا أبا محمد ابن النسوى ، الذى أعيد إلى منصبه ، صاحب المعونة ، وأرادوا تأديبه . فاقتحم مائة عيار داره وأحرقوها . كما أجبروه على الاستقالة فى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥ ، فأعيد أبو الغنائم بن أبى على إلى ذلك المنصب(١٨٣) .

والواقع إن قتل البرجمى لم يضعف من شوكة العيارين ، بل دفعهم ذلك لمزيد من النشاط ، حتى أن الحاكم البويهى جلال الدولة ، عجز عن التصدى لهم. وأصبحت بغداد من الناحية الفعلية بأيديهم(١٨٤) . وفى الوقت الذى انحل فيه أمر البويهيين " عظم أمر العيارين، وصاروا يأخذون الأموال ليلاً نهارًا ، ولا مانع لهم، لأن الجند يحمونهم من السلطان ونوابه ، والسلطان عاجز عن قهرهم "(١٨٥) ، حتى أنهم اقتحموا السجن فى سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م ، وفتحوا أبوابه ، وقتلوا سبعة عشر شرطيًا . وفى سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م جدد العيارون والشطار هجومهم على أبى محمد ابن النسوى(١٨٦) .

ومن هذا يتضح أن حركة العيارين والشطار كانت شوكة فى صدر السلطة البويهية ، مما جعلها تبدو جزءًا مهمًا من حركة المقاومة الشعبية للتسلط الأجنبى(١٨٧) على بغداد . والعيارون هم جماعات من عامة بغداد ، لهم أهداف ثورية ، ولم تكن غايتهم اللصوصية والقتل(١٨٨) .

ثانيًا : فى العصر السلجوقى (٤٤٧-٦٥٦هـ/١٠٥٥-١٢٥٨م):

حدث عندما سيطر السلاجقة الأتراك على العراق ، بدخولهم بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م أن قامت الفتن بين جنود الاحتلال ، وعامة الناس ، فنهبت الجيوش السلجوقية الجانب الشرقى من بغداد ، وسيطرت على أحوال الناس(١٨٩). وقد أثارت هذه الأعمال الهمجية ردود فعل عارمة من الغضب بين أوساط الناس ، فهاجموا عسكر السلاجقة ، ووقع القتال بين الطرفين(١٩٠) .

وبدأ السلاجقة فى وقت مبكر تدخلهم فى شئون البلاد ، والتصرف بأمورها ومواردها المالية . لإشباع نهمهم للأموال ، دون مراعاة حرمة الخلافة ، أو الالتفات إلى مصالح الشعب . ولم تلبث موارد العراق المالية ، أن أصبحت تحت سيطرة السلاجقة ، بحيث أن أغلب السلاطين والأمراء السلاجقة كان هدفهم العمل على جباية أكبر قدر من المال ، بأى وسيلة كانت . وهم لا يتورعون عن ارتكاب عشر جرائم من أجل الحصول على دينار واحد(١٩١) .

وكان لسياسة العنف والقسوة التى اتبعها السلاجقة مع عامة الناس ، أثر واضح فى ضعف حركة العيارين والشطار فى بداية الاحتلال السلجوقى . إذ كان الحكام السلاجقة يتعقبون العصاة والخارجين على النظام بشدة(١٩٢) . وعلى ذلك الوجه نرى أخبار العيارين حتى عهد خلافة المستظهر بالله أبى العباس بن المقتدى بأمر الله (٤٨٧ - ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ - ١١١٨م) ، وسلطنة ركن الدولة بركيارق ابن ملكشاة (٤٨٧ - ٤٩٨هـ/ ١٠٩٤ - ١١٠٤م) . وفى ذلك الدور بدأ العيارون والشطار تحركهم ، فى شهر شعبان سنة ٤٩٢هـ/ يونيه ١١٠٠م ، وزاد أمر العيارين ببغداد الغربية ، وعظم خطرهم ، فأمر الخليفة صاحب الشرطة ، كمال الدولة بتأديبهم " فأخذ جماعة من أعيانهم ، وطلب الباقين فهربوا "(١٩٣) .

وفى سنة ٤٩٥هـ/ إبريل - مايو ١١٠١م تدخل العيارون لمنع إحدى الغارات ، من قبل جند السلاجقة ، ومالوا على المغيرين ، فقتلوا أكثرهم . وغرست السياسة العنيفة للسلاجقة تجاه العامة الحقد فى نفوسهم ، والغضب فى قلوبهم ، فكثرت الفتن بينهم فى سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م وكالعادة انتشر العيارون والشطار خلال تلك الفتن ، لمزاولة حرفتهم فى السلب والنهب لدور الأغنياء(١٩٤) .

وعندما توفى السلطان بركيارق بدأ عصر وحدة السلاجقة ينتهى ، وبدأ عصر انقسامهم سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م . وفى هذا العصر أخذت أخبار العيارين والشطار تنتشر بقلة ولكن فى قوة وربما كانت كثيرة وأغفل تدوين معظمها بتوجيه من رجال الدولة لمؤرخى السلطة(١٩٥) .

كان للعيارين والشطار فى الفترة السلجوقية دور نشط . وصارت فى فترة من الفترات قوة يحسب لها الحساب . وتحسنت مقاييسهم الأخلاقية كثيرًا ، وصارت الفتوة مثلهم . فلا نصل إلى أواخر الفترة السلجوقية ، حتى نرى تنظيمات الفتوة هى السائدة والمنتشرة . وتنظيمات الفتوة تركز على القيم الدينية

والخلقية من جهة ، وعلى الفروسية ، وما يتصل بها من جهة أخرى . وهي تنظيمات شعبية ، ولكنها لم تخل من احتكاكات فيما بينها(١٩٦) .

والفتوة أو الفتاء (بالفتح والمد) اسم يطلق على الصبي أو الحدث ، والشاب والصاحب والخادم . ويطلق اسم الفتوة على الذكر والأنثى ، فيقال للرجل فتى ، وللمرأة فتاة . وتطلق الفتوة في العرف على مجموعة من الفضائل ، تميز المتصف به عن غيره ، مثل المروءة والشجاعة ، والصدق ، والوفاء والأمانة والرحمة(١٩٧) . والفتوة في اللغة صفة الفتى ، اشتقت منه كالرجولة من الرجل ، والأبوة من الأب ، والأمومة من الأم ، والأخوة من الأخ ، والأنوثة من الأنثى ، واستعيرت الفتوة منذ أيام الجاهلية للشجاعة واستعير الفتى للشجاع(١٩٨) .

والفتوة بمعناها الفني : في الاصطلاح الإسلامي الدال على جماع الفضائل الخلقية من مروءة ، وشجاعة ، وكرم وضيافة ، ونكران الذات ، وروح التضحية، والإيثار ، وإغاثة الملهوف ، ونصرة صاحب الحق ، ورعاية الضعفاء(١٩٩) . وأنه في اصطلاح العرب عبارة عن صفات محمودة ، اتسم بها الشخص على وجه مخصوص ، وامتاز بها عن أبناء جنسه ، فأوجبت له اسم فتى(٢٠٠) .

وقد انقسم الفتوة إلى نوعين ، وهما الفتوة العسكرية ، التي تضم جماعات الفتيان المحاربين من المتطوعين . والفتوة الصوفية التي تضم جماعات المتصوفة الزاهدة . وأمام المكانة الاجتماعية التي أحرزها أهل الفتوة ، كان طبيعيًا أن يندس في صفوفهم بعض العناصر المشبوهة ، أو الطامعة التي اتخذت من ادعاء الجهاد وسيلة لإشباع رغباتها وأطماعها عن طريق النهب والسلب(٢٠١) .

وجرى تنازع بين أدعياء الفتوة . فالمتصوفون يعتقدون أن فتوتهم في ربطهم وخانقواتهم وتكاياهم ، والشجعان الأسخياء السادرون يظنون أن فتوتهم هي الفتوة العملية الصحيحة ، لكن التطور المادي العملي ، أسرع من التطور الروحاني النظري . فلذلك تغيرت الفتوة إلى غناء وشراب ولهو ومتعة وحرية وتسلط عند الراغبين في الدنيا . وانقلبت الشجاعة المشرفة إلى شطارة وعيارة ، فصارت فتوة

مزيفة . وأصبح الفتيان فى الأمة طبقة مميزة كل التميز ، حتى فى الملابس والكلام(٢٠٢) .

وكان لفظ فتى شائعًا بين العيارين ، فقد تغنى شاعرهم قائلا :

يقول الفتى إذا طعن الطعنة   خذها من الفتى العيار

وهذا يشير إلى أن مدلول الكلمتين ، فتى وعيار ، فى الأصل واحد ، ويدل على أن الفتوة بدأت كحركة اجتماعية للطبقة الفقيرة . وكان لها مبادىء سامية . وأكد ذلك الجوزى من أهل القرن السادس فى فتوة زمانه وفتيانها " وإذا هم من الشجعان الأشرار ، المعروفين بالعيارين . والعيارون يسمون بالفتيان ، ويقولون : الفتى لا يزنى ، ولا يكذب ، ويحفظ الحرام ، ولا يهتك ستر امرأة . ومع هذا لا يتحاشون من أخذ أموال الناس ، ويسمون طريقتهم بالفتوة ، وربما حلف أحدهم بحق الفتوة فلم يأكل و لم يشرب "(٢٠٣) .

نستدل من ذلك أن الفتى فى ذلك العصر ، كان شاطرًا عيارًا ، وأن العيارين والشطار أطلق عليهم وصف الفتيان . وحتى عندما دخل القرن الرابع للهجرة ، ولفظ الفتى ولفظ الفتوة يقابلان أيضًا العيارة والشطارة . وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، نرى أنه كلما ساءت الأحوال السياسية والاقتصادية للدولة ، امتزجت الفتوة بالعيارة والشطارة . وانقلبوا عيارين وشطار ينشرون الاضطرابات ، ويخيفون السبل ، ويقلقون الأمة(٢٠٤) وفى نهاية القرن الرابع الهجرى أصبح تاريخ الفتيان والعيارين واحدًا(٢٠٥) . وكانت السمات السامية التى اتصفت بها الفتوة فى فتراتها السابقة هى نفس الصفات فى تلك الفترة التاريخية . وأكد على صفات الكرم والمجد والجود والعفة والنجدة وكبر النفس وعلو الهمة ، وسائر خصال الفضل والخير(٢٠٦) . وينتظر من الفتيان إطاعة الشريعة ، والرأفة بجميع الناس ، وعدم إيذاء أحد ، وإن حصل اعتداء منهم على أحد وجب تعويضه عما أصابه من ضرر ، واسترضاؤه ، والعفو عمن يسىء إليهم، وأن يتصفوا بالأمانة والصدق ، والتواضع والمحافظة على الوعد . وتذكر

الأخبار فى أمانة ونزاهة الفتيان ، خبر سقاء رفض أخذ دراهم مقابل ما قدمه من ماء لسجين . وتاجر يرفض أخذ ربح على رأس ماله ، لأن ذلك ليس من الفتوة ، وأمثلة بالرفق بالحيوان(٢٠٧) .

وذكر عن أبى الفاتك ، وهو قاضى الفتيان ، أنه قال : " الفتى لا يكون نشالاً ولا نشافًا ولا مرسالاً ولا نكامًا ولا مصاصًا ولا نفاضًا ولا دلاكًا ولا مقودًا ولا مغربلاً"(٢٠٨) .

ومن الصفات السامية للعيارين الفتيان أيضًا ، محافظتهم على شرفهم . فإذا سمع أحدهم عن ابنته أو أخته كلمة زور لا تصح ، وربما كانت من محرض ، عمد إلى قتلها ، وأنهم كانوا يعتبرون ذلك من الفتوة(٢٠٩) .

ولديهم المحافظة على شرف الكلمة . إذ كانوا لا يتنازلون عن كلمة قالوها لإنسان ، حتى وإن تعرضوا فى سبيل ذلك إلى التصادم مع الحكومة . فقد طلب من شاطر أن يسلم إلى السلطان غلامًا كان يخدمه ، فأبى ذلك فضرب ألف سوط إلا أنه استمر على إصراره(٢١٠) .

وحكى أن إنسانًا يدعى الفتوة ، خرج من نيسابور إلى بلده بخراسان ، فدنا منه رجل ومعه جماعة من الفتيان ، فلما فرغوا من أكل الطعام ، خرجت جارية تصب الماء على أيديهم ، فأبى الفتى النيسابورى ، وقال : ليس من الفتوة أن تصب النساء على أيدى الرجال(٢١١) .

إن هذه الأخلاق الفاضلة التى حاول الفتيان العيارون غرسها فى المجتمع البغدادى(٢١٢) وتطبيقها على العامة تدل على سمو تلك الحركة .

ويبين الدكتور محمد رجب النجار عن وجود فريقين من الفتوة حين يقول : " وفى ضوء ما ترويه كتب التاريخ والأدب عن أصحاب الفتوة اللاهية (من العيارين) ، أو الفتوة الصوفية (الزاهدين) ، فإن ثمة تداخلاً واختلاطًا حدث بين

الفريقين ، كان من شأنه أن يوسع القاعدة العريضة ، فيما يمكن أن نسميه بـالفتوة الشعبية ، فانتسب كثير من العيارين إلى طوائف الفتيان . كما أن كثيرًا من الفتيـان سلك سلوك العيارين . ومن هنا ظهر اصطلاح الفتى ، بمعنى العيـار الخـارج على القانون"(٢١٣) .

وكانت الفتوة فى ذلك العصر سريعة الانتشار حيث " أن الشطار يخلو أحدهم بالغلام الغرير ، فيقول له : لا يكون الغلام فتى أبدًا حتى يصادق فتى وإلا فهو تكش . والتكش عندهم الذى لم يؤدبه فتى ولم يخرجه . فما الماء العذب البارد بأسرع فى طباع العطشان من كلمته ، إذا كان للغلام أدنى هوى فى الفتوة وأدنى داعية إلى المنالة (الشطارة)(٢١٤) .

ولقيت الفتوة والعيارة والشطار مقاومة شديدة فى العصر السلجوقى ، من قبل أصحاب السلطة ، لما يعتقدون بإخلالها بالأمن ، ونشرها الفساد ، وإهلاكها العباد أولاً . ولأن السياسة السلجوقية كانت صارمـة قاسية ، فالتجأت ثانية إلى التقـوى بـالدين والاجتماعـات السـرية ، أو التغفليـة ، والاتصـال بالدولـة الفاطمية(٢١٥) .

وتغير الحال فى سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م ، حيث بلغت الفتوة الشاطرة مبلغها منذ أوائل خلافة الخليفة المقتفى لأمر الله العباسى ، وعهد السلطان الفاتك السلجوقى مسعود بن ملكشاه ، وولاية الشريف حسام الشرف أبى الكرم بن محمد الهاشمى آمر الشرطة ببغداد ، إذ ظهر عظم أمر الفتى ابن بكران العيار فى بغداد ، والعراق ، وكثر أتباعه ، وصار يركب ظاهرًا فى جمع من مريديه(٢١٦) .

وإذ كان الخليفة المقتفى إذ ذاك لا أمر له ولا نهى ، فى شئون الدولة العباسية فى حين كان السلطان السلجوقى يعاقر الخمر ليلاً ونهارًا ، ولا يعرف السياسة، لم

يخش الفتيان العيارون من ارتكاب السلب والنهب . وبعد أن دب الضعف فى الدولة، اجتمعت كل جماعة منهم بأمير من أمراء الدولة السلجوقية ، أو ابن وزير، أو كبير، فأخذوا أموال الناس ، ظاهرًا . وكانوا يكبسون الدور بالليل بالشموع ، ويدخلون الحمامات وقت السحر ، ويأخذون ثياب المستحمين(٢١٧) .

وأخذ الفتيان العيارون يزدادون قوة ، بقدر ما كانت الدولة العباسية تزداد ضعفًا . فتكاثرت هجماتهم واعتداءاتهم على المدن العراقية ، وعلى بغداد خاصة ، فكانوا يسلبون عمائم الناس ، ويقتلون من ظفروا به من أتباع صاحب الشرطة ، وينهبون الدكاكين . وصار الناس معهم فى ويل عظيم(٢١٨) .

وقد خفت وطأة الفتيان العيارين بوفاة السلطان السلجوقى مسعود بهمدان سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م ، واستقلال الخليفة المقتفى لأمر الله بالحكم فى العراق ، الذى أخذ ينتهز الفرصة ، فيتقرب إلى هؤلاء الفتيان العيارين ، ويدعوهم للانضمام إليه، حيث كان يدرك قوتهم وتأييد العامة وخضوعهم لأوامرهم . واستطاع أن يجندهم فى الجيش العباسى الذى اعتمد عليه فى محاربة السلاجقة وطردهم من البلاد(٢١٩) .

ومجمل القول ، إن العيارين فى عصر نفوذ السلاجقة ، واصلوا سياستهم فى نهب الأغنياء ورجال المال . وحاربتهم الدولة أكثر من مرة ، دون أن تنال منهم . وأخذ بعض رجال الشحنكية يسرقون باسمهم . بل إن نفرًا من كبار رجال الدولة وأعيانها كانوا على صلة بهم ، ولهم نصيب فيما يحصلون ، إلى أن قطعت الدولة دابرهم . وتاب معظمهم أيام السلطان مسعود . ولما فكرت الدولة العباسية فى الاستقلال عن سلطان السلاجقة ، لجأت إليهم ، فوقفوا إلى جانبها ، وحاربوا معها وعندما أنجحوا مسعاها ، استخدمتهم كمخلب قط فى التمثيل بالمغضوب عليهم من عمالها(٢٢٠) .

هوامش البحث

(١) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، ص ٣٤٢ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٢٤٠ .

(٣) سابر محمد دياب حسين ، قراءة فى أخبار الدولة العباسية ، ص٥٢ .

(٤) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٣٧٢ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٦، ص٢٢٥ .

(٥) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٤ .

(٦) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٣٩٤ .

(٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٣٧٤ .

(٨) فهمى عبد الجليل محمود ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٣٤ .

(٩) عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ، ص٢٩٥ .

(١٠) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٣٢٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٢٢٥ .

(١١) أحمد الشامى ، الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص١٣٤.

(١٢) شاكر مصطفى ، دولة بنى العباس ، ج١ ، ص ٤٣٤ .

(١٣) وفاء محمد على ، صفحات من تاريخ العباسيين ، ص٢٦ .

(14) H. Ibrahim, Islamic and History Culture, P. 122.

(١٥) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٣٧٤ وانظر كذلك :
Sayad Ameer, A Short History of Saracenes, P. 258.

(١٦) محمد الخضرى بك ، تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) ، ص ١٦٠ .

(١٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٠٦ .

(١٨) عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول ، ص٢٩٧ .

(١٩) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٠٦ .

(٢٠) الجهشيارى ، الوزارء والكتاب ، ص٢٩٢ .

(٢١) الطبرى تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٣٧٧ .

(٢٢) وفاء محمد على ، صفحات من تاريخ العباسيين ، ص٢٩ .

(٢٣) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٣٩٩ .

(٢٤) شاكر مصطفى ، دولة بنى العباس ، ج١ ، ص٤٤١ .

(٢٥) قنسرين بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم وبعض يدخل قنسرين في العواصم ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٠٤ .

(٢٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٢٩ .

(٢٧) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٣٢٢ .

(٢٨) عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص١٥٣ .

(٢٩) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص١٩٥ .

(٣٠) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٣٢٣ .

(٣١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤١ .

(٣٢) نبيلة حسن ، تاريخ الدولة العباسية ، ص١٧٩ .

(٣٣) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٣٩٠ .

(٣٤) شاكر مصطفى ، دولة بنى العباس ، ج١ ، ص٤٤٣ .

(٣٥) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٣٩٠ ، وانظر كذلك :
Sayad Ameer, A Short History of Saracenes, p. 258.

(٣٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٢ .

(٣٧) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٢

(٣٨) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤١١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٤ .

(٣٩) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٣٢٤ ;

Shaban, Islamic History, Vol. 2. p. 43.

(٤٠) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٣٢٤ ;
Broklman, History of Islamic People, P. 122.

(٤١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٤ .

(٤٢) شاكر مصطفى ، دولة بنى العباس ، ج١ ، ص٤٤٤ .

(٤٣) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٣٩١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٠ .

(٤٤) فهمى عبد الجليل محمود ، العصر العباسى الأول ، ص٢٣٧ .

(٤٥) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص٣٠٥ .

(٤٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٥٧ .

(٤٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤١٦ - ٤١٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٢٤٨ .

(٤٨) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ص٤٢٣ .

(٤٩) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤١٥ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٤٩ .

(٥٠) فهمى عبد الجليل ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤١ .

(٥١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٣٤ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٦٣ .

(٥٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤١٠ .

(٥٣) العرادات : هى آلات الحصار للرمى بالحجارة والنار ، انظر الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٤٥ .

(٥٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤١٣ .

(٥٥) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، ج٣ ، ص ٣٣٠ .

(٥٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٧١ .

(٥٧) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٧٢ .

(٥٨) مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ج٣ ، ص٣٣٣ .

(٥٩) عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص١٥٤ .

(٦٠) إبراهيم سلمان الكروى ، طبقات مجتمع بغداد ، ص ٨٩ .

(٦١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ص١٦٧ .

(٦٢) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٦٣) الشابشتى ، الديارات ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٦٤) الخطيب البغدادى ، تارخ بغداد ، ج١ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(٦٥) مليحة رحمة الله ، الحالة الاجتماعية فى العراق فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، ص ٥٩ .

(٦٦) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، ج١ ، ص٩٩ .

(٦٧) على إبراهيم حسن ، التاريخ الإسلامى العام ، ص ٥٨٩ .

(٦٨) الجاحظ ، التاج ، ص٤٢ .

(٦٩) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٢ .

(٧٠) سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٢٠ .

(٧١) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص ٩٠ .

(٧٢) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٢٠ .

(٧٣) الهمدانى ، مختصر كتاب البلدان ، ص٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٧٤) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين فى التراث العرابى ، ص ٢٠ .

(٧٥) ابن منظور ، لسان العرب ، ج٥ ، ص ٣٠١ .

(٧٦) الزبيدى ، تاريخ العروس ، ج٣ ، ص ٤٣٤ .

(٧٧) ابن منظور ، لسان العرب ، ج٥ ، ص٣٠١ .

(٧٨) الزبيدى ، تاج العروس ، ج٣ ، ص٤٣٤ .

(٧٩) ينظر مادة عير فى المعاجم اللغوية .

(٨٠) ينظر مادة أشطر فى المعاجم اللغوية .

(٨١) الإصفهانى الأحول ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج٧ ، ص٧٩ .

(٨٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٤١١ ، وانظر كذلك الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٧٨ .

(٨٣) جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، ج٥ ، ص ٥٣ .

(٨٤) إبراهيم سلمان الكروى ، طبقات مجتمع بغداد فى العصر العباسى الأول ، ص ١٠١ .

(٨٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٨٦) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٣ ، ص٥٠٧ .

(٨٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٤٨ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤٠٤ .

(٨٨) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٤٨ .

(٨٩) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٥٧ .

(٩٠) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٤٨ .

(٩١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٥٥ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٩٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٦٣ ، السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٧٦ .

(٩٣) يقصد بعض العيارين .

(٩٤) إصابتها ، انظر السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ .

(٩٥) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٥٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٩٦) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، مجلد ٣ ، ص ٥٠٧ .

(٩٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٦٠ .

(٩٨) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٤٠٧ .

(٩٩) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٥١ .

(١٠٠) محمد نجيب أبو طالب، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص ٢٢٢ .

(١٠١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٥٦ .

(١٠٢) حسين الأمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص٣٢ .

(١٠٣) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص٢٧ .

(١٠٤) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٥٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٢٧٤ .

(١٠٥) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤٠٩ .

(١٠٦) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص٢٢٣ .

(١٠٧) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٦٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٢٧٧ .

(١٠٨) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(١٠٩) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص ٢٢٥ .

(١١٠) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص٣٢ .

(١١١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٤٦٩ .

(١١٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٧٤ .

(113) Sayad Ameer, A short history of the saracenes, p. 260.

(١١٤) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ،ص٤٧٥ ، المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص٤٠٧ .

(١١٥) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص٤٨٨ ، مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ص٣٤١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص٢٨٧ ، المسعودى ، مروج الذهب، ج٣ ، ص ٤١٤ .

(١١٦) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص ٥٢٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص ٣٠١ .

(١١٧) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص ٢١٣ .

(١١٨) عبد العزيز الدورى ، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، ص ٢٨٣ .

(١١٩) حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص٣٣ .

(١٢٠) جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، ج٥ ، ص٥٤ .

(١٢١) نيقولا زيادة ، دراسات إسلامية ، ص٢٣١ .

(١٢٢) عبد العزيز الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى ، ص٧٢ .

(١٢٣) صابر محمد دياب حسين ، قراءة فى تاريخ الدولة العباسية ، ص١٣٢ ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرى ، ص ١٧٠ .

(١٢٤) محمد أحمد عبد المولى ، العيارون والشطار البغاددة ، ص٢٧ .

(125) C. F. The Enscyclopaedia of Islam, New Edition, Vol, Fase 13. E.

(١٢٦) عبد العزيز الدورى ، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، ص ٢٨٤ .

(١٢٧) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص٢١٥ .

(١٢٨) بدرى محمد فهد ، العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، ص٢٨٨ .

(١٢٩) عبد العزيز الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى ، ص٧٧ .

(١٣٠) حمدان عبد المجيد الكبيسى ، أسواق بغداد ، ص ٢٧٦ .

(١٣١) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٨٨ ، الذهبى ، العبر ، ج٣ ، ص١٦١ .

(١٣٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٧ ، ص٢٢٠ .

(١٣٣) محمد أحمد عبد المولى ، العيارون البغاددة فىالتاريخ العباسى ، ص٤٨ - ٤٩ .

(١٣٤) عبد العزيز الدورى ، نشوء الأصناف ، مقال فى مجلة كلية الآداب سنة ١٩٥٩ ، ص١٥٧.

(١٣٥) محمد نجيب أبو طالب ، الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، ص٢٢٧ .

(١٣٦) الغزالى ، إحياء علوم الدين ، ج٣ ، ص١٩٧ .

(١٣٧) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص٣٢٣ .

(١٣٨) عبد النعيم محمد حسنين ، سلاحقة إيران والعراق ، ص١١ .

(١٣٩) محمد حسين الزبيدى ، العراق فى العصر البويهى ، ص ٣٦ .

(١٤٠) عبد العزيز الدورى ، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، ص٢٥٠ .

(١٤١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص٦٣٣ .

(١٤٢) مسكوية ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٨٧ .

(١٤٣) حسين أمين ، العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٢٥ .

(١٤٤) عبد العزيز الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى ، ص ٨٨ .

(١٤٥) خليل إبراهيم السامرائى ، الدولة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ، ص١٦٨ .

(١٤٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٤٥٤ .

(١٤٧) محمد أحمد عبد المولى ، العيارون والشطار البغاددة فى التاريخ العباسى ، ص١١٢ .

(١٤٨) خليل إبراهيم السامرائى ، الدولة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ، ص١٦٨ .

(١٤٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص١٣٠ .

(١٥٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ٦٣٢ .

(١٥١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص ٦٣٢ .

(١٥٢) ابن تغردى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٤، ص١٠٧ - ١٠٨.

(١٥٣) التوحيدى ، الامتاع والموانسه ، ج٣ ، ص١٦٠ .

(١٥٤) الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص١١ .

(١٥٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٧ ، ص١٥٣ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٧٦ ، الذهبى ، دول الإسلام ، ج١ ، ص١٦٩ .

(١٥٦) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص٤٠٣ .

(١٥٧) مسكوية ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص٣٠٥ .

(١٥٨) عبد العزيز الدورى ، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، ص ٢٨٤ .

(١٥٩) الذهبى، العبر ، ج٣ ، ص٢٤ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب، ج٣، ص١٠٦.

(١٦٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص١٧٨ .

(١٦١) طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية ، ص٢٩٨ - ٢٩٩ .

(١٦٢) أبو الفداء ، المختصر ، ج٢ ، ص١٥٠ .

(١٦٣) ابن الجوزى ، المنتظم ،ج٨ ، ص٢٢ ، الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص١٢١، أبو الفداء ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص١٨ .

(١٦٤) حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٣٣ .

(١٦٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٣٩ .

(١٦٦) الذهبى ، دول الإسلام ، ج١ ، ٤٣٩ .

(١٦٧) ابن الجوزى المنتظم ، ج٨ ، ص٢٤ ، أبو الفداء ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٠ .

(١٦٨) ابن الجوزى المنتظم ، ج٨ ، ص٤٤ - ٤٥ و ٥٠ - ٥١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص ٤١٠ .

(١٦٩) ابن المعمار الحنبلى ، الفتوة ، ص٢٨٩ .

(١٧٠) ابن الجوزى ، المنتظم ،ج٨ ، ص ٤٧ - ٥٠ ، الذهبى ، دول الإسلام ، ج١ ، ص١٨٢، الذهبى ، العبر ، ج٣ ، ص١٤١ .

(١٧١) أبو الفداء ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥ .

(١٧٢) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٤٤ .

(١٧٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٨٢ .

(١٧٤) بدرى محمد فهد ، العامة فى بغداد فى القرن الخامس الهجرى ، ص٢٩٤ .

(١٧٥) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٧٦ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٣٧ .

(١٧٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٤٩ .

(١٧٧) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٨٨ .

(١٧٨) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ج٩، ص٤٣٩، الذهبى، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص١٥٤.

(١٧٩) الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٣ ، ص١٥٣ .

(١٨٠) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص١٣٠ .

(١٨١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٣٨ .

(١٨٢) طالب جاسم ، المقاومة العربية ، ص٣٠٢ .

(١٨٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٧٩ .

(١٨٤) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٨٢ .

(١٨٥) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٤٠ ، الذهبى ، دول الإسلام ، ج١ ، ص٢٥٤ .

(١٨٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص٩١ - ١٥١ ، أبو الفداء ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٤٠ .

(١٨٧) طالب حاسم ، المقاومة العربية ، ص٣٠٣ .

(١٨٨) بدرى محمد فهد ، العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، ص٢٩٦.

(١٨٩) صالح رمضان ، مقاومة الخلافة العباسية للتسلط السلجوقى ، ص٤٦ .

(١٩٠) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج٨ ، ص١٦٦ .

(١٩١) صالح رمضان ، مقاومة الخلافة العباسية للتسلط السلجوقى ، ص ٤٨ .

(١٩٢) حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص٩٧ .

(١٩٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١٠ ، ص٣١٠ .

(١٩٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١٠ ، ص٣٧٨ .

(١٩٥) محمد أحمد عبد المولى ، العيارون والشطار البغاددة ، ص١٤٠ .

(١٩٦) عبد العزيز الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى ، ص ٩٤ .

(١٩٧) محمد أحمد عبد المولى ، العيارون والشطار البغاددة ، ص١٦ .

(١٩٨) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلى ، ص٥٠ .

(١٩٩) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص١٤٠ .

(٢٠٠) ابن المعمار الحنبلى ، الفتوة ، ص١٣٠ .

(٢٠١) محمد رجب النجار ، حكايات الشطار والعيارين ، ص ١٤١ .

(٢٠٢) مصطفى جواد ، الفتوة وأطوارها وأثرها فى توحيد العرب والمسلمين ، ص٤٨ .

(٢٠٣) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس ، ص٣٩٤ .

(٢٠٤) عمر رضا كحالة ، دراسات اجتماعية فى العصور الإسلامية ، ص٢٤ .

(٢٠٥) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلى ، ص٣٥ .

(٢٠٦) مصطفى جواد ، الفتوة وأطوراها وآثارها فى توحيد العرب والمسلمين ، ص٥٤ .

(٢٠٧) عبد العزيز الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، ص٨٤ .

(٢٠٨) الجاحظ ، البخلاء ، ص٦٧ .

(٢٠٩) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس ، ص٣٩٤ .

(٢١٠) القشيرى ، الرسالة القشيرية ، ص١١٤ .

(٢١١) أحمد أمين ، الصعلكة والفتوة فى الإسلام ، ص٥٦ .

(٢١٢) بدر محمد فهد ، العامة فى بغداد فى القرن الخامس الهجرى ، ص٣٠٩ .

(٢١٣) محمد رجب النجار ، حكاية الشطار والعيارين ، ص١٥٠ .

(٢١٤) الجاحظ ، الحيوان ، ج١ ، ص١٦٨ - ١٦٩ .

(٢١٥) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلى ، ص٣٨ .

(٢١٦) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلى ، ص٤٢.

(٢١٧) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلى ، ص٤٤ .

(٢١٨) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، ص٢٧٨ .

(٢١٩) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١١ ، ص١٦٠ .

(٢٢٠) مصطفى جواد ، مقدمة كتاب الفتوة ، ص ٤٧ - ٤٨ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأولية :

- **ابن الأثير** : عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد الشيبانى (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م)

الكامل فى التاريخ ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م .

- **الأصفهانى الأحول** :

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، مكتبة الخانجى ومطبعة السعادة القاهرة ١٣٥٥ - ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦ - ١٩٣٧م .

- **ابن تغردى بردى** : جمال الدين أبى المحاسن يوسف الأتابكى (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة .

- **التنوخى** : أبى على المحسن بن أبى القاهر (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)

الفرج بعد الشدة ، الطبعة الأولى ، مكتبة الخانجى بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ، القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م .

- **التوحيدى** : أبو حيان (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)

الإمتاع والموانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار الحياة،بيروت.

- **الجاحظ** : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) .

١ - البخلاء ، تحقيق طه الحاجرى ، دار المعارف بمصر ١٩٥٨م .

٢ - التاج فى أخلاق الملوك ، تحقيق : أحمد زكى ، المطبعة الأميرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٢٢هـ/ ١٩١٤م .

٣ - الحيوان ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، شركة مكتبة ومطبعة البابى الحلبى بمصر ، الطبعة الثانية ، القاهرة .

- **الجهشيارى** : أبى عبد الله بن عبدوس (ت٣٣١هـ / ٩٤٢م)
الوزراء والكتاب ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الأولى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ، القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م .
- **ابن الجوزى** : أبو الفرج عبد الرحمن بن على (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) .
١ - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، المطبعة العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ١٣٥٨هـ .
٢ - تلبيس إبليس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- **الخطيب البغدادى** : أبو بكر أحمد بن على (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)
تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م.
- **ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)**
١ - العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، المعروف بتاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ١٩٥٧م .
٢ - مقدمة ابن خلدون ، مطبعة مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٦١م .
- **الحموى** : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)
معجم البلدان ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٥م .
- **اللهبى** : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ / ١٢٤٧م) .
١ - دول الإسلام ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الطبعة الثانية ، الهند ١٣٦٤ - ١٣٦٥هـ .
٢ - العبر فى خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ١ - ٤ - ٥ ، وتحقيق فؤاد سيد ، ٢ ، ٣ ، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠ - ١٩٦٦م.

- الزبيدى : محى الدين أبو الفيض محمد بن الرزاق (ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م).

تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية بالجمالية القاهرة ١٣٠٦هـ .

- السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) .

تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة .

- الشابشتى : أبو الحسن على بن محمد (ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م) .

الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٥١ .

- الطبرى : أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) .

تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف مصر ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

- ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م) .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، المكتب التجارى للطباعة والنشر ، بيروت .

- الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١م) .

إحياء علوم الدين ، مطبعة البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

- أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .

البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م .

- أبو الفداء : إسماعيل بن على بن محمد

المختصر فى أخبار البشر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت .

- الهمدانى : محمد بن إسحاق بن إبراهيم

مختصر كتاب البلدان ، المكتبة الجغرافية العربية ، تحقيق : ميكال يان دى خوية، مطبعة بريل ، ليدن ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م .

- **ابن الفوطي** : أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م)
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق ، الدكتور مصطفى جواد ، مطبعة الفرات ، بغداد ١٣٥١هـ .

- **القشيري** : أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن النيسابوري (٤٦٥هـ/ ١٣٢٣م).
الرسالة القشيرية ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م .

- **مؤلف مجهول** :
العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، مكتبة المثنى ، بغداد .

- **المقدسي** : شمس الدين أبو عبد الله محمد البشاري (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م)
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، باعتناء ميكال يان دي خوية ، الطبعة الثانية ، مطبعة ، بريل ، ليدن ١٩٠٦ .

- **ابن مسكوية**: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكوية(ت٤٢١هـ/١٠٣٠م)
تجارب الأمم وعواقب الهمم،مطبعة التمدن الصناعية ، القاهرة ١٣٣٣هـ/١٩١٥م.

- **المسعودي** : أبي الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

- **ابن المعمار الحنبلي** : أبي عبد الله محمد بن أبي المكارم (ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)
الفتوة منذ القرن الأول للهجرة إلى القرن الثالث عشر ، تحقيق مصطفى جواد وآخرين ، الطبعة الأولى ، مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٥٨م .

- **ابن منظور** : أبو الفضل جمال الدين محمد مكرم بن منظور الأفريقي المصري الأنصاري (ت ٧١١هـ/ ١٣١٠م) .
لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة .

ثانيا : المراجع الثانوية :

- **أمين** : أحمد (الدكتور)
الصعلكة والفتوة في الإسلام ، دار المعارف للطباعة والنشر بمصر ١٩٥١م .

- أمين : حسين (الدكتور)

تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، منشورات المكتبة الأهلية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م .

- بك : محمد الخضرى :

تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) المكتبة التجارية بمصر .

- أبو طالب : محمد نجيب

الصراع الاجتماعى فى الدولة العباسية ، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس ١٩٩٠م .

- جاسم : طالب

المقاومة العربية ، بغداد ١٩٨٥م .

- جواد : مصطفى (الدكتور)

الفتوة وأطوارها وأثرها فى توحيد العرب والمسلمين ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، العدد الخامس ، بغداد ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م .

- جيرارد زالجر :

الفتوة هى الفروسية الشرقية ، بحث منشور فى كتاب دراسات إسلامية بأقلام مجموعة من المستشرقين ، أشرف على تحرير الترجمة العربية د. نقولاً زياده ، دار الأندلس بيروت ١٩٦٠م .

- حسن : صالح رمضان

مقاومة الخلافة العباسية للتسلط السلجوقى رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ١٩٨٧م .

- حسن : على إبراهيم (الدكتور)

التاريخ الإسلامى العام، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٣م.

- حسن : نبيلة حسن (الدكتورة)

تاريخ الدولة العباسية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٩م .

- **حسنين : عبد النعيم محمد (دكتور)**

دولة السلاجقة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ .

- **حسين : صابر محمد دياب (دكتور)**

قراءة فى تاريخ الدولة العباسية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

- **الدورى : عبد العزيز الدورى (الدكتور)**

١ - نشوء الأصناف والحرف فى الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، حزيران ، سنة ١٩٥٩م ، مطبعة العانى ، بغداد .

٢ - العصر العباسى الأول ، دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٨م.

٣ - دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان، بغداد ١٩٤٥م.

٤ - تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م .

٥ - مقدمة فى الاقتصاد العربى ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٩م .

- **رحمة الله : مليحة (الدكتورة)**

الحالة الاجتماعية فى العراق فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، مطبعة الزهراء ، بغداد ١٩٧٠م .

- **الزبيدى : محمد**

العراق فى العصر البويهى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٩م .

- **زيدان : جرجى**

تاريخ التمدن الإسلامى،مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة.

- **السامرائى : خليل ، وآخرون**

تاريخ الدولة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ١٩٨٨م .

- سيد : أمير على

مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، تعريب رياض رأفت ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٨ .

- الشامي : أحمد (الدكتور)

الدولة الإسلامية في العصر العباسى الأول ، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٦م .

- عبد المولى : محمد أحمد (الدكتور)

العيارون والشطار البغاددة فى التاريخ العباسى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٦م .

- على : وفاء محمد (الدكتور)

صفحات من تاريخ العباسيين، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

- عمر : فاروق (الدكتور)

الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، مكتبة المثنى ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

- فهد : بدرى محمد (الدكتور)

١ - العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

٢ - تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٣م.

- الكبيسى : حمدان عبد المجيد (دكتور)

أسواق بغداد حتى بداية العصر البويهى ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ١٩٧٩م .

- الكروى : إبراهيم سلمان (دكتور)

طبقات مجتمع بغداد فى العصر العباسى الأول ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٩م .

- كحالة : عمر رضا

دراسات اجتماعية فى العصور الإسلامية ، دمشق ١٩٧٣م .

- ماجد : عبد المنعم (الدكتور)

العصر العباسي الأول، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٩م.

- محمود : فهمي عبد الجليل (دكتور)

العصر العباسي الأول ، منهج جديد وتقويم موضوعي ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

- مصطفى : شاكر (الدكتور)

دولة بني العباس ، وكالة المطبوعات ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٧٣م .

- النجار :محمد رجب (الدكتور)

حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي ، الطبعة الثانية ، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، الكويت ١٩٨٩م .

- النجم : وديعة طه (الدكتورة)

الجاحظ والحاضرة العباسية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٦٥م .

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

- ALI, SAYAD AMEER,

A SHORT OF THE SARACENES, LONDON, 1981.

- BROKELMAN : CARL,

HISTORY OF ISLAMIC PEOPLE, LONDON, 1981.

- ENCYCLOBEDIA OF ISLAM, NEW EDITION

HASSAN IBRAHIM

- ISLAMIC AND HISTORY CULTURE

SAUNDERS, J. J.

- A HISTORY OF MEDIEVAL ISLAM, LONDON 1972.

SHABAN, M. A.

ISLAMIC HISTORY A NEW, INTERPRETATION V.2
CAMBRIDGE UNIVRSITY PRESS, BRITAIN 1976.

المساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية

د. إبراهيم بن محمد الحمد المزيني(*)

مقدمة :

حرص الواقفون على المدارس ودور التعليم المختلفة فى كثير من العواصم الإسلامية على توفير كافة احتياجات الطلبة الدارسين فيها ، ومدرسيهم ، وبالأخص المسكن الملائم لهم كى يجد الطلبة والأساتذة الغرباء ، والطلبة الفقراء من أهل البلد المأوى المناسب لطلب العلم . فكان من مستلزمات ومكملات كثير من المدارس إنشاء بيوت ملحقة بها تخصص لسكنى الطلبة والمدرسين ، ويعد هذا الأمر بحق إحدى مفاخر الحضارة الإسلامية ، ومنجزاتها .

ويقصد بهذه المساكن ، أماكن مبيت الطلبة والمعلمين ، ومن يقوم بخدمتهم إضافة إلى ما يتوفر لهم فيها من طعام واغتسال وطبابة ، ومخصصات نقدية تسمى المعلوم . وقد هدف هذا كله إلى تشجيع الطلبة على التفرغ لطلب العلم بحيث لا تشغلهم متطلبات المعيشة ، وأعباؤها الكثيرة عن ذلك .

وقد انتشرت هذه الظاهرة فى كثير من مدارس مصر والشام والعراق ، وأصبحت مرفقًا من مرافقها المهمة والضرورية .

ومما تميزت به المدارس الإسلامية عن غيرها من المنشآت أنه روعى فى تصميمها المعمارى التخطيط لهذه المساكن أو البيوت .

وكان نظام المساكن فى المدارس الإسلامية من مفاخر التعليم الإسلامى حيث ساعد هذا النظام على توفير الجو المناسب للطلبة والمدرسين كى ينقطعوا لطلب العلم بعد أن تكفل مؤسسو المدارس فى الأوقاف التى وقفوها عليها بتوفير ما يلزم المقيمين بها من المأكل والملبس والمسكن بجانب ما يتقاضونه من معاليم

(*) قسم التاريخ والحضارة - كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

شهرية . كما أنها يسرت التعليم للفقراء والغرباء . وقد رصد ابن جبير مشاهداته لهذه المرافق فى دمشق أثناء زيارته لها فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وتحدث عن التسهيلات المغرية لطلاب العلم فى هذه البلاد جميعًا ، ومنها هذه المرافق ، فقال : " ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب ... وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب فى طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها "(١) .

واختلفت نوعية هذه المساكن فى مستواها من مدرسة لأخرى تبعًا لمكانة الوقف الموقوف عليها وما جاء فى حجة ذلك الوقف من شروط وقواعد تحدد أوجه الصرف ومقداره ولذا فإن بعض بيوت الطلاب والمدرسين فاق البعض الآخر فى مستواه من الجودة والاتقان فنالت إعجاب من شاهدها ، ومر بها .

نشأتها :

لم يكن للمساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية ذكر قبل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إذ إن أقدم ما وصلنا عن هذه المساكن ما قام به الإمام أبوحاتم بن حيان السجستانى البستى (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م) الذى اتخذ مسكنًا للغرباء الذين يدرسون عليه من أهل الحديث والمتفقهة ، وجعل لهم الجرايات الواسعة التى ينفقها عليهم من ماله الخاص(٢) .

وبعد ذلك تأتى إشارة المقريزى إلى أنه فى سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨م) أنشأ الخليفة العزيز با لله الفاطمى دارًا للفقهاء بالجامع الأزهر بإشارة من وزيره يعقوب ابن كلس وأنها خصصت لإقامة خمسة وثلاثين من فقهاء الشيعة ، وأجرى عليهم الأرزاق التى تكفى لكل واحد منهم(٣) .

كذلك الحال بالنسبة للمدرسة العوفية التى أنشأها الخليفة الفاطمى الحافظ سنة ٥٣٢هـ(١١٣٧م) إذ أنها اشتملت على بيوت للطلبة(٤) . ثم أعقب ذلك

النشاط الذى قام به الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسى حينما أنشأ النظاميات العشر فى كل من العراق ، وبلاد فارس ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) إذ إنه قام بإلحاق مثل هذه المساكن ببعض تلك المدارس(٥) .

واشتهرت المدرسة المستنصرية(٦) ببغداد بما ألحق بها من بيوت لأهل العلم، وفيها وصلت المساكن إلى أرقى ما عرف من هذا النوع فى العراق خلال القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) حيث اشتملت تلك المساكن على مستشفى خاص لعلاج الطلاب ، ومطبخ عام يقدم لهم الطعام بالمجان وحمام ، و لم يكن هذا معروفًا فيما سبق من المدارس(٧) . وهكذا انتشر نظام المساكن الداخلية مع انتشار المدارس الإسلامية وتطور بتطورها .

وفى هذا المقام أجدنى أخالف من ذكر أن المساكن الداخلية أول ما وجدت نشأت فى رحاب الجامع الأزهر ثم انتقلت منه إلى بقية المدارس فى العالم الإسلامى مثلما ذكر الأستاذ / أحمد شلبى(٨) .

تطور المساكن وانتشارها :

لم يكن وجود المساكن الداخلية لإيواء أهل العلم وبخاصةالغرباء قاصرًا على المدارس ، فقد وجد مثل هذه المساكن فى كثير من الجوامع والمساجد النشطة فى حركة التعليم فى الديار الإسلامية . وقد تحدث ابن جبير عن كثير من هذه المساكن فى الديار المصرية أثناء مروره بها فى العهد الأيوبى ، فقال وهو يصف مسجد ابن طولون : " وهومن الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان ، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه ، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر"(٩) ، ويضيف قائلاً عن مآثر صلاح الدين الأيوبى فى مصر: " وما منها جامع من الجوامع ، ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال"(١٠).

أما الجامع الأزهر فقد استقبل منذ إنشائه أفواج الطلاب من داخل مصر وخارجها ومن كافة الأقطار الإسلامية وكان كثير من هؤلاء الطلاب يلازمون الإقامة فيه ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، وتحمل إليهم الأطعمة والخبز والحلوى بانتظام .

وفى عصر المماليك زاد إقبال الطلبة من داخل مصر وخارجها على الدراسة فى الأزهر بعد أن زال عنه طابعه الشيعي ودعا هذا الأمر إلى اتخاذ أروقة الجامع مساكن يأوى إليها الطلبة المصريون والطلبة الغرباء(١١) ، ويذكر المقريزى أن عدتهم فى سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) بلغت سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالعة ، ومن ريف مصر والمغاربة(١٢) .

أما عن المساكن الداخلية فى دور الحديث ، فقد وردت إشارة إليها فى حديث ابن كثير عن دار الحديث الأشرفية بدمشق فقال : " وقد كانت دار الحديث الأشرفية دارًا لهذا الأمير - يعنى صارم الدين قايماز المتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م) - وله بها حمام ، فاشترى ذلك الملك الأشرف فيما بعد وبناها دار حديث وأخرب الحمام ، وبناه مسكنًا للشيخ المدرس بها "(١٣) ، وهذا النص يؤكد وجود مثل هذه المساكن فى دور الحديث لمدرسيها ، وأنه لم يقتصر وجودها على المدارس .

ومثل هذه المساكن كانت موجودة أيضًا فى الخوانق والربط . وفى ذلك ما ورد عن خانقاه سرياقوس التى أنشأها السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٤م) لتكون مقرًا لإقامة طلبة العلم والمتصوفة(١٤) .

أما المدارس ، فكانت السكنى فيها من الأركان الأساسية للمدرسة الإسلامية ، ويشير إلى ذلك ما ذكره صاحب الحوادث الجامعة عن المدرسة المستنصرية ، وأن هذه المدرسة قسمت أرباعًا ، فسلم ربع القبلة الأيمن للشافعية ، والربع الثانى يسرة القبلة للحنفية ، والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة ، والربع الرابع يسرة الداخل للمالكية ، وأسكنت بيوتها وغرفها وأجريت لهم الجرايات .

الوافرة ، وكان بكل بيت يسكنه فقيه البساط والمنارة والنحاس ، وكـان بالمدرسة حمام تتوافر فيه حاجياته .

وهكذا غدت المساكن الداخلية فى المدارس شيئًا أساسيًا ، ومن متطلباتها الضرورية ، حتى ذكر العماد الأصفهانى عنها ما نصه : " وسكن المدرسة النظامية ببغداد من جملة الشريعة رجالها "(١٥) ، والواقع أن المدرسة المستنصرية ببغداد بلغت فيها المساكن الداخلية غاية فى الفخامة والجودة ، وكـان المحلقون فيها من الطلاب والمدرسين ينعمون بسخاء الخليفة وكرمه فى الإنفاق عليهم ، يقول ابن العبرى عن ذلك : " إن المدرسة المستنصرية لم يعمر الدنيا مثلها "(١٦) .

أما المساكن الداخلية فى بلاد الشام فإنها تعد مرفقًا مهمًا من مرافق مدارسها ودور التعليم المختلفة فيها ، وبخاصة فى العهدين الزنكى والأيوبى عندما نشطت حركة التعليم نشاطًا لم تشهد له بلاد الشام مثيلاً من قبل . وتعد المدرسة النورية الكبرى بدمشق وما احتوته من مساكن نموذجًا صادقًا لذلك .

وقد حدثنا ابن جبيرحديثًا ممتعًا وهو يصف إحدى مدارس حلب وما ألحق فيها من مساكن فقال : " ويتصل به - يعنى الجامع الكبير - من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنًا وإتقان صنعة ، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى . وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مفتح كله بيوتًا وغرفًا ولها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش مثمر عنبًا ، فحصل كل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليًا أمامها ، فيمد الساكن فيها يده ويجنيه متكئًا دون كلفة ولا مشقة "(١٧) .

أما المدارس المصرية فى العهدين الأيوبى والمملوكى ، فقد شهدت تطورًا كبيرًا فى هذا الشأن ، وكانت مثالاً للفخامة والاتساع ، والعناية الفائقة حيث اشتهرت مجموعة منها بجودة مساكنها أكثر من غيرها ، فالمقريزى يصف التشاحن والتنافس بين الطلبة فى سكنى المدرسة الصاحبية البهائية التى أسسها الوزير

الصاحب على بن حنا سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)(١٨) ، بما أعد لإقامة الطلاب فيها ، بل ربما أقام الطالب منهم مشاركًا غيره فى البيت نفسه . يقول عنها المقريزى : " وكانت من أجل مدارس الدنيا ، وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها ويتشاحنون فى سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة "(١٩) .

وتفيد هذه العبارة الأخيرة أن الغرفة الواحدة كانت مخصصة فى الأصل لطالب واحد إمعانًا فى توفير الهدوء والراحة لطالب العلم ، ولكن فى أوقات الزحام يمكن أن يسكن فى البيت الواحد إثنان أو ثلاثة . ولعل فى هذا كناية لما وفرته هذه المساكن من راحة ورفاهية للطلاب لكى يتمكنوا من مواصلة دراستهم بطمأنينة وراحة بال .

أما المدرسة الظاهرية التى أنشأها السلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م) فقد ذكر المقريزى عنها أن " للناس فى سكناها رغبة عظيمة ويتنافسون فيها تنافسًا يرتفعون به إلى الحكام "(٢٠) .

ومن ذلك أيضًا ما يرويه المقريزى من أن الشيخ جلال الدين البنانى الحنفى كان يدرس فى مدرسة الجاى التى أنشئت فى القاهرة سنة ٧٦٨هـ (١٣٦٧م) ويضيف إلى ذلك أنها كانت سكنًا له "(٢١) . ويقول فى الخطط أيضًا أن مدرسة مغلطاى الجمالى التى بنيت سنة ٧٣٠هـ (١٣٣٠م) كانت من أجل مدارس القاهرة ، وكان يسكنها أكبر فقهاء الحنفية(٢٢) .

وهذه المساكن تختلف فى جودتها وإمكانياتها من مدرسة لأخرى ، إذ اشتهرت كثير من المدارس بجودة مساكنها ، وانعكس ذلك على إقبال طلبة العلم عليها ، ونشاط الحركة التعليمية فيها ، كما حدث فى المدرسة الحلاوية بحلب التى تميزت بجودة مساكنها فشهدت إقبالاً كبيرًا عليها .

ولم تكن المساكن الداخلية مقصورة على الطلبة فحسب وإنما ضمت غيرهم من العلماء والمدرسين إذ يذكر ياقوت الحموى أن الشاعر محمد بن إسحق الزوزنى

(ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) كان يسكن مدرسة السيورى بباعذرا (محلة بنيسابور) وكان يسكن بها أيضًا جماعة من الأئمة(٢٣) .

ولما وصل ابن ظفر الصقلى (ت ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م)(٢٤) ، إلى المشرق الإسلامى ودخل حلب أقام فى مدرسة ابن أبى عصرون ، وظل بها حتى وقعت فتنه بين السنة والشيعة بحلب فخرج منها إلى حماة(٢٥) .

كذلك أقام الإمام أثير الدين أبو حيان الغرناطى النحوى الكبير بعد قدومه إلى القاهرة بالمدرسة الصالحية بها(٢٦) .

ومما يشار إليه هنا أنه لم يكن من الضرورى أن يقيم المدرس بالمدرسة التى يتولى التدريس فيها ، فقد يكون سكنه فى مدرسة ، وهو يدرس بأخرى . من ذلك ما ذكره ياقوت الحموى عن أسعد بن مسعود العتبى وأنه له مجلس إملاء فى جامع المنيعى بنيسابور ويسكن فى مدرسة البيهقى(٢٧) .

الخدمات المتوافرة فى المساكن :

كان الساكنون فى المساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية ينعمون إلى جانب إقامتهم فى هذه المساكن بخدمات متعددة ومتنوعة ، وهى خدمات تختلف من مدرسة إلى أخرى تبعًا لظروف أوقافها ، وشروط واقفيها ، كانت أبرز تلك الخدمات تتمثل فيما يلى :

١ - الجرايات أو الرواتب :

كان يقدم للطلبة فى السكن الداخلى المعاليم أو الرواتب الشهرية .

٢ - الطعام واللباس :

كما أنه كان يقدم لهم الطعام الذى يعد فى مطابخ خاصة داخل المدارس يقوم به طهاة مختصون ، وكثيرًا ما تشير وقفيات المدارس إلى كثير من الأطعمة التى توفر للطلاب الساكنين فيها . فهذه حجة السلطان حسن بن قلاوون تشير إلى أنه كان يقدم لطلاب السكن الداخلى " خبز ، وأرز ، وعسل ، وحبوب ، وحب رمان ، وغير ذلك "(٢٨) .

كما كانت توفر الألبسة لساكنى المدارس طيلة مدة إقامتهم(٢٩) .

٣ - الرعاية الطبية :

لم يهمل مؤسسو المدارس الرعاية الطبية الشاملة للمدرسين والطلبة ومن معهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة سواء كانوا من المقيمين فيها أو فى خارجها. فهذه المدرسة المستنصرية ببغداد كان من شروط وقفها أن يكون فيها طبيب يطبب من يعرض له مرض من أرباب هذا الوقف ، ويعطى المريض ما يوصف له من أدوية وأشربة وغير ذلك(٣٠) .

كذلك جاء فى حجة السلطان حسن بن قلاوون أن يرتب الناظر (ناظر الوقف فى المدرسة طبيبين يتناوبان فى الحضور إلى المدرسة يوميًا " يداوى من يحتاج إلى المداواة من أرباب الوظائف والطلبة المقيمين بالأماكن ومن يحضر إليها من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس له سكن ، ويتوجه إليه الطبيب فى مكان إقامته ولا يكلف المريض الحضور إلى الطبيب "(٣١) .

٤ - الحراسة والنظافة والإنارة :

لم يكن الدخول والخروج من المساكن الداخلية يتم عشوائيًا ، بل كان يتم وفق نظام دقيق وضعه القائمون على هذه المساكن حيث كان هناك حرس يلازم باب المدرسة لصيانتها ، وحفظ ما فيه من أثاث ومتاع ، ولمراقبة الداخلين إليها والخارجين منها ، وقد أعطى صلاحية لمنع من لا يقيمون فيها أو غير المرغوب فيهم من الدخول إليها ، ويشير المقريزى إلى أنه على البواب أن " لا يُمكن غريبًا يصعد إليها "(٣٢) ، وعلى البواب أن يكون يقظًا أمينًا ، ولا يترك الباب إلا لعذر على أن يستخلف من يقوم مقامه فى حال غيبته(٣٣) .

أما الفراشون فكانوا يتولون عملية تنظيف المدرسة ومساكنها الداخلية ، من كنس ورش وتنظيف الفرش ونفضها ، وكثيرًا ما كانت تلك الأعمال توزع بينهم بالتناوب . كما كان هناك القومة الذين يتولون الإشراف على إنارة المدرسة ومساكنها الداخلية وتعمير القناديل للطلبة ، وعمل الصيانة لها من المسح والتنظيف(٣٤) .

شروط المساكن وآدابها :

يذكر هنا أن السكنى فى هذه المساكن لم يكن يتم عشوائيًا دون تنظيم ، ومراقبة ، وإنما كان يتم فى الغالب وفق ضوابط وترتيبات دقيقة يضعها ويشرف عليها القائمون على هذه المساكن ، حيث وضع بعض الواقفين للمدارس شروطًا لساكنى بيوتها كأن يكون مثلاً أعزباً غير متزوج ، وألا يبيت خارجها إلا أيامًا معدودات يحدد الواقف عددها ، إلى غير ذلك من الشروط والضوابط .

وقد حرص الفقهاء المسلمون من خلال كتاباتهم عن هذه الآداب والشروط كابن جماعة مثلاً على تحديد العلاقة بين الطلبة والمدرسين الساكنين فى المدرسة ، والمحافظة على مبناها وصيانته ، والحفاظ على سمعة المدرسة ، ومن ينتمى إليها أو يسكن فيها ، وذلك من خلال مجموعة آداب وشروط فرضوها على من ينوى السكن فى مثل هذه المساكن .

وقد وضعت تلك الشروط والقواعد لتنظيم السكن فى تلك المساكن بشكل دقيق ، بحيث تراعى حالة السكن الصحية ، واختيار المكان الملائم ، كما تراعى المستوى الأخلاقى للطلبة عند اختيار أماكن سكناهم بالمدرسة مما يضمن حسن العلاقة بين جميع الساكنين(٣٥) .

من ذلك ما ورد فى وثيقة مدرسة السلطان برقوق بالقاهرة إذ نصت على " أن يكون من هو ساكن بهذه المدرسة من الطلبة الصوفية وأرباب الوظائف منهم، عزبًا غير متزوج ، وأن يبيت بها ، ويسامح بالمبيت خارجها خمس ليال من كل شهر "(٣٦) .

ولا زالت أنظمة المعاهد الداخلية فى عصرنا تسير على هذا النمط ، فتسمح للطالب بالمبيت خارج السكن لبضعة أيام فى الشهر ، وذلك لزيارة الأهل أو قضاء بعض الحاجات أو للنزهة أو للترويح عن النفس ، وتغيير جو المدرسة الرتيب ، إلى غير ذلك من الاعتبارات التى كانت واضحة لدى واقفى المدارس الإسلامية(٣٧) .

أما إذا أراد أحد الساكنين بالمدرسة الزواج ، فكان يسمح له بترك مسكنه بها ليحل محله أحد العزاب . كذلك كان لا يسمح لأحد الساكنين الجمع بين بيتين ، ويستثنى من ذلك المدرسون إذ كان يسمح لهم وعائلاتهم بالإقامة فى مساكن المدرسة .

واستحب الفقهاء من ساكنى المدارس أن يبادروا بإخلاء مساكنهم حين يبلغون غايتهم من تحصيل العلم ليتيحوا لغيرهم من الطلاب فرصة الإقامة بها . قال ابن جماعة فى ذلك : " واللبيب المحصل يجعل المدرسة منزلاً يقضى وطره منه ثم يرتحل عنه ... فإن المدارس وأوقافها لم تجعل لمجرد المقام والعشرة ولا لمجرد التعبد بالصلاة والصيام كالخوانك ، بل لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له، والتجرد عن الشواغل فى أوطان الأهل والأقارب "(٣٨) .

وقد يشترط الواقفون أن يسكن بيوت المدرسة فقط المرتبون بها دون غيرهم لذا ، فقد ذكر ابن جماعة أنه : " إذا حصر الواقف سكنى المدرسة على المرتبين بها دون غيرهم لم يسكن فيها أحد غيرهم "(٣٩) .

وكانت هناك تنظيمات وآداب تتعلق بسكنى المدارس . طالب المشرفون من يسكنها الالتزام بها ، وقد حافظت تلك الآداب على حرمة المدارس ومساكنها ومكنت القائمين فيها من أداء وظائفهم على أكمل وجه . ويذكر ابن جماعة بعض هذه الآداب فيما يلى : -

- أنه إذا حصر الواقف سكنى المدارس على المرتبين بها دون غيرهم لم يسكن فيها غيرهم فإن فعل كان عاصيًا ظالمًا بذلك ، وإن لم يحصر الواقف ذلك فلا بأس إذا كان الساكن أهلاً لها(٤٠) .

- وإذا سكن فى المدرسة غير مرتب بها فليكرم أهلها ، ويقدمهم على نفسه فيما يحتاجون إليه منها ويحضر درسها لأنه أعظم الشعائر المقصودة ببنائها ووقفها لما فيه من القراءة والدعاء للواقف والاجتماع على مجلس الذكر وتذاكر

العلم فإذا ترك الساكن فيها ذلك فقد ترك المقصود ببناء مسكنه الذى هو فيه . وذلك يخالف مقصود الواقف ظاهرًا(٤١) .

- ومن الآداب لزوم حضور الدرس ، فقد ذكر ابن جماعة أن الساكن فى المدرسة إن لم يحضر الدرس لزمه الغياب عنها وقت الدرس لأن عدم حضوره الدرس مع وجوده داخل المدرسة من غير عذر فيه إساءة أدب وترفع على الطلاب واستغناء عن فوائدهم واستهتار بجماعتهم ، وإن قدر له الحضور فى المدرسة فى حال انعقاد الدروس ، فإنه يلزمه عدم الخروج من بيته إلا لضرورة ، ولا يتردد إليه مع حضورهم ولا يدعو إليه أحدًا أو يخرج منه أحدًا ، ولا يتمشى فى المدرسة أو يرفع صوته بقراءة أو تكرار أو بحث رفعًا منكرًا أو يغلق بابه أو يفتحه بصوت ونحو ذلك لما فى ذلك كله من إساءة الأدب على الحاضرين والحمق عليهم(٤٢).

- ومن الآداب ألا يشتغل فيها بالمعاشرة والصحبة ويرضى من سكنها بالسكة والخطبة بل يقبل على شأنه وتحصيله وما بنيت المدرسة له(٤٣) .

واللبيب المحصل يجعل المدرسة منزلاً يقضى وطره منه ، ثم يرتحل عنه فإن صاحب من يعينه على تحصيل مقاصده ويساعده على تكميل فوائده وينشطه على زيادة الطلب ويخفض عنه ما يجد من الضجر والنصب ممن يوثق بدينه وأمانته ومكارم أخلاقه فى مصاحبته فلا بأس بذلك بل هو حسن إذا كان ناصحًا فى الله غير لاعب ولا لاه(٤٤) .

- وليكن له أنفة من عدم ظهور الفضيلة مع طول المقام فى المدارس ومصاحبة الفضلاء من أهلها وتكرر سماع الدروس فيها وتقدم غيره عليه بكثرة التحصيل ، وليطالب نفسه كل يوم باستفادة علم جديد ، ويحاسبها على ما حصله فيها ليأكل مقرره فيها حلالاً(٤٥) .

- ويلزم على الساكنين فى هذه المدارس مراعاة أصولها وسبب بنائها ، فإن المدارس وأوقافها لم تجعل لمجرد المقام والعشرة ، ولا لمجرد التعبد بالصلاة والصيام

كالخوانك بل لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له والتجرد عن الشواغل فى أوطان الأهل والأقارب . والعاقل يعلم أن أبرك الأيام عليه يوم يزداد فضيلة وعلمًا ويكسب عدوه من الجن والإنس كربًا وغمًا(٤٦) .

- ومن الآداب المشهورة أن يلزم أهل المدرسة التى يسكنها بإفشاء السلام وإظهار المودة والاحترام ، ويراعى لهم حق الجيرة والصحبة والأخوة فى الدين والحرفة لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه .

ويتغافل عن تقصيرهم ويغفر زللهم ، وستر عوراتهم ويشكر محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم .

فإن لم يستقر خاطره لسوء جيرتهم وخبث صفاتهم أو لغير ذلك فليرتحل عنها ساعيًا فى جمع قلبه واستقرار خاطره وإذا اجتمع قلبه فلا يتنقل من غير حاجة، فإن ذلك مكروه للمبتدئين جدًا(٤٧) .

- ومن آداب سكنى المدارس اختيار من يجاوره ، وأن يتخير إن أمكن أصلحهم حالاً ، وأكثرهم اشتغالاً وأجودهم طبعًا وأصونهم عرضًا ليكون معينًا له على ما هو بصدده(٤٨) .

وتوزيع المساكن حسب الأعمار والقدرة أمر اهتمت به المساكن الإسلامية إذ جعلت المساكن العالية لمن لا يضعف عن الصعود إليها ، وأما الضعيف والمتهم ومن يقصد الفتيا والاشتغال عليه فالمساكن السفلية أولى بهم(٤٩) .

والمراقى التى تكون قريبة من الباب أو من الدهليز أولى بالموثوق بهم أما المراقى الداخلة التى يحتاج فيها إلى المرور بأرض المدرسة أولى بالمجهولين والمتهمين(٥٠) .

والأولى ألا يسكن المدرسة وسيم وجه أو صبى ليس له فيها ولى فطن وألا يسكنها نساء فى أمكنة تمر الرجال على أبوابها أولها كوى تشرف على ساحة المدرسة . وينبغى للفقيه ألا يدخل إلى بيت من فيه ريبة أو شر أو قلة دين ولا

يدخل إليه من يكرهه أهلها أو من ينقل سيئات سكانها أو ينم عليهم أو يوقع بينهم أو يشغلهم عن تحصيلهم ولا يعاشر فيها غير أهلها(٥١) .

وإذا سكن فى البيوت العليا خفف المشى والاستلقاء عليها ووضع ما يثقل كيلاً يؤذى من تحته . وإذا اجتمع اثنان من سكان العلو أو غيرهم فى أعلى الدرجة بدأ أصغرهما بالنزول قبل الكبير ، والأدب للمتأخر أن يلبث ولا يسرع فى النزول إلى أن ينتهى المتقدم إلى آخر الدرجة من أسفل ثم ينزل ، فإن كان كبيرًا تأكد ذلك وإن اجتمعا فى أسفل الدرجة للطلوع تأخر أصغرهما ليصعد أكبرهما قبله(٥٢) .

وألا يتخذ باب المدرسة مجلسًا بل لا يجلس إذا أمكن إلا لحاجة أو فى ندرة لقبض أو ضيق صدر ولا فى دهليزها المهتوك إلى الطريق ، فقد نهى عن الجلوس على الطرقات ، وهذا منها أو فى معناها لا سيما إن كان ممن يستحيا منه أو ممن هو فى محل تهمة أو لعب ، ولأنها فى مظنة دخول فقيه بطعامه وحاجته فربما استحيا من الجالس أو يكلف سلامه عليهم ، وفى مظنة دخول نساء من يتعلق بالمدرسة ، ويشق عليه ذلك ويؤذيه ولأن فى ذلك بطالة وتبذلاً(٥٣) .

وألا يكثر التمشى فى ساحة المدرسة بطالاً من غير حاجة إلى راحة أو رياضة ، أو انتظار أحد ، ويقلل الدخول والخروج ما أمكنه . ويسلم على من بالباب إذا مر به(٥٤) .

وهذه التوصيات فى اختيار غرف السكن ونوعية الساكنين ، وأسلوب الدخول والخروج من وإلى المساكن تؤكد حرص الفقهاء والمربين المسلمين على راحة الساكنين وملاحظتهم الدقيقة للفروق الفردية بينهم من النواحى الجسمية والعقلية والاجتماعية والنفسية والسلوكية بشكل عام .

* * *

ولم تغفل آداب سكنى المدارس عن الإشارة إلى جملة من الآداب المتعلقة بالمحافظة على متعلقات المسكن وحاجياته ، وصيانة المبانى المدرسية وتجهيزاتها ، انطلاقًا من أنها مؤسسات خيرية عامة رصدت للصالح العام . من ذلك ما ذكره ابن جماعة بأنه يجب على الساكن ألا يدخل ميضأتها(٥٥) العامة عند الزحام من العامة إلا لضرورة لما فيه من التبذل ، ويتأنى عنده ، وطرق الباب أن كان مردودًا طرقًا خفيفًا ثلاثًا ثم يفتحه بتأن ، ولا يستجمر بالحائط فينجسه ولا يمسح يده المتنجسه بالحائط أيضًا(٥٦) .

ومنها ألا يتوضأ من الفسقية لأنها مخصصة للشراب أو الصهريج أو الزير ، وعلى سطوح المنازل(٥٧) .

وعليه المحافظة على الفرش والحصر والقناديل ، والأثاث والمبانى باعتبارها ملكًا عامًا للمسلمين لايجوز لأحد أن يتصرف فيها كما لو كانت من أملاكه الخاصة(٥٨).

ومن الآداب أيضًا ألا ينظر فى بيت أحد فى مروره من شقوق الباب ونحوه. ولا يلتفت إليه إذ كان مفتوحًا . وإن سلّم سلّم وهو مار به من غير التفات، ولا يكثر الإشارة إلى الطاقات لاسيما إن كان فيها نساء . وألا يرفع صوته جدًا فى تكرار أو نداء أحد أو بحث كيلاً يشوش على غيره بل يخفضه ما أمكنه مطلقًا لا سيما بحضور المصلين أو حضور أهل الدرس وأن يتحفظ من شدة وقع القبقاب(٥٩) . والعنف فى إغلاق الباب ، وإزعاج المشى فى الدخول والخروج والصعود والنزول وطرق باب المدرسة بشدة لا يحتاج إليها ونداء من بأعلى المدرسة من أسفلها إلا أن يكون بصوت معتدل عند الحاجة(٦٠) .

وإذا كانت المدرسة مكشوفة إلى الطريق السالك من باب أو شباك تحفظ منها عن التجرد عن الثياب ، وكشف الرأس الطويل من غير حاجة ، كما نهى الساكن عن سلوك أى سلوك يعاب من العادات القبيحة ، ومنها الأكل ماشيًا وكلام الهزل غالبًا والبسط بالنعل ، وفرط التمطى والتمايل على الجنب والقفا والضحك الفاحش بالقهقهة وألا يصعد إلى سطحها المشرف من غير حاجة أو ضرورة(٦١) .

وقد حافظت تلك الشروط والآداب على حرمة المدارس ومساكنها ، ومكنت القائمين عليها والعاملين بها من أداء وظائفهم على أكمل وجه وأتمه .

الخاتمة :

وبعد هذا العرض لفكرة المساكن الداخلية فى المدارس الإسلامية ، وما وصلت إليه تلك المساكن من تطور ورقى فى إعدادها وتنظيمها تتضح أهميتها والأثر الذى تركته فى نشاط حركة التعليم على مر العصور الإسلامية إذ يتأكد هنا أن هذه المساكن كانت من العوامل الأساسية لنشاط حركة التعليم عند المسلمين كما كانت سببًا فى إقبال طلبة العلم على الدراسة نظرًا لما توفره تلك المساكن بإمكانياتها المتاحة من التفرغ لطلب العلم .

أما ما تتصف به من تنظيمات وآداب هدفت إلى الارتقاء بخدماتها ، وتوفير الهدوء والراحة للساكنين فيها من الطلبة والمدرسين على حد سواء فيؤكد سبق المدارس الإسلامية منذ زمن مبكر فيما تنادى به التنظيمات الحديثة من ضرورة تطبيق سلوكيات تربوية معينة فى مثل هذه المنشآت لتتضح العلاقة بين الطلاب أنفسهم من ناحية ، وبينهم وبين أساتذتهم ممن يقيمون معهم داخل هذه المساكن من ناحية أخرى .

الهوامش

(١) الرحلة ، ص٢٥٨ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٤١٨/١ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ٢٧٣/٢ .

(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ١ / ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(٥) السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ / ١٤٢ .

(٦) تنسب هذه المدرسة للخليفة العباسى المستنصر با لله أبى جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد ، ولد سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) وبويع بالخلافة سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م) ودامت خلافته حتى وفاته فى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢م) وقد اشتهر المستنصر با لله بأعماله العمرانية الكثيرة التى لا يزال بعضها باقيًا حتى اليوم ومنها هذه المدرسة . (سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ٨ / ٧٣٩ ، ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة ، ص١٥٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣ / ١١٣ . ١٥٩) .

(٧) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص١٨٥ .

(٨) تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٣٨٣ .

(٩) الرحلة ، ص ٢٦ .

(١٠) نفسه ، ٢٧ .

(١١) سيدة إسماعيل كاشف " الجامع الأزهر ودوره فى نشر الثقافة العربية الإسلامية " فى : تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية - أعدها للنشر عبد العظيم رمضان - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٢م) - ص٤٥ - ٨٥ - سلسلة تاريخ المصريين / ٥١).

(١٢) الخطط ، ٢ / ٢٧٦ .

(١٣) البداية والنهاية ، ٢٣/١٣ .

(١٤) المقريزى ، الخطط ، ٢ /٢٨٥ .

(١٥) زبدة النصرة ، ص٦٢ .

(١٦) مختصر الدول ، ص٢٤٧ .

(١٧) الرحلة ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(١٨) هو : الوزير الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا وزير الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، ومدبر شؤونه المتوفى فى ذى الحجة سنة ٦٧٧هـ (١٢٧٩م) .

(١٩) الخطط ، ٢ / ٣٧١ .

(٢٠) الخطط ، ٢ /٣٧٩ .

(٢١) الخطط ، ٢ / ٣٩٩ .

(٢٢) الخطط ، ٢ / ٣٩٢ .

(٢٣) معجم الأدباء ، ١٨ / ٢٠ .

(٢٤) هو أبو جعفر الصقلى الأصل ، المكى ، النحوى اللغوى الأديب ، صقلى المولد مكى النشأة رحل إلى مصر وأفريقية ، ثم تنقل بين البلاد حتى حط رحاله فى حلب وأقام فيها يدرس بالمدرسة العصرونية الشافعية ، ثم انتقل إلى حماة فى آخر عمره ومات بها ، (القفطى ، إنباه الرواة ، ٧٤/٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣٦٥/٤ - ٣٩٧) .

(٢٥) ياقوت ، معجم الأدباء ، ١٩ / ٤٨ .

(٢٦) المقرى ، نفح الطيب ، ٥٨٩/١ .

(٢٧) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٦ / ٤٠٤ .

(٢٨) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٠٣ .

(٢٩) محمد عادل عبد العزيز ، التربية الإسلامية فى المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية ، ص٥٣ .

(٣٠) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، ص ٥٩ .

(٣١) عبد الغنى محمود ، مرجع سابق ، ص٢٠٦ ، نقلاً عن حجة حسن بن قلاوون ، ٨٨١ أوقاف .

(٣٢) الخطط ، ٢ /٣٨٢ .

(٣٣) محمد منير سعد الدين ، المدرسة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ص١١٧ .

(٣٤) المرجع نفسه ، ص١١٧ .

(٣٥) عبد الغنى محمود ، مرجع سابق ، ص٣٠٥ .

(٣٦) المرجع نفسه ، ص٣٠٦ .

(٣٧) على سالم النباهين ، نظام التربية الإسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر ، ص٣١٧ .

(٣٨) ابن جماعة ، التذكرة ، ٢٢٠ .

(٣٩) التذكرة ، ٢١٠ والراتب عند المحدثين ما يقدم مكافأة لمن هو فى منصب أو خدمة وبه المرتبون هم الذين يجرى عليها أدرار من أوقاف المدرسة فيقيمون فيها .

(٤٠) تذكرة ، ص ٢١٥ ، والمرتبون هم الذين يجرى عليهم أدرار من أوقاف المدرسة ، فيقيمون فيها .

(٤١) التذكرة ، ٢١٥ - ٢١٦ .

(٤٢) تذكرة السامع ، ص٢١٦ .

(٤٣) نفسه ، ٢١٦ .

(٤٤) نفسه ، ٢٢٠ .

(٤٥) نفسه ، ٢٢٠ .

(٤٦) نفسه ، ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٤٧) التذكرة ، ص ٢٢١ .

(٤٨) نفسه ، ٢٢٣ .

(٤٩) نفسه ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٥٠) التذكرة ، ٢٢٤ .

(٥١) نفسه ، ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٥٢) نفسه ، ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٥٣) نفسه ، ٢٣١ .

(٥٤) نفسه ، ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٥٥) الميضأة : مكان الاغتسال والوضوء .

(٥٦) التذكرة ، ٢٣٢ .

(٥٧) ابن الحاج العبدرى ، مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة ، ص٢١٣ - ٢١٧ .

(٥٨) عبد الغنى محمود ، مرجع سابق ، ٣٠٥ .

(٥٩) القبقاب : الحذاء المصنوع من الخشب .

(٦٠) ابن جماعة ، نفسه ، ٢٣٣ .

(٦١) نفسه ، ٢٣٣ - ٢٣٤ .

الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى

فى عهد الدولة الوطاسية

٨٦٩ - ٩٦٢هـ/١٤٦٥ - ١٥٥٤م

د. نوال على محمد عبد العزيز(*)

مقدمة :

عاصرت الدولة الوطاسية أحداثًا تاريخية هامة وفاصلة ، سواء على المستوى المحلى ، أو العالمى .

ففى هذه الفترة اشتدت حركة الاسترداد المسيحى بالأندلس ، ومحاولة البرتغال والأسبان الاستيلاء على ثغور المغرب البحرية ، وبدأ النشاط الأيبيرى على بلاد المغرب مبكرًا ، فاستولت البرتغال على سبتة عام ٨١٨هـ/١٤١٥م ، وواصلوا استيلائهم بعد ذلك على بقية ثغور المغرب . وفى عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس ، وتوالت الأحداث التاريخية متتالية تدق بشدة معلنة نهاية العصور الوسطى ، فنشطت حركة الكشوف الجغرافية وجاء كشف طريق رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٢هـ/١٤٨٩م كرد فعل أوربى لسيطرة المسلمين على منافذ التجارة العالمية فى تلك الفترة . كما عاصر الوطاسيون امتداد التوغل العثمانى على الشمال الأفريقى وامتلاك الأتراك للجزائر وانتهت هذه الحقبة بسيطرة العثمانيين على معظم العالم الإسلامى شرقه وغربه ، باستثناء المغرب الأقصى . وعانى المغرب الأقصى فى تلك الفترة ، من الانهيار الداخلى الذى أصابه جزءًا من الانهيار العام الذى عم المغرب والمشرق فى ذلك الوقت .

ففى نهايات القرن الخامس عشر الميلادى تفتت وحدة الشمال الأفريقى فاستقلت عن تونس طرابلس وبوجى وقسطنطينية ، وعارضت وهران تلمسان ولم

(*) باحثة - عضو اتحاد المؤرخين العرب

تعترف مراكش بفاس ، وخضعت الواحات الواقعة جنوب توجـورت حتى وادى دراو لسيطرة فروع الهلاليين المختلفة .

ومن المعـروف أن الأوضـاع الاجتماعيـة فى أى مجتمـع تـتأثر تأثيرًا كبيرًا بالأوضـاع السياسـية والاقتصادية فكـان لانهيـار الدولـة الإسـلامية فـى الأندلـس صداها على نواحى الحياة المختلفة فى بلاد الشمال الأفريقى بصفة عامـة والمغرب الأقصى بصفة خاصة إذ ظهرت بعض الآثار الجوهرية على الحيـاة الاجتماعيـة فى بلاد المغرب الأقصى فى ذلك الوقت .

وقد عاصرت الدولة الوطاسية هذا الانهيار الـذى تـرك بصماتـه فـى الحيـاة الاجتماعية فى المغرب الأقصى ومالحقها من تغيرات نتيجة انهيار الدولة الإسـلامية فى الأندلس .

فبعـد سـقوط غرناطـة عـام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م زحفت أعـداد غفـيرة مـن الغرناطيين على المغرب ، وأثر ذلك على التركيب السكانى لتلك المنطقـة . وكـان عدد كبير من هؤلاء الزاحفين من اليهود ، فشكل هؤلاء اليهود عنصرًا هامـًا فـى التركيب السـكانى لبـلاد المغـرب ، ولعبـوا دورًا هامًـا فـى الحيـاتين الاقتصاديـة والسياسة ، كما أحدثوا فسادًا فـى المجتمـع الفاسـى بصفـة خاصـة بـأخذهم الربـا والتعامل بالغش فى البيع والشراء وفى إقليم شفشاون شمـال المغـرب دخـل اليهـود المدينة منذ تأسيسها على يد على بن راشد سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م ، حيـث كـانوا من جملة المهاجرين من الأندلس وقصدوها للآستسطان بها . واندمـج اليهـود فـى المجتمع الإسـلامى فـى شفشـاون اندماجـًا كبيرًا ، وذكـر أحمـد بـن عرضـون أن اليهوديات كن يقمن بتعليـم الحياكـة للفتيـات المسـلمات ، وكـن يدخلـن بيـوت المسلمين من أجل ذلك . كذلك ظهرت بعـض العـادات السيئة فـى المنـاطق التـى سيطر عليها البرتغال ، كشرب الخمر والزنا والتواكل والتماس البركات من الموتى بالقبور وغيرها .

وقدم صورة حية لهذه العادات بعض الفقهاء المعاصرين ومنهم الشيخ عبد الله محمد الهبطى ت ٩٦٣هـ/١٥٥٥م فيقول :

الدين ذاهب إلى الغروب والكفر داخل إلى القلوب
إن العوام قد خرقوا الشريعة وبدلوها كلها بالبدعة
وكل بدعة لهم كالبرهان على فساد مالهم من إيمان

وكرد فعل على هذه الأمراض الاجتماعية والأحوال السياسية السيئة ، قدم بعض العلماء والفقهاء علاجًا لهذه الأمراض ، فتحدثوا عن القدوة الحسنة من السلف الصالح ، وعن دور حركة الجهاد وضرورة الإسراع لطلب الشهادة ومن العلماء المجاهدين المعاصرين ، عبد الله محمد العنابى الدرعى ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م الذى قام بدور عظيم فى جمع الأموال لإطلاق سراح الأسرى المسلمين من أيدى الأعداء بعد سقوط غرناطة . كما تصدى لهذه البدع والانحرافات شيوخ الطرق الصوفية ، إذ وجدت الدعوة الصوفية صداها لدى المغاربة وتحمل شيوخ الزوايا الصوفية مهمة تبصير الناس بأمور دينهم وإشعال حماسهم الوطنى لرد المحتلين البرتغاليين المسيحيين .

وكان أن ظهر فى تلك الحقبة عدد من الطرق الصوفية ، منها طريقة الإمام الجزولى محمد بن سليمان السملالى الحسنى دفين مراكش ، والمتوفى سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٩م ، وكان من تعاليمه لأصحابه تعريفهم بالعقيدة الإسلامية الصحيحة وهناك طريقة أخرى هى الطريقة الزروقية ، وصاحبها الشيخ زروق أحمد بن أحمد بن عيسى البرنسى ثم الفاسى المتوفى سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م .

ولم يقتصر دور شيوخ التصوف على التبصير الدينى فحسب ، بل قدموا الرعاية الاجتماعية للطبقات الدنيا فى المجتمع ، فقاموا بحماية المظلومين وإيواء الفقراء وأبناء السبيل ، وكانت مواردهم للصرف على ذلك من أموال النذور والهدايا وغيرها .

وبعد هذه المقدمة ، يمكن أن نركز الحديث فى صلب البحث فى النقاط الآتية :

- التركيب السكانى
- اضطراب الأوضاع الاجتماعية فى المجتمع المغربى .
- الاحتفالات والأعياد .
- تقاليد المآتم والوفاة .
- النظام الغذائى .
- تقاليد الزواج .
- بعض العادات والتقاليد البائدة .
- نظام التعليم .
- ازدهار الطرق الصوفية وحركة الجهاد الإسلامى .

التركيب السكانى :

قبل الخوض فى أعماق المجتمع المغربى فى تلك الفترة ، ومعرفة تقاليده وعاداته ، وأمراضه الاجتماعية وأفراحه وأطراحه ، نعرض للتركيب السكانى والبنية الأساسية لهذا المجتمع كنقطة بداية لدراسة الأحوال الاجتماعية ، فالسكان هم صانعو هذه الحياة .

ومن الصعوبة بمكان التحدث بصورة دقيقة عن سكان مملكة فاس فى ذلك العهد ، فالمصادر قليلة فى هذا الموضوع ، فضلاً عن إهمال الدراسات الاجتماعية بصورة عامة فى تلك الفترة ، القرن التاسع والعاشر الهجريين ، الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين والمعروف أن الدراسات الاجتماعية لم تلق اهتمامًا كافيًا إلا منذ وقت قريب .

والغالب أن الرحالة المعاصرين ، كانوا عند ذكرهم لقبيلة أو فرع من قبيلة يصفونها فى إيطار الأحداث السياسية ، مثلما فعل « الحسن الوزان » فى وصفه، وهو معاصر ، إذ زار هذه المنطقة ، وأعطى أسماءًا لأهم القبائل وبعض فروعها كما كانت علية فى العصر الوطاسى(١) ووصف القبائل الرحل والمستقرة ، فتكلم عن استقرار بعضها فى سهول الهبط والحوز(٢) وبقاء البعض الآخر فى ممارسة حياة التنقل والترحال بحثًا عن الكلأ والماء ، واشتغال بعض القبائل المستقرة بالزراعة والتجارة فى الأنعام وخاصة الإبل ، والخيول ، وصيد الوعول والنعام والمها واللمط وغيرها من الحيوانات البرية(٣) .

ونرى أن الاضطرابات الداخلية والحروب التى واجهتها الدولة الوطاسية بالإضافة إلى الأوبئة أثرت على الحياة الاجتماعية والتركيب السكانى بصفة خاصة ففى الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع إلى بداية القرن العاشر الهجريين ، أوائل القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن السادس عشر الميلاديين ، عرفت فاس أزمتين متتاليتين خلفتا عددًا كبيرًا من الضحايا وأدتا إلى انتشار الترحال والهجرة ففى سنتى ٨٤٦هـ /١٤٤١م ، ٨٧٣هـ/١٤٦٩م ، اجتاح مدينة فاس وباء الطاعون

مرتين ودام فى المدة الأولى حوالى ثمانية عشر شهرًا ، ووصل عدد الضحايا ما بين ٤٠٠٠ ، ٥٠٠٠ نسمة ، أما الطاعون الثانى فقد ترك حوالى ٤٠٠,٠٠٠ ضحية بفاس وحوالى ١٠٠,٠٠٠ بالبادية المجاورة لها وربما شاب هذه الأعداد بعض المبالغة ، ولكنها مع ذلك توضح مدى ضخامة الكارثة التى لحقت بسكان فاس وما حولها ونتج عنها خلل فى التركيب السكانى بها ، وأدى ذلك إلى هجرة أعدادًا كبيرة من السكان إليها فيما بعد . فبعد هذا الفراغ السكانى الذى أصابها حدث أن زحفت أعداد غفيرة من الغرناطيين بعد سقوط غرناطة بالأندلس عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م إلى المغرب وكان عدد كبير من هؤلاء المهاجرين من اليهود بعد أن اتخذ مسيحيو الأسبان الإجراءات التعسفية ضدهم(٤) فشكل هؤلاء اليهود عنصرًا هامًا فى البنية السياسية والاقتصادية خاصة ، وأحدثوا فسادًا اقتصاديًا فى المجتمع الفاسى كما ذكرنا(٥) .

وقد انقسم السكان إلى عدة عناصر ، منهم القبائل العربية التى استقرت فى المناطق الشرقية والغربية ، كما وجدت قبائل البربر من زناتة وهوارة بتامسنا . وفى ذلك العهد كثرت أعدادهم فبلغوا حوالى ألف نسمة ، منهم ستون ألف فارس ، ومائة ألف من المشاة(٦) .

يضاف إلى ذلك عناصر بشرية جديدة اندفعت إلى المغرب بعد عبورها مضيق جبل طارق ، نتيجة لحركة الاسترداد المسيحى بالأندلس ، وللقرب المكانى بينهما وضمت هذه العناصر مسلمين ويهود ومسيحيين ، استقر بعضهم بفاس وتطوان وسلا والرباط وشفشاون ، كما تجاور المسلمون واليهود فى عدة قرى ومدن(٧) ، والملاحظ أن ازدياد النسبة العددية لليهود فى هذا العهد نتجت عن هذه الهجرة الأندلسية .

وفى نهاية القرن التاسع الهجرى وبداية القرن العاشر منه (نهاية القرن الخامس عشر الميلادى) وبداية القرن السادس عشر الميلادى ، توزعت العناصر السكانية فى بعض المناطق بين القبائل العربية والبربرية ، وسادت العنصرية العربية

فى منطقة « دكالة » و أصبحت تمثل أغلبية السكان ، وانتشرت اللغة العربيـة فـى هذه المنطقة ، فأصبحت اللغة الوحيدة السائدة والمستعملة بها(٨) .

وتفرعت القبائل العربية إلى ثلاث مجموعات كبرى(٩) فهنـاك قبـائل شرقية وقبائل غربية بالإضافة إلى قبيلة عبدة ، وتكونت القبـائل الشرقية من ست قبائل حسب موقعها كما يلى :

١ - **أولاد فرج** : سكنت شرق « أزمـور » وجنوب نهر « أم الربيع » وبلغ امتدادها شـرقًا إلى قـرية « بنكير » و« تافوف » الواقعتين على مشـارف « هسكورة السهل » وامتدت غربًا إلى ست مراحل شرق قرية « موكـرس » واتصلت بأولاد عمران « السكاون » من ناحيـة الغرب . وبقيت هـذه القبيلـة محافظة على موقعها من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجريين السادس عشر إلى القرن العشرين الميلاديين ، وكان من فروعها أولاد زيد .

٢ - **أولاد عمران (السكاون)** : تمركـزت حـول قرية (السـكاون) الشـهيرة بسهل سيدى « بنور » ، وحول بحـيرة « ورار » ، وامتـدت شــرقـًا إلى الجبـل الأخضـر وغربـًا إلى السـاحل لتفصـل مـا بين أولاد فـرج وأولاد « سبيطة »(١٠) .

٣ - **أولاد سبيطة** : انتشرت مـن « ازمـور » و« سـبيت » شمـالاً إلى ضواحى المدينة الغربية جنوبـًا ، وشرقـًا حتى بداية منطقة أولاد عمران الجنوبية .

٤ - **أولاد بوعزيز** : وهم قليلو العدد ضئيلو الأهمية ، والدليل علـى ذلـك ضيق رقعتهم وموطنهم جنوب « ازمور » على طول الساحل ، وحلت قبيلة أولاد عزيز العربية ، محل صنهاجة البربرية ويعرفهم البرتغال بأنهم « عرب أزمور » ولهـا فروع كثيرة أخرى(١١) .

٥ - **قبيلة أولاد عمران الجنوبية** : وهى تعيش جنـوب « دكالـة » ، وبفضـل موقعها اتصلت بكل من الحوز ومراكش وكانت تلجأ إليهما فى فترات الخطر .

٦ - **أولاد يعقوب** : وهى أكبر القبائل الشرقية وموقعها بين دكالة ونجد الكنتور، وهذا الموقع جعلها تسيطر على رقعة واسعة منعتها من الاصطدام مع جيرانها.

قبيلة الغربية : وموقعها يشمل المنطقة الممتدة من المحيط إلى شرق قرية « سرنو » حيث قبيلة أولاد عمران الجنوبية ومشارف « آسفى » جنوبًا وهى جارة لأولاد سبيطة ومشترايه ، ولكل من قبيلة أولاد عمران ، وعبدة ، وهذا الموقع جعلها فى حالة صدام مستمر مع جيرانها .

قبيلة عبدة : سكنت ضواحى « آسفى » الشرقية ، والجنوبية(١٢) .

أما القبائل البربرية الباقية بدكالة « فتتمثل فى مشراية » وهى أكبر القبائل البربرية بها فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى . أما بنو ماكر فقد استقروا شرق« آسفى » وإلى جانب ذلك ، قامت « ركراكة » حول جبل الحديد ، وعرف أفرادها بالجبليين(١٣) .

من العرض السابق يتضح أن المجتمع المغربى لم يكن مجتمعًا متجانسًا ، فقد تنوعت العناصر السكانية به ، وساده عدم التجانس السكانى وهذا كان من أسباب نجاح البرتغاليين فى اقتطاع بعض أجزائه ، كما سيتضح فى الجدول التالى ، وهذا النفوذ البرتغالى ، سيكون له أثره أيضًا على الأحوال الاجتماعية للمجتمع المغربى .

ذلك أنه من المعروف أن الأوضاع الاجتماعية فى أى مجتمع ، تتأثر تأثرًا كبيرًا بالحالة السياسية والاقتصادية ، لذلك سنجد أن الحياة الاجتماعية ، أثناء حكم الوطاسيين ، ونتيجة لما لحق الحياة السياسية والاقتصادية من اضطراب وفوضى ، لم تسلم هى الأخرى من السوء فعمت الفوضى وعدم النظام أرجاء المجتمع ، وخيم هذا الاضطراب وتلك الفوضى على وجه الحياة الاجتماعية ، فصبغته بصبغة مظلمة ، وظهرت الكثير من العادات الاجتماعية السيئة خاصة فى بعض المناطق النائية ، والبعيدة عن العاصمة ، والتى لم يصلها إلا النذر اليسير من الينبوع الحضارى ، حيث فى مناطق الأطراف يخفت بصفة عامة الضخ الحضارى

وتسود الهمجية ، كما ظهرت هذه العادات فى المناطق التى سيطرت عليها البرتغال وانتشرت بعض هذه العادات السيئة فى كثير من المناطق ، كعادة الوشم(١٤) وشرب الخمر والزنا(١٥) والتواكل والتماس البركات من الموتى بالقبور لانقاذ الأحياء ، وحل مشكلاتهم وبذلك كثرت البدع والمنكرات ، وسادت الدعاوى الكاذبة والضلالات ، وامتطى الانتهازيون والمغرضون هذه الموجة ، ووجهوها لخدمة مصالحهم ، فلبسوا ثياب الورع والتقوى ، وادعوا الولاية وإتيان الكرامات.

ويبرز هذا الوضع الاجتماعى المضطرب فى ثنايا كتب فقه النوازل المعاصرة(١٦) ، حيث وردت الكثير من الفتاوى فى هذه الكتب عن موقف الإسلام من هذه العادات السيئة التى شاعت فى المجتمع فى تلك الفترة .

وكما يتفتق الورد من الشوك ، واستنادًا للقاعدة القائلة بعدم وجود شر محض وخير محض ، فقد ظهر فى ذلك العصر الكثير من المصلحين ، الذين ساءتهم هذه الأوضاع ، وكان أغلب هؤلاء من العلماء والفقهاء(١٧) أخذ هؤلاء العلماء يبصرون الناس بأمور دينهم ، وتصحيح مفاهيم عقديتهم والعودة للكتاب والسنة وترك البدع . واستعانون فى ذلك بالكتابات الحماسية ونظم الشعر وألهبت هذه الكتابات الحماسة الوطنية ، والجهاد ، والغيرة على المجتمع ، فبدأوا يدافعون عن حدوده ويجاهدون فى سبيل انقاذه. وبذلك قدم العلماء قدوة حسنة ، وسموا بأفراد المجتمع فوق رذائله ، وضحوا بأنفسهم وأموالهم وأسرهم فى سبيل تلك الأهداف النبيلة . ويقدم الفقيه «عبد الله محمد الهبطى » ت ٩٦٣هـ/١٥٥٥م(١٨) أحد معاصرى هذه الفترة صورة حية لما كانت عليه أوضاع المجتمع من عادات وتقاليد واستحداث البدع(١٩) واعتقادهم فى الخرافات وانتشار عادات الخمر ويقدم العلاج لهذه الأمراض الاجتماعية ، فيتحدث عن القدوة الحسنة من السلف الصالح، وعن دور العلماء فى الجهاد والإسراع لطلب الشهادة، ويتأسف على الحالة التى تردى فيها المسلمون فى زمانه من تخاذل وتقاعس فى الدفاع عن أوطانهم(٢٠) وهناك نفر من العلماء ذاع صيتهم فى مجال الجهاد ، ولم يقتصر دورهم على الكلمة والقلم، بل حملوا السلاح وارتخصوا النفس والنفيس ، ومن هؤلاء:

- أبو محمد عبد الله الورياجلي ، الذى خصص الشتاء والربيع للعمل بالتدريس ، وجعل الصيف والخريف للخروج والمرابطة على الحدود(٢١) .

ومن العلماء المجاهدين أيضًا ، عبد الله العنابى الدرعى توفى سنة ٩٢٢هـ وقام بدور عظيم فى جمع الأموال لإطلاق سراح الأسرى المسلمين من أيدى الأعداء ، بعد سقوط غرناطة ، واستشهد غريقًا فى اليم وهو يقوم بهذه المهمة الجهادية(٢٢) .

ومثل آخر من الشيوخ المتصوفة وهو أبو عبد الله محمد بن يجيش التازى توفى سنة ٩٢٠هـ وامتاز بحماسته ووطنيته الفياضة فألف كتابًا يعرض فيه لأحوال المجتمع المغربى فى هذه الفترة ويدعو الناس للجهاد(٢٣) ووضع له عنوانًا ينم عما بداخله « تنبيه الهمم العالية على الصدقة والانتصار للملة الذكية وقمع الشر ذمة الطاغية »وهذا البيت من الشعر يوضح وجهة نظره فى الجهاد والحث عليه فيقول:

أين أسود العرب وأين رجاله وأين ذو الخيل العناف والأعزة(٢٤)

وأخيرًا وليس آخر يأتى عالم ومؤرخ اجتمعت فيه كثير من المواهب ، فكان إمامًا وخطيبًا وأستاذًا متعدد الكراسى والمجالس العلمية ، وشيخًا للجماعة على نهج شيخه الورياجلى ، واتبع طريقه فى الجهاد ، فخرج عدة مرات لهذا الغرض ولم يمتنع عن الخروج حتى بلغ أرزل العمر ، حيث خرج فى آخر حياته ، وبعد أن بلغ من العمر عتيًا ، ورجع فى هذه المرة وهو محمولاً من شدة المرض ، ومات بعد قليل من عودته إلى فاس، وهو المجاهد أبو عبد الله بن غازى المنكاسى ثم الفاسى(٢٥).

الاحتفالات والأعياد :

وكان للاحتفالات الدينية نصيب وافر فى حياة المجتمع - سواء إسلامية، أو مسيحية ، فيحكى ابن عسكر عن والدته فيقول « ومن كرامتها رضى الله

عنها أنها كانت ليلة مولد النبى تعتنى به وتطعم فيه الطعام وتذبح فيه البقر والغنم حبًا فى النبى ﷺ ، على عادة فضلاء أهل المغرب فى ذلك »(٢٦) .

وبجانب الاحتفال بالمولد النبوى ، كان سكان فاس يحتفلون بمولد السيد المسيح عليه السلام ، فينشدون التراتيل الدينية ، ويتناولون عشاءً خاصًا فى ليلة هذه المناسبة ، وهو عبارة عن حساء مكون من الخضر كالقرنبيط واللفت والجزر، ويطبخون مجموعة من الخضر سوية على حالها كالفول وحبوب القمح ويأكلونها فى تلك الليلة ، فضلاً عن الحلوى الكثيرة وفى أول العام الجديد يلبس الأطفال الأقنعة على وجوههم ، ويطوفون بالشوارع مرددين بعض التراتيل الدينية طالبين من المحسنين بعض الفاكهة(٢٧) .

وفى يوم ٢٤ يونيو (حزيران) يوقد الناس فى كل الأحياء نارًا كبيرة وقودها من القش احتفالاً بعيد القديس حنا .

وهناك احتفالات تتم عند بداية ظهور أسنان الطفل ، فيدعو والدى الطفل الأطفال الآخرين لتناول الطعام ، ويسمى هذا الاحتفال « دنتيلا » وهى كلمة لاتينية تعنى التسنين(٢٨) .

تقاليد المآتم والوفاة :

بالغ المجتمع المغربى فى ذلك العصر فى مراسيم الوفاة ، فكان من عادة النساء عند وفاة عزيز لديهم ، كالزوج أو الأب أو الأخ ، لبس الملابس الثقيلة ، وتلطيخ الوجوه بالسخام يحصولن عليه من قيعان القدور . ويستدعون بعض الأفراد يطلق عليهم الأنذال ، يتجولون فى الشوارع لابسين ملابس النساء ، لكى يدقوا على دفوف مربعة الشكل ، ويرتجلوا أشعارًا حزينة فى مدح الفقيد ، تستدر الدمع من العيون ، وعند نهاية كل منزل تطلق النساء الصراخ والعويل بصوت عال ، ويخدشن الخدود والصدور إلى أن يسيل الدم غزيرًا ، وينزعن شعورهن ، وهن ينتحبن ويولولن . ويدوم الحال على هذا المنوال سبعة أيام وبعد أربعين يومًا

يستأنفن البكاء، لمدة ثلاثة. وهذه عادة شائعة عند العامة ، أما بالنسبة للخاصة من الأشراف فكانت عاداتهم فى هذه المناسبات أخف وطئًا من العامة ، إذ كان أهل الفقيد يكون دون تعذيب أنفسهم و لم يكن من عادة النساء السير خلف الجنازة حتى من أقرب أقربائهن(٢٩) . ويؤكد الشعر المعاصر مشاهدات الوزان العيانية(٣٠) .

النظام الغذائى :

أنقسم المجتمع فى أساليبه الغذائية إلى قسمين ، من حيث التوزيع الطبقى ، فكان لكل طبقة نظامها الغذائى الخاص ، فمن عادة الشعب تناول اللحم الطازج مرتين فى الأسبوع ، أما علية القوم فيتناولونه مرتين فى اليوم طبقًا لشهيتهم وغذاء هذه الفئة أرفع فى مستواه من غذاء فئة عامة الشعب . وتمتع العلماء بمستوى أفضل من المعيشة ، وعدد الوجبات الغذائية اليومية ثلاث وجبات ، أولها الفطور ، وهى خفيفة تتكون عادة من الخبز والفواكه والحريره ، وفى الشتاء يتناولون شوربة القمح المطبوخ المملح . أما وجبة الغذاء فهى مؤلفة من الأطعمة الخفيفة كالخبز والسلطة والجبن والزيتون . وفى فصل الصيف تكون هذه الوجبة أكثر دسامة . وأما وجبة العشاء ، فيؤكل فيها الأطعمة الخفيفة كالخبز مع البطيخ أو العنب والحليب ويزاد اللحم المسلوق مع « الكسكسى » فى فصل الشتاء ، وهذا الأخير مصنوع من دقيق القمح بعد خلطة بالماء وتحويله إلى حبيبات صغيرة الحجم فى حجم الأرز وتطبخ هذه الحبيبات فى قدور مزدوجة تسمى «الكسكاسة» فى بلاد المغرب(٣١) ويختلف استخدام المواد الغذائية من بلد إلى آخر ، حسب المنتجات الزراعية لكل منطقة ، ففى منطقة « حاحة » يتناول سكانها خبز الشعير ودقيق الشعير بعد طبخه بالماء فى آنية مجوفة القعر ، ويصب عليه زيت أركان ، يغلى هذا الدقيق مع الحليب والزبدة فى فصل الصيف ، ويؤكل اللحم مطبوخًا مع البصل والفلفل أو « الكسكسى » الذى شاع كطعام شعبى منذ القدم(٣٢) .

وعند أكلهم الطعام يفترشون الأرض ، أو يجلسون أمام ما يعرف (بالطبلية) ويأكلون بأيديهم ، ويتناول جميع الضيوف طعامهم من نفس الوعاء ، دون

استخدام الملاعق ، ويحدث ذلك أيضًا عند تناولهم اللحم والحساء ، أى يشربونها من القطعة نفسها ويختار كل فرد قطعة من اللحم ويمسكها بيده ويستخدم أسنانه فى قطعها ويأكلون طعامهم على عجل ، ولا يشربون قبل أن يشبعوا ، ويتم الشرب من طاسة ماء تسع أقل من لترين تقريبًا(٣٣) .

ونتيجة للهجرات اليهودية من الأندلس ، حدث تغير فى بعض طرق الطهى ، وانتقل هذا التغير من اليهود للأسر المسلمة ، فكان مألوفًا فى أطعمة اليهود أكل الفلفل بعد قليه وتقطيعه وغمسه فى الخل ، وتحميضه مع بعض الحمضيات الأخرى كالباذنجان والجزر وكل ذلك كان معروفًا فى الأطعمة اليهودية قبل انتقالها للأسر المسلمة(٣٤) .

بعض العادات والتقاليد البائدة :

من المتعارف عليه ، أن طبيعة الظواهر الاجتماعية ، خاضعة للتغيير والتبديل باختلاف الظروف ، ومضى الزمن ، فهناك عادات وتقاليد اجتماعية كانت سائدة فى تلك الحلقة من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) فى جبال غمارة ، وانمحت هذه التقاليد والعادات ولم يبق لها وجود ورغم ذلك فعن طريق المصادر الموثوق بها والمعاصرة الناقلة للواقع كما هو ، وبفضل ظهور كثير من المصلحين فى ذلك العصر ، والرافضين لهذه الظواهر رغبة فى التغيير للأفضل ، فقد سجلت تلك الظواهر التى كانت سائدة فى مجتمعهم تسجيلاً دقيقًا ونقلت بعضها بإيجاز والبعض الآخر حظى بالإسهاب .

وعلى رأس هؤلاء المصلحين الذين رغبوا فى الإصلاح والتغيير الشيخ أبو عبد الله بن محمد الهبطى السابق ذكره ، والشيخ أبو القاسم على بن خجو الحسانى ٩٥٦هـ(٣٥) والشيخ عبد الوارث اليلصوتى(٣٦) والشيخ أبو العباس أحمد ابن الحسن بن عوضون الزجلى ثم الشفشاونى ت ٩٢٢هـ(٣٧) وهؤلاء العلماء

المصلحون وصفوا كثيرًا من الظواهر الاجتماعية فى مجتمع غمارة(٣٨) فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .

وبجانب هؤلاء المصلحين ، هناك مصادر أخرى صورت الحياة الاجتماعية فى تلك الفترة ، منها كتب النوازل ، إذ كان طالبى الفتاوى يعرضون قضاياهم على الفقهاء والمفتين ليعرفوا حكم الشرع ، وعرضت هذه القضايا بوضوح واقعى ، مثل عادات وتقاليد الوشم ، وشرب الخمر ، والرقص ، واقامة الولائم ، والحفلات والمآتم وغيرها من الأمور .

والشيخ عبد الله الهبطى فى « الفيتة السنية » انتقد بمرارة كثيرًا من عادات ذلك العصر . وكان هذا الانتقاد موجهًا لمختلف طبقات المجتمع حكامًا وامراء وفقهاء وقضاة، وعدول وعوام ، نساءًا ورجالاً ، ومن الظواهر التى وجه إليه انتقاده الشديد ، اختلاط النساء والرجال فى الأفراح والحفلات والمناسبات ، وعلى شواطئ الأنهار وسواحل البحر(٣٩) .

وأولى العادات المنتشرة والمشينة التى كانت تمارس فى جو يسىء للأخلاق والفضيلة ، عادة الوشم(٤٠) ، وانتشرت هذه العادة انتشارًا كبيرًا بين سكان جبل غمارة ، وخاصة بين النساء البدو ، حيث كانت توشم المرآة فى ريعان شبابها ، إذ كان الوشم مصدرًا للفخر والمباهاة بين النساء وبالغت بعضهن فى وشم أعضاء كثيرة من جسمها ، كالدقن والجبين والعنق والكتف والذراعين واليدين والقدمين وكان الوشامون يمارسون عملهم وسط المنازل حيث تجلس الفتاة بين يدى الوشام لابسة غلالة رقيقة على جسدها حتى لا تعوقه عن ممارسة عمله فى الوشم فى جو يسوده الاستهتار والابتذال ويتنافى مع الحشمة والوقار(٤١) .

كذلك انتشر شرب الخمور بين كثير من الناس ، وحاربها المصلحون الاجتماعيون . الفقهاء ، وفى مقدمتهم الشيخ الهبطى فى منظومته ، التى وصف فيها المظاهر ,العادات السيئة التى كانت سائدة بين الناس ، ودعاهم إلى التخلى

عن الرذائل واتباع الطريق القويم ، وفى إحدى منظوماته عرض لتفشى هذا الداء بين الناس(٤٢) .

ولم يكتف الشيخ الهبطى بمحاربة الرذائل بمنظوماته ، بل اتخذ الأساليب المختلفة لذلك ، فكان ينتقل كواعظ ومرشد . ويكتب إلى زعماء القبائل وكبارها وذكر ابنه عبد الله الهبطى الصغير ١٠٠١ هـ فى ترجمته لوالده أنه أراق فى سنة واحدة ألفين من دنان وجرار الخمر(٤٣) .

ومن العادات السيئة أيضًا ، الرقص المبتذل المستهر ، إذ كان الرقاص يردد مقطوعات غنائية خليعة ، بالإضافة إلى أن حفلات الرقص كانت ماجنة يصحبها الخمر والرقص مع النساء وأغضبت هذه العادات السيئة رجال الدين ودعاة الإصلاح ، وخاصة أن أهم ثغور المغرب كانت واقعة تحت الاحتلال البرتغالى ، فكان يشق على المصلحين أن ينساق الناس وراء عواطفهم وشهواتهم متجاهلين هذا الخطر القابع على أطراف بلادهم ، وما يفرضه الواجب الدينى الوطنى من أجل تحرير هذه الأطراف(٤٤) .

العادات والتقاليد :

اختلفت التقاليد المرتبطة بالزواج عند الطبقات ، فالطبقات العليا كان لها تقاليدها الخاصة بها ، والطبقة المتوسطة لها عاداتها وتقاليدها أيضًا .

كان السائد عند علية القوم ، قبل عقد الزواج أن يسبقه خطبة ، وأن يدفع الخاطب مهرًا كبيرًا يشمل النقد والعين ، بالإضافة إلى الجوارى ، وقسم المهر ، إلى قسمين : مقدمًا ومؤخرًا ، وكان المؤخر يقسط على عدة سنوات ووثيقة عقد زواج السلطان أحمد بن محمد البرتغالى على السيدة الحرة بنت على الراشدى العلمى ، توضح كثيرًا من التقاليد التى سادت ذلك العصر ، واشتمل هذا العقد على صفحتين تضمنت التحميد والشكر لله . وعن المهر وقيمته ورد ما يلى فى هذه الوثيقة " انعقد النكاح السعيد بين الخاطب والمخطوبة على بركة الله تعالى

الكريمة الصلة والعائد ، وتوفيقه الذى ببركته تجرى على أجمل العوائد وعلى صداق مبارك ، جملته بين نقد أوجبته المياسرة اعجالاً ، وكالىء اقتضته المكارمة أمهالاً: أربعة آلاف أوقية ، من الدراهم النقرة الجارية السكية ، وعشرون مملوكة من وسط رقيق السودان ، وعشرة من البغال المتوسطة فى نوعها ، وحوائج تشتمل على ثوبى موبر ، وفضلتى وجه اسكندرانى وفضلتى غريض ، ومنيين وسبنيتين وأربعة المابة وأربعة مناشف ، وأربعة كنابش كل ذلك من الجديد العالى فى جنسه ، النقد المعجل لها فى ذلك شطر الدراهم والمماليك وجميع البغال والحوائج الموصرة ، والكالىء المؤجل شطر الدراهم المذكورة ، مقسطًا عليه بتقسيط السواء والاعتدال والتوالى والاتصال ، على أقاب عشرين عامًا من تاريخ هذا الانتظام .

وكان الزواج يعقد بولى وشهود ، فجاء فى هذه الوثيقة ما يلى " أنكحه أياها بإذنها ورضاها أخوها لـلأب السيد الشريف العالى القدر المنيف ، معدن الشرف والفخار ، ومنتهى المجد والوقار ... أبو عبد الله محمد وقبله الزوج نصره الله وارتضاه ، وألزمه نفسه الكريمة وأمضاه على ما قرره الشرع الواضح واقتضاه ، والله يؤلف بينهما على ما يحبه ويرضاه »(٤٥) أما التقاليد المتبعة عند الطبقة المتوسطة، فيقدمها الحسن الوزان ، فيقول " إذا رغب رجل فى الاقتران بامرأة ، فبعد موافقة والدها على الزواج ، يدعو أبو الخاطب أصدقاؤه للاجتماع فى المسجد ، ويصطحب معه كاتبًا عدل يقومان بتسجيل العقد ويحددان شروط المهر بحضور الخاطب والمخطوبة ، ويقدم متوسط الحال ثلاثين دينارًا نقدًا ،وأمة سوداء قيمتها خمسة عشر دينارًا ، وقطعة قماش من نسيج الحرير والكتان ذات ألوان عدة متصالبة ، ومناديل أيضًا ، وقماشًا مطرزًا بديعًا ، وبعض الحلى الفضية ، وأشياء أخرى كالأمشاط والعطور والمراوح الجميلة . بعد تسجيل العقد ، يدعو الخاطب جميع الحضور لتناول الغداء معه فيقدم لهم الزلابية واللحم المشوى والعسل ، أما والد المخطوبة فيدعو أصدقاءه لوليمة(٤٦) . ويواصل الحسن الوزان مشاهدته ، عن الواجبات والحقوق لوالد المخطوبة وللخاطب ، وعن موكب

العروس وعن الولائم التى تقام فى هذه المناسبة ، وهى ثلاث ولائم ، الأولى تكون يوم الزفاف والثانية فى ثانى يوم لهذا الزفاف ولا يدعى فيها إلا النساء ، أما الثالثة فبعد أسبوع من الزفاف ، ويحضرها والد العروس وكل أقاربها ، ويرسل والد العروس فى هذا اليوم ، هدايا قيمية ، للزوج ، تتألف من علب الحلوى ومن الخراف ، كما أن العريس يخرج بعد سبعة أيام من الزفاف لشراء كمية من السمك ، لكى ترمى على قدمى العروس ، كنوع من الفأل الحسن . بالإضافة إلى هذه الولائم الثلاث التى تقام فى منزل الزوج ، فهناك وليمتان تقاما فى منزل والد العروس ، الأولى قبل يوم واحد من الزفاف ، والثانية يوم الزفاف(٤٧) .

ومن العادات الأخرى السيئة ازدياد إيمان الناس بالكهان والمشعوذين وكثرة عددهم، وقد لفت ذلك نظر الحسن الوزان فذكرهم فى كتابه ، وقسم العرافين إلى ثلاثة أقسام ، فالقسم الأول هم العرافون الذين يجيدون فن الضرب بالرمل ويتقاضون نقودًا تتفق وموارد الأشخاص . والقسم الآخر ، هم العرافون الذين يسكبون الماء فى قطعة كبيرة مطلية بدهان ويسقطون فى هذا الماء قطرة زيت ، ومن خلال الطبقة التى تكونها نقطة الزيت ، يوهم العرافون الناس أنهم يرون عصابات بعضها قادمة من البحر والبر ، ويقوم العراف باستجواب الشياطين ، ويصدقهم الناس ، ويدفعون لهم الكثير من الأموال . أما القسم الثالث من العرافين ، فهى فئة من النساء ، يوهمون الناس بأنهم على صلة قوية بالشياطين ويستطعن التنبؤ بأى شئ عن طريق سؤال الشياطين وعندما يحصل السائل على بغيته يترك هدية للشياطين(٤٨) .

كذلك وجد فى فاس عدد كبير من المشعوذين ، وهم من الرجال يقومون بترديد القصائد فى الحدائق العامة . وأثناء غنائهم هذه الأشعار يدقون الدفوف ويعزفون على الربابة والعود ويبيعون للناس الرقى وهى أوراق كتب عليها بعض الكلمات لشفاء الأمراض(٤٩) .

وإلى جانب هؤلاء العرافين والمشعوذين ، وجد نوع آخر من المشعوذين ، يطوفون فى الشوراع ، وهم يعملون على ترقيص القردة ، ويحملون الأفاعى حول أعناقهم وفى أيديهم ، ويقومون بالتنبؤ بالغيب عن طريق الرمل ، ويخبرون النساء بالمستقبل(٥٠) .

وصحبت هذه العادات السيئة أمراض اجتماعية أسوأ ، إذ كان بعض الرجال يأتون الأطفال شهوة كما مارست النساء الفحش مع النساء ، فالحسن الوزان عند كلامه عن فاس ، يعرض لبعض المنحرفين من المتصوفة ، الذين يبيحون لأنفسهم كل المتع ، وهؤلاء المتصوفة لا عمل لهم ولا يمارسون أية مهنة بل يعيشون مثل الأنعام أو اضل سبيلاً ، وليس من عادتهم الزواج بالنساء بل ممارسة الشذوذ مع تلاميذهم الصغار . وفى حديثه عن العرافين فى فاس ، يتطرق إلى فئة النساء من هؤلاء العرافين ويصفهم بأنهن يستعملن المساحقة بعضهن مع بعض(٥١) .

النظم التعليمية :

تعكس النظم التعليمية والتربوية فى تلك الفترة مختلف التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولذلك اتسمت بتدهور الناحية التربوية والتعليمية فى بلاد المغرب . وينعى ابن عرضون الموقف التعليمى المتدهور ، وخاصة تعليم الأطفال ، الذين سدت أمامهم طرق تعليم مبادئ القراءة والقرآن والسنة خصوصًا ، وأدى هذا " لانتشار الكفر وهو شىء مشاهد للعيان " وتمثل هذا الكفر فى رأيه فى عدم عناية الآباء بتربية أطفالهم ، وممارسة العادات البعيدة عن السنة والمنهج المالكى كما ضعف الارتباط بالدين الإسلامى(٥٢) .

ويقدم ابن عرضون عدة نصائح ومقاييس لإصلاح هذا التدهور التعليمى تختص بالملبس والمأكل وبعض مظاهر العيش ، ليلتزم به الناس فى تربية أبنائهن وتعليمهم بعيدًا عن مظاهر البذخ والترف فيقول : " ومهما كان الأب يصونه من

نار الدنيا فإن يصونه من نار الأخرة أولى وصيانته بأن يؤدبه ، ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها - ويمدح عنده الصبى المتأدب القليل الأكل ، ويحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المباهاة به والقناعة بالطعام الخشن ، ويحبب للصبيان الثياب البيضاء دون الملون ، ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا التنعم والترفه ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يسمعه يرغبه ، ويقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ، بل على الأكابر أيضًا ويعوده التواضع والإكرام ، ويمنع أن يؤخذ من الصبيان شىء بدلالة وحشمة إن كان من أولاد المحتشمين بل يعلم أن الرفعة فى العطاء لا فى الأخذ وأن الأخذ لوم وخسة ، وأن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الأخذ والطمع مهانة ومذلة»(٥٣) .

ولم يكن التعليم حقًا للجميع ، فالقلة القليلة من الذين يدخلون الكتاب هم القادرون على مواصلة دراستهم للحصول على شىء من العلم والمغاربة الأثرياء هم الذين كانوا يرسلون أطفالهم للتعليم كما اقتصر التعليم الإجبارى على الذكور ، دون الإناث ، اللاتى اقتصر تعليمهن على تعلم الفرائض وأدائها وكان هناك تحفظ من تعليمهن الكتابة والقرءاة ويتم تعليمهن بعيدًا عن الذكور ،وكما قال المغراوى « وأحسن النظر التفريق بين الذكور والإناث وأكره خلطهم لأنه فساد » وربما كان يتم تعليمهن فى بيوت خاصة ، وعلى أيدى معلمين منتدبين لهذا الغرض .

وكانت إجبارية التعليم لا تنصب على سن محددة ، بل كان الفصل يجمع بين أعمار متفاوتة ولذلك نادى المغراوى بوجوب التفرقة بين الصغار والكبار .

وقام تدريس المنهج الدراسى على عدة مراحل ، ففى أول الأمر ، يطلب من التلاميذ حفظ القرآن ، ثم الكتابة والقراءة فى المرحلة الثانية ، أما المرحلة الثالثة فيطلب من التلاميذ الترتيل وإتقان الحفظ والإعراب وكانت هناك مواد مساعدة

على فهم الآيات القرآنية ،كقواعد اللغة العربية والبلاغة ، كما كانت هناك مواد إضافية ، كحفظ أسماء الشهور العربية والميلادية ، والشعر الجيد والفلك ودرس هذا العلم الأخير بهدف معرفة الشهور العربية وأوقات الصلاة وغير ذلك من الأمور المتصلة بالشعائر الدينية . أما علم الحساب فدخل ضمن مناهج الدراسة نتيجة لهجرة الأندلسيين إلى المدن المغربية ، وكان الغرض من تعليمه ، فهم المعاملات المالية وقسمة الميراث(٥٤) .

أما تعلم الخط فقد كان له أهميته بين هذه المواد ، وحظى بإقبال كبير ، حيث يتمكن من يتقنه الحصول على وظيفة كاتب فى إحد دواوين الحكومة ، أو عند السلطان .

وتم تدريس هذه المواد بصورة تدريجية ، حيث ينتقل الطالب بعد هذا الإعداد إلى تعلم اللغة العربية عن طريق المتون ، والهدف العام لتلقين هذا المنهاج الدراسى ، هو تعميق الفكر السنى المالكى ، وتمكينه فى نفوس الناشئة وأدى ذلك إلى إهمال المواد التعليمية والفلسفية(٥٥) .

أما عن فترات الدراسة فقد كانت الدراسة تبدأ بصباح يوم السبت وتنتهى صباح الخميس ، ويبدأ اليوم الدراسى بعد صلاة الصبح ، وهو يوم كامل ، ويقسم إلى عدة فترات ، فمن صلاة الصبح إلى الضحى ويعطى التلاميذ بعد ذلك فترة راحة ، ويواصل الطلاب الدراسة إلى قرب صلاة الظهر ، ثم ينصرفون من أجل الصلاة وتناول الطعام ، ثم يواصلون الدراسة إلى صلاة العصر . ويبدو من هذا أن تقسيم اليوم الدراسى مرتبط بأداء الصلاة ، وهذا يوضح ارتباط التعليم بالناحية الدينية .

ويأخذ التلاميذ أجازة يومين عقب ختم القرآن ، وثلاثة عند عيد الفطر ، وخمسة أيام عيد الأضحى ، وسمح للمعلم بالتغيب يومين أو ثلاثة بأجر للقيام بالأمور الزراعية ، ولا يحق للمعلم التغيب عن الدراسة إلا بأذن أولياء الأمور .

وأولياء أمور الطلاب كان لهم سلطتهم على المدرسة والمدرسين ، فالمدرس يأخذ الأجازة بعد موافقتهم ، ويستأذن ولى الأمر ، فى زيادة عقوبة الطالب ، بالنظر إلى سن التلميذ ويهيىء أولياء الأمور أماكن الدراسة ، بعقد واتفاق مع المعلمين ، ويقومون بالصرف على المدارس(٥٦) وبجانب هذه المدارس العامة ، مدارس خاصة مرتبطة ببعض الشخصيات ، فابن غازى نحى نحوًا خاصة فى طريقة تدريسه ، لذلك أصبح صاحب مدرسة خاصة . وكان له دور فى نشر العلم . ومكانته العلمية فى عصره ، وتصدره للدرس والتدريس ، وكرس له كرسى لتدريس العمدة فى الحديث ، رسالة ابن زيدون(٥٧) . وقد كثر تلاميذ ابن غازى، فكان يدرس ببيته ، علاوة على المسجد والمدرسة . وكان الطلاب يرحلون إليه من كل مكان للاستماع إليه ، كما كانت له مراسلات مع بعض تلاميذه ، حول المسائل الفقهية والأدبية . وقد أجاز ابن غازى الكثير فى المشرق والمغرب ، ومنهم أحمد بن على البلوى الوادياشى الذى خرج من غرناطة قبيل سقوطها مع أبيه وأخيه ، قاصدًا أداء فريضة الحج والاتصال بمشايخ الإسلام ومن تلمسان كتب لابن غازى لإجازته(٥٨) .

والأجازات فى هذا العصر كانت بمثابة شهادات علمية ترفع حائزها إلى مصاف العلماء ، وتخوله تولى المناصب العليا فى دواوين الدولة . وعندما يجيز الشيخ طالبه في علم أو عدة علوم يذكر سنده فى هذه العلوم ، موضحًا الشيوخ الذين أخذ عنهم وشيوخهم مسلسلين إلى واضع العلم أو مؤلف الكتاب(٥٩) .

وكان لجامع القرويين دوره الثقافى المتميز فى ذلك العصر ، فيصف أحد الشيوخ المعاصرين(٦٠) الحياة التعليمية فى هذا الجامع ، والمواد التى تدرس به مثل الحديث والفقه والنحو والتفسير والحساب والطب والفلك ، وكانت الدراسات الفقهية لها عناية كبيرة وتخصص لها مجالس مختلفة ويتحدث هذا الشيخ عن دراسته بهذا الجامع فيقول « فلما أتيت إلى فاس وجدتها روضًا من رياض الجنة ، وذلك على أيام الشيخ ابن زكريا محمد الشيخ الوطاسى ت ٩١٠هـ/ وكان فى ذلك الزمان الرجال الأفاضل من العلماء قراءة وفهما(٦١) .

وقد نال المعلم حظًا كبيرًا من الإعداد التربوى والعلمى والأخلاقى ، فكان من متطلبات هذه المهنة ، أن يكون المعلم عارفًا بأحكام القرآن واتقان اللغة العربية . والفقه ، وأن يكون متزوجًا ، ويتمتع بأخلاق وسمعة حسنة ، فالمغراوى يطالب بأن يمنع من التدريس من يتحدث عنه بسوء(٦٢) .

وكان المعلم فى البادية يختلف عن معلم المدن ، لأنه يمارس مهام أخرى غير العملية التعليمية . فنتيجة لانتشار الأمية . قام بمهنة الكاتب للآخرين ، وساعد فى حل المنازعات وحل كثير من القضايا ، وزرع وحصد ، لذلك اختلفت المواعيد الدراسية عند أطفال البادية ، فكانوا يتعلمون ليلاً ، لانشغال المعلم والأطفال بالأعمال الأخرى .

ونادى ابن عرضون والمغراوى بوجوب حسن سلوك المعلم وتحليه بالأخلاق الكريمة ، ورسما للمعلم طريقًا مثاليًا للتدريس ، فطالبا باتخاذ الجدية تجاه طلابه ، وإتباع أسلوب العدل بينهم ، فى كل شىء والتدرج بالتلاميذ لتوصيل المادة الدراسية لأفهامهم ، فتبدأ العملية التعليمية بكتابة الحروف على اللوح للصبى وتهجيته لها . هذا مع التكرار حتى يستطيع الصبيان إتقان مادتهم العملية وكان من واجب المعلم الإشراف على كل صغيرة وكبيرة ، فى جلوسهم وكتبهم وتجويدهم وألواحهم وضبطها وأصلاحها(٦٣).

أما العقوبة للمخالفين للنظام التعليمى فهى تدريجية ، تبدأ بالتنبيه الشفهى ، فالتقريع والوعيد دون سب أو شتم . أما أقصى عقوبة فهى الضرب الذى يزداد كلما كبر سن المتعلم . وأن تكون العقوبة معادلة للخطأ(٦٤).

أما أماكن التعليم ووسائله ، فخصصت المساجد لتعليم الكبار ، وكانت تعتبر مرحلة وسطى بين الكتاب والمرحلة العليا للتعليم . وطالب فقهاء ذلك العصر بأن تكون أماكن التعليم سهلة الوصول إليها ، فتكون وسط المدينة ، ولذلك تركزت الكتاتيب بها ، وكان أولياء أمور التلاميذ يجهزون هذه الأماكن التعليمية،

عن طريق عقد سنوى بين المعلم وبينهم . وقد يختار المعلم المكان المناسب لأداء هذه العملية . أما الوسائل التعليمية ، فتمثلت فى اللوح ، والممحاة الخاصة بمحو ما يكتب عليه ، وكانت تسمى (الأجانة) أو (الحلابة)(٦٥) بالإضافة إلى أداة العقاب وهى الفلقة أو الدرة التى اعتبرها ابن عرضون غير لائقة بحامل القرآن ومعلمى الأطفال .

وأعطى الحسن الوزان وصفًا لمدارس تعليم الأطفال التى بلغت فى عهده المائتين فالمدرسة كانت تضم قاعة كبيرة بها درجات تستخدم مقاعد للأطفال ، ويقوم المعلم بتعليم الأطفال القراءة ، بالاستعانة بألواح كبيرة من الخشب عليها التلاميذ واقتصر الدرس اليومى على كتابة آية من آيات القرآن الكريم ، فى خلال سنتين أو ثلاث ، يتم كتابة القرآن الكريم كله . وتكرر هذه العملية عدة مرات حتى يجيد الأطفال تعليم القرآن بصورة متقدمة جدًا ، ويحفظه عن ظهر قلب ، وربما تم ذلك بعد إنقضاء سبع سنين وبعد ذلك يقوم المعلم بتعليم الأولاد قليلاً من الخط .

ولم يكن هذا التعليم مجانيًا بصورة مطلقة ، بل كان والد الطفل يقدم هدية معينة للمعلم بعد إجادة ابنه جزءًا لا بأس به من القرآن ، وعندما يختم الطفل القرآن الكريم ، يقيم الأب وليمة فخمة لكل التلاميذ يحضرها أصدقاؤه وفى هذه الوليمة يقدم أصدقاء الوالد الحاضرون هدية للمعلم ، كما يقدم الطفل المحتفى به كسوة جديدة لأستاذه ، وفى يوم مولد النبى يقوم الآباء بإهداء شمعة للمدرسة ، كذلك يأتى كل طفل بشمعته . وهذه الشموع تعتبر موردًا ماليًا للمعلم ففى بعض الأحيان يبيعون هذه الشموع ، بما قيمته مائة دينار(٦٦).

واتفق وصف الحسن الوزان فى نقاط كثيرة مع ابن عرضون ، والمغراوى وقد قدما تأليفين ، عن الحياة التعليمية والتربوية فى عصرهما .

الهـــوامش

(١) الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، صفحات متفرقة .

(٢) انظر الخريطة المرفقة في نهاية البحث .

(٣) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ج٢ ، ص٢٣٢

(٤) محمد مزين : فاس وباديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدى ، ج١ ، ص١٥٧ .

(٥) ذكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلدين مخطوط ، رقم ٣٦١٨ ، الخزانة الملكية بالرباط ص٤٣٦ .

(٦) الحسن الوزان : مصدر سابق ص٢٠٢ ، وانظر الخريطة فى نهاية البحث .

(٧) إبراهيم حركات : مرجع سابق ص٢٣٣ ، عبد القادر العافية : الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها ص٢٠٨ .

(٨) أحمد بوشرب دكالة والاستعمار البرتغالى ، ص٧٦ - ٧٧ .

(٩) انظر الخريطة فى نهاية البحث .

(١٠) أحمد بوشرب : مرجع سابق ، ص ص٧٦ - ٧٧ .

(١١) نفسه .

(١٢) أحمد بوشرب: مرجع سابق ، ص ص٧٩ - ٨١ .

(١٣) الحسن الوزان : سابق ، ص ١٢٤ .

(١٤) عبد الكريم كريم ، (دكتور) : المغرب فى عهد الدولة السعدية ، ص٤٢ .

(١٥) شهد الحسن الوزان بيوت ممارسة الزنا ، فقال « عند كلامه عن مدينة فاس » ويوجد أيضا بيوت عامة تمارس فيها البغايا بثمن بخس وتستمد هؤلاء النسوة حمايتهن من قبل مفوض الشرطة وحاكم المدينة » . ويمارس بعض الرحال ، دون خجل فى بلاط الملك عاداتهم السيئة فلديهم نساء ساقطات فى بيوتهم وخمر للبيع ويستطيع أى شخص أن يستمتع بذلك بكل طمأنية » . وصف أفريقيا ، ص ص ٥٢٠ -٥٢١ .

(١٦) مثل كتاب المعيار المعرب ، والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب، لأحمد بن يحيى الونشريسى المتوفى بفاس عام ٩١٤هـ وكتاب النوازل ، لإبراهيم بن هلال السجلاماسى .

(١٧) القرآن الكريم : سورة فاطر ، آية ٤٨ .

(١٨) يمدحه ابن عسكر فيقول أنه الشيخ العالم الزاهد الحجة الدامغة الناسخة ، صنهاجي الأصل من طنجة ، أخذ العلم عن عديد من المشايخ والفقهاء ، واعتمد فى التصوف على عديه شيخه عبد الله الغزوانى . دوحة النشر ، ص ص ٧ - ١٤ ، وأحمد بن القاضى : لقط الفوائد من لفاظة حقق الفوائد ، ص٣٠٨ .

(١٩) يقرر الأستاذ محمد المنونى أنه فى ظل الاحتلال البرتغالى ونتيجة له ، حدث انحلالاً خلقيًا وعقائديًا وشاعت البدع وظهرت جماعات منحرفة مثل الطائفة« اليوسفية » ، وعرفت أيضا بالشراقة وهم من أتباع الإمام ابن العباس أحمد بن يوسف الراشدى الملياني المتوفى سنة ٩١٧هـ/ ، وانحرفت هذه الطائفة عن طريق أستاذهم . محمد المنونى : التأثير العثمانى فى المغرب ، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربى الجزء الثانى ، سلسلة الدراسات التاريخية (١) عام ١٩٧٩ وينعى صاحب الدوحة ما وصلت إليه هذه الطائفة المنحرفة عن الطريق السوى فيقول « ليس هؤلاء المبتدعة من أحوال الشيخ أبى العباس الملياني » فى شيء بل فعلوا كفعل الرافضة والشيعة فى أئمتهم » . ابن عسكر دوحة النشر ص٩٢

(٢٠) إن الجهاد أكبر المعين | عليه تبنى أمور الدين
وكانت تباع النفس دون ريب | بلذة عظيمة فى القلب
وعندما مال إلى الزوال | دين الهدى ذو العز والمعال
انتشر الإيمان قل من عقده | شيئًا فشيئا بانقضاء ذره

(٢١) كان من أكابر العلماء أخذ العلم عن الإمام القورى ورحل إلى تلمسان ، وأخذ عن الإمام ابن مرزوق ، ولما احتل البرتغاليون طنجة وأصيلا لازم الثغور الهبطية لأجل الرباط والجهاد فى سبيل الله تعالى وانتشار التعليم والعلم ، وكان الورياجلي يدرس العلم « بقصر كتامة » ويقضى ويفتى بسائر البلاد الهبطية ، وكان من عادته أن يشتغل بالتدريس فى فصل الشتاء والربيع ، ويرابط فى الصيف والخريف بثغور القبائل الهبطية ، تولى رياسة العلم فى « فاس » وبها استقر إلى أن مات ، اشتهر بغزارة علمه ، فكان الناس لا يرفعون إليه إلا المعضلات من المسائل الكبار المهمات « وتوفى فى سنة أربع وتسعين وثمانمائة من الهجرة » . ابن عسكر ، الدوحة ، ص ٣٠ - ٣٣ ، أحمد الونشريسى : وفيات الونشرين ، ص١٥٢ ، ابن غازى : الفهرسة : ص١١٣ .

(٢٢)ابن عسكر : مصدر سابق ، ص٩١ - ٩٢ ، ومحمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ، ص٢٦٩ .

(٢٣) ابن عسكر : مصدر سابق ، ص٦٦ - ٦٧ .

(٢٤) الحسن زين فيلالى: إبراهيم بن هلال السجلماسى، رسالة ماجستير غير منشورة عام ١٩٨٦ .

(٢٥) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن على بن غازى العثمانى المكناسى الفاسى ، وقد اختلف فى سنة ولادته ، فبعضهم يرجعها إلى سنة ٨٥٣هـ والبعض الآخر يرجح تاريخ ٨٤١هـ استنادًا إلى ما ذكره فى كتابه الروض الهتون فتحدث عن رحلته إلى فاس « وأظن أن رحلتى سنة ثمان وخمسين وثمانى مائة فاقمت بها » فيكون رحل إلى فاس وعمره سبع عشرة سنة لاستكمال دراسته ، ووردت ترجمته فى عدة كتب من كتب التراجم منها درة الحجال ، وجذوه الاقتباس لابن القاضى ، ودوحة الناشر لابن عسكر وشجرة النور الزكية لمحمد بن محمد مخلوف ، وغيرهم .

وله مؤلفات كثيرة منها « شفاء العليل بشرح خليل » و« الروض الهتون فى التعريف بأخبار مكناسة الزيتون » وفهرسته المعروفة باسم « التعلل برسوم الأسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد » وأخذ العلم عن كثير من العلماء فى المشرق والمغرب ، منهم الشيخ بن قاسم القورى ، والشيخ على بن منون الحسنى المكناسى ، والشيخ عبد الله بن عبد الواحد الورياجلى والشيخ عثمان بن محمد الديمى المصرى ، والشيخ محمد بن عبد الرحمن السخاوى القاهرى والشيخ عبد الرحمن المجدولى المشهور بالتونسى . ومن أساتذته الذين أجازوه الشيخ محمد بن محمد بن مرزوق التلمسانى .

وكان لمكانة ابن غازى العلمية فى عصره ، أن كثر تلاميذه ، فكانوا يرحلون إليه من بعيد للاستماع إليه وكان له مع بعضهم مراسلات فقهية وأدبية . ومن أشهر تلامذته ، ابنه أبو العباس ، وابنه محمد وغيرهم كثيرون . وتوفى فى أواخر العشرة الثانية من القرن العاشر الهجرى بمدينة فاس يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى ، ابن عسكر : الدوحة، ص٤٥ - ٤٦ ، وابن القاضى : جذوة الاقتباس ، القسم الأول ص٣٢٠ . ، وابن غازى: الفهرسة ، المقدمة لمحقق المخطوط ، محمد الزاهى أستاذ بالمعاهد الثانوية التونسية .

(٢٦) دوحة الناشر ، ص٢٤ .

(٢٧) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٢٦٠ - ٢٦٢ .

(٢٨) نفسه .

(٢٩) نفسه .

(٣٠) ففي موضوع المآتم والمبالغة في الأحزان يقول الشيخ عبد الله الهبطي:

ومـــن اقـــامة البرهـــــان	على ذهاب الدين والإيمـــان
ما أظهروا من كفرهم بربهـم	عند حلول الموت في قريبهـم
نرى نساء أولئك الفجـــار	في حالة كحالة أهل النـــار

عن الألفية السنية للشيخ عبد الله الهبطي ، مأخوذة من كتاب الحياة السياسية بشفشاون تأليف عبد القادر العافية ص١٨٧ - ١٨٨ .

(٣١) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، وعند زيارتي لبلاد المغرب ، لاحظت أن كثير من هذه العادات ما زالت موجودة بين الطبقات الفقيرة .

(٣٢) إبراهيم حركات : مرجع سابق ، ص٢٤٢ .

(٣٣) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٢٢٥ -٢٥٦ .

(٣٤) محمد بن أحمد بن شقرون (دكتور) مظاهر الثقافة المغربية ، ص٤٢ .

(٣٥) يصفه صاحب الدوحة ، بأنه كان يمقت البدع فقيهًا حافظا متقنًا ورعا شديد الشكية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تفقه بحضرة فاس وأخذ عن كثيرون من مشايخها مثل ابن غازي ، والهبطي وغيرهم ، وأخذ من هذا الأخير طريق التصوف ، ألف كتب منها « غنيمة السلماني » وآخر اسمه ضياء النهار ، وكتاب سماه « بالنصائح يحرم من الأنكحة والذبائح » ، وتوفي رحمة الله عليه سنة ست وخمسين وتسعمائة ودفن داخل باب الفتوح من مدينة فاس ، ويضيف ابن القاضي إلى ذلك أنه كان فقيها نوازليا يستظهر الفقه المالكي وكان قوالا للحق . ابن عسكر : الدوحة ص ص ١٤ - ١٥ ، ابن القاضي: جذوة الاقتباس ، القسم الأول ص١١١ .

(٣٦) هو أبو البقاء عبد الوارث بن عبد الله اليصلوتي ، أصله من بني يصلوت من قبائل غمارة على مقربة من قرية شفشاون ، كان أستاذًا لابن عسكر قرأ عليه رسالة ابن زيد في الفقه، ورجز ابن سينا في الطب واستفاد من علمه الكثير ، إذ كان غزير العلم ، وأخذ العلم عن شيوخ عدة منهم محمد سيدى عبد الله الغزاوني ، والشيخ أبا العباس أحمد بن يحي الونشريسي ، والقاضي المكناسي وابن الحباك وغيرهم ، توفي في حدود ٩٧٠هـ ، وكان عمره أكثر من تسعين سنة . ابن عسكر : دوحة ، ص٥ - ٦ .

(٣٧) أسند إليه منصب القضاء بشفشاون ، ابتداء من عهد المتوكل السعدى (٩٨١/٩٨٣هـ /١٥٧٣ - ١٥٩٥م) وكان من القضاة الذين يفتخر بهم هذا المنصب ، وكان له مواهبه فى القضاء والافتاء وله مؤلفات عديدة تدل على غزارة علمه ، ظل فى منصب القضاء نحو عشر سنين ، من أهم كتبه « اللائق لمعلم الوثائق » وهو كتاب هام لا يستغنى عنه القضاة والمفتين ، وكتابه الآخر « مقنع المحتاج فى آدب الأزواج » ، يتناول فيه قضايا الزواج ، وتربية الأطفال ، ويتحدث عن العادات فى الولائم والحفلات وغيرها ، وله عدة كتب أخرى ، يقول عنه ابن القاضى أنه كان عاقلاً ، توفى بمدينة فاس بعد السبعين وتسعمائة . ابن القاضى ، جذوة الاقتباس بالقسم الأول ، ص١٦٠ ، عبد القادر العافية ، مرجع سابق ، ٣٣٥ - ٣٣٨ .

(٣٨) هى إحدى قبائل مصمودة ، من قبائل البربر البرانس ، طبقا لتقسيم ابن خلدون لقبائل البربر ، وتسكن هذه القبائل ما يعرف باسم منطقة الريف ، ومن أشهر قبائلها بنى منصور وبنى رزين . ابن خلدون : العبر جـ٢ ، ص٩٠ - ٩٢ ، الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٣٢٦ .

(٣٩) عبد القادر العافية: مرجع سابق ، ص١٥٠ - ١٥٧ .

(٤٠) الوشم محرم فى الإسلام لأنه تغيير للخلقة ، ويقول ﷺ فى حديثه الشريف « لعن الله الواصلةوالمستوصلة والواشمة والمستوشمة » سيد سابق : فقه السنة ص٤٤ .

(٤١) عبد القادر العافية : مرجع سابق ص١٥٧ .

(٤٢) قال الشيخ الهبطى فى عادة شرب الخمور :

شراب الخمور فاش فى غير حشمة — على جهرة وفاق كل البرية
فذاك يشربه وذاك بكسبه — وهذا مداهن لأهل الغواية
تعامى خيار الخلق عن كل منكر — ولكن تسارعوا إلى كل فتنة

ومن ألفيته السنية نلتقط بعض الأبيات ، توضح من هذه العادة السيئة :

شرب الخمر فى المحافل — بمحضر الفضول قل والفاضل
يشربونها على ائتلاف — بمحضر المئين والالآف
مع أن فيهم للكتاب حافظا — ولا يقبلون فيها حتما واعظا

إن حثتهم بآية وبالخبر   تبسموا بل قهقهوا بلا حذر

ويواصل كلامه عن مضار الخمر فى الدينا والآخرة فيقون :

الخمر ضار عند أصحاب الغنى   من جهلهم أحل ما قد يقتنى

من مخطوطة الألفية للشيخ الهبطى ، مأخوذة من كتاب الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها ص١٦٩ .

(٤٣) عبد القادر العافية : مرجع سابق ص١٦١ .

(٤٤) نفسه ، عبد الكريم : مرجع سابق ، ص١٩ - ٢١ .

اتخذوه عدة للحادثات   به يتال العزما بين الصفاه

وربما استغنوا عن النساء   وعنه ما لهم من استغناء

إن سافروا به يسافرون   أو قدموا إليه يقدمون

وكل ما كان إلى الانفاق   فى الخمر قد أتى بلا شقاق

من الألفية السنية للشيخ الهبطى .

(٤٥) وثيقة رقم ١١٥ ، من مجموعات وثائقية ودورية ، الوثائق الملكية الأولى - المطبعة الملكية الرباط .

(٤٦) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٢٥٧ .

(٤٧) نفسه ، ص٢٥٨ - ٢٦٠ .

(٤٨) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص ٢٥٦ - ٢٦٦ .

(٤٩) نفسه ، ص٢٧٢ .

(٥٠) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص ٢٧٧ .

(٥١) نفسه .

(٥٢) تامر البشير : جوانب من تاريخ التربية فى المغرب ، ص ص ٤٢ - ٤٧ « مجلة تاريخ المغرب العدد الرابع ، السنة الرابعة ، ذو القعدة ١٤٠٤هـ / أغسطس ١٩٨٤ .

(٥٣) نفسه ، ص٤٨ .

(٥٤) المغراوى : جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان ، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم ١٥٤١ .

(٥٥) تامر البشير : مرجع سابق ، ص٥٣ .

(٥٧) إبراهيم حركات : مرجع سابق ص٢٥٦ .

(٥٨) ابن غازى : التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد ، صفحات متفرقة .

(٥٩) محمد حجى : الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ، جـ١ ، ص١٠٠ -١٠١ .

(٦٠) هو الشيخ أبو الحسن على بن ميمون الحسنى الغمارى شغل منصب القضاء بشفشاون ، مدة من الزمن ثم اتجه إلى فاس وبقى بها سبع سنين ، وفى سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م ، رحل إلى المشرق ، مارًا بالجزائر ، تونس ، وبعد أداء فريضة الحج ، تجول فى بلاد الشام وتركيا واستقر فى صالحية دمشق وبقى بالشام إلى أن توفى بقرية « مجدل معوش » قرب بيروت سنة ٩١٧هـ وله تأليف يتحدث فيه عن جامع القرويين ، يسمى « الرسالة المجازة فى معرفة الأجازة » ابن عسكر دوحة الناشر ، ص ٢٣ .

(٦١) عبد القادر العافية : الحياة السياسية والاجتماعية بشفشاون ، ص٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٦٢) المرجع السابق : ص٥٤ .

(٦٣) نفسه ، ص٥٨ .

(٦٤) نفسه ، هذه المبادىء التربوية ينادى بها بعض التربويين فى العصر الحالى وتؤخذ فى الاعتبار فى العملية التربوية .

(٦٥) تامر البشير : المرجع السابق ، ص٥٦ .

(٦٦) الحسن الوزان : مصدر سابق ، ص٢٦٣ - ٢٦٤ .

القبائل الدكالية في بداية القرن 16

المقياس: 1/1000000

الشاوية

أزمور

البريجة

تيط

أولاد عمران

سبيطة

أولاد عمران

السعادنة

العكاوين

كوتني

آسفي

امسكورة

تانسيفت

امراكش

بني تميم

بني عامر

المفتاح -

مرتفعات

مدن

قرى

اتجاه انتشار اولاد عمران الشكاوت.

اتجاه انتشار قبيلة اولاد عمران الجنوبية.

اتجاه انتشار اولاد سبيطة.



المصادر المعتمدة :

- Léon L'Africain. "Description de L'Afrique". Tome. I. p. 158

- أبو زيد عبد الرحمن الفاسي: "نظم الأقنوم" مخطوط - خ - ع: ك ١٢٥ (انظر الملاحق: ٨ - ٢ - ٣ - ٤

- ابن خلدون: كتاب العبر ج 5 و 6.

المقياس :

0 50 100 كلم

. مصمودة : المجموعة القبلية

. غمارة : القبيلة

. بنو منصور : الفرع

● : المدينة

ظاهرة ضعف القيم الأخلاقية في عصر الطوائف بالأندلس

د. أحمد بن صالح السحيباني(*)

عاش المجتمع الإسلامي بالأندلس - حكاماً ومحكومين - حياة وسطية لاتصل به إلى الغلو وترك المباحات والطيبات من الرزق ، كما لاتهبط به إلى الهاوية والانغماس في البذخ والملذات .

وقد ظل كثير من الزعماء الأمويين بالأندلس محافظين على هذا الاتجاه ، مؤكدين على أهميته ، وهذا بلاشك مما أعطى دولتهم قوة أمام القوى الصليبية المتربصة بالمسلمين هناك ، ولكن حينما بدأ الضعف ينتاب الخلفاء اللاحقين وأخذت النزعة المادية لديهم بالظهور ، وتزامن مع بداية ضعف الدولة ليس أمام القوى النصرانية فحسب ، بل حتى مع الثوار والمنتقضين على الدولة من بني جلدتها ، حينئذ بدت معاول الهدم ، وأسباب الضعف تنخر في جسم الدولة الأموية ، مما انذر بسقوطها .

وحينما سقطت الدولة الأموية بالاندلس، قامت على أنقاضها دول الطوائف ، التي غلب عليها حب الدنيا والسعي للمصالح الذاتية ، وإشباع الغرائز فضلاً عن حياة اللهو والترف ، وغدا ذلك كله هاجساً دائماً ، وهدفاً مهماً يسعى إليه الكثير من مسلمي الأندلس حتى ولوأدى ذلك إلى تقديم تنازلات دينية ، أو سياسية ، أو خلقية ، أو وطنية(١) .

وهكذا ضعفت كثير من القيم الخلقية مما أدى إلى انتشار الكثير من الأمراض الخلقية بينهم ، كحياة الترف ، وكالمجون ، والخلاعة ، وشرب الخمر

(*) كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الأمام محمد بن سعود- الرياض .

والاستغراق فى الملذات الجسدية ، والاكثار من الجوارى والنساء ، وهى الأمور التى صارت قاسما مشتركا بين كثير من دول الطوائف(٢).

ومما لاشك فيه أن وجود مثل هذه الأمراض الخلقية يمثل معولا من أكبر معاول الهدم التى تقضى على الأمم والجماعات بل حتى الأسر والأفراد ، وفقا لقوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾(٣).

وعبر الشاعر عن ذلك بقوله :

إنما الأمم الأخلاق مابقيت فانهموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد ادرك هذه الحقيقة ابن خلدون فعقد فصلا فى مقدمته بعنوان :(فى أن من علامات الملك التنافس فى الخلال الحميدة وبالعكس) وقد جاء فى هذا الفصل قوله :(.. إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات ، وانتحال الرذائل وسلوك طرقها ، فتفتقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال فى انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ... واستقرىء ذلك وتتبعه فى الأمم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه ...)(٤).

ويدرك من يستقرىء تاريخ ذلك العصر أن هذه الظاهرة لم تنشأ فى الأندلس من فراغ فى ذلك المجتمع المسلم ، بل كان لها أسباب وظروف نشأت فى ظلها ، كما كانت لها وسائلها وطرقها وميادينها ، كما تمخض عنها نتائجها وافرازاتها .

وسوف تحاول هذه الدراسة بإذن الله - رصد هذه الظاهرة من خلال هذه المحاور .

أما أسبابها فمما لاشك فيه أن الوازع الدينى عند أفراد ذلك المجتمع كان السبب الرئيسى لذلك الضعف ، وقد أكّد ذلك عدد من المؤرخين المعاصرين فابن حيّان - شيخ مؤرخي الأندلس - قال واصفاً ذلك العصر :(دهرنا هذا قد غربل

أهليه أشد غربلة ، فسفف أخلاقهم ، وسفه أحلامهم ، وخبث ضمائرهم ... فاحتوى عليهم الجهل يعللون نفوسهم بالباطل ...)(٥) .

أما ابن حزم فقد وصف تلكم الحالة بقوله :(اللهم إننا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا ، بدنياهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب ، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم ، وبجمع أموال ربما كانت سبباً فى انقراض أعمارهم ، وعوناً لأعدائنا عليهم عن حاجة ملتهم حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة ، وأنطلقت السنة أهل الكفر والشرك(٦)...) كذلك ذكر فى موضع آخر أن ملوك الطوائف لو علموا أن فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها(٧)وقد ذكر ابن عذارى أنه فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة تميز ملوك الطوائف ، وعمتهم الفرقة ، مامنهم من يحذر الآخرة(٨).

وقد ترك لنا ابن الكردبوس وصفا أدق لمجتمع ملوك الطوائف حيث بيّن أنهم:« مشغلون بشرب الخمر ، واقتناء القيان ، وركوب المعاصى ، وسماع العيدان ، وكل واحد منهم ، يتنافس فى شراء الذخائر الملكية .. إلى أن ضعف ... الطالب والمطلوب وذل الرئيس والمرؤس ، وافتقرت الرعية ، وفسدت أحوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية ...»(٩).

أما الشعراء والأدباء فقد لمسوا هذا الضعف ، فصوروه ، وذكروا سببه وأجادوا فى ذلك .

ومن هؤلاء أبو الحسن بن الجدّ وكان من ضمن ماقاله(١٠):

أرى الملوك إصابتهم بأندلس … دوائر السوء لا تبقى ولاتذر
ناموا وأسرى تحت الدجى قدر … هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من فى كفه قدح … تحدوبه مذهلات النأى والوتر
كأننى بكم قد صرتم سمرا … ومالكم فى الورى عين ولا أثر
أماتكم قبل موت سوءُ فعلكم … وكيف بالذكر إذلم تحسن السير

كذلك ذكر المقرى قصيدة لأحد شعراء الأندلس ، بين فيها واقع المسلمين آنذاك ، وكيف تغير حينما ابتعدوا عن دينهم ، وتخلوا عن أصالتهم وقيمهم التى دخلوا بها ، ومما جاء فى تلك القصيدة(١١) .

فإن قلنا العقوبة أدركتهم ... وجاءهم من الله النكير
فإنا مثلهم وأشد منهم ... نجور وكيف يسلم من يجور
أنأمن أن يحل بنا انتقام ... وفينا الفسق أجمع والفجور
وأكل للحرام ولا اضطرار ... إليه فيسهل الأمر العسير
ولكن جرأة فى عقر دار ... كذلك يفعل الكلب العقور
يزول الستر عن قوم إذاما ... على العصيان آرخيت الستور

هكذا وصف المؤرخون حالة أولئك القوم ، فالبعد عن الالتزام بأحكام الدين ومبادئه، أصبح سمة غالبة ، لها مظاهرها الواضحة فى المجتمع الإسلامى بالأندلس.

وقد وصف المراكشى بعض تلك المظاهر ، بقوله :(وأخذ الله أكثر هؤلاء الرؤساء ... بسوء فعلهم ... من ظلم المسلمين ، وأخذ أموالهم بغير حق ، وتغييرهم لنعمهم ، وقطعهم لثمارهم ...)(١٢) .

ووصف أحد الباحثين المحدثين ذلك الوضع فقال : « انتشر الربا بين الناس الذين تحايلوا على منع الزكاة ، وقاموا باحتكار السلع والمواد الغذائية ، حتى يثروا على حساب الغير ، كما أثرى غيرهم من الحكام ، وجرهم هذا إلى إتقان تزييف العملة ... أما الرشوة وأكل أموال اليتامى ، والتجسس ، والجبن ، والجهل ، والكذب ، وغش الأطعمة ، والأغذية ، وانتشار السرقات ، واللصوصية ، وغير ذلك من الرذائل ، والعيوب الاجتماعية ، فقد انتشرت بين الناس انتشاراً واسعاً حتى قال بعض المعاصرين أن تلك الحال لا يصلحها إلا نبى »(١٣) .

وبالإضافة إلى ضعف الوازع الدينى فإن من الأسباب القوية - أيضا- فى إيغال أولئك القوم فى تلكم المستنقعات الموبوءة مامنوا به من ضعف معنوى ، إلى

جانب ماتعرضوا له من نكبات نفسية ، وشعور بـالقلق ، مما جعلهم يتوقعون أن فى ممارسة مثل تلكم السلوكيات خلاصا لهم مما كانوا يعانونه من الأوجاع النفسية أو ساترا لماهم فيه من ضعف وحيرة ، ومن أمثلة ذلك ماذكره ابن عذارى من أن المعتضدبن عباد والى حرب ابن الأفطس صاحب بطليوس عدة شهور من سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، فغير بلده كمادمر عمارات واسعة وأفسد غلاتها وأوقع فى رعيته المجاعة الطويلة . فلما انتهى ابن عباد من تدويخ بلاده ورجع إلى إشبيلية أرسل المظفربن الأفطس رسولا إلى قرطبة ليشترى له وصائف ملهيات يأنس بهن نافيا بذلك الشماتة عن نفسه ، و لم تكن له عادة بمثل هذا الأمر . وقد وجد له رسوله صبيتين ملهيتين عند بعض التجار فاشتراهما بغالى الثمن(١٤)، وتعجب الناس « مما شهربه نفسه من البطالة أيام الحروب المحرمة لإظهار النساء على فحول الرجال العاقدة لأزرة على ماكان يدعيه لنفسه من الأدب والمعرفة»(١٥).

كذلك ذكر الفتح بن خاقان أن المعتصم صاحب المرية أقام مجلساً للهو والخمر ليخفف من حزنه على وفاة إحدى حظاياه ، ويقول الفتح فى ذلك :«قدم بين يديه من الآت أطرابه وأدوات شربه ، ما اتخذه لأنسه جالباً، ولِلوعته غالبا»(١٦).

هكذا كان أولئل القوم يلقون بأنفسهم فى أوحال الترف ، ومستنقعاته ، ظنا منهم أن فى تلكم الأعمال خلاصاً مماهم فيه من ضعف ونكسة نفسية ، فإلى جانب ضعفهم فى ميادين الجهاد ومقاومة الأعداء فإن هذا التحرر من الأخلاق والعادات والقيم أدى إلى ضعف دولهم ، وتراخى سلطانهم حينما أصبحوا أسرى للذاتهم وشهواتهم حيث وصف أحدهم تلكم الحال بقوله(١٧) :

لعمرك إنى بالمدامة قوال ... وإنى لما يهوى الندامى لفعّال

قسمت زمانى بين كدّوراحة ... فللرأى أسحار وللطيب آصال

فأمسى على اللذات واللهو عاكفا ... وأضحى بساحات الرئاسة ختال

ولست على الإدمان أغفل بغيتى ... من المجد إنى فى المعالى لمحتال

ويقول الآخر :

علل فؤادك قـد أبـلّ عليـل ... واغنم حياتك فالبقـاء قليـلُ

لـو أن عمـرك ألف عام كامل ... مـا كان حقا أن يقال طـويل

أكذا يقودبك الأسى نحو الردى ... والعود عود والشمول شـمول

لايستبيك الهـم نفسـك عنوة ... والكأس سيف فى يديك صقيل

بالعقل تزدحم الهموم على الحشا ... فالعقل عندى أن تزول عقـول(١٨)

وقد انعكس هذا الضعف ، فى التمسك بمبادىء الدين وأحكامه ، على واقع المجتمع الإسلامى هناك ؛ حيث أدى غياب الوازع الدينـى مـن نفـوس النـاس حكاماً ومحكومين إلى حدوث خلل عام ، بدت صوره ومظاهره واضحة للعيـان ، من أهمها ظاهرة ضعف القيم الأخلاقية .

وهذه الظاهرة قد بدت فى عدة صور لعل من أهمها :

١- التكاثر المادى ٢- الترف والاسراف ٣- المجون والخلاعة.

١- أما التكاثر المادى :

فقد بدت ظاهرة واضحة ، وسمة مميزة لذلـك العصر حيـث تنـافس أولئـك القوم فيها ، وقد كانت لهم وسائل خاصة سلكوها من أجـل هـذا الغـرض، بينهـا المؤرخون حيث ذكروا أن الكثير من أولئك القوم كانوا لا يتورعون عن أى وسيلة يرون أنها تزيد من كسبهم ، أوتعينهم على تحقيق مصالحهم الذاتية ، أو توفـر لهـم حياة مترفة . فعلى بن حمود(٤٠٧-٤٠٨هـ) صاحب قرطبة فرض على أهل قرطبة ضروباً من المغارم ، كما انتزع السلاح منهم(١٩)، من أجل تحقيق هـذا الغـرض ، بل أنه حاول ضرب الناس بعضهم ببعض ، حيث ((توصل إلى أعيـانهم بقـول مـن شرارهم ففتحوا لهم أبواباً من البلايـا أهلكـوا بهـا الأمـة ، وتقربـوا إليـه بالسـعادة فيهم، وصار سقطر الناس أشراطا على سائرهم ، فلما تلقى أحدا الا بوكيلـين عليه .. وأظلمت الدنيا وأبلس أهلها ، وغشيهم مـن الله ماغشيهم ..))(٢٠) وكذلـك

هذيل بن خلف بن زرين (٤٠٣-٤٣٦هـ) صاحب شنتمرية الشرق فقد غرق في لذته وشهواته وصارت حياته صماء عن كل عمل خير بل بلغ به الجهل والفظاظة أن قتل أمّه بيده(٢١) .

أما المعتضدبن عباد صاحب إشبيلية ، فإنه لما ولى الأمر بعد أبيه ، بدأ بتصفية رجال الدولة ؛ لكى يستبد بالأمور ، وينفرد بالجاه والسلطان ويتحقق له ما يريد من حياة الترف ،« فمنهم من قتله صبرا ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خمولا وفقراً ، إلى أن تم له ما اراد من الاستبداد بالأمر ..»(٢٢). ويذكر المراكشى أنه استولى على مال رجل أعمى ، فلما ذهب الأعمى إلى مكة حيث أخذ يدعو على المعتضد ، أرسل إليه من سمّه هناك ، كما قتل على هذه الصورة رجلا من المؤذنين من أهل إشبيلية ، فرمنه إلى طليطلة(٢٣).

ولم يتورع المعتضد بن عباد حتى عن أموال العميان ومتوسطى الحال من عامة الناس ، بل ضمها إلى ماله ليكاثر بها أقرانه ملوك الطوائف ، وليدفعها ثمناً لملذاته وشهواته ، غير مبال بالأسلوب الذى نهجه أو الوسيلة التى اتبعها . ومما زاد الأمر سوءاً أنه حينما سلك هذا المسلك لم يكن بحاجة إلى ذلك المال للدفاع عن البلد أو تجهيز جيوش الجهاد ،بل كان جل غرضه وغرض أنداده من ملوك الطوائف الذين نهجوا هذا المنهج هو بنيان القصور ، وجمع الخيول ، واقتناء الغلمان ؛ ليتفاخروا بها فيما بينهم ، حيث عدوا هذه الأمور من الهمم العالية ، والرتب الملوكية ، كما أنها أصبحت هدف كل واحد منهم(٢٤). ويذكر ابن حيان أن المعتضد ابتنى القصور السامية ، واعتمر العمارات المغلة واكتسب الملابس الفاخرة ، وغالى الأعلاق السنية ، وارتبط الخيول السابحة ، واقتنى الغلمان الروقة ...»(٢٥).

ومن أبرز من سلك هذا المسلك من ملوك الطوائف المقتدر بالله أحمد بن هود (٤٣٨-٤٧٤هـ) حاكم الثغر الأعلى الأندلسى ، فقد أجبر رعيته على دفع المال له ، فلما اعترض عليه أحد الصالحين قتله(٢٦)، وقد ترك لنا المؤرخون وصفاً

دقيقاً لتمادى كل من مبارك ومظفر العامريين - حاكما مدينتى بلنسية وشاطبة - فى هذا السلوك. يقول ابن عذارى : « وبلغت جبايتها لأول ولا يتهما إلى مائة وعشرين ألف دينار فى الشهر ، سبعون بلنسية ، وخمسون شاطبة ، يستخرجانها بأشد العنف من كل صنف حتى تساقطت الرعية .... وسلك مبارك ومظفر سلوك الملوك الجبارين فى إشادة البناء والقصور ، والتباهى فى عليات الأمور إلى أبعد الغايات ، واشتمل هذا الرأى على جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما ، وكتابهما ، فاحتذوا فعلهما فى تفخيم البناء ...لاهين عما كانت فيه الأمة يومئذ كأنهم من الله على عهد لايخلفه ...

واتسع الخرق فى عظيم ذلك الإنفاق ، فمنهم من قُدّرت نفقته على منزله مائة ألف دينار ... وكان لمبارك ومظفر جنة ذلك النعيم ... فأنغمسا فى النعيم إلى قمم رؤوسهما وأخلدا إلى الدعة ...»(٢٧).

أما ابن حيان فقد بين أن ما ناله هذان الزعيمان من بحبوحة العيش إنما كان بسوق الرعية المضطهدة ، فقد كانا لايعيثان بما نالها من آذا هما حيث يقلدان عليها شرار العمال ، حتى غدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر ، ويأكلون البقل والحشيش ، كما فر أكثرهم من قراهم(٢٨)، كذلك بين أن هذا الأسلوب كان سلوك الكثير من ملوك الطوائف الذين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة بنى أمية هناك(٢٨). وذكر الطرطوشى أن من عوامل ضعف المسلمين فى عصر ملوك الطوائف بالأندلس حرصهم على جمع المال ، ليس من أجل إعداد الرجال والقوة بل من أجل الراحة والدعة . وهذا مما أضعفهم حيث كان « للروم بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال ، فبهذه الحلة قهرونا وظهروا علينا »(٢٩) كما يقول الطرطوشى .

وقد عد ابن بسام تلك التصرفات المشينة(٣٠) من قبلهم بأنها قد غاظت الجماعة حيث داسوا أحساب الأحرار بأقدامهم متغافلين عن عادة الله فيمن جرى بمجراهم(٣١).

أما منذر بن يحيى التجيبي (٤٠٧-٤٣٠هـ) صاحب سر قسطة فقد كان مع سموه للمعالي مؤثراً لشهواته ، غير متردد في قضاء لذاته حيث كان متهالكا على حب الدنيا(٣٢) .

وكان أبويحيى محمد بن صمادح (٤٤٤-٤٨٠هـ) صاحب وشقة قد آثر مصالحه الذاتية مستبدا بالأموال لإشباع شهواته ولذاته « دون قضاء حق في جهاد عدو أو سد ثغر..»(٣٣) .

وذكر ابن بسام أن أبا يحيى هذا اقتصر على قصر يبنيه ، وعلق يقتنيه ، من اللذة يستولى عليه ويبرزفيه(٣٤) اما حسام الدولة ابن رزين (٤٣٦هـ) فقد نافس جاره إسماعيل بن ذى النون فى جمع المال ، وفى خلال البخل وفرط القسوة ... وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس فى شراء القينات فاشترى جارية ابن عبد الله المتطبب بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها بثلاثة آلاف دينار ..»(٣٥) كما ذكر ابن بسام أن ابن رزين كان له طبع يدعوه فيجيب ، كما كان يزدرى بالأمة ولايأبه بالناس(٣٦) أما أبو الوليد عبد الملك بن جهور (٤٥٠-٤٦١هـ) فقد استباح أموال الناس ، كما سلط على الرعية أهل الفساد ، حيث أهمل مسؤولياته الشرعية ، بل تعاظم على من حواليه حيث سمى نفسه بذى السيادتين ، المنصور با لله ، والظافر بفضل الله(٣٧) .

ويذكر ابن عذارى أن سبب خلع أهل قرطبة لعبد الملك بن جهور هو ضجرهم من جوره وتعديه هو وحاشيته على الناس(٣٨) حيث استعانوا بجيش ابن عباد الذى جاء لنصرته ضد ابن ذى النون ، ولما حاصر قرطبة ثار عليه أهل المدينة بمؤازرة الجيش العبادى ، فكان زوال ملكه أسرع من لحسة الكلب كما يقول صاحب كتاب الأنباء فى سياسة الرؤساء(٣٩). ويبدو أن عبد الملك بن جهور قد بالغ كثيراً فى الاستيلاء على أموال الناس ، وضمها إلى حوزته حيث يذكر ابن سهل أنه أقيمت عليه دعوى بهذا الخصوص بعد سقوط دولة الجهاورة ، وأنه حكم برد المظالم إلى أهلها(٤٠).

ومن أجل تحقيق المصالح الدنيوية لم يتورع بعض ملوك الطوائف عن التنازل عن المدن التى يحكمونها مقابل مال معين يحصلون عليه . ومما يذكر فى هذا الشأن موقف عبد العزيز البكرى حاكم شلطيش حينما حاصره ابن عباد بها فقد اصطلح معه على أن يبيعه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال . ثم لجأ إلى قرطبة فى كنف ابن المأمون مستأمنا على الأموال والأنفس ، بينما دخل ابن عباد شليطش التى خذلها زعيمها مقابل حصوله على الأموال(٤١).

* * *

هذه نماذج وأمثلة لحرص ملوك الطوائف على جمع المال ، والتفاخر فى كثرته ، ثم انفاقه فى ترفهم ومجونهم ، وهنا لابد من التساؤل عن الأساليب والوسائل التى كان أولئك القوم يستخدمونها لهذا الغرض الهدّام ، وتلك الغاية المقيتة ؟ ، وللإجابة على هذا التساؤل يقال : إن المتتبع للتاريخ السياسى والحربى لذلك العصر يدرك أنه لم يكن يحكمه أى مبدأ من مبادىء القيم والأخلاق بل الأعراف والتقاليد ، حيث كان الصراع السياسى والحربى هما الوسيلة الأولى فى هذا الميدان مهما كان الثمن لذلك ، ولم يتورع الحكام عن المكر والخديعة ، ونقض العهد ، كما كانوا ينهجون المراوغة مرة والمداهنة أخرى ، من أجل تحقيق هذا الهدف المهم فى نظرهم ، فإن لم ينفع هذا ولاذاك فالسيف(٤٢)وهذا بلاشك مما أوقد نار حرب ضروس ، كان وقودها المسلمون عامة ، خلفت الكثير من المآسى ، وذهب ضحيتها الآلاف من القتلى ، ولذا بقيت المدن نتيجة لتلك الحرب خالية من سكانها عدا الشيوخ والأطفال والنساء كما يذكر ابن عذارى(٤٣).

ولو حاولنا استقصاء ما بذل فى هذا الميدان لطال بنا المقام ، ويكفى أن كتب التاريخ التى عنيت بعصر ملوك الطوائف زاخرة بأحداث وحوادث تلكم المآسى ، ولكن حسبنا فى هذا المقام إشارة عابرة للدلالة والاستشهاد لا للرصد والتدوين .

ما يشفع لنا فى هذا المقام أن مؤرخى الأندلس المعاصرين لها قد [illegible] ذكرها لالطول أحداثها فحسب ، بل لمرارتها وشدة وقعها على

النفوس . يقول ابن بسام ، وهو ممن عايش تلكم الأحداث حينما تحدث عن ابن صمادح :« وقد كانت بينه وبين حلفائه من ملوك الطوائف فى الجزيرة فتون مبيرة... وقد اندرجت له ولهم فى تضاعيف هذا التصنيف قصص تضيق عنها الأيام وتتبرأ منها القراطيس والأقلام »(٤٤).

ومما يمكن ذكره هنا ، تلكم الحروب التى وقعت بين عدد من ملوك الطوائف تناحراً على المصالح الذاتية ، فمنها ماوقع بين بنى زيرى أمراء غرناطة وبين زهير الفتى الصقلبى حاكم المرية والتى انتهت بمقتل زهير عند أسوار غرناطة ، حينما تصدى له باديس بن حبوس زعيم البربر فى غرناطة سنة ٤٢٩هـ(٤٥)، ثم استولى على المرية معن بن صمادح غدراً من يد صهره عبد العزيز بن أبى عامر(٤٦).

ولم تكن هذه هى الجبهة الوحيدة التى قاتل فيها البربر ، بل إن بنى زيرى خاضوا حروباً متواصلة مع بنى عباد حكام إشبيلية ، حيث تمكن العباديون من اختراق الصف البربرى ، حينما أوقعوا بين زناتة فى قرمونة ، وصنهاجة فى جنوب الأندلس ، لكن العباديين خسروا الجولة حينما حاولوا الاستيلاء على قرمونة وأشبونة ، واستجة ، حيث قتل قائدهم إسماعيل بن عباد سنة ٤٣٠هـ حينما خذله بعض جنده(٤٧).

وكانت دولة بنى جهور فى قرطبة هدفاً مهماً لكثير من ملوك الطوائف ، وذلك لأهمية موقعها ، ولضعف قوتها ، حيث كان أول الطامعين بها بنوعباد الذين واصلوا حملاتهم العسكرية ضدها ؛ بغية الاستيلاء عليها ، وإسقاط دولة بنى جهور ، إن لم يبايعوا هشام المؤيد(٤٨)، وقد أثرت تلك الحملات على أهل قرطبة حيث غلت أسعارهم كما أصبحوا شبه محصورين داخل مدينتهم ، حينئذ أدركت باديس بن حبوس حاكم غرناطة الحمية ، فخرج لنصرة ابن جهور ضد خصومه بنى عباد الذين فروا بعد هزيمتهم خارج قرطبة سنة ٤٣١هـ(٤٩).

ولم يكن بنو عباد وحدهم الطامعين فى إسقاط دولة الجهاورة ودخول مدينة قرطبة للاستيلاء على خيراتها(٥٠)، بل إن الحموديين وبنى ذى النون ،

وغيرهم(٥١)كانت لديهم تلك الأطماع حيث حاولوا ذلك أكثر من مرة لكنهم فشلوا ، وفي النهاية آلت قرطبة إلى العبادين ، بعد تمكن جيشهم من طردبني ذى النون من عند أسوارها ، وذلك فى ٢١ شعبان ، سنة ٤٦٢هـ(٥٢).

وكانت العلاقة بين بني الأفطس حكام سرقسطة ، وبين جيرانهم بني عباد سيئة، بسبب التنافس على المصالح الذاتية ، فقد وقعت بينهما مصادمات حربية كثيرة بسبب نزاعهما حول مدينة لبلة التى تقع على الحدود بينهما ، حيث قتل فى إحدى المعارك سنة ٤٤١هـ أمير قرمونة كما قتل عبيدالله الخراز صاحب يابرة بينما نجا ابن الأفطس من المعركة بصعوبة ، وقتل من جيشه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف رجل(٥٣).

أما بنو ذى النون وبنو هود حكام سرقسطة ، فقد استمر الصراع بينهما من أجل تلكم الغايات الدنيوية ، ومما يذكر هنا نزاعهما حول مدينة وادى الحجارة(٥٤)، ذلك أنه حينما استولى عليها سليمان بن هود ، قامت قيامة يحيى بن ذى النون طمعا بتلك المدينة وما فيها من خيرات . وقد استعان كل واحد منهما بالنصارى ضد صاحبه حيث دامت الحرب بينهما من عام ٤٣٥هـ إلى آخر عام ٤٣٨هـ ولم تنته إلا بوفاة سليمان بن هود(٥٥)بعد أن خلفت آثاراً عسكرية ، واجتماعية ، ونفسية ، واقتصادية جسيمة .

هكذا كان واقع ملوك الطوائف، فالراضى منهم كان يضمر التوسع ، والساخط ينوى الثأر والانتقام . وهذا مما أشعل الحرب بينهم وأدام نشوب المعارك، وربما لسنوات عديدة دون هدف سام ، أو غاية نبيلة ، وقد كان الواحد منهم حينما يحشد الحشود لمحاربة أحد جيرانه من ملوك الطوائف يبالغ فى ذلك حتى إن كل واحد من ملوك الأندلس حينما يسمع بتلك الحشود يتوقع أنه توجه نحوه ، ويظن أنه لايريد سواه(٥٦).

لم تكن تلك الحروب تحكمها مبادىء دين أو خلق ، بل كانت تقوم على المكر والخديعة ، ثم تنتهى بالسلب والنهب ، وربما القتل والتمثيل ، وهذا بلاشك

مما أمات في النفوس الأنفة الإسلامية ، والشيم الحميدة ، حيث صار أفراد تلك الجيوش كالوحوش المتنافسة على فريستها ، حينما تجردوا من كل خلق سليم ،أو قيم حميدة ، حيث لم تنج أسرة واحدة من الأسر الحاكمة في ذلك العصر من الصراع الداخلي والخارجي(٥٧)، بل أمضوا معظم سنى حكمهم في ذلكم الصراع ، وهكذا أصبح الاستقرار السياسي شبه معدوم عندهم ، بسبب الجشع والطمع ، والسعي وراء الذات ومصالحها .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد أدى الظلم في جمع الأموال من الرعية ، وتحصيلها بأى وسيلة ممكنة إلى قول أحد المعاصرين « إنه ليس في الأندلس في ذلك الوقت درهم حلال ولادينار طيب يمكن القطع بأنه حلال عدا ما يستخرج من وادى لاردة من ذهب »(٥٨) كما قال أحد الكتاب المحدثين إنه في الوقت الذى كان النصارى يعدون الرجال لحرب المسلمين كان سلاطين الأندلس يخزنون الأموال ، ويضيعون الرجال ، كما قال أحد المعاصرين إن تلك الحال لا يصلحها إلا نبى(٥٩).

ويبدو أن هذا المرض بل الداء العضَال قد تأصل في نفوس جميع ملوك الطوائف حتى من عُدوا من الفاسطين منهم كأبى الحزم ابن جهور الذى وصفه الذهبى بأنه « من رجال الدهر حزماً وعزماً ودهاء ورأياً »(٦٠) كما وصفه ابن حيان بأنه أمين الجماعة المأمون عليها(٦١). لكنه مع هذا كان حريصا على جمع المال ، «حتى تضاعف ثراؤه وصار لاتقع عينه على أغنى منه أحاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذين لولاهما ماوجد عائبه عليه مطعنا ولكمل لو أن بشرا يكمل »(٦٢) كما يقول ابن حيان . ولعل من الإنصاف أن نذكرهنا أن ثراء أبى الحزم بن جهور لم يكن على حساب بيت الدولة ، بل كان بسبب نظره لمعيشته حسبما يقوله ابن عذارى(٦٣)، كما ذكر ابن بسام أنه كان لايلتبس من مال المسلمين ولا يدخل داره(٦٤)وقد ذكر ابن عذارى - أيضا- نقلا عن ابن حيان أنه « اخترع لهم لأول وقته نوعا من التدبير حملهم عليه ، وأجادوا السياسة فيه ،

فانسدل الستر على أهل قرطبة مدّته وحصل كلّ ما يرتفع من البلد بعد إعطاء مقاتليه ، وصير ذلك فى أيدى ثقاة من الخدمة مشارفاً لهم بضبطه فإن فضل شىء تركه فى أيديهم ، متفقا مشهودا عليه لا يلتبس لهم بشىء منه ، ومتى سئل قال ليس لى عطاء ولا منع هو للجماعة ، وأنا منهم ...»(٦٥).

لكن تلك الأمور التى تجمعت فى بيت مال قرطبة لم تفدها كثيرا . ذلك أنها لم توجه إلى إعداد القوة وتحصين البلاد ضد الأخطار المحيطة بها ، بل ربما أضحت مصدر خطر حينما تسامع بها أولئك الطامعون فتداعوا عليها كما تتداعى الأكلة على قصعتها .

وكان هذا الحرص على التكاثر المادى عند ملوك الطوائف سببا فى ظلم الرعية والاستيلاء على أموالهم بغير حق(٦٦)، كما كان عاملا رئيسا فى القعود عن الجهاد ، بل حتى عن إعداد الجيش ومدافعة العدو القادم . ولعل مما يدل على ذلك موقف أهل بربشتر(٦٧) التى داهمها العدو سنة ٤٥٦هـ فقد وجد فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه كثرة ، كما يذكر البكرى(٦٨)ولا استبعد أن تكون ظاهرة التكاثر المادى التى عُنى بها أولئك القوم ،حتى أصبحت آفة من آفات عصرهم ، قد عمل النصارى على إشعال جذوتها والسعى لتأجيج نارها بين المسلمين ، حتى يهدموا بيوتهم بأيديهم ، ويقضوا على قوتهم بذلكم المعول البالغ الأثر فى القضاء على الأمم والشعوب . ولعل مما يؤيد هذا الأمر ما ذكره الحجارى من أن النصارى قد تنبهوا لهذه الثغرة منذ وقت مبكر ، حيث قال أحد ملوكهم مخاطبا قومه حينما رأى طلائع جيوش المسلمين الفاتحة تجتاح بلاد الأندلس :« لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يُصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تُغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر»(٧٠) .

ولعل من المناسب أن نشير فى نهاية هذا المبحث إلى أنه بالرغم من حرص ملوك الطوائف على المال وجمعه إلا أنه كان يرخص فى عيونهم حينما يرون أن

بذله يدعم سلطانهم ، أو يظهر هيبتهم ، ولهذا بذلوا الكثير منه لكسب الأدباء والشعراء ، ورغبة في الحصول على مدحهم وثنائهم . ومن أمثلة ذلك أن المعتصم بن صمادح (٤٤٣-٤٨٤هـ) منح قرية بأكملها للشاعر أبي الفضل جعفر بن أبي عبدالله البرجي ، حينما قدم إليه يشتكي عامل تلك المدينة، وأنشده قصيدته التي مطلعها :

قامت تجر ذيول العصب والحبر ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

إلى أن بلغ قوله :

لم يبق للجور في أيامهم أثر إلا الذي في عيون الغيد من حور

فقال له المعتصم :« أنا سوغتك جميعها لهذا البيت الواحد ، ثم وقع له بها وعزل عنها نظر كل وال » (٧١).

أما المعتمد بن عباد (٤٦١- ٤٨٤هـ) فقد أعطى الشاعر عبد الجليل بن وهبون ألفي دينار على بيتين اثنين من الشعر هما :

غاض الوفاء مما تلقاه في رجل ولا يمر بمخلوق على بال

قد صار عندهم عنقاء مُغربة أو مثل ماحدّثوا عن ألف مثقال(٧٢)

كما منح الشاعر أبا العرب الصقلي على بعض شعره مبلغا كثيرا من الدنانير الفضية ، وتحفة غالية في صورة جمل من العنبر مرصع بنفيس الجوهر بيع بخمسمائة مثقال (فسارت بهذا الخبر الركائب وتهادته المشارق والمغارب(٧٣).

أما صور ذلك الضعف في القيم الأخلاقية فقد بدت واضحة ومن أهمها مظاهر الإسراف والبذخ والعيش في حياة مترفة تجاوزت الحدود في هذا الأمر ؛ إضافة إلى انتشار المجون والخلاعة بين أوساط كثير من شرائح مجتمع ملوك الطوائف .

٢- الترف والإسراف :

أما مظهر الإسراف والترف فقد تحدث عنه المؤرخون كثيراً ، ولعل من الأمثلة الواضحة على ذلك ماذكروه من إسراف المعتمد بن عباد - صاحب

إشبيلية ذلك أن زوجته اعتماد الرميكية رأت ذات يوم بإشبيلية نساءَ البادية يبعن اللبن فى القرب وهن رافعات عن سوقهن فى الطين ، فقالت له : أشتهى أن أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النسوة ، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد ، وصير الجميع طينا فى القصر ، وجعل لها قربا وصالاً من ابرسيم ، وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين . ويقال : إنه لما خلع وكانت تتكلم معه مرة ، فجرى بينهما مايجرى بين الزوجين ، فقالت له : وا لله ما رأيت منك خيرا قط ، فقال لها : ولا يوم الطين ؟ تذكيرا لها بهذا اليوم الذى أباد فيه من الأموال مالا يعلمه إلا ا لله تعالى ، فاستحيتْ وسكتتْ(٧٤)

كان هذا مثالاً واضحاً يدل على ما حلّ بدولة بنى عباد من ترف وبذخ ، وقد سارت على هذا المنهج دولة بنى ذى النون التى بلغت فى البذخ والترف إلى الغاية كما يقول المقرى (٧٥) ، وقد ذكر كدليل على هذا ماعرف عندهم بالأعذار الذنونى ، والذى كان يضرب به المثل عند أهل المغرب ، إذا أصبح عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق(٧٦) .

وقد ترك ابن حيان وصفا لوقائع ذلك الحفل الكبير الذى أقامه المأمون احتفالا بختان حفيده يحيى ، وفيه من صور الترف والبذخ ما ينم عن أن بنى ذى النون قد استرسلوا فى هذا الأمر(٧٧)كما بالغوا - أيضا- فى بناء القصور الفخمة، والتى كانت سببا فى هدم الدين والدنيا ، وتسلط الأعداء من النصارى ، كما يقول ابن بسام(٧٨) ، وقد عد الأموال التى أنفقت فى هذه الأعمال بأنها من السحت(٧٩) .

وقد سلك مبارك ومظفر العامريان فى إشادة البناء والقصور ، والتباهى فى عليات الأمور ، مسلك المبذرين ، وحذا نهجهما كتابهما ووزراؤهما وكثير من رعاياهما ، حيث هاموا فى ترهات مضلة ، وأعمال متصلة لاهين عما كانت فيه الأمة حينذاك من محن وأخطار(٨٠)، كذلك ذكر ابن عذارى أنهما بلغا فى هذا الأمر منتهاه ، حيث انغمسا فى النعيم إلى قمم رؤسهما ، وأخلدا إلى الدعة ، وسارعا فى قضاء اللذة حتى أربيا على من تقدم وتأخر(٨١).

ومما يذكر فى ميدان حياة الترف التفنن فى بناء القصور والمبالغة فى الانفاق عليها بل والسهر والجهد فى متابعة بنائها . وكان الواحد منهم حينما لا يظهر البناء بالشكل الموافق لرغبته ، وبالتالى لا يسد مالديه من فراغ ويملأ ما عنده من طموح ، يصبح ويضحى وهو مكفهر الوجه ، شارد الذهن كأنه قد أصابته فاجعة «لضياع ثغوره ، وتشعث أموره ، وامتشار الشرك بإزائه وظهوره»(٨٢) ولعل موقف المأمون بن ذى الذنون من عريف بناء قصره بطليطله دليل واضح على تأصل حياة الترف فى نفوس أولئك القوم(٨٣)» ومما يدل على هذا الأمر أيضا أن ابن بسام أفرد حديثا خاصا لماتناهى إليه المأمون من تشييد البنيان بقصور طليطلة (٨٤) .

وقد ساق ابن حيان مارواه أبو العباس السكرى الأسكندرانى أحد وزراء المأمون بن ذى النون حيث قال :« فدخلنا عليه - يعنى المأمون - لأيام يسيرة من مهلك أبيه ، وهو فى إيوان كبير قد ملأه بنقر الفضة ... فأمرنا بالدنو ، فبعد لأى ماخلصنا إليه ، لكثرة ما كان من ذلك بين يديه ، وقد امتلأت صدورنا عجباً ، وتقيدت الحاظتنا فما تجد متقلبا ، لهذا الاتفاق كيف وقع ، ولهذا السحت من أين جمع فاتصل رأى أبيه فى اختزانه ، ويُعرض بجمود كان فى بنائه ، ونحن نقول : لعله قد أنف لضياع ثغوره وتشعث أموره ، وانتشار الشرك بإزائه وظهوره ، وكأنه فهم مانخير ، وعلم إلى أين نشير ، فأظلم مابيننا وبينه وازور ازوراره أنكرنا بها أثره وعينه ، وقال من حق مثل هذا أن يصرف فى مثل ضروب الحلية الرائقة ... قال ابن بسام فتبارك من أحاط بالأشياء ، ولم يخف عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب ببيانه الهادم للدين والدنيا شأنه مربطا للأفراس وملعبا للأعلام الأرجاس(٨٥) » .

هذه نماذج لحياة الترف فى عصر ملوك الطوائف ، وهى بلا شك تعطى دليلاً واضحاً على ماوصل إليه ذلك المجتمع من إيغال فى تلك الحياة ، بل إنها تدلنا دلالة واضحة على تفننهم فى هذا المجال ، بل وحرصهم عليه مهما كانت النتائج المتمخضة عنه . ولهم فى هذا الميدان وغيره من المجالات المشابهة له أخبار

مأثورة كما يقول ابن حيان(٨٦) . بل إن هذا الأمر قد تأصل فى نفوسهم حيث لم يستطع الكثير منهم الخلاص من حياة الترف فقد ذكر ابن حيان أن أهل مدينة بلنسية قد خلوا بشهواتهم فتهاووا على المنكرات والمعاصى(٨٧) . ويؤكد ابن الدلائى هذا الأمر حيث يقول :(وقد اطبعت مدينة بلنسية بقلة الهم ، لا يكاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات ألا وهو قليل الهم مليئاً كان أو فقيرا ، وقد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحات والفرج ولاتكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ لنفسه مغنية أو أكثر من ذلك ، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغانى ، يقولون عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك ، وقد أخبرت أن مغنية بيعت فى بلنسبة بأكثر من ألف مثقال طيبة وأما مادون الألف فكثيرات »(٨٨).

وقد ذكر الأمير عبد الله بن بلقين (٨٩) أن أهل البيرة على مثل هذه الحال، كما ذكر أيضا أن جده باديس بن حبوس قد أخلد إلى الراحة والشراب والدعة ، وترك البلاد(٩٠) .

ولم يكن هذا الأمر فى أوقات السلم ، بل كان حتى أيام الحرب وأوقات الشدة وفى ميادين المعارك . وقد ذكر المؤرخون عددا من الأمثلة الدالة على ذلك، ومنها وصف ابن حيان لخروج أهل طليطلة لقتال عدوهم حيث خرجوا خروجاً غير لائق للقتال فيقول : « ومما وقع من التعجب أنه أخذ من البياض المقتولين من أهل طليطلة فى ذلك الوقعة ألف غفارة من لبوس أهل الرفاهية أيام المباهاة ، ركبوا بها إلى الطاغية - قصمه الله - كأنهم وقد سلم يشيدون العاقدة ، فياللرجال الحلوم قوم سكان بثغر مخوف ن أبناء قتلى وسلالة أسرى ، فلما خلوا من هيعة ، عدموا الراعى العثوف منذ حقب ، فنبذوا السلاح وقعدوا فوق الأرائك مقعد الجبابرة المتفاتنين بين أهل موسطة الأندلس ينتظرون من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حسبة»(٩١).

ويبدو أن هذه الموقعة التى تحدث عنها ابن حيان كانت من الأحداث التى قبل سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م. حيث أن ابن حيان لم يشهد السقوط واحداثه بل توفى رحمه الله قبل ذلك .

ويضاف إلى ما سبق ذلك الوصف الذى قاله الشاعر ابن الجد (٩٢) فى أهل بلنسية وهم خارجون للقاء عدوهم فى معركة بطرنـه (٩٣) سنة ٤٥٦هـ وذلك حينما خرجوا بثياب الزينة غير متأهبين للقتال حيث قال :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا(٩٤)

٣- الخلاعة والمجون :

ومن صور الضعف فى القيم الأخلاقية الخلاعة والمجون ، واتضح هذا الأمر فى التعلق بالجوارى والشغف بهن وما صاحب ذلك من شيوع العلاقات الغرامية، والاسترسال فى هذا الأمردون مبالاة بتعاليم الدين ، أو التزام بأداب الحياء والستر وقد ذكر ابن حزم أن الضعف فى هذا المجال عم جميع الناس و لم يسلم منه النزر القليل(٩٥) كما أسهب المؤرخون فى الحديث عن هذا الأمر ، إذ ذكر ابن حيان أن قرطبة حاضرة المسلمين هناك أصبحت مرتعا خصبا لمزاولة تلك الرذائل ، حيث كان ملوك الطوائف إذا احتاجوا إلى شىء من الملهيات يرسلون رسلهم إلى قرطبة للبحث والتنقيب عن الأوصاف التى يريدونها من الجوارى ، وأنه فى شوال سنة ٤٤٢هـ ، ورد على أبى الوليد بن جهور فى قرطبة رسول المظفر بن الأفطس يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار واشتراهماله(٩٦) .

كما ورد على أبى الوليد بن جهور بقرطبة من الكتب فى يوم واحد كتاب من ابن اصمادح صاحب المرية يطلب فيه جارية عواده ، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة(٩٧) .

وقد اشتهر المعتمد بن عباد بانه كان « له كلف بالنساء وخلط فى أجناسهن ، فانتهى فى ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد نظرائه » كما كان مولعا بالنساء حيث خلع ثمانمائة امرأة من أمهات الأولاد، وجوارى المتعة، وإماء الخدمة(٩٨).

وكان مجاهد العامري صاحب دانية والجزر الشرقية ذاشخصية مزدوجة ، فطورا كان ناسكاً ، وطورا يعود خليعا فاتكا لايساتر بلهو ، ولالذة ، ولا يستفيق من شراب وبطالة ، ولا يأنس بشيء من الحقيقة ، له ولغيره من سائر ملوك الطوائف في ذلك أخبار مأثورة(٩٩) ويقول ابن حيان : أما هذيل بن خلف بن زرين صاحب شنتمرية فقد كان من أرفع ملوك الطوائف همة في اقتناء القينات حيث اشترى جارية بثلاثة آلاف دينار(١٠٠) .

وكان ممن غرقن في تلك المستنقعات ، ولادة بنت المستكفي الأموي ، والتي أعلنت وقوعها في هذا الأمر ، حيث كتبت بالذهب على طرازها الأيمن(١٠١) :

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه فيها

وكتبت على الطراز الأيسر :

وأمكّن عاشقي من صحن خدّي وأعطي قبلتي من يشتهيها

وقد ذكر ابن حزم في كتابه طوق الحمامة العديد من صور الانحلال الخلقي التي كانت موجود في ذلك العصر . ومن أمثلة ذلك مجلس جمع بينه وبين إخوانه عند بعض مياسير أهل بلده وقد وصف المجلس بقوله :« ... فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة أيضا من أهل صاحب المجلس أمراً أنكرته ، وغمزا استشعته ، وخلوات الحين بعد الحين ، وصاحب المجلس ، كالغائب أو النائم ، فنبهته بالتعريض فلم ينته ، وحركته بالتصريح فلم يتحرك فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن وهما هذان :

إن إخوانه المقيمين بالأمن أتوا للزناء لا للغناء

قطعوا أمرهم وأنت حمار موقر من بلادة وغباء

وأكثرت من إنشاءهن حتى قال لي صاحب المجلس : قد أمللتنا من سماعهما فتفضل بتركهما أو إنشاء « غيرهما فأمسكت وأنا لا أدري أغافل هوام متغافل ، وما اذكراني عدت ذلك المجلس بعدها »(١٠٢) .

وبالإضافة إلى ماذكره المؤرخون ، فقد ذكرت كتب الحسبة التى عاصرت أولئك القوم أن التعلق بالقيان أصبح عادة منتشرة بين كثير من شرائح المجتمع وفئاته ولو كانوا من المؤذنين والقضاة حتى قال أحد الشعراء .

ليتنى فى المؤذنين حياتى أنهم يرون من فى السطوح
فيشيرون أو تشير إليهم بالهوى كل ذات دل مليح(١٠٣)

وقد ذكر ابن عبدون أن مجالس القضاء كان لا ينكر فيها وقوع مراودة المرأة والكلام معها ، وربما طالت قضيتها أمام القضاء ، حتى يتكرر دخولها على القاضى . وقال ابن عبدون أنه رأى هذا عيانا(١٠٤) .

هكذا غرق أولئك القوم فى مستنقع المجون والخلاعة ، وقد استغل هذا الأمر بعض الوزراء والموظفين الذين رغبوا أن يستبدوا بالحكم والسلطان ، فأشغلوا حكامهم بإغراقهم فى الملذات ، وإشغالهم بالنساء اللاتى كثرن ، وأخذ الكثيرات منهن تطمح فى ولاية من تربية من أبناء السلطان حتى يكون لها الحظوة والغلبة(١٠٥)، ويذكر الأمير عبد الله بن بلقين أن أشغال الحكام بالنساء كان أمرا مألوفا عند وزراء دولة بنى بلقين فى غرناطة(١٠٦) .

أما شرب الخمر فى قرطبة وغيرها من بلدان ملوك الطوائف فيبدو أنه أصبح أمرا لاغرابة فيه فى ذلك العصر ، حيث يذكر ابن حزم أن بيع الخمر فى بلاد المسلمين - آنذاك - أصبح أمراً مباحاً(١٠٧) ولهذا لما حاول أبو الحزم ابن جهور منعها مدحه الشعراء ومنهم ابن زيدون ، وعبد الرحمن بن سعيد المصغر(١٠٨) ، كما ذكر المقرى أن وادى إشبيلية لا يخلو من جميع أدوات الطرب وأن شرب الخمر فيه غير منكر(١٠٩) .

ولعل القارىء لدواوين الشعر فى ذلك الوقت يدرك كيف أن وصف الخمرة والتغنى بها كان أمرا مألوفا عند كثير من شعراء ذلك العصر حتى قال أحدهم(١١٠) .

جرت منى الخمر مجرى دمى فحل حياتى من سكرها

ولم يكن هذا الأمر قاصرا على فئة معينة من الناس ، بل كان كثير من الناس يقضون لياليهم إيقاظا يجتمعون على الكؤس حتى الصباح(١١١) .

بل لقد ذكر ابن عبدون أن مجالس القضاء لم تخل من ذلك حيث إن الخصماء أمام القضاة ما رسوا ذلك(١١٢) .

وكان للطرب والغناء نصيب عند أولئك القوم ، فقد كانوا يتفاخرون بكثرة آلاتها ومجيديها حيث يقولون : عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك(١١٣) .

ولو حاولنا استقصاء ماذكره المؤرخون حول الطرب والغناء في عهد ملوك الطوائف لطال بنا المقام ولكن قد يكون من المناسب أن نكتفي بذكر ماقاله أحد الباحثين حول هذا الموضوع حيث قال :((فانتشرت مجالس الغناء وأصبح هذا الفن بجملته جزءا من ثقافة الشعب حتى لنجد الفلاح في حقله ، والعامل في مصنعه ، والفقير في كوخه ، لايقل ولع أحدهم بالغناء عن الأمراء والعظماء(١١٤).

وكان هاجس الترف واللهو يسيطر على عقول أولئك القوم حتى وهم في ساحات الوغى وميادين القتال .فالمعتمد بن عباد حينما كان يحكم شلب أرسله أبوه ليحتل مالقة ، لكنه في الطريق إليها انشغل باللهو والسرور صحبة مغنيات كان يلتقطهن أثناء مسيره إليها ، فلم يستعد لمنازلة الخصوم فهزم . فلما عاد إلى أبيه ، وكان غاضبا عليه أرسل إليه قصيدة جاء فيها :

لم أوت من زمني شيئًا ألذبه ... فلست أعهد ماكأس ولا وتر
ولا تملكني ذلّ ولا خفر ... ولا سبى خلدى غنج ولا حور
هو المدام التي أسلوبها فإذا ... عدمتها عبثت فيقلبي الفكر(١١٥)

وقد كان انشغال الظافر بن المعتمد بن عباد حاكم قرطبة ووزيره ابن مرتين باللهو والشراب سبباً في دخول ابن عكاشة مدينة قرطبة وقتله إياهم(١١٦) .

وقد بدأت أعراض تلك الأوجاع التى حلت بالمجتمع الإسلامى فى الأندلس فى تلك الفترة تظهر عيانا فاستخف بعض الناس بالدين وتجردوا من الأخلاق والقيم الإسلامية ، وانتشر العهر بين النساء والبنات ، بل إن بعض زعماء ذلك العصر أباح لرجاله محارم الناس ، فكانوا يأخذون النساء من أزواجهن ، والبنات من آبائهن ، بل إن أحدهم زنى بزوجة أبيه وبعمته غير مبال بحرمة أو مرتدع من دين أو سلطان (١١٧) .

ومن صور الانحلال الخلقى ؛ الشغف بالغلمان ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن حزم من أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة فى الأندلس ، عشق غلاما نصرانيا فوضع له كتابا فى تفضيل التثليث على التوحيد تقربا إليه(١١٨) ، كما يذكر - أيضا - أنه فى ذلك العصر عظم البلاء فهان القبيح ورق الدين حتى رضى الإنسان بالفضائح والقبائح مقابل وصوله مراده وشهوته . وقد حكى لنا كثيرا من القصص حول هذا الموضوع منها ماذكره حول « عبيد الله بن يحيى الأزدى المعروف بابن الحريرى فإنه رضى بإهمال داره وإباحة حريمة والتعريض بأهلة طمعا فى الحصول على بغيته من فتى كان علقه ...»(١١٩).

كذلك ذكر ابن بسام أن ابن السقا(١٢٠) وزير بنى جهور كان رجلاً عَهر الخلوة لزهده فى النساء ، وكلفه بالغلمان ، حيث اتخذ داراً آخر مدته للخلوة بهم. فكان لا يخدمه فيها ولايحف به غير خاصة غلمانه كما كان لايأذن لأحد من طبقات الناس بالدخول إليه فيها ، ولهذا أكثر الناس القول فى هذه الدار وسموها دار اللذة(١٢١) .

وتحتوى كتب الأدب ودواوين الشعر على نماذج كثيرة لهذا النوع من الإنحلال الأخلاقى . وقد وصف ابن خاقاب أحد أدباء إشبيلية بقوله إنه : « لا يحفل بملام ، ولا ينتقل عن المدام إلا فى طاعة غلام »(١٢٢) كما قال فى وصف آخر أنه كان أليف غلمان(١٢٣).

ومن العجب أن هؤلاء القوم على الرغم من وقوعهم أسرى لملذاتهم وشهواتهم إلا أنهم كانوا وهم فى تلك الحال لا يعفون عمن يشعرون بأنه يسىء

إليهم ، أو يهدد سلطانهم . فالمعتمد بن عباد حينما غنت له إحدى الجوارى وقع في نفسه أنها تعرّض بالمرابطين فألقاها في النهر وهلكتْ ...(١٢٤).

أما عن آثار ونتائج هذا التدهور الخلقى الذى أصاب - ملوك الطوائف فلا شك أنها كات وخيمه وبخاصه في الجوانب السياسيه والعسكرية ذلك لأن النصارى كانوا يراقبون واقع المسلمين فلما رأوا أنهم قد غرقوا في مستنقع الفحش والرذيلة ، وأنهم أصبحوا يعيشون حياة طابعها الخلاعة والمجون ، أخذوا يسعون للإطاحة بهم . وقد بّين هذا الأمر السيد القمبيطور فى خطابه إلى أعيان بلنسية ، ومما جاء فيه : « ... من كانت له قضية عادلة فليأت إلى متى شاء ، وسأستمع إليه ، فإنى لا احتجب عنكم ، ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أولو أمركم ممن لم يمكنكم قط رؤيتهم »(١٢٥) .

هكذا زالت هيبة ملوك الطوائف من نفوس أعدائهم ، وكسر حاجز القوة بينهم بسبب تردى أخلاقهم وانغماسهم فى حياة المتع واللذائذ ، ولم يكن هذا الشعور عند النصارى فقط ، بل إنهم هانوا حتى فى نظر إخوانهم المسلمين ، كما يتضح فى قول السلطان يوسف بن تاشفين (٤٦٥-٥٠٠هـ) :« إنما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة، إنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم طوال هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم - يعنى الروم خيلاً ورجالاً لاعهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، وإنما أحدهم فرس يروضه ، ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته ...»(١٢٦) .

ومما لاشك فيه أن هذا الضعف الذى منى به ملوك الطوائف جعل مسلمى الأندلس يصابون بخيبة أمل ؛ لأنهم أدركوا أن زمام الموقف أصبح بيد النصارى المتربصين ، عبر عن هذا الشعور الشاعر الأندلسى ابن العسال حينما قال :

حثوا واحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لايأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات فى سفط؟(١٢٧)

ولم يكن هذا الشعور قاصرا على المسلمين بل تعداهم إلى العدو النصرانى الذى أدرك أن حصون المسلمين الداخلية قد ضعفت وأن الفرصة أصبحت مهيأة له لدخول الثغور والحصون الخارجية . ولهذا وضعوا خطة حربية تتناسب مع ذلك الواقع . وقد أبان هذه الاستراتيجية الحربية فرناندو بن شانجة ملك جليقية أثناء حصار النصارى لمدينة طليطلة سنة ٤٧٨هـ حيث قال لأهلها الذين خرجوا يطلبون الصلح معه لما أعيتهم المقاومة :« ... ما أجيبكم إلى سلم ، ولا أعفيكم من حرب ... فإنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم ، فقد سكنتموها ما قضى لكم ، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم ، فارحلوا إلى عدوتكم - يعنى بلاد المغرب - واتركوا لنا بلادنا ، فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم ...»(١٢٨) كما أبانها الفونسو السادس - ملك قشتالة - حيث قال لرسول المعتمد بن عباد حينما قدم إليه : «... كيف أترك قوما مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم ... وكل واحد منهم لايسل فى الذب عن نفسه سيفا ، ولايرفع عن رعيته ضيما ، ولاحيفا قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغانى والعيدان! وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها فى أيديهم سدى »(١٢٩) .

وقال أحد قادة النصارى بعد إحدى المعارك التى خاضها مع المسلمين : « كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة ، فإذا القوم لادين لهم ، ولاشجاعة فيهم ، ولاعقول معهم(١٣٠) » . وقد أكّد هذا الأمر الكاتب النصرانى (انخل بالنثيا) حينما ذكر أن ملوك الطوائف وهن أمرهم بسبب ماحل بهم من ترف وبذخ وسعى للمطامع والنزوات(١٣١) .

وقد صرح بتلك النوايا والخلط وزير الفونسو السادس ششنندو (مسنندو) حيث يذكر الأمير عبد الله بن بلقين فى مذكراته أن هذا الوزير النصرانى قال

لمسلمى غرناطة قبيل سقوط مدينة طليطلة بأيدى النصارى سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) « إنما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأنخس البقاع جليقية فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال ، والمطاولة حتى إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلاتكلف »(١٣٢).

* * *

هذا عرضا لبعض ما سجله المؤرخون عن ظاهرة الضعف فى القيم الأخلاقية ، فى المجتمع الإسلامى فى عصر ملوك الطوائف(١٣٣). ومما لاشك فيه أن هذا التحول فى حياة الناس فى ذلك العصر يعد منزلقا خطيراً وسابقة لها مابعدها من النتائج والآثار . ومن أهم النتائج المترتبة على ذلك بداية الزحف النصرانى على الثغور الإسلامية مما أدى إلى سقوط العديد من القواعد الإسلامية مثل طليطلة وقلمرية ، وبرنشتر ، وبلنسية وغيرها ، مما أدى إلى إنحسار الوجود الإسلامى ، ومكن العدو من القضاء على دوله المسلمين بالأندلس .

الهوامش

(1) Suarez Fernamdez : Manual de Historia umiverral . Tomo lll Madrid 1972 Zo Edi pp 159 .

(٢) رحب محمد عبد الحليم : العلاقات ص٢٩٦. وقد تمخض عن حياة الترف والمجون ثروة أدبية تمثلت في الشعر والنثر الذى قاله كثير ممن عشق تلكم الحياة ، مما أثرى الجانب الأدبي في ذلك العصر ، وقد اعترف بذلك عدد من المؤرخين المسلمين والنصارى .

انظر: ابن نباته : سراج العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ص٧

Menendez Pidal : Poesia , arabe Poesia Europes Coleccior austral No 19 Madrid , 1975 pp 94 .

Jose Hagerty : Al-muctamid : Poesia Barcelona 1979, pp17

(٣) سورة الإسراء ١٦.

(٤) المقدمة حـ١ص٢٥٢-٣٥٣

(٥) ابن بسام : الذخيرة ق٣حـ١ص١٨٨-١٨٩،(نقلا عن ابن حيان) المقرى: نفح الطيب حـ٤ص٤٥٢.

(٦) ابن حزم : رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس حـ٣ص٤١.

(٧) المصدر السابق ص١٧٦.

(٨) ابن عذرى : البيان المغرب حـ٣ص٩٠.

(٩) تاريخ الأندلس ص٧٧-٧٨.

(١٠) ابن بسام : الذخيرة ق٢حـ١ ص٢٥٦-٢٥٧.

(١١) المقرى : نفح الطيب حـ٤ص٤٨٤ - ٤٨٦ ، وهذه القصيدة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً ، وقد قام الدكتور الطاهر أحمد مكى بتحليلها والتعرف على هوية قائلها .

(انظر كتابه :(دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة حـ١ص٢٢٩.)

(١٢) البيان المغرب حـ٣ص٢٣٠.

(١٣) رحب محمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ص ٣٠١.

(١٤) البيان المغرب حـ٣ ص٢١٢.

(١٥) المصدر السابق ص١٤٨،٢٣٢.

(١٦) قلائد العقبان ص١٢٦.

(١٧) ابن الأبار: الحلة السيراء جـ٢ص٤٦.

(١٨) المراكشي : المعجب ص١٥٢.

(١٩) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٢٣.

(٢٠) المصدر السابق جـ٣ص١٢٣.

(٢١) المصدر السابق جـ٣ص١٨٣.

وقد قال عنه ابن عذارى بأنه حيّة صماء لم يشارك في معونة مسلمي الأندلسي بدرهم، ولم يمد بفارس على كثرة ماطرق الأندلس من الخطوب (البيان المغرب جـ٣ص١٨٣) كما ذكر أحد الباحثين المحدثين بأن التاريخ لم يحتفظ له بصفة كريمة تستحق الذكر ، وكل ما عرف عنه هو انهماكه في الملذات والترف والإسراف في ذلك) سعد البشري : الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف ص٨٢.

(٢٢) المراكشي : المعجب ص١٤١.

(٢٣) انظر تفصيلات ذلك في المعجب ص١٤٤-١٤٥.

(٢٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٠٥.

(٢٥) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٢٦(نقلا عن ابن حيان)

(٢٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٢٩.

(٢٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦٠-١٦١.

(٢٨) ابن عذارى: البيان المغرب جـ٣ص١٦٢(نقلا عن ابن حيان) .

(٢٩) المصدر السابق جـ٣ص١٦٢.

(٣٠) سراج الملوك ص١٦٧.

(٣١) يلحظ القارىء أن المؤرخين حينما تحدثوا عن تلك التصرفات كانوا يتحدثون ، بتحسر ومرارة . فابن حيان عد تولى مبارك ومظفر بأنه من غرائب الليالي والأيام اللاعبة بالأنام، كما ذكر أن توليهما الحكم هو من الحجج البالغة والدالة على هوان الدنيا عند الله ، ولكنهما مع ذلك كانا بعيدين عن الأعتبار.

(ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٥٨،و٣٦٢نقلا عن ابن حيان).

أما ابن عذارى فقد عد وفاة مبارك بأنها نعمة حيث أمن أهل البلد من مقته وكفاهم الله أمره ، كما أنه ذكر سببا معينا لتلك الوفاة مرتبط بظلمه للناس ، وتعديه على أموالهم

حيث قال :(وكان سبب موت مبارك أنه ركب يوماً من قصر بلنسية يبغى الخروج للنزهة خارج البلد ... وأهل بلنسية يستغيثونه في أن يرفق لهم في مال كان قد افترضه عليهم فقال لهم يومئذ : اللهم إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتي الساعة ، ثم ركب إثر ذلك ، فلما أتى القنطرة وكانت من خشب خرجت رجل فرسه ، فرمى به أسفلها واعترضته خشبة نائية من القنطرة شدخت وجهه وسقط لفيه ويديه ، وسقط الفرس عليه وكسر عظامه ، وفتق بطنه ففاضت نفسه لوقته ، وأمن أهل البلد من مقته ...)) (ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٦٣.)

أما ابن بسام فقال فيهما عبدى مهنة وأميرى فتنة قل الناس فكثروا ، وخلالهم الجو فباضوا ، وصفروا ، تساوى عندهم سجع البلبل ورغاء الإبل. (ابن عذارى: البيان المغرب حـ٣ ص ١٦٢ - ١٦٣) .

(٣١) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٦٢-١٦٣(نقلا عن ابن بسام).

(٣٢) ابن بسام : الذخيرة ق١حـ١ص١٨١.

(٣٣) وقد ذكر ابن عذارى أن ابن صمادح تلقب من الألقاب السلطانية بالمعتصم والرشيد وهو يعلم أن من الجور والباطل ملكه الذى ورثه عن أب لم يكرم فيه فعله ولاطال فيه تعبه.

ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٧٤

(٣٤) ابن بسام : الذخيرة ق١حـ٢ص٧٣٢.

(٣٥) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٨٣.

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٨٤. (نقلا عن ابن بسام).

(٣٧) ابن بسام : الذخيرة ق ؟؟؟ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٩، ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص٢٣٢.

(٣٨) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص٢٥٩.

(٣٩) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص٢٦٠(نقلا عن الكتاب المذكور أعلاه).

(٤٠) الأحكام الكبرى (مخطوط)ورقة ١٥٠.

(٤١) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص٢٤٢.

(٤٢) ليث جاسم : أن عبد البر الأندلسي ص٦١.

(٤٣) البيان المغرب حـ٣ص٢٨٢.

(٤٤) الذخيرة ق١جـ٢ص٧٣٣.

(٤٥) يذكر ابن عذارى أنه كان من بين الأسرى الذين أسرهم باديس عدد من حملة الأقلام مثل الوزير أحمد بن عباس وابن حزم وأبو الوليد الباجى، وغيرهم حيث عفى عنهم جميعا دون الوزير بن عباس الذى أمر بقتله ؛ لأنه كان سبباً لتلك المعركة .(البيان المغرب جـ٣ص١٧١).

(٤٦) انظر فى تفضيلات ذلك كلا من عبد الله بن بلقين التبيان ص٢٢-٢٣، ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٦٦٢، ٧٣١-٦٦٥، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٦٦و١٧١.

(٤٧) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٢٧٢، (نقلا عن ابن حيان) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٠٢.

(٤٨) هشام بن الحكم المستنصر : ولى الأمر بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٦هـ ، وسنه عشرة أعوام وبضعة أشهر ، حيث تولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبى عامر الوصاية عليه، وفى سنة ٣٩٩هـ خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، الملقب بالمهدى حيث خلعه وقتل وزيره عبد الرحمن بن أبى عامر ، ومن هنا نشأت الفتنة ببلاد الأندلس.

وقد بقى هشام بن الحكم (المؤيد) فى قرطبة حتى دخلها سليمان بن الحكم المستعين با لله سنة ٤٠٣هـ ، وهنا اختلف المؤرخون حول مصيره فابن بسام وابن عذارى قالا : قيل إنه قتل ، وقيل : إنه فر من أمام المستعين ، أما ابن الخطيب فيشك فى مقتل هشام حيث يذكر أن موت هشام مشكوك فيه ، بينما يجزم المراكشى بمقتل هشام على يد البربر الذين دخلوا مع سليمان المستعين .

هكذا تباينت آراء المؤرخين حول مصير هشام المؤيد بعد دخول سليمان المستعين لقرطبة سنة ٤٠٣هـ .

ويذكر ابن عذارى أنه لما قامت دولة بنى عباد فى إشبيلية ، وكانت بحاجة إلى سند شرعى يدعم كيانها أمام بعض متربصى ملوك الطوائف لاسيما بنى حمود ، أعلن أبو القاسم بن عباد فى سنة ٤٢٦هـ ، أن هشام المؤيد مختف خشية الفتنة ، وأن بنى عباد قد بايعوه خليفة للمسلمين فى إشبيلية ، كما يذكر ابن عذارى أنه بعد مبايعته أنزل ابن عباد معه فى القصر ، وسلم له مقاليد السلطة ، حيث أصبح حاجبا له كا لمنصور بن أبى

عامر، ثم خطب لهشام فى بعض أقاليم بلاد الأندلس ، مما قطع الأطماع ضد بنى عباد ، لكن ابن الخطيب ذكر أن بعض ملوك الطوائف أرسلوا رحالا للتأكد من صحة الأمر فأدخلوا على الرحل فى بيت مظلم مدعيا أنه يشكو من مرض فى عينه ، فكلمهم وكلموه ، ثم خرجوا من عنده منهم المقر ومنهم المنكر ، وقد سخر ابن حزم من هذا الادعاء ، واعتبره من الادعاءات التى لم تحدث مثلها فى التاريخ (ابن حزم : العروس ص٨٣-٨٤، ابن بسام : الذخيرة ق١ جـ١ ص٣٧، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص٣١٤-٣١٥، ابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثانى ص١٥٤، المراكشى : المعجب ص٤٥-٤٧).

(٤٩) ابن عذارى ك البيان المغرب جـ٣ص٢٠١.

(٥٠) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٦٠٩، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام جـ ٣ص١٤٩، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٣٣،و ٢٦٠، يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس ص٤١.

(٥١) ابن بسام : الذخيرة ق٢جـ١ص١٨.

(٥٢) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٣٨٦-٣٨٧.

(٥٣) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٣٨٧-٣٨٨، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٠٢، دوزى : ملوك الطوائف ص٢٩.

(٥٤) مدينة وادى الحجارة : تعرف بمدينة الفرج بالأندلس تقع شرق قرطبة ، وهى مدينة كثيرة الأرزاق جامعة لأشتات المنافع ، وبينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلا . (الحميرى : الروض المعطار ص٦٠٦).

(٥٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٧٧.

(٥٦) ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص٢٦٦.

(٥٧) رجب عبد الحليم : العلاقات ص٢٨٨.

(٥٨) رجب عبد الحليم : العلاقات ص٢٩٣،٣٠١.

(٥٩) المرجع السابق ص٢٩٤.

(٦٠) العبر فى خبر من غبر جـ٣ص٢٨٣.

(٦١) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ٢ص٦٠(نقلا عن ابن حيان).

(٦٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٦(نقلا عن ابن حيان).

(٦٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص١٨٦.

(٦٤) ابن بسام : الذخيرة ق١حـ٣ص٦٠٣.

(٦٥) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٨٦.

(٦٦) المصدر السابق ص٢٣٠.

(٦٧) بربشتر : إحد مدن الثغر الأعلى الأندلسى ، تقع شمال شرق سرقسطة ، وتعد من أمنع القواعد الأندلسية ، أغار عليها النورمانيون سنة ٤٥٦هـ ، فتخاذل عن نصرتها جارها أحمد بن هود ، حيث كانت تتبع لأخيه يوسف الذى لم يتمكن من إعانتا ، وقد سقطت بيد النصارى بعد أربعين يوما من الحصار القاسى حينما عطش أهلها ، وقد أدى سقوطها إلى رد فعل قوى عند مسلمى الأندلس حيث تمكنوا من استعادتها بعد تسعة أشهر من سقوطها .

(انظر فى تفصيلات ذلك ابن بسام : الذخيرة ق١حـ٣ص١٨٩-١٩٠، ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص٢٥٣-٢٥٤ ابن الآبار: الحلة السيراء حـ٢ص٢٤٧).

(٦٨) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص٢٥٣(نقلا عن البكرى).

(٦٩) المقرى : نفح الطيب حـ١ص٢٧٥(نقلا عن الحجارى).

(٧٠) ابن بسام : الذخيرة ق٤حـ١ص١٩٢، بالنثيا: الفكر الأندلسى ص١١١.

(٧١) بالنثيا : الفكر الأندلسى ص٩٧.

(٧٢) المقرى : نفح الطيب حـ٤ص٢٦١.

(٧٣) المقرى : نفح الطيب حـ١ص٤٤٠.

(٧٤) المصدر السابق حـ٤ص٤٤٠.

(٧٥) المصدر السابق حـ٤ص٤٤٠.

(٧٦) ابن بسام : الذخيرة ق٤حـ١ص١٤٣-١٤٩.

(٧٧) المصدر السابق حـ ٤ص١٤٩.

(٧٨) المصدر السابق ص١٤٥-١٤٦.

(٧٩) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٦١.

(٨٠) المصدر السابق حـ٣ص١٦١.

(٨١) ابن بسام : الذخيرة ق٤حـ١ص١٤٦.

(٨٢) المصدر السابق ص١٤٨.

(٨٣) المصدر السابق ص١٤٧.

(٨٤) الذخيرة ، ق٤حـ١٤٦ ، ص ١٤٦-١٤٨.

(٨٥) ابن عذارى : حـ ٣ ص ١٥٦ (نقلا عن ابن حيان).

(٨٦) ابن بسام : الذخيرة ق٣حـ٣ ٨٥٥،و٨٥٠ (نقلاً عن ابن حيان)

(٨٧) نصوص عن تواريخ الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار ص٩٣.

(٨٩) التبيان ص١٩.

(٩٠) المصدر السابق حـ٤٢،و٥٣.

(٩١) ابن بسام : الذخيرة ق٣حـ٢ص٨٥٠.

(٩٢) بطرنة : قرية من قرى بلنسية (ابن سعيد الأندلسي : المغرب حـ٢ص٣٥٥، المقرى : نفح الطيب حـ١ص١٤٣،وحـ ٤ ص٤٤٨.

(٩٣) هو أبو الحسين يوسف بن محمد بن الجد ، وبنو الجد ينتسبون إلى بني فهر سكنوا ليله وقد أثنى ابن بسام على هذا الشاعر ، وقد استكتبه الوزير ابن عمار (ابن بسام : الذخيرة ق٢حـ٢ص٥٥٦، ابن سعيد : المغرب حـ١ص٣٤٠

(٩٤) ابن بسام : الذخيرة ق٣حـ٢ص٨٥٠، المقرى : نفح الطيب حـ١ص١٨١

(٩٥) طوق الحمامة وقد أشار إلى ذلك في مواضع مختلفة ، انظر مثلا : ص٩٢ ، و٧١ ، و٧٢، و٤٠ ، و٤٢ ، وغيرها .

(٩٦) ابن عذارى : البيان المغربي حـ٣ص٢١٢ (نقلا عن ابن حيان)

(٩٧) المصدر السابق حـ٣ص٢١٢.

(٩٨) ابن الآبار : الحلة السيراء حـ٢ص٤٣،٥٣.

(٩٩) ابن عذارى : البيان المغرب حـ٣ص١٥٦ (نقلا عن ابن حيان)

(١٠٠) المصدر السابق حـ٣ص٢٠٨.

(١٠١) المقرى : نفح الطيب حـ٤ص٢٠٥.

(١٠٢) طوق الحمامة ص١٧١، وقد ذكر ابن حزم أنه قال في هذا الرحل قطعة من الشعر منها :

أنت لا شك أحسن الناس ظنا ... ويقينا ونية وضميرا

ليس كل الركوع فأعلم صلاة ... لا و لا كل ذى لحظ بصيرا

(طوق الحمامة ص ١٧٢).

(١٠٣) السقطى : أداب الحسبة ص٨.

(١٠٤) ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ص١٢-١٣.

(١٠٥) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات ص٢٩٦.

(١٠٦) مذكرات الأمير عبد الله ص٨٥.

(١٠٧) رسائل ابن حزم ص١٧٤.

(١٠٨) ابن بسام : الذخيرة ق١جـ١ص٣٨٨.

(١٠٩) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص١٩٩.

(١١٠) ابن سعيد : المغرب جـ١ص٣٦٩.

(١١١) رجب محمد عبد الحليم : العلاقات جـ١ص٣٠٠.

(١١٢) رسالة فى القضاء والحسبة ص١٣

(١١٣) العذرى : نصوص عن الأندلس ص١٨.

(١١٤) محمد عبد الوهاب خلاف : قرطبة الإسلامية ص٣٢١.

(١١٥) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ٢ص٤٦،، هنرى بيريس : الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف ص٣١٨.

(١١٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ٣ص١٥١ .

(١١٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٣١٣.

(١١٨) طوق الحمامة ١٣٠ .

(١١٩) المصدر السابق ص١٣٠.

(١٢٠) هو أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقا ، كان فى أول أمره فقيراً كابد من شظف المعيشة كان يسكن مع إخوته بدار صهره بجوار المسجد الجامع فى قرطبة ، لكنه لما تولى الأمامة أثرى على حساب الآخرين حيث يذكر ابن حيان أنه لما تحمل الأمانة حعلها أسفل رحله ، كما تحول إلى حرداً للسرقة والخيانة حيث ابتنى القصور المنيعة . (ابن بسام : الذخيرة ق٤جـ١ص١٣٨-١٤٠) .

(١٢١) الذخيرة ق٤ جـ١ ص٢٤٢-٢٤٣.

(١٢٢) قلائد العقيان ٦٨٣.

(١٢٣) المصدر السابق ص٧١٧

(١٢٤) المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٢٧٦.

(١٢٥) راجع طاهر مكى ص٤١٧.

(١٢٦) المراكشى : المعجب ص٢٤١-٢٤٢.

(١٢٧) ابن سعيد : رآيات المبرزين ص٥٠، المقرى : نفح الطيب جـ٤ص٣٥٢.

(١٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ص٢٨٢.

(١٢٩) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ص٨٩.

(١٣٠) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص٩٠.

(١٣١) انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة حسين مؤنس) ص٧٧-٧٨).

(١٣٢) التبيان ص٧٣.

(١٣٣) قد يبدو للقارىء أن ما ذكرناه من صور لهذه الظاهرة فيه شيء من المبالغة ، ولكن هذا الأمر يتبدد ويزول حينما يتذكر القارىء أن ما ذكرناه من صور إنما هى من روايات المعاصرين الذين عايشوا تلكم الأحداث كابن حيان ، وابن حزم ، وابن بلقين وغيرهم .

المصادر والمراجع

- **ابن الأبار** : أبـو عبـد الله محمــد بن عبد الله القضاعي المعروف بـابن الآبـار (ت٦٥٨هـ)

- **الحلة السيراء** :تحقيق حسين مؤنس - نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ط / الأولى ١٩٦٣م .

- **ابن الأثير** : أبو الحسن على بن محمد الشيبانى (ت٦٣٠هـ) .

الكامل فى التاريخ/ نشر دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ.

- **بالنثيا** : انخل جنثالث ، تاريخ الفكر الأندلسى - ترجمة الدكتور حسين مؤنس القاهرة ١٩٥٥م.

- **ابن بسام** : أبو الحسن على بن بسام الشنترينى (٥٤٢ هـ) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة - تحقيق الدكتور إحسـان عبـاس / دار الثقافـة بيروت ، ط/ الثانية ١٣٩٩هـ .

- **ابن بلقين** : عبد الله بن بلقين الصناجى (٤٨٣ هـ) .

مذكـرات الأمير عبـد الله المسمّى بكتـاب التبيـان - نشـر وتحقيـق أ. ليفـى بروفنسال / دار المعارف بمصر (ذخائر العرب١٨).

- **جاسم** : ليث سعود

ابن عبد البر الأندلسى وجهوده فى التاريخ - نشر دار الوفاء للطباعـة والنشـر والتوزيع بالقاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .

- **جمهرة أنساب العرب** :

تحقيق عبد السلام هارون - دار المعارف بمصر ١٣٨٢هـ .

- **ابن حزم** : أبو محمد بن حزم (٤٥٦هـ) :

رسائل ابن حزم الأندلسى - تحقيق الدكتور إحسان عباس

- **الحميدى** : أبو عبد الله بن أبى نصر (ت ٤٨٨ هـ) .

جذوة المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس - تحقيق إبراهيم الأبيارى الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

- **ابن الخطيب** : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ هـ) :

أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام القسم الثالث تحقيق ليفى بروفنسال - نشر دار الكشوف ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٥٦ م .

- **خلاف محمد عبد الوهاب** : قرطبة الإسلامية فى القرن الخامس الهجرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية الدار التونسية للنشرتونس ١٩٨٤ م .

- **ابن خلدون** : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . بيروت ، دار الفكر الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ .

- **الذهبى** : أبو عبد الله شمس الدين الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) : العبر فى خبر من غبر ، تحقيق فؤاد الرشيد ، نشر دار المطبوعات والنشر بالكويت ١٩٦١ م .

- **ابن سعيد المغربى** : على بن موسى بن محمد (ت ٦٨٥ هـ) ، المغرب فى حلى المغرب . تحقيق شوقى ضيف . نشر دار المعارف بمصر .

- **السقطى أبو عبد الله محمد بن أبى أحمد** (ت ٥٢٠ هـ) .

آداب الحسبة ، باريس ، المطبعة الدولية ١٩٣١ م .

- **ابن سهل الأندلسى** (أبو الأصبع عيسى) ت ٤٨٦ هـ .

الأحكام الكبرى (أو نوازل ابن سهل) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم ٣٣٩٨.

- **الضبي** : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (ت ٥٩٩ هـ) : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس علمائها وأمرائها وشعرائها وذوى النباهة فيها ممن دخل إليها أو خرج عنها ، طبع في مدينة مجريط سنة ١٨٨٤م.

- **الطبرى** : محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) .

تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم بيروت .

- **الطرطوشي** : أبو بكر محمد بن الوليد (ت ٥٢٠ هـ) : سراج الملوك .

تحقيق محمد فقى أبو بكر ط/ الأولى ١٤١٤ هـ .

- **طوق الحمامة في الألفة والألاف** : تحقيق حسن كامل الصير فى ، وتقديم إبراهيم الأبيارى ، نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

- **عبد الحليم** : رجب محمد ، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، دار الكتب الإسلامية .

- **ابن عبد ربه** : العقد الفريد .

- **ابن عبدون** : محمد بد أحمد التجيبي (ت ق ٦) ، رسالة فى القضاء والحسبة، ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسبة ، نشرها ليفى بروفنسال ، طبع المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥ م .

- **ابن عذارى** : أبو عبد الله محمد المراكشى (ت بعد ٧١٢ هـ) .

البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ومراجعة ج . س . كولان و أ. ليفى بروفنسال . دار الثقافة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م .

- **العذرى** : أبو العباس أحمد بن عمر (ت ٤٧٨ هـ) ، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع لأخبار ...) / معهد الدراسات الإسلامية مدريد ١٩٦٥ م .

- **العطار** : نجاح ، الأندلس من نفح الطيب ، نشر وزارة الثقافة السورية دمشق ١٩٩٠م .

- **ابن الفرضي** : أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ) .

تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ، دار صادر بيروت .

- **ابن القوطية** : أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧ هـ) .

تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبيارى الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ .

- **ابن كثير** : إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ م . مكتبة المعارف بيروت .

- **ابن الكردبوس** : أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزرى (ت بعد ٧٣هـ)/ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفة لابن الشباط ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، نشر معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١م ، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٧ هـ

- **المراكشي** : عبد الواحد بن على (ت ٦٤٧ هـ) ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة مطبعة الاستقامة ١٣٦٨ هـ .

- **المقرى** : أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى (١٠٤١ هـ) / نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار صادر بيروت ١٣٨٨ هـ .

Jose Hagerty : Al- muctamid : Poesia Barcelona 1979 .

Menendez Pidal : Poesia Arabe Poesia Europes Coleccior

عناصر المرتزقة فى الجيوش المغربية

منذ القرن السادس الهجرى حتى القرن الثامن الهجرى

(١٢ - ١٤م)

أ. د. رضوان محمد رضوان البارودى(*)

دأبت الدول المتباينة التى تعاقبت على حكم بلاد المغرب منذ مطلع القرن السادس الهجرى(١٢م) على استخدام عناصر من المرتزقة المسيحيين للعمل كجنود فى صفوف جيوشها ، ومن العجيب أن بعض هذه الدول قامت على أساس دعوة دينية إصلاحية ، واتخذت من الجهاد فى الأندلس هدفًا أساسيًا لقيامها، مثل المرابطين والموحدين ، وكذلك بنى مرين الذين جعلوا من الجهاد هدفًا مباشرًا لقيام دولتهم برغم أنهم لم يستندوا إلى دعوة دينية إصلاحية كما فعلت الدول السابقة عليهم(١) . وعندما نتساءل عن الأسباب التى دفعت حكام المغرب إلى الاستعانة بهذه العناصر المسيحية وضمها إلى صفوف جيشها ، يعطينا ابن خلدون تبريرًا لذلك فيقول أن طريقة القتال عند هذه العناصر المسيحية المرتزقة والتى تعتمد على أسلوب الثبات فى الزحف هى السبب الأساسى لاستخدام هذه العناصر ، لأن أسلوب القبائل البربرية التى كانت تكون غالبية أعداد الجيوش المغربية اعتمد على الكر والفر ، ويضيف ابن خلدون أن هؤلاء المرتزقة كانوا يستخدمون فقط فى الحروب المحلية ضد الثائرين والمخالفين سواء من العرب أو البربر ، أما فى الحروب ضد النصارى فلا يستعان بهم حذارًا من ممالأتهم على المسلمين(٢) . ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره ابن خلدون سببًا آخر هو عدم ثقة حكام دول المغرب فى بعض العناصر المحلية وخشيتهم للتعرض للاغتيال فى حال استخدام هذه العناصر المحلية كحرس خاص لهم(٣) .

(*) أستاذ بكلية الآداب - جامعة الكويت .

كذلك استخدم المرتزقة المسيحيين فى عملية جباية الضرائب . ويرى أحد الباحثين الحديثين أن النظام الإقطاعي العسكرى الذى ساد فى عصرى المرابطين والموحدين ومن بعدهم فى الدول المغربية الأخرى (مثل دولة بنى مرين وبنى عبد الواد) قد أرهق الفلاحين بأنواع مختلفة من الضرائب والجبايات ذات السمة الإقطاعية والتى لا أصل لها فى الشرع(٤) . وهذه الضرائب والجبايات يصعب تحصيلها فى المناطق البعيدة والنائية - وخصوصًا المناطق التى تجتازها القبائل الرحل - حيث تضعف السلطة المركزية ، ولابد للدولة أن تبعث بجنودها لحماية عمال الجباية والمشاركة فى تحصيلها(٥) .

أما عن بداية استخدام هذه العناصر فى الجيوش المغربية ، فقد اختلف المؤرخون فيما بينهم حول أول من استخدمهم ، فابن الخطيب يذكر أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين هو أول من استخدمهم فى صفوف جيشه(٦) . أما ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية فيؤكدان أن الأمير على بن يوسف بن تاشفين هو أول من استخدمهم من المرابطين(٧) . وقد برز من هؤلاء النصارى على عهد المرابطين قائد قطلانى من أهل مدينة برشلونة Barcelona عرف فى المصادر العربية باسم الربرتير Reverter وكان هذا القائد من ضمن قواد ملك أراجون ولكنه وقع أسيرًا فى يد أمير البحر المرابطى على بن ميمون ، فحمله إلى على بن يوسف بن تاشفين بمراكش فولاه قيادة المرتزقة فى جيوشه . وقد أبلى هذا القائد بلاء حسنًا فى الدفاع عن دولة المرابطين ، حتى قتل فى إحدى المعارك ضد الموحدين عند مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م(٨) .

أما فى عصر الموحدين : فقد استمرت عملية استخدام المرتزقة الأجانب فى صفوف جيوشهم . ذلك أن الفرقة النصرانية العاملة فى جيش المرابطين انضمت إلى الموحدين بعد أن سهلوا لعبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين دخول مدينة مراكش عاصمة المرابطين عام ٥٤١هـ / ١١٤٦(٩) . لذلك لم يجد عبد المؤمن بن على حرجا فى ضمهم إلى صفوف جيشه . وقد يبدو هذا الإجراء من جانب عبد

المؤمن بن على غريبًا ، حيث يذكر عبد الواحد المراكشى أن عبد المؤمن كان شديدًا على أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وأنه لم تنعقد فى عهده ذمة ليهودى ولا نصرانى ولا يوجد فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة(١٠) .

ولكن يبدو أن الحاجة إلى جهود هؤلاء المرتزقة كانت شديدة ، لذلك غض الموحدون الطرف عن مسألة تشددهم المزعوم مع النصارى واليهود . ودليلنا على ذلك ما تذكره المصادر من أن هؤلاء المرتزقة شاركوا فى العديد من العمليات العسكرية التى قامت بها الجيوش الموحدية ضد الثائرين فى بلاد المغرب . من ذلك أنه عندما ثار محمد بن عبد الله بن هود الماسى (نسبة إلى رباط ماسة على ساحل المحيط الأطلسى) فى عهد عبد المؤمن بن على ، لم يتردد هذا الأخير فى إرسال جيوشه لأخماد هذه الثورة . وكانت فرقة الروم أو الجند النصارى ضمن الفرق المكونة لهذا الجيش(١١) . كذلك يشير ابن صاحب الصلاة إلى أن الروم كانوا من ضمن العناصر التى خرجت رفقة الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠هـ) لاستقبال العرب الوافدين إلى مراكش فى ربيع الآخر عام ٥٦٩هـ/ يناير ١١٧٣م(١٢) . ومن أشهر قواد المرتزقة النصارى فى جيوش الموحدين شخصية القائد البرتغالى جيرالدو سمبافور Giraldo Sampavor (والمعروف فى المصادر العربية باسم جراندة الجليقى) ، هذا الفارس انضم مع جماعة من الفرسان النصارى لخدمة الموحدين بعد أن استسلم لهم عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، وقد قام الخليفة أبو يعقوب بنقله هو وجنوده من الأندلس إلى المغرب حيث أرسله إلى السوس الأقصى وولاه قيادة المرتزقة العاملين فى الجيش الموحدى فى هذه المنطقة . بيد أن نهاية هذا القائد البرتغالى كانت مأساوية ، حيث قتل على يد عامل درعه موسى بن عبد الصمد ، وبتحريض من الخليفة نفسه . ويذكر البيذق أن سبب اغتيال هذا القائد هو اتصاله بابن الرنك (الفونسو هنريكث ملك البرتغال) وخيانته للموحدين(١٣) .

أما الخليفة أبو يوسف يعقوب المعروف بالمنصور فكان حرسه الخاص من هؤلاء المرتزقة ، وكانوا من الرماة ، وأسكنهم أحد القصور التى شيدها ، وكانوا يسيرون أمامه أينما تنقل من مكان لآخر(١٤) .

ونلاحظ أن هؤلاء المرتزقة سواء الذين عملوا فى خدمة المرابطين أو الموحدين لم يكن لهم أى دور فى توجيه الأحداث الداخلية ، ولم يتعد دورهم أكثر مما رسمه لهم حكام المغرب ، فهم حرس خاص أو جباة ضرائب أو يشاركون فى إخماد بعض الثورات الداخلية . ولم يكن لهم فى المقابل أية حقوق - باستثناء رواتبهم - فلم يكن لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، ولا توجد لهم كنائس خاصة بهم أو حتى أساقفة منهم . بيد أنه منذ خلافة المأمون الموحدى (٦٢٤ - ٦٣٠هـ/ ١٢٢٧ - ١٢٣٣م) أخذت هذه العناصر من المرتزقة تلعب دورًا بارزًا فى أحداث بلاد المغرب ، فقد استعان بهم هذا الخليفة لدخول مراكش عندما ثارت ضده وبايعت لأخيه يحى الناصر بالخلافة . وقد أرسل المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث يطلب مساعدته بفرقة من الفرسان القشتاليين ، وبالفعل استجاب فرناندو لهذا الطلب وسير جماعة من هؤلاء الفرسان بلغ عددهم اثنى عشر ألف فارس(١٥) . ولكن ملك قشتالة اشترط عدة شروط على المأمون نظير موافقته على مسير هؤلاء المرتزقة القشتاليين لمساعدة المأمون الموحدى ، ومن هذه الشروط :

أن يقدم الخليفة الموحدى عشرة حصون يختارها الملك القشتالى بنفسه ، وأن يسمح لهؤلاء النصارى ببناء كنيسة لهم فى وسط مراكش يؤدون فيها شعائرهم الدينية بحرية كاملة ، وإذا اعتنق أحد هؤلاء المرتزقة الإسلام فلا يقبل منه ويرد إلى أخوانه . وقد قبل المأمون كل هذه الشروط(١٦) .

هذا وقد استنكر نفر من المؤرخين القدماء والحديثين هذا التصرف من قبل المأمون ، فصاحب كتاب ذكر مشاهير أعيان فاس ينتقد الموحدين بقوله : " ومن قبح فعلهم التجييش بالنصارى وسكناهم مراكش وإقامة دينهم بين ظهور المسلمين وعدم تصرفهم فيهم ، بل جعل أمرهم لرهبانهم يجهزون بهم لحرب المسلمين

بالمغرب"(١٧) . أما المؤرخ التونسى محمد المطوى فقد برر تصرف المأمون بأنه كان مدفوعًا برغبته فى التنصر والارتداد عن الإسلام ، لأن المأمون من وجهة نظر المطوى - كان متأثرًا بنزعة مسيحية حيث ارتقى العرش على أسنه رماح المرتزقة . ثم أن أم المأمون أم ولد نصرانية رومية(١٨) . والواقع أن كلا الطرفين أخطأ فيما ذهب إليه ، لأن ما فعله المأمون الموحدى ليس بدعة أو سنة جديدة ، فقد سبقت الإشارة إلى استعانة المرابطين وخلفاء الموحدين الآخرين بعناصر المرتزقة فى جيوشهم . أما القول بالتأثر بالنزعة المسيحية والرغبة فى التنصر فهو قول بعيد تمامًا عن الصحة . ويعلق بيير دى سينفال على هذه الحادثة بالقول بأن المأمون لم يكن يفكر فى اعتناق المسيحية(١٩) .

وكيفما كان الأمر ، فقد صار لعناصر المرتزقة المسيحية فى أواخر عهد الدولة الموحدية دخل كبير فى أحداثها ، إذ هاجم الأمير الموحدى يحيى بن الناصر مدينة مراكش مستغلا فرصة انشغال عمه المأمون بحصار سبته عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م ، وقام بحرق كنيسة نوتردام التى خصصها المأمون لجنده النصارى ، كما قام بقتل عدد كبير من هؤلاء الجند . ويبدو أن الأمير يحيى كان يريد أن يكسب عامة أهل مراكش إلى جانبه ، لأن هؤلاء لم يستسيغوا وجود عناصر من المرتزقة بين ظهرانيهم ، كما أن السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية قد مس مشاعر هؤلاء العامة . وقد حاول المرتزقة من جانبهم الدفاع عن أنفسهم ، وكاد الموقف ينفجر بين الطرفين لولا أن الخليفة الموحدى الجديد الرشيد بن المأمون - عمل على تهدئة الأمور داخل مراكش ، فأصدر عفوا عن أهل مراكش ، وفى نفس الوقت دفع مبلغًا كبيرًا من المال لقائد المرتزقة القشتاليين المسمى فرنسيل حتى لا يتعرض لأهل مراكش بسوء(٢٠) . وبرغم ذلك فقد استمر الموحدون يستخدمون هذه العناصر لمساندتهم فى القضاء على الثائرين ، إذ استعان الرشيد الموحدى بهم فى التخلص من أحد زعماء القبائل العربية بالمغرب - وهو مسعود بن حميد زعيم قبائل الخلط - حينما رفض هذا الأخير الاعتراف ببيعة الخليفة الرشيد(٢١) . أما المرتضى الموحدى فقد استكثر من

هؤلاء المرتزقة بصورة واضحة حيث أرسل إلى الأندلس عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م يطلب أعدادًا كبيرة منهم ليركبوا معه ويكونوا أعوانا ، فوصلوا إليه فى تلك السنة(٢٢) .

ولكن برغم ازدياد الحاجة إلى هذه العناصر المسيحية من المرتزقة ، إلا أن الأمر لم يسلم من تعرضهم لأعمال عنف من قبل الحكام الذين كانوا يشكون فى إخلاصهم فى كثير من الأحيان . وقد يبدو ذلك منطقيا ، لأن هذه العناصر إنما تدين بولائها لمن يدفع لها ، ولذلك نسمع عن حدوث تنكيل بهؤلاء المرتزقة المسيحيين . من ذلك أن الخليفة الموحدى المرتضى دبر مؤامرة لاغتيال قائد الفرقة النصرانية فى جيشه المسمى دى اللب Del Lobo مع من معه من هؤلاء المرتزقة(٢٣)، كذلك قام هذا الخليفة بإلقاء القبض على قائد الجند النصارى فى مراكش المسمى جارثيا طاليس Garcia Tales لأنه خشى أن يفر هذا الأخير إلى أعدائه(٢٤) .

المرتزقة الأجانب وجيوش الدول المغربية عقب انهيار دولة الموحدين:

حدث عقب انهيار دولة الموحدين أن تفتتت وحدة بلاد المغرب التى كانت قائمة فى عصرى المرابطين والموحدين ، وتولى حكمها ثلاث دول هم : المرينيون فى منطقة المغرب الأقصى وعاصمتهم فاس ، والزيانيون فى المغرب الأوسط وعاصمتهم تلمسان ، والحفصيون وعاصمتهم تونس . هذا الدول الثلاث لم تشذ كثيرًا فى نظمها عما كان سائدًا عند الموحدين ، ولذلك استمر استخدام عناصر المرتزقة الأجانب فى صفوف جيوشها لنفس الأغراض السابقة . ففى عهد المرينيين كان استخدامهم منذ فترة مبكرة فى تاريخهم ، إذ يذكر ابن خلدون أن الأمير أبا بكر بن عبد الحق المرينى هو أول من استخدمهم عندما أوقع بفلول الجيش الموحدى المنسحب من أمام تلمسان عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، وضم إليهم عدة فرق من هذا الجيش ومن ضمنهم هؤلاء المرتزقة أو الروم كما يسميهم ابن خلدون(٢٥).

كذلك شاركت عناصر المرتزقة المسيحيين فى الأحداث الداخلية لدولة بنى مرين ، فكانوا إحدى الفرق التى خرجت مع السلطان أبى يوسف يعقوب لغزو تلمسان عام ٦٧٧هـ/ ١٢٧١م . كما انضموا إلى جانب الأمير المرينى أبى على ابن أبى سعيد عثمان فى ثورته ضد والده(٢٦) . وفى أثناء ثورة الوزير رحو بن يعقوب الوطاسى ضد السلطان ابن الربيع سليمان عام ٧١٠هـ / ١٣١٠ انضم هؤلاء المرتزقة وزعيمهم عنصاله (جونثالو Gonzalo) إلى جانب الوزير المرينى فى ثورته(٢٧) .

وقد ازداد تدخل هذه العناصر فى أمور الدولة المرينية خاصة فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ١٤م ، حيث بدأت علامات الضعف تظهر على حكم المرينيين ، وانشغل السلاطين والأمراء بالصراع ضد بعضهم البعض فى سبيل الحكم والسلطة . ولعل مأساة السلطان أبى الحسن المرينى مع ابنه السلطان أبى عنان فارس أبرز دليل على ما نقول . ولهذا كثر اعتماد المرينيين على هذه العناصر المرتزقة لمؤزراتها فى صراعها ضد الطامعين فى العرش . ويحدثنا ابن الخطيب فى كتابه نفاضة الجراب عن أحداث تلك الفترة المضطربه فى تاريخ الدولة المرينية عقب وفاة السلطان أبى عنان فارس ، وكيف تنازع القواد فيما بينهم لتوليه أمير بعينه على العرش . ويشير إلى دور الفرقة النصرانية فى أحداث هذا الصراع ، حيث انضموا إلى جانب أحد المرشحين ودار قتال عنيف بين أنصار كل مرشح . و لم ينته الأمر إلا بظهور السلطان ابن سالم إبراهيم على مسرح الأحداث(٢٨) . وفى أواخر أيام هذا السلطان تآمر أحد وزرائه مع قائد المرتزقة النصارى غرسيه بن أنطول على الفتك بالسلطان أبى سالم ومبايعة الأمير المرينى أبا عمر تاشفين بن سلطان أبى الحسن على . وتمكن أحد الجند النصارى من اغتيال السلطان أبى سالم(٢٩) . ولكن مصير قائد المرتزقة غرسية لم يكن بأفضل من مصير سلطانه حيث لقى هو الآخر مصرعه على يد السلطان الجديد أبى عمر تاشفين المعروف بالموسوس ، هذا عن قتل عدد كبير من المرتزقة المسيحيين حينما فروا إلى معسكرهم بحى الملاح فى فاس ، وقد رد المرتزقة على تلك المذبحة التى تعرض لها

أخوانهم باغتيال عدد كبير من أهل فاس كانوا بالملاح يشربون الخمر ، و لم تهدأ الأمور ألا بعد تدخل الجيش المرينى لإنهاء هذه الفتنة(٣٠) .

هناك حادثة أخرى وقعت فى تلك الفترة توضح مدى نفوذ هؤلاء المرتزقة النصارى وتدخلهم فى الشئون الداخلية للمدنيين ، فقد حاول أحد الأمراء المرينيين وهو الأمير عبد الحليم بن أبى على بن أبى سعيد عثمان الظفر بالعرش المرينى ، ولكن الوزير عمر بن عبد الله عمل من جانبه على مواجهة هذا الخطر ، و لم يجد من يستعين به إلا المرتزقة النصارى ، فعمل على كسب رضاهم وأخذ عليهم المواثيق والعهود بمناصرته ، ومن العجيب أن مفاوضات هذا الوزير مع هؤلاء المرتزقة تمت فى كنيستهم على يد ترجمانه وقسيسهم ، كما يذكر ابن الخطيب(٣١) . وقد تمكن الوزير عمر من الانتصار على الأمير عبد الحليم بفضل مساعدة هؤلاء المرتزقة النصارى .

ومن الأعمال الأخرى التى انيط بالمرتزقة القيام بها عملية الاغتيالات السياسية ، فقد عهد السلطان أبو الربيع سليمان إلى قائد الجند النصارى (غصالة) قتل الوزير وصاحب العلامة عبد الله بن أبى مدين نتيجة لوشاية الحاجب أبى خزر اليهودى(٣٢) . كما أوعز الأمير المرينى أبو الفضل بن السلطان أبى سالم إبراهيم لقائد الجند النصارى باغتيال منافسه على العرش الأمير عبد المؤمن بن على بن أبى سعيد عثمان فقتله وجاء برأسه إليه(٣٣) .

وبالإضافة إلى أعمال الاغتيالات السياسية ، كلف السلاطين من بنى مرين بعض هؤلاء القادة المرتزقة بالقيام بأعمال السفارة لدى ملوك أسبانيا المسيحية ، فالسلطان المرينى أبو يعقوب يوسف أرسل قائد المرتزقة النصارى فى جيشه المسمى برناط سجين سفيرًا إلى ملك أراجون جايمى الثانى Jaime II كذلك عمل هذا القائد سفيرًا للسلطان أبى ثابت عامر لدى الملك الأراجونى لطلب المساعدة فى حروب المرينيين ضد غرناطة حينما استولى السلطان الغرناطى محمد الثالث على مدينة سبتة(٣٤) عام (٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥م) ، أما الفارس القشتالى جارثيا مارتينيز

دى جايجوس Gercia Martinez de Callegos فكان أحد أعضاء الوفد المرينى الذى ذهب للتفاوض مع قائد الأسطول القشتالى دون بدرو ابن الملك القشتالى الفونسو العاشر أثناء حصار الجزيرة الخضراء عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م(٣٥) .

والملاحظ أن هؤلاء المرتزقة المسيحيين العاملين فى صفوف الجيش المرينى عوملوا معاملة طيبة من قبل الحكام المرينيين بصفة عامة . فقد كان لهم رئيس يسمى " أمين النصارى " ، ولهم قساوستهم الذين يشرفون على شئونهم الدينية ، فضلاً عن كنيستهم الخاصة بهم . كما أقاموا فى مكان خاص بهم فى مدينة فاس الجديدة وهو حى الملاح ، الذى كان حى اليهود أيضًا . كذلك كان لهؤلاء المرتزقة النصارى مطلق الحرية فى تناول الخمر فى حيهم هذا . ويذكر ابن مرزوق أن السلطان أبا الحسن على المرينى برغم ما عرف عنه من تشدد فى الأمور الدينية(٣٦) ، إلا أنه لم يتمكن من منعهم من شرب الخمر ، وكل ما فعله هو أنه اشترط عليهم ألا يجاهروا بشربه ، ومن ضبط منهم وهو ثمل أو ثبت عليه أنه باع الخمر لمسلم عوقب بشدة حتى يصبح عبره للمعتبر(٣٧) ويبرر ابن مرزوق هذا التساهل من قبل أبى الحسن مع النصارى بشدة الحاجة إليهم وانتفاع المسلمين بهم.

أما دولة بنى زيان وهى إحدى الدول المغربية التي قامت على أنقاض دولة الموحدين فى منطقة المغرب الأوسط واتخذت من مدينة تلمسان عاصمة لها ، ومؤسس هذه الدولة هو الأمير أبو يحيى يغمراسن (ومعناها بالزيانيه رئيس القوم) الذى أعلن فى عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م استقلاله عن سلطة الموحدين وإن كان ظل يدعو لهم تارة وللحفصيين أصحاب تونس تارة أخرى(٣٧) .وقد استعان الزيانيون بفرق من المرتزقة المسيحيين فى جيوشهم لنفس الأسباب التى دعت المرينيين ومن قبلهم الموحدين والمرابطين إلى استخدام هذه العناصر . وكانت مملكة أراجون بالذات هى المصدر الرئيسى الذى أمد الزيانيين بحاجتهم من هؤلاء النصارى المرتزقة ، ويتضح ذلك من خلال المراسلات المتبادلة بين الزيانيين وملوك أراجون . فقد بعث السلطان يغمراس بن زيان سفارة إلى خايمى الأول ملك أراجون فى ٢٩ ربيع الأول عام ٦٤٨هـ/ ٣٠ يونيو ١٢٥٠م يطلب منه عدة مطالب من ضمنها

فرقة مـن المرتزقـة القطلانيين للعمـل فـى الجيوش الزيانية(٣٨) . وتشير المصادر الأراجونية إلى سفارة أخرى أرسلها خايمى الثانى ملك أراجون عام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م إلى أبى سعيد عثمان سلطان بن زيان لمناقشة بعض الأمـور بين الدولتين ومن ضمنها ما يتعلق بالمرتزقة القطلان العاملين فى خدمة الزيانيين ، حيث أبدى الملك الأراجونى استعداده لإرسال المؤن والبضائع اللازمة لأفراد هذه الفرقة ، كما طلب تعيين أحد القواد ويدعى رودريجوسا تشيزدى بيرجاس قائدًا للمرتزقة النصارى فى تلمسان(٣٩) . ومن الملاحظ أن المصادر العربية تنفى أن يكون المرتزقة قد عملوا فى خدمة الزيانيين حتى ذلك الوقت ، إذ يشير أبو زكريا يحيى ابن خلدون أن السلطان يغمراسن بن زيان قد أطاح بهم عقب اكتشافه لمؤامرة دبرها المرتزقة لاغتياله وذلك عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م . ويضيف ابن خلدون أنه منذ ذلك الوقت لم يستخدم بنو عبد الواد هؤلاء المرتزقة فى جيوشهم(٤٠) . بيد أن الوثائق الأراجونية وكذلك العربية المحفوظة فى أرشيف تاج أراجون تثبت - بما لا يدع مجالاً للشك - استمرار بنى زيان فى الاستعانة بهؤلاء المرتزقة المسيحيين ، بحيث أصبح موضوع الفرقة العسكرية القطلانية العاملة فى صفوف الجيوش الزيانية من الموضوعات الرئيسية فى كل المراسلات المتبادلة بين سلاطين بنى زيان وملوك أراجون . فعلى سبيل المثال ورد فى رسالة بعث بها خايمى الثانى ملك أراجون إلى أبى عبد الرحمن سلطان بنى زيان عام ٧١٩هـ / ١٣١٩م إشارة إلى موافقة الملك الأراجونى على بقاء المرتزقة القطلان فى تلمسان كنوع من التعاون بين الدولتين . وفى رسالة أخرى مؤرخة بتاريخ ١٥ مارس ١٣٢٥م / ٢٨ ربيع الأول ٧٢٥هـ ومرسلة من ملك أراجون إلى ابن تاشفين إشارة إلى طلب الملك الأراجونى أن يكون له وحده حق تعيين قائد الفرقة العسكرية الأراجونية العاملة فى تلمسان ، بل واقترح أن يكون ابنه خايمى الأراجونى قائدًا لهذه الفرقة ، ومن المثير للدهشة أن السلطان الزيانى فى رده على هذه الرسالة قد وافق على هذا الطلب(٤١) . هذا ولم يقتصر استخدم الزيانيين للمرتزقة المسيحيين على المشاة أو الفرسان فقط ، بل تعداه إلى استخدام البحارة القطلان لمساعدتهم فى مواجهة هجمات جيرانهم

الحفصيين أو لشن هجمات على الموانئ الحفصية ، كذلك عمل قادة المرتزقة القطلان كسفراء لسلاطين بني زيان لدى ملوك أسبانيا ، فنسمع عن القائد فيليب دى موبا Felip de Mova وخايمي بتريخي ، وكذلك القائد خايمي الأراجوني (وهو ابن غير شرعي للملك خايمي الثاني ملك أراجون) هؤلاء عملوا كسفراء من قبل سلاطين بني زيان إلى ملوك أراجون .

أما في عهد الدولة الحفصية ، فمن المعروف أن الحفصيين فرع من الموحدين ينتسبون إلى أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاتي شيخ قبيلة هنتاته إحدى بطون قبيلة مصموده ، والشيخ أبو حفص كان من كبار رجال المهدى بن تومرت ، وترجع صلة الحفصيين بتونس إلى أيام الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص صهر الخليفة الموحدى المنصور ، حيث ولى أفريقية فى خلافة الناصر محمد الموحدى عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م . ولما انهارت دولة الموحدين ورث الحفصيون الموحدين فى حكم أفريقية . وقد استخدم الحفصيون - شأنهم شأن بقية حكام المغرب - الجنود المسيحيين المرتزقة للعمل فى صفوف جيوشهم وخاصة كحرس لهم. وتشير المصادر إلى أن استخدام هؤلاء المرتزقة المسيحيين يرجع إلى بداية عهد الدولة . وقد خصص السلطان الحفصى أبو زكريا يحيى بن المستنصر الملقب بالواثق لهؤلاء المرتزقة ربضًا خارج النطاق الشرقى من مدينة تونس وسمى بربض النصارى(٤٢) .

وكان الغرض منه أن يمارس هؤلاء الجند شعائرهم الدينية بحرية تامة بعيدًا عن أعين المسلمين . كما سمح لهم ببناء كنيسة فى ربضهم تحمل اسم القديس فرانسوا يقام بها القداس وسمح لهم بدق الأجراس(٤٣) . وكما تعرض الموحدون لانتقاد الناس لهم بسبب استخدام المسيحيين فى جيوشهم ، لم يسلم الحفصيون من ذلك النقد ، فقد ذكر الآبى فى كتابه " الإكمال " أن السلطان الحفصى زكريا بن أحمد اللحيانى كان مارًا من باب السويقة - أحد أبواب مدينة تونس - ويحيط به حرسه من المسيحيين ، فتصدى له الشيخ القروى أحد زهاد إفريقية فى ذلك الوقت - وكان صديقًا للسلطان فى نفس الوقت - فقال له : يا فقيه لا يجوز

ذلك فتوقف السلطان ، واستفسر حول هذا النداء ، فأجابه الشيخ القروى مستشهدًا بإحدى أحكام الفقه المالكى ، وهى أن الله حرم الاستعانة بمشرك . ولم يزد السلطان فى رده على الشيخ القروى أكثر من قوله : أجل ، ثم انصرف(٤٤). ونلاحظ أن هذا الاعتراض على استخدام المرتزقة المسيحيين إنما صدر من أحد المتشددين فى الدين ، ولذلك لم يعبء السلطان به ، وظل استخدام المسيحيين فى الجيش الحفصى قائمًا حتى نهاية عصر الدولة الحفصية .

الهوامش

(١) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ للغرب والأندلس ، الأسكندرية ١٩٦٨ ، ص٢٠٦ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٤ ، كما أشار لسان الدين بن الخطيب إلى مسألة ثبات الفرنج فى قتالهم بقوله " والأحجام عندهم والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع " . الأحاطة فى أخبار غرناطة ، حـ٢ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) الواقع أن عملية استخدام عناصر معينة كحرس للحكام المسلمين فى بلاد المغرب والأندلس ، بدأت منذ فترة بعيدة ، حيث استخدم الأمير الأموى الحكم بن هشام المعروف بالربضى (١٨٠ / ٢٠٦هـ - ٧٩٦ - ٨٢٢م) حرسا خاصًا من الصقالبة واستمر استخدامهم فى العهود المتعاقبة ، كذلك استخدم الفاطميون الصقالبة كحرس خاص وكقادة للجند ولكن الفرق بين الصقالبة والعناصر المرتزقة - موضوع البحث - أن الصقالبة مماليك اشتروا وربوا تربية عسكرية إسلامية ودربوا على أعمال القصر والحرس والجيش ، فهم يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بسيدهم . وأما هؤلاء المرتزقة فكانوا يعملون نظير أجر معلوم ويمكن الاستغناء عنهم فى أى وقت . راجع : مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٤) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، حـ ٣ ، ق١ ، ص٣٢ ، ص٧٦ .

(٥) عبد الله الزيرى : مذكرات الأمير عبد الله أو كتاب التبيان ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ٢١٣ - ٢١٤ هوبكنز : النظم الإسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى ، ترجمة أمين الطيبى ، ص١١١ .

(٦) مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه، ص٨٤ - ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق أحسان عباس، القسم الخاص بالمرابطين ، بيروت ، ١٩٨٠ - ص١٠٢ - ١٠٣ .

(٧) ابن القطان : نظم الجمان فى أخبار الزمان ، نشر محمود على مكـى ، الربـاط ، ١٩٦٤ ، ص٩٦ ، البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ، تحقيـق عبـد الحميـد حاجيـات ، الجزائـر ، ١٩٧٤م ، ص٨٦ - ٩٦ .

(٨) ابن صاحب الصلاة : المن بالأمامـة على المستضعفين ، تحقيـق د. عبـد الهـادى التـازى ، بيروت ، ص ٧٨ ، انظر كذلك :

R. Dozy : Recherches sur L'historie et la Litterature de l'Espagne, Amesterdam, 1965, Tom. 2. pp. 427 - 442.

(٩) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سـعيد العريـان ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ٣٨٣ .

(١٠) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص١٤٦ .

(١١) ابن صاحب الصلاة : المن بالأمامة تحقيق عبد الهادى التازى ، ص ٤٣١ .

(١٢) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ، ص١٦٧ - ١٦٨ .

(١٣) ليون الأفريقى : وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميده ، الرياض ، ص١٤٤ .

(١٤) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطـاس ، أو بسـالا ، ص ١٦٧ ، السـلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، جـ٢ ، ص٢٣٧ .

(١٥) ابن أبى زرع : نفس المصدر السابق والصفحة .

(١٦) مؤلف مجهول : ذكر مشاهير أعيان فاس فى القديـم ، تحقيـق عبـد القـادر زمامـه ، مجلة البحث العلمى ، الربـاط ، العـدد ٣ عـام ١٩٦٤ ، ص ٥٣ ، محمـد بـن مبـارك الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ، الجزائر ، ص٦٦٤ .

(١٧) محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية ، منشورات دار الغـرب الإسـلامى ، بـيروت ١٩٨٦ ، ص١٢٤ - ١٢٥ .

(18) Pierre de Cenival ; :'eglise Chretienne de Marrakech au XIII Siecle, R. Hesperis, Tome VII, Annee, 1927, ler Trimestre, p.75.

(١٩) السلاوى : الاستقصا ، جـ٢ ، ص٢٤٢ .

(٢٠) راجع التفصيلات فى : ابن عذارى ، البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٣٩٩ .

(٢٢) ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص ٢٤٤ .

(٢٣) ابن عذارى : المصدر السابق، ص ٤٣٦ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ٢٦١.

(٢٤) ابن خلدون : جـ٧ ، ص١٧٣ - السلاوى : الاستقصا جـ٤ ، ص ١٣ .

(٢٥) نفس المصدر ص ٢٤٤ .

(26) Geminz Soler; OP. CIT., P. 262 - nota 2 .

(٢٧) راجع التفاصيل فى : ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى غلالة الاغتراب ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، القاهرة : ١٩٦٧ ص ٢٥ ، ص ٢٣٠ .

(٢٨) نفس المصدر السابق ، ص ٢٧١ - ٢٧٦، ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص٣١٣ .

(٢٩) ابن الخطيب : المصدر السابق ص٢٥٦ ، السلاوى : الاستقصا : جـ٤ ، ص٤٢ .

(٣٠) نفس المصدر ، ص ٣٠٦ .

(٣١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٢٣٩ ، مجهول ، ذكر مشاهير أعيان فاس ، ص٩٧ .

(٣٢) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٣٢٤ .

(33) Gimenez Soler; La Corona de Aragon, p. 120.

(34) Lopez de Ayala : Cronica de los Reyes de Espana, p. 56.

(٣٥) يشير العمرى إلى أن السلطان أبا الحسن المرينى كان يعاقب من يتأخر عن الصلاة من الجند ، وإذا كان فى السفر وأذن المؤذن للصلاة نزل هو وجنده وتقام الصلاة جماعة ، العمرى : مسالك الأبصار ، ص١٣٠ .

(٣٦) ابن مرزوق : المسن د. الصحيح الحسن فى مآثر مولانا السلطان الحسن ، تحقيق ماريا خيسوس بيجرا ، الجزائر ، ١٩٨١ ، ص ٢٨٢ ، هذا ونشير هنا إلى أن التجار المسيحيين أيضًا سمح لهم بتناول الخمور فى المدن الإسلامية التى ينزلون فيها للتجارة ولكن داخل فنادقهم المخصصة لهم حتى يتيسر لهؤلاء التجار لونًا من ألوان الحياة الاجتماعية يتفق مع ما ألفوه فى بلادهم . راجع : سعيد عاشور ، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت : ١٩٨٦ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣٧) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص٨٠ - ٨١ .

H. Terrasse : Histoire du Maroc. New York, 1973, Tom I, p. 355.

(38) Miret Y Sans : Un Missatage de Yarmssen de Tremcen a Jaume I., Boletinde La Real Academia de Buenas Lettras de Barcelona, Tom IX, 1915, pp. 95, Du Forcq, L'Espagne Catalane et le Maghrib aux XII e et XIV Siecles, Paris, 1966, p. 147.

(39) Dufourcq (Ch.) Les Espanoles et le royaume de Tlemcen aux XII et XIV siecles, Boletin de La Real Academia de Buenas Lettras, Barcelona, 1948, Tom XXI, p. 59.

(٤٠) يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، نشر الفردبل – الجزائر، ١٩٠٣ ، ص ١١٤ – ١١٥ .

(٤١) راجع :

Capmany y Nontpalau : Memrias historicas Sobre la marina comercio y arts de la antigua ciudad de Barcelona, Madrid, 1779 - 1792. vol, 4, pp. 67 - 69 - De Mas Latrie : Traites de Paix et de commerce divers concernant Les relations de chretines avec les Arabs de L'Afrique Septentrionale au moyen age, Paris, 1860, Tom, 1, p. 312.

(٤٢) ليون الأفريقى : وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميد ، الرياض ، ١٣٩٩ هـ ، ص ٤٦٦ – ٤٦٧ – ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ، تونس ، ١٣٠٥هـ ، ص ١٤٥ – ١٥٠ .

(٤٣) برنشفيك ، تاريخ أفريقية فى العهد الحفصى ، ترجمة وتعليق حمادى الساحلى ، بيروت ، ١٩٨٨م ، جـ١ ، ص٤٧٨ .

(٤٤) الأبى : الأكمال ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٧ – ١٣٢٨ هـ ، جـ٤ ، ص ٣٥٥ .

الأمير سوار بن أيتكين

ودوره في الجهاد ضد الصليبيين

د. عبدالله بن سعيد بن محمد بن سافر الغامدي(*)

أولاً : سوار في خدمة حكام دمشق :

أشارت المصادر باقتضاب شديد إلى سيرة سوار ، فذكرت أنه الأمير سيف الدولة سوار بن أيتكين ، رئيس شحنكية حلب ونائب عماد الدين زنكي بها(١) وبالبحث والتقصي عثرت على معلومات عن شخص أطلقت عليه المصادر أيتكين الحلبي ، بدا لي أنه والد سوار ، التحق بخدمة البيت السلجوقي منذ عهد الأمير دقاق بن تتش ، وبعد وفاة دقاق في الثامن عشر من رمضان سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م استمر أيتكين في خدمة أخيه بكتاش ، بعد أن عزل طغتكين أتابك دقاق، ابنه الصغير الذي كان عمره آنذاك سنة واحدة ، وأقام مكانه عمه بكتاش ابن تتش(٢) ، وكان أن لعب أيتكين الحلبي دوراً بارزاً في مساعدة بكتاش بن تتش على مواجهة أطماع طغتكين ، الذي طلب من بكتاش الخروج إلى الرحبة للسيطرة عليها . وعندما عاد منها منعه طغتكين من دخول دمشق ، حيث قطع الخطبة له وأعادها إلى ابن دقاق الصغير الذي لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره . فأشار بعض خواص بكتاش عليه بالذهاب إلى بعلبك للتزود بالرجال والعتاد تمهيداً لمهاجمة دمشق ، واستعادة حكمه بها . ولكنه عدل عن دخول دمشق واتجه سراً إلى بعلبك ، وذلك في صفر من سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، ولحق به الأمير أيتكين الحلبي (صاحب بصرى) وراسلا بلدوين الثاني (Baldwin II، ١١١٨-١١٣١م) ملك مملكة بيت المقدس الصليبية، وطلبا منه النجدة ضد الأمير طغتكين، فأجابهما إلى ذلك « فسارا إليه واجتمعا به وقرروا القواعد معه » على أن بلدوين الذي يريد استغلال هذا الخلاف لأضعاف الدماشقة ماطل بكتاش وأيتكين الذين « أقاما

(*) أستاذ مشارك تاريخ العصور الوسطى ، قسم التاريخ الإسلامي - جامعة أم القرى .

عنده مدة، فلم يريا منه غير التحريض على الإفساد فى أعمال دمشق وتخريبها»(٣)، ويبدو أن بلدوين قصد بتلك الأعمال التخريبية إشعال نار فتنة بين الطرفين ، تعقبها حرب أهلية تؤدى إلى استنزاف قوى الأمراء الدماشقة ، تمهيداً للسيطرة على مدينة دمشق ، التى كانت هدفاً أساسياً للقوى الصليبية فى المشرق الإسلامى .

ويبدو أن الأمير سوار بن أيتكين سار على نهج والده ، فقد أمضى سنيَّه الأولى فى خدمة حكام دمشق ، حيث تشير المصادر إلى أنه خدم حاكم دمشق تاج الملوك بورى . وقد اكتسب سوار خلال تلك السنين التى خدم فيها الأمراء الدماشقة خبرة فى التعامل مع الصليبيين على المستويين السلمى والحربى ، فكانت له « بصيرة بالحرب وتدبير الأمور »(٤) .

ثانياً : تحول سوار إلى خدمة عماد الدين زنكى :

كانت للسياسة الانهزامية التى انتهجها حكام دمشق ، والتى كثيراً ما كانت ترتكز على إقامة تحالف مع حكام مملكة بيت المقدس الصليبية ، بهدف المحافظة على عرشهم النغيص فى دمشق ، خاصة بعد بزوغ نجم عماد الدين زنكى ونجاحه فى بناء المرحلة الأولى من مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة التى شملت مناطق إقليم الجزيرة وشمال الشام - أثره السيىء على المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية ممن كان يعيش فى دمشق ذاتها . ويبدو أن الأمير سوار بن أيتكين كان واحداً من أولئك النفر الذين اشتهروا بغيرتهم وحميتهم على دينهم وأرضهم ، وأدركوا أن الانضواء تحت لواء عماد الدين زنكى الذى كان يعبر عن تطلعات الأمة الإسلامية آنذاك ، أفضل من الاستمرار فى خدمة أسرة لم يكن حكامها يتورعون عن خطب ود الصليبيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية رغبة فى الحفاظ على مصالح دنيوية ، يغلب عليها الأثرة وحب الذات وهنا تذكر المصادر المعاصرة لفترة البحث أن سوار بن أيتكين (استوحش من تاج الملوك بورى) صاحب دمشق ، وتوجه إلى حلب ، بعد أن استقر أمرها بيد السلطان عماد الدين زنكى ،

وذلك فى سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م. حيث استقبله زنكى أحسن استقبال « فأكرمه وشرفه ، وخلع عليه »(٥) .

ثالثاً : سوار نائباً عن عماد الدين فى حلب :

ظل السلطان عماد الدين زنكى طوال السنين التى سبقت وفاة السلطان السلجوقى ، محمود بن محمد سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م ، مطمئنا على حكمه فى الموصل وقد أقام زنكى فى مدينة حلب ، يوسع مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة، التى كان يرى أنها الأساس الأول الذى يجب أن يسبق بدء عملية الجهاد الشامل ضد الوجود الصليبى فى المشرق الإسلامى . وفى ذات الوقت اتخذ من حلب مقراً لمناوشة الصليبيين الذين ما فتئوا يحاولون وأد مشروع الجبهة الإسلامية فى مهده على أن وفاة السلطان السلجوقى فى تلك السنة ، وما أعقب ذلك من صراع مرير داخل البيت السلجوقى . حول وراثة السلطنة اضطر عماد الدين زنكى للعودة إلى الموصل ، كى يراقب عن كثب تطورات الموقف داخل السلطنة السلجوقية ، عله يجنى من وراء ذلك بعض المكاسب لحساب الجبهة الإسلامية المتحدة ؛ وقد استغل زنكى ما كان يتمتع به فى الموصل من نفوذ وسلطان ، وطالب بأن تسند السلطنة السلجوقية إلى الأمير أبى طالب أرسلان بن السلطان محمود ، الذى كان قد تربى على يديه . وكان أن أرسل زنكى إلى الخليفة العباسى المسترشد « يسومه أن يخطب ببغداد له » إلا أن الخليفة فطن - على ما يبدو- لمطامع زنكى ، فوقف إلى جانب السلطان داود بن محمود ، بحجة أن والده عهد إليه بالسلطنة قبيل وفاته وهو بأصبهان ، يضاف إلى ذلك أنه أعتذر لزنكى عن الموافقة على تولية ألب أرسلان والخطبة له ؛ لأنه (صبى) لا يقوى على تدبير أمور السلطنة وأن حكام الولايات والأطراف قد وردت رسلهم إلى الخليفة (بالخطبة له)(٦) . وهنا يبدو أن الخليفة العباسى المسترشد ، أراد عدم إظهار معارضته المتشددة لزنكى ، وفى ذات الوقت حرص على أن يستخدم معه أسلوب المرونة والتهديد فى آن واحد ؛ حيث أجابه بأنه لا يستطيع اتخاذ أى إجراء بهذا الخصوص ، قبل أخذ رأى « عم

القوم » السلطان سنجر ، سلطان سلاجقة خراسان وما وراء النهر ، باعتباره كبير الأسرة السلجوقية(٧) .

على أن هذه السياسة التى اتبعها الخليفة العباسى ، لم تفلح فى نزع فتيل التنافس بينه وبين السلطان عماد الدين زنكى ، فلاحت فى الأفق بوادر نزاع مسلح بين الطرفين(٨) ، الأمر الذى جعل زنكى يدرك أن إقامته فى ولاياته الشرقية ستطول ، وأن عليه أن يستخلف فى حلب شخصاً ذا خبرة واسعة ودراية كافية بميادين السياسة والإدارة والحرب . ليتمكن من مواجهة الأخطار المحتملة على الجزء الغربى من الجبهة الإسلامية المتحدة ، أبان غيابه عن حلب . التى تقع بين خطر الهجمات الصليبية المتكررة من ناحية ، والدماشقة الطامعين فى التوسع من ناحية أخرى . وقد وقع اختيار عماد الدين زنكى على الأمير سوار إذ رأى فيه الرجل المناسب فى المكان المناسب ، فأنابه فى حلب ، وجعله رئيس الشحنة بها ، وكان سوار عند حسن ظن زنكى ، فقد تمكن بفضل تمرسه على مواجهة الصليبيين ، وتعامله مع الأمراء الدماشقة أبان خدمته لهم ، من مواجهة كافة الأخطار بكل كفاءة واقتدار(٩) .

وكان نظام الإقطاع الحربى يلزم الأمير المقطع بواجبات حربية ، تشمل تقديم العساكر وقت الحرب وهى مجهزة بكل ما تحتاجه ، من مؤن وعتاد وأسلحة، إضافة إلى أنه كان مسئولاً مسئولية كاملة عن صد غارات الأعداء المفاجئة على إقطاعه والأراضى القريبة منه هذا فضلاً عن أن الأمير المقطع كان له مطلق الحرية فى تسيير الجيوش لجهاد الأعداء عند الحاجة دون إذن الحاكم(١٠) لذلك حرص زنكى على منح نائبه فى حلب الأمير سوار بن أيتكين «الإقطاعات الكثيرة»(١١)، وذلك لضمان تمكينه من صد غارات الصليبيين وغيرهم المحتملة على مدن شمال الشام التى كانت قد انضوت تحت لواء عماد الدين زنكى . هذا فضلا عن إعطائه الحرية المطلقة فى بث السرايا ،وتنظيم الغارات على معسكرات الصليبيين ، دون الرجوع إلى عماد الدين زنكى طوال فترة غيابه عن حلب .

وكـان أن تحقق ذلـك ؛ ففـي المـدة التـي عنـي فيهـا عمـاد الديـن زنكـي بالمشكلات التي طرأت في بغدات غداة وفاة السلطان محمود بن محمـد ، وتدخلـه في النزاع الذى نشب بين أبناء البيت السلجوقي علـى منصـب السـلطنة ومـن ثـم تعرضه للحملة التي قام بهـا الخليفـة العباسـي المسترشـد بـا لله علـى الموصـل سـنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م(١٢) ، إضافة إلى حرصه على توسيع نطاق الجبهة الإسلامية فـي بلاد الجزيرة وديار بكر ، تغيب زنكي عن حلب منذ سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م حتـى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م . وقد قام نائبه في حلب الأمير سوار بـن أيتكـين فـي سـنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م ، بتجريد حملة جلها من الخيالة ، أغارات على الصليبيين في تـل باشر ، التابعة لإمارة أنطاكية التي كانت منتجعاً لأميرهـا الصليبي جوسلين الثـاني (Joscelin.II.) . فخرج إليه الصليبيون في « جمع غفـير » ودارت بـين الطرفـين معركة عنيفة ، انتهت بانتصار الأمير سوار ، الذى عاد إلى حلب « سـالماً غانمـاً » بعد أن أثخن في الصليبيين قتلاً وأسراً(١٣) .

وفي السنة نفسها أغار ملك مملكة بيت المقدس الصليبية فولك الأنجـوى (Fulk of Anjou)(١٤)، على أطراف مدينـة حلـب ، ووصـل إلى موضـع يعـرف بتوار، فنهض إليه الأمير سوار بن أيتكين « النائب بحلب » بعسكره ومـن أنضـاف إليه من عساكر التركمان الذين كانوا قد توافدوا آنذاك على بلاد الشـام ، فـالتقى الطرفان، « وتحاربوا أياماً وتطاردوا » حتى وصلوا إلى أرض قنسرين(١٥) . وفيهـا دارت رحى معركـة فاصلـة بـين الطرفـين ، كـان النصـر فـي بدايتهـا مـن نصيـب الصليبيين ، حيث حمل ملك بيت المقـدس على جيـش سـوار « فكسـرهم كسـرة عظيمة » حتى أن سواراً اضطر إلى التراجع بجيشه إلى داخل حلب ، بهدف إعـادة تنظيمه . وهنا يبدو أن الصليبيين كانوا ينوون مهاجمة الأمير سوار بداخل حلـب ، ولذا لم يبارحوا معسكرهم في قنسرين ، على أن سوار عرف نواياهم ، فعاود الخروج إليهـم بمن « بقي من العساكر والأتراك » واقتتل الفريقان مرة ثانية ، وكان النصـر فـي هذه المعركة من نصيب نائب عماد الدين زنكي بحلب الأمير سوار بن أيتكين إذ نجـح في إجبار الصليبيين على ترك قنسرين ، ولاذوا بالفرار لا يلوون على شيء لدرجـة

أن ملكهم نجا بنفسه إلى أنطاكية ، حيث حل ضيفاً على أميرها الصليبي ريموند بواتيه .

ويبدو أن بعض خيالة إمارة الرها الصليبية ، استغلوا ذلك الحدث بهدف الانتقام من سوار ، فحاولوا مهاجمة ممتلكات الجبهة الإسلامية في شمال الشام . وما إن انتهى خبرهم إلى الأمير سوار حتى نهض من حلب على رأس ثلة من جيشه ومعه الأمير حسان البعلبكي ، واتجهوا صوبهم . فأدركوهم قبل دخولهم الرها ، وأثخنوا فيها قتلاً وأسروا من وقع في أيديهم حياً ، وعادوا إلى حلب « ظافرين سالمين ومعهم الأسرى والرؤوس »(١٦) .

ولا يستبعد أن يكون الأمير سوار بن أيتكين وراء قيام التركمان في هذه السنة بالإغارة على إمارة طرابلس الصليبية، حيث توغلوا داخل أراضيها « وغنموا وقتلوا كثيراً » ، فخرج إليهم أميرها الصليبي ريموند الثاني (١١٢٧-١١٥٢، Raymond II) ، وعندئذ تراجع التركمان أمامه لاستدراجه إلى مكان مناسب ، ثم عاودوا الهجوم عليه ، « فهزموه وأكثروا القتل في عسكره » وأجبروه على اللجوء إلى قلعة بعرين . ثم تقدموا صوبها ، وفرضوا عليها حصارا محكما ، فاضطر ريموند الثاني إلى التسلل منها سراً ، ومعه عشرون فارساً من أعيان أصحابه قاصدين طرابلس ، وترك الباقين في بعرين يحفظونها . « وكان أن كاتب جميع الفرنج » فتوافد عليه الصليبيون بأعداد كثيرة ، وخرجوا تحت قيادته صوب بعرين لانقاذها من السقوط في يد التركمان ، واشتبك الطرفان في معركة حامية الوطيس ، رجحت فيها كفة التركمان حتى « أشرف الفرنج على الهزيمة » ، وأجبروهم على التقهقر أمامهم صوب الساحل « فتعذر على التركمان اللحاق بهم »(١٧) .

ويبدو أن عدم ملاحقة التركمان للصليبيين بعد انكفائهم صوب الساحل كان استجابة لتعليمات الأمير سوار بن أيتكين الذى كان يكتفي بالهجمات الخاطفة على معسكرات الصليبيين ، وعدم التوغل داخل العمق الصليبي ، لحين

عودة عماد الدين زنكى من الموصل واستكمال مشروع الجبهة الإسلامية فى تلك الجهة .

والواقع أن تلك النجاحات التى حققها الأمير سيف الدين سوار بن أيتكين، نائب عماد الدين زنكى فى حلب ، خلال فترة غيابه عنها شجعت عماد الدين على العودة إلى المشرق للتدخل فى النزاع الذى تجدد فى بغداد بين الخليفة العباسى الراشد الذى تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المسترشد والسلطان السلجوقى مسعود بن محمد ؛ حيث ترك عماد الدين حصار دمشق سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م ، وتوجه إلى بغداد لمناصرة الخليفة الراشد وحليفه السلطان السلجوقى داود بن محمود ، كما ورد إلى بغداد جماعة من ملوك الأطراف « متفقين على قتال السلطان مسعود»(١٨) ؛ لذلك خرج الخليفة بصحبة عماد الدين زنكى إلى الموصل لترتيب صفوفهم،ومن ثم معاودة الهجوم على السلطان مسعود فى بغداد . ولكن السلطان بادرهم بقطع الخطبة للراشد فى بغداد بعد مضى أحد عشر شهراً فقط على خلافته ، وأقامها للمقتفى بالله ، عم الراشد الذى بويع بالخلافة سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م . ثم جرت مفاوضات بين عماد الدين زنكى والخليفة العباسى المقتفى ، انتهت بحصول زنكى على توقيع من الخليفة بأن يتملك « صريفين ، ودرب هرون ، وحزبى ٠٠٠ويزاد فى ألقابه » ، مقابل أن يبايع زنكى المقتفى ، ويخطب له فى الموصل؛ وذلك فى رجب سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م(١٩).

ويعنينا فى هذا المقام أن الأمير سوار بن أيتكين نائب عماد الدين زنكى بحلب قام خلال مدة غيابه عن حلب بتجريد عدد من الغارات ضد الصليبيين ؛ ففى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م أغار سوار على قرية الجزر وحصن زردنا ، ثم تقدم صوب حارم وهاجم الصليبيين بها ، وألحق بهم خسائر فادحة ، وقد شجعته تلك الانتصارات المتلاحقة على المضى قدماً للجهاد ضد الصليبيين فى مواقع أخرى ، « فشحن إلى بلد المعرتين » وهاجم معسكرات الصليبيين بهما ، وعاد إلى حلب محملاً بالغنائم(٢٠) .

ويبدو أن مهام الأمير سوار بن أيتكين نائب زنكى فى حلب لم تقتصر على مسألة الجهاد ضد الصليبيين ، بل تعدت ذلك إلى توسيع رقعة الجبهة الإسلامية المتحدة . ومما يذكر فى هذا المجال أن عماد الدين زنكى أوعز إلى سوار فى سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م بمهاجمة أعمال حمص ومحاولة ضمها إلى مشروع الجبهة المتحدة. وكان أن شرع سوار فى إعداد الجيوش بحلب ، وزودها بما تحتاجه من مؤن وعتاد، وكاتب أهل حماة يطلب منهم المعونة ، ثم سار على رأس تلك الجموع صوب حمص التى كان حكامها من « أولاد خير خان بن قراجا ، والوالى عليها من قبلهم » قد راسلوا شهاب الدين حاكم دمشق فى أن يسلموا إليه حمص خوفاً عليها من عماد الدين زنكى ، مقابل أن يعطيهم تدمر عوضاً عنها . فوافق شهاب الدين على ذلك وتسلمها منهم ، وأقطعها إلى مملوك جده معين الدين أنر، وقرر ولايتها للحاجب يوسف بن فيروز ، على أن يكون نائباً عنه بها . أما زنكى فقد خرج من حلب على رأس قواته صوب حمص ، وجرت بينه وبين أصحابها « عدة وقائع »(٢١) . ويبدو أن كلا الطرفين أدرك أن الاستمرار فى المنازلة سيكون بمثابة حرب استنزاف يفيد منها فى المقام الأول عدوهما المشترك وهم الصليبيون ، فجرت بينهما « مراسلات ومخاطبات » أسفرت عن « المهادنة والموادعة والمسالمة إلى أمد معلوم وأجل مفهوم »(٢٢) ونخرج من هذا بأن عماد الدين ربما يكون قد أفضى إلى نائبه سوار باغتنام مراسلة شهاب الدين له ، ومطالبته بالتوقف عن الهجوم انتظاراً لزوال مشاكله الخاصة بالصراع بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية . ومن ثم معاودة الهجوم على حمص فى الوقت المناسب وضمها إلى مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة ، وهذا ما حدث فعلا فبمجرد عودة عماد الدين زنكى من الموصل إلى حلب فى رمضان ١٤ رمضان سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م أصدر أوامره إلى قواته بالشروع فى حصار حمص ؛ ثم خرج بنفسه من حلب فى السادس عشر من الشهر نفسه ، ويبدو أن عماد الدين زنكى أراد فى بداية الأمر استخدام الوسائل السلمية لتسلم حمص من صاحبها معين الدين أنر ، وإلحاقها بمشروع الجبهة الإسلامية ، حقناً لدماء المسلمين . يدلنا على ذلك ما ذكره

العظيمى من أن عماد الدين زنكى بعد خروجه من حلب أمر حاجبه صلاح الدين محمد الياغيسانى الذى كان أكبر الأمراء معه ، وكان « ذا مكر وحيل » بالتقدم إلى حمص ، للتفاوض مع معين الدين أنر لتسليم حمص لزنكى من غير قتال ، فى حين عرج عماد الدين على مدينة حماه ، وعيَّد بها عيد الفطر المبارك انتظاراً لما ستسفر عنه جهود حاجبه الياغيسانى . ولما سمع زنكى أنه لم يتمكن من إقناع معين الدين أنر بتسليم المدينة ؛ إذ لم « ينفذ فيه مكره »(٢٣) على حد تعبير ابن الأثير خرج زنكى من حماه صوب حمص ومعه خمسمائة رجل من حماه ، حيث انضم إلى عسكر حلب ، وبدأ حصار حمص ؛ وذلك فى مطلع شوال من السنة نفسها ، وفى ذات الوقت لم تتوقف المفاوضات بين زنكى ومعين الدين أنر ، حيث عاود زنكى مراسلته فى التسليم غير مرة ، « تارة بالوعد وتارة بالوعيد » ، واحتج معين الدين أنر بأن حمص ملك صاحبه شهاب الدين وهى بيده أمانة لا يستطيع تسليمها « إلا عن غلبة »(٢٤) ولذلك فإننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن معين الدين أنر كان يناور بهذا الكلام كسباً للوقت ريثما تتم عملية الاستعانة بالصليبيين ، إذ كان قد بدأ اتصالاته بزعماء الصليبيين فى إمارتى أنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس حيث استجاب الصليبيون لذلك ، وخرجوا « نجدة لحمص وغيله لزنكى »(٢٥) ، ونخرج من هذا بأن الصليبيين لم يقصدوا بهذه النجدة مجرد إنقاذ حمص من السقوط فى يدى عماد الدين زنكى ، بل كانوا يرومون ماهو أبعد من ذلك ، وهو أن بقاء حمص بيد معين الدين أنر أهون عليهم من ضمها إلى مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة التى كان زنكى بصدد بنائها استعداداً لبدء حركة الجهاد الشاملة ضدهم .

وعلى أية حال فقد نجح معين الدين أنر بمساعدة الصليبيين فى إجبار زنكى على الرحيل عن حمص ، ولكنه لم يعد إلى حلب بل اتجه إلى مهاجمة الصليبيين فى حصن بعرين ؛ وذلك فى شوال من السنة نفسها . ولما سمع الصليبيون بذلك ساروا على وجه السرعة إليه لإنقاذه ، فاغتنم زنكى ذلك ، وأوعز إلى الأمير سوار ابن أيتكين الذى كان مرافقاً لهذا الحملة بالتقدم للقاء الصليبيين وهم فى طريقهم

إلى بعرين ، فالتقى بطلائعهم وأوقع بهم هزيمة ساحقة ، وأثخن فيهم قتلاً وأسراً ، وكان من جملة الأسرى ريموند الثانى أمير إمارة طرابلس الصليبية(٢٦) . ويظهر لنا من هذا مدى ثقة عماد الدين زنكى فى الأمير سوار بن أيتكين إذ كان يعتمد عليه فى تنفيذ الكثير من المهام القتالية الصعبة ضد الصليبيين، وخاصة الحروب الخاطفة التى طالما تمرس عليها سوار إبان خدمته للدماشقة ، وخلال نيابته عن زنكى فى مدينة حلب .

ويبدو أن ذلك النصر الذى حققه سوار بن أيتكين ضد طلائع الصليبيين لم يفت فى عضدهم ، بل استمر تقدمهم صوب بعرين ، ودخلوها بزعامة ملك مملكة بيت المقدس الصليبية فولك الأنجوى . وهنا يبدو أن دخول الصليبيين بعرين كان مقصوداً من قبل عماد الدين زنكى الذى أمر قواته بما فيها فرق الطلائع التى يقودها سوار بن أيتكين بضرب حصار محكم على الصليبيين بعد تكامل دخولهم بعرين ، مما أدى إلى نفاد أقواتهم ، فطلبوا الأمان من زنكى . وعلى الرغم من أنه رفض طلبهم فى بداية الأمر إلا أنه عاد وأجابهم إلى ذلك ، على أن يملى شروط الصلح بنفسه ؛ فاشترط عليهم تسليم حصن بعرين ، ودفع مبلغاً كبيراً من المال قدره بعضهم بخمسين ألف دينار . ولما استجابوا لذلك أطلق سراحهم « وخلع على الملك »(٢٧) ، ويمكن رد موافقة زنكى على طلب الصلح وتجنيب الصليبيين عواقب الكارثة التى كانت تنتظرهم داخل بعرين إلى الأنباء التى بلغت زنكى عن حشود الصليبيين والبيزنطيين التى بدأت استعداداتها لمهاجمة مدن الشام الشمالية ، إضافة إلى سماعه عن قدوم قوات صليبية جديدة نجدة لبعرين بقيادة ريموند دى بواتيه أمير إمارة أنطاكية الصليبية .

ومما يضاف إلى الجهود التى بذلها سوار بن أيتكين إبان غياب عماد الدين زنكى أنه استغل تفرق الصليبيين عن اللاذقية . ولعل ذلك كان بسبب سماعهم عن انشغال سوار بحمص . فجهز سوار جيشاً من أهل حلب وحماه ومن انضم إليهم من التركمان الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف مقاتل ، وسار بهم إلى اللاذقية فى

شعبان من سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م . فهاجموها على حين « غرة وغفلة » وحاصروا البلد من كل الجهات . ولم يتمكن الصليبيون من الانفصال عنها والاحتراز ، وألحق بهم سوار ورجاله خسائر فادحة ، ثم عادوا إلى حلب محملين بالأسرى والغنائم(٢٨) ، وقد فرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً ، ولم يستطع الصليبيون عمل شيء مقابل هذه الحادثة « عجزاً ووهناً »(٢٩) .

دور الأمير سوار فى صد الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة على شمال الشام :

كان الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين (Alexius Comnenus، ١٠٨١-١١١٨م) قد أرغم زعماء الحملة الصليبية الأولى على أن يقسموا له يمين الولاء والتبعية ، وأن يعيدوا لبيزنطة كامل الأراضى التى فقدتها لحساب السلاجقة المسلمين منذ معركة ملاذ كرد ٤٦٣هـ/١١٦٨م ، بما فى ذلك مدينة أنطاكية التى انتزعها السلاجقة من البيزنطيين عام ٤٧٧هـ/١١٨٢م ، إلا أن الصليبيين بعد سيطرتهم عليها تنصلوا عن تعهداتهم لبيزنطة ، وأقاموا إمارة صليبية بزعامة الأمير بوهيمند النورمانى (Bohemond ، ١٠٩٨-١١٠٤م) ، ونشب بين البيزنطيين والنورمان خلاف شديد حول مستقبل أنطاكية ، حتى أن بوهيمند عاد من أنطاكية إلى الغرب الأوربى ليقنع والده روبرت جيسكارد بدعوة أوربا إلى تجريد حملة صليبية ضد بيزنطة . وعندما تولى حنا الثانى كومنين (John Comnenus II، ١١١٨-١١٤٣م) العرش البيزنطى بعد وفاة والده الكسيوس كومنين سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م قرر القيام بحملة عسكرية لاسترداد قليقية من الأرمن وأنطاكية من الصليبيين ؛ وذلك فى أواخر سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م، وبعد أن نجح فى السيطرة على بعض المدن الرئيسية فى قليقية تقدم صوب أنطاكية وفرض عليها حصاراً شديدًا طالب خلاله أميرها الصليبى ريموند بواتيه (١١٣٦- ١١٤٩ م) بالاستسلام له دون قيد أو شرط . وعقد صلح بين الطرفين ، اعترف ريموند بموجبه بسيادة بيزنطة على أنطاكية ، وأن ترفع أعلام الإمبراطور البيزنطى على أسوار المدينة وأبراجها ، على أن يظل ريموند حاكماً على المدينة ، وتابعاً لبيزنطة ،

ثم اجتمع ريموند مع حنا كومنين عند أسوار أنطاكية ، وشارك فى الاجتماع جوسلين الثانى (.Joscelin .II) أمير الرها ، واتفقوا على القيام بحملة مشتركة على بلاد المسلمين للاستيلاء على مدن شمال الشام ؛ حلب وشيزر وحمص وحماه، على أمل أن تقام بها إمارة صليبية جديدة تسلم إلى ريموند ويتخلى نهائياً عن أنطاكية للبيزنطيين(٣٠).

وكان أن سارت الحملة المشتركة صوب مدن شمال الشام ، وعندئذ أدرك عماد الدين زنكى خطورة الموقف فأرسل إلى بغداد وحكام أقليم الجزيرة يطلب المدد . وفى ذات الوقت قام ببعض الإجراءات الدفاعية السريعة ، التى أوكل إلى الأمير سوار بن أيتكين تنفيذها ريثما تصل الإمدادات الإسلامية ، فطلب من سوار التصدى لسرية بيزنطية كانت فى طريقها للإغارة على أطراف حلب ؛ وذلك فى ذى الحجة من سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م، حيث ظفربهم سوار ، « فقتل بعضاً وأسر بعضاً »(٣١) ، وعاد بالأسرى إلى حلب . يفهم من هذا أن زنكى أراد استغلال مواهب سوار بن أيتكين فى تنفيذ الغارات الخاطفة ، فأوعز إليه بمواجهة هذه السرية ؛ ليؤكد للبيزنطيين الذين كانوا على وشك الاتفاق مع الصليبيين على حربه أنه على استعداد تام لمواجهتهم فى الوقت الذى كانت رسل الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين تترى إلى عماد الدين زنكى تخبره أن هدفهم هو أراضى « ابن لاون » زعيم الأرمن فى قليقية(٣٢) ، وتوهمه أن البيزنطيين ليسوا راغبين فى أن يبادروا بمهاجمته(٣٣) ، والحق أن الأمبراطور البيزنطى حنا كومنين كان عاقداً العزم على مهاجمة ممتلكات عماد الدين زنكى فى شمال الشام بهدف وأد مشروع الجبهة الإسلامية فى مهده ، فقد ذكرت المصادر المعاصرة لفترة البحث أن الصليبيين فى أنطاكية عمدوا إلى نقض الهدنة التى كانت معقودة بينهم وبين زنكى فقبضوا على التجار الحلبيين الذين كانوا موجودين آنذاك بأنطاكية وبعض مدن الساحل القريبة منها ، وقدر عددهم بخمسمائة رجل؛ وذلك فى جمادى الأولى من سنة ٥٣٢هـ، كى لا تتسرب أخبار الحشود والاستعدادات التى حشدها الأمبراطور البيزنطى فى أنطاكية عشية انقيادها له استعداداً لمهاجمة شطر الجبهة الإسلامية فى شمال الشام(٣٤) .

وعلى أية حال فإنه ما لبث أن افتضح أمر الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة ، وعلم أهل حلب أنها فى طريقها إليهم حين وصل إليهم نفر من البيزنطيين ضلوا طريقهم ، فأخبروهم بمسير الامبراطور إليهم على رأس حملة مشتركة من البيزنطيين والصليبيين ، وعندئذ شرع أهل حلب فى ترميم تحصينات مدينتهم وتزويدها بما تحتاجه من المؤن والعتاد استعداداً لمقاومة الحصار المرتقب . ولحسن حظ الحلبيين ، شاءت إرادة الله أن ينشغل البيزنطيون والصليبيون بعض الوقت بحصار حصن بزاغة ، مما أعان أهل حلب على إكمال استعداداتهم ، ومكاتبة عماد الدين زنكى الذى كان آنذاك متواجداً فى حمص ، فاهتم بالأمر أيما اهتمام . وقد رأى زنكى أن خير من يقوم بمهمة الدفاع عن حلب لحين عودته إليها هو ساعده الأيمن ورجل المهمات الصعبة سيف الدين سوار بن أيتكين الذى توجه من فوره إلى حلب بصحبة الرجالة الحلبيين وخمسمائة فارس ، يعضدهم أربعة من الأمراء « الاصفهسلارية » ، ووصلوا جميعاً إلى حلب فى ٢٧ رجب من سنة ٥٣٢ هـ، « فقويت قلوب أهل حلب بهم »(٣٥) ، وشرع أهل حلب فى زيادة تحصينات مدينتهم وتوسيع خنادقها(٣٦) ، ويفهم من هذا أن سوار ابن ايتكين كان يعد الرجل الثانى فى دولة عماد الدين زنكى يناط به مواجهة المهام الصعبة والمباغتة ؛ لما كان عليه من خبرة ودراية بإعداد الخطط والتدابير السريعة لمواجهة الأخطار المفاجئة . هذا إلى أن أهل حلب كانوا يشعرون بثقة زائدة عندما يكون سوار بين ظهرانيهم ، لما عهدوا فيه من كفاية وسرعة بديهة فى مواجهة المواقف الحرجة ، وبالأخص عندما يتعرضون لعدوان خارجى مباغت .

وعلى أية حال فقد سيطر الإمبراطور البيزنطى على بزاغة بعد أن ضيق على أهلها ونصب عليها المنجنيقات حتى اضطرهم إلى التسليم فى الخامس والعشرين من رجب من سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م . وبعد ذلك اتجه الإمبراطور إلى حلب ومعه من بالساحل من الفرنج « فى خيلهم ورجلهم » . وهنا تجلت خبرة سوار العسكرية حيث أوعز فى البداية إلى أحداث حلب الذين اشتهروا بسرعتهم وحماستهم الشديدة لحركة الجهاد بالخروج لملاقاة الصليبيين والبيزنطيين خارج

حلب ، فناوشوهم القتال . ثم لحق بهم سوار ومعه أهل حلب ودارت بين الطرفين معارك شديدة ، قتل فيها من الصليبيين والبيزنطيين (خلق كثير) ، وأقام الصليبيون والبيزنطيون ثلاثة أيام فلم يظفروا بطائل ثم انكفأوا إلى معسكرهم ، حيث استراحوا به أياماً قليلة حتى عن لهم محو هزيمتهم أمام حلب بمهاجمة قلعة الأثارب ، فخاف من بها من المسلمين وأخلوها ، فاستولى عليها الصليبيون والبيزنطيون ، وأودعوا الأسرى والسبايا الذين ظفروا بهم فى بزاعة « فى خنادقها وأحواشها » ، حتى رحلوا عنها . وهنا تمكَّنَ جماعة من الأسرى من الهروب إلى حلب ، وأعلموا الأمير سوار بن أيتكين بذلك ، « وأن الروم قد انعزلوا عنها » ، فأعد سوار للأمر عدته ، وخرج من حلب على رأس ثلة من جيشها قاصداً الأثارب « فصابحهم وقد انتشروا بعد طلوع الشمس » ، فأوقع بمن فيها من الروم والصليبيين ، واستخلص السبايا إلا اليسير منهم ، وأركب الضعفاء خلف الخيالة ، وأخذ بنفسه جماعة من الصبيان وأركبهم بين يديه ومن خلفه ، ووصل بهم إلى حلب فى يوم السبت الحادى عشر من شعبان حيث قوبل بترحاب شديد من أهلها الذين سروا بهذه النوبة « سروراً عظيماً »(٣٧) .

ويتضح من هذا أن مهام سوار بن أيتكين لم تكن مقصورة على الدفاع عن حلب التى كان نائباً عن عماد الدين بها ، بل كان مخولاً من قبل عماد الدين بالمشاركة فى حماية البلاد المجاورة لحلب من أى خطر خارجى بيزنطى أو صليبى .

ومع أن عماد الدين زنكى عاد إلى حلب قادماً من حمص بعد أن مر بحماة وسلمية ، وذلك لمواجهة خطر الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة ، إلا أن فشل هذه الحملة فى السيطرة على شيزر وعودة الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين والأمير الصليبى ريموند إلى أنطاكية(٣٨) . جعل زنكى يترك حلب مرة أخرى لنائبه بها سوار بن أيتكين ؛ ليتفرغ من جديد لإكمال مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة . وقد استغل صليبيو أنطاكية ذلك ، وأغاروا سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م على سرمين وجبل السماق وكفر طاب ، وارتكبوا فيها الكثير من السلب والنهب

والتخريب . ولما علم سوار بن أيتكين بذلك أعد جيشاً بقيادة ابنه علم الدين لمعاقبة الصليبيين على ذلك العمل ، فأغار علم الدين ومعه التركمان على معسكرات الصليبيين حتى بلغ « باب أنطاكية » ثم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم « والوسيق العظيم »(٣٩) .

ويبدو أن هذه الضربة الموجعة التى وجهها علم الدين بن سوار لصليبيى أنطاكية ، جعلت أميرهم ريموند بواتيه يفكر من جديد فى الانتقام من سوار وابنه؛ ففى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣م ورد الخبر إلى سوار بحلب أن أمير أنطاكية الصليبى فى طريقه إلى ناحية بزاغة لمهاجمتها ، فأعد سوار للأمر عدّته وخرج بنفسه لملاقاته ، « وثناه عنها وحال بينه وبينها »(٤٠) .

وكان لهاتين النوبتين اللتين انتصر فيهما سوار بن ايتكين وابنه علم الدين على صليبيى أنطاكية ، وكبداها من خلالها خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد والدواب - أثره البالغ فى دفعهما إلى مواصلة كيل الضربات الموجعة لإمارة أنطاكية الصليبية وقد ذكر ابن العديم نقلاً عن العظيمى أن الأمير سيف الدين سوار بن أيتكين نهض فى العشر الثانى من رمضان سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤م إلى بلد أنطاكية ، ولقى عند الجسر جمعاً غفيراً من الصليبيين وخيماً مضروبة ، وقطعة من العسكر « يخطفون الأطراف » فخاض التركمان نهر العاصى وهاجموهم وهزموهم شر هزيمة ، ثم عاد سوار إلى حلب محملاً بالغنائم والأسرى والسبايا (٤١). كذلك ذكر ابن القلانسى أن سواراً أوعز إلى ثلة من جيشه بالخروج من حلب ومهاجمة قافلة كبيرة من التجار والأجناد وغيرهم ، خرجت لتوّها من أنطاكية ، ومعها الكثير من الدواب والمتاع والأثاث ، فأوقعوا بها واشتملوا على ما كان بها ، وعادوا إلى حلب « بالمال والسبى والأسرى والدواب »(٤٢).

* * *

وختاماً يمكن القول أن سيف الدين سوار بن أيتكين نائب عماد الدين زنكى بحلب قام بدور فعال فى حماية الجزء الغربى من دولة عماد الدين ، أثناء

انشغاله بمشاكل الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ، فضلا عن مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة ، بل زاد على ذلك بأن نجح في تحجيم دور إمارة أنطاكية وتهميش دورها الحربي خلال الفترة ، مما شجع زنكي بعد ذلك على التفكير في مهاجمة الرها واستردادها من الصليبيين في سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م . وهنا يبدو للباحث أن زنكي لم يصطحب سوار بن أيتكين معه عند خروجه لمهاجمة الرها بل أبقاه في حلب خوفاً من غدر الدماشقة وحلفائهم حكام مملكة بيت المقدس الصليبية ، بدليل أن المصادر المعاصرة لتلك الفترة لم تشر إلى مشاركة سوار في ذلك الحدث الهام .

والواقع أن المصادر التاريخية صمتت - كما يبدو للباحث - عن أي إشارة إلى هذا القائد العظيم ، بعد هذه الحوادث التي أشرنا إليها في ثنايا البحث باستثناء إشارة بسيطة وردت في ابن القلانسي الذي ذكر أن سواراً رافق نور الدين محمود عندما دخل حلب بعد وفاة والده ، ومن ثم رافقه عندما خرج لاسترداد الرها من يد جوسلين الثاني سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م(٤٣) . ويمكن أن نعزو هذا الصمت إلى أن سوار بن أيتكين كان قد تقدمت به السن وبات غير قادر على أداء مهامه القتالية بالشكل المطلوب ، مما جعله يعتزل الحياة السياسية والعسكرية . يؤيد هذا ما ورد في ثنايا البحث من أن سواراً أخذ ينيب عنه ابنه علم الدين في قيادة الجيش الحلبي الذي كان يخرج لأداء بعض المهام القتالية ضد الصليبيين (٤٤).

أما نور الدين محمود بن زنكي فقد استقلّ بالجزء الغربي من دولة والده عشية وفاته واتخذ من حلب حاضرة له ، وبالتالي لم تعد هناك حاجة لاستبقاء سوار نائباً بحلب ، كما كان الحال زمن عماد الدين زنكي ، وهكذا صار سوار مجرد فرد عامل في صفوف جيوش نور الدين محمود التي كانت تعمل جاهدة تحت قيادة نور الدين محمود نفسه من أجل استكمال مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة ، استعداداً لبدء حركة الجهاد الشاملة ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام .

الهوامش

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٧٥؛ ابن العديم ، زبدة الحلب حـ٢، ص٢٤٥؛ وينفرد ابن القلانسي بإضافة اسم مسعود ؛ أما ابن الأثير فيذكره على أنه أسوار بالألف ، انظر الكامل ، حـ٨،ص٢٢٢؛ والشحنكية أو الشحنة : وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنة وهو بمثابة رئيس الشرطة الموكل بالأمن في البلد ، انظر محمد قنديل البقلي ، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٩٣؛ أما الدكتورة فتحية النبراوي فقد عرفت الشحنة استناداً إلى لسان العرب بأنها « وظيفة يقوم المكلف بها بالجمع بين الحكم والقضاء » انظر البنداري ، سنا البرق الشامي ، حاشية المحقق ، ص٢٨.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، حـ٨،ص٢٢٢؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ص٢٦٩؛ ابن خلكان وفيات الأعيان ، حـ١، ص٢٦٩؛ أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، حـ١، ص٢١٧؛ والأتابك لقب مكون من لفظين الأول أتا بمعنى أب والثاني بك بمعنى أمير ، وكانت نظرية السلاجقة في الحكم تنص على أن يتولى أفراد من الأسرة السلجوقية حكم الأقاليم، وأن يرتبط بكل فرد قائد تركي يحمل لقب أتابك ، أي الأمير الوالد ، مهمته تربية الأمير الصغير بعد وفاة والده ، وقد يتزوج الأمير ابنة الأتابك ، وبالتالي تصبح العلاقة بينهما شبه أبوية ، ويصبح للأتابك الكثير من النفوذ والسلطان . انظر على الغامدي ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، وانظر أيضاً ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك، ص١١١-١١٣؛ أما طغتكين فهو ظهير الدين أبو منصور أتابك دقاق وعتيق والده تتش، توفي يوم السبت لثمان خلون من صفر سنة ٥٢٢هـ، انظر ابن خلكان ، المصدر نفسه ، حـ١،ص٢٩٦.

(٣) ابن الأثير ، الكامل حـ٨،ص٢٢٢؛ أبو الفدا ، المختصر ، حـ١،ص٢١٧؛ والرحبة قرية من قرى دمشق ،(انظر ياقوت ، معجم البلدان ، حـ٣،ص٣٣)؛ وبعلبك : بالفتح ثم السكون وفتح اللام والباء الموحدة ، والكاف المشددة ، وصفها ياقوت بأنها « مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام واثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل » . (انظر المصدر

نفسه، جـ١، ص٤٥٢-٤٥٥) وبصرى بالضم وهى من أعمال دمشق وتعد قصبة حوران (انظر المصدر نفسه ، جـ١،ص٤٤١).

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢،ص٢٤٥؛ وتاج الملوك بورى هو تاج الملوك أبو سعيد بورى بن ظهير الدين أبو منصور طغتكين ، توفى يوم الاثنين الحادى والعشرين من رجب من سنة ٥٢٦هـ، متأثراً بجراحه بعد أن أصابه الباطنية (انظر ابن خلكان المصدر نفسه، جـ١،ص٢٦٩؛ الذهبى ، دول الإسلام ، ص٢٧١).

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص٢٤٥ .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١،ص٤٦؛ انظر أيضاً ابن الأثير ، الباهر ، ص٤٢،٤٣؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨، ص١٣٦؛ ابن أبى الهيجاء ، تاريخ ابن أبى الهيجاء،ص١٨٩.

(٧) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج١،ص٤٦؛ انظر أيضاً ابن الأثير ، الباهر ، ص٤٣ ؛ الحسينى، أخبار الدولة السلجوقية ، ص٩٩ وما بعدها ، سعيد الديوه جى ، تاريخ الموصل، جـ١ ، ص٢٧١ .

(٨) أدى اعتذار الخليفة العباسى عن إقامة الخطبة لألب أرسلان بن محمود إلى إثارة غضب زنكى الذى اعتبر ذلك إهانة له ، وبات كل منهما يتربص بالآخر ، وهنا استغل السلطان مسعود بن محمد الخلاف الذى نشب بين الخليفة العباسى المسترشد وعماد الدين زنكى ، فاستعان بزنكى ضد أخيه سلجوق شاه الذى دخل بدوره إلى بغداد وانضم إلى صف الخليفة العباسى ، وعلى الرغم أن زنكى تردد بادىء الأمر فى التحالف مع السلطان مسعود ، إلا أن تنازل الأخير له عن بلدة أربل جعله يوافق على ذلك ، فانضم زنكى إلى السلطان مسعود فى حربه ضد الخليفة العباسى وأخيه سلجوق ، ودارت رحى الحرب بين الطرفين انتهت بهزيمة مسعود وحليفه زنكى ؛ وذلك فى سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م . واضطر زنكى بعدها إلى الرحيل إلى الموصل . وظل بها يرقب تطورات الموقف ، خاصة بعد أن سمع بمقدم السلطان سنجر ، وأنه قد وصل إلى الرى فى طريقه إلى العراق لحسم الموقف (لمزيد من التفصيل راجع مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، ص١٩٦-١٩٧) .

(٩) انظر ما سبق .

(١٠) نشأ نظام الإقطاع الحربى فى الشرق الإسلامى منذ أيام الدولة السلجوقية التى كانت تسير على أساس صرف مرتبات نقدية للجيوش النظامية حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، (الحادى عشر الميلادى). وعندما اتسعت رقعة الدولة وأرهقت إدارتها المالية من جراء مرتبات الجند ، فكر نظام الملك فى الاستعاضة عن المرتبات النقدية بنظام توزيع الأراضى كإقطاعات على الجند (انظر المقريزى ، الخطط ، جـ ١، ص١٥٣؛ العماد الأصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٦١؛ نظام الملك ، سياسة نامة ، ص٦١؛نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص٢٢١؛ إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية فى الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى . وقد انتقل نظام الإقطاع الحربى كاملاً إلى الدولة الزنكية التى نبتت وترعرعت فى أحضان السلاجقة ، يدلنا على ذلك قول أبى المحاسن : (أنشأ بنو بويه بنى سلجوق ، وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق ، وآق سنقر جد زنكى ...) (انظر النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٣٧٩) وقد ارتبط الإقطاع الحربى فى عصر الزنكيين بالخدمة الحربية ، ولكن منح الإقطاع بواسطة السلطان لم يكن معناه تمليك الأراضى الزراعية للأمير المقطع ، وليس معناه أيضاً تمتع المقطع بتحصلات الإقطاع لفترة طويلة ، بل كان يعطى المقطع بمجرد الحق فى أن يجمع لنفسه وأجناده مجموعة من الضرائب مقابل الواجبات المدنية والعسكرية التى كان المقطع ملزماً بها وقت الخروج للجهاد .

انظر Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt. pp.20-30

(١١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ،ص٢٤٥.

(١٢) خرج الخليفة العباسى المسترشد بالله لحصار الموصل فى سنة ٥٢٧هـ فترك عماد الدين الموصل إلى سنجار ، وأبقى بها ثلة من جيشه للدفاع عنها بقيادة (نصر الدين جقر الذى حفظها « أحسن حفظ » وكان عماد الدين يرسل السرايا من كل مكان لقطع الميرة عن جيش الخليفة ، فقلت الميرة وعزت الأقوات عنهم وأصبحوا شبه محصورين ، فترك الخليفة الموصل ، بعد حصار دام ثلاثة أشهر عائداً إلى بغداد بعد أن بلغه أن السلطان مسعود استغل انشغاله بالموصل فتوجه إليها ومعه دبيس بن صدقة (لمزيد من التفصيل انظر ابن الأثير ، الباهر ، ص٤٧،٤٨؛ الحسينى ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص

١٠٨، ١٠٩) سعيد الديوه جي : تاريخ الموصل ، ص٢٧٢)؛ عبد النعيم حسنين ، سلاجقة إيران والعراق ، ص١٢٢، ١٢٣.

(١٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٣٦؛ ابن الأثير ، الكامل ، حـ١١، ص٨؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، حـ٢، ص٢٥١؛ وجوسلين الثاني (Joscelin II.) هو الأمير الصليبي الذى تولى إمارة الرها بعد وفاة والده جوسلين الأول سنة ٥٣٥هـ/١١٣١م واستمر بحكم الرها حتى سقوطها بيد زنكي سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م (انظر أبو شامه ، الروضتين ، حـ١،ق١ ص١٢٥ حاشية المحقق) ؛ وتل باشر ، بلدة مشهورة لها قلعة معمورة إلى الشمال من حلب بينهما مسيرة يومين وأهلها نصارى أرمن (انظر ابن العديم ، بغية الطلب ، حـ١،ص٣٢١؛ ياقوت ، معجم البلدان ،حـ٢ ، ص٤٠).

(١٤) هو فولك الخامس كونت انجو من كبار بارونات فرنسا وقع الاختيار عليه ليكون زوجاً للأميرة ميسلند ابنة بلدوين الثاني ، وكان فولك آنذاك يبلغ من العمر أربعين عاماً ، أوصى بترشحه الملك لويس السادس والبابا هنريوس الثاني . وقد أبلغ فولك أن بلدوين الثاني ونبلاء مملكة بيت المقدس قد وافقوا بالإجماع على أنه في خلال خمسين يوماً من وصوله إلى المملكة سيتم زواجه من ميسلند ويكون من حقه وراثة العرش فى حالة وفاة بلدوين الثاني . وفى ربيع عام ١١٢٩م تم زواج فولك من ميسلند . وبعد وفاة بلدوين فى ٢١ أغسطس ١١٣١م انتقل العرش إلى فولك وزوجته دون إجراء انتخاب ، وأصبح فولك من الوجهة القانونية ملكاً على الصليبيين فى بيت المقدس (لمزيد من التفصيل انظر، وليم الصورى، ص ؛ عبد الحفيظ محمد على ، مشكلات الوراثة فى مملكة بيت المقدس ، ص١٥-٢١) .

(١٥) قنسرين ، بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده : مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، حـ٤ ، ص٤٠٣ ، ٤٠٤) .

(١٦) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٤٠ ، ٤٤١.

(١٧) ابن الأثير ، الكامل ، حـ١١، ص٧،٨؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٤٠.

(١٨) ابن واصل ، مفرج الكروب ، حـ١ ، ص٦٤؛ انظر أيضاً ابن الأثير ، الكامل ، حـ١١، ص٣٦؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، حـ ٢ ،ص٢٥٩؛ أبو شامة ، الروضتين ، حـ١،

ص٣١؛ والخليفة الراشد: هو أبو جعفر المنصور بن المسترشد با لله ، بويع بالخلافة في يوم الاثنين مستهل ذي الحجة سنة ٥٢٩هـ ، ومات مقتولاً سنة ٥٣١هـ، ودفن بجامع شهرستان (انظر ابن العمراني ، الأنباء في تاريخ الخلفاء ،ص٢٢٢-٢٢٤).

(١٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١ ،ص٤٤،٤٥؛ انظر أيضاً ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١، ص٦٩ ، ٧٠ ؛ ابن أبي الهيجاء ، ص١٥٦، وصريفين وصفها ياقوت بأنها قرية كبيرة غناء شجراء قرب عكبراء ، وبين الأخيرة وبغداد عشرة فراسخ (انظر معجم البلدان ، جـ٣، ص٤٠٣،٤٠٤؛جـ٤ ، ص١٤٢)؛ ودرب هرون أو هرور أو هرور حصن منيع من أعمال الموصل إلى الشمال منها ، بينهما ثلاثون فرسخاً (ياقوت ، جـ٥، ص٤٠٣)؛ وحزبى بليدة في أقصى دجيل بين بغداد وتكريت مقابل الحظيرة ، ياقوت جـ٢ ، ص ٢٣٧.

(٢٠) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢،ص٢٥٤؛ والجزر كوره من كور حلب (ياقوت ، معجم البلدان، جـ٢، ص١٣٣)؛ وزردنا بليدة من نواحي حلب الغربية (ياقوت ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٣٦) ؛ وحارم حصن حصين وكوره جليلة تجاه أنطاكية ، وكانت آنذاك من أعمال حلب ، (انظر ياقوت ، المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٢٠٥) .

(٢١) ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ، ص٣٨؛ انظر أيضاً ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٢ ، ٢٥٣ ؛ وتدمر بالفتح ثم السكون وضم الميم مدينة قديمة مشهورة في برية الشام ، بينها وبين حلب خمسة أيام (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١٧) .

(٢٢) ابن القلانسي ، ذيل مرآة الزمان ، ص٢٥٢؛ انظر أيضاً ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١، ص٣٨ .

(٢٣) انظر ، الكامل ، جـ١١، ص٥٠ .

(٢٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ .

(٢٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص٢٦١.

(٢٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١، ص٥١،٥٢؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص٢٥٩؛ أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، جـ٣،ص١٢؛ مسفر الغامدي ، المرجع نفسه ، ص٢٢١،٢٢٢؛ عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، ص١٤٢؛ وبعرين أو بارين

وصفها ياقوت بأنها مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب (انظر معجم البلدان، جـ١، ص٣٢٠، ٣٢١).

(٢٧) ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢، ص٢٦١، ٢٦٢؛ انظر أيضاً ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٩؛ ابن الأثير ، الباهر ، جـ١١، ص٥٢؛ أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار، ص١٨٤.

(٢٨) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٥٥؛ انظر أيضاً ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١،ص٤٠؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص ٢٦٠، ٢٦١؛ ويذكر ابن الأثير ، أن سواراً غنم سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبّي ، ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم ، وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والعين والحلى فيخرج عن الحد) .

(٢٩) ابن الأثير ، الكامل جـ١١، ص٤٠.

(٣٠) للوقوف على تفصيل هذه الحملة انظر (وليم الصورى ، تاريخ الحروب الصليبية ،جـ٢، ص٦٦٥-٧٠٢؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢، ص٣٤٠ ،٣٤١؛ فوشيه الشارترى ، تاريخ الحملة إلى القدس ص١٤٢،١٤٣؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢، ص٥٦٧.

(٣١) ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢، ص٢٦٢.

(٣٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢،ص ٢٦٢،٢٦٣؛ وابن لاون هو ليون الثانى(.Lion II) الذى كان يحكم أرمينية آنذاك (انظر ابن واصل ،جـ١،ص٧٩ حاشية رقم ١) أما أرمينية الصغرى فكان ظهورها ناجماً عن توسع السلاجقة فى هضبة أرمنيه ؛ إذ أدى ذلك إلى هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى الأقاليم الواقعة غربى نهر الفرات وشماليه ، ثم اشتدت هجرتهم عشية انتصار السلاجقة فى ملاذ كرد سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، حيث لجأ كثير منهم إلى جبال طوروس وإلى قليقية وشمال الشام والجزيرة هرباً من غزوات السلاجقة وسميت أرمينية الصغرى . (انظر سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ، ص٢٢٨،٢٢٩؛ على الغامدى ، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص ٢٢٣؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص٤٠٢) .

(٣٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،حـ٢،ص٣٤٣.

(٣٤) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٦٥؛ ابن الأثير ، الكامل ، حـ ١١،ص ٥٦.

(٣٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ،حـ٢، ص٢٦٥؛ انظر أيضاً ابن واصل ، مفرج الكروب ، حـ١، ص٧٧؛ « والأصفهسلاريه أو الاسفهسلاريه ، مفردها اسفهسلار عرفه القلقشندى بأنه اسم لوظيفة من وظائف أرباب السيوف وعامة الجند ، وصاحبها زمام كل زمام ، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم ، وفي خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم ؛ وهى كلمة أعجمية معناها قائد الجيش) (انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، حـ٣،ص٤٧٩؛ انظر أيضاً ، محمد قنديل البقلى ، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ص٣٢ » .

(٣٦) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٦٣.

(٣٧) ابن العديم ، زبدة الحلب ، حـ٢،ص٢٦٦؛ والأحداث ،أو الحدثان ، جمع حدث وهو (الفتى الصغير السن) ويقال رجل حدث ؛ أى :شاب ، وهؤلاء غلمان حدثان ؛ أى : أحداث (انظر ابن منظور ، لسان العرب ،حـ٤،ص ٣٢، ٣٣ مادة (حدث)، ويذكر بعض المؤرخين أن طائفة الأحداث هذه تكونت فى بعض مدن الشام منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بهدف مقاومة النفوذ الفاطمى ، وهم عبارة عن جماعات من القوات المدنية كان يناط بهم إلى جانب ذلك عدد من المهام داخل المدن؛ كحفظ الأمن ، ومكافحة الحرائق ، وإغاثة المنكوبين ، إضافة إلى أنهم كانوا يخرجون مع القوات النظامية عندما يعلن داعى الجهاد النفير العام (انظر سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص٣٠، ٣١؛ مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين ،ص٤٩) ويمكن أن تشبه فرق الأحداث هذه بما يعرف فى وقتنا الحاضر بفرق الدفاع المدنى أو المقاومة الشعبية ، التى تحرص الحكومات الحالية على إعدادها وتطويرها لمواجهة الأزمات والكوارث الناجمة عن اشتعال الحروب ، أو حدوث الزلازل والفيضانات والحرائق وما شابهها . (وللوقوف على المزيد من التفاصيل عن هذه الفرقة، انظر عبدالله الغامدى ، دور المتطوعة فى حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول ، بحث منشور بمجلة المؤرخ العربى التى تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، العدد الثانى، المجلد الأول ، مارس ، ١٩٩٤م.ص٣٤١-٣٤٥).

(٣٨) يمكن إرجاع فشل هذه الحملة إلى عوامل عدة ؛ منها تراخى الأمراء الصليبيين فى مساعدة الإمبراطور البيزنطى الذى تحمل أكبر العبء خلال هذه الحملة . ونجاح عماد الدين زنكى فى استغلال بوادر عدم الثقة بين إمبراطور بيزنطة وأمير أنطاكية ، ومراسلة كل منهما على حدة ، وتحذير كل واحد منهما من نوايا الآخر ، كما كان لتظاهر زنكى بانتظار نجدات إسلامية من كافة الأطراف بما فى ذلك الخلافة العباسية أثره البالغ على زعيمى الحملة وبالذات الإمبراطور البيزنطى ، إضافة إلى الدور الذى لعبه ابن منقذ أمير شيزر الذى عمد إلى مراسلة الإمبراطور سراً ، وعرض عليه تعويضات مجزية عن نفقات الحرب . مما جعل الإمبراطور يقبل ذلك خاصة بعد ما تبين له تقصير الصليبيين فى مساعدته ، وثمة عامل آخر وهو الهجوم الذى تعرضت له مدينة أذنة التابعة لبيزنطة من قبل سلطنة الروم حيث استغل السلطان مسعود انشغال الإمبراطور بالحملة المذكورة فقام بمهاجمتها ، مما جعل الأخير يضطر للعودة للدفاع عنها ، وأخيراً الدور المريب الذى قام به أمير الرها للإيقاع بين الإمبراطور البيزنطى وأمير أنطاكية ، خشية أن يؤدى نجاح هذه الحملة إلى ازدياد نفوذ أنطاكية ويكون ذلك على حساب الرها (لمزيد من التفصيل راجع محمود سعيد عمران ، تاريخ الحروب الصليبية ،ص٦٢-٦٤؛ عليه الجنزورى ، إمارة الرها الصليبية ،ص٢٨٤).

(٣٩) ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢،ص٢٧٥؛ وسرمين ، بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر ميمه : بلدة مشهورة من أعمال حلب ، قيل سميت بسرمين ابن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام (انظر ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٢١٥) ؛ وجبل السماق ، هو جبل عظيم من أعمال حلب الغربية ، يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع (انظر ياقوت ، المصدر نفسه ، جـ٢، ص ١٠٢) ؛ وكفر طاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب (انظر نفسه ،جـ٤، ص ٤٧٠) .

(٤٠) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٧٦ .

(٤١) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢، ص٢٧٦.

(٤٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٧٨ .

(٤٣) ابن القلانسى ، المصدر نفسه، ص٨٥، ٨٨ .

(٤٤) انظر ما سبق .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

- **ابن أبي الهيجاء** (الأمير عز الدين محمد بن أبي الهيجـاء الأربلي ت ٧٠٠هـ / ١٣٠١م) تاريخ ابن أبي الهيجاء ، تحقيق ودراسة صبحي عبد المنعم محمد ، ط الفيوم ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

- **ابن الأثير** (أبو الحسن بن أبي الكريم محمد بن عبد الكريم الشيباني ، ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م) .

١ - الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات، ط القاهرة ١٩١٣م .

٢ - الكامل في التاريخ ، ط ليدن ١٨٧٦م .

- **ابن تغرى بردى** (جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ، ت٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط القاهرة ١٣٩٢/١٩٧٢م .

- **ابن خلكان** (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٢م.

- **ابن شاهين** (غرس الدين خليل) .

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك عنى بتصحيحه ، يولس راويس ، ط١ بارس ١٩٨٤م .

- **ابن العديم** (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله، ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م).

١ - بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، ط دمشق ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٢ - زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، ط دمشق ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

- **ابن العمرانى** (محمد بن على بن محمد ، ت فى حدود سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م).

الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق وتقديم ودراسة قاسم السامرائى ، ط الرياض،١٩٨٢م .

- **ابن القلانسى** (أبو يعلى حمزة ، ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) .

ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ، ١٩٠٨م.

- **ابن منظور** (أبو الفضائل جمال الدين محمد بن مكرم ،ت ٧١١ هـ/١٣١١م).

لسان العرب ، ط بيروت .

- **ابن واصل** (جمال الدين محمد بن سالم ، ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م) .

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ، ١٣٧٢ هـ ، ١٩٥٣م .

- **أبو شامه** (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى، ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م).

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ط القاهرة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م.

- **أبو الفدا** (عماد الدين إسماعيل ، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) .

المختصر فى أخبار البشر ، ط بيروت .

- **البندارى** (الفتح بن على ، ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) .

سنا البرق الشامى ، تحقيق فتحية النبراوى ، ط القاهرة ١٩٧٩م.

- **الحسينى** (صدر الدين أبى الحسن على بن السيد ناصر بن على ت٥٧٥هـ).

كتاب أخبار الدولة السلجوقية، اعتنى بتصحيحه محمد اقبال، ط بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- **الذهبى** (الحافظ شمس الدين أبو عبدالله الذهبى ، ت ٧٤٦هـ) .

دول الإسلام ، ط بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- **أسامة بن منقذ** (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى ، ت٥٤٨هـ/ ١١٨٨م).

كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، ط جامعة برنستون الولايات المتحدة ١٩٣٠م.

- سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى ، ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) .

مرآة الزمان ، جـ٨، ق١-٢،ط حيدرأباد ١٣٧٠هـ/١٩٥١م .

- **العماد الأصفهانى** (عماد الدين محمد بن محمد ، ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م).

تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح بن على البندارى ، ط بيروت ١٩٧٨م .

- **المقريزى** (تقى الدين أحمد بن على ، ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ط القاهرة ١٢٧٠هـ .

- **نظام الملك** (ت٤٥٨هـ) .

سياسة نامه ، ترجمة وتعليق السيد محمد العزاوى ، ط بغداد .

- **ياقوت الحموى** (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ، ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) .

معجم البلدان، ط بيروت سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

ثانياً : المصادر الأجنبية :

- **فوشيه الشارترى** (.Fulcher of Chartres)

تاريخ الحملة إلى القدس ، ترجمه من اللاتينية إلى الإنجليزية ، فرنسيس ريتا ريان (Frances Rita Ryan) ونقله إلى العربية، زياد جميل العسلى ط عمان١٩٩٠م.

- **وليم الصورى** : رئيس اساقفة صور (William Archbishop of Tyre) .

تاريخ الحرب الصليبية (Ahistory of Deeds Pone Beyond The Sea) نقله إلى العربية وقدم له ، سهيل زكار ، ط دار الفكر ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

ثالثاً : المراجع العربية والمترجمة :

- **إبراهيم طرخان** :

النظم الاقطاعية فى الشرق فى العصور الوسطى ، ط القاهرة ١٩٦٨م.

- ستيفن رنسيمان :

تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني . ط بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣ م .

- سعيد الديوه جي :

تاريخ الموصل ، ط الموصل ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ - الحركة الصليبية ، ط القاهرة ، ١٩٧٨م.

٢ - بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت ، ١٩٧٧م.

- عبد الحفيظ محمد على :

مشكلات الوراثة فى مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية ، ط القاهرة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

- عبدا لله سعيد الغامدى :

دور المتطوعة فى حركة الجهاد ضد الصليبيين والمغول ، بحث منشور فى مجلة المؤرخ العربى التى تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة ، العدد الثانى ، المجلد الأول ، مارس ١٩٩٤م.

- عبد النعيم حسنين :

سلاجقة إيران والعراق ، ط القاهرة ، ١٣٨٠هـ / ١٩٧٠ م .

- على محمد الغامدى :

بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، ط مكة المكرمة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

- عليه الجنزورى :

إمارة الرها الصليبية ، القاهرة ، ط ١٩٨٦ م .

- عماد الدين خليل :

عماد الدين زنكى ، ط بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

- **فايد حماد عاشور :**

جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية (العصر الفاطمى والسلجوقى والزنكى)، ط بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .

- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ط .

- **محمد قنديل البقلى :**

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ط القاهرة .

- **محمود سعيد عمران :**

تاريخ الحروب الصليبية ، ط الاسكندرية ، سنة ١٩٩٦م .

- **مسفر سالم الغامدى :**

الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى قبل قيام الدولة الأيوبية فـى مصـر ، ط جدة ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

- **نظير حسان سعداوى :**

جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ط القاهرة ١٩٥٩م .

رابعاً : المراجع الأجنبية :

- Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt, London (1972) .

- Suhayl Zakkar, The Emirate of Aleppo, Beirut (1971).

معركة نفارين البحرية فى ضوء الوثائق المصرية

د/ عبد المنعم إبراهيم الجميعى(*)

المقدمة :

كتابة التاريخ من واقع مصادره الأصلية تتيح للمؤرخ الإلمام الدقيق بحقائق العصر الذى يدرسه ، وتجعل أمامه صورة الأحداث واضحة وتضيف دلالات جديدة وموضوعية لبحثه ، وتجعله ينهج نهج الأسلوب العلمى الذى يحتم عليه ألا يعتمد على النقل عن الغير ، وإنما يستقى التاريخ من أوثق المصادر والأصول التى تجعله يقف على حقائق الأمور بلا أدنى شك أو مواربة . فالوثائق هى المادة الخام التى تحمل روح العصر الذى كتبت فيه ، والتى تعطى الفهم الصحيح له وتفسر أحداثه .

وديوان المعية السنية(١) بقسميه العربى والتركى الذى اعتمدنا عليه فى كتابة هذه الدراسة يتميز عن غيره من الدواوين بأهميته التاريخية خاصة ولأنه الديوان الذى ينشر أوامر الوالى ، ويفحص مختلف أعمال الدولة ، ويفصل فى القضايا التى تقدمها إليه الدواوين الأخرى ، وكانت بواسطته يتم الاتصال مع بقية الدول .

وهذا الديوان عبارة عن وحدة أرشيفية متكاملة منظمة تشمل العديد من الدفاتر والمحافظ ويتكون القسم العربى منه من٥٠٤ سجلاً ، أقدمها السجل رقم (١) بتاريخ سنة ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م) وأحدثها بتاريخ ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م) وهذه السجلات تشمل العديد من الأوامر والشروح والخطابات والفرمانات .

أما القسم التركى من دفاتر المعية ، والذى اعتمدنا عليه بصفة أساسية فى هذه الدراسة فمعظمه مترجم إلى العربية ، وبداية كتابة أوامر الوالى وتعليماته فيه

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية التربية - فرع جامعة القاهرة بالفيوم . وكيل الكلية وأمين عام الجميعة المصرية للدراسات التاريخية .

أقدم من سجلات القسم العربى ، فمن المعروف أن الأوامر الحكومية الرسمية كانت تكتب فى بداية عصر محمد على باللغة التركية ، ثم كتبت بالتركية والعربية ثم رجعت إلى التركية فقط ، وأن هذه الوثائق قد تم ترجمة معظمها إلى العربية فى عصر الملك فؤاد الذى عمل على إماطة اللثام عما أحتوته دار المحفوظات من وثائق بهدف الإشادة بأعمال جدية إبراهيم ومحمد على ، ووالده إسماعيل وأبراز دورهم فى تأسيس مصر الحديثة(٢) .

والوثائق التى نعرض لها تمثل صورة حية بالأسانيد والأرقام الرسمية لحروب محمد على فى بلاد اليونانية ، منذ أن طلب منه السلطان محمود الثانى مساندته فى إخماد الثورة اليونانية وحتى واقعة نفارين البحرية وما أعقبها من تطورات .

والجدير بالذكر أن لغة هذه الوثائق سواء العربية أو المترجمة من التركية فى معظمها ركيكة لم يراع فيها قواعد النحو أو الهجاء إلى جانب امتزاجها فى معظم الأحيان بكلمات تركية وفارسية . وقد اضطررنا حفاظًا على الأمانة التاريخية إثبات هذه الوثائق بأسلوبها كما هى وعدم التدخل بالتصويب لأى خطأ يكون مصدر الوثيقة قد وقع فيه ، حفاظا على أصالتها ، ومراعاة لأسلوب العصر الذى كتبت فيه .

والجدير بالذكر أن التاريخ المتبع فى تسجيل هذه الوثائق هو التاريخ الهجرى ، ويذكر أحيانًا بجانبه التاريخ القبطى ، خاصة فى الوثائق المتعلقة بالزراعة ومواعيدها .

ومن المعروف أن بلاد اليونان كانت جزءًا من السلطنة العثمانية منذ أن دخلتها قوات محمد الفاتح فى عام ١٤٥٣م ، وأن السلطان العثمانى كان يرسل إليها من يحكمها من ولاته حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر . واستمرت الأمور على ذلك المنوال حتى أسس التجار اليونانيون جمعية أطلقوا عليها هيتريا أى جمعية الإخوان Hetairia Philike بهدف طرد الأتراك من أوربا ، وتخليص اليونان

من التبعية الإسلامية ، وإنقاذ الحضارة الإغريقية من سيطرة الأتراك ، تحقيقًا لوصية بطرس الأكبر وكاترنيا .

وقد استندت هذه الجمعية على عدة ركائز منها :

مبادىء الحرية والمساواة التى أطلقتها الثورة الفرنسية ، والمساندة المادية والمعنوية من العديد من الجمعيات الأهلية التى تشكلت فى معظم بلدان أوربا تحت اسم جمعيات محبى اليونان هذا بالإضافة إلى تشجيع بعض الدول الأوربية خاصة روسيا على الثورة ضد العثمانيين ، واشتداد النعرة ضد مساوىء الحكم العثمانى والمبالغة فى وصف هذه المساوىء .

ونتيجة لذلك اتخذ اليونانيون من المورة حصنًا منذ عام ١٨٢١م وشكلوا حكومتهم ، واشتعلت نيران ثورتهم ، واستطاعوا أن يكبدوا العثمانيين خسائر فادحة حيث قاموا بتوجيه الضربات المفاجئة للحاميات العثمانية فى العديد من المواقع ، كما ضيقوا الخناق على الأسطول العثمانى المرابط فى المياه الألبانية ، وقطعوا الطريق عليه حتى أضحى كالأسير ، مما اضطر السلطان العثمانى محمود خان(٣) إلى طلب النجدة من محمد على والى مصر لعله يستطيع بجيشه وأسطوله انقاذه من هذه الورطة ، وإعادة الأمور إلى نصابها فى نظير منحه لقب « حاكم كريت والمورة » ولقب « قاطع دابر الكفرة والمشركين(٤) » .

وعلى الرغم من أن بلاد اليونان لم تكن مطمحًا لامال محمد على فى أى وقت من الأوقات ، فقد أكدت الوثائق أن محمد على لم يتردد لحظة فى إجابة السلطان إلى طلبه(٥) ، بل حاول إقتناص الفرصة ليؤكد للسلطان مدى قدرته على مساندته فى الظروف الصعبة ، وإظهار تمام رضوخه لما تأمره به الدولة ، فأرسل رسالة إلى السلطان يقول فيها " إنى بصفة كونى خادمًا لولى نعمتى صاحب الشوكة السلطان المعظم فإنه يمكن للدولة العلية أن تطلب جميع ما تريد ، وإنى مستعد للقيام به وفاء بحق الدين والملة ، وأن ذلك عندى من الأمور المعتنى بها ، وإنى لا أتأخر عن بذل نفسى فى سبيل تقوية شأنها وإعلاء كلمتها ورفع

قدرها(٦) . ونتيجة لذلك أمر محمد على صهره أمير البحر محرم بك(٧) بتجهيز الأسطول والتحرك لمساندة الأسطول العثماني المحاصر، وتعزيزه بالمهمات والذخائر(٨).

وقد أعد محرم بك أربع عشرة سفينة حربية بما يلزمها من الجنود ، وأقلع بها لمساندة الدولة العثمانية فى محنتها . وبعد أن وصل إلى مياه كريت اشتبك مع بعض السفن اليونانية التى كانت تهاجم سفينة تجارية عثمانية ، كما قام بمطاردة سفن القراصنة فى بحر إيجة . ونظرًا للخسائر التى تعرض لها الأسطول المصرى فى هذه المناوشات عاد إلى الإسكندرية مضطرًا ، فى محاولة لإعادة تنظيم وتعويض ما فقده ، وإصلاح ما يحتاج من السفن إلى ترميم(٩) .

وفى محاولة من محمد على لتعزيز الموقف أعد أسطولاً آخر يتكون من ١٨ سفينة تحت قيادة « طبو زادة أوغلى قبوجى باشا محمد أغا » لمساندة الأسطول العثمانى والعمل على تخليصه من الحصار(١٠) .

كذلك أعد جيشًا بريًا مكونًا من ١٧ ألف جندى من المشاة ، وأربعة بلوكات من المدفعية وسبعمائة وخمسين من الفرسان ، وأوكل قيادته لابنه إبراهيم ومساعدة الكولونيل سيف(١١) .

وقد أقلعت هذه الحملة من الأسكندرية فى ١٩ يوليو ١٨٢٤ واتفق على أن يتجمع الأسطولان التركى والمصرى فى جزيرة رودس ثم يتحركا فى اتجاه الجزر اليونانية المتاثرة فى بحر إيجه ، حيث كانت تمثل المعقل الرئيسى للثوار والقراصنة الذين هددوا المراكب العثمانية ، وبعدها يتحركون نحو شبه جزيرة المورة المركز الرئيسى للثورة .

وطبقًا لتعليمات الباب العالى فقد تولى القيادة البحرية العليا للأساطيل القبطان « خسرو باشا »(١٢) ، بينما تولى « إبراهيم باشا » قيادة القوات البرية .

ونتيجة لعدم توحيد أمر القيادة العليا فى يد قائد واحد يستطيع إدارة دفة القتال ، ونظرًا للكراهية الشديدة التى كان يكنها خسرو باشا لمحمد على وابنه ،

ولرغبته فى إظهارهما أمام السلطان بمظهر غير المتعاون وغير المهتم بمصلحة السلطنة ، أخذ خسرو باشا فى كتابة التقارير ضد إبراهيم وإرسالها إلى الأستانة ، كما اشتكى إبراهيم من « خسرو » لعدم إسعافه بالسفن اللازمة أثناء حصار ميسولونجى . ونتيجة لذلك وحرصًا على حسن سير العمليات الحربية طالب محمد على السلطان بأن يتولى ابنه إبراهيم القيادة العليا للأسطول بجانب قيادته للقوات البرية حتى يتمكن من إحراز النصر(١٣) .

ومع أن السلطان وافق على عزل خسرو من القيادة البحرية فإنه لم يعين إبراهيم مكانه بل عين عزت باشا قبودانا(١٤) للأسطول كما أصدر السلطان فرمانًا فى ٦ مارس ١٨٢٤ بتعيين إبراهيم باشا واليًا على جزيرة كريت وموره ، ومنحه الحرية الكاملة لإعادة النظام والاستقرار إلى بلاد اليونان .

وسارت العمليات الحربية على قدم وساق . وفى حين كانت القوات البرية بقيادة إبراهيم باشا تحقق الانتصار تلو الآخر كان الأسطول العثمانى المصرى(١٥) يتلقى الضربات الموجعة فى البحر ، ويحقق اليونانيون العديد من الانتصارات عليه. وقد يرجع السبب فى ذلك إلى مهارة اليونانيين البحرية ، وعدم وجود قواد بحريين أكفاء لدى العثمانيين أو محمد على ، هذا بالإضافة إلى حداثة عهد المصريين بركوب البحار ، وقدرة السفن اليونانية الصغيرة على المناورة وخفة الحركة أكثر من السفن العثمانية الضخمة ثقيلة الحركة .

وعلى أى حال فقد استغل إبراهيم باشا الخلاف الذى دبّ فى معسكر اليونانيين ، وتذمر بعض بحارتهم واضرابهم بسبب عدم دفع رواتبهم ، واستطاع أن يضرب الحصار على نفارين Navarine معقل بلاد اليونان ، وتمكن من إسقاطها فى الثامن عشر من مايو ١٨٢٤ . وكانت هذه المعركة فاتحة انتصاراته فى حرب المورة ، كما استطاع احتلال تريبولتزا Tripolitza بوسط اليونان فى الثالث والعشرين من يونيو ١٨٢٥ . وفى أعقاب ذلك أخذت قوات إبراهيم باشا تتأهب للزحف نحو نوبليا Nauplia(١٦) قصبة بلاد اليونان مما أدى إلى اقتراب الثورة اليونانية من نهايتها دون أن تحقق مبتغاها فى الاستقلال .

ونتيجة لذلك ارتاعت أوربا خشية عواقب انتصار القوات المصرية ، وعقدت نيتها على ألا يستكين الصليب للهلال(١٧) فبدأت الحكومات الأوربية في الإساءة إلى سمعة إبراهيم باشا وتشويه صورته أمام الرأى العام الأوربى باتهامه بالبربرية لقيامه بسفك دماء الأسرى وخرق قوانين الحرب .

وعندما كان القائد المصرى يصلى الثوار نارًا حامية ويتحقق له الفوز الساحق فى المعارك التى خاضها والتى كان أبرزها سقوط (ميسولنجى) Missolonghi فى الثالث والعشرين من أبريل ١٨٢٦(١٨) مما جعل الطريق إلى أثينا مفتوحًا ، رأت الدول الأوربية أنه لا مفر من التدخل الفعلى لمساندة اليونانيين وتأييد جانبهم . وتحكى لنا الوثائق عن عقد إنجلترا وفرنسا وروسيا لمؤتمر فى لندن فى السادس من يوليو ١٨٢٧ قصد إنهاء الأزمة اليونانية ، وإعادة حبل الأمن فى البحر المتوسط(١٩) واتفاقها على ضرورة قيام الباب العالى بمنح بلاد اليونان استقلالاً إداريًا فى ظل السيادة العثمانية ، وعلى أساس دفع جزية سنوية . وإذا لم يقبل الباب العالى هذه الوساطة فى خلال شهر من الزمان ، ويوافق على وقف القتال فإن الدول الثلاث تتفاوض فيما بينها « لتفرض الهدنة على الطرفين بمنعهما من مواصلة القتال ، من غير أن تشترك هى مباشرة فى الحرب » .

وبينما كانت المناورات السياسية مستمرة ، وجهود الدول الأوربية لوقف القتال تتحرك فى كافة الاتجاهات ، استولى إبراهيم باشا على أثينا ، وضرب الحصار على قلعة الأكروبولس Acropolis حتى سلمت فى ٢٧ يونيو ١٨٢٧ ، مما شجع السلطان على رفض وساطة الدول الأوربية بحجة أن معالجة أمر العصاة من حقوق الدولة العلية ، وأن الثورة اليونانية تعد مسألة داخلية بحتة ، وأن السلطان لن يقبل أى مسعى فى هذا السبيل لأن التدخل فى مثل هذه الشئون بالنسبة للعلاقات الدولية يعد أمرًا فى غير محله(٢٠) .

وعلى الرغم من إصرار السلطان العثمانى على موقفه وتشدده فى معالجة الأمور ، فقد كان لمحمد على رأى آخر فرضه عليه تفكيره فى عواقب الأمور ، إذا

ما تدخلت أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا فى المعارك لصالح الثوار . ونتيجة لذلك أرسل إلى الصدر الأعظم بالأستانة يعرض عليه الحالة الحربية فى بلاد المورة بشكل واضح ، والمأزق الذى يمكن أن تتعرض له القوات والأساطيل الإسلامية إذ ا لم يتم تسوية الأمر سلميا بقوله « إن عمل الدول فى الوقت الحاضر لم يعد بمثابة تهويش بل يلوح منه شبح الحرب !... نعم نحن قوم من أرباب الحرب والضرب إلا أننا ما زلنا فى مستهل كتاب الحرب نقرأ فى حرف الألف والباء . أما الدول فقد أتموا كتب هذا العلم فلو بادرناهم بالحرب فإنى أرى بصفة محققة أن الأساطيل لاخير منها على الإطلاق ، وستهلك أرواح الثلاثين أو الأربعين ألفًا من الجنود الموجودة فيها(٢١) .

وحفظًا لماء الوجه اقترح محمد على توسط النمسا فى الأمر حتى يمكن تسوية الموضوع بالشكل الذى يرضى السلطنة . ونظرًا لرفض السلطان لأى مسعى سلمى ، وتشدده فى معاقبة الثوار رأت الدول الأوربية أنه من الصعب حسم النزاع لصالح اليونانيين إلا بالإلتجاء إلى القوة لصالحهم ، وأنه من واجب القوات البحرية المتحالفة أن تبدأ الاتصال بالثوار اتصالاً وديًا ، وأن تصادر كل الإمدادت التى ترسلها الدولة العثمانية عن طريق البحر لمحاربتهم .

وإلى جانب ذلك حاصرت أساطيل الدول المتحالفة قوات إبراهيم باشا ، وقامت بتحذيره من التقدم بقواته أو خروج أسطوله إلى عرض البحر حتى لا يتم استخدام القوة ضده . وكان رد إبراهيم باشا علىهذا التحذير أن مهمته لا تشمل السياسة وأن التفاوض يكون مع محمد على فى مصر أو مع السلطان فى الأستانة ، وحتى تصدر إليه التعليمات فى هذا الشأن فأنه يتعهد بوقف جميع الأعمال الحربية التى تقوم بها قواته البرية والبحرية مؤقتًا بشرط توقف الثوار عن أعمالهم العدائية(٢٢) .

وخلال ذلك بدأ اليونانيون يتحينون الفرصة للإيقاع بإبراهيم باشا واستفزاز قواته خاصة بعد أن وصلتهم الإمدادات من أنحاء أوربا ، فقاموا بحركات عدائية

فى خليج كورنثوس ، وحاصروا كريت ، ونجحوا فى إبادة حامية عثمانية ، مما أدى إلى تحرج مركز القوات المصرية فى باتراس Patras (شمال المورة) وجعل إبراهيم باشا يضطر إلى قطع حبل المهادنة ومطاردتهم . لذلك أبحر إلى باتراس مع مجموعة من السفن الحربية ، مما عجل بوقوع الكارثة ، فقد اتهمه قادة الحلفاء بنقض الهدنة المتفق عليها ، وأرسل « كوردنجتون » قائد الأسطول الإنجليزى سفنه لتعقب السفن المصرية ، وتهديدها بالحرب إذا لم ترجع من حيث أتت ، فاضطرت للعودة إلى نفارين . وعلى الرغم من ذلك فقد زحف إبراهيم باشا بقوة من جنده داخل المورة لإنجاد الحاميات المصرية التى تطاول عليها الثوار مما دفع قواد الأساطيل المتحالفة إلى اتهامه بنقض الهدنة واتخذت من ذلك ذريعة للتحرش بالبحرية المصرية العثمانية .

وقد اصطفت السفن المصرية والعثمانية داخل الميناء فى ثلاثة صفوف متوازية تقريبًا كل فى شكل نصف دائرة . وكانت السفن الكبيرة والفرقاطات(٢٣) فى الصف الأول ، ويليها سفن القرويت(٢٤) ثم سفن الأبريق(٢٥) وغيرها بعدها فى الصف الثالث . وكانت بنفارين استحكامات لتحمى مدخل الميناء كما وضعت بطاريات من المدافع فى طرف جزيرة « أسفاختريا » مع مساعدة سفن خفيفة من الحراقات(٢٦) .

وخلال ذلك أرسل أمير البحر الفرنسى (ريني) إلى الضباط الفرنسيين العاملين فى الأسطول المصرى بترك أعمالهم والتخلى عن الخدمة فى الأسطول المصرى حتى لا يحاربوا فرنسيين مثلهم فلبوا الدعوة(٢٧) .

وفى منتصف الساعة الثانية من ظهر العشرين من أكتوبر ١٨٢٧ اقتحمت القوات المتحالفة البوغاز ، واصطفت وفقًا لنظام حربى على شكل نصف دائرة تقريبًا أمام الأسطول المصرى(٢٨) والعثمانى ، واقتربت منه حتى أصبحا وجهًا لوجه . وخلال ذلك انطلقت رصاصة من سفينة مصرية على بحارة إحدى السفن الإنجليزية مما كان ذريعة لقيام سفن الحلفاء بإطلاق نيرانها فى منتصف الساعة

الثالثة بعد ظهر العشرين من أكتوبر ١٨٢٧ على الأسطول التركى المصرى وتجاوبت المدافع ، وعلا الدخان وتناثرت أشلاء القتلى فى مشهد رهيب ، واستمر القتال حوالى ثلاث ساعات ، وانتهى بتدمير الأسطول المصرى التركى فى مذبحة مروعة وفقدان حوالى ٣٠ ألف جندى .

وعلى الرغم مما حدث فقد رفضت الآستانة أن تعترف بالهزيمة أو تذعن بأن تدمير أساطيلها يعنى إنهاء القتال(٢٩) بل طالبت باتخاذ التدابير اللازمة لاستمرار القتال ، فى حين أخذ محمد على - الذى تألم كثيرًا عند سماعه خبر تدمير قوة مصر البحرية الوليدة(٣٠) - أخذ يبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق الخطير ، خاصة وأنه أخذ يشعر بالمخاطر التى يمكن أنه تسببها له الدول الأوربية . وكانت الوسيلة المثلى أمامه هى المفاوضات وعقد الصلح مع الحلفاء وقد تم ذلك فى الثالث من أغسطس ١٨٢٨ والذى تم بمقتضاه جلاء قوات إبراهيم باشا عن شبه جزيرة المورة ، والتعهد بإعادة الأسرى اليونانيين ، وعدم إجبار اليونانيين المقيمين بمصر على مغادرتها ، فى نظير إعادة جميع الأسرى المصريين والسفن المصرية التى استولى عليها الحلفاء فى الحرب(٣١) .

ونتجية لذلك صدرت الأوامر للقوات المصرية بإخلاء المدن اليونانية والاستعداد للرحيل إلى مصر دون انتظار لأوامر السلطان ، مما أحرج مركز الباب العالى ، واضطره فى النهاية إلى الاعتراف بالاستقلال الذاتى لبلاد اليونان(٣٢) .

* * *

ومما سبق يتضح أنه على الرغم من خسارة مصر الفادحة فى هذه الحرب بعد ضياع الأسطول الذى اشترى محمد على وحداته من مختلف الممالك الأوربية ، فإن المكاسب السياسية كانت كبيرة ، فقد تفاوضت الدول الأوربية ولأول مرة مع محمد على دون وساطة الدولة العثمانية ، مما اكسب مصر منزلة سياسية أشبه ما تكون بالاستقلال الفعلى عن تركيا وإلى جانب ذلك فإن هذه الحرب كانت أول معركة يخوضها الجيش المصرى فى أوربا مما أكسبه تدريبًا عمليًا على خوض الحروب الحديثة .

ومع ذلك فإن تورط محمد علي في شئون أوربا السياسية قد أنهك موارده إلى حد كبير ، خاصة وأن ما أنفقه من الأموال الطائلة على بناء سفنه وفي شراء المؤن والذخائر التي تدفقت على المورة ، ثم إن ما جمعه من الرجال ودربه من الجنود ، وبعث به إلى ميادين القتال كل هذا قد ذهب أدراج الرياح بين عشية وضحاها ، بعد أن عاد جيشه من المورة وهو في حالة عجز وفقدان للثقة وبؤس شديد(٣٣) .

وعلى أي حال فقد اشتد ضيق السلطان من محمد علي لتفاوضه مع الدول الأوربية دون إذنه ، وسحبه لقواته دون الرجوع إليه ، كما بدأ محمد علي يراجع سياسته تجاه الباب العالي ، الذي لم يكافئه على خدماته رغم تحطيم أسطوله ، مما جعله يفكر جديًا في توسيع رقعة أملاكه على حساب الدولة العثمانية ، وذلك بالاستيلاء على بلاد الشام .

الوثائق

وثيقة رقم (١)

موضوعها : تجهيز محمد على لأسطوله ، وإرساله إلى المورة لتأديب الثائرين على الدولة بناء على أوامر السلطان العثماني .

مصدرها : دفتر ٤ معية تركى - ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٩٢ .

تاريخها : ٢٩ رمضان ١٢٣٦هـ .

من المعية :

إلى ملجأ الصدارة .

حضرة سلطاني ومولاى صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولى النعم العالى الهمم الكثير اللطف والكرم .

بينما كان عبدكم بمصر في شبرا وصل في يوم الثلاثاء الحادى عشر من شهر رمضان أمركم السامى الصادر بالشرف سابقا الأمر بتجهيز قدار مناسب من سفن عبدكم وتعيين قائد عليها وإرسالها توًا إلى جهة مورة(٣٤) ، وإفهام قائدها أن يعمل بمقتضى الحال بالمخابرة مع على بك قائد السفن الهمايونية الموجودة فى حوالى ألبانيا « بلاد الأرنود » وإرسال سفينة أو سفينتين من السفن الصالحة للعمل أيضًا إلى الجزر فيما وراء رودس بناء على أن رعايا مورة قد عصوا بسبب ما دبره كفار الروم من الوساوس وما نصبوه من شراك الدسائس ، وسرى عصيانهم إلى مجاوريهم(٣٥) ، فأظهر الطغيان أيضًا رعايا لواديه وصالة وآتنه فسدوا الطرق حتى أرسل حضرة والى الروم ايلى(٣٦) باشا إلى جانب مورة عساكر كما يلزم وأذيعت أيضًا أوامر السبى والاسترقاق بموجب الرخصة الشرعية ، واقتضت المصلحة إبراز السطوة والجلادة للغاية نحو مورة ، وقد قام كفار جامليجة وصوليجة وابيصاره(٣٧) أيضًا ورفعوا رءوسهم . وحيث توجد عند هؤلاء المذكورين سفائن حربية فمن الملاحظ أن يتعرضوا لسفن التجار التى تطرق وتمر

بها ، والذخائر التى ترسل إلى الآستانة ، وللعساكر الذين ينقلون من الأناضول إلى الروم ايلى ، والقاضى أيضًا بإرسال الذخائر المعتاد إرسالها كل سنة من الأقاليم المصرية إلى الآستانة ، مع ضم مثلها عليها فى هذه المرة لئلا تقع مقاسات ضائقة فى الآستانة من جهة الذخائر بسبب ما حدث فى إفلاق وبغدان(٣٨) من الفتن ، فعندما ازدانت يد التكريم بهذا الأمر الكريم ركبت بعد الإفطار فى السفينة « فاتحه » وأتت إلى الإسكندرية ليلة الخميس فجهزت ثلاث عشرة سفينة ببركات هممكم السامية فى مدة أربعة عشر يومًا من اليوم الرابع عشر من شهر رمضان إلى اليوم الثامن والعشرين منه بمضاعفة السعى ليل نهار ، وقد اشتريت أربع سفن من تجار الإفرنج وابتدر إلى تجهيزها وتهيئتها أيضا بعناية خاصة ووضعت فيها المدافع ورماة المدافع ، وعين عبدكم محمد أغا طبوزادة من رؤساء البوابين فى الإيوان العالى قائدًا عليها فيرسل مع تلك السفن بمنه تعالى فى اليوم العاشر من شوال بعد العيد إلى جهة رودس ، وتلحق الموجودة فى الإسكندرية فى الأسطول الهمايونى أيضًا بتلك السفن بوضع العساكر والمهمات فيها وحيث توجد فى رودس وبدروم(٣٩) سفينتان لصهرى عبدكم محرم بك وسفينة لعبدكم ، وسفينة أميرية أيضًا فى رودس فيرسل ما يكفى لهذه السفن الأربع من الأنفار وسائر المهمات وتلحق بتلك السفن ، وتعزز تلك السفن أيضًا من ورائها بتجهيز ما يرد من الخارج من السفن من سفن عبدكم ، وسفن عبيدكم اتباعى الصالحة للعمل مع الاستمرار على اشتراء مقدار واف من السفن الواردة إلى الأسكندرية الموقوفة بها من تجار الأفرنج وإرسالها أيضًا بوضع العساكر والمهمات فيها على أن لحاق سفن عبدكم المرسلة ، واجتماعها مع سفن الأسطول الهمايونى وإن كان من الأمور المشكلة ، بالنظر إلى ما بلغنا من سد أشقياء البحر المضايق بسفن كثيرة .

لكن من قبيل اللازم والملزوم للاجتماع تجول هذه السفن فى تلك المياه ، وسعى مأمور الأسطول الهمايونى جهده فى الورود فعليه تلزم مضاعفة قوة مأمور الأسطول الهمايونى وحمله إلى إجراء الإرادة الملوكية فى أقرب وقت ، وبعد

اجتماع سفن عبدكم مع سفن الأسطول الهمايونى بعناية ربنا الفتاح ، وإعانة جناب مرسل الرياح ، وسيرهما على سفن أشقياء البحر بالاتفاق وحصول التغلب عليهم ، وقهر الأشقياء المذكورين ، وتدمير وتيسير تطهير جهة البحر منهم بقوة حظ حضرة صاحب مالك ممالك العالم يكون من الأمر السهل الهين قهر الجزر المذكورة ، واستئصالها .

وبعد ذلك إلى أى جهة انتدبت السفن بالاتفاق سواء كان هذا الانتداب لجهة مورة أو لأى جهة أخرى يوصل من ورائها العساكر والأدوات اللازمة بوضعها فى سفن التجار وإرسالها على التعاقب وتستحصل أسباب غالبيتهم ، وقد استؤجرت بعد تفكير دقيق على سبيل التجربة سبع سفن من تجار الإنجليز لايصال الذخائر إلى الآستانة فى هذه الأيام ، وشحنت السفن المذكورة بخمسين ألف « هكذا هنا » كيل من القمح وجهزت للإرسال على أن تسلم للمخازن العامرة ، فبعد إرسال السفن المجهزة بيوم ترسل سفن الذخائر هذه إن شاء الله تعالى ، ولدى وصول خبر دخول الذخاير المذكورة بالسلامة من المضيق إلى الداخل ، وبلوغ هذا الخبر لصوب عبدكم بسرعة ترسل الذخاير إلى الاستانة على التعاقب ويكمل المقدار الذى هو مطلوب المقام العالى من الذخاير ، ويرسل على التعاقب أيضًا ما طلب من الذخاير التى تعرض للبيع بأثمانها الجارية بتجهيزها لتباع فى الأستانة بأسعارها الجارية ، وحيث أنه لا ريب ولا اشتباه إنى أبذل كل همتى ومكنتى لإجراء مضمون الأمر العالى وانفاذ الأمر والإدارة فى جميع الأزمان ولا سيما فى مثل هذا الأوان كما لا شك فى أن الجهاد والغزوة فرض عين علينا فلا محالة أنه لا يضن بالخدمة والسعى جهد الطاقة فوق وسعى من كل الجهات فى سبيل الدين والملة ، وفى سبيل دولتنا ومرضاة لمولانا وولى نعمتنا صاحب الشوكة والكرامة والمهابة السلطان ملجأ الإسلام ملك الملوك الذى من جنوده الملائكة الكرام . وقد ازدانت أيضًا يد التكريم بورود ما صدر محفوظا بالشرف سابقًا ولاحقًا فى هذه المرة من نحو أمرين أو ثلاثة أوامر من أوامر ولى النعم السامية .

ووصلت أيضا إلى عبدكم مكاتيكم السامية الخديوية المحررة خطابـًا لباشـوات مقاطعات الجزائر وتونس وطرابلس الغـرب ومـراكزهـا العسكرية « وجاقات » وحيث كان ورودها عقب إرسالى رجالاً إلى هولاء الباشوات بيـوم تحريضًا لأهالى تلك البلاد على الجهاد والغزوة والمحاربة ضد أشقياء البحر قائلاً لهم أن هذا الزمن إنما هوزمن الخدمـة للدين المبين ، وللدولـة العليـة الأبديـة ، وزمـن اكتساب حسن التوجه الخسروى من حضرة مولانا السلطان الحارس ملـك ملوك وجه الأرض صاحب الشوكة والكرامة، فقد ارسلت هذه المكاتيب السامية الواردة من ولى النعم بعد يوم من يوم ورودها إلى الباشوات الموحى إليهم بحرًا بـانتداب رجل من أتباعي عبيدكم لذلك مع الاستعجال بشأن عودته بأجوبتها وقد صـارت إفادة ما ذكـر باعثا لعرض عبوديتى فـالأمر والإرادة لـدى حصـول الشرف لنـا بوصول هذه العريضة إليكم ، وإحاطة علمكم العالى الشـامل للعـالم بذلـك ، ٢٩ رمضان ١٢٣٦ .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- ترحيب محمد على بالأمر السلطانى الخاص بتجهيز سفنه للاشتراك فى حرب المورة.
- تعرض الثوار اليونانيين والقراصنة لسفن التجار المسلمين .
- تجهيز محمـد على ثـلاث عشـرة سفينة وشـرائه لأربـع مـن السـفن مـن التجـار الإفرنج ، وتجهيزها بالمدافع والرماة .
- العمل على قهر أشقياء البحر وتأديبهم .
- إرسال محمد على الذخائر وشحنات القمح إلى الاستانة .
- طلب المعونة من ولاة الجزائـر وتونـس وطرابلـس الغـرب وتحريـض أهـالى هـذه البلاد على الجهاد ومحاربة أشقياء البحر .

وثيقة رقم (٢)

موضوعها : رسالة من محمد علي إلى السلطان العثماني محمود خان بشأن إرساله سفنه للمساعدة في تأديب الثائرين ومساندة الأسطول العثماني ضد مراكب اليونانيين .

مصدرها : دفتر ٤ معية تركي - ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٨٨ .

تاريخها : ١٠ شوال ١٢٣٦ هـ .

إلى الصدارة العليا

حضرة سلطاني ومولاي صاحب الدولة والعناية، والعطوفة والرأفة ، والأبهة ولي النعم العالي الهمم الكثير اللطف والكرم .

سبق الانهاء في عريضة عبدكم المقدمة إلى مقامكم العالي بتاريخ ٢٩ رمضان أنه ستجهز بهممكم السامية ثماني عشرة سفينة من سفن عبدكم الموجودة في ميناء الأسكندرية ، ومن السفن المشتراة من تجار أوربا ، ويعين عبدكم محمد أغا(٤٠) طبوزادة من رؤساء البوابين(٤١) بالديوان العالي قائدًا عليها ويرسل بعد العيد إلى جهة رودس ، وحيث أنه توجد سفينة من الأسطول في الأسكندرية فستلحق تلك السفينة بعد شحنها بالمهمات والعساكر بتلك السفن ، كما أنه توجد سفينتان لصهري محرم بك(٤٢) وسفينة لي في رودس وبودروم(٤٣) وسفينة أيضا من الأسطول الهمايوني(٤٤) في رودس وسترسل العساكر والمهمات إلى تلك السفن ، وتلحق بالسفائن السابقة الذكر أيضا ، وأنه قد نبه على عبدكم الموما إليه أن يتجول ويطوف في تلك المياه ويسرع في اللحاق بالأسطول الهمايوني ويسعى جهده بالاتفاق في قهر أشقياء البحر وتدميرهم وأنه ستعزز تلك السفائن من ورائها بترتيب وتجهيز سفن من سفن عبدكم ، ومن السفن التي اشتريها من أتباعي ومن تجار أوروبا ، وبأرسالها وبعد أن تجتمع السفن المذكورة من سفن الأسطول الهمايوني ، وبعد أن تتم مهمة قهر أشقياء البحر وتدميرهم فإلى أي اتجاه سيرت

تلك السفن ، وبأية مهمة أمرت يرسل إليها من ورائها العساكر البرية ، وسائر المهمات بسفن التجار ، وكان أشير أيضًا فى تلك العريضة إلى أنه قد استؤجرت سبع سفن من تجار الإنجليز لإيصال الذخائر إلى الأستانة العلية ، وحمل عليها تسعة وسبعون ألف كيل ومائتا كيل من القمح فأصبحت جاهزة للإرسال على أن تسلم للمخازن العامرة فها هى بحمد الله تعالى قد أرسلت السفائن المذكورة إلى جهة رودس فى اليوم الحادى(٤٥) عشر من شوال المكرم الجارى بهواء لطيف وريح موافقة ، وأوصى القائد المومى إليه أن يلتحق بالأسطول الهمايونى فى أقرب وقت، وأن يتحد ويتفق مع مأمورى السلطان الهمايونى ، وأن يبرزوا مآثر الحمية والغيرة فى قهر أشقياء البحر واستئصالهم ، وفهم تلك الوصايا ، وبلغ إليه أيضًا أنه إذا تعذر المرور بسبب قفل المضايق ، وتعذر اللحاق بالأسطول الهمايونى لا يقيم فى مكان ماعاطلاً بل يبقى ناشرًا للقلوع ومادًا أنظار التبصر إلى الأطراف ، ويهاجم سفن الأشقياء إذا صادفها مستعنيًا بالله غير مكترث بقلتها أو كثرتها ، وينزل العساكر فى الجزر العاصية ويضربها ما وجد إلى ذلك سبيلاً »

ومن المعلوم أنه إذا ضبط سرب أو سربان من سفن الأشقياء المذكورين ، ووقعت الإغارة على جزيرة أو جزيرتين منها أسرًا وقتلاً لأهلها ينعكس طالعهم ، ويستولى الرعب والخوف على قلوبهم وتتشتت جماعاتهم وتزداد عساكر المسلمين شوقًا وغيرة ، وتمتلىء قلوب الموحدين قوة وسكينة .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

١ - استجابة محمد على لطلب السلطان بإرسال أسطوله للمساعدة على تأديب الثوار اليونانيين وتخليص الأسطول العثمانى الذى أضحى كالأسير فى أرخبيل اليونان .

٢ - إرساله أسطولاً يتكون من ١٨ سفينة تحت قيادة محمد أغا طبوزادة للالتحاق بالأسطول العثمانى .

٣ - إصدار أوامر إلى صهره محرم بك بالتحرك لمساندة الأسطول العثماني المحاصر وتعزيزه بالمهمات والذخائر .

٤ - استئجار بعض سفن التجار الإنجليز لإيصال الذخائر المطلوبة والقمح إلى الأستانة وروودس .

٥ - استعمال الشدة مع أشقياء البحر ، والعمل على قهرهم حتى ترتفع الروح المعنوية لدى المقاتلين المسلمين .

وثيقة رقم (٣)

موضوعها : ترتيب المؤن لحملة المورة .

مصدرها : دفتر ١٣ معية تركى .

تاريخها : غرة رجب ١٢٣٩ .

من : محمد على

إلى : جناب الصدر الأعظم .

حضرة سيدى صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولى النعم عالى الهمم كثير اللطف والكرم .

حيث أنه جرى فى هذه السنة العميمة الميمنة ترتيب وزراء ومأمورين وعساكر كثيرة لأجل الهجوم على أطرافها أيضًا برًا بفرق متعددة واستعدادت قوية ، والسعى فى التغلب على عصارة الكفرة ، والإقدام على ذلك بالاتحاد ، وبلغ عدد المأمورين والعساكر المرتبين إلى عدد يتراوح بين الخمسين ألفا والستين ألفا على أن يتجمعوا عقب يوم أول الربيع كما أنه اقتضى المبادرة إلى وسيلة تدارك المؤن أيضًا بصورة مستوفية لكيلا يحصل أى خلل أثناء العمل من عدم وجودها غير أنه بالنظر إلى تعسر مداركة الذخائر الوفيرة من جهة الروماللى(٤٦) المصابة بالمحن والارزاء منذ مدة لهذا العدد الكبير من العساكر ، وتعذر توصيلها إلى هناك من محلات أخرى ترتيب مؤن مختلفة الأنواع من جهة مصر بمقدار خمسمائة ألف كيل استانبولى ، وتعلقت الإرادة السنية بخصوص ترتيبها سريعًا ، وإرسالها إلى مورة بحرًا بتحميلها فى السفن فى أول الربيع بمنه تعالى على أن يكون أكثرها بكسماطا ودقيقا وما عداه شعير وفول ، وعلى أن لا يخل ذلك بتقديم المدد والمعونة لكريد ثم أصدر بهذا الخصوص أمر عال مرشح أعلاه بالخطوط السلطانية، وأرسل مع عبدكم صاحب السعادة محمد نجيب أفندى(٤٧) من رجال الدولة العلية ، والناظر الحالى لدار البارود العامرة ، ووكيلى لدى الباب العالى على أن

يلغنى الخصوصات اللازمة شفهيًا ، وأن نيل العساكر المسوقة إلى كريد فى الأول والآخر الغلبة والنصر ، وحسن اجتهادى اوجبا كمال المسرة الملكية وحصل التفضل بالعناية والإحسان بثوب سمور مزركش سلطانى متسوجب السرور ، وسيف ملكى مرصع مدمر العدو وأرسل كذلك مع وكيلى المومى إليه فقد استقبل بموكب عند وصوله إلى أطراف مصر ، ووروده إلى جوار باب النصر ، وتقبل بخطوات التعظيم والتبجيل عند قدومه إلى محل الديوان واتمت مراسيم محاسن التكريم والتبجيل وجعلت الفروة المذكورة زينة لكشف الافتخار ، والسيف الذى ربط فى الوسط رمزًا للغيرة والإقدام ثم صار الدعاء لدوام وتأييد عمر وشوكة حضرة الخليفة زينة للألسنة القرينة الإخلاص والثناء لقوام وتأييد شأن وسلطنة السلطان واصلا إلى السماء العالية فالمولى خالق الأرض والسماء يجعل عمر وشوكة ولى نعمتنا وأفندينا صاحب الشوكة والمهابة والكرامة سلطان العالم وملك الزمان بحيث لا نهاية لهما ، ويجعله ممنونًا وسعيدًا بنيل معالى النصر والظفر والفتوحات ومظلل الأمن والأمان لمفارق الملك والملة بظل عاطفته السلطانية ثم يجعل ذاتكم الولية النعم العالية مسرورة ومحبورة فى إيوان صدور الأوامر وعينا لامعة للزمان والأيام فى محفظة خاتم الدولة والإقبال آمين . وهذا وقد حررت عريضة عبدكم ، وقدمت إلى عتبة إجلالكم بالخضوع والإبتهال بخصوص التماس توجه ولى النعم السامى ، وفى سياق إظهار الشكر والممنونة والإفادة عن المائة ألف أردب الغلال المصرية التى صدر الفرمان بشأنها سيجر ترتيبها وتحميلها فى السفن ، وإرسالها إلى مورة وإلى المحلات الأخرى التى فيها المأمورون بالمخابرة ثم أن الوصايا السنية والتنبيهات السلطانية التى أودعت فى حافظة الأفندى المومى إليه صارت حلية لمسامع تيقنى وانتباهى واحدة فواحدة فستنفذ بكمال المطاوعة مع إيفاد لوازم العبودية كما أن أمر ولى النعم السامى الشامل كل كيفية وخصوص بهذا الشأن ، والمشتمل على أنواع المحاسن والتوجه الذى أرسل مع عبدكم الأفندى المومى إليه صار زينة ليد التعظيم ، وكل خصوص أصبح معلومًا

بذهن عبدكم الوسيم الإخلاص على نحو ما بسط فيه وذلك بمطالعته مرة أخرى ، وقد جعل انفاذه فرضا على عهده العبودية وأنه أرسل الأمران إلى متصرفى الجزائر وتونس برًا مع الهجان فلدى الوصول إن شاء الله تعالى ، وإحاطة علمكم العالى بأن عبدكم ليس له أمل سوى الخدمة والغيرة فى سبيل الدين والدولة العلية ، وإن هذه الخدمة ستجرى بكمال الممنونية ، ويحصل الاعتناء فى انفاذ وإجراء مقتضى الأمر السلطانى ، والتنبيهات الملكية المقرونة بالكرامة . فإن الأمر والفرقان بخصوص التفضل بإسداء توجهات وتعطفات ولى النعم للعبد .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- الاستعداد لمهاجمة المورة برًا وبحرًا .
- ترتيب المؤنة المطلوبة للقوت المحاربة من مصر بمقدار خمسمائة ألف كيل استانبولى وتحميلها على السفن .
- تنفيذ التوجيهات السلطانية بشأن تحميل السفن بالإمدادات المتجهة إلى المورة .
- إرسال الأوامر السلطانية إلى متصرفى الجزائر وتونس برًا .

وثيقة رقم (٤)

موضوعها : رغبة محمد على فى توحيد القيادة العليا للأسطول ، ووضعها فى يد ابنه إبراهيم .

مصدرها : دفتر ١٣ معية تركى - ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٢١ ص١٠٤

تاريخها : غرة رجب ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م .

من محمد على باشا

إلى الصدر الأعظم

حضرة سيدى صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولى النعم عالى الهمم كثير العطف والكرم .

صدرت أخيرًا الإرادة القاطعة السلطانية بمأموريتى على المورة وانتدب لإبلاغها إياى عبدكم صاحب السعادة نجيب أفندى(٤٨) « القبوكتخدا » ثم لدى وروده أصبحت مضامين ومزايا الأوامر العالية والمكاتبات السنية التى يحملها معلومة للعبد ، ونقشت التنبيهات السنية السلطانية المودعة فى حافظة على لوح الخاطر من تقريره الشفهى ، ولعلى بأن القيام دائمًا بحسن الخدمة وبمصلحة الدين والدولة موجب للفخر ، ومؤد لسعادة الدنيا والآخرة . وبالنظر إلى إنى عبد للدولة العلية متواضع ومحسوب للسلطنة السنية نشأ بنعمها قد بعثت إحالة مصلحة المورة إلى عبدكم أنواع المسرة والفخار ، وبما أنه لا يوجد أى نقص فى خصوص المهمات والعساكر والمؤن فى ظل الحضرة السلطانية فإن شاء الله تعالى سأرسل عبدكم صاحب السعادة ولدى إبراهيم باشا باستعدادات قوية ، وعساكر كثيرة ، وجعله ينسق هذه المصلحة بحسن توجه ولى النعم ، غير أنه لما كان توحيد الكلمة، وإعطاء النفوذ والاستقلال للمشار إليه فى مهمته مثل هذه المهمة من مقتضى الحال فإن التفضل بالإحسان إلى سعادته برتبة القيادة العليا للأسطول السلطانى

الذى سيرسل بالمقدار المخرج فى السنة السابقة وتفويضه ما يقتضى لتصفية وتطهير جزيرة المورة وجزر البحر المتوسط إلى سعادته بالاستقلال على ألا تحصل مداخله من طرف المأمورين الآخرين فى مسألة الجزر المذكورة بوجه من الوجوه ثم توجيه إيالة المورة الآن إلى عبدكم المشار إليه على أن توجه إلى الذى يراد من طرف الدولة العلية بعد اقتران المسألة بالختام ، وتدارك خيول وبغال بمقدار يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة من الروملل ، وتهيئتها بميناء بره وزه(٤٩) لجلبها إلى المورة واستخدامها فى خصوص نقل المؤن والمهمات على أن تعطى قيمتها أو أجرتها من طرف عبدكم هو من رجاء المحسوب لكم كما أن حصول مساعدة ولى النعم السنية بذلك هو من ملتمس العبد ، وأن الخصوص اللازم والمقتضى أدرج فى عريضة عبدكم نجيب أفندى وعليه فإن الإفادة بما ذكر أوجبت عرض عبوديتى فإن شاء الله لدى حصول العلم لولى النعم فإن الأمر والفرمان بخصوص التفضل بإبداء مساعدتكم الخديوية، واسداد إسعافاتكم البهية من مسئوليات العبد .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- صدور الأمر السلطانى بالحاق إدارة المورة إلى محمد على .
- رغبة محمد على فى إلحاق القيادة العليا للأسطول السلطانى لابنه إبراهيم، وتوجيه إيالة المورة إليه أيضًا .

وثيقة رقم (٥)

موضوعها : تكليف إبراهيم باشا باستئصال شأفة ثـوار المـورة وتـأخره فـى أداء مهمته حتى تكتمل الاستعدادات اللازمة لذلك .

مصدرها : ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٦ محافظ بحر برا - محفظة رقم (٩).

تاريخها : ٥ رمضان ١٢٣٩هـ .

مكاتبة بختم محمد على

سيدى صاحب الدولـة والعنايـة والعاطفـة والأبهـة ولى النعم عظيـم الجـود والهمم لقد تلقيت أمركم الكريم الذى تفضلتم وأشـرتم فيـه إلى أن الحضـرة العلية السلطانية على الرغم مما بذلته من الجهود فى سبيل إنهاء أمر المورة منبع فساد الأمة اليونانية لم يتيسر حتى الآن معالجة هذه الحالة الأمر الذى كان له وقعه المؤلم عنـد جلالة السلطان. إن جلالته قد قابل رغبتى الصادقة فى القيام بهذه المهمـة بالرضـاء السامى حيث وجهت إلى عبدكم الوزير المكرم نجلى سعادة إبراهيم باشا والى جدة القيادة العليا للأسطول المصرى السلطانى وولاية المورة ليدبر شئونهما برأيه المستقل كما عهد إلى سعادته بتطهير بعض الجزر من الأشقياء وقد عين ففى معيتـه - عـدا السفن الحربية العشرة إلى أوفدت إلى الأسكندرية بقيادة البطرونـة همـايون(٥٠) - السفن الحربية العشرة فى مياه بالية بادرة بقيادة خليـل بـك الجشـمة لى - وصـدر الأمر الكريم إلى خليل بك بذلك ، واجيبـت ملتمسـاتى الأخـرى التـى كـان مـن المستطاع إسعافى بها ، وقد تفضلتم ونوهتم كذلك بأن سعيد أنور أفندى قـد قـام إلى هنا ايحمل لسعادة نجلى المرسوم الصادر « بالتوجيه » وانتدابـه لهـذه المهمـة ثـم طلبتم أن يقوم نجلى الباشا المشار إليه بمن فى معيته من العساكر والمهمات والعتـاد فى أقرب وقت ، وأن يسعى السعى الحثيث لإنهاء أمر المـورة وجزيرتـى جامليجـة وصوليجة . ولقد تلقيت كذلك الأوامر العلية التـى نوهتـم ، عنهـا ووقفـت علـى مضمونها الكريم أدام الله حضـرة صـاحب الشـوكة والقـدرة ولى نعمتنـا ومولانـا

السلطان وأبقاه مدى الدهر على أريكة ملكة متمتعا بصفاء البال واستقرار الحال ، وخذل الله أعداء الخلافة والدين والدولة ، ومناهم بالتشتت والإضمحلال آمين .

إن جلالة مولانا السلطان ليعلم أننى العبد الذى وقف نفسه لخدمة الدولة العلية الأبدية الدوام والسلطنة السنية السرمدية القيام ، والذى لايضن بالنفس والنفيس فى سبيل الدولة العلية . وإن الإرادة السلطانية التى تشرفت بتلقيها والقاضية بإحالة أمر معالجة هذا الخطب الجسيم على نجلى لما تستوجب الفخر العظيم لهذا السعيد بين الأقران ، وتشع فى نفسى السرور والحبور ولقد رفعت أكف الضراعة إلى الله المرة بعد المرة بدوام بقاء جلالته . إن نجلى المشار إليه ومن فى معيته من العساكر والمهمات والذخائر على استعداد للحركة على نحو ما بينه أخيرًا عطوفة نجيب أفندى قبوكتخدا غير أن السفن السلطانية التى ستصل إلى هنا بقيادة خليل بك لم يظهر لها أى أثر بعد وهى بعد وصولها إلى هنا لابد من التريث مدة من الزمن لإكمال نواقصها وترميم النواحى التى تحتاج إلى الترميم فيها ثم أن السفن التى تقرر إبحارها إلى هنا من موانى بر الشام لم تصل كذلك ، ولا أدرى ماذا تم بصددها ، وكذلك السفن المتآمنة التى ستصل من الأستانة وعليها صهاريج الماء لم ندر عنها أى شىء حتى الآن ومن أجل هذه الأسباب تأخر قيام نجلنا إلى ما بعد العيد ، وسيتحرك من هنا فى اليوم الثانى أو الثالث من العيد إن شاء الله تعالى ...

هذا وإنى لأرجو أن يبذل لنجلنا عطف ولى النعم الجزيل الكثير البركات - الذى هو أشد مضاء من الأكسير - حتى ينال النصر وتلاقى خدماته الرضاء السامى السلطانى وأخيرًا أقرر أننى لا أستطيع أن أفى هذه التعطفات السنية حقها من الشكران والأمر والإرادة لحضرة صاحب الدولة والعناية والعاطفة والأبهة ولى النعم عظيم الجود الهمم سلطانى .

ختم

محمد على

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- عدم تمكن السلطان العثمانى من السيطرة على زمام الموقف فى المورة .

- تكليف إبراهيم باشا بتعقب الثوار .

- عدم وصول الإمدادات العثمانية من السفن والموانى فى الوقت المقر لها ، وتأخر إبراهيم باشا من التحرك بقواته حتى تكتمل الاستعدادات .

وثيقة رقم (٦)

موضوعها : محاولات الدول الأوربية التدخل فى المسألة اليونانية .

مصدرها : محفظة ١١ بحربرا - ترجمة القسم الخاص بالمورة من المكاتبة رقم ٤٦ .

تاريخها : ١٢ رجب ١٢٤٢هـ .

من مجهول   إلى المعية

لقد عقد إمبراطورو إنجلترا والنمسا وروسيا وفرنسا وبروسيا مؤتمرًا تداولوا فيه الرأى ثم وضعوا القرار التالى كنتيجة لرأيهم الفاسد وهذا نصه :

حيث أن الدولة العثمانية لم تعن طيلة هذه السنين بأمر كبح جماح رعاياها الذين حملوا لواء العصيان ، ولم تأخذ خلال هذه المدة بأسباب الإصلاح ، وتوطيد الأمن فى البر والبحر ، وحيث أنه يلوح من بعض الأدلة أن هذه الدولة لن تعمد إلى التفكير فى مثل هذه الأمور بعد الآن أيضًا . وحيث أن هذه الحالة واضطرب حبل الأمن فى البحر الأبيض تضطر كل دولة من دولنا لأن تبقى فى هذا البحر ٨ أو ١٠ من سفنها لتتولى المحافظة على مصالح التجار من رعاياها وفى هذا ما فيه من النفقات الطائلة التى تتحملها خزائن دولنا بدون فائدة ، وحيث أن شعب الروم كان قديمًا الدولة اليونانية التى تغلبت عليها الدولة العثمانية ، وقطعت أوصالها مع الأيام وأخرجتها من مصاف الدول وأدمجتها فى صفوف رعاياها ، وقد تغلب هذه الشعب الآن على الترك وأخذ يطالب بحقه فى تصرفه بملكه ، وحيث أنه مما لا جدال فيه أن هذا الشعب على حق فى طلبه بحيث يجب أن يتخلص من وضعه الحالى توطئة لإعادة حقوقه إليه فإنه يجدر بنا والحالة هذه أن نتوسط لهذا الشعب لدى الدولة العثمانية فى منحه استقلاله وإعادة الملكية إليه وأن نحملها على أن توافق على ذلك .

وبعد مضي ثلاثة أو أربعة أيام على تاريخ هذا القرار الفاسد عاد إمبراطور النمسا ، وقال أن هذه المسألة من المسائل الداخلية فى الدولة العثمانية وليس فى الأصول المتبعة أن يدخل الغير فى معالجتها فإن لكل دولة منا رعايا فإذا ما أوجب الأمر أن تتدخل الدول فى حل المشاكل الداخلية التى تظهر فى أية دولة فإن الحالة تسوء إذ ذاك ، وهذا ليس من المنطق فى شىء ، ولذا فإنى سحبت كلامى ، ورجعت عن رأيى الأول . غير أن ملوك هذه الدول لم يأخذوا بهذا الرأى ، وقالوا أن النمسا دولة ضعيفة بالنسبة لنا وذهبوا إلى أن رجوع ملك النمسا عن الرأى المتفق عليه بهذه السرعة ، ومن غير ما اكتراث قد يكون مما أوحت به السياسة الروسية ولذا فإنهم قد ظلوا متمسكين بقرارهم الأول . وقد أدركت الدولة العليا أن جميع هذه الدول ستصر على أن العصاة كانوا قديمًا الدولة اليونانية ، وتطالب بلسان واحد بوجوب إنهاء الحرب وإقرار السلم والأمن ، وقد اتصل أحد هؤلاء الملوك بوزراء الدولة العلية ، بصورة سرية وقال لهم : أن الدول ستطلب موافقة الدولة العليا على أن يكون لليونان حكومة ملكية ، ولما كان ليس ثمة أى محذور فى عدم إجابة هذا الطلب إذ أن الدول لا تقدم على عمل أى شىء فى حالة الرفض فإن الإمر يقتضى برفضه فى الحال . وعلى أثر ذلك قرر الوزراء العظام أن يكون الرد على هذا الطلب السخيف أن معالجة أمر الرعايا العصاة من حقوق الدولة العليا فالحرب القائمة حرب داخلية ولذا فإن تدخل الأجانب فى مثل هذه الشئون يعد بالنسبة للعلاقات الدولية وضع فى غير محله . وفعلاً عمد سفير إنجلترا فى بادىء الأمر إلى تقديم تقرير فى هذا المعنى . أما الروسيا فقد قررت عدم تدخلها فى هذه المسألة وفقًا لما جاء فى معاهدة أقرمان التى اعتبرت مسألة عصاة الروم من المسائل الداخلية فى الدولة العثمانية على أنه وإن كان من الظاهر أن الروسيا سوف لاتتدخل فى هذه المسألة تدخلاً جديًا إلا أنها من قبيل إغفال الإنجليز ومماشاتهم المصطنعة قد أرسلت هى الأخرى تقريرها المماثل لتقرير

الإنجليز، غير أن الرد على كل حال سيكون الرفض حسبما قرره الوزراء إذ أن هذه المسألة من المسائل الداخلية التي لا يجوز للغير أن يتدخل فيها .

*　　*　　*

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلي :

- استنجاد ثوار اليونان بدول أوربا وتداول أباطرة وملوك إنجلترا والنمسا وروسيا وفرنسا وبروسيا في الأمر واتهامهم للدولة العثمانية بأنها لم تأخذ بيد الإصلاح في هذه البلاد مما عرض مصالحهم للخطر .
- محاولة بعض الدول الأوربية اقناع الدولة العثمانية بمنح اليونانيين استقلالهم .
- تردد النمسا في الأمر بحجة عدم التدخل في الشئون الداخلية للدولة العثمانية وإصرار باقي الدول على إعطاء اليونان الاستقلال .
- رفض الدولة العثمانية للوساطة الأوربية على اعتبار أن تمرد ثوار اليونان ومواجهة الدولة لهم من المسائل الداخلية التي لا يجوز للغير التدخل فيها .

وثيقة رقم (٧)

موضوعها : مقترحات محمد علي للسلطنة بشأن قبول وساطة الدول الكبرى وإنهاء الأزمة اليونانية سلميًا .

مصدرها : دفتر رقم ٢ عابدين - ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٢٢ .

تاريخها : ١٧ ربيع الأول ١٢٤٣هـ .

من : الجانب العالى

إلى : مولانا الصدر الأعظم

إن أوامر دولتكم الواردة إلىّ أولاً وآخرًا وعيت مضامينها ، ووقفت على مزاياها حرفيًا . فعبدكم هذا هو عبد خالص يبذل الروح فداء ، وأنى اعتبر شخصى مكلفًا بتنفيذ الإرادات الملكية فى كل مادة ، لا سيما فى مسألة المورة هذه . وبما أنى على يقين من أن الواجب يفرض علىّ أن أعنى بتسخير المورة ، وتأديب أشقياء الروم وقهرهم ، واستخلاص جامليجة وصوليجة من أيدى الأشقياء وتطهير تلك الأرجاء من إدران الأروام اللئام ، فإن كل أفكارى التى تساورنى ليلاً ونهارًا منصرفة إلى حال الأسطول ، وإلى أحوال المكلفين به ، وليس لدىّ ما يشغل بالى بحسب المأمورية غير هذه المسألة .

لقد علمت مما فصلتموه فى أمركم الداورى أن الدول قد اتفقت وأن أساطيلهم وشيك وصولها ، وعززتها الأنباء التى ترامت إلىّ من الخارج ، إلا أنه لم يصبينى أدنى فتور من ذلك بفضل استظلالى بظلال الحضرة الملوكية ذات المكرمات ، ولم أسمح لهمتى بالتقاعس أبدًا فى أداء الخدمات التى تقتضيها هذه المصلحة الخيرية وأومل أن أبقى ثابتًا على العهد من بعد الآن ، وعلى ما أنا عليه ، وأن أظل دائبا موفور السعى طالما كانت الروح فى الجسد ، والجسد قوى بالروح، وأن أقدم على أداء ما يفرضه علىّ الواجب والله ولى التوفيق .

ولما كان ليس من الجائز أن يكون اجتماع المتضامنين(٥١) فى حكومة واحدة أحرارًا فقد رأيت أن الإجابة العالية القاطعة المبلغة إلى سفراء الدول التى تقول بحرية الأروام موافقة بالنسبة للدولة والملك والملة . وأن دولتكم بإيرادكم هذا الرد قد رفعتم من شأن الدولة العليا ، ووفيتم واجبات السلطنة السنية . وبما أنكم قطعتم القول على ذلك فإن هذا العبد الخاضع لسالك هذا المسلك ومتبع أثركم . فلما بذلت كل قواى لأداء الخدمات الدينية المحالة على عهدتى وتجهيز عبدكم محرم بك محافظ الأسكندرية ، وقائد الأسطول المصرى العام للسفر مقتفيًا أثر الأسطول الهمانى ، استدعيته مرارًا وطلبت منه بلهجة التأكيد أن يأخذ كفايته من الماء من الشاطىء المقابل (الأناضول) وألا يتمهل بل يعمل على الوصول إلى المورة بأقصى سرعة حتى إذا ما تقابل مع نجلى عبدكم إبراهيم باشا عُنى بإعداد ما يحتاج إليه هنالك منها فى وقت قصير ، وقام بكامل قوته بعد إكمال نواقصه متوجهًا نحو جامليجة مباشرة لمحاصرتها وأن يضع يده عليها بدون تمهل . ثم زودت البك القبودانة (أميرال درجة ثالثة - قائد الأسطول الهمايونى) بمثل هذه الوصايا ، وشرحت له كل ما يختص بمأموريته . والمأمول ألا يهملا هذه الوصايا بل يعملا على تنفيذها باذلين قصاراهما .

وبما أنكم تفضلتم بإرسال صورة من أمركم العالى إلى عبدكم نجلنا الباشا المشار إليه فلابد أن يكون على علم بما حوته من الوصايا السنية ، والتنبيهات العليا وحيث أن عبدكم البك القبودانة وعبدكم محرم بك وما فى معيتهما من سفن الأسطول هنالك ، فلا شك فى أن نجلنا يتولى إبلاغهما وما يحتويه الأمر العالى من التعليمات ويعمل من جانبه على إيفاء ما تقتضيه مأموريته . بيد أن هذه المسألة خطيرة وعظيمة جدًا ، ولذلك أقضى ليلى ونهارى فى قلق ومع أنى كنت قبل ورود أمركم السامى الآنف الذكر أيضًا أجيب إجابات بكل شجاعة على الأنباء التى تترامى إلىّ عن هذا الموضوع ممن يفدون علينا من أوروبا ويذهبون إليها ، ولولا إنى كنت كلما أفكر فى صحة هذه الأنباء ساورنى القلق والألم والكدر ،

كما أن خلاصات الأوامر الكريمة التى وردت إلى منكم مرتين ، ضاعفت كدرى وغمى . ولقد اقتضى الأمر أن اكتب لاعتابكم الكريمة فى معرض الرد ، لكنى لم أجرؤ على التحرير لأنى فقدت المقدرة على التحرير قائلاً أن هذا الموضوع هو على هذا الشكل أو غيره ، وفضلت التحرير إلى القبوكتخدا بصفة سرية وبصورة عرض للحالة مشيرًا إلى بعض مالاح بفكرى بحسب قصر عقلى ، ثم عدلت عن ذلك أيضًا و لم أجسر على إرسال ما كتبت ، وبقيت فى حيرة من أمرى ... وإذا وردت أخيرًا إلىّ بعض الرسائل من لدن عبدكم إبراهيم باشا ، وسارعت فى إرسال الرسالة التى وردت إلىّ من إبراهيم باشا إلى أعتاب دولتكم ، وإلى إرسال المكاتبة السابق تحريرها إلى عبدكم قبوكتخدانا والتى لم أجرؤ على إرسالها أولاً إليه ، وستعلمون كل بعد الاطلاع على رسالة إبراهيم باشا ، وعلى المكاتبة المرسلة منا إلى القبوكتخدا .

سيدى ! ماذا أقول ؟ ... وماذا استطيع أن أقول ؟ ... أن عمل الدول فى الوقت الحاضر لم يعد بمثابة تهويش بل يلوح منه شبح الحرب!... نعم نحن قوم من أرباب الحرب والضرب ، إلا أننا ما زلنا فى مستهل كتاب الحرب نقرأ فى حرف الألف والباء . أما الدول فقد اتموا كتب هذا العلم فلو بادرناهم بالحرب فانى أرى بصفة محققة - بحسب ما يمليه على عقلى القاصر أن الأساطيل لاخير منها على الإطلاق ، وستهلاك أرواح الثلاثين أو الأربعين ألفًا من الجنود الموجودة فيها . ولن تنتهى الحرب من بعد ذلك إذ يقفون حجر عثرة فى سبيل القوة فى سبيل القوة الجديدة التى ستعطى للدولة العليا ، ويمنعون وصول الجنود المنظمة ... وبناء على ما تقدم كتبت إلى عبدكم إبراهيم باشا بالتريث لحين ورود أمر كريم آخر من لدن ولى النعم فإن كنتم تفكرون فى اختيار أهون الشرور فى هذا الخطب الجسيم تحسنون صنعًا وتكونون قد قمتم بما تفرضه واجب النظر فى عواقب الأمور ... وحبذا لو عنيتم فى الوقت الحاضر بالمذاكرة مع دولة النمسا التى يؤمل منها الصداقة منذ القديم أو مع دولة أخرى يعتمد عليها ، وتوسيطها وافراغ

الموضوع فى قالب آخر حتى إذا ما عمدت الدولة العليا فيما بعد فى تقوية شئونها ، وتنظيم مصالحها تتوسل بوسائل أخذ الثأر والانتقام .

هذا ما عنَّ بى من الملاحظات ، وفى الواقع لا أحد فى نفسى اللياقة لحل الأمور العظيمة وعقدها إذ لا بد أن يكون وزراء الدولة العليا أعرف بروح الشئون وأقدر على استخراج النتائج . ورأيى ما هو إلا من قبيل الأخطار يمليه علىّ إخلاصى وصداقتى ، والرأى الأعلى لمولانا فما أنا إلا عبد أوامره ، والمفروض علىّ أن أعمل وفقًا لما يصدر من دولتكم بمقتضى إخلاصى . ورأى هذا العاجز إنما هو عرض . وعلى كل حال فالأمر والفرمان لحضرة من له الأمر .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- إعلان محمد على خالص عبوديته وطاعته للسلطنة واستمراره على العهد.
- عرضه للحالة الحربية بشكل واضح وتخوفه من تدخل أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا فى المعارك لصالح الثوار .
- اقتراحه بضرورة الموافقة على مؤتمر لندن الخاص بمنح بلاد اليونان استقلالاً إداريًا فى ظل السيادة العثمانية وإبلاغ إبراهيم باشا بذلك للسير بمقتضى هذه التعليمات .
- التحذير من خطورة مواجهة الدول الكبرى فى البحر خشية ضياع الأساطيل والجنود وضرورة التبصر بعواقب هذه الأمور .
- اقتراحه بإمكانية وساطة النمسا فى هذا الموضوع حفظًا لماء الوجه .

وثيقة رقم (٨)

موضوعها : تدخل إنجلترا وفرنسا وروسيا إلى جانب الثوار .

مصدرها : محفظة ١٢ بحريرا - ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٨ بتاريخ ١٧ ربيع الثاني ١٢٤٣هـ .

من الصدر الأعظم

أخي حضرة صاحب السعادة والمكرمة والمودة

لقد تفضلتم وذكرتم في خطابكم الكريم المرسل إلينا قبل مدى أنكم عندما أردتم إرسال السفن على الجزر من ميناء أنا وارين ، حالت السفن الروسية والإنجليزية والفرنسية دون ذلك ، وطلبتم موافاتكم بالإدارة السنية التي تصدر في هذا الشأن . وقد بعثنا إليكم إذ ذاك الرد الذى نرجو أن يكون قد وصل إليكم حتى الآن ووقفتم على مضمونه ، أنه لمن الجلى أن استمرار اضطرابات الأروام حتى الآن يرجع إلى تدخل الأفرنج وما يمدونهم به من مساعدات خفية ومكشوفة صب عليهم الله ألف نوع من أنواع البلاء وجازاهم بما يستحقون من مصائب فبينما كنا نعمل على ما فيه صالح الدولة العليا ، ونترقب في نفس الوقت وصول أخباركم ، اتصل بنا من مصادر أوربية آتية من أزمير أنه في غرة شهر ربيع الثاني دخلت إلى ميناء أنا وارين بغتة سفن الأسطول الإنجليزى والفرنسى والروسى ، بعد أن ظهرت بمظهر الصديق ، وسرعان ما حملت على السفن الإسلامية الرابضة في الميناء وراحت تقذفها بنيرانها حتى منى الطرفان بخسائر فادحة ، وعلى أثر ذلك كتبنا إلى سعادتكم وإلى سعادة والى الروم ايلى ، ومحافظى اينه بختى ، وباليه بادرة نطلب موافاتنا بحقيقة الحادث ، وإلى الآن لم نتلق الرد على أن سفراء الدولة السالفة الذكر بالأستانة قد أيدوا وقوع هذه المعركة ، وعليه فإن الحرب قد أصبحت بادية العلامة . وإذا كانت الحرب لم تعلن رسميًا من قبل الدولة العليا فإن بلوغ الأمر إلى هذا الحد من شأنه أن يجعل الجهاد فرض عين على كل مسلم . ولذا فقد أخذنا نبذل قصارى الجهد ، ليلاً ونهارًا في سبيل تقوية مراكزنا واستكمال نواقصنا الحربية . إن إقدام هذه الدول على توجيه مثل هذه الإهانة إلينا

سيكون من العوامل التى ستساعد على اندحارها وخزلانها ... إن الحرب وإن تكن لم تعلن بعد من قبل الدولة العلية إلا ان الوضع الحالى يجعل الحرب كأنها قائمة بالفعل ونحن إذا كنا لم نقف حتى الآن على حقيقة حادثة أناوارين فإن تأييد سفراء الدول لخبر هذه الحادثة لمما يعزز وقوع الحرب ولذا نلاحظ أن تموين قوات سعادتكم إبان وجودكم داخل مناطق المورة سيكون بعد الآن من الصعوبة بمكان ، وعليه إذا ما تحقق لدى سعادتكم أنه يتعذر عليكم بعد اليوم أن تظلوا ومن معكم من القوات داخل بلاد المورة فإن الأولى فى هذه الحالة أن تسحبوا العساكر المرابطة فى طرابوليجة وتأتوا بهم إلى قلاع متون وقرون ليقوموا على حراستها على أن توفروا لهم ما هم فى حاجة إليه من المئونة والمهمات الموجودة لديكم لمدة سنة وأن تقودوا استحكامات القلاع ، وتقوموا بعد ذلك بمن فى معيتكم من العساكر المنصورة إلى بالى بادرة ، ومنها إلى خليج ابنه بختى بطريق الساحل ، وإذ أمكن قوضوا واحرقوا النواحى التى تمرون بها ، وانفذوا فى المضايق والمعابر إلى خارج تلك المناطق وجامع القول اعمدوا إلى اتخاذ التدابير التى ترون وجوب اتخاذها ثم تفضلوا ووافونا بالنتيجة ، ونرجو ألا تأسفوا على إتباع هذه الخطة إذ لا شك فى أنكم ستنالون النصر والتوفيق فى القريب العاجل فعسى أن تتفضلوا بتطبيق هذه الخطة ، وأن توافونا بأخباركم ، وتطلعوننا على الجهة التى تقيمون فى اليوم فيها . فى ربيع الثانى ١٢٤٣هـ .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- وقوف إنجلترا وفرنسا إلى جانب الثوار ودخول سفنهم فى ميناء نفارين .
- الاحتكاك المباشر بين أساطيل الحلفاء وأساطيل السلطان محمد على وحدوث العديد من الخسائر الفادحة .
- تأييد سفراء الدول بالأستانة لحدوث المعارك ورغبة الصدر الأعظم فى التعرف على ما حدث من محمد على .
- الرغبة فى سحب العساكر إلى القلاع وتوفير المؤن اللازمة لهم .

وثيقة رقم (٩)

موضوعها : رغبة محمد على فى سحب قواته من بلاد اليونان والاتفاق مع أميرال البحر الإنجليزى على ذلك .

مصدرها : دفتر ٣١ معيه تركى ، ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٦٤ بتاريخ ٢٩ محرم ١٢٤٤هـ .

من الجانب العالى

إلى القبوكتخدا

لما كنا قد أرسلنا إلى عطوفتكم العريضة التى كتبناها للباب العالى ، وأشرنا فيها إلى ما آل إليه حال القوات العسكرية الموجودة فى معية نجلنا الباشا السر عسكر من جراء عدم وجود الأقوات الكافية لديها ، وطلبنا من قبيل العطف والحنان أن يسمح لهذه القوات بالعودة إلى مصر فقد بعثتم إلينا برسالة تنبؤننا فيها بأنكم قد قدمتم إلى الباب العالى عريضتنا هذه حيث صدر الأمر السامى على أثر ذلك بانتداب سعادة نجلكم أحمد شكرى بك للقيام إلينا بالرد السامى الصادر فى هذا الشأن ، وليبسط لنا بعض الأمور الهامة الشفهية . وقد وصل سعادة نجلكم وأطلعنا عن مضمون الرد السامى ، ووقفنا على جميع الأمور التى أدلى لنا سعادته بها . لقد بذلنا الجهد المستطاع فى سبيل المورة ، ولم ندخر وسعًا فى هذا السبيل حتى اليوم لا من ناحية المال ولا من ناحية الرجال . ومن البديهى أنه لوتسنى مد نجلنا الباشا بما يقوم بحاجة عساكره من الأقوات اليومية لما تقلقل من مكانه ، ولكننا لم نوفق لمده بشىء من هذا القبيل . وقد حملتنا هذا الحالة على أن نهيب بأولياء الأمور المرة بعد المرة طالبين معالجة هذا الموقف وتلافى نتائجه الوخيمة وبذلنا فى هذا السبيل الشىء الكثير من الجهود ، وقمنا بإضعاف هذه المساعى على أمل أن نتمكن من ناحيتنا من مد نجلنا بحاجته من الأقوات ، غير أننا فشلنا فى جميع مساعينا ومحاولاتنا ومن ثم عمدنا إلى بسط الأمر الواقع بين الأسى والحسرة ، وطلبنا الشفقة والرحمة لهذه القوات العسكرية بعد أن وصل بها الحال

إلى ما وصل . ولكن جميع تضرعاتنا هذه والتماساتنا لم تلاق آذاناً صاغية و لم ينظر إليها بنظر الاعتبار . وكانت النتيجة أن ظل نجلنا ومن فى معيته من العساكر فى حالة مؤلمة من ناحية الأقوات وأصبحوا لا يستطيعون أن يأتوا بأى عمل من جراء ما حل بهم من ضعف ووهن . ولما كان هلاك مثل هذا العدد من جنود الموحدين الذين جاهدوا طيلة هذه السنين ، وغدوا الآن فى حالة تستحق الشفقة مما لا يرضاه الله، ولا يسمح به جلالة السلطان فقد التمسنا أن يسمح لهم بالعودة إلى مصر حتى إذا ما عادوا أخذنا ننظم أمورهم وشئونهم ونعدهم للعمل فى الجهة التى يراد استخدامهم فيها بعد أن يكونوا قد استراحوا مما حل بهم من عناء مدة من الزمن . هذا ولقد مضى على وصل نجلكم إليك الموما إليه أكثر من ٤٨ يوماً دون أن يصلنا من نجلنا الباشا أى خبر فقلقنا من جراء انقطاع أخباره عنا ، وبينما نحن فى هذه الحالة وصل إلى هنا محمد أغا خفتانى عطوفة نجلنا حيث اتضح لنا من الخطاب الذى زود به ، ومما قصه علينا شفهياً مبلغ ما يعانيه نجلنا من الضيق والضجر ، وهنا ضاق صدرنا وتألمنا من قراره نفسنا حيث حرنا فى أمرنا ، و لم نعد ندر أى الطرق نتبعها ، وإذ ذاك اتصل بنا أن ثمة سفينة من طراز قباق قد وصلت إلى الأسكندرية تقل الإميرال الإنجليزى (فودرنتون) وعلى أثر ذلك انتقلنا إلى الأسكندرية حيث تحادثنا والأميرال الإنجليزى واتفقنا على بقاء قوات كافية من العساكر فى قلاع المورة وأن ترسل إلى هذه القوات الأقوات الكافية وأن يعود إلى مصر نجلنا الباشا ، ومن سيبقى معه من العساكر حتى إذا ما استراحت هذه العساكر مدة من الزمن هنا ونظمت أمورها ، ولزم الأمر بعد ذلك استخدامها فى أى جهة ألحقنا بها طوائف أخرى من أشداء العساكر ، سيرناها إلى الجهة المطلوب استخدامها فيها ، وبذلك تظل القلاع السلطانية فى أيدى المسلمين بما سيقام فيها من العساكر للمحافظة عليها ، ويبقى أهالى موره على وضعهم الحالى ، وعملا بهذا الاتفاق سنرسل للعساكر التى ستظل هناك ، وللأهالى ما يفى بحاجتهم من الأقوات ستة أشهر بما فى ذلك زيت القناديل أيضًا . أما العساكر الذين سيعودون مع نجلنا إلى مصر فسنوافيهم بحاجتهم من الأقوات لمدة شهرين على نحو ما يتضح

لعطوفتكم من مضمون عريضتنا المقدمة للباب العالى وتحمل هذه الأقوات إلى هناك السفن الثلاث من الأسطول السلطانى الراسية الآن فى الأسكندرية ، وسفن القرصان والسفن النصف مسلحة المصرية ، وسفن التجار والسفن الأخرى التى استأجرت ومجموعها ٣٠ سفينة ، وستقلع إلى هناك فى هذين اليومين بقيادة سعادة البطرونة هما يون حسين بك . فيا حضرة الأخ إن موقفنا هذا الذى وقفناه قد لا يتفق فى الظاهر وواجبات الإخلاص بيد أننا أرغمنا عليه إرغامًا بعد أن وصل الحال إلى ما وصل . ونحن لو لم نتبع هذه الخطة الجريئة لهلكت تلك الجموع من أفراد الأمة المحمدية من جراء الجوع وحاسبنا الله على ذلك يوم الحشر . وأنا لنأمل أن نفوز بالصفح السلطانى بالنسبة لضيقنا هذا الذى ما قصدنا منه سوى تلافى هذه الحالة . لقد كان علينا أن نختار أهون الشرين فعمدنا إلى اتباع هذه الخطة فعسى إذا ما تسلمتم خطابنا هذا أن تعمدوا إلى تقديم عريضتنا إلى الباب العالى ، وإن تزيدوا عليها كلمة طيبة من عندكم ، وإن يعملوا لى فى نفس الوقت على فوزنا بالصفح عن وقوفنا هذا الموقف الذى ما دفعنا إليه إلا أملنا الوطيد فى اللطف والكرم السامى .

* * *

يستخلص من هذه الوثيقة ما يلى :

- عدم وجود الأقوات اللازمة للقوات بعد الهزيمة هذا بالإضافة إلى سوء أحوالها ، وطلب الدعم من السلطنة وفشل المساعى الخاصة بذلك .
- إعلان محمد على عن رغبته فى السماح لقواته بالعودة إلى مصر حتى تتمكن من إعادة تنظيم أمورها .
- اتفاق محمد على مع إميرال البحر الإنجليزى على انسحاب القوات المصرية قبل الحصول على موافقة السلطان .
- مطالبة محمد على السلطان بالصفح عن موقفه الذى اضطر إليه .

الهوامش

(١) أطلق على هذا الديوان مسميات عديدة منها ديوان الوالى ، وديوان شورى المعاونة ، والديوان العالى وقد نشرت وزارة الثقافة والإرشاد القومى السجل الأول من القسم العربى من هذا الديوان والذى يشمل الفترة من ٨ يوليو ١٨٢٩ إلى ٢٣ ديسمبر ١٨٣٠ فى يوليو ١٩٦٠.

(٢) ظلت التركية لغة الدواوين معظم عصر إسماعيل حتى ترجم عبد الله فكرى اللوائح إلى العربية . للتفاصيل انظر كتابنا اتجاهات الكتابة التاريخية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، القاهرة ، عين للدراسات والنشر ١٩٩٤ ص٤٥ وما بعدها .

(٣) السلطان محمود الثانى .

(٤) رينيه وجورج قطاوى : محمد على وأوربا - ترجمة الفريد يلوز - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ص٨١ - ٨٢ .

(٥) دفتر معية تركى بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٣٦ هـ وثيقة رقم ٢٩٢ .

(٦) انظر وثيقة رقم (١) تحت عنوان رسالة من محمد على إلى السلطان محمود خان .

(٧) أصله من قوله ، وقد استخدمه محمد على فى كثير من المهام ، ولقته به زوجه بكريمته نفيدة هانم، وجعله محافظاً للأسكندرية ، كما أحال إليه إدارة أسطوله واشترك فى حرب المورة وواقعة نفارين ثم عاد إلى الأسكندرية . انظر دار الوثائق: محافظ إبحاث ، محفظة ١١٤ .

(٨) انظر وثيقة رقم (١) بتاريخ ١٠ شوال ١٢٣٦هـ . ومن المعروف أن تكوين البحرية المصرية فى العصر الحديث بدأ فى عام ١٨١٠ منذ أن شرع محمد على فى خوض غمار الحرب مع الوهابيين . ففى ترسانة بولاق انشئت السفن التى استخدمتها مصر فى البحر الأحمر خلال حروبها مع الوهابيين ، وفى ترسانة الأسكندرية انشئت السفن التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط حيث عهد محمد على إلى شاكر أفندى الأسكندرى وإلى الحاج عمر أحد مشاهير المعلمين فى بناء السفن بالأسكندرية مهمة إنشاء وعمارة أسطوله ، كما أنشأ إدارة خاصة لهذا الأسطول جعل على رئاستها صهره محرم بك .

(٩) فقد الأسطول المصرى فى هذه المناوشات ثلاث سفن ، كما تعطل أربعة . انظر عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على ، القاهرة دار المعارف ١٩٥٠ ص١٧٩ .

(١٠) انظر الوثيقة رقم (١) .

(١١) دفتر ١٣ معية تركى بتاريخ غرة رجب ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م ص١٠٤ وللتفاصيل انظر عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد على ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ ص٢١٦ ، بيير كرابيتس ، إبراهيم باشا - ترجمة محمد بدران - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ ص٧٠ .

(١٢) أول والى عثمانى لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها فى عام ١٨٠١ ، وبعد أن تم إبعاده عن مصر بفعل دسائس محمد على تولى الصدارة العظمى أكثر من مرة فى الأستانة . انظر دار الوثائق : محافظ أبحاث محفظة ١١٤ موضوعات متنوعة .

(١٣) انظر وثيقة رقم (٧) تحت عنوان رغبة محمد على فى توحيد القيادة العليا للأسطول ووضعها فى يد ابنه إبراهيم .

(١٤) بمعنى قائدًا للأسطول .

(١٥) كان الأسطول المصرى مكونًا من ثمانى عشرة سفينة حربية على حين كان الأسطول العثمانى مكونًا من ست عشرة سفينة ، وأربع سفن تونسية وجزائرية ، وست حراقات، وأربعين مركبًا لنقل الجنود .

(١٦) كانت حكومة الثورة قد اتخذت من هذه المدينة عاصمة ومقرًا لها .

(١٧) بيير كريبتس : إبراهيم باشا - ترجمة محمد بدران - القاهرة - لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧ ص٧٧ .

(١٨) حول تفاصيل هذه المعركة انظر عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ، ص١٩٩ - ٢١١ .

(١٩) محافظ بحر برا . محفظة رقم ١١ ترجمة القسم الخاص بالمورة فى المكاتبة رقم ٤٦ بتاريخ ١٢ رجب ١٢٤٢هـ .

(٢٠) نفس الوثيقة .

(٢١) انظر وثيقة رقم (١٣) تحت عنوان مقترحات محمد على للسلطنة بشأن قبول وساطة الدول الكبرى وإنهاء الأزمة اليونانية سلميًا .

(٢٢) حول المكاتبات عن هذا الموضوع . انظر . أمين سامى : تقويم النيل جـ٢ ص٣٣٠ .

(٢٣) الفرقاطة كانت تحمل حوالى خمسمائة من الجنود و٦٤ مدفعًا كبيرًا وصغيرًا .

(٢٤) القرويت مركب حربى يحمل حوالى مائتين من الجنود أو مائتين ونيفا كما يحمل من اثنين وعشرين إلى خمسة وأربعين مدفعًا صغيرًا وكبيرًا .

(٢٥) الأبريق مركب حربى له صاريان ويحمل من الجنود حوالى مائة كما يحمل مائتين ١٦ و١٨ مدفعًا صغيرًا انظر . عمر طوسون : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى طبعة ١٩٤٠ ص٢٠٩ .

(٢٦) الحراقات مراكب تشتعل فيها النيران فتندفع وسط سفن الأعداء لتحرقها بنارها ، وذلك عن طريق توجيهها بواسطة دفع الريح لشراعها .

(٢٧) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ص٢١٨ .

(٢٨) كانت وحدات الأسطول المصرى المتواجدة خلال المعركة إحدى وثلاثين قطعة تتألف من أربع فرقاطات ، وعشر سفن من نوع القرويت ، وست سفن من نوع الإبريق ، وخمس من نوع الفولت ، وست حراقات هذا بالإضافة إلى النقالات الكبيرة .

محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة مصر محمد على - السياسة الداخلية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٤٨ ص١٣٨ .

(٢٩) أمين سامى : مرجع سابق جـ٢ ، ص٣٣١ .

(٣٠) سجل رقم ٣١ معية تركى - صورة ترجمة الكتاب رقم ١٨ بتاريخ ١٣ ربيع آخر ١٢٤٣هـ من محمد على إلى محرم بك .

(٣١) عن نص شروط هذا الاتفاق انظر :

Dodwell, H,L. The founder of modern Egypt - Astudy of Muhammed Ali. Cambridge, 1931 p. 22

وأيضًا اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ٢ ص٢٤٠ - ٢٤١.

(٣٢) عقدت الدول الأوربية معاهدة فى لندن عام ١٨٢٧ أجبرت فيها الباب العالى على الاعتراف باستقلال اليونان الذاتى ، وفى عام ١٨٣١ استطاع الشعب اليونانى انتزاع استقلاله التام ونجح فى استخلاص حريته وأعطى بذلك مثلاً للشعوب التى كانت تهدف إلى تحرير نفسها .

(٣٣) بعد عودة هؤلاء الجنود إلى مصر وهم فى حالة سيئة رخص محمد على لبعضهم بالإقامة فى بلاده سنة أو أكثر من أجل استعادة الثقة إلى نفوسهم ، ثم صدرت إليهم التعليمات بعد ذلك بالحضور إلى القاهرة وترتيب من يصلح منهم فى أورطة جديدة .

الوقائع المصرية العدد ١٩٦ فى١٨ ربيع الآخر١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠ تحت عنوان حوادث الجهادية.

(٣٤) إقليم المورة فى جنوب اليونان إقليم ثائر فاتر ، جباله قاسية ، ومرتفعاته منعية ، وشعبه مستميت .

(٣٥) يذكر الجبرتى أن ثوار المورة قطعوا الطريق على المسافرين واخذوا المراكب الخارجة من استامبول وفيها قاضى العسكر المتولى قضاء مصر وبعض الحجاج وقتلوهم عن آخرهم . انظر الجزء الرابع من عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ص٣٤١ تحت عنوان واستهل شهر ذى القعدة بيوم الأربعاء سنة ١٢٣٦ .

(٣٦) تعنى ولايات الروم ، وهذا التعبير كان يطلق غالبًا على الأراضى العثمانية الواقعة فى شرق أوروبا .

(٣٧) كانت Psara تمثل مركزًا هامًا للقراصنة فى غرب جزيرة خيوس Chios .

(٣٨) يقصد ولايتى الأفلاق والبغدان برومانيا .

(٣٩) صحتها بودروم وهى إحدى المدن التركية الهامة التى تقع فى أقصى جنوب تركيا ، وتقع إلى الشمال من جزيرة رودس بحوالى ١٠٠كم .

(٤٠) أغا تعنى رئيس أو سيد .

(٤١) عنوان رتبة خاصة تعنى الحاجب ، وقد كلف بقيادة هذه السفن ، وضمها إلى الأسطول العثمانى ، والعمل على تخليصه من الحصار المفروض عليه من الثوار اليونانيين .

(٤٢) هو محرم بك الأميرال صهر محمد على ، وكان حاكمًا للجيزة ، ثم عين محافظًا للأسكندرية ، فقائدًا للأسطول المصرى الذى ذهب لأرخبيل اليونان لمطاردة الثوار ، واشترك فى حرب المورة . دار الوثائق : محافظ أبحاث ، محفظة ١١٤ ، موضوعات متنوعة . وقد كلفه محمد على بقيادة السفن الحربية والاقلاغ بها لتأديب الثوار اليونانيين. انظر الأمر التركى المترجم بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٣٦هـ .

(٤٣) ميناء على شاطىء الأناضول .

(٤٤) كلمة همايونى فارسية الأصل ومعناها اللغوى مبارك ، أو مقدس ، أو حسن الحظ .

(٤٥)كذا فى الأصل المترجم ، ولعل صحتها عاشر شوال كما يظهر من تاريخ المكاتبة .

(٤٦) صحتها الروم أيلى وتعنى ولايات الروم وشاعت كتابتها خطأ الروميللى لأنهما كلمتان .

(٤٧) نجيب أفندى : مندوب السلطان الذى حضر إلى مصر ليسلم محمد على فرمان الولاية على المورة .

(٤٨) مندوب السلطان الذى جاء إلى مصر ليسلم محمد على فرمان الولاية على المورة .

(٤٩) صحتها بروزه ، وكان الأسطول العثمانى محصورًا فى تلك الجهة .

(٥٠) يقصد القائد العثمانى البطرونة مختار بك .

آسيا الصغرى

البحر الأبيض المتوسط

خريطة المورة

مبين عليها أهم مواقع المعارك

فيما بين ١٨٢٢ ، ١٨٢٨

ولاية جان بردى الغزالى على الشام

(٩٢٣ - ٩٢٧هـ / ١٥١٧ - ١٥٢٠ م)

د. خلف دبلان خضر الوذينانى(*)

عندما تولى السلطان سليم الأول حكم الدولة العثمانية فى ٩١٨ هـ / ١٥١٢م . أحدث تغييرًا واضحًا فى سياسته إذ لوى عنان جيوشه إلى الشرق الإسلامى فاستطاع إخضاع شمال العراق والشام ومصر ، أما الحجاز وحكومة اليمن المملوكية فإنهما أعلنتا ولاءهما للدولة العثمانية(١) .

وقد أعتقد بعض الباحثين أن التحول العسكرى العثمانى من الغرب إلى الشرق إنما كان على أساس خطة سابقة استهدفت بها الدولة العثمانية الوصول إلى بحر عمان والمحيط الهندى للقضاء على البرتغاليين(٢) .

ولكن هذا الرأى خالف الحقائق التاريخية حيث أن السلطان سليم الأول لم يتحرك بجيوشه نحو الشرق إلا ليضرب الشيعة الصفويين فى فارس والعراق بعد أن تحرشوا به وحاولوا نشر مذهبهم فى الأناضول ، وعرقلة الفتح العثمانى فى أوربا ، فانتصر عليهم فى موقعة جالديران سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م(٣) .

وبعد انتصار السلطان سليم الأول فى هذه المعركة المشهورة دخل عسكره مدينة تبريز واستطاع السيطرة عليها سيطرة تامة ، وصلى فيها الجمعة ، وخطب باسمه . وأراد الإقامة فيها للإستيلاء على إقليم فارس كله وإخضاعه للدولة العثمانية ، لكنه لم يتمكن من ذلك(٤) . بسبب القحط والغلاء حيث بيعت العليقة الواحدة للدواب بمائتى درهم ، وبيع رغيف الخبز بمائة درهم .

وقبل أن يرحل السلطان العثمانى سأل عن سبب تأخير وانقطاع قوافل الإمدادت التى أعدها لتموين الجيش وعندئذ تبين له أن سلطان مصر قانصوه

(*) استاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد - كلية الشريعة والدراسات اللإسلامية جامعة أمن القرى - مكة المكرمة .

الغورى كانت بينه وبين إسماعيل الصفوى شاه إيران علاقة ومراسلات واتفاقيات للتعاون معًا فى حرب ضد السلطان العثمانى سليم الأول . وبموجب هذه الاتفاقية بين الطرفين أمر السلطان الغورى بقطع القوافل والامدادات عن السلطان العثمانى فى إيران(٥) .

وكان الباعث على ذلك هو أنه لما استقل السلطان سليم الأول بسلطنة الدولة العثمانية بعد وفاة أبيه بايزيد الثانى أمر بقتل أخوته ، ولكن أحدهم استطاع الهروب إلى مصر حيث استجار بالسلطان الغورى الذى أجاره . وعندما أرسل السلطان سليم الأول رسله لتسليمه لهم رفض السلطان الغورى ذلك ، فساءت العلاقة بينهما بسببه ، وزاد من ذلك العداء التحالف المملوكى الصفوى الذى ظهر واضحًا عندما غزا سليم الأول فارس عن طريق البيرة(٦) . وكان حاكمها تابعًا للسلطان الغورى فأمر أهل مدينة مرعش بإيعاز من السلطان الغورى ألا يبيعوا عسكر السلطان سليم ما يلزمهم من زاد مما أنزل الضرر بالجند والدواب(٧) . واعتبر السلطان العثمانى هذا تحديًا وإيذانًا بالحرب بين المماليك والعثمانيين(٨) .

وهكذا قرر السلطان سليم فتح مصر ليأمن جانب الشام فى تحركاته لحربه مع الشاه(٩) .

ولم يكد السلطان سليم الأول يعود إلى عاصمته أسطنبول حتى قام بإعداد حملة قوية لغزو بلاد الشام ومصر وإزالة حكم المماليك الجراكسة(١٠) ، الذين رفضوا الاعتراف بسيادة السلطان سليم الأول من غير حرب حقنًا لدماء المسلمين من الطرفين(١١) .

ولما سمع السلطان الغورى بخروج السلطان سليم إلى حلب قام بإعداد حملة كبيرة هو الآخر ، وخرج بها من مصر لقتال السلطان العثمانى فى الشام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م)(١٢) .

وعندما وصل السلطان الغورى حلب التقى بسفارة أرسلها السلطان سليم الأول ، فذكر لهم أنه يريد تحصين علاقته بالشاه إسماعيل الصفوى ، لأجل التوسط بينه وبين السلطان العثمانى فى تأليف القلوب ومحو النفور ، ولكن السلطان سليم لم يقبل منه هذا الاعتذار ، بل جد فى السير إلى حلب .

ويقال أن السلطان العثمانى ارسل رسلاً إلى الغورى ذكروا له أن السلطان سليم لا ينظر إلى الغورى إلا نظرته للوالد الذى يطلب منه الدعاء ، وأكدوا له أن العثمانيين ما قدموا إلا لحرب الشاه إسماعيل الصفوى ، وسوف يقضون عليه . فرد عليهم الغورى قائلاً : " لولا أنه " سليم " مثل ولدى ما جئت من مصر إلى هنا بأهل العلم حتى نصل بينه وبين إسماعيل الشاه "(١٤) .

ويبدو أن الغورى تخوف من سوء العاقبة إذا دخل فى حرب ضد العثمانيين، فقرر أن يرسل سفارة من قبله إلى السلطان سليم الأول ردًا على زيادة البعثة العثمانية ، واستشار كبار دولته فى هذا الأمر ، فاجمع رأيهم على أن يرسل رجلين من أهل العلم والدين لحقن دماء المسلمين . ولكن الغورى لم يفعل ذلك ، واختار كاتم سره (الدوادار) الأمير مغلباى إلى السلطان سليم الأول ، ليؤكد له رغبته فى الصلح واهتمامه بأمر الوساطة . كما أمر عشرة من خيار عسكره باصطحابه .

وقد تضايق سليم كثيرًا من اصطحاب العسكر لرسول الغورى ، وقال له: " يا مغلباى " استاذك ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا .. ؟! وإنما أرسلك بهؤلاء العشرة ليرعب بهم قلوب عسكرى ، ويخوفهم برؤية أجناده ولكن أنا أكيده بمكيده أعظم من مكيدته " . ثم قام بقتل الجنود والقبض على" مغلباى " وكاد أن يشنقه لولا شفاعة بعض وزراء السلطان سليم ، وعاد مغلباى إلى الغورى فى حالة سيئة ، وأخبره بما حدث وبأن السلطان سليم قال له : " قل لأستاذك : يستعد لملاقاتنا وها أنا حضرت إليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف »(١٥) .

وهكذا لم ير السلطان الغورى مفرًا من القتال ، فأمر قواته بالخروج من حلب والاستعداد لقتال السلطان العثمانى ، وكان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من

شهر رجب سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م(١٨) . فالتقى الجمعان بقرب حلب فى مرج دابق(١٩) . فى ٢٢/٧/ ٩٢٢ هـ ، وفى اليوم التالى الأحد ٢٣ من شهر رجب سنة ٩٢٢هـ الموافق ٤ أغسطس سنة ١٥١٦م كانت بداية الحرب بن المماليك والعثمانيين و لم يقاتل فى ذلك اليوم من المماليك الجراكسة أكثر من ألفى فارس . وأما جلبان(٢٠) السلطان الغورى فلم يتحركوا من مواقعهم و لم يهزوا رمحًا ولا سيفًا ، لأن السلطان الغورى أمر بأن يخرج للحرب أولاً القرانصة(٢١) . لكونهم أعرف بالحرب والقتال من جلبان السلطان ، ولكنه كان يهدف من وراء ذلك العمل أن يقتل هؤلاء القرانصة ليتخلص منهم ومن كيدهم ، وبهذه الطريقة يصفى له الجو دون معارض ، فقد كان يخاف من مكرهم .

ومن أجل ذلك آخر (الجلبان) لتنفيذ مخططه ضدهم دون أن يشعروا به ، فتنبه لذلك القرانصة وبما كان يدور فى ذهنه نحوهم وما يدبره من مكيده ضدهم للتخلص منهم حين رأوه واقفًا مع الجلبان خلفهم لا يقاتل . لذلك شكوا فى نواياه وقالوا له : " نحن نقاتل بأنفسنا وسط نيران المعركة ، وأنت واقف تنظر إلينا شامتًا لماذا ؟ لا تأمر أحدًا من مماليكك يخرج معنا للميدان " .

وكان عدد الجلبان حوالى ثلاثة عشر ألفًا مملوكًا كلهم من مشتريات الغورى وقد علمهم ودربهم تدريبًا عاليًا على كافة فنون القتال والفروسية ، لينشئ له عسكرًا خاصًا به وبالتالى يتغلب على (القرانصة) وهم مماليك من كانوا قبله من سلاطين الجراكسة(٢٢) .

وكان السلطان الغورى يخاف على نفسه من تآمر اثنين من كبار أمرائه ، هما (خاير بك) و (جان بردى الغزالى) وكلاهما من المتعصبين عليه ويبحثان عن السلطنة ، ويشك فى ولائهما له . وكان الاثنان يكرهانه فى السر كما يكرههما . وكان يضمر لهما شرًا ، فامرهما أيضًا أن يتقدمًا لقتال السلطان سليم الأول . ويعنى ذلك أنه جعلهما وعسكرهما حجابًا ساترًا أمامه فى حين وقف هو بحراس عسكره الذى يعتمد عليهم من ورائهم خلف القرانصة ، مستهدفًا بتلك

الخطة أن يقتلا بالمدافع والبنادق فى أول اللقاء مع العثمانيين ، وبذلك يتخلص منهما ومن شرهما ، ويسلم هو وجنده ومن معه(٢٣) .

ويبدو أنه أراد بهذا العمل أو المخطط تصفية خصومه ومنافسيه أولاً ثم بعد ذلك يدخل المعركةضد السلطان العثمانى معتمدًا على سياسته وقوة جنوده .

ولكن خاير بك والغزالى فطنا إلى تلك الخدعة التى دبرها السلطان الغورى، فارسلا إلى السلطان وطلبًا منه الأمان وتوثقا منه أن لا يقتلهما بل يكرمهما وينعم عليهما(٢٤) .

والواقع إن شك السلطان الغورى كان فى محله لأنهما كانا على اتصال سرى دائم بالعثمانيين ، كما أفاد سيباى الذى لم يصدقه فى أول الأمر . وشاركهما عدد من أمراء المماليك كانوا يكرهون حكم السلطان الغورى ، وقد أرسلوا سرًا برسائل إلى السلطان سليم الأول لتأييده ووعده بالتعاون معه " إذا احتل بلاد الشام ، وطلبوا منه مقابل ذلك مبالغ مالية ومناصب عالية "(٢٥) .

وإذا صحت هذه الرواية فقد أدت سياسة السلطان الغورى إلى جلب عداء المماليك له ، حتى جعلهم يعملون على الاتصال بالسلطان سليم الأول الذى أرسل إلى خاير بك ، وجان بردى الغزالى بالأمان وعهد لهما بما يطيب خاطرهما وأن يوليهما مملكة مصر والشام ، فقبلا ذلك منه ووافقاه على ذلك قبل القتال(٢٦) . والواقع إن كثيرين من الأمراء المماليك كان يتمنى هلاك السلطان الغورى حتى يكون هو السلطان مما سهل على العثمانيين إسقاط دولة المماليك(٢٧) ، كما سيأتى .

وفى هذه الأجواء تم لقاء الجيشين واضطرمت نيران الحرب بالبنادق والمدافع فى مرج دابق ، وكان العسكر الغورى منقسمًا على نفسه ومختلفين فيما بينهم ، لا يحكمهم رأى ولا نظام ، ومن أعجب الأمور أن المقاتلين الجراكسة قاتلوا قتالاً شديدًا وصمدوا أمام القوة العثمانية صمود الأبطال فأوقفوا الزحف العثمانى حتى

صاح السلطان سليم فى قادته وعسكره ، قائلاً : " هكذا تقاتلون أمامى قدامى المماليك فحمل العثمانيون على الجراكسة حتى تراجع الجميع " . وما زال السلطان سليم وجيشه مواصلين زحفهم حتى وصلوا إلى صف الغورى(٢٨) .

وتنفيذًا للاتفاق فقد تراجع خاير بك والغزالى مع من انهزم من الجراكسة حتى خيمة الغورى التى كان يحتمى بها خلف صفوفهم مع جنده الخاص ، ونادى الخائنان بأعلى صوتهما " الفرار ، الفرار ، فإن سليم أحاط بكم ، وقتل الغورى والكسرة علينا " ، وانسحبا إلى حلب ، فتبعهما جلبان السلطان وتشتت جيش الغورى ، وظنوا أن سلطانهم مات كما قال : خاير بك والغزالى(٢٩) ، اللذان أطاحا به قبل أن ينال منهم شيئًا(٣٠) . وهكذا انكشف السلطان الغورى ومعه خواصه وعسكره الخاص أمام الجيش العثمانى ، الذى أطلق عليه المدافع والبنادق ، فهلك من جيشه من هلك ، وهرب من هرب لا يدرى أين يسلك ، وانقلب النهار ليلاً مظلمًا بالدخان ، فمات السلطان الغورى تحت حوافى الخيل(٣١) .

وهكذا زال ملك الغورى وقد أنشد بعض الشعراء فى ذلك شعرًا

اعجبوا للأشرف الغورى الذى منذ تناهى ظلمه فى القاهرة

زال عنه ملكه فى ساعة خسر الدنيا إذًا والآخرة(٣٢)

أما عسكره فقد فرّ إلى حلب ولكن أهلها قاوموهم لشدة ما قاسوا منهم حين دخلوا مع الغورى إلى بلادهم ، فتشتت شملهم وانكسرت شوكتهم بعد قوتهم ومنعتهم . وقد أسعدت هذه الهزيمة أهل حلب حيث أن السلطان الغورى حين تحرك منها لمواجهة السلطان العثمانى فى مرج دابق أودع لديهم المماليك جميع أموالهم .

أما خاير بك فقد دخل حلب لأخذ (سيدى محمد ابن السلطان الغورى) وكان أبوه قد أبقاه على خزائنه وأمواله بقلعة حلب ، فخوفه خاير بك إن بقى فى حلب أخذه السلطان العثمانى ، فهو قاصد أخذه وأخذ حلب . فقال : ابن الغورى سيدى محمد ؛ ما هو الرأى يا خاير بك ؟ قال الرأى عندى أن تنادى فى العساكر بالرحيل إلى مصر ، حتى يجتمع إليك ما شئت منهم . وتكون سلطانهم فى مصر مكان أبيك ، وأنا مساعد لك فى ذلك الأمر . ونادى ابن الغورى سيدى محمد فى حلب ، فخرجت العساكر وتركت كثيرًا من أموالها وأثقالها ، فكان ذلك مكيدة من خاير بك حتى يدخل السلطان سليم حلب من دون حرب.

وكان أن أرسل خاير بك إلى السلطان العثمانى يخبره بما فعل ، ويحثه على السير إلى حلب الخالية من الجيش المصرى فتقدم السلطان سليم حتى دخل حلب(٣٣) . وهكذا ارتفعت راية السلطان سليم الأول على قلعة حلب الشهباء ، فطلب أهلها الأمان من السلطان العثمانى فأجابهم على ذلك(٣٤) ، وخلع على كبارهم وأعيانهم الحلل الثمينة ، ثم حضر صلاة الجمعة وخطب له الخطيب باسمه ودعى له ولآبائه وأسلافه ، وبالغ الخطيب فى مدحه . ولما سمع السلطان سليم الخطيب يقول كلمة : " خادم الحرمين الشريفين سجد لله تعالى شكرًا ، وقال : الحمد لله الذى يسر لى أن صرت خادم الحرمين الشريفين " وأظهر الفرح والسرور على لقبه الجديد ، خادم الحرمين الشريفين ، وخلع على الخطيب خلعًا متعددة وهو على المنبر(٣٥) . منها حلته التى كانت عليه ، وكانت تساوى خمسين ألف غرشًا(٣٦).

أما ابن الغورى فقد خرج من حلب يريد دخول دمشق ، فخرج عليه أهلها ونهبوا أمواله وأثقاله ومن كان معه . ولولا صمود الأمير أبرك قائد الجلبان والأمير جان بردى الغزالى ومقاومتهم لأهل دمشق لأسروا جميع العسكر مع ابن السلطان. وقد أصاب العساكر من جراء ذلك هلعًا وخوفًا مما لحق بهم من أهل دمشق ، فلم يقيموا بها سوى ثمانية عشر يومًا أراد أن يعلن فيها الأمير جان بردى الغزالى حاكم حماه من قبل السلطان الغورى نفسه سلطانًا جديدًا للمماليك فعارضه الأمير أبرك

حيث قال : من الأولى أن تكون السلطنة لابن السلطان (سيدى محمد الغورى) فوافقه جيش السلطان (الجلبان) الخاص ، وقدامى المماليك " القرانصة " على رأيه(*) .

وعندما سمع جان بردى الغزالى ذلك القول يمس من السلطنة ، وخاصة عندما قام أحد أمراء المماليك وقال أين تخت السلطنة بمصر أم فى الشام ؟ قالوا بمصر ، قال " فاذهبوا إلى مصر ، واجتمعوا بمن بها من الأمراء ، واتفقوا على أمير تختارونه وسلطنوه ، فإن السلطنة لا تصلح لأحد إلا لأشجعنا وأعقلنا " فالآن أحوالنا مضطربة ، وعدونا يتربص بنا ، فكيف نسلطن علينا ولدًا صغيرًا ؟ " .

وهكذا خرج من دمشق الأمراء والعساكر متجهين جميعًا إلى مصر يرافقهم جان بردى الغزالى ، وهو يبطن لهم الغدر لرفضهم بالإجماع سلطنته لأنه كان يطمع فى حكم مصر بعد السلطان الغورى ، فمال إلى رأى خاير بك وهو تحريض السلطان سليم الأول على أخذ مصر(٣٧) . لكسب وده ورضاه ، إذا آل حكم مصر إليه .

وبعد اجتماعهم فى مصر اتفقت الآراء جميعًا على تعيين طومان باى سلطانًا لمصر وبايعوه بالسلطنة فى ١٥ / ١٠ / ٩٢٣هـ / ١٥١٧م(٣٨) .

(*) جان بردى الغزالى سلافى الأصل من خرواتيا وهى منطقة سلافية تقع الآن فى يوغسلافيا . وكان يتكلم اللغة الخرواتية ، ثم وقع فى أسر العثمانيين فى عهد السلطان بايزيد الثانى والد السلطان سليم الأول عند فتح منطقة البلقان (التى تسمى فى المصطلح العثمانى باسم الروملى) . ثم أرسل ضمن مجموعة من الأسرى الأقوياء كان عددهم عشرين هدية إلى السلطان المملوكى فى القاهرة . ثم أعتقه من ضمن العبيد السلطان المملوكى الأشرف قايتباى ثم وصل هذا إلى درجة الأمارة فى عهد السلطان قانصوه الغورى وطومان باى .

وجان : بمعنى الروح ، وبردى : تعنى أعطى . أما الغزالى : فهو نسبة إلى منية غزال فى الشرقية بمصر ، وكانت ضيعة لتغرى بردى وكان جان بردى حارسًا لها . انظر : محمد حرب . المرجع السابق ، ص١٤٣ - ١٤٤ .

Ismail Hami Danismend : op. cit. p. 66.

أما السلطان سليم الأول فقد زحف بجيشه على دمشق عند خروج المماليك منها بعد أن أقام أيامًا قليلة بحلب ، فخرج أهل دمشق لاستقباله وطلبوا منه الأمن والأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، وخلع على كل من يستحق الخلع الفاخرة ثم بعد ذلك توجه لفتح مصر(٣٩) .

ويؤكد المؤرخ أحمد زنبل الرمال فى تاريخه وهو حجة ومعاصر لهذه الأحداث وكان مستشارًا للسلطان الغورى ، ويميل إلى رأيه المماليك ، أن السلطان سليم كان يريد الاكتفاء بحلب ودمشق بعدانتصاره فى مرج دابق ، غير أن المماليك الذى انضموا إليه حثوه على مواصلة القتال وحذروه من مغبة التراخى . وقد دعم موقفهم هذا رفض المماليك فى مصر الصلح وإصرار طومان باى سلطان مصر الجديد على مواصلة القتال . وقد صرح السلطان سليم الأول أن ما دفعه لفتح مصر إلا خاير بك وجان بردى الغزالى والمماليك الذين انضموا إليهما وأنه كان يريد العودة إلى أسطنبول(٤٠) .

وقيل أنه كان ينوى الاتجاه من حلب لمحاربة الشاه الصفوى فى فارس ولم يكن فى نيته التوجه إلى مصر ، ولكن ما دفعه لأخذ مصر إلا خاير بك ورفيقه جان بردى الغزالى . لذلك أجل حرب الدولة الصفوية حتى يتم له فتح مصر(٤١).

ولا شك فى أنه كان لموقف جان بردى الغزالى وخاير بك وأتباعهم أثره فى النصر الذى أحرزه العثمانيون فى معركة مرج دابق(٤٢) . وكان واضحًا منذ اللحظة الأولى للمعركة أنه ليس هناك ثمة تكافؤ بين الطرفين ، وخاصة فى مجال التنظيم وإدارة الحرب ونوعية الأسلحة ، فالجيش المملوكى الذى يتبع فى تكتيكه الحربى نظام الفروسية لم يستطع مقاومة القوات العثمانية بتنظمها المتقن واستعمالها المدفعية وأساليب القتال الحديثة . هذا فضلاً عن الارتباك الحاصل فى صفوف المماليك لعدم ترابط عسكرهم وتبادل الشك بين السلطان وكبار قادته ، مما أدى إلى هزيمة ومقتل السلطان الغورى وانسحاب بقية قواته المنهزمة إلى مصر خوفًا على أرواحهم(٤٣) . وقد ولوا عليهم طومانباى نائب الغيبة سلطانًا على مصر ،

كما أسلفنا ولقبوه بالملك الأشرف واجتمعوا حوله ، وأصبحوا طوع أمره ، وعقدوا الألوية عليه ، وساروا بها إلى الريدانية خارج القاهرة ، وهناك نصبوا المدافع استعدادًا لصد السلطان العثماني سليم الأول عن دخول مصر . وفي الريدانية تقابل الجيشان العثماني والمملوكي ، وقاتل السلطان طومان باي قتال الأبطال ، أذهل العقول ضد السلطان العثماني ، ولم يلبث طويلاً في قتاله حتى أنكسر مع جيشه أمام القوات العثمانية ، وهرب طومان باي إلى البر لما تفرق عنه جيشه وقصد صديقه شيخ عربان بني جذام ، واسمه عبد الدائم بن بقر ، ودخل السلطان سليم الأول بعد هذه المعركة مصر دخول الفاتحين(٤٤) .

ولم يلبث أن قام شيخ العرب عبد الدائم بن بقر بتسليم طومان باي أسيره إلى السلطان تقربًا إليه فأنعم عليه مقابل ذلك بالخلع الثمينة والأموال الطائلة ، وحبس طومان باي عنده ، لكنه عدل عن ذلك وأراد أن يكرمه ويجعله نائبًا عنه على مصر إذا رجع إلى عاصمته أسطنبول ، وصار يحضره في مجلسه ويستشيره في بعض الأمور والأحوال(٤٥) .

وكان سليم الأول يريد الابقاء على حياة طومان باي لولا أن خاير بك وجان بردى الغزالى أوغر صدر السلطان عليه(٤٦) . وذلك خوفًا منه لخيانتهما في موقعة مرج دابق كما سبق ذكره .

يضاف إلى ما سبق أن السلطان سليم الأول عندما كان يقاتل طومان باى أمر جان بردى الغزالى بالتوجه لحربه ، فدارت معركة ضارية حول أم دينار بين المماليك والعثمانيين ، أظهر فيها طومان باى ومن معه من الأمراء والفرسان ، بطولات خارقة . وسقط قائد العثمانيين جان بردى الغزالى من فوق فرسه أسيرًا عندما انهزم عسكره ، واقتيد إلى طومان باى الذى هم بقتله ، فما كان من الغزالى إلا إن قبل يديه وقدميه متوسلاً إليه بالله ليعفو عنه ، وعندئذ رق طومان باى لحاله، وعفى عنه ، فرجع الغزالى متقدمًا فلول عسكره العثمانى المهزومين ، وقد أصر في نفسه أن تكون له كرة أخرى على طومان باى لينتقم لنفسه(٤٧) .

وتخلصا منه فقد أرجف فى أهل مصر عن طومان باى أنه لم يقع فى الأسر، وأنه اختفى ويجمع عسكرًا ، وينتهز الفرصة لاستعادة حكمه وأنه شجاع وقوى لا يطاق ولا يقدر على نزاله أحد ، وبلغت السلطان تلك الأراجيف من الناس ، فرأى أن الفتنة لا تسكن ما دام طومان باى ، لذلك أمر بأن يركب طومان باى على بغلة ويحيط به جنود الانكشارية خوفًا من افلاته ، ويمضى به إلى باب زويله ، ليشنق ويصلب هناك ليراه الناس بأعينهم ، فشنق وصلب على باب زويلة(٤٨) فى ٩٢٣/٣/٢١هـ ، ١٣ إبريل ١٥١٧م ، ودفن بالقبر الذى كان أعده السلطان قانصوه الغورى لنفسه(٤٩) .

وقد دبر الغزالى وخاير بك هذه الحيلة للتخلص منه خوفًا من ابقاء السلطان سليم الأول عليه وتعيينه لولاية مصر ، ولو حصل ذلك لانتهى أمرهما ولكنهما استطاعا بهذه الشائعة التخلص منه ليخلو لهما الجو لحكم مصر والشام دون منازعة كما وعدهم السلطان .

وبعد هزيمة المماليك من قبل الدولة العثمانية احتفظت الشام ومصر بقدر كبير من الحكم الذاتى الداخلى فقد وضع هذان البلدان الشام ومصر تحت إشراف دائم من جانب القادة العسكريين الذين انحازوا إلى جانب السلطان سليم الأول(٥٠) . فعين السلطان العثمانى خاير بك على ولاية مصر(٥١) . مقابل تعاونه مع العثمانيين كما نص الاتفاق بينهما قبيل معركة مرج دابق(٥٢) . وعاد السلطان من مصر بعد أن وطد الحكم بها إلى الشام بصحبة جان بردى الغزالى الذى وعده بولاية الشام ، لكنه عدل عن ذلك وولاه (نيابة طرابلس وصفد وغزة والرملة وبيت المقدس وجبل نابلس) فقط ولم يوليه نيابة الشام ، فشق ذلك على الغزالى ، لكن السلطان عاد وولاه نيابة الشام(٥٣) . إقطاعًا حتى يموت لا يأخذ السلطان من مالها شيئًا(٥٤) ، وكما كانت ولاية مصر الثمن الذى تقاضاه خاير بك مقابل تعاونه مع العثمانيين ، كذلك كان الشام الثمن الذى تقاضاه جان بردى الغزالى مقابل تعاونه هو الآخر مع العثمانيين(٥٥) .

وكانت ولايته للشام فى ٥ من شهر صفر سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م ، على مال معين قدره مائتا ألف دينار وثلاثون ألف دينار ؛ وما معها من بلاد المعرة(٥٦). إلى عريش مصر ، وأضاف إليه أيضًا أمر الجراكسة بدمشق من الحجوبية الكبرى والثانية(٥٧) .

يقول نيقولاى ايفانوف أنه بعد أن أكمل السلطان العثمانى احتلال المدن والقلاع المهمة فى بلاد الشام ومصر منح لهذين الحاكمين استقلالاً داخليًا شبه تام، حتى أعفى خاير بك من دفع الضرائب للسلطان العثمانى، وكان كل منهما - يعنى الغزالى وخاير بك - يملك قواته العسكرية الخاصة به إضافة إلى جهازه الإدارى ، الذى لم يطرأ عليه أى تجديد يذكر، وقد استاء أبناء السلطان سليم الأول من تصرف والدهم لأنه بعد هذا النصر لم ينتزع السلطة من يد المماليك بل أعادها لهم مرة ثانية دون أن تكون هناك أى فائدة تذكر للعثمانيين(٥٨) .

ويعنى ذلك أن دخول العثمانيين الشام ومصر إنما كان نتيجة لمواقف حربية وسياسية جديدة أملتها عليهم الظروف حين تحالف المماليك مع الشاه إسماعيل الصفوى ضد الدولة فلم يكن لهم هدف آخر .

أما سيطرة العثمانيين على الحجاز واليمن والبحر الأحمر وتصديهم للبرتغاليين فكان ذلك ميراثًا مملوكيًا لا يستطيعون التخلى عنه(٥٩) . فرضته عليهم الظروف والمواقف بعد أن آل حكم المماليك لهم فى مصر .

وأخيرًا سار السلطان سليم الأول إلى أسطنبول بعد أن رتب البلاد الشامية(٦٠) ، وقبل مغادرة السلطان الشام سبقه جان بردى الغزالى فى يوم الأحد العاشر من شهر صفر سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م إلى مدينة حمص لضيافة السلطان فيها ثم توديعه ، وبعد توديع السلطان إلى عاصمته دخل جان بردى الغزالى دمشق فى ٢٠ من الشهر نفسه ، فتلقاه الأمراء بدمشق ، وشباب أهل الشام فى حلل

بهية وأمامة الجيش الانكشارى ورماة البنادق يزيدون على خمسمائة جندى فى حفل واستقبال مهيب ، والغزالى يرتدى زى العثمانيين ونزل بالشام ، وأمر فى الحال ببناء دار السعادة (الحكم) واصطبلها ، فشرع البناؤون فى ذلك سريعًا ، ثم أمر مناديه ، فنادى بأعلى صوته بأنه لا ظلم اليوم ولا عدوان فى الشام(٦١) .

وقد استمر فى حكم الشام تحت الطاعة العثمانية منقادًا لأوامرها ، إلا أنه كان يطمع ويحلم فى داخله باستقلال حكم الشام وإعادته إلى حكم المماليك كما كان من قبل ، ويبدو أن السلطان سليم الأول عندما عدل عن إعطاء ولاية الشام للغزالى فى أول الأمر كما وعده كان يشك فى ولائه له ، لذلك كان السلطان مترددًا فى دفع ولاية الشام إليه ، ولكنه عاد وأعطاه ولاية الشام كلها وفاءً لوعده كما سبق ذكره .

وعندما عاد السلطان سليم الأول إلى أسطنبول قام الغزالى بالقضاء على مشايخ الإعراب المناوئة للحكم العثمانى فى الشام(٦٢) ، مطبقًا السياسة العثمانية فى بداية عهده ، فقام بقمع حركات تمرد البدو دون رحمة وبخاصة عندما سحق انتفاضة الشيخ البدوى الحنش فى عام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م قرب بعلبك الذى حاول السيطرة على وادى البقاع ، وشن حملتين لغزو حوران ، وساد البلاد هدوء تام حتى قيل أن " الذئب والحمل استطاعا السير معًا " كما يقال :

يـا أيهـا الملـك الذى سطواتـه فى البيداء يخشى ذئبها من شاتها(٦٣)

بذلك أظهر الغزالى ولاءه للسلطان العثمانى ليغطى تحركاته المريبة فى المناطق المحيطة التى كان يهدف من ورائها التحالف مع البلاد المجاورة لمساعدته فى طرد العثمانيين عندما تحين الفرصة له(٦٤) .

لذلك شكل الغزالى جيشًا خاصًا به إلى جانب الجيوش العثمانية ؛ كان قوامه من البدو والمماليك ، ثم التف حوله أبناء الطبقات المميزة القديمة بعد أن وضعوا أنفسهم فى خدمة السلطان سليم الأول وبايعوه ، لذلك تغير ولاؤهم فلم

تعد تستهويهم المثل العثمانية ويشدهم الحنين إلى الماضى لاستعادة الحكم والامتيازات المملوكية(٦٥) .

وقد بدأت أحلام جان بردى الغزالى تظهر لإقامة دولة مستقلة بحكم بلاد الشام تحت قيادته ، وذلك قبيل وفاة السلطان سليم الأول ، وبالتحديد فى ليلة الجمعة الموافق ١٢ من شهر ربيع الأول لعام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م ، حين احتفل بالمولد الشريف فى دمشق ، ودار الحديث فى ذلك المجلس ، واستطرد الكلام حتى سأله بعض الحضور لمن يهدى أجره ؟ هل فى صحائفه أم صحائف السلطان سليم الأول ؟ فقال بدون تردد بل أهديها إلى صحائف استاذى العظيم السلطان الأشرف قايتباى ، فلم يفطن الغزالى إلى مثل ذلك القول لفرط اندفاعه نحو السلطنة(٦٦) .

وكان قد حضر ذلك المجلس أمير عثمانى كبير سمع بإذنه الحديث الذى صدر من الغزالى(٦٧) ، وهذا الأمير هو نائب قلعة دمشق ، معه قاضى القضاة الشافعى ولى الدين محمد بن الفرفور ، والمظفرى شيخ المدرسة السليمية فى دمشق، فهؤلاء الثلاثة تنبهوا وأيقنوا بأن الغزالى يتوق نحو السلطنة دون تردد .

عندئذ بعث هؤلاء الثلاثة فى ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠ م إلى السلطان سليم الأول بما سمعوا فى ثلاث رسائل مع هجان ذكروا فيها أن الغزالى يعد العدة للانفصال بالشام تحت قيادته بعيدًا عن السيادة العثمانية . ولكن أنصار الغزالى استطاعوا كشف أمر هذه الرسائل فقبضوا على الهجان وقدموا الرسائل إلى الغزالى ، فما كان منه إلا أن أمر بالقبض على الشيخ المظفرى ، فقبض عليه ، أما قاضى القضاة ابن الفرفور فقد لاذ بالفرار إلى قلعة حلب واعتصم بها قبل أن يدركه الطلب . ولم يجرؤ الغزالى على إصدار أمره بالقبض على نائب قلعة دمشق لاعتصامه هو الآخر بالقلعة(٦٨) .

ويتضح من ذلك أنه منذ أن رحلت القوات العثمانية من دمشق ، وخلا الجو لجان بردى الغزالى نائب الشام ، حدثته نفسه بالخروج عن طاعتها ، وصعب

على طبعه إلا أن يخون سيده الثانى ، كما خان سيده الأول ، لذلك لم يستطع البقاء طويلاً على الولاء لأسياده العثمانيين .

ومن يتعود عادة ينجذب لها على الكره منه والعوائد أهلك(٦٩)

وقيل أن السلطان العثمانى سليم الأول كان على علم بتحركات الغزالى المشبوهة فى المنطقة ، من عيونه وبعض أمراء المدن الشامية من العثمانيين المخلصين للدولة ، ولكن الموت لم يمهله حتى يقضى عليه(٧٠) .

ففى يوم ٩ من شهر شوال سنة٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م توفى السلطان سليم الأول ودفن فى أسطنبول، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين وثمانية أشهر وتسعة أيام(٧١) ، وقد أرسلت الدولة العثمانية بهذا الخصوص فى١٢ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م مندوبين من العاصمة أسطنبول إلى نائب الشام جان بردى الغزالى بخبر وفاة السلطان سليم الأول . وبعد يومين من وصول المندوبين شاع فى دمشق خبر وفاة السلطان أى يوم ١٤من شهر ذى القعدة(٧٢) . وبموته أقامت المماليك الجراكسة صدورها ووجد جان بردى الغزالى الفرصة سانحة أمامه لتنفيذ ما كان يرومه من قبل(٧٣) . وخاصة عندما بلغه تولى ابنه سليمان الأول (القانونى) فى ١٧ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠ م وهو شاب صغير فإزداد طمع الغزالى أكثر من ذى قبل فى الشام وحدثته نفسه بإعلان استقلاله وانفصاله عن الدولة العثمانية ، وإعادة الشام إل المماليك الجراكسة ، ويكون هو السلطان ، وتعلقت آماله وأحلامه بتلك الأوهام لحكم البلاد ، فوجد الغزالى هذا الموقف يصلح أن يكون منطلقًا معقولاً إلى إعلان سلطنته بحجة أن السلطان سليمان ولد غر لا يصلح للسلطنة(٧٤) . وفى الوقت الذى ازدادت مطامع الغزالى عقب موت السلطان سليم الأول ، كان الشاه إسماعيل الصفوى على أتم استعداد للتعاون معه فى هذه المحاولات إذا ما طلب منه ، وامداده بالمال والجند حتى يرى اليوم الذى يطرد فيه الغزالى العثمانيين من الشام كله ليشفى غليله(٧٥) ويمسح العار الذى لحق به فى معركة جالديران الشهيرة .

وقد تسرع الغزالى فى ذلك لطمعه وخفته وهوجه وافتقاره للرأى السديد . وقد ساعدته الدولة العثمانية دون أن تدرى حين أخضعت لحكمه ولايات الشام كلها وهو ما لم تفعله الدولة الشركسية التى كانت تسند ولايات الشام إلى أربعة ولاة(٧٦) ، ظنًا أن ذلك فرصة مناسبة لتحقيق أحلامه وطموحاته فى حكم الشام التى كان يخفيها(٧٧) .

وقبل أن يبدأ جان بردى الغزالى بثورته على الدولة العثمانية اتصل بالشاه إسماعيل الصفوى وكذلك قراصنة جزيرة رودس فرسان القديس يوحنا ، وأرسل لهم سفراء للاتفاق معهم لمحاربة الدولة العثمانية العدو المشترك للجميع ، فأمدوه بالأسلحة والمعدات اللازمة ، ثم بالخبراء والمهندسين المتخصصين فى المدفعية وصيانتها للاستعانة بهم فى حربه ضد السلطان العثمانى(٧٨) . كما وعده الصفوى بأن يمده بالرجال .

عند ذلك أخبر خاصته وحاشيته بما فى نفسه ، فأشاروا عليه أن يرسل إلى خاير بك والى مصر يعلمه بذلك الأمر ، فإن وافقك على هذا الاستقلال فافعل ، وإلا فلا قدرة لك ولنا على جنود الدولة العثمانية ، لأن معركة مرج دابق لا زالت عالقة فى أذهان المماليك(٧٩) .

ورد جان بردى الغزالى على خاصته وأصحابه بقوله : " إنما كان ذلك من السلطان سليم ، وإنما هذا ولد غر ليس له قدرة على فعل شئ من ذلك ، ولا أظنه يتم سنة فى الملك "(٨٠) .

ثم بعد ذلك بعث إلى خاير بك ورجال حكومته برسائل سرية تفيدهم بنواياه وعزمه على الاستقلال بالشام عن الدولة العثمانية(٨١) . ويطلب منه الانضمام لإعادة حكم المماليك على مصر والشام ، ويخبره بسهولة الفوز على السلطان سليمان الأول لصغر سنه وارتباك سلطنته وبعد دار الخلافة عنهما(٨٢) . وقد حان الوقت لإعادة الدولة المملوكية وبعثها من جديد ، وأن إحياءها أسهل مما كان عليه الأمر من قبل (٨٣) ، وكان الغزالى يطمع فى ضم خاير بك إليه لكسب ة مصر إلى جانبه فى حربه مع العثمانيين(٨٤) .

ولكن خاير بك أجابه محذرًا بأن لا يقدم على هذا العمل ويقول له : " أما يرضيك إقليم الشام تتصرف فيه تصرف الملوك " فإياك ثم إياك أن تتفوه بشئ من ذلك "(٨٥) . إلا أن جان بردى الغزالى لم يقبل نصح خاير بك والى مصر ، بل لقد سولت نفسه أن يعلن استقلاله ببلاد الشام ، ويطلق على نفسه سلطان البلاد(٨٦) .

وفى هذا الصدد يرى المؤرخ أحمد فؤاد متولى أن والى مصر خاير بك كان على علم بتطور الأحداث فى الشام منذ أن بدأت ، وكان بوده لو أن الحكم العثمانى انحسر عن الشام ومصر ، وقد اتفق سرًا مع الغزالى شريكه فى الخيانة كما أسلفنا ، إلا أن خوفه من فشل ثورة الغزالى ضد الدولة العثمانية فت فى عضده ، فهو يخشى أن تدور الدائرة عليه لو فشل الغزالى فى مسعاه ، لأن هناك حامية عثمانية قوية فى مصر تحت قادة أقوياء تمسك بزمام مصروتربطها بالتبعية العثمانية. لذلك كان موقف خاير بك السرى غير المعلن هو التعاون والتضامن من الغزالى ويود أن ينجح فى مهمته فيقوم هو بثورة مماثلة فى مصر للانفصال بها عن الدولة العثمانية . أما موقفه المعلن أمام الدولة العثمانية فيما يحدث فى الشام فهو إظهار عدم رضاه عن هذا الموقف مما جعله يرسل رسميًا إلى جان بردى الغزالى رسالة يحذره فيها من مغبة الإقدام على هذا العمل ، ويذكره بقوة السلطان العثمانى(٨٧).

وقد استغرب الغزالى رده فأرسل له مرة ثانية رسالة تقول : " إن لم تطعنى على ذلك وإلا جردت عليك وحاربتك أما بى وأما بك " (٨٨) . لأن أمالهما فى الاستقلال وإعادة حكم المماليك كانت متفقة .

ومما يؤكد هذا الاتفاق ما ورد فى الوثيقة التى أرسلت للسلطان سليم الأول باسطنبول من قبل رجال حاميته العثمانيين فى قلعة كريت ، تفيد هذه الوثيقة المرسلة بأن رجال الحامية المذكورة استطاعوا أسر شخص من طرف عدو الدولة شاه إيران يتجسس عن طريق التجارة ، وعند التحقيق معه أدلى بمعلومات

خطيرة ومهمة جدًا قال بأنه أسر من قبل فى مصر حين فتحها السلطان سليم ، ومن مصر استطاع أن يصل إلى كاشان(٨٩) . وكان بها ابن اردبيل(٩٠) ، وفى تلك الأثناء قدم من قبل الغزالى رسول إلى ابن اردبيل فى كاشان ، رآه هذا الأسير أثناء وجوده فى اردبيل ، وعندما سار الأسير إلى بغداد ومكث بها خمسة شهور ، أرسل ابن اردبيل حاكم كاشان فى تلك الفترة رسولين الأول إلى حاكم بغداد الشاه على أوباش، والثانى إلى جان بردى الغزالى فى الشام للتحالف ضد الدولة العثمانية.

لذلك أرسل حاكم بغداد الشاه على أوباش هو الآخر رسولاً إلى الشام لمقابلة جان بردى الغزالى لبحث التعاون بين الطرفين ضد الدولة العثمانية ، ونتيجة لهذه المفاوضات بعث الغزالى رسولاً إلى شاه بغداد على أوباش تأكيدًا للتحالف بينهما ضد الدولة العثمانية ، ثم توجه هذا الرسول نفسه إلى ابن اردبيل فى كاشان لنفس الغرض والمهمة ، وقد بين الأسير مهمة هذا الرسول وهى الكلام على لسان الغزالى إلى ابن أردبيل حيث يقول : " تعال يا ابن اردبيل بنفسك أو أرسل عسكرًا ، أننا سنفتح ولاية الشام ، ولتعلم أن من بمصر اتفقوا معنا "(٩١) . ويعنى بذلك خاير بك .

ولم يكن السلطان العثمانى سليم الأول على علم بهذه المحادثات إذ أن رسول الغزالى كان قد وصل بهذه الرسالة سرًا إلى كاشان لمقابلة الشاه إسماعيل ، وفى هذه الرسالة عرض آخر من الغزالى هو تقديم تبعيته للشاه إسماعيل الصفوى(٩٢) . من أجل التعاون معه لطرد العثمانيين من الشام ومصر .

وفى هذا دليل واضح على أن خاير كان على اتفاق سرى مع الغزالى هو الآخر لإعادة حكم المماليك على الشام ومصر كما كان ، وعلى علم بكل الاتفاقات التى دارت بهذا الخصوص بين حاكمى بغداد وإيران مع الغزالى لتوحيد الجهود لطرد العثمانيين من الشام ثم مصر كما جاء فى الوثيقة السابقة . وإذا سلمنا بصحة هذه الوثيقة التى تتهم خاير بك بالاتفاق مع جان بردى الغزالى ب السلطان لإعادة حكم المماليك ، فإن هناك تناقض واضح مع موقفه المعلن

وهو عدم موافقة الغزالى على تمرده للدولة من بداية الأمر عندما طلب منه ذلك ، ويعنى أن هناك على ما يبدو مكيدة لإيقاعه وإقحام اسمه فى شرك ثورة العصيان على الدولة العثمانية لتوريطه لكسب موقفه وموقف مماليك مصر معه .

ورغم هذا الموقف إلا أن هناك بعض الرسائل التى تضفى ظلالاً من الشك على تورطه ومن هذه الرسائل أن الغزالى بعث برسالة له : يخبره فيها عن كيفية فتح قلعة دمشق ، وعن سعيه الجاد لحماية هذه البلاد ، كما بين له الخطة فى استعادة بعض المدن الشامية وطرد حاكمها من قبل السلطان العثمانى لاستعادة الحكم المملوكى تمهيدًا لفتح حلب باسم خاير بك ، وفى الوثيقة إظهار لولاء الغزالى لخاير بك صريحًا وإقراره له بالتبعية(٩٣) .

ولكن خوف خاير بك من فشل ثورة الغزالى جعله يتخذ هذا الموقف السرى غير المعلن وهو تأييد الغزالى ، وفى نفس الوقت أعلن معارضته له لكسب الدولة العثمانية ، لما يتمتع به من فطنة عصمته من الوقوع فيما قد تحاسبه عليه الدولة العثمانية ، عكس الغزالى الذى كان لا يفطن إلى مثل ذلك لفرط حبه للسلطنة ، خاصة أن السلطان سليم الأول أخذ معه إلى أسطنبول بعض أبناء خاير بك وزوجاته كرهائن عندما ولاه حكم مصر ، ولم يسمح السلطان سليمان لهؤلاء بالعودة إلى مصر إلا بعد أن انتهت حرب الشام بالقضاء على الغزالى ، وبذلك يكون قد وضح موقف خاير بك المعلن والسرى(٩٤) .

وهكذا اتخذ خاير بك الحيطة فأرسل خطابًا إلى الغزالى يخادعه فيه خوفًا من أن ينكشف أمره للسلطان العثمانى حتى يتمكن من إرسال الخطابات التى وصلته من الغزالى ليكون السلطان على علم بذلك الأمر لما رأى منه الجد فى الكلام حيث قال : " أن كان ولابد وأنت معول على ذلك ، أذهب إلى حلب وخذها فإن ملكتها فإننى مساعد لك فيما تقدم وموافق لك على ما تقول "(٩٥) .

ومن الواضح أن هذا يحتمل وجهين لكسب الطرفين إذ أنه يؤيد غزو الغزالى لحلب فإذا فشلت ثورة الغزالى فقد ضمن حياده وولاءه للدولة العثمانية ، وإذا نجحت ثورة الغزالى ثار هو الآخر واستقل بمصر .

وفى ٢٦ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠ م حضر مندوب الغزالى ودفع لخاير بك برسالة ورسائل أخرى إلى أمراء دولته ، وعندما قرأها الأخير اضطربت أحواله ، لما فيها من عصيان وتحريض ضد الدولة العثمانية لإعادة دولة المماليك فتحفظ خاير بك على المندوب وأنزله فى بيت الأمير الحمزاوى تحت الإقامة الجبرية تمهيدًا لإرساله إلى أسطنبول ، ثم شرع حالاً فى تحصين قلعة الجبل وركب على أبراجها المدافع والمكاحل ، وأمر طائفة من الانكشارية من الفرسان بالسكن حول القلعة للحراسة الدائمة ، وأمرهم بعدم مغادرتها إلى المدينة. ثم قام خاير بك بإرسال مندوب والى الشام إلى السلطان سليمان مقيدًا بالحديد من مصر إلى أسطنبول عبر البحر الأبيض المتوسط ، ومعه جميع الرسائل الواردة ، ليخبر السلطان بما وقع من عصيان وخروج واليه الغزالى فى الشام(٩٧) .

ولم ينس خاير بك أن يعرب عن ولائه المطلق للعثمانيين وأنه لا يوافق الغزالى المغامر فى تمرده(٩٨) .

ومن ناحية أخرى جدد أمراء الشراكسة والعثمانيون فى مصر الطاعة والولاء للسلطان سليمان الأول كما كان الحال لوالده من قبل فى ١ من شهر ذى الحجة سنة ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م ، وذلك عندما اجتمعوا فى القلعة للتهنئة بشهر الحج أمام القضاة الأربعة وعلى المصحف الشريف(٩٩) .

ولم يكتف خاير بك بذلك وإنما حلف على المصحف الشريف مؤكدًا الولاء والطاعة للسلطان سليمان الأول ، ثم أمر أن ينادى مناديه فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والاستمرار فى البيع والشراء وأن يمسك الناس عن الكلام ، ولا يتدخل أحد فيما لا يعنيه ، وهو الحديث عن عصيان الغزالى وحربه للسلطان. وطالب بالإكثار من الدعاء لنصره السلطان . وبذلك سكن الاضطراب الذى ساد الناس من جراء عصيان الغزالى(١٠٠) .

ويبدو أن خاير بك بالغ عندئذ فى تحصين القلعة وتأمين ما يلزمها من ماء وغذاء ، ورفع بين قواته درجة الاستعداد الحربى إلى أقصى الحدود وذلك تحسبًا

من غزو مرتقب من جان بردى الغزالى بدليل أنه أصدر أوامره إلى الشراكسة وإلى العثمانيين بالاستعداد للسفر إلى الشام إذا ما دعت الحاجة ، بل أنه فتح باب التطوع العام لانضمام المتطوعين إلى الجيش . وربما أراد خاير بك التحرك إلى الشام وسحق قوات الغزالى ، ولكنه كان فى انتظار جواب السلطان سليمان إذا أمره بذلك(١٠١) .

وحين تسلم الغزالى هذا الجواب المخادع من خاير بك بأن يأخذ قلعة حلب، صدق قوله واستبشر بالموافقة على عصيانه وتأييد استقلاله ، دون أن يعلم ما كان يبطنه خاير بك من مخادعة لكسب الوقت ومكاشفة السلطان العثمانى بأمره . وكان أن أرسل الغزالى إلى سيدى محمد الأمير قرقماش لحضور مجلسه ، ولما حضر قام بإطلاعه على خطاب خاير بك فشكك سيدى محمد فى موافقة خاير بك وقال له : " أننى لا أصدق شيئًا من ذلك القول ، وإنما الرجل خادعك بهذا الكلام لما رأى منك الجد ، ولكن إذا أردت رأيى أترك هذا الأمر وكن على ما أنت عليه من ولاية الشام ، تحت الطاعة العثمانية أسلم لك وأحفظ لمكانتك ".

ولم تعجب تلك النصيحة جان بردى الغزالى وهو الرجل الطموح وكان الغزالى معتمدًا على إسماعيل الصفوى حسب الاتفاق السرى معه(١٠٢) ، وقد أرسل للغزالى بأنه استطاع جمع حوالى اثنى عشر ألفًا من الجند(١٠٣) . لمساعدته فى استقلال الشام .

وكان الصفوى قد جمع فعلاً ذلك العدد الكبير من الجند انتظارًا لنجاح الغزالى فى حربه ضد السلطان العثمانى لينقض بقواته لمناصرة الغزالى على العثمانيين ، لأنه يعلم كل العلم مع حليفهم الثالث حاكم العراق مدى قوة وبأس الجند العثمانى ويخشى جانبهم .

وقبل إعلان سلطانه على الشام كله فكر الغزالى بتدبير حيلة للتخلص بها من الجيش العثمانى المرابط فى دمشق فخطر له أن يعمل مولدًا يجمع هؤلاء ، وأمر رجاله بأن يدعوا لهذا المولد جميع عساكر دمشق من العثمانيين الذين قدموا مع

السلطان سليم الأول حين فتحها وأبقاهم فى دمشق مع جان بردى الغزالى لحفظ بلاد الشام وهم (الصناجق والاغوات والانكشارية) . فلما اجتمعوا عنده فى المكان المعد لهذه المناسبة وحان موعد الطعام مد لهم سماطًا طويلاً لم يعمل مثله أحد من قبل ، فانهمكوا فى الأكل والكلام على السماط ، وكان أتباع الغزالى واقفين خلف هذا العسكر المدعويين ، كل منهم يحمل سيفًا يخفيه تحت ثيابه وينتظرون تنفيذ أوامر سيدهم ، ولما رأى الغزالى العسكر العثمانى منشغلاً فى الأكل والكلام أشار لرجاله بتنفيذ الخطة ، فسلوا سيوفهم بسرعة متناهية وضربوا بها أعناق من حضر من الجنود العثمانية بدمشق وهم يأكلون ، فما شعروا إلا ورؤوسهم تتطاير عن أجسادهم ، فلم ينج منهم أحد . ثم أمر الغزالى عسكره بإخراج جثثهم ورميها خارج دمشق دون دفنها فأكلتهم السباع والوحوش(١٠٤). ولم يبق أمامه سوى الجنود العثمانية المرابطة بقلعة دمشق .

وكان الغزالى يهدف من وراء ذلك أن تصفو له دمشق حتى لا يبقى أمامه معارض من الجنود العثمانية ، ليبدأ إعلان تمرده وعصيانه على الدولة(١٠٥) . وقيل أنه فعل ذلك بعد رجوعه من حصار حلب وسحب قواته إلى الشام فدعا العساكر العثمانية الذين أوكل لهم السلطان العثمانى حماية دمشق إلى ضيافته وقتلهم أثناء تناولهم الطعام كما سبق ذكره(١٠٦) .

وبعد ذلك بدأ أعماله ضد العثمانيين بعزل الأمير سنان العثمانى بغتة من ولايته على البقاع وما حولها فى ١٥ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ نوفمبر ١٥٢٠م وولاها للمقدم أحمد بن المقدم ناصر بن الحنش(١٠٧) ، فانطلق الأمير سنان إلى قلعة دمشق وحذر قائدها العثمانى ، فما كان منه إلا أن رفع جسرها الممتد أمام بابها الكبير ، واستطاع الجيش العثمانى قفل منافذ القلعة فى يوم ١٦ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م استعدادًا للدفاع عنها(١٠٨) .

وقد أراد الغزالى فى بداية الأمر أخذ قلعة دمشق من الحامية العثمانية بالحيلة والخديعة ولكنه لم يتمكن من ذلك لعلمهم بشق طاعته على الدولة ، فقام الغزالى

بحصار القلعة فى ليلة ١٧ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م(١٠٩) ، وأحاطها بجيشه ونصب حولها المدافع ، وبدأ بضرب الباب الكبير وأبراجه ، فركز جنود الحامية العثمانية دفاعهم عن هذا الحصن الأمامى ، ولكن قوات الغزالى تمكنت من قطع مياه النهر عن خندق القلعة ، وتمكن جماعة من الفنيين الذين كانوا ضمن حملة الغزالى من رفع الشباك الحديدى الذى يحمى مدخل الخندق المؤدى إلى القلعة ، وعند ذلك اندفع جنود الغزالى منه إلى داخل القلعة والحامية العثمانية مشغولة بالدفاع عن واجهة القلعة الأمامية . فلم يشعروا إلا وجند الغزالى فوق رؤوسهم ، فما كان فى وسعهم غيرالاستسلام(١١٠) ، وكان فيها نحوالمائة والخمسين مع العلماء والفقهاء .

وقام الغزالى بالقبض على أربعة وستين ، منهم نائب القلعة العثمانى والأمير سنان ، وأطلق سراح الباقين ، أما نائب القلعة والأمير سنان فأمر بإرسالهما إلى القدس منفيين ، ثم قام بمصادرة بيوت الجميع إضافة إلى دكاكينهم وما عندهم من أموال . وأظهر فى ذلك اليوم لبس الجراكسة وأبطل لبس العثمانيين(١١١) .

وأرسل الغزالى إلى والى مصر خاير بك برسالة يخبره بما حدث ويبشره بالنصر التام فى القريب العاجل وعودة الحكم المملوكى إلى سابق عهده(١١٢) . وفى رسالة الغزالى هذه إلى خاير بك يقول : " عند حصارها تجمع أهل القلعة داخلها وأقفلوا أبوابها ووضعوا الحجارة من خلفها ونصبوا المدافع وتسلقوا الأسوار للدفاع عنها ، وقد بلغ عددهم حوالى ثلاثمائة مقاتل ، وشرعوا بالرمى على جيشنا المملوكى المحاصر لهم ، فأرسلت لهم وفدًا لمفاوضتهم على الصلح والتسليم سلمًا ، فلم يقبلوا ذلك وأغلظوا فى الكلام للوفد المفاوض .

وفى اليوم التالى تسلق جنودى أسوار القلعة ووقع بيننا قتال شديد تبادلنا فيه النار فلم يحتمل من بها حتى المساء وقد أخذناها بالقوة وتسلمها المملوك فاصبحت فى حوزة مولانا (خاير بك) ومحسوبة إلى دولته.

وغير خاف على ما كان فى صحبة السلطان سليم خان من العساكر عند فتح الشام فإنه لم يستطع فتحها بالقوة لولا اختلاف جيشنا المملوكى . ولكن ستعود جولتنا إلى سابق عهدها ويكفى ما صار لشعبنا من ذل وهوان وما فعله المخدوم (الغزالى) إلا للخدمة فإن مملوكها وولى خدمتها هو أحق بطاعة المملوك بها كما كان (خاير بك) ويسعى المملوك لحماية هذه البلاد ، ولو حضر كثير من الجنود العثمانية فإنى كاف لصدهم وحربهم ، وكل الرعايا من كبير وصغير وأمير وحقير إلى المملوك قدموا أرواحهم تطوعًا أمامه متمنين عودة دولتنا وامتداد حكم مولانا المخدوم خاير بك والمملوك (الغزالى) يتعهد بإعادة الحكم المملوكى بسيف مولانا (خاير بك) بعد مده بالمال والرجال .

وقد بلغنى ضم حماه وحمدًا لله تم استلامها ، والاحتمال الوارد أن يتبع نائب طرابلس المملوك (الغزالى) فيتبعه جميع عساكره مما يسهل أمر حلب ونيابتها، وقد ذكرت الوثيقة قسم الغزالى با لله على أن لا يتخلى عن خدمة خاير بك ولا يرجع عن طاعته .

- وأنه ملك يديه وتحت طاعته ينتظر إشارة منه فإنه مستمر على خدمته كما هو الواجب .

- وإذا لم يرض فإن المملوك (الغزالى) يعتذر عن خطئه(١١٣) .

وبعد ذلك أمر الغزالى بتسيير جيشين كان الأول بقيادة قانصوه المقرقع أحد أنصاره الموالين ، بعد أن ولاه مدينة حماه ، وقد نجح القائد ابن المقرقع فى مهمته فقتل رئيس فرقة الفرسان العثمانية بمدينة حمص ، وعزل قاضيها العثمانى وأرسله إلى دمشق ، ثم ولى المدينة من قبله للمقدم ابن الحرفوش ، وواصل هذا القائد حربه ضد مدينة حماه ، حتى استطاع أن يستولى عليها بالقوة من الحامية العثمانية، وأن كان أميرها قد تمكن من الهرب إلى حلب(١١٤) .

أما الحملة الثانية فكانت بقيادة دواداره الثانى الذى سار إلى طرابلس للاستيلاء عليها فأخذها ، ولكن أميرها استطاع هو الآخر الهرب منها ولجأ إلى حلب(١١٥) .

وبذلك يكون الغزالى قد استطاع القضاء على حامية دمشق العثمانية ، وطرد العثمانيين من بيروت وطرابلس وحماه وغيرها من المدن ، ولكن تمرده لم يحظ بتأييد شعبى واسع على الرغم أنه أعلن انفصال الشام عن السلطنة العثمانية ، ولكن لم يكن المماليك المصريون على مستوى ما علق عليهم من آمال(١١٦) .

ويبدو أن أهم أسباب فشل الغزالى هو عدم تحالف حليفه خاير بك معه ، كما مر بنا .

وعلى أى حال فإنه لم يبق أمام الغزالى فى الشام من الحصون القوية سوى قلعة حلب التى أوصى خاير بك بأخذها . وقبل خروجه من دمشق إلى حلب منع الدعاء للسلطان سليمان الأول فى الخطبة فى سائر جوامع دمشق ، وأمر بالدعاء له أى للغزالى ، وضرب باسمه السكة على الذهب والفضة ، وأعلن نفسه سلطانًا على الشام كلها وتلقب بـ " الملك الأشرف "(١١٧) ، وقد دخل فى طاعته العسكر الشامى ، وأهل دمشق جميعًا وخطب له على منابر مساجدها ، وأمر بأن تزين الشام فزينت زينة لم يعهد لها مثيل قط مدة سبعة أيام(١١٨) .

أما الأمراء فقد قبلوا له الأرض واجتمع حوله عسكر غفير وكثر حوله الملتفون تحت رايته ، ولحق به كثير من مماليك مصر سرًا مناصرة لتمرده ، يريدون عودة الحكم المملوكى ، فاجتمع عليه من الجند حوالى خمسة عشر ألفا من المماليك والتركمان ، وثمانية آلاف من المهرة الرماة فى رمى البنادق(١١٩) .

وتلا ذلك أن بدأ بإعداد حملة قوية لأخذ مدينة حلب - أقوى حصون بلاد الشام - فانضم إلى هذه الحملة أعداد كبيرة من شباب مدينة دمشق ولواءان من نائبه على صفد والقدس ، ومثل ذلك من دواداره الكبير ، فضلاً عن أعداد كثيرة من الجراكسة ومن الأكراد ومن دروز لبنان ، ومن كل الطبقات المختلفة ، وبعد اكتمال الحملة خرج بها الغزالى من دمشق فى ٢٥ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م فى ضجة كبيرة ، ويرافقها عشرون مدفعًا من أعظمها ثلاثة مدافع سحبت من قلعة دمشق على عجل لحصار حلب وانتزاعها(١٢٠) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أرسل له فرسان القديس يوحنا (قراصنة رودس) بعض قطع المدفعية عبر البحر المتوسط لمساعدته ومناصرته فى حربه وتمرده ضد الدولة العثمانية للاستقلال بحكم الشام(١٢١) ، وذلك نظرًا لعدائهم للسلطان العثمانى سليمان الأول لصرفه عن جزيرتهم التى صمم على فتحها مهما كلفة الأمر .

وكان نائب حلب قراجه أحمد باشا أميرًا من صناجق السلطان سليم الأول(١٢٢) ، فلما بلغه موت السلطان سليم الأول وهو بعسكره خارج حلب ، عاد إليها فى ١٧ من شهر ذى القعدة سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م ، ثم صلى صلاة الغائب على السلطان سليم الأول ، وخطبوا باسم السلطان سليمان الأول ، وشرع فى تحصين قلعة حلب ، وأدخل من كان خارج أسوارها ، وسد أبوابها بالحجر والكلس تحسبًا لأى غزو مرتقب(١٢٣) . ، ثم خرج قراجه أحمد باشا نائب حلب العثمانى فى حملة تأديبية على القرى التى ثارت مع الغزالى وقتلت القضاة والموظفين العثمانيين ، فاستولى على ما بها من مال وماشية ، وقتل كل من تصدى لحربه ، لكنه قبل أن يعود إلى حلب تعرض لهجمات من جانب طلائع جيش الغزالى الذى كان يريد حلب قبل دخوله لها ، فأستولت قوات الغزالى على ما كان قد أخذه من مال وماشية من تلك القرى ، إلا أن قراجه أحمد باشا استطاع أن يدخل قلعة حلب وأن يتحصن بها استعدادًا لمحاربة الغزالى(١٢٤) .

ولما تأكد قراجه أحمد باشا أن هدف حملة الغزالى هو حلب ، كتب خطابًا فى الحال إلى السلطان سليمان الأول ، بأنه لا قدرة له على حرب الغزالى ، وأرسله مع عشرة جنود إلى السلطان يستعجله إرسال عدد من العساكر العثمانية لصد حملة الغزالى وإلا أخذت حلب من يديه ، " وقد ضرب الغزالى الحصار عليها، وها أنا محاصر إلى أن يفعل الله ما يشاء "(١٢٥) .

وهكذا ثبت للسلطان عصيان واليه على الشام جان بردى الغزالى وخروجه عن طاعة الدولة(١٢٦) .

لذلك كلف السلطان سليمان الأول اياس آغا بإعداد حملة كبيرة لتأديب جان بردى الغزالى ، وإعادة الشام إلى الطاعة العثمانية كما كانت من قبل فخرج الجيش العثمانى من العاصمة أسطنبول إلى حلب فى ١٣ من شهر ربيع الأول سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م يريد جان بردى الغزالى ، وكانت هذه الحملة تتكون من خمسة آلاف من الانكشارية وعشرة آلاف من الفرسان ، ومعها المدافع والآلات الحربية(١٢٧) .

ثم أمر السلطان سليمان وزيره الثالث فرحات باشا مرافقة الحملة للإشراف عليها ومعه فرقة من طائفة الانكشارية لقتال الغزالى مع قائد الحملة اياس آغا ليتمكنا من قمع ثورته وإخماد فتنته التى آثارها فى بلاد الشام(١٢٨) .

وفى تلك الأثناء أرسل السلطان سليمان الأول إلى خاير بك الذى كان ينتظر أوامره لحرب الغزالى ، بأنه عين حملة عظيمة لتأديب والى الشام الغزالى ، " ولا داعى لإرسال حملة من قبلكم فنحن نكفيكم أمره "(١٢٩) .

أما الغزالى فإنه لما وصل إلى حلب وجد أبوابها أوصدت فى وجهه ، وقد طلع الجند على أسوارها يرقبون وصوله ، فلما اقتربت منهم جموعه رموا عليه بالمدافع والأحجار ، وحاصر الغزالى حلب دون فائدة(١٣٠) . وقطع قناة الماء التى تدخل إلى حلب ، فانقطع الماء عن أهلها(١٣١) ، وهكذا مكث الغزالى ثلاثة أشهر وهو محاصر لها دون أن يستطيع أخذها لوقوف أهلها واستبسالهم دونها ، ، حتى دخل عليه الشتاء واشتد البرد واستنفد قدرًا عظيمًا من ذخيرته ومؤنته فانسحب عنها ، وكان فى نيته أن يعود إليها بعد ترتيب قواته ولا يعود إلا بعد أخذها عنوة مهما كلفه الأمر(١٣٢) .

وبعد أن رفع الغزالى الحصار عن حلب توجه إلى حاكم غزة لأخذها منه بعد أن أعلن عليه العصيان لولاءه للدولة العثمانية . وقد مر بمدينة صيدا وهو فى طريقة إلى غزة ، وهناك رآه محمد ابن حنش أحد أنصار الدولة(١٣٣) . فأرسل خطابًا بما رأى إلى قاضى العسكر العثمانى بأسطنبول يقول توجه ملك الأمراء جان بردى الغزالى ومن صحبته من العساكر إلى بلاد صيدا ولا يعلم المملوك (محمد بن الحنش) سبب لذلك والذى أرفعه لكم أن الغزالى ما كان يقيم فى بلاده منذ مدة إلا بالمراسيم والتشريفات(١٣٤) . ويعنى ذلك رفض الطاعة العثمانية وإعلان سلطنته على الشام .

وهكذا انسحب الغزالى وعاد قافلا إلى دمشق فتفرقت الجموع التى كانت مرافقة له ولحملته إلى بلادهم دون أن يحصل على مكاسب تذكر بعد أن قاسوا من البرد والمطر ما لا يوصف(١٣٥) ، ففرح أهل حلب بانسحابه فرحًا عظيمًا لما كانوا فيه من الشدة والغلاء من جراء حصاره لهم ، كما ردوا قناة الماء المقطوعة التى سبق أن قطعها جنوده إلى حلب ، وخرج الناس لأعمالهم(١٣٦) .

وحين وصوله إلى دمشق ، علم الغزالى بأن نائب حلب قد كتب إلى السلطان سليمان الأول يخبره بما فعل بحلب ، فضاق صدره وخاصة لما علم بقدوم الجيش العثمانى مع إياس آغا(١٣٧) ، وأنه لم ينتظر انقضاء فصل الشتاء ودخول فصل الصيف كما كان يخطط الغزالى نفسه للعودة إلى أخذ حلب .

وقد نقل للغزالى هذا الخبر رجل من أنصاره من أهل حلب ، وسفه رأيه وأحلامه وما قدم عليه من فعل ، ثم نصحه قائلاً : " إذا أمكنك الهرب فاهرب " فندم الغزالى ، واحتار كيف يصنع أمام هذا الأمر ؟ واضطربت أحواله على ما فعل! وكتم ذلك فى سره ، وبقى فى حيرة من أمره ماذا يفعل ؟ وكيف يتصرف لمعالجة هذا الموقف ؟ هل يهرب كما نصح ؟ إن القرار صعبًا ! كيف يستطيع ترك بلاد الشام ؟ وإن بقى فإنه لا قدرة له على حرب السلطان العثمانى ، لتفرق جيوشه التى جمعها من قبل لحرب العثمانيين ، وقد رحلت إلى بلادها(١٣٨) .

وهكذا ظل الغزالى فى دوامة من التفكير والهم والغم حتى انتهى فصل الشتاء ووردته الأخبار بأن إياس آغا قادم إلى الشام فى عسكر كثير يفوق الوصف(١٣٩) ، عند ذلك أمر عسكره بالخروج لملاقاة جيش الدولة العثمانية فى عملية انتحارية غالبًا أو مغلوبًا(١٤٠) . وشرع فى تحصين قلعة دمشق بسد جدار وفك أخرى ، وحرق بعض الأسواق ، ثم قام فى جيشه خطيبًا ، وخطب خطبة حماسية يشحذ بها همم جنوده للاستبسال فى صد القوة العثمانية حيث قال : " لا تقاتلوا العثمانيين لأجلى بل قاتلوهم خوفًا على حريمكم " ثم أحضرهم لدى قاضى دمشق بالجامع الأموى وحلفهم على القيام معه على حرب الدولة العثمانية.

وتلا ذلك أنه فى يوم الجمعة ٢٢ من شهر ذى الحجة خطب لجان بردى الغزالى بالجامع الأموى وفى حضرته بأنه سلطان الحرمين الشريفين ، ولقب بالأشرف ، وخرج من الجامع فى موكب حافل(١٤١) .

أما الحملة العثمانية فقد سارت إلى دمشق يرافقها الوزير فرحات باشا وإياس باشا وقراجه أحمد باشا بمن معهم من الجيوش ، وكان معهم ثمانية عشر من المدافع الكبار(١٤٢) . والتف حولهما عساكر كثيرة لا تحصى . وما أن وصل الركب ظاهرة دمشق حتى أرسل إياس آغا رسولاً من قبله بكتاب إلى الغزالى(١٤٣) ليستعد للحرب والقتال والطعن والنزال ، وينتظر ما يفعله الأبطال جيش السلطان سليمان الأول ، وأخذ يوبخه ويحط من شأنه ، ومن جملة ما قاله : " أنه لو كان فيك خير كان لأبناء جنسك فالذى ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير لغير جنسه ، يا خائن ... يا غدار ... " ، وأخذ يؤنبه على ما فعله من عصيان ضد الدولة العثمانية ويقول : " إنما هذه نيتك الخبيثة انقلبت عليك فسوف ترى صنع الله فيك غدًا أن شاء الله تعالى " .

وحين وصل خطاب إياس باشا إلى الغزالى قام بفضه ، وقرأه فازداد همًا على هم ، وضاق صدره ، ولم يستطع النوم فى تلك الليلة ، وأحس بزوال حكمه ونعمته التى كان يرفل بها ، ولم تبق له حيلة يحتال بها أو عذر يعتذر به ولكنه لم يظهر ذلك الشعور بالخوف لأحد من أصحابه ، بل كتم ذلك السر بين أضلاعه(١٤٤) .

وفى يوم ٢٦ من شهر صفر سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م ، خرج جان بردى الغزالى لملاقاة الجيش العثمانى ، فما طلع إلا وقد اصطفت عساكره ، ودقت طبوله للحرب ، ووقف بنفسه يرتب جنوده بالميمنة والميسرة(١٤٥) ، ومن ناحية أخرى أقبلت عساكر الدولة العثمانية واصطفت هى الأخرى للحرب تحت قيادة إياس آغا(١٤٦) ، وفى وقت الظهر من يوم الثلاثاء ٢٧ من شهر صفر سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م تلاقى الجيشان وتلاحق العسكر العثمانى والشامى فكانت المعركة الحاسمة بأرض النمور شرقى قرية برزة من ضواحى دمشق(١٤٧) ، وقيل فى القابون التى تقع على بعد ميل واحد من الطريق المؤدى إلى العراق من دمشق(١٤٨) ، حيث التحم القتال بين الجيشين .

ولكن الغزالى حمل على العسكر العثمانى حملة قوية شتتهم ومزقتهم شر ممزق ، فكان يقاتل قتال المستميت الذى يئس من الحياة ، فقتل من العسكر العثمانى عدد كثير .

ولكن لم تلبث أن تغيرت موازين المعركة وانقلبت إلى صالح إياس آغا(١٤٩)، ودب الخلل فى جيش الغزالى ، واختل منه النظام ، وحميت المعركة وتلاعبت السيوف بالأعناق(١٥٠) ، وأظلم الجو من البارود ما بين السماء والأرض من أفواه المدافع حتى حجبت الرؤيا على جند الغزالى(١٥١) ، فانكسر الغزالى وهرب إلى حماه ولكن الجيش العثمانى لحق به واقتتلوا معه فانسحب ودخل دمشق .

وكانت بين الفريقين معركة قوية دارت رحاها خارج مدينة دمشق ، قتل فيها نحو عشرة آلاف جندى ، وقيل أكثر من ذلك . وانكسر الغزالى على أثر هذه الموقعة واستطاع إياس آغا قمع ثورته(١٥٢) ، وتمكن الجند العثمانى من القبض عليه ، فقتل وحزت رأسه ، وأرسلت إلى السلطان العثمانى فى أسطنبول مع رؤوس عدد من جماعته وأعوانه(١٥٣) .

وقد انفرد ابن زنبل فى رواية عن كيفية مقتل جان بردى الغزالى ، وهو المعاصر لهذه الأحداث وكان بمنزلة المستشار للسلطان الغورى ومن بعده للمماليك يأنسون لرأيه ويصدقون ما يقوله ، حيث قال : " فما كان إلا ساعة واحدة ، وقد ذهبت تلك العساكر والجموع وما سلم منهم غير طويل العمر ، وبقى الغزالى واقفًا لا يعرف كيف يصنع ولا أين يذهب ؟ فالتفت فوجد صنجقه(١٥٤) ، واقفا ليس عنده أحد ... " فلما رآه واقفًا والعلم فى يده قال له : " يا ولدى إلى متى وأنت تقف وعسكرنا كلهم هلكوا وتشتتوا ؟ قال : وإلى أين أذهب ؟ ... لا أفارقك حتى تذهب روحى . فشكره الغزالى على ذلك ، وقال له : يا ولدى ما بقى لنا غير الفرار من هذا العسكر . فقال له : وا لله يا سيدى ما عملت فينا خيرًا، وما ضرك لو كنت باقيًا على ما أنت عليه آمنًا على نفسك ، وإن كنت سلطان مخيفًا سعيت فى هلاك نفسك وأهلكتنا فى جرتك ، قال : ما كنت أظن أن الأمر كذلك ، وأن العساكر تفر منى وينقلب الأمر . فقال له على بالى : أن العارفين قالوا من لم يحسب العواقب ما الدهر له بصاحب " .

فقال له الغزالى : ما دام غبار المعركة قائمًا فأقلع العلم من فوق رمحه وضعه فى مخلاته وادفن المخلاة فى الأرض ، وارم رمح العلم ، فننزل من فوق ظهور خيلنا ونخلع كامل ملابسنا الحربية ، ونتنكر حتى ننجوا بأنفسنا من إياس آغا وعسكره ، فإذا رأونا على هذا الحال لا يمكن أحد أن يعرفنا(١٥٥) . ونفذ الغزالى فكرته فى الحال حيث نزل عن فرسه للتنكر استعدادًا للهرب ، فخلع لبسه ودفنه فى التراب ولم يبق فوق جسمه غير القميص الداخلى ، ورأسه مكشوف ، وزيادة فى التنكر لاط وجهه بالتراب ، حتى يستطيع بهذه الحيلة أن يفلت من يد إياس آغا وعسكره(١٥٦) .

ولما رأى على بالى الغزالى بهذه الصفة انتقده وقال له : " وا لله يا سيدى ليس عندك من الأمر شئ ، فإننا لو كنا على ظهور خيلنا ... وهربنا ... حمينا أنفسنا ... من محل الحرب ثم ننزل على بعد ونختفى فى مكان لا يعرفنا به أحد ،

وأما نزولنا في محل المعركة فلا فائدة فيه " فركب علي بالي فرسه وهم بالهرب ، فقال الغزالي : " هكذا يا علي تذهب وتتركني للعدو ؟ " وفي خلال هذا الحوار بينهما انجلى غبار المعركة ، وشاهد الناس بعضهم بعضًا ، وإذا بمنادي القائد العثماني إياس آغا ينادي ويقول : " كل من جاءنا بالغزالي أو برأسه أو دلنا عليه أو على مكانه أعطيناه جميع ما يتمناه "(١٥٧) .

عندئذ لوى علي بالي عنان فرسه نحو الميدان ، وعند وصوله وجد طائفة من الجند العثماني ، فقال أنا أدلكم على مكانه ، فالتفوا حوله وقالوا أين هو ؟ قال : هو قريب من هنا ، ولكن لا أدلكم عليه حتى تعاهدوني على إعطائي ما أريد ؟ فأجابوه على ما يريد ؟ فقال : أريد أن أكون أمير صنجق ، وأنا حامل صنجقة ، وأنني من أبناء الشام ، ونحن للسلطان سليمان طائعون ، فقالوا : لك ما ترد ، فقادهم إلى الغزالي ، وهو ما زال واقفًا في مكانه يدور ويقول : " هو هو " فأشار علي بالي إليه وقال هذا هو الغزالي ، كان يقصد الغزالي بهذه الكلمات " هو هو " أن يحتال بها عليهم حتى لا يعرفونه حين رآهم يتجهون إليه(١٥٨) .

وقد اتهم الجند علي بالي بالسخرية عليهم فأخذ من جانبه يؤكد بأنه الغزالي ، ولكنهم أنكروا عليه ذلك بقولهم بأن الغزالي كان يحاربنا بعدته الحربية ، فأخبرهم بما فعل من حيلة ، فطوقه الجنود وأمسكوا به وهو يهذي كالمجنون ويقول : " هو .. هو .. هو .. " فبادروه بالسؤال هل أنت الغزالي ؟ فقال لهم أنا رجل درويش عريان ومن أين لي أن أكون كالغزالي ، فكاد أن يطلقه الجنود ، فقد تحيروا ، وعلي بالي يحلف ويؤكد ويقول لا تصدقوه ، أنه هو الغزالي ، تعالوا أدلكم على لباسه المدفون وسلاحه وفرسه التي لا تزال في الميدان ،وذهب بهم إلى المكان فوجدوا الدليل على صحة ما يقول علي بالي عندما رأوا ثيابه وفرسه وسلاحه في ذلك المكان ، لكن الغزالي كان مصرًا على إنكار ذاته .

ولما تحير الجند العثماني في أمره حسم علي بالي الموقف وقال لهم : " أنا ..ع رأسه وأذهب به إلى إياس آغا فإنه يعرفه ، فإذا لم يكن هو فرأسي عوضًا عن

رأسه " ، وعندما وصلوا جميعًا إلى إياس آغا وأخبروه بالأمر طلب منهم إحضار الرأس حتى يراه بنفسه ، فأتوا به ووضعوه أمامه ، فتأمله ثم صرخ بالقول بأن هذا هو رأس الغزالى ، ولا مجال للشك به ، فحسم الأمر وطلب منهم الرجل الذى دلهم عليه ، فحضر على بالى إليه ، فخلع عليه خلعة ثمينة وعينه أمير صنجق كما طلب(١٥٩) .

وقد ذكر محمد فريد بك هذه القصة فى إيجاز حيث قال : " وقتل أغلب من كان معه وفر متنكرًا (الغزالى) لكن خانه بعض إتباعه (على بالى) وسلمه إلى الوزير فرحات باشا فقتله ، وأرسل رأسه إلى أسطنبول "(١٦٠) .

وهناك قول آخر وهو أنه عندما انكسر الغزالى فى المعركة التى سبق ذكرها هرب إلى حماه وتبعه الجيش العثمانى ، ففر من حماه حتى دخل دمشق واعتصم بها، فدارت معركة بين الجيش العثمانى والجيش الشامى خارج مدينة دمشق على القابون ، فقتل فى هذه المعركة نحو عشرة آلاف جندى ، وقيل أكثر ، ففى نهاية المعركة انكسر الغزالى بجيشه الشامى على يد الجيش العثمانى ، واستطاع إياس آغا إفساد ثورته(١٦١) ، وقد تمكن الجيش العثمانى من القبض عليه أثناء المعركة ، فقتلوه وحزت رأسه وأرسلت إلى السلطان بأسطنبول مع رؤوس كثير من أنصاره وأعوانه(١٦٢) ، كهدية للسلطان سليمان وقد وصل إليه فى السادس من شهر فبراير سنة ١٥٢٠م ، فى حالة تعفن شديد ورائحة كريهة(١٦٣) .

وفى رواية أخرى قيل قتل الغزالى بيد القوات العثمانية التى تعقبته أثناء فراره للالتجاء إلى عشيرة عنزة المشهورة لدى العرب قبل أن يصل إليها(١٦٤) .

وقيل أن الغزالى الطاغى الباغى قطع رأسه من قبل الوزير فرحات باشا وجنوده ، الذى أمره السلطان بأن يرافق الحملة للإشراف عليها ، وأرسل بها إلى السلطان سليمان فى أسطنبول بعد أن قطع جسده تحت سيوف الانكشارية فى ساحة المعركة فى ٧ / ٢ / ٩٢٧هـ الموافق ١٢ / ١٢ / ١٥٢٠م ، فكفى الله السلطان العثمانى أمره ، ودرأ عن المسلمين شر فتنته(١٦٥) .

يقول محمد كرد علي : لما دارت الدائرة على جان بردى الغزالى وانكسر هو وجيشه أمام الجيش العثماني ، تشتت جيشه من حوله ، فقتله خازن أمواله ، وجاء برأسه إلى القائد العثمانى ، فذهب هو ودولته الموهومة فلم ينل الشام و لم ينل الشام منه إلا الضغط والشدة بعد تمرده ، الذى أضر به الشام ومزق كلمته(١٦٦) .

وعندما أرسل إياس برأسه إلى السلطان سر لذلك ، وأرسل إلى إياس آغا يشكره على ما فعل ، وأمره بأن يتولى حكم الشام ، وعدم إيذاء رعايا بلاد الشام ، وأقامة الحدود وتطبيق الشريعة على الوجه الشرعى وإقامة العدل فى أحكامه مع أهل الشام(١٦٧) .

وهكذا انتهت حركة الغزالى فى الشام بالفشل ، وعاد الشام مرة ثانية إلى الحكم العثمانى ، بعد أن استوعبت الدولة العثمانية الدرس ، فغيرت نظام الشام من ولاية واحدة إلى أربع ولايات ، يقوم بحكم كل ولاية منها واليًا مستقل عن الآخر وهى (حلب ، ودمشق ، وصيدا ، وطرابلس)(١٦٨) على أن ترتبط هذه الولايات ارتباطًا كليًا بالسلطان العثمانى فى أسطنبول فى كل قضاياها وأمورها الداخلية والخارجية(١٦٩) .

* * *

وهكذا استطاعت الدولة العثمانية أن تنهى ثورة الغزالى وتسكنها وتستعيد حكم الشام الذى كاد أن يفلت من قبضتها ، وأن يعكس أحلام الشاه الذى كان يرقب ثورة الغزالى فى مدينة قيسرى إذ لو نجح الغزالى فى مهمته لانقض إسماعيل الصفوى بجنوده إلى جانبه ضد عدوهم المشترك (الدولة العثمانية) للأخذ بثأره فى موقعة جالديران ، ولكن فشل الغزالى اضطر الصفوى إلى تهنئة السلطان سليمان الأول بنجاحه فى معركة الشام والقضاء على خصمه(١٧٠) .

وبذلك فشل التحالف الصفوى المملوكى لقوة الدولة العثمانية(١٧١) .

وكان مدة ولاية جان بردى الغزالى على الشام ثلاث سنين وسبعة أشهر زال حكمه وكأنه لم يكن(١٧٢) .

هوامش

(١) عبد الجواد صابر إسماعيل : ولاية خاير بك على مصر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة الحسين الإسلامية ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ، ص ٥ ، ٦ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار التراث ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص٨٧ .

(٣) محمد بن أحمد ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص١٩٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ .

، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٦ - ٧ .

(٤) قطب الدين النهروالى : الإعلام باعلام بيت الله الحرام ، طبع مدينة غتنقه ، بمطبعة المدرسة المحروسة ، ١٢٧٥هـ ، ص ٢٧٦ .

، جار الله بن فهد المكي : الجواهر الحسان فى مناقب السلطان سليمان بن عثمان ، مخطوط ورقة ٤٥ .

، أحمد زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية ، القاهرة ، الناشر : مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م ، ج٢ ، ص١٤٠ .

، رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، الناشر : عين الدراسات الإنسانية والاجتماعية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ٢٣ .

(٥) محمد ابن أبى السرور : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، مخطوط ، محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ١٦٢٣ ، وتوجد منه نسخة بمركز البحث العلمى ، ورقة ١٠ .

، قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص٢٧٦ - ٢٧٧ .

، أحمد زينى دحلان : المصدر السابق نفسه .

(٦) البيره : قلعة حصينة بين حلب والثغور العثمانية ، انظر : ابن زنبل أحمد الرمال : آخرة المماليك واقعة السلطان الغورى مع السلطان سليم العثمانى ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص١٩.

(٧) ابن زنبل : المصدر السابق .

(٨) محمد عبد اللطيف البحراوى : المرجع السابق ، ص٨٦ .

(٩) جار الله بن فهد المكي : المصدر السابق نفسه .

(١٠) جار الله بن فهد المكي : المصدر السابق ، ورقة ٤٨ .

، محمد بن أبي السرور : المصدر السابق نفسه .

، قطب الدين النهروالي : المصدر السابق ، ص٢٧٧ .

، إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، الطبعة الأولى ، مطبعة عموم الأوقاف ، ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م ، ص ٨٢ .

، عمر بن عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص٧٤ .

(١١) حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، القاهرة ، مطبعة الواعظ مصر ، ١٢٣٥هـ / ١٩١٧م ، ج٢ ، ص٥١ .

(١٢) جار الله بن فهد المكي : المصدر السابق نفسه .

، محمد بن أبي السرور : المصدر السابق نفسه .

، إبراهيم بك حليم : المصدر السابق نفسه .

، عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق نفسه .

(١٣) ابن زنبل : المصدر السابق، ص٢٢

، عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ، ص٢٢ .

(١٤) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

، عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ، ص٧٤ - ٧٥ .

(١٥) عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ، ٧٤ - ٧٥ .

، ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٢٢ ، ٢٣ .

، حسن لبيب : المصدر السابق نفسه .

(١٦) جار الله بن فهد : المصدر السابق نفسه .

، محمد بن أبي السرور البكري : المصدر السابق نفسه .

، قطب الدين النهروالي : المصدر السابق نفسه .

، إبراهيم حليم بك : المصدر السابق نفسه .

(١٧) الجلبان : الجنود المجلوبة بالشراء للحرب كلهم من مشتريات السلطان الغوري بماله الخاص مدربين على كافة أنواع الحرب والفروسية . انظر : ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٢٦ .

(١٨) القرانيص : هم جند المماليك قديمو الهجرة بالديوان أصحاب الأرزاق الكبيرة (الرواتب) وهم فى منزلة أمراء الخمسوات . انظر : ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(١٩) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٦ .

(٢٠) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

، أحمد زينى دحلان : المصدر السابق ، ص ١٥١ .

، عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ ، ص٨٩ .

Stanford Show, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge, London, 1976, p. 84.

(٢١) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ص١٥١ .

Stanford Show, Ibid.

، عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق نفسه .

(22) Stanford Show, Ibid.

(٢٣) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق نفسه .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : The Encyclopaedia of Islam.

New Edition, Vol,II . E. J. Brill, Leiden, 1965, p. 1042.

(٢٤) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥ .

(٢٥) محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

، ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٢٨ ، ٢٩ .

، جار الله بن فهد : المصدر السابق ، ورقة ٤٨ .

، قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص٢٨٧ .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : op. cit, p. 1042.

، السيد عبد المؤمن السيد أكرم : أضواء على تاريخ توران ، مكة ، مطبعة رابطة العالم الإسلامى ، ص١٧٤ .

، فيليب حتى وآخرون : تاريخ العرب ، الطبعة السابعة ، بيروت ، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٦م ، ص ٧٩٧ .

(٢٦) عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ، ص٧٦ .

(٢٧) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢٨) محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

، جار الله بن فهد : المصدر السابق نفسه .

، فيليب حتى وآخرون : المصدر السابق نفسه .

، السيد عبد المؤمن السيد أكرم : المرجع السابق نفسه .

(٢٩) عمر بن عبد العزيز عمر : المرجع السابق نفسه .

(٣٠) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٣١) محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق .

، جار الله بن فهد : المصدر السابق نفسه .

، قطب الدين النهروالى : المصدر السابق نفسه .

، فيليب حتى وآخرون : المرجع السابق .

Stanford Show, op. cit., p. 84.

، السيد عبد المؤمن السيد أكرم : المرجع السابق نفسه .

(٣٢) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

V . J. Parry : A Hisory of the Ottoman Empire to 1730, Cambridge,London, New York, p. 75.

، أحمد زينى دحلان : المصدر السابق ، ص١٤١ .

، محمد كمال الدسوقى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٦ ، ص ٥١ .

(٣٣) أحمد زينى دحلان : المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٣٤) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣٥) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٤٠ .

(٣٦) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

V . J . Parry : op. cit, p. 75.

، أحمد زينى دحلان : المصدر السابق ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

، محمد كمال الدسوقى : المرجع السابق نفسه .

(٣٧) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٣٦ ، ٤٢ .

، ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٤٣ - ٤٥ .

، عبد الجواد صابر إسماعيل : المصدر السابق ، ص ٦ - ٧ .

(٣٨) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٣٦ .

(٣٩) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإدارى فى العهد العثمانى ، حوليات كلية الآداب ، المجلد الأول مايو سنة ١٩٥١م ، القاهرة ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥١م ، ص١٦٥ .

(٤٠) إبراهيم خليل أحمد : تاريخ الوطن العربى فى العهد العثمانى ، ١٥١٦ - ١٩١٦ م ، الموصل مدير مطبعة الجامعة ، ص٣٥ - ٣٦ .

(٤١) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ٢٨٠ - ٢٨١ .

V . J . Parry : op. cit. p. 75 - 76 .

، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، الطبعة السادسة ، بيروت دار العلم للملايين ، ١٩٧٤م ، ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

، عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

، محمد أسعد طلس : تاريخ العرب ، بيروت ، دار الأندلس ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٤٢) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق نفسه .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ورقة ١٢ .

(٤٣) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٥م ، ص١١٣ .

(٤٤) عبد الجواد صابر إسماعيل : مصر تحت الحكم العثمانى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة الحسين الإسلامية ، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م ، ص٢٨ .

(٤٥) قطب الدين النهروالى : المصدر نفسه .

، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق نفسه .

(٤٦) بسام العسيلى : فن الحرب الإسلامى فى العهد العثمانى ، بيروت ، الناشر : دارالفكر ، ج٥ ص ١١٧ .

(٤٧) نيقولاى ايفانوف : الفتح العثمانى للأقطار العربية١٥١٦ - ١٥٧٤م ، نقله إلى العربية، يوسف عطا الله ، الطبعة الأول ، بيروت ، الناشر ، دار الفارابى ، ١٩٨٨ ، ص٧٧ .

(٤٨) محمد قطب الدين النهروالى : المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .

، محمد بن أحمد ابن إياس ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٤٩) عبد الجواد صابر إسماعيل : ولاية خاير بك على مصر ، ص ٧١ .

(50) Ismail Hami Daui Danismend : Izahli Osmanli Tarihi Kronolo Jisi, Turkiye Yeylnevi, Istanbul, p. 66.

، ابن إياس : المصدر السابق ، ص٢٠٨ .

(٥١) ابن زنبل أحمد الرمال : آخرة المماليك ، واقعة السلطان الغورى مع السلطان سليم العثماني ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، ص١٥٤ .

، كامل باشا : تاريخ سياسى دولت عليه عثمانية ، مطبعة أحمد أحان ، ١٣٢٧ هـ ، ج١، ص١٦٣ .

، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٥٩م ، ج٢ ص ٣٠٧ .

، أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، بيروت دار النهضة العربية ١٩٧٠م ، ج١٢ ، ص١١٠ ، عمر سليم إسكندر : تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر ، راجعه الكبتن أ . ج . سفدج ، القاهرة ، الناشر : مكتبة مدبولى ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص١١.

، إبراهيم شحاته حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الإسكندرية ، الناشر : منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨١م ، ص٩٧ .

(52) Antony Bridge : Suleman the Magnificent, Scourge of Heaven, Granada, London, p. 40.

، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧١ .

(٥٣) بلاد المعرى : هى معرة النعمان وما حولها . وانظر : محمد بن طولون الصالحى الدمشقي: إعلام الورى بمن ولى نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٢٤٤ .

(٥٤) شمس الدين محمد ابن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، حققه : محمد مصطفى ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٣٨١هـ ١٩٦٢م ، ج٢ ، ص٨٢ ، ابن طولون : إعلام الورى ، ص٢٤٤ .

(٥٥) الفتح العثمانى للإقطار العربية ... ، ص٧٧ .

(٥٦) عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧ .

(٥٧) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٤ .

(٥٨) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج٢ ، ص٨٣ . ، ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٤ .

(٥٩) أحمد فؤاد متـولى : الفتـح العثمـانى للشـام ومقدماتـه ، القـاهرة ، دار النهضـة العربيـة ، ١٩٧٦ م ، ص٢٤٢ .

(٦٠) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٨٢ ، نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق ، ص ٧٧ - ٧٨ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج٢ ، ص٣١١ .

(٦١) أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق نفسه .

(٦٢) نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٦٣) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج٢ ، ص١٠١ ، ١٠٢ ، عبـد الجـواد صـابر إسمـاعيل : المرجع السابق ، ص٧٣ ، ٧٤ .

(٦٤) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج٢ ، ص١٠٢ .

(٦٥) عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧٤ .

(٦٦) محمـد كـرد علـى : خطـط الشـام ، الطبعـة الثالثـة ، الناشـر ، مكتبـة النـورى ، دمشـق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص٢٢١ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنـان وفلسـطين ، ج٢ ، ص٣١١ ، عبد الوهاب بكر : الدولـة العثمانيـة ومصـر ، الطبعـة الأولى ، القـاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣م ، ص١١ Antony Bridge : op. cit, p. 40.

(٦٧) أحمد متولى فؤاد : المصدر السابق ، ص١٤٥ ، كامل باشا : المصدر السـابق نفسـه .

(٦٨) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٦٩) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ص١٢٣ .

(٧٠) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٦٧ .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schach : op. cit., p. 1042.

(٧١) إسمـاعيل سـرهنك : حقـائق الأخبـار عـن دول البحـار ، الطبعـة الأولى ، مصـر ، طبـع بالمطبعة الأ ـ ية ببولاق ، ١٣١٢هـ ، ج١ ، ٥٢٣ .

، أحمد رشيد : خريطة لى ورسلى مكمل تاريخ عثمانى ، استانبول ، كتاب خانة تفيض ١٣٢٧هـ ، ج١ ، ص٢٣٧ ، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 66.

، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧٤ ، بسام العسيلى : المرجع السابق ، ص١٢١ .

(٧٢) أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق نفسه .

(٧٣) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٨٢ ، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٧٤، ٧٥ .

(٧٤) إسماعيل سرهنك : المصدر السابق نفسه .

(75) Ismail Hami Daui Danismend : op. Cit., p. 66.

(٧٦) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٤ .

(٧٧) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(٧٨) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

Philip K. Hitti : Syria, A Sort History, London, Macmillan, Co , Ltd. 1959, p. 215.

، عبد الجواد صابر إسماعيل ، المرجع السابق نفسه ، بسام العسيلى : المرجع السابق ، ص١٢١ .

، محمود شاكر : التاريخ الإسلامى العهد العثمانى ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الإسلامى ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ج٨ ، ص١٠٤ .

(٧٩) إسماعيل سرهنك : المصدر السابق نفسه .

(٨٠) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة عنان محمود سلمان ، تركيا ، استانبول ، منشورات مؤسسة الفيصل للتمويل ، ١٩٨٨م ، ج١ ، ص٢٦١ .

، محمد حرب : العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، الطبعة الأولى ، دمشق دار القلم ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ، ص ٩٠ .

(٨١) عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص٧٥ .

(٨٢) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(٨٣) ابن طولون : أعلام الورى ... ، ص٢٥١ .

(٨٤) الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته ، ص ٢٤٣ .

(٨٥) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(٨٦) لا يعرف كيف وصل هذا الجاسوس إلى كاشان بعد أن وقع فى الأسر أثناء تجسسه فى مصر فربما سهل له الهرب من قبل والى مصر خاير بك أو أحد رجاله ، وربما استطاع الهرب بنفسه دون مساعدة من أحد ، وهو جاسوس على جانب كبير من الأهمية .

انظر : أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

(٨٧) الشاه إسماعيل الصفوى .

(٨٨) وثيقة رقم ٥٤٩ ، محفوظة بأرشيف طوبقبوسراى ، بأسطنبول .

، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٨٩) محمد حرب : المرجع السابق ، ص٩٠ ، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

(٩٠) وثيقة رقم (٦٣٦٢) محفوظة بأرشيف طوبقبوسراى باسطنبول .

(٩١) عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(92) Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 66.

، ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٤ ، ١٥٥ .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : op. cit., p. 1042.

، إسماعيل سرهنك : المصدر السابق نفسه ، بسام العسيلى : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

، اندرى كلو : سليمان القانون مثل التمازج بين الهوية والحداثة ، تعريب البشير سلامة بيروت ، دار الجيل ، ص ٧٢ .

، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النفايس ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٩٩، يلماز: المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٩٣) أمراء العشرات : هى امرة عشرة وفى الممالك الشامية تكون تولية العشرات عن النواب أكثر ، وإذا كتبت مراسيمهم عن الأبواب السلطانية ففى قطع الثلث . هكذا وردت . انظر : أبو العباس أحمد بن على القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، المطبعة الأميرية ، وزارة الثقافة والارشاد ، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م ، ج١٢ ، ص١٩٧ - ٢٨١ .

، محمد قنديل البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣م ، ص٢٤٥ .

(٩٤) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٦٧ – ٣٦٨ ، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص١٩٩ ، بسام العسيلى : المرجع السابق نفسه .

(٩٥) محمد حرب : المرجع السابق ، ص١٤٦

(٩٦) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٦٨ .

، عبد الجواد صابر إسماعيل ، المرجع السابق ، ص٧٦

(٩٧) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٩٨) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٧٣ ، ٣٧٥ .

، عبد الجواد صابر إسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٧٥، أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص٢٤٣ .

(٩٩) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٥ .

(١٠٠) وثيقة رقم ٥٤٦٩ محفوظة بأرشيف طوبقبو سراى بأسطنبول .

، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص٢٣٧ كامل باشا : المصدر السابق ، ص١٦٤ .

(١٠١) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٧ – ١٥٨ .

(١٠٢) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٨ .

(103) Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 66.

(١٠٤) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص ٢٤٧

، ابن طولون : مفاكهة الخلان ... ، ص١٢٣ .

(١٠٥) ابن طولون : مفاكهة الخلان ... ، ص١٢٣، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(١٠٦) ابن طولون : مفاكهة الخلان ... ، ص ١٢٣ .

، ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٧ .

(107) Antony Bridge : op, cit, p. 40.

، عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص١١١ .

(١٠٨) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٧ Antony Bridge : Ibid.

، أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

(١٠٩) أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .

(١١٠) وثيقة رقم ٦٣٦٢ ، محفوظة بأرشيف طوبقبو سراى بأسطنبول .

(١١١) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٧ Antony Bridge : Ibid.

، أحمد فؤاد متولى : المصدر السابق ، ص٢٤٦ .

(١١٢) ابن طولون : إعلام الورى ... ص٢٤٨ Antony Bridge : Ibid.

(113) Ismal Hami Daui Danismend : op. cit., p. 66.

، نيقولاى أيفانوف : المرجع السابق ، ص٧٨ .

(١١٤) محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ورقة ١٥ ، ابن زنبل : المصدر السابق، ص ١٥٦ .

، ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٦٨ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ص٣١١ .

، نيقولاى أيفانوف : المرجع السابق نفسه ، محمد كرد على : المصدر السابق ، ص٢٢٢ .

(١١٥) ابن إياس : المصدر السابق نفسه Philip K. Hitti : op. cit., p. 215.

، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه ، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص٣٨ .

، محمد كرد على : المصدر السابق نفسه، أحمد زينى دحلان : المصدر السابق ، ص ١٥١.

(١١٦) محمد كرد على : المصدر السابق نفسه .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : op. cit., p. 1042.

(١١٧) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٨ ، ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٣٦ .

، ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(١١٨) نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق نفسه ، اندرى كلو : المرجع السابق ، ص٨٢ .

(١١٩) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

Ismail hami Daui Danismend : op. cit., p. 66 .

(١٢٠) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٤٨ ، محمد كرد علي : المصدر السابق نفسه .

(١٢١) عبد الجواد صابر إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٧٧ ، محمد كرد علي : المصدر السابق نفسه .

(١٢٢) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٥٦ ، كامل باشا : المصدر السابق ، ص١٦٣

(١٢٣) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٦٨ Antony Bridge : op. cit., p. 40.

(١٢٤) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

، ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٨٢ ، محمد كرد علي : المصدر السابق نفسه .

، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص٢٣٨ Antony Bridge : Ibid, p. 41.

(١٢٥) أحمد تشلبي القرماني : تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار البصائر ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص٤٠ .

، جار الله بن فهد المكي : المصدر السابق ، ص ٦٥ ، إسماعيل سرهنك : المصدر السابق .

، محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٩٩، بسام العسيلي : المرجع السابق ، ص١٢٢.

(١٢٦) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٧٧

، أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص١١ .

(١٢٧) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٦ ، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص٢٣٤ .

، ابن طولون : إعلام الورى ، ص ٢٥٠ . Antony Bridge : op. cit., p. 41 .

، اندرى كلو : سليمان القانوني ... ، ص٧٢ .

(١٢٨) ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .. Antony Bridge : Ibid

(١٢٩) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٥٧ .

(١٣٠) أحمد فؤاد متولي : المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

(١٣١) وثيقة رقم (١٠٧٣٤) محفوظة في أرشيف طوبقبو سراى بإسطنبول .

(١٣٢) ابن إياس : المصدر السابق ، ص١٧٧ ، ابن طولون : المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه ، أحمد عزت بعد الكريم : المرجع السابق نفسه .

(١٣٣) ابن طولون : المصدر السابق نفسه .

(١٣٤) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٧٧ ، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

Antony Bridge : Ibid.,

(١٣٥) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(١٣٦) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٨٢ ، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(١٣٧) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٥٨ Antony Bridge : op. cit., p. 41.

(١٣٨) ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٥٢ .

(١٣٩) القرماني : المصدر السابق نفسه .

(١٤٠) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(١٤١) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(١٤٢) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه . Antony Bridge : Ibid.

(١٤٣) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(١٤٤) محمد بن أبي السرور البكري : المصدر السابق ، ورقة ١٥ ، أحمد رشيد : المصدر السابق نفسه .

(١٤٥) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، طبع بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ج٤ ، ص٢٩٠ .

(١٤٦) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه ، أحمد رشيد : المصدر السابق نفسه .

(١٤٧) جار الله بن فهد المكي : المصدر السابق ، ورقة ٦٥ ، كامل باشا : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(١٤٨) ابن زنبل : المصدر السابق نفسه .

(١٤٩) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٨٢ ، اندرى كلو : المرجع السابق ، ص٧٢ .
، محمد كرد علي : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : op. cit., p. 1042.

(١٥٠) ابن إياس : المصدر السابق نفسه ، ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص ٢٥٢ .
، محمد بن أبي السرور البكري : المصدر السابق ، ورقة ١٥، جار الله بن فهد المكي : المصدر السابق ، ورقة ٦٥ .

، ابن زنبل : المصدر السابق نفسه ، أحمد رشيد : المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

Lewis, B, Pellat, Ch., and Schacht : op. cit., p. 1042.

(١٥١) كان شابًا شجاعًا اسمه (على بالى) رباه الغزالى منذ صغره ، وهو ليس جركسيًا ، فلما رآه الغزالى شجاعًا قربه منه حتى جعله حامل لوائه وكان يقول : " إن عليًا هذا عندى أعز من ولدى " . انظر ابن زنبل : المصدر السابق ، ص٦٠ .

(١٥٢) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٦٠ - ١٦١ .

(١٥٣) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٦١ ، نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق ، ص ٧٨.

(١٥٤) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(١٥٥) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص١٦٢ . Antony Bridge : op. cit. p. 41 .

(١٥٦) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(١٥٧) تاريخ الدولة العلية ، ص ١٩٩ ، وافقه : نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق نفسه .

Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 66 - 67 .

(١٥٨) ابن إياس : المصدر السابق ، ص ٣٨٢ ، اندرى كلو : المرجع السابق نفسه .

(١٥٩) ابن إياس : المصدر السابق نفسه ، ابن طولون : إعلام الورى ... ، ص٢٥٢ ، محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ورقة ١٥ ، جار الله بن فهد المكى : المصدر السابق ، الورقة ٦٥ ، إبراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٨٥

(160) Antony Bridge : op. cit. p. 41.

(161) Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 67.

(١٦٢) بجوى إبراهيم افندى : أسطنبول ، طبعت عن طريق أوفست عن الطباعة القديمة ، الناشر : مكتبة اندرون ، ص٦٧ .

، رمضان : الرسالة الفتحية الرادوسية ، مخطوط ، محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ١٦٢٢ ورقة ٥٧ ، القرمانى : المصدر السابق ، ص ٤٠ .

، محمود شاكر : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(١٦٣) خطط الشام ، ج٢ ، ص ٢٢٣ .

Ismail Hami Daui Danismend : op. cit., p. 67.

Philip K. Hitti : Syria, A Sort History , London , Macmillan, Co. Ltd. 1959, p. 215.

(١٦٤) ابن زنبل : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، القرماني : المصدر السابق ، ص ٤١ .

، إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص ٥٣٣ .

، أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ١٢٨ .

، اندرى كلو : المرجع السابق نفسه .

(١٦٥) عبد الجواد صابر إسماعيل : ولاية خاير بك ... ، ص ٨٠ .

، محمد كرد على : المرجع السابق نفسه .

(١٦٦) نيقولاى ايفانوف : المرجع السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(١٦٧) اندرى كلو : المرجع السابق نفسه .

(١٦٨) محمد حرب : المرجع السابق ،ص ١٤٦ .

(١٦٩) ابن إياس : المصدر السابق ، ص٣٨٢ .

(١٧٠) محمد حرب : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

الغزوات الاستعمارية الأسبانية والبرتغالية

فى الشمال الأفريقى

(٨١٨ هـ / ١٤١٥ - ٩١٧ هـ / ١٥١١ م)

د . نبيل عبد الحى رضوان(*)

أصبحت كلمة Reconquista ومعناها الإسترجاع ذات مدلول تاريخى خاص فى تاريخ الأندلس الإسلامية(١) ، فقد بذلت أسبانيا النصرانية جهداً كبيرا لانتزاع القواعد الأندلسية ، وبدأ هذا الإسترداد منذ وقت مبكر ، منذ قامت المملكة النصرانية الشمالية عقب الفتح بقليل فى حمى الجبال الشمالية ، واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت منذ منتصف القرن الثانى هجرى - الثامن الميلادى أن توسع حدودها جنوباً ، وكانت أولى القواعد الإسلامية التى سقطت هى «لُك» فى أقصى الشمال الغربى لشبه الجزيرة الإيبيرية ، (واسترقه) فى شمال نهر دويره(٢) ، (وسمورة وشلمنقة وشقوبية وابله) فى الناحية الأخرى من دويرة ، ولم تتأثر الأندلس المسلمة كثيراً بفقد هذه القواعد الأولى لقربها من المملكة النصرانية(٣) .

ولكن الأندلس شعرت بالخطر الحقيقى يداهمها بعد أن استطاع النصارى عبور نهر التاجه(٤) وخاضوا معارك قوية ، واستولوا على طليطلة(٥) ثالثة القواعد الأندلسية هذا وأن قيام المرابطين(٦) قد وضع حداً مؤقتاً لتقدم النصارى فى وسط شبه الجزيرة وشرقها . ومع ذلك قامت موجة جديدة من الغزو النصرانى اجتاحت شمال شرق الأندلس ، فسقطت سرقسطة(٧) ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ثم تلتها بقية قواعد الثغر الأعلى (ردة وإفراغة ومكناسة وطرطوشة)(٨) ٥٤٣ - ٥٤٤ هـ / ١١٤٨ - ١١٤٩ م وفى نفس الوقت بدأ سقوط القواعد الإسلامية فى غرب شبه الجزيرة فسقطت أشبونة وشنتره وشنترين(٩) فى يد النصارى ٥٤٢هـ/ ١١٤٧ م ،

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامى - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى.

وسقطت باجة(١٠) بعد ذلك بقليل ٥٥٦ هـ /١١٦١ م ثـم تلتهـا يـابرة(١١) فـى ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م(١٢) .

وكان أن توقفت حركة الإسترداد النصرانى ، إثر توطيد الموحدين سلطانهم فى الأندلس مدة من الزمن ، لكنهـا لم تلبث أن عـادت وازدادت إستفحالاً بعد إضمحلال الموحدين فى النصـف الأول مـن القـرن السـابع الهجـرى الثـالث عشـر الميلادى ، وذلك لعدم وجود دولة إسلامية قوية تستطيع إنقاذ الأندلس مـن خطر تساقط قواعدها . وفى ذلك الوقت العصيب على المسلمين اتحـدت نوايا الممـالك الأسبانية النصرانيـة على مهاجمة الإمـارات الإسـلامية(١٣) ، وبذلـك اجتـاحت الأندلس موجة عاتية من الغزو النصرانى وتساقطت قواعد الأندلـس التـالدة شرقاً وغرباً فى يد النصارى ، فسقطت جزيرة ميورقة(١٤) ومدينة بياسة وأبدة(١٥) ثم مدينة قرطبة(١٦) سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م ، وإستجه والمدور وبلنسية(١٧) سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨ م ، ودانية ولقنت وأريولـة وقرطاجنـة ٦٤٣ هــ / ١٢٤٥ م وشاطبه ومرسيه وجيان ثم إشبيلية ٦٤٦ هـ /١٢٤٨ م(١٨) ، كذلـك اجتـاحت غرب الأندلس ، نفس الموجة ، فسقطت بطليوس (١٩) وماردة وشلب وشـنتمرية ولبله ولبه ثم سقطت جزيرة قادس وتلتهـا مدينـة شريش . وهكـذا لم يكـد يحل منتصف القرن السابع الهجرى الثالث عشر ميلادى حتى كانت ولايـات الأندلـس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت فى يد أسبانيا النصرانيـة بحيـث لم يبق للدولـة الإسلامية بالأندلس سوى بضع ولايات صغيرة فـى طـرف شـبه الجزيـرة الإيبيريـة الجنوبى (٢٠) .

والواقع أن الكنيسة القشتالية قد لعبت دوراً بارزاً فى حشد طاقات الممـالك النصرانية الشمالية ضد الأندلس ، ليستمر الصراع بين النصرانية والإسلام على مـر القرون . وترتب على ذلك انتقال الحرب إلى العدوة المغربية(٢١) فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، وكانت امتداداً للفكرة الأساسـية التى تطورت من تقدم قوات الممالك الشمالية فى شبه الجزيرة الإيبيرية نحو الجنوب

الأندلسى ، وتصورت تلك الممالك أن انتقال الحرب ضد المسلمين إلى المغرب يعنى متابعة للحملات الصليبية(٢٢) ونقل ميدان المعركة من أراضيهم وبالتالى إبعاد شبح الخطر عنهم .

وقد فكر الملك الأسبانى فرديناند قبل أن يتم إجلاء المسلمين عن الأندلس فى أن يعبر بأسطول إلى أفريقية ويغزو هنالك ويفتتح ، وقام أسطول قشتالة تحت قيادة أمير البحر ريموند بونفاشيوس بإحراز نصر على الأسطول المغربى سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م بيد أنه لم يوفق إلى الإستفادة من هذا النصر نظراً لوفاة الملك الأسبانى(٢٣) .

كذلك وضع الفونسو العاشر فى السنوات التالية ٦٥٠ - ٦٥٢ هـ / ١٥٥٢- ١٥٥٤ م ترتيبات لغزو المغرب بموافقة كنيسة روما ، ولكن التخوف من هجوم أندلسى إسلامى معاكس أدى إلى تأجيل الحملة المذكورة للوقت المناسب(٢٤).

وعندما ازداد تردد تجار الحرب الأسبان على مدينة سلا (٢٥) ، وكثرت سفنهم أمام شاطئها ، وصارت أعدادهم كبيرة فيها عزموا على القيام بثورة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م مستغلين إنشغال الناس بعيد الفطر ، واعملوا السيف فى أهلها وقتلوا رجالها وسبوا نسائها ونهبوا الأموال حتى تحكموا فى شئونها ، ولم يستطع السلطان يعقوب بن عبد الحق تخليصها من أيدى الأسبان إلا بصعوبة ، فأقام فيها داراً لبناء الأساطيل البحرية ومراكب الجهاد ، وجلب لها الأخشاب من غابات المعموره (٢٦) ، وكانت مدينة سلا ميناءً صغيراً ترسو فيه سفن تجارية أوربية ، وفيها تجهز سفن الجهاد الإسلامية للقيام بأعمال حربية على الشواطىء الاسبانية ، لكن هذه السفن كانت تعود لقضاء الشتاء فى الميناء واستطاعت سلا أن تنزل الضرر بالدول النصرانية وتسلطت عليها حتى قام الفونسو الحكيم سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٦٣ م بالهجوم عليها واحتلالها . لكنه لم يقم بها طويلاً ، إذا فاجأها ملك الأسبان واستردها ففرت أعداد كبيرة منهم على السفن عائدين إلى قشتالة(٢٧) التى حملت على عاتقها استكمال إسقاط المدن الأندلسية .

أما هيبة الأساقفة ورجال الدين فقد عانت كثيراً من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين ، فكثيراً ماتولى الأساقفة القيادة ، ورضوا عن أعمال القسوة ، وترتب على ذلك أن تغلبت الوحشية على طباع الشعب ، ورجال الدين وأضفت على الأمة الأسبانية لوناً شديداً من الخشونة والقسوة حتى تحولت إلى نوع من الهمجية المطلقة تحت ستار شرف الفروسية والعاطفة الدينية(٢٨) .

وعلى صعيد آخر لم تستمر البرتغال خاضعة لأسبانيا ، فقد ثارت ضدها وانتصرت عليها في معركة كبيرة في تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية ، تسمى معركة الجبروتية AL jabrrota سنة ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م وهي المعركة التي ثبتت أسرة أفيس La casa de Avis في عرش البرتغال وفصلتها نهائياً عن قشتالة وأفسدت كل هدف للوحدة الذي كان يحلم به ملوك قشتالة(٢٩) الذين رسموا تقليداً عسكرياً لخوض حرب صليبية حققت من خلالها إمبراطورية عبر البحار في القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي ، وأحرزت عن طريقها الخبرة البحرية التي صارت هي الأساس للتحرك نحو إستيلاء أراضي عبر البحار ، ومن ثم أخذت بزمام المبادرة في الحرب الصليبية في العصور الحديثة .

وكانت كلمة غزو بالنسبة لأهل قشتالة تعني تثبيت الوجود الأسباني ، وضمان المراكز القوية وشراء الممتلكات من الشعوب المقهورة ، هذا الأسلوب الحربي عرف في أسبانيا في عصور سابقة وأعيدت تجربته في شمال أفريقيا على الرغم من وجود موانع طبيعية حدت من إمكانيات نجاحه ، وذلك بسبب صعوبة تضاريس البلاد ، وقلة الغنائم ، إذ قدمت أفريقية القليل مما يجذب المحارب ، الذي كان هدفه في ذلك الوقت الحصول على عائدات مادية بمجهوده بدلاً من الروحية، لذلك انخفض حماس الخدمة العسكرية لدى الأسبان في أفريقية إنخفاضاً سريعاً(٣٠) .

* * *

وكان من الطبيعى أن تصبح البرتغال من أسبق ممالك الجزيرة الأيبيرية مقاومة للمسلمين بحكم الظروف التاريخية ، إذ تأخرت أسبانيا عنها بسبب إنشغالها فى تحقيق الوحدة الوطنية وفى حركة الإسترداد ضد المسلمين (٣١) .

وتؤلف البرتغال شريطاً ساحلياً طويلاً يمتد بمحازاة السواحل المغربية المطلة على المحيط الأطلسى من شبه جزيرة ايبيريا ، ويبلغ طول هذا الشريط نحو ثلاثمائة ميل وبه كثير من الموانىء العميقة المحمية ، وبذلك توفر لدى البرتغاليين الفرصة لبناء مجد بحرى(٣٢) ، خاصة وأنها تتمتع بموقع استراتيجى هام لوجودها على الطرق التجارية المؤدية إلى موانىء البحر المتوسط وشمال غرب أوربا ، مما جعلها أقرب إلى السواحل الإفريقية ، مما أعطاها أهمية تجارية واستراتيجية تجلت فى عاصمتها لشبونة التى غدت مركزاً لتجارة غرب إفريقية المستوردة إلى غرب أوربا. وهذا بدوره عاد على البرتغال بنتائج عظيمة إذ وفرت لها الأموال اللازمة التى ساعدت ملوك لشبونة على توحيد أجزاء البلاد الداخلية ودفعتهم فى الوقت نفسه إلى الإهتمام بالأساطيل البحرية وتشجيع التجارة مع الخارج والعمل على الوصول إلى التوابل لإحتكار تجارتها(٣٣) . وانشغل الملوك من أسرة أفيس فى ذلك ، فى خلال القرنين التاسع والعاشر الهجرى الخامس عشر والسادس عشر الميلادى(٣٤) . وهكذا أصبحت البرتغال نصيرة النصرانية وراعيتها ضد الإسلام ، كما استمرت الروح الصليبية مستمرة بل لقد أخذت تزدهر مكتسبة قوة على قوتها فى شبه الجزيرة الإيبيرية خلال الفترة المذكورة(٣٥) .

ولما كان المغرب بموقعه الجغرافى أقرب نقطة إلى غرب أوروبا ، وشبه جزيرة ايبيريا ، فضلا عن امتلاكه سواحل طويلة على المحيط الأطلسى ، فقد اتجهت إليه أنظار البرتغال والأسبان ، فأخذوا يخططون ويعملون على احتلال مناطق مختلفة من سواحله ، مستغلين فرصة أوضاع المغرب الداخلية السيئة بسبب ضعف السلطة المركزية فى فاس ، وظهور وحدات سياسية متعددة ، وما أعقب ذلك من انتشار للفوضى والإضطرابات وإختلاف الميول السياسية مما ترتبت عليه نتائج وخيمة على البلاد(٣٦) .

وترجع أصول حركة النزوح البرتغالى والأسبانى إلى ما حدث بين هاتين الدولتين من نزاع حول ملكية جزر كناريا التى اعتبرها الطرفان نقطة انطلاق وتوسع فى غرب أفريقية . ولأهمية هذه الجزر لم يشأ كل منهما التنازل عنها للآخر ، مما دفعهما إلى تحكيم البابا فى روما ، الذى منح البرتغاليين بعد ذلك براءة تجعل الأماكن التى فتحت فى المناطق المجاورة وكذلك الشاطىء الأفريقى من نصيب التاج البرتغالى . وكان طبيعياً للسفن البرتغالية أثناء سيرها محاذية للسواحل المغربية فى إتجاه جزر كناريا وغربى أفريقيا أن تضطر إلى الوقوف ببعض المراكز المغربية للتزود منها أو للتبادل معها ، الأمر الذى جعل البرتغاليين والأسبانيين يطلعون على الكثير من شئون البلاد وأحوال الشعب المغربى وماكان عليه من انقسام داخلى لضعف السلطة فى فاس ، وعجزها إدارة الشئون العامة فى البلاد ، كذلك حدث وأن تعرضت بلاد المغرب فى أواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر ميلادى لنكبات طبيعية تجلت فى الطاعون والمجاعة اللتين عمتا البلاد لا سيما المناطق الشمالية منها ، فوجد البرتغاليون فى ذلك فرصة سرعان ما استغلوها لاحتلال مركز هام فى شمال المغرب هو مدينة سبتة ٣٧) التى تتمتع بموقع استراتيجى لإشرافها على الطرق التجارية البحرية بين جنوب أوروبا وشمالها الغربى عبر مضيق جبل طارق . يضاف إلى ذلك مناجم الذهب التى طالما سمع البرتغال بوجودها بهذه المدينة المغربية(٣٨) .

وفى تلك المرحلة ظهر هنرى الملاح (٧٩٧ - ٨٦٥ هـ) / (١٣٩٤ - ١٤٦٠ م) الذى كان رجلاً مسيحياً متقشفاً نشطاً من شخصيات عصر النهضة البارزين ، جاء التزامه للكشف والإرتياد بغرض توسيع المعرفة الإنسانية لكنه كان يعبر عن تصميمه على حمل العلم المسيحى ونشره فى العالم الإسلامى ، وحاول بقدر الإمكان الإتصال بحاكم الحبشة النصرانى برسترجون Prster John والعمل معاً نحو تقويض مركز الإسلام(٣٩) .

وكان خوان دا أفيس الأول قد أنجب أربعة أبناء ذوى نجابة وهمة ، منهم الأمير هنرى الملاح . وإليهم يعود الفضل فى دخول البرتغال عهد الإستعمار والغزو ، ففى ١٣ جماد ثانى ٨١٨ هـ / الموافق ٢١ أغسطس سنة ١٤١٥ ، استولت البرتغال على مدينة سبتة Ceute على ساحل البحر المتوسط بقيادة هنرى وأخويه بدرو وإدوار فدخلوها وأنشأوا فيها سوقاً ثغرياً Frontera يحرسه ألفان وخمسمائة من المقاتلين وكان هذا العدوان البرتغالى على الأراضى الإسلامية فى المغرب نذيراً بتحول حاسم فى تاريخ المغرب(٤٠) ، وكانت دولة البرتغال فى ذلك الوقت تتمتع بالأستقرار السياسى والاقتصادى بحيث صارت منيعة الجانب ، وفى هذا العهد حظيت البرتغال بجيل من الرجال الأقوياء ، قوامه التجار والبحارة والمغامرون ، رفضوا الإكتفاء بالطرق التجارية المألوفة آنئذ ، وأخذوا يسيرون فى طريق الإستعمار الذى أمدهم بروح الحماس للغزو وجمع الغنائم والأسلاب وهدم القلاع والحصون(٤١) وذلك بعكس هنرى الذى كانت روحه صليبية بالمعنى الواضح المحدود . وامتداداً لما سبقها من حملات مشابهة ، فقد كان هذا الأمير صليبياً متعصباً يحمل بين جنبيه للإسلام والمسلمين حقداً دفيناً ، وكانت كل مجهوداته تهدف إلى تحقيق أغراض صليبية حتى نشاطه التجارى كان يرمى من ورائه إلى تقوية البرتغال ثم صرف هذه القوة فى حروب ضد المسلمين . ولذلك جمع الصيادة المهرة وجعل منهم بحارة وحول سفن الصيد إلى سفن للحرب والنقل ، واستقدم من إيطاليا وصقلية بعض الملاحين المهرة ، وأسس مدرسة علمية عين فيها الفلكيين ورسامى الخرائط والملاحين لتدريس استعمال الإسطرلاب والبوصلة . وبدأ فى بناء السفن الكبيرة(٤٢) وكان الدون هنرى الملاح يشغل منصب رئيس طائفة المسيح Las jesuitas EL Algovre وحاكماً لولاية الغرب البرتغالية(٤٣) ، التى شهدت سواحله وموانيه نشاطات بحرية عارمة خاصة ، على سواحل كنتبريا ، والتى تجلت فى أعمال الصيد والمبادلات التجارية التى كانت آخذه فى الإزدياد مع سكان أوروبا الشمالية الغربية . هذه النشاطات كانت بمثابة إعداد نفسانى فى سكان الموانى هيأهم للإشتراك فى رحلات بعيدة المدى(٤٤) .

وكان البرتغاليون يهدفون باستيلائهم على سبتة أن يحققوا الإمتداد خارج البحار ، بعد أن عجزوا عنه داخل شبه الجزيرة الأيبيرية . كما هدفوا به إلى نيل الحظوة عند البابا الذى كانت تتأرجح كفتا الميزان عنده بين أسبانيا والبرتغال فيميل مرة إلى ملوك أسبانيا وهم يقضون على البقية الباقية من أرض الإسلام بها ، ويميل مرة أخرى إلى البرتغال حينما يفتك أسطولهم بالأساطيل الإسلامية القادمة من المغرب ، تجاه السواحل التى تمتد من المضيق إلى مياه (بورتو) البرتغالية .

كانت سبتة تتحكم فى المضيق كمركز لإغاثة دول الإسلام بالأندلس ، كما كانت من الناحية التجارية المركز الأول فى هذا المضيق تؤمه سفن التجارة من أكثر الموانىء الإسلامية الشرقية والأندلسية وغيرها ، فكان الإستيلاء عليها هدفاً للبرتغاليين الطامعين فى الأسواق الخارجية(٤٥) .

وعندما توفى الدون جوان الأول مؤسس الأسرة الحاكمة وهى أسرة أفيس، خلفه على عرش البرتغال ابنه دورات ١٤٣٣ - ١٤٣٨ ، وألح عليه أخوه هنرى الملاح ، وكذلك أخوه الثانى فرناندو والملكة الأم دونيا ليونور Leonore فى الإستيلاء على طنجة(٤٦) ، وذلك حتى يدركوا فخراً باستيلائهم على ثغر من ثغور المغرب ، يضيفونه إلى سبتة ويوسعون به ماملكوه من أعمالها ، فركبوا قراصينهم(٤٧) فى ستة آلاف عسكرى ونزلوا بسبته . ثم زحفوا إلى طنجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة الموافق ١٤٣٧ وحاصروها وضيقوا على أهلها(٤٨).

وقد نهضت القوى المغربية لمواجهة الغزو البرتغالى ، يتقدمهم أبو زكريا يحى الوطاس فى الوف من الجند المتطوعة ، وهناك أحاطوا بالقوة المحاصرة للمدينة وشددوا الخناق عليها ، واضطروها إلى التسليم ، واشترط أبو زكريا يحى للإفراج عنهم وعن فرناندو بتسليم ثغر سبتة ، فجنح البرتغاليون إلى السلم فسالمهم المسلمون ، إلا أن فرناندو توفى فى أسره و لم يسلم سبتة (٤٩) التى كانت أول قاعدة برتغالية على الساحل المغربى ، ويبدو أن البرتغال أختارت هذه المدينة حتى تتمكن من شطر المغر ب الإسلامى إلى قسمين حتى تسهل عملية إجتياحه ، إذ

أنهم قاموا بعد ذلك بمحاولات أخرى على ساحل البحر المتوسط ، غير أن المقاومة المغربية إضافة إلى حركة الجهاد البحرى فى ممر جبل طارق والبحر المتوسط كانتا تسبب للبرتغاليين الكثير من المتاعب(٥٠) ، كما اجتاحت المغرب الأقصى موجة من الحماس الدينى حمل لواءها شيوخ الطرق الصوفية فى الوقت الذى ترددت فيه الحكومة فى الإقدام على إعلان الحرب الشاملة على الأعداء(٥١) بل نجد ملوك المغرب يعتذرون للمهاجرين من سبتة واللاجئين بفاس ، عن عدم القدرة على استرجاع المدينة وانقاذها ، ويمينهم بما تقضى به من أحكام التنجيم وخرافاته(٥٢).

استمرت مقاومة المجاهدين المغاربة قائمة على مجهوداتهم الذاتية ، لذلك لم يحققوا انتصارات حاسمة على القوى النصرانية التى أخذ نشاطها يتزايد فى المغرب الأقصى ، خاصة بعد أن وجدوا الحكومات المغربية بعيدة عن المقاومة ، بل أخذ رؤوسها يهتمون فى القضاء على بعضهم ، فهم بذلك أبعد ما يكونون عن تكوين وحدة إسلامية يواجهون بها الخطر على الأمة ، فشمال أفريقيا بوجه عام والمغرب الأقصى بوجه خاص كان يشهد عندئذ نوعاً من التفكك السياسى ، مما سهل مهمة الدول المسيحية فى الغزو والسيطرة على ذلك الجزء المهم من العالم الإسلامى ؛ وذلك عكس ما كانت عليه الأمم النصرانية التى كانت تشهد فى تلك الفترة تكوين الدول الحديثة ، وما يتبعها من تكون الحكم المركزى ، وبذلك استطاعت أن تفرض سيادتها على كثير من الأراضى فى قارات العالم .

وكان أن تشجع البرتغاليون وعادوا إلى غزو المغرب ، فقام الملك الفونسو الخامس بحملة كبيرة على شمال المغرب استولى فيها على القصر الصغير(٥٣) سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م(٥٤) . وكان يهدف بهذا إلى منع المغاربة من تجهيز السفن الحربية بها وإعدادها لغزو الشواطىء المسيحية ، والاستفادة من الغابات المحيطة بها ووقف النشاط الكبير للسفن المسيحية المارة عبر مضيق جبل طارق(٥٥) وقد أنزل الفونسو بأهل القصر الصغير مذبحة رهيبة على عادة البرتغال فى حروبهم مع المسلمين فى تلك العصور ، وشجعه على العمل الهمجى قلة المقاومة من جانب

حكام فاس ، فتمادى فى عدوانه . ثم عاد إلى المغرب وهاجم طنجة ، فقاومه أهلها مقاومة باسلة اضطرته إلى العودة إلى بلاده(٥٨) .

وقد خشى سكان طنجة من إنتقام الملك البرتغالى ، بعد أن أوقعوا بجيشه خسائر فادحة فى القتلى والأسرى ، ولكن السكان علموا أن مولاى الشيخ عاد إلى حرب فاس ، فصاروا محرومين من أى سند ، لذلك عزموا على الجلاء عن المدينة ، وأخذوا ما يمكن حمله ، ثم انسحبوا دون إضرام النار فى المدينة حتى لاينكشف أمرهم ، ولما تأكد الملك البرتغالى من رحيل السكان أرسل أحد قواده للإستيلاء عليها فى ٢٨ أغسطس ١٤٧١ م ، ثم انتقل إليها قادماً من اصيلا (٥٧) التى استولى عليها قبل طنجة بأربعة أيام وتلقب ملوك البرتغال من ذلك الوقت بملوك مادون البحر وما وراءه ، وكتب الملك البرتغالى إلى البابا والملوك المسيحيين يخبرهم بنبأ النصر(٥٨) .

وعلى إثر تلك الانتصارات المتتالية للقوى البرتغالية فى بلاد المغرب الأقصى، وفى ظل غياب الحكومات والقوى السياسية الإسلامية عن المشاركة فى موجة الحماس الدينى وإعلان الحرب أو حتى التعبئة على البرتغاليين ، نجد بعض القوى المحلية المغربية تعبر عن رضاها بالنزول النصرانى على الأرض الإسلامية ، لتوضح بجلاء مدى الوهن والضعف الذى أصاب تلك القوى ، مما شجع الملك البرتغالى على التمادى فى حركة النزول بعد أن ضمن مساندة حكامها أو عدم مقاومتهم على الأقل . وقد بعث حاكم آزمور(٥٩) فى ١٦ أغسطس ١٤٨٦ م إلى الملك البرتغالى برسالة يطلب فيها الحماية ، قال بعد الحمد لله .

« السلطان الكبير المعظم الخطير الفاضل الشهير أحسن النصرانية دماً ، حايز الفضايل والوفاء جماً أكثر الناس عدلاً وأوفرهم فيه سهماً من حيات بحياته الأرض ومن شعشع عدله طاعته(٨٠) تما ، أوفى الخلايق عقلاً وأحسنهم خلقاً وفهماً .... للمسكين مأوى للملهوف ركناً للغريب عماً ، بطل شديد ، فارس صنديد له معمعة الحرب فى سمورة يوماً ...خير النصارى فكلهم حاز الروم كلها

حلماً(٦١) .. مولانا دون جون ارشده سلطان برتقال والغربيين وكناية الذهبيين(٦٢) يقبلون يديكم مع رجليكم الكريمة خدماؤكم الموهوبون اليكم بالنفس والمال والأهل قبيلة بنى هنا وخاصتهم وعامتهم وكافتهم وجمهورهم أصحاب مدينة ازمور حفظهم الله ... ونحن نعرفكم يامولانا أننا نحن كنا ، صرفنا إليكم مع فارسكم مرطين رينال ثم بعد ذلك مع جون فرانسيس فارسكم الذى وصلنا كتابان أثنان واعلمناكم بكتبنا كيف نحن لكم خدم موهوبون وفى حبكم ورعيكم راغبون وذلك كله بقلوب صادقة ، ونفوس خالصة ، لتكون حرمتك علينا وعلى جمع قبيلتنا ومدينتنا وأن تكون لنا مأوى .. فاعلم أن وقع وفاقنا على صلحكم وعافيتكم واردنا له واخترنا أن تكون لنا حبيباً ومولاً والتزمنا ذلك وتحملناه عن طيبة نفس منا وصفاء خاطر من دون غش ولاتدليس ولاغدر ولافساد والتزمنا أن تقضوا حوايجكم ومسايلكم إذا أمرتمونا بأى أمر كان وأن نبروكم ونخدموكم ويخدموكم كما يعملون أهل طاعتكم وبلادكم ، ولتأكيد هذه المعرفة وصحتها أيها السلطان الكريم نصلوكم فى كل سنة بعشرة ألف شابل(٦٣) ... وأن جميع مايأتينا من الأجفان من عندكم بأنواع تجارتكم وعروضكم - وكذلك فيما يبغون ويشترون عندنا ويطلعون لعندكم أن لا مغرم عليها ولا عادة ... والتزمنا أن ندخلوا راجلكم لبلدانا ومدينتنا وتجاركم ورجالكم وكتابكم وكل من يأتى من قبلكم لوجه البيع والشراء وإن نكرموهم غاية الإكرام ونعاملوهم بكل فضيلة رعياً لجانبكم ونعملوا جميع ما يأمروننا به عنكم وفى اسمكم من دون أن نخالفوهم فى قول ولا عمل ... وزدنا فى الالتزام والتزمنا إليه وذلك لجميع رجالكم وعمالكم أن تعينوا لهم داراً ومنزلاً أين يكونون مأمونين على رؤوسهم وأموالهم أين يرضون، وأن لم يرضون أن نتركوهم يبنون لأنفسهم موضعاً داخل المدينة وأن من اليوم لقدام نكونوا تحت رعايتكم وولايتكم وحفظكم وإنكم تكونون العين الباهرة على جميع حزبنا .. والذى نحن نطلب منكم أن تعرفوا بهذا أهل بلادكم وملككم ولقيادتكم وافنادكم وقباطنكم وجماهركم ... ونحن نطلب منكم أنكم تكتبون لبنى عمكم السلاطين الفيشين(٦٤) وغيرهم من السلاطين

النصارى وغيرهم ممن بينكم وبينهم العافية وكذلك لجميع أهل بلادكم أن لايصلونا بعيب ولابادابة لا فى البر ولا فى البحر وإن يكونوا كلهم على يقين من تمييزكم معنا ، وكيف نحن من جملتكم .. كتب هذا التقييد خديم مولانا بامره أخاكم حقاً الغريب محمد بن قاسم الرعينى خطيب اخوانكم الغرباء(٦٥) فى حينه تاب الله عليه وأصلح حاله مسلما عليكم(٦٦) » .

وهكذا استمرت الحماية البرتغالية على أزمور ، وأخذ الملك البرتغالى يبعث نواباً عنه فأساء بعضهم إلى سكان منطقة دكالة . ومن ذلك ماوضحه أحد حكام المنطقة في رسالة بعثها إلى الملك البرتغالى فى ديسمبر ١٥٠٢ يقول فيها (بيد أمير قومه سلطان برتغال والغربيين .. الحمد لله وحده ولارب غيره ولامعبود سواه الكتاب إلى أمير قومه وسلطان بلاده دوا منول بفضل الله تعالى سلطان برتغال والغربيين ومولا كناوة الدهبان(٦٧) وغيرهما .. نريد من كمال فضلك أن تعمل لنا غرضنا وغرضك فيما نطلبك فيه ونكون له مطيعين بأن الرحل الذى بعث لبلادنا ماجاء على عقولنا وخسر عليكم كثيراً مالا تقدر وتصلح ونعلمك بأنه هو بخير مع النصارى أو مع المسلمين ولا مع اليهود ولا يعمل إلا برأيه ولا يستمع لمن يدبر عليه ونحن أهل البلد نقول له اعمل ما يصلح على السلطان وعلى الناس وأبى أن يأخذ لنا كلاماً واشتغل أيضاً يشترى المسلمين(٦٨) ونحن نخاف عليه من المسلمين أن يقتلوه ويؤخذ لنا عارك أما هو ما علينا منه وأنت ياسلطان برتقال إذا حبت حوايجك تنقصنا من بلادنا ونكون خدامك تبعث لنا رحلاً آخر يكون بحال بن مرتن(٦٩) يكون عاقلاً عارفاً بالمسايل وهادا لايحبنا بعد هاده المره ، وهادا أوكد حوايجنا عندك .. وهادا ما عندنا والسلام عليكم وعلى من تعلق بكم والرحمة والبركة (من خديمك سالم بن عمر)(٧٠) .

وقد ظهرت مقاومة للوجود البرتغالى من جانب بعض المغاربة ، الذين شنوا غاراتهم على الحامية البرتغالية ، فأرسل الملك البرتغالى قوة عسكرية لتأديب

الخارجين ولإظهار مدى قوة البرتغاليين ، فندم أهل مدينة أزمور وبعثوا برسائل عديدة للملك البرتغالى الذى لم يجبهم عليها على الرغم من إلحاح الحاكم . ولما توسلوا إليه بزوجته بعث إليهم برسالة فيها شروط العفو والتهديد والتأنيب ، وذلك فى ٢٢ إبريل ١٥٠٤ إلى « .. هاذا الاشياخ الفضلا والرؤساء الأمناء والخاصة والعامة .. أهل أزمور نحن ظون منوال بفضل الله ونعمته سلطان البرطقال والغربيين وصاحب كناوة .. مستفتح(٧١) أقاليم غربية وأمصار وجزر وبحار وأقاليم هندية وأوطان فرسية ثم بلاد الكو .. سلام يراجع سلامكم وبعد وصلنا كتابكم وفهمنا جميع ما تضمنه كتابكم وخطابكم ، وقد ذكرتم لنا ماوقع عندكم من الندامة على من صدر من فعلكم فى النازلة التى أحدثوها عندكم ... وطلبتم العفو منا .. والصفح عليه وإن تتموا على صلحنا وعهدنا ... وأشرتم فى كتابكم بجميع المحبة والنصيحة الينا ، ومهما أنكم ما حمدتم الله عز وجل مولانا ولا شكرتموه على ما منحكم وأعطاكم من صلحنا معكم الذى كنتم تحت رعينا وحفظنا ، وحملكم نظركم الفاسد على هتك العهد والميثاق الذى كان بيننا وبينكم ومددتم أيديكم فى أمر ليس بواجب عليكم بل كان من الأمر الواجب والعهد اللازب ، رعى مسايلنا عادة وخدمتنا والاستحفاظ عليها ، فنازلتكم واقعكم كانت أولاً للتأديب والتعزيز من العفو والصفح ، وإن كانت عادة الملوك أمثالنا الصفح والغفران كما قلتم ، وقد كنتم قد كتبتم قبل هذا و لم يصلكم عليه جواب، فسبب ذلك كان الحرج الذى لحقنا من جهتكم ومن فعلكم القبيح الذى أدركنا من نحوكم ، وكنا عاملين على أدبكم وتعزيزكم لاشك فيه وإن نكافيكم بفعلكم ونجازيكم عليه ونتركوكم مثلاً وموعظة لمن ينقضوا عهد ... فبهاذا كان مقصودنا وإننى حين كتبتم واعترفتم بذنبكم وتوسلتم بأقرب الينا واحبهم لدينا السلطانة زوجتنا التى عنكم قصدتنا . فنحن عنكم عفونا واسمحنا لكم(٧٢) فيما مضى ، وغفرنا لكم ماوقع منكم ، وذلك إن أوفيتم بما قلتم فى كتابكم برد جميع ماأخذتم الينا ولرجالنا(٧٣) » .

وأسفى إحدى مدن اقليم دكالة بالمغرب تقع على شاطىء المحيط الأطلسى لها أسوار متينة عليها سبعة وثمانون برجا ، ودائرتها ألف وثلاثمائة وسبعون مقياساً زراعيا(٧٤) والأراضى المحيطة بها غنية بالقمح والمواشى ، والتجارة فى أسفى لابأس بها ، وقد نشبت حروب أهلية بسببها ، الأمر الذى جعلها فريسة للبرتغاليين(٧٥) .

وقد حدث أن بعض التجار البرتغاليين نصحوا ملكهم بأن يأمر بتجهيز أسطول يمكنه من أن يستولى على المدينة ، وبعد أن تأكد الملك البرتغالى من أن سكان أسفى منقسمون إلى طوائف ، قدم الملك داراً حصيناً ينقل إلى أحد رؤساء هذه الطوائف - ويدعى يحيى بن تعفنت الهدايا - وبذلك تمكنت البرتغال من أن توثق أمتن الصلات مع يحيى بن تعفنت الذى اتفق على أن تأخذ البرتغال المدينة بدون صعوبة ، وأن يبنى الملك الأسلحة ويزوده بالمؤن . وبعد ذلك ظهر أسطول برتغالى فجأة أمام المدينة ، مزود بجميع أنواع الأسلحة وقطع المدفعية الثقيلة علاوة على كميات وافرة من المؤن ، وكان على ظهر الأسطول خمسة آلاف من الجنود والمشاه ومائتان من الفرسان . لذلك خاف المغاربة من تلك القوة وخرجوا من المدينة ، وبقى فيها رئيس المدينة الذى وافق على بناء الدار البرتغالية واستولى قائد الأسطول على أسفى فى شعبان ٩١٣ هـ / يناير ١٥٠٨ م(٧٦) .

وقد أشتط البرتغاليون فى معاملتهم لسكان المغاربة ، الذين تضايقوا منها ، وذلك بعد أن قام العامل البرتغالى بأعمال إستفزازية ضد السكان ، فضلاً على قيامه بأعمال تعسفية من قتل ونهب للمسلمين ، ورغبته فى التوسع خارج مدينة اسفى . وهذا ما تظهره الرسالة التى بعثها أعيان اسفى إلى الملك البرتغالى فى ٢ يوليو ١٥٠٩ يشكون إليه أعمال عامله « الحمد لله وحده وإليه يرجع الأمر ولابد من لقايه ولا ينجح هارب من قضايه وإذا ضاقت كان الفرج من عنده ، ضيفنا ومولانا السلطان ضون منوال حفظه الله . خدامك بل عبيدك الساكنون تحت اعلامك وطاعة الله وطاعتك فى بلدتك بلدة أسفى هم يسلمون عليك

ويقبلون يديك والأرض تحت قدميك ، ومما نعلمك به يامولانا بأن نحن جازت علينا شدايد وأهوال ونحن تحت طاعة الله وطاعتك من المخاوف والمجاعات والمحن الكثار والغباين من المسلمين والنصارى ، ونحن يامولانا أعلمناك بذلك كله وكتبنا لك يامولانا جملة من الكتب ... ونحن شكونا عليك فيهم لين مارأينا ، من يقبل شكوتنا إلا الله وأنت ترانا نجمع لك ذلك كله فى كتابنا هذا ونختصر لك فيه أول يامولانا ما نعلمك به بأن نحن ماكرهنا عبد الرحمن إلا فى حق الذى عصاك ، ولم يدخل تحت طاعتك ولارحنا حتى قتلناه ، وقلنا خرجنا من العذاب ودخلنا فى الجنة ، إنما دخلنا تحت طاعتك ، فاصرفنا يامولانا فى الوقت والحين لعاملك ديوغ الدلزنبوج وأدخلناه فى دارك وخرج للقايه كل من كان فى أسفى وتقبلناه بأحسن القبول ، كل ذلك يامولانا محبة فيك ، ونحن يامولانا قادرون ندخل سلطان مراكش ومولاى زيان بن أزمور ، وكان بأسفى رجال كانوا أهلا للشياخة ونحن يا مولانا اخترناك ورضيناك من دون هؤلاء ... ».

ثم تقدم الأسطول البرتغالى نحو مدينة أزمور وأنزل قواته فيها ، واصطدمت بقوة مغربية أرغمتهم على الرجوع إلى سفنهم إلا أن الملك البرتغالى عاد وأرسل أسطولاً آخر احتل آزمور فى جمادى الثانية ٩١٩ هـ / أغسطس ١٥١٣ م(٧٧) .

وعندما بلغ الملك البرتغالى أن ميناء المعمورة جيد ، وأرضها نافعة ، أرسل فى ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م أسطولاً حربياً ليشيد حصناً على مصب نهر سبو ، حيث توجد أطلال مدينة المعمورة ، ولتساعده على غزو مملكة فاس ، إلا أنه ظهرت مقاومة عنيفة من قبل المغاربة والمسلمين الأندلسين ، أجبرت البرتغاليين على الإنسحاب دون تحقيق نصر حاسم(٧٨) .

* * *

يتبين لنا من خلال ذلك تركيز البرتغال على إحتلال الموانىء المطلة على المحيط الأطلسى ، وبذلهم المحاولات الكبيرة والمضنية فى سبيل السيطرة على تلك الموانىء ، فسيطروا على أسفى وأزمور ومدينة سبته ، كما احتلوا أصيلا والحمر فى ربيع الأول ٨٧٦ هـ / أغسطس ١٤٧١ ثم مدينة الجزيرة (٧٩) فى رمضان ٨٨٤ هـ / ٢٧ أغسطس ١٤٨٩ م (٨٠) إن ذلك التركيز على تلك الموانى سببه أهتمام البرتغالين بالتوصل إلى الهند والشرق بحراً ، للوصول إلى مواطن التوابل وانتزاع تجارتها من أيدى الإيطاليين والمماليك ، ويعد اكتشاف طريق رأس الرجاء بداية تطور هام بالنسبة لعمليات التوسع البرتغالى فى السواحل المغربية وبالأخص سواحل البلاد الجنوبية التى ازدادات أهميتها بحكم وقوعها واشرافها على طريق التجارة الجديد ، إذ كان على السفن التجارية البرتغالية العائدة من الشرق أن تقترب كثيراً من هذه السواحل لوجود جزر كناريا التى كانت فى قبضة الأسبانيين. وبهذا أثيرت قضية حدود مملكة فاس من جديد بين الأسبان والبرتغال وازداد نزاعهما لإدراك كل من الفريقين مدى أهمية هذه السواحل من بلاد المغرب الجنوبية فى مراقبة طرق الهند البحرية (٨١) .

والواقع إن التنافس البرتغالى الأسبانى أوقع معظم سواحل المغرب الشمالية والغربية تحت سيطرة الحكم الأجنبى ، مما زاد فى ضعف البلاد وقوى الفتن الداخلية ، مما مكن البرتغاليين من هتك أعراض الناس ، واغتصاب النساء المسلمات وإنتهاك حرمات بيوت الله ، وهى محن أظهرتها الرسائل السابقة . وقد حدث كل ذلك فى ظل غياب الوحدة الإسلامية فى بلاد المغرب ، وعدم وجود سلطة دولة إسلامية تستطيع أن تقف أمام الأعمال العدوانية ضد المسلمين . هذه هى الأوضاع التى كان عليها المغرب فى مطلع العصر الحديث : وحدات سياسية متعددة نتجت عن ضعف السلطة المركزية فى فاس ، واضطراب اقتصادى ، وفوضى احتماعية ، زادتها تأخراً أنماط الحياة المختلفة وسيادة المجتمع القبلى . وزاد

الأوضاع تعقيداً الأخطار الخارجية المتمثلة فى عمليات الإحتلال الأجنبى لمعظم السواحل المغربية ، مما أنذر بإكتساح كل البلاد إن لم تعبأ جميع الطاقات الموجودة بالبلاد للوقوف بها صفاً واحداً لمواجهة الخطر الداهم ،ولكن هل كان من الممكن توحيد كل الطاقات والوحدات السياسية لمواجهة الخطر الخارجى ؟؟ . هنا تبرز أهمية وجود الدولة العثمانية ، لتوحيد الجهود فى الزود عن حياض الإسلام ودفع الخطر عن المسلمين وصيانة حقوقهم ، ورعاية مصالحهم ، ولتضطلع الدولة العثمانية بمهمة جديدة ودور جديد يتمثل فى حماية الحدود الجنوبية للعالم الإسلامى ، وذلك بصد الخطر البرتغالى وإنهاء وجوده فى أول نقطة انطلاق من المغرب نحو طريق الهند .

* * *

ولم يكن المغرب الأوسط (الجزائر) أحسن حالاً من المغرب الأقصى فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما شجع الأسبان على التوسع والسيطرة على سواحله بإقامة جيوب صليبية لمطاردة المورسيكين ومعتنقى الاسلام إينما وجدوا للتنكيل بهم ، وذلك بعد أن شعر الأسبان بالقوة والسيادة عقب اكتشاف أمريكا ، ورغبوا فى احتلال قواعد فى الشمال الأفريقى لإمتلاك الموانى والأسواق التى يستطيعون منها أحتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التى ترد إليهم عن طريق القوافل من وسط أفريقيا ولمزاحمة الجمهوريتين الايطاليتين جنوه والبندقية واللتين استقلتا واحتكرتا التجارة بين الشرق والغرب مدة طويلة (٨٢) .

وكان المغرب العربى بعد سقوط دولة الموحدين مقسماً إلى ثلاث دول ورثت أمجاداً عظيمة وتمتعت بنهضة علمية فى ميادين العلم والعمران ، وتلك الدول هى الدولة الحفصية بتونس وطرابلس والشرق الجزائرى ، ودولة بنى زيان بالمغرب الأوسط (الجزائر) ، ودولة بنى مرين بالمغرب الأقصى .

وقد أخذ أزدهار هذه الـدول فـى الإنحـلال تدريجيـاً وسـادتها الإنقسـامات والحروب الداخلية بين الطامعين فى العرش ، فساق ذلـك عليهـا المحن والفسـاد ، واستمرت حروب بـين تلـك الـدول تقـود الحفصيـين تـارة إلى فـاس والمرينـين إلى تونس، بينما وقعت دولة بنى زيان فريسة بينهمـا ، تنتمـى مـرة لـلأولى ، وأخـرى للثانية ، وترى وجوب التخلص منهما معاً . وهكذا مضى القرن الخامس عشر فى مد وجزر فى بلاد الشمال الأفريقى .

ثم كان أن استقلت جهـات عديـدة فـى أطـراف ووسـط المغـرب العربـى بنفسها، مكونة إمارات اقطاعية أو ما يشبه ملوك طوائـف ، يظهـرون كالفقـاقيع فوق سطح الماء ثم يختفون بسرعة (٨٣) كبنى هنتاته فى مراكش وبنى راشـد فـى شفشاون (٨٤) وكاستقلال واحات فكيك وقبائل الوار مسنيس ، وخضوع بـلاد القبائل لسلطان كوكو ، وسيطرة حاكم قسنطينه الحفصى على المنطقة الواقعة بـين عنابه والقل بعد أن تخلص من السيطرة الحفصية ، وصيروره المزاب والحضنة اقطاعاً لعرب الدوادة وغيرها(٨٥) ، فلا تكـاد تعـرف حـدود لدولـة ولا تخـوم مرسـومة لإمارة . وذاق الشعب المغربى من جراء هذا أهوالاً وخطوباً ، مع أن المغرب كـان عندئذ عامراً بالرجال ، مزداناً فى كل جهاته بالعلماء والأدبـاء ، الذيـن لم ينضـب معينهم رغم تلك الأوضاع ، وكان جديراً به أن يؤلف وحدة سياسـية واقتصاديـة واجتماعيـة تجعل منه دولـة مرهوبـة الجـانب قويـة السـلطان كـالدول الإسـلامية السابقة، ولعل ذلك كـان هـدف الحفصيـين والمرينيـين مـن وراء الحـروب والفـتن المتواصلة ، لكـن لم تكـن لأى مـن الدولتـين المقـدرة ولا الإسـتعداد لتحقيـق هـذا الهدف النبيل(٨٦).

وقد حاول أبو فارس عزوز الحفصـى تحقيـق الوحـدة بـين المغـرب ، وصـار قاب قوسين أو أدنى فى تحقيقها ، وذلك حينما اجتـاحـت قواتـه سـنة ٨٢٨ هــ / ١٤٢٤م مملكة الجزائر ، وانتصر على تلمسان وخرج سلطانها أبو مالك هارباً إلى

الجبال ، ثم توجه أبو فارس نحو فاس بعد أن نصب عل تلمسان الأمير محمد بن الحمرة، ثم حدثت تطورات اضطرت أبو فارس إلى العودة إلى تونس ، إذ جاءته بيعة مرين وصاحب الأندلس ، وبذلك صار المغرب الإسلامي بتمامه تحت رعاية السلطان أبي فارس الحفصي .

ولكن المغرب لم يستقر على تلك الوحدة مدة طويلة إذ قام أبو يحيى أحد أمراء البيت الزياني بالاستيلاء على وهران سنة ٨٤٠ / ١٤٣٧ كما خرج أبو عبدا لله محمد الرابع (ابن الحمرة) في سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٤٠ م وضم تلمسان ، ولكن ما كاد ينعم بالملك حتى فاجأه السلطان الحفصي فأسره ، ونصب مكانه عمه أبا العباس أحمد العاقل ، وهكذا مضت تلك الحقبة بين تناحر المتنافسين ، وتقاتل الدولتين المتجاورتين ، بل ظل التناحر بين الأسر المالكة نفسها ، فلم يستتب الوضع فى أنحاء الجزائر وأخذ الحفصيون كغيرهم من ملوك المغرب الأقصى يترقبون نشوب الخلاف بين أمراء البيت الزياني ليتوسعوا ، ويحققوا هدفهم وهو الإستيلاء على هذه المملكة (بنو زيان) وضمها إلى حكمهم : ثم جاء الدور للحفصيين ، إذ خرج السلطان أبو عمر عثمان الحفصي من تونس سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦٣ م متجهاً نحو عاصمة المغرب الأوسط (تلمسان) فأخضع قلعة جليمة وأرض بني راشد . وهنالك جاءته وفود عربية من سويد وبني يعقوب وبني عامر والدواودة وأعيان عبد الواد ، وكلهم ناقم على السلطان على الزياني راغب في الحفصيين ، فأحسن أبو عمرو استقبالهم وعين ولاته عليهم ، وعقد الصلح مع ملك تلمسان(٨٧) وهكذا ذهبت دولة بني زيان التلمسانية ضحية محاولات الحفصيين والمدنيين وأطماعهم ، فكل من الجانبين كان يرى ضرورة إنهائها والإستيلاء على أرضها تحقيقاً لمصالحه فاستنزف ذلك قواها المادية وعجل باضمحلالها وسقوطها ، كما شجع الأمم النصرانية على التطاول فى نشاطها على سواحل الشمال الأفريقي ، وأخذت تطرق أبواب المغرب بشدة منذ بداية القرن

الخامس عشر ، وذلك حين هاجمت تدلس (٨٨) ، وعنابة (٨٩) أساطيل بلنسية وميورقة معاً كما تطاول صاحب قشتاله ، الذى كانت تراوده نزعة صليبية مفرطة على تطوان(٩٠) فخربها وقتل نصف سكانها وساق الباقين من رجالها ونسائها أسرى وسبايا ، فى حين كان ملك المغرب المرينى يحاصر مملكة تلمسان من أجل ارغامها على التبعية(٩١) مما شجع الدول النصرانية على النزول فى الشمال الأفريقى فى ظل غياب الدولة الإسلامية التى تستطيع حماية الشواطىء من الأعمال الوحشية النصرانية ، وعدم وجود الغيره من قبل الحكام المسلمين الذين كان لا يهمهم سوى تحقيق مصالحهم ورغباتهم على حساب المسلمين ، والا بماذا نفسر حصار ملك المغرب لتلمسان فى الوقت الذى تدك مدن تطوان وتدلس وعنابة وتنتهك أعراض المسلمين ولا يحرك ذلك ساكناً لحاكم المغرب ؟ ولعل هذا يفسر حالة المغرب فى مطلع العصر الحديث : تقهقر وفوضى وانحلال ، فى الوقت الذى يخرج العالم الأوربى من عصوره الوسطى المظلمة ، لينطلق نحو العصر الحديث ، فانطلقت الأفكار واتجهت العقول نحو التحرر وبزغ عصر النهضة فى أوروبا .

* * *

أما عن أسبانيا فقد كان لطغيان الأسبان بالأندلس واعتداءاتهم المتكررة على المسلمين تأثير عظيم على جمعهم ، فأخذوا يلجئون إلى الشمال الأفريقى ابتداء من سنة ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م ، حيث نزل أكثرهم بالجزائر ، فلحقهم الأسبان بمراكبهم ، لتبدأ الحروب البحرية بين الجزائريين والنصارى وكان أن اتحد الأندلسيون مع أهل الجزائر على مناوأة العمارة النصرانية فى البحر المتوسط ، ولكن بونه (عنابة) سقطت بيد الأسبان سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م ، ثم تبعها غيرها من مدن السواحل المغربية(٩٢) .

وقد توقفت حركة الاسترداد فى قشتالة تقريباً خلال الاضطرابات الأهلية فى القرن الخامس عشر ، إلا أن سقوط القسطنطينية فى يد العثمانين سنة ١٤٥٣

أشعل حماس الدول النصرانية فاستجاب ملك قشتالة إلى نداء البابا نحو حرب صليبية جديدة باستئناف حركة الاسترداد فتوغلت ست حملات عسكرية ضخمة داخل مملكة غرناطة إلا أنها لم تحقق أهدافها .

وكانت الحرب الصليبية ذريعة لملك قشتالة فى جباية الأموال من رعاياه وتحت اشراف البابا ، على أن الحماس الحقيقى للحرب الصليبية أصبح غير متأجج لدى البلاط الملكى ، فى حين كان الشعب القشتالى متحمسا ، فسار بأعداد كبيرة للمشاركة فى حرب صليبية ضد الدولة العثمانية .

ومن ناحية أخرى فإن فكرة الحرب الصليبية ظلت قائمة لدى فرديناند وايزابيلا على اختلاف أشكالها الدينية والوطنية والعاطفية مما أدى إلى استئناف الهجمات القوية على غرناطة فلاقى هذا العمل تأييد شعبى ، وتجمع أهل البلد وساروا خلف حكامهم للقيام بانجاز بطولى برفع مكانة أسبانيا فى العالم النصرانى(٩٣) والتى كانت تنافسها عليها حكومة البرتغال .

وقد بدأ الهجوم الأسبانى على مملكة غرناطة عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م ، فأخذت المدن تتساقط فى يد الأسبان ، ولم يبق منها سوى غرناطة وتميزت بأرضها الجبلية التى حدت من حركة الفرسان ، كما كانت حرب حصار ، سيطر فيها سلاح المشاة والمدفعية ، وكان سلاح المشاة يتكون من الجنود المرتزقة والمتطوعين الوافدين من أنحاء أوروبا ، كما أن مجموعة منهم كانت من الحرس الوطنى فى قشتالة المعروف عنهم قوة التحمل على المناخ وشدة مراسهم فى المعارك الأوربية والعالم الجديد ، وفى حرب غرناطة قاموا بحرب العصابات وذلك بالهجوم المفاجىء تارة وبالمناشات تارة أخرى(٩٤) .

وكان أن تغلبت العزيمة الأسبانية والقوة النصرانية على عوامل الانهيار والانقسام الذى ساد المسلمين فى شمال أفريقية وتوالت النكبات على المسلمين مدة

عشر سنوات بدون انقطاع ، فأخذت مدنهم الواحدة بعد الأخرى ، كما فنى رجالهم قتلاً وأسراً وقاتل المسلمون عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج بل عن كل صخرة ، كأنهم ينتظرون الفتح . ولم يجدوا مكاناً تثبت فيه اقدامهم ولاجداراً يمكنهم رمى السهام من ورائه إلا واعتصموا به ، يتازعون العدو وطنهم المحبوب حتى لم يبق لهم إلا عاصمتهم مقطوعاً عنها كل مدد ، غير طامعة فى أدنى غوث تنزل على أسوارها ، أمة بقضها وقضيضها ولم يزالوا يدافعون عنها ، كأنهم يترقبون معجزة يرسلها الله فى حقهم .

وضاق عليهم الحصار ، وبنى فرديناند وايزابيلا مدينة كاملة تجاه مدينتهم ، إشعاراً لهم بأنهم لن يرجعوا عنها أبداً ، قرر الشبان والمجاهدون تحت زعامة موسى أبى الغسان الثبات والموت إلى آخر رجل ، تحت سنابك الخيل . إذ لم يبق هنالك إلا أحد أمرين : الإستسلام أو الهلاك المحقق فى أنقاذ الشرف .

لكن أهل غرناطة خافوا فضيحة النساء وانتهاك حرمة البنات وتشتيت الشمل وفقد المال ، فقرروا الإستسلام بعد مقاومة بطولية ، ورضوا أن يكونوا من رعايا الدولة الأسبانية مقابل اعترافها بحرية دينهم ، واحترام عقائدهم والمحافظة على أموالهم وممتلكاتهم ، وحرية من أراد منهم الإنتقال بماله وأهله إلى بلاد المغرب العربى . وهكذا استسلمت آخر دويلة أندلسية وخرج ملكها أبو عبد الله يبكى وينوح وأمه عائشة الحرة تقول له : أبك مثل النساء ملكاً لم تدافع عنه دفاع الرجال(٩٥) .

وفى اليوم الثانى من شهر يناير عام ١٤٩٢ صدر أمر الملكان الكاثوليكيان باحراق مليون وخمسمائة ألف كتاب تشمل وثائق ومخطوطات تتعلق بالإسلام لكى يسهل على الأسبان إبعاد المسلمين عن مصادر عقيدتهم الإسلامية ويسهل القضاء عليهم(٩٦) .

وعهد الملكان الكاثوليكيان إلى حكومة جديدة بمعاملة المسلمين معاملة حسنة وإدخالهم فى النصرانية بالتدريج ، مع بذل قصارى جهدهم فى تحقيق ذلك، وترغيبهم بشتى الوسائل ، فأخذت الحكومة تبنى المنشآت الخيرية ، وتحث رجال الدين على تعلم اللغة العربية ليمكن نشر المسيحية بين المسلمين (٩٧) وكانت مهمة الحكومة أيضاً ضمان الأمن العام ، ودعم سيطرة الملكين على المملكة الإسلامية المنهارة .

وكانت هناك مهمة فى غاية الصعوبة تتعلق بمنطقة البوشرات الجبلية التى يقطنها بعض المسلمين الفارين . وليتغلبوا عليها تم تعيين قيادة ملكية فى عام ٨٩٩هـ / ١٤٩٣ م نظراً لاحتمال قيام حركة عصيان لمجاورتها للشمال الأفريقى وقد بذل الملكان سعيهم فى حث الشخصيات الأندلسية وقياداتها على مغادرة شبه الجزيرة الإيبيرية وتقديم المساعدات لمن يرغب فى الهجرة واستمر السلام يعم أنحاء غرناطة طالما ارتضى الأندلسيون الحكومة النصرانية الجديدة ، وطالما الحرية الدينية قائمة ، والأعمال الخيرية مستمرة(٩٨) ومع ذلك ظلت أسبانيا خاصة والنصرانية عامة تتخوفان الخطر الإسلامى على الرغم من تشييد أبراج المراقبة على إمتداد السواحل الأندلسية ، وترغيب العلماء والشخصيات الإسلامية فى الهجرة من الأراضى الأسبانية ، ولعل مصدر القلق كان الإسلام نظراً لسماحة تعاليمه وسمو أحكامه .

وقد خشى فردناند فى البداية عواقب التسرع فى تنفيذ سياسة إجبار المسلمين على التنصر ، لأن الأمن لم يكن قد توطد فى المناطق المستردة حديثاً ، ولأن المسلمين لم ينزع سلاحهم ، وقد يؤدى الضغط إلى الثورة ، فتعود الحرب كما كانت ، لخوف الملك الأسبانى من إقتحام الإسلام أراضيه ، استجاب لرأى الكنيسة ، واستدعى الكردينال خمنيس إلى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين ، فوفد عليها فى شهر ذو الحجة ١٢١٤ هـ / يوليه ١٤٩٩ م ، ودعا

أسقفها الدون فيرا ، إلى إتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وأمر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية ، وأغدق عليهم الهدايا والمال(٩٩) ، كما دعاهم للمناظرة . وكانت المناظرات تستمر طوال اليوم ثم تستأنف ، وأخذ الفقهاء يقارعون الحجة بالحجة ، ويفندون رأيه جملة وتفصيلاً . وطال النقاش والمناظرات ، ومل الفقهاء تلك الجلسات ، وأيقنوا أن كبير أساقفة قشتالة يمكر بمسلمي غرناطة ولن يكل أو يمل حتى يحقق هدفه ، وأمام هذه المقاومة من الفقهاء وحثهم على محاربة دعوة خمنيس ، أمر خمنيس بإحضار ثلاثة آلاف أندلسي ، وجمعهم في الكنيسة التي خصصها لشن حملته ، وراح يدعوهم إلى التنصر فيضر بهم تارة ويرهبهم أخرى فتصدى له فقهاء غرناطة وسفهوا آراءه . ووصل الأمر ذروته حين بدء خمنيس في إحراق كل ما تقع عليه أيدى عماله من نسخ القرآن الكريم . وكان خمنيس يرسل بعض عماله إلى البيازين(١٠٠) للتعرف على أخبار أهلها ، حتى اشتبك ثلاثة منهم مع بعض أهل غرناطة ، قتل على إثرها أثنان من العمال ، وكانت هذه نقطة التحول . إذ أخذ زعماء غرناطة وعلماؤها بالبيازين يحثون الناس على حمل السلاح وإعلان الإنتفاضة دفاعاً عن وجودهم ودينهم والتصدى لممارسات خمنيس بعد استفحال خطره ومضيه في مسلكه دون رادع(١٠١) .

ثم كان أن قرر مجلس الدولة الأسباني أن المسلمين صاروا خطراً على الدين والدولة ، ولاسيما بعد ما تبين جنوحهم إلى الثورة ومحاولتهم الإتصال بإخوانهم في المغرب ومصر والقسطنطينية ، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية ونفى المخالفين منهم من الأراضى الأسبانية ووقع هذا القرار على المسلمين وقع الصاعقة، وسرعان ما دبت فيهم الحمية فأعلنوا الثورة في معظم نواحى غرناطة وفى بعض البيازين وفى البشرات ، واشتد الهياج في بلفيق وفى أندرش(١٠٢) حيث نسف حاكم البلدة مسجدها بالبارود ، وفى نيخار وجوبجار(١٠٣) وغيرها، وعزم المسلمون على الموت في سبيل دينهم وحريتهم ، ولكنهم كانوا

عزلاً ، بينما جنود النصارى يحملون أسلحة ، مزقوا بها المسلمين بلا رأفة ، وأكثروا بينهم القتل وسبوا نساءهم ، وقضوا بالموت على مناطق بأسرها ، ماعدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة فقد حولوا إلى نصارى ، ولجأت الحكومة بعد إخماد الإضطرابات فى غرناطة والبيازين إلى أساليب الرفق ، فبعثت بالعمال والقسس إلى مختلف الأنحاء ، ولم يدخر هؤلاء وسعاً فى إجتذاب المسلمين بالوعيد والوعود .

ونشط فرديناند فى إخماد الثورات فى الوقت الذى غدا التنصير أمراً لا مفر منه ، وأضحى فرديناند يعتبر نفسه فى حل من عهوده المقطوعة للمسلمين ، فتقدم المدعى العام با قتراح يرى فيه وجوب إنشاء ديوان للتحقيق فى غرناطة ، يساعد فى مطاردة الزيغ بوسائله الفعالة ، إلا أن فرديناند وأيزابيلا عارضا الفكرة .

وكانت الكلمة الفاصلة للكنيسة دائماً ، ففى ٢١ يوليه سنة ١٥٠١ م أصدر فرديناند وإيزابيلا أمراً ملكياً مفاده « أنه لما كان الرب قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، فإذا كان بها بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم ، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم ، أو بأولئك الذين نصروا لئلا تفسد عقيدتهم ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال».

ولم تصمد ثورة المسلمين إلا فى المنطقة الجبلية (جبال الحمراء) الواقعة بين أكام فليا لونجا وسيرا فيرسليا بجوار مدينة رفدة حيث احتشدت بعض البطون المغربية ، وحيث استطاع الثوار أن يقتحموا مقر سكان الجبال الأصليين ويفتكوا بعمال الحكومة وجندها ، مما دعى فرديناند إلى تسيير حملة قوية إلى المنطقة الجبلية بقيادة الفونسو دى آجيلاد دوق قرطبة فى مارس ١٥٠١ م هزم فيها النصارى ، وقتل منهم أعداد كبيرة وفى مقدمتهم قائد الحملة ، وكان لهذه الهزيمة التى نزلت بالأسبان أعمق الأثر فى البلاط الأسبانى ، إذ هرع فرديناند إلى غرناطة ورأى بالرغم من سخطه أن يجنح إلى اللين والمسالمة ، فأعلن العفو عن الثوار ، شرط أن

يعتنقوا النصرانية خلال ثلاثة أشهر أو يغادروا أسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فآثر معظمهم النفى والجواز إلى أفريقيا ، وهاجرت منهم جموع كبيرة إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها ، وقدمت الحكومة الأسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة إذ كانوا أشد العناصر مراسا وأكثرها نزوعاً إلى الثورة(١٠٤) .

والواقع إن خطر الثورة بلغ ذروته بعد أن تلقى الثوار الأندلسيين الدعم الكافى والتحريض على القتال من إخوانهم فى شمال أفريقيا ، فشعرت الحكومة الأسبانية على أثره بحافز جديد لمشروع طويل الأجل يهدف إلى استمرار الحرب الصليبية ، وذلك بنقل الحرب إلى أفريقية ، واعتبرت الحكومة الأسبانية الحرب هناك حلقة طبيعية للسيطرة على غرناطة ، خاصة وأن الوقت أصبح مناسباً لإنجاز المشروع لما تشهده بلدان المغرب من إنحلال أثر الخلافات بين الحكومات الجزائرية والمغرب وتونس ، وكذلك بين سكان الجبال وسكان السهول وبين السكان الأصليين والمهاجرين الأندلسيين ، وفى الواقع كانت أراضى شمال أفريقيا أرضاً غير مناسبة للأسبان لخوض تلك الحروب ، ولكن سكانها المسلمين كانوا غير ملمين بوسائل قشتالة الحربية ، فضلاً على إستغلال الأسبان الخلافات الداخلية والعديد من الإمكانيات .

وكان البابا الكسندر السادس قد بارك الحرب الصليبية الأفريقية منذ فترة طويلة فى عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م وسمح باستمرار جباية الضرائب لتغطية تكاليف هذه الحرب ، والتى تأجلت مدة عشر سنوات ، حاربت خلالها الجيوش الأسبانية فى إيطاليا ، فأهملت الجبهة الجديدة ضد الإسلام فى أفريقية و لم تشهد نشاطاً سوى على ميناء مليلة سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧م(١٠٥) ، بقيادة دوق مدينة شدونة Sidonia ، ومنها أخذ الأسبان يتتبعون فى قلق تفاقم الصراع بين بنى وطاس والأشراف(١٠٦) .

وتيقنت قشتالة الخطر الداهم عبر بوابة شمال أفريقيا ، مما أشعل حماس الشعب الأسبانى الدينى ، فأيقظ ذلك الشعور بضرورة شن حرب صليبية ضد الإسلام ، وساند ذلك الشعور خمنيس والملكة ، إلا أنه لم تتخذ إجراءات عملية حتى وفاة الملكة عام ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م ، إذ نفذ خمنيس وصية الملكة الأخيرة ، وهى أن يبذل الملك جهوده لفتح أفريقيا وحرب المسلمين ، فأجتاح حماس خمنيس كل العقبات ، وأعد حملة فى مالقة Malaga أبحرت إلى شمال أفريقيا فى خريف عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م (١٠٧) بقيادة دون رايمون دى قرطبة ، فوصل الأسطول بعد أن اعترضته رياح معاكسة ، وكان التأخير مفيداً للأسبان ، إذ انسحب المحاربون بعد أن ملوا الإنتظار وقلت المؤن فسهل ذلك مهمة المهاجمين ، الذين حاصروا المرسى الكبير ، عندئذ اجتمع أهل المدينة وأصحاب المشورة الذين رأوا عدم جدوى المقاومة ، لكثافة الجنود الأسبان وقرروا عقد إتفاقية مع الأسبان تضمن لهم السلامة وحرية الإنسحاب من المدينة ، وبذلك تم الإستسلام(١٠٨).

وكان أن فتح الأسبان سوقاً تجارياً بجانب مدينة المرسى الكبير ، وذلك لتزويد الحامية بما يلزمها من المواد الغذائية ، مقابل ما لدى الأسبان من ذهب وفضة فنشأ تبادل تجارى مع المسلمين فى الشمال الأفريقى .

وأراد القائد الأسبانى على مدينة المرسى الكبير ، القيام بمناورة حربية حول قرية مسرغين المعروفة بثراء وغنى أهلها ، فغادر المدينة فى ٢١ شعبان ٩١٣ هـ / ٦ يناير ١٥٠٧ م ، ومعه كامل الحامية الأسبانية ، ثم هاجم السكان وقتل القادرين على حمل السلاح وساق البقية أسرى ، إلا أن رجال القرى الأخرى عندما علموا بذلك ، اندفعوا لإنقاذ إخوانهم ، كما بادرت مدينة وهران حيث قيادة المعقل الإسلامى بإرسال قوة ، فتجمعت تلك القوى وأنقذوا أهالى مسرغين من الأسر .

وتطايرت أنباء انتصار مسرغين على الأسبان إلى مختلف الجهات المغربية ، وفهم العامة أبعادها ، فاستعدوا للجهاد الأكبر ، إلا أنه وجدت هنالك فئة من

المنافقين رأت الإفادة من هذا الوضع الجديد والإستعانة بالأسبان ضد إخوتهم كما استغل الحاكم الأسباني للمرسى الكبير الفرصة فبذل جهوداً بواسطة جماعة اصطفاهم من الأعراب المحيطين بالمرسى الكبير والملقبين بالمغطسين(١٠٩) ببث جذور الفتنة والشقاق بين المسلمين ، وترغيبهم ببذل الإعانات والمساعدات ، وذلك تمهيداً لاحتلال وهران . ونجحت مساعى الحاكم الأسبانى إذ أعلن يحيى الثابتى الثورة ، وتغلب على مدينة تنس بمساعدة الأسبان وحمايتهم ، وبذلك أنغمست الجزائر فى الفتن الداخلية التى كان يبثها الأسبان ، فجهز أبو حمو الثالث جيشه لقتال ابن أخيه بتنس واشتعلت نيران الحرب الأهلية وكانت المعارك الأولى نصراً للسلطان أبو حمو على ابن أخيه لولا رفض جيش تلمسان الاستمرا فى القتال، فثبت يحيى ابن عم السلطان فى تنس ، وعادت جموع أبى حمو إلى تلمسان(١١٠) ، وهكذا مضت القوات الأسبانية بقيادة حاكمها تمهد لاحتلال النقطة التالية وهى وهران .

وكانت وهران مهبط التجار الأوروبيين وبالذات القطلونيين ، والجنويين ، وكان سكان وهران أعداء لملك تلمسان ، فلم يقبلوا بولاته ، ماعدا أميناً للمال ، وقابضاً لدخل الميناء وكان التجار يجهزون سفناً شراعية وأخرى مسلحة ، يهاجمون بها سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة ، حتى صارت المدينة تزخر بالأسرى المسيحيين(١١١) مما دفع الحكومة الأسبانية بالإسراع فى أحتلال المدينة ، إذ أرسل فردناند اسطولاً كبيراً عام ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ إلى وهران لمحاربة أهلها وتخليص المسيحيين ، إلا أن الأسطول تلقى هزيمة بسبب سوء التنظيم ، فأعاد الملك المحاولة فجمع بمساعدة بعض الأساقفة والكردينال خمنيس أسطولاً أضخم من الأول تمكن من الإستيلاء على المدينة ؛ إذ خرج السكان يقاتلون بغير نظام وتركوا المدينة خالية ، فانتهز الأسبان الفرصة ودخلوا المدينة يوم الجمعة ٢٨ محرم سنة ٩١٥ هـ / مايو ١٥٠٩م(١١٢) .

كانت أسبانيا تسير فى معاركها الأفريقية حسب خطة مرسومة وبرنامج محكم ، فما كادت تثبت أقدامها فى الجناح المغربى من الجزائر حتى اتجهت إلى الجناح الشرقى وأخذت تستعد لإنزال الضربة القاصمة بمدينة بجاية ، التى كانت مركز أشعاع حضارى وعلمى ، رغم ما شهدته من الفتن والأطماع حول العرش ولم تغب هذه الأمور عن أسبانيا فارسلت أسطولاً بقيادة بدور نافارو فى ٣٠ نوفمبر ١٥٠٩ م ، مكوناً من عشرين سفينة على متنها عشرة آلاف رجل من صفوة الجيش فاستطاعوا أن يحتلوا المدينة على الرغم من دفاع المجاهدين الكبير ، وما كادت أنباء النصر فى بجاية تبلغ مسامع أسبانيا والبلاد النصرانية ، حتى أقيمت الإحتفالات والصلوات ، وأعلنت الأعياد ، أما فى البلاد الإسلامية فقد أحدثت هذه النكبة أسى عميقاً وساد القسم الشرقى من البلاد الهلع ، فبادر السلطان الحفصى بإسترضاء الملك الأسبانى أسوة بملك تلمسان بعد نكبة وهران ، كما قرر سكان الجزائر وعلى رأسهم الشيخ سالم التومى ، وجوب استرضاء الأسبان وعقد إتفاق معهم يصون حياتهم ، ويضمن بقاءهم . واتفق الطرفان الجزائرى والأسبانى على معاهدة تم بموجبها تعهد الجزائريين بإطلاق سراح الأسرى وأن لاتتعرض للسفن النصرانية ، وأن يدفع الجزائريون للأسبان مبلغاً مالياً اعترافاً بالتبعية(١١٣) .

وقد ازدادت الخلافات حدة بين فرديناند وخمنيس الذى كان يرى ضرورة التوغل فى أفريقية حتى مشارف الصحراء الكبرى بدافع من روح صليبية ، بينما لم يهتم الملك اهتماماً كافياً بأفريقية ، بل أخذ فى الأعتبار الأول حماية إيطاليا من هجوم ارجوان ، فاكتفى باحتلال محدود لسواحل أفريقية، يكفى لحماية السواحل الأسبانية من الهجمات الإسلامية . واكتفى الجيش الأسبانى فى عهد فرديناند بالاستيلاء على بعض المواقع الإستراتيجية ، وإقامة معسكرات عليها تاركاً البلاد الداخلية للسكان المسلمين ، فدفعت أسبانيا نتيجة ذلك الثمن غالياً ، إذ استطاعت القوى الإسلامية القيام بأعمال جهادية بحرية ، انطلاقاً من القواعد الإسلامية المقامة على إمتداد الساحل (١١٤) .

وكان أن أمعن الملك الأسبانى فى الإهتمام بالجناح الشرقى حيث كانت طرابلس أقوى مركز يمكن أن يتخذ لمواجهة الخطر العثمانى فى البحر المتوسط ، لأنها أكبر مدينة فى الجناح الأفريقى الشرقى ، وأقوى نقطة للدفاع عنه من الهجوم من الشرق ، وأقرب نقطة لتمويل ونجدة الجيوش التى تغزو الشرق فى حالة شن هجوم نصرانى على الأراضى المقدسة .

وكانت طرابلس تمتاز بنصيب وافر من الثروة والرفاهية علاوة على موقعها الجغرافى الهام وهو مادفع الطامعين للإستيلاء عليها وعلى بقية البلاد الإسلامية المجاورة لها والإستيلاء على ثرواتها فائدة أخرى وهى منع المسلمين من الإنتفاع بها فى تكوين الجيوش والأساطيل وتقوية القلاع التى قد تحول بينهم وبين احتلالها هى وسائر المدن الأخرى ، وبذلك يصبح مركز مالطة بل والشمال الأفريقى فى خطر(١١٥) .

وكان أن انتهز الأسبان فرصة إستنجاد أحمد الحفصى بهم ، وذلك على والده الناصر إثر خلاف بينهما . وصادف أن وفد تجار من الأسبان كانوا فى طرابلس ، فلما عرفوا الحال السياسى أخذوا يغرون حكومتهم باحتلال طرابلس ويقللون من شأنها فى الدفاع عن نفسها ، ويبالغون فى وصف ثروتها الهائلة ، فشجع ذلك الملك الأسبانى على التعجل بإحتلالها ، وقد جهز مائه وعشرين قطعة بحرية ، وانضم إليها سفن أخرى من مالطة حملت على متنها قرابة عشرين ألف جنديا من الأسبان والطليان . وعندما بلغت أخبار الغزو الأسبانى إلى الطرابلسيين فر كثير منهم إلى المناطق المجاورة(١١٦) وكان الملك الأسبانى قد بعث بخطاب إلى قائده الكونت بدورنافارو يوضح فيه خطة الحكومة الأسبانية تجاه أملاكها على ساحل أفريقية ويحثه على ضرورة الإستيلاء على طرابلس ، وقد جاء فى الرسالة مايلى : (مونزون فى مايو سنة ١٥١٠ م) .

« إلى الكونت دون بيتر دى نافارا ، القائد العام بجيشنا ومستشارنا :

لقد تلقيت رسائلكم الثلاثة المؤرخة فى ٣ مايو ، والتى وجهتموها إلى من بلنسيه ، وذلك الخطاب المؤرخ فى الخامس من نفس الشهر ، والذى حمله إلى حارس بلاطى (ميجويل كابريرا Miguel Calbrea) ولقد أصدرت أوامرى فى هذه الساعة بأن يطلب من (ألونزو سانشيز Alonzo Sanches) كتابياً بالعمل فوراً على طحن ألف كيس من القمح وفى نفس الوقت فطائر البشماط المصنعة من بعض هذا الدقيق ، وهى مؤنة تكفى ثمانية آلاف رجل لمدى خمسة عشر يوماً على الأقل ، ونظرًا لنقص الطعام فى بلنسيه حالياً ، فإننى قد كاتبت كذلك (فارقاس - Vargas) خازن مدينة مالقة وطلبت منه على الخصوص أن يبعث إليكم حال تسلمه لمكتوبى ، كل المؤن التى فى إمكانه الحصول عليها ، حتى تتزود بها فى أسرع وقت ولكى تتمكنوا من الرحيل إلى طرابلس . كما أننى قد أمرت نفس الخازن بأن يبعث إليكم عشرة آلاف (دوكات) وبمشيئة الرب سيتمكن الأسطول عند وصوله إلى صقلية من إستكمال تموينات، ذلك أن نائب ملك هذه المملكة قد أخبرنى كتابياً بأن كل شيء جاهز وأعتقد - كما سبق لكم وأن ذكرتم لى فى خطاباتكم مراراً - أننا إذا ماأردنا أن نحافظ على وجودنا فى أفريقية فإنه يتحتم علينا أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس ، وفى حالة احتلالنا هذه الأخيرة يتوجب علينا أن نعمرها برمتها بالنصارى . وإلا فإن المغاربة الذين يسودون بقية مناطق البلاد(١١٧) .... » .

أقترب الأسطول الأسبانى من طرابلس ، ورسا فى مينائها ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٥١٠م ، وسهر بيدور نافارو على ترتيب جيشه واصدار التعليمات ، وفى اليوم التالى بدأ الهجوم إذ أطلقت المدفعية نيرانها واستسلمت المدينة فى ذلك اليوم(١١٨) حيث أبلغ القائد الأسبانى بيدور نافارو ملك صقلية بخطاب مرسل من طرابلس فى ٢٩ يوليه سنة ١٥١٠ ، بأن العمليات الحربية كانت عنيفة ، إلا أنه هنأ نفسه بالنصر الذى تم على يديه(١١٩) .

وقد ابتهجت أوروبا بسقوط طرابلس فى أيدى الأسبان ، وأقام نائب البابا احتفالات بسقوط هذه المدينة العربية الإسلامية فى أيدى النصارى ، كما استاء المسلمون لهذا الإحتلال ، وأرسل رئيس منظمة فرسان يوحنا إلى فرديناند ملك أسبانيا يهنئة بالنصر ويرجوه أن يتابع حملاته فى أفريقية(١٢٠) .

وكان أن طرد نافارو جميع الطرابلسيين حسب التعليمات الملكية السابقة من مدينتهم ، وهدمت المنازل والمبانى العامة ، ثم استعملت المواد المأخوذة من تلك الخرائب لبناء أسوار جديدة ، على نمط التحصينات الأوروبية ، وبعد أن فرغ نافارو من رفع راية الملك الكاثوليكى على طرابلس ، وتقبل يمين الولاء نيابة عن فرديناند ، عهد بقيادة المدينة إلى مساعده (دون خايمى بيدرو ريكيزنس Don Jayme Pedro Reguesens) وترك له قوات ومدفعية كافية للإحتفاظ بسيطرته عليها(١٢١) .

وقد أراد الكونت بيدرونافارو أن يجعل من طرابلس نقطة انطلاق لغزو بقية الشمال الأفريقى وقد بدأ بمحاولة بسط نفوذ بلاده على جزيره جربة التى لا تبعد عن طرابلس إلا بخمسة وثلاثين فرسخاً ، وظن أن العملية سهلة ، فتوجه إلى مضيق القنطرة(١٢٢) بأسطول يتكون من ثلاث عشرة وحدة بحرية ، لكن فظائع الأسبان فى طرابلس جعلت الأهالى على جانب كبير من اليقظة والاستنفار ، ولما اقتربت السفن من الساحل أطلقوا عليها النار ، فمات أحد الموفدين إليهم ، وأيقن نافارو بعزم الأهالى على الدفاع ، فعدل عن الإشتباك فى حرب مع جزيرة جربه وعاد إلى طرابلس مرجئاً عملية الغزو إلى وقت آخر مناسب(١٢٣) وكان ذلك فى ٢٥ جمادى الأولى ٩١٦ هـ / ٣٠ أغسطس ١٥١٠ م فزحف مرة ثانية ومعه [illegible] عشر ألف جاؤا من طرابلس وثلاثة آلاف من بجاية ، فهزم بيدرو نافارو، وبلغت خسائره ألفاً وخمسمائة قتيل ، فاضطر إلى التراجع (١٢٤).

والواقع أن القيادة الأسبانية أرادت أن تحتل موقعاً استراتيجياً على الساحل الشرقى التونسى مهما كلفها الأمر(١٢٥) كما رغب قائدها بيدرو نافارو فى أن يحقق ذلك الهدف قبل عودته إلى أسبانيا ، فضلاً عن أن يجوب بحار ساحل أفريقية الشمالية ، بحثاً عن فرصة للثأر من الهزيمة التى منيت بها الجيوش الأسبانية فى جربة وبعد أن ترك فى طرابلس القوات اللازمة للدفاع عنها ، اصطحب معه ستين سفينة وعلى متنها ثمانية آلاف محارب(١٢٦) ، واتجه نحو الشمال حيث جزائر قرقنة(١٢٧) ، فأنزل بها خمسمائه من جنودها المدربين ، لكن أهل قرقنة لم يكونوا دون أهل جربة استعداداً وتصميماً ، فما كاد يستقر المقام بالأسبان ، حتى كر عليهم أهل جزائر قرقنة ، فى هجوم قوى ، كان النصر فيها للمجاهدين ، إذ قضوا على كامل رجال الحملة الأسبانية وعاد بدرو نافارو إلى بجاية فى شهر فبراير سنة ١٥١١ م ، ثم عزله الأسبان(١٢٨) .

وبينما كان الملك الأسبانى غارقاً فى مشاكل السياسة الأوروبية ، مما أفقده جزءاً من إهتمامه بالشئون الأفريقية كانت هنالك قوة جديدة قد أخذت تبرز فى شمالى أفريقية إذ ظهرت أعمال جهادية قام بها السكان ، والمهاجرون الأندلسيون ، ضد الأراضى الأسبانية والسفن النصرانية ، يتقدمهم الأخوان بربروسا - عروج وخير الدين - فبعد اشتغالهما بالجهاد البحرى فترة من الوقت ، أقام هذان المجاهدان ذائعا الصيت فى تونس بموافقة سلطانها الحفصى محمد ، ومن هناك أخذا ينشران الرعب والذعر على الشواطىء الأسبانية والإيطالية(١٢٩) مما أكسبهما ولاء وإخلاص غالبية المجاهدين المغاربة نتيجة لغاراتهم الناجحة ، كما استطاع الأخوان السيطرة على السواحل الجزائرية فترة زمنية(١٣٠) فاتجها بأنظارهما فى البداية إلى بجاية ، وهاجماها أولاً سنة ١٥١٢ ، لكن الأسبان أجلوهما عنها ، فاتجها إلى جزيرة جربة حيث ظلا فيها يستجمعان قواهما سنة ١٥١٣ ، وكان وجودهما بالجزيرة تهديداً للأسبان فى طرابلس ، غير أن العاصفة هبت من ناحية

أخرى ، وضمن عروج الأرخبيل الذى كان يحتله الجنويون ، ثم قام الأخوان بتوحيد جهودهم ، وعادوا إلى محاصرة بجاية حيث لم يكتب لهما النجاح(١٣١).

وقد رسا الأخوان عروج وخير الدين فى السواحل الجزائرية لقضاء بعض المهمات ، فاتصل بهما الأهالى ملتمسين منهما طرد الأجانب وانقاذ ثغورهم ، فلبى الأخوان نداءهم ، وكان أول من شرعوا فى انقاذه مدينة جيجل سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤ م(١٣٢) بمساعدة الأمير ابن القاضى ، وألزم عروج أهالى جيجل دفع زكاة العشر على الحبوب والثمار مما هو معمول به(١٣٣) .

وعندما علم الجزائريون بوفاة الملك الأسبانى فرديناند ، انتهزوا الفرصة ، واستمسكوا بخير الدين لحماية بلادهم ، وبايعوه أميراً على البلاد ، إلا أنه سخط عليهم لخيانة بعضهم واتصالهم بالأسبان فغادرهم سنة كاملة ، ثم ألحوا فى عودته، وأكدوا عليه قبول دعوتهم ، فأظهر امتناعاً ، ثم لبى دعوتهم على أن يشاركه أخوه عروج ، فسار فى البداية على مدينة شرشال فضمها إليه سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ، وتقدم بعدها إلى مدينة الجزائر ، فأنقذها من الأسبان . إلا أن الدسائس أخذت تعمل عملها ، إذا انقلب ضده حاكم الجزائر ، وبيت له العداوة مع الأسبان الموجودين فى الحصن فكأنهم بذلك حسدوه ، فنشط عروج للإنتقام من مشيخة مدينة الجزائر ، فقضى على حاكمها سالم التومى ، ونصب نفسه أميراً على الجزائر ، وفى اثناء ذلك استنجد يحيى بن سالم التومى بالأسبان فى مدينة وهران فجهز له هؤلاء أسطولا ضخماً ، لقى مقاومة عنيفة من الأهالى وعروج ومهاجرى الأندلس ، فانهزم الأسبان وتفرقت جموعهم ، وعندئذ توجس أهالى الجزائر خيفة من تسلط الأتراك عليهم وخروج الأمر منهم ، فاهتموا بحاكم مدينة تنس حميد بن العبيد من بنى سهل الذى راسل الأسبان بدوره يحرضهم على المساعدة فى طرد الأتراك . وقد تعددت المراسلات حتى وصلت حملة إلى الجزائر فى ٣٠ سبتمبر ١٥١٦ م فأسرع عروج وصد الحملة بمساعدة الجالية الأندلسية ،

وقضى على حركة المتآمرين ، ثم أخذ عـروج فـى توسـيع نطـاق حكمـه ، فضـم متيجة ومليانة ثم بلاد القبائل(١٣٤) ونصب عليها أخاه خير الدين وأقامه بدلس . ثـم هـاجم تنـس وفتحهـا فـى جمـادى الثانيـة ٩٢٣ هـ / ينـاير ١٥١٧ م ، وقتـل حاكمها الموالى للأسبان. ثم قسم إدارة البلاد مع أخيه خير الدين فـاضطلع هـو بغربهـا وجعل مقره مدينة الجزائر ، بينما حكم الجزء الشرقى خير الدين ومقره تدلس .

وقد استعمل عروج أخاه أسحاق على قلعة هوارة ، وأكد عليه فى تشـديد الضغط على الأسبان المقيمين بوهران وقطع الإمدادات عنهـم . وعندمـا جـاء أبـو حمو الثالث ومعه الأسبان ، ودارت المعارك هناك ، استطاع الأتراك أن يصدوا أبـو حمو والأسبان عن القلعة ، مما جعل أبا حمو يعيد محاولته ، فحاصر القلعة ، وضيـق عليها الخناق مدة ستة أشهر ثم رفع الحصار عنها .

ثـم انتقـل الميـدان بعـد ذلـك إلى تلمسـان حيـث طلـب أهلهـا مـن عـروج مساعدتهم ، بعد أن عاد إليها أبـو حمـو الثـالث وحلفـاؤه الأسبان ، فحاصروهـا ووقفوا فى وجه عروج وقاتلوه ، وقد استمر عـروج يخوض غمـار الحـرب حتـى استشهد هو وجماعته معه فى الميدان سنة ٩٢٤ هـ / ١٥١٨ ، وأعـاد الأسبان أبـا حمو إلى عرشه المهزوز على أن يكون حليفهم ضـد الأتـراك ، ويدفـع لهـم سـنوياً مبلغاً مالياً كبيراً(١٣٥).

* * *

يتضح مما سبق مدى التفكك السياسى فى الشـمال الأفريقـى ، والـذى بلـغ مداه فى أوائل القرن العاشر الهجرى / السادس عشـر الميـلادى ، علـى الرغـم مـن التهديد الخارجى ، فنجد مثلاً طرابلس تستعين بفاس ضد الحفصيين ، وفـى شـرق الجزائر يستمر النزاع بين الأمراء الحفصيين من جهة ، وتتنازع فيما بينهما إمـارات بربرية صغيرة فى بلاد القبائل من جهة أخرى ، كل ذلك سهل على الغزاة الأسبان

الإستيلاء على أهم الموانى الجزائرية الإستراتيجية ، علاوة على موانىء مراكش فيما بين ٩١٥ هـ / ٩٢١ هـ - ١٥٠٩/١٥١٥ م ، وذلك ضمن خطة مرسومة للسيطرة على المغرب العربى كله كخطوة أولى للوصول إلى الشرق حيث التجارة الشرقية والأماكن المقدسة .. وهيأ الله تعالى لشمال أفريقيا بمجموعة من المجاهدين وعلى رأسهم عروج وخير الدين إثر اشتداد الصراع بين أتباع الإسلام وأتباع النصرانية ، والذى جذب عدداً كبيراً من البحارة المغامرين كانوا قد نشأوا فى خدمة أسطول الدولة العثمانية ، فاستطاعوا أن يحرروا مناطق عدة من الشمال الأفريقى ، لفترة قصيرة حتى أجلاهم الأسبان عنها بمساعدة بعض الحكام والأهالى، بعد أن رأوا فى المجاهدين الأتراك والأندلسيين أمماً دخيلة عليهم ، لذلك لم يتمكن عروج وخير الدين من تثبيت دعائم حكمهما وتوحيد المناطق لمواجهة العدو . وإن خاضا معارك جهادية مشرفة وأشعر أسبانيا أن فى الميدان رجالاً وأن وجودها فى الشمال الإفريقى سيكلفها الكثير من الدماء والأموال وأنه لن يطول مداه .

إن الإجراءات التى اتخذها عروج وخير الدين لمواجهة الخطر الأسبانى لم تكن ترقى إلى مستوى صد الهجمات الأسبانية ، ولا يمكن أن تصل لمستوى دولة حديثة قوية ، فالمجاهدون كانوا يواجهون امبراطورية لها خبرتها وإمكانياتها الحربية فضلاً عن مساعدة بعض الأهالى المسلمين لها لذلك جاءت مواجهة المجاهدين لأسبانيا غير متكافئة ، أمام ذلك الوضع المتدهور اتضحت أهمية وجود دولة إسلامية قوية تستطيع توحيد المغرب للوقوف أمام القوى النصرانية ، وهذا ما حاول تحقيقه خير الدين بربروسا .

الهوامش

(١) محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب . بيروت ، دار الغرب الإسلامى ، ١٩٨٢ ، ص ٢٤١ .

(٢) نهر دويره يقع فى شمال غرب شبه الجزيرة الأيبرية ويصب فى المحيط الأطلسى ، انظر محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص٢٩ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة لجنة التأليف والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ١٩-٢٠ .

(٤) نهر التاجه يقع فى شبه الجزيزة الأيبرية ويصب فى المحيط الأطلسى وتقع عليه مدن طليطلة وأشبونه .

(٥) طليطلة يسميها الأسبان توليدو Toledo وتقع إلى الجنوب من مدينة مدريد على نهر تاجو وكانت عاصمة ملوك قرطبة ، انظر محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٦٦ .

(٦) دولة المرابطين عاشت فى بلاد المغرب من سنة ٤٧٩-٥٤٠ هـ / ١٠٨٦- ١١٤٥ م ، واستطاع يوسف بن تاشفين أن يضم بلاد الأندلس بعد معارك عديدة استغرقت عشرين عاماً فيما بين سنتى ٤٨٣ ، ٥٠٢ هـ / ١٠٩٠ - ١١٠٩م ، وأبرز تلك المعارك موقعة الزلاقة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، ودام حكم المرابطين بالأندلس زهاء خمسين عاماً ، واستطاعوا فيها أن يحافظوا على رقعة الأندلس .

انظر محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤ م ، ص ٢٥-٢٦ .

(٧) سرقسطة Saragosse مدينة فى أسبانيا وتسمى قديماً سيزاريا أو غسطا ، وكانت قاعدة بلاد أرغون تقع على نهر ابره ، انظر سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، حـ١، ص٢٥١ .

(٨) طرطوشة مدينة شرق بلنسيه وقرطبة قريبة من البحر . انظر اسمعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ص ٢٥٧ .

(٩) أشبونه وشنتره وشنترين ببلاد البرتغال من مقاطعة استرامادوره تقع على الشاطىء الأيمن من نهر تاجه ، انظر محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٨٩ .

(١٠) باجه مدينة صغيرة فى جنوب بلاد البرتغال .

(١١) يابره مدينة تقع شمال باجه من بلاد البرتغال ، انظر محمدعبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٨٩ .

(١٢) محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(١٣) محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(١٤) ميورقه جزيرة فى شرق الأندلس ، بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقه ، انظر الإمام شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، جـ٥، ص ٢٤٦ .

(١٥) بياسة مدينة كبيرة بالأندلس من أقليم جيان بينها وبين أبده فرسخان ، انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ص٥١٨ .

(١٦) قرطبة مدينة تقع ببلاد الأندلس على الشاطىء الأيمن من نهر الوادى الكبير قائمة على سفح جبال سيرامور ، انظر اسمعيل سرهنك ، حقائق الأخبار ، جـ١، ص ٢٦٢ .

(١٧) استجه كوره بالأندلس على نهر سنجل وأعمالها متصلة بقرطبة ، والمدور حصن بالقرب من قرطبة ، بلنسيه مدينة شرق قرطبة وتدمير ، انظرلا ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٧٤ ، ٤٩٠ ، جـ٥ ، ص٧٧ .

(١٨) دانية مدينة من أعمال بلنسيه على ضفة البحر المتوسط شرقاً ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٤٣٤ . لقنت حصنان من أعمال لارده ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٢١ .

اريولة فى الشرق من ناحية تدمير . ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ ٥، ص١٦٧ .

قرطاجنه مدينة قرية من الشى من أعمال تدمير، ياقوت الحموى، نفس المرجع، جـ٤، ص٣٢٣.

شاطبة مدينة فى شرق قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، جـ٣ ، ص٣٠٩ .

مرسيه مدينة فى أسبانيا تقع جنوب شرق مدريد ، انظر اسمعيل سرهنك ، نفس المرجع ، جـ١ ص ٢٦٠ .

حيان مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة شرق قرطبة ، انظر ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، حـ٢ ، ص ١٩٥ .

اشبلية مدينة بأسبانيا على شاطىء الوادى القديم وهى المدينة الرابعة ، انظر اسمعيل سرهنك ، نفس المرجع ، حـ١ ، ص ٢٦٠ .

(١٩) بطليوس مدينة حصينة من أعمال ماردة غرب قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، حـ١ ،ص ٤٤٧ .

ماردة مدينة بأسبانيا ببلاد استرا ماوردة من أقليم بطليوس على الشاطىء الأيمن من راوى يانه ، انظر اسمعيل سرهنك ، نفس المرجع ، حـ١ ، ص٢٥١ .

شلب مدينة فى غرب الأندلس قاعدة ولاية اشكونية ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، حـ٣ ، ص ٣٥٧ . شنتر به حصن يقع فى شرق قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع، حـ٣ ، ص ٣٦٧ .

لبلة قصبة كورة بالأندلس شرق اشكونية وغرب قرطبة ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع، حـ٥ ، ص١٠ .

لبة مدينة فى المغرب ناحية المحيط ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، حـ٥ ، ص١٠.

قادس حزيرة فى غرب الأندلس بالقرب من شذونه ، ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، حـ٤ ، ص٢٩٠ .

شريش : مدينة من كورة شذونة وهى قاعدتها ، انظر ياقوت الحموى ، نفس المرجع ، حـ٣ ، ص٣٤٠ .

(٢٠) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٢٠ .

(٢١) يقصد بالعدوة المغربية ، بلدان الشمال الأفريقى .

(٢٢) عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، القاهرة ، مطبعة انترناشيونال ، ١٩٨٣ م ، ص ١٧٨ .

(٢٣) يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٥٨ م ، ص ٤٤٥ .

(٢٤) عادل بشتاوى ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٣١ .

(٢٥) كانت سلا عاصمة أقليم فاس عندما كان القوط يحكمون أفريقيا ، وهى محصنة على نهر أبى رقراق ، ويوجد بمصب النهر ميناء ترسو فيه سفن البضائع الأوربية ، انظر مارمول كربخال ، أفريقيا ، الجمعية المغربية للتأليف والنشر ، الرباط ١٩٨٨م ، ترجمة محمد حجى وآخرون ، جـ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢٦) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى:الأستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى ، الدار البيضاء ، دار الكتاب ١٩٥٤ م ، جـ٣ ، ص٢١-٢٢. المعمورة مدينة صغيرة على نهر سبو ، على مقربة من سلا ، وقد أسست لتحمى المصب وتحول دون دخول سفن الأعداء إلى النهر ، وفى جوار المدينة غابة بها أشجار البلوط غليظة الحجم ، انظر الحسن بن محمد الوزان الفاسى ، وصف أفريقيا ترجمة محمد صبحى ومحمد الأخضر ، الجمعية المغربية ، الرباط ، ١٩٨٠ م ، جـ١ ، ص ١٦٦ .

(٢٧) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢٨) يوسف أشباخ ، مرجع سابق ذكره ، ص ٤٧١ - ٤٧٤ .

(٢٩) حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ، بيروت ، العصر الحديث ١٩٩٢ م ، المجلد الثانى ، جـ ٣ ، ٣ص ٧٨ .

(30) J. H. Elliott: Imperial Spain 1369 , Edward , London , 1980,P.44.

(٣١) غسان على رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر ، جده ، دار العلم ١٩٨٥م ، ص١٤ .

(٣٢)محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانين عدن ، القاهرة ، دار التراث ، ١٩٧٩ م ، ص ٥٣ .

(٣٣)عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعدية ، الدار البيضاء ، شركة الطبع والنشر ١٩٧٧ م ، ص٥ .

(٣٤) محمد عبد اللطيف البحراوى ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٢٥ .

(٣٥) ك . م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٢ ، ص ٢٤ .

(٣٦) عبد الكريم كريم ، مرجع سابق ذكره ، ص٥ .

(٣٧) سبته تقع فى شرق القصر على مستوى الجزيرة الخضراء ، وهى مدينة لها ميناء جيد ، تبعد عن أسبانيا بعشرين ميلاً على مضيق جبل طارق ، انظر مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٢١٦ .

(٣٨) عبد الكريم كريم ، مرجع سابق ذكره ، ص ٦ .

(39) Roger Lockye : Habsburg and Bourbon Europe 1470 - 1720 London 1982 .P.31 .

هنرى الملاح أميراً برتغالياً كاثوليكى المذهب .

(٤٠) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ،جـ٣ ،ص ٧٨ .

(٤١) جيمس دفى ، الأستعمار البرتغالى فى أفريقيه ، ترجمة الدسوقى المراكبى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٦٣ م ، ص ٣٢ .

(٤٢) محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، ص ٥٦- ٥٧ .

(٤٣) حسين مؤنس ، مرجع سابق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٤٤) غسان على رمال ، صراع المسلمين مع البرتغال فى البحر الأحمر ، ص١٥ .

(٤٥) حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٤٦) غسان على رمال ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥ .

(٤٧) محمد بن تاويت ، تاريخ سبته ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ١٩٨٢م ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٤٨) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ص ٨٠ .

(٤٩) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٠ .

(٥٠) غسان على رمال ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧-١٨ .

(٥١)حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص٨٠ .

(٥٢) محمد بن تاويت ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٩ .

(٥٣) القصر الصغير، مدينة تقع ما بين سبته وطنجه على الشاطىء ، انظر : أبو الحسن الوزان، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٥ .

(٥٤) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٥ ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ، الأستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ، جـ ٤ ، ص ١١٤ .

(٥٥) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ .

(٥٦) حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، جـ٣ ، ص ٨٥ .

(٥٧) أصيلا : مدينة تقع على شاطيء المحيط الأطلسي ، انظر : الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١، ص ٢٤١ .

(٥٨) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ .

(٥٩) أزمور مدينة في دكالة على مصب نهر أم الربيع في البحر المتوسط ، انظر الحسن بن محمد أبو الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ١٢٤ .

(٦٠) «من حييت بحياته الأرض» يعنى كأنه المطر يحيى الأرض « ومن شعاع عدله طاعته تما» يعنى أنه كان عادلاً فأطاعته الأرض كلها .

(٦١) الفاء زائده والجملة خير النصارى كلهم ، وحاز الروم كلها حلماً ، يعنى بحلمه طاعته الروم كلها .

(٦٢) كناية الدهين : أصلها الدهاقنه ، والدهقان مرتبة دينية عليا ، لكن اللغة العامية تقلب القاف همزة مضخمة ، وانقلبت هنا مع ياء الجمع إلى ياء مفخمة .

(٦٣) شابل اسم عمله برتغالية .

(٦٤) الفيشين ، اسم عائلة الملك البرتغالىAvis .

(٦٥) الغريب والغرباء = المساكين .

(66) Pierre De Geniral : Saures Inediles L` hisiare

Du Maroc Archives , Et Bibliotheques.
De Portugal - Paris , 1934, Tom I.P.P 9-14 .

(٦٧) دوا منول : يعنى الدوا منول . ودون في اللغة البرتغالية أى السيد ، ومولى« كناوة الدهبان » يقصد بها رئيس طائفة الرهبان .

(٦٨) نريد من كمال فضلك أن تعمل لنا غرضنا وغرضك (يعنى أن هدفنا وهدفك فيما نطلبك فيه ، ونكون لك مطيعين : بأن الرحل الذى بعث إلى بلادنا ما جاء على عقولنا وخسر عليك (يعنى ضيع عليك) كثيراً ، مالا تقدر من المصالح (وتصلح) ، ونعلمك بأنه ما هو بخير لا مع النصارى ولا مع المسلمين ولا مع اليهود ، ولا يعمل إلا برأيه ، ولا

يستمع لمن يدبر عليه (يعني يقدم له المشورة) ، ونحن أهل البلد تقول له : اعمل ما يصلح على السلطان وعلى الناس (يعني ما يحقق مصلحة الدولة ومصلحة الناس) ، وأبى أن يأخذ لنا كلاماً (يعني رفض أن يسمع لمشورتهم) ، واشتغل أيضاً يشترى المسلمين (يعني يقرب بعض المسلمين منه) .

(٦٩) ونحن نخاف عليه من المسلمين أن يقتلوه ، ويؤخذ لنا عارك (يعني يقع علينا العار إذا أخذ لنا أمتك) أما هو ما علينا منه (يعني هو يكون قد جنى على نفسه) ، وأنت يا سلطان برتقال إذا رغبت أن تنقض حوائجك من بلادنا وأن تكون خدامك تبعث لنا رجلاً آخر يكون مثل (بن مارتن) فيكون عاقلاً وعارفاً بالمسائل ... وهذا لا يرجع إلينا بعد هذه المرة أبداً .

(70) Pierre De Geniral . Op. Cit. Tom l PP. 83- 84 .

(٧١) مستفتح : أى فاتح .

(٧٢) الصواب اللغوى : وسامحناكم .

(73)- Pierre De . Geniral : OP. cit. ; Tom l , P.P 95- 98.

(٧٤) أداة لمسح الأراضى فى القديم .

(٧٥) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٧١ .

(٧٦) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ص ١١٦ - ١١٨ .

(٧٧) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص١١٦ - ١١٨.

(٧٨) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٤ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٧٩) الحمر : مدينة تقع جنوب مدينة أصيلا ، انظر الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

(٨٠) الحسن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ١، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٨١) عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعدية ، ص ١١ .

(٨٢) حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضى والحاضر ، القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٢ ، ص ١٥٩ .

(٨٣) أحمد توفيق مدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢ - ١٧٩٢ م ، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص ٦٤- ٦٥ .

(٨٤) إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، الدار البيضاء ، دار الرشاد ، ١٩٧٨ م ، جـ ٢، ص ١٩٧ .

(٨٥) محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الإحتلال الفرنسي ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٧٩ م ص ١٥ .

(٨٦) أحمد توفيق مدني ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٥ .

(٨٧) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي - تاريخ الجزائر العام ، بيروت ، دار الثقافة ، ، ١٩٨٠ ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ - ١٩٨ .

(٨٨) تدلس : آخر مدينة في أقليم الجزائر من جهة الشرق على ساحل البحر المتوسط ، انظر: مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٣٧٢ .

(٨٩) عنابه : أو بونه مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط ، انظر حسن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٦١ .

(٩٠) تطوان : تقع على ضفة نهر قوس الذى ينحدر من الأطلس الكبير ويصب في المحيط ، انظر مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢، ص ٢٢٢ .

(٩١) شارل أندرى جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية تعريب . محمد مزالى ، البشير بن سلامه ، تونس ، الدار التونسية ، ١٩٨٣ م ، جـ ٢ ، ص ١٨٧- ١٩٩ .

(٩٢) عبد الرحمن الجيلالى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ .

(93)- G. H Elliott : Emperial Spain. P. 35

(٩٤) عبد الرحمن الجيلالى ، مرجع سبق ذكره ، جـ٢ ، ص ١٩٩ .

(95) G .H Elliott : op. cit, .P . 35

(٩٦) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣-٤٤ .

(٩٧) محمد عبده حتامله ، التنصير القصرى بمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثولكيين (١٤٧٤/ ١٥١٦) عمان ، الجامعة الأردنية . ١٩٨٠ م ، ص٦٠.

(٩٨) محمد قشتيليو : محنة الموريسكس فى أسبانيا ، تطوان ، مطبعة الشويخ ، ١٩٨٠ ، ص١٩.

(99) J. H. Elliot : Op. Cit. p. 39

(١٠٠) محمد عبدالله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٥ .

(١٠١) البازين حي في مدينة غرناطة ، انظر عادل سعيد بشتاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٥.

(١٠٢) عادل سعيد بشتاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١- ١١٥ .

(١٠٣) بلفيق إحدى مدن مملكة غرناطة تقع شمال مدينة المريه ، انظر الخريطة ، محمد عبدالله عنان ، مرجع سبق ذكره .

اندرش : بلدة بالأندلس من كورة البيرة ، انظر ياقوت الحموى، مرجع سبق ذكره ، جـ ١ ، ص ٢٦٠ .

(١٠٤) نيخار وجونجار: مدن في مملكة غرناطة، انظر محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره، ص٣٢٣.

(١٠٥) محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٣ - ٣٢٥ .

(106) J . H. Elliot : op. cit, p.41.

(١٠٧) شارل أندرى جوليان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

(١٠٨) مالقة مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريه سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية .

انظر : ياقوت الحموى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٥ ، ص ٤٣ .

(١٠٩) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(١١٠) المغطسين كلمة أسبانية .. Mogakezes

(١١١) أحمد توفيق مدنى ، المرجع السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٩ .

(١١٢) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .

(١١٣) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٣٠ - ٣١ .

(١١٤) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، ١٢٦ - ١٢٧ .

(115) G. H Elliott , op. cit . p . 42.

(١١٦) أبي عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي : التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من أخبار، تحقيق الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسي ، طرابلس ، ليبيا ، مكتبة النور ، ١٩٦٧ م ، ص١٠٣.

(١١٧) ابن غلبون ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، الطاهر أحمد الزاوى ، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربى إلى نهاية العهد التركى ، طرابلس ، ١٩٧٠ م ، ص١٤٢ .

(١١٨) شارل فيرو ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربى حتى الغزو الإيطالى ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافى ، طرابلس ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام ، ١٩٣٧ م ، ص ٧٠ - ٧١ .

(١١٩) ابن غلبون ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(١٢٠) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(١٢١) ابن غلبون ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

(١٢٢) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(١٢٣) القنطرة مدينة تقع جنوب جربه على شاطئها .

(١٢٤) مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ .

(١٢٥) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٩٥ ، مارمول كربخال ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ - ١١٢ .

(١٢٧) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

(١٢٨) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(١٢٩) قرقنة : جزيرة تقع أمام صفاقس، انظر مارمول كربخال، مرجع سبق ذكره،جـ ٣،ص١٠١.

(١٣٠) أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

(١٣١) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(131) Stanford Shouu, A History of the Ottoman Empire and modern Turkey . Cambridge . London, 1976 . p . 96 .

(١٣٢) شارل فيرو ، المرجع السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(١٣٣) عبد الرحمن الجيلالى ، تاريخ الجزائر العام ، جـ ٣ ، ص ٣٧ .

(١٣٤) الحسن بن محمد الوزان ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٢ ، ص ٥٢ .

(١٣٥) متيجة بلد فى أواخر أفريقيا (غرب الجزائر) من أعمال بنى حماد ، انظر ياقوت الحموى ، مرجع سبق ذكره ، ٣ .

مليانه: مدينة تقع غرب الجزائر، انظر مارمول كربخال، مرجع سبق ذكره، جـ ٢ ، ص ٣٩٩.

(١٣٦) عبد الرحمن الجيلالى ، مرجع سبق ذكره ، جـ ٣ ، ص ٣٥ - ٤٤ ، أحمد توفيق مدنى ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦٣ - ١٩١ .

ثبت المراجع

١ - إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، دار الرشاد ، الدار البيضاء ، ١٩٧٨م ، ج٢ .

٢ - أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق : جعفر الناصرى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م ، ج٣ .

٣ - أبي عبد الله محمد بن خليل غليون الطرابلسى ، التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من أخبار . تحقيق : الطاهر أحمد الزاومى الطرابلسى ، مكتبة النور ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٦٧.

٤ - أحمد توفيق مدنى ، الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢هـ /١٧٩٢م ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٤م .

٥ - إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص١ ، المطبعة الأميرية ، مصر ، ١٨٩٤م .

٦ - جيمس دفى ، الاستعمار البرتغالى فى أفريقية . ترجمة : الدسوقى حسين المراكبى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

٧ - الحسن بن محمد الوزان الفاسى ، وصف أفريقيا ، ترجمة : عمر حجى ومحمد الأخضر ، الجمعية المغربية ، الرباط ، ١٩٨٠م ، ج١ .

٨ - حسن سليمان ، ليبيا بين الماضى والحاضر ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة، ١٩٦٢م .

٩ - حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ، العصر الحديث ، بيروت ، ١٩٩٢م ، مج٢ ، ج٣ .

١٠ - شارك أندرى جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية . تعريب محمد مزالى والبشير ابن سلامة ، الدارة التونسية ، تونس ، ١٩٨٣م . ج٢ .

١١ - شارل فيرو ، الحوليات الليبيـة منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالى ، ترجمة : محمد عبد الكريم الوافى ، المنشآت العامة للنشر والتوزيع والإعلام ، طرابلس ، ١٩٧٣م .

١٢ - شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ج٥ .

١٣ - الطاهر أحمد الزاوى ، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربى إلى نهاية العهد التركى ، دار الفتح ، طرابلس ١٩٨٠م .

١٤ - عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، مطبعة انترناشيونال ، القاهرة ١٩٨٣م .

١٥ - عبد الرحمن بن محمد الجيلالى ، تاريخ الجزائر العام ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٨٠ م. ج٢ .

١٦ - عبد الكريم كريم ، المغرب فى عهد الدولة السعدية ، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء ، ١٩٧٧م .

١٧ - غسان على رمال ، صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر ، دار العلم ، جدة ، ١٩٨٥م .

١٨ - ك. م بانيكار ، آسيا والسيطرة الغربية ترجمة : عبد العزيز جاويد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

١٩ - مارمول كربخال ، أفريقيا ، ترجمة : محمد حجى وآخرون ، الجمعية المغربية للتأليف والنشر ، الرباط ، ١٩٨٨م . ج٢ .

٢٠ - محمد بن تاويت ، تاريخ سبته ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢م .

٢١ - محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٩م .

٢٢ - محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

٢٣ - محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، القسم الأول .

٢٤ - محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٦٦م .

٢٥ - محمد عبده حتامله ، التنصير القصرى بمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكين (١٤٧٤ - ١٥١٦م) ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٠م .

٢٦ - محمد العمروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٢م .

٢٧ - محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : إحسان حقى ، ط١ - دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨١م .

٢٨ - محمد قشتيليو، محنة الموريسكس فى أسبانيا ، مطبعة الشويخ ، تطوان، ١٩٨٠م.

٢٩ - نبيل عبد الحى رضوان ، مذكرات أوروبا فى التاريخ الحديث ، مذكرات لم تنشر .

٣٠ - يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة : محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجى ، ١٩٥٨م .

1. J.H Ellio: Imperlspnin 1369, Edward, London. 1980.
2. Pierre De Geniral : Saures Inediles L'hisiare.
   Dumaroc Arhives, Etbibliothe yues
   De por 4 ugal - Paris, 1934, tom1.
3. Roger Lockye : Habsburg and bour bon Enrope 1470. 1720, London, 1982.
4. S anford shouu : History of the Ottoman Empire and Mobern Turkey. Campridge London, 1976.

اتحاد المؤرخين العرب

الجمعية العمومية الثالثة

١٧ رجب ١٤١٨هـ - ١٧ نوفمبر ١٩٩٧م

كلمة رئيس الاتحاد

حضرات الإخوة والأخوات ... الزملاء والزميلات

أعضاء اتحاد المؤرخين العرب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ،،،

فما أسرع ما تمر الأيام ، وما أسرع ما تتعاقب السنون والأعوام، ففي أوائل ديسمبر ١٩٩١ عقد اتحاد المؤرخين العرب اجتماعه الأول بالقاهرة . وكان على هذا الاتحاد - شأنه شأن كل وليد جديد - أن يواجه صعوبات الحياة ليشق طريقه في عصر مضطرب بالأحداث . وأهم هذه الصعوبات كما أوضحنا في كلمتنا في اجتماع الجمعية العمومية في السابع من ديسمبر ١٩٩١ - كانت كيفية جمع الشمل، أعني شمل أعضاء أسرة التاريخ في العالم العربي - مشرقه ومغربه - بوصفهم يشكلون هيكل البناء وأداته وروحه وقلبه النابض ، وبعد ذلك كانت تأتي صعوبة توفير التمويل اللازم لدفع مسيرة الاتحاد ، وتمكينه من شق طريقه ومواصلة رحلته.

وكان أن عقدنا العزم على مواجهة هذه التحديات وغيرها في ثبات وإصرار، حتى كان جمادى الآخرة سنة ١٤١٥هـ/نوفمبر١٩٩٤م وعندئذ عقد الاتحاد جمعيته العمومية الثانية بالقاهرة ، بعد أن استوى عوده واكتمل بنيانه واتضحت صورته ؛ وأخذ يحتل مكانه بين المؤسسات العلمية النظيفة التي يعتز بها الوطن العربي ، والتي تعمل في إطار سليم متماسك ، أركانه سلامة الخلق ، وسمو الهدف، ونظافة اليد ، وجدية العمل ... بعيدًا عن الدخول في مهاترات مع

منظمات أخرى مشبوهة انتحلت اسم المؤرخ العربى وتمسحت بالتاريخ ، والجميع برايا منها.

حضرات الأخوة والأخوات ... الزملاء والزميلات ...

واليوم نلتقى جميعًا فى رحاب اتحاد المؤرخين العرب ، كلنا أخوة متحابون، وزملاء متكافئون ، بعد أن وضحت الرؤية واستوى الطريق . لا رئيس ولا مرؤوس ، فالعلم لا كبير له ، وفوق كل ذى علم عليم . وإذا كان لاتحادنا رئيس، فهو رئيس إدارى ، يعمل لخدمة أعضاء الاتحاد ، وتوفير أسباب النجاح لهم لتحقيق رسالة سامية ترفع من شأن التاريخ العربى والمؤرخ العربى . وإذا كان اتحاد المؤرخين العرب يضم اليوم مجموعة من صفوة علماء التاريخ وشيوخه ، فإنه حرص فى عهده الجديد على ألا يغلق أبوابه فى أوجه الشباب الناشىء ممن يعملون فى حقل الدراسات التاريخية ، وذلك إيمانًا منا بأن شباب اليوم هم شيوخ الغد .

حضرات الأخوة والأخوات ... الزملاء والزميلات ...

لا أريد أن أطيل عليكم لأعدد لكم ما أنجزناه فى هذه السنوات الست من منجزات ، فأنتم أصحاب رؤية وأهل فكر ، ترون وتحسون وتحكمون . ومن يتصدى للحكم على عصور ولت وأيام أدبرت ، يستطيع أن يحكم على ما يراه بعينيه ويحسه بفؤاده ويسمعه بأذنيه ويلمسه بيديه ...

اليوم نستطيع أن نقول بكل ثقة وطمأنينة إن اتحاد المؤرخين العرب غدا صرحا شامخًا مكتمل البناء البشرى والفكرى ، يضم زهاء خمسمائه عضوًا من صفوة المشتغلين بالدراسات التاريخية فى وطننا العربى . له تقاليده الراسخه ، وندواته العلمية الناجحة ، ومجلته السنوية الجامعة ، ومقره الثابت بالقاهرة ، وميزانيته المستقرة الثابته ...

على أننا نقولها فى تواضع وأمانة : إذا كنا قد حققنا قدرًا من النجاح فإننا نأمل فى المزيد . إن اتحادنا ليس اتحاد ملائكة وإنما هو اتحاد بشر ، والبشر له

إمكاناته وقدراته التى يمكن تنميتها بمزيد من الإيمان . الإيمان بـالله أولاً ثـم الإيمـان يسمو الرسالة وعظم الأمانة .

شكرًا لله عز وجل الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لـولا أن هدانـا الله ... وشكرًا لجميع أعضاء اتحاد المؤرخين العرب ، الذيـن على اكتافهم يقـوم الصـرح ويستوى البناء ... شكرًا لزملائى سعادة نائب الرئيس وحضرات الأخويـن الأمـين العام وأمين الصندوق ، ولأعضاء مجلس الإدارة الذيـن اعتمـدت عليهـم وحصلـت منهم على الفكر القويم والرأى السـديد ... شـكرًا للحكومـات العربيـة الناضجـة التى تقدر العلم وتدرك أن التاريخ لا يغفل ولا ينسى ، علـى مـا قدمتـه مـن عـون أدبى ومادى لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، ونخص بالذكر حكومات الكويـت والمملكة العربية السعودية وإمارة الشارقة ، فضلاً عن الحكومة المصرية .

حضرات الأخوة والأخوات ... والزملاء والزميلات ...

اليوم استودعكم الله ؛ داعيا لكم بسلامة المسيرة ، حتـى يتحقيـق للمـؤرخ العربى ما نرجوه له من مكانة ورفعة ، وللتاريخ العربى ما ننشده له جميعًا من نقـاء وصفاء وازدهار .

والسلام عليم ورحمة الله وبركاته

سعيد عبد الفتاح عاشور

وبعد الفراغ من إلقاء كلمته ، ناقش الأعضاء – وكان عدد الحضـور يزيـد عن الثلثمائة عضوا – موضوع رئاسة الاتحاد للسنوات الثـلاث المقبلـة . وقـد قـرر الحضور بالإجماع التمسـك بالاستاذ الدكتـور سـعيد عبـد الفتـاح عاشـور رئيسًـا للاتحاد ، وشكره على ما قدمه ويقدمه للاتحـاد مـن جهـد وخدمـات ؛ وبذلـك تم تجديد رئاسته بالإجماع والتزكية .كذلك تم اختيار أعضـاء مجلـس الأمنـاء ، الـذى عقد اجتماعه بعد ذلك مباشرة فى إطار اللائحة الأساسية لاتحاد المؤرخين العرب.

محضر اجتماع

مجلس أمناء جمعية اتحاد المؤرخين العرب

يوم الخميس الموافق ١٩٩٧/١١/٢٧م

فى يوم الخميس الموافق ١٩٩٧/١١/٢٧ اجتمع مجلس الأمناء عقب انعقاد الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة فى تمام الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وحضر الاجتماع كل من :

الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور   رئيس الاتحاد

الأستاذ الدكتور / عبد الله بن يوسف الشبل

الأستاذ الدكتور / حسنين محمد ربيع

الأستاذ الدكتور / عبد اللطيف عبد الله بن دهيش

الأستاذ الدكتور / سهيل محمد زكار

الأستاذ الدكتور / يونان لبيب رزق

الأستاذ الدكتور / أحمد عمر الزيلعى

الأستاذ الدكتور / مصطفى محمد رمضان

الأستاذ الدكتور / إبراهيم زعرور بن محمود

الأستاذ الدكتور / محمد محمد مرسى الشيخ

واعتذر عن عدم الحضور كل من أ. د. ميمونة الصباح ، أ. د. حياة ناصر الحجى ، أ. د. سليمان إبراهيم العسكرى .

بدأ الاجتماع السيد أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة " بسم الله الرحمن الرحيم " وهنأ الأعضاء الجدد لعضويتهم بمجلس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة متمنيًا التوفيق والسداد للجميع فى الدورة الجديدة .

ثم شرع المجلس فى مناقشة جدول الأعمال فى الموضوعات التالية :

الموضوع الأول : اقتراح عنوان الندوة القادمة للاتحاد :

ناقش أعضاء مجلس الأمناء الموضوع ، وكان من الموضوعات المقترحة للندوة :

١ - البحر الأحمر عبر عصور التاريخ .

٢ - العلاقة بين المشرق والمغرب فى العصور الحديثة .

٣ - تطوير الدراسات التاريخية فى الوطن العربى .

٤ - مصادر تاريخ العرب .

٥ - فلسطين عبر العصور .

القـــرار

بعد مناقشة وتبادل الرأى وافق أعضاء مجلس الأمناء على أن يكون موضوع الندوة القادمة :

(أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب)

واقترح أن تكون محاور الندوة :

- النقوش والعمائر .
- الوثائق والبرديات .
- الحوليات التاريخية .
- كتب الجغرافيا .
- كتب الرحلات .
- كتب التراجم والطبقات والأنساب .
- كتب الأدب ودواوين الشعر .

الموضوع الثانى : انتخاب نائب لرئيس اتحاد المؤرخين العرب وأمين عام الاتحاد وأمين الصندوق :

القـــرار

تم انتخاب النائب وأمين المجلس وأمين الصندوق على النحو التالى :

أ. د. عبد الله بن يوسف الشبل   نائب رئيس الاتحاد

أ. د. حسنين محمد ربيع   الأمين العام

أ. د. يونان لبيب رزق   أمين الصندوق

الموضوع الثالث : تشكيل هيئة تحرير مجلة المؤرخ العربى التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

القــرار

الموافقة على تشكيل هيئة تحرير بمجلة المؤرخ العربى على النحو التالى :

- أستاذ دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس التحرير

وعضوية كل من :

- أستاذ دكتور حسنين محمد ربيع
- أستاذ دكتور سليمان إبراهيم العسكرى
- أستاذ دكتور عبد اللطيف عبد الله بن دهيش
- أستاذ دكتور سهيل محمد زكار
- أستاذ دكتورمصطفى محمد رمضان

الموضوع الرابع : ما يستجد من أعمال :

وافق المجلس على اقتراح الأستاذ الدكتور / أحمد الزيلعى بمنح جميع الصلاحيات للأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور لتعيين من يختارهم من الفئات المعاونة لسيادته ، وتحديد رواتبهم .

وانتهى الاجتماع فى تمام الساعة الرابعة والنصف عصر يوم الخميس الموافق ٢٧ رجب ١٤١٨هـ / ٢٧ نوفمبر ١٩٩٧ .

١٩٩٧/١١/٢٧ الأمـين العـام رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

أ. د. حسنين محمد ربيع أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد السابع　　المجلد الأول　　مارس ١٩٩٩

اتحـاد المؤرخـــين

العـــرب

بالقـــاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد السابع - المجلد الأول

مارس ١٩٩٩

هذه المجلة

• علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

• تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

• البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .

• تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

• لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .

• تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

• البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

• يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة التسلسل الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

• جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السابع - المجلد الأول - مارس ١٩٩٩

فى هذا العدد

• العباسيون والأمويون (دراسة في العلاقات بين البيتين ١١ – ١٢٥ هـ)

د. محمد بن ربيع بن هادى مدخلى

• المقدسى مؤرخاً لبلدان العرب من خلال كتابه : (أحسن التقاسيم)

د. عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح

• المنهج التاريخى للحافظ أبى الطاهر السِّلَفِي في تأليف كتابه (معجم السفر)

د. هشام عطية عطية أحمد

• عمران سبتة كما شاهده ووصفه الأنصارى السبتى

د. كمال عنانى إسماعيل

• علم الجراحة فى الأندلس — د. حنان عبد الفتاح مطاوع

• ابن أبى طىّ : مؤرخاً وأديباً — أ. د. محمد زيود

• موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل فى ضوء وثائق الخارجية المصرية — د. عبد الحميد عبد الجليل شلبى

• عرب الخليج فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية ويوميات جمبرون لشركة الهند الشرقية الإنجليزية — د. محمد مرسى عبد الله

• سياسة ألمانيا تجاه الشريف حسين فى الحرب العالمية الأولى

د. وجيه عبد الصادق عتيق

كلمة الافتتاح :

مدرسة التاريخ

إنسان الماضى هو إنسان الحاضر ، خلقه الله تعالى فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته . والحسن هنا لا يقتصر على تناسق الأعضاء وجمال الصورة ... وإنما يمتد إلى الجوهر ليشمل وظائف هذه الأعضاء ، وتكاملها ، وخطورة مهامها ، وقدرتها على تكييف حياة البشر ، وفق طبيعة الزمان والمكان . فالقلب هو القلب على تعاقب الأزمنة والعصور ، يحب ويكره . والعقل يفكر ويتدبر ، ويحذر ويهدى . والحواس تربط الإنسان بالمحيط الخارجى ، ليتفاعل معه ، يتأثر به ويؤثر فيه ... وهكذا تعاقبت العصور ، وظل الإنسان على ما خلق عليه ، فى صورته وبنيته ، وقدراته ، وأسلوبه فى مواجهة حوادث الدهور .ربما تعرض بسبب انتشاره فى بيئات متباينة ، وما صحب ذلك من تعدد السلالات ، لتباين فى الفروع ، هذه سلالة فى إقليم معين غلبت عليها الشقرة ، وهذه أخرى فى إقليم ثان غلبت عليها السمرة . هذه سلالة تتميز بطول القامة ،وهذه أخرى تتصف بالقصر ... ولكن مثل هذه الفوارق تكون فى الظاهر لا فى الباطن ، أو بمعنى آخر فى القشرة الخارجية وليست فى جوهر البناء . وفيما عدا ذلك يبقى الإنسان على نفس الصورة التى اختارها الله - عز وجل - له ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ .

ومهما تباينت نظرة الإنسان إلى الحياة على مر العصور ، وذلك تبعا لاختلاف الأجواء والظروف التى تحيط به فى كل عصر ، مما يؤثر فى سلوكه ، والأسلوب الذى يمارس به حياته ، ويعالج به أوضاعه ... فإن الإنسان يظل هو الإنسان - بفكره ، وطاقاته وإمكاناته ، وقدراته على مواجهة ما يصادفه من

صعاب . ومن هنا تنبع أهمية تجارب الماضى فى مواجهة مشاكل الحاضر . وبعبارة أخرى تنبع أهمية التاريخ كمدرسة عُليا يستمد الإنسان من تجاربها الكثير مما يعينه على تخطى ما يواجهه من أزمات . وإذا كانت أحداث التاريخ لا تتطابق ، لأن لكل عصر أجواءه ومستوياته الحضارية ؛ فإنها لابد وأن تتشابه ، لأن الإنسان الذى صنع الماضى هو نفس الإنسان الذى يصنع الحاضر . هناك تباين فى المظهر ولكن لا خلاف فى الجوهر .

وهكذا يبدو التاريخ فى صورة مدرسة كبرى ، مليئة بالتجارب التى تصقل فكر الإنسان ، وتأخذ بيده ، وترشده فى مسيرته الكبرى لبناء حاضر أفضل والتخطيط لمستقبل أقوم .

لقد صدق السلطان الظاهر بيبرس عندما قال : « سماع التاريخ أعظم من التجارب » . وصدق معاصره ابن خلدون الملقب « علامة الأمة وإمام الأئمة » عندما سجل فى مقدمته الخالدة إن التاريخ « فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم : حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه » .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

سعيد عبد الفتاح عاشور

الراوية الشفوية وأهميتها فى حفظ التاريخ

د. صلاح الدين عاوور(*)

تعريف التاريخ الشفوى :

التاريخ الشفوى هو التاريخ الذى يستمد من معلومات مروية بعناية ومنهجية ، رواها باحث متمرس فى لعرض صورة من صور الماضى البعيد أو القريب .

وهكذا يكون التاريخ الشفوى هو التاريخ الحى الذى تناقله الأشخاص ، وعاش فى ذاكرتهم . فهو صوت المعاصرين الحى الذى يفند المفاهيم القديمة المغلوطة والمبالغات التى ربما تطرقت إلى الصفحات المدونة فى سجلات الواقع التاريخى .

وللتاريخ الشفوى منهج يتصف بالديموقراطية لأنه يعتمد فى روايته للحدث على الخاصة والعامة ، على الحاكم والمحكوم ، ويعكس بعمق قوة عواطف الشخص ، والأبعاد الإنسانية للشعب والمجتمع ، فهو لا يهمل تجارب عامة الناس، وإنما يهتم بقضاياهم وأحوالهم ، ويشركهم فى تدوين تاريخهم كذلك يعنى هذا المنهج . بدراسة الماضى ، من خلال الكلمة المحكية المحفوظة فى الذاكرة ، والمنقولة مشافهة . ومعنى ذلك أنه يشتمل على :

التراث الشفوى : أى دراسة الماضى البعيد من خلال الروايات الشفهية الشائعة فى مجتمع معين والمنقولة عبر عدة أجيال ، أو عن جيل واحد على الأقل .

(*) أستاذ مشارك فى فرع التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب - الجامعة الإسلامية - غزة .

وتاريخ **العصر** : أى دراسة الماضى القريب من خلال روايات الأفراد وذكرياتهم عن أحداث حياتهم ، وخبراتهم ومشاهداتهم ، خاصة تلك الأحداث التى شاركوا فى صنعها شخصيًا أو كانوا شهود عيان لها(١) .

إن شفاهية الثقافة التى لم تمسها مطلقًا أية معرفة بالكتابة أو الطباعة أو التسجيل الآلى ، « شفاهية أولية » . وهى أولية بالتقابل مع «الشفاهية المتطورة» التى تتميز بها الثقافات ذات التكنولوجيا العالية فى الوقت الحاضر، حيث تُحافظ شفاهية جديدة على وجودها واستمرارها فى وظيفتها من خلال المسجل والفيديو والتلفاز والوسائل الإلكترونية الأخرى التى يعتمد وجودها وأداؤها لوظيفتها على الكتابة والطباعة .

أما الثقافة الأولية الشفوية بالمعنى الدقيق فتكاد تنعدم اليوم ؛ ذلك أن ثقافات اليوم تعتمد على الكتابة ، ولديها شئ كثير من الخبرة بتأثيراتها ، ومع ذلك فإن كثيرًا من الثقافات الثانوية لا تزال تحتفظ بدرجات متفاوتة بالطابع العام الذى تتصف به الشفاهية الأولية(٢) .

والتاريخ الشفوى يتطلب من الباحث مهارة جيدة فى الإفادة من العلاقات الإنسانية ، كما يتطلب من الراوى اهتمامًا ثابتًا ودائمًا بالموضوع(٣) .

إن الكثير من المصادر المدونة التى يستشهد بها المؤرخون اليوم كانت فى الأصل مصادرشفهية .

وعلى هذا الأساس فإن الوثائق المدونة ليست أكثر أهمية للتاريخ من الروايات الشفهية .

إن التاريخ الشفهى يُقدم لنا معنى للمكان والمجتمع كما كان متاحًا للناس ، وفى الوقت ذاته يُلقى ضوءًا على السِّمات الواسعة للتاريخ - خاصة التاريخ الاجتماعى - .

وتتضمن الممارسة الحالية للتاريخ الشفهى افتراضين فيهما الكثير من الجاذبية هما :

الأول : وهو الأكثر وضوحًا - يقول أن الذكريات الشخصية يُنظر إليها على أنها وسيلة فعالة لبعث الماضى - أى شهادة جديرة بالثقة فى الحياة البشرية كما كانت تسير فعلاً بصفة واقعية .

فالتاريخ الشفهى يُقدم ببساطة وسائل جديدة لتحقيق وتوضيح ما كانت عليه الأشياء فعلاً ، ويعتمد على تجارب الناس فى الماضى وإلى أقصى درجة ممكنة .

ثانيًا : هناك الكثير من المؤرخين الشفهيين يرفضون أن يكونوا تحت راية المؤرخين المحترفين . وهم ينظرون إلى التاريخ الشفهى كخيار ديموقراطى يتحدى احتكار النخبة الأكاديمية ، ويرون أنه فى ظل التاريخ الشفوى يكون لعامة الناس دور فى التاريخ ، بل أيضًا دور فى إنتاج المعرفة التاريخية مع مضامين سياسية مهمة(٤) .

وهكذا فإن التاريخ الشفوى يُتيح الفرصة للراغبين من كافة الفئات للمشاركة فى تسجيل التاريخ ، بشرط أن يكون ذلك تحت إشراف مختصين فى أهل العلم والدراية ، حيث أن التاريخ الشفوى يتم الوقوف عليه وتسجيله عن طريق المقابلات الشفهية ، ومن ثم فإنه يتطلب منهجاً خاصاً يُدركه ويُطبقه المختصون فى هذا المجال .

تاريخ الراوية الشفوية :

يرتبط الكلام بالوعى ، بمعنى إن الكلام غير منفصل عن وعينا . وقد أسر الكلام لُبَّ البشر ، ودفعهم إلى التأمل الجاد فيه منذ المراحل المبكرة جدًا من الوعى، قبل أن تظهر الكتابة بزمن طويل . تاريخ الشعوب فى كل أنحاء العالم

غني بالملاحظات حول هذه الظاهرة الإنسانية المدهشة ، ظاهرة اللغة ، في صورتها الشفاهية الأصلية ، والتعبير عن الأحاسيس والرغبات بحركات الفم واللسان .

وقد استمر الاعتماد على الكلام الشفاهي دون فتور أو كلل لقرون طويلة حتى بعد أن شاع استخدام الكتابة . وبعبارة أخرى فإن المؤرخين الأوائل اعتمدوا بشكل أساسي على الروايات الشفوية التي تتناقلها الألسن .

من ذلك أن السومريين اعتمدوا على التواتر أي نقل الروايات من جيل إلى آخر مشافهة ، حتى غدت هذه الأحداث مقبولة ومعتمدة مثل ملحمة جلجامش.

أما هوميروس شاعر اليونان العظيم من القرن العاشر قبل الميلاد فقد جمع التراث الشفوي للإغريق ونظّمه في ملاحم أصبحت تنسب إليه وأشهرها الإلياذة ، والأوديسة .

أما المؤرخ اليوناني هيرودوتس « أبو التاريخ » فقد اعتمد على الروايات الشفوية بالإضافة إلى مشاهداته ، وكتب تاريخًا عالميًا .

كذلك نحا المؤرخ اليوناني توسيديدس في كتابته للتاريخ على نهج أستاذه هيرودوتس فكتب تاريخًا للحرب البلبونيزية التي عاصرها معتمدًا على مشاهداته وروايات شهود العيان من الجنود وغيرهم .

واشتهر هيرودوتس وتوسيديدس بمقارناتهما المصادر المكتوبة بالتاريخ الشفوي .

وعلى نهج هؤلاء سار المؤرخون الرومان .

إما الفردوسي « الفارسي » فقد دوّن الملاحم البطولية لبلاده بشكلها النهائي باللغة الفارسية ، وذلك في القرن الحادي عشر ، وهي التي عُرفت بالشاهنامة « بطولة الملوك » معتمدًا في ذلك على التقاليد المروية ، والتاريخ الشفوي .

وهكذا كان للتاريخ الشفوى مصداقية واعتبار كمصدر للتأريخ ، وكان دائمًا يُقارن بما هو مكتوب ، وترجح كفته حين الاختلاف بينه وبين ما هو مكتوب .

ولكن حدث منذ القرن السادس عشر فصاعدًا أن أخذ الإحساس بالعلاقات المعقدة بين الكتابة والكلام يزداد . غير أن سيطرة النصيّة على عقول الباحثين سيطرة محكمة تجعلنا دائماً في حاجة إلى الرجوع إلى الرواية الشفوية .

ولما كانت النقلة من الكلام الشفاهى إلى الكلام المكتوب فى جوهرها نقلة من الصوت إلى الفراغ المرئى . فإن تأثيرات الطباعة هنا على استخدام الفراغ المرئى يمكن أن تكون بؤرة الاهتمام المركزية ، وإن لم تكن الوحيدة ، ولا تبرز هذه البؤرة العلاقة بين الطباعة والكتابة فحسب بل تبرز علاقة الطباعة بالشفاهية التى لا تزال باقية فى الكتابة ، وفى ثقافة الطباعة المبكرة .

وبعبارة أخرى فإن الكتابة أعادت تشكيل الكلمة المنطوقة ، شفاهية الأصل فوضعتها فى الفراغ المرئى . أما الطباعة فقد رسخت الكلمة فى هذا الفراغ على نحو أكثر حسمًا .

فالطباعة تُشجع على الإحساس بالاكتمال ، وهو الإحساس بأن ما هو قائم فى نص ما قد استوفى الغاية ؛ ووصل إلى حالة الكمال ، وهذا الإحساس يؤثر على الإبداعات الأدبية ، كما يؤثر على العمل التحليلى التاريخى .

الرواية الشفوية عند المسلمين :

لعبت الرواية الشفوية فى التاريخ العربى والإسلامى دورًا مميزًا ، حيث نشأ علم التاريخ على هامش العلوم الشرعية وفى مقدمتها علم الحديث ، واعتمد المؤرخون المسلمون نفس مناهج علماء الحديث ، وهى الإسناد والجرح والتعديل

لمعالجة الروايات الشفوية . ومن هنا نقول أن منهج التاريخ الشفوى هو منهج أصيل عند المسلمين .

كان العرب يتناقلون التاريخ مشافهة من جيل إلى جيل ، فأحاديث الحروب بين القبائل المختلفة التى سُميت بأيام العرب ، والأنساب ، والتفاخر بها ، وقصص الكرم وسيرة الملوك ، وغير ذلك من الأمور ، والتى كانت تتسم بالغموض والخيال وعدم الدقة ، كانت نواة لنشأة علم التاريخ ، حيث أن كثيرًا من المؤرخين المسلمين استمدوا منها أخبارهم ودونوها .

وقد بدأ تدوين هذه الأساطير والأخبار والسير فى العصر الأموى (٥) إذ كان معاوية بن أبى سفيان يستمع كل ليلة إلى شئ من أخبار العرب وأيامهم وأخبار العجم وملوكهم ، وكان يأتيه من يقرأ له من الكتب عن هذه الأخبار والسيَّر(٦) .

وكان للدين الإسلامى أثر كبير فى الاهتمام بعلم التاريخ عند العرب وتطوره ، لا سيما وأن القرآن الكريم أورد شيئًا من أخبار العرب قبل الإسلام منها ما يتعلق بقبائل عاد وثمود وملوك اليمن وقصص الأنبياء .

كذلك للرسول ﷺ كتّاب يكتبون ما ينزل به الوحى عليه من القرآن على جريد النخل والحجارة والجلد والعظم ... إلخ ، وقد جُمع القرآن فى عهد أبى بكر الصديق باقتراح من عمر بن الخطاب الذى خشى أن يضيع شئ من القرآن بعد استشهاد عدد كبير من حفظة القرآن فى حروب الردة ، فقام بجمعه زيد بن ثابت كاتب الوحى ، وقدمه لأبى بكر الذى خلفه لعمر ثم ظل عند ابنته حفصة زوج الرسول ﷺ .

أما الجمع النهائى للقرآن فقد تم فى عهد عثمان بن عفان .

وأما حديث الرسول ﷺ فيتصل اتصالاً وثيقًا بنشأة التاريخ عند المسلمين بعد القرآن . فقد روى الصحابة حديث الرسول ﷺ وتناقلوه مشافهة ، وأخذه بعد ذلك التابعون الذين سمعوا عن الصحابة .

ولم يقتصر الحديث فى البداية على الحفظ والرواية الشفوية فقد كتبه البعض مثل عبد الله بن عمر وابن العاص .

قال أبو هريرة : « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا اكتب »(٧) .

على أن المسلمين كانوا يروون معظم الأحاديث شفاهًا ، فالتدورين لم يكن كاملاً ، ولم يكن تدوينًا بالمعنى الصحيح ، وقد تحاشاه المسلمون مخافة اختلاطه بالقرآن الكريم ، إلى عصر عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) حيث أمر قاضية على المدينة - أبا بكر محمد بن عمر ابن حزم - أن يكتب ما كان من حديث رسول الله ﷺ وسنته خوفًا من ضياع العلم وذهاب العلماء(٨) .

أما الذين كان لهم شرف صحبة رسو الله ﷺ فقد اشتركوا فى جهاد الكفار وتفرقوا فى البلدان التى فتحها المسلمون وكانوا يعلمون أهلها الدين وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار ، فأهل المدينة المنورة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهما - وأهل الكوفة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوي عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وأهل مكة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن العباس - رضى الله عنهما - وأهل مصر كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - وهكذا ...(٩) .

أما الخلفاء العباسيون فقد قربوا إليهم الفقهاء والعلماء لتأييد خلافتهم وكان لهذه الرعاية أثرها فى تنشيط حركة جمع الحديث فظهرت صحيفة عبد الله بن لهيعة المصرى (ت ١٧٤) وموطأ الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩) وكان هذا تمهيدًا لظهور التدوين المنظم للحديث فى القرن الثالث الهجرى حيث ظهرت مجموعة من أمهات كتب الحديث

أهمها صحيح البخارى (ت ٢٥٦هـ) ، وصحيح مسلم (ت ٢٦١هـ) ، وسنن أبى داود (ت ٢٥٧هـ) ، وسنن الترمذى (ت ٢٧٩هـ) ، والنسائى (ت ٣٠٣هـ) وسنن ابن ماجة (ت ٢٧٣هـ) .

ولاشك فى بداية التأليف العلمى فى التاريخ عند المسلمين كانت وثيقة الصلة بالحديث والسنة النبوية الشريفة ، وكان الاعتماد فيه أولاً على الرواية الشفوية ، وذلك أن علم التاريخ عند المسلمين كان يهدف فى البداية إلى دراسة سيرة الرسول ﷺ وأعمال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - والجماعة الإسلامية الناشئة ، وأخبار الغزوات والجهاد ، وكان الاعتماد فيه أيضًا على الرواية الشفوية قبل كل شئ .

وبهذا ندرك أن طبيعة علم التاريخ عند المسلمين لم تختلف عن طبيعة علم الحديث ، اللهم إلا فى هدف كل منهما ، ونوع الروايات التى يعنى بها ، فالمحدثون يعنون بالروايات التى تهم الفقه (عبادات ، معاملات ، أخلاق ... إلخ) بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه إلى سرد الحوادث . فالحديث دراية ورواية ، والتاريخ عند المسلمين دراية ورواية أيضًا . والعلمان اشتركا فى المصادر والمنهج ، ولكن من المعروف أن المحدثين عنوا بالإسناد عناية كبيرة فظهر عندهم ما يعرف باسم (الجرح والتعديل) أى نقد الرواة .

واستفاد المؤرخون من هذا الأمر فظهرت كتب الطبقات معتمدة على نفس المنهج ، ومنها طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) ، وطبقات الذهبى (٨٤٨هـ) .

أما أقدم الكتب التاريخية التى جمعت بين علمى الحديث والتاريخ فهى كتب المغازى والسير التى بدأت فى المدينة المنورة ثم انتقلت إلى الأمصار فى القرن الثانى للهجرة .

وكانت هذه الكتب تبحث فى سيرة الرسول ﷺ وغزواته وتجمع أخبار هجرة المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأخبار غزوات الرسول ﷺ ، وأهم أحداثها .

ومن أقدم كُتّاب هذا الفرع من التاريخ عروة بن الزبير (ت ٩٢هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ) ، وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ) وعبد الله بن أبى بكر بن حزم (ت ١٣٥هـ) ، وعاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠هـ) ، ووهب بن منبه (١١٠هـ) . أما محمد بن مسلم الزهرى (ت ١٢٤هـ) الذى كان رائدًا لعلم التاريخ الشفوى ، فقد اشتهر بسعة معارفة وقوة ذاكرته . وكان محبًا لهذا العلم شغوفًا به ، فكان لا يُبقى فى المجلس شابًا ولا كهلاً ولا عجوزًا ولا كهلة إلاّ سألهم . وقد درس فى المدينة وتنقل بين الحجاز ودمشق وغيرها ، دوّن الحديث والأخبار على غير المألوف فى ذلك الوقت ، وكان يقول : (ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى ولا بذله بذلى)(١٠) .

كتب الزهرى - معتمدًا على الرواية الشفوية - عن مواضيع كثيرة . وظهر ذلك فى مجموعة الأحاديث المسماة (الزهريات) ، وهى تشمل قوائم المهاجرين إلى الحبشة ، والمشتركين فى بيعة العقبة ، والمقاتلين فى بدر . وقد تناول حياة الرسول ﷺ ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، وتاريخ بنى أمية ، وكان يُدخل الشعر فيما يروى .

وقد أعار الزهرى السند أهمية كبرى حيث عمد إلى جمع أسماء رواة الخبر الواحد ، وتوحيدهم ، ثم رواية الخبر نفسه(١١) .

وبعد الزهرى أصبح المؤرخون يجمعون بين التاريخ المكتوب والتاريخ الشفوى ، فقد كان ما ألفه من كتب أساسًا اعتمده المؤرخون بعده ، ومنهم معمر ابن راشد اليمانى البصرى (ت ١٥٠هـ) الذى ألف كتابًا فى الحديث والمغازى ناقلاً أكثر رواياته عن الزهرى .

أما أشهر تلاميذ الزهرى فهو محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ) الذى ألف كتابًا فى السيرة يتكون من ثلاثة أقسام (المبتدأ والمبعث والمغازى) تناول فى القسم الأول تاريخ الخليقة إلىما قبل الإسلام ، والقسم الثانى

حياة الرسول ﷺ فى مكة والهجرة ، والقسم الثالث سيرة الرسول ﷺ فى المدينة ومغازيه .

ولم يصلنا هذا الكتاب مباشرة بل وصلنا برواية ابن هشام فى سيرته المعروفة . وكان ابن هشام قد نقله عن تلميذ ابن إسحاق - البكائى - بعد إجراء بعض التعديلات والحذف(١٢) .

ومن أعظم الذين خلفوا ابن إسحاق فى الكتابة عن المغازى محمد بن الواقدى (ت ٢٠٧هـ) . ومن تلاميذ الواقدى محمد بن سعد صاحب كتاب (الطبقات) . وامتاز ابن سعد بذكر النص الكامل للكثير من الوثائق الأصلية مع الاهتمام بالسند ، ومثل هذا المعجم التاريخى فى تراجم النبى ﷺ والصحابة والتابعين يؤلف حلقة جديدة فى الوصل بين علم الحديث وبين الرواية التاريخية .

إن مؤرخى السيرة والمغازى والفتوحات الإسلامية والطبقات بكتابتهم المعتمدة على الرواية الشفهية مهدوا للمؤرخين الذين كتبوا بعدهم فى التاريخ ، ورسموا لهم منهجًا يسيرون عليه فى التحقيق والكتابة .

و استمر المؤرخون فى العصر العباسى فى المزج بين الرواية المكتوبة والرواية الشفوية . ومن أشهر المؤرخين فى هذا العصر ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ) الذى لم يكن مؤرخًا فحسب بل كان عالماً فى النحو واللغة والنقد الأدبى والفقه . ومن مؤلفاته التاريخية كتاب (المعارف) و (الإمامة والسياسة) و (عيون الأخبار) .

واليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) الذى كان مؤرخًا وجغرافيًا صاحب كتاب (البلدان) وكتاب عرف باسمه (تاريخ اليعقوبى) .

وأبو حنيفة الدينورى (ت ٢٨٢هـ) وهو بالإضافة إلى كونه مؤرخًا فقد كان من علماء اللغة والنبات والهندسة والحساب ، وهو صاحب

كتاب (الأخبار الطوال) يتحدث فيه من آدم عليه السلام إلى آخر أيام الخليفة العباسي المعتصم .

أما أشهر المؤرخين المسلمين فهو الطبرى (ت ٣١٠هـ) الذى كان محدثًا وفقهيًا ومفسرًا صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك) الذى اعتمد عليه المؤرخون من بعده أمثال مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وأبو الفدا ، والذهبى .

بدأ الطبرى كتابه بابتداء الخلق ، واستمر حتى سنة ٣٠٢هـ . ويعتبر كتابه أول كتب التاريخ الشاملة عند المسلمين ، رتبه على السنين الهجرية ، واتبع فيه طريقة الإسناد إلى رواة الحوادث بالتسلسل .

واعتمد الطبرى فى تأليفه هذا الكتاب على الروايات الشفوية التى جمعها عن شيوخه وعن المعاصرين والتابعين لهم ، واستفاد من أسفاره المتعددة إلى مصر والشام والعراق وغيرها ، كما اعتمد علىالكتب التى كانت موجوده فى عصره .

أما المسعودى (ت ٣٤٦هـ) فقد ساح فى طلب العلم فطاف أكثر أجزاء العالم الإسلامى وابتكر طريقة جديدة فى تأليف التاريخ ، وهى ترتيب الحوادث تحت رؤوس موضوعات من الشعوب ، والملوك والأسرات . ولم يتبع ترتيب الحوادث تعاقب السنين الهجرية كما فعل الطبرى ، وتبعه فى هذا ابن خلدون وغيره من المؤرخين .

ألف المسعودى كتاب (مروج الذهب ومعان الجوهر) وهو كتاب تاريخى جغرافى عظيم القيمة ، وكتاب (التنبيه والإشراف) وقد أطلق المؤرخون على المسعودى اسم هيردوت العرب ، وجمع المسعودى بين الرواية المكتوبة والتاريخ الشفوى .

ومن أشهر المؤرخين المسلمين مسكويه (ت ٤٢١هـ) صاحب كتاب (تجارب الأمم) . وقد اعتمد على الطبرى بدرجة كبيرة فى

الحوادث التى لم يدركها ، ثم اعتمد على الروايات الشفوية حيث كانت له علاقة بأكبر الشخصيات فى عصره إذ كان أمينًا لمكتبة ركن الدولة الفضل بن العميد، ثم دخل فى خدمة عضد الدولة بن بويه . ولم يكن مسكويه مؤرخًا فحسب بل كان فيلسوفًا وطبيبًا وسياسيًا محنكًا . فكان قادرًا على جمع المعلومات من مصادرها الصادقة ، وكان موضوعيًا لدرجة كبيرة ، فتعرض فى كتابه لعجز سيف الدولة الحمدانى ولم يخف هزيمته أحيانًا أمام البيزنطيين ، مع أن سيف الدولة كان يعتبر بطل الإسلام والمجاهد الأكبر فى زمانه ، ولكن مسكويه إلتزم بالحقيقة .

إن اعتماد مسكويه على الرواية الشفوية جعل أحكامه صادقة لا سيما وأنه كان مؤرخًا حاذقًا لا يبغى إلاّ الحقيقة .

ومن المؤرخين القدماء من كتب عن أحداث عصره التى شاهدها بأم عينيه أو فترة قريبة العهد به ، أى سبقته بفترة قصيرة ، فاعتمد على الرواية الشفهية حيث كان المؤرخ يتصل بأعلام المعاصرين وكبار رجال الجيش والإدارة ويسمع منهم الأحاديث عن الموضوعات المختلفة . وكان بعض أولئك المؤرخين يشغل منصبًا هاماً فى الدولة (دواوين - إدارة - ولاية - جيش ... إلخ) فكان اعتمادهم عظيمًا على اتصالهم بالرجال والأحداث نفسها .

ولهؤلاء المؤرخين أهمية خاصة فى الكشف عن القيم الأخلاقية فى عصرهم مما يتجلى فى المثل العليا والأهداف عند الأشخاص الذين يصورونهم ، كما أننا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نستنبط من مؤلفاتهم بيانات كثيرة عن الحياة اليومية فى عصرهم .

ولكن رغم اعتماد مؤلفاتهم كمصادر أصلية إلا أنه يجب مراعاة قواعد البحث العلمى من حيث نقد المصادر والروايات ... إلخ .

أهمية التاريخ الشفوى :

إن الكلمة المنطوقة وسط كل الآفـاق الرائعـة التـى تتيحهـا الكتابـة ، لا يزال لها حضور وحياة . ذلك أن كل النصوص المكتوبة لابد لها بطريقة ما ، - مباشرة أو غير مباشرة - ، من الارتباط بعالم الصوت ، الموطن الطبيعى للغـة ، كى تعطى معانيها .

وقراءة النص تعنى تحويله إلى صوت ، جهوريًا كان أو فى الخـاطر ، مقطعا فى القراءة البطيئة ، أو اختزالاً فى القـرآءة السـريعة الشـائعة فـى الثقافـات ، ذات التكنولوجيا العالية(١٣) .

فالكتابة لا يمكن أبدا أن تستغنى عن الشفاهية وجمع الروايات الشـفوية، وتوثيقها عمل هام جدًا فهو يحفظ خبرات وتجارب كانت ستنسـى أو تتحـول فى أحسن الأحوال إلى خرافات ، بفعل تناقلها مشافهة من شخص إلى آخـر ، ومن جيل إلى جيل .

إن فهما أعمق للشفاهية الأصليـة أو الأوليـة يمكننـا مـن فهـم عـالم الكتابـة الجديد فهما أفضل .

يقال أن ذكريات الرواى مهما كانت دقيقة ، ومفعمة بالحيوية ، فإنهـا تمـر بتصفية من خلال التجارب اللاحقة ، وإنها من الجائز أن تتأثر بمـا تم استيعابه مـن المصادر الأخرى « خاصة وسائل الإعلام » .

يضاف إلى ذلك أنها ربما تتأثر بشعور التوق المفرط إلى الماضى . ومن ناحية أخرى يمكن أن تحرف ذكريات الـرواى بشـعور الأسـى ، بخصوص الحرمـان فـى مرحلة الطفولة(١٤) .

ويقال أن الذاكرة تنتقى ملامـح معينـة للمشـهد أو الحدث ، وتفسـره فـى ضوء الخبرات السابقة ، والتوقعات . وعند المقابلـة يميـل الـراوى إلى الـتركيز على

إحساسه وتكون توقعاته عن الحدث أكثر مما شاهده فعلاً ، ويحكم منطق ما كان يجب أن يحدث .

ولكن هذا ليس مبررًا كافيًا لعدم الاعتراف بالتاريخ الشفوى كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية ، فلكل المصادر مشكلاتها .

والواقع أن العاطفة والغايات تؤثر فى التاريخ المكتوب ربما أكثر من تأثيرها فى الراوية الشفوية ، والباحث اللبق لا يقبل المصادر على علاتها ، وإنما يتخذ منها دائمًا موقفًا نقديًا ومتشككًا سواء كانت مكتوبة أو غير ذلك .

والجدير بالذكر أنه عندما تختلف الروايات الشفوية مع المصادر المكتوبة فإن الروايات الشفوية تصحح المصادر المكتوبة ، أما العكس فإنه نادر الحدوث(١٥) .

إن إنتاج تاريخ عام ومشترك من الذكريات المنطوقة لأفراد الطبقة العاملة ، أو للمزارعين ... إلخ يعتبر نشاطًا إيجابيًا ومهما بشأن الإندماج فى أشكال أخرى جديدة ومتنوعة من سياسات المجتمع ، فهو يبرز مشاكل وآلام وآمال وطموحات هذه الطبقة من الشعب أو تلك(١٦) .

إن من عوامل أهمية التاريخ الشفوى أنه لا يهمل الأبعاد غير المرئية فى النشاط الإنسانى والبناء المجتمعى ، فالتاريخ ليس فقط الأحداث الكبيرة الضخمة ، الظاهرة للعيان بل تشترك معها الأحداث غير المرئية ، فتشكل المجرى الرئيسى للتاريخ ، فكتابة الحدث تبقى ناقصة إذا لم تتضمن الانفعالات والمشاعر والتفاصيل المصاحبة للحدث .

ففى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦م على قطاع غزة قامت إسرائيل بارتكاب مجازر رهيبة فى معظم مدن القطاع ، خاصة فى مدينة رفح حسن

جمعت قوات الاحتلال خلال ساعة كل رجال من سن ١٦ سنة إلى سن ٦٠ سنة فى المدرسة الأميرية ،وذلك بعد أن أعلنوا عن هذا الأمر فى الساعة السادسة صباحًا ، وكل من تخلف عن الحضور إلى هذه المدرسة أمر الجنود بقتله ، وكل من لم يسمع النداء وبقى فى بيته قتلوه أيضًا على باب منزله .

أما من ذهب إلى المدرسة فإنه تعرض قبل دخوله للضرب المبرح.

هذا الحدث قد يرد فى كتب التاريخ - علمًا أنه لم يورد حتى الآن- ولكن تبقى معاناة أسر أولئك الشهداء التى تكمن فى الزاوية الغير مرئية ، والتى منها أن امرأة حينما شاهدت ابنها قتيلاً ضربت بكفيها على رجليها فشلت ، وأصبحت مقعدة لا تستطيع حراك رجليها إلى أن ماتت . وهناك أب شاهد ابنه مقتولاً فحملق فيه برهة من الزمن ففقد بعدها بصره ، وأصبح ضريرًا إلى أن مات بعد فترة قصيرة .

هذه الأحداث وغيرها كثير لم تسجل ، ويبقى العبء ، بل الواجب على المؤرخين الذين يعتمدون التاريخ الشفوى كمصدر من مصادر التاريخ، إبرازها ، فما زال بعض من عاصر هذا الحدث حيا يرزق .

إن التاريخ الشفوى إذا أحسن استخدامه يشكل مصدرًا لا يقل أهمية أو دقة عن المصادر المكتوبة . ومع أن الروايات الشفوية أقل بقاء فى العادة وأكثر عرضة للتحريف من المصادر المادية والمكتوبة ، إلا أن بعض الوثائق الشفوية كالحكايات والأغانى الشعبية والأشعار تحفظ فى الذاكرة ، وتنتقل من جيل إلى جيل ، دون تغيير تقريبًا ، وتحفظ فى ذاكرة الشعب لفترات طويلة جدًا .

ولكن إعداد الوثائق الشفوية ومعالجتها يختلف عنه فى المصادر المكتوبة ، ولا بد للمشتغل بالتاريخ الشفوى من تدريب مناسب فى النواحى النظرية والعملية قبل الإقدام على عمله هذا .

إن التاريخ الشفوى له مكان واسع فى التاريخ ، ويحتمل أن يصبح أكثر انتشارًا فى المستقبل ، وتحتاج روايات الأحياء لجمع من قبل المؤرخين أكثر من أى وقت مضى ، لأنها تتعرض لوصف عدة متغيرات اجتماعية واقتصادية ، وسياسية ، وثقافية ، وسكانية(١٧) .

منهج البحث فى التاريخ الشفوى :

تنوعت اهتمامات المؤرخين فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية التى يعالجونها فى كتابة التاريخ .

وللتاريخ الشفوى منهجه فى البحث وهو يعالج جميع مجالات الحياة لشعب أو أمة ، بمعنى أنه يشمل :

أولاً : التاريخ السياسى :

وهو يبحث فى القيادات السياسية ، والأحزاب ، والحركات السياسية ، والنقابات ، والثورات ... إلخ .

ثانيًا : التاريخ الاجتماعى :

وهو يبحث فى الحياة الاجتماعية والأسرية والأعياد والاحتفالات، والملابس ، والطعام فى فترة زمنية محددة ، فضلا عن الحياة داخل البيوت وخارجها ، فى الأسواق والحمامات ... وغيرها .

ثالثًا : التاريخ الاقتصادى :

وهو يبحث فى النشاط الاقتصادى من زراعة وصناعة وتجارة ؛ والمحلات التجارية ، والعملات ، والضرائب ... إلخ .

رابعًا : التاريخ الثقافى :

يبحث فى النشاط الفكرى والتعليم ، والمدارس ، والمكاتب وألوان المعرفة والعلوم .

خامسًا : تاريخ السكان :

ويبحث فى عدد السكان وعناصرهم وأصولهم ، ومناطق الانتشار والاستقرار والهجرة ، وتاريخ المدن .

* * *

ونحن إذا أردنا أن نصل إلى الأهمية الكاملة لشهادة شفهية ما ، يجب أن نقابلها بالمقارنة والمقابلة بكل ما جاء عنها فى المصادر ذات العلاقة بموضوع البحث ، وإلا ستكون أغلب التفاصيل غير ذات فائدة .

ويكشف البحث الشفهى أحيانًا مادة وثائقية جديدة فى حيازة الأفراد - صور ، عملات ، سندات ملكية لأراضى وعقارات ... إلخ - وهذه تزيد من كميات الشواهد المساعدة . وغنى عن البيان أن التضلع فى السياق المحلى هو الذى يجعل الشفهى هامًا وملفتًا للنظر .

إن التاريخ الشفهى ليس فرعًا جديدًا من التاريخ ، وإنما منهجية ، ووسيلة لتقديم مصادر جديدة تقف جنبًا إلى جنب مع المصادر المدونة والبقايا المادية .

ولكن فى الوقت ذاته تستحق المصادر الشفهية اهتمامًا أكثر مما تحصل عليه حاليًا من قبل المؤرخين عمومًا . فهى فوق كل شئ مادة شفهية ، تشترك مع المصادر المدونة فى الكثير من جوانب القوة والضعف وغزارة التفاصيل مع فارق دقيق لا يكاد يدرك فى المعنى ، إضافة إلى التحريفات المتعلقة بالتحيز المذهبى والاتجاه السياسى .

إن المصادر الشفهية تعتبر بصفة خاصة مادة ملائمة لمهارات المؤرخ النقدية التقليدية . فهى تحتوى على جاذبية أبعد بخصوص تقديم رؤية متميزة فى تشكيل الوعى التاريخى الشعبى ، وهو أمر يجب أن يكون محل اهتمام دائم لكل المؤرخين(١٨) .

خطوات البحث فى التاريخ الشفوى :

إن منهج البحث فى التاريخ الشفوى يجب أن يلتزم بمنهج علمى غير منهج البحث فى الوثائق المكتوبة ، وأهم أركانه(١٩) :

أولاً : الإعداد للمقابلة :

الإعدد الجيد للمقابلة هو مفتاح النجاح لمؤرخ التاريخ الشفوى حيث توجد أمامه فرصة واحدة لاختبار المصادر وتصحيحها ، أو معالجة الفراغات والنواقص فيها ، ومعظم أشكال البحث الأخرى تحتمل مثل هذه العمليات باستمرار ، ولذلك فإن على المؤرخ الشفوى أن يحسم القضايا التالية قبل التوجه للمقابلة :

١ - إعداد الباحثين الميدانيين :

العمل الميدانى يتطلب مهارات مهنية ، ومواصفات شخصية واجتماعية محددة لا بد من توافرها . وأهم المواصفات المطلوب توافرها فى الباحث فى التاريخ الشفوى :

(أ) معرفته بمناهج البحث التاريخى .

(ب) المقدرة على استخدام أدوات البحث الميدانى .

(جـ) اتصافه بعدة صفات شخصية ، ليس المقصود بها المظهر الخارجى للباحث - وأن كان هذا مهمًا ، إنما الجوهر هو الأهم ، أى يجب أن تكون لديه قدرة على كسب ود ، وثقة المتحدثين معه من خلال اتقانه لملكة الإصغاء ،

وإظهار التعاطف ، أو على الأقل التفهم لوجهات نظر الرواة وهمومهم والحساسية لمشاكلهم ، أى الاحتمال والصبر ، والتحفز للبحث عن الحقيقة بلباقة .

(د) معرفة الباحث بالراوى وظروفه .

وهذه المعرفة تيسر للباحث إمكانية التعامل مع الراوى على الصعيدين الشخصى والعلمى .

(هـ) المعرفة العلمية بموضوع البحث .

فيجب على الباحث أن يطلع على المصادر المختلفة - خاصة المكتوبة - المتعلقة بموضوع بحثه ، فالرواية الشفوية لا تعطينا صورة كاملة عن الحدث .

إن معرفة الباحث بخصائص الفترة موضوع الدراسة تمكنه من طرح أسئلة ذكية ومتعمقة ، وتبعده عن السطحية ، وعن العموميات .

٢ - اختيار الموضوع :

يجب أن يختار مؤرخ التاريخ الشفوى موضوعًا معينًا ، أو أحد جوانب حدث معين ، أما مراكز البحث والتوثيق التى تستهدف إلى صناعة المصادر والأدلة وتوفيرها للباحثين ، فإنها تقوم بإجراء المقابلات على أساس فترة زمنية محددة لتوثيقها .

ولا بد من وضع إطار عام للبحث ، وصياغة استبيان أو تحديد رؤوس موضوعات يرغب الباحث فى تغطيتها . وليس من الضرورى أن تصاغ أسئلة ملزمة للباحث ليجيب عنها الراوى ، فمن الأفضل ترك تحديد شكل ومحتوى المقابلة للباحث والراوى ، هذا لا يتعارض مع توفر مجموعة أسئلة أو قائمة موضوعات بأيدى الباحث . فهذا يوفر عليه الكثير من المتاعب . ولكن المهم ألا يقيد الباحث نفسه بأسئلة موضوعة مسبقًا فيكون هدفه المرور عليها واحدًا بعد الآخر، بل يجب أن ينظر إليها كدليل أو إطار عام للمقابلة .

أما المراكز التى تعمل على توثيق التاريخ الشفوى وتركز على إجراء مقابلات حرة فإنها بحاجة إلى درجة معينة من العمق إلى جانب الاتساع ، حتى تصبح هذه المادة قابلة للاستخدام كمصدر له قيمة تاريخية . والطريقة لهذا هى وضع الإطار التاريخى للمشروع ، وتحديد نوعية الراوة ، وتقدير أهمية تجاربهم .

٣ - انتقاء الرواة :

إن اختيار عينة جيدة من الرواة مهم جدًا إذ بدونها يسهل التشكيك فى استنتاجات الباحث مهما بدت منطقية .

ويمكن هنا مقابلة جميع روايات الأحياء المعاصرين لحدث ما ، واعتبارهم عينة تمثيلية - هذا فى الأحداث التى مات معظم معاصريها ، ولكن هذا صعب فى معظم الأحيان .

ويمكن اختيار عينة من الراوة مع مراعاة الأبعاد الاجتماعية والجغرافية والسياسية .

كذلك يمكن للباحث أن يفيد من الأرشيفات والمصادر المكتوبة حول موضوع بحثه فى اختيار عينة تمثيلية ، وأيضًا من المختصين ، والباحثين الذين لديهم الخبرة والمعرفة .

وعلى الباحث ألا يقصر جهده واهتمامه على الأشخاص المتحمسين للحديث عن تجاربهم ، بل عليه أن يبحث بنفسه عن آخرين عاصروا الحدث .

أما العوامل التى تحدد عدد المقابلات وطولها فأهمها :

(أ) نوعية الرواة .

(ب) سن الرواة .

(جـ) خبرة الرواة .

(د) موضوع البحث .

(هـ) الامكانيات المادية والفنية للباحث .

(و) الظروف السياسية والأمنية .

وعندما يقع الاختيار على الرواة يجب الإسراع فى الاتصال بهم ، بالمراسلة أو التليفون . وفى حالة الاتصال عن طريق المراسلة على الباحث أن يحتفظ بأرشيف جيد للمراسلات والملاحظات .

ويتوقع من الباحث أن يشرح للرواة فى هذه المرحلة أهداف البحث وما يطلبه منهم بشكل واضح .

إن مصداقية الباحث والجهه المشرفة على البحث مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وعلى الباحث أن يقدم نفسه للراوى بطريقة مقبولة .

ولا بد من وجود مشرف على كل مشروع من مشاريع التاريخ الشفوى بمؤهلات وخبرات عالية ، تؤهله لمتابعة عمل الباحثين الميدانيين ، ولوضع خطط العمل والإشراف على تنفيذها ، فالمشكلة الحقيقية فى مشاريع التاريخ الشفوى هى تنظيمها ومتابعتها .

بعد أن تؤخذ موافقة الراوى على إجراء المقابلة يتم الاتفاق معه على موعد مناسب لإجراء المقابلة ، التى يفضل أن تسبقها مقابلة أولية لاختبار معلومات الراوى .

٤ – أدوات التسجيل :

إن باستطاعة مؤرخ التاريخ الشفوى اليوم استخدام آلة تصوير فيديو أو جهاز التسجيل الذى هو أكثر استخداما ، ويعتبر الرفيق الدائم لمؤرخ التاريخ الشفوى .

٥ – المقابلة التمهيدية :

ليس كل من يستجيب لإجراء مقابلة قادرًا على إفادة الباحث ، ولذلك ننصح بإجراء مقابلة تمهيدية قبل التسجيل لاختبار معلومات وقدرات الراوى .

والمقابلة التمهيدية هى المكان المناسب لاكتشاف موضوعية الراوى وقوة ذاكرته ، وهى مهمة حيث أنها تعرف الباحث بالرواى ، وتخلق بينهما نوعًا من التألف والثقة ، وتساعد الراوى فى تعديل أسئلته بحيث تناسب الراوى .

والمقابلة التمهيدية تعرف الراوى أيضًا بأهداف الباحث وتتيح له الفرصة لتنظيم أفكاره كى تناسبها .

وفى هذه المقابلة يوضح الباحث أهداف البحث للراوى ، ويأخذ موافقته على استخدام الرواية بعد أن تسجل .

ويفضل أن يكون هذا اللقاء فى نفس المكان الذى ستجرى فيه المقابلة ، ويذهب الباحث بدون أدوات تسجيل ، ويتجنب الخوض فى التفاصيل ، وفى المواضيع التى يمكن أن تحرج الراوى ، كالمسائل الشخصية أو العائلية ، ويركز اهتمامه لكسب ثقة الراوى وتعاطفه مع أهداف البحث .

يجب على الباحث أن يتذكر دائمًا أن هدفه يختلف عن هدف الراوى، ففى حين يسعى الباحث إلى توثيق الوقائع والأحداث والقضايا ذات المدلول التاريخى بدقة وأمانة ، يميل الرواة للتركيز على الجوانب الشخصية والشعورية ، لأن هدفهم قد يكون التسلية والترفية ، أو لتمجيد صفحاتهم وعائلاتهم أمام التاريخ والناس .

وإذا تبين بعد المقابلة التمهيدية أن لدى الرواى ما يفيد البحث ، فعلى الباحث أن يحدد موعدًا لإجراء المقابلة وتسجيلها ، ويطلب الباحث من الراوى أن يوقع له توكيلاً باستخدام المقابلة ، فهذا هو الوقت المناسب له .

العوامل التى تحدد قيمة الرواية :

- أهمية الموضوع أو الحدث أو الفترة موضوع البحث .
- أهمية دور الراوى فى الفترة أو الحدث .
- أهمية المعلومات الواردة فى المقابلة .

فالمادة الشفوية تقسم إلى ثلاثة أنواع :

(أ) حقائق أصلية .

(ب) معلومات مساعدة .

(جـ) أحاسيس ومشاعر .

- نوعية التسجيل .

والجدير بالذكر هنا أن روايات شهود العيان هى أساس التاريخ الشفوى .

٦ - مراعاة الجوانب القانونية والأدبية :

إن ما ينتج عن المقابلة الشفوية من أشرطة مسجلة ونص مكتوب هو إنتاج مشترك للباحث والراوى ، وملكيتها تعود إلى كليهما ، ويأخذ التوكيل القانونى شكلين يختار الباحث أحدهما ، هما :

(أ) تصريح شفوى فى مقدمة الشريط يقول فيه الراوى صراحة ، وبشكل واضح أنه موافق على أن يمنح الباحث جميع حقوق استخدام الرواية ضمن شروط معينة ، إن وجدت هناك شروط .

(ب) توكيل مكتوب موقع من الراوى نفسه ينص على منح حقوق استخدام الرواية للباحث ضمن شروط معينة ، إن كانت هناك شروط .

والتوكيل المكتوب أفضل من التوكيل الشفوى .

ثانيًا : إجراء المقابلة :

المقابلة الشفوية هى أساس التاريخ الشفوى ، ويتوقف نجاح المقابلة على درجة التفاعل بين الراوى والباحث ، ومن المفضل أن يبدأ الباحث استجوابه بأسئلة عامة ثم ينتقل بعد ذلك إلى التخصيص ، وأن يكون منتبهًا متيقظ الذهن ، ويبنى سؤاله على كلام الراوى ، حتى يجعل الراوى يسترسل فى حديثه فى نفس الموضوع الذى جاء من أجله .

وعلى الباحث أن يسجل كل انفعالات الراوى ، ويفضل أن يكون مستعدا لذلك ، فيدونها فى دفتر ملاحظاته الذى يعتبر جزءًا من ملحقات المقابلة ، وعليه ، أن يسأل عن صور أو وثائق تخص موضوع البحث فيلحقها بالإرشيف كوثائق هامة .

ويجب على الباحث أن يحسن الإصغاء إلى الرواى ، وأن يركز اهتمامه عليه ، ويمتنع كلية عن توجيه إجابات الراوى أو التأثير عليه ، بما فى ذلك الامتناع عن طرح أسئلة بأسلوب الإيحاء . ويجب أن يبذل الباحث جهده لإحراز ثقة الراوى وطمأنينته ، فالباحث الناجح هو الذى لا يخلق انطباعًا لدى الراوى بأنه يتوقع استجابات تبدو كأنها أسئلة إتهام له ، أى أن يكون الباحث موضوعيًا فى أسئلته .

وعلى الباحث أن يتحلى بالصبر ، ولا يقاطع الراوى بأسئلة جديدة فيقطع أفكاره .

ويجب عليه أن يترك للراوى الحرية فى ترتيب ، وعرض التفاصيل ، والقضايا، فإنه ربما يريد أن يقود المقابلة نحو المواضيع التى يعرفها ، ويبتعد عن المواضيع التى يجهلها ، وهذا فى مصلحة المقابلة . وعليه ألا يصر على أى شئ لا يتفق ورغبة الراوى ، فإذا رفض الراوى الإجابة على سؤال معين أو التحدث فى موضوع معين فعليه أن ينتقل إلى سؤال آخر ، أو يسأل السؤال بطريقة أخرى .

يجب أن تكون الأسئلة مفردة واضحة ، وقصيرة ، ولا يقرأ الأسئلة من قائمة أسئلة معدة سلفًا حسب ترتيب معين لا ينسجم مع مجرى المقابلة ولا أسئلة تحتمل إجابات قصيرة فقط .

ويطلب الباحث من الراوى أن يركز روايته على ما رآه فعلاً ، كما أن بإمكانه أن يختبر صدق الروايات ودقتها بتكرار الأسئلة بطرق مختلفة ومقابلة الروايات بمصادر أخرى ، ويطلب من الراوى التعليق عليها .

هل يتم الحديث بلهجة فصيحة أم عامية ؟

إن هذا يعتمد قبل أى شئ آخر على الرواى ، ولكن نقول أن المقابلة الشفوية هى عمل أكاديمى ، وليست مجرد نقاش بين اثنين أو لقاء صحفى ، فإنها بعد تسجيلها تصبح وثيقة تاريخية هامة سيعكف على معالجتها ، وحفظها ، وتترك لهجة الحديث يحددها الراوى وليس الباحث ، أما إذا ظهرت كلمات غير مفهومة فيقوم الباحث بشرحها .

وعند انتهاء المقابلة يشكر الباحث الراوى ، وإذا كان الباحث يعمل من خلال مركز فعلى المركز أن يوجه له رسالة شكر رسمية .

ثالثًا : نسخ المقابلة كتابيًا :

تسجيل المقابلات على أشرطة التسجيل هو حفظ للذاكرة والأحداث من النسيان والتشويه .

وتفريغ المقابلات الشفوية على الورق لا يلغى دور المقابلة المسجّلة ، والتى تبقى هى المصدر الأساسى ، وطريقة استخدام الباحثين للمقابلة تحدد درجة ومستوى الدقة التى يطلب من الناسخ التقيد بها .

والنسخة المثالية : هى التى تسجل ما قاله الراوى وتعكس أسلوبه ، وشخصيته بأمانة على أن تكون مقروءة ، ومفهومة أيضًا .

مرحلة النسخ : يدون فيها الناسخ كل ما يسمعه على الشريط بما فى ذلك البدايات غير الموفقة ، والآهات ، والكلمات والجمل غير المكتملة ، وحتى الشتائم، وهو غير مطالب بتصحيح الأخطاء اللغوية حتى وإن بدى الحوار غير مفهوم ، فمراجعة النص وتنقيحه تأتى فى مرحلة لاحقة .

ويبدأ الناسخ بتفريغ المعلومات الأساسية عن المقابلة للتعريف بها كما هو وارد فى الشريط ، وبعد الإطلاع على ملاحظات الباحث الذى أجرى المقابلة ، تسجل المعلومات فى رأس الصفحة الأولى على النحو التالى :

اسـم الـراوى :

عمـر الـراوى :

رقـم الشـريط :

مـدة الشـريط :

مـكان التسـجيل :

تاريـخ التسـجيل :

اسـم البـاحث :

الجهة المشرفة على البحث :

وتنسخ المقابلة على شكل سؤال « س » وجواب « ج » .

وعلى الناسخ ألا ينسى علامات الترقيم التى بدونها يصعب فهم مقاصد الراوى .

وأن يدون أية ملاحظات عن انفعالات الـراوى وتعبيراتـه الحركيـة مستعينًا بدفتر ملاحظات الباحث الذى نفذ المقابلة ، كأن يقـول ضاحكًا متهكمًا ، لـوح بيده فى الهواء ... إلخ .

فالناسخ يدون كل ما يسـمعه بـالضبط ، وعندمـا ينتهـى مـن الوجـه الأول للشريط يكتب « نهاية الوجه الأول » ، وفى نهاية الشريط يشير بكلمة « انتهى» ثم يدون اسمه والوقت الذى استغرقه فى نسخ الشريط .

والجدير بالذكر هنا أيضًا أن الناسخ يجب أن يقوم بـترقيم الصفحـات وتـرك حواشى كافية على الجـانبين ، واستخدام أوراق وأقـلام مـن نوعيـة جيـدة ، وأن يكتب على وجه واحد من الورقة ، وأن يقوم بمراجعة ما كتب بسماع الشـريط ، ومقابلته بما كتب .

رابعًا : مراجعة النسخة المكتوبة وتطويرها :

بعد الانتهاء من نسخ المقابلة يدفع النص للمراجع الذى يسمح له بإدخال تعديلات طفيفة على المقابلة ضمن حدود الحفاظ على أسلوب وشخصية الراوى من خلال النص ، وذلك بهدف توضيح النص ، وجعله مقروءًا ومفهومًا .

الأشياء التى بإمكان المراجع التصرف بها فى النص المكتوب :

١ - البدايات الخاطئة :

وهى كلمات مقطعة مشوشة ربما جاءت غير مقبولة ، أو غير مفهومة فيقوم الباحث بترتيبها ، وإخراجها فى جمل مفهومة بحيث لا تؤثر على النص .

٢ - التعبيرات المكررة بحكم العادة :

مثل كلمة يعنى ، شوف ، كيف ، زى ما تقول ، اسمع ، وللأمانة .

٣ - مقاطعات الراوى للباحث :

مثل هذه المقاطعات تحذف لأنها لا تمت إلى محتوى المقابلة ، وتقلل من سلاسة الحوار .

٤ - الإضافة للنص المكتوب :

لا يجوز إضافة أية كلمة للنص بهدف تفسيره أو شرحه ، وإنما تكون الإضافة بهدف توضيح المعنى فقط ، وبإمكان المعالج توضيح مقاصد الراوى باستخدام علامات الترقيم .

وبإمكانه أيضًا توضيح المعنى بإضافة كلمة أو كلمتين شرط أن توضع بين قوسين مركنين [ ] تمييزًا لها عن حديث الراوى نفسه .

أما بخصوص اللهجة وتهجئة الكلمات فينصح عمومًا بعدم التمسك بالفروق بين اللهجات المحكية ، فإذا قال الراوى « قلتلك » قاصدًا « قلت لك » فتكتب العبارة بشكلها الثانى .

خامسًا : مراجعة الراوى للنص المكتوب :

الباحث غير ملزم بإطلاع الراوى على النص المكتوب لروايتـه ، إلا أن هـذا الأمر له فوائده والتى منها :

أولاً : يطمئن الراوى ، ويريحه ، ويعزز التزامه بجهة البحث .

ثانيًا : يؤكد للباحث أن النسخة المكتوبة تعكس المعنى الذى قصـد إليـه الـراوى ، وتورد الحقائق بالطريقة التى أرادها .

ثالثًا : توفر للباحث فرصة لملأ الفراغات التى تنشأ عن عدم وضوح التسجيل ، أو عدم وضوح معنى أجزاء من الرواية .

ولتحقيق هـذه الأهـداف يطلـب مـن الـراوى قـراءة النـص بتمعـن ، والقيام بما يلى :

١ - تعبئة الفراغات المشار إليها فى النص والناجمة عن عدم وضوح التسجيل .

٢ - تصحيح تهجئة الكلمات وخاصة أسماء الأشخاص والمواقع .

٣ - تصحيح الأخطاء التى يمكن أن يكون الراوى نفسـه قد وقع فيها مثـل تـاريخ أو مكان حدث معين .

٤ - إضافة بعض الكلمات التوضيحية لشرح العبارات والجمل التى قد تكون غـير مفهومة للقارئ خاصة إذا أشار إليها المراجع .

٥ - حذف ما لا يريد الراوى أن يظهر فى النص المكتوب لروايته .

وإذا أراد الرواى أن يدخل بعض التعديـلات على النص فهـذا مـن حقـه ، ولايجوز إرسال النسخة الأصلية ، أو الوحيدة من المقابلة للراوى إذ يفضـل إرسـال صورة عن المقابلة .

وبعد إعادة المقابلة يتوجب على المراجع أن يعيد قراءتهاللتأكد من وضوحها وصلاحيتها للنشر .

سادسًا : الفهرسة والأرشفة :

تعتمد مشاريع التاريخ الشفوى طرقًا مختلفة لفهرسة المقابلات الشفوية ، وليس هناك نظام محدد ومعترف به للمشاريع من هذا النوع . فنظام الفهرسة والأرشفة الأفضل هو الأسهل والأبعد عن التعقيد .

وعند الفهرسة تعامل كل مقابلة كوحدة واحدة قائمة بذاتها ، يعطى لها رقمًا متسلسلاً ، ويحضر لها كرتان أحدهما للراوى والآخر للموضوع ، ويرتب كل منهما فى أرشيف منفصل حسب التسلسل الأبجدى ، ويحتوى كلاً الكرتين على معلومات تشمل :

١ - رقم المقابلة .

٢ - موضوعها .

٣ - مدتها .

٤ - الأحداث الواردة فيها .

٥ - تاريخها .

٦ - طريقة الحصول عليها « شراء ، وتسجيل ، ومبادلة » .

٧ - معلومات عن الراوى « اسمه ، ومهنته ، وسنه ... » .

ويحتوى كل كرت فى العادة على ما ين٥٠ - ٧٥ كلمة لكل ٣٠ دقيقة تسجيل.

إن طريقة الاحتفاظ بأشرطة التسجيل تختلف عن طريقة الاحتفاظ بالكتب المطبوعة ، وكذلك الحال فى الاستخدام ، ولا بد من أخذ خصوصية أشرطة التسجيل وحساسيتها بعين الاعتبار .

والمقابلات المطبوعة وكذلك أية ملحقات مضافة للأرشيف من مواد مساعدة « كالصور ، والجرائد ، والمذكرات ... إلخ » تعطى نفس رقم تصنيف الشريط .

وبعد فإن للتاريخ الشفوى ميزة كبرى عن التاريخ المدون ، وهى أن مؤرخ التاريخ الشفوى يقوم بدور فعال فى صناعة مصادره ، ولكن ضمن منهج دقيق ، وصعب . ونحن فى هذا الوقت بحاجة ماسة لكتابة فترات من تاريخنا معتمدين على التاريخ الشفوى لتوثيق أحداث هامة مثل تهجير الشعب الفلسطينى من بلاده سنة ١٩٤٨م ، أو أحداث ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م ، أو حرب أكتوبر المجيدة سنة ١٩٧٣م ... إلخ .

فشهادات المعاصرين للحدث لها أهميتها ويجب أن تحظى باهتمام المؤرخين، ويجب أن يتم تسجيلها قبل أن نفقدهم فتضيع أجزاء من الحقائق التى تعبر عن أحداث ومشاعر وآلام ، ومعاناة ، آمال شعبنا [illegible] .

هوامش البحث

(١) يحيى ، عادل ، ومحمود إبراهيم ، وتوماس ريكس : التجربة الفلسطينية في التأريخ الشفوي ، رام الله ، سنة ١٩٩٤م ، ص٣٧ .

(٢) أونج ، والترج : الشفاهية والكتابية ، ترجمة د. حسن البنا عز الدين ، ومراجعة د. محمد عصفور ، مجلة عالم المعرفة ، عدد ١٨٢ ، الكويت ، شعبان ١٤١٤هـ / شباط ١٩٩٤م، ص٥٩ .

(٣) يحيى : ص١٨ .

(٤) توش ، جون : المنهج في دراسة التاريخ ، ترجمة د. ميلاد المقرحي ، جامعة قار يونس ، بنغازي ، ليبيا ، سنة ١٩٩٤م ، ص٣٠٥ .

(٥) كاشف ، د. سيدة إسماعيل : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، ط٢ ، مكتبة الخانكي ، القاهرة ، سنة ١٩٧٦م ، ص١٣ .

(٦) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت - ٣٤٦هـ : مروج الذهب ومعادن الجواهر ، ٩ج ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٤ المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٦٤م ، ج٣ ، ص١٧٥ .

(٧) ابن الأثير ، عز الدين أبي الحسن علي أبي الكرم محمد بن عبد الواحد السيباني ت - ٦٣٠هـ : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، دمشق سنة ١٩٣٨م ، ج٣ ، ص٢٣٣ .

(٨) كاشف : ص٢٤ .

(٩) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ت - ٨٤٥هـ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت (بدون سنة نشر) ، ج٢ ، ص٣٣٢ .

(١٠) الدوري ، د. عبد العزيز ، وناجي معروف : موجز تاريخ الحضارة العربية ط١ ، بغداد ، سنة ١٩٥٢م ، ص٢٦٠ .

(١١) العلى ، د. صالح أحمد : محاضرات فى تاريخ العرب ، ط٢ ، مطبعة المعارف بغداد ، سنة ١٩٥٩م ، ج١ ، ص٢٤٦ - ٢٤٧ .

(١٢) حسن ، د. على إبراهيم : استخدام المصادر وطرق البحث « فى التاريخ الإسلامى العام، وفى التاريخ المصرى الوسيط » ، ط٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٨٠م ، ص١٠ .

(١٣) أونج : ص٥٥ .

(١٤) توش : ص٣٠٧ .

(١٥) يحيى : ص٣٩ .

(١٦) توش : ص٣٠٦ .

(١٧) يحيى : ص٢٣ .

(١٨) توش : ص٣٢٥ .

(١٩) انظر يحيى : ص٤٥ وما بعدها .

النقوش والرسوم الصخرية
كمصدر للتاريخ

د. حسن الشريف(*)

تمتد العصور التاريخية آلاف الأعوام قبل ميلاد المسيح ، هى عمر الحضارات القديمة ، ولكنها ليست عمر الإنسان . ولقد كان عليه كي يبلغها أن يقطع شوطاً طويلاً ، ومسيرة شاقة ، مليئة بالانتصارات حيناً ، بالصعوبات حينا آخر .

وأساس البحث فى العصور التاريخية ، هى الوثيقة المكتوبة ، يكملها الكثير من المخلفات التى خلفها إنسان هذه الحضارة أو تلك . ومنهج البحث فى عصور ما قبل التاريخ يعتمد على المادة الحجرية ، التى قد تكون وفيرة أحياناً ولكنها لا يمكن أن تمدنا بكل ما نريد أن نعرفه عن جوانب الحياة الأخرى كالمعتقدات ، والنظم ، والعلاقات والقوانين المنظمة للجماعات . ولا تكشف لنا عن كيفية الطقوس الجنائزية ، أو الأعراق ، أو الهجرات ومساراتها . لذلك دعت الحاجة إلى الاستعانة بأفرع بعض العلوم الأخرى كالإنثروبولوجيا الطبيعية والجيولوجيا ، وعلم الحياة القديمة (الإحاثة) ، وعلم طبقات الأرض ، بل جرى توظيف بعض مستحدثات العلوم الحديثة كعلم النظائر المشعة .

ولقد انبثق من صحرائنا الممتدة من ساحل المحيط الأطلسى إلى قلب وأطراف شبه الجزيرة العربية كم لا حصر له من النقوش والرسوم الصخرية ، التى تنعتها بعض الدراسات بالفن الجدارى . ولعظم هذه الظاهرة ، ولاتساع رقعة انتشارها ، لم يتم لها بعد تصنيف محكم لما تحتويه من موضوعات ، أو تجسده من أساليب وتقنيات مختلفة ، أو لما تمثله من مجموعات حسب أماكن وجودها .

(*)كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - فرع دمنهور .

وبادئ ذى بدء علينا أن نلاحظ أن هذه النقوش أو الرسوم الصخرية ، لا تكشف لنا إلا عن المشاهد الختامية لتلك العصور السحيقة التى قطعها الإنسان . وهى مع ذلك تكتسب أهمية كبرى ، لكونها حدثت قبل وقبيل بداية العصور التاريخية . ولذا فإنها المصدر الذى يمكن أن يفصح لنا عن الكيفية التى وقعت بها الأحداث الكبرى فى تلك العصور السحيقة ، ومن هم صانعوها .

ولا يحول دون ذلك سوى أن فهم النقوش أو الرسوم الصخرية تعترضه صعوبتان ، ربما يطول أمد التغلب عليهما .

أما الصعوبة الأولى فتتمثل فى محاولة إيجاد تقويم زمنى لهذه المخلفات وطبقاتها . فهى من جانب الزمان تمتد قرابة العشرة آلاف عام ، ومن جانب المكان تمتد فى شكل حزام عريض بطول عدة آلاف من الكيلو مترات .

والصعوبة الثانية تتمثل فى غزارة موضوعاتها التى لم يمكن فهم إلا النذر اليسير منها أو افتراض فهمه ، ويبقى الجزء الأعظم منها منغلقاً على مضامينه التى نفذ من أجلها .

على أنه مما ينعش من آمالنا ويقويها ، أنه أمكن العلماء الاقتراب من التغلب على الصعوبة الأولى ، إذ اقترح البعض منهم عمل جداول زمنية لبعض مواضع هذه المخلفات مستعينين بوسائل بحث مساعدة ، كأعمال الحفائر الأثرية التى يقوم بها منذ عدة سنوات ف . مورى فى مواقع تلك النقوش فى منطقة جبال الأكاكوس من نواحى غات فى جنوب غرب ليبيا . وقد حالف مورى الحظ فكان من حسن طالعه أن عثر على قطعة صخرية لهذه النقوش داخل طبقة أثرية تم الكشف عنها . وبذلك تمكن من أن يمسك بدليل لا يقبل التأويل لتاريخ إحدى فترات هذا الفن العظيم . وعلى الجانب الآخر أمكن للعلماء الاستفادة من خاصية جيولوجية موجودة فى تكوين الصخور ، وهو ما أسموه بغبار الزمن Lapatine ، أو الزنجار - حسب ترجمة المعاجم العربية - والزنجار طبقة رقيقة تتكون حين يتم خدش أ ونحت الصخر بأداة حادة - أى بفعل فاعل - وتبدأ عملية تفاعل كيميائى

ما بين مادة الصخر والعوامل الجوية المختلفة من حرارة وأمطار . وبتحديد سمك طبقة الزنجار ولونها يقدر ما مر عليه من زمن . وبواسطة هذين العاملين أى سمك الطبقة ولونها ، يمكن تحديد عمر النقش الزمنى تحديداً نسبياً . كذلك حاول العلماء الاستعانة بوسيلة إضافية أخرى لإيجاد ترتيب زمنى لموضوعات هذه النقوش والرسوم، يقوم على أساس تصنيف نوعى للحيوان السائد فى الرسم . ويكاد يكون هذا الترتيب هو المتفق عليه بين أغلبية الباحثين . واحتسبوا أقدم مراحل النقوش - المرحلة التى تضم المجموعة الأثيوبية وحيواناتها العشبية الضخمة ، وتسمى بمرحلة الصيادين أو التيتل . ثم يلى ذلك مرحلة البقريات أو الثور وهى أيضاً مرحلة الرعى ؛ وهى أطول مراحل النقوش ، إذ سادت ما بين الألف السادس ق. م. ونهاية الألف الثانى ق. م. حيث تبدأ مرحلة الحصان . وتأتى بعدها مرحلة الجمل لتطوى صفحة هذا الفن(١) .

الواقع إن مجهودات العلماء لم تقف عند حد الوسائل السابقة ، وإنما تعدتها إلى طرق ووسائل جديدة ، يجدر الإشارة إلى أشهرها ، وهى طريقة اختبارات الكربون المشعة أو ك ١٤ كما يرمز إليها غالباً . ولنا أن نعلم أن عدد الأختبارات التى تمت بواسطة هذه الطريقة حول الصحراء الكبرى لم تكن تتعدى ١٦ تاريخاً حتى عام ١٩٦٣ ، ثم صارت ٢٨٦ تاريخاً فى عام ١٩٧٥ (كامبس ١٩٧٦) .

وإذا ما انتقلنا إل العقبة الثانية ، وتكاد تكون العقبة الكأداء ، ربما نلحظ أن مجهودات العلماء فى هذا الصدد حثيثة ، فالعمل مضنى وشاق ، ويحتاج إلى استعدادات خاصة وشروط عالية المستوى من الثقافة والمعرفة بمعانيها الواسعة .

والباحث لا يدعى لنفسه أنه يمتلك هذه الامكانات ولكن إدراكاً منه لأهمية الموضوع وجسامته ، يود أن ينوه بأهمية هذه الظاهرة الأثرية العظيمة . ذلك أنه فى تفسير مضامين النقوش والرسوم الصخرية ، ما يمكن أن يدعم الوصف

التاريخي للأحداث ، وفي حالات أخرى يكشف لنا عن أحوال ذات أهميـة بالغة للتاريخ الحضارى . وهذا ما سيحاول الباحث أن يثبته .

والواقع إن القضية الأولى تتعلق بمنشأ استئناس الحيوان في الصحراء ، وهو موضوع يرتبط بمولد الزراعة . فمن المعلوم أن الإنسان لم يمارس تربية الحيوان ، إلا عندما توفر له فائض في إنتاج الطعام ، ولم يتحقق له ذلك إلا عندما بدأ في الزراعة ؛ (العصر الحجرى الحديث) . ومن المعلوم أن الحضارات القديمة قامت في أحضان المجتمعات الزراعية على ضفاف الأنهار ، كالحضارة العراقية القديمة والحضارة المصرية . فالبحث في نشأة الزراعة ، هو بحث في أصول الحضارات القديمة . لذا اتجهت مجهودات العلماء حول تحديد الموطن الأصلي لاكتشاف الزراعة ، وتركزت آراؤهم حول موضوعين : إما غرب آسيا ، وإما شمال أفريقية(٢) .

ولأسباب عديدة اتجهت الآراء نحو أسبقية غرب آسيا في اكتشاف الزراعة، اعتماداً على قراءات ك ١٤ على عينات أخذت من مواقع عراقية ومصرية ، وكانت تواريخ المواقع المصرية متأخرة عن تواريخ المواقع العراقية بفارق كبير(٣) . ومما ساعد على تأكيد هذه النظرة أنه لم يكن قد توفرت معلومات كافية عن نيوليتى الصحراء الكبرى وشمال أفريقية . وعلى ذلك قام اعتقاد بأن الزراعة اكتشفت في مواقع بغربى آسيا ، ومنها انتقلت إلى مصر والشمال الأفريقي . ومع الزراعة دخلت التقنيات الأخرى ، ومنها استئناس الحيوان . وقد تأثر البعض من العلماء بهذه الفكرة ، فنسبوا ذلك إلى مهاجرين أتوا من الشرق ونزحوا بقطعانهم إلى الصحراء الأفريقية ، وهؤلاء هم أصحاب مرحلة نقوش البقريات(٤) ، في زعمهم . وقد حدا الأمر بلفيف من العلماء إل دراسة المشاهد التى صورتها النقوش ، وخرج د. كوبر (١٩٧٨) باعتقاد أن استئناس البقر مارسه أصحابه الرؤوس المستديرة ، وهم السابقون على فترة الرعاة أو مرحلة البقريات ، حيث تشير نقوشهم (أصحاب الرؤوس المستديرة) إلى وجود رعاة بقر كثيرين . ورأى

الرأى نفسه شتريتز (١٩٧٨) ، الذى يرفض الفرضية القائلة بأن البقر المستأنس أتى إلى الصحراء قادماً من الشرق ، ويراها تفتقر إلى الأدلة المقنعة . وهو يعتقد عكس ذلك ، فالنقوش الصخرية فى الصحراء تقدم كثيراً من المؤشرات التى توضح أن فكرة ترويض الحيوانات البرية ، لم تكن غريبة عن الحضارات الصحراوية القديمة ، وأنها قد ترجع فى قدمها إلى فترة الصيد ، وعليه - حسب رأيه - يجب أن نناقش جدياً كون تربية الأبقار تعود فى نشأتها إلى الصحراء .

ولقد سبق لكلارك (١٩٧٨) ، أن أعلن أنه يرى أن فرضية ترويض البقر فى الصحرا ء الكبرى ، فى مرحلة العصر الحجرى الحديث ، تبدو أكثر احتمالاً منها فى مناطق أخرى لم يتم اكتشافها بعد بشكل كاف .

والواقع أن الفارق بين أصحاب الرأيين ، هو أننا فى الصحراء الكبرى نملك على الأقل الدليل الذى سجل لنا هذه التقنية كشف عن اصحابها ، الأمر الذى لم يتوفر لأى مكان آخر . وهناك نموذج آخر لمعضلة من المعضلات التى أثارت الكثير من الجدل ، هى ظاهرة حمل بعض حيوانات النقوش - المجترات على وجه الخصوص - شكلاً مخلقاً على هيئة قرص ، فوق رأس الحيوان .

وانتشرت نماذج هذه الظاهرة ، من جنوب مقاطعة وهران بالجزائر إلى صحراء مصر الشرقية .

ولما كانت بعض أشهر آلهة المصريين القدماء صورت وهى تحمل فوق رؤوسها قرصاً دائرياً ، رمزاً لعبادة الشمس ، كحتحور وإيزيس من الربات ، وآمون ورع من الأرباب ، فقد دار البحث حول أصول هذه الفكرة ، وعما إذا كانت تشير إلى انتشار تأثيرات عقائدية بين أقطار الشمال الأفريقى والحضارة المصرية القديمة فى وادى النيل .

ولقد كان فى غياب تقويم زمنى معلوم لزمن النقوش ، ما أغرى بعض الباحثين، أن يرجعوا أصول هذه الظاهرة ، إلى تأثيرات عقائدية من مصر القديمة .

ورأوا فى وجود معبد للإله آمون فى واحة (سيوة) ركيزة لزعمهم ، حتى أنهم لم يستبعدوا ربط كبش (بو علام) فى جنوب وهران بكبش آمون ، وكبش بوعلام يصور كبشا يحمل بين قرنيه قرصاً مستديراً ، تم صقله بعناية فائقة ، ويقف أمامه رجل بهيئة كاهن ، يرتدى القراب القضيبى ، وهو بهيئة الليبين القدماء(٥).

ويبدو أن هذه النظرة كانت متعجلة ، ولها جاذبيتها . ولكن الواقع الأثرى يتعارض معها لأن المحترات ذات الأقراص ، ظهرت مبكرة جداً عن عصر انتشار عبادة آمون . فقد ظهرت على الأوانى الفخارية الخاصة بحضارة جرزه فى مصر ، وهى من حضارات عصر ما قبل الأسرات ، أى حوالى الألف الرابع ق. م. أما عن كباش جنوب وهران ، وكذلك الأشخاص التى صورت برؤوس حيوانية ، فقد وجدت فى تاسيلى وفزان ، وسط الصحراء الكبرى ، وترتبط فى الغالب بأصحاب الرؤوس المستديرة ، وبعض الآراء ترى أنهم هم الذين أنتجوا فن ما قبل الأسرات فى مصر (Lhote, and Breuil, ١٩٦٠) .

الواقع أن كثافة نقوش منطقة تاسيلى وفزان ، وما تتميز به من جمال الأسلوب ودقة التنفيذ ، ما يجعلنا نميل مع الرأى الذى يرى نقوش تلك المناطق مركزاً لإشعاع هذا الفن إلى جميع الأنحاء . كذلك تجدر الإشارة إلى أن النماذج التى عثر عليها فى وادى النيل والصحراء المحيطة به ، كان أغلبها قد اتبع تقنية التطريق ، وهى تقنية مغايرة لما عليه نقوش تاسيلى وفزان ، التى نفذت بتقنية الحفر الغائر ، أو بواسطة الرسم باستخدام الألوان الزاهية . وهذا ما يراه شيرفيشيك (١٩٧٨) ؛ وبمقارنة النقوش الصخرية الموجودة فى وادى النيل والمنطقة الصحراوية المتصلة به ، مع ما هو موجود بأواسط الصحراء الكبرى (تاسيلى وفزان) تثبت مدى تقدم فن الرسم والنحت الصخرى فى هذه المنطقة الأخيرة . هذا بالإضافة إلى ان الرسوم المصرية قليلة وصغيرة الحجم نسبياً .

وعليه فإن فرضية أن المصريين القدماء تلقوا تأثيرات فنية من الصحراء ، هي الفرضية الأقرب إلى القبول .

وقد يكون من أروع الأمور ، أن تتوافق الحقائق التاريخية ، مع معطيات النحت والرسم الصخرى . فإذا ما حدث وتم ذلك فإن نتائجه تكون فى الغالب باهرة وذات أثر على البحوث التاريخية . ولبيان ذلك ، نتناول أحد موضوعات النقوش الصخرية ، وهو موضوع ظهور الحصان كمرحلة رئيسية من مراحل هذا الفن العظيم .

فمن المسلم به أن الحصان ظهر فى مصر والشمال الأفريقى حوالى النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد . وقد استخدمه المصريون فى أول الأمر فى جر العربات الحربية ، حارب ملوك الدولة الحديثة (١٥٧٠ - ٩٥٠ ق. م.) أعداءهم بهذا السلاح الرهيب بمقاييس ذلك الزمن ، وربما كان الحصان وراء انتصارات المصريين وسببا من أسباب نجاحهم فى تكوين إمبراطورية كبرى فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد .

ويبدو أن الأمر استغرق قرنين أو أكثر كى ينتقل الحصان إلى الشمال الأفريقى عبر مصر . ولم يتم الأمر تحت ضغوط اقتصادية (شتريتز ١٩٦٩) ، بل ربما كان مجرد حادثة تاريخية ارتبطت بتوغل جماعات من البشر فى وسط الصحراء، واصطدمت بحضارات تربية الأبقار ، أو بمجموعات من بقاياها . ومن المعتقد أن الحصان كان وسيلة هذه الجماعات الوافدة للتوسع ، لأنه ارتبط فى الرسوم بمشاهد الحروب والقتال . وأيا كان الأمر ، فنحن إذن أمام ساعة زمنية ، يمكن بواسطتها تحديد المرحلة الزمنية لإحدى مراحل النقوش الصخرية فى الصحراء على قدر معقول من اليقين .

وكان من حسن حظ البحث التاريخى أن أمكن الاستفادة من هذه المعطيات لحل إحدى معضلات التاريخ الليبى القديم ، وأمكن التأريخ لعناصر بشرية هامة فى تاريخ ليبيا ، عرفوا بالجرمنت أو الجرميين نسبة إلى عاصمتهم (جرما) فى

وادى الآجال (الحياة) فى أوبـارى مـن نواحـى فـزان . والواقـع أن اصـول هـذه الجماعة يكتنفه الغموض ، كانت هناك عناصر قوية أقامت ما يشكل جسراً تجارياً هاماً بين أفريقيا الاستوائية والبحر المتوسط . وفى العصر الرومانى كانت (جرما) شوكة قوية أمام التوسع الرومانى نحو الجنوب . وقـد ظهـرت هـذه العنـاصر فـى النقوش كفرسان يمتطون خيولهم أو كسائقى عربات تجرها الخيول(٦) .

وعن طريق هذه العناصر فى النقـوش تكونـت لدينا معلومـات مفيـدة عـن ملابسهم وأسلحتهم وعرباتهم . وحيثما يوجد نقش لهم ندرك علـى الفـور المـدى الذى وصل إليه نفوذهم ، وكل هذه المعلومات ما كان يمكن أن نحصل عليها ولـو أجريت حفائر لذلك(٧) .

من النموذج السابق ندرك مدى الإسهام الفعلى والمفيد ، حينما يتحقق قدر من الوضوح مع قدر من اليقين ، لمجموعـة مـن النقوش أو الرسـوم الصخريـة فـى منطقة ما . ولكن الأمر لا يسير على هذا المنوال دائماً ، فربما كان النموذج السابق حالـة خاصـة فريـدة . وفـى حـالات كثيرة تصمت النقوش عـن الإفصاح عـن مكنوناتها ، مما ينعكس على البحث التاريخى بالسلب ، فـلا يتوفـر لـه - والحال هكذا - إلا الحدس والتخمين ، وهذا ما سنضرب له المثل .

ذلك أنه شـاع فـى رقعـة واسـعة مـن النقـوش والرسـوم الصخريـة تصويـر لشخصيات خيالية صورت بأحجام مبالغ فيه أو مخلوقات عجيبة مخلقة .

وسنكتفى هنا - مراعاة لمقتضى الحال - بثلاثة نماذج من تلك الشـخصيات الخيالية ، فعلى سبيل المثـال : إثنـان مـن لوحـات تاسيلى نشـر هـنرى لـوط(٨) ، والنموذج الثالث من رسوم شبه الجزيرة العربية ، من وادى ضم تبـوك(٩) ، شمـال شبه الجزيرة العربية .

ففيما يتعلق بموضوع اللوحة الأولى رقم ٣٥ مـن لوحـات تاسيلى يسـميها لوط بـ (السيدة البيضـاء) ، وأبعـاد الرسـم هـى ١٥٠ سـم × ١٠٠ سـم . وقـد

لونت بالمغرة الصفراء مع لـون أبيض والتنورة ومتعلقات الرقص ، مع حلقات الساعد وأربطة الساق . ويبدو أنها جميعاً صنعت من ألياف أو سيور دقيق . وكذلك الحال مع قراب اليدين ، والرأس يحمل ما يشبه قبعة من النباتات يخرج منها قرنان ؟ ويتساقط من القبعة ما يعتقده لـوط ... حبوب ؟ ويقول لوط أننا بإزاء إحدى الكاهنات ذوات العلاقـة بشعائر الزراعة أو هـى ربة الزراعة ، قد تكون تجسيداً للربة (إيزيس) المصرية التى كانت هى الأخرى ذات علاقة بطقوس الزراعة والأمومة والخصوبة . وقد وافق Breuil لوط Lhote على هذا التفسير . أما الرسم فهو يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة حسب رأى لوط Lhote.

ولا شك فى أن فى إبراز افنان لشخصية معينة وسط مجموعة من الأشخاص الآخرين بواسطة إشارات خاصة أو بتضخيم الأحجام ، لهو دليل على تمايز اجتماعى أو سياسـى أو دينى . وهـو ما سوف نشير إلى ثبوته لدى المصريين القدماء، منذ البدايات الأولى لتاريخهم .

والواقع أنه بتفحص الرسم المعنى (السيدة البيضاء) نلحظ أن ما ذهب إليه لوط Lhote ربما له ما يبرره ، فى الربط بين موضوع الرسم والربة (إيزيس) . ففى وجود القرنين على الرأس ما يذكر بقرنى البقرة لدى (إيزيس) ، وهذا التنقيط الذى يشبه تساقط الحبوب من الثديين ربما كان تجسيداً لمعنى الأمومة والخصوبة . كانت (إيزيس) تمثل فى بعض مشاهدها ، وهى تعطى ثديها لابنها (حورس) رمزاً للملكية فى مصر . أما بشأن المبالغة فى تضخيم حجم السيدة ، فإننا نجد له تفسيراً لدى المصريين ، الذين دأبوا منذ عهد بداية الأسرات على رسم ملوكهم بأحجام مبالغ فيها بالنسبة لبقية المشهد كما أنهم اتبعوا نفس الأسلوب عند تصوير آلهتهم . (قارن - على سبيل المثال - الضخامة التى صور بها الملك نعرمر فى صلايته المشهورة باسمه) .

وملاحظة هامة أخرى ، ذلك أن الهيئة الطقسية التى عليها (السيدة البيضاء) كما لو كانت تجرى ، تقترب إلى حد كبير مع هيئة الملك الفرعون ، حينما كان

يؤدى طقس عيد (الحب سد) أو العيد الثلاثينى لتجديد الخصوبة المتمثلة في قوة وفحولة الملك الحاكم ، وهو عموماً طقس يرى أغلب علماء المصريات أن له أصوله الأفريقية . والملك هنا هو القوة التى تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط بها.

ومما يثير الدهشة أن هناك نقشاً للملك زوسر ٢٦٨٠ ق. م. الأسرة الثالثة - يصور الملك - وهو يجرى حول حائط فى مشهد طقسى . ويكاد يكون الملك عارياً ، إلا من غلالة رقيقة تستر العورة ، الأمر الذى يقربه إلى حد ما من المظهر العام للسيدة البيضاء(١٠) .

أما النموذج الثانى من لوحات تاسيلى ، فقد أطلق عليه لوط Lhote إله كبير بصحبة المصليين ، والمشهد ملون بالأحمر الداكن واللون الأبيض ، وأبعاده ٣٦٠سم × ٧٦٠ سم . أما الشخصية الرئيسية التى تتوسط الرسم (الإله الكبير) فهى تنفرد بقامة طولها ٣,٢٥م . وحسب رأى لوط الرسم يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة كذلك ، وإن كانت الحلقة الأخيرة منها . وقد اكتفى لوط بوصف الرسم على أنه مشهد سحرى يتعلق بطقس الخصوبة ، ربما لوجود ما يمكن اعتباره قرنين يبرزان من رأس الإله الكبير ولوجود صور للجاموس القديم.

وحقيقة الأمر أن موضوع الخصوبة وما يرتبط بها من معانى النماء والتكاثر، كانت القضية الكبرى - على حد تعبير خبير النقوش زيربو(١١) ، وخصوصاً فى أواخر عصور ما قبل التاريخ فى الصحراء ، وذلك إثر إنكماش كل أثر للحياة أمام الزحف الحتمى نحو الجفاف . وربما من نافلة القول أن نذكر أن جميع شعوب العالم القديم ، كانت تجسد فكرة الخصوبة أو آلهة الأم ، وتتخذ من جسم المرأة رمزاً لها .

أما بالنسبة للنموذج الثالث ، فهو من شمال شبه الجزيرة العربية. وربما كان النموذج الوحيد من تلك المنطقة . وقد وصفه مجيد خان بأنه رسم لمعبودات

مجهولة. ويظهر الرسم قرب أصابع اليد الممدودة ، خطوطاً صغيرة مموجة رسمت كفرع مصحوبة برسم على شكل نجمة ، مما يعطى إيحاء بأن الأشعة تخرج من الأصابع والنجمة على حد تفسير خان ، الذى يعتقد بأن الرسام ربما قصد به صنماً وثنياً يرتبط بعلاقة ما بالمطر والبرق . ونحن نعرف أنه كان لدى الشعوب السامية دائماً إله للمطر والصواعق .

وإذا كان هذا هو كل ما يمكن أن تعطيه لنا هذه الأشكال الخيالية من تفسير، وفق ما أسفرت عنه البحوث الحالية ، إلا أنه من الممكن إضافة فائدة أخرى ، هى أننا ربما نكون أقرب فهماً لما وجد لدى المصريين القدماء من عادة تضخيم حجم آلهتهم أو ملوكهم عند تصويرهم.

فإذا ما تناولنا الشق الآخر من موضوع الأشكال الغريبة ، والتى يزخر بها الفن الجدارى واجهتنا حقيقة أشد غرابة وأكثر استغلاقاً للفهم .

ونكتفى بمثالين فقط من هذه الكائنات الغريبة لما يثيراه من ايحاءات معينة ، قد تكون ذات علاقة بجذور بعيدة مشتركة ، اندثرت من أزمان ساحقة ، ولم يتبق منها غير الأفرع التى قد تبدو لنا فى صورتها التى شكلت عليها غامضة ، ومتقطعة الصلات .

ويأتينا النموذج الأول من وادى ضم من شمال المملكة العربية السعودية ، وقد أسماه خان (الكائن الخرافى) وجاء فى وصفه له : «حيوان غير مميز يبلغ طوله حوالى مترين وعرضه ٨٠ سم ويتكون من بدن ممدد ، ورقبة نحيفة ووجه صغير ، ويوجد على الرأس نتوءان صغيران ، ربما قصد بهما القرنان وهذا الشكل لحيوان غريب وضخم وهو يفتقد إلى الفكرة وواضح فيه رداء التنفيذ» .

ومن المدهش أن خان اقترب فى كلماته تلك من كلمات فوفرى Voufrey عن كائن آخر منقوش على الركائم الصخرية فى موقع (جارة الطالب) بالجزائر

وقد أسماه فوفريى بـ (الحيوان الخرافى) . وهو عبارة عن رسم بطول ستة أمتار ، يتكون جسده من ثمانية حلقات متتابعة منتظمة حول قصبة هوائية على ما يبدو . ويمتد له ذيل طويل مردود للأمام ينتهى بكلاب ، والرأس مزود بقرنى استشعار أو ألسنة للفك ، وفى الجزء القريب من الذيل معلق نوع من كيس مزدوج للخصيتين، وقد صقل بعناية ، وقد رآه فوفريى طوطماً للملك العقرب ؟ (١٢) ، وأنه لابد من ارتباطه لديهم بإدراكات ومشاعر دينية أولية ، وهى تبدو ذات علاقة بما للمصريين فى فترة ما قبل الأسرات(١٣) .

والواقع أنه فى غياب تفسير ممكن لمثل هذه الأشكال الخرافية ، لا يسعنا إلا اللجوء إلى تفسيرات أسطورية . فالجهد الذى بذل فى تنفيذها ذات علاقة موثوقة بالعالم الروحى لأصحابها . ولقد كانت الأسطورة دوماً - كما يذكر زيربو - هى فى النهاية طريقة يستعملها الإنسان لإدارك الكون ، وجعله مفهوماً ؛ إذ أن الخطاب الأسطورى يعتمد على منطق ذاتى خاص به ؟ فتمثيل كائن مخيف يعنى فى الغالب التخلص من سيطرته ، ومراقبته بالنظر تعنى السيطرة عليه(١٤) .

وربما تجدر الإشارة إلى إمكانية أن ندرج تحت هذا النوع من التفسيرات الكثير من النقوش التى تنشر فى أنحاء عديدة من مناطق النقوش . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نشرت وزارة الدولة للشؤون الثقافية بالمملكة المغربية ، فهرساً لمواقع النقوش بالجنوب المغربى حوى الكثير من هذه الأشكال التى يصعب فهمها.

يتضح من مجمل ما سبق ، مدى ما تكتنزه موضوعات النقوش والرسوم الصخرية من قيمة علمية ، يمكن فى حالة التعرف عن مكنوناتها أن نزيل الغموض عن كثير من القضايا مثار الجدل بين علماء التاريخ والآثار والأنثرولوجيا كموضوع الأعراق ، والهجرات الكبرى ومسالكها وآثارها ، وغير ذلك مما يفيد البحث العلمى . وترى بعض الآراء أن عظم المساحة التى تشغلها هذه الظاهرة ، وتنوع أساليبها وتقنياتها ، تدل على أنها لم تكن نتاج شعب واحد ولا ثقافة واحدة .

وإزاء ظاهرة بهذا الحجم والتنوع ، قد يكون من الأنسب عند تناول موضوعاتها ، إتباع منهج الدراسة المقارنة ، مع التسليم بأن مثل هذا المنهج يتطلب حصراً لجميع النقوش والرسوم وتصنيفها ، وتحديد أساليبها والتقنيات التى نفذت بها، ويتطلب كذلك جداول لتقويمها زمنياً ، وجداول أخرى إحصائية .

فعلى سبيل المثال ، إن دراسة مقارنة لأنواع الحيوانات التى صورت فى موضوعات النقوش ، فى كل من شمال أفريقيا ومناطق مصر العليا وبلاد النوبة ومناطق شمال المملكة العربية السعودية ، يمكن أن تفيد فى معرفة سبب غياب حيوانات المجموعات الأثيوبية بحيواناتها العشبية الضخمة من نقوش المنطقتين الأخيرتين . مع العلم بأن مناطق مصر العليا والنوبة تميز نتاجها فى مجال الفن الصخرى بشكل ليس له مثيل ، سواء من ناحية المضمون أو الأسلوب . فيذكر شيرفيشيك (١٩٦٩) ، أن هذه المناطق من مصر وبلاد النوبة عرفت أسلوب النقش البارز والمائل قليلاً ، وهو أسلوب ليس له وجود فى أى بقعة أخرى من العالم ، بما وصل إليه من دقة وإتقان . وهذا يجعلنا نعتقد أن هاتين المنطقتين تشكلان منطقة مستقلة فى موضوع النقوش .

أما بالنسبة لمناطق النقوش فى شمال المملكة العربية السعودية ، فربما كان سبب غياب الحيوانات العشبية الضخمة أن هذه المجموعة تعرف أصلاً بالمجموعة الأثيوبية، أى أنها حيوانات أفريقية الأصل . وربما خضعت شبه الجزيرة العربية لظروف بيئية وجغرافية ، جعلتها بمعزل عن هذه الحيوانات ، وحالت دون تواجدها فى مناطقها .

وملحوظة أخرى تتعلق بشبه الجزيرة العربية ، إذ لوحظ أن مرحلة الجمل تعقب مباشرة مرحلة البقريات (الرعى) . وبالتالى نجد أنفسنا أمام فرضية مدهشة، وهى أن شبه الجزيرة العربية لم تستخدم الحصان قبل القرون الميلادية(١٥)، وقد يكون لظروف شبه الجزيرة الجغرافية ، أثر جعل مرحلة الجمل أسبق وأنسب لطبيعة المكان والمناخ ، من مرحلة الحصان .

والواقع أن الطبيعة الحيوانية للحصان تجعله لا يتلاءم مع ظروف مناخ جاف، ولذا تلاءم مع الظروف البيئية فى مصر وادى النيل ، كما تلاءم مع الظروف البيئية التى صار عليها وادى الشاتى بليبيا حيث استخدمه الجرامنت - كما سبقت الإشارة - وظلت المياه الجوفية تنبثق من عيون طبيعية فى هذه المناطق، مما خفف من حدة عصر الجفاف فيها . ولذا فإنى لا أحجم عن القول بأن سمعة الحصان العربى المشهود لها بها ، ربما كانت أشبه بأسطورة بلا أسس تاريخية .

* * *

إذا كان لابد أن يكون لهذا العرض من خاتمة ، فليس هناك أكثر إلحاحاً من حاجتنا إلى أن نبحث ونستوثق فى خضم هذا الزخم من النقوش والرسوم، هل حاول أصحاب هذه الأعمال أو بعضهم - على الأقل - أن يرتقوا بجهودهم للتعبير عما تجيش به نفوسهم أو تجود به قرائحهم إلى مرحلة التعبير عن الأفكار التجريدية ؟ أى الأيدوجرام Ideogramme(١٦) بمعنى رسم الصورة التى تعنى فكرة ، أو تصوير يطابق بدرجة أكبر مصطلحاً لغوياً ... كرجل أو إله ... إلخ .

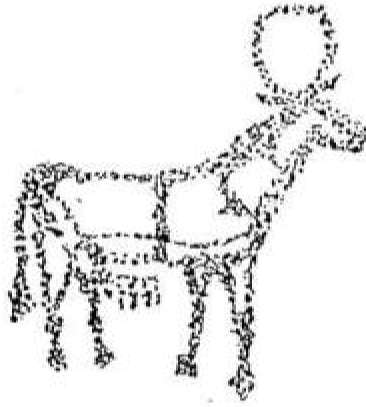
يرى - شتريتز (١٩٦٩) - أن مثل هذه الأبحاث مازالت غير موجودة وإن كنا ندرك من جانبنا أنه خلال العقدين الأخيرين جرت محاولات فى هذاالاتجاه . وممن اهتموا بدراسة هذا الاتجاه فى النقوش الصخرية ، خبير النقوش السنغالى زيربو(١٧) ، فقد نظر إلى موضوع النقوش على أنها جسر بين الواقع والفكرة ، وقدم فى سبيل بيان ذلك عدة آراء جديرة بالاعتبار . ويرى زيربو أن أكبر عقبة تحول دون تأويل الفن الصخرى تأويلاً صحيحاً هو الجهل بالظروف الاجتماعية التى أنتجت هذا الفن . وكان من رأيه أن الفن قد يفقد دلالته إذا أطلقنا على مشاهده عبارات مثل : السيدة البيضاء ... القضاة ... إلخ ، وهى تعبيرات من إنشاء باحثين من ذوى الثقافات الأجنبية . ومن ضمن ما ساق من أمثلة فى محاولته شرح أحد النقوش على جانبى صخرة ، ومحتوى النقش صورتى

أسد وكركدن . وقد نقش الأسد على الوجه الجانبى للصخرة لتضيئه الشمس بأشعتها الأولى ، فهو يمثل النهار ! فى حين أن وجه الكركدن موجه للغرب لأنه بمثابة روح الليل والظلام ! .

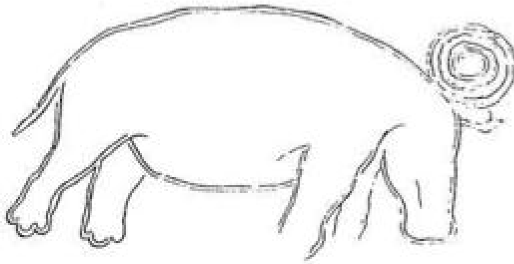
هل أصاب زيربو فى تأويلاته تلك ؟ ربما يكون قد اقترب بخطوات ما من بلوغ الهدف ، لأن أمانة البحث تفرض علينا تعضيده . وباب الأمل المفتوح أمامنا هنا هو الحضارة المصرية القديمة ، لأنها الحضارة الوحيدة التاريخية المكتوبة ، وهى تقوم على أرض أفريقية ، وهى فوق هذا كله نشأت فى حضن منطقة النقوش .

لقد كان لدى المصريين القدماء تركيباً لغوياً من أسدين ، استخدما لحساب الوقت ، فصور كل منهما يعطى ظهره للآخر ... ربما اتخذوا منهما رمزاً للهضبتين اللتين تحددان الحدود الشرقية والحدود الغربية للوادى .. وكان مثل هذا التركيب الرمزى يعنى مصطلحاً لغوياً المقصود به : الأمس وغدا .

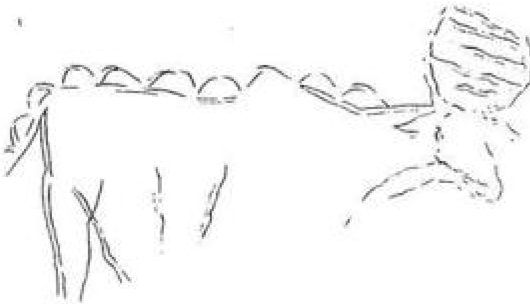
إننا ندرك تمام الإدارك أن الشوط طويل بين ما هو متاح للعلماء من قدرات ووسائل وبين ما تصبو إليه آمالهم . ولولا أنه سبق للبحث العلمى أن شهد حالة تتطابق مع حالتنا هذه ، حيث ظل العلماء أجيالاً وأجيالاً فى موقف العجز أمام رموز اللغات الشرقية القديمة من هيروغليفية وسومرية وغيرهما ، ثم لاحت اللحظة المواتية فأمسكوا بها ، وحققوا أعظم انتصارات العقل البشرى بإحيائهم لغات ماتت من عصور سحيقة ، لاعتقدنا مع من اعتقد أن مكنونات النقوش الصخرية ومضامينها قد اندثرت مع أصحابها .



(١)



(٢)



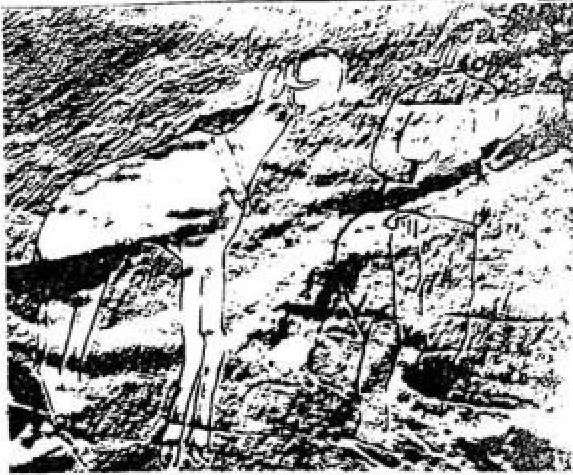
(٣)

نقوش لحيوانات تحمل أقواصاً بين قرنيها

١ - وادى الحمامات (مصر) عن H. A. Winkler .

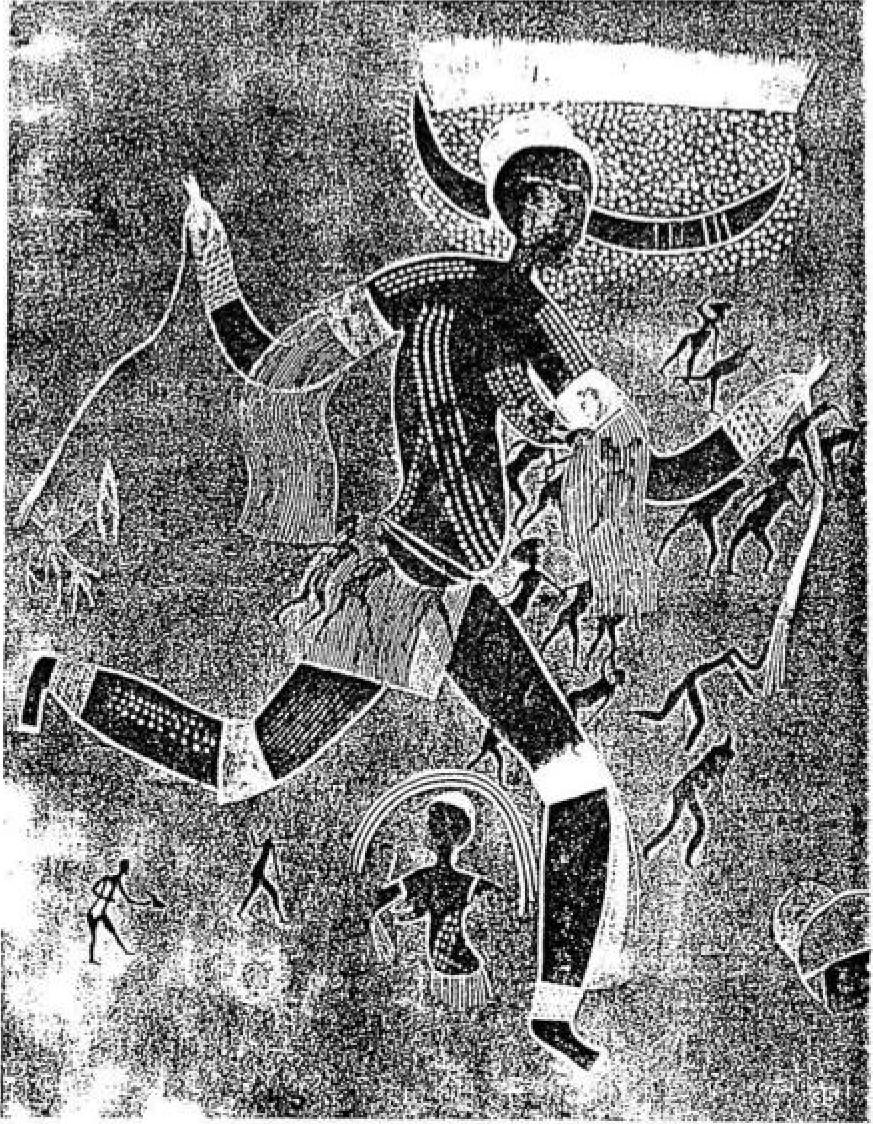
٢ ، ٣ - الصحراء الكبرى حسب M. Reygasse .

لوحة I



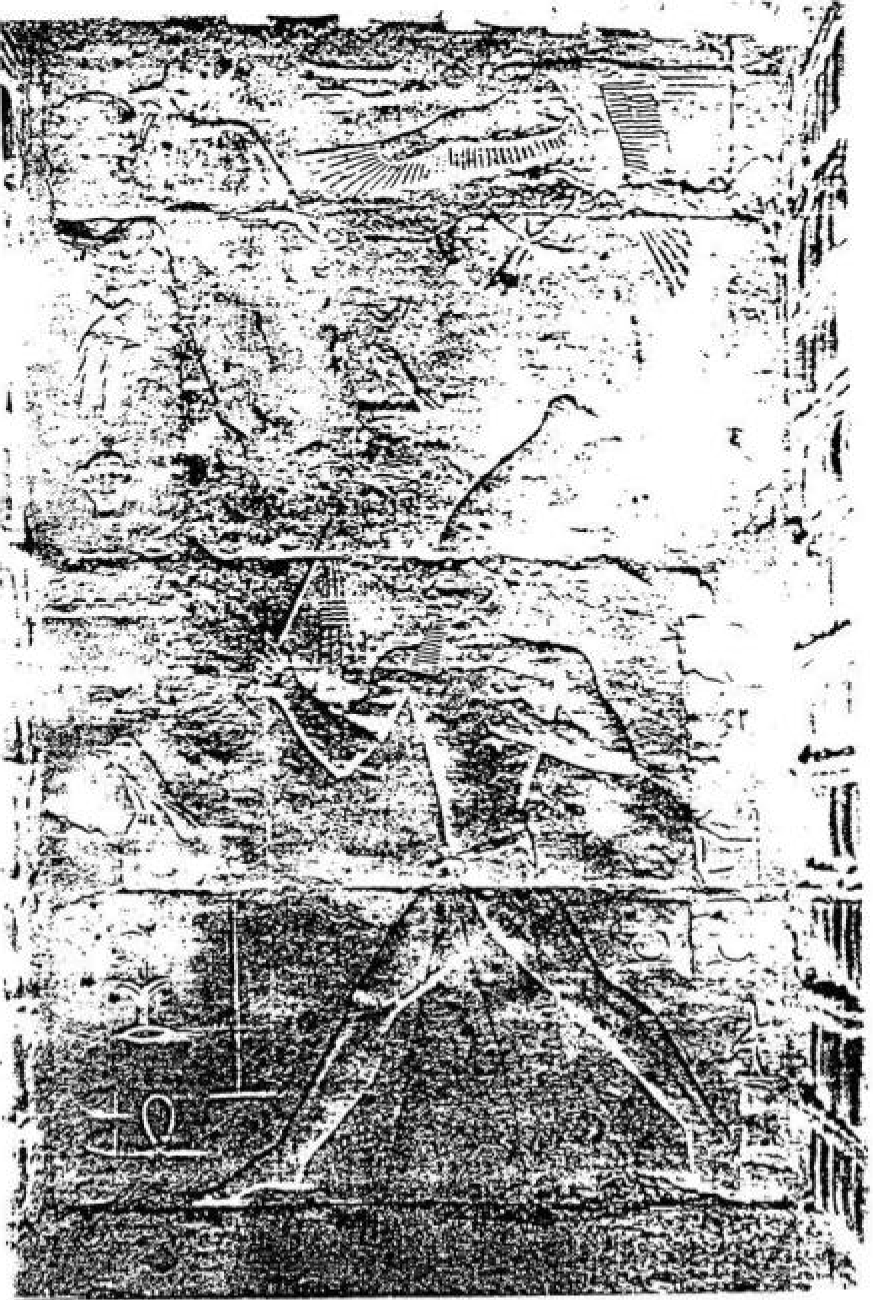
كبش بوعلام (الجزئر)

لوحة II



« السيدة البيضاء » تاسيلي نشر لوط

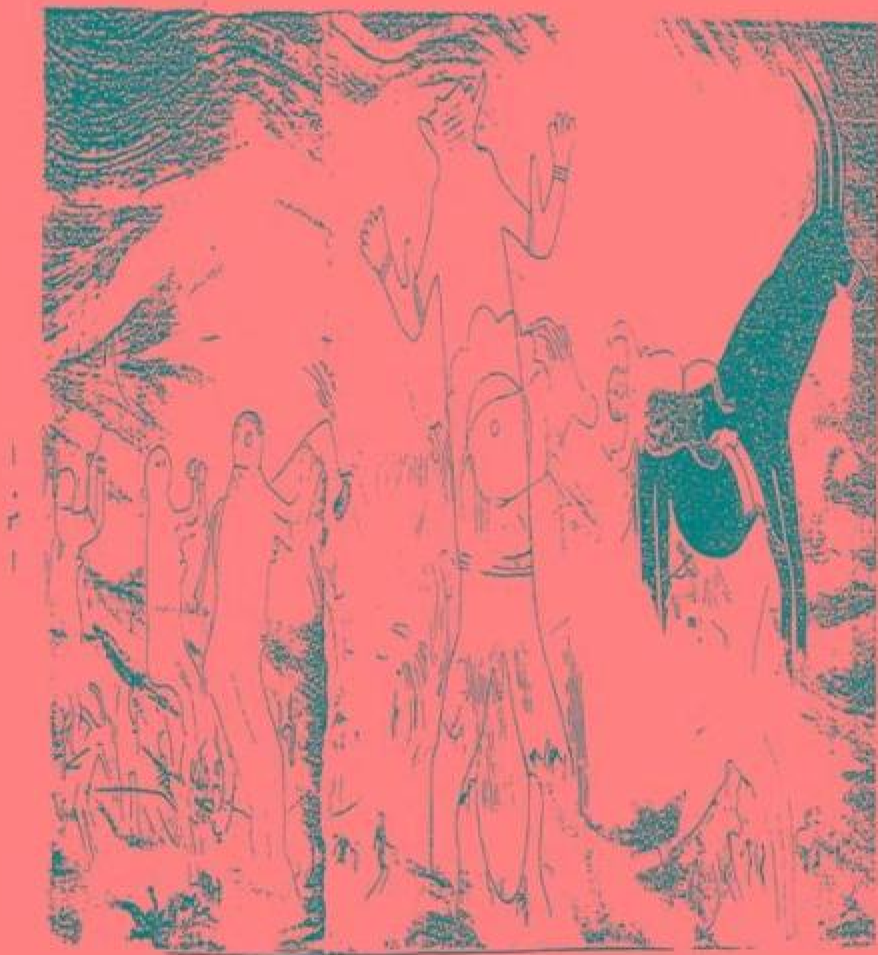
لوحة III



زوسر (الأسرة الثالثة الفرعونية)

وهو يؤدى طقوس عيد الحب سد

لوحة IV



الإله الكبير – تاسيلي – نشر لوط

لوحة ٧



Tracings of a rain deity from jubbah.

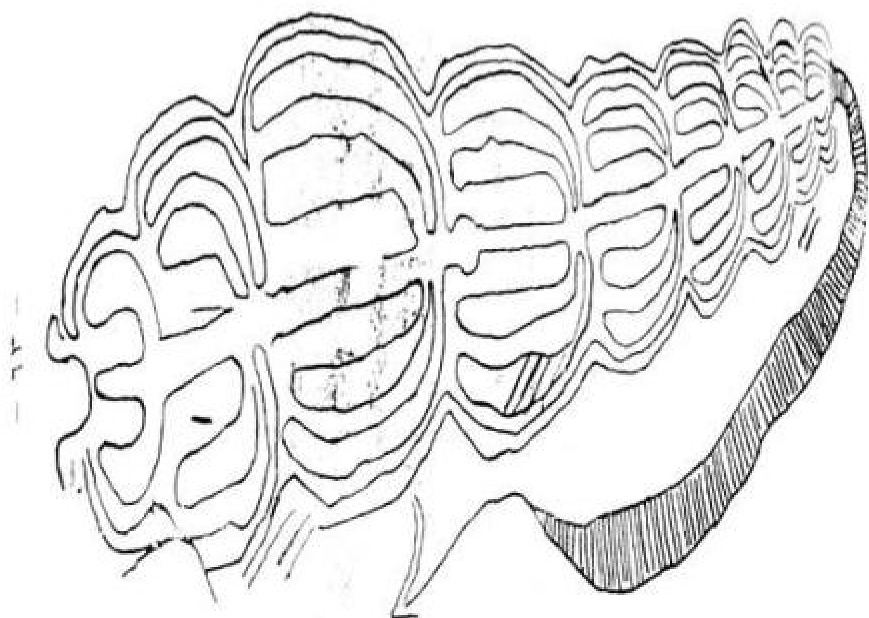
أشكال آدمية خيالية فى جبه بحائل عن مجيد خان

لوحة VI



«الكائن الخرافي» شمال الجزيرة العربية عن مجيد خان

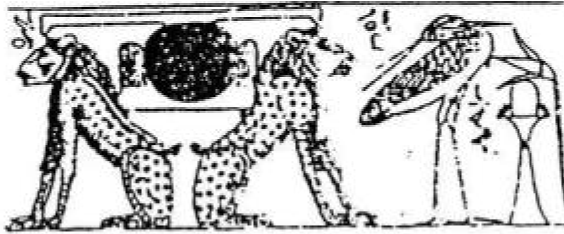
لوحة VII



الكائن العجيب (جارة الطالب) الجزائر

عن : Vaufrey

لوحة VII



إلى الـسـان إلهى الأمس واليوم فى صـورة أسـدين ظهـراً لظهـر يدعمـان الأفق بقـرص الشمـس فوقهما عند رمز السماء . أسد اليسـار يسـمى « اليوم » وأسد اليمين يسمى « الأمس » .

لوحة IX

الهوامـش

(١) سبق للباحث أن تعرض لذكر هذا التصنيف بشيء من التفصيل في بحث سابق . انظر للباحث (الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم) بمجلة المؤرخ العربى ، العدد السادس ، المجلد ، مارس ١٩٩٨ ، ص ٦٢ - ٦٥ .

(٢) اتجهت بعض الآراء نحو مواطن أصول الأنواع البرية للنباتات والحيوانات . وفي زعمهم أن أقاليم غرب آسيا هي الموطن الأصلي للنباتات التي استزرعها الإنسان فيما بعد ، فهي مهد الزراعة . انظر على سبيل المثال

Butzer. K. W. Environment and Human ecology in Egypt, B. S. R. G. E., xxx11, 1959, p. 44-45, Physical conditions in Eastern Europe, Western Asia and Egypt before tlement, in the Cambridge Ancient History, (Cambridge), 1970, Vol.1, P. 92.

وكذلك ج. هاوكس ول . وولى ، ثلاثة فصول مترجمة من كتاب (ما قبل التاريخ وبداية المدنية) ، ترجمة وتعليق يسرى الجوهرى ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) انظر Braidwood, and Howe, Prehistoric Invetigations in lraqi Kurdistam, 1960, p. 120. Mellaart in C. A. H., 1967 chap VII.

(٤) مما يذكر عن التشيعيين لهذا الرأى ساقوا بعض التراكيب اللغوية التي تؤيد وجهة نظرهم ، فأشاروا إل وجود عنصر لغوى : آمون أو آمون Amon - Ammon وهو إله كبش للماء فى كل بلاد البربر وليبيا ، وإن هناك كلمة بربرية تعنى الماء هى : آمان وآمون وتستعمل أيضاً فى لهجات الطوراق ، وعند الجوانش Guanches فى جزر الكنارى .

(٥)،(٦) انظر مقال الباحث (الفن الصخرى فى بلاد القديم) سبقت الإشارة إليه فى هامش (١) ص ٧١ لوحة ٩ .

(٧) عن الجرامنت انظر ، فوزى جاد الله ، مسائل فى مصادر التاريخ الليبى قبل هيرودوت ، ليبيا فى التاريخ ، المؤتمر التاريخى ، مارس ١٩٦٨ ، ص ٤٣ - ٨٢ .

(٨) Lahote, H., Ala decouverte des fresques du Tassili, B. Arthaud, Paris, 1973, plts. II, 35.

(٩) مجيد خان ، الرسوم الصخرية لما قبل التاريخ فى شمال المملكة العربية السعودية ، نشر وزارة المعارف السعودية ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م لوحة ٨٠ .

(١٠) للمقارنة انظر Cyril Aldred, Egyptian art, London, 1980, fig. 14

(١١) ج. كى زيربو (الفن الأفريقى فيما قبل التاريخ) منشور فى مجلد (تاريخ أفريقيا العام) اليونسكو ، مجلد ١ ص ٦٧٧ .

(١٢) الملك العقرب من ملوك مملكة الصعيد ، قبل اتحاد القطرين ، ويعتقد أنه ممن حاولوا ضم مملكة الدلتا مع الصعيد فى مملكة واحدة ، قبل الملك (مينا - نعرمر) ومن آثار الملك العقرب نقش على رأس دبوس للقتال .

(١٣) Vaufrey, R. Prehistorire de l'Afrique, t. l. Magherb, Paris, 1955, p.299, pl.44

(١٤) ج. كى زيربو الفن الأفريقى ، اليونسكو ، مرجع سابق ، ص ٦٧٧.

(١٥) الواقع ورد ذكر من جانب مجيد خان ، عن وجود خيول وحشية وأفيال فى مناطق بشمال المملكة العربية السعودية ، واستشهد بلوحة رقم ٢٣ وبالأشكال ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ وجاء فى وصف هذه الأشكال ص ٦١ أنها خيول وحشية أو ربما حمير (؟!) وبتفحص الأشكال المشار إليها ، اتضح لى أنها أقرب إلى كونها حميراً فالأذنان طويلتان والذيل قصير ، وقد اقترح خان لهذه اللوحة الفترة ما بين الألف السابع والألف الخامس قبل الميلاد وهو تاريخ مبكر جداً ، عن العصر الذى ظهر فيه الحصان فى الشرق الأدنى القديم ، ونقول أن نفس الملاحظة تنطبق على ما أورده فى اللوحة رقم ٢٦ ، وفى شأن لوحة رقم ٣٨ : رقمى ٢٥٩ ، ٢٦٠ ربما صور الفنان الحصان بأسلوب تجريدى ولم يقترح خان لهذه اللوحة تقويم زمنى معين ، مما يصعب أن نعول على ما جاء بها . أما بشأن الأفيال فلم يشر خان إلى أى رسم لهذا الحيوان ، ونراه يناقض نفسه فى ١٤٣ حين : قال : « أما الأشكال التى ترمز للفيل فهى تخطيطية بدرجة كبيرة وفى موقعين فقط » (لم يذكرهما !) ثم نراه يعود فيتشكك هو نفسه فيما أورده عن الفيل فيقول (رغم أن وجود الأفيال فى الجزيرة العربية بعيد الاحتمال تماماً أثناء فترة العصر الحجرى الحديث المتأخر . لكن يبدو أنه مألوف لدى الرسامين) (؟!) انظر : مجيد خان ، الرسوم الصخرية

في شمال المملكة العربية السعودية - مرجع سابق ، الصفحات واللوحات المشار إليها آنفاً .

(١٦) في بحث سابق للدارس عن بعض لوحات من النقش الصخرى ، عرض لرأيه بخصوص الكثافة الفائقة عن الحد في بعض المواضع وبالجهد الخارق في سبيل تنفيذها . الأمر الذى يجعلنا نعتقد أن أصحاب هذه النقوش كانوا على وشك ابتداع رموز للكتابة خاصة بهم ولكن لظروف بيئية وطبيعية دهمتهم وئدت هذه الإرهاصات الوليدة . انظر للباحث: الفن الصخرى في بلاد المغرب القديم . ارجع لهامش (١) .

(١٢) انظر هامش (١١) .

المصادر والمراجع

- فرنان دى بونو " وادى النيل قبل التاريخ " ، فى تاريخ أفريقيا العام ، المجلد الأول ، اليونسكو ١٩٨٥ ص ٦٤١ - ٦٦٣ .

- Bar-Yosef, O., and Phillips, J.L., Prehistorie invenstigations, in Gebel. Maghara, Northern Sinai, Jerusalem, M. I. A. No 7., 1977.

- Clark, J.D., Mesolithic Times, in : The Cambridge Ancient History, Vol, I p. I. 1980.

- Close, A. E., Prehistory of Arid North Africa, Dallas, 1988.

- Debono, F., and Mortensen , B., El - Omari A Neolithic settlement and Other . Sites, in the vicinity of Wadi Hof, Helwan, D D. I. A. Kairo, 1992.

- Eiwanger, J., Merimede Beni salame, III, D. D. I. A., Kairo, 1992, abb 13, 14.

- El-Chericf, H., « Outils Lithiques a Danfik (Nagade), A. S. A. E., t. LXXII, Le Cairo, 1993.

- Hassan, F. A., The Sebilian of the Nile Valley : Some New Concepts, in L.G. Freeman Viens of the post, Paris, 1981.

- Huzayyin, S.A, The place of Egypt in Pre - history, M. I. E., t. 43 Le Caire, 1941.

- Kozlowski, J. K., Récherches Préhistpriques dans la Cirque de Deir el- Bahari (Montagne Thebaine). Etudes et Travaux, IX, T. C. A. M. P. S. (pp. 48 - 55).

- Mc Burney, C. B. M., The Stone Age of Northern Africa, 2nd., ed., London (1980).

- Phillipson, D. W., African Archeology, Cambridge, 1986.

- Rizkana, I, and Secher, J., Maadi II, The Lithic Industries, of the Predynastie Settlement, Kairo, 1988.

- Rocke, J., « Les industries paleolithiques de la grotte de Taforalt (Morac Oriental). Actes du congres Panafricain de Prehistoire, Vi session Dakar, 1967.

- Schild, R., and Wendorf, F., New exeplorations in the Egyptian Sahara, In Problems in prehistory, North Africa and the Levant, Dallas, 1975, pp. 65- 112.

- Taute, W., « Das Ende der Altsteinzeitin Nordafrika, Sahra, 10.000 Jahre Zwischen Weide and Wuste Koln, 1978, pp.48 - 59.

- Vaufrey, R., Préhistoire de L'Afrique, I, Maghreb, Paris, 1955.

- Vignard, E., « Une nouvelle industrielithique Le Sebilien, « B. I. F. A. O. XXII, 1923.

- Vignard, E., « Une Station Aurgnacienne à Nag Hammadi., (Haute Egypte).

Station du champ de Bagasse. « B. I. F. A. O., XVIII, 1921,(pp.1-0).

الخليج العربى : الموقع والأهمية
خلال العصر البرونزى الحديث
(١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق. م.)

د. علاء الدين عبد المحسن شاهين(*)

لعبت جغرافيا الخليج العربى دوراً هاماً فى توزع المراكز الحضارية على طول ساحله الغربى بصفة خاصة . وكان لتوافر العديد من المرافىء الطبيعية والمراسى المحمية ، ومياه الشرب من عيون وآبار - خاصة فى واحة الاحساء بشرق السعودية ، فيلكا ، جزيرة البحرين وجزيرة أم النار بدولة الإمارات العربية المتحدة - أثر فى الجغرافيا البشرية لسكان المكان عبر فترات طويلة من التاريخ القديم(١) . إضافة إلى ذلك ، فأن توافر المواد الأولية كالنحاس ، والأحجار ، واللؤلؤ ، وبيض النعام ، ساعد على تبادلها فى مقابل ما كان يحتاجه أهل المكان مع سكان المناطق المجاورة من الأخشاب والعاج ، والعقيق الأحمر واللازورد ، وبصفة خاصة بلاد الرافدين (العراق القديم)(٢) ، شمالاً وحتى أقصى الشرق فى منطقة وادى السند ، براً عبر إيران ، أو بطريق المساحلة البحرية إلى سواحل الهند وباكستان ، وخاصة إلى ميناء لوثال(٣) ، اعتماداً على ما ورد فى النصوص السومرية ، حيث وردت كلمة « خارانوم » فى النصوص السومرية بمعنى « رحلة بحرية » ، وكانت تتم عادة فى شهر آيار (مايو) ، وكانت البضائع تجهز فى شهر آذار (مارس) ، وتبحر إلى الساحل الهندى قبل موسم الرياح فى المحيط الهندى(٤) . « انظر خريطة(١) » .

ودلت البحوث الأثرية بالمكان ، وخاصة من البعثة الدانمركية الأثرية من متحف أرهوس بالدانمرك (بدءاً من عام ١٩٥٣) ، وبعض أعمال التنقيبات

(*) كلية الآثار - جامعة القاهرة .

الأثرية من البعثات الإنجليزية ، الفرنسية ، الأمريكية ، الإيطالية ، وكذلك من بعض البعثات العربية المشتركة ، إضافة إلى بعض المصادر النصية ضمن وثائق حضارات بلاد الرافدين دلت هذه البحوث على قدم المراكز الحضارية بساحل الخليج العربي الغربي منه ، أو الشرقي الإيراني خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد(٥) ، مع وجود بعض الفراغ التاريخي ، وكذلك عدم العثور على ما يؤكد استمرارية الوجود البشري ، لأسباب متعددة خلال ما يعرف بالعصر البرونزي المبكر والوسيط .

وشهد العصر البرونزي الحديث (١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق. م.) تغييرات عديدة بظهور قوى حضارية جديدة بالمكان (الشرق الأدنى القديم) كان لها تأثيراتها على المكان وأهله ، وكذلك عودة الحياة إلى بعض المراكز الحضارية خاصة فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية ، والشمال الغربى منها (اليمن والسعودية على التوالى) ، وما كان له من تأثيرات على المكان واتصالاته . وكانت الخريطة السياسية للشرق الأدنى القديم من منتصف الألف الثانى ق. م. واضحة المعالم فى تسيد قوى دولية بعينها على مناطق جغرافية محددة : الإمبراطورية المصرية فى أقصى توسع جغرافى لها اشتمل على النوبة (إلى الجنوب من مصر وفى جمهورية السودان الحالى) ، ما بين الجندل الرابع وشمالاً إلى الحدود المصرية فى القطاع الأفريقى ، وفلسطين ، والأردن ، ولبنان ، وجنوب سوريا فى القطاع الآسيوى(٦) ، الإمبراطورية الميتانية (الحوريون) فى الجزء الشمالى من بلاد الرافدين ، المملكة البابلية الكاشية (الكاسيون) ذوى الثقافة اللغوية الآرية (هندوأوربية) كأحد شعوب الشرق الجبلية (١٥٧٠ - ١١٥٨ ق. م.) ، والإمبراطورية الحيثية (تركيا الحالية)(٧) . وشهدت المنطقة علاقات متشابكة تفاوتت ما بين العلاقات الدبلوماسية ، والتجارية التى كان يدعمها أحياناً الزواج « الدبلوماسى » من جهة ، أو التزاحم والصراع العسكرى من جهة أخرى(٨) . وقد شغلت الأحداث الإمبراطورية الميتانية فى تداخلاتها وصراعها فى جبهتين : ضد الإمبراطورية الحيثية ، والمصرية القديمة فى عهد ملوك أسرة التحامسة من

الدولة الحديثة ، وأن تطورت تلك العلاقات العدائية بين مصر وميتان إلى علاقة تسودها المحبة والصداقة ، دعمها « الزواج الدبلوماسى » من أجل مواجهة النفوذ المتزايد للحيثين في بلاد الأناضول(٩) . ولعل ذلك التداخل فى الصراع منع النفوذ الميتانى من التداخل إلى الجنوب من بلاد الرافدين ضد السيادة الكاشية ، وربما بالتالى من التوسع جنوباً فى مناطق الخليج العربى(١٠) .

وكان لظهور أخطار « شعوب البحر » دور سلبى على المراكز الحضارية الهامة في الأناضول (تركيا) ، وساحل شرق البحر المتوسط وعلى مصر الفرعونية ذاتها وإلى حين(١١) ، بينما كانت المناطق الشرقية (الأبعد إلى الداخل) نسبياً بعيدة عن خطرها المباشر ، وإن وقعت ذاتها فريسة للنزاع الداخلى ما بين آشور وبابل ، واستفادة عيلام من ذلك ، وتقدمها غربا للإجهاز على بابل ، حيث سقطت الأسرة الكاسية حوالى ١١٦٠ ق. م. تحت ضربات الملك العيلامى « شونروك ناخونته الأول » منهيا بذلك فصل من فصول الحضارة العراقية ، ولتبدأ من بعد زعامة أسرة حاكمة من أيسن (أيسن الثانية ، ١١٥٨ - ١٠٢٧ ق.م.) ، والتى كان آخر ملوكها نبوخذ نصر الأول (١١٢٦ - ١١٠٥ ق. م.) الذى يذكر له محاولة إعادة توحيد البلاد(١٢) .

ومما يرتبط أيضاً بفترة العصر البرونزى الحديث هو معرفة أهل منطقة الجزيرة العربية ، وحواف الخليج العربى الغربيـة ، لاستئناس الجمل واستخدامه كوسيلة انتقال وحيوان حمل عبر فيافى الصحراء . ولعل ما كان معروفاً عن طبيعة هذا الحيوان من قدرة على الصبر ، وتحمل العطش والجوع ، ما ساعد على اختراق تلك الفيافى من صحراء شبه الجزيرة العربية ، وبدء تدشين سلسلة من خطوط الانتقال لنقل تجارة البخور بصفة رئيسية عبرها . ولعل أهمها ما كان موازياً لساحل البحر الأحمر الشرقى ، من اليمن جنوباً إلى بلاد الشام شمالاً وشمال غرب إلى مصر ، أو باتجاه شمال شرقى إلى منطقة الإحساء على الخليج العربى ، ثم شمالاً إلى جنوب العراق ماراً بالكويت ، أو عبر ساحل ظفار (حضر موت) ثم إلى

الداخل عبر دولة الإمارات العربية المتحدة إلى ساحلها الغربى على الخليج العربى ماراً بمنطقة حفيت وهيلى(١٣) . وتأرجحت عملية استئناس الجمل ما بين ١٤٥٠ ق. م. إلى ٨٥٠ ق. م. وفقاً لما عثرت عليه بعثه جامعة بنسلفانيا الأمريكية من بقايا عظميه بموقع وادى الجوية فى اليمن عام ١٩٨٣(١٤) . بينما رجح «أولبرايت» حدوث ذلك حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلادى(١٥) .(انظر خريطة٢) .

وقد رجح رأى لبعثة « جون هوبكنز » الأمريكية ٧٣ - ١٩٧٤ أن الكسر الفخارية المتناثرة على تلال جزيرة عكار « القرين » بالكويت تعود فى معظمها إلى العصور الإسلامية حوالى القرن السابع عشر الميلادى ، واشتملت بينها قطع فخارية مستوردة من منطقة البحر المتوسط من القرن الثانى الميلادى ، وأيضاً بعض الكسر الفخارية الكاسية الطراز من أوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد(١٦) ، والذى يرجح معه وجود تداخل ما بين تلك الجزيرة والقوى السياسية الهامة على مسرح الشرق الأدنى القديم السياسى آنذاك ، وعلى توزع الدلائل الأثرية على اتصالها بالمكان وبغيره من مراكز حضارات الخليج العربى القديمة . ومن اللافت للنظر وجود فراغ زمنى فى التواجد البشرى على جزيرة فيلكا ما بين فترة ايسين الثانى والعصر الكلدانى . ولم يعثر إلا على دليل خادع ممثلاً فى جرة من العصر الحديدى عثرت عليها البعثة الفرنسية أثناء حفائرها فى طبقات العصر البرونزى من موقع فيلكا ٦ (F6)(١٧) .وتشبه تلك الآنية من الجرار (bell - shapes ar) والمزينة بزخرفة من الحبال حولها مع تلك الأوانى الجنازية من نيبور ، لارسا ، تل اللاخوم والبحرين المؤرخة عادة من الفترة ما بين القرن السابع إلى الخامس قبل الميلاد(١٨) . إضافة إلى ذلك فقد عثر على بعض الأختام الأسطوانية الكاشية الطراز أو ذات طراز كاشى زائف ، وعيلامى ضمن موقعى فيلكا ٣ و ٦ (الأختام أرقام ٣٩٨ - ٤٢٢)(١٩) . وبصفة عامة فإن الوجود الكاسى فى فيلكا ذا طبيعة مختلفة تمثل فى أن الأنماط الفخارية من المرحلة (4A) فى موقع القصر (F6) فى فيلكا (١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق. م.) محلى الصناعة ، ولم يعثر ضمن أنماطه على

تلك الأوانى الطويلة المميزة من نمط (Flask)(٢٠) . بينما يتضح من أنماط فخار مرحلة (4A) فى فيلكا من موقع (F3) (١٢٥٠ - ١٠٠٠ ق. م.) أنه كان مستورداً من بابل . وعثر على بقايا نمط تلك الأوانى المميزة (Flask) هناك(٢١). كما أن أختام مرحلة العصر الكاسى وما بعده (معظمها من الأخير) عثر عليها فى كل من فيلكا ٣ (F3) وفيلكا ٦ (F6) . وبالمثل فإن البقايا المعمارية المدنية (المنازل) فى (4B) فى فيلكا تنتمى كذلك إلى الفترة الأخيرة من مرحلة العصر الكاسى ، واستمرت إلى ما بعدها(٢٢) .

إضافة إلى ذلك ، فإن معظم الاكتشافات فى مناطق شرق المملكة العربية السعودية خلال الثلاثين عاماً الأخيرة تؤرخ من الألف الأول قبل الميلاد ، من العصر الحديدى إلى العصر الساسانى ، ثم مرحلة ما قبل العصر الهيلينى(٢٣) ، فيما عدا بعض المواد الأثرية المشابهة للحضارة الكاسية حيث عثر على خاتم أسطوانى من الفيانس فى موقع السبخة ما بين الظهران والعقير يؤرخ من القرن١٣ أو ١٢ق.م.، وعلى كسرات من الفخار من النمط المعروف (ring - based goblets) من العصر الكاسى أو العيلامى فى منطقة إلى الجنوب من الظهران ، وذلك عام ١٩٨٣(٢٤). كما رجح Zarins تأريخ المادة الأثرية المكتشفة فى بعض مواقع جبانة الظهران الممثلة فى رءوس سهام نحاسية ، وأحياناً حديدية ، أساور نحاسية وخواتم ، خرز ، محار ضخم ، وبعض الأطباق الصوانية الصغيرة من الجزء الأخير من الألف الثانى ق. م.(٢٥) . كما أن المادة الأثرية من إحدى مقابر الظهران اشتملت على فخار وأدوات حجرية يتطابق على الأقل فيما يتعلق بالأوانى الحجرية مع تلك الأوانى المعروفة من موقع القلعة بالبحرين فى مرحلتها الثالثة (Qalaat City III B) (١٥٠٠ - ١٤٠٠ ق. م.) وتتشابه مجموعة من الأوانى الفخارية من نمط goblet ذات القاعدة المسطحة والدائرية مع مثيلاتها الكاشية العيلامية(٢٦) .

وفيما يتعلق بشبه جزيرة قطر ، فقد لعبت الظروف البيئية ، وعدم توافر المياه وقلة الأعشاب دوراً سلبياً على المكان . ودرج الباحثون على إطلاق صفة «الأرض المجدبة» على المكان . ويبدوأن سكانها اضطروا للهجرة ربما إلى الساحل المقابل : إلى يابسة شبه الجزيرة العربية . ولم يقطع الصمت عن المكان ، وتاريخه منذ العصور الحجرية القديمة والوسطى وربما النيوليثية إلا ما كشف عنه أخيراً من أعمال للبعثة الأثرية الفرنسية في موقع « الخور » من وجود « ٢ مليون محارة Shell » ، مما يرجح معه أن يكون المكان قد استخدم لاستخراج الأصباغ ، والتى تذكرنا بما كان للفينيقين من ارتباط بالمكان وفقاً لآراء الباحثين القدامى(٢٧) ، أضافة إلى ذلك فإن ارتباط العثور على الأصباغ مع الفخار الكاسى الطابع أكد تأريخ الموقع من أواخر الألف الثانى ق. م. وأوائل الألف الأول ق. م.(٢٨) . وعكس تشابها للفخار المكتشف من مرحلة (4B) فى جزيرة فيلكا الكويتية المؤرخ من أواخر العصر الكاسى(٢٩) . ومن الملاحظ أن معظم ما عثر عليه بعد ذلك فى قطر يرجع إلى عصور متأخرة جداً ، من العصر اليونانى وما تلاه خلال العصر السليوقى بالمكان من القرن الثانى قبل الميلاد(٣٠) .

كما أوضحت الدلائل الأثرية المكتشفة من مواقع دولة الإمارات العربية المتحدة ندرة وجود آثار من العصر البرونزى الحديث فيما عدا موقع القصيص المؤرخ من نهاية الألف الثانى ق. م.(٣١) ، وأن معظم ما دلت عليه أعمال التنقيب الأثرية الأخيرة فى حفيت ، بديع بنت مسعود ، هيلى ، الرميلة ، وقطاره تعود إلى العصر الحديدى(٣٢) ، وفى ارتباط فيما يبدو باختراع نظام الأفلاج كوسيلة رى ، ومع خطوط الاتصال التجارى مع مناطق جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بعد عملية استئناس الجمل والقدرة على اختراق الفيافى ، محملاً بإنتاج الجزيرة من البخور ، واللبان المرغوب فيهما من المراكز الحضارية المجاورة وما تلاها(٣٣) .

وقد شهدت مرحلة أواخر العصر البرونزى الوسيط فى دوريه الثانى إلى الثالث تناقصاً متزايداً فى ترديد اسم دلمون (البحرين) فى المصادر الميزوبرتاميه .

ويرجع آخر ذكر لها من تلك الفترة من العام الخامس من فترة حكم «سامسوايلونا» (حوالى ١٧٤٥ ق. م.) حيث ورد ذكر « نحاس من دلمون » جنبًا إلى جنب مع « نحاس من آلاشيا »(٣٤) ، والتى رجح أن تكون «قبرص»(٣٥) . وتعود عدة عوامل إلى إنهيار الاتصال التجارى بين بابل ودلمون ، وإلى انهيار الثراء الاقتصادى فى موقع الخليج العربى فى هذا الوقت لعل من بينها انهيار الحضارة الهارابانية Harappan فى أوائل الألف الثانى ق. م. مما جعل من الصعب الحصول على المواد القيمة النفيسة من الشرق ، ونقلها إلى جنوب ميزوبوتاميا خاصة إلى أور . كما توضح الإشارات إلى نحاس الاسيا (= قبرص) مدى التغير فى الاتجاه الاقتصادى ناحية الغرب كمصدر لتلك الموارد الضرورية ، وبالتالى قللت من أهمية ماجان ودلمون كممولين لذلك(٣٦) . وربما كان لغزو أريان (Aryan) لملوخا فى منتصف الألف الثانى ق. م. تأثير سلبى واضح فى توقف بل ووضع حد للعلاقة التجارية مع ملوخا ، وبالتالى سبب إنهياراً سريعاً فى ثراء وغنى، وأهمية دلمون(٣٧) . ولم تظهر دلمون ثانية فى المصادر الميزوبوتامية حتى القرن الرابع عشر ق. م. خلال العصر البرونزى الحديث (LB) . وترجح الدلائل الأثرية من البحرين وفيلكا أن الفترة المتأخرة من الألف الثانى ق. م. كانت فترة هدوء نسبى فى المناطق الشمالية من الخليج العربى ، بينما فى ميزوبوتاميا استمتعت الأسرة الكاشية بداءاً من عام ١٧٥٠ ق. م. بحكم طويل نسبياً تميز فى معظمه بالسلام ، والأتصالات الدولية البعيدة ، كما كان لها علاقات متعددة مع منطقة دلمون (البحرين) ، والتى كانت مصدراً هاماً للتمور(٣٨) . وقد قدمت حفائر البعثة الأثرية لمتحف أرهوس الدانمركية عام ١٩٥٦ الدلائل على الوجود الكاسى بالبحرين فى منطقة القلعة استناداً على العثور على نمط فخار (Carmel ware) المميز للعصر البابلى القديم والعصر الكاسى(٣٩) . كما عثر على دلائل معمارية فى نفس المكان من العصر الكاسى أيضاً . وكان من نتيجة حرق المكان (أو القصر) أن حفظت الكثير من الشردات وبقايا الفخار التى أعطى التأريخ بالراديو كربون ١٤ (C14) تاريخاً من ١١٠

+ ١٨٠٠ق. م.(٤٠) . كما كشفت أعمال الحفر الأثرى من عام ١٩٧٠ بإشراف الطراونة F. al Tarawneh في موقع الحجر عن وجود مجموعة من المقابر (عدد ١٤ قبر) مقطوعة في الصخر ، تعود مقابر ١٢،١١،٨،٣،١ منها إلى العصر الكاسي ، استناداً على تواجد الفخار ، والأختام الأسطوانية ، وخاتم من الفيانس من نفس نمط نوزي من القرن ١٥ - ١٤ ق. م. عثر عليه في القبر رقم(١) ووجد عليه تصوير لاثنين من الغزال . كما عثر على خاتم زجاجي مؤرخ من القرن ١٤ - ١٣ ق. م. في القبر رقم (٣) يبدو عليه رسم حيوان خرافي بوجهين لأسد ، واقفاً على مؤخرته على شكل بشرى مقهور، وممسكاً لأعلى باثنين من الثيران ذات السنام Humped bull(٤١) . كما عثر على أربع مقابر أخرى على الأقل من نفس العصر الكاسي في موقع « سار » : مدافن ١٥٠ ، ١٥٠أ ، ١٥٠ب ، والمدفن الجماعي رقم ٤٢ بها ، والتي تضمنت بقاياها الأثرية فخار يمكن مقارنته مع فخار موقع المدينة الثالثة بالبحرين (City III)(٤٢). إضافة إلى ذلك ، فقد عثرت البعثة الأثرية الاسترالية في موقع « بوري » في موسم ١٩٨١ - ١٩٨٢ على فخار كاسي(٤٣) . كما عثر كذلك على مقابر كاسية في موقع المقشة ، وكذلك على مقابر ، أو ربما بقايا سكنات ، استناداً على الشردات الفخارية ذات الطابع الكاسي على سطح موقع قرية باربار(٤٤) . كما أوضحت النصوص السومرية المكتشفة من البحرين بواسطة البعثة الأثرية الدانمركيه احتمالية وجود « مدرسة تدريبية » على ارض البحرين ذاتها من العصر الكاسي(٤٥) . وبالمثل عثر عام ١٩٧٩ على قطعة حجرية مستطيلة الشكل أعيد استعمالها في العهد البارثياني في موقع إلى الشمال من رأس القلعة مدون عليها بقايا كتابات سومرية اعتبرها B. Andre - Leicknam نقشاً معمارياً من منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد من فترة حكم المدعو " بورنابورياش الثاني » (١٣٥٩ - ١٣٣٣ ق. م.)(٤٦) .

كما وردت إشارة إلى دلمون ضمن نصوص منطقة نيبور التي حفرت بها بعثة أمريكية ما بين ١٨٨٩ - ١٩٠٠م ، وعثر بالمكان على حوالى ١٢ ألف لوحة مكتوبة ، وآثار تعود إلى العصر الكاسي ، اشتملت بينها على لوحتين وردت بهما

إشارة إلى دلمون . ولعل أهمية تلك النصوص أنها لخطابات تمت كتابتها ، وتدونيها في دلمون ، وأرسلت إلى نيبور ، وإلى أنها ترجح أيضاً وجود « حاكم كاسي على دلمون »(٤٧) . وقد رجح أن يكون هذا الحاكم على دلمون في الفترة ما بين ١٤٢٠ - ١٤١٠ ق. م. خلال فترة ذروة التوسع الكاسي ، وفي قمة اتصالاتهم الحضارية مع ملوك مصر الفرعونية خلال عصر العمارنة(٤٨) . كما تعكس نصوص إحدى الرسائل التي عثر عليها في نفر مؤرخة من العام الخامس من فترة حكم بورنابورياش الثاني استمرارية العلاقة مع دلمون من جهة ، وعلى تزويد دلمون لبلاده بتمور من جهة أخرى(٤٩) .

وانتهى هذا الدور من السيطرة المكاسية على دلمون ، ووردت آخر إشارة لذلك الوجود الكاسي بالمكان ضمن أحد نصوص الملك نيكولتي - نينورتا الأول (١٢٤٣ - ١٢٠٧ ق. م.) عثر عليه في موقع تلول عقير ، يتضمن إحصاء بالغنائم الوفيرة للملك التي حصل عليها بعد هزيمته للحاكم الكاسي Kastiliasu (١٢٣٢ - ١٢٢٥ ق. م.)، وتلقب من بعد بلقب «ملك دلمون وملوخا»(٥٠). وقد ترتب على ذلك انقطاع ملموس في التسلسل التاريخي للحضارة في البحرين لمدة تزيد عن ٥٠٠ عام بعد مرحلة الوجود الكاسي بالمكان وحتى العصر الآشوري الحديث يقطعه أحياناً بعض المكتشفات الأثرية مثلما عثر عليها ضمن أعمال البعثة الأثرية الفرنسية ما بين ١٩٧٩ - ١٩٨٢ بالمكان خاصة أنماط مميزة من فخار ذي لون قرنفلي غامق ، وبصلابة ملموسة ، وفي أشكال جرار طويلة ذات شفة دائرية أو متقلبة ، وجرار ذات قواعد بشكل الطوربيد ، أو فخار أكثر شيوعاً بلون أصفر أو أصفر - برتقالي ، وفي شكل جرار ذات رقاب ، وأواني بشكل الكؤوس قد تشابه في بعض أشكالها وملامحها مع فخار حجر بن حميد في وادي بيحان اليمني ، وفي منطقة نجران - الأخدود قرب الحدود السعودية اليمنية(٥١) . وبإطلاق فإن سقوط الإمبراطورية الكاشية ، وانتهاء دورها في السيطرة على ميزوبوتاميا عام ١٢٠٠ ق. م. وما ترتب عليه من فقد سيطرتها عليه جنوب بابل ، ومنطقة الخليج العربي قد ارتبط به وجود تسللات متزايدة من

القبائل البدوية من المنطقة الصحراوية فى شمال شبه الجزيرة العربية من اراميين وكلدانيين وسوتيين ، وربما بالمثل من جنوب غرب الجزيرة العربية استناداً على تلك الأنماط الفخارية(٥٢) .

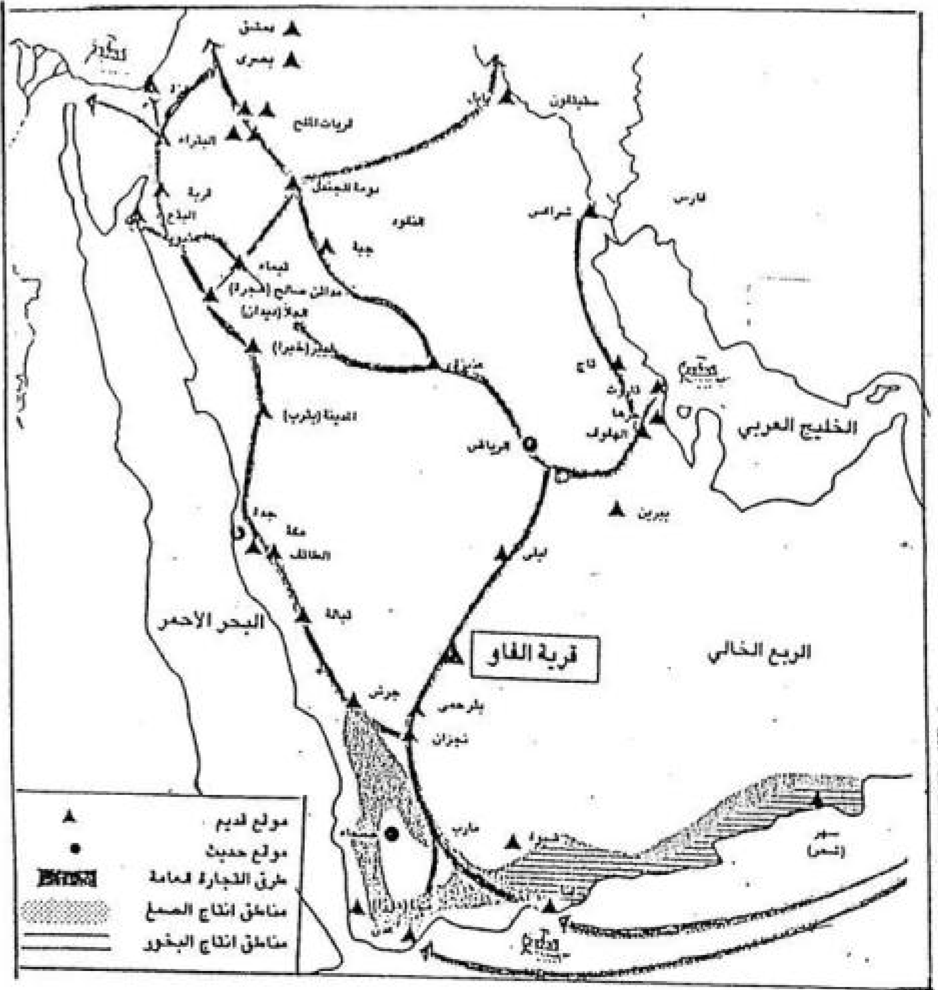
وبالنظر إلى ما سبق ، فإنه بالرغم من تلك التغيرات السياسية الضخمة خلال العصر البرونزى الحديث فى مواقع حضارات الشرق الأدنى القديم خارج منطقة الخليج العربى ، وبصفة خاصة فى بلاد الرافدين ووادى النيل وشرق حوض البحر المتوسط فإن مجمل ما كشفت عنه الدلائل الأثرية وإلى الآن لا تقدم لنا الكثير من مواقع لتجمعات بشرية كثيفة على الساحل الغربى من الخليج العربى فيما عدا منطقة البحرين ، وأن معظم ما عثر عليه بتلك المواقع ارتبط بصفة خاصة مع تلك التغييرات السلبية الناجمة عن انهيار المراكز الحضارية إلى الشرق من الخليج العربى فى وادى السند بصفة خاصة والتى كان لها من قبل صلات حضارية وعلاقات تجارية بالمكان وأهله من جهة ، وفى الوجود الكاسى المكثف خاصة مع منطقة البحرين من جهة أخرى .



خريطة (١)

أهم المواقع الحضارية فى الخليج العربى

وأهم الموارد الاقتصادية المرتبطة به والمنقولة عبره



خريطة (٢)

أهم خطوط التجارة القديمة عبر الخليج وشبه الجزيرة العربية

الهوامش

(١) البدر (سليمان) ، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ « الصلات الاقتصادية والسياسية لمنطقة الخليج العربي في أواخر الألف الثالث ق. م. » مجلة كلية الآداب والتربية العدد ٩ (يونيو ١٩٧٦) ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ الصباح (ميمونة) الكويت حضارة وتاريخ (المجلد الأول) ، الكويت : ١٩٨٩ ص٢٦ .

(٢) تعددت الآراء في التسمية الواجب إطلاقها على العراق القديم ما بين ميزوبوتاميا بمعنى بلاد ما بين النهرين : دجلة والفرات مع ما في ذلك من تجاهل لباقي الأراضي المحيطة بالنهرين ، أو بارابوتاميا بمعنى بلاد ما هو خارج النهرين ، أو بإطلاق تسميات مرتبطة بدويلات مدنها السياسية : بلاد سومر ، بلاد سومر وأكد ، بلاد بابل ، أو بلاد آشور ، وإن كان من الأفضل إطلاق اسم « العراق القديم » ليغطي كل البعد الجغرافي لحضارات منطقة دجلة والفرات وما حولها . راجع عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد : ١٩٨٧ ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) البدر ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، الصباح ، المرجع السابق ص ٢٦ ، زيادة (نقولاً) ، تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الرابع ، السنة الأولى (أكتوبر ١٩٧٥) ، ص ٦٩ - ٩٤ .

(٤) البدر ، المرجع السابق ص ٤٩ ؛ سلطان (غانم) ، الملاحة البحرية وأهميتها للكويت قديماً وحديثاً ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، إدارة التأليف والترجمة والنشر ، الكويت ١٩٨٨ ، ص ٣٥ .

(٥) الهاشمي (رضا جواد) ، « دراسة في مصادر تاريخ وآثار الخليج العربي في عصوره القديمة » مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٨ ، السنة السابعة (أكتوبر ١٩٨١) ، ص ١١٥ - ١٢٩ ، البدر (سليمان) ، « محاولة لرسم معالم حضارية :

التنقيب الأثرى عملية تقنية بالأساس تعتمد على معطيات علوم أخرى . الجزء الثانى » ، المنهل العدد ٤٩٢ ، المجلد ٥٣ (١٤١٢هـ / ١٩٩١م) ، ص ٣٠ - ٣٥ ؛ صالح (عبد العزيز) ، الرحلات والكشوف الأثريه للعصر الحديث فى شبه الجزيرة العربية ، الكويت: ١٩٨١ ، ص ٦٣ - ٨٠ .

(٦) راجع مقالة : Kemp, B.J. « Imperialism and Empire in New Kingdom Egypt » (c.1575 - 1087 B. C. « Imperialism in the Ancient world. Edited by Gatnsey, P. D. and whittaker. C. R. Cambridge University Press : 1978, pp. 7-57; pp. 284 - 373.

(٧) فرزات (محمد حرب) ومرعى (عيد) ، دول وحضارات فى الشرق العربى القديم سومر وآكاد ، بابل وآشور ، آمورو وآرام . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق : ١٩٩٠ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ص ١٧٢ .

(٨) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(٩) فخرى (أحمد) ، مصر الفرعونية ، القاهرة : ١٩٧١ ؛ توفيق (سيد) ، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ، دار النهضة العربية ، القاهرة : ١٩٨٧ : Hayes. W. C. « Egypt : Internal affairs from Tuthosis I to the Death of Amenophis III », CAHII, Part I, Cambridge University Press : 1973, p. 343.

(١٠) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ - ١٧٢ .

(١١) توفيق ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

عن شعوب البحر وأخطارها راجع أيضاً :

Sandars, N. K. The sea People, London : 1978.

(١٢) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(١٣) صالح (عبد العزيز) ، تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، الأنجلو المصرية القاهرة : ١٩٨٨ ، ص ٢٧ ؛ مهران (محمد موسى) ، دراسات فى تاريخ العرب القديم ، الإسكندرية : ١٩٩٢ ، ص ١٢٨ ، ص ١٣٣ - ١٣٦ ؛ غلاب (محمد السيد) التجارة فى عصر ما قبل الإسلام ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزية العربية قبل الإسلام ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨٤ ، ص ١٨٩ - ١٩٨ ؛ خريطة رقم (٤) ؛ رشيد (صبحى أنور) ، (العلاقات بين وادى الرافدين وتيماء) دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزيرة العربية قبل الإسلام، جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨٤ ، ص ٣٨٧ - ٨٩ .

(١٤) توبلن (مايكل) ، الجوبة ، مشروع وادى الجوبة الآثارى . الجزء الأول : المسح الآثارى فى الجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٨٤ ، ترجمة زاهى حولى ومراجعة د. جاب الله على جاب الله ، المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان بواشنطن : ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .

(١٥) صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(١٦) النجار (جواد كاظم) ، « التنقيب فى جزيرة عكاز (القرين) ١٩٧٨ (الموسم الأول)، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٣ ، السنة السادسة (يوليو ١٩٨٠) ، ص ٢٤٣ - ٤٤ .

(١٧) سال (ج.ف) تقرير عن انجازات البعثة الفرنسية للكشف الأثرى لجزيرة فيلكا (١٩٨٣ - ١٩٨٧) وخطة البعثة للكشف الأثرى ١٩٨٨ - ١٩٩٢ ، ترجمة د. عز الدين إسماعيل غربية ، وزارة الإعلام ، إدارة الآثار والمتاحف ، الكويت ؛ - Salles (Jean Francois), Failake, Fouilles Francaises 1983, Travaux de La Maison I'Orient No.9, Lyou : 1984

(18) Potts, D. T. The Arabian Gulf in Antiquity. vol. I : Form Prehistory to the fall of the Achaemenid Empire. Oxford : 1990, p.329.

(١٩) كيروم (ب) ، فيلكا من مستوطنات الألف الثانى قبل الميلاد . المجلد الأول ، الجزء الأول : الأختام والأختام الأسطوانية ترجمة د. خير ياسين ومراجعة د. سليمان البدر ود. عز الدين غربية ، إدارة الآثار والمتاحف ، وزارة الأعلام ، الكويت (بدون تاريخ نشر ص ١٧١ - ٧٨ .

(20) Denton, B. E. The Late Second millennium B. C. in the Arab / Iranian Gulf, ph. D. Disserlation, UmI, Ann Arbor : 1991, p. 277.

(21) Denton, Op. cit., p. 277.

(22) Denton, Op. cit., p. 277.

(23) Potts, Op. cit., p. 330.

(24) Potts, Op. cit., p. 303.

(25) Zarins, J. Mughannum. A. S. and Kamal, M., « Excavations at Dhahran South the tomuli field (208 - 92). 1403 A. H., 1983. A Preliminary Report », Atlal the Journal of Saudi Arabian Archaeology 8 (1984), pp. 25-54; Denton, Op. cit., p. 266.

(26) Denton, Op. cit., p. 278. Potts, Op. cit., p. 303.

(27) Rice, M. Search for the Paradisce Land. An introduction to the Archaeology o Bahrain and the Arabian Gulf from the earliest times to the death Alexander the Great. Lonodon and New York : 1984, P. 227.

اعتقد تيودرور بنت فى أن مقابر البحرين تعود إلى الفينيقين قبل هجرتهم من الخليج العربى اعتماداً على دراسته للآثار ، وتأثره برأى هيرودوت الداعى بأن الفينقيين كانوا يدعون فى عهده بأن إسلافهم جاءوا من الخليج . راجع البدر ، منطقة الخليج العربى خلال الألفين الثانى والأول قبل الميلاد ، ص ٢٦ .

(28) Rice, Op. cit., p. 278.

(29) Denton, Op. cit., p. 278.

(30) Rice, Op. Cit., p. 227.

(٣١) البدر ، المرجع السابق ص٣٨ .

(٣٢) بوشارلات (ريمى) وبيير لومبارد ، « نتائج التنقيبات فى موقع رميلة / العين ١٩٨٠ - ١٩٨٣ » ترجمة وليد التكريتى ، مجلة الآثار فى دولة الإمارات العربية المتحدة ، العدد ٤ (١٩٨٥) ، ص٤٢ - ٥٩ ؛ شعت (شوقى) ، « التقنيات الأثرية فى الخليج العربى وأهميتها التاريخية » الخليج العربى . دراسات تاريخية وجغرافية منذ أقدم العصور حتى الوقت الراهن ، دمشق : ١٩٩٣ ، ص ٥٦-٥٩.

(٣٣) هيستنجر(أ) ، عمان فى الألف الثالث قبل التاريخ الميلادى مترجم إلى العربية ، سلسلة تراثنا العدد ٤١ ، سلطنة عمان ، إدارة التراث القومى والثقافة : ١٩٨٣ ، ص ٢٦ ؛ ولكنسون _ جى) الأفلاج ووسائل الرى فى عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله، ١٩٨١ ؛ سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، « البخور عصب تجارة البحر الأحمر فى العصور القديمة » ، البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة . مجموعة بحوث نشرت فى الدوريات العربية والأوربية ، الأسكندرية : ١٩٩٣ ، ص ٥٧٨ - ٧٩ .

(34) Denton, Op. cit., p. 49.

(35) Wachsmann, S. « Is Cyprus Ancient Alashiya? New evidence From an Egyptian Tablet ». Biblical Archaeologist 49.1 (March 1986), p. 37.

(36) Denton, Op. cit., p. 50.

(37) Vine, P. Pearls in Arabian Gulf. The Heritage of Bahrain, Immel Publishing , p. 26.

(38) Denton, Op. cit., p. 50. Vine. Op. cit., p. 26.

(39) Potts, Op. cit., p. 298.

(40) Potts, Op. cit., p. 299.

(41) Potts, Op. cit., p. 302.

(42) Potts, Op. cit., p. 302.

(43) Potts, Op. cit., p. 302.

(44) Potts, Op. cit., p. 303.

(45) Potts, Op. cit., p. 307.

(46) Potts, Op. cit., p. 307.

(47) Potts, Op. cit., p. 309.

(48) Potts, Op. cit., p. 310.

(٤٩) البدر ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(50) Potts, Op. cit., p. 314 ; Vine. Op. cit., p.27.

(51) Potts, Op. cit., p. 314 -15.

(52) Vine, Op. cit., p. 27. Potts, Op. cit., p. 392.

التقاويم السبئية الحميرية

فى ضوء نقش حميرى جديد

أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

لم يعرف اليمنيون القدماء نظاما موحدا للتأريخ ، فهم لم يؤرخوا بسنى حكم ملوكهم وحكامهم ، ولم يدونوا قوائم بأسماء هؤلاء الملوك والحكام كما فعل المصريون القدماء . والتاريخ الوحيد بسنى حكم الملك الوارد فى النقوش اليمنية القديمة ، سجل خارج اليمن وبالتحديد فى مصر ، وهو التاريخ المنقوش على تابوت التاجر المعينى « زيد أيل بن زيد » (المحفوظ الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة) الذى عاش فى مصر فى عصر البطالمة ؛ فقد جاءت فيه عبارة « ب و ر خ هـ / ك ى ح ك / خ ر ف / ث ن ى / و ع ش ر ى / ك ت ل م ى ث / م ل ك ن « وترجمتها » فى شهر كيهك (من) السنة الثانية والعشرين من (عصر) بطلميوس الملك (Abdel Monem 1984, p. 93) والعبارة تسرد تاريخ دفن التاجر المذكور . ومن الواضح أن كاتب هذا النقش تأثر بأسلوب التأريخ السائد فى مصر فى العصر البطلمى والذى من الواضح أنه استمرار لأسلوب التأريخ الذى كان متبعاً فى عصر الفراعنة .

أن كل ما أورده اليمنيون القدماء من تأريخ للأحداث فى نقوشهم يقتصر على ذكر أرقام السنوات فقط أو ذكر أرقام السنوات مقترنة بأسماء غامضة أكثرها شيوعاً فى النقوش الأسماء : « مبحض بن أبحض » ونبط (نبط أيل بن ابأمر RES 4133) ثم اسم تعرف عليه العلماء أخيراً وهو « ابعلى بن .. » ويبدو من تركيب هذه الأسماء واحتوائها على كلمة « بن » أنها أسماء أجداد أوائل أو زعماء قدامى للقبائل(١) .

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

وقد ظل العلماء حائرين أمام التواريخ المقترنة بهذه الأسماء أو المذكورة بدونها حتى تمت ترجمة النقش المعروف بين النقوش اليمنية القديمة باسم « نقش حصن الغراب » ترجمة صحيحة(٢) ، فقد ساعد ذلك العلماء على التوصل إلى بداية أحد التقاويم اليمنية بأن هذه البداية كانت سنة ١١٥ قبل الميلاد . وقد أطلقوا على هذا التقويم فى أول الأمر « التقويم السبئى » ثم عدلوا التسمية فى السنين الأخيرة إلى « التقويم الحميرى » (لأسباب سنذكرها فيما بعد) . والحقيقة أنه لا السبئين ولا الحميريين استخدموا تقويمًا فى ذلك التاريخ ، فإن أقدم نقش مؤرخ بهذا التقويم يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، عندما بدأ اليمنيون يذكرون تاريخ بعض الأحداث مقترنة إما باسم التقويم الذى أطلقوا عليه « مبحض بن أبحض » أو باسم التقويم الذى دعوه « نبط » (أو باسم تقويم « أبعلى » الذى لم يتعرف العلماء على اسمه إلا أخيراً) أو يذكرون رقم السنة دون ذكر أى من هذه الأسماء أى أن إتباع اليمنين للتاريخ للأحداث بدأ بعد البداية المذكورة للتقويم (عام ١١٥ ق. م.) بحوال أربعة قرون .

والذى ساعد العلماء على تحديد عام ١١٥ ق. م. (وهو الرأى الغالب لأن بعضهم حدد هذا التاريخ بسنة ١٠٩ أو بين ١١٨ و ١١٠ قبل الميلاد) كبداية للتقويم المذكور فى نقش حصن الغراب ، وورود العبارة التالية فى السطور الأخيرة من النقش « أ ح ب ش ن / ... ك هـ ر ج و / م ل ك / ح م ى ر م / ... و ر خ هـ و / د ح ج ت ن / ذ ل أ ر ب ع ى / و س ث / م ا ت م/ خ ر ف ت م » (RES 2633) .

وترجمتها « الأحباش ... عندما قتلوا ملك حمير ... تاريخه (شهر) ذو الحجة (لسنة) ٦٤٠ من التقويم »(٣) .

وكما نرى لم يذكر النقش اسم التقويم الذى تنتمى إليه تلك السنة ، ولكن الباحثين عادلوا أحداث هذا التاريخ بما ورد فى المصادر الحبشية والمصادر المسيحية البيزنطية عن حملة الأحباش على اليمن على أثر مذبحة (أو محرقة) شهداء نجران ،

وتوصلوا إلى أن ذلك الغزو حدث سنة ٥٢٥ ميلادية . ومن هنا اعتبروا أن سنة ٥٢٥ م هذه هى السنة المقابلة لسنة ٦٤٠ المذكورة فى نقش حصن الغراب . وبطرح السنين ٦٤٠ - ٥٢٥ = ١١٥ أمكن التوصل إلى أن سنة ١١٥ ق. م. هى بداية التقويم الذى تنتمى إليه سنة ٦٤٠ . ولما كانت لا توجد نقوش يمنية مؤرخة بالسنة التى تعادل سنة ١١٥ ق. م أو حتى السنوات التى بعدها حتى القرن الثالث الميلادى فقد اعتبر الباحثون هذه السنة البداية « النظرية » للتقويم اليمنى ، واعتبروها « نظرية » لأن هذا التقويم لم يستخدم فعلاً إلا بعد هذه البداية بحوالى أربعة قرون .

غير أن الذى حير العلماء ورود أرقام سنوات فى النقوش اليمنية مقترنة بأسماء التقويمين « مبحض بن ابحض » و « نبط » ، فافترض بعضهم بدايات لهذه التقاويم تتطابق أحياناً مع التاريخ الذى يبدأ نظرياً بعام ١١٥ ق. م. ، والذى أطلقوا عليه التقويم الحميرى لأنه ورد فى القرن الثالث الميلادى مقترنا بأسماء الملكين الحميريين « ياسر يهنعم وشعر يهرعش » ، بينما افترض آخرون بدايات مختلفة عن بداية هذا التاريخ ومثال ذلك العالم « البرت جام » الذى افترض أن تقويم « مبحض » هذا بدأ سنة ٩٧ قبل الميلاد (Jamme 1962, p. 362) أى أن هناك فارق زمنى بينه وبين التقويم الحميرى يبلغ ١٨ سنة بزيادة التقويم الحميرى ، كما افترض أن تقويم « نبط بدأ حوالى عام ٣٤ ق. م. (Ibid) ولكن من ناحية أخرى فقد تنبه علماء آخرون مثل العالم « بيستون » إلى أن تقويم « مبحض » هو نفسه التقويم الحميرى (الذى كان يسميه فى البداية « التقويم السبئى ») ولكنه اعترف أن آرائه هذه هى مجرد افتراضات (Beeston 1981, p. 4) كما فسر بيستون علاقة التقاويم الثلاثة ببعضها تفسيراً صحيحاً فقال أن تقويم «نبط» كان يستخدم إلى جانب تقويم « مبحض » فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أهمل تقويم « نبط » وبقى تقويم « مبحض » مستخدما فى النقوش السبئية المتأخرة (يقصد الحميرية) وافترض بيستون أن الفارق بين تقويمى « مبحض » و« نبط » يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ سنة (Beeston 1981 , p. 3) . وقد اتفق رأى العالم

« جونزاج ريكمانز » مع رأى بيستون فى أن تقويم « مبحض » هو نفسه التقويم السبئى (يقصد الحميرى) ولكنه أخطأ عندما افترض أن التاريخ الوارد فى النقش رقم RES 3958 المؤرخ بسنة ١٤٤ هو بالتقويم الحميرى (Ryckmans 1943, p. 236) لأنه سوف يتضح أنه مؤرخ بتقويم آخر لم يرد اسمه فى النقوش قبل قراءة نقش المعسال ، وهو التقويم المسمى « ابعلى » كما سنذكر بعد(٤) . وقد حاول العالم البريت تفسير أصل تقويم نبط فقال أنه ينسب إلى آخر ملك قتبانى وهو الملك « نبطم يهنعم » لأن الذين استخدموه هم قبائل بنى ذرانح « الذين كانوا يسكنون منطقة كانت خاضعة لدولة قتبان قبل خضوعها لدولة حمير . وقد حدد البريت بداية تقويم « نبط » بالسنة الخامسة قبل الميلاد (Albright 1958, p. 6) ولكن هذا التاريخ ثبت عدم صحته بعد قراءة نقش المعسال . وكل هذه الاراء سواء الصحيح منها وغير الصحيح كانت مجرد احتمالات تفتقر إلى إثبات بالدليل الأثرى ، حتى تم الكشف فى السنين الأخيرة عن نقوش جديدة فى منطقة جبل المعسال التى تقع على بعد ١٥٠ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى من صنعاء وكانت هذه المنطقة تسكنها قبيلتان هما قبيلة « ردمان » وقبيلة « خولان » (وهذه الأخيرة غير قبيلة خولان المعروفة التى كانت تسكن فى شمال غرب اليمن بالقرب من مدينة « صعدة ») تنضويان تحت لواء قبيلة كبرى تدعى « بنو معاهر» ومنطقة هذه القبائل تقع إلى الجنوب من دولة سبأ وإلى الشرق من دولة حمير وإلى الجنوب الغربى من دولة قتبان ، أى أنها فى موقع الاحتكاك بين هذه القوى الثلاث (انظر الخريطة) ويبلغ عدد نقوش جبل المعسال (١٨ نقشاً) ، أهمها جميعاً النقش رقم ٢ طبقاً لترقيم البعثة الفرنسية . وقد سبق أن نسخت بعثة ألمانية بعض هذه النقوش ووصفها العالم الألمانى « والتر مللر »بوجه عام (Muller 1973, p. 16) ، ثم نشر العالم البلجيكى « البرت جام » بعض النصوص (Jamme 1976, p.110) وأعطاها الأرقام (Ja. 2861, 2864, 2867 .....) . ولكن لم يتمكن هؤلاء العلماء من نشر النقوش كاملة بسبب وعورة المنطقة وشدة انحدار الصخر من ناحية ولارتفاعها الشاهق وصغر حجم حروفها من ناحية أخرى.

ولذلك لم تظهر أهمية هذه النقوش مما نشره عنها كل من والتر مللر والبرت جام، حتى تمكنت البعثة الفرنسية (MAFRAY) باستخدام وسائل أكثر تقدما ومن بينها عدسات مقربة قوية من نسخ هذه النقوش كاملة أو شبه كاملة ، وتمكن العالم الفرنسي كريستيان روبان من قراءتها (Robin 1981, pp. 316 - 339) ، وركز دراسته على النقش رقم (٢) . الذى ألقى ضوءاً جديداً على التقاويم اليمنية، كما غير من تواريخ حكم بعض ملوك سبأ وحمير التى كانت شائعة بين علماء الدراسات اليمينة القديمة .

لقد كان جبل المعسال يقع فى نطاق عاصمة قبيلة بنى معاهر التى تدعى فى النقوش « وعلان » وهذه القبيلة قتبانية الأصل أى كانت تخضع فى أول الأمر لدولة قتبان ثم خضعت لدولة حضر موت عندما اسقطت هذه الدولة دولة قتبان . ثم ما لبثت قبيلة بنى معاهر أن خضعت لدولة حمير عندما غزا ملوك حمير دولة حضر موت . وهكذا كانت قبيلة بنى معاهر وعاصمتها وعلان فى مركز الصراع بين هذه الدول الثلاث الذى انتهى بسيادة دولة حمير والتى ما لبثت أن اسقطت دولة سبأ وسيطرت على اليمن كله . وكان ذلك فى عصر الملكين الحميريين ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش . وقد أرخت النقوش التى تروى هذه الأحداث لسنوات ٣٨٥، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ولم يكن معلوماً قبل قراءة نقش المعسال رقم (٢) مدلول هذه الأرقام على وجه التحديد وأن كان بعض العلماء قد رجح أن تكون هذه التواريخ محسوبة ابتداء من عام ١١٥ ق. م. كما قلنا، ولكن ذلك كان فى عداد الاحتمالات ويحتاج إلى دليل من النقوش حتى جاء هذا الدليل بشكل حاسم فى نص من النقش المذكور كما يلى :

القراءة : ب و ر خ ن / ذ م ذ ر أ ن / ذ ل ت س ع ت / و س ب ع هـ ى/

الترجمة : فى شهر ذومذر أن (يولية) من (سنة) تسع وسبعين .

القراءة: و م آ ت/ خ ر/ ى ف ت م / ب ن / خ ر ف / آ ب ع ل ى / ب ن/

الترجمة : ومائة (من) التقويم (حرفيا : سنوات) (الخاص) بزمن ابعلى بن ...

القراءة:/و ت خ ر ف/ ح م ى ر م/ ذ ل ث ل ث ت/ و س ث هـ ى/و ث ل ث

الترجمة : ... (الموافق فى) التقويم الحميرى (سنة) ثلاثة وستين وثلاث

القراءة : م آ ت م / ب ن / خ ر ف / م ب ح ض / ب ن / آ ب ح ض

الترجمة : مائة من تقويم (حرفياً : سنة) مبحض بن أبحض .

والواضح من هذا النص أنه حل مشكلة التعرف على تقويم « مبحض بن أبحض » وإثبات أنه هو نفسه التقويم الحميرى المستخدم فى نقوش العصور التالية، وبذلك ثبتت آراء كل من بيستون وريكما نزالتى ذكرناها والتى كانت قبل ذلك مجرد افتراضات . ولتفسير اختفاء اسم « مبحض بن أبحض » كأسم للتقويم من هذه النقوش قال العلماء بأنه حدث بعد توحيد دولة حمير لليمن كله تحت لوائها ، فلم يعد هناك داع لذكر اسم التقويم لأنه أصبح مفهوما أنه التقويم الخاص بالدولة الحاكمة.

وكانت لمعادلة السنة ٣٦٣ من التقويم الحميرى بالسنة ١٧٩ من تقويم «ابعلى» كما ورد فى النقش المذكور نتيجتان هامتان الأولى هى التعرف على البداية النظرية لتقويم « أبعلى » وهى سنة ٦٩ ميلادية (٣٦٣ - ١٧٩ = ١٨٤ - ١١٥ ق. م. = ٦٩م) . والنتيجة الثانية هى التعرف على التواريخ

الواردة فى النقوش التى أرخت بهذا التقويم دون أن تذكر اسمه لأن كلمة «أبعلى» وردت فى هذا النقش لأول مرة فى النقوش اليمنية القديمة ، فقد تمكن العلماء من التعرف على التواريخ المدونة بهذا التقويم من مقارنة أسماء القبائل والمناطق المقترنة بهذه التواريخ باسماء القبائل والمناطق الواردة فى نقش المعسال رقم (٢) ومثال ذلك النقش المرقم RES 3958 فى مجموعة النقوش السامية الذى لم يكن مصدره الأصلى معروفاً لدى العلماء هل هو من وادى بيحان ، أم من مارب ، أم من منطقة ريدان .(RES TOME, VI, P. 12) وهو مؤرخ بسنة ١٤٤ دون ذكر اسم التقويم ، فقد ورد فى هذا النقش ما يفيد أن كاتبه « القيل » (أى أمير الحصن) « نص يهحمد » ينتمى لقبائل ردمان وخولان ومعاهر ، وأن عاصمته هى « وعلان » (التى يقع فى نطاقها جبل المعسال) . ومن الواضح أنها نفس القبائل ونفس المنطقة المذكورة فى نقش المعسال رقم (٢) الذى أمكن عن طريقه التعرف على بداية تقويم « أبعلى » وهى سنة ٦٩ ميلادية كما تقدم ، وبذلك أمكن تحديد التاريخ الميلادى المقابل لسنة ١٤٤ المؤرخ بها النقش وهى سنة ٢١٣ ميلادية . وقد استخدمت نفس الطريقة للتعرف على التاريخ الميلادى للنقوش الأخرى المؤرخة بهذا التقويم دون ذكر اسمه وهى السنوات ٧٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٩٨ ، وذلك بإضافة الرقم ٦٩ إليها فهى بذلك تعادل السنوات الميلادية ١٤١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٤١ ،٢٤٨ ، ٢٦٧ على التوالى .

وبتطبيق النتيجة التى توصل إليها العلماء من التوحيد بين التقويم الحميرى وبين تقويم « مبحض بن ابحض » أمكن تحديد السنوات الواردة من عصر الملكين « ياسر يهنعم » وابنه « شمر يهرعش » المؤرخة بتقويم مبحض بن أبحض وهى السنوات ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ المذكور معها اسم التقويم بالإضافة إلى السنة ٤٠٩ التى لم يذكر معها اسم التقويم ، بأنها تعادل التواريخ الميلادية ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٤ على التوالى .

وقد أفادت هـذه النتيجة أيضاً فى التعرف على البداية النظرية للتقويم المسمى « نبط » المذكور فى النقش رقم RES 4196 فى مجموعة النقوش السامية والمؤرخ بسنة ٣١٦ من هذا التقويم ، فمن دراسةهذا النقش تبين أن كاتبه « القيل فرعن يازل » من قبيلة « بنى ذرانح » يظهر خضوعه للملكين ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش أى أن النقش كتب أثناء اشتراك هذين الملكين فى الحكم ، ولما كانت هذه الفترة طبقاً لما سبق استخلاصه تمتد بين عامى ٣٨٥ و٤٠٩ حميرية فلا شك أن عام ٣١٦ من تقويم « نبط » يقع فى نطاق هذه الفترة التى إذا أخذنا متوسطها وهو سنة ٣٩٧ حميرية وعادلناها بسنة ٣١٦ من تقويم « نبط » فأن فرق التقويمين يكون حوالى ٨١ سنة ، وهذه النتيجة تتفق تقريباً مع رأى بيستون الذى سبق أن حدد الفرق بين التقويمين (قبل قراءة نقش المعسال رقم ٢) بمدة تتراوح بين ٧٠ و ٨٠ سنة (Beeston 1981, p. 3) وعلى هذا فأن البداية النظرية لتقويم نبط هى حوالى عام ٣٥ - ٣٤ قبل الميلاد (١١٥ - ٨١ = ٣٤)(٥) .

وكما قلنا فأن العلماء استخدموا عبارة « البداية النظرية » لإطلاقها على سنوات بداية التقاويم الثلاثة وهى ١١٥ ق. م. للتقويم الحميرى أو تقويم «مبحض بن أبحض» و ٣٤ ق. م. لتقويم « نبط » ، ٦٩ ميلادية لتقويم «ابعلى» وسبب ذلك أن هذه التقاويم لم تستخدم فعلاً فى هذه التواريخ ولكنها استخدمت بعد عدة قرون منها ، وعندما استخدمها اليمنيون فى هذا الوقت المتأخر نسبوها إلى اسماء أجداد قدماء (رؤساء قبائل أو حكام أوائل) عاشوا خلال فترات البداية هذه . ويتضح ذلك من وجود كلمة « بن » فى اسماء هذه التقاوم وهى تعنى أما « ابن » أو « من قبيلة » التى يليها اسم الأب أو القبيلة .

نتائج قراءة نقش المعسال بالنسبة لتعاصر ملوك سبأ وحمير :

أن النتائج السابقة التى توصل إليها العلماء من قراءة نقوش جبل المعسال وخاصة النقش رقم (٢) ، وأن كانت قد حلت مشكلة التعرف على ما هية وبداية

التقاويم اليمنية القديمة وتحديد المقابل الميلادى للتواريخ الواردة فى النقوش المؤرخة بها ، إلا أنها خلقت من ناحية أخرى مشكلة كبيرة هى اختلاف تواريخ حكم ملوك سبأ وحمير اختلافاً كبيراً عما كان معروفاً لدى العلماء من قبل ، فإن الذى دون النقش رقم (٢) وهو القيل « لحى عثت أوكن » أمير وعلان روى فيه أخبار انتصار سيده الملك الحميرى « كرب أيل أيفع » الذى أطلق عليه فى النقش لقب « ملك سبأ وذو ريدان » أى بإضافة كلمة « سبأ » إلى لقبه (وهذا له مغزى كبير سنتنا وله فيما بعد) - وقد روى هذا القيل انتصار مليكه الحميرى على الملك السبئى « أيل شرح يحضب » فى موقعة أطلق عليها اسم « ح ق ل ن / ذ ح ر م ت م » أى « حقل ذى حرمة » (Robin 1981, p. 323) والنقش مؤرخ كما ذكرنا بسنة ١٧٩ ابعلى وبسنة ٣٦٣ حميرية اللتان تعادلان سنة ٢٤٨ - ٢٤٩م . والدليل على صحة هذه المعلومات أن هذه المعركة نفسها ذكرت فى نقوش الملك السبئى « أيل شرح يحضب » باسم « ح ق ل / ح ر م ت م » أى « حقل حرمة » وذلك بين النقوش التى ترجع لعصر هذا الملك السبئى والتى وجدت فى معبد مأرب المسمى « محرم بلقيس » والتى نشرها العالم « البرت جام» وخاصة النقش رقم Ja578 (Jamme 1962, pp. 83 - 86) غير أن الطريف فى الأمر أن أعوان الملك السبئى « أيل شرح يحضب » الذين دونوا أخبار هذه المعركة فى النقوش المذكورة أدعوا انتصار مليكهم على الملك الحميرى الذى أطلقوا عليه لقب « ذو ريدان » فقط أى مجردا من كلمة « سبأ » بينما أطلقوا على مليكهم « ملك سبأ وذوريدان » وهذا معناه أن كل من الملكين السبئى والحميرى أضاف إلى لقبه الأصلى الذى به اسم بلاده (وهى « سبأ » بالنسبة للملك السبئى و « ريدان » بالنسبة للملك الحميرى) - اضاف اسم بلاد خصمه رمزاً لانتصاره عليه فادعى كل منهما إنه « ملك سبأ وذوريدان » وفى الوقت نفسه عندما يذكر كل منهما اسم ولقب خصمه يجرده من اسم بلاده هو ، فالملك

السبئى يدعو الملك الحميرى « كرب ايل (ايفع) ذوريدان أى بدون ذكر كلمة « سبأ » والملك الحميرى يدعو الملك السبئى «ايل شرح يحضب ملك سبأ» أى بدون ذكر عبارة « ذو ريدان » .

وهكذا تنافس الملكان فى انتحال لقب « ملك سبأ وذو ريدان » وفى تجريد كل منهما الآخر من أى ادعاء بالسيطرة على خصمه ، كما تنافسا فى ادعاء كل منهما الانتصار على الآخر فى موقعة حقل ذى حرمة .

ويهمنا من هذه المساجلات والروايات المتناقضة أن الملك السبئى « أيل شرح يحضب » وهو أيل شرح يحضب الثانى فى قوائم ملوك سبأ يميز بأخيه « يازل بين» عن أيل شرح يحضب الأول الذى يرجح أنه عاش فى القرن الأول الميلادى (Kitchen 1994, pp.11-13 & 202) وهذا الملك عاصر الملك الحميرى « كرب أيل ايفع » الوارد اسمه فى نقش المعسال رقم (٢) مقترنا بتاريخ محدد (تاريخ معركة حقل ذى حرمة) وهو ٣٦٣ حميرية (زمن مبحض بن ابحض) و١٧٩ ابعلى ، وهما التاريخان المعادلان لسنة ٢٤٨ - ٢٤٩ ميلادية وهذه النتيجة احدثت انقلاباً كبيراً فى تحديد تواريخ حكم ملوك سبأ وملوك حمير فقد ترتب عليها انتقال فترة حكم الملك السبئى « ايل شرح يحضب الثانى » من أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبالتحديد فى الفترة من ٥٠ - ٢٠ ق. م. كما كان سائداً بين المؤرخين من قبل Jamme 1962, p.391 إلى ما بين عامى ٢٤٠ - ٢٦٠ ميلادية أى بتأخير ثلاثة قرون تقريباً ، ولم يعد الملك أيل شرح يحضب الثانى هذا هو الملك الذى عاصر حملة « ايلليوس جاللوس » الرومانية ضد دولة سبأ سنة ٢٤ قبل الميلاد والذى دعاه استرابون مؤرخ الحملة «ايلزاروس» كما كان يعتقد من قبل (Jamme 1962 , p. 391) بل انتقل ذلك إلى عصر الملك السبئى المسمى « ذمار على بين » الأول (حوالى ٣٠ - ١٥ ق. م.) ولما كان اسم هذا الملك لا يحمل نطق « ايلزاروس » مثل كلمة « ايلشرح » فى اسم الملك ايلشرح يحضب ، فقد رجح العلماء أن الذى تصدى

لحملة ايلليوس جاللوس هو أخ الملك « ذمار على بين » المسمى « ايلشرح » اعتماداً على النقش رقم (RES 4085) . (Kitchen 1994, p. 204) .

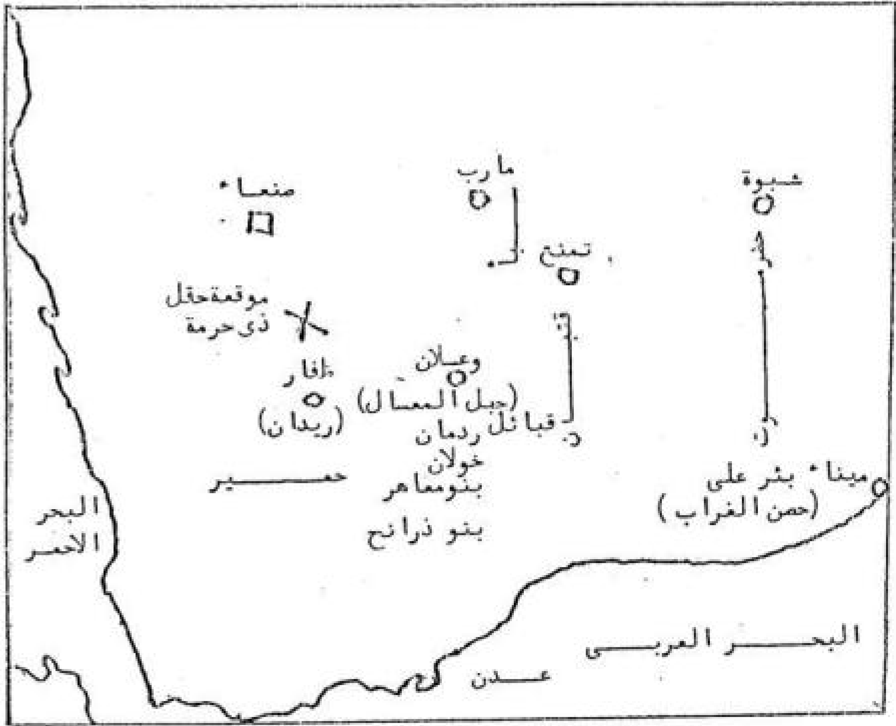
وبطبيعة الحال ترتب على هذا التأخيرلمدة ثلاثة قرون تأخير عصور ملوك سبأ الذين سبقوا الملك « أيل شرح يحضب الثانى » والذين خلفوه ، فالملوك الذين سبقوه وتعدلت تواريخ حكمهم هم :

اسم الملك	التاريخ السابق	التاريخ بعد التعديل
- وهب ايل يحوز	١٦٠ - ١٤٥ قبل الميلاد	١٥٠ - ١٦٥ بعد الميلاد
- إنمار يهأ من	١٤٥ - ١٣٠ قبل الميلاد	١٦٥ - ١٧٠ بعد الميلاد
- كرب أيل وتار يهأ من الثانى	١٣٠ - ١١٥ قبل الميلاد	١٧٠ - ١٨٥ بعد الميلاد
- يريم أيمن	١١٥ - ٨٥ قبل الميلاد	١٨٥ - ١٩٠ بعد الميلاد
- علهان نهفان	٨٥ - ٦٥ قبل الميلاد	١٩٠ - ٢٠٥ بعد الميلاد
- شاعر أوتر	٦٥ - ٥٥ قبل الميلاد	٢٠٥ - ٢٣٠ بعد الميلاد

(Kitchen 1994, p. 240) (Jamme 1962, p. 390)

ويلى ذلك اسما ملكين ، هناك خلاف بين العلماء على تحديد مكانهما من هذا التسلسل ، هما « لحى عثت يرخم » و « فرعم ينهب »(٦) ، ويأتى بعدهما الملك أيل شرح يحضب الثانى الوارد اسمه فى نقش المعسال رقم (٢) والذى تعدل تاريخ حكمه من ٥٠ - ٢٠ ق. م. إلى ٢٤٠ - ٢٦٠ م كما ذكرنا وقد خلفه ملك واحد هو « نشأ كرب يهأ من » الذى تعدل تاريخ حكمه من ٢٠ - ٥ ق.م. إلى ٢٦٠ - ٢٧٥ ميلادية وهو آخر ملوك دولة سبأ ، فقد استولت دولة حمير على سبأ فى آخر عهده أى سنة ٢٧٥ ميلادية (Kitchen 1994, p. 245) وأخيراً فقد ثبت من نقوش المعسال أن حمير لم تكن مجموعة من القبائل المتفرقة

المتناحرة كما كان سائداً بين المؤرخين من قبل بل كانت دولة قوية استطاعت أن تسقط دولة سبأ وأن تسيطر على بلاد اليمن كلها (بعد أن اسقط الملك الحميرى شمر يهرعش دولة حضر موت حوالى عام ٢٩٠ ميلادية) وأن تفرض اسمها على كل مناطق اليمن مما دعا العلماء إلى تسمية العصر الذى بدأ بالربع الأخير من القرن الثالث الميلادى بعصرالإمبراطورية الحميرية (Kitchen 1994, p. 245) .



خريطة الجزء الجنوبى الغربى من الجمهورية اليمنية لبيان الدول القديمة وعواصمها وأسماء المواقع والقبائل الواردة فى هذه البحث

الهوامش

(١) هذه الأسماء هى التى وردت فى النقوش اليمنية القديمة مقترنة بأرقام سنوات ولكن هناك عدد كبير من النقوش أتبع فيها التأريخ بأسماء حكام أو زعماء قدامى أو معاصرين لتدوين هذه النقوش ، لا تذكر فيها أرقام سنوات بل يذكر فيها اسم الحاكم أو الزعيم مقترناً بسنة تنصيبه أو ولايته التى يفهم من سياق النقش أنها السنة الأولى من هذه الولاية والمثال النموذجى لذلك هو النص السبئى التالى :

ب و ر خ / ذ أ ب هـ ى / ذ خ ر ف / و دد ا ل / ب ن / أ ب ك ر ب / ب ن / ج ذ م ت

وترجمته : فى شهر ذوابهى (الأباء) من سنة ودد ايل بن أبيكرب من (قبيلة) جذمت.

(Beeston, 1954, p. 29).

وإذا كانت فترة الولاية هى الثانية لنفس الشخص كان السبئيون يضيفون كلمة « ث ن ى » بمعنى الولاية الثانية (Beeston 1954, p.28) .

(٢) نقش حصن الغراب : حفر هذا النقش على الصخر بجوار حصن قديم يطلق عليه « حصن الغراب » يطل على الميناء الحالى المسمى « بئر على » جنوب حضر موت ، وقد دونه القائد « سميفع أشوع » الذى كان يحارب الأحباش تحت قيادة الملك المسمى فى النقوش الحميرية « يسف أسار يثأر » (Jamme 1966, p. 39) وهو المعروف فى المصادر الإسلامية باسم « يوسف ذو نواس » الذى تنسب إليه هذه المصادر حادثة حرق شهداء نجران ، التى يرى الكتاب المسلمون أنها حادثة الأخدود المشار إليها فى سورة البروج . والواضح من سياق النقش أن القائد « سميفع أشوع » لجأ مع قبيلته إلى هذا الحصن البعيد بعد هزيمة مليكه وقتله على يد الأحباش .

ومن المفارقات الغريبة بشأن هذا النقش أن بعض الباحثين العرب مازالوا حتى اليوم يفسرون نصوصه بأنها تتحدث عن النبى هود وقوم عاد مقلدين فى ذلك قسيس أنجليزى يدعى Ch. Forester ترجم هذا النقش على أساس هذا التفسير الخطأ فى كتابه المسمى The historical geography of Arabia 1844, vol. 2, p. 445 ، وكان ذلك

قبل أن يتمكن العلماء المتخصصون فى النقوش اليمنية القديمة من قراءة هذه النقوش قراءة صحيحة . ولكن بعد أن تم لهم ذلك ترجموا هذاالنقش ترجمة صحيحة وتبين أنه لا توجد علاقة بين نصوص هذا النقش وبين النبى هود وقوم عاد ، وكانت أولى هذه الترجمات الصحيحة تلك التى نشرها العالم « بريتوريوس » سنة ١٨٧٢م ثم تلاها ترجمات ودراسات متعددة آخرها هى المنشورة فى « مجموعة النقوش السامية تحت رقم ٢٦٣٣ (RES 2633) والصادرة عام ١٩٢٨م .

ورغم التكرار المتواصل للترجمة والدراسات الصحيحة لنقش حصن الغراب طوال مائة عام فما زال هؤلاء المؤلفون العرب يكررون ترجمة القس فورستر الخاطئة بأن النقش يروى أخبار النبى هود وقوم عاد . ومنهم مترجمو كتاب التاريخ الجغرافى للقرآن الصادر فى مجموعة الألف كتاب الأولى عام ١٩٥٦ ص ١٨٣ ، ومقال « اللغة والأبجديات » لمحمد سالم شحاب المنشور فى مجلة الأكليل اليمنية عدد سنة ١٩٨٨ ص ٧٥ . فهل أصحاب هذه المؤلفات ما زالوا فى عزلة عن تقدم علم قراءة النقوش اليمنية القديمة لدرجة ترديد قراءة خاطئة غير معقولة لأحد هذه النقوش صدرت منذ مائة وخمسين عاماً وصححت لمدة مائة عام ؟

(٣) استخدمنا كلمة «التقويم » كترجمة لكلمة « خ ر ف ت م » الحميرية الواردة فى نهاية هذا النقش ومعناها الأصلى « سنة » وقدمنا كلمة « التقويم » قبل رقم السنة على عكس السياق فى النص الحميرى وذلك لكى يستقيم معنى الترجمة مع لغتنا العربية وسنسير على هذا المنوال فى ترجمة باقى النقوش فى هذا البحث أى فى ترجمة هذه الكلمة وشبيهاتها مثل « ت خ ر ف » و « خ ر ف » بكلمة « تقويم » .

(٤) يذكر محمد بافقيه أن تقويم « ابعلى » هذا ظل طويلا مثار تخرصات منذ أن عثر عليه مستخدماً فى النقش رقم RES 3958 (محمد بافقيه ١٩٨٠ ، ص ١٣) وهذا غير صحيح لأن النقش المذكور فضلا عن خلوه من اسم التقويم (ابعلى) فأن العلماء لم ينتبهوا إلى أنه مورخ بهذا التقويم لأن اسمه وقت ترجمة هذا النقش لم يكن معروفاً لديهم كما ذكرنا سابقا ، بدليل أن العالم « رودوكاناكس » الذى ترجم هذا النقش فى

مجموعة النقوش السامية (RES) اعتقد أنه التقويم الحميرى الذى يبدأ بسنة ١١٥ ق.م. فعادل سنة ١٤٤ المؤرخ بها النقش المذكور بسنة ٢٩ ميلادية (١٤٤ - ١١٥ = ٢٩).

(٥) يعتبر روبان وفقيه أن هذا التاريخ وهو ٣٥ - ٣٤ قبل الميلاد يزيد أو ينقص بمقدار ١٥ عاماً وذلك فى مقالهما Christian Robin & Muhammad Bafaqih, « Deux nouvelles inscriptions de Radman datant du lle siecle de I'ere chretienne » Raydan, vol.4 (1981) , p. 87.

(٦) ملوك حمير الذين عاصروا ملوك سبأ المذكورين غير واضحة أسماؤهم فى النقوش مثل وضوح ملوك سبأ ، ويفترض العلماء أنهم بدأوا بالملك الذى بدأ باسمه التأريخ وهو « مبحض بن أبحض » وذلك فى سنة ١١٥ ق. م. ثم تلاه أربعة حكام مجهولين حتى سنة ٢٠ ق. م. عندما ظهر فى النقوش اسم ملك يدعى « سمه على ذرح » حكم ما بين ٢٠ - ٥ ق. م. ثم ملك يدعى « ذمار على وتار يهنعم » حكم من حوالى ٥ ق. م. إلى حوالى سنة الميلاد ، وبعد ذلك خضعت حمير لحكم سبأ التى حمل ملوكها لقب « ملك سبأ وذو ريدان » إل أن بدأ ملوك حمير يظهرون ثانية فى النقوش السبئية بلقب « ذو ريدان » فقط ، وأولهم الملك « ياسر يهصدق « الذى حكم ما بين ١٤٠ - ١٤٥ ميلادية ، ثم تتوالى ملوك أغلبهم مجهولون حتى الملك » شمر يهحمد « الذى حكم ما بين ٢٣٠ - ٢٤٥ ميلادية يليه الملك كرب أيل ايفع » (٢٤٥ - ٢٦٥م) الذى حارب الملك السبئى « ايل شرح يحضب » الثانى فى موقعة حقل ذى حرمة كما جاء فى نقش المعسال رقم (٢) ، يليه الملك « ياسر يهنعم » (٢٦٥ - ٢٨٥ م) الذى اسقط مع أخيه « شمر يهرعش » دولة سبأ وبدأ بهما عصر الإمبراطورية الحميرية كما ذكرنا (Kitchen 1994, p. 244) .

المصادر والمراجع

استخدامنا فى كتابة عناوين هذه المراجع النظام الحديث المتبع فـى المؤلفـات الأوربية والأمريكية والمعروف باسم Harvard Refenences System وذلك لتميزه على النظام التقليدى السائد فى المؤلفات العربية بمرونته وعدم اهدار وقـت وجهـد القارئ فى تقليب الصفحات من آن لآخر للتعرف على المراجع .

المراجع العربية :

- محمد بافقية ١٩٨٠ : محمد عبد القادر بافقيه « أهمية جبل المعسال » ، حوليـة ريدان لوفـان (بلجيكـا) العـدد الثـالث ١٩٨٠ ص١٠ - ٢٨ (Raydan Louvain) .

المراجع الأجنبية :

- Abdel Monem 1984 : Abdel Monem A. H. Sayed « Reconsideration of the Minaean inscription of zayd il bin Zayd » PSAS, vol. 14, pp. 93 - 99.

- Albright 1958 : F. A. Albright , Zur Chronologie des Vorislamischen Arabien. Berlin.

- Beeston 1954 : A. F. L. Beeston , Epigaphic South Arabin calender and dating, London.

- Beeston 1981 : A. F. L. Beeston, « Old South Arabian Era dating , PSAS, vol, 11, pp. 1 - 6.

- Jamme 1962 : A. Jamme, Sabaean inscriptions from Mahram Bilqis, Baltimere.

- Jamme 1966 : A. Jamme, Sabaean and hasaean inscriptions from Saodi Arabia, Rome.

- Jamme 1976 : A. Jamme, Garnegie Museum publication no. 2 pp. 110 - 119.

- Kitchen 1994 : K. A. Kitchen, Documentation for Ancient Arabia, Part I, Liverpool.

- Muller 1973 : W. Muller , Ergebnisse der deutschen Jemen - Expedition, AFO, XXIV, p. 160 - 61.

- Robin 1981 : M. Christian Robin, « Les inscription d'Al - Micsal et la chronologie de l'Arabie Meridionale au IIIe siècle de l'ere chrétienne », AIBL pp. 315 - 339.

- Ryckmans 1943 : Gonsague Ryckmans, Chronologie Sabaenne, Paris,

Abbreviations .

- AIBL : Academie des inscriptions et Belles - Lettes, Comptes Rendus, Avril - Juin, 1981 Paris.

- AFO : Archiv fur Orient Forchung.

- MAFRAY : Mission Archéologique Française en R. A. du Yemn

- PSAS : Proceedings of the Seminar of Arabian Studies, London.

- RES : Répertoire d'Epigraphie Semitique, Paris.

مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد

حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى « رؤية نقدية »

أ. د. محمد السيد محمد عبد الغني(*)

إن الحديث عن مناطق إنتاج وتصدير الطيوب والتوابل العربية من لبان ومُرّ وطيوب وقصيعة وقرفة وغيرها ، حديث شائع فى المصادر الكلاسيكية اليونانية من هيرودوت فى القرن الخامس ق. م. حتى أجاثا رخيديس فى القرن الثانى ق. م.

ومن خلال هذا التتابع التاريخى يأتى ذكر عرب شبه الجزيرة - لا سيما عرب جنوب شبه الجزيرة العربية - فى المصادر الكلاسيكية ونحاول نحن أن نتتبع ما ذكر عنهم فى كل مرحلة بدءاً بالقرن الخامس حتى القرن الثانى ق. م. ففى القرن الخامس يركز هيرودوت على إنتاج مناطق جنوب الجزيرة لكافة أنواع الطيوب من لبان ومر وقصيعة وقرفة ولادن ، وإن لمح إلى أن القصيعة والقرفة ربما كانتا تنتجان فى بلاد أخرى (حيث تربى ديونيسوس) ويقصد بها بلاد الهند . كذلك ركز على أن غابات الطيوب كانت تحرسها ثعابين مجنحة تطرد برائحة العبهر المحروق . وذكر أن الفنيقيين كانوا يقومون بالوساطة التجارية فى نقل طيوب جنوب الجزيرة العربية إلى بقية الشعوب(١) . وفى القرن الرابع يحدد ثيوفراستوس قبائل عرب الجنوب التى تتحكم فى إنتاج وتجارة نفس أنواع الطيوب التى ذكرها هيرودوت ، مع إبراز سيادة وتفوق السبئيين على وجه الخصوص ، كما أشار إلى عدم وجود حراسة على غابات الطيوب ، مما حدا ببعض البحارة الأجانب الطامعين إلى سرقة كميات منها .كذلك ركز على الدور الهام الذى يقوم به كهنة إله الشمس فى تسيير دفة تجارة الطيوب والحصول على ثلث هذه الطيوب المباعة وتخصيصه لإله الشمس مما يوحى بنوع من الاحتكار لهذه التجارة

(*) أستاذ التاريخ اليونانى الرومانى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

من قبل المعابد . وأشار إلى حكم عرب الجنوب لبعض الجزر المجاورة المنتجة للطيوب والتوابل(٢) (ربما كان يقصد المناطق الساحلية المجاورة في شرق أفريقيا). وفي القرن الثالث ق.م. نجد إراتوسثنيس يقسم قبائل العرب الرئيسية في الجنوب ، وموقع كل منها، وعاصمة كل إقليم (معين وعاصمتها كارنا ، وسبأ وعاصمتها مأرب ، وقتبان وعاصمتها تمنا أو تمنع ، وحضر موت وعاصمتها شبوة) ، ونظام الحكم الملكي فيها ، وما تتمتع به من رفاهية وثروات . وركز على تخصيص مناطق لإنتاج طيوب بعينها ، فذكر أن قتبان تنتج اللبان في حين تنتج حضر موت المر ، وقيامهم بمقايضة هذه الطيوب - وطيوب أخرى غيرها - مع التجار(٣) . أما من القرن الثاني ق. م. فنجد أجاثار خيديس - كما أورده ديودوروس الصقلي - لا يذكر من قبائل عرب الجنوب سوى السبئيين دون سواهم (ربما كانوا يتمتعون في عصره بالسيادة على بقية عرب الجنوب كما ألمح ثيوفر استوس في القرن الرابع)، ويسهب في وصف ما لديهم من غابات الطيوب من كافة الأنواع، بأريجها الفواح على الساحل ، وفي الداخل . ويصف الثعابين الضخمة التي تحرسها مثلما ذكر هيرودوت . كما يسهب في وصف الثراء والبذخ الأسطوري الذي تمتعت به سبأ وتدفق كميات الذهب والفضة عليها من تجارة الطيوب ، واستخدامهم لتلك المعادن النفيسة في رياشهم وأدواتهم المنزلية(٤) .

هذه الكتابات المبكرة للمؤرخين الجغرافيين الكلاسيكيين اتسمت - رغم ما تحويه من معلومات قيمة عن عرب الجنوب - بسمتين قللتا نسبياً من أهمية المعلومات المستقاة عنهم : ألا وهما التعميم في بعض الأحيان ، والخلط وعدم الدقة في أحيان أخرى. فمن ناحية التعميم نجد هؤلاء الكتاب ينسبون إلى مناطق جنوب الجزيرة العربية بصفة عامة إنتاج كافة أنواع البخور والطيوب المذكورة . أما من تفادى منهم هذا الخطأ ومال إلى التحديد فإنه غالباً ما يقع في الخطأ الآخر وهو الخلط وعدم الدقة في المعلومات . وربما ذكر معلومات عكسية تماماً مثل تخصيص اراتوسثنيس - على لسان سترابون - لقتبان في إنتاج اللبان وحضر موت في إنتاج المر .

هذا التعميم أو الخلط لمناطق إنتاج وتصدير الطيوب العربية فى المصادر الكلاسيكية فى الفترة من القرن الخامس إلى القرن الثانى ق. م. بحاجة إلى دراسة متأنية للمصادر والوثائق ، للوصول إلى قدر أكبر من التحديد حول هذه الجزئية . وسيحاول الباحث فى هذا البحث القيام بهذه المهمة بخصوص إنتاج وتصدير أحد أهم طيوب مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية ، وهو اللبان . ومن حسن الحظ أن مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد تزودنا بمعارف أكثر تحديداً ودقة حول مناطق إنتاج وتصدير هذه السلعة الهامة من سلع عرب الجنوب ، ومن أبرز تلك المصادر المتاحة من الفترة المعنية كتاب « الطواف حول البحر الاريترى » لمؤلف مجهول ، وهو على الأرجح أحد تجار أو ملاحى الإسكندرية فى مصر فى القرن الأول الميلادى ، ممن كانوا يجوبون البحار الشرقية فى جنوب بلاد العرب وشرق أفريقيا وبلاد الهند . وأراد من كتابه هذا أن يكون دليلاً للتجار والملاحين المصريين فى تلك المناطق . وكذلك من مصادر تلك الفترة حول هذه النقطة مقتطفات هامة من مؤلف « التاريخ الطبيعى » لبلينى الأكبر من القرن الأول كذلك . أما فى القرن الثانى فإن هناك وصفاً جغرافياً قريباً من الدقة لمناطق جنوب الجزيرة العربية يتمثل فى المواضع المعنية بتلك المنطقة من كتاب « الجغرافيا » لبطلميوس الجغرافى. لكن المشكلة الحقيقية التى يعالجها هذا البحث هى أن هناك بعض التفسيرات الحديثة غير صحيحة حينا ، وغير دقيقة أحياناً ، أوردها بعض الباحثين ممن أدلوا بدلوهم فى الموضوع ، مما أدى إلى فهم غير دقيق لبعض محتويات هذه المصادر فى هذا الشأن . لذا سيحاول الباحث فى الصفحات التالية أن يورد تلك الفقرات والمقتطفات الجدلية الخلافية من المصادر المذكورة أعلاه ، وتلك التفسيرات الحديثة لها من قبل بعض العلماء والباحثين الذين لا يتفق الباحث مع تفسيراتهم ويعتبرها غير صحيحة أو غير دقيقة . وأخيراً آراء وتفسيرات الباحث نفسه التى يعتبرها أكثر دقة وأقرب إلى الصواب ، وتبريرات ذلك . ثم يدعم الباحث تفسيراته بمجموعة من النقوش بالخط المسند حول إقامة مدينة تدعى « سمهارام » لتصدير لبان منطقة ساكلان فى جنوب الجزيرة العربية فى عمان الحالية (من القرن الأول

ق. م.) ليثبت أن « سمارام » فى نقوش الخط المسند هى « موسخا » التى ورد ذكرها عند « الطواف » و « بطليموس الجغرافى » ، وأن ساكلان فى نقوش المسند هى منطقة « ساخاليتيس » فى المصدرين المذكورين المكتوبين باليونانية من فترة لاحقة فى القرنين الأول والثانى للميلاد .

والأن لنبدأ فى ذكر ما ورد فى المصادر المكتوبة باليونانية حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى فى مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية :

ففى مؤلف « الطواف » يرد ما يلى :

- على بعد نحو ألفى ستاديون إلى الشرق من ميناء العربية السعيدة (عدن) « يقع ميناء تجارى آخر على الساحل (الجنوبى للجزيرة العربية) هو كانى (قانا) وهو يتبع مملكة إلياذوس الأرض المنتجة للبان ... وفيما وراء « كانى » تقع العاصمة ساوباثا (شبوة) فى الداخل ، وهى مقر إقامة الملك كذلك . وكل ما ينتج فى المنطقة من لبان يؤتى به إليها حيث كانت بمثابة مستودع ، وذلك عن طريق الإبل والقوارب المحلية الصغيرة المصنوعة من الأكياس الجلدية والسفن(٥) .

- وبعد « كانى » تنحسر أرض الشاطئ أكثر فأكثر ، يلى ذلك خليج عميق جداً يمتد لمسافة طويلة يسمى خليج ساخاليتيس وأرض اللبان ، وهى منطقة جبلية وعرةهواؤها ثقيل وضبابية أسفل الأشجار المنتجة للبان . ولكن الأشجار المنتجة للبان هنا ليست ضخمة ولا مرتفعة وهى تفرز اللبان الذى يتجمد على لحائها كما هى الحال بالنسبة لبعض الأشجار لدينا فى مصر التى تفرز الصمغ . ويقوم على جمع اللبان عبيد ملكيون وسجناء أرسلوا لقضاء فترة عقوبة(٦) .

- ويقع على هذا الخليج مرتفع هائل وجهته نحو الشرق ويسمى سياجروس (رأس فرتك) به قلعة لحماية المنطقة وميناء ومستودع لتخزين اللبان(٧) .... إلخ .

وبعد سياجروس مباشرة يوجد خليج ممتد ينبعج بعمق نحو الساحل . وتقع عمان على مسافة ستمائة ستاديون من طرف هذه الخليج ، وبعدها جبال شاهقة صخرية شديدة الانحدار ، حيث يعيش أناس فى كهوف لمسافة خمسمائة ستاديون أخرى . وبعد هذه الأماكن يوجد ميناء مخصص لشحن لبان منطقة ساخاليتيس يسمى ميناء موسخا (خور رورى / على الساحل العمانى) ... وفى مقابل الأقمشة القطنية والحبوب والزيت كان هؤلاء التجار يأخذون من الوكلاء الملكيين لبانا من تشكيلة كلها من منطقة ساخاليتيس »(٨) .

أما بلينى الأكبر فى مؤلفه « التاريخ الطبيعى » فيذكر أنه لم يكن هناك من ينتج اللبان باستثناء العربية (يقصد جنوب الجزيرة العربية) وأن اللبان لم يكن ينمو فى كل مناطقها بل فى الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة تقريباً حيث تقع مملكة تسمى Astramitae تابعة (لنفوذ) السبئيين . وعاصمة هذه المملكة هى سابوتا التى تقع على جبل مرتفع ؛ وعلى بعد ثمانية أيام من العاصمة تقع المنطقة المنتجة للبان فى هذه المملكة وتسمى ساريبا ، وهو اسم يعنى بالنسبة للإغريق « السر الغامض »(٩) .

(واضح أن المملكة المقصودة التى تقع فيها مناطق إنتاج اللبان هى «حضرموت» وأن عاصمتها سابوتا هى « شبوة » وأن المنطقة المنتجة للبان هناك والتى يسميها ساديا تقع شرقى حضر موت فى الأغلب) .

وفى فقرة أخرى يذكر بلينى أنه ليس هناك من بين العرب بخلاف هؤلاء (يقصد الحضارمة) من وقع بصره على شجرة اللبان . ولا يسرى هذا القول على كل (الحضارمة) بل أن عدداً لا يزيد على ثلاثة آلاف أسرة احتفظوا لأنفسهم بهذا الحق الوراثى (زراعة أشجار اللبان ورعايتها وجمع المحصول) . ولذلك كان يطلق عليهم المباركون . وهؤلاء لا يسمح لهم بتدنيس أنفسهم

بجماع النساء أو (السير) فى الجنازات ، عندما يكونون مشغولين بحز وشق تلك الأشجار للحصول على اللبان ، مما يؤدى إلى ارتفاع أسعار اللبان لارتباطها بمفاهيم دينية(١٠) .

وفى موضع آخر يقول بلينى أنه بعد جمع اللبان كان ينقل بالجمال إلى سابوتا (شبوة) وتفتح لذلك إحدى بوابات المدينة . وكان الجنوح عن هذا الطريق (من قبل أصحاب الجمال المحملة باللبان) يعد جريمة كبرى فى عرف الملوك . وهناك (فى شبوة) كان الكهنة يأخذون عشوراً (ضرائب صغيرة) لإله يسمونه سابيس - وهى ضرائب تقدر بالمعيار وليس بالوزن ولا يسمح بعرض البخور فى السوق قبل أداء هذه الضريبة(١١) .

* * *

لنحاول الآن أن نستخلص من المعلومات السابقة الواردة فى المصدرين الطواف وبلينى الأكبر - بعض النتائج المحققة حول مناطق إنتاج اللبان وتخزينه واحتكاره ومناطق توزيعه وتصديره .

يتضح من حديث المصدرين حول إنتاج اللبان أن المنطقة الرئيسية لإنتاج اللبان هى مملكة حضر موت التى كانت عاصمتها شبوة (سيرد الحديث عن امتداد ومناطق نفوذ هذه المملكة نحو الشرق لاحقاً فى هذا الجزء) وأن أقرب منفذ للتصدير البحرى للبان لشبوة هى كانى أو قانا (حصن الغراب حسب تفسير كاسون للطواف) . ويذكر فى « الطواف » أن ملك هذه المملكة (حضر موت) يسمى إليازوس (على الأرجح « العز » ، كما سنرى لاحقاً) . ويتفق المصدران على أن كل لبان المنطقة (المملكة الحضرمية) كان يجمع فى منطقة معينة من المملكة بعد جمع المحصول من على أشجاره . وهذه المنطقة ذكرها بلينى صراحة على أنها العاصمة شبوة (سابوتا) التى كان المحصول ينقل إليها بالجمال، بل زاد من درجة اليقين حول هذه النقطة حين أورد أن ملوك حضر موت كانوا

يعدون أى انحراف عن هذا الطريق (المؤدى لشبوة) من جانب أصحاب الجمال المحملة باللبان جريمة كبرى . أما مؤلف كتاب « الطواف » فيفهم من حديثه أيضاً أن كل محصول اللبان من مملكة إليازوس (حضر موت) كان يذهب إلى ساوباثا (شبوة) العاصمة ، ولكن صياغة العبارة فى « الطواف » جعلت ليونيل كاسون - فى ترجمته للفقرة ٢٧ من الطواف وتعليقه عليها ص ١٦٢ ، ومن قبل فان بيك ، يرون أن منطقة تجميع محصول اللبان هى ميناء كانى(١٢) . (حصن الغراب) ، وهذا خطأ .

فبالإضافة إلى وضوح ومباشرة نص بلينى بخصوص شبوة - كما أسلفنا - فإن الأرجح والأقرب للمنطق أن مؤلف « الطواف » كان يقصدها كذلك فى نصه ، ولنعد إلى النص لنتأكد من مدى دقة هذا الترجيح . فى هذه الفقرة ٢٧ من الطواف يرد الحديث عن ميناء « كانى » الذى يتبع مملكة إليازوس (حضر موت) أرض اللبان ، ويذكر جزيرتين قاحلتين قريبتين من هذا الميناء هما جزيرة الطيور (سيخا) وترويلاس (براقة) الواقعة على بعد مائة وعشرين ستأديون من «كانى» ثم يورد ما يلى :

« وفيما وراءها (يقصد كانى) تقع العاصمة ساوباثا (شبوة) فى الداخل (أى بعيداً عن الساحل) والتى هى كذلك مقر إقامة الملك . وكل ما ينتج فى المنطقة (مملكة إليازوس) (حضر موت) من اللبان يؤتى به إليها (واضح أنه يقصد ساوباثا أى شبوة) إذ كانت بمثابة مستودع ، عن طريق الإبل والقوارب المحلية المصنوعة من الأكياس الجلدية وعن طريق السفن »(١٣) .

إن تفسير كاسون وفان بيك بأن كل محصول اللبان كان ينقل إلى «كانى» غير مقبول للأسباب الآتية :

(أ) أن نص الطواف واضح الدلالة فى إشارته إلى ساوباثا (شبوة) وليس إلى كانى (حصن الغراب) .

(ب) من غير المنطقى أن ينقل « كل ما تنتجه المنطقة (المملكـة) مـن لبـان » إلى ميناء واحد هو « كانى » دون بقية الموانىء والمستودعات الساحلية الأخـرى فى مملكـة حضـر مـوت مثـل سياجروس (رأس فرتـك) وموسـخا (خـور رورى) . كان يمكن أن يكون تفسير كاسون مقبولاً لو أن المحصول المنقـول كان محصول المنطقة القريبة من كانى (أى محصول جزء من المملكـة) ، أمـا حين يتعلق الأمر بمحصول المملكـة كلهـا فـالأقرب إلى المنطـق أن يذهـب إلى عاصمة المملكة فى شبوة حيث يقيم الملك ، لا سيما فى حالة وجود احتكـار ملكى للسلعة وهو ما تشير القرائن إلى أنه كان موجوداً(١٤) .

(جـ) قد يثور اعتراض على أن مكان تجميع محصول اللبان هو شبوة ، من جهـة أن وسيلة نقل هذا اللبـان كـانت الجمـال والقـوارب الصغـيرة والسـفن ، وهـى وسائل نقل إلى ميناء وليس إلى مكان داخلى مثل شبوة .

وللرد على هذا الاعتراض الأخير نقول أنه إذا صح كلام بلينى من أن شـبوة تبعد مسافة ثمانية أيام عن (أقرب - فيما أتصور) مناطق إنتاج اللبان (إلى الشرق والجنوب الشرقى كما سيتضح) فمعنى هذا أن مناطق إنتاج اللبان (الممتدة لمسافة كبيرة نحو الشرق عل خليج ساخاليتيس الذى سنتحدث عنه لاحقـاً ، وعـن مـدى امتداده والذى ورد ذكره فى فقرات الطواف المقتبسة أعلاه) كانت تبعد مسافات كبيرة عن شبوة كان أقلها حوالى ثمانية أيام . هذا ربما يعنى أن الجمال كانت تنقل اللبان من مناطق إنتاجه القريبة نسـبياً بطريـق الـبر إلى شبوة مباشـرة . أمـا منـاطق الإنتاج الأبعد نسبياً فربما كان لبانها ينقل بـالبحر بـالقوارب الصغـيرة أو السـفن (حسب المسافة) من أقرب نقطة لمناطق الإنتاج على السـاحل الحضرمـى (سـاحل مملكة حضر موت) إلى أقرب نقطة ساحلية على هذا الشاطىء إلى العاصمة شـبوة فى الداخل . هذه النقطة السـاحلية الأقرب إلى شبوة (فى مملكة حضر موت) هى بالتأكيد ميناء كانى (حصن الغراب) الذى كانت تنتقل إليه حمولات اللبـان مـن مناطق الإنتاج . لكن « كانى » لم تكن - فى هذه الحالـة - المحطـة النهائيـة التـى

يقطعها محصول اللبان على القوارب والسفن ، بل كانت المحطة قبل الأخيرة ، إذ كانت الجمال تنقل اللبان الذى تم تفريغه فى « كانى » من الأخيرة إلى شبوة حيث المستودعات الملكية هناك .

هذا التفسير يتفق وما ورد عند بلينى من أن اللبان كان ينقل بالجمال إلى شبوة وأن إحدى بوابات المدينة كانت تفتح لهذا الغرض . وكانت هذه الجمال تنقل اللبان إما من مناطق الإنتاج إلى شبوة مباشرة أو من « كانى » - حيث اللبان الذى أتى إليها بالبحر كما أوضحت - إلى شبوة . وبعد وصول المحصول كله إلى شبوة حيث المستودعات الملكية والموظفون الملكيون المنوط بهم مسألة إدارة الاحتكار الملكى يبدو أنه كان يتم حصر كميات محصول اللبان ومنح حصتها (عشورها) من اللبان التى أشار إليها بلينى ، وبعد ذلك ربما كان المحصول يوزع بطريقة مركزية ومحسوبة من المستودعات الملكية المركزية فى شبوة إلى منافذ وموانئ بيعه وتصديره البرية والبحرية .

وإذا كان بلينى قد أوجز فيما يتصل بمناطق إنتاج اللبان فذكر أنها تبعد مسافة ثمانية أيام من شبوة ، وأن ثلاثة آلاف عائلة قد تخصصت بصورة وراثية فى حصاد أشجار اللبان والعمل فيها وأطلق عليهم المباركون ، فإن « الطواف » قد افاض نسبياً فى الحديث عن مناطق الإنتاج وظروفه وموانئ التخزين والتصدير ، كما رأينا فى الفقرات المقتبسة عنه أعلاه . فقد ذكر هذا المؤلف معلومات عن «خليج ساخاليتيس الذى هو أرض اللبان وعن ميناء ومستودع سياجروس (رأس فرتك) حيث يخزن لبان هذه المنطقة ، وبعدها بحوالى ألف ومائة ستاديون(*) (فى نهاية « خليج عمان » كما أسماه الطواف أو « خليج القمر » الحالى شرق رأس فرتك) يوجد ميناء موسخا (خور رورى قرب صلالة على ساحل ظفار غرب

(*) الـ « ستاديون » وحدة إغريقية قديمة من وحدات قياس الطول تبلغ حوالى ٦٠٧ قدماً انجليزياً أى أقل قليلاً من مائتى متر أو ثمن ميل أو خمس كيلو متر .

سلطنة عمان) حيث يتم تصدير وتجارة لبان منطقة الساخاليتيس ، بالإضافة إلى ميناء كانى (حصن الغراب) المقابل لشبوة على الساحل الحضرمى الغربى والذى سبق الحديث عنه .

ونأتى الآن للحديث عن « خليج ساخاليتيس » هذا كما ورد عند «الطواف» الذى حدد بدايته من جهة الغرب بأنه ذلك الخليج العميق الذى يعقب أرض الشاطىء المنحسرة بعد ميناء « كانى » (ربما بدءاً من المكلا الحالية على الساحل فى وادى حضر موت) ، ثم يحدد مؤلف « الطواف » - بصفته تاجر وملاحاً - أهم المعالم التجارية على ساحل هذا الخليج الطويل الممتد επὶ πολὺ παρεκτείνων .

فيذكر سياجروس (رأس فرتك) بصفتها مرتفع هائل على هذا الخليج به قلعة لحماية المنطقة وميناء ومستودع لتخزين اللبان ، وبعدها يذكر خليجاً عميقاً منبعجاً فى الساحل هو خليج عمان - حسب تسمية الطواف - تبلغ المسافة بين طرفيه ستمائة ستاديون (خليج القمر الحالى) ومن بعده بخمسمائة ستاديون أخرى (ألف ومائة ستاديون من رأس فرتك) « يوجد ميناء مخصص لشحن لبان منطقة ساخاليتيس ويطلق عليه ميناء موسخا » . وفيما وراء هذا الميناء لمسافة ألف وخمسمائة ستاديون أخرى تقع (فى الداخل) سلسلة جبلية تمتد (نحو الشرق) حتى منطقة تسمى أسيخون يقابلها على الشاطئ سبع جزر يسميها جزر زنوبيوس (جزر كوريا موريا الحالية) وبعدها تمتد بلد أخرى أجنبية لا تنتمى لنفس المملكة أى مملكة إليازوس (حضر موت) بل تنتمى لبلاد الفرس(١٥) .

معنى الكلام السابق أن أقصى الحدود الشرقية لمملكة حضر موت - حسب وصف الطواف - كان المنطقة الداخلية المقابلة لجزر كوريا موريا فى سلطنة عمان الحالية ، وأن منطقة الساخاليتيس كانت تمتد من شرق كانى (حصن الغراب) نحو الشرق حتى ميناء موسخا - على الأقل - الذى كان لبان هذه المنطقة يشحن منه(١٦) ، رغم تسمى المنطقة الساحلية الواقعة قبل « موسخا » بمسمى محلى هو

« خليج عمان » ، بل ربما كانت منطقة الساخاليتيس تمتد أكثر من موسخا (خور روری) نحو الشرق حتى نهاية حدود مملكة اليازوس (مملكة حضر موت) على الساحل وفي الداخل قبالة جزر كوريا موريا .

ولكن يرى بعض العلماء أن بطلميوس الجغرافي والفلكي السكندري من القرن الثاني الميلادى قد حدد منطقة ساخاليتيس - أرض اللبان - بانها تقع إلى الشرق من سياجروس (رأس فرتك) على العكس من جغرافي سابق له هو مارينوس الذى يرى أن هذه المنطقة تقع إلى الغرب من رأس فرتك(١٧) ، وعلى العكس كذلك من فهم البعض الخاطىء للتحديد الجغرافي للمنطقة من قبل مؤلف « الطواف » على أنها تمتد من شرق « كانى » (حصن الغراب) حتى سياجروس (رأس فرتك) أى إلى الغرب من سياجروس كما وصفها مارينوس(١٨) .

والواقع أن بطلميوس الجغرافي لم يحدد منطقة « الساخاليتيس » بأنها تقع إلى الشرق من سياجروس كما فسره أو فهمه هؤلاء العلماء بطريق الخطأ ، بل أن وصفه الجغرافي لهذه المنطقة يكاد يتطابق مع التحديد الذى أوردناه قبل قليل عند مؤلف « الطواف » . ولكن العلماء الذين قالوا بوجود تناقض واختلاف بين تحديد المصدرين للمنطقة ، لم يقرأوا وصف بطلميوس القراءة الدقيقة والصحيحة فيما اعتقد . صحيح أن بطلميوس صنف مناطق « أرض حضر موت » من الغرب إلى الشرق وجعلها تبدأ بمنطقة تسمى « مدينة أبيسما Ηβισμα πόλις » وتنتهى في الشرق بـ « رأس سياجروس εύαγρος ακρα » ، ثم بدأ الفقرة التالية بعد نهاية هذه الفقرة مباشرة - أى بعد الحديث عن « رأس سياجروس » - بالحديث عن إقليم « الساخاليتيين » في فقرة مستقلة تحدث فيها عن مواقع هذا الإقليم . ومن هنا ربما حدث الخلط الذى ذهب إليه العلماء المشار إليهم فذكروا أن بطلميوس قد أوضح صراحة أن « الساخاليتيس » تقع بعد « سياجروس » .

لكن بنظرة أعمق قليلاً إلى نص بطلميوس ندرك أن الأمر لم يكن كما ذهب هؤلاء العلماء إلى فهمه :

ففي حديث بطلميوس عن « أرض حضر موت » يجعل أول مناطقها من الغرب وهى « مدينة ايبيسما » تقع على خط طول هو ٨٢ وخط عرض ١١ ٣/٤ ، وآخر هذه المناطق وهى « سياجروس » فى الشرق على خط طول ٩٠ وخط عرض ١٤ . أما مواقع إقليم « الساخاليتين » فتبدأ من الغرب بموقع يسمى « قرية ميتاكون » على خط طول ٨٨ وخط عرض ١٦ ١/٢ ، وتنتهى فى الشرق بموقع يسمى « مرتفع كورودابون » الذى يقع على خط طول ٩٣ وخط عرض ٢٠ ١/٤ (١٩)(*) .

من هذا التصنيف أعلاه يتضح أن بطلميوس قد أورد أقليم « ساخاليتيس » بعد مواقع « أرض حضر موت » وآخرها سياجروس كنوع من الترتيب الوصفى لمادته ، وليس بحسب الموقع الجغرافى المحدد بخطوط الطول والعرض . فمن خلال ملاحظتنا لمواقع « أرض حضر موت » والواقعة بين خطى طول ٨٢ ، ٩٠ وخطى عرض ١١ ٣/٤ ، ١٤ ، ومواقع « الساخاليتين » الواقعة بين خطى طول ٨٨ (أو بالأحرى ٨٧ ١/٣ ، حيث أورد بعد الموقع الأول موقعين آخرين على خطى طول ٨٧ ١/٣ ، ٨٧ ١/٢) ، ٩٣ وبين خطى عرض ١٦ ١/٢ ، ٢٠ ١/٤ ، ندرك أن بطلميوس أورد تحت الفقرة المعنونة مواقع « أرض حضر موت » المواقع الساحلية « الجنوبية » من مملكة حضر موت ، ثم تلاها بمواقع « الساخاليتين » وهى المواقع الداخلية (الشمالية) من المملكة وخصوصاً منها المناطق الداخلية المقابلة لخليج « الساخاليتيس » كما ورد عند « الطواف » وهى (أى المناطق الداخلية) ما أسماه بطلميوس هذه المرة باسم الساخاليتيس .

(*) هذا التحديد بخطوط الطول والعرض هو حسب رؤية بطلميوس الفلكى والجغرافى حسب معايير عصره طبعاً ، وليست خطوط الطول والعرض الحالية .

ولمزيد من تأكيد هذا الترجيح فإننا نجد أن ميناء « كانى » يقع عند بطلميوس على خط طول ٨٤ (على الساحل الحضرمى) فى حين يبدأ أول موقع من منطقة « الساخاليتين » عند خط طول $\frac{1}{3}$٨٧ ، (لكن فى المنطقة الداخلية من حضر موت) وآخر مواقعها يقع على خط طول ٩٣ (وهى منطقة طويلة وممتدة) ومعنى ذلك أن كلا من « الطواف » و « بطلميوس » قد جعلا منطقة « الساخاليتيس » تمتد من شرق ميناء « كانى » (حصن الغراب) حتى آخر حدود مملكة حضر موت فى الجزء المقابل لجزر زنوبيوس (كوريا موريا) التى تبدأ بعدها منطقة أجنبية تابعة للفرس . الفارق ببساطة هو أن « الطواف » أطلق مسمى « الساخاليتيس » على الجزء الساحلى من هذه المنطقة - بصفته تاجراً وملاحاً يتعامل مع الموانئ والمناطق الساحلية - ولذلك اسمى هذا الامتداد الكبير «خليج ساخاليتيس» ، أما بطلميوس فقد أطلق مسمى أرض « الساخاليتيس » على « المناطق الداخلية » لنفس هذا الامتداد السابق وهى المناطق المنتجة للبان فى مملكة حضر موت . والأصح - فى تقديرى - هو تحديد بطلميوس الجغرافى ، بمعنى أن المناطق الداخلية المنتجة للبان فى مملكة حضر موت حسب الامتداد الذى ذكره بطلميوس هى التى كانت تسمى فى الأصل « أرض الساخليتيس » ثم صارت المنطقة الساحلية المقابلة لها تسمى باسم المنطقة الداخلية ، أى « خليج الساخاليتيس » إجمالاً حتى وإن اكتسبت مناطق منه مسميات محلية كخليج عمان مثلاً .

هذا التفسير - خصوصاً لوصف بطلميوس الجغرافى - يفسر عبارة وردت فى الكتاب الأول لبطلميوس يقول فيها « إن مارينوس حدد خليج ساخاليتيس بأنه يقع على الساحل الغربى من رأس سياجروس ، ولكن كل من يبحرون فى هذه البقاع يجمعون معى أنه (يمتد) إلى الشرق من سياجروس وأن الساخاليتيس منطقة عربية ومنها اكتسب خليج ساخاليتيس اسمه(٢٠) . (الكتاب الأول - فقرة ١٧). اعتقد أنه فى ضوء الوصف الجغرافى التفصيلى لبطلميوس لمنطقتى « أرض حضر موت » Αδραμιτων χωρας ثم منطقة « الساخاليتين » Σαχαλιτων (فى

الكتاب السادس - الجزء السابع - فقرتي ١٠ ، ١١) فإن بطلميوس يعني في فقرته السابقة أن خليج الساخاليتيس لا ينتهي شرقاً عند رأس سياجروس وبالتالي لا يقع غربها فقط ، بل يمتد كذلك إلى الشرق من هذه النقطة بإجماع من أبحروا في تلك البقاع ، أي أنه لم يقصد القول أنه يقع إلى الشرق - فقط - من رأس سياجروس .

لكن ما تزال هناك مشكلة في وصف بطلميوس للمنطقة الساحلية من «أرض حضر موت» وهي أنه جعلَ « سياجروس » (التي حدد معظم العلماء موقعها بـ « رأس فرتك ») نقطة النهاية للساحل الحضرمي ، في حين رأينا في «الطواف» أن آخر المواقع الهامة على هذا الساحل هي « موسخا » (خور روري) . هل معنى هذا أن بطلميوس لم يذكر « موسخا » في وصفه الجغرافي لحدود منطقة حضر موت الساحلية ؟ بلى أوردها وتحت اسم « ميناء موسخا » كما أورد قبلها « ثياللِيلا » وهي صلالة الحالية في ظفار قبل « خور روري » أو موسخا القديمة . معنى هذا أن بطلميوس قد أخطأ في تحديد موقع « سياجروس » وبدلاً من أن يجعلها قبل صلالة وموسخا جعلها تقع بعدهما . إذن فقد ذكر بطلميوس الجغرافي موانيء مملكة حضر موت على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية وهي كاني وسياجروس وموسخا ولكنه أخطأ - على الأرجح - في تحديد موقع سياجروس .

ومن الأمور الطريفة التي ألقت مزيداً من الضوء على موقع ساخاليتيس وميناء « موسخا » (خور روري) أن بعثة أمريكية تابعة للمؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان قامت في أعوام ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٢ بحفائر في موقع « خور روري » وكان من بين اكتشافاتها من هذا الموقع ستة نقوش بالخط المسند تتحدث عن تأسيس مدينة أو ميناء في منطقة « سكلان (الاسم العربي للإقليم الذي يكتب «ساخاليتيس» باليونانية كما رأينا عند الطواف وبطلميوس) .

هذه النقوش نشرتها جاكلين بيرين فى العدد الأول من « مجلة دراسات عمان » عام ١٩٧٥ (هامش رقم ٧٢) .

تتحدث هذه النقوش عن إقامة أو إنشاء مدينة تسمى « سمارام » (بمعنى «المبتغى السامى» من كلمتى سما يسمو ، ورام يرام(٢١) . أى يبتغى وينشد ، وقد وردت فى خريطة فى مقدمة كتاب الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصارى عن حفائر « الفاو » باسم « سامراء ») فى أرض «سكلان » بأوامر من الملك «العز يالوط» ملك حضر موت أصدرها إلى قائد الجيش الحضرمى ويدعى أبياتاع صالحين بن ذمر على ، وأشرف هذا الأخير على كل مراحل التنفيذ . وكتب هذه النقوش موظفون ملكيون أسندت إليهم مهام مثل تنظيم موقع المدينة الجديدة وإمدادها بالمياه (النقش الأول) وبالبناء والتشييد (النقش الثانى)، كما قام بعض المستوطنين الجدد بكتابة نقوش أخرى مثل الرابع الذى كتبه جماعة من النساجين .

وهذه النقوش تكاد تسير على وتيرة واحدة إذ يذكر كاتب النقش اسمه (أو أسماءهم لو كانوا مجموعة) ، كما يذكرون مواطنهم الأصلية التى قدموا منها إلى هذا المكان الجديد . وقد أتى معظمهم - إن لم يكن كلهم - من العاصمة «شبوة» ورحلوا عنها بأوامر ملكية لتوطين المدينة الجديدة « سمارام » . ويذكر فى نقشين من هذه النقوش (النقشين الثالث والرابع)(٢٢) . أن المستوطنين الجدد كانوا ينتمون إلى أحد بطون قبيلة حاتم فى شبوة هو بطن عميس حيث يذكر فى النقشين حرفيا أنهم من أهل (عميس ثلث حاتم ويضمون ذلك الجزء الذى اختير للتهجير) .

وهناك بعض التعليقات العامة للربط بين محتويات هذه النقوش وما ورد عند « الطواف » و« بطلميوس » . أول هذه الملاحظات هو أن مدينة « سمارام » الجديدة التى أمر الملك الحضرمى « العزيالوط » - من القرن الأول ق. م. حسب تأريخ جاكلين بيرين لهذه النقوش من خلال خطوطها - تقع فى موقع (خور

روری) أو موسخا التي وردت عند « الطـواف » ، وورد اسمهـا عنـد بطلميـوس رغم أنه لم يحدد موقعها بدقة كما رأينا أعلاه . إذن فـإن « سمـارام » هـى نفسـها «موسخا» (الأولى التسميَة العربية والثانية اليونانية القديمـة) ميناء تصدير اللبـان لمنطقة « سكلان » (سا خاليتيس) المنتجة للبان . والملاحظة الثانية هو اسم الملك الحضرمى من القرن الأول ق. م. الذى أمر بإقامة المدينة وهو « العز يالوط » ومنه يتضح أن اسم « العز » كان اسماً مألوفاً فى العائلة الملكية الحضرميـة حينـذاك ، إذ نجد فى مؤلف « الطـواف » - مـن حـوالى منتصـف القـرن الأول الميـلادى - أن مملكة حضر موت وعاصمتها شبوة مقر إقامـة الملـك الحضرمـى كـانت تعـرف بـ «مملكة إليازوس» والتى تعنى بلا شك « مملكة العز » . والملاحظـة الثالثـة هـو ان الموظفين الملكيين الذين أسندت إليهم بعض مهـام تعمير وتخطيـط المدينـة الجديـدة يصفون أنفسهم فى هـذه النقوش (النقشين الأول والثـانى) بـأنهم « عبـد العز يالوط ملك حضر موت » . هذه الإشارة فى النقوش تفسر ما سبق أن ذكـر عنـد « الطواف » من أن القائمين علـى جمـع لبـان منـاطق السـاخاليتيس (السـكلان) كانوا من العبيد الملكيين وممن أرسلوا لقضاء فترة عقوبة فى هـذه المنـاطق (الفقـرة ٢٩) . من خلال نقوش « سمارام » يبدو أن كل من كان يكلف بمهـام مـن قبـل الملك كان يعد من « عبيد الملك » كما رأينا أعـلاه ، بمعنـى أنهـم ينفـذون أوامـر الملك تنفيذاًدقيقاً وصارماً أكثر مـن دلالتهـا علـى العبوديـة بمعناهـا الحرفـى . أمـا الإشارة عند «الطواف» إلى أن بعضـاً مـن جـامعى لبـان السـاخاليتيس كـانوا ممـن يقضون فترة عقوبة هناك فربما ارتبطت من طرف خفى ببعـض الإشـارات الـواردة فى بعض نقوش « سمارام » فمن المحتمل أن يكون مؤسسو هذه المدينة الجديدة قـد هجروا قسرا من موطنهم الأصلى من بطن عميس فـى قبيلـة حـاتم فـى شـبوة ، لا سيما أن هناك كلمـات وردت فـى ختـام بعـض هـذه النقـوش - بصـورة منفـردة منفصلة عن السياق - تعبر عـن المعانـاة مثـل كلمـة « أذيـت » فـى ختـام النقـش الثالث ، وكلمة «يشقى» فى النقش الثامن .

الهوامش

(1) Herodotus, Historiae III, 97,,107-112.

(2) Theophrastus, Enquiry into Plants IX. 4.2.-6, 10.

(3) Strabo, Geography XVI.4.2-4.

(4) Diodorus Siculus, Historical Library III, 45; 47.2-3, 5-6.

(5) L. Casson, PME,27 :

ἐμπόριόν ἐστιν ἕτερον παραθαλάσσιον Κανή, Βασιλείας Ἐλεάζου, Χώρας Λιβανωτοφόρου....

πᾶς δ' ὁ γεννώμενος ἐν τῇ χώρᾳ λίβανος εἰς αὐτὴν ὥσπερ ἐκδοχεῖον εἰσάγεται καμήλοις τε καὶ σχεδίαις ἐντοπίαις δερματίναις ἐξ ἄσκων. καὶ πλοίοις.

(6) Ibid., 29 :

Μετὰ δὲ Κανή..... ἄλλος ἐκδέχεται βαθύτατος κόλπος, ἐπὶ πολὺ παρεκτείνων, ὁ λεγόμενος Σαχαλίτης, καὶ Χώρα Λιβανωτοφόρος........

ἔστιν δὲ τὰ δένδρα τὰ λιβανοφόρα οὐ μεγάλα λίαν οὐδὲ ὑψηλά.....

Μεταχειρίζεται δὲ ὁ λίβανος ὑπὸ δούλων βασιλικῶν καὶ τῶν ὑπὸ τιμωρίαν πεμπομένων.

(7) Ibid., 30 :

Τούτου δ' ἐστὶν ἀκρωτήριον τοῦ κόλπου μέγιστον, ἀποβλέπον εἰς ἀνατολήν, ὁ καλούμενος Σύαγρος, ἐφ' οὗ φρούριόν ἐστι τῆς χώρας καὶ λιμὴν καὶ ἀποθήκη τοῦ συναγομένου λιβάνου.

(8) Ibid., 32 :

....καὶ μετ' αὐτοὺς ὅρμος ἀποδεδειγμένος τοῦ Σαχαλίτου λιβάνου πρὸς ἐμβολήν, Μόσχα λιμὴν λεγόμενος....

παρὰ τῶν βασιλικῶν πρὸς ὀθόνιον καὶ σῖτον καὶ ἔλαιον λίβανον ἀντιφορτίζουσιν παρ' ὅλον δὲ τὸν Σαχαλίτην.

(9) Pliny the Elder, NH 12. 30. 51 - 52 :

Tura praeter Arabia nullis, ac ne Arabiae quidem universae. in medio eius fere sunt Astramitae, pagus Sabaeorum, capite regni Sabota in monte excelso, a quo octo mansionibus distat regio eorum turifera Sariba appellata - hoc significare Graeci mysterium dicunt .

(10) Ibid., 12. 30. 54 :

Nec praeterea Arabum alii turis arborem viderunt, ac ne horum quidem omnes, feruntque III non amplius esse familiarum quae ius per successiones id sibi vindicent, sacros vocari ob id, nec ullo congressu feminarum funerumque, cum indicant eas arbores ut metant, pollui, alque ita religione merces augeri.

(11) Ibid., 12. 32. 63 :

Tus collectum Sabotam camelis convehitur, porta ad id una patente; degredi via capital reges facere. ibi decumas deo quem vocant Sabin mensura, non pondere, sacardotescapiunt, nec ante mercari licet :

(12) Gus W. Van Beek, Art. Cit., p. 142 and note 9.

(13) L. Casson, PME, 27 :

Τρουλλάς, ἀπὸ σταδίων ἑκατὸν εἴκοσι τῆς Κανῆς, ὑπέρκειται δὲ αὐτῆς μεσόγειος ἡ μητρόπολις Σαυβαθά, ἐν ᾗ καὶ ὁ βασιλεὺς κατοικεῖ. πᾶς δ' ὁ γεννώμενος ἐν τῇ χώρᾳ λίβανος εἰς αὐτὴν ὥσπερ ἐκδοχεῖον εἰσάγεται. . . .

انظر كذلك هامش رقم ٥٩ أعلاه .

(١٤) إن ما ورد فى فقرات بلينى المقتبسة – وخاصة حول اهتمام ملوك حضر موت بضرورة نقل محصول اللبان كله إلى شبوة أولاً واعتبار عدم الامتثال لهذه الأوامر الملكية فى هذا الصدد جريمة كبرى – يشير بوضوح إلى احتكار ملكى للسلعة . كما أن ما ورد عند الطواف عن العبيد الملكيين والمسجونين الذين يقومون بجمع المحصول من غابات اللبان فى إقليم خليج « ساخاليتيس » ، وكذلك تعامل التجار مع « الوكلاء الملكيين » وحصولهم على اللبان منهم مقابل سلعهم يشير بوضوح إلى هذا الاحتكار الملكى للبان .

(15) L. Casson, PME.33 :

(15) L. Casson, PME.33 :

- Ἀπὸ δὲ Μόσχα<ς> λιμένος ἐπ' ἄλλους σταδίους ὡς χιλίους πεντακοσίους ἕως Ἀσίχωνος ἄχρι <ὄρος> τῇ γῇ παρατείνει καὶ κατὰ τὸ ἀπολῆγον αὐτοῦ μέρος ἑπτὰ νῆσοι πρόκεινται κατὰ τὸ ἑξῆς, αἱ Ζηνοβίου λεγόμεναι μεθ' ἃς ἄλλη παράκειται χώρα βάρβαρος οὐκέτι τῆς αὐτῆς βασιλείας ἀλλ, ἤδη τῆς Περσίδος.

(16) Ibid., note on 29 : 9. 22-23, pp. 165 - 66.

(17) Ibid., Van Beek, Art. Cit., p. 142 and note 10.

(18) Jacqueline Pirenne, « The Incense Port of Moscha (Khor Rori) in Dhofar », Journal of Oman Studies, vol., 1, 1975, pp. 81 - 96, p. 95.

(19) Claudius Ptolemaeus(ptolemy); Geography, 6. 7. 10 :

Ἀδραμιτῶν Χώρας

Ἤβισμα πόλις .... πβ ια 𐅵δ

ساكتفى بذكر أهم الموانى التى تعنينا على هذا الساحل ومواقعها ولن أذكر كل المواقع التى أوردها بطلميوس :

Κάνη ἐμπόριον καὶ ἄκρον .... πδ ιβ 𐅵
Θιάλληλα κώμη .... πζ ιδ
Μόσχα λιμὴν .... πη 𐅵 ιδ
Σύαγρος ἄκρα .... ϙ ιδ

ثم الفقرة التالية مباشرة عند بطلميوس (6. 7. 11) والخاصة بمواقع « الساخاليتيين »

Σαχαλιτῶν

Μέτακον κώμη .... πη ιϛ 𐅵
Ἄυσαρα πόλις .... πζ γ' ιϛ 𐅵δ
Ἄγγη κώμη .... πζ 𐅵 ιζ 𐅵

ثم ترد بعد ذلك مواقع عديدة سأذكر آخرها وهو :

Κοροδαβον .... ϙ γ κ δ

(20) J. Pirenne, loc, cit.

(21) Ibid., p. 82.

(22) Ibid., pp. 85 - 87.

الاستعراضات العسكرية عند الرسول ﷺ وأساليبها

د. عبد العزيز بن عبد الله السلومي(*)

مقدمة :

كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بداية الانطلاق لتأسيس دولة إسلامية مستقلة ، ذات نظم شتى مستمدة منهجها ودستورها مما ينزل على رسول الله ﷺ من وحي ، وبما يعمله أو يقوله أو يأمر به أو يقره عليه الصلاة والسلام ، فهو القدوة وهو المثل ، فقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى البطولات والفداء ، فساس هذه الأمة سياسة حكيمة ، وقادها إلى الرفعة والسمو وإلى العز والتمكين فى شتى المجالات .

ومن هذه المجالات ما تمتع به الرسول الله ﷺ من شخصية عسكرية متميزة أبهرت الجميع ، مما يصعب الاستطراد فيه هنا ، بل يحتاج إلى بحوث وكتب كثيرة لدراسة هذا الجانب من شخصيته عليه الصلاة والسلام .

وحيث أن موضوع البحث هو « الاستعراض العسكرى عند الرسول ﷺ وأساليبه » كأحد جوانب فنه وتعبئته واعداده لجيش الدولة الإسلامية الناشئة التى تحتاج - بالطبع - إلى جيل متميز وفريد وجديد بأسلوبه العسكرى ، كما هو جديد بانتمائه لعقيدته السليمة الصادقة ، لذا نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام ربى هذا الجيل ودربه وأشرف بشكل مباشر على تدريبه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستعرض جنده بين الحين والآخر ليتأكد من سلامتهم واقتدارهم ، كما يوجههم بالتوجيه المناسب حسب مقتضى الحال .

ومن هنا نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام أبدع فى هذا المجال ، وتفنن ونوع وجدد مما يدل على عمق شخصيته العسكرية .

(*) قسم الحضارة والنظم الإسلامية - جامعة أم القرى .

فنجده وهو فى بدر يستعرض جنده - رغم قلة عددهم - وينظمهم صفوفاً أمام عدوهم اللدود « قريش » - الذين جاءوا حسب زعمهم لمناجزة محمد والتخلص منه والقضاء عليه - فكان يحرص على الدقة فى تنظيمهم ليحقق واحداً من أهداف هذا التنظيم وهو إظهار العدد كبيراً أمام الأعداء .

أما فى أحد فنجده ينظم جيشه تنظيماً مغايراً لما سبق فى بدر ، كما أنه استعرض جنده بأسلوب مختلف ، حتى أننا نجده يعرض الغلمان الذين تسابقوا وحرصوا على الاشتراك فى الجهاد ، فكان عليه الصلاة والسلام يستعرض هؤلاء الأولاد فمن كان جديراً بالقتال وحمل السلاح أثبته ومن كان صغيراً خاف عليه ورده .

إن نظم الاستعراض فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام جاءت متنوعة بين عرض للجند أمام الرسول ﷺ إلى استعراض للجيش أمام الأعداء .

ففى غزوة خيبر عبأ جيشه وسار على تعبئته بنظام الخميس ، حتى فاجأ اليهود بهذه التعبئة فقض مضاجعهم وأوهن عزائمهم وبث الرعب فى نفوسهم .

وفى الحديبية - وكجانب من جوانب عرض قوة المسلمين أمام رسل قريش - تمت بيعة العقبة بين المسلمين وبين الرسول ﷺ بأقوى صورها وأشكالها « على الموت وعدم الفرار » ، كل ذلك على مرآى ومسمع من مندوبى قريش ، كوسيلة ضغط على أهل مكة .

أما فى غزوة الفتح ، فبعد أن أسلم أبو سفيان ، وقبل أن يرجع إلى مكة ليخبر قومه بما حدث ، أمر الرسول ﷺ عمه العباس أن يحبسه عند خطم الجبل ، حتى تمر جنود الله فيراها . وبعد أن تم العرض العسكرى أمام قائد مكة وزعيمها قبل الفتح ، رجع إليها حاملاً أكبر صورة وأبلغ أثر ليشعر قومه بأنه جاءهم أمر لا طاقة لهم به ، ولا قوة فكان ذلك درساً بليغاً حمله من خلال ذلك العرض

العسكرى المهيب وبذلك نجح الرسول ﷺ بدخول مكة بأقل خسائر ممكنة من خلال تلك الخطة المحكمة .

و لم يقتصر الاستعراض على ذلك بل تعداه إلى استعراض الخيول ، والاهتمام بها وعمل المسابقات لها نظراً لما تشكله الخيول من أهمية بالغة فى الفروسية وفى الميادين الحربية ، لذا نجد الرسول ﷺ هو الذى يتولى عرض الخيول بنفسه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الرسول ﷺ استعمل أسلوب إشعال النيران أمام الأعداء حتى يبث الرعب والوهن فى قلوب الأعداء ، ونلمس ذلك واضحاً فى كل من غزوة حمراء الأسد وفتح مكة .

وهكذا كانت أساليب الاستعراض التى عمل بها الرسول ﷺ وأمر بها أو دعى إليها متعددة ومتنوعة ، بحسب طبيعة وظروف المعركة فالرسول ﷺ هو القائد القدوة الذى كان على علم بكيفية اكتشاف طاقات أمته شيوخاً وشباناً وأحداثاً وصبياناً بل ونساءً . كما كان على دراية واسعة بأدوات العدة الجهادية من سلاح وخيل وأساليب قتالية ، مع العمل على الأفادة من هذه الطاقات وتوجيهها نحو الخير فى خدمة الدعوة ، وتحقيق فرضية الجهاد التى تميزت بها هذه الأمة لتكون أمة هداية وخير ، كل ذلك ليتأسى به قادة الإسلام فى حركاتهم الجهادية ، وتفقدهم لأساليب القتال وإعداد العدة للجهاد فى سبيل الله .

وقد سرت فى هذا البحث على جمع المادة العلمية من كتب الأحاديث النبوية وكتب المغازى والسير التى تحدثت عن غزوات الرسول ﷺ وحرصت على نقل الروايات الصحيحة والاستشهاد بها قدر المستطاع ، وإذا لم أجد شيئاً فى الصحيحين ، اعتمدت على اقوال أهل الحديث فى الحكم عليه ، كما قمت بتخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها حتى يسهل الرجوع إليها برواتها وأسانيدها، سائلا الله عز وجل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح إنه سميع مجيب.

استعراض(١) الصفوف :

من وسائل الاستعراض العسكرى الذى عمله الرسول ﷺ فى حربه مع الأعداء تنظيم الجيش الإسلامى على هيئة صفوف أمام الأعداء استجابة لدعوة الله سبحانه وتعالى للمقاتلة بنظام الصف كما جاء فى القرآن الكريم ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيا مرصوص ﴾(٢) . أورد ابن كثير قولاً لابن عباس فى معنى ذلك « أنه مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض وقال قتادة ألم تر إلى صاحب البنيان لا يحب أن يختلف بنيانه ، فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره »(٣) .

وفى بدر بالذات كان نظام الصف الذى عمله الرسول ﷺ مفاجئاً للمشركين مما كان عاملا فى إحداث خلل فى خططهم وصعوبة فى إعادة ترتيب وضعهم وكان ذلك مهما فى انتصار المسلمين على أعدائهم . ولعل فى ذلك فوائد كثيرة منها :

- ظهور جميع المقاتلين أمام القائد والتعرف عليهم واحداً واحداً .
- الايحاء للأعداء بكثرة عدد المسلمين وإظهار قوة المسلمين لبث الرعب فى قلوب أعدائهم(٤) .
- اختبار كفاءة المقاتلين وقدراتهم القتالية .
- سهولة حركة القائد بين الصفوف بشكل فيه مرونة وسرعة .
- أن القتال بالصف يصلح لأى من الظروف القتالية سواءاً كان هجوماً أو دفاعاً.
- الاستماتة والاستمرارية فى القتال لأطول فترة ممكنة .
- وجود قوة احتياطية متمثلة فى الصفوف الخلفية لمعالجة أى طوارئ غير متوقعة(٥) .

ومن هنا رغب الرسول ﷺ بذلك روى الإمام أحمد بسنده(٦) عن أبى سعيد الخدرى ﷺ عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يضحك الله إليهم :

الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » . فعمل المسلمون بذلك .

كما أن الرسول ﷺ طبقه في بدر حيث دلت على ذلك الأحداث الكثيرة وتواترت في كتب المغازي والسير . من ذلك ما رواه الإمام أحمد(٧) . بسنده عن يونس بن محمد حدثه شيبان بن عبد الرحمن عن قتاده . قال : حدثنا انس بن مالك أن أبا طلحة رضى الله عنه قال : « غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم بدر»(٨).

وأورد ابن كثير رحمه الله من رواية للترمذى عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال : « صفنا رسول الله ﷺ يوم بدر ليلاً »(٩) .

وقد أورد البيهقى بسنده(١٠) من رواية الفضل بن دكين عن حمزة بن أبى أسيد عن أبيه قال : « قال رسول الله ﷺ يوم بدر حين صفنا لقريش وصفوا لنا ، إذا أكثبوكم فارموهم بالنبل » وهو بسند صحيح حيث أورده البخارى بقوله : «إذا أكثبوكم يعنى أكثروكم فأرموهم بالنبل واستبقوا نبلكم »(١١) .

ومن ذلك أيضاً ما رواه الطبرانى(١٢) وأحمد(١٣) من رواية عبد الله بن لهيعة حدثه يزيد بن أبى حبيب أن أسلم أبا عمران التجيبى حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصارى يقول : « صففنا يوم بدر فندرت منا نادره - وفى رواية فبدرت منا بادرة - أما الصف فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال معى معى » ، قال ابن كثير رحمه الله فى هذا الحديث تفرد به أحمد وإسناده حسن(١٤) ، وقال الهيثمى رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح(١٥) .

وفى هذا المقام أيضاً ما تواتر عند أهل المغازى والسير فى قصة سواد بن غزية الأنصارى(١٦) ﷺ عندما كان الرسول ﷺ يسوى الصفوف ويعدلها يوم بدر .. فقد أورد ابن اسحاق بسنده عن حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه : « أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفى يده قدح يعدل به القوم فمر بسواد بن غزيه حليف بنى عدى بن النجار وهو مستنتل(١٧) من

الصف فطعن فى بطنه بالقدح وقال : استو يا سواد . فقال يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى- فكشف الرسول ﷺ عن بطنه فقال : استقد... وذكر تمام الحديث »(١٨) .

وأورد الهيثمى رواية عن عبد الله بن جبير الخزاعى قال : « طعن رسول الله ﷺ رجلاً فى بطنه إما بقضيب وإما بسواك . فقال : أوجعتنى فأقدنى ، فأعطاه العود الذى كان معه فقال : استقد . فقبل بطنه . ثم قال : بل أعفو لعلك أن تشفع لى بها يوم القيامة » .

قال الهيثمى أورد هذه الرواية الطبرانى ورجاله ثقات(١٩) .

إن هذه القصة لتدل دلالة واضحة على مدى الدقة والانضباط فى الاستواء بالصفوف من دون أية تقدم أو تأخر ولو حتى بجزء من الجسم كما هو واضح من قصة سواد وبروز بطنه فى الصف ، ولهذا وجد الرسول ﷺ بدًا من إشعار سواد بأهمية الاعتدال والاستواء والإلتزام بذلك ولو جاء ذلك بأسلوب التأديب كما هو الحال هنا .

ثم أن موقف سواد ﷺ وطلبه القود من الرسول القائد ﷺ وعرض الرسول ﷺ نفسه والكشف عن بطنه لسواد فى مثل هذه الظروف الحرجة بل والحالكة لتؤكد عدالة الرسول ﷺ والاستجابة من القائد لهذا الجندى فى وقت العرض لما طلبه ، حيث أنه كان يطمح ، أن يكون آخر العهد أن يمس جلده جلد رسول الله ﷺ على ما أوردته المصادر فى سياق تلك القصة .

كما أن الرسول ﷺ استعمل نظام الصف أمام الأعداء يوم أحد ، فقد روى أبو طلحة ﷺ بسند صحيح قال : « غشينا ونحن فى مصافنا يوم أحد حدث أنه كان فيمن غشيه النعاس يومئذٍ . قال فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ويسقط وآخذه ، والطائفة الأخرى . المنافقون ليس لهم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق »(٢٠) .

استعراض الغلمان لاختبار كفاءتهم القتالية :

فى غزوة أحد عندما علم رسول الله ﷺ بتعبئة المشركين لمهاجمة المسلمين بعد هزيمتهم فى غزوة بدر استشار ﷺ أصحابه فى مكان القتال ، فهناك من أشار عليه بداخل المدينة وكان عليه الصلاة والسلام يرى هذا الرأى ، وهناك من أشار عليه بالخروج عن المدينة ليجنبها ويلات الحرب وكان هذا هو الرأى الراجح ، فعندئذٍ عبأ الرسول عليه الصلاة والسلام جيشه وخرج إلى أحد ثم انسحب المنافقون بقيادة عبد الله بن أبى المنافق من جيش المسلمين . ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا سبعمائة رجل(٢١) . وقبل المعركة وضع فرقة من الرماة عليهم عبد الله ابن جبير ﷺ ووجههم إلى جبل الرماة لحماية ظهور المسلمين لئلا يلتف عليهم المشركون من الخلف(٢٢) ... كما استعرض الرسول ﷺ جيشه ، وقبل من قبل ورد من رد وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ التى تثبت أنه استعرض أبناء الصحابة الصغار واحداً واحداً ، فمن كان سنه أقل من خمس عشرة سنة رده ، ومن كان أكثر من ذلك أجازه ، ولهذا نجد أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله جعل سن الخامسة عشر الحد ما بين من يثبتهم فى عطاء المقاتلة من عطاء الذرية(٢٣) .

أورد البخارى بسنده ، حدثه نافع ، حدثه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه « ثم عرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى »(٢٤) . قال نافع : «فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثته هذا الحديث فقال : إن هذا لحد بين الصغير والكبير، وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة»(٢٥).

وقد رواه البيهقى بلفظ آخر بسنده ، من طريق محمد بن المثنى ومحمد بن بشار ، قالا حدثنا عبد الوهاب الثقفى ، حدثنا عبيدا الله عن نافع ، عن ابن عمر،

قال : « عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فاستصغرني وردني مع الغلمان ، فلما كان يوم الخندق عرضني وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني .. الحديث »(٢٦) .

وأوردت كتب السير مجموعة من الغلمان الذين استعرضهم رسول الله ﷺ بعد العصر وقبل غروب الشمس(٢٧) منهم ، عبد الله بن عمر ، وأسامه بن زيد وزيد بن ثابت ، البراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس بن قيظى ، وابن سعيد بن خيثمة ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج(٢٨) . وزاد المقريزى عليهم الأسماء التالية : النعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم ، وعمرو بن حزم، وسعد بن حبتة الأنصارى(٢٩) .

وفى أثناء العرض رد الرسول ﷺ سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة . فقيل للرسول ﷺ : إن رافعاً رام ، فأجازه رسول الله ﷺ ثم قال سمرة لقد اجزت رافعاً ورددتنى ولو صارعنى لصرعته ، قال فصارعته فصرعته فأجازنى فى البعث(٣٠) .

يقول ابن حجر : « أن عرض الجيش هنا هو اختبار لأحوالهم قبل مباشرة القتال ، للنظر فى هيئتهم وترتيب منازلهم ... »(٣١) .

أما قصة المصارعة وقت العرض فقد وردت فى كتب المحدثين ، إذ أوردها الحاكم فى المستدرك بسنده من رواية عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه ، عن سمرة ابن جندب رضى الله عنهم ... وذكر الحديث ... وقال هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه(٣٢) ، أى البخارى ومسلم .

كذلك رواه البيهقى والطبرانى أيضا(٣٣) :

ثم إن بعض المصادر أشارت إلى أن الرسول ﷺ كان يقيم مثل هذه العروض فى كل سنة ، وليس خاصاً فى غزوة من الغزوات ، فقد وردت بذلك روايات عدة، منها على سبيل المثال : ما رواه البيهقى بسنده ، أخبره أبو عبد الله

الحافظ ، حدثه أبو الحسن محمد بن الحسن ، أنبأه على بن عبد العزيز ، حدثه إبراهيم بن عبد الله الهروى ، حدثه هشيم ، حدثه عبد الحميد بن جعفر الأنصارى ، عن أبيه، عن سمرة بن جندب ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ يعرض غلمان الأنصار فى كل عام فيلحق من أدرك منهم ... الحديث »(٣٤) .

غير أن الملاحظ هنا فى نصوص هذا الحديث أن العرض فى كل عام كان خاصاً بغلمان الأنصار دون المهاجرين . لكن سبق معنا فى أحاديث صحيحة وردت عند البخارى ومسلم ما يدل على أن العرض كان حتى لأبناء المهاجرين. من ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ، ثم عرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه »(٣٥) . وعبد الله بن عمر من أبناء المهاجرين .

كذلك أورد ابن حجر حديثاً لأبى واقد الليثى ﷺ قال : « رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق »(٣٦) . هكذا مطلقاً ، ولم يحدد الراوى هل هم غلمان الأنصار ، أم غلمان الصحابة بشكل عام ، وهو الأرجح ، لثبوت الأدلة على ذلك بما سبق . ثم أن القصد من هذا العرض أمام الرسول ﷺ إنما هو لمعرفة من تكون له قدرة على القتال من هؤلاء الأبناء ، ممن لم يبلغ تلك المنزلة . فقصة رافع الذى أجازه الرسول ﷺ لأنه كان يجيد الرمى كما مر معنا آنفاً، على الرغم من وجود غلمان كانوا فى سنه ولم يجزهم الرسول ﷺ ابتداءاً لكن لأن المسألة هنا كانت مسألة قوة واقتدار على القتال ، فإن سمرة بن جندب ﷺ اعترض على ذلك وبين أنه يصرع رافعاً لو تصارع معه ، عندها وافق عليه الصلاة والسلام على المصارعة . فلما تمكن سمرة من مصارعة رافع ، أجازه الرسول عليه الصلاة والسلام . ولهذا يقول ابن حجر فى رواية أبى واقد الليثى : « أن الرسول ﷺ أجاز من أجاز ورد من رد إلى الذرارى »(٣٧) .

استعرض الجيش بنظام الخميس :

وفي غزوة خيبر نجد أن الرسول ﷺ عبأ جيشه نحو يهود خيبر مستخدماً عنصرين أساسين هما :

- عنصر المفاجأة حيث أنه صبحهم بكرة ، فما أن خرجوا إلى مزارعهم في الصباح إلا وقد فوجئوا بجيش الرسول ﷺ أمامهم . وذلك أسلوب من أساليب بث الرعب والوهن في قلوب الأعداء .

- العنصر الثاني هو استعراض جيش المسلمين للأعداء وفق تنظيم عسكرى دقيق ، وهو نظام الخميس حيث تحرك الجيش إلى خيبر بهذه التعبئة التي فاجأت اليهود وجعلتهم يفزعون منها .

وأورد البخاري بسنده من رواية محمد بن سيرين عن أنس بن مالك ﷺ قال : « صبحنا خيبر بكرة فخرج أهلها بالمساحي ، فلما بصروا بالنبي ﷺ قالوا : محمد والله ، محمد والخميس . فقال النبي ﷺ الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ... الحديث(٣٨) .

وقد أورده من طريق آخر بلفظ « أن رسول الله ﷺ آتى خيبر ليلاً وكان إذا أتى قوماً بليل لم يغز بهم حتى يصبح ، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوه قالوا : محمد والله ، محمد والخميس ... وذكر تمام الحديث »(٣٩) .

إضافة إلى ذلك فإن رسول الله ﷺ حاصر يهود خيبر ، واستمر في محاصرتهم ومحاربتهم . وكان بذلك صافا عساكره وجيوشه في ليله ونهاره ، ومحاولاً فتح خيبر وهو على تعبئته تلك . وأثناء تلك المحاولات أعلن عليه الصلاة والسلام أنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه . عندها أخذ الناس يتطاولون ويعرضون أنفسهم على رسول الله كل واحد منهم يرجو أن يكون هو ، إلى أن سأل عن على ﷺ ثم دفعها له

فتم فتح خيبر ، وقد روى أحمد(٤٠) بسنده من رواية عبد الله بن بريده أنه سمع أبا بريدة يقول : « حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر و لم يفتح له ، وأخذ من الغد عمر فانصرف و لم يفتح له ، وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد ، فقال رسول الله ﷺ : إني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يرجع حتى يفتح له، وبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غداً ، فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى الغداة ثم قام قائماً ودعا باللواء والناس على مصافهم فما منا إنسان له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون صاحب اللواء ، فدعا علي بن ابي طالب وهو أرمد فتفل في عينيه ومسح عنه ودفع إليه اللواء وفتح الله له . قال : وأنا فيمن تطاول لها »(٤١) .

استعراض قوة المسلمين عن طرق تجديد البيعة :

في مستهل ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة خرج الرسول ﷺ ومعه من المسلمين ما يقارب ألفاً وأربعمائة على ما رواه البخاري من رواية جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما(٤٢) ، لقصد العمرة وذلك إظهاراً لتعظيم المسلمين للبيت الحرام ودحضا لأقاويل المشركين من أهل مكة الذين أدعوا على المسلمين عدم احترامهم للكعبة ، حيث بدأت مثل هذه الأقاويل تنتشر عند بعض قبائل الجزيرة العربية .

وتحسباً لوقوع صدام مع قريش فقد استعد الرسول ﷺ ومن معه بالسلاح وسار الرسول عليه الصلاة والسلام متجهاً نحو مكة عبر طرق بعضها غير معتادة ، حتى وصل إلى الحديبية - بالقرب من مكة بين الحل والحرم - على أن قريش حينما علمت بمقدمه اعترضت على دخوله مكة ، فأرسل الرسول عليه الصلاة والسلام رسلاً إلى قريش يخبرهم أنه لا يريد حرب أحد وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه . ومع ذلك رفضت قريش ، وظنت أن ذلك خدشاً بمكانتها عند العرب ، فكان ذلك عاملاً من عوامل إرسال عثمان بن عفان ﷺ إلى مكة ،

علهم يستجيبوا لرغبة المسلمين . وحدث أن تـأخر عثمـان بن عفـان فـى مكـة ، وكان فى الوقت نفسه عروة بن مسعود الثقفى مفاوضاً من قبل قريش ، فكان خلال وجوده مع الرسول ﷺ شديد الملاحظة ، فهاله تقدير واحترام المسلمين للرسول ﷺ ومكانته عندهم ، ومدى فداءهم لـه فنقـل هـذه الصـورة لقريش فكان مما قال : « ... أى قوم والله . لقد وفدت على الملوك ، ووفدت علـى قيصر وكسرى والنجاشى ، والله أن رأيت مليكاً قـط يعظمـه أصحابـه ، مـا يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً ... الحديث»(٤٣).

ولما أشيع أن عثمان بن عفان ﷺ قد قتل ، دعا الرسول ﷺ أصحابه للبيعـة فهبوا إليه جميعاً ليبايعوه وتسابق المسلمون لمبايعته على القتال(٤٤) .

إن هذه الصورة من المبايعة وصلت إلى مسامع قريش ، مما جعلهـم يعيدون النظر فى أسلوبهم وتعاملهم مع هذا الحدث العظيـم ، الـذى أصبح خطـراً يقـض مضاجعهم ، فانصاعوا إلى الصلح بدلاً من إشعال الحرب التى خافوا أنها لا تكـون فى صالحهم ، لما رأوا من عزيمة المسلمين وقوتهم وثبـاتهم ومبـايعتهم للرسـول ﷺ على القتال . فكان ذلك عرضاً عسكرياً بالغاً لتحويل توجيه الحـدث وقبـول مبـدأ التفاوض مع المسلمين وتحقيق مطالبهم ولو آجـلا ، ممـا جعـل قريـش لا تقـوم لهـا قائمة بعد هذا الصلـح ، حيـث تكتفـت يداهـا ، وأصبحـت فـى حكـم المدافـع ، وانتهى دورها كمهاجم للمسلمين .

عرض كتائب المسلمين أمام الأعداء :

وإذا ما انتقلنا إلى غزوة الفتح ، أو فتح مكة نجد أن العرض العسكرى هنـاك أخذ طابعاً مميزاً عن غيره من العروض العسكرية السابقة ، والتى كانت تعتمد على رؤية الرسول القائد ، ومتابعته لها ، والإشراف عليها ، وإبداء التوجيهات اللازمة،

واختبار كفاءة المقاتلين ، وخاصة الشباب الجدد منهم . أما هنا فإن الوضع مختلف والأسلوب مغاير ذلك أن الرسول ﷺ لما خرج قاصداً مكة حرص على أن لا تعلم قريش بخبره ، حتى أتى إلى مر الظهران(٤٥) . وأحست قريش بخروج الرسول ﷺ والمسلمون إليهم . وكان أبو سفيان زعيم المشركين وأهل مكة آنذاك . فخرج يستروح الأخبار حتى ظفر به العباس ﷺ ، فاخبره خبر جيش المسلمين . ومازال العباس ﷺ بأبى سفيان يدعوه للدخول فى الإسلام حتى وضعه بين يدى النبى ﷺ، حتى أسلم ثم أعطاه الرسول ﷺ الأمان ولكل من يدخل بيته أو المسجد الحرام أو من يغلق عليه بابه . ولكن قبل أن ينصرف إلى مكة وإلى قومه - على ما ذكره المحدثون وأهل السير - أمر الرسول عليه الصلاة والسلام عمه العباس أن يأخذ أبا سفيان ويحبسه عد خطم الجبل(٤٦) . حتى يرى جنود الله بكامل عدتهم وعتادهم ، لينقل هذه الصورة إلى قومه ، وقد أورد البخارى هذه القصة بحديث طويل فى صحيحه(٤٧) . يمكن إيراد ما يخص هذه الحادثة وهو قول النبى ﷺ للعباس « ... احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين . فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة(٤٨) على أبى سفيان ، فمرت كتيبة قال يا عباس : من هذه ؟ قال هذه غفار . قال : مالى ولغفار ، ثم مرت جهينة ، وقال مثل ذلك . ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك ، ومرت سليم فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها ، قال من هذه ؟ قال هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية ... الحديث » .

وقد ورد هذا الحديث من طرق متعددة(٤٩) وذكر الطبرانى وغيره رواية مثل تلك إلا أنه وصف الكتيبة التى فيها الرسول ﷺ بقوله : « ... فلما مرت كتيبة فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق(٥٠) ، قال سبحان الله من هؤلاء يا عباس ؟ قلت هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .. الحديث »(٥١) .

يقول ابن حجر فى فتح البارى مبيناً أمر الرسول ﷺ للعباس فى حبس أبى سفيان عند خطم الجبل ... « وإنما حبسه هناك لكونه مضيقاً ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحد منهم »(٥٢) .

كما أن ترتيب الرسول ﷺ لجيشه وتقسيمه إلى عدة فرق كل فرقة تتجه إلى مكة من طريق غير الطريق الذى تسلكه الفرقة الأخرى ، لهو نوع أيضاً من أنواع استعراض القوة أمام أهل مكة ، مما لا قبل لهم به ولا حول ولا قوة ، فيجعلهم يستسلمون وتسهل السيطرة على مكة وشعابها وجبالها . فقد أوردت كتب المغازى والسير والمحدثون ما يفيد بتقسيم الجيش ، حيث دخل رسول الله ﷺ من كداء بأعلى مكة(٥٣) ، وأمر خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى أن يدخل من الليط أسفل مكة ، إضافة إلى فرقة أبى عبيدة بن الجراح على فرقة الرجالة ، والزبير بن العوام على المجنبة اليسرى(٥٤) ، ومعه الراية التى أمره الرسول ﷺ أن تركز بالحجون ، على ما رواه البخارى(٥٥) .

عرض الرسول ﷺ نفسه بين فلول الهاربين من المسلمين :

أما فى غزوة حنين فإن المسلمين لما خرجوا لملاقاة هوازن بعد فتح مكة ، وبعد أن انضم إليهم ما يقارب الألفى شخص من مسلمة الفتح ، وبعد أن احتدمت المعركة وانتصر المسلمون فى بادئ الأمر وأخذوا فى جمع الغنائم ، إنهالت عليهم سهام هوازن ، حيث كانوا يجيدون الرمى ، فانكشف المسلمون فولوا هاربين إلا الرسول ﷺ ومن ثبت معه وهم قلة . فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يستعرض وبنفسه وعلى بغلته البيضاء المسلمين وهو متجه نحو هوازن ويدعو الناس للثبات وعدم الفرار ، ويطلب من يذكر المسلمين بمواقفهم وبيعتهم تحت الشجرة ، وهى بيعة الرضوان يوم الحديبية . وكان النبى ﷺ وهو على بغلته يصرخ فى المسلمين ويقول :

أنا النبي لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

وأخذ المسلمون في التوافد نحو ذلك الصوت . ثم صفهم الرسول ﷺ على ما أورده مسلم (٥٦) ، وأعاد المسلمون قواهم فكروا على عدوهم ، حتى كتب الله لهم النصر . وقد أورد البخاري ومسلم(٥٧) حديثاً من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه أن رجلاً قال له : « أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين . قال : لكن الرسول الله ﷺ لم يفر . إن هوازن كانوا قوماً رماة ، وإنا لما لاقيناهم حملنا عليهم فانهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام ؛ فأما رسول الله ﷺ فلم يفر ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها ، والنبي ﷺ يقول :

أنا النبي لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

استعراض القوة بالنيران أمام الأعداء :

ومن الاستعراضات العسكرية التي كان الرسول ﷺ يثبت بها قوته واقتداره أمام الأعداء ، ما كان يعمله عليه الصلاة والسلام من إشعال النيران أحياناً ليرهب بها الأعداء وليشعرهم بقدومه ، وحرصه عليه الصلاة والسلام من تكثير هذه النيران وتوزيعها حتى يدرك الراءون لها كثرة عدد أصحابها . من ذلك مثلاً ما حدث في غزوة حمراء الأسد(٥٨) ، فبعد أن انتصر أهل مكة على المسلمين في أحد هموا بالرجوع إلى المدينة من أجل استئصال المسلمين دفعة واحدة ، فلما علم الرسول ﷺ بذلك أمر الناس بالاستعداد لطلب العدو ، وأن لا يخرج معهم إلا من حضر في أحد - على الرغم مما اصاب المسلمين من الجراح والتعب - يقول ابن حجر رحمه الله في ذلك « وإنما خرج مرهباً للعدو ، وليظنوا أن الذى اصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم »(٥٩) .

وقد أورد ابن سعد في قصة إيقاد النيران أنه « ... كان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار ، حتى ترى من المكان البعيد . وذهب صوت معسكرهم

ونيرانهم فى كل وجه ، فكبت الله تبارك وتعالى بذلك عدوهـم »(٦٠) ، ووافق ابن سعد هنا كل من ابن سيد الناس ، وعلى الحلبى(٦١) .

أما المقريزى فقد ذكر أنهم أوقدوا خمسمائة ناراً وأن الرسول ﷺ كان يأمر المسلمين بجمع الحطب نهاراً وإشعالها ليلاً على انفراد(٦٢) ، وقد أقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد على ذلك ثلاث أيام ، وهى الاثنين والثلاثاء والأربعاء . ثم رجع إلى المدينة لما علم برجوع المشركين إلى مكة(٦٣) .

وكان هذا الاستعراض مصدر قوة للمسلمين ليس فقط تجاه المشركين أهل مكة ، وإنما حتى على المنافقين فى المدينة الذين كانوا يخذلون المسلمين ، وكذلك اليهود ، الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر .

وإذاما انتقلنا إلى فتح مكة ، فإننا نجد جميع المصادر التى تحدثت عن هذه الغزوة أشارت إلى ما كان يعمله الرسول ﷺ من ايقاد النيران الكثيرة التى تشعر العدو بكثرة عدد المسلمين . وتلك النيران جعلت أبا سفيان - على ما ذكرت المصادر - هو ومن معه من كبراء مكة يخرجون إلى خارج مكة تحسساً للأخبار . وفى ذات ليلة ، وكما أورد البخارى فى صحيحه(٦٤) « ... أن أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران ، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفه ، فقال أبو سفيان : ما هذه لكأنها نيران عرفه . فقال بديل بن ورقاء : نيران بنى عمرو فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ... وذكر تمام الحديث » وقد اتفقت جميع المصادر على هذا الحديث ، وتلك المحاورة بين أبا سفيان ورفاقه(٦٥) .

وعن عدد ما أوقد تلك الليلة من النيران ، فأننا نجد إشارة عند ابن سعد تفيد بأن الرسول ﷺ « .. أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ... »(٦٦) . وهذا العدد يمثل عدد جيش المسلمين الذى ذهب إلى مكة لفتحها .

عرض الرسول ﷺ للخيل :

تمثل الخيول أهمية بالغة في العسكرية الإسلامية . فالرسول عليه الصلاة والسلام أهتم اهتماماً بالغاً بالخيل من حيث تنشئتها وتكثيرها ، وتدريبها والتدرب عليها ، ومعالجتها ، والحرص على إقتنائها . ووضع الحمى الخاصة بها . وكذلك عمل العروض اللازمة لها ، ثم الإسهام لها في الغنيمة ، وقد ورد في الحديث من رواية جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيمة الأجر والغنيمة »(٦٧) .

إن كل موضوع من هذه الموضوعات يحتاج إلى بحث مستقل بذاته ، وحيث اننا بصدد الحديث عن استعراض الخيول وعرضها في عهد الرسول ﷺ وما يتعلق في ذلك فلابد من الإشارة هنا إلى الأحاديث الواردة في هذا الشأن ، حتى يتبين لنا مدى العناية البالغة من الرسول ﷺ برياضة الخيول وتدريبها لغرض الجهاد في سبيل الله . من ذلك مثلاً ما رواه الحاكم(٦٨) بسنده عن أبي بكر أحمد القاضي ، حدثه محمد بن سعد العوفي ، حدثه يعقوب الزهري ، حدثه محمد ابن طلحة التيمي ، حدثه أبو سهل بن مالك عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ يجهز أو كان يعرض جيشاً ببقيع الخيل(٦٩) فأطلع العباس بن عبد المطلب ، فقال رسول الله ﷺ : هذا العباس عم نبيكم أجود قريش كفاً وأحناه عليها » ، وقد أورد هذا الحديث أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه وأبي يعلى في مسنده والطبراني في المعجم الأوسط(٧٠) من طريق محمدبن طلحة .

وأورده الهيثمي بروايات متعددة . قال : « كنا عند النبي ﷺ ببقيع الخيل»، وفي رواية أنه قال : « خرج النبي ﷺ يجهز جيشاً فنظر إلى العباس فقال ... وذكر تمام الحديث » ، قال الهيثمي عن رواة أحمد وأبي يعلى ثقات ورجالهم رجال الصحيح(٧١) .

ومما يدل أيضاً على استعراض الرسول ﷺ للخيل ما رواه الإمام مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده(٧٢) من طريق أبي عثمان عن أبي موسى قال: « أخذ القوم في عقبة أو ثنية ، فكلما علا رجل عليها نادى لا إله إلا الله والله أكبر ، والنبي ﷺ على بغلة يعرضها في الخيل . فقال يا أيها الناس : إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً ... الحديث » ، كما روى هذا الحديث أيضاً البخاري وابن حبان في صحيحه وأبو داود في السنن ، والنسائي في سننه الكبرى(٧٣) .

وهناك حديث آخر ورد وبروايات متعددة يبين لنا مدى معرفة الرسول ﷺ بالخيل ، وحرصه عليها ، واستعراضه لها بين الحين والآخر ، وهو ما رواه أحمد بسنده ، حدثه صفوان بن عمرو ، قال حدثني شريح بن عبيد عن عبد الرحمن بن عائذ الأزدي ، عن عمرو بن عبسة السلمي قال : « كان رسول الله ﷺ يعرض يوماً خيلاً وعنده عيينة بن حصن الفزاري. فقال له النبي ﷺ أنا أفرس بالخيل منك. فقال عيينه وأنا أفرس بالرجال منك ... وذكر تمام الحديث بطوله...»(٧٤). وقد أورده الحاكم في مستدركه وقال « هذا حديث غريب المتن صحيح الإسناد » ولم يخرجاه(٧٥) أي البخاري ومسلم .

أما الطبراني فرواه بلفظ آخر من رواية معاذ بن جبل ﷺ قال : « كان النبي ﷺ في دارنا يعرض الخيل فدخل عليه عيينه ... الحديث »(٧٦) .

كما أورده الهيثمي من هذا الطريق وقال رواه الطبراني ورجاله ثقات(٧٧) .

أما عن رواية أحمد فقد قال أنه رواه متصلاً ومرسلاً ورجاله ثقات(٧٨) .

وكما أن الرسول ﷺ اهتم بالخيول ورياضتها فإنه حرص أيضاً على تخصيص مكان لها فحمى النقيع(٧٩) للخيل - وهو على بعد عشرين فرسخاً من المدينة ، وقدره ميل في ثمانية أميال على ما أورده ابن حجر(٨٠) - فقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ، منها ما رواه البخاري بسنده من رواية عبد الله بن

دينار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما « أن النبى ﷺ حمى النقيع لخيل المسلمين »(٨١) ، كما رواه البيهقى بسنده عن نافع عن ابن عمر بلفظ « أن النبى ﷺ حمى النقيع لخيل المسلمين ترعى فيه »(٨٢) .

وقد تواترت فى ذلك الأدلة وروى هذا الحديث أغلب المحدثين(٨٣) .

وبالإضافة إلى عرض الخيول أمام النبى ﷺ فإنه كان أيضاً يعمل المسابقة بينها عل حسب أنواعها ، وفئاتها وهو نوع من أنواع عرض الخيول ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر »(٨٤) .

ومن هنا كان عليه الصلاة والسلام يسابق بين الخيول المضمرة وغير المضمرة(٨٥) . فقد روى البخارى بسنده حدثه أبو إسحاق عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « سابق رسول الله ﷺ بين الخيل التى قد اضمرت فأرسلها من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع ، فقلت لموسى : فكم كان بين ذلك . قال : ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التى لم تضمر فأرسلها من ثنية الوداع ، وكان أمدها مسجد بنى زريق . قلت : فكم بين ذلك؟ ... قال : ميل أو نحوه . وكان ابن عمر ممن سابق فيها »(٨٦) .

وذكر الخزاعى رواية عن الزهرى قال : « سبق سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه على فرس لرسول الله ﷺ يقال له الظرب . فكساه رسول الله برداً يمانياً . وسبق أبو أسيد الساعدى على فرس لرسول الله ﷺ يقال له : لزاز فلما طلع الفرس حثا رسول الله ﷺ على ركبتيه وأطلع من الصف وقال : كأنه بحر . وكسا أبا أسيد حلة يمانية »(٨٧) .

وكان التشبيه له بأنه بحر مما يدل على سرعة الفرس وعدم انقطاع جريه ، مثل البحر لا ينقطع ماؤه(٨٨) ، ولهذا نجد هناك أحاديث رواها البخارى وذكر فيها أن الرسول ﷺ ركب فرساً لأبى طلحة يقال له « مندوب » فقال إنا وجدناه « لبحراً » . وقصة ذلك فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كان » بالمدينة

فزع فاستعار النبى ﷺ فرساً لأبى طلحة يقال له مندوب . فركبه وقال ما رأينا من فزع وإن وجدناه لبحراً »(٨٩) .

ومن خيل الرسول ﷺ التى سابق فيها وسبقت كانت « السكب » و « سبحه » و « الأدهم » وغيرها(٩٠) .

ولم يكن أجراء العروض للسباق خاصاً بالخيل فقط وإنما شمل حتى الإبل ، فلقد سابق الرسول ﷺ بين الإبل ومعهن القصواء وعليها بلال ﷺ (٩١) . وذكر ابن جماعة أن للرسول ﷺ ناقة اسمها الجدعاء وكانت لا تسبق(٩٢) . مما يدل على أنه عمل لها ولغيرها سباق بين الإبل فسبقت ، كذلك أورد البخارى بسنده من رواية أنس ﷺ قال : « كانت لرسول الله ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تسبق ، فجاء أعرابى على قعود فسبقها . فشق على المسلمين . فلما رأى ما فى وجوهم ، قالوا يا رسول الله : سبقت العضباء ؟ قال : إن حقاً على الله أن يرتفع من الدنيا شيء إلا وضعه »(٩٣) .

عرض الصحابة الفارون أنفسهم على رسول الله :

ومن أساليب العرض على رسول الله ﷺ ما كان يعمله بعض الصحابة رضوان الله عليهم ممن ارتكب خطأ فى القتال من فرار ونحوه ، أنهم يأتون ويعرضون أنفسهم على رسول الله ﷺ ليعفو عنهم أو يرى رأيه فيهم . من ذلك مثلاً ما رواه أبو داود وبسنده(٩٤) من رواية يزيد ابن أبى زياد ، أن عبد الرحمن ابن أبى ليلى حدثه أن عبد الله بن عمر حدثه ، أنه كان فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ قال : « فحاص الناس حيصة(٩٥) فكنت فيمن حاص . قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ فقلنا ندخل المدينة فنتثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال فدخلنا فقلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كان لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرارون . فأقبل إلينا فقال : بل أنتم العكارون(٩٦) قال فدنونا فقبلنا يده فقال إنا فئة المسلمين » .

وقد أورد هذا الحديث مجموعة من المحدثين بأسانيدهم من طريق يزيد بن أبى زياد ، فقد أورده الترمذى فى سننه(٩٧) ، كما أورده ابن حبان فى صحيحه(٩٨)، وكذا الحاكم فى المستدرك على الصحيحين(٩٩)، وذكره الإمام أحمد فى مسنده(١٠٠) . والطبرانى فى المعجم الكبير(١٠١) ، وأبو يعلى فى مسنده(١٠٢) .

عرض الأسرى والمحاربين أمام الرسول ﷺ :

وكان الأسرى يعرضون على الرسول ﷺ بعد المعركة ليرى فيهم رأيه ، ويحكم عليهم بحكمه ، بحسب مقتضى حالهم ، ومدى إيغالهم فى العداوة للإسلام وأهله ، ومدى حرص الرسول ﷺ وطمعه بإسلام البعض منهم . ولهذا نجد أن الرسول ﷺ - بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين وأسرهم لعدد من المشركين وأثناء عودتهم قافلين إلى المدينة - أمر بقتل كل من النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط على ما رواه ابن اسحاق ، قال : « ... حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر بن الحارث ، قتله على بن أبى طالب ... ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبى معيط ... »(١٠٣) . وقد وردت روايات عدة عند المحدثين عن ذلك(١٠٤) .

أما المحاربون - وهم اليهود بعد نقضهم العهد مع رسول الله ﷺ - فقد وردت أحاديث فى غزوة بنى قريظة تبين أن الرسول ﷺ لما حاربهم وانتصر عليهم وجمع رجالهم وصبيانهم ونساءهم ، فإنه جعل النساء والذرارى من السبى . أما الرجال فتم قتلهم(١٠٥) . وأما الأولاد فإنهم عرضوا على النبى ﷺ فمن رآه قد أنبت شعره - أى وصل إلى البلوغ - قتل ، ومن لم ينبت لم يقتل . من ذلك ما رواه الترمذى(١٠٦) بسنده قال حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عطية القرظى قال : « عرضنا على النبى ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قتل ، ومن لم ينبت خلى سبيله ، فكنت ممن لم ينبت فخلى سبيلى .. » قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح(١٠٧) .

وقد رواه ثلة من المحدثين بأسانيدهم ، عن سفيان حدثه عبد الملك بن عمير، حدثه عطية القرظى(١٠٨) ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير(١٠٩) ، من رواية أسلم بن بجره بلفظ « ... فكان ينظر إلى فرج الغلام فمن أنبت ضرب عنقه وإن لم ينبت ففى المغنم ... »(١١٠) .

وهكذا نجد أن الرسول ﷺ كان يشرف بنفسه على استعراض أولئك الغلمان للتأكد من واقع بلوغهم ، وإنزال الحكم فيهم ، وحتى لا يؤخذ أحد بالظنة أو الخطأ أو النسيان ، لأن فى هذا حكما من أحكام الله أجراه الله على لسان سعد ابن معاذ ﷺ ، حينما قال له الرسول ﷺ على ما أورده البخارى «... قضيت فيهم بحكم الله ... »(١١١) . وذلك بسبب جريمتهم البشعة فى نقض العهود فى أحلك الأوقات أيام غزوة الأحزاب » .

الهوامـش

(١) الاستعراض من العرض ، يقال عرضت الجند عرض العين ، إذا أمررتهم عليك ونظرت مـا حالهم ، وقد عرض العارض الجند ، واعترضوا هـم . ومنه اعتراض الجند على قائدهم ، واعترض الناس : عرضهم واحداً واحداً . وقيل هـو من عرض الجند بين يدى السلطان لإظهارهم واختبار أحوالهم . ومنه الاعتراض على الدابة ، إذا كـان وقت العرض راكباً . انظر ابن منظور - لسان العرب ٢٨٨٥/٥ .

(٢) الآية ٤ من صورة الصف .

(٣) انظر ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ٣٥٩/٤ .

(٤) وبالمقابل فإن الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين فى نظر المسلمين حتى تقوى عزائمهم ومعنوياتهم ومنه قوله تعالى : ﴿ إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ﴾ الآية ٤٣ من سورة الأنفال.

(٥) انظر محمود شيت خطاب - الرسول القائد ٧٨ ، ٧٩ ، أكـرم العمرى - المجتمع المدنى فى عهد النبوة ٤٧ .

(٦) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٨٠ .

(٧) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٩/٤ .

(٨) انظر عن هذا الحديث البخارى - الجامع الصحيح المختصر ١٤٩٣/٤ - وسـنن الترمذى ٢٢٩/٥ ، النسائى - السنن الكبرى ٣١٦/٦ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٩٥/٥ .

(٩) انظر ابن كثير ، السيرة النبوية ٢/ ٤٠٩ .

(١٠) انظر البيهقى - السنن الكبرى ٩/ ١٥٥ وانظر أبى داود - السنن ٣/ ٥٢ بلفظ حين اصطففنا يوم بدر ، وانظر أيضاً الطبرانى - المعجم الكبير ١٩ / ٢٦٢ .

(١١) انظر البخارى - الصحيح ١٠/٥ - ١١ .

(١٢) سليمان الطبرانى - المعجم الكبير ١٧٤/٤ .

(١٣) مسند الإمام أحمد ٥/٤٢٠ .

(١٤) السيرة النبوية ٢/ ٤٠٩ ، وانظر أيضاً البداية والنهاية ٣/٢٧١ .

(١٥) انظر الهيثمي - مجمع الزوائد ٦/٧٥ .

(١٦) انظر عن ترجمته ابن عبد البر - الاستيعاب ٤/٢٩٣ ، ابن حجر - الإصابة ٤/٢٩٢ - ٢٩٣ .

(١٧) يقال نتل من بن أصحابه نتلاً ونتولاً واستنتل أى تقدم ، واستنتل القوم على الماء إذا تقدموا. انظر ابن منظور - لسان العرب ٧/٤٣٣٧ .

(١٨) انظر عن ذلك - ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٢/٤٥٦ - ٤٥٧ ، ابن هشام من رواية ابن اسحاق فى السيرة النبوية ٢/٦٢٦ ، وكذا ابن كثير فى البداية والنهاية ٣/ ٢٧١ ، والسيرة النبوية ٢/٤٠٩ - ٤١٠ ، وكل هؤلاء أوردوها من طريق واحد هو هذا الإسناد الذى فيه جهالة شيوخ حبان بن واسع بن حبان .

(١٩) انظر مجمع الزوائد ٦/ ٢٨٩ .

(٢٠) قال الترمذى حديث حسن صحيح ، انظر سنن الترمذى ٥/٢٢٩ كما رواه أحمد فى المسند ٤/٢٩ ، والطبرانى فى المعجم الكبير ٥/٩٥ .

(٢١) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٣/٦٤ ، ٦٥ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٣/٢٦ - ٢٩ .

(٢٢) انظر المصادر السابقة وانظر أيضاً البخارى - الصحيح ٥/٢٩ .

(٢٣) انظر ابن سعد - الطبقات ٥/٢٥٨ ، ابن حجر العسقلانى - فتح البارى ٥/٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٧/٣٩٣ ، ٣٩٤ .

(٢٤) البخارى - الجامع الصحيح ٥/٤٥ ، صحيح مسلم ١٣/١٢ ، أبو داود - السنن ٤/٥٦١ ، ٥٦٢ ، الترمذى - السنن ٣/٦٤١ ، أحمد - المسند ٢/١٧ .

(٢٥) انظر - البيهقى - السنن الكبرى ٦/ ٣٥٢ ، الطبرانى - المعجم الكبير ١/٥٩ ، انظر فتح البارى ٥/٢٧٦ ، ٧/٣٩٣ حيث شرح هذا الحديث شرحاً وافياً .

(٢٦) انظر سنن البيهقى ٥٥/٦ ، كما أورد مسلم جزءاً من هذه الرواية ، انظر الصحيح ١٢/١٣ .

(٢٧) انظر المقريزى – إمتاع الأسماع ١١٩/١ حيث قال : « فلما فرغ العرض وغابت الشمس أذن بلال بالمغرب » .

(٢٨) انظر ابن هشام – السيرة النبوية ٦٦/٣ ، ابن كثير – السيرة النبوية ٢٩/٣ – ٣٠ المقريزى – إمتاع الأسماع ١١٩/١ .

(٢٩) انظر إمتاع الأسماع ١٩٩/١ ، انظر أيضاً ابن سيد الناس – عيون الأثر ٧/٢ حيث ذكر أن عدد من ردهم الرسول ﷺ من الأولاد بلغ أربعة عشر غلاماً .

(٣٠) انظر ابن هشام – السيرة النبوية ٦٦/٣ ، ابن عبد البر – الاستيعاب ٢٥٨/٤ ، الخزاعى التلمسانى – تخريج الدلالات السمعية ٢٤١ .

(٣١) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ٣٩٣/٧ .

(٣٢) انظر الحاكم – المستدرك على الصحيحين ٢/ ٧٩ وذكر محقق الكتاب عبد القادر عطا أن الذهبى قال فى التلخيص حديث صحيح .

(٣٣) انظر سنن البيهقى ١٨/١٠ ، الطبرانى – المعجم الكبير ٧/ ١٧٧ .

(٣٤) انظر سنن البيهقى ١٨/١٠ ، الحاكم – المستدرك على الصحيحين ٦٩/٢ ، الطبرانى ، المعجم الكبير ١٧٧/٧ ، وانظر ابن عبد البر – الاستيعاب ٤/ ٢٥٨ بلفظ « كان يستعرض غلمان الأنصار فى كل عام » .

(٣٥) انظر الجامع الصحيح للبخارى ٤٥/٥ ، صحيح مسلم١٣/ ١٢ .

(٣٦) انظر ابن حجر – فتح البارى ٣٩٤/٧ .

(٣٧) انظر المصدر السابق ٣٩٤/٧ حيث ذكر أن معنى الإجازة هنا هو « امضاؤه والإذن له بالقتال » .

(٣٨) انظر صحيح البخارى ٥٧٣/٥ ، وصحيح مسلم بلفظ : « فأتيناهم حين بزغت الشمس ... الحديث ١٦٥/١٢ .

(٣٩) انظر المصدر السابق ٧٣/٥ ، ابن حجر - فتح البارى ٤٦٧/٧ .

(٤٠) انظر مسند أحمد ٣٥٣/٥ .

(٤١) انظر السنن الكبرى ١٠٩/٥ ، ١٧٩/٥ ، وانظر أيضاً ، أحمد بن حنبل . فضائل الصحابة ٥٩٣/٢ وذكر المحقق أن أسناده هنا صحيح .

(٤٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤٤٣/٧ ، ٤٤٤ .

(٤٣) أورده البخارى مطولاً فى قصة الحديبية فى باب الشروط فى الجهاد ، وانظره مع الشرح فى فتح البارى ٣٢٩/٥ وما بعدها .

(٤٤) وردت روايات عدة عن صيغة البيعة وهل هى على الموت ، أو على عدم الفرار أو على الصبر حيث وردت أحاديث كثيرة فى ذلك ظاهرها التعارض ، وقد جمع العلماء بين هذه الآراء فمن ذلك ما ذكره الترمذى من أن هناك من بايعه من أصحابه على الموت ، وبايعه آخرون فقالوا : « لا نفر » انظر سنن الترمذى ١٥٠/٤ ، أما ابن الحجر فقال : « لا تنافى بين قولهم ، بايعوه على الموت وعلى عدم الفرار ، لأن المراد بالمبايعة على الموت أن لا يفروا ، وليس المراد أن يقع الموت ولابد وهو الذى أنكر نافع وعدل إلى قوله : « بل بايعهم على الصبر » أى على الثبات سواءاً أفضى ذلك إلى الموت أو لا « والله أعلم » . انظر ابن حجر فتح البارى ١١٨/٦ .

(٤٥) مر الظهران ، سمى مر لمرارته والظهران وادٍ قرب مكة بينه وبين البيت ستة عشر ميلاً . ويبطن الوادى تخزعت خزاعة أيام سيل العرم ، وبه كان الرسول ﷺ ينزل إذا أتى إلى مكة، انظر البكرى - معجم ما استعجم ١٢١٢/٢ ، ياقوت - معجم البلدان ٦٣/٤ .

(٤٦) الخطم رعن الجبل وهو الأنف منه حيث يضيق الموضع الذى يخرج فيه . انظر ابن منظور - لسان العرب ١٢٠٣/٢ .

(٤٧) انظر صحيح البخارى ٩١/٥ ، وانظر ابن كثير - السيرة النبوية ٥٤٩/٣ ، ٥٥٣ .

(٤٨) الكتيبة هى القطعة العظيمة من الجيش والجمع كتائب . انظر الجزرى - النهاية فى غريب الحديث ١٤٨/٤ ، ابن منظور - لسان العرب ٣٨١٨/٦ .

(٤٩) انظر مثلاً مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٦٦/١ ، البيهقى - السنن الكبرى ١١٩/٩ البخارى - الجامع الصحيح المختصر ١٥٥٩/٤ .

(٥٠) الحدق هو السواد المستدير وسط العين ومنه التحديق وهو شدة النظر بالحدقة ، انظر ابن منظور - لسان العرب ٨٠٦/٢ .

(٥١) الطبرانى - المعجم الكبير ٩/٨ ، وانظر ابن كثير - البداية والنهاية ٢٩٠/٤ .

(٥٢) انظر فتح البارى ٨/٨ ، وانظر أكرم العمرى - المجتمع المدنى فى عهد النبوة ١٧٦ .

(٥٣) انظر البخارى - الصحيح ٩٣/٥ .

(٥٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٢٦/١٢ ، ١٢٧ ، ابن هشام - السيرة النبوية ٤٠٧/٣ ، ابن سعد - الطبقات ٩٨/٢ ، ابن الديبع الشيبانى - حدائق الأنوار ٦٦٩/٢ ، ابن كثير - البداية والنهاية ٢٩٣/٤ ، الخزاعى التلمسانى - تخريج الدلالات السمعية ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٥٥) انظر البخارى - الصحيح ٩١/٥ .

(٥٦) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١١٨/١٢ - ١٢٠ .

(٥٧) انظر صحيح البخارى ٢١٨/٣ ، وصحيح مسلم بشرح النووى ١٢١/١٢ .

(٥٨) حمراء الأسد : موضع على ثمانية أميال من المدينة إليه انتهى رسول الله ﷺ فى اليوم الثانى من يوم أحد بطلب المشركين ، انظر البكرى - معجم ما استعجم ٤٦٨/١ ، ياقوت معجم البلدان ٣٠١/٢ .

(٥٩) انظر فتح البارى ٣٧٤/٧ ، ابن كثير - البداية والنهاية ٤٩/٤ ، السيرة النبوية ٩٨/٣ .

(٦٠) انظر طبقات ابن سعد ٣٥/٢ الواقدى - المغازى ٣٣٨/١ .

(٦١) انظر عيون الأثر ٣٨/٢ ، على الحلبى - السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٩.

(٦٢) انظر امتاع الأسماع ١٦٩/١ .

(٦٣) انظر ابن كثير - البداية والنهاية ٤٩/٤ ، أما ابن سعد فقد أشار إلى أن الرسول ﷺ انصرف إلى المدينة ودخلها يوم الجمعة ، وقد غاب عنها خمس ليال ... انظر الطبقات ٣٥/٢ .

(٦٤) انظر الصحيح البخارى ٩١/٥ .

(٦٥) انظر مثلاً سنن البيهقى الكبرى ١١٩/٩ ، ومسند الإمام أحمد ٢٦٦/١ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٩/٨ ، وانظر أيضاً ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٨٦١/٤ ، ابن هشام - السيرة النبوية ٤٠٢/٤ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٥٧٤/٣ ، البداية والنهاية ٢٨٩/٤ .

(٦٦) انظر الطبقات ٩٧/٢ ، ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٨٦١/٤ ، وانظر ابن حجر - فتح البارى ٧/٨ حيث أشار إلى أن النيران قد أخذت الوادى كله .

(٦٧) الحديث رواه مسلم من رواية أبى هريرة ، انظر صحيح مسلم ١٤٩٣/٣ ، النسائى - السنن ٢٢١/٦ ، البيهقى - السنن الكبرى ١١٢/٦ ، أبى يعلى فى المسند ٥١/٥ ، ٥٢ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٣٣٧/٢ .

(٦٨) قال الحاكم عن هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه البخارى ومسلم ، انظر المستدرك ٣٧١/٣ .

(٦٩) البقيع هو الموضع الذى فيه أروم الشجر من ضروب شتى ومنه بقيع المدينة ، أما بقيع الخيل فهو مكان بالمدينة عند دار زيد بن ثابت . انظر ياقوت - معجم البلدان ٤٧٣/١ ، ٤٧٤ .

(٧٠) وانظر مسند أحمد ١/ ١٨٥ ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٥٢٨/١٥ ، مسند أبى يعلى ١٣٩/٢ ، الطبرانى - المعجم الأوسط ٢/ ٥٥٢ .

(٧١) انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٢٧١/٩ .

(٧٢) انظر صحيح مسلم ٢٠٧٧/٤ ، ومسند الإمام أحمد ٤/ ٤٠٧ .

(٧٣) انظر الجامع الصحيح المختصر ٥/ ٢٣٥٤ ، ابن حبان - الصحيح ٨٤/٣ ، أبو داود السنن ٨٧/٢ ، النسائى - السنن الكبرى ٢٥٥/٥ ، ١٣٧/٦ .

(٧٤) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٨٢/٤ ، فضائل الصحابة ٢/ ٨٧٧ .

(٧٥) انظر المستدرك على الصحيحين ٩١/٤ ، وقال في التلخيص صحيح غريب .

(٧٦) انظر المعجم الكبير للطبراني ٢٠/ ٩٨ .

(٧٧) انظر الهيثمي حيث ذكر أن رجال الطبراني ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ بن جبل ، في مجمع الزوائد ١٠/ ٤٧ .

(٧٨) انظر المصدر السابق ٤٦/١٠ .

(٧٩) النقيع : هي الأرض السهلة المستوية تنبت الرمث والبقل وأطايب العشب ، وقيل هي متسع الوادي ، فأصل النقيع كل موضع يستنقع فيه الماء ، انظر ابن منظور - لسان العرب ٤٥٢٦/٨ ، وانظر فتح الباري ٤٥/٥ .

(٨٠) انظر فتح الباري ٥/ ٤٥ .

(٨١) انظر الجامع الصحيح المختصر ٢/ ٥٣٥ .

(٨٢) انظر سنن البيهقي ١٤٦/٦ .

(٨٣) انظر مثلاً مسند الإمام أحمد ٢/ ٩١ ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٥٣٨/١٠ ، سنن الدار قطني ٢٣٨/٤ ، شرح معان الآثار ٢٦٩/٣ .

(٨٤) انظر النسائي - السنن بشرح الإمام السيوطي ٢٢٦/٦ .

(٨٥) من الإضمار او التضمير وهو تقليل علف الفرس مدة وتحليلها لتعرق ويجف عرقها فيخف لحمها وتقوى على الجري ، وقيل هو تسمينها أولاً ثم ردها إلى القوت . انظر - السيوطي - شرح سنن النسائي ٢٢٦/٦ .

(٨٦) البخاري - الصحيح ٣/ ٢١٩ ، ٢٢٠ ، بروايات متعددة ، النسائي - السنن بشرح الإمام السيوطي ٢٢٦/٦ .

(٨٧) انظر تخريج الدلالات السمعية ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٨٨) انظر الثعالبي- فقه اللغة ١٥٢ .

(٨٩) انظر صحيح البخارى ٢١٨/٣ ، كما رواه من طريق آخر بلفظ « ... أن النبى ﷺ ركب فرساً لأبى طلحة كان يقطف أو كان فيه قطاف فلما رجع قال : وجدنا فرسكم هذا بحراً . فكان بعد ذلك لايجارى » ، انظر البخارى ٢١٩/٣ .

(٩٠) انظر ابن جماعة الحموى - مستند الأجناد فى آلات الجهاد ٧٠ ، ٧١ ، الخزاعى التلمسانى تخريج الدلالات السمعية ٣٩٣ .

(٩١) انظر المقريزى - إمتاع الأسماع ٢٠٦/١ .

(٩٢) انظر مستند الأجناد لابن جماعه ٧٣ .

(٩٣) انظر صحيح البخارى ٢٢٠/٣ ، وانظر سنن النسائى بشرح السيوطى ٢٢٧/٦ .

(٩٤) انظر أبو داود - السنن ٣/ ٤٦ .

(٩٥) من الحيص : وهو الحيد عن الشيء ، يقال حاص عنه يحيص حيصاً أى رجع . يقال للأولياء : حاصوا عن العدو . وللأعداء انهزموا . انظر ابن منظور - لسان العرب ٢/ ١٠٧٠ .

(٩٦) من عكر على الشيء يعكر عكراً واعتكر أى كر وانصرف ، يقال رجل عكار فى الحرب أى عطاف كرار . وقال ابن الأعرابى العكار : الذى يولى فى الحرب ثم يكر راجعاً . انظر الجوهرى - الصحاح ٧٥/٢ ، ابن المنظور - لسان العرب ٣٠٥٥/٥ .

(٩٧) انظر الجامع الصحيح - سنن الترمذى ٢١٥/٤ قال عنه هذا الحديث حسن .

(٩٨) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣٦٦/٥ .

(٩٩) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٤٣٩ .

(١٠٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٠٨ .

(١٠١) المعجم الكبير ٥/١٨ .

(١٠٢) انظر مسند أبى يعلى ٤٤٧/٩ ، ١٠/ ١٥٨ وذكر المحقق له حسين سليم أسد أن إسناده ضعيف لضعف يزيد بن ابى زياد . أما الذهبى فقال عن يزيد بن أبى زياد أنه شيعى عالم فهم صدوق ردئ الحفظ لم يترك روى له مسلم والأربعة . انظر الكاشف ٢٧٨/٣ / أما ابن حجر فقال عنه ضعيف كبر فتغير ، انظر تقريب التهذيب ٣٦٥/٢ .

(١٠٣) ذكر ابن كثير من رواية ابن اسحاق أن عقبة بن أبى معيط لما أقتيد وقدم للقتل قال : فمن للصبية يا محمد . قال : النار ... ثم قال لما أقبل عليه عاصم بن ثابت لقتله : يا معشر قريش علام أقتل من بين هؤلاء ؟ قال له : على عداوتك الله ورسوله . انظر ابن كثير - السيرة النبوية ٤٧٣/٢ ، والبداية والنهاية ٣٠٥/٣ .

(١٠٤) انظر عن هذه الروايات أحمد باوزير - مرويات غزوة بدر ٣٠٤ - ٣١٢ .

(١٠٥) ذكر البخارى أن الرسول ﷺ طلب من سعد بن معاذ أن يحكم فيهم قال سعد فإنى أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية وأن تقسم أموالهم . انظر صحيح البخارى - ٥١/٥ .

(١٠٦) فى الجامع الصحيح - سنن الترمذى ١٤٥/٤ .

(١٠٧) الجامع الصحيح - سنن الترمذى ٤/ ١٤٥ ، وذكر المحقق أيضاً أن الألبانى صححه وانظر أيضاً الضحاك فى كتابه الآحاد والمثانى ٢٠٥/٤ .

(١٠٨) انظر مثلاً صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٠٤/١١ ، الحاكم - المستدرك على الصحيحين ٤٣٠/٤ ، ابن ماجه - السنن ٢/ ٨٤٩ ، سنن الدرامى ٢/ ٢٩٤ ، مسند أبى داود الطيالسى ١٨١ ، مسند الإمام أحمد ٣١٠/٤ .

(١٠٩) انظر المعجم الكبير ٤٣٦/١٩ .

(١١٠) أورده الهرثمى بسند أسلم بن بجره الأنصارى وقال فيه جماعة لم أعرفهم. انظر مجمع الزوائد ١٤٤/٦ .

(١١١) انظر صحيح البخارى ٥٠/٥ .

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم :**

- **الآحاد والمثاني :**

أحمد بن عمرو بن الضحاك (ت ٢٨٧هـ) ، ط / الراية - الرياض عام ١٤١١هـ ، مراجعة باسم فيصل الجوابره .

- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب :**

يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، تحقيق : طه محمد الزيني ، ط١ مكتبة الكليات الأزهرية .

- **الإصابة في تمييز الصحابة :**

شهاب الدين أحمد بن على العسقلاني المعروف بابن حجر (ت ٨٥٢هـ) ، ط الأولى . دار إحياء الكتب العربية عام ١٣٩٣هـ .

- **البداية والنهاية :**

لأبى الفداء الحافظ بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ط/ الثالثة ، مكتبة المعارف ، بيروت .

- **الجامع الصحيح المختصر :**

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى (ت ٢٥٦هـ) . ط/ دار ابن كثير «اليمامة» بيروت عام ١٤٠٧هـ . مراجعة د. مصطفى ديب البغا .

- **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى :**

لمحمد بن عيسى الترمذى (ت ٢٧٩هـ) ، ط / دار أحياء التراث ، بيروت ، مراجعة أحمد محمد شاكر .

- **الرسول القائد :**

محمود شيت خطاب ، الطبعة المصرية - القاهرة .

- **السنن لابن ماجه :**

أبو عبيد الله محمد بن يزيد القزوينى (ت ٢٧٥هـ) ط / المكتبة الإسلامية بتركيا . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى .

- **السنن للدارمي :**

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدرامى (ت ٢٥٥هـ) ، الناشر : دار إحياء السنة النبوية .

- **السنن لأبى داود :**

سليمان بن الأشعث المعروف بأبى داود ، ط/ دار الفكر ، مراجعة : محمد محيى الدين عبد الحميد .

- **السنن الكبرى للبيهقى :**

أحمد بن الحسين بن على بن موسى (ت ٤٥٨هـ) ، ط / مكتبة دار الباز بمكة عام ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .

- **السيرة النبوية :**

أبى الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، ط/ دار المعرفة - بيروت عام ١٣٩١هـ .

- **السيرة النبوية :**

لأبى محمد عبد الملك بن هشام (ت٥٨١هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، ط/ الثانية عام ١٣٧٥هـ ، مطبعة البابى الحلبى .

- **الصحاح :**

إسماعيل بن حماد الجوهرى ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٢هـ .

- **الكاشف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة :**

للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (ت ٧٤٨ ، ط/ دار الكتب الحديثة - مصر ، ط / الأولى ١٣٩٢هـ ، تحقيق : عزت على عطيه ، موسى محمد الموسى .

- **الطبقات الكبرى :**

لمحمد بن سعد الزهرى مولاهم ، ط/ دار التحرير للطباعة والنشر - القاهرة .

- **المجتمع المدنى فى عهد النبوة « الجهاد ضد المشركين » :**

د. أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- **المستدرك على الصحيحين :**

أبو عبد الله محمد النيسابورى المعروف بالحاكم (ت٤٠٥هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١ ، راجعه : مصطفى عبد القادر عطا .

- **المعجم الكبير :**

سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى (ت٣٦٠هـ) ط / مكتبة العلوم والحكم - الموصل ١٤٠٤هـ . مراجعة : حمدى السلفى .

- **المغازى :**

لمحمد بن عمر الواقدى (ت٢٠٧هـ) ، ط/ عالم الكتب - بيروت ، تحقيق : د. ماردسن جونس .

- **المسند :**

للإمام أحمد بن حنبل - دار النشر ، مؤسسة قرطبة بمصر - مصورة عن الطبعة الميمنية .

- النهاية فى غريب الحديث :

لمجد الدين أبى السعادات بن الأثير الجزرى ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى ومحمود طناحى ، ط١ ، المطبعة عيسى البابى الحلبى عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع :

تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، صححه محمود شاكر ، ط/ الشؤون الدينية بقطر ، الطبعة الثانية .

- إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ، المعروفة بـ « السيرة الحلبية » :

على بن برهان الدين الحلبى ، ط/ المطبعة المصرية عام ١٢٩٢هـ .

- تخريج الدلالات السمعية على ماكان فى عهد الرسول ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية :

أبى الحسن على بن محمد الخزاعى التلمسانى (ت ٧٨٩هـ) ، مطبوعات وزارة الأوقاف المصرية - عام ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م .

- تفسير القرآن العظيم :

لأبى الفدا إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ١٣٨٨م - ١٩٦٩م .

- تقريب التهذيب :

شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) ، ط/ دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٥هـ ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف .

- حدائق الأنوار ومطالع الأسرار :

لابن الديبع الشيبانى الشافعى ، تحقيق : عبد الله الأنصارى ، ط/ قطر عام ١٤٠٣هـ .

- سنن النسائى الكبرى :

أحمد بن شعيب بن على النسائى ، ط / المكتبة العلمية - بيروت ، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٤١١هـ ، مراجعة : عبد الغفار البندارى وسيد كروى حسن .

- صحيح مسلم :

مسلم بن الحجاج النيسابورى ، ط/ إحياء التراث العربى - بيروت ١٣٧٤هـ ، وصحيح مسلم بشرح النووى - المطبعة المصرية .

- صحيح البخارى :

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى (ت ٢٥٦هـ) ، ط/ المكتبة الإسلامى باستانبول - تركيا .

- عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير :

لابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) . ط/ طبعة دار المعرفة للطباعة - بيروت .

- فتح البارى شرح صحيح البخارى :

لابن حجر . شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) ، تحقيق : سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - نشر ادارات البحوث العلمية والافتاء .

- فضائل الصحابة :

لأبى عبد الله احمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) ، ط/ الأولى عام ١٤٠٣هـ ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق : د. وصى الله محمد عباس .

- فقه اللغة وسر العربية :

أبى منصور الثعالبى ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٥٤م .

- لسان العرب :

جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور ، تحقيق : عبد الله على الكبير وآخرون ط / دار المعارف بمصر .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :

للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ) ط:٢ عام ١٩٦٧م، دار الكتاب ، بيروت .

- مرويات غزوة بدر :

أحمد محمد باوزير ، ط١ ، مكتبة طيبة بالمدينة المنورة عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- مستند الأجناد في آلات الجهاد :

لابن جماعة الحموي (ت ٧٣٣هـ) ، تحقيق : أسامة ناصر النقشبندي ، منشورات وزارة الثقافة بالعراق ١٩٨٣م .

- مسند أبي يعلى الموصلي :

أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت ٣٠٧هـ ، ط/ دار المأمون للتراث ، ط الأولى ١٤٠٥هـ ، تحقيق : حسين أسد .

- معجم البلدان :

شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي ، طبعة دار صادر ودار بيروت عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع :

عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا ، ط عالم الكتب - بيروت .

العباسيون والأمويون

دراسة في العلاقات بين البيتين (١١-١٢٥هـ)

د. محمد بن ربيع بن هادي مدخلي(*)

يتصل البيتان العباسي والأموي بجد واحد يجمعهما ألا وهو عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة(١) .

فالعباس هو : العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف(٢) ، عم رسول الله ﷺ ، وصاحب المواقف الجلية معه بعد وفاة أبي طالب بن عبد المطلب (في السنة العاشرة من البعثة النبوية) ، حيث شهد مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة وهو مشرك(٣) ، ثم ساند رسول الله ﷺ معنوياً بعد الهجرة إلى أن هاجر إلى المدينة قبيل فتح مكة سنة ٨هـ(٤) .

وحظي العباس عند رسول الله ﷺ بمكانته اللائقة به ، وأنزله منه منزلة الوالد(٥) ، وكان يجله ، ويقدره ، ويعتز به بين صحابته(٦) ، وبقي على مكانته تلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، إذا أنزله الخلفاء الراشدون أبو بكر الصديق (ت ١٣هـ) ، وعمر (ت ٢٣هـ) ، وعثمان (ت ٣٥هـ) منزلته التي يستحقها حتى وفاته سنة ٣٢هـ(٧) ، رضي الله عنه . وكان له عدد من الأبناء منهم الفضل (ت ١٨هـ)، وعبد الله (ت ٦٨هـ) ، وعبيد الله (ت ٥٨هـ) (٨) ، وكان أشهرهم حبر الأمه ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

أما أبو سفيان فهو : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة(٩) .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى.

تولى قيادة جيوش قريش ضد رسول الله ﷺ والمسلمين فى أحد والأحزاب، وبعض الغزوات الصغيرة (١٠) ، ثم هداه الله للإسلام فى يوم الفتح ، وذلك عندما آمنه العباس بن عبد المطلب ، ودخل به على رسول الله ﷺ حيث أعلن إسلامه . وطلب العباس من رسول الله ﷺ أن يميز أبا سفيان بشىء لأنه كما قال رجل يحب الفخر ، فقال ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »(١١) .

وشهد أبو سفيان مع رسول الله ﷺ غزوة حنين ، وفقئت إحدى عينيه ، وأعطاه ﷺ مائة من الإبل ، وأعطى ابنه يزيد (ت ١٨هـ) ومعاوية (ت ٦٠هـ) يتألفهم على الإسلام(١٢) .

وهوقبل ذلك كله كان صهرا لرسول الله ﷺ قبل إسلامه إذ تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبى سفيان(١٣) .

واستعمل رسول الله ﷺ ابنة معاوية على بعض الأعمال ومنها الكتابة(١٤).
وبعد وفاة رسول الله ﷺ شارك أبو سفيان فى حركة الفتح الإسلامى تحت راية ابنه يزيد ، ففقئت عينه الأخرى فى معركة اليرموك(١٥) ، فعاد إلى المدينة مكرماً من الخلفاء الراشدين إلى أن توفى سنة ٣٤هـ(١٦) .

وهكذا كان هذان العلمان من ذوى الشرف والسؤدد فى قومهما ، يضاف إلى ذلك أنه كانت تجمع بين العباس وأبى سفيان علاقة خاصة قبل الإسلام ، فالأخير كان نديماً للعباس فى الجاهلية(١٧) ، هذه الصداقة جعلت العباس ﷺ يعمل على حماية صديقه ، إجارته عام الفتح عندما التقى به فى مر الظهران(١٨) ، وأردفه على بغلة رسول الله ﷺ زيادة فى الحرص على سلامته حتى دخل به على رسول الله ﷺ وجادل عمر بن الخطاب ﷺ الذى كان يرى أن الله قد أمكن من

أبى سفيان من غير عهد ، فاتهم العباس عمر أنه متحامل على أبى سفيان لأنه من بنى عبد مناف(١٩) ، وهى تهمه نفاها عمر ﷺ وكان صادقاً فى ذلك .

هذا الإصرار من جانب العباس عم رسول الله ﷺ على حماية أبى سفيان ، والحرص على سلامته توضح مدى وفاء العباس لصديقه القديم ، ومن ناحية أخرى حب العباس لقريش عموماً وخشيته عليها إن لم يستأمنوا رسول الله ﷺ قبل وصوله ﷺ إلى مكة(٢٠) .

ولعل الصلة بين هذين البيتين والزعامة فيهما ، وقرابتهما من رسول الله ﷺ هى الدافع لأبى سفيان فى رواية(٢١) ، أو خالد بن سعيد بن العاص (ت ١٣هـ) فى رواية أخرى(٢٢) ، لمخاطبة عثمان وعلى رضى الله عنهما ، ينكر عليهما موافقتهما على بيعة الصديق ، وحسب رأى القائل أن الخلافة يجب أن تكون فى بنى عبد مناف . والملاحظ هنا أن هذا القائل لم يخص بنى هاشم أو بنى عبد المطلب ، وإنما عم بنى عبد مناف ، ومنهم بالطبع بنو أمية . ونستشف منه أن بنى أمية كانوا يرون لأنفسهم حقاً فى خلافة رسول الله ﷺ ، أو على الأقل إن نالها على بن أبى طالب فقد تحققت بواسطته زعامة بنى عبد مناف على قريش خاصة والمسلمين عامة .

وعلى كل فقد وضعت خلافة الصديق ﷺ لرسول الله ﷺ من قبل المهاجرين والأنصار(٢٣) ، حدا فى مسألة الوراثة سواء من بنى هاشم ، أو غيرهم، وأن مسألة الخلافة كما بين الصديق ﷺ هى فى قريش عموماً للحديث الذى رواه عن رسول الله ﷺ فى ذلك وأنها غير محصورة ببيت من البيوت بعينه .

ومما يجدر الإشارة إليه أن الخلفاء الراشدين لم يستعينوا بزعيمى بنى هاشم وبنى أمية فى أعمال الدولة الإسلامية ، وإنما جاءت الاستعانة بأبنائهما حيث برز كل من هؤلاء الأبناء فى مجال يختلف عن الآخر .

فعبد الله بن عباس رضى الله عنهما احتل مكانة مرموقة فى عهد الخلفاء الراشدين ، وخاصة فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، إذ كان يقدمه على الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، وذلك لعلمه ، وفقهه ، ودقة استنباطه للأمور الشرعية ، وخاصة تفسير كتاب الله العزيز ، الذى كان كثيراً ما يسأله عن معانى بعض آيات كتاب الله عز وجل . وكان أمير المؤمنين عمر ﷺ معجباً به أيما إعجاب وكان يقول عنه : « ذلك فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول »(٢٤) ، ويقول فيه : « كيف تلومونني على ابن عباس »(٢٥) ، وقد أوتى ابن عباس هذا العلم وهذا الفقه حتى نال هذه المكانة بفضل دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال رسول الله ﷺ : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »(٢٦) .

هذا فى الجانب الدينى ، أما الجانب السياسى فقد برز دوره فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ وهو ما سنتطرق إليه فيما بعد .

أما أبناء أبى سفيان - يزيد ومعاوية - فقد جعل الصديق ﷺ يزيد بن ابى سفيان على رأس أحد الجيوش الأربعة المتوجهة إلى الشام لفتحها(٢٧) ، وبعدما توفى الصديق سنة ١٣هـ ، وخلفه عمر ﷺ استعمل يزيد على مدينة دمشق بعد فتحها ، واستمر فى منصبه ذاك حتى توفى سنة ١٨هـ ، فولى أمير المؤمنين عمر مكانه أخاه معاوية ، ثم جمع له ولاية الشام بعد ذلك(٢٨) .

ظل معاوية أميراً على الشام حتى مقتل عثمان ﷺ سنة ٣٥هـ فى الفتنة المعروفة . وكان من جراء ذلك أن دبت الفتنة والخلافات بين أبناء الدولة الإسلامية بسبب مقتل عثمان ﷺ ، وذلك لاختلافهم حول القصاص من قتلته ، بعد أن اختير على ﷺ ، (ت ٤٠هـ) من قبل المهاجرين والأنصار خليفة وأميراً للمؤمنين(٢٩) .

كان ابن عباس نظراً لظروف الفتنة قد نصح عليا بعدم قبول البيعة في مثل تلك الظروف ، لأنه إن قبلها ، فسيلزمه الناس دم عثمان ، ولينتظر فسيجتمع عليه الناس لا محالة(٣٠) ، لكن عليا ﷺ رأى أن التأخير في القيام بأمور المسلمين ستترتب عليه مفاسد كبيرة أخطرها : أن الذين قتلوا عثمان ربما يصرفون الخلافة عن أهل الحل والعقد من أهل المدينة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وهو ما هددوا به فعلاً أهل المدينة(٣١) . وبعد البيعة كان من رأى ابن عباس أن يبقى أمير المؤمنين على ﷺ معاوية في إمارة الشام حتى تستقيم الأمور ، ثم إن شاء بعد ذلك عزله . وكان رأيه هذا بعد أن طلب منه أمير المؤمنين على أن يتولى بلاد الشام ، لكن ابن عباس رفض ذلك لخطورة قدومه إلى تلك المنطقة في مثل تلك الأوضاع(٣٢) .

وعندما اشتد أوار الفتنة ، واحتكم إلى السيف في الجمل وصفين شارك بنو العباس - عبد الله ، عبيد الله ، قثم - في تلك المعارك مع على ﷺ . وكذلك استعان بهم في الإدارة حيث تولى عبد الله بن عباس البصرة ، وعبيد الله اليمن ، وقثم مكة(٣٣) ، وظلوا معه حتى قتل سنة ٤٠هـ ، وبويع الحسن بن على رضى الله عنهما بالخلافة التي تنازل عنها اصلاحاً بين الناس وحقنا لدماء المسلمين ، وليتحقق فيه قول النبي ﷺ « إن ابني هذا سيد ولعل الله شاء أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »(٣٤) ، ومن ثم اجتمعت الأمة على معاوية وسمى عام ٤١هـ عام الجماعة(٣٥) .

ومن الطبيعي أن ينخرط بنو العباس في هذه البيعة الجديدة ، بل إن عبيد الله بن عباس سارع إلى مكاتبة معاوية قبل أن يعقد الصلح مع الحسن ، وشرط لنفسه ولمن معه الأمان وله الأموال . فلبى معاوية له شروطه ، فالتحق به عبيد الله، فأكرمه معاوية ، وكافأة بألف ألف درهم وقيل ألفى ألف درهم(٣٦) .

وأصبح عبيد الله مطاع الرأى عند معاوية ويتقبل مشورته فيمن يتولى أمور البصرة. وحسب الرواية فإن معاوية كان يريد أن يولى عليها أحد بنى القين ، فعدل عنه إلى عبد الله بن عامر بن كريز (ت ٥٩هـ)(٣٧) .

أما عبد الله بن عباس فتشير بعض الروايات إلى أنه كان قد غادر البصرة إلى الحجاز بعد أن استولى على بيت مالها ، وذلك عندما طلب منه أمير المؤمنين على ﷺ أن يرفع إليه الحساب(٣٨) . ويبدو من هذه الرواية الوضع والاختلاق ، فهناك عدة قرائن تشير إلى أن عبد الله بن عباس ﷺ ظل ملازماً لعلى ﷺ إلى اليوم الذى قتل فيه . ومن هذه الروايات ماورد فى ترجمة على بن عبد الله بن عباس حيث ذكرت بعض المصادر أن أمير المؤمنين علياً ﷺ افتقد عبد الله بن عباس فى اليوم الذى قتل فيه وذلك فى صلاة الظهر ، فسأل عنه فقيل له شغل بمولود ولد له . فلما قضى صلاته توجه إلى عبد الله بن عباس وهنأه بالمولود ودعا له ، ثم إن أمير المؤمنين سمى هذا المولود باسمه ، وكناه بكنيته ، فأصبح اسمه على بن عبد الله بن عباس(٣٩) .

وهناك رواية ذكرها الطبرى أن ابن عباس لم يبرح البصرة حتى قتل على ﷺ وبويع الحسن وشهد معه الصلح(٤٠) .

وهذه الروايات الأولى بالقبول والتصديق ، من تلك التى تقذف صحابياً جليلاً له من العلم والورع والتقوى ما يمنعه من استحلال مال المسلمين بغير حق(٤١) .

كما أنها تبين لنا أن ابن عباس صمد فى وجه معاوية إلى أن تنازل الحسن ، فلما أصبح معاوية خليفة دخل ابن عباس فيما دخل فيه المسلمون ، وبايع معاوية وتبعاً لما هو معروف عن معاوية الدهاء والحزم وحسن التصرف فى الأمور وقد

وصف نفسه بقوله : « لو كانت بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت »(٤٢) ، لذا كان من الطبيعي أن يقرب إليه أهل العلم ، والشرف ، ويجعلهم من خواصه ومقربيه ، فكيف برجل من بني عبد مناف ، أقرب إليه رحماً ، ويتمتع بمكانة كبيرة في عهد من سبقه لعلمه ، وفقهه ومكانته مثل عبد الله بن عباس . بل إننا نجد أن معاوية يقرب إليه بني هاشم أكثر من تقريبه لبني أمية ، ويجزل لهم العطايا أكثر من غيرهم؛ مثل الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠هـ) مما جعل بني أمية يعاتبونه على تقريبهم أكثر منهم(٤٣) .

وفي المقابل فإن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قابل ود معاوية بود ، واحتراما باحترام . وعبارات الثناء التي صدرت منه في حق معاوية تدلنا على ذلك، ومن هذه الأقوال :

١ - « ما رأيت أحداً كان أحق بالملك من معاوية ، لله دره إن كان لحليما ، وإن كان الناس لينزلون منه بأرجاء واد خصب »(٤٤) .

٢ - في إحدى قدمات ابن عباس إلى معاوية أمر الأخير ابنه يزيد أن يأتي ابن عباس ويسلم عليه ، فلم وصل إلى ابن عباس رحب به وحدثه . فلما خرج من عنده قال ابن عباس : « إذا ذهب بنو حرب ذهب حلماء الناس »(٤٥) . وقال هذا القول في يزيد بحكم معرفته الوثيقة به عندما شاركه في الحملة المتوجه إلى القسطنطينية لمحاولة فتحها سنة ٤٩هـ(٤٦) .

٣ - وقال عن معاوية : « لله در ابن هند ، ولينا عشرين سنة ، فما آذانا على ظهر منبر ولا بساط ، صيانة منه لعرضه ، وأعراضنا . ولقد كان يحسن صلتنا ويقضي حوائجنا(٤٧) .

وكان معاوية يستفيد من حضور ابن عباس إليه . روى علي بن عبد الله بن عباس قال : « كنت مع أبي عند معاوية ذات ليلة فأتاه المؤذنون يؤذنون لصلاة

العشاء الآخرة ، فضن بحديث أبى ، فأمر رجلاً أن يصلى بالناس ، ثم تحدثنا حتى إذا فرغنا من حديثهما ، قام معاوية فصلى وليس خلفه غيرى وغير أبى ، وذلك بعدما أصيب ابن عباس فى بصره ... »(٤٨) .

ولما أنكر على بن عبد الله على معاوية وتره بركعة واحدة ، قال له ابن عباس إنه أعلم منك(٤٩) .

هذه الروايات التى ذكرناها تختلف تماماً عن الروايات الأخرى التى تصور ابن عباس ومعاوية رضى الله عنهما ، كشخصيتين متنافرتين يتربص كل منهما بالآخر سقط الكلام ، ويبدو التباغض منهما كل تجاه الآخر ، ومن هذه الروايات:

١ - « ... لما جاء معاوية نعى الحسن بن على استأذن ابن عباس على معاوية ، وكان ابن عباس قد ذهب بصره ، فكان يقول لقائده ، إذا دخلت بى على معاوية فلا تقدنى ، فإن معاوية يشمت بى ، فلما جلس ابن عباس قال معاوية : لأخبرنه بما هو أشد عليه من أن أشمت به . فلما دخل قال : يا ابا العباس هلك الحسن بن على ، فقال ابن عباس : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وعرف ابن عباس أنه شامت به ، فقال : أما والله يا معاوية ، لا يسد حفرتك ولا تخلد بعده، ولقد أصبنا بأعظم منه فجبرنا الله بعده ، ثم قام . فقال معاوية : لا والله ما كلمت أحداً قط أعد جواباً وأعقل من ابن عباس(٥٠) .

وحقيقة هذا الموقف بين الرجلين جاءت فى رواية أخرى ، هى أن معاوية قال لابن عباس : « يا عجبا من وفاة الحسن شرب من عسله بماء رومه فقضى نحبه، لا يحزنك الله ولا يسوؤك فى الحسن ، فقال ابن عباس : لا يسوؤنى ما أبقاك الله » ، فامر له معاوية بمائة ألف وكسوة . وفى رواية ثانية أنه أمر له بألف ألف ما بين عرض وعين ، وقال له : « اقسم هذه فى أهلك »(٥١) .

هاتان الروايتان تدلان على أن كثيراً من الروايات التى وردت فى بعض المصادر تحرف الكلام عن مواضعه وتنقل أخباراً كاذبة عنهما سواء فى المفاخرة أو المعاتبة أو غيرهما من الأمور(٥٢) .

ونخرج من هذا كله بأن ابن عباس أقر بخلافة معاوية ، حامداً لها ، راضياً عنها ، إلى أن توفى معاوية بن أبى سفيان ﷺ سنة ٦٠ هـ ، لتبدأ أحداث جديدة فى الدولة الإسلامية سنرى موقف ابن عباس منها عما قليل .

أدت وفاة معاوية بن أبى سفيان ﷺ إلى تغير الأوضاع فى الدولة الإسلامية. وكانت بيعة يزيد بن معاوية مقدمة لهذه الأوضاع ، ذلك أن الموقف من خلافته أخذ يزداد وضوحاً فى أهم إقليمين من أقاليم الدولة الإسلامية هما العراق ممثلاً فى أهل الكوفة ، والإقليم الثانى هو الحجاز حيث يسكن كبار الصحابة وصغار أصحاب رسول الله ﷺ وفى مقدمة هؤلاء الحسين بن على رضى الله عنهما ، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما اللذين كانت لهما المواقف المعارضة بولاية العهد ليزيد فى حياة أبيه . وبعد البيعة وضحت معارضتهم لخلافة يزيد من خلال فرارهم من المدينة إلى مكة(٥٣) . وبالطبع لم يكن ابن عباس من المعارضين ليزيد ، إذ يذكر البلاذرى أن ابن عباس حين توفى معاوية كان فى مكة، فلما بلغه خبر وفاة معاوية استرجع ومدح معاوية ، وقال فى حقه أنه لن يأتى أحد بعده مثله . ومدح يزيدًا بأنه من صالحى أهله . ثم طلب ممن حوله أن يعطوا بيعتهم ليزيد . ومن ثم ذهب إلى والى مكة واعطى بيعته(٥٤) . ويذكر الطبرى رواية عن الواقدى أن ابن عمر وابن عباس لقيا الحسين وابن الزبير وهما فى طريقهما إلى مكة وسألاهما فأخبرهما بموت معاوية وبيعة يزيد ، فوعظهما ابن عمر، وسألهما ألا يفرقا جماعة المسلمين(٥٥) . فلما وصل الحسين إلى مكة قدمت رسل أهل الكوفة بمبايعته ودعوته للقدوم عليهم(٥٦) .

ويبدو أن يزيداً أحس بما يدبره شيعة الكوفة تجاهه ، لذا فإنه أراد أن يمنع الحسين بن على من الخروج عليه بواسطة كبير بنى هاشم والمنظور إليه من قبل أهل مكة عامة وبنى هاشم خاصة ، ألا وهو عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، الذى أمل فيه يزيد أن يمنع الحسين من الخروج عليه . ولذلك كتب إليه يقول : «... نحسب أنه جاءه رجال من المشرق فمنوه الخلافة ، وعندك منهم خبره ، فلو فعل فقد قطع القرابة والرحم ، وأنت كبير أهل بيتك ، والمنظور إليه ، فاكففه عن السعى فى الفرقة »(٥٧) . وقد رد عليه ابن عباس فى رسالة بقوله : « إنى لأرجو أن لا يكون خروجه لأمر تكره ، ولست أدع النصيحة له ... »(٥٨) ، ويلاحظ هنا أن ابن عباس رضى الله عنهما لم يلزم نفسه بشىء أمام يزيد غير الاجتهاد فى النصح للحسين حتى يكف عن الخروج .

ومما لا شك فيه أن ابن عباس من خلال مرافقته لأمير المؤمنين على ﷺ فى العراق ، عرف طبائع الشيعة هناك ، وأن الانقياد لهم سوف يؤدى إلى عواقب وخيمة لاتحمد عقباها ، ولذلك ذهب إلى الحسين مبيناً له ما يخشاه عليه من الذهاب إلى العراق ، وذلك من خلال قوله : « ... إنى لأظنك ستقتل غداً بين نسائك وبناتك كما قتل عثمان ... »(٥٩) ، فما كان من الحسين إلا أن قال له «إنك شيخ قد كبرت » ويبدو أن ابن عباس غضب من هذه الإجابة غيرالمتوقعة من الحسين ، ولذلك رد عليه ابن عباس بقوله : « ... لولا أن يزرى بى وبك ، لنشبت يدى فى رأسك ، ولو أعلم أنك تقيم إذا لفعلت ... »(٦٠) . وهناك رواية أخرى أن الحسين استشار ابن عباس فى خروجه من مكة إلى العراق فلم يؤيده فى ذلك ورد عليه ابن عباس بقوله السابق ، مما يدلنا على الخوف الشديد الذى انتابه من جراء خروج الحسين إلى العراق الذى صمم على التوجه إلى شيعته. وفى الطريق تصدت له قوات عبيد الله بن زياد وقتلته فى كربلاء سنة ٦١ هـ(٦١).

وقد ترك مقتل الحسين رضى الله عنهما آثار كبيرة أبرزها اعتصام ابن الزبير فى مكة والدعوة إلى نفسه فيها(٦٢) . ومن ناحية أخرى خرج أهل المدنية على يزيد ، ومن ثم حدثت وقعة الحرة التى قتل فيها الكثير من خيار أهل المدينة سنة ٦٣هـ(٦٣) .

هذه الأحداث وقعت وعبد الله بن عباس - كما يبدو من الروايات - فى مكة ، وبطبيعة الحال سيسعى ابن الزبير إلى أن يبايعه ابن عباس لتكون بيعته عونا أمام المسلمين من جهة ، ومن جهة أخرى ليثبت أن مناداته بالخلافة لها وجه شرعى ، بدليل مبايعة ابن عباس له . فما موقف ابن عباس من يزيد بن معاوية ؟ وما موقفه من عبد الله بن الزبير فى خضم هذه الأحداث ؟ .

يذكر البسوى فى تاريخه أن ابن الزبير دعا عبد الله بن عباس إلى بيعته بعد مقتل الحسين رضى الله عنهما فامتنع ابن عباس من بيعته ، فما كان من يزيد إلا أن بعث إليه رسالة يشكره فيها على موقفه من ابن الزبير ، ومحافظته على بيعته ، ويعده بالبر وتعجيل الصلة ، ويطلب منه فى رسالته أن يعلم الناس برأيه فى ابن الزبير ، لأنهم لرأيه أسمع ، وله أطوع(٦٤) . وكان يزيد يظن أن ابن عباس ﷺ كما كان عارفاً بحقه ، طاعة لله عز وجل دون أن يدرك الألم الكبير الذى شعر به المسلمون عموماً وبنو هاشم خصوصاً ، ومنهم بالطبع ابن عباس ، من جراء مقتل الحسين بن على ومن كان معه من أهل بيته ، لذلك كان رد ابن عباس إليه معبراً عن شعوره الغاضب من ذلك الحدث حيث كتب إليه « ... وسألت أن أحبب الناس إليك وأبغضهم وأخذلهم لابن الزبير فلا سرور ولا كرامة ، كيف وقد قتلت حسينا وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام ، غادرتهم خيولك بأمرك فى صعيد واحد مرملين بالدماء مسلوبين بالعراء ... »(٦٥) . ونرى من خلال هذه الإجابة أن ابن عباس كان فى شدة الغضب على يزيد ، إن التزم بالطاعة وفاء

للبيعة التى فى عنقه . ولم يلبث أن توفى يزيد عقب هذه الأحداث ، وخلفه ابنه معاوية بن يزيد الذى ما لبث أن مات هو الآخر بعد خلافته بشهر ونصف ، وذلك سنة ٦٤هـ(٦٦) . وأعقب وفاته اضطراب البيت الأموى ، مما أفسح المجال لابن الزبير أن ينتشر نفوذه من الحجاز إلى العراق إلى كثير من مناطق بلاد الشام ومصر ، حتى تولى مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ) أمور الدولة الأموية ، لتنقلب الأمور مرة أخرى لصالح بنى أمية . وهذا بالطبع سيقودنا إلى الإجابة عن السؤال الثانى الذى طرحناه من قبل عن علاقة ابن عباس بابن الزبير خلال الفترة من وفاة يزيد إلى تولى عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) وهى فترة أصبح فيها ابن عباس فى حل من البيعة بعد وفاة يزيد .

اشتهر فى بعض المصادر امتناع ابن عباس ومحمد بن الحنفية عن مبايعة ابن الزبير، وساق بعضها علة ذلك الامتناع وهى قولهم « لا نبايعك حتى تجتمع لك البلاد ويتفق عليك الناس »(٦٧) . وهذه المصادر توحى بالرفض المطلق لابن عباس لبيعة ابن الزبير الذى آذى كلا من ابن الحنفية وابن عباس بسبب موقفهم هذا .

والواقع أن ابن عباس كان قد بايع ابن الزبير وعضده ووقف معه فى بداية خلافته . لكن الأخير لم يستثمر هذا التأييد من ابن عباس ويدنى ابن عباس منه ، بل نجده يدنى إليه جماعة من بنى أسد ، ويقصى ابن عباس على علمه ورأيه ومكانته ، مما جعل ابن عباس يصرف تأييده عنه إلى عبد الملك بن مروان . ونأخذ هذه الحقيقة من صحيح البخارى رواية عن ابن عباس نفسه الذى برر فيه انصرافه عن ابن الزبير فيقول : « ... ألا تعجبون لابن الزبير قام فى أمره هذا فقلت : لأحاسبن نفسى له ما حاسبتها لأبى بكر ولا عمر ، ولهما كانا أولى بكل خير منه وقلت : ابن عمة النبى ﷺ ، وابن الزبير ، وابن أبى بكر ، وابن أخى خديجة ، وابن أخت عائشة ، فإذا هو يتعلى عنى ولا يرد ذلك ، فقلت : « ما كنت أظن

أني أعرض هـذا مـن نفسـي فيدعـه ، ومـا أراه يريـد خيراً ، وإن كـان لابـد لأن يربني(٦٨) ، بنو عمي أحب إلي من أن يربني غيرهم »(٦٩) ، وفـي روايـة أخـرى عنه يتضح سبب إحجام ابن عباس عن ابن الزبير وانصرافه إلى بني أمية بقولـه فـي حديث طويل « ... فآثر على التويتات ، والأسامات ، والحميدات » يريـد أبطنـا من بني أسد(٧٠) . وبذلك فقد تأزمت الأمـور بينهمـا إلى درجـة أن ابن عبـاس صعد إلى الطائف تاركاً مكة لابن الزبير الذى ضايقـه فيهـا أشـد المضايقـة ، ومـن هناك أوصى ابنه عليا باللحاق بعبد الملك بن مروان(٧١) ، ولم يلبث أن توفـي ﷺ سنة ٦٨هـ(٧٢) ، لتبدأ علاقة جديدة بين عبد الملك وأبنائه وبين على بن عبـد الله ابن عباس سنذكرها عما قليل .

* * *

توجه على بن عبد الله بن عباس إلى عبد الملك بن مروان فى الشام حسـب وصية أبيه . وتذكر بعض المصادر أن عبد الملك بن مروان سأله عن كنيته فأخبره بأنه يكنى بأبى الحسن ، فطلب منه أن يغير كنيته فغيرها إلى أبى محمد(٧٣) .

ويبدو فى هذه الرواية التى ساقتها تلك المصادر الوضع والاختـلاق ، سـواء بالنسبة لعلى بن عبد الله أو عبد الملك . ويتضح ذلك فى ضوء الأسباب التالية :

أولاً : أن عبد الملك بن مروان لم يكن رجلاً غريباً لدى علـى بـن عبـد الله ابن عباس ، وكذلك لم يكن غريباً عند عبد الملك ، فكلا الرجلين قرشى حجازى يعرف أحدهما الآخر تمام المعرفة من خلال نشأتهما فـى المدينـة ، وتلقيهمـا العلـم على اصحاب رسول الله ﷺ فيها . وما حادثة ثورة المدينة عنا ببعيد ، فقد أخـرج منها بنو أمية ومنهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك(٧٤) ، وقبض على علـى بـن عبد الله بن عباس عقب موقعة الحرة ومطالبته بالبيعة ليزيد(٧٥) ، مما يدلنا على أن كلا الرجلين من خلال تواجدهما فى المدينة فى تلك الفـترة كـان معروفـاً للآخـر تمام المعرفة .

ثانياً : مولد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس سنة ٦٠ هـ أو سنة ٥٨هـ(٧٦) .

وثورة المدينة سنة ٦٣ هـ وكانت سن محمد بن علي بين الثلاث إلى الخمس سنوات يومئذ فهل كان عبد الملك يجهل أن لعلى بن عبد الله ولداً يدعى محمداً ؟ الإجابة فيما يظهر هى أنه لم يكن يجهل ذلك .

لقد تغيرت كنية علي بن عبد الله بن عباس من قبل معاوية بن أبى سفيان ﷺ ، وهو الذى طلب من عبد الله بن عباس أن يغير كنية علي إلى أبى محمد ، ليس بغضا فى اسم علي بن أبى طالب وكنيته ، وإنما كما قال معاوية ﷺ : « ليس لكم اسمه وكنيته ، وقد كنيته أبا محمد »(٧٧) ، وهذا فيما يبدو إشعار من معاوية لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما بمكانته عنده ، وأن منزلته لا تقل عن منزلته ومكانته عند أمير المؤمنين علي ﷺ .

ثم إن علي بن عبد الله بن عباس لم يحضر مرغماً إلى عبد الملك وإنما طوعاً واختياراً ورغبة منه . وليس من المعقول أن يفاتح عبد الملك بن مروان بعد استخلافه فى أول لقائه بعلى بن عبد الله بن عباس بأسلوب فظ « غير اسمك وكنيتك فلا صبر لى على اسمك وكنيتك »(٧٨) ، مما يؤكد لدينا زيف مثل هذه الروايات بناء على ما سبق .

ومهما يكن فإن علي بن عبد الله أصبح من خواص عبد الملك حيث أجار عليه عددا من قادة العرب فى الكوفة من الذين خافوا غائلة عبد الملك ، فلجأوا إليه وقبل عبد الملك جواره ، وأمنهم حتى ظهروا(٧٩) . وتبعاً لمكانته تلك فإن علي بن عبد الله اصبح بإمكانه أن يدخل على عبد الملك فى مجالسه الخاصة ويلقى منه الإكرام ، ويقبل منه النصح ويقضى عنه دينه(٨٠) . واستمرت تلك العلاقة

الحسنة حتى أقدم على بن عبد الله على الزواج من أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر، والتى كان عبد الملك قد طلقها . واعتبر عبد الملك أن تصرف على هذا إهانة له ، ومن هنا بدأ يغير معاملته له(٨١) . ومما يجدر ذكره أن مروان بن الحكم تزوج أم خالد ابن يزيد بن معاوية حتى يضع منه ويصغر شأنه(٨٢) . ومن أجل ذلك كان غضب عبد الملك إذا اعتبر تصرف على بن عبد الله مثل تصرف مروان ابن الحكم مع خالد بن يزيد .

كانت هذه الفعلة من قبل على بن عبد الله سببا فى إقدام الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ) على إساءة معاملته . وتذكر بعض المصادر أنه ضرب بأمر من الوليد بسبب ذلك . ولم يكتف بذلك فأمر بنفيه إلى الحميمة سنة ٩٥هـ(٨٣) ، واستقر بها هو وبنيه منذ ذلك التاريخ .

ولم نعد نرى أى لقاء بين على بن عبد الله بن عباس والخلفاء الأمويين : الوليد ، سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) ، عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) ، بعد هذه الحادثة ، سوى لقاء واحد تحدث عنه ابن خلكان فى الوفيات وكان مع هشام بن عبد الملك من أجل ديون كثرت عليه فطلب من الخليفة الأموى قضاءها ، فوجد منه كل ترحاب وقضى عنه دينه ، كما طلب منه أن يستوصى خيراً بحفيديه ، وهما عبد الله وعبد الله المعروفان فيما بعد بالسفاح (ت ١٣٦هـ) ، والمنصور (ت ١٥٨هـ)(٨٤) .

وقد توفى على بن عبد الله بن عباس سنة ١١٧هـ(٨٥) ، ليحتل مكانته ابنه محمد بن على .

تذكر بعض المصادر أن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، هو أول عباسى عمل على إسقاط الدولة الأموية(٨٦) ، ووصول بنى العباس إلى الخلافة ،

وهذا يقودنا إلى سؤال : هو هل كان محمد بن على هو أول صاحب طموح سياسى للخلافة الإسلامية من بنى العباس ؟

وللإجابة على هذا السؤال لابد لنا من العودة مرة أخرى إلى الجذور بدءاً من العباس بن عبد المطلب . وقد عرفنا مكانته عند رسول الله ﷺ ، تلك المكانة ، وذلك التقدير والاحترام من جانب الرسول ﷺ تجاهه ، لم يعطه الجرأة لسؤال رسول الله ﷺ فى مرضه الذى مات فيه عن خلافته ﷺ ، ولذلك لجأ إلى ابن أخيه على بن أبى طالب ليسأل رسول الله ﷺ عنها قائلاً له : « إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، أذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر ؟ إن كان فينا علمنا ذلك وإن كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا ، فقال على : إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها ، لا يعطيناها الناس بعده ، وإنى والله لا أسالها رسول الله ﷺ »(٨٧) . ويتضح من هذا الحوار أن العباس ﷺ كان يجهل من سيكون له الأمر بعد رسول الله ﷺ ، ولنقل أنه كان يطمع أن يلى هذا الأمر بنو عبد المطلب ، ولذلك قال : إن كان فينا علمنا . وكانت إجابة على ﷺ دالة أيضاً على فقهه وعلمه وخبرته بمقاصد رسول الله ﷺ ، وأن مثل هذا السؤال ، لو أعطى فيه رسول الله ﷺ جوابا فى منعهم فلن يمكنهم الناس من الخلافة فى المستقبل ، ومعنى ذلك حرمانهم من حق مشاع فى قريش وهو الخلافة(٨٨) .

ثم إن عليا ﷺ كان يرى رسول الله ﷺ يقدم أبا بكر الصديق فى الصلاة عندما كان مريضاً ، ويرى إلحاحه فى ذلك(٨٩) ، ففهم ما يقصده ﷺ .

وجاء اختيار خلفاء رسول الله ﷺ بعد ذلك ليدلل بشكل قاطع على أن السبق والقدم فى الإسلام ، والمكانة من رسول الله ﷺ ، هى المرشح للخلافة ، ولا علاقة للقرابة من رسول الله ﷺ وحدها بهذه المسألة . من أجل ذلك فإن العباس رضى أن يكون كأحد أفراد المسلمين ، له مكانته وتقديره واحترامه من قبل

الخلفاء الراشدين . أما ابنه عبد الله بن عباس فقد أسهم مع أمير المؤمنين على ﷺ في جميع ما كلفه به ، واحتل لديه مكانة مرموقة . فلما قتل وتنازل ابنه الحسن ، عاد إلى ميدانه الذى وجد نفسه فيه وهو نشر العلم الذى فتح به الله عليه ، واكتسب مكانته ﷺ بين المسلمين ، وأحلوه من أنفسهم أيما محل . يروى أن معاوية حج ، وحج معه عبد الله بن عباس فكان معاوية فى موكب وابن عباس فى موكب فمن يسأل عن الفقه(٩٠) ، مما يعطينا الدليل على ما يحمله المسلمون من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من تقدير وإجلال ، وحب لهذا العالم لعلمه ولقرابته من الرسول ﷺ . واستمر فى هذا الميدان لم يتطلع لأى نفوذ سياسى . لقد قال له معاوية ذات مرة بعد وفاة الحسن بن على : « أصبحت سيد قومك ، قال ما بقى أبو عبد الله فلا »(٩١) ، دلالة على تواضعه وعدم سعيه للنفوذ السياسى .

وبعد مقتل الحسين وجدناه التزم بيعته ليزيد حتى وفاته ثم بايع لابن الزبير .

أما على بن عبد الله بن عباس - وإن لم يكن مثل أبيه - فإنه كانت له المكانة الكبيرة فى نفوس أهل الحجاز لعلمه وورعه وتقواه(٩٢) .

وعلى ذلك ارتضى بأن يكون مثل أبيه ، ولم يتطلع إلى الخلافة . ومن جانب آخر فإن الشيعة عموماً لم يتطلعوا إلى البيت العباسى كتطلعهم إلى البيت العلوى ، حتى أحدث أبو هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب (ت ٩٨، ٩٩هـ) هذا الانقلاب من خلال اتفاقه مع محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، ومن ثم أحدث هذا الاتفاق تحولاً كبيراً على يدى الأخير ، فتغيرت نظرة بنى العباس إلى الخلافة وبدأ تطلعهم نحوها .

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف على العلاقة بين هاتين الشخصيتين ومنذ متى بدأت ؟ وكيف انتهى المطاف بأبى هاشم بأن يخص محمد بن على العباسى

دون غيره من البيت الهاشمي بالدعوة السرية الهادفة إلى إسقاط بني أمية والحلول محلهم في الخلافة .

ويعد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس مؤسس الدعوة العباسية ومنظمها(٩٣) ، ذلك أنه كان قد ارتبط بأبي هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب الذي تذكر بعض المصادر أنه سلم أمور الدعوة السرية المناهضة لبني أمية إليه عند دنو أجله في الحميمة(٩٤) . ويرى البعض أن السبب الذي جعل أبا هاشم يوصي لمحمد بن علي هو عدم وجود من يخلفه من الذكور من ذريته(٩٥) ، فآثر أن يوصي إلى محمد بن علي . وهذا الافتراض غير صحيح ، لأن أبا هاشم كانت له ذرية من الذكور والإناث ، كما جاء في ترجمته في الطبقات لابن سعد(٩٥) ، ، كذلك ذكر كل من المزي ، وابن حجر أن له ابناً يدعى عيسى بن عبد الله وهو ممن روى عن والده(٩٦) . يضاف إلى ذلك أنه كان له أخ يدعى الحسن بن عبد الله بن محمد بن الحنفية(٩٧) ، توفى في خلافة عمر بن عبد العزيز (٨٩ ، ١٠٠هـ) ، فإذا كانت المسألة هي عدم وجود من يخلفه من ذريته إذا افترضنا وفاة أولاده في حياته ، فإن الشيء المؤكد أن أخاه الحسن قد توفي بعده بسنة على الأقل ، فلماذا لم يوص إليه إو إلى أحد من آل علي بن أبي طالب ؟

ويفترض بعض الباحثين أن للظروف أثرها في ذلك التنازل ، فعند وفاة أبي هاشم لم يكن بقربه إلا أولاد العباس ، وربما تنازل محمد بن علي ، أو أخبره بأن يعطيها لغيره . وكان محمد طموحاً ، فأخذها لنفسه ، وبقدر ما يتعلق الأمر بمحمد، فإنه عرف الدعاة وأسماءهم ، وسأل عنهم أبا هاشم قبيل وفاته .. »(٩٨).

واعتقد أن كل هذه التساؤلات والافتراضات تأتي في ظل غياب المعلومات الدقيقة في المصادر التي ربما لم يطلعوا عليها ، إذ أن صداقة الرجلين كانت قديمة وطموحاتهما أيضاً كانت قديمة في إسقاط الدولة الأموية ، إذ يذكر كل من ابن

عساكرو صاحب أخبار الدولة العباسية ، رواية عن عيسى بن على العباسى ، أن أبا هاشم كان يقف موقفاً عدائياً من على بن عبد الله بن عباس ، فلما بعث على ابن عبد الله ابنه محمداً إلى الوليد بن عبد الملك ، وجد عنده أبا هاشم محمد بن على ، فتقرب محمد إلى أبى هاشم وأخذ عنه العلم ، وأظهر له التقدير والاحترام ، كما بعث له بالهدايا ، مما كون بينهما صداقة قوية ، كف بعدها أبو هاشم عن تناول على بن عبد الله . وكانت هذه الصداقة أيضاً سبباً فى تحول دعاة خراسان إليه فيما بعد(٩٩) .

ويؤكد هذه التلمذة والتلقى أن كتب تراجم رجال الحديث ذكرت أن من الرواة عن أبى هاشم محمد بن على وابنه إبراهيم الإمام(١٠٠) .

ويبدو من خلال هذه الصداقة أن كلّ منهما عرف الآخر وعرف طموحاته. ووجد أبو هاشم فى محمد طموحاً سياسياً للخلاص من الخلافة الأموية. والبلاذرى يذكر رواية عن المدائنى تستحق أن نتوقف عندها وتحليلها . تقول هذه الرواية : أن على بن عبد الله بن عباس قال فى اجتماع بينه وبين ابنه وأبى هاشم : « يا أبا هاشم أهل المغرب يؤملونك . وقال لابنه محمد : أن أهل المشرق يؤملونك . ثم نظر إلى حمار بين شجرتين ، فقال : وا لله لا تليان حتى يلى هذا الحمار ،كيرتما عن تبين صاحب هذا الأمر »(١٠١) .

هذه الرواية أوضحت : **أولاً** : أن أبا هاشم كان له أنصار يدعون إلى ولايته ويتزعمونه ، وأن كنت لم أتوصل إلى ما قصد على بن عبد الله بأهل المغرب بالنسبة إلى أبى هاشم ، فإنه من المؤكد أن الذين كانوا يقولون بأمامة أبى هاشم هم طائفة من الفرقة الكيسانية(١٠٢) .

وثانياً : عرف على بن عبد الله بن عباس أن لابنه أنصاراً من المشرق يدعون لإمامته . ومعنى ذلك أن محمد بن على بن عبد الله بن عباس كان قد بدأ

فى تكوين أنصار له من أهل المشرق لا علاقة لهم بأبى هاشم . ولعل الرواية التى ساقها البلاذرى والتى يذكر فيها أن رجالاً من أهل المشرق بحثوا عمن يقودهم ، تلقى أيضاً ضوءاً على ذلك . وهذا نص ما قال : « ... كان الخراسانيون الذين قدموا لطلب الإمام يقولون هذا أمر لا يصلح إلا لذى شرف ودين وسخاء ، فتبعه قوم لشرفه ، وآخرون لدينه ، وآخرون لسخائه ، وأتوا رجلاً من ولد على بن أبى طالب ، فدلهم على محمد بن على بن عبد الله وقال أفضلنا فأتوه »(١٠٣) ، ومع أن هذه الرواية لم تحدد تاريخ هذا اللقاء ، ولا الشخص العلوى الذى دلهم عليه ، إلا أنه من الراجح أن ذلك كان قبل وفاة أبى هاشم بمدة طويلة .

وهنا تبدو نقطة مهمة يجب إيضاحها وهى تتعلق بأبى هاشم ذلك أن بعض المصادر ذكرت أن الفرقة الكيسانية كانت تتعلق به وبأبيه من قبله . ومن الواضح أن محمداً بن الحنفية كان يتبرأ منهم لغلوهم فيه(١٠٤) . ولا يبعد أن أبا هاشم مثل أبيه . وكما قال ابن حجر ينتحلونه أى ينتسبون إليه(١٠٥) . ولم يذكر صراحة موقفه منهم . ومما يقوى عندنا براءة أبى هاشم منهم توثيق الزهرى (ت ١٢٤هـ) لأبى هاشم وقرنه بأخيه الحسن ، وكان عنده الحسن أوثق(١٠٦) . فلو كان أبو هاشم يؤمن بأفكار الفرقة الكيسانية لما وثقه الزهرى وهو من أعلام المدينة النبوية ومحدثيها ، ولولا معرفته الوثيقة به لما وثقه .

ويقودنا هذا مرة أخرى إلى طرح افتراض آخر وهو : أليس من الجائز أن أبا هاشم بحكم التجارب التى مر بها أهل بيته بدءاً من أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى الحسن إلى الحسين مع أهل الكوفة ، ومحمد بن الحنفية مع المختار بن أبى عبيد (ت ٦٧هـ) ، اتضح لديه بجلاء أنه لا فائدة من الاعتماد على الشيعة العلوية فى مثل هذه الأمور الكبيرة التى برهنوا فيها على عدم نصحهم وحديتهم تجاه أهل البيت ، مما ولد لديه القناعة الأكيدة بأنه من الأفضل أن يسلم زمام

الأمور إلى شخصية تتمتع بالقيادة وبعد النظر وحسن التنظيم ، وهى صفات يبدو لى أنه عرفها فى محمد بن على . فلما حانت وفاته أوصى دعاته بعد إقناعهم ، بأن ينضموا إليه ويقفوا إلى جانبه(١٠٧) . يضاف إلى ذلك السمعة الحسنة والمكانة الكبيرة للبيت العباسى من خلال مكانة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ثم على بن عبد الله بن عباس ، وأخيراً محمد بن على الذى كانت له منزلة كبيرة أيضاً إلى درجة أن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) رحمه الله قال فى شأنه عندما زاره ثم خرج من عنده : « لو كان إلى من الخلافة شىء لقمصتها هذا الخارج »(١٠٨) .

كل هذه الأسباب والعوامل التى ذكرناها سابقاً تبين بوضوح سبب إقدام أبى هاشم على أن يسلم مقاليد الدعوة التى كان يديرها إلى محمد بن على العباسى لتضافر الجهود فى إسقاط الدولة الأموية .

ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل الدعوة العباسية وتنظيماتها وكيف أدارها محمد بن على العباسى ، فهذا موضوع آخر ، ولكن الذى يعنينا فى المقام الأول هو علاقته بالخلفاء الأمويين بعد قيامه بالتنظيم للدعوة ، وهل ابتعد عنهم ؟ أم ظل كسابق عهده فى زيارتهم والتقرب إليهم ؟

تشير بعض المصادر إلى أن محمد بن على العباسى لم يقطع صلته بهم ، وكما مر معنا فإنه دخل على عمر بن عبد العزيز وزاره أثناء خلافته . ولم أجد فيما بين يدى من مصادر شيئاً عن اتصاله بيزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) . وتأتى ذروة العلاقة فى خلافة هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ) الذى نشطت الدعوة العباسية فى عهده نشاطاً ملحوظاً ، إذ بدأت المصادر تتحدث بشكل ظاهر عن الدعاة العباسيين ، وذلك فى السنوات ١٠٥هـ ، ١٠٧هـ ، ١٠٩هـ ، ١١٧هـ ، ١١٨هـ(١٠٩) .

وهذا النشاط المحموم لدعاة بنى العباس فى عهد هشام بن عبد الملك يوضح لنا بجلاء استغلال محمد بن على ودعاته لهذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة الأموية. صحيح أن عهد هشام يعد من عهود الخلفاء الأقوياء من بنى أمية ، لكن يبدو أن قرب محمد بن على من بلاد الشام ، ومن البلاط الأموى جعله يطلع على كثير من أسرار هذا البيت ، ويعرف بوادر النزاع المقبلة بعد انقضاء خلافة هشام ، سيما وأن يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) كان قد اشترط على هشام أن يجعل الوليد بن يزيد ولى عهده(١١٠) . وربما كان هذا الشرط من العوامل التى جعلت الحسد والتنافس يدب فى أفراد البيت الأموى الحاكم . ولذلك نشط دعاة بنى العباس فى تلك الفترة ، استثمارا لما بعد هشام ، وتهيئة الناس لتلقى فكرة ظهور العباسيين والتى روجوا لها بالبشارات والأحاديث النبوية والطعن فى بنى أمية ، إلى غير ذلك من الأساليب التى استخدموها للتحضير لقيام دولتهم(١١١) .

ومن المؤكد أن هشام بن عبد الملك لم يكن غافلاً عن هذه الدعوة ، ولا عن أصحابها ، وذلك من خلال ولاته على خراسان ، وعلى رأسهم أسد بن عبد الله القسرى (ت ١٢٠هـ) الذى سبق له أن قبض على عدد من الدعاة ونكل بهم(١١٢) . وقد عبر هشام عن غضبه على محمد بن على العباسى أكثر من مرة بسبب هذه الدعوة ، ومن ذلك أن محمد بن على استأذن على هشام بن عبد الملك، فلما دخل عليه سأله عن سبب مجيئه ، فقال : حاجة يا أمير المؤمنين ، فقال له هشام : « انتظر بها دولتكم التى تتوقعونها وتروون فيها الأحاديث وترشحون لها أحداثكم »(١١٣) .

وأتهم هشام بنى العباس أنهم جعلوا رسول الله ﷺ لهم سوقاً(١١٤) . ويبدو أن هشام بن عبد الملك أدرك مدى خطورة الدعاية التى قام بها العباسيون فى أيامه، وأنها أثرت فى الناس واستمالت كثيراً منهم . لذلك نراه قد هم بسجن

محمد بن على وأبنائه ، لأنهم كما قال « يزعمون ان الخلافـة تصير إليهـم ، وقـد استشرف لها الناس »(١١٥) ، وربما أن هشاماً لم يملك دليلاً قوياً ضـد رجـل بعينـه منهم ، لشدة التكتم على صاحب الدعوة ، أو أنـه خشى مـن الإقـدام على هـذه الخطوة إذ ربما يكون لها عواقب وخيمة ، أو ليتخذ عندهـم يـدا بالإحسـان إليهـم ليكافئوه عند وصول الأمر إليهم ، كما قال له الأبرش الكلبى(١١٦) .

وعلى كل فقد توفى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ(١١٧) ، وتوفـى قبلـه محمد بن على سنة ١٢٤هـ ، أو سنة ١٢٥هـ(١١٨) ، ودخلت الأسرة الأمويـة فـى صراع على السلطة ، وخاصة بعد مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ ، وقيام فتنة عمت أرجاء الدولة الإسلامية استثمرها بنو العباس ، وأعلنوا ثورتهم المسلحة على الدولة الأموية سنة ١٢٩هـ ، ومن ثم إسقاطها سنة ١٣٢هـ .

الهوامـش

(١) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ١٥ - الكلبى ، جمهرة النسب ، ص ٢٦ -٢٧.

(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٤ ، ص ٥ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ١ ، ص ٤٤١ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٤ ، ص ١٧ - ١٨ ، ابن حجر ، الإصابة فى تمييز الصحابة ، جـ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٥) ابن عبد البر ، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، جـ٦ ، ٩ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٦) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، جـ٦ ، ص ١٠ - ابن حجر ، الإصابة ، جـ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٧) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، جـ٦ ، ص ١٠ -١١ .

(٨) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٩) ابن حجر ، الإصابة ، جـ٥ ، ١٢٧ .

(١٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ٢ ، ص ٤٤ ، ٦٢ ، ٢١٥ .

(١١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ٢ ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

(١٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، جـ٥ ، ص ١١٧ .

(١٣) أم حبيبة هى : رملة بنت أبى سفيان ، ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً ، تزوجت عبيد الله بن جحش الأسدى أسلما وهاجراً إلى الحبشة حيث ارتد فيها زوجها إلى النصرانية وتوفى عنها هناك ، فأرسل رسول الله ﷺ يخطبها ، وأصدق النجاشى عن رسول الله ﷺ وزوجه إياها ثم بعث بها إلى المدينة ، توفيت فى المدينة سنة ٤٤هـ انظر : ابن حجر ، الإصابة ، جـ١٢ ، ص ٢٦٣ .

(١٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، جـ١٠ ، ص ٣٥ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٩ ، ص٢٣٣ .

(١٥) ابن حجر ، الإصابة ، حـ٥ ، ص ١٢٩ ، وانظر الزركلى ، الإعلام ، حـ٣ ، ص ٢٠١.

(١٦) خليفة بن خياط ، الطبقات ، ص ٣٩ ، ابن حجر ، الإصابة ، حـ٥ ، ص ١٢٩ .

(١٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ٢٧ ، ٢٩ .

(١٨) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حـ١ ، ص ٤٠٣ .

(١٩) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حـ١ ، ص ٤٠٣ ، قال العباس : « مهلاً يا عمر فوالله أن لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف ، فقال عمر : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم » . ويبدو لى والله أعلم أن العباس لم يقصد اتهام عمر بالعصبية والتحامل ، وإنما أراد أن يكسر حدة عمر فى ذلك الموقف ويصرفه عن أبى سفيان فقال له ما قال .

(٢٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حـ١ ، ص ٤٠٣ .

(٢١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، حـ٤ ، ص ٢٨ ، ونص الرواية : « لما استخلف أبو بكر قال أبو سفيان : ما لنا ولأبى فصيل إنما هى بنو عبد مناف » ، وهناك روايات أخرى حول موقف أبى سفيان من بيعة الصديق ﷺ يبدو عليها الوضع . انظر نفس المصدر ، ص ٢٦. وانظر البلاذرى ، أنساب الأشراف ، م٣ ، ص ٢٧١ .

(٢٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، حـ٤ ، ص ٢٠٥ ، ابن الأثير الكامل حـ٤ ، ص ٤٠٢ .

(٢٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، حـ٤ ، ص٢٣ - ٢٦ .

(٢٤) ورد فى صحيح البخارى ص ٧١٩ حديث رقم ٣٤٩٥ عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : « الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم » ، وفى مسند الإمام أحمد ، حـ١ ، ص ١٩٩ من رواية أبى بكر الصديق ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قريش ولاة هذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم » .

(٢٥) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، ٣٤٤ .

(٢٦) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ٤٧ وسبب هذه المقولة أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ عاتبوا عمر بن الخطاب على دخول ابن عباس معهم عليه على حداثة سنه ، فطلب منهم عمر ﷺ تفسير سورة النصر فكان ابن عباس رضي الله عنهما أحسن تفسيراً وأكثر فهماً لمعانيها ومقاصدها . وانظر أيضاً أحمد بن حنبل ، كتاب فضائل الصحابة ، جـ٢ ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٢٧) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، جـ٢ ، ص ٤٨٦ .

(٢٨) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٩٩ ، الطبري ، تايخ الأمم جـ٤ ، ص ٢٠٥ ، الذهبي سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، ص ١٣٢ .

(٢٩) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ٢٤ ، ص ٤٠٢ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٩ ، ص ٢٣٢ .

(٣٠) الطبري ، تاريخ الأمم جـ٥ ، ص٢٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧ ، ص١٥٨.

(٣١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، جـ١ ، ص ١٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص ١٩٨ .

(٣٢) الطبري ، تاريخ الأمم جـ٥ ، ص٤٥٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧ ، ص ٢٤٧.

(٣٣) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ ٢ ، ص ٥٧٣ - الطبري ، تاريخ الأمم جـ٥ ، ص ٤٤٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧ ص ٢٤٩ .

(٣٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧ ص ٢٤٩ .

(٣٥) صحيح البخاري ، ص ٥٤٢ ، حديث ٢٧٠٤ .

(٣٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٧ ص ٢٤٩ .

(٣٧) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ٧٨ - ٧٩ ، الطبري ، تاريخ الأمم جـ٦ ، ص٧٩ .

(٣٨) الطبرى ، تايخ الأمم جـ٥ ، ص٨٢ .

(٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٤٠) المبرد ، الكامل فى الأدب ، جـ١ ، ص ٣٦٧ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ص ٢٧٤ .

(٤١) الطبرى ، تايخ الأمم جـ٦ ، ص ٥٨ .

(٤٢) علق محمد بركات البيلى فى بحثه الدعوة العباسية ، ص ٧ - ٨ على رواية استيلاء ابن عباس على بيت مال البصرة بقوله : « سواء كان هذا الاتهام صحيحاً أم باطلاً ، فيبدو أن الأموال التى استحوذ عليها عبد الله بن عباس ، قد جعلت بنيه فى سعة من العيش ومكنتهم فيما بعد من الانفاق على الدعوة العباسية وتحمل أعبائها المالية » ثم استند فى الحاشية على ما بذله محمد بن على بن عبد الله العباسى لبعض أهل خراسان من مال ، ليدلل على صحة استيلاء ابن عباس على بيت مال البصرة ، والواقع هو كذب تلك الرواية أولاً ، وثانياً لم يكن على بن عبد الله بن عباس الوارث الوحيد لأبيه ، فله أخوة كثيرون كما فى ترجمة العباس ولم يكن محمد بن على الوريث الوحيد لوالده فهو الآخر لديه أخوة كثيرون يشاركونه فى الميراث ، ويستبعد أن يكون مال البصرة المزعوم ما زال موجوداً إلى ما بعد المائة للهجرة .

(٤٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٤٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٤٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص ٥٤ - ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص ١٣.

(٤٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص ٥٤ .

(٤٧) الطبرى ، تاريخ الأمم ، جـ٦ ، ص ١٤٨ .

(٤٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص٩١ .

(٤٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ٢ ، ص٩٨٤ - ٩٨٥ .

(٥٠) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ٢ ، ص٩٨٥ .

(٥١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، حـ١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٢ .

(٥٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، حـ١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٥٣) انظر مثلاً : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، حـ٤ ، ص ٨٠ - ٨٣ .

(٥٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ٢٣٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٦ ، ص ٢٦٠.

(٥٥) أنساب الأشراف ، حـ٥ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٥٦) الطبرى ، تايخ الأمم حـ٦ ، ص ٢٦٣ .

(٥٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣١ ، الطبرى ، تاريخ الأمم حـ ٦ ، ص ٢٦٧ .

(٥٨) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ص٣٠٤ .

(٥٩) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ص٣٠٤ .

(٦٠) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ص٣٠٤ .

(٦١) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ص٢٩٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٨ ص ١٧٣ .

(٦٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٤٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٦ ، ص ٣٢٥ .

(٦٣) يذكر خليفةبن خياط فى تاريخه أن ابن الزبير دعا إلى نفسه بعد موت يزيد بن معاوية وذلك سنة ٦٤هـ .

(٦٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ص٢٣٧ - ٢٣٩ ، الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٩٦ - الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٦ ، ص ٤٢١ - ٤٢٥ .

(٦٥) المعرفة والتاريخ ، مجلد ٢ ، ص ٥٣١ - وانظر ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حـ٤ ص ١٢٧ .

(٦٦) البسوى ، المعرفة والتاريخ ، مجلد١ ، ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حـ٤، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٦٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ص٢٥٥ .

(٦٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ص ١٧٢ ، وانظر : البسوى ، المعرفة والتاريخ ، مجلد١ ، ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حـ٤ ، ص ١٢٧ .

(٦٩) يربنى : بفتح الياء وضم الراء والباء المشددة أى يكون على أميراً وذلك كما فسره ابن حجر ، أو بمعنى رباه وقام بامره وملك تدبيره . ومعنى كلام ابن عباس « لأن أكون فى طاعة بنى أمية أحب إلى من أن أكون فى طاعة بنى أسد » لأن بنى أمية أقرب إلى بنى هاشم من بنى أسد . انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ، حـ٨ ، ص ٣٢٠ .

(٧٠) ابن حجر ، فتح البارى ، حـ ٨ ، ص ٣٢٦ .

(٧١) ابن حجر ، فتح البارى ، حـ ٨ ، ص ٣٢٦ .

(٧٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١٤٤٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٧٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ٧١ .

(٧٤) الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٧ ، ص٦٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ٤ ، ص ٢٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٧٥) الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٦ ، ص٤١٨ .

(٧٦) ابن الأثير ، الكامل ، حـ٤ ، ص١٢٠ .

(٧٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، حـ١٥ ، ص ٧٤٩ .

(٧٨) المبرد ، الكامل فى الأدب ، حـ١ ، ص ٣٦٧ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣، ص ٢٧٤ .

(٧٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ ، وفى الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٧ ، ص٦٣٨ أن عبد الملك سأله عن اسمه وكنيته فأخبره فقال عبد الملك لا يجتمع فى عسكرى هذا الاسم والكنية لأحد وسأله هل له من ولد فأخبر بولده محمد فكناه به .

(٨٠) ابن الأثير ، الكامل ، حـ٤ ، ص ٣٣١ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ٩٩، ١٠٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٤ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٨١) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص ٢٧٨ . وذكر أن التى تزوجها على هى لبابة بنت عبد الله بن جعفر .

(٨٢) الطبرى ، تاريخ الأمم جـ٦ ، ص ٥٥٢ .

(٨٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣، ص٢٧٥ ، والحميمة - صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك من إقليم البلقاء ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص٢٧٨ .

(٨٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص٢٧٦ .

(٨٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص٢٧٧

(٨٦) ابن أسد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٢١ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤، ص ١٠٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص١٨٧ .

(٨٧) ابن كثير ، البداية ، جـ٥ ، ص ٢٢٧ .

(٨٨) عليان ، قيام الدولة العباسية ، ص ١٥.. نقلاً عن محمد حلمى أحمد ، الخلافة والدولة فى العصر العباسى .

(٨٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ١٠٩ .

(٩٠) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ٢ ، ص ٩٨٣ .

(٩١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ١ ، ص ٣٦٣ ، تحقيق محمد بن صامل ، ويقصد بقوله : « ما بقى أبو عبد الله الحسين بن على رضى الله عنهما .

(٩٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٩٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٢ ، أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، ص١٩ .

ويرى فاروق عمر ، أن على بن عبد الله بن عباس هو أول شخصية تطمح لنيل الخلافة ، دون أن يسند ذلك إلى مصدر ، والواقع هو أن ابنه محمداً هو الذى بدأ العمل من أجل ذلك . انظر : العباسيون الأوائل ، جـ١ ، ص ٤٠ .

(٩٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٤٨ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٢٠ ، ص ١٠٨ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٧٨ .

(٩٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ، ص ١٨٧ ، الدورى ، العصر العباسى ص ٢٢، الكبيسى ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٧٤ .

(٩٦) جـ٥ ، ص ٣٢٩ ، ومن هؤلاء الأبناء هاشم ، وبه كان يكنى ، ومحمد الأصغر وعلى ، وطالب ، وعون ، وعبيد الله ، ولم يذكر ابن سعد وفاة هؤلاء أو بعضهم فى حياة أبيه .

(٩٧) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، جـ٦ ، ص ٨٧ ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(٩٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٢٨ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ص١٦ .

(٩٩) الكبيسى ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٧٤ . وانظر فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، جـ١ ، ص ٣٩ أخبار الدولة العباسية ، ص ١٧٣ ، تاريخ دمشق ، جـ١٤٥ ، ص ٧٤٩ .

(١٠٠) المزى ، تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، جـ١٦ ، ص ٨٧ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(١٠١) أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٠٥ .

(١٠٢) نسبة إلى رجل يدعى كيسان مولى لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ وقيل تلميذ لمحمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، والكيسانية تعتقد فى أبن الحنفية حده ودرجته من إحاطته بالعلوم كلها ، ويجمعهم القول بان الدين طاعة رجل ، حتى حملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وغير ذلك على رجال وهم فرق متعددة ومنها المختارية أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى . انظر : الشهرستانى ، الملل والنحل ، مجلد١ ص ١٤٧ - ١٥٤ .

(١٠٣) الأنساب ، جـ٤ ، ص ١٠٨ .

(١٠٤) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ١ ، ١٤٩ .

(١٠٥) تهذيب التهذيب ، ص ٦٦ .

(١٠٦) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(١٠٧) المزى ، تهذيب الكمال ، جـ١٦ ، ص ١٤٦ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص١٦.

(١٠٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٠٨ .

(١٠٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ٢ ، ص ٩٨٧ .

(١١٠) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم جـ٥ ، ص ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، حوادث السنوات المذكورة .

(١١١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٦٤ .

(١١٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١١٢ .

(١١٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٣ .

(١١٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١١٢ .

(١١٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(١١٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١١٣ .

(١١٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص١١٣.

(١١٨) كانت وفاته فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ . ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص ٢٦١ .

(١١٩) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١١٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٥ ، ص ٢٧٥ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير : عز الدين على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى (ت ٦٣٠هـ) .

١ - الكامل فى التاريخ ، جـ ٣ ، جـ٤ ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

البخارى : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) .

٢ - صحيح البخارى : الطبعة الأولى ، الرياض ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

البسوى : يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ) .

٣ - المعرفة والتاريخ ، مجلدا ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١٠هـ .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) .

٤ - كتاب جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ٤ ، ٥ ، تحقيق سهيل زكار ، ورياض زركلى ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

ابن حجر : الحافظ شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) .

٥ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، جـ٨ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ومحب الدين الخطيب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٦ - الإصابة فى تمييز الصحابة ، جـ٥ ، ٩ ، ١٢ ، تحقيق طه محمد الزينى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٧ - تهذيب التهذيب ، جـ٦ ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد الدكن .

حنبل : الإمام أبو عبد الله أحمد بن بن حنبل (ت ٢٤١هـ) .

٨ - مسند الإمام أحمد ، جـ١ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، بيروت .

٩ - كتاب فضائل الصحابة ، جـ١ ، ٢ ، تحقيق وصى الله بن محمد عباس ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت ٦٨١هـ) .

١٠ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، مجلد ٣ ، ٤ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م .

خياط : خليفة بن خياط العصفرى (ت ٢٤٠هـ) .

١١ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

الدينورى : أبو حنيفة بن داود (ت ٢٨٢هـ) .

١٢ - الأخبار الطوال ، مراجعة وتصحيح حسن الزين ، بيروت ١٩٨٨م .

الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) .

١٣ - سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون الطبعة ١١ ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

الزبيرى : أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ) .

١٤ - كتاب نسب قريش ، عنى بنشره وتصحيحه ليفى بروفنسال الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٢م .

ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهرى (ت ٤٣٠ هـ) .

١٥ - الطبقات الكبرى ، الطبقة الخامسة من الصحابة ، جـ١ ، ٢ تحقيق محمد بن صامل السلمى ، الطبعة الأولى ، الطائف ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

الطبقات الكبرى ، مجلد ٤ ، بيروت ، بدون تاريخ .

الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر (ت ٥٤٨هـ) .

١٦ - الملل والنحل ، جـ ١ ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) .

١٧ - تاريخ الأمم والملوك ، الأجزاء ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٧٨م .

ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله (ت ٤٣هـ) .

١٨ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، جـ ٥ ، ٦ ، ١٠ ، تحقيق طه محمد الزينى، الطبعة الأولى مذيلة بكتاب الإصابة ، القاهرة ١٣٣٦هـ ، ١٩٧٦م .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ) .

١٩ - العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م .

ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن (ت ٥٧١هـ) .

٢٠ - تاريخ دمشق ، طبعة مصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ، وضع فهارس الموضوعات والتراجم الشيخ محمد بن رزق الطرهونى ، المدينة المنورة ١٤٠٧هـ .

ابن كثير : الحافظ أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤هـ) .

٢١ - البداية والنهاية ، جـ ٥ ، ٧ ، ٨ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م .

الكلبى : هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ) .

٢٢ - جمهرة النسب ، تحقيق ناجى حسن ، بدون ذكر لتاريخ ومكان الطبعة .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد النحوى (ت ٢٨٥هـ) .

٢٣ - الكامل فى اللغة والأدب ، جـ١ ، بيروت ، بدون تاريخ الطبع .

مجهول : من مؤرخى القرن الثالث الهجرى .

٢٤ - أخبار الدولة العباسية ، تحقيق عبد العزيز الدورى ، وعبد الجبار المطلب ، بيروت ١٩٧١م .

المزى : جمال الدين يوسف المزى (ت ٧٤٢هـ) .

٢٥ - تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، جـ١٦ ، تحقيق بشار عواد معروف ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

ابن منظور : محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) .

٢٦ - مختصر تاريخ دمشق ، جـ٤ ، أختصره على نهج ابن منظور وعنى بتحقيقه إبراهيم صالح .

٢٧ - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، جـ٢٥ ، تحقيق مأمون الصاغرجى ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

ابن هشام : عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ) .

٢٨ - السيرة النبوية ، جـ١ ، ٢ ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

ثانياً : المراجع :

البيلى : محمد بركات :

٢٩ - الدعوة العباسية « ثورة بنى العباس على الخلافة الأموية » القاهرة١٩٨٦م.

الدورى : عبد العزيز :

٣٠ - العصر العباسى الأول ، دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٨م .

الزركلى : خير الدين :

٣١ - الأعلام ، جـ٣ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٩م .

العبادى : أحمد مختار :

٣٢ - فى التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت ١٩٧١م .

عليان : محمد عبد الفتاح .

٣٣ - قيام الدولة العباسية ، وتفسير جديد لدوافع الفرس إلى مؤازرتها ، ط٢ ، القاهرة ١٩٩٤م .

فوزى : فاروق عمر :

٣٤ - العباسيون الأوائل ٩٧هـ / ٧١٦م - ١٧٠هـ / ٧٨٦م ، جـ١ الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

الكبيسى : عبد المجيد صالح :

٣٥ - عصر هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م) بغداد ١٩٧٥م .

المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب
من خلال كتابه : « أحسن التقاسيم »

د. عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح(*)

تقديم :

التاريخ والجغرافية عند العرب فرعان متقاربان من فروع شجرة المعارف العامة المعروفة بـ (الأدب) . ولذا فإن عدداً من الرواد كانوا مؤرخين وجغرافيين في الوقت نفسه[1] ، مثل : « هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩م »[2] ، واليعقوبي المتوفى سنة (٢٨٤هـ / ٨٩٧م)[3] .

وقد شهد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) - وهو قرن ازدهار الحضارة الإسلامية - اهتماماً واسع النطاق بالمصنفات الجغرافية ، فيما عرف بكتب (المسالك والممالك) . وقد أطلق كراتشكوفسكي على عدد من أعلام المصنفين في ذلك المجال - من أمثال : البلخي[4] ، (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) ، والاصطخري المتوفى حوالي منتصف القرن الرابع الهجري[5] ، والمقدسي (أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر للميلاد) - لقب أصحاب (المدرسة الكلاسيكية) ، قاصداً بذلك اقتصارهم في مؤلفاتهم على أقاليم دار الإسلام ، وبلوغهم منزلة جيدة في فن رسم الخرائط[6] ، وحول آخر هؤلاء الأعلام (المقدسي) يدور هذا البحث .

أولاً : التعريف بالمقدسي :

نبدأ بالإشارة إلى ندرة المادة العلمية المتاحة في تراجم ذلك العلم الجغرافي المؤرخ ، وإلى تناقل المراجع المتوالية لها واجترارها ، دونما إضافات حقيقية شافية . ولعل هذا النوع من العلماء ، الذين غلبت عليهم اهتماماتهم الجغرافية لم يحظ

(*) مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

باهتمام مصنفى كتب التراجم والطبقات ، الذين وجهوا انتباههم إلى المحدثين ، والفقهاء ، والمفسرين وغيرهم ، ولم يفطنوا إلى تراجم الجغرافيين . وإزاء ذلك النقص الشديد فى المادة ، حاولت سد الخلل عن طريق استخراج المزيد عنه من خلال كتابه : (أحسن التقاسيم) .

أولاً : نسبه وأسرته :

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء المقدسى(٧) ، الحنفى(٨) ، المعروف بـ (البشارى)(٩) ، ومن خلال سياقه نسبه السابقة ، وما توفر لدىّ من معلومات نلاحظ ما يلى :

(أ) أن (المقدسى) شامى فلسطينى ، ينتمى إلى مدينة (بيت المقدس) تحديداً ، كما هو ظاهر من نسبه ، وعلى نحو ما صرح به فى كتابه(١٠) .

(ب) أنه يتبع المذهب الحنفى فى الفقه ، وسنرى بعض التفاصيل عن ذلك عند تناول (ثقافته) .

(جـ) أن جده لأبيه(١١) المعروف بـ (أبى بكر البناء) كان من أشهر البنائين ، وأمهرهم ، وأبرعهم فى زمانه . ولعل ما قام به من تشييد التحصينات القوية الخاصة بميناء (عكا)(١٢) ، زمن أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠هـ / ٧٦٨ - ٨٨٣م) يشهد له بالريادة فى مجال (الهندسة المعمارية) ، التى تمكن - بمقتضاها - من الاهتداء إلى البناء فى الماء فى ذلك الوقت المبكر . وقد حظى بإعجاب ابن طولون ، فدفع إليه ألف دينار ، بخلاف الخلع وغيرها من المركوب ، علاوة على تخليد اسمه بتسجيله على الميناء ، اعترافاً بفضله فى حماية الميناء ومراكبه من إغارة الأعداء(١٣) .

(د) عرفنا - من خلال قراءة كتاب المقدسى - أن والده كان على درجة ما من الثراء ممتلكاً عدداً من الغلمان ، الذين روى عنهم المقدسى فى كتابه عند حديثه عن بناء الحمامات فى (إقليم فارس)(١٤) .

(هـ) كان عمه (أبو على الحسن بن أبى بكر) ، مهتماً بالآثار المعمارية القديمة فى مدينة (بيت المقدس) ، وعنه روى المقدسى ما يتصل بموقع قبر سيدنا يوسف (عليه السلام) بأرض فلسطين . وقد ذكر أن عمه المذكور ، وجده، كانا يشرفان على عمليات حفر العمال ، حتى انتهوا إلى خشب العجلة - ربما التى يظن أن جثمان يوسف حمل عليها - قد أكلتها الأرض . و لم يزل المقدسى يجد من بقاياها عند عجائز قومه ، يستشفين بها من الرمد(١٥) .

(و) وردت إشارة سريعة إلى أسرة والدة المقدسى فى كتاب: (أحسن التقاسيم)، إذ ذكر المؤلف أن جده لأمه (أبا الطيب الشوا) ينسب - فى الأصل - إلى كورة (قوميس)(١٦) ، بـ (إقليم الديلم) ، وإلى مدينة (بيار) تحديداً ، تلك التى تعد إحدى مدن قصبة (قومس) المسماة بـ (الدامغان) . وقد رحل هذا الجد إلى بلاد الشام مع ثمانية عشر رجلاً(١٧) فى وقت لم يحدد بدقة . ويبدو أنه استقر مع أسرته هناك ، وطاب لهم المقام .

وأخيراً فقد أشار المقدسى - فى كتابه - إلى خاله (عبد الله بن الشوا)، وروى عنه خبراً يتصل بـ (قرية دير شمويل) القرية من (ايليا) بـ (إقليم الشام)(١٨) .

وهكذا ، رسمنا الملامح العامة للأسرة التى نشأ فى رحابها المقدسى ، من خلال الشذرات المتناثرات فى كتابه . ويتضح منها مقدار ما تمتعت به هذه الأسرة من مكانة متميزة مادياً وعلمياً (من جهة الأب) ، وأنها تضرب بأصولها فى بلاد المشرق (من جهة الأم) . ولعل هذه الازدواجية كان لها تأثيرها فى تقسيم المقدسى كتابه إلى قسمين : (أقاليم العرب) ، و(أقاليم العجم) ، إلى جانب تأثيرات أخرى نتعرض لها عند دراسة كتابه فيما بعد .

ثانياً : حول مولده ، ووفاته :

لم تحدد سنة ميلاد (المقدسى) تحديداً مباشراً ، لكن أمكن معرفتها - على نحو قاطع - عن طريق التاريخ ، الذى حدده الرحل لظهور كتابه : (أحسن التقاسيم) ، إذ ذكر أنه أخرج إلى حيز الوجود سنة (٣٧٥هـ / ٩٨٥م) ، وهو فى الأربعين من عمره(١٩) . وبعملية حسابية يسيرة ندرك أنه ولد سنة (٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)(٢٠) .

أما بالنسبة لتاريخ الوفـاة ، فليست ثمة إشارة ، ترشدنا إلى تحديده على النحو الذى حدد به تاريخ مولده . وقد تباينت آراء الباحثين بهذا الصدد ما بين سنوات: (نحو ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)(٢١) ، و (حوالى ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م)(٢٢) ، و(بعد سنة ٣٧٨هـ / بعد ٩٨٨م)(٢٣) ، و(بين (٣٧٥ - ٣٨١هـ/ ٩٨٥ - ٩٩١م)(٢٤).

والحق أنى لم أقف على دليل يؤدى إلى الجزم بأى من التواريخ السابقة ؛ فإن أحداث كتاب المقدسى إذا لم تتجاوز سنة ٣٨٠هـ ، أو وقفت أخباره عند ذكر (الخليفة الطائع ٣٦٣ - ٣٨١هـ / ٩٧٣ - ٩٩١م) دون تجاوزه إلى ما وراءه من الخلفاء ، ليس بدليل أكيد على وفاته فى عهد ذلك الخليفة(٢٥) ، خاصة أن الكتاب كتاب جغرافى فى المقام الأول ، ولا يسرد الأحداث التاريخية بشكل أساسى ، حتى نعلل توقفه عند خليفة محدد بالوفاة . وبالنسبة لمن جعل الوفاة سنة ٣٨٠ ، أو ٣٩٠هـ ، فلم أجد مسوغاً لذلك التحديد . ولعل القول بالوفاة بعد سنة ٣٧٨هـ أقرب الآراء رغم عدم تحديده . وربما اتكأ فى ذلك - فيما يبدو - على ما ورد من صدور إحدى مخطوطتى الكتاب سنة ٣٧٥ هـ ، والأخرى سنة ٣٧٨هـ ، فتكون الوفاة بعدها(٢٦) . وعلى كل ، فخروجاً من هذا الخلاف أقول: لعله توفى أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى .

ثالثًا : سماته الشخصية :

اهتم بإبراز هذه السمات من واقع نصوص (كتاب المقدسي) ؛ تعويضاً للنقص الشديد في معلوماتنا عنه ، وتسليطاً لمزيد من الأضواء عليه ، بما يفيدنا عند دراسة كتابه كمصدر من مصادر تاريخ العرب .

١ - الجانب الخلقي :

من خلال بعض عبارات المقدسي يتبين لنا ما يتمتع به من حس ديني ، وخلقي رفيع ، ونية صادقة دفعته إلى تأليف كتابه . فمثلاً : يتوجه إلى الله سائلاً إياه التوفيق في إتمام هذا العمل ، فيقول : « وسألت الله عز اسمه - أن يجنبني الخطأ والزلل ، ويبلغني الرجاء والأمل »(٢٧) . ويقول في موضع آخر مبيناً هدفه منه ، فيذكر أنه يريد أن « يقيم علماً يحيي به ذكره، ويحقق به نفعاً للخلق ، يرضي به ربه »(٢٨) .

يرى بعض الباحثين أن المقدسي يتصف بالفخر والزهور ، والاعتداد بالنفس(٢٩)، إضافة إلى أنه ينقد سابقيه جميعاً في أسلوب لاذع ، لا يغفره له أن كتابه أحسن ما ألف المشارقة في باب (المسالك ، والممالك ، والبلدان ، والرحلات)(٣٠) .

ولعل من أقوى العبارات ، التي دفعت إلى هذا الاتهام ما ذكره المقدسي - وهو يقارن بين كتابه ، وكتب الآخرين - من أن الناظر في كتابه يجده (نسيج وحده ، يتيماً في نظمه)(٣١) ، إلى جانب القصيدة التي نظمها في ختام كتابه ، وأفاض فيها في ذكر ميزاته ، ومظاهر إبداعه(٣٢) .

والحق أن ما اتهم به المقدسي لا يمكن التسليم به على إطلاقه ؛ إذ يمكن تفسيره على أنه فرط ثقة بنفسه وقدراته ، وإنجازه ، حتى مدحه أحد الباحثين بقوله : إنه « لا يغمط حقه في الفهم والذكاء والأصالة ، والطرافة، وقوة الملاحظة»(٣٣) . ويدعم هذا التفسير وجود عدة مواضع في كتابه نفسه يظهر

تواضعه فيها جلياً ، مثل قوله : « ثم إني لا أبرء نفسي من الزلل ، ولا كتابي من الخلل ، ولا اسلمه الزيادة والنقصان ، ولا أفلته من الطعن على كل حال »(٣٤) . ثم إننا نجد الرجل يذهب إلى مدى أبعد في التنزه عن كل غرض وضيع من وراء تأليف كتابه ، ويسمو به إلى درجة الفرض الحتمي اللازم ، الذي يدفعه إلى أدائه ما امتلك من أسبابه وأدواته ، فيقول : (لو وجدنا رخصة في ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ، ولكن لما بلغنا الله (تعالى) أقاصي الإسلام ، وأرانا أسبابه، وألهمنا قسمته ؛ وجب أن ننهي ذلك إلى كافة المسلمين . ألا ترى إلى قوله تعالى : « قل : سيروا في الأرض »(٣٥) ، و « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا»(٣٦) . وفيما نذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر)(٣٧) ، وأخيراً، فإن نقده الموجه إلى السابقين كان قائماً على أساس علمي(٣٨) ، ولم يكن هدفه التقليل ، أو الحط من شأنهم ، ثم إنه لم يمنعه من الاعتراف بمكانة بعضهم(٣٩) . وهكذا يمكن القول : إن المقدسي لم يكن يتسم بالزهو والخيلاء على طول الخط ، وإنما كان فيه خلق التواضع أيضاً ، ولا يعيبه إلا ما يند عنه - أحياناً - من عبارات الثقة الزائدة بالنفس ، مما كان التورع عنها به أولى .

يتصف المقدسي - أيضاً - بالتقوى والورع ، والزهد . ونلمس ذلك مما كشفه لنا في كتابه من حب الورعين والمتعبدين(٤٠) ، وإيراد بعض الروايات عن الزاهدين(٤١) . ويضاف - إلى ذلك - ما نثر من حكم في الزهد في كتابه ، عندما بين أن الأرباح - أبداً - مع الأخطار ، وأن على العبد أن يعلم أن الله يعطي العبد جزاء ركعتين ، يصليهما بالإخلاص ، أكثر من الدنيا بحذافيرها . وماذا يصنع العبد بنعمة الموت من ورائها ، وجمع أموال لابد من تركها(٤٢) ؟! وأخيراً الناظر في خاتمة كتابه يقف على مدى تقواه وورعه من خلال تضرعه إلى الله (عز وجل)(٤٣) .

٢ - الجانب النفسي :

تمتع المقدسي بخلة أصيلة فيه هي (قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة) . ولا ريب أن هذه السمة المهمة هي التي ارتكن إليها في تحمله مشاق رحلاته ، التي اعتقد انه جمع فيها خيري الدنيا والآخرة (المال من العمل والتجارة ، والعلم بجغرافية وتواريخ وأحوال البلدان التي زارها) . وقد سجل لنا الرجل في كتابه مدى الجهود الكبيرة ، والصعاب الشديدة التي تجشمها في جولاته بالبلدان ، وزياراته أقاليم الإسلام (عربا ، وعجماً) ، ومنها يتبين لنا أنه كان يلتقي بالعلماء ، ويخالط الملوك ويدخل في خدمتهم ، ويجالس القضاة ، ويدرس على الفقهاء ، ويتردد على الأدباء والقراء والمحدثين ، ويغشى مجالس الزهاد والمتصوفة ، والقصاص والمذكرين ، ويعاشر التجار وعوام الناس ، كل ذلك مع تفطن قوى وفهم جلي ، مع ملاحظة ما حوله من مناخ ومياه ، وتحكم عظيم في النفس حيث الصبر عن المعصية ، ونصح المسلمين ، والصبر على ذل الغربة ، مع مراقبة الله والخشية منه(٤٤) .

واتفق مع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس على أن أمثال تلك الرحلات ، على ما فيها من تحمل المخاطر واستجلاء المجهول ، ليست من قبيل الفخر آنذاك(٤٥) ؛ إذ لم يكن ركوب المخاطر ، والمجازفة بالنفس مما يعلي قدر المرء حتى يتجشم الكذب فيه ، اللهم إلا إذا ثبت بالدليل المقبول عدم تحري أصحابها الصدق(٤٦) ، وهو ما ننزه عنه عالماً من طراز المقدسي .

٣ - الجانب الثقافي :

لا شك في أن شخصية طلعة نهمة كشخصية المقدسي ، لابد أن تنهل وتروى من معين الثقافة التي تعاصرها . والمطالع كتاب المقدسي يلمس - بوضوح - موسوعية ثقافته . ومن أبرز معالم ثقافته(٤٧) :

(أ) ثقافته العربية الأصيلة :

لقد امتلك المقدسى ناصية البيان بالعربية - لغة عدد غير قليل من الأقاليم التى زارها - التى أحسن الكتابة بها ، وذلك واضح من أسلوبه الجزل الرصين ، وجملة ذات الفواصل الموسيقية المؤثرة ، التى رآها البعض تصنعاً وتكلفاً ، وجد فى بداية ، وخاتمة ، وصلب الكتاب دون داع(٤٨) .

وبالنظر فى اسلوب الرحل ومراجعته ، ألفيته أسلوباً بلاغياً راقياً ، لا تكرار ولا إملال فيه غالباً ؛ مما يدل على تمكنه اللغوى وفصاحته . ومن ذلك قوله فى خطبة كتابه : (الحمد لله الذى خلق فقدر ، وصور فاتقن صنع البرية ، بلا مشير يناصره ، ودبرها بلا معين يعاضده . اتقنها أى اتقان ، وأحكمها بلا أعوان)(٤٩). وفى سياق حديثه عن جهاده فى رحلاته ، قال : (ودورانى على التخوم حتى حررتها ، وتنقلى إلى الأخبار حتى عرفتها ، وتفتشى عن المذاهب حتى علمتها)(٥٠) .

ويلاحظ على المقدسى - أيضاً - أنه متقن لمفردات المعجم اللغوى العربى ، ويميل إلى استخدام غريب اللغة نوعاً ما . ومن ذلك قوله : (فكركرهم عنى)(٥١). وذلك فى أثناء إشارته إلى إنقاذ أحد الكتبة له من بين أتباع أحد المفرطين فى حب معاوية ﷺ ؛ لأن المقدسى تجاسر ، وكذب حديثاً موضوعاً ، رواه ذلك الرحل فى فضل معاوية . وكذلك قوله عن هواء بيت المقدس شارحاً موضحاً : سجسج (لا حر ، ولا برد شديد)(٥٢) . وأيضاً قوله عن ذهابه إلى إحدى المناطق ، فوجدها خالية : (فلم أر بها دياراً)(٥٣) .

وأخيراً ، فإن بكتاب المقدسى شواهد ، تدلل على إلمامه بعدد من فنون العربية (رجزاً(٥٤) . وأمثالاً(٥٥) ، وشعراً)(٥٦) . ويضاف - إلى ما سبق - معرفته بمدلولات الألفاظ المستخدمة المتباينة بتباين الأقاليم(٥٧) .

(ب) ثقافته الجغرافية :

لا شك في أن رحلات المقدسي إلى أقاليم الدولة الإسلامية المختلفة ، واهتمامه بمطالعة المصادر الجغرافية قدم له زاداً وفيراً ، ومادة علمية غزيرة ، منها ألف كتاب (أحسن التقاسيم) . وسأكتفي بمثال واحد كشاهد على دقة معرفته بالبلدان(٥٨) حيث عقد فصلاً لبلدان وكور ، تتفق أسماؤها ، وتتباين مواضعها ، ويشكل على الناس أمرها ، والمنسوبون إليها (مثل : البصرة بالعراق وبالمغرب(٥٩) ، وحلوان التي هي كورة بالعراق ، ومدينة بمصر ، وقرية بنيسابور)(٦٠) .

(جـ) ثقافته في العلوم الإسلامية :

في القراءات : تبين لنا - من خلال بعض نصوص كتابه - أنه لديه إلمام بـ (علم القراءات القرآنية) ، فهو - شخصياً - لديه ميل وإتقان لقراءة (عبد الله بن عامر)(٦١) ، وبها قرأ القرآن في مصر(٦٢) . ومن خلال تناوله ثقافات أهل الأقاليم التي يحدثنا عنها ، أورد معلومات تدل على إحاطته باتجاهات الأقاليم المختلفة في علم القراءات في زمانه (في القرن الرابع الهجري) . فمثلاً : في الحجاز توجد قراءات نافع ، وابن كثير ، وغيرهما . وقراءة أهل الشام - ومنهم : المقدسي - هي قراءة (عبد الله بن عامر)(٦٣) .

في الحديث : أورد المقدسي عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة في كتابه ، وحرص على ذكر أسانيدها كاملة ومناسباتها الجغرافية ، مثل : حديث إعادة بناء الكعبة لدى تعريفه بـ (مكة)(٦٤) ، ومجموعة أحاديث عن مكان إحرام أهل المدينة ، والشام ، ونجد (وذلك عند تناول الجحفة ، وقرن)(٦٥) ، وغير ذلك من الأحاديث(٦٦) .

فى الفقه : اهتمام المقدسى بـ (علم الفقه ، ورجاله) اهتمام أصيل . فالرجل فقيه حنفى تتلمذ بالعراق على أيدى الفقهاء الأحناف ، وأختار مذهبهم ، وفضله عما سواه من المذاهب(٦٧) . وللفقهاء عنده منزلة سامية ، فيحترمهم ويعرف فضلهم ، ويرفعهم فوق أهل العلم والأدب عامة(٦٨) ، وقد تأثر المقدسى فى دراسته للأقاليم بمصطلحات الفقهاء ، فذكر أنه قد أجرى مسائل كتابه على (التعارف ، والاستحسان) ، كما أجرى الفقهاء كتابى (المكاتب ، والإيمان) ، ورتبه على مذاهب أهل العراق التى فيها تفقه ، وإياها اختار ، واستعمل القياس فى مواضع تحسن وتليق(٦٩) .

لقد احتوى كتاب (أحسن التقاسيم) على باب من (مقدماته) ، خصص لذكر المذاهب عامة (فقهية ، وكلامية ، وحديثية) . وتناول بالحديث المذاهب الفقهية وأصولها وأئمتها ، وما تفرد به كل مذهب منها عما سواه(٧٠) . هذا ، إلى جانب إشاراته المتعددة فى كتابه إلى المناظرات والمناقشات الفقهية الدائرة حول بعض المسائل الخلافية فى الأقاليم الجغرافية التى يعرضها(٧١) ، إلى جانب سرد بعض أحكام الدين عندما تلوح المناسبة(٧٢) .

رابعاً : (دراسة القسم الأول من كتاب : «أحسن التقاسيم»)(٥٠):

من المعلوم أن المقدسى قسم كتابه المذكور إلى قسمين :

أحدهما : خاص بأقاليم العرب .

وثانيهما : يتعلق بـ (أقاليم العجم) . ولما كانت دراستنا فى هذا البحث تنصب على جانب (تاريخ العرب) ، فقد اقتصرت الدراسة عل (القسم الأول) فقط ، كمحاولة لتسليط الأضواء على المادة التاريخية - تقليدية ، وغير تقليدية - المبثوثة فى ثنايا هذا المصدر الجغرافى الأصيل .

١ – عرض عام لمحتويات هذا القسم :

١ - بدأ المقدسى كتابه بمقدمة عامة ، أثنى فيها على الخالق المبدع سبحانه ، مبيناً قدرته فى بعض ظواهر الكون ، ثم ذكر أهداف تأليف كتابه ، وموضوعه ، وفوائده ، وأهميته ، وما بذل فى جمعه من جهد(٧٤) .

٢ - وتحت عنوان : (مقدمات وفصول لابد منها) أورد عدة موضوعات ، منها: الأسس المنهجية لكتابه ، وذكر البحار والأنهار ، والخصائص العامة للأقاليم الجغرافية والمواضع المختلف فيها ، وغير ذلك(٧٥) .

٣ - عرض أقاليم العرب واحداً بعد الآخر : (جزيرة العرب(٧٦) ، والعراق(٧٧)، وأقور(٧٨)، والشام(٧٩) ، ومصر(٨٠) ، والمغرب(٨١) ، وبادية العرب(٨٢). وكان المقدسى يقسم الإقليم إلى ثلاثة أقسام متباينة فى أحجامها حسب توفر المادة العلمية عن كل منها ، فيدرس فى الأول مدن الإقليم ، والمواضع العامرة فيه . ويبحث الثانى فى المناخ وطوائف السكان ، ولغتهم ، والأوزان، والنقود ، والعادات ، والمياه ، والمعادن ، والأماكن المقدسة ، وأخلاق سكانه، وتاريخه السياسى والاقتصادى ، ويتناول الثالث الحديث عن المسافات ، وطرق المواصلات فى كل إقليم(٨٣) .

٢ – موارده :

فى هذه الجزئية نركز الحديث عن المصادر الواردة فى قسم (أقاليم العرب) من كتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، والتى استمد منها مادته . وقبل الولوج إلى ذكر أنواع الموارد ، التى استمد منها مادته التاريخية غالباً ، نذكر القواعد النظرية العامة التى حكمت اختياره لهذه الموارد ، ونوعياتها ، وطريقته فى الأخذ منها(٨٤) ، وهى كالآتى :

(أ) البحث والتنقيب والتحرى فى اختيار وتحديد المصادر ، التى ينقل عنها مادته.

(ب) المشاهدة ، والقناعة العقلية ، سؤال أولى الألباب عن الناس ممن لم يعرفوا بالغفلة والالتباس ، وسؤالهم عن الكور والأعمال في المناطق التي بعد عنها المقدسي ، ولم يقدر على الوصول إليها (كالأندلس مثلاً) . فإذا اتفق أكثر من مصدر سأله ، أثبت ما اتفقوا عليه ، وما اختلفوا فيه تركه ونبذه ، وما لم يكن له بد من الوصول إليه والوقوف عليه ، قصده .

(جـ) ما لم يقره قلبه ، ولم يقبله عقله ، أسنده إلى الذى ذكره ، أو قال : زعموا .

(د) الاجتهاد فى عدم ذكر شيء قد سطره أصحاب المصنفات قبله فى ذلك العلم ، ولا يشرح أمراً قد أوردوه وبينوه إلا عند الضرورة ؛ كي لا يبخسهم حقوقهم ، ولا يتهم بالسرقة من تصانيفهم(٨٥) .

(هـ) يذكر المقدسي فى كتابه ما رآه ، ويحكى ما سمعه . فما صح من الروايات بالمعاينة وأخبار التواتر ، أرسل به القول (أى : لم يذكر مصدره) ، وما شك فيه من أخبار ، أو رواه من طرق الآحاد ، أسنده إلى راويه . ويلاحظ أنه لم يذكر فى كتابه مصدراً إلا وهو (صدر مشهور ، أو عالم مذكور ، أو سلطان جليل) ، وباستثناء مواضع ذكر فيها موارد ، لا تندرج تحت هؤلاء المذكورين ؛ لضرورة ، أو لورودهم عرضاً خلال إحدى الروايات . ويميز هذا المصدر الأقل مكانة بتسميته رجلاً ذاكراً محله (مكانته) ، ليفرق بينه وبين جلة المذكورين .

أقسام موارده :

* لخص لنا المقدسي هذه الأقسام فى عبارة مجملة ، جاء فيها : أن موارد كتابه على النحو الآتى :

(أ) ما عاينه .

(ب) ما سمعه من الثقات .

(جـ) ما وجده في الكتب المصنفة في هذا الباب . وفي غيره . فما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمها ، ولا تصانيف فرقة إلا تصفحها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ، ولا مذكر وبلد إلا وشهدهم ، حتى استقام له ما ابتغى في هذا الباب(٨٦) .

والآن ننتقل إلى الجانب التطبيقي الفعلي لمصادر المقدسي ؛ وهي على النحو الآتي :

(أ) مصادر ذكر عناوينها ، ولم يذكر أسماء مؤلفيها :

(قرأت في أخبار المدينة)(٨٧) ، و (قرأت في أخبار البصرة)(٨٨) ، وهو (قرأت في كتاب الطلسمات)(٨٩) .

(ب) مصادر لم تحدد عناوينها ، ولا أسماء مؤلفيها :

(وجدت في بعض خزائن الخلفاء)(٩٠) ، و(قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة(٩١) ، و(قرأت في بعض الكتب)(٩٢) .

(جـ) مصادر معلومة الاسم ، والمؤلف :

(وجدت في كتاب ابن خرداذبه)(٩٣) ، و (قرأت في كتاب ابن خرداذبه)(٩٤) ، و (ذكر قدامة بن جعفر الكاتب)(٩٥) ، وأما الدخل ، فقرأت في كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر(٩٦) ، و (قرأت في كتاب ابن الفقيه)(٩٧) .

ملاحظتان :

الأولى : هناك مصدر ، نقل عنه المقدسي ، ولم يذكر اسمه تحديداً ، واكتفى بذكر نسب المؤلف دون اسمه . ومثال ذلك قوله : (وذكر الشمشاطي)(٩٨) . في (تاريخه)(٩٩) .

الثانية : هناك بعض المرويات المصدرة بلفظة (قال) ، لكن الرواية فيها عن أشخاص ، يستحيل على المقدسي النقل المباشر عنهم ؛ مما يدل على أنها منقولة عن مدونات مجهولة العناوين : (قال عبد الله بن عمرو(١٠٠) ، وقال قطرب(١٠١) ، وقال كعب الأحبار)(١٠٢) .

(د) مصادر شفهية :

توجد مرويات عديدة - في كتاب المقدسي - مصدرة بألفاظ ، يغلب على الظن معها ، أنها نقلت شفاهاً . ولعلها دونت فيما بعد . وقد وردت هذه الروايات بأشكال متعددة منها :

- ما صدر بلفظة (سمعت) ، بعدها المورد مذكور :

(سمعت - يوماً - القاضي أبا الحسين القزويني(١٠٣) ، وسمعت أبا علي الحسن بن أبي بكر البناء(١٠٤) ، وسمعت عمي(١٠٥) ، وسمعت خالي عبد الله بن الشوا)(١٠٦) .

- ما صدر بلفظة (سمعت) بعدها المصدر غير مذكور تحديداً :

(سمعت بعض العثمانية(١٠٧) ، وسمعت هذه الحكاية من عدة من مشايخ الأندلس(١٠٨) ، وسمعت بعض مشايخ القيروان)(١٠٩) .

- ما صدر بلفظة (سألت) ، وبعدها مصدر غير محدد :

(وسألت بعض المصريين ببخارى عن الخراج)(١١٠) .

- وما صدر بلفظة (سألت) ، وبعدها غير محدد ، ثم سؤال أكثر من مصدر محدد :

(وسألت جماعة منهم (أي : من الروم) ، وسألت عريباً الخادم (وكان من أهل العلم والصدق) ، وذكرت قوله لأبي سعيد الجوري بـ (نيسابور)(١١١).

– روايات مصدرة بلفظة (أخبرنا) بعدها سلاسل إسناد كاملة ، تنتهى إلى أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ(١١٢) ، وروايات أخرى مصدرة بلفظة (حدثنا) بعدها سلاسل إسناد كاملة فى معظمها ، وتنتهى إلى أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ(١١٣) .

– الجمع بين مصدر شفهى غير محدد ، وآخر مكتوب غير محدد أيضاً :

(وسمعت بعض العلماء ، وقرأت فى بعض الكتب)(١١٤) .

– وأخيراً ، روايات مجهولة المورد ، مصدرة ببعض الألفاظ ، مثل:

(يزعمون(١١٥) ، وسمعتهم يزعمون(١١٦) ، و(قالوا)(١١٧) ، و(قيل)(١١٨) ، و(يقال)(١١٩) ، و(يقولون)(١٢٠) ، و(يحكى)(١٢١) ، و(حكى لى)(١٢٢) ، و (زعم)(١٢٣) ، و (حدثت)(١٢٤) ، و(حدثونا)(١٢٥).

ملاحظات على موارد المقدسى :

(أ) اتضح من النماذج المختارة السابقة تنوع المصادر ، التى استمد منها المقدسى مادته ما بين مصادر مكتوبة ، وشفهية (محددة ، وغير محددة) ، وأخرى مجهولة . وتنوعت الألفاظ المستعملة للتعبير عن النقل من تلك المصادر ، فاستخدم المقدسى (قرأت) فى التعبير عن مطالعة المصادر المكتوبة ، وكذلك (وجدت ، وذكر) . وفى المصادر الشفهية استخدم ألفاظاً ، مثل : سمعت ، وسألت ، وأخبرنا ، وحدثنا . وفى الموارد المجهولة استخدام عدداً من الألفاظ الدالة على الظن والتشكيك ، مثل : يزعمون ، وقيل ويقال .

(ب) بالنسبة للروايات المنقولة عن كتب جغرافيين سابقين ، فما تيسر لى الإطلاع عليه من المطبوع ، قارنت ما فيه من مادة تاريخية بما أورده المقدسى نقلاً عن

هذه الكتب . وقد تبين لى أن المقدسى كان دقيقاً فى نقله من كتاب (ابن خرداذبه) ما يتصل بعدد مدن الأندلس الأربعين(١٢٦) ، وكذلك كان دقيقاً فيما يتصل بمقادير خراج (حمص ، والأردن وفلسطين)(١٢٧) .وثبت دقته كذلك فى نقله عن (ابن خرداذبة) - أيضاً - ما يتصل بمقدار (خراج اليمن)، وإن لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه ابن خرداذبه فى ذلك (ووجد فى ديوان الخراج ، رفع لبعض عمال اليمن)(١٢٨) . ووقفت - أيضاً - على دقة المقدسى فى نقله عن (كتاب الخراج) لقدامة بن جعفر ، فيما يخص مقادير خراج (الحرمين واليمن ، واليمامة والبحرين ، وعمان)(١٢٩) .

وتجدر الإشارة إلى أن المقدسى كان يتصرف - أحياناً - فى نقله عن المصادر ، فهو عندما اقتبس من كتاب (ابن خرداذبه) قيمة خراج (ولاية اليمن) ، أغفل ذكر تعليق ابن خرداذبه بأن هذا هو أكثر ما ارتفع من خراج فى هذه الدولة . ثم إنه عندما ذكر (التقسيم الإدارى لليمن) ، عبر عن (الولاة) بلفظة (أعمال) ، فقال : مقسومة على ثلاثة أعمال (بدلاً من ثلاثة ولاة) . ونقل مختصراً ما قاله ابن خرداذبة ، فأسقط ذكر حجم ومنزلة ولاية من الولايات الثلاث، فقد قال ابن خرداذبه عنها ما يلى : الجند ومخاليفها (وهى أعظمها) ، وصنعاء ومخاليفها (وهى أوسطها) ، وحضر موت ومخاليفها (وهى أدناها)(١٣٠) .

وقد يبدو المقدسى مجانباً الدقة والصواب ، عندما نقل عن كتاب ابن خرداذبة أن خراج قنسرين أربعمائه ألف دينار(١٣١) ؛ لأنه بالعودة إلى كتاب ابن خرداذبه ، ألفينا هذا الرقم خاصاً بخراج قنسرين والعواصم معاً(١٣٢) . وقد ذكر ياقوت فى حديثه عن (العواصم)(١٣٣) ، أن البعض يزعم أن (حلب) ليست منها ، والبعض يزعم أنها منها ، ثم استحسن دليل من قال : إن حلب ليست من أعمال (العواصم) أنهم اتفقوا على أنها من أعمال (قنسرين) وهم يقولون : قنسرين

والعواصم ، والشيء لا يعطف على نفسه(١٣٤) . فتكون (قنسرين) شيئاً، و (العواصم) شيئاً آخر ، ويكون المقدسي غير دقيق فيما ذكر . إلا أنه يمكن الرد على ذلك بما ذكره ياقوت نفسه بعد ذلك في التعريف بـ (قنسرين)(١٣٥) ، لما قال : وبعض يدخل قنسرين في العواصم(١٣٦) . فلعل المقدسي من هؤلاء ، فيكون ما نقله عن خراج قنسرين معبراً عن خراجها وخراج العواصم معاً ، فيسلم بذلك من المؤاخذة .

وثمة جزئية أخيرة يمكن أن تؤخذ على (المقدسي) بهذا الصدد ، وتتعلق بمقدار دخل مصر ، حيث نقل عن (قدامة) أن هذا الدخل بلغ من العين ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار . وبالعودة إلى كتاب (قدامة) وجدت أن هذا الرقم يختص بـ (مصر ، والإسكندرية) معا(١٣٧) . والراجح أن المقصود بـ (مصر) مدينة الفسطاط العاصمة الإسلامية لمصر . أما الإسكندرية ، فهي العاصمة القديمة قبل دخول الإسلام مصر ، وكانت تعامل معاملة خاصة في ظل النظام الإداري بعد الفتح الإسلامي ، فهي مدينة بارزة من مدن الوجه البحري ، ولها وال يحكمها ، ودخل تختص به ، بخلاف دخل العاصمة (الفسطاط)(١٣٨) .

(جـ) كان المقدسي دقيقاً في استخدام الألفاظ ، التي تصدر بها روايات كتابه ، فالمرويات التي لا يستطيع التحقق من صحتها يستخدم معها ما يدل على ميل إلى عدم الاقتناع بمضمونها ، مثل : يقولون(١٣٩) ، ويزعمون(١٤٠) .

(د) حرصه على ذكر الأسانيد الكاملة للمرويات الحديثة ، وإن لم يتعرض لها بتحديد مدى صحتها من عدمه . وفي الوقت نفسه أتى في إحدى الروايات ، التي تغلب عليها الأسطورة والخرافة بالإسناد الكامل(١٤١) . وأحياناً كان يروي عن مصدر له صلة غير واضحة بموضوع الرواية(١٤٢) ، وأحياناً يسأل أهل الاختصاص(١٤٣) . ويكرر السؤال نفسه لدى أكثر من مصدر ، واصفاً أحدها بأنه من أهل العلم والصدق(١٤٤) ، وكل ذلك لمزيد من التدقيق والتثبت .

(هـ) وأخيراً ، فإن هذا القسم الخاص بـ (أقاليم العرب)من كتاب (أحسن التقاسيم) به كثير من المعلومات والروايات ، التى لم يذكر المقدسى لها مصدراً ، وهى من الكثرة بحيث يصعب حصرها . ويغلب على الظن أنها من المواضع التى اتفق عليها ، وصحت للمقدسى بالمعاينة والتواتر (على نحو ما ذكر فى منهجه فى ذكر الموارد سابقاً) . وهذا يعنى أن كثيراً من مرويات المقدسى قائمة على (المشاهدة والمعاينة) ، وهى ناتجة – ولا شك – عن الرحلات الطويلة التى قام بها لأقاليم الإسلام(١٤٥) .وجولاته فى البلاد(١٤٦) ، وكثرة أسفاره فى البحار والمحيطات(١٤٧) . وهكذا ، فإن المشاهدة تأتى فى المقام الأول بين موارده(١٤٨) . وما لم يطالعه بنفسه ، اعتمد فى معرفته على المصادر المكتوبة ، سؤال أهل العلم(١٤٩) .

٣ – منهجه :

قبل الحديث عن عناصر المنهج التطبيقى ، الذى سلكه المقدسى فى عرض قسم (أقاليم العرب) من كتابه ، نضع أيدينا – أولاً – على الأسس والقواعد النظرية التى أتبعها المقدسى قبل وعند وضع كتابه ، وهى كما يلى :

أولاً : دوافع التأليف : هناك دافع عام رغب المقدسى فى تأليف كتابه ، يشاركه فيه عامة العلماء(١٥٠) ، ودافع خاص يتعلق بالمقدسى . لقد نظر فى العلوم عامة ، فوجد أن الأمور تسير على هذا النحو : علماء لهم قدم السبق والريادة ، يقومون بالتأليف فى البداية ، ثم يأتى آخرون بعدهم ، فينظرون فى مؤلفات الأولين ، فإما أن يشرحوها ، أو يختصروها أما هو ،فرأى أن يكتب فى علم قد أغفلوه ، وينفرد بفن لم يذكروه إلا وعليهم فيه مآخذ ؛ إذ عالجوا بإخلال . فرأى هو أن يذكر الأقاليم الإسلامية ذكراً شاملاً متكاملاً ، يصف طبيعة الإقليم الجغرافية ، ويصف مدنه المشهورة ، ويذكر الطرق الموصلة إليه ، مع بيان ما فيه من أنشطة بشرية صناعية وتجارية وغيرها ، مع التعرض للغة أهل

الإقليم ، وأشكالهم ، وأزيائهم ، ومطاعمهم وشرابهم، وصادراتهم ووارداتهم ، ومكاييلهم وأوزانهم ، ونقودهم ، ومذاهبهم ، وغيرها(١٥١) .

ثانياً : مطالعة الكتب السابقة عليه في هذا العلم ، وقراءتها قراءة نقدية . وانتهى - بعد ذلك - إلى اقتناع بأن هؤلاء الذين تقدموه ، جاءت مصنفاتهم مختلة ، واعتمدوا فيها على السماع(١٥٢) . فالجيهانى(١٥٣) صاحب معرفة بالفلسفة والنجوم والفلك . قام بالاعتماد على سؤال الغرباء عن ممالكهم ، ودخلها ، وكيفية الوصول إليها (فلم يعتمد على الرحلة إلى تلك الأقطار) .ومما أخذه عليه المقدسى أنه اهتم بذكر منازل مجهولة ، ومراحل مهجورة ، ولم يفصل ذكر الكور ، ولم يرتب أجنادها ، ولم يصف مدنها ، ولا استوعب ذكرها . وكذلك انتقده المقدسى بالإطالة فى الكتاب ؛ نتيجة شرح ما فى الطرق من سهول وجبال ، وأودية ، وتلال ، وأنهار ، ثم أغفل أكثر طرق الأجناد(١٥٤) .

* وطالع المقدسى كتاب (أبى زيد البلخى) ، وعاب عليه تركه كثيراً من أمهات المدن ، وعدم الارتحال إلى البلدان والأعمال .

* وأخذ على ابن الفقيه الهمدانى عدم ذكره إلا المدن العظمى ، وعدم ترتيبه الكور والأجناد ، وإدخاله فى كتابه علوماً ، لا علاقة له بها (زهد فى الدنيا ورغبة فيها وحكايات مبكية وأخرى ملهية مضحكة) .

* وأما كتاباً الجاحظ ، وابن خرداذبه ، فذكر أنهما مختصران جداً ، ولا يحصل منهما كثير فائدة(١٥٥) .

* ولا شك فى أن المقدسى حاد فى نقده ، لكنى لا استطيع القطع بانه كان ناقداً متعسفاً - أحياناً - على السابقين فى هذا المجال(١٥٦) . لأن بعض الكتب التى ذكرها فى حكم المفقودة .

ثالثاً : القيام بزيارات ميدانية ، ورحلات شخصية مطولة ؛ لجمع مادة كتابه بنفسه عن طريق المشاهدة والمعاينة ، ومخالطة الناس والعلماء فى البلاد المختلفة التى

زارها وحضور مجالس علمائها ، وعقد صلات مع بعض الحكام ، وتصفح خزائن الكتب ومطالعة الدفاتر والخرائط(١٥٧) .

رابعاً : أثناء كتابة المقدسى مصنفة راعى تجنب الكذب والطغيان (مجاوزة الحدود والمبالغة) ، والتحرز بالحجج (الإتيان بالأدلة) من الطعان (الطعن والنقد)، فلم يودعه المجاز والمحال (الخيالات ، والمستحيلات) ، ولم يسمع إلا قول الثقات من الرجال(١٥٨) .

خامساً : وأخيراً التأنى والمراجعة قبل إخراج الكتاب : ذكر المقدسى أنه حرص على استشارة الأئمة والعلماء قبل إخراجه إلى الناس ، فكل أشار به وقبله ، وبعث على إحضاره ومدحه(١٥٩) .

العناصر الإيجابية فى منهج المقدسى التطبيقى :

أولاً : توضيح مفاهيم مختصراته ، ومصطلحاته ، وجغرافية أقاليمه :

* قبل أن يدخل المقدسى فى صلب كتابه ، أوضح مفاهيم عدد من الألفاظ المختصرة التى يستخدمها ، فقال : لا نظير له تعنى : ليس مثل بتة . فإن قال : غاية ، فإنها تعنى : غاية فى الجودة . وإن قال : جيد ، فقد يوجد أجود منه(١٦٠) .

* وقد يجمل المقدسى القول ، ويدع شرحه إلى حينه ، مثل قوله : ﴿ ولا أعز من أهل بيت المقدس ﴾(١٦١) .

ومن مصطلحات المقدسى التى شرح مقصوده منها ما يلى :

البلد : وتشمل - عنده - المصر ، والقصب ، والرستاق ، والكورة ، والناحية .

* عند ذكر قصبة فى كورتها ، يذكرها باسمها (مثل : الفسطاط) ، فإذا أوردها فى موضع آخر ، جعلها باسمها المعروف عند الناس ، فيقول : (مصر) .

المشرق : دولة آل سامان . فإن قال : الشرق ، فإنه يعنى كرمان ، وفارس، والسند أيضاً .

المغـرب : هـو الإقليـم المعروف . فإن قـال : الغـرب ، ضم إليه (مصر ، والشام)(١٦٢) .

* **وأخيراً** ، فإن المقدسي لم يكتف بكل هذه التوضيحات ، وإنما ابتكر لونـاً جديداً من التوضيح ، تمثل في رسـم خرائـط ملونـة لأقـاليم كتابـه ، فكـان يرسـم حدودها وخططهـا ، ويميز طرقهـا المعروفـة بـالحمرة ، ويشـير إلى رمالهـا الذهبيـة باللون الأصفر ، ويجعل بحارها المالحة باللون الأخضـر ، وأنهارهـا المعروفـة بـاللون الأزرق ، وجبالها المشهورة بالغبرة . وقد لجأ الرجل إلى ذلـك ؛ لتقريـب الوصـف إلى الأفهام ؛ كي يقف عليه الخاص والعام(١٦٣) . وللأسف ، فـإن هـذه الخرائـط الملونة لم تصل إلينا في النسخة التي بين أيدينا ، ويبدو أنها سقطت من مخطوطـات الكتاب ، لكن عبارات المقدسي تشير إلى وجودها في كتابه(١٦٤) .

ثانياً : الدقة في توزيع مادة كتابه :

نلمح تلك الجزئية المنهجية من خلال قراءة كتاب المقدسي ، حيث لا نجد تداخلاً بين معلومـات الأقـاليم المختلفـة . فـالرجل يحسـن توزيـع مادتـه العلميـة ، ويضعها في مكانها اللائق بها . فمثلاً : عند تناوله (ذكر المذاهب ، وأهل الذمـة) في فصوله الموجودة بـ (مقدمات كتابه) ، قال : واخترت مـن المذاهـب مذهـب أبي حنيفة (رحمة الله) ؛ للخلال التي ذكرها في (إقليم العراق)(١٦٥) . وعنـد إشارته إلى أتباع المذاهب الكبرى ، قال : قد بينت ذلك في شرح الأقاليم من هـذا الكتاب(١٦٦) . وعندما تناول القراءات ، قال : ومن الحروف مقرأ (أبي عمـران عبد الله بن عامر اليحصبي) ؛ للمعاني التي أصفها في إقليم (أقور)(١٦٧).

ثالثاً : وضوح شخصيته في كتابه :

هذه جزئية مهمة في الوقوف على عقل وفكر المقدسي ، ودرجة تفاعله مع المعلومات التي يكتبها ، من حيث القدرة على التعليـل ، والاسـتدلال ، والتعليـق، والنقاش العقلي المدعوم بالأدلة والبراهين . ولا شك فـي أن عنـاصر ثقافـة الرجـل

الموسوعية تفاعلت معاً ، حتى أفرزت لنا تلك الشخصية الحاضرة المتوقدة فهماً وذكاء ، حتى قال عنه كراتشكوفسكي : تمتع المقدسي بشخصية واضحة للعيان ، حتى من خلال مقدماته ومداخله المطولة بعض الشيء ، إلا أنها لا تخلو من الأصالة عند المقارنة بسابقيه(١٦٨) .

١ - **التعليل** : وقد اتخذ أشكالاً وأنماطاً ، منها : تعليل فى منهج التناول ، فكثيرا ما يعلل طريقته فى عرض كتابه ، فقد حرص أن يودعه شيئاً من الغوامض والمعانى ؛ ليجل (يعظم قدره) ، ويقل (أى : المتهاونون بشأنه) ، وأورد فيه الحجج توثقاً (زيادة فى التوثيق) ، والحكايات تحققاً (أى : من صدق ما يورد)، والسجع تظرفاً (درءاً للسآمة) ، والأخبار تبركاً . وبسط أكثره ؛ ليقف عليه العوام إذا تأملوه . وأوضح الطرق ؛ لأن الحاجة إليها أشد ، وصور الأقاليم ؛ لأن المعرفة بها أروج ، وفصل الكور ؛ لأن ذلك أصوب(١٦٩) .

وتنوعت تعليلات المقدسى بين التوسط والإيجاز . ومن النوع الأول ما ورد عن تخصيص باب مستقل لـ (بادية الشام) ؛ بأن أحداً من أهل الأقاليم لا طريق له إلى مكة فى البر إلا فيها ، ولا غنى عن معرفتها ، كما أن بها طرقاً ومياها قد تجهل ولا تعرف وبها فوائد لا تحصى(١٧٠) . وكذلك تعليله بدءه عرض (أقاليم العرب) بـ (إقليم جزيرة العرب) ؛ لما يتمتع به من وجود بيت الله الحرام ، والمدينة المنورة ، ومقر الخلفاء الراشدين ، والمهاجرين والأنصار ... إلخ(١٧١) .

ومن التعليلات الوجيزة ما قاله عن سبب تركه التعريف بـ (طرسوس ، وأعمالها) ؛ لأنها بيد الروم(١٧٢) . وأيضاً تركه ذكر بعض مدن الإسلام فى الأندلس غالباً ؛ لجهله إياها(١٧٣) . وإعجابه بالبصرة أكثر من بغداد ؛ لرفقها ، وكثرة الصالحين بها(١٧٤) . وسر تسمية (واسط) ، التى اختطها الحجاج ؛ لأنها بين قصبات العراق والأهواز(١٧٥) .

٢ - **الاستدلال** : دلل المقدسى على انقاص (سعيد بن العاصى) مقدار الصاع ، الذى قرره عمر بن الخطاب فى إقليم (شبه جزيرة العرب) بحضور الصحابة، وبه كان يكفر الإيمان ، فهبط به سعيد من (ثمانية أرطال) إلى (٥ ١/٣) من الأرطال . وقد استدل على مجمل عمل سعيد هذا - معتمداً على ثقافته الأدبية - بقول الراجز :

وجاءنا بجوعا سعيد ينقص فى الصاع ولا يزيد(١٧٦)

٣ - النقاش العقلى المدعوم بالأدلة والبراهين المطولة نوعاً ما :

هذا الملمح المهم إن هو إلا إنعكاس واضح لثقافة المقدسى الفقهية ، وذكائه وتوقد ذهنه ، وكثرة مطالعاته ، ومشاهداته بمجالس الفقهاء والعلماء ، وما يدور به من مناظرات ومناقشات . ومن أمثلة ذلك :

(أ) استدلاله على تسمية (إقليم العراق) بهذا الاسم بشيوع تلك التسمية، وعدم معرفة الناس تسمية (إقليم بابل) ، وهو متمسك بتلك التسمية ؛ لأنه يرى كتابه على المعروف المشهور . ثم قال : بالضبط كمن حلف على ألا يأكل رءوساً ، فأكل من رءوس البقر والغنم ، فإنه يحنث على رأى أبى حنيفة ، خلافاً لما قاله الفقيهان الحنفيان (أبو يوسف ومحمد) . وقد شرح بعض الأئمة من مشايخ القدس ذلك بأنه لا خلاف ، فقد كانت تؤكل الرءوس وتباع زمن أبى حنيفة ، ثم زالت تلك العادة زمان أبى يوسف ومحمد . وأيضاً استدل على تسمية (إقليم العراق) بهذا الاسم ، دون (إقليم بابل) بقول أبى بكر لعمر ، عندما سأله إرسال جيوش إلى العراق ،/ فبين له أبو بكر أن فتح شبر من الأرض المقدسة (الشام) أحب إليه من رستاق من رساتيق العراق . قال المقدسى : ولم يقل : (من رساتيق بابل) . ويواصل المقدسى نقاشه ، فيحشد مزيداً من البراهين ، فيقول: وأما ما جاء فى آية : « وما أنزل على الملكين ببابل »(١٧٧) ، فيجوز أن يتناول ذلك الإقليم والمدينة جميعاً ، ووقوعه على المدينة مجمع عليه ، لكن إطلاق اسم (بابل) على (الإقليم) مختلف فيه ، فمن أطلقه على الإقليم ككل ، فعليه وجب الدليل(١٧٨) .

(ب) الأدلة الكثيرة التى ساقها المقدسى ؛ دفاعاً عن إتباعه مذهب أبى حنيفة الفقهى ، والتى منها : اعتماد ذلك المذهب على أقوال وفتاوى الإمام على ﷺ ، وقدم ذلك المذهب ، واقترابه من عهد الصحابة ، وصوابه عما سواه من المذاهب الفقهية الأخرى . ولا حجة لمن طعن على أبى حنيفة ومذهبه ، فقد سبق أن طعن الطاعنون على الخلفاء الراشدين(١٧٩) .

٤ – التعليق :

اتخذ تعليق المقدسى على بعض الأخبار الواردة فى كتابه عدة صور على النحو الآتى :

(أ) **تعليق على فضائل الأمصار** : دخل عبد الرحمن بن أخى الأصمعى على الجاحظ ، فقال : افدنى فى البلدان فائدة . فذكر له ميزات عشرة أمصار ، ومن ذلك قوله : (الصنعة بالبصرة ، والمروءة ببغداد ، والتجارة بمصر) .

فعلق المقدسى : وقد صدق لعمرى . ثم استدرك قائلاً : إلا أن بنيسابور – أيضاً – صناعاً حذاقاً ، وبالبصرة تجارات ، وبمكة فصاحة ، وبيت المقدس حسنة البناء ... إلخ(١٨٠) .

(ب) **تعليق على رواية بها معلومة اقتصادية** : لقد تساءل المقدسى دهشاً ، لما قرأ عند ابن خرداذبه أن خراج اليمن ستمائة ألف دينار ، إذ قال : فلا أدرى ما أراد بذلك ، ولم أر ذلك فى كتاب (الخراج) ، بل المعروف أن جزيرة العرب عشرية(١٨١) . وهذا يعنى أنه مر فى تعليقه – أولاً : بمحاولة تفهم النص الاقتصادى الوارد ، ثم شكك فى صحته ؛ لعدم مطالعته إياه فى كتاب (الخراج)، الذى أرجح أنه كتاب (قدامة بن جعفر) ؛ لاحتوائه على قوائم الخراج فى أقاليم الدولة الإسلامية ، ثم بين أن الغالب عدم تصديق النص ؛ لأن أرض الجزيرة يؤخذ من أهلها الزكاة ؛ إذ لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان . فكأن المقدسى يتحفظ على النص ، ويميل إلى رفضه بطريقة غير مباشرة .

(جـ) تعليق على نص به معلومة عن إحدى الفرق المنحرفة : قرأ المقدسي في كتاب صنفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور : أن بالمغرب سبعمائه خانقاه (رباط الصوفية) لهم . فعلق قائلاً : لا ، والله ولا واحدة(١٨٢) .

(د) تعليق فقهي على حادثة تاريخية : ذكر المقدسي أن المنصور العباسي لما حج ، رأى ضيق المسجد الحرام هناك فأراد شراء ما حوله من الدور ، وزيادتها فيه مع تفخيمه ، فعرض على اصحاب الدور أموالاً جمة ، لكن رفضوا البيع . وقد علم أبو حنيفة بحيرة الخليفة ، ولم يكن اشتهر فقهه بعد ، فلقى المنصور وعرض عليه أن يسأل هؤلاء الناس : هل الكعبة نزلت عليهم أم العكس ؟ فلما ذكروا أنهم حلوا بها ، قال : ردوا فناءها ، فقد كثر زوارها ، واحتاجت إليه . فرضي الناس بالبيع . ثم علق المقدسي قائلاً : وهذه الحكاية تقوى إحدى الروايتين عن أبي حنيفة في كراهية بيع دور مكة وأخذ أجورها ، إلا على تأويل(١٨٣) .

٥ - آراء نقدية يبديها :

(أ) رأيه في سر رخاء العراق : قال المقدسي : (واعلم أن العراق ليس ببلد رخاء ولكن حل وعمر بهذين النهرين ، وما يحمل فيهما ، وببحر الصين المجاور له(١٨٤) . فهو يضع يده على عوامل ثراء ورخاء العراق عن طريق ما حباه (الله عز وجل) من عوامل الخصب والرخاء والتجارة (وجود نهري دجلة ، والفرات ، والمحيط الهندي) .

(ب) رفضه اتهام الأمويين بالجبن أمام أعدائهم : حيث ذكر أبياتاً لمن يهجو الأمويين فعلق على واحد منها يقول :

أسد على الجيران أعداؤهم آمنة تخطر في دارهم .

علق المقدسي قائلاً : وكذب في هذا البيت ؛ لأن الأعداء - أبداً - يخافونهم(١٨٥) .

(جـ) نقده كثرة إنفاق الوليد بن عبد الملك على بناء جامع دمشق ، إذ قال لعمه يوماً : يا عم ، لم يحسن الوليد ، حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، ولو أنفق ذلك في عمارة الطرق والمصانع ، وترميم الحصون ، لكان أصوب وأفضل . فرد عمه عليه قائلاً : لقد وفق الوليد فيما فعل ؛ لأنه رأى الشام بها النصارى ، ولهم فيها بيع حسنة مزخرفة انتشر ذكرها ، مثل : كنيسة القيامة ، وبيعة الرها . فأراد أن يشغل المسلمين عن ذلك بالمسجد ، وجعله أحد عجائب الدنيا . وقد فعل والده (عبد الملك بن مروان) ذلك ، لما رأى عظم قبة القمامة ، فخشى أن تعظم في قلوب المسلمين ، فنصب على الصخرة قبة(١٨٦) .

٦ - القدرة على الاختيار والترجيح :

(أ) من المواضع إلى برزت للمقدسى فيها هذه القدرة ذكره خبراً مرفوعاً إلى النبى ﷺ عند حديثه العام عن المذاهب فى (أقاليم العرب) - فيه أن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ؛ اثنتين وسبعين في الجنة ، وواحدة فى النار . وذكر أن بقية الأئمة يحتجون بخبر آخر فيه (اثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة ناجية)(١٨٧) . فالمصيب من وافق الحق ، وهم صنف واحد . ثم قال المقدسى : وهذا أشهر إلا أن الأول أصح إسناداً ، والله أعلم . فإن صح الأول ، فالهالكة هم الباطنية ، وإن صح الثانى فالناجية السواد الأعظم(١٨٨) .

(ب) **وثمة نموذج آخر** : جعل المقدسى الأمصار - فى كتابه - كالملوك ، والقصبات كالحجاب ، والمدن كالجند ، والقرى كالرجالة . ثم أراد تعريف الـ (مصر) ، فذكر قول الفقهاء : هو كل بلد جامع يقام فيه الحدود (مثل : نابلس). وبه أمير لإدارته ، يجمع ضرائبه ، وينفق عليه . ثم ذكر تعريف فى اللغة : هو كل ما حجز بين جهتين (مثل : البصرة ، والرقة) . **ثم أورد تعريفه لدى العوام** : كل بلد كبير جليل (مثل : الرى والموصل ، والرملة) . **ثم اختار لنفسه تعريفاً** ، **قال فيه** : وأما نحن فجعلنا الـ (مصر) كل بلد حله السلطان الأعظم ، وجمعت

له الدواوين ، وقلدت منه الأعمال ، وأضيفت إليه مدن الإقليم (مثل : دمشق ، والقيروان)(١٨٩) .

العناصر السلبية فى منهج المقدسى التطبيقى :

(أ) التكرار ، وضعف التنسيق والترابط :

رغم إحكام المقدسى تنظيم مادته ، وإحسانه توزيعها على أماكنها المناسبة، إلا أنه وقع - أحياناً - فى خطأ التكرار ، الذى أفضى إلى الإحساس بضعف التنسيق والترابط والتسلسل فى عرض مادته . ومن أمثلة ذلك : تكراره الحديث عن أهداف تأليف كتابه فى أكثر من موضع(١٩٠) .، رغم أن ذلك يكتفى بذكره فى المقدمة فحسب ، وكذلك تكراره ذكر منهجه النظرى الذى ارتضاه لنفسه عند جمع مادته من مصادرها ، والذى سيسير عليه فى تأليف كتابه(١٩١) ، وأخيراً تكراره نقد كتب السابقين عليه فى مجال التصنيف الجغرافى(١٩٢) .

(ب) التطويل ، والاستطراد :

على الرغم من توخى المقدسى الإيجاز فى كتابه ، ونصه على ذلك فى بعض المواطن وخوفه الإطالة ؛ كراهية الملال(١٩٣) ، إلا أنه حتى فى بعض المواضع التى توقف فيها عن مواصلة السرد ، فعل ذلك بعد أن أطال إلى حدما فعلاً(١٩٤) . وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإن المقدسى أطال بعض الشىء فى محتويات (مقدمات كتابه)(١٩٥) . رغم أهميتها إلا أنه كان يمكنه تجميعها وتركيزها ، وعرضها على نحو مختصر منظم . ويلاحظ أنه بينما نجد الإطالة فى بعض المواضع ، فإننا نشكو ندرة وشحاً فى ذكر الشخصيات العلمية المنسوبة إلى بعض الأقاليم الجغرافية . والتعريف الوافى بها(١٩٦) ؛ مما دفع أحد الجغرافيين اللاحقين لسد هذا النقص فيما بعد ، ألا وهو (ياقوت الحموى) فى كتابه (معجم البلدان) .

وبالنسبة للاستطراد فأرى أن سيل المعلومات الفقهية لدى المقدسى دفعه للوقوع - أحياناً فى عيب (الاستطراد) . ونلحظ ذلك عند الحديث عن

(الجحفة) ميقات أهل الشام فقد استطرد فى ذكر بقية مواقيت أهل الأمصار الأخرى ، وذكر الروايات الواردة فى ذلك . ثم انتهز الفرصة ، فاستطرد متحدثاً عن مناسك الحج (فرائض ، وواجبات ، وسننا) . وبعد أن استطرد ، آب إلى نفسه قائلاً : نرجع - الآن - إلى وصف مدائن هذه الكورة ونواحيها(١٩٧) . (يقصد كورة الحجاز) ؛ لأنه قسم شبه الجزيرة إلى اربع كور : الحجاز ، واليمن، وعمان ، وهجر)(١٩٨) . وكذلك أفاض - قبل ذلك الموضع بعض الشىء - فى ذكر مدن كور إقليم (شبه الجزيرة) ، ثم قال : الآن نرجع إلى وصف ما أمكن من بلدان الكور ، وندع ما لا فائدة فيه(١٩٩) .

(جـ) مجانبة الحياد والموضوعية ، والوقوع فى التناقض والغموض :

مما يحسب للمقدسى فى كتابه أنه أعطانا صورة شاملة متكاملة فى دراسة جيدة متميزة لأقاليم العرب ؛ إلا أنه جانبه التوفيق ، وتجاوز الحياد الواجب ، وظهر منه شىء من التحيز نحو العلماء عامة والفقهاء منهم خاصة . وخير مثال على ذلك قوله : (وكل ما نذكر من عيوب أهل البلدن فأهل العلم والأدب عنه بمعزل ، خاصة الفقهاء ؛ لأنى رأيت الفضل فيهم)(٢٠٠) . وواضح أن الرحل - هنا - يلجأ إلى تعميم الأحكام ، وهذا يبعده عن الموضوعية ؛ إذ إن لكل قاعدة شواذ ، فلا نستطيع تبرئه كل المنتسبين إلى العلم والفقه من العيوب والمذمات . وكذلك يؤخذ عليه كثرة استخدام صيغة (أفعل التفضيل) فى مجال المدح(٢٠١) ، واستخدامها بعيداً عن التفصيل - فى مجال الذم(٢٠٢) ، مما كان الأولى الاحتراز منه . وثمة نماذج أخرى : نأى الرحل فيها عن (الموضوعية) ، وذلك عندما خصص فقرة تقريباً عن عجائب كل إقليم شرح لنا جغرافيته . يلاحظ أنه لم يذكر أسانيد بعض تلك المرويات المتصلة بهذه العجائب ؛ اعتماداً على اشتهارها وذيوع الحديث عنها فى الأقاليم التى زارها . وبالنظر إلى مجموع هذه العجائب نجدها كثيرة ، وكنا نود أن يتحقق من مدى صدقها ، وألا يترك واحدة منها غفلاً من التعليق . ومن تلك العجائب ما ورد فى (إقليم أقور) عن دير الكلب الموجود

بأرض الموصل ، حيث يحمل إليه من عضه كلب عقور ، فيقيم خمسين يوماً عند رهبانه ، فيبرأ ، بإذن الله تعالى(٢٠٣) . وكذلك عين الماء التي من شرب منها مات بعد ثلاثة أيام(٢٠٤) . وأيضاً منارة الإسكندرية التي يقال : إنها من عمل الأنبياء ، وكان الناظر فيها يبصر مراكب العدو ، فيخبر أمير البلد بذلك ، ثم احتال الروم ، فذهبوا بها ، أو كسروها(٢٠٥) .

ويعلق د. حسين مؤنس(٢٠٦) على ورود تلك العجائب ، وأخبار المستبعدات وأوصافها في الكتب ، بأن ذلك راجع إلى ولع أصحابها آنذاك بذكرها ، وسذاجة في تصوراتهم ؛ إذ يسارعون في تصديق ما يسمعون ، ويبالغون في تصوير ما يجاوز المعقول ، رغم أنهم لدينا من أهل الثقة والصدق ، ويؤكدون أنهم رأوا وشاهدوا ما يصفون . وذلك كله نابع من إحساس غير صادق ولا دقيق لديهم ؛ رغبة في تشويق السامعين ، ولفت انتباه المتلقين عن نية حسنة ورغبة ساذجة في المتعة والتسلية . والحق أن ذلك التفسير عام ، ويغلب على ظني أنه لا ينطبق على المقدسي تمام الانطباق ، فلم يكن الرجل بمثل هذه السذاجة ، ثم إنه ينقل لنا ما شاع وذاع في البلد الذي يتحدث عنه ، أو ما طالعه في بعض الكتب ذاكراً رأيه أحياناً بالموافقة(٢٠٧) ، أو المخالفة(٢٠٨) . وأخيراً فإنني أرى أن هناك حلقة مفقودة في مثل روايات العجائب السابقة ، فمثلاً : من عضه كلب عقور ، لعل ذهابه إلى هذا الدير كان للاستشفاء على يد بعض الرهبان الأطباء طيلة الفترة المذكورة . وقد يكون الماء الذي يموت منه شاربه مسموماً ، أودى بحياة بعض شاربيه بعد فترة قصيرة ، فشاع بين الناس خبره . وقد تكون منارة الإسكندرية اخترعت وفق نظام هندسي معين - والإسكندرية مشهورة بعلمائها منذ القديم - بحيث تؤدي الغرض الدفاعي منها . إذا هناك تفسيرات لم ينقب المصنفون عنها ، مكتفين بما سمعوا ، أو قرأوا ، ولعلهم لو دققوا البحث ، واستقصوا الظاهرة ، لتوصلوا إلى نتائج طيبة .

وأخيراً ، فإن المقدسي كان - أحياناً - يأتي بالشيء ، ثم يذكر نقيضه بعد قليل ، فيوقعنا بين أمرين : إما أننا لم نفهم مراده حق الفهم ، فنتهم أنفسنا

بالقصور وتتهمه بالغموض ، وإما أنه لم ينقح هذا الجـزء جيداً ، فـأتى على هـذا النحو من التضارب والتناقض (كما هو الحال فى حديثه عـن أهـل حمـص(٢٠٩) ، وبلدة بيت المقدس)(٢١٠) .

٤ - المادة التاريخية : عرض ، وتحليل :

أحاول - خلال الصفحات التالية - رصد المادة التاريخية التقليدية (الأحـداث السياسية خاصة) ، التى أوردها فى القسم الأول من كتابـه : (أحسن التقاسيم) ، فأقوم بعرضها ، والتعليق على ما يتيسر لى منها . ثم بعدها أذكـر مجمـل المـادة التاريخيـة غير التقليدية الموجودة فى القسم نفسه (بجوانبها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، إلى جانب ملمح من ملامح العلاقات الدولية) ، باعتبارها مادة جديدة وغزيـرة ، يصعـب رصد كافة جزئياتها ، أو الحكم عليهـا ، وإنما نثبت بهـا مـع سابقتها . أن (أحسن التقاسيم) - فى شقه الأول - يعد - بحق - مصدراً من مصـادر (تـاريخ العـرب) ؛ إذ يجد فيه الباحثون مادة جديدة فى مصـدر غير تقليـدى (جغرافـى فـى الأسـاس) ، تعينهم على كتابة تواريخ أقاليم العرب بصورة شاملة متكاملة ما أمكن ، وتسـد بعـض النقص فى مصادر التاريخ المعروفة .

أولاً : المادة التاريخية التقليدية :

(أ) حادثة ضرب الحجاج الكعبة بالمنجنيق : ساق المقدسى ذلك الحدث، وهـو يتحدث عن (إقليم شبه الجزيرة) ، وبالتحديد عند تناوله (مكة) ، وأشـار إلى إدخال ابن الزبير - قبلها - عشرة من مشايخ الصحابة ، حتى سمعـوا مـن عائشة ما روته عن الرسول ، مـن أن (الحجـر) جـزء مـن (البيـت) ، وأن قريشاً لم تدخله فى بنائه ؛ لقصور النفقة عـن ذلـك ، وأن الرسـول ﷺ كـان يرغب فى إعادة بناء الكعبة ، وإدخال الحجـر فيهـا لـولا أنهـم حديثـو عهـد بالجاهلية . ومن هنـا فـإن ابـن الزبير أصر على تنفيـذ مـا كـان يتطلـع إليـه الرسول، وقد اجتمع الناس وخشوا عاقبة الإقدام على ذلك ؛ خشـية أن يحـل

بهم العذاب ، لكن ابن الزبير أعاد بناءها على ما حكت عائشة ، وكان في ذلك الخير وسكن الناس .

فلما قدم الحجاج ، تحصن ابن الزبير بالكعبة ، فأمر الحجاج بوضع المنجنيق على (جبل أبي قبيس) بمكة ، وقال : أرموا الزيادة التي ابتدعها هذا ، فرموا موضع الحطيم ، وتم إخراج ابن الزبير بعد قتله ، فصلب . وأعاد الحجاج الحائط ، كما كان قديماً ، وأخذ بقية الأحجار ، فسد بها الباب الغربي ، ورصف بقيتها في البيت ؛ كي لا تضيع(٢١١) .

(ب) في حديثه عن (المدينة) ذكر (جبل أحد) ، وبين أن به موضعاً ، اختبأ فيه النبي ﷺ ، باعتباره أقرب الجبال إلى المدينة(٢١٢) .

(جـ) في (إقليم شبه الجزيرة) ، وعند تناوله مدينة (صحار) ، قال المقدسي : هي قصبة عمان . ثم قال : بها مسجد صحار على نصف فرسخ . ثم (هناك) بركت ناقة الرسول وقد بني المسجد أحسن بناء(٢١٣) .

(د) الأحساء : قصبة هجر (البحرين) . بها مستقر القرامطة من آل أبي سعيد. ثم نظر وعدل ، غير أن الجامع معطل . وبالقرب خزانة المهدي ، وخزائن أخرى أيضاً ، فبعض الأموال بتلك ، بوقيته في خزائنهم(٢١٤) .

(هـ) أهم حكام شبه الجزيرة : هي أبداً لصاحب مصر ، لأجل الميرة . واليمن . لآل زياد ، وأصلهم من (همدان) . وعلى صنعاء أمير غير أن ابن زياد يحمل إليه أموالاً ؛ ليخطب له . وربما أخرجت عدن عن ايديهم . وآل قحطان في (الجبال) ، وهم أقدم ملوك اليمن . والعلوية على (صعدة) يخطبون لآل زياد . وعمان للديلم ، وهجر للقرامطة ، وعلى (الأحقاف) أمير منهم(٢١٥) .

(و) في إقليم العراق : قال المقدسي : هي مستقر خلفاء ولد العباس ، وظل الأمر أمرهم حتى ضعفوا ، وغلب عليهم الديلم . والآن لا يرون ، ولا

يلتفت إلى رأيهم . ثم ذكر خلفاء العباسيين ، وبداية ونهاية حكم كل منهم ، ومكان وفاة بعضهم ، وعدداً كبيراً من قضاتهم . ووصل في الخلفاء حتى (الطائع لله) . ثم قال : وأول من استولى من الديلم : أبو الحسن ابن بويه ، ثم ابنه (بختيار) ، ثم عضد الدولة ، ثم ابنه بلكارزار ، ثم ابنه الأكبر (أبو الفوارس)(٢١٦) .

(ز) وفي (إقليم الشام) : اكتفى بقوله : والولايات لصاحب مصر ، وقد كان سيف الدولة غلب على أعلاه(٢١٧) .

(ح) وفي إقليم (مصر) قال : وأما الولايات ، فللفاطمي(٢١٨) .

(ط) وفي إقليم (المغرب) قال المقدسي : وأما الولايات ، فلم يخطب لغير بني أمية بالأندلس قط .

وأما السوس الأقصى ، فأول من غلب هناك (إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب) ، وذلك أن إدريس أفلت من وقعة من وقعة العباسيين بالطالبيين بـ (فخ) في خلافة الهادي ، وأتى إلى مصر فساعده صاحب بريدها (واضح مولى المنصور) الشيعي ، فحمله على البريد إلى المغرب بـ (طنجة) ، فاستجيب لدعوته هناك . وقام الرشيد في خلافته بضرب عنق (واضح) ، وصلبه . ثم دس إلى إدريس رجلاً ، يدعى الشماخ (مولى المهدي) ، وكتب له كتاباً إلى عامله (إبراهيم بن الأغلب) على إفريقية ، فخرج حتى وصل إلى (زويلة) ، وأعلمهم أنه طبيب ، وأنه من أوليائهم . فاطمأن به إدريس، ثم شكا له علة في أسنانه فأعطاه ما يستن به مسموماً ليلاً ، وأمره باستخدامه عند الفجر . فقتل إدريس ، ولم يلحق بالشماخ ، فولاه الرشيد بريد مصر(٢١٩) .

*** ملاحظات على ما تيسر من المادة التاريخية التقليدية السابقة :**

١ - المعلومات الواردة مختصرة وسريعة ، فهي لم تقصد لذاتها ، وإنما أتت عرضاً أثناء دراسة الأقاليم الجغرافية الشاملة ، فرأى المقدسى أن يتحدث عن حكام كل إقليم بسرعة ولذلك فهي ليست تاريخاً مفصلاً ، لكنها كتابات طالت شيئاً ما عند خلفاء العباسيين بالعراق ، بينما تضاءلت جداً عند تناول إقليمى (الشام ، ومصر) ، وكأنه اكتفى فيهما بالإشارة إلى القوى التى حكمتهما مؤخراً . بينما أتى حديث المقدسى عن حكام (شبه الجزيرة) خالياً من ذكر مواقيت ولاياتهم مقتضبا . وبخصوص المغرب فقد عاد إلى بدايات حكم الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وأشار إلى سيطرة بنى أمية على الأندلس .

٢ - بعض المعلومات التاريخية الواردة تلقى ظلالاً جديدة على بعض الأحداث ، فالحجاج لم يهدم الكعبة ويضربها بالمنجنيق لذات الهدم والتخريب ، وإنما فعل ما فعل لإزالة ما أحدثه عبد الله بن الزبير من تعديل على بنيانها ؛ نكاية فى خصمه اللدود . ولا شك فى أن الحجاج كان يهدف من الضرب - ايضاً - إجبار ابن الزبير على الاستسلام . وقد ذكر أبو حنيفة الدينورى : أن الحجاج نصب المنجنيق على (ابى قبيس) ؛ ليضرب ابن الزبير ، وأهل المسجد المتحصنين بالكعبة ، فنالها شر حتى مقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م(٢٢٠) . ويتفق الطبرى مع هذا القول ، وتزيدنا روايته أن الحصار دام سبعة شهور ، وأن الرعد والبرق أصابا مكة وبعض جند الشام مع الحجاج ، عندما سلط المنجنيق على الكعبة ، لكن الحجاج طمأن جنده بأن ما اصابهم يصيب عدوهم كذلك : فواصلوا الضرب(٢٢١) .

ويذكر لنا ابن كثير أن حجارة المنجنيق سقطت فى الكعبة ، وأن ابن الزبير قتل فى المسجد الحرام ، ودخلت جيوش الحجاج من أبواب المسجد(٢٢٢) .

ويضيف الطبرى قائلاً : إن الحجاج نقض بنيان الكعبة ، الذى كان بناه ابن الزبير، لما أدخل الحجر فى الكعبة ، وجعل لها بابين ، فأعادها الحجاج إلى بنائها الأول سنة ٧٤هـ/٦٩٣م(٢٢٣) .

٣ - بعض المعلومات المذكورة مخالف للمعروف المتواتر ، فناقة رسول الله لم تبرك قرب مسجد صحار بعمان وإنما بركت بالمدينة عند دار بنى مالك بن النجار ، وذلك فى مكان مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار(٢٢٤) . وكذلك لم يؤثر أن الرسول ﷺ اختبأ فى جبل أحد ، وإنما كان الجبل فى ظهر جيش المسلمين، ووضع الرسول عليه الرماة ؛ حماية لظهورهم من خيل عدوهم(٢٢٥) . وبخصوص كلام المقدسى عن (القرامطة) ، فمن الواضح الربط بينهم وبين الفاطميين ، لكن غير المفهوم أن يذكر المقدسى أن دولتهم بالبحرين كان بها نظر وعدل ، ولا أدرى كيف يتأتى ذلك وأحكام الشرع معطلة ، وانحرافاتهم على أشدها ، وقد قال المقدسى نفسه : إن الجامع هناك معطل ؟!

٤ - بالنسبة لفرار إدريس إلى مصر ، فقد ذكر المقدسى إن إدريس نزل على واضح (مولى المنصور) ، الذى سهل له مهمة الانتقال إلى المغرب . وبالعودة إلى (تاريخ الطبرى)(٢٢٦) . تبين أن (واضحاً) هذا هو (مولى صالح ابن المنصور) ، وأنه كان رافضياً خبيثاً . وقد قال بنسب (واضح) السابق ابن عذارى أيضاً(٢٢٧) ، خلافا لما قاله المقدسى . ويلاحظ أن المقدسى ذكر أن واضحاً حمل إدريس على البريد حتى نزل به (زويلة) بالمغرب . والصواب ما ذكره الطبرى(٢٢٨) ، وابن عذارى(٢٢٩) : أنه نزل (وليلة)(٢٣٠) . وقد ذكر المقدسى أن الشماخ كوفىء بتوليته بريد مصر ، وهى معلومة صحيحة ، وردت لدى الطبرى(٢٣١) من قبل ، وابن عذارى من بعد(٢٣٢) .

٥ - إذا ألقينا نظرة فاحصة على المادة التاريخية ، التى أوردها المقدسى عن (الخلافة العباسية) ، والحكام الديلم (البويهيين) ؛ فإننا نخرج بعدة ملاحظات على النحو الآتى :

(أ) ورد نسب الخليفة العباسى السفاح فى كتاب المقدسى هكذا : (عبد الله بن محمد بن على بن العباس)[٢٣٣] . وبالعودة إلى الطبرى ، وجدت أن الصواب كالآتى : (عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس)[٢٣٤] .

(ب) أسقط المقدسى الخليفة (المهتدى) ، فلم يذكره ، رغم أنه ولى الخلافة بين (المعتز والمعتمد)[٢٣٥] ، من شهر رجب سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ، حتى عزل وتوفى فى الثامن عشر من شهر رجب سنة ٢٥٦هـ ٨٦٩م[٢٣٦] . ومن قبل لم يذكر خلافة (الأمين ١٩٣ - ١٩٨هـ/ ٨٠٨ - ٨١٣م ، واكتفى بالإشارة إلى خروج أخيه المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٣٣م) عليه ، وقتله إياه[٢٣٧].

(جـ) وقع خلل فى نسبة بعض الخلفاء لمن قبلهم : فمثلاً : قال المقدسى بعد مقتل المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨هـ / ٨٦١ - ٨٦٢م) : فبويع لابنه أبى العباس أحمد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م)[٢٣٨] . والصواب : فبويع لعمه (أحمد بن المعتصم) ؛ لأن الأتراك - بعد مقتل المتوكل ، وابنه المنتصر على أيديهم - خشوا أن يلى أحد أبناء المتوكل ، فلا تبقى لهم باقية ، فولوا ابن أستاذهم (أحمد بن المعتصم)[٢٣٩] .

وأيضاً وقع خلط عندما قال المقدسى بعد وفاة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢م) :

ثم بويع لابنه أبى العباس (أحمد بن ابى أحمد المعتضد)[٢٤٠] . والصواب : بويع لابن أخيه الموفق : فالموفق يكنى أبا أحمد ، والذى ولى هو ابنه أبو العباس[٢٤١] .

وكذلك وقع خطأ فى قول المقدسى بعد وفاة المكتفى (٢٨٩ -٢٩٥هـ/ ٩٠١ - ٩٠٧م) ، حين قال : ثم بويع ابنه (أبو الفضل جعفر المقتدر با لله ٢٩٥- ٣٢٠هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢م[٢٤٢] . والصواب : ثم بويع أخوه (جعفر بن المعتضد با لله)[٢٤٣] ؛ لأن المقتدر والمكتفى أخوان ، فهما ابنا الخليفة (المعتضد).

(د) بالنسبة لذكر الخلفاء العباسيين : فإننا نلاحظ عدم ذكر قضاة (الأمين، والمهتدى) ، فهما لم يذكرا أصلاً ، ومن ثم لم يشر المقدسى لقضاتهما ، وكذلك لم يشر إلى قضاة الخلفاء : القاهر ٣٢٠ - ٣٢٢هـ / ٩٣٢ - ٩٣٣م ، والراضى ٣٢٢ - ٣٢٩هـ / ٩٣٣ - ٩٤٠م ، والمتقى ٣٢٩ - ٣٣٣هـ / ٩٤٠ - ٩٤٤م. وأيضاً الخليفة المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣هـ / ٩٤٥ - ٩٧٣م)(٢٤٤) .

وجدير بالذكر أن المقدسى كان يذكر أكثر من قاض فى عهد الخليفة الواحد عند تعددهم ، لكنى أرصد الملاحظات الآتية :

١ - أن الاسم الصحيح لجد قاضى المهدى (محمد بن عبد الله بن علاقة) هو (علاثة)(٢٤٥) .

٢ - أن أبا يوسف (يعقوب بن إبراهيم الأنصارى ١١٣ - ١٨٣هـ / ٧٣١ - ٧٩٨م) قاضى القضاة المشهور لم يكن أحد قاضيين ولاهما الخليفة الهادى (١٦٩ - ١٧٠هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م) فقط(٢٤٦) ، وإنما الصحيح : أنه ولى القضاء لثلاثة من خلفاء بنى العباس (المهدى ١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٤ - ٧٨٥هـ ، والهادى ، والرشيد ١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨م)(٢٤٧) .

٣ - أن ابن أبى الشوارب (الحسن بن محمد بن أبى الشوارب) كان قاضياً للمعتز ، كما ذكر المقدسى ، لكن الأخير عاد وجعله قاضياً للمعتمد(٢٤٨) . وقد وجدت لدى الطبرى أن هذا الرجل حبس أواخر عهد المهتدى ، وولى مكانه (عبد الرحمن بن نائل البصرى) قضاء سامرا(٢٤٩) .

ثم وجدت له ذكراً ثانياً سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م أيام (المعتمد) عند إعطائه نسخه من كتابه ولاية العهد ؛ ليقوم بتعليقه فى الكعبة(٢٥٠) . فلعله أعيد للقضاء ثانية . وعلى كل فقد وافته المنية فى العام نفسه(٢٥١) .

(هـ) وأخيراً ، فبالنسبة لحكام الديلم ، الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين إبان ضعفهم فلى عدة ملاحظات هى :

١ - ذكر المقدسى أن أول من استولى من الديلم (أبو الحسن بن بويه ، ثم ابنه بختيار) . والصواب : أول من استولى من الديلم (البويهيين) على العراق هو أبو الحسين بن بويه(٢٥٢) ؛ حتى يصح أن يكون الحاكم بعده ابنه (بختيار) المذكور(٢٥٣) .

٢ - ما ذكره المقدسى عن ولاية (عضد الدولة) (٢٥٤) حكم العراق بعد (بختيار) صحيح . أما ابن عضد الدولة (بلكارزار) هذا ، الذى ولى بعد أبيه ، فلم أقف عليه فيما تحت يدى من مصادر .

٣ - وبخصوص أبى الفوارس (الابن الأكبر لعضد الدولة) ، فاعتقد أنه هو الذى أشار إليه ابن الأثير ، وقال : هو شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة . ولى العراق سنتين ، وثمانية أشهر ، وأياماً ، وتوفى مستهل جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ(٢٥٥) .

ثانياً : مجمل المادة التاريخية غير التقليدية :

بعد أن استعرضنا المادة التاريخية الواردة فى القسم الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، وكانت تتعلق - فى غالبها - بالجانب السياسى ، ننتقل إلى أبرز معالم المادة التاريخية غير التقليدية ، التى يمكن أن تخدم الباحثين فى مجال التاريخ وهى على النحو الآتى :

١ - فى المجال الاقتصادى : اهتم المقدسى برصد العديد من المظاهر الاقتصادية فى (**أقاليم بلاد العرب**) كما يلى :

(أ) **فى مجال الزراعة :** اهتم الرحل بالحديث عن الكثير من النواحى المرتبطة بالمجال الزراعى ، مثل : ذكر الأنهار لموجودة فى الأقاليم الجغرافية ، التى قام بالتعريف بها والتى تروى الأراضى الزراعية عن طريقها ، وكذلك طرق الرى المستخدمة كالسدود المقامة على بعض الأنهار(٢٥٦) ، والاستفادة من ظاهرة المد والجزر(٢٥٧) . وأشار - أيضاً - إلى مصادر الرى الأخرى ، مثل : الآبار العذبة ،

والعيون ، والبرك العظيمة ، والقنوات(٣٥٨) . ولم يفت المقدسى الاهتمام بالإشارة إلى المقاييس المقامة على الأنهار(٣٥٩) ، باعتبارها خطوة مهمة متقدمة ، تبرز مدى الاهتمام بكمية المياه الواردة إلى الأنهار الكبيرة ، لتوسيع الرقعة الزراعية التى يمكن استغلالها ، ويحقق عدالة توزيع المياه بين الناس ، وتجنب حدوث الكوارث بالاحتياط لها(٢٦٠) . وأخيراً ، تناول المقدسى بالذكر المحاصيل الزراعية التى تجود زراعتها فى أقاليم العرب المختلفة من حبوب ، وبقول ، وخضراوات ، وفواكه على مختلف أنواعها ، ذاكراً ما تشتهر به المدن المختلفة ، والظروف المناخية ووسائل الرى الملائمة لذلك(٢٦١) .

(ب) **فى مجال الثورة الحيوانية** : أورد المقدسى بعض المعلومات المتصلة بالنشاط السكانى فى أقاليم العرب ، فذكر الخيول ، والأغنام ، والأنعام ، والأسماك ، وبعض أنواع الطيور(٢٦٢) ، إلى جانب الإشارة إلى بعض التماسيح الموجودة فى بعض المناطق(٢٦٣) .

(جـ) **فى مجال الصناعة** : أطلع المقدسى على عدد من الثروات المعدنية التى تحويها أقاليم العرب ، مثل : الذهب والحديد والفضة ، والرخام ، واللؤلؤ ، والمرجان(٢٦٤) . وقد قامت بتلك الأقاليم عدد من الصناعات اليدوية كالمنسوجات والملابس خاصة الثياب الصوفية الرفيعة ، والأردية الملونة ، والستور ، والأنماط(٢٦٥) . وكذلك وجدت صناعة الأرحية ، التى أقيمت على أفواه الأنهار ، وتدار بوسطة المياه(٢٦٦) . وفى البلدان التى راجت فيها زراعة الزيتون ، أقيمت معاصر الزيوت . ويضاف إلى ذلك صناعة الصابون الجيد ، والمكاتل ، والسلاسل ، والسيور الجلدية ، والأقلام والشمع ، والحلوى(٢٦٨) .

(د) **فى العمران** : أكثر المقدسى من الاهتمام بمظاهر العمران فى أقاليم العرب ، وسجل لنا العديد من شواهد ذلك فى وصف بارع دقيق . ولا شك أن نبوغ جده وعمه فى الفن المعمارى كان له تأثيره فى رؤية المقدسى الثاقبة لفنون المعمار فى الأقاليم التى زارها وكتب عنها . اهتم المقدسى فى كتابه بالإشارة إلى

قيام المدن (مثل : بغداد ، وسامرا) ، والعوامل المساعدة على قيامها (بيئية ، وزراعية ، ودينية ، وإدارية ، ومناخية ، ودفاعية وتجارية ، وغيرها) . وكذلك أهتم بإبراز عوامل ضعف المدن وانهيارها كتحول مركز الدولة عنها ، وضعف الخلفاء وسوء الإدارة ، وغير ذلك(٢٦٨) . ولا شك فى أن المساجد باعتبارها فنوناً معمارية مهمة جذبت انتباه المقدسى بتميزها وفخامتها ، فقام بوصف العديد منها كالمسجد الحرام بمكة وتطورات زيادة ةمساحته(٢٦٩) ، والمسجد النبوى بالمدينة(٢٧٠) ، وبيت المقدس بفلسطين(٢٧١) ، والجامع الأموى بدمشق(٢٧٢) ، وحامع عمرو بن العاص فى مصر(٢٧٣) .

(هـ) **التجارة** : تطرق المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم) إلى ذكر مختلف أنواع الصادرات والواردات المتبادلة بين أقاليم العرب من مصنوعات جلدية، وغزل ونسيج ، ومواد غذائية ، وجلود ، ومنتجات حيوانية وصناعات معدنية ، وزيتية ، وغيرها(٣٧٤) . ولا شك فى أن الترابط والتكامل كان قائماً بين هاتيك الأقاليم من خلال الأسواق الداخلية ، وشبكة المواصلات البرية الرابطة بين مختلف الأجزاء والبلدان(٢٧٥) ، وكان المقدسى حريصاً على بيانها مع نهاية حديثه عن كل من هذه الأقاليم . ولا شك فى أن الدولة الإسلامية كانت تتمتع بالرخاء، ويدخل خزينتها أموال طائلة من جراء هذا التبادل التجارى ، إلى جانب مصادر الدخل الأخرى من خراج وجزية وضرائب أخرى(٢٧٦) . ونعتقد ومن خلال الصورة التى نقلها المقدسى - أن الرخاء كان منتشراً فى عدد غير قليل من تلك الأقاليم إذ كانت أسعار السلع رخيصة على نحو ما لمس المقدسى بنفسه ، مثل : أسعار اللحوم ، والتمور ، والتين ، والزبيب ، والأعناب ، والزيتون ، وغيرها(٢٧٧). وأخيراً ، حوى كتاب المقدسى الكثير عن المكاييل والأوزان ، والنقد المستعمل فى الأقاليم العربية التى درسها(٢٧٨) .

٢ - **فى الناحية الاجتماعية** : سلط المقدسى الأضواء على حياة سكان الأقاليم العربية المختلفة من كافة زواياها بشكل يدعو إلى الإعجاب والانبهار .

فأهتم بالحديث عن عناصر السكان الغالبة على بعض الأقاليم(٢٨٠) وذكر حرفهم وأنشطتهم وأعطانا صورة واضحة لدورهم وأماكن سكناهم ، وعدد سكان الدار الواحدة(٢٨١) . واهتم بدراسة نفسيات شعوب هذه الأقاليم ، وطبائعهم ، وأخلاقياتهم وسلوكياتهم بإيجابياتها وسلبياتها(٢٨٢) . وتعرض ايضاً - للحديث عن عاداتهم وتقاليدهم المتبعة فى حياتهم ، وأحوال حماماتهم(٢٨٣) ، والإضاءة فى مساجدهم(٢٨٤) . وكذلك اهتم بأزيائهم وملابسهم التى يرتدونها(٢٨٥) ، وبمظاهر احتفالاتهم وأعيادهم(٢٨٦) ، ومستوى معيشتهم(٢٨٧) .

٣ - فى الناحية الثقافية : حرص المقدسى على دراسة الأوضاع الفكرية والثقافية بعامة فى كافة الأقاليم الجغرافية التى تعرض لها ، فدرس المذاهب الدينية الموجودة ، واتجاهات الفقهاء ، وأحوال الفرق الدينية الموجودة(٢٨٨) ، وعلماء القراءات(٢٨٩) ، ومظاهر الخلافات والصراعات بين أتباع الشيعة والسنة(٢٩٠) ، إلى جانب تركيز الأضواء على أهل الذمة الموجودين فى كل إقليم (من يهود ، ونصارى ، ومجوس)(٢٩١) . ويضاف إلى ذلك - اهتمامه بأحوال العلم فى الإقليم ومدى توافر حلقاته فى المساجد(٢٩٢) . وأخيراً ، فقد كان يركز على بيان الأوضاع اللغوية فى الأقاليم(٢٩٣) ، ومدى قوة وازدهار الواقع اللغوى ، وفصاحة ألسن سكانه من عدمها .

٤ - وأخيراً ملمح من ملامح العلاقات الدولية : وتمثل فى معلومات جديدة عن تفاصيل عمليات تبادل الأسرى بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية ، ومراسم الفداء بالشام(٢٩٤) ، وتتبع أحوال هؤلاء الأسرى من المسلمين فى القسطنطينية(٢٩٥) .

وبعد فقد انتهينا - بعد هذا التطواف الكبير - من دراسة القسم الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، فبينا موضوعاته ، وأقسام موارده ، ومنهجه فى التناول بإيجابياته وسلبياته . وأخيراً ، عرضنا وحللنا - ما أمكن - المادة التاريخية التقليدية لديه ، وعرضنا جوانب المادة التاريخية غير التقليدية (اقتصادياً ،

واجتماعيا، وثقافيا ، وجانبا من العلاقات الدولية) فى هذا القسم ؛ كى نصل - فى النهاية - إلى قناعة بأننا أمام مصدر جديد من مصادر تاريخ العرب .

وقد يرى البعض أن هذا المصدر مساعد وغير أصيل فى باب (التاريخ). ونرد بأن المهم أنه بمنهجه المتميز ، وبمادته المبثوثة فى ثناياه ، به من المادة التاريخية الجديدة ربما ما لا نجده فى كتب التاريخ العام الأصيلة . وثمة ملاحظة أخرى ، وهى أن (أحسن التقاسيم) لم ينقل عنه المؤرخون . والحق أننى وقفت على نقول منه لدى ياقوت صاحب (معجم البلدان) فى عدة مواضع جغرافية بالطبع(٢٩٦) ، إذ لم يفطن الأقدمون إلى أهميته التاريخية .

والخلاصة :

١ - أننا أمام باحث جاد ، وجغرافى بلغ أعلى درجة فى وصف البلدان بعد طول الارتحال(٢٩٧) ، وكثرة الإطلاع ، وهو - أيضاً باحث ناقد يتحرى تمحيص ما ينقل(٢٩٨) .

٢ - أننا أمام باحث موسوعى الثقافة منهجى التفكير ، استطاع أن يصهر عناصر ثقافته فى بوتقه مؤلفه ، ونجح فى عرض جغرافى شامل متميز ، حيث تركنا وكأننا نعايش هذه البلدان ، ونعاصر ما فيها (بعد أن عالجها من كافة زواياها) .

٣ - أن الدراسة الشاملة التى قدمها المقدسى أعطتنا نموذجاً عملياً ناجحاً ، ومثلاً يحتذى فى التآزر والتناسق ، والتعاون والتكامل بين فروع المعرفة ؛ إذ نجح فى أن يوائم بين المعلومات الجغرافية والمادة التاريخية ، فقدم للباحثين المعاصرين فى مجال التاريخ مادة حضارية غزيرة ، تسد كثيرا من الثغرات الموجودة فى كتب التاريخ الأصيلة . ومن هنا حق لنا أن نعد (أحسن التقاسيم) مصدراً جديداً من مصادر تاريخ العرب .

الهوامـش

(١) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فـي الأندلـس ، للدكتـور حسين مؤنـس (ط٢ - ١٩٨٦م ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم) ص ١ .

(٢) أورد له ابن النديم عدة مؤلفات ، يمكن - من عناوينها - أن نعدهـا فـي كتـب الجغرافيـة مثل : (كتاب البلدان الصغير) ، و (كتاب البلدان الكبير) ، و(قسمة الأرضين) و (كتاب الأقاليم) . (الفهرست ، ط . دار المعرفة - بيروت) ص ١٤٢ .

(٣) راجع ترجمته في (معجم الأدباء) لياقوت (ط٣ - دار الفكر ١٩٨٠م ، ١٥٤/٥) .

(٤) راجع ترجمتـه المفصلـة الـواردة فـي (المصـدر السـابق) ٦٤/٣ - ٦٨ ، وكذلـك دراسـة كراتشكوفسكي عنه في كتابه : (تـاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ط . لجنة التـأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م) ١٩٧ - ١٩٩ (من الترجمـة العربيـة لصلاح الديـن عثمـان هاشم) .

(٥) راجع الدراسة التي كتبها كراتشكوفسكي عنه في (المرجع السـابق) ١٩٩/١ - ٢٠١ . وتجدر الإشارة إلى أن مصنف الاصطخري (المسـالك والممـالك) قـد نشـر فـي سلسـلة (تراثنا) ، التي كانت تصدرهـا (وزارة الثقافـة والإرشـادالقومي) بالقـاهرة ، بتحقيـق : دكتور محمد جابر الحيني سنة ١٩٦١م .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١٩٧/١ .

(٧) كذا ضبط النسبة ابن خلكان في (وفيات الأعيان ، طبعة دار صـادر ، تحقيـق د. إحسـان عباس) جـ٣ ص ٢٩٢ ، وجعل النسبة إلى (بيت المقدس) . وكذا ذكـر السـمعاني فـي (الأنساب ، ط دار الجنان - بيروت) جـ٥ ص ٣٦٣ ، زاد قائلاً بلدة (بيـت المقـدس) هي البلدة المشهورة ، التي ذكرها الله في القرآن في غير موضع ، وبها المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، والمواضع الشريفة ، وإليهـا قبلـة المسلمين سبعة عشـر شـهراً أول مقـدم الرسول المدينة .

وتجدر الإشـارة إلى وجـود صيغة أخـرى لهذه النسبة هـي (المقدسـي) . وقـد أشـار بروكلمان إلى استخدام (دي غويه) لهذه الصيغة في نشرته لكتاب (أحسن التقاسيم).

ويضيف بروكلمان أن هذه ربما كان المقدسى نفسه يستخدمها ، بدليل ما ورد فى قصيدة له فى نهاية كتابه (ص ٣٧٣ ، ط . دار إحياء التراث العربى) ، حيث وصف كتابه بأنه (حكمة مقدسة) . (تاريخ الأدب العربى ، طبعة الهيئة العامة ، القسم الثانى ص ٦٦١ ، هامش١). والحق أن هاتين الكلمتين وردتا متفرقتين فى آخر بيتين من القصيدة المذكورة . لكنى أرى أن هذ التخريج بعيد . والصواب لدى أن كلتا الصيغتين صحيح ، فالمقدسى نسبة إلى (بيت المقدس) ، أى : البيت المطهر الذى يتطهر به من الذنوب . و (المقدسى): نسبة إلى (البيت المقدس) ، أى : المبارك ؛ لأن القدس تعنى البركة . (راجع مادة : المقدس فى (معجم البلدان) لياقوت ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت) ١٩٣/٥ - ١٩٤ ، و(لسان العرب) لابن منظور (ط . دار المعارف) ، مادة (ق. د. س) جـ ٥ ص ٣٥٥٠، و(المعجم الوسيط ، ط٢ - مجمع اللغة العربية) جـ٢ ص ٧٤٦ .

(٨) كشف الظنون ، لحاج خليفة (طبعة دار العلوم الحديثة - بيروت) ١٦/١ .

(٩) ورد لقبه هذا فى (معجم البلدان) لياقوت ١٩٦/٥ ، لكنى لم أقف على إصل تلك النسبة فيما تيسر لى من معاجم اللغة ، ومصادر الأنساب .

(١٠) أحسن التقاسيم ص ٣٣٥ .

(١١) جعله د. فلاح شاكر والد المقدسى ، لا جده . (المقدسى ، طبعة دار الشئون الثقافية - بغداد ص ٧) . والصواب ما اثبت بالمتن .

(١٢) قال عنها المقدسى : مدينة حصينة على البحر يلاد الشام ، كبيرة الجامع ، وبه غابة زيتون . وتم تحصينها فى عهد (أحمد بن طولون) بعد زيارته لها . (أحسن التقاسيم ص ١٤٢) .

(١٣) المصدر السابق .

(١٤) السابق : ص ٣٣٥ . وأرى أن سفر المقدسى ، وترحاله الطويل مع ما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة ، إلى جانب ما عرفنا عن مكانة جده ، وامتلاك والده الغلمان ، كل ذلك يجعلنى أميل إلى جعل أسرته فى مصاف الأثرياء ، خلافاً لما رآه محرر مادة (المقدسى) من أن أسرته من الطبقة المتوسطة .

(M. Miquel : AL - Muk addasi, Published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol. 7, 1993, p. 492).

(١٥) أحسن التقاسيم : ص ٥٣ .

(١٦) كذا ضبطها ياقوت بالحروف ، وقال : هى كورة كبيرة واسعة ، تشتمل على مدن وقرى ومزارع ، وهى فى ذيل جبال طبرستان ، وأكثر ما يكون فى ولاية ملكها قصبتها مشهورة هى (مامغان) ، ومن مدنها المشهورة (بيار) . (معجم البلدان ٤٧٠/٤) .

(١٧) أحسن التقاسيم ص ٢٧٣ .

(١٨) المصدر السابق ص ١٦١ .

(١٩) السابق ص ٢٣ (أيام دولة أمير المؤمنين أبى بكر عبد الكريم الطائع لله ٣٦٣ - ٣٨١هـ) فى المشرق ، وأبى منصور نزار العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) أمير المؤمنين بالمغرب) .

(٢٠) وقد نص على ذلك كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) حـ١ ص ٢٠٩ ، ود. فلاح شاكر فى كتابه : (المقدسى) ص ٧ .

Maqdisi, al published in the New Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A vol. 7, 1985, P. 809.

مع ملاحظة أن (دائرة المعارف البريطانية) أشارت إلى ذلك التاريخ بالميلادى فقط (946) . وبناء على ما تقدم ، فإن تحديد الزركلى ، وكحالة تاريخ ميلاد المقدسى بـ (سنة ٣٣٦هـ) تنقصه الدقة (الأعلام ، ط٩ ، دار العلم للملايين - بيروت ، ١٩٩٠م) ٣١٢/٥ ، ومعجم المؤلفين (ط . مؤسسة الرسالة) ٥٢/٣ .

(٢١) الأعلام ٣١٢/٥ .

M. Miquel : Al - Muk addasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol. 7, 1993, p. 492.

(٢٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى حـ١ ص ٢١٠ .

Maqdisi, al published in the New Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A., vol.7, 1985, p. 809.

مع ملاحظة أن (دائرة المعارف البريطانية) أشارت إلى ذلك التاريخ بالميلادى فقط (1000) .

(٢٣) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، للدكتور حسين مؤنس ص ١٠ .

(٢٤) المقدسي ، للدكتور فلاح شاكر ص ٨ .

(٢٥) والشيء نفسه يمكن أن يقال رداً على أن المقدسي توقف فى ذكر حكام الديلم (البويهيين) عند ولاية (أبى الفوارس بن عضد الدولة) المتوفى مستهل جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ (الكامل لابن الأثير ، ط. دار الكتب العلمية) جـ٧ ص ٤٣٦ .

(٢٦) تاريخ الأدب الجغرافى العربى جـ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

M. Miquel : Al - Muk addasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York) , vol.7, 1993, p. 493.

(٢٧) أحسن التقاسيم ص ١٩ .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٥ .

(٢٩) تاريخ الأدب الجغرافى العربى جـ١ ص ٢١٥ .

(٣٠) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص١٠ .

(٣١) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ . والملاحظ أن كلمة (تسيح) الواردة فى النص قد حرفت إلى (تسبح) ، ولم يصوبها المحقق (د. محمد مخزوم) . ومن قبل قرأها كراتشكوفسكى (تسبح)، كما ورد فى الأصل ، لكن المترجم صوبها . (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١١/١ (راجع الهامش) .

(٣٢) أحسن التقاسيم ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٣٣) هو كراتشكوفسكى فى كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١٥/١ .

(٣٤) أحسن التقاسيم ص ٢١ .

(٣٥) تمام الآية : (ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . (سورة الأنعام ٦ الآية ١١) .

(٣٦) تتمة الجملة من الآية : (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) . (سورة يوسف ١٢ / من الآية ١٠٩) .

(٣٧) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ .

(٣٨) مما أخذه على السابقين نقلهم الكثير عن كتب سبقتهم (كما هو الحال فى احتواء كتاب الجيهانى على جميع أصل ابن خرداذبه) . (راجع المزيد عن ذلك فى المصدر السابق ، والصفحة نفسها) .

(٣٩) مثل قوله عن (ابى زيد البلخى) فى أحد المواضع : أما أبو زيد ، فهو إمام فى هذا العلم ، خاصة فى إقليمه . (السابق ص ٧٣) .

(٤٠) السابق ص ١١٣ .

(٤١) السابق ٢٠٨ .

(٤٢) السابق ص ٩٣ .

(٤٣) السابق ص ٣٧٢ .

(٤٤) السابق ص١٦ - ١٧ . ويمكن مراجعة المزيد عن كثرة رحلاته ، والبلدان التى حل بها حتى نسب إليها (ص ٤٩ - ٥١ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٩١ -٩٢ ، ٩٥) .

(٤٥) يرى الدكتور مؤنس أن الرحلة فى ذاتها لم تكن من مواضع الفخر فى تلك العصور . ثم يستثنى قائلاً : اللهم إلا إذا كانت رحلة حج ، أو رحلة لقاء شيوخ ، وسماع منهم (تاريخ الجغرفية والجغرافيين فى الأندلس) ص ٤١٧ . وفى ص ٣٢٤ : يرى أن هذه الرحلات كانت جزءاً من ذلك النزوع العلمى ، الذى ملأ قلوب أمة العرب فى عصور النشاط والازدهار العلمى .

والحق أننى إذا كنت أوافق على الشطر الأخير من كلامه ، فإن لى تحفظاً على شطره الأول ؛ لأن تجشم مشاق الحج آنذاك بما كان يكتنف رحلاته من مخاطر جمة لم يكن - أيضاً - دافعه الفخر . والشيء نفسه يقال عن رحلات طلاب العلم ، وإذا كان بعضهم يذكر كثرة رحلاته وشيوخه ، فلأن ذلك مرتبط بوثاقة الرواية عموماً ، ورواية الحديث النبوى على وجه الخصوص ، اللهم إلا إذا وجد كذابون مدلسون ، فهذا موضوع آخر .

(٤٦) المرجع السابق ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٤٧) سوف أغفل الحديث عن (ثقافته التاريخية) ؛ لأنى سأتناولها فى مبحث خاص بها فى نهاية البحث ، حيث يتم رصد ما يتيسر لى من (المادة التاريخية التقليدية ، وغير التقليدية) فى القسم الأول من الكتاب الذى ندرسه (أحسن التقاسيم) .

(٤٨) تاريخ الأدب الجغرافى العربى حـ١ ص ٢١٤ .

(٤٩) أحسن التقاسيم ص ١٥ .

(٥٠) المصدر السابق ص١٦ .

(٥١) السابق ص١١٣ . وبتحقيق اللفظة لغوياً نقول : كركر فلاناً عن الشيء :دفعه ورده وكركر الشيء : أعاده مرة بعد أخرى . (اللسان ، مادة : ك . ر. ر) ٣٨٥٢/٥ ، والمعجم الوسيط (مادة : ك . ر . ك. ر) ٨١٥/٢ .

(٥٢) احسن التقاسيم ص ١٤٣ . وبتحقيق اللفظة لغوياً وجدت أن الهواء السجسج هو المعتدل الطيب ، والأرض السجسج لا سهلة ولا صلبة . والجمع : سجاسج (اللسان ، مادة : س. ج. س. ج) حـ٣ ص ١٩٣٩ ، و(المعجم الوسيط ، مادة) س. ج. س. ج) ٤٣٣/١.

(٥٣) أحسن التقاسيم ص ٢٠٨ . وديار معناها : أحد . نقول : ما بالدار ديار . قال الله (تعالى) : ﴿ وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾(سورة نوح : ٧١ الآية ٢٦) . راجع المعنى اللغوى فى (اللسان ، مادة : د . و . ر) حـ٢ ص ١٤٥٢ ، و(المعجم الوسيط) ٣١٣/١ .

(٥٤) أحسن التقاسيم ص ٩٤ .

(٥٥) راجع المصدر السابق ص٧٩ .

(٥٦) هناك شعر يحفظه ويرويه (راجع السابق ص ١٤٠) ، إلى جانب شعر نظمه فى كتابه (ص ٣٧٢ - ٣٧٣) .

(٥٧) وفيها تختلف الأسماء المطلقة على المدلول الواحد (مثل : لحام ، وجزار ، وقصاب - وقطة، وهرة ، وسنور) (السابق ص ٣٩) .

(٥٨) راجع السابق ص٣٥ - ٣٩ تحت عنوان : (ذكر الأسامى واختلافها) .

(٥٩) السابق ص ٣٥ .

(٦٠) السابق ص ٣٥ - ٣٦ .

(٦١) السابق ص ١٢٦ .

(٦٢) السابق ص ١٧٢ .

(٦٣) السابق ص٤٦ .

(٦٤) الحديث فى (السابق) ص ٧٦ - ٧٧ .

(٦٥) راجع فى (السابق) ص ٧٩ - ٨٠ .

(٦٦) راجع هذه الأحاديث فى (السابق) ص ١٢١ - ١٢٢ ، ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦٧) راجع السابق ص ٤٠ ، ١١٣ - ١١٤ .

(٦٨) السابق ص٤٣ .

(٦٩) السابق ص٤٠ .

(٧٠) السابق ص٤٤ - ٤٧ .

(٧١) السابق ص٧٨ ، ١٦٠ - ١٦١ .

(٧٢) كحديثه عن فرائض ، وواجبات ، وسنن الحج عند حديثه عن (مشاهد مناسك الحج).
(السابق ص ٨٠) .

(٧٣) اعتمدت فى دراسة هذا القسم من ذلك المصدر على طبعة (دار إحياء التراث العربى)
- بيروت ، ١٩٨٧ ، بتقديم ، وهوامش ، وفهارس : (د. محمد مخزوم) .

(٧٤) السابق ص١٥ - ١٧ .

(٧٥) السابق ص١٩ - ٧٢ .

(٧٦) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ٧٣ - ١٠٢ .

(٧٧) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ١٠٣ - ١٢٠ .

(٧٨) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ١٢١ - ١٣٢ . قال المقدسى فى تعريفه ص ١٢١ : منطقة واسطة بين العراق ، والشام ، ومنازل العرب فى الإسلام . وقال عنها ياقوت : اسم كورة بالجزيرة ، أو هى الجزيرة - بين الموصل والفرات - بأسرها . (معجم البلدان) ٢٨٢/١ . ويبدو أن مترجم كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) اعتمد على (ياقوت) فى تعريفه ؛ إذ قال : (أقور ، أو أثور : منطقة شمال العراق ، أى : الجزيرة) . المرجع السابق ٢١٤/١ بالهامش) .

(٧٩) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٣٣ - ١٦٤ .

(٨٠) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٦٥ - ١٨٢

(٨١) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٨٣ - ٢٠٤ (وفيه جمع بين المغرب والأندلس).

(٨٢) يمتد الكلام على هذا الإقليم (وهو بادية الشام) من ص ٢٠٤ - ٢٠٨ .

(٨٣) بين هذه الأقسام الثلاثة كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١٣/١ - ٢١٤ ، وعنه نقل - دون إحالة عليه - د. فلاح شاكر فى كتابه : (المقدسى) ص١١.

(٨٤) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ .

(٨٥) وهذا يدل على رغبة أصيلة لدى المقدسى فى أن يجعل كتابه على غير منوال سابقيه ، ومثالاً للدقة والأمانة العلمية ، خلافاً لنقل الجيهانى كتاب (ابن خرداذبه) ، ونقل ابن الفقيه كتاب (الجاحظ) ، وغيره . (راجع المصدر السابق ص ١٩٩) .

(٨٦) راجع السابق ص٤٩ .

(٨٧) وذلك فى رواية تتصل بأمر معاوية بن أبى سفيان حمل منبر المسجد النبوى إلى جانب المحراب كسائر المنابر ، وما ترتب على ذلك (السابق ص٨٢) .

(٨٨) فى رواية تتصل بأثر ريح الشمال والجنوب فى حياة السكان بالبصرة (السابق ص١١٢) .

(٨٩) فى روايتين تتعلق إحداهما بتماسيح مدينة الفسطاط ، والأخرى بوضع طلسم ؛ لئلاً يغلب ماء البحر على ارض مصر (السابق ص ١٧٩) . والطلسمات جمع طلسم ، وهو - فى علم السحر - خطوط وأعداد ، يزعم أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية ؛ لجلب محبوب ، أو دفع أذى . وهو لفظ يونانى لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجى . (المعجم الوسيط ٥٨٢/٢) .

(٩٠) فى رواية تتعلق بمقدار ما أنفقه المنصور على مدينة السلام ، وأجرة بعض العمال (أحسن التقاسيم ص ١٠٨) .

(٩١) عن مقادير غلة أرض السواد بالعراق (السابق ص ١١٨) .

٩٢) حول مقدار ما انفق على جامع دمشق (السابق ص ١٤٠) .

(٩٣) حول خراج اليمن ، وتقسيمها الإدارى (السابق ص ٩٨) .

(٩٤) حول خراج قنسرين ، وحمص ، والأردن ، وفلسطين (السابق ص ١٦٣) .

(٩٥) حول خراج الحرمين ، واليمن ، واليمامة ، والبحرين ، وعمان (السابق ص ٩٨) .

(٩٦) حول دخل مصر (السابق ص ١٨٠) .

(٩٧) حول دخل مصر قديماً أيام فرعون ، ثم الحجاج ، ثم ولد العباس (السابق : الصفحة نفسها) .

(٩٨) هو أبو الحسن على بن محمد الشمشاطى . من بلاد أرمينية من الثغور . كان معلم أبى تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان وأخيه ، ثم نادمهما . وكان شاعراً مجيداً ومصنفاً مفيداً، كثير الحفظ . ذكر محمد بن إسحاق النديم أنه كان حيا فى عصره (سنة ٣٧٧هـ) ، وترك كثيراً من أخلاقه لما علت سنه . (راجع ترجمته فى : الفهرست ص ٢٢٠ ، ومعجم الأدباء ٢٤٠/١٤ - ٢٤٤) . ويلاحظ أن (الشمشاطى) حرفت إلى (السميساطى) فى (الفهرست ص ٢٢٠) . والراجح ما ورد فى (معجم البلدان) جـ٣ ص ٤١١ ، حيث قال : شمشاط (وضطبها بالحروف) غير (سميساط) بمهملتين ، وإن كانت كلتاهما على الفرات ، إلا أن التى ينسب إليها هذا المؤرخ تقع فى طرف أرمينية، والأخرى من أعمال الشام .

(٩٩) للشمشاطي مؤلفات عديدة ذات طابع أدبي ، منها : (أخبار أبي تمام والمختار من شعره) ، و (أخبار أبي نواس والمختار من شعره) . (الفهرست ص ٢٢٠ ، ٢٢٨) . وقد اشار ابن النديم في (المصدر السابق) ص ٣٢٧ ، إلى أن الشمشاطي أحد من اختصر (تاريخ الطبري) ، وحذف أسانيده . وأرجح أن النص الذي اقتبسه المقدسي من (تاريخ الشمشاطي) هنا ، ويتعلق باستقدام المنصور ذوي الخبرة والكفاءة عند بناء بغداد، اقتبسه من (تاريخ الطبري) بشيء من التصرف والتجميع والتنسيق ، ويمكن التحقق من ذلك بمقارنة ما ورد في (أحسن التقاسيم) ص ١٠٨ - منقولاً عن (تاريخ الشمشاطي) - بما جاء في (تاريخ الطبري ، ط . دار المعارف بالقاهرة) جـ٧ ص ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٥٢ .

(١٠٠) حول مقدار مسيرة الدنيا (أحسن التقاسيم) ص ٦٩ .

(١٠١) حول معنى البصرة لغوياً (المصدر السابق) ص ١٠٦ .

(١٠٢) حول سؤال الخضر ملكاً من الملائكة عن ظاهرة المد والجزر . (السابق ص ٢٦) .

(١٠٣) في رواية تدور حول نقاش دار بين المقدسي ، وهذا القاضي عن عالم بغدادي (السابق ١٠٩ - ١١٠) .

(١٠٤) حول قبر يوسف بالشام (السابق ص ٥٢ - ٥٣) .

(١٠٥) حول بناء جامع في الرملة في عهد هشام بن عبد الملك (السابق ص ١٤٣) .

(١٠٦) حول ذكاء رجل ، وصف دير شمويل بالشام لأحد الملوك وصفاً ، نفره من السيطرة عليه . (السابق ص ١٦١) .

(١٠٧) حول مكانة قرطبة ، وصفتها (السابق ص ١٩٢) .

(١٠٨) ذيل بها المصدر حديثاً مطولاً عن (المذاهب في الأندلس) (السابق ص ١٩٥ - ١٩٦) .

(١٠٩) في رواية تتصل بحج الخليفة المنصور ، وتوسيع المسجد الحرام بعد شراء دوره المجاورة له بمكة ، ودورأبي حنيفة في حل إشكال فقهي وقع آنذاك . (السابق ص ٧٧ - ٧٨).

(١١٠) في رواية عن خراج مصر ، وحوار بين المقدسي ، والمصدر الذي روى عنه حول هذا الشأن . (السابق ص ١٨٠ - ١٨١) .

(١١١) فى روايات متتابعة حول الخصاء وكيفيته لدى الروم ، وحديث عن العبيد والصقالبة بالأندلس) (السابق ص ٢٠٠) .

(١١٢) راجع هذه الروايات بأسانيدها فى (السابق) ص ٢٨ ، ٧٦ - ٧٧ ، ٧٩ (بها روايتان) ، ٩٩ ، ١٠٧ - ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢١ .

(١١٣) راجع (السابق ص ٤٨ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٤٩ - ١٥٠ ، ١٧٦ .

(١١٤) فى رواية حول مغارة ، ترجع إل عهد قوم موسى ، وتعد من عجائب إيليا (السابق ١٥٩) .

(١١٥) السابق ص ١٢٩ ، ١٤٧ (روايتان) ١٤٩ ، ١٧٩ .

(١١٦) السابق ص ٦٢ .

(١١٧) السابق ص ٨٤ .

(١١٨) السابق ص ١٣٤ ، ١٦٥ ، ١٧٨ .

(١١٩) السابق ص ٢٨ ، ٤٣ (ويقال عن الأندلس : أنها جنات) ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ١٨٥ .

(١٢٠) السابق ص ١٢١ .

(١٢١) يحكى عن سفيان بن عيينة رواية عن تشجيع وتأييد عزم العزب الذى يريد الزواج والمريد الذى يسأل الحج وليس معه زاد ؛ لأنه حق على الله أن يعينهما (السابق ص٢٠٨).

(١٢٢) حكى لى عن بعض الزهاد (رواية عن تيسير الله الحج لمن أراد) ص ٢٠٨ .

(١٢٣) السابق ص ٢٦ .

(١٢٤) السابق ص ٩٠ .

(١٢٥) وحدثونا عن ابن عباس (رواية عن وصف الساهرة أرض القيامة) ص ١٤٧ .

(١٢٦) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٦٥ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك ، طبعة صورتها ، ونشرتها مكتبة الثقافة الدينية عن طبعة دى غويه) لابن خرداذبه ص ٨٩ .

(١٢٧) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ١٦٣ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ (بترتيب ذكر البلدان الواردة) .

(١٢٨) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ١٤٤ .

(١٢٩) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (كتاب الخراج) لقدامه ابن جعفر المنشور بقيته بعنوان : (نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة) فى طبعة (صورتها. ونشرتها مكتبة الثقافة الدينية عن طبعة دى غويه ، ملحقة بكتاب ابن خرداذبه فى مجلد واحد) ص ٢٥١ .

(١٣٠) راجع (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ١٤٤ .

(١٣١) أحسن التقاسيم ص ١٦٣ .

(١٣٢) المسالك والممالك ، لابن خرداذبه ص٧٥.

(١٣٣) العواصم : جمع عاصم ، وهو المانع . وهى اسم ناحية ، وليس موضع بعينه يسمى (العواصم) . وهى حصون موانع بين حلب وأنطاكية أكثرها فى الجبال ، وربما دخل فى هذا ثغور المصيصة وطرسوس . وقصبتها أنطاكية . (المسالك والممالك للاصطخرى) ص ٤٦ ، و (معجم البلدان لياقوت جـ٤ ص ١٨٦) .

(١٣٤) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفسها . وتجدر الإشارة إلى أن (الاصطخرى) ممن يجمعون بين (قنسرين ، والعواصم) ، ويضيف إليهما (الثغور) ، فيقول : (جند قنسرين والعواصم والثغور) . (المسالك والممالك) ص ٤٣ .

(١٣٥) قنسرين : كورة بالشام منها مدينة حلب ، وهى عامرة آهلة بالسكان ، تقع على طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات . وظلت كذلك حتى غلب الروم على مدينة حلب سنة ٣٥١هـ ، وقتلت من كان بضواحيها ، ففر أهل قنسرين ، وتفرقوا فى البلاد،

فعبر بعضهم الفرات ، وآخرون نقلهم سيف الدولة بن حمدان إلى حلب ، كثر بهم من بقى من أهلها . (المسالك والممالك للاصطخرى ص ٤٦، ومعجم البلدان لياقوت ٤٥٨/٤) .

(١٣٦) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفسها .

(١٣٧) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١٨٠ ، وقارنه بـ (الخراج) لقدامة بن جعفر ص٢٥١.

(١٣٨) ولعل مما يقوى هذا المنطق أن المقريزى ذكر بعض ولاة الإسكندرية فى العصر الإسلامى (مثل : محمد بن هبيرة سنة ١٩٩هـ) . (الخطط ، نشر : مكتبة الثقافة الدينية) جـ١ ص ١٧٢ ، و(معاوية بن عبد الواحد سنة ٢١٦هـ) . (والمصدر السابق ١٧٣/١ - ١٧٤) . وترى د. سيدة الكاشف أن للمدن الساحلية ، وغيرها من المناطق البعيدة كان يولى عليها حاكم ، يعينه الأمير أو الخليفة مباشرة (مصر فى عصر الإخشيديين ، طبعة الهيئة المصرية للكتاب) ص ١٦٩ . والظاهر أن هذا الوضع تمتعت به الإسكندرية حتى تولية أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣ م) الأعمال الخارجة عن قصبة مصر (الفسطاط) ، ومنها الإسكندرية التى كان يتقلدها (إسحاق ابن دينار) ، ثم أقره عليها سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) (الخطط ٣١٤/١ - ٣١٥) . وأخيراً ، فإن مقدار الدخل الخاص بمصر والإسكندرية الذى نقله إلينا المقدسى عن (قدامة ابن جعفر) ، إنما يرجع - فى الأساس - إلى ما وجد من وثائق الأوضاع المالية فى الخلافة العباسية بدءاً من سنة ٢٠٤هـ /٨١٩م ، لأن الدواوين السابقة على ذلك أحرقت فى الفتنة التى كانت بين الأمين والمأمون (سنة ١٩٧هـ / ٨١٢م) . (الخراج) لقدامة ابن جعفر ص ٢٣ - ٢٣٧ . وهذا يعنى أنها قوائم الخراج الخاصة بعصرى المأمون والمعتصم (من خلال السياق العام لكلام قدامة) . (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية) للدكتور الريس (ط٥ - ١٩٨٥ ، دار التراث بالقاهرة) ص ٤٩٤ . وهذه الفترة - أيا ما كانت - سابقة على حكم ابن طولون ، فيكون للإسكندرية فيها وال خاص بها ، ودخل خاص بها .

(١٣٩) كما فى رواية تذكر أن من زار مسجد يونس بإقليم (أقور) سبع مرات ، فإنهن يعدلن حجة (أحسن التقاسيم) ص ١٢١ .

(١٤٠) كما فى (المصدر السابق) ص ١٢٩ (بخصوص عين يونس فى إقليم أقور ، يزعمون أن يونس خرج منها ، ويستشفى بمائها من البرص .

(١٤١) كما فى (السابق) ص ١٧٦ (عن عروس النيل فى مصر ، وأسطورة إلقاء فتاة بكر فيه ؛ ضماناً لجريانه) .

(١٤٢) مثل : سؤاله بعض المصريين فى بخارى عن خراج مصر (السابق ص ١٨٠) .

(١٤٣) كسؤاله بعض الروم عن الخصاء وكيفيته (السابق ص ٢٠٠) .

(١٤٤) مثل : عريب الخادم ، وعرض كلام عريب هذا على أحد الثقات لديه . (السابق : الصفحة نفسها) .

(١٤٥) كرحلاته إلى (مدينة زبيد باليمن) . (السابق ص ٨٥) ، ورحلته إلى عدن (ص ٩٤ - ٩٥) ، وبغداد (ص١٠٥ - ١٠٦) ، وجبل لبنان بالشام (ص ١٦٢) .

(١٤٦) مثل : تجواله بالبصرة ، يعاين حديث الناس بعضهم إلى بعض ، يقررون حالة فى بلادهم يعايشونها (حديث الرحل إلى صاحبه فى البصرة عن دور ريح الشمال فى تلطيف الجو عنلهم ، وسوء حالهم فى ظل ريح الجنوب) . (السابق ص ١١٢) . وكذا ما ذكره عن مسحه بادية الشام يميناً وشمالاً ، وشرقاً وغرباً (ص ٢٠٤) .

(١٤٧) مثل : جوبانه المحيط الهندى أكثر من مرة ، ومطالعة المقدسى الخرائط النظرية التى معه للتوضيح ، ومعرفة مواقع البلدان ، ومقارنتها بالخرائط العملية الموجودة مع إمام التجار (أبى على بن حازم) فى البحر ، ومجالسته ، حيث تجوب مراكبه هذا المحيط أبداً . (ص ٢٤ - ٢٥ .

(١٤٨) على رأس أنواع المشاهدة ما يتصل برؤية (المشاهد الأثرية) ، تلك التى رصدها المقدسى بدقة من واقع زياراته الميدانية لأقاليم العرب ، وكأنه يضع أمام المؤرخين صورة للأماكن الأثرية ، التى تفيدهم زيارتها فى دعم كتاباتهم التاريخية عن أحداث هذه البلدان . (راجع ذلك فى صفحات ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، مثل : أثر قدم إبراهيم (عليه السلام) ، ومكان مولد الرسول ، ودار خديجة ، وقبور طلحة والزبير وعلى) .

(١٤٩) وذلك فى البلدان التى لم يزرها المقدسى ، مثل : بلاد الأندلس ، التى عرضها - باختصار - مختلطة بإقليم المغرب ، معتمداً على النقل والسؤال . (ص ١٨٣) .

(١٥٠) السابق ص١٥ .

(١٥١) السابق ص ١٥ - ١٦ .

(١٥٢) السابق ص٤٩ .

(١٥٣) هناك غموض يعترى هذه الشخصية السياسية الجغرافية فى آن . وقد اختلف حول اسم هذا العالم ، فبينما ياقوت يسميه فى موضع بـ (أحمد بن محمد بن نصر الجيهانى) ، ويكنيه بـ (أبى عبد الله) . (معجم الأدباء) جـ٤ ص ١٩٠ ، ويسبقه إلى ذلك ابن النديم فى (الفهرست) ص ١٩٧ ، فإن صاحب (معجم الأدباء) يعود ثانية فى جـ١٧ ص ١٥٦ - ويسميه (محمد بن أحمد بن نصر الجيهانى ، ويكنيه الكنية نفسها) . وقد تبع التسمية الأولى بروكلمان فى (تاريخ الأدب العربى) القسم الثانى ص ٦٥١ . أما كراتشكوفسكى ، ود . حسين مؤنس فقد تبعاً التسمية الأخيرة (تاريخ الأدب الجغرافى ٢١٩/١ ، وتاريخ الجغرافية والجغرافيين ص ١٩٦ ، وإن لقبه بالجيحانى ، او الجيانى ، وهو ما انفرد به دون غيره) . والراجح - عندى - التسمية الأخيرة ؛ لمجيئها فى مصادر أخرى ، ألقت لنا بعض الأضواء على حياة هذا الرجل ، كما سنرى .

وحول التعريف بهذا الرجل ذكر بروكلمان أنه وزير (نصر بن أحمد بن نصر الساماني ٢٦١ - ٢٧٩هـ / ٨٧٤ - ٨٩٢م) . (تاريخ الأدب العربى ، القسم الثانى ص ٦٥١). واعتقد أن بروكلمان نقل ذلك عن ابن النديم فى (الفهرست) ص ١٩٨ ، وكذلك عنه نقل ياقوت فى (معجم الأدباء) ١٩٠/٤ . ولى ملاحظتان حول هذه المعلومة : **الأولى** : أن نسب الأمير المذكور الصحيح هو (نصر أحمد بن أسد بن سامان) أول حكام الدولة السامانية (راجع تاريخ الطبرى ٥١٤/٩ ، والكامل ٥٣/٦) ، وفيات الأعيان ١٦١/٥ ، ونهاية الأرب للنويرى (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) جـ٢٥ ص ٣٣١) .

والثانية : أن الجيهاني كان وزيراً للأمير نصر الثاني (نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد ابن أسد بن سامان ٣٠١ - ٣٣١هـ) . وقد لعب الجيهاني دوراً مهماً في عهد ذلك الأمير الصغير ، الذى ولي بعد مقتل والده ، وهو ابن ثماني سنين ، فتولى أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني تدبير الدولة ، فأمضى الأمور ، وضبط المملكة ، واتفق هو وحشم والد الأمير (نصر بن أحمد) على تدبير المملكة . (معجم الأدباء ١٥٧/١٧ ، والكامل ٤٧٩/٦ ، ونهاية الأرب ٢٥ / ٣٤١ - ٣٤٢) . هذا وقد ورد ذكر الجيهاني في (أحداث سنة ٣٠٢هـ) ، عندما خلص من الأسر رجلاً يدعى (الحسين بن على) في بخارى ، أثناء فترة الصراعات المحتدمة ؛ مما أعاد هذا الرجل إلى الطاعة (الكامل ٤٨٥/٦، ونهاية الأرب ٣٤٤/٢٥) . ولا نجد ذكراً - بعد ذلك - للجيهاني ، لا ندرى تاريخ وفاته ! غير أني وجدت في (معجم الأدباء) ١٩٢/٤ ، وفيما نقله عن كتاب محمد بن سليمان (فريد التاريخ في أخبار خراسان) : أن الجيهاني كان على وزارة نوح بن منصور ، ثم صرفت عنه الوزارة في (شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٧هـ ، ووليها أبو الحسين عبد الله بن أحمد العتبى) . فلئن صح هذا الخبر ، فيكون الجيهاني توفي بعد السنة المذكورة ، لكن يحترز من ذلك بأنه لم يرد له ذكر في فترة تحكم هذا الأمير (نوح بن منصور (٣٦٦ - ٣٨٧هـ / ٩٧٦ - ٩٩٧م) ، والذى ذكر هو الوزير العتبى الذى قتل سنة ٣٧٢هـ (نهاية الأرب ٢٥ / ٣٥٩) ، بالإضافة إلى امتداد حياة الرجل - بناء على ذلك التاريخ - فترة طويلة ، خاصة أن الراجح أنه ألف كتابه (المسالك والممالك) المذكور في الفهرست ص ١٩٨م ، ومعجم الأدباء ١٩٠/٤ - بين عامي (٢٧٩ هـ / ٨٩٢م ، ٢٩٥ / ٩٠٧م) ، بناء على صلاته بالجغرافيين الآخرين . ونقلهم عنه (مثل : ابن خرداذبه المتوفى سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م) . (تاريخ الأدب الجغرافي ٢٢١/١) .

(١٥٤) أحسن التقاسيم ص ١٩ - ٢٠ .

(١٥٥) المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١ .

(١٥٦) قال بذلك كراتشكوفسكي في (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) جـ١ ص ٢١٠ .

(١٥٧) راجع المصدر السابق ص ٢٢ ، ٢٤ - ٢٥ ، ٨٥ ، ٩٤ - ٩٥ ، ١٠٥ - ١٠٦ ، ١٦٢ .

(١٥٨) السابق ص ١٧ .

(١٥٩) السابق ص٢٣ .

(١٦٠) السابق ص٢١ (وبها أمثلة ضربها للتوضيح) .

(١٦١) السابق ص ٢٢ (وقد علل ذلك بعلل ، نذكرها عند تناول وضوح شخصيته) .

(١٦٢) السابق : الصفحة نفسها .

(١٦٣) السابق ص٢٣ .

(١٦٤) من ذلك قوله : (وهذا مثاله وشكله ، هذا شكله ومثاله ، وهذا شكل الإقليم ومثاله في الصفحة المنقلبة . (راجع صفحات ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٦٥ ، ١٨٣) ولعل خرائط المقدسي المشار إليها تفوق تلك الخرائط النظرية ، التي أشار إليها د. حسين مؤنس ، والموجودة لدى الخوارزمي وغيره من الرحالة الجغرافيين (كابن حوقل) ، [illegible] التي كانت لمجرد التوضيح ، وبيان مواقع البلاد بالنسبة لبعضها دون تدقيق ، ولمجرد [illegible] الهيئة العامة للأرض وبحارها . (تاريخ الجغرافية والجغرافيين) ص ٢٦٧ .

(١٦٥) أبو حنيفة فقيه عراقي ، فناسب ذلك ذكر مذهبه في (إقليم العراق) ، وقد ذكر[illegible] بالفعل (راجع أحسن التقاسيم) ص ١١٣ - ١١٤ .

(١٦٦) المصدر السابق ص ٤٦ .

(١٦٧) فهي القراءة المختارة في ذلك الإقليم (راجع السابق) ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(١٦٨) تاريخ الأدب الجغرافي العربي جـ١ ص ٢١١ .

(١٦٩) أحسن التقاسيم ص ٢٢ .

(١٧٠) المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(١٧١) السابق ص ٧٣ .

(١٧٢) السابق ص ١٣٤ .

(١٧٣) السابق ص٦٥ .

(١٧٤) السابق ص١٠٥ .

(١٧٥) السابق ص١٠٦ .

(١٧٦) السابق ص٩٤ .

(١٧٧) سورة البقرة : ٢ / من الآية ١٠٢ .

(١٧٨) أحسن التقاسيم ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(١٧٩) المصدر السابق ص ١١٣ - ١١٤ .

(١٨٠) السابق ص ٤١ - ٤٢ .

(١٨١) السابق ص٩٨ .

(١٨٢) السابق ص١٩٧ .

(١٨٣) السابق ص٧٧ - ٧٨ .

(١٨٤) السابق ص ١١١ .

(١٨٥) السابق ص١٤٠ .

(١٨٦) السابق ص ١٣٩ .

(١٨٧) فى (سنن ابن ماجة ط. دار الريان) حديث ورد فى (كتاب الفتن) ، باب (افتراق الأمم) جـ٢ ص ١٣٢٢ (حديث رقم ٣٩٩٢) ، رواه بسنده إلى راشد بن سعد ، عن عوف بن مالك ، عن الرسول ﷺ ، قال : (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار . وافترقت النصارى على أثنتين وسبعين فرقة ، فإحدى وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة . والذى نفس محمد بيده ، لتفترقه أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ؛ واحدة فى الجنة ، وثنتان وسبعون فى النار . قيل يا رسول الله ، من هم ؟ قال : الجماعة) . وعلق المحقق أن إسناد الحديث فيه مقال .

(١٨٨) أحسن التقاسيم ص ٤٥ - ٤٦ .

(١٨٩) المصدر السابق ص ٥٤ .

(١٩٠) السابق ص ١٥ - ١٦ ، ١٩٩ .

(١٩١) السابق ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٤٩ ، ١٩٩ .

(١٩٢) السابق ص١٩ - ٢١ ، ٤٩ .

(١٩٣) من أمثلة ذلك : وصفه المحيط الهندي (ولا أحب أن أطول هذا الأصل ، وإلا ذكرت مراسي هذا البحر ، والطرق فيه) . السابق ص ٢٦) . وكذلك قوله في (إقليم المغرب): (ولولا خوف الملال وطول الكتاب ، لوصفت بقية مدائن إفريقية ، وأكثر مدائن الكور في جميع الإسلام ، وكلنا نميل إلى الإيجاز ، ونذكر ما لا بد منه) . (السابق ص ١٨٩).

(١٩٤) وذلك في موضع (الأشياء التي يختلف فيها أهل الأقاليم) ص ٣٩ .

(١٩٥) امتدت من (ص ١٥ - ٧٢) ، وهي ضرورية على اختلاف فصولها ، لكنها كان يمكن اختصار مادة بعضها من الداخل ، فتكون أوجز وأحصر وأعمق (مثل : توسعه في ذكر البحار والأنهار ص ٢٤ - ٣٤ ، والباب الذي اختصره للفقهاء ، واكتفى فيه بسرد الأمصار ومدنها من ص ٥٤ - ٦٥ ، وفصل ذكر اقاليم العالم ومركز القبلة ص ٦٦ - ٧٢) . والملاحظ أن عدداً من تلك الفصول سيأتي بيان ما فيها داخل الأقاليم الجغرافية عند وصفها .

(١٩٦) من الأمثلة النادرة : إشارته السريعة الخاطفة إلى الفقيه الإمام (أبي جعفر الأزدي - ولعله يقصد الطحاوي عند تعريفه بمدنية (طحا) في مصر . (ص ١٧١) .

(١٩٧) ص ٧٩ - ٨٠ .

(١٩٨) ص ٧٤ .

(١٩٩) ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢٠٠) ص ٤٣ .

(٢٠١) مثل قوله ص ٤٢ : « ولا أعف من أهل بيت المقدس ... ولا أصح موازين من أهل الكوفة ، وعسكر مكرم ... ولا أحسن من أهل حمص ... ولا أوطأ من أهل مصر » .

(٢٠٢) قال المقدسي في الصفحة نفسها : (وليس أكثر ولا أرذل من مذكرى نيسابور ، ولا أطمع من أهل مكة ... ولا أفقر من أهل يثرب ... ولا أبخس من أهل عمان ، ولا أجهل من أهل عمان) .

(٢٠٣) ص ١٢٩ .

(٢٠٤) الصفحة السابقة نفسها .

(٢٠٥) ص ١٧٩.

(٢٠٦) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢٠٧) فمثلاً : يبدى المقدسي موافقته على ما طالعه في كتاب (الطلسمات) ، حول وجود طلسمين في مصر ؛ للوقاية من خطر تماسيح النيل ، حيث يقول : ألا ترى أن التماسيح في كورة (الفسطاط) لا تضر مع عظمها وكثرتها . (أحسن التقاسيم ص ١٧٩) .

(٢٠٨) يظهر ذلك عند حديثه عن (عجائب إيليا بالشام) ، حيث المغارة العظيمة الموجودة بظاهر البلد ، تلك التي قرأ عنها في بعض الكتب ، حيث أرجع تاريخها إلى قوم موسى . قال المقدسي : وما صح لي ذلك . (المصدر السابق ص ١٥٩) .

(٢٠٩) حيث وصفهم مادحاً بقوله : (ولا أحسن من أهل حمص) ، ثم قال بعدها بقليل (ولا أحمق من أهل حمص) . (السابق ص ٤٢) . وكان الأولى أن يوضح جمال إحسانهم ، وموطن حمقهم .

(٢١٠) هذه بلدة المقدسي ؛ ولذلك أظهر كثيرا من محاسنها ، وأفرط في مدحها ، وفضلها على ما سواها ، شارحاً ومحللاً ومعللاً . فمن ذلك قوله : (لا ترى بها بخسا ولا تطفيفا، ولا شرباً ظاهراً ، ولا سكران ، ولا دور فسق سراً ولا إعلاناً ، مع تعبد وإخلاص . ولقد بلغهم أن الأمير يشرب ، فتسوروا عليه داره ، فرقوا أهل مجلسه) (السابق ص٢٢). وبلغ به الإعجاب ببلده أنه كان وهو يتحدث عن السوق العامر بمدينة (حلوان) بالعراق ، وبساتينها ، والفاكهة بها ، لا ينسى بلده ، فيعقد مقارنة بينهما لصالح بلده ، فيقول : (وبيت المقدس أكبر وأجل ، وأعمر وأظرف ، وأكثر مشايخ وعلماء منها) . (السابق ص ١١٠) . ويواصل في موضع آخر الحديث عن بلده ، وطيب هوائها ، فلا ترى

أحسن من بنيانها ، ولا أنظف منها ، ولا أكثر من خيراتها (السـابق ١٤٣ - ١٤٤) . ويقال فى القسم الثانى من كتابه ، وهو يذكر مدينة (سرخس) من (إقليم خراسان) : بيت المقدس مثل سرخس ، غير أن بيت المقدس بلد نظيف حسـن ظريـف (السـابق ص ٢٤٦) . وبعد هذا الإغراق فـى المـدح لبلـده ، إذا بـه يقـول : إلا أن لها عيوباً عـدة ، فيذكر منها ما يلى : (ثم لا ترى أقذر من حماماتهـا ، ولا أثقـل مؤنـة . قليلـة العلمـاء ، كثيرة النصارى ... لا مجلس نظـر ولا تدريـس ، وقـد غلـب عليهـا النصـارى واليهـود ، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس) . (السابق ص ١٤٤) .

(٢١١) السابق ص ٧٧ .

(٢١٢) السابق ص ٨٣ .

(٢١٣) السابق ص ٨٧ .

(٢١٤) السابق ص ٨٨ .

(٢١٥) السابق ص ٩٧ - ٩٨) .

(٢١٦) السابق ص ١١٦ - ١١٨ .

(٢١٧) السابق ص ١٦٢ .

(٢١٨) السابق ص ١٨٠ .

(٢١٩) السابق ص٢٠١ .

(٢٢٠) الأخبار الطوال (طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى) ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢٢١) تاريخ الطبرى ٦/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢٢٢) البداية والنهاية (طبعة دار الريان للتراث) جـ٨ ص ٣٣٤ - ٣٤٩ .

(٢٢٣) تاريخه جـ٦ ص ١٩٥ .

(٢٢٤) راجع (السيرة النبوية ، لابن هشام ، الطبعة الثانية ١٩٥٥م ، طبـع ونشـر : مصطفى الحلبى) ، القسم الأول ص ٤٩٥ .

(٢٢٥) راجع أحداث غزوة أحد تفصيلاً فى (المصدر السابق) ، القسم الثانى ص ٦٠ وبعدها .

(٢٢٦) حـ٨ ص١٩٨ .

(٢٢٧) البيان المغرب (ط٣ - دار الثقافة بيروت) حـ١ ص ٨٣ ، فيما ينقله عن (تاريخ الرقيق).

(٢٢٨) فى تاريخه حـ٨ ص ١٩٩ .

(٢٢٩) البيان المغرب ٨٣/١ .

(٢٣٠) كتبت فى (معجم البلدان) لياقوت حـ٥ ص ٤٤٢ بالقصر هكذا : وليلى ، وقال عنها: مدينة بالمغرب قرب طنجة ، دخلها إدريس بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على ناجياً من وقعة (فخ) ، وحصل بها سنة ١٧٢هـ أيام الرشيد إلى أن مات بها مسموماً - فى قصة طويلة - سنة ١٧٤هـ .

ويلاحظ أن هذا هو الاسم الصواب لتلك المدينة . أما (زويلة) الواردة فى كتاب (المقدسى) ، فغير مقصودة هنا ، ولعلها تحريف من النساخ ، لم يفطن إليه المحقق ، ولعل مطالعتنا تعريف ياقوت لها يؤكد صحة ما نقول ، فهناك (زويلة السودان) ، وتقع بين بلاد السودان وإفريقية وسط الصحراء (أول بلاد السودان) . (معجم البلدان) حـ٣ ص ١٧٩ . وهناك (زويلة المهدية) ، وهى مدينة بإفريقية ، بناها عبيد الله المهدى ، وأسكنها العامة (المصدر السابق ١٨٠/٣) . وواضح أن كلتا المدينتين غير مقصود فى هذا السياق .

(٢٣١) تاريخه حـ٨ ص ١٩٩ .

(٢٣٢) البيان المغرب ٨٣/١ .

(٢٣٣) أحسن التقاسيم ص١١٧ .

(٢٣٤) تاريخ الطبرى ٤٢١/٧ .

(٢٣٥) ولى المعتز سنة (٢٥٢ - ٢٥٥هـ / ٨٦٦ - ٨٦٨م) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢م) .

(٢٣٦) راجع أخباره في (تاريخ الطبري) جـ٩ ص ٣٩١ - ٤٥٦ .

(٢٣٧) أحسن التقاسيم ص ١٧٧ .

(٢٣٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٢٣٩) تاريخ الخلفاء للسيوطي (ط . دار القلم - بيروت) ص ٤٠٥ .

(٢٤٠) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٤١) تاريخ الخلفاء ص ٤١٩ .

(٢٤٢) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٤٣) تاريخ الخلفاء ص ٤٣١ .

(٢٤٤) أحسن التقاسيم ص ١١٨ .

(٢٤٥) تاريخ الطبري ١٧٣/٨ .

(٢٤٦) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٤٧) راجع (وفيات الأعيان) لابن خلكان ٣٧٩/٦ .

(١٤٨) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١١٧) ، وتاريخ الطبري ٣٧١/٩ .

(٢٤٩) المصدر السابق ٤٣٧/٩ .

(٢٥٠) السابق ٥١٤/٩ .

(٢٥١) السابق ٥١٥/٩ .

(٢٥٢) معلوم أن أولاد بويه ثلاثة : الأكبر (ابو الحسن عماد الدولة على بن بويه) ، والأوسط (ركن الدولة الحسن بن بويه) ، وهو والد عضد الدولة المشهور ، والأصغر أبو الحسن أحمد في حكم بلاد فارس (٣٢٠-٣٣٨هـ/٩٣٢ - ٩٤٦م) . (راجع ترجمته في : الكامل ٢٣٠/٧ ، ووفيات الأعيان ٣٩٩/٣ ، والنجوم ٢٤٣/٣) . أما معز الدولة الذى ولى العراق ، فقدم بغداد سنة ٣٣٤هـ ، توفى سنة ٣٥٦هـ ، وعهد لولده (بختيار) من بعده . وكان يحكم إلى جانب العراق - الأهواز - وهو عم عضد الدولة .

له ترجمة فى تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٤٠٧ ، ووفيات الأعيان ١/١٧٤ - ١٧٦ ، والنجوم الزاهرة ١٦/٤ (وفيه حرفت كنيته من أبى الحسين إلى ابى الحسن) .

(٢٥٣) هو أبو منصور بن معز الدولة . ملك العراق بعد وفاة أبيه ٣٥٦هـ / ٩٦٧م ، وكانت بينه وبين ابن عمه (عضد الدولة) منازعات ، حتى قتل فى إحدى معاركه أمامه بعد فترة إمارة ، امتدت أحد عشر عاماً وشهوراً ، سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م . (راجع تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٤١٠ ، والكامل ٧/٣٧٨ ، والنجوم ٤/١٣٣ - ١٣٤) .

(٢٥٤) هو فنا خسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه الديلمى . ولى سنة ٣٦٧هـ ، وتوفى ٣٧٢هـ بالعراق . (وفيات الأعيان ٤/٥٠ - ٥٥) .

(٢٥٥) الكامل ٧/٤٣٦ .

(٢٥٦) أحسن التقاسيم ص ١٧٥ .

(٢٥٧) المصدر السابق ١١١ .

(٢٥٨) كتاب (المقدسى) للدكتور فلاح شاكر ص ١٣٤ .

(٢٥٩) أحسن التقاسيم ص ١٧٥ .

(٢٦٠) كتاب (المقدسى) د. فلاح شاكر ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢٦١) أحسن التقاسيم ص ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٦٩ - ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ .

(٢٦٢) السابق ١٢٩ ، ١٧٠ .

(٢٦٣) السابق ١٧٧ .

(٢٦٤) السابق ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢٦٥) السابق ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢٦٦) السابق ص ١١١ .

(٢٦٧) السابق ص١٢٥ ، ١٢٩ .

(٢٦٨) كتاب (المقدسى) د. فلاح شاكر ص ١٠٣ - ١٢٧ .

(٢٦٩) أحسن التقاسيم ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢٧٠) المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢٧١) السابق ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢٧٢) السابق ص١٣٩ - ١٤٠ .

(٢٧٣) السابق ص١٦٩ .

(٢٧٤) السابق ص ٨٦ ، ٩٢ ، ١١٤ - ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٥٤ - ١٥٦ ، ١٧٣ ، ١٩٧ .

(٢٧٥) السابق ١٦٧ ، وكتاب (المقدسى) د. فلاح شاكر ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢٧٦) أحسن التقاسيم ٧١ - ٧٢ ، ١١٨ - ١١٩ ، ١٨٠ - ١٨١ .

(٢٧٧) المصدر السابق ٨٣ ، ١٢٥ ، ١٦٩ ، ١٨٦ .

(٢٧٨) السابق ص٩٣ - ٩٤ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٥٦ ، ١٧٤ ، ١٩٨ . وراجع (المقدسى) د. فلاح شاكر ص ١٥٧ - ١٦١ (وما يقابل المكاييل والأوزان الآن ص ١٦٢ - ١٦٧) . وراجع ما يتصل بالنقود ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢٧٩) أحسن التقاسيم ص ٨٤ ، ١١٢ .

(٢٨٠) السابق ص ١٥٧ ، ١٩٧ .

(٢٨١) السابق ص١٦٨- ١٦٩ (الدور فى الفسطاط اربع طبقات وخمس طبقات ويسكن الدار نحومائتى نفس ، والناس كالجراد ، هكذا رآهم الحسن بن أحمد القرمطى ، فهاله ما رأى ، فقيل له : هؤلاء نظارة فقط ، وما لم يخرج أكثرهم) .

(٢٨٢) السابق ص٩٧ (جفاء أهل مكة ، وظرف أهل اليمن ، وتطفيف وتخسير وفسق أهل عمان ، ٩٩ (نحافة وقناعة سكان شبه الجزيرة العربية ، وأكتفاؤهم بالخفيف من الثياب)، ص ١٦٩ (أهل مصر وخوفهم من القحط ، وتربصهم البلاء ، وإشرافهم على الجلاء ؛ خوف انقطاع النهر) .

(٢٨٣) السابق ص١١٥ ، وعن الحمامات راجع ص ٨٤ ، ١٢٥ ، ١٧٧ .

(٢٨٤) السابق ص ١٥٦ .

(٢٨٥) السابق ص ٩٤ ، ١٩٧ .

(٢٨٦) السابق ٩٤ ، ٩٥ (زينات فوق المنازل ، ونصب للقباب ، وتزيين للأسواق) .

(٢٨٧) السابق ١٦٩ .

(٢٨٨) السابق ص٤٤– ٤٦ ، ١٩٦ – ١٩٧ .

(٢٨٩) السابق ص ٤٦ ، ٩١ ، ١١٤ ، ١٢٦ – ١٢٧ ، ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٩٧ .

(٢٩٠) السابق ص٩٦ ، ١١٦ ، ١٢٦ .

(٢٩١) السابق ص ١١٢ .

(٢٩٢) السابق ص ١٧٤ .

(٢٩٣) السابق ص ٩٠ – ٩١ ، ١١٤ ، ١٢٩ ، ١٧٢ ، ٢٠٠ .

(٢٩٤) السابق ص ١٥١ .

(٢٩٥) السابق ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٢٩٦) جـ٣/١٩٤ ، ١٩٦ ، ٤٦٤ ، جـ٤ /١٧١ ، ٥١٦ ، ٥/١٩٦ ، ٣٢٦ . ويلاحظ أنه سمى كتاب المقدسى (أخبار بلدان الإسلام) . ونقل عنه فى (معجم الأدباء) ٣/٨٦ ، وسماه (كتاب البلدان) . وتجدر الإشارة إلى أن د. حسين مؤنس ذكر أن كتاب الروض المعطار) للحميرى حافل بالنقل عن المقدسى وغيره ، لكن صاحبه لم يكن يصرح بمصادره . (تاريخ الجغرافية والجغرافيين) ٥٣٨ .

(٢٩٧) الحضارة الإسلامية فى ق ٤ هـ ، لآدم متز (من الترجمة العربية – طبعة ١٩٤١) جـ٢ ص ٤ .

(٢٩٨) المرجع السابق ص ٧ .

مصادر ومراجع البحث(*)

*** القرآن الكريم :**

– **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** : لأبى عبد الله محمد بن أبى بكر البناء المقدسى (المتوفى أواخر ق ٤هـ) . دار إحياء التراث العربى – بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م . وضع مقدمته ، وهوامشه ، وفهارسه : : د. محمد مخزوم .

– **الأخبار الطوال** : لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى (ت ٢٨٢هـ) . سلسلة (تراثنا) . نشر : وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، د. ت . تحقيق : عبد المنعم عامر . مراجعة : د. جمال الدين الشيال .

– **الأعلام** : لخير الدين الزركلى ، الطبعة التاسعة ، دار العلم للملايين – بيروت ١٩٩٠م .

– **الأنساب** : الإمام أبى سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعانى (ت ٥٦٢هـ) . الطبعة الأولى ، ملتزم الطبع والنشر والتوزيع دار الجنان – بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م . تقديم ، وتعليق : عبد الله عمر البارودى .

– **البداية والنهاية** : أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤هـ) الطبعة الأولى ، دار الريان للتراث بالقاهرة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ . دقق أصوله، وحققه : د. أحمد ملحم ، وآخرون .

(*) القرآن الكريم هو المصدر الأول ، ويوضع على رأس القوائم . ويتم ترتيب المصادر والمراجع معاً ترتيباً هجائياً حسب عنوا الكتاب ، مع إسقاط (ال) من الترتيب ، ويتم إفراد المراجع الأجنبية وحدها فى نهاية المصادر والمراجع العربية .

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** : لابن عذارى المراكشي (توفي حوالى نهاية ق ٧هـ) ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة - بيروت ، ضمن سلسلة (المكتبة الأندلسية) رقم (٢٢) ، ١٩٨٣م . تحقيق ، ومراجعة : ج . س . كولان ، أ. ليفي بروفنسال .

- **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** : تأليف : كراتشوفسكي . طبعة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣م . ترجمة إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم .

- **تاريخ الأدب العربي** : لكارل بروكلمان . نشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م .نقل الكتاب إلى العربية : أ . د. عبد الحليم النجار ، وآخرون . الإشراف على الترجمة العربية : أ. د. محمود فهمي حجازي .

- **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس** : ، للدكتور حسين مؤنس . الطبعة الثانية ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٦م .

- **تاريخ الخلفاء** : لجلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) الطبعة الأولى ، دار القلم - بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م . حققه ، وقدم له ، وخرج آياته ، قاسم الشماعي الرفاعي ، ومحمد العثماني .

- **تاريخ الرسل والملوك** : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧م ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم .

- **تكملة تاريخ الطبري** : لمحمد بن عبد الملك الهمذاني (ت ٥٢١هـ) . الطبعة الثانية ، دار المعارف بالقاهرة (نشر ضمن ذيول تاريخ الطبري في جـ١١ منه)، ١٩٨٢ م . تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم .

- **الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى** : لآدم متز ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م . نقله إلى العربية : محمد عبد الهادى أبو ريدة .

- **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية** : للدكتور محمد ضياء الدين الريس ، الطبعة الخامسة ، مكتبة دار التراث بالقاهرة ، ١٩٨٥م .

- **سنن ابن ماجة** : للحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (ت ٢٧٥هـ)، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، د. ت . حقق نصوصه ، ورقم كتبه ، وأبوابه، وأحاديثه ، وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقى .

- **السيرة النبوية** : لأبى محمد عبد الملك بن هشام المعافرى (ت ٢١٨هـ) . الطبعة الثانية ، ملتزم الطبع والنشر : مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م . حققها ، وضبطها وشرحها ، ووضع فهارسها : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى .

- **الفهرست** : لأبى الفرج محمد بن ابى يعقوب إسحاق المعروف بـ (ابن النديم) (ت حوالى سنة ٣٧٧هـ) . الناشر : دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ، د. ت .

- **الكامل فى التاريخ** : لأبى الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى (ابن الأثير المتوفى ٦٣٠هـ) . الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م . راجعه وصححه : د. محمد يوسف الدقاق .

- **كشف الظنون** : لحاج خليفة (ت ١٠٦٧هـ) . طبعة : دار العلوم الحديثة - بيروت ، د. ت.

- **لسان العرب** : لجمال الدين بـن منظـور (ت ٧١١هـ) . نشـر : دار المعـارف بمصر ، د. ت. تحقيق : نخبة من العاملين بدار المعارف .

- **المسالك والممالك** : لأبى القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بـ (ابن خرداذبه) المتوفى حوالى (٣٠٠هـ) . نشر : دى غويه (صورته . ونشرته :مكتبة الثقافة الدينية) د. ت .

- **المسالك والممالك** : لإبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى (توفى فى النصف الأول من ق٤ هـ) سلسلة (تراثنـا) ، وزارة الثقافـة والإرشـاد القومـى ١٣٨١هـ / ١٩٦١م . تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى . مراجعة : محمد شفيق غربال .

- **مصر فى عصر الإخشيديين** : للدكتوره سيدة إسماعيل كاشف . نشر فى سلسلة (تاريخ المصريين برقم ٢٩) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م.

- **معجم الأدباء** : لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ) . الطبعة الثالثـة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٠م .

- **معجم البلدان** : لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ) . الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م . تحقيق فريد عبـد العزيز الجندى .

- **معجم المؤلفين : تراجم مصنفى الكتب العربية** : لعمر رضـا كحالـة ، الطبعـة الأولى ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

- **المعجم الوسيط** : إعداد ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الطبعـة الثالثـة ، مطـابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية ١٩٨٥م .

- **المقدسي** : للدكتور فلاح شاكر أسود . سلسلة (نوابغ الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، دار الشئون الثقافية العامة بالعراق - بغداد ١٩٨٨م .

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** : لتقى الدين أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥هـ) ، الطبعة الثانية . الناشر : مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٧م .

- نبذ من كتاب الخراج وصنعه الكتابة) لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى (ت ٣٢٠هـ) . نشر : دى غويه (صورته ، ونشرته : مكتبة الثقافة الدينية فى نفس مجلد كتاب ابن خرداذبه) د. ت .

- **نهاية الأرب فى فنون الأدب** : لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٣هـ) ، الجزء الخامس والعشرون ، مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة الكتاب ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م . تحقيق جابر عبد العال الحينى ، مراجعة د. عبد العزيز الأهوانى .

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** : لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ) . دار صادر - بيروت ، د. ت . حققه : د. إحسان عباس .

1 - M. Miquel : AL - Mukaddasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol.7, 1993.

2 - Maqdisi, al, published in the new Encyclopaedia Britanniica, Chicago, U. S. A., vol.7, 1985.

المنهج التاريخى للحافظ أبى الطاهر السِّلَفى
فى تأليف كتابة « معجم السَّفر »

د. هشام عطية عطية أحمد(*)

زخرت الحضارة الإسلامية على مدى تاريخها الطويل بالعديد من العلماء ورجال الفكر الذين أثروا تراثها الحضارى فى مختلف ميادين العلم والمعرفة ، أفنوا أعمارهم المديدة فى مجال البحث والدراسة المتعمقة . ولم يدخروا وسعاً فى سبيل تحصيل العلم وتقديمه لطالبيه .

وجدير بنا ونحن نقتفى آثار أولئك السلف الصالح ، ونترسم خطاهم ، ونفيد من علومهم وما جادت به قرائحهم . أن نكون أوفياء لهم ، فنقدرهم حق قدرهم ، ونحيى بالدراسة ذكراهم ونعرف الأجيال بنتاجهم ومكانتهم ، وما أسهموا به فى خدمة تاريخنا الإسلامى .

ومن بين أولئك الأعلام :

الإمام الحافظ أبو الطاهر السلفى . أحد الشخصيات البارزة التى أسهمت بجهد وافر فى مجال علم التاريخ خلال القرن السادس الهجرى .

وكتاب « معجم السفر » ، الذى نحن بصدد الحديث عنه يعد واحداً من أهم وأبرز الكتب التى قام السلفى بتأليفها فى مجال علم تاريخ الرجال «أو ما اصطلح على تعريفة بين جماعة المؤرخين » بتاريخ السير والأعلام .

وسوف تتركز دراستى - بمشيئة الله تعالى وعونه - فى هذا البحث فى بيان المنهج التاريخى الذى سلكه السلفى فى تأليف كتابة « معجم السفر » ، وقد مهدت لذلك بالحديث عن حياة السلفى وطلبه للعلم بصورة موجزة ، ثم توثيقة

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالمنصورة .

وعدالته من قبل علماء الجرح والتعديل الذين أرخوا لحياته ، ثم توضيح مكانته التاريخية ، مع عرض موجز لجهوده العلمية فى هذا الميدان ، ثم تطرقت للحديث عن عدة مسائل هامة مرتبطة أشد الارتباط بمنهجه ، منها : نسبة الكتاب إليه ، وبيان الكيفية التى وصل بها إلينا فى صورته الحالية . وأخيرا عرضت لمنهجه فى تأليف الكتاب ، وغير ذلك من مسائل جاءت مبسوطة فى ثنايا البحث .

السلفى – حياته – طلبه للعلم :

هو : أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم سلفة (١) الأصبهانى . وكان مولده بـ « جرواءان »(٢) سنة (٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) وقد أوردت المصادر ما يؤيد صحة هذا التاريخ على لسان السلفى نفسه، حيث كان دائما يردد« أنا أذكر قتل نظام الملك الوزير (٣) الذى وقف المدرسة النظامية ببغداد فى سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) وكان عمرى عشر سنين » (٤) كذلك كان السلفى يحكى عن نفسه أنه حدث سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) وما فى وجهه شعره وأنه كان ابن سبع عشرة سنة (٥).

واللقب الذى اشتهر به منذ ذلك الحين ، وأصبح علما عليه وحده ، هو «السلفى» بكسر السين وفتح اللام - نسبة إلى لقب جد جده « إبراهيم » الذى كان يطلق عليه اسم سلفة(٦) . وإذا انتقلنا إلى بيئة السلفى نرى أن والده محمداً كان رجلاً صالحاً من العلماء المتصوفين المشهورين بالثقة ، وصفه ابن كثير بقوله « أبو أحمد كان شيخا عفيفا ثقة سمع الكثير » (٧) .

وتربى السلفى فى كنف أبيه منذ صباه ثم ارتحل لطلب العلم وعمره أقل من عشرين عاما . ومن يتتبع رحلته فى هذا المجال يندهش لهذه العزيمة التى امتاز بها والتى لا تعرف الكلل ولا تقف عند مطمح ، ذلك أنه جاب الكثير من البلاد طولا

وعرضا للقاء المشايخ أصحاب الأسانيد العالية ، ببغداد والحجاز والشام ، وسمع الكثير ببلدان المشرق الإسلامى وغيرها ، حتى صار طالبا للعلم من الطراز النادر . ويكفى ما قاله الذهبى عنه « وبقى فى الرحلة بضع عشرة سنة ، وسمع مالا يوصف كثرة »(٨) .

ولاشك فى أن هذه الرحلة الواسعة أكسبت السلفى علما غزيرا ومعرفة واسعة ، فأتقن علوما كثيرة من بينها : علم القراءات والحديث والفقه على المذهب الشافعى ، وتقويم البلدان ، والتاريخ ، والأدب واللغة (٩) .

واستقر به المقام أخيرا بمدينة الإسكندرية ، وذلك فى سنة (٥١١ هـ / ١١١٧ م) فاستوطنها بضعا وستين سنة ، ينشر فيها العلم ، حتى توفى بها سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م) وما خرج منها سوى مرة واحدة إلى القاهرة للأخذ عن كبار العلماء فيها (١٠).

وقد ذاعت شهرة السلفى بالإسكندرية ، واكتسب تقدير أهلها وحبهم ، حتى علا قدره ونبه ذكره ، وأفاد بعلمه خير إفادة ، فكان لايكل ولايمل من تحصيل العلم وإفادة طلابه . ولعل خير أمثلة على ذلك ما قاله عنه المؤرخون الثقات . فقد وصفه الذهبى بقوله : « ومن شدة انشغاله بالعلم يروى عنه أنه قال: لى ستون سنه بالإسكندرية ما رأيت منارتها إلا من هذه الطاقة . وأشار إلى غرفة يجلس فيها » (١١) .

ويقول عنه فى موضوع آخر « وكان مكبا على الكتابة والاشتغال بالراوية»(١٢) وذكره اليافعى بقوله : « واستوطن الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكبا على الاشتغال والمطالعة والنسخ » (١٣).

واتخذ السلفى من « المدرسة العادلية » التى بناها له الأمير « أبو الحسن على ابن السلار » بالإسكندرية سنة (٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م) (١٤) مكانا للتدريس وإفادة طلاب العلم . وقد أنشئت هذه المدرسة بهدف نشر المذهب السنى ، يقول ابن خلكان عن منشئها « وشد من مذهب أهل السنة فقدم عليه الحافظ السلفى فأكرمه وبنى له مدرسة بالإسكندرية »(١٥) .

ومن العلوم التى كانت تدرس بهذه المدرسة : القراءات ، والحديث ، والفقه وعلى الأخص الفقه الشافعى (١٦) :

. أخلاق السلفى ـ عدالته وسعة علمه ـ مذهبه :

كان للسلفى ـ رحمه الله ـ شخصية متميزة جعلت الكثير يثق فيه ويحترمه ويجله ، فقد كان حليما متواضعا يألف الناس ويألفونه ، ويقبل على الجميع بالتلطف معهم ، والإخلاص لهم ، يقول عنه الذهبى « وكان حليما متحملا لجفوة الغرباء »(١٧)، ويصفه الصفدى بقوله « لا يكاد تبدو منه جفوة فى حق أحد وإن بدأته بادرها حتى لا ينفصل عنه أحد إلا طيب القلب » (١٨).

ومن الآداب التى التزم السلفى بها عند جلوسه لتعليم الحديث أو إلقاء درس من الدروس ، أنه كان ، يجلس من أول المجلس إلى آخره لا يبصق ، ولا يتنخم ، ولا يشرب ، ولا يتورك فى جلوسه ، ولا يبدو له قدم ، وإن بدت غطاها(١٩) . وإذا نظرنا إلى عدالته وسعه علمه ، وما قيل فى شأنه من قبل المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل ، نجد أن هناك شبه إجماع بينهم على الثقة به وبعلمه ، وبمدى تحريه وضبطه لما ينقل .

وها هم أولا أبرز العلماء الذين تحدثوا عنه :

قال عنه ابن الآبار الاندلسي « تفرد [أى السلفى] فى الدنيا بالإمامة فى علم الحديث وعلو الدرجة فى الإسناد، وأخذ عنه أهل الأرض جيلا بعد جيل»(٢٠) . وقال عنه ابن خلكان « أحد الحفاظ المكثرين .... ولم يكن فى أخر عمره فى عصره مثله » (٢١) . ووصفه الذهبى بقوله : « كان السلفى جيد الضبط كثير البحث عما يشكل ، وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعرفهم بقوانين الراوية والتحديث ، جمع بين علو الإسناد وعلو الانتقاء وبذلك تفرد عن أبناء جنسه » .

كذلك وصفه الصفدى ، وصفا جامعا ، كشف لنا فيه عن عالم قلما يجود الزمان بمثله فقال : «كان (السلفى) إماما مقرئا مجودا محدثا حافظا جبهذا ، فقيها مفننا ، نحويا ماهرا ، لغويا محققا ، ثقة فيما ينقله ، حجة ثبتا » (٢٣).

وذكره ابن الجزرى فقال عنه « كان السلفى أعلى أهل الأرض إسنادا فى الحديث والقراءات مع الدين والثقة والعلم »(٢٤)

وأخيرا يقول عنه السيوطى « كان إماما حافظا متقننا ، ناقدا ، ثبتا ، دينا خيرا ، انتهى إليه علو الإسناد ، روى عنه الحفاظ فى حياته ..... وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الراوية »(٢٥) .

هذه أشهر الروايات التى وصف بها السلفى من علماء ثقات ، وعلى الرغم من بعض المبالغات التى نلمسها فى بعض الألفاظ التى قيلت فيها ، إلا أنها جاءت مجمعة على أنه كان ثقة فى رواياته متحريا ناقدا صاحب ورع وتدين امتد به العمر حتى أصبح أعلى أهل زمانه إسنادا .

أما عن مذهب السلفي وعقيدته ، فقد اشتهر بأنه كان سني المذهب حسن الاعتقاد متقنا للفقه على المذهب الشافعي ، وشيخه في هذا المجال هو « الكيا الهراسي » البغدادي(٢٦) وكان السلفي دائما ما يعتز بانتسابه إلى مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ وقد سجل ذلك عن طريق بعض الأبيات التي يقول فيها :

إمامي الشافعي وحين أفتي　　　بمذهبه المهذب طال عيشي

وإني لا أبالي بانفرادي　　　وبقوة حجتي في ألف جيش(٢٧)

ولم يكن السلفي متشددا في مذهبه ، بل كان ذا عقلية متفتحة لا يعميها التعصب ، وآية ذلك أننا نراه ينقل في كتابه بعض الأشعار عن مدح المذهب المالكي وإمامه ، منها رواه مسنداً إلى " ابن العسال " بقوله :

أيا من غدا جاهلا ناسكا　　　إن أحببت أن لا ترى هالكا

فأم إمام الهدى مالكا　　　ولا تك مذهبه تاركا

فمذهبه ناشر من كـ　　　ـفن لمن كان منحبه في جهله قد دفن(٢٨)

ونراه أيضا يعلق بعض الأشعار الحسنه عن أناس اشتهروا بالتشيع ، ويصرح بذلك ، فيقول مثلا عن " أبي الوفاء صادق بن عبد الله " قاضي الإسكندرية أنشدني لنفسه :

العلم فرع طيب أصله　　　لا شك والعقل له أصل

فارجع إلى العقل وخل الهوى　　　فما لك العقل له الفضل

ويترجم له فيقول : أبو الوفاء هذا كان من أهل الوفاء حسن العشرة عارفا بالأحكام .... وكان إسماعيلي المذهب " (٢٩) كذلك بلغ من عدم تعصب السلفي وحسن دينه وحياده ، أن كاتب الزمخشري (٣٠) وهو معتزلي المعتقد يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته (٣١).

مكانته التاريخية :

كان للسلفى ميل كبير لدراسة التاريخ وروايته وتدوينه ، والتصنيف فيه ، خاصة علم الرجال أو ما اصطلح على تسميته « بتاريخ السير والإعلام » ، لما لهذا اللون من التأليف من صلة وثيقة بعلم الحديث الشريف الذى كان السلفى متخصصا فيه ، وكرس حياته لخدمته ودراسته .

وسوف نتناول بشىء من التفصيل هذه الجوانب التاريخية من حياة السلفى حتى يمكننا الوقوف على مدى إسهاماته ومكانته فى هذا المجال .

وأول ما نلحظه فى تنفيذ هذا المنهاج هو روايته لكتب الأقدمين المشهورين بالثقة فى تدوين التاريخ الإسلامى أمثال ، المؤرخين : « ابن هشام »« وابن عبد الحكم » فى كتابيها « السيرة النبوية » ، « وفتوح مصر وأخبارها ».

أما عن السيرة النبوية لابن هشام فإن رواية السلفى لهذا الكتاب قد لاقت شهرة كبيرة فى أكثر من بلد (٣٢) وآية ذلك أننا نجد بعض الطلاب الذين سمعوه منه وقرأوه عليه . يحدثون بروايته (٣٣) وبما نسخوه عن الأصل المكتوب بخط يده فى البلاد التى رحلوا إليها ومنها مكة والشام (٣٤) ويعنى ذلك أن الكتاب محاط بأكبر قدر من التثبت والتحرى ، مادام منقولا عن طريق السلفى الذى اشتهر بالصدق والعدالة ، وهذه شهادة تحسب له .

أما عن روايته لكتاب فتوح مصر وأخبارها ـــ للمؤرخ « ابن عبد الحكم » الذى يعد أبرز وأهم وثيقة تاريخية عن الفتح الإسلامى لمصر وقيام دولة الإسلام فيها فنجدها (أى رواية السلفى) مصدرة فى الصفحة الأولى من الكتاب (٣٥) بإسناد متصل بدءا من شيخه « أبى صادق مرشد بن يحيى المدينى » وانتهاء بعلى ابن الحسن المعروف بابن قديد الذى يعتبر أخر من تلقى كتاب فتوح مصر مباشرة كما دون عن صاحبه الأصيل ابن عبد الحكم (٣٦) .

وقد اتضح من خلال هذا الإسناد أن « السلفى » هو الراوى الأخير ، الذى وصلنا عن طريقه كتاب « فتوح مصر وأخبارها » بنصه الحالى ، فهو آخر حلقات الاتصال بيننا وبين ابن عبد الحكم مدون الراوية وصاحبها(٣٧) .

ومع ما اشتهر به السلفى من حفظ وتحقيق وعدالة ، فضلا عن تعمقه فى مجال الجرح والتعديل ، فإننى أرجح الرأى القائل : بالاطمئنان والثقة إلى أن كتاب فتوح مصر بنصه الحالى مطبوع بطابع عميق من التثبت والصحة والضبط مع خلوه من أى دس أو لبس (٣٨) .

وأزيد على ذلك بقولى : أننا مدينون لهذا الرجل العظيم (السلفى) بالفضل ، إذ لو لا أن قيده الله تعالى لهذا العمل ، لكان من الجائز جدا أن تحوم الشبهات وتتدخل الاساطير فى أقدم وأنفس وثيقة وصلتنا عن الفتح الإسلامى لمصر .

ومن الكتب التاريخية التى رواها السلفى أيضا : كتاب « فضائل مصر وبيت المقدس والشام » للمؤرخ عمر بن يوسف الكندى (ت٣٥٠هـ / ٩٦١م)(٣٩) كذلك من مجهوداته المشكورة وإسهاماته فى علم التاريخ ، مختصراته لبعض الكتب المشهورة مثل « مختصر كتاب تاريخ بخارى » لمحمد بن أحمد البخارى (ت ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م) (٤٠) .

« وكتاب تاريخ طرابلس » لأبى الحسن على بن عبد الله الطرابلس (ت٥٢١ هـ / ١١٢٧ م) وذكره السلفى فى كتابه « معجم السفر » بقوله : «أبو الحسن هذا كان من بين الصلاح ... وكان له اهتمام بالتواريخ وصنف لطرابلس تواريخ وقفت عليه وانتخبت منه ما استغربته وحدثنى به » (٤١) .

وإلى جانب ذلك قام السلفى بانتقاء بعض المصنفات من كتب التاريخ ، وتحقيقها والتعليق عليها والتدريس منها . من أشهرها : كتاب « الإرشاد إلى معرفة علماء الحديث والبلاد » لأبى يعلى الخليل بن عبد الله القزوينى (ت٤٤٦ هـ / ١٠٥٤م) (٤٢) .

• أما عن أهم الكتب التاريخية التى قام السلفى بتألفيها فهى على النحو التالى :

« معجم أصبهان » أو « المشيخة الإصبهانية » وهذا المعجم عبارة عن تراجم جمعها السلفى عن شيوخه بمدينة أصبهان وهم يزيدون على ستمائة شيخ . يقول الذهبى : « وله معجم لمشيخة أصبهان فى مجلد أزيد من ستمائة شيخ »(٤٣) ووصفه السبكى بقوله : « وعمل معجما حافلا لشيوخه الإصبهانيين »(٤٤) وهذا الكتاب مفيد لدارسى تاريخ الحركة الأدبية والفكرية لمدينة أصبهان خلال القرن الخامس الهجرى.

« معجم بغداد » أو « المشيخة البغدادية » قام السلفى بتأليفه لشيوخه الذين أخذ عنهم ببغداد ، وأورد ذكره ضمن كتابه « معجم السفر » (٤٥) ومعجم بغداد لاغنى عنه للمشتغلين بتاريخ الحركة الفكرية ببغداد فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

• أما أخر هذه المعاجم وأهمها وأشهرها ذكراً فهو « كتاب معجم السفر» الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وقد ذكره السخاوى ضمن كتابه «الإعلان بالتوبيخ » (٤٦) وسوف اقتصر على ذلك فى الإشارة إليه ، كى أخصه بمزيد من التفصيل بعد قليل .

ولم تقف مجهودات السلفي في التأليف التاريخي عند هذا الحد ، بل ترك لنا عددا آخر من المؤلفات عبارة عن تراجم مفردة - لبعض العلماء الذين تأثر بهم - واصطلح على تعريفها « بالسير الذاتية » من أشهرها :

• كتاب : « ترجمة حياة محمد بن أحمد الأبيوردي » المعروف بأبي المظفر(٤٨) .

• ترجمة : « حياة أبي نعيم الأصبهاني » قال عنه الذهبي قد جمع ... السلفي أخبار أبي نعيم وذكر من حدثه عنهم وهم نحو ثمانين رجلا (٤٩) .

وبعد فهذه هي أبرز إسهامات السلفي في ميدان علم التاريخ ، ما بين رواية لكتب المؤرخين الأقدمين المشهورين بالثقة ، ومختصرات لبعض الكتب وانتقاء المستغرب منهما وتحقيقه ، ثم مؤلفاته القيمة في مجال علم الرجال أو السير والإعلام الذي كان فارسه المجلى خلال القرن السادس الهجري .

والآن يأتي دور الحديث عن أهم وأبرز الكتب التي ألفها ، وهو كتاب «معجم السفر» .

نسبة الكتاب إلى السلفي :

لا يدور أدنى شك حول نسبة كتاب « معجم السفر » إلى السلفي ، فقد أجمع أكثر من مؤرخ موثوق به على نسبته إليه . من بينهم :

« ابن خلكان » الذي أشار إليه في كتابه « وفيات الأعيان » في أكثر من موضع نقل فيه عن السلفي (٥٠) .

وها هو ذا أحد الأمثلة :

يقول ابن خلكان فى ترجمته لأبى الحسن على بن محمد المعروف بابن القابسى « وذكر الحافظ السلفى فى « معجم السفر » أن شخصا قال فى مجلس القابسى وهو بالقيروان .... »(٥١) .

وبمقارنة ذلك المثال على ما ورد بالنسخة المطبوعة لكتاب «معجم السفر»، والتى اعتمدت عليها هذه الدراسة وجدت أنهما متطابقتان تماما مما يوضح أن الكتاب للسلفى (٥٢) .

وهناك أيضا ما ذكره « الذهبى » فى كتابه « تذكرة الحفاظ » بقوله : « وله (أى للسلفى) معجم لباقى البلاد سماه « معجم السفر »(٥٣) بالإضافة إلى ما أورده فى كتابه سير اعلام النبلاء بقوله « وقد جمعوا له من جزازة وتعاليقه " معجم السفر "فى مجلد كبير »(٥٤) .

وأخيرا يؤكد السخاوى على نسبة الكتاب للسلفى ، ليس هذا فحسب بل نراه يصنف كتابه ضمن أهم المؤلفات التاريخية فى التراجم تحت باب« الرواة المعتمدون أو المصنفون » ، يقول السخاوى « ومعجم السفر . للسلفى وهو فى مجلد كثير الفوائد »(٥٥) . وفى باب « المعاجم والمشيخة » يؤكد السخاوى مرة أخرى على ذلك بقوله : « ... ومنهم السلفى له ... معجم السفر »(٥٦) . وعلاوة على هذه المصادر ، فأن الكتاب الذى بين أيدينا نشر عن نسخ خطية معترف بها فى أكثر من خزانة لكتب التراث فى أنحاء العالم ، منها نسخة محفوظة فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم ١٧٦ حديث ، وهى التى اعتمدها المحقق فى طبع الكتاب (٥٧).

• هل « معجم السفر » هو ذاته معجم الشعراء ؟

ذكر « كارل بروكلمان » فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » أن للسلفى معجما بعنوان « معجم الشعراء » وقد نقل ذلك عن ياقوت الحموى من كتابه الشهير « إرشاد الأريب أو معجم الأدباء » (٥٨) .

وهذا المعجم المذكور لم أجد له شبيها بهذا الاسم ضمن المصادر التى اطلعت عليها سوى فى كتاب « معجم الأدباء » فالمشهور والمتواتر فى المصادر التاريخية الأخرى أن للسلفى ثلاثة معاجم فقط هى : معجم أصبهان ، ومعجم بغداد ، ومعجم السفر (٥٩) .

فكيف انفرد إذا ياقوت الحموى بذكر هذا المعجم دون سواه من المصادر التاريخية الأخرى ؟

وللإجابة نقول : لقد اتضح من خلال المقارنة بين ما صرح به ياقوت فى معجم الأدباء بالنقل من معجم الشعراء وبين ما دونه السلفى بكتاب « معجم السفر » أن ما نقله ياقوت هو ذاته ما وجد مدونا « بمعجم السفر » دون أدنى تبديل أو تغيير (٦٠) وعلى سبيل المثال :

ذكر ياقوت فى ترجمة « الحسن بن أحمد بن على الفارسى » ما نصه : «قرأت فى معجم الشعراء للسلفى : أنشدنى أبو جعفر أحمد بن محمد بن كوثر المحاربى الغرناطى بديار مصر قال : أنشدنى أبو الحسن على بن أحمد بن خلف النحوى لنفسه بالأندلس فى كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى :

أضع الكرى لتحفظ الإيضاح وصل الغدو لفهمه برواح

إلى آخر الأبيات (٦١) .

ونص ما ذكر موجود بتمامه فى كتاب « معجم السفر » المطبوع الذى بين أيدينا ص ٣٩ ـ ٤٠ .

وغير ذلك فهناك أكثر من مثال يتمشى مع هذا النمط (٦٢) .

وإزاء ذلك فإننى أرجح احتمالاً واحداً وهو : أن كتاب معجم الشعراء الذى انفرد بذكره ياقوت هو نفسه كتاب « معجم السفر »

ومما يجعلنى أرجح هذا الاحتمال عدة أمور :

أولها : أن ياقوت هو الوحيد من بين جميع المصادر التى اطلعت عليها هو الذى نسب هذا الكتاب للسلفى .

ثانيها : أن ما نقله هو ذاته ما وجد فى « معجم السفر » .

ثالثها : أن الاسم الأخير للكتاب وهو « معجم السفر » هو الذى ظل مشهوراً وتناقله الخلف عن السلف حتى يومنا هذا .

وبناء على ما تقدم فإن ياقوت قد جانبه الصواب فى تحديد الاسم الأصلى للكتاب بيد أنه من باب الإنصاف أن نذكر أن كتاب « معجم السفر » قد ضمنه صاحبه السلفى الكثير من الأشعار ، حتى أنه يخيل للقارئ أن كل من التقى بهم السلفى وجمعهم فى معجمه هذا من الشعراء (٦٣) .

ويبدو أن كارل بروكلمان ، اعتمد على ما نقله ياقوت دون تمحيص أو تحليل . وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالتسجيل فى هذا الصدد وهى : أن أحد المستشرقين ذكر – فى مقال له نقل فيه بعض الأخبار الخاصة بمسلمى صقلية عن كتاب « معجم السفر » – أن كارل بروكلمان لم يصنف فى كتابه « تاريخ الأدب العربى « معجم السفر » من بين مؤلفات السلفى التى ذكرها (٦٤) . ويعلق على ذلك فى موضع آخر فيقول « ربما جهل بروكلمان وجوده » (٦٥) .

والحقيقة أن هذا المستشرق يشترك مع بروكلمان فى عدم الإحاطة بهـذا الكتاب « معجم الشعراء » ، و بالتالى فإنه لم يدرك أن معجم الشعراء ما هو إلا « معجم السفر » .

•كيف وصل إلينا كتاب « معجم السفر » ؟ :

ورد فى صدر الصحيفة الأولى من مخطوطة « معجم السفر » المحفوظة فى مكتبة عارف حكمت والمعتمدة لدى المحقق النص الآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله على آلائه وصلواته على محمد خاتم أنبيائه ، وعلى آله وأصحابه وأصفيائه وسلم كثيرا وبعد ، فإن جزازات من معجم السفر وقعت بخط الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد الاصبهانى رضى عنه فبيضتها ورتبتها كما يجب ، والله أسأل النفع بذلك إنه رحيم كريم » (٦٦) .

ويتضح من هذا النص عدة أمور على جانب كبير من الأهمية : أفصلها على النحو التالى :

أولا : أن كلمة « جِزَازَات » الواردة جمع جِزَازَة من كل شئ ما قطع منه فهى مأخوذة من جَزَّ بمعنى قطع (٦٧) . وغاية ما نستطيع أن نفهمه من ذلك أن كلمة « جزازات » عبارة عن قطع من الورق أشبه بمسودات أو صحائف صغيرة تكتب لأول مرة ثم تنقح وتحرر وتبيض (٦٨) ومعنى هذا أن السلفى - رحمه الله - اتبع هذه الطريقة فى تدوين كتابه ، فكان يسجل ما يسمعه أو يعرفه من تعليقات - على عدة مراحل بما يشبه الكشف المتدرج - فى بطاقات أو صحائف، على أن يعاود تنظيمها وضبطها فى مواضعها ، وهذه الطريقة تتطلب أن يترك المؤلف فراغات واضحة بمسوداته لما قد يضيفه من معلومات طارئة أو متجددة(٦٩) وهذا ما وجدناه متبعا فى كتاب « معجم السفر » فالكثير من التراجم التى أوردها السلفى جاءت ناقصة وبها فراغات واضحة . وعلى سبيل المثال لا الحصر:

يقول السلفي : « أنشدنا أبو محمد بن توهيب الوراق لنفسه .... » (٧٠) ثم نرى بعد ذلك فراغا ولا نجد شعرا لابن توهيب . وعلى هذا يمكننا قياس الكثير من التراجم والأخبار التى وردت فى المعجم (٧١) .

وهناك أيضا سبب آخر جعل الكتاب به ثغرات كبيرة لم تكتمل ـ بناء على الطريقة التى اتبعها السلفى - وهو : أن مجموعات كبيرة من التعليقات التى دونها عن شيوخه كان قد تركها وديعة فى بعض البلاد التى زارها أثناء رحلته ، على أمل أن يهيئ الله له إحضارها بطريقة أو بأخرى . غير أن هذا الأمل لم يتحقق ، و لم يمهله القدر فى إحضارها ووضعها فى كتابه ، ولذلك جاءت معظم ترجماته فى « معجم السفر » ناقصة .

ويمكننا أن نتبين هذا من خلال الإشارات الكثيرة التى أوردها فى ثنايا كتابه والتى تفيد أيضا أن هذه المجموعات كانت ذات قيمة كبيرة لديه .

وها هى ذى بعض النماذج :

يقول السلفى فى ترجمته للفقيه شريف بن فياض « وقرأت عليه أحاديث.... وهى مودعة فى جملة ما أودعته بثغر آمد » (٧٢) .

وفى ترجمته « لشفاء بن عبد الجبار » يقول :« وما كتبته عنه فى جملة ما خلفته بثغر سلماس مودعا » (٧٣) .

وفى ترجمة عبد الله بن الحسين يقول :« وما كتبته عنه ففى جملة الأجزاء المودعة بسلماس أوصلها الله تعالى إلى بكرمه » (٧٤) .

وذكر فى ترجمته « لـ عبد الله بن أبى نصر الشيرازى » « وعلقت عنه من حكايات الشيوخ وهى كلها فى جملة الأجزاء المودعة بسلماس جمعها الله على قبل الممات بفضله وكرمه » (٧٥).

وفى ترجمة « على بن السند » يقول : « و لم أظفر الآن بما كتبته عنه فهو بثغر آمد مع فوائد ديار بكر مودع سهل الله وصول الكل إلىّ »(٧٦) .

ولا أطيل بذكر هذه الأمثلة العديدة(٧٧) وحسبي أن يكون فيما أوردته بيانا على أن الكثير من أجزاء هذا الكتاب لم تدون ، والتي تركت معها ثغرة كبيرة جعلت الكتاب يبدو ناقصا من نواحي كثيرة (٧٨) .

وهذه النقطة تحيلنا إلى تساؤل على جانب كبير من الأهمية ، وهو : متى انتهى السلفي من تدوين كتابه ؟

والإجابة على هذا التساؤل تبدو عسيرة بعض الشئ ، لأن آخر تاريخ صرح به السلفي في معجمه كان سنة ٥٦٣ هـ(٧٩) مما يعني أنه وقف في تدوين كتابه عند هذا التاريخ .

بيد أن ذلك الحكم يؤخذ بتحفظ ، لأن السلفي توفي سنه ٥٧٦ هـ . ومن المستبعد أن يظل ثلاثة عشرة سنة لا يدون فيها شيئا عن شيوخه سواء الذين كانوا بالإسكندرية أو الوافدين عليها ، خاصة بعد ما عرفنا من المصادر أنه ظل متمتعا بالصحة والحواس السليمة ودقة الملاحظة حتى آخر ليلة من وفاته . ويؤكد ذلك الذهبي بقوله : « وحدث ليلة موته ، وهو يرد اللحن الخفي على القارئ ، وصلى الصبح ومات فجأة » (٨٠) .

وهذا يجعلني أعتقد أن السلفي لم يتوقف في كتابه عند سنة ٥٦٣ هـ . ولعل ما يقوى هذا الاعتقاد ويرجحه أنه أورد تراجم في كتابه « معجم السفر » لبعض الرجال الذين عاصرهم وقابلهم عاشوا بعد هذا التاريخ بمدة . وقد وجدنا تاريخ وفاتهم مدون في المصادر الأخرى ، منهم على سبيل المثال :

« اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي الأندلسي،(ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)(٨١) و «عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي اليابس»(ت٥٧٢هـ/١١٧٦م)(٨٢) و « أبو الطاهر إسماعيل بن عوف » ، (ت ٥٨١هـ ١١٨٥ م) (٨٣) .

والذى يمكن أن نستخلصه أخيراً بعد هذا العرض هو : أن السلفي جمع أجزاء كثيرة من مادة كتابه ، ولكنه لم يتمها على الوجه الأمثل الذى أراده هو

وأردناه نحن ، بل ظل نمو جمعه للمادة العلميـة يطـرد مـع الأيـام لم يصـل فيهـا إلى نهاية محددة تنتهى بتاريخ معين . ولم يمهله القدر ليدون ما جمعه فى كتـاب خـاص بذاته مرتب ومبوب عن طريقه هو ، بل ظلت مادة كتابه علـى هيئـة مسـودات أو صحائف أو ما أطلق عليه « جزازات » إلى أن هيأ الله تعالى مـن يقـوم مـن بعـده بجمعها وترتيبها ثم نسخها فى شكل كتاب .

ومن هنا نصل إلى « ثـانى الأمـور » المتعلقـة بمـا ورد فـى صـدر الصحيفـة الأولى من المخطوط الذى طبع عنه الكتاب الذى بين أيدينـا . وهـذا الأمـر متعلـق باسم الناسخ الذى قام بتبييض وترتيب هذه الجزازات .

وبما أن النص لا يشير إلى اسم الناسخ ، فقد وجدنـا مـا يدلنـا عليـه ، وهـو السخاوى فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » . يقول السـخاوى « ومعجـم السـفر ، للسلفى وهو فى مجلد كثير الفوائد بخط محمد بن المنذرى ، قال عن أبيـه الزكـى : أنه وقع له بخط السلفى فى جزازات ، كل ترجمة فى جزازة ، فبيضها ورتبها كمـا تجئ لا كما يجب ، وكذا لم يكن ترتيبه كما ينبغى » (٨٤).

وحلقة الاتصال الأولى كما تبدو من هذا النص شملت الزكى المنذرى بصفته الجامع الأصلى لمسودات السلفى ، والقائم بترتيبهـا . أمـا الحلقـة الثانيـة فهـى ابنـه محمد الذى أوكل إليه المنذرى مهمة نسخ الكتاب . ، ويفسر ذلك قوله « فَبَيَّضَهـا ورتَّبها كما تجئ لا كما يجب « بالكسرة المشددة فى حرف اليـاء فـى (بيضهـا) والتاء فى (رتَّبها) ومع أن هاتين الكلمتين لم يضبطا بالشكل فى النص الـوارد إلا أن ذلك يتمشى مع سياق الجملة، فضـلا عـن أنـه يتفـق مـع مـا ورد فـى صـدر الصحيفة الأولى من المخطوط فى قوله « فبيضتها ورتبتها كما تجئ لا كما يجب» بلفظ المتكلم على لسان محمد بن المنذرى ناسخ المخطوط كما بين السخاوى .

ولعل ما يفسر قول المنذرى الوارد فى النص « كما تجئ لا كما يجب » أنـه أضاف إلى جانب ترتيبه لمسودات تراجم السلفى بعض القول والإشـارات ، فـأراد بذلك أن يضع قاعدة لابنه « محمد » يسير عليها عند نسخ الكتاب فلا يشذ عنها.

وربما يكون هذا ما قصده السخاوى من قوله عن المنذرى « وكذا لم يكن ترتيبه كما ينبغى » .

بيد أن الشئ الذى يحسب للمنذرى فى نقوله وإشاراته التى أوردها فى معجم السفر ، أنه أضاف نصوصا بأكملها ، من المرجح أنها ضاعت من أصول السلفى ، وعثر هو عليها مدونه بخطوط أصحابها . ليس هذا فحسب بل كان ينبه القارئ بين ما كتبه السلفى بخطه ، وبين ما كتبه غيره له . وفى كل هذه المواضع كان المنذرى يصرح باسمه ، فإذا ما كان الكلام للسلفى بعد ذلك أبانه بقوله «قال الحافظ» أو « رأيت بخط السلفى » كى يفطن القارئ بين هذا وذاك فلا يحدث التباسا ، والأمثلة على ذلك قليلة فى « معجم السفر » (٨٥) مما يعنى أن مداخلات المنذرى كانت بغرض حفظ تراث السلفى وإثباته .

كذلك يحسب « للمنذرى » ترتيبه وتنسيقه للكثير من الورقات التى قام السلفى بتعليقها و لم يضعها فى مظانها . وكان « المنذرى » ينص على ذلك صراحة مكتفيا ببعض العبارات مثل « وفى ورقة أخرى » (٨٦) و « بخطه يعنى السلفى يقول » (٨٧) و « قال السلفى فى رقعة أخرى » (٨٨) وهكذا .

وإزاء ذلك فنحن أمام حقيقتين : الأولى : أن المنذرى هو الجامع الأصلى لمسودات « معجم السفر » وصاحب الترتيبات والإضافات التى فيه ، والثانية : أن ابنه محمداً هو الناسخ الذى يمثل الحلقة الرئيسية فى سلسلة توصيل الكتاب إلينا .

فمن هو إذا المنذرى ، وما مدى توثيقه وعدالته ، وكيف استطاع الحصول على مسودات كتاب « معجم السفر » ؟ ومن هو ابنه محمد ، وما مدى عدالته ؟

ولاريب فى أن الإجابة على هذه الأسئلة سوف تعيننا كثيرا على الاطمئنان والتثبت من أصول الكتاب ، وبأنه دون فعلا عن صاحبه السلفى .

أما عن المنذرى : فهو : عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله الشهير «بزكى الدين المنذرى» أصله من الشام ، وولد بمصر سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥م ،

ونشأ وتوفى بها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، أى أنه مصرى المولد والدار والوفاة. وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بمصر وانقطع بهما مدة عشرين سنة، وكان من المتبحرين فى علم الحديث على اختلاف فنونه ، وله اليد الطولى فى علم اللغة والفقه والتاريخ (٨٩) .

وعن توثيقه وعدالته ، فقد قال فيه ابن خلكان « الحافظ زكى الدين .... محدث مصر فى زمانه » (٩٠) .

ووصفه ابن كثير بقوله « الإمام العلامة ... سمع الكثير ورحل وطلب ، وعنى بهذا الشأن حتى فاق أهل زمانه ... وكان ثقة حجة متحريا زاهداً»(٩١).

وذكره ابن تغرى بردى فقال : « الإمام الحافظ الحجة ، سمع الكثير ، ورحل وكتب وصنف وخرج وأملى وحدث بالكثير ... وهو أحد الحفاظ المشهورين »(٩٢).

وأخيرا يصفه السيوطى بقوله « الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام ... كان عديم النظر فى علم الحديث .... إماما حجة ، بارعا فى الفقه والعربية والقراءات ورعا متبحراً » (٩٣) .

إذن كان المنذرى آيه عصره فى الحفظ والتثبت وحجية القول ، وفى ذلك ما يرفع من قيمة ما دونه من كتاب «معجم السفر» ويطبعه بطابع عميق من الصحة .

أما عن كيفية حصوله على مسودات كتاب « معجم السفر » فقد ثبت تاريخيا استحالة أن يكون أخذها من السلفى مباشرة ، لأنه لم يتقابل معه أصلا . والسبب بسيط وهو : أن السلفى توفى سنة ٥٧٦ هـ ، والمنذرى ولد سنة ٥٨١هـ أى أن السلفى توفى ولم يكن المنذرى قد ولد بعد .

ولم يبق أمامنا إزاء ذلك إلا احتمالين :

أما الأول : فهو ما ذكرته المصادر من أن السلفى كانت لديه مكتبة ضخمة حوت كل تراثه ومدوناته وغيرهما من نفائس الكتب ، لدرجة أن وصفها الذهبى

بقوله « قل ما اجتمع لعالم مثلها فى الدنيا » (٩٤) ولكن الشيء المؤسف أن هذه المكتبة تلف أكثرها بعد وفاته ، ويصور لنا ذلك المنذرى (٩٥) بقوله : وكان عنده (أى السلفى) خزائن كتب لا يتفرغ للنظر فيها فعفنت وتلصقت لنداوة البلد (الإسكندرية) فكانوا يخلصونها بالفأس فتلف أكثرها »(٩٦) .

وما نستطيع تفسيره من هذا النص هو : أن مكتبة السلفى ظلت مغلقة حينا من الدهر بعد وفاته ربما حتى زمن المنذرى ، وبأمر من سلطان الدولة أو حاكم الإسكندرية مثلا تم فتحها للتصرف فى محتوياتها . وكان المنذرى حاضرا هذا المشهد ، وبطريقة أو بأخرى وقعت في يده هذه المسودات فجمعها ودونها . وهذا الاحتمال بعيد فيما اعتقد .

وأما الاحتمال الثانى الذى ارجحه فهو أن يكون تراث السلفى هذا انتقل بعد وفاته إلى ابنته الوحيدة « خديجة » التى نشأت فى كنفه وتعلمت منه الحديث وروته عنه بالإسكندرية ، وتوفيت سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م (٩٧). ولكى تحفظ « خديجة » هذا التراث لأبيها رأت أن تجيز لطلاب العلم النبهاء فيدونوه ويحفظوه ثم تتناقله الأجيال جيلا بعد جيل حتى يصبح أثرا خالدا . ويؤيد هذا التصور أن المنذرى كان أحد الطلاب الذين اجازتهم خديجة ، وقد أكد بنفسه على ذلك بقوله « ولنا منها إجازة ، كما مدحها بـ « الشيخة الأصيلة »(٩٨).

لهذا فإنه من المرجح أن تكون خديجة هى التى أعطت المنذرى مسودات «معجم السفر» وأجازت له تدوينها وحفظها وهى تعى تماما أنها ستكون يد أمينة لأن المنذرى ـ كما بينا ـ هو من هو فى علمه وفهمه وتحريه وزهده .

أما عن إجابة الشق الثانى من الأسئلة الخاصة « بمحمد بن المنذرى » ناسخ كتاب « معجم السفر » فما نعلمه من أمر حياته أنه ولد سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦م (٩٩) وقام أبوه المنذرى باصطحابه إلى العلماء الأفاضل للسماع عليهم ، ثم أكب على طلب العلم بنفسه فرحل وسمع بدمشق وحلب ، حتى وافته المنية وهو شاب فى سنة (٦٤٣ وقيل ٦٤٤ هـ) (١٢٤٥ - ١٢٤٦) (١٠٠) .

وعلى الرغم من تلك الفترة القصيرة التى عاشها « محمد بن المنذرى » إلا أنه أظهر فيها نبوغا وفطانة وفضلا . وقد دلنا على ذلك تلك الأسطر القليلة التى وصفه فيها بعض المؤرخين :

فقد قال فيه الذهبي : « الحافظ الزكي ... أحد الشباب الفضلاء .... كتب الكثير .... ولو عاش لساد » (١٠١) .

ووصفه الصفدى بقوله : «الحافظ المتقن ... كان ذكياً فطناً حافظا»(١٠٢).

نستخلص من هذا : أن شخصية محمد بن المنذرى كانت على شاكلة أبيه من الأخلاق الحسنه والذكاء والإتقان والحفظ . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نقاء سريرته والثقة به وبعلمه مما يجعلنا نطمئن إلى الاعتقاد بأن ما نسخه من كتاب « معجم السفر » على أعلى قدر من التثبت والضبط .

وثمة تساؤل أخير ينبغي أن نعالجه في هذا الموضوع . وهو : هل كتاب «معجم السفر» الذى بين أيدينا تم نشره مباشرة عن النسخة التى كتبها محمد بن المنذرى بخطه ، أم أن هناك حلقه أخيرة فى سلسلة توصيل الكتاب ؟

وللإجابة أقول : بعد الإطلاع على خاتمة كتاب « معجم السفر » وجدنا عبارتين تفيدان أن هناك ناسخ أخير كتب تلك النسخة التى خطها محمد بن المنذرى ، وعنها طبع الكتاب الذى بين أيدينا .

العبارة الأولى « آخر ما وجد من معجم السفر » بخط الإمام الحافظ أبى طاهر الأصبهانى فى جزازات . « ويبدو أنها عبارة المنذرى » « التى خطها بقلمه ابنه محمد»(١٠٣).

أما العبارة الثانية : فهى كلمة الفراغ من الناسخ الأخير للمخطوط ونصها « فرغ من نسخه العبد الفقير إلى ربه الجواد « عبد الحفيظ بن المرحوم محمد صالح حماد » يوم الأربعاء لخمس وعشرين من شوال سنة١٢٣٩هـ»(١٠٤).

وبناء على ذلك فإن « عبد الحفيظ » هذا يكون آخر حلقات الاتصال فى سلسلة نسبة سياق الكتاب إلى مؤلفة الأصيل السلفى .

بالإطلاع على المصادر التى تحت يدى لم أعثر لهذا الناسخ على ترجمة ، وكل ما استطعنا معرفته « فى ضوء النص السابق » أنه كان موجودا عام١٢٣٩هـ ، وهى سنه انتهائه من كتابة « معجم السفر » ، فهو إذاً من رجال القرن الثالث عشر الهجرى .

وحتى يمكننى التأكد من نزاهة وأمانة هذا الناسخ ، للتحقق من صحة أصول الكتاب ، لم يكن أمامى إلا التعرف على أسلوب السلفى ذاته فى « معجم السفر » وهل هو يتفق مع ذات الأسلوب الذى اشتهر به فى أعمال أخرى له أم لا ؟ ثم مقارنة ذلك على أساليب وصيغ كتاب العصر الذى عاش فيه السلفى ، وفى هذه الحالة إما أن يجعلنا الناسخ مرتبطين بأصول وجذور الكتاب كما دون عن صاحبه الأصيل ، وأما أن يخرجنا عن هذا الإطار .

والمطلع على أسلوب السلفى فى معجمه هذا يلحظ بوضوح أنه يغلب عليه طبع المحدثين ، فهو لا يلقى بالاً للأناقة اللفظية أو الجمال الفنى بقدر ما يعطى من الحرص على سلامة السند ، وصحة الرواية ودقة التاريخ وضبط الأسماء .

فأسلوبه سهل بيِّن يعتمد الألفاظ الدقيقة المؤدية للمعنى المراد بلا تعقيد ولا إبهام ، بالإضافة إلى أن أسلوبه يتسم بالزهد والتواضع ونزاهة النفس والإيجاز الذى يتحقق به التيسير على القارئ فيصل إليه ببساطه وعدم تكلف لدرجة أننا نجد فى بعض عباراته بعض الأساليب التى تصل إلى مستوى لغة العامة .

وإليك بعض النماذج :

فمن أساليبه التى ليس فيها تعقيد ولا إبهام وتؤدى إلى المعنى المراد قوله : «المهذب هذا كان مهذبا كاسمه فى العربية وحسن الصحبة » (١٠٥) و«مفرج هذا كان كفيفا وفقيها عفيفا» (١٠٦) ومن أساليبه التى تتسم بالزهد والتواضع :

نقتطف هذه العبارات : فيقول مثلا فى ختام تراجمه التى يوردها عن شيوخه وأصحابه « رحمه الله ـ والله اعلم ـ عفا الله عنا وعنه ـ رحمه الله وإيانا ـ والله تعالى يوفقنا ويحلنا دار كرامته ـ رحمه الله وتجاوز عن سيئاته » وهكذا(١٠٧) .

ومن أساليبه التى تصل إلى مستوى لغة العامة قوله : « ابن خير هذا كان معجونا من الخير » (١٠٨) أو « وعمل الشعر قد كان أسهل عليه من شرب الماء»(١٠٩) .

وتتجلى صفه المروءة والتواضع فى أسلوبه ، فى أنه لم يثبت فى كتابه أية قصيدة أو مقطوعة قيلت فى مدحه ، مع أنها كانت كثيرة ، وإنما كان يكتفى - أثناء ترجمته لحياة الشاعر الذى يمتدحه ـ بقوله «له فىَّ غير قصيدة» و « له فىَّ قصائد جمة » « وقد مدحنى بغير قصيدة » (١١٠) إلى غير ذلك من أمثلة.

وبالكشف عن درجة هذا الأسلوب ومستواه فى أعمال السلفى الأخرى أدركنا الكثير من نواحى الاتفاق بين الأسلوبين . وها هو ذا مثال : من طلب الإجازة التى كتبها بخطه إلى « الزمخشرى » كى يجيز له مسموعاته وما ألفه فى فنون العلم نلمس فيها تواضع السلفى فى مخاطبة العلماء ، وأسلوبه السهل اليسير ، وكثير من الصفات التى تجتمع مع أسلوبه فى معجمه ـ ونقتطف من تلك الإجازة العبارات التالية : يقول السلفى « إن رأى الشيخ الأجل العالم أدام الله توفيقه أن يجيز جميع مسموعاته وإجازاته ومروياته .... لأحمد بن محمد بن أحمد السلفى الأصبهانى ويذكر مولده ونسبه إلى أعلى أب ... وإن تمم إنعامه أبيات قصار ومقطوعات مستفادة من الحكم والأمثال .... والشرط فى كل هذا أن يكون بالإسناد المتصل إلى قائله .... ويعلم وفقه الله ـ أنه وقع إلينا كتاب من « يعقوب ابن شرين الجندى ... والحاجة داعية إلى تعرف اسمه ونسبه وضبطه » (١١١) .

كذلك اتضح لنا بعد قياس أسلوب السلفى فى « معجم السفر » على كتابه « معجم بغداد » الكثير من نواح الاتفاق بين الأسلوبين ، ففى الأول نراه

معنيًا برواية ما سمعه عن شيوخه من أحاديث متصلة الإسناد إلى قائلها ، إلا أنه يستطرد بين الحين والحين إلى ذكر حادثه طريفة أو نادرة أو أبيات من الشعر مسندة أيضا إلى قائلها وهذا ما وجدناه متبعا فى أسلوبه « بمعجم بغداد »(١١٢) .

وأعتقد أن فى هذه الأمثلة التى أوردتها كفاء لما أردت بيانه عن هذه النقطة.

نأتى بعد ذلك إلى مقارنة هذا الأسلوب مع أساليب وصيغ كتاب القرنين الخامس والسادس للهجرة حيث كان السلفى موجوداً .

والمحصلة التى استطعنا أن نخرج بها فى النهاية أن أسلوب السلفى فى «معجم السفر» والصيغ التى استخدمها فى كتابته متفقه أيما اتفاق مع الأساليب التى كان يستخدمها كتاب هذا العصر ويصوغون فى قالبها كتبهم المتخصصة التى تدور حول رجال الحديث وعلومهم وتوضيح أخبارهم وإيراد الحكايات والأشعار عنهم مع ذكر أنسابهم وتواريخ ميلادهم ووفاتهم ..... الخ .

ومن أمثال هؤلاء الكتاب « الإمام المحدث عبد الكريم السمعانى » (ت٥٦٢ هـ) وكتابه الشهير « الأنساب » وابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) وكتابه « غوامض الأسماء المبهمة الواقعة فى متون الأحاديث المسندة » والحافظ أبو بكر الحازمى (ت ٥٨٤هـ) وكتابه « عجالة المبتدئ وفضالة المنتهى فى النسب » وغير هؤلاء كثيرون ممن يزخر بهم تراثنا الإسلامى حتى وقتنا الحاضر .

وأساليب هؤلاء الكتاب فى الغالب الأعم ، أساليب محدثين يتبين منها الحرص على الأسانيد ، والكشف عن أحوال الرواة ، والاعتناء بمعرفة شيوخهم وتلاميذهم ، والتمييز بين الخبيث والطيب وبين المجروح والمعدل منهم . وكل ذلك بأسلوب سهل من غير تكلف ولا تعقيد(١١٣) .

وأخيراً، وبعد هذا العرض لأسلوب السلفى وبيان درجته ومستواه وقياسه على أسلوبه فى أعماله الأخرى ، وعلى أساليب الكتابة التى كانت سائدة فى عصره نقرر حقيقتين :

أولا هما : أن الأسلوب الذى صيغ به كتاب « معجم السفر » الـذى بين أيدينـا هو لمؤلفه السلفى وذلك عن طريق الأدلة التى بيناها .

ثانيهما : أن الناسخ الأخير للكتاب وهو « عبد الحفيظ بن محمد صالح حماد ـ الذى لم نعثر له على ترجمة فى المصادر التى تحت أيدينا ـ كان أمينا فى مـا نقلـه . إلينـا عن السلفى من أصول كتابه « معجم السفر »وهذا يجعلنا نطمئـن إلى أنـه لم يخرجنا عن أصل صورته الأولى . ولعل الشئ الذى يؤكد نزاهته أيضا هو : أنـه لم يتدخل فى أصول الكتاب ألا فى حدود ضيقة كإبراز كلمـة مثـلا غير واضحـة فى الأصل الذى كان ينسخ عنه ، أو تصحيح كلمة تحتمـل معنيين مختلفين وهكذا. وكان ينص على ذلك صراحة فى هامش النسخة التـى طبع عنهـا هذا الكتاب، وقد أورد لنا المحقق بعض الأمثلة التى تشير إلى هذا(١١٤).

وإذا كان الفضل ينسب بادئ الأمر فـى جمـع شتات هـذا السفـر التـاريخى القيم ـ إلى عبد العظيم المنذرى ، ويليه ابنه محمد الناسخ الأصلى للكتاب . فـإننى أرى أن هذا الرجل « عبد الحفيظ بـن محمـد صـالح » لا يقـل فضـلا عنهمـا لأنـه حافظ على ما دوناه رغم الفارق الزمنى الهائل بينهما وبينه ، وبذلك وصل الكتاب إلينا فى صورته الحالية التى بين أيدينا مما جعلنا مرتبطين بأصوله وجذوره .

• أهم محتويات الكتاب :

كتاب « معجم السفر » يضم بين دفيته تراجم حياة شيوخ السلفى ورفاقـه وأصحاب الفكر والثقافة الذين التقى بهم وسمع منهم خـلال رحلتـه الطويلـة التـى طاف فيها الكثير من بلـدان المشـرق الإسلامى ، والذيـن عـاش بينهـم مـن أهـالى الإسكندرية وعلمائها منذ أن استقر فيها حتى وفاته ، ويشتمل الكتاب أيضا علـى تراجم لأعداد من شيوخ القاهرة الذين التقى بهم السلفى وسمع عليهم .

كذلك يتضمن الكتاب تراجم لأعداد غفيرة من العلماء المغاربة والأندلسيين وغيرهما ، من الذين وفدوا على الإسكندرية والتقوا فيها بالسلفى ، سواء فى بيتـه

أم مدرسته ، فضلا عن أن الكتاب يتضمن الكثير من الأخبار والحكايات والحكم التى فيها الكثير من العبر والفضائل ، وغير ذلك من معلومات هامة عن الحركة الفكرية والعلمية خلال القرن السادس الهجرى ، فى الإسكندرية بصفة خاصة ، وبلدان المشرق الإسلامى بصفة عامة .

الخصائص المتعلقة بمنهج السلفى فى تأليف كتابه " معجم السفر " .

وقد رأيت أن أبدأ بالحديث عن الغرض من تأليف الكتاب ثم بيان مصادر السلفى التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه . وأخيراً نعالج مسألة المنهج الذى سلكه فى عرضه التاريخى .

* الغرض من تأليف الكتاب :

كان من عادة العلماء فى كل فن أن يقدموا لمصنفاتهم بمقدمات يشرحون فيها مقاصدهم وأغراضهم التى دعتهم إلى التأليف ، حتى ينيروا السبل أمام القارئين ليكونوا على بينة وإدراك عما بداخل هذه المؤلفات . ومن هنا تصبح المقدمة جزءاً مكملا لكل كتاب .

وكتاب « معجم السفر » الذى بين أيدينا جاء خاليا من أى تقديم(١١٥) نستطيع من خلاله التعرف على دواعى ومقاصد مؤلفه . ولعلنا نلتمس للسلفى العذر فى ذلك لأنه لم يكمل كتابه على النحو الذى أراده _ كما بينا آنفا _ فكيف إذا يضع له مقدمة ! ؟

لهذا كان البحث فى ثنايا الكتاب وقراءة موضوعاته وقضاياه المختلفة هو الطريق الأمثل لبيان ذلك .

وبعد بحث وتدقيق ، هدانا الله أخيراً إلى أن الغرض الأساسى والهدف الواضح الذى سعى السلفى من أجله لتأليف كتابه هو : « خدمة السنة النبوية »: فى جميع مجالاتها المتمثلة فى إيضاح الصحيح والضعيف من الأحاديث ، وأحوال الرواة جرحاً وتعديلاً ، مع إفراد تراجم خاصة لرجال عصره تحوى معلومات وافية

ودقيقة توضح حقيقة الأشخاص ، بما لهم وما عليهم من غير ظلم أو مجاملة فى ثناء لا يستحقوه .

والمتتبع لكتاب « معجم السفر » يلحظ هـذه الغاية بدقة ووضوح ، فقد حوى الكتاب على ما يقرب من مائتين وخمسة وثلاثين حديثا نبويا رواها السلفى عن شيوخه(١١٦)، مفردا تراجم عن كل واحدا منهم ، بالإضافة إلى أن هناك شواهد أخرى فى الكتاب ترجح ما ذهبنا إليه فى هذا الصدد وتقويه ، من أبرزها: تلك الأشعار والحكايات الصالحة التى يوردها على لسان أصحابها والتى تدل على حماسته وتأثره وحبه لسنة النبى ﷺ والرغبة الصادقة لديه فى خدمة دينه العظيم - الدين الإسلامى . وإليك بعض النماذج من الشعر والحكايات الهادفة التى تدخل فى إطار غايته الأساسية من تأليف كتابه :

فمن الشعر : تلك القصيدة التى أوردها فى مدح النبى ﷺ « على لسان أبى الفضل جعفر بن الطيب الصقلى » جاء فيها :

يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ الكِرَا ... مِ وَمَنْ أَتَى بالمُعْجِزَاتِ
لَو لَمْ يَكُن لَكَ غَيْر مَا ... أُوتِيتَ من حَسَنِ الصفاتِ
لَقَهَرْتَ كُلَّ مُعَانِدٍ ... وَعَلَوْتَ فَوْقَ النَّيِّرَاتِ
لَكَ هَيْبَةٌ وجَلالَةٌ ... سَارَت إلى كُلِّ الجِهَاتِ
ومودة تلقاك من ... كل العيون الناظرات
صَلَّى الإِلَهُ عَلَيكَ مَا ... قَطَرَتْ دُمُوعُ الجَارِيَاتِ(١٧٧)

ومن صريح ما أورده السلفى فى تمجيد السنة النبوية المطهرة ، تلك الحكاية التى سمعها من « أبى العز نصرون بن فتوح » حيث يقول « أى السلفى » سمعت نصرون يقول : « مرضت مرضه أشفيت منها على الموت وبعت فيها كتبا أدبية وغير أدبية ، ومن جملتها صحيح البخارى وصحيح مسلم ، فذكرت ذلك بعد أفاقتى

من مرضى لأبى القاسم بن القطاع (١٨٨) فغضب عليَّ غضباً شديداً وقال : كنت تقنع ببيع كتب الأدب فعنها عوض وتترك عندك الصحيحين . هل رأيت مسلماً يخرج الصحيحين من داره ، هل رأيت مسلما يخرج الصحيحين من داره و لم يزل يردد ذلك حتى استحييت من نفسى ومن الحاضرين وندمت غاية الندم»(١٩٩).

وإلى جانب ذلك فقد ضمن السلفى كتابه الكثير من الأخبار عن المتصوفين الحقيقيين ، وذكر الحكايات ذات العظة والعبرة عنهم ، التى تدعو إلى مكارم الأخلاق والصفات الحميدة التى يجب أن يتحلى بها كل مسلم(١٢٠) والسلفى بذلك يفتح أكثر من نافذة لكى توصله إلى هدفه المنشود وهو خدمة السنة النبوية ، وليكن التصوف الحقيقى وأخبار رجاله أحد هذه النوافذ التى توصله إلى غرضه السامى والنبيل .

وإضافة إلى ما ذكر : فإن ثمة شئ جدير بالتسجيل فى هذا الصدد ، وهو . أن تلك الغاية التى ارتضيناها من وراء تأليف هذا المعجم نراها تتمشى بوضوح مع مذهب السلفى الذى كان يدين به وهو : المذهب السنى.

مصادر السلفى فى « معجم السفر » :

اتخذ السلفى لنفسه منهجاً خاصاً فى ذكر مصادره ربما اختلف عن الطريقة التى سلكها المؤلفون السابقون له أو الخالفون من بعده .

فالمصادر التى استقى منها مادته الخبرية ، تعتمد على المصادر المباشرة التى تقوم على المقابلة والمشافهة والأخذ المباشر عن ألسنة الرواة . وقد التزم السلفى بذلك التزاما شديداً فلم يجمع مادة كتابه من مؤلفات الذين سبقوه أو عاصروه ،

و لم يسجل ترجمة دون أن يكون قد قابل صاحبها وتحدث معه وكتب إليه ، ليس من بينهم ترجمة لعالم من الذين ماتوا قبله .

والصيغ التى وردت فى الكتاب واستخدمها السلفى فى التلقى تكاد تجمع على ذلك ، وهى : إما : (سمعت فلانا) أو (اخبرنى) أو (أنشدنى) ، أو (حدثنى) أو (رأيت فلانا وقال لى) وهكذا تطالعنا هذه الصيغ فى كل صفحات الكتاب .

وهذه المصادر التى تلقى عنها مادته العلمية : كثيرة بشكل ملحوظ حيث يبلغ عددها على وجه التقريب - ٧٩٤- مصدرا الغالبية العظمى منها لشيوخ وعلماء عاشوا بالإسكندرية ، فهم إما من أهلها أو من بلاد أخرى نزلوا بها واتخذوها مقر إقامة دائمة ، وما عدا ذلك لعلماء من بغداد والحجاز أو غيرهما من البلاد ، أخذ عنهم السلفى وسمع منهم ببلادهم أو أثناء عبورهم بالإسكندرية .

ولو أردنا التحدث عن جميع هذه المصادر لا تسع بنا المدى ، وابتعدنا بعض الشئ عن مقصدنا ، لذلك سوف نكتفى بالحديث الموجز عن أشهرهم ذكراً وأكثرهم مساهمة فى إعداد المادة العلمية ، وعليهم كان اعتماد السلفى فى تدوين معلوماته ثم نعقب بالحديث عن بعض الرواة المشهورين الذين اكتفى السلفى بإيراد القليل من الأخبار عنهم ، ثم نعرض للقلة غير المشهورة من الرواة الذين أخذ عنهم ، وأخيرا نعرض لبعض المصادر المباشرة التى تجاهل السلفى ذكرها .

*** أما عن الفريق الأول فمن أبرز أفراده :**

- « أبو الكرم خميس بن على الحوزى » (ت٥١٠هـ / ١١١٦ م) :

وينسب إلى قرية حَوْز بمدينة واسط (١٢١) وهو من الرجال الذين عثرنا لهم على ذكر وصدى طيبين فى المصادر ، فمن أشهر ما قيل عنه : أنه كان من حفاظ الحديث المحققين بمعرفة رجاله ، ومن أهل الأدب البارع ، وفى شيوخه كثرة ، وكان معلما لم يزل يعرف فضله ومؤدبا كل متأدب . أنار بواسط لأهلها كل ليل من الجهل (١٢٢) .

وعلاوة على ذلك فقد خصه السلفى بترجمة فى كتابه « معجم السفر » . تحمل هذه المعانى وتبين درجة اعتماده عليه فقال : « علقت عنه فوائد ، وسألته عن رجال من الرواة فأجاب بما أثبته فى جزء ضخم هو عندى (١٢٣) وقد أملى على نسبه ... ومولده سنة (٤٤٧هـ) والله تعالى يرحمه وإيانا إذا صرنا إلى ما صار إليه ، فقد كان إتقانه ممن يعول عليه » (١٢٤) .

و« خميس بن على » هذا من أكثر شيوخ السلفى الذين اعتمد عليهم فى السؤال عن أحوال الرواة، فعليه كان معول السلفى الأساسى فى تدوين معلوماته - فقد أخذ عنه بطريق مباشر فى حوالى اثنى عشر موضعاً . مصرحاً باسمه فى جميعها (١٢٥) .

- و « أبو صادق مرشد بن يحيى المدينى المصرى » (ت٥١٧هـ / ١١٢٣م) كان من المحدثين المنفردين بعلو الإسناد بمصر ، مشهوراً بالثقة والصلاح والخير، يقول عنه السيوطى « كان أسند من بقى بمصر » (١٢٦) .

وأبو صادق هذا سافر إليه السلفى خصيصا من الإسكندرية للأخذ عنه وعن طبقته خلال رحلته الوحيدة التى قام بها إلى القاهرة (١٢٧) ومن خلال تتبعنا لـ«معجم السفر» وجدنا أن أبا صادق كان له أثر كبير فيه ، إذ أفاد منه السلفى فى كثير من التراجم التى جمعها عن شيوخ مصر الذين التقى بهم فى مجالس أبى صادق . وقد ذكرها السلفى فى كتابه حوالى أربعة عشر مرة (١٢٨) .

- و« أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى »(١٢٩) (ت٥٢٠هـ /١١٢٦م).

كان إماما عالما زاهدا ، فقيها على المذهب المالكى ، عنده تواضع وتقشف راضيا من الدنيا باليسير(١٣٠) ولد سنة (٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م) بالأندلس ورحل إلى المشرق سنة (٤٧٦هـ / ١٠٨٣ م) واستقر به المقام بالإسكندرية فقطنها حتى وفاته دفن بها (١٣١) ويكفى لتوضيح مكانته ما قاله عنه ابن تغرى بردى « وفضله مشهور لايحتاج إلى بيان » (١٣٢) ومن خلال ما ورد فى « معجم السفر »

نستطيع أن نتعرف على أن السلفى قابل الطرطوشى بالإسكندرية ، وكان يحضر مجالس علمه ، التى استفاد منها فى بعض نقوله التى صرح بها فى معجمه (١٣٣)

* أما عن الفريق الثانى فى ترتيب مصادر السلفى :

فهؤلاء كثيرون ، وقد استطعنا من خلال تتبعهم فى كتب التراث الأخرى أن نتعرف على أصالتهم والثقة بهم ، ومن أبرز هؤلاء على سبيل المثال :

- « أبو القاسم عبد الرحمن بن عتيق المقرئ » المعروف بابن الفحام (ت٥١٦ هـ / ١١٢٢ م) ، قال عنه السلفى « من كبار القراء .... وكان حافظاً صدوقاً متقناً عالماً كبير السن » (١٣٤) .

وما قاله عنه المؤرخون لا يختلف عن هذه المعانى بل يؤكد عليها ويبين مدى الصدق بها فقد قال فيه ابن تغرى بردى : « كان من كبار شيوخ القراء سكن الإسكندرية وقصده الناس من النواحى لعلو إسناده وإتقانه » . (١٣٥)

وقال عنه السيوطى « إنتهت إليه رئاسة الإقراء بالإسكندرية علواً ومعرفة وروى عنه السلفى » (١٣٦) .

- كذلك صرح السلفى بالرواية عن « أبى عبد الله محمد بن أحمد الرازى الإسكندرانى » المحدث المعروف بابن الحطاب (ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م) ، وذكره فى بعض مواضع من كتابه تفيد بالسماع منه ومقابلته ، والإستخبار عن أحوال بعض الرواة (١٣٧) .

وأبو عبد الله هذا من الرجال المشهورين والرواة المعروفين الذين وقفنا لهم على ذكر حسن فى المصادر ، فهو مسند الديار المصرية فى وقته . وشيخ الإسكندرية وأحد عدولها المبرزين فى علم الحديث ، وقد ذكره السيوطى فى جملة المحدثين المنفردين بعلو الإسناد (١٣٨) .

وما أورده السلفى عن هذين العالمين يمكننا قياسه على معظم مصادره المباشرة أو رحاله الذين روى عنهم فى هذا الباب حيث أنهم معروفين من قبيل ابن الفحام ، وابن الحطاب السابق ذكرهما (١٣٩) .

* وأما عن الفريق الثالث فى ترتيب مصادر السلفى :

فهؤلاء يختلفون عن سابقيهم من حيث الشهرة والمعرفة ، ربما لأنهم كانوا من عامة الناس أو أرباب المهن الأخرى . ومع ذلك قابلهم السلفى وسمع منهم لما رأى أن هناك فائدة مرجوة من ذكرهم وتدوين أخبارهم فعلى سبيل المثال : نراه أى « السلفى » يكتب عن أحد الأشخاص ويدعى : « وجيه الدين بن شبل بن ذى القرنين » فيقول : عنه « وعلقت عنه ما علقت لغرابة اسمه لالعلو سنده ولا علمه » (١٤٠) .

ويقول عن « وهيب بن مترف بن مهيوف » الذى انشد السلفى شعر بمدينة تَدْمُرْ - « وإنما كتبت عنه لغرابة اسمه وللموضع كذلك » (١٤١).

كذلك يورد لنا السلفى شعرا عن شخص اسمه « على بن عبد المعطى » كانت له صَبْوَة ثم تاب على يديه ، ويقول عنه « كان يحفظ من الشعر كثيرا وصحب الشعراء وكان من أذكى البرية .... وكانت له صبوة ثم تاب على يدى ويجلب إلى واحدا بعد واحد فيتوبون عن الشرب وغيره » (١٤٢) .

* أما عن الفريق الرابع والأخير من مصادر السلفى المباشرة التى تجاهل ذكرها :

فقد وجدنا أنه فى بعض الأحيان يترك تعيين الشيخ أو المصدر المباشر الذى أبلغه عن أحوال بعض الرواة فيقول مثلا عن « أبى محمد عبد الرحمن الدونى » «

وبلغنا أنه توفى سنة .... » (١٤٣) ويقول عن « أبى المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل » « بلغنا أن أبا المحاسن أملى بآمل وقتل بعد فراغه من الإملاء (ت٥٠٢هـ)(١٤٤) ونلمس شبيه ذلك بعض العبارات مثل « وقد بلغنى بعد خروجى من مصر » و « ثم قال لى من أثق به » و « توفى سنة .... على ما حكاه لى من أثق به من أهل المغرب » (١٤٥) .

والظاهر من هذه الأخبار القليلة ، أن السلفى قد استقاها من مصادر مباشرة، مجهولة لنا معروفة عنده . وذلك الشئ يؤخذ بتحفظ لأنه بعد مقارنة إحدى هذه الروايات - بالمصادر التاريخية الاخرى - وأخص منها ما تعلق بوفاة أبى المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل « الذى ذكر السلفى موته سنة ٥٠٢ هـ قد ثبت أن هذه الرواية لها شاهد ، فقد أوردها ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٩٩ نقلا عن السلفى بل وأكد صحتها عن طريق ما اعتمد عليه من مصادر أخرى .

ولعل ذلك يدعونا إلى نفى الشبهة عن السلفى فى التدليس فى رواياته ، ويرشدنا إلى الباعث الذى دفعه إلى عدم ذكر اسماء الذين روى عنهم تلك النصوص القليلة ، فربما كان الباعث هو ميله إلى عدم الإكثار من ذكر رواته ، وربما كان هؤلاء الرواة أو بعضهم ثقة لا يقلون عمن صرح بأسمائهم ، وهذا فى رأيى هو الأقرب إلى الصواب .

وأخيراً ، وبعد دراسة هذه المصادر : فأن الانطباع الذى خرجت به هو : أن السلفى قد تعمد ، وبدون مواربة ، أن يكون لكتابه مصادر واضحة محددة يستمد منها نصوصه ويؤسس عليها بناء معجمه ، باعتباره كتاباً عماده وأساسه الرواية المباشرة بطريق المشافهة والمقابلة . وغنى عن البيان أن سلوك هذا السبيل فى التصنيف التاريخى يضفى على الكتاب الاحترام اللائق ويزيد من قيمته العلمية ،

ومن ثم يصبح الكتاب محل تقدير لدى كل من يطلع عليه ، ويصير بعد ذلك مصدراً يعتمد عليه الباحثون ، ليس هذا فحسب بل إن ما يزيد من قيمته أن تأتى رواياته وأخباره عن مؤرخ ثقة حافظ ، أجمع المؤرخون على عدالته وصدقه كما بينا سالفا .

* منهج السلفى فى العرض التاريخى :

وصل إلينا كتاب « معجم السفر » مرتبا حسب حروف الهجاء ، بمراعاة الحرف الأول فقط من كل إسم ، دونما النظر إلى ترتيب باقى الحروف . ففى باب الهمزة مثلا لم يراع فى الترتيب الحرف الثانى من بعد الهمزة أو ما هو أقرب اليها .

وهكذا يمكننا قياس ذلك على باقى التراجم التى تبدأ بحرف الباء إلى آخره . ولهذا لم يكن ترتيب الكتاب كما ينبغى .

والحقيقة أن السلفى - رحمه الله - برئ من هذا الترتيب الذى حل بكتابه لأنه - كما أوضحت سابقا - كتبه على شكل « جزازات » فى بادئ الأمر و لم يتمه على الوجه الأمثل . لهذا فإن المسئول أمامنا عن ترتيب الكتاب على هذا النحو هو : الزكى عبد العظيم المنذرى كما ذكر السخاوى .

والمتتبع لمنهج السلفى فى عرضه التاريخى ، فإن أول ما يلحظه بوضوح هو: التزامه الشديد بالإسناد المتصل لكل من ينقل عنهم بدءاً من راوى الخبر مباشرة ووصولاً إلى الشاهد الحقيقى للواقعة ، سواء أكانت حديثا نبويا أو حكاية ، أو شعراً .

وأغلب أسانيده تأتى بصيغة التحديث والإخبار والسماع مثل « حدثنا - أخبرنا- سمعت » خاصة فى الأحاديث النبوية ، واذا كان المروى شعرا يقول «أنشدنى - أنشدنا» .

وهذا اللون من التأليف له صلة وثيقة بعلم الحديث الذى يتخذ الإسناد شرطا أساسيا لصحة الخبر . ولا عجب في ذلك فقد كان السلفى ذاته محدثا قبل أن يكون مؤرخا ، ومن هنا تأتى أهمية كتابته للتاريخ كعلم يتخذ الإسناد شرطا أساسيا لصحة الخبر أيضا . لذا فإن السلفى كان يكتب التاريخ عن دراية ووعى بنظرة الفاحص المدقق .

وعلى الرغم من أن أغلب روايات السلفى جاءت مسندة إلى الشاهد الحقيقى للحدث ، فقد شذ عن ذلك فى حالات قليلة ، تاركا العهدة على الراوى.

فعلى سبيل المثال : يقول : « أنشدنى عبد الله بن قاسم قال : أنشدنى أبو عبد الله التونسى بمكة ، ولم يسم قائله » (١٤٦) .

وفى موضع آخر يقول « أنشدنى قيس بن غالب .... وقد أنشدنى قبل قيس غيره ببغداد ولم يذكر أحد منهما قائله » (١٤٧) .

والشئ الجدير بالملاحظة هنا هو : أن السلفى لم يكن يترك الأمر على علته هكذا ، بل كان فى بعض هذه الحالات يسعى جاهدا وراء المعلومة حتى يعرف قائلها الأصلى عن طريق رواة آخرين ، ومثال ذلك قوله : « أخبرنى أبو القاسم عمر بن الحسين - أخبرنى أبى الحسين ، أخبرنى أبى عمر أنه قال عمن تقدمه :

بُنَــيَّ إن البِرَّ شَئٌ هَيِّنٌ وَجْهٌ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّــنٌ

ثم يرد السلفى معقبا على هذا الشعر بقوله « هذا الكلام لخالد بن صفوان ويورد إسناداً آخر يتصل بخالد بن صفوان هذا »(١٤٨) . وينهج السلفى فى تأليف معجمه منهجا لا يكاد يشذ عنه فهو يبدأ بما رواه له صاحب الترجمة من حديث أو شعر أو حادثة أو نادرة من النوادر ثم يعقب ذلك بترجمة له قد تطول أو تقصر(١٤٩).

وعناصر الترجمة عنده تتكون - فى أغلب الأحوال - من سياق اسم المترجم له ونسبه ولقبه وبلده وشيوخه ، والزمن والمكان الذى تمت فيه المقابلة بين السلفى وبينه والسؤال عن سنه أو ميلاده ، وتحديد سنة الوفاة إن أمكن ذلك ، ثم ينقد المترجم له فيوثقه إن كان أهلا للثقة ، أو يجرحه إن كان يستحق التجريح ، وأخيرا ينبه إلى ضبط اسمه إن كان من الأسماء التى تتشابه مع غيرها(١٥٠) .

ولعل فى تفصيل هذه الأمور وغيرها ما يعيننا على بيان وتفسير هذا المنهج والصفات العامة التى انفرد بها السلفى وميزت كتابه عن غيره من المؤلفات فى هذا المجال وهى على النحو التالى :

* **أولاً** : كان السلفى يدقق فى أمور معينة ، منها ما هو خاص بالمكان الذى التقى فيه بالراوى والسماع منه كأن يقول مثلا « سمعت القاضى أبا بكر عتيق .... بالإسكندرية » أو « أخبرنى أبو عبد الله محمد .... بدمشق » (١٥١) .

ومنها ما هو خاص بالرواية فكان يحدد حتى لا يختلط الأمر أن هذا الشعر مثلا (للقاضى فلان) أو (للشاعر الفلانى) وذلك بقوله « لنفسه » ، واذا كانت الرواية لغيره أوضحها بإسناد يتصل إلى الشاهد الحقيقى ، وهذه السمات نجدها واضحة تمام الوضوح فى جميع صفحات كتابه .

أيضا من الأمور التى دقق فيها السلفى ، التحديد التاريخى لمن ينقل عنهم ، فكان يحرص على تسجيل تواريخ ميلادهم معتمداً على ذلك بصيغة السؤال بنفسه كأن يقول « وسألته عن مولده » أو ما يذكره له صاحب الترجمة بصيغة « ذكر لى مولده » أو « قال لى » أو « سمعته يقول » (١٥٢) .

وفى بعض الأحيان نراه يسأل المترجم له عن مولده فيمتنع كما حدث مع «عبد الملك بن على» يقول عنه السلفى « وسألته عن مولده فامتنع من ذكره»(١٥٣)

وفى مناسبات قليلة يذكر مكان ميلاد المترجم له ولايحدد السنة (١٥٤) كذلك حرص السلفى على تسجيل تاريخ الوفيات فى معظم تراجمه (١٥٥) .

* ثانيا : من الأمور الرئيسية التى سار عليها السلفى فى منهجه ، الاهتمام الكبير بالجانب الجغرافى وأعنى بذلك ضبطه لأسماء الأماكن وتحديد مواقعها بدقة، والمطلع على الكتاب يندهش إلى حد الإعجاب لكثرة البلاد التى أوردها ، إلى درجة يمكن معها وصف كتابه - فوق ما تميز به - بأنه معجماً للبلدان (١٥٦) .

وقد استطاع السلفى أن يكتسب هذه الخبرة عن طريق رحلاته العلمية الكثيرة التى طاف فيها المئات من المدن والقرى ، فرأى أماكنها بعينه . وسمع نطق أسمائها بأذنه ، وبسؤال من يترجم لهم عن الأماكن التى ينتسبون اليها ، عرف أسماء بلدانهم وحدد أسماء مدنهم وقراهم .

كذلك يستفاد مما ذكره فى معجمه أنه كان يصاحب العلماء الذين لهم معرفة وخبرة ودراية بالأماكن ، ومن المرجح أنه قد استفاد منهم فى تحديد الكثير من البلاد التى أوردها ومن هؤلاء على سبيل المثال : أبو الحسن على النهاوندى المعروف بالأشترى « يقول عنه السلفى » سمعته .... بهمذان وهو من المعروفين المشهورين وممن لم يكن له نظير فى وقته فى معرفة المنازل التى بين الكوفة ومكة... ولا يعرف أحد طريق البادية مثله ، وبه يضرب المثل فى جملة مسافرى الحجاز ومقدميهم ، وقد سافر إلى الشام ... ودخل خراسان ووصل إلى غزنة»(١٥٧) .

أما عن المنهج الذى سلكه السلفى فى ذكر أسماء البلاد وتحديد مواقعها ، فقد كان يذكر اسم المدينة أو البلد بعد أن يذكر اسم من يترجم له أو فى نهاية ترجمته ، ولعل فى ذكر هذه الأمثلة المختارة التى نعرضها من نص « معجم السفر » ما يغنى عن جميعه ، فمن ذلك قول السلفى :

« ضياء هذا رجل صالح ... وسمعته يقول حطين قرية من قرى طبرية وبها قبر يوشع بن نون » .

« ظافر هذا من أهل رشيد مدينة من مضافات الإسكندرية » .

« ابن الصُعْدِي هذا من بيت العلم ... ونسبته مستفادة من الصُغْدى ومع الصَغْدى وصَغْدَة مدينة باليمن » .

« حدثني عبد الله بن محمد ... الفَلِيشي ... وفَلِيشْ قرية من قرى لُرْقَة بشرق الأندلس » .

« عبد الحميد هذا سألته عن مولده ، فقال ولدت ... بمدينة بَلَغَى بشرق الأندلس » (١٥٨) .

* ثالثا : من الأمور المتميزة أيضا التى استطعنا أن نتبينها من منهج السلفى ، وتكاد تطالعنا فى كل صفحة من صفحات معجمه ، النقد لكل من دون عنهم . وبيان مكانتهم العلمية ، فيوثق من كان ثقة ، ويضعف من كان ضعيفا مبينا السبب وعلته ، ومكانة روايته ومدى صحتها . كل ذلك من غير مجاملة لأحد .

وكلماته التى يستخدمها فى النقد عبارة عن جمل قصيرة مركزة ذات مدلول واضح يبدو فيها بارز الشخصية ، واضح الرأى قوى الاستدلال .

ومن الأمثلة على ذلك قوله :

« أبو البركات هذا من أهل العفاف قليل الرواية والسماع » .

« عبد الكريم هذا ... كان مائلا إلى الخير ، وشعره فى غاية الجودة » .

« عبد الرازق هذا ... أخرج إلَى كتابا بخط جده من تأليفه ... وليس فيه سماع وقال أخبرنى به أبى عن أبيه عن جده ، والعهدة فى ذلك عليه ، وكان ظاهر الصلاح محموداً عند أهل بلده »

« أبو البركات هذا ... تغير بأخره ودخل فيما لايرضى عفا الله عنه » .

« أبو الحسن هذا كان من أهل الأدب والفقه وكانت دعاويه أكثر من علمه » .

« أبو الحسين هذا كان من فقهاء المالكية ....وكان غيره أوثق منه »(١٥٩).

* رابعا : ضبط أسماء الأشخاص بالشكل ، وذكر الأسماء التى قد تتشابه معها فى النسبة .

ومن الشواهد على ذلك قوله :

« ابن هَرَّاش » : ربما قيل فى ابن الهراش بالتعريف فيذكر حينئذ مع إلكيا الهراس».

« ابن حرّان » : وإن قيل فى ابن حران هذا الحرانى فيستفاد أيضا فى بابه .

« ابن ثُنَيَّة » : وثنية فى نسبه مستفاد يذكر مع بُنَيه وبتنه ، ونَبِيْه وغيرهم .

« ابن تاكُرات » : وربما قيل تاجُرات بالجيم بدلا من الكاف فيستفاد حينئذ ويذكر مع « جواب » و « خوات » وغيرهما (١٦٠) إلى غير ذلك من الأمثلة.

* خامسا : كذلك من أهم وأبرز الأمور التى تبيناها فى منهج السلفى ، التجديد فى عرض المادة التاريخية وليس التجديد هنا سوى اعتماده المقابلة والسماع شرطا أساسيا لكل من ترجم لهم ، فالكتاب رغم ضخامته وكثرة عدد أشخاص لم نجد فيه ترجمة واحدة منقولة من كتاب أوهى لشخص لم يقابله ، وهذا يخالف منهج الكثير من كتاب التراجم الذين كان جل اعتمادهم فى تدوين الأخبار على المصادر غير المباشرة أو الأخذ من كتب السابقين أو المعاصرين لهم .

*** أثر السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين :**

المادة العلمية التى قدمها إلينا السلفى فى كتابه والتى عرضناها فى الصفحات السابقة ، وبينا منهجه المتميز فيها تعد من أنفس المصادر التاريخية التى قدمت إلينا صورة صادقة ودقيقة عن رجال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

ويكفى الحافظ السلفى فخراً فى هذا المجال أن تراجمه للرجال والأخبار التى دونها عنهم وسجلها فى كتابه بتحر واضح وشمول ودقة ، ظلت موردا ومعينا لا

ينضب ، ومرجعاً أصيلاً يعتز به الخالفون من بعده ، ويستعينون بما كتبه فى مؤلفاتهم سواء ، التاريخية أو الجغرافية أو الأدبية ، بل أكثر من هذا أن معظمهم اتخذ ما كتبه السلفى حجة دونها ما سواها وحكماً فصلا عند تعارض الأقوال أو اختلاف الروايات التى كتبوها فى مصنفاتهم .

ويتضح هذا وذاك فى بعض النماذج التى اخترناها من نقول بعض المؤرخين اللاحقين عن السلفى ، لنرى كيف انتفع هؤلاء بجهده المتمثل فى «معجم السفر».

* ونبدأ هذه النماذج بذكر ما اقتبسه «ياقوت الحموى» (ت٦٢٦هـ) وذلك فى كتابيه الشهيرين « معجم البلدان » و « معجم الأدباء » .

وقد اعتمد ياقوت على السلفى فى هذين الكتابين اعتماداً كبيراً دون غيره من المؤرخين ، فنراه فى كتابه الأول « معجم البلدان » ينقل عنه أكثر من مائة مرة متفرقة فى أجزائه الخمسة (١٦١) ورغم أنه كان يصرح باسم السلفى فى كل موضع من هذه المواضع ، إلا أنه يؤخذ عليه عدم ذكره له ولكتابه «معجم السفر» ضمن المصادر التى اعتمد عليها فى جمع مادته والتى ذكرها فى مقدمة كتابه «معجم البلدان » (١٦٢) .

واليك نموذجا من اقتباسات ياقوت :

يقول ياقوت عن تعريف بليده « زَرَنْد » بالجزء رقم (٣) ص ١٣٨من كتابه معجم البلدان : قال السلفى : « أنشدنى القاضى أبو العميد بن أحمد بن على الجرجانى بمأمونية زرند فى مدرسته ، وهى بين الرى وساوة » .

وقرين هذا النموذج فى كتاب « معجم السفر » ص - ١٨٨.

أما عن كتاب « معجم الأدباء » فقد نقل فيه ياقوت أيضا الكثير من النصوص عن السلفى مصرحاً بالأخذ عنه ، ولكن جانبه الصواب فى تحديد اسم الكتاب الذى نقل منه فبدلاً من أن يذكر « معجم السفر » صرح باسم آخر هو «معجم الشعراء»«وقد فصلنا القول فى هذه المسألة مما سبق من هذا البحث»(١٦٣) .

وهذا نموذج لما اخترناه من كتاب « **معجم الأدباء** » :

يقول ياقوت فى ترجمة « عثمان بن على السرقوسى النحوى » بالجزء رقم(٣) ص ٤٨٨ - ٤٨٩ من كتابه .

قال السلفى « كان من العلم بمكان نحواً ولغة وقد قرأ القرآن على ابن الفحام وابن بليمة وغيرهما وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض ، وصارت له فى جامع مصر حلقه للأقراء وانتفع به ولا زمنى مدة مقامى بمصر وسمع على كثيراً وعلى من كنت أقرأ كأبى صادق والفراء الموصلى وآخرين ».

وقرين هذا فى كتاب « معجم السفر » ، ص٢٤٤ - ٢٤٥ .

* أما المؤرخ التالى من الذين انتفعوا بجهود السلفى فى « معجم السفر » فهو : « **جمال الدين على بن يوسف القفطى** » (ت ٦٤٦هـ) فى كتابه « إنباه الرواة على أنباه النحاة » الذى نقل فيه عن السلفى قدراً كبيراً من نصوصه بلغت على وجه التقريب ثلاثة وعشرين صفحة(١٦٣) وقد اخترنا منها النص التالى :

يقول القفطى فى كتابه جـ٤ ص ٤٣ أنبانا أبو طاهر السلفى فى أجازته العامة « أنشدنا أبو الحسن يونس بن يحيى بن سلامة الحصكفى التاجر بديار مصر قال : أنشدنى أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين بميافارقين لنفسه :

والله لو كانت الدنيا بأجمعها تبقى علينا يأتى رزقها رغداً

ما كان من حق حر أن يذل لها فكيف وهى متاع يضمحل غداً

وقرين هذا فى كتاب « معجم السفر » ص ٤٥٩ - ٦٤٠.

والحقيقة التى يجب أن تذكر فى هذا المقام هى : أن القفطى من خلال نقوله هذه ينقل ترجمات كاملة من معجم السفر(١٦٥) ، مما يوضح الأثر البارز للسلفى

فى كتابه وثمة شيء آخر وهو : أنه نقل عـن السـلفى فـى بعض المواضـع دون أن يصرح بذلك(١٦٦) .

* كذلك من المؤرخين اللاحقين الذين أفادوا من « معجم السفر » المؤرخ الشهير « ابن **خلكان** » (ت ٦٨١هـ) فى كتابه « وفيـات الإعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمان » .

وبعد الإطلاع على هذا الكتاب المذكور وجدت أن ابن خلكان صـرح فيـه بالنقل عن السلفى فى الكثير من المواضع . ليس هذا فحسب ، بـل اتخـذ مـا كتبـه السلفى حجة وحكماً فصلاً دون ما عداه من الكتب التاريخية الأخرى وذلـك فـى بعض المواضع .

ولكن ما يؤخذ على ابن خلكان أنـه أضـاف إلى بعـض نقولـه التـى أخذهـا عبارات من عنده لم يصرح بها السلفى ، مما يوضح عدم دقته فى النقل .

وفيما يلى سوف أقدم نموذجاً عن كل موضع من المواضع السالفة التىنقل فيها:

١ - نموذج لما صرح فيه بالنقل عن السـلفى : وذلـك فـى الجـزء رقـم (١) ص١٦١ من كتابه وفيات الأعيان « ترجمة القاضى الرشيد بن الزبير » .

قال عنه السلفى « ولى النظر بثغر الإسكندرية فى الدواوين السـلطانية بغير اختياره فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، ثم قتل ظلماً وعدوانـاً فـى المحرم سنة ثلاث وستين وخمسمائة رحمه الله وقرين هذا النموذج فى «معجم السفر» ص٥٨.

٢ - نموذج لما نقله عن السـلفى واتخذه حجـة دون مـا عـداه مـن الكتـب الأخرى : قال ابن خلكان فى جـ٧ ص١٤٦ عندمـا اختلفـت الأقـوال فـى تـاريخ دخول جيش أسد الدين شيركوه مصر لأول مرة « قال شيخنا القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد فى كتابـه الـذى وسمه بـ « سيرة صلاح

الدين » أنهم دخلوا مصر فى ثانى جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة والقول الأول (فخرجوا من دمشق فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة فدخلوا مصر واستولوا على الأمر فى رجب من نفس السنة) أصح ، لأن الحافظ أبا طاهر السلفى ذكر فى « معجم السفر » أن الضرغام بن سوار قتل فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وأنه كان فى أول وصولهم - والحافظ السلفى أخبر بذلك لأنه كان مقيماً فى البلاد أول وصولهم وهو أضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه وهو من أقعد الناس به وقرين ما ذكره عن السلفى نجده فى « معجم السفر » ص١٢٨ .

٣ - نموذج لما نقله ابن خلكان وأضاف إليه عبارات لم يصرح بها السلفى:

قال ابن خلكان فى جـ٣ ص ١٩٩ ، بصدد حديثه عن ابى المحاسن الرويانى: « قال الحافظ أبو طاهر السلفى : بلغنا أن أبا المحاسن الرويانى أملى بمدينة آمل ، وقتل بعد فراغه من الإملاء (بسبب التعصب فى الدين) فى المحرم سنة اثنتين وخمسمائة ».

وقرين هذه الترجمة نجدها فى « معجم السفر » ص ١٨٣ بيد أن العبارة التى بين القوسين لم يذكرها السلفى و لم يصرح بها .

كانت هذه أبز النقول التى دونت من كتاب « معجم السفر » ، ولعلنا بهذا نكون قد وقفنا على أثر السلفى الواضح فى مصنفات هؤلاء المؤرخين الذين جاءوا من بعده . ولو اتسع بنا المقام أكثر من ذلك لأفردت غير هؤلاء الكثيرين ممن انتفعوا بهذا العمل الرائد لذا فليس أمامى سوى أن أجملهم على النحو الآتى : مبينا أمام كل منهم اسم الكتاب الذى استرشد فيه بالمادة العلمية لكتاب « معجم السفر » .

- « المنذرى » فى كتابه « التكملة لوفيات النقلة » .

- « الذهبي » في كتابيه « العبر » و « تذكرة الحفاظ » .

- « ابن حجر العسقلاني » في كتابيه « لسان الميزان » و « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » .

- « السخاوي » في كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » .

- « السيوطي » في كتابه « بغية الوعاة » .

- « ابن العماد الحنبلي » في كتابه « شذرات الذهب » .

وهكذا لبث كتاب « معجم السفر » على مر العصور مورداً لا ينضب لمؤرخي الإسلام بعامة ، فعرفوا له قيمته وانتفعوا به على أكمل وجه ، ووثقوا به مصنفاتهم .

الهوامـش

(١) سلفة : ضبطها ابن خلكان وبين معناهـا بقولـه : ونسبته (أى سـلفة) إلى جـده إبراهيم سلفة - بكسر السين المهملة وفتح اللام والفـاء وفـى آخره الهـاء - وهـو لفـظ أعجمـى الأصل فيه (سلبه) بالباء فأبدلت بالفاء ، ومعناه بالعربى ثلاث شفاه لأن إحـدى شـفتيه كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ١ ص ١٠٧ دار صـادر بيروت د. ت . وانظـر فـى هذا المعنى ابن كثير البداية والنهاية مجلد ٦ جـ١٢ ص ٣٢٨ تحقيق دكتور أحمد أبو ملحم وآخـرون ، دار الريـان للـتراث القـاهرة ط١ ١٩٨٨م . ويقـول د. السـيد يعقـوب بكـر مترجم كتاب تاريخ الأدب العربى لكـارل بـرو كلمـان عـن هـذا اللفـظ (سـلبة) بأنـه مركب من « سه أى ثلاثة + لب أى شفة » فـى الفارسـية جــ٦ ص ٢٤٨ هـامش (١) دار المعارف القاهرة ط٢ ١٩٨٣م .

(٢) جرواءن : محلة بأصبهان ويقـال لهـا بالأعجميـة « كـرواءان » يـاقوت الحمـوى : معجـم البلدان جـ٢ ص ١٣٠ دار صادر بيروت د. ت .

(٣) نظام الملك : هو أبو على الحسن بن على الطوسى ولد سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧م بقرية مـن نواحى طوس عمل فى بداية حياته فى دواوين الدولة الغزنوية بخراسان ، فلما أفل نجمهـم انتقل إلى خدمة السـلاجقة ، واتخذه الب أرسلان سلطان السـلاجقة وزيراً له ثم عينـه ابـن ملكشاه فى المنصب نفسه إلى أن قتل سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م . ابن الجوزى : المنتظـم فـى تاريخ الملوك والأمم جـ٩ ص ٦٤ دائرة المعارف العثمانية بحيـدر أبـاد الدكـن بـالهند ط١ ١٩٤٠م .

(٤) الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ٧ تحقيق بشار عواد معروف ، ومحيى هلال سرحان ، موسسة الرسالة بيروت ط١ ١٩٨٤ ، السبكى : طبقـات الشـافعية الكـبرى جــ٦ ص ٣٣ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى ، مطبعـة عيسـى البـابى الحلبـى القاهرة ١٩٦٨م .

(٥) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٨ دار الكتب العلمية بيروت د . ت ، السـبكى : طبقات الشافعية جـ٦ ص ٣٣ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٧ .

(٧) البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٧٦ .

(٨) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٩ .

(٩) انظر الفقرة الخاصة بأقوال المؤرخين في عدالته وسعة علمه ، ص ٣ .

(١٠) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٩ ، الصفدي : الوافي بالوفيات جـ٨ ص ٣٥٢، اعتناء محمد يوسف نجم ، ألمانيا ط٢ ١٩٨٢ : الزركلي : الأعلام جـ١ ص ٢١٥ ، دار العلم للملايين بيروت ط٥ ١٩٨٠م .

(١١) سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢٢ ، الصفدي : الوافي جـ٨ ص ٣٥٢ .

(١٢) سير إعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢١ .

(١٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان جـ٣ ص ٤٠٤ ، مؤسسة الأعلمي بيروت ط٢ ١٩٧٠م .

(١٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا جـ٣ ص ١٩٨ ، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٣ .

(١٥) وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٥ .

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣١٧ .

(١٧) سير اعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢٤ .

(١٨) الوافي بالوفيات جـ٨ ص ٣٥٤ ، وانظر أيضاً السبكي : طبقات الشافعية جـ٦ ص ٣٧.

(١٩) الصفدي : المرجع السابق والجزء والصفحة .

(٢٠) المعجم في شيوخ أبي علي الصدفي ص ٥١ ، بمجريط ١٨٨٥م .

(٢١) وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٥ .

(٢٢) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٣٠١ .

(٢٣) الوافي بالوفيات جـ٨ ص ٣٥٢ .

(٢٤) غاية النهاية في طبقات القراء جـ١ ص١٠٢ ، نشر ج . برجستراسر دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٢ .

(٢٥) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة جـ١ ص ٣٥٤ ، د. ت .

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٥ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ١٢ ، والكيا الهراس هو : على بن محمد بن على ، تفقه ببلده ببغداد ، ورحل فى طلب العلم وعمره ثمانى عشرة سنة ، وكان بارعاً فى الفقه الشافعى وأصوله ، وأماماً قوى البحث دقيق النظر . ومن أشهر مؤلفاته « شفاء المسترشدين » وتوفى سنة (٥٠٤هـ/١١١٠م) ابن عساكر : تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ص ٢٨٨ ، دمشق ١٩٢٨م ، ابن هداية : طبقات الشافعية ص ١٩١ ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ط٣ ١٩٨٢ .

(٢٧) البلوى : ألف با للألبا جـ٢ ص ٢٩٤ القاهرة ١٨٧٠م .

(٢٨) السلفى : معجم السفر ص ٢٢٣ ، تحقيق عبد الله عمر البارودى ، دار الفكر بيروت ١٩٩٣م ، وهذه النسخة من معجم السفر هى التى اعتمدنا عليها فى دراستنا .

(٢٩) السلفى : معجم السفر ص ١٢٣ .

(٣٠) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، كان أماماً كبيراً فى التفسير والحديث والنحو واللغة والبيان تشد إليه الرحال في فنونه ، وكان معتزلى الاعتقاد متظاهراً به ، حتى نقل عنه أنه إذا قصد أحداً واستأذن عليه فى الدخول : يقول لمن يأخذ له الأذن : قل له أبو القاسم المعتزلى بالباب . وتوفى سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م . ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٥ ص ١٦٨ - ١٧٣ .

(٣١) المصدر السابق جـ٥ ص ١٧٠ .

(٣٢) معجم السفر ص ٢٨٣ .

(٣٣) المصدر نفسه ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(٣٤) المصدر نفسه ص ٢٨٤ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٣ ، تحقيق محمد صبيح ، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٤م .

(٣٦) المصدر نفسه والصفحة .

(٣٧) محمد عبد الله عنان : مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى ص ١٤ ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩١م .

(٣٨) المرجع نفسه ص ١٥ .

(٣٩) حسن عبد الحميد : الحافظ أبو طاهر السلفى ص ٢١١ ، بيروت ط١ ١٩٧٧م .

(٤٠) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٢٥٢ ، تحقيق وتعليق فرانز وروزنثال ، ترجمة د. صالح أحمد العلى ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٣م .

(٤١) معجم السفر ص ٢٧٢ ، السخاوى : الإعلان ص ٢٦٧ .

(٤٢) السلفى : الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز ص ٣٩ ، تعليق محمد خير البقاعى ، دار الغرب الإسلامى بيروت ط١ ١٩٩٣م .

(٤٣) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٩ .

(٤٤) طبقات الشافعية الكبرى جـ٤ ص ٤٤.

(٤٥) ص ١١٣ ، ومعجم بغداد توجد منه نسخة خطية بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٧٩ ، أدب .

(٤٦) ص ٢٢٤ .

(٤٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٥١٢ .

(٤٨) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ص ٣٧٨ .

(٤٩) تذكرة الحفاظ جـ٣ ص ١٠٩٣ ، السخاوى : الإعلان ص ٣٧٠ .

(٥٠) انظر المبحث الخاص بأثر السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين فى هذه الدراسة .

(٥١) وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣٢٠ .

(٥٢) معجم السفر ص ٢٣٠ ، قارن ما ورد فى هذه الصفحة بما ذكره ابن خلكان فى الجزء والصفحة السابقة .

(٥٣) جـ٤ ص ١٢٩٩ .

(٥٤) جـ٢١ ص ١٦ .

(٥٥) الإعلان بالتوبيخ ص ٢٢٤ .

(٥٦) المصدر السابق ص ٢٣٧ .

(٥٧) انظر مقدمة المحقق لكتاب معجم السفر ص ٣ .

(٥٨) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى جـ٦ ص ٢٤٩ .

(٥٩) سبق الحديث عن هذه المعاجم فى هذا البحث .

(٦٠) انظر ص ٢٩ من هذا البحث .

(٦١) معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب جـ٢ ص ٤٢١ ، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ، ١٩٩١م .

(٦٢) انظر المصدر السابق جـ٣ ص ٢٢٧ ، وقارن بمعجم السفر ص ٨٦ - ٨٧ ، وللمزيد انظر المبحث الخاص بأثرالسلفى فى من جاء بعده من المؤرخين ، آخر هذه الدراسة .

(٦٣) انظر على سبيل المثال : ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، وهكذا إلى آخر الكتاب مع تفاوت بسيط بين الصفحات .

(٦٤) أمبرتو ريزتيانو : أخبار عن بعض مسلمى صقلية الذين ترجم لهم السلفى فى معجم السفر مجلد ٣ ص ٤٩ هامش(١) مجلة كلية الآداب عين شمس ، عدد يناير ١٩٥٥م .

(٦٥) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٦٦) انظر مقدمة المحقق لكتاب معجم السفر ص٨ ، بيد أن هذا النص سقط من طبعة الكتاب ولم يرد منه سوى الجزء الأخير الذى يبتدى بعبارة « محمد الأصبهانى » إلى آخره ، المصدر نفسه ص١٣ .

(٦٧) الفيروز آبادى : القاموس المحيط ص ٦٤٩ مادة جزء ، بيروت ط٢ ١٩٨٧م .

(٦٨) المعجم الوجيز ص ٣٢٧ ، القاهرة ١٩٩٠م .

(٦٩) شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون جـ٣ ص ٦٢ ، دار العلم للملايين بيروت ط١ ، ١٩٩١م .

(٧٠) معجم السفر ص ٢١٩ .

(٧١) انظر على سبيل المثال - معجم السفر صفحات ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٨٨، ٤٣٩ ، ٤٥٦ .

(٧٢) معجم السفر ص ١١٣ - ١١٤ .

(٧٣) المصدر السابق ص ١١٤ - ١١٥ .

(٧٤) المصدر السابق ص ١٤٣ .

(٧٥) المصدر السابق ص١٤٦ .

(٧٦) المصدر السابق ص ٢٥٣ .

(٧٧) للمزيد انظر معجم السفر : صفحات ١٥٤ - ٢٤٧ - ٢٧٤ - ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣١٦ ،٣١٩ ، ٣٣٢ ، ٣٤٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ .

(٧٨) يحدونا الأمل في العثور على هذه الأجزاء الهامة من معجم السفر في القريب العاجل أن شاء الله تعالى حتى يتمكن الباحثون من الاستفادة من هذه الوثيقة الهامة على النحو الأمثل.

(٧٩) ورد هذا التاريخ في ثلاثة تراجم فقط بمعجم السفر ، انظر ص ٥٨ ، ٤٠٠ ، ٤٤٠ .

(٨٠) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٣٠٣ .

(٨١) معجم السفر ص ٤٦٤ ، ابن الجزرى : غاية النهاية جـ١ ص ٤٣ .

(٨٢) معجم السفر ص ١٦٨ ، الذهبي : العبر جـ٣ ص ٦٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٨٠ القاهرة د. ت.

(٨٣) معجم السفر ص ٤٦٤ ، الذهبي : سير إعلام النبلاء جـ٢١ ص ١٢٢ - ١٢٣ ، العبر جـ٣ ص ٨١ .

(٨٤) الإعلان بالتوبيخ ص ٢٢٤ .

(٨٥) انظر ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٦ ، ٤٤٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ .

(٨٦) انظر معجم السفر ص ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٨٦ .

(٨٧) المصدر السابق ص ١٧١ .

(٨٨) المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٨٩) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٦٧ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٥٥ .

(٩٠) وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٦ .

(٩١) البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٩٢) النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٦٧ .

(٩٣) حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٥٥ .

(٩٤) سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ١٧ .

(٩٥) وهو : المنذرى جامع مسودات « معجم السفر » الذى نحن بصدد الحديث عنه .

(٩٦) نقلاً عن الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٣٠٣ ، سير إعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢٨ .

(٩٧) المنذرى : التكملة لوفيات النقلة جـ٣ ص ١٨٧ ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، بيروت ط٢ ١٩٨١م منصور بن سليم : ذيل مشتبه الأسماء والنسب ورقة ٢٥ ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧٨ تاريخ .

(٩٨) التكملة لوفيات النقلة جـ٣ ص ١٨٧ .

(٩٩) الذهبى : سير اعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٢١٨ ، الصفدى الوافى بالوفيات جـ٣ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(١٠٠) الذهبى : المصدر السابق جـ٢٣ ص ٢١٩ ، الصفدى ; المصدر السابق جـ٣ ص ٢٦٥.

(١٠١) سير اعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(١٠٢) الوافى بالوفيات جـ٣ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(١٠٣) معجم السفر ص ٤٦٧ .

(١٠٤) المصدر نفسه ص ٤٦٨ .

(١٠٥) ، (١٠٦) المصدر نفسه ص ٣٧٩ .

(١٠٧) المصدر نفسه ص٤٧ ، ٨٨ ، ٣٨٥ ، ٤٢٠ ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

(١٠٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

(١٠٩) المصدر نفسه ص ١٦٣ .

(١١٠) انظر المصدر نفسه الأمثلة بترتيب الصفحات ٢٤٤ ، ٢٥٦ ، ٣٢٧ .

(١١١) استجازة السلفى الأولى من الزمخشرى مجلد ٢٢ ص ١٧٧ - ١٧٨ى ، تحقيق د. بهيجة الحسنى ، مجلد المجمع العلمى العراقى بغداد ١٩٧٣م.

(١١٢) انظر على سبيل المثال : معجم السفر ص ٤٣٩ وقارنها بمعجم بغداد : ورقة ٤٦ - ٤٧ .

(١١٣) انظر على سبيل المثال : السمعانى : كتاب الأنساب جـ١ ص ١٨ - ١٩ تحقيق عبد الله عمر البارودى بيروت ط١ ، ١٩٨٨م .

(١١٤) انظر معجم السفر : ص ٧٩ هامش (٣) ، ٩٢ هامش (٢) ، ٩٤ هامش (١) (٢) ، ١١٣ هامش (١) ، ١٥٨ هامش (٢) ، ٢٦٠ هامش (٤) ، ٣٥٤ هامش (٢) .

(١١٥) كذلك لم يقدم له المحقق ، اللهم إلا بعض شذرات تتعلق بتعريف كلمة «معجم» اصطلاحاً مع نبذة مختصرة عن حياة المؤلف « السلفى » ، معجم السفر ص ٤ - ٧ .

(١١٦) انظر فهرس الأحاديث بمعجم السفر ص ٤٧٤ - ٤٩٣ .

(١١٧) معجم السفر ص ١٧٦ .

(١١٨) وهو : على بن جعفر بن على الصقلى المعروف بابن القطاع ، أحد العلماء المبرزين فى علم اللغة والنحو ، وله فى علم المعانى والشعر حظ كبير ، وكان موجوداً بصقلية حوالى سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ، القفطى : إنباه الرواة على إنباه النحاه ص ٣٠٠ - ٣٠١ ، تحقيق محمد بو الفضل إبراهيم ، نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط١ ١٩٨٦م ، وابن القطاع هذا أورد عنه السلفى الكثير من الأخبار عن تلاميذه - انظر على سبيل المثال : معجم السفر ص ٤٠٣ ، ٤١١ ، ٥٨٢ .

(١١٩) معجم السفر ص ٤٠٣ .

(١٢٠) انظر على سبيل المثال المصدر نفسه ص ١٥٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٧١ ، ٣٥٩ .

(١٢١) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٢ ص ٣١٨ .

(١٢٢) القفطى : انباه الرواه جـ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص٣١٨.

(١٢٣) لعل السلفى يقصد بذلك كتابه « معجم السفر » .

(١٢٤) ص ٨٠ .

(١٢٥) الأمثلة على ذلك ص ١٩ ، ٢٠ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٥ .

(١٢٦) حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٧٤ .

(١٢٧) صرح السلفى فى معجمه أكثر من مرة بأخبار هذه الرحلة التى استغرقت ثلاث سنوات من عمره ، مكث خلالها بالقاهرة من سنة ٥١٥ إلى ٥١٧ هـ انظر ص ١٩٩ ، ٢٣٤ ، ٣١٧ .

(١٢٨) انظر على سبيل المثال ص ٧٩ ، ١٧١ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٨٩ ، ٢٣٦ ، ٤١٦ .

(١٢٩) الطرطوشى : نسبة إلى طرطوشة وهى مدينة بالأندلس تقع بالشرق من قرطبة ، ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٤ ص ٣٠ .

(١٣٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ـ٤ ص ٢٦٢ .

(١٣١) المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٦٢ - ٤٦٤ .

(١٣٢) النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٣٢ .

(١٣٣) انظر ص ٣٢٥ ، ٣٣٢ .

(١٣٤) معجم السفر ص ١٧٥ .

(١٣٥) النجوم الزاهرة جـ٥ ص٢٢٥ .

(١٣٦) حسن المحاضرة جـ١ ص ٤٩٥ .

(١٣٧) انظر على سبيل المثال ص ١٤٠ ، ١٦٩ ، ٣٤٠ .

(١٣٨) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٧٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ٥ ص ٢٤٧ .

(١٣٩) انظر على سبيل المثال : ترجمة « أبو المحاسن الرويانى » بمعجم السفر ص ١٨٣ - ١٨٤ وقرينتها بكتاب وفيات الأعيان جـ٣ ص ١٩٨ -١٩٩ .

(١٤٠) معجم السفر ص ٤٣٤ .

(١٤١) المصدر نفسه ص ٤٣٣ .

(١٤٢) المصدر نفسه ص ٢٧٥ .

(١٤٣) المصدر نفسه ص١٧٩ .

(١٤٤) المصدر نفسه ص١٨٣ .

(١٤٥) المصدر نفسه والعبارات الثلاث على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : ١٩٦ ، ٢٦٠، ١٤٩ .

(١٤٦) المصدر نفسه ص ١٦٥ .

(١٤٧) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .

(١٤٨) المصدر نفسه ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(١٤٩) أمثلة ذلك فى معجم السفر ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩١ ، ٤٢٩ .

(١٥٠) انظر على سبيل المثال ترجمة « على بن المشرف الأنماطى » معجم السفر ص ٢٩٩ .

(١٥١) المصدر نفسه ص ٣٠٥ ، ٣٤٨ .

(١٥٢) هذه العبارات نطالعها بكثرة فى معظم صفحات الكتاب ، والأمثلة على ذلك ص ١٢٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٥٣ .

(١٥٣) المصدر نفسه ص ٢١٤ .

(١٥٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ - ١٥٦ .

(١٥٥) انظر على سبيل المثال ص ٢٤٧ ، ٢٩٨ .

(١٥٦) من ضمن خطة الباحث - أن شاء الله تعالى - عمل معجم للبلدان التى وردت بمعجم السفر وذلك فى القريب العاجل .

(١٥٧) معجم السفر ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(١٥٨) انظر هذه الأمثلة على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : بالمصدر نفسه ص ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٠٥ .

(١٥٩) انظر هذه الأمثلة على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : بالمصدر نفسه ص١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٥١ ، ٤٤٦ .

(١٦٠) انظر هذه الأمثلة ، بترتيب صفحاتها كالتالى : ص ١٦١ ، ١٦٣ ، ٣٠٧ .

(١٦١) لا يتسع المقام لذكر كل هذه المواضع : واحيل من يريد الإطلاع عليها إلى الأجزاء الخمسة من كتاب معجم البلدان وقرائنها في كتاب معجم السفر .

(١٦٢) انظر ص ١٠ - ١٢ .

(١٦٣) انظر ص ٨ - ٩ .

(١٦٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر جـ١ ص ١٠٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ وجـ٢ ص ١١٥ ، ١٦٤ ، ١٩٢ ، ٢٢٨ ، ٢٩٠ ، وجـ ٣ ص ٥٢ ، ١٩١ ، ٢١٧ ، جـ٤ ص ٤٣ .

(١٦٥) انظر على سبيل المثال جـ٢ ص ١٠٨ - ١٠٩ ، جـ٣ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٦٦) مثال ذلك فى انباه الرواة جـ٢ ص١١٥ ، وقرينه فى معجم السفر ص ١٦٢ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأبار : محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩م) .

- المعجم فى شيوخ أبى على الصدفى بمريط ١٨٨٥م .

البلوى : يوسف بن أحمد (ت ٦٠٥هـ / ١٢٠٩م) .

- ألف با للألبا جـ٢ القاهرة ١٨٧٠م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزء المؤسسة العربية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، د. ت .

ابن الجزرى : شمس الدين محمد (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م) .

- غاية النهاية فى طبقات القراء جزأن نشر ج . برجستراسر دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٢م .

ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) .

- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جزء ٩ دائرة المعرف العثمانية بحيدر إباد الدكن - الهند - ط١ ، ١٩٤٠م .

ابن خلكان : أبو العباس أحمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان سبعة أجزاء تحقيق د. إحسان عباس دار صادر بيروت د. ت.

الذهبى : محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) .

- سير أعلام النبلاء جزء ٢١ ، ٢٣ تحقيق بشار عواد معروف ، محيى هلال سرحان مؤسسة الرسالة بيروت ط١ ١٩٨٤م .

- تذكرة الحفاظ جزء ٤ دار الكتب العلمية بيروت د. ت.

السبكي : أبو النصر عبد الوهاب (ت٧٧١هـ / ١٣٦٢م) .

- طبقات الشافعية الكبرى جزء ٦ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحي مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ١٩٦٨م .

السخاوى : محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) .

- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ تحقيق وتعليق فرانز روز نثال ترجمة د. صالح أحمد العلى دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٣م .

السلفى : أبو الطاهر أحمد بن محمد (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) .

- معجم السفر تحقيق عبد الله عمر البارودى دار الفكر بيروت ١٩٩٣م .
- معجم بغداد مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٤٧٩ أدب .
- الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز تعليق محمد خير البقاعى دار الغرب الإسلامى بيروت ط١ ١٩٩٣م .
- استجازة السلفى الأولى من الزمخشرى تحقيق د. بهيجة الحسنى بمجلة المجمع العلمى العراقى بغداد مجلد ٢٣ ، ١٩٧٣م .

ابن سليم : وجيه الدين منصور (ت ٦٧٣هـ/١١٦٦م) .

- ذيل مشتبه الأسماء والنسب مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧٨ تاريخ .

السمعانى : عبد الكريم (ت ٥٦٢هـ / ١٠٥م) .

- كتاب الانتساب جزء (١) تحقيق عبد الله عمر البارودى بيروت ط١ ١٩٨٨م.

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .

- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة جزء (١) د. ت.

الصفدى : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .

- الوافى بالوفيات جزء ٨ اعتناء محمد يوسف نجم ألمانيا ط٢ ، ١٩٨٢م .

ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ / ٨٦٧م) .

- فتوح مصر وأخبارها تحقيق محمد صبيح دار التعاون للطبع والنشر القاهرة١٩٧٤ .

ابن عساكر : أبو القاسم على (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م) .

- تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى دمشق ١٩٢٨م.

الفيروز آبادى : مجد الدين محمد (٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م) .

- القاموس المحيط بيروت ط٢ ١٩٨٧م .

القفطى : جمال الدين أبو المحاسن (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) .

- أنباه الرواة على انباه النحاة أجزءا ١ : ٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط١ ، ١٩٨٦م .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .

- البداية والنهاية ١٤ جزء تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرون دار الريان للتراث ، القاهرة ط ١ ، ١٩٨٨م .

المقريزى : تقى الدين أحمد (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) .

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء جزء ٣ تحقيق محمد حلمى محمد أحمد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٣م .

المنذرى : زكى الدين عبد العظيم (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) .

- التكملة لوفيات النقلة أجزاء ١ : ٤ تحقيق بشار عواد معروف مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ ، ١٩٨١م .

ابن هداية : أبو بكر الحسينى (ت ١٠١٤هـ/١٦٠٥م) .

- طبقات الشافعية تحقيق عادل نويهض بيروت ط٣ ، ١٩٨٣ م .

اليافعى : أبو محمد عبد الله (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) .

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان جـ٣ مؤسسة الأعلمى بيروت ط٢ ، ١٩٧٠م .

ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) .

- معجم البلدان خمسة أجزاء دار صادر بيروت د. ت .

- معجم الأدباء أو ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب « خمسة أجزاء دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٩٩١م .

ثانياً : المراجع العربية الحديثة والمعربة :

بروكلمان : كارل :

- تايخ الأدب العربى جزء ٦ ترجمة د. السيد يعقوب بكر دار المعارف . القاهرة ط٢ ١٩٨٣م .

ريز تيانو : اميرنو .

- أخبار عن بعض مسلمى صقلية الذين ترجم لهم السلفى فى معجم السفر بمجلة كلية الآداب عين شمس مجلد ٣ عدد يناير ١٩٥٥م .

الزركلى : خير الدين .

- الاعلام جزء (١) دار العلم للملايين بيروت ط٥ ١٩٨٠م .

صالح : حسن عبد الحميد (دكتور) .

- الحافظ أبو طاهر بيروت ط١ ، ١٩٧٧م .

عنان : محمد عبد الله .

- مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى القاهرة ١٩٩١م .

مصطفى : شاكر .

- التاريخ العربى والمؤرخون دار العلم للملايين بيروت ط١ ١٩٩٠م .

عمران سبته
كما شاهده ووصفه الأنصاري السبتي

د . كمال عنانى إسماعيل(*)

نظرة عامة حول تاريخ سبته منذ خضوعها للمسلمين حتى سقوطها فى أيدى البرتغاليين :

سبته بفتح السين وسكون الباء مدينة ساحلية قديمة(١) ، من مدن المغرب الأقصى . وتحتل سبته موقعاً استراتيجياً يتحكم فى مضيق جبل طارق وتحيط بها الجبال من ناحية الغرب . وهذا الوضع الجغرافى جعل اتصالها بالأندلس أقوى بكثير من اتصالها بالمغرب الذى تقوم على أرضه . ولهذا قدر لسبته منذ بداية الحكم العربى فى بلاد المغرب أن تلعب دوراً رئيسياً فى شئون الأندلس إذ كانت على صلة وثيقة ومستمرة به بحيث أصبحت مدينة عربية ذات طابع أندلسى فى مظهرها وثقافتها وفى وضعها السياسى(٢) .

والواقع إن قرب مدينة سبته من الشاطىء الأندلسى جعل تاريخها على مر العصور مرتبطاً بتاريخ الأندلس ، فمن سبته كان جواز الفاتحين المسلمين الأوائل من بر العدوة المغربية إلى الأندلس . وقد نجح الأمويين بالأندلس فى السيطرة على مدينة سبته التى كان يحكمها يوليان(٣) . واتخذوها قاعدة استراتيجية لهم لمقاومة الخطر الفاطمى فى القرن ٤ هـ/١٠م زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر(٤) . كما استولى عليها الحموديون حكام مالقة زمن ملوك الطوائف فى القرن ٥هـ/١١م(٥). ولقد تعرضت سبته فى عصر الطوائف لنفس ما تعرضت له سائر بلاد المغرب والأندلس من تمزق وفوضى سياسية فانتهز سقوط البراغواطى(٦) . فرصة تدهور أوضاع الحموديين ، وأعلن استقلاله بسبته ، مكوناً دولة من دول الطوائف العديدة التى ظهرت فى بلاد المغرب والأندلس فى تلك الفترة(٧) .

(*) مدرس بكلية الآداب - جامعة الأسكندرية .

وقد دخل سقوط البراغواطى فى صراع مع المرابطين انتهى بدخول سبته فى طاعة المرابطين على يد المعز بن يوسف بن تاشفين(٨) . ولم تبق سبته طويلاً في يد المرابطين حيث خضعت للموحدين على أثر مصرع تاشفين بن على بن يوسف أمير المرابطين فأعلن أهل سبته طاعتهم لعبد المؤمن بن على عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥ م (٩).

وكان أن ظلت سبته خاضعة للموحدين حتى وفاه الرشيد الموحدى عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م حيث أعلن واليها اعترافه بالخليفة الموحدى الجديد السعيد بن المأمون ، وأعلن بيعته للأمير الحفصى أبى زكريا يحيى عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م ، وبذلك صارت سبته تابعه للحفصيين(١٠) إلى أن استقلت بها أسرة أندلسية تعرف ببنى العزفى فى القرن ٧هـ/١٣م(١١) . وفى عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م استولى سلطان غرناطة محمد بن نصر على سبته ، ونقل بنى العزفى إلى غرناطة حيث بقوا هناك إلى أن عاود المرينيون استخلاص سبته من يد النصريين سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م على أثر ثورة داخلية بالمدينة . وفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م عاد يحيى بن أبى طالب العزفى والياً على سبته من قبل السلطان المرينى أبى سعيد(١٢). وأخيراً سقطت سبته في أيدى البرتغاليين عام ٨١٨هـ/١٤١٥م نتيجة الصراع عل السلطة بين أبناء البيت المرينى ، وكذلك المنازعات بين بنى مرين وبنى عبد الواحد أصحاب تلمسان(١٣) وفى عام ١٥٨٠م آلت سبته إلى أسبانيا عندما ضم ملك أسبانيا فيلب الثانى البرتغال إلى مملكته . ومازالت سبته فى أيدى الأسبان إلى الآن(١٤) .

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن مدينة سبته اشتهرت على مر العهود الإسلامية كدار للعلم والعلماء ، ويكفى أنها أنجبت من العلماء القاضى عياض بن موسى السبتى ، والشريف الإدريسى . وقد أورد صاحب كتاب بلغة الأمنية أسماء سبعة وأربعين رجلاً وامرأة واحدة من علماء سبته من القرن ٨هـ/١٤م . فى مختلف الفنون والعلوم(١٥) . نذكر منهم أبو عبد الله محمد بن هانى اللخمى الذى كان

يتولى التدريس والقراءة بمسجد القفال(١٦) وأبو القاسم بن عمران الحضرمى ناظر خزانة الجامع الأعظم(١٧) . وأبو محمد قاسم بن أبى حجه الأنصارى أستاذ المدرسة الجديدة(١٨) . والطبيبة الشهيرة عائشة ابنة الشيخ الكاتب أبى عبد الله ابن الجيار المحتسب بسبته(١٩) .

وفى ضوء الثبت المفصل لمعالم مدينة سبته الذى زودنا به الأنصارى يتضح أن مدينة سبته ظلت حتى أوائل القرن ٩هـ/١٥م تنعم بالرخاء والازدهار والعمران إلى أن سقطت المدينة فى أيدى البرتغاليين عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م فتعرضت لأعمال السلب والنهب ونزح عنها معظم سكانها وتلاشت الآن معظم معالمها التى سنحاول كشف النقاب عنها من خلال ما دونه الأنصارى عن أثار تلك المدينة ومعالمها .

نبذه عن الكتاب ومؤلفه :

الواقع أننا لا نعرف شيئا عن مؤلف كتاب اختصار الأخبار سوى أنه كان من أبناء سبته حيث عرف نفسه فى مقدمة الكتاب بأنه محمد بن القاسم بن محمد ابن محمد بن أحمد عن بن عبد الملك الأنصارى السبتى الدار والنشأة والمولد(٢٠) . وسوى ما ذكر من أن أبا العباس بن أبى الخير الأنصارى جده من قبل الأم . وأن أبا العباس الدقاق من أصهار سلفه(٢١) .

وفى رأى الأستاذ عبد الوهاب بن المنصور أن أصل هذا السلف من قرية بحوز سبته تسمى بزبج ، لأنه يسميها قريتنا عندما يذكرها ، حيث كانت لهم بها أملاك ثم انتقلوا منها إلى سبته حيث تملكوا بعض العقارات(٢٢) .

وقد أشار الأنصارى فى كتابه اختصار الأخبار إلى ثلاثة كتب الأول بعنوان « بغيه السامع » وقد ذكر صراحة أنه من تأليفه(٢٣) . والكتاب الثانى يسمى الأعلام. ورغم أنه لم يشر صراحة إلى أنه من تأليفه إلا أنه يحيل عليه كثيراً فى كتابه اختصار الأخبار، كقوله «حسبما استوعبنا وصفه فى الأعلام» . وبسطنا القول فى الأعلام وبالغنا فى وصفه فى الأعلام(٢٤) . مما يدل على أن كتاب الأعلام أيضاً من تأليفه .

أما الكتاب الثالث فعنوانه الكواكب الوقادة(٢٥) ، وربما كان من تأليفه أيضاً .

الكتــاب :

أما عن كتاب اختصار الأخبـار موضـوع الدراسـة فإن النظـرة المتأنيـة فـى محتويات هذا الكتاب تجعلنا نضعه بـين كتـب الخطـط ، التـى تعـالج عمـران المدن وتعين فى رسم خرائطها الطبوغرافية .

وتبرز أهمية الكتاب وقيمته فى أن مؤلفه كان من أبناء سبته ، وأنـه استقى معلوماته من خلال المعاينة والمشاهدة الشخصية ، بحيث لا يديـن لأحـد بشيء مـن معلوماته الغزيرة وأوصافه الدقيقة لمختلف مظاهر عمران سبته . ففى هذا الكتـاب ما ليس فى غيره مما صدر من مصنفات عن مدينة سبته ، لا سيما ما يتعلق بعمـران المدينة فى عصرها الإسلامى . ومن هنا تتأكد قيمته وأهميته من حيث إنـه زودنـا بصورة واضحة لعمرانها الإسـلامى قبـل أن يحتلهـا البرتغـاليون ويتحـول مظهرهـا الإسلامى إلى تراث أسبانى برتغالى .

• وتجدر الإشارة إلى أننى لست أول من عنى بكتـاب اختصـار الأخبـار ، فقد نشره لأول مرة الأستاذ ليفى بروفنسال عام ١٩٣١م بمجلة هيسبريس ثم أعيد طبعه بتطوان سنة ١٩٤٠م(٢٦) اعتماداً علـى نسـخة كـانت فـى حـوزة آل بنونـه بتطوان ، كما نشر هذا النـص أيضـاً الأستاذ محمـد بـن تـاويت سـنة ١٩٥٨ فـى العددين الثالث والرابع من مجلة تطوان . وفى سنة ١٩٦٢م قام الأسـتاذ خواكـين بالبين بترجمة هذا النص إلى اللغة الأسـبانية ، ونشـر الترجمـة بمجلـة الأندلـس تحت عنوان وصف سبته فى القرن ١٥م(٢٧) .

وأخيراً نشره الأستاذ عبد الوهاب بن منصور فى الرباط سنة ١٩٨٣م .

ورغـم أهمية كل هذه النشـرات التـى صـدرت لهـذا النـص ، إلا أن جهـود الناشرين اقتصرت على مقابلة نصوص الكتـاب ، وإبـراز مـا بينهـا مـن اختلافـات بسيطة مع إبداء بعض الملاحظات والتعليقـات حـول الشـخصيات التـى اسـتفدت منها فى دراستى ، لاسيما ، ما نشـره كـل مـن الأسـتاذين خواكـين بـالبين وعبـد الوهاب بن منصور .

وهكذا تجد عملى الذى يهدف على خلاف كل النشرات سالفة الذكر- إلى إبراز قيمة كتاب اختصار الأخبار فى رسم صورة واضحة لعمران سبته الإسلامية فى ضوء مقابلة ما ذكرته المصادر التاريخية والجغرافية فى الفترة الطويلة التى سبقت تأليف هذا الكتاب ، وما استجد من أبحاث فى الفترة التى تلت تأليفه والتى تقدر بنحو ستة قرون إلا قليلاً .

التخطيط العام لمدينة سبته الإسلامية وأهم المظاهر العمرانية فى ضوء وصف الأنصارى :

الواقع إن دراسة العمران فى مدينة سبته ومحاولة رسم صورة واضحة لها فى العصر الإسلامى من حيث تخطيطها ومظاهر عمرانها الاجتماعى والاقتصادى يتسم بالصعوبة . ذلك أن تلك المدينة فقدت طابعها كمدينة إسلامية منذ أن احتلها البرتغاليون فى عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م حيث تبدل مظهر المدينة ، ولم يبق الآن من الفن المعمارى الإسلامى ما يمكن أن تقع عليه عين الملاحظ العابر ، إذ أن معظم تراثها المشاهد الآن هو تراث أسبانى برتغالى حل محل التراث المعمارى الإسلامى. ولذا فإننا نجد حاجة ملحة إلى إلقاء الضوء حول عظمة التراث المعمارى المندرس بمدينة سبته فى العصر الإسلامى .

أولاً : النطاق المسور للمدينة :

(أ) الأسوار :

تعد الأسوار من أهم المنشآت العسكرية التى تميزت بها المدن الإسلامية . وتؤدى الأسوار إلى جانب وظيفتها الحربية فى حماية المدينة من أى عدوان خارجى، وظيفة اجتماعية ، وهى تحديد النطاق العمرانى الآهل بالسكان(٢٨) .

ولما كانت مدينة سبته-بفضل موقعها الاستراتيجى- تعتمد فى الدفاع عن نفسها على البحر المتوسط الذى يدور بها شمالاً وجنوباً وشرقاً(٢٩) مشكلاً خندقاً طبيعياً مانعا يكفل حمايتها ، ويتيح لعمرانها المرتفع التحكم فى الدفاع عنها، بحيث

أصبحت على حد تعبير ياقوت الحموى « ضاربة فى البحر داخلة كدخـول كـف على زند »(٣٠) .

وهكذا نرى أن المنطقة الوحيدة التى تحتاج إلى حماية هى الجهة الغربيـة(٣١). ولذلك استلزم الأمر إحاطتها بسور يحميها من هذه الجهة بحيث يصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصانتها .

وللأسف أن الأنصارى لم يزدنا بأية معلومـات عـن هـذا السـور . غـير أن البكرى أكد على أن المدينة كـانت مسـورة بسـور محكم البناء بنـاه عبـد الرحمن الناصر(٣٢) ، وذلـك عندمـا اقتحـم مدينـة سبته وأقـام الدعـوة الأمويـة بهـا عـام ٣١٩هـ/٩٣١م . وقد أشار ابن عذارى إلى ذلك بقوله (وقد عمل النـاصر على تحصين تلك المدينة فشكها بالرجال وأتقنها بالبنيان وبنـى سـورها بـالكذان(٣٣) . وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده)(٣٤) .

وقد تهدم هذا السور وأعيد بناؤه فـى عهـد البرتغـاليون ، وبذلـك اختفـت معالمه الإسلامية باستثناء بعض أجزاء شـوهتها أعمـال التجديـد والترميمـات التـى ألحقت بها منذ أن سقطت سبته فى أيدى البرتغاليين(٣٥) . و لم يعـد باقيـاً الآن من السور سوى برج مربع(٣٦) نسبه الأستاذ تراس إلى عصر الدولـة الأمويـة ، وبالتحديد لعصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ، على أساس أن البرج مبنى بقطـع ضخمة وغير منتظمة من الحجارة على نظام أديـه وشـناوى ومثـل هـذا النظـام وكذلك مادة البناء كانت من أكثر مواد البناء شـيوعاً فـى بـلاد الأندلـس فـى عصـر الخلافـة علـى حيـن نـدر اسـتخدام هـذا النـوع مـن الحجـارة فـى بـلاد المغرب(٣٧) .

هذا عن السور الغربى لمدينة سبته ، أمـا عـن النظـام الدفـاعى لبقيـة أجـزاء المدينة الشمالية والشرقية والجنوبية فلا تظفر فى وصف الأنصارى أيضاً بأية إشـارة تتعلق بما كان عليه النظام الدفاعى للمدينة فى تلك الجهات .

وفى ظل هذا الصمت من قبل الأنصارى ، نتسأل هل ظلت تلك الجهات تعتمد فى تحصينها على البحر المتوسط كخط الدفاع الأول عن المدينة . أم أنها كانت مسورة هى الأخرى بأسوار لحمايتها؟

ومع أن ما وصلنا فى المصادر العربية عن أسوار سبته وتحصينها يعتبر شحيحاً للغاية ، بحيث لا تعين بشكل كاف على دراستنا التحليلية لهذه الأسوار ، ولا تتضمن أية تفاصيل عن موقعها ، إلا أننا نستطيع من هذه المادة الهزيلة التى زودنا بها مؤرخو العرب وجغرافيهم أن نجيب على التساؤل السابق . فنقول بأن الجهة الشرقية من المدينة كانت محاطة بسور بناه المنصور محمد بن أبى عامر عندما شرع فى بناء قصبة أو مدينة جديدة فى الجهة الشرقية من مدينة سبته فوق جبل الميناء(٣٨) والتى عزم على نقل سكانها إليها . ولكنه توفى قبل أن يتم مشروعه . وفى ذلك تشير المصادر العربية فتقول (وفى آخر المدينة بشرقها جبل كبير يسمى جبل الميناء . وقد كان محمد بن أبى عامر أمر أن يبنى لهذا الجبل مدينة ويتصل إليها أهل سبته ، فبنى سورها ، ومات، ولم يتم ما أراد . والسورُ باق إلى وقتنا هذا كأنه بنى بالأمس وهو يظهر من بر الأندلس لبياضه . ومن غريب ما فى ذلك السور أن فيه شقة مستطيلة بأبراجها ومبنية بالزيت عوضاً من الماء . وكان غرضه إتمام عمله على هذا ، لولا الإنفاق الكثير فإن البناء بالزيت أصلب وأبقى مع مرور الدهور والأزمان فلم يساعده الأجل رحمه الله)(٣٩) .

وإلى الشمال الشرقى من هذا السور الذى بناه المنصور بن أبى عامر ، أقام أبو القاسم العزفى سوراً آخر ، حيث أشار ابن أبى زرع فى سياق حديثه عن أحداث عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م إلى أن أبا بكر أبى قاسم العزفى بنى فى السنة المذكورة سور سبته بجانب المنارة . وقيل بل كان ذلك فى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وهو الأصح(٤٠) .

وفى ضوء الإشارة السابقة نستدل على أن الجهة الشمالية الشرقية من مدينة سبته حيث كانت تقع المنارة أو الناظور-كما هو موضح فى

الخرائط التى تبين مواقع المدينة ومعالمها الإسلامية(٤١) - ظلت بدون سور إلى أن دعت الضرورة أبا القاسم العزفى أن يطوق هذه الجهة بسور لحمايتها من الأخطار الخارجية .

وتوضح المخططات التى وضعت لأسوار سبته قبل تهدمها ، أن السور الشرقى كان يمتد شمالاً ثم يتجه شرقاً فى شكل زاوية قائمة إلى المنطقة المعروفة بجبل المينا ، حتى يصل إلى باب المينا ، ثم يواصل سيره صعوداً إلى أن يصل أقصى ارتفاع له عند الربوة التى يوجد بها مسجد المقبرة(٤٢) .

أما عن الجهة الجنوبية فعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تبين الوضع الذى كان عليه النظام الدفاعى للمدينة فى هذه الجهة ، إلا أن أحد الباحثين أكد بأن الجهة الجنوبية من المدينة والتى كان يحيط بها بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى ، كان يحيط بها هى الأخرى سور يرجع تاريخه إلى العصر الإسلامى(٤٣). وقد استند فى ذلك على المخططات التى وضعت لمدينة سبته فى القرن ١٥م ، والتى نرى فيها بوضوح جزءاً من سور إسلامى قد فتح فيه باب يعرف بباب مضرب الشبكة أو باب الزلاقه ، يتقدمه برج يعرف ببرج الماء(٤٤) . كما نلاحظ أيضاً من خلال أحد هذه المخططات أن مدينة سبته كانت محاطة تقريباً بأسوار تبدأ من الجهة الشمالية الشرقية وتمتد مارة ببابين فى السور الشرقى المشار إليهما برقمى٢،٣ لتصل إلى أقصى الجهة الجنوبية الغربية من المدينة(٤٥) . ونخرج من ذلك بنتيجة هامة وهى أن الجهة الجنوبية من المدينة كان يحيط بها هى الأخرى سور يرجع إلى العصر الإسلامى ، أقيم لحماية تلك الجهة التى كان يتركز فيها أهم أحياء سبته ومراكزها العمرانية ، مثل الجامع والمدرسة الجديدة والقيسارية .

وأما عن الجهة الشمالية من المدينة ، فكانت فيما يبدو هى الجهة الوحيدة غير المسورة ، حيث اعتمدت فى حمايتها بشكل رئيسى على بحر الرملة فى الطرف الشمالى من المدينة . ويؤكد ذلك ، المخططات التى وضعت للمدينة ، والتى لا نرى فيها أية آثار لأسوار تطوق المدينة من هذه الجهة(٤٦) . كما أكد الأستاذ

كارلوس جوثالبث على هذه الحقيقة بقوله أن المسلمين لم يقيموا أسوار حول هـذا القطاع الممتد بطول بحر الرملة فى شمال المدينـة ، ويدلـل علـى ذلـك بـأن جيـوش البرتغاليين عندما فكرت فى غزو المدينة دارت حولها ثم استقر رأى قائد الأسـطول البرتغالى على أن يكون غزوها من الجهة الشمالية المطلة علـى بحـر الرملـة ، حيـث إنهـا الجهـة الوحيـدة التـى يسـهل الوصـول منهـا إلى داخـل المدينـة لأنهـا غـير مسورة(٤٧) .

وفى تصورى أن إحجام أهل سبته عـن تسـوير الجهـة الشـمالية مـن المدينـة يرجع إلى أن التوسع العمرانى فى العصر الإسلامى لمدينة سـبته-وفقـاً لمـا نـراه فـى الخرائط التى توضح مواقع المدينة ومعالمها-كـان مركـزاً بصفـة أساسـية فـى ثلاثـة قطاعات رئيسية ، هى القطاع الشرقى حيث كانت المدينة التـى شـرع فـى بنائهـا المنصور بن أبى عامر . والقطاعان الجنوبى والغربى حيث كـان يضمـان بداخلهمـا كافة المراكز العمرانية للمدينة الدينية والمدنيـة والاقتصاديـة ، والتـى سـوف نشـير إليها بعد ذلك فى دراستنا لمراكز المدينة العمرانية .

وبهذا نكون قد أوضحنا فى ضوء المصادر العربية والمخططات التى وضعت للمدينة ، الشكل الذى كان عليه النطاق المسور لمدينة سبته فى العصر الإسلامى .

والواقع أن تتبع ذلك النطـاق فـى الوقـت الحـالى أمـر بـالغ الصعوبـة ، لأن معظم أسوار المدينة قد تهدم واختفى فى جملة ما أختفى من آثارها الإسلامية التـى كانت تزهو بهـا فـى العصر الإسلامى . ومـا تبقـى مـن تلـك الأسـوار تعـرض للسقوط وتحول إلى أسوار درست عبر السنين . وهـذا مـا تبينـه المخططـات التـى أعدت لسبته منذ القرن ١٥م وحتى بداية القرن ١٩م(٤٨) .

(ب) أبواب المدينة :

أحصى الأنصارى عدد أبواب سبته فى العصر الإسـلامى بـ ٥٠ (خمسـين باباً)(٤٩) . ونظراً لاندثار معظم هذه الأبواب فمن الصعب تحديد مواقعها ، وتتبـع

أسمائها التى أطلقت عليها عبر حقب التاريخ الإسلامى لمدينة سبته . كما أن الأنصارى نفسه لم يذكر من أسماء تلك الأبواب سوى تسعة أبواب ، وهى حسب ترتيب ذكره لها .

أولاً : الأبواب ذات الطابع الحربى :

١ - الباب الأحمر :

أورد الأنصارى ذكر هذا الباب بمناسبة حديثه عن أحد مقابر سبته بقوله (ومن أشهرها بمقبرة مضرب الشبكة البرانى خارج الباب الأحمر قبور الشرفاء الحسينين وهم عدد كثير جمعتهم روضة واحدة(٥٠) . وكانوا رضى الله عنهم ونفعنا بمحبتهم أهل علم وصلاح ودين)(٥١) .

ويبدو أن هذا الباب كان ينفتح فى سور المدينة الجنوبى ، المعروف بسور البحر لإطلاله على بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى . ويؤكد ذلك ما ذكره الأنصارى فى موضع آخر عن مقبرة أخرى من مقابر المدينة بقوله : (وبمقبرة الربض البرانى داخل سور البحر من الموضع المعروف بمضرب الشبكة قبر الشيخ الفقيه أبى عبد الله عمر بن مسعود والعكسْ المعروف بابن الكنغر)(٥٢) .

وبإمعان النظر فى هذا النص والنص السابق ، يمكن الاستدلال على أن الباب الأحمر كان يقع داخل النطاق المسور الجنوبى لمدينة سبته ، بحيث يفضى من الجهة الجنوبية إلى خارج المدينة ، ومن الجهة الشمالية إلى داخلها ، فيصبح موضع مضرب الشبكة بقبورها خارج السور من الداخل وفقاً لما ورد فى نص الأنصارى.

٢ - باب فاس :

كان يقع هذا الباب فى القطاع الغربى من سور المدينة(٥٣) الذى يطوق منطقة أفراك Afrag(٥٤) على مقربة من أحد زوايا المدينة التى شيدها السلطان أبو عنان بن أبي الحسن(٥٥) . وقد أشار الأنصارى إلى اسم هذا الباب وموقعه ومشيده فى أكثر من موضع . فمرة يذكره بمناسبة حديثه عن زوايا مدينة سبته

بقوله (ومن الزوايا الزاوية الكبرى التى أبتناها السلطان الأشهر مولانا أبو عنان بن أبى الحسن بخارج باب فاس أحد أبواب أفراك)(٥٦) .

ومرة أخرى يشير إليه بمناسبة حديثه عن أبـواب المدينـة ، فيؤكـد أنـه كـان أحد أكبر أبواب قصبة أفراك ، وفى هذا الصدد يقول (وأبواب أفراك ثلاثة أكبرهـا باب فاس الذى وضعه السلطان أبو الحسن المرينى ، بانيه على شكل بـاب السبع من فاس الجديد كرسى مملكته وعلى مثاله)(٥٧) ومرة ثالثة يشير الأنصارى إلى هذا الباب فيقول (وبخارج باب فاس من أبواب أفراك المذكور سبقتان سـبقة(٥٨) مـن ألف باع ومائتين وسبقة من ألف باع)(٥٩) .

وإذا فحصنا بقايا هذا الباب التى لا تزال قائمة بين أسوار حديثة بنيت فى العهد البرتغالى(٦٠) نلاحظ أنه كان يحظى بمظهر الحصانة والفخامة التى تتجلى فى ضخامة واجهته التى يتوسـطها فتحـة متسعة يكتنفهـا مـن الخـارج على الجـانبين بروزان أو كتفان يبدوان من ضخامتها أشبه ببرجين مبنيين بقطـع حجريـة منتظمـة الشكل . أما بنية جدران الباب ، فتشير بقاياه إلى أنه كان مشيداً بالدبش والآجر المصقول والمنتظم فى صفوفه .

ويقارن الأستاذ بافون مالدونادو بـين هـذا البـاب وبـين غـيره مـن الأبـواب الموحدية ، فيؤكد أنه كان مطابقـاً فـى تصميمـه لبعض الأبـواب الموحديـة ذوات المداخل المستقيمة المقسمة إلى ثلاثة ممرات متتابعة فى خط محـورى(٦١) . ويذكـر بـأن هنـاك تطوراً واضحاً طرأ على نظـام العمـارة الحربيـة المغربيـة ، بتأثـير مـن الأندلس. فنظام هذا الباب يعد امتداداً للتقاليد الموحديـة وتطـوراً لمـا وصلـت إليـه العمارة الحربية فى عصر بنى نصر من حيـث تطبيـق فكـرة نظـام التقسـيم الثلاثـى المدرج فى تتابع(٦٢) الذى طبق على نحو رائع فى العديد من أبواب غرناطة لاسيما باب السلاح(٦٣) والعدل(٦٤) .

وبوجه عام يعد باب فاس رغم تهدم أجزاء كثيرة منه الوحيـد بـين أبـواب المدينة الذى لا يزال فى حالة أقرب ما تكـون إلى حالتـه الأصليـة فلـولا آثـار هـذا

الباب ما كنا قد عرفنا شيئاً عن أبواب سبته الإسلامية التى تهدمت فى جملتها ، وأقيم مكانها أبواب حديثة .

٣ - الباب الجديد أو الأعظم :

كان يقع هذا الباب فى الجهة الشمالية الغربية من سور المدينة على مقربة أيضاً من قصبتها(٦٥) . وكان يمثل حلقة الوصل بين مدينة سبته وربضها الخارجى، حيث يقع على مشارف الطريق المؤدى إلى ذلك الربض(٦٦) .

ويصف الأنصارى هذا الباب بقوله (وعدد الأبواب خمسون باباً ، منها الباب الأعظم الشهير الضخم ، والهيكل الذى لا يلقى له نظير ، المعروف بالباب الجديد . هذا الباب من مفردات سبته، ومن آثار الملوك بها اكتنفته قلهره(٦٧) ، عظيمة البناء هائلة المنظر ، سامية فى الجو ، قد استقلت على عشرة قباب وأربعة عشر قوساً . وبابه الأوسط بين قلهرتين ثنتين بارزتين من القلهرة العظمى . والباب فى اتساعه والارتفاع قد أربى على الغاية وجاوز الحد والنهاية . وقوسه وفياصله قد أحكم بناؤها بالكذان بأعجب صفة وأبدع واتقان(٦٨) .

ويبدو من وصف الأنصارى لهذا الباب وأسلوب بناءه أنه كان أكبر أبواب سبته الحربية ،وأكثرها فخامة وضخامة ، وبذلك صحت تسميته بالباب الأعظم . كما يفهم أيضاً من وصف الأنصارى لهذا الباب بأنه كان يتألف من فتحتين إحداهما تؤدى إلى خارج المدينة ، وكان يكتنفها برجين بارزين عن البرج الذى يحمى الفتحة التى تؤدى إلى داخل المدينة .

وإذا كان وصف الأنصارى السابق لهذا الباب هو الشاهد الوحيد لما كان عليه فى العصر الإسلامى ، إذ اختفى فى الوقت الحاضر بين أطلال المدينة بحيث لا نستطيع التعرف على شكله المعمارى ونظامه التخطيطى ، فإن الأستاذ كارلوس جوثابلس استطاع أن يرسم صورة تقريبية افتراضية لهذا الباب(٦٩) من خلال بعض بقاياه التى تم الكشف عنها ، فضلاً عن الرواية البرتغالية التى دونها المؤرخ البرتغالى

جوميث ايانيش دى ازورارا ، Gomez Ennes de Azurara والتى تحكى قصة غزو البرتغاليين لمدينة سبته على يد الملك البرتغالى خوان الأول . وقد اعتمد الأستاذ كارلوس على الأحداث التاريخية التى ساقها ازورارا والتى تؤكد أن جيوش البرتغاليين قد دخلت مدينة سبته عبر باب مكون من ثلاثة مداخل(٧٠) تتصل فيما بينها عن طريق ممر منكسر مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام متتابعة ، يقطعها ساحتان أو رحبتان(٧١) يشغلها غرف مقبية ، يفصلها فى مراحل أو مسافات منتظمة جدران بها فتحات معقودة تؤلف فيما بينها ممرات جانبية بها شرفات صغيرة، تمكن المدافعين عن الباب من قذف العدو بالسهام والمواد الملتهبة(٧٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ تراس نسب هذا الباب إلى بداية القرن ٦هـ/١٢م(٧٣) ، وقيّمه بأنه كان من نوع الاستحكامات الضخمة التى تمتاز بقيمتها العظيمة فى الدفاع عن المدن ، لاشتمالها على العديد من النقاط الدفاعية، مثل الممر متعدد الانكسار ، والأبراج الضخمة التى تحيط بفتحة الباب . ومثل هذا النوع من الأبواب فى رأى تراس يماثل الأبواب المرابطية وأبواب عصر بنى مرين ، وإن كان ارتفاعه الهائل يجعله قريب الشبه بأبواب عصر بنى نصر فى القرن ٨هـ/١٤م (٧٤) .

ثانياً : الأبواب ذات الطابع المدنى :

يقتصر استخدام هذا النوع من الأبواب على أوقات السلم ، فليس لها أية قيمة حربية وتنحصر وظيفتها فى تسهيل مهمة الاتصال بين العمران الداخلى للمدينة من حيث إفساح الطريق أمام المارة أو القوافل التجارية ، أو لتصريف مياه الأمطار . ويستدل من أسماء أبواب سبته ذات الطابع المدنى التى زودنا بها الأنصارى أن بعضها كان يتسمى عادة باسم المنطقة المؤدية إليها مثل باب الفرج(٧٥) وباب المينا(٧٦) وباب الزلاقة(٧٧) أو بأسماء أصحاب الحرفة التى يزوالها سكان تلك المنطقة مثل باب المشاطين(٧٨) وباب الحلويين(٧٩) وباب الحلفاويين(٨٠) وباب القصابين(٨١) .

ومن أهم ما أمدنا به الأنصارى أيضاً من معلومات عن أبـواب مدينـة سبته ذات الطابع المدنى ، ذكره لخمسة أبواب كـانت تنفتـح فـى سـور الربـض البرانى الذى هدمه السلطان أبو سعيد(٨٢) .

وفى ضوء الإشارة السابقة نستطيع أن نقرر حقيقة مـا ذكـره العلامـة ليفـى بروفنسال بأنه قد تنمو خارج هـذه الأبـواب (أى أبـواب المدينـة بنوعيهـا الحربى والمدنى) . أرباض تزدهر عبر مرور السنين ، وتنتهى بالاندماج فى المدينة ، فيبنى سور جديد أوسع يضم هذه الأرباض فتصبح بدورها حومات ، وفى هذه الحالة لا يحدث تعديل فى أسماء الأماكن وقد يهدم الباب بعد انعدام سـبب وجـوده ، وقـد يهدم السور الذى فتحت فيه الأبواب أيضاً ، ولكن الأسماء تظل باقية(٨٣) .

ثانياً : أرباض سبته فى نص الأنصارى

المقصود بالربض البؤرة العمرانية أو الضاحية التى تقع خارج أسوار المدينة ، والتى تنشأ غالباً نتيجة اتساع العمران داخل نطـاق المدينـة ، وفيضـه إلى خارجهـا بعد تسويرها . وفى بعض الأحيان تطلق لفظة ربض خطئاً على الأحياء الداخليـة الواقعة داخل النطاق المسور للمدينة ، حتى ولو كانت قريبة جدا من مركز المدينـة العمرانى ، وليست كما تعنى هذه الكلمـات فـى معناهـا المتعـارف عليـه وهـو أن الربض يكون خارج النطاق المسور للمدينة وليس بداخله .

وقد فسر الأستاذ توريس بلباس هذا اللبس فى استعمال كلمـة ربـض هـذه فى غير موضعها بأن هذه الكلمة - وهى كلمة حى أو حارة- تطلق بصفـة عامـة علىالمواضع المبهمة غير المحددة بحدود معينة ولذلك نشأ الخلط بين كل منهما(٨٤).

وعن أرباض مدينة سبته يقول الأنصارى (وعدد الأرباض فى الحقيقة ستة: الثلاثة العامرة المتصلة بالبلد ، والربض الـبرانى حيـث الحـارة(٨٥) والكسـابون(٨٦) الذى هد سوره السلطان أبو سعيد المرينى من حافة (٨٧) الغد إلى مضرب الشبكة(٨٨) .

ويكشف نص الأنصارى عن حقيقة ما ذكرناه آنفاً من أن لفظة ربض كانت أعم وأشمل من كلمة حى ، وأن هناك خلطاً بين الاصطلاحين بحيث أصبحت كلمة ربض تطلق على الأحياء الداخلية . ومن أمثلة ذلك الخلط ما ذكره الأنصارى عن الربض البرانى تميزًا له عن الأرباض الداخلية المتصلة بالبلد .

ويفهم من نص الأنصارى أيضاً أن الربض البرانى كان محاطاً بسور لحمايته من الأخطار الخارجية ، ويبدو أن هذا السور قد فقد أهميته بمرور الزمن بعد اتساع النطاق العمرانى للمدينة واندماج الربض داخل المدينة ، وهو الأمر الذى دعى السلطان أبا الحسن إلى هدم السور المذكور حسبما نص على ذلك الأنصارى.

وللأسف ليس فى إمكاننا أن نعرف على وجه التحديد مواقع الأرباض الستة التى أشار إليها الأنصارى وأسماءها ، وإن كان قد ذكر فى أكثر من موضوع فى ثنايا وصفه لمعالم مدينة سبته اسم ربضين هما : الربض الأسفل والربط الأوسط ، فضلاً عن الربض البرانى سالف الذكر . ويستدل من اسم الربضين الأولين (الأسفل والأوسط) على وجود ربض ثالث علوى لم يذكره الأنصارى ، لعله ربض زكلو الذى ورد ذكره فى المدونات البرتغالية فى سياق عرضها لسقوط سبته فى أيدى البرتغاليين(٨٩) وبذلك يكتمل عدد الأرباض الثلاثة المتصلة بالبلد التى حسب نص الأنصارى كانت عامرة بالمنشآت ، لاسيما الأسواق ، حيث كان يوجد بها وحدها ٣٢ (اثنان وثلاثون سوقاً) . من مجموع ١٧٤ (مائة وأربعة وسبعين سوقاً) وهو عدد أسواق المدينة كلها(٩٠) .

وإذا كان الأنصارى لم يشر إلى مواقع الأرباض الستة التى ذكرها ، ولم يزودنا بأية تفاصيل عنها ، فإن أحد المصادر البرتغالية عوضتنا عما أغفل الأنصارى بشأن مواقع تلك الأرباض ، حيث أمكن الأستاذ كارلوس جونثابلس أن يرسم صورة تقريبية لمواقع الأرباض الثلاثة التى أشار إليها الأنصارى من خلال رواية المؤرخ البرتغالى ازورارا Azurara فمن خلال الوصف التفصيلى الدقيق لأحداث

المعارك التى دارت بين البرتغاليين وأهل سبته داخل تلك الأرباض ، استنتج بأن تلك الأرباض كانت تقع فى القطاع الأوسط من المدينة ، والمحصور بين سورين يمتدان شرقاً وغرباً ، ويصل بينهما سور أوسط يفصل بينهما ، ويحدد النطاق العمراني للأرباض الثلاثة(٩١) . وكان ينفتح فى السور الشرقي بابان الأول مشار إليه في المخطط الذى وضعه جوثابلس برقم (٢) ، ويعرف بالباب العلوى والثاني مشار إليه برقم (٣) ويعرف بالباب السفلى ، ومن هذين البابين حسب رواية ازورارا دخلت جيوش البرتغاليين إلى أرباض المدينة الثلاثة(٩٢) .

وقد أشاد الأنصارى باتساع عمران أرباض سبته ، وكثرة مبانيها الجنائزية التى كانت لها مكانة روحية ودينية فى نفوس أهل سبته ، لما تضمه من قبور العلماء والفقهاء . فيذكر بأنه كان فى الربض السفلى قبر الشيخ الفقيه الحافظ أبى الربيع سليمان بن سبع العجيسى(٩٣) مؤلف شفاء الصدور(٩٤) .

وفى الربض الأوسط كانت توجد مقبرة الشريعة ومن أشهر مقابرها قبر الشيخ الصالح العابد أبى عبد الله القرمونى من أهل سبته ، وقبر الفقيه القاضى أبى الحسن ، وقبر الإمام الصوفى أبى محمد عبد الجليل الأوسى الأندلس(٩٥) .

كذلك يشير الأنصارى إلى وجود العديد من المبانى الدينية ، والأسواق التجارية ، والصناعية ، بتلك الأرباض ، مثل خزانة جامع الربض الأسفل(٩٦) ، وسوق العطارين(٩٧) فضلاً عن مصليات الأرباض التى كانت تقع فى أرض عظيمة الاتساع(٩٨) .

ثم يوضح الأنصارى بعد ذلك أن تلك الأرباض كان يفصلها عن بعضها البعض حفائر(٩٩) مثل الحفير الكبير المحيط بالربض البرانى ، والحفير بينه وبين الأرباض الثلاثة من الشطابين(١٠٠) إلى مضرب الشبكة ، والحفير الحائل المعروف بالسهاج(١٠١) الفاصل بين الأرباض والمدينة(١٠٢) .

ثالثاً : الأزقة :

من الثابت أن معظم الشوارع الرئيسية بمدن المغرب الإسلامى تمتاز بضيقها وتعرجها وتتفرع من تلك الشوارع شبكه من الأزقة والدروب والزنقات بعضها نافذ ومعظمها غير نافذ(١٠٣) .

وقد أخبرنا الأنصارى بأن عدد أزقة مدينة سبته كان ٢٥٠ (مائتا زقاق وخمسون)(١٠٤) . كما حفظ لنا العديد من أسماء تلك الأزقة المندثرة . مثل زقاق ابن عيسى(١٠٥) وبنى العزفى ، وغيرهم من أعلام الفقهاء وأكابر التجار ، وزقاق أبى عبد الله القاضى الزاهد من أشياخ القاضى عياض . وزقاق ابن يربوع(١٠٦) . وزقاق العزفى أبى العباس وزقاق أبى على ابن الشراك وأبى القاسم ابن الشاط(١٠٧) وزقاق خطاب(١٠٨) .

وفى ضوء ما ذكره الأنصارى من أسماء أزقة سبته يتضح أن معظمها كان يحمل اسم أعلام الأسرات التى كانت تعيش فيها واسم شخصية هامة . كما أن بعضها يحمل اسم المنطقة التى تقع بجوارها أو يوجد فيها أو يؤدى إليها الزقاق مثل زقاق الخندق الكبير الذى يعرف فى القديم بخندق المين(١٠٩) ويعرف الآن بخندق الدجاج(١١٠) .

ويضيف الأنصارى أن كل زقاق من العدد المذكور تنغلق عليه دروب ، وعلى تلك الدروب بيات تجرى عليهم الجرايات إلى غير ذلك (١١١) .

وفى الفقرة السابقة إشارة إلى الأمور المتعلقة بالتحكم فى تلك الأزقة وتوفير الآمان لسكانها عن طريق حراس لها يسمون بالدرابين(١١٢) .

ويفهم مما ذكره الأنصارى عن أزقة سبته أن بعضها كان من الاتساع بحيث كان يضم العديد من المنشآت مثل القصور والحمامات(١١٣) والأفران(١١٤) .

أما عن شوارع سبته الإسلامية فلم يرد فى نص الأنصارى أى ذكر لها غير أن الدراسات الطبوغرافية الحديثة المعتمدة على المصادر الأسبانية والبرتغالية المتعلقة

باسترداد المدينة أكدت على أن بعض شوارع سبته كانت موجودة على هيأتها فى العصر الإسلامى ، واحتفظت بأسمائها العربية بعد الاسترداد البرتغالى للمدينة وتوزيع عقاراتها على النصارى البرتغاليين . ومن أهم تلك الشوارع ، الشارع الكبير الذى كان يخترق الجهة الشرقية من المدينة والمعروف الآن باسم شارع Sanjurjo(١١٥) ، ومن هذا الشارع كان يتفرع زقاق أبى عيسى المعروف الآن باسم الطريق الأعظم Gran via (١١٦) والذى كان يقسم المدينة إلى قسمين أو شطرين حسب نص الأنصارى(١١٧) .

وفضلاً عن هذا الشارع كانت تشتمل المدينة على شارعين متعامدين يؤلفان محوري المدينة ، أحدهما كان يطلق عليه شارع العطارين والمعروف حالياً باسم شارع خاودينس Calle jaudenes (١١٨) والآخر كان يسمى بشارع الموثقين أى كتاب الوثائق Calle de los Notarior(١١٩) والمعروف حالياً باسم شارع سان اودنيا Calle de O'donnell(١٢٠) .

ويفيد الباحث كارلوس حوثابلس بأن هذين الشارعين كانا يخترقان القطاع الشمالى الشرقى من المدينة ، ويمتدان إلى مسجدها الجامع ومدرستها المعروفة بالمدرسة الجديدة(١٢١) . وكانت المنطقة التى يشقها الشارعان المذكوران من أهم أحياء المدينة إذ تضم العديد من المنشآت الدينية والمدنية الملتفة حول مسجد المدينة الجامع والذى تتفرع من ساحته الحارات والدروب المؤدية إلى معظم أحياء المدينة(١٢٢) .

رابعاً : المراكز العمرانية بمدينة سبته :

١ - المراكز الدينية :

كانت مدينة سبته فى العصر الإسلامى تضم عدداً من المنشآت الدينية من مساجد ومدارس وأربطة وزوايا ، بحيث شكلت تلك المنشآت نصيباً كبيراً من التكوينات المعمارية لمدينة سبته الإسلامية ، تدل عليه الإحصاءات التى أوردها الأنصارى لتلك المنشآت . وفيما يلى دراسة لأهم هذه المنشآت الدينية حسب ترتيب ذكر الأنصارى لها .

- المساجد :

يصور لنا الأنصارى أهمية المساجد وكثرتها بمدينة سبته بقوله (وعدد المساجد ألف مسجد . وأعظم هذه المساجد وأشرفها على التحقيق المسجد الجامع العتيق . بلاطاته اثنان وعشرون بلاطاً وبقبلتها شمسيات من الزجاج الملون بصناعات شتى معقودة بالرصاص ، والقنوات الفاصلة بين البلاطات ومجارى القسائم والميازيب من الرصاص كذلك . ودرجات المنبر اثنتا عشرة درجة(١٢٣). وتميز عن سائر جوامع بلاد المغرب كلها بالبلاط الأوسط الضخم والبناء المرتفع السمك ، وبالمقصورة الهائلة الغريبة الشكل(١٢٤) . وبه صحنان ، أحد الصحنين أكبر من الآخر وبكل واحد منهما جبان اثنان ، وصومعته قديمة من عمل الأوائل)(١٢٥) .

ومن أهم ما يمكن تسجيله من ملاحظات على النص السابق ما يلى :

١ - أنه على الرغم من مغالاة الأنصارى فى تقدير أعداد مساجد سبته فإن ذلك يبين مدى كثرتها . ويمكن تحديد العدد الضخم الذى ذكره الأنصارى لمساجد سبته بأنه يشمل المصليات الملحقة بالمنازل العامة .

٢ - لم يشر الأنصارى إلى موقع الجامع بالنسبة لعمران سبته أو الأصل الذى أقيم عليه ، ولا إلى تاريخ تشييده . وعلى الرغم من ذلك نستطيع بفضل الإشارات التاريخية المقتضبة التى أمكن استخلاصها من المصادر العربية والمدونات المسيحية الأسبانية والبرتغالية ، أن نجيب عما أغفل ذكره الأنصارى . فالنسبة لموقع الجامع فأغلب الظن أنه كان يقع فى وسط المدينة(١٢٦) فى نفس الموضع الذى تشغله الكاتدرائية الحالية على مقربة من البحر . ويؤكد هذا الافتراض إشارة أحد المدونات البرتغالية الخاصة بالاسترداد البرتغالى للمدينة فى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م . وفى ذلك يقول المؤرخ البرتغالى جوميث ايانيس دى ازورارا (وفى اليوم الثالث والعشرين من

شهر أغسطس قام ملك البرتغال بتحويل المسجد الجامع بمدينة سبته إلى كنيسة كاثوليكية وأقيم فيها حفل كبير وصلاة شكر فى يوم الأحد التالى ١٤١٥/٨/٢٥م وجرى فى ذلك الحفل ترسيم أبناء الملك الثلاثة حسب رغبتهم فرساناً) .

ويضيف أزورارا أن المسجد المذكور كان مفروشاً بالحصير وفقاً لما هو متبع فى عادة المسلمين من فرش أرضية مساجدهم بنبات الحلفا . وأنه عندما تم استرداد المدينة والاستيلاء على المسجد لم ينزع هذا الحصير وإنما أضيف إليه حصير جديد فوق الحصير القديم (١٢٧) .

أما عن أصل البقعة التى أقيم عليها جامع سبته فكان موضعه الأول كنيسة بيزنطية ، هدمها فيما يبدو الفاتحون المسلمون ، وأقاموا على أرضها مسجدهم الجامع . ونستند فى ذلك على نص رواه البكرى فى ذكر مدينة سبته نصه (ومدينة سبته مدينة قديمة سكنها الأول . وبها آثارهم بقايا كنائس وحمامات وماؤها مجلوب من نهر آويات مع ضفة البحر القبلى فى فناء إلى الكنيسة التى هى اليوم الجامع)(١٢٨) .

وأما عن تاريخ جامع سبته فيكتنفه الغموض . ولعل قلة ما أورده مؤرخو العرب عن هذا الجامع كان سبباً فى أننا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ أو أسماء العرفاء الذين أشرفوا على بنائه . ومع ذلك فمن الممكن أن نضع تاريخاً تقريبياً لهذا الجامع بفضل نص أورده الأستاذ خواكين بالبين جاء فيه أن الخشنى صاحب كتاب تاريخ قضاة قرطبة الذى عاش السنوات الأولى من حياته فى القيروان ، كان قد خرج منها إلى الأندلس ، وفى طريقه إلى الأندلس مر على سبته فى عام ٣١٢هـ/٩٢٤م وفيها تعلم أصول الفقه وشارك فى تصحيح اتجاه قبلة مسجد سبته التى كانت منحرفة عن الاتجاه الصحيح(١٢٩) . ومعنى ذلك أنه شرع فى تشييد هذا الجامع فى التاريخ المشار إليه أو قبله بقليل .

ويبدو أن جامع سبته ظل موضع اهتمام الأمراء والخلفاء الذين تناولوه بالزيادة والتعديل على مر العهود ، حيث أن سنة ٤٨٤هـ/١٠٨٧م تسجل تاريخ قيام الأمير يوسف بن تاشفين بالزيادة في جامع سبته . وفي ذلك يقول صاحب كتاب الحلل الموشية (ولما كان سنة ٤٨٤هـ تحرك يوسف بن تاشفين إلى سبته لجواز عساكره اللمتونية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف وحصار بلادهم . وفي أثناء مقامه بها أمر ببناء المسجد الجامع بسبته والزيادة فيه . فزاد فيه حتى أشرف على البحر وبنى البلاط الأعظم منه)(١٣٠) .

وقد أورد ابن عذارى نص أخر أشار فيه إلى الزيادة المذكورة بقوله (وكان يوسف بن تاشفين أمر القاضي محمد بن عيسى ببنيان جامع سبته وزاد فيه حتى أشرف على البحر وكان بنيانه عام واحد وتسعين)(١٣١) .

ومن الملاحظ أن ابن عذارى لم يكمل تاريخ البناء حيث أشار إلى التاريخ المذكور (٩١) ضمن حوادث عام ٥٢٨هـ/١١٣٣م . والراجح أن تاريخ هذه الزيادة حسب نص ابن عذارى كانت سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م على أساس أن يوسف بن تاشفين توفى في سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م(١٣٢) .

وأيا ما كان اختلاف النصين المذكورين في تحديد تاريخ الزيادة المذكورة فإن الذي لاشك فيه أنها تمت في عهد يوسف بن تاشفين ، وأنها نفذت من الجهة الجنوبية أي من جهة جدار القبلة حيث كان يطل الجامع من هذه الجهة على بحر أبي السول في الشاطئ الجنوبي كما أن الأمير يوسف بن تاشفين هو الذى أقام البلاط الأوسط الضخم المرتفع السمك حسب وصف الأنصاري(١٣٣) أو الأعظم كما يسميه صاحب الحلل الموشية(١٣٤) .

ويفهم من وصف الأنصاري للبلاط الأوسط بمسجد سبته أنه كان أكبر بلاطات الجامع وأكثرها ارتفاعاً ، وأن هذه ميزة ميزت جامع سبته عن جوامع بلاد المغرب كلها . والحقيقة غير ذلك ، لأن ظاهرة ارتفاع البلاط الأوسط واتساعه عن بقية البلاطات تمثلت في العديد من المساجد المغربية والأندلسية قبل

جامع سبته ، مثل جامع القيروان والزيتونة وقرطبة . كما طبقت أيضاً فى قصور عصر الخلافة التى تتبع فى تخطيطها نظام البلاطات . وعلى هذا فإن تلك الظاهرة تعد من الظواهر الهامة التى تميزت بها أغلب عمائر المغرب والأندلس الدينية والمدنية بحيث أصبحت الطابع المميز لتخطيط تلك المنشآت(١٣٥) . وتجدر الإشارة إلى أن جامع سبته قد تعرض لزيادة أخرى على يد القاضى عياض(١٣٦) وذلك فى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م(١٣٧) .

وتصمت المصادر العربية خلال القرون الثلاثة التالية وحتى سقوط مدينة سبته فى أيدى البرتغاليين عام ٨١٨هـ/١٤١٥م عن ذكر شىء عن هذا الجامع بحيث يعد وصف الأنصارى سالف الذكر هو الشاهد الوحيد لما كان عليه جامع سبته بعد احتلالها بنحو سبع سنوات (٨٢٦هـ/١٤٢٢م) . وهو تاريخ تأليف الأنصارى لكتابه موضوع الدراسة والذى أكد فيه بأن بلاطات الجامع قد بلغت اثنين وعشرين بلاطة(١٣٨) .

ولا يجب أن نترك ماذكره الأنصارى دون مناقشة ، لأن الرقم الذى أورده بشأن عدد بلاطات الجامع مبالغ فيه . وأغلب الظن أن هذا الرقم يمثل عدد الأساكيب الممتدة بعرض الجامع وليس عدد البلاطات أو الأروقة الطولية ، لأنه لو صح هذا الرقم (٢٢ بلاطة) لأصبح الجامع ، عميقاً جداً(١٣٩) . كما أن البكرى الذى وصف الجامع فى عصر المرابطين ، وهو العصر التى تمت فيه زيادة كل من الأمير يوسف بن تاشفين والقاضى عياض أشار بأن الجامع كان يتألف من خمس بلاطات فقط(١٤٠) . ومهما بلغ عدد البلاطات التى أضيفت للجامع فيما بعد فمن المستبعد أن يصل عددها إلى أثنين وعشرين بلاطة . لاسيما وأن هناك مساجد أخرى فى بلاد المغرب والأندلس تعرضت لزيادات عديدة على مدار عهود متباينة. ومع ذلك لم يصل عدد بلاطاتها إلى هذا العدد الذى ذكره الأنصارى . ومثال ذلك جامع القيروان أكبر المساجد الجامعة الباقية وأعظمها مظهراً ، كان يتألف بعد أن بلغ منتهاه من سبع عشرة بلاطة تمتد على عشرة أساكيب(١٤١) وكذلك

جامع الزيتونة الذى بلغ عدد بلاطاته (١٥) خمس عشرة بلاطة(١٤٢) وأيضاً جامع قرطبة الذى على الرغم من عظم مساحته لم تزد عدد بلاطاته عن ١٩ تسع عشرة بلاطة(١٤٣) .

مساجد أخرى جامعة وغير جامعة بمدينة سبته :

وإلى جانب جامع سبته الكبير كان يوجد بالمدينة جامعان آخران هما مسجد زكلو أكبر مساجد سبته بعد المسجد الأعظم حيث كان يتألف من سبع بلاطات ، وقد بناه أبو القاسم العزفى صاحب سبته(١٤٤) وجامع التبانين الذى كانت تقام فيه صلاة الجمعة ، وكان يقع فى ربض المدينة السفلى(١٤٥) .

ونضيف إلى تلك المساجد الجامعة عدد آخر من المساجد غير الجامعة التى كانت تزخر بها مدينة سبته فى العصر الإسلامى ، والتى اندثرت شأن مساجدها الجامعة ولم يعد لها أى أثر ولم يرد بشأنها أية إشارات لافى المصادر أو فى المدونات المسيحية ، وإن كان الأنصارى قد زودنا بأسماء بعضها مثل مسجد الحلفاويين(١٤٦) ومسجد المحلة(١٤٧) ومسجد القفال(١٤٨) .

- المصليات :

أشار الأنصارى إلى توافر المصليات خارج أسوار مدينة سبته ، حيث بلغ عددها ستة مصليات(١٤٩) وقد دلت أوصاف الأنصارى لتلك المصليات على حسن تصرف المعمار ، وإقامة نماذج منها مختلفة عن بعضها البعض ، بسبب اختلاف مساحتها وموقعها ووظيفتها . فالمصلى الكبير أو مصلى المدينة أتاح موقعه المتميز خارج أسوار المدينة فى مساحة واسعة فرصة استخدامه كمصلى للعيدين جرياً على سنة الرسول فى إقامة الصلاة فى أماكن واسعة خارج المدينة(١٥٠) . كما أعطى هذا الموقع المتميز لهذا المصلى المتمثل حسب وصف الأنصارى فى أنه يقع فى موضع منقطع وسط البحر(١٥١) ميزة أمنية بحيث أوجبت الضرورة فى أوقات الحصار والفتن استخدامه للصلاة ، لما يتوفر فيه من

شروط أمنية قد لا تتوفر فى غيره من المساجد والجوامع التى كانت تتركز فى قلب المدينة(١٥٢) . ويتجلى أيضاً أثر الموقع والوظيفة فى اختيار مصليات سبته فى المصلى الملكى الذى كان خاصاً بسكان القصر الملكى (أفراك) من الأمراء والسلاطين وما يتبع هؤلاء من جنود وحراس(١٥٣) وفى تخصيص بقيه مصليات سبته حسب ما نص عليه الأنصارى لأهل الأرباض والقصبه(١٥٤) .

- المدارس :

بعد ما كانت جوامع سبته ومساجدها تؤدى مهمتها فى خدمة الدين والعلم صارت المدارس تبنى للمشاركة فى القيام بهذه المهمة . والغالب أنها كانت تقوم بمهمة التعليم والإسكان للطلبة الوافدين على سبته للتعلم على أساتذتها(١٥٥) فقد كانت مدينة سبته منذ القرن ٥هـ/١١م مركزاً مرموقاً للدراسات العربية الفقهية والطبية بفضل العناصر الأندلسية الوافدة إليها ، وهى العناصر التى تزايد عددها منذ أوائل القرن ٧هـ/١٣م .

وتزخر كتب التراجم بأسماء قضاة ومحدثين وقراء ومفسرين ونحويين من أبناء سبته من أصول أندلسية(١٥٦) .

ويمكن أن نستنتج من النصوص التاريخية أهمية مدينة سبته كمركز إشعاع ثقافي حيث أكد ذلك وصف البكرى لها فى قوله (إنها لم تزل دار علم)(١٥٧) كما يؤكده ابن الخطيب فى قوله (بأنها بصره علوم اللسان وخزانة كتب العلوم)(١٥٨) . وكذلك يبين المقرى المناظرات الأدبية التى كانت تجرى بين علماء سبته كالمناظرة التى جرت حول استعمال (ماذا) بين النحوى الشهير أبى الحسن ابن أبى الربيع وبين الأديب مالك ابن المرحل(١٥٩) .

ويكفى دليلاً على مكانة سبته العلمية أن الباعث على كتابة رسالة الشقندى فى فضائل أهل الأندلس كان الجدل الذى وقع فى مجلس صاحب سبته أبى يحيى ابن زكريا حول علماء الأندلس والمغرب(١٦٠) .

ويذكر الأنصارى مدرستين شهيرتين بسبته هما مدرسة الشيخ المحدث على الشارى الغافقى السبتى(١٦١) والمدرسة الجديدة التى ابتناها السلطان المرينى أبو الحسن(١٦٢) .

ولم يصرح الأنصارى بآية تفاصيل عن المدرسة الأولى التى بناها أبو الحسن الشارى ، على حين أفاض بعض الشيء فى وصف المدرسة الجديدة التى بناها أبو الحسن المرينى بقوله (والمدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام والواحة المتعددة الغالية الثمن التى ابتناها السلطان أبو الحسن المرينى مخلد الآثار الدالة على شماخة الملك وعلو المقدار)(١٦٣) .

وفى موضع آخر يشيد الأنصارى بميضأة تلك المدرسة بقوله (وأبدعها صناعة وأحكمها بناء ميضأة المدرسة الجديدة تحتوى على بيوت ثمانية ومطهرة كبير(١٦٤) وفى كل منها نقير من الرخام(١٦٥) يصب فيها ميزاب من النحاس ، وفرش الجميع ألواح منحورة من الصخر ، وبوسطها صهريج مفروش بالزليج(١٦٦) الملون . وقبتها مؤلفة(١٦٧) ومن بعض صنائعها نوْر البابونج(١٦٨) يخاله الناظر إليه حلقة من أحكام الصناعة يجلب الماء إلى ذلك كله بالدواليب) (١٦٩).

ووفقاً لما أوردته الوثائق البرتغالية الخاصة بسقوط مدينة سبته في أيدى البرتغاليين فإن هذه المدرسة تحولت بعد الاسترداد مباشرة إلى دير ، وأنه قد أطلق عليها بعد تنصيرها اسم مصلى سنتياجو ermita de santiago(١٧٠) .

وفى عام ١٥٦٠م أقيم فى المدرسة مصلى آخر يبعد عن الأول الذى كان قد أقيم فى وسط المدرسة(١٧١) وقد ظلت المدرسة رغم تحويلها إلى عدة أديرة ومصليات مسيحية محتفظة بصورتها التى كانت عليها فى العصر الإسلامى ، حيث ورد ذكرها فى الأدب البرتغالى عام ١٦٤٨م (بأنها بناء عظيم من عمل المسلمين يضم ١٠ (عشرة) أعمدة من الرخام الأبيض ، قواعدها من الرخام الأسود وجدرانها منقوشة بزخارف رائعة . ولا يزال يتوج مدخلها - حتى بعد

تحويلها إلى دير - لوحتان من الرخام تتضمنان نقوشاً كتابية بالخط العربى نصها «الحمد لله. تم بحمد الله هذا البناء رجاء ثواب الله بأمر من أبى عنان سنة ٧٤٧هـ»(١٧٢) .

وإذا نظرنا إلى نهاية هذا النص الذى نقله الكاتب الأسبانى مسكرنيلاس Mascarenilas عن أحد المدونات البرتغالية ، يتضح أن ما ورد يشوبه الخلط والخطأ، حيث ذكرت الرواية أن السلطان أبا عنان هو الذى شيد المدرسة الجديدة على أساس أن ذلك مسجلاً بنقش كتابى كان لا يزال يتوج مدخلها حتى منتصف القرن ١٧م . وهذا يتعارض مع ما ذكره الأنصارى الذى أكد بأن المدرسة من بناء السلطان أبى الحسن . ويؤكد صحة ما ذكره الأنصارى أن التاريخ المسجل فى النص الكتابى لا يقع فى فترة حكم السلطان أبى عنان الذى كان قد ثار على أبيه أبى الحسن بتلمسان عام ٧٤٩هـ واستولى على المغرب الأقصى(١٧٣) ، فى حين يقع التاريخ المذكور ٧٤٧هـ فى النص الكتابى فى فترة حكم أبى الحسن . وعلى هذا فمن المؤكد أن هذه المدرسة قد شيدت فى عهد السلطان أبى الحسن واستكملت فى عهد ابنه أبى عنان الذى ربما حاول طمس أعمال أبيه . لاسيما وأنه قد ثار عليه فأزال اسم أبيه ووضع مكانه اسمه دون أن يغير التاريخ الأصلى.

وفى الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ، تم تجديد المدرسة بما فيها من أديرة ومصليات . ومع ذلك لم تمس التغيرات المتوالية جوهر البناء . ويقرر ذلك وصف Carrea de Franca أحد كتاب القرن الثامن عشر الميلادى لها بقوله (بأنها كانت عبارة عن قاعة مقسمة إلى ثلاثة أروقة تقوم على عمد وتيجان وقواعد من الرخام والحجارة السوداء) . كما وصف محرابها بأنه (ظل قائماً على حاله لم يحدث فيه شىء سوى أنهم جعلوا عليه صليباً)(١٧٤) .

مما سبق ذكره يتبين مدى إسهام أعمال الإضافات والترميم والهدم فى تشويه المدرسة الإسلامية وطمس معالمها التى تحتاج من أجل الكشف عنها إلى دراسات مبنية على حفائر علمية . وهذا أمر يصعب تحقيقه بعد أن أقيم مكانها

الآن مبنى حديث عبارة عن ثكنات للجند . ومن هنا فإن تصورنـا لنظـام المدرسـة التخطيطى يبدو صعباً . ومـع ذلـك فقـد قـام الأسـتاذ كـارلوس جوثـالبس Carlos Gozalbes بوضع رسم افتراضى لتلك المدرسة(١٧٥) اعتمد فيه على أوصـاف بعـض الكتاب والرحالة من القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى . فضلاً عن بعـض الرسوم التوضيحية التى سجلتها الخرائط القديمة للمدرسة بعـد تحويلهـا إلى ديـر أو مصلى كنسى .

وقد اعتمـد الأستاذ كـارلوس فـى نظريتـه الافتراضيـة لتخطيـط أو منظـور المدرسة على تجريدها من كل الملحقات غير الإسلامية ، بحيث يبقـى منهـا عنـاصر المدرسة الأصلية التى رجح أنها كانت تتـألف مـن قاعـة مكونـة مـن ثلاثـة أروقـة عمودية على جدار المحراب الذى كان يقع فى الجهة الجنوبية من القاعـة ، ويغطـى الأروقة الثلاثة أسقف هرمية مسنمة تمتد من الغرب إلى الشرق . وتطل القاعة على بهو يتوسطه صهريج ، ويكتنف هذا البهو من جهاتـه الشرقية والغربيـة والجنوبيـة سقائف معقودة تشغلها حجرات لإقامة الطلبة . وخلـف السـقيفة الجنوبيـة توجـد قاعة كبيرة للوضوء والاغتسال مغطاه بقبة نصف أسطوانية.

أما المئذنة فكانت تتوج الجهة الشمالية مـــن المدرسـة . وكـان ارتفاعهـا حوالى ٢٥م وكانت تتكون من طـابقين الأول مربـع الشكل ينفتـح فيـه علـى مستويين نوافذ توأمية فى المستوى الأول من أسفل ومفردة فى المستوى الثـانى من أعلى.

أما الطابق الثانى من أعلى فكان أصغر من الطـابق الأول وهـو علـى شـكل مثمن يعلوه سقف أو خربوش مسنم.

ويضيف الأستاذ كارلوس بـأن أبـواب المدرسـة كـانت تنفتـح فـى جهتيهـا الشرقية والغربية(١٧٦) .

الأربطة والزوايا :

من المنشآت الدينية بمدينة سبته الأربطة[١٧٧] والزوايا[١٧٨] فمع شيوع وانتشار التصوف بتلك المدينة التى تكون فيها تفكير صوفى لم تنطفىء شعلته من سبته إلا بانتهاء السيادة الإسلامية عليها[١٧٩] .

أقيمت العديد من الربط والزوايا كمساكن للفقراء والزهاد والغرباء . وكان يتولى إنشاء تلك الربط والزوايا الحكام والأثرياء من أهل سبته . ويشيد الأنصارى بكثرة ما شيد بمدينة سبته من تلك الربط والزوايا بقوله(وعدد الروابط والزوايا سبع وأربعون زاوية ورابطة محازية للبحر من جانب الجنوب والشمال داخل المدينة والأرباض وخارجاً عنها. أضخمها بناء وأعظمها هيكلاً الرابطة المعروفة برابطة الصيد ، مربعة الشكل قائمة فى الهواء على اثنى عشر عموداً منها ثمانية من الرخام سبعة ساطعة البياض وواحد حالك السواد . والأربعة الباقية مبنية بالأجور تحت معاقد أركان القبة ، ولكل عمود منها خمسة أركان واستدارت بها ثمانية عشر سرجباً[١٨٠] فى أربع بلاطات وبابها مبنى بالكذان[١٨١] المنجور وتتصل بها دار للقيم بخدمتها)[١٨٢] .

وفى النص السابق عدة أمور هامة منها تحديده لمواقع ربط سبته على سواحلها الشمالية والجنوبية . وفى ذلك تأكيد لصفة تلك الربط ودورها فى حماية السواحل والثغور كنقاط حصينة على شواطئ البحر أو داخل البلاد ، تقوم بالدفاع عن المدينة فى المواقع الهامة منها أو تقوم بوظيفة نقط مراقبة يرسل منها التحذيرات والإنذارات بالخطر ، حيث كانت تزود هذه الربط بأبراج أو منارات عالية على مسافات تسمح بأن يرى الواحد منها الآخر ويمكن إرسال إشارات الإنذار من رباط إلى آخر بواسطة النار أو الدخان.

وهكذا نلاحظ أن ربط سبته لم يكن مقصود إقامتها فقط على السواحل وإنما داخل المدينة ، وفى الأرباض ، وذلك على غرار الربط الداخلية التى أقيمت على حدود مصر الجنوبية . ويتضمن النص السابق أيضاً صورة تقريبية لعمارة

الرباط ساعدت في الكشف عن تخطيطه المربع ، ودلت في وضوح على فخامة بنائه وسعة مساحته وتباين ألوان أعمدته وتنوع ألوان بناته ما بين الرخام والأجر المستخدم في صنع الأعمدة وحجر الكذان المستخدم في تشييد بابه.

ومع أن الأنصارى أكد استخدام القبة كوسيلة من وسائل تغطية رباط الصيد سالف الذكر ، إلا أنه لم يحدد الشكل الذى اتخذته هذه القبة . وفى تصورى أنها كانت من نوع القباب ذات الضلوع المتقاطعة التى شاع استخدامها على نطاق واسع فى معظم عمائر المغرب والأندلس منذ ابتكارها فى زيادة الحكم المستنصر بجامع فرجة وجامع قرطبة وعلى نطاق واسع فى معظم عمائر المغرب والأندلس . ويدعونى إلى إبداء هذا الرأى ما نستقيه من وصف الأنصارى الذى أشار فيه إلى عقود ونوافذ القبة ، فربما قصد بالمعاقد والأركان هو أشكال الضلوع التى تتكون من خمسة عقود تقوم على أربعة أعمدة تحمل هذه العقود التى يستند عليها غطاء القبة، وذلك على غرار قبة المحراب بجامع قرطبة التى تقوم على أثنى عشر عموداً محاطاً بركائز فى قاعدة القبة تحمل رؤوس الضلوع التى تتكون من أنصاف دوائر متقاطعة . كما أن كلمة شرجباً تشير إلى أن ضلوع القبة كانت تترك فراغاً تنفتح فيه بقاعدة القبة ثمان عشرة طاقة مشبكة تشبه النوافذ أو القناطر المدفوعة على عمد مندمجة فى ركائز قاعدة القبة .

ويذكر الأنصارى رباطاً آخر بسبته دون أن يوضح اسمه ، كان مجاوراً لرباط الصيد سالف الذكر ، ووصفه بأنه كان يضم فى وسطه قبر جارية لأحد أمراء الموحدين(١٨٣) . كما يذكر المقرى أن أبا الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتى - وكان من قضاة سبته - قد بنى بجبل المينا رباطا يعرف برباط العباد(١٨٤) .

- الزوايا :

أما عن زوايا سبته التى تقابل فى المشرق الخانقاوات ، فقد حفظ الأنصارى اسم واحدة منها فقط وهى الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان أبو عنان بن أبى

الحسن خارج باب فاس لنزول الغربـاء . ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار وغيرهم . ثم ينتقل الأنصارى إلى وصف عمارة تلك الزاوية فيشير إلى عظمة بنائها وكثرة زخارفها وتعدد مساكنها وروعة صومعتها(١٨٥) .

- ثانياً المراكز الاجتماعية :

المقصود بالمركز الاجتماعى القطاع العمرانى الذى تتركز فيه منشآت المدينة ذات السمة الاجتماعية مثل دور الإمارة ودور العامة والخاصة والحمامات والقناطر أو السواقى .

- دار إمارة سبته :

الواقع أن دراسة دار إمارة سبته وقصورها الملكية تعد من الأمور الصعبة للغاية ، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة نخص بالذكر منها اختفاء تلك المنشآت ، كما أن الأنصارى وكذلك بقية المصادر العربية لا تتضمن أى وصف لها ، وتكاد تقتصر معلوماتنا عن دار إمارة سبته على ما ذكره البكرى في سياق حديثه عن المدينة بقوله (ودار الإمارة فى جوفى المدينة وطولها من السور الغربى الذى يدخل منه المدينة قاطعاً إلى أخر الجزيرة خمسة أميال . والمدينة فى الجانب الغربى منها)(١٨٦).

وأهم ما نستنتجه من هذا الوصف تحديده بشكل واضح لموقع دار الإمارة فى الجهة الشمالية من المدينة . كما يستشف منه مدى اتساع تلك الدار بحيث بلغ طولها من جهة سور المدينة الغربى خمسة أميال.

- قصر قصبة سبته (أفراك) :

من الجدير بالذكر أن أى بلد فى المغرب الإسلامى حين يصل إلى درجة معينة من النمو ويتحول إلى مدينة وتصبح هذه المدينة قصبة إقليم(١٨٧) ، وبالتالى تصبح مقراً للعامل أو الأمير صاحب الكلمة فى المصالح الإدارية التى لابد منها لتيسير النظم المدبرة لشئون الحياة الاجتماعية فى المدينة . وكان ممثلو السلطة

المركزية يقيمون عادة إلى جوار العامل أو الأمير القائم بولاية المدينة فى موقع يسهل منه الدفاع عن المدينة فى حالة تعرضها لأى عدوان خارجى ، ويتمثل ذلك فى قصبة المدينة أو حصنها المنيع . وفى داخل هذه القصبة كان يوجد القصر الملكى حيث مقر الإدارة والحكم(١٨٨) .

وكان لسبته قصبة أو كما يسميها الأنصارى وبعض المؤرخين المغاربة أفراك(١٨٩).

ويبدو أن هذه القصبة أقيمت فى نفس موضع دار الإمارة القديم التى أشار إليها البكرى ، وذلك بعد أن تطور عمران سبته فى عهد بنى مرين وأصبحت قصبة إقليم . ويستدل على ذلك من إشارة ابن خلدون إلى أن السلطان أبا سعيد المرينى هو الذى أمر ببناء البلد المسمى أفراك على سبته سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م(١٩٠) .

وباستثناء تلك الإشارة لا تتضمن المصادر العربية أى وصف لها كما أن منطقة القصبة المعروفة بأفراك اختفت الآن ، وذلك بعد حوالى عشرة سنوات من سقوط مدينة سبته في أيدى البرتغاليين (١٠٤٠-١٥٥٠م)(١٩١) .

ولعل اندثار هذه القصبة ٩٤٧هـ - ٩٥٧هـ كان من أهم الأسباب التى أدت إلى عدم اهتمام المؤرخين العرب بها ، لاسيما الأنصارى الذى لم يزودنا للأسف بأية تفاصيل عن موقعها أو نظامها التخطيطى . وإن كان الأستاذ كارلوس جوثابلس قد وفق بفضل دراسته لطبوغرافية مدينة سبته التي اعتمد فيها على بعض الخرائط والصور فى تحديد الشكل الذى كانت عليه قصبة سبته بما فى ذلك القصر الملكى الذى كان يتخذه حاكم سبته مقراً لولايته . فذكر أن قصبة سبته المعروفة بأفراك ، والتى أطلق عليها أسماء أخرى مثل المنصورة(١٩٢) . كانت تقع فى القطاع الشمالى الغربى للمدينة(١٩٣) وأنها كانت تتخذ شكلاً مستطيلاً ضلعه الغربى ، يؤلف جزءاً من أسوار حفير السهاج(١٩٤). وكان يدعم هذا الضلع أو السور الغربى من القصبة أربعة أبراج أوسطها أكبرها ، حيث أقيم هذا

البرج فوق برج آخر قديم أصغر منه ، وسقف هذا البرج مسنم . وكان يتوسطه باب مقبى يفضى إلى خارج المدينة . ومن خلال هذا الباب كان يمكن الدخول إلى القصبة والخروج منها دون الحاجة إلى اجتياز المدينة(١٩٥) .

أما السور الشرقى للقصبة الموازى للسور الغربى فكان يدعمه ثلاثة أبراج(١٩٦) أوسطها أصغرها ، وهو البرج المعروف ببرج سابق Torre Sabek الذى ذكره البكرى . وأكد على أنه كان يفتح به باب يدخل منه إلى دار الإمارة(١٩٧).

وفى ضوء إشارة البكرى السابقة والدراسات الحديثة التى أجريت حول منطقة القصبة يتأكد صحة ما أشرت إليه سابقاً من أن القصبة وقصرها أقيمت فى نفس موضع دار الإمام القديم.

ويضيف الأستاذ كارلوس جوثابلس أن الضلعين الشمالى والجنوبى كان يطوقهما سورين يمتدان طولاً من الشمال إلى الجنوب . وأن هذين السورين كانا يضمان بداخلهما ساحة القصر ، ويفصلان فى ذات الوقت منطقة القصبة عن أرباض المدينة الخارجية.

وهكذا يتضح من خلال الدراسة التى قام بها كارلوس جوثابلس أن منطقة القصبة كانت تنقسم إلى قسمين : قسم شمالى شرقى يضم بداخله مبنى القصبة أو الحصن . وقسم جنوبى غربى كان يضم القصر وساحته(١٩٨) . كما كان يضم وفقاً لما ذكره الأنصارى مسجداً كان يصلى فيه السلطان أبو الحسن بجيشه وحمام ودار للإشراف على دار السكة(١٩٩) .

- الدور :

لم يصلنا أى أثر لدور سبته الإسلامية التى تعد واحدة من أهم المنشآت المعمارية فى المركز العمرانى الاجتماعى . كما أن أخبار تلك الدور فى المصادر العربية يكتنفها الغموض بحيث لا نستطيع التعرف على المظاهر العامة لبنائها أو نظامها التخطيطى. وكل ما وصلنا من أخبار عن دور سبته الإسلامية يكاد يقتصر على ما زودنا به الأنصارى من إشارات متناثرة عن بعض دور المدينة دون أن يذكر أى وصف لها.

وأهم ما نستنتجه من هذه الإشارات عن هذه الدور هو أن المدينة كانت تكتظ بالدور الموزعة حول مسجدها الجامع، وفي الطرق الرئيسية والدروب والأزقة والزنقات والحارات، بحيث يبلغ عددها ما يزيد عن ٤٠ ألف دار(٢٠٠).

وتتميز معظم هذه الدور باشتمالها على حمام ومصلى لتأدية الصلوات الخمس(٢٠١).

كما تتميز جميعاً بأنها لا تخلو من المياه الجارية التي تعتبر من ضرورات الحياة المنزلية. وكانت جميع دور سبته الخاصة والعامة تتصل بشبكة من الأنابيب والقنوات لجلب المياه من الأودية والأنهار والآبار، بحيث كانت مساكن سبته بمياهها العذبة الدائمة على حد تعبير الأنصاري (لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء حيثما كانت بأقطار المدينة)(٢٠٢).

وبالإضافة إلى دور الخاصة والعامة كانت تقوم في بعض الدروب والحارات التجارية مصريات وعليات(٢٠٣) وهي عبارة عن دور صغيرة للغاية تتكون من طابق واحد أو من غرفة واحدة تعلو في الغالب حانوتاً أو مصنعاً أو فندقاً. وكان أهل المغرب والأندلس يكرونها للتجار الغرباء أو للعزاب من القومة والخدم. وفي بعض الأحيان كان أرباب الحرف يتخذونها لمزاولة صناعتهم فقط، إذ كانوا يبتون في مساكن أخرى(٢٠٤). وذلك بعكس ما كان معروفاً عند الصناع في المشرق الإسلامي حيث كانت المصانع والورش تقام في الطابق الأرضي في حين كانوا يبتون مع أسرهم بالغرف العليا التي تعرف في المشرق بالعليات وفي بلاد المغرب بالمصريات(٢٠٥).

وقد طبعت دور سبته بطابعها الاقتصادي، فكانت تشتمل بعض دور الصناع على غرفة أو محل أو ورشة تزاول فيها أي صنعة من الصناعات التي كان يزاولها صاحب الدار. ويستدل على وجود مثل هذا النوع من الدور من خلال

إشارة الأنصارى إلى ورش التجارة المخصصة لعمل القسى بقوله (وعدد المنجرات المعدة لعمل القسى أربعون منها عشرون بمنازل المسلمين والصناع كبنى القنطرى وبنى العاقل وبنى ابن غالب وغيرهم)(٢٠٦).

- الحمامات :

أشار الأنصارى إلى كثرة حمامات سبته بقوله (وعدد الحمامات العامة المبررة للناس اثنان وعشرون حماماً)(٢٠٧) . كما أمدنا بأسماء بعضها ، وبصورة واضحة عن بعض المظاهر العامة لبنائها ، فيذكر أن من بينها (حمام القائد وهو أبو على ناصح الذى كان بناؤه على يده. وهذا الحمام بلغ الغاية فى الكبر يسع المئتين(٢٠٨) من الناس مرتفع السمك طيب الهواء قائم على أعمدة الرخام مفروش بالواحة الساطعة البياض . والمسلخ(٢٠٩) متسع الساحة له بابان اثنان ، وسقفه قبه مؤلفة(٢١٠) متقنة على أربع حنيات . وبالصحن صهريج كبير مرتفع عن الأرض . وفى وسط الصهريج سارية بجوفة فوقها طيفور(٢١١) من الرخام يصعد الماء فى حوض السارية إلى أن يفور فى الطيفور ، وفيضه يملأ الصهريج . ومن الحمامات ذات الرخام سواه بسبته حمام ابن عيسى ، وحمام اليانشتى وحمام عبود بناحية الميناء ، وهو نظير حمام القائد فى الفخامة والهيكل ، وبمسالخها طيافير من الرخام على سوار بجوفة أيضاً فى وسط الصهريج على نحو ما وصفناه . وبالقصبة عشرة حمامات سوى العدد المذكور أبدعها حمام القصر . وبكل دار من ديار سبته حمام ومسجد إلا القليل)(٢١٢).

وفى ضوء النص السابق والمطول للأنصارى عن حمامات سبته الإسلامية يتضح ما يلى :

أولاً : أن الحمامات كانت تشكل عنصراً من أهم عناصر عمارة المنافع العامة أو منشآت المركز الاجتماعى ، حيث اكتظت بها شوارع وأحياء المدينة فى

شكل حمامات عامة ، كما حفلت بها بعض المنشآت كقصبة المدينة وقصرها ، وكذلك شيد معظمها داخل المنازل.

ثانياً : ساعد النص فى الكشف عن مدى فخامة بناء حمامات سبته وسعة مساحتها ومدى العناية بتكسية أرضيتها بألواح الرخام . كذلك أمدنا النص بصورة واضحة عن نظامها التخطيطى حيث أنها كانت من النوع الذى يتألف من أربع قاعات رئيسية مقباه (٢١٣) . وقد ركز الأنصارى بشكل أساسى على قاعة المسلخ فبين حدودها المتسعة وسقفها المقبى بقبة تقوم على أربع حنايا ركنية . ويستدل من وصفه لها بأنها كانت تعتمد فى تخطيطها على وجود فراغ مركزى أو صحن يتوسطه صهريج للمياه.

ويتجلى الاهتمام بتجميل هذه القاعة فى أنها كانت مزودة بحوض كبير يتوسطه فسقية ، وذلك على غرار الفساقى التى كانت تتوسط مسالخ حمامات المغرب والأندلس والتى بلغت أوج ازدهارها فى حمامات قصور الحمراء(٢١٤) .

- المنشآت المائية :

تعتبر عذوبة الماء من السمات التى تميز مدينة عن أخرى . ويمكننا أن نستنتج من النصوص المختلفة وروايات الجغرافيين أن مدينة سبته لم تكن تفتقر إلى الماء العذب منذ أقدم العصور . ويؤكد ذلك وصف ابن حوقل لها فى قوله (إن ماء سبته من داخلها يستخرج من آبارها كما أن فى خارجها أيضا آباراً كثيرة عذبة الماء)(٢١٥) .

وقد تنوعت أساليب تغذية مدينة سبته بالمياه . فالبكرى يقول (إن حمامات سبته يجلب إليها الماء على الظهر من البحر) . ويضيف فى موضوع آخر بأن الماء يجلب فى قناة من نهراويات على بعد ثلاثة أميال من المدينة على ضفة البحر القبلى إلى الكنيسة التى هى اليوم الجامع(٢١٦) .

كذلك يشير الإدريسى إلى وجود (عين ماء لاتجف البته بأعلى الجبل فى وسط المدينة)(٢١٧) . وتشير الروايات التاريخية إلى مدى عناية حكام سبته بجلب الماء العذب إلى المدينة . ومن هذه الروايات ما ذكره صاحب كتاب الاستبصار من أن ثالث خلفاء الموحدين أبا يعقوب المنصورى أمر سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بجلب الماء من قرية بليونش التى تبعد عنها بنحو (٦) ستة أميال وذلك فى قناة تحت الأرض غير أن الأعمال لم تتم حتى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م(٢١٨) .

وقد اكتسب أهل سبته خبرة عظيمة فى استغلال مائها العذب استغلالاً حسناً حيث أنشئت بها أنواع أخرى من المنشآت المائية ، وهى السقايات التى تساعد على خزن الماء العذب لسقاية الناس والحيوانات ومد كافة مرافق المدينة بمصادر دائمة للمياه . وقد أشار الأنصارى إلى تلك السقايات بشىء من التفاصيل بقوله (وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية أبدعها صنعة ووضعاً السقاية التى بطرف العطارين وأول سماط العدول . وبازاء باب الشوائين من أبواب الجامع ذات الأنابيب(٢١٩) النحاسية والألواح الرخامية والزخرفة والتنميق . ومن السقايات المعدة لسقى الدواب من الخيل وغيرها سقاية جب الميناء العظيم الهيكل المشهور ، الذى ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم العزفى المذكور ، وخلده أثراً غريباً بعده رحمه الله . صهريجان مشتركان يمد إحداهما الآخر وقد أحكم الأسفل والأعلى منهما فرشاً بألواح الصخر المنجور أتم إحكامه وأكمله . ومن ذلك سقاية القبة بالربض البرانى صهريج مستطيل متصل ببئر معينة قريبة التناول طيبة الماء عليها قبة على أربعة أعمدة وإلى جانبها آبار متعددة للسبيل(٢٢٠) وربما تبلغ الثمانين(٢٢١).

وفى ضوء الوصف السابق يتضح أن السقايات التى ذكرها الأنصارى كانت عبارة عن صهاريج ضخمة شيدت بنظام دقيق يشهد بالبراعة وحسن التنفيذ بحيث كان يجرى توزيع الماء بتلك الصهاريج المعبر عنها بالسقايات بحيل هندسية

دقيقة . ويتجلى ذلك فى إشارة الأنصارى إلى أسلوب من الأساليب التى يمكن بها تكثير مياه السقاية عن طريق جعل السقاية الواحدة تتكون من صهريجين متجاورين يمد أحدهما الآخر بالمياه . وهذه الطريقة استخدمت بكثرة فى حفر معظم آبار مدن الغرب الإسلامية لاسيما مدينة مجريط أو مدريد العربية . كما انتشرت فى الفسطاط فكرة حفر الآبار المتجاورة المتصلة ببعضها مع اختلاف مستوياتها بهدف تكثير الماء المستمد من جوف الأرض(٢٢٢).

ثالثاً - المراكز الاقتصادية بمدينة سبته :

إن أهل سبته بحكم موقع بلدهم على بحر الزقاق بين المغرب والأندلس توفرت لديهم إمكانيات اقتصادية هائلة ساعدت على ازدهارها التجارى والصناعى . ففى مجال التجارة عبر الجغرافيون والمؤرخون العرب عن هذا الازدهار فيما كتبوه عن سبته . فابن سعيد المغربى يشبه سبته بمدينة الإسكندرية فى كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يتاعون المراكب بما فيها من بضائع الهند وغيرها فى صفقة واحدة(٢٢٣) . كما يذكر ابن الخطيب فى سياق وصفه للمدينة (أنها كانت محط قوافل العصير (زيت الزيتون)والحرير والكتان)(٢٢٤) ويتبين من رحلة ابن جبير أن سبته كانت نقطة البداية والنهاية للرحلات البحرية إلى المشرق(٢٢٥) .

ويبدو أن التجارة بين سبته وجنوة كانت نشطة ، وأن ثراء سبته من التجارة أطمع فيها الجنويين. ويستدل على ذلك مما ذكره ابن عذارى من أن الجنويين حاولوا الاستيلاء على سبته بالخديعة عام ٦٣٣هـ/١٢٣٤م ولكنهم فشلوا وانتهبت أموالهم التى فى فنادقهم ، ثم وقع الصلح وبموجبه عوض أهل سبته الجنويين عما فقدوه(٢٢٦). ويستدل أيضاً مما رواه المقرى على أن تجار جنوة كانوا يجلبون إلى سبته طرائف السلع . ويوضح ذلك قصة القائد أبى السرور صاحب ديوان سبته الذى أنعم على الأديب النحوى أبى عمران موسى الطريانى بتحف مما كان فى الديوان مما يجلبه الإفرنج إلى سبته(٢٢٧) .

هذا ويشير ابن بطوطه إلى أن التجار السبتيين كانت لهم علاقات تجارية مربحة مع الصين وبلاد السودان الغربى . ففى أثناء وجوده بمدينة قنجنفو بالصين قابل تاجراً من سبته وهو قوام الدين السبتى كان قد وصل إلى الصين وفيها عظم شأنه واكتسب الأموال الطائلة وبعد ذلك ببضع سنوات قابل ابن بطوطه أخا لهذا التاجر السبتى من السودان الغربى(٢٢٨) .

ونتيجة لهذا الازدهار التجارى الذى نعمت به مدينة سبته غزت أسواق مرسيليا الدراهم السبتية ، فكان تجار مرسيليا عن طريق وكلائهم من اليهود فى سبته يبيعون عملات عربية فى مونبليه(٢٢٩).

أما بالنسبة للصناعة التى تعتبر من أهم مصادر الثروة الاقتصادية لسبته فقد عرف أهل سبته كيف يفيدون من ثروة مياهها من المرجان الجيد الذى أمد المدينة بفائض من الإنتاج ، فكانت تصدره إلى الأندلس والمشرق والهند ، وذلك بعد تجهيزه تجارياً على هيئة قطع صغيرة تصنع منه الأوانى الطريفة(٢٣٠) .

وقد امتدح الأدريسى مرجان سبته وأشار إلى شهرتها فى إنتاجه وصناعته وتصديره بقوله (ويصاد بمدينة سبته شجر المرجان الذى لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار . وبمدينة سبته سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه . ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد)(٢٣١) .

وهكذا أدى الازدهار التجارى والصناعى الذى نعمت به مدينة سبته إلى العناية بتشييد العديد من المنشآت التجارية والصناعية بحيث شغلت تلك المنشآت أكبر مراكز المدينة العمرانية التى وصلتنا أخبار عنها . ويكفى لتأكيد هذه الحقيقة أن نطالع ما سجله الأنصارى من أوصاف لتلك المنشآت على النحو التالى :

١ - الأسواق :

المقصود بالأسواق الأماكن التى تتجمع فيها الحوانيت والمتاجر ويكثر فيها الباعة والتجار وأصحاب الحرف . ولم تكن أسواق مدن الغرب الإسلامى تقام فى موضع معين من المدينة ولكنها تتوزع فى عدة مواضع داخل المدينة وخارجها .

وتتنوع الأسواق بأنواع السلع التى تباع فيها من ذلك سوق العطارين وسوق النحاسين وسوق البزازين(٢٣٢).

وقد أشار الأنصارى إلى أسواق سبته الإسلامية وتعدد مواضعها وتنوعها حسب أنواع السلع التى كانت تباع فيها بقوله : (وعدد الأسواق (١٧٤) مائة وأربعة وسبعون سوقاً تخص منها المدينة بمائة واثنين وأربعين سوقاً. والأرباض الثلاثة باثنين وثلاثين.ومن أشرفها قدراً وأجملها مرأى سوق العطارين الأعظم(٢٣٣).وسماط العدول الموثقين المتصل حيث المدرسة الجديدة وكلاهما بجوفى الجامع الأعظم . والقيسارية خلف ذلك . ومن أسواق المأكول والمطعوم والفواكه والأدم ، وغير ذلك السوق الكبير . وسوق مقبرة زكلو من الجانب الشرقى من المدينة . ومن الأسواق المعلومة لتجارة الآنية الصفرية(٢٣٤) القوية الصبع العجيبة الصنعة الخاصة بسبته دون غيرها سوق السقاطين(٢٣٥) . ما أدراق ما سوق السقاطين رفاهية متجر وكثرة أنواع وحسن ترتيب)(٢٣٦) .

– القيسارية :

تعد القيساريات من أهم المؤسسات التجارية فى المركز العمرانى الاقتصادى فى المدن الإسلامية بوجه عام . وكلمة قيسارية هى تعريب للكلمة اليونانية اللاتينية Kaisareie وتعنى السوق القيصرى . وكان يباع فى القيساريات أفخر أنواع السلع التى يندر وجودها فى الأسواق الأخرى(٢٣٧) .

وقد أشار الأنصارى إلى أن قيسارية سبته كانت تقع بجوار مسجدها الجامع وبالتحديد خلف هذا الجامع(٢٣٨) . ويرجع أحد الباحثين أن تلك القيسارية كانت تقع فى الجهة الجنوبية الشرقية من مدرسة سبتة المعروفة بالمدرسة الجديدة . وأنها ظلت تحتفظ بعد حركة استرداد المدينة بنفس الموضع الذى كانت تقوم به فى العصر الإسلامى إلى أن تهدمت فى العصر الحديث وأقيم مكانها فندق يعرف بـ Hotel Muralla . ويضيف أنه من الصعب أن تحدد بدقة حدود قيسارية سبته ، ولكن يبدو أنها كانت تمتد فى شارع واحد معلق من جهته الجنوبية بواسطة برج يعرف اليوم ببرج كمبانيا Torre de la compana (٢٣٩) .

وفى رأى الأستاذ خواكين بالبين أن قيسارية سبته كانت تقع بالقرب من سوق سبته الحالى وبالتحديد فى الموضع الذى يقوم عليه الآن مبنى بنك أسبانيا حيث كان يشغل هذا الموضع وفقاً لوثيقتين مؤرختين بالقرن ١٨م شارع كبير كان يعرف بشارع القصر الأسقفى . ومن هذا الشارع كانت تتفرع عدة أزقة منها زقاق مسدود كان يعرف بزقاق القيسارية(٢٤٠).

• الحوانيت والتربيعات التجارية :

كانت أحياء سبته التجارية تزخر بالعديد من الحوانيت التى كانت تتسمى باسم السلعة التى تباع فيها أو بأسماء أصحابها . وقد أحصى الأنصارى حوانيت سبته بـ ٢٤ ألف حانوت (أربعة وعشرون ألفاً).

وعلى الرغم مما فى هذا الرقم من مبالغة ظاهرة إلا أنه يدل على أن الحوانيت التجارية كانت من المنشآت البارزة بين التكوينات المعمارية التجارية لمدينة سبته.

- التربيعات :

يقصد بالتربيعات حى أو سوق تجارى مربع أو دائرى أو مستقيم تتجمع فيه الحوانيت التجارية ويتخذ تكوين هذه المربعات أو التربيعات هيئة كتلة معمارية تضم مجموعة من الحوانيت ظهورها إلى الداخل وتطل جميعها على الشوارع التى تحيط بها من الجوانب الأربعة مقابلة أيضاً صفوفاً من الحوانيت على الجوانب الأخرى لهذه الشوارع(٢٤١) .

وقد كانت هذه التربيعات من المنشآت التجارية الهامة بمدينة سبته الإسلامية ويؤكد ذلك وصف الأنصارى لها بقوله (وعدد التربيعات المعلومة للحرارين والقزازين خاصة إذ هناك تربيعات غيرها داخلات فى حكم الأسواق إحدى وثلاثون تربيعة مفترقات بالممرات والأسواق خلال الأطرزة(٢٤٢) من أول المدينة

إلى أخرها أعظمها التربيعة التى بأسفل زقاق خطاب سامية فى الهواء كأنها معقل أو قلعة على ثلاث طباق وفى صحنها مسجد)[٢٤٣] .

ويبدو أن مثل هذه التربيعات كانت تمثل امتداداً لحوانيت قيسارية سبته فى الأزقة الجانبية المتفرعة من الشارع الأعظم الذى كانت تشغله قيسارية المدينة الرئيسية ، والتى يمكن أن تطلق عليها قيساريات الأزقة . ويرجح ذلك وصف ليو الأفريقى لمصطلح قيساريات الأزقة التى انتشرت فى مدن الغرب الإسلامى على أنه شبكة الأزقة التى تتفرع على جوانبها الحوانيت[٢٤٤] . كما يدعم هذا الاستنتاج ما ورد فى وثيقتين مؤرختين بالقرن ١٨م تشيران إلى وجود زنقات بمدينة سبته كانت تسمى بزنقات القيسارية[٢٤٥] .

• الفنادق :

تعتبر الفنادق من أهم المؤسسات التجارية فى المركز الاقتصادى فى المدن الإسلامية بوجه عام وهى تقابل فى بلاد المغرب والأندلس الخان فى المشرق الإسلامى[٢٤٦] .

وتمتاز الفنادق بأنها تجمع بين الصفة الاقتصادية التجارية والاجتماعية فلم تكن وظيفتها مقصورة على إيواء المسافرين من التجار الغرباء فحسب بل كانت سوقاً لبيع السلع بالجملة[٢٤٧] .

ويشير الأنصارى إلى توفر عدد كبير من الفنادق فى مدينة سبته فيذكر أنه كان بها ٣٦٠ فندقاً[٢٤٨] .

ورغم ما فى هذا الرقم من مبالغة إلا أنه يتأكد لنا مما سبق أن أشرنا إليه أن مدينة سبته كانت محطاً للتجار من مختلف الأنحاء ، الأمر الذى دعا إلى توفير هذا العدد الهائل من الفنادق لإقامتهم بل وتخصيص أكبر هذه الفنادق وهو الفندق الكبير فقط لحفظ المنتجات الزراعية[٢٤٩] .

ويستدل مما ذكره الأنصارى عن فنادق سبته بأنها كانت تمتاز فى جملتها بالضخامة وتعدد طوابقها وبيوتها المخصصة لإقامة التجار[٢٥٠] . فضلاً عن العناية بتجميلها بالنقوش الجصية وأعمال النجارة ، إذ تعرض الأنصارى لذكر أحد التفصيلات التى تتعلق بأعمال الزخرفة فى فندق الوهرانى ، والتى أشار إليها بقوله (وأبدعها صفة فندق الوهرانى جمع هذا الفندق صنائع الجص والنجارة وعلى بابه عقاب غريب الشكل مفقود النظير)[٢٥١] .

• المنشآت الصناعية :

من الملامح الرئيسية لمدينة سبته أنها ذات طابع صناعى تجارى ، ولذلك كثرت بها المنشآت الصناعية التى شكلت جانباً هاماً فى تكوينها المعمارى . ومن أمثلة تلك المنشآت التى ذكرها الأنصارى.

• المقاصر (٢٥٢) :

كانت الصباغة من الصناعات الشهيرة بمدينة سبته الإسلامية حيث أحصى الأنصارى الأماكن المعدة لتلك الصناعة بـ ٢٥ مقصراً وحدد لنا موقعها بقوله (وكلها تحت الأسوار والأبراج والأبواب . ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به تحط فيه الأمتعة ليلاً وتنشر نهاراً إلى أن تتم قصارتها وتتخلص فلا يخاف عليها طول تلك المدة من لص ولا يتكلف بحملها بالغداة والعشى مؤنه كما فى سائر البلاد)[٢٥٣] .

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية ، إذ يوضح لنا مدى شهرة سبته فى صناعة المنسوجات على أساس أن صباغتها من العمليات الأساسية فى تلك الصناعة . كما يدلنا على أن تلك المقاصر أو المصابغ كانت تقع فى أطراف المدينة بالقرب من أسوارها وأبوابها وأبراجها . وواضح أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن حرفة الصباغة تستلزم وجود ورشها أو مقاصرها خارج أبواب المدينة حتى لاتؤذى السكان ، فضلاً عما توفره أبراج الأسوار من حماية للمنسوجات المعدة للصباغة. وقد تحقق ذلك لمقاصر سبته بحكم

للصباغة. وقد تحقق ذلك لمقاصر سبته بحكم وقوعها داخل أبراج المدينة ، وبذلك توفرت فى تلك المصابغ كافة الشروط المناسبة لتفى بالغرض من إنشائها .حيث كان الأمان شرطاً أساسياً فى إقامة تلك المقاصر(٢٥٤) كما أوجبت الضرورة الوظيفية إقامة المقاصر الغزلية بمدينة سبته البالغ عددها ١٩ (تسعة عشر مقصراً) عند مجرى مائى حيث تم توزيع تلك المقاصر على ستة أماكن تتوفر فيها المياه ، منها قالة البسابس وقالة الصندل وقالة العين(٢٥٥) . ويعكس ذلك بوضوح تعريف مصطلح القالة بأنه كان يطلق بالمغرب فى القديم على بعض الأسوار التى يجرى فوقها الماء داخل قواديس(٢٥٦) .

• المنجرات :

المقصود بالمنجرات المكان الذى ينجر فيه الخشب والعود . وكان يطلق خاصة على دور صناعة السفن بالمراسى ودور صناعة السلاح بها وبغيرها . وقد يطلق تجاوزاً على المكان الذى يجلس به جباة الأموال وولاة الأحكام(٢٥٧) . ومعظم تلك المنجرات كان معداً لصناعة القسى(٢٥٨) التى اشتهرت سبته بصنعتها معتمدة فى ذلك على ما لديها من مواد خام ، وأيدى صناعية ماهرة وقد أشار الأنصارى إلى تلك المنجرات المعدة لصناعة القسى وأحصاها بـ ٤٠ منجرة بقى منها فى زمانه ١٥ (خمس عشر منجرة) . كما أشار إلى أشهر الشخصيات المتخصصة فى هذه الصناعة منذ القدم مثل الشيخ أبو عبد الله محمد الحسنى . والشيخ أبو عبد الله محمد عبد الله المعروف بالعقدة ، وكان متقدماً فى هذه الصناعة فى زمانه ، فضلاً عن الشيخ أبى الحسن العبادى الذى اشتهربكثرة أدواته ومتعلقاته التى كانت تعينه على اتقان هذه الصنعة(٢٥٩) .

• المضارب والمصايد :

المقصود بالمضارب المكان الذى تضرب فيه شباك صيد الأسماك من البحر فى عامية المغرب والأندلس . وهذه الكلمة العربية -مضربة أو المضربة- بقيت فى اللغة الأسبانية بهذا الشكل Almadraba (٢٦٠) .

أما عن المصايد فيقول (وعدد ما وقفنا عليه من المصايد سوى ما لم نقف عليه مئتان واثنتان وتسعة وتسعون مصيداً) (٢٦٢) .

وإذا كان النص قد أورد فيه الأنصارى أرقاماً مغالى فيها بالنسبة لعدد تلك المضارب والمصايد ، إلا أنها تدل فى وضوح على أن تلك المنشآت الصناعية الخاصة بصناعة أدوات الصيد كانت من الصناعات الزاهرة بمدينة سبته . وقد ساعد على هذا الازدهار تعدد مواقع مصايد الأسماك على امتداد سواحل سبته على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، حيث اشتهرت تلك السواحل بثرائها فى الأحياء البحرية لاسيما المرجان(٢٦٣) . فضلاً عن تعدد أنواع أسماكها إلى أن بلغت نحو مائة نوع(٢٦٤) .

المطامير :

ومن المنشآت الاقتصادية بمدينة سبته المطامير أى الأهراء تحت الأرض والتى كانت تستخدم كمستودعات لطمر القمح وخزن الغلال . من أجل تصديره أو استهلاكه محلياً.

وقد أحصى الأنصارى مطامير سبته بأربعين ألفاً - ٤٠ ألف -وأشاد بقدرتها فى المحافظة على ما كان يحفظ بها من القمح بقوله(يمكث الزرع فى هذه المطامير الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغير ، لطيب البقعة واعتدال الهواء وكونها جبلية)(٢٦٥).

ويبدو أن العناية بإنشاء تلك المطامير ترجع إلى أن أحواز سبته كانت فقيرة ووعرة ، مما جعل المدينة تعانى دائماً من قلة الحبوب(٢٦٦). وإن كانت قد توافرت بها الخضروات والفواكه حيث كان بسبته من البساتين والأجنة ما يقوم بأهلها وفقاً لما ذكره ابن حوقل(٢٦٧).

• ديار الإشراف المالى(٢٦٨) :

كان لسياسة حكام سبته فى مراقبة نشاطها التجارى والصناعى أثرها الواضح فى تطور هذه المدينة وازدياد عمرانها ، حيث اهتم هؤلاء الحكام بإنشاء دور للإشراف المالى

لعبت دوراً هاماً فى تنظيم الشئون الاقتصادية والتجارية ، وأثرت تأثيراً واضحاً فى المحافظة على المنشآت التجارية والصناعية.

ويحدثنا الأنصارى عن دور الإشراف المالى بمدينة سبته فيقول إنها أربعة وهى دار الإشراف على عمال الديوان(٢٦٩) . وداز الإشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة ودار الإشراف على شد الأمتعة وحلها (الجمارك) وهى المعروفة بالقاعة(٢٧٠)حيث تجارة العطر(٢٧١) .

• المقابر :

الواقع أن ما ورد فى المصادر العربية عن مقابر سبته يعد شحيحاً . ولكن بفضل ما زودنا به الأنصارى عن تلك المقابر نستطيع أن نحدد على نحو مؤكد وجود نوعين من المقابر الإسلامية بمدينة سبته. أحدهما . مقابر الأولياء الصالحين والعلماء والفقهاء ، والآخر مقابر العامة.

(أ) مقابر الأولياء الصالحين أو المزارات المباركة :.

اتخذت المنطقة الممتدة بسفح جبل الميناء شرقى مدينة سبته(٢٧٢) نواة لإقامة قبور الأشخاص المشهود لهم بالورع والتقوى من الأولياء الصالحين من أهل سبته. وكان لتلك القبور مكانة روحية ودينية فى نفوس أهل سبته ، فكانوا يقصدونها للزيارة والتبرك . وقد أحصى الأنصارى بعض تلك المقابر بـ٨٢(اثنين وثمانين قبراً). فضلاً عن بعض المزارات التى تضم قبور عديدة ليست بداخلة فى هذا العدد(٢٧٣).

وتتجلى أهمية نص الأنصارى الخاص بوصف تلك المقابر فى أنه زودنا بأسماء من دفن بهذه المقابر من أهل العلم والفقهاء الصالحين ، بحيث يعد ما سجله عنها من أسماء من دفن بها سجلاً وافياً ودليلاً كاملاً لمعظم كبار أعلام سبته فى مختلف الفنون والعلوم . وأهم المزارات أو مقابر الصالحين التى وصفها الأنصارى مقبرة التوته من الميناء بشرقى المدينة وفيها قبر الولى أبى ذرعه وهو مزار مشهور . وأبى ذرعه هذا

هو الذى أدخل القرآن الكريم إلى المغرب [٢٧٤] والدعاء عند قبره مستجاب على حد قول الأنصارى [٢٧٥]. ومن مزارات سبته الشهيرة أيضاً المقبرة الكبرى التى بسفح جبل الميناء ، وفيها كان يوجد قبر الشيخ الأستاذ العلامة المصنف أمام النحويين أبى الحسن بن أبى الربيع القرشى الأموى العثمانى الأشبيلى نزيل سبته[٢٧٦] ومقبرة المنارة[٢٧٧] ومقبرة الحافة[٢٧٨] ومقبرة مسجد المحلة[٢٧٩] ومقبرة الشريعة بالربض الأوسط[٢٨٠] .

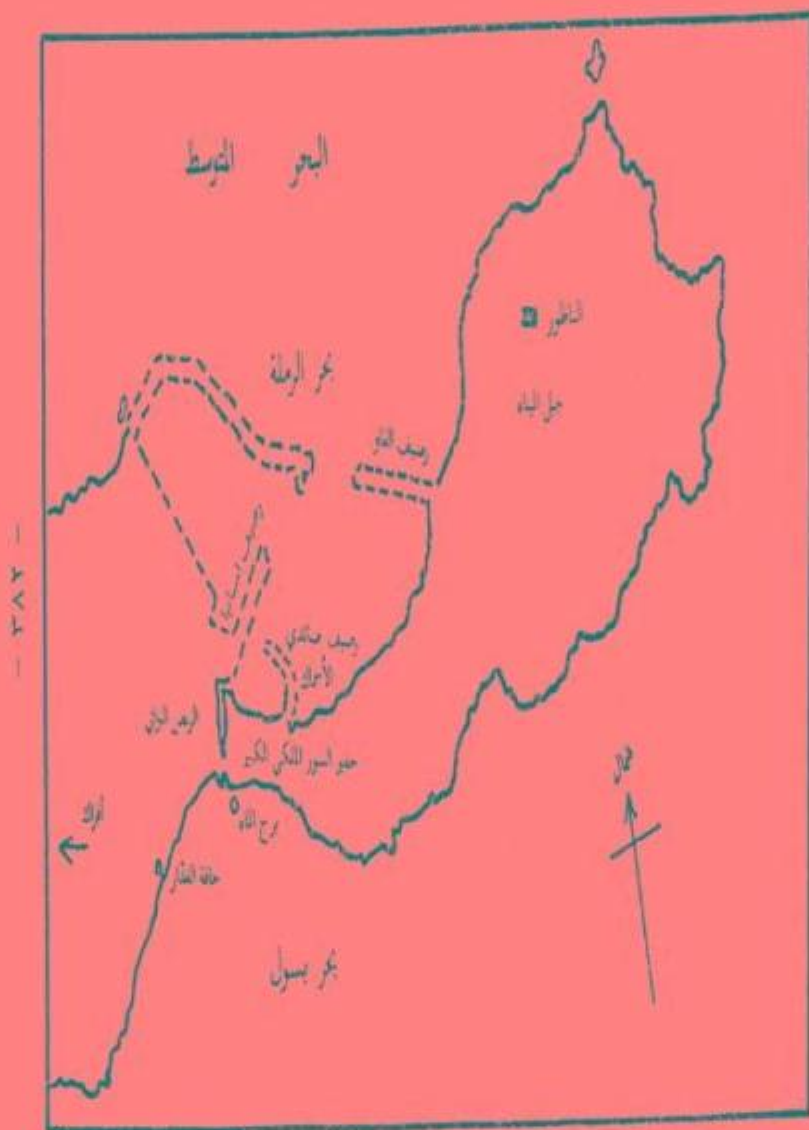
(ب) مقابر العامة :

أما مقابر العامة فقد أحصاها الأنصارى بـ١٣ ثلاث عشرة ، موزعة بداخل المدينة وخارجها ، منها مقبرة المنارة . ومقبرة البلد القديم ومقبرة الحارة ومقبرة مضرب الشبكة ومقبرة أحجار السودان الأولى والثانية[٢٨١].

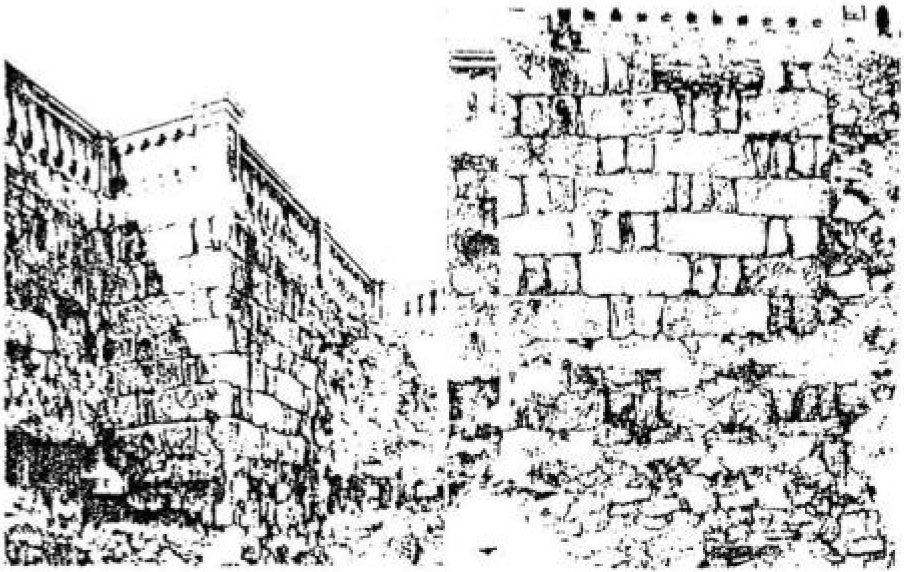
و لم يزودنا الأنصارى فى وصفه لتلك المقابر بأسماء من دفن بها . ومرجع ذلك أنها كانت على عكس مقابر الفقهاء والأولياء الصالحين ، كان يدفن بها عامة الناس من غير المشاهير .



ش (١) (أ) خريطة سبتة وضواحيها (عن عبد الوهاب بن منصور)

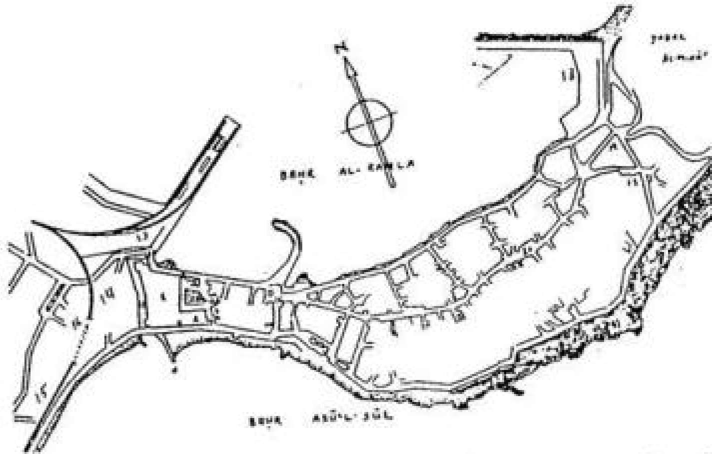


س (أب) خريطة تقريبية لسبتة في أواخر الفترة الإسلامية (عن . ج . د. ليثام)



شكل (٢)

أحد أبراج السور الشمالي لمدينة سبته (عن تراس)



(شكل ٣أ) (عن خواكين بالبين) خريطة توضيحيه لمواقع مدينة سبته ومعالمها الإسلامية

(١) القصر ، (٢) الجامع ، (٣) المدرسة الجديدة ، (٤) سوق العطارين ، (٥) المسجد ، (٦) سماط العدول ، (٧) القيساريه ، (٨) الباب لأعظم ، (٩) باب الزلاقة ، (١٠) باباالقصابين ، (١١) برج الماء ، (١٢) حفير الحاج ، (١٣) القصابون ، (١٤) الربض البرانى ، (١٥) حافة الفدر (الكدلل) (١٦) حفير، (١٧) مسجد المقبرة ، (١٨) الميناء ، (١٩) باب الميناء ، (٢٠) زقاق ابن عيسى.



شكل (٣ب) (عن خواكين بالبين) خريطة أخرى لمواقع مدينة سبته و معالمها الإسلامية

(١) الناضور ، (٢) القصبه ، (٣) دار الصناعة ، (٤) رباط أبى العباس ، (٥) المصلى ، (٦) المقبرة ، (٧) حفير أو حفرة المختار ، (٨) عرقوب ، (٩) مضرب الشبكة ، (١٠) مضضرب أويات ، (١١) أفراك ، (١٢) باب فاس.

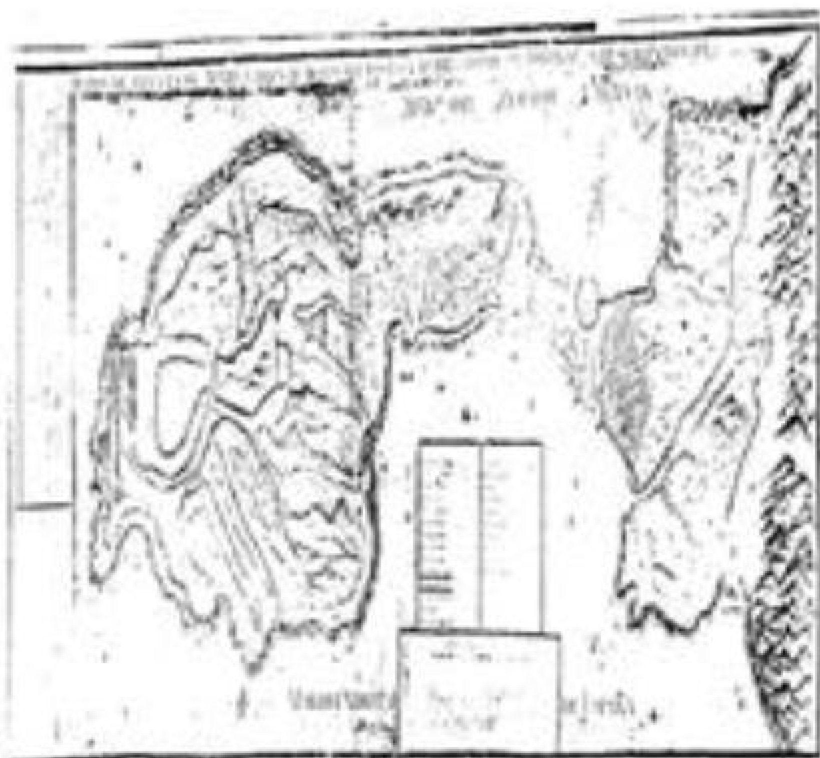
شكل (٤) رسم كروكي لأسوار سبتة من خلال الرسوم التخطيطية القديمة للمدينة (عن كارلوس جوثالبس)



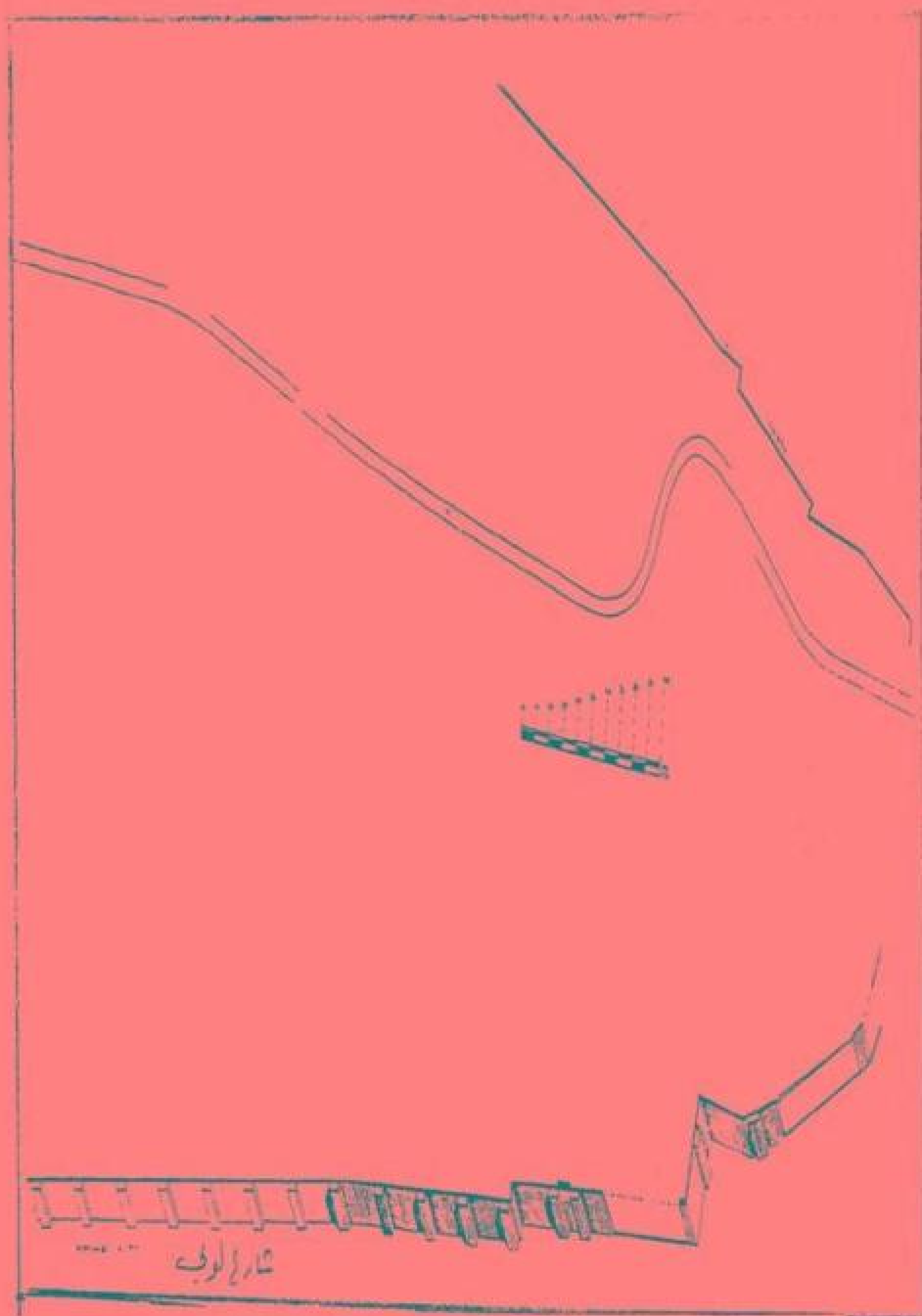
شكل (٥)

الجانب الغربي لمدينة سبته كما وردت صورته في مصدر برتغالي مؤرخ بالقرن ١١هـ/١٧م

(عن أمين توفيق الطيبي)



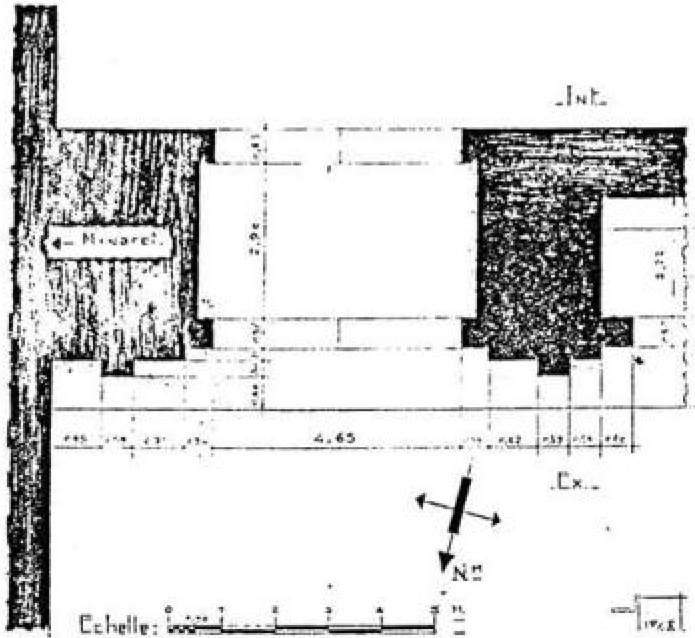
شكل (٦) خريطة كورنوا ولبابت في حالة القرن ١٨ م المحفوظة في مصلحة المساحة العسكرية (عن الوسه)



شكل (١٧) رسم افتراضي لمنطقة الوكالة في ضوء مخطط في سبتة في القرن ١٨م (عن بالوف)

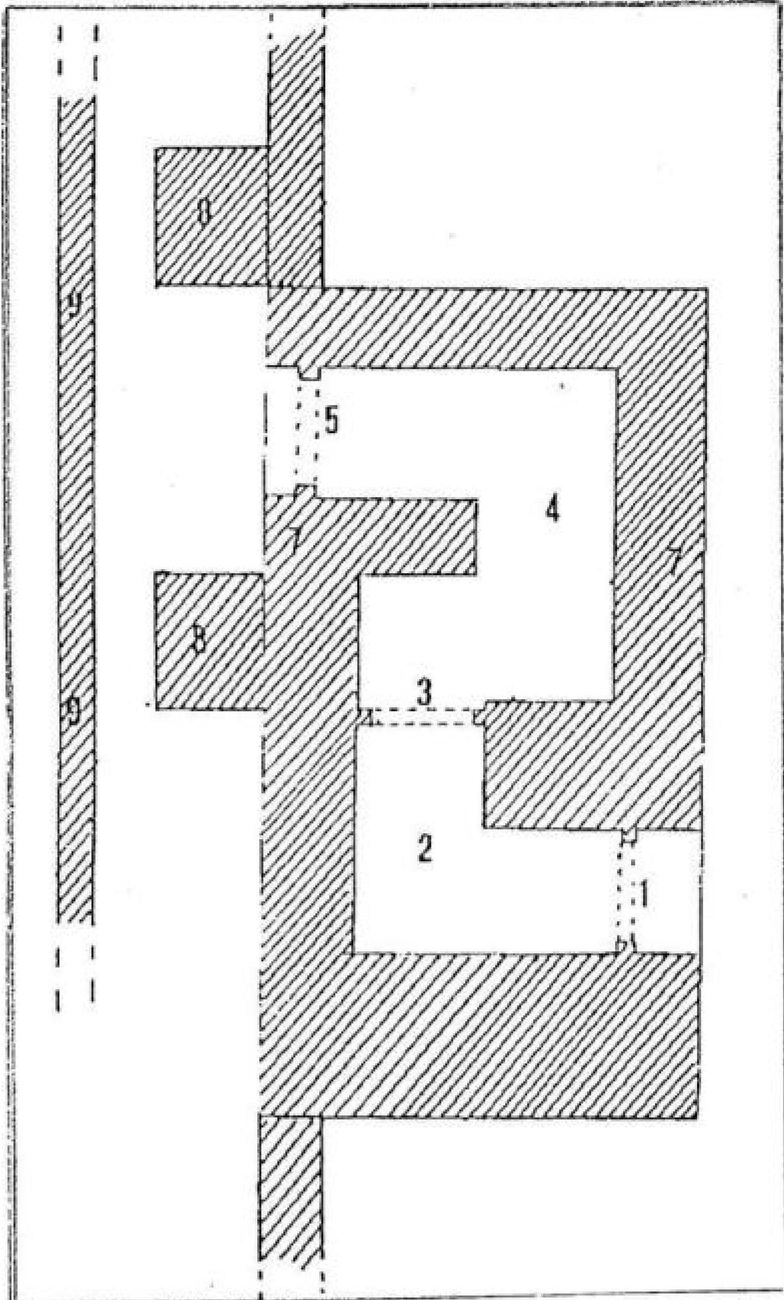


شكل (١٧ب) خريطة كونتورية لمنطقة الفراك (عن بافون)

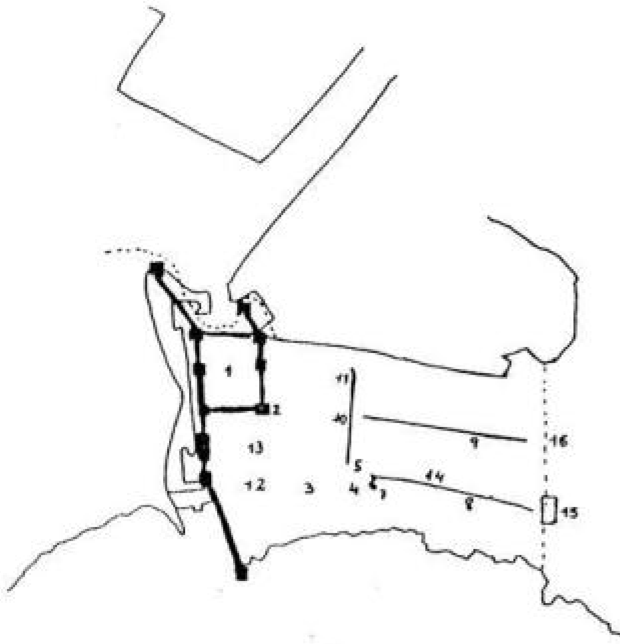


شكل (٨)

رسم تخطيطي لباب مسجد حسان بالرباط (عن بافون)



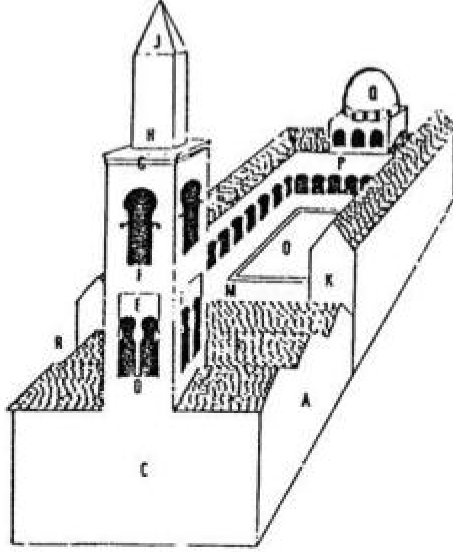
شكل (٩) رسم افتراضى لباب سبته المعروف بـ (الباب الجديد) (عن كارلوس جوثابلس)



شكل (١٠)

رسم تخطيطى لمركز سبته العمرانية (عن كارلوس جوثابلس)

١ - القصبة أو القلعة .
٢ - برج الحراسة .
٣ - المسجد الجامع .
٤ - حمام القائد .
٥ - المدرسة الجديدة .
٦ - نافورة .
٧ - حباب .
٨ - سوق العطارين الموجود الآن بشارع خاوديبس) .
٩ - شارع ابن عيسى (المعروف الآن بالشارع الأعظم) .
١٠ - شارع الموثقين (المعروف ان بشارع سان اودنيا)
١١ - مسجد الموثقين .
١٢ - القيسارية .
١٣ - سوق السقاطين .
١٤ - دابة الأشراف الأدارى .
١٥ - منطقة الجمرك .
١٦ - باب الربض الأوسط .



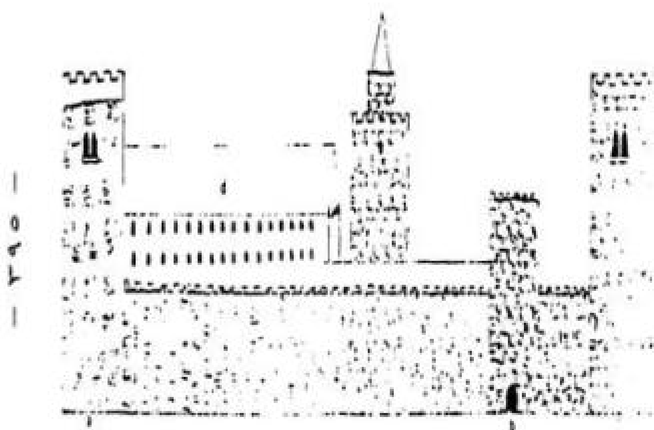
شكل (١١)

رسم افتراضي للمدرسة الجديدة بمدينة سبتة (عن كارلوس جوثابلس)



شكل (١٢)

رسم افتراضي للسور الغربي لقصبة سبتة (عن كارلوس جوثالس)



شكل (١٣)

رسم افتراضي للسور الشرقي لقصبة سبتة (عن كارلوس جوثالبس)



لوحة (١)

باب فاس بمدينة سبتة (عن بالوت)



لوحة (٢أ)

بقايا باب فاس بمدينة سبتة (عن بافون)



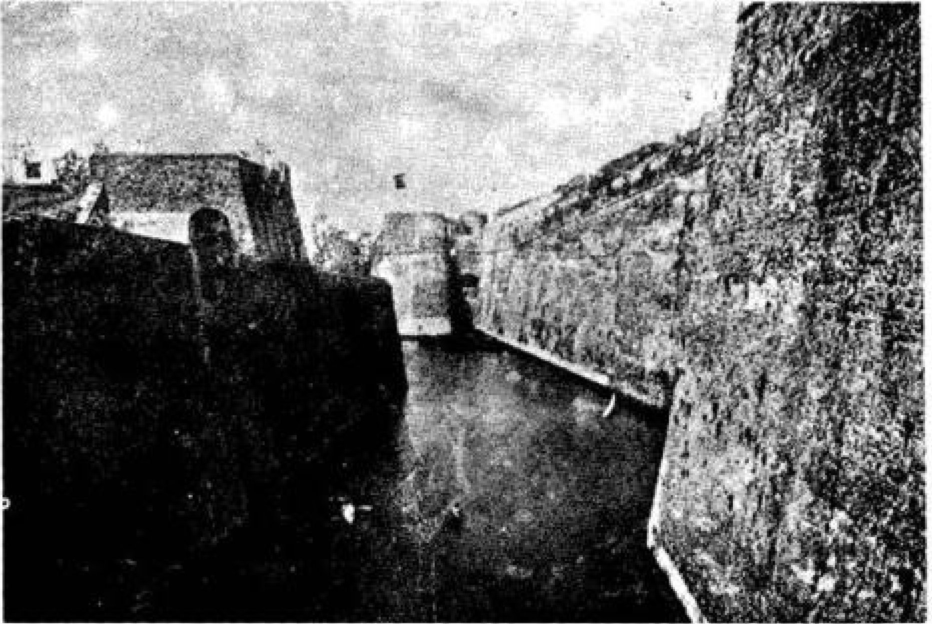
لوحة (١ ب)

بقايا باب فاس بمدينة سبتة (عن بافون)



لوحة (٣)

باب السلاح بغرناطة (عن بافون)



لوحة (٥)

بقايا حصون أسبانية وبرتغالية مواجهة للمغرب يفصلها بحرابى السول

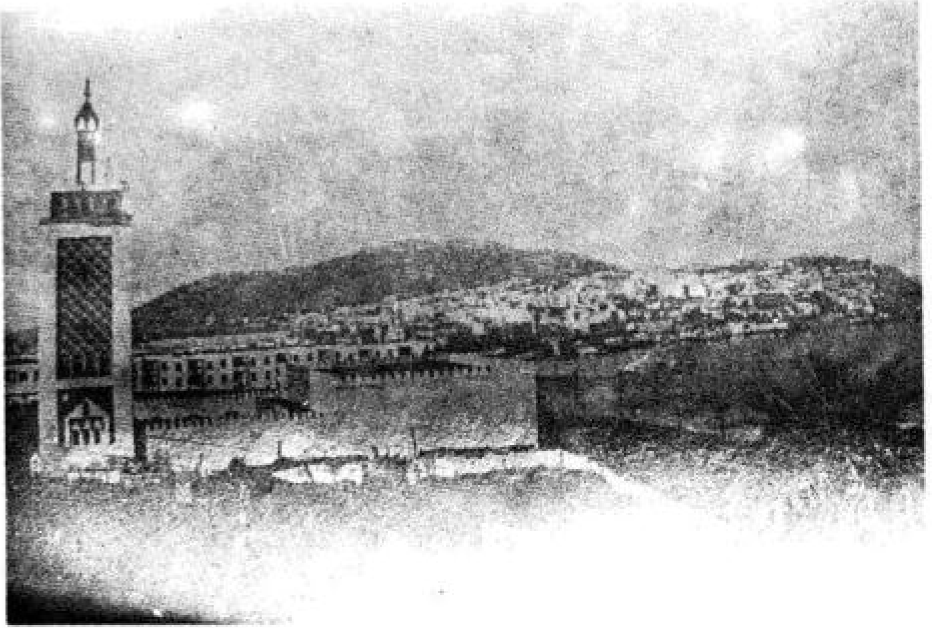
(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٤)

أحد شوارع سبته المعروف بالشارع الكبير والى اليمن

كان يوجد زقاق ابن عيسى (عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٦)

مسجد حديث يمثل الأثر الإسلامي الوحيد بمدينة سبتة

(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٧)

منظر عام سبته

(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٨)

منظر آخر لمدينة سبته وفي الخلفية يظهر جبل طارق

(عن عبد الوهاب بن منصور)

الهوامـش

(١) راجع البكرى (عبيد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك . مكتبة المثنى بغداد (مصور من طبعة دى سلان . الجزائر ١٨٥٧ م .) ص ١٠٣ حيث الإشارة إلى أن مدينة سبته مدينة قديمة سكنها الأول وبها آثارهم وبقايا كنائس وحمامات .

وكذلك راجع : مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار . نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد . مطبعة الإسكندرية ١٩٥٨. ص ١٣٧ ، الحميرى (أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عبد المنعم): الروض المعطار فى خبر الأقطار . تحقيق . د. إحسان عباس. بيروت . ١٩٨٤. ص ٣٠٣.

وقد اختلف المؤرخون حول تفسير اسم مدينة سبته فالبكرى والإدريسى يذكران بأنها سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها إلا من ناحية الغرب ، والبحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ، ولم يبق بينهما إلا أقل من رمية سهم (راجع البكرى : المصدر السابق . ص ١٠٣) ، كذلك راجع الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . تحقيق مجموعة من العلماء . نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . بدون تاريخ . جـ٢. ص ٥٢٨ .

أما المقرى فيذكر نقلاً عن ابن سعيد بأن سبته سميت بهذا الاسم نسبه إلى سبت بن تافث ابن نوح) : المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق د. إحسان عباس . بيروت ١٩٨٨. جـ١. ص ١٢٥. ويفيد ليو الأفريقى بأن الرومان كانوا يطلقون عليها اسم سيفيسطاس ، وسماها البرتغاليون سوتبة : ليُوْ الأفريقى (الحسن ابن محمد الوزان الفاسى) : وصف أفريقيا ، ترجمةً عن الفرنسية د. محمد حجى ، د. محمد الأخضر . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر دار الغرب الإسلامى . الطبعة الثانية ١٩٨٣.جـ١. ص ٣١٦. وفى رأى أحد الباحثين أن اسم سبته مشتق من الكلمة اللاتينية (سبتوم أو سيقوم) Septum بمعنى سبعة لأن سبته كما يذكر الأدريسى ، عبارة عن سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض . (راجع الإدريسى . المصدر السابق . جـ٢. ص ٥٢٨ ، كذلك راجع . رضوان البارودى . التاريخ السياسى لمدينة سبته منذ القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى . فصلة من المجلة التاريخية المصرية . المجلد السادس والثلاثون ١٩٨٩. ص ٣٥ - ٣٦ حاشية (١).

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين) : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة رسائله) . نشر وتحقيق د. أحمد مختار العبادى . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية ١٩٨٣ . ص١٠١ . هامش (١).

(٣) عندما سيطرت جيوش الدولة البيزنطية على مدينة سبته قام جستنيان بتحصينها عام ٥٣٥م. ومنذ ذلك التاريخ وولاة الدولة البيزنطية يقومون على حكمها إلى أن كان آخرهم بليان الكونت فى أواسط القرن السابع الميلادى ، والمشهور أنه كان مغربياً من قبيلة غمارة التى استمرت صاحبة هذه الجهات حتى فى العصر الإسلامى (راجع محمد ابن تاويت . تاريخ سبته . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر . الطبعة الأولى. ١٩٨٢. (ص١٤ - ١٥) . وقد لعب يوليان دوراً هاماً فى تحريض العرب على فتح الأندلس حيث اتصل بطارق بن زياد حاكم طنجة وطلب منه فتح الأندلس . (راجع السيد عبد العزيز سالم . تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . مؤسسة شباب الجامعة. إسكندرية ١٩٩٧. ص ٦٦- ٦٧ كذلك راجع . أحمد مختار العبادى . فى تاريخ المغرب والأندلس . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية بدون تاريخ . ص ٥٤ - ٥٥) .

(٤) بعد فتح المسلمين للأندلس عن طريق سبته ساعدتهم الظروف فى ضم هذه المدينة إلى دائرة نفوذهم . وقد خضعت سبته لحكم قبيله غمارة وزعيمها ماجكس أوما جكن . كما كانت من المدن التى ولاها الإمام محمد بن ادريس الثانى عام ٢١٣هـ/٨٢٨م .
ولمزيد من التفاصيل عن أحداث تلك الفترة راجع : سعد زغلول عبد الحميد. تاريخ المغرب العربى : نشر منشأة المعارف . إسكندرية ١٩٩٠.جـ٢.ص١١٠-١١ ، كذلك جـ٣ ص٢١١،٢٣٤ ، رضوان البارودى المرجع السابق . ص٣٩-٤٠ .

(٥) كان سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر قد عين على بن حمود على سبته عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م . مكافأة له على انضمامه معه فى صراعه ضد الخليفة الأموى هشام المؤيد : ابن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام . القسم الثانى . الخاص بأسبانيا الإسلامية . تحقيق أ. ليفى بروفنسال. بيروت. ١٩٥٦.ص١١٩ ولمزيد من التفاصيل راجع (سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق . جـ٣.ص٥٠٦،٥٠٨ .

(٦) عن سقوط البراغواطي وكيف قدر له أن يظهر في هذه الفترة من تاريخ سبته . راجع البكرى . المصدر السابق . ص١٣٤-١٤١ ، ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد). البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق .ج.س. كولان أ. ليفي بروفنسال بيروت ١٩٨٣. حـ١ . ص٢٢٣-١٣٨، سعد زغلول. المرجع السابق . حـ٣ . ص ٥٠٨-٥٠٩، رضوان البارودى. المرجع السابق. ص ٥٧-٦٠.

(٧) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ سبته خلال فترة حكم سقوط البراغواطى . راجع . ابن بسام. المصدر السابق. م٢.ق٢.ص٦٥٨-٦٦٠، ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) العبر وديوان المبتدأ والخبر. طبعة بولاق. ١٨٢٤. حـ١. ص١٥٧ رضوان البارودى : المرجع السابق ص ٦٠-٦٥.

(٨) راجع : ابن أبى زرع : الأنيس المطرب : ص٩٣. حيث الإشارة إلى أنه بمجرد دخول سبته فى طاعة المرابطين خرج إليها يوسف بن تاشفين «فهدنها وأصلح أحوالها وسفنها ولحقت به العساكر والجنود وقدمت عليه الوفود».

(٩) ابن عذارى . البيان المغرب. قسم الموحدين . تحقيق كل من محمد ابراهيم الكتانى ، محمد ابن تاويت ، محمد زنيبر ، عبد القادر زمامة . بيروت. ١٩٨٥ص ٢٤-٢٦، ولمزيد من التفاصيل عن تاريخ سبته على عهد الموحدين راجع ابن خلدون. العبر . حـ٦ ص٢٣٥. محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٦٥-٧٦.

(١٠) عن تاريخ سبته فى عهد الحفصيين راجع : أمين توفيق الطيبى. بنو العزفى أصحاب سبته بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته الإسلامية. طرابلس. بدون تاريخ . ص ٦٨-٧٦، محمد بن تاويت. تاريخ سبته . ص١٠٨-١٠٩.

(١١) يبدأ تاريخ ابن العزفى بفقيه سبتى هو أبو العباس أحمد العزفى الذى يوصف والده أبو عبد الله محمد بأنه كان فقيهاً وعالماً ومحدثاً وقاضياً ، وقد أعلن سلطانه على سبته واستقل بها عن الحفصيين ٦٤٧هـ/١٢٤٩ م وظل يحكمها حوالى ثلاثين سنة إلى أن توفى عام ٦٧٧هـ /١٢٦٨م، ولمزيد من التفاصيل عن الظروف التى ساعدت أبا العباس أحمد فى السيطرة على مدينة سبته ومدى حب وتقدير أهلها له راجع . ابن عذارى . البيان المغرب. قسم الموحدين . ص٣٩٧ - ٣٩٩ ، كذلك راجع محمد بن تاويت. المرجع السابق ص ١١٠ -١١٣ .

(١٢) أمين توفيق الطيبى . النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته ، بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبتة- ص٤٦ - ٤٧ ، كذلك راجع محمد بن تاويت. المرجع السابق ص ١٣٤ وما بعدها.

(١٣) نفس المرجع ص ٤٧- ٤٨ ، كذلك راجع :

جوليان شارل أندرى : تاريخ أفريقيا الشمالية . ترجمة : محمد مزالى والبشير بن سلامة : تونس ١٩٧٨ ص ٢٤٩.

(١٤) أمين توفيق الطيبى : احتلال البرتغاليين مدينة سبته المغربية (مقدماته ودوافعه ونتائجه) . (بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته) ص ١٣٧ .

(١٥) مؤلف مجهول : بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته من الدول المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب . تحقيق : عبد الوهاب المنصورى . الرباط ١٩٨٤ .

(١٦) مؤلف مجهول : بلغة الأمنية . ص٢٣ حيث الإشارة إلى أنه توفى فى عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م. وكان موضع أقرانه بمسجد القفال وكان يدير ظهره إلى حوار القبلة من بعد صلاه الصبح ويمشى دوله أثر دوله فى الفنون العلمية إلى أن تزول الشمس.

(١٧) نفس المصدر . ص٣١ -٣٢ . حيث الإشارة إلى أنه توفى فى عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. وكان يحمل صحيح البخارى عن الحجار وهو سند عادل متصل السماع لانظير له فى المغرب .

(١٨) نفس المصدر. ص٤٤ - ٤٥ . حيث الإشارة إلى وفاته عام ٨٠٢هـ/١٤٠٠م وإلى أنه كان فقيهاً محدثاً حسابياً مشاركاً فى أصول الدين والنحو والتاريخ وكان متودداً للطلبة حسن التعليم والإلقاء .

(١٩) نفس المصدر : ص٥٥ - ٥٦ . حيث الإشارة إلى أنها قرأت الطب على صهرها الشيخ أبى عبد الله الشريشى ونبغت فيه .وكانت عارفة بالطب والعقاقير كما كان لها رباع تغتلها عهدت بتوقيفها فى وجوه البروسبيل الخيرات .

(٢٠) الأنصارى : اختصار الأخبار. نشر بروفنسال. ص١

(٢١) المصدر السابق . ص٣ .

(٢٢) محمد بن القاسم الأنصارى السبتى : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سنى الآثار تحقيق عبد الوهاب بن منصور . الطبعة الثانية . الرباط . ١٩٨٣ ص٧ .

(٢٣) المصدر السابق نشر بروفنسال . ص٩ . حيث الإشارة إلى أنه استوعب وصف جامع سبته وذكر ما ينبغى أن يذكر من تاريخ وخبر فى بغية السامع من تأليفنا .

(٢٤) نفس المصدر . ص ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ .

(٢٥) نفس المصدر . ص٢ .

(٢٦) يظن الأستاذ عبد الوهاب بن منصور . أن الكتاب طبع بعد طبعة تطوان طبعتين أخرين إحداهما بطنجة والأخرى بالرباط ولكنه لم يشر إلى سنة الطبع ولا إلىاسم الناشر راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشر عبد الوهاب بن منصور ص٨ .

(27) Joaquin Valve Bermejo : Descripcion de cetua Musulmana. En el siglo XV;, Alandalus vol, XXVII. Madrid 1912.

(٢٨) كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية فى طليطلة فى العصر الإسلامى . رسالة ماجيستير (غير منشورة) إسكندرية ١٩٨٩ . ص ٦٣ .

(٢٩) شكل رقم (١) .

(٣٠) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى) معجم البلدان . دار صادر بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٥. ص ١٨٣ .

(٣١) حيث الطبيعة مدينة سبته موقعاً استراتيجياً جعلها من أمنع مدن الغرب الإسلامى . فهى تقع على برزخ يصل اليابسة فىالغرب بشبه جزيرة الميناء فى المشرق . وتطل على البحر المتوسط من الشرق ويكتنفها خليجان أحدهما فى الشمال والثانى فى الجنوب بحيث لايمكن الوصول إليها براً إلا من الغرب . (راجع مؤلف مجهول الاستبصار . ص ١٣٧ حيث الإشارة إلى أن البحر قد أحاط بها (أى بسبته) شرقاً وجنوباً وقبله وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب لو شاء أهلها أن يقطعوه لقطعوه .

(٣٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب . ص ١٠٣ .

(٣٣) الكذان : أو كدان نوع من الحجارة البيضاء يستعمل فى تشييد الجدران وتبليط الأرضيات . وقد شاع استخدام هذا النوع من الحجارة فى بلاد المغرب والأندلس منذ عصر الدولة الأموية (عبد الرحمن غالب . موسوعة العمارة الإسلامية بيروت ١٩٨٨ ص ٣٢٣ .

(٣٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ . ص ٢٠٤ .

(35) Carlos Gozalbes cravioto: ceuta Hispano portugesa (instituto de estudios ceuties):, cetua, 1993. p.p 93-94.

(٣٦) شكل رقم ٢ .

(37) Henri Terrasse: un vestige des fortifications omeiyades: Alandalus. v, XXVII. Fasc I. 1992. p, 245.

(٣٨) شكل رقم (١) أ ، ب .

(٣٩) الإدريسي : نزهة المشتاق جـ٢ ص ٥٢٨ ، مؤلف مجهول : الاستبصار ص ١٣٧ ، الحميرى : الروض المعطار . ص ٣٠٣ .

(٤٠) ابن أبى زرع : (أبو الحسن بن عبد الفاسى) : الزخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية. منشورات دار المنصور للطباعة . الرباط . ١٩٧٢ ص ٨٠ .

(٤١) شكل رقم (١) أ ، ب ، شكل رقم (٣) أ ، ب .

(٤٢) شكل رقم (٤) ، شكل رقم (٣) أ ، ب .

(43) Carlos Gozalbes : op .cit, p.p . 195-198 .

(٤٤) شكل رقم (٣) أ .

(٤٥) شكل ٤ .

(٤٦) شكل رقم (٣) أ ، ب ، شكل رقم (٤) .

(47) Carlos Gozalbes: op cit, p.p 193-194 .

(٤٨) شكل رقم (٥ ، ٦) ، شكل رقم (١) أ ، ب شكل رقم (٣) أ ، ب .

(٤٩) الأنصارى اختصار الأخبار . نشر بروفنسال . ص ٢٠ .

(٥٠) تقع هذه الروضة عند رابطة الفصيل ، وكانت تضم ثلاثين مقبرة دفن فيها كل أفراد أسرة الأشراف الحسينين الذين أتوا إلى سبته من صقلية ، وهناك صاهروا بنى العزفى أمراء سبته وبعد أسرة بنى العزفى نفوا إلى أسبانيا وظلوا تحت الحكم المسيحى إلى أن افتداهم السلطان أبو سعيد فعادوا إلى سبته واستقروا بها .

Joaquin vallva : opcit, p, 411. Not46.

(٥١) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٧ .

(٥٢) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٦ ، وكذلك راجع نشره محمد بن تاويت حيث الإشارة إلى أنه الشيخ الفقيه المشاور الخطيب الزاهد الشهير المعروف بالبركة الذى تراب ضريحه شفاء لذوى العاهات أبى عبد الله محمد بن مسعود المكى المعروف بابن الكنغر .

(٥٣) شكل رقم (٣) ب .

(٥٤) كلمة أفراك أو أفراق تعنى الحصن أو القصبة التى كان يوجد بها قصر الحاكم . وفيه كانت تدار شئون المدينة والإقليم حيث كان يقيم السلطان وحراسه وحاشيته (راجع الأنصارى . نشرة بروفنسال ص٢٢) حيث الإشارة إلى أن منطقة أفراك كانت مخصصة لسكن الأمراء والأحناد وغيرهم . وفى موضع آخر يشير الأنصارى إلى أن أفراك المدينة كانت تمثل القصر الملوكى الذى أعده بنى مرين هناك لنزولهم. (الأنصارى . ص٢٠) . كذلك راجع ابن الحاج النميرى (فيض العباب وإفاضة قدح الآداب فى الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب . (تحقيق محمد بن شقرون . الرباط ١٩٨٤ . ص٦٤-٦٧ .

(٥٥) هو السلطان فارس المكنى بابى عنان والملقب بالمتوكل على الله ولد عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨ م بفاس وثار على أبيه أبى الحسن بتلمسان علم ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م واستولى على المغرب الأقصى وكان محباً للعلوم ومغرماً بالبناء وقد توفى فى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧ م بعد أن حكم سبع سنين وتسعة أشهر (ولمزيد من التفاصيل عنه راجع: مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . نشر غلوس . رباط الفتح ١٩٣٦ . ص ١٥٠ (كذلك راجع أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر : روضة النسرين فى دولة بنى مرين . مطبوعات القصر الملكى . الرباط ١٩٦٢ ص ٢٧-٢٨ ، لسان الدين بن الخطيب : نفاضة الجراب من غلالة الاغتراب) تحقيق أحمد مختار العبادى ومراجعة عبد العزيز الأهوانى . دار الكتب العربية بالقاهرة . بدون تاريخ) . ص ٧٤ حاشية (٥) .

(٥٦) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١ .

(٥٧) نفسه : ص ٢١ .

(٥٨) المقصود بالسبقة المسافة المحددة لرمى السهم (ج.س لثيام موقع سبته الاستراتيجى ووسائل الدفاع عنها فى أواخر الفترة الإسلامية . بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ سبته : ص ٣٤١ حاشية ٧٥ .

(٥٩) الأنصارى : المصدر السابق ص ٢٣ .

(٦٠) لوحة ١ ، ٢ .

(٦١) شكل رقم (٨) .

(٦٢) يطلق على هذا الأسلوب فى المصطلح الأسبانى اسم escalo de Los tres plano que integran el alzado التقسيم الثلاثى المتتابع والمقصود تقسيم الامتداد الأفقى

والرأسى لواجهات الأبواب إلى ثلاثة فواصل متساوية ثم تجزئة القسم المركـزى المصمت بنفس الطريقة ، بحيث يتمكن المعمار من تحديد اتساع وارتفاع فتحة المدخل من خلال تقسيم الاتساع الكلى للواجهة ، بحيث يكون ارتفاع فتحة الباب فى الغالب تساوى ربع الاتساع الكلى للواجهة . وقد طبق هذا النظام على نحو رائع فى أبواب قصر قمارش بالحمراء Antonio Fernadez puertas : La fachada del palacio de comares Granada McMLXXX, p. 34 وكذلك راجع كمال عنانى إسماعيل عمارة القصور الإسلامية فى الأندلس وتطورها . رسالة دكتوراة غير منشورة إسكندرية ١٩٩٥ . ص ٣٧٧-٣٧٨ .

(٦٣) لوحه رقم (٣) .

(64) Pavon Maldonado : opcit, p, 75.

(٦٥) شكل رقم (٣) أ .

(66) Carlos Gozalbes Cravioto : ceuta Hispano Protuguesa, p, 199.

(٦٧) قلهرات جمعها قلهرات Calahorra بمعنى قلعة أو برج القلعة - راجع . Doz R supplement aux diccionnaires arabes, Tom, II leiden. Paris 1972. p. 401. وتعنى الكلمة فى اللغة الأسبانية القلعة الحرة أو البرج البرانى.

(٦٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٢٠-٢١ .

(٦٩) شكل رقم (٩) .

(٧٠) شكل رقم (٤) حيث الإشارة إلى المدخل الأول برقم (١) والمدخل الثانى برقم (٢) والمدخل الثالث برقم (٥) .

(٧١) شكل رقم (٩) حيث الإشارة فى الرسم الافتراضى للباب إلى هاتين الساحتين برقمى ٤، ٥ .

(72) Carlos Gozalbes: ceuto Hispano portuguesa p. 199.

(٧٣) أشار الأستاذ خواكين بالبين نقلاً عن الأستاذ أويثى ميراند فى - كتابه التاريخ السياسى للموحدين بأن هذا الباب قد أمر بتشييده أبو العلاء إدريس ابن السلطان الموحدى يوسف ابن عبد المؤمن عندما كان حاكماً على مدينة سبته وذلك فى الفترة من ٥٩٩هـ- إلى ٦١٨هـ. (راجع :

Joaquin vallve : Decripcion de ceuta en el siglo XV, p. 430. Not . 96.

(74) Henri Terrasse les Monuments de ceuta d'apres la Description D'Al-Ansari : Al-Alandalus : VXXVII, 1962 p, 444.

(٧٥) الأنصاري : اختصار الأخبار نشره بروفنسال ص١ .

(٧٦) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٩) ويقع هذا الباب في القطاع الشمالي من المدينة ويبدو من موقعه أنه كان يستعمل لتحصيل رسم خاص نظير المرور من خلاله Carlos Gozalbes : op .cit, 196 وربما يدعم هذا الظن أن سبته اشتهرت في ميدان التجارة براً وبحراً بحيث احتلت مكان الصدارة بين موانئ شمال أفريقيا وأصبحت محط رحلات المراكب من جنوة إلى أسبانيا وفرنسا. (امين توفيق الطيبي : النشاط الاقتصادي والعلمي بمدينة سبته المغربية، بحث ضمن كتاب دراسات في تاريخ سبته ص ٤٩) .

(٧٧) الأنصاري : نشره بروفنسال ص٢٨ حيث الإشارة إلى أن هذا الباب كان أحد أبواب بحر أبي السول وكان يقع أمام ميضأة جامع سبته . وبمطالعة الخريطة الموضحة لمعالم مدينة سبته ، يتضح أن هذا الباب كان يقع في القطاع الجنوبي من المدينة (شكل رقم (٣) أ ، (رقم ٩) . ويبدو أن الهدف من إقامة هذا الباب هو تصريف مياه الأمطار المتدفقة في هذه المنطقة لتنحدر نحو بحر أبي السول حتى لا تكتسح مياه الأمطار المنشآت التي كانت قائمة في تلك المنطقة لاسيما جامع المدينة . وكان يتقدم هذا الباب برج يعرف ببرج الماء، شيده السلطان المريني أبو الحسن ، بهدف التحكم في حركة المراكب التي كان تحط في ساحل سبته الجنوبي (راجع ابن مرزوق (محمد التلمساني) المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن : الجزائر ١٩٨١ . ص٣٩٩ .

(٧٨) الأنصاري : نشره بروفنسال ص٢١ .

(٧٩) نفس المصدر ص٢٢ .

(٨٠) نفس المصدر ص٢٥ .

(٨١) شكل رقم (٣ أ (رقم ١٠) وتجدر الإشارة إلى أن موقع هذا الباب خارج المدينة يتفق مع ما جرت عليه العادة في معظم مدن الغرب الإسلامي حيث كان القصابون أو اللحامون (الجزارون أو باعة اللحوم) يشترون الدواب حية من تجار المدينة ثم يسوقونها إلى مذابح تقع خارجها ، ثم تحمل إلى حوانيت القصابين بالسوق (السقطي) (أبو عبد الله محمد بن أبي محمد) كتاب آداب الحسبة نشر كولان وليفي بروفنسال . باريس ١٩٣١ . ص٩٠) وكانت حوانيت القصابين في سبته تقع بالقرب من الباب المذكور ،

فكان ذلك سبباً فى أن يطلق اسمهم على الحى الذى كان يرتبط بذلك الباب عبر طريق يصل بينهم (شكل رقم (٣ أ - رقم ١٣) .

(٨٢) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٢١ .

(٨٣) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة فى آداب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعة عبد الحميد العبادى . المطبعة الأميرية ١٩٥١ . ص٨٩ .

(84)Torres Balbas : ciudades Hispano Musulmanas Pulibicado Por instituto Hispano arabe de cultura Madrid. Sin Fecha V.I. p, 179.
Torres Balbas : aspectos de la ciudades Hispano Musulmanas : Revista del instituto Egipcio de Estudios islamicos en Madrid Vol, II, Madrid. 1954. p 92.

كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية فى طليطلة فى العصر الإسلامى ص ٧٨-٧٩.

(٨٥) الحارة فى اللغة محلة متصلة المنازل تدل على معنى الحومة (أى الحى) فى عرف أهل المغرب . أما فى العامية المغربية فتدل على حفير تلقى فيه جيف الدواب ، يكون بعيداً عن المدن حتى لا تؤذى السكان (الأنصارى : اختصار الأخبار نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٤٣ هامش ٨٧ .

(٨٦) اختلفت الآراء حول تفسير كلمة (الكسابون) فمنهم من يرى بأن صحتها الكناسون (الأنصارى: اختصار الأخبار نشرة محمد بن تاويت . ص٥٨ هامش ٥٧) بينما يرى الأستاذ خواكين بالبين أن المقصود بالكسابين هم رعاة البقر ، والقصابون أى باعة اللحوم (الجزارون) . ودليله على ذلك أنه ورد فى المدونات المسيحية ما يشير إلى أنه كان يوجد فى هذا الموضع حظيرة مسورة للمواشى ، يشغل مكانها الآن رصيف يعرف برصيف أسبانيا ، حيث ترسو عبارات أو مراكب الجزيرة الخضراء . Joaquin Vallve: opcit, p. 429 No T . 93. (راجع شكل رقم (٣ أ رقم (١٣) حيث الإشارة إلى مكان القصابين .

(٨٧) شكل رقم (٣) أ رقم (١٥) حيث الإشارة إلى موضع حافة الغدر .

(٨٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٢٠ ، كذلك راجع شكل رقم (٣) وشكل رقم (١) أ ، ب .

(89) Carlos Gozalbes : ceuta Hispano Portuguesa, p. 195.

(٩٠) الأنصارى . ص١٤ .

(٩١) شكل رقم (٤) .

(٩٢) Carlos Gozalbes: opcit, p.p 195 - 196.

(٩٣) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٦ .

(٩٤) هذا الكتاب فى فضل النبى ﷺ وفضل صحابته . ويقال إنه أقدم مؤلف مغربى معروف إلى الآن . ويوجد منه الجزء الثانى محفوظاً بالخزانة الحسنية تحت رقم ٥٧٣٣ وكان فى ملك عبد العزيز بن أبى بكر بن عبد الكبير الفرديسى . (راجع الأنصارى اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص٢٢ . حاشية (٣١) .

(٩٥) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٦ .

وعن ترجمات شخصيات العلماء وأصحاب تلك المقابر راجع ص٢٣ من نشرة عبد الوهاب بن منصور .

(٩٦) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١ .

(٩٧) نفس المصدر ص ١٤ (شكل رقم ((١٠) رقم (٨)) .

(٩٨) نفس المصدر ص٢٢ وكذلك راجع شكل رقم ((١٠) حيث ورد فى المخطط الخاص بمراكز عمران مدينة سبته أن منطقة الأرباض الثلاثة الداخلية كانت تضم أيضاً مسجداً يعرف بمسجد الموثقين Mezquita de lo Notarios (رقم ١٠) نسبة إلى موضع يعرف بسماط العدول الموثقين القريب من سوق العطارين (الأنصارى : ص١٤) . كما ورد فى المخطط ما يشير إلى وجود المدرسة الجديدة (رقم ٥) وحمام القائد (رقم ٤) وباب الربض الأسود (رقم ١٦) فى تلك المنطقة .

(٩٩) جمع حفير وهو الخندق ، وينطق به عوام المغرب مبيراً (١ حفير) راجع نشره عبد الوهاب بن منصور ص٤٦ . هامش (٩٨) .

(١٠٠) جمع شطاب وصانع الشطابة أى المكنسة (راجع نشره عبد الوهاب بن منصور ص٤٦. هامش ٩٨ .

(١٠١) يبدو أن تلك السلسلة من الحفائر قد أقيمت بصورة رئيسية لدرء أى هجوم قد يقع من ناحية الغرب فأول عائق كان يترتب تذليله على القوات المهاجمة من هذه الناحية هو الربض البرنى ، وهناك كان يترتب عليها أن لا تواجه التحصينات فحسب بل أيضاً حفيراً يحيط بها وكان من ورائه حفير ثان يفصل الربض البرانى عن بقية سبته . (ج.د.

ليثام . موقع سبته الاستراتيجي . ترجمة أمين توفيق الطيبي « بحث ضمن كتاب دراسات في تاريخ سبته ص٢٧ .

(١٠٢) الأنصاري : نشره بروفنسال ص٢١ .

(١٠٣) لمزيد من التفاصيل عن سمات شوارع مدن المغرب الإسلامي ونظامها التخطيطي راجع Torres Balbas : aspectos de las ciudades, p. 93 - Torres Balbas : ciudades Hispano Musulmanes. V,I p.p 327 - 328 p. 335 p, 340.

(١٠٤) الأنصاري : نشرة بروفنسال ص١٢ .

(١٠٥) هو محمد بن عيسى بن حسين التميمي السبتي ويكنى ابا عبد الله ، وكان من أهل العلم والفضل وتولى القضاء بسبته وبفاس أيضاً . وقد توفي في سنة ثلاث أو أربع وخمسمائة وقيل في سنة « خمسة » وخمسمائة « وكان مولده سنة » ثمان وعشرين وأربعمائة (راجع ابن بشكوال . (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة «نشر الدار المصرية» للتأليف والترجمة . « القاهرة » ١٩٦٦ . جـ٢ . ص٦٠٥ ترجمة رقم ١٣٢٧) . (راجع شكل رقم (٣ أ رقم (٢٠) ، شكل رقم (١٠ رقم (٩) .

(١٠٦) هو إبراهيم بن أبي العيش بن يربوع السبتي ويكنى أبا إسحاق ، وكان من فقهاء سبته في القرن الخامس الهجري . وقد توفي في سنة ٤٣٠هـ (ثلاثين وأربعمائة) وهو ابن ثمان وسبعين سنة وقيل أنه توفي سنة ٤٣٣هـ (سنه ثلاث وثلاثين وأربعمائة) . راجع ابن بشكوال جـ١ نفس المصدر . ص١٠١ ترجمة رقم (٢٣٠) .

(١٠٧) الأنصاري : نشرة بروفنسال ص١٣ . أما أبو القاسم بن الشاط فقد ولد بمدينة سبته عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥ م وتوفي بنفس المدينة عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣ م . (راجع ترجمته في (Joaquin Vallve. Opcit, p. 420. Not. 74

(١٠٨) نفس المصدر ص ١٥ .

(١٠٩) وردت في نشرة محمد بن تاويت بأنه خندق أيمن ص ٨٤ .

(١١٠) الأنصاري : نشره بروفنسال ص١٢ ويوجد مكان هذا الخندق الآن أحد أودية المدينة. راجع . Joaquin vallve: Opcit. 420. Not 70

(١١١) الأنصاري : ص١٣ .

(١١٢) شاع في بلاد المغرب والأندلس الاستعانة بهؤلاء الداربين في حماية الأزقة من اللصوص حيث أكد على ذلك المغزى بقوله (لأن بلاد الأندلس لهادروب بـإغلاق تغلق

بعد العتمة . ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد . وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم واغياثهم (راجع المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق : إحسان عباس . دار صادر بيروت ١٩٨٨ . جـ١ ص٢١٩ ، ومن طريف ما يذكر أن عادة إغلاق الأبواب مازالت متبعة حتى الآن فى أسبانيا منذ الساعة العاشرة ليلاً بواسطة درابين يعرفون باسم سيرنيوس Serenos وعلى كل من يريد الخروج أو الدخول أثناء الليل أن ينادى هذا الحارس الليلى بواسطة التصفيق (راجع أحمد مختار العبادى : الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية . مقال ضمن كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية العربية . الطبعة الثانية دار ذات السلاسل ١٩٨٦، ص٣١٥ .

(١١٣) الأنصارى : ص١٣ حيث الإشارة إلى زقاق ابن عيسى أشهر أزقة مدينة سبته والمعروف عندهم بزقاق الأكابرية يضرب المثل بينهم متسع المساحة يحتوى على أزقة ودروب وقصور ملوكية ومصانع هائلة وفيه أربعة وعشرون حماماً ، حمامان ميزان وباقى العدد بدور السادة من الشرفاء.

(١١٤) الأنصارى : ص١٥ - ١٧ .

(115) Carlos Gozalbes cravioto: La Madinao Nuclo urbano central en la ceuta Hispano Musulmana , cuadernos del archivo Municipal de ceuta año, II No, 4. 1989. p,. 47.

(١١٦) شكل رقم (١٠) رقم ٩ ، لوحة (٤) .

(١١٧) الأنصارى : ص١٣ .

(١١٨) شكل رقم (١٠) رقم ٨ .

(١١٩) شكل رقم (١٠) رقم (١٠) .

(120) Carlos Gozalbes: opcit, p.p 47 - 48.

(121) I Bid. P, 47 .

(١٢٢) الأنصارى : ص١٤ حيث الإشارة إلى سوق العطارين الأعظم وسماط العدول الموثقين المتصل حيث المدرسة الجديدة وكلاهما بجوفى الجامع الأعظم والقيسارية خلف ذلك . وفى موضع أخر أشار الأنصارى إلى أهمية تلك المنطقة بمناسبة حديثه عن سقايات المدينة بقوله (وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية أبدعها صنعة الساقية التى بطرف العطارين وأول سماط العدول بازاء باب الشوائين من أبواب الجامع) . الأنصارى ص١٧.

(١٢٣) لم يرد فى نشرة ليفى بروفنسال تاريخ صناعة هذا المنبر فى المتن وإنما أشار فى الحاشية إلى ذلك هكذا (فى الطره كان صنع هذا المنبر فى شعبان المكرم سنة ٤٠٨هـ (الأنصارى نشرة بروفنسال - ص٩) على حين ورد تاريخ صناعة هذا المنبر في المتن فى نشرة كل من محمد بن تاويت وعبد الوهاب بن منصور على النحو التالى (ودرجات المنبر اثنتا عشرة درجة صنع في شعبان المكرم سنة ثمان وأربعمائة) راجع نشرة محمد بن تاويت ص٨٢ ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٢٨ .

(١٢٤) تضمنت نشرة كل من ابن تاويت وعبد الوهاب بن منصور الإشارة إلى تاريخ صناعة المقصورة المذكورة على النحوالتالى (والمقصورة الهائلة الغريبة الشكل (كان صنعها فى رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (٤٢٨هـ) . راجع نشرة ابن تاويت ص٨٢ ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٢٨ .

(١٢٥) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٩ .

(١٢٦) شكل رقم (٣) أ (رقم ٢) ، شكل رقم (١٠) رقم (٣) .

(127) Carlos Gozalbes: la Medina o Nucleo urbano central en la ceuta hispanomuslmana. p. 63

وكذلك راجع أمين توفيق الطيب. احتلال البرتغاليين مدينة سبته المغربية ٨١٨هـ/١٤١٥م مقدماته ودوافعه ونتائجه (مقال ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته الإسلامية ص١٣٣ .

(١٢٨) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقيه والمغرب ص١٠٣ - ١٠٤ ، وكذلك راجع (مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار) ص١٣٧ ، الحميرى : الروض المعطار ص٣٠٢ .

(129) Joaquin vallve: Decripcion de ceuta Musulmana. p. 414. Not. 56.

(١٣٠) مؤلف مجهول : الحلل الموشيه ص ٥٨ - ٥٩ .

(١٣١) ابن عذارى البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ٤ تحقيق إحسان عباس بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣ ص٥٨ .

(١٣٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص ٦٧ .

(١٣٣) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٩ .

(١٣٤) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص٥٩ .

(١٣٥) عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة جـ١ ص٣٢٠ .

Christin Ewert: Die Moschee am Bab al Mardum in toledo. Emi kopic. der Moschee vceu cordoba. Hidberg 1994. p. 352.

كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية فى طليطلة فى العصر الإسلامى ص ٢٢٤.

(١٣٦) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبى من أهل سبته ويكنى أبا الفضل ، وقد كان من كبار أعلام سبته إذا كان من أهل العلم والذكاء واليقظة ، وقد تولى قضاء سبته مدة طويلة حمدت سيرته فيها ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة . وقدم إلى قرطبة فى ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة . وقد ولد فى منتصف شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة وتوفى أواسط سنة أربع وأربعين وخمسمائة (لمزيد من التفاصيل راجع ابن بشكوال كتاب الصلة القسم الثانى ص٤٥٣ - ٤٥٤ - ترجمة رقم ٩٧٤) .

(١٣٧) عياض (أبو الفضل عياض بن موسى) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . تحقيق أحمد بكير محمود منشورات دار مكتبة الحياه بيروت ١٩٦٥ ص١٩ .

(١٣٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال - ص٩ .

(139) Terrassi: les Monuments de ceuta, p. 445

(١٤٠) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقيه والمغرب ص١٠٣ .

(١٤١) أحمد فكرى : مساجد الإسلام (مسجد القيروان) نشر دار المعارف . القاهره ١٩٣٩ ص١٩ .

(١٤٢) أحمد فكرى : المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها جـ١ نشر دار المعارف ١٩٦٩ ص٣٥٨ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى . نشر موسسة شباب الجامعة . إسكندرية. ١٩٨٢ ص٣٥٢ .

(١٤٣) سالم : قرطبة . جـ١ . ص ٣٤٨ .

(١٤٤) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص١٠ - ١١ أما عن أبى القاسم العزفى فهو محمد بن أحمد بن محمد اللخمى العزفى ولد بسبته فى منتصف شوال . عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م . وتولى إمارتها فى ٢٧ رمضان عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩ م فى دولة الخليفه الموحدى المرتضى. وتوفى فى ١٣ ذى الحجه عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨ م . وهو الذى أكمل كتاب الدر المنظم فى مولد النبى المعظم الذى بدأ والده القاضى أحمد العزفى تأليفه (راجع . المقرى ،

أزهار الرياض . جـ٢ . ص٣٧٤ - ٣٧٧ ، كذلك راجع . اختصار الأخبار. نشره عبد الوهاب بن منصور ص٣٠ هامش (٥٠) .

(١٤٥) الأنصارى : نشره بروفنسال . ص٦ .

(١٤٦) الأنصارى : نشره بروفنسال . ص٣ .

(١٤٧) نفس المصدر . ص٥ .

(١٤٨) نفس المصدر . ص ١٠ .

(١٤٩) نفس المصدر . ص٢١ .

(١٥٠) نفس المصدر ص ٢١-٢٢ حيث وصف الأنصارى المصلى الكبير بقوله (وأشرفها وأسناها المصلى الكبرى مصلى المدينة . ومن ما اتصف به هذا المصلى كونها (كونه) خارجة عن المدينة داخلة فى حكمها فوجه خروجها أنها خلف السور فى براح متصل بأرض عظيمة الاتساع مشتملة على جنات ودمن ومحاشر وحبال وخنادق وشعار وسوى ذلك دور الجميع سته أميال فصارت المصلى فى حكم الصحراء على السنه فى ذلك) .

(١٥١) نفس المصدر . ص٢٢ .

(١٥٢) نفس المصدر ص٢٢ حيث أشار الأنصارى إلى اتصل استخدام المصلى الكبير فى أوقات الفتن بقوله (ووجه دخولها هو أن البراح الموصوف بما اتصل به منقطع فى وسط البحر فلا يلحق أحد فى هذه المصلى خوف من عدو عاد ولا تعطل من إقامة الصلاة فى أيام الفتن والقتال ، وفى حالة الحصر والنزال بخلاف غيرها) . ويبدو أن الأحداث السياسية والحربية التى تعرضت لها سبته فى عصورها المتتابعة أثرها المباشر فى تشييد هذا النوع من المصليات .

(١٥٣) نفس المصدر . ص٢٢ حيث أشار الأنصارى إلى المصلى الملكى بمدينة سبته بقوله (وفيها بأعلى حافة الغدر المصلى الملوكية المتسعة المستوية الأرض المشرفة على البحر هنالك المختصة بسكان أفراك من الأمراء والأجناد وغيرهم وبها كان يصلى السلطان أبو الحسن المرينى بجيشه) .

(١٥٤) نفس المصدر . ص٢٢ .

(١٥٥) محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٨٨ .

(١٥٦) أمين توفيق الطيب : النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته المغربية . ص ٥٥ .

(١٥٧) البكرى : المغرب فى وصف أفريقيا والمغرب . ص ١٠٣ .

(١٥٨) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب . ص١٠٢ .

(١٥٩) المقرى : نفح الطيب . جـ٤ . ص١٤٥ .

(١٦٠) نفس المصدر . جـ٣ . ص ١٨٦ .

(١٦١) هو على بن محمد بن على بن محمد بن يحيى الغافقى من أهل سبته وبها ولد ويعرف بالشارى نسبة إلى شاره فلين معقل بحوفى مرسيه ومنها أصل سلفه وكان انتقال والده محمد منها إلى سبته سنة ٥٦٢هـ حيث سمع من العلماء والأدباء بسبته وفاس وغيرهما من بلاد المغرب (راجع اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٢٧ حاشية (٤٤) - وقد أشار ابن الخطيب إلى شخصية الشيخ على الشارى بما يفيد بأنه كان جماعه للكتب وذلك بقوله (انتقى منها جمله وافره فى مدرسته التى احدثها وعين لها من خيار املاكه وجيد رباعه وقفاً صالحاً سالفاً فى ذلك ما بين أهل المشرق راجع ابن الخطيب الإحاطة فى أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان - القاهرة ١٩٧٧ - جـ٤ ص١٨٨) ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع محمد بن تاويت . تاريخ سبته ص ٨٨ ، Joaquin vallve: Descripcion ceuta Musulmana p, 409. Not. 34

(١٦٢) الأنصارى : ص٩ أما السلطان المرينى أبو الحسن فهو أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (تولى فى الفترة من (٧٣١هـ/١٣٣٠ م - إلى ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م) وقد كان مجاهداً فى سبيل الله واستطاع أن يوحد المغرب تحت سلطانه ثم اتجه بجيوشه نحو الأندلس لغزو الأراضى المسيحية ، غير أن الجيوش الأسبانية انتصرت عليه فى موقعه بالقرب من مدينة طريف وذلك فى عام ٧٤١هـ/١٣٤٠ م . وبعد هذه الهزيمة ثار المغرب الأوسط عليه كما ثار عليه ابنه فارس أو عنان . ولم يتحمل السلطان أبو الحسن هذه الكوارث المتلاحقة فمات حزيناً شهيداً عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م) . ولهذا السلطان آثار معمارية كثيرة فى المغربين الأوسط والأقصى وبالأندلس . ومن آثاره الهامة بسبته فضلاً عن المدرسة الجديدة برج الماء ببحر السول من ساحل سبته الجنوبى (ولمزيد من التفاصيل عن هذا السلطان راجع ابن مرزوق : المسند . ص٣٣٩) وقارن تاريخ وفاته فى كتاب روضة النسرين فى دولة بنى مرين لأبى الوليد إسماعيل بن الأحمر ص ٢٥ حيث الإشارة إلى أنه توفى بعد التاريخ الذى حدده ابن مرزوق وذلك فى عام ٧٥٢هـ/١٣٥١ م ،

كذلك راجع المقرى : المصدر السابق . جـ٤ . ص٤٠٠-٤٠٤ ، ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ص١٢٣ - ١٢٤ حاشية (٤) .

(١٦٣) الأنصارى - ص٩ .

(١٦٤) ربما قصد بها ميضأه المدرسة التى من المحتمل أنها كانت تشتمل إلى جانب تلك المطهرة على مراحيض عبر عنها الأنصارى بالبيوت الثمانية . فالميضأه فى عرف أهل المغرب اسم جامع لمكان التغوط والوضوء ويسمى أيضاً مطهرة أى مكان الطهارة وإذا كان خاصاً بالتغوط سمى بيت الماء . وكلمات المرحاض والكنيف والمستراح كلمات عربية طرأت حديثاً على ألسنة الناس (راجع اختصار الأخبار نشره : عبد الوهاب بن منصور . ص٤٠ حاشية (٤٥) .

(١٦٥) المقصود بهذا النقير الأحواض أو الصهاريج الخاصة بحفظ المياه . وقد تعنى فى رأى الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كتلة من الحجر أو الرخام منقورة الوسط تكون بالميضأت والمطاهر ينصب فيها ماء الاستنجاء من عيون أو أنابيب (الأنصارى : اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور . ص٤١ حاشيه (٧٧) .

(١٦٦) يطلق على هذه الكلمة فى اللغة الأسبانية Azulejas أى الزليج بمعنى القراميد أو البلاطات الخزفية وتعرف فى العراق باسم القاشانى وفى مصر باسم الزليزلى (محمد عبد العزيز مرزوق . الفنون الزخرفية فى المغرب والأندلس بدون تاريخ ص٧٦ - ٧٨حاشية(١) . كما تسمى عند الأوربيين بالمزيكو ويقال فى بعض المدن المغربية الزلايج وصانعه زلايجى جمع زلايجيه واشتقوا منه زلج المضعف . ويقال زلج فلان دار بمعنى رصفها بالزليج (راجع اختصار الأخبار نشره عبد الوهاب بن منصور ص٤١ حاشية (٤٨) .

(١٦٧) قد يكون صحتها مؤنقة حيث وردت على هذا النحو فى نشره عبد الوهاب بن منصور . راجع ص٤١ .

(١٦٨) البابونج نبات عشبى من فصيلة المركبات يستعمل فى الصباغة أو التداوى (المعجم الوسيط جـ١ . الطبعة الثالثة مجمع اللغة العربية . ص٣٧ . وقد فسر أحد مؤرخى الفن نور البابونج على أنه التوريقات النباتية التى كانت تكسو قبه الميضأة والتى كانت منقوشة نقشاً غائراً بحيث تجسمت فبدت لمن يتأملها كأنها رسوم حيه مجسدة) .

Corlos Gozalbes - Ia Medina o Nuclo urbano central en La ceuta p. 55.

(١٦٩) الأنصارى . ص١٨ .

(170) Mascarenilas: jeronimo de Historia de la ciudad de ceuta. Iisboa. 1918. p. 17.
(171) Carlos Gozalbes . op. cit, p. 56
(172) Mascarenilas: Op .cit, p.p 24 -25 .
(١٧٣) راجع هامش (٨) من البحث ص٢٩ .
(174) Carlos Gozalbes: opcit. p. 58.
(١٧٥) شكل رقم ((١١) .
(176) Carlos Gozalbes: opcit. p.p 59 - 60
(١٧٧) الأربطة مفردها رباط وتجمع على أربطة ورباطات وربط . وهى لفظة تعنى فى الأصل إعداد الخيل وربطها وملازمة ثغور العدو تأهباً للجهاد فى أية لحظة . وعلى هذا فإن الرباط بناء عسكرى دينى شيد ليكون مقراً للمجاهدين في سبيل الله . ولكن مع فتور الهمم أصبح مأوى للمنصرفين إلى ذكر الله وللمتعيشين على نفقة السلطان ولأبناء السبيل (عبد الرحيم غالب موسوعة العمارة الإسلامية ص١٩٥-١٩٦) ولهذا فقد كانت تشمل مساكن لهؤلاء الزهاد ومسجد لأداء الصلوات . وكانت إلى جانب أنها مؤسسات صوفية كانت أيضاً معاهد علمية لتدريس العلوم الدينية . وكان لكل رباط شيخ يرأسه وله خادم يتولى العناية بالرباط . وعلاوة على دور الربط فى حماية الثغور والسواحل كانت تستخدم أيضاً كمراكز للإنذار وإرسال الأخبار الملحة فى حالة تعرض البلاد للخطر . ويؤكد ذلك قول المقريزى (ولما ولى إبراهيم بن محمد بعد الأغلب أفريقية فى سنة احدى وستين ومائتين حسنت سيرته فكانت القوافل والتجار تسير فى الطريق وهى آمنة . وبنى الحصون والمحارس على ساحل البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبته إلى الإسكندرية فيصل الخبر منها إلى الإسكندرية في ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر) (راجع المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . نشر مكتبة الثقافة الدينية . الطبعة الثانية. ١٩٨٧ م حـ١ ص١٧٤ . وعن الاشارات التى كانت تستخدم فى إرسال الأخبار يذكر المقدسى (وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم من الرسالات ويحمل إليهم أصناف الأطعمة فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهاراً دخنوا . ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقه قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد انفز بالقصبة وضرب الطبل على المنارة) ، راجع المقدسى (شمس الدين بن عبد الله محمد المقدس) أحسن

التقاسيم فى معرفة الأقاليم : طبعة ليدن ١٩٠٦ م ، دار صادر بيروت ص١٧٧ . ولمزيد من التفاصيل عن الرباط : نشأته وتطوره راجع (فريد شافعى العمارة العربية فى مصر الإسلامية (عصر الولاة) المجلد الأول نشر الهيئة المصرية ١٩٧٠ ص ٥٢٩ - ٥٣١ ، كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر . الطبعة الثانية . نشر الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٣ . ص ٩ ، حسين مجيب المصرى : أثر الفرس فى حضارة الإسلام ، مقال ضمن دراسات فى الحضارة الإسلامية . جـ١ . القاهره ١٩٨٥ ص١٩٦ .

(١٧٨) تقابل الزاوية فى المغرب الإسلامى الخانقاه فى المشرق أى أن كليهما يؤدى وظيفة واحدة كمبان للمتصوفة الذين يريدون أن يقضوا بقية حياتهم للعبادة . ويؤكد تطابق وظيفة الزاوية فى المغرب مع وظيفة الخانقاة فى المشرق ما ذكره ابن بطوطة عن كثرة الزوايا فى مصر بقوله (وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا) (راجع ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . تحقيق محمد عبد المنعم العريان . ومراجعة : مصطفى القصاص. بيروت . الطبعة الثانية ١٩٩٢ .جـ١ ص٥٦ ، محمد محمد الكحلاوى : آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين. الدار المصرية اللبنانية . الطبعة الأولى ١٩٩٤ . ص٩٧ .

(١٧٩) اشتد تيار التصوف بمدينة سبته منذ عهد المرابطين وازداد عدد المتصوفة سواء منهم السبتيون أصلاً ومنشأ والأندلسيون الوافدون عليها مقيمين أو عابرين . ومن بين أشهر هؤلاء المتصوفه أبو العباس أحمد العزفى الذى كان فقيهاً وعاملاً محدثاً وقاضياً(راجع المقرى . أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . القاهرة ١٩٤٠-١٩٤٥ جـ٢ ص٣٧٥. وقد تولى التدريس طيلة حياته فى المسجد الجامع بسبته . ويشتهر أبو العباس أحمد العزفى بأنه كان أول من أدخل الاحتفال بعيد المولد النبوى الشريف إلى الأندلس (راجع المقرى نفس المصدر جـ١ ص٣٩ ،٢٤٣) ولمزيد من التفاصيل عن انتشار تيار التصوف وكثرة المتصوفة بمدينة سبته راجع محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص٦٠-٦٢.

(١٨٠) وردت هذه الكلمة فى نشرة عبد الوهاب بن منصور (شرجباً) وهى عبارة عن نافذة تفتح فى جدار بيت أو غرفة للتهوية والتزين . وقد تثبت بها قضبان من حديد فى أشكال جميلة لمنع الدخول منها والخروج تسمى حينئذ شباك . وإذا كانت مجرد كوة صغيرة فهى الطاقة ، ويكتب الأدباء الشرجب وينطقون به بشين مثلثة وعند العوام بسين

(راجع الأنصارى ، نشرة محمد بن تاويت ص٣١ هامش (٥٣) وكذلك راجع ابن الرامى : الإعلان بأحكام البنيان دراسة أثرية معمارية ، تحقيق محمد عبد الستار عثمان نشر دار المعرفة الجامعية . إسكندرية ١٩٨٩ . ص ١٨٦ .

(١٨١) الكذان : نوع من الحجارة فيها رخاوة وربما كانت نخرة مثل الأحجار الرملية الموجودة بشطوط الأنهار ومجارى المياه وتسمى الكذان بالبربرية (تافزة) وقد يطلق على الصلصال المتحجر المنعقد من صعود البخار داخل الأباريق والبراريد عند غليان الماء وهو ما يسمى عند البربر أيضاً (بتافكرة) (راجع الأنصارى : نشرة محمد بن تاويت ص٣١ حاشية رقم (٥٤) . وقد عم استخدام هذا النوع من الحجارة فى بلاد المغرب والأندلس لاسيما فى بناء الجدران وتبليط الأرضيات (عبد الرحيم غالب : المرجع السابق . ص٢٣) .

(١٨٢) فريد شافعى . العمارة العربية ص ٥١٣ .

(١٨٣) الأنصارى نشرة بروفنسال ص ١١حيث الإشارة إلى هذا الرباط بقوله (وإلى جانبها (أى رابطة الصيد) رابطة أخرى على شكلها ومثالها وفى وسطها القبر المعروف بقبر حيدة (صيدة) جارية لأحد أمراء الموحدين . وعلى القبر قطعة رخام أبيض فى طول أثنى عشر شبراً وارتفاع خمسة أشبار أو ما يقرب منها وبجوانبها خمسة أدراج منحورة ظريفة الصنعة .

(١٨٤) المقرى : ترتيب المدارك . جـ١ . ص١٩ .

(١٨٥) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص١١-١٢ حيث الإشارة إلى هذه الزاوية بقوله (ومن الزوايا الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان الأشهر مولانا أبو عنان بن أبى الحسن بخارج باب فاس وأعدها هنالك للغرباء ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار أو غيرهم . ملوكية البناء كثيرة الزخرفة والتنميق متسعة المساحة متعددة المساكن وصومعتها من أبدع الصوامع بسبته وأتمها إحكاماً) .

(١٨٦) البكرى : وصف أفريقية . ص١٠٣ .

(١٨٧) يطلق على القصبة الأسبانية **Alcazaba** أو المدينة **Almudiana** تصغير للفظ مدينة والاسم الثانى وإن كان أقل شيوعاً من الأول فهو كثير فى مختلف مدن أسبانيا الإسلامية (محمود على مكى : مدريد العربية . وزارة الثقافة . المؤسسة المصرية العامة للتأليف

والنشر . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بدون تاريخ ص٧٤-٧٥ ويلاحظ أن كلمة قصبة لها معنى آخر حيث كانت تطلق على الشارع الأعظم فى بعض المدن كالقاهرة ، وأحياناً أطلقت على قطاع مستوى من هذا الشارع الأعظم بها وكان له صفة تجارية بارزة كأن يقال قصبة رضوان وكانت تطلق أيضاً على المدن الكبيرة وفى الأقاليم كأن يقال صنعاء قصبة بلاد اليمن (راجع . محمد عبد الستار عثمان . المدينة الإسلامية . عالم المعرفة . (الكويت) . عدد ١٢٨ . أغسطس ١٩٨٨ . ص١٦٧ .

(١٨٨) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ومراجعة عبد الحميد العبادى . مطبوعات كلية الآداب . جامعة فاروق الأول إسكندرية . ص٧٩ ، ٩٦-٩٧ .

(١٨٩) راجع ص ٣٥٦ هامش ٥٤ من البحث .

(١٩٠) ابن خلدون . تاريخ ابن خلدون . بيروت ١٩٧٩ جـ٧ . ص٢٤٧ .

(191) Carlos Gozalbes: opcit. p. 50.

(192) Pavon Maldonado: arte Hispano Musulman en ceuta ytetuan p.72 .

(١٩٣) شكل رقم (٣) ب (رقم ١١) .

(١٩٤) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٢) .

(١٩٥) شكل رقم (١٢) .

(١٩٦) شكل رقم (١٣) .

(١٩٧) البكرى : وصف أفريقيا . ص ١٠٣ حيث الإشارة إلى هذا البرج وبابه بقوله (ولها باب ثانى مما يلى الجوف فى برج يعرف ببرج سابق يدخل منه إلى دار الإمارة).

(198) Carlos Gozalbes : opcit. p.p 49-50

(١٩٩) الأنصارى : اختصار الأخبار نشرة بروفنسال . ص ١٤، ١٨ .

(٢٠٠) نفس المصدر . ص١٩ حيث الإشارة إلى عدد المطامير (أى مكان طمر القمح خاصة وخزن الغلال) المعدة لخزن الزرع والتى تبلغ أربعون ألفاً مفترقة بالديار .

(٢٠١) نفس المصدر ص١٤ حيث الإشارة إلى أنه كان بكل دار من ديار سبته حمام ومسجد إلا القليل .

(٢٠٢) المصدر السابق ص ١٩-٢٠ .

(203) Torres Balbas: algunos aspectos da la casa Hispano musulmano. Alandalus. V,XV. 1950 p. 185 .

(204) Torres Balbas : ciudades Hispanomusulmanas V,I p. 31 .

(205) Torres Balbas: opcit. p. 179.

وكذلك راجع كمال عنانى إسماعيل ، العمارة الإسلامية بمدينة طليطلة ص١٦٤ .

(٢٠٦) الأنصارى : اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص١٥ .

(٢٠٧) الأنصارى نفس المصدر . ص ١٣٥ .

(٢٠٨) ربما صحتها المثات .

(٢٠٩) المسلخ لغويا يعنى المكان المخصص للراحة وتناول المشروبات وكانت تعقد فيه حفلات السمر (عبد الله البستانى . معجم البستان . جـ١ بيروت ١٩٢٧ ص ١١٢١-١١٢٢ وقد تعنى خلع الثياب والتأهب للأتتقال إلى الغرفة الثانية ثم ارتداء هذه الثياب قبل الخروج من الحمام . ولذلك فهى تقابل فى الحمامات الرومانية Apdoyierum وفى هذه الحالة كانت تزود بخزائن أو طاقات غير نافذة توضع فيها الملابس ولوازم المستحمين (عبد الرحيم غالب . موسوعة العمارة الإسلامية ص١٤٠) . وقارن الأنصارى اختصار الأخبار . نشر محمد عبد الوهاب منصور ص٣٤ حاشية (٦٣) حيث الإشارة إلى أن المسلخ تعنى المكان الذى يجرد فيه المستحمون من ثيابهم قبل دخول الحمام. ويسمى اليوم فى العامية المغربية الجلسة .

(٢١٠) وردت فى نشرة عبد الوهاب بن منصور هذه الكلمة على أنها (مرتبة بدلاً من مؤلفه ص٣٤ .

(٢١١) المراد هنا بالطيفور الجفنة أو الحوض أو البيله/ الرخامية المستديرة المرتفعة التى يفور منها الماء وينزل إلى الصهريج (راجع الأنصارى : اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب ابن منصور ص٣٥ حاشية (٦٤) , أما الطيفور أو التيفور فيعنى فى المصطلح الفنى الطبق أو الصحن الكبير العميق الذى يقدم فيه الطعام لاسيما اللحم . وقد انتقل هذا اللفظ العربى إلى اللغة الأسبانية بهذه الكلمة Ataifor . وكان هذا اللفظ يدل فى غرناطة الإسلامية على نوع من الموائد الصغيرة (سيكودى لو ثينا : وثائق عربية غرناطية : صحيفة المعهد المصرى فى مدريد ١٩٥٦ . ص١٧٧ حاشية (١) .

(٢١٢) الأنصارى : المصدر السابق . ص ١٣-١٤ .

(٢١٣) تنقسم حمامات المغرب والأندلس إلى نوعين ، الأول يتألف من أربع قاعات هي بيت المسلخ والبيت البارد والوسطاني والساخن ، أما النوع الثاني فلا يشتمل على قاعة المسلخ التي كان يستعاض عنها بممر طويل مقبي يفضي إلى الغرف الثلاثة الأخرى
(Pavon Maldonado: Tratado de Arquitecturea Hispano Musulmana. Madrid 1990. p. 311.)

(٢١٤) كمال عناني إسماعيل : الحمامات الإسلامية في الأندلس (دراسة أثرية) بحث تحت الطبع .

(٢١٥) ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي) : كتاب صورة الأرض . طبعة ليدن ١٩٣٨ . ص ٧٨-٧٩ .

(٢١٦) البكري : وصف أفريقيا . ص ٣-١-٤-١ .

(٢١٧) الادريسي : نزهه المشتاق . جـ٢ . ص٥٢٨ .

(٢١٨) مؤلف مجهول : الاستبصار . ص ١٣٧-١٣٨ .

(٢١٩) قارن نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٤٠ حيث الإشارة إلى هذه الكلمة على أنها العنابيب بدلاً من الأنابيب والعنبوب في نطق عوام المغرب لفه في أنبوب يقصد بها القناه التي يخرج بها الماء مطلقاً من القادوس إلى الساقية . وإذا كان الماء يخرج منها مقيداً بإدارة لولب سميت بزبوراً أي ما يعادل الحنفيه أو الصنبور عند أهل المشرق (راجع نفس المصدر . ص ٤٠ هامش (٧٣) .

(٢٢٠) أي للعموم مجاناً بدون مقابل . وأهل المغرب يطلقون كلمة السبيل على كل مرفق من المرافق العامة أو لكل شئ معد للعموم . حيث يقال جنان السبيل للحديقة العمومية ، وكذلك ماء السبيل ، واشتقوا من الكلمة فعل سبل المضعف ومعناه إعطاء الشئ وهبته من غير مقابل حيث يقال سبل فلان قربه الماء وسبل نفسه في سبيل الله (راجع اختصار الأخبار. نشره عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٠ هامش (٧٤) .

(٢١٢) الأنصاري : اختصار الأخبار نشره بروفنسال . ص ١٧ - ١٨ .

(٢٢٢) محمد عبد الستار : المدينة الإسلامية .ص ٢٨١ .

(٢٢٣) ابن سعيد المغربي . كتاب الجغرافيا . بيروت . ١٩٧٠ ص١٣٩ نقلاً عن أمين توفيق الطيبي النشاط الاقتصادي والعلمي بمدينة سبته ص ٤٨ حاشية (١٨) .

(٢٢٤) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب . ص ١٠٢ .

(٢٢٥) ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) : رحلة ابن جبير . دار صادر بيروت ص٨ حيث الإشارة (فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثاني يسر الله علينا في عبور البحر إلى القصر مصمودة تيسيراً عجيباً . ونهضنا منه إلى سبته غدوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه والفينا بها مركباً للروم الجنويين مقلعاً إلى الأسكندرية بحول الله عزوجل فسهل الله علينا في الركوب منه) كذلك ص ٤٨ حيث الإشارة (ويمكن أن يجد مركباً من الروم يقلع إلى سبته أو سواها من بلاد المسلمين) .

(٢٢٦) ابن عذارى : البيان المغرب من أخبار الأندلس والمغرب . قسم الموحدين . تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت ، محمد زنبير ، عبد القادر رزمامه . نشر دار الثقافة للنشر والتوزيع . الدار البيضاء . الطبعة الأولى ١٩٨٥ . ص ٣٥٠ .

(٢٢٧) المقرى . جـ٣ ص ١٣١ ، كذلك راجع : أمين توفيق الطيب . المرجع السابق ص٥٠.

(٢٢٨) ابن بطوطه : المصدر السابق رحل . ص ٦٤٩-٦٥٠ .

(٢٢٩) أندرية جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالى . والبشير بن سلام . تونس ١٩٧٨ . ص ١٦١ ، أمين توفيق الطيب . المرجع السابق .ص٤٩ .

(٢٣٠) ابن حوقل . صورة الأرض . ص ٧٩ حيث الإشارة إلى أنه كان يعمل من المرجان بسبته قويريات لطاف .

(٢٣١) الأدريسي : نزهة المشتاق . جـ٢ .ص ٥٢٩ .

(232) Torres Balbas : cuidades hispano musulmana V.I.P. 301 .
كمال عناني إسماعيل . العمارة الإسلامية في طليطلة . ص ١٨٠ .

(٢٣٣) كان يقع هذه السوق في الشارع المعروف الآن باسم شارع خوادينس
Call de: jaudenes - carlos Gozalbes; La Madima o Nuclo urbano central en la ceuta Hispano Musulmana p. 40
شكل رقم (١٠) (رقم ٨) .

(٢٣٤) كانت صناعة التحف المعدنية لاسيما النحاسية من أهم الصناعات التى ازدهرت بمدينة سبته وذاعت شهرتها بحيث صار انتاجها من التحف النحاسية يصدر إلى إيطاليا وقد عبر الحسن الوزان عن هذا الازدهار فيما دونه عن سبته بقوله (وفيها عمال مهره فى المصنوعات النحاسية كالشمعدانات والجنان والمحاجر وغيرها . فكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت من الفضة . وقد رأيت بعضها فى ايطاليا وكثير من الناس يظنون أنها من

صنع دمشق راجع : الحسن بن محمد الوزان الناسى المعروف بليو الأفريقى : وصف أفريقيا. ترجمة محمد حجى ، محمد الأخضر . دار الغرب الإسلامى بيروت ١٩٨٣ الطبعة الثانية جـ١ ص٣١٧ .

(٢٣٥) شكل رقم (١٠ (رقم ١٣) والمقصود به هو السوق المخصص لبيع الملابس المستعمله وكان يقع فى وسط المدينة بالقرب من مسجدها الجامع . ومثل هذ النوع من الأسواق المخصصة لبيع الملابس القديمة عم انتشاره فى معظم مدن الأندلس لاسيما غرناطة وأشبيلية ومالقه والغريب أن الأنصارى يؤكد أنه كان مخصص لبيع الأوانى النحاسية
Carlos Gozalbes : opcit. p. 43.

(٢٣٦) الأنصارى اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ١٤ - ١٥ .

(٢٣٧) السيد عبد العزيز سالم : العمارة المدنية بالأندلس . دائرة معارف الشعب . العدد ٦٤ ، ١٩٥٩ ص١٤٤ - ١٤٥ ، كذلك راجع أحمد الطوخى . القيساريات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس . فصله من مجله كلية الآداب . جامعة الإسكندرية العدد ١٨ سنة ١٩٨١ ص ٩٢ - ٩٥ Torres Balbas ; Alcaicerias. Alandalus, v, XIVI p. 434 كمال عنانى إسماعيل . العمارة الإسلامية فى طليطلة . ص١٩٤ .

(٢٣٨) الأنصارى : اختصار الأخبار : نشرة بروفنسال ص١٤ ، شكل رقم (٣ أ رقم (٧) ، شكل رقم (١٠) رقم (١٢) .

(239) Carlos Gozalbes: La Medina o Nucleo urbano central en la ceuta. p.p 41 - 42 .

(٢٤٠) الأنصارى . المصدر السابق . ص ١٥ .

(٢٤١) محمد عبد الستار : المدينة الإسلامية . ص ٢٦٢ كذلك راجع عبد الرحيم غالب. موسوعة العمارة الإسلامية ص ١٠١ . ((ويقال فى بعض المدن أيضاً التربيعة سوق صغير مربع الشكل رقم يشتمل على عديد من حوانيت الحرارين والخياطين وأمثالهم . وهو ليس كاطرزه الصناعة ولا كأسواق التجارة ولا كالازقة العمومية بل هو بينها جميعاً. ولا تزال بفاس تربيعات معروفة بهذا الاسم إلى اليوم إشهرها تربيعة العطارين راجع الأنصارى . اختصار الأخبار : نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٣٧ حاشية(٦٧) .

(٢٤٢) جمع طراز وهو مكان صنع الثياب الرقيقة كثياب السلطان . ودلالته في المغرب أوسع فهو يشمل أماكن صنع الثياب وتوشيتها كما يشمل أماكن خرز الأحذية وتنميق المصنوعات الجلدية . وينطق به عوام المغرب دراز بقلب الطاء ذالاً ويجمعونه على درازات ويطلقونه أحياناً مجازاً وتهكماً على الحبس (راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشر عبد الوهاب بن منصور ص ٣٧ حاشية (٦٨) .

(٢٤٣) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة بروفنسال . ص ١٥ .

(٢٤٤) ليو الأفريقى : وصف أفريقيا . جـ١ . ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(245) Joaquin vallve : opcit, p.p 423. Not . 82

(٢٤٦) ابن بطوطه . المصدر السابق ص٧٢ حيث الإشارة إلى أن الفنادق في المغرب تعرف في المشرق باسم الخانات .

(247) Torres Balbas : aspectos de las ciudades, p. 92 .

عبد العزيز سالم : العمارة المدنية . ص ١٤٣ ، كمال عنانى . العمارة الإسلامية في طليطلة ص ١٩٥ ولمزيد من التفاصيل عن الفنادق نشأتها وتطورها ونظامها المعمارى ، راجع : أمال العمرى : المنشآت التجارية في القاهره في العصر المملوكى . رسالة دكتوراه كلية الآثار جامعة القاهره ١٩٧٤ ص١٣٩ وما بعدها . ابن الرامى الإعلان بأحكام البنيان . تحقيق محمد عبد الستار . ص ١٩٨ ، د. عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية . ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢٤٨) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص١٦ .

(٢٤٩) نفس المصدر . ص١٦ حيث الإشارة إلى الفندق الذى بناه أبو القاسم العزفى بأنه معداً لاختزان الزرع .

(٢٥٠) نفس المصدر . ص١٦-١٧ حيث أشار الأنصارى إلى نموذج من هذه الفنادق وهو فندق غانم بقوله (ويليه في الكبر من الفنادق المعدة لسكن الناس من التجار وغيرهم الفندق المعروف بفندق غانم يشتمل على ثلاثة طباق وثمانين بيتاً وتسع مصريات وهو قديم أظنه من بناء المرابطين) .

(٢١٥) نفس المصدر . ص١٧ .

(٢٥٢) جمع مقصر ويقصد بها ورش صباغة الملابس وتطلق على المكان الذى تدق فيه الثياب وتحور وتبيض والكلمة فارسية الأصل . وقد كان لحرفة القصارة أهمية في المغرب القديم ولكنها اندثرت الآن . ولم يبق ما يذكر بها إلا بعض الألفاظ المشتقة منها كالقصار . اسم أسرة شهيرة . والقصرية هو الآنية التى تقصر فيها الثياب (الأنصارى . اختصار

الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٤٩ حاشيه (١٠٢) ، وكذلك راجع Joaquin vallve : op . cit p .435 أمين توفيق الطيبي : النشاط الاقتصادى والعلمي بمدينة سبته . ص ٥٢.

(٢٥٣) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ٢٤ .

(٢٥٤) يعكس ذلك بوضوح وصف الأنصارى لمقاصر سبته بقوله : (ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به تحط فيه الأمتعة ليلاً وتنشر نهاراً فلا يخاف عليها طول المدة من لص) راجع الأنصارى . اختصار الأخبار ص ٢٤ .

(٢٥٥) الأنصارى . نشر بروفنسال ص ٢٤ .

(٢٥٦) الأنصارى . نفس المصدر . نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٩ حاشية (١٠٣) .

(٢٥٧) الأنصارى . نفس المصدر ص ٣٧ حاشية (٦٩) .

(٢٥٨) اشتهرت مدينة سبته بأسلحة الرمى حتى صارت بعض الأسر تتوارث صناعتها . ومما ذكره الأنصارى عن مهنة الرمى يتضح بانها كانت مهنة شريفه ومحترمة حيث عبر عن ذلك بقوله (إذ الرمى طبع لأهل سبته طبعوا عليه فلا تلقى منهم شريفاً ولا مشروفاً ولا كبيراً ولا صغيرًا إلا وله بصر بالرمى وتقدم فيه ومعظم رميهم بالقوس العقارة وهو من جملة الأشياء التى تميزوا بها) . (الأنصارى . نشرة بروفنسال ص ٢٢ - ٢٣) .

وفى الفقرة الأخيرة من النص إشارة واضحة إلى أن قوس العقارة كان أكثر الأقواس استعمالاً بسبته ، وقد كان هذا النوع من الأقواس معروفاً فى أوربا فى العصور الوسطى باسم arbalista ad duo pedos وقد عرف بهذا الاسم لأن الرامى لكى يجذب القوس كان يثبته بوضع قدميه على طرفيه . واستعمال كلتا القدمين بهذه الطريقة كان يمكن الرامى من رمى سلاح أثقل وزناً وبالتالى أقوى مما كان سيرميه لو أنه استعمل قدماً واحدة فقط كما هو الحال فى قوس الركاب راجع ج.د. ليثام: موقع سبته الاستراتيجى ووسائل دفاعها فى أواخر الفترة الإسلامية (بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته الإسلامية . ترجمة . أمين توفيق الطيبى. طرابلس. بدون تاريخ ص٣٥ .

(٢٥٩) الأنصارى . اختصار الأخبار نشر بروفنسال ص ١٥ - ١٦ .

(٢٦٠) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٥١حاشية (١٠٥).

(٢٦١) نشر بروفنسال ص ٢٦ .

(٢٦٢) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٢٦٣) ابن حوقل : صورة الأرض . ص ٧٩ حيث الإشارة إلى أنه كان يعمل منه بسبته قويريات لطاف .

(٢٦٤) الإدريسى . جـ٢ . ص٥٤١ حيث الإشارة إلى أنه كان يصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح فى استنها أجنحة بازرة تنشب فى الحوت ولا تخرج . وفى أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ، ولهم فى ذلك دربه وحكمه سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك .

(٢٦٥) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص١٩ .

(٢٦٦) ليون الأفريقى . وصف أفريقيا جـ١ ، ص ٣١٧ .

(٢٦٧) ابن حوقل . صورة الأرض . ص ٧٨ .

(٢٦٨) المقصود بديار الإشراف . كلمة إدارية مغربية قديمة معناها الإشراف على جباية الأموال لخزينة الدولة . متوليها يسمى المشرف وقد حل محلها فى القرون الأخيرة كلمة أمين (راجع . اختصار الأخبار . نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٤١ حاشية (٧٩) .

(٢٦٩) المقصود بالديوان هنا هو مكان تسجيل المكوس و الأعشار وأدائها . ثم تخصصت كلمة (الديوان) بالمراكز المقامة بالحدود بين قطر وقطر لمراقبة السلع المجلوبة والموسوقة أى المستورده والمصدرة . واستخلاص الضرائب المفروضة عليها . فهى تعادل كلمة كمرك أو جمرك عند المشارقة (راجع اختصار الأخبار . نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٤١ حاشية (٨٠) .

(٢٧٠) لكلمة القاعة خصوصية فى عرف المغاربة فهى تدل فقط على السوق التى توضع فيها أنواع الأدام لبيعها بالجملة كالزيت والسمن والعسل ويظهر انها كانت تشمل فى عرف السبتيين سوق بيع العطور (اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٢ حاشية (٨٢) .

(٢٧١) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال . ص ١٨ -١٩ .

(٢٧٢) شكل رقم ٣ (ب) رقم ٦ .

(٢٧٣) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال . ص ٢ .

(٢٧٤) من المعروف أن عقبة بن نافع كان قد ترك بين البربر جماعة من الفقهاء يعلمونهم القرآن وأحكام الدين منهم صاحبه شاكر المنسوب إليه الرباط المشهور والمشهور كما أن

موسى ابن نصير أنتدب أيضاً عدداً من الفقهاء لتعليم البربر القرآن وأنزل من حفاظة جماعة بين بربر طنجة وقبائل غمارة المصمودية التي تقع سبته في ترابها أما أبو ذرعه المشار إليه فلم يذكره من المؤرخين سوى الأنصارى (راجع اختصار الأخبار ، نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ١٣ حاشية(٧) .

(٢٧٥) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال ص ٢ - ٣ .

(٢٧٦) نفس المصدر ص٣ وصاحب هذا القبر ولد بأشبيلية في رمضان عام ٥٩٩هـ وأخذ عن شيوخها وقرأ بأشبيلية إلى أن استولى النصارى عليها فخرج منها واستقر بسبته يقرء ويعلم إلى أن توفى بها في عام ٦٨٨هـ . ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ١٤ هامش(٨) .

(٢٧٧) من أشهر مقابر هذه المقبرة قبر الفقيه القاضى ابن الدراج الأنصارى وهو محمد بن محمد بن عمر ابن الدراج الأنصارى . فقيه من أهل سبته وأصله من تلمسان (راجع اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور ص١٩حاشية (٢٥) وقبر الفقيه القاضى عبد الله ابن محمد ابن عبد الله الحجرى السبتى . ولد بقناحر في شهر ذى الحجة سنة ٥٠٥هـ وعلم بمالقه القرآن والحديث واللغة ثم سكن سبته ثم فاس مدة، وعاد إلى سبته فاستقر بها وولى قضاء سبته يوماً واحداً . وكان مما جمع الله له بين العلم والعمل واتساع الرواية وعلو الذكر إلى أن توفى لسبعة ليله الأحد ٢١محرم عام ٥٩١ هـ (راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور ص ١٣ حاشية (٦) .

(٢٧٨) بها قبور الشهداء وهى مزار مشهور بموضع متسع جامع لعدد كبير (الأنصار ص٥).

(٢٧٩) من أشهر قبور تلك المقبرة قبر الفقيه محمد بن عبد الله الأموى السبتى (الأنصارى . ص٥) وقد تولى صاحب هذا القبر قضاء سبته مرتين فى عهد أسرة برغواطه والآخر فى أيام المرابطين ، وقد ولد عام ٤٣٣هـ وتوفى فى عام ٥١٧هـ (راجع اختصار الأخبار نشرة محمد عبد الوهاب بن منصور . ص ٢١ حاشية (٣٠) .

(٢٨٠) كان بها قبر الشيخ أبى عبد الله القرمونى . من أهل سبته (راجع الأنصارى اختصار الأخبار . ص ٦) .

(٢٨١) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة بروفنسال ص ٢٥ .

علم الجراحة فى الأندلس

د. حنان عبد الفتاح مطاوع(*)

تمهيـــد :

(أ) الطب ومفهومة الحضارى :

الطب علم من العلوم القديمة التى عرفها الناس عن طريق التجربـة والخبرة ، وهو ضرورى لكافة المجتمعات لما له من اتصال بحياة الإنسان وصحتـه فـى جسمـه ونفسه ، وهو يعود عليه بالراحة والسعادة فى حالة الصحة ، ويخلصه من الألم فـى حالة المرض. وقد عرَّف ابن خلدون صناعة الطب فقال : « هذه الصناعة ضرورية فى المدن والأمصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ، ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم »(١) .

(ب) أهمية الطب فى الحضارة الإسلامية(٢) :

اهتم الإسلام منذ مولده بالطب اهتماماً بالغاً ، وفى ممارسة مهنة الطب اتجه المسلمون نحو تراث اليونانيين يشجعون على نقلة إلى العربية ليفيدوا منه ، فأشـادوا بابقراط(٣) . وجالينوس(٤) . وغيرهما من أطباء اليونـان، وأخـذوا عنهـم المبـادئ والأساليب التى تستهدف السمو بمهنة الطب(٥) .

(جـ) الجراحة فرع من فروع الطب :

كانت الجراحة عند العـرب تسـمى صناعـة اليـد(٦) . وهـى ترجمـة حرفيـة لكلمة Chirurgie اليونانية ، ولم تكن علمـاً مستقلاً بـل كـانت فـى بدايـة الأمـر

(*) مدرس بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية .

ترتبط بصناعة الحجامين الذين يقومون بالكى والفصد والبتر(٧) . ولعل ترفع العرب عن الجراحة فى أيامهم الأولى وتقليلهم من شأنها يرجع إلى انهم اعتبروها صناعة يدوية ، أما الطب فكان نتاج العقل ، والعقل فى اعتقادهم كان اسمى من اليد(٨).

واستمر العرب فى ترفعهم عن مهنة الجراحة فى فجر العصر الإسلامى(٩) . لا سيما وان الإسلام منع التمثيل بالجسم الإنسانى(١٠) . ومن ثم فان الطب الإسلامى لم يعن كثيراً فى أول الأمر بالجراحة على أساس فكرة المحافظة على جسم الإنسان كما خلقه الله(١١) . وقد تغلب العلماء فى العصور الإسلامية الأولى على هذه العقبة بتشريح أجسام القردة بوصفها أقرب الحيوانات فى تركيبها إلى الإنسان(١٢) ، وقد استقى العرب معلوماتهم فى التشريح عمن سبقوهم من اليونان(١٣) والفرس(١٤) . ومن مشاهدة الهياكل العظمية بالمقابر . ولكن لابد انهم مارسوا التشريح ولو بصورة سرية ومحدودة(١٥) . وعلى أية حال فانه مع تقدم الطب العربى الإسلامى تقدمت معه الجراحة ، وأقبل العرب على ترجمة أمهات الكتب اليونانية(١٦) . التى ألفها أبقراط وجالينوس وغيرهما . وفى هذه المؤلفات معلومات جراحية غاية فى الأهمية ، تمكن الأطباء المسلمون من دراساتها وتفهم ما فيها من معلومات جراحية ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ازدهار علم الجراحة فى الدولة الإسلامية على يد جراحين مسلمين اعتمدوا فى البداية على ما أخذوه فى هذا المجال من العلماء اليونان، ثم كان لهم فى النهاية نظرياتهم الخاصة التى توصلوا إليها بالبحث والتجارب الشخصية . وعلى يد هؤلاء الأطباء أصبح للعرب المسلمين طب جراحى أصيل تناولوه بالشرح والنقد ومارسوه عملياً(١٧). حيث استخدموا (الكى) فى علاج كثيرٍ من الأمراض ، وفضل بعضهم (الكى) بالنار على (الكى) بالمواد الكاوية ، واشترطوا أن تكون المكواة من الحديد وليست من الذهب ، وأوصوا بان يكون (الكى) فى الربيع(١٨) . كما قاموا

باستخراج الحصاة أو تفتيتها فى المسالك البولية ، وباشروا جراحات الأنف والأذن والحنجرة والفم والأسنان. وفى خياطة الجروح استخدموا الخيوط المصنوعة من أمعاء بعض الحيوانات وبخاصة القطط(١٩) .

وكان العرب أول من استعمل المخدر فى الجراحة حيث نجح الأطباء المسلمون الأوائل فى اكتشاف نباتات لها قوة التخدير . كما أن استخدام الإسفنجة المخدرة فن عربى أصيل . وقد دخل هذا الاكتشاف العلمى إلى أوروبا بطرق كثيرة ومختلفة ، وظل معمولاً به حتى القرن ١٨ م حيث اكتشف التخدير بواسطة الاستنشاق عام ١٨٤٢ م . وكان الطبيب العربى المسلم أبو القاسم الزهراوى يستخدم خليطاً من نباتات الشيلم والسيكران، وكانت هذه الخلطة تخدر المريض لفترة طويلة تكفى لأجراء العمليات الجراحية التى يقوم بأجرائها بنفسه(٢٠) .

أولاً: نبذة عن الطب فى الأندلس :

كان الطب الأندلسى بدائياً فى مطلع الحكم العربى الإسلامى . ذلك لان معظم الباحثين والدارسين المسلمين كان اهتمامهم فى تلك المرحلة بالعلوم الدينية واللغوية(٢١) .

وهكذا لم يكن فى بلاد الأندلس منذ الفتح الإسلامى وحتى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢ م) علم طبى يعوّل عليه إلا ما كان يقوم به بعض الأفراد من النصارى الذين اكتفوا بالإطلاع على كتاب واحد مترجم من كتب النصارى يقال له (الأبريشم) ومعناه المجموع أو الجامع ، يأخذون منه معلومات سهلة وسطحية ، تساعدهم فى ممارسة مهنة الطب بالقدر الذى يكفى لكسب قوتهم دون الوصول إلى تفهم ما فيه من معلومات بشكل صحيح . وقد عبر ابن جلجل عن سطحية معلومات هؤلاء الأطباء بقوله « ولم تكن لهم

بصاره (أى رؤية) بصناعة الطب والفلسفة والهندسة فى أيام عبد الرحمن بن الحكم»(٢٢) .

غير انه سرعان ما تقدمت الحركة الطبية فى الأندلس فى زمن الأمير محمد ابن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨هـ/٨٥٢م-٢٧٣هـ/٨٨٦م) على أثر قدوم بعض الأطباء المشارقه إلى الأندلس ، ومعهم أفضل ما توصلوا إليه من أدوات طبية ، وآخر ما صدر عن علماء المشرق من نظريات علمية. وعلى رأس هؤلاء الطبيب المشرقي الشهير « الحراني » الذى استقر فى قرطبه ، وحمل معه إلى بلاد الأندلس معجوناً كان يبيع السقيه منه بخمسين ديناراً لأوجاع الجوف(٢٣) .

وفى نفس الفترة الزمنية أقدم « ابن اياس » القرطبى - ولأول مرة فى تاريخ الأندلس - على التصدى لدراسة العلوم الطبيعية فكان أول من اشتهر بالطب فى الأندلس من المسلمين فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط(٢٤) .

وفى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر أصبح لأهل الأندلس علم طبى راسخ الأركان بعد أن أخذ الأطباء الأندلسيون يسعون لاكتساب الخبرات الطبية عن طريق زيارة بلدان المشرق الإسلامى(٢٥) ، وجلب أفضل المصنفات الطبية الشرقية(٢٦) ، وتشجيع ترجمة الكتب الطبية اليونانية والتى كان من أهمها كتاب ديسقوريدس فى الأعشاب . ونتيجة لكل ذلك ازدهرت الدراسات الطبية فى أسبانيا الإسلامية زمن الخليفة الناصر ، وظهرت مجموعة من الأطباء كان لهم فضل كبير على الطب ، جمعوا بين المهارة وحسن التصرف والقدرة على العلاج حتى أن الخليفة الناصر اختار منهم أطباء البلاط . ويأتى على رأس هؤلاء حسداى بن شبروط الذى كان أحرص الأطباء على التقرب من عبد الرحمن الناصر ، وكذلك عالم النبات المعروف « بالشجار » الذى كان من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير ديسقوريدس ، فعرف منه ما هو صحيح وما هو مخالف للواقع(٢٧) .

وفى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م) واصلت الدراسات الطبية تقدمها حيث انه شمل الباحثين فى الطب برعايته عن طريق إنشاء ديوان الأطباء ، يقيد فيه اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة ، ويزاولها ، فإذا ارتكب خطأ يستوجب العقاب يسقط اسمه من الديوان، كما هو الحال بالنسبة للطبيب أحمد بن حكيم بن حفصون(٢٨) . كذلك جعل الحكم فى قصره خزانة للطب رتب لها اثنى عشر صبياً من الصقالبة لتجهيز الأدوية والمعجونات ، وكان يتولى الإشراف عليها أحمد الحرانى(٢٩) .

وإذا انتقلنا إلى عصر الطوائف (٤٢٢هـ / ١٠٣١م) نجد أن طليطلة كانت أشهر مراكز الدراسات الطبية حيث شمل ملوك بنى ذنون أصحاب طليطله كل من برع من الأندلسيين فى العلوم الطبية من طليطليين أو ممن كانوا يقيمون فى طليطله. وكان من أبرزهم ابن وافد الذى اهتم بدراسة علم الأدوية المفردة ووضع فيها مصنفاً جامعاً كان نتاج إطلاعه العميق على كتب اليونان القديمة وتجاربه الشخصية خلال عشرين عاماً من البحث والدراسة(٣٠) .

ويكفى دليل على تقدم حركة الطب فى مدينة طليطله زمن الطوائف ما ذكره لكلرك مؤرخ الطب العربى من انه كان يوجد بطليطله تسعون كتاباً مترجماً من العربية إلى اللاتينية فى الطب ، منها أربعة لأبقراط وخمسة وعشرون لجالينوس والباقى لحكماء العرب والمسلمين(٣١) .

وقد تابعت الدراسات الطبية فى الأندلس تطورها بعد عصر الطوائف ولا سيما فى عصر الموحدين « أواخر القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر للميلاد ، وأوائل القرن التالى » حيث بلغ الطب فى هذا العهد قمة تطوره(٣٢) . وقد يطول بنا القول إذا أردنا تتبع هذا التطور الأمر الذى قد يبعدنا عن موضوع البحث الذى يركز بشكل أساسى على علم الجراحة فى الأندلس ، ولكن يمكننا الإشارة فى هذا المجال إلى الرواد من مؤرخى العلوم الذين بذلوا جهداً بالغاً فى دراسة تاريخ الطب

الأندلسى ، ووصفوا كيف نشأ ونما وازدهر هذا العلم حتى بلغ أوجه فى عهد بنى نصر - فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر للميلاد - ، ويكفى أن نشير هنا إلى كتابين شهيرين هما « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل الأندلسى وكتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعه (ت ٦٦٨هـ) الذى افرد فيه الباب الثالث عشر لطبقات الأطباء الذين ظهروا فى بلاد المغرب وأقاموا بها.

ففى ثنايا هذين الكتابين نستطيع أن نستخلص العديد من الحقائق ونوجزها فيما يلى :

١- أن الأطباء الأندلسيين كانوا من النوع الموسوعى بمعنى انهم مارسوا إلى جانب الطب علوم الشريعة والفلسفة والفلك والكيمياء والصيدلة وغيرها(٣٣) .

٢- بلغ من تكريم الأطباء الأندلسيين انهم وصلوا إلى اعلى مراتب وظائف الدولة إلى جانب الطب فكان منهم من ولى الوزارة ، وبلغ بعضهم من الجاه والسلطان مبلغاً جعلهم يتبارون مع الخلفاء فى الإنفاق عن سعه والعيش فى أبهة ورخاء(٣٤).

٣- يمكننا من خلال الدراسة التحليلية لتاريخ الطب الأندلسى أن نستخلص حقيقة هامة وهى أن مهنة الطب كان يتوارثها أحياناً كثيرة الأبناء عن الآباء(٣٥) .

ونكتفى بهذا القدر من الإشارة إلى ابرز سمات الطب الأندلسى حتى يتسع المجال لإلقاء نظرة عامة على علم الجراحة فى الأندلس فى ضوء ما جاء فى مخطوط الزهراوى وما عثر عليه فى متاحف أسبانيا من آلات جراحية .

ثانياً: الطب الجراحى فى الأندلس :

إذا كانت الجراحة لم تتقدم عند العرب كما سبقت الإشارة لارتباطها بفن التشريح ، ولاعتبار الجراحة من المهن اليدوية التى لا تليق بمقام الأطباء . فان

المسلمين فى شرق وغرب العالم الإسلامى مارسوا مهنة الجراحة فى إطار دعوة الإسلام إلى الأخذ بالعلم بوجه عام ، حيث أطلق الإسلام العلم من عقاله وحث المؤمنين على طلبه أينما كان، وفصل بين الطب القائم على العلم المتوارث عن معارف الأقدمين أو التجربة ، وبين السحر ، وأقر العلاج بالنباتات والوصفات الطبية والحجامة والكى وغيرها(٣٦) .

ونتيجة لذلك عنى المسلمون بمؤلفاتهم الطبية التى أفرد بعضهم فيها فصولاً عن علم الجراحة ، ولعل من أشهرهم فى بلاد الأندلس :

١ - أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى :(٣٢٥هـ - ٤٠٤هـ / ٩٣٦م-١٠١٣م)

هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى(٣٧) ، وكنيته بالزهراوى تدل على انه عاش وتعلم ومارس مهنة الطب ، وتوفى بمدينة الزهراء . وقد كان طبيباً خاصاً للحكم المستنصر ، وكان يعرف عند اللاتينيين باسم أبولكاسيس Abulcasis تحريفاً من أبى القاسم وAlsaharavius تحريفاً من الزهراوى(٣٨) .

ويعد الزهراوى أشهر من كتب فى علم الجراحة عند العرب ، وأكبر من نبغ فيها ، وللزهراوى مصنفات طبية عديدة من أبرزها وأكثرها شهرة كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » ، وهو موسوعة طبية كاملة تضم جميع فروع الطب المعروفة فى زمانه(٣٩) . إلا إن ما رفع قدرة وخلد ذكره هو ذلك الجزء من كتابه « المقالة الثلاثون » التى خصصها للجراحة(٤٠) وهى أكبر وأغنى مصدر علمى فى الجراحة ، كما تعتبر مرجعاً حتى الآن لطلبة الطب ومعيناً للأطباء فى مواجهة مشاكلهم الجراحية(٤١). وتنقسم هذه المقالة التى عثرنا لحسن الحظ على نسخة خطية منها(٤٢) إلى ثلاثة أبواب :

* **الباب الأول** : يتعلق بالكى وينقسم إلى ٥٦ فصلاً .

* **الباب الثاني** : يتناول الشق والبط والفصد ومختلف العمليات الجراحية وينقسم إلى ١٠٠ فصل .

* **الباب الثالث** : تحدث فيه عن جبر الكسور والفك الحادثين فى العظام .

وتبرز قيمة هذه المقالة وأهميتها فى أن الزهراوى زودها برسوم توضيحية للعديد من الآلات الجراحية مثل آلات الكى ، والمباضع ، والمقصات ، والمجسات ، وأدوات التوليد ، وخافض اللسان، والصنانير ، والملاقط ، والموسعات منها ما هو مصنوع من النحاس أو الزجاج أو الرصاص .

ولأهمية هذه المقالة سوف نعرض مقتطفات ملخصه من أقوال الزهراوى التى توضح ما وصلت إليه معرفته فى علم الجراحة . ففى الباب الأول الذى خصصه للكى ناقش فيه أساليب الكى فى الأمراض المختلفة من الرأس إلى القدم موضحاً ذلك بالرسوم التفصيلية للمكاوى التى كان يستعملها ، والتى من بينها المكواة السكينية والهلالية والمسمارية وذات السفودين وذات السفافيد الثلاثة .

وفى ثنايا عرض الزهراوى للمكاوى الجراحية أوضح أنواع الأمراض التى يصلح فيها العلاج بالكى ومنها :

١- برودة المعدة(٤٣) وعلاجها ويتم بكيها كية واحدة فوق المعدة بمكواة دائرية أو يكوى ثلاث كيات بمكواة مسمارية(٤٤) .

٢- فى أمراض الكبد(٤٥) ويكوى المريض ثلاث كيات فوق الكبد ويكون ذلك بمكواة سكينية(٤٦) .

٣- فى أمراض الطحال(٤٧) يكوى ثلاث أو أربعة كيات على طول الطحال ويستخدم فى ذلك مكواة خاصة ذات سفودين أو ثلاث سفافيد(٤٨) .

٤- فى علاج النقرس وأوجاع المفاصل(٤٩) ويتم الكى بعد الاستفراغ حول مفصل الرجلين وتكون المكواة زيتونية متوسطة(٥٠) .

٥- فى علاج الأورام السرطانية نصح الزهراوى بكى السرطان(٥١) إذا كان مبتدأ واستعمل فى ذلك مكواة دائرية جاعلاً الورم السرطانى فى داخل حلقة المكواة بحيث يكون الكى حول الورم . وهو فى ذلك يختلف عن الأسلوب الذى اتبعه بعض الأقدمين فى علاج الورم السرطانى بكيه كيه بليغة فى وسط الورم ، ويوضح سبب عدوله عن استخدام هذا الأسلوب بأن كى الورم فى الوسط يؤدى إلى تقرحه .

٦- فى علاج النزف الحادث عن قطع الشريان يقول الزهراوى « واعلم أن الشريان إذا نزف منه الدم فانه لا يستطاع وقفه ولا سيما إذا كان الشريان عظيماً إلا بأحد أربعة أوجه :

(أ) أما بالكى .

(ب) وأما ببتره إذا لم يكن قد أبتر فانه إذا انفصل طرفاه انقطع الدم .

(جـ) وأما أن يربط بالخيوط ربطاً وثيقاً .

(د) وأما أن توضع عليه بعض الأدوية التى من شانها قطع الدم والشد بالرفائد شداً محكماً. وان عرض لأحد ذلك ولم يحضره طبيب ولا دواء فليبادر ويضع الإصبع السبابة على فم الجرح نفسه ويشده جيداً حتى ينحصر الدم(٥٢) .

وفى الباب الثانى من مقالة الزهراوى المخصص لعلاج الشق والبط والفصد والخراريج وغيرها . يبدأ بتوجيه بعض النصائح التى تقوم عليها تقاليد ممارسة هذا النوع من الجراحة والتى ينبغى للجراح مراعاتها(٥٣) . وأهم ما تناوله بالشرح والتحليل فى فصول هذا الباب ما يلى :

١- وصف الأورام الصغيرة ويسميها العقد وتظهر فى الشفتين ، وقد بين أسلوب علاجها عن طريق قلب الشفه ويشق على كل عقدة ثم يملئ الموضع بزاج مسحوق حتى ينقطع الدم ويتمضمض المريض بالخل(٥٤) .

٢- تعرض للقشور العالقة بأسطح الأسنان بألوانها المختلفة الصفراء والسوداء والخضراء(٥٥) . ووضح مدى خطورة تلك القشور على الأسنان وما قد تسببه من تقيح . وأكد على ضرورة جردها جيداً ، وربما يحتاج المريض إلى أكثر من جلسة لتنظيفها تماماً ، وبين أن الضرس يحتاج فى جرده إلى مجارد كبيرة ومتنوعة وأتى بأربعة عشره مجرد تصلح لهذا الغرض(٥٦) .

٣- فيما يتعلق ببط الأورام وشقها يقول(إن أنواعها كثيرة وهى تختلف فى بطها من وجهين أحدهما نوع الورم والثانى مكان الورم لأن الورم الحادث فى المقعد والورم الحادث فى المفصل لكل منهما حكم فى العمل) (٥٧) . ثم يشير إلى أنه من الأورام مالا ينبغى أن يبط إلا بعد نضج التقيح فيها وكماله . ومنها ما ينبغى أن يبط وهى نيه لم تنضج على التمام ، ويعطى مثلاً لذلك الخراج الحادث بقرب المقعد لئلا يعفن فينفذ إلى داخل المقعد فيصير ناصوراً(٥٨) .

٤- وفى علاج أورام الحنجرة يقول أن الأطباء الأوائل كانوا يعمدون إلى شق الحنجرة وأمروا بترك الجرح مفتوحاً حتى تنقضى سوره المرض ، وتكون سورته ثلاثة أيام ونحوها وحينئذاً أمروا بخياطة الجرح حتى يبرأ(٥٩) .

٥- فى الفصل السادس والأربعين زودنا الزهراوى بمجموعة رائعة من صور الآلات المستخدمة فى الشق والبط(٦٠) . وفى هذا الباب تتجسد مكانه الزهراوى كأعظم من أرخ للطب الجراحى التطبيقى(٦١).

٦- يعتبر الزهراوى من أفضل من وصف علاج السرطان ، ففى الفصل الثالث والخمسين ينصح الأطباء باستئصال الورم السرطانى متى كان فى موضع يمكن استئصاله ، وضرب المثل لذلك بسرطان الثدى أو الفخذ ، كما حذر من استئصال الورم السرطانى متى كان عظيماً ويشير إلى تجربته الشخصية فى ذلك بقوله (فإنى ما استطعت أن أبرئ أحداً منه ، ولا رأيت قبلى من وصل إلى ذلك الحد والعمل فيه إذا كان متمكناً) وبعد ذلك يشرح إذا دعت الضرورة القصوى لاستئصال الورم العظيم بقوله :

« ثم تلقى فى السرطان الصنانير التى تصلح له ثم تقوره من كل جهة مع الجلد على استقصاء حتى لا يتبقى شيئاً من أصوله. فإن اعترضك فى العمل نزف دم عظيم من قطع شريان أو وريد فاكوى العروق حتى ينقطع الدم»(٦٢) .

٧- وفى ختان الصبيان يشير الزهراوى إلى طريقة جديدة من ابتكاره يسميها (التطهير بالمقص والرباط بالخيط) وقد عدَّد مزايا هذه الطريقة وتناولها بالشرح(٦٣) .

٨- يعتبر الزهراوى من أفضل من كتب فى كيفية استخراج الحصاة حيث فرق بين حصاه الكلية والمثانة ونصح بالشق فقط على حصاه المثانة أو قناة مجرى البول(٦٤) . وقد سمى جراحه حصاه المثانة بالشق على (العجان) المسمى فى الطب الحديث Perineal Urethero Tomy(٦٥) وقد حذر من أن يكون القطع كبيراً حتى لا يحدث سلس البول ، وأشار إلى انه فى حالة إذا ما كانت

الحصوه كبيرة فإنه يجب تكسيرها بـالكلاليب وإخراجها قطعاً ، ويعد هذا أول وصف فى الجراحة لعملية تفتيت الحصوه المعروفة الآن فى الطب الحديث باسم Litholapay(٦٦) .

٩- فى الفصل السابع والستين أمدنا الزهراوى بمعلومات هامة عن علاج الفتق الذى فى الأربية(٦٧) وهو ما يسمى الآن باسم الفتق « الأربى المباشر» Direct Inguinal Hernia(٦٨) . وفى هذا النوع من الفتق لا يستأصل الزهراوى كيس الفتق بل يكتفى بدفعه إلى الداخل بواسطة المرود ثم يخيط القطعة الضعيفة التى برز منها كيس الفتق من خلال جدار البطن ، وهذه أول محاولة فى تاريخ الجراحة لعمل الرتق الجراحى للفتق الأربىHernial Repair(٦٩) .

١٠- فى الفصل السابع والسبعين زودنا الزهراوى بمجموعة رائعة من الصور التى تستخدم فى إخراج الجنين(٧٠) وبين نوعيه المواد المستخدمة فى صناعتها . حيث نصح بأن تكون من الأبنوس أو من خشب البقس(٧١)

١١- فى الفصل الثمانين يصف الزهراوى كيفية علاج النواصير التى تحدث فى الأسفل ، وقد أجاد فى بيان الفرق بين الناصور النافذ وغير النافذ إلى المستقيم(٧٢) . ويقر المتخصصون بأن وصف الزهراوى لعمليه الشق على الناصور غير النافذ يتفق مع ما يمارسونها فى هذه العملية حتى الآن(٧٣) . وقد أمدنا الزهراوى فى هذا الفصل بصور لبعض الآلات المستخدمة فى قطع الناصور مثل المسبار المثقوب الطرف كإبره الأسكاف أو المبضع الشوكى(٧٤).

١٢- فى الفصل الثالث والثمانين أمدنا الزهراوى بصور لبعض الآلات التى تستعمل فى الحقن ، ونصح بأن تكون مصنوعه من فضه أو صينى أو نحاس مفروغ أو مضروب ، وفرق بين حقن الكبار وحقن الصغار(٧٥) .

بقوله « وقد تصنع من هذه الآلات صغاراً وكباراً على حسب المستعملين لها فيكون التى تستعمل فى علاج الصبيان الصغار صغار والذين مقعدهم ضيقه أو متوجعة يكون محاقنهم لطاف جداً »(٧٦) .

١٣- فى الفصل الرابع والثمانين يتحدث الزهراوى عن الجروح الناتجة عن الإصابات بالسيف أو السكين أو بطعنه رمح أو سهم أو نتيجة لصكه حجر ، وقد وضع الزهراوى لهذا الفصل عنواناً مختصراً هو علاج الجراحات(٧٧) . وتناول فيه بالتفصيل كيفيه علاج جروح الرأس والصدر وما بين الكتفين . وفى علاج الرأس مثلاً فرَّق بين الجروح البسيطة بالرأس التى تعالج بوضع قطنه مغموسة فى دهن الورد على مكان الجرح . أما إذا كان الجرح كبيراً من قطع سيف أو نحوه ولم يجتمع شفتاه بالرفائد بأجمعها بالخياطة(٧٨) .

١٤- يتناول الزهراوى فى الفصل السادس والثمانين علاج الزكام والناصور(٧٩)، وأهم ما فى هذا الفصل صور الآلات التى كان يستعملها فى إزالة العظام المريضة مثل المناشير بأحجامها المختلفة ما بين كبيره وصغيره ، وكذلك المحارد بأشكالها المتباينة من محارد مستقيمة ومجوفة ومعطوفة الطرف(٨٠) .

١٥- فى الفصلين التسعون والواحد والتسعون زودنا الزهراوى بصور واضحة عن كيفيه قطع الدوالى وعلاجها . حيث عرف فى الفصل التسعين الدوالى على أنها « عروق ملتوية غلاظ ، مملوءة فضولاً سوداوية تحدث فى أكثر أعضاء الجسم ، وأكثر حدوثها فى الساقين ولا سيما سوق الشيوخ والاكارين والحمالين »(٨١) . ثم يصف بعد ذلك عملية سل العروق التى تبدأ بحلق شعر المريض إذا كان فيه شعر ، ثم توضع فى حمام ساخن حتى يسخن العضو ويشق الجلد قبالة العرق بالطول ويشد الجلد بالصنابير ويسلخ العرق من كل جهة حتى يظهر للحس ، ثم يدخل تحته مروداً حتى إذا أرتفع وخرج من

الجلد علق بصناره عمياء ملساء(٨٢) . ويختم هذا الوصف المطول لعملية سل العروق بقوله « فإذا سللته كله تضع على مواضع الجراحات صوفاً مغموساً في شراب ودهن ورد أو زيت »(٨٣) .

أما الباب الثالث والأخير من مقالة الزهراوى فقد أفرده لجبر الكسور والفك الحادثين فى العظام ويبدأ هذا الباب بمقدمه يشير فيها إلى أن فن جبر الكسور كان من الفنون المعروفة فى بلده ، وأنه أعتمد فى ممارسته لهذا الفن على إطلاعه الواسع فى كتب الأوائل وحرص على فهمها ، ويشير إلى أن ما ذكره فى هذا الباب هو نتاج خبرته وتجربته الخاصة .

وينقسم هذا الباب إلى خمس وثلاثين فصلاً . تناول فى جملتها وصفاً تفصلياً لكل أنواع الكسور وأعراضها وطرق علاجها وأساليب لف الكسور حسب حجم الكسر صغيراً أو كبيراً ، وطريقة وضع العضو المكسور داخل اللفائف وصور لتلك اللفائف(٨٤) .

ونظراً لأن فصول هذا الباب كلها تتناول موضوع واحد وهو الكسور التى تصيب مختلف أعضاء الجسم مثل كسور الضلوع والظهر والذراع والفك والساقين وعظام القدم (الرجل) والأصابع(٨٥) . لذا فإننا نكتفى هنا بالقول بأنه من خلال إطلاعنا على تلك الفصول نستطيع أن نقرر فى ثقة واطمئنان بأنها لا تختلف عن فصول البابين السابقين من حيث وضوح التفكير وسلامة ودقة التعبير مما يعطينا فكره عن مدى إحاطة الزهراوى بهذا الفرع من فروع الطب ، ومدى ما وصلت إليه الكتابة العلمية فى بلاد الأندلس والتى كانت بمثابة الأسس القوية التى قامت عليها أصول الطب الحديث فى كثير من الأفكار والأصول التى قدمها الزهراوى للطب الجراحى ما زالت متبعة ومعترف بها حتى الآن ، ويكفى دليلاً

على ذلك أن كثيرًا من الآلات الجراحية التى استخدامها الزهراوى وزودنا بمجموعة رائعة منها لحسن الحظ ما زال منها ما يستعمل حتى الآن رغم اختلاف الوسائل منذ تلك القرون الطويلة .

وآخر ما نسجله من ملاحظات على مقالة الزهراوى أن كل ما كتبه فيها أتسم بالأمانة العلمية المطلقة فنراه ينسب فى كثير من المواضع كل معلومة إلى صاحبها .

٢ - جراحون آخرون من الأندلس :

بخلاف الزهراوى نبغ فى علم الجراحة فى الأندلس عدد من الجراحين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر .

(أ) ابن ملوكه النصرانى :

كان فى أيام الأمير عبد الله وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر ، وقد أورد كل من ابن جلجل ، وابن أبى أصيبعه ما يفيد بأنه كان يصنع بيده (أى جراحًا) وكان يفصد العروق ، ويبدو أنه كان يعالج الناس فى داره حيث كان على باب داره ثلاثون كرسيًا لجلوس الناس(٨٦) .

(ب) خالد بن يزيد :

كان معاصرًا لقسطاس بن جريج المصرى الذى كان فى دولة الإخشيد (٣٢١هـ - ٣٣٤هـ) (٩٣٣م - ٩٤٥م) . وقد أورد ابن جلجل فى ترجمته ما يفيد بأنه كان جراحًا (صانعًا بيده) . إلى جانب أنه أمتاز بخبرته فى الأدوية الشجارية(٨٧) .

(جـ) يحيى بن إسحاق :

كان معاصرًا للخليفة عبد الرحمن الناصر ، وعنه يقول ابن جلجل (كان طبيبًا نبيلاً عالمًا حاذقًا بيده وكان فى صدر دولة الناصر وأستوزره وولى الولايات والعمالات وكان قائد بطليموس زمانًا وكان له من أمير المؤمنين الناصر كبير محل ينزل منزله الثقة)(٨٨) .

(د) أبو موسى بن هارون الأشبونى :

كان معاصرًا لكل من الخليفة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، وكان من شيوخ الأطباء وخيارهم وكان خادمًا بيده (أى جراحًا)(٨٩) .

ثالثًا : فن صناعة أدوات الجراحة الأندلسية :

لا شك أن صناعة أدوات الجراحة فى الأندلس كانت من الصناعات القديمة المعروفة بها قبل العصر الإسلامى . بدليل وجود نماذج لها من العصرين الرومانى والقوطى فى متحف مدريد الوطنى . وقد واصلت صناعة أدوات الجراحة نشاطها فى الأندلس فى العصر الإسلامى حيث وصلنا منها أحد عشر آلة أو نموذج مصنوعة من البرونز والنحاس الأصفر . وتكشف لنا تلك النماذج مدى التنوع فى أساليب تشكيلها الأمر الذى يوضح تباين استخداماتها حيث تراوحت أشكالها ما بين آلات فى شكل ملاعق أو شكل صنابير أو مباضع أو ابر أو مثاقب ويمكن تقسيم آلات الجراحة الأندلسية التى وصلت إلينا بحسب مكان العثور عليها إلى مجموعتين .

١ - مجموعة متحف قرطبة الأثرى :

يمثل هذه المجموعة تسع آلات تمتاز بتنوع أشكالها بحيث يمكن تقسيمها إلى خمسة أنماط أو طرز فنية فى صناعتها وهى :

(أ) الطراز الأول : (آلات فى شكل ملاعق) لوحة (٢) أ ، ب ، جـ ، لوحة ٣ - أ :

يمتاز هذا الطراز من حيث الشكل ببدنه المكون من قضيب أسطوانى المقطع مدبب من أسفل على هيئة سن القلم . وينتهى من أعلى بحلقه دائرية ذات فراغ مقعر يشبه تجاويف الملاعق . وينصف بدن القضيب أو ساق الآلة مقبض يختلف فى شكله من آلة إلى أخرى فأحيانا نجده فى شكل مستطيل مقطوع الزوايا محزوز

فى أقسام مضلعة مدقوقة وأحيانًا أخرى نجده عبارة عن خطوط دائرية محززة موزعة فى تراكب رأسى . كما يختلف طول المقبض باختلاف طول الساق أو بدن الآلة فكلما زاد طول القضيب زاد طول المقبض وتتفق جميع آلات هذا الطراز فى خلوها من آيه حليات زخرفيه حيث بدا سطحها الخارجى أملس مصقول باستثناء الجزء العلوى الواقع أسفل الرأس الملعقية حيث زوده الصانع بخطوط محزوزه أفقية موزعه فى تراكب مما أضفى شيئًا من الجمال النسبى على الآلة .

وهكذا تتوافق تشكيلات آلات هذا الطراز فى الصياغة والتنسيق مع وظيفتها العلمية فى كحت الأورام والخراريج وفى جراحه بعض أمراض النساء والتوليد(٩٠) .

(ب) الطراز الثانى : (آلات فى شكل قضبان صناريه) (لوحة ٣ ب):

يمثل هذا الطراز آلة واحدة فقط . ويمتاز البدن فى هذا الطراز باستطالته ويتشكل من لوح عريض أصم ينتهى من أسفل بسن مدبب ومن أعلى تبدو فيه آثار كسر يتجه ناحية اليسار الأمر الذى يجعلنا نرجح بأن هذه الآلة كانت مزوده برأس منكسرة يمينًا أو يسارًا فى شكل خطاف أو صناره . ويتخلل البدن مقبض مستطيل المقطع محزوز البدن يشبه مقابض آلات الطراز الأول وأن اختلف عنها فى إنه أكثر استطالة . ويخلو البدن من آيه زخارف .

أما عن استخدام هذه الآلة فمن المرجح بأنها كانت تستخدم فى جراحه الفم والأسنان لا سيما قطع اللحم الزائد فى اللثة . وفى سحب الأوعية والأعصاب والأوتار التى تصل العضل بالعظم أو فى ثقب القصبة الهوائية لتثبيت الغضروف الحلقى(٩١) .

(جـ) الطراز الثالث : قضبان مثقابيه (لوحه ٣ – جـ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة ورغم الاتفاق فى تشكيل هذه الآلة مع الآلة السابقة إلا أن بدنها وكذلك مقبضها أقل طولاً . كما أن طرفيها مدببان تدبيبًا خفيفًا . وأغلب الظن أن هذه الآلة كانت تستخدم كمثقب أو مبرد لإزالة العظام المريضة(٩٢) .

(د) الطراز الرابع : آلات على شكل مبضع أو مشرط (لوحة ٤ أ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة تختلف شكلاً ونظامًا عن الآلات السابقة حيث يتشكل بدن الآلة من صفيحه عريضة ذات مقطع مستطيل أحد طرفيه منحنى فى شكل ربع دائرى . أما الطرف المقابل فعبارة عن مقبض عُنى بتشكيله فى صورة حديدة قوامها بدن أسطوانى ملفوف تجاوز فى أتساعه ساق الآلة بحيث يعكس المبالغة فى تغليظ مقابض آلات هذا الطراز مع العناية بتقسيم بدن المقبض إلى ثلاث حشوات مستطيلة بواسطة خطوط أفقية محفورة على مستويين مما ساعد على بروز تلك الحشوات بشكل واضح . وأغلب الظن أن هذا النوع من آلات الجراحة كان يستخدم كمبضع أو مشرط لشق الأورام أو شق الجلد فوق الشرايين(٩٣) .

(هـ) الطراز الخامس : آلات على شكل عتله (لوحة ٤ ب) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة عبارة عن ساق طويلة مستطيلة المقطع تنتهى من أعلى برأس مستديرة مثقوبة الوسط حافتها الخارجية تفتقر إلى التشذيب ويستوقف النظر فى هذا الطراز من الآلات ما يلى :

١ – أن ساق الآلة يخلو من المقابض المركزية المستطيلة المقطع التى أقترن ظهورها بمثل هذه الهيئة فى معظم الآلات السابقة حيث استعاض عنها الصانع هنا بحلقه دائرية مثقوبة الوسط فى أحد طرفى ساق الآلة .

٢ - شدة المبالغة فى استطالة ساق الآلة بحيث يصل طوله إلى ذارعين وعرضه أربع أصابع ويستدل من هيئة هذه الآلة على أنها كانت عبارة عن عتلة تستخدم فى استعدال وفرد العظام المكسورة(٩٤) .

(و) الطراز السادس : آلات مسمارية الشكل (لوحة ٤ جـ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة عبارة عن ساق طويلة مصنوعة من سلك صلب يصعب طيه أو ثنيه مما يتيح المتانة والثبات عند استخدامه ينتهى من أسفل بسن مستدق شديد التدبب ومن أعلى بمقبض عبارة عن رأس مستديرة مصمتة مخروطية المقطع . ويستدل من شكل هذه الآلة على أنها كانت عبارة عن آلة لثقب العظم(٩٥) .

٢ - مجموعة متحف مدريد الوطنى (لوحة ٥ - ٦) :

عثر على هذه المجموعة من الآلات الجراحية فى أماكن متفرقة من أسبانيا . وللأسف أن معظمها قد وصل إلينا فى حالة سيئة من الحفظ باستثناء آلتين يعدان من بين أهم نماذج هذه المجموعة. وهما عبارة عن آلات مسمارية الشكل تستخدم كمجسات أو مسابر للكشف عن النواصير كما تصلح لتفتيش الأورام والجراحات.

وجدير بالذكر أنه رغم وجود تشابه واضح فى الشكل بين هاتين الآلتين إلا أن هناك اختلاف فى التفاصيل يتمثل فى أن مقبض الآلة الأولى لا يتوسط ساقها ويمتاز بتكوينه المقعر حيث يتألف من عشر حشوات مستطيلة ملساء يفصل بينها خطوط محفورة حفرًا عميقًا .

أما الآلة الثانية فالمقبض يتوسط الساق تقريبًا كما أنه أقل استطالة من السابق إذ يتألف من ثلاث حشوات فقط الأولى والثالثة فى شكل معين أما الثانية المركزية فتأخذ شكل مثمن الأضلاع . ويدور بالحشوات الثلاثة من أعلى وأسفل خطين أفقيين .

رابعًا : أساليب صناعة وتشكيل آلات الجراحة الأندلسية فى ضوء ما وصلنا منها :

لم تختلف أساليب صناعة وتشكيل أدوات الجراحة عبر العصور المختلفة وإن اختلفت قدرتها على الأداء نتيجة لبعض التطورات التى تتفق مع سنه التطور التى سارت عليها الحضارات المختلفة .

وفى ضوء ما وصلنا من آلات الجراحة الأندلسية يتضح أنها قد صنعت إما من البرونز أو النحاس ونظرًا للارتباط الوثيق بين نوع المادة وأسلوب صناعتها فيمكن حصر أساليب صناعة أدوات الجراحة الأندلسية فى أسلوبين رئيسيين هما :

(أ) أسلوب الصب بطريقة الشمع أو الرمل المفقود الذى يعد أنسب الطرق فى تهيئة معدن البرونز(٩٦) .

(ب) أسلوب الدق أو الطرق ويعد هذا الأسلوب من أنسب الطرق التى تصلح لمادة النحاس(٩٧) .

أما عن أساليب تشكيل أدوات الجراحة الأندلسية ففى ضوء ما وصلنا منها يتضح أنه على الرغم من تنوع استخدامات تلك الأدوات إلا أنها فى مجملها تفتقر إلى التنوع فى أشكالها حيث اعتمدت فى تشكيلها على عنصرين رئيسين هما الساق المطروقة أو المصبوبه والمقبض المحفور فى بدن الساق . ويتسم العنصر الأول وهو الساق فى العادة بشكله المستطيل أو شبه الدائرى أو السفودى المسمارى الشكل.

أما المقبض فقد تراوحت أشكاله ما بين حشوات مربعة أو مستطيلة أفقية موزعة فى تراكب رأسى(٩٨) أو حشوه واحدة مستطيلة تميزت باعتمادها على أسلوب واحد فى تشكيلها يقوم على تقسيمها إلى خطوط زجزاجية على شكل حرف V(٩٩) .

خامسًا : أساليب وعناصر زخرفة آلات الجراحة الأندلسية :

من أهم ما نسجله من ملاحظات على آلات الجراحة الأندلسية أنهـا تفتقر إلى الناحية الزخرفية بحيث يمثل ذلك اتجاه فنى سارت فيه زخارف أدوات الجراحـة الأندلسية .

والواقع أن لهذا الاتجاه ما يبرره لأن هـذه الأدوات تستخدم بكثره فـى العمليات الجراحية وعلى هذا فليس من المنطقى استخدام أية زخـارف فـى تزيين مثل هذه الأدوات لأنها سوف تتعرض للطمس والتلوث .

وهكذا يمكن القول بأن الصانع استبعد زينه أدوات الجراحة قسرًا لا طواعية بمعنى أن أشكال الزخرفـة فـى تلـك الأدوات تتحكـم فيهـا مقتضيـات الوظيفـة لا الصنعة الفنية بحيث اقتصرت فى زخارفها على خطوط محزوزه ذات طابع هندسـى تتألف فى مجموعها من أشرطة زخرفيه يمكن تقسيمها إلى الأنواع التالية :

(أ) **النوع الأول** : أشرطة تتكون من خطوط صغيرة مائلة ومتراكبـة فـى تـدرج تقع أسفل رؤوس الآلات الملعقية(١٠٠) .

(ب) **النوع الثانى** : أشرطة مكونة من خطوط متداخلة ومترابطة بحيث يتولد من ترابطها شبكة من المعينات(١٠١) .

(جـ) **النوع الثالث** : ظهرت فيه الخطوط أكثر وضوحًـا وأكـبر حجمًا وتنوعـت حركاتها فأصبحت زجزاجية متموجة تربطها من أسفل ألسنة أبدانها مشدودة وملساء على التناوب(١٠٢) علـى نحـو يذكـر بأشكال الصلبان المعقوفة(١٠٣) .

وقد تم تنفيذ كل هذه الزخارف بأنواعها المختلفة بأسلوب الحز على سـطح المعدن بواسطة أداه نهايتها مدببة تعرف بالأزميل أو المثقب .



(أ)

(شكل – ١)

مكواة دائرية تستخدم فى كى الرطوبة التى قد تصيب المعدة

(عن الزهراوى)

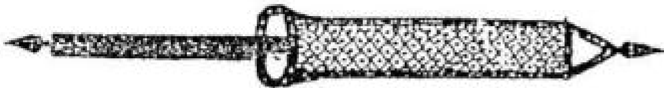


(شكل – أ – ب)

مكواة مسمارية (عن الزهراوى)



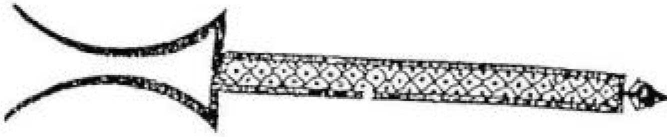
(شكل - ٢)



(شكل - ٣)

أشكال من المكاوى الخاصة بالكبد

(عن الزهراوى)



(شكل - ٤)



(شكل - ٥)

مكواة ذات سفودين وأخرى ذات ثلاث سفافيد خاصة بكى الطحال

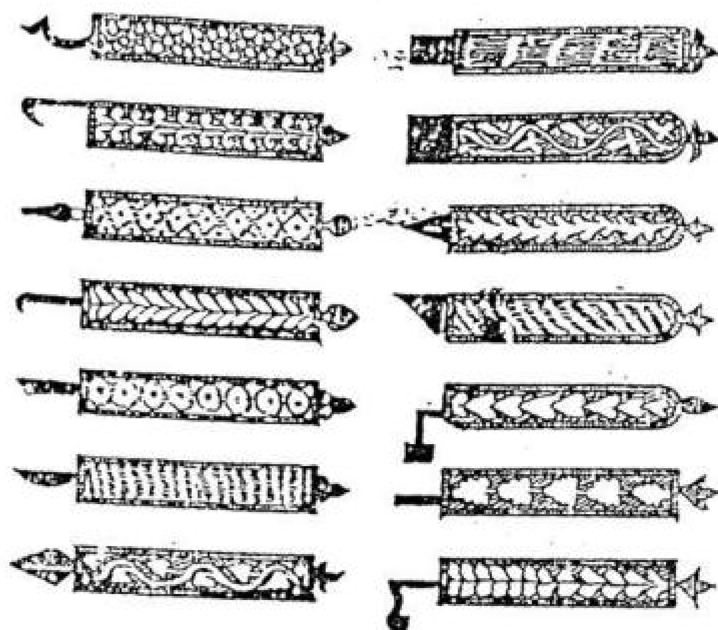
(عن الزهراوى)



(شكل - ٦)

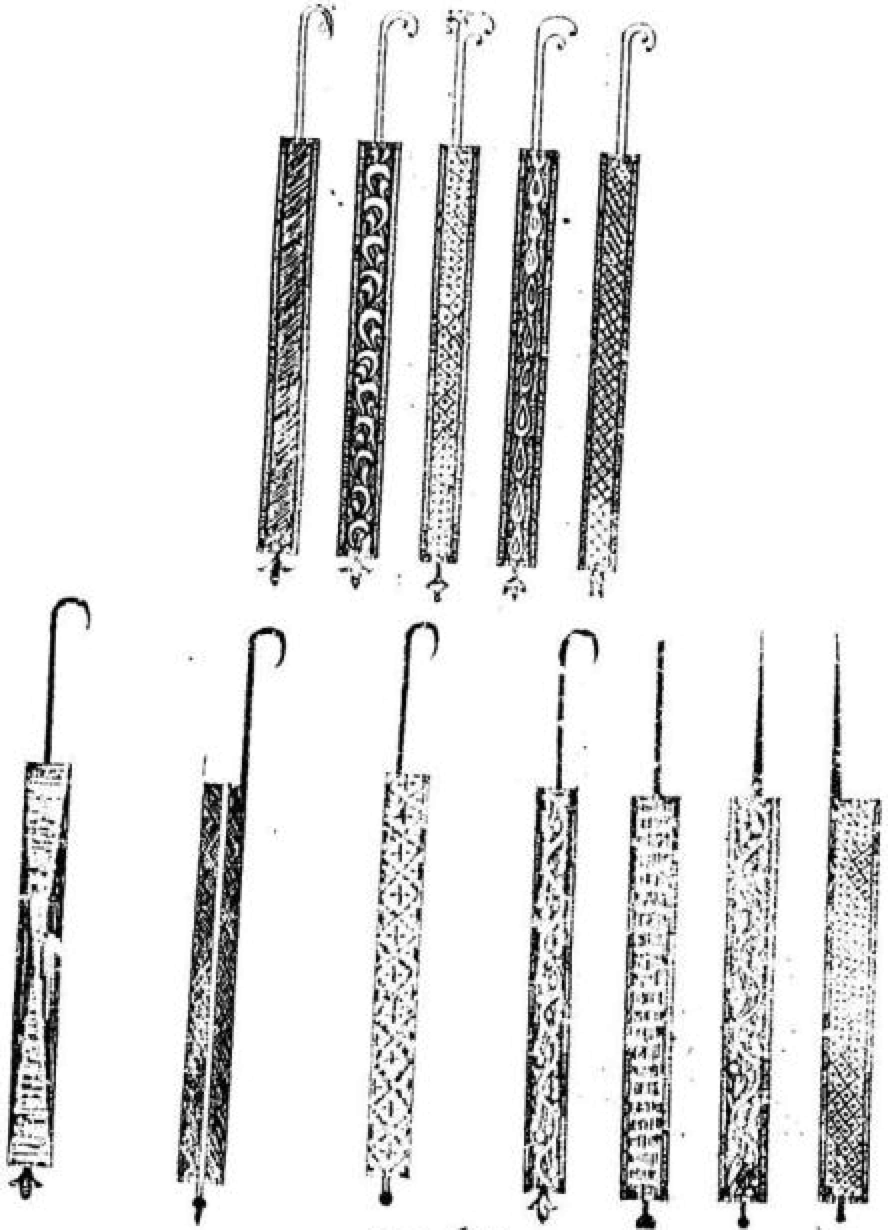
مكواة زيتونيه لكى النقرس وأوجاع المفاصل

(عن الزهراوى)



(شكل - ٧)

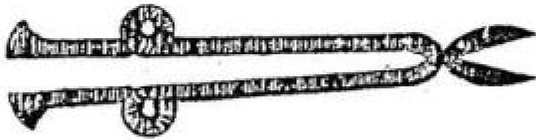
مجارد للأسنان والضروس (عن الزهراوى)



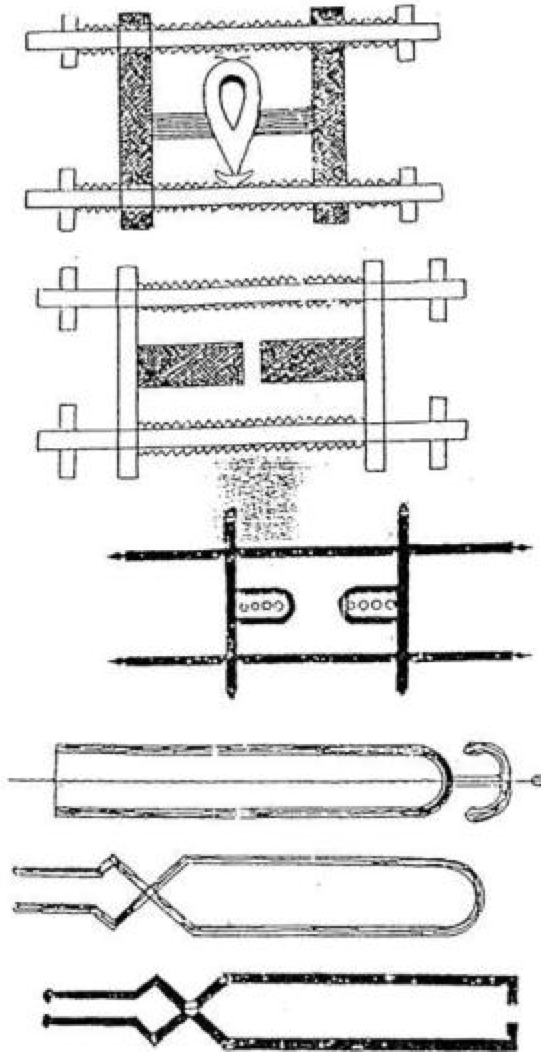
(شكل - ٨)

مجموعة من آلات الجراحة الصنارية الشكل التى تستخدم فى الشق والبط

(عن الزهراوى)

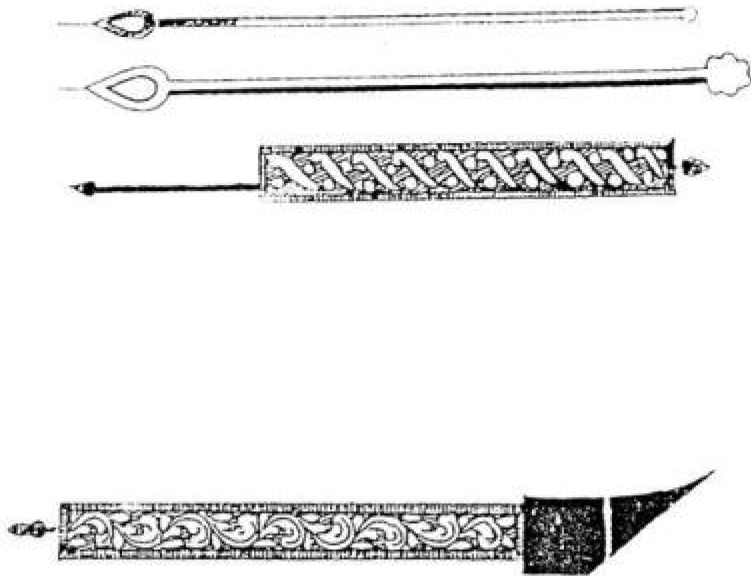


(شكل - ٩) مقص خاص بختان الذكور (عن الزهراوى)



(شكل - ١٠)

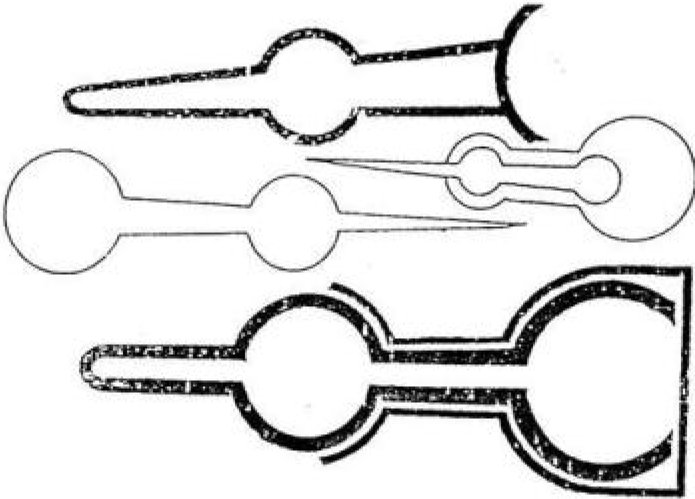
(شكل - ١٠) صور لآلات التوليد وإخراج الجنين (عن الزهراوى)



(شكل ١١)

صور للإبر والمباضع التي تستخدم في علاج النواصير

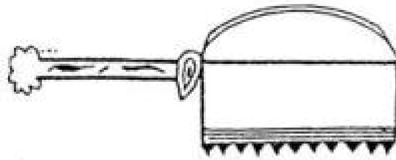
(عن الزهراوي)



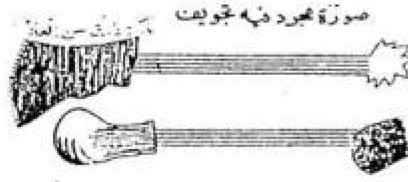
(شكل - ١٢)

صور مختلفة التى يستعملها الكبار والصغار

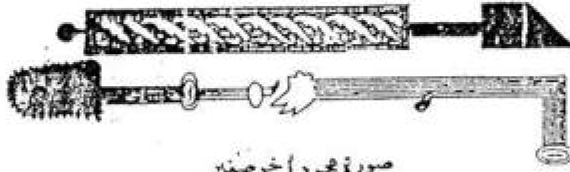
(عن الزهراوى)



صورة مجرد فيه تجويف



صورة مجرد معطوف الطرف

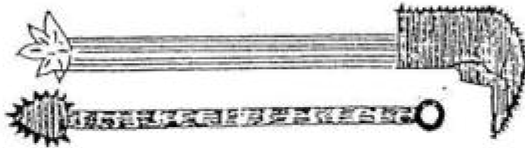


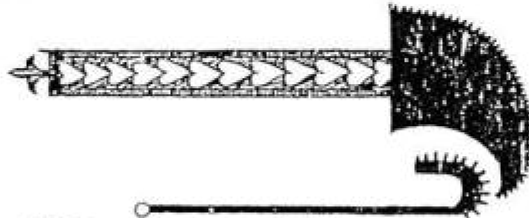
صورة مجرد آخر صغير



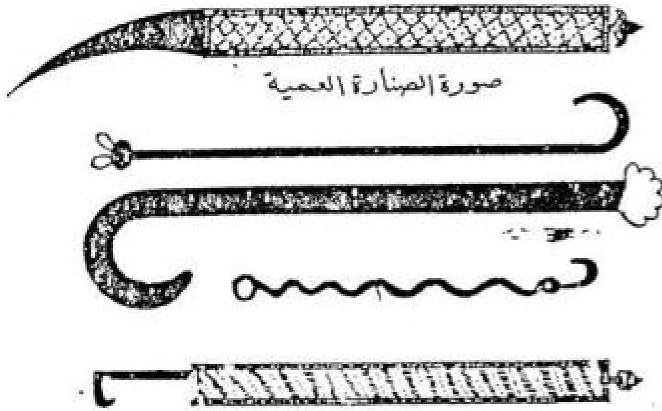
صورة مجرد آخر







(شكل – ١٣) صور مناشير ومجارد لقطع وتسوية العظام (عن الزهراوى)



(شكل - ١٤)

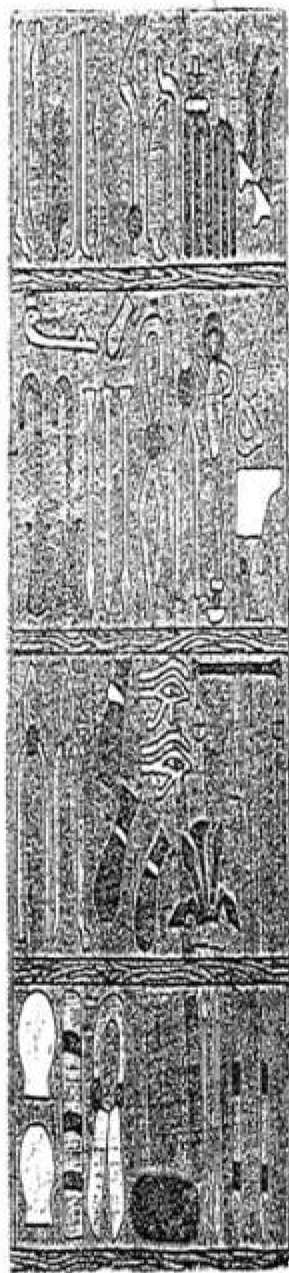
(عن الزهراوى)



(شكل - ١٥)

مجموعة من الملاعق المكحتية من العصرين اليونانى والرومانى
محفوظة بتحف كلية الآثار بالقاهرة (عن د. عنايات محمد)

(لوحة – ١) أدوات جراحة بمعبد كوم آمبو Carnelius, S. Medizin der Pharaonen



القسم الأول يضم : ١ - قسطرة مثانة . ٢ - لبمة . ٣ - مشرط .

٤ ، ٥ أربطية ٦ - ملعقة مكحلية ٧ ، ٩ - مثاقب نارية

٨ - منشار لنشر العظام ١٢ ، ١٣ - قرون حيوانية .

القسم الثاني : ١ ، ٣ - ثلاث صنانير ٤ ، ٦ - ثلاث ملاعق مكحلية

٧ - حافظة كتانية ٨ ، ٩ - ماسكات قوط (حفت)

١٠ - شعلة ١١ - أناء

١٢ - منحره ١٣ ، ١٤ - أناء وسكين .

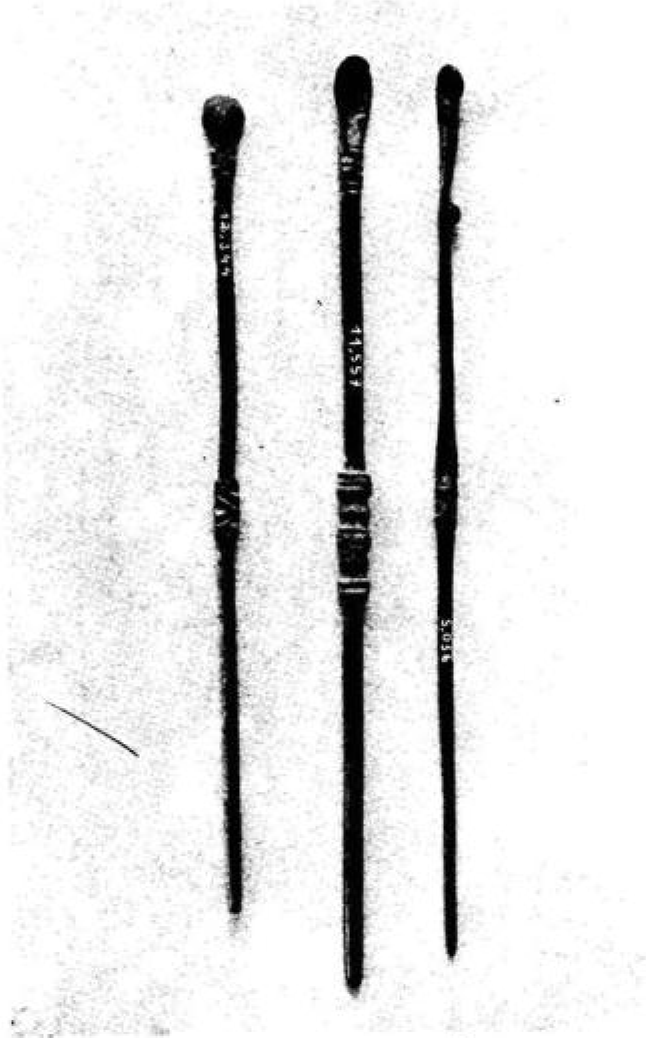
القسم الثالث : ١ ، ٢ - كلابتان ٣ ، ٤ - حافظتان

٥ ، ٦ - لبمتان ٧ - ميزان ٨ - علامة

القسم الرابع : ١ ، ٢ - أنائين ٣ - لفافة ٦ ، ٧ - ملاعق

٤ - حفت ٥ - أسفنجة ٨ ، ٩ - قطرتان

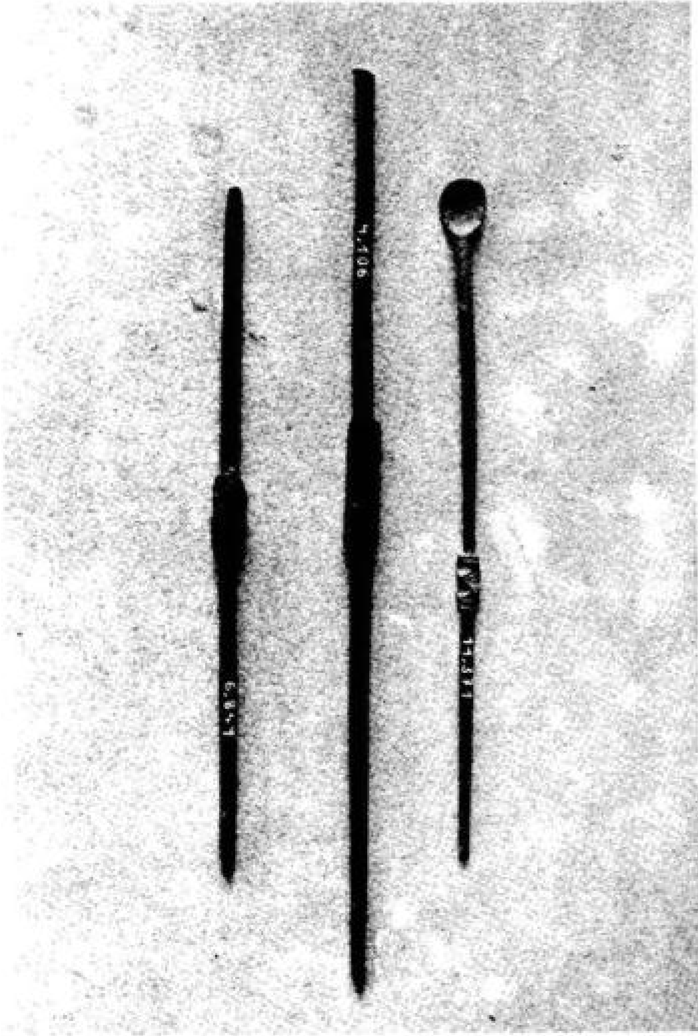
(شرح د. عنايات محمد)



(لوحة – ٢)

ثلاث آلات جراحية محفوظة فى متحف قرطبه الأثرى

(نشر الباحثة)

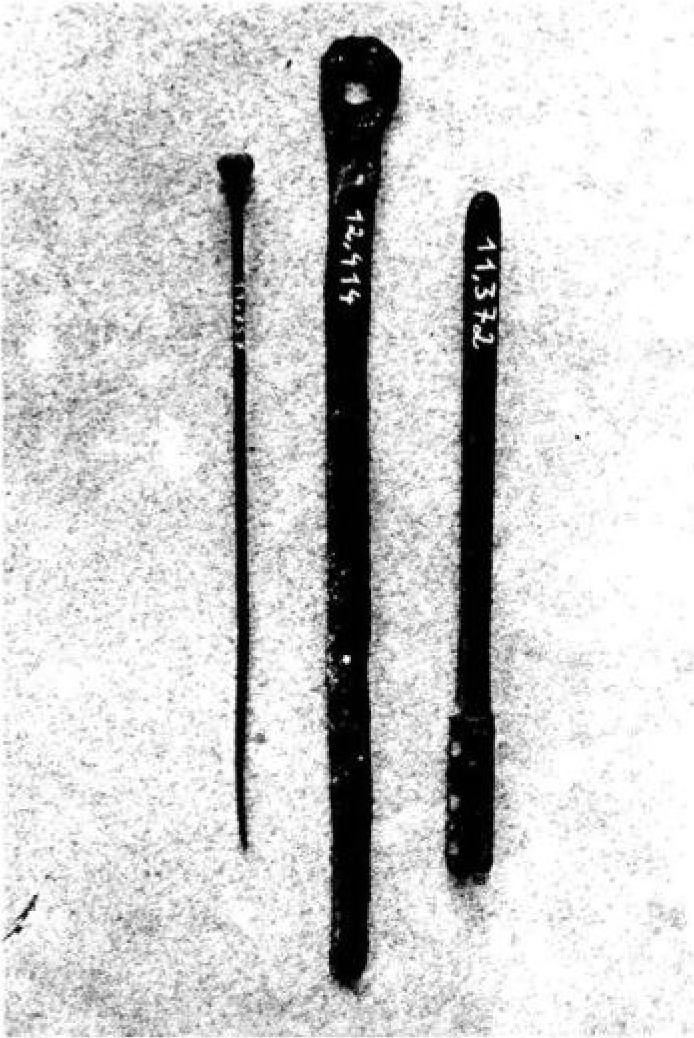


أ ب جـ

(لوحة – ٣)

ثلاث آلات جراحية محفوظة فى متحف قرطبه الأثرى

(نشر الباحثة)

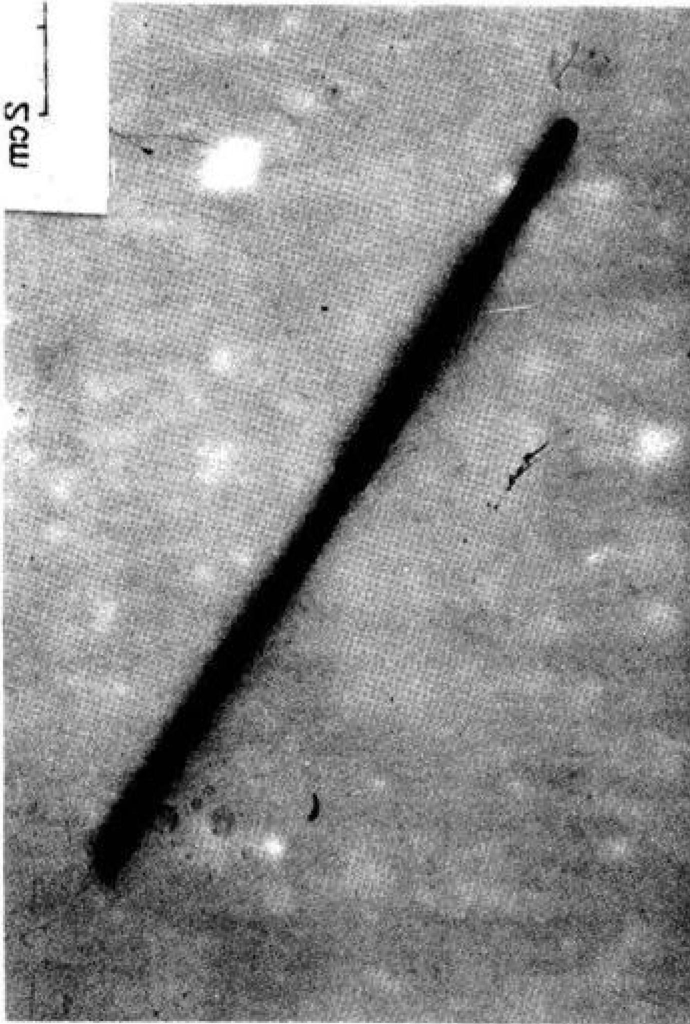


جـ ب أ

(لوحة – ٤)

ثلاث آلات جراحية محفوظة فى متحف قرطبه الأثرى

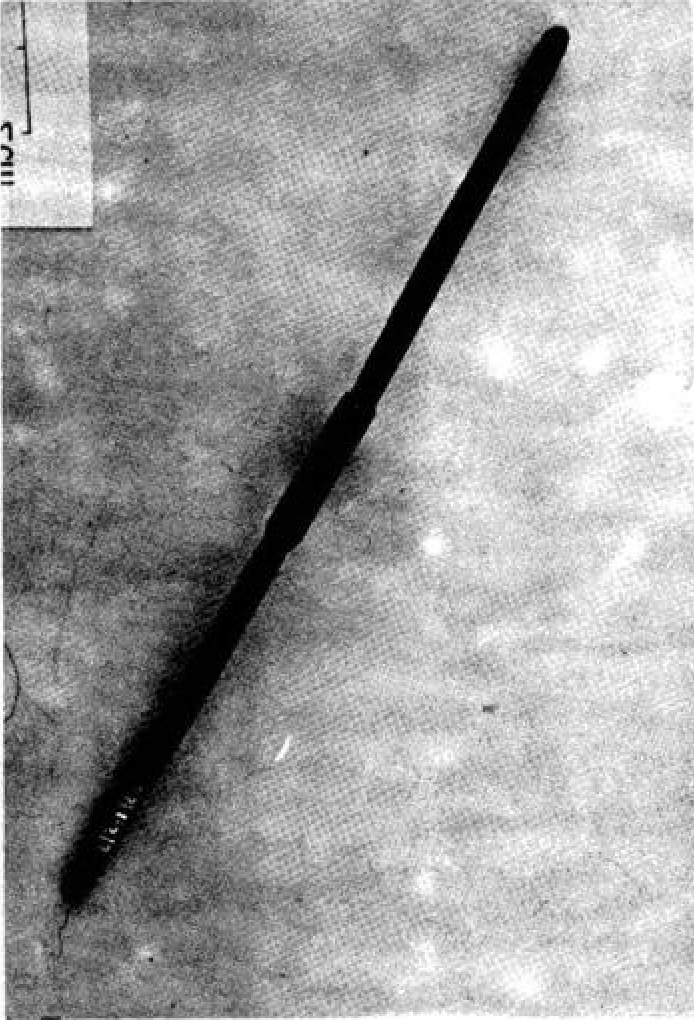
(نشر الباحثة)



(لوحة – ٥)

آلة جراحية محفوظة فى متحف مدريد الوطنى

(نشر الباحثة)



(لوحة - ٦)

آلة جراحية فى متحف مدريد الوطنى

(نشر الباحثة)

الهوامـش

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): المقدمة - الطبعـة الرابعـة - دار الهلال - بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - ص٤١٥ .

راجع : المعجم الوسيط - تحقيق مجمع اللغة العربيـة - الطبعـة الثالثـة - ١٩٨٥ - الجزء الثاني - ص٥٦٩ . ومن يقوم بحرفة الطب أو الطبابـة يعرف باسـم الطبيـب جمـع أطبـه وأطباء - راجع - نفس المعجم - ص٥٦٩ .

(٢) كان العرب يبحثون عن العلاج لأمراضهـم التـى تصيبهـم بما يتوافـر لهـم فـى بيئتهـم مـن أعشاب ونباتات أو بطرق أخرى كالكى بالنار أو الحجامة ، وحينما جاء الرسول شـجع على التداوى والبحث عن العلاج .

راجع: ابن القيم (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الجوزى) زاد المعارف فى هدى خير العباد - أربعة أجزاء - المكتبة العلمية - بيروت - بدون تـاريخ - ج٣ - ص٦٣ ، وكذلك راجع عبد العزيز بن إبراهيم العمرى - الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول - مركز التراث الشعبى - الدوحة - ١٩٨٥ - ص ٢٤٢ .

(٣) أبقراط من مشاهير الطبقة الحكمية الرومية اليونانية ومسكنه (قو) وهى مدينـة حمـص مـن أرض الشامات ، وهو الذى تكلم فى الطب وألف فيه الأسفار والكتب ، وهـو صـاحب كتاب الفصـول ، وكتـاب تقـدم المعرفـة وكتـاب أفيزيميـا ، وكتـاب الأمـراض الحـادة ، وكتاب الجبر والخلع ، وكتاب طبيعة الإنسان ، وكتاب الاخلاط ، وغيرها كتب كثيرة، ولعله قد توفى فى عام ٣٥٧ ق. م. راجع

ابن جلجل (أبى داود سليمان بن حسان الأندلسى) - طبقات الأطباء والحكماء تحقيـق فؤاد سيد - نشر المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية - القـاهرة - ١٩٥٥ - ص ١٦ ترجمة رقم ٦ .

(٤) من أهل مدينة برغمش ببلاد آسـيا شـرقى القسـطنطينية ، وهـو سـادس القياصره الذيـن ملكوا روما ، وبرع فى الطب وجميع العلوم الرياضية ، وحدد من علم أبقراط وشرح من

كتبه ما كان قد درس وغمض على أهل زمانه ، وهو مفتاح الطب وله فيه ستة عشر(١٦) ديواناً منها كتاب في الأدوية المفردة وآخر في الأدوية المركبة وثالث في العلل والأعراض ، وألف في علم التشريح سبع عشرة مقاله - (المزيد من التفاصيل راجع ابن جلجل - نفس المصدر - ص٤١-٤٤) .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام. معهد الدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م - ص١٢٨ .

(٦) ورد في تراجم طبقات الأطباء ما يفيد بأن من كان يمارس مهنة الجراحة في الطب يسمى صانعاً بيده أو حاذقا بيده أو خادماً بيده راجع - ابن جلجل. طبقات الأطباء والحكماء - ص٩٦ ترجمة رقم ٣٨ ، ص٩٧ ، ترجمة رقم ٣٩ ، ص٩٧ - ٩٨ ، ترجمة رقم ٤٠ ، ص١٠٠ ، ترجمة رقم ٤٣ .

وكذلك راجع: ابن أبي أصيبعه (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي) عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق د. نزار رضا. بيروت ١٩٦٥ . ص٤٨٦ ، ص٤٨٨ ، ص٤٩٢. أما الطبيب فهو الذي يقوم بمهنة الطب. راجع ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد العسقلاني). فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ٢٨جزءاً في ١٤ مجلداً. مكتبة الأزهرية القاهرية - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - ج٢١ - ص٢٤٨ .

(٧) الحجامة: الحجم هو المص ، يقال للحاجم (أحجام) لامتصاصه فم المحجم ، والمحجم والمحجمة بالكسر. ما يحجم به ، وهي الآلة التي يجمع فيها دم المحجوم عند المص ، والمحجم أيضاً مشرط الحجام وحرفته الحجامه .راجع الزبيدي (محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسيني الواسطي) تاج العروس من جواهر القاموس - عشرة أجزاء - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦هـ- ج٨ - ص٢٣٧ .

والحجامه كانت شائعه عند العرب وهي من ضروب العلاج والتداوي وتكون بإخراج الدم من الجسم بكميات معينة ، وفي مواضع معينه ، وأوقات محدده ، وليس أدل على أهميه الحجامة وتداولها في بداية العصر الإسلامي من أن البخاري وضع في صحيحه

أبواباً تتعلق بالحجامة وهى « باب الحجامة من الداء » و« باب الحجامة على الرأس » و« باب الحجامة من الشقيقة والصداع » .

راجع : ابن حجر - فتح البارى - ج٢١ - من ص٢٦٧ إلى ص٢٧٠ ، وكذلك عبد العزيز العمرى- الحرف والصناعات - ص ٢٥٢ .

(٨) لم يكن التقليل من شأن الجراحة بالنسبة للطب مقصوراً على العرب فقط ، بل وجد هذا الوضع أيضاً عند اليونان وقد جاء فى قسم أبقراط لممارسة مهنة الطب نص على العبارة التالية « وآلا استعمل المبضع ولو على يقين فى علاج المرضى بالحصيات وإنما أعالجهم بمقتضى ما يراه ذو الخبرة بمثل هذا العلاج » .

راجع : الجراحة عند العرب - مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب - ج١ - أشترك فى تأليفه مجموعه من العلماء - من مطبوعات الجمهورية العربية الليبية - بدون تاريخ - ص٩٧ .

ومن الأمثلة الواضحة أيضاً على عدم العناية بمهنه الجراح فى الطب حتى عهد قريب فى أوربا أن مدرسة مونبيليه الطبية الشهيرة فى فرنسا ألغت خلال القرن السابع عشر دراساتها الجراحية وأصدرت أمراً يحرم على تلاميذها دراسة الجراحة ومزاولتها.

راجع - نفس المرجع - ص ٢٤٦ .

(٩) لعل من دواعى الابتعاد عن الجراحة فى بداية العصر الإسلامى بالإضافة إلى كونها من الصناعات اليدوية أنها مهنة طبية شاقة يحتاج صاحبها لكثير من الدقة والمهارة لضمان أحسن النتائج ويفسر الزهراوى ذلك بقوله « يا بنى ينبغى لكم أن تعلموا أن العمل باليد ينقسم إلى قسمين عمل تصحبه السلامة وعمل يكون معه العطب فى أكثر الحالات » راجع.

(أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى - المقالة الثلاثون من مخطوط التأليف لمن عجز عن التصريف -ص٣ .)

ولعل هذا السبب يرتبط بما كان شائعاً قديماً عند اليونان حيث ذكر الزهراوى نقلاً عن أبقراط بأن « الأطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل ولاسيما فى صناعة اليد »

راجع - نفس المصدر - ص٢.

(١٠) عبد المنعم ماجد-تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى-القاهرة-١٩٧٣-ص٢٤٤.

(١١) على عكس القاعدة الشرعية التى تحرم تشريح جسم الإنسان نجد ابن رشد يجعل التشريح وسيلة من وسائل الإيمان با لله حيث عبر عن ذلك بقوله : « من اشتغل بعلم التشريح أزداد إيماناً با لله » راجع . ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص٥٣٢.

كما أن الزهراوى جعل من التشريح أساس علم الجراحة حيث أكد على ذلك بقوله : « وينبغى لصاحبها (أى مهنة الجراحة) أن يرتاض قبل ذلك فى علم التشريح الذى وضعه جالينوس حتى يقف على منافع الأعضاء وهيأتها ومتدرجاتها واتصالها وانفصالها ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها » .

راجع الزهراوى - التصريف لمن عجز عن التأليف - المقالة الثلاثون - ص٢.

(١٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام . ص١٣٠ ، وهذه الطريقة فى التعرف على الجسم البشرى عرفها المصريون القدماء حيث كانت الحيوانات المذبوحة تمثل مصدراً لمعرفة أجزاء الجسم البشرى والدليل ذلك على أنهم عبروا عن بعض أجزاء من الجسم البشرى بما يقابله في الحيوان مثل الأسنان التى كان يعبر عنها بناب الفيل ، والأذن التى يعبر عنها بأذن ثور - راجع .

Ghalioungui, P.; Medicine in ancient Egypt, Amx Ray Atlos of Royal mumies,London, 1980, P. 58 .

ويرجع اتجاه الطب الفرعونى إلى الذبائح من الحيوانات الثديه إلى تحريمهم لفكرة التشريح الأدمى وذلك لأن عقيدة البعث والخلود عندهم تستلزم ضرورة وجود الجسد وقت الوفاة فى حالة سليمة ولعل هذا ما عاق تقدم الطب الفرعونى الذى أحيط بسياج من الدين فقيد انطلاقته - راجع

Peck H . W ., Mummies of Ancient Egypt, Mummies disease and ancient cultures, New York, 1980, P. 12 .

(١٣) يرجع الفضل فى تطبيق علم التشريح على الآدميين لأول مرة فى تاريخ البشرية إلى مدينة الإسكندرية ومدرستها المعروفة (بدار الحكمة) والتى تبوأت مركز الصدارة فى العلوم الطبيعية فى العصرين اليونانى والرومانى أى على مدى خمسة قرون (منذ

بداية القرن ٣ ق. م. وحتى نهاية القرن ٢م) وكانت دروس التشريح تتم عملياً فـى قاعات أعدها الملوك البطالمة خصيصاً لهذا الغرض وفيها مارس الأطباء وعلى رأسـهم « هيروفيلوس» فنون التشريح على جثث الموتى والأحياء من المجرمين المحكـوم عليهـم بالإعدام - راجع :

Aluguste couat Alexandria poetry under the first theree (324-222 B.C.) London, P. 77.

(14)Hurry Y. B; lmhotep the vizier and physicion of king zoser and of terwards the Egyptian Good of Medicine - Oxford, 1926, P.77.

(١٥) يدل على ذلك شرحهم الدقيق والصحيح فى التشريح ومخالفتهم لكثير من آراء السابقين من أطباء اليونان ، فقد ناقش ابن النفيس فى كتـاب (شـرح تشـريح القـانون) تشـريح العظام والقلب والرئة ، ووصف الدورة الدموية الصغرى (الدورة الدموية) وكثـير مـن مكونات الجسم مما يدل على ممارسته للتشريح ، وموفـق الديـن البغـدادى فـــى كتـاب (الإفادة والاعتبار) أول من أشار إلى مواطن الخطأ فى وصـف جـالينوس وقـد ذكـر أن الفك مكون من قطعتين ولكن الرازى أثبت أنه قطعة واحدة .

راجع : هنرى أمين عوض - الجراحة فى العصر الحديث الإسلامى . مجلة دراسات أثريـة إسلامية نشر هيئة الآثار المصرية - المجلد الثالث - القاهرة - ١٩٨٨ -ص٢٧٢ .

(١٦) من أشهر ناقلى كتب الطب اليونانى من العرب يوحنا بن ماسويه - راجع ابـن جلجـل - طبقات الأطباء - ص٦٥ترجمة رقم ٢٥، وحنين ابن اسـحاق - نفـس المصـدر - ص ٦٨ترجمة رقم ٢٤، قسطا بن لوقا البعلبكى - نفس المصدر ، ص ٧٦، ترجمة رقم ٢٧.

(١٧) هنرى عوض - المرجع السابق ص ٢٧٥،٢٧٦حيث الإشارة إلى مشاهير الأطباء الذيـن مارسوا الجراحة فى العصور الإسلامية المختلفة.

(١٨) أبو القاسم الزهراوى - التأليف لمن عجز عن التصريـف - ص٥،٦، ويجـدر بـالذكر أن القدماء المصريين عرفوا الكى وحذا حذوهم اليونان والرومـان وأن كـان استخدم الكى عند القدماء المصريين قد أقتصر فقط على علاج بعض الأورام السرطانية ويؤكد ذلك مـا جاء فى بردیتى آدوين سميث وايبرس الخاصة بالجراحة عن الفراعنة - راجع :

Breasted, Y. H, The edwin Smith surgical papyrus, 2Vols, Chicago 1930 , cases nos 7, 9, 10, 12, 30

Ebbell, B; The papyrus Ebers, copenhagen, 1937 وكذلك

وكذلك راجع وفاء احمد السيد بدار : الطب والأطباء فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الحديثة . دراسة تاريخية وحضارية . مخطوط رسالة ماجستير - الإسكندرية ١٩٩٣-ص٨٤ .

(١٩) استخدام الخيط فى تضميد الجروح كان معروفاً منذ أقدم العصور حيث أستعمله المصريون القدماء ولكن على نطاق ضيق حيث كانوا يفضلون فى الغالب أسلوب آخر لتضميد الجروح يعتمد على ضم حافتى الجرح ووضع قطعة من اللحم الطازج عليها لوقف النزيف -

Petrie F; Tools and Weapons, London, 1917, P. 58 .

أما فى العصرين اليونانى والرومانى فقد أختلف الأمر تماماً حيث شاع استخدام الخيط فى تضميد الجروح ، والدليل على ذلك ما عثر عليه من أبر طبية محفوظة الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة ومتحف كلية الآثار تحتفظ بآثار من تلك الخيوط التى يصعب التعرف على نوعها .

راجع : عنايات محمد أحمد - الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى - مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية - المجلد الثانى والأربعين -١٩٩٤ص٤٢٨.

ومن جانبى أرجح أن الخيط الذى كان يستخدم فى تضميد الجروح عند قدماء المصريين وكذلك اليونان والرومان كان من مادة الكتان نظراً لشيوع استخدام هذه المادة فى صناعة الحافظات المخصصة لحفظ الفتائل الكتانية التى كانت تستخدم للحشو بعد أن تشبع بالعقاقير ، بالإضافة إلى استخدامها فى صناعة الفوط الكتانية المعقمة التى كانت توضع على الجلد حول المنطقة التى سيجرى فيها العملية الجراحية ، ويستدل على ذلك وجود بعض أشكال هذه الأدوات على لوحة طبية بالجدار الغربى من معبد كوم أمبو فى أدفو - (لوحة رقم -١-القسم الثالث).

(٢٠) محمد مصطفى السمرى - التخدير عبر التاريخ - مجلة العربى - العدد ٤٠٢ - السنة الخامسة والثلاثون - مايو ١٩٩٢ - ص١٠٤.

(٢١) عبد المجيد نعنعى - الإسلام فى طليطلة - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت بدون تاريخ ص٢٥١-٢٥٢.

(٢٢) ابن جلجل - طبقات الأطباء - ٩٢.

(٢٣) نفس المصدر - ص٩٤، وكذلك ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء - ص٤٨٦-ص٤٨٧.

(٢٤) السيد عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة - نشر مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٧٠-جزآن - الجزء الثانى -ص ٢١٢، عبد المجيد نعنعى - الإسلام فى طليطلة- ص٢٥٢.

(٢٥) كان من أشهر من رحل إلى المشرق لتلقى العلوم الطبية :

أ - أحمد وعمر ابنا يونس بن أحمد الحرانى حيث رحلا إلى المشرق فى دولة الخليفة عبد الرحمن الناصر وأقاما هناك عشرة أعوام ، ودخلا بغداد وقرأ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابئ كتب جالينوس عرضاً ، وخدما ابن وصيف فى علل العين ، وانصرفا إلى الأندلس فى دولة المستنصر با لله ، وذلك فى عام إحدى وخمسين وثلثمائة وألحقهما فى خدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء وأستخلصهما لنفسه دون غيرهما مما كان فى ذلك الوقت من الأطباء . راجع

- ابن أبى أصيبعه - عيون الأنباء - ص٤٨٧.

(ب) أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداى الذى سافر من الأندلس إلى الديار المصرية وأشتهر فى أيام الآمر بأحكام الله .

- ابن أبى أصيبعه - نفس المصدر - ص٤٩٩.

(جـ) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت ، وهو من بلده دانيه من شرق الأندلس ، وكان من أكابر الفضلاء فى صناعة الطب ، وقد رحل من الأندلس إلى مصر وأقام بها عدة سنوات ثم عاد بعد ذلك إلى الأندلس وكان رحيله إلى مصر فى حدود عام ٥١٠هـ/١١١٦م.

- ابن أبى أصيبعه - نفس المصدر - ص ٥٠١ -ص٥٠٢.

(٢٦) ابن جلجل - طبقات الأطباء ص٩٧ - ص٩٨حيث الإشارة إلى أنه فى عهد عبد الرحمن الناصر تتابعت الخيرات فى أيامه ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان فى صدر دولته من الأطباء المشهورين .

(٢٧) ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق - ص٤٩٣ - ص٤٩٤حيث الإشارة إلى تفاصيل ما نقله عن ابن جلجل بشأن وصول الراهب البيزنطى نقولا إلى قرطبة بناء على طلب الخليفة عبد الرحمن الناصر ليساهم فى نقل مخطوطة ديسقوريدس الطبية إلى العربية والتى كان قد أهداها قسطنطين السابع أرمانيوس إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م.

(٢٨) ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء - ص٤٩٢. وكذلك عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة -جـ٢-ص٢١٤.

(٢٩) نفس المصدر -ص٤٩٢.

(٣٠) نفس المصدر -ص٤٩٦.

(٣١) نظرة العلماء والمؤرخين غير العرب للطب العربى - مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب -ج١-ص٢٤٩.

(٣٢) من مشاهير أطباء عصر الموحدين :

(أ) أبو جعفر بن هارون الترجالى : وقد خدم لأبى يعقوب والد المنصور .

راجع ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق -ص٥٣٠.

(ب) أبو الوليد بن رشد : وقد ترك كتباً عديدة فى الفلسفة وعلم الكلام والطب جعلته من أشهر مفكرى العصور الوسطى ، ومن مؤلفاته الخاصة بالطب والعقاقير كتاب الكليات ، وتلخيص كتاب الأدوية المفردة لجالينوس وكتاب الحميات .

راجع ابن أبى أصيبعة - نفس المصدر -ص٥٣٠-٥٣٣.

(جـ) أبو الحجاج يوسف بن موراطير ، وقد خدم بصناعة الطب المنصور أبا يوسف يعقوب ، ولما توفى المنصور خدم لولده الناصر ، ومن بعد الناصر خدم لولده أبى يعقوب يوسف المستنصر بن الناصر وكان حظياً عند المنصور .

راجع - ابن أبى أصيبعة - نفس المصدر - ص٥٣٣-٥٣٤.

(٣٣) راجع ابن جلجل - طبقات الأطباء - ص٩٤، ص١٠٤، ١١٠، وكذلك ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء ٤٧٩، ص٤٨١، ص٤٨٩، ص٤٩١، ٤٩٥، ص٤٩٧، ٤٩٩، ص٥٣٥ -حيث الإشارة إلى نماذج من هؤلاء الأطباء الذين مارسوا إلى جانب الطب أيضاً علوم أخرى .

(٣٤) راجع ابن جلجل - المصدر السابق -ص١٠٠،ص١٠٤، ص١١٢، وكذلك ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق -من ص٤٨٧، إلى ص٤٨٩، ص٤٩٢، ص٤٩٥، ص٤٩٦، ص٥٣٤، حيث الإشارة إلى بعض من الأطباء الذين تولوا مناصب فى الدولة .

(٣٥) من بين هذه الأسر الطبية أسرة الحرانى ومن أشهر أبنائها أحمد وعمر ويونس بن أحمد راجع ابن جلجل - المصدر السابق ص١١٢، وابن أبى أصيبعة - المصدر السابق ص٤٨٦-ص٤٨٧.

وأيضاً أسرة أسحق الطبيب ، وأسرة الكتانى ، وأسرة حسداى بن أسحق ، وأسرة ابن زهر ومن أشهر أبنائها أبو مروان ، وأبو العلا ، وأبو مروان بن أبو العلاء ، والحفيد أبو بكر ، وأبو محمد بن الحفيد .

راجع ابن أبى أصيبعة . المصدر السابق ص٤٨٨، ص٤٩١، ص٤٩٨، ص٤٩٩، ص٥١٧، -٥٣٠.

(٣٦) تقاليد وآداب المهنة الطبية عند العرب . مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب .جـ١. ص٢٣٦-ص٢٣٧.

(٣٧)ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء ص٥٠١ حيث الإشارة إلى أنه كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج .

(٣٨) سالم - قرطبة حاضرة الخلافة . جـ٢،ص٢١٤، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية .ص٢٤٨.

(٣٩) ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية والعبرية ، وطبع باللاتينية بعنوان .

Liber Azaragui de cirurgia

كما نشر بالعربية واللاتينية فى Oxford عام ١٧٧٨م، وله ترجمة فرنسية على يد Leclerc بعنوان La chirurgi de, Abulcasis, Paris 1861 .

عبد المنعم ماجد . المرجع السابق ص٢٤٨، حاشية رقم ٣.

كما ترجم هذا الكتاب إلى العبرية ونال شهرة واسعة فى البلاد المسيحية حيث كانت شهرته فى الجراحة عظيمة حتى بين المحدثين ، وهكذا أنتشر هذا الكتاب وجذب إليه الاهتمام فى الجراحة أكثر مما اجتذبته جراحة الثلاثة العرب المشهورين الرازى . والمجوسى. وابن سينا.

مشاهير العرب فى الصيدلة . مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، جـ٢. ص٤٠٨.

(٤٠) عبر الزهراوى عن مدى استيائه لما كانت عليه الجراحة حتى زمانه الامر الذى دفعه لتقديم تلك المقالة الجراحية موضحاً منهجه والجديد الذى سوف تقدمه المقالة حيث يقول: « العمل باليد مخسة فى بلدنا وفى زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يدرس علمه وينقطع أثره وإنما بقى منه رسوم يسيره فى كتب الأوائل قد صفحته الأيدى وواقعة الخطأ والتدنس حتى استغلت معانية وبعدت فائدته فرأيت أن أحيه وأؤلف فيه هذه المقالة على طريق الشرح والبيان والاختصار وأن أتى بصور حديدة للكى وسائر الآلات للعمل باليد إذ هو من زيادات البيان ومن وكيد ما نحتاج إليه »

الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف . المقالة الثلاثون . ص٢.

(٤١) هنرى عوض . الجراحة فى العصر الإسلامى . ص٢٧٨.

(٤٢) المقالة المذكورة عبارة عن نسخة خطية نسخها أحد تلاميذ الزهراوى وقد كانت بحوزة الأستاذ الدكتور محمد رفيق خليل أستاذ الجراحة العامة بكلية الطب جامعة الإسكندرية وقد تفضل سيادته بإعارتى لهذه النسخة التى استفدت منها استفادة كبيرة ، وبهذه المناسبة أتوجه لسيادته بخالص الشكر وعظيم التقدير على أنه سمح لى بالإطلاع على تلك النسخة فضلاً عما قدمه لى من آراء وتفسيرات لاستخدامات بعض أدوات الجراحة التى تضمنها البحث .

(٤٣) الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف .ص١٩-ص٢٠.

(٤٤) شكل ١.

(٤٥) نفس المصدر ص٢٠-٢١.

(٤٦) شكل ٢،٣.

(٤٧) نفس المصدر . ص٢٢.

(٤٨) شكل ٤،٥.

(٤٩) الزهراوى . نفس المصدر . ص٢٩.

(٥٠) شكل ٦.

(٥١) الزهراوى - نفس المصدر ص٣٣.

(٥٢) نفس المصدر . ص٣٥ص٣٦.

(٥٣) لخص الزهراوى تلك النصائح بقوله « ... ولا تقدموا على شئ من ذلك إلا بعد علم يقين يصح عندكم بما تصير إليه العاقبة المحمودة . واستعملوا فى علاج مرضاكم تقدمه المعرفة والإنذار إلى ما يؤول إليه السلامة ، فإن لكم فى ذلك عوناً على اكتساب الثناء والمجد والذكر الكريم » .

الزهراوى . نفس المصدر . ص٣٦-٣٧.

(٥٤) نفس المصدر . ص٦٢.

(٥٥) نفس المصدر . ص٦٢-٦٣.

(٥٦) شكل ٧.

(٥٧) الزهراوى . نفس المصدر . ص٧٤-٧٥.

(٥٨) هو رأى صحيح لا يزال الآن . راجع الموجز فى تاريخ الطب ، ص١١٣.

(٥٩) الزهراوى . نفس المصدر . ص٧٩.

(٦٠) نفس المصدر . ص٨٢.

(٦١) شكل ٨.

(٦٢) الزهراوى . المصدر السابق . ص٩٠-٩١.

(٦٣) شكل ٩.

الزهراوى - نفس المصدر ص٩٦ حيث الإشارة إلى أن « الأوائل لم تذكر الاختتان فى شئ من كتبها لأنه لم يكن يستعمل فى شرائعهم وإنما هو ما اكتسبناه بالتجربة » .

وواضح من نص الزهراوى أن عملية الختان لم تكن معروفة عند القدماء غير أن الواقع غير ذلك ، فالدراسات الحديثة أثبتت أن المصريين القدماء قد مارسوا عملية ختان الذكور حيث وجدت تلك العملية مصوره على العديد من الرسوم الجداريه المصرية القديمة (الفرعونية) . راجع

Mahmoud Karim, Circunncision & mutilations Male & Female, *London, 1995*.

(٦٤) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٠٠-١٠١ .

(٦٥) الموجز فى تاريخ الطب . ص١٢٢.

(٦٦) نفس المرجع . ص١٢٣.

(٦٧) الزهراوى . المصدر السابق . ص١١١ .

(٦٨) الموجز فى تاريخ الطب ص١٢٨.

(٦٩) نفس المرجع . ص١٢٩.

(٧٠) الزهراوى . التأليف لمن عجز عن التصريف . ص١٢١-١٢٤.

(٧١) شكل ١٠.

(٧٢) الزهراوى . نفس المصدر . ص١٣٨.

(٧٣) الموجز فى تاريخ الطب . ص١٣٢ .

(٧٤) شكل ١١.

(٧٥) الزهراوى . المصدر السابق . ص١٣٤.

(٧٦) شكل ١٢.

(٧٧) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٣٥.

(٧٨) نفس المصدر . ص١٣٥-١٣٨.

(٧٩) الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف .ص١٤٤-١٥٥.

(٨٠) شكل ١٣.

(٨١) الزهراوى . نفس المصدر . ص١٥٩.

(٨٢) شكل ١٤.

(٨٣) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٦٠.

وينطبق هذا الوصف تماماً مع ما يقوم به الأطباء فى العصر الحالى حيث تسمى هذه العملية Stripping of the veins وبهذا يكون الزهراوى أول جراح أستخدم طريقة سل العروق لعلاج دوالى الساق وذلك منذ حوالى ألف عام تقريباً . ولم تستخدم هذه الطريقة فى وقتنا الحاضر إلا منذ حوالى ثلاثين عاماً فقط بعد إدخال بعض التعديل عليها.

راجع . الموجز فى تاريخ الطب .ص١٤٢.

(٨٤) الزهراوى . نفس المصدر . ص١٨٤.

(٨٥) الزهراوى - التصريف . ص١٨٤-٢٣٨.

(٨٦) ابن جلجل . طبقات الأطباء ص٩٧ ، ابن أبى أصيبعه . عيون الأنباء .ص٤٨٦.

(٨٧) ابن جلجل . نفس المصدر . ص٩٦ترجمة رقم ٣٨ ، ابن أبى أصيبعة . نفس المصدر . ص٤٨٥-٤٨٦.

(٨٨) ابن جلجل . طبقات الأطباء ص ١٠٠، وابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء . ص٣٨٨.

(٨٩) ابن جلجل . نفس المصدر . ص١١٢، ابن أبى أصيبعة . نفس المصدر . ص٤٤٨.

(٩٠) فى مقابلة مع الأستاذ الدكتور محمد رفيق أستاذ الجراحة بكلية الطب جامعة الإسكندرية أكد لى بأن هذه الآلات كانت تستخدم فى كحت الأورام الخاصة بالنساء . وتتفق

أشكال تلك الأدوات مع مجموعة من الأدوات المحفوظة حالياً في متحف كلية الآثار بالقاهرة (شكل -١٥) والمصورة على جدران معبد كوم أمبو (لوحه رقم ١-القسم الأول رقم ٤، القسم الثانى من ٤-٦، والقسم الرابع من ٦-٧ والتى كانت تستخدم فى مجال أمراض النساء فى العصرين اليونانى والرومانى وبخاصة فى إزالة الأجزاء غير الصحية من جدار الرحم ويؤكد ذلك أن هيروفيلوس فى العصر البطلمى قام بتشريح الرحم عند المرأة على سيدات مسنات -راجع

Fraser P. M, Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972, P. 250.

وكذلك عنايات محمد : الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى ، ص٤١٦، ص٤٢٣، ص٤٢٩،

وفى ضوء ذلك يمكن القول بأن تلك الأدوات الملعقيه تمثل استمراراً لما كانت عليه نظائرها فى العصرين اليونانى والرومانى من حيث الشكل والاستخدام .

(٩١) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه

ويصف الزهراوى عملية قطع اللحم الزائد فى اللثة فيقول « كثيراً ما ينبت على اللثة لحم زائد فينبغى أن تعلقه بصناره أو تمسكه بمنقاش وتقطعه عند أصله » .

الزهراوى . التصريف . ص٦٢.

وقد ظهرت تلك الصنانير على اللوحة المصورة بمعبد كوم أمبو (لوحه -١ القسم الثانى) (١-٣) مما يؤكد أن استخدام تلك الآلات كان استمراراً لما كانت عليه فى العصرين اليونانى والرومانى .

(٩٢) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٣) أ.د. محمد رفيق. مقابله شخصيه .

(٩٤) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٥) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٦) تتم هذه الطريقة على مراحل متعددة تبدأ بعمل الشكل المطلوب من الشمع ثم تحفر عليه جميع التفاصيل المطلوبة ويسمى ذلك « النموذج » ثم يغطى هذا النموذج بطبقات من عجينه الفخار حتى يطبع عليها التفاصيل المنحوتة معكوسة ويسمى ذلك القالب ويراعى دائماً وجود دعائم لتماسك النموذج مع القالب فضلاً عن وجود فتحتين أحدهما فى الجزء العلوى من القالب لصب المعدن المنصهر والأخرى فى أسفله للتخلص من الشمع الذائب والغازات أثناء عملية الصب .

لطفى خليل : تعدين النحاس . مجلة المتحف . العدد الثانى . ١٩٨٧ ص٦٢، مرجريت ترويل : الفن الزخرفى فى أفريقيا . ترجمة مجدى فريد . القاهرة . بدون تاريخ ص.٧٣.

(٩٧) يبدأ هذا الأسلوب بقطع الرقائق حسب الشكل المطلوب ثم طرقها على آلة مصنوعة من الحديد طرفها من الصلب تعرف بآلة السندال . ويطرق على المعدن بأداة تشبه الجاكوش أو الأحنه التى لاتزال مستعمله حتى اليوم والهدف من عملية الطرق تجميع ذرات المعدن حتى يكتسب مزيداً من الصلابة وإعطاؤه الشكل المراد تنفيذه وبعد تشكيل التحفه فى الصورة المطلوبة تنعم وتصقل بسكين أو بواسطة دواليب حتى تصير ملساء (حنان عبد الفتاح مطاوع . التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية حتى سقوط مملكة بنى الأحمر . رسالة دكتوراه . كلية الآداب جامعة الإسكندرية . ١٩٩٦ص ٣١٩) .

(٩٨) لوحه ٢-ب ، لوحه ٣ب ، لوحه ٤-أ ، لوحه ٦،٥.

(٩٩) لوحه ٢-جـ ، لوحه ٣أ.

(١٠٠) لوحه ٢أ ، ب، ح

(١٠١) لوحه ٦. وجدير بالذكر أن أشكال المعينات المتداخلة رأسياً أو أفقياً قد استخدمت على نطاق واسع فى العديد من المنتجات الفنية الأندلسية لاسيما فى زخارف الحجر والرخام حيث تمثلت على نحو رائع فى زخارف الدعامات الرخامية فى زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبه وفى العضادات الرخامية بالمجلس الغربى بقصر الزهراء وفى شرفات مسجد الزهراء .

George Marcais : Manuel d'art musulman C, l.Paris. 1926.P . 285.

Pavon Maldonado: Memoria de la excavacion de la Mazquita de Medina Alzahra. Madrid. 1966. P . 87 .

(١٠٢) لوحه ٢جـ ، (لوحه ٣ أ) .

(١٠٣) كان الصليب المعقوف من رموز البوذية فى الديانة الهندية وهو عبارة عـن خـط رأسـى قائم يمتد منكسراً فى أعلاه إلى جهة تعكس انكسـاره عنـد القـاعدة ويتقـاطع هـذا الخـط القائم مع خط أفقى منكسر بدوره يميناً ويساراً فى اتجاه الانكسار السـابق . وقـد تمثلـت الصلبان المعقوفة بكثرة فى الفنون القديمـة لاسـيما الفـن الإغريقـى واليونـانى والساسـانى والبيزنطى .

Pavon Maldonado: El arte Hispona musulman en su de coracion geomtrica, instituto hispano arabe de cultura, Madrid. 1975 . Labla. I.

فريد شافى : العمارة العربيـة فـى عصـر الـولاة . نشـر الهيئـة العامـة للتـأليف والترجمـة . ١٩٧٠. ص٢١٧.

مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر العربية :

١- **ابن أبى أصبيعة** (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم الخزرجى) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - تحقيق د. نزار رضا - بيروت - ١٩٦٥ .

٢- **ابن القيم** (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الجوزى) زاد المعارف فى هدى خير العباد - أربعة أجزاء - المكتبة العلمية - بيروت - بدون تاريخ .

٣- **ابن جلجل** (أبى داود سليمان بن حسان الأندلسى) - طبقات الأطباء والحكماء - تحقيق فؤاد السيد - نشر المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة - ١٩٥٥ .

٤- **ابن حجر** (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد العسقلانى) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - ٢٨جزءاً فى ١٤مجلداً - مكتبة الأزهرية القاهرية - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٥- **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن محمد) - المقدمة - الطبعة الرابعة - دار الهلال - بيروت - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٦- **أبى القاسم** خلف بن عباس الزهراوي - المقاله الثلاثون من مخطوط التأليف لمن عجز عن التصريف .

٧ - **الزبيدى** : (محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسينى الواسطى) تاج العروس من جواهر القاموس - عشرة أجزاء - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦هـ .

ثانياً : المراجع العربية الحديثة :

١ - **السيد عبد العزيز سالم** : قرطبة حاضره الخلافة - جزأن - نشر مؤسسه شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٧٠م .

٢ - **سعيد عبد الفتاح عاشور** :حضارة الإسلام - معهد الدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٨٧م .

٣ - **عبد العزيز بن إبراهيم العمرى** : الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول - مركز التراث الشعبى - الدوحة ١٩٨٥ .

٤ - **عبد المجيد نعنعى** : الإسلام فى طليطله - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - بدون تاريخ .

٥ - **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى - القاهرة - ١٩٧٣م .

٦ - **عنايات محمد أحمد** : الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى - مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - المجلد الثانى والأربعين ١٩٩٤م .

٧ - **فريد شافعى** : العمارة العربية فى عصر الولاة - نشر الهيئة العامة للتأليف والترجمة - ١٩٧٠م .

٨ - **لطفى خليل** : تعدين النحاس - مجلة المتحف - العدد الثانى - ١٩٨٧م .

٩ - **محمد مصطفى السمرى** : التخدير عبر التاريخ - مجلة العربى - العدد ٤٠٢ - للسنة الخامسة والثلاثون - مايو ١٩٩٢م .

١٠ - **مرجريت ترويل** : الفن الزخرفى فى أفريقيا - ترجمة مجدى فريد - القاهرة - بدون تاريخ .

١١ - **هنرى أمين عوض** : الجراحة فى العصر الإسلامى - مجلة دراسات أثرية إسلامية - نشر هيئة الآثار المصرية - المجلد الثالث - القاهرة ١٩٨٨ .

كتاب الموجز فى تاريخ الطب - جـ١ اشتراك فى تأليفه مجموعة من العلماء من مطبوعات الجمهورية العربية الليبية - بدون تاريخ - المعجم الوسيط - تحقيق مجمع اللغة العربية - الطبعة الثالثة .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

1. Aluguste Couat : Alexandria poetry under the first theree (324- 222 B. C) London, 1990.
2. Breasted Y. H : The edwin Smith surgical papyrus, 2 Vols, Chicago, 1930.
3. Ebbell, B: The papyrus Ebers, Copenhagen, 1937.
4. Fraser P. M. : Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972.
5. George Marcais : Manuel d' art musulman, Paris, 1926.
6. Ghalioungui : P. Medicine in ancient Egypt, Amx Ray Atlas of Royal mumies, London, 1980.
7. Hurry, Y, B : Imhotep the vizier and physicion of king Zoser and of terwards Egyptian Good of Medicine - Oxford, 1926.
8. Mahmoud Karim : Circunncision y mutilations male y female, London, 1995.
9. Pavon Maldonado : El arte hispano musulman en su decoracion geomtrica, instituto hispano arabe de cultura, Madrid, 1975.
10. Pavon Maldonado : Memoria de la excavacion de la Mezquita de Medina Alzahra, Madrid, 1966.
11. Peck, H. W : Mummies of ancient Egypt, mumies disease and ancient, cultures, New York, 1980.
12. Petrie, F : Tools and weapons, London, 1917.

رابعاً : الرسائل العلمية :

١ - حنان عبد الفتاح مطاوع : التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية وحتى سقوط مملكة بنى الأحمر - رسالة دكتوراه - كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٩٦م .

٢ - وفاء السيد بدار - الطب والأطباء فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الحديثة - دراسة تاريخية وحضارية - مخطوط رسالة ماجستير - الإسكندرية ١٩٩٣م .

ابن أبى طىّ : مؤرخا وأديبا

أ. د. محمد زيود(*)

عاش المؤرخ ابن أبى طىّ فى عصر له مكانة خاصة فى النواحى السياسية والعسكرية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية أنه عصر الحروب الصليبية الذى شهد العديد من التطورات وبخاصة فى منطقة الشرق الأوسط . ومن المعروف أن والد المؤرخ ابن أبى طىّ عاصر الشهيد نور الدين محمود بن زنكى (٥٤١ - ٥٦٩هـ /١١٤٦ - ١١٧٣م) . ثم السلطان المظفر صلاح الدين بن أيوب (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ / ١١٦٨ - ١١٩٣م) . وبانتقال صلاح الدين إلى جوار ربه فى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م كان عمر مؤرخنا ابن أربعة عشر عاماً ، لاتفاق معظم المصادر أنه ولد سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م .

وقد اعقبت وفاة صلاح الدين فترة قلقة فى تاريخ مصر والشام وما حولهما، إذ تنافس أهل بيته على اقتسام دولته ، فظهر فى دمشق ابنه الأفضل نور الدين على (٥٨٩ - ٥٩٢هـ / ١١٩٣ - ١١٩٦م) وفى القاهرة العزيز عثمان (٥٨٩ - ٥٩٦هـ / ١١٩٣ - ١٢٠٠م) ، وفى حلب الظاهر غازى (٥٨٩ - ٥٩٦هـ / ١١٩٣ - ١٢١٦م) ، واستمرت حلب بيد الظاهر غازى وأبنائه من بعده إلى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، حيث كان الظاهر واليا على حلب قبل وفاة أبيه ، وانفرد بحلب إلى أن توفى فى عام ٦١٣هـ/١٢١٦م حيث نصب ابنه العزيز غياث الدين محمد ملكاً على حلب فى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م واستمر حكمه إلى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م . وكانت المنية قد اتت على مؤرخنا قبل أربع سنوات من انتهاء حكم العزيز محمد ، وهذا يعنى أن « ابن أبى طى » عاصر كلا من صلاح

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة دمشق .

الدين ، وابنه « الظاهر غياث الدين غازى » وحفيده العزيز محمد . واستمر يوسف بعد العزيز يحكم حلب إلى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، حيث قتل مع أخيه الظاهر غازى . فى جمادى الأول من سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، على يد هولاكو ، عندما اجتاح حلب وأباحها لجيشه . وبقى ولده الصغير المسمى العزيز فى أيدى المغول .

وفى حين استمر الحكم الأيوبى فى حلب بيد الظاهر غازى وأبنائه إلى ٦٥٨هـ/١٢٦٠ ، فإن العادل سيف الدين أخا صلاح الدين تمكن فى سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م من أخذ دمشق من الأفضل، وعزل الملك المنصور الذى خلف أباه العزيز بالقاهرة سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م وبذلك استأثر العادل بالسلطنة بعد صلاح الدين .

والواقع أن الشام ومصر كانتا فى تلك الحقبة تخضعان لسلطة واحدة فى أغلب الأحيان ، أو لأفراد من أسرة واحدة ، ولأول مرة تشهد الشام ومصر وشمال العراق ، منذ تفكك الدولة العباسية وحدة سياسية بقيادة نور الدين محمود ابن زنكى الذى عمل بكل طاقته لتوحيد الشام وشمال العراق ومصر وهى الوحدة التى جنى ثمارها صلاح الدين ومكنته من انزال الهزائم بالصليبيين .

وفى ظل هذه الوحدة السياسية ، وخضوع المنطقة لسلطة واحدة عاد العلماء يتنقلون بين هذه الأقطار ، وبخاصة بين الشام ومصر فى سهولة ، مما جعل من الصعب أن نربط عالماً من العلماء بقطر واحد دون سواه ، وكان هذا مما ساعد على قيام وحدة فكرية متقاربة ، وثقافة أدبية وعلمية متناظرة ، وخاصة بين مصر والشام .

ومع ظهور المدارس فى الدولة الإسلامية منذ القرن الخامس للميلاد ، إلا أن المسجد ظل يشكل المركز الدراسى الأساسى للعلم ، ففى مصر قام جامع عمرو ابن العاص (الجامع العتيق) ، والجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع الأقمر ،

والعطارين بالإسكندرية بدور كبير ، وأما فى الشام فكان الجامع الأموى (جامع دمشق) وجامع حلب ، والمسجد الأقصى .

وظلت حلقات العلم تعقد بالجامع العتيق فى مصر ، وتتطرق إلى مختلف فروع الثقافة ، وذلك فى العصرين الفاطمى والأيوبى(١) ، وكان الأزهر الذى شيد فى مطلع الدولة الفاطمية فى مصر ، فعلى الرغم من أن التعليم فيه اصطبغ بالصبغة المذهبية الشيعية الإسماعيلية وألقيت فيه رسائل هذا المذهب وعلى رأسها كتاب « الاقتصار » ، ودعائم الإسلام وكتاب الأخبار فى فضل الأئمة الأبرار ، وغيرها من الكتب والرسائل التى ألفها القاضى النعمان وابنائه من بعده وغيرهم من أئمة المذهب الشيعى فيه الرسالة الوزيرية فى الفقه الشيعى الإسماعيلى التى وضعها الوزير « ابن كلس » هذا فى حين وجدت العلوم الفلسفية والحكمية ، مجالاها فى دار الحكمة التى أسست فى عهد الخليفة الحاكم الفاطمى (٣٧٦ - ٤١١هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١م). وبظهور صلاح الدين على المسرح ، قام بإجراءات كثيرة استهدفت وقف الدعوة الإسماعيلية فأقدم فى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م على إسقاط اسم الخليفة العاضد الفاطمى من الخطبة ، وأعلنها باسم الخليفة العباسى ، وعين على القضاء « صدر الدين عبد الملك بن درباس » ، الشافعى المذهب ، وأبطل الخطبة بالجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمى ، قاصداً إهمال الأزهر باعتباره رمزاً للمذهب الفاطمى ، كذلك قام صلاح الدين بأنشاء عدة مدارس أخذت تنافس مراكز الدعوة الفاطمية وكان أن أقبل المدرسون والطلاب على هذه المدارس أكثر من إقبالهم على بقايا المؤسسات الفاطمية .

على أن الدراسة فى الأزهر لم تتوقف تماماً ، اثر انقطاع الخطبة فيه وإهماله من قبل السلاطين لمدة تزيد عن مائة عام(٢) ، وكان ذلك فى صدر دولة سلاطين المماليك - فى عهد السلطان الظاهر بيبرس - عندما عادت الحياة إلى الأزهر وأذن

القاضى الحنفى بإعادة الخطبة فيه ، فأعيدت يوم الجمعة ١٨ ربيع الثانى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ودرست فيه القراءات والتفسير ، والمنطق والحساب والهيئة والطب ، واللغة والعروض والقوافى والتاريخ . وهكذا لم تقتصر الدراسة فى الأزهر على علم الفقه أو علم الكلام والنحو والأدب بل كانت تدرس به كذلك فروع المعرفة الأخرى . هذا فضلاً عن جوامع أخرى فى مصر ساهمت فى التدريس والنهضة الثقافية ، أمثال الجامع الطولونى ، وجامع الحاكم ، والأقمر ، والأفخر، والعطارين ، وغيرها من الجوامع التى بنيت لتكون دور عبادة ومعاهد علم وينابيع ثقافة ومعرفة .

أما المساجد فى بلاد الشام فعلى رأسها جامع دمشق الذى بناه الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م) وتم بناؤه فى سنة (٩٦هـ / ٧١٤م) وهو من أشهر مساجد بلاد الإسلام حسناً واتقاناً وغرابة صنعه . وفيه مقصورات عديدة بعضها للحنفية يجتمعون فيها للتدريس كما أنه به أماكن وزوايا خصصت لطلبة العلم .

وتردد على هذا الجامع فى عصر الحروب الصليبية طائفة من العلماء الذين لا تزال آثارهم لامعة فى تاريخ الحركة الفكرية . وبقيت آثارهم إلى ايامنا ومن علمائه الأفذاذ فى ذلك العصر :

- علم الدين السخاوى ، شيخ القراء والنحاة ، والفقهاء(٦٤٣هـ)(٣) .
- الحافظ ابن عساكر ، شيخ دار الحديث بدمشق(٥٧١هـ) .
- أحمد بن فرج الأشبيلى (٦٩٩هـ) .
- ضياء الدين الدولعى (٥٩٨هـ) .
- عبد الله بن سعد القطرى .

- عماد الدين بن الحرستانى (٥٩٧هـ) .

- محمود بن عبد الله أبو المثنى المراغى (٦٨١هـ) .

- أبو القاسم الدمشقى المشهور بابن الماسح (ت ٥٩٢هـ/١١٦٦) من أعيان الفقه الشافعى والقراءات(٤) .

- عبد الغنى بن عبد الواحد بن سرور المقدسى (ت ٦٠٠هـ /١٢٠٣) وكان يقرئ القرآن بالجامع الأموى ليلة الخميس والجمعة(٥) .

وغيرهم كثيرون .

أما جامع حلب فكان فى تلك الحقبة من أهم المراكز العلمية فى بلاد لشام، حيث كانت حلب ذات دور هام فى العصر الصليبى فى الشام ، وكان جامعها من أحسن الجوامع وأعمرها ثقافة .

واستمرت حلب من أعظم مراكز العلم فى تلك الحقبة ، باستثناء فترات قصيرة محدودة ، بسبب التهديد الذى تعرضت له فى عصر الحروب الصليبية . على أن حلب لم تلبث أن استعادت بعد ذلك مركزها العلمى ، وغدت أم البلاد الشامية ، وغصت بالعلماء ، وأشار ابن خلكان إلى ذلك عندما زارها فى سنة ٦٢٦هـ(٦) / ١٢٢٨م ، وبذلك عاد جامعها مركز إشعاع للعلم والعلماء .

ولم تتوقف مسيرة هذه الحركة العلمية فى حلب إلا عندما انطفأت شعلتها على يد التتار سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م . فأحرقوا جوامعها ودمروا معاهدها ، وقضوا على مدارسها ، وخربوا دور السلطنة ، وقصور الأمراء وأفسدوا كل شىء فيها . وظلت حلب تعانى من تلك الضربة زهاء ثلث قرن ، ثم بدأت العمارة والحياة تعود إليها فى سنة ٦٩٠هـ(٧) /١٢٩١م .

يتضح مما تقدم أن حلب في عهد مؤرخنا - ابن أبي طيّ - الذى عاش فيما بين (٥٧٥-٦٣٠هـ / ١١٧٩-١٢٣٢م) مرت في مرحلة انفتاح علمي ، واستعادت مركزها الذى انتكس في بداية الحروب الصليبية . واستمرت بعد ذلك محافظة على نشاطها العلمي حتى قدوم التتار واستباحتهم لمدن الشام كغيرها من المدن الأخرى التى استباحوها في البلاد الإسلامية . وفي تلك المرحلة كان ابن أبي طيّ قد مضت على وفاته بضعة عقود ، وربما ضاعت بعض كتاباته في هذا الغزو التترى ، الذى أحرق الأخضر واليابس . وبعبارة أخرى فإن فترة حياة المؤرخ «ابن أبي طيّ» التى استمرت زهاء خمسة وخمسين عاماً ، تمثل أحد العصور الذهبية لحلب ، في المجال الأدبي والثقافي ، والسياسي أيضاً . لقد استعادت في تلك الفترة قواها وشكلت قاعدة هامة للدفاع عن الأمة الإسلامية وتراثها الحضاري والسياسي .

٣ - ابن أبي طي في المصادر العربية :

هو منتجب الدين « أبو زكريا »(٨) ، وقيل « أبو الفضل » يحيى بن حامد أو حميده(٨) بن ظافر بن على بن الحسين بن على بن محمد بن الحسن بن صالح بن على بن سعيد بن أبي الخير الطائي(٩) الغساني الحلبي النجار(١٠) المؤرخ والأديب، الحلبي المولد والمنشأ ، ولد حسب ما ذكرته معظم الروايات في سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م ومات سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م(١١) ، وقيل غير ذلك ، حيث لا تعرف سنة وفاته بدقة .

أما والده فتذكر بعض المصادر أنه ولد في العقد الأول من القرن السادس الهجري ما بين (٥٠١هـ - ٥٠٩هـ) ، وكان من وجهاء حلب ، ورئيس حرفة النجارين فيها . وكانت هذه المهنة ولا تزال من المهن المشهورة في حلب ، وتعود

أهميتها إلى أن حلب ، من الأماكن الهامة فى استنبات الأشجار الضرورية لمهنة النجارة . ومما يدل على كثرة الأشجار وتنوعها ما ذكره كل من ابن العديم مؤرخ حلب المشهور(١٢) ، والشاعر الصنوبرى الحلبى وغيرهما ، وقد حظى والد ابن أبى طىّ فى حلب على التقدير والاحترام بوصفه أحد زعماء الشيعة فيها . غير أن هذا الأمر عرضه للخلاف الشديد مع حكام حلب فى عهد نور الدين (٥٤١هـ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦م-١١٧٣م) ومن جاء بعده . ونتيجة لما تعرض له والد ابن أبى طىّ من اضطهاد ، فإنه اضطر إلى الفرار من حلب أكثر من مرة نتيجة للتحول الذى حصل فى تلك الحقبة من التحول إلى المذهب السنى ، وما رافق ذلك من مضايقات لبعض الناس والأسر التى كانت تعتنق المذاهب الشيعية ، وكانوا أكثرية فى حلب . وأخذت بعض أسر ذات الصلة بالأمور الإدارية تتحول إلى السنة كأسرة ابن أبى جرادة(١٣) ، و« ابن العديم » وغيرها . ومن هذه الإجراءات منع الشيعة من استخدام الزاوية الشرقية فى جامع حلب ، وحظر عليهم الآذان (بحى على خير العمل) ، وغير ذلك من مضايقات ، أدت إلى رضوح الشيعة على مضض أو إلى الهروب . ومن الذين هربوا أو أخرجوا - من حلب أكثر من مرة - والد المؤرخ يحى بن حميد المرة الأولى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، والمرة الثانية لم تحددها المصادر . ومكث والد مؤرخنا فى حران(١٤) ، بعض الوقت بحدود سنة ٥٢٥هـ/١١٥٧م . وفيها ألف كتاباً فى التاريخ . وكان أولاده يموتون صغاراً . ولم يسلم له أحد من أبنائه . وبعد مضى وقت من اليأس رزق بعد طول انتظار - وبعد أن تقدم به العمر - بولده يحى - مؤرخنا هذا - فى حدود سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م كما أشرنا . وقدر لهذا المولود أن يعيش ، ويكبر ويتعلم على أبيه، ويأخذ عنه مذهبه الفكرى ، وتوجهه الأدبى ، وعمله المهنى . فتعلم على يده مهنة النجارة وورثها عنه ، وكذلك مذهبه الشيعى .

أما والدته حميدة(١٥) أو فضائل ، فإنها ماتت سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وهي السنة التي ولد فيها مؤرخنا . ولهذا كثيراً ما كان يقال عنه يحيى بن حامد أو حميدة ، نسبة إلى أمه وهي عادة عربية معهودة ومتبعة .

كذلك تعلم مؤرخنا من علماء حلب ، ونهل عنهم أصناف العلوم كالبلاغة واللغة والأدب والتصوف وغيرها من العلوم . وأما أساتذته فهم كثيرون ويأتي على رأسهم والده ، ومجموعة من المحدثين منهم : إدريس بن حسن ابن علي الأدريسي (ت ٦١٠هـ) وقد عرف به ياقوت في معجمه .

كذلك درس مؤرخنا الفقه الشيعي أيضاً وتعمق به على يد ابن جعفر بن علي بن شهر أشوب المازرائي . وعرف عن هذا الفقيه البراعة والفقه الإسلامي على المذهب الشيعي الإمامي وعرف عنه بأنه كان عالم الشيعة في القرن السادس الهجري ، وخطيبهم وناقل أدبهم المذهبي في كتابه « مناقب آل أبي طالب » وله مشاركة فعالة في علم الأصول والقراءات وقدم مؤلفات كثيرة في هذه العلوم الدينية(١٦) ، وقد قدم ابن شهر أشوب إلى حلب ومكث فيها وتزوج أخت ابن أبي طيّ ، ودرس هذا عليه شيئاً مما كان يعلمه . ومات ابن شهر أشوب في حلب.

كذلك اعتمد ابن أبي طيّ في إعداد نفسه فكرياً وعلمياً على مجموعة كبيرة من الأعلام في الفكر والأدب وممن عرفتهم الشام وحلب خاصة نذكر من هؤلاء:

- ابن أبي زريق : صاحب كتاب أو تاريخ آمد وما فارقين .

- وابن أبي جراده (جد ابن العديم) :

- وحمدان بن عبد الرحيم الأثاربي (٥٤٢هـ/١١٤٧م) : مؤرخ حلبي ، وكان أماميا له مصنفات عدة أهمها المفوف . والمصباح(١٧) .

- والعظيمى : (ت ٥٥٦هـ/١١٦١م) وتاريخه عن حلب وهو تاريخ شامل .
- وابن القلانسى الدمشقى (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) : وقرأ عنه كتابه المشهور ذيل تاريخ دمشق .
- والعماد الأصبهانى : (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) فى كتابه البرق الشامى ، وتايخ السلاجقة والفتح القسى فى الفتح القدسى .
- وابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) نشأ بدمشق وبلغ عدد شيوخه الذين أخذ عنهم بالسماع فيها ألفا وثلاثمائة شيخ وتاريخه عن مدينة دمشق خرج فى ثمانين مجلدة .
- وابن دحيه :
- وأسامة بن مرشد بن منقذ الأمير مؤيد الدولة (ت ٥٨٤هـ/١١١٨م) وكتابه الاعتبار .
- وابن شداد ، بهاء الدين بن رافع (٦٣٢/١٢٣٣هـ) .
- ابن الأعز (ت ٦١٠هـ / ١٣١٣م) الأشرف بن الأعز وقيل أبو العز . درس ما عرفه من علم التأريخ لطلابه(١٨) .
- والصنهاجى فى تاريخ القيروان .
- ومؤلفاً مجهولاً فى تاريخ مصر .

وكل هؤلاء أعلام فى عصرهم قدموا الكثير، وتركوا لنا الدلائل على عظمتهم.

وكثيراً ما كانت تشغله الوثائق التى اعتمد مؤرخنا عليها وعلى كتب هؤلاء المؤرخين ، كما كان ينجذب إلى رسائل وروايات متعددة ، منها رسائل القاضى الفاضل وأخباره ، فضلاً عن مصادر أخرى كثيرة ومتنوعة بعضها شفهى والآخر مخطوط .

وخلاصة القول فإن ابن أبى طىّ اعتمد فى كتاباته التاريخية أسلوب معاصريه كابن الأثير وغيره . كما اعتمد على المصادر الشفهية ، وهى إحدى المصادر الرئيسية للكتابة التاريخية فى ذلك العصر . ثم اعتمد على مصنفات المتقدمين فى التاريخ ، ومنها استقى مواد كتاباته . أما الأحداث المعاصرة . فقد اعتمد على مشاهداته لها عن كثب ؛ معتمداً على خبراته الشخصية ، كما استند على الوثائق الرسمية التى أعدها كل من العماد الكاتب ، والقاضى الفاضل .

وعلى العموم فمؤرخنا هو من أدباء حلب ، وخريج مدرستها الأدبية والفكرية والمذهبية ، والتى نشطت منذ ما قبل منتصف القرن الرابع الهجرى واستمرت طيلة القرنين الخامس والسادس الهجريين تعطى ثمارها وتخرج علماء فى كل فروع العلوم والمعرفة ، كما أشرنا أثناء الحديث عن عصر المؤرخ .

وكما عاش والد المؤرخ محنة الاضطهاد والإهمال والنفى نتيجة لعقديته المذهبية ، كذلك تعرض الابن للضنك والإهمال ، وربما للنسيان المتعمد من الكثيرين ، فلم يعهد له بأى منصب إدارى أو رسمى ، لا فى التدريس ولا فى القضاء ، أو غير ذلك من الأعمال الحكومية ، على الرغم من أن حلب فى عهده كانت بحاجة لمثل هذه الخدمات وغيرها ، نتيجة لما كانت تمر به فى تلك الأثناء من ظروف حرجة .

وفى هذه الأجواء غير الطبيعية نشأ المؤرخ ابن أبى طىّ . ولا شك فى أن ذلك أثر تأثيراً كبيراً فى مجريات حياته ، إذ أجبرته هذه الظروف المؤقته أن يعيش فترة طويلة من حياته متكسباً بما تدره عليه مهنته وعمله بالنجارة التى اشتغل بها وورثها عن أبيه كما أشرنا . واستمر كذلك إلى أن انتقل إلى عمل أقل جهداً ، وافضل قيمة ، وهى مهنة تعليم الصغار والصبية ، فمارس هذه المهنة فى المكاتب حتى نهاية القرن السادس الهجرى ، واختص بتعليم أبناء أحد الوزراء سنة

٦٠٠هـ/١٢٠٣م ، وبعد ذلك انتقل إلى مهنة الوراقة وتصنيف الكتب ، مترفعاً عن التعليم وأنف منه ولزم داره ، وطلب مشايخ الأدب فقرأ عليهم ، وتعلم منهم ونظم الشعر ، فمدح الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين ، وارتفعت منزلته عنده، حتى ولاه نقابة الفتيان فى حضرته سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م وغدا نقيب الحضرة السلطانية فى الفتوة .

وكان أن تابع ابن أبى طيّ عمله الجديد فى التأليف والتصنيف ، فصنف كتباً فى التاريخ وتفسير القرآن الكريم والآداب والفقه والأصول ، وهكذا انتقل إلى عمل مفضل ، ظل يمارسه بقية حياته ، واتخذ من ذلك مصدراً لرزقه وعيشه ، إذ فتح له هذا العمل الأبواب الفكرية والمعرفية على مصراعيها عاملاً بمهنة الوراقة ، ونسخ الكتب . ويبدو أن هذا العمل حقق له كسباً كبيراً ، جعل ياقوت الحموى الأديب المعروف المعاصر له يحسده ويغمز عليه فقال عنه أنه : « كان يدعى العلم بالأدب والفقه والأصول على مذهب الإمامية ، وجعلَ التأليف حانوته ، ومنه قوته ومكسبه ولكنه كان يقطع الطريق على تصانيف الناس ، يأخذ الكتاب الذى اتعب جامعه خاطره فيه فينسخه كما هو ، إلا أنه يقدم فيه ويؤخر ، ويزيد وينقص ويختار له اسماً غريباً ، ويكتبه كتابة فائقيه لمن يشبه عليه ، ورزق من ذلك حظاً » . وربما أراد ياقوت أن يتهم ابن أبى طيّ ، فذكر أن عدداً من الكتب التى تعزى إليه ليست سوى مستنسخات تصرف بها ابن أبى طى على هواه . ومعلوم أن ابن أبى طى معاصر لياقوت ولا شك فى أن كلا منهما كان يحمل فى نفسه شيئاً للآخر. وقد يكون كلام ياقوت الحموى عن ابن أبى طيّ نوعاً من الغمز ، والطعن بأديب معاصر له ، مختلف معه فى المذاهب والمشارب والاتجاهات ، وجمعتهما حلب الشهباء التى كثيراً ما عرفت أمثال هذه المنافسات والمشاحنات بين العلماء منذ ايام سيف الدولة الحمدانى .

ومهما يكن الأمر ، فهذه المنافسات بين العلماء كثيرة الحدوث . غير أن موقف ياقوت من ابن أبي طيّ لا ينكر وسيظل كل من يريد التعرف على ابن أبي طيّ يعترف بموقف ياقوت منه وما قدمه من معلومات عنه . ومع ذلك فإن ياقوت ترجم له بوصفه من الأدباء المرموقين وذكره بين الأحياء الذين عاصروه في حلب. وجاءت ترجمته من المصادر المهمة والمفيدة للكثيرين ممن أرخ لابن أبي طيّ وترجم سيرته بعد ياقوت : وقد تكون هذه المعلومات على الرغم مما جاء بها من طعن وغمز من افضل ما كتب عنه ، وساهمت في التعريف به ، ولكن مما يؤسف له أشد الأسف أن ترجمة ابن أبي طي التي جاءت في الجزء السابع من المخطوط ، لم تظهر في النص المطبوع من معجم الأدباء ، ولعل ذلك فات على المحقق ، فزاد ذلك من سوء حظ هذا المؤرخ الذي عده بعض الباحثين من طبقة(١٩) ، المؤرخين الأول في الإسلام . وهكذا خانه الحظ فلم يبق من إنتاجه التاريخي والأدبي والعلمي أي أثر ظاهر الآن وليس أمامنا عن هذا المؤرخ سوى مقتبسات مبعثرة في كتب المؤرخين الذين أتوا بعده أو أخذوا عنه ، مع الإشارة إلى أن بعضهم لم يذكره عندما نقل رواياته ولا ندري أكان ذلك متعمداً أم غير متعمد . وفي جميع الأحوال فقد زاد ذلك في إغفاله ، حتى استمر في طي النسيان .

والواقع إن مؤلفات ابن أبي طي كثيرة ، يصعب حصرها ، وتحديدها . وما قدمه ياقوت عنها ربما كان بعض مسودات لم تكتمل ، وأثبتها في معجمه قبل أن يستكمل إعدادها كما قدمها له ابن أبي طي فيما أظن . ولهذا جاءت غير متفقة مع الكتب التي عرفها المؤرخون ونقلوا عنها ، والتي أتت على ذكرها المصادر التي أطلعنا عليها والتي تضم حوالى بضعة وثلاثين مؤلفاً ، منها مؤلفات عديدة في علم القراءات والفقه ، والأدب ، والنحو ، والبلاغة ، والنبات ، والتراجم ، وجاء معظمها في التاريخ . ويمكن أن نذكر من مؤلفاته وكتبه كما أوردتها بعض

المصادر والمراجع ، وإن جاءت مختلفة فى أسمائها وعددها . وبعد المقارنة تمكنا من إحصاء المؤلفات الآتية :

١ - معان الذهب فى تاريخ حلب ، وجاءت فى بعض المراجع . معادن الذهب فى تاريخ الملوك والخلفاء ، وذوى الرتب ، وكان فى عدة مجلدات .

٢ - كتاب شرح لامية العرب أو المنتخب فى شرح لامية العرب .

٣ - كتاب سلك النظام فى تاريخ الشام .

٤ - كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين ، ومنه مقتطفات عديدة لدى أبى شامة (الروضتين) .

٥ - حوادث الزمان على حروف المعجم ، وأهم ما فيه أنه ألف على أساس أبجدى ، فهو موسوعة لمعارف التاريخ وكان فى خمس مجلدات .

٦ - أطباء الشعراء الشيعة .

٧ - طبقات العلماء ، وربما يكون هو الكتاب الذى ورد عند الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى « طبقات أو تاريخ الإمامية » .

٨ - عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب بين سنتى (٥٨٩- ٦١٣هـ/١١٩٣-١٢١٦م) . بينما يرد عند الأستاذ شاكر ما بين (٥٨١-٦١٣هـ / ١١٨٥-١٢١٦م) وهو فى تاريخ حلب نقل عنه ابن شداد في الإعلاق الخطيرة (قسم حلب) صفحات هامة منها قطعة فى تفصيل ارتفاع (ضرائب) حلب فى مطلع القرن السابع الهجرى ٦٠٩هـ أخذها عن مستوفى حلب(٢٠) .

٩ - مختار تاريخ العرب، وهى التى وردت عند بعض الباحثين مختار تاريخ المغرب.

١٠ - مناقب الأئمة الأثنى عشر .

١١ - تاريخ مصر . ولعله اهتم فيه بالتاريخ الفاطمى واقتبس من ابن ميسر والمسبحى وغيرهم كالمقريزى .

١٢ - مختار تاريخ المغرب . وقد يكون له كتابات .

١٣ - تاريخ الشيعة ، ورد عند بعض الباحثين أسماء رواة الشيعة ومصنفيها ، وجاء عندمحسن الأمين كتاب الحاوى ذكر فيه رجال الشيعة وعلماءهم وفقهاءهم وشعراءهم وأئمتهم .

١٤ - تهذيب الاستيعاب فى معرفة الأصحاب (لابن عبد البر) جاءت عند الطباخ للقرطبى .

١٥ - كتاب الأول والعذب والزلال .

١٦ - بيان العالم .

١٧ - ذيل معادن الذهب فى تاريخ حلب أى أنه ذيل كتابه هذا فى التاريخ(٢١)، وتتمة له .

١٨ - سيرة ملوك حلب .

١٩ - البستان فى محاسن الغلمان .

٢٠ - اشتقاق أسماء البلدان .

٢١ - مجموعة كتب حول الجاهلية والرسول ﷺ وأجداده فى ثلاث مجلدات يعطيها صاحب كشف الظنون عنوان السيرة(٢٢) .

٢٢ - له ديوان فى المدائح(٢٣) .

٢٣ - كتاب التنبيه على محاسن التشبيه .

٢٤ - وشرح نهج البلاغة فى ست مجلدات يقال أنه درسه على ابن الأغـر(٢٤) ، وعلى ابن شهر أشوب المازندرانى عالم الشيعة فى القـرن السادس وخطيبهم وناقل أدبهم المذهبى فى كتابه مناقب آل البيت(٢٥) .

٢٥ - ولمح القرآن فى تفسير القرآن .

٢٦ - البيان فى اسباب نزول القرآن .

٢٧ - غريب القرآن مختصر .

٢٨ - كتاب المجالس الأربعين فيه فضائل الأئمة الطاهرين .

٢٩ - خلاصة الخلاص فى آداب الخواص .

٣٠ - شفاء المعليل فى ذم الصاحب والخليل .

٣١ - كتب الحاوى ذكـر فيـه رجـال الشيعة وعلمـاءهم وفقهـاءهم وشعراءهم أئمتهم المصنفين فى مذهبهم .

٣٢ - تراجم رجال الأدب والشعراء وهو مخطوط موجود فى القاهرة تيمورية رقم ١٤١٨ تاريخ وهوفى عداد كتبه المفقوده أيضاً ، ولم نجده تحت هذا الرقم.

ولا يمكننا أن نؤكد أن هذه المؤلفات جميعاً من نتاجه ، أو أن هذه هى كـل مؤلفاته ، فقد تأتى الأبحاث بأمور جديدة ، وقد تكشف السنون القادمة بعضاً مـن تراث هذا المؤرخ . أو ربما يكشـف البـاحثون عـن أسماء بعض كتبـه لم تـرد فـى المصادر التى تم الإطلاع عليها . ولا ندعى أن مـا أتينا عليـه ، وذكرنـاه ، فـاصل وقطعى. وإنما نعترف بأننا لم نتمكن من الوقوف على جميـع المصـادر التـى أخـذت عنه ، ولم نتعرف على كل النقولات منه ، وكل مـا نرجـوه هـو أن ندفـع بـالهمم ونحثها للبحث لاكتشاف الجديد والمفيد عن هذا المؤرخ .

وأما الذين أخذوا عن ابن أبي طيّ من المؤرخين فكثيرون ، وغالباً ما أغفل بعضهم التنويه عنه . ولم يوضحوا مقتبساتهم عنه . وإن فعلوا ذلك فقد أغفلوه من قائمة المصادر الأساسية . ومن هؤلاء أبو شامة في كتابه « الروضتين » فعلى الرغم من كثرة مقتبساته عنه ، لم يذكره في قائمة مصادره التي اشار إليها في بداية كتابه ، مع أنه ذكر مصادر أقل من مصادره إفادة ، وبعض المؤرخين لم يشيروا لا من قريب ولا من بعيد إلى الأخذ عنه أو الاعتماد عليه . وكثيراً ما كانت تأتي الإشارات بكتابات لاحقه . وعلى الرغم من ذلك فقد أوردت المصادر مجموعة من المؤرخين اعتمدوا على مؤلفاته وكتبه ، جاء بعضها على لسان أصحابها ، وبعضها في مصادر أخرى .

ويمكن أن نذكر من المؤرخين الذين افادوا منها كلا منه :

١ - ابن العديم : كمال الدين عمر (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) في كتبه الكثيرة وخاصة في تاريخه « زبدة الحلب في تاريخ حلب » الذي صنفه لحلب على الحوادث ، وجاء بثلاثة مجلدات ثم « بغية الطلب » . والذي خطه لحلب ورجالاتها وترجم لمن نشأ أو مر أو ذكر في تاريخها وجاء في أكثر من عشرة مجلدات ، وكلا الكتابين حققا ونشرا في دمشق . ولابد من الإشارة إلى كثرة ما نقل عن ابن ابي طي ، مثل القول : ذكر أو قال أو ورد عند ابن أبي طي ... إلخ .

٢ - وكانت مؤلفاته في المصادر المهمة التي اعتمد عليها الإمام العلامة ، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٢٤٧م) في تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام أو دول الإسلام وغيرها من مؤلفات استقت معلومات كثيرة من أخبار ابن أبي طيّ .

٣ - أما المؤرخ الكبير أبو شامة (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية « فاقتباساته كثيرة وواضحة ، وتعطينا فكرة بينة عن تراث هذا المؤرخ الواسع إطلاعه ، كما تقدم لنا الدليل الأكيد على إهمال المؤرخين له ونكران فضله ، ولم يضعوه فى المكان اللائق به ، والمناسب لجهده ومكانته .

٤ - وأخذ عنه ابن شداد (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) فى مؤلفاته . ومنها كتابه «الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة» ، ولا سيما ما اقتبسه منه عن مؤلفه عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى ، وأخذ عنه ابن شداد التاريخ المتعلق بحلب فى مطلع القرن السابع الهجرى سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م . وابن أبى طى أخذها بدوره عن مستوفى حلب ، وهى صفحات مهمة منها قطعة فى تفصيل ارتفاع ضرائب حلب ، وهى قائمة مهمة تفيد كل باحث فى التاريخ الاقتصادى أو الإجتماعى ، هذا إضافة لما اقتبسه ابن شداد عنه فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » .

٥ - كذلك استفاد منه ابن عبد الظاهر فى كتاباته (ت ٦٩٢هـ) .

٦ - وابن ميسر (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م) ومؤلفه « أخبار مصر » وهو من المؤلفات المهمة عن مصر الفاطمية بخاصة ، ويعد ما كتبه ابن ابى طى عن الفاطميين من المصادر المهمة كونه قريب الصلة بهم ، وكانت كتب ابن ميسر مصدر أساسياً لكل من النويرى والمقريزى وابن حجر العسقلانى ، وهؤلاء من مؤرخى القرن التاسع الهجرى ، واعتمدوا على ابن أبى طى بشكل مباشر أو غير مباشر .

٧ - أما المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) فيعد أفضل من كتب عن الدولة الفاطمية ، وخاصة فى كتابه « اتعاظ الحنفا » فقد أورد المقريزى فى كتاباته

روايات عديدة أخذها عن ابن أبى طى وكثيراً ما اشار إلى بعضها ، وأهمل الإشارة إليها فى بعض مقتبساته الأخرى فى كتبه الكثيرة كالسلوك ، والمواعظ والمقفى ، والاتعاظ .. إلخ .

٨ - ولابد أن نتذكر فى هذا الصدد مقتبسات ابن قاضى شهبه (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) فى كتابة الأعلام . عن ابن أبى طىّ ، فقد ذكر أنه أخذ عنه الكثير عندما أرخ لأعلام الشيعة . كما وردت مقتبساته فى كتاباته عن « طبقات الشافعية » والكواكب الدرية فى السيرة النورية .

٩ - ويظهر أن كتب ابن أبى طى استمرت إلى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى أو بعض منها حين استخدمها ابن الفرات (ت٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) واستفاد منها ناقلاً معلومات كثيرة عنها .

لكن من المؤسف أنه لم يبق لهذا المؤرخ الآن فيما هو معروف من المخطوطات إلا كتاب فى التراجم الأدبية والشعرية يحتاج نسبته إليه إلى أمور كثيرة ، وتحقيق مضن ، وقد أورد الأستاذ المرحوم شاكر مصطفى أن هذه التراجم مخطوطة فى المكتبة التيمورية بالقاهرة رقم ١٤١٨ تاريخ . وقد حاولت كثيراً الحصول عليها ، فلم أتمكن من ذلك ، ولا شك أن هذا المخطوط مفقود كغيره من كتب مؤرخنا العديدة .

٤ - أسلوب كتاباته :

يعبر معظم ما كتبه ابن ابى طى وذكره عن وجهات نظر أصلية ، وفيها مكان واسع للمجادلات الدينية والأثرية ، ورفض للعجائب ، بأسلوب سلس ومقبول ، ابتعد فيه عن أسلوب العماد الأصفهانى الذى طغت عليه فنون اللغة من سجع وطباق وغير ذلك من فنون الكتابة التىيكثر فيها الوصف ويمل الناظر

فيها ويصاب بالذهول والتعب قبل التأكد من معرفة الأحداث والوقائع التاريخية(٢٦) .

ولابن أبى طىّ موقف خاص من الأيوبيين ، يستند على أن ابن صلاح الدين، الظاهر غازى لم يكن متعصباً للسنة كثيراً ، ولم يكن هو الذى أخرج والد مؤرخنا ابن أبى طىّ من حلب ؛ فقد أخرج فى عهد نور الدين محمود كما أسلفنا، وكما يتضح من مقارنة الأخبار(٢٧) ، والروايات المتعلقة بهذا الموضوع . ولهذا نراه فى كتاباته عن صلاح الدين وغيره من الأيوبيين يأتى بأخبار مفصلة ودقيقة ، ويتحرى فيها الابتعاد عن المشاعر والعواطف التى كانت تلون الكتابات التاريخية ، وتؤثر فيها وتجعل النزعة المذهبية مسيطرة عند بعض المؤرخين . وضمن توجهه هذا نراه يؤرخ لصلاح الدين ويكتب سيرته ، ويقربه الابن الظاهر غازى فيمدحه بقصائد شعرية ، وغدا نقيب الفتيان فى حلب ، وربما ساهم ابن أبى طىّ وغيره فى تضخيم الخلاف بين صلاح الدين وسيده نور الدين .

ويجب أن ندرك أنه لا يمكننا أن نحكم على هذا المؤلف إلا من خلال ما اقتبس عنه مما أشارت إليه المصادر صراحة ، مع العلم بان هذه المقتبسات العديدة قد يكون مقتبسوها قد حوروا فيها ، أو غيروا أسلوبها ، أو بدلوا من عباراتها ، وصبغوها بأساليبهم الخاصة . وربما تصرفوا بهذه النقولات . ولم يكتبوها حرفياً حتى غدت هذه المقتبسات لا تمثله بقدر ما تمثل الذى صاغها . غيرأنه إذا جاز لنا أن نحكم على هذا المؤرخ من خلال ما وصلنا عنه من هذه النقولات والمقتبسات ، وما سمحت به الظروف المتعلقة بها ، فإنه يمكننا أن نقول : أن كتابه « معادن الذهب فى تاريخ حلب » قد يكون كتاباً عاماً فى التاريخ ، إلا أنه اهتم فيه بتاريخ حلب أساسًا ، وما كتبه عنها يمكن اعتباره مصدراً مهماً ومباشراً ، لا سيما فى حياته . وعندما نقول أن معظم كتاباته قد فقدت أوجهلت فإن علينا أن نذكر أنه

كثيراً ما اعتمد على المصادر الشفهية . فروى عن والده ، كما كان يعتمد على الوثائق ومنها رسائل القاضى الفاضل . ومعظم كتبه لا تخرج عن هذا السياق. ويمكننا الاطمئنان إلى أن كتاباته عن صلاح الدين وابنه الظاهر غازى فى كتابه « عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر » قد كتب أحداثها معاينة ومعاصرة .

أما أسلوب ابن أبى طىّ فلا يخرج كثيرًا عن أسلوب معاصريه ، ويقترب من أسلوب المؤرخ الكبير ابن الأثير وهو معاصره ، وتوفيا فى سنة واحدة . فكتاباته تتسم بالإيجاز ، والسرد البسيط ، الذى يبتعد فيه عن الأسلوب الأدبى لعصره ، فهو يحاول تجنب الزخرفة والصنعة ، والتكلف والألفاظ البديعة والمنمقة ، وغير ذلك من أساليب الصنعة ، ويحاول أن يختار الألفاظ المقبولة السهلة الوقع على السامع والتى تحافظ على الخبر وتظهره .

كذلك يلاحظ عليه أنه كان أحياناً يسرد دقائق الأمور ، ويغوص فى التفاصيل إيضاحاً أو جواباً . وهذا ما يجعلنا نقول : إنه كان يقدم الأحداث الجزئية للاقتراب من الحقائق . وهذا الأمر يدل على سعة إطلاعه وبعد نظره ورؤيته التاريخية الواضحة فى رواياته .

والآن وبعد ما تقدم فإننا نضع بين أيدى القراء بعض الإشكالات المثارة حول هذا الموضوع ، آمل أن تتضافر الجهود للوصول إلى مقترحات محددة ومفيدة حيالها . ونضع لمن يعمل على هذا الطريق الحلول والتصورات المناسبة والرؤية الواضحة المفيدة . علنا نساعد كل من يبحث فى هذا التراث المفقود ليجد ضالته المنشودة الصعبة المنال .

الهوامش

(١) السيوطى : طبقات المفسرين ص ٢١ ، حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٣٥ ، ياقوت : معجم الأدباء جـ١ ص ٢٣٢ ، ابن أيبك الصفدى : نكت الهميان فى نكت العميان ص ١٠٦.

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ١٥٥ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٥٦ .

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٧ ، الذهبى : العبر جـ٥ ص ١٧٨ ، طبقات الشافعية جـ٤ ص ٢٦١ للسبكى ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ص٣١٦ - ٣٢٢ ، ابن العماد : شذرات جـ٥ ص ٢٢٢ .

(٤) القفطى : أبناء الرواة جـ٢ ص ٢٤١ / ٢٤٢ ، الذهبى : سير اعلام النبلاء ، جـ٢ ص٤٦٧ ، السبكى : طبقات جـ٥ ص ١٥٤ ، المقريزى : السلوك ص٨١ ، طبقات الشافعية: جـ٧ ص ١٤ ، السيوطى : بغية الوعاء جـ٢ ص ١٥٥ ، النعيمى : الدارس جـ١ ص ٢٠٣ .

(٥) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٢ ص ٥١٩ - ٥٢٢ ، العماد : شذرات جـ٤ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٤١ .

(٧) أبو المحاسن : النجوم جـ٧ ص ٢٩٩ .

(٨) ورد أبو الفضل : انظر عمر رضا كحاله ، معجم المؤلفين جـ١٤/١٣ ، ص١٩٥ « بيروت دار إحياء التراث العربى » ، شاكر مصطفى : المؤرخون جـ٢ ص ٢٥٢ ، البغدادى : هدية العراقين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين : المجلد الثانى ص ٥٢٤ (طهران ط٣ ١٣٨٧هـ / ١٩٤٧م) .

(٩) قيل ابن حميده : وهى أمه ، انظر شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٢ ، قيل أن اسم أمه قضائل بنت صفيد وهى ابنة قاضى صور : كما جاء عند كلود كاهن Le Syrie du Nord P. 55/56/57 .

(١٠) الطائى : نسبة إلى اسمه ابن أبى طى وليس كونه من قبيلة طى .

(١١) يذكر عمر رضا كحاله : أنه بخارى ص ١٤٥ ، المرجع السابق . لكن ليس بخارى أنما نجارى لأنه ورث مهنة النجاره عن والده .

(١٢) لا تعرف سنة وفاته ولعلها ما بين ٦٢٥ أو ٦٢٧- ٦٣٠هـ ، شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(١٣) ابن العديم : بغية الطلب ورقة ١٦٣، ١٧٣ ، والغزى : نهر الذهب جـ١ ص ١٢٥ ، زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ص ١٤٤ ، بيروت ١٩٩٢ .

(١٤) انظر ذلك فى ترجمة ابن العديم فى معجم الأدباء لياقوت الحموى : حيث يورد أن أحد أحداد ابن أبى جراده كان شيعياً .

(١٥) شاكر مصطفى : المؤرخون جـ٢ ص ٢٥٢ ، محسن الأمين : أعيان الشيعة جـ١ ص ٢٨٦ ، « تحقيق حسن الأمين ، بيروت ١٩٨٣ » .

(١٦) ورد اسمها كما أشرنا فضائل بنت صفيد وهى ابنة قاضى صور انظر كلود كاهن Le Syrie du Nord P. 55/56/57 . وشاكر مصطفى : المرجع السابق، جـ٢ ص٢٥٢.

(١٧) ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان جـ٦ ص ٢٦٣ / ٢٦٤ ط بيروت ١٩٧١م .

(١٨) ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص ٧٩ (مادة أثارب) ومعجم الأدباء ص ١٤٢ . ابن العديم : بغية الطلب جـ٤ ص ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٢ ، جـ ، ص ٢٩٢٦ ، ٢٩٢٧، دمشق ١٩٧٩م .

(١٩) ابن العديم : بغية الطلب جـ٤ ص ١٨٧٥ ، ١٨٨٤ .

(٢٠) شاكر مصطفى : المرجع السابق والصفحة .

(٢١) انظر : ابن شداد : الأعلاق قسم حلب ص ١٥٠ ، ١٥٣ .

(٢٢) انظر : كل من شاكر مصطفى جـ٢ ص ٢٥٣ - ومحسن الأمين جـ١ ص ٢٧٦ .

(٢٣) شاكر مصطفى : المؤرخون جـ٢ ص ٢٥٤ ، حاجى خليفة : كشف الظنون جـ١ ص ٥٨٢ .

(٢٤) محسن الأمين : أعيان الشيعة جـ١٠ ص ٢٨٦ .

(٢٥) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين جـ١٣ ، ١٤ ، ص ١٩٥ .

(٢٦) مصطفى جواد : مجلة الكتاب ص ٤٧٧ ، مصر دار المعارف للطباعة والنشر العدد ٦ لعام ١٩٤٨ .

(٢٦) أبو شامة : الروضتين جـ١ ص ٤ ، ٥ .

(٢٧) انظر فيما سبق من هذا البحث ، كلود كاهن : المرجع السابق والصفحات .

المصادر والمراجع

- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠١هـ .
- أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ١٩٧٢ .
- البغدادى : هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين جـ٢ استانبول سنة١٩٥٥ و جـ٣ طهرن ١٩٤٧م (١٣٨٧هـ) .
- ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان جـ٦ ، ط٢ بيروت ١٩٧١ .
- حاجى خليفة : كشف الظنون (الاستانه ١٩٤١م) .
- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر والشام وبلاد العرب ، القاهرة ١٩٥٨م .
- خليل بن ايبك الصفدى : نكت الهميان فى نكت العميان (مصر ١٩١١م) .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ، بيروت ١٩٨٨ .
- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر .
- الذهبى : تاريخ الإسلام (بيروت ١٩٨٨م) .
- الزركلى : الإعلام جـ٨ « بيروت دار العلم للملايين » .
- السبكى : طبقات الشافعية جـ٤ (ط ١٣٢٤هـ) .
- السيوطى : طبقات المفسرين (ليدن ١٨٣٨م) - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (ط مصر ١٣٢١هـ) .
- سرور جمال الدين : الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٩٥) .
- ابن الشحنة : تاريخ مملكة حلب (بيروت ١٩٠٩) .
- أبو شامه : الروضتين فى أخبار الدولتين (طبع مصر ١٢٨٠هـ) .

- **شاكر مصطفى** : التاريخ العربى والمؤرخين جـ٢ الكويت .

- **ابن شداد** : الإعلاق الخطيرة - قسم حلب (دمشق ١٩٩١م) .

- **عمر رضا كحاله** : معجم المؤلفين جـ١٣ ، جـ١٤ دار أحياء التراث العربى «ونسخة دمشق ١٩٦١م » .

- **ابن العديم** : زبده الحلب فى تاريخ حلب (دمشق ١٩٥٤م) بغية الطلب فى أخبار حلب جـ٤ و جـ٦ ، دمشق ١٩٧٩ .

- **محمد راغب الطباخ** : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ٤ « حلب دار القلم العربى » طبعة ١ ، ١٩٢٣ وطبعة ٢ ، ١٩٨٩ .

- **محسن الأمين** : أعيان الشيعة جـ١٠ ، بيروت ١٩٨٣ .

- **مصطفى جواد** : « مجلة الكتاب » مصر العدد ٦ لسنة ١٩٤٨م .

- **الغزى** : نهر الذهب فى تاريخ حلب « المطبعة المارونية » .

- **الشيخ اقابزرك الطهرانى** : الذريعة إلى تصانيف الشيعة جـ١ وجـ٣ ، بيروت ١٩٨٣ .

- **المقريزى** : الخطط جـ١ ، ١٣٢٥هـ - وكتاب السلوك جـ١ وجـ٣ طبع القاهرة ١٩٣٩م .

- **ابن قاضى شهبه** : الكواكب الدرية فى السيرة النورية - والإعلام .

- **القفطى** : تاريخ الحكماء « طبعة ليبسك ١٩٠٣م وطبعة القاهرة ١٣٢٦هـ .

- **كرد على** : خطط الشام جـ٢ ، جـ٤ (دمشق ١٩٣٨م) ,طبعة ١٩٢٥م .

- **ابن كثير** : البداية والنهاية جـ١٢ ، مصر السعادة .

- **ياقوت الحموى** : معجم البلدان (١٣٢٣هـ) معجم الأدباء (١٩٣٦م) .

موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل

في ضوء وثائق الخارجية المصرية

د. عبد الحميد عبد الجليل شلبي(*)

تعددت مصادر تاريخ العرب منذ فجر التاريخ حتى الآن من نقوش وآثار وكتابات وكانت الوثائق بطبيعة الحال مصدر من مصادر تاريخ العرب ومعرفة أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وحينما دونت الوثائق لم يكن يدر بخلد كاتبيها أنها ستكون مرجعا تاريخيا ، بل كانت تدون لحفظ الحقوق ولتنظيم العلاقات سواء على مستوى الدول (كمعاهدات واتفاقيات) أو على مستوى الأفراد (كوثائق البيوع والوثائق الشرعية وغيرها) ووثائق وزارة الخارجية المصرية(*) تعد من أهم مصادر تاريخ العرب الحديث والمعاصر نظر لأنها أقدم زمنيا من غيرها فى الدول العربية الأخرى.

ولأهمية هذه الوثائق التاريخية قسمت هذه الدراسة قسمين :

(أ) قسم نظرى . (ب) قسم تطبيقى

أولاً : القسم النظرى :

(أ) كيفية تصنيف هذه الوثائق فى دار الوثائق القومية :

تعد وثائق الخارجية المصرية من الوثائق البكر التى تم السماح للباحثين بالاطلاع عليها منذ فترة ليست بالبعيدة ، وتحفظ معظم هذه الوثائق بدار الوثائق القومية(*) بالقاهرة وهناك مجموعة أخرى محفوظة بقصر عابدين ، وتتناول وثائق الخارجية المصرية كافة المسائل التى تتعلق بالشئون السياسية (داخلية وخارجية)، والاقتصادية ، والاجتماعية و لم ترصد هذه الوثائق كل ما يتعلق بمصر فحسب بل أنها ترصد ما يتعلق بالدول العربية والدول الأجنبية - أحياناً .

(*) جامعة الأزهر .

ويوجد فى دار الوثائق - فيما يخص وثائق الخارجية - ما يقرب من خمسة فهارس هى :

١ - الأرشيف السرى القديم « جزءان » .

٢ - الأرشيف السرى الجديد « جزءان » .

٣ - أرشيف الإدارة الاقتصادية .

٤ - أرشيف الإدارة الأوربية .

٥ - الأرشيف العادى .

وقد تم الانتهاء من فهرسة الأرشيفين الأول والثانى ، ويجرى العمل فى الأرشيفات الثلاثة الباقية .

أما الأرشيف السرى القديم فيحتوى على ما يقرب من (٩٢٣) محفظة ، بكل محفظة عدد من الملفات المختلفة التى قد يصل بعضها إلى ثلاثين (٣٠) ملف وبحصر ملفات هذا الأرشيف ، نجد أنه يهتم بالأمور القنصلية والاجتماعية والصحية والاقتصادية ، وجاءت غالبية الوثائق بهذا الأرشيف مكتوبة باللغة الفرنسية باستثناء بعض الوثائق التى كتبت باللغة العربية .

أما الأرشيف السرى الجديد ، ففيه ما يقرب من ألف وستمائة وسبع عشرة محفظة (١٦١٧) تصل الملفات فى بعضها إلى (١٧) ملف .

وتتناول معظم الوثائق الخاصة بهذا الأرشيف الأمور السياسية ، بالإضافة إلى الأمور التجارية . ويتناول هذا الأرشيف الفترة من العشرينات حتى بداية الستينات من هذا القرن .

وجدير بالذكر ، أن الأرشيف السرى الجديد به مادة غزيرة جدًا لفترة الخمسينات ، حيث الأحداث السياسية الهامة التى أعقبت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ م . واللغة السائدة فى كتابة هذا الأرشيف هى اللغة العربية ، اللهم بعض

الوثائق الخاصة بفترة العشرينات والثلاثينات والتى كتب بعضها باللغـة الفرنسـية ، ويعود السبب فى كتابة بعض هذه الوثائق باللغة الفرنسـية إلى أنهـا فرضـت كلغـة أساسية للعمل الدبلوماسي .

وبالإضافة إلى الأرشـيفات الخمسـة - المذكـورة آنفـا - هنـاك بعـض الأرشيفات الخاصة بدول معينة ، فهنـاك على سبيل المثـال ثـلاث محافظ خاصة بالمراسلات الواردة من السفارة المصرية بجدة والرد عليها ، وهى تغطى الفـترة مـن ١٩٣٨ حتى ١٩٥٩ م وكلها تقارير سياسية ، اللهم بعـض الملفـات التـى تتنـاول بعض الأمور الاقتصادية وأمـور الحـج . هـذا بإيجاز عـرض لكيفيـة تصنيـف هـذه الوثائق وكيفية فهرستها ، وهنا يبرز سؤال وهـو : هـل مـن الممكـن تزييـف تلـك الوثائق ؟

الإجابة فى رأيى لا ، حيث تعد هذه الوثائق من الوثائق الرسمية ولا يعتد بها إلا إذا كانت ممهورة بخاتم الوزارة أو خـاتم السـفارة ، مـع توقيـع الراسـل عليهـا ، فضلا عن أن هذه الوثائق ترسل عادة بالحقيبة الدبلوماسية حسب درجة الأهمية أو السرية .

وهناك أمر آخر وهو أنه حينما كان يتم الرد على الوثائق الصادرة والـواردة من وإلى الوزارة كان يرمـز إليهـا برقمهـا وملخصهـا فـإذا مـا دسـت برقيـة علـى السفارة أو على الوزارة كان من اليسير اكتشافها ، خاصة وأن هناك بعض الرمـوز الاصطلاحية المتفق عليهـا بـين الـوزارة والبعثـات الدبلوماسية فـى الخـارج ، وإذا زيفت وثيقة خاصة بالسفارة أو الوزارة كان يمكن اكتشـافها مـن ألفاظهـا أو مـن الخاتم الذى تختم به .

وهناك بعض الأمثلة على ذلك حيث دست بعض المستندات علـى السـفارة المصرية فى بيروت ووصلت المستندات المزيفـة إلى السـفارة السـعودية فـى بـيروت على أنها صورة طبق الأصل لتقارير صادرة من السفارة المصرية ولكن تم الكشـف عن هذه الوثائق من خلال الصياغة التـى صيغـت بهـا ، حيـث أستعمل المـزورون

ألفاظا ، وتعابير سورية ، أو لبنانية ، مما لا يستخدم فى الصياغة المصرية(*) ومن هنا كان الجواب على سؤال عما إذا كان من الممكن تزييف الوثائق المصرية أم لا ؟ ، بالنفى .

(ب) كيفية الاطلاع على هذه الوثائق :

هناك العديد من الإجراءات التى على الباحث أن يتبعها حتى يتسنى له الاطلاع على وثائق الخارجية المصرية ، وتكون هذه الإجراءات على النحو التالى:

١ - خطاب موجه من الجهة المسجل بها موضوع البحث إلى مدير عام دار الوثائق القومية ، يحدد فيه الموضوع والفترة الزمنية .

٢ - يملأ الباحث الاستمارات اللازمة لاستخراج التصريح .

٣ - ضرورة الحصول على موافقة الأمن بدار الوثائق وتستغرق هذه الموافقة ما بين ١٥ - ٤٥ يوما .

٤ - خطاب موجه من الجهة المسجل بها موضوع البحث إلى السيد السفير مدير إدارة المعلومات بوزارة الخارجية المصرية، يحدد فيه الموضوع والفترة الزمنية.

٥ - تستغرق هذه الموافقة عدة أشهر تتراوح ما بين شهر إلى ستة أشهر حسب أهمية الموضوع .

٦ - بعد موافقة الأمن بدار الوثائق يتم استخراج تصريح بالاطلاع على الوثائق يدون فيه رقم التصريح ورقم الموافقة ، وجميع البيانات الشخصية للباحث ، وموضوع البحث .

٧ - لا يحق للباحث الاطلاع على الوثائق إلا بعد الحصول على موافقة إدارة المعلومات بوزارة الخارجية .

٨ - غير مسموح بتصوير هذه الوثائق لأنها تعد من الوثائق السيادية ولا يتم التصوير منها إلا إذا وافقت الجهات المعنية بوزارة الخارجية .

٩ - هناك مدة اعتبارية للتصريح الذى يحصل عليه الباحث وهى خمسة أعوام وأحيانا يتم التجاوز عنها لحين الانتهاء من البحث .

١٠ - تسرى هذه الإجراءات على المصريين والعرب والأجانب بدون استثناء .

(جـ) أهمية وثائق الخارجية المصرية :

قبل استعراض أهمية هذه الوثائق ينبغى أن نحدد أهميتها وخصائصها . والواقع إن هذه الوثائق عبارة عن تقارير يومية ترسل من الهيئات الدبلوماسية المصرية (سفارات - مفوضيات - قنصليات) فى الخارج إلى الوزارة والعكس ، وهى تتناول الأحداث الجارية - زمن كتابة الوثيقة - ويستعرض فيها السفير أو الوزارة الآراء المختلفة فى موضوع ما ، وأحيانا يرفق بالمراسلات التى يبعث بها السفراء بعض التقارير التى يكتبها المستشارون والملاحق بناء على تكليف من السفير أو القنصل أو الوزير المفوض . وتكون هذه التقارير ، فى معظم الأحيان مستخلصات للقاءات تمت بين المستشار أو الملحق مع بعض المسئولين فى بلد ما ، بالإضافة إلى مستخلصات لأهم ما تناقلته الصحافة ووكالات الأنباء فى ذلك البلد. وهذه الوثائق ليست خاصة بالمراسلات بين الوزارة والهيئات الدبلوماسية فحسب ، بل تضم أيضا محاضر الجامعة العربية والمراسلات التى تبودلت بين الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات العربية والأجنبية ، بالإضافة إلى نصوص بعض المعاهدات والاتفاقيات (تجارية - اقتصادية - زراعية - سياسية ... الخ) وربما يوجد فيها بعض المذكرات لكبار الشخصيات كمذكرات الملك فاروق ملك مصر ، وكانت تنشر فى بعض الصحف الأجنبية .

أما أهميةهذه الوثائق فلا يمكن الحكم عليها إلا بقراءة بعض النماذج ومنها:

١ - وثائق تبرز التضامن العربى :

فمن الوثائق الهامة التى تبرز التضامن العربى والوحدة العربية تلك المراسلات التى تبودلت قبيل عقد اللجنة التحضيرية لتكوين الجامعة العربيـة ، والتى انعقدت

فيما بين يوليـو / تموز - أغسطس / آب ١٩٤٤ م بين مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر والزعماء العرب ، من أجل تكوين الجامعة العربية وبرز خلال تلك المراسلات حرص العرب على ضرورة إيجاد ممثل لفلسطين في هذه الاجتماعات ، ومدى تضافر الجهود العربية للحفاظ على عروبة فلسطين ، وتتجلى هذه المراسلات وهذه الروح من خلال الرسالة التى بعث بها الملك عبد الله بن الحسين إلى رئيس الوزراء النحاس باشا بتاريخ ٢٥ شعبان ١٣٦٣ هـ الموافق ١٤ أغسطس / آب ١٩٤٤ م مبينا له أهمية تمثيل الفلسطينيين في هذه اللجنة، وموضحا خطر الصهيونية ليس على فلسطين وحدها بل على ما وراءها من بلاد عربية أيضا ، وفي مقدمتها الأردن . وفي نهاية الرسالة اقترح الملك عبد الله بعض الأسماء الفلسطينية لتمثل الجانب الفلسطيني في اللجنة التحضيرية(*) وهناك أيضا الرسالة التى تلقاها النحاس باشا من السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان معربا عن موافقته على الاشتراك في اللجنة التحضيرية ، وكذلك عن أمله في أن يكون هناك ممثلون لفلسطين في تلك الاجتماعات . وفي نهاية الرسالة أعرب له عن أن غياب فلسطين عن الاجتماعات لن يزيد ممثلى شقيقاتها إلا عطفا على قضيتها وتمسكا بحقوقها (**).

٢ - وثائق تبرز سياسة مصر تجاه بعض القضايا العربية :

من الأمور الهامة التى تناولتها الوثائق المصرية على المستوى السياسى المصرى واتجاهات وزارة الخارجية تجاه القضايا العربية ، ذلك الاجتماع الذى عقد تحت اسم « المؤتمر الدبلوماسى العربى » بتاريخ ٤ فبراير / شباط ١٩٥٠ م ، وهو خاص بوزارة الخارجية المصرية ، حيث حضره وزير الخارجية والسفراء المصريون في الدول العربية وفي نهاية المؤتمر تم إصدار عدة قرارات سرية للغاية ، ومن أهم - وأخطر - تلك القرارات ما كان يتصل بموقف مصر وسياستها تجاه موضوع

(*) انظر الملحق رقم (١) .

(**) انظر الملحق رقم (٢)

اتحاد سوريا والعراق (مشروع الهلال الخصيب) حيث صدر عن المؤتمر عدة قرارات فى هذا الشأن منها :

١ - يكون الموقف الرسمى للحكومة المصرية هو الحياد المطلق بين جميع التيارات الموجودة داخل سوريا .

٢ - معارضة الاتحاد بين البلدين بطريق مفتعل .

٣ - تشجيع مظاهر التقارب بين مصر وسوريا .. إلخ(*) .

أى أن القرارات طالبت بأن تكون سياسة مصر فى هذا الموضوع ذات شقين ، شق ظاهرى وهو الحياد المطلق بين جميع التيارات السياسية السورية سواء التى تدعو للوحدة مع العراق أو التى تدعو للوحدة مع مصر ، وشق آخر سرى وهو عرقلة هذا المشروع ومعارضته بصور مفتعله مع تشجيع مظاهر التقارب بين مصر وسوريا حتى يتم فشل المشروع .

٣ - وثائق تبرز تعاون مصر مع جامعة الدول العربية :

وهناك وثائق تظهر مدى التعاون بين مصر وجامعة الدول العربية فيما يختص بالشئون الدولية والعربية ومن ذلك ، تلك المذكرة التى بعثت بها الإدارة السياسية بجامعة الدول العربية إلى وزارة الخارجية المصرية تحيطها علما بطلب إمامة عمان الداخلية الانضمام إلى الجامعة ١٩٥٤ م ، وتطلب من وزارة الخارجية المصرية تزويدها بما تستطيع من بيانات أو دراسات أو وثائق خاصة بشئون إمامة عمان ووضعها السياسى(**)

(*) انظر وثائق الخارجية المصرية . محفظة ١٤٠١ ملف ٤ / ١٩٨ / ١ سرى جدًا " المؤتمر الدبلوماسى العربى ٤ فبراير ١٩٥٠ م "

(**) انظر الملحق (٣) .

٤ – وثائق تبرز التأييد الشعبى للقضايا العربية :

ومن الوثائق التى تبرز التضامن العربى على المستوى الشعبى ما جاء إبان أزمة السويس من برقيات تندد بالاستعمار والمستعمرين ، وتؤيد الموقف المصرى . ومن هذه الوثائق البرقية التى أرسلها أحد خطباء المساجد فى سوريا إلى الرئيس جمال عبد الناصر مؤيدا له ولسياسته،وينقل إليه عاطفته وعاطفة الشباب السورى تجاه مصر ورئيسها وقضيتها.

٥ – وثائق تصحح بعض الأخبار المغلوطة :

وكما توجد وثائق هامة تبرز لنا التعاون العربى والسياسة العربية وبعض المواقف الشعبية ، فهناك وثائق أخرى على درجة كبيرة من الأهمية ومهمتها تصحيح بعض الأخبار المغلوطة ، ومنها – على سبيل المثال – ما ذكرته إحدى الدوريات الأجنبية Middle East Journalفى عددها شتاء عام ١٩٥٧ م العدد (١١) رقم (١) بتاريخ ٢٢ ديسمبر / كانون أول ص ٧٦ ، بأن وزير خارجية ألمانيا الغربية صرح بأنه «يستعجل حكومته لوقف دفع التعويضات لإسرائيل ودفعها لمصر بدلا منها » فالباحث فى موقف حكومة ألمانيا الغربية من أزمة السويس عام ١٩٥٦ م حينما يعتمد على هذه الدورية سوف يورد هذا الخبر على أنه حقيقة مسلم بها ، ولكن بالرجوع إلى وثائق الخارجية المصرية ، نجد أن الخارجية المصرية قد تعجبت حينئذ من هذا الخبر لأنه يخالف الواقع ويتنافى مع ما كان يذكره وزير خارجية ألمانيا الغربية من أن بلاده سوف تستمر فى دفع التعويضات لإسرائيل بدون النظر إلى النزاع العربى / الإسرائيلى ، فأرسلت الخارجية بدورها إلى المستشار الصحفى بالسفارة المصرية فى واشنطن – حيث تصدر المجلة – تستعلم منه عن صحة هذا الخبر ، فأرسل الأخير بدوره إلى رئيس تحرير المجلة الذى أفاد « بأن خطأ مطبعيا قد وقع فى كتابة الخبر ، وأن التصريح المشار إليه صدر عن وزير خارجية ألمانيا الشرقية وليس الغربية كما ورد خطأ فى المجلة »(*)

(*) انظر وثائق الخارجية المصرية – محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ حـ٨ وثيقتان بتاريخ ١٩٥٧/٥/٢١ م ، ١٩٥٧/٦/١١ م من وكيل الخارجية إلى المستشار الصحفى لسفارة مصر بواشنطن والرد عليها برقم ١١٥ .

وكان الأمر يستلزم نشر تكذيب أو تصحيح للخبر فى العدد التالى أو فى الأعداد التالية فى نفس المكان كما تنص الأعراف ، إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث وظل الأمر كما هو بصورته المغلوطة ولكن الوثائق على هذا النحو قد صححت خطأ لم تصححه المجلة التى أوردت الخبر المكذوب .

٦ – وثائق تبرز مساعدات مصر لبعض الدول على المستوى الفردى :

تحتفظ وثائق الخارجية المصرية بالعديد من الوثائق التى توضح المساعدات المصرية لبعض الأقطار العربية الشقيقة ، وعلى سبيل المثال تلك البرقية التى وردت إلى الإدارة العربية بوزارة الخارجية من السفارة المصرية بالرباط بشأن الوضع السياسى فى المغرب وكيفية مساعدة مصر والدول العربية لهذا البلد الشقيق . وأهم ما ذكره التقرير فى هذا الشأن هو ضرورة طرد الكادر الفنى الفرنسى الذى تستعين به الحكومة المغربية وإحلال العرب من الفنيين محله وضرورة مناصرة مصر للعناصر المغربية للاتجاه نحو الدول العربية (**) .

هذا عرض موجز لأهمية هذه الوثائق سواء فى مجال التعاون العربى أو فى مجال تصحيح بعض المفاهيم والمواقف السياسية .

– أضواء على القسم النظرى :

جدير بنا قبل البدء فى الجزء التطبيقى أن نلقى الضوء على القسم النظرى من خلال الصعوبات التى تواجه الباحث فى هذه الوثائق ، والاقتراحات التى يمكن بها تلافى تلك الصعوبات .

- من الصعوبات التى تواجه الباحثين فى هذه الوثائق منع التصوير منعا باتا إلا بالحصول على موافقة الخارجية المصرية ، وهذا لا يحدث إلا فى القليل النادر جدا ، وبجهود خاصة ، مما يجعل بعض الباحثين يحصلون على الوثائق بطرق غير مشروعة . وهنا يجب فتح باب التصوير من هذه الوثائق ، كما هو متبع

(**) انظر الملحق رقم (٤).

فى كبرى دور الوثائق ، وهذا من شأنه أن يعود بالنفع على تطوير دار الوثائق، كما يكون مصدر دخل للدولة ، نظرا لأهمية هذه الوثائق ، التى اتجهت إليها أنظار الباحثين من كل مكان .

- ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين أيضا ،كثرة تكرار صور الوثائق فى الملف الواحد . ويجب هنا تنقية هذه الملفات من الوثائق المتكررة ، حتى لا تكون مطمعًا لبعض الباحثين من ضعاف النفوس بنزعها من الملفات .

- من الصعوبات التى تواجه الباحثين وجود بعض الوثائق الممزقة ، نتيجة لسوء التخزين والاستخدام ، مما يستدعى ضرورة نقل هذه الوثائق على مصغرات فيلمية أى / « ميكروفيلم » لسهولة حفظه والاطلاع عليه والتصوير منه دون أضرار .

- ومن الصعوبات -أيضا- عدم التطابق بين ملفات المحفظة الواحدة فى الموضوع.

- فى أغلب الأحيان - وعلى سبيل المثال المحفظة رقم ١٣٢٨ بها عدد ثلاث ملفات وهى :

١ - ملف رقم ٤١/١٤٢/١٣٩ج٢ « عرض مسألة قناة السويس على مجلس الأمن أكتوبر ١٩٥٦ » .

٢ - ملف رقم ١/١٤٣/١٣٩ « المجلس الدولى للأرز - اجتماعات اللجان ».

٣ - ملف رقم ٩/١٤٣/١٣٩ « اللجنة الخاصة ببحث مشاكل تصريف ومداركة السلع الغذائية والزراعية » .

فنلاحظ أن ملفات المحفظة لا يربطها موضوع واحد كما أن الفترة الزمنية متباعدة فالملف الأول فى عام ١٩٥٦ م ، والثانى عام ٥٢ - ١٩٥٣ م ، والثالث ٤٩ - ١٩٥٠ م ، فيجب حصر الملفات الخاصة بموضوع واحد ووضعها فى محفظة أو محفظتين حسب عدد الملفات وتأخذ أرقاما مسلسلة حتى يسهل الاطلاع عليها .

- ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين وجود عناوين لبعض الملفات فى المحافظ ، وبالرجوع إلى محفظة ما ، نجد أن هذا الملف مسحوب وبالسؤال عنه لا تجد إجابة ؟ وعلى سبيل المثال ملف رقم ٣٧ / ٤٠ / ١٣ (أحداث فلسطين السياسية) مسحوب من المحفظة رقم (١٥١٦) .

ومن الأمور التى توضح عدم الدقة فى التصنيف ما لاحظه الباحث فى الملف رقم ١٤ / ١٤ / ١ فى المحفظة رقم ١٢٤٧ حيث أخذ الملف اسم ((الحالة على الحدود النجدية / العراقية)) وبالرجوع إلى الملف وجد أن الورقة الأولى فقط هى التى تتناول هذا الموضوع وباقي الملف لا يمت للموضوع بصلة . وهذا الأمر يستدعى تأليف لجنة متخصصة لقراءة هذه الوثائق وتصنيفها حسب الموضوعات وحسب درجة الأهمية .

وبعد ، فهذه بعض الصعوبات التى قد تواجه الباحثين فى وثائق الخارجية المصرية ، ولكنها لا تمثل شيئا فى سبيل الحصول على المعلومة المفيدة والجديدة ، وتجعلنا نقف على وجهة النظر المصرية والعربية من خلال وثائق عربية صميمة وليست من خلال الوثائق الأجنبية وحدها .

• • •

ثانيًا : القسم التطبيقى :

هذا القسم أفردته للحديث عن « موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل ». وهذه القضية تعد من القضايا السياسية ذات الصبغة الاقتصادية ، فالاقتصاد والسياسة عاملان متداخلان ممتزجان من الصعب الفصل بينهما . وترجع فكرة التعويضات إلى عام ١٩٤٣ م وكان صاحبها أحد اليهود الصهاينة فى الولايات المتحدة وهو جورج لاندوير George Landauer ، ثم تولى الصهيونى زجفريد موسى Siegfried Moses أمر عرضها أمام الرأى العام العالمى منذ عام ١٩٤٤(١) .

وقد بدأت المفاوضات المباشرة بين ألمانيا وإسرائيل بشأن هذه التعويضات اعتبارا من مارس (آذار) ١٩٥٢ م ، حيث وافق الكنيست الإسرائيلى على الدخول فى مفاوضات مباشرة مع ألمانيا بشأن التعويضات بأغلبية ٦١ - ٥٠ صوتا . وقد استمرت المفاوضات ما يقرب من سبعة أشهر تم خلالها الاتفاق على حجم التعويضات وكيفية سدادها ، وانتهت بعقد اتفاقية لوكسمبورج Luxembourg فى ١٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٢ م(٢) .

وقد تم التصديق على هذه المعاهدة من قبل البرلمان الألمانى بمجلسيه البوندستاج(*) Bundestag فى ١٨ مارس (آذار) ١٩٥٣ م ووافق عليها بأغلبية ٢٣٨ ضد ٣٤ وامتناع ٨٦ صوتا ، والبندسرات(**) Bundesrat فى ٢٠ مارس ١٩٥٣ م الذى وافق عليها بالإجماع ، وعقب ذلك وقع عليها رئيس الجمهورية د. هس Heuss وأصبحت قانونا نافذا منذ ٢٠ مارس (آذار) ١٩٥٣ م على أن يبدأ تنفيذها من أول إبريل (نيسان) ١٩٥٣ م(٣) .

وتم استيفاء اتفاق بر وكسيل بحلول عام ١٩٦٥ م ولكن كانت هناك بعض التعويضات الفردية تقوم ألمانيا بدفعها للأفراد اليهود الذين تعرضوا أو ذووهم للاضطهاد ، وسوف تستمر هذه التعويضات حتى عام ٢٠٣٠(٤) .

وكان السبب فى عقد ألمانيا لهذه الاتفاقية كما يقول « الهر فون برنتانو Von Brantono وزير خارجية ألمانيا » (أن هذه التعويضات أعطيت لإسرائيل نتيجة لضغوط معينة - حدثت فى الماضى - على ألمانيا) (٥) هذا عن اتفاقية التعويضات ، أما عن موقف مصر من هذه الاتفاقية فيدور فى محورين :

(*) البوندستاج : أحد مجلسى الهيئة التشريعية فى جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) وأهمها وهو يمثل الشعب وينتخب انتخابا مباشرا . وينتخب المستشار .

(**) البوندسرات : المجلس التشريعى الثانى فى جمهورية ألمانيا الاتحادية وهو أقل أهمية من البوندستاج لأن السلطة تتركز فى البوندستاج وهو يتكون من أعضاء يمثلون حكومات الولايات الألمانية .

(أ) موقف مصر فى الإطار العربى .

(ب) موقف مصر منفردة .

المحور الأول : موقف مصر من اتفاقية التعويضات فى الإطار العربى :

أخذت جامعة الدول العربية على عاتقها منذ إنشائها - وحتى الآن - الدعوة للقضية الفلسطينية ، والعمل على نصرة عرب فلسطين ، وحث الحكومات العربية على انتهاج هذه السياسة (٦). وعقب بدأ المفاوضات الألمانية / الإسرائيلية - بشأن التعويضات ، جاء أول تحرك عربى فى مارس (آذار) ١٩٥٢ م وكان هذا التحرك من جانب سوريا ، التى اقترحت أن تتحرك الدول العربية لمنع وصول هذه التعويضات إلى إسرائيل ، وفى مقابلة بين الوزير المفوض المصرى بدمشق (حسين عزيز) والأمين العام لوزارة الخارجية السورية ، اقترح الأخير أن تسعى الدول العربية لدى الدول الكبرى الثلاث (أمريكا - فرنسا - بريطانيا) لكى يعملوا على تحويل مبلغ التعويضات المقرر إعطاؤه لإسرائيل من ألمانيا لصالح لاجئ فلسطين الذين شردتهم الحكومة الإسرائيلية وعددهم ما يقرب من مليون عربى(٧).

وبناء على الاقتراح السورى ، أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى الحكومة الألمانية عن طريق القنصل المصرى بفرانكفورت ، وخلال استفسار القنصل المصرى عن مصير هذه المذكرة من الهر (فون اتسدورف) Von Etzdorf مدير الشئون السياسية بوزارة الخارجية الألمانية ، يقول القنصل المصرى (إننى فهمت من حديث اتسدورف أن حكومة ألمانيا الغربية لا تربطها أية صله رسمية أو غير رسمية بجامعة الدول العربية ، ولهذا يهم حكومة ألمانيا الغربية أن تعرف هل يمكن اعتبار المذكرة المقدمة من الجامعة هى مذكرة الحكومة المصرية فقلت أن مذكرة الجامعة مقدمة فقط عن طريق الحكومة المصرية (٨) . وفى نهاية التقرير ينصح القنصل المصرى بضرورة تقديم مذكرة احتجاج مصرية إلى الحكومة الألمانية ، وأن تحذو باقى الدول العربية حذو مصر ، على أن يصر العرب فى احتجاجاتهم على ضرورة تعويض اللاجئين العرب خاصة وأن المعاهدة لم توقع بعد(٩) .

وبعد توقيع معاهدة لوكسمبورج ، وحينما لم تأت مذكرة الجامعة العربية بنتيجة مرجوة ، سعت سوريا بطريقة منفردة لدى الحكومة الألمانية ، حيث أرسلت د . مأمون الحموى المستشار بوزارة الخارجية السورية لمقابلة المسئولين فى الحكومة الألمانية لبحث موضوع التعويضات ، وعقب لقائه بهم تقابل الحموى مع القنصل المصرى فتباحثا فى أمر التعويضات ، ثم استقر رأيهما على عدة أمور كمقترحات تعرض على مجلس الجامعة العربية للنظر فيها ومنها :

١ - اتخاذ قرار جماعى بقطع العلاقات الاقتصادية مع ألمانيا فى حالة إذا ما أقر البرلمان الألمانى مشروع الاتفاق .

٢ - إجراء مباحثات بين الدول العربية وبين حكومة ألمانيا على أساس عدم الموافقة على تعويض إسرائيل بتاتا ، وإلا فيكون تعويضها لأفراد اليهود فقط الذين أضيروا .

٣ - الاحتجاج لدى الحكومة الأمريكية بسبب ضغطها على ألمانيا لدفع التعويضات لإسرائيل .... الخ (١٠).

وفى اقتراح آخر من القنصل العام المصرى - مع قرب تبادل التمثيل الدبلوماسى بين العرب وألمانيا - اقترح أن تطلب الحكومات العربية من ألمانيا التريث فى إرسال ممثليها إلى البلاد العربية إلى أن يتضح موقفها من مسألة التعويضات ، وذلك حتى تشعر الحكومة الألمانية بأن البلاد العربية جميعها جادة فى موقفها مع ألمانيا من اتفاقية التعويضات لإسرائيل (١١).

وعلى الرغم من احتجاجات العرب على توقيع اتفاقية التعويضات أعلن المستشار الألمانى آديناور Adenauer أنه وقع على الاتفاقية « وبذلك فإنه حافظ على كلمته » (١٢). أى أن هذه الاحتجاجات لم تؤثر فى قرارات المستشار الألمانى ، وإن كانت قد أحدثت بعض التأثيرات لدى بعض المسئولين حيث أعلن وزير الخارجية الألمانية - آنذاك - (فون اكاردت Von Ekardet) أن هذه الاتفاقية لن تضر بالعرب بأى شكل من الأشكال (١٣). كما أثرت الدعاية العربية

فى بعض الأوساط الألمانية حيث قدم ما يقرب من ثلاثين عضو فى البوندستاج Boundstag يمثلون أربعة أحزاب رسالة إلى الحكومة تحذرها وتطالب بعدم التصديق على معاهدة لوكسمبورج وضرورة مراعاة رد الفعل العربى(١٤) .

ومع منتصف شهر أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢ م سافر إلى بون وفد يمثل أعضاء جامعة الدول العربية لمباحثة الحكومة الألمانية فى اتفاقية التعويضات . وقد أجرى الوفد مقابلات مع المسئولين الألمان ، ولم تؤت هذه الاتصالات ثمارها بل أن الوفد لم يفلح فى إقناع المسئولين فى ألمانيا بوجهة النظر العربية(١٥) .

وبعد فشل الوفد وعودته من ألمانيا ، اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية فى نوفمبر (تشرين ثان)١٩٥٢ م واتخذت عدة قرارات كان منها:

١ - تقديم مذكرة احتجاج إلى حكومة ألمانيا الغربية تتضمن أنه فى حالة التصديق على معاهدة التعويضات الألمانية مع إسرائيل فستجد دول الجامعة العربية نفسها مضطرة إلى اتخاذ الإجراءات التى ولا شك ستؤثر على العلاقات الاقتصادية بين ألمانيا الغربية والدول العربية .

٢ - قبول الدخول فى محادثات مع حكومة جمهورية الاتحاد الألمانى بشأن معاهدة التعويضات بينها وبين إسرائيل ، على أن تجرى هذه المحادثات فى القاهرة بين وفد يمثل ألمانيا ووفد يمثل حكومات دول الجامعة العربية ، ويؤلف من عضو أو أكثر من كل هذه الدول(١٦) .

وبالفعل أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى الحكومة الألمانية ، أوضحت فيها التهديد الذى تمثله اتفاقية التعويضات للدول العربية ، وأن هذه الدول لا يمكنها أن تغض النظر عن المساعدة الضخمة التى تقدمها ألمانيا لدولة هى فى حالة حرب معها . وبينت المذكرة أنه نظرا لعدم استجابة الحكومة الألمانية للاحتجاجات العربية - فردية وجماعية - وعزمها على التصديق على المعاهدة ، فإنها مضطرة للدفاع عن مصالحها ، وأنها قد تضطر إلى قطع العلاقات الاقتصادية مع

الجمهورية الاتحادية فورا « ولما كانت الدول العربية تأمل فى ألا تضطر إلى اتخاذ أى إجراء من هذا النوع فهى تنتظر أن تقوم الجمهورية الاتحادية فورا بعمل يتفق مع ما عرضته من بدء محادثات مع الدول العربية بالطرق الدبلوماسية »(١٧) .

ونتيجة للمذكرة العربية ، حذر السياسى الألمانى « فرانز جوزيف شتراوس Franz Josef Strauss » أحد زعماء الحزب الاشتراكي المسيحى فى بيان له فى ٥ يناير (كانون ثان) ١٩٥٣ م ، أن توقيع الاتفاق مع إسرائيل ربما يكلف ألمانيا خسارة فى السوق العربى تصل إلى مليار ومائه وتسعون مليون دولار خلال السنوات العشر المقبلة(١٨) .

واستمرت جهود مصر بالتعاون مع جامعة الدول العربية فى التضييق على هذه الاتفاقية ، حيث طلبت مصر من الجامعة إدراج قضية التعويضات فى جدول الجامعة ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٣ م وذلك نتيجة لخرق ألمانيا وإسرائيل بنود هذه المعاهدة بالسماح لإسرائيل بشراء منتجات من إنجلترا وخصم قيمتها من حساب التعويضات المستحق لها قبل ألمانيا الغربية ، إذا أن إسرائيل بهذا العمل تستطيع الحصول على كل ما تحتاجه من سلع أساسية حربية كانت أو غيرها من كافة أنحاء العالم على حساب اتفاقية التعويضات(١٩).

وفى لقاء جمع السفير المصرى والقائم بأعمال المفوضية السورية ووزير العراق المفوض ببون اقترحوا خلال اللقاء ضرورة مراقبة تنفيذ نصوص الاتفاقية بدقة كما جاءت ، والحيلولة دون مساعى إسرائيل لتزيد من حصتها باسترعاء انتباه الحكومة الألمانية إلى أن هذا الموقف يعتبر موقفا عدائيا ضد العرب(٢٠) .

ونتيجة لرصد الدول العربية لنوعية البضائع التى تحصل عليها إسرائيل من أموال التعويضات ، أصدرت الجامعة العربية فى جلستها الثامنة من دور الانعقاد العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م عدة قرارات كان منها « أن تقوم الحكومات العربية بالاتصال بالحكومة الألمانية وإفهامها أن هناك مواد وخامات وآلات تصدر إلى إسرائيل من شأنها أن تساعد على تنمية اقتصاديات إسرائيل

وزيادة قدرتها على الإنتاج الحربى ولا يسع الدول العربية السكوت على مثل هذه الأمور »(٢١) .

وحينما أعلنت إسرائيل عزمها على عقد قرض من ألمانيا الغربية بناء على اتفاقية التعويضات ، وقرض آخر من البيوتات المالية الألمانية ، تدارست اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية هذا الأمر فى ١٩٥٤/٩/١٠ م وقررت ما يلى «تبذل الحكومات العربية المساعى اللازمة للتثبت من الأخبار التى وردت من البعثات العربية فى ألمانيا والمتعلقة بسعى إسرائيل لعقد قرض بمائة مليون دولار من الحكومات الألمانية وخمسة وثلاثين مليون دولار من البيوتات المالية ، واتخاذ الوسائل اللازمة لإحباط ذلك المسعى » (٢٢).

وبناءا على ذلك استدعى وكيل وزارة الخارجية بالإدارة الاقتصادية ، القائم بأعمال السفارة الألمانية بالقاهرة وأبلغه ما سيترتب على ذلك النبأ - إن صح - من استياء شديد فى مصر وفى الدول العربية مما يعرض العلاقات بينهم وبين ألمانيا للخطر ، فأنكر القائم بالأعمال معرفته بهذا الخبر حتى يستعلم عنه من حكومته وفى ٩ / أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٤ م تقابل مرة أخرى مع مدير الإدارة الاقتصادية بالوزارة وأخبره نفى حكومته نفيا باتا لهذا الخبر ، وأنه لا علم لها بالمفاوضات الدائرة بين بعض البيوتات التجارية الألمانية وإسرائيل (٢٣).

واستمرارا لجهود الجامعة العربية لوقف أى قروض جديدة من ألمانيا لإسرائيل قررت فى اجتماعات اللجنة السياسية بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٥٥م (بمواصلة السعى الدبلوماسى لدى ألمانيا الغربية لإحباط محاولة إسرائيل الحصول على قروض منها) (٢٤) .

وتوالت اجتماعات العرب الرسمية وغير الرسمية ، ومن بينها ذلك الاجتماع الذى عقده رؤساء البعثات الدبلوماسية للدول العربية فى بون بتاريخ ١٩٥٦/٦/٢٢ م ناقشوا خلاله موافقة المجلس النيابى الألمانى البوندستاج Bundestag فى جلسته بتاريخ ٦ / يونية (حزيران) ١٩٥٦ م على مشروع

قانون لزيادة المبالغ المخصصة لتعويض جميع من اضطهدوا فى ألمانيا خلال الحكم النازى . وفى نهاية اللقاء أصدر المجتمعون قرارا بضرورة الاتصال بحكوماتهم لشرح الموقف ذاكرين (أن ما يخشى الآن ليس صدور القانون الجديد لزيادة مبالغ التعويضات فحسب ، بل يخشى أيضا ألا تكون هذه الزيادة هى الأخيرة ، وأنه يجب اتخاذ إجراء جماعى سريع للإضرار بمصالح ألمانيا الاقتصادية فى البلاد العربية ، حتى تشعر ألمانيا بسخط الدول العربية على موقفها إزاء اليهود عسى أن يتحرك الرأى العام الألمانى ويندد بسياسة حكومته (٢٥). وعقب انتهاء العدوان الثلاثى على مصر أرسلت الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية مذكرة إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٥ ديسمبر (كانون أول) ١٩٥٦ م أخبرتها فيها بأن ألمانيا - رغم وقوع العدوان على مصر واشتراك إسرائيل فيه - لا زالت مستمرة فى دفع التعويضات مما يقوى الجانب المعتدى ، واقترحت أن تقوم وزارات خارجية الدول العربية باستدعاء ممثلى الحكومة الفيدرالية وإبلاغهم (قلق الحكومات العربية من سياسة ألمانيا الغربية فى هذا الشأن) (٢٦) . وقد أرسلت الحكومات العربية مذكرات بهذا المعنى إلى الحكومة الألمانية ولكنها لم تجد نفعا(٢٧) . وفى الاجتماع الذى عقده المبعوثون الدبلوماسيون العرب فى بون فى ٨ مايو (آيار) ١٩٥٧ م تدارسوا أمر إرسال برقية احتجاج موحدة للحكومة الألمانية حول استمرارها فى دفع التعويضات لإسرائيل ، فرأى المجتمعون أن هذه المذكرة قد تحرج موقف البعثات العربية فى ألمانيا إذ أن الحكومة الألمانية قد تمتنع عن قبولها من الناحية الشكلية ، وقد رأى المجتمعون « أنه من المتعذر حمل ألمانيا على الرجوع عن قرارها بدفع التعويضات بعد مضى فترة طويلة وبعد أن تم دفع معظم هذه التعويضات»(٢٨) .

وهكذا اقتنع الدبلوماسيون العرب فى ألمانيا باستحالة تغيير هذه الاتفاقية وأدركوا أنه يجب على العرب أن يتخذوا خطوات أخرى بديلة للعمل الدبلوماسى وهو العمل الموحد من كافة الدول العربية باتخاذ إجراءات اقتصادية ضد ألمانيا ،

مع الإشارة إلى أن أى تهديد كلامي يضعف موقف العرب من مشكلة التعويضات ومن أى مشكلة مستقبلية بين العرب والحكومة الألمانية (٢٩) .

- المقاطعة العربية :

كانت المقاطعة العربية خاصة بإسرائيل ، وكان الهدف منها عمل حصار اقتصادى على إسرائيل حتى تضعف ويسهل بعد ذلك القضاء عليها ، وعقب التوقيع على اتفاقية التعويضات أعلنت دول الجامعة العربية مرارا وتكرارا أنها سوف تقاطع ألمانيا اقتصاديا إذا تم التصويت على المعاهدة . وعقب التصويت عليها اتخذت اللجنة السياسية عدة قرارات بعدم استيراد بضائع ألمانية بصورة غير مباشرة حتى لا يكون ذلك وسيلة لتهريب بضائع لحساب إسرائيل ، وإجبار المستوردين من ألمانيا على الحصول على شهادات من السلطات الحكومية المختصة والغرف التجارية أو اتحاد الصناعات بألمانيا تثبت أن البضائع المصدرة للبلدان العربية هى لحساب المصانع ولا تشكل جزءاً من التعويضات الألمانية لإسرائيل ، على أن تعتمد هذه الشهادة من إحدى القنصليات أو المفوضيات العربية بألمانيا . ولتنفيذ هذه التوصيات ، أوصت اللجنة بتعين موظف أو أكثر يتبع المكتب الرئيسى للمقاطعة ويكون مقره ألمانيا (٣٠) .

وأضاف المجلس الاقتصادي للجامعة بندا ينص على مطالبة مكاتب المقاطعة بتحرى وجمع المعلومات والوثائق الخاصة بتصريف بضائع التعويضات الألمانية المسلمة لإسرائيل فى بلد آخر(٣١) ، حتى لا تتسرب تلك البضائع إلى الدول العربية عن طريق بلد ثالث .

وبناء على ذلك أخذت مكاتب المقاطعة العربية تتحرى عن الشركات التى يشتبه فى تعاملها مع إسرائيل وتصدر بضائع إلى الدول العربية (*) .

(*) انظر على سبيل المثال : محفظة رقم ٧٨٩ ملف ١٢٣/١٤٠/ج١٣ (مكتب مكافحة التهريب لإسرائيل) . تقرير عن الاجتماع الرابع الذى عقدته لجنة الاتصالات العربية فى بون بتاريخ ١٩٦٠/٧/٨ م بتاريخ ١٩٦٠/٨/٢٢ م برقم ب/م/٤ .

وقد يتسائل البعض ، ما مدى تأثير هذه المقاطعة على إسرائيل ؟

مما لا يدع مجالا للشك أن المقاطعة العربية لإسرائيل قد أثرت بصورة كبيرة على مصالح إسرائيل الاقتصادية ، وأنها - كانت - تمثل خطرا حقيقيا على إسرائيل . ومما يؤيد ذلك ، أن إسرائيل سعت في تلك الفترة إلى إنشاء إدارة خاصة في وزارة الخارجية الإسرائيلية تسمى «إدارة التخطيط السياسي الاقتصادي» وتكون مهمتها إعداد الخطط اللازمة لمقاومة المقاطعة الاقتصادية التي يفرضها العرب ضد إسرائيل (٣٢) .

وهنا تبرز أهمية العامل الاقتصادي في تحقيق الأغراض السياسية إذا ما توحدت الكلمة والجهود وخلصت النيات .

هذا عن موقف مصر من قضية التعويضات في الإطار الجماعي العربي .

المحور الثاني : موقف مصر من قضية التعويضات منفردة :

كانت العلاقات المصرية الألمانية تسير سيرا طيباً عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فكانت مصر أول دولة عربية تعلن إنهاء الحرب مع ألمانيا ، ثم تبعتها باقي الدول العربية (٣٣) . وعلى الجانب الاقتصادي دخلت مصر مع ألمانيا في عدة اتفاقيات تجارية كان أولها ذلك الاتفاق الذي أبرم في ٢١ ديسمبر / كانون أول ١٩٤٨ م . (*) ولكن عقب إعلان اتفاقية التعويضات تحركت مصر لأن مركزها في العالم العربي هو مركز الزعامة الأدبية الذي يتطلب منها عناية كبرى بجميع الحوادث التي تقع في تلك البلاد مع الإلمام بجميع التيارات السياسية القائمة فيها ودراسة الاتجاهات التي تنتهجها تلك التيارات والمرامي التي تستهدفها . ومن هذا المنطلق جاء موقف مصر المتتبع لقضية التعويضات الألمانية لإسرائيل ، فقبل إبرام الاتفاقية سعت مصر لعمل دعاية مضادة لها إلا أن قنصل مصر العام في

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذا الاتفاق انظر : وثائق الخارجية المصرية محفظة ١٣٢٩ ملف ١٣٠ / ٧٤ / ٢ (العلاقات الاقتصادية بين مصر وألمانيا) .

فرانكفورت نصح حكومته بالقيام أولا « بجس نبض » الولايات المتحدة قبل اتخاذ أية خطوة علنية ، كما نصح « بجس نبض » الجهات الألمانية بصفة سرية لمحاولة وقف أى اتفاق مع اليهود (٣٤) . وبالفعل قام السفير المصرى بواشنطن بمساعيه لدى المسئولين فى الولايات المتحدة ، بناء على طلب الحكومة المصرية ، فتقابل مع وكيل الوزارة المساعد لشئون الشرق الأوسط، فأوضح له الأخير أن الحكومة الأمريكية لا يمكنها من الناحيتين القانونية والدبلوماسية التدخل فى مفاوضات تجرى بين الطرفين فى شأن يخصهما (٣٥) . وعقب عقد الاتفاقية أعدت الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية مذكرة لخصت فيها موقف مصر من الاتفاقية ، وكيف أن ألمانيا بهذه الاتفاقية قد انتهجت سبيلا مناقضا لسياسة الصداقة التقليدية نحو المسلمين والعرب ، وأن إسرائيل لم تكن دولة حينما وقع عدوان على اليهود من النازى - إن صح - فليس لها الحق فى أن تحصل على التعويضات نيابة عنهم ، وقد أبلغت إدارة الصحافة بهذه المذكرة لإبلاغها لبعض الصحفيين الألمان لتنشر فى ألمانيا(٣٦) .

وفى أحد التقارير الواردة للوزارة من السفارة المصرية ببون تعرض السفير للأسباب التى دعت ألمانيا لعقد تلك الاتفاقية وحصرها فى عاملين :

١ - حاجة ألمانيا الشديدة - فى ذلك الوقت - لمساعدة أمريكا السياسية والاقتصادية وتوسلها لذلك عن طريق إرضاء الصهيونية الأمريكية.

٢ - وجود نوع من التعاطف - عند بعض من يتولون الحكم فى ألمانيا - تجاه اليهود .

وتوقع السفير - فى نهاية التقرير - أن لا تصمد الاتفاقية أمام تفاعل الزمن، وأوضح أنه خلال لقاءاته مع المسئولين الألمان كان يؤكد لهم بأن الحكومة المصرية وسفارتها بصفة خاصة لن تغفل عن مراقبة كل ما تلجأ إليه إسرائيل من الأحابيل فى تنفيذ الاتفاقية(٣٧) .

وبالفعل بدأت الحكومة والمخابرات المصرية فى تتبع سير تطبيق الاتفاقية ، ومن ذلك ما قامت به إدارة المخابرات من تحر عن استلام إسرائيل لأربعة سفن من ألمانيا بموجب اتفاقية التعويضات ، وأن هذا يخالف نصوص الاتفاقية لأن السفن تعتبر من المعدات الإستراتيجية ، وهذا لا يتفق مع ما سبق أن أعلنته الدول الكبرى من ضرورة مراعاة الحياد التام بين البلاد العربية وإسرائيل (٣٨) .

ومحاولة منها لمنع تسرب بضائع التعويضات إلى مصر والدول العربية، سعت مصر من خلال سفيرها فى بون لدى الحكومة الألمانية تطلب منها ضرورة وضع علامة مميزة على المصنوعات التى ترسل إلى إسرائيل كجزء من التعويضات ، واقترحت أن يكتب عليها Made In Germany For Israel حتى يمكن تمييزها عن باقى البضائع والمصنوعات الألمانية العادية(٣٩).

وفى تحريات أخرى قامت بها السفارة المصرية فى بون عن طريق السيد عبد اللطيف فهمى العيسى المستشار فى السفارة خلال لقائه بالدكتور « فوجت » Dr. Voigt رئيس قسم الشرق الأوسط وأفريقيا بوزارة الخارجية الألمانية حول الشائعات التى كانت تثار حول حصول إسرائيل على أسلحة من ألمانيا بموجب اتفاقية التعويضات نفى الأخير تلك الشائعات وأوضح أن اتفاقية التعويضات بها نص صريح يحرم على ألمانيا تزويد إسرائيل بأى نوع من أنواع السلاح بموجب هذه الاتفاقية(٤٠) .

وفى لقائه بوزير الاقتصاد الألمانى إرهاد Erhard أبلغه القنصل العام المصرى رسميا فى ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢ أن مصر - والدول العربية - سوف تقطع علاقاتها الاقتصادية بألمانيا فى حالة التصديق على الاتفاقية ، فإجابة الوزير بأن تصريحه يخالف تصريحات اللواء محمد نجيب خلال لقائه مع السفير الألمانى فى القاهرة ، فأجابه القنصل بأنه تلقى تعليمات جديدة من وكيل الخارجية بالتليفون فى ٢٨ أكتوبر (تشرين أول) تؤيد ما قاله وهى أن اللواء نجيب كان شخصيا ضد

الاتفاقية ، وأن حديثه مع السفير الألماني كان لمجرد الترحيب به لمناسبة وصوله إلى القاهرة(٤١) .

وبمناسبة طرح موضوع مقاطعة ألمانيا اقتصاديا اختلفت الآراء في مصر حول هذا الموضوع ، حيث طالبت بعض الأصوات الدبلوماسية بضرورة مقاطعة ألمانيا اقتصاديا ، لما سببته اتفاقية التعويضات من أضرار معنوية وسياسية لمصر وللعرب جميعا وطالبت بعض تلك الأصوات - المؤيدة للمقاطعة - بضرورة دراسة موضوع المقاطعة من جميع نواحيها ونتائجها قبل الخوض فيها(٤٢) . كما علقت وزارة التجارة والصناعة (مصلحة التجارة الخارجية) على موضوع المقاطعة بأنه يجب دراسة العلاقات الاقتصادية بين العرب وألمانيا جيدا بمعرفة إخصائيين على ضوء حاجة الاقتصاد العربي(٤٣) .

وعلى الجانب الآخر نجد من يحذر وبشدة اتخاذ أى قرار بمقاطعة ألمانيا اقتصاديا . ومن ذلك تلك البرقيات التى وردت إلى الوزارة من السفارة المصرية بنيويورك توضح أن جميع الدول العربية إذا قاطعت ألمانيا لن تفقد هذه الدول شيئا، إذ أنه يكاد ألا يكون هناك تعامل بينها وبين ألمانيا ، هذا بخلاف مصر التى لها معاملات مع ألمانيا أكثر من أى دولة عربية أخرى ، وفى النهاية نبهت تلك البرقيات إلى « أن ألمانيا الغربية تتمتع الآن برخاء اقتصادي ، فقد يكون من المناسب أن نطلب إليها منحنا بعض الامتيازات الاقتصادية نظير ما تقوم بدفعه من تعويضات لإسرائيل » (٤٤) .

وبناء على هذا الرأى لم تأخذ مصر بالرأى القائل بالمقاطعة ، والدليل على ذلك أن العلاقات الاقتصادية بين مصر وألمانيا لم تتأثر بعد اتفاقية التعويضات (*) .

وحينما أثارت سوريا مسألة تحويل بعض أموال التعويضات لحساب لاجئ فلسطين سعت مصر لدى ألمانيا وبعض الحكومات الغربية عسى أن تحصل على

(*) انظر جدول الصادرات والواردات بين ألمانيا والدول العربية . Feldman : op . cit . p.p. 195, 197

موافقتها على ذلك ففى لاهاى سعى السفير المصرى لدى نظيره الألمانى حتى يثير هذه المسألة لدى حكومته . وحينما أرسل السفير الألمانى إلى حكومته فى هذا الأمر أجابت عليه الخارجية الألمانية « بأن الجهات المسئولة فى ألمانيا الغربية ترى أنه ليس من اختصاص السفارة الألمانية بلاهاى البحث مع ممثل الحكومة المصرية فى هذا الموضوع بل هو من اختصاص ممثل مصر لدى حكومة ألمانيا الغربية»(٤٥). وقد قامت مصر بمساعى مماثلة لدى تركيا وفرنسا إلا أنها باءت بالفشل(*) ، أما على الجانب الأمريكى ، والتى رأت الإدارة العربية ضرورة مفاتحته فى أمر تعويض اللاجئين العرب بسبب نفوذ الولايات المتحدة على إسرائيل، وما تفيض عليها به من مساعدات مالية متنوعة ، فقام السفير المصرى فى واشنطن بمقابلة وكيل الوزارة المساعد المختص بشئون الشرق الأوسط فى الخارجية الأمريكية ، وأوضح له وجهة نظر مصر - والدول العربية - فى هذه المسألة ، فكان رده أن الحكومة الأمريكية لا يمكنها من الناحيتين القانونية والدبلوماسية التدخل فى مفاوضات تجرى بين طرفين فى شأن يخصهما ، فذكره السفير المصرى بأن أمريكا سوف تساعد ألمانيا فى دفع هذه المبالغ وتخصيصها لتعويض اللاجئين العرب ، فرد عليه الوكيل المساعد بأن أمريكا سوف تدفع هذه التعويضات عينا - حاصلات ومصنوعات - على آجال طويلة(٤٦) .

وبذلك فشل المسعى المصرى فى إقناع الحكومة الألمانية وبعض الحكومات الغربية فى تحويل جزء من مبالغ التعويضات لحساب اللاجئين العرب ، - وجاءت تلك المساعى - على الرغم من إدراك الحكومة المصرية جيدا باستحالة تحقيق

(*) انظر ذلك المسعى فى : المصدر نفسه نفس المحفظة والملف ، برقية من وكيل وزارة الخارجية (الإدارة العربية)إلى سفير مصر بباريس سرى بتاريخ ١٠ / يونيو ١٩٥٢ م ، رد السفير المصرى بأنقرة على برقية وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ٣ / يونيو ١٩٥٢ م برقم ١٤٨ ، ورد السفير المصرى بباريس (محمد وحيه رستم) على برقية وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ١٧ / ٦ / ١٩ برقم ٤١ .

الغرض منها من النواحي القانونية ، إذ أن ذلك قد يعرض ألمانيا للمطالبة مرة ثانية بالتعويضات إلا إذا وافقت إسرائيل على دفع التعويض المستحق لها إلى جهة أخرى(٤٧) .

وحينما تسربت بعض الأنباء عن تصريف بضائع التعويضات في بعض البلدان العربية عن طريق بلد ثالث كان على الحكومة المصرية أن تعمل على التحرى عن كيفية تصريف تلك البضائع ، فأرسلت الخارجية المصرية إلى نظيرتها الألمانية تستعلم منها عن محاولة إسرائيل تصدير بضائع ألمانيا إلى تركيا ، فردت الحكومة الألمانية عن طريق السفير المصرى فى بون بضرورة أن تكون هذه الوقائع مستندة إلى أدلة ثابتة على وقوع المخالفة ليتيسر للحكومة الألمانية أن تتخذ الإجراءات المناسبة بتوقيع الغرامة المنصوص عليها فى المادة الخامسة على إسرائيل ، ولحفظ البضائع الألمانية فى الأسواق العالمية فى مستواها المعروف دون خلق منافس لها وهو أمر يهم الاقتصاد الألمانى(٤٨) .

وقد ظل موضوع تصريف البضائع فى الدول العربية عن طريق بلد ثالث يشغل بال الحكومة المصرية ، حيث نما إلى علمها أن إسرائيل قد صدرت إلى تركيا سيارات من أموال التعويضات ، وسوف تقوم تركيا بدورها بإعادة تصديرها إلى مصر ، فأرسلت الخارجية المصرية بذلك إلى سفيرها فى أنقرة الذى كلف القنصل العام المصرى فى إستنبول بإجراء التحريات اللازمة فى هذا الشأن ، فجاء تقريره ينفى هذا الخبر ، وأن السيارات التى تستوردها تركيا من إسرائيل هى من السيارات التى يتم تجميعها فى إسرائيل وليست من السيارات الألمانية ، وأن تركيا تستوردها للاستخدام المحلى ، وفى نهاية التقرير أكد القنصل العام «أن إعادة تصدير السيارات الألمانية إلى مصر فكرة بعيدة الاحتمال»(٤٩) .

ويمكن القول ، أن الحكومة المصرية قد ارتاحت لتأكيدات المسئولين فى ألمانيا الغربية بأن تصريف البضائع الألمانية المصدرة إلى إسرائيل إلى بلد ثالث أمر غير وارد نظرا لمخالفته لاتفاقية التعويضات ولأضراره الجسيمة على الاقتصاد الألمانى وهو أمر لا تقبله ألمانيا .

وعقب انتهاء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ م أعلن وزير خارجية ألمانيا الحر (فون برنتانو - Von Brentano) - أثناء نظر العدوان الثلاثى على مصر أمام هيئة الأمم المتحدة - أن ألمانيا سوف تستمر فى دفع التعويضات إلى إسرائيل حتى لو أوصت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتوقيع العقوبات على إسرائيل(٥٠) . وفى ردها على مذكرة الخارجية المصرية ، أعلنت الخارجية الألمانية أنها لا توافق على وجهة نظر السفارة المصرية التى أوضحتها فى مذكراتها بتاريخ ١٩ / ١١ / ١٩٥٦ م بأن النزاع القائم بين الدول العربية وإسرائيل قد يكون له تأثير فى تنفيذ الاتفاقية المبرمة بين الحكومة الألمانية وإسرائيل(٥١) .

ومع إصرار الحكومة الألمانية على دفع التعويضات إلى إسرائيل أوعزت الخارجية المصرية إلى جامعة الدول العربية بأن تطلب من الدول الأعضاء الإيعاز إلى ممثليها فى ألمانيا بتقديم مذكرة احتجاج إلى الحكومة المذكورة لاستمرارها فى دفع التعويضات إلى إسرائيل رغم عدوانها على مصر(٥٢) . ولكن الخارجية الألمانية ردت على مذكرة الدول العربية بعدم قبولها وجهة النظر العربية(٥٣) .

وعلى الرغم من موقف ألمانيا غير الودى تجاه مصر أبان أزمة السويس ، فإن الخارجية المصرية استبعدت نهائيا قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية ، وعللت ذلك بأن دول أخرى اتخذت نفس الموقف ولم تقطع مصر علاقاتها معها ، وأن ألمانيا كان يحركها عامل آخر وهو أنها إحدى الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلسى وارتباط سياستها بعجلة السياسية الغربية، ووازنت الخارجية المصرية بين الفوائد والأضرار التى ستجنى من وراء قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية ، وأن إسرائيل سوف تكون المستفيد الأول من وراء ذلك(٥٤) .

أما فيما يتعلق بموضوع إقامة علاقات دبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل، فقد أعلنت ألمانيا مرارا وتكرارا خلال الخمسينات أنها لن تقيم أى علاقات دبلوماسية مع إسرائيل خشية إغضاب الرأى العام العربى الذى مازال متأثرا باتفاقية التعويضات(٥٥) . وقد أكد الدكتور « فوجت VOIGT » رئيس قسم الشرق فى الخارجية الألمانية لمستشار السفارة المصرية ببون أن القنصلية العامة البريطانية فى حيفا هى التى تتولى نيابة عن ألمانيا الشئون القنصلية الخاصة بها(٥٦) .

وعلى الرغم من تأكيدات المسئولين فى الخارجية الألمانية بعدم تبادل التمثيل الدبلوماسى مع إسرائيل ، إلا أن ذلك لم يغير شيئا من حقيقة اعتراف ألمانيا بإسرائيل ، حيث أكد كبار الفقهاء الألمان فى القانون الدولى أن اتفاقية التعويضات التى وقعت مع إسرائيل ترتب عليها اعتراف واقعى بإسرائيل De Facto (٥٧). وأكدوا على أن الخطوة التالية لهذا الاعتراف هى إنشاء العلاقات الدبلوماسية بين البلدين(٥٨) .

وحينما عرضت مسألة اعتراف ألمانيا بإسرائيل على بساط البحث فى أروقة السياسة العربية ، أثيرت معها مرة أخرى مسألة قطع العلاقات مع ألمانيا ، فكان رأى بعض السياسيين المصريين أن قطع العلاقات مع ألمانيا فيه ضرر كبير على المصالح المصرية ، إذ أنه سيحرم مصر من مصدر كبير لاحتياجاتها ، وسوقا مهمة لمنتجاتها ، فالمصلحة - كما يقول الوزير المفوض المصرى بالسفارة المصرية بواشنطن - تقتضى « أن تغلب الاعتبارات العملية عند بحث موضوع اعتراف ألمانيا بإسرائيل ، لأن أى عمل نتخذه ضد ألمانيا سيكون ضرره علينا أكبر من ضرره على ألمانيا »(٥٩) .

أضواء على القسم التطبيقى :

بعد دراسة موقف مصر من قضية التعويضات على المستويين الجماعى العربى والفردى ، نجد أن مصر قد تعاونت تعاونا طيبا مع باقى الدول العربية من أجل إبطال مفعول هذه الاتفاقية ، أو الحصول على بعضها للاجئين العرب ،

وعلى الرغم من الجهود المشتركة فى تلك القضية إلا أنها لم تؤت ثمارها ، حيث أدرك السياسيون فى ألمانيا أن العرب يقولون ولا يفعلون وهذا ما أكدته بعض المصادر ، فالمستشار الألمانى أديناور Adenauer أدرك أن تهديد العرب بمقاطعة ألمانيا كان عقيما (٦٠) ، ومن ناحية أخرى فإن د . ويسترش Westrich : Dr – الذى كان قد أرسله أديناور إلى القاهرة قبيل التصديق على المعاهدة لمقابلة الزعماء العرب – نصح حكومته عقب عودته من القاهرة بالتصديق على المعاهدة فورا لأنه شعر خلال لقاءاته بالزعماء العرب فى القاهرة أنهم لن يفعلوا شيئا أكثر من تقليل علاقاتهم مع بون (٦١) . وهذا يعنى أن ألمانيا لم تعر معارضة العرب للاتفاقية التفاتا ، وسارت فى تطبيق الاتفاقية بحذافيرها ، بل كانت تعطى لإسرائيل قروضا إضافية طالما أن العرب لن يفعلوا شيئا !

أما موقف مصر منفردة فقد عملت على إتباع سياستين ، إحداهما علنية والأخرى سرية ، فالعلنية جاءت لتعلن رفضها للاتفاق وتهديد من حين لأخر بقطع العلاقات الاقتصادية مع ألمانيا ، بينما جاءت قراراتها غير المعلنة بالعمل على الحصول من ألمانيا على أكبر قدر من الفوائد ، حيث أدركت أن قطع العلاقات – سياسية واقتصادية – مع ألمانيا سوف يضر بمصر ولا ينفعها ويؤثر على التوازن الذى تريد أن تحافظ عليه فى سياستها الخارجية ، أى أن مصر من خلال الموقف الفردى كانت تنظر لمصالحها الاقتصادية والسياسية ، مع القيام فى الوقت نفسه بمجهودات أخرى لمتابعة الممنوعات التى تصدر من ألمانيا لإسرائيل كأسلحة وغيرها ، والقيام بمسعى للحصول على بعض أموال التعويضات لحساب لاجئ فلسطين .

وهنا يبرز سؤال وهو ما السبب فى عدم تحقيق الأهداف العربية تجاه قضية التعويضات ؟

من خلال الدراسة وضح مدى تأثير المقاطعة العربية على إسرائيل من الناحية الاقتصادية ، مما جعل الأخيرة تقوم بإنشاء إدارة خاصة لمواجهة هذه المقاطعة ،

ويرجع السبب فى ذلك أن الدول العربية جميعها الأعضاء وغير الأعضاء فى الجامعة العربية تكاتفت من أجل إنجاح المقاطعة لأن المصلحة العربية اقتضت ذلك ولخطورة ذلك العدو على الجميع على حد سواء وإذا كانت المقاطعة العربية قد كان لها تأثير على إسرائيل بسبب اتحاد موقف الدول العربية ، فإن موقف هذه الدول إزاء ألمانيا لم يحقق نفس النجاح لأن كل دولة من الدول العربية لم تتخذ موقفا موحدا ، بل كانت كل دولة من الدول العربية تنظر إلى الموضوع نظرة فردية ، ماذا ستكسب وماذا ستخسر من الضغط على ألمانيا وقطع العلاقات معها؟

ويقينى أن الاقتصاد هو المحرك الأول للسياسة ، ونحن كعرب نستطيع أن نحقق الكثير من الأهداف عن طريق الضغط الاقتصادى مع دائرة توسيع التعاون الاقتصادى بحيث تشمل كتلة الدول الإسلامية التى يهددها الخطر - إن عاجلاً أو آجلاً - فالعالم العربى والإسلامى من الأهمية الاقتصادية بمكان حيث يستطيع التأثير على مجريات الأحداث السياسية والاقتصادية .



عمان في ٢٥ شعبان ١٣٦٣

الموافق ١٤ اغسطس ١٩٤٤

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة الجليلة المصرية .

يا صاحب الرفعة ،

لقد عاد عبد المنعم بك الرفاعي بما شرح الصدر واثلج الفؤاد كما هو المأمول والمعروف من رفعتكم . وسيحضر دولة رئيس الوزارة الأردنية لحضور اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة ان شاء الله في الوقت المحدد . واتماما للفائدة رأيت أن أبث رفعتكم الذي رأى من حضور فلسطين وتمثيلها في المؤتمر وانه أمر ضروري غاية في الخطورة لأنني اعتقد جازما أن اغفال فلسطين هو اسقاط حق لها يجب ان لا يغفل ، ولذلك كنتم رفعتكم تصرون على هذا التمثيل وتفعلون المعجزات لهذه الغاية بمثل ما كان منكم في المؤتمر العربي بلندن . أما الآن فلي أن اقول بأنه لما وقع الاعتداء الأخير من الصهيونيين على المندوب السامي الموقع تبين بجلاء خطر اليهود على فلسطين وتوثبهم الى ما وراء فلسطين ، واننا بنسبة جوارنا القريب فأن الدعوى الصهيونية تهددنا هنا قبل اي قطر آخر وعليه فأمر حفظ كيان فلسطين وسلامتها هو أمـــر حيوي لشرق الأردن ، واننا أشرنا على حكومتنا بأمر اصدرناه في ان تتخذ ما يجب لتأمين هذا الغرض الشريف وان تذاكر الجهات البريطانية وتعلمها بأن فلسطين هي الخط الأول للدفاع عن شرق الأردن وما وراءها من الأقطار العربية واننا سنتخذ الحيطة اللازمة لسلامة فلسطين بعد أن ادى من الصهيونيين الأمر الى التجاوز على الحكومة ومراكزها وعلى مندوبهـــا السامي وانه مع هذا فأن الأمة العربية لا تغلق الباب متى عرضت عليها التسوية الكافلـــة لفلسطين العربية سلامتها وسيادتها . وفي الحالة هذه ترون رفعتكم أن أمر تمثيل فلســطين في المؤتمر هو بالنسبة الينا في الدرجة الأولى وأن الآراء في شرقي الأردن وفلسطين واحدة في هذه المرحلة القومية ، لذلك استدعيت سعادة القنصل العام لمصر بالقدس ليحمل الى رفعتكم كتابي هذا بالواسطة السريعة الأمينة ولتنوير المسألة اقدم لرفعتكم قائمة بأسماء الذوات الذين ارجو ان تتفضلوا بأرسال كتب الدعوة الى حضراتهم ليحضروا المؤتمر موضحا فيها اسم الحزب الذي ينتمي اليه كل من حضراتهم .

ملحق رقم	١

RÉPUBLIQUE LIBANAISE

الجمهورية اللبنانية

N° عدد

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر

تلقيت دعوتكم الكريمة للاشتراك في اللجنة التحضيرية التي ستنعقد بمصر في اواخر يوليو ـ اغسطس سنة ١٩٤٤ تمهيدا لمؤتمر الوحدة العربية الذي كان لكم فضل الدعوة اليه .

ويسرني ان اجيب رفعتكم بان الحكومة اللبنانية قررت تلبية هذه الدعوة على ان يمثلها في اللجنة رئيس وزرائها ووزير خارجيتها .

وانني انتهز هذه الفرصة لاعرب لرفعتكم عن وافر تقديري للجهود التي تبذلونها في هذا السبيل ومن تمني الكاملة بالنجاح بفضل حكمتكم واخلاصكم

ولقد اسفت اشد الاسف لبقاء الزعيمين الفلسطينيين السيدين جمال الحسيني وامين التميمي في الاعتقال برغم الجهود الكريمة التي بذلتموها لاعادة الحرية اليهما حتى يتمكنا من تمثيل فلسطين العزيزة في هذه الاجتماعات خير تمثيل .

واني لشديد الرجاء ان جهودكم التي لن تنقطع في هذا السبيل ستؤول الى النجاح قريبا باذن الله . على ان غياب فلسطين لن يزيد ممثلي ـ شقيقاتها الا عطفا على قضيتها وتمسكا بحقوقها .

وتفضلوا رفعتكم بقبول جزيل الاحترام ./.

بيروت في ١٥ تموز سنة ١٩٤٤

رئيس مجلس وزراء لبنان

رياض الصلح

ملحق رقم	٢

الامانة العامة

الادارة السياسية

١-٢٠/٢٣/٢ د

القاهرة في ٢٠ ديسمبر ١٩٥٤

٥٥٥٠

١٦

مذكـــــرة

تهدي الامانة العامة لجامعة الدول العربية أطيب تحياتها الى وزارة خارجية جمهورية مصـــــــــر وتتشرف بابلاغها ان مجلس الجامعة وافـــق بجلسة ١١ ديسمبر ١٩٥٤ على التوصية الآتية للجنة السياسية في اجتماعها مــن ٢٠ نوفمبر الى ١١ ديسمبر ١٩٥٤ ، وهي :

* طلب عمان الداخلية الانضمام الى الجامعـــة :

* احيطت اللجنة علما برسالة امام عمان الداخلية ، واوصت بانتظار نتيجة ماتقوم به الامانة العامة مستعينة بالدول الاعضاء من دراسات لامامة عمان . "

وذلك رجاء التفضل بتزويد الامانة العامة بما قد يكون لديها او تقف عليه مـــن بيانات او دراسات او وثائق تعرف بشئون امامة عمان ، او تبين وضعها السياسي .

وتنتهز الامانة العامة هذه الفرصة لتعرب للوزارة الجليلة عن فائق احترامها . . .

الى وزارة خارجية جمهورية مصـــر

القاهرة

قسم جامعة الدول العربية

ملحق رقم ٣



عمان في

وانني اعتقد أن هذا هو الحل الرائق لنا جميعا وان سعادة القنصل العام سيقدم اليكم رجاء خاصا بعد عريضتي هذه كي تتفضلوا بالقيام بتنفيذ ملتمسنا في ارسال كتب الدعوة .

وتفضلوا مقامكم الرفيع بقبول فائق المودة والاحـــــــــترام .

عبد الله بن الحسين

اللجنة التمثيلية الفلسطينية العربية المقترح إيفادها لمؤتمر الوحدة العربية

عوني بك عبد الهادي	عن	حزب الاستقلال
الدكتور حسين فخري الخالدي	"	" الإصلاح
عبد اللطيف بك صلاح	"	" الكتلة الوطنية
راغب بك النشاشيبي	"	" الدفاع
موسى بك العلمي	"	مستقل
يعقوب بك الغصين	"	حزب الشباب
توفيق صالح الحسيني	"	الحزب العربي (نيابة عن [illegible])
رفيق بك التميمي	"	نيابة عن [illegible]
أنطون بك عطا الله فؤاد أفندي سابا	"	الأقليات

وزارة الخارجية

٥٧

سري

٦/١٢١/١٤٠

السيد حامد محمود

مدير مكتب السيد وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية

اتشرف بأن ابعث لسيادتكم رفق هذا صورة من كتاب سفارتنا بالرباط رقم ٢٩٨ سري بتاريخ ١٩٥٧/١٠/٢١ بشأن مشاكل المغرب ومدى المساعدات التي يمكن ان تقدمها مصر والدول العربية الاخرى ٠

والحكومة الحالية في المغرب اغلب اعضائها من حزب الاستقلال ، وهي ترى تصفية مشاكلها المعلقة مع فرنسا وأسبانيا وذلك بالمفاوضة المستمرة البعيدة عن سياسة العنف ٠

وقد قامت مفاوضات بين المغرب وفرنسا بشأن توفير احتياجها المغرب تبلغ حوالي مائة مليار من الفرنكات لمدة ثلاثة اعوام ٠ وتضغط فرنسا على المغرب لكي تفوز بامضاء معاهدة الاستيطان التي تكسب ما استولى عليه الفرنسيون من اراضي زراعية — صبغة قانونية ٠

وقد حصل المغرب في اوائل عام ١٩٥٧ من فرنسا على قرض حوالي ١٥ مليار من الفرنكات وعلى التزامات باربعة مليارات ٠ هذا بخلاف المعونة الامريكية وهي ٢٠ مليون دولار قرض و ٥٠ الف طن هبة ٠

والمغرب يسير على سياسة قريبة مع مبادلة الشعوب العربية الود تقديرا لمساعدتهم اليه في دفاعه عن قضيته ، وهذا هو رأي الحكومة الحالية الا ان الشعب والمعارضة يقفان متوفزي الايدي من الناحية الاخرى ٠

وقد ظهرت حركة بين بعض المتذمرين من هذه السياسة وهي (حركة التكتل الشعبي) الا انها اخذت بالشدة ٠

ولما كان الكادر الفني في المغرب جله من الفرنسيين فان مصر والبلاد العربية يمكنها أن تتعاون في طرد هذا الكادر الفرنسي واحلال العرب من الفنيين محله ٠ ولكن يظهر ان المغرب يعتمد على الفرنسيين مؤقتا حتى يتعلم ابنائه بمعاونة العرب ٠ فلا بأس من اسداء المعاونة لهم بكل وسيلة ممكنة ٠

اما اذا اريد الاتجاه بالبلاد الى السياسة العربية التي ينشدها الشعب المغربي فلا بد من القيام بعمل ايجابي وذلك بمناصرة جميع العناصر المؤيدة لهذا الاتجاه ٠

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،،،

وكيل الوزارة المساعد

١٢/١

ملحق رقم ٤

الهــوامش

(١) د .وحيه عتيق : السياسة الدولية وخفايا العلاقات المصرية / الألمانية ٥٢ - ١٩٥٦ م (دار النهضة العربية - ١٩٩١ م) ص . ص ٢١ - ٢٢

(2) Feldman, Lily Gardner : The Special Relationship Between West Germany And Israel (George Allen & Unwin 1st ed 1984) P. 89.

(٣) وثـائق الخارجيـة المصريـة : محفظـة ٣٩٩ - ملـف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٤ (حجـز التعويضات التي تطلبها إسرائيل مـن ألمانيـا لحساب لاجئ فلسطين) مـن القنصـل العـام المصرى بفرانكفورت (حسـن سليمان) إلى وكيل وزارة الخارجية بتـاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٣ م برقم ٨٢ بتاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٣ م عاجل جداً .

(٤) أحمد السيد النجار : بناء دولة -دور المساعدات الخارجيـة لإسـرائيل (٤٨ - ١٩٩٦) (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القـاهرة - ١٩٩٨ م ، ص.ص ٤٩ - ٥١ .

(٥) انظر لقاء برنتانو وعبد الخالق حسونه أمين عام الجامعة العربية في مايو ١٩٦١ م في :
British Embassy, Cairo to Dept. May 20, 1961. (Burdett, Anita-ed.) The Arab League " British Documentary Sources 1943 - 1963 " Archive ed . 1995, Vol. 10, P . 446 .

(٦) انظر في ذلك : وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٦ ملـف ١٤٠ / ١٤٠ / ٧ (الـدورة السادسة لجامعة الدول العربيـة - مـارس ١٩٤٧ م - قـرار سـرى مرفـق برسـالة الأمانـة العامة لجامعة الدول العربية إلى وزير خارجية المملكة المصرية ، بتاريخ ١٧ جمـادى الأولى ١٣٦٦ هـ ٩ إبريل ١٩٤٧ م .

(٧) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج١ / حجـز التعويضـات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين « رسالة من الوزير المفوض المصرى بدمشق (حسين عزيز) إلى وكيل وزارة الخارجية » ، سرى بتاريخ ٢ / ٣ / ١٩٥٢ م .

(٨) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٢« حجـز التعويضـات التي تطلبها إسـرائيل مـن ألمانيـا لحساب لاجئ فلسطين » مذكـرة مـن القنصـل العـام بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجيـة سـرى جـدا بتـاريخ ٥ / ٩ / ١٩٥٢ م برقـم ٦ سرى .

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) انظر هذه المقترحات كاملة فى : وثائق الخارجية المصرية ، محفظة ٣٤٥ الملف السابق ، من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « تقرير عن محادثات مندوب خاص الحكومة السورية مع الحكومة الألمانية بشأن تعويضات ألمانيا الغربية لإسرائيل واليهود ومقترحات فىهذا الشأن» سرى وعاجل بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٥٢م.

(١١) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية ، سرى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٥٢ م .

(12) Feldman : op. cit., p 79.

(13) Deutschkron, Inge : Bonn and Jerusalem "the strong coalition" (Chilton Book Company, Philadelphia, N.y ., London, 1st ed . 1970) P. 79

(14) Ibid : P . 81 & Feldman : op . cit . P . 79

(١٥) وثائق الخارجية المصرية : محفظة رقم ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٢ . تقرير من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « وصول وفد الجامعة العربية » سرى بتاريخ ٢٤ / ١٠ / ١٩٥٢ م .

(١٦) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ ، مذكرة من وكيل وزارة الخارجية إلى حضرة القائم بالأعمال المصرى بالسفارة الملكية بطهران سرى جدا بتاريخ نوفمبر ١٩٥٢ م .

(١٧) المصدر نفسه ، نفس الملف . مذكرة من مدير إدارة الصحافة إلى إدارة المحفوظات بوزارة الخارجية - مرفق بها مذكرة اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية - مرسلة إلى حكومة الجمهورية الاتحادية الألمانية . بتاريخ ١٦ / ١١ / ١٩٥٢ م.

(18) Deutschkron : Op. Cit. p.p. 80 - 81 .

(١٩) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٩٩ ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٤ «حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من وزارة الخارجية المصرية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية - عاجل مع مخصوص - بتاريخ ٣١ / أغسطس ١٩٥٣ م .

(٢٠) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » تقرير من السفير المصرى ببون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١٨ / ١ / ١٩٥٤ م برقم ٨ سرى .

(٢١) المصدر نفسه - نفس الملف .مذكرة من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية (إدارة فلسطين) إلى وزارة خارجية جمهورية مصر العربية بشأن نص قرار الجامعة فى جلسته الثامنة من دورة انعقاده العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م.

(٢٢) المصدر نفسه - نفس الملف . مذكرة من الأمانة العامة لـ ج.د.ع. إلى وزارة خارجية جمهورية مصر سرى وعاجل بتاريخ ١٦ / ٩ / ١٩٥٤ م.

(٢٣) المصدر نفسه - محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٦ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة من إدارة الشئون الاقتصادية بوزارة الخارجية - إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٧ / ١٠ / ١٩٥٤ م .

(٢٤) المصدر نفسه : محفظة ١٢٨٥ ملف ٣ / ١ / ٤ سرى قرارات اللجنة السياسية ولجنة الشئون السياسية بتاريخ ١٤ / أكتوبر ١٩٥٥ م (سرى جدا وغير قابل للنشر) .

(٢٥) المصدر نفسه - محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٧ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » ، مرفق بمذكرة الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية إلى مكتب الرئيس للشئون السياسية ومدير إدارة شئون فلسطين بوزارة الحربية برقم ١٣٣٥، ٥٨٥ سرى .

(٢٦) المصدر نفسه - نفس المحفظة والملف ، مذكرة من الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية - بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٥٦ م .

(٢٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٥ ملف ١٤٠/٤٨/٢٨ ج٨ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة بشأن اجتماع المبعوثين الدبلوماسيين العرب فى بون ، مرفقة بكتاب المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل إلى وكيل وزارة الخارجية برقم ٥٧/٣٤٧ سرى بتاريخ ٨ / ١٠ / ١٩٥٧ م .

(٢٨) المصدر السابق نفس المحفظة والملف والتقرير .

(٢٩) المصدر نفسه : محفظة ٨٢٢ ملف ١٤٠ / ١٤٠ - ٣١ « الوحدة الاقتصادية لبلاد الجامعة العربية » قرارات ممثلى الدول العربية فى بون - ملحق الجلسة الثانية بتاريخ ١٤/ مايو ١٩٥٧ م .

(٣٠) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية « إدارة فلسطين » إلى وزارة خارجية مصر العربية ، بشأن نص قرار الجامعة فى جلسته الثامنة من دور انعقاده العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م بشأن التعويضات الألمانية لإسرائيل .

(٣١) المصدر نفسه : محفظة ١٢٨٥ ملف ٣ / ١ / ٥ سرى (هيئات ومنظمات دولية وإقليمية - الجامعة العربية - قرارات المجلس الاقتصادى) مذكرة بقرارات المجلس الاقتصادى التى اتخذها فى دور انعقاده العادى الثانى - ديسمبر ١٩٥٤ م برقم (م/ق/د/٢) سرى .

(٣٢) المصدر نفسه : نفس المحفظة ملف ١٤٠ / ١٢٣ / ١٢ ج١١ ، مذكرة من وكيل الخارجية (إدارة الشئون الاقتصادية) إلى المشرف العام على المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل ، بتاريخ ٨ مارس ١٩٦٠ برقم ١٤٠ / ١٢٣ / ١٢ م.

(33) Deutschkron : op. cit . P . 75 .

(٣٤) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٢ (حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة بشأن التعويضات التى تطالب بها إسرائيل ألمانيا الغربية أعدتهما الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٢٣ / ٩ / ١٩٥٢ م .

(٣٥) نفس المصدر والمحفظة والتقرير .

(٣٦) المصدر نفسه : نفس المحفظة والتقرير .

(٣٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٦ (تعويضات إسرائيل من ألمانيا) مذكرة من السفير المصرى فى بون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١١ / يناير ١٩٥٤ برقم ٥ سرى .

(٣٨) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٧ مذكرة من مدير مكتب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة « صاغ أمين شاكر » . إلى وزير الخارجية سرى جدا بتاريخ ١٣ / ٧ / ١٩٥٤ م برقم ٦ / ٧ - ٤٠٢٧

(٣٩) المصدر نفسه ، نفس المحفظة ، ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ (تعويضات إسرائيل من ألمانيا وحجزها لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة من وكيل الخارجية (قسم الأبحاث) إلى سفير مصر ببون - بتاريخ ١٩٥٤ م .

(٤٠) المصدر نفسه ، محفظة ٦٨٤ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ١٧ ج٧ « النشاط الصهيونى» مذكرة من السفير المصرى ببون (أحمد جلال الدين عبد الرازق) إلى وكيل وزارة الخارجية (إدارة غرب أوروبا - إدارة الشئون العربية) بتاريخ ٢٢ / يناير ١٩٥٨ م برقم ١٣ سرى جدا .

(٤١) المصدر نفسه : محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٣ (حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة من القنصل العام المصري بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٢/١١/١ م برقم ٢٠ .

(٤٢) انظر في ذلك : محفظة ٣٧٢ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٦ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا» مذكرة من السفير المصري ببون إلى وكيل وزارة الخارجية - سري بتاريخ ١٩٥٤/١/١١ م برقم ٥ سري ، محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٤ « حجز التعويضات التي تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من الملحق الصحفي بفرانكفورت « كمال الدين جلال » إلى وكيل الخارجية - بتاريخ ١٩ / ٣ / ١٩٥٣ م برقم ٨٣ سري .

(٤٣) المصدر نفسه : محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ مذكرة من وزارة التجارة والصناعة (مصلحة التجارة الخارجية - إدارة الاتفاقات التجارية) إلى وكيل وزارة الخارجية للشئون الاقتصادية بتاريخ ١٢ / ٣ / ١٩٥٦ م برقم ١/١١٢/١٣٢ .

(٤٤) المصدر نفسه محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ ، برقيتان رمزيتان رقم ٩ ، ١٠ من السفارة المصرية بنيويورك صادرتان في ٢ / ١١ / ١٩٥٢ م.

(٤٥) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج١ برقيات من الوزير المفوض المصري بلاهاي إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٢ م سري برقم ٤٦ سري ، وتاريخ ٢٧ / ٣ / ١٩٥٢ م سري برقم ٥٠ سري ، وبتاريخ ١٩٥٢/٥/١٦ م سري ، برقم ٧٥ سري ، برقية من وكيل وزارة الخارجية إلى وزير مصر المفوض بلاهاي سري بتاريخ ١٩ / ٤ / ١٩٥٢ م .

(٤٦) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة أعدتها الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٢٠ / ٥ / ١٩٥٢ م ومذكرة من السفير المصري بواشنطن إلى وكيل وزارة الخارجية (الإدارة العربية) سري بتاريخ ٢ / ٧ / ١٩٥٢ م برقم ٦٩ سري .

(٤٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ مذكرة من مستشار الدولة « وحيد رأفت » إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « التعويضات التي تنوي ألمانيا دفعها لإسرائيل بتاريخ ١٧ / ١١ / ١٩٥٢ م » .

(٤٨) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ مذكرة من السفير المصري ببون إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « تصدير بضائع ألمانية مخصصة لإسرائيل إلى بلد ثالث » سري بتاريخ ١٦ / ١٠ / ١٩٥٤ م برقم ٨٩ سري .

(٤٩) نفس المصدر والمحفظة والملف : من وكيل الخارجية إلى سفير مصر بأنقرة سرى وعاجل بتاريخ ٩ / ٣ / ١٩٥٤ م ، ومن السفير المصرى بأنقرة (أحمد حقى) إلى وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ١٢ / ٤ / ١٩٥٤ م برقم ٤٤ سرى .

(٥٠) نفس المصدر : محفظة ٣٩٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٨ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » من السفير المصرى ببون « أحمد جلال الدين عبد الرازق » إلى وكيل وزارة الخارجية « بشأن التعويضات الألمانية لإسرائيل » سرى بتاريخ ١٩٥٧/٥/٣م برقم ٥٥ سرى.

(٥١) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من وزارة الخارجية الألمانية إلى السفارة المصرية ببون بتاريخ ٢١ / ديسمبر / ١٩٥٦ م برقم ٢٠٦ / ٢٤٤ / ١٣ .

(٥٢) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من الإدارة العربية بوزارة الخارجية إلى السيد السفير الوكيل المساعد للشئون السياسية بوزارة الخارجية - بتاريخ ١٩٥٧/٢/٧م.

(٥٣) نفس المصدر والمحفظة والملف والتقرير .

(٥٤) نفس المصدر والمحفظة : ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٩ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة أعدتها إدارة غرب أوروبا بوزارة الخارجية برقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ م ردا على مذكرة الطلبة العرب فى ألمانيا الشرقية بتاريخ ٢٨ / يناير / ١٩٥٨ م .

(٥٥) نفس المصدر ومحفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧ / ٤٠ / ١٠ ج٤ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مذكرة من وكيل الخارجية للشئون السياسية إلى مدير مكتب الرئيس للشئون السياسية .

(٥٦) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من السفارة المصرية ببون إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٧ / يوليو ١٩٥٧ م برقم ١٢٨ سرى جداً .

(٥٧) نفس المصدر ومحفظة ١٥١٢ ملف ٣٠ / ٤٥ / ١٨ « شكاوى الشركات الأجنبية ضد هيئة إدارة القنال » مذكرة أعدها مدير إدارة غرب أوروبا « محمد شفيع » بشأن « مقابلته لدكتور موتزل السكرتير الأول لسفارة ألمانيا الغربية بالقاهرة » سرى بتاريخ ١٩٥٧/٦/٢٣ م .

(٥٨) نفس المصدر : محفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧ / ٤٠ / ١٠ ج٤ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مذكرة أعدتها الإدارة السياسية بوزارة الخارجية بشأن « اعتزام حكومة ألمانيا الفيدرالية إنشاء علاقات دبلوماسية مع إسرائيل » بتاريخ أكتوبر ١٩٥٧ م . وجدير بالذكر أن العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل قد عقدت فى عام ١٩٦٥ م .

Feldman : cip, cit, P. 48, Note .

(٥٩) نفس المصدر والمحفظة : ملف ٣٧/٤٠/١٠ جـ٥ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مرفق بتقرير السفير المصرى بواشنطن «أحمد حسين » إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «احتمال اعتراف ألمانيا الغربية بإسرائيل » سرى بتاريخ ٣٠ / سبتمبر / ١٩٥٧ م برقم ٢١٤ .

(60) Feldman : op. cit . P . 196 .

(61) Deutschkron : op. cit . P . 87 .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

وثائق الخارجية المصرية :

- محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ جـ٢/جـ٣ «حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين »
- محفظة ٣٧٢ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ جـ٦ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا»
- محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ جـ٨ ، جـ٩ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا »
- محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ جـ٤ ، جـ٥ ، جـ٧ «حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين».
- محفظة ٦٨٤ ملف ١٧/٤٨/١٤٠ جـ٧ «النشاط الصهيوني ».
- محفظة ٧٤٦ ملف ٧/١٤٠/١٤٠ .
- محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ جـ١ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » .
- محفظة ٨٢٢ ملف ٣١/١٤٠/١٤٠ «الوحدة الاقتصادية لبلاد الجامعة العربية».
- محفظة ١٢٨٥ ملف ٣/١/٥ سرى .
- محفظة ١٢٨٥ ملف ١٢/١٢٣/١٤٠ جـ١١ .
- محفظة ١٤٧٩ ملف ١٠/٤٠/٣٧ جـ٤ ، جـ٥ « الاعتراف بدولة إسرائيل ».
- محفظة ١٥١٢ ملف ١٨/٤٥/٣٠ « شكاوى الشركات الأجنبية ضد هيئة إدارة القنال » .

وثائق أجنبية منشورة :

- The Arab League « British documentary sources 1943-63 » Archive ed. 1995 . vol. 10.

ثانيا : المراجع :

مراجع عربية :

- أحمد السيد النجار : بناء دولة - دور المساعدات الخارجية لإسـرائيل ٤٨-١٩٩٦م « مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القاهرة - ١٩٩٨ م »

- د . وجيه عتيق : السياسة الدوليـة وخفايـا العلاقـات المصريـة / الألمانيـة ٥٢ - ١٩٦٥ م « دار النهضة العربية ١٩٩١ م »

- د . يونان لبيب رزق : الخارجية المصريـة ١٨٢٦ - ١٩٣٧ م « الهيئـة المصريـة العامة للكتاب ١٩٨٩ م »

مراجع أجنبية :

- Deutschkron, inge: Bonn and Jerusalem "the strong coalition" "Chilton book company Philadelphia N . Y, London 1st ed . 1970" .
- Feldman, Lily Gardner : the special relationship between west Germany and Israel " George Allen unwin 1st ed . 1948"

ثالثا : دوريات :

عربية :

- جريدة أريف الأرمينية « الملحق الشهرى العربى العدد الخامس مـايو ١٩٩٨ م» مقال عن « ملامح تطور وزارة الخارجية المصرية » إعداد د . صفاء شاكر .

- جريدة القراءة للجميع - تصدرها الهيئة العامة لدار الكتـب والوثـائق القوميـة - السنة الثالثة العدد الثالث - الأحد ٢١ / ٦ / ١٩٩٨ م

أجنبية :

- Middle East Journal Outonn, 22 dec. 1957 vol. 11 no 1

عرب الخليج فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية
ويوميات جمبرون لشركة الهند الشرقية الإنجليزية

د. محمد مرسى عبد الله(*)

أولاً : ظهور وثائق شركة الهند الهولندية والإنجليزية :

يعتبر تكوين هذه الشركات مرحلة جديدة فى تاريخ أوربا فهى شركات سرعان ما أصبح لها أسطول وجيش إلى جانب المراكز التجارية ونشاطها التجارى. وكانت هذه الشركات مخولة لتمثيل بلدها فى عقد الاتفاقيات الاقتصادية والسياسية مع الدول الآسيوية . وكان نشاطها هذا نواة تكوين الإمبراطورية الهولندية والبريطانية فى مياه المحيط الهندى .

تأسست شركة الهند الهولندية عام ١٦٠٢ وهى مؤسسة كبيرة وتسمى رسمياً شركة الهند الشرقية المتحدة V. O. C. وهى وليدة اتحاد فدرالى لست شركات تجارية تمثل المقاطعات الهولندية المتحدة وقد قام بها سياسيون هولنديون فى ذلك العام .

وتوجهت سفن هذه الشركة ورجالها نحو أندونيسيا وأسست لها فى عام ١٦١٩ مدينة أوربية فى قرية جاكرتا بجزيرة جاوة وسميت بتافيا وأصبحت بتافيا المقر الرئيسى للشركة ويقيم فيها الحاكم العام .

وسرعان ما نشأ لهذه الشركة مؤسسات فى كثير من المواقع مثل كولومبو ومالابار وكيبتون والبنغال . ومنها مؤسسة فى بندر عباس عام ١٦٢٣ . وكان من المتوقع أن يشارك الهولنديون فى حملة الشاه عباس ضد موقع البرتغاليين فى جزيرة هرمز والجسم ولكن سبقهم بذلك الإنجليز وتطور مبنى الوكالة الهولندية فى

(*) مدير مركز الوثائق والدراسات أبو ظبى

أواخر القرن السابع عشر إلى فندق يحيط به ساحة المكاتب وورش العمال ووحدات سكنية ومخازن للبضائع والأسلحة والمؤن وقطع غيار السفن ومعداتها . ثم بنى مجمع عسكرى أواخر القرن خارج المدينة وبه مرسى آمن .

وفى عام ١٧٥٠ انتقل مقر وكالة الشركة الهولندية فى الخليج إلى البصرة وظلت هنالك حتى عام ١٧٥٥ ثم انتقلت بعد ذلك إلى جزيرة خارج بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ . ورحل الهولنديون نهائياً عن الخليج فى عام ١٧٦٦ .

أما شركة الهند الشرقية الإنجليزية فقد تأسست عام ١٦٠٠ . وتوجهوا إلى أندونيسيا أيضاً . ولكن طردهم منها الهولنديون . وحصلت الشركة على فرمان تأسيس وكالة لها فى جاسك عام ١٦١٦من إمبراطور المغل فى الهند . ونشأت ٧ مراكز أخرى فى داخل إيران فى شيراز وأصفهان فى عام ١٦١٧ وتعاونت بحرية الشركة مع الشاه عباس فى احتلال جزيرة الجسم وطرد الحامية البرتغالية من هرمز. وكافأهم الشاه بإعطائهم وكالة فى جمبرون التى سرعان ما سميت بندر عباس .

وهنا بدأت تظهر لنا وثائق الشركة الإنجليزية المعروفة باسم وثائق جمبرون وامتدت فترتها حتى عام ١٧٦٣ بعد أن قررت شركة الهند الشرقية الإنجليزية التخلى عن موقعها فى بندر عباس بعد أن حطمت مبنى الوكالة البحرية الفرنسية علم ١٧٥٩ وانتقل مقر الوكالة إلى البصرة ثم استقر فى بوشهر عام ١٧٦٣ واستمر هنالك المقر الرئيسى للنشاط البريطانى فى الخليج حتى عام ١٩٤٧ .

ثانياً : أحداث القرن السابع والثامن عشر فى الخليج :

هذه الفترة غنية بالأحداث والتطورات فى دول الخليج . فى إيران بدأ القرن السابع عشر بوجود الشاه عباس الذى نقل مقر الحكم من تبريز إلى أصفهان وتعاون مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى القضاء على مقر النفوذ البرتغالى فى

هرمز عام ١٦٢٢ . وبدأ النفوذ البريطاني والهولندى التجارى يحل مكان النشاط البرتغالى حتى اختفى تماماً فى نهاية القرن السابع عشر الوجود البرتغالى فى المنطقة.

كما شاهد هذا القرن استمرار ضعف نفوذ الدولة العثمانية فى العراق والحسا وقد استقلت إمارة عائلة أفرسياب فى البصرة التى استقلت بها منذ عام وسقطت هذه العائلة عام .

وفى عمان ظهرت دولة اليعاربة التى لعبت دوراً كبيراً منذ عام ١٦٢٤ فى تحرير عمان من النفوذ البرتغالى وسقطت قلاع مسقط فى يدهم عام ١٦٥٠ . وأصبح لهذه الدولة أسطول كبير وهاجمت مواقع البرتغال الباقية فى الخليج وعلى ساحل أفريقيا الشرقى وقضت عليهم .

وفى إقليم الحسا كان ظهور إمارة بنى خالد فى عام . واستمرت هذه الإمارة تسيطر على أحداث الحسا حتى سقوطها على أيدى الوهابيين فى عام ١٧٩٦ .

وشهد القرن الثامن عشر الكثير من التغيرات التاريخية مثل :

- سقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ على يد محمود الأفغانى وقبائل الأفغان وعاشت إيران فى حالة من الفوضى حتى استعاد النظام فيها نادر شاه بين عام ١٧٣٠ وعام ١٧٤٧ . ثم سادت الفوضى ثانية حتى اقام فى بلاد فارس كريم خان زند بين عام ١٧٥٩ وعام ١٧٧٩ لوناً من الاستقرار والأمن وكانت عاصمته شيراز . وفى نهاية القرن قامت قبيلة قاجار بالسيطرة على الحكم فى تبريز ونشرت نفوذها فى كل أنحاء إيران عام ١٧٩٦ .

- ظهور الحركة الوهابية فى قلب نجد وسيطرتها على الدرعية عام ١٧٤٥ وانتهى هذا القرن بفرض هذه الدولة لنفوذها على الحسا عام ١٧٩٦ ودخلت

قواتها قطر . كما بدأت نشاطها فى عمان عام ١٨٠٠ . وبدأت تتجه إلى السيطرة على إقليم الحجاز حيث مكة والمدينة منذ عام ١٨٠٥ .

• أما فى عمان فقد سقطت دولة اليعاربة . وحدث انقسام بين قبائل عمان بين عام ١٧١٨ وعام ١٧٢٨ . ثم كانت غزوة نادر شاه لعمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ التى أدت إلى ظهور الإمام أحمد بن سعيد الذى حرر مسقط وصحار من الفرس . وأقام دولة البوسعيد . ولكن ظهر فى نفس الوقت قيادة لقبائل الشمال تحت قيادة الزعيم رحمة بن مطر القاسمى الذى استقل بإقليم الشميلية والظاهرة فى عمان وأنشأ إمارة القواسم .

• كما شاهد هذا القرن جذور قيام الإمارات العربية فى الخليج . إمارة آل صباح فى الكويت وإمارة آل خليفة فى شمال قطر والبحرين . ووضعت النواة الأولى لاستقلال قطر تحت حكم آل ثانى فى القرن التاسع عشر أما فى ساحل عمان الشمالى فقد قام هنالك حلفان كبيران حلف القواسم وعاصمته مدينة رأس الخيمة التى قامت على أنقاض ميناء جلفار . وكان للقواسم زعامة على القبائل العربية على الساحل الإيرانى وتكونت لهم إمارة هنالك فى ميناء لنجة . كما قام أيضاً فى ساحل الإمارات حلف بنى ياس الذى اتخذ من مدينة أبو ظبى عاصمة له .

• هذه هى الأحداث الهامة فى منطقة الخليج خلال القرنين السابع والثامن عشر وهذه الفترة تعاصر حدثاً كبيراً فى الخليج وهو نشأة وجذور الإمارات العربية على الساحل العربى . ماذا تضيف لنا وثائق جمبرون أى وكالة بندر عباس الإنجليزية وكذلك وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية من جديد عن عرب الخليج الذين جاء القليل عنهم فى المخطوطات العمانية ؟

ثالثاً : أضـواء جديـدة عن عـرب الخليـج فـى الوثـائق الهولنديـة والبريطانية :

كيف تحولت قبائل إقليم الظاهرة وفى منطقة الظفـرة وليوا فـى عمـان مـن قبـائل بدويـة إلى أحـلاف سياسـية وإمـارات وكيـف استقلت عـن جسـد دولـة آلبوسعيد فى منتصف القرن الثامن عشـر ؟ لا تسـعفنا المخطوطـات العمانيـة فـى تاريخ هذه الفترة بمعلومات كثيرة عن هذا الموضوع وكل ما جاء عنه جمل متنـاثرة هنا وهناك لا تكفى لتكوين صورة عن الظـروف التاريخيـة التـى نشـأ فيهـا حلـف القواسم وحلف بنى ياس . ومن هم زعماء هذه الأحلاف وما هـى سيرتهم ؟ إن هذه الإمارات تشكل اليوم دولة الإمارات العربية المتحدة . كمـا نتج عـن هجـرة القبائل العربية المعاصرة لهذه الأحلاف قيام إمارة آل صباح فى الكويت وقيام إمارة آل خليفة فى البحرين .

وكان لابد مـن البحـث عـن أضـواء ومصـادر جديـدة للإجابـة علـى هـذه الأسئلة لهذا قام مركز الوثائق والدراسات . وعمله الرئيسـى البحـث عـن المصـادر الجديدة فـى تـاريخ الخليـج بعمـل مشـروعين كبيرين منـذ عشـرين عامـاً . الأول التعرف على وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية المحفوظة فى لا هـاى . علـى أمـل ترجمة هذه الوثائق إلى اللغة الإنجليزية والعربية وقد قام بجمع هـذه الوثـائق للمركـز الدكتور سلوت نائب مدير الأرشيف هنالك . وبعد مرور هذه السـنوات الطويلـة على فهرسة هذه الوثائق . وبسبب صعوبة قراءة لغة هـذه الوثـائق الهولنديـة وهـى مكتوبة فـى فـترة متقدمـة حتـى ليصعـب علـى أبنـاء هولنـدا إلا المتخصـص منهـم قراءتها. فكر المركز فى تكليف الدكتور سلوت بعمل دراسة عن عرب الخليـج فـى الفترة ما بين عام ١٦٠٢ وعام ١٧٨٤ . ونشرت هـذه الدراسـة باللغـة الإنجليزيـة عام ١٩٩٣ كما ترجمها المجمع الثقافى فى أبو ظبى إلى اللغة العربية . وفى رأيـى أن

هذا من أكبر الإنجازات التى حققها المركز فى عمله خلال هذه السنوات . وقد اضافت لنا هذه الوثائق معلومات طيبة جديدة عن عرب الخليج . وسوف نرى مثالاً لذلك دراستنا عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمي مؤسس حلف القواسم .

وتعتبر وثائق شركة الهند الشرقية الإنجليزية ووثائق حكومة الهند البريطانية التى ورثت عملها من المصادر الجديدة الهامة فى تاريخ الخليج الحديث إذ هى تشمل الفترة من عام ١٦٢٢ وحتى عام ١٩٤٧ . وقد عاشت الوكالة فترتها الأولى فى جمبرون وهى بندر عباس بين عام ١٦٢٢ وعام ١٧٦٣ . فهى بذلك قريبة من أحداث عمان بصفة خاصة وتلقى هذه الوثائق الضوء على هذه الفترة المبكرة من تاريخ حلف القواسم وحلف بنى ياس . وهذه الوثائق محفوظة فى أرشيف الوكالات فى مكتبة حكومة الهند فى لندن . كما أن الجزء الأكبر منها محفوظ فى ارشيف بومباى فى الهند فى مجموعة G/29 تحت عنوان فارس وخليج فارس وتسمى وثائق الوكالات . لم تحفظ أوراق هذه الوكالة فى جمبرون بل أرسلت إلى سورات ولندن بين عام ١٦٢٢ - ١٦٨٠ ثم بعد ذلك أرسلت إلى بومباى مقر الشركة الرئيسى فى غرب الهند . ويبدو ان وثائق هذه الوكالة قد فقد أغلبها أثناء تحطيم مدفعية الأسطول الفرنسى لمبنى هذه الوكالة فى بندر عباس عام ١٧٥٩ . وكان انتقال مقر الشركة عام ١٧٦٣ إلى بوشهر خيراً للتاريخ . لأن الشركة الإنجليزية هنا وكذلك الشركة الهولندية التى انتقلت بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ إلى جزيرة خارج فى شمال الخليج استطاعت أن تتعامل مع البصرة والعرب الوافدين الجدد فى الكويت من آل صباح . وسجلت لنا معلومات مفيدة عن هذه الإمارة .

ومن ضمن مجموعة وثائق بندر عباس التى انقذت من قذائف الأسطول الفرنسى عام ١٧٥٩ مجموعة تسمى رسائل مبكرة من فارس ورقمها G/29/1 وتشغل الفترة من ١٦١٩ - ١٦٩٧ . ويوميات جمبرون وتشمل الأجزاء من

الثانى إلى الرابع عشر وتشغل الفترة من ١٧٠٨ وحتى عام ١٧٦٣ . وهنالك مجموعة رسائل وملحقات من بندر عباس وتشمل الجزء ١٥ إلى السابع عشر وتشغل الفترة من عام ١٧٠٤ وحتى عام ١٧٦٣(١) .

وقراءة يوميات جمبرون وأوراق الشركة الإنجليزية فى تلك الفترة أمر فى غاية الصعوبة بسبب تهالك الأوراق من جراء الرطوبة فى الخليج وفى ميناء بومباى . وهى مكتوبة بخط اليد . ولغتها قريبة من لغة عصر شكسبير . وتحتاج قراءتها مرانا طويلاً . وقد قام مركز الوثائق والدراسات فى أبو ظبى منذ سنوات بإرسال ستة من الباحثين عام ١٩٩٥ لمدة شهرين لحصر المتيسر الموجود فى أرشيف بومباى وتصويره . وجاء ذلك فى ٢٢ ميكروفيلم كل فيلم حوالى ألفى صفحة . وجرى خلال عامين قراءة هذه الوثائق وفهرستها . وأعيد طباعة هذه الرسائل بالكمبيوتر لتسهل قراءتها واستخرجت من هذه المجموعة الموضوعات المختلفة ومنها الرسائل واليوميات التى تهم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى .

ماذا تقول الوثائق الهولندية والوثائق البريطانية عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمى ؟

رابعاً : رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم :

القواسم هم العائلة أو القبيلة التى ينتسب إليها فى إيامنا هذه العائلة الحاكمة فى كل من إمارتى الشارقة ورأس الخيمة . وقد تزعمت هذه العائلة من قبائل ساحل عمان وأرض الظاهرة وساحل الشميلية على خليج عمان فى بداية القرن الثامن عشر ، واعتبرت التقارير البريطانية فى وكالة جمبرون (بندر عباس) وهى حديثة العهد يومذاك فى التعامل مع عمان كل القبائل المتحالفة مع هذه العائلة أفراداً فى قبيلة واحدة تسكن هذه المنطقة وتسمى القواسم . وذاع اسم القواسم

فى التاريخ الحديث لجنوب شرقى الجزيرة العربية إذ تزعمت هذه العائلة بقيادة الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حلف القبائل الغافرية فى ساحل عمان أول نشأة دولة ألبوسعيد وأنشأت لها إمارة مستقلة عاصمتها رأس الخيمة .

كما ذاع اسم القواسم فى بداية القرن التاسع عشر لظهور نزعة المغامرة لديهم واعتناقهم مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وترصدهم لسفن دولة آلبوسعيد حكام مسقط وعمان وكذلك سفن حلفائهم شركة الهند الشرقية الإنجليزية مما أدى إلى قيام عدة حملات مشتركة بين البريطانيين فى بومباى وحكومة ألبوسعيد فى مسقط ضد القواسم وكان آخرها حملة حكومة بومباى ضد رأس الخيمة عام ١٨١٩ .

تنتشر جماعات القواسم فى أماكن متفرقة داخل عمان فى ملتقى بوادى سمايل وفى نفعا بوادى منصح وفى صحم بساحل الباطنة . وكذلك يوجدون فى المزرعة العلوى فى وادى الخليج وفى بندر جصة جنوبى مسقط . كما تعيش عائلات منهم مع بنى بو على فى صور وأرض جعلان . كما سكنت جماعات من القواسم على ساحل إيران فى الخليج وكان لهم إمارة فى لنجة فى بداية القرن الثامن عشر .

ويغلب على الظن أن القواسم كانوا نشطين فى التجارة وفى المناصب العسكرية فى مملكة هرمز العربية وسكن بعضهم على الساحل الإيرانى كما سكن مجموعة أخرى فى جلفار . ولما سقطت مملكة هرمز عام ١٦٢٢ على يد الإنجليز والشاه عباس بدأت حركة هجرة واسعة للقبائل والعناصر العربية هرباً من اضطهاد الفرس لعرب هذه الدول . وهنا تفرق القواسم كما رأينا فى توزيعهم فى أنحاء عمان .

تذكر وثيقة برتغالية أنه فى عام ١٦٢٣ نجح القائد البرتغالى جاسبارو ليته Gasparo Leite فى دخول قلعة كلبا وأخذها من قائدها القاسمى الذى كان يتمتع بشهرة واسعة وقد تم هذا الهجوم تنفيذاً لأوامر القائد العام فريرى دى اندرارى(٢). ولم يكن تثبيت البرتغال أقدامهم على الساحل العربى للخليج بعد سقوط دولتهم فى جزيرة هرمز والجسم عام ١٦٢٢ بالأمر الهين . إذ اندلعت حركة مقاومة شرسة لهم فى إقليم الشميلية وفى روس الجبال وفى جلفار وأرض الظاهرة . واجتمع قادة القبائل العمانية وعلماؤها وانتخبوا لهم إماماً هو ناصر بن مرشد اليعربى عام ١٦٢٤ لتحرير بلادهم من الوجود البرتغالى .

وقد جاء فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية فى بندر عباس رصد طيب لحركة التحرير التى قام بها أول حكام دولة اليعاربة ناصر بن مرشد إذ جاء فيها :

« وصل إلى بندر عباس أنباء تفيد بأن العرب حاصروا جلفار ثم هزموا البرتغاليين الذين كانوا هناك ، كما غزا العرب الحصن وقتل أربعون جندياً برتغالياً وفر الباقى هاربين إل مسقط»(٣) .

ويأتى ذكر للقواسم فى الوثائق الهولندية عام ١٦٤٨ فى نهاية حكم الإمام ناصر اليعربى أثناء ضربه الحصار على البرتغاليين فى حصون مسقط ، وقد تم التوصل إلى اتفاقية بين قادة جيشه والبرتغاليين لتسليم الحصون . وكان أحد قادة الحصار سيف بن على بن صالح القاسمى . وقد جاء فى الاتفاقية الموقعة فى ٣٠ أكتوبر ١٦٤٨ بين الإمام ناصر بن مرشد وقائد مسقط العام جيليـنز دى نوررونها Gileames De Noronha ما يلى :

« لقد اجتمع فى شاطىء ريام الشيخ سلطان بن سيف اليعربى القائد العام لقوات الإمام وقادة الجيش وهم راشد بن سالم بن على وعلى بن عبد الله الرستاقى والشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى »(٤) .

وقد وقع الاتفاق هؤلاء القادة وذكر أن الشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى هو الذى كتب الاتفاق العربى بيده كما جاء فى الوثائق البرتغالية .

وقد رسم لنا الوكيل الهولندى فى بندر عباس ويلمسون صورة مفصلة عن الإمام سلطان بن سيف فقال :

« يتحد الجميع فى طريقة لباسهم . وعندما نصف الإمام الكبير فكأننا نصف أيضاً جندياً عادياً أو راكب جمال أو فلاح . وعندما استقبلنا الإمام بحضور الجمهور كان على رأسه عمامة صنعت من القطن الخالص . ويبلغ طول هذا الجزء الخلفى منه ثلاثة أرباع الذراع . ولم تكن هذه العمامة عادية لأنه كان يضع على رأسه تحتها قلنسوة صنعت من خيوط الذهب فيما كانت قبعات الآخرين بسيطة ومصنوعة من القطن . ويضع الإمام سيفه إلى جانبه . ولكنه يحمله عادة فى حزام عريض على كتفه الأيسر ولا تختلف سترة الإمام عن سترات الأشخاص العادين . فهى مصنوعة من الصوف ومقلمة بالطول بأقلام بيضاء عرض الكف وتتعلق على كتفيه كأنها غطاء أو عباءة أو كأنها معطف قائد السفينة . وهى دون أكمام . وكان يرتدى تحتها ثلاث عباءات أخرى وبعض القمصان المصنوعة من القطن أحدها ذو أكمام واسعة تصل

إلى رسغ قدميه . وكان يتمنطق بحزام يضع فيه خنجره وقد نسج عرضاً بخيوط الذهب . وكان حذاؤه أصفر اللون على الطراز الفارسي . والإمام متوسط القامة داكن البشرة »(٥) .

وينطبق هذا الوصف فى بساطةالملبس وتوحده والمساواة الواضحة بين الرئيس ورعيته فى المجلس مع وصف الرحالة البريطانى Thesiger الذى عبر الربع الخالى عام ١٩٤٧ وسمع كثيراً بين البادية عن اسم الشيخ زايد . وزار الشيخ زايد ابن سلطان آل نهيان فى مجلسه بمدينة العين حيث يجلس هو ومن معه على الأرض فى حلقة ، ولباسهم جميعاً واحداً ولا تستطيع أن تعرف الشيخ إلا من هيبته ونظر الجميع نحوه ومتابعة الشيخ فى وقوفه لتحية القادمين وقيام الجميع معه(٦) .

جاء أول ذكر للشيخ رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم فى الوثائق الهولندية عام ١٧١٨ كأحد قادة جيش الإمام سلطان بن سيف الثانى فى حصار قلعة هرمز . ففى فبراير من هذا العام كانت سفينة هولندية فى طريقها من بتافيا إلى بندر عباس . وعندما دخلت الخليج نفذت منها المواد الغذائية الطازجة . وقرر بعض البحارة فيها أن يتوجهوا على مركب صغيرة إلى جزيرة لارك لتلبية حاجاتهم ، وأوقفتهم سفينة مراقبة عمانية ظناً منهم أن هؤلاء الهولنديين برتغال . ونقل هؤلاء البحارة إلى قيادتهم فى جزيرة هرمز . وهذا وصف لمقابلة هؤلاء البحارة الهولنديين لقادة الجيش العمانى :

« حوالى الساعة الثامنة قادنا ذلك الكابتن وبعض الضباط الآخرين إلى القائد العمانى ، ومررنا بصف من الجنود عددهم ألف جندى مسلح يحيون ببندقياتهم . وذهبنا إلى مبنى قديم شبه متهدم حيث شاهدنا رجلين جالسين على سجادة جميلة يحملان السيوف والدروع وبدا لنا أنهما من الأعيان . ودعانا

الرجلان للجلوس على السجادة بجانبهما وسألانا عن جنسيتنا فأجبنا أننا من هولندا وأننا نخدم الوكالة الهولندية فى بندر عباس . وسألنا أحدهم عن الجهة التى قدمنا منها وأجبنا أننا قادمون من بتافيا ووجهتنا بندر عباس . ثم سألانا عن طريقة معاملتنا فى جزيرة لارك وأجبته أنها حسنة وأننا مدينون لهم بالشكر . ثم سألنى عن سبب قدومنا إلى لارك وأعطانا رسالة منهما إلى الوكيل الهولندى فى بندر عباس وسمح لنا بالمغادرة. ثم غادرنا ومررنا بصف من الجنود إلى حيث كان الكابتن . وهنالك دعينا لتناول الغداء . وبعد الطعام غادرنا إلى مركبنا»(٧) .

ومن قراءة هذه الرسالة التى سلمت لهؤلاء البحارة الهولنديين يتضح أنها من القائد ناصر بن عبد الله الحبسى والشيخ رحمة بن مطر القاسمى وتقول هذه الرسالة:

« بعد التحية نؤكد لكم برسالتنا صداقتنا تجاهكم . أما من حيث احتجاز رجالنا للمركب الشراعى فى لارك وهى تحت حكم الأمام فقد حدث ذلك نتيجة لجهلهم تماماً ما إذا كان البحارة من الهولنديين أو الإنكليز أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الدنماركيين . وفور علمنا بأنهم هولنديون أطلقنا سراحهم وقد أمرنا الإمام أن نحترم الشركة الهولندية الموقرة فى جميع المسائل وعلينا الطاعة »(٨) .

وقد عاصر الشيخ رحمة بن مطر القاسمى الحرب الأهلية فى عمان التى اندلعت بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف اليعربى . وتزعم الشيخ رحمة قبائل

جلفار والظاهرة وإقليم الشميلية وانضم إلى الحزب الغافرى فى عام ١٧٢٣ . وقد كتب سرحان بن سعيد فى مخطوطته كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة وهو معاصر لهذه الأحداث ما يلى فى العام ١٧٢٣ :

« وأقام محمد بن ناصر بالرستاق وأشهر أن الأمام هو سيف ابن سلطان وهو مع ذلك غير بالغ الحلم . ووصل رحمة بن مطر بن رحمة الهولى بقدر خمسة آلاف من بدو وحضر ومنهم من لا يعرف العربية ولا يعرف صديقه من عدوه » .

ويتابع صاحب كشف الغمة حديثه عن نشاط الشيخ رحمة بن مطر القاسمى فيقول :

وكان خلف بن مبارك المعروف بالقصير قد قهر حصنى بركا وعسكر فيه ومعه بنو هناة . فأمر محمد بن ناصر الغافرى الجيش بالسير إلى بركا فسار رحمة بن مطر الهولى بقومه . وثم ورد كتاب من فرع الدرمكى من بنى هناة إلى رحمة بن مطر يقول : إنك لا تصل إلينا فنحن واصلون إليك على سبيل التهدد . فلما قرأه رحمة وعرف معناه أمر بالسير إلى بركا . والتقاهم رحمة بمكان يسمى القاسم فوثب عليه قضيب الهولى عل فرس والقوم على أثره فقتل منهم عشرة رجال وانكسر أصحاب فرع وجرح قضيب جرحا هينا .

وسار رحمة بالقوم . ثم إنه بعث عيونا فوجدوا خلف بن مبارك القصير قد طلع بقومه برا وبحرا بجيش لا يعلم عدده إلا الله . وكان عدد القوم الذين هم أصحاب محمد بن ناصر خمسة عشر ألف من بدو وحضر فالتقوا غربى بركا فوقعت

بينهم معركة عظيمة . وكانت عند أصحاب رحمة مدافع فضربوا الخشب التى بالبحر وانكسر خلف بن مبارك وأصحابه . ورجع رحمة إلى بلده »(٩) .

وقد ورد اسم الشيخ رحمة بن مطر أيضاً فى يوميات الشركة الهولندية خلال شهر أكتوبر عام ١٧٢٨ أثناء قصة التنافس على امتلاك جزيرة هرمز نتيجة الفوضى التى دبت على الساحل الإيرانى لسقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ ، إذ حدث تنافس لامتلاك جزيرة هرمز بين الشيخ رحمة بن مطر القاسمى والشركة الهولندية والشركة الإنجليزية . تقول اليوميات الهولندية :

« أرسلنا جورج جوتشى مندوبنا للتفاوض حول حصولنا على القلعة وجزيرة هرمز حسب إمكانيات الشركة والقضاء على محاولة الإنجليز وقد حمل مندوبنا معه خاتم الشركة والكثير من الهدايا . وجاءت طلقات المدافع من قلعة هرمز ترحب بمقدمنا. وقد وجدنا هنالك إلى جانب مندوب الإنجليز منافس آخر وهو الرجل الثرى الشيخ رحمة بن مطر الذى يطمع فى الحصول على الجزيرة والقلعة . ويبدو أن أهل هرمز لا يفضلون كثيراً مطالب الشيخ رحمة . ولقد علمت أن الشيخ رحمة حاكم جلفار الغنى يحاول جاهداً لامتلاك الجزيرة. وهو قادر على العطاء لأن هذا الرجل معروف أنه من أكبر وأكثر التجار المحليين العرب »(١٠) .

وفى يوليو ١٧٣٦ جاء فى وثائق جمبرون نبأ وفاة الشيخ راشد فى باسيدو وشاع خبر أن قوة من الفرس أرادوا القبض على زوجته الشيخة بيبى ومصادرة ما لديها من حلى وأموال . وقد أغضب ذلك الخبر القبائل العربية على الساحل

الفارسي والشيخ رحمة بن مطـر . وكـانت زوجـة الشيخ راشـد إمـرأة ذات إرادة وعقل راجح ولجأت إلى الشيخ رحمة بـن مطـر وغـيره مـن شيوخ العـرب . وقـد جاءت السفن محملة برجال القبائل العربية وكثير من عـرب جلفـار لنجدتهـا وقـد نجح تهريبها إلى جلفار(١١) .

وفى أثناء الحملة الفارسية التى أرسلها نادر شاه إلى عمان تلبية لطلب الإمام الشاب سيف بن سلطان الثانى عام ١٧٣٧ علـى أثـر هزيمتـه أمـام منافسـه الإمـام بلعرب بن حمير يظهر مرة أخرى اسم الشيخ رحمة بـن مطـر القـاسمى زعيمـاً جمـع القبائل فى شمال عمان لمقاومة هذا الغزو الفارسي . وقد شغلت هـذه الحملـة الفـترة ما بين عام ١٧٣٧ وحتى عـام ١٧٤٧ . فـى بدايـة عـام ١٧٣٧ وصلـت الحملـة الفارسية إلى جلفار ولحق بها الإمام سيف بن سلطان الثانى . وقاوم الشـيخ رحمـة ابن مطر القاسمى القوات الفارسية ولكنه وقـع أسيراً فـى يدهـم . ونقـل إلى بنـدر عباس. وبعد فشل هذه الحملة أعيد الشيخ رحمة بن مطر إلى جلفار فى نهايـة عـام ١٧٣٨(١٢) .

وقد غضبت عمان من تصرفات الإمام سيف بن سلطان الثانى الذى جلـب على البلاد مصائب الغزو الفارسي . واختار العلماء وزعماء القبـائل إمامـاً جديـداً هو سلطان بن مرشد اليعربى فى عام ١٧٣٨ . وحاول نادر شاه فـى عـام ١٧٤٠ إرسال حملة فارسية أخرى إلى عمان ولكن ثورة البحارة العـرب فـى أسـطوله فـى بندر عباس فى هذا العام حالت دون قيامه بهذه الحملة . وقـد تطلـب إخمـاد هـذه الثورة العربية فى البحرية الفارسية عاماً كاملاً . وقد أرسل قادة هذه الثورة قباطنـة السفن الفارسية العرب رسالة إلى الوكيل الإنجليزى فى بندر عباس وهم رحمـة بـن شاهين وإبراهيم بن على ومحمد بن عبد الله يحـذرون الإنجليز فيهـا مـن المشـاركة بمراكبهـم فـى إخماد ثورتهـم حسـب طلـب السـلطات الفارسـية . وهـدد هـؤلاء

الشيوخ العرب الإنجليز بما سيصيب سفنهم وتجارتهم من خسران . وبدأ نادر شاه في عام ١٧٤٢ يعد أسطولاً جديداً لتحقيق أحلامه في غزو عمان . اشترى بعض قطعة من الشركة الهولندية والشركة الإنجليزية . وبنى القطعة الأخرى في ميناء بوشهر بعد أن جلب لها الأخشاب من جبال بحر قزوين على بعد ألف كيلو متر(١٣) .

وفى فبراير عام ١٧٤٢ حاصر الإمام سلطان بن مرشد الشاب سيف بن سلطان الثانى فى قلعة مسقط . وهرب سيف بن سلطان . ومرة أخرى اتجه إلى نادر شاه يستنجد به . وكان قد تم انجاز بناء الأسطول البحرى الفارسى الجديد فى الخليج ، ووصلت قوات الحملة الجديدة إلى جلفار . وبعد مقاومة من قبائل الظاهرة والشيخ رحمة بن مطر القاسمى لهذه الحملة لجأ الشيخ رحمة بن مطر إلى المرتفعات فى منطقةروس الجبال(١٢) . وظهرت شخصية الوالى أحمد بن سعيد فى الدفاع عن مدينة صحار وقد استشهد الإمام سلطان بن مرشد فى عام ١٧٤٣ وهو يحاول فك الحصار عن قلعة صحار .وتمكن الوالى أحمد بن سعيد من تحرير مسقط عام ١٧٤٦ وخرجت بقايا الحملة الفارسية من عمان نهائياً فى أغسطس ١٧٤٧ بعد أن جاءت أنباء اغتيال نادر شاه فى يونيو ١٧٤٧ .

وبرز أثناء كفاح عمان ضد هذه القوات الفارسية زعيمان الأول أحمد بن سعيد والى صحار ، كما برز اسم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حاكم جلفار وبطل المقاومة فيها . ومنذ عام ١٧٤٩ طمح الوالى أحمد بن سعيد وقد خضعت له القبائل فى ساحل الباطنة ومسقط ، وبعد أن اختفى من مسرح الحياة السياسية فى عمان الإمام سيف بن سلطان الثانى والإمام سلطان بن مرشد ، فى أن يحكم عمان . وبدأ سلسلة من الحملات لتوسيع نفوذه وسلطته وإخضاع القبائل لحكمه. ولكن برزت أمامه عقبتان كبيرتان الأولى رفض الشيخ رحمة بن مطر القاسمى

الخضوع لزعامته ورغبة الشيخ رحمة وقادة حلفه فى الاستقلال . والثانية وجود الإمام بلعرب بن حمير فى نزوى . وكانت معركة البثنة فى الخمسينات فى وادى حام قرب الفجيرة حاسمة فى حصول حلف القواسم على استقلال . وبدأت مرحلة جديدة فى التاريخ العمانى . وقضت هذه المعركة على آمال أحمد بن سعيد فى توحيد عمان كما كان الحال ايام مجد دولة اليعاربة . وقد سجل هذه المعركة المؤرخ العمانى ابن رزيق فى مخطوطته الفتح المبين إذ يقول :

« ولما انتظم سلك عمان للإمام الحميد أحمد بن سعيد غاظ النزارية شأنه ، فمضى أكابر اليعاقيب إلى بلعرب بن حمير اليعربى وهو يومئذ ببلدة البزيلى من القاهرة وقالوا له لم تركت هذا الأمر لغيركم وقد جالدت عليه سيف بن سلطان اليعربى والإمام سلطان بن مرشد وهما أقرب الناس إليك نسبا . فما برحوا يترددون عليه وهو يماطلهم حتى وقعت بين الإمام أحمد بن سعيد وأهل الصير ملحمة عظيمة بالبثنة . وذلك أن أهل الصير أجمعوا على حرب الإمام أحمد بن سعيد فحشدوا خلقاً كثيراً وأرادوا أن يهجموا على صحار ، فالتقاهم الإمام احمد بن سعيد بمن معه من الجند فكانت الملحمة بينهم بالبثنة ثم رجع أهل الصير إلى الصير . ورجع عسكر الإمام إلى صحار »(١٤) .

وتركزت همة الوالى أحمد بن سعيد الآن بعد هزيمته أمام القواسم واستقلالهم عنه فى التغلب على وجود الإمام بلعرب بن حمير . وقد حسم الموقف معركة فرق عام ١٧٥٣ فى نزوى . وقتل الإمام بلعرب بن حمير . واجتمع العلماء وشيوخ القبائل وأعلنوا محرر عمان من الفوضى ومن الغزوة الفارسية أحمد بن سعيد إماماً على عمان .

أعقب مقتل نادر شاه حالة من الفوضى فى إيران . وتنازعوا على الحكم وفى ظل هذه الفوضى تنازع النفوذ فى إقليم فارس منذ عام ١٧٥١ شخصيتان هما كريم خان زند فى شيراز وناصر خان فى إقليم لار . وكان الوضع فى بندر عباس وما حولها قلقاً . وسيطر قائد بحرية نادر شاه ملا على شاه على بندر عباس وهو عربى من ميناء كنج . واصبح فى حوزته أكبر قوة بحرية فى الخليج . كما استقلت القبائل العربية على الساحل الإيرانى بشؤونها . ومن هذه القبائل بنى معين فى جزيرة الجسم وآل على فى شارك وجزيرة قيس . والقواسم فى لنجة ودوان وبستانه وشيغوه . وبنى حماد فى مخليوه ومقام ومرباغ قلعة وجزيرة الشيخ شعيب . أما قبيلة العبيد لى فكان نفوذها فى شبكوه وشيغوه وعرمكى وشيروه والشيخ . وكان المرازيق فى موغوه وبستانه وجزيرة فارور . وسيطرت قبيلة النصور فى طاهرى وكنجون . وتغلبت قبيلة الحرم فى عسيلوه وناباند . وكان آلبوفلاسة من بنى ياس فى جزيرة هنجام . وفى ميناء بوشهر سيطرت قبيلة المطاريش العمانية . وفى شمالها تغلب شيخ من الزعاب على بندر رج . وقد وصف هذه القبائل العربية الوكيل الهولندى كنيبهاوزن بعد ما استقر به المقام فى جزيرة خارج عام ١٧٥٦ وشرح قتالها فيما بينها وقال أن هذه القبائل العربية لو اتحدت فيما بينها لتمكنت من أن تعيد سيطرة العرب على الساحل الإيرانى كاملة كما كان العهد أيام مملكة هرمز العربية .

وفى أثناء هذا الصراع على السلطة فى الجزر ومنطقة بندر عباس ألقى الشيخ رحمة بن مطر بثقله فى تأييد ملا على شاه ضد عدوه ناصر خان فى لار . وتزوج فى عام ١٧٥١ من ابنته . بينما وقفت قبيلة بنى معين فى جزيرة الجسم بقيادة عبد الشيخ إلى جانب ناصر خان حاكم لار . وكان عبد الشيخ ضابط بحرى سابق وأحد قادة التمرد العربى فى القوة البحرية الفارسية عام ١٧٤٠ أيام نادر شاه بسبب الحملة الفارسية على عمان .

وفى عام ١٧٥٥ كتب الوكيل الهولندى كنيبهاوزن من جزيرة خارج معلومات عن الشيخ رحمة بن مطر وقال :

«منذ عامين قام الشيخ رحمة بمساعدة ملا على شاه أدميرال جمبرون الذى ينتسب إليه بالزواج من ابنته . وقد تغلبوا على ميناء لفت فى جزيرة الجسم وكان هذا الميناء فى يد بنى معين منذ أيام نادر شاه . وقد قاوم بنى معين ستة أشهر ولم يستسلموا إلا بعد موت شيخهم المفاجىء على الشيخ»(١٥).

وقد ساعد ملا على شاه بأسطوله الشيخ رحمة بن مطر عام ١٧٥٨ حينما هاجم الإمام أحمد بن سعيد القواسم فى ميناء دبا .

وكانت آخر أخبار الشيخ رحمة بن مطر فى يناير ١٧٦٠ حينما غضب من زواج أحد بنات ملا على شاه من ملا حسين . احتل الشيخ رحمة جزيرة هرمز وقلعتها لمدة ١٤ يوما وأخذ ما يقارب من ١٢ ألف روبية من قلعتها . وكان لهذا النزاع بين الحليفين أثره المباشر إذ أن أهل هرمز نتيجة تقدم خان لار وانتصاراته فى بندر عباس سلموا قلعة هرمز لأخية جعفر خان . وقبض جعفر خان فى شهر فبراير ١٧٦٠ على ملا على شاه .

وحدث صراع فى الجزر بين القواسم وبنى معين . وحاصرت فى شهر مارس ١٧٦٠ قبيلة معين يساعدها آل على فى شارك قلعة لفت فى جزيرة الجسم. وكانت هذه القلعة فى يد الشيخ رحمة بن مطر . وأخذ عرب جلفار المركب رومانيا أقوى قطع أسطول ملا على شاه وهاجموا بها عرب بنى معين فى جزيرة الجسم . وجرت معركة بين المتصارعين فى مياه لنجة(١٦) .

وهنا وسط هذه الاضطرابات يختفى اسم الشيخ رحمة بن مطر من مسرح الأحداث ويظهر اسم أخيه الشيخ راشد بن مطر فى رئاسة حلف القواسم . ولكن يظهر فى ١٨ سبتمبر ١٧٦١ اسم الشيخ رحمة بن مطر فى يوميات جمبرون الإنجليزية وأنه قد وصل فى هذا اليوم إلى بندر لنجة .

مدينة رأس الخيمة الناشئة :

ذكر أحمد بن ماجد مدينة رأس الخيمة كأحد بنادر الخليج فى أرجوزته المشهورة بنادر خليج فارس فى القرن الخامس عشر . ولكنها لم تكن عامرة ولا مسكونة . وعاشت قرية بسيطة فى ظل جلفار . وبعد أن دارت معارك كثيرة حول جلفار أيام قيام دولة اليعاربة لطرد البرتغال منها وطرد الفرس الذين حاولوا احتلالها أيام نادر شاه فى الفترة ما بين ١٦٢٢ و ١٦٣٣ ، وكذلك المعارك التى دارت حولها أيام غزوة نادر شاه على عمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ تحطمت أسوارها وقلعتها . وهدمت بيوتها . وبدأت هجرة القبائل العربية سواء الوافدة من الساحل الإيرانى أو القادمة من عمان ونجد إلى جلفار تتخذ من مدينة رأس الخيمة الواقعة جنوب جلفار مقراً لها . وسرعان ما زاد العمران فيها حينما اتخذها الشيخ رحمة بن مطر القاسمى عاصمة لحلف القواسم . وقد بنيت المدينة الجديدة من حجارة أنقاض جلفار التاريخية التى بدأت تختفى معالمها . وظهر فى رأس الخيمة ميناء جديد صالح لرسو السفن فى خورها . وقد أطلق الهولنديون على هذه المدينة الناشئة أول الأمر فى عهد الشيخ رحمة بن مطر اسم صير . والواقع أن الصير اسم المنطقة التى تقع فيها مدينة رأس الخيمة . وقد كتب الوكيل الهولندى عام ١٧٥٦ كنيبهاوزن يصف مدينة الصير :

« الصير مدينة كبيرة محصنة بطريقة محلية وبها بعض قطع المدافع . وتسكنها قبيلة من الهولة تدعى القواسم وكانوا فى

الماضى تابعين لإمام مسقط ولكنهـم الآن لا يعتنـون بنفـوذه . وقد قام الإمام بعدة حملات ضدهـم لإخضاعهم ولكـن دون جدوى و لم يستطع التغلب على الشيخ المسمى كايد او رحمـة ابن مطر . ويعتبر هذا الشيخ أقوى شيوخ الهولـة ولديـه ٤٠٠ رجل مسلح بالبنادق فى الصير التى لديها ميناء تجد فيه السفن الكبيرة مرسـاها . وبالمينـاء ٦٠ سفينة أغلبهـا كبيرة ومجهزة للسفر إلى مخا . ويوجـد فـى الصير تجارة رائجة وكذلـك التعامل فى اللؤلـؤ وأنـواع التجـارة المطلوبـة لـدى البـدو فـى الصحراء »(١٧) .

وبدأت المدينة الجديدة رأس الخيمة تفرض اسمها فى عهـد الشيخ صقـر بـن راشد . وجاء أول ذكر لها فى وثائق حكومة بومباى البريطانية فـى عـام ١٧٩٧ . وقد كتبت على نحو بدائى لأول مرة Razil Khima(١٨) .

وانتشر اسم المدينة الناشئة وجاء أسمها لأول مرة فـى الوثـائق البريطانيـة فى عام ١٧٩٧. وذاع اسم رأس الخيمة فى التاريخ العربى الحديـث لارتباطهـا بالقواسـم بعـد اعتنـاقهم مذهـب أهـل السلف الوهـابى وترصدهـم للسـفن البريطانية عند مدخل الخليج وتعرض هذه المدينـة بعـد ذلـك لهجمـات الحمـلات البريطانية وخاصة الحملـة الضخمـة عـام ١٨١٩ التـى حطمـت قلعتهـا وأسـوارها ومبانيها وأشعلت فيها النيران.

الهوامـش

(1) Penelope Tuson, The Records of the British Residency and Agencies in the Persian Gulf, London 1979, pp. 173 - 174 .

(2) B. J. Slot, The Arabs of the Gulf 1602 - 1784, Leidschendam, The Netherlands, second edition 1995, p. 425.

(3) ARA (Dutch General State Archives) VOC (Archives of the Dutch East India Company, Vol.1113, Fol. 214 - 229.

(4) Portugeuse Archives, Tore De Tombo, Lisbon, ANTT Moncoes, livro59, Fol. 88, Muscat 30 October 1648.

(5) ARA, VOC, Vol 1288, Fol. 441-442.

(6) Thesiger, W., Arabian Sands, London 1960. p. 220.

(7) ARA, VOC, Vol 1913, Fol.442-443.

(8) Ibid, vol. 1913, Fol. 437 - 438.

(٩) سرحان بن سعيد ، مخطوطة كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، نسخة المكتبة الظاهرية - دمشق ، ص .

(10) ARA, VOC, Vol 2114, Fol.3558.

(11) Ibid, vol. 2416, Fol. 1389-1392.

(12) IOR, (India Office Records, London), EGD Vol.4, p. 3- 5. 1737 & Vol. 23, p. 2 1738.

(13) Lockhart L., Nadir Shah, London 1938, p. 216.

(١٤) حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين في سيرة السادة آلبوسعيديين ١٢٧٥ (١٨٥٨) تحقيق محمد مرسي وعبد المنعم عامر الطبعة الرابعة ص ٣٢٤ .

(15) ARA, VOC, Vol 2468, Fol.12.

(16) IOR, EGD 18-1, 1760.

(17) ARA, VOC, Vol 1304, Fol.383.

(18) IOR, EGD, 29-23, 1797.

سياسة ألمانيا تجاه الشريف حسين
فى الحرب العالمية الأولى

د. وجيه عبد الصادق عتيق(*)

ربما من المفيد للباحثين فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر التعرف على الوجه الآخر لعلاقة الشريف حسين بالقوى المتصارعة فى الحرب العالمية الأولى. وتكشف لنا الوثائق الألمانية خبايا علاقة الألمان بالشريف حسين خلال سنوات تلك الحرب كما تكشف عن ملامح سياستهم تجاهه. ومن دراسة وتحليل هذه الوثائق، يتبين لنا أن الألمان أخذوا يلتفتون بجدية إلى أهمية زعماء نجد والحجاز بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة أسابيع. أما قبل ذلك، فلم يضع ساستهم فى حسبانهم أن هؤلاء الزعماء فى استطاعتهم أن يلعبوا أدواراً مساعدة أو حيوية فى حسم أى صراع قد ينشب بين القوى الدولية، ويعد هذا فى الواقع خطأ استراتيجياً ارتكبه الساسة الألمان منذ البداية فى حق أنفسهم عند وضع خطط احتمالات نشوب الحرب مع دول الوفاق. وأغلب الظن أن هذا الخطأ جاء نتيجة تصور خاطئ آخر تكون لدى القيادة الألمانية أنذاك وانتشر على نطاق واسع مفاده أن قوة ألمانيا الحربية قادرة على ردع أعدائها، وفى إمكانها على وجه السرعة حسم الأزمات الطارئة التى قد تنشب بينها وبين هؤلاء الأعداء من دول الوفاق، وأن هذه الأزمات لو نشبت فسوف تنحصر داخل القارة الأوربية، ولن تتحول إلى حرب كونية واسعة النطاق، يلجأ كل طرف فيها لاستقطاب القوى المحلية الصغيرة ضد الطرف الآخر.

وحتى عندما التفت الألمان إلى أهمية زعماء نجد والحجاز، فقد جاء التفاتهم هذا من خلال حرصهم على إقحام الدولة العثمانية للدخول فى الحرب بجانبهم، ومن منطلق المحافظة على أملاك هذه الدولة ونفوذها فى الشام ونجد

(*) الأستاذ المساعد للتاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب – جامعة القاهرة.

والحجاز . أى أن هذا الالتفات لم يكن عملاً هجومياً أو مبادرة يقطعون بها الطريق على أعدائهم بقدر ما كان عملاً دفاعياً قصد به الحيلولة دون انهيار الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب إلى جانبهم ، ومتابعة لتحركات زعماء نجد والحجاز سواء أكانت ضد بعضهم البعض أو ضد العثمانيين . كما أن هذا الالتفات من جانب الألمان لم يبلغ حد العمل على الاستعانة بقدرات هؤلاء الزعماء المحليين فى الثورة على أعدائهم وطرد الإنجليز من الكويت والساحل المهادن وعدن فى وقت مبكر من قيام الحرب .

وتذكر ملفات وزارة الخارجية الألمانية أن أول التفات من جانب حكومة ألمانيا لزعماء نجد والحجاز فى الحرب حدث فى أواخر أغسطس ١٩١٤م . ويعود الفضل فى هذا إلى فنجنهايم Wangenheim سفير ألمانيا فى العاصمة التركية ، الذى نصح حكومته بالتقرب من زعماء المشرق العربى وكبار رجال العشائر فى الشام عن طريق تقديم الهدايا والرشاوى ، حتى يمتنع هؤلاء الزعماء عن عرقلة إعداد الحملة التركية على مصر . كما يعود الفضل إلى فنجنهايم فى لفت أنظار حكومته إلى أهمية أشراف الحجاز بصفة خاصة ، لما يحتلونه من مكانة دينية رفيعة فى نفوس المسلمين . واستأذن فنجنهايم حكومته فى أواخر أغسطس فى أن يستقبل بمقر عمله فى استنبول عددا من أشراف الحجاز الذين وصلوا من الحجاز فى زيارة للعاصمة التركية . وفى ٣٠ أغسطس ١٩١٤ م استدعى فنجنهايم - بعد موافقة حكومته على ذلك - هؤلاء الأشراف وأهداهم باسم الإمبراطور مبالغ متساوية من المال ، مقابل تعهدهم بتأييد ألمانيا وتركيا فى مناهضة الإنجليز(١) .

وفى الحقيقة ، جاء اهتمام الألمان بهؤلاء الأشراف فى إطار الاهتمام العام بزعماء المشرق العربى . ولم يكن هناك فى البداية اهتماماً خاصاً بمنطقة محددة أو بشخصية بعينها . ولم يبدأ هذا الاهتمام فى التحول من العام إلى الخاص إلا منذ النصف الأول من شهر سبتمبر ١٩١٤ م ، عندما اقترح أحد المستشرقين الألمان العارفين بشئون المشرق العربى على حكومته أن توجه عنايتها إلى استقطاب

الشريف حسين . واقترح هذا المستشرق أن تضغط حكومته على الدولة العثمانية لكي تعين الشريف حسين في منصب شيخ الإسلام لما يمثله هذا الشريف من خلال مكانته الدينية من خطر على الخليفة العثماني إذا نجحت بريطانيا في تجنيده لصفها ضد الدولة العثمانية . وكعادة الخارجية الألمانية كانت تبعث بمثل هذه المقترحات إلى خبرائها المختصين لدراستها وتقديم رأيهم فيها .

وبعثت الخارجية تسأل البارون ماكس فون أوبنهايم Max Von Oppenhaim رئيس الوكالة الألمانية لاستخبارات الشرق حول جدوى الأخذ باقتراح تعيين الشريف حسين في منصب شيخ الإسلام . وفي ١٤ سبتمبر رد أوبنهايم في تقرير مطول رافضاً ذلك الاقتراح بحجة أن هذا سوف يغضب الأتراك كثيراً ، وبحجة عدم وجود حاجة لكسب الشريف حسين بهذه الوسيلة في ذلك الوقت المبكر من الحرب . وقدم أوبنهايم بدلاً من ذلك اقتراحاً مضاداً يدعو لتقوية مركز الخليفة في العالم الإسلامي من خلال حملة دعائية موسعة ، معتبراً أن هذا وحده كفيل بتحقيق الاستقرار للدولة العثمانية في المشرق العربي(٢) .

وفي تقديرنا فإن رفض أوبنهايم تأييد فكرة تعيين الشريف حسين في ذلك المنصب يدعونا للشك في إخلاص ذلك الرجل للإمبراطورية الألمانية . إذ أن موقفه هذا أضاع على الأتراك والألمان فرصة ثمينة لكسب الشريف لصفهم في هذه المرحلة من الحرب ، كما أضاع هذا الموقف فرصة ذهبية على الأتراك والألمان لقطع الطريق على محاولات الإنجليز الرامية للتقرب من الشريف حسين . ومما يدعونا للشك في إخلاص أوبنهايم أن وزارة الخارجية الألمانية ، بناء على رفضه لذلك الاقتراح ، أغلقت تماماً باب الحديث فيه ، وبدلاً من ذلك راحت تبحث في مشروع كان أوبنهايم نفسه يروج له بقوة داخل أروقة هذه الوزارة ، ويدعو هذا المشروع إلى قيام ألمانيا بحملة دعائية على نفقتها لتقوية مركز الخليفة العثماني في العالم الإسلامي . وعلى هامش تقرير أوبنهايم خط وكيل وزارة الخارجية الألمانية تسمرمان Zimmermann بقلمه يقول : « أوافق على اقتراح السيد أوبنهايم الخاص

بالحملة الدعائية »(٣) . وبذلك يكون أوبنهايم قد نجح فى توجيه مثل هـذا القـرار الخاص بسياسة ألمانيا تجاه الدولة العثمانية والمشرق العربى فـى تلـك الظروف الدقيقـة الوجهة التى كان يريدها لنفسه ، حيث كان يتطلع لأن يتولى بنفسه الإشراف من الشام على هذه الحملة الدعائية ، الأمر الذى تحقق له فيما بعد كما سيتضح لنا .

إلا أن آراء ومقترحات أوبنهايم كانت تجد فى بعض الأحيان من يفندها من بين المسئولين الألمـان العارفين بشئون الدولـة العثمانيـة والمشرق العربى. وكـان البارون فنجنهايم سفير ألمانيا فى تركيا والجنرال ليمان فون ساندرس رئيـس البعثة العسكرية الألمانية فى الجيش العثمانى على رأس هؤلاء المسئولين الذيـن عـارضوا كثيراً توجهات أوبنهايم . إذ كان من رأيهم ، عندما علموا باقتراح أوبنهايم ، أنـه ليس من الحكمة تجاهل سيد الحجاز ، فى الوقـت الـذى يجرى فيـه إعـداد الحملـة التركية على مصر على قدم وساق فى الشام . واقترح فون ساندرس على حكومته أن ترسل إلى العقيد كريس رئيس هيئة أركان الحملة التركية فـى الشـام عـددا مـن القلادات والأوسمة الألمانية التى هى من الذهب الخـالص لكـى يتـم توزيعهـا باسـم إمبراطور ألمانيا على كبار الزعماء العرب وفى مقدمتهم الشريف حسين(٤) .

وكان ياجوف Ygow وزير خارجية ألمانيا يتوقع أن يرفض هؤلاء الزعمـاء الأوسمة والقلادات الألمانية ، خاصة وأنهـا جميعـاً كـانت تحمـل شكل الصليـب . وراح يستفسر من فون ساندرس صاحب الاقتـراح فـي برقيـة عاجلـة حـول ذلـك الأمر . إلا أن ياجوف فوجئ برد يأتيه يؤكد أن هؤلاء الزعماء لـن يبـالوا بمـا هـو منقوش على هذه الأوسمة والقلادات بقدر ما يحرصون على إمتلاكها ذهباً(٥) .

ومن الواضح أن الحكومة الألمانية كانت حتى أواخر أكتوبر ١٩١٤ م تفتقر لاستراتيجية محددة المعالم لكى تتعامل من خلالها مع الشريف حسين وكبار زعمـاء المشرق العربى . بدليل أن وزارة الخارجية أخذت باقتراح أوبنهـايم الداعـى لحصر اهتمام ألمانيا بالمشرق العربى فى حـدود اهتمامهـا بـالرأى العام الإسلامى . وفـى نفس الوقت أخذت باقتراح ليمان فون ساندرس الداعى للاهتمام بالزعماء العـرب

المحليين . ووافق الإمبراطور الألمانى فى ١٤ نوفمبر ١٩١٤ م على منح هؤلاء الزعماء تلك الأوسمة والقلادات التى اقترحها فون ساندرس ، والتى تقرر أن يتسلمها العقيد كريس في مقره بدمشق لكى يوزعها بنفسه عليهم نيابة عن الإمبراطور فيلهم الثانى(٦) .

ولقد حاولت وزارة الخارجية الألمانية حسم هذا التضارب ، الذى كان يعكس قلة خبرتها بالشئون العربية . وأرسلت فى أوائل نوفمبر ١٩١٤ م تستطلع رأى أحد مبعوثيها فى الشام فى كبار زعماء المشرق العربى . وفى مذكرة مطولة وصلت من دمشق إلى برلين فى أواخر شهر نوفمبر ذكر المبعوث بروفر Pruefer "أن الشريف حسين إنجليزى الميول حتى النخاع ، لكنه تحت السيطرة الآن بفضل سياسة الدولة العثمانية الحازمة معه"(٧) . وفى الحقيقة أحدث تقرير بروفر هذا حول الشريف حسين وميوله الإنجليزية ردوداً واسعة داخل وزارة الخارجية ، التى قررت - لكن بتكاسل مثير للدهشة - وضع خطة تعامل خاصة بالشريف بعيدة عن خطط التعامل مع الزعماء العرب الآخرين ، ومنفصلة كذلك عن مشاريع دعم مركز الخليفة العثمانى بين الرأى العام الإسلامى .

ومرة أخرى كلفت الخارجية الألمانية أوبنهايم بوضع خطة عاجلة لاستقطاب الشريف حسين وإبعاده عن السقوط فى أحضان الإنجليز . وبدلاً من أن يمعن البارون أوبنهايم الفكر فى وضع خطة تعتمد على الاتصال المباشر بالشريف حسين وإغرائه بالابتعاد عن الإنجليز ، أو يجتهد فى صياغة عروض مجزية تفتح آفاق المستقبل أمام الشريف ونفوذه السياسى وتجعله يشعر بأن توسيع هذا النفوذ مرتبط بانتصار دول الوسط فى الحرب ، إذ بالبارون يضع خطة تقوم على وضع الشريف تحت المراقبة اللصيقة للسلطات الألمانية ورجال الوكالة الألمانية للاستخبارات التى يرأسها ، وذلك من خلال قنصلية ألمانية يتم إنشائها لهذا الغرض فى جدة . ورشح أوبنهايم من جانبه الأستاذ ليتمان Prof. Dr. Littmann المستشرق بجامعة جوتنجن لتولى منصب القنصل ، كما رشح شخص مصرى

يدعى على أحمد عنانى ، كان يعمل مدرساً للغة العربية بجامعة برلين ، لكى يعاون ليتمان فى القيام بمهام واجباته الرسمية . أما بخصوص الجهاز الرقابى ، الذى كان من المفترض أن يتحرك تحت الغطاء الدبلوماسي في تلك القنصلية ويبلغ الخارجية الألمانية أولاً بأول بكل ما يدور فى الحجاز ، فقد تولى أوبنهايم أيضاً ترشيحهم من بين رجاله(٨) . ولاقت خطة أوبنهايم عناية بعض كبار موظفى الخارجية الألمانية ، الذين عكفوا على دراستها لوضعها موضع التنفيذ عندما تحين الفرصة .

وتعكس الوثائق الألمانية التى تتعلق بتلك الفترة مدى انقسام المسئولين فى برلين عند وضع خطط السياسة الألمانية تجاه العرب . حيث انقسموا على أنفسهم على نحو بيّن فى إختيار أفضل السبل المؤدية لإنجاح تلك السياسة . وقد برز هذا الانقسام عندما حذر فنجنهايم ، من خلال خبرته الواسعة بشئون الشرق ، حكومته من الإقدام على تحمل أعباء حملة الدعاية للخليفة العثماني فى العالم الإسلامى، راجياً ترك هذه المسألة للأتراك لكونهم مسلمين قادرين على التأثير فى أقرانهم من المسلمين أكثر من أى جهاز دعائى ألمانى آخر قد يثير نشاطه بينهم حفيظتهم ، ويتيح للأعداء فرص إفشال هذه الحملة ، ومن ثم إحداث نتائج عكسية(٩) .

وكاد فنجنهايم أن يكسب لوجهة نظره هذه فريقاً من كبار رجال الخارجية الألمانية المختصين بالشئون العربية . إلا أن فريقاً ثانياً داخل هذه الوزارة انبرى يدافع عن مشروع حملة الدعاية للخليفة ، مطالبين أن يبدأها القناصل الألمان فى القدس وبغداد دون أدنى تأخير ، كما طلب هذا الفريق فنجنهايم بأن يتدخل لدى السلطات التركية لكى ترفع أى قيود على تحركات العميل الألمانى بروفر فى الشام والجزيرة العربية(١٠) .

ولم يكن هذا الانقسام بين هذين الفريقين ، والصراع الخفى بين فنجنهايم وأوبنهايم ، سوى بعض من صور الضعف الذى اكتنف السياسة الألمانية تجاه الشرق العربى خلال تلك الفترة ، والتى أدت إلى ارتباك وتردد الحكومة الألمانية فى اتخاذ قرارات مصيرية فى أوقات كانت تتطلب سرعة الحسم . ولعل ما كان

يزيد من ارتباك الحكومة الألمانية فى المشرق العربى هو حساسية الموقف العثمانى داخل هذه المنطقة . والشعور بأن يد العملاء الألمان هناك مغلولة وتحت المراقبة من قبل السلطات العثمانية .

ثم أدى انشغال الألمان الشديد بترتيبات إعداد الحملة التركية على مصر فى الفترة الانتقالية بين عامى ١٩١٤ - ١٩١٥ م إلى تأجيل اتخاذ القرار المناسب فى مسألة القنصلية الألمانية فى جدة ، وكذلك إلى عدم التوصل لأفضل سبل التعامل مع الشريف حسين فى الوقت المناسب . حيث ساد لدى الكثير من الألمان اعتقاد بأن نجاح هذه الحملة فى طرد الإنجليز سوف ينهى مشاكلهم ومشاكل الدولة العثمانية فى المشرق العربى من جذورها(١١) .

إلا أن فشل هذه الحملة فى اجتياز قناة السويس وعودة قواتها مدحورة إلى الشام أوائل فبراير ١٩١٥ م ، ونجاح الإنجليز من قبل فى احتلال البصرة ، أصاب فنجنهايم شخصياً بالكثير من الإحباط ، الذى دفعه بشكل مفاجئ إلى التسليم على مضض بوجهات نظر أوبنهايم فى معالجة الوضع المتدهور فى المشرق العربى، كما ترتب على هذا الإحباط علو كعب أوبنهايم ونظرياته فى أعين كبار المسئولين فى وزارة الخارجية الألمانية . وعندئذ وجدها أوبنهايم فرصة لأن يتقدم فى ٢ مارس ١٩١٥ بمشروع مفصل، يقوم مرة أخرى على فكرة الحملة الدعائية فى العالم الإسلامى بأسره لمعالجة الوضع المتدهور للدولة العثمانية فى المشرق العربى ، والتصدى لمحاولات تقارب الإنجليز من الشريف حسين ، تلك المحاولات التى كان الألمان يشعرون بوجودها ، دون أن يعرفوا شيئاً عن مضمونها(١٢) .

وبالفعل استطاع أوبنهايم أن يدخل فى روع عدد لا بأس به من المسئولين الألمان أن مشروعه الدعائى واسع النطاق جدير بأنه يوقف ذلك التدهور الذى أخذ ينتشر فى أوساط الرأى العام العربى فى أعقاب فشل الحملة التركية على مصر . ومن ثم قررت الحكومة الألمانية فى ١٥ مارس ١٩١٥ م الموافقة على ذهاب أوبنهايم على رأس بعثة من عدة أفراد إلى الشام ليمسك بزمام الحملة

الدعائية هناك ، واضعة تحت يده مبالغ طائلة من المال للإنفاق منها على هذه الحملة ، التى كان من المفترض أن تؤدى أيضاً - طبقاً لما وضعه أوبنهايم من تصورات - إلى نشوب ثورة عارمة فى أنحاء العالم الإسلامى فى وجه بريطانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا ، فى حالة إعلان هذه الأخيرة الحرب على ألمانيا . كما كان من المفترض أن تحول هذه الحملة الدعائية دون تقارب الشريف حسين مع الإنجليز . وبناء على هذا التصور الأخير خولت الحكومة الألمانية لأوبنهايم الاتصال المباشر بالشريف حسين ، كما أطلقت يداه فى إجراء المباحثات التى يراها مناسبة معه(١٣) .

وبينما كان أوبنهايم يعد نفسه فى برلين للرحيل إلى الشام عاد وطرح مرة أخرى على المسئولين فى الخارجية الألمانية فكرة مراقبة الشريف حسين عن طريق إنشاء قنصلية ألمانية فى جدة . واقترح أوبنهايم هذه المرة أن يتولى منصب القنصل فيها أحد أعوانه من اليهود ويدعى بروبستر Proebster ، الذى كان من المفترض أن يقيم صداقة حميمة مع الشريف حسين ، وأن يبعث بتقارير مفصلة عن تحركات الشريف وصلاته أولاً بأول إلى الخارجية الألمانية عن طريق أوبنهايم فى الشام ثم عن طريق فنجنهايم فى استنبول .

إلا أن السلطات التركية عارضت فكرة إنشاء القنصلية الألمانية فى جدة فى ذلك الوقت ، خوفاً من أن يؤدى هذا العمل إلى إثارة غضب الشريف حسين ، أو أن يؤدى شعوره بالمراقبة من قبل الألمان إلى إثارته وإقدامه على الاتفاق مع الإنجليز . ومما لا شك فيه أيضاً أن فشل الحملة التركية على مصر وإرسال أوبنهايم وبعثته إلى الشام قد أدى إلى توتر العلاقة بين الأتراك والألمان . ففى أعقاب هذه التطورات عبر العديد من المسئولين الأتراك عن ضيق صدورهم من تدخل الألمان - من أمثال ليمان فون ساندرس - فى شئونهم . كما ساورتهم شكوك بأن ألمانيا تسعى لإقامة علاقة مباشرة من خلف ظهورهم مع الزعماء المحليين فى المشرق العربى ، وأنها ربما تعمل ضد مصلحة الدولة العثمانية فى هذه

المنطقة . أو ربما تخطط لبسط سيطرتها على كل الأراضى العثمانية . وقد تولى أنور باشا مسئولية إبلاغ سفير ألمانيا فى استنبول بفحوى تلك المخاوف ، حيث أبلغه فى ٢ إبريل ١٩١٥ م باعتراض الحكومة التركية على قيام القناصل الألمان فى الشام بالاتصال دون إذن من السلطات العثمانية بالزعماء المحليين للعرب ، كما أبلغه بمعارضة الحكومة العثمانية لافتتاح القنصلية الألمانية فى جدة(١٤).

وقد أبدى فنجنهايم لحكومته تفهمه لمخاوف الأتراك ، وطلب منها الحد من نشاط أوبنهايم وبعثته المثيرة للجدل فى الشام والحجاز . كما اقترح أن يشارك الأتراك بشكل مكثف فى الحملة الدعائية فى العالم الإسلامى ، وأن يقتصر دور أوبنهايم على التخطيط والإشراف ، وأن يبذل المسئولون الألمان كل ما فى وسعهم لكى يبدو الأمر أمام الجميع وكأن ألمانيا وتركيا تعملان يد فى يد(١٥) .

إلا أن أوبنهايم كان قد سار فى تنفيذ خطته عدة خطوات إلى الأمام ، غير عابئ بمخاوف الأتراك . ونجح منذ أوائل مايو ١٩١٥ م فى إقامة علاقة وطيدة مع الأمير فيصل نجل الشريف حسين . وقد ساعده فى هذا معرفته الشخصية بالشريف حسين نفسه . منذ أن كان الشريف يقيم فى استنبول فى أواخر عهد السلطان عبد الحميد . كما لعب أحمد شفيق باشا ، رئيس ديوان الخديوى عباس حلمى الثانى ، دوراً بارزاً فى الإعداد للقاء الأول الذى جمع أوبنهايم بالأمير فيصل(١٦) .

وكان الشريف حسين قد بعث بابنه الأمير فيصل إلى استنبول فى أوائل إبريل ١٩١٥ م لكى يزيل من نفوس المسئولين الأتراك أى شكوك من ناحيته ، وليؤكد على ولائه التام لهم . وتعد هذه مناورة ذكية من جانب الشريف ، أراد بها أن يغطى من ناحية علاقته القوية بالإنجليز وإقدامه على التآمر معهم ضد الأتراك ، كما أراد بها من ناحية أخرى أن يبعد الأتراك عن الاتفاق مع خصمه اللدود الشريف على حيدر ، الذى كان يتطلع لمنصب الشريف فى مكة ، ويؤيده فى هذا عدد من رجال الحكومة التركية . وفى تقديرنا أن الشريف حسين بعث بابنه إلى استنبول لكى يتحسس أيضاً ما عسى أن يقدمه الأتراك والألمان من

عروض قبل أن يعقد اتفاقه النهائى مع الإنجليز . ويبدو أن الشريف حسين نجح من خلال رحلة ابنه تلك فى أن يخدع الجميع فى إستنبول ، وأن يحسن من صورته كثيراً لدى الأتراك والألمان . فتقرير أوبنهايم مليئ بعبارات الإطراء حول إخلاص الشريف حسين للأتراك والألمان ، ونفى أى علاقة له بالإنجليز ، إلى الحد الذى جعل فنجنهايم نفسه يعتقد أن العناصر التركية سيئة النية هى التى كانت تقف من وراء تلطيخ صورة الشريف حسين واتهامه بالعمالة للإنجليز(١٧) .

وبناء على طلب الأمير فيصل ، الذى كان يميل للتعاون مع الأتراك والألمان، لعب أوبنهايم دوراً ملموساً فى الدفاع عن موقف الشريف حسين وإخلاصه لدول الوسط لدى رجال الحكومة التركية . كما لعب دوراً مشبوهاً فى تضليل المسئولين الألمان ، سواء فى استنبول أو برلين ، وتمكن من إقناع حكومته بأنه توصل مع الأمير فيصل إلى وضع أسس سليمة لعلاقة وطيدة بين الشريف حسين وكل من تركيا وألمانيا . خاصة وأنه فى لقائه الأول بالأمير فيصل فى ٨ مايو ١٩٢٥ م وفى حضور شفيق باشا كان قد توصل بالفعل إلى اتفاق حول دور الشريف حسين فى الدعاية ضد بريطانيا فى العالم الإسلامى(١٨) .

وبادر أوبنهايم بالتوسط للشريف حسين لدى أنور باشا لكى تقبل الدولة العثمانية تمويل مشروع وصفه بأنه ثورة عربية كبرى بقيادة الشريف ضد الإنجليز فى الخليج العربى . وفى ١٠ مايو ١٩١٥ م وقع الأمير فيصل نيابة عن والده مع أنور باشا على اتفاق آخر مكتوب فى ورقتين حول التعاون بين الشريف والدولة العثمانية فى ترتيب هذه الثورة . وطبقاً لبنود هذا الاتفاق كان على تركيا أن تتحمل التكاليف المالية التى يقررها الشريف للنهوض بالثورة ضد الإنجليز ، وأن تمده بالأسلحة والذخيرة اللازمة لذلك . مقابل أن يشارك الشريف فى أعمال الدعاية ضد دول الوفاق ، وأن يشارك فى إعلان الجهاد المقدس ضد أعداء الخليفة ، وأن يجند جيشاً من بدو الحجاز تحت قيادة أحد أبنائه لمهاجمة الإنجليز فى الخليج وقناة السويس(١٩) .

ونلاحظ هنا أن مشروع هذا الاتفاق كان لا يختلف كثيراً عن نفس الترتيبات التى كان الشريف يعدها مع الإنجليز للثورة على الأتراك . وربما أنه استخدم أسلحتهم التى أمدوه بها فى أعقاب ذلك الاتفاق فى الثورة عليهم وليس معهم . وساد لدى الأتراك والألمان اعتقاد بأن الشريف حسين أصبح رجلهم الأول فى الجزيرة العربية ، وتصور أنور باشا نفسه أن عقد مثل ذلك الاتفاق مع الشريف حسين سوف يحول دون نجاح الإنجليز فى العودة للتقرب منه مرة أخرى . ووعد أنور باشا الأمير فيصل بأن تكف الحكومة التركية تماماً عن التعاون مع المنافسين لوالده ، كما وعده بالعمل على منع الولاة الأتراك فى جدة من التدخل فى اختصاصات والده(٢٠).

وفى لقاء ثان بين الأمير فيصل وأوبنهايم ، برر الأمير اتصال والده بالإنجليز بحاجته المُلحة للمؤن والغلال التى تحضرها السفن الإنجليزية إلى موانئ الحجاز ، لتلبية حاجات رعايا الشريف . وعبر فيصل عن استعداد والده التام لقطع كل صلة له بالإنجليز فى حالة تدبير احتياجات سكان الحجاز من الغلال والمواد الغذائية ، ووعده أوبنهايم بالنظر أيضاً فى تلك المسألة(٢١) .

وإذا عقدنا مقارنة بين اتفاق الشريف حسين مع الأتراك والألمان من جانب ، واتفاقه مع الإنجليز من جانب آخر ، نجد الاتفاق الأول يفتقر لكل ما يشبع تطلعات الشريف . فى حين أن الاتفاق الثانى كان مليئاً بكل الإغراءات التى يسعى إليها . وبذلك كان الإنجليز أكثر إدراكاً بما يجول فى صدر الشريف حسين ، وقدموا له وعوداً براقة بمملكة واسعة فى الأراضى الخاضعة للدولة العثمانية ، مقابل الثورة عليها . كما أن الأتراك والألمان حملوه فى اتفاقهم معه الكثير من الأعباء والواجبات ، دون أن يقدموا له الأجر المناسب نظير القيام بهذه الأعباء وتلك الواجبات . وبذلك كان من الأحرى بالشريف حسين أن ينفض يديه من اتفاق ابنه فيصل مع الأتراك والألمان . ويقطع صلاته بهم ، ويتزعم الثورة عليهم بالاتفاق مع الإنجليز وبدعم منهم . فى حين وقف أوبنهايم فارغ الفاه ، ومن خلفه كل المسئولين الألمان ، أمام أحداث تلك الثورة التى نشبت فى الحجاز والشام ، والتى

كان من المفترض أن تتحرك فى اتجاهات أخرى ولحساب الأتراك والألمان وليس عليهم .

ومن هنا يتبين لنا أن نشوب هذه الثورة إنما يعود بالدرجة الأولى لأخطاء سياسة كل من ألمانيا وتركيا تجاه الشريف حسين والمشرق العربى ، تلك السياسة التى وجد الألمان فيها أنفسهم أسيرى مشروع الحملة الدعائية العقيم منذ البداية . كما لا نستبعد تفوق الأمير عبد الله نصير الإنجليز على شقيقه الأمير فيصل نصير الألمان فى التأثير على القرار النهائى الذى اتخذه الشريف حسين عندما أعلن الثورة على الدولة العثمانية .

الهوامش

(١) Das Auswaertige Amt Weltkrieg R 21123, A 19592, S. 49.

أرشيف وزارة الخارجية الألمانية ، برقية رقم ٦٥٠ بتاريخ ٣٠ أغسطس من فنحنهايم إلى برلين .

(٢) A.A, R 21124, A 21910, S. 58.

تقرير بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩١٤ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٣) المصدر السابق .

لأسباب غامضة ، تعود لحجب أوراق أوبنهايم الخاصة فى الأرشيف الألمانى عن الباحثين حتى عام ٢٠٠٥ ، كانت مقترحات آراء ذلك الرحل تلقى آذاناً صاغية فى وزارة الخارجية الألمانية ، وهى الوزارة التى كانت ترسم سياسة ألمانيا تجاه المشرق العربى والدولة العثمانية فى هذه الفترة . وينتمى أوبنهايم إلى الأسرة اليهودية الشهيرة بامتلاكها لعدد من بيوت المال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

(٤) A.A . R 21125, A 26829. S. 26.

برقية رقم ٢٩٧ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٥) Ebenda , A 27782, S. 27.

برقية رقم ١٠٨٤ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من فنحنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٦) Ebenda, A 30868, S. 103.

برقية رقم ٣٨٠ بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٧) Ebenda, A 32559, S 154.

تقرير بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩١٤ من بروفر إلى برلين .

(٨) A.A, R 21126, A 33263, S. 32 - 33.

تقرير رقم ٧٤ بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٤ من أبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية .

(٩) Ebenda, A 33830, S. 60 - 61.

تقرير رقم ٢٩١ بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩١٤ من فنحنهايم إلى المستشار الألمانى .

(١٠) Ebenda, A 34468, S. 106.

برقية رقم ١٥٩١ بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى برلين . وقد اعترض فنجنهايم في برقيته هذه على السماح لبروفر بالتحرك دون قيود بين القرى والمدن العربية في الشام ، كما اعترض على العلاقة المباشرة بين بروفر وأوبنهايم .

(١١) A.A. R 21126. A 35110, S. 151.

تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وزير خارجية ألمانيا .

(١٢) A.A. R 21129, A 7805, S. 63.

تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلو وزير خارجية ألمانيا .

(١٣) A.A. R 21130, A 9005, S. 2 - 8.

مذكرة بتاريخ ١١ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية ، وقد سجل تسمرمان بخط يده على هامش هذا التقرير موافقته على مشروع أوبنهايم ، وتخويله سلطة الاتصال بالشريف حسين .

(١٤) Ebenda . A 12291 , S 191 - 192.

برقية رقم ٢١٠ بتاريخ ١٢ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .

(١٥) A.A. R 21133, A 14495, S. 6.

برقية رقم ٩٨٨ بتاريخ ٢٧ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .

(١٦) A.A. R 21133, A 18460, S. 90 - 105.

تقرير مطول بتاريخ ٢٢ مايو ١٩١٥ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(١٧) المصدر السابق ص ٨٧ ، وهي وثيقة تحمل رأى فنجنهايم الشخصي ومرفقة بتقرير أوبنهايم .

(١٨) المصدر السابق ص ٩٧ .

(١٩) المصدر السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢٠) المصدر السابق ص ١٠١ .

(٢١) المصدر السابق ص ١٠٢ .